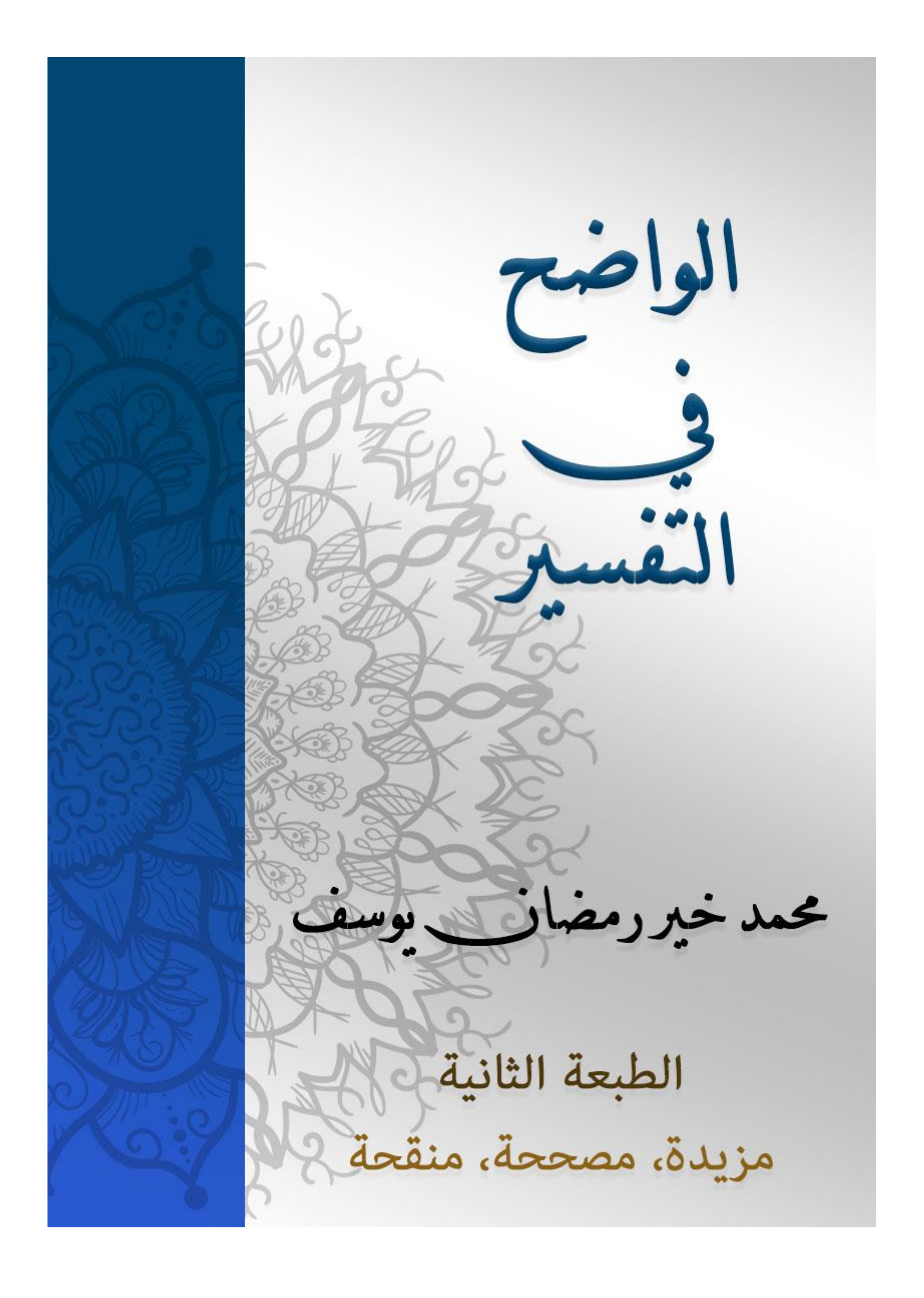

الواضح
في
التفسير
محمد خير رمضان يوسف
الطبعة الثانية
مزيدة، مصححة، منقحة

الواضح في التفسير

محمد خير رمضان يوسف

النشرة الثانية

مزيدة، مصححة، منقحة

١٤٤١ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحَمدُ للهِ مُنْزِلِ القُرآن، والصَّــلاةُ والسَّــلامُ على مَنْ خُلُقهُ القُرآن، وعلى آلهِ وأصــحَابهِ الذينَ علَّموا القُرآن، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ مِنْ أُمَّةِ القُرآن.

وبعدُ:

فإنَّ القُرآنَ الكريمَ كتابُ هِدايةٍ وأحكام، وسُــلوكٍ وعَقيدة، ووَعْظٍ وقَصَــص، ووَصــايا وعِبَر، وبِشاراتٍ ونُذُر... أَنْزَلَهُ اللهُ خِتامًا للكُتبِ السَّماويَّة؛ ليَكونَ مَرجِعًا للناسِ، ودُستورًا لهم في شؤونِ الحياة، مادامتْ هُناك حياةٌ.

ومعَ عَظَمَةِ القرآن، وجلالَةِ قَدْرِه، وسُمُوِّ أحكامِه، فإنَّ كثيرًا من النَّاسِ قدْ أَعرَضوا عنه.

وكانتِ الهَجمَةُ قَويةً ومُخَطَّطًا لها من قِبَلِ أعداءِ الإســـلام؛ لإبعادِ مصـــدرِ القوَّةِ عندَ المســلمينَ مِنْ ســاحةِ الحياة، فكانَ ما كان، واللهُ المســؤولُ أنْ يجمَعَنا تحتَ رايةِ الحقّ، ويُعِزَّنا بدينِه، وينصُـرَنا على القومِ الكافرين؛ ليعودَ القرآنُ سـيِّدَ الأحكام، وعَلَمًا يَعْلو في كلِّ مكان، لا يُعلَى عليهِ قانونٌ ولا نظام.

وهوَ كلامُ اللهِ المعجِز، الَّذي لا يَقْدِرُ أحدٌ على أنْ يأتِيَ بمِثْلِهِ أو جُزءٍ منه، وَصَـــلَ إلينا بالتوَاتُر؛ فنَقَلَهُ جَمْعٌ غَفيرٌ عنْ جَمْعٍ كبير، تُحِيلُ العادةُ تَوَافُقَهُمْ على الكذِب، وَصَلَنا مِنْ خلالِ الصُّــدورِ والسُّــطور، كما أُنْزِلَ على مُحَمَّدٍ صَــلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّم، وقدْ تكفَّلَ اللهُ بحفْظِهِ دونَ الكُتُبِ السَّابقة؛ فقال عَزَّ مِنْ قائلٍ: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحِجْر:٩].

ولهُ عُلومٌ كثيرة، دَرَسَـــها العلماءُ وأَفرَدوا كثيرًا منها بالتصـــنيف؛ كأســـبابِ النُّزول، والمناســـباتِ بينَ الآيات، والتفســـير، والوجوهِ والنَّظائر، والمحْكَمِ والمتَشَـــابِه، والمكِّيِّ والمدَنِيّ، والغَريب، والأحكام، والقراءات، والتَّجويد، والنحوِ والإعراب، والخَطِّ، والتدوين، والفضــائل، وآدابِ التلاوة، والأمثال، والقَصَص، والنَّاسِخِ والمنسوخ، والإعجازِ بأنواعِه... وغيرِها.

وتَفسيرُ القُرآنِ الكريمِ مَرغُوبٌ فيهِ ومندوبٌ إليه؛ يَقولُ اللهُ تَبارَكَ وتَعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [ص:٢٩].

ويقولُ سبحانَهُ: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ} [النساء:٨٢].

ولا يكونُ هناك تدبُّرٌ للآياتِ إلا مِن خلال فَهْمِها، ولا يُفْهَمُ كُلُّها إلاّ بعدَ إيضــــاحٍ وبَيان، وهوَ ما يُسَمَّى (التَّفسير).

وقدْ ذمَّ اللهُ أهلَ الكتابِ لأنَّهُمْ كتَموا العلمَ ولم يُبَيِّنُوهُ للنَّاسِ؛ فقالَ جلَّ شأنه: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَـاقَ الَّـذِينَ أُوتُوا الْكِتَـابَ لَتُبَيِّنُنَّـهُ لِلنَّـاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَـهُ فَنَبَـذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ} [آل عمران:٨٧]. فلا نكونُ مِثْلَهُمْ، وإلاّ كانَ مصيرُنا مصيرَهُم.

وقدْ سلكَ المفسِّرونَ طرائقَ شتَّى في تَفسيرِ القُرآن، وهمْ يَقولونَ — وَصَدَقُوا – إنَّ أحسنَ طُرُقِهِ أنْ يُفسَّـرَ بالقُرآنِ نفسِه؛ فإنَّهُ يُصَـدِّقُ بعضُـهُ بعضًـا، ثمَّ بالسُّـنَّةِ التي جاءتْ مُبَيِّنَةً له، ثمَّ بأقوالِ الصــحابة؛ فإنَّهم تلامذةُ النبيِّ صَــلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ الذي نزلَ عليهِ القرآنُ وهوَ بينَ ظَهْرَانَيْهِم، ثمَّ بأقوالِ التَّابعينَ الذينَ تَلقَّوْا كلَّ هذا منَ الصـــحابة؛ فهمْ أدرَى بأقوالِهِمْ، وكانوا الأفضلَ بَعْدَهم.

وقدْ غلبَ على تَفسيرِ بعضِ المفسِّرينَ العِلمُ الذي اشتَغلوا بهِ وبرَزوا فيه، وفي كلِّها خيرٌ إنْ شاءَ الله.

كما صَـدرتْ تفاسـيرُ في هذا العَصـر، فيها اهتماماتٌ وتَخصُّـصـاتٌ جَديدةٌ لم تكنْ في السَّابق.

وقدْ دعوتُ اللهَ أنْ يَجعلَني مِنَ المشــتَغلينَ بكتابِهِ الكريمِ، بما يَفتَحُهُ عليَّ ويوفِّقُني إليه، فقدَّرَ سبحانَهُ أنْ يَكونَ ذلكَ تفسيرًا وَتِبْيانًا للقُرآن، كما يَراهُ القارئُ، فهوَ مِنَّةٌ مِنَ اللهِ وفَضلٌ؛ فلهُ الحمدُ ولهُ الشُّكر.

وقدِ اتَّجَهْتُ في كثيرٍ مِنْ كتَاباتي إلى العامَّةِ مِنَ المســلِمين، مِن ذَوِي الثقافاتِ العاديةِ، حتى لا يُفْقَدُوا، وهم جمهورُ الأُمَّةِ وصوتُها وقُوَّتُها وعاطِفَتُها، فلو أنَّ كلَّ ذي تَخصُّصٍ كتبَ في تخصُّصِهِ بِقَلَمِهِ ومُصطلحاتِهِ وتعقِيداتِهِ لَمَا أفادَهم، وَلَمَا أقبَلوا على ما يَكتُب، فكانَ إهمالُهُمْ إهمالاً لقاعدةٍ عَظيمةٍ مِنَ المجتَمع، لا تُدرَكُ نتائجُ أضرارِهِ إلاَّ بعدَ حين، وهمْ –كما نَرَى الآنَ– يَتَّجِهونَ إلى كتاباتٍ ووسـائلَ إعلاميَّةٍ تُلائمُ مُسـتواهُم، وفيها ما فيها، فهربَ الكثيرُ منهمْ وفُقِدُوا، أو كادوا.

ولذلكَ جاءَ هذا التفســيرُ على نَهْجِ ما قُلْتُ، فأَحْبَبْتُ أنْ أَضَــعَهُ بينَ يَدَي القارِئِ العادِيِّ، ليُعْطِيَ المعنى والمفهومَ لكلِّ آيةٍ على حِدَة، وهوَ ما يُســمَّى بالمنهجِ التحليليّ، بحيثُ

يَستَطيعُ أنْ يَستوعِبَ مَعنَى الآياتِ ويَفهمَ دَلالاتِها، دونَ تفصيلٍ ولا إيجاز، معَ عِنايةٍ بالكلمة، واهتمامٍ بالتَّركيب، وزادٍ منَ البيان، تَسْمُو بهِ لُغَةُ القارئِ وثقافتُهُ.

وقدْ رَكَّزْتُ على الجانبِ التعبيريِّ، الذي يرسِّــخُ المعنَى ويَصِــلُ إلى الفِكرِ والقَلب، واستخدمْتُ الأسلوبَ التربويَّ والدَّعَوِيَّ المناسِبَ لذلك.

ولم أتَطَرَّقْ إلى جوانبَ نحويَّةٍ وبلاغيَّةٍ وكَلاميَّةٍ، وكثيرٍ مِنْ تفاصيلِ المفسِّرينَ وتخصُّصاتِهِم، ولا شــواهدَ كثيرةٍ ولا هوامش؛ بلْ أوردتُ التَّفســيرَ المتَّصِــلَ بالآيةِ الكريمةِ مباشــرَة، دونَ فَرزِ الغَريب، ولا الإشارةِ إلى ما سِواهُ ممَّا يَخرُجُ مِنَ السِّياق. وكفَى به عِلْمًا وفائدة، وهو ما يريدُ أن يعرِفَهُ القارئُ العادِيّ، أو المقبِلُ على الإســـلام، ليفهَمَ ما هوَ القرآنُ، وماذا يُريد، وماذا تَعنِي آياتُهُ بدِقَّة؛ يَعْنِي: ماذا يريدُ اللهُ مِنْ عبادِهِ في كتابِهِ الكريمِ هذا؟ فكانَ هذا "**التفســيرَ الواضحَ**"، الذي أَردتُ أنْ أُوَسِّعَ مِنْ دائرةِ المستفيدينَ منه.

فليسَ المقصـــودُ بالمثقَّفِ العادِيِّ ما يَتَبَادَرُ إلى ذهنِ القارئِ وحْدَه؛ بلْ هوَ كلُّ مَن لم يَدْرُسِ العلومَ الشرعيَّةَ؛ فقدْ يَكونُ في أعلَى الدرجاتِ العلميَّة، وحاصِلاً على أرقَى الشهاداتِ المتخَصِّصَة، لكنَّها في غيرِ الإسلامِ وعلومِه، وهوَ بهذا يَحتاجُ إلى أنْ يَعرِفَ عِلْمًا جديدًا، أو أنْ يَتوسَّعَ فيهِ مِنْ خِلالِ مَعرفةِ محتوَى القرآنِ العَظيمِ.

وهو أيضًــا لِمنْ يريدُ أن يَعرفَ مضــمونَهُ مِنْ غيرِ المســلمين، أو ممَّنِ اهتدَى منهمْ إلى الإسلامِ، سواءٌ كانَ عارفًا بالعربيَّة، أمْ تُرجِمَ له.

فالأمرُ كُلهُ يَتلخَّصُ في أنَّهُ تفســيرٌ بَيِّنٌ واضِــح، يَفهمُهُ جميعُ فئاتِ المجتمعِ، متعلِّمُهمْ ومتخصِّصُهم، إذا أُريدَ المعنَى دونَ التفصيل.

والذي شــجَّعني على الإقدامِ على تفســيرِ كتابِ اللهِ الكريمِ، هوَ وجودُ تفاســيرَ جَليلةٍ كانتْ عَوْناً لي على هذا العملِ. وقدِ اعتمَدْتُ على كثيرٍ منها، لكنَّ أبرزَها وأهمَّها: "تفســيرُ القرآنِ العظيم" لابنِ كثير، وفيهِ أَوَّلُ نظري، ومنهُ أكثرُ استفادَتي. و "معالمُ التنــزيلِ" للبغَويّ، و"روحُ المعَاني في تفسيرِ القرآن العظيمِ والسبعِ المثاني" لمحمودٍ الآلوسيّ، و"في ظلالِ القرآن" لسَيِّد قُطْب.

ثمَّ تأتي تفاسيرُ أخرَى عديدة.

وقد أَنْقُلُ عباراتٍ للمفسِّـــرينَ كما هي، إذا وافَقَتِ الأســـلوب، وكانتْ ملائمةً لنصِّ العِبارة، فالمهِمُّ هوَ أن يُعطَى البيانُ التامُّ باللفظِ المناســـبِ والتَّركيبِ الملائمِ، وألاّ يَقِفَ أمامَ ذلكَ عائقٌ.

وقد أَكْتَفِي بما تَدلُّ عليه الآيةُ أو أَزِيد، بحسَـبِ ما أَراهُ مناسـبًا لِمَا يتعلَّقُ بها، ومَنْ أرادَ تفاصيلَ أكثر، فعَلَيهِ بالتفاسيرِ الكبيرة.

وقد أَختارُ وجهًا أو أكثرَ في التفســـير، أو أَضُـــمُّ مَعْنَيَيْنِ متقارِبَيْنِ إليه إذا لم يتبيَّنْ لِيَ الأصحُّ في ذلك.

وما فسَّرتُ آيةً إلاّ ورَجَعْتُ إلى أكثرَ مِنْ تفسيرٍ لأعرفَ معناها، ولم أطمَئِنَّ إلى ما كتبتُ إلا إذا عرفْتُ أنَّ الآيةَ قد وَضَحَتْ للقارِئ، فإذا توقَّفَ المفسِّرون في شـيءٍ ولم يُبَيِّنوه؛ فعلتُ ما فعلوا، وهوَ قليل. وإذا تضـــاربتْ أقوالُهُمْ في المتشـــابهاتِ وما إليها، أَوردتُ نصَّ القرآن أو قريبًا منه؛ خَوفًا ورَهبةً. وهو قليلٌ كذلك.

واهتَمَمْتُ بالنَّاسِخِ والمنسُوخِ منه، وأسبابِ النُّزولِ عندَ اللُّزوم، وذَكرتُ بَعضًا مِنْ فَضائلِ السُّوَرِ والآيات، وشَيئًا مِنَ الإعجازِ العِلميّ. واستَشـهَدتُ بأحاديث، واقتَصَـرتُ منها على الحسَنِ والصَّحيح. وذكرتُ ما وقَفتُ عليهِ ممَّا صَحَّ مِنْ تَفسيرِ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ولم أتَقصَّه، وهوَ قَليل.

وقدْ جاءَ التفسيرُ على نَسقِ الضميرِ الواردِ في الآيات؛ فهوَ أصدقُ وأقربُ إلى القُلوب، وأكثرُ إيحَاءً وتأثيرًا، وهوَ متنوّعٌ في القرآنِ وليسَ على مثالٍ واحد، ممّا يُثيرُ الانتباهَ في النَّفسِ، ويُبعِدُ الملل؛ بلْ يَزيدُ مِنَ المتابعةِ والتَّشويق.

ودَعَوْتُ اللهَ أنْ يَهْدِيَني ويُسَدِّدَني كُلَّمَا جَلَسْتُ إلى تفسيرِ كتابِهِ الكريم، وكنتُ أتعوَّذُ بِهِ — سبحانَهُ — مِنْ أنْ أفسِّرَهُ على غَيرِ مُرادِه.

أَدعُوهُ تَعالَى أنْ يغفِرَ لي زَلَلي وتَقصيري فيه، وأنْ يَتقبَّلَهُ خالِصًا لوجهِهِ الكريم، ويَضَعَ لهُ القبول، فهوَ منهُ وإليهِ، إنَّهُ سَميعٌ عَليم.

محمد خير يوسف

مقدمة الطبعة الثانية

الحمدُ لله على فضلهِ وإحسانه، والصلاةُ والسلامُ على نبيِّهِ وآله، وبعد:

فقد راجعتُ هذا التفسـيرَ بعد سـنواتٍ من تأليفه، وبعد مراجعةِ تفاسـيرَ أخرى والاسـتدراكِ عليها؛ لمزيدِ العنايةِ به وإتقانه، وإيضـــاحٍ أكثرَ لبعضِ الآياتِ والألفاظِ عند لزومه، أو تكملةِ جوانبَ منه، وتخليصهِ من بعضِ ما اعتراهُ من أخطاءٍ طباعية، أو سهوٍ في حركاتٍ إعرابية.

وقد جعلتُ أمامَ ناظري نهجًا ألتزمه، وهو أن يحتويَ تفسـيرُ كلِّ آيةٍ على معاني جميعِ الألفاظِ الواردةِ فيها، وليس إعطاءَ مفهومِها وحدَه، ويدركُ القارئُ ذلك إذا نظرَ فيه.

وربما لم يلتزمْ كثيرٌ من المفسرين هذا النهجَ في تفاسيرهم، ولذلك جاءَ النقصُ فيها. وكلُّ ما في القرآنِ يُنظَرُ فيه، من ألفاظٍ وحروف، ولا يُترَكُ منه شيءٌ عند تفسيره. وهذا ما كان من شأنِ (الواضح في التفسير) بفضلِ الله.

ولم أُشِــرْ في مقدمةِ التفسـير، في طبعتهِ الأولى، إلى نهجي في أن يحتويَ تفسـيرُ كلِّ آيةٍ على معاني جميعِ ألفاظها، ربما لأني لم أكنْ متأكدًا من أن ذلك سـيشـملُ جميعَ الآيات.. ولذلك جاءَتْ هذه المراجعةُ لتأكيدِ هذا النهج، وخاصـةً بعد الاسـتدراكِ عليه؛ لزيادةِ توضيـحِ بعضِ الألفاظِ أو الآيات، أو لاختيارِ ألفاظٍ أخرى غيرِ الواردةِ في القرآنِ الكريم، والقليلُ منه كانَ بسببِ النسيان. مع توضيحاتٍ وملاحظاتٍ أخرى، وإضافةِ هوامشَ لزيادةِ إيضاحِ ما غمضَ منها؛ ليستقيمَ النهجُ الذي ارتضيتهُ في التفسيرِ ومجموعِ الاستدراكات، ومذكِّرًا بأهميتهِ وفائدته.

ولم أضمَّ كلَّ الإيضاحاتِ الجديدةِ إلى هذا التفسير، فكثيرٌ منها، أو معظمُها لزيادةِ التوضيحِ كما ذكرت، وقد عدَّلتُ بعضـها دون التزامٍ باللفظِ الذي أنقلُ منه، ووضعتُ قسـمًا منها في الهامش، وبعضها أبقيتُها في مستدركٍ خاصٍّ سمَّيتهُ (الظهير على الواضح في التفسير). وهو ما رأيتهُ مناسبًا.

وقد اعتمدتُ في هذه المراجعة على تفاســـيرَ معروفة، معظمها من القديم، وخاصـــةً "روح البيان"، ثم "التحرير والتنوير" من الحديث، ففيهما تفصيلُ شروحِ مفردات، ودقائقُ في التفسيرِ قد لا تجدُ في غيرها، ولم أعتمدْ عليهما أثناءَ التفسيرِ بداية.

وقد صارَ بتصحيحه، وتنقيحه، ومراجعته، والزياداتِ عليه، أفضلَ مما سبق.

والحمدُ لله الذي أعانني على هذا، وله الفضلُ وحدَه.

محمد خير يوسف

١٤٤٠/١/١٠ هـ

ثم ١٤٤١/٩/٢٩ هـ

سورة الفاتحة
سورة البقرة
(١ – ١٤١)

سورةُ الفاتحة

يَتعوَّذُ المسلمُ باللهِ مِنَ الشيطانِ عندَما يَبْدَأُ بقراءةِ القُرآنِ الكريمِ؛ لدَفْعِ الوَسْواسِ الَّذِي يُسَبِّبُه، ولئلاّ يَلْبِسَ عليهِ قراءتهُ ويَخْلِطَ عليه، ويمنعَهُ من التدبُّرِ والتفكُّرِ فيها. يقولُ اللهُ سبحانه: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [النحل:٩٨]. ومَعناهُ عُمومًا: أستَجيرُ باللهِ مِنَ الشيطانِ المبْعَدِ عنِ الخَيرِ كلِّه، أنْ يَضُرَّني في دِيني أو دُنيايَ، أو يَصُدَّني عنْ فِعْلِ خيرٍ، أو يَحُثَّني على فِعْلِ شرٍّ.

ويُستعاذُ باللهِ منهُ لشدَّةِ عَدَاوَتِهِ لابنِ آدم، وعَمَلِهِ على تضليلِهِ لإزاحتِهِ عنِ الحقّ. وقدْ أَقْسَمَ على ذلكَ فقال: {فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [سورة ص:٨٢، ٨٣]. وقدْ نبَّهَ اللهُ ابنَ آدمَ إلى ذلك، وحذَّرهمْ منه؛ فقال: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا} [سورة فاطر:٦].

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [الفاتحة:١]

١- أَبدَأُ باسمِ الله، ذِي الأُلوهيَّةِ على خَلْقِهِ أجمعين، المتَّصفِ بالرحمَةِ العظيمةِ الدائمة(١).

وفي البَدءِ بالبَسْمَلَةِ تَبَرُّكٌ وتَيَمُّنٌ واستعانةٌ على الإتمامِ والتقبُّلِ.

---

(١) {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}: اسمانِ مشتقّانِ من الرحمةِ على طريقِ المبالغة، و(رحمان) أشدُّ مبالغةً من (رحيم). (باختصار من فتح القدير).

رحمانِ جميعِ خَلقهِ في الدنيا والآخرة، ورحيمِ المؤمنينَ خاصَّةً في الدنيا والآخرة. (باختصار من الطبري).

{الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة:٢]

٢- الثناءُ على اللهِ ربِّ الخَلْقِ كلِّهِ، والشُّكرُ خالصًا لهُ على ما تَفَضَّلَ بهِ منَ النِّعَمِ الكثيرةِ على خَلْقِه، في دِينِهم ودُنياهم، فبيَّنَ لهمُ الحقَّ ومكَّنَهم من اتِّباعِهِ، وبَثَّ لهمُ الرِّزقَ ومكَّنَهم مِنْ طَلَبِه.

{الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [الفاتحة: ٣]

٣- المتَّصِفِ بالرَّحمة، صاحبِ الخيرِ والنِّعمة، يَرحَمُ جميعَ خَلْقِه، ورَأْفَتُهُ ورحمتُهُ بالمؤمنينَ خاصَّة.

{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة: ٤]

٤- المتفرِّدِ بالحُكْمِ يومَ حِسابِ الخلائقِ في الآخِرَة، فلا مُلكَ في ذلكَ اليومِ لأحدٍ سِواهُ.

{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥]

٥- نَعبدُكَ وحدَكَ يا رَبّ، ونَتبَرَّأُ مِنَ الشِّرك، ونستعينُ بكَ في أمورِنا كلِّها، ونَتبَرَّأُ مِنَ الحَوْلِ والقوَّة، ونُفَوِّضُ أَمْرَنا إليك. فلكَ كمالُ الطَّاعةِ يا ربَّنا.

{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: ٦]

٦- نسألُكَ يا رَبَّنا أن تُرشِدَنا وتوفِّقَنا دائمًا إلى الطَّريقِ الواضحِ الذي لا انحرافَ فيه، وهوَ اتِّباعُ دِينِك، وأنْ تُثبِّتَنا عليه.

{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} [الفاتحة: ٧]

٧- طريقَ الذينَ أحسنْتَ إليهِمْ وأنعَمْتَ عليهِمْ بطاعتِكَ وعبادتِك، منْ ملائكتِكَ وأنبيائك، ومَنْ رَضِيتَ عنهمْ مِنْ سائرِ عِبادِك، أهلِ الهدايةِ والاستقامة، والطَّاعةِ والامتثال، وليسَ طريقَ الذينَ غضِبْتَ عليهم؛ ممَّن عَرَفوا الحقَّ ولم يتَّبِعوهُ كاليهود، ولا مَسْلَكَ الذين ضَلُّوا، فما عَرَفوا الحقَّ، وبَقُوا هائمينَ في ضَلالِهم، ثم لم يتَّبِعوا نَبيَّك، كالنَّصارَى.

وفي الصَّـحيحَينِ قَولُهُ صـلى الله عليه وسـلم: "إذا قالَ الإمامُ: {غَيرِ المغضُـوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} فَقُولوا: آمِين، فمَنْ وافقَ قَولُهُ قَولَ الملائكَةِ غُفِرَ لهُ ما تقَدَّمَ مِنْ ذَنبِه".

سـورةُ الفاتحةِ سُـورَةٌ عظيمة؛ فهي أُمُّ الكتابِ والسَّـبْعُ المثَانِي، حاويةٌ على دقائقِ الأسـرار، يَقرَؤُها المسلمُ في صلاتِه؛ فلا صلاةَ إلاّ بها.

ولها فضائلُ كثيرة؛ منها قولهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أُنْزِلَ فِي التَّوْرَاةِ وَلاَ فِي الإِنْجِيلِ وَلاَ فِي الزَّبُورِ وَلاَ فِي الفُرْقَانِ مِثْلُهَا". رواهُ أحمدُ بإسنادٍ صحيحٍ.

وقدِ اشـتملَتْ على تمجيدِ الله، وإرشـادِ الخلْقِ إلى توحيدِه، وسـؤالِه، وإخلاصِ العبادةِ له، وطلَبِ هدايتِهِ وتوفيقِهِ للثَّباتِ على المنهجِ الصحيح، وهو الدِّينُ الإسلاميُّ، الذي يُفضِي إلى العاقبةِ الحَسَنَةِ يومَ الحساب.

وفيها التحذيرُ من مسالكِ الباطل؛ كَمَنْ عَرَفَ الحقَّ ولم يتَّبِعْهُ، أو ضلَّ الطريقَ إليه.

××× ××× ×××

سورةُ البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{الم} [البقرة: ١]

١- حروفٌ مُقَطَّعَةٌ افتتحَ اللهُ تعالى بها ســـوراً مِنْ كتابهِ الكريم، لم يَرِدْ في شـــأنِها حديثٌ صحيح، ولم يتَّفقِ المفسِّرونَ على مَعناها، ولذلكَ لم أُفَسِّرْها في جَميعِ مَواضِعِها، وهيَ ممّا استأثرَ اللهُ بعلمِه.

{ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدَىً لِلْمُتَّقِينَ} [البقرة: ٢]

٢- هذا القُرآنُ لا شـكَّ أنه نَزَلَ مِنْ عِنْدِ الله، وهوَ نورٌ وتِبْيانٌ للمتَّقين، الذين يَعملونَ بطاعةِ اللهِ ويَحْذَرُونَ عُقوبتَه، ويَرْجونَ رحمتَهُ بالتصديقِ بما جاءَ فيه.

{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [البقرة: ٣]

٣- الذينَ يُؤمنونَ بالله، وملائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليومِ الآخِرِ وما فيه، وما ذُكِرَ في القرآن.

ويُقِيمونَ الصلواتِ المفروضةَ عليهِمْ في مواقيتِها، وبأركانِها وشُروطِها.

ويُؤَدُّونَ زكاةَ أموالِهِمْ للفُقَراءِ والمحتاجينَ كما افْترَضَهُ اللهُ عليهم.

{وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآْخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} [البقرة: ٤]

٤- والذين يُصدِّقونَ بما جِئْتَ بهِ منَ عندِ اللهِ أيُّها النبيُّ، وبما جاءَ بِهِ مَنْ قَبْلَكَ مِنَ المرسَلين، لا يُفَرِّقون بينَهم، ولا يَجحَدونَ بما جاؤوا بِهِ مِنْ ربِّهِم.

ويصدِّقونَ بالبعث، والحِسابِ والجَزاء، والجنَّةِ، والنَّار.

{أُولَئِكَ عَلَى هُدَىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [البقرة: ٥]

٥- هؤلاءِ الذين آمنوا بالغيبِ، وأقامُوا الصلاةَ، وأدَّوُا الزكاةَ، وآمَنوا بما أُنْزِلَ إليكَ وما أُنزِلَ إلى مَنْ قَبلِكَ مِنَ الرُّسُــل، وأيقَنُوا بيومِ القيامة، هؤلاءِ على نورٍ وبصــيرةٍ مِنَ الله، وعلى اســتقامةٍ وسَــــداد، وهمُ الفـائزونَ الـذينَ أدرَكوا مـا طلبوهُ بإيمـانِهم وعملِهم، وفـازوا بالثوابِ والخلودِ في الجِنان، ونَجَوْا منَ العقابِ برحمةِ ربِّهم.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [البقرة: ٦]

٦- والذينَ كفَروا بما أُنزِلَ إليكَ لا يُؤمِنونَ ما دامُوا مُصرِّينَ على مَوْقِفِهم، وسواءٌ عَليهم إنذارُكَ وعدمُه، فإنهمْ لا يَسمَعونَ منكَ إنذارًا ولا تحذيرًا.

{خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [البقرة: ٧]

٧- لقدْ طَبَعَ اللهُ على قلوبِهمْ وعلى سَمْعِهم، وصــارَ على أبصــارِهمْ غِطاءٌ؛ نتيجةَ هذا الموقفِ الخطأِ منهم، ولا مُبالاتِهمْ بالإنذار، فكثُرَتْ ذنوبُهمْ وتَتابَعَتْ حتَّى أَغلقَتْ مَنَافِذَ الفَهْمِ والتَّبَصُّرِ عنـدَهم، فلا مَسْــــلَكَ للإيمـانِ إليهـا، ولا للكفرِ عنهـا مخلَصٌ، وجزاءُ الكُفْرِ العنيـدِ، وعـدمِ الاستجابةِ للنذيرِ، هوَ العَذابُ العظيم.

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآْخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ} [البقرة: ٨]

٨- وهناكَ مِنَ النَّاسِ منافقونَ، يُظهرونَ الإيمانَ ويُبْطِنُون الكُفْرَ، ويُبْدُونَ الخيرَ ويُسِرُّون الشرَّ، ويَقولون: إنَّهمْ يؤمنونَ باللهِ وبيومِ الجزاء، ولكنَّهم في الحقيقةِ غيرُ مؤمنين.

{يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [البقرة: ٩]

٩- ويَعتقِدونَ - بجَهلهمْ - أنَّهمْ يَخدعونَ اللهَ بذلك، وأنَّ أُســـلوبَهمْ هذا يَنْفَعُهُمْ عندَه، وأنه يَرُوجُ عليهِ كما يَرُوجُ على بعضِ المؤمنين، ولكنَّهم بِصَـنيعِهِمْ هذا لا يَضُـرُّون إلا أنفسَـهم، ولا يسيؤونَ إلاّ إلى أنفسِـهم، فيَسـخَطُ عَليهمْ ربُّهمْ وهمْ غيرُ شـاعرينَ بذلك، فهمْ على عمًى مِنْ أمرِهمْ مُقيمُون.

{فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ} [البقرة: ١٠]

١٠- في قلوبِهِمْ عِلَّةٌ جعلَتْهُمْ يَحِيدونَ عنِ الحقّ ويُصِرُّونَ عَلى مَوقفِهِم، فزادَهمُ اللهُ بذلكَ عِلَّةً؛ فإنَّ الانحرافَ يَكْبُر، والمرضَ يزدادُ معَ الإصـرار، فَشَـكُّوا ولم يحاولوا الإيمان، فزادَهمُ اللهُ شَـكًّا، كما أنَّ الذينَ {اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى} [سورة محمد: ١٧]. فاستحقَّ المنافقونَ بذلكَ العِقابَ القاسِـــي، وذلك لكَذِبِهم، وهوَ مَوْقِفُهمُ المناقضُ للحقّ، والكَذِبُ أَحَدُ أبوابِ النفاق، وما أَسْرَعَهُ في إفسادِ القلب!

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} [البقرة: ١١]

١١- وإذا طُلِبَ منهمْ عَدَمُ الكُفْرِ، وعَدَمُ العصيانِ؛ لأنَّ ذلكَ يُؤَدّي إلى الإفسادِ في الأرضِ، والطاعةَ تُؤَدّي إلى الإصـلاحِ، قالوا في سَـفَهٍ وتبجُّحٍ: إنَّهم يُريدونَ بذلكَ الإصـلاحَ! وأمثالُ هؤلاءِ كُثُر، ممنِ اختَلَّتْ موازينُ الحقّ عندَهم؛ لاختلالِ عقيدتِهم.

{أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ} [البقرة: ١٢]

١٢- والحقُّ أنَّ هذا الذي يَعتمدونَهُ في منهجِهم، وَيزعُمُونَ أنَّهُ إصـــلاحٌ، هوَ عينُ الفســـادِ، ولكنْ مِنْ جهلِهِمْ لا يَشعُرونَ بكَوْنِهِ فَسَادًا.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٣]

١٣- وإذا قِيلَ للمنافقينَ آمِنُوا بالإســلامِ كما آمَنَ الناسُ، إيمانًا كاملاً لا شـكَّ فيه، وأطيعوا اللهَ وامتَثِلوا أوامرَ رسولِهِ كما يَفعلون؛ أَنِفُوا منَ الاستسلامِ للحقِّ، وقالوا في غُرورٍ وبَلَه: أَنُؤْمِنُ كما آمَنَ هؤلاءِ السفهاءُ - يَعْنُون الصحابةَ رَضِيَ اللهُ عنهم- وَنَصِيرُ وَهُمْ بمنزلةٍ واحِدة؟! لكنَّ الحقَّ أنَّهم همُ الجهلاءُ، فهمْ ضَعيفو الرأيِ وقَليلو المعرفةِ بمواضعِ المصـالحِ والمضـارّ، ومِنْ تَمامِ جهلِهمْ أنَّهمْ لا يَعلمونَ بحالِهِمْ في الضلالةِ والجَهل، وهذا أَرْدَى وأبلغُ في السَّفَهِ والعَمَى!

{وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَـــيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} [البقرة: ١٤]

١٤- وإذا لَقِيَ المنافقونَ المؤمنينَ أظهروا لهمُ الإيمانَ والموالاة، وأَبْدَوْا لهمُ المحاباةَ والمصـــافاة، نِفاقًا ومُصـانعة؛ ليتَّقوا بذلكَ أذًى يُصـيبُهمْ مِنهم، وليتَّخِذوا هذهِ التَّقيَّةَ وسيلةً لكي يُؤذُوهم، وليُشارِكوهمْ فيما يُصيبونَهُ مِنْ مَغنم.

وإذا انصَرفوا إلى رؤسـائهمْ وسَـادتِهم، منْ أحبارِ اليهودِ ورؤوسِ المشـركينَ وكُبَراءِ المنافقين، قالوا لهم: نحنُ مَعكم، إنَّما كنَّا نَسْخَرُ بالمؤمنين!

{اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [البقرة: ١٥]

١٥- وما داموا اختاروا طريقَ الخِداعِ والتآمُر، والتهكُّمِ والاســـتهزاء، فإنَّ اللهَ لهمْ بالمرصـــادِ، وســـيَعلمونَ غدًا أنَّ الهزْءَ والمكْرَ قدْ حاقَ بهمْ {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} [ســورة النســاء:١٤٢]، فســوفَ يَســخرُ اللهُ بهم بالانتقامِ منهم، ويدَعُهمْ يَخْبِطُون في طريقٍ لا يَعرِفونَ نهايتَه، ولا يجدونَ سبيلاً إلى الخروجِ منه، فقدْ طَبَعَ اللهُ على قلوبِهم، وأعمَى أبصـارَهُم، نتيجةَ أعمالِهِمْ ومَواقِفِهمُ السيِّئة.

والمكْرُ والخِداعُ والسُّـــخريةُ على وجهِ اللَّعبِ مُنتَفٍ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ بالإجماع، وأمّا معَ وجهِ الانتقامِ والمقابَلَةِ بالعدلِ والمجازاةِ، فلا يمتَنعُ ذلك، كما قال ابنُ جَريرٍ الطبريُّ.

{أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} [البقرة: ١٦]

١٦- إنَّهُمْ عَدَلُوا عنِ الهُدى إلى الضَّلال، وآثَرُوا الكُفْرَ على الإيمانِ الصَّريح، في تجارةٍ خاسرةٍ منْ جميعِ الوجوهِ، فما رَبِحَتْ صَفقتُهمْ هذه، وما كانوا راشدينَ في صنيعِهمْ هذا.

{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْــتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَـــاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ} [البقرة: ١٧]

١٧- ومَثَلُ هؤلاءِ الذينَ عَدَلوا عنِ الهُدَى إلى الضَّلال، وآثَرُوا العَمَى على التبصُّر، كمَثَلِ رجلٍ أوقَدَ نارًا في ليلٍ مُدْلَهِمٍّ، فَلَمَّا أضاءتِ النارُ ما حولَها وانتفعَ بها مُوقِدُها، وأبصرَ بها ما حولَهُ واستأنسَ بها، إذا بها طُفِئَتْ، فصارَ في ظلامٍ شديدٍ، لا يُبصرُ ولا يَهتدي!.

والمنافقونَ كذلك، رَأَوْا نورَ الإسلامِ فآمَنوا، ثم انقَلبوا على وجوهِهم يَخْبِطُونَ حائرين، مُؤثِرينَ الضلالَ على الهُدَى بعدَما تَبيَّنوه. {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ} [سورة المنافقون:٣].

فكانَ جزاؤُهمْ أنْ أذهبَ اللهُ عنهمْ ما يَنفعُهم، وهوَ النور، وأبقَى لهمْ ما يَضرُّهم، وهوَ الإحراقُ والدُّخان، وترَكهمْ في ظُلُماتِ الشكِّ والكُفْرِ والنِّفاق، لا يَهتدونَ إلى سَبيلِ الخير.

{صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ} [البقرة: ١٨]

١٨- لقدْ عَطَّلوا وظائفَ آذانِهمْ وألسِنتِهمْ وعيونِهم؛ فلا يسمعونَ خيرًا، ولا يَتكلَّمونَ بما يَنفعُهم، ولا يَرَوْنَ الحقَّ، فكيف يَهتدون، وأنَّى يَستجيبونَ للهُدَى والنور؟

{أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ} [البقرة: ١٩]

١٩- وحالُ هؤلاءِ أيضًا في شكِّهِمْ وكفرِهِمْ وتَردُّدِهم، كمَثَل مَطَرٍ هَطلَ مِنَ السماءِ في ليلٍ مُظلِم، فيه رَعْدٌ قَوِيٌّ مُخِيف، وبَرْقٌ يُضِيءُ في لَمَعانٍ شديد، فصاروا يَجعلونَ أصابعَهمْ في آذانِهم حَذَرًا مِنْ أنْ يُصيبَهمْ شيءٌ منْ آثارِها فيموتوا، وهوَ لا يُجدِي عنهمْ حذَرًا، فاللهُ محيطٌ بهمْ بقُدرتِه، وهمْ تحتَ مشيئتِهِ وإرادتِه.

وتشبيهُ أوجُهِ المثَلِ: حالُ الظُّلُماتِ هي الشكوكُ، والكفرُ، والنِّفاقُ.

والرعْدُ هو ما يُزعِجُ القلوبَ منَ الخوفِ، فإنَّ شأنَ المنافقين الخوفُ الشديدُ والفزَعُ.

وَالْبَرْقُ هو ما يَلمَعُ في قُلُوبِ هَذَا القِسْمِ مِنَ المنافقينَ في بعضِ الأحيانِ مِن نُورِ الإيمان.

{يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ٢٠]

٢٠- ويكادُ هذا البَرقُ لِشِدَّتِهِ وقوَّتِهِ أنْ يَسْتَلِبَ أبصارَهم؛ فإذا أضاءَ لهم مَشَوْا فيه، وإذا أظلمَ عليهِمْ وقَفوا حائرينَ لا يَدْرونَ أينَ يَذهبون.

والبَرقُ كِنايةٌ عنْ شِدَّةِ ضَوْءِ الحقِّ، وأنَّهم إذا ظَهَرَ لهمْ مِنَ الإيمانِ شيءٌ استأنَسوا بهِ واتَّبَعوه، وتارةً تَعْرِضُ لهمُ الشُّكُوكُ فتُظلِمُ قُلوبُهُمْ ويَبقَوْنَ حائرين!

ولو شاءَ اللهُ لأخذَ سَمْعَ المنافقينَ وأبصارَهم، لأنَّهُمْ تركوا الحقَّ بعدَ معرفتِه، وهو إذا أرادَ بعبادِهِ نِقْمةً كانَ قادرًا على إنفاذِها.

وهذا تحذيرٌ للمنافقينَ من بأسِ اللهِ وسَطوَتِه، وأنَّهُ بهِمْ مُحيط.

{يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ٢١]

٢١- أيُّها الناس، اعبُدوا الربَّ الذي خلقَكمْ ومَنْ قبلَكم[٢]، وَحِّدُوهُ بالعبادةِ ولا تُشْرِكوا بهِ شيئًا؛ فإنَّ الذي تَفرَّد بالخَلْقِ هو الذي يُفْرَدُ بالعبادة، ولعلَّكُمْ بهذهِ العبادةِ الصافيةِ تكونونَ منَ المطيعينَ المهتَدِين.

{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٢٢]

٢٢- إنَّهُ الإلهُ الذي خلقَ لكمُ الأرضَ مُمَهَّدةً مُوَطَّأةً بما يُناسِبُكمْ ووسائلَ عَيشِكُمْ، وَجَعلَ السَّماءَ كالسَّقْفِ لها، تُرسِلُ إليكمْ بحرارتِها وضوئِها لتَنتَفِعوا بها، وأنزَلَ منْ السَّحابِ مطرًا يَسْقِي الزُّروعَ فيُخرِجُ بِهِ الثمارَ لتَكونَ رزقًا لكمْ ولأنعامِكم، فلا تَجعلوا معَ اللهِ إلهًا آخَرَ، ولا تشركوا بِهِ أحدًا في عبادتِكم؛ فإنَّهُ وَحْدَهُ الخالِقُ الرازِقُ، وأنتمْ تَعلمونَ أنَّهُ لا ربَّ لكمْ يرزقُكمْ غيرُهُ، فهو وَحْدَهُ المستحِقُّ للعبادَة.

---

(٢) أي: من زمنٍ قبلَ زمانكم من الأمم. فـ {مِنْ} ابتدائيةٌ متعلقةٌ بمحذوف. وفي الوصفِ به إيماءٌ إلى سببِ وجوبِ عبادتِهِ تعالى، فإنَّ خلقَ أصولهم من موجباتِ العبادةِ كخلقِ أنفسهم. وفيه دلالةٌ على شمولِ القدرة، وتنبيهٌ من سِنَةِ الغفلة، أي أنهم كانوا فمضَوا، وجاؤوا وانقضَوا، فلا تنسَوا مصيركم، ولا تستجيزوا تقصيركم. (روح البيان).

{وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة: ٢٣]

٢٣- وإذا كُنتُمْ في شكٍّ مِنْ نُبوَّة محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيُّها الكافِرون، فهاتُوا سُورَةً مِنْ مِثْلِ ما جاءَ به، واستعينوا بمن شِئْتُمْ مِنْ أعوانِكمْ في ذلك، إذا كنتُمْ صادِقينَ في أنَّ القُرآنَ مِنْ عندِ غَيرِ الله.

{فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة: ٢٤]

٢٤- فإذا لم تَقْدِرُوا على ذلك، ولنْ تَقْدِرُوا عليه، فاعلَموا أنَّهُ كلامُ اللهِ المعجِزُ الحقُّ، واعلَموا أنَّ وراءَ إنكارِ الحقّ نارًا عظيمةً مُحرِقَةً، تُضْرَمُ مِنْ أجسادِ الكفرةِ الظالمين، ومِنَ الحجارةِ الصُّلْبَةِ الضَّخمةِ الشديدةِ الاشتِعال، أُرصِدتْ لمنْ كانَ على مِثْلِ ما أنتمْ عليه مِنَ الكفرِ باللهِ ورسولِه.

{وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: ٢٥]

٢٥- أمّا المؤمنون، الذينَ آمَنوا بالله، وبنبوَّتِكَ، وبالكتابِ الذي أُنْزِلَ عليك، وشفَعوا ذلك بالعملِ الصالح، والاستِقامةِ والإخلاص، فَأَلْقِ عليهمُ الخَبَرَ السَّارَّ المفْرِحَ، وبَشِّرْهُمْ بأنَّ لهمْ جِنانًا كبيرةً رائعة، تَجري مِنْ تحتِها المياهُ العَذبةُ، لتَجلُبَ الأَرْيَحِيَّةَ والنشاطَ، وتُؤْنِسَ وَتَسُرّ.

وإذا أُعطُوا ثَمَرًا مِنْ ثِمارِ الجَنَّةِ استَبْشَروا وقالوا: إنَّهُ يُشبِهُ الفاكهةَ التي كُنَّا نَأكلُها في الدنيا، وفَرِحُوا بذلك، فإنَّ الطبائعَ تَسْتأنسُ بالمعهودِ، وتَميلُ إلى المألوف.

وتُؤْتَى لهمْ ثِمارٌ مُشابِهَةٌ لثمارِ الدنيا، في اللَّونِ والمظهَرِ، ولكنَّها تختلفُ في الطَّعْمِ والحجمِ.

ولهمْ في الجنةِ أزواجٌ مُطَهَّرَاتُ الأبدانِ منَ القَذَرِ والأذَى.

ولتمامِ سعادتِهِم في هذا النعيمِ، فإنَّهُمْ خالدونَ في الجَنَّةِ، لا انقضاءَ لمِدَّتِهِ ولا آخِر.

{إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ} [البقرة:٢٦]

٢٦- واللهُ لا يَستَحيي أنْ يَضربَ مَثلاً بشيءٍ ما[٣]، صَغُرَ أو كَبُر، مِنْ بعوضٍ فما فوقَها، فإنَّ في كلِّ شيءٍ خلقَهُ حِكمةً وعِظة.

فالذينَ آمنوا يَعلمونَ أنَّ ضربَ المثَلِ بالبعوضِ حَقٌّ، فيؤمنونَ بهِ وبالحِكمةِ منه، أمّا الكافِرونَ فيَزدادونَ بهِ ضَلالة، ويَقولون: ما قيمةُ البَعوض، وما مَوقِعُهُ في الكونِ حتَّى يُضْربَ بهِ المثَلُ، وهوَ مِنْ أحقرِ المخلوقات؟!

والبعوضُ مخلوقٌ عَجيبٌ حقًّا، فهوَ معَ صِغَره، لهُ عينانِ ضَخمتانِ تَتكوَّنانِ منْ آلافِ العدَساتِ السُّداسية، وفي رِجلهِ خمسةُ مَفاصلَ رئيسيَّة، معَ زوجٍ منَ المخالب، وعَضلاتٌ قوِيَّةٌ تَلتصِقُ بجدارِ الصدر، ودَبُّوسٌ للتوازنِ في جناحَيه! ولهُ جِهازٌ يَمنعُ تَجلُّطَ الدم، وقدْ يَمتصُّ دماً أكثرَ منْ وزنهِ مرَّةً ونصفَ المرَّة! ولهُ أكثرُ منْ ثلاثةِ آلافِ نوع، وينقلُ أسوأ الأمراض، وماتَ الملايينُ من البشرِ بسببِ ذلك، وهو موجودٌ في كلِّ أنحاءِ العالم.

{الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [البقرة:٢٧]

٢٧- إنَّ الكافِرينَ والمنافقينَ لا عهدَ لهمْ ولا مِيثاق[٤]، فقدْ ترَكوا الإقرارَ بالحقِّ معَ صِحَّةِ أدلَّته، وكذَّبوا الرسلَ والكتبَ المنزَلةَ على الأنبياء، معَ علمِهمْ أنَّ ما أتَوا بهِ حقّ، فمُعجزاتُهم شاهِدةٌ على صِدقِهم، ولا طاقةَ لهم بردِّها. وهمْ معَ عِنَادِهِمْ وفسادِ عَقيدتهمْ غيرُ أوفياءَ معَ أقربِ المقرَّبينَ إليهم، فهمْ يَقطعونَ علاقاتِهمْ معَ أهليهمْ وأقربائهم، ويُفسِدونَ في الأرضِ

(٣) المثَل: المثيلُ والمشابِه، وغلبَ على مماثلةِ هيئةٍ بهيئة، أي: جعلَ شيئاً مثلاً، أي: شبهاً، وهو مستعملٌ مجازاً في الوضعِ والجعل. (التحرير والتنوير، باختصار).

(٤) الميثاق: العهدُ المؤكد. (البغوي).

بالمعاصي والفِتَنِ وإثارَةِ الشُبُهاتِ حَولَ القُرآن، وقدْ خسروا بهذا وتعرَّضوا إلى غضبِ الله، وحالتْ أعمالُهُمْ السيِّئةُ بينَهمْ وبينَ رحمةِ اللهِ العظيمة.

{كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [البقرة:٢٨]

٢٨- كيفَ تَجحَدونَ وجودَ الخالقِ وقدْ كنتُمْ عَدَماً فأخرجَكمْ إلى الوجود، ثمَّ يُميتُكمْ موتةَ الحقّ، ثمَّ يُحييكمْ مرَّةً أخرى عندَ البَعث؟

{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [البقرة:٢٩]

٢٩- هوَ الإلهُ الحقّ، الذي خلقَ الأرضَ وما فيها لأجلِكم، ثمَّ استوَى إلى السماءِ (ذهبَ كثيرٌ من المفسِّرينَ إلى أنَّ معناها: قصدَ إلى السماء) فخلقَها سبعَ طبقاتٍ وأحكمَها، وعِلمُهُ محيطٌ بجميعِ ما خَلق، لا يَخفى عليهِ شَيء.

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [البقرة:٣٠]

٣٠- واعلمْ يا نبيَّ اللهِ أنَّ ربَّكَ قالَ لملائكتِه: سأجعلُ بني آدمَ خُلفاءَ في الأرض، يَخلُفُ بعضُهم بعضاً، وأسخِّرُ جميعَ ما خلقتُهُ فيها منْ طاقاتٍ وخاماتٍ لهم.

وقدْ فَهِمتِ الملائكةُ منَ الطبيعةِ البشريَّة، أو بإلهامٍ منَ الله، أنَّ منَ البشرِ مَنْ يُفسِدُ في الأرض، ويَستغلُّ طاقاتِها في غيرِ وجهتِها الصَّحيحة، فقالوا استِعلاماً واستكشافاً عنِ الحكمةِ في ذلك، لا اعتراضاً على اللهِ سُبحانَه: يا ربَّنا، أتجعلُ في هذهِ الأرضِ مَنْ يَعيثُ فساداً، ويُريقُ الدماءَ بغَيرِ حقّ، مُتجاوزينَ الحِكمَةَ والصَّواب؟ وإذا كانَ الهدفُ منِ استخلافِهمْ فيها عبادتَك، فها نحنُ نُنَزِّهُكَ ونَحمَدُكَ ونُمَجِّدك، ونعبدُكَ ونصلِّي لك؟

فقالَ اللهُ لهم: إني أعلمُ منَ المصلحةِ في استخلافِهمْ فيها ما لا تَعلمون، فإذا كانَ فيهمْ مُفسِدون، فإنَّهُ يَكونُ منهمْ أنبياءُ وصِدِّيقون، وأولياءُ للهِ مقرَّبون، وعُلماءُ عامِلون، وعُبّادٌ خاشِعون، وشُهداءُ أبرارٌ في عِلِّيين.

{وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة:٣١]

٣١- وعلَّمَ اللهُ آدمَ أسماءَ الأشياءِ كلِّها، ثمَّ عرضَها على الملائكةِ وقالَ لهم: اذكرُوا لي أسماءَ هذهِ الأشياء، إنْ كنتُمْ صادقينَ في زَعمِكمْ أنَّكمْ أحقُّ بالخِلافَةِ مِنْ آدمَ وذُرّيَّتِه. فإذا كنتُمْ لا تعلمونَ أسماءَها وأنتُمْ تُشاهدونَها، فأنتُمْ عمّا هوَ غيرُ موجودٍ من الأمورِ الكائنةِ التي لم توجدْ أحرَى أنْ تكونوا غيرَ عالِمينَ بها.

إنَّ الملائكةَ لا حاجةَ لهمْ إلى هذهِ الأشياء؛ لأنَّها لا تُناسبُ طَبيعتَهم، بلْ هي مختصَّةٌ بابنِ آدم، ولذلكَ جُعلتِ الخِلافةُ لهُ في الأرض، لا لهم.

{قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [البقرة:٣٢]

٣٢- عندَ ذلكَ استسلمتْ ملائكةُ الرحمنِ للحقّ، فقدَّستْهُ ونزَّهتْهُ وقالت: سبحانَك، لا علمَ لنا بشيءٍ إلاّ ما أحطتَنا بهِ منْ عندِك، فأنتَ تعلمُ كلَّ شيء، ولكَ الحكمةُ في خلقِكَ وأمرِك، وتعلِّمُ مَنْ تشاءُ ما تشاء، وتمنعُ مَنْ تشاءُ ممّا تشاء.

{قَالَ يَاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} [البقرة:٣٣]

٣٣- وطلبَ اللهُ مِنْ أبينا آدمَ أنْ يَذكرَ للملائكةِ أسماءَ الأشياء، مِنْ أعلامٍ وحيواناتٍ وجمادات، فأنبأهمْ بها، وظهرَ فضلُهُ في ذلك، منْ علمِ ما لا يَعلمونه، فقالَ اللهُ لهم: ألم أقلْ لكمْ إنّي أعلمُ علمَ الغَيب، فلا يَخفى عليَّ شيءٌ مِنْ أمرِهمْ وأمرِكمْ وما في الكونِ جميعاً، وأعلمُ ما تُسِرُّونَ في أنفسِكمْ وما تُظهِرونَه، فما خفيَ عليَّ قولُكم: مَنْ يُفسدُ فيها، ولا خفيَ عليَّ أمرُ إبليسَ في خلافِ أمري والتكبُّرِ على طاعتي.

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [البقرة:٣٤]

٣٤- وقدْ كرَّمَ اللهُ آدمَ عليهِ السلامُ عندما قالَ لملائكته: اسجُدوا لآدم، فسجَدوا لهُ طاعةً لربِّهم، فكانتِ السجدةُ لآدم، والطاعةُ لله، كرامةٌ منَ اللهِ أكرمَ بها آدم. إلاّ إبليس، الذي كانَ بينَهم، وهوَ مِنَ الجنّ، أبَى أنْ يَسجُدَ له، تكبرُّاً واستِعلاء، فكانَ بذلكَ مِنَ العاصينَ الضالِّين.

{وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} [البقرة:٣٥]

٣٥- بعدَ هذا التكريمِ لآدم، أباحَ اللهُ لهُ الجنَّةَ ليَسكُنَ فيها حيثُ يَشاء، هوَ وزوجُهُ حوّاء، ويأكلا منها في رَغَدٍ وهَناء، وسَعَةٍ وسَعادة، لكنْ حذَّرهما فقال: لا تَقْرَبا هذهِ الشجرة، وعيَّنها لهما، فإنَّكما إذا أكلتُما منها عَصيتُما ربَّكما وظلمتُما أنفُسَكما، ووقعتْ عليكما عاقبةُ المخالفَة.

وكانَ ذلكَ امتحاناً لهما، وتوجيهاً لسلوكِهما، ولتعليمِهما الوفاءَ بالشرط، ولابدَّ في ذلكَ مِن إرادَة.

{فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [البقرة:٣٦]

٣٦- لكنَّ الشيطانَ أغواهما ونحّاهما عنِ الجنَّةِ عندَما زيَّنَ لهما الأكلَ مِنَ الشجرةِ فأكلا منها! وأخرجَهما بذلكَ منَ الجنّاتِ الجميلةِ وما فيها مِنْ رزقٍ هنيءٍ وراحةٍ ومَنزِلٍ رَحب، فقالَ اللهُ لهما عَقِبَ هذا العِصيانِ ما تَفسيره: انزلا منَ الجنَّةِ إلى الأرض، لتتحكَّمَ العداوةُ بينكمْ وبينَ الشيطانِ، الذي غرَّكمْ فأخرجَكمْ منْ هذا النعيم، وسيكونُ لكمْ قرارٌ في الأرض، ورزق، ورَغبةٌ وانتِفاع، ولكنْ إلى زَمَنٍ محدود.

{فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة:٣٧]

٣٧- وعرفَ آدمُ ذنبَهُ وندِم، واستغفرَ ربَّهُ وطلبَ منهُ الصفحَ والمغفرة، فقبِلَ توبتَه، إنَّهُ كثيرُ الغُفرانِ لذنوبِ عبادهِ المؤمنين، رحيمٌ بهم(٥).

{قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة:٣٨]

٣٨- تكريرٌ وتحذيرٌ مِنْ جديد، لآدمَ وذرِّيتِه، حتَّى لا يَقعوا في الخطأ مرَّةً أخرى: انزِلوا إلى الأرض، فإذا بَعثتُ إليكمْ أنبياءَ ورُسلاً، وأنزلتُ عليكمْ كتُباً لتهتَدوا بها، واتَّبعتُمْ هذا الهَدي، فلا تَضِلُّونَ في الدنيا، ولا تَشقَوْنَ في الآخِرَة، ولا تَحزنونَ على ما فاتَكمْ منْ أمورِ الدنيا، ولا تخافونَ ما ينتظرُكمْ يومَ القيامة.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة:٣٩]

٣٩- أمَّا مَنْ كَفَرَ وكذَّبَ بأنبيائنا وكُتُبِنا، فهمْ أصحابُ النار، لا مَحِيدَ لهمْ عنها ولا محيص، خالدينَ فيها أبدًا.

{يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} [البقرة:٤٠]

٤٠- يا أبناءَ إسرائيلَ (يعقوبَ) النبيِّ الكريمِ المطيعِ لله، تذكَّرُوا نِعمتي عَليكمْ أنْ جعلتُ منكمْ أنبياءَ ومُلوكاً، وأنزلتُ عليكمُ الكتُب، وأنجَيتُكُمْ مِنْ عُبوديةِ فِرعَونَ وآلِه... وأوفوا بالعهدِ الذي طَلَبتُ منكمُ الإيفاءَ به، وهوَ اتِّباعُ دينِ الإسلامِ ومتابعةُ النبيِّ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم إذا أُرسِل، فإذا وَفَيتُمْ بالعهدِ الذي في أعناقِكم، رَضِيتُ عنكمْ وأدخلتُكمُ الجنَّة، وإنْ لم تَفعَلوا فاذكروا ما أنزلتُ بآبائكمْ مِنَ النِّقم، كالمسخِ وغيره، فإنِّي قادرٌ على أنْ أُنزلَ بكمْ ما أنزلتهُ بهم.

---

(٥) ... وأما قوله: {الرَّحِيمُ}، فإنه يعني أنه المتفضِّلُ عليه مع التوبةِ بالرحمة. ورحمتهُ إيَّاهُ إقالةُ عثرته، وصَفحهُ عن عقوبةِ جُرمه. (الطبري).

{وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ} [البقرة:٤١]

٤١- وآمِنوا بالقرآنِ المنـزَلِ على النبيِّ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، المصدِّقِ لِما معَكم، ممَّا هوَ مَكتوبٌ في التوراةِ والإنجيل، ولا تكونوا -يا يهودَ المدينةِ- أوَّلَ مَنْ يَكفرُ بنبوَّةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم مِنْ بَني إسرائيل. ولا تَستبدلُوا بالإيمانِ وتصديقِ رسولي الدنيا وشهواتِها القليلةَ الفانية، وأطيعوني رجاءَ رَحمَتي بكمْ وهدايَتِكُمْ وإنقاذِكُمْ مِنَ العذاب.

{وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة:٤٢]

٤٢- ولا تَخلِطوا الحقَّ بالباطلِ والصدقَ بالكذب، ولا تسكتُوا عنِ الحقِّ فتَكتموهُ وأنتُمْ تَعلمونَ أنَّهُ الحقّ، فإنَّ عندَكمْ معرفةً برسولي وبما جاءَ به، وهوَ مَكتوبٌ عندَكم، فلِمَ لا تُعلنونَ الإيمانَ به، بلْ تَكذِبونَ وتَقولونَ إنَّهُ ليسَ بنبيّ؟!

{وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ} [البقرة:٤٣]

٤٣- فآمِنوا به، وصلُّوا معَه، وادفعُوا زَكاةَ أموالِكمْ إليه، وكونوا معَ مَنْ آمنَ بهِ مِنْ أصحابهِ في أحسنِ أعمالِهِم، واركَعوا للهِ معَهمْ كما يَركعون.

{أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [البقرة:٤٤]

٤٤- أتَطلُبونَ مِنَ الناسِ أنْ يَعمَلوا الخيرَ ولا تعملونَ أنتمْ به، وعندَكمُ العِلم، بما تقرؤونَهُ في الكتُب، وتَعلمونَ جزاءَ مَنْ خالفَ أمرَ اللهِ في ذلك؟ ألا تتنبَّهونَ إلى خطأ ما أنتمْ فيهِ وخطَرِهِ عليكم؟ فهلاّ اتَّصفتُمْ بالعقلِ وعمِلتمُ الخيرَ كما تأمرونَ بهِ الناس؟

{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة:٤٥]

٤٥- واستعينوا أيُّها المؤمنونَ على طَلَبِ الخيرِ في الآخِرةِ والدنيا، بالصبرِ على طاعةِ الله، والصَّلاة. فإنَّ الصبرَ لابدَّ منهُ في كلِّ أمرٍ شاقّ، والصلاةُ تُعِينُ على الثباتِ على الأمر، وهي شاقَّةٌ وثقيلةٌ إلاّ على المتَواضِعينَ المطيعينَ لله.

{الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيهِ رَاجِعُونَ} [البقرة:٤٦]

٤٦- الذينَ يؤمنونَ بوعدِ اللهِ ووعيده، وبأنَّهُمْ محشورونَ إليهِ يومَ القيامة، وأنَّ أعمالَهُمْ معروضةٌ عليه. وهذا الإيمانُ هوَ الذي يدفعُهمْ إلى طاعتِه، وتجنُّبِ معاصيه.

{يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [البقرة:٤٧]

٤٧- واذكروا يا بني إسرائيلَ نِعَمِي على آبائكمْ وأسلافِكم، وأنِّي فضَّلتُكمْ آنَذَاكَ على العالَمين، بإرسالِ الرسلِ إليهم، وإنزالِ الكتبِ عليهم، وجعَلتُهمْ سادَةً ومُلوكًا.

{وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ} [البقرة:٤٨]

٤٨- واحذَروا يومَ الجزاء، الذي لا يُغني فيهِ أحدٌ عنْ آخَر، ولا يُقْبَلُ مِنْ كافرٍ تقرُّبٌ ولا فِداءٌ للتجاوُزِ عنْ كُفرهِ ومَعصِيَته، ولا أحدَ يدافعُ عنهُ وينْصُرهُ ليُنقذَهُ منَ العذاب، فكلُّ نفسٍ مسؤولةٌ عنْ نفسِها.

{وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاَءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ} [البقرة: ٤٩]

٤٩- واذكروا يا بني إسرائيلَ مِنْ نِعَمِي عَليكمْ إنقاذَكُم مِنْ ظُلمِ فِرعَونَ وآلِه، عندَما كانوا يُذِيقُونَكمْ أقسَى أنواعِ العذابِ وآلَمَه، فيَذبَحونَ كلَّ ذَكَرٍ يُولَدُ فيكم، ويُبْقُونَ على بناتِكم؛ خَوفاً مِنْ أنْ يكونَ زوالُ مُلكهِ على يدَي رَجُلٍ منكم. وفي إنقاذِكمْ مِنْ هذا العَذابِ نعمةٌ عَظيمةٌ مِنْ ربِّكمْ عليكم، فلا تَنْسَوْها.

{وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} [البقرة:٥٠]

٥٠- واذكُروا عندَ خروجِكمْ معَ موسى استنفارَ فرعونَ جيشَهُ لمتابعتِكمْ والقضاءِ عليكم، فانفلقَ البحرُ لكمْ وخلَّصكمُ اللهُ منهم، فحجزَ بينَكمْ وبينَهم، وأغرقَهم، وأنتمْ تَنظُرونَ إليهم.

{وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ} [البقرة:٥١]

٥١- واذكروا أيضاً عندَما ذهبَ موسى إلى ميقاتِ ربِّهِ للمناجاة، مُسْتَخْلِفاً هارونَ عليكم، وبقيَ أربعينَ يوماً، وأُنزِلَتْ عليهِ التوراة، ثمَّ اتَّخذتُمُ العِجلَ إلهاً وعَبدتموهُ بتَسويلِ السامريِّ لكم، مِنْ بَعدِ غَيبَةِ موسَى عَنكم. وقدْ كانَ عملُكمْ هذا ظُلماً عظيماً، باتِّخاذِكمُ العِجْلَ إلهًا دونَ الله.

{ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [البقرة:٥٢]

٥٢- ومعَ هذا فقدْ عفا اللهُ عنكم، لعلَّكمْ تشكرونَه، وتَعرفونَ نعمتَهُ عَليكم.

{وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [البقرة:٥٣]

٥٣- واذكروا منْ نِعَمِنا عليكمْ أنْ أَعْطَيْنا موسى التوراة: كتابًا مُنَزَّلاً، وحجةً يُفَرِّقُ بينَ الحقِّ والباطل، لعلَّكمْ تَهتدونَ بالتدبُّرِ فيهِ والعملِ بما يَتضمَّنه.

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة:٥٤]

٥٤- واذكروا عندما قالَ موسى لبَني إسرائيلَ الذينَ عَبدوا العِجْلَ: لقدِ ارتكبتُمْ جُرْماً عظيماً ومَعصيةً كبيرةً عندما اتَّخذتمُ العجلَ ربّاً دونَ الله، ولا توبةَ لكمْ عندَ خالقِكمْ إلاّ أنْ يَقْتُلَ بعضُكم بعضاً، فيَقتُلَ البريءُ منكمُ المجرمَ، فإنَّهُ أنسبُ عقوبةٍ لنفوسِكمُ السيِّئة، وقلوبِكمُ القاسية، وطبيعتِكمُ المنحَرفة، وعسَى أنْ يَكونَ هذا توبةً لجُرمِكمُ الشنيع، وتَذكرةً مؤلمةً لكمْ لئلاّ تَعودوا إلى مثلِه. ثمَّ أدركَتْكُمْ رحمتُهُ فَتَابَ عليكم، فهوَ يَقبلُ التوبَةَ الصادقةَ مِنْ عبادِه، رحمةً بهم.

{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} [البقرة: ٥٥]

٥٥- ثمَّ قلتُمْ لنبيّكمْ موسى: نرفضُ أنْ نُؤمنَ حتَّى نرَى اللهَ عِيَاناً! وهوَ ممّا لا يُستطاعُ لكمْ ولا لأمثالِكم، فَنَزَلَتْ عليكمْ صَيْحةٌ قويَّةٌ منَ السماء؛ لِفَرْطِ عِنادِكمْ وتعنُّتِكُمْ وطلبِكمُ المستحيل، فمتُّمْ بينما يَنظرُ بعضُكم إلى بعض.

{ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [البقرة: ٥٦]

٥٦- ثمَّ رحِمْناكمْ فأحيَيْناكمْ لِتَسْتوفُوا بقيَّةَ آجالِكُم وأرزاقِكُم، وعسَى بذلكَ أنْ تَشكروا نعمةَ ربّكمْ عَليكم.

{وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [البقرة: ٥٧]

٥٧- ومنْ نِعَمهِ عليكمْ في التِّيهِ أنْ ظلَّلَ عليكمُ السحابَ ليقيَكُم حَرَّ الشمسِ المحرِق، وأرسلَ إليكم طعاماً شهيّاً لا تَتعبونَ في تحصيله، وهوَ المنُّ الذي تَجدونَهُ على الأشجارِ حُلواً كالعَسل، وطائرُ السُّمَانَى القريبُ المنال، فكُلُوا منْ هذا الطعامِ الطيّبِ الهَنيءِ الذي رزَقناكم.

ومَا أَدخَلوا بعِصيانِهِمْ نَقصًا في مُلكِنا وسُلطانِنا، فنحنُ أعزُّ مِن أنْ نُظلَم، ولكنَّ بَني إسرائيلَ جَحدوا نِعمتَنا، وأَضَرُّوا بأنفُسِهم، فكانتْ عاقبةُ ظلمِهمْ على أنفسِهم.

{وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: ٥٨]

٥٨- ولما طُلِبَ منكمْ دخولُ بيتِ المقدس، وقتالُ مَنْ فيها منَ العَماليقِ الكفَرة، جَبُنتُمْ عنْ قتالِهم، فرماكمُ اللهُ في التِّيه، حتَّى يَنشأَ جيلٌ جديدٌ على غيرِ ما أنتُمْ عليه، الذي قادَهمْ يوشَعُ بنُ نون، ففتحَ المدينةَ ودخلَها، لتَعيشوا في القدسِ في رغَدٍ وهَناء. وطُلِبَ منكمْ أنْ تَقولوا عندَ

الدخول: "حِطَّةٌ": حُطَّ عنّا ذنوبَنَا واغفرْ لنا، معَ تواضُعٍ وخُشوع. فإذا قلتُمْ ذلكَ غفَرنا لكمْ ذنوبَكم، وزِدنا المحسنينَ منكمْ إحساناً.

{فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ} [البقرة: ٥٩]

٥٩- لكنَّ فريقاً ظالماً منكمْ خالَفوا وعصَوْا، فبدَّلوا ما أُمِروا بهِ من الخضوعِ بالقولِ والفعل، فَبَدَلَ أنْ يَدخلوا ساجدينَ مُستَغفرين، دخلوا على هيئةٍ أُخرَى مُخالِفة، وقالوا قَولاً آخرَ غيرَ الذي أُمِروا به، مخالفةً ومعاندة!

فأنزلَ اللهُ على هؤلاءِ الظالمينَ غضبَهُ وعذابَه؛ لِفسقِهمْ وعِصيانِهم[٦].

{وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [البقرة: ٦٠]

٦٠- واذكروا يا بني إسرائيلَ مِنْ نِعَمي عَليكم، عندما استُجِيبَ دعاءُ نبيِّكمْ موسى عليهِ السلام، لما طَلَبَ السُّقيا لكم، فأمرناهُ أنْ يَضرِبَ حَجراً بعَصاه، فضربَهُ، فانفجرَتْ منهُ اثنَتا عشرةَ عَيناً[٧]، لكلِّ قَبيلةٍ مِنْ قبائلكمْ عَينٌ قدْ عرَفتها. فكُلُوا المنَّ والسَّلوى، واشرَبوا منْ هذا الماءِ المعِين، الذي جاءَكمْ بدونِ كدٍّ ولا تَعب، واعبدوا اللهَ الذي سخَّرَ لكمْ كلَّ هذا ويسَّره، ولا تُقابِلوهُ بالجُحُودِ والعِصيانِ فتُسْلَبُوها.

{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ

---

(٦) إن فُسِّرَ [الرجزُ] بالثلجِ كان كونهُ {مِّنَ ٱلسَّمَاء} ظاهراً، وإنْ بغيرِهِ فهو إشارةٌ إلى الجهةِ التي يكونُ منها القضاء، أو مبالغةٌ في علوِّهِ بالقهرِ والاستيلاء. (روح المعاني).

(٧) الانفجار: الانسكاب، والانبجاس: الترشحُ والرشّ، فالرشُّ أول، ثم الانسكاب. {مِنْهُ} أي: من ذلك الحجر، {اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً}: ماءً عذبًا. (روح البيان).

اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} [البقرة: ٦١]

٦١- واذكروا نعمةَ الطعامِ الطيِّبِ الذي رَزقكمُ اللهُ منَ المنِّ والسَّلوى، ولكنَّكمْ ضَجِرتُمْ منهُ ورَغِبتُمْ في الأدنَى، فطلبتُمْ مِنْ موسى أنْ يدعوَ اللهَ ليُخْرِجَ لكمُ البُقُول، من قِثَّاءٍ وثُومٍ وعَدَسٍ وبَصَل، فاسْتَنْكَرَ نبيُّكمْ منكمْ هذا، وقال: أتريدونَ الطعامَ الأقلَّ قِيمةً وذَوقاً على العيشِ الرغيدِ والطعامِ الهَنيءِ الطيِّبِ النافع؟

إنَّ هذا الذي سألتُموهُ ليسَ بعَزيز، وهوَ هيِّنٌ زَهيد، بإمكانِكمْ أنْ تَذهبوا إلى أيِّ مكانٍ لتجدوهُ فيه.

ووضعَ اللهُ عليهمُ الذُّلَّ والصَّغار، فلا يزالونَ كذلك، يَستذِلُّهُمْ ويُهينُهمْ مَنْ وجدَهم، واستحقُّوا السُّخْطَ والغضبَ منَ اللهِ بما فعلوهُ مِنْ آثامٍ كبيرةٍ وذُنوبٍ عِظام، منْ كفرِهمْ بآياتِ اللهِ وحُجَجِهِ البيِّنة، واستكْبارِهمْ عنِ اتِّباعِ الحقّ، وإهانتِهمْ وقتلِهمْ أفضلَ الخلقِ أجمعين: أنبياءَ اللهِ ورُسُلَه؛ فهذا جزاءُ مَنْ عصَى الخالقَ واعتدَى على خَلقه.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ٦٢]

٦٢- إنَّ كلَّ مَنْ آمنَ بحقّ، منَ اليهود، والنصارَى، والصابئة، وهمْ قومٌ أصحابُ ديانةٍ بالعراق، أو مَنْ لم تَبلُغْهُم رسالةٌ، آمنَ باللهِ وحدَه، وبيومِ القيامة، وأتْبَعَ إيمانَهُ بعملٍ صالحٍ موافقٍ للحقّ، فإنَّ لهمُ المثوبَةَ الْحُسنَى بما قدَّموه، فلا خوفٌ عليهمْ فيما يستقبلونَهُ مِنْ أحداث، ولا همْ يَحزنونَ على ما يَتركونَهُ ويَخْلُفونَه. فالعبرةُ بِصِحَّةِ الْعقيدةِ واتِّباعِ النبيِّ في وقتِه. وهذا كلُّهُ قبلَ البعثة، أمَا وقد خُتمتِ النبوَّة، فلا دينَ إلا الإسلام {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران: ٨٥].

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ٦٣]

٦٣- واذكروا يا بني إسـرائيلَ ما أُخِذَ عَليكمْ منَ العهودِ والمواثيقِ لاتِّباعِ رُسـلهِ والعملِ بالتوراةِ عُمومًا، ورفعنا الجبلَ فوقَ رؤوسِـكمْ حتَّى صـارَ كالظُّلَّةِ فَوقَكم، وقُلنا لكم: خُذوا ما في التَّوراةِ واعمَلوا بأحكامِها بقوَّةٍ وعَزم، فلا مُهَادَنَةَ ولا مُجَامَلَةَ في أمرِ الدِّينِ والعقيدة.

وتذكَّروا ما في هذا العهد، أو ما أُنزلَ عليكمْ في التوراةِ ولا تَغفُلوا عنه، ليَكونَ لكمْ سُـــلُوكاً وخُلُقاً وعَقيدَة، ولعلَّكمْ بذلكَ تَنْزِعونَ عمّا أنتُمْ عليهِ وتتَّقونَ العُقوبَة.

ولما رأوا الجبلَ فَوقَهم، عَلِموا أنَّهُ مُعجِزَةٌ تُبهِرُ العُقول، وتَرُدُّ المكذِّبَ إلى التَّصديق، والشَّاكَّ إلى اليَقين، وعَلِموا أنَّهُ مِنْ عندِ الله، فأقَرُّوا لنبيِّهمْ بالصِّـــدْقِ فيما جاءَ به، وأظهَروا التوبَةَ، وأعطَوا العَهدَ والميثاقَ ليَقوموا بالتَّوراة.

{ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلاَ فَضْـلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِـرِينَ} [البقرة: ٦٤]

٦٤- لكنَّكمْ بعدَ هذا الوعدِ الأكيدِ والميثاقِ العظيم، نَقَضْـــتُم قولَكُم، وأدرتُمْ إليهِ ظهورَكم. ومعَ هذا النكْثِ والخيانةِ رحِمَكم اللهُ وتفضَّلَ عليكم، فأرسلَ إليكمُ النبيِّينَ والمرْسَلين، ليُذكِّروكمْ بالإيمانِ والطاعَة، ولولا ذلكَ لكنتُمْ في خُسرانٍ مُبينٍ، وَنَدَمٍ دائم.

{وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّـــبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِـــئِينَ} [البقرة: ٦٥]

٦٥- وتذكَّروا معشـــرَ اليهودِ ما حلَّ منَ العذابِ بأهلِ القريةِ التي لم تلتَزِمْ بعهدِ الله، عندما طَلبوا يومَ راحةٍ مُقدَّساً لا يعملونَ فيه، فجعلَ اللهُ ذلكَ يومَ السبت، وابْتَلاهمُ بوفرةِ الحيتانِ في ذلكَ اليوم، فما صَمَدُوا أمامَ أطماعِهِمْ وشهَوَاتِهِم، وخافُوا إنْ همْ نَقَضُوا العهد، فَتَحَايَلُوا، وما يَحْتَالُونَ إلا على أنفسِهم، نَصَبُوا الشِّبَاكَ والحبائلَ والبِرَكَ قبلَ يومِ السبت، فإذا انقضَى أخذوا ما فيها يومَ الأحد. فلمّا فعلوا ذلكَ ونَكَلُوا عنْ عهدِهمْ معَ الله، عاقَبَهُمْ بالمسخ، وجعلَهمْ في صورةِ القِرَدَة، أذلَّةً صاغِرين.

{فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ} [البقرة: ٦٦]

٦٦- وكانتْ عقوبةُ أهلِ تلكَ القَريةِ عِبْرةً لِما حولَها مِنَ القُرى، وعِظةً لمنْ يَحْذَرُونَ نقمةَ اللهِ وسُخْطَهُ، لئلا يستَحِلُّوا محارمَ اللهِ بأدنَى الحِيَل.

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [البقرة: ٦٧]

٦٧- واذكرُوا يا بَني إسرائيلَ عندما قُتِلَ أحدُكُمْ ولم تَعرِفوا قاتِلَه، وسألتُمْ نبيَّكُمْ معرفتَه، فطلبَ منكمْ أنْ تَذبَحوا بقرةً -وستأتي الحكمةُ منْ ذلك- فَقُلْتُمْ في جَفاء، وسوءِ أدبٍ وتكذيب: أتَهزأ بِنا وتَسخرُ منَّا؟

فقالَ لكم، وهوَ مُعَلِّمُكُمْ ومُرشِدُكُمْ إلى الخير: حاشا أنْ أكونَ منَ المسْتَهزئينَ بالمؤمنين، إنما الأمرُ بِوَحْيٍ منَ الله.

{قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ} [البقرة: ٦٨]

٦٨- فقالَ اليهود: إنَّنا لا نَعرِفُ أيَّ بَقَرَةٍ تَقصِد. ولو أنَّهم ذَبحوا أيَّ بقرةٍ لكفَت، ولكنَّهُمْ شَدَّدُوا فشَدَّدَ اللهُ عليهم. قالوا: فما هِيَ وما وَصْفُهَا؟

قالَ لهمْ نبيُّهم: إنَّ اللهَ يَقول: إنَّها لا كبيرةٌ هَرِمَةٌ، ولا صغيرةٌ لم يَلحَقْها الفَحل، فهيَ بينَ الكبيرةِ والصغيرة، وهوَ أَقْوَى وأحسَنُ ما تَكونُ الدابَّة. فنفِّذُوا ما أُمِرتُمْ به.

{قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ} [البقرة: ٦٩]

٦٩- وَعَادوا إلى السؤالِ والتَّشديدِ مرَّةً أخرى، فقالوا: ما لونُها؟

قالَ نبيُّهم: يقولُ الله: إنَّها بَقَرَةٌ صفراءُ صافيةُ اللَّون، تُعْجِبُ الناظرينَ في ذلك.

{قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاء اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ} [البقرة: ٧٠]

٧٠- وعادوا ليَسألوا سؤالاً آخر، فقالوا: اطلبْ منْ ربّكَ أيُّها النبيُّ أنْ يُحَدِّدَ لنا وَصْفَهَا وَحِلَّهَا لنا، فإذا فعلَ ذلكَ فإنَّنا بذلكَ إنْ شاءَ اللهُ نَهتدي إليها.

{قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ} [البقرة: ٧١]

٧١- فقالَ لهم: إنَّ اللهَ يقول: إنها بَقَرَةٌ غَيْرُ مُذَلَّلَةٍ لحَرْث الأرض، ولا هي مهيَّأةٌ للنَّضْحِ والسَّقي، بل هيَ مُكرَّمَةٌ مُعْتَنًى بِها، صَحيحَةٌ لا عَيْبَ فيها، ولا شَيْءَ يُكَدِّرُ لَوْنَهَا الأصفر. فقالوا: الآن بَيَّنْتَ لَنَا. فَذَبَحوها، وَمَا كادوا أنْ يَفعلوا ذلكَ بعدَ كلِّ هذا الإيضاح!

{وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ} [البقرة: ٧٢]

٧٢- واذكروا الحكمةَ منْ ذبحِ البقرة، فقدْ قَتَلتُمْ نفساً واختلفتُمْ في ذلكَ وتَخاصَمتُمْ فيه، وأرادَ اللهُ أن يُظْهِرَ مَا كنتُمْ تُغَيِّبونَ منَ الحقّ، فإنَّ القاتِلَ ما كان يَعْتَرِف.

{فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [البقرة: ٧٣]

٧٣- فقلنا: اضربوا القتيلَ بجُزءٍ منْ أجزاءِ البقرةِ المذبُوحة، فيَحيا المقتُول، ويَذكُرُ قاتِلَهُ. وهذا مثالٌ لقدرةِ اللهِ على إحياءِ الموتَى، وَصَيْرُورةِ الرميمِ إلى ما كان، وإنْ لم تُدْرِكُوا كُنْهَهُ، ولكنَّهُ درسٌ واقعيٌّ شاهدتموهُ عِياناً، لتعْقِلُوا وتَتفَكَّرُوا، وتُؤْمِنُوا بقدرةِ الله.

{ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [البقرة: ٧٤]

٧٤- وبعدَ كلِّ هذهِ الآياتِ والنِّعَمِ والتحذِيرات، قَسَتْ قلوبُكم فصارَتْ كالحجارةِ التي لا علاجَ لِلِينها، وبعضُها أَقْسَى مِنْهَا، فإنَّ منَ الحجارةِ ما تتفجَّرُ منهُ العُيونُ الجارِية، ومنها ما يَتشَقَّقُ فيَخرجُ منهُ الماءُ وإنْ لم يكنْ جارياً، ومنَ الحجارةِ ما يَهبِطُ منْ رأسِ الجبلِ خَوفاً منَ

الله، وقدْ دُكَّ الجبلُ عندما تجلَّى اللهُ لهُ وَخَرَّ موسى صَعِقاً. وقلوبُكُمْ لا تَلِينُ، ولا تنْبِضُ بخشيةِ الله، واللهُ ليسَ بِغَافِلٍ عنْ أعمالِكُمْ وقَساوَةِ قُلوبِكُم، التي لا يُنتَظَرُ منها سِوَى الأعمالِ السيِّئة، إنَّما هوَ تأخيرٌ إلى موعدِ محاسبتِكم.

{أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [البقرة: ٧٥]

٧٥- بعدَ أنْ تبَيَّنَتْ لكمْ طبيعةُ اليهود، مِنْ قَساوةِ قلوبِهم وتكذيبِهم بآياتِ الله، أَفَتَطْمَعُونَ أيُّها المؤمنونَ أن يَنْقَادُوا لَكُمْ بالطَّاعة، وقدْ كانَتْ طائفَةٌ منْ عُلمائهمْ وأَحْبَارِهِمْ يَسمعونَ التوراةَ ويَعرِفونَ معانِيَها، ثم يُؤَوِّلُونَهَا تأويلاتٍ بعيدةً عَلَى غيرِ مَدْلُولِها الصحِيح، وَهُمْ يعرفونَ أنهم آثِمُونَ بذلك؟!

{وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [البقرة: ٧٦]

٧٦- وإذا لَقِيَ اليهودُ أصحابَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قالوا: آمنَّا بأنَّ محمَّداً مُرْسَل، يعني على ما بَشَّرَتْ بهِ التوراة، فإذا كانوا وَحْدَهُمْ قالَ بعضُهمْ لبَعض: كيفَ تُقِرُّونَ عندَهمْ بصحَّةِ رسالةِ محمَّدٍ (صلى الله عليه وسلم) مِنَ التوراةِ لِيَكُونَ ذلكَ حُجَّةً لهمْ عليكم، فَيُحَاجُّوكمْ بهِ عندَ ربِّكم، فَيَخْصِمُوكم، اعْقِلُوا إذًا، فَاكْتُمُوا وَاسْكُتُوا!

{أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [البقرة: ٧٧]

٧٧- أَوَلا يَعلمُ اليهودُ أنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عليهم، ويعلمُ ما يُبطِنُونَ وما يُظْهِرُون، ويعلمُ أنَّهم يُسِرُّونَ بتكذيبِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم {الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ} [الأعراف: ١٥٧].

{وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ} [البقرة: ٧٨]

٧٨- وَمِنْ أهلِ الكتابِ مَنْ لا يَعرفونَ الكتابة، ويَجهلونَ ما وردَ في التوراةِ، فلا يفقهونَ شيئاً، ولا يَتَكَلَّمُونَ إلاّ بِأَوْهَامٍ وَظُنُون، ولذلكَ فهمْ يَتعلَّقونَ بما تشتهيهِ نفوسُهم، فيَقولونَ إنَّهمْ أبناءُ اللهِ وأحبَّاؤه، وأنَّهمْ يدخلونَ الجنَّةَ منْ دونِ الناس، وأنَّهمْ إذا دخلوا النارَ فلا يبقونَ فيها إلاّ قليلاً، وغيرَ ذلكَ منَ الأمانيّ.

{فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ} [البقرة: ٧٩]

٧٩- وفريقٌ آخَرُ منكمْ يَدعونَ إلى الضلال، فَيُزَوِّرُونَ ما في التوراة، يَكتبونَ بأيديهِمْ ما ليسَ مِنْهَا ويقولونَ إنهُ مِنْ عندِ الله، مُقَابِلَ هَدَفٍ حَقِيرٍ وَطَمَعٍ زَائِل، هوَ أن يُعْطَوْا مَبلغاً زهيداً منَ المال! فالهلاكُ والعذابُ لهؤلاءِ المزَوِّرين، الذينَ يكتبونَ بأيدِيهِمُ الكذبَ والافتراء، وَوَيْلٌ لَهُمْ منْ كَسْبِهِمِ الدَّنِيءِ وَمَا أكلوا بهِ مِنَ السُّحْت.

{وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [البقرة: ٨٠]

٨٠- ومنِ جهلِهمْ أنْ يَقولوا إنَّهم لنْ يَبْقَوا في العَذابِ إلا أيَّاماً معدوداتٍ ثمَّ يخرجونَ منها إلى النعيم! فَقُلْ لَهُمْ أيُّها النبيّ: هلْ أخذتُم بما تَقولُون مِن ذَلكَ وعدًا مِن الله؟ فإذا كانَ كذلكَ فإنَّهُ سبحانَهُ لا يُخْلِفُ عَهْدَه، ولكنْ متَى كانَ هذا وكيف؟ إنَّهُ ما جرَى ولا كان، بلْ همْ يَكْذِبُونَ ويَفْتَرُونَ على الله.

{بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيـئَتُهُ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: ٨١]

٨١- فليسَ الأمرُ كما قُلتُمْ ولا كما تَمَنَّيتُمْ، بلْ إنَّ مَنِ ارتكبَ ذنباً وجاءَ يومَ القيامةِ وليستْ لهُ حسنةٌ، فإنَّهُ منْ أهلِ النارِ المقيمينَ فيها. وهوَ حالُ الكافر.

{وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: ٨٢]

٨٢- والذينَ آمنوا باللهِ ورَسُولِهِ وعَمِلوا الأعمالَ الصالحة، الموافقةَ للشريعة، الخالصةَ لله، فإنَّهم مِنْ أهلِ الجنَّة، المخَلَّدينَ فيها أبداً.

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ} [البقرة: ٨٣]

٨٣- واذكُروا أيْضاً يا بَني إسرائيلَ ما أَمَرناكُمْ بهِ وأخذْنَا ميثاقَكمْ عليه، وهوَ ألاّ تَعبدوا إلا اللهَ ولا تُشْرِكُوا بهِ شيئاً، وهذا ما أُمِرَ به جميعُ الخَلق، وهو حقُّهُ سبحانَهُ عليهم. ثمَّ حَقُّ المخلوقينَ بأنْ يُحسِنَ كلٌّ إلَى وَالِدَيْهِ وَيُطِيعَهُما في غيرِ مَعصِيَة، ويُحْسِنَ كذلكَ إلى أقربَائِهِ وَاليتَامَى، والمسَاكِينِ الذينَ لا يَجدونَ ما يُنْفِقُونَ على أنفُسِهِمْ وأهليهم. وأنْ تَقولوا الكَلامَ الطيّبَ والقولَ الحسَن، في حِلْمٍ وعَفْوٍ ولِينِ جانب، وخاصَّةً الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عنِ المنكر. وأنْ تُقِيموا الصلاةَ لِرَبِّكُم، وَتُؤْتُوا الزكاةَ لأَهْلِها.. لكنَّكمْ أَعْرَضتُمْ عنْ كلِّ هذهِ الأوامرِ وتَنَكَّرتُمْ لهَا، إلا القليلَ منكم، ممن عصمَهُ الله، فوفَى للهِ بعهدهِ وميثاقه(٨).

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ} [البقرة: ٨٤]

٨٤- واذكرُوا أيضاً أنّا أخَذنا إقرارَكمْ وعهدَكمْ في التوراةِ بأنْ لا يَقْتُلَ بعضُكُم بعضاً، ولا يُخْرِجَهُ منْ ديارِه، ولا يُظَاهِرَ عَلَيْه، فأَهلُ المِلَّةِ الواحدة بِمَنْزِلَةِ النفسِ الواحِدَة. وقدْ أَقْرَرتُمْ بِهَذا الميثاقِ وصِحَّتِه، وَشَهِدْتُمْ به.

{ثُمَّ أَنتُمْ هَـؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ

(٨) وهم من الأسلاف: مَن أقامَ اليهوديةَ على وجهها قبلَ النسخ، ومِن الأخلاف: مَن أسلَمَ، كعبدالله بنِ سلاّم وأضرابه. فالقلَّةُ في عددِ الأشخاص.. (روح المعاني)..

الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [البقرة: ٨٥]

٨٥- ولكِنَّكُمْ نَقَضتُمُ الميثاقَ في هذا كما نَقَضْتُمُوهُ في غَيْرِه، فصارَ يَقتُلُ بعضُكمْ بعضًا، فَفَرِيقٌ مَعَ الأوْسِ وَفَرِيقٌ مَعَ الخَزْرَجِ. كما تُخْرِجُونَ بعضَكمْ منْ بيوتِ بَعْض، وتَنْهَبُونَ ما فيها منَ المالِ والمتاعِ وَتَأْخُذُونَ سَباياهُمْ، وَتُقَوُّونَ أَعْدَاءَكُمْ على بعضِكُمُ البَعض، وَتُسَاعِدُونَهُمْ عَلَيْهِم، وإذا انتهتِ الحربُ تَفُكُّون الأُسَارَى منَ الفريقِ المغْلُوبِ وَتُفَادُونَهُمْ ولا تقتُلُونَهُمْ عملاً بِحُكْمِ التوراة، ولكنْ لماذا تَعملونَ هنا بالتوراةِ بينما تُنَاقِضُونَ أَحْكَامَهَا فِيمَا مَضَى وَيَقتُلُ بعضُكم بعضاً فِي الحَرْبِ وهوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ؟ أفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ التوراةِ وَتَكْفُرُونَ بالبعضِ الآخَرِ فيه؟

إنَّ جَزاءَ مَنْ يَكونُ كذلكَ هوَ الخِزيُ والعارُ في الحياةِ الدنيا، كما كانَ عاقبتَكم، منَ القتلِ والسبي، والجلاءِ والنفْي، وهو بسببِ مُخَالَفَتِكُمُ الشَّرعَ. أمَّا يومَ القيامَة، فالعَذابُ الشديد، جزاءَ كتمِكُمْ ما في كتابِ اللهِ وعصيانِكُمْ أَحْكَامَهُ، واللهُ ليس بِغَافِلٍ عنْ هذا كُلِّهِ، بلْ يُحْصِيهِ عَلَيْكُمْ لِيُحَاسِبَكُمْ يَوْمَ القيامة.

{أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} [البقرة: ٨٦]

٨٦- فَإِنَّ جزاءَ منِ استَحَبَّ الدنيا والتهَى بزينَتِها ومُتَعِها وفضَّلَهَا على الآخِرَة، هوَ ألاّ يُخَفَّفَ عنهُ العذابُ، ولا يُدافَعَ عنه، ولا يُنْقَذَ منه.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ} [البقرة: ٨٧]

٨٧- واذكروا أيُّها اليَهودُ مِنْ مواقِفِكمْ في مخالفةِ الأنبياءِ ومُعانَدَتِهِمْ واتِّباعِ أهوائكمْ في ذلك، أنْ آتينا موسى التوراةَ، التي حَرَّفْتُمُوها وبَدَّلْتُمُوها، وخالَفتُمْ أوامِرَها وأوَّلتُموها. وأَتْبَعناهُ برسلٍ آخَرِينَ كانوا يَحكمونَ بما في التوراة، حتَّى جاءَ عيسى ختامُ أنبياءِ بني إسرائيل، فأيَّدناهُ

بالمعجِزاتِ الكبيرة، كالإخبارِ بما في الغَيب، وإبراءِ المرضَـــى، وإحياءِ الموتَى بإذنِ الله. وقوَّيْناهُ بجبريلَ كذلك، يكونُ معهُ ويُصَدِّقُ ما جاءَكمْ به، وأنزلنا عليهِ الإنجيلَ فيهِ مخالفةٌ لِبَعضِ أحكامِ التوراة، فما وافقَ ذلكَ أهواءَكمْ ونزواتِكمُ المتقلّبة، معَ كلِّ ما أُيِّدَ به، فعانَدتموهُ وتعالَيتُمْ على موافَقتِه، وانصرفتُمْ إلى مُجادَلَتِهِ ومُخالَفته. أَوَكُلَّمَا أرسلنا إليكمْ رسولاً استَكبرتُمْ عنْ قَبولِ الحقّ، ففَريقٌ منكمْ يُكذِّبهم، وآخَرُ يَقتلُهم؟!

{وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ} [البقرة: ٨٨]

٨٨- وقالَ اليهود: قلوبُنَا مُغَلَّفَةٌ لا تَنْفُذُ إليها دعوةُ الإســـلامِ ولا تَقبَلُها! بلْ قلوبُهُمْ مَلْعُونةٌ مُبْعَدَةٌ منْ رحمةِ اللهِ وهُدَاه، فَطُبِعَ عليها بالكفرِ لرفضِـــها وخِذْلانِها عنْ قبولِ الحقّ. فإيمانُهم قَليل، أو إنَّ القليلَ منهمْ يؤمن.

{وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَـــدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْـــتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٨٩]

٨٩- ولما جاءَ اليهودَ القُرآنُ الكَريم، المنـــزَلُ على محمَّدٍ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وهوَ مُصَـدِّقٌ لما في التوراة، وكانوا قبلَ مَبعثهِ عليهِ الصـلاةُ والسـلامُ يَسـتَنصِـرونَ بهِ على أعدائهمُ المشركينَ إذا قاتَلوهم، يَقولون: إنَّ نبيًّا يُبْعَثُ نتَّبعُه، قدْ أظلَّ زمانُهُ، نقتلُكمْ معهُ قَتْلَ عادٍ وإرَم. فَلَمَّا بُعِثَ صلى الله عليه وسلم مِنْ قُرَيشٍ وهمْ يعرفونَ أنَّهُ هو، بصفاته، كفَروا بهِ وجَحَدُوا ما كانوا يَقولونَ فيه؛ لأنَّهُ ليسَ منهم، فلعنةُ اللهِ عليهمْ بسـببِ كفرِهم، وسُـخْطُ اللهِ وعَذابُهُ على الجاحِدينَ بمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.

{بِئْسَمَا اشْـتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَـهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أنَزَلَ اللّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللّهُ مِن فَضْـلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ}
[البقرة: ٩٠]

٩٠- فَبِئْسَتِ التجارةُ تجارتُهمْ أنْ شَرَوُا الحقَّ بالباطِل، فكفَروا بما جاءَ به محمَّدٌ صلى الله عليه وسـلم حَسـداً وبُغضـاً وتكبُّراً أنْ لم يَكنْ منهم. و{اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَـالَتَهُ} [سـورة

الأنعام: ١٢٤]، فيَصطفي مَنْ يشاءُ مِنْ عبادهِ لتَحَمُّلِ أعباءِ الرسالة، وَلَيْسُوا همُ الذين يحدِّدونَ الرسُول.

لقدِ استحقُّوا بِهَذا غَضَباً مُضاعَفاً: عندما ضيَّعوا التوراةَ وهيَ معَهم، ثمَّ كَفَروا بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم.

وقَدْ خَسِرُوا في تجارتِهِمْ عندما لم ينضمُّوا إلى لواءِ الإسلامِ المجيد، كما سَيَنْدَمُونَ في الآخرةِ بما يَنتظِرهمْ مِنَ العذابِ جَزَاءَ كُفْرِهِمْ هذا، وسوفَ يَكونُ عَذاباً مُهِيناً وَمُذِلاًّ لَهُم.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [البقرة: ٩١]

٩١- وإذا قيلَ لليهودِ أو أهلِ الكتابِ عامَّةً: آمِنوا بما أُنْزِلَ على النبيِّ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وصَدِّقُوهُ واتَّبِعُوه، قالوا: نَكتفي بما أُنْزِلَ علينا مِنَ التَّوراةِ والإنجيل، وفيهما الحقّ، ولا نُقِرُّ بغيرِهما، فيَكفرونَ بالقُرآن، وهمْ يَعلمونَ أنَّهُ مُصَدِّقٌ لِمَا فِيهِمَا، وهمْ كاذبونَ مُعانِدون.

فقلْ لهمْ أيُّها الرسُول: إذا كنتُمْ تَدَّعُونَ صِدْقَ الإيمانِ فيما أُنْزِلَ عَليكم، فلِمَ قَتَلتُمُ الأنبياءَ الذينَ جاؤُوكمْ بتصديقِ التوراةِ والحُكْمِ بها وأنتمْ تَعلمونَ صِدْقَهُمْ؟ بَلْ هُوَ الْهَوَى والتشهِّي، والبغيُ والاستِكبار، وليسَ هذا مِنْ صفاتِ المؤمنين.

{وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ} [البقرة: ٩٢]

٩٢- وقدْ جاءَكمْ موسى عليهِ الصلاةُ والسلام بِدَلائِلَ قاطِعة، وآياتٍ واضِحَة، كالطُّوفان، والجَراد، والعَصا، وفَلْقِ البَحر، وغيرِها، ثمَّ اتَّخذتُمُ العِجْلَ مَعبوداً منْ دونِ الله، في زَمَانِهِ وآياتِهِ، وكانَ في الطُّورِ يُنَاجِي رَبَّهُ!! فكنتُمْ بذلكَ ظالمينَ عاصِين، لا مؤمنينَ كما تَدَّعُون.

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ} [البقرة: ٩٣]

٩٣- ومِنْ إِعْرَاضِكُمْ عنِ الحقِّ ومخالفتِكمْ للمِيثاق، عندما رَفَعْنَا فوقَكمُ الجبل، وأخَذنا عليكمُ العهدَ بالإيمانِ والطاعةِ بِقُوَّةٍ وَإِرادَةٍ وعزم، فوافَقتُمْ على ذلك، ولكنَّكمْ عُدْتُمْ إلى عِصـــيانِكمْ وَعِنَادِكُم واتِّبَاعِ أهوَائكُم.

لقدْ أُشْـــرِبَ فِي قلوبِهِمْ حُبُّ العجلِ وعبادتهُ بكفرِهم، وكأنَّهُ مَوقِفُهُمُ المفضَّـــلُ بعدَ كلِّ أمر! فبئسَ هذا الإيمان، إنْ كانَ مِنْ إيمان، الذي يأمرُكمْ بالكفرِ بآياتِ اللهِ ومخالفةِ الأنبياء، ثمَّ الكفرِ بما أُنْزِلَ على محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم خاتمِ النبيِّين، المبعوثِ للناسِ أجمَعين.

فكيف تدَّعونَ الإيمانَ بما عندكمْ وَقَدْ نَقَضتُمْ هذهِ المواثيق، وكفرتُمْ بآياتِ الله، وعَبَدتُمُ العِجْل؟!

{قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآَخِرَةُ عِندَ اللهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة: ٩٤]

٩٤- قُلْ لِليَهُودِ أيُّها الرسُول: إذا كنتُمْ تَزْعُمُونَ أنَّكمْ وَحْدَكُمُ الفَائزُونَ يومَ القيامةِ دونَ سائرِ الأمم، فَتَعَالَوْا إلى المباهَلَة، بأنْ يقفَ فريقٌ منَ المسلِمين، وفريقٌ منَ اليهود، ويدعُوَانِ اللهَ بِمَوْتِ الكاذبِ منهما.

{وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمينَ} [البقرة: ٩٥]

٩٥- وَلَنْ يَتَمَنَّوا الموتَ أبداً، بما جَنَتْ أَيْدِيهِمْ واقتَرفَتْ منْ آثام، ولِما يعلمونَ منْ مآلِهِمُ السيِّئِ وعاقبتِهمُ الخاسِرَة. فما استجابوا لِلْمُبَاهَلَةِ، وهمْ يَعلمونَ أنَّهُمْ إنْ طَلَبُوا الموتَ خافُوا أنْ يَسْتَجِيبَ اللهُ فَيَأخُذَهُمْ، وهمْ يعلمونَ ما قَدَّمُوا مِنْ عَمَل، واللهُ عليمٌ بهمْ وبما صدرَ عنهمْ من أنواعِ الظلمِ والمعاصِي المفضيةِ إلى العذاب.

{وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْـرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَـنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} [البقرة: ٩٦]

٩٦- وستجدُهمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى طُولِ العُمر، وَوَدُّوا لَوْ عُمِّرُوا أَلْفَ سَـنة؛ لمعرفتِهمْ بمآلِهِمُ السـيِّئ، بلْ يَوَدُّونَ لو تَأَخَّرُوا عنْ يومِ الحِســابِ بما أَمْكَنَهُم، لِما يَتَوَقَّعُونَ ما يَنتَظِرُهم. وكذا المشـــرِك، لأنَّهُ لا يَؤْمِنُ بِيومِ البَعث، والدُّنيا جَنَّتُهُ، ولا حَظَّ لهُ فِي جَنَّةِ الخُلْد، بلْ يَنتظرُهُ

العَذابُ الأليم، مَهْمَا عُمِّرَ في الدنيا، فلا مَنْجَى منَ الحســـابِ والعقاب، وَاللَّهُ عَالِمٌ بِمَا يَعملُ الجميعُ، مِنْ خَيرٍ وشَرّ.

{قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَـــدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [البقرة: ٩٧]

٩٧- لقدْ زَعَمَتِ اليهودُ أن جِبرِيلَ عليهِ السلامُ عَدُوٌّ لَهُمْ، لأنه وَلِيُّ رسولِ الله صلى الله عليه وســـلم، وَأَنَّهُ لَو كانَ وَلِيَّهُ غَيْرُهُ لاتَّبَعُوهُ، كما في الحديثِ الصَّـــحيح! اخترَعوا هذهِ القصَّـــةَ المضحِكةَ لَمَّا رَأَوْا أَنَّ جِبريلَ يَنْزِلُ بِالوَحْيِ على النبيّ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وما هُوَ إلا عبدٌ مُنَفِّذٌ، لا يَزيدُ على ما أمرَهُ اللهُ به، وقدْ قالَ لهمْ رسـولُ اللهِ صـلى الله عليه وسـلم: "فإنَّ وليِّيَ جبريلُ عليه السـلام، ولم يَبعثِ اللهُ نَبيًّا قَطُّ إلا وَهُوَ وَلِيُّهُ"، كما رواهُ أحمدُ وغيرُهُ بإسـنادٍ صَحيح. فَقُلْ لَهُمْ: مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجبريلَ فإنَّهُ الروحُ الأمينُ الذي نَزَلَ بالقرآنِ على قلبِكَ بإذنِ اللهِ ومَشِيئَتِه، الكتابِ المصدِّقِ للكتبِ السماويةِ المتَقَدِّمَة، هُدًى لِلْقُلُوبِ المؤمِنة، وتبشيراً لهمْ بالجنَّة.

{مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُـــلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ} [البقرة: ٩٨]

٩٨- إنَّ مَنْ عَادَى رَسولاً فقدْ عَادَى جَمِيعَ الرسُل، وَمَنْ آمَنَ برسولٍ فعَليهِ أنْ يؤمِنَ بجميعِ الرسُـــل، كما أنَّ مَنْ كَفَرَ بِرَسُـــولٍ فقدْ كفرَ بجميعِ الرسُـــل. يقولُ اللهُ سُـــبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُـــلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُـــلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَـــبِيلاً أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً} [ســـورة النســـاء: ١٥٠، ١٥١].

ومَنْ عـادَى اللهَ وملائكَتَهُ وأنبياءَهُ ورُسُـــلَهُ، وبَينَهُمْ جِبريلُ وميكـالُ[٩]، فإنَّ اللهَ عَـدُوٌّ لَهُمْ؛ لكُفرِهم، ومَنْ عاداهُ اللهُ باءَ بالخسرانِ حَتماً.

---

(٩) خُصَّ جبريلُ بالذكرِ هنا لزيادةِ الاهتمامِ بعقابِ معاديه، وليُذكَرَ معه ميكائيل، ولعلَّهم عادَوهما معاً، أو لأنهم زعموا أن جبريلَ رسولُ الخسفِ والعذاب، وأن ميكائيلَ رسولُ الخصبِ والسلام.. (التحرير والتنوير).

{وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ} [البقرة: ٩٩]

٩٩- ولقدْ أنزلنا إليكَ يا محمَّدُ (صـلى الله عليهِ وسـلم) دَلائِلَ وَعَلامَاتٍ واضـحاتٍ على نبوَّتِكَ وصدقِ ما جئتَ به، ولا يكفرُ بها إلا الفاسِقونَ المنحرِفونَ عنِ الفطرةِ السَّليمة.

{أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [البقرة: ١٠٠]

١٠٠- أَوَكُلَّما عَاهَدَ اليهودُ على الالتزام بأمرٍ نَكَلَ فريقٌ منهمْ ورفضَ العَهدَ؟ وهذا دأبُهُمْ حتَّى خانُوا العَهدَ الذي أبرَموهُ معَ الرسـولِ صـلى الله عليه وسـلم عندَ مَقدَمهِ إلى المدينة .. بلْ أكثرهمْ لا يؤمنونَ بالرسولِ المبعوثِ إليهمْ وإلى الناسِ كافَّة، الذي يَجدونَ صفتَهُ في كتبِهم، وقد أُمِرُوا باتِّباعهِ ومناصَرتِه.

{وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُـولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَـدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٠١]

١٠١- ولما بُعِثَ الرسـولُ الذي انتَظروه، وقدْ جاءَ مُصَـدِّقاً لِما معهمْ منَ الكتابِ عامَّة، طَرَحتْ طائفةٌ منهمُ الكتابَ الذي بأيديهمْ وراءَ ظهورِهم[١٠]، لِما فيهِ منَ البِشارةِ بمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وكأنَّهم لا يَعلمونَ ما فيها!

لقدْ تَركوا الكتابَ وأقبَلوا على السِّحر! تركوا ما ينفَعُهُمْ وأقبَلوا على ما يَضُرُّهُمْ ويَضُرُّ غَيرَهُمْ، كما يأتي.

{وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَـآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُـرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ

(١٠) مثَلٌ لتركِهم وإعراضِهم عنه بالكليةِ بما يُرمَى به وراءَ الظهر، استغناءً عنه، وقلةَ التفاتٍ إليه. (روح البيان).

اشْـتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَـرَوْاْ بِهِ أَنفُسَـهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٠٢]

١٠٢- واتَّبَعَ اليهودُ الذينَ أَعْرَضُوا عنِ التوراةِ وخالَفوا رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم، اتَّبعوا ما تَرويهِ الشياطينُ وتُخْبِرُ بهِ في مُلْكِ سُليمانَ، وتَكْذِبُ عليهِ وتقول: إنَّهُ كانَ ساحراً، وإنَّ ما سُخِّرَ لهُ كانَ بما يَستخدمهُ منْ سحر. وكانَ عليه السلامُ نبيًّا كريماً قانِتاً، وما كانَ كافراً كما قالتْ يَهودُ أوِ الشياطينُ لَعَنَهُمُ اللهُ {وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [سورة ص: ٣٠]، ولكنَّ الشياطينَ همُ الذينَ كفَروا، حيثُ يُعَلِّمُونَ السِّحر. وَلَمْ يَنْزِلِ السِّحرُ على المَلَكَيْنِ هارُوتَ وَمَارُوتَ في بابل، بَلْ كانا هُناك لحكمةٍ لا نَعرفُها، وَلِلَّهِ أَنْ يَمْتَحِنَ عِبادَهُ بما شاء.

فإذا أَتاهُما مَنْ يريدُ تَعَلُّمَ السحرِ قالا لهم: إنَّما نحنُ هُنا فتنةٌ وابتِلاء، فلا تَعمَلوا بالسِّحر، فإنَّ منِ اعتَقدَ إباحتَهَ أو جَوازَ العملِ بهِ كَفَر، فيَتعلَّمونَ مِنْ علمِ السِّحرِ ما هوَ مَذموم، مِنْ شَرٍّ وأذًى، فَيُفَرِّقُون بينَ الزوجين، معَ ما جَعلَ اللهُ بينهما منْ محبَّةٍ ورَحمة. وهمْ لا يَتمكَّنونَ منَ الضررِ بأحدٍ إلاّ إذا قدَّرَ اللهُ وخلَّى بينَ السَّحَرةِ وما أرادوا، فإذا شاءَ سلَّطهمْ على المسحُور، وإذا لم يَشأ لم يُسَلِّطهم، فلا يَستطيعونَ مَضرَّةَ أحدٍ إلا بإذنِ الله.

وهكذا صَاروا يَتعلَّمونَ ما يَضرُّهمْ في دينِهمْ ولا ينفَعُهُم، لأنَّهُمْ يَقصِدونَ بِهِ الشرّ. وقدْ علمَ اليَهودُ الذينَ استَبدلوا السحرَ بالإيمانِ ومتابعةِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم، أنَّهُمْ ليسَ لهمْ نصيبٌ عندَ اللهِ في الآخِرَة، فَبِئْسَتِ التجارةُ تجارَتُهم.

قال ابنُ كثيرٍ رحمَهُ اللهُ في قصَّةِ هاروتَ وماروت: حاصِلُها راجِعٌ في تفصيلِها إلى أخبارِ بَني إسرائيل، إذْ ليسَ فيها حديثٌ مَرْفُوعٌ صَحيحٌ مُتَّصِلُ الإسنادِ إلى الصادقِ المصدوقِ المعصومِ الذي لا يَنطقُ عنِ الهوى. وظاهرُ سياقِ القرآنِ إجمالُ القصَّةِ مِنْ غيرِ بَسطٍ ولا إطنابٍ فيها، فنحنُ نُؤمنُ بما وردَ في القرآنِ على ما أرادهُ اللهُ تعالى، واللهُ أعلمُ بحقيقةِ الحال.

{وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٠٣]

١٠٣- ولو أنَّهم آمَنوا واتَّقَوُا اللهَ فاجتَنبوا ما حرَّمَهُ مِنْ سِحرٍ وشِرك، ومُخالفةٍ للأنبياء، لكانَ أجرُهمْ عندَ اللهِ خيراً مِنْ هذا الذي رَضُوا بهِ لأنفسِهم مِنْ باطِلٍ وشَرّ. ولو كانوا يَعلَمونَ مَثوبةَ اللهِ لما اشترَوا السِّحر.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُواْ وَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [البقرة: ١٠٤]

١٠٤- أيُّها المؤمنون، لا تَتشبَّهوا باليهودِ والمشرِكينَ في مقالِهم وفعالِهم، ولا يَكنْ في كلامِكمْ تَوريةٌ فيها تَنقيصٌ، فَلا تَقُولُوا: "رَاعِنَا"، الذي فيه تَوريةٌ بالرعونة، وهوَ الهوَجُ والحُمْق، مثلَما يَقولُ اليهودُ لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، ولو كان قصدكمْ أنتُمْ المراعاةُ والمراقَبةُ والتأنِّي، ولكنْ قولوا: "انْظُرْنا" أي أَنْظِرْنا وَأَمْهِلْنا.

ولليهودِ الكافرينَ عذابٌ مُوجِعٌ لِما اجترَؤوا عليه وَجعَلُوا ما يَقولونَ سَبَباً للتهاونِ برسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم.

{مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [البقرة: ١٠٥]

١٠٥- إنَّ الكافِرين، سَواءٌ أكانوا مشرِكينَ أمْ منْ أهلِ الكتاب، شَديدو العَدَاوَةِ لَكُم، لا يُريدونَ لكمُ الخيرَ ألبتَّة، فلا تتَشَبَّهُوا بهمْ ولا تُوَادُّوهُم، فَإِنَّ قُلُوبَهُمْ تَغْلِي بالحقدِ والحسدِ على ما خَصَّكُمُ اللهُ بِهِ منْ رحمتِهِ الواسعةِ وفَضْلِهِ الكَبير، فَأَنْزَلَ الوحْيَ عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وهوَ بين ظَهْرَانَيْكُم، فَاسْتَمْسِكُوا بهذا الذي يَحْسُدُونَكُمْ عليه، واشْكُروا فَضلَه، لِيَحْفظَهُ فيكمْ ويزيدَكُمْ منه، وليسَ هناكَ أجَلُّ مِنْ نِعمَةِ الإيمانِ والاستجابةِ لدعوةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فاحرِصوا على ذلك.

{مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ١٠٦]

١٠٦- ما نُبَدِّلُ مِنْ آية، أو نَنقُلُ حُكماً منها إلى غَيرِه، كتَحويلِ أمرٍ إلى نَهي، أو محظورٍ إلى مُباح، منَ التشريعاتِ والتكاليفِ التي تُلائمُ أحوالَ الناسِ وأمورَهمُ المتطوِّرة، أو نُنْسِيهِ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ونَمحو ما نشاء، إلاّ كانَ الذي أُثْبِتَ خَيْراً منَ السابق، أو مثلَهُ، بحسَبِ مُقْتضَياتِ الأحوالِ وصلاحِ البَشريَّة، واللهُ لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، فهوَ القادرُ على ما يشاء.

{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِـيرٍ} [البقرة: ١٠٧]

١٠٧- ألم تعلمْ أيُّها النبيُّ أنَّ اللهَ هو المتَصرِّفُ في خَلقهِ كما يشاءُ دونَ غَيره، فله وحدَهُ الأمرُ والنهي، ويَنسَخُ ويُبَدِّلُ، ويغيِّرُ ويُقِرُّ مِنَ الأحكامِ لعبادهِ ما يشاء، فهوَ أعلمُ بهمْ وبما يُصْلِحُهُمْ وَيُصْـلِحُ أحوالَهم، وما عَليهمْ إلاّ السـمعُ والطاعةُ في تنفيذِ ما أَمَر، والكفُّ عَمَّا نَهَى. وَلَيْسَ للمؤمنينَ وَلِيٌّ يُقَوِّيهِمْ ويَهديهم، ولا نصـيرٌ يؤيِّدُهمْ وينصـرُهمْ إلاّ الله، فكونوا على حذرٍ مِنْ تَشكيكِ أعدائكم، واحذَروا أَضَالِيلَهُمْ وَخُدَعَهُم.

{أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ} [البقرة: ١٠٨]

١٠٨- أمْ تريدونَ - لبعضِ الصحابةِ - أنْ تَسألوا رسولَكُم على وجهِ التَّعَنُّتِ كما سألتْ بنو إسرائيل نَبِيَّهُمْ موسى عليه الصلاةُ والسلامُ تكذيباً وعِناداً؟

فاحذَروا، واعلَموا أنَّ مَنْ يَسـتَبدلِ الكفرَ بالإيمانِ فقدْ خرجَ عنِ الطريقِ المسـتقيمِ ودخلَ في ظُلماتِ الجهلِ والضَّـلال، وهوَ حالُ مَنْ كانَ يَسـألُ الأنبياءِ ما لا يَحتاجونَ إليه، على وجهِ التَّعَنُّتِ والكفر، فَيَعْدِلُونَ عنْ تصـديقِهمْ واتِّبَاعِهمْ إلى مخالفتِهمْ وتكذيبِهم، فإيّاكمْ وهذا، وإيَّاكُمْ أنْ يَقُودَكُمُ اليهودُ إلَى مثلِ هذا، فَإِنَّ نِهَايَتَه الضَّلالُ.

{وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَـداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِـهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْـفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ١٠٩]

١٠٩- إنَّ كثيراً من اليهودِ والنصارَى يَتَمَنَّوْنَ لو قَدَرُوا عَلَى أَنْ يُعِيدُوكُمْ إلى الكفرِ كما كنتُم، وَأَنْ يَسْلبُوا منكمْ هذا الخيرَ الذي هُدِيتُمْ إليه؛ حسَداً وحِقداً مِنْ نفوسِهم، التي لا تحبُّ الخيرَ للناس، بَعْدَما تَبَيَّنَ أنَّ محمَّداً رسـولُ الله، كَمَا يَجِدُونَهُ مكتوباً عِنْدَهُمْ في التوراةِ والإنجيل، فَكَفَرُوا بِهِ حسداً وَبَغْياً أنْ لم يَكُنْ مِنهُم.

ولكنْ لا تقابِلوهمْ أنتُمْ بهذا الخُلقِ السـيِّئ، بلْ كونوا أَرْفَعَ منْ هذا وأعلَى، فَلا تُؤَاخِذُوهمْ ولا تؤنِّبوهم، بلِ اعْفُوا واصـفَحوا الآن، حتَّى يأتِيَ أمرُ الله، وهو الإِذْنُ بالقِتال، أو هوَ قتلُ بني قُرَيْظَة، وَإِجْلاءُ بني النَّضِير، وإِذْلالُهُم بضربِ الجِزْيَةِ عَليهم. واللهُ قادرٌ على كلِّ شَيء، وعلى الانتِقامِ منهمْ إذا أراد.

{وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [البقرة: ١١٠]

١١٠- وَصَلُّوا للهِ وداوِموا على عِبادته، وادفَعوا زكاةَ أموالِكم، واشـتَغِلوا بما يَنفعُكمْ وتَعُودُ عاقبتُهُ عليكمْ بالخَيرِ يومَ القيامة، فإنَّكمْ مَهْمَا عَمِلتُمْ مِنْ خَيرٍ أو شَرّ، في السرِّ أو في العَلن، فإنَّهُ بَصيرٌ به، يَدَّخِرُهُ لكمْ ثمَّ يُحاسبُكمْ عليه.

{وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة: ١١١]

١١١- واغْتَرَّ أهلُ الكتابِ منَ اليهودِ والنصارَى عندَما ظنُّوا أنَّهُمْ وحدَهمْ على الحقّ، فقالتْ كلُّ فِرقةٍ منهما: لنْ يَدخلَ الجنَّةَ إلاّ مَنْ كانَ يهوديًّا أو نصـرانيًّا. وهي أُمْنِيَّةٌ تَمَنَّوْها على اللهِ بغَيرِ حقّ، وادِّعَاءٌ لا يَسـتَنِدُ إلى دَليل، فَقُلْ لَهُمْ أيُّها الرسـول: ما هي حُجَّتُكُمْ في ذلك؟ اذكرُوها إنْ كنتُمْ صادقينَ فيما تدَّعونَه.

{بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ١١٢]

١١٢- إنَّ القاعدةَ في الأمر، هيَ أنَّ مَنْ أسلمَ وجهَهُ للهِ بالطَّاعة، واتَّبَعَ هَدْيَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وأحسنَ في عملِهِ بالإخلاص، فهذا أجْرُهُ مضمونٌ عندَ الله، فلا يَخَافَنَّ على ما يَستَقبِلُه، ولا يحزننَّ على ما تَرَكَه.

وَعَبَّرَ بالوجه، لأنَّهُ أشرفُ الأعضاء، ومَجمعُ المشاعر، وموضِعُ السُّجود، ومَظهَرُ آثارِ الخضوع، الذي هوَ مِنْ أَخَصِّ خصائصِ الإخلاص.

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [البقرة: ١١٣]

١١٣- ثمَّ ادَّعَى كُلُّ طرفٍ ضَلالَ الآخَرِ وتَنَاقُضَهُ، مع بُغضهِ وعداوتهِ له، فقالتِ اليهود: إنَّ النَّصارَى ليستْ على حقّ، كفراً بِنُبُوَّةِ عيسى عليهِ السلامُ والإنجيلِ، وقالتِ النَّصارَى: ليستِ اليهودُ على حقّ، جَحداً بنبوَّةِ موسى عليهِ السلامُ وكفراً بالتوراة، كما حدثَ لوفدِ نجرانَ معَ أحبارٍ لِليهودِ عندَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، في حديثٍ سندهُ حسن. بينما كُلٌّ يَتلو في كتابهِ تَصديقَ مَنْ كفرَ به! وكَلٌّ منهما كانَ مشروعاً في وقته، ولكنَّهمْ تجاحَدوا ذلك عِناداً وكُفراً، ومقابلةً للتَضليلِ بالتضليل. وأطرافٌ وطوائفُ أخرَى قالتْ ذلك. فاللهُ يَجمَعُهمْ جميعاً في يومِ المعاد، ويَفْصِلُ بينهمْ بقَضائهِ العَدل، ويَقْسِمُ لكلِّ فريقٍ ما يَستَحِقُّهُ مِنَ العِقاب.

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَـئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [البقرة: ١١٤]

١١٤- وليسَ هناكَ أظلمُ ممَّنْ منعَ ذكرَ اللهِ في المساجد، وسعَى في تَعطيلِها أو هَدمِها وخَرابِها، وما كانَ ينبغي لهؤلاءِ إلاّ أنْ يَدخلوها بِخَشيَةٍ وخُضوع، فَضلاً منَ الاجتراءِ على تخريبِها أو تعطيلِها. وقدْ تجرَّأَ المشركونَ فَمَنَعُوا رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يومَ الحُديبيةِ منْ دخولِ المسجدِ الحرام! فلا تُمَكِّنُوا أحداً منهمْ مِنْ دخُولِهِ إذا قدَرتُمْ على ذلك.

وقد مُنِعُوا حقًّا عندما نَصَرَ اللهُ الإسلام، كما أوصَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنْ يُجلَى اليهودُ والنصارَى منْ جزيرةِ العرب، فكانَ ذلكَ خِزياً لهمْ لا يوصَف، بالقتلِ والسبيِ والإذْلال، ولهمْ عذابٌ كبيرٌ على ما انتَهكوا منْ حُرمةِ البيتِ وامتَهنُوه، منْ نَصْبِ الأصنامِ حولَه، والدعاءِ إلى غيرِ اللهِ عندَه، وغيرِ ذلكَ منْ أفاعيلِهمُ المنكَرة.

{وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ١١٥]

١١٥- الأرضُ كلُّها لله، شَـرقُهَا وغَربُهَا، لا يَختَصُّ بمُلكِها والتصـرُّفِ فيها إلا هوَ سُـبحانَه، وإذا مُنِعتُمْ منَ العبادةِ في المسـجدِ الأقصـى، أو المسـجدِ الحرام، ففي أيِّ مكانٍ أدَّيتمُ الصـلاةَ وتوجهتُمْ فيهِ نحوَ القِبلة، فهُناكَ الجهةُ التي أمرَ اللهُ بها، وعِلمُهُ محيطٌ بجميعِ المعلومات، وهوَ برحمتِهِ يريدُ التوسِعةَ على عبادِه، فهوَ العليمُ بمصالحِهِمْ وأعمالِهِمْ في الأماكنِ كلِّها.

وفي حديثٍ قدْ يَكونُ حسَـناً بشـواهده، أنَّ طائفةً منَ الصـحابةِ كانوا في سَـرِيَّة، فاختلفوا في اتجاهِ القِبلةِ ليلاً، فلمّا أصبحوا تبيَّنَ أنَّهُمْ اتَّجهوا إلى غيرِ القِبلةِ في صلاتِهم، فنزلتِ الآيةُ الكريمة. وقالَ ابنُ الجوزيِّ في "نواسـخِ القرآن": هذا الحكمُ باقٍ عندَنا، وإنَّ منِ اشـتَبَهتْ عليهِ القِبلةُ فصلَّى بالاجتِهاد، فصَلاتُهُ مجزِيَّةٌ صَحيحَة.

{وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُـبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} [البقرة: ١١٦]

١١٦- وقالتِ النصـارَى ومنْ أشْـبَهَهُمْ منَ اليهود، وبعضُ مشـركي العرب: اتَّخذَ اللهُ ولداً! تَقَدَّسَ وتعالَى عنْ ذلكَ علوّاً كبيراً. لقدْ كذَبوا واقْتَرَفُوا إثماً كبيراً بهذا القول، فلهُ تعالى مُلكُ السماواتِ والأرض، وهوَ المتصرِّفُ في أحيائها وجماداتِها، وهوَ خالِقُهمْ ورازِقُهم، ومسيِّرُهمْ كما يَشاء، فالجميعُ عبيدٌ له ومُلكٌ له، فكيفَ يَكونُ لهُ ولدٌ منهم، والولدُ يَكونُ مُتَوَلِّداً مِنْ شَيئينِ مُتناسِـبَين، واللهُ ليسَ لهُ مثيلٌ ولا نَظير، ولا صَـاحِبَةَ له، فكيفَ يَكونُ لهُ ولد؟ فهو الربُّ، والكلُّ مَربُوبٌ تحتَ مَشِيئتِه.

{بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [البقرة: ١١٧]

١١٧- خالقُ السماواتِ والأرضِ على غيرِ مثالٍ سَبَق، في وَحدةٍ وتَناسقٍ كونِيٍّ رائع، وهَندسَةٍ ونظـامٍ فـائق، وتَوازنٍ بيئيٍّ وحيوانِيٍّ مُوافِق، يَـدُلُّ جميعُهـا على الواحـدِ الأحـد، فهو بارئهـا ومُوجِدُها مِنْ غَيرِ أصـل، وعلى غيرِ مثال، وإنَّما أمرُهُ -جَلَّتْ عَظَمَتُهُ- إذا قدَّرَ أمراً وأرادَ إيجادَهُ قال: "كُنْ"، فيوجَدُ على وَفْقِ ما أراد. وكذا كان أمرُ عيسـى عليه السـلام.. {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [آل عمران: ٥٩].

{وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [البقرة: ١١٨]

١١٨- وقالَ المشرِكونَ الأُمِّيُّونَ لمحمَّدٍ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في تَحَدٍّ وعِناد: لِيُكَلِّمْنَا الله، أو لِيَنْزِلْ علينا أمرٌ خارِقٌ. كذلكَ كانَ اليهودُ وغيرُهم، عندَما طَلبوا مِنْ أنبيائهمْ أموراً خارقة، استكبارًا وتعنُّتًا، كما طلبَ قومُ موسى عليهِ السلامُ أنْ يَرَوا اللهَ جَهرة، فقدْ تشابَهتْ قلوبُهمْ في الكفرِ والضلال. وقدْ وَضَّحْنَا بالأدلَّةِ صِدْقَ الرسُلِ بما لا يَحتاجُ إلى أمورٍ خارِقة، وَهِيَ كَافِيَةٌ لمنْ أرادَ الإيمانَ والطَّاعة. أمّا المعاندُ المستكبِر، فلا تُفيدُهُ الأدلةُ ولا الخوارِق.

{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ} [البقرة: ١١٩]

١١٩- أيُّها النبيُّ الكريم، لقدْ أرسلناكَ بالصِّدقِ وَمَعَكَ القرآنُ، تُبَلِّغُ الدِّينَ وَتُؤَدِّي الأمانةَ، تُبَشِّرُ الطائعينَ بالجنَّة، وَتُنْذِرُ العاصينَ بالنارِ يومَ القيامة، ولنْ تُسْأَلَ عنْ كُفْرِ مَنْ كَفَرَ بِك، فإنَّما تَبِعَتُهُمْ على أنفسِهم.

{وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ} [البقرة: ١٢٠]

١٢٠- وليستِ اليهودُ ولا النصارَى براضينَ عنكَ أبداً أيُّها النبيّ، ولو قدَّمتَ إليهمُ الأدلةَ تِلْوَ الأدلة، أو تَوَدَّدْتَ لهمْ ما تودَّدَت، فلا يَنْقُصُهُمُ الاقتناعُ بأنَّكَ على الحقّ، إنَّما هوَ المعاندةُ والتعصُّب، فَلَنْ يَرْضَوْا عنكَ حتَّى تَعتنِقَ دينَهُم، وتَتَّبِعَ أَقْوَالَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ، وتَترُكَ ما معكَ منَ الحقّ! فَدَعْ طَلَبَ ما يُرْضِيهِمْ ويوافِقُهم، وأقبِلْ على طَلَبِ رضا اللهِ بدعوتِهم إلى الحقّ، فإنَّ الدينَ الصحيحَ الكاملَ هو ما بعثكَ اللهُ به، وما عداهُ فليسَ بِهُدًى، ولا مساومةَ على الإيمانِ الحقّ، في صغيرٍ منهُ أو كبير، فمنْ شاءَ فليؤمنْ بذلك، ومنْ أرادَ غيرَ ذلكَ فهوَ حُرّ. فإذا تابعتَهُمْ في آرائهمُ الزائفة، ومقولاتِهم الفاسدة، وطرائقِهُمُ الملتوية، بعدَ ما نزلَ عليكَ الوحْيُ، وعلمتَ أنَّ دينكَ هوَ الصَّحيح، فقدْ مِلْتَ عنِ الهُدَى، ولنْ يَكونَ اللهُ ولياً أمرَك، ولا ناصرَكَ ومؤيِّدَك، ولنْ يدفعَ عنكَ عقابَه.

وهذا مِنْ بابِ التهييجِ والإلهاب، ولا يُتَوَهَّمُ إمكانُ اتِّباعهِ صـلى الله عليه وسـلم لهم، ولكنَّهُ تنبيهٌ لأمَّتهِ على الحذرِ مِنْ أهلِ الكتاب، الذينَ لا يُفيدهمْ أيُّ تنازلٍ بالحوارِ وغيرِه، ولن يَرْضَوْا إلا بالانضواءِ تحتَ مظلَّةِ دينِهم.

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [البقرة: ١٢١]

١٢١- إنَّ الذينَ أنزلنا عليْهِمُ الكُتُبَ منَ المتقدِّمين، فأقاموها حَقَّ إقامتِها، وآمَنوا بها حقَّ الإيمان، دونَ تَحْريفٍ ولا تَعْطِيلٍ ولا تَأْوِيل، وَصَـدَّقُوا ما فيها مِنَ الأخبار، ومِنْ ذلكَ مَبعَثُ محمَّدٍ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وفيها صفتهُ والأمرُ باتِّباعهِ ونُصْرَتِه؛ قادَهُمْ هذا الالتزامُ إلى اتِّباعِ الحقِّ، ومنْ لم يلتزمْ بذلكَ وكفر، كان أمرُهمْ إلى خُسْـرَانٍ ظَاهِر، حيثُ اشْـتَرَوُا الكفرَ بالإيمان.

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [البقرة: ١٢٢]

١٢٢- يا بَني إسْـرائيل، اذكروا النِّعَمَ التي أنعمتُها عليكم، منها تفضـيلُكمْ على العالمينَ -في وقتٍ ما- فلا تَحسُـدوا بني عمِّكمْ منَ العربِ على ما رَزَقَهُمُ اللهُ منْ إرسـالِ الرسـولِ الخاتمِ منهم، ولا يَحْمِلَنَّكُمُ الحسَدُ على مخالفتهِ وتكذيبهِ صلى الله عليه وسلم.

{وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَـيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَـفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} [البقرة: ١٢٣]

١٢٣- واحذَروا حِسـابَ ذلكَ اليوم، الذي لا تَقضـي نفسٌ عنْ نفسٍ شـيئاً منَ الحقوقِ والجزاء، ولا يُقْبَلُ منها فِديةٌ، ولا يُفِيدُها واسِطةُ أحَد، ولا يُنْتَصَرُ لهمْ فيُمْنَعُوا مِنَ العذاب.

{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [البقرة: ١٢٤]

١٢٤- واذكرْ أيُّها النبيُّ لهؤلاءِ المشـــركينَ وأهلِ الكتابَين، الذينَ يدَّعُونَ أنَّهُمْ على ملَّةِ النبيّ إبراهيمَ وهمْ ليسَــوا بذاك، اذْكُرْ لهمْ شــأنَ هذا النبيّ العظيم، الَّذي اخْتَبَرَهُ اللهُ بأَوَامِرَ وشَــرائعَ ونَوَاهٍ، فقامَ بها كُلِّهَا، فجزاهُ اللهُ خيراً على ما فَعل، وقالَ له: ســـأجعلُكَ قُدوةً وإماماً للناسِ يَقتدونَ بكَ في التوحيد، ويَحذُونَ حَذْوَك، فسألَ عليهِ السلامُ أنْ تكونَ هذهِ الإمامةُ في ذُرِّيَّتِهِ أيضـاً، فأُجيب: سيَكونُ منهمْ مَنْ لا يَفِي بالأوامرِ والتكاليف، بلْ يَظْلِمُ ويَفْسُق، ولنْ يَكونَ عهدُ الإمامةِ لأمثالِ هؤلاء، فشأنُها عظيم، بلْ هوَ لمنْ يختارُهُمُ اللهُ منْ أهلِ الإيمانِ والصَّلاح.

{**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**} [البقرة: ١٢٥]

١٢٥- واذكرْ أيضاً أيُّها النبيُّ أنَّنا جَعلنا البيتَ الحرامَ مثوًى ومَرجِعاً للناسِ ومهوًى لهم، يأتونَ إليهِ منْ كلِّ مكانٍ بشَوق، ويَعودونَ إلى أهليهِمْ وهمْ لا يرَونَ أنَّهُمْ قَضَوا منهُ حاجتَهم. وجعلناهُ أمناً لهم، فلا يَعتدي عليهِمْ أحدٌ وهمْ هناك، وحتَّى الحيواناتُ البريَّةُ في أمانٍ هناكَ فلا تُصاد.

واجعلوا مِنْ مقامِ إبراهيمَ مكاناً تُصَلُّونَ فيه، وهو الحَجَرُ الذي كانَ يقومُ عليهِ لبناءِ الكعبة.

وفي حديثِ عمرَ الصحيحِ عندَ البُخَارِيّ قولُهُ رضي الله عنه: "وافقتُ ربِّي في ثلاث، فقلت: يا رســـولَ الله، لو اتَّخذنا مِنْ مقـامِ إبراهيم مُصَـــلًّى، فنزلـت: {وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَـامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى}..."

وأمَرْنا إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلامُ بأنْ يُطَهِّرا البيتَ منَ الأذى والنَّجَس، ويُعِدَّاهُ للحجَّاجِ والطائفينَ حولَه، والمجاورينَ المقيمينَ عندَه، والقائمينَ في الصلاة، الراكعينَ الساجِدين.

{**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْـــطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِـــيرُ**} [البقرة: ١٢٦]

١٢٦- واذكرْ أيضـــاً عندما دعا إبراهيمُ عليهِ الســـلامُ فقال: ربِّ اجعلْ هذا البلدَ آمناً مِنَ الخَوف، لا يَرْعَبُ أهلُهُ، وارْزُقِ المؤمنينَ منهمْ أنواعَ الثمَرات[١١]. فاســـتجابَ اللهُ له، وقال: وأرزُقُ مَنْ كَفَرَ منهمْ وأَمْهِلُهُمْ، فالرزقُ شـــاملٌ للبَرِّ والفاجِر، وهذا مِنْ مَتَاعِ الدنيا في زمانٍ قليل، ثم أدْفَعُ الكافرَ إلى عَذابِ النار، وبئسَ المكان.

{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة: ١٢٧]

١٢٧- واذكرْ لقومِكَ أيُّها النبيُّ بناءَ إبراهيمَ وابنِهِ إسماعيلَ البيتَ، ورفعَهُما الأسُسَ منه، وهما يَدعُوان: ربَّنا تقبَّلْ منّا القُرَبَ والطاعاتِ ومنها هذا البناءُ، فأنتَ تسمعُ الدعاءَ وتعلمُ النيَّةَ في جميعِ الأعمال.

{رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة: ١٢٨]

١٢٨- ربَّنا واجعَلنا مُسْتَسْلِمَيْنِ لأمرِك، خَاضِعَيْنِ لطاعتك، مُخْلِصَيْنِ لَك، لا نُشْرِكُ في عبادتِنا لكَ أحداً، وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا كذلك. وَبَصِّرْنا عِبَاداتِنا وعَلِّمْنا مَناسِكَنا ومُتَعَبَّداتِنا، وَتُبْ عَلَيْنا، إنَّك كثيرُ قَبُولِ التوبةِ مِنْ عِبادِك، رَحيمٌ بهم.

{رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ} [البقرة: ١٢٩]

(١١) خَصَّ إبراهيمُ المؤمنين بطلبِ الرزقِ لهم حرصـاً على شـيوعِ الإيمانِ لساكِنيه؛ لأنهم إذا علموا أن دعوةَ إبراهيمَ خَصَّتِ المؤمنين تجنَّبوا ما يحيدُ بهم عن الإيمان، فجَعلَ تيسيرَ الرزقِ لهم على شرطِ إيمانهم باعثاً لهم على الإيمان، أو أرادَ التأدبَ مع الله تعالى فسألَهُ سؤالاً أقربَ إلى الإجابة... ومقصدُ إبراهيمَ من دعوتِهِ هذه أن تتوفرَ لأهلِ مكةَ أسبابُ الإقامةِ فيها، فلا تضطرُّهم الحاجةُ إلى سكنَى بلدٍ آخر؛ لأنه رجا أن يكونوا دعاةً لما بُنيتِ الكعبةُ لأجله، من إقامةِ التوحيدِ وخصالِ الحنيفية، وهي خصالُ الكمال. (مقتطفات من التحرير والتنوير).

١٢٩- ربَّنَا وابعثْ لأهلِ الحَرَمِ منْ أنفُسِهِمْ رسولاً منهم، منْ ذُرِّيَّةِ إبراهيم، يقرأُ عليهِمْ ويبلِّغهمْ ما يُوحَى إليهِ منَ البيِّنات، ويعلِّمُهمُ القرآنَ والسـنَّة، والطاعةَ والإخلاص، ويُطهِّرُهمْ منْ دنَسِ الشـرك، فأنتَ العزيزُ الذي لا يُقهَرُ ولا يُغْلَبُ على ما يُريد، الحكيمُ الذي لا يَفعلُ إلا ما تَقتضيهِ الحِكْمةُ والمصْلَحة.

{وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} [البقرة: ١٣٠]

١٣٠- ولا يَبعُدُ عنْ طريقةِ إبراهيمَ ومنهَجِهِ إلا الشخصُ المذِلُّ لنفسِه، المستخِفُّ بها، الذي يُفَضِّـلُ الضَّـلالَ على الحقّ. فنبيُّ اللهِ إبراهيمُ إمامُ الحُنَفاء، وَمَنْ خَالَفَهُ فَقَد جَانَبَ الحقَّ الصَّريح، والدِّينَ الصَّحيح، والهدايةَ والرَّشاد، الذي اصْطُفِيَ عليهِ في الدُّنيا، وقدِ اخْتِيرَ للنبوَّةِ والحكمةِ منْ بينِ سـائرِ الخلق، وهوَ في الآخِرةِ منَ المشـهودِ لهمْ بالثباتِ على الاسـتِقامة، والصَّلاحِ والسَّعادة.

وهوَ ردٌّ على الكفَّارِ فيما ابتَدعوهُ وأحدَثوهُ منَ الشِّـركِ وعِبادةِ الأصـنامِ المخالفِ لِملَّةِ إبراهيمَ عليهِ السـلام، فَأَيُّ ضَـلالٍ أكبرُ مِنْ هَذَا، وأيُّ سَـفَهٍ أعظمُ مِنْ عَدَمِ اتِّباعِ ملَّتِهِ القائمةِ على التوحيدِ الخالصِ البيِّن؟

{إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [البقرة: ١٣١]

١٣١- فقد أمرَهُ اللهُ بالإخلاصِ والاستِسلامِ له، والانقيادِ لأوامرِه، فأجابَ إلى ذلك، وأطاعَ وأخلصَ على أحسنِ ما يَكون، مُفَوِّضاً أمرَهُ كلَّهُ إلى الله.

{وَوَصَّـى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْـطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣٢]

١٣٢- وقدْ أوصَى خليلُ اللهِ إبراهيمُ عليهِ السـلامُ بَنِيه، وكذا وصَّـى يعقوبُ بَنِيه، بهذهِ المِلَّة، وهي الإسـلامُ لله، فقالا: يا بَنِيَّ، إنَّ الدِّينَ الذي رضِـيَهُ اللهُ لكمْ هوَ صَـفوةُ الأديان، لا دينَ غيرُهُ عندَ الله، فاثبُتُوا عليهِ ولا تُفارِقوهُ أبداً، واحرِصُـوا على ذلكَ وحافِظوا عليهِ حتَّى الموت،

بإحسانِكم في الحياة، ومتابعتِكم لطاعةِ اللهِ والعملِ الصالح، فإنَّ المرءَ يموتُ غالباً على ما كانَ عليه، كما يُبْعَثُ على ما ماتَ عليه، وإنَّ مَنْ قَصَدَ الخيرَ وُفِّقَ لهُ ويُسِّرَ عَليه، والذي نَوَى الصلاحَ وَعَزَمَ عليهِ ثَبَّتَهُ الله.

{أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣٣]

١٣٣- أمْ كنتُمْ حاضِرين، أيُّها المشرِكون، ويا أهلَ الكتاب، ما قالَهُ يعقوبُ عليهِ السلامُ لبَنيهِ حينَ حضَرتْهُ الوفاةُ: أيَّ شيءٍ تَعبدونَهُ بعدَ مَوتي؟ وهوَ يريدُ بذلكَ تقريرَ بَنيهِ على التوحيدِ والإسلام، وأخْذَ ميثاقِهِمْ على الثباتِ عَليهما.

فقالوا كما هوَ مُرادُ أبيهم: نعبدُ الإلهَ المتفَقَ على وجودِهِ وإلهيَّتِهِ ووجوبِ عبادتِه، الذي عبدتَهُ أنتَ وآباؤكَ إبراهيمُ وإسماعيلُ وإسحاقُ، إلهاً واحداً، نوحِّدهُ ولا نُشرِكُ بهِ شيئاً، ونحنُ مطيعونَ لهُ، خاضِعونَ لأمرِه.

والإسلامُ هو ملَّةُ الأنبياءِ كلِّهم، وإنْ تَنَوَّعَتْ شرائعُهُمْ واختلَفتْ.

وَعَدُّ إسماعيلَ منْ آبائهِ منْ بابِ التَّغْليب، فهوَ عَمُّ يَعقوب، عليهمُ الصلاةُ والسلام.

{تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [البقرة: ١٣٤]

١٣٤- كانتْ تلكَ أُمَّةً مَضَتْ، لها أعمالُها التي عَمِلَتْها، ولكمْ أعمالُكُمُ التي كَسَبْتُمُوهَا، لا يَنْفَعُكُمُ انتِسَابُكُمْ إلى صالحِيهِمْ إذا لم تَفعلوا مثلَهُمُ الأعمالَ الصالحة، كما أنَّكمْ لا تُؤَاخَذونَ بسيِّئاتِهِمُ التي عَمِلوها.

{وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [البقرة: ١٣٥]

١٣٥- وجاءَ بعضُ اليهودِ والنصارَى إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فَذَكَرَ كُلٌّ أنَّهُ على حقّ، وَطَلَبُوا منهُ اتِّبَاعَهُمْ ليكونَ مَنَ المهتدين، في حديثٍ حسَن. قلْ لهمْ أيُّها الرسولُ الكريم: بَلْ نَرْجِعُ جميعاً، نحنُ وأنتُم، إلى طريقةِ إبراهيمَ ومنهَجِه، فهو أبونا وأبوكم، وأصلُ ملَّتهِ الإسلامُ المستقيمُ، وما كانَ منَ المشركين، بينما أنتمْ تُشرِكون.

{قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣٦]

١٣٦- قولوا جميعاً أيُّها المؤمنون: آمنَّا بالله، وبما أُنْزِلَ إلى إبراهيم، وإسماعيلَ، وإسحاقَ، ويعقوبَ، والأسباطِ، وموسَى، وعيسَى، وسائرِ الأنبياءِ عليهمُ الصلاةُ والسلام، منَ الكتبِ السماويَّة، والآياتِ البيِّنات، والمعْجِزاتِ الباهرات، ولا نفرِّقُ بينَهم، كَدَأْبِ اليهودِ والنصارَى، الذينَ آمَنوا ببعضٍ وكفَروا ببَعض، ونسلِّمُ أمرَنا جميعاً إلى الله، مُخلِصينَ لهُ ومُذعِنين.

{فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [البقرة: ١٣٧]

١٣٧- فإنْ آمنَ أهلُ الكتابِ والمشركونَ بمثلِ ما آمنتمْ بهِ أيُّها المؤمنون، منَ الإيمانِ بجميعِ كتبِ اللهِ ورُسلِه، ولم يُفَرِّقُوا بينَهم، فقدْ أصابُوا الحقّ، وكانوا منَ المهتَدين، وإنْ أعرَضوا عنِ الإيمانِ بالوجهِ المذكور، فقدِ استقرُّوا في خلافٍ عَظيمٍ بعيدٍ عنِ الحقّ، ولا قرارَ لهمْ على أصلٍ ثابت، وسوفَ يَكفيكَ اللهُ شِقَاقَهُمْ هذا عندَ النصْرِ عليهم. واللهُ يَسمَعُ ما يَقولونَه، ويعلمُ ما يُضمِرونَهُ في قلوبِهم، وهوَ مُعَاقِبُهُمْ عليه.

{صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ} [البقرة: ١٣٨]

١٣٨- إنَّهُ دينُ اللهِ الواضحُ المبِين، والعلامةُ التي وضعَها على عبادهِ المؤمنينَ المتَّقين، فطَهَّرَهُمْ بالإيمانِ مِنْ أَوْضَارِ الكفر، وَزَيَّنَ قلوبَهُمْ بآثارِهِ الجميلة، فلا أفضلَ منْ هذه السِّمَةِ الجليلة، والعلامةِ المبارَكة. وَنَحْنُ شاكرونَ للهِ عابدونَ لهُ على هذهِ النعمةِ الكبيرة، وسائرِ نِعَمِه.

{قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ}
[البقرة: ١٣٩]

١٣٩- قلْ لليهودِ والنصارَى أيُّها النبيّ: أتُنَاظِرُونَنا في توحيدِ اللهِ والإخلاصِ لهُ واتِّبَاعِ أوامرِه، وهوَ ربُّنَا وربُّكُم، المتصرِّفُ فينا وفيكم، المستحِقُّ لإخلاصِ العبادةِ له، لا شَريكَ له؟ فلنا أعمالُنَا الحسَنةُ في السمعِ والطاعة، وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمُ المخالِفةُ في الشِّركِ والضَّلال، ونَحْنُ مُخْلِصُونَ في تلكَ الأعمال، لا نَبْتَغِي بها إلا وَجْهَ الله، فكَيْفَ تُنَاظِرُونَنا وَتَدَّعُونَ أنَّكمْ على حَقٍّ وَتَطْمَعُونَ في دخولِ الجنَّةِ وأنتُمْ مُشرِكونَ ضالُّون؟!

{أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطَ كَانُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}
[البقرة: ١٤٠]

١٤٠- أمْ تقولونَ يا أهلَ الكتابِ إنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطَ كانوا يهوداً أو نصارَى؟ أأنتمْ أعلمُ بذلكَ أمِ الله؟ بَلِ اللهُ أعلمُ. إنَّهُمْ كانوا على مِلَّةِ التوحيدِ الخالِص، وأنتُمْ تقرَؤونَ في كُتُبِكُمْ أنَّهُمْ كانوا على الحنيفيَّةِ الأولَى التي لا شِركَ فيها، كما تقرَؤونَ أنَّ محمَّداً صلى الله عليه وسلم سيُبْعَثُ في آخِرِ الزمانِ على ملَّةِ إبراهيمَ حنيفاً، والأنبياءُ المذكورونَ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ ما كانوا يهوداً ولا نصارَى، لأنَّهم كانوا قبل موسَى وعيسَى عليهما السلام، ولكنَّكمْ تكتُمُونَ الحقّ، تكتُمُونَ هذهِ الشهادةَ الثابتةَ العَظيمةَ، فاخترتمُ الضَّلال، وعِلْمُ اللهِ محيطٌ بعملِكم، وسوف يَجْزِيكُمْ بما تستَحِقُّونَهُ منِ افْتِرائِكُمْ على الأنبياء.

{تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}
[البقرة: ١٤١]

١٤١- لَقَدْ مَضَتْ تلكَ الأمَّة، فَلَها أعمالُهَا، ولكمْ أعمالُكُمُ التي اكتَسبتُموها، ولن يُغْنِيَ عنكمْ انتسابُكُمْ إليهمْ واتِّكَالُكُمْ عَلَى أعمالِهِمْ مِنْ غَيْرِ مُتَابَعَةٍ لهمْ في أعمالِهِمُ الطيِّبَة، فلا تَغُرَّنَّكُمُ النسبَةُ إليهم، حتَّى تَكونوا مثلَهُمْ في الطَّاعَةِ واتِّباعِ الرسُل.

سورة البقرة
(الآيات ١٤٢ – ٢٥٢)

{سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (البقرة : ١٤٢)

١٤٢– أُمِرَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنْ يَستَقبلَ في صَلاتهِ الصخرةَ مِنَ بيتِ المقدسِ أوَّلاً، فكانَ هوَ والمسلمونَ على ذلك، ستةَ عشرَ أو سبعةَ عشرَ شهراً، كما في صحيحِ البخاريّ. وكانَ عليه الصلاةُ والسلامُ يَبتَهِلُ إلى اللهِ أنْ يَجعلَ قِبْلَتَهُ الكعبة، قبلةَ إبراهيمَ عليهِ السلام، فأُجيبَ إلى ذلك، فحصلَ شكٌّ وزيغٌ عنِ الحقّ منْ أهلِ النفاقِ والريبِ والكفَرةِ من اليهود، وقالوا: ما الذي صَرفهمْ عنْ قِبلتِهمُ الأولى؟ وخاصَّةً أنَّ اليهودَ كانوا يتذرَّعونَ بأنَّ الاتجاهَ إلى بيتِ المقدسِ يَعني أنَّ دينَهمْ هوَ الأصل، وأنَّهُ هوَ الصَّحيح. فصَاروا يُلقُونَ بذورَ الشكِّ والشائعاتِ في صفوفِ المجتمعِ الإسلاميّ، حولَ مصيرِ صلواتِهِمُ السابقة، وسببِ الانتقالِ منْ قِبلةٍ إلى أخرى، وأنَّهُ يدلُّ على عدمِ السدادِ، فليسَ بوحي...!

فسمّاهمُ اللهُ تعالَى "السفهاء"، وهمُ الذين خفَّتْ عقولُهم، وامتَهنوها بالتقليدِ والإعراضِ عنِ التدبُّرِ والنظَر، أو أنَّ السفيهَ هوَ الكذّابُ المتعمِّدُ خلافَ ما يَعلم، أو الظَّلومُ الجَهول. فإنَّ اللهَ تعالَى لهُ مطلقُ الحكمِ والتصرُّفِ في الأمر، فلهُ المشرِقُ والمغرِب، الجهاتُ كلُّها له، فأينَما حدَّدَ القِبلةَ يتوجَّهُ المؤمنونَ إليها دونَ اعتراض، ما عَليهمْ إلا الطاعَةُ وامتثالُ الأمر. والكعبةُ أشرفُ بيوتِ اللهِ في الأرض، فهي بناءُ إبراهيمَ عليهِ السلام. ويَهدي اللهُ مَنْ شاءَ مِنْ عبادهِ إلى نَهجهِ الصحيحِ إذا رأى فيهمْ نيَّةً وتوجُّهاً إليه، أمّا السفهاءُ ففي الغَيِّ والضلالِ يَتَخبَّطون.

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن

كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} (البقرة : ١٤٣)

١٤٣- وكذلكَ جَعلناكمْ -يا أمَّةَ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم- خيارَ الأُمَم، لتَكونوا شُهداءَ عَليهِمْ يومَ القيامة، بأنَّ اللهَ أرسلَ الرسلَ إليهِمْ فبلَّغوا ونصَحوا، ولأنَّ دينَكمْ هوَ الحقُّ مِنْ بينِ أديانِ الأممِ ومَذاهبِها؛ فقدْ وجَّهكمُ اللهُ إلى قِبلةِ إبراهيمَ أبي الأنبياء، وخصَّكمْ بأكملِ الشرائع، وأقومِ المناهج، وأوضَحِ المذاهب. ثمَّ يكونُ الرسولُ صلى الله عليه وسلم شهيداً عليكمْ يومَ القيامة، بأنَّهُ بلَّغكمْ رسالةَ ربِّه.

وقد كانَ الأمرُ باستقبالِ المسجدِ الأقصَى أولاً امتحاناً، ليتبيَّنَ منْ يُطيعُ اللهَ ومَنْ يُخالِفُه، وخاصَّةً أنَّ العربَ كانوا متعلِّقينَ بالبيتِ كيفَما كان، وكانَ التحوُّلُ منهُ صَعباً عليهم، فأرادَ اللهُ أنْ يَصرِفَ قلوبَ مَنْ أسلمَ منهمْ إلى الطَّاعةِ المطلَقة، والتخلُّصِ منْ الرواسبِ الجاهليَّة، مهما كانَ شأنُها، حتَّى تأخذَ هذهِ التربيةُ مأخذَها منَ النفوسِ وتتدرَّبَ على الطاعةِ والامتِثال، وهو وإنْ كانَ عَظيماً على النفوس، إلاّ أنَّهُ سَهلٌ على القلوبِ المؤمنةِ المهتدية، التي أيقنتْ بتصديقِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم، وأنَّ ما جاءَ بهِ هوَ الحقُّ الذي لا شكَّ فيه، وأنَّ اللهَ يَفعلُ ما يشاءُ ويَحكمُ ما يُريد، فما على المسلمِ إلاّ الطاعةُ والامتِثال.

وما كان اللهُ ليُضِيعَ صلواتِكمُ التي توجَّهتُمْ فيها إلى بيتِ المقدسِ سابقاً، فلا يَضِيعُ ثوابُها عندَه، إنَّهُ رؤوفٌ رحيمٌ بعبادِه، يوصِلُ إليهمُ النِّعمَةَ الصافيةَ بفضلهِ ورَحمتِه.

{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} (البقرة : ١٤٤)

١٤٤- كانَ الرسولُ صلى الله عليه وسلم يُحِبُّ أن يُوَجَّهَ إلى الكعبة، كما في صحيحِ البخاريّ، فقالَ لهُ ربُّه: لَنُعطينَّكَ طلبَك، ولنُمَكِّنَنَّكَ منِ استقبالِ القبلةِ التي تُحِبُّها وتَشتاقُ إليها، فحوِّلْ وجهَكَ نحوَ المسجدِ الحرام، وحيثُما كنتُمْ أيُّها المسلمونَ في أنحاءِ الأرضِ جميعاً اتَّجِهوا إلى هذهِ القِبلة، إلى أنْ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها.

وإنَّ اليهودَ والنصارَى يَعلمونَ أنَّ توجُّهَكمْ إلى البيتِ هوَ الحقّ، بما في كتبِهمْ مِنْ صفةِ النبيّ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وأمَّته، ولعلمِهمْ أنَّ الكعبةَ هيَ بيتُ اللهِ الأوَّل، الذي بنَى قواعدَهُ واتَّجهَ إليه إبراهيمُ عليهِ السلام، ولكنَّهمْ لا يَقتَنِعونَ بالأدلَّة، ويَكتمونَ ما في كتبِهمْ مِنْ عِلمٍ ولا يُظهرونَه، واللهُ ليسَ بغافلٍ عمّا يَعملون، وسيُجازيهمْ في الدنيا والآخرةِ على ذلك. وليسَ بغافلٍ عنْ ثوابِ المؤمنينَ وجزائهمْ كذلك.

{وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ} (البقرة : ١٤٥)

١٤٥- فلو أقمتَ لليهودِ والنصارَى الحُجَّةَ تِلوَ الحُجَّةِ على صِحَّةِ ما جئتَ به، وأيَّدكَ اللهُ بالمعجِزاتِ في ذلك، لَمَا تَركوا أهواءَهم، ولما تَوجَّهوا إلى القِبلةِ التي ولّاكها ربُّك. ولنْ تتَّجهَ إلى قبلتهمْ أيضاً، ولنْ تتَّبِعَ أهواءَهم؛ لمتابعتِكَ أمرَ الله، وطلبِكَ رِضاه. ولنْ يتَّبعَ اليهودُ قِبلةَ النصارَى، ولا النصارَى يتَّبعونَ قبلةَ اليهود، فالعَداوةُ بينَهما شَديدة. ولو أنَّكَ اتَّبعتَ مرادَهمْ بعدَ الذي وجَّهكَ اللهُ إليهِ ورضيَهُ لكَ مِنَ القِبلة، لكنتَ مُؤثِراً الباطلَ على الحقّ.

وهوَ على الفَرَضِ والتقدير، وتحذيرٌ للأمَّةِ منْ أهواءِ أهلِ الكتابِ وأضاليلِهم.

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (البقرة : ١٤٦)

١٤٦- إنَّ أهلَ الكتابِ منَ اليهودِ والنصارَى يَعرفونَ محمَّداً صلى الله عليه وسلم وصِحَّةَ ما جاءَ بِهِ كما يَعرِفُ أحدُهمُ ابنَه! وهوَ مَثَلٌ يُضْرَبُ في صحَّةِ الشيءِ والتيقُّنِ منهُ تماماً، فمَعرِفةُ الابنِ هي قمَّةُ المعرِفة؛ وذلكَ لوصفِ الرسولِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم الدقيقِ في كتبِهم، وصفةِ أمَّته، وما إلى ذلك، ومنها القِبلةُ التي يتوجَّهونَ إليها. لكنَّ فريقاً منهمْ معَ هذا التحقُّقِ والتأكُّدِ في مَعرفتِه، يَكتمونَ الناسَ ما في كتبِهمْ من ذلك، وهمْ يَعلمونَه.

{الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} (البقرة : ١٤٧)

١٤٧- إنَّ ما أُنزِلَ إليكَ أيُّهاِ الرسولُ هوَ الحقُّ الذي علَّمَكَ ربُّك، لا مِريَةَ فيهِ ولا شكّ، فلا تكنْ منَ الشاكّينَ في ذلك.

وهوَ إيحاءٌ مِنْ ربِّ العزَّةِ إلى أمَّةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم بعدمِ التأثُّرِ بأباطيلِ اليهود، وبالتنبُّهِ إلى أحابيلِهم.

{وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (البقرة : ١٤٨)

١٤٨- ولكلِّ أهلِ دِينٍ مِنَ الأديانِ قِبلةٌ يتوجَّهونَ إليها ويَرضَونَ بها، ولنْ يتَّبعَ بَعضُهمْ قِبلةَ بَعض، فما على المسلمينَ سِوَى التوجُّهِ إلى عَملِ الخَير، والتنافسِ في رِضَى الله، والانصرافِ إلى ما يُفيدُ ويُثمِر، والابتعادِ عنْ شُبَهِ الأعداءِ وأفكارِهمُ المنحرِفَة، وإنَّ اللهَ سبحانَهُ سيَجمعُ الموافِقَ والمخالِفَ منكم، وإنْ تفرَّقتْ أبدانُهم، وهوَ قادرٌ على الإماتة، والإحياء، والجمع، لا يُعجِزُهُ شَيء.

{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} (البقرة : ١٤٩)

١٤٩- وهذا أمرٌ فيهِ تأكيد، فحيثُما خرجتَ وأينَما كنتَ أيُّها الرسُول، توجَّهْ في صلاتِكَ نحوَ المسجدِ الحرام، فإنَّهُ القِبلةُ الخالصةُ التي رَضِيَها اللهُ لكم، وهوَ الثابتُ الموافِقُ للحِكمَة، وليسَ اللهُ بغافلٍ عنِ امتثالِكمْ وطاعتِكم، ولسوفَ يُجازيكمْ بذلكَ أحسنَ جزاء.

{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} (البقرة: ١٥٠).

١٥٠- ثمَّ تجديدٌ وتأكيدٌ للمرَّةِ الثالثةِ لأهميَّته، ولقطعِ الطريقِ على الشُّبَهِ والتشكيكاتِ التي زادَ سعيرُها في المجتمعِ الإسلاميّ الجديدِ منْ قِبَلِ الأعداءِ المتربّصينَ بالإسلام، للقضاءِ عليهِ وهو ما زالَ في أوَّله، ولقطعِ النظرِ كذلكَ عنْ أيِّ شَيءٍ ممّا عَداه، فالكعبةُ هي القِبلةُ الأخيرةُ لمنْ أسلمَ

وجهَهُ للهِ إلى أنْ تَقومَ القيامة. فكلَّما خَرجتَ وأينَما كنتَ أيُّها النبيُّ اتَّجِهْ نحوَ المسجدِ الحرام، وأينما كنتُمْ أيُّها المسلمونَ جميعاً توجَّهوا نحوَه؛ حتَّى لا يَبقَى أدنَى شكٍّ عندَ أهلِ الكتابِ أنَّكمْ أمَّةُ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم الموعودَة، حيثُ يجدونَ عندَهمْ أنَّ قِبلتَكمْ ستَكونُ الكعبة، ولو أنَّهمْ فَقدوا ذلكَ منكمْ لاحتجُّوا بما يَقولونَ منْ أنَّكمْ لستُمْ تلكَ الأمَّة.

وحتَّى لا يكونَ لأيِّ مشركٍ أو كافرٍ تأثيرٌ عليكمْ في جدالِهمْ وعنادِهمْ معكم، وما يَبثُّونَهُ مِنْ شُبَهٍ وشائعاتٍ لغَرضٍ في نفوسِهم، كقولِ بعضِهمْ لكم: ما دمتُمْ استقبلتُمُ البيتَ فستَرجِعونَ إلى دينِ آبائكم! فلا تَحسُبوا حِساباً لهمْ ولا لأقاويلِهم، فلا سلطانَ لهمْ عليكمْ ولنْ يضرُّوكم، بلِ اتَّقُوا ربَّكمْ واخشَوْهُ في السرِّ والعَلَن، فهو الضارُّ النافِع، وأهلٌ لأنْ يُخشَى، وبيدِهِ الأمرُ كلُّه، وحتَّى أُكمِلَ نعمتي عليكمْ فيما شرعتُ لكمْ منِ استقبالِ القِبلة. ولعلَّكمْ بهذا تَهتدونَ إلى ما ضلَّتْ عنهُ الأمم، فهدَيناكمْ إليهِ وخصَصناكمْ به، ولذلكَ كنتُمْ أشرفَ الأممِ وأفضلَها.

{كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ} (البقرة : ١٥١)

١٥١- ومعَ نعمةِ القِبْلةِ اذكروا أيُّها المسلمونَ بعثةَ الرسولِ صلى الله عليه وسلم فيكم، يقرأ عليكمْ كلامَ اللهِ العظيم، ويُطَهِّرُكمْ منْ رذائلِ الأخلاق، وأفعالِ الجاهليَّة، ودنَسِ النفوس، ويُخرجُكمْ منَ الظُّلماتِ إلى النور، بإذنِ رَبِّه، ويعلِّمُكمُ القرآنَ والسنَّة. وبينما كنتُمْ في الجاهليَّةِ على جهلٍ وعداوةٍ وشِقاق، أبدلَكمُ اللهُ بذلكَ ما لم تَكونوا تَعلَمون، وما لم يَكنْ لكمْ بهِ سابقُ عِلم، فصارَ منكمُ العلماء، والصِّدِّيقون، والأولياء، والقادةُ الفاتحون، والدعاةُ المبشِّرونَ بالدِّينِ العظيم.

{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ} (البقرة : ١٥٢)

١٥٢- فلا تنسَوا هذهِ النِّعَمَ العظيمةَ التي أنعمتُ بها عَليكم، اذكرُوني بالطَّاعةِ أذكُرْكمْ بالثواب، واشكروا لي هذهِ النعمَ ولا تَجحدوها، أزِدْكمْ بذلكَ نعمةً وفَضلاً.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} (البقرة : ١٥٣)

١٥٣- وإذا كانَ الشكرُ منْ آدابِ المؤمنين، فإنَّهُ لا بدَّ لهمْ منَ الصبرِ أيضاً، فعَليكمْ به، فإنَّهُ خَيرُ صِفةٍ تتحلَّونَ بها لتحمُّلِ البلايا والرزايا ومشاقِّ الدعوة، والعزمِ على الطاعةِ والقرُبات، وتركِ المآثمِ والمحرَّمات.

وكذا الصلاةُ، التي تشدُّ العزيمة، وتجدِّدُ الطاقة، وتملأ القلبَ نُوراً، ولذلكَ كانَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبَهُ أمرٌ –أي هجمَ عليهِ أو غلبَهُ– صلَّى، كما في حَديثٍ حسنٍ رواهُ أحمدُ وأبو داود.

ذلكَ أنَّ اللهَ معَ الصابرين، يؤنِسُهم، ويُؤيِّدُهم، ويُثبِّتُهم، ويَزيدُ مِنْ قوَّتِهمُ الضَّعيفة.

{وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ} (البقرة : ١٥٤)

١٥٤- ولا يَقدِرُ على الجهادِ إلا الصابرونَ وذوو العزائم، وهؤلاءِ إذا سقطوا شهداءَ في ساحةِ المعركة، فلا تظنُّوا أنَّهمْ ماتوا، بلْ همْ أحياءٌ عندَ ربِّهم، يُطعِمُهمْ ويَسقِيهم؛ جزاءَ تضحيتِهم بأرواحِهمْ في سبيلِه، ولكنَّكمْ لا تَشعُرونَ بهم، فهمْ في حياةٍ أخرَى (برزخيَّةٍ) غيرِ التي أنتمْ فيها.

{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} (البقرة : ١٥٥)

١٥٥- وسوفَ نختبرُكمْ ونمتَحِنُكمْ أيُّها المسلمون، لتَظهرَ حقيقةُ إيمانِكمْ ومدَى ثباتِكمْ على أمرِ دينِكم، سيُصيبُكمْ شَيءٌ منَ الخوفِ وأنتمْ تخوضونَ معاركَ ضدَّ الباطل، وشيءٌ منَ الجوعِ كالفقرِ، ونَقصٌ مِنَ الأموالِ، كأنْ يصيبَها جائحةٌ أو غَرَقٌ أو ضَياع، ويُقْتَلُ أو يموتُ منْ أهلِكمْ وأحبابِكم، ويَقِلُّ شيءٌ منْ زروعِكمْ وثمارِكم، ببَردٍ أو حَرْقٍ أو آفةٍ سماويَّة. فإذا صبَرتُمْ ورَضِيتُمْ بقضاءِ اللهِ فزتُمْ وحُزتُمُ الأجْر.

{الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ} (البقرة : ١٥٦)

١٥٦- إنَّ الحائزينَ على درجةِ الصبرِ بحقٍّ همُ الذين إذا ابتُلوا بمصِيبةٍ آمَنوا فصَبروا، وتسلَّوا واسترجَعوا، وقالوا: {إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ}، لعلمِهمْ بأنَّهم مُلْكٌ لله، يتصرَّفُ في عبيدِهِ كما يَشاء، وأنَّهُ لا يَضِيعُ عندهُ شَيءٌ يومَ القيامة.

{أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} (البقرة : ١٥٧)

١٥٧- فعلَى هؤلاءِ الصابرينَ ثناءُ الله، ولهمْ مغفرتهُ وعليهمْ رحمتُه، فهمُ الذينَ اهتدَوا إلى الحقّ والصَّواب، بصبرِهمْ واسترجاعِهم.

{إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ} (البقرة : ١٥٨)

١٥٨- إنَّ الطوافَ بينَ جبلَي الصفا والمروةِ ممّا شرعَهُ اللهُ تعالَى لإبراهيمَ عليهِ السلامُ في مناسكِ الحجّ، فمنْ نوَى حجًّا أو عُمْرةً فليَجعَلْ ذلكَ مِنْ مناسكِه، ومَنْ زادَ في السعي بينَهما، أو زادَ مِنْ نَفْلٍ، فإنَّ اللهَ يُثيبُهُ عليه، وهوَ عليمٌ بما يَستحِقُّهُ منَ الجزاء، ولا يَنقُصُ أحداً ثوابَ عَملِه.

والمقصُود: لا جُناحَ عليهِ مِنْ فِعلِ السَّعي بينَهما، وليسَ مَعناه: لا جناحَ مِنْ تَركِ السَّعي، وإلاّ لكانَ التعبير: لا جُناحَ عَليهِ ألاّ يَطَّوَّفَ بهما. وكانَ الأنصارُ يتَحرَّجونَ منَ السَّعي بينهما لأنَّهُمْ لم يَكونوا يُحِلُّونَهُ في الجاهليَّة، فجاءَ التَّعبيرُ هكذا.

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ} (البقرة : ١٥٩)

١٥٩- إنَّ أهلَ الكتاب، وخاصَّةً اليهود، يُخفُونَ ما أنزَلنا على الرسُلِ منَ الدلالاتِ البيّنةِ على حَقائقَ مُهمَّة، وما جَاؤوا بهِ منَ الهَدي النافعِ للقلوب، كالإيمانِ بمبعثِ الرسولِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ووجوبِ اتِّباعِه، حيثُ بيَّنَهُ اللهُ تعالَى في الكتبِ التي أنزلها.

قالَ أبو السعودِ في تفسيره: "والمرادُ بكتمهِ إزالتُه ووضعُ غيرِهِ في موضعه، فإنَّهُمْ محَوا نعتَهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ وكتبوا مكانَهُ ما يُخالِفُه". وقدْ جعلَ الكتمَ بهذا منْ أنواعِ التحريفِ والتبديل.

فهؤلاءِ الساكتونَ عنِ الحقّ، الكاتمونَ ما أنزلَ اللهُ منْ خيرٍ وهُدًى، يَطردُهمُ اللهُ ويُبعِدهمْ مِنْ رحمتِه، كما يَلعنُهمْ كلُّ مَنْ يتأتَّى منهمُ اللعنُ والدعاءُ عليهم، مِنَ الملائكةِ ومؤمني الجنِّ والإنس، فهمْ مَنبوذونَ مِن أهلِ الحقّ كلِّهم.

{إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} (البقرة: ١٦٠)

١٦٠- ويُستثنَى مِنْ أهلِ الكتابِ المذكورين، الذينَ تابوا إلى اللهِ ورجَعوا عمّا كانوا عَليهِ مِنْ ضَلال، وأعلنوا الحقَّ واعترَفوا به، وأصلَحوا ما أفسَدوا وحرَّفوا، وبيَّنوا للناسِ ما كانوا كتَمُوه، فهؤلاءِ أقبَلُ توبتَهم، وأنا كثيرُ قبولِ التوبةِ ونَشرِ الرحمة.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} (البقرة : ١٦١)

١٦١- إنَّ الذينَ كفَروا وأصرُّوا على الكفر، وكتَموا الحقَّ ولم يَتوبوا، وماتُوا على كفرِهم، أولئكَ مصيرُهمُ الطردُ منْ رحمةِ الله، فيلعنُهمُ الله، وملائكتُه، وجميعُ الناس، لَعناً ثابتاً بعدَ لَعنٍ مُتَجَدِّد، في الدُّنيا، مستمرًّا إلى الآخِرة.

{خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ} (البقرة : ١٦٢)

١٦٢- يُخلَّدونَ في نارِ جهنَّم، لا يُنْقَصُ عمَّا همْ فيهِ منْ عذاب، ولا يَنقَطِعُ عنهمْ ساعةً واحدة، فهوَ متواصلٌ دائم.

{وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} (البقرة : ١٦٣)

١٦٣- إنَّ المعبودَ الذي يَتوجَّهُ لهُ الخَلقُ في عبادتِهمْ وطاعتِهمْ واحدٌ لا شريكَ له، وهوَ رَؤوفٌ رَحيمٌ بالنَّاس، ورَحمتهُ كبيرةٌ واسِعةٌ دائمَة.

{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (البقرة : ١٦٤)

١٦٤- إنَّ مَشاهدَ الخلقِ في الكونِ عَظيمةٌ دَقيقة، يَنبغي أنْ يُنظرَ فيها بتعمُّقٍ منْ جوانبِها العلميَّةِ والحِكْمية، ليُستدلَّ بها على الخالقِ الأعظم.

فهذهِ السماواتُ بارتفاعِها، وإحكامِ خَلْقِها، وما فيها منْ شُموسٍ وكواكب، وصخورٍ وذرَّات، وجاذبيَّةٍ ودوَران، وبُعدِها عنِ الأرض، أو عنْ بعضِها البعض، بمسافاتٍ لا تكادُ تُتَخيَّل، كملايينِ السنواتِ الضوئيةِ وما يُقالُ في هذا، عدا ما لم يُكتَشَفْ منها.

والأرضُ في جبالِها ووهادِها، وبحارِها وأنهارِها، وخِصْبِها وصَحرائها، وإنسِها وجنِّها، وحيواناتِها وجمادِها، ونباتاتِها وأشجارِها، بملايينِ أصنافِها وأنواعِها، الدقيقةِ والعَجيبة، وأحيائها المائيةِ في سلوكِها ومعيشتِها، وما فيها مِنْ مَنافع، مِنْ مَعادنَ ولآلئ، وماءٍ وهواء، وكلّ ما سُخِّر للإنسان.

ومَجيءُ النهارِ يَتلوهُ الليل، ثمَّ يَتلوهُ النهارُ وهكذا، مِنْ تعاقبِ النورِ والظُّلمَة، باستِمرارٍ ودقَّةٍ مُتناهية.

وهذهِ السفنُ والبواخرُ والأساطيلُ التي تَجري في البَحر، سخَّرَهُ اللهُ للناسِ هكذا ليَنتَفعوا بهِ في أسفارِهم، ونَقلِ بضائعِهِمْ مِنْ مَكانٍ إلى آخر، وليَستَخرِجوا منهُ ما يَنفعُهُمْ مِنْ مَؤونةٍ ومِيرةٍ وتِجارة.

والمطرُ الذي يَنزلُ منَ السَّحابِ بأمرِ الله، تحيا بهِ زُروعٌ وثِمار، وأناسيُّ وحيَوانات، تُفَجَّرُ بهِ عيون، ويُخَزَّنُ منهُ في الأرضِ للآبار، بعدَ أنْ كانتِ الأرضُ يابِسةً لا حياةَ فيها.

وما نُشِرَ في الأرضِ مِنْ كلِّ حيّ، عاقلٍ وغيرِ عاقل، على اختلافِ أشكالِها وألوانِها ومنافعِها، وصِغَرِها وكِبَرِها.

وهذهِ الرياحُ بأنواعِها واتِّجاهاتِها، وما هوَ منها للرَّحمةِ وما هوَ منها للعَذاب، وما تَجمَعُهُ أو تُفَرِّقهُ منَ السُّحُب، فتقفُ بها في مكانٍ أو تسوقُها إلى حيثُ أمرَها الله، أو ما تَحمِلُهُ منْ حُبوبِ اللِّقاحِ منَ الأشجارِ والنباتاتِ المذكَّرةِ وتَضعهُ على المؤنَّثةِ لتُنتِجَ الثمارَ بإذنِ الله.

وهذهِ الغيومُ المنتَشِرَةُ فوقَ الأرض، في تَشكيلِها وأنواعِها ودلالاتِها، وحركتِها وتسخيرِها وانتقالِها.

كلُّ هذا وغيرهُ حقائقُ عظيمةٌ ودلالاتٌ بيِّنةٌ على وجودِ اللهِ ووَحدانيته، وقُدرتهِ وحكمتِه، هذا إذا تفكَّرَ بها الإنسان، وألقَى عنْ عقلهِ بَلادةَ الأُلفةِ وغِشاوةَ الغَفلة، ونظرَ في هذهِ المخلوقاتِ بفكرٍ متعمِّقٍ وحِسٍّ مُتَجَدِّد، وقلبٍ مُتَطلِّعٍ إلى الحقّ.

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ} (البقرة : ١٦٥)

١٦٥- وعلى الرغمِ منَ الدلالاتِ السابقةِ على وحدانيَّةِ اللهِ وتفرُّدِهِ بالخَلقِ والتدْبير، إلاّ أنَّ هناكَ صِنفاً منَ الناسِ أشرَكوا بالله، وعبَدوا معَهُ نُظَرَاءَ وأمثالاً، على هوَى أنفسِهمْ وما تُسَوِّلُ لهمُ الشياطين، في تقليدٍ جاهلٍ أو حُمْقٍ فاضِح، كعبادةِ أحْجارٍ وأشْجار، أو نجومٍ وكواكب، ويُدافِعونَ عنها ويُحاربونَ عليها، ويحبُّونَها كمَحبَّتِهمُ الله! وهوَ الواحدُ الأحد، الذي لم يتَّخذْ صاحبةً ولا ولداً، ولا مثيلَ لهُ ولا نَظير.

أمّا المؤمنون، فإنَّهمْ يَعبدونَ اللهَ على نُورٍ منْ ربِّهمْ وبُرهان، ويُحبُّونَهُ حُبًّا خالِصاً لا شائبةَ فيه، وهمْ أكثرُ حبًّا لهُ منْ حبِّهمْ أنفسَهمْ وما يملكون؛ لتَمامِ معرفتِهمْ به، وتوحيدِهمْ وتعظيمِهمْ له، ولجوئهمْ إليهِ وحُسنِ توكُّلِهمْ عليه.

ولو عاينَ المشركونَ ومَنْ تابعَهمْ ما أُعِدَّ لهمْ منَ العَذابِ يومَ القيامة، لعَلِموا أنَّ جميعَ الأشياءِ تحتَ قَهرِهِ وسُلطانه، وأنَّ القوَّةَ والتصرُّفَ لهُ وحدَه، وأنَّ عذابَهُ شَديدٌ مؤلم، وإذاً لانتَهَوا عمّا همْ فيهِ مِنْ ضَلال.

{إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ} (البقرة : ١٦٦)

١٦٦- وهؤلاءِ الذينَ كانوا أعلاماً في الكُفرِ والضَّلالِ والدَّعواتِ الهدَّامة، ولهمْ أنصارٌ وتابِعون، عندما يُكشَفُ لهمُ الحِساب، ولا يرَونَ أمامَهمْ سِوَى النار، التي لا مناصَ لهمْ منها، يَتبرَّؤونَ مِنْ تابِعيهم، لأنَّ ذلكَ يَزيدُهمْ عَذاباً، ويَقولونَ لهم: لا علاقةَ لنا بكم، ولم نُجبِرْكُمْ على متابَعتِنا، وكانتْ لكمْ عقولٌ فلمَ خُدِعتُمْ وشاركتُمونا؟

وتَنقطعُ بينهمُ الأواصرُ والعلاقاتُ السَّابقة، وتنقلبُ إلى حقدٍ وعَداوةٍ وتخاصُم، حيثُ انتَهتِ الأعمال، وحانَ وقتُ الجزاء.

{وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} (البقرة: ١٦٧)

١٦٧- وقالَ التابِعونَ المقلِّدون، المناصِرونَ للضَّلالِ وأهلِه، بعدَ أنِ انتَكسَتْ أعلامُ الآلهةِ الفارِغة، وانكشَفتِ الخِدَع، وظَهرتِ الحقَائق: لو كانتْ عندنا فُرصَةٌ للعَودةِ إلى الدُّنيا حتَّى نتبرَّأَ مِنْ هؤلاءِ فلا نتَّبعَهمْ ولا نوافِقَهمْ على أفكارِهم، ولا نكونَ لهمْ كالعبيدِ فنهتفَ لهمْ ولمبادئهمُ المضلِّلة، بعدَ أنْ تبرَّؤوا همْ منّا وقالوا لا علاقةَ لنا بكمْ ولم نُجبِرْكُم على اتِّباعنا. وهمْ كاذبون، فلوا أنَّهم أُعِيدوا لعَادوا إلى ما كانوا عَليه. وإنَّما يُريدُ اللهُ ببيانِ أعمالِهمْ أمامَهمْ ليَزدادوا كمَداً ونَدامَة. وهمْ باقُونَ في النارِ أبَدًا.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} (البقرة : ١٦٨)

١٦٨- أيُّها الناس، كلُوا ممّا خلقَ اللهُ لكمْ في الأرضِ منَ الحلالِ الطيِّب، الذي لا يَعتلُّ بهِ جِسمٌ ولا يَختلُّ بهِ عقل، ولا تَقتدوا بالشَّياطين، ولا تتَّبعوا مَسالِكَهُ وطَرائقَهُ التي ضلَّ بها أتباعَه، مِنْ تحريمِ ما أحلَّ اللهُ وتحليلِ ما حرَّمَ، فإنَّهُ ظاهرُ العداوةِ لكمْ عندَ أهلِ البَصيرةِ منكم، وقدْ حذَّركمُ اللهُ منه.

{إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} (البقرة : ١٦٩)

١٦٩- إنَّما يأمرُكمُ الشيطانُ بالمعاصِي وبالأعمالِ السيِّئةِ والفواحشِ الدَّنيئة، وأنْ تفترُوا على اللهِ الكذِب، بأنْ تقولوا إنَّهُ حرَّمَ شَيئاً، وهوَ ما لا تَعلمونَ أنَّهُ حرَّمَه.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ} (البقرة : ١٧٠)

١٧٠- وإذا طُلِبَ منَ المشركِينَ وأهلِ الكتابِ أنْ يتَّبعوا كتابَ اللهِ الذي أنزلَهُ على رسولهِ محمّدٍ صلى الله عليه وسلم قالوا: لا نتَّبعُه، بلْ نتَّبعُ ما وَجدْنا عليهِ آباءَنا، لأنَّهمْ كانوا خَيراً منّا!

أيَقتَدونَ بهِمْ ويَقتَفونَ أثرَهمْ ولو كانوا لا يَفهمونَ شيئاً ولا يهتدونَ إلى الصواب؟ ولو كانوا غافلينَ وجاهلينَ ضالِّين؟

{وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ} (البقرة : ١٧١)

١٧١- إنَّ مَثَلَ الذينَ كفَروا في غيِّهمْ وضلالِهم وجهلِهمْ وعدمِ تدبُّرهمْ فيما أُلقيَ إليهمْ منَ الآيات، كالبَهائمِ التي لا تفقَهُ ما يُقالُ لها، فإذا دعاها أو هتفَ بها راعِيها لا تفهَمُه، إنَّما تَسمعُ لحنَهُ ودويَّ صوتِه.

فهمْ صُمٌّ عنْ سَماعِ الحقّ، وخُرْسٌ لا يَتفوَّهونَ به، وعُميٌ عنْ رؤيةِ طَريقه، ولو كانتْ لهمْ حَواسٌّ ظاهِرَة، ما داموا لا يَنتفعونَ بها. إنَّهم لا يَفهمونَ شيئاً لأنَّهُمْ لا يتدبَّرونَ الآياتِ والحقائق، ولا يتأمَّلونَ فيما يرونَهُ منَ الدلائلِ الواضحةِ والأمورِ النافِعة.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} (البقرة : ١٧٢)

١٧٢- أيُّها المؤمنون، كُلوا منَ الحلالِ الطيّبِ الطاهرِ المستلَذِّ الذي رزقَكمُ الله، واشكروا لهُ ذلكَ إنْ كنتُمْ تعبدونَهُ حقَّ العبادة، فإنَّ الشكرَ منَ العبادة، وإنَّهُ منْ أسبابِ قبولِها والجزاءِ عليها.

{إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (البقرة: ١٧٣)

١٧٣- وخُذوا أحكامَ الحلالِ والحرامِ منَ اللهِ الخالقِ الرَّازق، فإنَّهُ لا يُحِلُّ إلاّ طيِّباً، ولا يُحَرِّمُ إلا ما خَبُثَ وكانَ فيهِ ضَرر.

وقدْ حرَّمَ عليكمْ أكلَ الميْتةِ التي لم تُذبَح، ما عدا السمكَ والجراد. وكذلكَ حرَّمَ الدَّم، ولحمَ الخِنزير، سواءٌ ذُبِحَ أو ماتَ حتفَ أنفِه، وما ذُبِحَ على غيرِ اسمِ الله، منَ الأصنامِ والطواغيتِ ونحوِها.

ومَنْ ألجأتْهُ الضرورةُ إلى أكلِها وقد فقدَ غيرَها منَ الأطعِمَة، فلا بأسَ مِنْ أكلِها، مِنْ غيرِ بغيٍ ولا اعتداء: منْ غيرِ أنْ يُؤْثِرَ نفسَهُ في هذهِ الضرورةِ على مُضطرٍّ آخَرَ مثلِه، ولا أنْ يأكلَ زيادةً على سَدِّ جَوْعَتِه، فاللهُ يَغفرُ لهُ عندئذٍ ما أكلَ منَ الحرام، وهوَ رحيمٌ إذْ أحلَّ لهُ ذلكَ في حالِ الاضطِرار.

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (البقرة:١٧٤)

١٧٤ — إنَّ الذينَ يَكتمُونَ ما أنزلَ اللهُ في الكتُبِ مِنْ صِفَةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وخاصَّةً اليهود، حتَّى لا تَذهبَ وجاهتُهمْ ورئاستُهمْ أمامَ العرب، وكانوا يتلقَّونَ منهمُ التُّحَفَ والهَدايا تعظيماً لشأنِهِمْ وعلمِهم، كما يأكلونَ الرِّشا مُقابلَ تَحليلٍ أو تَحريم، فخَشُوا إنْ همْ أظهَروا أوصافَهُ صلى الله عليه وسلم أنْ يتَّبعَهُ الناسُ ويَتركوهم، فكتَموا ذلك، إبقاءً على ما كانَ يَحصلُ لهمْ مِنْ ثَمنٍ قليلٍ مُقابلَ أمرٍ عَظيم، فباعُوا دينَهم مُقابلَ نَزْرٍ يَسيرٍ منَ المال، فكانوا منَ الخاسرين.
وسوفَ يأكلونَ ناراً تتأجَّجُ في بُطونِهِمْ يومَ القيامة، جزاءَ ما كانوا يأكلونَهُ مقابلَ كِتْمانِ الحقّ. ولا يكلِّمُهمُ اللهُ غَضباً عليهم. ولا يُثني عليهمْ خَيراً، بلْ يُعَذِّبُهمْ عَذاباً مؤلماً شَديداً.

{أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالهُدَى وَالعَذَابَ بِالمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ} (البقرة:١٧٥)

١٧٥ — لقدِ اشترَوا الباطِلَ بالحقّ، وباعُوا الهُدَى بالضَّلال، عندما كتَموا البِشارةَ برسولِ الله صلى الله عليه وسلم ولم يتَّبِعوه، ورَضُوا بالكفرِ والتَّكذيبِ والكِتْمان. لقدْ باعوا —إذنْ— المغفرةَ واشتَرَوا العذاب. فما أعجبَ حالَهم! وما أحرصَهم على التهالُكِ على دخولِ النارِ والصبرِ عليها، عندما تَعاطَوا أسبابَ ذلك، وتنافَسوا فيه، قَصداً واختِياراً!

{ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الكِتَابَ بِالحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} (البقرة:١٧٦)

١٧٦ – وقدِ استَحقُّوا كلَّ هذا العَذاب؛ لأنَّ اللهَ لم يُنـــزِلْ كُتبَهُ على الأنبياءِ عبَثاً، ولم يأخذِ المواثيقَ منَ الأممِ بدونِ حســـاب، بلْ إنَّ كلَّ ذلكَ حقٌّ والتزامٌ ومَســـؤولية، فمنْ أبَى وخان، وجحدَ وكتم، استحقَّ العذابَ والنَّكال.

وهؤلاءِ الذينَ اختلَفوا في الكتاب، فآمنوا ببَعضـهِ وكفروا ببَعضـهِ الآخَر، وأوَّلوا منهُ أشـياء، ثمَّ وصَفوا القُرآنَ بأوصـافٍ باطِلة، همْ في اختلافٍ شـديدٍ وبُعدٍ عنِ الحقِّ والصَّواب، مستوجِبٍ لأشدِّ العذاب.

{لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآَخِرِ وَالمَلَائِكَةِ وَالكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ} (البقرة:١٧٧)

١٧٧ – عندما أمرَ اللهُ المسلمينَ أوَّلاً بالتوجُّهِ إلى بيتِ المقدِس، ثمَّ أمرَهمْ بالتحوُّلِ إلى الكعبة، شقَّ ذلكَ على طائفةٍ منْ أهلِ الكتابِ وبعضِ المسلمين، فبيَّنَ في هذه الآيةِ العظيمةِ أنَّ المهمَّ في هذا هوَ التسليمُ والطاعةُ والامتثالُ لأمرِ الله.

فليســـتِ الغايةُ منَ التوجُّهِ إلى المشـــرقِ والمغربِ هوَ الجهةُ بعينِها، ولا القيامُ بحركاتٍ ظاهرةٍ نحوَها، فلا تَكمُنُ الخيريَّةُ في هذهِ الأمورِ مجرَّدةً عنِ الدافعِ منْ ورائها وطاعةِ الآمرِ بها، فجِماعُ الخيرِ هوَ في العَقيدةِ الصَّـــحيحَة، والطاعةِ لله، والتســـليمِ بأمرِه، الذي يُعطي القيمةَ والقَبولَ لتلكَ الأعمال، الإيمانُ بـهِ عزَّ وجلَّ أوَّلاً إيمـاناً عميقـاً، وباليومِ الآخِرِ ومـا فيـهِ منْ جَزاءٍ وحِساب، ونَعيمٍ وعَذاب، وبالملائكةِ جُندهِ ورسلهِ بينَهُ وبينَ عباده، وبالكتابِ الحقِّ المنـزَلِ منْ عندِ اللهِ على رسولهِ لهدايةِ عبادِه، آخِرُها القُرآن، الذي نسخَ كلَّ ما قبلَهُ منَ الكتُب. وبأنبياءِ اللهِ كلِّهم، حتَّى خاتمِهم محمَّدٍ صـــلى الله عليه وســـلم، منْ غيرِ تَفرقةٍ بينهمْ كما فعلَ أهلُ الكتاب.

والمؤمنُ الصـادقُ أيضـاً هوَ مَنْ أنفقَ مِنْ مالِهِ وهوَ محبٌّ لهُ راغِبٌ فيه، فأعطاهُ لأهلِهِ وأقربائه، ولليتامَى الذينَ فَقدوا آباءَهمْ وكانوا صِـغاراً ضُـعَفاء، والمسـاكينِ الذينَ لا يَجدونَ ما يَكفيهم،

وابنِ السبيلِ الذي نَفِدَتْ نفقتُهُ وهوَ بعيدٌ عنْ وطنه، والسائلينَ الذينَ ألجأتهمُ الحاجةُ والضرورةُ إلى السؤال، وفي الرِّقاب: العبيدِ الذينَ يُريدونَ أن يُصبِحوا أحرَاراً ولا يجدونَ المبلغَ الكافيَ لإعطائهِ أسيادَهمْ منْ أجلِ ذلك.

ثمَّ حافظَ على عباداتِه، فأقامَ الصلاةَ المفروضةَ بشروطِها وأركانِها، وأدَّى زكاةَ مالِه. وأنْ يكونَ منَ الأوفياءِ بعهودِهمْ إذا عاهدوا، فلا يَخونُ ولا يَغْدِرُ كالمنافقينَ ومَنْ حَذا حَذْوَهم.

ومنَ الصابرينَ إذا أصابَهُ مَكروه، كفَقرٍ أو مَرض. وكذلكَ في حالِ القِتالِ ولقاءِ العدوّ.

فهؤلاءِ الذينَ اتَّصفوا بهذهِ الصفاتِ، همُ الذينَ صدَقوا ربَّهُمْ في إيمانِهم، فاتَّبعوا الحقّ، وتحرَّوا البرّ، وأحرَزوا الخير، وابتَعدوا عنِ المحارمِ والموبقاتِ وسائرِ الرذائل، وفعلوا الطاعاتِ المطلوبةَ منهم؛ امتثالاً لأمرِ اللهِ وخَشيةً منه.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (البقرة:١٧٨)

١٧٨ – أيُّها المؤمنون، لقدْ فُرِضَتْ عليكمُ المماثلةُ والمساواةُ في أمرِ القَتلِ عَمداً، بأنْ يُقتَلَ القاتلُ بالصِّفةِ التي قُتِل بها المقْتول، وأنْ يُقتَلَ الحُرُّ بالحُرِّ، كما يُقْتَلُ العَبدُ بالعَبد، وتُقتَلُ الأنثَى بالأنثَى؛ إقامةً للعدلِ بينَ الناس.

وكانتْ أحياءٌ في الجاهليةِ إذا قُتِلتْ منهمُ امرأةٌ لم يرضَوا إلا بقتلِ رجلٍ منْ طرفِ القاتِل، وإذا قُتِلَ منهمْ عبدٌ طَلبوا قتلَ حُرّ، وإذا قُتِلَ منهمْ وَضيعٌ طَلبوا قتلَ شَريف؛ تعالياً وتَعُنُّتاً في الانتِقام. فبيَّنتْ هذهِ الآيةُ الكريمةُ حكمَ النوعِ إذا قُتِلَ نوعُه، كالأنثَى بالأنثَى، ولم تتعرَّضْ لأحدِ النوعينِ إذا قُتِلَ الآخَر، وهذا ما بيَّنتْهُ السنَّةُ منْ بعد، كأنْ يُقْتَلُ الذكَرُ بالأنثَى أيضاً؛ لاعتبارِ المماثلةِ في الدِّين، ولا يُقتَلُ مسلمٌ بكافر، ولا حرٌّ بعَبد.

فإذا عفا أهلُ القتيل، بأنْ طَلبوا بدلَ الدَّمِ دِيَةً، وهوَ مِقدارٌ منَ المالِ يؤدَّى إليهم، فليُكنْ ذلكَ مُطالبةً جَميلةً ومَعقُولة، وليؤدِّ القاتلُ الدِّيَةَ بإحسانٍ وإكرام، دونَ بَخْسٍ ولا مُماطَلة.

وتشريعُ الدِّيَةِ رحمةٌ منَ اللهِ لهذهِ الأمَّة، وكانَ التشريعُ في الدياناتِ السابقةِ العفوَ أو العقوبة، ولم تكنْ هناكَ دِيَة.

وإذا حدثَ أنْ قُتِلَ القاتلُ بعدَ أخذِ الدِّيَةِ أو قبولِها، فلفاعلِهِ عذابٌ منَ اللهِ مؤلمٌ شَديد.

{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (البقرة:١٧٩)

١٧٩ – والقَتلُ أوفَى للقَتل، وأوقَفُ لسفكِ الدماء، فإنَّهُ إذا قُتِلَ القاتلُ سكنتِ الفِتنة، وإلا زادتْ وسقطَ أكثرُ مِنْ قتيل، معَ استحكامِ العداوةِ والبَغضاءِ بينَ الفريقين، وربَّما الأهلِ والأرحام.

ففي قتلِ القاتلِ حياة، ولو بدا في صورتِهِ قَتلاً، لأنَّهُ حُكمٌ عَدْلٌ باستيفاءِ حقٍّ مِنْ سفكِ دمٍ بَريء؛ هذا لمنْ تدبَّرَ وكانَ منَ العقلاء، وإنَّما شُرِعَ القِصاصُ لتَبتَعِدوا منَ القَتل، فلا تَقتُلوا حتَّى لا تُقتَلوا.

{كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ} (البقرة:١٨٠)

١٨٠ – فُرِضَ عليكمْ إذا اقتربَ أجَلُ أحدِكمْ إنْ تركَ مالاً أنْ يوصيَ منهُ لوالديهِ وأقربائهِ بالعَدل، حقًّا مؤكَّداً على المؤمنين.

وكان هذا في ابتداءِ الإسلام، حيثُ كانتِ الوصيَّةُ فَريضةً للوالدَينِ والأقرَبين، ثمَّ نُسِخَتْ بآيةِ الميراث، وصارَ كلٌّ يأخذُ حقَّهُ بأمرٍ مُوجبٍ منَ اللهِ ورسولِه، ولم يَعُدِ الورثةُ بحاجةٍ إلى وصيَّة، بلْ لا تَجوزُ لهم، ومنهمُ الوالدان، للحديثِ الصحيح: "لا وصيَّةَ لوارِث".

ويبقَى حقُّ الأقرَبين، فإنَّهُ تُستَحبُّ الوصيَّةُ لهمْ منَ الثلثِ المسمُوحِ بهِ للموصي، استئناساً بآيةِ الوصيَّةِ وشُمولِها، وللآياتِ والأحاديثِ الواردةِ بالأمرِ ببرّ الأقاربِ والإحسانِ إليهم.

{فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (البقرة:١٨١)

١٨١ – فمَنْ غيَّرَ الوصيَّةَ وحرَّفها، بزيادةٍ أو نَقص، أو كِتْمان، عنِ الأوصياء، أو الأولياء، أو الشهود، بعدَما سمعَ قولَ الموصِي أو وصلَ إليه وتحقَّقَ لديه، فإنَّ إثمَ التغييرِ والتبديلِ على مَنْ فعلَ ذلكَ وخانَ الأمانة، ولا شَيءَ على الموصِي.

وإنَّ اللهَ سميعٌ لِما قالَ الموصِي، عليمٌ بتحريفِ المبدِّلِ وخيانتِه، ويَنتَظِرُهُ عِقابٌ شَديد.

{فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (البقرة:١٨٢)

١٨٢- فمَنْ عَلِمَ أنَّ الموصِيَ قدْ أخطأ ومالَ عنِ الحقّ، وخرجَ عنِ الحدودِ المأمورِ بها وظَلم، كأنْ يوصيَ لابنِ البنتِ ليَزيدَ مِنْ نَصيبِها في الميراث، أو نحوِ ذلكَ منَ الوسائل، فللوصيّ أنْ يُصلِحَ الوصيَّةَ على الوجهِ الشرعيّ، ولا حرجَ عليهِ في ذلك، وليسَ هوَ منَ التبديلِ والتحريف، بلْ هو طَلَبٌ لوجهِ الحقّ، وتَوفيقٌ بينَ مقصودِ الموصي والأمرِ الشرعيّ. ولهذا المصلحِ مَغفرةٌ ورَحمة، لأنَّهُ أرادَ الحقَّ والعَدل.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (البقرة:١٨٣)

١٨٣ — أيُّها المؤمنون، لقد فُرِضَ عليكمُ الصيامُ كما فُرِضَ على الذينَ مِنْ قَبلِكم منْ أهلِ الكتاب؛ ليكونَ ذلكَ عوناً لكمْ على طاعةِ اللهِ وخَشيتِهِ والبُعدِ عنْ مَناهيه، فإنَّ الصومَ فيهِ تَربيةٌ وتَزكية، وتَعليمٌ على الطاعةِ والامتثال.

{أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} (البقرة:١٨٤)

١٨٤ — وهوَ أيامٌ مَعدودات.

وكانَ ذلكَ في ابتداءِ الإسلام، يَصومونَ منَ كلِّ شهرٍ ثلاثةَ أيّام، ثمَّ نُسِخَ بصومِ شهرِ رمضان، كما يأتي في الآيةِ التالية.

أو أنَّ المقصودَ بالمعدوداتِ الشهر، ويكونُ التقليلُ تسهيلاً على المكلَّفين، فهيَ قليلةٌ بالنسبةِ لأيامِ السنة.

فمنْ كانَ مريضاً مرضاً يَضرُّهُ الصوم، أو يَعْسُرُ مَعه، أو كانَ مُسافراً سَفراً تُقْصَرُ بهِ الصَّلاة، فلا بأسَ عليهِ أن يُفطِر، على أنْ يَقضيَ ما فاتَهُ منْ ذلكَ بعدُ.

أمّا الذينَ يَصومونَهُ ولكنْ بمشقَّةٍ بالغة، كالشيخِ الكبير، والمريضِ الذي لا يُرجَى بَرْؤه، فيُعطِي بدلَ صـــيامِ كلِّ يومٍ طعامَ مِســـكين، وهوَ قَدْرُ ما يأكلهُ في يَومِه. فمنْ زادَ على ذلكَ فهوَ أفضَل.

والصومُ خيرٌ لمنْ أُبيحَ لهُ الإفطارُ إذا لم يَجِدْ في ذلكَ مشقَّة.

وإذا تبيَّنتُمْ هذا وكنتُمْ مِنْ أهلِ العلمِ والتدبُّر، علمتُمْ أنَّ الصومَ خيرٌ منْ ذلك.

وهناكَ تفســيرٌ آخرُ للآية، وهوَ قولُ الجمهور، فقدْ كانَ المســلِمونَ في أوَّلِ الأمرِ مخيَّرينَ بينَ صـيامِ عدَّةِ أيّام، أو إطعامِ مَســاكين، فيكونُ مَعناها: وعلى الذينَ يَســتطيعونَ الصِّـيام، إذا أُفطِروا، فِدية. ثمَّ نُسِختْ، وصارتِ الفِديةُ للعاجزِ إذا أُفطِر.

{شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}
(البقرة:١٨٥)

١٨٥ – شَهرُ رمَضان، الذي أَنزَلَ اللهُ فيهِ القُرآنَ العظيم، في لَيلةِ القَدْرِ منه، هادياً للنَّاسِ منَ الضَّــلالةِ إلى الإيمان، فيهِ آياتٌ واضِــحاتٌ تَهدي إلى الحقِّ مِنَ الحدودِ والأحكام، لمنْ تدبَّرَها وآمنَ بها حقَّ الإيمان. وبها يُفَرَّقُ بينَ الحقِّ والباطل، والحلالِ والحرام.

ولهذا اختارَهُ اللهُ ليَكونَ شـهرَ الصَّـومِ للمُسـلمين، فمَنْ حضَـرهُ وكانَ مُقيماً سـالماً وجبَ عليهِ صيامُهُ كلِّه.

أمّا مَنْ كانَ بهِ مرضٌ يَشُـقُّ عليهِ الصيامُ مَعه، أو يُؤذِيه، أو كانَ في حالِ سفرٍ لمسـافةٍ تَقْصُـرُ به الصــلاة، فلهُ أنْ يُفْطِر، لكنْ عليهِ أنْ يَقضــيَ هذهِ الأيامَ إذا تعافَى، أو أقام، في الأشــهرِ التاليةِ منه.

وإنَّما رَخَّصَ اللهُ لكمُ الفِطْرَ في حالاتٍ تيسيراً عليكم، ورحمةً ورأفةً بِكم.

وإنَّما أمرَكمْ بقضــاءِ ما فات، لتُكْمِلوا عددَ أيامِ الشَّــهرِ المفروضِ عليكمْ صَــومُه. ولتَذكروا اللهَ وتُعظِّموهُ وتكبِّروهُ عندَ انقضــاءِ الصــوم، ليلةَ الفطرِ ويومَ العيد؛ شُــكراً لهُ على ما هَداكمْ إلى هذهِ الطاعةِ العَظيمة، التي تَزيدُ مِنْ حسَناتِكم، وتُقَرِّبُكمْ مِنْ رحمةِ الله، ويُدخِلُكمْ بها الجنَّة.

ولتَشكروهُ على هذهِ النِّعمةِ الجَليلة، وما يسَّرَهُ عليكمْ مِنَ الفِطْرِ فيهِ للضَّرورَة.

{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} (البقرة:١٨٦)

١٨٦ — وإذا سألكَ الناسُ عنّي أيُّها النبيُّ أينَ أنا؟ فإنِّي قَريب، سَميعٌ مُطَّلع، أُجيبُ دعوةَ مَنْ يَدعوني، فليَستَجيبوا لندائي إذا دَعوتُهم للإيمان، وليَمتَثِلوا أوامِري إذا شَرَعتُ لهمُ الأحكام، وليَثْبُتوا على الإيمان، وليُداوِموا على الطَّاعة، لعلَّهم بذلكَ يَهتدونَ ويَعملونَ الأعمالَ الصالحة.

{أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} (البقرة:١٨٧)

١٨٧ — كانَ أمرُ الصومِ في شهرِ رمضانَ أوَّلاً يختلفُ شَيءٌ منهُ عمّا شُرِعَ مِنْ بعد، فكانَ مَسموحاً للصائمِ أنْ يأكلَ ويَشرَبَ ويَنكِحَ بعدَ الإفطارِ ما لم يَنَم، فإذا نامَ حَرُمَ عليهِ ذلك. وهذا التحريمُ يَنالُ الذي لم يُفْطِرْ أيضاً، فلو نامَ ولم يُفْطِرْ لم يَجُزْ لهُ الإفطارُ بعدُ. فشقَّ ذلكَ على الصحابةِ رضوانُ اللهِ عليهم، وأُغميَ على رَجلٍ منهم، كما وقعَ بعضُهمْ على نسائه، فنزلتِ الآيةُ الكريمة، ففَرِحوا فرَحاً شَديداً، وفيها:

لقدْ أحَلَّ اللهُ لكمُ الجِماعَ في ليلةِ الصيام، فأنتُمْ سَكَنٌ وسِترٌ لِنسائكم، تَلمَسوهنَّ وتُضاجِعوهنَّ ولا تَصبِرونَ عنهنَّ مع كثرةِ ملابَستِكمْ لهنّ. وهنَّ كذلك.

وقدْ عَلِمَ اللهُ أنَّكمْ كنتُمْ تَخونونَ أنفُسَكمْ وتُعَرِّضونَها للعِقابِ بمواقعَتِهنَّ وقدْ نُهيتُمْ عنْ ذلك، فتابَ عليكمْ عندما تُبتُمْ منْ ذلكَ وعَفا عنكم، فلا بأسَ الآنَ منْ مباشرتِهنّ، واطلبوا ما قدَّرَهُ اللهُ لكمْ منَ الذرِّية.

وكُلوا واشرَبوا في الليلِ حتَّى يتبيَّنَ لكمْ بَياضُ النَّهارِ مِنْ سَوادِ الليل، وهوَ الفَجر، ثمَّ أكمِلوا صومَكمْ مِنْ هذا الوقتِ حتَّى يَحِينَ المغرِبُ مِنَ الليل.

ولا تُجامِعوا نســاءَكمْ وأنتُمْ مُقيمونَ في المســاجدِ بنيَّةِ الاعتِكاف، إذا خَرجتُمْ منها إلى البيوتِ لحاجَة.

وتلكَ الأحكامُ المذكورةُ في الصِّـيامِ والاعتِكافِ حُدودٌ حَدَّها اللهُ فلا تقرَبوها، فَضــلاً مِنْ أنْ تَتجاوزوها. فلا تَقرَبوا الحدَّ الحاجزَ بينَ الحلالِ والحرامِ خشـــيةَ أنْ تقعوا فيه. وهوَ مبالغةٌ في النهي عنْ تخطِّيه.

وهكذا يبيِّنُ اللهُ الأحكامَ المشروعةَ للناسِ بوضوحٍ ليَهتدوا بها، ولئلّا يُخالِفوا أوامرَهُ ونَواهيه.

{وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} (البقرة: ١٨٨)

١٨٨ – ولا يَأكُلْ بَعضُكمْ أموالَ بَعضٍ بدونِ حقّ، كأنْ يكونَ على الرجلِ دَيْنٌ ولا بيِّنةَ على ذلك، فيَجحَدُه، ويُخاصِمُ بهِ القضاةَ والحُكّام، وهوَ يَعرِفُ أنَّ الحقَّ عليه، وأنَّهُ آكِلُ حَرام. أو بأيِّ شكلٍ آخرَ يُوجِبُ إثماً، كشهادةِ الزُّور، واليَمينِ الفاجِرَة، والسرِقَة، والغَصْب، والقِمار، وأكلِ أموالِ اليَتامَى، وجَحْدِ الودائع. وإنَّ ارتكابَ المعاصي معَ العلمِ بها أعظمُ جُرْماً.

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِّ وَلَيْسَ البِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ البِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (البقرة:١٨٩)

١٨٩ – ويسألُكَ الناسُ –أيُّها الرسولُ الكريمُ– عنْ فائدةِ الأهلَّةِ[١٢] والحِكمةِ منها، فقلْ لهم: لقدْ جعلَها اللهُ مواقيتَ للناس، يعرفونَ بَها أوقاتَ عباداتِهم، منَ الصــيام، والزَّكاة، والحجّ، والكَفّارات، ويَعرِفونَ بها حُلولَ أجَلِ الدَّين، وعِدَّةَ النساء، وأوقاتَ الزراعة، وما إلى ذلك.

---

(١٢) جمعُ هلال، مثلُ رداء وأردية، سمِّيَ هلالاً لأن الناسَ يرفعون أصواتَهم بالذكرِ عند رؤيته، من قولهم: استهلَّ الصبيُّ إذا صرخَ حين يولد، وأهلَّ القومُ بالحجِّ إذا رفعوا أصواتهم بالتلبية. (البغوي).

وليسَ منَ الخيرِ أنْ تَدخُلوا البيوتَ منْ فُرَجٍ وأنقابٍ وتَتركوا الأبوابَ إذا كنتُمْ مُحْرِمين، ولكنَّ الخيرَ مَنْ خَشِــــيَ اللهَ وتركَ مخالفةَ أمرِه، فادخُلوا البيوتَ مِنْ أبوابِها كالعادةِ ولو كنتُمْ مُحْرِمين، وكونُوا على طاعةٍ واستِقامةٍ لتَفوزوا بالبِرّ والهُدَى.

وكانتِ الأنصارُ وقبائلُ منَ العربِ تَفعلُ ذلك، فنزلتِ الآيةُ الكريمة.

{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} (البقرة: ١٩٠)

١٩٠ – وقاتِلوا في ســـبيلِ اللهِ وإعلاءِ دينِهِ الذينَ يُقاتِلونَكم منَ الكفّار، ولا تَعتَدوا في ذلك، كقتلِ النســـاءِ والصـــبيانِ والشـــيوخِ والرهبان، وكالتمثيلِ بالقتلَى، وكحرقِ الأشـــجارِ وقتلِ الحيواناتِ لغَيرِ مَصلحة، فإنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المتجاوزينَ في حدودِ ما شُرِعَ لهم.

{وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ} (البقرة: ١٩١)

١٩١ – وتطوَّرَ أمرُ الجهاد، فقالَ اللهُ ما معناه: واقتُلوا المشـــركينَ أينَما وجَدتُموهم، دِفاعاً وهُجوماً، وأخرِجُوهم منْ ديارِهم كما أخرجُوكمْ منْ ديارِكم، وما همْ عليهِ منَ الكفرِ والشِّـــركِ أعظمُ منَ القَتل، فقدْ كانوا يَفْتِنونَكمْ عنْ دينِكم، ويُعَذِّبونَكم، ويُصـــادِرونَ أموالَكم، ولا يَســـمحونَ لكمْ بإقامةِ شـــعائرِ دينِكم، ويُقاتلونَكم ليُبيدُوكم، انطلاقاً منْ ملَّةِ الكفرِ التي همْ عليها.

ولا تَبدَؤوهم بالقِتالِ عندَ المسجدِ الحرامِ حتَّى يَبدَؤوا همْ به، فإذا قاتلوكمْ فيهِ فلا تُبالوا بقِتالِهم، فإنَّ هذا جزاءُ الكافرينَ المعتَدين، يُفْعَلُ بهمْ مثلَما فَعلوا.

{فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (البقرة: ١٩٢)

١٩٢ – فإذا انتَهَوا عنِ القِتالِ والكُفر، فإنَّ اللهَ يَغفِرُ لهمْ ما سَـــلف، ويَرحمُهم، ولو أنَّهمْ قَتلوا المسلمينَ في حَرَمِ الله، فإنَّ اللهَ يتوبُ على مَنْ تابَ مهما تعاظَمَتْ ذنوبُه، ويَغفِرُها له.

{وَقَـاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَـةٌ وَيَكُونَ الـدِّينُ للهِ فَـإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُـدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ} (البقرة:١٩٣)

١٩٣ — وقاتِلوا الكافِرينَ حتَّى تَكسِروا شَوكتَهمْ ولا يَبقَى هناكَ شِرك، ويكونَ الدِّينُ خالِصاً لله، ظاهِراً على سائرِ الأديان، لا نَصيبَ للشيطانِ فيه، ولا أمرَ للكفّارِ عليه. فإذا انتَهَوا عنِ الشِّـــركِ وقتالِ المؤمنينَ فكُفُّوا عنهم، ولا تَعتَدوا عَليهم، فإنَّهُ لا عُقوبةَ إلا للظالم، وهؤلاءِ تابوا مِنْ ظُلمِهم.

{الشَّهْرُ الحَرَامُ بِالشَّهْرِ الحَرَامِ وَالحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِينَ} (البقرة:١٩٤)

١٩٤ — وإذا قـاتلَكمُ المشـــرِكونَ في الأشـــهرِ الحُرُمِ –وهيَ رجبٌ وذو القَعْدةِ وذو الحِجَّةِ والمحَرَّمُ– فقـاتِلوهمْ فيهـا، فـإنَّ كـلَّ حُرْمَـةٍ أو أمرٍ معظَّمٍ يُهْتَـكُ مِنْ قِبَلِهِمْ يُفْعَـلُ بهِمْ مثلُـه، فقاتِلوهمْ جزاءَ اعتدائهمْ عَليكم، وأطيعُوا اللهَ في أمورِكمْ واتَّقُوه، فلا تُبادِروهمْ بالقِتالِ في الحَرَمِ أو الأشـــهرِ الحرُم، ولا تَعتَدوا إذا انتَصـــرْتُم، فإنَّ اللهَ معَ الذينَ يَمتَثلونَ أوامرَهُ بالنصـــرِ والتأييدِ والتمكين.

{وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} (البقرة: ١٩٥)

١٩٥— قالَ بعضُ الأنصـارِ لبعضِـهمْ سِرًّا: إنَّ أموالَنا قدْ ضـاعت، وإنَّ اللهَ قدْ أعزَّ الإسلام، وَكَثُرَ ناصِروه، فلو أنّا أقَمنا في أموالِنا فأصلَحْنا ما ضاعَ منها. فأنزلَ اللهُ هذهِ الآيةَ فيهم.

قالَ أبو أيُّوبٍ الأنصـاريُّ رَضيَ اللهُ عنه، كما في الحديثِ الصحيح: فكانتِ التهلُكَةُ: الإقامةَ على الأموالِ وإصلاحِها، وتَرْكَنا الغزوَ.

وفي الآيةِ توجيهٌ عـامٌّ وأمرٌ للمســـلمينَ بما هوَ مَطلوبٌ منهم: أنفِقوا مِنْ أموالِكم في الجهادِ وسُـــبلِ الخَير، وإنَّ تَرْكَ ذلكَ خَســـارةٌ وهلاك، فأحسِـــنوا أعمالَكمْ وأخلاقَكم، وأنفِقوا على الجهادِ وأهلِ الحاجة، فإنَّ اللهَ يُريدُ الخيرَ بالمحسنين.

{وَأَتِمُّوا الحَجَّ وَالعُمْرَةَ للهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالعُمْرَةِ إِلَى الحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي المَسْجِدِ الحَرَامِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ} (البقرة:١٩٦)

١٩٦ – وإذا بدأتمُ الحجَّ والعمرةَ فأتِمُّوا مناسِكَهُما، فإذا حُبِسْتُمْ ومُنِعتُمْ منَ الوصولِ إلى البيتِ الحرامِ ولم تتمكَّنوا منْ إتمامِ المناسِك، فبإمكانِكمُ التحلُّلُ منها بذَبحِ هَدْي، منْ إبِلٍ أو بقرٍ أو شياه.

والتحَلُّلُ هو الخروجُ منَ الإحرامِ بالطريقِ الشرعيّ.

ولا تَحلِقوا رؤوسَكمْ –وهوَ علامةٌ على التحلُّلِ– حتَّى تَعلموا أنَّ الهَدْيَ المبعوثَ إلى الحرمِ قدْ بلغَ المكانَ الذي يَحِلُّ فيهِ ذَبحُه. وهوَ للآمِنِ الحرَم، وللمُحصَرِ مَكانُ الإحصار. وفي المسألَةِ اختِلافٌ وتَفصيل. قالَ القُرطُبيُّ في تَفسيرِه: جُمهورُ النَّاسِ على أنَّ المحصَرَ بعَدوٍّ يُحِلُّ حَيثُ أُحصِر، ويَنحَرُ هَديَهُ إنْ كانَ ثَمَّ هَدْي، ويَحلِقُ رَأسَه. اهـ.

فمنْ كانَ مريضاً مَرضاً يُحْوِجهُ إلى الحَلق، أو بِهِ أذًى مِنْ رأسه، كقَملٍ وجِراحة، فعَليهِ فِديةٌ إنْ حَلق: وهوَ أنْ يصومَ ثلاثةَ أيام، أو يَتصدَّقَ على ستَّةِ مساكين، أو يَذبحَ شاةً أو غيرَها ممّا ذُكِر، يَتصدَّقُ ويَذبَحُ في الحَرَم.

فإذا تمكَّنتُمْ منْ أداءِ المناسِك، فمنْ كانَ منكمْ مُتَمتِّعاً بالعُمرةِ إلى الحجّ، أي اعتمرَ ثمَّ نوَى الحجّ، أو نَواهما معاً، أي قرنَ بينَهما، فعليهِ أنْ يَذبحَ ما قَدَرَ عليهِ منَ الهَدْي، وأقلُّهُ شاة، فإنْ لم يقدِرْ على ذلكَ فليصُمْ ثلاثةَ أيّامٍ في الحَجّ، وسبعةً إذا رجعَ إلى وطنِه، فهيَ عشرةُ أيّام.

وهذا التمتُّعُ للناسِ ما عدا أهلَ مكةَ والحرم، ويُلْحَقُ بهِمْ مَنْ كانَ قريباً منَ الحرمِ على مسافةِ قَصرِ الصَّلاةِ عندَ الشافعيّ رحمَهُ الله.

واخشَوا اللهَ ونفِّذوا ما يأمرُكمْ بهِ ويَنهاكمْ عنه، واللهُ يُعاقِبُ مَنْ خالفَهُ عُقوبةً شديدة.

{الحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ} (البقرة:١٩٧)

١٩٧ – وأشهُرُ الحجِّ معروفة، وهي شوَّالٌ وذو القَعْدَةِ وعَشرٌ مِنْ ذي الحِجَّة، فمنْ نوَى فيهنَّ الحجَّ وأوجبَهُ على نفسِه، فليلتَزمْ بآدابِه: فلا يجوزُ فيهِ الجِماعُ ولا دواعيه، ولا ارتكابُ المعاصي والفواحشِ والمحظورات، ويعني التأكيدَ على ذلكَ في أثناءِ الحجِّ الذي قُصِدَ لطاعةِ الله، ولا جِدالَ ولا مُخاصَمةَ في الحجّ، فلا يُماري الحاجُّ أخاهُ حتَّى يُغضِبَه، ولا يسبُّهُ ولا يُنازعُه، وخاصَّةً رفقتَهُ وخدَمَه.

وما تَفعلوا منْ أعمالٍ صالحةٍ يَعْلَمْها الله، ويَجزِ بها خيرَ الجزاء.

واجلُبوا معكمْ منَ الزادِ ما يَكفُّ وجوهَكمْ عنِ السؤالِ في الحجِّ ولا تَتواكلوا.

وإنَّ خيرَ ما تزوَّدتمْ بِهِ هو ما ينفعُكمْ في الآخِرَةِ منَ التقوَى والعملِ الصالحِ والطَّاعة.

واخشَوا عِقابي إذا خالفتُمْ ما أمرتُكمْ بِهِ يا ذَوي الأفهامِ وأهلَ العقولِ الراجِحة.

{لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ المَشْعَرِ الحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ} (البقرة:١٩٨)

١٩٨ – ولا حرجَ عليكم إذا تكسَّبتُمْ وتاجَرتُمْ في الحجّ.

وإذا دُفِعتُمْ مِنْ عرفاتٍ بعدَ الوقوفِ به، فاذكروا اللهَ بالتَّلبيةِ والتهليلِ والدعاءِ عندَ المَشْعَرِ الحَرَام. وهوَ جبلٌ بآخرِ المزْدَلِفة، وقدْ وقفَ الرسولُ صلى الله عليه وسلم هناكَ "فاستقبلَ القِبلة، فدعاهُ وكبَّرَهُ وهلَّلَهُ ووحَّده"، كما في صحيحِ مسلم.

واذكروا اللهَ كما هَداكمْ لمعالِمِ دينِهِ ومناسكِ حَجِّه، وعلَّمَكمْ ما لم تَكونوا تَعلَمون.

{ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (البقرة:١٩٩)

١٩٩ – ثمَّ اندفِعوا منْ عرفاتٍ كما كانَ الناسُ يَندفعونَ منهُ مِنْ لدنْ إبراهيمَ عليهِ السلام، للمَبيتِ بمُزْدَلِفةَ ورَمي الجِمارِ وإكمالِ سائرِ المناسك.

وكانتْ قريشٌ وما وَلَدتْ لا تَقِفُ بعرفاتٍ مثلَ باقي القبائل، ولا تُفيضُ منه، فنـــــزلتِ الآيةُ فيهم، كما رواهُ البخاريُّ وغيرُه.

واستغفِروا اللهَ مِنْ جاهليَّتِكمْ في تَغييرِ المناسك، فإنَّهُ يَغفِرُ ذنبَ المستَغفرِ ويَرحمُه.

{فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ} (البقرة:٢٠٠)

٢٠٠ – فإذا أنهيتُمْ مناسكَ الحجِّ فاحمَدوا اللهَ واشكروهُ على توفيقهِ إيّاكم، وادعوهُ وزِيدوا منْ ذِكرهِ كما يَلهَجُ الصـــبيُّ بذكرِ أمِّهِ وأبيه، وكما تَذكرونَ آباءَكمْ في مفاخرِهمْ وأيّامِهم، بلْ أكثرَ ذكراً، فإنَّهُ ربُّكمْ وربُّ آبائكمْ والمنعِمُ عليكمْ جَميعاً.

ومنَ الناسِ مَنْ لم يُوَفَّقْ في الدُّعاء، فيَقولُ أحدُهم: ربَّنا زِدْنا منَ النِّعَمِ والخَيراتِ في الدُّنيا، واجعَلْ هذا العامَ عامَ خِصْبٍ وغَيْث. فمِثْلُ هذا لا نَصيبَ لهُ في الآخِرَة، لأنَّهُ لم يَسألْ لنفسهِ خيرَها.

{وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آَتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} (البقرة:٢٠١)

٢٠١ – وهناكَ مَنْ يَدعو فيُحْسِـنُ الدُّعاء، ويَجمَعُ فيهِ بين خَيرَي الدُّنيا والآخِرَة، فيَقول: ربَّنا أعطِنا جِماعَ الخَيرِ في الدنيا والآخِرَة.

وهوَ كأنْ يدعوَ لنفسهِ بالرزقِ الواسع، والزوجةِ الصالحة، والمركبِ الهنيء، والثناءِ الطيِّب، والعلمِ النافِع.

كما يدعو لنفســهِ بحُســنِ الخاتمة، والأمنِ يومَ الحشــرِ والحِســاب، ودخولِ الجنَّةِ معَ الأبرار، والوقايةِ منْ عذابِ النار.

{أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} (البقرة:٢٠٢)

٢٠٢ – فهؤلاءِ ســنُعطيهمْ نَصـــيبَهمُ الذي دَعَوا به، مِنْ قَبولِ حجٍّ وغيرِه، واللهُ ســريعٌ في الحِساب، يُحاسِبُ عبادَهُ بسُرعةٍ فائقة، على كثرتِهمْ وكثرةِ أعمالِهم.

{وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} (البقرة:٢٠٣)

٢٠٣ – واذكُروا اللهَ وكبِّروهُ في أيّامِ التَّشريق، وهيَ يومُ عيدِ الأضحى معَ الأيّامِ الثلاثةِ التاليةِ له، وهيَ أيامُ أكلٍ وشُربٍ وذِكر، لا يجوزُ صومُها. فمنْ أرادَ أنْ يَنْفِرَ مِنْ مِنىً ثانيَ أيّامِ التشريقِ فلا حرجَ عليه، ومَنْ أرادَ أنْ يَبقَى إلى اليومِ الثالثِ ويرميَ الجِمارَ فلا حرجَ عليهِ أيضاً.

وكانوا في الجاهليَّةِ يُعَيِّرونَ المتَعَجِّلَ ويؤثِّمونَ المتأخِّر، فبيَّنتِ الآيةُ عدمَ القَدْحِ في ذلك. وهوَ اللائقُ بمَنْ حجَّ للهِ والتزمَ بالمناسكِ كما شَرعَ الإسْلام.

فكُونوا على تَقوًى منَ الله وخَشيةٍ منه، بامتِثالِ الأوَامرِ وتَركِ المحظوراتِ، واحذَروا الإخلالَ بما ذُكِرَ منَ الأحكام، وتيقَّنوا بأنَّكمْ ستَعودونَ إلى الحياةِ بعدَ موتِكم، فيحاسِبُكمُ اللهُ على أعمالكمْ ويجازيُكمْ عَليها.

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ} (البقرة:٢٠٤)

٢٠٤ – وهناكَ منَ الناسِ مُنافِقون، يَقولُ لكَ أحدُهمْ كلاماً جَميلاً في ظاهره، يُنْبِئُ عنْ مَحَبَّةٍ وطَاعة، ويَحْلِفُ أنَّهُ صادقٌ في إيمانهِ وموقفه، وهوَ في الحقيقةِ مِنْ أشدِّ الخُصَماءِ لكَ وللدِّين، فهوَ يَكذِبُ ويَفْجُر، ولا يوافقُ باطِنُهُ ظاهرَه، وما كلامهُ هذا سِوَى تمويهٍ وسِترٍ يُخفيه، خشيةَ أنْ ينالَهُ سيفُ الإسلام، أو أنَّهُ يتحيَّنُ الفُرصةَ ليؤذيَ المسلِمين.

{وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الفَسَادَ} (البقرة:٢٠٥)

٢٠٥ – وإذا مضَى أحَدُ هؤلاءِ المنافِقينَ الكذّابينَ عَمَدَ إلى بَثِّ الفسادِ وزرعِ الشرِّ والإضرارِ بكلِّ ما هوَ حيّ، قاصداً إهلاكَ الأحياءِ وتخريبَ الزُّروعِ والثِّمارِ والبيئةِ ونشرَ الخَرابِ والدَّمار، فلا مبادئَ ساميةٌ عندَه، ولا خوفَ لديهِ منَ الحِساب، حيثُ لا يؤمِنُ به، بلْ شأنهُ الغدرُ

والشـرُّ والفَسـاد، واللهُ يَبْغُضُ الفَسـادَ في الأرض، ولا يُحِبُّ مَنِ اتَّصـفَ به، ولا تَخفَى عليهِ سَرائرُ النَّاس، فلا تَغُرَّنَّكمُ المظاهرُ والكلِماتُ المعسُولة.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المِهَادُ} (البقرة:٢٠٦)

٢٠٦ – وإذا وُعِظَ أحدُ هؤلاءِ المنافقينَ وقيلَ له: احذَرْ غَضبَ الله، وانْتَهِ مِنْ فَعالِكَ السيِّئة، وارجِعْ إلى الحقّ، أخَذتْهُ الحميَّةُ والغَضـب، وتعاظمَ واسـتكبرَ أنْ يُوَجَّهَ لهُ مثلُ هذا التذكيرِ والإنكار، لِما امتلأ قلبُهُ مِنَ الكفرِ والعِصيان، فما استَحيا منَ الله، ولا سمعَ كلامَ أحَد، وهوَ في واجهتِهِمْ يتَظاهرُ بالإيمانِ والمحبَّةِ والطَّاعة!

ويَكفي أنْ يَكونَ نصيبَهُ النارُ الفظيعةُ يومَ الدين، جزاءَ إفسادِهِ وفُجورِه، وكذبِهِ ونفاقِه، وبئسَ المكانُ الذي يَكونُ فيهِ المرءُ مُعَذَّباً مُحتَرِقاً تأتي النارُ حتَّى على فؤاده، وهوَ يطلبُ فيهِ الموْت، ولكنْ لا موْتَ ولا حَياة، ولكنَّهُ نارٌ مؤجَّجةٌ وعَذابٌ مُستَمِرّ.

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالعِبَادِ} (البقرة:٢٠٧)

٢٠٧ – وفي مقابلِ المنافقينَ الفاجِرين، هناكَ منَ المؤمنينَ مَنْ يَهَبُ ما ملكَ ليَنفُذَ بإيمانِه؛ طلباً لرضَى الله، كما فعلَ صُـهَيبٌ الروميّ، عندما أسـلمَ بمكَّةَ وأرادَ الهِجرةَ إلى المدينة، فمُنِع، فتجرَّدَ منْ مالِهِ وتخلَّصَ منهمْ بذلك. فمثلُ هذا يرحمهُ الله.

والآيةُ في كلِّ مجاهدٍ في سبيلِ الله، يَهَبُ روحَهُ ليَرضَى عنهُ الله، تاركاً الدُّنيا وما فيها، لينتصرَ لدينِ الله، فتَنتَشِـرُ المبادئُ العَظيمة، والأحكامُ العادِلة. فشـتّانَ بين المنافِقِ وما طَلب، وبينَ المؤمنِ المجاهدِ وما وَهَب.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} (البقرة:٢٠٨)

٢٠٨ – أيُّها المؤمنون، خُذوا بجَميعِ عُرَى الإسْلامِ وشَرائعهِ وشُعَبِ إيمانِه، والتزمُوا بجميعِ أوامرهِ وأحْكامِه، وانتَهوا عنْ جميعِ زَواجرِه، واجتَنِبوا ما يأمرُكمْ بهِ الشَّيطان، فإنَّهُ عدوٌّ ظاهرٌ لكم، لا يأمرُكمْ إلاّ بالسوءِ والفَحشاءِ لتَكونوا مِنْ أصحابِ النَّار.

{فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جاءَتْكُمُ البَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (البقرة:٢٠٩)

٢٠٩ – فإذا مِلتُمْ عنِ الإسْـلامِ وكفرتُمْ بالحقّ بعدَ أنْ عرَفتُموهُ وتأكَّدتمْ مِنْ صِـحَّتهِ بالحُجَجِ والبَراهين، فاعلموا أنَّ اللهَ غالِبٌ لا يَفوتهُ شـيء، ولا يُعجِزهُ الانتقامُ منكم، حكيمٌ صـائبُ الحُكمِ دائماً، لا يَتركُ ما تَقتضيهِ الحكمةُ مِنْ مؤاخذةِ العُصاةِ المتكبّرين.

{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ وَالمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ} (البقرة:٢١٠)

٢١٠ – هؤلاءِ المنحرِفونَ عنِ الإسْلام، لا يَنتظرونَ سِوَى الساعةِ الحاسمةِ يومَ القيامة، ليقضيَ اللهُ القضـاءَ الفصـلَ بينَ العباد، يأتي سـبحانَهُ في ظُلَلٍ منَ الغمام، والملائكةُ الذينَ يُنَفِّذونَ أوامرَه.

وانتهَى الأمرُ بقضاءِ اللهِ العَدل، فلا خطأ فيه ولا مُراجعةَ عليه، وتمَّ أمرُ إهلاكِهمْ بما يَستَحِقُّونَهُ مِنْ عَذابٍ مُؤلم. وليُعلمَ أنَّ الأمرَ الأخيرَ هوَ للهِ سُبحانَه، لا لغَيرِه، يُجازي كلاًّ بعَملِه.

{سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ} (البقرة:٢١١)

٢١١ – اسـألْ بني إسـرائيلَ كمْ آتيناهُمْ منْ أدلَّةٍ ظاهرة، وبَراهينَ كثيرة، على صِـدقِ نبيِّهمْ موسَى عليهِ الصلاةُ والسلامُ فيما جاءَ به، ومعَ ذلكَ أعرَضوا عنها، واستبدَلوا الكفرَ بالإيمانِ بها!

ومَنْ يُبدِّلُ نعمةَ الإيمانِ التي جاءتْهُ بالشـكِّ والإعراض، فإنَّ اللهَ ذو عقابٍ شَـديد، وسـوفَ يُجازيهمْ به.

{زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} (البقرة:٢١٢)

٢١٢ – لقدْ زُيِّنتِ الحياةُ الدُّنيا في عُيونِ الكافرينَ الذين رَضُـــوا برفاهيتِها، وتهالَكوا عليها، وتشبَّثوا بها، واطمأنُّوا إليها، ولم يتجاوزوها إلى ما هو أرقَى وأسمَى، وسَخِروا منَ المؤمنينَ الذين زَهِدوا فيها، وفضَّلوا حياةَ الجهادِ والدعوةِ والعِبادة، وأنفَقوا ما عندَهمْ ابتغاءَ وجهِ الله، ولو كانَ ما عندَهمْ قليلاً. فكانوا منَ المكرَمينَ الذينَ حازوا الحظَّ الأوفرَ والدرَجةَ العُليا، والآخَرونَ ذُلُّوا وأُهينوا وكانوا في الدرَكاتِ السُّفلَى.

والله يدَّخرُ الخَيرَ للمتَّقين، وهوَ الرازقُ الذي يَمنَحُ مَنْ يشاءُ مِنْ عبادهِ العطاءَ الجَزْل، بلا حصرٍ ولا تَعداد، جزاءَ ما أنفقوا مِنْ مالٍ ووقتٍ وقوَّةٍ في سَبيلِ الله.

{كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} (البقرة:٢١٣)

٢١٣ –كانَ النَّاسُ على شَريعةٍ واحدةٍ منَ الحقّ، ثمَّ اختلَفوا وصَاروا يعبدونَ الأصنامَ وغيرَها، فأرسلَ اللهُ إليهمُ الأنبياءَ ليبشِّروهمْ بالجزاءِ الحسَنِ إنْ همْ أطاعوا وثَبَتوا علَى الحقّ، وليُخوِّفوهمْ منَ العِقابِ الشَّديدِ إنْ همْ خالَفوا وعصَوا. وأنزلَ معهمُ الكُتبَ بالحقّ والعَدلِ والقولِ الفَصل، ليَتدبَّرَها الناسُ ويَتحاكموا إلى ما فيها مِنْ أوامرَ ونَواه، ففيها الحقُّ، ولا قولَ بعدَها.

وما اختلفَ في هذهِ الكتبِ إلاّ الذينَ نَزلتْ فيهمْ بعدَما قامَتْ عليهمُ الحُجَجُ ووَضَحَ لهمُ الأمرُ ورسَـــخَ في عُقولِهم. وما حملَهمْ على هذا الاختلافِ إلا الحسَـــدُ والطَّمَع، والظُّلمُ والهوَى، والخُصومَةُ واللَّجاجَة، والعِنادُ والتمرُّدُ على الحقّ، والتهالُكُ على الدنيا.

وقدْ هدَى اللهِ بلُطفهِ وتيسـيرِهِ المؤمنينَ إلى الحقِّ فيما اختُلِفَ فيهِ مِنْ ذلك، لصَـفاءِ نُفوسِـهم، واســـتِعدادِهمْ لقَبولِ الحقّ، فأقامُوا على الإخلاصِ للهِ وحدَه، وعبادتهِ على بيّنةٍ واســـتِقامَة، واعتَزلوا الخلاف، وتَركوا الأهواءَ والنَّزوات، والخُصومةَ والعِناد.

والله يَهدي مَنْ يشـــاءُ مِنْ خَلْقهِ إلى الطريقِ المســـتَقيم، ممَّنْ يَعْلَمُ فيهمُ الرغبةَ في اتِّباعِ الهُدَى وتقبُّلِ الحقّ. وهوَ الهادي إلى سَواءِ السَّبيل.

{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ} (البقرة:٢١٤)

٢١٤ – وهلْ ظننتُمْ أيُّها المسلِمونَ أنّكمْ ستَنالونَ الجنَّةَ دونَ أنْ تُبْتَلوا وتُمْتَحَنوا، ودونَ أنْ يُصيبَكمْ مثلَما أصابَ الذينَ مِنْ قبلِكم، وقدْ نالتْ منهمُ الأمراضُ والآلام، والمصائبُ والكوارِث، والفقرُ والجَهدُ والخَوف؛ ليتبيَّنَ بذلكَ كلِّهِ صبرُكمْ وإيمانُكمْ وثباتُكمْ على الحقّ، الذي يَنبغي ألاّ تُزيحَهُ الاختِبارات، ولا تَعصِفَ بهِ البلايا. وقدْ أُزعِجوا إزعاجاً شَديداً وزُلزِلوا خَوفاً منَ الأعدَاء، وامتُحِنوا امتِحاناً عَظيماً، حتَّى صارَ الرسولُ وأتْباعهُ المؤمنونَ يَدعونَ بالنصرِ وقُربِ الفرَجِ والمخرَجِ منْ هذا الضِّيقِ الشَّديد.

وإنَّ نصرَ اللهِ قريبٌ ممَّنْ صبرَ على مُكابدةِ المشاقّ، وجاهدَ حقَّ الجهَاد، فكانَ أهلاً للنَّصر، وإنَّ معَ العُسرِ يُسراً وتَوفيقاً، ونَصراً وفرَجاً.

{يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ} (البقرة:٢١٥)

٢١٥ – يسألُكَ أصحابُكَ أيُّها الرسولُ ما الذي يُنفِقونَهُ مِنْ أموالِهِمْ وعلى مَنْ؟ فقلْ لهم: الأَولَى صَرفُ ما تَطوَّعتمْ بِهِ على مَنْ لهُ حقٌّ عَليكم، وهم: الوالدانِ الواجبُ بِرُّهما، والأهلُ: الأقرَبُ منهمْ فالأقرَب، واليتامَى منَ الصِّغارِ الذين فَقدوا آباءَهم، وهمْ مَظِنَّةُ الحاجةِ لعدمِ قُدرتِهمْ على الكَسب، والمساكينُ: الذينَ لا يَجدونَ ما يَكفيهم، وابنُ السبيل: الغَريبُ الذي انقطعَ عنْ بلدهِ ولا يَجدُ ما يُبْلِغهُ إليه.

وما تُنفِقوا مِنْ أموالٍ على هؤلاءِ المحتاجين، وما تَفعلوا مِنَ الطَّاعاتِ والقُرُبات، يَعلَمْها الله، وسيَحفظُها لكم، ويُجازيكمْ عليها أفضلَ الجزاء.

{كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (البقرة:٢١٦)

٢١٦ – فَرَضَ اللهُ عَليكمُ الجِهادَ وهوَ شــاقٌّ عليكم، تَكرهُهُ النفوسُ وتَســتَثقِلُه، ولكنْ رُبَّما كَرِهتُمْ شيئاً وفيهِ خيرٌ لكم، فإنَّ نتيجتَهُ –إنْ شاءَ اللهُ– النصرُ على الأعداءِ وفتحُ بلادِ الكفرِ ورفعُ رايةِ الإسلام، أو الشهادةُ التي يَدخلُ بها المرءُ الجنَّة. وعسَى أنْ تحبُّوا شَيئاً وفيهِ شرٌّ لكم، فإنَّ القُعودَ عنِ الجهادِ والركونَ إلى الكسـلِ والرفاهيةِ يُعطي نتيجةً عَكسـيَّة، فيَسـتولي الأعداءُ على البلاد، ويَنهزمُ المسلِمون، ويَتحكَّمُ الكفّارُ في شؤونِهم.

فالجهادُ سَببٌ لحصولِ النصرِ والأمن.

واللهُ أعلمُ منكمْ بمآلِ الأمور، وأخبَرُ بما فيهِ صــلاحُكمْ في دنياكمْ وآخِرَتِكم، فالتزِموا جانبَ الجهادِ والقُوَّة. وقدْ قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كما في صحيحِ مسلم: "مَنْ ماتَ ولم يَغْزُ ولم يُحَدِّثْ بهِ نفسَهُ، ماتَ على شُعْبةٍ مِنْ نِفاق".

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالمَسْجِدِ الحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآَخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (البقرة:٢١٧)

٢١٧ – يَسألونكَ عنِ القِتالِ في الأشـهرِ الحُرُم، وهي رَجبٌ وذو القَعْدةِ وذو الحِجَّةِ والمحَرَّم، فقل: لا يَحِلُّ ذلك، بلْ هوَ أمرٌ جَلَلٌ وذَنبٌ كبير.

وإنَّ منعَ الناسِ عنِ الدِّينِ الحقّ، والكفرَ باللهِ العَظيم، وبالمسجدِ الحرام، عندما انتهكَ المشركونَ حُرمتَه، وآذَوا المسلمينَ مِنْ أهلِه، وفَتَنوهمْ في دينِهم، وعذَّبوهمْ ليَردُّوهمْ إلى الكفر، وأخرَجوهمْ منْ حَرَمِهم، هوَ أشدُّ وأعظمُ منَ القَتلِ في هذهِ الأشهر.

وهمْ مُقيمونَ على هـذا المســلَكِ الخَبيث، فلا يَزالونَ يقـاتلونَكمْ غيرَ تائبينَ ولا نازعينَ عنْ ذلك، حتَّى يُعيدوكمْ إلى ملَّةِ الكفرِ والضَّلال، إذا قَدِروا عليه.

ومَنْ يَرْجِعْ منكمْ عنْ دِينهِ ويَمُتْ على الكُفر، فقدْ فســدَ عملهُ كلُّه، وضـيَّعَ ما كَسَــبَهُ مِنْ حسَناتٍ في أثناءِ إسلامِه، ولم يَعُدْ يُفيدهُ إيمانهُ السَّابق، وسَيكونُ مِنْ أهلِ النار، الباقينَ فيها أبداً.

وقدِ اختلفَ العلماءُ في تَحريمِ القتالِ في الأشـهرِ الحُرُم، هلْ هوَ باقٍ أمْ نُسِـخ؟ وأشـهرُ الأقوالِ على أنَّهُ منســـوخ، بدلائلَ أخرَى، منها قولُهُ تعالى: {فَاقْتُلُواْ الْمُشْــرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ} [التوبة: ٥]. والله أعلم.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (البقرة:٢١٨)

٢١٨ — وأمّا الذين آمَنوا وسلَكوا منهجَ الحقّ، وهاجَروا فتركوا أموالَهُمْ ومنازِلَهُمْ وأهلِيهم، وجاهَدوا في سَبيلِ اللهِ وصَبَروا على ذلكَ طاعةً لله، فإمّا نَصرٌ أو شَهادة، فإنَّهُمْ يَنتظرونَ بُشرَى ثمرةِ إيمانِهِمْ وصَبرِهم: الفوزَ والرحمة، واللهُ يَغْفِرُ لهمْ ما سَلف، ويرحَمُهمْ برَحمتهِ الواسِعة.

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ العَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} (البقرة:٢١٩)

٢١٩ — يَســألونَكَ عنْ حُكمِ الخَمْرِ والقِمار، فقلْ: في تَعاطِيهما ذَنبٌ كبيرٌ ومَفْسَـدةٌ كبيرة، معَ شَــيءٍ منَ المنافع، ففيهما ذهابُ العَقلِ والمالِ والدِّين، والمخاصَــمةُ والمشــاجَرةُ والمعاداة، وفيهما مَنافعُ جِســميَّةٌ ونَفســيَّةٌ مؤقَّتة، كالهضـمِ والطرب، وربَّما ربحٍ في المقامَرة، لكنَّ إثمَهما والخسارةَ فيهما أكثرُ بكثيرٍ منْ منافعِهما.

وكانَ هذا أوَّلَ خَطوةٍ في تحريمِهما، بأسلوبٍ تربويٍّ ربانيّ حكيم، ثمَّ نزلَ التحريمُ الشاملُ في قولِهِ تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [المائدة: ٩٠].

ويَسألونكَ ماذا يُنفقونَ منْ أموالِهم؟ فقلْ لهم: ما زادَ منْ حاجتِكم.

وهكذا يبيّنُ اللهُ لكمُ الأحكامَ ويوضِّحُها في حِكمةٍ وبَيان، لتتَفكَّروا وتَعرِفوا الحقَّ جيّداً،

{فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ اليَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ المُفْسِدَ مِنَ المُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (البقرة:٢٢٠)

٢٢٠ — بما يفيدكمْ في الدنيا، ويُيَسِّرُ لكمْ أمرَ الآخِرة.

ويَسألونكَ عنْ كيفيَّةِ معاشرةِ اليتامَى في أموالِهم، فقُل: إنْ عَزلتُمْ أموالَهمْ وطعامَهمْ عمّا يَخصُّكمْ منها حتَّى لا يقعَ عليهمْ شَيءٌ منَ الخسارةِ فذلكَ حسَن، وإنْ خلطتُموها بأموالِكمْ فلا بأسَ عليكم، فهمْ إخوانُكمْ في الدِّين. واللهُ يَعلمُ نيّاتِكمْ في الإصلاحِ والإفساد. فالإصلاحُ في أمرِ اليَتامَى أفضَل، ومخالطتُهمْ فيما يُحَقِّقُ لهمُ الخيرَ أجدَى منِ اعتزالِهم.

ولو أرادَ اللهُ لضيَّقَ عليكمُ الأمرَ وأحرَجَكم، ولكنَّهُ وسَّعَ عليكمْ وخفَّفَ عنكم، وأباحَ لكمْ مخالطتَهمْ بالتي هيَ أحسَن، واللهُ قادرٌ على ما يُريد، حكيمٌ فيما يأمرُ به.

{وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} (البقرة:٢٢١)

٢٢١ — ولا تَتزوَّجوا النساءَ المشركاتِ عابداتِ الأوثان، إلاّ إذا أسلَمن، وإنَّ امرأةً مُؤمِنةً منَ الأرقّاء، أفضلُ مِنْ مُشرِكةٍ حرَّةٍ ولو كانتْ أكثرَ منها حُسناً وجَمالاً.

ولا تُزَوِّجوا المشركينَ منَ النساءِ المسلماتِ حتَّى يؤمِنوا، وإنَّ عَبداً مُؤمِناً مهما كانَ شأنُه، أفضلُ منَ المشركِ ولو كانَ ذا حَسبٍ ومالٍ وجَاه.

فإنَّ المشركينَ يَنضوونَ تحتَ ملَّةِ الكفرِ التي مآلُها النار، وإنَّ معاشرتَهمْ ومخالطتَهمْ تبعثُ على حُبِّ الدنيا والتعلُّقِ بها وإيثارِها على الدَّارِ الآخِرَة، وعاقِبَةُ ذلكَ وَخيمة. واللهُ سبحانَهُ يَدعو إلى الجنَّةِ والرَّحمةِ والرِّضوانِ بما شَرعَ لكمْ منَ الأحكام، لتُمَهِّدَ لكمْ طريقَ المغفرةِ والسَّعادة. وهذا ما بيَّنهُ لكمْ ربُّكم، لتَتذكَّروا وتُؤمِنوا، وتَعمَلوا وتَشكروا.

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} (البقرة:٢٢٢)

٢٢٢ — ويَسألونكَ عنْ حكمِ مُجامَعَةِ المرأةِ وهي في الحَيض، فقلْ: هوَ أذًى وضَررٌ وألَم، فاعتَزِلوا النساءَ أثناءَه، ولا تُجامِعوهنَّ حتَّى يَطْهُرْنَ منه، فإذا تطهَّرْنَ فانكِحوهنَّ في فروجهنَّ ولا

تَعدُوْهُ إلى غيرِه. واللهُ يحبُّ التوّابينَ منَ الذنوبِ وإنْ تكرَّرَ ذلكَ منهم، ويُحِبُّ المتَنــــزِّهينَ عنِ الأذَى والأقذار، مِنْ إتيانِ الحائض، أو مجامعتِها في غيرِ مكانِ النكاح.

{نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} (البقرة:٢٢٣)

٢٢٣ — وهذهِ نســاؤكمْ مَوضِـعُ زَرعِكم، فأتُوهنَّ أثناءَ الجماعِ كيفما شـئتُم، مُقبِلةً أو مُدبِرة، على أنْ يكونَ الإيلاجُ في الفرجِ لا يَتعدّاه.

وقَدِّموا لأنفسِكمْ قبلَ الجِماعِ بما هوَ مُناسِب، واذكروا اللهَ وأطِيعوه، ولا تتَعدَّوا حدودَ ما حرَّمَهُ عليكمْ في ذلك.

واعلَموا أنَّكمْ صـائرونَ إليهِ يومَ الدِّين(١٣)، فيحاسِبُكمْ على أعمالِكمْ جميعاً. وبشِّرِ المطيعينَ للهِ بما يَسُرُّهم.

{وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (البقرة:٢٢٤)

٢٢٤ — وإذا حلفتُمْ باللهِ وأكَّدتموه، ثمَّ تَبيَّنَ لكمْ خطأُ ما ارتأيتُموه، فلا يكنْ هـذا الحَلِفُ سبباً وعارِضاً بينكمْ وبينَ عملِ البِرِّ والتقوَى والإصلاحِ بينَ الناسِ وذوي الرَّحِم. والمطلوبُ أنْ تكفِّروا عنْ يمينِكمْ وتَعملوا الذي هوَ خَير. واللهُ سميعٌ لِما تقولون، عليمٌ بما تقصدونَ وتبتغونَ بحلفكم.

{لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ} (البقرة:٢٢٥)

---

(١٣) يجمعُ التحذيرَ والترغيب، أي: فلاقوهُ بما يرضَــى به عنكم، كقوله: {وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ} [ســورة النور: ٣٩]. (التحرير والتنوير).

٢٢٥ – لا يُعاقبُكمُ اللهُ على ما صدرَ منكمْ منَ الحَلِفِ غيرِ المقصُود، عَفواً بما يَجري بهِ اللِّسان، بلْ يحاسِبُكمْ على ما قَصدتموهُ منهُ ونوَتْهُ قلوبُكمْ وأكَّدتُموه، فهوَ الذي يَحتاجُ إلى كفّارة. واللهُ يَغفِرُ لعِباده، وهوَ حليمٌ عليهم[١٤].

{لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (البقرة:٢٢٦)

٢٢٦ – الذينَ يَحلِفونَ ألاّ يُجامِعوا زوجاتِهم: أمامَهمْ مدّةُ أربعةِ أشهرٍ ليَعودوا إليهنَّ ويُجامِعوهنّ، وإلاّ فإنَّ للزوجةِ حقَّ مطالبتِهِ بالطلاق، ويُجبَرُ الزوجُ على ذلكَ من قِبَلِ القاضي إنْ لم يَعُد، وإذا عادَ فإنَّ عليهِ كفّارةَ يمينٍ عندَ أكثرِ أهلِ العلم، ويَغفِرُ اللهُ لهُ ممّا قصدَ الإضرارَ بالزوجة، ويرحمُهُ بعدَ عودتهِ إليها، التي تُعتَبرُ كتَوبةٍ منه.

{وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (البقرة:٢٢٧٩)

٢٢٧ – فإذا مَضَتْ أربعةُ أشهرٍ وعزمَ الزوجُ على طلاقِها، فطلَّقها، فقدِ انتهَى الأمر، ولا يقعُ الطلاقُ بمجرَّدِ مُضيّ الأربعةِ أشهرٍ عندَ الجمهور، بلْ لابدَّ منْ أنْ يطلِّقها، وإلا أجبرَهُ القاضي على ذلك، ما دامَ أنَّهُ لم يَرجِعْ إليها. وإنَّ اللهَ سميعٌ بما جرَى منهمْ منَ الطلاق، وما دارَ أثناءَهُ مِنْ كلام، عليمٌ بنيّاتِهمْ وما قَصدوه.

{وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (البقرة:٢٢٨)

---

(١٤) الحليم: هو الذي لا يستفزُّهُ التقصيرُ في جانبه، ولا يَغضبُ للغفلة، ويَقبلُ المعذرة. (التحرير والتنوير).

٢٢٨ – والمطلَّقاتُ يَنتظِرْنَ ثلاثَ حَيْضـــاتٍ، أو ثلاثةَ أطهار، بعد طَلاقِ أزواجِهنَّ لهنّ، ليَنتهيَ بذلكَ وقتُ عِدَّتهنَّ ويتزوَّجْنَ إنْ شِـئنَ بعدها. ما عدا الحاملاتِ اللَّواتي تَنتهي عِدَّتُهنَّ بمجرَّدِ وضـعِ ما في أرحامِهنَّ. أمّا اللَّواتي طُلِّقْنَ قبلَ الزواجِ بهنّ، والصـغيراتُ اللَّواتي لم يَحِضْـنَ بعدُ، ومنِ انقطعَ حيضُـــهنَّ لكِبَرِهنَّ، فعدِّتُهنَّ ثلاثةُ أشـــهر، وهوَ قريبٌ من عِدَّةِ العاديَّة. (وتفصيلُ الصغيرَةِ في الآيةِ الرابعةِ منْ سورةِ الطلاق).

ويَعني بثلاثةِ أطهار: أنهنَّ إذا دخلنَ في الدمِ منَ الحيضةِ الثالثةِ فقدِ انتهتْ عِدَّتُهنّ.

وبالحيضات: أنَّهُ لا ينقضي عدّتُهنَّ حتَّى يَطْهُرْنَ منَ الحيضةِ الثالثة.

ويَحرمُ عليهنَّ أنْ يَكتُمنَ أمرَ حَملِهنَّ أو حَيضِهنَّ إنْ كنَّ منَ المؤمناتِ حقًّا، وذلكَ لتطويلِ مُدَّةِ عدَّتهنَّ أو تقصيرِها. فيَكتُمنَ حَملَهُنَّ لئلاّ يُنْتظَرَ بطلاقِهنَّ أنْ يَضعن، فإنَّ عِدَّةَ الحاملِ هوَ أنْ تضـعَ حملَها. وإذا طلبَ أزواجُهنَّ مراجعتَهنَّ كذَبْنَ وقُلْن: إنهنَّ حِضْـنَ الثالثة، ليَقطَعْنَ بذلكَ مراجعتَهُنَّ لهنَّ. أو يَقلْنَ: إنَّهنَّ لم يَحِضْنَ وقد حِضْنَ، ليَلْزَمْنَهمْ ما لا يَلزمُ منَ النفَقة.

فواجِبٌ عليهِنَّ أنْ يَقُلْنَ الحقَّ ولا يَخدَعْن، لِما يَترتَّبُ على ذلكَ منْ أمور، كحقِّ الزوجِ في الرَّجعةِ والوَلد.

وأزواجُهُنَّ الذينَ طلَّقوهنَّ أحقُّ بإعادَتِهنَّ إلى بيتِ الزَّوجيةِ ما دُمْنَ في عِدَّتِهنّ، إذا كانَ مرادَهمْ الإصلاحُ والخير، لا الإضرارُ والظلم. وهذا بالنسبةِ للمرتَجَعةِ التي لم يُبَتَّ في طلاقها، يعني أنَّها طُلِّقتْ مرَّتينِ فقط، فيجوزُ إرجاعُها، كما يأتي في الآيةِ التالية.

وللنِّساءِ حقٌّ على الرِّجالِ مثلما أنَّ لهمْ عليهنّ، فليؤدِّ كلٌّ ما وجبَ عليهِ مِنْ حقّ.

وللرجالِ على النِّساءِ درَجة، هي درَجةُ القَوَامة، فالرجلُ بمَنـــزلةِ الأميرِ في الأسرَة، الذي يُطاعُ بالحقِّ والمعروف، وهوَ أحقُّ بذلك، لما مُنِحَ منْ صِـفاتِ الرجولةِ والقوَّة، والإنفاقِ على الزوجةِ والقيامِ بمصالحِها، وغَيرِ ذلك مما يُرى منْ فارقٍ بين الرجلِ والمرأة.

واللهُ قادِرٌ على الانتقامِ ممَّن عصاهُ وخالفَه، حكيمٌ فيما شرَعَهُ وقدَّرَهُ منْ أحكامٍ ومَصالح.

{الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا

افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (البقرة:٢٢٩)

٢٢٩ – للرجلِ أنْ يُطَلِّقَ زوجتَهُ تَطليقَتَين، ثمَّ إنَّ أمامَهُ أمرين:

– إمّا أنْ يُرجِعَها إلى نفسِه، وهوَ يَنوي بذلكَ الإصلاحَ وحُسنَ الصُّحبة، فتعودُ إليه.

– وإمّا أنْ يطلِّقَها التطليقةَ الثالثة، فتُطْلَقُ منه، معَ الإحسانِ إليها، وعدمِ ظُلمِها في حقِّها شَيئاً.

ولا يَحِلُّ لكمْ أيُّها الأزواجُ أنْ تُضيّقوا عليهنَّ وتُضْجِروهُنَّ لتَضطَرُّوهُنَّ إلى فداءِ أنفسِهنَّ بطلبِ الطلاقِ منكمْ حتَّى يُعِدْنَ إليكمْ ما سبقَ أنْ قدَّمتُمْ لهنَّ منْ هِباتٍ وصَدقاتٍ وأموال، ولو كانَ الأمرُ نَزْراً يَسيراً، فضلاً عنِ الكثير.

أمّا إذا تَشاجرَ الزَّوجانِ وتَشاقّا، ولم تَعُدِ المرأةُ تَقومُ بحقِّ زوجِها، ولا تَقْدِرُ على معاشرتِه، فلها أنْ تَفتديَ نفسَها بمالِها وتُقدِّمَهُ لهُ كي يُطَلِّقَها، وهو ما يُسمَّى بالخُلْع. ولا بأسَ على الزوجِ إنْ قَبِلَه.

وهذا منَ الحدودِ التي شرعَها اللهُ لكمْ فلا تَتجاوَزوها بالمخالفةِ والرَّفض، ومنْ تَجاوَزها ولم يعملْ بها فإنَّهُ ظالمٌ قدْ عرَّضَ نفسَهُ لسَخَطِ اللهِ وعقابِه.

{فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} (البقرة:٢٣٠)

٢٣٠ – فإذا طلَّقها الثالثةَ لم يَعُدْ يَحِلُّ لهُ أنْ يُراجِعَها ويُعيدَها إلى نفسِه، إلاّ إذا نَكحَتْ زوجاً غيرَهُ وطلَّقها، فإنَّهُ لا حَرَجَ عليهما عندئذٍ أنْ يَعودا إلى بعضِهما البعضِ في عَقْدٍ جديد، إذا علما أنَّهما سيَتعاشرانِ بالمعروف، فتَحْسُنُ حالهُما ويَصْلُحُ ما بينَهما.

وهذهِ شرائعُ اللهِ وأحكامُه، وأوامرهُ ونواهيه، يوضِّحُها لمنْ يَفهمُ ما أمرَهُ اللهُ بهِ ليَنتَفِعَ بها.

{وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا

وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (البقرة: ٢٣١)

٢٣١ – وإذا طلَّقتُمُ النسَـــاءَ طلاقاً رَجعيّاً، فما زالَ بالإمكانِ إعادتُهنَّ إلى الحياةِ الزوجيَّة، فعليكمْ بالإحســـانِ في أمرِهنَّ إذا كادَ أنْ تَنتهيَ عِدَّتُهنّ، فإمّا أنْ تُعيدوهنَّ إليكمْ بما هو لائقٌ منْ إصلاحِهنَّ وحُسْنِ معاشرَتِهنّ، وإمّا أنْ تُطَلِّقوهنّ، وهيَ كذلكَ تُطَلَّقُ بنفسِها إذا انتهتْ عِدَّتُها، وتَخرجُ منْ بيتِ الزوجِ بدونِ ظُلمٍ ولا إيذاء.

ولا يجوزُ لكمْ أنْ تُمسِكوهنَّ في البيوتِ وتُطوِّلوا عِدَّتَهنَّ بقصدِ الإضرارِ بهنَّ وأنتمْ تعلمونَ أنَّكمْ ستُطلِّقوهنّ، فإنَّ مَنْ يَفعلْ ذلكَ فقدْ خالفَ أمرَ الله.

ولا يجوزُ لكمْ أنْ تَستغِلُّوا الرُّخَصَ وتتَّخذوا الأحكامَ الشرعيةَ غَرَضاً للاستهزاءِ والإضرار، كأنْ يقولَ أحدُكم: قدْ طلَّقت، وقد راجعت، فإنّ أمرَ الطلاقِ خَطير، والعِدَّةُ والرجعةُ فُرصَـــةٌ حقيقيَّةٌ للتفكُّرِ والإصلاحِ واستعادةِ الزَّواج.

وتذكّروا ما أنعمَ اللهُ عليكمْ منْ إرسالِ النبيّ إليكم، ومعَهُ القُرآنُ العظيمُ والسنَّةُ النبويَّةُ الشَّريفة. واتَّقوا الله، وكونوا على حَذرٍ فيما تأخُذونَ وما تَتركون. واعلَموا أنَّ اللهَ لا يَخفَى عليهِ شيءٌ ممّا تَقصِدونَهُ أو تَفعلونَه، وسوفَ يُجازيكمْ على كلِّ ذلك.

{وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآَخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (البقرة: ٢٣٢)

٢٣٢ – وإذا طلَّقتمُ النّســاءَ أيُّها الأزواج، وانقَضــتْ عِدَّةُ التطليقةِ الأولى، وما زالَ بالإمكانِ مراجعتُهنّ، فلا يَحلُّ لكمْ يا أولياءَ الزوجاتِ أنْ تُمسِـــكوهنَّ عندكمْ وتَمنَعوهنَّ منَ العودةِ إلى أزواجِهنَّ إذا تَصالحوا وتَحابَبوا وأرادوا أنْ يُكمِلوا عِشْرَتَهُمُ الزوجيَّة. وهذا ما يُرشِدُكمُ اللهُ إليهِ إذا كنتُمْ مُؤمِنينَ حقًّا وتَخشَـونَ اللهَ وعِقابَهُ يومَ الحســاب، وإنَّ اتِّباعَ شـرعِ اللهِ في هذا وغيرِهِ أنفعُ لكمْ وأذهبُ لعِلَلِ نفوسِكمْ وأجلَى لها وأحسَن.

واللهُ يعلمُ ما يَصــلُحُ بِهِ شــأنُكم، فيَشــرَعُ لكمْ ما فيهِ خيرُكم، وأنتمْ لا تَعلمون، فذَروا رأيكمْ وامتَثِلوا أمرَه.

{وَالوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى المَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (البقرة:٢٣٣)

٢٣٣ – والأمَّهاتُ – مطلَّقاتٍ كنَّ أو غيرَ مطلَّقات – يُرضِعْنَ أولادَهنَّ عامَيْنِ كاملَين، إذا أُريدَ إرضاعُهمْ رَضاعةً كاملة. ولا اعتبارَ بالرضاعةِ بعدَ ذلك.

وعلى الوالدِ نفَقةُ الأمَّهاتِ المطلَّقات، مِنْ مَأكلٍ ومَلبسٍ وما إليه، على قَدْرِ الحالِ والميسَرة، وعلى ما تَجري بهِ العادةُ في كلِّ عصر، مِنْ غيرِ سَرَفٍ ولا بُخل، ولا يُكلَّفُ المرءُ بما لا يُطيق.

ولا يَحِقُّ للأبِ أنْ يَنْزِعَ الطفلَ مِنْ أمِّهِ ويُعطِيَهُ غيرَها وقدْ رضيتْ بإرضاعِه؛ إضراراً بها. كما لا يَحِقُّ للأمِّ أنْ تدفَعَ بولدِها إلى أبيهِ لتَضُرَّهُ بتَربيتِه.

وعلى مَنْ يرثُ هذا الأمرَ منَ الأولياءِ مِثْلُ ما على الوَالد، منِ عدمِ الضَّررِ بالطِّفل، ومنَ الإنفاقِ على والدتِه.

فإذا أرادَ الوَالدانِ فِطامَ الصبيِّ عنِ حَليبِ أمِّهِ قبلَ عامَين، برِضَائهما وتَشاورٍ بَينهما، وكونِ ذلكَ لا يَضرُّ به، فلا حَرجَ عليهما في ذلك، ولا يَجوزُ رأيُ واحدٍ منهما في الأمر؛ رحمةً بالصبيِّ الذي لا حِيلةَ له.

وإذا اتَّفقَ الوَالدانِ على إرضاعِ الصبيِّ عندَ غيرِ الأمّ، أو سلَّمتْهُ هيَ وأبتْ إرضاعَه، لعُذرٍ أو لغَيرِ عُذر، فلا حرجَ عليهما كذلك، إذا سلَّمتُمْ إلى المراضعِ ما أردتُمْ إيتاءَهُ لهنَّ منَ الأجرة، بالوجهِ المتعارَفِ المستَحسَن، دونَ ضَرر.

واتَّقوا اللهَ واخشَوْهُ في أحوالِكمْ جميعِها، وكونوا على علمٍ أنَّ اللهَ مطَّلِعٌ على أقوالِكمْ وأحوالِكم، لا يَخفَى عليهِ شيءٌ منها، ويُجازيكمْ عليها.

{وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} (البقرة:٢٣٤)

٢٣٤ – والذينَ يَموتونَ منكمْ ويُخَلِّفونَ زوجات، فإنَّهنَّ يَنتظرنَ بعدَ الوفاةِ أربعةَ أشهرٍ وعشرَ ليال، هي مدَّةُ عِدَّتهنَّ وحِدادِهنّ، سواءٌ كنَّ مَدخولاً بهنَّ أو لا. فإذا بلغْنَ هذا الأجلَ وانقضتْ عِدَّتُهنَّ، فلا حَرجَ عليكمْ يا أولياءَ النِّساءِ أنْ يَتزيَّنَّ ويَتعرَّضْنَ للتزويجِ فيما لا يُنكِرُهُ الشَّرع. وإذا كانتِ المتوفَّى عنها زوجُها حاملاً فإنَّ عِدَّتَها أنْ تَضعَ حَملها، سواءٌ زادَ عنِ الأجلِ المذكورِ أو نَقص. واللهُ خبيرٌ بأعمالِكم، فلا تَعملوا خِلافَ ما أُمِرتُم به، فإنَّهُ مجازٍ كلاًّ بما عَمِل.

{وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} (البقرة:٢٣٥)

٢٣٥ – ولا حَرَجَ عليكمْ إذا أشرتُمْ –دونَ تصريحٍ– إلى خِطبةِ النساءِ وهنَّ ما زِلْنَ في عدَّتهنَّ مِنْ وفاةِ أزواجِهنّ، كأنْ يقولَ لها أحدُكم: وَدِدْتُ أنَّهُ تيسَّرَ لي امرأةٌ صالحة. ولا حَرجَ عليكمْ إذا أَخفَيتُم ذلكَ في أَنفُسِكم[١٥].

(١٥) {أَكْنَنْتُمْ}: أضمرتم، {فِي أَنفُسِكُمْ} من نكاحهنّ. يقال: أكننتُ الشيءَ، وكننته، لغتان، وقالَ ثعلب: أكننتُ الشيءَ، أي: أخفيتهُ في نفسي، وكننته: سترته. (البغوي).
وأخَّرَ الإكنانَ في الذكرِ للتنبيهِ على أنه أفضلُ وأبقَى على ما للعِدَّةِ من حُرمة، مع التنبيهِ على أنه نادرٌ وقوعه... (التحرير والتنوير).

وقدْ عَلِمَ اللهُ أنَّكمْ ستَذكرونَهُنَّ في قلوبِكمْ ولا تَصْبِرونَ على السكوتِ عنهنَّ وعنْ إظهارِ الرغبةِ فيهنّ، فرفعَ عنكمُ الحرجَ في ذلك.

ولا يجوزُ أنْ تتزوَّجوهنَّ أو أنْ تَعِدوهنَّ بالزواجِ سِرًّا وهنَّ ما زلنَ في العِدَّة، كأنْ يَقولَ لها أحدُكم: لا تَنكحي غيري فإنِّي سأتزوَّجُك. إلاّ إذا تفوَّهتُمْ بما لا يكونُ فيهِ تصريحٌ واضح، ولكنْ قدْ تَفهَمُ المعتدَّةُ منهُ ذلك.

ولا يَحِلُّ عَقْدُ النِّكاحِ وهنَّ في العِدَّة، بلْ حتَّى يَنتهيَ أجلُها تماماً.

وتيقَّنوا أنَّ اللهَ مطَّلعٌ على ما أسرَرتُمْ في أنفسِكمْ مِنْ ذلك. واحذَروا عقابَهُ إذا خالفتُمْ أمرَه، واللهُ يَغفِرُ ذُنوبَ مَنْ أخطأ وتاب، وهوَ حليمٌ بهم، لا يعاقبُهمْ بمجرَّدِ أنْ يُخطِئوا، بل يُمهلُهمْ حتَّى يَستَغفِروهُ ويَتوبوا إليه.

{**لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ**} (البقرة:٢٣٦)

٢٣٦- لا حَرَجَ عليكمْ إذا طلَّقتمُ النساءَ ولم تُجامِعوهنَّ بعدُ أو لم تُعَيِّنوا مِقدارَ صَداقِهنّ، فإذا طلَّقتُموهنَّ فأعطُوهنَّ مِنْ مالكمْ ما يَتمتَّعنَ بهِ ويَتبلَّغْن؛ جبراً لخاطِرهنَّ أنْ طُلِّقن. وكلٌّ يُعطي على قَدْرِ حالِه، فالغنيُّ يُعطي بما يوافِقُ وضعَه، والفقيرُ يُعطي ما يُمكنه. وهوَ حقٌّ ماليٌّ يُعطيهِ المطلِّقُ بالوجهِ الذي تَستَحسِنُهُ الشريعةُ والمروءة، هذا لمنْ أرادَ أنْ يُطيعَ اللهَ ويُحسِنَ إلى نفسهِ بالمسارعةِ إلى الامتِثال، ويُحسِنَ إلى المطلَّقةِ المتضرِّرة.

{**وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**} (البقرة:٢٣٧)

٢٣٧- وإذا طلَّقتُموهنَّ قبلَ أنْ تُجامِعوهنَّ وقدْ عيَّنتُمْ لهنَّ قيمةَ الصَّداق، فأعطوهنَّ نصفَ تلكَ القيمة، إلاّ إذا عفَونَ عَنكم، أو عَفا وليُّها، أو عَفا الزوجُ لها عنْ حقِّهِ، وهوَ نِصفُ الباقي منَ الصَّداق.

وإذا عفوتُمْ — جميعاً - فإنَّهُ أقربُ إلى ما يُرضِي الله.

أمّا إذا جامعَها ثمَّ طلَّقها، فإنَّ لها ما أعطاها مِنَ الصَّداقِ كلِّه.
ولا تنسَوا السَّماحةَ والإحسانَ فيما بينَكم، بما يوافقُ الأخلاقَ العالية، بإعطاءِ الرجلِ تمامَ الصَّداقِ لها، أو تركِ المرأةِ نصيبَها له.
واللهُ مطَّلعٌ على أعمالِكم، ولا يُضيْعُ أجرَ تفضُّلِكمْ وإحسانِكم.

{حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ} (البقرة:٢٣٨)
٢٣٨- حافِظوا على أداءِ الصَّلواتِ في أوقاتِها، بأركانِها وشُروطِها، وخاصَّةً صلاةَ العصر، أقيمُوها خاشِعينَ مُستَكينينَ بينَ يدي الله، مُتَجَرّدِينَ لذكرِه.
وفي الصحيحينِ أنَّهُ صلى الله عليه وسلم سُئلَ عنْ أفضلِ الأعمالِ فقال: "الصلاةُ على وقتِها".

{فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} (البقرة:٢٣٩)
٢٣٩ – فإذا كانَ القتالُ والتِحامُ الحَرب، فصلُّوا على أيِّ حالٍ كنتُم، مترجِّلين أو راكبِين، مستقبِلينَ القبلةَ أو غيرَ مُستقبِليها. فإذا انتهتِ الحربُ وكنتُمْ في أمان، فأدُّوا الصلاةَ كما أُمِرتُم، واشكروا للهِ شكراً يُوازي تعليمَهُ إيّاكمْ ما لم تَكونوا تَعلمونَهُ منَ الشَّرائعِ والأحكام، ومنْ جُملتِها كيفيَّةُ إقامةِ الصلاةِ في حالتَي الخوفِ والأمن.

{وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (البقرة:٢٤٠)
٢٤٠- والذينَ يَموتونَ ويَتركونَ زوجات، وأوصَوا بالسَّماحِ لهنَّ بالبقاءِ في بيوتِهنَّ سنةً كاملة، فإنَّ مِنْ حقِّهِنَّ البقاءَ إذا أردْنَ ذلك.

فإذا أردنَ الخروجَ بعدَ إكمالِهنَّ عِدَّتَهنَّ أربعةَ أشهرٍ وعشرَ ليال، قبلَ إكمالِ العامِ المسموحِ لهنَّ بقاؤهنَّ فيه، فلا حرجَ عليكمْ في قَبولِ ذلكَ ولا بأسَ به. واللهُ قويٌّ في حُكمه، حَكيمٌ فيما يَفْرِضُ ويُوَجِّه إليه.

وذُكِرَ أنَّ هذهِ الآيةَ منسوخةٌ بالآيةِ السابقةِ رقم (٢٣٤)، لكنَّ تفسيرَها كما مرَّ لا يُحْوِجُ إلى هذا القَول.

{وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ} (البقرة:٢٤١)

٢٤١ – وتُعطَى المطلَّقاتُ حقَّهُنَّ منَ المتعة، يعني منَ المال، كلٌّ بما يَقْدِرُ عليهِ ممّا يوافِقُ حالَهُ وكرمَهُ ومعاليَ أخلاقه، لتبقَى الأخوَّةُ الإسلاميَّةُ قائمة، ولئلّا تَنقلبَ الأمورُ إلى عَداوةٍ وبَغضاء. وهوَ ما يَعرِفهُ الذينَ يَخشَونَ ربَّهُمْ فيما يأتونَ وما يذَرون.

{كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (البقرة:٢٤٢)

٢٤٢ – وهكذا يوضِّحُ اللهُ الأحكامَ الشرعيَّةَ الفاصِلة، لعلَّكمْ بذلكَ تَفهَمونَها وتَتدبَّرونَها وتَعرِفونَ الحِكمةَ منها، وما فيها منْ تَيسيرٍ ومَصلَحة.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} (البقرة:٢٤٣)

٢٤٣ – هؤلاءِ قومٌ في قديمِ الزمان، كانوا بالآلاف، خرَجوا من ديارِهمْ هروباً مِنَ الموتِ الذي كانَ يُلاحقُهمْ فيه، ربَّما نَتيجةَ أوبئةٍ وأمْراضٍ كانتْ تُلازِمُهم، أو أنَّهُ وقعَ فيهمُ الطاعُون، فأرادوا الفِرارَ منها إلى غَيرِها، فلمّا وصلوا إلى المكانِ الجديد، أماتَهمُ اللهُ جميعاً في وقتٍ واحد، ليُعلَمَ أنَّ الحذَرَ منَ الموتِ لا يُغني ولا يُجدي إذا أرادَهُ الله، فإذا قدَّرَ شيئاً كانَ رغمَ كلِّ الاحتِياطات، فلا مَفَرَّ منْ حُكمِه. ثمَّ أحيَاهمُ اللهُ بعدَ موتِهم، في دليلٍ قاطعٍ على قُدرةِ اللهِ على إحياءِ الموتَى وبَعثِ الناسِ يومَ المعاد.

وهذا منْ فَضلِ اللهِ علَى النَّاس، أنْ يُريَهمُ الآياتِ والدلالاتِ والعِبرَ ليُؤمِنوا ويَعتَبروا، ولكنَّ أكثرَهم، معَ هذا، لا يقومونَ بشكرِ المنعِمِ عَليهم.

وهذا تمهيدٌ لتَشجيعِ المسلِمينَ على القِتال، الذي يأتي في الآيةِ التالية، فإنَّ الأجلَ واحِد، في سِلْمٍ كانَ المرءُ أو في حَرب.

{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (البقرة:٢٤٤)

٢٤٤ — وجاهِدوا في سَبيلِ اللهِ باذِلينَ أرواحَكمْ وأموالَكمْ لإعلاءِ كلمتِه، ولا تَخافوا منَ الموت، فإنَّ هذا لا يُقرِّبُ أجلاً ولا يُباعدُه، والفِرارُ لا يُنجي منَ الموتِ كذلك، فالأجَلُ محَتوم، والرزقُ مَقسوم، والمقَدَّرُ لا مَرَدَّ له. واللهُ يَسمَعُ ما تَقولونَ فيما تُدَبِّرون، إنْ جِهاداً أو تَخَلُّفاً، عليمٌ بما نوَيتُمْ عليهِ في نفوسِكمْ منْ ذلك. فسارِعوا إلى الامتِثال، واحذَروا خِلافَه.

{مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (البقرة:٢٤٥)

٢٤٥ — إنَّ الذي يُعطي مِنْ مالِهِ للجهادِ أو لأيِّ عملٍ صالِح، إعطاءً حلالاً مقروناً بالإخلاصِ وطِيْبِ النفس، فإنَّ اللهَ يَقبَلُ منه، ويُضاعِفُ لهُ الأجرَ والثوابَ أضعافاً كثيرةً بما لا يَتوقَّعه.

واللهُ يُعطي ناساً ويُقَلِّلُ على آخَرينَ في الرِّزق، لحِكمَةٍ يَشاؤها ومَصلحةٍ يُقَدِّرها. فأنفِقوا ولا تَبخلوا، فاللهُ هوَ الرزّاق، وبيدِهِ الخيرُ كلُّه.

ولَسوفَ تُرجَعونَ إليهِ يومَ القيامةِ ليُجازيَكمْ على ما قدَّمتُمْ مِنْ أعمال، إنْ خَيراً فخَير، وإنْ شَرّاً فشَرّ.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى المَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} (البقرة:٢٤٦)

٢٤٦ — وانظُروا إلى قومٍ منْ بَني إسْرائيلَ كانوا منْ بعدِ موسَى عليهِ السلام، فقالَ أشرافُهمْ ووجهاؤهمْ لنبيٍّ لهم: أقِمْ لنا مَلِكاً نَصْدُرْ عنْ رأيهِ في الحربِ ونُقاتِلْ في سبيلِ اللهِ أعداءَه.

فقالَ لهمْ نبيُّهم: أرأيتُمْ لو أُجِبتُمْ إلى ذلكَ وطُلِبَ منكمُ القِتالُ حقّاً ولم تَفُوا بما التزمتُمْ به؟

فقالوا: كيفَ لا نُقاتِلُ وقدْ أُخِذَتْ منّا ديارُنا، وسُبِيَ أولادُنا، واغترَبنا منْ أهلينا، فإنَّ كلَّ هذا داعٍ قويٌّ إلى الطاعةِ والقِتال.

ولكنْ لما عُيِّنَ لهمْ مَلِكٌ يقودُهمْ إلى الحرب، وجاءَ وقتُ القِتال، وطُلِبَ منهمُ الخروجُ معه، لم يَفُوا بوعدِهم، إلاّ القليلُ منهم، فقدْ تخَلَّفَ أكثرُهم.

واللهُ عليمٌ بتركِهمُ الجِهادَ ونقضِهمْ عهدَهم، ولسوفَ يُجازيهمْ عليهِ بعُقوبةٍ كبيرة.

{وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ المَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ وَالجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} (البقرة:٢٤٧)

٢٤٧ – وقالَ لهمْ نبيُّهمْ لما طَلبوا منهُ أنْ يعيِّنَ لهمْ مَلِكاً: إنَّ اللهَ قدِ اختارَ لكمْ طالوتَ مَلِكاً. فقالوا: وكيفَ يَكونُ مَلِكاً عَلينا وهوَ ليسَ منْ بيتِ مُلك، بلْ هوَ مجرَّدُ رجلٍ عاديّ، فنحنُ أحقُّ بذلكَ منه. ثمَّ إنَّهُ لا يَملِكُ مالاً كثيراً ليقومَ بحقِّ الملك.

فقالَ لهمْ نبيُّهم: إنَّ اللهَ قدِ اختارَهُ منْ بينِكمْ ليكونَ مَلِكاً عليكم، وقدْ آتاهُ عِلماً كثيراً، وقوَّةً في الجسم، وصَبراً في الحرب. ومَعرفةً بها أكثرَ منكم. واللهُ يُعطي مَنْ يَشاءُ ما يَشاء، فهوَ الحاكمُ لا أنتُم. وهوَ واسعُ الفَضل، يُوَسِّعُ على منْ يَشاءُ منَ الفقراءِ ويُغْنيه، عليمٌ بمنْ يَستَحِقُّ المِلكَ ممَّنْ لا يَستَحِقّ.

{وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آَيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آَلُ مُوسَى وَآَلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ المَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} (البقرة:٢٤٨)

٢٤٨ – ثمَّ قالَ لهمْ نبيُّهم: إنَّ دليلَ اصطفاءِ طالوتَ مَلِكاً عليكمْ أنْ يأتيَكمُ التابوتُ بسَكينةٍ وهدوءٍ فتَسكنونَ إليه، معَ أشياءَ ممّا ترَكها آلُ موسى وآلُ هارون، ذُكِرَ أنَّها العَصا، وألواحٌ منَ التوراة... ويَحْمِلُ هذا التابوتَ ملائكةُ اللهِ وتَضعُهُ عندَ طالوت.

وفي ذلكَ آيةٌ عظيمةٌ لكمْ وعِبرة، تدلُّ على مُلكهِ عَليكم، إنْ كنتُمْ مصدِّقينَ بذلك.

{فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} (البقرة:٢٤٩)

٢٤٩ – ولما خرجَ طالوتُ مَلِكُ بني إسرائيلَ بجُنودِهِ وبِمنْ خرجَ معَهُ منْ بني إسرائيل، قالَ لهم: سيَختبرُكمْ ربُّكمْ ليرى طاعتَكم، حيثُ تَقطعونَ نهراً –وكانَ عذباً ماؤهُ– فمنْ شَرِبَ منهُ فلا يَصحبْني في الحَرب، إلاّ ما كانَ مقدارَ كفِّ اليد، فلا بأسَ به، ومنْ لم يَشْرَبْ فليَصحَبْني في هذا الوَجه.

فشرِبَ أكثرُهم، وذُكِرَ أنَّهمْ كانوا عِطاشاً، وبقيَ القَليلُ الذي لم يَشرب، طاعةً لله.

وكانتِ الحكمةُ منْ هذا الابتلاءِ فَرْزُ الضعفاءِ المتذبذبينَ منَ الثابتينَ الأقوياء، فالذين شَربوا ما كانوا ذوي إرادةٍ وطاعة، فما كانوا يَصـــلُحونَ للحَربِ والقِتال، بل إنَّ فعلَهُمْ هذا يُنْبِئُ عنْ ضَعفٍ وعِلَّة، وأنَّهمْ سيَكونونَ عالةً على بقيَّةِ الجُند، وأنَّهمْ لضَعفِ إرادتِهمْ قدْ يَبثُّونَ الهلعَ وروحَ الهزيمةِ بينهم. ففَصلَهمْ مَلِكُهمْ ولم يسْمَحْ لهمْ بالمشاركةِ في الحربِ الكبيرةِ التي تَنتظرُهم.

فلمَّا اســتقلَّ طالوتُ بالجنودِ المؤمنينَ الباقينَ معَه، وقدْ صــاروا إلى قِلَّة، وقابَلوا جيشَ جالوتَ الكبير، قالوا: لا قُدرةَ لنا على مُحاربتِهم؛ لكثرتِهم، فقالَ لهمْ عُلماؤهمْ والخُلَّصُ منهم، المؤمنونَ بلقاءِ اللهِ وحُسْــنِ ثوابِه: إنَّ جماعةً قَليلةً، مُؤمنةً في عَقيدتِها وعَزمِها وتوكُّلِها، تَستَمِدُّ قوَّتَها منَ اللهِ ووعدِهِ بالنَّصـرِ والجزاءِ، ستَغلِبُ فئةً كبيرةً عدوَّةً لا تَعتمدُ سِوَى على قوَّتِها الظاهرة، بإذنِ اللهِ وتيســيرِه، فلا تُغني كثرتُهُمْ معَ خِذْلانِ اللهِ لهم، ولا تَضـرُّ قِلَّةُ الفِئةِ المؤمنةِ معَ تأييدهِ ونَصـرِهِ لهم، وإنَّ اللهَ سيثبِّتُ الفِئةَ الصابرةَ ويَنصُرها، ويُمِدُّها بالمعُونةِ والتوفيق، فتقدَّموا ولا تَتوانَوا.

والمؤمنونَ مُختلفونَ في قوَّةِ اليقينِ وقوَّةِ الإرادة.

{وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} (البقرة:٢٥٠)

٢٥٠ – ولما تَقابَلوا معَ جَالوتَ وجُنودهِ في كثرتِهم الكاثرة، تصـــبَّروا وفوَّضـــوا أمرَهمْ إلى الله، ودَعَوْهُ بالنَّصــر، وقالوا: اللهمَّ قوِّ عَزائمَنا، واملأْ قلوبَنا بالسَّــكينة والرِّضـــا، وثبِّتْنا عندَ اللِّقاء، وانصُرْنا على هؤلاءِ الظَّالِمينَ الكافِرين.

{فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ} (البقرة:٢٥١)

٢٥١ – فانتَصــرَ المســلِمون، انتصــرتِ الفئةُ القليلةُ المؤمنةُ بإذنِ اللهِ وتَوفيقِه، وقتلَ داودُ قائدَ الكفَرةِ جالوتَ، وكانَ داودُ في جَيشِ طالوت، فآتاهُ اللهُ الملك مِنْ بعدِه، وزادَهُ نِعمَةً وتَفضُّـــلاً بأنْ آتاهُ النبوَّة، وخَصَّهُ بعلمٍ كثيرٍ مِنْ عندِه.

ولولا أنْ يَدفَعَ اللهُ ناســاً بناسٍ آخَرين، في صـــراعاتٍ ومَعارك، وتنافُسِ قوىً وطاقَات، وتَدافُعٍ وسِباقات، كما دفعَ عنْ بني إسرائيلَ بمقاتلةِ طَالوتَ وشَجاعةِ داود؛ لهلَكوا.

فالفضـلُ للهِ وحْدَهُ على العالَمين، حيثُ مَنَّ عليهمْ ورَحِمَهم، ودفعَ بعضَـهمْ ببَعض، فلهُ الحُكمُ والحِكمة، والحقُّ والقُدرة.

{تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ} (البقرة:٢٥٢)

٢٥٢ – إنَّها آياتُ الله، والقَصَـــصُ الحقُّ الذي أنزلَهُ اللهُ عليكَ أيُّها الرسُـــولُ الكريم، ليؤمنَ الناسُ ويَعتَبِروا، ويتبَصَّروا بحقائقِ الأمور، وما كانوا يعرفونَ هذهِ الآثارَ والأخبار، لكنَّكَ أخبرتَهمْ بذلكَ مِنْ وحي اللهِ وعلمِه، فأنتَ نبيٌّ مرسَلٌ منْ عندهِ لا رَيب.

سورة البقرة (٢٥٣ – ٢٨٦)
سورة آل عمران (١ – ٩١)

{تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} (البقرة:٢٥٣)

٢٥٣- لقدْ فضَّلنا رُسُلاً على رُسُلٍ آخَرين، فقدْ كلَّم اللهُ بَعضاً منهم، كموسَى عليهِ السلام، ورفعَ بعضَهم درجاتٍ أعلى منْ درجاتِ آخَرين، كمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، الذي فضَّلَهُ اللهُ على العالَمين، فهو رسولُ اللهِ إلى الناسِ كافَّة، ونَسَختْ رسالةُ الإسلامِ التي جاءَ بها سائرَ الرسالاتِ السابِقة. وآتَينا نبيَّ اللهِ عيسى بنَ مريمَ عليهِ السلامُ دلائلَ ومُعجِزاتٍ قويَّة، كإحياءِ الموتى بإذنِ الله، وغيرِها، تُثبتُ صحَّة نبوَّتهِ وما جاءَ بهِ لبني إسرائيل، وأيَّدناهُ بجبريلَ عليه السلام، يُثَبِّته ويُقَوِّيه.

وقدْ تقاتلَ أتباعُ الرسلِ مِنْ بعدُ نتيجةَ اختلافِهم، على الرَّغمِ مِنْ كونِ أنبيائهمْ جميعاً دعاةً إلى عِبادةِ اللهِ الواحدِ الأحَد، وعلى الرغمِ مِنْ وضوحِ الآياتِ البيِّناتِ والحُججِ السَّاطعاتِ لدَى الفريقِ المؤمن، فكانَ منهمْ مَنْ آمَن، ومنهمْ مَنْ كفَر، ولو أرادَ اللهُ لَمَا تَقاتلوا، ولكنْ هذهِ إرادَتُهُ ومَشيئتَه، ليدفعَ الكفرَ بالإيمان، وليثبّتَ العقيدةَ الصحيحةَ في الأرض، لتنتَشِرَ ويَعرِفَها الناس.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (البقرة:٢٥٤)

٢٥٤- أيُّها المؤمنون، إنَّ الدُّنيا فرصةٌ للعَملِ الصَّالح، فأنفِقوا ممّا تفضَّل اللهُ بهِ عليكمْ مِنْ رِزق، قبلَ أنْ تُغلَقَ صفحةُ الدُّنيا فلا يُقبَلُ منْ أحدٍ عَمَل، وإنَّ أمامَكمْ يومَ القيامَة، الذي لا

يوجدُ فيهِ بَيعٌ ولا شِراءٌ حتَّى تُجرِّبوا رِبحاً، فلا مالَ يَبذلهُ المرءُ ليَفديَ بهِ نفسَه، ولا تَنفعُ صداقةُ أحدٍ ولا قَرابتُهُ لمسامحتِكم، ولا وَساطاتٌ جاريةٌ لتَشفَعَ لكمْ وتَعفوَ عنكم، بلِ الأمرُ كلُّه يومَئذٍ لله.

والكافِرونَ همْ أكثرُ الناسِ خَسارةً في ذلكَ اليوم، فقدْ أنكروا الحقّ، وظلموا أنفسَهمْ بعدمِ اتّباعه، وظلَموا غيرَهمْ عندما صَــدُّوهمْ عنِ الهُدَى، وحَرَموهمْ منْ خيرٍ كثير، فبَاؤوا بإثمِهمْ وآثامِ الآخَرين.

{اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ} (البقرة:٢٥٥)

٢٥٥- هوَ اللهُ الواحِدُ الأحَد، الذي لا يُعْبَدُ بحقٍّ إلاّ هو، الحيُّ الدائمُ الباقي الذي لا يَعتريهِ الموتُ ولا ســـبيلَ للفَناءِ إليه، فهوَ ذو حياةٍ أزليَّةٍ لا بِدايةَ لها، وأبديَّةٍ لا نهايةَ لها، وهوَ الموجودُ القائمُ بتَدبيرِ كلِّ شَــيءٍ وحفظِه، لا يَطرأ عليه فُتورٌ ولا يَغْلِبُ عليهِ وسَــنٌ ولا نُعاس، فضلاً عنِ النومِ المستَغرِق، فهوَ مُنَزَّهٌ سُبحانَهُ عنْ هذا وذاك، لا يَغْفُلُ عنْ شَيءٍ لحظَة.

كلُّ ما في السَّماواتِ والأرضِ مُلكٌ لهُ وتحتَ سيطرتِهِ وإرادتِه.

ولا يَتجاسَرُ أحدٌ على طَلَبِ الشفاعةِ منهُ إلاّ بإذنه، فالكلُّ لهُ عبيد، خاضِعونَ لمشيئتِه، يَطلبونَ منهُ الإذن، ويَشفعونَ في حُدودِ المأذونِ لهمْ به، ولهُ المُلْكُ والعظَمةُ والجَلال.

وعِلْمُهُ مُطلَقٌ شامِلٌ كامِلٌ، مُحيطٌ بجَميعِ الكائنات، ماضِيها وحاضرِها ومَستَقبلِها، وما تُسِرُّهُ وما تُظهِرُه. ولا يَعرِفونَ شَيئاً مِنْ علمهِ إلاّ إذا أطلعَهم عليه، ممّا يناسبُ حالَهمْ وحاجتَهم، ممّا سخَّرَ لهمْ في الأرضِ وفي السماءِ {حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} [سورة فُصِّلَت: ٥٣].

وقد وَسِعَ كرسيُّهُ السَّماواتِ والأرض.

ولا يُتْعِبُهُ حِفْظُ ما فيهما ولا يُثْقِلُهُ شيءٌ مِنْ ذلك، ولا ما بينَهما، بلْ هوَ سهلٌ عليهِ يَسير، فهوَ الرقِيبُ على جميعِ الكائنات، لا يَغيبُ عنهُ شــيءٌ مِنْ حركاتها، والأشـياءُ كلُّها صَـغيرةٌ ومَتواضِعَةٌ بالنسبةِ إلى قُدرتهِ وعظَمَتِه، وهيَ جميعاً مُحتاجَةٌ إلى حِفظهِ وتَدبيرِه.

وهوَ المتَفرّدُ بالعلوّ والعظَمة، والجلالِ والجبَروت، الرفيعُ فوقَ خَلْقِه، المتعالي عنِ الأشـــياءِ والأمثال، الكبيرُ الذي لا شيءَ أعظمُ منه.

ومهما عَلا إنسانٌ فلا يتجاوزُ مقامَ العبوديةِ للهِ العَظيم!

وهذهِ آيةُ الكرســيّ، شــأنُها عَظيم، وردَ في أحاديثَ صــحيحةٍ أنَّها أعظمُ آيةٍ في القُرآنِ الكريم. كما صحَّ قولهُ صلى الله عليهِ وسلَّم: "مَنْ قرأ آيةَ الكرْسيِّ دُبُرَ كلِّ صَلاةٍ مَكتوبة، لم يَمْنَعْهُ مِنْ دُخولِ الجنَّةِ إلاّ أنْ يَموت".

{**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**} (البقرة:٢٥٦)

٢٥٦- لا يُجْبَرُ أحدٌ على الدخُولِ في الإسْـلام، ولا لزومَ لهذا الإكراهِ ولا فائدةَ منه، فإنَّ الإسلامَ نَهجٌ واضحٌ بيّنٌ يُخاطِبُ عقلَ الإنسانِ وقُوَاهُ وطاقاتهِ كلَّها، وهوَ دينُ الفطرةِ والبَداهةِ والإقناع، وليسَ دينَ الغُموضِ والقَهْرِ والإكراهِ، ولا يُفيدُ الإســـلامَ وأهلَهُ رجلٌ أبدى اعتناقَهُ للإســـلامِ وهوَ غيرُ مقتنعٍ به، بلْ هذهِ صـــفةُ المنافقينَ الذينَ ذمَّهمُ اللهُ تعالى في كتابهِ ورفضَ قَبولَ إسلامِهم، وهمْ بهذا يكونونَ عالةً على المجتمعِ الإسلامي، ومَرَضاً يَسري في جسمِه.

وفي كلِّ الأحوالِ لا يُقْبَلُ من المرءِ إلاّ إيمانٌ عنْ طَواعية، كما لا يُقْبَلُ منهُ عَمَلٌ إلا عنْ رضىً واقتِناع.

وقدْ وضَـــحَ الفرقُ بين الإيمانِ والكُفر، بينَ طَريقِ الحقّ وطَريقِ الضَّـــلال، وأودعَ اللهُ في الإنسـانِ ما يُدرِكُ بهِ ذلك، فمَنْ تجنَّبَ الأصْـنام، وتركَ ما يدعو إليهِ الشـيطانُ مِنْ عبادةِ غيرِ الله، ولم يَتجاوزِ الحدودَ التي حدَّها اللهُ للعباد، وآمنَ باللهِ وحدَه، واســـتمَدَّ مِنْ كتابهِ طريقَ العِبادةِ والعَمل، فقدْ تمسَّـــكَ منَ الدِّينِ بأقوَى ســـبَب، وقبضَ على عُقْدَةٍ قويَّةٍ متمكِّنةٍ لا تَنفَصِم، وحَبلٍ مَتينٍ لا يَنقطِع، وثبتَ على الطريقِ الصحيح، واستقامَ على النهجِ المبين.

واللهُ يَسمعُ ما تَلهَجُ بهِ الألسِنة، عليمٌ بما تُكِنُّهُ القلوبُ مِنْ نيّاتٍ وعَقائد.

{**اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**} (البقرة:٢٥٧)

٢٥٧- إنَّ اللهَ يؤيِّدُ عبادَهُ المؤمنينَ فيقوِّي عزائمَهمْ ويَهديهِمْ إلى الحقّ، ويُخرِجُهمْ منْ ظُلماتِ الكُفرِ والشكِّ إلى نورِ الحقِّ المبين، وإلى ضيائهِ وإشعاعهِ الصافي، الذي يَملأ القلبَ اطمئناناً ويَزيدُهُ ثَباتاً.

أمّا الكافرونَ الذينَ رَكنوا إلى الطاغوتِ ورَضُوا بالضَّلال، فإنَّ الشيطانَ يُزيِّنُ لهمْ ما همْ فيهِ منَ الغَيِّ والضَّلالِ حتَّى يَثْبُتوا عليه، بلْ يَزيدُهمْ غِوايةً واعوِجاجاً، وظَلاماً وهَوًى، وشُروداً وتِيهاً، وشَكًّا وقلَقاً.

وهؤلاءِ مَصيرُهمُ النار، ماكثونَ فيها أبدًا، فهوَ اللائقُ بأصحابِ الظُّلمات، الذين آثَروها على النورِ والحقِّ المبين، ولا يَستوي الحقُّ والباطِل، كما لا يَستوي أهلُهما، ولا يَستوي كذلكَ مصيرُهما[١٦].

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (البقرة:٢٥٨)

٢٥٨- انظرْ إلى هذا الملِكِ المتكبِّرِ المتعنِّت، الذي أعطاهُ اللهُ منَ المالِ ما أعْطاه، ثمَّ جاءَ يُجادلُ النبيَّ إبراهيمَ عليهِ السلامُ ويُخاصِمهُ في ربِّه، وذلكَ لما رأى نفسَهُ مختصّاً بمالٍ ومُلكٍ ليسَ عندَ غَيرِه، ويأمرُ وينهَى كما يَشاءُ فيُسمَعُ ويُطاع، فقالَ لهُ إبراهيمُ عليهِ السلام، لِيُريَهُ حَقيقَةَ نفسهِ وضَعْفَ قوَّتهِ وإرادتهِ أمامَ ربِّهِ الخالق: إنَّ اللهَ يُحْيي ويُميتُ، وإنَّ ما يُرَى مِنْ ذلكَ في عالمِ الإنسانِ والحيوانِ دليلٌ على وجودِه، وعلى تَصريفهِ للكونِ وتَدبيرِهِ لما يَجري فيهِ وحدَه، فهي لا

---

(١٦) حكمَ عليهم بالخلودِ في النارِ لكفرهم. (ابن عطية).

تَحْدُثُ بنفسِــها، بلْ لا بدَّ لها مِنْ مُوجدٍ ومِنْ مدبّرٍ، وهوَ الذي يَسْــلُبُ حياةَ مَنْ شــاءَ متَى شاء، بأسبابٍ ظاهرةٍ أو باطِنة، مَعروفةٍ أو غيرِ مَعروفة.

فالإحياءُ والإماتةُ مِنْ صـفاتِ هذا الإلهِ الذي لا يَكونُ أحدٌ مثلَه، ولا يَسـتطيعُ أحدٌ أنْ يَقومَ بما يقومُ هوَ به، وهوَ الذي أعبدهُ وأدعوكَ وأدعو الناسَ إلى الاستسلامِ لهُ وعبادتِه، فهوَ الخالق، والمحيي والمميت، الذي بيدهِ كلُّ شَـيءٍ في هذا الكون، فلا إلهَ إلا هو، ولا عبادةَ إلاّ له.

واغترَّ هذا الملِكُ المتكبّرُ بما يَملِكُ مِنْ قُوىً بشَريَّةٍ وسَيطرة، فتمادَى في غَيِّهِ وقالَ لإبراهيم: أنا أيضاً أُحيي وأميت!

ذكرَ غيرُ واحدٍ أنَّهُ أوتيَ برَجُلَينِ استحقّا القَتل، فأمرَ بقَتلِ أحدِهما وعفَا عنِ الآخَر، فذكرَ أنَّهُ أماتَ الأوَّلَ وأحيَا الآخَر، فكانَ هذا مفهومَ الإحياءِ والإماتةِ عندَه!

ولم يُرِدْ إبراهيمُ عليهِ السَّــلامُ أنْ يُطيلَ معَهُ الجِدالَ وهوَ بهذهِ العقليَّةِ المتكبّرةِ المنكَرة، فأرادَ أنْ يُفهِمَهُ أنَّ الإلهَ المقصــودَ بعبادتهِ هوَ المتصــرِّفُ في الكونِ كلِّه، وأنَّ هذهِ القوانينَ الكونيَّةَ الموجودةَ هي منْ صُنعهِ وتَدبيرِه، وطلبَ منهُ تغييرَ قانونٍ واحدٍ منْ هذهِ القوانينِ الكثيرةِ المبثوثةِ في الكون، بما أنَّهُ يدَّعي أنَّهُ هوَ الآخَرُ فيه صــفةُ الربوبية، وقالَ له: إنَّ اللهَ جعلَ الشــمسَ تُشرقُ منَ الشرق، فَأْمُرْها أنتَ لتُشْرِقَ منَ الغرب!

فتحيَّرَ ذلكَ الملِكُ وسكت، وعَجَزَ عنِ الكلام، وصُدِمَ بهذهِ الحُجَّةِ الدامغةِ التي لم تَدَعْ لهُ منطقاً يُدافعُ بهِ عنْ نفسِـه. لكنَّهُ لم يُسَلِّمْ بالأمرِ ولم يؤمن، لأنَّهُ لم يرغبْ في الحقّ، ولم يَتلمَّسْ طريقَ الهِداية. واللهُ لا يَهدي هؤلاءِ الذينَ يَظلِمونَ أنفسَـهم، فيَختارونَ طريقَ الضـلالِ والعِناد، على الرَّغمِ منْ وضوحِ الحُجَّةِ ضدَّهم.

{أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (البقرة:٢٥٩)

٢٥٩- وانظرْ إلى هذا الذي مرَّ على قريةٍ خَرِبةٍ مُحَطَّمةٍ على قواعدِها، قدْ سقطتْ سقوفُها وجُدرانُها، ليسَ فيها أحد، ولا يَنطِقُ فيها شَيء. فوقفَ الرجلُ أمامَ هذا المشهدِ المحطَّمِ الميّتِ البالي، وقال: كيفَ يُحيي اللهُ هذهِ القَريةَ بعدَ أنْ ماتَ فيها كلُّ شيء، فلا حِسَّ ولا حرَكة؟!

فأماتَهُ اللهُ مائةَ عام، ثمَّ أحياهُ بقُدرتِه، وقيلَ له: كمْ بَقيت؟

قال: بقيتُ يوماً أو أقلَّ! قيلَ له: بلْ بقيتَ مائةَ عامٍ مَيتاً! فانظرْ إلى قُدرتِنا على إماتَتِكَ وعلى إحيائك، وانظرْ إلى طعامِكَ وشرابِكَ كيفَ حَفِظْناه، فلمْ يَتعفَّنْ ولم يَتغيَّرْ طَعمُهُ كلَّ هذهِ المدَّةِ الطويلة، بلْ هوَ كما تركتَهُ قبلَ أنْ نُميتَك.

وهذا حمارُكَ الذي كنتَ راكباً عليه، انظرْ كيفَ نَخِرَتْ عظامهُ وتمزَّقتْ أوصالُه!

ولنَجعَلَكَ عِبرةً ودلالةً على البَعثِ بعدَ الموت.

وانظرْ إلى هذهِ العِظامِ المتفرِّقةِ لحمارِكَ كيفَ نرفعُ بعضَها إلى بعضٍ ونجمعُها في أماكنِها ونُلَبِّسُها لَحماً ونُحييها!

فلمّا تبيَّنَ لهُ كلُّ ذلك، وتَوضَّحَ لهُ الأمرُ عِياناً، أيقنَ بذلكَ تمامَ الإيقان، وقال: أعلمُ أنَّ اللهَ قادرٌ على كلِّ شيء، لا يَصعُبُ عليهِ أمر.

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (البقرة: ٢٦٠)

٢٦٠- وقال نبيُّ اللهِ وخليلهُ إبراهيمُ عليهِ السلامُ داعياً ربَّه: بَصِّرْني كيفَ تُحيي الموتَى يا ربّ، لأرَى ذلكَ عِياناً.

فقالَ لهُ ربُّه: أوَلَمْ تؤمنْ بأنِّي قادرٌ على الإحياءِ يا إبراهيم؟

وهوَ يعلمُ سبحانَهُ أنَّهُ أثبتُ الناسِ إيماناً وأقواهُمْ يَقيناً.

فقالَ عبدهُ ونبيُّهُ إبراهيمُ عليهِ السلام: بلَى يا ربّ، قدْ عَلِمتُ وقدْ آمَنت، ولكنِّي أريدُ أنْ أرَى ذلكَ عِياناً، ليَنضمَّ ما أراهُ إلى ما أعتَقِدُهُ يقيناً، فأزدادُ بالمشاهدةِ بَصيرة، ويطمئنُّ بذلكَ قلبي، فإنَّهُ يَسْكنُ إذا عاينَ شيئاً وشاهدَه، وليسَ الخبرُ كالمعَايَنة.

قالَ صـــاحبُ "روح المعاني": ولا أرَى رؤيةَ الكيفيَّةِ زادَتْ منْ إيمانهِ المطلوبِ منهُ عليهِ السلام، وإنَّما أفادتْ أمراً لا يَجِبُ الإيمانُ به".

فاســـتجابَ اللهُ دُعاءَه، وأراهُ كيفيَّةَ الإحياءِ عِياناً، وقالَ له: خُذْ أربعةَ طُيور، فاذبَحْها وقَطِّعْها ومَزِّقْها، وفرِّقْ أجزاءَها على جِبال، ثمَّ نادِها، فَســـوفَ تأتيكَ مُســـرِعَة. فاجتَمعتْ أجزاؤها مرَّةً أخرَى، وعادتْ إلى الحياةِ بإذنِ الله.

واعلمْ أنَّ اللهَ عزيزٌ لا يُعْجِزُهُ ولا يَمتنعُ منهُ شيء، حكيمٌ فيما يَقولُ ويَفعل، ويُشَرِّعُ ويُقَدِّر.

{مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} (البقرة:٢٦١)

٢٦١- إنَّ مَثَلَ الذينَ يُنفِقونَ أموالهمْ في سَـــبيلِ اللهِ وابتغاءَ مرضـــاتِه، منَ الإنفاقِ في الجهاد، أو غيرِهِ منْ وجوهِ الخيرِ والطَّاعة، هوَ كَمثَلِ حبَّةٍ زُرِعَتْ فأعطَتْ سَبعَ سَنابل، في كلِّ سُـــنبُلةٍ منها مِئةُ حبَّة. واللهُ يُضـــاعفُ أجرَ مَنْ أنفقَ في سَـــبيلهِ بمثلِ هذا وزِيادة، لمنْ شـــاء، بحسَبِ حالِ المنفقِ وإخلاصهِ وتَعبِه.

واللهُ ذو فَضـلٍ واسـعٍ كثير، يُعطي عنْ سَـعَة، ولا يَضِـيقُ عليهِ ممَّا يَتفضَّـلُ بهِ على الناس، عليمٌ بمنْ يستحقُّ فضلَهُ ممَّنْ لا يستحقّ، وبنيَّةِ المنفقِ ومقدارِ إنفاقِه.

{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة:٢٦٢)

٢٦٢- الذينَ يُنفقونَ أموالَهمْ في سَـبيلِ اللهِ ومَرضـاتِه، منْ خَيراتٍ وصَـدقات، ولا يُتْبِعونَ عطاءَهمْ هذا بمَنٍّ ولا أذًى، فلا يَمتعِضُـونَ منَ السَّـــائلينَ ولا يتكبَّرونَ عليهم، ولا يُعَيِّرونَهمْ ولا يَتطاولونَ عليهمْ بكلامٍ لا يحبُّونَ سماعَهُ أو نَشـــره، بلْ يُعطونَهمْ بخُلقٍ طيِّبٍ ونفسٍ رَاضـــية، فهؤلاءِ لهمْ أجرُهمُ الكبيرُ الموعودُ بهِ عندَ ربِّهم، ولا يَلحقُهمْ مكروهٌ في الدارَيْن، ولا هم يأسَفونَ على ما فاتَهمْ منَ الحياةِ الدُّنيا وزهرتِها، فقدْ صَاروا إلى ما هوَ أفضلُ منها.

{قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ} (البقرة:٢٦٣)

٢٦٣- وإنَّ كَلاماً حسناً لطِيفاً تَقبَلهُ القُلوب، ومُسامحةً للسَّائلينَ على إلحاحِهم، أفضلُ مِنْ عَطاءٍ يليهِ تَطاولٌ عليهمْ وكلامٌ غيرُ مَرغوب.

واللهُ غنيٌّ عمّا عندَكمْ مِنَ الصَّدَقة، حَليم، فلا يُعَجِّلُ بالعُقوبةِ على مَنْ يَمُنُّ بصَدقتِه.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} (البقرة:٢٦٤)

٢٦٤- أيُّها المؤمنون، لا تَجعَلوا صدقاتِكمْ تَذهبُ هَباء، وذلكَ عندما تُتْبِعونَها بالمنِّ والأذَى، فتَتكبَّرونَ عَليهمْ وتعيِّرونَهمْ بما لا يُحبُّون، فإنَّ هذا الغَلطَ منكمْ يُذهِبُ ثوابَ ما تَصدَّقتم به.

وهذا مَثَلُ المنفقِ المرائي بصدَقتِه، الذي يُعطي ليَراهُ الناس، وهو لا يرجو منْ ورائهِ ثواباً مِنْ عندِ الله، ولا يؤمنُ باللهِ ولا بيَومِ الجزاء (فهوَ مُنافق)، فهذا لا يؤجَرُ على فعلهِ مهما تَصدَّق.

ومَثَلُهُ في هذا كمَثَلِ صَخرٍ أملسَ عليهِ ترابٌ خَفيف، فنزلَ عليهِ مَطرٌ شَديد، فأذهبَ ما عليهِ مِنْ تراب، وتركَ الحجرَ أملسَ يابساً لم يُنبِتْ زرعاً، فما أفادَهُ المطَر.

وكذا أعمالُ المرائينَ لنْ تُفيدَهم، ولا تُعْقِبُ مَثوبَة، بلْ تَذهبُ هباءً وتَضمحلُّ عندَ الله، وإنْ ظهرَ لهمْ أعمالٌ فيما يَرَى الناس.

واللهُ لا يَهدِي الكافِرينَ إلى الخيرِ والرُّشد، وهمْ لم يَطلبوا الهدايةَ والرشادَ منَ الله.

وفيهِ تَعريضٌ بأنَّ كلاًّ منَ الرياءِ، والمنِّ والأذَى، مِنْ خصائصِ الكفّار، فلا بدَّ للمؤمنينَ مِنْ أنْ يتجنَّبوها.

{وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (البقرة:٢٦٥)

٢٦٥- أمَّا الذينَ يُعطُونَ أموالَهم في سَبيلِ الله، وطلبًا لرِضاه، ورجاءَ ثَوابِه، وهمْ مُتيقّنونَ أنَّ اللهَ لا يُضِيعُ عملَهم هذا، بلْ سيُثيبُهمْ عليهِ ما داموا أخلَصوا نيّاتِهم وآمنوا بيومِ الجزاء، فإنَّ

مثَلَهمْ كمَثَلِ حَديقةٍ على رابيةٍ هَطلَ عليها مَطَرٌ شَـديد، فأثمرتْ ضِـعفَي أمثالِها منَ الحدائق. فإذا لم يَنزلْ عليها مطرٌ كثيرٌ فرَذاذٌ يَكفي لسقي تُربتِها الخِصْبة.

وهو كعَملِ المؤمنِ الذي لا يَنقطعُ كذلك، بلْ يتقبَّلهُ اللهُ ويُضـــاعفُهُ له. ولا يَخفى على اللهِ شيءٌ منْ أعمالِ عِبادِه، وسيُجازيهمْ عليها.

وفيهِ ترغيبٌ في الإخلاص، مع تحذيرٍ منَ الرياءِ ونحوِه.

{أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} (البقرة:٢٦٦)

٢٦٦- هلْ يُحِبُّ أحدُكمْ أنْ يكونَ لهُ بُســـتانٌ ظَليلٌ وارِف، فيه نخيلٌ وأعنابٌ تَجري منْ بينِها الأنهارُ العَذبةُ والجَداولُ الصَّـــافيةُ الرقَراقة، ولهُ فيهِ ما يريدُ ويَتمنَّى منَ الثِّمارِ الطيِّبةِ اللَّذيذة، تَدرُّ عليهِ خيراً وبَركة، تَكفيهِ وتَكفي مَنْ يَعولُه، ولما كَبِرَ وشـــاخَ وعَجَزَ عنِ الغرْسِ والعَمل، ولهُ أولادٌ وأحفادٌ صِــغارٌ لا قُدرةَ لهمْ على التكسُّــب، جاءَهُ ريحٌ عاصِــفٌ فيهِ نارٌ شَديدةٌ، فأحرقتِ البُستانَ كلَّه، ولم تُبقِ فيهِ شيئاً منَ الأشجارِ والثمار؟!

إنَّهُ مَثَلٌ ضربَهُ اللهُ "لرجلٍ غَنيٍّ يعملُ بطاعةِ الله، ثم بعثَ اللهُ لهُ الشيطانَ فعَمِلَ بالمعاصِي حتَّى أغرقَ أعماله"، كما فَسَّرَهُ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما، ورواهُ لهُ البخاريُّ في صَحيحِه.

فيكونُ المرءُ حَسَنَ العملِ في الأوَّل، كثيرَ الخيرِ والبِرِّ والإحسان، وعندما يَكبَرُ ويَقتربُ منَ الموتِ والحِسـاب، تَنعكسُ حالُه، فيَنقبضُ عنِ الخيرِ والعملِ الصَّـالح، فلا يُرتجَى منهُ إحسـان، فيَخونهُ عَمَلُهُ وهوَ أحوجُ ما يكونُ إليه، ويُحْرَمُ الأجرَ وهوَ أفقرُ ما يكونُ إليه.

فمَنْ يُريدُ منكمْ أنْ تَكونَ حالهُ مثلَ حالِ هذا، ومَنْ ذا الذي يُحِبُّ أنْ يكونَ مَصـيرهُ مثلَ مصيرِه؟

إنَّها أمثالٌ وآياتٌ واضِحاتٌ يَضرِبُها اللهُ لكم، لتَتفكَّروا وتَعتبروا وتَعملوا بموجبِها.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} (البقرة:٢٦٧)

٢٦٧- أيُّها المؤمنون، إذا تَصدَّقتمْ بشيءٍ منْ أموالِكمْ فليَكنْ ذلكَ مِنْ طيِّبِ ما كَسبتموهُ وأجودِه، مِنْ تِجارةٍ أو غيرِها، ومِنْ طيِّبِ ما أخرجَهُ اللهُ لكمْ منَ الأرض، مِنْ تمرٍ أو غيرِه، ولا تَلجَؤوا إلى الرَّديءِ منهُ فتُعطوهُ للناس، فإنَّ اللهَ طيِّبٌ لا يَقبَلُ إلا طيِّباً، وإنَّكمْ لو أُعطِيتُمْ مثلَ هذا المالِ الدنيءِ لِما أخَذتُموه، إلاّ إذا تَغاضيتُمْ عنهُ وتَسامحتُمْ فيه، فلا تَجعلوا للهِ ما تَكرهون.

واعلَموا أنَّ اللهَ غنيٌّ عنْ إنفاقِكم، وإنَّما يأمرُكمْ بذلكَ لمنفَعتِكم، وهوَ مَستَحِقٌّ للحَمدِ على نِعَمهِ العَظيمةِ عليكم.

وكانَ البعضُ يَقْصِدُ الرَّديءَ منْ مالِهِ فيُعطيهِ زَكاةً أو صَدقة، فنزلتِ الآيةُ للنهي عنْ ذلك.

{الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} (البقرة:٢٦٨)

٢٦٨- إنَّما يُسَوِّلُ لكمُ الشيطانُ لتُخرِجوا السيِّئَ منْ أموالِكمْ تخويفاً منَ الفَقر، حتَّى تُمسِكوا ما بأيديكمْ ولا تُنفقوا شَيئاً في مَرضاةِ الله، وهوَ معَ ذلكَ يأمرُكمْ بالمعاصي وارتكابِ المحَرَّمات، ويُغريكمْ على البُخلِ ومنعِ الصَّدقات. واللهُ يَعِدُكمْ في مقابلِ الإنفاقِ غُفراناً وتَكفيراً عنْ سيِّئاتِكم، وخَيراً وبَركة، وهوَ سبحانَهُ ذو قُدرةٍ واسعةٍ وفضلٍ عَميم، يَعلمُ إنفاقَكمْ ولا يُضِيعُ أجرَكم.

{يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الأَلْبَابِ} (البقرة:٢٦٩)

٢٦٩- واللهُ يُؤتي مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادهِ ممَّنْ أرادَ بهمْ خيراً: العقلَ السويَّ والعلمَ النافع، والفِقهَ في الدِّين، والإصابةَ في القولِ والفِعل، والقصدَ والاعتدال، والبصيرةَ المستنيرة، فيُدرِكُ الأشياءَ على حقيقتِها، ويَفهمُ الأمورَ على واقعِها كما يَنبغي، فيَهتدي ويُصيب.

والذي يؤتى هذا كلَّهُ في خَيرٍ عَظيم، وهِبَةٍ جَليلة، فإنَّهُ أُخرِجَ مِنْ ظُلُماتِ الجَهلِ فكانَ في نورِ الهُدى، ومنَ الانحرافِ إلى الاستقامةِ والرزانةِ والسَّداد.

ولا يَعرِفُ قَدْرَ هذا العَطاءِ الجليلِ والنِّعمةِ الكبيرةِ إلا أولو الأحلامِ والنُّهى، الذينَ يَعرِفونَ النافعَ فيَعملونَ به، ويَعرِفونَ الضارَّ فيَتجنَّبونَه.

{وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} (البقرة:٢٧٠)

٢٧٠- واعلمُوا أنَّكمْ ما أَعطيتُمْ مِنْ أموال، في حَقٍّ أو باطِل، مِنْ قليلٍ أو كثير، في سرٍّ أو عَلن، وما نذرتُمْ مِنْ نذور، في طاعةٍ أو مَعصِية، فإنَّ اللهَ عالِمٌ بها، لا يَخفَى عليهِ شَيءٌ مِنْ نيّاتِكم وحركاتِكم، ولسوفَ يُجازِي المحسِنَ منكمْ خيرَ الجزاء، ويُعاقبُ المسيءَ سيِّءَ الجزاء. وإنَّ مَنْ ظلمَ نفسَهُ، فمنعَ الصَّدقات، ولم يَفِ بالنذور، أو أنفقَ الخبيثَ، أو راءَى ومَنَّ وآذَى، فلنْ تجدَ لهمْ أعواناً يَنصُرونَهُمْ مِنْ بأسِ اللهِ وعقابِه، أو يُنقِذونَهُمْ مِنْ عذابِ اللهِ ونِقمتِه.

{إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} (البقرة:٢٧١)

٢٧١- وإذا أظهرتمُ الصَّدقاتِ أمامَ الناسِ فهوَ أمرٌ مَرغوبٌ ولا حرجَ فيه، وخاصَّةً إذا ترتَّبَ على إظهارِها مصلحةٌ راجِحة، كأنْ يَكونَ أداءً للزكاة، فإنَّ إظهارَها فيهِ معنَى الطَّاعة، وانتشارُ هذا الأمرِ وظهورُهُ خَير، وإذا أخفَيتمْ صدقاتِكمْ فهوَ أفضل، لأنَّهُ أبعدُ عنِ الرياءِ وشوائبِ النَّفس، وأقربُ إلى الإخلاصِ وطلبِ مرضاةِ الله. ويَمحو اللهُ بها سيِّئاتِكم.

ولا يَخفَى على اللهِ شيءٌ ممّا تُقَدِّمونَهُ لأنفسِكم، وما تُسِرُّونَهُ وما تُعلنونَه، في نيّاتِكمْ وأفعالِكم.

{لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} (البقرة:٢٧٢)

٢٧٢- وكانَ الصـحابةُ رضـوانُ اللهِ عليهمْ يَكرَهونَ أنْ يَجعلوا شـيئاً منَ النفَقةِ لأنسبائهمْ منَ المشــرِكين؛ خشــيةَ الإثم، وطَمعاً في إســلامِهم. فبيَّنتِ الآيةُ أنَّ الأمرَ أوسَــع، فرُخِّصَ لهم. فالمشــرِكونَ قدْ لا يَهتدونَ بهذا الأســلوبِ أو ذاك، لأنَّ الأمرَ يَختصُّ بالقُلوب، وهيَ بيدِ الله، يَهدي مَنْ يشـاءُ منها، وهوَ أعلمُ بمنْ يَسـتحِقُّ الهُدَى والإيمانَ منها. فليُبذَلْ لهمُ الخَيرُ والعَون، ولْينالُوا منكمُ المسَاعَدة.

وما تُنفِقوا مِنْ مالٍ فإنَّ فائدتَهُ تعودُ عَليكم، وكأنَّكمْ بذلكَ أنفقتُمْ على أنفسِــــكم، ولا يَضــرُّكمْ كفرُ مَنْ أنفقتُمْ عليهم، فلا تَمنَعوا الناسَ خيرَكم، فإنَّ ثوابَهُ محَفوظٌ لكمْ عندَ الله، مادامَ إنفاقُكمْ ابتغاءَ مرضاتِه، وليسَ رياءً ولا هوَ عنْ هَوى.

ولنْ تُظلَموا، فاللهُ يُعطي جزاءَ الحسنةِ أضعافاً مُضاعَفة.

قالَ البغَويُّ في تفسيرِه: وهذا في صدقةِ التطوُّع، أباحَ اللهُ تعالى أنْ تُوضَعَ في أهلِ الإسلامِ وأهلِ الذمَّة، فأمّا الصَّدقةُ المفروضة، فلا يجوزُ وضعُها إلا في المسلِمين.

{لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ} (البقرة:٢٧٣)

٢٧٣- والمهاجِرونَ الذينَ تَركوا أموالَهمْ وأهليهِم، وسَــــكنوا المدينةَ المنوَّرةَ مُنقطِعينَ إلى اللهِ ورسـولِه، يَبتغونَ نُصـرةَ الإسـلامِ والجهادَ في سـبيلِ الله، ولا يَجدونَ ما يُغنيهم، ولا يَسـتطيعونَ سَفراً للتجارةِ والتكسُّب، فهمْ على أُهبَةٍ إذا نُوديَ للجِهاد.

ومعَ ما همْ فيهِ مِنْ فَقرٍ وحاجة، يَظنُّ مَنْ لا يَعرِفُ حقيقةَ حالِهمْ أنَّهمْ أغنياءُ مَكفيُّونَ في المعَاش، مِنْ تَعفُّفِهمْ في لباسِـــهمْ وحالِهمْ ومَقالِهم، فيَتجمَّلونَ ظاهراً حتَّى لا يُعرَفوا ولا تَظهرَ حاجتُهم، لكنَّ اللبيبَ ذا البصـــيرةِ يُدركُ ما وراءَ هذهِ الحال، ويَعرِفُ أنَّ هذا العَفافَ يُخفي فَقراً واستِكانَة.

وإذا بدا لبَعضِهمْ أنْ يَطلبوا شيئاً فلا يُلِحّونَ في المسألة، ولا يُكلِّفونَ الناسَ ما لا يَحتاجونَ إليه. إنَّهمْ فقراءُ كِرامٌ بَرَرة، ذَوو حَياءٍ وتَجلُّدٍ وصَــبر، ودِيْنٍ قَويمٍ وخُلق، فلا تنسَــوا هؤلاءِ أيُّها

المؤمنون، وإذا أعطَيتُموهمْ شـــيئاً فليكنْ ذلكَ في ســـرٍّ وتَلطُّف، لا يَخدِشُ إباءَهم ولا يَجرَحُ كرامتَهم.

وإنَّ ما تُنفقونَهُ مِنْ مالٍ عَليهمْ لا يَخفَى على اللهِ منهُ شَـــيء، ولا يَضـــيعُ عندَهُ الخَير، ولسوفَ يَجزي عليهِ أوفرَ الجزاءِ وأوفاه.

{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة:٢٧٤)

٢٧٤- الذينَ يَفعلونَ الخيراتِ ويَتصـدَّقونَ مِنْ أموالِهِمْ في سَـبيلِ اللهِ في كلِّ أوقاتِهِمْ وأحوالِهم، لَيلاً ونَهاراً، سِـــرّاً وعَلانية، حتَّى مَنْ أنفقَ على والدَيهِ وعِيالهِ وخَدَمهِ الفقراءِ وأقربائهِ... فلهمْ عندَ اللهِ الثوابُ العظيم، ولا خَوفٌ عليهمْ يومَ الحسـابِ عندما يَخافُ البُخلاءُ الأشِـحَّاء، ولا يَحزنونَ إذا تأسَّف المفرِطونَ المسرِفون.

{الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (البقرة:٢٧٥)

٢٧٥- إنَّ الذينَ يأكلونَ الرِّبا ويَتعامَلونَ به، يَكونُ مَصـــيرُهمْ عندما يَقومونَ مِنْ قُبورِهمْ للحَشـرِ والحسـاب، كحالِ المصـروعِ عندما يَقوم، فيؤذيهِ الشـيطانُ ويَصـرَعُه، فتَكونُ حركتهُ هِستيريةً عشوائيةً وكأنَّهُ مجنونٌ يُخنَق، ممّا بهِ مِنْ جُنونٍ وفَزَع!

ويَرَى صـاحبُ "الظلال" أنَّ هذهِ الصـورةُ واقِعةٌ بذاتِها في حياةِ البشـريةِ الضَّـالةِ في هذا العصـر، التي صـارتْ تتخبَّطُ كالمَمَســوسِ في عَقابيلِ النظامِ الرِّبوي، وأنَّ هذا العالمَ هو عالمُ القلقِ والاضـــطرابِ والخوفِ والأمراضِ العصـــبيَّةِ والنفســيَّة، باعترافِ عُقلاءِ أهلهِ ومُفكِّريهِ وعُلمائهِ ودَارســيه، وعالمُ الحروبِ والتهديدِ الدائمِ بالحروبِ المبيدة، وحربِ الأعصـــابِ والاضطراباتِ التي لا تَنقطعُ هُنا وهُناك، وأنَّها حياةُ شقاءٍ وبؤسٍ ونَكد! ومِنْ هذا البلاءِ الذي تعيشُ فيهِ البشريَّةُ بلاءُ الرِّبا، بلاءُ الاقتصادِ الذي يَنمو نُمُوًّا مائلاً جانِحاً إلى حُفنةٍ مِنَ المموِّلين

المرابين، الذين لا يَهدِفونَ إلى سـدِّ مصـالحِ البشـريَّةِ وحاجاتهم، بلْ إلى ما يُحَقِّقُ لهمُ الأرباح، ولو أفسَدوا حياةَ الملايين، وزرعوا الشكَّ والقلقَ والخوفَ في حياةِ البشريَّةِ جميعاً...اهـ.

وإنَّ سببَ ما يَنـزِلُ بهؤلاءِ المرابينَ عندما يُبعثونَ مِنْ قبورِهم، هوَ استِحلالُهُمُ الرِّبا وقَولِهِمْ إنَّ البيعَ مثلُ الربا، وقالوا: لماذا أُحِلَّ هذا وحُرِّمَ ذاك؟ فهو اعتراضٌ على أحكامِ اللهِ وشـرعِه. وشُـبهتُهمْ الواهيةُ في هذا أنَّ كِلَيهما يجُرّانِ ربحاً! معَ أنَّ العملياتِ الرِّبويَّةَ مُحَدَّدٌ ربحُها وفائدتُها في كلِّ حالة، وتَعودُ إلى مجموعَةٍ منَ المموِّلين المرابِين، والبيعُ والتجارةُ يُخضَـعُ فيه للربحِ والخَسـارة، في مهاراتٍ شـخصـية، وظروفٍ جارية، وحركةٍ وعَمل، وتوزيعٍ متنوّعٍ في الأموالِ والأرباح. فالرِّبا يُفْسِدُ الحياةَ البشريَّة، والبيعُ والتجارةُ تنشِّطُ الحياةَ الاقتصاديةِ وسوقَ العمل. ولهذا وغيرِهِ منَ الاعتباراتِ التي يَعرِفُها الاقتصـاديونَ والتجّار، أحلَّ اللهُ البيع، وحرَّمَ الرِّبا تحريماً قاطِعاً.

فمَنْ بلَغَهُ نهيٌ وزَجرٌ عنْ تعاطي الرِّبا حالَ وصولِ حُكمِ الشرعِ إليه، فلهُ ما سبقَ منْ مالهِ الذي وصـلَهُ عنْ طَريقِ الرِّبا قبلَ التحريم، فلا يُسـتَرَدُّ منه، وأمرُهُ إلى الله، فيَرجو عفوَهُ ورحمتَه، فهوَ من العفوِ عمّا سلفَ إنْ شاءَ الله.

ومَنْ عادَ إلى التعاملِ بالرِّبا بعدَ بلوغهِ نهيَ اللهِ عنه، فقدِ اسـتَحقَّ العقوبةَ والنارَ المحْرِقةَ الدَّائمة. فلا يَغُرَّنَّ أحداً طولُ وقتٍ عاشَـه، فإنَّ الموتَ يأتي فجأة، ولا يُبْعِدَنَّ مِنْ حِسـابهِ تهديدَ اللهِ ووعيدَه، فإنَّهُ حَقٌّ وصِدق، وهوَ واقعٌ بمَنْ خالفَ أمرَه.

وقدْ جاءَ التحريمُ لآكلِ الرِّبا لأنَّهُ الغالِب، والمقصـودُ هوَ ومَنْ في حكمه، وفي صـحيحِ مسـلمٍ قولُ جابرٍ رضـيَ اللهُ عنه: "لَعَنَ رسـولُ الله صـلى الله عليه وسـلمَ آكِلَ الرِّبا، ومُؤْكِلَهُ، وكاتِبَهُ، وشاهِدَيْه، وقال: همْ سَواء".

{**يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ**} (البقرة:٢٧٦)

٢٧٦- إنَّ اللهَ يُذهِبُ البَرَكةَ منَ الأموالِ الرِّبويَّة، فلا يُنتَفَعُ بها، وسـتَكونُ حسـرةً على صـاحِبِها وعقاباً لهُ في اليومِ الآخِر. وما اسـتوَى خَبيثٌ وطيِّب، ولو كانَ هذا الخبيثُ أبيضَ برّاقاً، فإنَّ اللهَ يَركُمُهُ ويَجعَلُهُ في جهنَّم. وهوَ لا يعودُ على المجتمعِ الرِّبويِّ إلا بالشـقاءِ والنَّكد، على الرغمِ ممّـا يُرَى في ظـاهرِهِ منْ غِنىً ومَوارد، فـإنَّـهُ يَفيضُ بالقلقِ النفسـيِّ والخوفِ

والاضـطِراب، وليسَ فيه أمانٌ واطمئنانٌ وسَـعادةٌ حقيقيَّة، حيثُ لا بَركةَ ولا تَكافلَ قائمٌ على الحقِّ والتقوَى.

أمّا المالُ الطيّبُ والصَّــدقات، فإنَّ اللهَ يُنْمِيها ويَزيدُها خيراً وبَركةً ووَفرة، ويَجعلُ في مجتَمعهِ المودَّةَ والاطمئنانَ وراحةَ البال، حيثُ التكافلُ والتعاونُ على الخَير.

واللهُ يَبغُضُ ذلكَ المرابيَ الكَفورَ القَلب، الذي يأثَمُ في قولِهِ وفِعله، فلا يَرضَـى بما قسـمَ اللهُ لهُ منَ الحلال، ولا يَكتفي بما شَرعَ اللهُ لهُ منَ التكسُّبِ المباح، بلْ يَسعَى إلى أكلِ أموالِ الناسِ بالباطِل، منَ الرِّبا وغَيرِه.

{إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة:٢٧٧)

٢٧٧- إنَّ الذينَ آمَنوا وأتْبَعُوا إيمانَهمْ بالأعمالِ الصـالحة، فأطاعُوا ربَّهم، وشَـكروا لهُ نِعَمَهُ عَليهم، ورَضُــوا بما قَسَـمَ لهمْ منَ الحلال، وأحسَـنوا إلى خَلْقه، وداومُوا على صـلواتِهم، وأعطَوا زَكـاةَ أموالِهِمْ للفقراءِ والمحتـاجين، لهمْ جميعـاً الجزاءُ العَظيمُ عنـدَ ربِّهم، ولا خوفٌ عليهمْ يومَ الحِســـاب، في مقابلِ التخبُّطِ والهَلَعِ الذي يُصـــيبُ المرابي، ولا همْ يَحزَنونَ على ما فاتَهمْ منَ الدُّنيا، فهمْ في مكانٍ أجلّ، ونَعيمٍ أعظم، وسعادةٍ لا تُوصفُ ولا تُقارَنُ بما في الدنيا.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} (البقرة:٢٧٨)

٢٧٨- أيُّها المؤمنون، اخشَــــوا اللهَ ولا تُخالِفوا أمرَه، واترُكوا ما لكمْ على الناسِ منَ الرِّبا، إذا كنتُمْ مؤمنينَ باللهِ وبما شَرَعَ لكمْ منَ الحلالِ والحرام.

{فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ} (البقرة:٢٧٩)

٢٧٩- فـإذا لم تَنتهوا عنِ التعَـاملِ بالرِّبا، فـانتَظروا غَضَـــبَ الربّ، وتيقَّنوا حَرباً منَ اللهِ ورسولِه!

وهوَ تَرهيبٌ مُخيف، ووَعيدٌ شَـديد، وغَضـبٌ ماحِقٌ منْ جبّارِ السَّـماواتِ والأرض، يُهَدِّدُ فيهِ الذينَ لا يَكفُّونَ عنِ التعاملِ بالرِّبا بالعِقابِ والقَتل.

وهوَ عقابٌ دُنيويٌّ وأُخْرَويّ. وقدْ سـبقَ بيانُ الأُخْروِيّ، أمّا الدنيويّ، فإنَّ المرابيَ يُسـتَتابُ منْ فِعلتِهِ الشـنعاءِ هذه، فإذا لم يَدَعْها عُوقب. وكذلكَ الجماعاتُ والفِئاتُ كالصـيارفةِ وأصـحابِ البنوك ومَنْ إليهم. وهيَ مسؤوليةٌ كُبرى يَتحمَّلُها الحاكمُ خاصَّة. وقدْ أمرَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلَّم عندَ فتحِ مكَّةَ بوضعِ كلِّ رِبًا في الجاهلية. قالُ أهلُ المعاني: حربُ اللهِ النَّارُ، وحربُ رسولِ اللهِ السَّيفُ.

فإذا تُبتُمْ وعدتُّمْ إلى الحقّ، وانتَهيتُم عنِ التعامُلِ بالربا، فإنَّ أصـولَ أموالِكم تُعادُ إليكم، لا يَنْقُصُ منها شَيءٌ ولا يُزادُ عَليها شَيء.

{وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}
(البقرة: ٢٨٠)

٢٨٠- فإذا كان المَـدينُ مُعسِراً لا يَستطيعُ أنْ يَفيَ دَيْنَه، فيُنْظَرُ حتَّى يَيْسَرَ ويَدفعَ إليكمْ رؤوسَ أموالِكم، لا كما يفعلُ المُرابي الجَشِعُ بوضعِ المزيدِ منَ الرِّبا إذا لم يَدفع!

وإذا تصَـدَّقتُمْ بها عليهِ وسـامَحتُموهُ فإنَّهُ خَيرٌ لكمْ وأفضَـل، هذا إذا عَلمتُمُ الثوابَ الكبيرَ الذي يَنتظرُكمْ منْ فَضلِ التيسيرِ على المعسِر.

{وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}
(البقرة: ٢٨١)

٢٨١- واخشَـوا اللهَ حقَّ الخَشـية، وانتَظِروا ذلكَ اليومَ الذي تُرجَعونَ فيهِ إليهِ وقدْ تركتمُ الدُّنيا وما فيها مِنْ أموال، وسوفَ يُحاسِبُكمْ على ما كسبتُمْ منْ طرقٍ حَلالٍ أو حَرام، ويُحَذِّرُكمْ منْ عُقوبتِه، كما يُرَغِّبُكمْ في مَثوبتِه، ولنْ يُظْلَمَ أحدٌ في ذلكَ اليومِ والمحاسِبُ هوَ الله.

ويومَئذٍ يَندَمُ المرابي أيَّما نَدم، وكلٌّ يَرجو لو كانَ تَنازل، وأنفَق، وأحسَـن... وهاهمُ الأحياءُ يَقرؤونَ ويَسمَعون، إنْ كانتْ لهمْ عُيونٌ يُبصِرونَ بها، وآذانٌ يَسمعونَ بها.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (البقرة:٢٨٢)

٢٨٢- أيُّها المؤمنون، إذا تَعاملتُمْ فيما بَينكمْ بمعاملاتٍ مؤجَّلةٍ فاكتُبوها، فإنَّهُ أثبتُ وأحفَظ، كما يأتي.

وليَكنِ الكاتبُ بَينكمْ شَخصاً يَكتبُ بالقِسطِ والحقِّ على ما اتَّفقتُمْ عليه، مِنْ غَيرِ زيادةٍ ولا نُقصان.

ولا يَرفُضِ العارفُ بالكتابةِ أنْ يَكتبَ لهمْ إذا طُلبَ منهُ ذلك، فإنَّ عليهِ أنْ يَكتبَ وفاءً للعلمِ الذي علَّمَهُ الله.

وليَقُلِ المَـــدينُ ما عليهِ منَ الدَّيْن ليُكْتَب، ولْيَخْشَ اللهَ في قوله، وليَصْدُقْ ما في ذمَّتهِ ولا يَنقُصْ منهُ شيئاً، وليَذكرْ شرطَهُ وأَجَلَه.

فإنْ كانَ المَـدينُ سَفيهاً لا يُحسِنُ تَدبيرَ أمورِه، أو ضَعيفاً: صَغيراً، أو مجنوناً، أو لا يَستطيعُ أنْ يُمليَ هوَ ويُبيِّنَ مقدارَ ما عليهِ ومُلابســـاتِه، لِعَيبٍ خَلْقيٍّ أو جَهلٍ أو أيِّ ســـببٍ آخَر، فليَتحدَّثْ عنهُ وليُّ أمرِهِ أو القيِّمُ عليه، بالحقِّ والعَدل.

وأشـــهِدوا على عَقدِكمْ هذا اثنينِ منَ الشـــهداءِ عَدْلَينِ يَجُوزانِ على رِضـــاكِما. فإذا لم يَكونا رَجُلينِ فليَكنْ رَجلاً وامرأتين، حتَّى إذا نَسِـيتْ إحداهُما ذكَّرتْها الأخرى، فإنَّ واجبَها الأُســريَّ واهتمامَها وانشـغالَها بأعمالِها الخاصَّـة، وبُعدَها عنْ أمورِ البيعِ والعقودِ يُنسِيها ذلك، فتُذَكِّرُها الأخرَى بملابساتِ الموضوعِ فتَذْكُر.

وإذا دُعيَ الأشهادُ إلى الشهادةِ فليَستَجيبوا.

ولا تَمَلُّوا منْ أنْ تَكتبوا مُعامَلاتِ الديونِ ومدَّةَ إيفائها، ســــواءٌ كانتْ قليلةً أمْ كثيرة، فالكتابةُ أعدَل، وأثبَتُ للشاهدِ إذا رَأى خطَّهُ أو توقيعَه، فإنَّهُ منَ المحتملِ أنَّهُ لو لم يَكتبْهُ لم يَذكره. وهوَ أبعدُ منْ شُبهةِ الكذبِ والادِّعاء، الذي يُفضِي إلى التنازعِ بينَ المتعاقِدَين.

وإذا كانَ البيعُ حاضـراً في مجلسٍ واحد، فلا بأسَ منْ عدمِ الكتابة، لتيسـيرِ العمليّاتِ التجاريَّةِ وعدمِ تَعقيدِها، معَ الإشهادِ على ذلك.

والأمرُ هنا للإرشادِ والنَّدْبِ لا الوجوب، عندَ جمهورِ العلماء.

وكذا الأمرُ بكتابةِ الدَّيْنِ -كما جاءَ في أوَّلِ الآية- أمرُ نَدْبٍ واستحبابٍ وليسَ بفَرض، عندَ أكثرِ الفقهاء، لأمورٍ وأدلَّةٍ أخرَى في الموضوع. لكنَّ الكتابةَ أفضلُ وأحسنُ وأوثق، كما مرَّ في الآيةِ الكريمة. وصـــاحبُ الدَّيْنِ يَحتاطُ لذلك، فإذا لم يَكتبْهُ وحَدَثَ ما لا يُحمَدُ فلا يَلومنَّ إلا نفسَه.

ولا يَضُرَّ الكاتبُ فيَكتبَ عقدَ الدَّينِ بخلافِ ما يُملَى عليه.

ولا يَضُرَّ الشاهدُ فيُدليَ في شهادتهِ بخلافِ ما رَأى أو سَمع، أو يَكتُمَها.

كما أنَّ الكاتبَ والشاهدَ لا يُجبَرانِ على الكتابةِ والشهادةِ إذا اعتَذرا، وإذا فَعلا فلا يَتعرَّضانِ للضَّررِ منْ قِبَلِ العاقدَينِ لأيِّ سببٍ منَ الأسبابِ الخلافيَّةِ بينَهما.

واخشَـوا اللهَ في معاملاتِكم، واتَّبعوا أمرَهُ واسـتَقيموا عليه، فإنَّ اللهَ يعلِّمُكمْ أحكامَهُ المتضـمِّنةَ مصالحَكم، واللهُ عالِمٌ بحقائقِ الأشياءِ ومصالحِها وعواقِبها، ولا يَخفَى عليهِ حالُكم.

{وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} (البقرة:٢٨٣)

٢٨٣- وإذا كنتُمْ مســــافِرينَ ولم يكنْ هناكَ كاتبٌ يَكتبُ لكمْ عَقْدَ دَيْنِكمْ وبَيعِكم، فليَكنْ بدلَهُ رهنٌ يَقْبِضُهُ المرتهِن، وهوَ صاحِبُ الحقّ.

فإذا أَمِنَ بعضُكمْ بَعضاً ووثقَ به ولم يَرتَهِنِ الدائنُ، فليؤدِّ المدينُ دَيْنَهُ الذي أؤتُمِنَ عليه، وليَخْشَ اللهَ في ذلكَ فلا يَنْقُصْ ولا يَزِدْ.

ولا تَكتُموا الشَّــهادةَ عندَ التقاضِــي، فإنَّها أمانة، ومَنْ كتَمَها فقدَ فَجَرَ وباءَ بالإثم، وكِتمانُها كتَزويرِها، فلا فرقَ بين إخفائها أو قولِها على غيرِ حَقيقَتِها.
واللهُ عليمٌ بما تُكِنُّهُ القلوب، خبيرٌ بما تُخفيه، ويَجزِي كلاًّ بما يَستَحقّ، إنْ خَيراً، أو شَرًّا.

{لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (البقرة:٢٨٤)
٢٨٤- كلُّ ما في السَّماواتِ والأرضِ مُلكٌ لله، وهوَ سُبحانَهُ مطَّلعٌ على جميعِ ما فيها، خبيرٌ بحركاتِها وسَكناتِها، مهما خَفِيتْ وصَغُرت، عليمٌ بما في نُفوسِكمْ أيُّها البشَر، إنْ أظهَرتُموهُ أو كتَمتُموه، ويُحاسِبُكمْ على كلِّ ذلك، ثمَّ يَغفرُ لمنْ شاءَ منكم، ويُعَذِّبُ مَنْ شاء، واللهُ لا يُعْجِزهُ شَيء، وهوَ قادرٌ على ما يَشاء.
وفي هذا تَخويفٌ شديد، وتَرهيبٌ مُخيف، فإنَّ المحاسبةَ على السيِّءِ منَ الأعمالِ القلبيَّةِ ليسَ في صالحِ النفسِ البشريَّةِ مهما كانتْ مُؤمِنةً صالحة، فلا يُمكِنُ الاحترازُ عنْ كثيرٍ منْ هذهِ الأعمال. وهذا الذي دفعَ الصحابةَ رضيَ اللهُ عنهمْ إلى أنْ يُراجِعوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في ذلك؛ لتَقْواهم وشِدَّةِ إيمانِهم، وقالوا له: "كُلِّفنا منَ الأعمالِ ما نُطيق، الصلاة، والصيام، والجهاد، والصدقة، وقدْ أُنْزِلتْ عليكَ هذهِ الآية، ولا نُطيقُها".
فنهاهُمْ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنْ يكونوا مثلَ أهلِ الكتابِ وقولِهِمْ: {سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا}، وأمرَهُمْ أنْ يَقولوا: {سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}.
فقالوا ذلك، فنزَلَتِ الآيةُ التاليةُ ناسخةً لها، وفيها قولهُ تعالى: {رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ}. فاستجابَ لهمْ ربُّهم، وقال: "قدْ فَعَلْتُ"، كما في صَحيحِ مُسلمٍ وغيرِه.
وفي الحديثِ الذي رواهُ البخاريُّ وغيرُه: "إنَّ اللهَ تجاوزَ عنْ أمَّتي ما حدَّثتْ بهِ أنفُسَها ما لم تَعملْ أو تَتكلَّم".
وفي الآيةِ تَذكيرٌ للمؤمنينَ بما يُمكنُ أنْ يُحاسَبوا عليهِ حتَّى يَزيدوا منْ معالجةِ تربيةِ أنفسِهمْ ويحافِظوا على تَزكيتِها باستِمرار، ويَطلبوا منَ اللهِ العفوَ والمغفرةَ دائماً. وفي التاليةِ بيانٌ لفضلِ اللهِ عليهمْ وتَجاوزهِ عنْ ذلك.

{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} (البقرة:٢٨٥)

٢٨٥- إنَّ الرسـولَ محمّداً صـلى الله عليه وسـلم والمؤمنونَ كلُّهمْ آمنوا إيماناً شـاملاً كاملاً، فآمَنوا باللهِ الواحدِ الأحَد، وآمَنوا بملائكتهِ الذينَ ذَكرَهمُ اللهُ ورسولُه، وآمَنوا بما أُنْزِلَ مِنْ كُتب، وآمَنوا بالرسُلِ جميعاً، وليسَ ببعضِهمْ كما فعلَ اليهودُ وغيرُهم، وهمْ جميعاً عبيدُ اللهِ، صادقونَ، مُوحًى إليهم.

وقالوا جَميعاً مؤمنينَ مُسـتَسـلِمين: سَمِعنا قولَكَ يا ربَّنا وعَقَلناه، وأطَعنا ما فيهِ وامتَثلناه، فاغفرْ لنا يا ربَّنا ذنوبَنا وتَقصيرَنا، فإنَّ إليكَ مآبَنا ومرجِعَنا يومَ الحِسـاب، فلا مَلجأ منكَ إلاّ إليك، ولا نَجاةَ مِنْ عقابِكَ إلاّ بغُفرانِك.

{لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} (البقرة:٢٨٦)

٢٨٦- لا يُكلِّفُ اللهُ نفسـاً فوقَ طاقتِها، فلا يُؤمَرُ أحدٌ بأمرٍ لا يَقدِرُ عليه، فلها ثَوابُ ما عَمِلتْ مِنْ خَير، وعليها عقوبةُ ما اكتسَبتْ مِنْ شَرّ.

وقالوا: ربَّنا سـامِحنا واعفُ عنّا إذا ترَكنا أمراً أو ارتَكبنا محظوراً نِسياناً لا عنْ قَصـد، أو سـهَونا عنِ الصَّوابَ في العَملِ وجَهِلناه.

وفي الحديثِ الصحيحِ الذي مرَّ أنَّ اللهَ استجابَ دعاءَ عبادهِ المؤمنينَ في ذلكَ وقال: "نعم".

وقالوا: ربَّنا ولا تُكَلِّفنا أعمالًا شـاقَّةً كما كلَّفْتَ بهِ أمماً ماضِية، مثلَ بني إسْرائيل، الذين كانوا يَعْصُونَ المرَّةَ تِلْوَ الأخرى، فيُعاقِبُهمُ اللهُ بمزيدٍ منَ التكاليف.

ودَعَوا فقالوا: واعفُ عنّا يا ربَّنا تَقصيرَنا وزَلَلنا، واغفرْ لنا ما اقترَفنا منْ ذنوبٍ وسيِّئات، فإنَّهُ لا يَغفِرُها إلا أنت، وارحَمنا برحمتِكَ الواسـعة، وتوَلَّنا بحفظِكَ ورِعايتِك، فأنتَ وليُّنا وناصِـرُنا، نَسـتَعينُ بكَ ولا نتوكَّلُ إلاّ عليك، واكتبْ لنا التأييدَ والنصـرَ على هؤلاءِ الكافِرينَ الذينَ

جَحدوا دينَك، وأنكرُوا وحدانيَّتَك، وكفَروا برسالةِ نبيِّك، وأشرَكوا في عبادتِك، فانصُرنا وأنتَ خَيرُ الناصِرين.

فاستجابَ اللهُ لهم.

والآيتانِ الأخيرتانِ منْ هذه السورةِ العظيمةِ فيهما خيرٌ كثيرٌ لمنْ قرأهما، وفي فضلِهما أحاديث، منها قولهُ صلى الله عليهِ وسلم: "مَنْ قرأ بالآيتَيْنِ مِنْ آخرِ سورةِ البقرةِ في ليلةٍ كَفَتاه". رواهُ الشيخانِ وغيرُهما.

يَعني كَفَتاهُ عنْ قيامِ تلكَ الليلة، أو كَفَتاهُ المكرُوه... وذلكَ لِما فيهما منِ اعتقادٍ شامِل، ومنْ الثَّناءِ على الصَّحابةِ بجميلِ انقيادِهم إلى الله، وابتهالِهم، ورجوعِهم إليه، وما حصلَ لهمْ من الإجابةِ إلى مطلوبِه...

* * *

مِنْ فضائلِ هذه السُّورَةِ العَظيمَة، قَولُهُ صلى الله عليه وسلم: "إنَّ الشَّيطانَ يَنْفِرُ مِنَ البَيتِ الذي تُقرَأُ فيهِ سُورَةُ البقَرَة". رواهُ مسلمٌ وغَيرُه.

سورة آل عمران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{الم} (آل عمران:١)

١- حروفٌ مقطَّعة، لم يردْ في تفسيرِها حديثٌ ثابتٌ صحيح، فاللهُ أعلمُ بمرادِها.

{اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ} (آل عمران:٢)

٢- هوَ اللهُ الواحِدُ الأحَد، ذو الحياةِ الحقيقيَّةِ الدَّائمة، فلا بدايةَ لها ولا نهاية، فهو دائمُ الوجود، قائمٌ بتدبيرِ الكونِ كلِّه، لا حركةَ لهُ ولا حياةَ لمنْ فيهِ بدونِه.

{نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ} (آل عمران:٣)

٣- أنزلَ اللهُ عليكَ القُرآنَ بالحقِّ[١٧] أيُّها النبيُّ محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، يُصَدِّقُ الكتبَ السماويَّةَ السابقَة، بما أخبرَتْ بهِ وبشَّرت، منْ ذلكَ إرسالُكَ نبيًّا خاتماً، وأنزلَ التوراةَ على موسَى، والإنجيلَ على عيسَى، عليهما الصلاةُ والسَّلام.

{مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} (آل عمران:٤)

---

(١٧) بالحق: بالعدلِ في أحكامه، أو بالصدقِ في أخباره، التي من جملتها خبرُ التوحيدِ وما يليه، أو في وعدِهِ ووعيده. (روح البيان).

٤- أنزلَهما قبلَ القُرآن، ليَهتديَ بهما الناسُ في زمانِهما، وأنزلَ القُرآنَ ليكونَ فُرقاناً بينَ الحقِّ والباطل، وبياناً لِما كانَ في الكتبِ السـابقَةِ مِنْ حقّ، وتَنبيهاً لِما فيها مِنْ باطلٍ بعدَ تحريفِها، بما في القُرآنِ منْ آياتٍ بيّنات، ودلائلَ واضحات.

والذينَ جحَدوا بآياتِ اللهِ وأنكرُوها، أو انحرَفوا عنها فزوَّروها وأوَّلوها على غيرِ وجهِها الحقّ، لهمْ عذابٌ مؤلمٌ قاسٍ يومَ القيامة. واللهُ عزيزٌ لا يُغالَب، يَفعلُ ما يَشاء، ويَحكمُ كما يُريد، يَنتقِمُ ممَّنْ كذَّبَ بآياتِه، وخالفَ أنبياءَه.

{إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} (آل عمران:٥)

٥- ولا يَخفَى على اللهِ شَـيءٌ مِنَ الأشـياء، في السَّـماواتِ والأرض، مهما دقَّتْ وصَـغُرت، وعِلمهُ بالماضي والحاضرِ والمستَقبلِ شامِلٌ مُطلَق.

{هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ} (آل عمران:٦)

٦- هوَ الذي يَخلقُكمْ في أرحامِ أمَّهاتِكم كما يَشـــاء، مِنْ ذكرٍ وأنثَى، وحَسَـــنٍ وقَبيح، وتامٍّ وناقِص، ومِيْزةِ كلِّ واحدٍ وخصـائصِـه، بمشِـيئتهِ وإرادتهِ النافِذَة. فهوَ وحدَهُ الخالقُ المصَـوِّر، لا يُشارِكُهُ في أمرِهِ أحد، فهوَ وحدَهُ المستحِقُّ للعبادة، لهُ العزَّةُ والحِكمة، والأمرُ والتَّدبير.

{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الأَلْبَابِ} (آل عمران:٧)

٧- هوَ الذي أنزلَ عليكَ هذا القُرآنَ العَظيم، فيهِ آياتٌ مُحْكَماتٌ واضِـــحاتٌ يَعرِفُ مَعناها الناس، لا اشتباهَ في مَعناها ودَلالتِها، وفي بعضهِ الآخَرِ آياتٌ مُتشابِهاتٌ غيرُ واضِحات، فمنْ كانَ في قَلبِهِ شَكٌّ وانحرافٌ وضَلال، فإنَّهمْ يَتركونَ الأصولَ الواضِحةَ المُحكَمةَ الدقيقَة، ويَجرُونَ وراءَ ما تَشـابهَ مِنَ الآيات، وقَصـدُهمْ مِنْ ذلك إحداثُ بَلبَلةٍ، وإثارةُ خِلاف، وإيهامُ أتباعِهمْ بأنَّهمْ على حقّ، وذلـكَ بإنزالِ جُزءٍ ممّا تَـدلُّ عليهِ هـذهِ الآياتُ على معنىً أعمَّ، وتكبيرِهِ بما

يُناسبُ ضلالَهم وعقيدتَهم الفاسِدة. والحالُ أنَّ تأويلَ الآياتِ المتشابهاتِ وتفسيرَها الحقيقيَّ مخصوصٌ باللهِ تعالى.

والذينَ وفَّقهمُ اللهُ مِنْ عبادِهِ الراسخينَ في العلم، المُتثبِّتينَ المُتمكِّنين، يَقولون: آمنّا بالمتشابِهِ أنَّهُ هوَ والمُــحكَمُ مِنْ عندِ ربِّنا، لا مُخالفةَ بينهما، كلُّ واحدٍ منهما يُصَدِّقُ الآخَرَ ويَشهَدُ له، وأنَّ معناهُ الحقَّ هوَ على مرادِهِ تعالى.

ويجوزُ أنْ يكونَ في القُرآنِ تأويلٌ استأثرَ اللهُ بعلمهِ ولم يُطْلِعْ عليهِ أحداً مِنْ خلقه، كما استأثرَ بعلمِ الساعةِ وغيرِها. والخَلْقُ مُتَعبِّدونَ في المتشابِهِ بالإيمانِ به، وفي المحكَمِ بالإيمانِ بهِ والعمَل. أفادَهُ البغَويّ.

وما يَذكرُ هذا حقَّ التذكُّر، ولا يتَّعِظُ بما في القُرآن، ولا يَفهَمُ ويَتدبَّرُ معانيَ الآياتِ على وجهِها، إلاّ الألبّاءُ والأسوياءُ مِنْ ذَوي العقولِ الراجحةِ المستَقيمَة، الذينَ لا يَزيغُونَ ولا يتَّبعونَ الأهواء.

{**رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ**} [آل عمران:٨]

٨- ويقولُ هؤلاءِ الراسخونَ في العلم، ويقولُ مَعهمْ كلُّ مؤمن: اللهمَّ إنّا نسألُكَ ألاّ تُميلَ قلوبَنا عنِ الحقِّ والهُدَى بعدَ أنْ أقمتَها عليه، ولا تَجعَلْنا مثلَ الذينَ في قُلوبِهمْ زَيغٌ فيتَّبعونَ ما تشابهَ منَ القُرآنِ ويذَرونَ مُحْكَمه، وأعطِنا مِنْ عندِكَ رحمةً واسِعةً تثبِّتُ بها قُلوبَنا على الهُدَى والصراطِ المستَقيم، فأنتَ الواهبُ المنعِم، الهادي إلى الهُدَى والإيمان.

{**رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ المِيعَادَ**} [آل عمران:٩]

٩- ويَقولونَ في دُعائهم أيضاً: اللهمَّ إنَّكَ تَجمَعُ الناسَ في يَومٍ لا شكَّ فيه، هوَ يومُ الحسابِ ويومُ الجزاء، لتَفصِلَ بينهمْ وتَجزيَ كلاًّ بما عَمِل، ووعدُك الحقّ، فلا تُزِغْ قلوبَنا، وارحَمْنا.

{**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ**} [آل عمران:١٠]

١٠- إنَّ الكافِرينَ لنْ تُفيدَهمْ أموالُهُمُ التي جَمَعوها وكَنَزوها في الدُّنيا لتَفُكَّ رِقابَهَمْ مِنَ النارِ يومَ القيامة، ولا يَقْدِرُ أولادُهم على الانتِصارِ لهمْ في ذلكَ اليومَ وإنقاذِهمْ منْ عذابِ اللهِ كما كانوا يَنصرونَهُمْ في الحياةِ الدنيا، بلْ إنَّ عاقبتَهمْ أنْ يكونوا حطبَ النارِ وحَصَبها التي تُسْعَرُ بهم.

{كَدَأْبِ آَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ العِقَابِ} [آل عمران:١١]

١١- وهذا كصَنيعِ آلِ فرعونَ ومَنْ قَبلَهم منَ الأممِ الكافرةِ، منَ الكفرِ والتكذيبِ بما جاءَ بِهِ أنبياءُ الله، عندما حارَبوهمْ واستهزَؤوا بهمْ ونَبذوا ما جاؤوا بهِ وراءَ ظهورِهم، فأهلَكناهُم حينَ كذَّبوا بآياتِنا، واللهُ شديدٌ في عقابهِ لهؤلاءِ الكافِرينَ وأمثالِهم.

{قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المِهَادُ} [آل عمران:١٢]

١٢- قلْ أيُّها النبيُّ لليهودِ والمشركِين: ستُهزَمونَ وتَخْسَرونَ في قتالِكمْ ضدَّ المسلِمين، كما كانَ الأمرُ في غَزوةِ بَدر.

وفي حديثٍ حسنٍ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قالَ لليهود: "يا معشرَ يهود، أسلِموا قبلَ أنْ يُصيبَكمْ مثلَ ما أصابَ قريشاً". لكنَّهمْ أبَوا وتحدَّوا، فأنزلَ اللهُ في ذلكَ الآية.

وصدقَ اللهُ وعدَه، بقتلِ بني قريظة، وإجلاءِ بني النَّضير، وفتحِ خيبر، وضربِ الجِزيةِ على مَنْ عَداهُم.

وسوفَ تُقادُونَ جميعاً إلى جهنَّم، ويا لهُ منْ موئلٍ سيِّءٍ فظيعٍ مُمَهَّدٍ لهمْ خاصَّة!

{قَدْ كَانَ لَكُمْ آَيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ العَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الأَبْصَارِ} [آل عمران:١٣]

١٣- أيُّها الكافِرونَ مِنْ مُشركِينَ ويَهود، الذينَ اغترُّوا بعَدَدِهمْ وعُدَدِهم، قدْ بَدا لكمْ كيفَ أظهرَ اللهُ دينَه، ونَصَر نبيَّه، في غزوةِ بَدر، عندَما التقتْ طائفتانِ في المعركة، طائفةٌ مُسلِمةٌ تُقاتِلُ تحتَ رايةِ لا إلهَ إلاّ الله، وطائفةٌ كافرةٌ تُقاتِلُ في سَبيلِ الطاغوت.

ومعَ أنَّ عددَ الكفّارِ كانَ ثلاثةَ أضعافِ عددِ المسلمين، إلاّ أنَّهُمْ كانوا يَروْنَهُمْ -في رأي العينِ- ضِعفَيهِمْ عندَ التِحامِ القِتال، وكانوا أوَّلاً يَروْنَهُمْ أقلَّ مِنْ ذلك. كما بدَوا للمسلمينَ أقلَّ ممّا همْ عليه، وقدْ عَرفوا منْ قَبلُ أنَّهُمْ أكثرُ منهم؛ ليَتَّجهَ المسلمونَ إلى ربِّهِمْ ويَطلُبوا منهُ النصر، فما النصرُ إلاّ منْ عندِه.

قال ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه: نظَرنا إلى المشركينَ فرأيناهمْ يَضْعُفونَ علينا، ثمَّ نَظرنا إليهمْ فما رأيناهُمْ يَزيدونَ علينا رَجُلاً واحِداً!

وقالَ في موضعٍ آخر: لقدْ قُلِّلوا في أعيننا حتَّى قلتُ لرجلٍ إلى جانبي: تَراهمْ سَبعين؟ وكانوا نحوَ الألف.

فاتَّجهَ المجاهدونَ إلى ربِّهِمْ يطلبونَ منهُ العونَ والتأييد، وأحسَنوا توكُّلَهُمْ عليه، ودبَّ الخوفُ والرُّعبُ في قُلوبِ المشركين، وأيَّدَ اللهُ الفئةَ المسلِمةَ فانتَصرت.

وفي ذلكَ عِبرةٌ لمنْ أرادَ أنْ يَعتَبر، فإنَّ اللهَ قادرٌ على نَصرِهِمْ مرَّةً أخرى. فآمِنوا، ولا تَخْسِروا الدُّنيا والآخِرَة.

{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} [آل عمران: ١٤]

١٤- زُيِّنَ في نُفوسِ الناسِ مُشتهَياتٌ مُستحَبَّةٌ مُستَلذَّة، منَ النساءِ اللواتي لا صبرَ للرجالِ بدونِهن. والرغبةُ فيهنَّ للشهوةِ والعِفَّة، والسكَنِ والرحمة، والودِّ والولَد.

ومنَ البَنين، حيثُ التفاخرُ والنسلُ والزينَة.

والمالِ الكثير، منَ الذَّهبِ والفِضَّة، الذي قدْ يكونُ تَكديسهُ للخُيَلاءِ والتكبُّرِ والسيطَرة، وقدْ يكونُ تَخزينهُ وتَنميتهُ ليُنْفَقَ في وجوهِ الخيرِ والطاعَة.

والخيولِ المحجَّلةِ الحِسان، التي قدْ تُقتنَى للقِتال، أو للهوايةِ والرياضة، فهيَ زينةٌ مُشتَهاةٌ على كلِّ حال.

والأنعام، منْ إبِلٍ وبقَرٍ وغَنَم.

والأراضي الزراعيةِ والحدائقِ والحقُول، التي تُزَوِّدُ الإنسانَ بالقُوتِ والطعَام، وتَدُرُّ عليهِ المالَ الوَفير.

وهذهِ الشهواتُ كلُّها منْ مَتاعِ الدنيا ولذائذِها المحبَّبة، وهيَ منْ زَهرتِها الذابِلة، وزينتِها الزائلة، فهيَ إلى فَناءٍ قريباً، وإلى حِسابٍ مُستَقبَلاً.

والذي عندَ اللهِ منَ اللذَّةِ والنَّعيمِ المقِيم، وأكبرُ مِنْ ذلكَ رضوانُ الله، هوَ خيرٌ مِنْ ذلكَ كلِّه.

{قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ} [آل عمران:١٥]

١٥ – فهلْ عَلمتُمْ ما هوَ خيرٌ مِنْ هذهِ الشهواتِ الفانية، ولو كانتْ ممّا يُعجِبُ الإنسانَ ويَتمسَّكُ بها؟

إنَّهُ مِنْ نَصيبِ عبادِ اللهِ المتَّقين، الذينَ آمنوا باللهِ وقامُوا بالأعمَالِ الصَّالحة، فهؤلاءِ لهمْ عندَ ربِّهم جِنانٌ جَميلة، واسعةٌ رائعة، تَجري مِنْ تحتِها جداولُ المياهِ والأنهارُ العَذبة، ومنها ما يَجري بالعسلِ واللبنِ وأنواعِ الأشْرِبة، وفيها ما لم يَرَهُ الإنسانُ وما لم يَسمعْ به، معَ حياةٍ دائمةٍ هَنيئة، لا نَغْصَ فيها ولا انقِطاع.

ولهمْ فيها أزواجٌ مُطَهَّراتٌ مِنَ الأذَى الذي يَعتري نساءَ الدنيا، وحُورٌ عِيْنٌ جَميلاتٌ مُحَبَّباتٌ إلى النُّفوس، وفوقَ كلِّ ذلكَ رضوانُ الله، فلا سَخَطَ عليهمْ بعدَهُ أبداً.

واللهُ بصيرٌ بأعمالِ عبادهِ ونيّاتِهم وتوجُّهاتِهم في الدنيا، خبيرٌ بميولِهم ونوازِعِهم. وهوَ يُعطي كلاًّ بحسبِ ما عَمِلَ واجتهدَ وأخلَص.

{الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران:١٦]

١٦ – وعبادُ اللهِ المؤمنونَ المتَّقونَ همُ الذينَ يَدعونَ ربَّهم ويَقولون: اللهمَّ إنَّنا آمنّا بكَ وبكتابِكَ وبرسولِك، فاغفِرْ لنا ذُنوبَنا، وتَجاوزْ عنْ سيِّئاتِنا، فإنَّهُ لا يَغفِرُها إلاّ أنت، ولا إلهَ لنا غيرُك، واصرِفْ عنّا عذابَ النار.

{الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ} [آل عمران:١٧]

١٧ – وهمْ أيضاً عبادُ اللهِ الصَّابِرون، الذينَ يَثبُتونَ على التكاليفِ الشرعيَّة، فيُطيعونَ اللهَ فيما أمرَهم، ويَتركونَ المحرَّمات. ويَستَسلمونَ لحُكمِ اللهِ ويَرْضَوْنَ به، وإنَّ ذلكَ مِنْ عزمِ الأمور.

والصادقون، الذينَ لا يَرضَوْنَ عنِ الحقِّ بديلاً، ويَعتزُّونَ به، ويُقاتِلونَ في سَبيلِه.

والقانتون، الذينَ يَقومونَ بواجبِ العبوديةِ لربِّهم، ولا يَركعونَ إلاّ له، ولا يَسجُدونَ لغَيرِه.

والمنفقون، الذينَ لا يَبخلونَ بما أنعمَ اللهُ عليهم، ويَتفقَّدونَ المساكينَ واليَتامَى وأهلَ الحاجة، فيُعطونَهم ممّا أعطاهمُ الله.

والمستَغفِرون، في وقتِ السَّحرِ وقدْ نامَ الناس، فيَلتَجِؤونَ إلى اللهِ ويَطلبونَ منهُ العفوَ والغُفران.

وجزاءُ هؤلاءِ جميعاً خيرٌ مِنْ كلِّ ما زُيِّنَ للناسِ منَ الشهواتِ المستَلذّاتِ في الدُّنيا، ورِضوانُ اللهِ عليهمْ أكبرُ مِنْ ذلكَ كلِّه، فهوَ أجَلُّ مِنْ كلِّ شهوة، وخيرٌ منْ كلِّ مَتاع، وأعظمُ مِنْ كلِّ أُمنيَّةٍ تُتَمنَّى.

{شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالمَلَائِكَةُ وَأُولُو العِلْمِ قَائِمًا بِالقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ} [آل عمران:١٨]

١٨ – شَهِدَ الله، وكفَى بهِ شهيداً، أنَّهُ الإلهُ الواحِدُ الأحَد، إلهُ الخلقِ كلِّهم، فالكلُّ لهُ عَبيد، وهوَ عنهمْ غنيّ، وشَهِدَتْ ملائكتهُ بوحدانيَّتِه، وكذا العُلماءُ الراسِخون، في تَصديقٍ وطَاعةٍ واتِّباع.

وهيَ شهادةٌ أيضاً بقيامِ اللهِ تعالَى بالعدلِ في تَدبيرِ الكونِ وحياةِ الناس، فلا يَظلِمُ أحداً، سُبحانَهُ وتَعالَى، لا إلهَ غيره، ولا رَبَّ سِواه، ولا أعدلَ منه، وهوَ ذو العِزَّةِ والعظَمة، الحكيمُ في كلِّ ما يَفعَلُ ويَشْرَعُ ويُقَدِّر.

{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ} [آل عمران:١٩]

١٩ – الدِّينُ عندَ اللهِ الإسلام، وهو ما أُرسِلَ بهِ جميعُ الأنبياء، وهوَ الذي يَجِبُ أنْ يُتَّبعَ عندَ إرسالِ أيِّ رَسول، حتَّى خُتِمَ بهمْ محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، فلا يُقبَلُ مِنْ أحدٍ دِينٌ بعدَ

بِعثَتِهِ صلى الله عليه وسلم سِوَى دِينِ الإسلام. والدِّينُ عندَ اللهِ هوَ الاستسلامُ لدينِه، واتِّباعُ حُكمه، وطاعتُهُ كما أمَر.

وما اختلفَ أهلُ الكتابِ وما تَنازعوا إلا بعدَ أنْ جاءَهمُ العلمُ وقامَتْ عليهمُ الحُجَّةُ ووَضَحَ أمامَهمُ الطَّريق، بإرسالِ الرسلِ إليهم، وإنزالِ الكُتبِ عَليهم، فتركوا الأدلَّةَ الواضِحة وتَخَلَّوا عنِ العَقيدةِ الصَّحيحَةِ والشريعةِ المحْكَمة، ولازَموا جانبَ الخِلافِ والجِدال، والمخاصمةِ واللَّجاجَة، اعتداءً وظُلماً، وحَسداً وتَباغُضاً، وعِناداً واستِكباراً، حتَّى صَارَ بعضُهمْ يُخالِفُ بعضاً قصداً ونِكايةً ولو لم يَعرِفوا حقيقةَ الأمر!

وإنَّ مَنْ جحَدَ شَيئاً مِنْ آياتِ الله[١٨]، وأنكرَ وحدانيتَه، ونبذَ دينَهُ الحقّ، فسوفَ يُحاسِبُهُ اللهُ على تَكذيبِهِ هذا، ويُعاقبهُ على مخالفةِ كتابِه، وهوَ سريعُ الحِساب[١٩]، وشديدُ العِقاب، وخاصَّةً لمنْ كفرَ بعدَ معرفةِ الحقّ.

{فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلَاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ} [آل عمران: ٢٠]

٢٠ – فإذا خاصَمكَ المشرِكونَ وأهلُ الكتَاب، وجادَلوكَ في عقيدةِ الإسلامِ التوحيديَّةِ الصافية، فقلْ لهم: لقدِ استَسلَمتُ لطاعةِ ربِّي، وخَضعتُ لأمرِه، واتَّبعتُ وحيَه، وأخلَصتُ عِبادَتي لهُ وحدَهُ لا شَريكَ له، ومنِ اتَّبعَني منَ الناسِ كانَ مُسلِماً وقالَ كما قلتُ.

---

(١٨) بما أنزلَ اللهُ في كتابه... (ابن كثير).

(١٩) أي: يأتي حسابهُ عن قريب، أو سريعٌ في محاسبةِ جميعِ الخلائق؛ لأنه يحاسبُهم في أقلَّ من لمحة، بحيثُ يَظنُّ كلُّ أحدٍ منهم أنه – أي اللهُ – يحاسِبُ نفسَهُ فقط. (روح البيان).

وقلْ لأهلِ الكتابِ والمشرِكينَ في دعوتِهِمْ إلى دِينِ التوحيد: أأسلمتُمْ وأقررتُمْ بتوحيدِ اللهِ، والإيمانِ بألوهيَّتهِ للخلقِ أجمعين، وتحاكمتُمْ إلى كتابِه؟

فإذا أسلَموا واتَّبَعوكَ فقدِ اهتدَوا إلى الدِّينِ الصَّحيح، وإذا أبَوا وعانَدوا وآثَروا الشِّرْكَ والكفرَ على دِينِ الإسلام، فما عليكَ أكثرُ ممّا بلَّغتَ وبيَّنتَ لهمُ الدِّينَ الحقّ، ولا تَقْدِرُ على سَوْقِ قلوبِ الناسِ إلى الإسلام، إنَّما مرجِعُهمْ وحِسابُهُمْ على الله، وهوَ عالمٌ بأمرِ عبادِه، بصيرٌ بمَنْ يَستَحِقُّ الهِدايةَ ممَّنْ يَستَحِقُّ الضلالَة.

{إنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بَآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [آل عمران: ٢١]

٢١ - إنَّ الذينَ كفَروا بدينِ اللهِ وما أنزلَهُ منْ آياتٍ بيّناتٍ، فآثرُوا الكفرَ على الإيمان، وارتَكبوا المآثمَ بتكذيبِهِمْ رُسُلَه، وخالَفوهمُ استكباراً وعِناداً، ولم يَكتفوا بهذا، بلْ قَتلوا بعضَ أنبياءِ اللهِ الكِرام، ولا جَريمةَ لهمْ في ذلكَ سِوَى دعوتِهِمْ إلى الحقّ! ثمَّ شَهَروا السُّيوفَ ضدَّ مَنْ يأمرُهم بالعدلِ واتِّباعِ الصِّراطِ المستَقيم، وينَهاهُمْ عنِ المنكرِ والبَغيِ والجَهالة، مادامَ ذلكَ لا يَوافَقُ أهواءَهمْ وضلالاتِهم، تكبُّراً واستعلاءً على الحقِّ والهُدَى. إذاً فبشِّرْهُمْ بذِلَّةٍ وصَغار، وعَذابٍ قَريبٍ يَنالُهم.

{أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [آل عمران: ٢٢]

٢٢ - لقدْ بَطَلَ ثوابُ جميعِ ما عَمِلوا منْ أعمالٍ في الدُّنيا، ولو بدا بعضُها حَسناً وكبيراً، جزاءَ كُفرِهِمْ وعِنادِهِمْ وإيثارِهِمُ الباطلَ على الحقّ، وقدْ فَقدوا الميزانَ الحقيقيَّ الذي يَحكمُ على الأعمالِ ويُبَيِّنُ خيرَها مِنْ شرِّها، ولنْ يكونَ لهمْ ناصرٌ يَنصرُهمْ مِنْ بأسِ الله، ولا مؤيِّدٌ يومَ القيامةِ يُخرِجُهمْ منَ العَذابِ المهين.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ} [آل عمران: ٢٣]

٢٣ – ألا تَنظرُ إلى هؤلاءِ الذين أُوتُوا حظًّا مِنَ التوراةِ والإنجيل، منَ اليَهودِ والنَّصارَى، إذا دُعُوا إلى التحاكُمِ إلى ما فيهما منْ طاعةِ اللهِ، ومنْ بينِها اتّباعُ الرسولِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، أعرضَ قِسْمٌ منهمْ مخالفةً وعِناداً، وإصراراً على الباطِل، وكأنَّهُمْ ليسوا أهلَ كتاب، فلا يَهُمُّهمُ العملُ بما فيه؟!

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [آل عمران:٢٤]

٢٤ – فإذا عُيِّرُوا بهذهِ المخالَفةِ وقيلَ لهمْ إنَّها جُرأةٌ ومَعصِيَةٌ مُنكَرة، ويَترتَّبُ عليها عِقابٌ عَظيمٌ منَ الله، هوَّنوا منْ إقدامِهمْ على هذا الفِعلِ المنكَر، وافترَوا على اللهِ الكذِب، بقولِهِمْ إنَّهُمْ سيُعَذَّبونَ أياماً قليلةً في النار، ثمَّ يَخرجونَ منها إلى الجنَّة. ومثلُ هذا الذي مَنَّوا بهِ أنفسَهمْ أبقاهُمْ على دينِهمُ الباطِل، وهوَ ما لم يُنْزِلِ اللهُ بهِ سُلطاناً، إنَّما هوَ كذبٌ وافتِراء.

{فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [آل عمران:٢٥]

٢٥ – فليَنتَظِروا ذلكَ اليومَ الحقَّ الذي نَجمَعُهمْ فيهِ للحِساب، ونُعطي كلَّ نفسٍ نَصيبَها منَ العِقاب، ولنْ يُظلَموا، وكفَى بالنارِ مَوئلاً وعَذاباً لمنْ عصَى وأبَى.

{قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران:٢٦]

٢٦ – قلْ: اللهمَّ لكَ المِلْكُ كلُّهُ بلا شَريك، أنتَ وحدَكَ المتصرِّفُ فيه، تؤتي فيهِ ما تشاءُ لعبادِك، مُلكاً مُعاراً مُؤقَّتاً، فأنتَ صاحبهُ وتَفعلُ فيهِ ما تُريد، وتَسْلبُهُ ممَّنْ تشاءُ عندَما تشاء، لا أحدَ يَقْدِرُ على أنْ يَمنعَ ويقولَ لا، فأنتَ مالكهُ وصاحبُه.

وتَجعلُ مَنْ تشاءُ مِنْ عبادِكَ عَزيزاً كريماً، وتَجعلُ مَنْ تشاءُ منهمْ ذَليلاً مَهيناً، بالقِسطِ والعَدل، فميزانُ الحقِّ بيدِك، وكلُّ شيءٍ عندَكَ بميزان، والخيرُ كلُّهُ بيدِكَ وفي مُلكِك، وأنتَ قادرٌ على كلِّ شَيء، فتُعطي مَنْ تشاء، وتَمنعُ مَنْ تشاء، وما شِئتَ كان، وما لم تَشَأ لم يَكن.

{تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [آل عمران:٢٧]

٢٧ – ومِنْ آياتِكَ العَظيمةِ في الطبيعةِ رَبَّنا، أنْ تجعلَ حركةَ الضياءِ والظُّلمةِ على ما يَراهُ الإنسانُ منْ إعجاز، فتَجعلُ الضياءَ في النهارِ وتقلِّلُ منهُ حتَّى يَدخُلَ في ظُلمةِ المساءِ الخَفِيفَة، ثمَّ يأتي الظلامُ فتَخِفُّ ظُلمتُهُ شَيئاً فشَيئاً ويَدخلُ في نورِ النهار، وتأخذُ منْ طولِ النهارِ لتَزيدَهُ في قِصَرِ الليلِ حتَّى يَعتدلا، ثمَّ العكس، حتَّى تَكتمِلَ دَورةُ الفصول.

وأنتَ الذي تُخرِجُ الحيَّ منَ الميِّت، وتُخرِجُ الميِّتَ منَ الحيّ، فتُخرِجُ الحبوبَ منَ الزُّروعِ والزُّروعَ منَ الحبوب، وتُخرِجُ الدجاجةَ منَ البيضةِ والبيضةَ منَ الدجاجة، وتُميتُ أشياءَ لتَكونَ مادَّةً لحياةٍ أخرَى في الإنسانِ والكَون، وهكذا في حركةٍ دائمة، لا يدَّعي أحدٌ أنَّهُ قادرٌ على مثلِها، ولا يَقولُ عاقلٌ إنَّهُ مصادَفةٌ مِنْ غَيرِ تَدبيرٍ وتَقدير.

وإذا عَرفَ الإنسانُ أنَّ كلَّ ما في الكونِ مُلْكٌ لله، وأنَّ ما يَجري فيهِ مِنْ عِزٍّ وذُلٍّ، وحياةٍ ومَوت، بمشِيئتِهِ وتَقديرِه، فليَعلمْ أنَّهُ هوَ وحدَهُ الذي يَرزُقُ مَنْ يَشاءُ بما يَشاء، فلا أحدَ يَستطيعُ أنْ يمنعَ نِعَمَهُ مِنْ أحَد، ولا أنْ يُعطيَ مَنْ يَمنعُه، فهوَ صاحبُ المشيئةِ والإرادة، وهوَ العادلُ الذي لا يَظلِم.

{لَا يَتَّخِذِ المُؤْمِنُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ المُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ المَصِيرُ} [آل عمران:٢٨]

٢٨ – لا يَحِلُّ لأحَدٍ منَ المسلِمينَ أنْ يُواليَ كافراً ويُحِبَّهُ منْ دونِ المؤمنين، فمنْ فعلَ ذلكَ فقدْ مالَ قلبهُ إلى الكافرِ وفضَّلَهُ على المؤمن، وهوَ بهذا العملِ ليسَ منَ اللهِ في شَيء، فهوَ مُنقَطِعُ الصِّلَةِ به، بَعيدٌ عنه، بَريءٌ منه. إلاّ مَنْ خافَ منهمْ فاتَّقَى شرَّهم، في بُلدانٍ وأوقاتٍ معيَّنة، بظاهرِ لسانهِ لا بقلبه، فإذا زالَ الخوف، زالتِ التقيَّة.

وإنَّ اللهَ يُحَذِّركمْ نِقمتَهُ وغَضَبه، فإنَّ العذابَ سيَنالُ مَن والَى أعداءَهُ وعادَى أولياءَه، وإنَّ مصيرَكمْ جميعاً إلى الله، ولسوفَ يُجازي كلاًّ بما عَمل.

{قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران:٢٩]

٢٩ - وقلْ: إنَّكمْ إنْ أخفَيتُمْ ما في قلوبِكمْ مِنْ مَودَّةِ الكافِرين، أو أبدَيتُمْ موالاتَكمْ لهمْ قَولاً وفِعلاً، فإنَّ اللهَ عالِمٌ بالسَّرائرِ والظواهِر، لا يَخفَى عليهِ شَيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماء، وهوَ قادِرٌ على عُقوبتِكمْ إنْ لم تَنتهوا عمّا نَهاكمْ عنه، وقادِرٌ على كلِّ شَيء. فاتَّقوا الله، ولا تَرتَكبوا ما مَنعكمْ منه.

[يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالعِبَادِ] {آل عمران:٣٠}

٣٠ — وفي يومِ الحِسابِ يَرَى كلُّ عبدٍ أعمالَهُ أمامَهُ مِنْ خَيرٍ وشَرّ، لم يَنْقُصْ منها شَيء، فيُسَرُّ ويَفرَحُ بالخَير، ويَندَمُ ويَتحسَّرُ على ما اقترفَ مِنْ شَرّ، ويَوَدُّ لو أنَّ بينَهُ وبينَ يومِ القيامةِ يَوماً بعيداً لا يَصِلُ إليه.

وإنَّ اللهَ يُخَوِّفُكمْ حِسابَهُ وعِقابَه، وهوَ كذلكَ رَؤوفٌ بكمْ واسِعُ الرَّحمة. ورَحمتُهُ لا تَمنعُ عِقابَ ما حذَّركمْ منه، وتَحذيرُهُ لا يَعني رفعَ الرحمةِ عنكم، لكنَّ كليهِما مُتَحَقِّقان. فاحذَروا، ولا تيأسوا، واعمَلوا الخيرَ وأبشِروا.

{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران:٣١]

٣١ — وقلْ: إذا كنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ حقّاً فاتَّبعوني واسلُكوا طَريقي، وأطيعوا ما آمرُكمْ به، فإذا فَعلتُمْ ذلكَ فقدْ حَصلَ لكمْ جزاءُ طلبِكم، وهوَ محبَّةُ اللهِ لكمْ ورِضاهُ عَنكم، ومَغفِرَتُهُ لذنوبِكم، فإنَّهُ كثيرُ المغفِرَة، واسعُ المرحَمة.

{قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الكَافِرِينَ} [آل عمران:٣٢]

٣٢ – قُل: أطيعوا اللهَ فيما يأمرُكمْ به، واتَّبِعوا الرسولَ محمَّداً صلى الله عليه وسلم في جميعِ ما يُبَلِّغكمْ مِنْ أمرٍ ونَهي، لتَفوزوا برِضَى اللهِ وعفوِه، فإذا أبَوا ورَضُوا بالكفرِ والضَّلال، فإنَّ اللهَ يَبْغُضُهمْ ويَسْخَطُ عليهم، ويُعِدُّ لهمْ ما يَستَحِقُّونَهُ مِنْ عِقاب.

{إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ} [آل عمران:٣٣]

٣٣ – لقدِ اختارَ الله لحَمْلِ رسالةِ الإسلامِ وتبليغِ دعوتهِ آدَم، ونُوحاً، وآلَ إبراهيم، وآلَ عِمْران، مِنْ بينِ سائرِ الناس.

فآدمُ خَلَقَهُ بيدهِ وأسجدَ لهُ ملائكتَه، ونوحٌ جعلَهُ أوَّلَ رسولٍ إلى أهلِ الأرض، وآلُ إبراهيمَ منهمْ صاحبُ المِلَّةِ الحنيفيَّةِ خليلُ اللهِ إبراهيمُ نفسُه، ومُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم مِنْ ذُرِّيته، وهوَ أفضَلُ الخلقِ وأكرمُهمْ على الله، وخاتمُ أنبيائه، وآلُ عِمران، وعِمرانُ والدُ مريمَ أمِّ عيسى، نبيِّ اللهِ الكريم.

{ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [آل عمران:٣٤]

٣٤ – وهؤلاءِ ذُرِّيةٌ مُبارَكةٌ بَعضُها مِنْ بعضٍ في الدِّينِ والتَّناصُر، يَجمَعُهمْ وحدةُ العَقيدة، وتَبليغُ الرسَالة، والدعوةُ إلى الحقّ.

وهوَ يَسمَعُ مِنْ عبادهِ ما يدعونَ بهِ ويُسِرُّونَ ويُظهِرون، عليمٌ بهمْ وبأعمالِهم، فيَختارُ مَنْ يشاءُ منهمْ لحَمْلِ رسالتِه.

{إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ} [آل عمران:٣٥]

٣٥ – واذكرْ ما قالَتْهُ أمُّ مريمَ زَوجَةُ عِمرانَ بعدَ أنَ حَمَلَتْ، قالت: اللهمَّ إنِّي نَذَرتُ[٢٠] أنْ أجعلَ حَمْلِي خالِصاً لعبادتِك، مُتَفَرِّغاً لخدمةِ الكنيسةِ في بيتِ المقدس، فتَقبَّلْ منِّي ذلك، فأنتَ الكريمُ المجيب، تَسمعُ دُعائي وتَضَرُّعي إليك، وتَعلمُ صِدْقَ نيَّتي في ذلك.

(٢٠) قالَ الإمامُ الطبري في معنى النذر، في الآيةِ (٢٧٠) من سورةِ البقرة: ما أوجبَهُ المرءُ على نفسه، تبرُّراً في طاعةِ الله وتقرُّباً به إليه، من صدقةٍ أو عملِ خير.

{فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [آل عمران:٣٦]

٣٦ – فلمّا وَضعتْ حَمْلَها قالت: اللهمَّ إِنِّي وَضعتُها أنثَى، واللهُ عالمٌ بما رُزِقَتْ به، قالت: وليسَ الذكرُ كالأنثَى، في العِبادةِ والقوَّة، والصبرِ على المشاقّ، وخاصَّةً في خدمةِ الكنيسة، التي نَذَرتْ أنْ تُقَدِّمَ حَمْلَها لها. وكانَ الصبيانُ همُ الذينَ يَنهضونَ لمثلِ هذا وليسَ الإناث. قالت: وسمَّيتُها مَرْيم، وقدْ عَوَّذْتُها وذرِّيتَها بكَ منَ شرِّ الشيطانِ المُبْعَدِ من رحمتِك، وأودعتُها حمايتَكَ ورعايتَك.

{فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [آل عمران:٣٧]

٣٧ – فتقبَّلَ اللهُ نَذْرَها جزاءَ إخلاصِها، وربَّى مريمَ تربيةً حسَنةً منذُ نَشأتِها، ويسَّرَ لها أسبابَ القَبول، وجعلَ نبيَّ اللهِ زَكريّا كافِلاً لها وأميناً عَليها، وكانَ المسؤولَ الأوَّلَ في مركزِ العبادةِ ببيتِ المَقدِس، فتعلَّمَتْ منهُ عِلماً جَمًّا وعَملاً صَالحاً، فنشأتْ مُباركَةً مُهَيَّأةً لأمرٍ جَلَل.

وكانَ زَكريّا كلَّما دَخَلَ عليها في مَكانِ عِبادتِها وجدَ عندَها طَعاماً وفاكِهة، فيَعْجَبُ لذلكَ وهوَ نبيُّ الله، ويقولُ لها: مِنْ أينَ لكِ هذا الرزقُ يا مَريم؟ فتقولُ في تَواضُعٍ وخُشوعٍ وإيمان: هوَ منْ عندِ الله، وهوَ سُبحانَهُ يُعطي مَنْ يَشاءُ بغيرِ حِساب، فهو كريمٌ واسِعُ الفَضل، جميلُ العَطاء.

{هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} [آل عمران:٣٨]

٣٨ – وعندَما رَأى زَكريّا عليهِ السَّلامُ فيها هذا الصلاحَ والولاية، والتعبُّدَ والقُنوت، والإخلاصَ في الخدمةِ، تحرَّكَ في قَلبِهِ حبُّ الذرِّيةِ الصَّالحَة، لتَكونَ امتداداً لهُ ولعملِه، وكانَ شيخاً كبيراً قدْ وهنَ منهُ العَظم، وزوجُهُ كبيرةٌ عاقِرٌ لا تُنجِب، ومعَ ذلكَ لم ييأس، فاللهُ قادرٌ على كلِّ شَيء. فدعا في استِكانةٍ وخُشوع، وقال بصوتٍ ضَعيف: اللهمَّ إني أسألُكَ أنْ ترزُقَني

ولداً صالحاً تَقَرُّ بهِ عَيني، وأنتَ تَسمَعُ مُناجاتي بينَ يديك، وتَضَرُّعي إليك، ورَغبتِي في الذريَّةِ الطيِّبة.

{فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} [آل عمران:٣٩]

٣٩ – فاستجابَ اللهُ دعاءَه، ونادتْهُ الملائكةُ وهوَ يُصَلِّي في مجلسِ مناجاتهِ وصلاتِه: إنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بولدٍ مِنْ صُلبِكَ اسمهُ يَحْيَى، يُصَدِّقُ بنبوَّةِ عيسى بنِ مَريم، الذي وُجِدَ بكلمةِ الله: كُنْ. (فكانَ أوَّلَ مُصَدِّقٍ بهِ) ويَكونُ سيِّداً ورَئيساً جَليلاً في العلمِ والعِبادة، قدْ حبسَ نفسَهُ عنِ الشهواتِ فلا يأتي النساء، ونبيّاً كريماً يُوحَى إليه، منَ المشهورينَ بالصَّلاح.

{قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [آل عمران:٤٠]

٤٠ – قالَ زَكريّا عليهِ السَّلامُ في تبتُّلٍ ومُناجاةٍ وتَشَوُّق: يا رَبّ، وكيفَ يَصِيرُ لي وَلدٌ وقدْ أدركني كِبَرُ السنِّ وامرأتي عاقرٌ لا تُنجِب؟

قالَ ذلكَ اعتِداداً بنعمةِ الله، وتعظيماً لقدرتهِ وتَعجُّباً منها، لا استِبعاداً.

فقالَ اللهُ له: هذا أمرُ الله، فلا يُعْجِزُهُ شَيءٌ ولا يَتعاظَمُهُ أمر، ويَفعلُ ما يشاءُ منَ الأمورِ الخارقةِ والصنائعِ البَديعة.

{قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ} [آل عمران:٤١]

٤١ – فقالَ زَكريّا: أطلبُ منكَ يا ربِّي أنْ تَجعلَ لي عَلامةً أستَدِلُّ بها على وقوعِ الحَمْلِ لأتلقّاهُ بالحمدِ والشكر.

فقالَ اللهُ له: عَلامةُ ذلكَ أنْ لا تَستَطيعَ النُّطْقَ إلا إشارةً لمدَّةِ ثلاثةِ أيّام، معَ أنَّكَ سَويٌّ صَحيح. واذكرِ اللهَ كثيراً، واشكرْهُ على هذهِ النِّعمَة، ونزِّهْهُ كثيراً، في الصَّباحِ والمساء.

{وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران:٤٢]

٤٢ — وقالتِ الملائكةُ لمريمَ عليها السَّلام: إنَّ اللهَ اختارَكِ لكثرةِ عبادتِكِ وشَرَفِك، وجعلَكِ طاهرةً عَفيفةً كَريمة، وفضَّلكِ على نِساءِ العالَم.

{يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} [آل عمران:٤٣]

٤٣ — فأكثِري العِبادةَ لربّكِ يا مَريم، ودَاومِي على طاعتِهِ والخُشوعِ والخُضوعِ له، واسجُدي لهُ ونزّهيه، واركعِي لهُ معَ الراكعين، تمهيداً لأمرٍ عَظيم.

{ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} [آل عمران:٤٤]

٤٤ — وهذا الذي نَقُصُّ عليكَ أيُّها النبيُّ مِنْ خَبَرِ زكريّا ويَحيى ومَريم، هوَ مِنْ عِلمِ الغَيبِ الذي نُوحيهِ إليك، فما كنتَ تَعلمُ هذا مِنْ قبل، وما كنتَ لدَى القائمينَ على الكنيسةِ لتَعرِفَ ما الذي جرَى بينهمْ مِنْ كلامٍ وخُصومةٍ واقتراعٍ فيمنْ يَكفُلُ مَريمَ بعدَ أنْ وَفَتْ أمُّها بنَذْرِها ووضَعَتْها هناك، وذلكَ لرَغبتِهم في الأجر، حتَّى قدَّرَ اللهُ أنْ يُكفِّلَها زكريّا عليهِ السَّلام، كبيرُهمْ وسيّدُهم.

{إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} [آل عمران:٤٥]

٤٥ — وهذا هوَ الأمرُ الجَلَلُ الذي فاتَحتْ بهِ ملائكةُ اللهِ مريمَ عليها السلام، فقالوا لها: إنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بولدٍ تَلِدِينَهُ بأمرٍ منَ اللهِ وكلمةٍ منه، هيَ "كُنْ"، فيَكون. اسمهُ المسيحُ عيسَى بنُ مَريم، نسبةً إلى أمِّهِ الصِّدّيقة، فلا أبَ له. وسيكونُ ذا وَجاهةٍ ومكانةٍ عندَ اللهِ في الدُّنيا والآخِرَة، فيَجعلُهُ نبيّاً عَظيماً منْ أولي العَزمِ منَ الرُّسُل، ويُنَزِّلُ عليهِ كتاباً جليلاً هوَ الإنجيل، وكذا سيَكونُ في الآخِرَةِ ذا مَنزلةٍ عندَ ربِّه، فيَشفَعُ عندَهُ لمنْ يَأذنُ لهُ به، ويَقبَلُ منه، وسيَكونُ مُقَرَّباً عندَ اللهِ معَ سائرِ إخوانهِ النبيّينَ عليهمُ الصلاةُ والسَّلام.

{وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ} [آل عمران:٤٦]

٤٦ – ويَتكلَّمُ معَ الناسِ وهوَ طِفلٌ صَغيرٌ في المهد، في مُعجزةٍ منَ اللهِ له، ويَدعوهمْ إلى عبادةِ اللهِ وحدَه، كما يفعلُ ذلكَ وهوَ كهلٌ كبير، بما يُوحي إليهِ ربُّه، ويَكونُ منَ الصَّالحينَ المقبُولينَ عندَ الله.

{قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [آل عمران:٤٧]

٤٧ – قالتِ العَفيفَةُ الطاهرةُ مَريم: يا ربّ، وكيفَ يكونُ لي وَلدٌ ولم يَقْرَبْني رَجُل؟ فقالتْ لها الملائكةُ عنِ اللهِ تعالَى: هكذا أمْرُ الله، لا يُعْجِزُهُ شَيء، فهوَ يَخلقُ ما يَشاءُ كيفَما شَاء، وفي أيِّ وقتٍ شَاء، وإذا أرادَ شَيئاً فإنَّما يُخْلَقُ بقولهِ "كُنْ"، ولا يَتأخَّر.

وتتأكَّدُ مَريمُ مِنْ قُدرَةِ الله، وتَزولُ حَيرتُها، ويَطمَئنُّ قلبُها.

{وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ} [آل عمران:٤٨]

٤٨– ويعلِّمُ اللهُ المسيحَ عيسَى الكتابة، ويُؤتيهِ الحِكمة، فيُدرِكُ الصَّوابَ ويَتَّبِعُه، ويَضعُ الأمورَ في مواضعِها، فيكونُ منَ العقلاءِ الأسوياءِ الألبَّاء، كما يعلِّمُهُ التوراةَ التي أُنزِلَتْ على موسَى عليهِ السلام، والإنجيلَ الذي نزَّلَهُ عليه، وكانَ يَحفَظُهما، والتوراةُ كانتْ أساسَ الدِّينِ الذي دعا إليه، والإنجيلُ تكملةٌ وإحياءٌ لها، مع مخالفةِ بعضِ الأحكامِ وتعديلٍ فيها، وهيَ قَليلة.

{وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران:٤٩]

٤٩- ويَجعلُهُ رسولاً إلى بَني إسرائيل، ويقولُ لهمْ مُبَيِّناً ما أيَّدَهُ اللهُ بهِ مِنَ المعجِزاتِ الباهِرات: إنِّي قدْ أتَيتُ لكم بعَلامةٍ ودَليلٍ منْ ربِّكمْ لتَعلَموا أنِّي رَسولهُ إليكم، فأصوِّرُ لكمْ منَ الطينِ شكلَ طَير، ثمَّ أنفُخُ فيهِ فيَطيرُ في السَّماء، كما تَرونَهُ عِياناً، بإذنِ اللهِ وقُدرتِه.

وأَشفِي الأعمَى فيُصبحُ مُبصِراً.

وأَشفِي المُبتلَى بالبرَص، وهوَ بياضٌ يُصيبُ الجسدَ لمرَض.

وأُحيي الموتَى بإذنِ الله.

وقدْ أيّدَ اللهُ عيسَى بمعجزاتٍ تُناسِبُ عصرَه، فكانَ في وقتِ انتشارِ الطبِّ وأهلِه، فجاءَ بما يُعجِزُهمْ ويُبهِرُ عُقولَهم، لئلاّ يكونَ لأحدٍ حُجَّةٌ في عدمِ تصديقِه.

قال: وأخبرُكمْ بما تأكلونَهُ في وقتِكم. وما تُخبِّؤونَهُ في بيوتِكم لغَدِكم.

وكلُّ هذا حُجَّةٌ بالِغةٌ ودَليلٌ على إرسالي إليكم، إذا كنتُمْ مُؤمنين.

وإنَّ الذي قدَّرَ كلَّ هذا على يدِ عَبدٍ له، لا يُعجِزُهُ أنْ يَخلُقَ واحداً مثلي من دونِ أب، فهوَ على ما يَشاءُ قَدير، فآمِنوا بما هوَ حقٌّ ولا تَتجاوَزوه.

{وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ} [آل عمران:٥٠]

٥٠- وأُرْسِلْتُ إليكمْ لأُصَدِّقَ ما في التوراةِ وأُحييَ ما بها مِنْ أحكام، ولأُحِلَّ لكمْ بعضَ ما حُرِّمَ عليكم، وجئتُكمْ بآياتٍ مُعجِزاتٍ تَشهدُ بصِحَّة إرسالي إليكم، فالتَزِموا طاعةَ اللهِ واجتَنِبوا مَعصيَتَه، وأطيعوني فيما آمرُكمْ بهِ وأنهاكمْ عنه.

{إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} [آل عمران:٥١]

٥١- واللهُ ربِّي وربُّكم، فكِلانا نَخضَعُ لهُ بالعُبوديَّة والطَّاعة، فاثبُتوا على عبادتِهِ وطاعتِه، فإنَّهُ الطريقُ الصَّحيحُ الذي يُقيمُ عليهِ المؤمنونَ المتَّقون.

{فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران:٥٢]

٥٢- فلمّا استَشعرَ نبيُّ اللهِ عيسَى منهمُ الإصرارَ على الكفرِ والمضيَّ في الضَّلال، وأرَادوا قَتلَه، قالَ للنَّاس: مَنْ يتَّبِعُني في دِينِ اللهِ ويُناصِرُني في الدعوةِ إليه؟

فقالَ الحواريُّون، وكانوا صَفوةَ بني إسرائيل: نحنُ أعوانُ دِينِ اللهِ ورَسولِه، نُؤازِرُكَ ونَنصُرُك، فقدْ آمنَّا باللهِ ربًّا، وبكَ رسولاً، فاشهدْ على أنَّنا استَسلَمنا لأمرِ الله، وأخلَصنا لهُ الدِّين.

{رَبَّنَا آَمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} [آل عمران:٥٣]

٥٣- اللهمَّ إنَّنا آمنّا بما أنزلتَ مِنْ كِتاب، واتَّبَعنا رسولَكَ عيسَى بنَ مريمَ فيما يأمرُ وفيما ينهَى، فاكتُبنا عندكَ منَ الشَّاهدينَ معَ أمَّةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، فإنَّهم شُهداءُ على النَّاس.

{وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ} [آل عمران:٥٤]

٥٤- وتحرَّكتِ الطَّائفةُ الكافِرةُ المعَادِيَةُ لعيسَى عليهِ السلام لتَقتُلَهُ غِيْلَة، بعدَ اتِّهامهِ بالكذِبِ والشَّعوَذة، وقذفِ والدتهِ الطَّاهرةِ بالزّنا، ووشَوا به إلى الملك...، ولكنَّ اللهَ أبطلَ حِيَلهمْ في الوصولِ إليه، واللهُ أقواهُم مَكراً، وأنفذُهم كَيْداً، وأحكَمُهمْ تَدبيراً، وأقدرُهمْ على الانتِقام.

قالَ البغويّ: والمكرُ لدَى المخلوقين: الخُبْثُ والخَدِيعةُ والحِيلة، والمكرُ منَ الله: استدراجُ العبدِ وأخذُهُ بَغْتَةً مِنْ حيثُ لا يَعلم... وقال ما مَعناه: ومكرُ اللهِ تعالى بِهِمْ في هذهِ الآيةِ هوَ إلقاؤهُ الشِّبْهَ على صاحِبِهمُ الذي أرادَ قتلَ عيسَى عليهِ السلامُ حتَّى قُتِل!

{إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [آل عمران:٥٥]

٥٥- وقدْ قالَ اللهُ لنبيِّهِ عيسى: سألقِي النومَ على عَينيكَ وأرفعُكَ إليّ، وأُخرِجُكَ منْ بينِ الكفرةِ الذينَ أرادوا قَتلَكَ وأُنجيكَ منهم، وسأجعلُ منَ الذينَ كانوا يتَّبعونَكَ فوقَ الذينَ كفَروا منَ اليهود؛ وسوفَ يَبقُونَ ظاهرينَ عليهمْ إلى يومِ القيامة، وعندما تَرجِعونَ إليَّ في يومِ البَعث،

سأحكمُ بينكمْ فيما تختلفونَ فيهِ منْ أمورِ الدين، وأبيّنُ لكمُ الحقَّ فيها، وأُظْهِرُ مَنْ أفسدَ منهمُ الدِّينَ وحرَّفَهُ وكفرَ به، ومَنْ حافظَ عليهِ واتَّبعَ أوامرَ أنبيائي وتعاليمَهمْ فآمنَ والتَزم.

{فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [آل عمران:٥٦]

٥٦- فأمَّا مَنْ كفرَ منهمْ فسَأعذِّبهمْ عذاباً أليماً مُوجِعاً جزاءَ كفرِهمْ وعِنادِهم، في الدُّنيا والآخِرة.

وكان هذا حالَ اليهودِ الذينَ كفروا بالمسيحِ عليهِ السلام، فجُوْزُوا بالقَتلِ والسَّبي والذُّلّ، وفي الآخِرةِ مصيرُهمُ النار.

ولنْ يَقْدِرَ أحدٌ على أنْ يَمنعَهمْ ويُخَلِّصَهمْ مِنْ عذابِ الدُّنيا والآخِرَة.

{وَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [آل عمران:٥٧]

٥٧- وأمّا مَنْ آمنَ باللهِ ورسلِه، وأتْبَعَ إيمانَهُ بالعَملِ الصالحِ كما يَفعَلُ المؤمنون، فسوفَ يُعطيهمُ اللهُ ثوابَ أعمالِهمْ كاملاً، في الدُّنيا بالنَّصرِ والظفَر، وفي الآخِرَةِ بالنَّعيمِ المقيم. واللهُ يَبْغُضُ الكافِرينَ الذينَ يُؤْثِرونَ الغَيَّ والضَّلالَ على الإيمانِ والهُدَى، ولنْ يَرحمَهم.

{ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآَيَاتِ وَالذِّكْرِ الحَكِيمِ} [آل عمران:٥٨]

٥٨- وهذا الذي قَصَصناهُ عليكَ منْ شأنِ عيسَى عليهِ السلام، هوَ مِنْ وحي اللهِ إليك، ومِنْ كلامهِ المحْكَمِ الذي لا يتطرّقُ إليهِ الشكُّ والخَلل.

{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آَدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [آل عمران:٥٩]

٥٩- إنَّ مَثَلَ قُدرةِ اللهِ في خَلْقِ عيسى مِنْ غَيرِ أبٍ، هوَ كقُدرتهِ على خَلقِ آدمَ منْ غيرِ أبٍ ولا أمّ، فقدْ خَلقَهُ مِنْ تُراب، وقالَ لهُ كنْ آدمَ، فكان، والذي خَلقَ آدمَ قادرٌ على خَلقِ

عيسى بطريقٍ أولَى، فإنْ كانَ هذا لهُ والدة، فذاكَ ليسَ بذي والدةٍ ولا والِد. وقدْ أرادَ اللهُ بهذا أنْ يُظهِرَ قدرتَهُ لخَلْقِه، على غَيرِ مثالٍ سابقٍ في الخلقِ منَ الذَّكرِ والأنثَى.

{الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [آل عمران: ٦٠]

٦٠- إنَّهُ القَولُ العَدْل، والبُرهانُ الحَقّ، والدليلُ القَويمُ على قُدرةِ اللهِ الخالقِ المصوِّرِ يا نبيَّ الله، وهوَ القولُ الحقُّ الذي لا ثانيَ لهُ في أمرِ عيسى بنِ مريم، وما سِواهُ ضَلال، فلا تَكنْ ممَّنْ يَشُكُّ في شَيءٍ منْ ذلك.

وهوَ مِنْ أسلوبِ التَّثبيتِ على الحقّ، وليَعرِفَهُ المسلمونَ ومَنْ أرادَ الإيمان، فما كانَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم شاكًّا في شَيءٍ مِنْ ذلك.

{فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الكَاذِبِينَ} [آل عمران: ٦١]

٦١- جاءَ وفدٌ مِنْ نصارَى نَجرانَ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يُجادِلونَهُ في شأنِ عيسَى عليهِ السلام، وأنَّهُ الله، أو ابنُه، أو ثالثُ ثلاثةٍ مِنَ الآلهة، فلم يُسلِموا، ولم يَقتنِعوا بما أوردَ لهمُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم منْ حُجَجٍ وأدلَّةٍ على أنَّهُ نبيٌّ مِنْ عبادِ الله، فدَعاهُمْ إلى المباهَلة، كما في تَفسيرِ الآيةِ الكريمة:

فإذا جادلَكَ علماؤهمْ وخاصَموكَ في شأنِ عيسَى وأمِّه، بعدَما عَلِمتَ مِنْ أمرِهِ وسَمِعوا منكَ ذلك، ولم يَرجِعوا عمّا هم فيهِ مِنْ ضَلال، فقلْ لهم: هَلُمَّ بنا فليَدْعُ كلٌّ منّا نفسَهُ وأبناءَهُ ونِساءَه، ثمَّ نَبتهلْ جميعاً ونَتضرَّعْ إلى اللهِ ليَجعلَ لعنتَهُ على الكاذِبينَ منّا ومنكمْ في أمرِ عيسَى.

فقالوا: حتَّى نَرجِعَ ونَنظرَ في أمرِنا ثمَّ نأتيكَ غَداً.

وفي الغدِ أخذَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بيدِ عليٍّ وفاطِمةَ والحَسنِ والحُسين، رضيَ اللهُ عنهم جميعاً، ونادَى كبيرَي وفدِ النصارى "السيِّدَ" و"العاقِبَ" ليَحضُروا المباهَلة، يَعني الملاعَنة، فلم يَستَجيبا، ورَضُوا بإعطاءِ الجزية. وخَبرُ المباهَلةِ في صَحيحِ البُخاريّ.

{إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران:٦٢]

٦٢- وهذا الذي قَصَصْناهُ عليكَ يا نبيَّ اللهِ هو الحقُّ الذي لا شكَّ فيه، وليسَ أكاذيبَ النصارَى وافتراءاتِهم، فاللهُ واحِدٌ أحَدٌ لا شَريكَ له، لا ابنَ لهُ ولا أب، فلمْ يَلِدْ ولمْ يُوْلَد، وهوَ العَزيزُ القادرُ على كلِّ شَيء، الحَكيمُ العَالِم، لا أحدَ يُشارِكُهُ في القُدرةِ والحِكمَةِ حتَّى يُشارِكَهُ في الألوهيَّة.

{فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ} [آل عمران:٦٣]

٦٣- فإذا أعرَضُوا عنِ التوحيدِ وأبَوا إلاّ الإشراك، بعدَ مُعاينةِ كلِّ الحُجَجِ والبراهين، فإنَّهُمْ بذلكَ قَدْ أفسَدوا فِطرتَهم، ففسدَ بذلكَ عِلمُهم، وصارَتْ قُلوبُهُمْ سَوداءَ مُغلَقة، واللهُ عليمٌ بهِمْ وبِجناياتِهِمْ هذه، لا يَفوتهُ شيءٌ ممّا فَعلوهُ وأورَثوهُ مِنَ الضلال، وسيَجزيهِمْ شرَّ الجزاءِ على ذلك.

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران:٦٤]

٦٤- وقُلْ يا نبيَّ الله: تعالَوا يا أهلَ الكتاب، مِنْ يهودٍ ونصارَى وغيرِهم، تعالَوا إلى أمرٍ عادلٍ مُنصِف، يَجمَعُ بينَنا وبينَكم، ونكونُ فيهِ أسوياء، لا يَختلفُ فيهِ الرُّسلُ والكتبُ المنزَلة: وهوَ ألاّ نَعبُدَ إلاّ الله، ولا نُشرِكَ في عِبادتهِ رَجلاً ولا صَنماً، ولا نَاراً ولا صَليباً، ولا أيَّ شَيءٍ يُكَدِّرُ الإخلاصَ في توحيدِهِ وعبادتِه، وألاّ يُطيعَ أحدٌ منّا عَبداً في معصيةِ اللهِ مهما كانَ شأنُه، فلا يَسجدُ أحدُنا لغيرِ الله، ولا نُطِيعُ الأحبارَ والعلماءَ فيما أحدَثوا مِنْ تحليلٍ وتحريمٍ لم يشرِّعْهُ الله...فإذا أعرَضوا عنْ هذه الدعوةِ المنصِفة، فقولوا أنتُمْ لهم: اشهَدوا بأنَّنا مُستَمِرُّونَ على الإسلامِ الذي شَرعَهُ اللهُ لجميعِ أنبيائه، ومُخلِصونَ في توحيدِهِ وعِبادتِه.

{يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [آل عمران:٦٥]

٦٥- يا أهلَ الكتاب، لِمَ يَدَّعي اليهودُ منكمْ أنَّ نبيَّ الله إبراهيمَ منهم، ولِمَ يَدَّعي النصارَى أنَّهُ منهم، كيفَ تدَّعونَ ذلكَ وقدْ كانَ زمنهُ قبلَ أنْ تَنْزِلَ التوراةُ على موسَى، وقبلَ أنْ يَنْزِلَ الإنجيلُ على عيسَى، ألاَ تَرونَ أنَّ هذهِ دعَوى مُخالِفةٌ للعَقل؟ ألاَ تفكِّرونَ في ذلك؟

{هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [آل عمران:٦٦]

٦٦- لقدْ تجادَلتُمْ فيما بينَ أيديكمْ مِنْ كُتبٍ محرَّفةٍ تَعلمونَ ما فيها، فما بالُكمْ تتكلَّمونَ فيما لا علمَ لكمْ بهِ ولا تَعرِفونَه. واللهُ هوَ الذي يَعلَمُ بذلك، فهوَ ممّا مضَى منْ عِلمِ الغَيب، وأنتُمْ لا تَعلَمونَه.

{مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [آل عمران:٦٧]

٦٧- والحقُّ أنَّ إبراهيمَ ما كانَ يَهوديًّا ولا نَصرانيًّا، ولكنَّهُ كانَ مُسلِماً، مائلاً عنْ كلِّ مِلَّةٍ إلى الإسلام، وما كانَ مُشرِكاً مثلَكم.

{إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران:٦٨]

٦٨- وإنَّ أحَقَّ الناسِ باتِّباعِ إبراهيمَ همُ الذينَ اتَّبعوهُ على نَهجهِ واحتَكموا إلى سُنَّتِه، وهذا النبيُّ محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم الذي يَلتقي معَهُ في الدِّينِ الحقّ، ثمَّ الذينَ آمَنوا، الذينَ يَلتقونَ جميعاً على التوحِيد. واللهُ ناصرُ المؤمنينَ برسله.

{وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} {آل عمران:٦٩}

٦٩- لقدْ حَسدتْكُمْ جماعةٌ مِنْ أهلِ الكتابِ لأنَّهُمْ يَكرهونَ لكمُ الهِداية، وأبَغضَتكمْ يهودُ وودُّوا لو كنتُمْ ضـــالّين مُنحرِفين، وبَذلُوا جُهودَهمْ لأجلِ إضـــلالِكم، وكادُوا ودَسُّـــوا وجادَلوا ولبَّسوا لإغوائِكم، ولكنَّ وبالَ ذلكَ يَعودُ عَليهم، فهمْ يُوقِعُونَ أنفسَهمْ بذلكَ في الضَّلال، غيرَ شاعِرينَ أنَّهُمْ يَمكرونَ بأنفسِهم.

{يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ} [آل عمران: ٧٠]

٧٠- يا أهلَ الكتاب، لِمَ تَرُدُّونَ الحقائقَ وهيَ واضِـــحةٌ تماماً؟ لِمَ تَكفرونَ بآياتِ اللهِ وأنتُمْ تَعلمونَ صِدقَها، لِمَ تَنْبِذونَ الأدلَّةَ بعدَ أنْ تَحقَّقتُمْ أنَّها كافيةٌ ودامِغة؟

{يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [آل عمران: ٧١]

٧١- يا أهلَ الكتاب، لماذا تُخفُونَ ما في كُتبِكمْ صفةَ الرسولِ محمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسلم؟ لماذا تَكتمونَ الحقَّ وتَخلِطونَهُ بالباطلِ وتُضَيِّعونَهُ عنْ عَمْدٍ وقَصْدٍ وأنتُمْ تَعرِفونَهُ جيِّداً؟

{وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ آَمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آَخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [آل عمران: ٧٢]

٧٢- ومِنْ أســـاليبِ أهلِ الكتابِ في الكيدِ للإســـلامِ وأهلِه، أنْ قالتْ جَماعةٌ منهم، ليَلْبِسوا بذلكَ على ضَعيفِي الإيمانِ ويَرُدُّوهمْ عنْ دينِ الإسلام: أظهِروا الإيمانَ في أوَّلِ النهار، وارجِعوا عنهُ في آخِرِه، فلعلَّ بعضَ الذينَ آمَنوا يَرتدُّونَ مَعكم، ويَقولون: إنَّ اليهودَ عندَهمْ عِلم، وإنَّهُمْ رَجَعوا إلى دينِهمْ لاطِّلاعهمْ على نَقصٍ وعَيبٍ في دِينِ المسلِمين، وبذلكَ تَقعُ بَلبَلةٌ واضطِرابٌ في صَفِّهمْ وعَقيدةِ ناسٍ منهم!

{وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الهُدَى هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [آل عمران: ٧٣]

٧٣- ويَقولون: لا تَثِقوا إلاّ بأهـلِ دينِكم، ولا تَطمئنُّوا إلاّ لمنْ اتَّبعَ دينَكم، ولا تُظهِروا أسرارَكم إلاّ لجماعتِكم.

قلْ أيُّها النبيُّ الكريم: إنَّ الطريقَ الصـحيحَ والهَدْيَ القويمَ هوَ ما أنزلَهُ اللهُ على رسـولهِ في فُرقانِه، ولا يُهدَى إليهِ إلاّ منِ ابتغَى الحقَّ وأخلصَ في التوجُّه إليه.

ويقولون: لا تُظهِروا ما عندَكمْ منَ العِلمِ الذي يؤيِّدُ دينَهم، فيَعرِفوا ذلكَ ويتَّخِذوهُ حُجَّةً ضدَّكمْ عندَ اللهِ يومَ القيامة، بالشَّهادةِ عليكم!

فقلْ لهم: إنَّ الأمورَ كلَّها بيدِ الله، وهوَ صـاحِبُ الفضـلِ والمِنَّة، والكرَمِ الواسِـع، والنِّعَمِ العَظِيمة، فيُعطِيها مَنْ يَشاءُ وَيمنعُها مَنْ يَشاء.

{يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ} [آل عمران:٧٤]

٧٤- وهوَ سـبحانَهُ يَخُصُّ مَنْ يَشـاءُ مِنْ عبادِهِ برحمتِه، وقدْ خَصَّ المؤمنينَ بفضـلٍ كبيرٍ عندَما جَعلهمْ على ملَّةِ خليلِهِ إبراهيمَ عليه السَّـلام، وعلى دينِ أحَبِّ خَلقهِ إليهِ محمَّدٍ صـلى اللهُ عليه وسلم. وهوَ ذو إحسانٍ كبيرٍ وفَضلٍ عَميم، وَسِعَتْ رَحمَتُهُ كلَّ شَيء!

{وَمِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران:٧٥]

٧٥- وهناكَ مِنْ أهلِ الكتابِ مَنْ إذا ائتمَنتَهُ على مَبلغٍ مهما كانَ كثيراً فإنَّهُ يَردُّهُ إليكَ بأمَانة، لا يَنقُصُ منهُ شـيئاً، ومنهمْ مَنْ إذا ائتمَنتَهُ على مبلغٍ قَليلٍ يَجْحَدُهُ ولا يَردُّهُ إليك، إلاّ إذا لازمتَهُ بالمطالبةِ وكرَّرتَها عليه، وهذا لأنَّهمْ قالوا إنَّهُ لا حرجَ علينا أنْ نغُشَّ وندلِّسَ ونأكلَ أموالَ العَرب، وأنَّ دينَهمْ يَسمَحُ لهمْ بذلك. وهذا مِنْ خُلُقِ اليَهود، وهمْ يَتعاملونَ بهذا معَ كلِّ مَنْ لم يَكنْ يهوديًّا وليسَ معَ العربِ وحدَهم. وقدْ كذَبوا على اللهِ وعلى كِتابِه، وهم يَعلَمونَ ذلك، فإنَّ اللهَ لا يأمرُ بالفَحشـاء، ولم يُحِلَّ لأحدٍ أنْ يأكلَ مالَ آخَرَ بالباطِل، وإنَّما اليهودُ همُ الذينَ اختَلقوا هذا القَول، وهمْ أهلُ زُورٍ وبُهتان.

{بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [آل عمران:٧٦]

٧٦- نعم، إنَّ أهلَ الوفاءِ بالعَهدِ والتُّقَى همُ الذينَ يُحِبُّهمُ اللهُ تَعالى، لا غَيرُهم. ولو وفَى أهلُ الكتابِ بعُهودِهِمْ وتَركوا الخِيانةَ في أمرِ دِينِهم، فإنَّهُمْ يَكتِسبونَ بذلكَ محبَّةَ اللهِ، وإذا وَفَوا بالعُهود، فإنَّ أبرزَها وآكدَها هوَ ما أخذَ اللهُ عَليهِمْ في كتابِهِمْ منَ الإيمانِ بمحمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسلم. وتَقواهُمْ هوَ تَركُ الخِيانة، وعَدمُ الكذِبِ على الله، وتجنُّبُ تحريفِ التوراة.

{إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران:٧٧]

٧٧- إنَّ الذينَ يَستَبدِلونَ بما عَهِدَ اللهُ إليهم، منَ الإيمانِ بالرسولِ صلى الله عليه وسلم، وبما حَلَفوا بهِ منْ قولِهِم: "واللهِ لنُؤمِنَنَّ بهِ ولنَنْصُرَنَّه"، يَستبدلونَ بهذا أثماناً زَهيدةً مِنْ حُطامِ الدنيا وعُروضِها الزائلة، فيَخونونَ العهدَ مُقابلَ ذلكَ ويَغْدِرونَ بالأمانة، فهؤلاءِ لا نَصيبَ لهمْ في نَعيمِ الآخِرَة، ولا يكلِّمُهمُ اللهُ بشَيءٍ يَسُرُّهم، ولا يَنظرُ إليهمْ نظرَ رَحمةٍ يومَ الحِساب، ولا يُثني عَليهمْ، ولا يُطَهِّرُهمْ مِنْ آثامِهمْ وذُنوبِهِمُ المتراكِمة، بلْ يُعْرِضُ عنهمْ ويَسْخَطُ عليهمْ ويَقْذِفُ بهِمْ إلى النارِ ليُعَذَّبوا فيها.

والآيةُ عامَّةٌ في هذا وغيرِه، فقدْ وردَ في الصحيحِ أنَّها نزلتْ فيمَنْ يَحلِفُ باللهِ على شيءٍ ولا يُبالي، فقالَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "مَنْ حَلَفَ على يَمينٍ يَستَحِقُّ بها مالاً وهوَ فيها فاجِر، لَقِيَ اللهَ وهوَ عليهِ غَضبان". فأنزلَ اللهُ تصديقَ ذلك، كما رواهُ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ في صحيحِ البخاريِّ وغيرِه.

{وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران:٧٨]

٧٨- وإنَّ هناكَ جماعةً مِنْ أهلِ الكتاب، وكانوا يهوداً، يَميلونَ عنِ المنْزَلِ إلى المحرَّفِ منَ الكتاب، بتَحريفِ اللَّفظَةِ في حرَكاتِ الإعرابِ تَحريفًا يَتغيَّرُ بهِ المعنَى، إمعاناً في التَّزييف، أو

تأويلاً للنصــوصِ وليِّها؛ لتُوافِقَ أهواءَهم، وليوهِمُوا الجَهلةَ أنَّهُ حُكمُ اللهِ في كتابِه، وليسَ هوَ منْ عندِ الله، بلْ همْ كاذِبونَ مُفْتَرون، وهمْ يَعرِفونَ ذلكَ ويَتعمَّدونَه.

{مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الكِتَابَ وَالحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} [آل عمران:٧٩]

٧٩- هذا رَدٌّ لمَنْ ذَكرَ أنَّ النبيَّ يُعْبَد، سواءٌ ما ذُكِرَ منْ أنَّ النصارَى قالوا ذلكَ في عيسَى بنِ مريمَ مِنْ أنَّهُ أمرَهمْ بعبادتِه، أو أنَّ بَعضاً منهمْ جاءَ مُستَفسِراً منَ النبيِّ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ما إذا كانَ يَدعوهُمْ لعبادتِهِ كعبادةِ عيسَى عليهِ السلام! قالَ تعالَى ما مَعناه:

لا يَنبغي لإنسانٍ أنزلَ اللهُ عليهِ الكتابَ الناطِقَ بالحقّ، الذي فيهِ أمرٌ بتوحيدِ اللهِ وإخلاصِ العبادةِ له، وآتاهُ عَقلاً وفَهماً، وأوحَى إليهِ وجعلَهُ نبيًّا، ثمَّ يَقولُ هذا الإنســان، وهوَ بَشَــرٌ منْ عبادِ الله: كونُوا أيُّها الناسُ عِباداً لي لا عِباداً لله، أو أشركِوني بالعِبادةِ مَعه. فهذا لا يَصلُحُ لنبيٍّ قولُه، ولا لأحدٍ منَ الناس، فإنَّ العِبادةَ ليستْ للعِباد، وإنَّما هي لخالقِ العِبادِ وحدَه.

لكنَّ الحقَّ أنْ يقولَ هذا النبيُّ للناس: كونُوا حُكماءَ علماءَ حُلَماء، مُتَمسِّكينَ بطاعةِ اللهِ ودينِه، بمتابعتِكمْ ومثابرتِكمْ على تعليمِ الكتابِ وقِراءتهِ وحِفظِه.

{وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا المَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران:٨٠]

٨٠- وأنْ يقولَ النبيُّ للناسِ أيضـــاً: إنَّ اللهَ لا يأمرُكمْ قطُّ أنْ تَعبُدوا ملائكةً ولا أنبياء، أيأمرُكمُ النبيُّ بعِبادةِ غيرِ اللهِ وهوَ كفر، والأنبياءُ إنَّما يأمُرونَ بالإيمانِ والإخلاصِ في العِبادة، وهوَ ما دَعاكمْ إليهِ نبيُّكمْ أيُّها المسلِمون، مِنْ عبادةِ اللهِ وحدَهُ لا شريكَ له؟

{وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} [آل عمران:٨١]

٨١- وقدْ أخذَ اللهُ العَهدَ والميثاقَ منْ كلِّ نبيٍّ بَعثَه، مِنْ لَدُنْ آدمَ وحتَّى عيسَـــى عليهِ السـلام: إنِّي إذا أنزلتُ عليكمُ الكتاب، وآتيتُكمُ الحِكمَة، ومَهما بَلغتُمْ مِنْ درَجةٍ في العِلم، ثمَّ جاءَكمْ رسولٌ مِنْ بعد، فإنَّ عَليكمْ أنْ تؤمِنوا بهِ وتَتَّبعوهُ وتَنصرُوه، ولا يَمنَعْكُمْ ما أنتُمْ عليهِ منَ النبوَّةِ والعلمِ منِ اتِّباعِه ونُصرَتِه.

وقالَ لهمْ سُـــبحانَه: أوافَقتُمْ على الذي طَلبتُهُ منكمْ وأخذتُمْ على ذلكَ عَهدي ومِيثاقيَ الشديدَ المؤكَّد؟ قالوا: أقرَرنا بذلكَ ووافَقنا عليه.

قالَ سُبحانَهُ ما مَعناه: فليَشـهَدْ بعضُكمْ على بعضٍ بهذا الإقرارِ، وأنا أشـهدُ أيضـاً على إقرارِكم.

وهوَ المطلوبُ مِنْ أتباعِهم أيضاً، فإنَّ كلَّ نبيٍّ كانَ يوصِيهم بذلك، ليتَّبعوا النبيَّ التاليَ له.

{فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ} [آل عمران:٨٢]

٨٢- فمَنْ أعرَضَ عنْ ذلكَ كلِّهِ بعدَ أخذِ الميثاقِ والتأكيدِ بالإقرارِ والشـــهادة، فإنَّهمْ فاسِقونَ خارِجونَ عنِ الطَّاعة.

{أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [آل عمران:٨٣]

٨٣- وهلْ هؤلاءِ المعرِضـونَ يُريدونَ دِيْناً غيرَ دِيْنِ الله، وهوَ الذي استَسـلَمَ لهُ كلُّ مَنْ في السَّماواتِ والأرض، مُختارينَ وكارِهين، فإنَّهمْ جميعاً، مُؤمِنُهمْ وكافِرُهم، تحتَ سُلطانِ اللهِ العظيمِ وقضائهِ الذي لا يُرَدّ، ومَصيرُهمْ جميعاً إليهِ في يومِ المعاد، فيُجازي كلاًّ بعملِه.

{قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [آل عمران:٨٤]

٨٤- قلْ أنتَ أيُّها الرسولُ ومَنْ معكَ مِنَ المؤمِنين: آمنّا باللهِ وحدَه، وبالقُرآنِ الذي أنزلَهُ علينا، وبما أنزلَهُ على أنبيائه: إبراهيم، وإسماعيل، وإسـحاق، ويَعقوب، والأسـباطِ، وهمْ بطونٌ

مِنْ أولادِ يعقوبَ عليهِ السلام، مِنْ صُحُفٍ ووَحْي، وما أوتِيَهُ موسَى، وهوَ التوراة، وعيسَى، وهوَ الإنجيل، وما أوتيَ كلُّ الأنبياءِ منْ ربِّهم منْ كُتبٍ ومُعجزات، لا نُفَرِّقُ بينَ أحدٍ مِنهم، فنؤمِنُ بهِمْ جميعاً، وليسَ مثلَ أهلِ الكتابِ الذينَ يؤمِنونَ ببعضٍ ويَكفُرونَ ببعض. ونحنُ مُستَسلِمونَ لأمرِ اللهِ وحُكمِه، مُخلِصونَ في عِبادتِنا له، نُطيعُهُ فيما أمَر، ونَنتهي عَمّا نَهى، ونُؤمنُ بجميعِ ما طلبَ منّا الإيمانَ به.

{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآَخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ} [آل عمران:٨٥]

٨٥- ومَنْ يَسلُكْ غيرَ دينِ الإسلامِ طَريقاً ومِنْهَجاً، مِنْ مَذهبٍ أو دِيْنٍ أو فكرةٍ أو نِظام، فإنَّ اللهَ لنْ يَقبَلَ منه، فلا عِبْرَةَ بما تُريدهُ أهواءُ البَشر، وإنَّما يكونُ الاعتِقادُ والعمَلُ بما يُشَرِّعهُ ربُّ البَشر، فمَنْ أبَى وتَنحَّلَ غيرَ دينِ الله، فإنَّ اللهَ لنْ يَقبلَ منه، وسيَكونُ منَ الخاسِرين، حيثُ يَنتظرُهُ العذابُ المقيم، لرفضهِ الحقَّ المبين، ولتَفضيلهِ الضَّلالَ على الهِداية.

{كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ} [آل عمران:٨٦]

٨٦- وكيفَ يَهدِي اللهُ قوماً إلى الحقِّ وقدِ ارتَدُّوا عنِ الإسلامِ بعدَ أنْ آمَنوا باللهِ وأقرُّوا بنبوَّةِ الرسولِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وأحقِّيتِهِ بالاتِّباع، وقامَتْ عليهِمُ الحُجَجُ والبَراهين، ووَضَحَ لهمُ الأمر؟ لقدْ ظَلموا أنفسَهمْ بارتدادِهمْ وعودتِهِمْ إلى الضَّلال، وإيثارِهمُ الغِوايةَ على الرَّشاد.

{أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [آل عمران:٨٧]

٨٧- فأولئكَ جزاؤهمُ الطردُ مِنْ رحمةِ الله، فعَليهِمْ لعنةُ اللهِ وملائكتهِ والناسِ أجمَعين.

{خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ} [آل عمران:٨٨]

٨٨- وجزاؤهمُ الخلودُ في النار، لا يُخَفَّفُ عنهمُ العَذابُ ساعة، ولا همْ يُمْهَلون، فقدْ مضَى زمَنُ الإمهال، وحتَّى لو رُدُّوا إلى الدُّنيا فإنَّهُمْ سيَعودونَ إلى ما نُهوا عنه.

{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران:٨٩]

٨٩- إلاّ مَنْ تابَ إلى اللهِ بعدَ رِدَّتهِ فآمَن، وحَسُنَ إيمانُه، وأصلحَ ما كانَ أفسد، فصَلَحَتْ أعمالُه، واستَقامَ سلوكُه، فإنَّ اللهَ يَقبَلُ توبتَه، ويَتفضَّلُ عليهِ فيَغفِرُ ذنوبَه، إنَّهُ كثيرُ البِرِّ بعبادِهِ المؤمنين، رحيمٌ بهم، لَطيفٌ معَهم.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ} [آل عمران:٩٠]

٩٠- إنَّ مَنْ كفرَ بعدَ أنْ هَداهُمُ اللهُ للإيمان، ثمَّ ازدادوا كُفراً وإصراراً، واستمرُّوا على ذلكَ إلى أنْ ماتوا، فإنَّ اللهَ لنْ يَقبَلَ توبتَهمْ عندَ المَمات، فأولئكَ همُ الضالُّونَ الذينَ أمضَوا حياتَهمْ في طريقِ الغيِّ والكفر.

ومِنْ أمثلةِ زيادةِ الكفرِ ردُّ الحُجَجِ والآياتِ المتَتالية.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [آل عمران:٩١]

٩١- وإنَّ الذينَ كفَروا، ثمَّ ماتوا وهمْ كفّار، لنْ يُقْبَلَ منهمْ ثوابُ عَمَلٍ أبداً، ولنْ يُقْبَلَ منهمْ فِداءُ أنفسِهم، ولو كانَ هذا الذي يُفتَدَى بِهِ ما يَملأُ الأرضَ ذَهباً، فإنَّ لهمْ عذاباً شَديداً مُوجِعاً، ولنْ يكونَ هناكَ مَنْ يُعِينُهم لدفعِ العَذابِ عنهم أو تَخفيفِه.

{لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ} [آل عمران:٩٢]

٩٢- لنْ تَنالوا البِرَّ، وهوَ العَمَلُ الصّالح، أو ثوابُه، وهوَ الجنَّة، إلاّ إذا أنفَقتُمْ ما تُحِبُّونَهُ مِنْ أموالٍ في سبيلِ الخَير، مِنْ صَدَقةٍ، أو غَيرِها منَ الطّاعات؛ رَغبةً فيما عندَ الله. وما تُنفِقوا مِنْ

شيءٍ كائناً ما كان، صَغيراً أو كَبيراً، طيِّباً أو خَبيثاً، حَلالاً أو حَراماً، فإنَّ اللهَ عليمٌ بهِ وبنيَّاتِكمْ فيه، فيُجازِي كلاًّ بحَسَبِه.

سورة آل عمران (٩٣ – ٢٠٠)

سورة النساء (١ – ٢٣)

{كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [آل عمران:٩٣]

٩٣ – كلُّ الأطعمةِ كانتْ حَلالاً على بَني إسرائيل، إلا ما حرَّمَهُ إسرائيلُ (يعقوبُ) عليهِ السلامُ على نَفسِه، قبلَ أنْ تَنزِلَ التوراةُ على موسَى، وربَّما حرَّمها لمرضٍ أو نَذْرٍ، فتابَعَتْهُ بَنو إسرائيلَ هكذا، وليسَ تَبَعاً للتوراة، ثمَّ حُرِّمتْ عليهمْ أطعمةٌ لملابساتٍ أخرى؛ عقوبةً لهمْ على معاصِيهمُ المتَتالية.

وقلْ لهمْ يا رسولَ الله: هاتُوا التوراةَ فاقرَؤوها لتُقِرُّوا بصحَّةِ ما قلتهُ لكمْ أيُّها اليهود، وليَتبيَّنَ صدقُ قولِكم، إذا كنتُمْ صادقينَ فيه.

فبُهتوا، ولم يأتوا بها!

{فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [آل عمران:٩٤]

٩٤ – فمَنْ كَذبَ على اللهِ وادَّعَى غيرَ ذلك[٢١]، بعدما ظَهرتِ الحُجَّة ووضَحَ لهمُ الحقّ، فهمْ ظالمونَ غيرُ مُنصِفين، قدْ تجاوزوا الحقَّ إلى الباطِل.

{قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [آل عمران:٩٥]

---

(٢١) ذكرَ العلّامة ابن عاشور، أن الافتراءَ هو الكذب، وهو مرادفُ الاختلاق، وكأن أصلَهُ كنايةٌ عن الكذبِ وتلميح، وشاعَ ذلك حتى صارَ مرادفًا للكذب. (التحرير والتنوير).

٩٥ – قلْ لهمْ يا نبيَّ الله: لقدْ صـدقَ اللهُ فيما أخبرَ بهِ وشَـرَعهُ في القُرآنِ العَظيم، فاتَّبِعوا ملَّةَ إبراهيم، المائلةَ عنْ كلِّ شِــرك، الداعيةَ إلى التوحيدِ الخالِص، كما بيَّنها اللهُ في القُرآن، وما كان منَ المشركين، فلِمَ يُشرِكُ أهلُ الكتابِ الذينَ يدَّعونَ أنَّهمْ ورثةُ إبراهيمَ عليهِ السلام؟

{إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ} [آل عمران:٩٦]

٩٦ – إنَّ أوَّلَ بيتٍ وُضِعَ لعمومِ الناسِ في الأرضِ لكي يَعبدوا ربَّهم فيه، هوَ البيتُ الحرام، الذي بَناهُ نبيُّ اللهِ إبراهيمُ في مكَّةَ المكرَّمة، وَضعَهُ بأمرٍ منَ الله، فكثُرَ خيرُه، وعَمَّ نَفعُه، وعَظُمَ ثوابُ قاصدِه، وصارَ هُدًى لهم، لأنَّهُ قِبْلَتُهمْ ومُتَعَبَّدُهم.

{فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ} [آل عمران:٩٧]

٩٧ – وفيهِ أدلَّةٌ واضحةٌ على ما شرَّفَهُ اللهُ بهِ وعظَّمه، مِنْ ذلكَ مقامُ إبراهيم، الذي كانَ يعتلي فيهِ على حَجَرٍ ليبنيَ البيت، وهذا المكانُ مقصـودٌ بالصـلاةِ فيه. وفيهِ الحجَرُ الأسـود، وزَمزَم، وقَصدَهُ الأنبياءُ والمرسَلون، والأولياءُ الأبرار. وفيهِ مُضاعَفةُ الثوابِ أضعافاً كثيرة، وقَهرَ اللهُ كلَّ جبارٍ قَصَدهُ بسُوء.

ومَنْ دخلَهُ فقدْ أمِن، فلا يُعْرَضُ لهُ بسُوء.

وقدْ فَرضَ اللهُ الحجَّ إليهِ مرَّةً في العُمُرِ لمنْ قَدَرَ على ذلك: صحياً، ومالياً، وأمنياً، على ما فصَّلَهُ الفقهاء. فهوَ رُكنٌ من أركانِ الإسلام.

ومنْ كفرَ بما فرضَهُ اللهُ منَ الحجّ، فإنَّ اللهَ غنيٌّ عنْ حجِّهِ وعنْ عبادةِ الناسِ أجمعين.

وإنَّما شَـرعَ اللهُ الحجَّ لِما فيهِ منْ ثوابٍ يعودُ على صـاحبِه، فإنَّ "مَنْ حجَّ للهِ فلمْ يَرْفُثْ ولم يَفْسُقْ رجعَ كيومَ وَلَدَتْهُ أمُّه"، كما في صَحيحِ البُخاريّ.

{قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ} [آل عمران: ٩٨]

٩٨ – قلْ يا نبيَّ اللهِ للكفّارِ منَ اليَهودِ والنصـــارَى: يا أهلَ الكتاب، لماذا تَكفُرونَ بالحُجَجِ القويَّة، والبراهينِ الجليَّةِ التي يُنزِلُها الله؟ واللهُ شـاهدٌ على صَـنيعِكمْ بما تُخالفونَ بهِ ما نَزلَ منَ الحقّ، وتُعانِدونَ الرَّسولَ وتحارِبونَ رسالتَه.

{قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [آل عمران:٩٩]

٩٩ – وقلْ لهم: لماذا تَمنَعونَ الناسَ منَ الإيمان، وتَقِفونَ حاجِزاً بينَهمْ وبينَ إرادةِ الحقّ، وتَختارونَ بذلكَ الطَّريقَ الأعوجَ على الصَّحيحِ المستَقيم، وأنتمْ شُهداءُ على صِحَّةِ آياتِ الله، وعلى يقينٍ مِنْ صِدْقِ الرسُولِ محمَّد، بما عندكمْ منْ عِلم، وبما ترونَهُ ممّا يُطابِقُ ما أتَى به صلى الله عليه وسلم. واللهُ ليسَ بغافلٍ عمّا تَعمَلون، وسوفَ يُحاسِبُكمْ على كفرِكمْ وصدِّكمْ عنِ الإيمان.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} [آل عمران:١٠٠]

١٠٠ – أيُّها المؤمنون، إنَّكمْ إذا أطعتُمْ طائفةً مِنْ أهلِ الكتابِ منَ اليَهودِ والنصـــارَى، فإنَّهمْ سيردُّونَكمْ إلى الكفرِ بعدَ أنْ كنتُمْ مؤمنين، حَسَداً منهمْ على ما آتاكمُ اللهُ منْ فَضل، ومَنحكمْ بهِ منْ رَسول. فلا تَثِقوا بهمْ وبمناهِجهم، ولا تَتلقَّوا عنهمْ ولا تَقتَبِسوا منهم، فإنَّ هذا يدلُّ على ضَعْفٍ منكمْ وثقةٍ بهم.

{وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [آل عمران:١٠١]

١٠١ – وكيفَ تَكفُرونَ وأنتُمْ تَرونَ الآياتِ تَنزِل، والرسُولُ بينَ ظَهرانَيْكمْ يَتلوها عليكم، ومُعجزاتُهُ ماثِلةٌ أمامَ أعينِكم، فكلُّ هذا يُعينُكمْ على الإيمانِ ويُثبِّتُكمْ عليه. فالكفرُ بَعيدٌ عنكمْ ما دمتُمْ تَنهلونَ علومَكمْ منْ مَعينِ الكِتابِ المبين، ولا تَســتمعونَ إلى أهلِ الكتابِ وأباطيلِ

المفتَرين. وإنَّ مَنْ تَمسَّكَ بحبلِ اللهِ وتوكَّلَ عليهِ حقَّ التوكُّل، فإنَّهُ يَهديهِ إلى طَريقهِ المستَقيم، ويُثَبِّتهُ عليه، ويُسَدِّدُه.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ١٠٢]

١٠٢ — يا عبادَ اللهِ المؤمنين، اتَّقوا اللهَ حقَّ تَقواه، واخشَوهُ حقَّ الخَشية، فأطيعوهُ ولا تَعصُوه، واذكروهُ ولا تَنْسَوه، واشكروهُ ولا تَكفُروه، وجاهِدوا في سبيلهِ حقَّ جهادِه، واثبُتوا على هذا، وحافِظوا على إسلامِكمْ في جميعِ أحوالِكم، لتَموتوا عليه، فإنَّ مَنْ ثَبتَ على شيءٍ ماتَ عليه، ويُبْعَثُ عليه، إنْ شاءَ الله.

وذهبَ كثيرٌ منَ المفسِّرينَ إلى أنَّها منسوخةٌ بقولهِ تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [سورة التغابن: ١٦]، ومنْ لم يقُلْ بذلكَ قالوا: معناها اتَّقوا اللهَ حقَّ تُقاتهِ ما استطعتُم.

وقالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهما: إنَّها لم تُنسَخ، ولكنْ {حَقَّ تُقَاتِهِ} أنْ يُجاهِدوا في سَبيلِ اللهِ حَقَّ جِهادِه، ولا يَأخذَهمْ في اللهِ لَومَةُ لائم، ويَقوموا للهِ بالقِسْط، ولو على أنفُسِهمْ وآبائهمْ وأبنائهم.

{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [آل عمران:١٠٣]

١٠٣ — وتمسَّكوا بعهدِ اللهِ والقُرآنِ الذي أنزلَهُ عليكم، الذي بهِ هُدِيتُم، وكُونوا جَميعاً إخوةً مُجتَمعينَ مُتحابّين، ولا تَختَلِفوا مثلَ اليهودِ والنصارَى فتتفرَّقوا وتَتباغَضوا، واذكُروا فَضْلَ اللهِ عليكمْ عندَما كنتُمْ أعداءً يَقتُلُ بعضُكمْ بَعضاً في حُروبٍ مُستَمِرَّة، فجمعَ بينَ قلوبِكمْ بهذا الدِّينِ الحقّ، فصِرتُمْ بفَضلهِ ونعمَتهِ إخواناً مُتآلِفين، يَنصرُ بعضُكم بعضاً، ويَعطِفُ عليهِ ويَرحمُه، بعدَ أنْ كنتُمْ على وشكِ الدُّخولِ في النارِ بسببِ كُفرِكم، فأنقذَكمُ اللهُ بهذا الدِّينِ وهداكمْ للإيمان، وأنقذَكمْ منَ النار، ويُبَيِّنُ اللهُ لكمْ دلائلَهُ لتَثبُتوا على الهِداية، وتَزدادوا إيماناً.

{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ} [آل عمران:١٠٤]

١٠٤ – ولتكنْ منْ بينِكمْ فِرقَةٌ أو جَماعةٌ تَدعو إلى الخَير، وتَنهَى عنِ الشـــرّ، وتأمرُ بالفضيلةِ والحقِّ والعَدل، وتَنهَى عنِ الرَّذيلةِ والباطلِ والظُّلم. وهيَ مهمَّةٌ ليستْ يَسيرة، حيثُ الاصـــطدامُ بطبائعِ ناسٍ ورغائبِهمْ ومنافعِهمْ ومصـــالحِهم. ومنْ قامَ بهذا التكليفِ فهوَ منَ المفلحينَ الفائزين.

قال ابنُ كثير: والمقصودُ منْ هذهِ الآيةِ أنْ تكونَ فِرقةٌ مِنَ الأمَّةِ مُتَصَدِّيةً لهذا الشَّأن، وإنْ كانَ ذلكَ واجباً على كلِّ فردٍ منَ الأمَّةِ بحَسَبه، كما ثبتَ في صَحيحِ مسلم، عنْ أبي هُريرة، قالَ رسـولُ اللهِ صـلى الله عليه وسـلم: " مَنْ رَأى منكمْ مُنكَراً فليُغَيِّرْهُ بيدِه، فإنْ لم يَسـتطِعْ فبلسانِه، فإنْ لم يَستطِعْ فبقَلبِه، وذلكَ أضعَفُ الإيمان".

{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران:١٠٥]

١٠٥ – ولا تَكونوا مثلَ الأممِ الســـابقة، كأهلِ الكتابِ وغيرِهم، الذينَ تفرَّقوا واختَلفوا، على الرغمِ منْ قيامِ الحُجَّةِ عليهم، وبيانِ الأدلَّةِ عندَهم، فكانَ مصيرَهم في الدُّنيا الهزيمةُ والذلّ، والفِتنةُ والتَّقاتُل، وسيكونُ عاقبتَهم يومَ القيامةِ عَذابٌ عَظيمٌ جزاءَ إعراضِهم عنْ دينِ اللهِ الحقّ، فلا تَكونوا مثلَهمْ، لئلاَّ يُصيبَكمْ ما أصابَهم.

{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} [آل عمران:١٠٦]

١٠٦ – في يَومِ القيامةِ تَبيَضُّ وجوهُ أهلِ الإيمانِ والخَير، وتُشـرِقُ بالنور، وتَفِيضُ بالبهجةِ والسُّرور، ووجوهُ أهلِ الكفرِ والنِّفاقِ تَسْوَدُّ كالحِةً وكئيبةً منَ الحُزنِ والهَمِّ والغَمّ. ويُقالُ للمُنافقينَ والمرتدِّينَ أهلِ الكفرِ والنِّفاق، الذينَ اســـودَّتْ وجوهُهم: أكفرتُمْ بعدَ أنْ ذُقتُمْ حَلاوةَ الإيمانِ وعَرفتمُ الحقّ؟ إذاً فذُوقوا العَذابَ جزاءَ كفرِكمْ وتَفضيلِكمُ الباطلَ على الحقّ!

{وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [آل عمران:١٠٧]

١٠٧ – وأمّا الذينَ ابيضَّتْ وجوهُهمْ مُستَبشِرةً بالخَير، فهمْ في جنَّةِ اللهِ خالدون، في فَرحٍ وسَعادةٍ لا تَنقَطِع.

{تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالحَقِّ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ} [آل عمران:١٠٨]

١٠٨ – وتلكَ الأمورُ حُجَجٌ وبَراهين، وآياتٌ بيِّنات، نُنَزِّلها عَليكَ يا نبيَّ اللهِ بالحَقِّ والعَدْل، ليكونَ الناسُ على حَذرٍ فيما يأتونَ وما يَذَرون، ولا يُريدُ اللهُ ظُلماً لهم، فهوَ الحَكَمُ العَدْل، لكنَّهمْ إذا ظَلموا وكَفروا فإنَّهم يُلقُونَ بأنفسِهمْ إلى الهَلاك.

{وَللهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ} [آل عمران:١٠٩]

١٠٩ – وليسَ اللهُ بحاجةٍ إلى طَاعةِ أحَد، ولا يَزيدُ شيئاً في مُلكهِ أو يَنقُصُ منهُ إذا أعطَى أو مَنع، فإنَّهُ سُبحانَهُ غَنيٌّ واسعُ الملك، لهُ ما في السَّماواتِ والأرض، وكلُّ الأمورِ صائرةٌ إليه، وهوَ حاكمُها ومُصَرِّفُها. فليُفكِّرِ الإنسانُ بمَصيرِه، وليُطعِ اللهَ حتَّى يُفلِحَ ويَلقَى الجزاءَ الطيِّب.

{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ المُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الفَاسِقُونَ} [آل عمران:١١٠]

١١٠ – كنتُمْ يا أمَّةَ الإسلامِ خيرَ الأممِ وأفضلَها وأنفعَها للناس، حيثُ تأمرونَ الناسَ بالخير، وتَنشُرونَ الحقَّ والعَدل، وتَحُثُّون على الفضائلِ والآدابِ الحَسَنة، وتَنهَونَهمْ عنِ المنكراتِ والفواحشِ والأخلاقِ المسترذَلة، وتؤمنونَ باللهِ الواحِدِ الأحَد، فتَعبدونَهُ ولا تُشرِكونَ بهِ شيئاً.

ولو أنَّ أهلَ الكتابِ مِنَ اليهودِ والنصارَى آمَنوا مثلَكم بما أُنزِلَ على محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم واهتَدَوا إلى الحقّ، ونَبذوا الشِّركَ والكُفر، لكانَ خيراً لهمْ في دُنياهُمْ وآخِرَتِهم، ولكنَّ قليلاً منهمْ فعلَ ذلك، وبقيَ أكثرُهمْ على الضَّلالِ والكفر، مُؤثِرينَ الفُسوقَ والعِصيان، ولم يَفُوا بميثاقِ اللهِ معَ النبيِّين، ثمَّ وصيَّتِهمْ لأممِهمْ بأنْ تَتَّبعَ النبيَّ الأميَّ وتَنصُرَه.

ذُكِرَ أنَّ قولَهُ تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ} خاصٌّ بعهدِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم، وعَمَّهُ آخَرون، فقالوا: الصَّحيحُ أنَّ هذهِ الآيةَ عامَّةٌ في جميعِ الأمَّة، كلُّ قرنٍ بحَسَبِه، وخَيرُ قُرونِهِمُ الذينَ بُعِثَ فيهمْ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم، وإنَّما حازَتْ هذهِ الأمَّةُ قَصَبَ السبْقِ إلى الخَيراتِ بنبيِّها محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، فإنَّهُ أشرَفُ خَلقِ اللهِ وأكرمُ الرسُلِ على الله، وبَعثَهُ الله بشرعٍ كاملٍ عَظيمٍ لم يُعطِهِ نبيًّا قبلَهُ ولا رسُولاً منَ الرسُل.

قلتُ: الذي يظهرُ أنَّ خيريَّةَ هذهِ الأمةِ مُرتبطةٌ بكونِها تأمرُ بالمعروف، وتَنهَى عنِ المنكَر، وتُؤمِنُ بالله، كما في الآيةِ نفسِها، فإذا لم تَفعلْ ذلكَ لم تَحُزْ هذهِ الفَضيلة. واللهُ أعلم.

{لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ} [آل عمران: ١١١]

١١١ – لنْ يَستَطيعَ أهلُ الكتابِ – وخاصَّةً اليهودَ – إلحاقَ الضَّررِ بكم، إلاّ ضَرراً عارِضاً يَسيراً، وإذا حدَثَ بينَكمْ وبينَهمْ قِتالٌ يَنهزمونَ شرَّ هزيمة، ولنْ يَنتصرَ لهمْ أحَد، ولنْ يَجدوا مَعونةً تُنقِذُهمْ مِنْ بأسِكم.

وكانوا كذلك، فقدْ أذلَّ اللهُ اليهودَ ونصرَ المسلمينَ عَليهم، وانهزَمَ النصارَى في بلادِ الشامِ وغيرِها، وسيَكونُ النصرُ للمسلِمينَ ما داموا متمسِّكينَ بشرعِ الله، رافعينَ رايةَ الجهادِ في سبيلِه.

{ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [آل عمران: ١١٢]

١١٢ – لقدْ ألزمَهمُ اللهُ الذلَّةَ والمهانةَ أينَما كانوا، وصارَ هذا مُلازِماً لهمْ حتَّى استكنَّ في مشاعرِهم، ولنْ يَجدوا راحةً ولا استِقراراً إلاّ بذِمَّةٍ منَ الله، وهوَ أنْ يَكونوا ذِمِّيينَ في الدولةِ الإسلامية، يُلزَمونَ بدفعِ الجزيَة، أو بعهدٍ منَ الناس، كأمانٍ منهمْ لهم، أو مُعاهداتٍ بينهمْ وبينَ دُوَلٍ كبرى يَتقوَّونَ بها.

لقدْ تَلبَّسوا بغَضَبِ اللهِ وأُلزِمُوا به، فلا يُغادرُهمْ ولا يَنفكُّ عنهم. وسببُ هذا الذلِّ المكتوبِ عليهمْ والغَضَبِ الذي يُلازمُهم، هوَ أنَّهمْ كانوا يَرفُضونَ اتِّباعَ الحقِّ مهما كانَ واضِحاً

وقويّاً، ويَكفرونَ بالحُجَجِ والمعجِزاتِ وهمْ يَروهَا عِياناً، وزَادوا على ذلكَ جَريمةً لا يَرتكبُها إلاّ أكبرُ مُجرِمي البشرِ وأشقاهُم، وهوَ قتلُ الأنبياء، أصفَى البشَرِ وأنقاهُمْ سَريرة، وأحسنُهمْ خُلُقاً، وأعظمُهمْ قَدْراً، قَتلوهُمْ بدونِ أيّ مُبَرّر، وبدونِ أيِّ حَقّ، بلْ هَكذا سَوَّلَتْ لهمْ نفوسُهمُ السيّئةُ وقُلوبُهمُ السَّـــوداء؛ عِناداً وتكبُّراً وحَسَـــداً. فالذي دفَعهمْ إلى كلِّ هذهِ الجرائمِ هوَ عِصـــيانُهمُ المستَمِرُّ لأوامرِ الله، واعتدَاؤهم وظلمُهم.

{لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آَيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} [آل عمران:١١٣]

١١٣ – لكنْ ليسُـــوا كلُّهمْ هَكذا، فقدْ آمنَ منهمْ خَلْقٌ فاســـتَقاموا على طَريقِ الحقّ، وأطاعُوا شَرْعَ الله، واتَّبعُوا نبيَّه، وصَاروا يَتلُونَ آياتِ القُرآنِ الكرِيم، ويَقومُونَ الليل، ويَتهَجَّدونَ في تَبتُّلٍ وخُشُوع.

{يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ} [آل عمران:١١٤]

١١٤ – يُؤمنونَ باللهِ الواحِدِ الأحَد، وباليَومِ الآخِر، ويأمُرونَ الناسَ بالخيرِ والحقّ والعَدل، ويَنهونَهُمْ عنِ الشرِّ والأذَى والظُّلم، ويَتسابَقونَ في الأعمالِ الخيّرة، ويَبَرُّونَ إخوانَهُمُ المؤمنين، في تعاونٍ وطاعةٍ وتَقوَى، وهؤلاءِ همُ الصَّالحون، الذينَ أتْبَعوا إيمانَهُمْ بالأعمالِ الطيّبةِ المبارَكة.

{وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالمُتَّقِينَ} [آل عمران:١١٥]

١١٥ – وكُلُّ ما يفعلونَهُ منْ خيرٍ وبرٍّ وإحسانٍ لنْ يُبْخَسُوا حقَّه، ولنْ يُكْفَروا أجرَه، بلْ يَجزيهمُ اللهُ عليها أوفرَ الجزاء، فهوَ عليمٌ بمنِ اتَّقاهُ وطلبَ رِضاه، لا يَخفَى عليهِ عَملُ أحَد.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [آل عمران:١١٦]

١١٦ – إنَّ الذينَ كفَروا وكذَّبوا بما أنزلَ اللهُ مِنْ حَقٍّ وخَيرٍ وهُدى، لنْ يُفيدَهمْ شَـيءٌ ممّا جَمعوهُ مِنْ أموال، وشَيَّدوهُ مِنْ قُصور، ولنْ يَستطيعَ أولادُهمْ وذَرارِيهمْ أنْ يَمنعوا عنهمْ بأسَ اللهِ وعَذابَه، ويَكونُ مَصـــيرَهمْ النارُ المحرِقة، التي تأتي على وجوهِهمْ وأفئدتِهمْ في يَومِ القيامَة، خالدينَ فيها أبَداً.

{مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [آل عمران:١١٧]

١١٧ – إنَّ مَثَلَ ما يُنفِقُ الكفّارُ مِنْ أموالٍ ظاهرُها خَير، كمساعدةٍ إنسانيَّة؛ لمصلحةٍ مادِّية أو غيرِها، هوَ مَثَلُ ريحٍ شَـديدةِ البرودَة، فيها بَرَد، أهلَكتْ زرعَ جماعةٍ قدْ آنَ حَصَـادُه، فأبادَتْه، وقَضَـتْ على ما فيهِ منْ ثَمَرٍ وزَرع، بسـببِ ذُنوبِ أصـحابهِ وظُلمِهم. وكذلكَ هؤلاءِ الكافِرون، فإنَّ أموالَهمْ وخَيراتِهم إلى هلاكٍ وفَناء، لنْ تُفيدَهمْ سِـوَى في دُنياهُم، أمّا في الآخِرَةِ فلا نَصيبَ لهمْ منها، فقدِ اكتفَوا بجهودِهمُ الدنيويَّةِ لها، ولم يَعتبِروا الآخِرة، وما ظلمَهمُ الله، بلْ همُ ظَلموا أنفسَهمْ عندَما اختَاروا لأنفسِهمُ الغَيَّ والضَّلال، والاكتفاءَ بلذائذِ الدُّنيا، فلنْ تُغْنيَ عنهمْ أموالُهمْ وأولادُهمْ في الآخِرةِ شيئاً، لأنَّهمْ أصابُوها بريحٍ قاتِلة، بكفرِهمْ وضَلالِهم، فلم تُبقِ لهمْ شيئاً لآخِرتِهم.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ البَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} [آل عمران:١١٨]

١١٨ – أيُّها المؤمِنون، لا تَثِقوا بالكافِرينَ والمنافقينَ وأهلِ الكتاب، ولا تَتَّخذوا منهمْ أصدقاءَ تَستَشيرونَهمْ وتَجعلونَهمْ موضعَ ثِقَتِكم، ولا تُسرُّوا إليهمْ بشَيءٍ مِنْ أسرارِكم، فإنَّهمْ ليسُوا منكم، بلْ يَسْعَونَ إلى مُخالفتِكمْ ومَضـرَّتِكمْ بكلِّ ما يَملِكونَ منْ جُهْدٍ ومَكرٍ وخَديعة، ويُحبُّونَ أنْ يُحرِجوكمْ ويوقِعوكمْ في المشـكلاتِ ليؤذوكمْ ويَنتقِموا منكم، هذا ظاهِرُ ما يُخَطِّطونَ له، وما تَفوهُ بهِ ألسنتُهمْ مِنْ حِقْدٍ وبُغض، والذي تُخفيهِ صُـدورُهمْ مِنْ كُرهٍ وعَداوةٍ أكثرُ ممّا يُظهِرونَه،

وفي هذا البيانِ دلائلُ كافيَةٌ لكمْ إذا أدركتُموهُ بعقُولِكم[٢٢]؛ لئلاّ تَتَّخذوا منهمْ أصـــدقاء، ولا تُوادُّوهم، ولا تَفتَحوا لهمْ قلوبَكم.

وقدْ نزلتِ الآيةُ في رِجالٍ منَ المســلمينَ كانوا يواصِــلونَ رِجالاً منَ اليهود، لِما كانَ بينهمْ منَ الجِوارِ والحِلْفِ في الجاهليَّة، فنُهوا عنْ مباطنَتِهِمْ خوفَ الفِتنةِ عليهِمْ منهم.

{هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [آل عمران:١١٩]

١١٩ – وها أنتمْ تُحِبُّونَ المنافِقينَ لأنَّهُمْ يُظْهِرونَ لكمُ الإيمان، وهمْ لا يُحِبُّونَكمْ أبداً، بلْ يَتربَّصـونَ بكمُ الشـرّ، ويَنقُلونَ أخبارَكمْ إلى أعدائكمْ ويُوادُّونَهم، وتؤمِنونَ بكتابِ اللهِ كلِّه، وهمْ في شـــكٍّ منهُ وريبَة، ويُصَـــلُّون أمامَكمْ أحياناً، لكنَّهمْ إذا اجتَمعَوا أظهَروا غَيظَهمْ وعَداوتَهمْ وكُرهَهمْ لكم.

قولُوا لهم: اكرَهوا المؤمنينَ بما تَقـدِرونَ عليه، وابقُوا على هـذا حتَّى تموتوا كمَدًا من الحَنَقِ والغَيظ، فإنَّ اللهَ مُتِمُّ دينِهِ وناصرُ عِبادِهِ المؤمنين، وخاذِلُ أعدائهمُ الكفّارِ والمنافقين، وهوَ عليمٌ بما تُخفيهِ صـــدورُكمْ مِنْ حقدٍ وغِلٍّ على المســـلِمين، ولسَـــوفَ يُجازيكمْ في الآخِرَةِ بالعَذابِ الشَّديد.

{إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [آل عمران:١٢٠]

---

(٢٢) إنْ كنتُـــم تعقلونَ عن الله مواعظَهُ وأمرَهُ ونهيَه، وتعرفونَ مواقعَ نفعِ ذلكَ منكم ومبلغَ عائدتهِ علـــيكم (تفسير الطبري).

١٢٠ – ومّا يَبدو مِنْ عَداوةِ المنافِقينَ لكم، أنَّ اللهَ إذا مَنَّ عليكمْ برزقٍ أو نَصرٍ أو فَتح، أصابَهُمُ الهَمُّ والغَمّ، وإذا أصابَكمْ مَكروهٌ كقَحْطٍ أو هَزيمة، فَرِحُوا واستَبشَروا، فلا يُحزِنَنَّكمْ هذا، واتَّقوا شرَّهمْ بالتحلِّي بالصَّبر، والدوامِ على طاعةِ الله، وحُسْنِ التوكُّلِ عليه، ولنْ يَضُرَّكمْ شيءٌ مِنْ مكرِهمْ[٢٣] إذا كنتُمْ كذلك، فاللهُ مُحيطٌ بهم، عليمٌ بما يَصنَعون، ولنْ يَقَعَ شيءٌ في الوجودِ إلا بتقديرِهِ ومَشيئتِه.

{وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [آل عمران:١٢١]

١٢١ – واذكرْ أيُّها النبيُّ في وَقعةِ أُحُدٍ عندَما خَرَجْتَ مِنْ بيتِكَ وقدْ لَبِسْتَ لباسَ الحَرب، وعَزَمْتَ على الجِهادِ ضدَّ المشرِكينَ بعدَ مُشاورةِ أصحابِك، وأنتَ تُنَظِّمُ صُفوفَ المجاهِدين، وتُعَيِّنُ للرماةِ مكانَهمْ في جبلِ أُحُد، وقدْ جمعَ المشرِكونَ الجموعَ والأحابيشَ (وهمْ أفوَاجٌ مِن قَبائلَ شتَّى) للانتِقامِ مّا أصابَهمْ في غزوةِ بَدر، واللهُ سميعٌ بكلِّ ما جَرى، عليمٌ بما كانتْ تَقولهُ الألسُنُ وتَهمِسُ بهِ الضَّمائر.

{إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران:١٢٢]

١٢٢ – وقدْ كادتْ جَماعتانِ مِنكمْ أنْ تَضْعُفا وتَفشَلا وتَتْرُكا الجِهاد، بعدَ أنِ انفَصلَ رأسُ النفاقِ عبدُاللهِ بنُ أبي سَلُولٍ بثُلُثِ الجيشِ مِنْ أتباعِه، فكادَ هذا أنْ يُؤثِّرَ فيهما، ولكنَّ اللهَ سلَّم، فأدركَتْهُما وَلايتُهُ وتَثبيتُهُ وعِصْمَتُه، ولْيَكنْ توكُّلُ المؤمنينَ على اللهِ وحدَهُ في جميعِ أمورِهم، فهوَ حسبُهم، ومُعينُهم، وناصرُهم.

---

(٢٣) يعني بكيدهم: غوائلَهم التي يبتغونها للمسلمين، ومكرَهم بهم؛ ليصدُّوهم عن الهُدَى وسبيلِ الحقّ. (الطبري).

{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [آل عمران:١٢٣]

١٢٣ – واذكروا عندما نصركمُ اللهُ بتأييدهِ في غزوةِ بدرٍ وكنتُمْ قِلَّةً ضُعفاء، والعدوُّ ثلاثةُ أضعافِكم، تَذَكَّروا ذلك، واثبُتوا على طاعةِ اللهِ وتقواه، لتَكونوا مِنَ الشَّاكرين.

{إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ} [آل عمران:١٢٤]

١٢٤ – وقدْ بشَّرْتَ المؤمنينَ المجاهدينَ منْ أصحابِكَ بقولِك: أليسَ كافيكُمْ أنْ يُمِدَّكمْ رَبُّكمْ بعددِ ثلاثةِ آلافٍ منَ الملائكةِ يَنزِلونَ منَ السَّماء؟

{بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ} [آل عمران:١٢٥]

١٢٥ – بلى، إنْ تَصبِروا على لِقاءِ العَدوِّ، وتُطيعوا أمرَ اللهِ ولا تُخالِفُوا نبيَّه، ويأتيكمُ المشركونَ مِنْ ساعَتِهِمْ هذه، يُمدِدْكُمُ اللهُ بخمسةِ آلافٍ منَ الملائكة، مُعْلَمينَ بسيماءٍ مُعَيَّنة.

{وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [آل عمران:١٢٦]

١٢٦ – وما جعلَ اللهُ هذا الإمدادَ بالملائكةِ إلا بُشرَى لكم، لتَطمئنَّ قلوبُكم، وتَطيبَ نُفوسُكم، ويَثبُتَ جأشُكم، أمّا النصرُ فهوَ منْ عندِ اللهِ وحدَه، فهوَ ذو السُّلطانِ القويّ، القادرُ على تَحقيقِ النصر، وهوَ الحكيمُ الذي يُقَدِّرُ الحِكمَةَ منْ وراءِ هذا النَّصر.

{لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ} [آل عمران:١٢٧]

١٢٧ – فجهادُكُمْ ضدَّ المشركينَ وما يَترتَّبُ عليهِ منْ نصرٍ مِنْ عندِ الله، ليُهْلِكَ بهِ طائفةً منَ القومِ المشركين، ويَكسِرَ شَوكتَهمْ ويَقْهَرهم، أو يُخزيَهمْ ويُرَدَّهمْ مَغلوبينَ أذلاّءَ خائبين، لم يَحصُلوا على ما أمَّلوا.

{لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} [آل عمران:١٢٨]

١٢٨ – والحكمُ في عبادي ليسَ لكَ أيُّها النبيّ، إلا ما أمرتُكَ بهِ فيهم، فإنَّ الأمرَ كلَّهُ لله، فقدْ يقودُ انكسارُ المشركِينَ إلى التوبةِ فيُسلمونَ ويؤمِنونَ ويَقبلُ اللهُ منهم، أو يُعَذِّبُهم بهذا النصرِ فيُؤسَروا أو يَموتوا على الكفرِ ويَكونُ مصيرَهم النارُ، وهمْ يَستَحِقُّون ذلك، فقدْ فَتَنوا المسلِمينَ عنْ دينِهم، وأفسَدوا في الأرض...

نَزلتْ هذهِ الآيةُ وقدْ قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "كيفَ يُفلِحُ قَومٌ شَجُّوا نَبيَّهم وكسَروا رَباعيَتَهُ وهوَ يَدعوهُمْ إلى الله " في يومِ أُحُد، كما في الصَّحيحَينِ وغَيرِهما.

{وَللهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران:١٢٩]

١٢٩ – وكلُّ شيءٍ في السَّماءِ والأرضِ مُلكٌ للهِ وحدَه، وهوَ المتَصرِّفُ المطلَقُ في شَأنِ العِباد، يَغفِرُ لمنْ يَشاءُ منهمْ فيُدخلُهمُ الجنَّة، ويُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ منهمْ في النّار، وقَضاؤهُ هذا بالحكمةِ والعَدل، وبالرحمةِ والمغفِرَة.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران:١٣٠]

١٣٠ – أيُّها المؤمنون، لا يَحِلُّ لكمْ أنْ تأكلوا الرِّبا، الذي يَتضاعفُ كلَّما عَجَزَ المدِينُ عنْ إيفاءِ دَيْنِه، فإذا لم يُعطِ دَينَهُ زادَهُ الدائنُ في الأجَلِ وزادَهُ المدِينُ في القَدْرِ فتَضاعف، فيَصيرُ القليلُ أضعافاً مُضاعَفة.

فاتَّقوا اللهَ وانتَهوا عنْ هذهِ الكبيرةِ لتُفلِحوا وتَفوزوا، في الدُّنيا والآخِرة، فإنَّهُ لا فوزَ لكمْ إلاّ بطاعتِه.

{وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [آل عمران:١٣١]

١٣١ — وابتَعِدوا عنِ النارِ التي هُيِّئتْ للكافرين؛ نتيجةَ عِصـــيانهمْ وتعامُلِهمْ بالرِّبا وغيرِه منَ الكبائرِ والذنوب.

وكانَ أبو حنيفةَ رحمَهُ اللهُ يقول: هيَ أخوفُ آيةٍ في القُرآن، حيثُ أوعدَ اللهُ المؤمِنينَ بالنارِ المعَدَّةِ للكافرين، إنْ لم يَتَّقوهُ في اجتنابِ محارِمِه.

{وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [آل عمران:١٣٢]

١٣٢ — وأطيعوا اللهَ واتَّبِعوا أوامرَ رسولِهِ في كلِّ ما أمرَكمْ بهِ ونهاكمْ عنه؛ لكي تُرْحَموا.

{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران:١٣٣]

١٣٣ — وتَسابَقوا في فعلِ الخَيرات، وسَارِعوا إلى نَيلِ القُرُبات، لتَنالوا جائزةَ ربِّكم: مغفرةَ ذنوبِكم، وجنَّةً واسِعةً عَرْضُها[٢٤] السَّماواتُ والأرض، هُيِّئتْ لعبادِ اللهِ المؤمنينَ الصَّالحين.

{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران:١٣٤]

١٣٤ — ومِنْ صِـــفاتِ المتَّقينَ أهلِ الجنَّة، أنَّهمْ ثابِتونَ على البَذل، يُنفِقُونَ في الشـــدَّةِ والرخَاء، والمنْشَطِ والمكْرَه، لا يَشْغَلُهم أمرٌ عنْ طاعةِ الله، والإنفاقِ فيما يُرضِيه، والإحسانِ إلى المحتاجينَ مِنْ خَلْقه.

---

(٢٤) ذكرُ العرضِ للمبالغةِ في وصفها بالسعةِ على طريقةِ التمثيل، فإن العرضَ في العادةِ أدنى من الطول. (روح البيان).

وهمْ يَكتُمونَ غَيظَهمْ وغَضَبَهم عنِ الناسِ ولا يؤذونَهم، ثمَّ يَعفُونَ ويَصفَحون، ويَحتَسِبونَ ذلكَ عندَ الله.

والذينَ أنفَقوا، وكَظَموا غَيظَهم، وعفَوا، فهُمْ مُحسِنون، واللهُ يُحِبُّ المحسِنين، الذينَ يَنشُرونَ الودَّ والسَّماحةَ والبِشْرَ بينَ الناس.

{وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران:١٣٥]

١٣٥ – ومِنْ صفاتِ المتَّقينَ أيضًا، أنَّهمْ إذا أذنَبوا ذَنباً، كبيراً كانَ أو صَغيراً، لم يُصِرُّوا على ما فَعلوا، ولم يَفتَخِروا بالمعصِية، بلْ تذكَّروا اللهَ وما أعَدَّ للعاصِينَ منْ عِقاب، وما وعدَ بهِ التائبينَ المستغفِرينَ منَ العَفوِ والمغفِرة، فاستغفَروا لذنوبِهم، وتابُوا إلى ربِّهمْ وأنابوا إليه، وهمْ يَعلَمونَ أنهُ لا يَغفِرُ ذنوبَهمْ إلا هو، ولا يَرحَمُهمْ إلاّ هو، وأنَّ مَنْ تابَ تابَ اللهُ عليه، مادامَ مُعترِفاً بذَنبِه، نادماً غيرَ مُصِرٍّ عَليه، عازِماً على تَركِه.

{أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ} [آل عمران:١٣٦]

١٣٦ – أولئكَ همُ المتَّقون، وجَزاؤهمْ على هذهِ الصِّفاتِ الطيِّبةِ أنْ يَغفِرَ اللهُ لهم، ويُدْخِلَهمْ جَنّاتٍ تَجري خلالَ أشجارِها وفي أسافِلِها الأنهار، ماكثينَ فيها أبداً، ونِعْمَتِ الجنَّةُ جزاءَ أعمالِهمُ الحسَنة.

{قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [آل عمران:١٣٧]

١٣٧ – وما أُصِبْتُمْ بهِ في غزوةِ أُحُدٍ قدْ جَرَى مثلُهُ لأُممٍ مِنْ قبلِكمْ منْ أتباعِ الأنبياءِ وغيرِهم، فانظُروا في آثارِ الهالِكين، وفي السِّيَرِ والتواريخِ والوقائع، واعتَبِروا، فعَليكمْ بالإيمانِ والصَّبر، فإنَّ العاقبةَ لكمْ أهلَ الإيمانِ والحقّ، والدائرةَ على المكذِّبينَ بآياتِ اللهِ ورسُلهِ أهلِ الكفرِ والضَّلال، إنَّما هي سُنَّةُ اللهِ أنْ تُصيبُوا وتُصابُوا، وكانَ ما حدثَ ابتلاءً وتَمحيصاً لتَعتَبِروا.

{هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران:١٣٨]

١٣٨ – وفيما ذُكِرَ مِنْ أمورِ الكفّارِ والمتَّقينَ والتائبين، وفيما سَلَفَ مِنْ أحوالِ مَنْ قبلَكم، إيضاحٌ لسُوءِ عاقبةِ المكذِّبينَ ليَتدبَّروا، وهِدايةٌ ومَوعظةٌ للمؤمِنينَ المتَّقين، الذين يَعتَبِرون بها ويَهتدون.

{وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران:١٣٩]

١٣٩ – ولا تَضْعُفوا ممّا أصابَكم، ولا يَدخُلَنَّ الوهْنُ إلى قلوبِكم، ولا تَحزَنوا على ما فاتَكم، فأنتُمُ الأعلَونَ بدينِكم، وأنتمُ الغالِبون، ما دمتُمْ مُؤمِنين، فإنَّ الإيمانَ يوجِبُ الثقةَ بالله، فلكمُ النصرُ والغَلَبة، وشهداؤكمْ في الجنَّة، وأمرُ الكافرينَ إلى الدَّمارِ كما كانَ حالُ أسلافِهم، ومصيرُ قَتلاهُمْ إلى النّار.

{إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [آل عمران:١٤٠]

١٤٠ – وإذا كنتُمْ قدْ أُصِبْتُمْ بجِراحٍ وقُتِلَ منكمْ جَماعة، فقدْ أُصيبَ أعداؤكمْ وقُتِلَ منهمْ كذلك، فهيَ سنَّةُ اللهِ أنْ تُصيبوا وتُصابُوا، فالأيّامُ دُوَل، لهؤلاءِ يَوماً، ولأولئكَ يَوماً، وليَتبيَّنَ بذلكَ المؤمِنونَ الصَّادِقونَ في إيمانِهِمْ وجهادِهِمْ مِنْ غَيرِهم. فإنَّ تَعاقُبَ الشدَّةِ والرخاءِ يَكشِفُ مَعادِنَ النفُوسِ وطَبائعَ القُلوب، ودرجةَ الطاعة، والصبرَ على القِتال، وليَختارَ منكمْ شُهداء، ممَّنْ يَبذُلونَ أرواحَهمْ في سبيلِ دينِ اللهِ ومَرضاتِه؛ ليُكرمَهمْ ويَخُصَّهمْ بقُربِه، ويُنعِمَ عليهمْ مِنْ نِعَمِه.

واللهُ لا يُحِبُّ المكذِّبينَ الضالّين، بلْ يُحاسِبُهمْ ويُعاقِبُهم.

{وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ} [آل عمران:١٤١]

١٤١ – وليُصَــــفِّيَ اللهُ ما في نفوسِــــكمْ ويُعِدَّها لِما هوَ أكبر، وليُكَفِّرَ عنْ ذنوبِكمْ بجِهادِكم، أو يرفعَ درجاتِكمْ في عِلّيين، كلٌّ بحسبِ ما جاهدَ وأُصِيب، ولِيَستأصِلَ اللهُ الكافرينَ ويَدفَعَ باطِلَهم، فإنَّهمْ إذا انتَصَروا بَغَوا ودمَّروا.

{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} [آل عمران:١٤٢]

١٤٢ – وهلْ ظَنَنتُمْ أنَّكمْ ستَدخُلونَ الجنَّةَ دونَ أنْ تُكَلَّفوا بالقِتالِ والصَّبرِ على الشدائد، لِيَتبيَّنَ منكمُ المؤمنُ المجاهدُ مِنْ غيرِه، ولِيَعلَمَ الصَّابرينَ منكمْ على الضرّاءِ ومُجالَدةِ الأعدَاء؟

{وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ المَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} [آل عمران:١٤٣]

١٤٣ – وكنتُمْ تُحِبُّونَ الموتَ في ســـبيلِ الله، وتَتمنَّونَ لقاءَ العدوِّ وتَوَدُّونَ مناجزتَهم، فها هيَ المعركة، وها همُ الأعداء، وها هو الموتُ الذي تُشــاهِدونَهُ في مقارعةِ الرِّجالِ للرِّجال، وفي لَمعانِ السيوفِ واشتباكِ الرمَاح، فدونَكُموه.

{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران:١٤٤]

١٤٤ – وأُشِـيعَ أنَّ رسـولَ الله صـلى الله عليه وسـلم قُتِلَ في غَزوةِ أُحُد، وقدِ ادَّعَى أحدُ المشــركينَ أنَّهُ قتلَه، وكانَ قدْ شُــجَّ صــلى الله عليه وســلم، فوصَـلتِ الشــائعةُ إلى صــفوفِ المسلِمين، فحَصلَ وهْنٌ وضَعْفٌ وتأخُّرٌ عنِ القِتال، فأنزلَ اللهُ ما مَعناه: وما محمَّدٌ (صلى الله عليه وسـلم) إلا رسـولٌ مثلَ غيرِه مِنَ الأنبياءِ والرُّسُـلِ في جوازِ القَتلِ عليه، فإذا ماتَ أو قُتِلَ رَجعتُمْ إلى ما كنتُمْ عليهِ منْ شِركٍ وضَلال؟! إنَّ مَنْ يَفعلُ ذلكَ فلنْ يَضُرَّ اللهَ شَيئاً، وإنَّما يَضُرُّ نَفسَه، فاللهُ غنيٌّ عنكمْ وعنْ إيمانِكم، والدِّينُ سيَبقَى، والمجاهِدونَ سيَنتَصِرون، ويَجزي اللهُ الذينَ قاموا بطاعتِه، وعَرَفوا قَدْرَ نعمتِه، وقاتَلوا دِفاعاً عنْ دينِه، واتَّبعُوا رســـولَهُ حَيّاً ومَيّتاً، ويُعطيهمْ مِنْ رحمتِهِ وكَرَمِهِ بحَسَبِ شُكرِهِمْ وعَملِهم، ويَزيدُهمْ مِنْ فضلِه.

{وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآَخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ} [آل عمران:١٤٥]

١٤٥ – ولا تَموتُ نَفسٌ إلاّ إذا قدَّرَ اللهُ لها ذلك، أجَلاً مَرسُومًا، في الوقتِ المحَدَّدِ لها، بدونِ تَقديمٍ ولا تأخير، فتَقدَّموا إلى الجهادِ ولا تَجْبُنوا أيُّها المسلِمون، فإنَّ عُمُرَ الإنسانِ لا يَزيدُ ولا يَنقُص، سواءٌ كانَ في حَربٍ أمْ في سِلم.

ومَنْ كان يَعملُ للدُّنيا وحدَها أعطاهمُ اللهُ منها وحَرَمَهمْ ثوابَ الآخِرة، ومَنْ كانَ يَعملُ للآخِرةِ أعطاهمُ اللهُ منها ولم يَحرِمْهمْ نصيبَهمْ منَ الدُّنيا، بحسَبِ عَملِهمْ وشُكرِهم.

{وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} [آل عمران:١٤٦]

١٤٦ – وهناكَ أنبياءُ كُثرٌ قاتلَ معهُ جماعاتٌ مِنَ الصَّابرينَ الأبرارِ الأتقِياء، فما ضَعُفَتْ نُفوسُهمْ منَ الكَرْبِ والبَلاء، وما وَهَنوا لِما أصابَهُمْ منَ الشدَّةِ والجِراح، وما توَقَّفوا عنْ متابعةِ الجهادِ في سبَيلِ الله، وما استَسلموا لأعداءِ اللهِ ولا ذَلُّوا، بلْ قاتَلوا على ما قاتلَ عليهِ أنبياؤهمْ حتَّى لَحِقوا بهم، واللهُ يُحِبُّ المدافِعينَ عنْ دينِه، المتَّبعِينَ لأوامرِ أنبيائه، الصَّابرينَ في أوقاتِ الشدَّةِ والحَرب.

{وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [آل عمران:١٤٧]

١٤٧ – وكانوا معَ جهادِهمْ وطلبِهمْ رِضاءَ اللهِ يَقولون: ربَّنا اغفِرْ لنا ما اقتَرَفنا مِنْ ذنوب، وما تجاوَزنا فيهِ الحدّ، وفرَّطنا منْ أمر، وأيِّدْنا بتأييدٍ مِنْ عندِكَ في مَواطنِ الحَرب، وثبِّتنا على دينِكَ الحقّ، وانصُرنا على أعدائكَ وأعداءِ دينِكَ منَ القَومِ الكافِرين.

{فَآَتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآَخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران: ١٤٨]

١٤٨ – فكانَ جزاءَ هؤلاءِ المؤمنينَ الصـــابرينَ وجوابَ دُعائهم، أنْ آتاهُمْ ثوابَ الدنيا بالنصـرِ والعِزِّ والعاقِبَةِ الحسَـنة، وفي الآخرةِ النعيمُ الدَّائم، واللهُ يُحِبُّ مَنْ آمنَ وأحسَـن، وأتْبعَ إيمانَهُ بالعملِ الصَّالح.

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ] {آل عمران:١٤٩}

١٤٩ – أيُّها المؤمنون، إنَّكمْ إنْ أطَعتُمُ المنافِقينَ والكافِرين، واســـتَمعتُمْ إلى وِشـــاياتِهم، وتأثَّرتُمْ بما يُشـــيعُونَهُ ممّا أصـــابَكمْ مِنَ القتلِ والجرَح، ليُثبِطوا عزائمَكم، ويخوّفوكمْ مِنْ عواقبِ الحَربِ معَ المشـركينَ مرَّةً أخرى، فإنَّكمْ بهذا تُجيبونَهمْ إلى ما أمَّلوهُ وتَسـتَسـلِمونَ لهم، ليَرُدُّوكمْ على ما كنتمْ عليهِ مِنَ الكفرِ والضَّـــلال، ولتَكونوا بذلكَ مِنَ الخائبينَ النادِمين، في الدُّنيا والآخِرة.

{بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ} [آل عمران:١٥٠]

١٥٠ – لكنَّ اللهَ وليُّكم، ومثبِّتُكمْ على دينِكم، وهوَ خيرُ ناصـــرٍ لكم، فاســـتَعينوا به، وأحسِنوا تَوكُّلَكمْ عليه.

{سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ} [آل عمران:١٥١]

١٥١ – سَنَبُثُّ الخوفَ والهَلَعَ في قُلوبِ الكافِرينَ ونُرْعِبُهم، بسببِ كفرِهمْ وإشراكِهمْ باللهِ آلهةً لا قوَّةَ لها ولا سَـيطرةَ على أحَد، فاللهُ لم يَمنحْها سـلطاناً، وهيَ لا تَضُـرُّ ولا تَنفع، ولا تَسمعُ ولا تَتكلَّم!! فما أجهلَهمْ وما أشدَّ غَفلتَهم، وإنَّ مصيرَهمْ نتيجةَ عَدَمِ استعمالِ عُقولِهمْ وتوظيفِها لاتِّباعِ الحقّ، هوَ النار، وبئسَ المنزِلُ مَنزِلُهم، الذي أعَدَّهُ اللهُ لمنْ ظلمَ نفسَـــهُ وظلمَ الآخرينَ منَ الكافِرين. فاستَيقِنوا بالنصرِ أيُّها المؤمِنون، فإنَّ أعداءَكمْ خائفونَ هالِكون.

{وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآَخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران:١٥٢]

١٥٢ – وقدْ صَدقَ اللهُ وعدَهُ معَكمْ بالنَّصرِ في غزوةِ أُحُد، كما كانَ في أوَّلِ النَّهار، عندَما سلَّطكمُ اللهُ عليهم، فصِرتُمْ تَقتلونَهم، وكِدتُمْ أنْ تَستأصِلوا شأفتَهم، حتَّى إذا جَبُنَ بعضُكمْ في القِتال، نتيجةَ النزاعِ والخِصامِ الذي دارَ بينَكم، وعصَى بعضُكمُ الآخَرُ – وهمُ الرُّماةُ – قائدَهُمْ محمَّداً صلى الله عليه وسلم، وكانَ قدْ أمرَهمْ ألاّ يَبرَحُوا مكانَهم، فنزَلوا ينهَبونَ في العَسكر، فبقيَ ظهرُ المسلِمينَ مَكشوفاً للعدوّ، أراكمُ اللهُ الفشَلَ بعدَ النصر، فقدْ شابَ إخلاصَكمْ مَطامِعُ، فمنكمْ مَنْ رَغِبَ في الغَنائمِ عندما رَأى هَزيمةَ العدوّ، ومنكمْ مَنْ أرادَ وجهَ اللهِ في جِهادِهِ فثَبتَ في مَكانِهِ حتَّى يَتلقَّى أوامرَ الرسولِ صلى الله عليه وسلم، فكانَ نتيجةَ ذلكَ أنْ صَرَفَ قوَّتكمْ واجتماعَكمْ عنِ العدوّ، ففَشِلتُم، ليَختَبِرَ إيمانَكم، ويَمتحِنَ قوَّةَ صُمودِكمْ وعَزيمتِكمْ وتَمسُّكِكمْ بدينِكم، ولتَعتَبِروا ممّا أصابَكم، ولا تُكرِّروه، وغفرَ لكمْ ضَعْفَكمْ وتنازُعَكمْ وعصِيانَكم، وهذا مِنْ فضلِ اللهِ عليكمْ ورحمتهِ بكم.

{إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [آل عمران:١٥٣]

١٥٣ – وتَذكَّروا شُؤمَ عِصيانِكم، عندما بدأتُمْ تَصْعَدونَ إلى الجبلِ هروباً منْ عَدوِّكم، ولا تَنظرونَ وراءَكمْ مِنَ الخَوف، ولا تَسمعونَ كلامَ أحد، لِما أصابَكمْ منْ رُعْبٍ وهَلَع! والرسولُ يُناديكمْ – وقد خَلَّفتُموهُ وراءَكمْ – ليَجمعَكمْ ويُطَمْئنَكمْ بأنَّهُ ما زالَ حيّاً، لا كما أشاعَ العدوُّ بأنَّهُ قُتل! لتَكرُّوا عليهمْ مِنْ جديد، فجازاكمْ قلقًا وحزنًا موصولًا بحزن، يملأُ نفوسَكمْ كمدُ الهزيمة، وكَرْبُ سماعِكمْ مقتلَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، حتَّى لا تَحزَنوا على ما فاتَكمْ منَ الغَنيمةِ والنصرِ على عدوِّكم، وعلى ما أصابَكمْ منَ القَتلِ والجِراح. واللهُ مطَّلِعٌ على خَفايا صُدورِكم، لا يَخفَى عليهِ حقيقةُ أعمالِكمْ ودوافِعُ حركاتِكم.

{ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ القَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [آل عمران:١٥٤]

١٥٤ – ثمَّ مَنَّ اللهُ عليكمْ بعدَ هذا الحزنِ بنُعاسٍ يَغشَى[٢٥] جَماعةً منكمْ وهمْ في لِباسِ الحَرب، ليكونَ سَكَناً لهمْ وأمناً. وطائفةٌ أخرَى لا يَغشاهمُ النعاسُ منَ القلقِ والخَوفِ والجَزَعِ (وهمُ المنافِقون) تُهِمُّهمْ نَجاةُ أنفسِهمْ فَقط، فذَهبتْ بهمْ نفوسُهمْ إلى ظُنونٍ سيِّئةٍ لا تُوافِقُ الحقّ، بلْ هيَ مِنْ ظُنونِ الجاهليَّة، وقالوا إنَّهُ قُصِمَ ظهرُ الإسلامِ بهذا، فلا قيامَ لهُ مِنْ بعدُ، ولا نصرَ لأهلِهِ بعدَ اليوم!

وكانوا يَقولون: لقدْ دُفِعنا إلى المعركةِ دَفْعاً دونَ إرادةٍ لنا فيها.

فقلْ لهمْ أيُّها النبيّ: إنَّ الأمرَ كلَّهُ لله، فهوَ الآمِرُ الحاكِم، والكلُّ يؤدِّي واجبَهُ تُجاهَ دينهِ وربِّه، وهذا الذي قُمتُمْ بهِ هوَ أداءٌ للواجبِ المفرُوضِ عليكمْ نحوَ دينِكم. إنَّ نفوسَهمْ مَلأى بالهواجسِ والوسَاوس، لم تَكتمِلْ بحقيقةِ الإيمان، فهيَ ما زالتْ تَشكو منِ اعتِراضاتٍ واحتِجاجات، فيُخفُونَ حقيقةَ ما يريدونَ قولَهُ لك، وهو: لو كانَ الأمرُ بيدِنا لما استَجبنا نداءَ الرسُول، ولما حَضَرْنا المعركة، ولَما أصابَنا القتلُ والجِراحات.

---

(٢٥) غَشِيَه: سترَه، والغِشاوة: ما يُغطَّى به الشيءُ. (مفردات الراغب).

فقلْ لهم: لو أنَّكمْ بَقِيتُمْ في بُيوتِكمْ ولم تَخرجوا إلى القِتـال، وكـان قَـدَرُ المقتولِ منكمْ أنْ يكونَ مصـــرَعُهُ في مكانِ المعركة، لجاءَ إلى هناكَ وقُتِلَ فيه! فهوَ الأجَلُ الذي لا يَتقدَّمُ في حربٍ، ولا يتأخَّرُ في سِلم.

إنَّهُ الجهادُ الذي يَحتاجُ إلى عَزيمةٍ وصَبر، فيَكشِـفُ ما في الصُّـدور، ويُخرِجُ ما في القُلوب، وتَتبيَّنُ حقيقةُ كلِّ شـــخصٍ على ما كانَ يُخفيه، ويَتميَّزُ الخبيثُ منَ الطيِّب، ويَظهَرُ المؤمِنُ والمنافق، فهوَ الابتلاءُ والاختِبار، واللهُ عليمٌ بالأســـرارِ الخفيَّةِ التي تَختلجُ في الصُّـــدور، ولا تَنكَشِفُ في النُّور.

{إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [آل عمران:١٥٥]

١٥٥ – إنَّ الذينَ فَرُّوا منَ الحَربِ عندَما تَقابلَ الجيشـان، إنَّما كانَ فِرارُهمْ بسـببِ ذُنوبٍ سَـالفةٍ ارتَكبوها، فضَـعُفَ ارتباطُهمْ بالله، وفَقدوا ثِقتَهمْ في قوَّتِهم، واختلَّ تَوازنُهُمْ وتَماسُـكهم، فوجدَ الشَّـيطانُ مَدْخلاً إلى نُفوسِـهم، ليَهْجِسَ فيها ويوَسـوِس، ويُسَـوِّلَ لهمْ حُسـنَ الهزيمة! ثمَّ عفا اللهُ عمّا كانَ منهمْ مِنْ فِرار، وهوَ سُـــبحانَهُ واسِـــعُ المغفِرَة، حَليمٌ، لا يُعَجِّلُ العُقُوبَةَ لمنْ عَصَاه.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [آل عمران:١٥٦]

١٥٦ – أيُّها المؤمِنون، لا تَتشـــبَّهوا بالكافِرين في أقوالِهمْ وأفعالِهم، فلا تَقولوا كما قالوا للَّذينَ ماتوا منْ أصـحابِهمْ عندما سـافَروا للتِّجارةِ أو غيرِها، أو مضَـوا إلى الغَزو: لو أنَّهمْ بَقُوا عندَنا لم يَموتوا ولم يُقْتَلوا. وقدْ جعلَ اللهُ فيهمْ هذا الاعتقادَ ليَزدادوا حُزناً وكَمَداً، فهمْ ليسُـــوا مثلَ المؤمِنينَ الذينَ يَتلقَّونَ الابتلاءَ بالصَّـبرِ والاحتِسـاب، ويَرضَـونَ بقضـاءِ اللهِ وقَدَره، فالأمرُ كلُّهُ بيدهِ ســـبحانَه، فهو المحيي والمميت، إنْ قدَّرَ لهمُ الموتَ ماتُوا، وإنْ لم يُقَدِّرْ لهمْ ذلكَ لم

يَموتوا، سواءٌ أكانوا في تِجارةٍ، أمْ حَرب، أمْ غَيرِهما. واللهُ عالِمٌ بخَلْقِه، بصيرٌ بشُؤونِهم، لا يخفَى عليهِ شيءٌ مِنْ أمرِهم.

{وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [آل عمران:١٥٧]

١٥٧ – والحياةُ الدُّنيا ليستْ خيراً لكمْ في كلِّ مرَّةٍ أيُّها المؤمنون، فإنَّكمْ إذا قُتِلتُمْ في سبيلِ اللهِ أو مُتُّمْ كانَ مآلُكمْ أفضَلَ وأحسَن، لتَنالوا رحمةَ اللهِ وعَفوَهُ ورِضْوانَه، فهوَ أفضلُ ممّا تَكدَحونَ لأجلهِ وتَجمَعونَ مِنْ حُطامِ الدُّنيا، وهيَ كلُّها لا تُساوي شيئاً مِنْ نَعيمِ الآخِرة.

{وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ} [آل عمران:١٥٨]

١٥٨ – وفي كلِّ الأحوال، فإنَّكمْ إذا قُتِلتُمْ في سَاحةِ الحَرب، أو مُتُّمْ على فُرُشِكمْ في بيوتِكم، فإنَّكمْ ستُحشَرونَ إلى رِبّكم، فيَجزِيكمْ على عَمِلكم، مَغفرةً ورَحمة، أو غَضباً وعَذاباً. فالعِبرةُ بما يَكونُ المصيرُ إليهِ بعدَ الموت.

{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران:١٥٩]

١٥٩ – برحمةِ اللهِ لكَ ألنْتَ لأصحابِكَ جانِبَك، وخَفَضْتَ لهمْ جَناحَك، وحسَّنتَ لهمْ خُلُقَك، فأحبُّوكَ وفدَوْكَ بأنفُسِهمْ وآبائهمْ وأموالِهم، ولو كنتَ جافيَ المعاشَرة، كريهَ الخُلُق، قاسيَ القلب، لنَفَروا مِنك، وتَفرَّقوا عنك. فاعْفُ عنهمْ ما صدرَ منهمْ مِنْ تَقصيرٍ في حقِّكَ كما عَفا اللهُ عنهم، واستَغفِرْ لهمْ فيما يَتعلَّقُ بتَقصيرِهمْ في حقِّ اللهِ إكمالاً للبِرِّ بهم، واستَشِرْهمْ في الأمور، لتُظهِرَ بها آراءَهم، وتُطَيِّبَ قُلوبَهم، وتُمَهِّدَ لسُنَّةِ المشَاورةِ للأمَّة، فإنَّ في الاستشارةِ فوائدَ ومصالحَ كثيرة.

فإذا اطمأنَّتْ نفسُكَ عَقِيبَ المشاورةِ بأمر، فأمْضِهِ مُتَوَكِّلاً على الله، مُعتَمِداً عليهِ في تَحصيلِ ما رجَوتَ منه، فإنَّ اللهَ يَنْصُرُ المتوَكِّلينَ عليه، ويُرشِدُهمْ إلى ما فيهِ خَيرُهمْ وصَلاحُهم.

{إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ} [آل عمران:١٦٠]

١٦٠ – إنْ يُرِدِ اللهُ نصرَكمْ ومنعَكمْ مِنْ عدوِّكمْ كما أرادَهُ يومَ بَدر، فلا أحدَ يَغلِبُكم، فلا قوَّةَ إلاّ به، ولا قُدرةَ بعدَ قُدرتِه، ولا مَشيئةَ بعدَ مَشيئته. ولا يَعني هذا عدمَ النُّهوضِ بالتكاليفِ، أو عدمَ بذلِ الجُهد، فإنَّ التوكُّلَ غيرُ التواكُل. ولا بدَّ أنْ يَنْصُرَ المؤمنونَ دينَ اللهِ حتَّى يَنْصُرَهم {إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ} [سورة محمد: ٧].

وإذا تَرَكَكمْ ولم يَنْصُرْكُمْ كما كانَ يومَ أُحُد، فمَنْ يَقْدِرُ على نصرِكمْ بعدَ خِذْلانه؟ فتوكَّلوا على اللهِ أيُّها المؤمِنونَ حقَّ التوكُّل، ولا تَطلبوا النصرَ مِنْ غَيرِه.

{وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ القِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [آل عمران:١٦١]

١٦١ – وما كانَ لنبيٍّ مِنَ الأنبياءِ أنْ يَخون، أو يَحتجزَ شيئاً مِنَ أموالِ الغَنائم، أو يَقْسِمَها لبَعضِ الجُندِ دونَ بَعض، فليسَ هذا مِنْ شأنِ النبوَّةِ العَظيمةِ ولا يَكون. ومَنْ يَخُنْ منكمْ في الجِهادِ ويأخُذْ شيئاً مِنَ الغَنائمِ دونَ إذْن، فإنهُ يَقترفُ ذَنْباً ويَرتكبُ جُرْماً، ويأتي يومَ القيامةِ وهوَ حامِلٌ ذلكَ الشيءَ الذي سَرَقَهُ فوقَ رَقَبتِه، والكلُّ يراهُ بجُرمِه!

وستَأخذُ كلُّ نفسٍ حَظَّها منَ الجَزاء، إنْ خَيراً أو شَرّاً، ولا يُظْلَمُ أحدٌ في ذلك، لا زِيادةً في عِقاب، ولا نَقصاً مِنْ ثَواب.

{أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ} [آل عمران:١٦٢]

١٦٢– وهَلْ يَتساوَى مَنْ سعَى في رِضَى اللهِ بطاعتهِ واتِّباعِ سيرةِ نبيِّهِ مع مَنْ رجعَ بغضبِ اللهِ بسببِ مَعصيتهِ وغُلولِه، فكانَ مصيرُهُ جهنَّم؟ وبئسَ هذا المكانُ الذي ليسَ فيه سِوَى العَذابِ والنَّكال.

{هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} [آل عمران:١٦٣]

١٦٣- وكِلا الطَّرفينِ متفاوتانِ في مَنازلِهما يومَ القيامة؛ دَرجاتٌ في الجنَّة، ودَرَكاتٌ في النّار. واللهُ بَصيرٌ بأعمالِهم ودَرَجاتِها، ويُجازيهمْ بحَسَبها.

{لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [آل عمران:١٦٤]

١٦٤- إنَّها مِنَّةٌ كبيرةٌ وفَضلٌ عَظيمٌ مِنَ اللهِ على عِبادهِ المؤمنينَ بإرسالِ نَبيٍّ إليهمْ مِنْ بينِهم، ليَفْقَهوا كلامَهُ بسُهولة، ويَتمكَّنوا مِنْ مُخاطبتهِ ومُجالَستهِ والانتِفاعِ به، يَقرأ عليهمْ آياتٍ بيّناتٍ مِنْ كتابِ اللهِ العَزيز، ويُرَبِّيهمْ تَربيةً إسلاميَّة، فيُطَهِّرهمْ مِنْ أوضارِ الجاهلية، ودَنَسِ الطبائع، وسُوءِ العَقائدِ التي كانوا عليها، ويأمرُهمْ بالخيرِ وينَهاهُمْ عنِ الشرِّ والفَحْشاء، ويُعَلِّمُهمُ القُرآنَ والسنَّة، وإنْ كانوا مِنْ قبلُ في غيٍّ وجَهلٍ بيّن.

{أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران:١٦٥]

١٦٥- وإذا أصابَكمْ ما جَزِعتُمْ منهُ في يومِ أُحُد، وقدْ أَصَبتُمُ المشركِينَ يومَ بَدر ضِعْفَ ما أصابُوكمْ بهِ، قلتُم: منْ أينَ أصابَنا هذا وكيفَ جرَى؟ قُل: هوَ بسببِ عِصيانِكمْ أوامرَ رسولِكمْ حينَ أمرَكمْ ألاّ تُغادِروا مكانَكم، فأبَيتُمْ ونزلتُمْ تَجمَعونَ الغَنائم. واللهُ يَحكمُ ما يُريد، فإذا أطَعتُمْ انتَصرتُم، وإذا خالفتُمْ أُصِبتُم.

{وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران:١٦٦]

١٦٦- وما أصابَكمْ يومَ أُحُدٍ منْ فِرارٍ وقَتلٍ وجِراحَاتٍ هوَ بقضاءِ اللهِ وقَدَرِه، ولحِكمَة، ليَظهَرَ ويَتميَّزَ مِنْ بينِكمُ المؤمنونَ الذينَ صَبَروا وثَبتوا ولم يَتزَعزَعوا.

{وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ} [آل عمران:١٦٧]

١٦٧- وليَظهرَ كذلكَ أهلُ النِّفاقِ المرجِفون، الذينَ قيلَ لهم: تعالَوا جاهِدوا في سَبيلِ اللهِ وقاتِلوا المشرِكين، أو كثِّرُوا سوادَ المسلِمينَ ورابِطوا: قالوا: لو نَعلمُ أنَّكمْ ستَخوضُونَ حَرباً لجئنا مَعكم، ولكنْ لا حَرب. فرجَع كبيرُ المنافقينَ عبدُاللهِ بنُ أبي سَلُولٍ بثُلُثِ الجَيش! فهؤلاءِ صارُوا أقربَ إلى الكفرِ منهمْ إلى الإيمان، حيثُ كانوا سابِقاً يَتظاهَرونَ بالإيمان، فلمّا خَذلوا عسكرَ المسلِمينَ تَباعَدوا عنِ الإيمانِ واقتَربوا منَ الكفر. إنَّهمْ يَقولونَ بألسنتِهم غيرَ ما يُضمِرونَهُ في قُلوبِهم، فقدْ كانوا عازِمينَ على الارتدادِ والانخِذال. واللهُ أعلمُ بما يُخفونَهُ منْ كُفرٍ ونِفاق، وما يَغْمِرُ قلوبَهم مِنْ شرٍّ وفَساد.

{الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [آل عمران:١٦٨]

١٦٨- إنَّهمُ المنافقون، الذينَ قالوا لأقربائهمْ - وهمْ قدْ قَعَدوا عنِ القتال -: لو أطاعُونا وسَمِعوا مَشُورَتَنا فيما أمَرناهمْ منَ الرجوعِ ووافقُونا على ذلك، لما قُتِلوا كما لم نُقتل.
قُلْ لهمْ أيُّها الرسُول: إنْ كانَ القُعودُ يُنْجِي مِنَ القَتلِ والموت، فادفَعوا عنْ أنفسِكمُ الموتَ الذي كُتِبَ عليكمْ إنْ كنتُمْ صادقينَ في قولِكم! لكنَّهُ آت، ولا بدَّ لكمْ منه، ولو كنتُمْ في بُروجٍ مُشَيَّدة، وفي أحسَنِ صِحَّة!

{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران:١٦٩]

١٦٩- ولا تَظُنَّنَّ الذينَ فارقوا الحياةَ مِنَ الشُّهداءِ قدْ ماتُوا حقًّا، وإنْ ظَهرَ قَتلُهم في هذه الحياةِ الدُّنيا، فإنَّ أرواحَهُمْ حيَّةٌ تُرْزَقُ عندَ اللهِ في دارِ القَرار.

{فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [آل عمران:١٧٠]

١٧٠- وهمْ فَرِحُونَ مُغتَبِطونَ بفَضلِ اللهِ عَليهمْ ورِضائهِ عَنهم، ويَستَبشِرونَ بإخوانِهمُ الذينَ يُقْتَلونَ بعدَهمْ في سبيلِ اللهِ ألاّ خوفٌ عليهمْ فبما يَستَقبِلونَه، فهمْ أمامَ نِعمةٍ وفَضلٍ يَفِيضُ عَليهم، ولا همْ يَحزنونَ على ما فاتَهُمْ مِنَ الدُّنيا، فالآخِرةُ لهمْ خَيرٌ وأبقَى.

{يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران:١٧١]

١٧١- إنَّهُمْ يَستَبشِرونَ ويُسَرُّونَ بما رأوا ما وُعِدوا بهِ مِنْ جَزيلِ الثَّوابِ مِنْ فَضلِ اللهِ ونِعمتِه. وهذا شَأنُ اللهِ معَ المؤمنينَ الصَّادقين، فيُكرِمُهم، ويُجزِلُ لهمُ الثَّواب.

{الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ} [آل عمران:١٧٢]

١٧٢- لقدِ استَجابوا لنِداءِ الله، وأطاعُوا رسولَهُ عندَما دَعاهُمْ لتَتَبُّعِ المشرِكينَ ليُرعِبوهمْ ويُرُوهُمْ أنَّ بهمْ قوَّةً وجَلَداً، ولو أنَّهُمْ كانوا مُرْهَقين مُثخَنينَ بالجِراح، ولم يَنْدُبْ أحداً لملاحقِتِهم حتَّى "حمراءِ الأسدِ"(٢٦) إلاّ مَنْ ثَبتَ معَهُ يومَ أُحُد. وكانَ أبو سفيانَ قدْ عَتبَ على المشرِكينَ لأنَّهُمْ لم يَغزوا المدِينَة.

وقدْ تَحقَّق الغَرضُ منْ تَتبُّعِهم، فرجَع أصحابُ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم عندَما لم يَروا أحداً. فهؤلاءِ الذينَ استَجابوا وثَبتوا على مواقفِهمْ واتَّقَوا ربَّهم، لهمْ ثَوابٌ كَبير.

---

(٢٦) موقع يبعد عن المدينة ٢٠ كم جنوبها. وهو اسم غزوة أيضًا.

{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران:١٧٣]

١٧٣- إنَّهمُ المجاهِدونَ المؤمِنون، الصَّابرونَ المتوكِّلون، الذينَ توعَّدهمُ الناسُ بالجُموعِ الكبيرةِ وخوَّفوهُمْ كثرةَ الأعدَاء، فما اكترَثوا لذلكَ وما جَبُنوا، بلْ زادَهمْ ذلكَ إيماناً وثَباتاً وعَزيمة؛ لحُسنِ تَوكُّلِهمْ على الله، ويَقينِهمْ بما وَعَدَهُمُ اللهُ به، فاستَعانوا بهِ وقالوا: حسبُنا اللهُ ونِعْمَ الوَكيل، فهوَ حَسْبُنا وكافِينا، ونرضَى بهِ وحدَهُ وكيلاً وحافِظاً.

{فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} [آل عمران:١٧٤]

١٧٤- فرجَعوا إلى بلدِهمْ وقدْ ردَّ اللهُ عنهمْ بأسَ مَنْ أرادَ كيدَهمْ وأذيَّتَهم، وكفاهُمْ لحُسنِ توكُّلهمْ عليه، فسَلِموا ونجَوا، ونالوا رِضوانَ اللهِ باستجابةِ نِداءِ رسولِه، وفَضلُ اللهِ عَظيمٌ على عِبادِهِ المؤمنين.

{إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران:١٧٥]

١٧٥- إنَّما هوَ الشَّيطانُ الذي يُوهِمُكمْ أنَّهُ ذو بَأسٍ وشِدَّة، ويُلْبِسُ أنصارَهُ لباسَ القوَّةِ والقُدرة، ويُوقِعُ في القُلوبِ أنَّهمْ ذوو حَوْلٍ وطَوْل، وأنَّهمْ سيَنتصِرون، فلا تَخافوا المشرِكينَ أولياءَ الشَّياطين، الذينَ يَنشُرونَ الفسادَ والباطِل، بلْ خافونِ والتَجِؤوا إليّ، فأنا كافِيكمْ وناصرُكمْ عليهمْ ما نَصَرْتُموني.

{وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [آل عمران:١٧٦]

١٧٦- كانَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يُشفِقُ على الناسِ ويَحْرِصُ على إيمانِهم، فإذا بادرَ بعضُ المشركينَ إلى المخالفةِ والعِنادِ اغتَمَّ وحَزِنَ لذلِك، فقالَ اللهُ ما مَعناه: لا تَحزَنْ مِنْ عَملِ الكافِرينَ عندَما يُسارِعونَ إلى مُخالفتِكَ ويَقعونَ في الكُفرِ سَريعاً لحرصِهمْ عليهِ وشِدَّةِ

رَغبَتِهِمْ فيه، فهؤلاءِ غيرُ قادرِينَ على أنْ يُلحِقوا باللهِ ضَرراً ولا بأوليائه، إنَّما يُريدُ اللهُ بانْهماكِهِم في الكُفرِ حِرمانَهم منَ النَّعيمِ وتعذيبَهمْ بالنَّار، ولذلكَ تركَهمْ بلا هِدايةٍ حتَّى يَهلِكوا على الكُفر، وعذابُهُمْ جَزاءَ طُغيانِهِم هائلٌ كَبير.

{إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران:١٧٧]

١٧٧- وإنَّ الذينَ استَبدلُوا الكفرَ بالإيمان، رغبةً في الأوَّلِ وإعراضاً عنِ الآخَر، لنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيئاً، إنَّما ضَررُهمْ على أنفسِهم، عندما يَأتي على أبدانِهِمْ عذابٌ مُؤلمٌ شَديد، جزاءَ سُرورِهمْ بالكُفرِ في الدُّنيا.

{وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} [آل عمران:١٧٨]

١٧٨- ولا تَظُنَّنَّ أيُّها الرسُولُ أنَّ إمهالَنا الكافِرينَ فيهِ خيرٌ ومَنفَعةٌ لهم، إنَّما نُؤخِّرُهمْ في الحياةِ الدُّنيا لتَزدادَ آثامُهمْ وتَكثُرَ ذنوبُهم، فيزدادَ عذابُهم، وعذابُهُمْ في الآخِرةِ يَكونُ مُذِلاًّ لهم؛ جزاءَ عنادِهمْ وتَجبُّرِهم.

{مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ المُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآَمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [آل عمران:١٧٩]

١٧٩- ما كانَ اللهُ لِيَدعَ المؤمنينَ هكذا بدونِ تَمحيصٍ وابتِلاءٍ وقدِ التبسَ بهمُ المنافِقون، فكانَ لا بدَّ منَ المِحنةِ حتَّى يَظهرَ الوليُّ منَ العَدوّ، ويَبِيْنَ المؤمِنُ الصَّابرُ منَ المنافقِ الفاجِر، وذلك يَومَ أُحُد، وكانَ كذلك، حيثُ تَبيَّنَ المخلِصونَ المجاهِدونَ الذينَ ثَبتُوا معَ رسولِ الله، وظَهرتْ مخالفةُ المنافِقينَ وخيانتُهمْ للهِ ورسولِه.

وأنتمْ لا اطِّلاعَ لكمْ على الغَيب، ولا ما تَكُنُّهُ قُلوبُ المنافِقينَ منْ كفرٍ ونِفاق، ولولا هذهِ الأسبابُ التي أجرَاها اللهُ لكم، لَما عرفتُمْ خبرَهمْ وشِدَّةَ عَداوتِهمْ لكم. ويَختارُ اللهُ مِنْ رُسُلهِ منْ

يَشاء، كمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، ليَتبيَّنَ مَنْ يَتَّبعُهُ ومَنْ لا يَتَّبعُه، ومَنْ يُعاديهِ مِنْ غيرِه، فيَتميَّزُ الخَبيثُ مِنَ الطيِّب، ويُخبِرُهُ اللهُ بما صَدرَ عنِ المنافِقينَ مِنْ أقوالٍ وأفعَال، فيَفضَحُهم، ويخلِّصُكمْ مِنْ شرِّهمْ وإيذائهم.

فأطِيعوا اللهَ واتَّبِعوا ما يأمرُكمْ بهِ رسولُهُ ممّا شَرعَ لكم، وإنْ تُؤمنوا باللهِ حقَّ الإيمان، وتَتَّقوهُ بمراعاةِ حُقوقِه، فلكمْ ثوابٌ عَظيمٌ لا تَعرِفونَ قَدْرَه.

{وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَللهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [آل عمران: ١٨٠]

١٨٠- ولا يَظُنَّنَّ الذينَ يَبخَلُونَ بأموالِهِمْ فيَكنِزونَها ولا يُنفِقونَها في حقِّها أنَّ ذلكَ أفضَلُ لهمْ وأحسَن، بلْ هوَ شرٌّ لهم، وسوءُ عاقبةٍ يَنتظرُهم، فإنَّ تلكَ الأموالَ ستَتحوَّلُ إلى نيرانٍ فَظيعةٍ تُحيطُ بهمْ وتُطَوِّقُهم؛ جَزاءَ إمساكِهِمْ ما تفضَّلَ اللهُ بهِ عليهمْ مِنْ مال، وسيَعلمونَ عندئذٍ أنَّ حِفْظَهُمْ لتلكَ الأموالِ كانَ حفظاً لنارٍ تَنتَظِرُهم.

وليسَ اللهُ بحاجةٍ إلى أموالِهم، فهُمْ وأموالَهم وما في السَّماواتِ والأرضِ مُلْكٌ لله، ويَرِثُ اللهُ السَّماواتِ والأرضَ بعدَ فَناءِ مَخلوقاتِهما. فكلُّ شَيءٍ مَرجِعهُ إليه، ومَنْ أنفقَ فإنَّما يُقَدِّمُ لنفسِهِ خَيراً، واللهُ خَبيرٌ بنيّاتِكمْ في المنعِ والبُخل، ويُجازيكمْ على ذلك.

{لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ} [آل عمران: ١٨١]

١٨١- لقدْ سَمِعَ اللهُ قولَ اليَهودِ عندَما قالوا إنَّ اللهَ فقيرٌ ونحنُ أغنياء، وذلكَ لما طَلبَ سُبحانَهُ منْ عِبادِهِ أنْ يُنفِقوا مِنْ أموالِهِمْ ليدَّخِرَها لهمْ ويَجزيَهمْ عليها خَيرَ الجزاءِ يومَ القيامة، فقالَ عزَّ مِنْ قائل: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} [البقرة: ٢٤٥]، قالتْ يَهود: "يا محمَّد، افتَقرَ ربُّك، يسألُ عبادَهُ القَرْضَ"! في كُفرٍ وسُوءِ أدَبٍ معَ ربِّ الكَون!

يقولُ سُبحانَهُ مُهَدِّداً بما يَنتظرُهم: سنَكتُبُ قولَهُمْ هذا ونُحاسِبُهم عليه، فلا هو مَنسِيٌّ ولا هوَ مُهْمَل، إلى جانبِ آثامٍ عَظيمةٍ أخرَى لهم، كقتلِهِمْ أنبياءَ الله. وهمْ يَتباهَوْنَ بهذهِ الجرائمِ المنكَرةِ التي تَقشَعِرُّ منها الأبدَان، وتَنبِذُها الفِطَرُ السَّليمة. وسنَجزِيهمْ على ذلكَ شرَّ الجزاء، عَذاباً كبيراً مُخيفاً لا يَعرِفُ قدْرَهُ وكيفيَّتَهُ إلا الله!

{ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} [آل عمران:١٨٢]

١٨٢- وهذا كلُّهُ بسببِ ما اقترَفتْهُ أيديكمْ منْ أعمالٍ شَنيعةٍ أيُّها اليَهود، وهوَ جَزاءٌ حَقّ، لا ظُلْمَ فيهِ ولا قَسوة، واللهُ لا يَظلِمُ عَبيدَه، فلا يوقِعُ بهمْ عَذاباً لا يَستَحِقُّونه، على الرَّغمِ منْ أنَّهم عَصَوا ربّاً، وهمْ عَبيد.

{الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [آل عمران:١٨٣]

١٨٣- إنَّهُمُ اليَهود، الذينَ زَعَموا أنَّ اللهَ قدْ أخذَ منهمْ عَهداً كما هوَ في كتبِهم، ألاّ يُؤمِنوا بنبيٍّ حتَّى يَكونَ مِنْ مُعجِزاتِهِ أنَّ أحَداً مِنْ أتباعهِ لا يَتصدَّقُ بصَدَقةٍ مَقبولَةٍ إلاّ ونَزلتْ نارٌ منَ السَّماءِ فأكلتْها، في عَلامةٍ على قَبولها.

فقلْ لهم: لقدْ سبقَ أنْ بعَثَ اللهُ إليكمْ رُسُلاً مِنْ قَبلي مُؤيَّدينَ بمُعجِزات، منها ما ذَكرتمْ مِنْ قَرابينَ تأكلُها النَّار، ولكنَّكمْ لم تَقبلوا منهم، فلِمَ كذَّبتُموهمْ وقَتلتُموهم، إنْ كنتُمْ صادقينَ في دَعواكمْ بأنَّكم تَتَّبعونَ الحقَّ وتَنقادونَ للرُّسُل؟

{فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالكِتَابِ المُنِيرِ} [آل عمران:١٨٤]

١٨٤- فإذا كذَّبوكَ ولم يَتَّبعوا ما أُرسِلْتَ به، فلكَ أسوَةٌ بمَنْ سَبقكَ مِنَ الأنبياءِ الذينَ كذَّبَتْهمْ يَهود، وكذَّبوا ما جاؤوا بهِ مِنْ مُعجِزاتٍ وخَوارِق، وتَوجيهاتٍ إلهية، وكُتبٍ مُنْزَلَة، بيِّنةٍ جَليَّة.

{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الغُرُورِ} [آل عمران:١٨٥]

١٨٥- فلا تَحزَنْ أيُّها الرسُـــول، فإنَّ كلَّ نفسٍ مَيِّتةٌ لا مَحالة، وبعدَها دارٌ يَتميَّزُ فيها المحْسِنُ عنِ المسِيء، ويُجازي اللهُ الخلائقَ بأعمالِهم، كثيرِها وقَليلِها، كبيرِها وصَغيرِها، فلا يُظْلَمُ أحدٌ مِثقالَ ذرَّة.

فمنْ بَعُدَ عنِ النّار ونجا منها وأُدخِلَ الجنَّةَ فقدْ فازَ وظفرَ ببُغيتِه، وما لذَّاتُ الحياةِ الدُّنيا وزَخارفُها إلا مَتاعٌ قَليلٌ زائل.

{لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ} [آل عمران:١٨٦]

١٨٦- وكانَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وأصحابُهُ يُؤذَوْنَ مِنْ قِبَلِ المشركِينَ واليَهودِ حينَ قُدومِهمُ المدينة، فأُمِروا بالعفوِ والصَّـــبر: ســـوفَ تُمتَحَنونَ أيُّها المســـلِمونَ في أموالِكم بالنَّقص، وفي أنفسِكم بالأمراضِ والجِراحِ وما إليها - وقدْ أخذَ المشرِكونَ أموالَهمْ وعذَّبوهمْ في مكَّةَ - وسَتسمَعونَ منَ اليهودِ والنصارَى ومنْ المشركِينَ كلاماً وهِجاءً مُؤذياً، منَ الطَّعنِ في الدِّين، والتَّحقيرِ والاســتِهزاء، والتَّحريضِ على القَتل، فإذا صَــبرتمْ على أذاهُم، وعَفوتُمْ عنهم، واشتَغلتمْ بطاعةِ اللهِ وطلبِ رِضوانِه، فإنَّ ذلكَ مِنْ خيرِ الأمورِ وأفضلِها، حتَّى تَتقوَّوا وتُرهِبوهُم.

{وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ} [آل عمران:١٨٧]

١٨٧- لقدْ أخذَ اللهُ العهدَ والميثاقَ على أهلِ الكتابِ أنْ يُبَيِّنوا للنَّاسِ أمرَ الرسُـولِ محمَّدٍ صـلى الله عليه وسـلم كما علَّمهمْ أنبياؤهمْ وكما هو مسطَّرٌ في كتُبِهم، وألاّ يَكتُموه، حتَّى إذا أرسـلَهُ اللهُ عَرفوهُ وتابَعوه، لكنَّهمْ طَرحوهُ وضَـيَّعوهُ وتَركوا العَملَ به، واسـتَعاضـوا بذلكَ الهدايا والمآكِلَ والرِّشـــا، حَظًّا دُنيوياً حَقيراً مُقابلَ أمرٍ عَظيمٍ يترتَّبُ عليهِ تَضـــليلُ أُمَمٍ وأجيالٍ على مدَى قُرونٍ وأحقاب... فبئستِ التجارةُ تجارتُهم، وبئسَ ما يَشترَون.

قالَ قتادةُ رحمَهُ الله: هذا ميثاقٌ أخذَهُ اللهُ تعالَى على أهلِ العِلم. فمَنْ عَلِمَ شَيئاً فليُعلِّمه، وإيّاكم وكِتمانَ العِلم.

وقالَ ابنُ كثير: في هذا تحذيرٌ للعُلماءِ أنْ يَسلُكوا مَسلكَهم، فيُصيبَهم ما أصابَهم...

{لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ العَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [آل عمران:١٨٨]

١٨٨- لا تَظُنَّنَّ الذينَ يَفرَحونَ بما اقترَفوا مِنْ أفعالٍ سيِّئةٍ، ويُحِبُّونَ أنْ يُظهِروا للنَّاسِ أنَّ ما فَعلوهُ هوَ الحقّ، مثلما كانَ يَفعلُ اليَهودُ عندما يُسألونَ عنْ شَيءٍ مِنَ العلمِ الذي بأيدِيهم، فيُضَلِّلونَ الناسَ ويُجيبونَهمْ بكلامٍ فيهِ كَذِبٌ وتَحريف، ويَطلبونَ شُكرَ الناسِ لهمْ على إيمانِهمْ وأمانَتِهمْ في العِلم!! فلا تَظُنَّ أنَّهمْ بمَنجاةٍ منْ عِقابِ الله، ولسوفَ يُعَذِّبُهمْ عَذاباً مؤلماً مُوجعاً.

{وَللهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران:١٨٩]

١٨٩- واعلَموا أنَّ كلَّ شيءٍ ممّا في السَّماواتِ والأرضِ هوَ مُلْكٌ لله، فهوَ المتصرِّفُ فيهما كيفَما يَشاء، والقادرُ على ما يَشاء، لا يُعجِزُه شَيءٌ ممّا يُريدُ فيهما، فاخشَوهُ ولا تخالِفوه، واحذَروا نِقمتَهُ وغَضبَه.

{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ} [آل عمران:١٩٠]

١٩٠- إنَّ في خَلْقِ السماوات، بارتفاعِها واتِّساعِها، وما فيها منْ نُجومٍ وأفْلاك، والنظامِ الدقيقِ في سَيرِها، وتكامُلِ أنظمتِها وتنسيقِها، وعُمومِ نَواميسِها، والأرضِ وما فيها منْ أحياءٍ ونباتاتٍ شتَّى، وجِبالٍ شاهِقات، وبِحارٍ عَظيمة، ومَعادِنَ ومَنافِع، وفي تَعاقُبِ اللَّيلِ والنّهار، وكونِ كلٍّ منهما يَخلُفُ الآخَر، بحسَبِ طُلوعِ الشَّمسِ وغُروبِها، أو في تَفاوتِهما بازديادِ أحدِهما وانتِقاصِ الآخَر، كلُّ ذلكَ آياتٌ وأدِلّةٌ عَظيمةٌ على أُلوهيَّةِ اللهِ ووَحدانيَّتِه، لمنْ عَقَلَ منَ النَّاسِ وأدركَ الأشياءَ على حقائقِها، وتجرَّدَ منْ شَوائبِ الوَهمِ والتَّقليد، فتَفكَّرَ، وصَدَّق، واعتَبر، وآمَن، واستَسلمَ للحَقّ.

{الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} [آل عمران:١٩١]

١٩١- إنَّهُمُ المؤمنونَ إذاً، الذينَ لا يَكِلُّونَ ولا يَمَلُّونَ مِنْ ذكرِ الله، ولا يَغفُلونَ عنهُ في عامَّةِ أوقاتِهم، لمعرفتِهمْ بأنَّهُ الحقُّ الذي يَنبَغي ألاّ يُنسَى، ولخُشوعِهم، واطمئنانِ قلوبِهمْ بذكرِه، فيَذكرونَهُ قائمين، وقاعِدين، ومَضطَجِعين، ويَتفكَّرونَ في عظمةِ خَلْقِ الله، الدالَّةِ على علمهِ وقُدرتهِ وعَظمتهِ وحِكمتِهِ سُبحانه، ويَتأمَّلونَ فيما خلقَ وبَثَّ في السَّماواتِ والأرضِ مِنْ بَديعِ صُنعِه، ويَقولون: ربَّنا ما خَلقتَ هذا الكونَ عَبَثاً وهَزْلاً، فأنتَ مُنَزَّهٌ عنِ النقائصِ والعَيْبِ والعَبَث، بلْ هوَ لحِكَمٍ عَظيمةٍ وأمورٍ جَليلَة، ليَعرِفَ الناسُ ربَّهُمُ العَظيم، وليَعرِفوا بَديعَ صُنعِه، وليَعبُدوه، وليَجزيَ مَنْ آمنَ بالحقِّ بالحُسنى، ومَنْ كفرَ وأساءَ بالسُّوء.

اللهمَّ فإنَّا آمنّا بكَ إلهاً واحِداً وخالقاً عَظيماً لا شَريكَ لك، فأجِرْنا منَ النار، بهدايتِنا وتوفيقِنا إلى الأعمالِ الصَّالحة، وبرحمَتِك، ونَعوذُ بكَ أنْ نَكونَ ممّن يَكفرونَ بكَ وبنعمتِك.

{رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} [آل عمران:١٩٢]

١٩٢- اللهمَّ إنكَ مَنْ أدخلتَهُ النارَ فقدْ أبعَدتَهُ منْ رحمَتِك، وأهنتَه، وأهلكتَه، ولا مُجيرَ للظالمينَ - أمثالِهم - منكَ ولا نَصير، ولا مَحِيدَ لهمْ عنِ النار.

{رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ} [آل عمران:١٩٣]

١٩٣- ربَّنا إنَّنا سَمِعنا داعياً يَدعو إلى الإيمان، وهوَ نبيُّكَ محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، أنْ آمِنوا بربِّكم، مالكِكمْ ومُتَولِّي أمورِكم، فامتَثلنا أمرَه، وأجبنَا نِداءَهُ واتَّبعناه، اللهمَّ فذاكَ إيمانُنا، وهذا دعاؤنا، فاغفِرْ لنا ذُنوبنَا، كبيرَها وصَغيرَها، وألحِقنا بعبادِكَ الصالحينَ الأبرَار، خُصَّنا بصُحبتِهم، واجعَلنا في جِوارِهم.

{رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ المِيعَادَ} [آل عمران:١٩٤]

١٩٤- اللهمَّ وأعطِنا ما وَعدتَنا منَ الثَّوابِ على ألسـنةِ رُسُـلِك، ولا تُبعِدْنا عنْ رحمتِكَ يومَ القيامةِ فنَهلِك، إنَّكَ لا تُخلِفُ ما وَعدتَ بهِ منَ الفَضلِ والرَّحمَة.

وتُستَحَبُّ قِراءَةُ الآياتِ (١٩٠-١٩٤) عندَ القيامِ منَ اللَّيل.

{فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ} [آل عمران:١٩٥]

١٩٥- فأجابَ اللهُ دُعاءَهم، أنِّي لا أُضِيْعُ عملَ أحَدٍ منكمْ مهما كانَ صَـغيراً، بلْ يُوَفَّى كلٌّ جزاءَ ما عَمِل، الذَكَرُ منكمْ والأُنثَى سَـواء، فأنتُمْ مِنْ أصـلٍ واحِد، والجميعُ يَنالُ ما يَستَحِقُّ مِنَ الثَّواب.

فالذينَ أُخرِجوا مِنْ ديارِهِم وهاجَروا لمضـايقةِ المشـرِكينَ لهمْ وإلحاقِ الأذَى بهمْ والضَّـررِ بأموالِهم، لا لشـيءٍ سِوَى لاعتِناقِهم دينَ الإسـلام، ثمَّ جاهَدوا في سبَيلِ الله، فمنهمْ مَنْ قاتَلَ وأبلَى بلاءً حَسناً في قوَّةٍ وصَبر، وعَزمٍ وبُطولة، ورأى النَّصر، ومنهمْ مَنْ قاتَلَ حتَّى قُتِل، فهؤلاءِ سـأغفِرُ جميعَ ذنوبِهم، وأُدخلُهمْ جَنّاتٍ تَجري في خِلالِها الأنهارُ، جزاءً عظيماً مِنْ ربِّهمُ الكريم، وعند اللهِ الجزاءُ الحسَنُ لكلِّ مَنْ آمنَ وعَمِلَ صالحاً.

{لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي البِلَادِ} [آل عمران:١٩٦]

١٩٦- لا تَنظُرْ إلى الكافِرينَ والعُصـاةِ مِنْ أعداءِ الدِّينِ وما همْ فيهِ مِنْ مَظاهرِ النِّعمةِ والتَّرَفِ، والغِبْطةِ والمكانة، ولا تَلتَفِتْ إلى تصرُّفِهمْ في البلادِ بالتجارةِ وأنواعِ المكاسِب.

{مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المِهَادُ} [آل عمران:١٩٧]

١٩٧- فعمّا قَليلٍ يَذهَبُ ما همْ فيهِ مِنْ سُـــرور، وينتهي ما كانَ في أيدِيهمْ منْ مَتاع، ويَزولُ عنهمْ كلُّ شـيءٍ كانوا عَليه، ويَبقونَ مُرتَهَنين بأعمالِهِمُ السيِّئة، التي تأخذُهمْ إلى جَهنَّم، ليَفترِشوا بُسُطاً مِنْ نار، وبئسَ الفِراشُ والمِصير!

{لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ} [آل عمران:١٩٨]

١٩٨- وفي مُقـابِلهمُ المؤمِنون، الـذينَ سَمِعوا نِـداءَ الإيمـانِ فـآمَنوا وثَبَتُوا، وعَزمُوا على الأعمالِ الصَّـــالحةِ والتزَموا، فجَازاهمُ اللهُ جَنَّاتٍ واسِـــعات، تَجري في خِلالها الأنهارُ المتنوّعَة، ضيافةً منَ الربِّ الكريم، والذي عندَ اللهِ ممّا ذُكِرَ مِنَ النَّعيم، ومنْ خُلودٍ دائمٍ ورِضوانٍ منَ الله، هوَ خَيرٌ لأوليائهِ المتَّقين، ممّا يَتقلَّبُ الفُجّارُ في المتاعِ القَليلِ الزّائل.

{وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ} [آل عمران:١٩٩]

١٩٩- وهناكَ طائفةٌ مِنْ أهلِ الكِتابِ يؤمِنونَ باللهِ حَقَّ الإيمان، ويؤمِنونَ بما أُنْزِلَ على النبيِّ محمَّدٍ صـــلى الله عليه وســلم إضـــافةً إلى إيمانِهمْ بالكُتُبِ المتقدِّمة، مثلَ المســلِمين، معَ خُشوعٍ وخَشيةٍ منَ الله، وطاعةٍ لهُ وتَذَلُّل، ولا يَكتُمونَ صِفَةَ رسولِ اللهِ ومَبعثَهُ ممّا يَقرَؤونَهُ في تلكَ الكتُب، وليسُـــوا مثلَ غيرِهمْ منْ أهلِ الكتابِ الذينَ يُحرِّفونَها مُقابِلَ هَدايا ورِشًـــا، أو يَكتُمونَ ما بها مِنْ بِشـاراتٍ بالرسُـولِ الكريم؛ حَسَـداً وبَغياً وعِناداً، فمَنْ آمنَ منهمْ يَكونُ مِنْ خِيْرةِ أهلِ الكتابِ وصَـــفوتِهم، ولهمْ أجرُهمْ عندَ ربِّهمْ مثلَ بَقيَّةِ المؤمِنين، لا فرقَ بينَهم، واللهُ سَريعُ الحِساب، على كثرةِ عبادِه، وكثرةِ أعمالِهم.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْـــبِرُوا وَصَـــابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران:٢٠٠]

٢٠٠- يا عبادَ اللهِ المؤمِنين، اصــبِروا على دينِكمُ الذي ارتَضــاهُ اللّهُ لكم، في الشــدَّةِ والرَّخاء، حتَّى تَموتوا عليه، فهوَ زادُكمُ الذي تَتمسَّكونَ بهِ حتَّى يَبْلُغَكمُ المَقِيل.

وصـابِروا أعداءَكمُ الذينَ يُحاولونَ دائماً أنْ يُزَعزِعُوا إيمانَكمْ ويَقضُـوا عَليكم، فكونُوا أصـبرَ منهمْ وأقوَى حتَّى تَغْلِبوهُم.

ورابِطوا في مواقعِ الجهـادِ وفي الثغورِ المعرَّضــةِ لهجومِ الأعـداء، لا تَغْفُلوا عنْ هـذا ولا تَستَسلِموا للرُّقاد.

ويأتي معنَى المرابطةِ هُنا أيضًــا - مِنْ بابِ التنوُّعِ في التَّفســير -: المداومةُ على العبادةِ والثباتُ على طاعةِ الله.

واتَّقوا اللهَ في جميعِ أمورِكمْ وأحوالِكم، ولا تَغفُلوا عمّا أُمِرْتمْ به، حتَّى تَكونوا بهذا كلِّهِ منْ الفائزين، مُعَزَّزين في الدُّنيا، ومُكرَّمينَ في الآخِرَة.

* * *

مِنْ فضــائلِ هذهِ السُّــورَةِ الكريمَة، قَولُهُ صــلى اللهُ عليه وســلم: "اقرَؤوا الزَّهراوَين: البَقَرَةَ وسُــورَةَ آلِ عِمران، فإنَّهما تَأتيانِ يَومَ القيامَةِ كأنَّهُما غَمامَتان، أو كأنَّهما غَيَايَتان، أو كأنَّهما فِرْقَانِ مِنْ طَيرٍ صَوَافَّ، تُحاجَّانِ عَنْ أصحَابِهما". رواهُ مسلمٌ وغَيرُه.

والغَمامَةُ والغيَايَة: السَّـحابَة. والفِرْق: الطائفَةُ منَ الشَّــيءِ المتفرِّق. والطَّيرُ الصَّـوَافّ: التي تَصُفُّ بأجنِحَتِها فلا تُحرِّكُها.

سورة النساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء:١]

١- أيُّها النَّاس، أطِيعُوا اللهَ واحذَروا مخالفةَ أمرِه، واتَّقوا عذابَه، هوَ الذي خَلقَكُمْ مِنْ نفسٍ واحِدة، هيَ آدم، وخَلَقَ منهُ زوجَهُ حَوّاء، خَلَقَها مِنْ ضِلْعٍ له، ونَشرَ منهما ذُكوراً وإناثاً كثيرين.

واتَّقوا اللهَ بطاعتِكمْ إيّاه، وهوَ الذي تَتساءَلونَ بهِ وتقولون: أسألُكَ بالله.

واحذَروا مِنْ أنْ تقطَعوا أرحامَكم، فإنَّ قَطيعتَها ممّا يَجِبُ أنْ يُخشَى ويُتَّقى. واللهُ رَقيبٌ عَليكم، حافظٌ مطَّلعٌ على نيّاتكمْ وما يَصدُرُ عنكمْ مِنْ أقوالٍ وأفعَال، فيُجازيكمْ بها.

{وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا} [النساء:٢]

٢- وأعطُوا اليَتامَى أموالَهم، ولا تَظلِموهمْ فتُبَدِّلوا الدنيءَ الحقيرَ منْ أموالِكمْ بالطيِّبِ الغالي منْ أموالِهم، وتَقولوا هذا بذاكَ ما دامَ مِنْ جنسٍ واحِد! ولا تَخلِطوا أموالَهمْ بأموالِكمْ وتأكلوها جَميعاً، فهو إثمٌ كبيرٌ، فاجتَنِبوه.

{وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا} [النساء:٣]

٣- وإذا أردتُمُ الزواجَ بيَتيماتٍ وخَشِيتُمْ أنْ تَضُرُّوا بحُقوقِهنّ، كأنْ لا تُعطُوهنَّ صَداقَهنَّ كامِلاً مثلَ صَداقِ غيرِهنّ، فلا سبيلَ لكمْ إليه، إلاّ أنْ تَعدِلوا في ذلكَ مثلَ غيرِهنّ، فإنْ لم تَقدروا على العَدلِ فالنِّساءُ كثيرات، فتزوَّجوا سِواهنّ، إنْ شئتمُ الثنتينِ والثلاثَ والأربَع، حَلالاً

طيّباً، ولا زيادةَ على هذا العَدد، فإذا خَشِيتُمْ ألاّ تَعْدِلوا بينَهنَّ فانكِحوا واحِدةً وذَروا الجميع، أو انكِحوا ما ملكتْ أيمانُكمْ منَ الجوارِي السَّرارِي، بدونِ عَدّ، بطريقِ الملكِ لا بطريقِ النّكاح، فلا يَلزَمُ فيهنَّ منَ الحقوقِ ما يَلزمُ في الزّوجاتِ الحرائر. واختيارُ الواحِدة، أوالتسرّي، هوَ أقربُ إلى ألاّ تَظلِموا.

{وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا} [النساء:٤]

٤- وأعطُوا النساءَ صَداقَهنَّ حَتْماً واجِباً، فإذا تَنازَلْنَ لكمْ عنْ قِسْمٍ منهُ عنْ طيبِ نفسٍ منهنَّ، فكلوهُ حَلالاً طَيّباً.

{وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا} [النساء:٥]

٥- ولا تُعطُوا غيرَ الرَّاشِدينَ أموالَكم، ممَّنْ لا يُحسِنونَ تَصريفَها وتَدبيرَها وتَثميرَها، فالأموالُ لا تُهدَرُ ولا تُرمَى، ففيها معايشُكمْ ومصالحُكمْ، مِنْ تِجاراتٍ وغيرِها، وأعطُوا غيرَ الرَّاشِدينَ ممَّنْ تَتولَّونَ أمورَهمْ حقوقَهم، منْ كُسوةٍ ومُؤنةٍ وطَعام، وأحسِنوا تَعامُلَكمْ مَعهم، فبَرُّوهم، وقولوا لهمْ كلاماً طيّباً.

{وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا} [النساء:٦]

٦- وإذا أرَدتُمْ أنْ تُمكّنوا اليَتامَى مِنْ أموالِهمْ فجرّبوهمْ واختَبِروهمْ أوّلاً، فإذا رأيتُمْ أنَّهمْ بَلغوا سِنَّ الزواج، وعَلِمتُمْ منهمْ صَلاحاً في الدّين وقُدرةً على التدبيرِ والتَّصريف، فأعطُوهمْ أموالَهم، ولا تأكلوها مِنْ غيرِ حاجةٍ ضروريَّةٍ قبلَ بلوغِهم، ومَنْ كان في غِنىً عنْ مالِهمْ فلا يأكُلْ منهُ شيئاً، ومَنْ كانَ مُحتاجاً فليأكُلْ بالمعروف، يَعني بالتي هيَ أحسَن، كما قالَ سبحانه: {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ} [الأنعام:١٥٢]، فإذا أعطَيتُموهمْ

أموالَهُمْ فيَجبُ أنْ يكونَ هناكَ شُهودٌ في مَحضَرِ التَّسليم. وكفَى باللهِ مُحاسِباً وشَهيداً ورَقيباً على أولياءِ اليتامَى وقيامِهِمْ على أمرِهِمْ وما يَفعلونَهُ بأموالِهِم.

{لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا} [النساء:٧]

٧- الجَميعُ سواءٌ في أصلِ الوِراثة، فللرِّجالِ نَصيبُهمْ ممّا ترَكَهُ الوالدانِ وأقرِباؤهم، وللنساءِ كذلكَ نَصيبُهنَّ ممّا تركَ الوالدانِ وأقرِباؤهنّ، سواءٌ كانتِ الترِكَةُ قَليلةً أو كَثيرة، حقًّا واجِباً مَفروضاً.

{وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا} [النساء:٨]

٨- وإذا حضرَ قِسمَةَ الترِكَةِ أقرباؤكمْ منَ اليتامَى والمساكينِ ممَّن لا يَرِثون، فأعطُوهمْ منها، وقُولوا لهمْ كلاماً حسناً تُطَيِّبونَ بهِ نفوسَهم.

{وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا} [النساء:٩]

٩- وليخَفِ اللهَ هؤلاءِ الذينَ يَحضرُهمُ الموتُ وقدْ تَركوا ذُرِّيةً صِغاراً خافَوا عليهمُ الفَقرَ والضَّياع، لضَعفِهِمْ وعدَمِ قُدرتِهِمْ على التكسُّب، فليتَّقوا اللهَ ولا يوصُوا بالكثيرِ مِنْ أموالِهِمْ للآخَرينَ ويَدَعوا أولادَهمْ عالةً يَتكفَّفونَ الناس، بلْ بالمعروف. وقدْ بيَّنتِ السنَّةُ منْ بعدُ أنَّهُ لا تَجوزُ الوصيَّةُ بأكثرَ منَ الثُّلث.

{إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} [النساء:١٠]

١٠- إنَّ الذينَ يأكلونَ أموالَ الأيتامِ حَراماً بغَيرِ حقّ، إنَّما يأكلونَ بذلكَ ناراً مِلْءَ بُطونِهِمْ يومَ القيامة. وسيَكونُ جزاؤهمْ أنْ تُسْعَرَ بهمُ النارُ في جهنَّم، فيُحرَقونَ منَ الخارجِ أيضاً، فهيَ مُحيطةٌ بهمْ ظاهِراً وباطِناً، جزاءَ ظُلمِهِمْ لليَتامَى الضُّعَفاء.

يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء:١١]

١١- يأمرُكمُ اللهُ بالعَدلِ في أولادِكمْ عندَ تَقسيمِ الميرَاث، فللرَّجلِ ضِعْفُ ما هوَ للأنثَى، بحَسَبِ ما يأتي، فلا تُحرَمُ نصيبَها كما كانَ يُفْعَلُ بها في الجاهليَّة. أمّا الضِّعْفُ للرجُلِ فلأنَّهُ هوَ المسؤولُ عنِ النفقةِ لا المرأة، وهوَ الذي يَعمَلُ ويَتَكسَّبُ ويُتاجِرُ ويَتحَمَّلُ المشقَّةَ لأجلِ ذلك، وليسَ مَطلوبٌ ذلكَ مَنَ المرأة، بلْ هيَ مَصُونةٌ مأمورٌ أنْ يُنفَقَ عليها، سواءٌ كانتْ عندَ أهلِها أو عندَ زوجِها، أو أنَّها تُنفِقُ على نفسِها وحدَها.

فإذا ماتَ الأبُ ولا وارِثَ لهُ سِوَى ذُرِّيتِهِ منَ الذكورِ والإناث، اقتَسموا تَرِكَتَهُ كلَّها، للذُّكورِ منهمْ ضِعْفُ ما للإناث.

فإذا لم يَكنْ عندَهُ ذُكور، لكنْ لهُ ابنتانِ فأكثر، فلهُنَّ ثلثا التَّرِكة.

وإذا كانتْ لهُ ابنةٌ واحدةٌ فلها نِصْفُ التركة.

ثمَّ يوزَّعُ باقي الميراثِ على أقربِ عاصِبٍ للميّت:

فيكونُ لأبوَيه: لكلِّ واحدٍ منهما السُّدُسُ منَ الميراث، إذا كانَ لهُ ولد: ابنٌ أو بنت.

فإذا لم يكنْ لهُ ولدٌ ووَرِثَهُ أبواهُ فقط، فلأمِّهِ الثُّلُث، وسائرُهُ لأبيه.

فإذا لم يَكنْ لهُ ولد، وكانَ لهُ إخوة، ومعهمُ الأبُ والأمّ، فلها معهمُ السُّدُس، وسائرُهُ للأب.

وهذا كلُّهُ بعدَ أنْ يُعطَى منَ التَّرِكةِ الدَّينُ الذي على الميّت، وكذلكَ فَرْزُ الوصيَّةِ منها، إذا كانَ أوصَى منها.

وفي المسائلِ السابقةِ تفاصيلُ فَرعيَّةٌ تُنْظَرُ في كتبِ الفَرائض.

وقدْ ساوَينا بينَ الكلِّ في أصلِ الميراث، ولا تَدرُونَ المتوقَّعَ في الخَيرِ والنَّفعِ الدنيويِّ والأخرَويِّ لكمْ منْ أيٍّ يَكون، في الآباءِ أو في الأبناء، فلهذا فرَضنا لهذا ولذاك، وساوَينا بينَ القِسمَينِ في أصلِ الميراث.

وهذا التفصيلُ في تقسيمِ الميراثِ فَرْضٌ منَ اللهِ عليكم، وبهِ قضَى، وهوَ عليمٌ حَكيمٌ، يُعطِي كلاًّ ما يَستَحِقُّ بحَسَبه، وليسَ للبشَرِ أنْ يُشرِّعوا لأنفسِهم، وأنْ يُحَكِّموا هواهُمْ في ذلك، فاللهُ هوَ الذي أعطَى الأرزاقَ والأموَال، وهوَ الذي يَفرِضُ ويَقْسِم، وهوَ أعلمُ بمَصلحتِهمْ منهمْ بها.

{وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ} [النساء:١٢]

١٢- ولكمْ أيُّها الأزواجُ نِصفُ ما تركتِ الزوجاتُ إذا لم يكنْ لهنَّ أولاد.

فإذا كانَ لهنَّ أولادٌ فلكمُ الربُع مِنْ تَرِكَتِهنّ.

وهذا بعدَ إيفاءِ الدَّينِ والوصيَّةِ مِنْ مِيراثِهنّ، إنْ كانَ عليهِنَّ دَيْن، أو أوصَينَ بوصيَّة.

وللزَّوجاتِ الرُّبُعُ منْ ميراثِكمْ أيُّها الأزواجُ إذا لم يَكنْ لكمْ ولد، فإذا ورِثَكمُ الأولادُ مَعَهنَّ فللزَّوجاتِ الثُّمُنُ منَ الميراث.

وهذا أيضاً بعدَ إيفاءِ الدَّينِ والوصيَّةِ مِنْ ميراثِكم، إذا كانَ عليكمْ دَيْنٌ أو أوصَيتُمْ بوصيَّة...

وإذا ماتَ الرجلُ ولا أصلَ يَرِثُهُ ولا فَرع، يَعني لا ولدَ لهُ ولا والِد، وإنَّما همْ حَواشيه، وكذا المرأةُ، ولهُ أخٌ أو أختٌ مِنْ أمّ، فلكلِّ واحدٍ منهما السُّدُس. فإذا كانوا أكثرَ منْ ذلكَ فهمْ شُركاءُ في الثلثِ مَهما بلغَ عَددُهم. وهذا أيضاً بعدَ رفعِ مِقدارِ الدَّينِ منَ التَّرِكة، وكذا الوصيَّةِ الموصَى بها، على أنْ تكونَ عادلةً لا ضَرَرَ فيها على الورثةِ ولا جَور، فلا يكونُ القَصدُ منها حِرْمانَ بعضِ الورثةِ منَ الميراث، أو إنقاصَه، أو الزيادةَ عليه.

ويُلاحَظُ أنْ لا وصيَّةَ لوارِث، ولا تَزيدُ على الثُّلُثِ لغَيرِ الوارِث.

وهذهِ الفَرائضُ وصيَّةٌ منَ الله، فهيَ واجِبَةُ الطَّاعة.

واللهُ عليمٌ بالمضارِّ وغَيرِه، حَليمٌ بهم، فلا يؤاخِذُهمْ بمجرَّدِ صدورِ خطأ منهم، بلْ يُمهِلُهمْ ويبيِّنُ لهمْ حتَّى يَفهمُوا ويعتَبِروا.

{تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ} [النساء:١٣]

١٣- وتلكَ الفرائضُ والتَّشريعات، مِنْ بيانِ تَقديرِ مُستَحقَّات كلِّ وارث، بحسَبِ قُربِهمْ وبُعدِهمْ عنِ الميّت، وبقدرِ احتياجِهمْ وفَقدِهمْ لهُ بعدَ وفاتِه، وما إلى ذلك، هيَ حُدودٌ حَدَّها اللهُ بعِلمهِ وحِكمَتهِ لتَكونَ الفيصلَ في التَّوزيعِ والتَّقسيم، فلا تَتجاوَزوها، ولا تَعمَلوا بغَيرِها. ومَنْ يُطِعِ اللهَ ورسولَهُ مُلتَزِماً بفريضتهِ وقِسمتِه، مِنْ غيرِ حيلةٍ ولا خِيانة، يَلْقَ جزاءً طيِّباً مِنْ ربِّه، فيُدخلهُ جنّاتٍ تَجري في خلالِها الأنهار، معَ خلودٍ دائم، وهوَ فوزٌ عَظيم، لمنْ عَرَفَ خُطورةَ ذلكَ اليومِ وهولَهُ وشِدَّتَه.

{وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ} [النساء:١٤]

١٤- أمّا مَنْ عصَى وتَحايل، أو عَمِلَ بغيرِ قِسْمةِ الله، مُؤثِراً إيّاهُ عليها، ويَكونُ بذلكَ غيَّرَ ما حكَم اللهُ بهِ وضَادَّهُ في حُكمِه، وغيرَ راضٍ مِنْ قِسمتِه، فإنَّ اللهَ يُدخِلهُ ناراً مُحرِقةً خالِدًا فيها، ويُعَذِّبُ فيها عَذاباً شديداً، معَ ذُلٍّ وهَوان.

{وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي البُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ المَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا} [النساء:١٥]

١٥- والنساءُ اللَّواتي يأتينَ الفاحشةَ، فيَزْنِين، فلا بدَّ لإثباتِ ذلكَ مِنْ أربعةِ شُهود، فإذا شَهِدوا بذلك، فإنَّهنَّ يُحْبَسْنَ في بيتٍ ولا يُسْمَحُ لهنَّ بالخروجِ منهُ حتَّى يَمُتْن، أو يَنْتَظِرنَ حتَّى يجعلَ اللهُ لهنَّ مَخرَجاً.

والسبيلُ في مَخرَجِهنَّ هو الحُكمُ الناسِخُ لسابقِه، فهذا الحُكمُ كانَ في أوَّلِ الإسلام، ثمَّ صارَ إلى الرَّجْمِ للمتزوِّجِ والمتزوِّجة، والجَلدِ لغيرِهما.

{وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا} [النساء:١٦]

١٦- والرَّجُلانِ اللَّذانِ يَعملانِ الفاحشةَ بَعضُهما ببَعضٍ فآذُوهما، بالشَّتمِ والتَّعيير، والضَّربِ بالنِّعال.

فإذا أقلَعا عن جُرْمِهما ولم يَعودا إليه، وحَسُنَ سلوكُهما وصَلَحَتْ أعمالُهما، فاترُكوهما ولا تُعَنِّفوهما، فالتائبُ تُقبَلُ تَوبتُه. واللهُ كثيرُ قَبولِ التوبة، كثيرُ الرحمةِ بعبادهِ المؤمنين.

ثمَّ بيَّنتِ السُّنَّةُ مآلَ حُكمِهما في قولِهِ صلى الله عليه وسلم: "مَنْ وَجدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عملَ قومِ لوطٍ فاقتُلوا الفاعِلَ والمفعولَ به"، كما في الحديثِ الصَّحيحِ الذي رواهُ الأربعةُ وغيرُهم.

{إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء:١٧]

١٧- إنَّما يَتقبَّلُ اللهُ التوبةَ مِنَ الذينَ يَعملونَ المعاصيَ جهالةً وسفَهًا وهم يَعلَمُونَ سُوءَ عاقبتِها. وسُمِّي مُقترِفُ الذنبِ جاهِلاً لأنَّهُ يُقْدِمُ عليهِ وهوَ يَعْلَمُ مَغَبَّته! فهؤلاءِ إنْ تابوا قبلَ سَكراتِ الموتِ قَبِلَ اللهُ تَوبتَهم، واللهُ عَليمٌ بخَلقِه، حَكيمٌ فيما يَصنَعُ بهم.

{وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [النساء:١٨]

١٨- ولا تُقبَلُ التَّوبةُ مِنَ الذينَ يَرتَكبونَ الذنوبَ حتَّى إذا عايَنوا الموت، وغَرْغَرَ الحَلْق، وجاءَتْ سَكرةُ الحَقّ، قالَ أحدُهمْ إنِّي تُبْتُ الآن، وكذا الكفّارُ الذينَ يَموتونَ على كفرِهم، لا يَنفعُهمْ نَدمُهمْ ولا تَوبتُهم عندَ الموت، فهؤلاءِ هيّأنا لهمْ عَذاباً شَديداً ومُؤلماً دائماً.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آَتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} [النساء:١٩]

١٩- أيُّها المؤمِنون، لا يَحِلُّ لكمْ أنْ تَرِثوا النِّساءَ كما تَرِثونَ الأموَال، وهُنَّ كارِهاتٌ لذلكَ أو مُكرَهاتٌ عليه، ولا يَحِلُّ لكمْ أنْ تُسيئوا عِشْرَتَهُنَّ وتُضَيِّقوا عليهنَّ وتَمنعُوهُنَّ منَ الزواجِ حتَّى يَدفَعْنَ إليكم ما أعطيتُموهنَّ مِنْ صَداقٍ أو بعضِه، إلاّ إذا اقترَفنَ فاحِشةً، فحينئذٍ يَجوزُ لكمُ التَّضييقُ عليهنَّ ليَفتَدِينَ أنفُسَهُنَّ منكمْ بمَال، والفاحِشةُ هيَ الزِّنا، أو ما دونَه، كالنُّشوز، وسُوءِ العِشْرة، وإيذاء، وبَذاءَة، وسَلاطَة...

وأجمِلوا مَعَهُنَّ في القَول، وطَيِّبوا خاطِرَهُنّ، وأحسِنوا مَعَهنَّ في المبيتِ والنفقةِ وما إليها.

فإذا سَئمتُمْ صُحبَتَهنَّ مِنْ غَيرِ إساءةٍ مِنْ طَرَفِهِنَّ، فاصْبِروا على معاشَرتِهِنّ، فلعَلَّ لكمْ فيما تَكرَهونَهُ خَيراً كَثيراً يَبدو في المستقبل، كولَدٍ صالحٍ في الدُّنيا، وأجرٍ كبيرٍ لكمْ في الآخرةِ جزاءَ صبرِكم.

وفي الحديثِ الصحيح: "لا يَفْرَكْ - أيْ لا يَكرهْ - مؤمِنٌ مؤمِنة، إنْ سَخِطَ منها خُلقاً رضيَ منها آخَر".

{وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا} [النساء:٢٠]

٢٠- وإذا أردتُمْ مُفارَقةَ امرأةٍ والزواجَ بأخرَى، وقدْ دَفعتُمْ إلى الأُولى صَداقاً كثيراً، فلا تأخُذوا منهُ شيئاً ولو كانَ قليلاً، أتأخُذونَهُ ظُلماً وزُوراً بيِّناً؟!

{وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا} [النساء:٢١]

٢١- وكيفَ تأخُذونَ الصَّداقَ منهنَّ وقدْ حدَثَ بينَكمْ وبينَهنَّ الخَلوةُ والجِماع، وأخذنَ منكمْ عَهداً وَثيقاً، وهوَ حقُّ الصُّحبةِ والمعاشَرةِ الطيِّبة، كما قالَ اللهُ تعالى في شأنِهِنّ: {فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ} [البقرة:٢٢٩]، أو أنَّ المقصودَ بالميثاقِ الغَليظِ عقدُ الزواج.

{وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا} [النساء:٢٢]

٢٢- ولا يَحِلُّ لكمْ أنْ تَنْكِحوا ما نَكحَهُ آباؤكمْ كما كانَ يُفْعَلُ في الجاهلية؛ تَكرِمةً لهم، وإعظاماً واحتِراماً أنْ توطَأ زوجاتهُم مِنْ قِبَلِ أبنائهم، إلاّ ما كانَ سلفَ منهُ في الجاهليَّة، فهوَ مَعفوٌّ عنه. فإنَّ هذا العملَ مَمقوتٌ مَبغوضٌ وسَبيلٌ سيِّء. وقدْ كانَ مَمقوتاً مُستحقَراً حتَّى في الجاهليَّة.

{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء:٢٣]

٢٣- حُرِّمَ عَليكمُ الزواجُ مِنْ أمَّهاتِكم، وبناتِكم، وأخواتِكم، وعمّاتِكم، وخالاتِكم، وبناتِ الأخ، وبناتِ الأُخت.

كما تَحْرُمُ عليكمْ أمَّهاتُكمُ اللَّواتي أرضَعنَكم، وأخواتُكمْ منَ الرَّضاعة.

ويَحْرُمُ عليكمُ الزواجُ مِنْ أمَّهاتِ زوجاتِكم (بمجرَّدِ العَقدِ على بناتِهنّ)، وبناتِ زوجاتِكم، فيَحْرُمُ عليكمُ الزواجُ ببناتِهنَّ بعدَ الدخولِ بأمَّهاتِهنّ، فإذا لم تَكونوا دَخلتُمْ بأمَّهاتِهنَّ فلا حَرجَ منَ الزواجِ ببناتِهنّ، وسَواءٌ كانتْ تلكَ البناتُ في بيوتِكمْ أمْ لا.

ولا يَحِلُّ لكمُ الزَّواجُ مِنْ زوجاتِ أبنائكمُ الذينَ وَلَدْتُموهُمْ مِنْ أصلابِكم. بخِلافِ الأبناءِ الأدعياءِ (المتَبَنّين) فلا حرَجَ في ذلك.

ويَحْرُمُ عليكمْ في الزواجِ الجمعُ بينَ الأُختَين، إلا ما كانَ مِنْ أمرِ الجاهليَّة، فإنَّ اللهَ قدْ عَفا عَنكم، وغَفرَ لكم؛ رَحمَةً بكم.

سورة النساء (الآيات ٢٤-١٤٧)

{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً} [النساء: ٢٤]

٢٤- ويَحْرُمُ عليكمُ الزَّواجُ بالنِّساءِ ذواتِ الأزواج، إلاّ ما مَلكتُموهنَّ بالسبي، فيجوزُ لكمْ وَطؤهنَّ ولو كانَ لهنَّ أزواجٌ في دارِ الحرب، بعدَ استِبرائهنّ، وهوَ انقضاءُ عِدَّتهنّ، لأنَّ بالسَّبي يَرتفِعُ النكاحُ بَينهنَّ وبينَ أزواجِهنَّ السابِقين. وهذا التحريمُ كتبَهُ اللهُ عليكمْ فالتَزِموا شَرْعَه.

وأحَلَّ اللهُ لكمْ عدا مَنْ ذُكِرْنَ مِنَ المحارِمِ.

قالَ صاحبُ "روحِ المعاني": وفي إيثارِ اسمِ الإشارةِ (ذلكمْ) على الضَّمير، إشارةٌ إلى مشاركةِ مَنْ في معنَى المذكوراتِ للمذكوراتِ في حُكمِ الحُرمة.

يَعني ما حرَّمَهُ اللهُ على لسانِ نبيِّهِ منْ عدمِ الجمعِ بينَ الزوجةِ وعمَّتِها، وبينَها وبينَ خالتِها.

وقالَ الفخرُ الرازيُّ في تفسيرِه: ثَبتَ في أصُولِ الفقهِ أنَّ ذِكْرَ الحُكمِ معَ الوَصفِ المناسِبِ لهُ يَدلُّ بحسَبِ اللفظِ على كونِ ذلكَ الحُكمِ معلَّلاً بذلكَ الوَصف، فثبتَ أنَّ قولَهُ: {وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ} يَدلُّ على كونِ القَرابةِ القَريبةِ مانِعةً منَ الجمعِ في النِّكاح، وهذا المعنَى حاصلٌ بينَ المرأةِ وعمَّتِها أو خالتِها، فكانَ الحُكمُ المذكورُ في الأختَين مذكوراً في العمَّةِ والخالةِ مِنْ طريقِ الدَّلالة، بلْ هاهنا أولَى، وذلكَ لأنَّ العَمَّةَ والخالةَ يُشبِهانِ الأمَّ لِبنتِ الأخِ ولبِنتِ الأخت، وهما يُشبِهانِ الولدَ للعَمَّةِ والخالَة، واقتِضاءُ مثلِ هذهِ القَرابةِ لتركِ المضارَّةِ أقوَى من اقتِضاءِ قَرابةِ الأُختيَّةِ لمنعِ المضارَّة، فكانَ قولهُ تعالَى: {وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ} مانعاً منَ العمَّةِ والخالَةِ بطريقِ الأَولى...

وقالَ مِنْ بعد: وإذا عرفتَ هذا فنقول: قولهُ: {وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ} المرادُ منهُ ما وراءَ هؤلاءِ المذْكورات، سواءٌ كنَّ مَذكوراتٍ بالقَولِ الصَّريح، أو بدلالةٍ جَليَّة، أو بدلالةٍ خَفيَّة، وإذا كانَ كذلكَ لم تَكنِ العَمَّةُ والخالَةُ خارِجةً عنِ المذْكورات.

قلت: لعلَّهُ يُفهمُ منْ كلامِ الرازيّ أنَّ الآيةَ مُجْمَلةٌ والحديثُ مبيِّنٌ لها، بينَما أفادَ ابنُ الجوزيّ أنَّها على عُمومٍ خَصَّهُ الحديث. والنتيجةُ واحِدة.

قالَ ابنُ الجوزيّ في "نواسخِ القرآن": هذا عندَ عمومِ العلماءِ لَفظٌ عامٌّ دَلَّهُ التَّخصِيصُ بنهي النبيّ صلى الله عليه وسلم أنْ تُنكَحَ المرأةُ على عمَّتِها وعلى خالَتِها.

وأوردَ الرَّازيُّ أدلَّةً أخرَى في الموضوع، وأصنافاً أخرَى منَ التحريمِ في طُروءِ حالات... تُنْظَرُ في تَفسيرِه، وفي تَفسيرِ القرطبيّ.

فاطلُبوا الزَّواجَ بأموالِكمْ حتَّى أربَع، أو ما شِئتُمْ منَ الجَواري السَّراري، بالطَّريقِ الشرعيّ، مُتعَفِّفين، غيرَ زانِين.

فإذا تزوَّجتُمْ وسامَحتْكمُ الزوجاتُ في الصَّداق، أو وَضَعْنَ لكمْ منهُ شَيئاً، فلا بأسَ عليكمْ وعَليهنَّ في ذلك.

واللهُ عليمٌ بما يَصْلُحُ لكمْ في أمورِ الزَّواج، حَكيمٌ فيما شَرَعَهُ لكمْ منَ التحليلِ والتحريمِ فيه.

{وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [النساء : ٢٥]

٢٥- ومَنْ لم يَكنْ ذا سَعَةٍ وغِنًى ليَتزوَّجَ منَ المؤمِناتِ الحَرائر، فليَنكِحِ الإماءَ المؤمناتِ اللاتي يَملِكُهنَّ المؤمنون. واللهُ أعلمُ مِنكمْ بمراتبِ إيمانِكم، فليَكنِ الإيمانُ مَطمَحَ نظَرِكم، فرُبَّ أمَةٍ أكثرُ إيماناً مِنْ غيرِها منَ الحرائر. وأنتُمْ وفتَياتُكمْ بعضُكم مِنْ بعض، إمّا بالدِّينِ وإمّا بالنَّسَب، فتزوَّجوا مِنهنَّ بعدَ إذنِ أوليائهنّ، يَعني مَنْ له ولايةُ تَزويجِهنّ، بعدَ أنْ تَدفعوا مُهورَهنَّ عنْ طِيْبِ نَفس، دونَ أنْ تَبخَسوا منهُ شَيئاً، ولا أنْ تَستَهينوا بهنَّ لكونِهنَّ إماءً مَملوكات، وهنَّ

عَفائفُ لا زَانياتٌ ولا ذَواتُ أصدِقاء، فإذا تَزوَّجنَ وزَنين، فعَليهنَّ مِنَ العُقوبةِ نِصْفُ ما على الحرائرِ الأبكار، ولا رَجْمَ عليهنّ؛ لأنَّهُ لا يُنتَصف.

ويَعني أنَّ عُقوبتَهنَّ لا تَزيدُ بالزَّواج، فيُقامُ عَليهنَّ الحدُّ إنْ زَنَين، وهوَ خمسونَ جَلْدة، أبكاراً كُنَّ أمْ مُتزوِّجات. وفيهِ اختلافُ عُلماء.

وزواجُكمْ بالإماءِ المؤمناتِ بالشُّروطِ السابقَةِ لمنْ خافَ الزِّنا بسببِ غَلَبةِ الشَّهوةِ عليه، ولو صَبرتُمْ عنْ نِكاحِهنَّ فهوَ أفضَلُ لكم، لأنَّهُ لو صارَ لكمْ مِنهنَّ أولادٌ لكانوا أرقّاء، ولا يَخْلُصْنَ للأزواجِ خُلوصَ الحرائر، فهنَّ يُستَخدَمنَ سفَراً وحَضَراً، ويَقْدِرُ سَيِّدُهُنَّ أنْ يَبيعَهنَّ للحاضرِ والبادي. وفي ذلكَ مَشقَّةٌ على أزواجِهنّ. كما أنَّهنَّ مُبتذَلات، وداخِلاتٌ خارِجات، ولا يَكادُ يَتحمَّلُ منهنَّ ذلكَ غَيور.

واللهُ يَغفِرُ لمنْ لم يَصبِرْ عنْ نِكاحِهنّ، رحيمٌ بكم، فلذلكَ رخَّصَ لكمْ ما رخَّص.

والجمهورُ على أنَّهُ لا يجوزُ للمسلمِ الزواجُ منَ الإماءِ ما دامَ قادراً على الزواجِ منَ الحرائر، ويَصبِرُ عنِ الزواج، وخالَفَهمُ الحنفيَّةُ في ذلك... واتَّفقوا على أنَّ مَنْ كانَ متزوِّجاً حُرَّة، لم يَجُزْ لهُ أنْ يتزوَّجَ بالأمَة...

{يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [النساء: ٢٦]

٢٦- يُريدُ اللهُ أنْ يُبيِّنَ لكمْ بهذا ما أُحِلَّ لكمْ وما حُرِّمَ عليكم، ويُرشِدَكمْ إلى مَناهجِ المهتَدينَ منَ الأنبياءِ والصَّالحينَ مِنْ قَبلِكم، وأنْ يَقبَلَ توبتَكمْ إذا تُبتُمْ إليه عمّا يَقعُ منكمْ مِنَ التَّقصيرِ والتَّفريطِ فيما كُلِّفتُمْ بهِ من الأحكام، واللهُ عليمٌ بأحوالِكمْ وبما تحتاجُونَ إليه، حكيمٌ بما شَرعَهُ لكم، مُراعياً بذلكَ مَصالحَكم.

{وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً} [النساء: ٢٧]

٢٧- واللهُ يُريدُ أنْ يَتقبَّلَ توبتَكم، فتوبوا إليهِ ليتوبَ عليكمْ ويَرضَى عنكم، ويُريدُ الفاسِقونَ وأتباعُ الشياطينِ منَ الكافِرينَ والمشركينَ أنْ تَزيغوا عنِ الحقِّ إلى الباطِلِ لتَكونوا مثلَهم.

{يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً} [النساء: ٢٨]

٢٨- ويُرِيدُ اللهُ أنْ يُخَفِّفَ عنكمْ منَ الشـرائعِ والتكاليفِ في أمورِ النِّكاحِ وغيرِه، ولذلكَ أباحَ لكمُ الزَّواجَ منَ الإماء... ليُناسِبَ ذلكَ ضَعْفَ الإنسانِ في نَفسِهِ وفي عَزمِهِ وهمَّتِه، في أمرِ النساءِ خاصَّة، حيثُ لا صَبرَ لهُ عنهنّ.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً} [النساء: ٢٩]

٢٩- أيُّها المؤمنون، لا يأكلْ بَعضُكمْ أموالَ بعضٍ بما يُخالِفُ الشَّرع، كالرِّبا والقِمار، وأنواعِ المكاسبِ غيرِ الشرعيَّة، ولكنِ اقصِدوا الطرقَ الشرعيَّة، كالتِّجارة، في تداولِ أموالِكمْ بينَ بعضِكمُ البعضِ عنْ تَراضٍ منكم.

ولا تُهلِكوا أنفسَكمْ ولا تُخاطِروا بها بارتِكابِ الآثامِ وتَعاطي المعاصي، كأكلِ الأموالِ بالباطِلِ وغَيرِهِ ممّا تَستَحِقُّونَ بهِ العِقاب. وكانَ اللهُ رحيماً بكمْ عندما نَهاكمْ عنْ أكلِ الحرامِ وإهلاكِ النَّفس.

{وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيراً} [النساء: ٣٠]

٣٠- ومَنْ يَقترِفْ ما نَهاهُ اللهُ عنهُ منَ المحرَّماتِ السابِقة، مُتَعدِّياً في ذلكَ حدودَ اللهِ ومُتجاسِراً على انتهاكِها، فسوفَ نُدخِلهُ النارَ المحرِقة، وهذا هيِّنٌ على اللهِ تعالى، فلا يَمنَعُهُ منْ عقابهِ مانِع، ولا يَدفعهُ عنهُ دافِع.

{إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً} [النساء: ٣١]

٣١- إذا اجتَنبتُمْ كبائرَ الذنوبِ التي نُهِيتُمْ عنها، غَفرنا لكمْ صغائرَها، وأدخلناكمْ مَكاناً حَسَناً، هوَ جنَّةُ اللهِ التي أعدَّها لعِبادهِ المؤمنين.

{وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً} [النساء: ٣٢]

٣٢- في حَديثٍ صَحيحٍ رواهُ الترمذيُّ والحاكمُ وأحمدُ، أنَّ أمَّ سَلَمةَ رضيَ اللهُ عنها قالت: يَغزو الرِّجالُ ولا تَغزو النِّساء، وإنَّما لنا نِصفُ الميراث: فأنزلَ اللهُ تَبارَكَ وتَعالَى: {وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ}.

أي: ولا تَتمنَّوا ما أعطاهُ اللهُ تَعالَى بَعضَكمْ وميَّزَهُ بِهِ عَليكم، فلِكلٍّ منَ الرِّجالِ والنِّساءِ نَصيبُهُ الذي قَسَمَهُ اللهُ له، فهيَ قِسْمَةٌ صَادِرَةٌ مِنْ حَكيمٍ خَبير، وعلى الكلِّ أنْ يَرضَى بما قُسِمَ له، ولا يَتمنَّى حَظَّ الآخَرِ ولا يَحْسُدُهُ على ذلك، واسألوا اللهَ مِنْ إحسانهِ وإنعامِه، فإنَّ ما عندَهُ كثيرٌ لا يَنْفَدُ أبَداً، كريمٌ وَهّاب، عَليمٌ بمَنْ يَستَحِقُّ فَضلَهُ فيُعطيه، ممَّنْ لا يَستَحِقُّهُ فيَمنَعُه، ولذلكَ جَعلهمْ مَراتبَ بِحكمَتِه، بحَسَبِ استعدادِهمْ وتَفاوتِ قابليَّتِهم.

{وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً} [النساء: ٣٣]

٣٣- ولكلٍّ جَعلنا وَرَثةً يَرِثونَ أنصِبتَهمْ مِنْ تَرِكةِ الوالدَينِ والأقرَبينَ بحَسَبِ استِحقاقِهمْ لها، والذينَ تَحالفتُمْ معهمْ ليَرِثَ بعضُكمْ بعضاً قبلَ نزولِ هذهِ الآية، فأعطوهمْ حظَّهمْ منَ الميراث، وما عُقِدَ مِنْ مُحالفةٍ بعدَ ذلكَ فلا تأثيرَ له، فقدْ أُلْغِيَ حَظُّهمْ مِنَ الميراث. واللهُ مُطَّلِعٌ على كلِّ شيء، ومِنْ جملةِ ذلكَ حالُكمْ في المنعِ والإيتاء.

وكانَ قبلَ ذلكَ يُحالِفُ الرَّجلُ الرَّجلَ ويَقول: تَرِثُني وأرِثُك. فنسَخَتْها آيةُ المواريثِ {وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ} [سورة الأنفال:٧٥].

{الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً} [النساء: ٣٤]

٣٤- ومِنْ أسبابِ استِحقاقِ الرِّجالِ أكثرَ مِنَ النساءِ في الميراث، أنَّ لهمُ القَوَامةَ عَليهنَّ. وهيَ القيامُ بالمصـــالحِ والتدبيرِ والتأديب، وذلكَ بما فضَّـــلَ اللهُ الرجالَ على النســـاءِ في أمورٍ عِدَّةٍ مُستَنْتَجةٍ ومُشاهَدة، ولذلكَ كانتِ النبوَّةُ مُختَصَّةً بالرِّجال، وفيهِمْ مِنَ الصِّفاتِ والخصائصِ ما يُؤهِّلُهمْ لأعمالٍ ووظائفَ لا تَقْدِرُ عليها النِّســاء، أو أنَّها غيرُ مُناسِــبةٍ لهنَّ أصــلاً، كالجِهاد، والإمامةِ الكبرى، والأَذان، والخُطبة، والشَّــهادةِ في الحدودِ والقِصــاص، وتَحَمُّلِ الدِّيَةِ في القَتلِ الخطأ، والوِلايةِ في النِّكاحِ والطَّلاقِ والرَّجعة، وعددِ الأزواج، وجوانبَ كثيرةٍ في الحزمِ ورَزانةِ الرأي. وكذلكَ بما يُنفقونَ مِنْ أموالِهم، منَ المهرِ والنفَقةِ على النِّســاءِ وعلى الأســرَةِ جميعِها، وأمورٍ أخرَى أوجبَها اللهُ عليهمْ في كتابهِ وسُنَّةِ نبيِّهِ صلى الله عليه وسلم.

والصالحاتُ مِنهُنَّ مُطيعاتٌ للهِ تَعالَى وقائماتٌ بحقوقِ أزواجِهنّ، ويَحفظْنَ أنفسَهنَّ عمّا يَشينُها أثناءَ غيابِ أزواجِهِنَّ عَنهنّ، ويَحْفَظْنَ أموالَهم، وكلَّ ما يَجِبُ عليهنَّ حِفْظُه، وذلكَ بما حَفِظَ اللهُ لهنَّ عليهمْ منَ المهرِ والنفَقة، والقيامِ بحفظِهنَّ والذبِّ عنهنّ.

والنِّســاءُ اللَّواتي تَظنُّونَ أو تتخَوَّفونَ عِصــيانَهُنَّ وتَرَفُّعَهُنَّ عنْ مُطاوعتِكم، وبُغْضَــهُنَّ لكم، أي متَى ظَهرتْ لكمْ إشاراتٌ وأماراتٌ تَدلُّ على هذا الموقِفِ مِنهنّ، فانصَحُوهنَّ وخَوِّفُوهنَّ عاقبةَ ما يُقْدِمْنَ عليه، فإذا لم تَنفَعْ مَعَهنَّ النصــيحةُ فلا تَبيتُوا مَعهنَّ على فُرُشِــهنَّ ولا تُجامِعوهنّ، واترُكوهنَّ مُفرَدات، فإنَّ ذلكَ شَديدٌ عَليهنّ، فإذا لم يَرتدِعْنَ بأسلوبِ الموعِظةِ والهِجْران، فلكمْ أنْ تَضْــرِبوهنَّ ضَــرباً غيرَ مؤذٍ كثيراً، بحيثُ لا يَتْرُكُ فيهنَّ عَيباً ظاهِراً، فيَكونُ ضَــرْبَ أدَبٍ لا ضَرْبَ انتِقام، فالمقصُودُ الإصلاح. ويَتجَنَّبُ ضَرْبَ الوَجهِ والمهالِك، يَعني المواضِعَ المَـــخُوفَة، كما يَتجنَّبُ المواضِعَ المستَحسَنةَ لئلاّ يُشَوِّهَها. والأَولَى الاكتِفاءُ بالتَّهديدِ وعدَمُ الضَّرب، لِمَا قالَتْهُ عائشَــةُ رَضِــيَ اللهُ عنها: "ما ضــرَبَ رَسولُ اللهِ صــلى الله عليه وســلم شَيئًا قَطُّ بيدِهِ، ولا امرَأَةً، ولا خادِمًا، إلاّ أنْ يُجاهِدَ في سَبيلِ الله". رواهُ مُسلِم.

فإنْ أطعنَكمْ وعُدْنَ إلى ما كُنَّ عليهِ منَ العِشــــرةِ الطيِّبةِ مَعكم، فدَعُوهنَّ ولا تُؤذُوهنَّ ولا تَهجُروهنّ، بلْ ســامِحُوهنَّ وعاشِــروهنَّ بالمعرُوف، واحذَروا ظُلمَهنّ، فإنَّ اللهَ وليُّهنّ، وهوَ أقدرُ عَليكمْ مِنكمْ على مَنْ تحتَ أيديكم، وهوَ يَنتَقِمُ على مَنْ بَغَى عليهنَّ ولو بعدَ حِين.

{وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً} [النساء: ٣٥]

٣٥- فإذا خِفتُمْ تَفاقُمَ الأمر، وزيادةَ النِّزاعِ والخُصومةِ بينَ الزَّوجين، وظهورَ النُّفورِ بَينهما واضحاً، وخِفتُمْ تَباعُدَ عِشرتِهما وصُحبتِهما، بعدَ فَشلِ الأساليبِ السابِقة، فأرسِلوا - للإصلاحِ بينهما - رَجلاً عدْلاً عارِفاً حسَنَ السياسةِ مِنْ أهلِ الزَّوج، وآخرَ مثلَهُ مِنْ أهلِ الزَّوجة. فإذا كانَ في نيّةِ الحكَمَينِ الإصلاحُ وعَزَما عليهِ ورَغِبا فيه، فإنَّ اللهَ سيُسَهِّل لهما أمرَ الصلحِ ويوفِّقُ بينهما.

واللهُ عليمٌ بظواهرِ الناسِ وبواطنِهم، خَبيرٌ بما يُصلِحُ شُؤونَهم ويُوَفِّق بينَهم.

{وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً} [النساء: ٣٦]

٣٦- ووحِّدوا اللهَ وأطيعُوه، ولا تُشرِكوا بهِ شَيئاً مِنْ مَخلوقاتِه، فهوَ وحدَهُ الخالقُ المنعِمُ المستحِقُّ للعبادة.

وأحسِنوا إلى الوالدين: بِرًّا بهما وعَطفاً عليهما.

وأحسِنوا إلى ذي قُرباكُم، مِنْ أخٍ وعمٍّ وخالٍ ومَنْ إليهم.

وإلى اليتامَى، الذينَ فَقدوا حنانَ آبائِهِمْ وكَسبَهمْ وهمْ صِغار، فأحسِنوا إليهمْ وحِنُّوا عليهم.

وإلى المساكين، الذينَ لا يَجدونَ ما يَكفيهم.

والجارِ مِنْ ذَوي قَرابتِكم، والجارِ البَعيد، الذي ليسَ بينَكمْ وبينَهُ قرابَة، والرفيقِ في السفر، أو الذي يَصحَبُكَ يَرجو نَفعَكَ ورِفْدَك.

وابنِ السبيل، وهوَ المسافِرُ المنقَطع، أو الضَّيف.

والأرِقَّاء، الذينَ جَعلهمُ اللهُ أسرَى في أيديكم، فأحسِنوا إليهمْ خاصَّة، ولا تُكَلِّفوهمْ فوقَ طاقتِهم.

واللهُ لا يُحِبُّ المتَكبِّرَ المعْجَبَ بنفسِه، الذي يَفْخَرُ على الناسِ بغَيرِ الحقّ، ويرَى أنَّهُ خَيرٌ منهم، ويأنَفُ مِنْ أقاربِهِ وجيرانِه، وهوَ عندَ اللهِ حقيرٌ وعندَ الناسِ بَغيض.

{الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً} [النساء: ٣٧]

٣٧- الذينَ يَبْخَلونَ بأموالِهِمْ ولا يُنفِقونَهَا فيما أمرَهمُ اللهُ به، مِنَ الإحسانِ إلى اليتامَى والمساكينِ والجيرانِ والضّيفان، ويَجحَدونَ نعمةَ اللهِ عليهم، فلا تَظهرُ على حالِهِمْ ولا في نفقَةٍ لهمْ وبَذل، وقدْ تَفضَّلَ اللهُ بها عليهمْ ليَمتحِنَهمْ بها، فالذينَ يَجحَدونَها ويُخفونَها فلا يُظهرونَها عندَ حاجةِ الناسِ إليهم، فقدْ كفَروا بنعمةِ اللهِ عليهم، فلهمْ يومَ القيامةِ عَذابٌ يُهينُهمْ كما أهانوا نعمتَهُ عليهمْ بالبُخلِ والكَتْم.

{وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَـاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاء قِرِيناً} [النساء: ٣٨]

٣٨- والذينَ يُنفِقونَ أموالَهمْ ليَراهمُ النَّاس، وللافتِخار، ليُقال: ما أسخاهُمْ وما أجوَدَهم، وهمْ غيرُ مُؤمِنينَ بالله، وهوَ مانحُ الثوابِ ومُقَدِّرُ العِقاب، ولا يُؤمِنونَ باليومِ الآخِر، الذي يُثابُ فيهِ المرءُ على أعمالهِ أو يعاقَبُ عَليها، ولذلكَ لا يَتحرَّونَ في إنفاقِهِمْ مَرضاةَ اللهِ وثوابَه، وقدْ حَمَلَهمْ على هذا تسويلُ الشيطانِ لهم، فحَسَّنَ لهمُ القَبائح، ومَنْ كانَ الشيطانُ صاحبَهُ ومُلهِمَهُ فإنَّهُ بئسَ الصاحِب، لأنَّهُ يَدعوهُ إلى المعصيةِ المؤدِّيةِ إلى النار.

{وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّهُ وَكَانَ اللّهُ بِهِم عَلِيماً} [النساء: ٣٩]

٣٩- وما الذي كانَ يَجري لهمْ لو سَلكوا الطريقَ الصحيحَ فآمَنوا باللهِ خالقِهم، وآمَنوا بيومِ القيامة، الذي يُثابُ فيهِ المرءُ على ما أحسنَ فيُكرَم، ويُعاقَبُ على ما أساءَ فيُعَذَّب، ليَخافَ الناسُ فيُحسِنوا سُلوكَهم، ثمَّ أنْفَقوا ممّا رزقَهمُ اللهُ مِنْ مالٍ وتَفضَّلَ بِهِ عليهمْ لوجهِهِ الكريم، لا للمُباهاةِ والافتِخار، فيعتَدِلوا ويَنفعوا بدلَ أنْ يَبْخَلوا ويَضُرُّوا؟ وكانَ اللهُ عليماً بأحوالِهِمْ في البَذْلِ والمَنْع، والإصلاحِ والإفساد.

{إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَـــنَةً يُضَـــاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً} [النساء: ٤٠]

٤٠- واللهُ لا يَظْلِمُ عَبيدَهُ مِقدارَ ذَرَّة، فلا يَنْقُصُ منَ الأجر، ولا يَزيدُ في العِقابِ شــيئاً، بلْ يُوفيهِ لهمْ كما هوَ عليهِ ويَزيدُهمْ مِنْ فِضـلِه، وإذا كانتِ الحسَـنةُ مِقدارَ ذرَّةٍ[٢٧] ضـاعَفَ ثوابَها لصاحبِها وأعطاهُ مِنْ عندهِ عَطاءً جزيلاً.

{فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيداً} [النساء: ٤١]

٤١- فكيفَ إذا جِئنا يومَ القيامةِ مِنْ كلِّ أمَّةٍ مِنَ الأممِ الســـابقة، وطائفةٍ مِنَ الطوائف، بِشَهيد، يَعني بنبيِّهم، يَشْهَدُ عليهمْ بما عَمِلوا، وجئنا بكَ أيُّها النبيُّ شاهداً تَشْهَدُ على أمَّتِك! وفي الحديثِ الصحيحِ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بَكَى عندَما قُرِئتْ عليهِ هذهِ الآية. ولعلَّ السببَ في بكائهِ أنَّهُ لا بدَّ أنْ يَشْهَدَ عليهمْ بعَملِهم، وعَملُهمْ هذا قدْ لا يَكونُ حَسَناً، فيؤدِّي بهمْ إلى العَذاب. أو أنَّهُ بَكَى لأهوالِ يومِ القيامة... وسؤالِهِ الشفاعةَ لأهلِ الموقِف...

{يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثاً} [النساء: ٤٢]

٤٢- في ذلكَ اليومِ المفزِعِ المخيف، يَوَدُّ الكافرونَ والذينَ عَصَوا الرسُولَ ولم يتَّبِعُوا هَديَه، منَ المنافقينَ وغَيرِهم، يَوَدُّونَ لو ابتَلعتْهمُ الأرضُ ولم يَظهَروا للنَّاسِ والحِســـاب، للخَوفِ الذي

(٢٧) وهي النملةُ الصـغيرةُ الحمراء، التي لا تكادُ تُرى من صـغرها، أو الصـغيرُ جدًّا من أجزاءِ التراب، أو ما يظهرُ من أجزاءِ الهباءِ المنبثّ، الذي تراهُ في البيتِ من ضوءِ الشمس، وهو الأنسبُ بمقامِ المبالغة. (روح البيان).

يَعتريهم، وللهَمِّ والغَمِّ الذي يَغشــاهُم، وللخِزي والفَضــيحةِ والتوبيخِ الذي يَحِلُّ بهم، ويَعترفونَ بكلِّ شَيءٍ ذلكَ اليوم، ولا يَقْدِرونَ على كتمِ أعمالِهم، فتَشهَدُ عليهمْ جوارحُهم بما صَنعوا.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً} [النساء: ٤٣]

٤٣- أيُّها المؤمنون، لا يَحِلُّ لكمْ أنْ تُصَلُّوا وأنتُمْ في حالِ سُكر، فلا تَدرونَ ما تَقولون.

وكانَ هذا مَرحلةً مِنْ مَراحلِ تَحريمِ الخَمر، ثمَّ نزلَ فيها مِنْ بعدُ بيانٌ شــافٍ بتَحريمِها تَحريماً قَطعياً، في قولهِ تعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [سورة المائدة: ٩٠].

ولا يَحِلُّ لكمْ أنْ تَدخُلوا المساجِدَ وأنتُمْ جُنُب، إلاّ إذا كنتُمْ مُجتازينَ مِنْ بابٍ إلى بابٍ منْ غيرِ جُلوس، حتَّى تَغتسلوا منَ الجنابة.

وإذا كنتُمْ مَرضَــى تَخافونَ معَهُ اســتعمالَ الماء، أو كنتُمْ مُســافِرين، أو جِئتُمْ مِنَ الغائطِ (يَعني قضاءَ الحاجة)، أو لامَستُمُ النساءَ - على اختلافٍ في مَعناها بينَ المفسِّرينَ وأئمَّةِ الفقهِ من معنَى الجِماعِ أو مَسِّ البَشَرة - ولم تَجدوا ماءً لتَتوَضَّؤوا أو تَغتَسِلوا به، فتَيمَّموا صَعيداً طيِّباً، وهوَ التُّرابُ الطاهِر، أو ما صَــعَدَ مِنَ الأرضِ مِنْ تُرابٍ ورَمْلٍ وشَــجَرٍ وحَجَرٍ ونَبات، على أقوالٍ بينَ العلماء، وذلكَ بأنْ تمسَحوا وجوهَكمْ وأيديَكمْ بهِ دونَ سائرِ الأعضاء.

واللهُ عَفوٌّ غَفور، فأباحَ لكمُ الصلاةَ بالتيمُّمِ عندَ فُقدانِ الماء في ظُروفٍ تَطرأ، تَوسِعةً عليكم، ورُخْصَةً لكم؛ رَحمةً ورَأفةً بِكم.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ} [النساء: ٤٤]

٤٤- ألا تَنظرُ أيُّها النبيُّ وتَعْجَبُ مِنْ حالِ اليَهودِ الذينَ أُوتوا حَظاًّ مِنَ العلمِ بالكتابِ الذي أُنزِلَ عَليهم، فيُعْرِضونَ عمّا أَنْزَلَ اللهُ عَليك، ويَتركونَ ما بأيديهِمْ مِنَ العلمِ ليَشتَروا بهِ ثَمناً قَليلاً مِنْ مَتاعِ الدُّنيا، فيُحَرِّفونَ فيهِ ويُزَوِّرونَ منهُ مُقابِلَ رِشًا وهَدايا، معَ علمِهِمْ بما يُقْدِمونَ عليه! ومعَ ضـلالِهِمْ هذا وتَكذيبِهِمُ النبيَّ صـلى اللهُ عليه وسـلم وكتمِهِمْ صـفاتِه، يُريدونَ منكمْ أنْ تَضِلُّوا مثلَهم، فتَكفُروا كما كَفَروا، وتَترُكوا ما أنتمْ عليهِ مِنَ الهُدَى والعلمِ النافِع!

{وَاللّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيراً} [النساء: ٤٥]

٤٥ – واللهُ أعلمُ بأعدائكمْ هؤلاء، فيُخبِرُكمْ بعداوتِهِمْ ويحذِّرُكمْ منهمْ ومِنْ مُخالطتِهم. وكفَى أنْ يكونَ اللهُ وليَّ أمرِكمْ وحافظَكم، وناصرَكمْ ودافِعَ شرِّهِمْ عَنكم، فثِقوا بِهِ وتَوكَّلوا عليه.

{مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً} [النساء: ٤٦]

٤٦- وهناكَ طائفةٌ منَ اليَهود، وهمْ عُلَماءُ الضَّـلالِ مِنهم، يُفَسِّـرونَ التوراةَ على غَيرِ وجهِها الحقيقيّ، فيُؤوِّلونَ مَعناها أو يُحَرِّفونَ ألفاظَها عنْ قَصـد، وإذا سَمِعوا كلاماً للرسـولِ صـلى الله عليه وسـلم قالوا لهُ في كفرٍ وعِناد: سَمِعنا قولَكَ وعَصَـينا أمرَك!! وقالوا مُسـتَهزئين: اسْمَعْ ما نَقولُ لا سَمِعت، وراعِنا، يحرِّفونَها بألسـنتِهِمْ عنْ مَعناها، فهي تَحتَملُ معنَى أمْهِلْنا وانظُرْ إلينا، ومعنَى الرُّعونة، وهيَ الهوَجُ والحُمْق، بقصدِ السبِّ والعَيب، والقَدحِ في الدِّينِ والسُّخريةِ منه.

ولو أنَّهُمْ عندما سَمِعوا شَيئاً مِنْ أوامرِ الله، قالوا: "سَمِعنا وأطَعنا" بدلَ "سَمِعنا وعَصَينا"، وقالوا: "واسْمَعْ وانظُرْنا" بدلَ "واسْمَعْ غيرَ مُسْـمَعٍ وراعِنا"، لكانَ أنفعَ مِنْ قولِهِمْ وأعدلَ وأصـوب، ولكنَّهمْ لم يَقولوا ذلك، بل اسـتمرُّوا في كُفرِهِمْ وضَـلالِهم، فخذلَهُمُ اللهُ وأبعدَهمْ مِنْ رحمتِهِ وهُداه، فلا يُؤمِنُ منهمْ إلاّ القَليل.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ آَمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا} [النساء:٤٧]

٤٧ – يا أهلَ الكتاب، آمِنوا بالذي أنزلناهُ على رسولِنا محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وهوَ القُرآن، فيهِ تَصديقٌ للأخبارِ التي في التَّوراةِ منَ البِشارات، ومنها البِشارةُ بنَبوَّةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، باسمِهِ وبصفاتِهِ ومكانِهِ ووقتِ خُروجه، قبلَ أنْ نَمْحُوَ آثارَ وجوهٍ فنَرُدَّها إلى ناحيةِ القَفا، فتكونَ مَطمُوسةً على هيئةِ أدبارِها، تَشويهاً في الخِلْقةِ وفَضيحةً؛ عُقوبةً لهم على تَحريفِهِمُ الكتابَ وعَدمِ تَصديقِهِمْ بما أُمِروا بالإيمانِ به، أو نَطرُدَهمْ مِنْ رحمتِنا وهُدانا، كما لَعنّا أصحابَ السَّبت، الذينَ اعتَدوا في سَبتِهِمْ بالحيلةِ في الاصطِيادِ، فلعنَهمُ اللهُ بمَسخِهم، فكِلا الصنفَينِ منَ اليهودِ مُشترَكانِ في اللَّعن، معَ اختلافِ شكلِ العُقوبة.

وقدْ تَحقَّقَ النوعُ الثاني منَ الوعيدِ الربّاني لهم، وهوَ اللَّعنُ بدلَ الطَّمْس، فهمْ مَلعُونونَ بكلِّ لسانٍ وفي كلِّ زَمان.

وإذا أمرَ اللهُ بأمرٍ فلا بدَّ مِنْ وقوعِه، لا يَستَطيعُ أحدٌ أنْ يَمنعَه.

{إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا} [النساء:٤٨]

٤٨ – واللهُ لا يَغفِرُ ذَنبَ مَنْ أشرَكَ به، فالشِّركُ يُحبِطُ الأعمالَ حتَّى لا يُبقِي لصاحِبِها حَسنة، وهوَ سُبحانَهُ يَغفِرُ ذنوبَ مَنْ شاءَ مِنْ عبادِهِ مادامَ غيرَ مُشرِكٍ به.

ومَنْ يُشرِكْ باللهِ فقدِ اختلقَ كَذِباً عَظيماً وارتكبَ إثماً كبيراً، يُستَحقَرُ دونَهُ جميعُ الذنوبِ والآثام.

والمرادُ بالشِّركِ مُطلَقُ الكفر. وكانَ اليهودُ وغيرُهمْ معَ تَحريفِهمْ وشِركِهِمْ وكُفرِهِمْ يَطمَعونَ بالمغفِرة {وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا} [سورة الأعراف: ١٦٩]، فبيَّنَ اللهُ تَعالَى أنَّهُ لا يُغْفَرُ لمنْ يُشرِكُ به.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا} [النساء:٤٩]

٤٩ — ألا تَنظرُ يا نبيَّ اللهِ إلى هؤلاءِ اليَهودِ والنَّصـــارَى، الذينَ يَزعُمونَ أنَّ ذُنوبَهُمْ مَغفورة، وأنَّهُمْ أحبابُ اللهِ فلا يُعَذِّبُهم، وأنَّهُ لا يَدخُلُ الجَنَّةَ إلاّ مَنْ كانَ منهم؟ لكنَّ الذي يَغفِرُ الذنوبَ ويُبرِئُ النفوسَ منها هوَ اللهُ وحدَه، فهوَ العالِمُ بحقائقِ الأمورِ ونيّاتِ القُلوب، ولا يُظْلَمُ عندهُ أحَد، فلا يُنْقَصُ مِنْ أجرِ أعمالِهِمْ مِقدارُ الخيطِ الذي في شِقِّ النَّواة. ويُضرَبُ المَثَلُ بهذا في القِلَّةِ والحقارَة.

{انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا} [النساء: ٥٠]

٥٠ — انظرْ في دَعواهمْ هذهِ وزَعمِهمْ أنَّهُمْ مُطَهَّرونَ منَ الذنوبِ وأنَّهُمْ أبناءُ اللهِ وأحبَّاؤه، وهُمْ بهذا كذّابون، ويَرتَكِبونَ ذَنباً عَظيماً بيّناً بادِّعائهمْ على اللهِ ما لا يَعلمون.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا} [النساء: ٥١]

٥١ — ألا تَنظرُ أيُّها الرسولُ إلى الذينَ أُوتوا حَظًّا منَ علمِ الكتابِ الذي بينَ أيديهمْ كيفَ يُؤمِنونَ بالأصـــنامِ والطَّواغيت، ممّا يُعبَدُ مِنْ دونِ الله، ويَقولونَ للمشـــرِكينَ إنَّكمْ أهدَى منَ المسلمين، وما أنتُمْ عليهِ منْ عبادةِ الأصنامِ أقوَمُ وأرشَدُ مِنَ الذي جاءَ به محمَّدٌ (صلى الله عليه وسلم)؟ قالوا ذلكَ عِناداً وتَعصُّباً، وهمْ يَعلمونَ أنَّ ذلكَ باطِل!

وكانَ أحدُ أسيادِ اليهود، وهوَ كعبُ بنُ الأشرف، قدْ قالَ للمُشركينَ عندما قَدِمَ مكَّة: أنتُمْ خَير، كما جاءَ في أحاديثَ صَحيحَةٍ عدَّة.

وتَعاطُفُ اليهودِ ومُحالفتُهمْ للمشركِينَ ضدَّ الرسالةِ الإسلاميةِ مَعروف.

{أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا} [النساء: ٥٢]

٥٢ — أولئكَ الذينَ تَفوَّهوا بذلكَ الإثمِ المبين، أبعدَهمُ اللهُ مِنْ رحمتهِ وخَذَلَهم، ومَنْ يَطرُدْهُ اللهُ فلا ناصِرَ لهُ ولا مُعينَ ليُنقِذَهُ مِنْ عَذابِه، بشفاعةٍ أو بغَيرِها، في الدُّنيا وفي الآخِرة.

وقدْ خَذَلَهمُ الله، فهُزِموا همْ والمشرِكون، وهمْ مَلعونونَ على طولِ الزَّمان.

{أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا} [النساء:٥٣]

٥٣ – أمْ تَحسَبُ أيُّها النبيُّ أنَّ لهمْ حَظًّا مِنَ الملكِ والمالِ؟ إنَّهُ ليسَ لهمْ ذلك، وحتَّى لو صارَ لهمْ شَيءٌ مِنَ الملكِ والتصرُّفِ فيهِ لَما أَعْطَوا الناسَ مِقدارَ النُّقطةِ التي في ظَهرِ النَّواة؛ لِما عُرِفوا بهِ مِنَ البُخلِ الشَّديد!

{أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا} [النساء:٥٤]

٥٤ – أمْ يَحسُدونَ نبيَّ اللهِ محمّداً صلى الله عليه وسلم على ما رَزقَهُ اللهُ منَ النبُوَّة، وجَعلَ رسالتَهُ خاتمَ الرِّسالات، ونَسختْ ما سَبقها مِنَ الأديان؟ وقدْ منعَهمْ حسَدُهمْ وحِقْدُهمْ عليهِ مِنَ الإيمانِ بهِ وبرسالتِه؟ ويَحسُدونَ معَهُ أصحابَهُ الذينَ آمَنوا بهِ وناصَروهُ وصارُوا أشدّاءَ عَليهم؟

ولماذا يَخصُّونَ النبيَّ محمَّدًا بالحسَد؟ فقدْ أعطَينا أسلافَهمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ النبُوَّةَ والمُلْكَ العَظيم، كداودَ وسُليمانَ وغيرِهما عَليهمُ الصَّلاةُ والسَّلام، فلا يَبعُدُ أنْ يُؤتيَهُ اللهُ ما آتاهم، وهمْ أسلافُهُ وأبناءُ عَمِّه. وما الذي نَفعَهمْ مِنْ حسدِهمْ هذا؟

{فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا} [النساء:٥٥]

٥٥ – فمِنْ أُممِهمْ مَنْ آمَنَ بأنبياءَ لهم، ومنهمْ مَنْ كفَر، وهمْ مِنْ جِنسِهم، فلا تَتعَجَّبْ منْ حالِ هؤلاءِ القومِ ومَوقفِهمْ مِنْ دعوتِكَ أيُّها الرسول، فإنَّ هذا شأنُهُمْ معَ أنبيائهمْ وهُمْ مِنهم، فكيفَ بهمْ وأنتَ لستَ منهم؟ وكفاهُمْ عُقوبةً نارٌ شديدةٌ تُسْعَرُ بهمْ وتُحرِقُهم؛ جزاءَ كفرِهمْ وعنادِهمْ ومُخالفتِهمْ كُتُبَ اللهِ ورسُلَه.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء:٥٦]

٥٦ – إنَّ الذينَ كفَروا بآياتِنا، مِنْ شَواهدَ ومُعجِزاتٍ أيَّدنا بها رُسُلَنا، سوفَ نُدخِلُهمْ ناراً هائلةً عَظيمة، كلما احترَقَتْ جُلودُهمْ فيها بَدَّلناها جُلوداً جَديدةً ليَزدادَ إحساسُهمْ بالعَذاب،

وليَدومَ ولا يَنقَطِع، واللهُ عزيزٌ لا يَمتَنِعُ عليهِ ما يُريد، ولا يَقْدِرُ أنْ يَمنَعَهُ مِنْ ذلكَ أحَد، حَكيمٌ في تَدبيرِهِ وتَقديرِهِ وتَعذيبِ مَنْ يُعَذِّبُه.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا} [النساء:٥٧]

٥٧ — والذينَ آمَنوا بآياتِنا، وأتْبَعوا إيمانَهُمْ بالأعمالِ الصَّالحةِ والطَّاعاتِ المقبولَة، سنُدخِلُهمْ جنّاتٍ كبيرةً وارِفةَ الظِّلال، تَجري مِنْ تحتِها الأنهار، معَ خلودٍ دائمٍ فيها، ولهمْ فيها أزواجٌ مُطَهَّراتٌ منَ الحيضِ والنفاسِ والأذَى والقذر، ونُدخِلُهمْ ظِلاًّ طيِّباً كثيراً لا تَنسَخُهُ الشَّمس، فهوَ دائمُ الفَيء، لا حَرَّ فيهِ ولا قَرّ.

{إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء:٥٨]

٥٨ — إنَّ اللهَ يوجِبُ عليكمْ أنْ تَؤدُّوا الأماناتِ إلى أصحابِها، أيَّ أمانةٍ كانت، وهيَ الأماناتُ الواجبةِ على الإنسان، مِنْ حُقوقِ اللهِ على عِبادِه، ومِنْ حُقوقِ العِبادِ بعضِهمْ على بَعض. فمَنْ لم يَفعلْ ذلكَ في الدُّنيا أُخِذَ منهُ في الآخِرَة، كما في الحديثِ الصَّحيح.

وإنَّ اللهَ يأمرُكمْ أنْ تَحكُموا بالعَدلِ إذا حَكمتُمْ بينَ الناس، ونِعْمَ الشيءُ الذي يَعِظُكمُ اللهُ به، وهوَ الحُكْمُ بالعَدل. وكانَ اللهُ سميعاً لجميعِ أقوالِكم، بَصيراً بكلِّ أفعالِكم.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء:٥٩]

٥٩ — أيُّها المؤمِنون، التَزِموا بما أمرَكمُ اللهُ بهِ ونَهاكُمْ عنه، وأطِيعُوا رسولَه، فإنَّهُ مُبَلِّغُ أحكامِ ربِّه، وأطِيعُوا أولي الأمرِ مِنكمْ بالمعرُوف، أي: إذا كانَ أمرُهمْ موافِقاً لأحكامِ الشريعةِ الإسلامية، وإلاّ فإنَّهُمْ لا يُطاعُون، ففي الحديثِ قولهُ صلى الله عليه وسلم: "السَّمعُ والطَّاعةُ على المرءِ

المسلمِ فيما أحَبَّ وكَرِهَ ما لم يُؤمَرْ بمَعصِية، فإذا أُمِرَ بمَعصِيةٍ فلا سَمْعَ ولا طاعة". رواهُ الشَّيخانُ وغيرُهما.

وإذا اختَلفتُمْ -أيُّها المؤمِنونَ- في شَيء، فراجِعوا فيهِ كتابَ اللهِ وسنَّةَ رسولِهِ صلى الله عليه وسلم، فما حَكَمَ بِهِ الكتابُ والسنَّةُ هوَ الحقّ، ومَنْ تَخطَّى الحقَّ وقعَ في الضَّلال. فالواجِبُ عليكمُ التَّحاكُمُ إليهما، هذا إذا كنتُمْ حقّاً مُؤمِنينَ باللهِ واليومِ الآخِر. والتحاكُمُ إلى كتابِ اللهِ وسُنَّةِ نبيّه، والرجوعُ في فَصلِ النزاعِ وردِّ الخصوماتِ إليهما، خيرٌ وأحمَدُ عاقبةً وأحسَنُ مآلاً.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا}

[النساء: ٦٠]

٦٠ – ألا تَعْجَبُ أيُّها النبيُّ مِنْ صَنيعِ هؤلاءِ الذينَ يَدَّعُونَ الإيمانَ بما أُنزِلَ عليكَ وبما أُنزِلَ على الأنبياءِ مِنْ قَبلِك، ومعَ ذلكَ يُريدونَ أنْ يَتحاكَموا في فَصلِ الخُصوماتِ إلى غيرِ كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِه؟

والطاغوتُ هوَ الشَّيطان، أو كلُّ مَنْ يَحكمُ بالباطل، وقدْ أُمِروا أنْ يَكفُروا به. فكيفَ يَتحاكَمونَ إليهِ وهمْ يُريدونَ الهِدايةَ بك؟! والشَّيطانُ يُريدُ إضلالَهُمْ ليَنحرِفوا انحِرافاً بَعيداً عنِ الحقّ حتَّى لا يَتحاكَموا إليك!

وفي حديثٍ مُرْسَلٍ صحيحِ الإسنادِ أنَّها نَزلتْ في رجلٍ منَ الأنصارِ يَزعُمُ أنَّهُ مُسلم، كانتْ بينَهُ وبينَ يَهوديٍّ خُصومة، فاتَّفقا على أنْ يَتحاكَما إلى كاهِنٍ مِنْ بَني جُهَينة.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا}

[النساء: ٦١]

٦١ – وإذا قيلَ لأولئكَ المتحاكِمينَ إلى الطاغُوت: تعالَوا إلى التَّحاكمِ إلى كتابِ الله، وإلى رسولِهِ الذي يَحكُمُ بِهِ للفَصلِ بينَكم، أبصَرتَ المنافقينَ يُعرِضونَ عنكَ – أيُّها النبيُّ – إعراضَ المستَكبِر.

{فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا} [النساء:٦٢]

٦٢ – فكيفَ يَصنَعونَ إذا نالَتْهُمْ نَكبةٌ تُظهِرُ نِفاقَهمْ بسَببِ صُدودِهِمْ وما عَمِلوا منْ جِنايات، ثمَّ جاؤوكَ مُعتَذرِينَ إليكَ وهمْ يَحلِفونَ: ما أرَدنا بالتحاكمِ إلى غيرِكَ إلا إحسَاناً إلى الخصومِ وتَوفِيقاً بينَهمْ وليسَ إعراضاً عنْ حُكمِك!

{أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا} [النساء:٦٣]

٦٣ – أولئكَ النَّفرُ مِنَ النَّاسِ همُ المنافِقون، قدْ عَلِمَ اللهُ أنَّ ما في قلوبِهم خِلافُ ما على ألسِنَتِهم، لا تَخفَى عليهِ خافِية، وسَيَجزيهمْ على ذلك، فلا تُعَنِّفْهُمْ عمّا أبطَنوهُ في قلوبِهم، وعِظْهُمْ في الملأ، وانهَهُمْ عنِ النِّفاق، وانصَحْهُمْ بكلامٍ مُؤثِّرٍ عميقٍ رادِعٍ لهم.

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا} [النساء:٦٤]

٦٤ – وما أرسلنا رَسولاً مِنَ الرسُلِ إلاّ ليُطاعَ بأمرِ الله، لأنَّهُ مُؤدٍّ عنهُ تعالَى، فطاعتهُ طاعةٌ لله، ومَعصيتُهُ معصيةٌ له.

ولو أنَّهمْ عندَما أخطَؤوا وتَحاكَموا إلى الطَّاغوتِ رَجَعوا إلى أنفسِهمْ وعَرفوا خَطأهم، وجاؤوا إليكَ مُعترِفينَ بذلك، وأبدَوا نَدمَهمْ فاستَغفَروا اللهَ مِنْ ذَنبِهم، واستَغفَرَ لهمْ نبيُّهمْ محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، لتابَ اللهُ عليهمْ ورَحِمَهم.

{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء:٦٥]

٦٥ – فوربِّكَ أيُّها النبيُّ لا يُؤمِنونَ حتَّى يَجعلوكَ حَكَماً فيما اختَلفوا فيهِ والتبَسَ عليهمْ حُكمُه، فما حَكمْتَ بهِ هوَ الحقُّ الذي يَجِبُ أنْ يُتَّبع، ثمَّ لا يَجِدونَ في أنفسِهمْ وقلوبِهمْ شكًّا أو ضِيْقاً ممّا حَكمتَ به، فانقَادوا إلى حُكمِكَ وأذعَنوا لهُ ظَاهِراً وباطِناً، وسَلَّموا بذلكَ تَسليماً كُلِّياً

مِنْ غيرِ مُمانَعةٍ ولا مُنازَعة. وكما جاءَ في الحديثِ الشـريفِ الذي وثَّقَ رجالَهُ ابنُ حجرٍ في الفَتْح: "لا يُؤمِنُ أحدُكمْ حتَّى يَكونَ هَواهُ تَبَعاً لِمَا جِئتُ به".

{وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا} [النساء:٦٦]

٦٦ – ولو أنَّا أوجَبنا على النَّاسِ أنِ اقتُلوا أنفسَكم، في عُقوباتٍ نَفرِضُها عليهمْ نتيجةَ أعمالِهمُ السيِّئةِ ومُخالفتِهمْ أوامرَ الله، كما كانَ الشأنُ معَ بَني إسرائيل، أو اخرُجوا مِنْ وطنِكُمْ كما أمَرْنا بني إسرائيلَ أيضاً بالخُروجِ مِنْ مِصر، لما فَعلَهُ إلاّ القليلُ منهم، وهمُ المخلِصونَ، الذينَ يُفْدُونَ دينَهمْ ونبيَّهمْ بأرواحِهم.

والآيةُ مُتعلِّقةٌ بما قبلَها، أي: إنَّما أوجَبنا عليهمْ ما هوَ سَهلٌ وحَقّ، وهوَ أنْ يُطيعُوا الرسُولَ ويَنقَادوا لحُكمهِ ويَرضَوا به، ولو فَرَضنا عَليهمْ قَتْلَ أنفسِهمْ أو الخُروجَ مِنْ ديارِهمْ لَما فعلَهُ إلاّ القليل. فليُقارِنوا بينَ الأمرَين، وليَستَجيبوا لأمرِ اللهِ ورسُولهِ حتَّى لا يُبتَلُوا بأحكامٍ قاسيةٍ كما فُرِضَتْ على بَني إسرائيلَ نَتيجةَ تَعنُّتِهمْ وعِنادِهمْ ورَفضِهمْ أوامرَ أنبيائهم.

وأوَّلَهُ ابنُ كثيرٍ تأويلاً آخَر، فقال: يُخْبِرُ تعالَى عنْ أكثرِ الناسِ أنَّهُمْ لو أُمِروا بما هُمْ مُرتَكِبوهُ مِنَ المناهي لما فَعلوه؛ لأنَّ طِباعَهمُ الردِيئةَ مَجبولةٌ على مُخالفةِ الأمر. ا.هـ.

ولو أنَّهُمْ فَعلوا ما يُؤمَرونَ بِهِ وانقادُوا لحُكمِ اللهِ ورسولِه. لكانَ أفضلَ لهمْ مِنْ مخالفَتِه، وأثبتَ في الحقِّ والصَّواب، وأبعدَ منَ الشُّبهات.

{وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء:٦٧]

٦٧ – ولو ثَبتُوا على ذلكَ لجَزَيناهُمْ خَيراً، وأعطَيناهمْ مِنْ عِندِنا ثَواباً عَظيماً لا يُقَدَّرُ قَدْرُه.

{وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [النساء:٦٨]

٦٨ – ولوَفَّقناهُمْ وثبَّتناهمْ على الطريقِ الحقِّ الذي يُؤدِّي بهمْ إلى الجنَّة.

{وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [النساء:٦٩]

٦٩ – ومَنْ عَمِلَ بما أمرَهُ اللهُ فانقادَ لأمرِهِ ونَهيه، واستَجابَ لرَسولِهِ فِيما بَلَّغَ عنه، فأولئكَ المطِيعونَ دَرجتُهمْ في الجَنَّةِ معَ الذينَ تَفضَّلَ اللهُ عَليهِمْ وأكرَمَهمْ وجَعلَهُمْ خَيرَ الناس، مِنْ أنبيائه، وعِبادِهِ الصدِّيقينَ والشُّهداء، والصَّالحينَ الذينَ تولاّهمُ اللهُ بالصَّلاحِ فصَلَحَتْ سرائرُهمْ وعلانيتُهم، وما أحسَنَ هؤلاءِ رِفْقَة، ولطَافةً وعِشْرة.

{ذَلِكَ الفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى بِاللهِ عَلِيمًا} [النساء:٧٠]

٧٠ – وذلكَ الأجرُ الكبيرُ الذي أُعِدَّ لهمْ هوَ مِنَ اللهِ الكريم، وهوَ العليمُ بمَنْ يَستَحِقُّ ذلكَ وبمِقدارِه.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا} [النساء:٧١]

٧١ – أيُّها المؤمِنون، احترِزوا مِنْ عَدوِّكمْ وتأهَّبوا لهُ بما يَرْدَعُهم، فاخرُجوا لهُ جماعاتٍ مُتَفرِّقة، أو مُجتَمِعينَ جَماعةً واحِدة.

{وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا} [النساء:٧٢]

٧٢ – وإنَّ منكمْ مَنْ يَتخَلَّفُ ويَتثاقلُ عنِ الجِهاد، فإذا قَتلَ العدوُّ منكمْ أو هُزِمْتُم، قالَ أحدُهمْ حامِداً لرأيه: قدْ أنعمَ اللهُ عليَّ إذْ لم أحضُرْ مَعَهُمْ فيُصيبُني ما أصابَهمْ مِنَ القَتلِ أو الشدَّة. والمقصودُ المنافِقون، فقدْ كانوا يَتخلَّفونَ عنِ الجِهاد، أو يَرْجِعونَ مِنْ عَسكَرِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم. وقدْ يَكونُ بَينَهمْ ضَعَفةُ المسلِمين، الذينَ يتأثَّرونَ بكلامِهم.

{وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا} [النساء:٧٣]

٧٣ – وإذا أصـابَكمْ نَصـرٌ وغَنيمةٌ بفَضـلِ الله، نَدِمَ على قُعودهِ وتَخَلُّفهِ عنِ الجِهاد، تَحَسُّـراً على ما فاتَهُ مِنَ الغَنيمة، ويَقولُ وكأنَّهُ ليسَ مِنْ أهلِ دينِكمْ ولا رابِطَ لوشـيجةِ العقيدةِ بينَكم: يا ليتَني حَضرتُ مَعهمُ القِتالَ لآخُذَ نَصيباً وافِراً منَ الغَنيمة.

{فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء:٧٤]

٧٤ – فليُقاتِلِ المؤمِنونَ في سـبيلِ اللهِ هؤلاءِ الكافِرينَ الذينَ يَبيعونَ الحياةَ الأُخرويَّةَ الحقيقيَّةَ الدَّائمَةَ بالحياةِ الدُّنيا الفانيَة. ومَنْ يُقاتِلْ في سـبيلِ الله، يُرِيدُ بذلكَ وجهَه، ولتَكونَ كلمتهُ هيَ العُليا، ثمَّ يُستَشهَد، أو يَنتَصِر، فلهُ – في كِلتا الحالتَين – مَثوبةٌ عظيمةٌ وأجرٌ جَزيل.

{وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ القَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا} [النساء:٧٥]

٧٥ – ولماذا لا تُجاهِدونَ في طاعةِ اللهِ وطَلَبِ رِضـاه، ولأجلِ إنقاذِ المستَضـعفِينَ منْ أيدي المشرِكينَ بمكَّة، وهمْ مُسلِمونَ أسرَى وضُعَفاءُ وأذلَّةٌ هُناك، مِنَ الرِّجالِ والنِّسـاءِ والأولاد، الذينَ مَنعَهمُ الكفّـارُ منَ الخروج، أو ضَـعُفوا همْ عنِ الهِجرة، وبَقُوا هنـاكَ يَلقَونَ الأذَى منهم، وهمْ يَدْعُونَ ويَقولون: اللهمَّ أعِنّا على الخُروجِ مِنْ هـذهِ القريةِ التي يَظلِمنا أهلُها وكُبَراؤها، وهيِّئْ لنا مِنْ عِنْدِكَ وليّاً وناصِراً يَمْنَعُنا منهم.

{الَّذِينَ آَمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [النساء:٧٦]

٧٦ – إنَّ المؤمِنينَ إنَّما يُقاتِلونَ لأجلِ إعلاءِ كلمةِ اللهِ وطلبًا لمرضـاتِه، فهوَ وليُّهُمْ وناصـرُهمْ ومُوصِلُهمْ إلى جنَّته.

والكافِرونَ يُقاتِلونَ في طَاعةِ الشيطان، الذي يُوصِلُهمْ إلى الكُفر، فالنَّار. فقاتِلوا يا أولياءَ اللهِ وأنصـارَ نَبيِّه، قاتِلوا الكافِرينَ الذينَ والَوا الشَّيطان، ولا تَخْشَوا تَهويلَه، فإنَّ كيدَهُ ضَعِيف، ومَكرَهُ

يَبور، وإنَّ كيدَهُ للمُؤمنينَ بالمقارنةِ إلى كيدِ اللهِ سبحانَهُ وتعالَى للكافرينَ ضَعيفٌ لا يُؤبَهُ به، فلا تَخافوا أولياءَه، واللهُ وليُّكمْ وناصرُكم.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا} [النساء:٧٧]

٧٧ – ألا تَنظرُ أيُّها النبيُّ إلى بعضِ المسلِمينَ الذينَ طُلِبُ منهمْ أنْ يَكُفُّوا عنْ قِتالِ المشرِكينَ ويَعفوا عنهمْ عندَما كانوا ضُعفاءَ بمكَّة، وقيلَ لهمْ وقتَها: قُومُوا بواجبِكمْ في الطَّاعةِ وجِهادِ النَّفس، فأقِيموا الصَّلاةَ بخُشوع، وأعطُوا الزكاةَ لتواسُوا بها الفُقَراءَ والمسَاكينَ، لكنَّهمْ كانوا يَطلبونَ منكَ أنْ تأذنَ لهمْ بقِتالِ المشرِكين؛ لِما يَلقَونَ منهمْ منَ الأذَى.

ولما قَوُوا وفُرِضَ عليهمُ الجِهاد، وطُلِبَ منهمْ مُقاتَلةُ الكفّار، إذا فريقٌ منهمْ يَخشَونَهمْ كما يَخشَونَ اللهَ أنْ يُنْزِلَ بهمْ بأسه، أو أكثَر، وذلكَ لِما أصابَهمْ مِنْ خَوفٍ وجَزَع – والمسلمونَ مُتفاوِتونَ في قوَّةِ الإيمان، وفي لقاءِ الأعداء – وقالَ أولئكَ الخائفون: ربَّنا لمَ فَرضتَ علينا القِتالَ الآن، فلَو أخَّرتَ فَرْضَهُ إلى وقتٍ آخَرَ لكانَ أفضَل، ففيهِ سَفكٌ للدِّماء، ويُتْمٌ للأبناء، وتأيُّمٌ للنِّساء...

قُلْ لهمْ أيُّها النبيّ: إنَّ جميعَ ما يُستَمتَعُ بهِ في الدُّنيا هوَ قليلٌ جدّاً نسبةً إلى الثَّوابِ المتَرتِّبِ على الأعمالِ الطيِّبةِ في الآخِرة، ومنها الجِهادُ في سَبيلِ الله، فالآخِرةُ لمنْ جاهدَ واتَّقَى خيرٌ منَ الدُّنيا ومَتاعِها القَليل.

ولنْ تُظلَموا فيما تُؤدُّونَهُ مِنْ أعمال، ولا تُنقَصونَ مِن ثوابِها أدنَى شيء، ولو مِقدارَ الخيطِ الذي في شِقِّ النَّواة، وكلَّما كثُرَتْ وعَظُمَتْ زادَ ذلكَ مِنَ الأجر، فلا تَرغَبُوا عنِ القِتال، ودَعُوا الدُّنيا وغُرورَها، وأقبِلوا على ما يُهَنِّئكمْ في الآخِرَة، فهيَ خيرٌ لكم.

{أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} [النساء:٧٨]

٧٨ — أينما وُجِدتُمْ فإنَّ مصـيرَكمْ إلى الموت، فلا بدَّ لكمْ منه، ولو كنتُمْ في قُصـورٍ عاليَةٍ رفيعة، ومَنيعةٍ حَصينة، فلا يُغني حَذَرٌ وتَحَصُّنٌ عنِ الموت، إنْ جاهدتُم أو لم تُجاهدوا، فإنَّ الأجلَ مَحتوم، وكلُّ نَفسٍ ذائقةُ الموت.

وإذا بُسِـطَ لهمُ الرِّزقُ وجاءَتهمُ الثِّمارُ والزُّروع، والنَّعيمُ والرَّخاء، قالوا: هذا مِنْ عندِ الله، وإذا أُصِـيبوا ببَليَّة، مِنْ جَدْبٍ وغَلاءٍ، ونَقصٍ في الثِّمار، أو مَوتِ أولادٍ أو غَيرِ ذلك، قالوا للرسُـولِ صلى الله عليه وسلم: هذا جاءَنا مِنْ قِبَلك، لأنَّنا اتَّبعناكَ واقتدَينا بدينِك! وكما قال سبحانَهُ في مثلِ ذلك: {فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ} [سـورة الأعراف: ١٣١]. وهكذا كانَ المنافِقون، إذا أصـابَهم الشـرُّ أسـنَدوهُ إلى اتِّباعِهِمْ النبيَّ صلى الله عليه وسلم.

قلْ لهمْ أيُّها الرسُـول: كلٌّ مِنْ عندِ الله، فالحسَـنةُ والسـيِّئة بقضـاءِ اللهِ وقدَره، والنِّعمَةُ والبَليَّةُ مِنْ عندِه، وقَضـاؤهُ ماضٍ في البَرِّ والفاجِر، ونافِذٌ في المؤمنِ والكافر، فما لهؤلاءِ القَومِ مِنَ اليهودِ والمنافِقينَ قدِ ابتُلوا بقلَّةِ الفَهمِ والعِلم، وكثرةِ الجَهلِ والظُّلم، ولا يَكادونَ يَفهَمونَ كلاماً يُوعَظونَ به؟!

{مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا} [النساء:٧٩]

٧٩ — ما أصابكَ أيُّها الإنسانُ مِنْ نِعمَةٍ ورَخاءٍ فهو مِنْ فضلِ اللهِ عَليكَ ولُطفهِ وإحسانِه، وما تَقومُ بهِ مِنْ عِبادةٍ وطاعةٍ لا تَكادُ تُكافِئُ نِعمةَ وجودِك، فضـلاً عنِ النِّعمِ الأخرَى عليك. وما أصـابَكَ مِنْ مُصـيبةٍ فقدْ جاءَتْكَ مِنْ قِبَلك، مِنْ عملِكَ وما اقترفتَهُ مِنْ مَعاصٍ ومُنكرات، وإنْ كانتْ مِنْ حيثُ الإيجادُ مُنتَسِبةً إلى اللهِ تعالى، نازلةً مِنْ عندهِ عُقوبة، وهذا كقولِهِ سبحانه: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} [الشورى: ٣٠].

وقدْ بعثناكَ للناسِ رسُولاً، تبلِّغُهمْ شَرائعَ الله، وتُبيِّنُ لهمْ أحكامَه.

وكَفَى باللهِ شَـهيداً على رسـالتِك، وعلى ما تُبَلِّغُهم، وعلى ما يَحصُـلُ بينَكَ وبينَهم، وعلى موقفِهِمْ مِنَ الدَّعوة.

{مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} [النساء: ٨٠]

٨٠ – مَنْ يُطِعِ الرسولَ محمَّداً صلى الله عليه وسلم فقدْ أطاعَ اللهَ وعَمِلَ بما قال، ذلكَ أنَّهُ ناطقٌ بالوحي ومُبَلِّغٌ عن اللهِ أحكامَ الدِّين.

ومَنْ أعرضَ عمّا جِئتَ بهِ ولم يَسـمَعْ كلامَكَ فقدْ خابَ وخَسِـرَ وجنَى على نفسِـه، لأنَّهُ عصَى اللهَ وأعرضَ عنْ دينِه، ولا عليكَ منهم، فلستَ مَسؤولاً عنهمْ وعمّا يَعمَلون، ولم نُرسِلْكَ حَفيظاً مُهيمِناً تَحفَظُ أعمالَهُمْ عليهِمْ وتُحاسِبُهمْ عليها، إنَّما عليكَ التَّبليغ.

{وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا} [النساء: ٨١]

٨١ – وإذا حضـرَ المنافِقونَ مجلِسَـكَ أظهَروا الموافقةَ لكَ والطَّاعةَ لِما تَقول، فإذا خَرجوا وغابُوا عنك، زوَّرَتْ كلامَكَ جماعةٌ منهمْ – وهمْ رؤساؤهمْ – وجَعَلتْهُ خِلافَ ما تَقول، وعَزموا على شَـرّ، واللهُ يَعلمُ بما يُسِـرُّون، ويَكتبهُ ويُثْبِتهُ في صَـحائفهمْ ليُجازِيَهمْ عَليها، فلا يُهِمَّنَّكَ أمرُهم، ولا تأبهْ بهِمْ وبموقفِهم، واحْلُمْ عليهم، وفَوِّضْ أمرَكَ إلى اللهِ وثِقْ به، وكَفَى بهِ ناصـراً لك، ومُعيناً لمنْ توكَّلَ عليه، ولسَوفَ يَنتَقِمُ لكَ مِنهم.

{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: ٨٢]

٨٢ – أفلا يَتأمَّلونَ ويَتمَعَّنونَ في القُرآنِ الكريمِ وكلِماتِه، ومَعانيهِ ومُعجِزاتِه، وكيفَ أنَّهُ مُحْكَمٌ بَليغ، لا اختلافَ فيهِ ولا مُعارَضة، بلْ يُصَدِّقُ بَعضُهُ بَعضاً، ذلكَ أنَّهُ مُنْـزَلٌ منْ عندِ اللهِ الواحدِ الحقّ، ولو كانَ مِنْ عندِ غيرِهِ لوجَدوا فيهِ مُخالفةً ومُعارَضـةً بينَ آياتهِ ومَعانيها، ففيهِ منَ الإخبارِ بالغيب، وما يُسِرُّهُ المنافقونَ، وتاريخُ أهلُ الكتابِ الكثير..

{وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء:٨٣]

٨٣ – وهناكَ صِنْفٌ مِنَ الناسِ إذا وَصَلتْهمْ أخبارٌ ممّا يوجِبُ الأمنَ والخَوف، مِن ظَفرٍ وغَنيمة، أو نَكبةٍ وهَزيمة، لم يَتحقَّقوها، بلْ أفشَوها، ولو كانتْ خاليةً منَ الصحَّة، وقدْ يَزيدونَ فيها أو يَنقُصون، وهمْ لا يأبَهونَ بآثارِها على أصحابِها أو على المجتمعِ الذي تؤثِّرُ فيه الشائعاتُ المغرِضَة، ولو أنَّهمْ تَحَقَّقوا منَ الخبَر، وجاؤوا يَسألونَ رَسولَ اللهِ أهوَ حَقٌّ أمْ باطِل، وسألوا أجِلَّةَ صحابتِهِ عنْ ذلك، لعَلِموا تدبيرَ هذا الأمرِ الذي أخْبَروا به، لفِطنتِهمْ ومعرفتِهمْ وخِبرتِهمْ بالأمور، فيَعرفونَ كيفَ يتصَرَّفون، وما يأتونَ منهُ وما يَذَرون.

ولولا حِفْظُ اللهِ لكمْ ورأفتُهُ بكمْ لسِرتُمْ على نهجِ الشَّيطان، وتأثَّرتُمْ بما يُشِيعُهُ أنصارُهُ منَ الخطأ والضَّلال، ولم تَهتدوا إلى الصَّواب، إلا القليلُ منكم، وهمْ المستَنيرةُ عقولُهُمْ بأنوارِ الإيمانِ الراسِخ، المتعَمِّقونَ في معرفةِ الأحكام، الثَّابِتونَ على الحقّ.

وقدْ نزلتْ فيما أُشِيعَ منْ أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قدْ طلَّقَ زوجاتِهِ وهوَ لم يَفعل، والذي سألَ الرسُولَ عليه الصلاةُ والسلامُ واستَنبطَ الأمرَ هوَ عمرُ رضي الله عنه، كما في الحديثِ الصَّحيح.

{فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا} [النساء:٨٤]

٨٤ – ولا تأبَهْ بخِذْلانِ المنافِقينَ وتَقصيرِ الآخَرين، فلا تُكَلَّفُ إلا المجاهَدةَ بنفسِك، ولا تُلزَمُ فعلَ غيرِك. فتَقدَّمْ إلى الجِهاد، ورغِّبِ المؤمنينَ فيهِ وحُثَّهمْ عليه، وعِظْهُم في إثمِ مَنْ تخلَّفَ عنه، وثوابِ مَنْ باشَرَه، فلربَّما انبَعثتْ بهذا هِمَمُ المخلِصينَ، فقاوَموا وصابَروا ودافَعوا عنِ الإسلامِ وأهلِه. واللهُ أقوَى وأقدرُ، وأشدُّ تَعذيباً وإلحاقاً للأذَى بالكافِرينَ منهم.

{مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا} [النساء:٨٥]

٨٥ – ومَنْ يَسْـعَ في أمرٍ يَترتَّبُ عليهِ خيرٌ يكُنْ لهُ حَظٌّ وافرٌ مِنَ ثَوابِه، ومَنْ يَسْـعَ في أمرٍ يَترتَّبُ عليهِ شرٌّ وإثمٌ يَكنْ عليهِ نَصيبٌ منَ الوِزْر، وكانَ اللهُ على كلِّ شيءٍ حافِظاً وشَهيداً.

{وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا} [النساء:٨٦]

٨٦ – وإذا سَلَّمَ عليكمُ المسلِمُ فرُدُّوا عليهِ تَحيَّةً أفضلَ منَ التحيَّةِ التي سلَّمَ بها عليكم، أو رُدُّوا عليهِ بمثلِ التحيَّةِ التي حَيّاكمْ بها، فالردُّ واجِب، والزيادةُ نَدْبٌ واستِحسان.

والسلامُ مِنْ أسماءِ اللهِ تَعالَى، فالابتداءُ بذِكْرِه أو بصفةٍ مِنْ صفاتهِ رَغبةٌ في إبقاءِ السلامةِ على الملقَى عليهِ التَّحيَّة، وفيهِ بِشارَةٌ بالسَّلامَة، والردُّ عليهِ تَبادُلٌ في هذا الدعاءِ الجَميل، وإشاعةٌ للسَّلامِ والمحبَّة.

واللهُ مُحاسِبُكمْ على كلِّ ما تَقولونَ وتَفعَلون، ومنْ ذلكَ ما أُمِرتُمْ بهِ منَ التحيَّةِ على إخوانِكم. على أنَّ الأمرَ بِهِ أمرُ استِحباب.

{اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا} [النساء:٨٧]

٨٧ – هوَ اللهُ وحدَه، لا يَستَحِقُّ العبادةَ سِواه، سوفَ يَحشُرُكُمْ جميعاً في صَعيدٍ واحدٍ يومَ القيامَة، وليسَ هناكَ أصدقُ منَ اللهِ في حَديثِهِ وخَبَرِه، ووَعدِهِ ووَعيدِه.

{فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا} [النساء:٨٨]

٨٨ – فما بالُكمْ أيُّها المسلِمونَ قدْ صِرتُمْ فَريقينِ في مَوقِفِكمْ منَ المنافِقين، فمِنْ قائلٍ إنَّهمْ مُسلِمون، ومِنْ قائلٍ إنَّهمْ كفّار؟ وقدْ رَدَّهمُ اللهُ إلى الكُفرِ بعدَ الإيمانِ نَتيجةَ عِصيانِهمْ وضلالِهِمْ ومُخالفتِهمُ الرسولَ صلى الله عليه وسلم، فهلْ تُريدونَ بموقفِكمْ أنْ تَرُدُّوهمْ إلى الهُدَى وهمْ يُريدونَ الضَّلال؟ فإنَّ اللهَ إذا أضَلَّ قوماً بحِكمتِه، لِما يَستَحِقُّونَهُ ولِما يَعرفُهُ مِنْ نيّاتِهمْ وعزائمِهمْ نحوَ

الباطِل، فلنْ تَجِدوا لهمْ طَريقاً إلى الهُدَى والإيمان، كما لنْ تَجدوا حُجَّةً لهمْ مُقْنِعةً في سَــببِ تَوجُّههِمْ إلى الضَّلالِ وتَفضيلهِ على الهُدَى.

{وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} [النساء:٨٩]

٨٩ — إنَّهُمْ يُحِبُّونَ أنْ تَرجِعوا إلى الضَّــلالِ فتكونونَ كفَّاراً مثلَهم، وما ذلكَ إلاّ لبُغضِــهمْ وشــدَّةِ عَداوتِهم لكم، ولغُلوِّهمْ وتمادِيهمْ في الكُفر، الذي طَمَسَ في قُلوبِهِمْ نورَ الإيمانِ ونَقاءَ الفِطرة.

فلا تَثِقوا بأحدٍ منهم، ولا تُوالُوهم، ولا تَستَنصِـروا بهِمْ على الأعداءِ ما دامُوا كذلك، حتَّى تَتحَقَّقوا مِنْ إيمانِهِمْ بهجرَتِهِمْ للهِ ورسولِه، لا لغَرَضٍ مِنْ أغراضِ الدُّنيا.

فـإذا تَركوا الهِجرة، أو أظهَروا الكُفر، فخُـذوهمْ أسـرَى إذا قَـدَرتُمْ عَليهم، واقتُلوهمْ أينما وَجدتُموهم، فإنَّ حُكمَهُمْ حكمُ سائرِ المشركِينَ أسراً وقَتلاً – وقيل: المرادُ القَتلُ لا غير – ولا تُوالُوا منهمْ أحداً، بلْ جانِبوهمْ مُجانَبةً كلِّية، ولا تَقبلوا منهمْ نُصْرَةً ولا وِلاية.

{إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا} [النساء: ٩٠]

٩٠ — ويُســتثنَى منَ القَتل: الذينَ يأتونَ قَوماً بَينَكُمْ وبَينَهُمْ مِيثاقٌ فيَدخُلونَ في العَهدِ بإرادتِهم، وآخَرونَ قدْ ضَــاقتْ صــدورُهمْ وبُغِّضَ قتالُكمْ عليهم، ولا يُريدونَ أنْ يُقاتِلوا قومَهمْ معَكمْ أيضـاً. وقدْ لطفَ اللهُ بكم، ولو شـاءَ لسـلَّطهُمْ عليكمْ فقاتَلوكُمْ معَ قومِهم، ولكنَّهُ كَفَّهمْ عنكم. فإذا تَجنَّبوا حربَكمْ وقدَّموا إليكمْ يدَ الصُّـلحِ وانقادُوا للسِّـلم، فليسَ لكمْ أنْ تَقتُلوهم، ما دامَتْ حالُهمْ كذلك.

ورُويَ عنِ ابنِ عباسٍ أنَّ هذا منسوخٌ بقولهِ تعالَى في أوَّلِ سورةِ التوبة: {بَرَاءةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْـرِكِينَ}، والآيةِ الخامسـةِ منها: {فَإِذَا انسَـلَخَ الأَشْـهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ}.

وبالرجوعِ إلى تَفسيرِ هاتينِ الآيتَينِ يُوقَفُ على تَفصيلٍ في الأمر.

وكذا قيلَ في الآيةِ التالية...

{سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا} [النساء:٩١]

٩١ — وهناكَ صِـــنْفٌ آخَرُ مِنَ الناسِ يُظهِرونَ لكمُ الإيمانَ ويَذكرونَ أنَّهمْ في طَرَفِكم، وإنَّما يُريدونَ بذلكَ ألاّ تَتعرَّضـــوا لهم، فيأمَنوا بذلكَ على دمائهمْ وأموالِهمْ وذَرارِيهمْ كما أمِنوا مِنْ قَومِهم، وهمْ في الحَقيقَةِ منافِقون، فكلَّما طلبَ منهمْ مشـركو قُرَيشٍ العودةَ إلى الشِّـركِ رجعوا إليهِ وانهَمكوا فيه. فإذا لم يَكفُّوا عنِ التعرُّضِ لكمْ بوجهٍ ما، ولم يُلقُوا إليكمُ الصُّلحَ والمهَادَنة، ولم يَكُفُّوا أنفسَهُمْ عنْ قتالِكم، فخُذوهمْ أُسَراءَ واقتُلوهمْ أينما وجَدتُموهم، فقدْ جعلنا لكمْ عَليهمْ حُجَّةً بيّنةً لقتالِهم، لظُهورِ عَداوتِهمْ ووضوحِ كُفرِهمْ وخُبثِهم.

{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللهِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء:٩٢]

٩٢ — ولا يَحِلُّ لمؤمنٍ أنْ يَقْتُلَ أخاهُ المؤمنَ بأيِّ وجهٍ منَ الوجوه، إلاّ أنْ يَكونَ ذلكَ عنْ طريقِ الخطأ.

فإذا قتلَ مؤمناً بالخطأ فعقُوبتهُ أنْ يُعتِقَ رقَبةً مُؤمِنة، وأنْ يُعطيَ ورثَتَهُ دِيَةَ القَتل، إلاّ أنْ يَعفوا عنه، فلا تَجِبُ عليه.

فإذا كانَ المقتولُ منْ قومٍ كفّارٍ مُحارِبين، وهوَ مُؤمن، ولم يَعرفِ القاتلُ أنَّهُ مُؤمِن، فعقُوبتهُ الكفّارةُ دونَ الدِّيَة، وهيَ تَحريرُ رقَبةٍ مؤمِنة، فإنَّهُ لا وِراثةَ بين المؤمنِ المقتولِ وقومِه، لأنَّهُمْ كفّار.

فإذا كانَ المقتولُ المؤمنُ مِنْ قومٍ كُفّارٍ بينَكمْ وبينهمْ عَهد، يَعني: أولياؤهُ أهلُ ذِمَّةٍ أو هُدْنَة، فلهمْ دِيَةُ قتيلِهم، معَ تحريرِ رقبةٍ مُؤمِنة، كما هوَ حُكْمُ سَائرِ المسلِمين.

فمَنْ لم يَقْدِرْ على عِتْقِ نَفسٍ مُؤمِنة، فعليهِ صومُ شَهرينِ مُتَتابِعين، يَسرُدُ صومَهما إلى آخرِ الشَّهرينِ دونَ أن يُفطِرَ بينَهما، وهيَ توبةُ القاتلِ خطأً إذا لم يَجِدِ العِتق.

وكانَ اللهُ عليماً بخَلْقهِ وما يَعمَلون، حَكيماً فيما دَبَّرَهُ لهمْ مِنْ شَرائعَ وأحكام.

{وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء:٩٣]

٩٣ — ومَنْ يَقتُلْ أخاً مؤمِناً لهُ مُتعَمِّداً، بغيرِ حقّ، فقدِ ارتكبَ ذَنباً عَظيماً وإثماً كبيراً، وجَزاؤهُ الذي يَستَحِقُّهُ جهنَّم، خالداً فيها، معَ مَقْتِ اللهِ له، وغَضبِهِ عليه، وانتِقامِهِ منه، وإبعادِهِ عنْ رحمتِه. وقدْ أعَدَّ لهُ في جهنَّمَ عَذاباً أليماً وعُقوبةً فَظيعة، لا يوقَفُ على قَدْرِهِ ووَصْفِه!

والمقصودُ بالخلودِ في العذابِ للمسلمِ هوَ المكثُ الطويلُ لا الدَّوام، بدليلِ نصوصٍ أخرَى في القُرآنِ والسنَّة.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [النساء:٩٤]

٩٤ — أيُّها المؤمِنون، إذا سافرتُمْ في الغَزو، فتثبَّتوا وتعرَّفوا جيّداً لِما تُقْدِمُونَ عليهِ ممّا طُلِبَ منكم، واعرِفوا ماذا ستَفعلونَ وماذا ستَتركون، ولا تَتعجَّلوا في أمرٍ دونَ تَدبيرٍ ورَويَّة، ولا تَقولوا لمنْ حيّاكمْ بتحيَّةِ الإسلام، أو استَسلمَ فأظهرَ الانقيادَ لِما دُعيَ إليهِ مِنَ الإسلام: لستَ مؤمناً، بلْ قلتَ ذلكَ لئلاّ أقتُلَكَ مثلَ بقيَّةِ المحارِبينَ المشرِكين. فهلْ تُريدُونَ مِنَ الإقدامِ على هذا العملِ دونَ تَثبُّتٍ عَرَضاً مِنَ الدُّنيا قَليلاً وحُطاماً يَنفَدُ بعدَ قليل؟ فإنَّ ما أعدَّهُ اللهُ لكمْ جزاءَ جهادِكمْ هوَ خيرٌ منْ هذا بكثير.

وقد كانتْ حالُكمْ في وقتٍ ما مثلَ حالِ هؤلاءِ الآن، الذينَ يتَّقونَ بأسَكم، فكنتُمْ ضُعفاءَ تُخفُونَ إيمانَكمْ وتَخْشَونَ فِتنةَ المشرِكين، فلطَفَ اللهُ بكمْ وأنقذَكمْ منهم، فتثبَّتوا وتَحقَّقوا إذا أقدَمتُمْ على أمر، فإنَّكمْ أصحابُ رسالةٍ رَحيمة، ومَسؤولونَ عمّا وُكِّلَ بكمْ مِنْ أعمَال، واللهُ مطَّلعٌ على أعمالِكمُ الظاهرةِ والخفيَّة، فيُجازيكمْ بها ويُحاسبُكمْ عليها، فلا تَتهاونوا في الأمورِ واحتاطُوا.

وفيها بيانُ صِحَّةِ إيمانِ مَنْ أظهرَ الإسلام، وإنْ كانَ في الباطنِ على خِلافِه، حيثُ أُمِرَ المسلِمون بإجرائهِ على أحكامِ المسلِمين.

{لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء:٩٥]

٩٥ — لا يَتماثَلُ في الأجرِ مَنْ أُذِنَ لهُ بالقُعودِ عنِ الجِهادِ ومَنْ جَاهدَ بنَفسِهِ ومالِه، إلاّ أنْ يَكونَ هذا القُعودُ عنْ عُذرٍ مُبيحٍ لتركِ الجِهاد، كعَمًى وعَرجٍ ومَرَض، فقدْ فَضَّلَ اللهُ المجاهِدينَ عليهمْ دَرجةً كبيرة، لِما يُفْدُونَ بهِ أرواحَهمْ في سَبيلِ الله، ولِما يَبذلونَهُ منْ أموالٍ في سبيلِ تَقويةِ جَيشِ الإسلام، وكِلا الفريقينِ وعدَهمُ اللهُ المثوبةَ الحُسنَى، وهيَ الجنَّة، لكنَّ درجةَ المجاهدينَ منهمْ على الآخَرينَ عَظيمةٌ جدّاً، فإحسانُ اللهِ إليهم، وتَكريمهُ إيّاهمْ في الجِنانِ العالياتِ أكبرُ وأجَلّ.

{دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء:٩٦]

٩٦ — والمجاهدونَ لهمْ دَرَجاتٌ مُختلِفةٌ في الجنَّة، بحسَبِ جُهدهمْ وجِهادِهم.

وفي حَديثِ أبي هريرةَ الذي خَرَّجَهُ البُخاريّ: "إنَّ في الجنَّةِ مائةَ دَرجة، أعَدَّها اللهُ للمجاهِدينَ في سَبيلِ الله، ما بينَ الدرجتينِ كما بينَ السَّماءِ والأرض!

وهذا مِنْ فضلِ اللهِ عليهم، ومَغفرتهِ لذُنوبِهم، ورَحمتهِ بهم.

ومَنْ باعَ نفسَهُ لله، وفَدَّى دِينَهُ بروحِه، أثابَهُ أحسَنَ الجِنان.

{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً} [النساء: ٩٧]

٩٧- إنَّ الذينَ قَبضتِ الملائكةُ أرواحَهم وهمْ مُقِيمُونَ في دارِ الشِّرك، ولم يَكونوا مُتمَكِّنينَ مِنْ إقامةِ شعائرِ دينِهم، وكانوا قادرِينَ على الهجرةِ ولم يُهاجِروا، قدْ ظَلموا أنفسَهم وارتَكبوا مُحَرَّماً. ولم يَقبَلِ اللهُ الإسلامَ بعدَ هجرةِ النبيّ صلى الله عليه وسلم إلاّ بالهِجرة، ثم نُسِخَ بعدَ فتحِ مكة، فقالَ عليه الصلاةُ والسلام: "لا هِجرَةَ بعدَ الفَتح".

فكانَ المشركونَ يُخرِجونَ هؤلاءِ المسلِمينَ المقِيمينَ بينَهمْ إلى الحربِ ليُكثِروا بهمْ سَوادَهم، فيأتي السَّهمُ أحدَهم فيَقتُله، أو يُضْرَبُ عنقهُ فيُقتَل... كما في صحيحِ البخاريّ.

فقالتِ الملائكةُ لهمْ تَعييراً وتَقبيحاً: في أيّ فريقٍ كنتُم، أفي المسلِمينَ أمْ في المشرِكين؟

فاعتَذروا وقالوا: كنّا عاجزينَ في أرضِ مكَّة!

فقالوا لهمْ مُكَذِّبينَ إيَّاهم: أمَا كانتْ أمامَكمْ أرضُ الإسلامِ فتَخرجوا مِنْ بينِ أهلِ الشِّركِ في مَكَّةَ إلى أهلِ الإسلامِ بالمدينة؟

فهؤلاءِ مَنْزِلُهُمْ جهنَّم، وبئسَ المصير. فقدْ ماتوا عاصِين، مُكثِرينَ مِنْ سوادِ المشرِكين.

{إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً} [النساء: ٩٨]

٩٨- ويُستَثنَى منهمُ المستَضعَفون، منَ الرِّجالِ والنِّساء، وكذا منَ الأولاد، فهؤلاءِ يُعفَى عنهمْ لضَعفِهمْ عنِ الهجرة، بعدمِ قدرتِهمْ على التخلّصِ منْ أيدي المشرِكين، وعدمِ معرفتِهمْ بالطريقِ أو الموضِعِ المهاجَرِ إليه.

{فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً} [النساء: ٩٩]

٩٩- فهؤلاءِ عسَى اللهُ أنْ يَعفوَ عنهمْ بتركِ الهِجرة. والمقصودُ تَحَقُّقُ العَفو، لكنَّ التعبيرَ يُبقِي العبدَ على أملٍ وطمعٍ ورجاءٍ مِنْ ربِّه، وهوَ رَبٌّ كَريم، يَعفو عنِ النَّاس، ويَغفرُ ذنوبَهم، على كثرةِ ما يُخطِؤونَ ويُذنِبون.

{وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَـــبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَـــعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُـولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً} [النساء: ١٠٠]

١٠٠- ومَنْ يُهاجِرْ في سَـبيلِ اللهِ يَجِدْ في الأرضِ مُتَحَوَّلاً كثيراً ومَلجأً مُناسِـباً يَأوي إليهِ ويَتَحَصَّنُ فيه، ويُوَسَّعُ عليهِ مِنْ حيثُ لا يَحتَسِب!

ومَنْ يَخْرُجْ مِنْ مَنـــزلِهِ مُهاجِراً إلى اللهِ ورسولِه، ثمَّ يأتِهِ الموتُ وهوَ في الطَّريق، قبلَ أنْ يَبلُغَ مُهاجَرَه، فقدْ ثبتَ لهُ عندَ اللهِ ثوابُ المهاجِر.

واللهُ كثيرُ المغفرةِ لذُنوبِ عبادهِ وســـيِّئاتِهم، كثيرُ الرحمةِ بهم، يُثيبُهمْ على أعمالِهِمْ ويزيدُهمْ مِنْ فَضلِه.

{وَإِذَا ضَـرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُـرُواْ مِنَ الصَّـلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوّاً مُّبِيناً} [النساء: ١٠١]

١٠١- وإذا سـافرتُمْ في البِلاد، فلا حَرَجَ عَليكمْ مِنْ أنْ تُخَفِّفوا مِنْ عددِ رَكَعاتِ الصَّـلاة، بتنصـــيفِ الرباعيَّةِ منها، إنْ خِفتُمْ أنْ يُلحِقَ الكافِرونَ الأذى بكم، فهمْ أعداءٌ ظاهِرونَ لكم، ويَتحيَّنونَ الفُرَصَ ليغدِروا بكم.

وقَصْـرُ الصَّـلاةِ في السَّـفرِ جائزٌ بإجماعِ الأمَّة، ولو لم يَكنْ خَوف، وهوَ رُخصـةٌ منَ اللهِ تعالى لعبادِه، وكما قالَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بها عَليكم، فاقبَلوا صَدَقَتَهُ". رواهُ مسلمٌ في صَحيحِه.

{وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّـلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْـلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْـلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْـلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَـــى أَن تَضَـــعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً} [النساء : ١٠٢]

١٠٢- وهذا شُـــروعٌ في بَيانِ صَـــلاةِ الخَوف. فإذا كنتَ بينَ أصـــحابِكَ أيُّها النبيّ - والخِطابُ للجَميع - وأردتَ أنْ تُصَـــلِّيَ بهِمْ إماماً، فاجعَلهمْ طائفتَين، طائفةً تُصـــلِّي معَك، والأخرَى تَكونُ تُجاهَ العدوِّ للحِراسَـة، تأخُذُ معها سِـلاحَها. فإذا سَـجدَ القائمونَ معكَ وأتمُّوا الرَّكعَة، فليَنصَرِفوا إلى مَكانِ الذينَ كانوا يَحرُسون، وليأتُوا همْ فليُصَلُّوا معكَ الرَّكعَةَ الباقيةَ، وهيَ لهمُ الركعةُ الأولى، وليأخُذِ الذينَ حلُّوا مَكانَ السـابقِينَ حَذَرَهمْ وأسـلحتَهم. ويَعني أن الرسُـولَ صلى الله عليه وسلم يكونُ قدْ صلَّى صلاتَهُ ثِنتَين، وكلٌّ منَ الطائفتينِ تُكْمِلُ ما بَقي، بعدَ أنْ صَلَّتْ كلٌّ واحدةٍ منها رَكعَةً معَهُ صلى الله عليه وسلم.

ووردتْ بكيفيَّاتٍ أخرى.

والكافِرونَ يَتمنَّونَ لو تَغفُلونَ عنْ أســـلحتِكمْ وأمتعتِكمْ ليَنالوا منكمْ غِرَّةً في صَـــلاتِكم، ليَحمِلوا عليكمْ حَملةً واحدةً ويَقضُوا عَليكم.

ولا حرجَ عليكمْ إنْ أصابَكم مَطرٌ أو كنتُمْ مرضَى أنْ تَضَعوا أسلحتَكمْ على الأرض، معَ التيقُّظِ والحَيْطَة، لتَكونُوا على أُهْبَةٍ إذا احتَجْتُمْ إليها، ولئلاّ يَهجُمَ عليكمُ العدوُّ غِيْلَة.

وقدْ أعدَّ اللهُ للكافِرينَ عَذاباً مُذِلاً يَنالُهم، فاهتمُّوا بأمورِكمْ أنتُم، وخُذوا بأســـبابِ الحَيْطَة، حتَّى يَنصُرَكمُ اللهُ عليهمْ ويُعَذِّبَهمْ بأيدِيكم.

{فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً} [النساء: ١٠٣]

١٠٣- فإذا أدَّيتُمْ صَـــلاةَ الخَوفِ وفرَغتُمْ منها، فأكثِروا مِنْ ذكرِ اللهِ وداوِموا عليه، في جميعِ أحوالِكم، قائمِين، وقاعِدين، ومُضـــطَجِعين، فذِكرُ اللهِ مَطلوبٌ في هذهِ الأحوالِ أكثر، وهوَ مَشروعٌ ومَرغوبٌ فيه مِنْ قَبل.

فإذا أمِنتُمْ واستَقرَرْتُم، فأدُّوا الصَّلاةَ في وقتِها، وأتِمُّوها بجَميعِ أركانِها وشُروطِها، إنَّ الصَّلاةَ مَفروضَـــةٌ على المؤمِنينَ ومَحدودَةُ الأوقات، لا يَجوزُ إخراجُها عنْ أوقاتِها، ولا بدَّ مِنْ إقامتِها حَضَراً وسَفَراً، وفي وقتِ الخَوف...

{وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً} [النساء: ١٠٤]

١٠٤- ولا تَضْعُفوا في طلَبِ عدوِّكمْ ولا تَتوانَوا في التعرُّضِ لهمْ ومُجاهَدتِهمْ ومُقاتَلتِهم، فإنْ تَكونوا تألَمونَ مِنَ الجِراحِ والآلامِ التي تُصيبُكم، فإنَّهُ يَحْصُلُ مَعهمُ الأمرُ نفسُه، فلماذا لا تَصبِرونَ معَ أنَّكمْ أولَى بالصَّبرِ منهم، فأنتُمْ تَرجُونَ مِنَ اللهِ المثوبةَ العَظِيمةَ في الآخِرَة، أو النصرَ والعزَّةَ بإظهارِ الإسلامِ فوقَ جميعِ الأديان، وهُمْ لا يَرجُونَ ذلك، فأنتُمْ أولَى بالجِهادِ والصَّبرِ منهم. وكانَ اللهُ عَليماً بأعمالِكمْ وضَمائرِكم، حَكيماً فيما يأمرُ وينَهَى، ويَقضِي ويُقَدِّر.

{إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً} [النساء: ١٠٥]

١٠٥- نحنُ نزَّلنا عليكَ القُرآنَ بالحقّ، فهوَ حقٌّ عَدْلٌ في خَبرِهِ وحُكمِه، لتَقضيَ بينَ الناسِ بما عَرَّفكَ وأوحَى بهِ إليك. ولا تُجادِلْ عَمَّن عَرفتَ خيانتَهُ، كمنِ ادَّعَى ما ليسَ له، أو أنكرَ ما هوَ عليه.

وفي تَفصيلهِ وسَببِ نُزولهِ خَبَرٌ طَويل.

{وَاسْتَغْفِرِ اللّهَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً} [النساء: ١٠٦]

١٠٦- واطلبِ المغفِرَةَ مِنَ الله؛ لهَمِّكَ بالحُكمِ على ما لم تَتثبَّتْ منه، فإنَّ اللهَ يَغفِرُ لك، فهوَ كثيرُ المغفِرَةِ والرَّحمَة.

{وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً} [النساء: ١٠٧]

١٠٧- ولا تُجادِلْ عمَّن خانَ نفسَهُ وخانَ الآخَرينَ بما جنَى وظَلَم، فاللهُ لا يُحِبُّ الخائنينَ الآثِمين، الذينَ يَعصُونَ الله ويُلحِقونَ الأذَى والضَّررَ بالآخَرين.

{يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً} [النساء: ١٠٨]

١٠٨- إنَّهمُ المنافِقون، الذينَ يَستَتِرونَ بقَبائحِهمْ وأعمالِهمُ الدنيَّةِ من النَّاسِ لئلاّ يُعرَفوا بذلك، لكنَّهمْ يُجاهِرونَ بها اللهَ خالِقَهمْ وهوَ أحَقُّ مِنْ أنْ يُستَحيا منهُ ويُخْشَى عِقابُه، وهوَ مَعهمْ إذْ يُدَبِّرونَ ما يُجافي الاستقامةَ والعَدل، وهوَ سُبحانَهُ عالِمٌ بأعمالِهمُ الظاهِرةِ والخافِيَة، لا يَخفَى عليهِ شَيء.

{هَاأَنتُمْ هَـؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً} [النساء: ١٠٩]

١٠٩- وهَبُوا أنَّكمْ بَذلتُمُ الجُهْدَ في المخاصَمةِ عنهمْ في هذهِ الحياةِ الدُّنيا وحصَلوا على مُبتغاهُمْ فيها، فمنْ يُحاجِجُ اللهَ عنهمْ يومَ القيامةِ وهوَ العالِمُ بخَفِيّاتِ الأمور، ومَنْ يَتكفَّلُهمْ ويذُبُّ عنهمْ ويتولَّى أمرَهمْ يومَئذ؟!

{وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَّحِيماً} [النساء: ١١٠]

١١٠- ومَنْ يَقترِفْ ذَنباً، كبيراً كانَ أو صَغيراً، يَسُوءُ بها غَيرَه، كسَرِقَتِه، أو يَظلِمُ بها نفسَه، كحَلِفٍ كاذِب، ثمَّ يَتُبْ منهُ ويَعُدْ إلى الحقّ، ويَطلبِ المغفِرَةَ مِنْ ربِّه، فإنَّهُ عَفُوٌّ حَليم، يَقبَلُ تَوبتَهم، ويَغفِرُ لهمْ ويَرحَمُهم.

{وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً} [النساء: ١١١]

١١١- ومَنْ يَقترِفْ ذَنباً مِنَ الذُّنوبِ عنْ قَصد، فإنَّهُ يَجْني بذلكَ على نفسِه، ويَجلُبُ لها الضَّررَ والوَبال، ويُعَرِّضُها للعَواقب، واللهُ عَليمٌ بما يَقترِفهُ النَّاس، حَكيمٌ بما يُقَدِّرهُ مِنْ عُقوبةٍ عَليهم.

{وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً} [النساء: ١١٢]

١١٢- ومَنْ يَعملْ عَملاً سيّئاً أو يَقتَرِفْ ذَنباً كبيراً، ثمَّ يتَّهِمْ بهِ بَريئاً، فقدِ ارتكبَ فِعلاً بَغِيضاً، وكذَبَ على الغيرِ كَذِباً شَنيعاً، واقترَفَ ذَنباً عَظيماً، واضِحاً مُبيناً.

{وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً} [النساء: ١١٣]

١١٣- ولولا فَضلُ اللهِ عليكَ ورَحمتهُ بكَ بما عَصمَكَ بهِ مِنَ الوَحي، مِنْ لزُومِ التثبُّتِ وبيانِ الحقّ، لكادَتْ طائفةٌ أنْ تُلَبِّسَ عليكَ الحقَّ وتُشَوِّشَ عليكَ الصَّحيح، وتَتسبَّبَ في الحُكمِ على القَضيَّة خَطأ، بما زَيَّنوهُ لكَ وبَيَّنوا ما لا يُرضِي اللهَ منَ القَول. وما كانوا يَضرُّونكَ بهذا مِنْ شَيء، إنَّما ضَرَرُهُ يَرجِعُ إليهم، فقدْ عصَمكَ الله، وباؤوا همْ بالإثم.

وقدْ أنزلَ اللهُ عَليكَ القُرآنَ وعَصمَكَ به، وعلَّمكَ القضاءَ بالوحي، وعلَّمكَ منَ الأحكامِ ومِنْ عِلمِ الغَيب ما لم تَكنْ تَعلمُهُ قبلَ ذلكَ مِنْ خَفيّاتِ الأمور، وكانَ فضلُ اللهِ عليكَ كبيراً، بأنْ جعلكَ نَبيًّا، وفَضَّلكَ على سائرِ الخَلق، وأعطاكَ الشَّفاعةَ العُظمَى يومَ القِيامَة...

{لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً} [النساء: ١١٤]

١١٤- لا خَيْرَ في كَثيرٍ مِنْ كلامِ الناسِ إلاّ إذا كانَ في حَثٍّ على الصَّدَقات، أو أمرٍ بالخَيراتِ والطّاعات، أو تأليفٍ بينَ النَّاسِ بالمودَّةِ إذا فَسدَ ما بينَهم، ومَنْ يَفعلْ هذهِ الأشياءَ مُبتَغياً بها وجهَ اللهِ ومَرضاتَه، مُحتَسِباً ثوابَ ذلكَ عندَه، فسوفَ نَجزيهِ أجراً كبيراً وثَواباً جَزيلاً.

{وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً} [النساء: ١١٥]

١١٥- ومَنْ يُخالِفْ رسـولَ اللهِ ويَسْـلُكْ غيرَ طَرِيقِ الشَّـريعةِ التي جاءَ بها، عنْ عَمدٍ وتَقصُّـدٍ، بعدَ ما ظهرَ لهُ الحقُّ ممّا حُكِمَ به، وعَرَفَ بذلكَ الأوامرَ والحُدود، ويَسْـلُكْ طريقاً آخرَ غيرَ ما اجتَمَعَ عليه المؤمِنونَ واتَّفقوا عليه، نُخَلِّي بينَهُ وبينَ ما اختارَهُ لنفسِـه، ونَكِلْهُ إلى نَفسِـهِ الآثِمة، ونُدْخِلْهُ جهنَّمَ فيُعَذَّبُ فيها، وبئسَ ما انتهَى إليهِ واسـتَقرَّ في مكانٍ كلُّهُ نارٌ وعَذابٌ.

{إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْـرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَـاءُ وَمَن يُشْـرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً} [النساء: ١١٦]

١١٦- واللهُ لا يَغفِرُ ذَنْبَ مَنْ أشـرَكَ بهِ أو كَفر، والشِّـرْك يُحبِطُ الأعمالَ حتَّى لا يُبقي لصاحبِها حسَنة، وهوَ سبُحانَهُ يَغفِرُ ذنوبَ مَنْ شاءَ مِنْ عِبادهِ ما دامَ لم يُشـرِكْ به، وإنَّ مَنْ أشـرَكَ بهِ تعالَى شَـيئاً فقدِ ابتعدَ عنِ الطريقِ الحقّ، وارتكبَ إثماً عظيماً، وأهلكَ نفسَـهُ فخَسِـرَ رحمةَ رَبِّهِ وجنَّتَه.

{إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً} [النساء: ١١٧]

١١٧- وما يَعبُدُ هؤلاءِ المشـرِكونَ مِنْ دونِ اللهِ إلاّ أصـناماً مؤنَّثة، كاللاّتِ والعُزَّى ومَنَاة، ويُنادُونها لحوائجِهِمْ هكذا! وما يَعبُدونَ بذلكَ إلا شَـيطاناً بَغيضـاً خارِجاً عنِ الطَّاعة، فهوَ الذي يُزَيِّنُ لهمْ عِبادتَها، فتكونُ طاعتُهمْ لهُ عِبادة!

{لَّعَنَهُ اللّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً} [النساء: ١١٨]

١١٨- أبعدَ الله إبليسَ مِنْ رَحمتِه.

وقالَ إبليسُ اللَّعين: سـآخُذُ مِنَ الناسِ حظًّا مُقدَّرًا وعَدداً مَعلوماً ممَّنْ يُطيعُونَني، وهمْ كثيرونَ جِدًّا {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [سورة يوسف: ١٠٣]

{وَلأُضِـلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً} [النساء: ١١٩]

١١٩- ولأُغْوِيَنَّهمْ وأُبْعِدَنَّهمْ عن الحقّ، ولأَعِدَنَّهمْ بالأمانيّ الباطِلة، وأُزيّنَنَّ لهمْ طُولَ الأمَل، ولآمُرَنَّهمْ فليُقَطِّعُنَّ أو يُشَـقِّقُنَ آذانَ الأنعام، وهوَ ما كانتْ تَفعَلُهُ العَربُ وتَجعلُهُ عَلامةً للبَحِيرةِ والسائبةِ مِنَ النُّوق، والأُولَى التي وَلَدَتْ خَمسةَ أبطُنٍ تُعفَى منَ الانتِفاعِ بها، ولا تُمنَعُ مِنْ مَرْعًى ولا مَاء، والأخرَى المهمَلةُ التي تُسَيَّبُ لنَذْرٍ ونَحوِه. وقدْ أبطلَهما الإسلام.

ولآمُرَنَّهمْ فليُبَدِّلُنَّ خَلْقَ الله، صُـورةً وصِـفَة، بتَغييرِ فِطْرةِ اللهِ تعالَى، واسـتعمالِ الجوارحِ والقُوَى لغَيرِ وَظيفتِها، وتَغييرِ ما سَـخَّرَهُ اللهُ للانتِفاعِ بهِ إلى غَيره، كعبادةِ الأحجارِ والحيَواناتِ وهيَ مسخَّرةٌ للإنسان، وكخَصي الحيَوانات، وكاللِّواط...

ومنْ يُوالي الشَّيطان، بإيثارِ ما يَدعو إليه على ما يَدعو إليه الله، فقدْ خَسِرَ خَسارةً بيّنةً، ونَدِمَ نَدامةً كبيرة، ولا خَسارةَ أعظمُ مِنِ استِبدالِ النَّارِ بالجنَّة.

{يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً} [النساء: ١٢٠]

١٢٠- فالشَّيطانُ يَعِدُهمْ بالفَوزِ والسلامة، ويُزَيِّنُ لهمُ الأمانيَّ الفارِغة، كطولِ البَقاءِ في الدُّنيا والنَّعيمِ فيها، وقدْ كذَبَ وافترى، فليسَتْ مَواعيدهُ سِوَى وهْمٍ وغُرور، وخَيالٍ وأمَل.

{أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً} [النساء: ١٢١]

١٢١- فأولئكَ المغْرورُون، أولياءُ الشَّيطان، مَصيرُهمُ النار، لابُدَّ لهمْ منها، ولا خَلاصَ لهمْ منها ولا مَخْرَج.

{وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً} [النساء: ١٢٢]

١٢٢- والذينَ آمَنوا باللهِ ورَضُوا بدينِه، وأتْبَعُوا إيمانَهمْ بالأعمالِ الصالحةِ ونفَّذوا ما أُمِروا بهِ مِنَ الخَيرات، نُدخلُهمْ جنّاتٍ تَجري مِنْ تحتِها الأنهار[٢٨]، معَ خُلودٍ دائم، وهذا وعدٌ منَ اللهِ لأوليائهِ قائمٌ لا مَحالة، وليسَ هناكَ أصدقُ منَ اللهِ قولاً وخَبَراً.

---

(٢٨) أي: أنهارُ الماءِ واللبنِ والخمرِ والعسل. (روح البيان).

{لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً} [النساء: ١٢٣]

١٢٣- في حَديثٍ مُرْسَلٍ بإسنادٍ صَحيح، أنَّهُ احتَجَّ المسلِمونَ وأهلُ الكتاب، فقالَ المسلِمون: نحنُ أهدَى منكم، وقالَ أهلُ الكتاب: نحنُ أهدَى منكم. فأنزلَ اللهُ الآية.

ليسَ الأمرُ كما تَمَنَّيتُمْ أيُّها المسلِمون، ولا كما تَصَوَّرتُمْ يا أهلَ الكتاب، فإنَّ كلَّ مَنْ يَعمَلُ ذَنْباً سوفَ يُحاسَبُ عليه، إنْ عاجِلاً أو آجِلاً، فالعِبرةُ بالطَّاعةِ والعَمل، لا بالتَحَلِّي والتمَنِّي. وإنَّ الذي يَعمَلُ السُّوءَ مُتجاوِزاً بذلكَ الحدودَ التي وضَعها الله، فلنْ يجدَ مَنْ يُدافعُ عنه، أو يُنجيهِ مِنْ عذابهِ إذا حلَّ به.

والمقصودُ ما كانَ كلُّ دينٍ في وقتِه، أمّا بعدَ بعثةِ رسولِ اللهِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، فلا دينَ سِوَى الإسلام.

وفي تَتمَّةِ الحديثِ السابقِ مِنْ سَببِ النزول، أنَّ المسلمينَ غَلبوا أهلَ الكتابِ في حُجَّتهم، بالآيةِ التالية.

والعمومُ في الآيةِ مُخَصَّصٌ بالتوبة، وبِمَنْ يَتفضَّلُ اللهُ بالعفوِ عنه.

وفي صَحيحِ مسلمٍ قَولُ أبي هُرَيرَةَ رَضيَ اللهُ عنه: لما نزَلَت: {مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ} بلَغَتْ مِنَ المسلِمينَ مَبلَغًا شَديدًا، فقالَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "قارِبوا وسَدِّدُوا، فَفي كُلِّ ما يُصابُ بهِ المسلِمُ كَفَّارَة، حتَّى النَّكبَةِ يُنْكَبُها، أو الشَّوكَةِ يُشَاكُها".

قالَ الإمامُ النوَويُّ في شَرحِ حديثِ الباب: فيهِ تَكفيرُ الخَطايا بالأمراضِ والأسقامِ ومَصائبِ الدُّنيا وهُمومِها، وإنْ قُلتَ مَشَقَّتها، وفيهِ رَفعُ الدرَجاتِ بهذهِ الأمورِ وزيادَةُ الحسَنات...

وقالَ في مَعنَى "قارِبوا": أي اقتَصِـدوا فلا تَغْلُوا ولا تَقْصُـروا بلْ توَسَّـطوا. وسَـدِّدوا: أي اقصِدوا السَّداد، وهوَ الصَّواب. اهـ.

ويَكونُ مَعنى الآيَةِ هُنا: مَنْ يَعمَلْ سُــوءًا يُجْزَ بهِ إنْ عاجِلاً أو آجِلاً، فأمَّا مُجازاةُ الكافِرِ فالنَّار، وأمَّا المؤمِنُ فيُجازَى في الدُّنيا غالِبًا، بما يُصيبُهُ مِنْ مرَضٍ وحُزنٍ وضِيقٍ وغَيرِه، فمَنْ بَقيَ لهُ سُوءٌ إلى الآخِرَةِ فهو في المشيئة، يَغفِرُ اللّهُ لمنْ يَشاء، ويُجازي مَنْ يَشاء.

{وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً} [النساء: ١٢٤]

١٢٤- ومَنْ يَعملِ الأعمالَ الصـالحةَ مِنْ عِباده، ذُكوراً أو إناثاً، معَ الإيمانِ الصَّـحيح، فأولئكَ يَدخُلونَ الجنَّةَ جزاءَ أعمالِهم، ولا يُنقَصُونَ شَيئاً مِنْ ثوابِها، ولو كانَ شَيئاً قليلاً جدّاً، حتَّى لو كان مثلَ الخيطِ الذي في شِقِّ النَّواة.

{وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} [النساء: ١٢٥]

١٢٥- وليسَ هناكَ أحسنُ وأحكمُ منَ المسلمِ الذي أخلصَ العملَ لربِّه، فلمْ يَعرِفْ سِواهُ ربًّا، ولم يَبتَغِ بعملهِ سِوَى وجهِه، وهوَ مُحسِن، يَعملُ الحسَنات، فيأتي بالأعمالِ الصَّالحةِ على هَدْيٍ منَ الدِّين، وبإخلاص، وهما ميزانُ قَبولِ الأعمال، مُتَّبِعاً بذلكَ مِلَّةَ أبيهِ إبراهيم، الموافِقَةِ لدينِ الإسلام، المتَّفَقِ على صِحَّتها، ومُتَّبعو مِلَّتهِ همْ أمَّةُ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.

وقدِ اتَّخذَ اللهُ إبراهيمَ خَليلاً، والخُلَّةُ أرفَعُ مَقاماتِ المحَبَّة، وما ذاكَ إلاّ لكثرةِ طاعتهِ لربِّه، وتَنفيذِ جميعِ ما أُمِرَ به، فلم يَشْغَلْهُ شيءٌ عنِ استجابةِ نداءِ ربِّه، صَغيراً كانَ أو كبيراً، حتَّى صارَ إماماً يُقتدَى به، وتَوصَّلَ إلى غايةِ ما يَتَقرَّبُ بهِ العباد.

{وَللّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً} [النساء: ١٢٦]

١٢٦- وجميعُ ما في السَّـماواتِ والأرضِ مُلْكُ اللهِ وعَبيدُه، وهوَ حاكمُهمْ ومُدَبِّرُ أمرِهم، وعِلمُهُ مُحيطٌ بكلِّ شَيء، لا يَخفَى عليه شَيءٌ مِنْ ذلكَ مهما دَقَّ وصَغُر.

{وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء الَّلاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً} [النساء: ١٢٧]

١٢٧- ويَطلُبونَ منكَ أيُّها الرسُولُ بيانَ ما أشْكلَ مِنْ أحكامٍ في حقِّ النساء، فقُلْ لهم: إنَّ اللهَ يُبيِّنُ لكمْ حُكْمَهُ فيهنّ هُنا، وفيما يتُلَى عليكمْ في هذا القُرآنِ ممّا سَبق {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء...} [النساء : ٣]، وهوَ في النِّساءِ اليتيماتِ اللَّواتي تحتَ تربيتِكم، وتَرغَبونَ في التزوُّجِ بهنَّ بعدَ أنْ بَلغْنَ ولا تُعطُونهنَّ صُدُقَهُنَّ مثلَ النِّساءِ الأُخَر، أو لا تَرغَبونَ في نِكاحِهنَّ ولكنَّكمْ تُمسِكوهنَّ في البيوتِ ولا تُزَوجوهُنَّ لآخَرينَ لتستَفيدوا مِنْ أموالِهنَّ التي عندَكم، أو حتَّى تَرِثوها منهنَّ بعدَ وفاتِهنّ! فقد كانَ هذا في الجاهليَّةِ ونَهاكمُ اللهُ عنه.

وكذا الصِّغارُ منَ البنينَ والبنات، لكلٍّ سَهمُهُ في الميراث، ولا يَحِلُّ مَنعُهمْ منَ الميراثِ كما كانَ الأمرُ في الجاهليَّة.

واعدِلوا في أمرِ اليتامَى الذينَ عندَكم، فوفُّوهُمْ حقوقَهمُ الكاملةَ في المهورِ والمواريثِ والمعيشة... وما تَفعلوا في حُقوقِهمْ مِنْ خيرٍ بحسَبِ ما أُمِرتُم به، فإنَّ اللهَ عليمٌ بجميعِ ذلك، ويُجازيكمْ عليهِ أتمَّ الجزاء.

{وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً} [النساء: ١٢٨]

١٢٨- وإذا شَعَرتِ المرأةُ باستِعلاءِ زوجِها عليها لسَببٍ منَ الأسباب، أو رأتْ نُفوراً منهُ وانصِرافاً بوجههِ عنها، أو تَجافياً عنها قياساً عمّا كانَ عليهِ مِنْ قبل، مِنْ تَقليلِ نَفقةٍ أو عَدَمِ مُؤانسةٍ ومُحادثة... فلا حرجَ عليهما أنْ يَتصالحا فيما بينهما، كأن تُسقِطَ مِنْ حِقِّها أو بعضَه، مِنْ نَفقةٍ أو كُسوةٍ أو مَبيت، أو تَهَبَهُ مالاً، أو تُهدِيَهِ ما يُناسبهُ ويُحِبُّه، مِنْ هذا القَبيلِ

ومِنْ غيرِه، ممّا يَجلُبُ لهما المحبَّةَ ويُعِيدُ إليهما المعاشَـرةَ الطيِّبة، والصـلحُ في هذا خيرٌ منَ الفُرقةِ وسُوءِ العِشرةِ والخُصُومة.

وقدْ جُعِلَتْ نفوسُ البشرِ مَطبوعةً على البُخلِ معَ الحِرص، فلا تَكادُ المرأةُ تَسمحُ بحقوقِها للرَّجُل، ولا الرَّجُلُ يَكادُ أنْ يَتنازلَ لها عنْ حُقوقِه، وهذا يَستَدعي الشِّقاقَ والطَّلاق. فإذا شَحَّ الرَّجُلُ بحقوقِهِ استَمالتْهُ المرأة، وإذا شَحَّتْ هي استَمالَها هو، حتَّى يَجدا مَكاناً للصُّلحِ والاتِّفاقِ والمعاشرةِ الطيِّبة.

وإنْ تُحسِـنوا في العِشـرةِ وتَبتعِدوا عن النُّشـوزِ والإعراض، وتَصـبِروا على مُراعاةِ الحقوقِ الزوجيَّةِ دونَ اللُّجوءِ إلى قَطعِ حُقوق، فإنَّهُ منَ الإحسانِ والتقوَى الذي يَعلمُ اللهُ بهِ وبمقاصدِكمْ فيه، فيُجازيكمْ بهِ ويُثيبُكمْ عليهِ خَيراً.

{وَلَن تَسْـتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَـاء وَلَوْ حَرَصْـتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً} [النساء: ١٢٩]

١٢٩- ولا تَقدِرونَ على إقامةِ العَدلِ بينَ الزوجاتِ مِنْ جَميعِ الوجوهِ ولو بالَغتُمْ في تَحرِّيه، فإنَّهُ لا بُدَّ مِنَ التفاوتِ في المحبَّةِ والنَّظرِ والمؤانسَة...، فإذا مِلتُمْ إلى واحدةٍ مِنهنَّ فلا تُبالِغوا في ذلك، ولا تَظلِموا الأخرَى فتَمنَعُوها حقَّها، حتَّى لا تَتركوها كالمعلَّقةِ، فلا هيَ ذاتُ زَوجٍ ولا هيَ مُطَلَّقة!

فإذا أصلحتُمْ أمورَكمْ وابتَعدتُمْ عن الميلِ الذي نَهاكمُ اللهُ عنه، وعَدَلتُمْ فيما أمرَكمُ اللهُ بهِ منَ القِسمة، وخَشِيتُمُ اللهَ فيما تأتونَ وما تَذَرون، فإنَّهُ يَغفِرُ ما مضَى منكمْ منْ مَيلٍ وظُلم، تَفضُّلاً منهُ ورَحمَةً بكم.

{وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللّهُ وَاسِعاً حَكِيماً} [النساء: ١٣٠]

١٣٠- فإذا ضاقَ ما بينَهما ولم يَجدا مَوضِعاً للصُّلحِ وتَفرَّقا، فقدْ أغنَى اللهُ كلاًّ منهما عنِ الآخَرِ بغِناهُ وقُدرتِه، وجَعلَ لكلٍّ منهما نَصـيباً آخَر، وهوَ غَنيٌّ واسِـعُ الفضـلِ عَظِيمُ المنّ، حَكيم فيما يَحكمُ ويُقَدِّر.

{وَللهِ مَا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّـيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّـــمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ غَنِيّاً حَمِيداً} [النساء: ١٣١]

١٣١- وللهِ ملكُ السَّماواتِ والأرض، وهو الحاكمُ فيهما، فلا يَتعَذَّرُ عليهِ شَيءٌ ممّا يُريدُ منهما، ممّا يَخُصُّ أحوالَ الزَّوجَينِ وغيرَها.

وقدْ أمَرْنا الذينَ أوتوا الكتابَ بتقوَى اللهِ وطاعتهِ كما أمَرْناكمْ بها يا أهلَ القُرآن، فإنْ تُعرِضوا عمّا وصّاكمُ اللهُ بهِ وتَكفُروا، فإنَّهُ لا يَضُرُّهُ شَيءٌ مِنْ إعراضِكم، كما لا يَنفَعُهُ شيءٌ مِنْ شُـــكرِكِمْ وتَقواكُم، فهوَ مالكُ السَّـــماواتِ والأرضِ وما بينَهما، وهوَ غَنِيٌّ عنْ خَلْقِهِ وعبادتِهم، مَحمودٌ في ذاتِه، إنْ حَمِدوا أو كَفَروا.

{وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً} [النساء: ١٣٢]

١٣٢- اللهُ خالِقُ السَّـماواتِ والأرضِ ومالِكُهُما ومُعدِمُهما، ولهُ مُطلَقُ التصـرُّفِ فيهما، وكلُّ ما فيهما مُحتاجٌ إليه، فَقيرٌ إلى غِناه، وكفَى بهِ شَـــهيداً أنَّ الكلَّ عَبيدُه، وهوَ المتَكفِّلُ بأمورِهم، فلا يُطلَبُ إلاّ منه، ولا يُتوَكَّلُ إلاّ عليه.

{إِن يَشَــأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً} [النســاء: ١٣٣]

١٣٣- إنْ يُرِدِ اللهُ أنْ يُذهِبَكمْ أيُّها الناس، أهلكَكُمْ وأتَى بآخَرينَ مكانَكم، يَكونونَ خَيراً منكمْ وأطوَعَ في الالتزامِ بأوامرِ اللهِ وأحكامِ شَــرعِه، وما ذلكَ بمُمتَنعٍ على الله، فهوَ قادرٌ على ما يَشاء، لا يُعجِزهُ شَيءٌ ممّا يُريد.

{مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً بَصِــيراً} [النساء: ١٣٤]

١٣٤- مَنْ كانَ يُريدُ بعَملِهِ مَغنماً دُنيويًّا لا يَتجاوَزُه، فإنَّ لدَى اللهِ ما يُعطيهِ لِعبادِهِ مِنْ منافعِ الدُّنيا إضـــافَةً إلى ما هوَ أكبرُ وأنفَع، وأهَمُّ وأدوَم، وهوَ ثوابُ الآخِرة، وهوَ لمنْ آمنَ

وأحسَــن، فمنْ ســأَلَهُ منهما أعطَاه، ومنِ اقتصــرَ على الدُّنيا حَرَمَهُ الآخِرة، كالمنافِقينَ الذينَ أظهَروا الإيمانَ ليَنالوا مَغنَماً معَ المسلِمين، والكافِرينَ الذينَ همُّهمْ ما في الدُّنيا، لأنَّهمْ لا يؤمِنونَ بالآخِرَة. واللهُ يَسمَعُ دعاءَ النَّاس، بَصيرٌ بما يَطلبونَه، مُطَّلِعٌ على غَرَضِهمْ في ذلك.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً} [النساء: ١٣٥]

١٣٥- أيُّها المؤمِنون، كونُوا عادِلِينَ في أمورِكمْ دائماً، لا يَصْــرِفْكمْ عنِ العَدلِ صــارِف، وابتَغُوا بذلكَ وجهَ الله، لا غَرَضــاً دُنيويًّا ومَصــلحةً شَــخصــيَّة، ســواءٌ كانَ قيامُكمْ بالعدلِ أو قولُكمُ الحقَّ لصــالِحِكُمْ أو لغيرِ صــالِحِكُم، فإنْ كانَ الأوَّلُ فذاك، وإنْ كانَ الثاني فقد جعلَ اللهُ لكمْ مَخرَجاً وعوَّضكمْ خَيراً.

وحتَّى لو كانتِ الشــــهادةُ على الوالدَينِ والقَرابة، فإنَّ الحقَّ حَقّ، يَحكمُ على كلِّ أحَد، ويُقَدَّمُ على كلِّ شَيء.

ولو كانَ الذي عليهِ الحقُّ غَنيًّا أو فَقيراً، فإنَّ القولَ العَدْلَ والشَّهادةَ المنصِفةَ لا تُراعِي غَنيًّا لِماله، ولا تُشفِقُ على فَقيرٍ لحالِه، واللهُ يَتولَّى شأنَهما ويَنظرُ في حالِهما بعدَ ذلك، فكِلوا أمرَهما إلى اللهِ تعالَى.

ولا يَحملنَّكم غَرَضٌ ما في نُفوسِــكمْ إلى الميلانِ نحوَ الباطلِ والعُدولِ عنِ الحقّ، فإذا حرَّفتمُ الشَّهادة، وأبطَلتمُ الحقَّ في أمورِكم، وتَركتُمْ إقامةَ العَدلِ، فإنَّ اللهَ عليمٌ بعملِكمُ الآثمِ هذا، مُطَّلعٌ على ما غيَّرتُموهُ وأبطَلتُموه، وسَوفَ يُجازيكمْ على ذلكَ سُوءَ الجزاء.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُــولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُــولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً} [النساء: ١٣٦]

١٣٦- أيُّها المؤمِنون، آمِنوا واثبُتوا على إيمانِكم، وداوِمُوا عليهِ وأخلِصــــوا فيه، آمِنوا باللهِ الواحِد، وبرســـولِهِ محمَّدٍ خاتمِ أنبيائه، وبالقُرآنِ الذي أنزلَهُ عليه، وبكلِّ كتابٍ أنزلَهُ مِنْ قَبلِه.

ومَنْ يَكفُرْ بأركانِ الإيمان: بالله، وملائكتِه، وكتبِه، وأنبيائهِ ورســـلِه، ويومِ القيامة، والقَضـــاءِ والقَـدر، فقـدِ ابتعـدَ عنِ الحقّ ابتِعـاداً كُليًّا، وخَرجَ عنْ طريقِ الهِداية، وكـانَ منْ أهـلِ الغِوايةِ والضَّلال.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً} [النساء: ١٣٧]

١٣٧- إنَّ الـذينَ آمَنوا، ثمَّ ارتـدُّوا، ثمَّ رجَعوا إلى الإيمـان، ثمَّ عـادُوا إلى الكُفرِ وازدَادوا ضَلالةً فيه، وأصَرُّوا على كُفرِهمْ واستمرُّوا عليهِ حتَّى ماتوا، فإنَّ اللهَ لا يَغفِرُ لهم، ما أقاموا على ذلك، ولا يَهديهمْ إلى طَريقِ الحقّ، وقدْ آثَروا الضَّـــلالَ على الهُدَى بعدَ أنْ عَرفُوا الحقَّ جيّداً وتَركوهُ عنْ قَصد، بلْ تلاعَبوا بالإيمانِ الحقِ واستَخفُّوا به، فكانَ جزاءَهمْ ما ذُكِر.

{بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً} [النساء: ١٣٨]

١٣٨- إنَّ هذا مِنْ شَـأنِ المنافِقين، المتلاعِبينَ بالدِّين، فبِشِّـرْهُمْ إذاً بما يَسـوؤهم، بَشِّـرْهُمْ بعَذابٍ شَديدٍ مُوجع، ونارٍ تأتي على أفئدتِهم، معَ خلودٍ دائمٍ في العَذاب.

{الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً} [النساء: ١٣٩]

١٣٩- إنَّ المنافِقينَ اتَّخَذوا الكفّارَ أولياءَ يَبتغونَ منهمُ العونَ والسَّندَ والظَّفَر، ولا يَتَّخِذونَ المؤمنينَ أولياءَ لهم، على الرغمِ مِنْ أنَّهمْ يُظهِرُونَ أمامَهمُ الإســلام، ولكنَّهمْ يُظهِرُونَ حقيقةَ ما في قلوبِهمْ عندَ أنصارِهمُ الكافِرينَ بأنَّهمْ منهم، يوالُونهم، ويُسِرُّونَ إليهمْ بالمودَّة.

فهلْ يُريدونَ بموالاتِهمْ لهمُ القوَّةَ والمنَعةَ والظُّهورَ على المســلِمين؟ فإنَّ الغَلبةَ والقُوَّةَ والقُدرةَ للهِ وحدَه، يُعطيها مَنْ شاء، ويَمنَحُها لأوليائه. {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [ســورة المنافقون: ٨]. فالتَجِئوا إلى اللهِ العزيزِ أيُّها المســلِمون، فهوَ ناصــرُكمْ ومانُحكمُ القوَّة، والمنافقونَ في ضَلالٍ مُبِين.

{وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً} [النساء: ١٤٠]

١٤٠- وقدْ سبقَ أنْ نَزَّلَ اللهُ عَليكمْ في القُرآنِ أنَّكمْ إذا كنتُمْ في مَوضِعٍ أو عندَ ناسٍ يَكفُرونَ بآياتِ القُرآنِ الكريمِ ويَستهزؤونَ بها فلا تُجالِسوهم، حتَّى يَدخلوا في حَديثٍ غَيرِه، في قولهِ تعالَى: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ} [سورة الأنعام: ٦٨]. وإذا كانَ هذا لا يَجوز، فكيفَ بموالاتِهمْ والاعتِزازِ بهم؟!

فإنْ رَضيتُمْ بالجُلوسِ معهمْ وهمْ يَكفُرونَ بآياتِ اللهِ ويَستهزِؤونَ بها ويَنتَقِصونَ منها، وأقررتُموهمْ على ذلك، فقدْ شاركتُموهمْ في الكُفر.

ويَجمعُ اللهُ المنافِقينَ والكافِرينَ جَميعاً في نارِ جهنَّمَ خالدينَ فيها، كما اشتَركوا على الكفرِ ووالَى بعضُهم بَعضاً في الدُّنيا، ليَذوقوا العَذابَ المهين، والنَّكالَ المقيم.

{الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللّهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً} [النساء: ١٤١]

١٤١- إنَّ هؤلاءِ المنافِقينَ يَنتظِرونَ وقوعَ أمرٍ بكم، ولا يُريدونَ لكمُ الخَير، فإذا رأوا ظَفَراً وغَنيمةً تودَّدوا إليكمْ وقالوا: ألم نَكنْ على دينِكمْ ونُسانِدْكمْ في الجِهاد؟ فاجعَلوا لنا نَصيباً منَ الغَنيمة.

وإنْ كانَ للكافرينَ حظٌّ منَ الاستِيلاءِ والغَلبةِ قالوا لهم: ألم نَتعاونْ مَعكم، بالكفِّ عنْ قَتلِكمْ وأسْرِكم، وبتَخذيلِ المسلِمينَ عنكم، وإطلاعِكمْ على أسرارِهم، ودفعِهمْ عنكمْ ما استَطعنا، حتَّى انتَصرتُمْ عليهم؟

ويَحكمُ اللهُ بينَ أهلِ الإيمانِ وأهلِ النفاقِ يومَ الحِساب، يومَ عرضِ الأعمالِ على الله، فيُثيبُ أولياءَه، ويُعاقِبُ أعداءَه.

ولنْ تَكونَ هُناك حُجَّةٌ للكافِرينَ يَغلِبوا بها المسلِمين، في الدُّنيا والآخِرَة، فالحقُّ معهمْ في الدُّنيا إنْ غَلَبوا، وفي الآخِرَةِ عندَما يَحكمُ اللهُ بينَ عبادِه، ولا يَقبَلُ منهمْ سِوَى دينِ التوحِيد.

أو أنَّ المقصـــودَ بالقســـمِ الأخيرِ منَ الآية: لنْ يَجعلَ اللهُ للكافرينَ سَـــبيلاً مُطلقاً على المسلِمين، بأنْ يَقضُوا عليهم. ولكنَّ الحربَ سِجالٌ والدُّنيا دُوَل.

{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً} [النساء: ١٤٢]

١٤٢- إنَّ المنافِقينَ يَفعلونَ ما يَفعلُ المخادِع، فيُظهِرونَ الإيمانَ ويُضـمِرونَ نَقيضَـه، وهمْ يَظنُّونَ — بجهلِهمْ – أنَّ أمرَهمْ هذا سيرُوْجُ حتَّى عندَ الله، العالِمِ بالسرائرِ والضَّمائر، ولكنَّ اللهَ يَسـتدرِجُهمْ في طُغيانِهمْ وضَـلالِهم، وهوَ فاعِلٌ بهمْ ما يَفعلُ الغالِبُ في الخِداع، فهوَ إنْ تركَهمْ مَعصـومِي الدِّماءِ والأموالِ بينَ المسـلِمينَ لتَظاهُرهمْ بالإسـلام، فقدْ أعدَّ لهمْ في الآخِرَةِ الدرْكَ الأسفلَ منَ النار، بعدَ فضحِهمْ وإظهارِ شأنِهم.

ومِنْ صفاتِهمْ أنَّهمْ إذا قامُوا إلى خَيرِ شَعيرةٍ في الإسلام، وهوَ الصَّلاة، قامُوا إليها مُتثاقِلينَ مُتباطِئين، يُصَـلُّونَها بلا نيَّةٍ ولا خَشـية، ولا فَهمٍ ولا رَغبة، ولا إيمانٍ ولا إخلاص، إنَّما يَفعَلونَ ذلك ليَراهمُ الناسُ وهمْ يُصـلُّونَ ليَحسَـبوهمْ مُسـلِمين. فهمْ في صَـلاتِهمْ سـاهونَ لاهون، لا يَدرونَ ما يَقولون، ولا يَذكرونَ الله إلاّ زَماناً قليلاً.

{مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً} [النساء: ١٤٣]

١٤٣- إنَّهمْ مُتحَيِّرونَ ومُتأرجِحونَ بينَ الكُفرِ والإيمان، ومُترَدِّدونَ بينَ الكافِرينَ والمؤمِنين، فلا همْ مَنسُـــوبونَ إلى المؤمنين حَقيقةً لإضـــمارِهمُ الكفر، ولا همْ يُظهرونَ الكُفرَ ليُقالَ إنَّهم كفّار، بلْ ظاهِرُهمْ معَ المؤمنينَ وباطنُهمْ معَ الكافِرين. ومَنْ يَصْـرِفْهُ اللهُ عنِ الهُدَى، ويُضْـلِلْهُ عنْ سَبيلِ النجاة، فلنْ تَجدَ لهُ هَادياً ومُنقِذاً، لعدمِ استعدادهِ للهدايةِ والتوفيق، ولصرفِ نفسهِ عنِ الحقِّ والصَّواب.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً} [النساء: ١٤٤]

١٤٤- أيُّها المؤمِنون، لا تَتشبَّهوا بالمنافِقينَ فتتَّخِذوا منَ الكافِرينَ أولياءَ لكمْ تَصحبونَهمْ وتُصادِقونهم، وتُناصِحونَهمْ وتُوادُّونَهم، وتُفشونَ أسرارَ المسلِمينَ إليهم، أتُريدونَ بذلكَ حُجَّةً ظاهرةً للهِ عليكمْ ليعاقبَكمْ عليها ويُعَذِّبَكمْ لأجلِها؟

{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً} [النساء: ١٤٥]

١٤٥- فإنَّ مصيرَ المنافِقينَ هوَ أسفلُ النَّارِ وأدنَى دركاتِ جهنَّم، وهوَ قَعْرُها، ولنْ تَجِدَ لهمْ يومئذٍ مَنْ يُنقِذُهمْ منْ حالِهمْ أو يُخَفِّفُ منْ عَذابِهمُ الشَّديد.

{إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً} [النساء: ١٤٦]

١٤٦- إلاّ مَنْ تابَ منهمْ وآب، ونَدِمَ على ما فات، وأصلحَ بالإيمانِ ما أفسدَهُ بالكُفر، واعتصمَ بحبلِ ربِّهِ وتمسَّكَ بكتابِه، وبدَّلَ بالرياءِ الإخلاصَ، فلم يُرِدْ بطاعتهِ سِوَى وجهِ ربِّه، فأولئكَ سَيكونونَ في زُمرةِ المؤمِنينَ يومَ القيامة، وسَوفَ يُعطيهمُ اللهُ -كما يُعطي المؤمِنين- الثوابَ الكبير، والدَّرَجاتِ العاليةَ في الجنَّة.

{مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً} [النساء: ١٤٧]

١٤٧- ولا يعذِّبُكمُ اللهُ إلاّ لرفضِكمْ ما شَرعَهُ لكم، ولنْ يُعَذِّبَكمْ ما دمتُمْ مُؤمنينَ صالحينَ شاكرين، والله يُثِيبُ على الشُّكر، فيَشكرُ لمنْ شَكرَ له، عليمٌ بقُلوبِ مَنْ آمن، فيُجازيهمْ على ذلكَ أوفرَ الجزاء.

سورة النساء (الآيات ١٤٨-١٧٦)
سورة المائدة (الآيات ١-٨١)

{لَا يُحِبُّ اللهُ الجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا} [النساء:١٤٨]

١٤٨ – لا يُحِبُّ اللهُ أنْ يُعْلِنَ أحدٌ عنْ أحدٍ سُـــوءاً إلاّ إذا ظُلِم. كأنْ يدعوَ على ظالِمه، أو يَشتكيَ عليهِ فيُبيِّنَ سوءَ ما ظَلَمَهُ به. وكانَ اللهُ سميعاً لكلامِ الظَّالِمِ والمظلوم، عالِماً بحالِهما.

{إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} [النساء:١٤٩]

١٤٩ – وإذا أظهَرتُمْ خَيراً أو أخفَيتُموه، أو عَفوتُمْ عَمَّنْ أســـاءَ إليكم وأنتُمْ قـادِرونَ على مؤاخَـذتِـه، فـإنَّ اللهَ يَعفو عنِ العُصـــاةِ معَ قـدرتـهِ على عِقـابهم، فكيفَ لا تَعفُونَ أنتمْ معَ ضَعفِكم؟ فاعفُوا واصفَحوا ليُجزِلَ اللهُ لكمُ الثواب.

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا} [النساء:١٥٠]

١٥٠ – إنَّ الذينَ تَقودُهمْ مذاهبُهمْ وآراؤهمْ إلى الكُفرِ باللهِ ورسلِه، وهمْ يَقولونَ إنَّهم مؤمنون، ويُريـدونَ أنْ يُفَرِّقوا في هـذا الإيمـان، فيؤمِنونَ باللهِ ويكفُرونَ برُسُـــلِـه، ويَقولون: نؤمِنُ ببَعضِ الأنبياءِ ونَكفرُ ببعضِهمُ الآخَر، كاليهودِ الذينَ لم يُؤمِنوا بنُبوَّةِ عيسى ونُبوَّةِ محمَّدٍ عليهمُ الصلاةُ والسَّلام، والنَّصـارَى الذينَ آمَنوا بالأنبياءِ ولم يؤمِنوا بمحمَّدٍ صـلى الله عليه وسلم، ويُريدونَ أنْ يَتَّخِذوا بينَ الإيمانِ والكفرِ مَسلَكاً يَسلُكونَه، معَ أنَّ الإيمانَ لا يَختلِف، والحقَّ لا يَتعدَّد،

{أُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا} [النساء:١٥١]

١٥١ – فهؤلاءِ كفرُهمْ مُحَقَّق، ولا عِبْرَةَ بما ادَّعَوا منْ إيمانٍ وسَلكوا مِنْ مَسْلَك، وقدْ هيَّأنا[٢٩] لهؤلاءِ الكافِرينَ وأمثالِهمْ عَذاباً مُذِلاًّ، جَزاءَ كفرِهمُ الذي ظنُّوا بهِ عِزَّة.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء:١٥٢]

١٥٢ – والذينَ آمَنوا باللهِ وبجَميعِ رسُلِه، كأمَّةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، الذينَ يؤمِنونَ بجَميعِ الأنبياء، ولم يُفَرِّقوا بينَ أحدٍ منهمْ كما فعلَهُ آخَرون، مِنَ الإيمانِ ببَعضِهم والكُفرِ ببعضِهمُ الآخَر، فأولئكَ – المؤمنونَ – سوفَ يُعطِيهمُ اللهُ ثوابَ أعمالِهمْ كامِلاً ويَزيدُهمْ مِنْ فضلِه، وهوَ غَفورٌ يَغفِرُ ذنوبَ المؤمِنينَ التائبين، ويَرحَمُهم، فيضاعِفُ لهمُ الأجر.

{يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا العِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا} [النساء:١٥٣]

١٥٣ – يسألُكَ أهلُ الكتابِ ممَّنْ فرَّقوا بينَ الرُّسُل، أنْ تُنَزِّلَ عليهمْ كتاباً مِنَ السَّماء، جُملةً واحِدةً وبخَطٍّ سماويّ، كشَأنِ التَّوراة، وقدْ سألوا ذلكَ على سَبيلِ التعنُّتِ والعِناد، والكُفرِ والإلحاد، كما سألَ كفّارُ قُرَيشٍ قبلَهم نظيرَ ذلك: {وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ} [الإسراء: ٩٣]، فلا تَهتَمَّ بهمْ وبمطالِبِهمُ المغرِضةِ هذه، فقدْ سَألوا موسَى أكبرَ منْ هذا وأعظَم؛ عِناداً لا استِرشاداً، فقالوا: نُريدُ أنْ نرَى اللهَ جَهاراً أمامَنا! فعاقَبهمُ اللهُ بصَاعقةٍ مِنْ نارٍ أهلَكتْهُم؛ بطُغيانِهم وبَغْيِهم، وعنادِهم وتعنُّتِهم. ثمَّ صَاروا يَعبُدونَ العِجل، على الرغمِ ممّا

(٢٩) {أَعْتَدْنَا} معناه: هيَّأنا وقدَّرنا. والتاء في {أَعْتَدْنَا} بدلٌ من الدالِ عند كثيرٍ من علماءِ اللغة، وقالَ كثيرٌ منهم: التاءُ أصلية، وأنه بناءٌ على حدة، هو غيرُ بناءِ (عَدّ). وقالَ بعضهم: إن (عَتد) هو الأصل، وأن (عدّ) أُدغمتْ منه التاءُ في الدال، وقد وردَ البناءان كثيراً في كلامهم وفي القرآن. (التحرير والتنوير).

جاءَهمْ نبيُّهمْ موسَى بالمعجِزاتِ الباهِرَةِ والأدلَّةِ الواضِحة، الدالَّةِ على أُلوهيَّةِ اللهِ سُبحانَهُ ووَحدانيَّتِه. وعَفَونا عنهمْ بعدَ أنْ تابوا.

وقد أعطَينا موسَى حجَّةً بيِّنةً تُظهِرُ صِدْقَ نُبوَّتِه. وهيَ الآياتُ التِّسع.

{وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا} [النساء:١٥٤]

١٥٤ – ورفَعنا فوقَ رؤوسِهمْ جبلَ الطورِ ليُعطُوا ميثاقَهمْ بقَبولِ شَريعةِ التَّوراة، فلمّا رأوهُ كالظُّلَّةِ فَوقَهمْ خافوا أنْ يقعَ عليهم، فوافَقوا وعاهَدوا.

وقُلنا لهمْ على لسَانِ نبيِّهمْ موسَى: إذا دخلتُمْ بابَ بيتِ المقدِسِ فادخُلوا سَاجِدينَ خاضِعين.

فلم يَفعلوا، بلْ عانَدوا وخالَفوا ودخَلوا زاحِفينَ على أُستاهُم!

ووصَّيناهمْ بأنْ لا يَظلِموا أنفُسَهمْ باصطيادِ الحيتانِ في يَومِ السَّبت.

وأخَذنا منهمْ على الامتِثالِ بهذهِ الأوامرِ عَهداً شَديداً ووَعداً مؤكَّداً، وإلاّ عَذَّبهمُ الله. فخالَفوا وعَصَوا، وتَحايلوا على ارْتِكابِ المعاصي...

{فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا} [النساء:١٥٥]

١٥٥ – فبمُخالفتِهمْ ونَكثِهمْ عهودَهمْ ومَواثيقَهمُ التي ائتُمِنوا عليها، وكفرِهمْ بالمعجِزاتِ والحُجَجِ الدالَّةِ على صِدْقِ أنبيائِه، وقَتلِهمُ الأنبياءَ عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ بغَيرِ حَقّ، كزكريّا ويَحيَى عَليهما السَّلام. وقولِهمْ للنبيِّ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم: قلوبُنا مُغَلَّفةٌ لا يَصِلُ إليها كلامُكَ ولا تَعِيه! بلْ هيَ مَختومةٌ بالكُفر، ومَطبوعٌ عليها بالصدِّ عنِ الحقِّ والإيمان، حتَّى صارتْ مَحجوبةً عنِ العِلم، كالبَيتِ المظلِمِ الذي لا يَدخلُهُ النور، فلا نافذةَ فيهِ ولا باب، فلا يُؤمنونَ إلاّ إيماناً قليلاً، كالإيمانِ بنبوَّةِ موسَى عليهِ السَّلام، على أنَّ الإيمانَ ببعضِ الأنبياءِ دونَ آخَرينَ يُعَدُّ كُفراً.

{وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا} [النساء:١٥٦]

١٥٦ – وبكفرِهِمْ بعيسَــى عليهِ السَّــلام، وقولِهِمْ على أُمِّهِ مريمَ كذباً وزُوراً عَظيما، فقدْ رَمَوها بالزِّنا، وهيَ الصِّدِّيقَةُ التي فضَّلَها اللهُ على نِساءِ العالَمين!

{وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا} [النساء:١٥٧]

١٥٧ – وقولِهِمْ في فَخرٍ وتَبَجُّح، عليهِمْ لَعائنُ الله: إنّا قَتَلنا هذا الذي يُدعَى المسيح، عيسى بنَ مريم. ولكنَّ الحقَّ أنَّهُمْ لم يَقتُلوهُ ولم يَصلُبوه، كما يَدَّعون، ولكنْ ألقَى اللهُ الشَّبْهَ على رجلٍ منهم، فظَنُّوهُ عيســى، فقَتلوه، وهؤلاءِ الذينَ ظنُّوا أنَّهُمْ قَتلوهُ في شــكٍّ وحَيرةٍ منْ ذلك، فهمْ أنفسُــهمْ غيرُ متأكِّدينَ منْ ذلك، بل همْ مُتردِّدون، ومتَّبِعونَ الظنّ، لا علمَ حَقيقيٌّ عندَهم بذلك. وما قَتلوا عيسَى يَقيناً.

{بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء:١٥٨]

١٥٨ – بلْ رفعَهُ اللهُ إليه. واللهُ عَزيزٌ لا يُغالَبُ إذا أرادَ شــيئاً، مَنيعٌ إذا انتَقم فلا يُمنَع، حَكيمٌ فيما يَفعلُ ويُدَبِّر.

{وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} [النساء:١٥٩]

١٥٩ – وليسَ هناكَ أحدٌ مِنْ أهلِ الكتابِ إلا ويؤمِنُ بإنسـانيَّةِ عيسى عليهِ السلامُ ونبوَّتِه، قبلَ أنْ تَزْهَقَ روحُه، يَعني عندَ الاحتِضــار، فتَنكشِــفُ لهُ الحَقيقَة، ولكنْ لا يَنفعُ الإيمانُ في ذلكَ الوقت، لكونِهِ مُلحَقاً بالبَرْزَخ.

ويَكونُ عيسَى عليهِ السَّلامُ شهيداً على أهلِ الكتابِ يومَ القيامة، بما شاهدَهمْ عليهِ في الحياةِ الدُّنيا، أي قبلَ رَفعِهِ وبعدَ نزولِه، فيَشــهدُ أنَّهُ بَلَّغَهمُ الرســالة، وأقرَّ بالعبوديَّةِ لنفسِــه، ويَشــهدُ على اليَهودِ بأنَّهمْ كذَّبوا رسالتَه، وعلى النَّصارَى بمَنْ صدَّقَهُ ومنْ كذَّبَه.

{فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا} [النساء: ١٦٠]

١٦٠ – فبسببِ ظُلمِ اليَهودِ وما ارتَكبوهُ مِنْ ذُنوبٍ عَظيمة، كالكُفرِ بآياتِ الله، وعِبادَةِ العِجل، وعَداوةِ الرُّسُل، وقَتلِ الأنبياء، وبُهتانِهِمْ على مَريم... حرَّمنا عليهمْ أطعمةً طيّبةً كانتْ حَلالاً لهم، وبسبَبِ صَرفِ أنفسِهمْ وآخَرينَ عنْ دِينِ اللهِ الحقّ مرّاتٍ كثيرَة.

{وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [النساء: ١٦١]

١٦١ – وبسبَبِ تعامُلِهمْ بالرِّبا، وتَحايُلِهمْ في أخذِهِ بأنواعِ الحِيَل، وقدْ نُهوا عنْ ذلكَ في التَّوراة.

وبسبَبِ أكلِهمْ أموالَ الناسِ بغَيرِ الحقّ، كالرِّشا في الحُكم، والتَّحريفِ والتَّزويرِ بالهدايا، وما إليها منَ الوجوهِ المحرَّمة. وقدْ هيّأنا للمُصِرّينَ منهمْ على الكُفرِ - إلاّ مَنْ تابَ وآمَنَ - عَذاباً مُؤلماً مُوجعاً في الآخِرَة، إضافةً إلى معاقَبتِهمْ في الدُّنيا؛ لظُلمِهمْ وعِصيانِهم.

{لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ مِنْهُمْ وَالمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآَخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا} [النساء: ١٦٢]

١٦٢ – وليسَ اليَهودُ كلُّهمْ كذلك، فإنَّ الثابتِينَ منهمْ في العِلمِ النافعِ ممَّنْ أسلمَ منْ عُلمائهم، وأولي البصائرِ ممَّن آمنَ منهم، مثلَ عبدِالله بنِ سلاّم وأصحابِه، يؤمنونَ بالقُرآن، وبالكتبِ المنْزَلةِ مِنْ قَبل، وهمْ يُقيمونَ الصَّلاةَ على وجهِها، ويُعطُونَ الزكاةَ المفروضَةَ عَليهم، ويؤمنونَ باللهِ الواحدِ الأحَد، وبالبَعثِ بعدَ الموت، والجزاءِ على الأعمال، فأولئكَ سنؤتيهمْ ثَواباً جَزيلاً وأجراً عَظيماً على ما آمَنوا وصَدَّقوا.

{إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} [النساء:١٦٣]

١٦٣ – وقدْ طَلَبَ منكَ أهلُ الكتابِ أنْ تُنَــزِّلَ عليهمْ كتاباً منَ السَّماء، وشأنُكَ في الوحي شــأنُ ســائرِ الأنبياءِ الموحَى إليهم، فقدْ أوحَينا إليكَ كما أوحَينا إلى نوحٍ، وإلى مَنْ تَلَوهُ منَ الأنبياء، إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباطِ – وهمْ أولادُ يعقوبَ –، وعيسى، ويونُس، وهارون، وسُلَيمان، وآتَينا داودَ الزَّبُور(٣٠).

{وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء:١٦٤]

١٦٤ – ورُسُــلاً آخَرينَ قَصَــصــنا عليكَ خبرَهمْ في القُرآنِ قبلَ هذهِ السُّــورة، وآخَرينَ لم نَقصُصْهمْ عليكَ مِنْ قَبل، وكلَّمَ اللهُ موسَى تَكليماً، بلا واسِطة.

{رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء:١٦٥]

١٦٥ – لقدْ أرسَـلنا رُسُـلاً يُبَشِّـرونَ الناسَ بالثَّوابِ العَظيمِ لمنْ أطاعوا أنبياءَهم، ويُنذِرونَ مَنْ كذَّبوهمْ وخالَفوهمْ بالعِقابِ والعَذاب، حتَّى لا يَكونَ لهمْ عُذرٌ يومَ الحِسـاب، ولئلاّ يَقولوا ربَّنا ما أرســـلتَ إلينا رُســـلاً يُعَلِّمونَنا، وما أَنزَلْتَ علينا كتُباً نَهتدي بها. واللهُ عَزيزٌ في مُلكِه لا يُغالَب، حكيمٌ في أمرِهِ وتَدبيرِه.

(٣٠) هو أحدُ أسفارِ الكتابِ المقدَّسِ عند اليهود. أُنزلَ على داودَ عليه السلام، وفيه مواعظُ وأمثال، كان بنو إسرائيلَ يترنَّمون بفصوله. (ينظر التحرير والتنوير).

{لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا} [النساء:١٦٦]

١٦٦ – فإنْ لم يَشهدْ لكَ المشركونَ وأهلُ الكتابِ أيُّها النبيُّ الكريم، وجحَدوا نبوَّتَكَ وكذَّبوك، فاللهُ يَشهَدُ بنبوَّتِكَ وصِدقِك، ويَشهَدُ بالقُرآنِ الذي أنزلَهُ عَليك، أنزلَهُ بعِلمِهِ الذي لا يَعلمُهُ غَيرُه، بنَظْمٍ وأسلوبٍ يَعجِزُ عنهُ كلُّ بَليغ، وفيهِ آياتهُ وهَديُه. والملائكةُ يَشهدونَ كذلكَ على صِدْقه، وكفَى أنْ يكونَ اللهُ شَهيداً على ذلك، وأقامَ حُجَجاً على صِحَّةِ نبوَّتك، يؤمِنُ بها مَنْ لم يُعانِدْ ويُخاصِم.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا} [النساء:١٦٧]

١٦٧ – والذينَ كفَروا بما أُنْزِلَ إليك، ومَنعوا الناسَ منِ اتِّباعك، وكَتموا أوصافَكَ ليُبعِدوهمْ عنِ الإيمانِ بنبوَّتِك، فقدِ ابتعَدوا عنِ الحقِّ ابتِعاداً كبيراً، وجَمعوا بينَ الضَّلالِ والإضلال.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا} [النساء:١٦٨]

١٦٨ – والذينَ كفَروا وظَلموا أنفسَهمْ كما ظَلموا النَّاس، بإنكارِ صفاتِ محمَّدٍ عليهِ الصلاةُ والسلام، وإنكارِ نبوَّتِه، فصَدُّوا النَّاسَ عنِ الإيمانِ بذلك، لنْ يَغفِرَ اللهُ لهمْ ولنْ يَهديَهُمْ إلى الإسْلام؛ لعدمِ استِعدادِهمْ للهِدايةِ إلى الحقّ، والاسترشادِ بالآياتِ الواضِحة، والتوجُّهِ نحوَ الأعمالِ الصَّالحة.

{إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا} [النساء:١٦٩]

١٦٩ – ولكنْ يُمَهِّدُ لهمُ الطَّريقَ ليَدخلوا جهنَّم، مخلَّدينَ فيها إلى الأبَد، وهذا سَهلٌ يَسيرٌ على الله، ولا صَارفَ لهُ عنْ ذلك، فهمْ مُحقَّرونَ لا يَستَحِقُّونَ الرَّحمَة، لأنَّهمْ لم يُبالوا بأوامرِ الله، ولم يَلتَفِتوا إلى سُبلِ الخَيرِ وطريقِ الحقّ، فلا يُبالي اللهُ بهم.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء: ١٧٠]

١٧٠ – أيُّها النَّاس، إنَّ الرسُولَ محمَّداً صلى الله عليه وسلم قدْ جاءَكمْ بالهُدَى ودينِ الحقّ وشَهادةِ التوحيدِ بإذنِ منَ اللهِ ووَحيٍ منه، فآمِنوا بما جاءَكمْ بهِ مِنَ الحقِّ واتَّبِعوهُ يَكنْ خيراً لكمْ وأنجَى، وإنْ تَكفُروا بذلكَ فإنَّهُ غنيٌّ عنكمْ وعنْ إيمانِكم، فلهُ مُلْكُ السَّماواتِ والأرضِ وما بينَهما، وكلُّ ما فيهما مُنقادٌ لهُ ويتصَرَّفُ فيهما كما يَشاء، والله عليمٌ بأحوالِكمْ وبمنْ يَستَحِقُّ الهداية منكمْ فيَهديه، حكيمٌ فيما يُشرِّعهُ ويُدَبِّرهُ ويُقَدِّره.

{يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الحَقَّ إِنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآَمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا} [النساء: ١٧١]

١٧١ – يا أهلَ الكتاب، منَ اليهودِ والنَّصارَى، لا تَتطرَّفوا ولا تَتجاوزوا الحقَّ في دينِكم، ولا تَذكروا عنِ اللهِ إلاّ ما هوَ صِدقٌ وحَقٌّ وعَدل، بعيداً عنِ الكذبِ والضَّلالِ والباطِل، فلا صاحبةَ لهُ ولا ولَد، وما المسيحُ عيسى بنُ مريمَ إلا عبدُ اللهِ ورسولهُ، خُلِقَ بكلمةِ اللهِ وأمرِه "كُنْ" التي أوصلَها إلى مَريم، مِنْ غيرِ واسِطةٍ ولا أب، وهوَ رُوحٌ منَ الأرواحِ التي خلقَها اللهُ وكمَّلها بالصِّفاتِ الفاضِلةِ والأخلاقِ الكامِلة.

و"مِنْ" في قولهِ {وَرُوحٌ مِّنْهُ} للتَّشريفِ والتكريم، كأنْ تَقول: نِعمةٌ مِنَ الله، وليستْ "مِنْ" تَبعيضيَّةً كما ادَّعتِ النَّصارى وقالت: يَعني أنَّهُ بَعْضٌ مِنَ الله، تعالَى اللهُ عنْ ذلكَ عُلوّاً كبيراً، كما أنَّ قولَهُ تعالَى: {وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ} [سورة الجاثية: ١٣] لا يَعني أنَّ هذهِ الأشياءَ بعضٌ منَ الله...

فآمِنوا وصَدِّقوا باللهِ الواحدِ الأحَد، الذي لا صاحِبةَ لهُ ولا ولَد، وآمِنوا بجَميعِ أنبيائهِ ورُسُلِه، وهمْ عَبيدٌ مثلُكم، ولكنَّ اللهَ يوحِي إليهِمْ ويُكلِّفُهمْ بتَبليغِ رسالتِه، ولا تَقولوا إنَّ الآلهةَ ثلاثة، فتَجعلوا عيسى وأمَّهُ شَريكَينِ معَ الله، فانتَهوا منْ هذا الإثمِ العَظيمِ والشِّركِ الكبير، فإنَّ مَنْ قالَ ذلكَ أشركَ وكفَر. (وكانتْ هناكَ فِرقةٌ مِنَ النَّصارى يَقولونَ بألُوهيَّةِ مريمَ أيضاً، يُقالُ لهمُ

"المريَمِيُّون"، ظَهروا في القَرنِ السادسِ الميلادي، القرنِ الذي بُعِثَ فيهِ الرسولُ محمَّدٌ صلى اللهُ عليه وسلَّم).

انتَهُوا عنِ القولِ بالتَّثليث، فهوَ خَيرٌ لكمْ منْ هذا الكذِبِ والافْتراءِ الباطِلِ الذي لا أصلَ لهُ ولا عقلَ يَقبلُه، إنَّما اللهُ إلهٌ واحِدٌ مُنـزَّهٌ عنِ التعدُّدِ، تعالَى وتَقدَّسَ أنْ يكونَ لهُ ولدٌ مثلُه، فلا شبيهَ لهُ ولا كُفء، بلْ جميعُ ما في السَّماواتِ والأرضِ مُلكهُ وعَبيدهُ وتحتَ تَصرُّفِه، لا يَخرجُ عنْ مُلكهِ شَيءٌ ممّا هوَ فيهما، ولو كانَ لهُ ولدٌ لكانَ مثلَهُ في صِفَةِ الملكيَّة، وهوَ الوكيلُ الحافِظُ المستَقِلُّ بحفظِ جَميعِ ما في الكون، ولا يَحتاجُ إلى مَنْ يُعينُه، فلا يُتَصَوَّرُ له ولد، بلِ القائلُ بذلكَ في ضَلالٍ وكذبٍ وجَهل.

{لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا للهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا} [النساء:١٧٢]

١٧٢ – ولنْ يَستَكبِرَ المسيحُ عيسى عنْ أنْ يكونَ عبداً لله مُطيعاً، والعُبوديَّةُ للهِ شَرَفٌ وعِزٌّ لمنْ عَقَل، كما لا يأنَفُ ملائكتهُ المقرَّبونَ مِنْ أنْ يَكونوا عَبيداً له، ومَنْ يَمتَنعْ عنْ عبادتهِ ويَستَكبِرْ عنْ طاعتِه، فسيَجمَعُهمْ إليهِ يومَ القيامةِ ليَفصِلَ بينَهم بحُكمهِ العَدل.

{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا} [النساء:١٧٣]

١٧٣ – فأمّا مَنْ آمنَ إيماناً صَحيحاً، وعَمِلَ عَملاً صالحاً موافِقاً للشَّريعة، مُبتَغياً بِهِ وجهَ الله، فيُعطيهمُ اللهُ أجورَهمْ كامِلةً، ويَزيدُهمْ أضعافاً مُضاعَفةً بفَضلِه. وأمّا مَنْ عصَى واستكبرَ عنْ عبادتِه، فيُعَذِّبُهم عَذاباً مُوجِعاً مُهلِكاً، ولا يَجِدونَ هناكَ مَنْ يَلي أمورَهمْ، ويُدافِعُ عنهم، ويَنتصِرُ لهم، ويُخَلِّصهمْ مِنْ عذابِ اللهِ المحيطِ بهم.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا} [النساء:١٧٤]

١٧٤ – أيُّها النَّاس، لقدْ أتَتكمْ مُعجِزاتٌ كافيةٌ مِنْ ربِّكم، وأنزَلنا إليكمْ بواسـطةِ النبيّ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم القُرآنَ الكريم، الذي فيهِ نورٌ[٣١] بيّنٌ يُفَرِّقُ بينَ الحقِّ والباطِل.

{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا} [النساء:١٧٥]

١٧٥ – فأمّا الذينَ آمنوا بربِّهِمْ وأطاعوهُ وتوكَّلوا عليهِ حقَّ التوكُّل في جميعِ أمُورِهم، فسيَرحَمُهُمْ، ويُدخِلُهمُ الجنَّة، ويَزيدُهمْ مِنْ فَضلِهِ وإحسانِه، فيُضاعِفُ لهمْ أجورَهم، ويَزيدُهمْ نوراً وهِدايةً وتَثبيتاً على دينِه، ودرجاتٍ عاليةً في الجنَّة.

{يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [النساء:١٧٦]

١٧٦ – يَسألونكَ عنِ الكَلالة، وهي مَسألةٌ فَرائضيَّة، فيمَنْ ماتَ وليسَ لهُ ولَدٌ ولا والِد، فقُل: يُجيبُكمُ اللهُ عنها ويُبَيِّنُ حُكمَها. فإذا ماتَ شَخصٌ، وليسَ لهُ ولَد، ولهُ أُخت، فللأُختِ نِصْفُ ما تركَ مِنَ الميراث، ويَعني هذا أنَّهُ ليسَ لهُ أب، فلو كانَ حيّاً لحجَبها.

والأخُ يَرِثُ جميعَ مالِ أختهِ إذا ماتَتْ وليسَ لها والِدٌ ولا ولَد.

فإذا كانَ للميّتِ أُختان، فلهما ثُلثا التركة.

وإذا كانَ للميّتِ إخوةٌ وأخوات، أُعطِيَ للذكَرِ منهمْ حظُّ الأُنثيَين.

(٣١) سمّيَ القرآنُ نورًا لكونهِ سببًا لوقوعِ نورِ الإيمانِ في القلوب، ولأنه تتبيَّنُ به الأحكامُ كما تتبيَّنُ بالنورِ الأعيانُ. (روح البيان).

ويُوَضِّـحُ اللهُ لكمْ هذهِ الأحكامَ ويُحَدِّدُها حتَّى لا تَشـتَطُّوا وتَقعوا في الخطأ. وهوَ سُـبحانَهُ عالِمٌ بعواقبِ الأمُورِ ومصالحِها، فيُشَرِّعُ ما هوَ حقٌّ وعدلٌ بعلمِهِ وحكمتِه.

سورة المائدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ} [المائدة:١]

١ – أيُّها المؤمِنون، أوفُوا بالعُهودِ الموجِبةِ عليكم، ممّا أحلَّ اللهُ وحرَّم، وما فَرَضَ وحَدَّ، وما تعامَلتُمْ بهِ معَ الناس.

وقدْ أحلَّ اللهُ لكمْ بَهيمةَ الأنعام، وهيَ الإبِل، والبقَر، والغنَم، والمَـــعْز، إلا ما يُتلَى عليكمْ في القُرآن، في الآيةِ الثالثةِ منْ هذهِ السُّـورة. ولا يَحِلُّ اصـطيادُها ولا أكلُ لحمِها في حالِ الإحرامِ بالحجِّ أو العُمْرة.

واللهُ يَشْـــرَعُ ما يُريدُ منَ التَّحليلِ والتَّحريم، حَكيمٌ في جَميعِ ما يأمرُ بهِ ويَنهَى، فلا اعتراضَ عليه، ولا مُعَقِّبَ لحُكمِه.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلَا الشَّهْرَ الحَرَامَ وَلَا الهَدْيَ وَلَا القَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ البَيْتَ الحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ المَسْجِدِ الحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ} [المائدة:٢]

٢ – أيُّها المؤمِنون، لا تَتهاونوا بما حرَّمَ اللهُ عليكمْ مِنْ أمورٍ تَخُصُّ مناسِـــكَ الحجِّ وعلاماتٍ يَعْرِفُ بها الحاجُّ أداءَ حجِّه، فلا تُحِلُّوا ما حرَّم اللهُ منها، ولا القِتالَ في الشَّـــهرِ الحرام، وهوَ ذو القَعدة، وذو الحِجَّة، والمحرَّم، ورَجَب. ولا تَتركوا إهداءَ النُّســـكِ إلى بيتِ اللهِ الحرام، منْ بَعيرٍ وبَقرٍ وشِياه، ولا تَتركوا تقليدَها في أعناقِها، لتَتميَّزَ بهِ عنْ سائرِ الأنعام، ولتُعرَفَ ويتجنَّبها مَنْ أرادَها بسُوء.

ولا تَتعرَّضــوا بسُــوءٍ لِمنْ قَصَــدَ البَيتَ الحرامَ (وكانَ بينهم مُشــرِكون)، يُريدونَ بذلكَ الرِّزقَ والتِّجارة، أو التعبُّدَ لرضَـــى اللهِ – بزعمِهم –، فلا تَمنعوهمْ ولا تُخَوِّفوهم، فإنَّ مَنَ دخلَ البيتَ كانَ آمِناً.

ثمَّ نُسِخَ هذا بقولهِ تعالَى: {إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـذَا} [سورة التوبة: ٢٨]، وقولهِ: {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ} [سورة التوبة: ٥].

فإذا تَحَلَّلتُمْ منَ الإحرام، فقدْ أُبيحَ لكمُ الاصطياد.

ولا يَحملنَّكمْ عداوةُ وبُغْضُ قومٍ ســبقَ أنْ مَنعوكمْ منَ البيتِ الحرامِ أنْ تَظلِموهمْ وتَعتَدوا عليهمْ بالقَتلِ وأخذِ الأموال.

ولْيُعِنْ بعضُــكمْ بعضــاً على فعلِ الخَيرات، وعلى الحِلْمِ والعَفو، وعلى الطَّاعةِ والخَشــية، وفي التقوَى رضا الله، وفي البِرّ بالناسِ رِضاهُم، وأجمِلْ بذلك إذا اجتَمعا في المرء.

ولا تَتعاوَنوا على الإثمِ والكفر، والظُّلمِ والمعصية، والمنكرِ والباطِل.

واتَّقوا اللهَ واخشَــوْهُ في جميعِ أمورِكم، ومنها الأوامرُ والنواهي المذكورةُ ســابقاً، فإنَّ عقابَهُ شــديدٌ لمنْ خالفَهُ.

{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة:٣]

٣ – حَرَّمَ اللهُ عَليكمْ أكلَ الحيَوانِ الذي ماتَ حَتْفَ أنفِه، والدمَ المسفوحَ منه، ولحمَ الخِنــزير، وكلُّهُ نَجَس، وذُكِرَ اللحمُ لأنَّهُ مُعظَمُ المقصُود، وما رُفِعَ الصــوتُ بِهِ لغَيرِ اللهِ عندَ ذَبحِه، كقولهِمْ باســمِ اللاّتِ والعُزَّى، والذي يموتُ بالخَنق، والذي يُضـــرَبُ حتَّى يموت، والذي يَتردَّى مِنْ مكانٍ عالٍ فيَموت، والذي يموتُ بسـبَبِ نَطحِ غيرِهِ له، وما عدا عليهِ السَّــبُعُ فأكلَ بعضَــهُ

فماتَ بسـبَبِ ذلك، إلا ما أدركتُمْ ذَبحَهُ ممّا ذُكِرَ قبلَ أنْ يَموت، منَ المنخَنِقةِ والموقُوذةِ والمترَدِّيةِ والنَّطِيحةِ وما أكلَ السَّبُع.

ويَحْرُمُ ما ذُبِحَ منها على النُّصُـب، وهي أحجارٌ كانتْ منصـوبةً حولَ الكعبة، وكانتِ العربُ تَفعَلهُ في الجاهليَّة.

وحَرَّمَ عليكمُ الاستِقسامَ بالأزلام، وهوَ طلبُ القَسْمِ والحُكْمِ مِنْ قِداحٍ كانَ يُكتَبُ على واحدٍ منها "افعَلْ"، وعلى الثاني "لا تَفعَلْ"، ولا شَـــيءَ على الآخَر، فيأتَمِرُ بها الجاهليّ، فإنْ كانتِ الفارغةَ أعاد.

والقِدْحُ قِطعةُ خَشَبٍ تُسَوَّى، لا ريشَ لها ولا نَصْل.

فالتعاملُ بالأزلامِ ضَلالٌ وجَهالةٌ وشِرْك، وإذا تردَّدَ المؤمنُ في أمرٍ تعبَّدَ واستَخار.

وقدْ قَوِيَ دينُ الإسـلامِ واكتَمل، فلا مَطمَعَ لمشـرِكٍ في أنْ تَعودوا إلى الشِّـركِ بعدَ اليوم، فلا تَخافوا منْ مخالَفتِكمْ إيّاهم، ولا مِنْ أنْ يَظهروا عليكم، بلْ خافوا مِنْ عُقوبتي إذا خالفتُمْ ما أمرتُكمْ به، وتمسَّكوا بحَبليَ المتينِ لأجعلَكمْ فوقَهمْ في الدُّنيا والآخِرَة.

وفي يومِ عَرَفةَ مِنْ حِجَّةِ الوَداعِ نَزلتْ هذهِ السُّـــورةُ العَظيمة، ومنها هذهِ الآيةُ الكريمة. اليومَ أكمَلتُ لكمْ دينَ الإسلام، فلا تَحتاجونَ إلى دِينٍ ولا مَذهبٍ سِواه، ولا تَحتاجونَ إلى نبيٍّ بعدَ نبيِّكمْ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، فهوَ خاتمُ الأنبياء، ودينُكمْ آخِرُ الأديان، وناسخٌ لِما سبقَهُ منها، فلا يؤخَذُ حُكمٌ إلاّ منه.

والمقصـودُ بالإكمال: إكمالُ الكُلِّيات، التي منها الأمرُ بالاستِنباطِ والقياس. وقدْ جمعَ القرآنُ جميعَ الأحكامِ جمعاً كلّياً في الغالِب، وجُزئيًّا في المهمّ.

وأتمَمْتُ عليكمْ نِعمتي بذلك، وأنجزتُ لكمْ وَعدي، بقولي: {وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ} [ســـورة البقرة : ١٥٠]

واختَرتُ لكمُ الإسـلامَ – أيُّها المسلِمونَ – دونَ الأديان، ورَضِيتُهُ لكم، فأقبِلوا عليهِ وتَمسَّـكوا به، فإنَّهُ الحقُّ مِنْ ربِّكم، وفيهِ سَعادتُكم، وعِزُّكمْ ونَصرُكم، وهوَ ذُخرُكمْ يومَ الدِّين.

ومَنْ ألجأتْهُ الضَّـرورةُ إلى أكلِ شَـيءٍ مِنْ تلكَ المحرَّمات، كمَجاعةٍ تُطوَى منها البُطون، ويُخافُ معها الموتُ أو مبادِئه، غيرَ مائلٍ إلى المعِصـــيَة، فلا يأكلْ منها زيادةً عنْ حاجتِه، فإنَّ اللهَ لا يُؤاخِذُهُ بأكلِه، بلْ يَغفِرُ لهُ ذلك، وهوَ رحيمٌ بهِ حيثُ أباحَ لهُ المحرَّم عندَ حاجتِهِ إليه.

{يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ} [المائدة:٤]

٤ – ويسألونَكَ عمّا أُحِلَّ لهم، فقلْ لهم: أحلَّ اللهُ لكمُ الطيّبات، وهيَ ما لم تَستَخْبِثْهُ الطِّباعُ السَّليمةُ ولم تنفِرْ عنه. وأحَلَّ لكمْ ما صادتْهُ الجوارِحُ المتعلِّمة، منَ السِّباعِ والطُّيور، كالكلابِ والصُّقور، معلِّمينَ إيّاها الصَّيد، فتُغرُونَها بذلك، وتُعَلِّمونَها آدابَ أخذهِ مِمّا علَّمكمُ اللهُ مِنْ طُرُقِ التَّعليمِ والتأديب، فتَمضي إذا أُرْسِلَت، وتَقِفُ إذا مُنِعَت، وتعودُ إذا دُعِيَت، وتُمسِكُ الصيدَ لصاحبِهِ لا لنَفسِها، فلا تأكلُ منهُ شيئاً.

فكُلوا ما أمسَكَتْهُ لكمْ مِنَ الصَّيد، ولا تأكلوا مِمّا أكلَته، واذكروا اسمَ اللهِ عندَ إرسالِها إلى الصَّيد.

واتَّقوا اللهَ في شأنِ هذهِ المحرَّماتِ ولا تَقرَبوها، فهوَ يُؤاخِذُ بما جَلَّ ودَقّ، وهوَ سريعُ إتمامِ الحِسابِ إذا شَرَعَ فيه.

{اليَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالمُحْصَنَاتُ مِنَ المُؤْمِنَاتِ وَالمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ} [المائدة:٥]

٥ – وكما أكملَ اللهُ الدّينَ وأتمَّ النِّعمةَ فيه، فقدْ أكملَ النِّعمةَ فيما أحلَّ لكمْ منَ الطيّباتِ في الدُّنيا، فذبائحُ أهلِ الكتابِ حَلالٌ لكم، كما يَحِلُّ لكمْ إطعامُ أهلِ الكتابِ مِنْ ذبائحِكم.

وأحَلَّ اللهُ لكمُ الزواجَ مِنَ الحرائر، مِنَ المؤمناتِ وأهلِ الكتاب، إذا أعطيتُموهنَّ صَداقَهُنّ، تَبتَغونَ بذلكَ إحصانَ أنفسِكمْ بالزواجِ الشرعيّ، غيرَ قاصِدينَ الزّنا، ولا اتِّخاذِهنَّ عَشيقات.

ومَنْ يَكفرْ بالله، الذي يَجِبُ الإيمانُ به، وبسائرِ شَرائعِ الإسلام، فقدَ هلكَ ما عَمِلَهُ في الحياةِ الدُّنيا وخَسِرَ ثوابَ ذلكَ كلِّه، فصارَ مِنْ أهلِ النار، فإنْ كانَ كافِراً فلا يُعتَدُّ بعملهِ أصلاً،

وإنْ كانَ مُسلِماً فارتدَّ وماتَ على الكُفر، فقدْ حَبِطَ ما عَمِلَهُ مِنْ حَسَناتٍ وأعمالٍ صالحةٍ قبلَ ذلك، فكانَ منَ الهالِكين.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [المائدة:٦]

٦ – أيُّها المؤمِنون، إذا أردتمُ الصَّلاةَ فتَوضَّؤوا قبلَ أنْ تُؤدُّوها، وهوَ أنْ تَغسِلوا وجوهَكم، وأيديَكم معَ المرافِق، وأنْ تَمسَحوا رؤوسَكمْ بالماء، وأنْ تَغسِلوا أرجلَكمْ معَ الكعبين.

وإذا كنتُمْ مُجنِبينَ فاغتَسِلوا. وإذا كنتُمْ مرضَى ويَضرُّكُمْ استِعمالُ الماءِ معه، أو كنتُمْ مُسافِرين، أو جئتُمْ مِنَ الغائطِ (أي قَضاءِ الحاجَة)، أو لامستمُ النساءَ - على الخلافِ الوارِدِ بينَ المفسّرينَ والفُقهاءِ، مِنْ معنَى الجِماعِ أو مسّ البَشَرة - ولم تَجدوا ماءً تَتوضَّؤون به، فتَيمَّموا تُراباً طاهِراً، أو ما صَعَدَ منَ الأرضِ منْ رَمْلٍ وحَجَرٍ وغَيرِه، على أقوال، فامسَحوا وجوهَكمْ به، ثمَّ أيديكمْ إلى المرافِق. ولا يُريدُ اللهُ أنْ يَجعلَ عليكمْ بالوضوءِ والتيمُّمِ ضِيقاً وحَرَجاً، ولكنْ يُريدُ بذلكَ تَطهيرَ أجسامِكمْ ونفوسِكم، فإنَّ الوضوءَ وما يَنوبُ عنهُ تُكَفَّرُ بِهِ الخَطايا، وليُكمِلَ اللهُ بذلكَ نِعمتَهُ عليكمْ فيما شَرَعَهُ لكمْ منَ التوسعةِ واليُسرِ والرَّحمَة، ولعلَّكمْ تَتفكَّرونَ بذلكَ وتَشكرونَ اللهَ على ما رخَّصَهُ لكمْ وسهَّله عليكم، بطاعتِكمْ إيّاه.

{وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [المائدة:٧]

٧ – واذكروا أيُّها المسلِمونَ نِعمةَ اللهِ عليكم، وهوَ الإسلام، والعهدَ الذي أخذَهُ منكمْ بالسَّمعِ والطَّاعة، كما قال تعالى: {وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} [سورة البقرة: ٢٨٥]، أو ما كانوا يُبايعونَ بِهِ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عندَ إسلامِهم، منَ السَّمعِ والطَّاعة، في المَنْشَطِ والمكْرَه.

فاتَّقوا اللهَ ولا تَنسَوا النِّعمةَ الكبيرةَ التي أسبَغها عليكم، وأوفُوا بعَهدِ اللهِ الذي عاهدتُمْ به، واللهُ عَليمٌ بخَفايا الصُّدور، وبالخواطرِ والأسرارِ التي تَختلجُ في الضَّمائر، فاخشَوا اللهَ وأطيعُوه.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة:٨]
٨ – أيُّها المؤمِنون، قُوموا بالحقوقِ اللازمةِ عليكمْ عَدْلاً وصِدقاً، لا جَوراً وظُلماً، وبإخلاص، لا لرياءٍ وسُمعة، ولا يَحمِلَنَّكم بُغضُ قومٍ على ظُلمِهمْ وعدمِ إقامةِ العدلِ فيهم، بلِ اعدِلوا فيهمْ وإنْ أساؤوا إليكم، وأنصِفوا فيهمْ وإنْ مَالوا وظَلموا، فإنَّ عدلَكمْ معهمْ أقربُ إلى رِضا اللهِ واتِّقاءِ عَذابِه.
قالَ الفخرُ الرازيُّ رحمَهُ الله: وفيهِ تَنبيهٌ عَظيمٌ على وجوبِ العَدلِ معَ الكفّار، الذينَ همْ أعداءُ اللهِ تعالَى، فما الظنُّ بوجوبهِ معَ المؤمِنين، الذينَ هم أولياؤهُ وأحبّاؤه؟! ا.هـ.
فواظِبوا على تقوى اللهِ وطاعتهِ والخوفِ منه، فإنَّهُ خَبيرٌ بأعمالِكمْ كلِّها، وسيُجازيكمْ عليها.

{وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} [المائدة:٩]
٩ – وَعدَ اللهُ الذينَ آمَنوا مِنكمْ وصَدقوا في إيمانِهم، وعَمِلوا الصَّالحاتِ فكانوا مُخلِصينَ فيها، مُتَحَرِّينَ موافقتَها الشَّريعة، أنْ يَغفِرَ لهمْ ذنوبَهم، ويُثيبَهمْ على أعمالِهمْ جنّات.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَحِيمِ} [المائدة:١٠]
١٠ – والذينَ كفَروا بالله، وكذَّبوا بالآياتِ والمعجِزاتِ التي أيَّدَ بها رُسلَه، وهيَ واضِحةٌ بيِّنة، يَكونونَ منْ أهلِ جهنَّم، ماكثينَ فيها أبداً.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ} [المائدة:١١]
١١ – أيُّها المؤمِنون، اذكروا فضائلَ اللهِ ونِعَمَهُ المتَتاليةَ عليكم، وقدْ أرادَ قومٌ أنْ يَبْطِشوا بكمْ فيَقتُلوكمْ ويأخُذوا أموالَكم، فمنعَهمْ وكَفَّ شَرَّهم عنكم، ورَدَّ كيدَهمْ في نُحورِهم، واحذَروا اللهَ

أيُّها المؤمنونَ أنْ تُخالِفوهُ فيمَا أمرَكم ونهاكُم، واشـــكروهُ على هذهِ النِّعم، وعلى ربِّهِمْ فليَعتَمدِ المؤمنون، ولْيُفوِّضُوا إليهِ أمورَهمْ كُلَّها، فهوَ الذي يَدرأُ المفاسدَ ويَجلُبُ المِصالح.

{وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} [المائدة: ١٢]

١٢ – وقدْ أخَذَ اللهُ عهدَ بني إسْـــرائيل، وبَعثنا اثنَيْ عشـــرَ مِنَ العُرَفاءِ على قبائلِهِمْ بالمبايعةِ والطَّاعةِ للهِ ولنبيِّهم، ذُكِرَ أنَّهُ لقتالِ الجبابرةِ في أرضِ فِلَسطين، وقالَ اللهُ لهمْ على لسانِ نبيِّهم: إنِّي معكم، إذا واظبتُمْ على الصَّلاة، ودَفعتُمْ زَكاةَ الأموال، وصَدَّقتُمْ جميعَ رُسُلي فيما يُخبرونَكمْ منَ الوحي، ونَصرتُموهُمْ وأعنتُموهُمْ على الحقّ، وأنفقتُمْ في سَبيلِ الله، ولأغفِرَنَّ ذنوبَكمْ وأسترُها عليكم، ولأدخِلنَّكمْ جزاءَ أعمالكمُ المرضـــيَّةِ جنّات، تَجري مِنْ تحتِ أشـــجارِها الأنهار. ومَنْ خالفَ الوعدَ ونقضَ الميثاق، فكفرَ بالله، وكذَّبَ رُسُلي، فقدِ ابتعدَ عنِ الهُدى، وأخطأ الطَّريقَ الحقَّ الذي طُلِبَ منهُ اتِّباعُها.

{فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [المائدة:١٣]

١٣ – فبسـببِ نقضِـهمُ العهدَ المؤكَّدَ الذي أُخِذَ عليهم، أبعدناهمْ عنْ رَحمتِنا، وطَردناهمْ منَ الهُدى؛ عقوبةً لهم، وجَعلنا قلوبَهمْ غليظةً لا تَلين، تَنبو عنْ قبولِ الحقّ، ولا تَتَّعظُ بموعِظة. وكانوا يُحَرِّفونَ كلامَ اللهِ ويَفتَرونَ عليه، ويؤوِّلونَه، ويَحمِلونَهُ على غيرِ مُرادِه، وتَركوا قِســـماً وافياً منَ التَّوراة فلمْ يَعمَلوا به.

ولا يزالُ هذا شأنَهمْ حتَّى صارَ المكرُ والخيانةُ عادةً لهم، فترى منْ آثارِ ذلكَ غدرَهُمْ بكَ وأذاهُمْ لكَ ولأصحابِكَ الآن، إلا القليلَ منهم، وهمُ الذينَ أسلَموا. فاعفُ عنهم، وتَجاوزْ عمَّن أساءَ

إليك، ما داموا على عهدِكَ ولم يَخونوك، فلعلَّهمْ يَهتدونَ بهذا الأســــلوب، واللهُ يُحِبُّ مَنْ عفا وأحسَن، وتجاوزَ وتفضَّل.

ويبدو أنَّ الأكثرَ يَعتبرونَ الآيةَ مَنســــوخة، بآيةِ الســــيفِ أو غيرِها، كما قالَ ابنُ الجوزيُّ في "النَّواسِــــخ"، لكنْ أوردَ قولَ ابنِ جريرٍ الطبريّ: يَجوزُ أنْ يُعفَى في غَدْرةٍ فَعلوها ما لم يَنصِــبوا حَرباً، ولم يَمتَنعوا مِنْ أداءِ الجزية والإقرارِ بالصَّغار، فلا يَتوجَّهُ النَّسخ.

{وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} [المائدة:١٤]

١٤ – والذينَ ادَّعَوا أنَّهمْ نصـارَى مُتابِعونَ لعيسَى بنِ مريمَ عليهِ السَّـلام، وهمْ ليسُـوا كذلك، أخَذنا منهمُ العهودَ والمواثيقَ بمتابعةِ الرسـولِ ومناصَـرتِه، والإيمانِ بأنبياءِ اللهِ كلِّهم، ومنهمْ محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، ولكنَّهمْ خالَفوا ونَبذوا قِسْماً كبيراً ممّا عُلِّموهُ وذُكِّروهُ في التوراةِ والإنجيل، وصَــــاروا مثلَ اليهودِ مُناقِضــــينَ للمَواثيق، فكـانَ جزاؤهمْ أنْ ألقَينـا بينهمُ العَداوةَ والحِقـدَ والتباغُض، حتَّى صـارَ يَلعنُ بعضُـهم بعضـاً ويُكفِّرونَهم، ولا يَزالُ هذا شـأنَهم حتَّى آخِرِ الدُّنيا، وسوفَ يُحاسِبُهمُ اللهُ على أعمالِهمْ وما نَسبوهُ إليهِ زُوراً وبُهتاناً، وما نَقضوهُ منَ العُهودِ والمواثيقِ التي أخذَها عليهم، ويُعذِّبهمْ على ذلكَ عذاباً شديداً.

{يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} [المائدة:١٥]

١٥ – يا أهلَ الكتابِ منَ اليهودِ والنَّصـارَى، لقدْ أرسلنا رسولَنا محمَّداً صلى الله عليه وسلم إليكمْ وإلى العالمينَ جميعاً بالحقِّ والهُدى، يُبيِّنُ لكمْ كثيراً ممّا كنتُمْ تُخفُونَ منَ التوراةِ والإنجيل، تَبديلاً وتَحريفاً، وتأويلاً وافتراءً على الله، كصفةِ النبيِّ محمَّدٍ صلى الله عليهِ وسلم، وكآيةِ الرَّجْم، وكبِشـارةِ عيسى بمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم. ويُعْرِضُ عنْ كثيرٍ ممّا أخفَيتُموهُ فلا يُظْهِرُه. وقدْ جاءَكمْ نورٌ عظيمٌ منَ اللهِ تعالَى يُفَرِّقُ بهِ بينَ الحقِّ والباطل، هوَ محمَّدٌ صــلى الله عليه وســلم، والقُرآنُ الكريم، الواضِحُ البيِّنُ في آياتهِ وأحكامِه.

{يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [المائدة: ١٦]

١٦- يَهدي اللهُ بهذا القُرآنِ مَنْ أرادَ الحقَّ وابتغَى رِضَى اللهِ ومَسالِكَ النَّجاة، ويُنَجِّيهمْ مِنْ ظُلمَاتِ الكُفرِ والضَّلالِ إلى نورِ الهُدَى والإيمانِ بتوفيقهِ وهدايته، ويُرشدُهمْ إلى الإسلام، دينِ اللهِ الحقّ.

{لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [المائدة: ١٧]

١٧- لقدْ كفرَ مَنْ قالَ منَ النَّصارَى إنَّ اللهَ هوَ المسيحُ عيسى بنُ مَريم.

وما هوَ إلاّ عبدٌ منْ عبادِ الله، نَفْسُهُ وجِسْمُه، يأكلُ ويَشرَبُ مثلَهم.

فقلْ لهمْ إبطالاً لزَعمِهمُ الفاسدِ هذا: مَنْ يَقدِرُ على مَنعِ أمرِ اللهِ إذا أرادَ أنْ يُميتَ عيسَى وأمَّهُ مَريم، بلْ وجميعَ مَنْ في الأرضِ مِنْ أحياء؟ فأينَ هيَ أُلوهيَّةُ عيسَى، وما الذي يَستَطيعُ أنْ يَفعلَه؟!

إنَّ جميعَ ما في الأرضِ والسَّماءِ وما بينَهما هوَ مُلْكٌ لله، ومنهمْ عيسَى عليهِ السَّلام، وهوَ الذي خلقَهُ كما خلقَ آدم، فيَخلُقُ ما يَشاءُ كما يَشاءُ، لا يَحُدُّ مِنْ إرادتهِ وقُدرتهِ شَيء، سُبحانَهُ ما أعظمَه!

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [المائدة: ١٨]

١٨- وقالَ أهلُ الكتابِ منَ اليَهودِ والنَّصارَى: نحنُ مُقَرَّبونَ عندَ اللهِ قُرْبَ الأولادِ مِنْ والِدِيهم، ومَحبوبونَ لديه، فهوَ كالأبِ لنا في الحُنوِّ والعَطف، لاتِّباعِنا دينَه، وطاعتِنا إيّاه.

فقلْ لهمْ تَفنيداً لدَعواهُم: فلمَ يُحاسِبُكمْ على أعمالِكمْ ويُعاقِبُكمْ على السيِّئِ منها؟ وكيفَ يَصِحُّ زعمُكمْ هذا وقدْ عاقبَكمْ في الدُّنيا، وأعَدَّ جهنَّمَ لمنْ عصَى وخالَفَ أمرَه؟

بلْ أنتُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِه، كسائرِ بَني آدم، يَغفِرُ لمَنْ شاءَ منكمْ فَضلاً منه، ويَجزيهمْ على أعمالِهِمُ الصالحةِ خَيراً، ويُعَذِّبُ الكافِرينَ منكمْ باللهِ ورسلهِ ويَجزيهمْ سُوءاً وشَرًّا؛ عَدْلاً منه.
وأنتُمْ وسائرُ أفرادِ البشَرِ وما بينَ السَّماءِ والأرضِ مُلْكٌ للهِ وعَبيدٌ لهَ تحتَ قَهرِهِ وسُلطانِه، يَتصرَّفُ فيها كما يَشاء، إحياءً وإماتة، إثابةً وتعذيباً، وإليهِ المآبُ في يومِ الحِساب، فيُجازي كلاًّ منَ الُمحسنِ والمسيءِ بما يَستَحِق.

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [المائدة: ١٩]
١٩- يا أهلَ الكتاب، لقدْ أرسلنا إليكمْ رسولَنا محمَّداً صلى الله عليه وسلَّم، بعدَ انقطاعٍ منَ الرُّسلِ دامَ قُروناً، حتَّى لا تَحتَجُّوا وتَقولوا ما جاءَنا رسولٌ يُبَشِّرُنا بحُسنِ الثوابِ إنْ أصَبنا وأطَعنا، ويُنذِرُنا بالعُقوبةِ إنْ أخطأنا وعَصَينا، فقدْ جاءَكمُ البشيرُ النذيرُ محمَّدٌ صلى الله عليه وسلَّم خاتماً لجميعِ أنبيائه، فلا عُذرَ لكمْ إذا لم تَتَّبعوه. واللهُ قادرٌ على كلِّ شَيء، ومنهُ إرسالُ الرسُل، ومُعاقبَةُ مَنْ لم يَتَّبعْهُم.

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن الْعَالَمِينَ} [المائدة: ٢٠]
٢٠- واذكرُوا يا بَني إسرائيلَ عندما قالَ لكمْ نبيُّ اللهِ موسى عليه السَّلام: اذكروا فضلَ اللهِ ونعمتَهُ عليكمْ عندما أرسلَ إليكمْ أنبياءَ كثيرينَ يُذَكِّرونَكمْ ويَدعونَكمْ إلى الحقّ، وجعلَكمْ في حالِ سَعةٍ وتَرَفُّه، وخَدَمٍ وحَشَم، وجعلَكمْ أفضلَ أهلِ زمانِكم، وأعطاكمْ آنذاكَ ما لم يُعطِ أحداً منَ الناس، مِنْ إغراقِ مَنْ ظلمَكم، وتَظليلِ الغَمامِ عليكم، وانفِجارِ الحجرِ لكمْ بالماء، وإنزالِ المنّ والسَّلوَى...

{يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ} [المائدة: ٢١]

٢١- وقالَ لهمْ موسَى عليه السَّلام: ادخُلوا الأرضَ المقدَّسة - وهيَ أريحا أو القُدس - التي قدَّرها وقَسَمها اللهُ لكمْ في ذلكَ الوَقت. وكانتْ بأيديهمْ في زَمانِ يعقوبَ عليهِ السَّلام، ثمَّ تملَّكها العَمالقةُ بقيَّةُ قومِ عاد. ولا تَجبُنوا عنِ الجهاد، ولا تَرجِعوا عنْ مَقصِدِكُمْ خوفاً منَ الجبابِرَة، فتَعودوا خاسِرين.

{قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ} [المائدة: ٢٢]

٢٢- فقالَ بَنو إسْرائيل: يا موسَى، إنَّ فيها قوماً شَديدِي البطش، لطولِهمْ وعِظَمِ خِلْقَتهمْ وقوَّةِ أجسادِهم، ولا يُمكنُ مقاومتُهم، ولنْ ندخلَ هذهِ الأرضَ المقدَّسةَ ما داموا فيها، فلا طاقةَ لنا بإخراجِهمْ منها، فإذا خَرجوا منها دَخلناها.

{قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [المائدة: ٢٣]

٢٣- قالَ رَجُلانِ مؤمِنانِ ممَّنْ لهمْ وَجاهةٌ ومَهابةٌ عندَ الناس، يَخافونَ اللهَ ولا يَخافونَ أعداءَه، ممَّنْ أنعمَ اللهُ عليهما بالإيمانِ والشَّجاعةِ والثَّبات: ادخلوا بابَ مدينتِهم، وفاجِؤوهمْ ولا تُمهِلوهم، فإذا دخلتُمْ عليهمُ الباب، وتوكَّلتمْ على اللهِ واتَّبعتمْ أمرَه، وهجمتُمْ عليهمْ وضايقتُموهمْ في الحَرب، أيَّدَكمْ وأظفرَكمْ بهم.

{قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} [المائدة: ٢٤]

٢٤- فقالوا غيرَ مُبالينَ بقولِهما، مُصِرّينَ على قولهمْ في النُّكولِ عنِ الجِهادِ ومُخالفةِ الرسُول: يا موسَى، لنْ نَدخُلَ هذهِ الأرضَ أبداً ما دامَ الجبابِرَةُ ماكثينَ فيها. وقالوا في استِهانةٍ وسُوءِ أدَبٍ معَ اللهِ ورسُوله: اذهَبْ أنتَ وربُّكَ فقاتِلاهمْ وأخرِجاهمْ حتَّى ندخُلَها، ونحنُ هنا قاعدونَ مُنتَظِرون!!

{قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِـــي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِـــقِينَ} [المائدة: ٢٥]

٢٥- قال موسَى عليهِ السَّلامُ في استِكانةٍ وخُضوعٍ لربِّهِ عزَّ وجلَّ لما رأى عنادَ بَني إسْرائيلَ وقَسوةَ قلوبِهِمْ ونُكولَهُمْ عنِ القِتال: يا ربّ، إنهُ لا يُجيبُ أحدٌ إلى ما دعوتَ إليهِ إلاّ أنا وأخي هارون، فافصِلْ بينَنا وبينَ هؤلاءِ الخارجينَ عنْ طاعتِكَ بقَضائكَ العادِل.

{قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَـــنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِـــقِينَ} [المائدة: ٢٦]

٢٦- قالَ اللهُ تعالَى ما مَعناه: فإنَّ هذهِ الأرضَ المقدَّســـةَ مُحَرَّمةٌ عليهمْ أربعينَ سَـــنة، لا يَدخلونَها، ويَسيرونَ مُتَحيّرينَ في الأرض، يَمشونَ كلَّ يومٍ ولا يَهتدونَ إلى الطَّريق، ولا تَحزَنْ لِما أصابَهم يا موسَى ولا تأسَفْ عليهم، فإنَّهمْ يَستَحِقُّونَ هذا العِقاب.

{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [المائدة: ٢٧]

٢٧- واقْصُـصْ على بَني إسْـرائيلَ قِصَّـةَ ولدَيْ آدمَ قابيلَ وهابيل، بشـكلٍ جليٍّ لا لَبْسَ فيه، ليَعرفوا عاقبةَ البَغي والحسَـدِ والظُّلم، وذلكَ عندما أرادَ قابيلُ أنْ يَسـتأثِرَ بنصـيبِ هابيلَ منَ الزَّواج، فأبَى الآخَر، وأبَى آدمُ كذلك، وقابيلُ مُصِــرّ، فقالَ أبوهما: قرِّبا قُرباناً، فمَنْ تُقُبِّلَ منهُ تزوَّجَها. فتُقُبِّلَ مِنْ هابيلَ ولم يُتَقَبَّلْ مِنْ أخيهِ الظَّالم، فقالَ لهُ لفَرْطِ حَســـدهِ مِنْ قَبولِ قُربانِه: سأقتُلُك، فقالَ لهُ هابيل: إنَّما يَتقبَّلُ اللهُ القُربانَ مِنْ عبادهِ المطيعينَ المخلِصين.

{لَئِن بَسَـــطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِـــطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} [المائدة: ٢٨]

٢٨- وإذا مَددتَ إليَّ يَدكَ يا قابيلُ لتَقتُلَني، فلنْ أمدَّ يَديَ إليكَ لأقتُلَك، ولنْ أقابِلَ ما تَهُمُّ بهِ مِنْ فِعلٍ شَنيعٍ بمثلِه، بلْ أصبِرُ وأحتَسِب، وأستَسلِمُ خَوفاً منَ اللهِ ومنْ عقوبتِه.

{إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ} [المائدة: ٢٩]

٢٩- إنّي أريدُ باستِسلامي هذا أنْ تَتحمَّلَ إثمَ قَتلي وإثمَكَ الذي عليكَ قبلَ ذلك، فيَكونَ جزاءَك النارُ، وهوَ جزاءُ الباغينَ الظّالمين.

{فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [المائدة: ٣٠]

٣٠- فحسَّنَتْ لهُ نفسُهُ السيِّئةُ قتلَ أخيه، فقتَلهُ، على الرَّغمِ مِنَ الموعظةِ التي سَمِعَها منه، فخَسِرَ أعظمَ خَسارة، في الدُّنيا والآخِرَة.

وفي الصحيحين: " لا تُقْتَلُ نفسٌ ظُلماً إلاّ كانَ على ابنِ آدمُ الأوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دمِها، وذلكَ لأنَّهُ أوَّلُ مَنْ سَنَّ القَتل".

وهذا حديثٌ خَطير، فليَعتبرْ كلُّ مَسؤول، وقائدٍ وزَعيم، فإنَّ لهُ أو عَليه كلُّ مَنْ قالَ بمقالهِ أو عَمِلَ بعمَلِهِ حتَّى يومِ الدِّين.

{فَبَعَثَ اللّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ} [المائدة: ٣١]

٣١- وبقيَتْ جُثَّتهُ على الأرضِ لا يَدري قابيلُ ما يَفعلُ بها، فبعثَ اللهُ غُراباً يَحفِرُ الأرضَ أمامَهُ بمِنقارِهِ وبرِجْلِهِ، ووارَى في الحُفرةِ غُراباً مَيتاً - ومازالَ هوَ شأنَ الغرابِ - ليُعلِّمَهُ اللهُ بذلكَ كيفَ يَدْفِنُ أخاه. فقالَ قابيل: يا هلاكي ويا مَوتي، أعجَزْتُ أنْ أكونَ مثلَ هذا الغُرابِ فلا أهتَدي إلى ما اهتدَى هوَ إليه، فأُخفيَ جَسَدَ أخي تحتَ الأرضِ وأواريَهِ بالتُّراب؟ فواراه، وصارَ نادِماً مُتَحَسِّراً على قتلِه.

{مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ} [المائدة: ٣٢]

٣٢- وبسـبَبِ مفَاسـدِ هذهِ الجِنايةِ، مِنْ قتلِ ابنِ آدمَ أخاهُ ظُلماً وعُدواناً، قَضَـينا على بَني إسرائيلَ في التَّوراة، أنَّ مَنْ قتلَ نَفساً بغَيرِ قِصاص، أو بغيرِ فَساد، فاستحلَّ قتلَها بغَيرِ سبَبٍ ولا جِنابة، ككفرٍ، أو زِناً، أو نَحوِ ذلك، فكأنَّما قتلَ الناسَ كلَّهم، وعليهِ وِزْرُها!

وكانَ الحسدُ مَنشأَ هذهِ الجِناية، وهوَ غالِبٌ على بَني إسرائيلِ. ومعَ ما نزلَ عليهمْ مِنْ تَعظيمِ القَتل، فقدْ كانوا أشـدَّ طُغياناً فيه، فقدْ أقدَموا على قتلِ الأنبياءِ والرسُـل، ممّا يَدُلُّ على غايةِ قَسـاوةِ قلوبِهم، ونِهايةِ بُعدِهمْ عنْ طاعةِ اللهِ تعالى، وبسـبَبِ ذلكَ شُـدِّدَ عليهمْ وعُظِّمَ مِنْ أمرِ القَتلِ عندَهم.

ومَنْ تورَّعَ عنْ قتلِ النَّفس، أو تسبَّبَ في إبقائها واستنقاذِها مِنْ أسبابِ الهَلاك، فكأنَّما حازَ ثوابَ سلامةِ النَّاسِ كلِّهم!

ولقدْ جاءَتْهُمْ رسـلُنا بالحُجَجِ الواضِـحَة، والبراهينِ الناطِقَة، تأكيداً لوجوبِ ما فرَضـنا عليهم، ومعَ كلِّ ذلكَ فقدْ كانَ الكثيرُ منهمْ مُسـرِفاً في القَتلِ، غيرَ مُبالٍ به، معَ ارتِكابِهمْ محرَّماتٍ أُخرَى، وإفسادِهمْ في الأرض.

{إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [المائدة: ٣٣]

٣٣- هذا حُكْمُ مَنْ قَطعَ الطريقَ وأخافَ السَّـبيلَ وارتكبَ أنواعَ الشـرّ. والآيةُ عامَّةٌ في المشركينَ وغَيرِهمْ ممَّنْ جنَى هذهِ الجِنايات.

وقدْ نزَلتِ الآيةُ في قَومٍ أكرمَهُمْ رَسُـولُ الله صـلى الله عليه وسـلم وأحسـنَ إليهم، ثمَّ قَتَلوا وسَرَقوا، وكفَروا وحارَبوا... فقُطِّعتْ أيديهمْ وأرجلُهم.

والحاكمُ يَختارُ مِنْ هذهِ الأحكامِ ما يناسبُ الجريمة. وقالَ الإمامُ البغوي: "ذهبَ الأكثَرونَ إلى أنَّ هذهِ العُقوباتِ على تَرتيبِ الجرائمِ لا على التخيير".

فإنَّما عُقوبةُ مَنْ يُحاربونَ دِينَ الله، ورسولَه، وأولياءَه، ويُفسِدونَ في الأرض، أنْ يُقتَلوا إذا قَتَلوا، أو يُصْـلَبوا معَ القتلِ إذا قَتَلوا وأخَذوا الأموال، أو تُقطَعَ أيديَهمُ اليُمنَى وأرجلَهمُ اليُسـرَى لمِن

اقتصرَ على أخذِ المال، أو يُنْفَوا مِنْ أهلِهِمْ بالحَبسِ إنْ أخافُوا وسعَوا في الفسادِ ولم يَقْتُلوا ولم يَسرِقوا.

وما فُصِّلَ مِنَ الأحكامِ عَذابٌ وهَوانٌ وفَضيحةٌ لهمْ في الدُّنيا، ولهمْ إضافةً إلى ذلكَ عَذابٌ شَديد، وعُقوبةٌ عَظيمةٌ في الآخِرَة.

{إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [المائدة: ٣٤]

٣٤- فإذا تابوا مِنْ عَمَلِهِمْ هذا وسلَّموا أنفسَهمْ قبلَ أنْ تَقبِضوا عليهم، فلا عُقوبةَ عَليهم، واللهُ يَغفِرُ لهمْ ويَرحَمُهم.

ومَنْ قالَ إنَّ الآيةَ فيمَنْ كفروا، فإنَّ معنَى "تاب" هنا: تَرَكَ الشِّرْكَ وآمَن، فلا عُقوبةَ عليهم؛ لأنَّ الإسلامَ يَجُبُّ ما قبلَه.

وأمّا إذا كانتْ في المسلِمين، فإنَّ حقَّ اللهِ يَسقُطُ عنهم، أمّا حقوقُ العِباد، مِنْ قِصاصٍ ومال، فلا يَسقُطُ إلاّ إذا عَفَوا.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [المائدة: ٣٥]

٣٥- أيُّها المؤمِنون، أقبِلوا على طاعةِ اللهِ وذَروا ما نَهاكُم عنه، واطلُبوا القُرْبَ منهُ بالعملِ بما يُرضيه، مِنِ امتِثالٍ وضَراعة، وقُرَبٍ وطاعة، وقاتِلوا أعداءَ اللهِ منَ الكفّارِ والمشرِكين، الذينَ حاربوا اللهَ ورسولَه، وآثرُوا الضَّلالَ على الهُدَى، لتكونُوا ممَّنْ يَفوزونَ بالأجرِ العَظيم يومَ الدِّين.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [المائدة: ٣٦]

٣٦- ولو كانَ لكلِّ مَنْ كفرَ مُلكُ ما في الأرضِ منْ ذَخائرَ وأموَال، وضِعْفُه، ليَفتَدوا بها أنفسَهم منْ عَذابِ يومِ القيامة، لم يُقبَلْ ذلكَ منهم، فلا مَفرَّ لهمْ منَ العُقوبة، ولهمْ عذابٌ قاسٍ، جزاءَ كفرِهِمْ ومحاربتِهِمْ أهلَ الدِّينِ الحقّ.

{يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ} [المائدة: ٣٧]

٣٧- وهمْ يُحاوِلونَ أنْ يَخرُجوا منَ النار، للكَرْبِ الذي همْ فيه، وللألَمِ الذي يُصيبُهمْ وشدَّتِه، ولكنْ لا سَبيلَ لهمْ إلى ذلك، فهمْ باقُونَ في العَذاب، لا مَحيدَ لهمْ عنه.

{وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [المائدة: ٣٨]

٣٨- ومَنْ سَرق، مِنْ ذَكَرٍ أو أنثَى، فعلى الحاكِمِ أنْ يَقطعَ يمينَ كلٍّ منهما مِنْ الرُّسْغِ (مَفْصِلِ ما بينَ الساعِدِ والكَفّ)، جزاءَ صَنيعِهما السيّءِ في أخذِ أموالِ الناسِ بأيديهما بغَيرِ حقّ؛ عُقوبةً مِنْ عندِ اللهِ على ذلك، وهوَ سُبحانَهُ عَزيزٌ في انتِقامهِ مِنَ المعتَدينَ الظَّالمين، حَكيمٌ فيما يَشْرَعُ ويُقَدِّر مِنْ عُقوبة.

وفي القَطعِ شُروطٌ بيَّنتْها السنَّة، مِنْ بلوغِ مِقدارِ السَّرقةِ نِصاباً معيَّناً، وأنْ يكونَ مِنْ حِرْز، وشروطٌ أخرَى للتَّنفيذِ ضبَطها الفقهاء، تُنظَرُ في مَظانِّها.

ولا أملَ في القَضاءِ على جَريمةِ السَّرقةِ إلاّ بهذهِ العُقوبة، وتُنْظَرُ الدراساتُ الجنائيةُ المعدَّةُ فيها، وبيانُ مدَى انتشارِها وازديادِها وصُعوبةُ ردعِ أصحابِها، على الرَّغمِ مِنَ العقوباتِ المقدَّرةِ لها، مِنْ غَيرِ القَطع، وهيَ اعتداءٌ آثمٌ على حقوقِ النَّاس، ونَهبٌ لأموالِهمُ التي حصَّلوها بجهدٍ وتعَبٍ على مدَى سَنوات...

{فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [المائدة: ٣٩]

٣٩- فمَنْ تابَ مِنَ اللُّصوصِ بعدَ ظُلمِهِ النَّاسَ بسَرقةِ أموالِهم، وأصلحَ أمرَه، بأنْ أعادَ إلى الناسِ ما سَرقَهُ منهم، أو أعطاهمْ بَدلَها، أو استحلَّها منْ أصحابِها، أو أنفقَ قيمتَها في سبيلِ اللهِ إنْ لم يَعرفْهُم، فإنَّ اللهَ يَقبَلُ توبتَهُ ولا يُعَذِّبهُ في الآخِرَة، فهوَ يَغفِرُ ذُنوبَ عِبادِه، ويَرحمُهم.

قالَ القُرطبيُّ في تَفسيرِه: القَطعُ لا يَسقُطُ بالتَّوبَة، وقالَ عطاءٌ وجَماعَة: يَسقطُ بالتَّوبَةِ قَبلَ القُدرَةِ على السَّارِق...

{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [المائدة: ٤٠]

٤٠- ألم تَعلمْ أيُّها الإنسانُ أنَّ اللهَ لهُ مُلكُ السَّماواتِ والأرض، ومُلكُ ما بينهما، ولهُ الاستيلاءُ القاهرُ عليهما ومَنْ فيهما، فيَتصرَّفُ فيهما كما يَشاء، بحِكمتِه، ويعذِّبُ منْ يَشاءَ بما يَستَحِقّ، ويَغفِرُ لمنْ يَشاءُ بعَفوهِ وكرَمِه، وهوَ القادرُ على العُقوبةِ والمغفِرَة، لا يَقدِرُ أحدٌ على مَنعِهِ مِنْ ذلكَ ولا مِنْ كيفيَّتِه؟

{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [المائدة : ٤١]

٤١- أيُّها الرسُولُ الكريم، لا تَتحَسَّرْ على هؤلاءِ الذينَ لا يَجدونَ فُرصةً للكفرِ إلاّ سارَعوا إليهِ وناصَروا أهلَه، وهمُ المنافِقونَ الذينَ يُظهِرونَ الإيمانَ بألسنتِهم، ولكنَّ قلوبَهمْ خاويةٌ منه، وكذا اليَهود، الذينَ يُسارِعونَ إلى ذلك.

إنَّهُمْ جميعاً يَقبَلونَ الكذب، ويُبالِغونَ في قَبولِ كلامِ آخَرينَ لا يأتونَ مجلِسَك، حُبًّا ومُوالاةً لهم. ومِنْ صِفاتِهِمْ أيضاً أنَّهم يُحَرِّفونَ الكلامَ ويُبدِّلونَهُ معَ علمِهمْ بما هوَ حقٌّ منه، ويقولون: إنْ أفتاكُمْ محمَّدٌ بهذا فاعمَلوا بموجبِه، وإنْ أفتَى لكمْ بغَيرِهِ فاحذَروا قبولَه.

وقدْ نزلتْ في يهوديَّينِ زَنَيا، وكانوا يَعرِفونَ أنَّ التوراةَ تَقضي برَجمِهما، ولكنَّهمْ لم يعمَلوا بها، فاتَّفقوا أنْ يَقبلوا حُكمَ الرسُولِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إنْ كانَ دونَ الرَّجْم، فاستَفسَرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم منهمْ عنِ الحكمِ في التَّوراة، فقالوا: إنهُ الجَلْد، ومازالَ بهِمْ حتَّى اعترفَ أحدُهمْ بأنَّهُ الرَّجْم، فحَكمَ بذلك.

وإذا أرادَ اللهُ إضلالَ أحَدٍ أو إهلاكَه، فلنْ تَقدِرَ على دفعِ أمرِه، واللهُ لا يُريدُ تَطهيرَ قلوبِهِمْ مِنْ رجسِ الكُفرِ وخُبثِ الضَّلالة؛ لفسادِ نيّاتِهم وشُرورِ ما في أنفسِهم، ولتكذيبِهمُ الحقَّ وإيثارِهمُ الباطلَ عليه!

ولهمْ في الدُّنيا عارٌ وفَضِيحة، كإظهارِ نِفاقِ المنافِقين، وخِزي اليهودِ بضَربِ الجِزيةِ عليهم، وقتلِهِمْ ونَفيهم، ولهمْ جميعاً في الآخِرَةِ عَذابٌ هائلٌ دائمٌ لا يَنقَطع.

{سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [المائدة: ٤٢]

٤٢- إنَّهُمُ اليَهود، المكثِرونَ مِنْ قَبولِ الكذِب، والمكثِرونَ منْ أكلِ الحَرام، كالرِّشا وغَيرِها. فإذا جاؤوا إليكَ في قَضيَّةٍ لتحكمَ بينَهم، فاحكمْ بينَهمْ بما أراكَ الله، أو اترُكْهُمْ غيرَ مُكترِثٍ بهم، فإنَّهُمْ لا يَقصِدونَ بتحاكُمِهِمْ إليكَ اتِّباعَ الحقّ، بلْ ما وافقَ هواهُم.

وإذا أعرضتَ عنهمْ فلنْ يَضرُّوكَ بشَيء، واللهُ يَحفظُكَ منْ ضرَرِهم.

وكانَ الرسولُ صلى الله عليه وسلم مخيَّرًا في أوَّلِ أمرِه، ثمَّ أُمِر بإجراءِ الأحكامِ عليهم، في قولِهِ تعالى: {وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ...} [سورة المائدة: ٤٩]، فلزِمَهُ الحُكمُ وزالَ التَّخيير. فالآيةُ بذلكَ تكونُ منسوخة.

وذهبَ الإمامُ أحمدُ إلى أنَّها غيرُ مَنسوخَة، فالحاكِمُ بالخِيارِ إذا ارتفعَ إليهِ أهلُ الذمَّة.

وإذا حكمتَ بينهمْ فليَكنْ حُكمُكَ بالحقِّ والعَدلِ الذي أُمِرْتَ به، وهوَ ما تَضمَّنَتْهُ شريعةُ الإسلام، وإنْ كانوا همْ ظَلَمَةً أعداء، مُفترَينَ غيرَ عادِلين. واللهُ يُحِبُّ العادلينَ في أحكامِهم، ويَرفعُ شأنَهم.

{وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ} [المائدة: ٤٣]

٤٣- وكيفَ يَطلبونَ منكَ حُكماً وهمْ لا يؤمنونَ بنبوَّتِكَ وصدقِ رسالتِكَ ولا يَلزَمُهمْ قَبولُه، والحالُ أنَّ الحُكمَ الذي يَبحثونَ عنهُ موجودٌ في التوراةِ كما أمرَ بِهِ الله، وهمْ يَقولونَ إنَّهم مُتمسِّكونَ بها، ومعَ ذلكَ يَعدِلونَ إلى غَيرِها؟ فليسوا بذلكَ منَ المؤمنينَ بكتابِهِم؛ لإعراضِهِمْ عنه.

{إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة: ٤٤]

٤٤- إنّا أنزلنا التوراةَ فيها هِدايةٌ للنَّاس، ونورٌ يُبيِّنُ الحقّ، ويوضِّحُ للناسِ ما يحتاجونَ إليهِ منْ أحكامٍ ومُعامَلاتٍ وسُلوك، يَحكمُ بها الأنبياءُ مِنْ لَدُنْ موسَى حتَّى عيسَى عليهمُ الصلاةُ والسلام – وهمْ كُثر –، الذينَ أسلموا وجوهَهمْ لله، وسَلكوا طريقَ الهِدايةِ والصَّلاحِ كما طَلبَ منهمْ ربُّهم، وحكَموا بالتوراةِ لأجلِ اليهودِ وفيما بينَهم. وما كانوا يَخرجونَ عنْ حُكمها، ولا يُبَدِّلونَها ولا يُحَرِّفونَها، وكذلك العُبّادُ والعلماءُ منهمْ بما وُجِّهوا منْ قِبَلِ الأنبياء، ليُظهِروها ويَعملوا بها ويَحفَظوها منَ التَّغييرِ والتَّبديل، ولا يُخِلُّوا بأحكامِها، وكانوا حُفّاظاً رُقباءَ عليها. ثمَّ حَرَّفتِ اليهودُ الكثيرَ منها.

فلا تَخافوا الناس، وخافونِ، فإنَّ النفعَ والضُّرَّ بيَدي. ولا تَستبدِلوا بآياتي حُظوظاً دُنيويَّةً تافِهةً عنْ طريقِ الرشوةِ والجاهِ وما إليه، ومَنْ لم يَحكمْ بما أنزلَ اللهُ مِنَ الأحكامِ فإنَّهمْ منَ الكافِرين.

قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ الله عنهما: مَنْ جَحدَ ما أنزلَ اللهُ فقدْ كفَر، ومَنْ أقرَّ بهِ ولم يَحكمْ فهوَ ظالِمٌ فاسِق.

وصحَّحَ الحاكمُ قولَ ابنِ عبّاسٍ في الآية: إنَّهُ ليسَ بالكُفرِ الذي يَذهبونَ إليه، إنهُ ليسَ كُفراً يَنقلُ مِنَ المِلَّة، كُفرٌ دونَ كُفر.

قلت: هوَ توضيحٌ لجانبٍ مِنْ قولهِ السَّابق: مَنْ أقرَّ بهِ ولم يَحكمْ فهو ظالمٌ فاسق.

وبعدَ أنْ ذكرَ ابنُ جَريرٍ الطبريُّ أنَّ الآيةَ نَزلتْ في أهلِ الكتابِ خاصَّة، قال: وكذلكَ القولُ في كلِّ مَنْ لم يَحكمْ بما أنزلَ اللهُ جاحِداً به، هوَ باللهِ كافر، كما قالَ ابنُ عباس؛ لأنَّهُ بجحودهِ حُكْمَ اللهِ بعدَ علمهِ أنَّهُ أنزلَهُ في كتابِه، نظيرُ جُحودهِ نبوَّةَ نبيِّهِ بعدَ علمهِ أنَّهُ نَبيّ.

قلتُ: ومثلهُ مَنْ استَهزأ بشَريعَةِ الإسلامِ وأحكامِها، أو زعمَ أنَّها لا تَصْلُحُ للحُكم.

{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [المائدة: ٤٥]

وفرَضنا على بَني إسرائيلَ في التَّوراةِ أنَّ النفسَ المقتولةَ بغيرِ حقٍّ يُقتَصُّ لها بقَتلِ قاتلِها، والعَينُ تُفْقأ بالعَين، والأنفُ تُجْدَعُ بالأنف، والأذُنُ تُقْطَعُ بالأذُن، والسنُّ تُقلَعُ بالسنّ، وسائرُ الجروحِ يُقاسُ عليها في القِصاص، فيما يمكنُ القِصاصُ منه، كاليد، والرِّجْل، واللِّسان. وما لا يُمكِنُ القِصاصُ منه، ككَسرِ عَظم، أو جَرحِ لحم، ونحوِه، فلا قِصاصَ فيه، بلْ فيهِ حُكومةُ عَدل، فيُحْكَمُ لهُ بما يَستَحِقُّهُ مِنْ مال، وهوَ ما يُسَمَّى بالأَرْش، ويَعني دِيَةَ الجِراحة. وقدْ قدَّرَ أئمَّةُ الفقهِ أرشَ كلِّ جراحةٍ بمقاديرَ معلومة، تُنظَرُ في مَظانِّها.

فمَنْ عفا عنْ صاحبِهِ ولم يَقتصَّ منه، فهو كفّارةٌ لذَنْبِهِ بما شاءَ الله.

ومَنْ لم يَحكمْ بما أنزلَ اللهُ مِنْ هذهِ الأحكام، فإنَّهم مِنَ الظالمين.

وهذهِ الأحكامُ مُقَرَّرَةٌ في شرعِنا أيضاً، قالَ اللهُ سبحانه: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [سورة البقرة: ١٧٩]. وقدْ مرَّ تفسيرُها.

{وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ} [المائدة: ٤٦]

٤٦- وأتْبَعنا أنبياءَ بَني إسرائيلَ برسولِ اللهِ عيسَى بنِ مريم، مُؤمِناً بالتَّوراة، عامِلاً بما فيها، وأنزلنا عليهِ الإنجيلَ فيهِ هِدايةٌ إلى الحقّ، ونورٌ يُفَرِّقُ بينَ الحقَّ والباطِل، ويُزيلُ الشبُهات، ويَحُلُّ المشكِلات، مثلَ التوراة، فهوَ متَّبِعٌ لها، حاكِمٌ بها، غيرُ مخالِفٍ لِما فيها، إلا القليلَ ممّا نُسِخَ بهِ بعضُ أحكامِ التَّوراة. والإنجيلُ كلُّهُ هِداية، وتَخويفٌ وزَجرٌ عنِ ارتكابِ المعاصي، لمنِ اتَّقى اللهَ وخافَ عِقابَه.

{وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [المائدة: ٤٧]

٤٧- وواجبٌ على مَنْ أُوتوا الإنجيلَ أنْ يؤمِنوا بهِ ويَحكموا بما فيه، ويَعملوا به، وفيهِ البِشارةُ ببعثةِ محمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسلم، والأمرُ باتِّباعهِ وتصديقِه، والانضواءِ تحتَ شَريعتِه، ومَنْ لم يَحكمْ بما أنزلَ اللهُ مِنْ أحكامٍ وأوامِر، فإنَّهُمْ خارِجونَ عنْ أمرِ اللهِ وطاعتِه، تاركونَ الحقّ، مائلونَ إلى الباطِل.

{وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [المائدة: ٤٨]

٤٨- وأنزلنا عليكَ أيُّها النبيُّ القُرآنَ بالصِّدق، الذي لا شكَّ أنَّهُ مِنْ عندِ الله، مُصَدِّقاً ما سبقَهُ منَ الكتُبِ السَّماويَّة، وفيها ذكرُكَ والثناءُ عليك. والقُرآنُ أمينٌ عليها جميعاً، ورقيبٌ عليها وشَهيد، فيَشهدُ لها ويَحكمُ عليها، فهوَ آخِرُ الكتبِ وأشملُها، وأعظمُها وأحكمُها، ومحفوظٌ منَ التحريفِ والتَّبديل، فاحكُمْ بينَ الناسِ جميعاً - ومنهمْ أهلُ الكتاب، إذا ترافعوا إليك- بما أنزلَ اللهُ عليكَ في القُرآن، ولا تَتَّبعْ أفكارَهمُ الفاسِدة، وأهواءَهمُ الزائغة عمّا أنزلَ اللهُ عليكَ منَ الحقِّ والعَدلِ الذي لا مَحيدَ عنه.

وقدْ جعلنا لكلِّ أمَّةٍ منَ الأمَمِ سَبيلاً وسُنَّة، فالأديانُ كلُّها بُعِثَتْ متَّفقةً في التَّوحيد، معَ شرائعَ مختلفةٍ في الأحكامِ تُناسِبُ الناسَ وزمانَهم وبيئتَهم.

ولو شاءَ اللهُ لجعلَكمْ جماعةً واحدةً على دِيْنٍ واحدٍ في جَميعِ الأزمان، دونَ اختلافِ أحكام، لا يُنْسَخُ شَيءٌ منها، ولكنَّهُ سبحانَهُ شرعَ لكلِّ رسولٍ شِرْعة، ثمَّ عدَّلَ فيها للرسُولِ الذي بعدَهُ ما شاء، حتَّى نُسِخَتْ جميعُها برسالةِ الإسلامِ الخَاتمة، التي بُعِثَتْ لأهلِ الأرضِ جميعاً، ليَختَبِرَ عبادَهُ فيما شرعَهُ لهم، ويَنظُرَ المطيعَ منهمْ والعاصي، والمذعِنَ والرافِض، والموافِقَ والمخالِف. فيُثيبَ ويُعاقِب، كلٌّ بحَسَبِ نيَّتِهِ وعَزمِهِ وعَملِه، في العُصورِ المختلِفة، بالشرائعِ المقرَّرة. فسارِعوا إلى الخيرات، وبادِروا إلى الحسناتِ والأعمالِ الصَّالحات، بطاعةِ اللهِ واتِّباعِ شرعِه، والتصْديقِ بكتابِه، واتِّباعِ أوامرِه.

واعلَموا أنَّكمْ جميعاً مُنقَلِبونَ إلى الله، ليَفصِلَ بينكمْ فيما كنتُمْ تَختلفونَ فيهِ في الدُّنيا منْ أمرِ الدِّين، ويعذِّبَ الجاحدَ المكذِّب بالحقّ، ويَجزيَ المؤمنَ المصدِّقَ بالإحسانِ والإكرام.

{وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ} [المائدة: ٤٩]

٤٩- فاحكمْ بينَ أهلِ الكتابِ - إذا احتَكموا إليكَ - بما أنزلَهُ اللهُ عليكَ في القُرآن، ولا تتَّبعْ أهواءَهمُ الزائغةَ وأفكارَهمُ المنحرفة، وكنْ على حَذَرٍ مِنْ أنْ يُدَلِّسَ عليكَ اليهودُ الحقَّ بخُبثِهم، ويَصرِفوكَ عنْ بعضِ ما أنزلَهُ اللهُ عليكَ منَ الحقّ، فإنَّهمْ كفَرةٌ خوَنةٌ لا يُؤمَنُ جانبُهم، ولا يَحتكِمونَ إليكَ ليؤمِنوا ويَرضَوا بحُكمِ الله، فإذا أعرَضوا عنْ حُكمِكَ وخالَفوا الشَّرع، فاعلمْ أنَّ اللهَ قدَّرَ ذلكَ عليهمْ ليُعاقبَهمْ على بَعضِ ذنوبِهمُ السَّالفة، ومنها تَولِّيهمْ وإعراضُهم عنْ حُكمِ الله. وهناكَ كثيرٌ منَ الناسِ خارِجونَ عنْ طاعةِ الله، بَعيدونَ عنِ الحقّ، يُفَضِّلونَ اتِّباعَ الهوَى على مُتابعةِ الحقّ.

{أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} [المائدة: ٥٠]

٥٠-فهلْ يُريدونَ بذلكَ أحكاماً جاهليَّةً ضالَّةً يَضعُها ناسٌ بعُقولِهمُ المحدودَة، وأفكارِهمُ المضطرِبة، وأهوائهمُ المغايرة، دونَ وحيٍ منَ اللهِ مُحْكَم؟ وأينَ يَجِدونَ حُكماً أفضلَ ممّا أنزلَهُ اللهُ على أنبيائه، في عَدلٍ وحقٍّ ورَحمة، لا يُرادُ بهِ سِوَى ذلك؟ هذا لمنْ تدبَّرَ الأمر، وتحقَّقَ بالنظَر، وعَلِمَ أنَّ اللهَ أحكمُ الحاكمين.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة: ٥١]

٥١- أيُّها المؤمِنون، لا تُوالُوا أهلَ الكتابِ منَ اليهودِ والنَّصارَى، ولا تَبتغوا منْ عندِهمُ النصرَ والنُّصح، ولا تُصافُوهمْ ولا تُوادُّوهم ولا تُسِرُّوا إليهم، فإنَّ بَعضَهمْ أولياءُ بَعضٍ في العَوْنِ والنُّصرَة، فكلُّهمْ أعداءٌ للإسلام، ويدٌ واحدةٌ على المسلِمين، يُريدونَ مضرَّتَكمْ، ويَبغونَ كسرَ شوكتِكم، فكيفَ تُحِبُّونَهمْ وتُوالُونَهم؟

إنَّ مَنْ يَتولاّهم، فيُعينُهمْ ويَنتصرُ لآرائهم، ويَخذُلُ المسلِمين، هوَ في حُكمِهمْ ومِنْ جملتِهم، واللهُ لا يَهديَ مَن والَى الكافِرين، وناصرَ أعداءَه، فظلَمَ نفسَهُ والآخَرين.

{فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ} [المائدة: ٥٢]

٥٢- فترى الذينَ في قلوبِهِمْ شَـكٌّ ونِفاق، ممَّنْ يُوالُونَ اليَهود، ويُبادِرونَ إلى مَعونتِهِمْ ومَودَّتهم، يَقولونَ في سَـببِ موقفِهم: إنَّهمْ يَخشَـونَ أنْ يَنتصِـرَ الكافِرونَ على المسـلِمين. فهمْ يوالونَ المســلِمينَ حتَّى تبقى لهمْ يدٌ عندَهم، أو أنَّهمْ لا يَنقطِعونَ عنهمْ لمظنَّةِ حاجتِهمْ إلى أموالِهِمْ في وقتِ جَدْبٍ وقَحْط!

أي أنهمْ يوالُونَ الفَريقَين، وموالاتُهم للمُســلمينَ خشــيةَ ألّا يَتمَّ أمرُهم، فيدورَ الأمرُ عليهم، ويُصــيبَهم مكروهٌ من الكفّار! وهذا مِن تَذبذُبِهِمْ ونِفَاقِهم، وخَوفِهمْ على أنفُسِــهم، وجعلِهِمْ مَصلَحتَهمُ المؤقَّتة مبدأَهم.

فعسَى أنْ يَفتَحَ اللهُ عليكمُ أيُّها المسلِمون، فيَنصُرَكم، عندَ فتحِ مكَّة، أو فتحِ قُرَى اليهود، مثلِ خَيبرَ وفَدَك، أو إجلاءِ بني النَّضِير، أو قتلِ وسَبي ذَراريِّ بني قُرَيظة، أو يُتِمَّ أمرَ الإسلامِ فيُظهِرَهُ على الدِّينِ كلِّه، وتَبقَى القوَّةُ والعِزَّةُ والنُّصرةُ للمُسلِمين، فيُصبِحُ المنافِقونَ الموالونَ لليهود، نادمينَ مُتحَسِّرينَ على موالاتِهِمْ لهم، حيثُ لم يَنفعْهُمْ موقفُهمْ هذا شيئاً، بلْ زادَ اللهُ مِنْ حَسرتِهِمْ أنْ فَضحَهمْ وأظهرَ أمرَهمْ للمُسلِمين، بعدَ أنْ كانوا مَستورين.

{وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ} [المائدة: ٥٣]

٥٣- وعندَ ذلك يَعْجَبُ المسلِمونَ مِنْ حالِهم، بعدَ إظهارِ نِفاقِ المنافِقين، ويَقولون: أهؤلاءِ همُ القومُ الذينَ أقسَموا أغلظَ قَسَمٍ باللهِ أنَّهمْ مُؤمِنون، وأنَّهمْ يُساعِدونَكمْ ويَنصرونَكمْ عندَ مقاتلةِ اليهودِ والمشركين، فظَهرتْ مواقفُهمُ العدائية، وبواطنُهمُ السيِّئة، وممالأتُهُمْ لأعداءِ الإسلام؟ لقدْ بطلَ كلُّ خيرٍ عَمِلوه، فخَسِروا الدُّنيا بافتِضاحِهمْ وذُلِّهِمْ وتَحسُّرِهم، وخَسِروا الآخِرَةَ بفواتِ ثوابِ أعمالِهم، ودُخولِهِمُ النار.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [المائدة: ٥٤]

٥٤- أيُّها المؤمنون، إنَّ مَنْ يَرجِعْ منكمْ عنْ دينِ الإسلامِ إلى مِلَّة الكُفر، فلنْ يَضُرُّوا سِوَى أنفسِهم، وإنَّ اللهَ سيَسْتَبدلُ بكمْ مَنْ هم خيرٌ منكمْ لهذا الدِّين، يُحِبُّهمُ الله، ويُحِبُّونَ الله ، فيَصْدُقونَ في إيمانِهم، ويُخلِصونَ في طاعتِهم، ويَمتثِلونَ أوامرَ ربِّهم، ويُحِبُّونَ إخوانَهُمُ المؤمنين، فيَتواضَعونَ لهم، ويُوالُونَهم، ويَرحَمونَهم، ويَتعاطَفونَ مَعهم، ويَتعاوَنونَ معهمْ على البِرِّ والخَيرِ والتقوَى، ويَكونونَ أشدّاءَ مُتَعزِّزينَ على أعداءِ اللهِ وخُصَماءِ الدِّين، منَ الكفّارِ الجاهلين، فيُعادُونَهمْ ويُغالِبونَهم، ويُقاتِلونَهمْ لنُصرةِ دينِ اللهِ وإعلاءِ كلمتِه، لا يَهابونَ أحداً مِنْ أعدائه، ولا يَحسَبونَ حِساباً للَومِ مُناصِريهِمْ وخِذْلانِ مواليِهم، ولا يَرُدُّهُمْ عنْ هدفِهمْ وغايتِهمْ شَيء. وهذا منْ فضلِ اللهِ وتوفيقِه، ولُطفِهِ وإحسانهِ لمنْ شاءَ مِنْ عبادِه، وهوَ سُبحانَهُ واسِعُ الفَضل، عليمٌ بمَنْ يَستحِقُّ هذا الفَضلَ والإكرامَ ومَنْ لا يَستحِقُّ منهم.

{إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} [المائدة: ٥٥]

٥٥- فليسَ اليهودُ بمناصِريكمْ أيُّها المسلِمون، ولو عزَّزْتُموهمْ وناصَرْتُموهم، إنَّما الذي يَتولاّكمْ ويؤيِّدكمْ هوَ اللهُ الذي هَداكمْ لدينِه، ووليُّكمْ كذلكَ رسولهُ والمؤمنون، الذينَ تَجِدونَ عِندَهمُ المحبَّةَ والمناصَرةَ والموالاة، الذينَ يُطيعونَ ربَّهمْ بإقامةِ شعائرِهِ والمحافظةِ على أوامرِه، فيؤدُّونَ الصَّلاةَ ويواظِبونَ على إقامتِها للهِ وحدَه، ويؤدُّونَ زكاةَ أموالِهمْ للمحتاجينَ مِنْ إخوانِهِمْ في الدِّين، وهمْ في أعمالِهمُ الجليلةِ وصفاتِهمُ الطيِّبةِ خاشِعونَ متواضِعونَ لله؛ لإحسانِهمْ وحُبِّهمْ لعَملِ الخير، ومسارعتِهمْ إلى رضَى اللهِ وطاعتِه.

{وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [المائدة: ٥٦]

٥٦- ومنْ يتَّخذِ اللهَ ورسولَهُ والمؤمنينَ أولياء، فيتوكَّلْ على اللهِ حقَّ التوكُّل، ويَمتَثِلْ أمرَ رسولِه، ويُوالِي إخوانَهُ المسلِمينَ وينَصُرهم، فإنَّهُ مِنْ حزبِ اللهِ وجماعةِ المؤمنين، وإنَّ جُندَ اللهِ وأنصارَهُ همُ المنتَصِرون.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [المائدة: ٥٧]

٥٧- أيُّها المؤمِنون، لا تتَّخِذوا أعداءَكمْ أولياءَ لكم، تُناصِرونَهُمْ وتَبتغونَ العزَّةَ مِنْ عندِهم، منَ المشركِينَ ومنْ أهلِ الكتاب، الذينَ يَستَهزئونَ بعقائدكمْ ويَسخَرونَ منْ أحكامِ دينِكم، ويتَّخذونَها لَعِباً وعَبَثاً؛ لخِفَّةِ عقولِهِمْ وطَيشِهِمْ وفسادِ أحلامِهم، واتَّقوا اللهَ بذلك، فلا تُوالُوهمْ ولا تُصادِقوهم، إنْ كنتُمْ مؤمِنينَ حقًّا، فإنَّ الإيمانَ يوجِبُ عليكمْ معاداتَهُمْ لا موالاتَهم.

{وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ} [المائدة: ٥٨]

٥٨- وإذا أذَّنْتُمْ للصَّلاةِ ودَعا بعضُكمْ بَعضاً لإقامةِ هذهِ الفَريضةِ العَظيمة، سَخِرَ أهلُ الكتابِ والمشركونَ منها واتَّخذوها لَعِباً وعَبَثاً، معَ أنَّها طاعةٌ للهِ وإفرادٌ لهُ سُبحانَهُ بالعِبادة، لكنَّهمْ سُفَهاءُ وحَمْقَى، لا يَعرِفونَ الحقَّ ولذلكَ يُعادُونه، أو همْ لا يُريدونَ أنْ يَعرِفوا ذلكَ فيَلعَبونَ ويَعبَثون، ولا يَستَعملونَ عقولَهُمْ ليكونوا جادِّينَ راشِدين.

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ} [المائدة: ٥٩]

٥٩- قلْ أيُّها النبيُّ الكريمُ لهؤلاءِ المستَهزئينَ مِنْ أهلِ الكِتاب: هلْ تُنكِرونَ عَلينا سِوَى ما نحنُ عليهِ مِنْ إيمانٍ بالله، وما أُنزِلَ عَلينا مِنْ وحيهِ على خاتَمِ أنبيائه، وما أُنزِلَ مِنْ كُتبٍ على الأنبياءِ مِنْ قبل؟ فإنَّ هذا ليسَ بمَطعنٍ ولا عَيبٍ فينا، بلْ هوَ الإيمانُ الحقُّ الذي يَجِبُ عليكمُ اتِّباعُه، ولكنَّ أكثرَكمْ مُتمرِّدٌ خارجٌ عنِ العَقيدَةِ الصَّحيحَة.

{قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ} [المائدة: ٦٠]

٦٠- وقلْ لهمْ أيُّها النبيّ: هلْ أُخبِرُكمْ بمَنْ يَكونُ جزاؤهُ عندَ اللهِ شرًّا مِنَ الذي تَظنّونَهُ بالمسلِمينَ وبدينِهم؟ مَنْ أبعدَهُ مِنْ رحمتهِ فكانَ في عَذابٍ مُستَديم، ومَنْ غَضِبَ عليهِ مِنَ اليَهودِ فلا أملَ لهُ في رِضَى الله، ومَسَخَ بعضَهم فجعلَهمْ في صورةِ قِرَدةٍ وخَنازير، ومَنْ عبدَ غيرَ اللهِ منهم، كعِبادةِ العِجل، أو أفعالِ الكهنةِ ومَنْ صدَّقهم؛ فهؤلاءِ أسوأُ موضِعاً، وأبعدُ عنْ طريقِ الحقّ، وأشَدُّ عُقوبَة، فكيفَ تَستَهزؤونَ بمَنْ أخلصَ العبادةَ للهِ وحدَه، وآمنَ بأنبيائهِ أجمَعين، وبالكتبِ المنزَلةِ عَليهم...؟

{وَإِذَا جَآؤُوكُمْ قَالُوَاْ آمَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ} [المائدة: ٦١]

٦١- وإذا جاءَكمُ المنافِقونَ صَانَعوكمْ وطوَوا على الكفرِ قلوبَهم، وقالوا بألسنتِهم: نحنُ مؤمنون. والحقيقةُ أنَّهمْ دَخلوا إليكمْ كافرين، وخَرجوا كافرِين، فلمْ يَنتفِعوا بمجالستِكم، ولم يَعزِموا على السَّماعِ منكم، واللهُ أعلمُ بما يُضمِرونَهُ في سَرائرِهم.

{وَتَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [المائدة: ٦٢]

٦٢- وترَى كثيراً مِنْ أولئكَ اليهودِ يُبادِرونَ إلى عَملِ الشرّ، فيَقترِفونَ المآثمَ والمنكَرات، ويَعتدونَ على الناسِ بأنواعِ الظُّلمِ والمكرِ والخِيانة، ويأكلونَ الرِّشا ليُحِلُّوا الحرام، فما أسوأ ما يَتعاطون، وما أنكرَ ما يَفعلون.

{لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ} [المائدة: ٦٣]

٦٣- فهلاّ نَهاهُمْ عنْ هذهِ الأعمالِ الشَّنيعةِ علماءُ اليهودِ والنَّصارَى، ووعَظوهمْ بالكفِّ عنِ الكذِبِ والافتِراء، والامتناعِ عنْ أكلِ المالِ الحرام؟ فإنَّ هذهِ وظيفتُهمْ ليُبصِّروا الناسَ بما يَجهلونَهُ مِنْ حلالٍ وحرام. فبئسَ ما يُقْدِمونَ عليه، وبئسَ ما همْ عليهِ قائمون.

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [المائدة: ٦٤]

٦٤- وقالتِ اليَهود: إنَّ يدَ اللهِ بَخيلة - تعالَى اللهُ عنْ ذلك -. بَخِلَتْ نفوسُهمْ وأمسَكتْ أيديهِمْ عنْ فعلِ الخيرات، فهمُ المعرُوفونَ بالبُخلِ والحسَدِ والجُبْن، والذلَّةِ والصَّغار، ولعنَهمُ اللهُ وطردَهمْ مِنْ رحمتهِ بما تَلَفَّظوهُ مِنْ كلامٍ في جانبِ اللهِ خالقِهمُ العَظيم، ورازقِهمْ ورازقِ الأحياءِ في الكونِ كلِّه، فيَداهُ مَبسوطتانِ بالعَطاء، فهوَ ذو فَضلٍ عَميمٍ وعَطاءٍ جَزيل، لا تَنْفَدُ خزائنُه، يُنفِقُ كما يَشاء، مِنْ توسيعٍ على عبادٍ له، أو تَضييقٍ في الرزقِ على آخَرينَ منهم، وما قالوهُ هنا هوَ مِنْ كفرياتِهم، وسوفَ يَزيدونَ عليها ويَتمادَونَ فيها، فيَكفرونَ بآياتٍ أخرَى تَنزِلُ عليك، فيزدادونَ بذلكَ تَكذيباً وكُفراً على كفرِهم.

وألقَينا بينَ بعضِهمُ البعضِ عداواتٍ وأحقاداً، فصاروا فِرَقاً وجماعاتٍ لا تَكادُ تَتوافَقُ قلوبُهُمْ ولا تَتَّحِدُ كلمتُهم؛ لكثرةِ اختلافِهِمْ وخُصوماتِهِمْ وجدالِهِمْ في دينِهم، فصاروا مُتباغِضينَ مُتخاصِمين، وسيَكونُ هذا شأنَهُمْ إلى يومِ القيامة.

وكلَّما أرادوا أنْ يَكيدوك، أو يُشعِلوا حرباً ضدَّ المسلِمين، بأساليبِهمُ الخبيثةِ ومكرِهمُ السيِّئِ وفتنَتِهِمْ بينَ الأقوامِ والجماعات، أطفأها الله، فردَّ كيدَهمْ وقهرَهم، ونصرَ نبيَّهُ ودينَه. وهذا مِنْ سَجيَّتِهِمْ، فإنَّ شأنَهُمُ الإفسادُ في الأرض، بالكيدِ لأهلِ الحقّ، وإثارةِ الشرِّ والفِتنة، وإيقادِ نيرانِ الحروب، واللهُ يَبغَضُ هذهِ الصفاتِ وأهلَها، ويَجزيهِمْ على ذلكَ سُوءَ العَذاب.

{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [المائدة: ٦٥]

٦٥- ولو أنَّ أهلَ الكتابِ منَ اليهودِ والنَّصارَى آمَنوا باللهِ ورَسولِه، وابتَعدوا عمّا نُهوا عنهُ منَ المحرَّماتِ والمآثِمِ؛ لغفَرنا لهُمْ ذنوبَهُمُ التي اقترَفوها، ولأدخَلناهُمْ جنّاتِ اللهِ الدائمَة، يَتنعَّمونَ فيها سُعداءَ خالدين.

{وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ} [المائدة: ٦٦]

٦٦- ولو أنَّ أهلَ الكتابِ أقامُوا أحكامَ التوراةِ والإنجيلِ كما أُنزِلتْ مِنْ غيرِ تَحريفٍ ولا تَبديل، ومِنْ ذلكَ مبشِّراتُ بعثةِ الرسُولِ محمَّدٍ صلى اللهُ عليهِ وسلَّم، وما أُنزِلَ إليهِمْ منْ ربِّهِمْ مِنْ كتُبٍ على أنبياءِ بَني إسرائيل، ففيها كذلكَ البِشارةُ بِهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّم.

أو أنَّ المقصودَ الإيمانُ بالقُرآنِ الكريم، لو فَعلوا ذلكَ لوسَّعَ اللهُ لهُمْ في الرِّزق، فنَزلتْ عليهمُ السَّماءُ بالمطَر، وأخرَجتْ لهمُ الأرضُ النَّباتَ والثَّمَر.

ومِنْ أهلِ الكتابِ طائفةٌ آمنَتْ برسالةِ الإسْلام، وتابَعتِ النبيَّ محمَّداً صلى اللهُ عليه وسلم، وكثيرٌ منهمْ مُتعَصِّبونَ ومُعانِدونَ مُكابِرون، يُحَرِّفونَ الحقَّ ويُعرِضونَ عنه، فما أسوأ عملَهم، وما أخيبَ أملَهم!

{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [المائدة: ٦٧]

٦٧- أيُّها الرسُولُ الكريم، المبعوثُ إلى العالَمين، أوصِلْ إلى النَّاسِ جميعَ ما أنزلَهُ اللهُ إليك، فإذا لم تُوصِلِ الرسَالةَ التي أُرسِلْتَ بها إليهِمْ فما بلَّغت.

وقدْ أدَّى الرسُولُ عليه الصلاةُ والسلامُ الأمانةَ التي اؤتمِنَ عليها أتمَّ أداء، وما كتمَ شيئاً، كما جاءَ في حديثِ عائشةَ الصحيح.

واللهُ يَحفَظُكَ مِنْ أعدائك، فلا أحدَ يَقدِرُ على قَتلِكَ أو مدِّ يدِ السُّوءِ إليك، فاهتمَّ بأمرِ التَّبليغ، ولا تَخَفْ ولا تَحزن، واللهُ يَهدي مَنْ يَشاء، ويُضِلُّ مَنْ يَشاء، ولنْ يَجِدَ الكفّارُ سبيلاً إلى الهِداية، ما داموا أغلَقوا عُقولَهُمْ وقلوبَهُمْ عنْ سَماعِ الحقِّ وإرادةِ اتِّباعِه.

وفي حديثٍ حَسن، أنَّ اللهَ تعالَى لما أنزلَ {وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ}، أخرجَ الرسولُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ رأسَهُ منَ القُبَّة، وقالَ لمنْ يَحرُسه: "أيُّها النَّاس، انْصِرفوا، فقدْ عَصَمَني الله".

وقدْ أسلمَ في عَصرِنا أحَدُهم، أو بعضُهم، لما اطَّلعَ على هذا، وقالَ في سَببِ إسلامِه: إذا كانَ محمَّدٌ يَكذِبُ على النَّاس، فإنَّهُ لا يَكذِبُ على نفسهِ ولا يُعَرِّضُها للخطَرِ بصرفِ الناسِ عنْ حراستِه، وقدْ عاشَ بعدَ ذلكَ ولم يُقتَل، فصحَّ أنهُ نبيّ.

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [المائدة: ٦٨]

٦٨- وقلْ يا نبيَّ الله: يا أهلَ الكتابِ منَ اليهودِ والنَّصارَى، لستُمْ على شَيءٍ منَ الحقّ، ولا على صَحيحٍ منَ الدِّين، حتَّى تُحافِظوا وتُراعُوا ما في التوراةِ والإنجيلِ مِنْ أمورٍ وأحكامٍ دونَ تحريفٍ ولا تَبديل، ومِنْ ذلكَ البِشارةُ بمبعَثِ خاتَمِ الأنبياءِ محمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسلَّم، وحتَّى تؤمِنوا بالقُرآنِ الذي أُنْزِلَ عليه، وإنَّ ما أنزَلَ اللهُ عليكَ مِنْ حقٍّ يا نبيَّ الله، سوفَ يَزيدُ كثيراً منَ الكفّارِ كُفراً وبُعداً عنِ الحقّ، لعدمِ قبولِهِمْ به؛ لعِنادِهِمْ ومكابرَتِهم، فلا تَحزَنْ عليهِمْ ولا تَتحسَّرْ على هلاكِهِمْ وعَذابِهِم، فإنَّ هذهِ نتيجةُ مَنْ رضيَ بالضَّلالِ لنفسِه، وهمُ الذينَ جَنَوا على أنفسِهم.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [المائدة: ٦٩]

٦٩- إنَّ المسلِمين، واليهود، والصابئة، والنَّصارَى، مَنْ آمنَ منهمْ بالله، وبالمعادِ والجزاءِ يومَ القيامَة، وعملَ صالحاً، ولا يَكونُ العملُ صالحاً إلا بموافَقتِهِ للدِّينِ وإخلاصهِ للهِ تعالَى، فلا خوفٌ عَليهم - لمنْ توفَّرتْ فيهِ هذهِ الصِّفاتُ- يومَ يَخافُ الكافِرونَ ممّا يَستقبِلونَه، ولا همْ يَحزنونَ حينَ يَحزنُ المقصِّرونَ على ما فاتَهُمْ مِنْ ثَواب.

والمقصودُ كلٌّ في وقتِه، ولا يُقبَلُ دِينٌ منْ أحدٍ بعدَ الإسلام سِوَى دينِ الإسلام.

{لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ} [المائدة: ٧٠]

٧٠- لقدْ أخَذنا العهودَ والمواثيقَ على بَني إسْرائيل، وبَعَثنا فيهمْ أنبياءَ وأرسلنا إليهمْ رُسلاً، يُذَكِّرونَهُمْ بها ويُخَوِّفونَهُمْ نقضَها، ليسمَعوا ويُطيعوا ويأتمِروا بما أُنزِلَ إليهم، ومِنْ ذلكَ العهدُ الذي أخذَهُ أنبياؤهمْ عليهم، منَ الإيمانِ بالنبيِّ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، ولكنْ كلَّما جاءَهمْ رسولٌ بما لا يوافِقُ أهواءَهمُ الزائغَة، وآراءَهمُ الفاسِدة، صارَ فريقٌ منهمْ يُكذِّبونَهُمْ ويُخالفونَهم، وآخَرونَ منهمْ يَقتلونَهم!

{وَحَسِبُواْ أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ اللّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} [المائدة: ٧١]

٧١- لقدْ ظنَّ كثيرٌ مِنْ بَني إسْرائيلَ أنَّهُ لنْ يَترتَّبَ على مَواقفِهمُ السيِّئةِ منَ الأنبياءِ شرٌّ وفَساد، وأنَّ اللهَ لا يُحاسِبُهمْ عليها، ولا يُصيبُهمْ منها بلاءٌ وعَذاب، فتَمادوا في الغَيِّ والفَساد، وصَاروا لا يَسمعونَ حقًّا ولا يَهتدونَ إليه، ثمَّ تابَ اللهُ عَليهمْ حينَ تابوا ورجَعوا عمّا كانوا عليهِ منَ الفَساد، ثمَّ ازدادوا ضَلالاً وغَيّاً وأغلَقوا منافذَ التفكُّرِ وسَماعِ صوتِ الحقِّ في نُفوسِهم، وعَادوا إلى الفَسادِ وقَتلوا الأنبياء، واللهُ مُطَّلِعٌ عليهم، وعالِمٌ بما عَمِلوا، وسيُحاسِبُهمْ أشدَّ الحِساب.

{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} [المائدة: ٧٢]

٧٢- لقدْ كفرَ مَنْ قالَ مِنَ النَّصارَى إنَّ اللهَ هوَ المسيحُ بنُ مريم، وقدْ قالَ المسيحُ نفسُه: يا بَني إسْرائيل، اعبُدوا اللهَ وحدَه، فهوَ ربِّي وربُّكم، ونحنُ جميعاً عَبيدٌ لله، وإنَّ مَنْ يُشرِكْ بهِ في عبادتهِ فقدْ حرَّمَ عليهِ دُخولَ الجنَّة، وأوجبَ لهُ النَّار. وقدْ ظَلموا بإشراكِهمْ وكفرِهمْ هذا وعَدَلوا عنْ طريقِ الحقّ، ولنْ تَجِدَ لهؤلاءِ الظَّالمينَ مُعيناً ولا ناصِراً يُنقِذُهمْ منْ عَذابِ اللهِ وعُقوبتهِ المقدَّرةِ عليهم.

{لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [المائدة: ٧٣]

٧٣- لقدْ كفرَ منهمْ كذلكَ مَنْ قالَ إنَّ اللّهَ إلهٌ معَ إلهينِ آخَرينِ هما عيسى وأمُّهُ مريم، وقالتْ طوائفُ أخرَى غيرَ ذلك. والحقُّ أنَّهُ ما منْ إلهٍ إلاّ الله، فهوَ وحدَهُ المعبودُ بحقّ، الذي لا شَريكَ لهُ ولا شَبيه، وهوَ إلهُ الكون، وربُّ جميعِ الكائنات، مُحييها ورازِقُها ومُميتُها، وليسَ هناكَ آلهةٌ مِنْ جنسِ البشَر، وعيسى وأمُّهُ كانوا منَ البشَرِ يأكلانِ الطعام.

وقدْ ظَهرتْ فِرقةٌ منَ النصارَى يُقالُ لها "المريميُّون" في القرنِ السادسِ الميلادي، تقولُ بأُلوهيَّةِ مريمَ أيضاً!

فإذا لم يَنتَهِ النَّصارَى منْ هذا الكذِبِ والافتِراءِ على اللهِ ربِّ العالمين، فإنَّهُ يُصيبُ الذينَ كفَروا منهمْ عذابٌ مؤلمٌ موجِع، ونارٌ تأتي على أفئدتِهم.

وقدْ خصَّ اللهُ الكافِرينَ منهمْ بالعَذاب، لعلمهِ أنَّ بعضَهم يؤمِنون.

{أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [المائدة: ٧٤]

٧٤- أفلا يتوبُ النَّصارَى مِنْ هذا الإفكِ العَظيمِ، ويَستَغفِرونَهُ منْ هذا القَولِ الأثيم، ويَعودونَ إلى القَولِ الحقّ؟ هلاّ انتهَيتُمْ ممّا نَسبتُموهُ إلى ربِّكمْ وتُبتُمْ إليهِ ليتوبَ عليكم، ويمنحَكمْ مِنْ فَضلهِ ورحمتِه؟

{مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [المائدة: ٧٥]

٧٥- والمسيحُ عيسَى بنُ مريمَ ما هو إلا عبدٌ رَسَولٌ وليسَ بإله، وقدْ سبقَهُ رسلٌ منْ أمثالِهِ كانوا بشَراً كذلك، ولم يَكونوا آلهة. وإذا كانَ أُوتيَ مُعجِزاتٍ خارِقة، فإنَّ مَنْ سبقَهُ منَ الرسُلِ كذلكَ أُوتوا مُعجِزاتٍ خارِقة، وإذا كانَ قدْ خُلِقَ منْ غيرِ أب، فإنَّ هناكَ مَنْ خُلِقَ منْ دونِ أبٍ ولا أمّ، وهوَ آدمُ عليه السَّلام، ولم يَكنْ إلهاً.

وأمُّهُ مريمُ كذلكَ كسائرِ النِّساء، كانتْ وليَّةً طاهرة، مؤمِنةً بابنِها نبيًّا ورَسُولاً، مُصَدِّقةً لهُ فيما يُبَلِّغُ عنْ ربِّه، ولم تكنْ إلهة. وكانَ كلاهما يَجوعانِ ويَعيشانِ بالغِذاءِ كسائرِ الآدَميين، ويَتخلَّصانِ

منْ فَضلاتِهما كما يَتخلَّصُ منها البشَر. فكيفَ يجوعُ الإلهُ ويَهلِكُ إذا لم يأكل؟ وكيفَ يَتغوَّطُ الإله؟! بلْ هذهِ كلُّها صفاتُ آدميّينَ كما تُرَى.

فانظرْ كيفَ نُبيِّنُ لهمُ الأدلَّةَ والحُجَج، والبراهينَ المقنِعةَ الواحِدةَ تِلْوَ الأخرَى، وانظرْ بعدَها كيفَ يَنصرِفونَ عنِ الحقّ، وعلى أيِّ مذهبٍ ضالٍّ يُقيمون؟!

{قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [المائدة: ٧٦]

٧٦- قلْ أيُّها النبيُّ للمشركِينَ وأهلِ الكتابِ منَ العابدينَ غيرَ الله: أتَعبدونَ مِنْ دونِ اللهِ ما لا يَقدِرُ على ضُرِّكمْ ولا إيصَالِ النفعِ إليكم، واللهُ خالقُكمْ وخالِقُهم، الذي يَجِبُ أنْ يُعبَدَ وَحدَه، وهوَ الذي يَنَفَعُ ويَضُرُّ ويُجازي على الأعمال، والجماداتُ المعبودةُ لا تَنطِقُ ولا تَسمعُ حتَّى تَضُرَّ وتَنفَع، والأناسيُّ لا يَقدِرونَ على النَّفعِ والضُّرِّ إلا إذا شاءَ الله، وهوَ وحدَهُ الذي يَتصرَّفُ في الكونِ كلِّهِ كما يَشاء، ولا يَقدِرُ أحَدٌ على أنْ يَمنعَهُ منْ ذلك، فلا نَفعَ ولا ضَرَرَ إلاّ منه، فلهُ وحدَهُ يجبُ أنْ تكونَ العبادة. وهوَ الذي يَسمعُ أقوالَ كلِّ عبادِه، ويَعلمُ جميعَ أحوالِهم.

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ} [المائدة: ٧٧]

٧٧- قلْ أيُّها النبيّ: يا أهلَ الكتابِ منَ اليهودِ والنَّصارَى، لا تَتجاوزوا الحدَّ في أمرِ دينِكم، لا علوًّا ولا تَقصيراً، فإنَّ تَجاوزَ الحدّ مَذمُوم، وكذا التقصيرُ فيه، فليسَ المسيحُ عيسى إلهًا كما يدَّعي النصارَى، ولا هو ابنُ زانيةٍ كما يدّعي اليهود، بلْ هوَ عبدُ اللهِ ورسولهُ الكريم، وأمُّهُ صِدّيقةٌ طاهِرة. ولا توافِقوا المذاهبَ الباطلةَ التي ابتدَعها شيوخُ الضَّلالةِ منْ أسلافِكم، الذينَ انحرَفوا وابتعَدوا عنِ الحقِّ والصَّواب، وأضلُّوا كثيراً منْ أتباعِهم، نَتيجةَ خُروجِهمْ عنْ طريقِ الاستقامةِ والاعتدالِ إلى طَريقِ الشِّركِ والضَّلال.

{لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} [المائدة: ٧٨]

٧٨- لعَنَ اللهُ الذينَ كفَروا منْ بَني إسْرائيلَ على لِسانِ نبيِّ اللهِ داودَ في الزَّبور، وعلى لسانِ نبيِّ اللهِ عيسى بنِ مريمَ في الإنجيل، ولعنُهمْ هوَ طَرْدُهمْ منْ رحمةِ الله، بسبَبِ عِصيانِهمْ ومخالفتِهم، واعتدائهمْ على خَلقِ الله.

{كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ} [المائدة: ٧٩]

٧٩- كانَ بَنو إسْرائيلَ إذا فَعلوا مُنكراتٍ وارتَكبوا مآثِم، لا يَنهَى بعضُهمْ بَعضاً عنها، ولا يَعِظُونَهُمْ بتركِها، مثلَ أكلِ الرِّبا، وأخذِ الرشْوة، وقَبولِ أثمانِ الشُّحوم، وغيرِ ذلك. فما أسوأ فعلَهم، وما أنكرَ صَنيعَهم.

{تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ} [المائدة: ٨٠]

٨٠- وترَى كثيراً منَ اليهودِ يوالُونَ المشرِكينَ والمنافِقين، ويَنتَصرونَ لهمْ ويُقَوّونَهمْ ضدَّ دينِ الإسلام، فما أسوأ عملَهم، وما أتعسَ ما قدَّموا منْ عَملٍ لمعادِهمْ يومَ حِسابِهم، فقدْ جلَبوا بذلكَ غضبَ اللهِ وسُخْطَهُ عليهم، وسيُدخلُهمْ بذلكَ النَّار، ويُخَلِّدهمْ فيها تَخليداً.

{وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} [المائدة: ٨١]

٨١- ولو أنَّ هؤلاءِ الموالِينَ للمشركِينَ يؤمِنونَ باللهِ حقَّ الإيمان، ويؤمِنونَ بخاتَمِ أنبيائهِ محمَّدٍ صلى اللهُ عليه وسلَّم، وبما أنزلَهُ عليهِ منَ القُرآنِ الكريم، لَما اتَّخذوهمْ أولياءَ يُناصِرونَهُمْ ضدَّ دينهِ وأوليائه، ولكنَّ كثيراً منهمْ خارِجونَ عنْ طاعةِ الله، معانِدونَ للحقِّ الذي أوجبَ اتِّباعه، مخالفونَ لوحيهِ المنْزَل.

سورة المائدة (الآيات ٨٢-١٢٠)

سورة الأنعام (الآيات ١-١١٠)

(تابع لسورة المائدة)

{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ} [المائدة : ٨٢]

٨٢- ستَجِدُ أشدَّ النَّاسَ عداءً للمؤمنينَ اليهودَ والمشرِكين.

أمّا اليهود: فلعِنادهِمْ وجُحودهم، وتضاعُفِ كُفرِهِمْ، واتِّباعِهِمُ الهوَى، وكذبِهِمْ وافترائهم، وتمرُّدِهِمْ على الحقّ، حتَّى قَتلوا أنبياء، وهمُّوا بقتلِ رسولِنا محمَّدٍ صلى الله عليه وسلَّم غيرَ مرَّةٍ وسَحَروه، ووَضعوا في دينِهِمْ توجيهاتٍ بإيذاءِ مَنْ يُخالِفُهم!

والمشرِكونَ يُماثلونَهُمْ في صِفاتٍ عدَّة، وقدْ غلبَ عليهِمُ التقليدُ فسَدُّوا منافذَ الفِكرِ والفِطرةِ في نفوسِهم، فلازَموا الكفر، وفتَنوا المؤمنينَ عنْ دينِهم، وحارَبوا الدِّينَ الحقَّ بكلِّ ما أُوتوا منْ قوَّة..

وستَجِدُ أقربَ الناسِ مَودَّةً للمؤمِنين - منْ بينِ مِلَلِ الكُفرِ - الذينَ زَعَموا أنَّهُمْ نصارَى مِنْ أتباعِ المسيح، وذلكَ لرأفةٍ في قلوبِهِمْ ورِقَّة، وفيهِمْ علماءُ ورُهبانٌ وعُبّادٌ يتَّصفونَ بالعلمِ والعِبادةِ والتواضُع، وهؤلاءِ لا يَستكبرونَ عنِ الانقيادِ للحقِّ إذا عَرَفوهُ وفَهِموه. ولعلَّ التعبيرَ للكثيرِ مِنْ هؤلاء، أو أكثرِهم.

قالَ القاضي البيضاويّ: فيهِ دليلٌ على أنَّ التواضُعَ والإقبالَ على العِلمِ والعمَل، والإعراضَ عنِ الشَّهوات، محمودٌ وإنْ كانَ مِنْ كافِر.

قلت: وهناكَ فُرصةٌ طيِّبةٌ لدعوةِ هذه الفئةِ إلى الإسْلام، وأمَلٌ في إسلامِهم.

والآيَةُ مُرتَبِطَةٌ بما بَعدَها.

{وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} [المائدة: ٨٣]

٨٣- وإذا سَمِعَ هؤلاءِ وأمثالُهُمْ ما نزلَ على الرسُولِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلمَ مِنْ آياتِ القُرآن، ترَى الدموعَ تَسيلُ مِنْ عُيونِهِم، وذلكَ لما عَرَفوا مِنَ الحقِّ الذي عندَهم، منَ البِشارةِ ببعثةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، مثلَما حدثَ للنجاشيّ وقسّيسينَ مِنْ حَولِه، ولم يَكونوا مثلَ اليهودِ بُهْتاً مُعانِدينَ ومُكَذِّبينَ مُحَرِّفين، بلْ قالوا في تواضُعٍ وخُشوع، وأوبَةٍ وإيمان: اللهمَّ إنّا آمنّا بما أنزلت، فاكتُبنا معَ مَنْ يَشهدُ بصحَّةِ هذا، واجعَلنا عندَكَ معَ أمَّةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وممَّنْ يَشهَدونَ معهمْ بالحقّ.

{وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ} [المائدة: ٨٤]

٨٤- قالوا: ولماذا لا نؤمِنُ باللهِ ولا نُنَزِّههُ عن الشِّركِ كما هوَ في دينِ الإسْلام، ونؤمِنُ جَميعاً بما جاءَنا منَ الحقِّ والتوحيدِ الذي لا شائبةَ فيه، ونحنُ نَتمنَّى ونَرغَبُ أنْ يُدْخِلَنا ربُّنا جنَّته، ويَشمَلَنا برحمتِهِ معَ عبادِهِ المؤمنينَ الصَّالحين؟

{فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ} [المائدة: ٨٥]

٨٥- فجازاهمُ اللهُ بسبَبِ قولِهِمْ هذا، وعلى تَصديقِهِمْ واعتِرافِهِمْ بالحقّ، جنّاتٍ عاليات، تَجري مِنْ تحتِ أشجَارِها ومسَاكنِها أنهارُ الماءِ والعَسلِ والخمرِ واللبن، معَ خلودٍ دائمٍ وسعادةٍ تامَّة، فهذا جزاءُ مَنِ اتَّبعَ الحقَّ وأذعنَ له، دونَ معاندةٍ ولا استِكبار.

{وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [المائدة: ٨٦]

٨٦- والذينَ خالَفوا وعصَوا، وكذَّبوا بآياتِ القرآن، فإنّ مصيرَهمْ إلى الجَحيم، فهمْ أهلُها المستَحِقُّونَ لها، جزاءَ عنادِهمْ وكُفرِهمْ وتَكذيبِهمْ ما هوَ حقّ.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [المائدة: ٨٧]

٨٧- أيُّها المؤمِنون، لا تُحَرِّموا ما أحلَّ اللهُ لكمْ مِنَ اللَّذائذِ والمشتَهيات، ولا تَتعدَّوا حدودَ ما أحلَّ لكمْ إلى ما حَرَّمه، واللهُ لا يُحِبُّ الظَّالمينَ المعتَدينَ حُدودَه، ولكنْ قِفوا عندَها والتزِموا بها. وقدْ نزلتِ الآيةُ في رَجُلٍ حرَّمَ اللحمَ على نفسهِ لشَهوةٍ وجدَها عندَهُ في النِّساءِ إذا أكلَه.

{وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ} [المائدة: ٨٨]

٨٨- وكُلوا الحلالَ الطيِّب ممّا رزقَكمُ الله، ولا تُسرِفوا، وذَروا ما حرَّمَه، إنْ كنتُمْ مؤمِنين. وإنَّ أكلَ الطيِّباتِ واللَّذائذِ الحَلالِ لا يُنافي التقوَى والعملَ الصالح.

{لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَـكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [المائدة: ٨٩]

٨٩- لا يحاسبُكمُ اللهُ على حَلِفِكُمْ باللهِ إذا كانَ مِنْ غَيرِ قَصد، ممّا يَسبِقُ إليهِ اللسانُ منْ غَيرِ نيَّةِ قَسَم، أو ما كانَ القسَمُ على غلبةِ ظنٍّ عندَ آخرين، ولكنْ يحاسِبُكمْ عليه إذا كانَ عنْ قصدٍ ونيَّةٍ وتأكيد. فمَنْ حَنَثَ في يمينِه، يَعني أخطأَ النَّتيجَة، أو لم يُنَفِّذْ ما قسمَ عليه، فإنَّ عقوبتَهُ أنْ يُطعِمَ عشرةَ مَساكين، مِنْ أعدلِ ما يُطعِمُ المرءُ أهلَه، أي ما يَكفي الشَّخصَ في اليومِ بشَكلٍ وسَط، نوعاً ومِقداراً.

أو أنْ يَكسوَ العددَ نفسَهُ منَ المسَاكين، ممّا يُطلَقُ عليهِ كِساء، كقَميص، أو سِروال، أو عَمامة.

أو أنْ يُعتِقَ عبدًا.

فمَنْ لم يَقدِرْ أو لم يَجِدِ الأمورَ السابقة، فليَصُمْ ثلاثةَ أيّام، فإنَّ ذلكَ كَفّارةٌ لمنْ حَلَفَ وحَنَث، ومحوٌ لما ارتكبَ منْ سيّئةٍ بسببِه.

وراعُوا حَلِفَكمْ إذا حَنَثْتُم، فلا تَتركوهُ مِنْ غَيرِ تَكفير.

وهكذا يبيِّنُ اللهُ لكمْ أحكامَ شَريعتهِ ويُوضِّحُها، فاشْكروهُ على نِعْمةِ هذا التعليمِ والبيان، الذي هوَ لخيرِكمْ وصالِحِكم.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [المائدة: ٩٠]

٩٠ – أيُّها المؤمنون، اعلمُوا أنَّ الخمرَ وكلَّ ما هوَ مُسكِر، والقمارَ، والأصنامَ التي تُنْصَبُ للعِبادَةِ وتُذبَحُ عندَها القَرابين، والقِداحَ التي يُستَقْسَمُ بها[٣٢]، كلَّ هذا خبيثٌ مُسْتَقذَرٌ وشرٌّ مِنْ عملِ الشيطان، فهوَ مِنْ تزيينهِ وتَسويلِه، فاتركوهُ لتَفوزوا.

{إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ} [المائدة: ٩١]

---

(٣٢) وردَ تعريفُ الأزلامِ عند تفسيرِ الآيةِ (٣) من السورة بشكلٍ أوضح، وهو: الاستِقسامُ بالأزلامِ هوَ طلبُ القَسْمِ والحُكْمِ مِنْ قِداحٍ كانَ يُكتَبُ على واحدٍ منها "افعَلْ"، وعلى الثاني "لا تَفعَلْ"، ولا شَيءَ على الآخَر، فيأتَمِرُ بها الجاهليّ، فإنْ كانتِ الفارغةَ أعاد.

٩١-إنَّما يُريدُ الشَّـــيطانُ بتَعاطي هذهِ المحرَّماتِ أنْ يُوقِعَ بينَكمُ العَداواتِ والأحقادَ والمفاسِـــدَ والشُّـرور، فالخمرُ تُذهِبُ العَقل، والمسكِرُ يُعَربِدُ ويَسُـبُّ ويَتشـاجر، وقدْ يقعُ على محارمهِ أو يَقتلُ آخرينَ وهوَ لا يَدري، فإذا صـــحا نَدِم. والمقامرُ يُقامِرُ على الأهلِ والمال، وقدْ لا يُبقي لنَفسهِ شَـيئاً، ثمَّ يُصبِحُ عدوًّا لمنْ قامرَه، وحَزيناً مُغتاظاً، وقدْ يَتشـرَّدُ ويَتسوَّل... والأنصـابُ والأزلامُ شِركٌ لا يُقْدِمُ عليها إلاّ مَنْ تركَ التوحيدَ واستسلمَ للجاهليَّةِ المنكَرةِ والتخلُّفِ العقَديّ الأعمى.

ويُريدُ الشَّـــيطانُ بتَزيينهِ الإقدامَ على هذهِ المنكراتِ أنْ يُبعِدَكمْ عنْ ذِكْرِ الله، فإنَّها كلَّها تُلهي عنْ الذِّكر، وتُشَوِّش على المسْكرِ القراءةَ إنْ صلَّى، فيَنطِقُ بالكفر وهوَ يُريدُ قراءةَ القُرآن. وإذا قامرَ وحَصَّلَ مالاً حَراماً فَرِحَ حتَّى البَطَر، وإذا خَسِرَ حَزِنَ وانقبضَ حتَّى كادَ أنْ يقتلَ نفسَهُ أو غيرَه. وفي أثناءِ ذلكَ يَكونُ مُترقِّباً ومُفكِّراً بحيلةٍ يَغلِبُ بها صاحبَهُ ويَقْهَره. فأينَ يكونُ السكِّيرُ والمقامِرُ مِنْ ذكرِ الله؟ فانتَهوا وتوقَّفوا عنها، فإنَّها مُنكَرٌ حَرامٌ لا يَحِلُّ لمسلمٍ تَعاطيها.

وكانتْ هذهِ الآيةُ آخِرَ حَلْقةٍ في أسلوبٍ تَدريجيٍّ ربّانيّ لتحريمِ الخَمرِ وما إليها، وقالَ الصَّحابةُ رِضوانُ اللهِ عليهمْ بعدَ نُزولها: انتهَينا يا ربّ. وأهْرَقوا ما عندَهمْ مِنْ خَمْر.

{وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُـــولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُـــولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ} [المائدة: ٩٢]

٩٢- فأطيعُوا اللهَ ورَســـولَه، والتزِموا بما شُـــرِعَ لكمْ مِنَ الحلالِ والحرام، ومنهُ اجتِنابُ الخمرِ والميْسِـــرِ وما إليهما، واحذَروا المخالفةَ والعِصـــيان، فإذا أبَيتُمْ وأعرَضـــتم، فقدْ قامتِ الحُجَّةُ عليكم، وقدْ قامَ رسولُنا بوظيفتِهِ فبلَّغَ وأنذَر، ولم يَبقَ بعدَ ذلكَ إلاّ العِقاب.

{لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [المائدة: ٩٣]

٩٣- نَزَلَ تحريمُ الخَمرِ وقدْ ماتَ مِنَ الصَّـحابةِ مَنْ كانَ يَشـربُها، فسُـئلَ رَسـولُ اللهِ صـلى الله عليه وسلَّم عنْ ذلك، فنزلتِ الآية.

ليسَ على مَنْ آمنَ وعَمِلَ صـــالحاً إثمٌ وحرَجٌ فيما شَـــرِبوا منَ الخمرِ وأكلوا مِنْ مالِ الميسرِ إذا اتَّقَوا الشِّركَ وآمَنوا وصَدَّقوا وعَمِلوا صَالحاً، ثمَّ اتَّقَوا اللهَ فداوموا على ذلكَ ولم يَشربوا الخمرَ بعدَ تحريمِها، ولم يَلعَبوا بالميســـرِ بعدَ تحريمه، بلِ ازدادوا إيماناً، ثمَّ اتَّقَوا ما حرَّمَ اللهُ عليهمْ وابتَعدوا عنْ مَعاصيه، وأحسَنوا في عملِهِمْ وعِبادتِهم، واللهُ يُحِبُّ منِ اتَّصفَ بصفةِ الإحسان، ويُثيبُهمْ عليها.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَـيْءٍ مِّنَ الصَّـيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [المائدة: ٩٤]

٩٤- أيُّها المؤمِنون، سيَختَبِرُكمُ اللهُ في شَيءٍ ممّا يُصادُ في البرِّ وأنتُمْ مُحْرِمون، ممّا يَسْهُلَ صَيدُهُ بأيديكُم، أو برِماحِكم، ليَنظُرَ منْ يُطيعُ منكمْ ومنْ يَعصـي، في سِـرِّهِ وجَهرِه. فمنْ صـادَ بعدَ هذا الإعلامِ وهوَ مُحْرِمٌ فقدْ خالفَ أمرَ اللهِ واستَوجبَ عقوبتَهُ الشَّـديدة، باعتدائهِ عنْ مُكابرة، أو عدمِ مبالاتهِ بأمرِ الله.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّـيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} [المائدة: ٩٥]

٩٥- أيُّها المؤمِنون، لا تَقتلوا الصَّــيدَ وأنتُمْ مُحْرِمون، ما يُؤكَلُ منهُ وما لا يُؤكَل، إلاّ ما بيَّنَهُ الرسـولُ صـلى الله عليه وسـلَّمَ منَ الفَواسِـقِ... وقاسَ عليها بعضُ العلماءِ حيواناتٍ أخرَى. ومَنْ قتلَهُ مِنكمْ عنْ قَصْــدٍ وعَمْد، فيَجِبُ عليهِ مثلُ حَجمِ ذلكَ الصَّــيدِ منَ الأنعام، ويَحكمُ بهذا المِثْلِ وتَقديرِهِ رَجُلانِ لهما خِبرَةٌ في هذا الشَّأن، ويكونُ هذا الحيوانُ المقدَّرُ هدْياً يُرْسَلُ إلى الحرمِ ويُذْبَحُ هناك، ويُتَصَدَّقُ بلحمهِ على مَساكينِه، أو يُكَفِّرُ عنْ خطئهِ هذا بإطعامِ مساكينَ بمقدارِ ذلكَ الحيوانِ الذي قَتله، أو يَصومُ بمقدارِ ذلك، كلُّ يومٍ عن مقدارِ ما يَكفي شَخصاً منَ الطعام.

وهذهِ العقُوباتُ جزاءُ مَعصيةِ مَنْ صادَ وهوَ مُحْرِمٍ ولم يَتقيَّدْ بأمرِ اللهِ. وعفا اللهُ عمَّنْ صادَ وهوَ مُحْرِمٌ قبلَ أنْ يَنزِلَ التَّحريم، ومَنْ عادَ فخالَف، فإنَّ اللهَ يَنتَقِمُ منهُ في الآخِرَة.

واللهُ غالِبٌ لا يُغالَبُ ولا يُقْهَر، شـديدٌ فيَنتقِمُ ممَّنْ تعدَّى حدودَهُ وأصـرَّ على مخالفةِ أوامرِه، لا يَستَطيعُ أحدٌ أنْ يَمنعَهُ مِن انتقامِه، ولا عُقوبةِ مَنْ أرادَ عقوبتَهُ.

{أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [المائدة: ٩٦]

٩٦- أُحِلَّ لكمْ أيُّها المحْرِمونَ صـيدُ ما في الماء، وما قذفَهُ لكمُ البَحرُ مَيتاً، يَسـتمتِعُ بهِ المقيمُونَ منكمْ يأكلونَهُ طريًّا، ويَنتفِعُ بهِ المسافِرونَ بجانبِ البَحر، ويَتقوَّتونَهُ قديداً مُمَلَّحاً.

وحُرِّمَ عليكمْ صيدُ البَرِّ ما دمتُمْ مُحْرِمين، إلاّ ما استثنتْهُ السنَّةُ مِنْ جوازِ قتلِ الفواسِق، وألحقَ بها بعضُ العلماءِ حيواناتٍ مؤذيةً قياساً عليها.

واتَّقوا اللهَ فيما نَهاكمْ عنهُ مِنَ الصَّيدِ والمحرَّماتِ السَّابِقَة، وسوفَ تُحشَرونَ إليه، ولا خلاصَ لكمْ مِنَ المحاسبةِ والجزاءِ عندَهُ يومَذاك.

{جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المائدة: ٩٧]

٩٧- لقدْ جَعَلَ اللهُ الكعبةَ - البيتَ الحرامَ - قُوامَ أمرِ الناسِ ومصـلحتَهم، دُنياً ودِيناً. فهوَ سـبَبُ إصـلاحِ أمورِهمْ وجَبرِها، وهوَ مأمَنٌ ومَلجأ لهم، ومَجْمَعٌ لتجارتِهم، ومَهوَى أفئدتِهم، يَقصِدونَهُ للحجِّ مِنْ كلِّ فَجٍّ عَميق، فهوَ أحدُ أركانِ الدِّين.

وكذلكَ جعلَ الشَّهرَ الحرامَ قياماً لهم، والمرادُ جِنسُ الشَّهرِ الذي يَصِحُّ عَقْدُ نيَّةِ الحجِّ فيه، وهي: رَجَب، وذو القَعْدة، وذو الحِجَّة، والمحَرَّم.

والهَدْيُ والقَلائدُ أيضـاً قيامٌ لهم، فهيَ ممّا يَخُصُّ مناسِـكَ الحجّ، والهَدْي: النُّسُـكُ التي تُهدَى للحَرَم، فتُذْبَحُ هناكَ ويُوَزَّعُ لحمُها على مَسـاكينِه. والقلائدُ كذلك، وهيَ البُدْنُ التي تُقلَّدُ

بقلائدَ ليَعرِفَ الناسُ أنَّها للحَرَمِ فلا يَتعرَّضُ لها أحَد، وذُكِرَ أنَّ الثوابَ فيها أكثَر، والحجَّ بها أظهَر.

وهذا الذي يبيِّنُهُ اللهُ لكم، لتَعلَموا أنَّ تشــــريعَ هذهِ الأحكامِ التي فيها مَنافعُ دُنيويَّة وأُخرَويَّة، ودفعٌ لمضـارَّ قبلَ وقوعِها، هوَ مِنَ الدلائلِ على حِكمَةِ اللهِ وإحاطتهِ بكلِّ شَـيء، ما دقَّ منها وما جَلّ، فهوَ كامِلُ العِلم، لا يَنقُصُ ولا يَخفَى عليهِ شَيءٌ منه.

{اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [المائدة: ٩٨]

٩٨- واعلَموا أيُّها النَّاس، أنَّ اللهَ الذي أحاطَ علمُهُ بكلِّ شَـــيء، وعَلِمَ ســـرائرَ أعمالِكمْ وعلانيتَها، وأحصاها عليكمْ ليُجازيَكمْ بها، هوَ شَديدُ العقابِ لمن انتهكَ مَحارِمَهُ أو أصرَّ على عِصيانه. وهوَ غَفورٌ لذُنوبِ مَنْ أنابَ إليه وأطاعَه، رَحيمٌ بِهِ فلا يُعاقِبُه.

{مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ} [المائدة: ٩٩]

٩٩- ليسَ على الرسُـولِ إلاّ أنْ يُبَلِّغَ الرسـالة، وليسَ لهُ الهدايةُ والتوفيقُ ولا الثَّواب، وقدْ أتَى بما وجبَ عليهِ مِنَ التَّبليغِ بما لا مَزيدَ عليه، فلا عُذرَ لكمْ إنْ لم تُطيعوا، ومَنْ خالفَ ولم يَمتَثلْ فقدْ عرَّضَ نفسَهُ للعِقاب.

ولا يَخفَى على اللهِ المطيعُ منكمْ مِنَ العاصـي، ولا يَغيبُ عنهُ شَـيءٌ ممّا خفيَ في الصُّـدور، أو ظهرَ منْ أعمالِ النفُوس، وبيدهِ الثوابُ والعِقاب، فيُعامِلُ كلاًّ بما يَستَحِقّ.

{قُل لاَّ يَسْـــتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللّهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [المائدة :١٠٠]

١٠٠- قلْ أيُّها النبيّ: لا يَتعادَلُ الحَلالُ والحَرام، ولا يَسـتوي الحسَـنُ والردِيء، ولا الصَّـالحُ والطَّالح، ولو سَرَّكَ كثرةُ الخَبيثِ منه، فالقَليلُ منَ الحلالِ النافِع، خَيرٌ منَ الكثيرِ الحرامِ الضـارّ. وفي الحديثِ الصـــحيح: " ما قَلَّ وكفَى، خيرٌ ممّا كثرَ وألهَى". فاتَّقوا اللهَ وآثِروا الطيّبَ على

الخَبيثِ وإنْ قَلّ، فالمحمُودُ القَليلُ خَيرٌ منَ المذمومِ الكثير، فأقبِلوا على ما أحلَّ اللهُ لكمْ مِنَ الطيّباتِ يا أصحابَ العُقولِ الراجِحةِ والأفهامِ المستَنيرةِ واقنَعوا بها، لتَنالوا السَّعادةَ في الدُّنيا والفوزَ في الآخِرَة.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ} [المائدة: ١٠١]

١٠١- أيُّها المؤمنون، لا تَسألوا عنْ أشياءَ ممّا لا فائدةَ في البحثِ عنها، فإنَّهُ إذا ظهرَ لكمْ جوابُها غَمَّكمْ وساءَكمْ ذلك، وإذا سألتُمْ عنها في زمنِ نزولِ الوحي تَظهَرُ لكم، والعاقِلُ لا يَفعلُ ما يَغُمُّه، وقدْ عفا اللهُ عنْ أسئلتِكمُ السابقةِ بعدمِ التَّشديدِ عليكم، فلا تَعُودوا إليها، وهوَ سُبحانَهُ كثيرُ المغفِرَةِ لذُنوبِ عبادِه، حَليم، يُغضِي عنْ معاصِيهمْ ولا يعاقِبُهمْ بمجرَّدِ ارتكابِها، بلْ يُبيّنُ لهمْ ويُمهِلُهمْ حتَّى يَعرِفوا خَطأهم ويَتوبوا.

{قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ} [المائدة: ١٠٢]

١٠٢- قدْ سألَ قومٌ قبلَكمْ أنبياءَهمْ مثلَ هذهِ الأشياء، فأُجيبوا عنها ثمَّ صَاروا بسببِها كافِرين، حيثُ لم يَعملوا بها؛ فأُهلِكوا. كما سألتْ ثمودُ صالحاً الناقَة.

{مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ} [المائدة: ١٠٣]

١٠٣- ما أنزلَ اللهُ ولا أقرَّ بهذهِ الأشياء: البَحِيرة، وهي الناقةُ التي يُشَقُّ أذنُها ويُمْنَعُ دَرُّها للأصنام. والسائبة: يُسيّبونَها لآلهتِهمُ المزعومةِ فلا يُحْمَلُ عليها شَيء. والوَصِيلة: الناقةُ التي تلدُ لأوَّلِ مرَّةٍ أنثى، تَليها أنثى أيضاً، ليسَ بينَهما ذكر، تُسَيَّبُ لطواغيتِهمْ كذلك.

والحام: إذ قضَى ضِرَابَه، يعني أتى الإناثَ ونتجوا منهُ عَشَرةَ أبطن، أو عَدداً مُبهَماً، ودَّعوهُ للطواغيتِ كذلك، وأعفَوهُ منَ الحِمْل.

فهذا كلُّه أفعالٌ وحَالاتٌ مَردودةٌ ابتدعَتها الجاهليةُ ما شـــرَعها الله، ولكنَّ الكافِرينَ يَفعلونَ هذا ويَتقرَّبونَ به إلى الله، ويَقولون: اللهُ أمرَنا بذلك، وهمْ كاذِبونَ مُفتَرون، وأكثرُهمْ لا يَعقِلونَ أنَّ ذلكَ افتِراءٌ باطِل، لأنَّهمْ قلَّدوا فيهِ آباءَهم، فهوَ شأنُ الاتِّباعِ والتقليدِ الأعمَى.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ} [المائدة: ١٠٤]

١٠٤- وإذا قيلَ للمُشـــرِكين: تعالَوا والتزِموا بما أنزلَ اللهُ مِنْ أحكامٍ في الحلالِ والحرام، وإلى الرسُـــولِ محمَّدٍ صـــلى الله عليه وســـلمَ الذي أُنزِلَتْ عليهِ هذهِ الأحكام، لتَقِفوا على حقيقةِ الحال، وتُمَيِّزوا الحرامَ منَ الحلال، أجابوا في عِنادٍ وضَـــلال: يَكفِينا ما وجَدنا عليهِ آباءَنا وأجدادَنا، ولا نَلتَفِتُ إلى غَيرهم، فمعَهمُ الحقُّ وكفَى!

ولكنْ لماذا يُقلِّدونَ آباءَهمْ هكذا بدونِ تَعَقُّلٍ ولا تَفكير؟ فإذا كانَ الآباءُ جَهَلةً ضالِّينَ مِثلَهم، لا يَفهَمونَ الحقَّ ولا يَعرِفونَ سَبيلَ الاهتداءِ إليه، فكيفَ يَتَّبِعونَهُمْ والحالةُ هذهِ؟

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَـكُمْ لاَ يَضُـرُّكُم مَّن ضَـلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [المائدة: ١٠٥]

١٠٥- أيُّها المؤمِنون، احفَظوا أنفسَـــكمْ وأصـــلِحوها بفِعلِ الخَيراتِ والابتِعادِ عنِ المعاصـــي، وابذُلوا في ذلكَ ما قَدَرْتُمْ منْ جُهدٍ وطاقَة، ولا يَضُـرُّكمْ بعدَ ذلكَ ضـلالُ مَنْ ضَـلَّ وفَسـادُ مَنْ فَسَـــدَ مِنَ النَّاس، إذا عَمِلتُمْ بما أُمِرتُمْ بهِ وكنتُمْ منَ المهتَدِين، ولا يؤاخذُكمُ اللهُ بذُنوبِ غَيرِكم، وإنَّ مَرجِعَكمْ جميعاً إلى اللهِ يومَ الحِساب، الضالُّ والمهتدي فيكم، فيُخبِرُ كلَّ عاملٍ بنوعِ عَملهِ وما يَترَتَّبُ عليه من جزاء، إنْ خَيراً أو شَرًّا.

وليسَ في الآيةِ ما يَدُلُّ على تركِ الأمرِ بالمعروفِ والنهي عنِ المنكرِ إذا كانَ ذلكَ مُمكِناً، قالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنه: هذهِ الآيةُ لأقوامٍ يجيؤونَ مِنْ بعدِنا، إنْ قالوا لم يُقْبَلْ منهم.

{يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللّهِ إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الآثِمِينَ} [المائدة: ١٠٦]

١٠٦- أيُّها المؤمنون: إذا حضرَ أحدَكمُ الموتُ، وأوصَى بشَيء، فإنَّ فيما فُرِضَ عليكمْ أنْ يَشهدَ اثنانِ منكمْ بما أوصَى، يكونانِ مسلِمَيْنِ عادلَيْن.

أو أنْ يكونَ الشاهدانِ اثنينِ منْ غَيرِ المسلِمين، إذا كنتُمْ مسافِرينَ وجاءَتْ مصيبةُ الموتِ فأوصَيتُمْ إليهما، أو جعلتُموهما شاهِدَيْنِ لِمَا أوصيتُمْ به - فهذانِ شرطانِ لقَبولِ شَهادةِ غَيرِ المسلِم: الوصيَّة، والسفَر، ولم يَكنْ معَ الموصِي أحدٌ منَ المسلِمين - ثمَّ اتَّهَمَهما بعضُ الورثةِ بالكذِبِ والخيانةِ فيما أُوصَيا بِهِ أو دُفِعَ إليهما مِن مال، فاحبِسوهما بعدَ الصلاةِ وأوقِفوهما للسُّؤال، ولْيُقْسِما باللهِ - وهوَ سبحانَهُ مُعَظَّمٌ في جميعِ المِلَل- ولْيَقولا: نحنُ لا نَحلِفُ باللهِ كَذِباً على عِوَضٍ نأخذُه، أو حقٍّ نَجحَدُه، ولو كانَ المشهودُ لهُ ذا قرابةٍ منّا فلا نُحابِيه.

ولا نَكتُمُ الشَّهادة، فإذا كتَمناها أو حرَّفناها فإنَّنا عاصُونَ آثِمونَ مُستَحِقُّونَ للعِقاب.

ويَبدو أنَّ الحَلِفَ للشاهِدَينِ الكافِرين، أمّا المسلمانِ فلا يُحَلَّفان.

ونقلَ القرطبيُّ في تَفسيرِهِ عنْ بعضِهم، أنَّ هذهِ الآياتِ الثلاثَ عندَ أهلِ المعاني مِنْ أشكلِ ما في القُرآن: إعراباً، ومعنى، وحُكماً!. فليُنظَرِ التفصيلُ في مَظانِّه.

{فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرَانِ يِقُومَانُ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ} [المائدة: ١٠٧]

١٠٧- فإنِ اطُّلِعَ على أنَّ الشاهِدَينِ الوصِيّينِ استَوجبا فِعلاً ما بخيانتِهما وبحَلِفِهما كَذِباً، وظهرَ عليهما ذلكَ وتَحَقَّق، بأنْ وُجِدَ عندَهما مثلاً ما اتُّهما بِهِ وادَّعيا أنَّهما اشتَرَياهُ منَ الميّت، فآخرانِ منْ أولياءِ الميّتِ يَقومانِ مَقامَ الشّاهِدَين، ويَكونانِ منَ الذينَ استُحِقَّ لأجلِهمُ الإثم،

يَعني منْ ورثةِ الميّت، ويَكونانِ الأقربَيْنِ إليه، فيُقسِمانِ أنَّ حَلِفَهُما أحقُّ وأصدَقُ منْ حَلِفِ الشَّاهدَيْنِ السابِقَيْن، ولم نَتجاوزِ الحقَّ في هذا الحَلِف، ولم نَعتَدِ فيهِ على أحَد، فإذا اعتَدَينا في ذلكَ ظَلَمنا أنفسَنا بتعريضِها إلى سَخَطِ اللهِ وعِقابِه.

{ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُواْ بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُواْ أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللّهَ وَاسْمَعُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [المائدة: ١٠٨]

١٠٨- ذاكَ الذي شَرعناهُ وحَكمنا به، مِنْ تَحليفِ الشاهِدَينِ غَيرِ المسلمَينِ وغَيرِ ذلك، هوَ أقربُ إلى أنْ يؤدِّيَ الشُّهودُ الشَّهادةَ على وجهِها؛ خوفاً منَ العِقاب، وهوَ أقربُ إلى أنْ يَخافوا ردَّ اليمينِ بعدَ يمينِهمْ على الورَثة، فيَحلفوا على خيانتِهمْ وكذبِهم، فيَخجَلوا على رؤوسِ الأشهادِ ويُغْرَموا، فيكونُ هذا الحُكمُ زَجْراً لهمْ منَ الحَلِفِ كَذِباً. فاخشَوا اللهَ وابتَعِدوا عنِ الحلفِ بالكذِبِ وعنْ خيانةِ الأمانَة، واسمَعوا مَوعظةَ ربِّكمْ وتَخويفَهُ وأطيعُوه، وهوَ سُبحانَهُ لا يَهدي الخارجينَ عنْ طاعتهِ ومخالفةِ شَريعتهِ إلى ما يَنفعُهمْ منْ سُبلِ الخيرِ ويؤدّي بهمْ إلى طريقِ الجنَّة، لعدَمِ استِعدادِهمْ لقَبولِ ذلكَ أصلاً.

{يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ} [المائدة : ١٠٩]

١٠٩- وعندَما يَجمعُ اللهُ المرسَلينَ يومَ القيامةِ يَسألهم: بمَ رَدَّ عليكمْ قومُكمْ في الدُّنيا عندَما دعوتُموهمْ إلى طاعتي واتِّباعِ شَرعي؟ فيقولونَ ذاهلينَ منْ هَوْلِ ذلكَ اليوم، وتأدُّباً معَ الربِّ جَلَّ وعَلا: لا علمَ لنا إلاّ ما علَّمْتَنا، وأنتَ أعلمُ بهِ منّا، تَعلمُ ما غابَ ونحنُ لا نَعلمُ إلاّ ما نُشاهد.

{إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ

تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْــرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ} [المائدة : ١١٠]

١١٠- وقالَ اللهُ تعالَى: يا عبدَ اللهِ ورسـولَهُ عيسـى بنَ مريم، تَذَكَّرْ إنعامي عليكَ بما أجريتُ على يدَيكَ منَ المعجِزاتِ الخارِقة، وخَلقتُكَ بلا أبٍ لتكونَ آيةً على قُدرتي وإبداعي، وعلى والدتِكَ التي جعلتُكَ بُرهاناً على براءَتِها ممّا نسبَهُ المفترونَ إليها منَ الفاحِشة.

وأيَّدتُكَ بجِبريلَ يصدِّقُكَ ويؤازِرُك.

وجعلتُكَ نبيًّا داعياً إلى دينِه، وأنطقتُكَ منذُ صِغَرِك، فصِرتَ تُكلِّمُ الناسَ وأنتَ طفلٌ صغيرٌ في المهد، كما تُكلِّمُهمْ وأنتَ كهلٌ تجاوزتَ الثلاثين.

وتذكَّرْ نِعمَتي عليكَ كذلكَ عندما علَّمتُكَ الكتابة، وآتيتُكَ الحِكمةَ لتُدرِكَ الصَّـوابَ وتتَّبعَه، وتَضعَ الأمورَ في مواضعِها، وتكونَ منَ الحكماءِ الألبّاء.

وعلَّمتُكَ التوراةَ التي أُنزِلتْ على موسَى عليه السَّلام، والإنجيلَ الذي نزَّلناهُ عليك، وهوَ تَكمِلةٌ وإحياءٌ للتَّوراة.

وتُصَوِّرُ منَ الطينِ شكلَ طَير، ثمَّ تَنفخُ فيه، فيَطيرُ في السَّماء، بإذني وتَقديري.

وتُبرِئُ الأعمَى فيُصبِحُ مُبصِراً.

وتَشفِي المبتلَى بالبَرَص.

وتَدعو الموتَى مِنْ قبورِهِمْ فيَقومونَ بإذنِ اللهِ وإرادتِه.

وتَذكَّرْ كذلكَ إنعامي عليكَ عندَما مَنعتُ اليهودَ وصـرفتُهمْ عنكَ حينَ همُّوا بقتلِك، وقدْ جئتَهمْ بالآياتِ البيِّناتِ والمعجِزاتِ الواضِحات، التي تَدُلُّ على صدقِ نبوَّتِكَ وما أُرسلْتَ به، فقالَ الكافِرونَ منهم: ما هذا الذي جئتَ بهِ سِوَى سِحْرٍ وشَعوَذة.

{وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُــولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْــهَدْ بِأَنَّنَا مُسْــلِمُونَ} [المائدة: ١١١]

١١١- واذكرْ ممّا امتنَّ اللهُ بهِ عليكَ - أيُّها المسيحُ - حينَ أَلهَمْتُ الحَوَارِيّين مِنْ أصحابِك، وهمْ صَفوةُ بَني إسرائيلَ والخُلَّصُ منهم، أنْ آمِنوا بي وبرسُولي عيسَى بن مريم، فقالوا: آمنّا واستَجَبنا، واشهَدْ بأنَّنا استَسْلَمنا لأمرِك، وأخلَصنا لدينِك.

{إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [المائدة: ١١٢]

١١٢- ومِنْ إنعامِ اللهِ عليكَ خَبَرُ المائدة، فاذكرْ ما قالَهُ الحواريُّونَ لك، وهمْ خالِصةُ أصحابِك: هلْ يَستَجيبُ لكَ ربُّكَ إنْ سألتَهُ أنْ يُنزِلَ علينا سُفْرَةً عليها طعامٌ منَ السَّماء؟

فقالَ لهمْ عيسَى عليهِ السلام: اتَّقوا اللهَ ولا تَسألوا عنْ هذا، فقدْ يكونُ في ذلكَ فِتنَةٌ لكم، إنْ كنتُمْ مُوقِنينَ مُخلِصين، وقدْ سَبَقتْ لكمْ مُعجِزاتٌ كافية...

{قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ} [المائدة: ١١٣]

١١٣- قالوا: ليسَ سؤالُنا للمُعجِزةِ فَقط، بلْ نُحِبُّ أنْ نأكلَ منها، وتَطمئنَّ قلوبُنا بازديادِ اليَقينِ إذا شاهَدْنا رِزْقاً يَنْزِلُ علينا منَ السَّماء، ونَعْلَمَ عنْ مُشاهَدةٍ وعِيانٍ أنَّكَ صَدَقْتَ إيمانَنا بنُبوَّتِك، ولِنَشْهَدَ أنَّها آيةُ صِدقٍ مِنْ عندِ الله، ودلالةٌ ظاهرةٌ على صِدْقِ نبوَّتك، ونُخْبِرُ بذلكَ مَنْ لم يَحضُرِ المائدة.

{قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [المائدة: ١١٤]

١١٤- قال عيسَى بنُ مريمَ عليهِ السَّلام، داعياً اللهَ في خُشوعٍ وتَضرُّع، بعدَ أنْ رأى أنَّ الحواريّينَ أبَوا إلاّ أنْ يَدعوَ بذلك: اللهمَّ أنْزِلْ علينا مائدةَ طَعامٍ منَ السَّماء، نتَّخِذُ ذلكَ اليومَ الذي نَزلَتْ فيهِ عِيداً نُعَظِّمهُ نحنُ ومَنْ بعدَنا، وتَكونُ دليلاً وبُرهاناً على قُدرتِكَ وعلى

إجابتِكَ دَعوتي، فيُصَـدِّقونَ كلامِي وما أُرسِـلْتُ به، واجعَلْهُ رِزقاً هَنيئاً، وأنتَ خيرُ مَنْ يَرزُق، فأنتَ خالقٌ الرِّزقِ ومُعطيه.

{قَالَ اللّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ} [المائدة: ١١٥]

١١٥- قالَ اللهُ تعالَى: إني مُنَـزِّلُ المائدةَ عليكم، فمَنْ يُكَذِّبْ بها منكمْ بعدَ تَنـزيلِها، فسوفَ أعذِّبهُ بسبَبِ كفرِهِ بها عَذاباً شَديداً لا أُعَذِّبهُ أحداً منَ النَّاس.

واختلفتِ الآثارُ في نزولِ المائدةِ أو عدمِ نزولِها، فذُكِرَ أنَّ الحوارِيِّين خافوا منَ العذابِ فكفُّوا عنْ طلبِها فلمْ تَنزِل.

وآثارٌ أخرَى تَذكُرُ نزولَها، فكانَ وعدُ اللهِ ووعيدُهُ صِــدقاً، وأنَّ المكذِّبينَ بها مُسِــخوا قِرَدةً وخنازير.

وذُكِرَ أنَّ خبرَ المائدةِ لم يَرِدْ في الإنجيل، ولو أنَّ المائدةَ نَزلتْ لذُكِرَتْ فيه، ولبقيَ ذلكَ العيدُ إلى يومِ القيامة.. لكنْ توجَدُ قِصَّةٌ عنِ المائدةِ في الأناجيلِ تُشبِهُ هذهِ في جوانبَ منها، أوردَها صاحبُ "الظلال".

وأكثرُ المفسِّرينَ على أنَّها نَزلت.

{وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُـبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ} [المائدة: ١١٦]

١١٦- ويقولُ اللهُ تعالَى لعيسَـى بنِ مريمَ يومَ القيامةِ تَبكيتاً وتَقريعاً للنَّصـارَى: أأنتَ قلتَ للنَّاس: اجعلُوني وأمِّيَ معبودَيْنِ لكمْ مِنْ دونِ الله؟

ويُجيبُ عيسَى تَنـزيهاً وتَعظيماً لهَ تعالَى: سُبحانَكَ أنْ يَكونَ لكَ شَريك، لا يَنبغي ولا يَحِقُّ لي في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ أنْ أقولَ كلاماً باطِلاً لا أســاسَ لهُ مِنَ الصـحَّة، وإذا كنتُ قدْ قلتُ

كلاماً مِنْ هذا القَبيلِ فقدْ أحطتَ بهِ وعَلِمتَهُ يا ربّ، تَعلمُ ما أُضْــمِرُهُ في نَفســي فكيفَ بما أعلِنُه؟ ولا أعلَمُ بحقيقةِ أمرِكَ وما تُخفيه، وأنتَ تَعلَمُ ما كانَ في الماضي وما يكونُ في المستَقبل.

{مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَــهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَــيْءٍ شَــهِيدٌ} [المائدة : ١١٧]

١١٧- ما قلتُ للناسِ إلاّ ما أمرتَني بإبلاغِه: أنْ تَوَجَّهوا بالعبادةِ إلى اللهِ وحدَهُ ولا تُشـرِكوا بهِ شَــيئاً، فهوَ ربِّي وربُّكم، وكنتُ مُشــاهِداً لأحوالِهِمْ مِنْ إيمانٍ وكُفر، وأَعِظُهمْ ليَعملوا بموجبِ أمرِك، ولما قَبضـتَني ورفَعتَني إلى السَّـماء، كنتَ أنتَ الحفيظَ المراقِبَ عليهم، وأنتَ العالِمُ المطَّلعُ على قَولي لهمْ وما قالوا همْ بَعدي وغيرِ ذلك.

{إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة: ١١٨]

١١٨- فإذا عَذَّبتَهُمْ فلا اعتراضَ على حُكمِك، فأنتَ المالِكُ المطلَق، المتصــرِّفُ فيهمْ كيفَ شِــئت، وهمْ عِبادُكَ في أسْــرِ مُلكِكَ ويَســتَحِقُّونَ ذلك، لأنَّهم خالَفوا أمرَك، وإذا غفرتَ لهمْ فليسَ عنْ عَجزٍ منكَ على تَعذيبِهم، فأنتَ القويُّ القادرُ على الثَّوابِ والعِقاب، الذي لا يُثيبُ ولا يعاقِبُ إلاّ عنْ حِكمةٍ وصَواب.

وأنتَ الفعّالُ لِما تَشاء، لا تُسألُ عمّا تَفعلُ وهمْ يُسألون.

{قَالَ اللّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّــادِقِينَ صِــدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [المائدة: ١١٩]

١١٩- قالَ اللهُ تعالَى يومَ يَجمَعُ الرُّسـل: في هذا اليومِ يُفيدُ إيمانُ مَنْ كانَ في الدُّنيا صـادقاً في إيمانهِ وتوحيده، لهمْ جزاءَ إيمانِهمْ وصِــدقِهِمْ جنّاتٌ عاليات، تَجري منْ خلالِ أشــجارِها وفي أســافلِها أنهارُ العَســلِ واللبنِ وأنواعِ الأشْـربة، مُقيمِينَ فيها أبداً، لا يَزولونَ عنها ولا يَحُولون،

ويُفيضُ اللهُ عليهمْ رِضــوانَهُ الذي لا غايةَ وراءَه، ويَرْضَــونَ هم، فلا شَــيءَ أعزُّ منْ رضــوانهِ سُبحانَه، وهوَ الفَوزُ والفَلاحُ الذي لا أعظمَ منهُ ولا يُدانيهِ مَطْلَب.

{لِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [المائدة: ١٢٠]

١٢٠- كلُّ ما في السَّــماواتِ والأرضِ وما بينَهما مُلْكٌ للهِ ســبحانَهُ وتحتَ قَهْرِهِ وسُــلطانِه، وهوَ القادرُ على ما يَشاء، لا يُعجِزهُ شَيء، بلْ جَميعُ الأشياءِ مُنقادَةً لمشيئتهِ ومَسَخَّرةٌ بأمرِه.

سورة الأنعام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ} [الأنعام: ١]

١- الشكرُ للهِ والثناءُ الطيّبُ على رَبِّنا، الذي خلقَ السَّماواتِ والأرض، الدالَّةَ على كمالِ قدرتِهِ وسَعةِ علمهِ وعَظمَتِهِ في خَلْقِهِ وتَدبيرِه، الذي جعلَ الظُّلماتِ والنُّورَ مَنفَعةً لعبادهِ في ليلِهمْ ونهارِهم. ومعَ الأدلَّةِ الواضِحَة، والمخلوقاتِ العَظيمةِ المبثوثَةِ في الكَون، التي تدلُّ على وجودِ اللهِ ووحدانيَّتِه، فإنَّ الكافِرينَ يَميلونَ عنِ الحقّ، ويُشرِكونَ في العبادةِ معَهُ أجساماً وأرواحاً هيَ مِنْ مَخلوقاتِه.

{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ} [الأنعام: ٢]

٢- هوَ اللهُ الذي ابتدأ خَلْقَكمْ مِنْ طِين، ثمَّ قدَّرَ عليكمْ أجلَ الموت، وأجلٌ آخَرُ يَنتظِرُكمْ هوَ يومُ القيامَة، استقلَّ اللهُ بعلمهِ ووقتِ حُلولِه، فلا يَعلمُهُ إلاّ هو، وبعدَ كلِّ هذا تَشُكُّونَ في البَعثِ وتَجحَدونَه، غيرَ متدبِّرينَ قدرةَ الخالقِ وما خَلق؟

{وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} [الأنعام: ٣]

٣- هوَ اللهُ المعبودُ في السَّماواتِ وفي الأرض، وهوَ المالِكُ المتَصرِّفُ فيهما، الكلُّ خاضِعٌ لعظمَتِه، مُستكينٌ لعزَّتِهِ وجَلالِه، يعلمُ ما تُخفُونَ وما تُظهِرونَ منْ أقوالٍ وأفعال، وما تَعملونَ مِنْ خَيرٍ وشَرّ.

{وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ} [الأنعام: ٤]

٤- وما نُنَـــزِّلُ آيةً على المشركِينَ المعانِدينَ، أو نُريهمْ مُعجِزةً تدلُّ على وحدانيَّةِ اللهِ وصِدقِ رسولِه، إلاّ صدُّوا عنها وولَّوا مُدبِرين.

{فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الأنعام: ٥]

٥- فقدْ كذَّبوا بالقُرآنِ وأعرَضــوا عنهُ لما جاءَهمْ آيةً آية، وسَـــوفَ يَرونَ عَواقِبَ ما كذَّبوا بهِ ووَبالَ استِهزائهمْ ولا مُبالاتِهم، وسيَعلمونَ مِنْ بعدُ أنَّهُ الحقُّ مِنْ ربِّهم.

{أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَـــلْنَا السَّـــمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَـــأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ} [الأنعام: ٦]

٦- ألا يَعتَبِرُ الكـافِرونَ مِنْ تاريخِ مَنْ ســـبَقَهم، فيَنظروا كمْ أهلكنـا مِنْ أمَّـةٍ قبلَهم، وقدْ أعطَيناهمْ مِنَ القوَّةِ والمالِ والأولادِ وطُولِ العَمرِ والتمْكينِ منَ العَيشِ وسُـــبلِ الحضـــارةِ ما لم نُمَكِّنْ لكمْ ذلـك، وأغـدَقنـا عليهمُ الأمطـار، وفجَّرنا لهمُ العُيونَ والأنهـارَ تَجري في خِلالِ مساكنِهم، فكانوا في خِصْبٍ ورَفاهية، ولكنَّهمْ كفَروا ولم يَشكروا النِّعمة، وردُّوا الرسُلَ وسَخِروا مِنْ مَعجِزاتِهم، وبَطِروا واغترُّوا، وظنُّوا أنَّ مُلْكَهمْ لا يَبلَى، وأنَّهمُ الأقوَى، فـأهلكنـاهمْ بـذنوبِهِمُ التي اقترَفوها، ولم نُبْقِ منهمْ أحداً، وأوجَدنا بعدَ إهلاكِهم جيلاً آخَرَ بدلاً منهم، فاحذَروا أنْ يُصيبَكمْ ما أصابَهم، وما أنتمْ بأعزَّ على اللهِ منهم.

{وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ} [الأنعام: ٧]

٧- إنَّهمْ كفّارٌ مُكابِرونَ معانِدون، ولو أنَّنا نزَّلنا عليكَ منَ السَّـماءِ كتابةً في ورقٍ ونَظروا إليها بأعينِهم، ولمسوها بأيديهم، ورأوها تَنْـزِلُ عِياناً، لأنكَروا كلَّ هذهِ الدلائلَ المادِّيةَ المحسوسةَ التي تُسَلِّمُ بنُـــزولِ هذا الكتاب، وقالوا: لا شـكَّ أنَّ هذا سِـحْرٌ واضـحٌ بيِّن، وليسَ هوَ بكتابٍ حَقيقيّ!

{وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ} [الأنعام: ٨]

٨- وقالَ الكافِرونَ أيضـاً في عِنادٍ واستِكبار، لا بقَصْـدِ الإيمان: هلاّ أُنزِلَ على هذا الرسُـولِ مَلَكٌ مِنَ الملائكةِ يُخبِرُهمْ أنَّهُ رسـولٌ مِنْ ربِّه؟ وهمْ يَقصِـدونَ الملَكَ بصـورتهِ الحقيقيَّة، وهذا ما لا يُمكن. ولو أنزلنا مَلَكاً كما هو، لتَمَّ أمرُ إهلاكِهم، بسـبَبِ هولِ مَنظرِه، معَ ضَـعْفِ ما همْ فيهِ منَ القوَّة. ثمَّ لا يُمْهَلونَ بعدَ إنزالهِ ومشـاهدتهِ لِيُسَـلِّموا بالأمرِ أو يَتوبوا، لأنَّ الموتَ يكونُ قدْ سبقَهم.

ومنْ وجهٍ آخر: إذا أنزلَ اللهُ الملَكَ ولم يُؤمنوا أهلَكهم، ولم يُنْـــزِلْهُ تعالَى لئلاّ يَسـتَحِقُّوا هذا العَذاب.

{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ} [الأنعام: ٩]

٩- ولو بَعثنا إليهمْ أحدَ الملائكة، ليكونَ نبيّاً مُرسَـلاً إليهم، أو مُصَـدِّقاً للنبيِّ المرسَـلِ إليهم، لجعَلناهُ في صُـورةِ رَجُلٍ آدَميٍّ على شَـاكلَتِهم؛ ليُنتَفعَ بهِ بما يُناسـبُهم، ولو كانَ في صُـورتهِ الأصـليَّةِ لَما كانَ بالإمكانِ النظرُ إليهِ أصـلاً، ولو جُعِلَ في صـورةِ رَجُلٍ لالتَبَسَ عليهمُ الأمرُ وقالوا: ما هذا إلاّ بَشَـر، وليس مَلَكاً، ثمَّ يَقولونَ في الرسـالةِ ما يَقولونَ في رسـالةِ الرسُـولِ البَشَريّ.

{وَلَقَدِ اسْـتُهْزِئَ بِرُسُـلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَـخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْـتَهْزِئُونَ} [الأنعام: ١٠]

١٠- لقدْ سبقَ لأمثالِ هؤلاءِ الكفّار أنِ استهزَؤوا وتَهكَّموا برسُلٍ مِنْ قبلِكَ كما اسُتهزِئَ بكَ أيُّها النبيّ، فأحاطَ بالمستَهزئينَ منهمْ عقوبةُ استِهزائهمْ بأنبيائهم، التي كانوا يَسخَرونَ منها ولا يُصَدِّقونَها.

{قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [الأنعام: ١١]

١١- قلْ أيُّها النبيُّ لهؤلاءِ المكذِّبينَ المستَهزئين: امشُوا في الأرضِ مُفَكِّرينَ مُعتَبِرينَ مِنْ آثارِ السَّابقينَ وحوادثِهمْ وقَصَصِهم، وما حلَّ بالمكذِّبينَ منهمْ مِنْ عُقوبةٍ جزاءَ كُفرِهمْ وسُخريَتِهمْ مِنْ أنبيائهم، معَ ما يَنتَظرُهمْ في الآخِرَةِ مِنْ عَذاب.

{قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [الأنعام: ١٢]

١٢- قلْ لهمْ أيضاً تَذكيراً وتأنيباً: لمنِ الأرضُ وما فيها مِنْ كائنات: خَلْقاً ومُلْكاً وتَصرُّفاً؟ قلْ لهم: إنَّكمْ إذا فكَّرتُمْ وتَدبَّرتُمْ لنَطَقَتْ فِطرَتُكمْ وأدَّى بكمْ عقلُكمْ إلى الاعترافِ بالحقِّ وعدمِ إنكارِه، وأنَّ كلَّ هذا الكونَ للهِ وحدَه.

وقدْ قضَى اللهُ سبحانَهُ على نفسهِ المقدَّسةِ بأنْ يَرحمَ العِباد، ولا يُعَجِّلَ عُقوبتَهم، وأنْ يَقبلَ توبتَهم، إحسَاناً وتفضُّلاً منه، وسَوفَ يَجمعُكمْ جميعاً ليَومٍ لا شكَّ فيه، هوَ يومُ الحِساب، ويومُ الثَّوابِ والعِقاب، والخائبونَ الذينَ خَسِروا أنفسَهمْ في ذلكَ اليومِ همُ الجاحِدونَ المستَهزِؤونَ برسَالاتِ ربِّهِمْ في الحياةِ الدُّنيا، المصِرُّونَ على الكفر، المستَكبِرونَ عنْ قَبولِ الحق، الذينَ لا يُصَدِّقونَ بالمِعاد، ولا يَخافونَ سُوءَ ذلكَ اليَومِ وهَوْلَه.

{وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنعام: ١٣]

١٣- ولهُ سُبحانَهُ كلُّ ما استقرَّ مِنْ كائن، في السَّماواتِ والأرض، باللَّيلِ والنَّهار، فالجميعُ عبادُه، تحتَ تَدبيرِهِ وسُلطانِه، وهوَ السَّميعُ لأقوالِهمْ وأصواتِهم، العليمُ بحركاتِهمْ وأسرارِهم.

{قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام: ١٤]

١٤- قلْ لهمْ أيُّها الرسُولُ الكريم: لا أتَّخذُ غيرَ اللهِ مَعبوداً وناصِراً ومُعيناً، سُبحانَهُ لا شريكَ له، خالقِ السَّــماواتِ والأرضِ ومُبدِعِهما، وهوَ يَرزُق ولا يُرْزَق، يَرزُقُ الكائناتِ كلَّها، وهوَ غيرُ محتاجٍ إليها.

قلْ لهمْ كذلك: لقدْ أُمِرْتُ مِنْ قِبَلِ ربِّي عزَّ وجلَّ أنْ أكونَ أوَّلَ مَنْ أســلمَ مِنْ هذهِ الأمَّة، مُتوَجِّهاً إليهِ سُبحانَه، مُخلصاً لهُ دِيني.

وقيلَ لي: ولا تَكونَنَّ منَ المشرِكينَ في أمرٍ مِنْ أمورِ الدِّين.

{قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الأنعام: ١٥]

١٥- قُلْ لهمْ في خَوفٍ وتَضرُّعٍ إلى ربِّكَ: إنَّني أخافُ ربِّي وأخشَاهُ إذا عَبدتُ غيرَه، وخالَفتُ أمرَهُ ونَهيَه، أنْ أُعَذَّبَ عَذاباً عَظيماً في يومٍ عَظيم، هوَ يومُ القيامَة.

وهوَ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ مَعصومٌ منْ هذا، لكنَّهُ تَذكيرٌ ووَعيدٌ للناسِ بغَضَبِ اللهِ وعِقابهِ لمنْ كفرَ وعصَى.

{مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ} [الأنعام: ١٦]

١٦- ومَنْ صَـرَفَ اللهُ عنهُ العَذابَ في ذلكَ اليومِ العَصـيب، فقدْ رَحِمَهُ رَحمَةً كبيرَة، وذلكَ هوَ النَّجاةُ والفَلاح، والفوزُ بالسَّعادةِ الدائمَة، في جنَّةِ اللهِ الخالِدَة.

{وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ} [الأنعام: ١٧]

١٧- وإذا أصـــابَكَ اللهُ ببَليَّة، كمَرَضٍ وغرَق، فلا يُفرِّجُها عَنكَ غَيرُه، وإذا أصـــابَكَ بعافيةٍ ونِعمَة، كصِحَّةٍ وغِنًى، فلا رادَّ لفَضلِه، ولا يَقدِرُ أحدٌ على أنْ يُمسِكَ خيرَهُ عنك، فهوَ القادرُ على كلِّ شَيء، منَ الخيرِ والشرّ، والضرِّ والنَّفع.

{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [الأنعام: ١٨]

١٨- وهوَ القاهِرُ الذي خَضَـــعتْ لهُ الرِّقاب، الغالِبُ الذي ذَلَّتْ لهُ الجبابِرة، القادِرُ الذي عَنَتْ لهُ الوجوه. وهوَ الحكيمُ في تَدبيرِ الأشـياء، المحسِـنُ في تَقديرِها، والعالِمُ بأسـرارِ عبادِه، الخبيرُ بما دقَّ مِنْ أحوالِهم.

{قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} [الأنعام: ١٩]

١٩- وإذا عانَدكَ المشـرِكونَ وازدادوا اسـتِكباراً وإنكاراً لرسـالتِك، فقُلْ لهمْ يا نبيَّ الله: ما هوَ أعظمُ الأشياءِ شهادةً وأصدقُها؟ فقلْ لهمْ أنت: إنَّ أعظمَها وأجلَّها وأصدقَها هوَ شهادةُ الله، فهوَ العالِمُ بما جئتُكمْ به، وهوَ الذي يَشـــهدُ لي بالحقّ، ولكمْ بالباطِل، وقد أُوحيَ إليَّ هذا القُرآنُ المعجِزُ منْ قِبَلِهِ تعالَى، الذي يَشـهدُ بصـحَّةِ رِسـالتي إليكم، لأُنذِرَكمْ بما فيهِ منَ الوعيد، أنتُمْ ومَنْ بَلَغَهُ القُرآنُ مِنَ الثَّقلينِ حتَّى يومِ القيامَة.

أتَشـهَدونَ أيُّها المشرِكونَ أنَّ هناكَ معَ اللهِ آلهةً أخرَى؟ قلْ لهمْ: لا أشـهَدُ بهذا ولو شَـهِدتُمْ به، فإنَّهُ باطِلٌ لا حقَّ فيه ولا دَليلَ عليه.

وقلْ لهمْ مُقِرّاً بالتوحيدِ والأُلوهيَّةِ لله، مُعَلِّماً إيّاهمْ ذلك: إنَّما اللهُ إلهٌ واحِد، لا شَـــريكَ لهُ ولا نِدّ، ولا أهلَ لهُ ولا كُفء، ولا مَعبودَ بحقٍّ سِواه، وبذلكَ أشـهَد، وأنا بريءٌ مِنْ إشـراكِكمْ وما تَعبدُون.

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [الأنعام: ٢٠]

٢٠- إنَّ الذينَ آتَيناهمُ الكتابَ مِنَ اليهودِ والنَّصارَى، يَعرِفونَ النبيَّ محمَّداً صلى الله عليه وسلَّم كما يَعرِفونَ أبناءَهم. ومعرفةُ الابنِ مَثَلٌ يُضْرَبُ بهِ للَيقين، فلا يُشَكُّ في ذلكَ ألبتَّة. وذلكَ أنَّ الرسُلَ كلَّهمْ بشَّروا بهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ وببعثَتِه، وبأحوالهِ وأمَّتِه، والذينَ خَابوا وخَسِروا أنفسَهمْ كلَّ الخسارة، همُ المشرِكونَ وأهلُ الكتاب، الذينَ لم يؤمِنوا بما يَجِبُ الإيمانُ به، وهوَ ظاهِرٌ مَعروف، بشَّرَ بهِ الأنبياء، وعَرَفَتْهُ الأممُ منذُ القِدَم.

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [الأنعام: ٢١]

٢١- وليسَ هناكَ أظلَمُ ولا أكذَبُ مِنَ الذي تَقوَّلَ على اللهِ فادَّعى أنَّهُ رسولٌ مِنْ عندِ اللهِ وليسَ هوَ كذلك، وممَّن ادَّعَى أنَّ لهُ شَريكاً وهوَ الواحِدُ الأحَد، أو كذَّبَ بالمعجِزاتِ التي أنزلَها اللهُ على رسولِه، الدالَّةِ على صِحَّةِ رسالتهِ وقالَ إنَّها سِحر، أو كذَّبَ بالقُرآنِ وقالَ إنَّهُ مِنْ كلامِ البَشر. ولا يُفلِحُ الظَّالمونَ منَ المفترَينَ والمكذِّبينَ أبداً، وسيَظهَرُ كذبُهُمْ وباطِلُهمْ في الدُّنيا، وتَفتَحُ لهمْ جهنَّمُ أبوابَها يومَ القيامَة.

{وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} [الأنعام: ٢٢]

٢٢- ونَحشرُ الكافِرينَ وآلهتَهمْ جميعًا يَومَ القيامَة، ونسألُهُمْ على رؤوسِ الأشهاد: أينَ الأصنامُ التي كنتُمْ تَعبدونَها وتَزعُمونَ أنَّها آلهةٌ معَ الله؟

{ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام: ٢٣]

٢٣- ثمَّ لما رأوا ما همْ مُقْدِمونَ عليه، ولا بدَّ لهمْ منْ أنْ يُجيبوا على ما اختُبِروا به، قدَّموا مَعذِرتَهمْ مُتبرِّئينَ مِنْ شِركِهم، بقولِهم: واللهِ يا ربَّنا لم نُشرِكْ بكَ شَيئاً! قالوا هذا بعدَ أنْ رأوا أنَّهُ لا يَدخلُ الجنَّةَ سِوَى أهلِ التوحيد، فنفَوا ما كانوا قائمينَ عليهِ في الدُّنيا.

ويومُ القيامةِ طَويل، تكونُ فيهِ حالات، هذهِ إحداها.

{انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} [الأنعام: ٢٤]

٢٤- فانظرْ كيفَ كذَبوا على أنفسِهمْ باعتذارِهمُ الباطلِ وتَبرُّئهِمْ منَ الشِّرك، وقدْ زالتْ عنهمْ أوثانُهم، فلمْ تُغْنِ عنهمْ منَ اللهِ شيئاً، لا في الدُّنيا، ولا في الآخِرَة، وقدْ كانوا يَرجُونَ شفاعتَها ونُصرتَها، فبَطَلَ كلُّهُ في ذلكَ اليوم، بلْ كانتْ وَبالاً عليهِمْ وعَذاباً.

{وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ} [الأنعام: ٢٥]

٢٥- ومنَ المشركينَ مَنْ يأتي إليكَ ويُصغِي إلى قراءَتك، ولكنْ بعَقلٍ غَيرِ وَاعٍ وقَلبٍ عارٍ عنِ الفَهم، فقدْ أنشَأنا على قُلوبِهِمْ أغطيةً لئلاّ يَفهموا القُرآن، وفي آذانِهمْ صَمَماً وثِقلاً عنِ السَّماعِ النافِع، وذلكَ لجهلِهمْ بأمرِ النبيّ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومكانتِه، وبُعدِهمْ عنْ شأنِ الرسالةِ وعظَمتِها. وإذا شاهدوا مُعجِزاتٍ وآياتٍ دالَّةً على صِدقهِ عليهِ الصلاةُ والسلام، لم يؤمِنوا بها، لفَرْطِ عِنادِهمْ وتقليدِهمْ آباءَهمْ جَهلاً وضَلالاً، حتَّى إذا جاؤوا إليكَ وخاصَموكَ وناظَروكَ في الحقّ، قالَ مُجادِلوك، الكافِرونَ برسالةِ اللهِ إليك، في تَكذيبٍ ومُكابَرة: ما هذا الذي جئتَ بهِ وتُحَدِّثُنا منهُ سِوَى أحاديثَ وأقاصيص، وتُرَّهاتٍ وأباطيلَ لا يُعَوَّلُ عليها، مأخوذةٌ مِنْ كتُبِ الأوائل.

{وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [الأنعام: ٢٦]

٢٦- وهؤلاءِ الكفَّارُ يَنهَونَ النَّاسَ عنِ الاستماعِ إلى رسولِ اللهِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلَّمَ وأتباعِه، ويَتباعَدونَ عنه، تأكيداً لنَهيِهِمْ وإظهاراً لنفورِهِمْ منه، وما يُهلِكونَ بهذا الصَّنيعِ سِوَى أنفسِهم، فقدْ باؤوا بآثامِهمْ وآثامِ مَنْ مَنَعوهمْ مِنَ الإيمان، وعادَ وبالُ فِعلِهِمْ وضلالِهِمْ عَليهم.

وعنِ ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما أنَّها نزَلتْ في أبي طالب، كانَ يَنهَى المشركِينَ أنْ يُؤذوا محمَّداً صلى الله عليهِ وسلَّم، ويَنأَى عمّا جاءَ به.

{وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنعام: ٢٧]

٢٧- ولو نظَرتَ إليهِمْ حينَما يُعاينونَ نارَ جهنَّمَ وما فيها مِنْ أنواعِ العَذاب والأهْوال، فعندَ ذلكَ يَقولون، وقدْ عَرَفوا ذَنْبَهمْ ومَصيرَهم: يا ليتنا نَرجِعُ إلى الدُّنيا ولا نُكَذِّبُ بالقُرآنِ ولا نَقولُ إنَّهُ أساطيرُ الأوَّلين، بلْ نؤمنُ ونَعملُ صالحاً كما يرضَى ربُّنا.

{بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الأنعام: ٢٨]

٢٨- وليسَ الأمرُ كما قالوا، مِنْ عَزمِهمْ على التَّصديقِ بالآياتِ وتَشوُّقهمْ إلى الإيمانِ إذا عادوا إلى الدُّنيا، بلْ قالوا ذلكَ خَوفاً مِنَ العَذاب، وقدْ ظهرَ لهمْ ما كانوا يُسِرُّونَهُ مِنْ إنكارِ تَحَقُّقِ يومِ القيامةِ وعدمِ الإيمانِ بثبوتِ النارِ والحِساب. أو أنَّ المقصودَ هوَ ما كانوا يُسِرُّونَهُ منَ الإيمانِ بصدقِ رسالةِ الرسُولِ ولكنَّهمْ كانوا يُخْفُونَهُ عنْ أتْباعِهم، هكذا جَهلاً وعِناداً وحِفاظاً على الزَّعامة. ولو أنَّهمْ رَجعَوا إلى الدُّنيا لعَادوا إلى حالِهِمْ منَ الكُفرِ والتكذيبِ والمعانَدة، فهمْ كاذبونَ في قولِهم: {يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الأنعام: ٢٧].

{وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} [الأنعام: ٢٩]

٢٩- وقالَ الكافِرونَ المكذِّبون: إنَّ الحياةَ التي نَعيشُـــها في الدُّنيا هي هذهِ فقط، ولا حياةَ غيرُها، ولا قيامةَ لنا بعدَ الموت.

{وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ} [الأنعام: ٣٠]

٣٠- ولو نَظرْتَ إليهمْ وقدْ أُوقِفُوا بينَ يدَيْ ربِّهمْ للحِساب، وقالَ لهم: أليسَ المَـعادُ والعَذابُ حقًّا، وليسَ باطِلاً كما كنتُمْ تزعُمون؟ فقالوا في ذُلٍّ وانكِســـار، وغمٍّ وخَوف: بلَى، هوَ حقٌّ واللهِ ربَّنا. وهذا أحَدُ المواقفِ الكثيرةِ يومَ القيامة. قالَ لهمْ ربُّهم: فذوقُوا اليومَ مسَّ العَذابِ الذي كنتُمْ تَكفُرونَ بهِ وتُنكِرونَه.

{قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ} [الأنعام: ٣١]

٣١- لقدْ خَسِروا أنفسَهم، هؤلاءِ الذينَ كفَروا بيومِ الحِساب، وخابوا ونَدِموا، حتَّى إذا دقَّتْ عليهمْ ســاعةُ يومِ القيامَةِ فَجأة، قالوا وقدْ عَلِموا ما قدَّموا مِنْ سُـوءِ الفَعال: ما أشَـدَّ ندامَتَنا على ما قَصَّـــرنا وضَـــيَّعنا مِنْ أعمالِ الطَّاعةِ في الحياةِ الدُّنيا، وهمْ يَحمِلونَ آثامَهمْ وخطاياهُمْ على ظُهورِهم[٣٣]، ألا ما أسوَأَ وما أثقلَ ما يَحمِلون.

(٣٣) ذكرُ الظهورِ كذكرِ الأيدي في قوله تعالى: {فَبِمَا كَسَــبَتْ أَيْدِيكُمْ} [ســورة الشــورى: ٣٠]، فإن المعتادَ حملُ الأثقالِ على الظهور، كما أن المألوفَ هو الكسبُ بالأيدي. (روح البيان).

{وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [الأنعام: ٣٢]

٣٢- وما الحياةُ الدنيا – في غالبِها – إلا كاللَّعبِ واللَّهوِ في عَدَمِ النَّفعِ والثَّبات، فلا يشتَغلُ العاقِلُ بما هوَ باطِلٌ وغُرورٌ ولا بقاءَ له، فهوَ سريعُ الزَّوال، قليلُ الانتِفاعِ به، والدَّارُ الآخِرَةُ وما يتعلَّقُ بها منْ ثَوابٍ ونَعيم، وخُلودٍ ورِضوانٍ منَ الله، خَيرٌ وأعظَمُ منْ ذلكَ المتاعِ القَليل، للَّذينَ يَتَعدونَ عنِ الكُفرِ والعِناد، ويَفتَحونَ قلوبَهُمْ للحقِّ والإيمان، أفلا تَفقَهونَ ذلكَ لتبتَعِدوا عمّا نَهى اللهُ عنه، وتُقبِلوا على ما رغَّبَكمْ فيهِ وحثَّكمْ عليه، وفيهِ مَنفَعةٌ لكمْ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخِرة ؟!

{قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ} [الأنعام: ٣٣]

٣٣- لقدْ عَلِمنا بما يَعتريكَ مِنْ حُزنٍ وغَمٍّ بسبَبِ مخالفةِ قومِكَ لكَ وتَكذيبِهمْ إيّاك، وهمْ لا يتّهمونَ شخصَكَ بالكذِب، فليستِ العداوةُ بَينكَ وبينَهمْ متعلِّقةً بأمورٍ شَخصيَّة، ولكنَّهمْ ظالمونَ مُعتَدون، يَكفُرونَ بآياتِ اللهِ التي توحَى إليك.

وقدْ نَزَلتْ في أبي جَهل، الذي قالَ لرسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلَّم: إنّا لا نُكَذِّبُك، ولكنْ نُكَذِّبُ ما جئتَ به!

{وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ} [الأنعام: ٣٤]

٣٤- ولستَ أوَّلَ رَسُولٍ يُكَذَّبُ مِنْ قِبَلِ قومِه، فقدْ سَبقَكَ رُسلٌ كُذِّبوا فصَبروا على تكذيبِهمْ لهم، وثَبَتوا وبلَّغوا رِسالاتِ ربِّهم، وأُوذوا نتيجةَ ذلكَ حتَّى أتاهُمْ نصرُنا الذي وعَدناهم، ولا ناقضَ لِما حَكمَ بِهِ اللهُ مِنْ نَصرِ أنبيائهِ على أعدائهم، وقدْ عرفتَ مِنْ خَبَرِهِمْ كيفَ مُنحِوا

النصرَ بتأييدهِ وقوَّتِه، فتأسَّ بهِمْ واصبِرْ كما صبرَ أُوْلو العَزمِ منَ الرسُلِ، فلكَ فيهمْ أُسْوَة، وبهمْ قُدْوَة، حتَّى يأتيَ نصرُ اللهِ الموعُود.

{وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [الأنعام: ٣٥]

٣٥- وإذا شقَّ عليكَ إعراضُهمْ وعَظُمَ عليكَ مخالفتُهمْ بما جئتَ بهِ منَ القُرآن، فإنْ قَدَرتَ وتهَيَّأَ لكَ أنْ تَطلُبَ سِرْباً في الأرض، أو دَرَجاً ومَرقاةً في السَّماءِ فتَصعَدَ فيه، فتأتيَهمْ منهما بآيةٍ أفضلَ ممّا آتيناهمْ بهِ ليؤمنوا، فافعل. - وكانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ حريصاً أنْ يُتابِعَهُ جَميعُ الناس - ولو شاءَ اللهُ أنْ يَجمعَهُمْ على الهُدَى والإيمانِ لفَعل، ولكنَّهمْ لا يُحِبُّونَ ذلك، ولا يُريدونَ أنْ يَسمَعوا كلامَك، ولا أنْ يَتوجَّهوا إلى الخَير، فلا تَكنْ بهذا الحرصِ الشَّديدِ على إسلامِهم، ولا تَجزَعْ في مَواطنِ الصَّبر، ولا تَكوننَّ منَ الجاهِلينَ بذلك.

{إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [الأنعام: ٣٦]

٣٦- إنَّما يَستَجيبُ لكَ ويَقبَلُ منكَ دعوتَكَ منِ استمعَ إليكَ بوعي وفَهمٍ وتَدَبُّر. أمّا الكفّارُ الجَهَلةُ موتَى القُلوب، فسوفَ يَبعثُهمُ اللهُ مِنْ قبورِهمْ إلى المحشَر، ليكونَ مَرجِعَهم إلى الله، ويُعَذِّبَهمْ بأعمالِهم.

{وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَةً وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} [الأنعام: ٣٧]

٣٧- وقالَ المشرِكونَ في تَعنُّتٍ وضَلالٍ دونَ أنْ يَقتَنِعوا بآياتٍ سَابقةٍ رأوها منَ الرسُولِ صلى الله عليه وسلم: هلاَّ أُنزِلتْ عليهِ آيةٌ خارِقةٌ تكونُ دليلاً على نبوَّتِه؟

فقلْ لهمْ يا نبيَّ الله: إنَّ اللهَ قادرٌ على أنْ يُنَــــزِّلَ آيةً خارقةً كما أنزلها مِنْ قبلُ على أنبياءَ سابقِين، ولا يُعجِزُهُ شيءٌ مِنْ ذلكَ وهوَ خالِقُ الكون، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعلمونَ أسبابَ الإمهالِ والتأخِير، فلو أنَّهُ سُبحانَهُ أنزلها وفقَ ما طَلبوا ثمَّ لم يؤمِنوا لعاجلَهمْ بالعُقوبة، كما فعلَ بالأمَمِ السَّابقة. {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ} [سورة الإسراء: ٥٩].

{وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [الأنعام: ٣٨]

٣٨- وما منْ كائنٍ حيّ في الأرْض، أو طائرٍ يطيرُ بجناحَيهِ في الجوّ، إلاّ خَلْقٌ وأصنافٌ مُختلِفةٌ أمثالُكم، في أحوالِهِمْ وأرزاقِهِمْ وتَدبيرِهم، ما أغفَلنا ولا ترَكنا شَيئاً مُهمَلاً، بلْ كلُّ شيءٍ مُسَجَّلٌ ومحفوظٌ في كتابٍ عندَ الله، هوَ اللَّوحُ المحفوظ. ثمَّ يُحْشَرُ الخَلقُ كلُّهمْ إلى اللهِ يومَ القيامة. ويَبلُغُ مِنْ عدلِ اللهِ أنْ يأخذَ للجَمّاءِ من القَرْناء، ثمَّ يقول: كوني تُراباً.

والكلامُ الأخيرُ من قولِ أبي هريرةَ رضــيَ اللهُ عنه باختصــارٍ في تَفســيرِ الآية، رواهُ الحاكمُ وصحَّحَه.

{وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [الأنعام: ٣٩]

٣٩- والكافرونَ الذينَ كذَّبوا بالقُرآنِ وسائرِ الأدلَّةِ الواضِحات، مثَلُهمْ في قِلَّةِ علمِهمْ وعدمِ فَهمِهم، كالصُّمِّ الذينَ لا يَسمَعون، والبُكْمِ الذينَ لا يَتكلَّمون، وهمْ معَ ذلكَ في ظَلامٍ لا يُبصِرون، فلا يَسمَعونَ الآياتِ سَماعَ المتفهِّمِ المتدبِّر، ولا يَقدِرونَ على النُّطقِ بالحقّ، لانجِذابِهِمْ إلى التَّقليدِ الأعمَى وعدمِ تجاوبِهِمْ معَ العَقلِ السَّويّ والفِكرِ السَّليم، فهمْ في ظُلماتِ الكُفرِ والجهلِ والعِنادِ ماكِثون، وهوَ سُبحانَهُ المتصرِّفُ في خَلْقِه، فمَنْ وجدَ استعدادَهُ مائلاً إلى الكُفرِ والضَّلالِ أضلَّه، ومنْ وجدَ فيه خَيراً وقابِليَّةً لقَبولِ الحقّ والتَّجاوبِ مع الإيمانِ أرشَدَهُ إلى الطريقِ الصَّحيح.

{قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [الأنعام: ٤٠]

٤٠- وقُلْ أيُّها النبيُّ الكريمُ للكافِرينَ: أرأيتُمْ إنْ أتاكُمْ عَذابٌ مِنْ عندِ اللهِ في الدُّنيا بسببِ كفرِكِمْ وأعمالِكُمْ السيِّئة، أو جاءَتكمُ السَّاعةُ بهولِها وحِسابِها وعَذابِها، فهلْ تَدعونَ غيرَ اللهِ لكَشفِ هذا الكَربِ عنكم؟ وأينَ يبقَى صِدقُكمْ في اتِّخاذِ الأصنامِ آلهة؟!

{بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ} [الأنعام: ٤١]

٤١- بلْ تَدعونَ اللهَ ربَّ العالمينَ في وقتِ الشَّدائدِ والضَّرورات، ولا تَدعونَ أحداً سِواه، فيدفَعُ عنكمُ الضُّرّ، ويُزيلُ عنكمُ الكَرْبَ إذا شَاء، وتَتركونَ ما كنتُمْ تُشرِكونَ بهِ معَ اللهِ مِنَ الأصنام، ولا تَدْعونَها يومَ شدَّتِكم.

{وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ} [الأنعام: ٤٢]

٤٢- وقدْ أرسَلنا رُسلاً إلى أُمَمٍ كثيرينَ قبلَك، فكذَّبوهم، فعاقَبناهمْ بالقَحْطِ والضِّيقِ في العَيش، والأمراضِ والآلامِ ونَقصِ الأنفُس، لكي يَتضَرَّعوا إليَّ ويَدْعوني ويَتوبوا مِنْ كفرِهم.

{فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ٤٣]

٤٣- فهلاّ لمـا نزلَ بهمْ ابتلاؤنا تَذلَّلوا وتَضرَّعوا إلينا؟ ولكنَّهمْ أبَوا ذلكَ وبَقُوا على عِنادِهمْ وقَساوةِ قلوبِهمْ وجُمودِ عُقولِهم، واستمَرُّوا على ما كانوا عليه، وسَوَّلَ لهمُ الشَّيطانُ أنَّ ما أصابَهَمْ ليسَ بسببِ ما كانوا يَعمَلونَ منَ الكُفرِ والمعاصي.

{فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ} [الأنعام: ٤٤]

٤٤- فلمّا أعرَضوا عمّا ذكَّرْناهُمْ به، ونَسُوا ما وُعِظوا به، وخالَفوا ما أُمِروا بهِ منْ قِبَلِ رُسلِهم، وانهمَكوا في مَعاصيهم، حقَّ عليهمُ العَذاب، وحانَ وقتُ العِقاب، فأعطيناهمْ منَ الدُّنيا ما يَشتَهون، وجعَلناهُمْ في نِعمَةٍ ورَخاء، بدلَ الشدَّةِ والبَلاء؛ مكراً بهِمْ واستِدراجاً لهم. حتَّى إذا اتَّخَموا وبَطِروا بما عندَهمْ منْ أموالٍ وأرزاقٍ ونِعَم، ولم يَقومُوا بحقِّها، عاقَبناهُمْ فَجأة، وأنزلنا بهِمُ العَذابَ وهمْ غافِلون، وكانوا في قِمَّة فرَحِهمْ وسَكرَتِهم، ليَكونَ العَذابُ أوقعَ فيهمْ وأوجَع، فإذا همْ آيسِونَ منَ النَّجاةِ والرَّحمَة، أذلَّةٌ خاضِعون، ساكتونَ مُكتَئِبون.

{فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: ٤٥]

٤٥- لقدْ أُعطُوا منَ الدُّنيا ما يُريدون، ثمَّ أُخِذوا بما كانوا يَعمَلون، فاستُؤصِلوا بالعَذابِ عنْ آخِرِهم، ولم يَبقَ منهمْ أحَد. والحمدُ والشكرُ للهِ ربِّ العالمين، الذي أجرَى عليهمْ هذا الهَلاك، وخلَّصَ الناسَ مِنْ شُرورِهمْ وظُلمِهمْ وأفكارِهمُ المنحَرِفة. والمسلمُ يحمَدُ اللهَ على كفايتهِ شرَّ الظالمين.

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ} [الأنعام: ٤٦]

٤٦- قلْ أيُّها النبيُّ للمُشرِكينَ المكذِّبين: أرأيتُمْ لو سلبَ اللهُ سمعَكمْ فكنتُمْ صُمّاً، وسلبَ أبصارَكُمْ فكنتُمْ عُمياً، وغطَّى على قلوبِكمْ فلمْ تَعرِفوا مِنْ أمورِ الدُّنيا شَيئاً، فهو الذي خلقَها فيكم، وقادرٌ أنْ يأخُذَها منكم، فمَنْ إلهٌ غَيرُهُ يأتيكمْ بذلكَ كلِّه؟ انظرْ كيفَ نبيِّنُ لهمُ الأدلَّةَ ونُكرِّرُها لتَكونَ مَنْفَذاً لهمْ إلى التفكُّرِ والإيمان، ومعَ ذلكَ فهمْ يُعرِضونَ عنها ويُكذِّبونَ بها!

{قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ} [الأنعام: ٤٧]

٤٧- وقُلْ لهمْ مُذكِّراً إيّاهمْ في آخِرِ ما يوعَظُ بهِ النَّاس، قبلَ أنْ لا يُفيدَهمْ وَعظٌ ولا تَذكير: أرأيتُمْ إذا حَلَّ بكمْ عَذابُ اللهِ ونِقمتُهُ فَجأةً مِنْ غَيرِ مُقَدِّمات، فداهمَكمْ وأخذَ على أنفاسِكم، أو مُعاينةً وأنتُمْ تَرونَهُ يَنـزِلُ بكم، ليلاً أو نَهاراً، ولا قُدرةَ لكمْ على إنقاذِ أنفُسِكمْ منه، لأنَّهُ يُحيطُ بكمْ منْ كلِّ جانب، أليسَ الهلاكُ والنَّكالُ يَكونُ على القَومِ الظالمينَ المكذِّبينَ أمثالِكم؟

{وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [الأنعام: ٤٨]

٤٨- وليسَ الهدفُ منْ إرسالِ الرسُلِ إلى الناسِ إلاّ أنْ يُبَشِّروهمْ بالخَيرِ والثوابِ الجَزيلِ لمنْ أطاعَه، ويُنذِروهمْ ويخوِّفوهمْ بالعِقابِ والعَذابِ لمنْ عصَى وأبَى. فمَنْ آمنَ بما جاءَ بهِ الرسُلُ وعَمِلَ صالحاً موافِقاً للشَّريعة، فلهمُ الأمانُ يومَ الجزاءِ عندما يَخافُ الكفَرَةُ الجاحِدون، ولا يُصيبُهمُ الهمُّ والغمُّ كما يُصيبُهم.

{وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ} [الأنعام: ٤٩]

٤٩- والمكذِّبونَ بالآياتِ والمعجِزاتِ التي بلَّغها الرسُل، تَبشيراً وإنذاراً، يُصيبُهمْ حظُّهمْ منَ العَذاب، بسبَبِ خُروجِهمْ عنْ طاعَةِ اللهِ ورسُلِه.

{قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ} [الأنعام: ٥٠]

٥٠- قُلْ أيُّها النبيُّ للمُشرِكينَ مِنْ قَومِك، وهمْ يَقترِحونَ منَ الآياتِ ما يَقترِحون: إنَّني لا أملِكُ خَزائنَ ربِّي، ولا أقدِرُ على التصرُّفِ فيها كما أشاء، ولا أنْ أرزقَكُمْ منها ما تُريدون، ولا أقولُ لكمْ إنِّي أعلمُ الغَيبَ فأخبرُكمْ بما غابَ ممّا مضَى وبما سيَكون، ولا أعلمُ مِنْ ذلكَ سِوَى

ما أطلَعَني اللهُ عليه، ولا أدَّعي أنِّي مِنَ الملائكة، بلْ واحِدٌ مِنَ البشَـــرِ أنعمَ اللهُ عليَّ بالوحي لأنذِرَكمْ به. ولا أخرجُ عمّا يوحَى إليَّ، فما أفعلهُ بتوجيهٍ منَ اللهِ وتَسديدٍ منه.

قلْ لهمْ: هلْ يَستَوي الضَّـالُّ الذي لا يَدري كيفَ يَسير، والمهتدي الذي يَمشي على نورٍ مِنْ ربِّه ويَعرِفُ طَريقَ الحقّ؟ إنَّهما لا يَستويان، أفلا تَتفهَّمونَ ذلك لتَرجِعوا إلى الحقّ؟

{وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَـــرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَـــفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الأنعام: ٥١]

٥١- وأنذِرْ وعِظْ بهذا القُرآنِ مَنْ يؤمِنُ بيَومِ القيامَة، الذينَ يخافونَ حِسابَ ربِّهم، يَرجُونَ ثوابَهُ ويَخافونَ عِقابَه، ليسَ لهمْ وليٌّ يَنصــرُهمْ ولا شَــفيعٌ يَتوسَّــلونَ بهِ سِــوَى الله، ليتَّقوا ربَّهمْ بهذا التذْكير.

{وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِـيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَـابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنعام: ٥٢]

٥٢- ولا تُبْعِدْ عنكَ المؤمِنينَ الذينَ يَعبدونَ ربَّهمْ ويَذكرونَهُ ويَســألونَهُ صَـباحَ مســاء، يَبتغونَ بذلكَ وجهَهُ الكريم، في إخلاصٍ تامّ، لا رياءً ولا سُمعَة، بلْ قرِّبْهُمْ إليكَ وجالِسْــــهُم، فليسَ عليكَ شَــيءٌ مِنْ حِســابِ أعمالِهِمْ وأرزاقِهم، وكذلكَ ليسَ عليهمْ شَــيءٌ مِنْ حِســابِك، فإذا أبعدتَهُمْ عنكَ كنتَ مُتجاوِزاً الحقّ.

والمرادُ انتِفاءُ الطَّرد. وهوَ تَنبيهٌ ودَرسٌ للمسلِمين.

{وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَـهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَـــؤُلاء مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ} [الأنعام: ٥٣]

٥٣- وكذلكَ ابتلَينا واختبَرنا الناسَ بعضَهمْ ببَعض، الفقراءَ بالأغنياءِ والعَكس، والأشرافَ بمَنْ دونَهمْ وبالعكس، ليقولَ المشركونَ المتكبِّرونَ في أصحابِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وقدْ كانَ

غالبُهمْ منَ الضُّــعفاءِ والعَبيدِ في أوَّلِ البِعثَة: أهؤلاءِ هَداهمُ اللهُ إلى الإيمانِ فهمُ الأحسَــنُ مِنْ بينِنا، أنحنُ نكونُ تبَعاً لهمْ وهمُ العبيدُ والفقراءُ ونحنُ الرؤســـاءُ والأثرياء؟ اطرُدْهُمْ عنكَ فلعلَّكَ إنْ طرَدتَهُمْ أنْ نتَّبِعَك.

أليسَ اللهُ مطَّلعاً على أحوالِهِمْ وضــــمائرِهِمْ فهَداهُمُ إلى طريقِ الحقّ، ووفَّقهُمْ إلى ما فيهِ الخير؟ أليسَ عالماً بمَنْ شكرَ نِعَمَةَ الإيمانِ عليهِ فقَبِلَهُ عندَه؟

{وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَــلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِــهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [الأنعام: ٥٤]

٥٤- وإذا أتاكَ المؤمنونَ الصَّــالحون، فبشِّــرْهُمْ بالسَّــلامِ والأمانِ مِنْ عندِ الله، وقدْ أوجبَ اللهُ سُبحانَهُ على نفسهِ المقَدَّسة، تَفضُّلاً منهُ وإحساناً، أنَّ منِ اقترفَ منكمْ ذَنْباً وهوَ جاهِل(٣٤)، ثمَّ اســتَغفرَ منهُ وتابَ إلى الله، وأقلعَ عنهُ وعَزمَ عَلى عَدمِ العَودةِ إليه، فإنَّ اللهَ يَغفِرُ له، ويَرحَمُهُ برَحمتهِ الواسِعَة.

{وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ} [الأنعام: ٥٥]

٥٥- وهكذا نوضِّــح الأدلَّةَ لبيانِ صِـــفَةِ أهلِ الطَّاعةِ وأهلِ الإجرام، وليَظهرَ لكَ أيُّها النبيُّ أسلوبُ تعامُلِ الآخَرينَ معَ الرسُل، فتعامِلَهمْ بما هوَ مُناسِب.

(٣٤) قالَ مجاهد: لا يعلمُ حلالاً من حرام، فمن جهالتهِ ركبَ الذنب. وقيل: جاهلٌ بما يورثهُ ذلك الذنب، وقيل: جهالتهُ من حيثُ إنه آثرَ المعصيةَ على الطاعة، والعاجلَ القليلَ على الآجلِ الكثير. (البغوي).

{قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ} [الأنعام: ٥٦]

٥٦- قلْ لهؤلاءِ المصِرّينَ على الشِّرك، قَطعاً لأطماعِهمُ الفاسِدة: إنَّني مُنِعْتُ وصُرِفْتُ عنْ عبادةِ الآلهةِ المزعُومة، التي لا تَسمعُ ولا تَتكلَّم، ولا تَضرُّ ولا تَنفَع. وقلْ لهم: لا أتَّبع أهواءَكمُ الزائغَة، وأفكارَكمُ الباطِلة، فإذا فَعلتُ ذلكَ كنتُ ضالاًّ، تارَكاً سَبيلَ الحقّ.

{قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ} [الأنعام: ٥٧]

٥٧- قلْ للمُشرِكينَ أيضاً: إنَّني على حُجَّةٍ واضحةٍ وبَصيرةٍ نيِّرةٍ مِنْ دِينِ اللهِ الموحَى بهِ إليّ، وأنتُمْ قدْ كذَّبتُمْ بذلكَ وأشرَكتُم، وليسَ عندي الآنَ العَذابُ الذي تَستَعجِلونَ بهِ ليَحِلَّ بكمْ - وكانَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلمَ يُخَوِّفُهمْ بأنَّ اللهَ مُعاقِبُهمْ إذا كذَّبوا وخالَفوا - وما الحُكمُ والقَضاءُ في هذا وغَيرِه، وتقديمِه وتأخيرِه، إلا للهِ وحدَه، فإنْ شَاءَ عاجلَكمْ به، وإنْ شَاءَ أخَّر، ولهُ حِكمةٌ بأيِّهما قضَى، فلهُ القَضاءُ الحقّ، وهوَ خيرُ الحاكِمين.

{قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ} [الأنعام: ٥٨]

٥٨- قُلْ لهم: لو كانَ العَذابُ الذي تَستَعجِلونَهُ بيدي، لانتهَى الأمرُ منذُ زَمن، ولحلَّ بكمُ الهَلاكُ والدَّمار، وما كنتُ مُمهِلَكمْ وأنا أراكُمْ تُكَذِّبونَني وتَستهزِؤونَ بي وبما أُرْسِلْتُ به. واللهُ أعلمُ بالمشرِكينَ وحالِهم، وما يَستَحِقُّونَهُ مِنْ إمهالٍ أو تَعجيلٍ بالعَذاب، ولذلكَ لم يَجعلْ أمرَهمْ بيدي.

{وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [الأنعام: ٥٩]

٥٩- وعندَ اللهِ وحدَهُ خَزائنُ الغَيب، فلا يَعلمُها إلاّ هو، ومنها: العذابُ الذي تَستَعجِلونه، فلا أدري هلْ يكونُ أمْ لا، وإنْ كانَ فمتَى هو؟ واللهُ سُبحانَهُ يَعلمُ كلَّ ما يَجري على الأرض، مِنْ بَرٍّ وبَحر، ويَعلَمُ عددَ ما يَسقطُ مِنْ ورقِ الشجرِ وما يَبقَى عليه، وليسَ هناكَ مِنْ أمرٍ إلاّ ويَعلمُ حركَتَهُ وأحوالَه، مهما دَقَّ وأينَما كان، فلا توجَدُ حَبَّةٌ في باطنِ الأرض، مهما كانَ بَعيداً ومُظلِماً، ولا جَمادٌ أو نَباتٌ أو حَيوان، أو أيُّ شَيء، إلاّ وهوَ في علمِ اللهِ ومُدَوَّنٌ في اللَّوحِ المحفُوظ.

{وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأنعام: ٦٠]

٦٠- وهوَ اللهُ الذي يَقبِضُ أرواحَكمْ إذا نِمتُمْ باللَّيل، ويَعلَمُ ما كَسَبتمْ منَ الأعمالِ بالنَّهار، ثمَّ يوقِظُكمْ فيهِ بعدَ نومِكمْ باللَّيل، لتَقضُوا في الحياةِ أجلَكمُ المكتوبَ لكمْ باستِيفاءِ أعمارِكمْ بالكامِل، ثمَّ تموتونَ وتَقومونَ إلى اللهِ للحِساب، فيُخبِرُكمْ بأعمالِكمْ في تلكَ اللَّيالي والأيام، ويُجازيكمْ عليها، إنْ خَيراً أو شَرّاً.

{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ} [الأنعام: ٦١]

٦١- وهوَ القَاهرُ المتَعَال، الذي خضعَ كلُّ شَيءٍ لعظَمتِه، لا يُعجِزهُ شَيءٌ ممّا يُريد، ولا يَحُولُ بينَهُ وبينَ ما يُريدُهُ بعِبادهِ قوَّةٌ أو عائق. ويُرسِلُ عليكمْ مَلائكةً يُحصُونَ أعمالَكمْ مِنْ خَيرٍ وشَرّ، حتَّى إذا انتَهتْ أيّامُ أحدِكمْ وحانَ أجلُ موتِه، قَبضَتْ روحَهُ ملائكةٌ مِنْ أعوانِ مَلَكِ الموت، الموكَّلِ بقَبضِ الأروَاح، وهمْ لا يُقَصِّرون، فيُنزِلونَ روحَهُ حيثُ تَستحقّ، في عِلِّيينَ أو في سِجِّين.

{ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ} [الأنعام: ٦٢]

٦٢- ثمَّ رُدَّ العِبادُ بعدَ البَعثِ والحَشرِ إلى موضعِ العَرْضِ والسُّؤال، ليَحكُمَ فيهمْ ويُجازيَهمْ على أعمالِهِمْ بالعَدلِ وليُّ أمرهِمْ ومالكُهمْ ومالكُ يومِ الدينِ كلِّه، ولهُ القَضاءُ يومَئذٍ دونَ خَلْقِهِ كلِّهم، وهوَ - جلَّ جَلالهُ - إذا حاسبَ فحِسابهُ سَريع، يُحاسِبُ الناسَ كلَّهمْ بنَفسهِ دونَ الاستِعانةِ بأحَد، في أسرعِ زمانٍ وأقصَرِه، على كثرَتِهِمْ وكثرَةِ أعمالِهم.

{قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الأنعام: ٦٣]

٦٣- قُلْ: مَنْ يُخلِّصُكمْ منَ الشَّدائدِ والأهوالِ التي تُصيبُكمْ إذا كنتُمْ مُسافِرينَ في البَحرِ فأحاطَتْ بكمُ الأمواجُ مِنْ كلِّ مكان، وقَذفَتْكُمُ الرياحُ العاتيَةُ في وسَطِ البَحر، أو في صَحارَى ومَهامهِ البَرّ، أو الجبالِ العَاليةِ والأوديةِ العَميقة، أو وقَعتْ أحداثٌ طبيعيَّةٌ بقَضاءِ اللهِ وقَدَره، فاهتزَّتِ الأرضُ وانفَجرتِ البراكينُ وهاجَتِ الأعاصير، أو لازَمَتْكُمُ الأمراضُ ولا عِلاج، فتلجَؤونَ إليهِ وتَستَغيثونَ بهِ سرّاً وإعلاناً، قَلباً ولِساناً، مُخلِصينَ له الدِّين، لا تَدعونَ غيرَه، وتَقولون: لئنْ أنجانا اللهُ مِنْ هذا الكَرْبِ والضائقةِ لقدَّرنا نِعَمَهُ الجَليلة، وقُمنا بحقِّها كما يَنبَغي، حامِدينَ شاكِرين.

{قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ} [الأنعام: ٦٤]

٦٤- فقُلْ لهمْ: إنَّ اللهَ يُنَجِّيكمْ منْ هذهِ الكرُباتِ وغَيرِها، لكنْ بعدَ أنْ يبلِّغَكمْ بَرَّ الأمانِ ويُعافيَكمْ ممّا أصابَكم، تَعودونَ فتُشرِكونَ في عبادتِه، ولا توفُونَ بالعَهد.

{قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} [الأنعام: ٦٥]

٦٥- قُلْ لهمْ: إنَّ اللهَ قادرٌ على ابتلائكمْ وإلقائكمْ في المهالِك، وعلى التَّنكيلِ بكمْ بعدَ عودتِكمْ إلى الشِّرك - وقدْ نجّاكمْ ممّا أصابَكمْ مِنْ كَرْبٍ وشِدَّة - بعَذابٍ مِنْ فَوقِكم، كالصَّيحةِ والحِجارةِ والرِّيحِ والطُّوفان، أو مِنْ تحتِكم، كالرَّجْفةِ والخَسف، أو بأنواعٍ أخرَى منَ العُقوبات... أو يَخلِطَ عليكمْ أمرَكمْ ويَبُثَّ فيكمُ الأهواءَ المختَلِفة، ويُسَلِّطَ بعضَكمْ على بَعضٍ بالعَذابِ والقَتل.

انظرْ كيفَ نَعِظُهمْ ونُنذِرُهمْ، ونبيِّنُ لهمُ الأمورَ ونُكرِّرُها، وننوِّعُها بأساليبَ مختَلِفة، ليَفهَموا ويَتدبَّروا، ويُدرِكوا ما همْ عليهِ وما هوَ مَطلوبٌ منهم.

{وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ} [الأنعام: ٦٦]

٦٦- وكذَّبَ المشركونَ مِنْ قومِكَ بالقُرآنِ وهوَ الكتابُ الصَّادقُ الذي لا ريبَ فيه، قلْ لهم: لستُ رقيباً عليكمْ ولا مُسَلَّطاً على قلوبِكمْ لألزِمَكمْ بالإسْلام، إنَّما أنا رَسُولٌ مُبَلِّغ، فمَنْ شاءَ آمن، ومَنْ شاءَ كَفر، وعاقِبَةُ كلِّ ذلكَ على صَاحبِه.

{لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} [الأنعام: ٦٧]

٦٧- لكلِّ خَبَرٍ حَقيقةٌ ومُنتَهًى يَنتهي إليهِ ولو بعدَ حين، ومنهُ عذابُكم، فيَتبيَّنُ الحقُّ منَ الباطِل، والصِّدقُ منَ الكذِب، إنْ عاجِلاً في الدُّنيا، أو آجِلاً في الآخِرَة، وسوفَ تَعلمونَ ذلكَ في الحالَين.

{وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأنعام: ٦٨]

٦٨- وإذا رأيتَ المشـركِينَ يَتكلَّمونَ على القُرآنِ بالتَّكذيبِ والاسـتِهزاءِ والطَّعن، فاتركهُمْ ولا تُجالِسْـهُمْ حتَّى يأخذوا في كلامٍ آخَر، فإذا أنساكَ الشَّيطانُ ذلكَ ثمَّ تذكَّرت، فلا تَقعُدْ بعدَها معَ القَومِ الذينَ تَجاوزوا الحقَّ بالتَّكذيبِ والمخاصَمَةِ والعِناد.

وذكرَ بعضُهمْ أنَّها مَنسوخةٌ بآيةِ السيف.

{وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَـكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الأنعام: ٦٩]

٦٩- وليسَ على المؤمِنينَ الذينَ يَبتَعدونَ عنْ حَديثِهمْ ولا يُشارِكونَ في مَجالسِهمْ حَرَجٌ ولا إثمٌ إذا خاضَ المشرِكونَ في ذلك، ممّا يُحاسَبونَ همْ عليه، ولكنَّهمْ يُذَكَّرونَ لعلَّهمْ يَنتَهونَ عنْ ذلك؛ حياءً، أو كراهةَ مَساءَتهم.

{وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ} [الأنعام: ٧٠]

٧٠- ودَعِ الكافِرينَ الذينَ فُرِضَ عليهمْ أنْ يَدِينوا بالإسْلامِ فسَخِروا منه وعَبَثوا بهِ ولم يُبالوا، وخُدِعوا بما في الدُّنيا مِنْ لَذَّةٍ ومَتاعٍ ووَلد، حتَّى أنكَروا البَعث، فذكِّرْ بهذا القُرآن، وحذِّرِ الناسَ مِنْ نِقمةِ اللهِ وعَذابِه، حتَّى لا تُحْبَسَ نَفسٌ وتؤاخَذَ بسبَبِ عملِها السُّوء، وليسَ لها يومَ القيامَةِ ناصِرٌ يلي أمرَها أو قريبٌ يَشفَعُ لها، فالأمرُ يَومئذٍ للهِ وحدَه.

ولو بَذلَتْ هذهِ النفسُ كلَّ ما تَقدِرُ عليهِ مِنْ بَذل، وفَدَتْ كلَّ فِداء، لمَا أُخِذَ منها، ولمَا نُظِرَ فيه، أولئكَ الذينَ اتَّخذوا دينَهمْ لهواً ولَعِباً قدْ حُوسِبوا على أعمالِهمُ السيِّئة، وحُرِموا الثَّواب، وسُلِّموا للعَذاب، فلهمْ شَرابٌ مِنْ مَاءٍ حارٍّ جدّاً يُقطِّعُ أمعاءَهم، ونارٌ عَظيمةٌ تُحرِقُ أجسادَهمْ وتأتي على أفئدتِهم، جزاءَ كُفرِهمْ وعنادِهمْ وتكذيبِهمُ الرسُل.

{قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُـــرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْـتَهْوَتْهُ الشَّـيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْـحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَىَ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: ٧١]

٧١- قلْ للمُشـرِكين: أنَترُكُ عبادةَ اللهِ وحدَهُ ونعبدُ أصـناماً جامدةً لا تَفقَهُ ولا تَعي، ولا تَنفعُ ولا تَضُــرّ، ونَرجِعُ بذلكَ إلى درَكاتِ الكُفرِ والضَّــلالِ بعدَ أنْ هَدانا اللهُ بالإســلام، وأنارَ لنا سَبيلَ الإيمان، وبصَّرَنا بالحقّ، فنَكونَ كمنْ كانَ معَ جماعَة، فابتَعدَ عنهم، وسلكَ طريقاً آخر، ومضَـــى هَائماً على وجهِه، قدْ ذهَبتْ بهِ مَرَدَةُ الجنِّ في المهامهِ والقِفار، ورُفَقاؤهُ يُنادونَهُ ليعودَ إلى الطَّريقِ الصَّحيح، فيأبَى، ويختارُ الضَّلال.

قلْ لهؤلاءِ الكفّار: إنَّ هدايةَ اللهِ التي أكرمَنا بها، وهيَ الإســلام، هيَ الطَّريقُ المســتَقيم، ودينُ اللهِ القويم، وقدْ أُمِرْنا بالإخلاصِ في العِبادةِ لهُ وحدَهُ لا شَريكَ له.

{وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [الأنعام: ٧٢]

٧٢- وأُمِروا بأنْ يواظِبوا على الصَّلاة، ويَتَّقوا اللهَ في جَميعِ الأحوال، ويَبتَعدوا عنْ مُخالفتِه، فهوَ الذي تُحشَرونَ إليهِ يومَ القيامة، فيُحاسِبُكمْ على أعمالِكمْ ويُجازيكمْ عليها.

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [الأنعام: ٧٣]

٧٣- وهوَ الذي خلقَ السَّـماءَ والأرضَ وأبدعَ صُـنعَهما على غيرِ مثالٍ سَـبق، بالحقِّ والعَدل، لا عنْ عَبَثٍ وبُطلان، ويوجِدُ يومَ القيامَةِ وما فيهــــا مِنْ أشــياءَ بقولهِ كنْ فيَكون، كبَعثِ الأمواتِ للحِسـاب، فقولهُ الحقّ، صِـدقاً وواقِعاً، ووَعدُهُ كائنٌ لا مَحالة، ولهُ الملكُ يومَ يُنفَخُ في الصُّـورُ ليقومَ الناسُ ويَجتَمعوا في المحشَـر، ولا يَدَّعي مُلْكَ ذلكَ اليومِ لنفسـهِ غَيرُه، وهوَ العالِمُ بكلِّ ما غابَ وحَضر، وبَعُدَ وقَرُب، حَكيمٌ في كلِّ ما يَفعل، خَبيرٌ بما دَقَّ وجَلَّ.

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ} [الأنعام: ٧٤]

٧٤- واذكرْ قولَ نبيِّ اللهِ إبراهيمَ لأبيهِ آزَرَ على عبادتهِ الأصنام: أتجعَلُ هذهِ الأصنامَ آلِهَةً لكَ تعبدُها مِنْ دونِ الله؟ أرى أنَّكَ وقومَكَ الذينَ اتَّبَعوكَ في ضَلالٍ بيِّنٍ وبُعدٍ عنِ الحقّ، وحَيْرةٍ وجَهل.

{وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} [الأنعام: ٧٥]

٧٥- وكذلكَ نُمَكِّنُ إبراهيمَ منَ النظَرِ في مالِكيَّةِ اللهِ للسَّماواتِ والأرض، ليَستَدِلَّ بذلكَ على قُدرتهِ وعَظمتهِ ووحدانيَّتهِ في خَلْقهِ ومُلكِه، وليَكونَ منَ الراسِخينَ في العِلمِ والإيمان، مُشاهَدةً ويَقيناً.

{فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ} [الأنعام: ٧٦]

٧٦- وكانَ إبراهيمُ مُناظِراً لقَومِه، فأرادَ أنْ يُعَرِّفَهمْ كذلكَ خطَأهمْ وجَهلَهمْ وبُطلانَ ما همْ عليهِ مِنْ عِبادةِ الكواكبِ والنُّجوم، بعدَ بيانِ بُطلانِ إلهيَّةِ الأصنام. وفي المساء، عندما بدأ ظلامُ الليلِ يَنتَشر، رأى كوكباً مُضيئاً يَطْلُع، فقالَ لقومِه: هذا ربِّي، في زَعمِكمُ الباطِل. فلمّا غابَ قال: لا أحِبُّ الأربابَ المتغيِّرينَ مِنْ حالٍ إلى حال، والربُّ دائمٌ لا يَغرُبُ ولا يَزول.

{فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ} [الأنعام: ٧٧]

٧٧- فلمّا رأَى القمرَ طالِعاً قدْ شَقَّ الظُّلمةَ وانتَشرَ ضَوؤه، قال: هذا ربِّي، في زَعمِكم. فلمّا غابَ مثلَ غيابِ الكَوكب، قال: إذا لم يَدُلَّني ربِّي على الحـــــقّ، فسأبقَى تَائهاً ضَائعاً، مثلَ القَومِ الضالِّينَ الذينَ يَعبدونَ ما لا تَعقِل.

{فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} [الأنعام: ٧٨]

٧٨- فلمّا رأى الشـــمسَ طالِعةً قدْ بَدَّدتْ ظُلمةَ الليلِ مِنْ إشـــراقِها، قال: هذا ربِّي، في زعمِكم، فهوَ أكبرُ مِنَ الكَوكبِ ومنَ القَمر. فلمّا غابَتْ هي الأخرَى قال: يا قوم، إنَّ هذهِ الكَواكبَ والنُّجومَ ليستْ بأرْباب، فهيَ تَطلُعُ وتَغيبُ ثمَّ تَعودُ إلى ما كانتْ عليه، فهيَ كغَيرِها منَ الأجرامِ مُسَـخَّرَةٌ مُقَدَّرة، لا تَملِكُ لنفسِـها تَصـرُّفاً، وأنا بَريءٌ مِنْ عِبادتِها، ومنْ إشـراكِكمْ إيّاها في عِبادةِ الله.

{إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْـــرِكِينَ} [الأنعام: ٧٩]

٧٩- إنّي قدْ توجَّهتُ بعِبادتي وأخلصــتُ ديني لمنْ خلقَ السَّــماواتِ والأرض، وما فيهنَّ مِنْ أجرامٍ وأحياءٍ ونَباتٍ وجَمادٍ وبِحار، مائلاً عنْ كلِّ باطِلٍ وشِـركٍ في الأديانِ والعَقائدِ الفاسِـدة، إلى الحقِّ والتوحيدِ الخالِص، ولستُ منَ المشرِكينَ في شَيءٍ منَ الأقْوالِ والأفْعال.

{وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّوِنِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ} [الأنعام: ٨٠]

٨٠- وجادلَهُ قومهُ في أمرِ التوحيدِ وخاصَموهُ في عبادةِ اللهِ دونَ الأصنام، فقالَ لهم: أتجادِلُونَني في أمرِ اللهِ وقدْ بصَّـرني بالحقِّ وهَداني إلى التوحيد، ولا أخافُ منْ هذهِ الأصـنامِ التي تَعبدونَها وتَظنُّونَ أنَّها تَضُـرُّ مَنْ يَستَهزئُ بها، فهي أحجارٌ صـمّاءُ صـنَعتُموها بأيديكم، فإذا أصـابَني

شَيءٌ فمِنْ جهةِ اللهِ وبتَقديرِه ولا علاقةَ لأصنامِكمْ بها، قدْ أحاطَ ربِّي عِلمًا بكلِّ المخلوقات، فلا يَخفَى عليهِ شَــيءٌ منها ومِنْ أحوالِها، أفلا تَفقَهونَ وتَعتبِرونَ ممّا قلتُهُ لكم، فتَترُكوا عبادةَ الآلهةِ الباطِلة، وتَتوجَّهوا إلى اللهِ الواحِدِ الأحَدِ في عبادتِكمْ ودُعائكم، وخوفِكمْ ورجائكم، وفي السرّاءِ والضرّاء؟!

{وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [الأنعام: ٨١]

٨١- وكيفَ أخافُ مِنْ أصنامِكمُ المصنُوعةِ مِنْ حِجارة، وهيَ لا تَسمعُ ولا تَتكلَّم، ولا تَدري بأمرِ عِبادتِكمْ لها، وأنتُمْ لا تَخافونَ مِنْ إشــراكِكُمْ باللهِ العَظيمِ وعبادتِكمْ مِنْ دونه، وهوَ خالقُ السَّماواتِ والأرضِ وما فيهما مِنْ أشياء، على كثرتِها وتنوُّعِها، وعبادتُكمْ لها لا أساسَ لها مِنَ الصحَّة، فلمْ يُنـزِلِ اللهُ بذلكَ حُجَّةً ولا دَليلاً، وأمرُ العبادةِ مَتروكٌ للهِ وحدَه، لا يَشْرَعُ الإنسانُ شَيئاً منها.

فأيُّ الجانبَينِ على الحقِّ والصَّــواب: الذي يَعبدُ ما لا يَضــرُّ ولا يَنفَع، أمِ الذي يَعبدُ مَنْ بيدهِ الضرُّ والنَّفع؟ وأيُّهما أحقُّ بالأمنِ منْ عَذابِ الله، أخبِروني بذلكَ إنْ كنتُمْ منْ أهلِ العِلم.

{الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [الأنعام: ٨٢]

٨٢- إنَّ الذينَ آمَنوا حقَّ الإيمان، ولم يَخلِطوا إيمانَهُمْ بشائبةٍ مِنْ شِرك، فهمُ الآمِنونَ مِنْ عَذابِ اللهِ يومَ القيامَة، وهمُ المهتَدونَ إلى العَقيدةِ الصَّــحيحَة، ومَنْ عَداهُمْ في ضَــلال، كمنِ ادَّعى الإيمانَ وهوَ يتَّخِذُ الطَّواغيتَ شُفَعاءَ إلى الله، ويَعتبِرُ ذلكَ مِنْ تَتِمّاتِ الإيمانِ بالله!

{وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [الأنعام: ٨٣]

٨٣- وما احتجَّ بِهِ إبراهيمُ على قومِهِ مِنْ فَســادِ عَقيدتِهِمْ وصــحَّةِ ألوهيَّةِ اللهِ وربوبيَّته، هوَ ما حكمَ اللهُ عليهِ بالصِّـــدقِ والرُّشـــد، نَرفَعُ شَـــأنَ مَنْ نُريدُ فنَهَبُهُ العِلمَ والحِكمةَ والتَّوفيق، واللهُ حَكيمٌ فيما يَفعلُ ويُقَدِّر، عليمٌ بمَنْ يَستَحِقُّ الهِدايةَ والضَّلال، وبمَنْ يَرفعُ درجتَهُ أو يَحُطُّها.

{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [الأنعام: ٨٤]

٨٤- ووَهبنا لإبراهيمَ بعدَ أنْ كَبِرَ في السنِّ وأيسَتْ زوجتُهُ سارة: إسحاقَ، وابنَهُ يَعقوب، لتقَرَّ عينهُ باســـتِمرارِ العَقِب، كِلاهما صـــالِحٌ مُهتَدٍ ونَبِيّ. وقبلَ إبراهيمَ نوح، هَديناهُ وجعَلناهُ نبيّاً كذلك، ووَهبنا لهُ ذُرِّيةً صالِحة، فالنَّاسُ كلُّهمْ مِنْ ذُرِّيتِه، والأنبياءُ كلُّهم مِنْ ذُرِّيةِ إبراهيم، منهمْ داود، وسُلَيمان، وأيُّوب، ويوسُف، وموسى، وهارون، وكذلكَ نَجزيهِمْ خيراً كما جَزينا جَدَّهمْ إبراهيم، ونرفَعُ درَجاتِهم.

{وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ} [الأنعام: ٨٥]

٨٥- ومِنْ ذرِّيتِهِ زَكريّا، وابنُهُ يَحيَى، وعيسَى، وكلُّ هؤلاءِ صالِحونَ مُهتَدون، أنبياءُ مُكرَمون.

{وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ} [الأنعام: ٨٦]

٨٦- وكذا إسماعيل، واليَسَـــع، ويونُس، ولُوط، وهوَ ابنُ أخي إبراهيم، دخلَ في ذرِّيتِهِ تَغليباً، وكلُّ واحدٍ مِنْ هؤلاءِ فَضَّـــلناهُ بالنبوَّةِ على العالَمِ كلِّه، في وقتِهم. عليهمْ جَميعًا صَـــلواتُ اللهِ وسَلامُه.

{وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِـــرَاطٍ مُّسْـــتَقِيمٍ} [الأنعام: ٨٧]

٨٧- وممَّنْ شَمِلَهمْ تَوفيقُ اللهِ وهدايتُه، بَعضُ آبائهم، وذُرِّياتِهم، وإخوانِهم، فقدِ اصـــطَفَيناهمْ وهدَيناهمْ إلى الطَّريقِ الصَّحيحِ والثَّباتِ على طاعَةِ الله.

{ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ٨٨]

٨٨- تلكَ هدايةُ الله، يَهدي بها مَنْ شـــاءَ مِنْ عِبادِهِ ممَّن وجدَ عندَهمُ الاســتعدادَ والتقبُّل، وزادَهمْ إحسَـــاناً وتَوفيقاً، ولو أنَّهمُ انحرَفوا وأشـــرَكوا لبَطَلَ ثوابُ أعمالِهمُ الصَّـــالحة، ولو كانوا أصحابَ وَجاهةٍ وفَضل.

{أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ} [الأنعام: ٨٩]

٨٩- أولئكَ الأنبياء، الذينَ أنعَمنا عليهم، فأنزَلنا عليهمُ الكتاب، ووهَبناهُمْ مَعرِفةَ حَقائقِ الأشـــياء، والقُدرةَ على تَفهُّمها، والحكمَ فيها بالحقِّ والعَدل، وآتيناهُمُ النبوَّة، ليُعَلِّموا الناسَ ويُبيّنوا لهمُ الطريقَ الصَّـحيحَ في شـؤونِهمُ الحياتيَّةِ والأُخرَويَّة، فإنْ يَكفُرِ المشـركونَ بالنبوَّة، فقدْ وفَّقنا للإيمانِ بها والقيامِ بحقوقِها قوماً آخَرينَ لا يَجحَدونَها، بلْ يُقيمونَ عليها ويُدافِعونَ عنها بأرْواحِهم.

{أُوْلَـــئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ} [الأنعام: ٩٠]

٩٠- أولئكَ الأنبياءُ المذْكورونَ همُ الذينَ هَديناهُمْ إلى الحقّ، فسِـــرْ على طريقتِهمْ في الإيمانِ والتوْحيد.

وقُلْ إنَّني لا أطلبُ على تَبليغي هذا الدِّينَ أُجرَة، وما هوَ إلاّ تَذكيرٌ للناسِ وإرشـــادٌ لهمْ إلى طَريقِ الحقّ، وبيانٌ للهُدَى والإيمان، وتحذيرٌ منَ الكفرِ والضَّلال.

{وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} [الأنعام: ٩١]

٩١- وما عظَّموا اللهَ التعظيمَ المطلوب، ولا عَرَفوهُ حقَّ معرفتِه، عندما أنكَروا الكتُبَ السَّماويَّة، وكذَّبوا الرُّسل، وكفَروا بالوَحي المنزَلِ منْ عندِ الله، فقلْ لهؤلاءِ المشركينَ المنكرِينَ - أو اليهودِ - : لماذا تُنكِرونَ تَنزيلَ القُرآنِ على محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وتؤمِنونَ بالتوراةِ المنزَلةِ على موسَى لتكونَ هِدايةً للناسِ وإرشاداً لهمْ في الحياةِ إلى الحقّ، وأنتُمْ تَنقلونَ منها فِقْراتٍ وفُصولاً وتَجعلونَها في أوراق، بعدَ تَحريفِها وتَزويرِها وإخفاءِ كثيرٍ منَ المعلوماتِ فيها، وتَقولونَ للناسِ هذا منْ كتابِ اللهِ المنُزَل؟!

وقدْ جاءَكمْ منَ الأخبارِ والقَصَصِ والآياتِ في القُرآنِ ما لا عهدَ ولا علمَ لكمْ ولا لآبائكمْ بها. قلْ لهم: إنَّ اللهَ هوَ الذي أنزلَ هذهِ الكُتب، ومنها القُرآنُ الكريم، ثمَّ دَعْهُمْ في باطلِهمْ وضَلالِهمْ يلتَهون.

{وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ} [الأنعام: ٩٢]

٩٢- وهذا القُرآنُ أنزلناهُ مِنْ عندِنا لا ريبَ فيه، كثيرُ الفائدةِ والنَّفع، كلُّهُ حقٌّ وهِداية، وتَوجيهٌ وحِكمة، مُصَدِّقٌ للكُتبِ السَّماويَّةِ السابقَة، ومنها التَّوراة، لتُنذرَ بِهِ وتبلِّغَهُ أهلَ مكَّةَ ومَنْ حولَها في المشارقِ والمغارب.

والمؤمِنونَ باللهِ وباليومِ الآخِرِ وما فيهِ مِنْ ثَوابٍ وعِقاب، يؤمِنونَ بالقرآنِ المنزَلِ عليكَ أيُّها النبيّ، وهمْ محافِظونَ على صَلواتِهمُ المكتوبةِ عَليهم، فهي عِمادُ الدين.

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ} [الأنعام: ٩٣]

٩٣- وليسَ هناكَ أظلمُ ممَّنْ كذَبَ وادَّعى أنَّ للهِ شَريكاً في الأُلوهيَّة، منْ صنَمٍ وولدٍ وغَيرِ ذلك، أو ممَّنِ ادَّعى النبوَّةَ وهوَ كاذِبٌ لم يوحِ اللهُ إليهِ بشَيء، أو ممَّنْ قالَ إنَّهُ سيأتي بكتابٍ مثلِ القُرآنِ في بَيانهِ وإعْجازِه.

ولو نظرتَ فرأيتَ الكافِرينَ الظَّالمينَ في سكَراتِ الموتِ وكرُوبِه، وقدْ بسَطَتِ الملائكةُ الموكَّلةُ بقَبضِ أرواحِهِمْ أيديَها عليهِمْ بالضَّربِ والعَذابِ على وجوهِهِمْ وأدبارِهِم، وأرواحُهمْ مُتَشَبِّثةٌ بأجسادِهِمْ لا تريدُ أنْ تَخرُج، حيثُ إنَّها تُبَشَّرُ بالعَذابِ والإهانة، وتقولُ لهمْ الملائكة: أخرِجوا أنفسَكمْ كَرْهاً، فاليومَ تُعاقَبونَ بالعَذابِ المذِلِّ المهين، جزاءَ كَذِبِكمْ على اللهِ ورسلِه، وعنادِكمْ واستِكبارِكمْ عنِ اتِّباعِ الحقِّ وإعراضِكمْ عمّا أنزلَهُ الله.

{وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} [الأنعام: ٩٤]

٩٤- وقدْ جئتُمْ إلى ربِّكمْ للحِسابِ منفَرِدين، بدونِ أعوانٍ ولا أوْثان، بلْ وقفتُمْ في المحشَرِ بدونِ لباسٍ ولا نِعال، وتركتُمْ وراءَكمْ ما أعطيناكمْ منَ المالِ والولَدِ والنِّعَم، التي شغلَتْكُمْ عنِ الآخِرَة، فلمْ تنفَعْكمْ بشَيءٍ في يومِكمْ هذا، ولم نَجِدْ معكمْ آلهتَكمُ الذينَ كنتُمْ تعبدونَهمْ وتَستَنصِرونَ بهم، وتَزعُمونَ أنَّهمْ شُركاءُ لله في الربوبيَّةِ والعِبادة، وأنَّهمْ سيَشفَعونَ لكمْ عندَ اللهِ لقضاءِ حوائجِكم. لقدِ انقطعَ ما بينَكمْ منْ أسبابٍ ووسائلَ فيما كنتُمْ تَزعُمونَهُ لهم، وذهبَ عنكمْ ما ظننتُمْ مِنْ رَجائهم، وبَطَلَتْ أمامَكمْ عقيدتُكمُ الفاسِدَةُ في ذلك.

{إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} [الأنعام: ٩٥]

٩٥- إنَّ اللهَ بقُدرتهِ وإبداعهِ في خَلْقِه، شَقَّ الحبوبَ والنَّوَى تحتَ الأرضِ لتُنتِجَ الزُّروعَ والثِّمارَ بأنواعِها وأشكالِها وطُعومِها، فيُخرِجُ الحيَّ ممّا يَنمو مِنْ هذهِ الحبوبِ اليابسَةِ الميتة، وهوَ مُخرِجُ الميِّتِ منَ الحيّ، كإخراجِ ما يُستفادُ منهُ للطَّعمِ والقُوتِ منَ الحيوانات، أو أضرابِ ذلكَ مما يُخْرَجُ منها للعُطورِ والصِّناعات، وكذلكَ دَوْرَةُ الخلايا في الحيوانِ والنَّباتِ التي تَكونُ في تجدُّدٍ مستَمِرّ، فتَموتُ القديمةُ ويَنشأ ما هو جَديد... واللهُ هوَ الذي خَلقَ فيها كُلَّ هذا، بعلمهِ وحِكمتهِ وقُدرتِه، فكيفَ تُصْرَفونَ عنِ الحقِّ إلى الباطِل، وتَعبُدونَ معَ اللهِ ما لا قُدرةَ لهُ على خَلقِ شَيءٍ مِنْ هذا أو أقلَّ منه؟!

{فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [الأنعام: ٩٦]

٩٦- وهوَ الذي شقَّ ظُلمةَ اللَّيلِ بالصَّباحِ المضيءِ ليؤذِنَ بالعَملِ والنَّشاط، وجعلَ الليلَ مُظلِماً تَسكنُ فيه الأشياء، ويَرتاحُ فيهِ الإنسانُ مِنْ عملِ النَّهار، فيَهدأ ويَنام.

وجعلَ الشَّمسَ والقمرَ دَليلاً وضَبْطاً لحِسابٍ مُقدَّرٍ لا يَتقدَّمُ ولا يَتأخَّر، لتَعرفوا بهِ الأوقاتَ والتَّواريخ، في العِباداتِ والمعامَلاتِ والمعاهَدات، بالسَّاعاتِ والأيَّامِ والشُّهورِ والسَّنوات.

وهذا كلُّهُ مِنْ تَقديرِ اللهِ العَزيز، الذي لا يَصْعُبُ عليهِ شَيء، العَليمِ الذي لا يَغيبُ عنهُ شيءٌ ممّا بثَّهُ في الكَونِ كلِّه.

{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [الأنعام: ٩٧]

٩٧- وهوَ اللهُ الذي أنشَأَ النُّجومَ وقدَّرها في أبعادٍ معيَّنةٍ عنْ بَعضِها البَعض، وفي جِهاتٍ مُختلِفة، معَ سُطوعِها في أوقاتٍ محدَّدة، لتكونَ لكمْ دَليلاً إلى معرفةِ الجهاتِ في اللَّيالي المظلمة، في البرِّ والبحر.

وقدْ بيَّنا هذهِ الآياتِ التي فيها ذِكْرٌ لِنعَمِ اللهِ لمنْ يَعقِلُ ويَتدبَّر، ويَعرِفُ الحقَّ فيتَّبعُهُ ويَعملُ بموجبِه.

{وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ} [الأنعام: ٩٨]

٩٨- وهوَ اللهُ الذي خَلَقكمْ جَميعاً مِنْ نَفسٍ واحِدَة، هيَ آدم، ولكمُ استِقرارٌ في أرحامِ أمَّهاتِكم، واستيداعٌ في أصلابِ آبائكم. وقدْ بيَّنا هذهِ الحُجَجَ والأدلَّةَ لمنْ يَفْطَنونَ إلى ذلكَ ويتدبَّرونَ دقَّةَ الخَلقِ وإبداعَه.

{وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [الأنعام: ٩٩]

٩٩- وهوَ الذي أنزلَ الأمطارَ منَ السَّحابِ ليَنتفِعَ بها العِباد، فأخرَجنا بالماءِ كلَّ أنواعِ النبَاتات، ومِنْ هذهِ النباتاتِ أخرَجنا الزُّروعَ والأشجارَ الخَضراء، وأخرَجنا مِنْ هذهِ الأشجارِ والنباتاتِ الثِّمارَ والحبوبَ المتراصَّة، ومِنْ طلْعِ شَجرِ النخيلِ أخرَجنا أغداقاً فيها ثَمَرُ الرُّطَب، مُنثَنيةً، وقَريبةَ التناول.

ونُخرِجُ بالماءِ بَساتينَ كثيرةً مُنتَشِرَةً في الأرضِ منَ الأعناب، وكذلكَ الزَّيتون، والرمّان، وبعضُ ذلكَ مُتشابِهٌ وبعضُهُ غيرُ مُتشابِه، في الهَيئةِ والمِقدار، واللَّونِ والطَّعم، وانظُروا وتفكَّروا في ثَمَرِ الزَّيتونِ عندما يَنْضَج، وإلى ثَمَرِ الرمّانِ كذلك، وقدْ تجمَّعتْ حُبَيباتُهُ وتراكبَ بعضُها فوقَ

بعض، في شـــكلٍ هَندســـيّ جميل، معَ طَعمٍ لذيذٍ وفائدةٍ طيّبة، فيهِ وفي الزَّيتون، وغيرِهما منَ الثِّمارِ المتنوِّعة، وإنَّ في ذلكَ كلِّهِ أدلَّةً واضـــحةً على قُدرةِ اللهِ وبَديعِ صُـــنعه، وعلى عَظمتهِ وحِكمتهِ ووَحدانيَّته، لمنْ أرادَ أنْ يَستَدِلَّ بها على الإيمانِ به، وتَصديقِ ما أنزَلَه.

{وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُـرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ} [الأنعام: ١٠٠]

١٠٠- وقدْ جَعلَ المشـرِكونَ الجنَّ شُـرَكاءَ للهِ في العِبادةِ فعبَدوهمْ معه، وهوَ الذي خلقَهمْ كما خلقَ الإنس، فكيفَ يَعبدُونَ مخلوقاً؟

واختلَقوا للهِ بنينَ وبناتٍ فكذَبوا وافترَوا، كما قالتِ النصـارَى: عيسـى ابنُ الله، وقالتِ اليهود: عُزَيرٌ ابنُ الله، وقالَ المشـــرِكون: الملائكةُ بَناتُ الله! قالوا كلَّ هذا زُوراً وإفْكاً، بدونِ فِكرٍ ولا رَويَّة، وبدونِ أيَّةِ حُجَّةٍ أو عِلم، بلْ قالوا ذلكَ جَهلاً باللهِ العَظيم، الذي ليسَ هوَ منْ جِنسِ البشَر، فلا صَاحَبَةَ لهُ ولا ولَد، ولا نِدَّ لهُ ولا شَبيه، بلْ هوَ الإلهُ الواحِدُ الأحَد، المنفَرِدُ بالخَلقِ والرزْق، فسُبحانَه، تَقدَّسَ وتَنَزَّهَ وتَعاظَمَ عمّا يَصِفهُ بِهِ المشرِكون.

{بَدِيعُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَـاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَـيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الأنعام: ١٠١]

١٠١- اللهُ موجِدُ السَّـماواتِ والأرضِ مِنْ غَيرِ مادَّةٍ أو أصـلٍ مَوجودٍ سـابقاً، ومُبدِعُهما على غَيرِ مِثالٍ سابق، فلا نظيرَ لهما.

وكيفَ يَكونُ لهُ ولَدٌ ولم تَكنْ لهُ زَوجة، والولَدُ يَكونُ مُتولِّداً مِنْ شَيئينِ مُتناسِبَين، ولا مناسِبَ لله، ولا شَـــبيهَ له، فلا ولَدَ له، وهوَ الخالقُ الذي أوجدَ الكونَ ومَنْ فيه، مِنْ والِدٍ وولَد، وهوَ عَليمٌ بكلِّ شَيءٍ عِلماً تامّاً، أزَلاً وأبَداً، مَخلوقاً كانَ ذلكَ الشَّيءُ أمْ لم يَكنْ مَخلوقاً.

{ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـــهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [الأنعام: ١٠٢]

١٠٢- ذلكمُ اللهُ ربُّكم[٣٥]، مالِكُ أمرِكم، الواحِدُ الذي لا شَريكَ له، خالِقُ كلِّ شَيء، ممّا كانَ وسيَكون، فاعبُدوهُ ولا تُشرِكوا بهِ شَيئاً، فهوَ وحدَهُ المستَحِقُّ للعِبادة، وهوَ الحفيظُ والرَّقيبُ على كلِّ الأشياء، يَعرِفُ أحوالَها ويُدَبِّرُ شُؤونَها، ويتولَّى جَميعَ أمورِها.

{لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الأنعام: ١٠٣]

١٠٣- لا تَراهُ العُيونُ في الدُّنيا وإنْ كانتْ تَراهُ في الآخِرَة، وهوَ يُحيطُ بها ويَعرِفها على حَقيقَتِها، لأنَّهُ خالِقُها. وهوَ الرَّفيقُ بعبادِه، الرحيمُ بأوليائه، الخبيرُ بهم.

{قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ} [الأنعام: ١٠٤]

١٠٤- قدْ جاءَتْكمْ آياتٌ واضِحاتٌ وحُجَجٌ باهِراتٌ مِنْ عندِ الله، بلَّغَكمْ إيّاها رَسُولهُ في القُرآنِ والسنَّة، فمنْ وعَى وآمنَ فلنَفسهِ تعودُ الفائدة، ومَنْ أغمضَ عَينيهِ عنها وأغلقَ قلبَهُ فلمْ يأبَهْ بها، فعلى نَفسهِ تَعودُ الخَسارة، قلْ لهم: لستُ حافظاً عليكمْ ولا رَقيباً على أعمالِكم، بلِ اللهُ يحفَظُها عليكم ويُجازيكمْ عليها، وإنَّما أنا مبلِّغٌ نَذير.

(٣٥) {ذَلِكُمُ} أي: ذلكَ الموصوفُ بتلكَ الصفاتِ العظيمةِ أيها المشركون، {اللّهُ}: المستحقُّ للعبادةِ خاصَّة... (روح البيان).

{وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [الأنعام: ١٠٥]

١٠٥- وكذلكَ نُورِدُ الأدلَّةَ والبراهينَ الواحدةَ تلوَ الأخرى، بوجوهٍ مُختَلِفَة، وفي مَواطنَ عدَّة، وليَقولَ المشركونَ إثرَ ذلك: إنَّكَ قرأتَ وتعلَّمتَ مِنْ أهلِ الكتاب. ويبيِّنُ اللهُ ذلكَ لمنْ يَعلمُ الحقَّ فيتَّبعونَه، والباطلَ فيَجتَنِبونَه، فسُبحانَ مَنْ هَدَى بآياتِهِ هؤلاء، وضلَّ بها أولئك، وهوَ المِلكُ العَدْل.

{اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام: ١٠٦]

١٠٦- فاتَّبعْ أيُّها النبيُّ ما أوحَى اللهُ إليكَ منَ الحقِّ الذي لا رَيبَ فيه، ودُمْ عليهِ واعمَلْ به، لا مَعبودَ يَستَحقُّ إخلاصَ العِبادةِ لهُ إلا الله، ولا يَشْرَعُ إلا هو، ومَنْ أرسلَهُ وأذِنَ لهُ بذلك، ولا تَعتدَّ بأقاويلِ المشرِكينَ الباطِلَةِ ولا تَلتفِتْ إلى أذاهُم، فالحقُّ معَك.

{وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} [الأنعام: ١٠٧]

١٠٧- ولو شاءَ اللهُ ألاّ يُشرِكوا لـما أشرَكوا، فلهُ تعالَى المشيئةُ والحِكمةُ فيما يَشاؤهُ ويَختارُه. ولو عَلِمَ منهمْ اختيارَ الإيمانِ لهَداهُمْ إليه.

وما جَعلناكَ أيُّها النبيُّ رَقيباً عليهمْ تَحفَظُ أعمالَهَمْ وأقوالَهم، ولستَ وكيلاً عليهمْ فتُجبِرَهمْ على الإيمان، ولا قائماً على أرزاقِهمْ وتَدبيرِ مصالِحِهم، فهذا أمرهُ إلى الله، وما عليكَ إلاّ البَلاغ.

{وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ١٠٨]

١٠٨- ولا تَشتُموا المشركينَ وأصنامَهم؛ لأنَّهُ يترتَّبُ عليهِ مَفسَدَةٌ أكبرُ منَ الفائدةِ المرجوَّةِ منها، فيَسبُّوا اللهَ ربَّ العالمين؛ تجاوزاً عنِ الحقِّ إلى الباطِلِ وجَهلاً منهم، فهمْ لا يَعلمونَ أنَّهمْ يسبُّونَ اللهَ العَظيم، خالِقَهمْ وخالِقَ الكونِ كلِّه.

وقدْ قالَ المشـرِكونَ لرَسـولِ اللهِ صـلى اللهُ عليه وسـلم: يا محمَّد، لتَنتَهِينَّ عنْ سـبِّكَ آلهتِنا، أو لنَهجُوَنَّ ربَّك. فنزَلتِ الآية.

ومِثْلُ هذا التَّزيينِ الذي زيَّنَّاهُ للمُشـرِكين، بحبِّ أصـنامِهِمْ والدفاعِ عنها، زيَّنّا لكلِّ قومٍ عملَهُمُ الذي ارتَبطوا بِهِ وتَفانَوا فيهِ منْ خَيرٍ وشَـرّ، فهذا ما أرادُوهُ أصْـلاً وتَعلَّقوا به، ثمَّ إنَّ رُجوعَهمْ ومَصيرَهمْ إلى مالكِ أمرِهم، فيُخبِرُهمْ بما كانوا عليه، ويُجازِيهمْ على ذلك، ثَواباً أو عِقاباً.

{وَأَقْسَـمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [الأنعام: ١٠٩]

١٠٩- وحَلَفَ المشرِكونَ حَلِفاً مؤكَّداً أنَّهمْ إذا جاءَتهمْ مُعجِزةٌ كما اقترَحوها، ليُصَدِّقُنَّها ويؤمِنُنَّ بها. وقدْ سـبَقَتْ مُعجِزاتٌ لهُ صـلى الله عليه وسـلَّم فلمْ يؤمِنوا بها، فكانَ غرضَـهمُ التعنُّتُ والعِنادُ، لا الهدايةُ والإيمانُ كما قالوا، فقلْ لهمْ أيُّها النبيُّ: إنَّما المعجزاتُ والخوارِقُ منْ عندِ الله، إنْ شَاءَ أتَى بها وإنْ شَاءَ أمسَكَها، وليسَ لي منَ الأمرِ شَيء، فلا أقدِرُ على الإتيانِ بها مِنْ عندي. وأنتُمْ - أيُّها المؤمنونَ - ما يُدريكمْ لعلَّ المعجزاتِ إذا جاءَتهمْ لا يُؤمِنونَ بها، فلا تُصَدِّقوهمْ ولو حَلَفوا.

{وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الأنعام: ١١٠]

١١٠- ونحوِّلُ قُلوبَ المشرِكينَ عنْ إدراكِ الحقّ فلا يَفهمَونَه، وعيونَهمْ عن إبصارِها فلا يرونَه، تماماً كما رفَضوا الإيمانَ بالآياتِ والمعجِزاتِ الواضِحاتِ الدالَّةِ على صِدقِ نبوَّةِ رَسولِنا أوَّلَ مرَّة، فهي القُلوبُ نفسُها التي أبَتْ أنْ تَستَجيبَ للحقّ، وما زالتْ تُعانِدُ وتُخاصِمُ بعدَ كلِّ رَغبةٍ ورَهبة، وبعدَ كلِّ إيضاحٍ ومَحَجَّة، فهمُ الذينَ ظَلموا أنفُسَهمْ ورَضُوا بالكُفرِ والضَّلال، وعَلِمَ اللهُ فيهمْ هذا العزمَ والتوجُّه، فتركَهمْ في كُفرِهمْ وضَلالِهِمْ يَتردَّدونَ مُتَحيِّرين.

والمتابعُ للحوارِ والجدالِ معَ الملاحِدَةِ وأهلِ الأديانِ والفِرَق، يرَى العِنادَ واللَّجاجةَ والمخاصَـمةَ مِنْ مُعظَمِهم، وإصرارَهمْ على ما همْ عليهِ منْ باطِل، فهمْ بذلكَ يَستَحِقُّونَ ما قالَ اللهُ فيهم،

وما ظَلمهمُ اللهُ ولا أجبَرهمْ على ذلك، بلْ هذا هوَ توجُّههمْ واســـتعدادُهمُ الذي رَضُـــوهُ لأنفسِهم، فليَكونوا كذلكَ كما رَغِبوا.

سورة الأنعام (١١١-١٦٥)
سورة الأعراف (١-٨٧)

{وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ} [الأنعام: ١١١]

١١١- ولو أنَّنا أجَبنا على اقتراحِهمْ بإنزالِ مُعجِزةٍ، بلْ أكثرَ ممّا سألوا، فأنزلنا ملائكةً تُصَدِّقُ النبيَّ المرسَل، وبَعثنا أمواتاً منَ القُبورِ تُكلِّمهمْ وتُخبِرهمْ بصدقِ الرسُولِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلَّم وصحَّةِ التَّوحيد، وجمَعنا عليهمْ كلَّ شيءٍ يُمكِنُ أنْ يَشهدَ بصِدقِ هذهِ الرِّسالة، مواجَهةً وعِياناً، وجماعاتٍ وأفواجاً، لما تَركوا ما همْ عليهِ منَ الكُفر، ولما آمَنوا بالرِّسالةِ المحمَّدية، إلاّ أنْ يَشاءَ اللهُ ذلك، فالهِدايةُ إليهِ لا إليهم.

ولكنَّ أكثرَهمْ يَجهلونَ سبَبَ عدمِ إيمانِهمْ عندَ مجيءِ الآيات.

قال ابنُ جَريرٍ الطبريُّ رحمَهُ الله: ولكنَّ أكثرَ هؤلاءِ المشركينَ يَجهلونَ أنَّ ذلكَ كذلك، يَحسَبونَ أنَّ الإيمانَ إليهم، والكفرَ بأيديهم، متَى شاؤوا آمَنوا، ومتَى شاؤوا كَفروا، وليسَ ذلكَ كذلك، ذلكَ بيدِي، لا يُؤمنُ منهمْ إلاّ مَنْ هَديتُهُ لهُ فوفَّقتُه، ولا يَكفرُ إلاّ مَنْ خذلتُهُ عنِ الرُّشدِ فأضللتُه.

قالَ صاحبُ "الظِّلال" رحمَهُ الله: وهذا الأصلُ الذي يُقَرِّرهُ ابنُ جريرٍ هنا هوَ الصَّحيح، ولكنَّهُ يَحتاجُ إلى زيادةِ الإيضاح، باستِلهامِ مجموعةِ النُّصوصِ القُرآنيةِ عنِ الهُدَى والضَّلالة، ومشيئةِ اللهِ وجُهدِ الإنسان.

قال: مَشيئةُ اللهِ هيَ المرجعُ الأخيرُ في أمرِ الهُدَى والضَّلال، فقدِ اقتَضتْ هذهِ المشيئةُ أنْ تبتليَ البشَرَ بقَدْرٍ منْ حرّيةِ الاختيارِ والتوجُّهِ في الابتِلاء، وجُعِلَ هذا القَدْرُ مَوضِعَ ابتِلاءٍ للبشَرِ وامتِحان، فمَنِ استَخدمَهُ في الاتِّجاهِ القلبيّ إلى الهُدى والتطلُّعِ إليهِ والرَّغبةِ فيه - وإنْ كان لا يَعلمُ حينئذٍ أينَ هو - فقدِ اقتضتْ مَشيئةُ اللهِ أنْ يأخُذَ بيدهِ ويُعيْنَهُ ويَهديَهُ إلى سَبيله، ومَنِ استَخدمَهُ في الرَّغبةِ عنِ الهُدَى والصُّدودِ عنْ دلائلهِ ومُوحياته، فقدِ اقتضَتْ مَشيئةُ اللهِ أنْ

يُضِلَّهُ وأنْ يُبعِدَهُ عنِ الطَّريق، وأنْ يَدَعَهُ يَتخبَّطُ في الظُّلمات. وإرادةُ اللهِ وقدَرُهُ مُحيطانِ بالبشَرِ في كلِّ حالة، ومَرَدُّ الأمرِ كلِّهِ إليهِ في النهاية. اهـ.

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} [الأنعام: ١١٢]

١١٢- وكما أنَّ هناكَ أعداءً يُخالِفونكَ ويُؤذونكَ في دعوتِك، فكذلكَ جعلنا لكلِّ نبيٍّ مِنْ قَبلِكَ أعداءً يُناصِبونَهمُ العَداوةَ ويُكذِّبونَهم، ويُجاهِدونَ في القَضاءِ على دَعوتِهم، مِنْ شَياطينِ الإنسِ والجنِّ، ومَرَدَتِهِمْ وعُتاتِهِمُ المضَلِّينَ الأشرَار، يُوَسوِسُ بعضُهمْ إلى بَعضٍ الكلامَ المزيَّنَ المزوَّقَ الباطِل؛ ليُغْرُوهُمْ بالخِداعِ والأخذِ على غِرَّة. ولو شاءَ اللهُ ما كانَ هذا ولا ذاكَ مِنْ أذًى وعَداوة، وليسَ هوَ عنْ مُصادَفة، بلْ ليَبتلي بهمْ أولياءَه، ليرى صبرَهُمْ وقوَّةَ إيمانِهِمْ وثباتَهُمْ على مَبدَئهم، وما همْ بضارِّينَ إلاّ أنْ يَشاءَ الله، فدَعهُمْ وما يَكذِبون، فإنَّ اللهَ ناصرُك.

{وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ} [الأنعام: ١١٣]

١١٣- ولتَمِيلَ إلى هذا القَولِ الباطِلِ قُلوبُ الكفَرةِ المشرِكين[٣٦]، التي تُنْبِئُ عنْ حُبِّ الشَّهوات، والانحرافِ إلى ما هو خادِعٌ ومُمَوَّه، ولِيرضَوْهُ ويُحِبُّوه، ولِيكتَسِبوا ما همْ مُكتَسِبونَ منَ السَّيئاتِ والأعمالِ المشِينة، حتَّى يلقَوا جزاءَهمْ عليها.

(٣٦) خُصَّ من صفاتِ المشركين عدمُ إيمانِهم بالآخرة، فعُرِّفوا بهذه الصلةِ للإيماءِ إلى بعضِ آثارِ وحي الشّياطينِ لهم. وهذا الوصفُ أكبرُ ما أضرَّ بهم، إذ كانوا بسببهِ لا يتوخَّون فيما يصنعون خشيةَ العاقبةِ وطلَبَ الخير، بل يتَّبعون أهواءهم وما يُزيِّنُ لهم من شهواتهم، معرِضين عمّا في خلالِ ذلك من المفاسدِ والكفر، إذ لا يترقَّبون جزاءً عن الخيرِ والشرّ، فلذلك تصغَى عقولُهم إلى غرورِ الشَّياطين، ولا تصغَى إلى دعوةِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم والصّالحين. (التحرير والتنوير).

{أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [الأنعام: ١١٤]

١١٤- قلْ لهمْ أيُّها النبيّ: هلْ أطلبُ حَكَماً مُنصِفاً عالِماً غيرَ اللهِ ليَحُكمَ بَيني وبَينَكم، وهوَ الذي أنزلَ إليكمُ القُرآنَ مُبيّناً فيه الحقَّ والباطل، والحلالَ والحرام، وغيرَ ذلكَ منَ الأحكامِ والأخبارِ والتَّوجيهاتِ بالحقِّ والعَدل، وأنتمْ أمَّةٌ أميَّةٌ لا تَعرِفونَ شَيئاً مِنْ ذلك، وأهلُ الكتابِ منَ اليهودِ والنَّصارَى يَعلمونَ أنَّ القُرآنَ مُنزَّلٌ منْ عندِ الله، لِما يَجدونَ مِنْ صفةِ ذلكَ في البِشاراتِ التي في كتُبِهم، ممّا أخبرَهمْ بهِ أنبياؤهمْ في صفةِ هذا النبيِّ ونعتِ أمَّتهِ وخبرِ القُرآن. فلا تَكوننَّ أيُّها النبيُّ منَ المتردِّدينَ في كونِهمْ يَعلمونَ ذلك.

{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنعام: ١١٥]

١١٥- وتمَّ كلامُ ربِّكَ[٣٧] صِدْقاً في كلِّ ما قالَ وقرَّر، وعَدْلاً في كلِّ ما شَرَعَ وحَكَم، فكلُّ ذلكَ حقٌّ لا مِرْيَةَ فيه، فلا يأمرُ سُبحانَهُ إلاّ بخَير، ولا يَنهَى إلاّ عنْ شَرّ، ولا رادَّ لقِضائه، ولا مُغيِّرَ لحُكمه، ولا خُلْفَ لوعدِه، ولا أحدَ يَقدِرُ على تَبديلِ شَيءٍ منْ كلماتهِ إلى ما هوَ أفضَل. وهوَ السَّميعُ لِما يَقولُ عِبادهُ في ذلك، العليمُ بأحوالِهمْ وما يُسِرُّونَهُ وما يُعلِنونَه، وما يُصلِحُهم.

(٣٧) قالَ الشوكاني رحمهُ الله: المرادُ بالكلمات: العباراتُ أو متعلَّقاتُها من الوعدِ والوعيد. والمعنى أن الله قد أتمَّ وعدَهُ ووعيده، فظهرَ الحقُّ وانطمسَ الباطل. وقيل: المرادُ بالكلمةِ أو الكلمات: القرآن. (فتح القدير).

والذي قالَ إن المرادَ بالكلمةِ القرآن، هو الإمام الطبري.

وقالَ البغويُّ رحمَهُ الله: أرادَ بالكلماتِ أمرَهُ ونهيه، ووعدَهُ ووعيده.

{وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ} [الأنعام: ١١٦]

١١٦- وإذا أطعتَ أغلبَ الناسِ فإنَّهُمْ يَصرفونَكَ عنِ الحقِّ ويُبعِدونكَ عنِ الهُدى، ذلكَ أنَّهُمْ مُقيمونَ في عَقائدِهِمْ وأفكارِهِمُ الشركيَّةِ والكفريَّةِ على الظنونِ والنظريّاتِ الباطِلة، الناشئةِ عنِ الجهلِ والضَّلال، فليسُوا على يَقينٍ منْ أمرِهم، بلْ هِمْ يَكذبونَ في دعاويهم.

{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [الأنعام: ١١٧]

١١٧- واللهُ أعلمُ بمَنْ سلكَ طريقَ الضَّلالِ، وهوَ أعلمُ بمنِ اهتدَى إلى طريقِ الحقّ، ويَهدي كلاًّ إلى سَبيلِه، ويُجازيهمْ بما يَستَحِقُّون.

{فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ} [الأنعام: ١١٨]

١١٨- فكُلوا ممّا أحلَّ اللهُ لكمْ منَ الحيَواناتِ التي ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليها عندَ ذَبحِها، فهيَ حَلالٌ لكم، وليسَ ممّا ذُكِرَ اسمُ غَيرِهِ عَليها، أو ماتَ حَتْفَ أنفه، إذا كنتُمْ مُؤمنينَ بآياتِ اللهِ المنزَلةِ عليكم، وفيها بيانُ الحلالِ والحرام.

{وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ} [الأنعام: ١١٩]

١١٩- ولماذا لا تأكلونَ ما ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليهِ عندَ ذَبحِهِ وقدْ وضَّحَ لكمْ ما هوَ حرامٌ (الآيةُ ١٤٥ مِنْ هذهِ السورة) [٣٨]، فيَكونُ ما عداهُ حَلالاً، على ما وُضِّحَ هناك، فكُلوه، إلاّ إذا

(٣٨) قولهُ تعالى: {قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}.

اضــطُرِرْتُمْ إلى أكلِ الحرام، فإنَّهُ يُباحُ لكمْ على قَدْرِ حاجتِكمْ إليه. وهناكَ كثيرٌ منَ المشــركِينَ يُضِلُّونَ الناسَ بأهوائهمُ الفاسِدة، فيُحلُّونَ الحرامَ ويُحَرِّمونَ الحلالَ مِنْ عندِهم، بغيرِ مُستَندٍ إلى علمٍ أو وَحي، كاستحلالِ الميتة، وتَحريمِ البَحِيرةِ والسَّائبة، وهوَ سُبحانَهُ أعلمُ بضَلالِ المضلِّينَ وكَذِبِ المفتَرين، المتجاوِزينَ الحقَّ إلى الباطِل، والحلالَ إلى الحرام.

{وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ} [الأنعام: ١٢٠]

١٢٠- واترُكوا مَعصــيةَ اللهِ في الســرِّ والعَلن، قليلَها وكثيرَها، إنَّ الذينَ يرتَكبونَ المعاصــيَ ويَكتَسبونَ الآثام، سيُعاقَبونَ على أعمالِهِمْ هذهِ بما يَستحِقُّونَه.

{وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْــمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْــقٌ وَإِنَّ الشَّــيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [الأنعام: ١٢١]

١٢١- ولا تأكلوا لحمَ الحيَوانِ الحلالِ الذي لم يُذكَرِ اســمُ اللهِ عليهِ عندَ ذبحِه، فهو فِســقٌ وخُروجٌ عنِ الطَّاعة. وذهبَ علماءُ إلى أنَّ الذي لم يُذكَرِ اسـمُ اللهِ عليهِ هو المعنيُّ بما ذُبحَ لغَيرِ الله، وأنَّ هذا ما تدلُّ الآية، بدليلِ تتمَّةِ الآيةِ إلى آخِرها، وبما وردَ في الآيةِ (١٣٨) من السُّورة، وأحاديثَ تُسانِدها، وأنَّ التسميةَ مُستَحبَّةٌ وليسَتْ واجِبة.

وإنَّ الشَّـياطينَ ليُلقونَ إلى تابعِيهِمْ وموافِقيهِمْ منَ الإنسِ الكلامَ الباطِلَ ليُجادِلوكمْ ويُخاصِـموكمْ به، كقولِهِمْ إنَّ الميْتةَ قتلَها اللهُ فلماذا لا تأكلونَ لحمَها؟! فإذا أطعتُموهمْ في اسـتِحلالِ ما حرَّمَ الله، كأكلِ الميْتةِ وغَيرِ ذلك، فأنتُمْ مُشرِكون، حيثُ تركتُمْ طاعةَ اللهِ وشَرعَهُ إلى طاعةِ المشركِينَ وكلامِهمُ الباطِل، وأحللتُمْ ما حرَّم اللهُ وآثرتمْ عليهِ غيرَه، أو جعلتُمْ معَهُ شَــريكاً في الحُكم. قالَ اللهُ تعالى: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ} [سورة التوبة: ٣١].

{أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ١٢٢]

١٢٢- وهلْ يَكونُ مَنْ كانَ مَيتاً وهالِكاً بالكُفرِ والضَّلالة، فأحيَينا قلبَهُ بالإيمان، ودلَلْناهُ على طَريقِ الحقّ والصَّواب، وجعَلنا لهُ القُرآنَ نوراً يَستَضيءُ بهِ في الحياة، ليَعرِفَ طَبيعةَ الأشياءِ في الحياة، وتَنكشِفَ لهُ حَقائقُ الوجود، ويَعرِفَ كيفَ يَتصرَّف، كالذي يَعيشُ في ظَلامِ الكُفرِ وغَياهبِ الجَهلِ ومَهاوي الضَّلال، لا يَهتدي منها إلى نُورٍ ليَخرجَ منها، ويَبقى في حَيْرةٍ وتَردُّدٍ، وضِيقٍ وحَرج؟ بلْ شتّانَ ما بينَهما.

وكذلكَ سوَّلنا لنفُوسِ الكافرينَ تَحسينَ وتَزيينَ ما همْ فيهِ مِنْ ظلامٍ وعَملٍ ضالٍّ وسُلوكٍ مُنحرِف؛ ليَذوقوا جَزاءَ كفرِهمْ وعنادِهمْ ورفضِهمُ اتّباعَ الحقّ.

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [الأنعام: ١٢٣]

١٢٣- وكما جعَلنا في مكَّةَ مُجرِمينَ كباراً يَدعونَ إلى الكفرِ ويَصُدُّونَ عنْ سبيلِ الله، ويُصِرُّونَ على معاداتِكَ أيُّها النبيّ، كذلكَ جعَلنا في سائرِ المدنِ أشراراً مِنْ كُبرائها يُعادونَ الأنبياءَ والمصلِحين، ويَدْعونَ إلى الضَّلالةِ ويُزَيِّنونَها في قُلوبِ الناس، فالمعركةُ بينَ الحقّ والباطِلِ قَديمةٌ ومُستَديمة. والحقُّ أنَّهمْ أضلُّوا أنفسَهمْ بذلك، وسيَعودُ وبالُ مَكرِهمْ وضَلالِهمْ هذا على أنفسِهم، وهمْ لا يَشعرونَ بذلك، بلْ يظنُّونَ أنَّ مكرَهمْ يَحيقُ بغَيرِهم.

{وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ} [الأنعام: ١٢٤]

١٢٤- وهؤلاءِ المجرِمونَ منَ المشرِكينَ إذا جاءَتْهمْ آيةٌ وحُجَّةٌ منَ اللهِ وحياً بواسطةِ الرسُولِ صلى الله عليه وسلم، أنكَروا ذلكَ ولمْ يُصدِّقوا، وقالوا: لنْ نؤمِنَ حتَّى يَنْزِلَ علينا الوحيُ بواسطةِ الملائكةِ كما يوحَى إلى أنبياءِ اللهِ ورُسلِه. واللهُ أعلمُ بمَنْ يَختارُهُ للرسالةِ والوَحي مِنْ بينِ عبادِه، وليسَ الكافِرونَ المجرمونَ همُ الذينَ يَختارونَ ذلك، وسَوفَ يَنالُ هؤلاءِ المستَكبِرينَ عنِ اتِّباعِ ما جاءَ بهِ رسلُ اللهِ ذِلَّةٌ وإهانةٌ جَزاءَ تكبُّرهمْ وتَطاولِهم، وعَذابٌ مؤلِمٌ موجِعٌ جزاءَ كفرِهمْ وضلالِهمُ المستمرِّ وأذيَّتِهمْ لرسُلِ اللهِ والمؤمنين.

{فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ} [الأنعام: ١٢٥]

١٢٥- وإذا أرادَ اللهُ أنْ يَهديَ امرَءاً ويُعرِّفَهُ طريقَ الحقّ، يَسَّرَ لهُ أسبابَ الهِدايةِ، وشرحَ صدرَهُ للإسلام، وفتحَ قلبَهُ للإيمان، وحبَّبَ إليهِ العملَ الصالح. ومنْ أرادَ لهُ الضَّلالةَ ضيَّقَ صدرَهُ لقَبولِ الحقِّ حتَّى لا يَجِدَ الخَيرُ مَنفَذاً إليه، ولا الإيمانُ نُوراً إليه، فيَكونُ كمنْ يُحاولُ الصُّعودَ إلى أعلَى، فهوَ يَجِدُ مَشقَّةً بالِغةً وتَعباً في إدراكِ ذلك، أو كأنَّما يَرتَفِعُ في السماءِ فينقُصُ عليهِ الأكسجين، فيَشعرُ بضِيقٍ وحَرَجٍ في تَنفُّسه. وهوَ ثابتٌ علميًّا، وذلك اعتباراً منْ ارتفاعِ (٣) كم حتَّى (١٦) كم فوقَ سطحِ البحر، وما بعدَهُ لا يَقدِرُ على الحياةِ بدونِ أجهزةِ التنفُّس.

وكما جعلَ اللهُ الضِّيقَ في صُدورِ مَنْ أرادَ لهُ الضَّلالة، كذلكَ يجعلُ اللَّعنةَ والعَذابَ والخِذلانَ على منْ أبَى الإيمانَ وأصرَّ على الكُفر.

{وَهَـذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ} [الأنعام: ١٢٦]

١٢٦- وهذا الذي جاءَ به الإسْلامُ أيُّها النبيّ، هوَ صِراطُ اللهِ المستَقيم، وطَريقهُ القَويم، وهِدايتُهُ التي رَضِيَها للنَّاس، فلا اعوِجاجَ فيها ولا انِحراف، قدْ بيَّنا الآياتِ ووَضَّحناها، لمنْ وعَى وتدبَّر، وعَقَلَ عنِ اللهِ ورَسولِه.

{لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ١٢٧]

١٢٧- ولهؤلاءِ المؤمِنينَ الواعينَ يومَ القيامَة، جنَّةُ اللهِ الخالدة، السَّالمةُ منَ المنغِّصاتِ والآفات، واللهُ حافظُهمْ وناصِرُهم، جزاءَ سلوكِهمُ الصِّراطَ المستَقيم، وامتثالِهمْ أمرَ ربِّهم.

{وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَليمٌ} [الأنعام: ١٢٨]

١٢٨ – واذكرْ أيُّها النبيُّ يومَ يَحشُرُ اللهُ الإنسَ والجنَّ للعَرْضِ والحِساب، وقدْ كانَ بَعضُهمْ يُلقي الكلامَ الباطِلَ إلى بَعض، فقيلَ للجِنّ: يا جَماعةَ الجنّ، قدْ أكثرتُمْ منْ إضلالِ الإنس، وأغرَيتُموهمْ بالشَّهوات، وجعلتُموهمْ مِنْ أتباعِكم، فصَاروا يتَّبِعونَ خُطواتِكم، فحُشِروا معَكم. وقالَ أتباعُهمْ ومحبُّوهمْ مِنَ الإنس: ربَّنا إنَّ الجِنَّ أمرتْنا فأغوَتْنا فأطَعناهم، وصِرنا صُحبةً مُتوالينَ في دارِ الدُّنيا، حتَّى حانَ الأجَل.

قالَ الله: مكانُكمُ النارُ أنتُمْ جميعاً، يا مَنْ تَواليتُمْ وتعاوَنتُمْ على الكُفرِ والضَّلالِ منَ الإنسِ والجنّ، ماكثينَ فيها أبداً، إلاّ ما شاءَ الله. واللهُ حَكيمٌ في تَقديرِ الجزاء، عليمٌ بأقوالِ النَّاسِ وأعمالِهم.

والاستِثناءُ في المشيئةِ هنا مختلَفٌ فيهِ عندَ المفسِّرين، يُنظَرُ شَيءٌ منَ التفصيلِ فيهِ الآيةَ (١٠٧) منْ سورةِ هود.

{وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} [الأنعام: ١٢٩]

١٢٩ – ومثْلُ الموالاةِ السَّابقةِ بينَ الجِنِّ والإنسِ في الضَّلال، كذلكَ يَكونونَ قُرَناءَ مُتماثلينَ في العَذابِ يومَ القيامة، جزاءَ كسبِهمُ الخبيثِ المتماثِل.

قالَ قَتادَة: المؤمنُ وَليُّ المؤمِنِ أينَ كانَ وحيثُ كان، والكافِرُ وَليُّ الكافِرِ أينَما كانَ وحيثُما كان.

وقالَ الفَخرُ الرازيُّ في مسألَةٍ منْ تَفسيرِ الآيَة: الآيَةُ تَدلُّ على أنَّ الرعيَّةَ متَى كانوا ظالمينَ فاللهُ تعالَى يُسَلِّطُ عَليهمْ ظالِمينَ مثلَهم.

{يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ} [الأنعام: ١٣٠]

١٣٠ – يا جَماعةَ الكفّارِ منَ الجِنِّ والإنس، ألم يُبْعَثْ إليكمْ في الحياةِ الدُّنيا رُسُلٌ منَ الإنسِ – والجِنُّ تَبَعٌ لهمْ في هذا البابِ – يُخبِرونَكمْ بآياتي البيِّنة، ويخوِّفونَكمْ – إذا نَكلتُمْ وخالفتُمْ – بأسِي وعَذابي يومَ القيامة؟

قالوا: اعترَفنا، وشَهِدنا على أنفسِنا بتَبليغِ الرسُل، وإنذارِهِمْ إيّانا، وعدمِ إجابتِنا لهم.

وقدْ غَرَّتهمُ الدُّنيا وألهَتْهُمْ بزينتِها وشَهواتِها، فاتَّبعوا الشَّهوات، وخالَفوا الحقَّ مِنْ كلامِ الرسُل، وشَهِدوا على أنفسِهمْ يومَ القيامةِ أنَّهمْ كانوا كافِرينَ في الدُّنيا بالآياتِ والنذُر.

{ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ} [الأنعام: ١٣١]

١٣١ — هذا، ولِيُعلمَ أنَّ اللهَ لم يكنْ لِيُهلكَ القُرَى ويُعاقِبَ أهلَها على ظُلمِهم، منْ شِركٍ ونحوِه، وهمْ لا يَعرِفونَ ما هوَ الحقّ، بلْ يُنَبَّهونَ ويُبَلَّغونَ ويُنْذَرونَ بواسطةِ الرسُل، حتَّى لا يَبقى لهمْ عُذرٌ في ذلك.

{وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: ١٣٢]

١٣٢– ولكلٍّ مِنَ السُّعَداءِ والأشقياءِ مِنَ الجِنِّ والإنسِ مَراتِبُ ومَنازلُ عندَ الله، حَسَبَ توجُّهِهمْ وعملِهم، وسيُجازيهمْ عليها، إنْ خيراً أو شرًّا.

{وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ} [الأنعام: ١٣٣]

١٣٣– وإنَّ ربَّكَ – أيُّها الرسُولُ – غنيٌّ عنِ العالمينَ وطاعتِهم، بلْ همُ المحتاجونَ إليه. وهوَ الذي يرحمُكمْ بفَضلهِ وكَرمِه، ويُمهِلُكمْ إذا عَصَيتُم، وهوَ إذا شاءَ أهلكَكُمْ إذا خالفتُمْ أمرَه، كما فعلَ بأقوامٍ في القُرونِ الخالية، ويأتي بآخَرينَ مِنْ عبادهِ مكانَكمْ يُطيعونَه، كما أتَى بكمْ وأنتمْ مِنْ نَسْلِ قَومٍ آخَرين.

{إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ} [الأنعام: ١٣٤]

١٣٤– إنَّ الذي تُوْعَدونَ بهِ منَ الحِسابِ والجزاءِ والدرجاتِ يومَ القيامةِ آتٍ قَريبٌ لا مَحالة، ولا تُعجِزونَ اللهَ في ذلك[٣٩]، فهوَ قادرٌ على بعثِكمْ وإنْ كنتُمْ عِظاماً ورُفاتاً.

(٣٩) أي: بفائتين عمّا هو نازلٌ بكم وواقعٌ عليكم. يقال: أعجزني فلان، أي: فاتني وغلَبني. (فتح القدير).

{قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدِّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [الأنعام: ١٣٥]

١٣٥- قُلْ لهؤلاءِ المشركين: اعمَلوا ما أنتُمْ عامِلونَ حَسَبَ طريقَتِكم الضالَّةِ بكلِّ ما تَقدِرونَ عليه، وأنا قائمٌ على دينِ اللهِ وثابتٌ على هَدْيِهِ بما أوحَى إليَّ، وسوفَ ترَونَ لمنْ تكونُ العاقِبَةُ الحسَنة، والنَّصرُ المبين، في الحياةِ الدُّنيا. ولا يُفلِحُ الظالِمونَ المعتَدونَ على الحقِّ وأهلِه[٤٠]، وسَوفَ يَلقَونَ الجزاءَ المعَدَّ لهم.

{وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ} [الأنعام: ١٣٦]

١٣٦- وقدِ ابتدَعَ المشركونَ فُنوناً في توزيعِ أجزاءٍ منَ الزُّروعِ والثمارِ وأصنافٍ منَ الحيَوان، لله، وأخرَى للأصنام.

فإذا زادَ ما للهِ أعطَوهُ لآلهتِهِمْ منَ الأصنام، وإذا زادَ ما للأصنامِ لم يُعطُوهُ لله، وقالوا: هوَ غنيٌّ عنه. لقدْ أساؤوا في حُكمِهم، فاللهُ الذي أنشأ لهمْ هذهِ الزُّروع، وخلقَ لهمْ هذهِ الحيَوانات، أخَذوا حقَّهُ فأعطَوهُ لآلهتِهم، ولم يُعطُوهُ مِنْ نَصيبِها! وهذا ظُلمٌ وجَهلٌ وضَلال.

{وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} [الأنعام: ١٣٧]

١٣٧- وكما سوَّلتِ الشَّياطينُ لهؤلاءِ المشركينَ هذهِ الأعمال، فقدْ زيَّنَتْ لهمْ أيضاً قتلَ أولادِهمْ خَشيةَ الفقر، ووأدَ بناتِهمْ خَشيةَ تعييرِهمْ بهنّ، لتُهلِكهمْ وتَخلِطَ عليهمْ دينَهم، في تصوُّراتٍ غامِضةٍ مُتلبِّسَةٍ بطُقوسٍ مُبهَمةٍ ومُنكَرَة. ولو أرادَ اللهُ لما فَعلتِ الشَّياطينُ ذلك، ولكنَّهُ ابتِلاءٌ منه، فدَعهمْ - أيُّها النبيُّ - وما يَكذِبونَ ويَكيدون، فإنَّ اللهَ لهمْ بالمِرْصاد.

---

(٤٠) لا يفلح: لا ينجح ولا يفوز. (الطبري).

{وَقَالُواْ هَـذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} [الأنعام: ١٣٨]

١٣٨- ومِنْ جَهْلِ المشركِينَ في تَقريرِ الأحكامِ وأهوائهمْ في ذلكَ أنْ قالوا: هذهِ حيَواناتٌ وزرُوعٌ لا يَجوزُ لأحدٍ أنْ يَعتديَ عليها أو يأكُلَها، فعزَلوها وحَجَروها للأصنام، قالوا: إلاّ مَنْ شِئنا أنْ نُطعِمَهمْ منها! وقالوا أيضاً: هذهِ أنعامٌ لا تُركَب، وجَعلوا لها علاماتٍ بشَقّ الأذُنِ أو غَيرِها، وسمَّوها البَحِيرةَ والسَّائبةَ والوَصِيلة والحام، وحيَواناتٌ لا يَذكُرونَ اسمَ اللهِ عليها إذا ذبَحوها أو رَكِبوا عليها، بلْ يَذكرونَ عليها أسماءَ الأصنام، وكَذَبوا فأسنَدوا هذه الأحكامَ إلى الله، وسوفَ يُعاقِبهمُ اللهُ على كذبِهِمْ هذا سُوءَ العِقاب.

{وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَـذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حِكِيمٌ عَلِيمٌ} [الأنعام: ١٣٩]

١٣٩- وقالَ المشرِكونَ في فُنونِ تَحريمِهم: الجَنينُ الذي في بُطونِ الحيَواناتِ السابقةِ حلالٌ للرّجالِ وحَرامٌ على الإناث! فإذا ماتَ اشترَكَ في أكلهِ الرّجالُ والنّساء! هكذا! وسوفَ يُجازيهمُ اللهُ تعالَى على حُكمِهمْ هذا، الذي افترَوا بهِ على الله، وهوَ حَكيمٌ فيما يقولُ ويَشْرَعُ ويُقَدِّر، لا كما يَتصرَّفُ المشرِكونَ بأهوائهم، عليمٌ بأحوالِ عِبادهِ وما يناسِبُهم.

{قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاء عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ} [الأنعام: ١٤٠]

١٤٠- لقدْ خابَ المشرِكونَ وخَسِروا أفلاذَ أكبادِهمْ بقَتلِهم، وذلكَ لضلالِهمْ وضيقِ عُقولِهمْ وجهلِهمْ بأنَّ اللهَ هوَ رازِقُهم ورازِقُ أولادِهم. كما ضيَّقوا على أنفسِهمْ عندما حرَّموا أشياءَ لم يُنْزِلِ اللهُ بها سُلطاناً، كالبحائرِ والسَّوائبِ وما إليهما، ومعَ ذلكَ نَسَبوها إليهِ كَذِباً وافتراء، لقدْ بَعُدوا عنْ طَريقِ الحقّ، وما كانوا أهلَ هِدايةٍ واستِقامة.

{وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأنعام: ١٤١]

١٤١- هوَ اللهُ الخالقُ واهِبُ النِّعَم، الذي أخرجَ للناسِ الثِّمارَ والزُّروع، منها ما يَهتمُّ بها الإنسانُ فيَجعلُها على شَكلِ عَرائشَ وبَساتين، ومنها ما يكونُ في حياةٍ طبيعيَّةٍ بريَّة. أو أنَّ منها ما يكونُ مُنْبَسِطاً على وجهِ الأرض، ومنها ما يقومُ على ساقٍ ونَسَق.

وهوَ الذي أنشأ النَّخيلَ الذي يُنتِجُ الرُّطَب والتمرَ الطيِّبَ المفيد، والزُّروعَ بأنواعِها وأطعمتِها المختَلِفة، وكذلكَ الزيتونَ ذا الطَّعمِ المميَّزِ النافِع، والرمّانَ اللذيذ، بأصنافِهِ المختَلِفة، المتشابِهَةِ وغيرِ المتشابِهَة. فكُلوا مِنْ هذهِ الثِّمارِ الطيّبة، ولا تَنسَوا الفَقَراءَ والمساكينَ مِنْ حقِّها، فآتُوهمْ منهُ عندَما تَحصُدونَها، زكاةً أو صدَقة، ولا تُسرِفوا في الأكلِ ولا في الإعطاء، فاللهُ لا يُحِبُّ مَنْ تجاوزَ الحدَّ إلى ما هوَ مُضِرّ، بنفسهِ أو بالآخَرين.

{وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [الأنعام: ١٤٢]

١٤٢- وهوَ اللهُ الذي خلقَ لكمُ الأنعام، لتركَبوا بعضَها وتَحمِلوا عليها أثقالَكم، كالإبِلِ والخَيل، وتَستَفيدوا مِنْ غيرِها كالشِّياه، فتأكلوا لحمَها وتَحلِبوا منها، وتتَّخذوا منْ أصوافِها وأوبارِها لُحُفاً وفُرُشاً. فكلوا ممّا رزقَكمُ اللهُ مِنْ هذهِ الثِّمارِ الطيّبةِ والنَّعَمِ الحلال، ولا تتَّبِعوا مَكرَ الشَّيطانِ وطرائقَهُ الخادعةِ في تَحليلِ وتَحريمِ ما سخَّرَهُ اللهُ لكم، فهوَ خالقُها وخالقُكم، وهوَ وحدَهُ الذي يَشْرَعُ فيُحِلُّ ويُحَرِّم، والشَّيطانُ عدوٌّ لكم، فلا يسوِّلُ لأوليائهِ إلاّ ما هوَ شرٌّ وفِتنةٌ وما فيهِ ضرَر.

{ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [الأنعام: ١٤٣]

١٤٣- وهذهِ هي الأنعامُ التي ادَّعَى المشركونَ استحلالَ وتحريمَ أجزاءٍ منها، وتصنيفَها كما أفرزَتْها عقولُهُمُ الضَّعيفةُ وأهواؤهمُ الزائغةُ في الجاهليَّة، فهي ثمانيةُ أزواج، كلٌّ منها ذكرٌ وأنثَى، فمنَ الغَنَمِ – ذي الصوفِ – اثنان، ومنَ المِعْزِ اثنان، فأيَّهما حرَّمَ الله: الذكرَ منهما أمْ أُنثَيَيْهما؟

أمِ الجنينَ الذي في رَحِمَي الأُنثَيَيْن؟ فأخبِروني بيَقين: كيفَ حرَّمَ اللهُ ما زَعمتُمْ منَ البَحِيرةِ والسائبةِ وما إليهما، وهوَ لم يُحَرِّمْهُ، إذا كنتُمْ صادقينَ في دعوَى التَّحريم؟

{وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [الأنعام: ١٤٤]

١٤٤- ثمَّ مِنَ الإبِلِ اثنَين، ومنَ البقَرِ اثنَين، فقلْ لهمْ أيُّها النبيّ: هلْ حرَّمَ اللهُ الذكَرَ منهما، أمْ أُنْثَيَيْهِما، أمِ الجنينَ الذي في رَحِمَي الأُنْثَيَينِ منهما؟ أمْ كنتُمْ مَوجودِي

نَ مُشاهِدينَ عندما وصّاكمُ اللهُ بهذا الذي ابتَدعتُموهُ وزعمتُمْ تَحريمَه؟ فما أعظمَ جُرْمَكم! وليسَ هناكَ أظلمُ ممَّنْ كذَبَ على اللهِ وقالَ إنَّ هذا التحريمَ شَريعتُه، ليُبعِدَ الناسَ عنْ طَريقِ الحقِّ والهُدَى، مِنْ غَيرِ علمٍ منهُ ولا وَحي، واللهُ لا يَهدي القومَ المتَجاوزينَ الحقَّ، المفترَينَ على الله.

{قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [الأنعام: ١٤٥]

١٤٥- قُلْ للمُشركِينَ الذينَ حرَّموا أشياءَ مِنْ عندِهِمْ ونَسبُوهُ إلى اللهِ افتراءً عليه: لا أجِدُ فيما أوحَى اللهُ إليَّ ممّا حرَّمَهُ على آكلٍ يأكلُه، إلاّ إذا كانَ مَيتةً - وتفصيلُها في الآيةِ الثالثةِ منْ سُورةِ المائدة - أو دَماً مُهْرَاقاً، أي مَصبوباً سَائلاً، فيُعفَى عمّا اختلطَ بعَظمٍ ولَحم، أو لحمَ خِنزير، فإنَّهُ قَذِرٌ خَبيث، أو ما ذُبِحَ خُروجاً عنِ الطاعةِ، بأنْ ذُبِحَ على اسمِ الأصنام. فمنْ دَعَتْهُ الضَّرورةُ إلى تناولِ شَيءٍ منْ تلكَ المحظورات، غيرَ مُعْتَدٍ في ذلك، بأنْ لا يأخذَهُ منْ مُضْطرٍّ آخرَ مثلِه، ولا مُتَجاوِزٍ قَدْرَ الضرورةِ، بأنْ لا يأكلَ زيادةً على حاجتهِ إليها، فإنَّ اللهَ يَغفِرُ لهُ ما أكل، ويرحمُه.

ويُلحَقُ بما حُرِّمَ ما ذُكِرَ في السنَّة: الحُمُرُ الأهليَّة، وكلُّ ذي نابٍ منَ السِّباع، ومِخلَبٍ منَ الطَّير، فهوَ تَخصيصُ عامّ، أو ابتِداءُ حُكم.

قالَ ابنُ كثيرٍ رحِمَهُ الله: فعلَى هذا يَكونُ ما وردَ من التَّحريماتِ بعدَ هذا في سورةِ المائدةِ وفي الأحاديثِ الواردة: رافعًا لمفهومِ هذه الآية. ومنَ النَّاسِ منْ يُسَمِّي ذلكَ نَسخًا، والأكثرونَ منَ المتأخِّرينَ لا يُسمُّونَهُ نَسخًا؛ لأنَّهُ من بابِ رَفعِ مُباحِ الأصل.

{وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ} [الأنعام: ١٤٦]

١٤٦- وحَرَّمنا على اليهودِ كلَّ حيَوانٍ ذي أظفار، وهو ما لم يَكنْ مَشقوقَ الأصابعِ منَ البَهائمِ والطَّير، مثلُ البَعيرِ والنَّعامِ والبطِّ والأوَزّ، وحَرَّمنا عليهمْ شُحومَ البقَرِ والغنَم، إلاّ شحمَ الظَّهر، أو ما التفَّ بالأمعاء، أو ما اختلطَ منهُ بالطَّعام؛ وذلكَ عقوبةً لهمْ على مخالفتِهمْ أوامرَنا، كأكلِ الرِّبا، وأكلِ أموالِ النَّاسِ بالباطل، وقتلِهمُ الأنبياء... ونحنُ صادِقونَ في الإخبارِ بما حرَّمناهُ عليهم، وبظلمِهمْ وتعدِّيهم، وعادِلونَ بما جازَيناهمْ به.

{فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} [الأنعام: ١٤٧]

١٤٧- فإنْ كذَّبكَ اليَهود، وقالوا إنَّ هذا ممّا حُرِّمَ على نوحٍ وإبراهيم، ومَنْ بعدَهما مِنَ الأنبياءِ حتَّى وصلَ إلينا، فقلْ لهم: إنَّ ربَّكمْ ذو رَحمةٍ عَظيمة، فلا يُعاجِلُكمْ بالعُقوبةِ على كَذبِكمْ ومَعاصيكم، ولكنَّ عذابَهُ لا يُرَدُّ ولا يُدْفَعُ عنِ المجرِمينَ الكافرينَ إذا جاءَ وقتُه، فاحذَروا ولا تُنكِروا الحقّ.

{سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ} [الأنعام: ١٤٨]

١٤٨- وسيقولُ لكَ المشرِكون: لو أرادَ اللهُ لما أشرَكنا نحنُ ولا آباؤنا، ولا حرَّمنا شَيئاً ممّا نُحَرِّمهُ الآن، ولكنَّهُ شاءَ ذلك، وإذا شاءَ أمراً فهوَ يَعني مَشروعِيَّتَهُ ورِضاءَهُ عنه، وعلى هذا فإنَّ ما نقومُ بِهِ صَحيحٌ ومَشروع!

وهذا كَذِبٌ ولَجاجة، وقدِ افترى مثلَ هذا الكذبِ أمَمٌ كافِرةٌ خَلتْ مِنْ قبلِهم، حتَّى جاءهمْ عذابُنا وذاقُوا عُقوبتَنا.

قلْ لهمْ أيُّها النبيّ: هلْ عندكمْ كتابٌ أو حجَّةٌ ظاهِرةٌ أو أمرٌ مَعلومٌ منْ عندِ اللهِ بصدقِ ما أنتُمْ عليهِ منَ الشِّرْكِ وتَحريمِ ما حرَّمتُموه، حتَّى تُبرِزوهُ لنا لنطمَئنَّ إلى ذلك؟ إنَّ الذي تتَّبعونَهُ ما هوَ إلاّ وَهمٌ واعتِقادٌ فاسِد، وما أنتُمْ بهذا إلاّ تكذِبونَ على الله، فإنَّ اللهَ لا يرضَى لعبادهِ الكفرَ والشِّرْكَ والفَواحِش، وكيفَ تُحِيلونَ شرْكَكمْ إليهِ وأنتُمْ لم تَشهَدوا مَشيئتَه؟ ولماذا أرسَلَ إليكمْ عذابَهُ؟ فلو كانتْ شُبْهتُكمْ صَحيحةً لما أذاقَكمُ العَذاب.

{قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} [الأنعام: ١٤٩]

١٤٩- قلْ للمُشرِكين: للهِ البُرهانُ البيِّنُ الواضِح، والحِكمَةُ التامَّة، والإثباتُ الصَّحيح، فيمَنْ هداهُم، وفيمَنْ أضلَّهم، ولو شاءَ أنْ يَخلُقَ في الناسَ طَبيعةً لا تَعرِفُ سِوَى الاهتِداءِ لفَعل، ولكنَّهُ سُبحانَهُ شاءَ أنْ يَبتليَ ويخيِّرَ الناسَ في اعتقادِهم، وأنْ يُيَسِّر لكلٍّ ما يُريد، ثمَّ يكونُ الحِساب.

{قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّهَ حَرَّمَ هَـذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الأنعام: ١٥٠]

١٥٠- قلْ للمشركِين: أحضِروا شُهداءَكمْ الذينَ يُثبِتونَ أنَّ اللهَ حرَّمَ ما ذَكرتم، فإذا شَهِدوا بذلك، وهمْ كاذبون، مَعروفونَ بالباطِل، فلا تَشهدْ أنتَ بذلكَ ولا تُصَدِّقْهُم، لأنَّهم يَشهدونَ

كَذِباً وزُوراً، وبَيِّنْ لهمْ فسادَ رأيهم. ولا توافِقِ الكفّارَ في أهوائهمُ الزائغة(٤١)، الذينَ كذَّبوا بمعجزاتِنا وحُجَجِنا البيّنة، ويُكذِّبونَ بالبَعثِ والنُّشور، ويَجعلونَ للهِ شُرَكاء.

{قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [الأنعام: ١٥١]

١٥١- قلْ للمُشرِكين: تعالَوا لأقرَأ وأقُصَّ عليكمْ ما حرَّمَهُ ربُّكمْ عليكم، لا ما تدَّعونَ أنَّهُ حرَّمَهُ بزعمِكم، فهوَ الحاكمُ المشَرّعُ لا أنتُم:

ألاّ تُشرِكوا باللهِ شَيئاً، فهوَ وحدَهُ المتصرِّفُ في الكون، وهوَ وحدَهُ الذي يَجِبُ أنْ يُعبَد.

وأنْ تُحسِنوا إلى الوالدَين، إحساناً كاملاً لا إساءةَ معَه.

وأنْ لا تَقتلوا أولادَكمْ لِما بكمْ مِنْ فَقر، فنحنُ نرزقُكمْ ونرزقُهم.

ولا تَقرَبوا الفواحِش، ما ظهرَ منها وما خَفي، مثلَ الزّنا في الأماكنِ المعَدَّةِ لها، ومثلَ اتّخاذِ الأخدانِ والعَشيقات.

ولا تَقتُلوا النفسَ التي حرَّمَ اللهُ قتلَها بسبَبٍ منَ الأسبابِ إلاّ بسبَبِ الحقّ، كالردَّة، والزّنا بعدَ الإحصان، وقتلِ النفسِ عَمداً.

هذا ما فرضَهُ اللهُ عليكمْ وأمرَكمْ به، لتعقِلوا أمرَهُ ونَهيَه.

---

(٤١) سمَّى دينَهم هوًى لعدمِ استنادهِ إلى مستند، ولكنهُ إرضاءٌ للهوى. والهوى غلبَ إطلاقهُ على محبَّةِ الملائمِ العاجلِ الذي عاقبتهُ ضرر. (التحرير والتنوير).

{وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الأنعام: ١٥٢]

١٥٢- ولا تَتعرَّضوا لمالِ اليتيم - أيُّها الأولياءُ والأوصياءُ - إلا بما فيهِ صَلاحُه وتَثميرُه، حتَّى يبلغَ الحُلُم. وأتِمُّوا المكِيلَ والميزانَ بالعَدل، في البَيعِ والشِّراء.

لا نُحَمِّلُ نفساً إلا طاقتَها، فإذا أخطأتْ بعدَ بذلِ جُهدِها فلا حرجَ عليها.

وإذا قلتُمْ قولاً في شَهادةٍ أو حُكمٍ فاصدُقوا، ولو كانَ المحكومُ والمشهودُ عليهِ ذا قَرابةٍ منكم.

وأوفُوا بما عَهِدَ اللهُ إليكمْ منْ أمرٍ ونَهي، فإنَّكمْ مَسؤولونَ عنْ عهدِه.

هذا ما أمرَكمُ اللهُ بهِ أمراً مؤكَّداً، لتفهَموهُ وتَتدبَّروهُ وتَعملوا بمُقتَضاه.

{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: ١٥٣]

١٥٣- وقلْ أيُّها النبيّ: إنَّ الإسلامَ هوَ صِراطي المستَقيمُ الذي لا اعوِجاجَ فيه، فهوَ ما أسلُكهُ وأدعو إليه، فاتَّبِعوا تعاليمَهُ واعمَلوا به، ولا تتَّبعوا الضَّلالات، والبِدَعَ والشُّبهات، فتُفرِّقَكمْ حسَبَ تَفرُّقها عنْ دينِ الله. هذا ما أمرَكمُ اللهُ به، لتَبتَعِدوا عنِ المِراءِ والخصُومات، والاختلافِ والفُرقة، التي أهلكتْ مَنْ قبلَكم.

{ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ} [الأنعام: ١٥٤]

١٥٤- وقدْ أنزلَ اللهُ التوراةَ على موسَى، كاملاً على المؤمنينَ والمحسِنينَ مِنْ قومِه، وبياناً مُفَصَّلاً لجميعِ ما يُحتاجُ إليهِ في الدِّين، ودليلاً إلى الحقِّ المبتَغَى، ورَحمَةً بالمكلَّفين، ليؤمِنَ بَنو إسْرائيلَ بالبَعث، ويُصَدِّقوا بالثَّوابِ والعِقاب.

{وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأنعام: ١٥٥]

١٥٥- وهذا القُرآنُ أنزَلناهُ على النبيِّ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، هوَ كتابٌ نافِعٌ جَليلٌ عَظيمُ الشَّأن، فيهِ مِنَ الشَّرائعِ والأحكامِ ما يَضمنُ لكمُ الأمنَ والسعادةَ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخِرة، فاعمَلوا به، واتَّقوا نواهيه؛ لتُرحَموا وتَفوزوا.

{أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ} [الأنعام: ١٥٦]

١٥٦- قدْ أنزَلنا إليكمُ القُرآنَ لئلاّ تقولوا إنَّ الكتابَ أُنزِلَ على اليهودِ والنصارَى، ونحنُ لا نَفهمُ قولَهم، وليسَ هوَ بلسانِنا، ولا نَعرِفُ قراءةَ ما فيه.

{أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ} [الأنعام: ١٥٧]

١٥٧- وقطَعنا العذرَ عنكمْ إذا تحاجَجْتُمْ وقلتُم: إذا نزلَ علينا الكتابُ لنَكوننَّ أهدَى منهمْ إلى الحقّ، وأسرعَ إلى الاستِجابةِ لنداءِ اللهِ منهم، فهذا هوَ القُرآنُ قدْ جاءَكمْ مِنْ عندِ اللهِ بلسانٍ عَربيٍّ مُبين، وفيهِ ما اشتَملتْ عليهِ التوراةُ مِنَ الهِدايةِ والرَّحمَةِ بالنَّاس، وتَبيينِ الأحكام، وذكرِ الحلالِ والحرام.

وليسَ هناك أظلمُ ممَّنْ خالفَ الرسُلَ، وكذَّب بما أوحَى اللهُ إليهم، وأعرضَ عنْ آياتِ اللهِ البيّنات، فلمْ ينتَفِعْ بهَدِي الرسالةِ السَّماويَّة، وسنُجازي إعراضَهمْ هذا وتكذيبَهمْ بآياتِ اللهِ بما يناسِبُهُ منَ العَذابِ الشَّديدِ المؤلِم، بسبَبِ إعراضِهمُ المستَمِر، وتجاوزِهمُ الحقَّ.

{هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ} [الأنعام: ١٥٨]

١٥٨- هلْ يَنتَظِرُ المشركونَ - بعدَ تكذيبِهمُ الرسُلَ وكفرِهمْ بالآياتِ - إلاّ أنْ تأتيَهم الملائكةُ لقَبضِ أرواحِهمْ أو تَعذيبِهم، أو يَأتيَ ربُّكَ - يومَ القيامةِ - {فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ} [سورة البقرة:

٢١٠] للقضاءِ بينَ خلقِه، أو يأتيَ بعضُ أشراطِ السَّاعة، كطلوعِ الشَّمسِ منْ مَغْرِبِها، وعندَما يأتي بعضُ هذهِ الآيات، لا يَنفَعُ إيمانُ امرِئٍ بها لم يَكنْ مؤمِناً مِنْ قبل، أو كانَ مُسلِماً فاسِقاً فلمْ يكسبْ بإيمانهِ الضَّعيفِ عَملاً صالحاً، فلا تُفيدهُ التوبةُ يومَئذ؛ لأنَّ إيمانَ الجميعِ يومَئذٍ يكونُ عنِ اضطِرار.

قلْ للمُشرِكينَ أيُّها النبيّ: انتَظروا إذاً إلى ذلكَ اليومِ الذي لا يَنفَعُ فيهِ إيمانُكم، ونحنُ نَنتَظرُ بكمُ العَذابَ يومَئذ.

{إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ} [الأنعام: ١٥٩]

١٥٩- إنَّ اليهودَ والنصارَى الذينَ فرَّقوا دينَهمْ وبعَّضوه؛ باختلافِهمْ في دينِهم، فكانوا فِرَقاً، كلُّ فِرقةٍ تتَشيَّعُ في رأيِها إلى إمامٍ لها، لستَ مَسؤولاً عنْ تَفرُّقِهمْ أو عِقابِهم، وأنتَ بريءٌ منهم، إنَّما يَتولَّى أمرَهمْ ربُّهم بحِكمتِه، ويُخبِرُهم يَومَ القِيامةِ بما كانوا عليهِ في الدُّنيا، فيَفصِلُ بينهم، ويحاسِبُهم، ويُجازيهمْ على ذلك.

{مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [الأنعام: ١٦٠]

١٦٠- مَنْ جاءَ مِنَ المؤمِنينَ بخَصلةٍ واحدةٍ مِنْ خِصالِ الطَّاعة، فلهُ عشرُ حسَناتٍ أمثالَها، فضلاً وتكرُّماً منَ اللهِ تعالَى. ومَنْ جاءَ بسيِّئةٍ واحدة، منَ المؤمِنينَ أو منْ غَيرِهم، فلا يُجزَى إلاّ بتلكَ الواحِدَة، عَدلاً منهُ سُبحانَه، وهمْ لا يُظلَمونَ بنقصِ الثَّوابِ وزيادةِ العِقاب.

{قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام: ١٦١]

١٦١- قلْ أيُّها النبيُّ الكريم: إنَّ اللهَ هَداني ووفَّقَني إلى طَريقٍ واضحٍ مستَقيمٍ لا اعوجاجَ فيه، هوَ دينُ اللهِ القائمُ الثابِت، ملَّةُ نبيِّ اللهِ إبراهيم، المائلِ عنْ جميعِ الأديانِ الباطلةِ إلى الحقّ، وما كانَ مِنَ المشرِكين، كما ادَّعتِ اليهودُ والنصارَى أنَّهُ منهم!

{قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: ١٦٢]

١٦٢- قلْ أيُّها الرسُول: إنَّ صَلاتي، وعِبادتي، وما أتَقرَّبُ به، في الحجِّ وغَيرِه، وحَياتي ومَوتي بما يُقارِنُهما مِنْ إيمانٍ وطاعةٍ وعَملٍ صالح، وكَسبٍ وجَزاء، كلُّها مقدَّمةٌ للهِ ربِّ العَالمين.

{لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: ١٦٣]

١٦٣- وأعمالي هذهِ خالِصةٌ للهِ عزَّ وجلَّ، لا أُشرِكُ فيها غيرَه، وبهذا القَولِ أو الإخلاصِ أُمِرْتُ، وأنا أوَّلُ المسلِمينَ مِنْ هذهِ الأمَّة، الممتَثِلينَ لأمرِ الله، المستَسلِمينَ لقَضائهِ وقدَره.

{قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [الأنعام: ١٦٤]

١٦٤- وقلْ لهؤلاءِ المشرِكين: هلْ أطلبُ لكمْ في دَعوتي إليكمْ ربًّا سِوَى الله، وهوَ مالِكُ كلِّ شيءٍ ومُدَبِّرُه وحافِظُه، فلا أتوكلُّ إلاّ عليه، ولا أدْعو سِواه، ولا أُشرِكُ بعِبادتي لهُ أحَداً.

وما تَعمَلُهُ كلُّ نفسٍ مِنْ شرٍّ يُكْتَبُ عليها، وعاقبتهُ يعودُ عَليها.

ولا تَحمِلُ نفسٌ حَمْلَ أخرَى، لا تَقْدِرُ على أنْ تُلقي مِنْ آثامِها على آخَرين، ولا تَقْدِرُ على أنْ تخفِّفَ عنْ آخَرينَ بجرِّ آثامِهمْ إليها، بلْ كلُّ نفسٍ مَقرونةٌ بعملِها، مُحاسَبَةٌ عليه.

ثمَّ تُبعَثونَ إلى اللهِ يومَ الحِساب، فيُخبِرُكمْ بما عَمِلتُمْ مِنْ خَيرٍ وشَرّ، وما كنتُمْ تَختَلفونَ فيهِ في الحياةِ الدُّنيا مِنْ حقٍّ وباطِل، وما تَرتَّبَ على ذلكَ مِنْ مواقفِكمْ مِنْ رُشدٍ وغَيّ، وهُدًى وضَلال.

{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [الأنعام: ١٦٥]

١٦٥- وهوَ اللهُ الذي قدَّرَ بحِكمَتهِ أنْ يَخْلُفَ بعضُكم بَعضاً، جيلٌ يَخْلُفُ جيلاً، وخَلَفٌ يأتي بعدَ سَلف، لتُعْمَرَ الأرضُ وتَبقَى الحياةُ ماضيةً، حتَّى تقومَ الساعَة.

وفاوتَ بينَكمْ في الأحوال، فأنتمْ بينَ قويٍّ وضَعيف، وغنيٍّ وفَقير، ومُحسِنٍ ومُسيء، وأبيضَ وأسمر، ليَختَبِرَكمْ في ذلكَ كلِّه، ويَنظرَ ماذا تَفعلون، وهلْ يَظلِمُ القويُّ الضَّعيفَ أمْ يُساعدُه؟

وماذا يَفعلُ الغنيُّ بثروتِهِ؟ وهلْ يَصبِرُ الفقيرُ أمْ يَنحرفُ ويَعتَدي؟... ويُجازي اللهُ كلاًّ بما عَمِل. وهوَ سُبحانَهُ إذا عاقبَ فسَريعٌ في عِقابِه، فاحذَروا مخالفتَه. وهوَ غفورٌ لمنِ استغفرَهُ ونَدِمَ على ما عَصَى، رحيمٌ بمنْ والاهُ واتَّبعَ رِضاه.

سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{المص} [الأعراف: ١]

١- حُروفٌ مُقَطَّعةٌ لم يَرِدْ في مدلولِها حديثٌ ثابتٌ صَحيح، وعلمُها عندَ الله.

{كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [الأعراف: ٢]

٢- هوَ القُرآنُ الذي أنزلَهُ اللهُ عليكَ مِنْ عندِه، فلا يَكنْ عندكَ شَكٌّ في ذلك، أو لا يَكُنْ في صدرِكَ ضِيقٌ مِنْ تبليغهِ، ولا حرجٌ في الإنذارِ بهِ مَخافةَ أنْ يُكذِّبوك، وليَكونَ تذكيراً للمؤمنين، يَنتفِعونَ به، ويَهتدونَ بهديه.

{اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ} [الأعراف: ٣]

٣- أيُّها الناس، اتَّبِعوا والتَزِموا ما أنزلَهُ اللهُ إليكمْ في القُرآن، ولا تُقبِلوا على غَيرِه، ممَّنْ يَبتَغونَ إضلالَكُمْ بأهوائهم، ويُلقونَ إليكُمْ أباطيلَهم؛ لتَنحَرِفوا عنْ جادَّةِ الحقّ، وأنتُمْ قليلاً ما تَعمَلونَ بهذا، فتَتركونَ الحقَّ وتَتوجَّهونَ إلى غيرِه!

{وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ} [الأعراف: ٤]

٤- وكثيرةٌ هي المدنُ والقُرَى التي دمَّرناها على أهلِها، لمخالفتِهمْ رسُلَنا وتكذيبِهمْ إيّاهم، وإصرارِهمْ على أباطيلِهم، فمنهمْ مَنْ حقَّ عليهمُ العذابُ فنزلَ بهمْ ليلاً وهمْ ساكِنون، ومنهمْ مَنْ نزلَ بهمُ العذابُ في وَقتِ القَيلولةِ وهمْ مُستَريحون. وكِلا الوَقتينِ وقتُ غَفلةٍ وراحة.

{فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} [الأعراف: ٥]

٥- وكانَ مقالُهُمْ عندما نزلَ بهمُ العذابُ وقدْ اعتَرفوا بذَنبِهم، وهمْ يَطمعونَ بذلكَ الخلاصَ منَ العَذاب: لقدْ كنّا مسيئينَ إلى أنفُسِنا، مخالِفينَ لأمرِ ربِّنا، ونحنُ مستَحِقُّونَ العقُوبة.

{فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} [الأعراف: ٦]

٦- وسَوفَ نسألُ الأممَ يومَ القيامةِ عمّا أجابوا رُسُلَهم، وسوفَ نَسألُ المرسَلينَ عنْ تبليغِ رسالتِهم، وما الذي أجابتْهُ أقوامُهم.

{فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ} [الأعراف: ٧]

٧- ونُخبِرُ كلَّ الناسِ عنْ عِلم، ونبيِّنُ لهمْ ما قالوهُ وما عَمِلوه، منْ خَيرٍ وشَرّ، قليلاً كانَ أو كثيراً، فاللهُ محيطٌ بأحوالِهم، لا يَغيبُ شَيءٌ منها عنْ علمِه.

{وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: ٨]

٨- ووزنُ الأعمَال، والتَّمييزُ بين الصالحِ منها والفاسدِ يومَ الحساب، حقٌّ ثابتٌ عَدْل، فمنْ رَجَحَتْ كِفَّةُ مَوازينِه بالحسَنات، فقدْ فَازوا بالنَّجاةِ والثواب.

{وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ} [الأعراف: ٩]

٩- ومنْ رَجَحَتْ كِفَّةُ موازينِه بالسيِّئات، فهمُ الذينَ خَسِروا أنفسَهم، نادمينَ مُتحَسِّرينَ على ما فاتَهمْ منَ الثَّوابِ والنَّعيم، وعلى ما لَحِقَهمْ منَ العَذابِ الأليم، وهذا لأنَّهمْ كانوا يَجحَدونَ بحُجَجِنا وأدلَّتِنا، ويُكذِّبونَ رسُلَنا.

{وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ} [الأعراف: ١٠]

١٠- وقدْ جعلنا لكمُ الأرضَ مكاناً وقراراً، وجعلنا لكمْ فيها ما بهِ تَعيشونَ، مِنْ مكاسِبَ ومَطاعِمَ ومَشارِبَ وتِجارات، وكلُّ ما في الأرضِ هو مِنْ نِعمةِ اللهِ عليكم، ومعَ ذلكَ فأنتُمْ قَليلو الشُّكرِ له.

{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ} [الأعراف: ١١]

١١- وقدْ خلَقنا أصلَكمْ آدمَ مِنْ تُراب، ثمَّ صوَّرناهُ بَشَراً، ثمَّ نفَخنا فيهِ مِنْ روحِنا، ثمَّ قُلنا للملائكة: اسجُدوا لآدمَ سَجدةَ تَكريم، وهيَ تَعظيمٌ لشأنِ اللهِ تعالَى وجلالِه، فسجَدوا كلُّهم وأطاعوا، إلاّ إبليسَ عصَى وأبَى أنْ يَسجُد.

{قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} [الأعراف: ١٢]

١٢- قالَ اللهُ تعالى لإبليسَ ما تَفسيره: ما الذي منعكَ أنْ تَسجُدَ لآدمَ كما أمرتُك؟

قال: أنا أفضلُ وأحسَنُ مِنْ آدم، فقدْ خلقتَني مِنْ نار، وخلقتَهُ مِنْ طين، والنارُ أشرفُ مِنَ الطِّين، فلماذا أسجدُ له؟.

وكانَ قياسهُ فاسِداً، وعِصيانهُ ظاهراً، فالفَضلُ لمنْ جعلَ اللهُ لهُ الفَضل، والشَّريفُ مَنْ شرَّفَهُ الله، وقدْ شرَّفَ اللهُ آدمَ فنفخَ فيهِ مِنْ روحه، وأمرَ ملائكتَهُ أنْ يَسجُدوا لهُ تَشريفاً له، والطِّينُ أفضلُ منَ النَّار، ففيهِ الرَّزانة، والحِلمُ والصَّبر، وهوَ محلُّ النَّباتِ والنموّ، والزيادةِ والإصلاح، والنارُ مِنْ شأنِها الإحراقُ والطَّيش، والجُرأةُ والسُّرعة؛ ولهذا كانَ الشَّيطانُ طائشاً خائناً، شَقيّاً عاصِياً لخالقِه، ولذلكَ استَحقَّ ما يأتي.

{قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ} [الأعراف: ١٣]

١٣- قالَ اللهُ تعالَى لإبليسَ اللَّعينِ ما مَعناه: اخرُجْ منَ الجنَّة، فلا يَصِحُّ لكَ أنْ تبقَى فيها وقدِ استَكبرتَ عنْ أمري بالسُّجودِ لآدم، فاخرُجْ منها ذَليلاً حَقيراً مُهاناً.

{قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [الأعراف: ١٤]

١٤- قالَ إبليسُ لرَبِّه: أمهِلني ولا تُمِتني في الحياةِ الدُّنيا حتَّى يومِ البَعث.

{قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ} [الأعراف: ١٥]

١٥- قالَ اللهُ تعالى ما مَعناه: قدْ أمهلتُك وأخَّرتُكَ إلى ذلكَ اليوم، لحكمةٍ أمتَحِنُ بكَ عبادي.

{قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} [الأعراف: ١٦]

١٦- قالَ إبليسُ لربّه في عِنادٍ وتبجُّح: فبما أضللتَني وأهلكتَني لأُضِلَّنَّ ولأَهلِكَنَّ أولادَ آدمَ هذا الذي فضَّلتَهُ عليّ، ولأَجْلِسَنَّ في طريقِكَ المستَقيمِ التي رسمتَها لهمْ لتوصِلَهمْ بها إلى الجنَّة؛ ترصُّداً للإيقاعِ بهم.

{ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف: ١٧]

١٧- ثمَّ لأُضِلنَّهم، فأشَكِّكَنَّهُمْ في الإيمانِ بيومِ الحِساب، ولأُرَغِّبنَّهمْ في دُنياهمْ بما فيها منْ شَهواتٍ ومزيّنات، ولأشبِّهنَّ عليهمْ أمرَ دينِهمْ حتَّى يَكفُروا ويَفسُقوا، ولأَشَهِّينَّهمْ في المعاصي والمآثمِ ليقتَرِفوها، حتَّى لا تَجدَ أكثرَهمْ مؤمِنينَ بك، مُطيعينَ لك[٤٢].

{قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ} [الأعراف: ١٨]

---

(٤٢) كما ضُـــربَ المثلُ لهيئةِ الحرصِ على الإغواءِ بالقعودِ على الطريق، كذلك مُثِّلتْ هيئةُ التوســـلِ إلى الإغواءِ بكلِّ وسـيلةٍ بهيئةِ الباحثِ الحريصِ على أخذِ العدوّ، إذ يأتيهِ من كلّ جهةٍ حتّى يصـادفَ الجهةَ التي يتمكَّنُ فيها من أخذه، فهو يأتيهِ من بين يديه، ومِن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، حتّى تخورَ قوَّةُ مدافعته، فالكلامُ تمثيل، وليس للشـــيطانِ مسـلكٌ للإنسـانِ إلاّ من نفسـهِ وعقله، بإلقاءِ الوسـوسـةِ في نفسـه، وليسـتِ الجهاتُ الأربعُ المذكورةُ في الآيةِ بحقيقه، ولكنّها مجازٌ تمثيليٌّ بما هو متعارفٌ في محاولةِ الناسِ ومخاتلتهم.. (التحرير والتنوير).

١٨- قالَ اللهُ تعالَى لإبليسَ اللَّعينِ تَفسيرًا: اخرُجْ منَ الجنَّةِ مَذموماً مُهاناً، مُبْعَداً مَطروداً، ومَنِ اتَّبعكَ مِنْ بني آدمَ يكونُ مصيرُهُمْ مصيرَك، فلأملأنَّ جهنّمَ منكَ ومِنْ ذرِّيتِك، ومنْ كفّارِ ذرِّيةِ آدمَ أجمعين.

{وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأعراف: ١٩]

١٩- يا آدمُ اسْكُنْ أنتَ وزوجتُكَ حوّاءُ الجنَّة، وكُلا مِنْ جميعِ ثمارِها الطيّبة، ولكنْ لا تَطْعَما هذهِ الشَّجرة، وحدَّدَها لهما؛ فتَصيرا بذلكَ منَ الذينَ ظَلموا أنفسَهم، واستحقُّوا العَذاب.

{فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ} [الأعراف: ٢٠]

٢٠- فحسدَهما الشَّيطان، وألقَى في قلبَيهِما بوسوستهِ ومكرِهِ عِصيانَ أمرِ ربِّهما، ليترتَّبَ على ذلكَ ظُهورُ ما غُطِّيَ مِنْ عوراتِهما، وقالَ لهما في خُبثٍ وحِقدٍ وكذِب: إنَّ اللهَ منعكما مِنْ أكلِ هذهِ الشجرةِ حتَّى لا تكونا مِنَ الملائكة، أو لئلاّ تَخلُدا في الجنَّة.

{وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ} [الأعراف: ٢١]

٢١- وحلفَ الشَّيطانُ لآدمَ وحوّاءَ باللهِ أنَّهُ صادقٌ في قَولِهِ لهما، وناصِحٌ لهما بذلك، وأنَّهُ كانَ قبلَهما في الجنَّة، ويَعرِفُ مثلَ هذهِ الأمور، حتَّى خَدعَهما!

{فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [الأعراف: ٢٢]

٢٢- فحطَّهما الشَّيطانُ مِنْ دَرجةِ الطَّاعةِ إلى حالِ المعصية، بما غرَّهما مِنَ القسَمِ وطَمَعِ الخُلودِ في الجنَّة. فلمّا أكلا مِنَ الشَّجرةِ أكلاً يسيراً ظهرتْ لهما عوراتُهما، فجعلا يَرْقَعانِ ويُلْزِقانِ عليها

مِنْ ورَقِ شَجَرِ الجنَّة، ونادَاهما ربُّهما لوماً وتَوبيخاً: ألَمْ أمنعْكُما مِنَ الأكلِ مِنْ تلكَ الشَّجرة، وأقلْ لكما إنَّ الشَّيطانَ ظاهرُ العداوةِ لكما فلا تُطيعاه؟

{قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: ٢٣]

٢٣- قالَ آدم وحوّاء: ربَّنا إنَّنا أضرَرْنا بأنفسِنا عندما عَصينا أمرَك، وإذا لم تَغفِرْ لنا هذا الذَّنْب، وتَرحَمْنا بالرِّضَى عنّا، فسنَكونُ منَ الهالِكين.

{قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [الأعراف: ٢٤]

٢٤- قالَ اللهُ لهما ولإبليس: انزِلوا مِنَ الجنَّةِ إلى الأرضِ ليَكونَ بَعضُكمْ عدوًّا لبعض، ولكمْ في الأرضِ استقرارٌ لمدَّةٍ محدودة، في آجالٍ مَعلومَة.

{قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ} [الأعراف: ٢٥]

٢٥- قالَ اللهُ تعالى: في الأرضِ تَعيشون، وفيها تَموتون، ومنها تُنشَرونَ للبَعثِ والحِساب.

{يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} [الأعراف: ٢٦]

٢٦- يا بَني آدم، لقدْ خلَقنا لكمْ مِنَ الأنعامِ والزَّرعِ ما تجعَلونَ منهُ لباساً يُواري عَوراتِكمْ ويَسترُ أجسادَكم، وريشاً منَ الطيرِ تَتزيَّنونَ به في شُؤونٍ لكم، واعلَموا أنَّ أفضلَ ما تلبَّستُمْ بهِ هوَ التَّقوَى، منَ العملِ الصَّالحِ والبُعدِ عنِ النواهي، وما خلقَهُ اللهُ لكمْ منَ اللِّباسِ هوَ منْ حُجَجِ اللهِ وأدلَّتهِ الدالَّةِ على فَضلهِ ورَحمتهِ بكم، لتَتذكَّروا بذلكَ نعمتَهُ عليكم، وتتَّعِظوا، وتَبتعِدوا عنِ المحرَّمات.

{يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ٢٧]

٢٧- يا بَني آدم، لا يُوْقِعنَّكمُ الشَّيطانُ في الفِتنةِ والمحنَة، بأنْ يوَسوِسَ لكمْ ويحسِّنَ في قُلوبِكمُ الباطِلَ فتُطيعوه، كما فتنَ أبويكمْ آدمَ وحوّاءَ بذلكَ فأخرجَهما مِنْ دارِ النَّعيمِ إلى دارِ التعَبِ والعَناء، وتسبَّبَ في نَزعِ لباسِهما عنهما ليُظهرَ لهما عوراتِهما، وما ذلكَ إلاّ لعَداوةٍ منهُ لجنسِكم، فكونوا على حَذرٍ شَديدٍ منه، فهوَ عدوٌّ خَبيثٌ يأتيكمْ مِنْ حيثُ لا ترونَه، وهوَ وجَماعتهُ وجنودُهُ مِنَ الجِنّ يَرونَكمْ وأنتمْ لا تَروهَم، وقدْ جعَلنا الشَّياطينَ قُرناءَ متمكِّنينَ منْ إضلالِ الكافِرين، فاحذَروهم جميعاً.

{وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٢٨]

٢٨- وإذا فعلَ المشرِكونَ أفعالاً مُنكَرة قَبيحة، كعِبادةِ الأصنام، والطَّوافِ بالبَيتِ عُرياً، قالوا: هكذا وَجدنا آباءَنا يَفعلون، واللهُ أمرَنا بها، فقلَّدوا عنْ جهل، وافترَوا على الله. قُلْ لهمْ أيُّها النبيّ: إنَّ ما تَفعلونَهُ فاحِشَةٌ مُنكَرة، واللهُ لا يأمرُ بعَملِ الفَواحِش(٤٣)، بلْ هوَ سُبحانَهُ يأمرُ بمحاسنِ الأعمال، ويَحُثُّ على مَكارمِ الأخلاق، أتُسنِدونَ إلى اللهِ قولَ ما لم يَقُلْهُ، وما لا تَعلمونَ صِحَّةَ ذلكَ عنه؟!

---

(٤٣) غلبتِ الفاحشـةُ في الأفعالِ الشـديدةِ القبح، وهي التي تنفرُ منها الفطرةُ السـليمة، أو ينشـأُ عنها ضـرٌّ وفسـاد، بحيثُ يأباها أهلُ العقولِ الراجحة، وينكرها أولو الأحلام، ويسـتحيي فاعلُها من الناس، ويُتَسـترُ من فعلِها، مثلُ البغاءِ والزّنى والوأدِ والسّرقة، ثمَّ تنهَى عنها الشرائعُ الحقّة... (التحرير والتنوير).

{قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ} [الأعراف: ٢٩]

٢٩- قُلْ للمُشركِينَ: إنَّ ربِّي يأمرُ بالعَدلِ والاستِقامة.

وتوجَّهوا إلى اللهِ في عِبادتِكمْ عندَ كلِّ صَلاة، وكُونوا مخلِصينَ له، كما أنشأكمْ ربُّكمْ ابتِداءً ولم تَكونوا شَيئاً، فستَعودونَ إليهِ يومَ البَعثِ أحياءً بعدَ أنْ مِتُّمْ وصِرتُمْ عِظاماً، ليُحاسبَكمْ على أعمالِكم، فامتثِلوا أمرَه، وأخلِصوا لهُ العِبادة، حتَّى تَفوزوا.

{فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ} [الأعراف: ٣٠]

٣٠- وبيانُهُ أنَّ هناكَ قِسماً هَداهمُ اللهُ لِما حقَّ لهمُ الهُدَى، بالاستِجابةِ لنداءِ اللهِ ورسولِه، وقِسماً أضلَّهُ الله لِما حقَّ عليهِمُ الضَّلالة، فقدْ أعرَضوا عنِ الحقّ، واتَّجهوا نحوَ الشَّياطينِ وأهلِ الضَّلال، يَطلبونَ منهمُ النُّصرةَ والتأييدَ منْ دونِ الله، وهمْ يظنُّونَ أنَّهمْ على حَقّ!

فسيَعودونَ كما كانوا: فريقُ المؤمنينَ معَ آدمَ وزوجِه، وفريقُ العُصاةِ معَ إبليسَ وقَبيلِه.

{يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأعراف: ٣١]

٣١- يا بَني آدمَ، البَسوا أحسنَ ثيابِكمْ عندَ كلِّ طَوافٍ أو صَلاة، ولا تَكونوا كقَومٍ منَ الجاهليِّينَ الذينَ يَطوفونَ بالبَيتِ عُراة. وفي الحديثِ الصَّحيحِ الذي رَواهُ الترمِذيُّ وغَيرُه: "البَسُوا مِنْ ثيابِكمُ البَياض، فإنَّها مِنْ خَيرِ ثيابِكم...".

وذُكِرَ أنَّ بعضَهمْ كانَ لا يأكلُ دَسَماً أيّامَ الحجّ، ويَكتَفونَ باليَسيرِ منَ الطَّعام، فقالَ تعالَى ما مَعناه: وكُلوا واشرَبوا ممّا طابَ لكم، ولا تَتجاوَزوا ذلكَ بتَحريمِ الحلال، أو بالتعدِّي إلى الحرام، أو بالإفراطِ والشَّرَهِ فيه، فاللهُ لا يُحِبُّ المتعَدِّينَ فيما أحَلَّ أو حرَّم.

{قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٢]

٣٢- قلْ أيُّها الرسُولُ للمُشركِين، وقدْ حرَّموا ما أحلَّ الله: مَنْ حرَّمَ الزِّينةَ التي خلقَها اللهُ لعِبادهِ منَ اللِّباسِ وكلِّ ما يُتَجمَّلُ به، ومَنْ حرَّمَ ما طابَ واستلذَّ منَ المآكلِ والمشارِب؟ قلْ هيَ مخلوقةٌ للمؤمِنينَ لكرامَتِهمْ على الله، ويشارِكُهمْ فيها الكفّار، وهيَ خالصةٌ للمؤمِنينَ يومَ القيامَة، لا يشاركهمْ فيها مَنْ كفرَ وأشرَك.

وهكذا نبيِّنُ هذهِ الأحكامَ لمنْ يَعقِلُ فيَعلَم، ويتدبَّرُ فيَفقَه، ويتَّعِظُ فيَعمَل.

{قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٣]

٣٣- قلْ أيُّها النبيّ: إنَّما حرَّمَ اللهُ ما تَفاحشَ عملهُ واستُنكِر، ممّا ظهرَ منهُ أو خَفِي، وسائرَ الذُّنوبِ والمعاصي التي توجِبُ الإثمَ، وحرَّمَ التعدِّيَ على الناسِ بغَيرِ وجهِ حقّ، وأنْ تَجعلوا للهِ شَريكاً في عبادتهِ ممّا لم يُنزِلْ بهِ حُجَّةً وبُرهاناً، وأنْ تَكذِبوا على الله، فتحرِّموا أشياءَ وتُسنِدوها إليهِ وهي حَلال، أو العكس، ولا علمَ لكمْ بذلكَ أصلاً.

{وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ} [الأعراف: ٣٤]

٣٤- ولكلِّ جيلٍ منَ الأجيالِ أمَدٌ محدود، فإذا جاءَ الوَقتُ المقدَّرُ لفَنائهمْ فإنَّهُمْ لا يتأخَّرونَ عنْ أجلِهمْ ولا يَتقدَّمون؛ فلْتَتنبَّهْ إلى ذلكَ الأمَمُ الغافِلة، ولْتَستَيقظِ الأجيالُ النائمة.

{يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [الأعراف: ٣٥]

٣٥- أيُّها النَّاس، إذا أرسلتُ إليكمْ رسُلاً منْ جنسِكمْ يُخبِرونَكمْ بأحكامي ويبيِّنونَ لكمْ أوامري، فمنْ آمنَ برِسالتِهمْ ولم يُعانِدْهم، وأصلحَ عملَهُ بفِعلِ الطَّاعات، فلا خوفٌ عليهمْ إذا خافَ الناسُ يومَ الحِساب، ولا همْ يَحزَنونَ على ما فاتَهمْ منَ الدُّنيا، فقدْ عوَّضهمُ اللهُ خيراً منها.

{وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [الأعراف: ٣٦]

٣٦- والذينَ جحَدوا بما جاءَ بِهِ رسُلُنا، واستَكبَروا عنِ الإيمانِ بهِ؛ تعالياً واستِهزاءً وعِناداً، فسيَكونونَ مُلازِمينَ النار، ماكثينَ فيها أبداً، جزاءَ تَكذيبِهمْ واستِكبارِهم.

{فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ} [الأعراف: ٣٧]

٣٧- فليسَ هناكَ أظلمُ ممَّن تعمَّدَ الكذِبَ على اللهِ ونسَبَ إليهِ ما لم يقُلْه، أو كذَّبَ بما قالَهُ اللهُ في كتُبِهِ المنزَلة، أولئكَ الذينَ يُصيبُهمْ حظُّهمْ ممّا كُتِبَ لهمْ في اللَّوحِ المحفوظِ منَ الأرزاقِ والآجال، معَ ظُلمِهمْ وافترائهمْ على الله، حتَّى إذا حانَ أجلُهمْ وجاءَتْهُمُ الملائكةُ لقَبضِ أرواحِهم، قالتْ لهم: أينَ هيَ الآلهةُ التي كنتُمْ تَعبُدونَها وتدَّعونَ نُصرتَها؟ ادْعُوهمْ ليُنقِذوكمْ مِنْ عَذابِ الله! قالوا: لقدْ ذَهبوا عنّا وغابوا ولا نَدري أينَ هم، ولم نَعُدْ نَرجُو نَفعَهم. واعترَفوا على أنفسِهمْ وأقرُّوا بأنَّهمْ كانوا على ضَلال، وأنَّهمْ عبَدوا مَنْ لا يَستَحِقُّونَ العبادة، وأنَّهمْ لم يَكونوا آلهةً أصلاً.

{قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٨]

٣٨- قالَ اللهُ لهمْ يومَ القيامَة: ادخلوا النارَ معَ أقوامٍ آخَرينَ منْ أمثالِكمْ مَضَوا مِنَ الجِنّ والإنس، كلَّما دَخلتْ أمَّةٌ منهمُ النارَ لعنَتْ ودعَتْ على نَظيرِها في المعتَقَد، ويلعَنُ القادةُ أتباعَهمْ لأنَّهمْ يَزيدونَهمْ عَذاباً، ويَلعَنُ التابِعونَ مَتبوعِيهمْ لأنَّهمْ كانوا سببَ ضلالِهم وعذابِهم، وهكذا.

حتَّى إذا تلاحَقوا واجتَمَعوا كلُّهم في النَّار، قالتْ آخِرُ أمَّةٍ منهمُ دَخلتِ النار - وهمُ الأتباعُ - لأُولاهُم - وهمُ المتبُوعون، مِن القادةِ والرؤساءِ -: ربَّنا إنَّ هؤلاءِ قدْ دَعَونا إلى الضَّلالِ وصَرَفونا عنِ الهُدَى، فزِدْهمْ ضِعْفَ ما يَستَحِقُّونَ منَ العُقوبةِ بالنَّار.

قالَ اللهُ تَعالَى: إنَّ لكلٍّ منَ الأتباعِ والمتبُوعينَ ضِعْفَ العَذاب، ولكنْ لا تَعلمونَ ما لكلٍّ فريقٍ منْ ذلك. أمّا القادةُ فلأنَّهمْ ضَلُّوا وأضَلوا، وأمّا أتباعُهمْ فلأنَّهم كانوا في ضَلالٍ وتَقليد.

{وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ} [الأعراف: ٣٩]

٣٩- وقالَ القادةُ حينَ سَمِعوا قولَ الأتباع: فقدْ ضَللتُمْ كما ضَلَلنا، وكفرتُمْ كما كفَرنا، فنحنُ في الكُفرِ سَواء، وفي العَذابِ سَواء، وقالوا على سَبيلِ الغَضبِ والتشفّي: فذُوقوا العذابَ جزاءَ ما كسبتُمْ بضلالِكم.

{إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ} [الأعراف: ٤٠]

٤٠- إنَّ الذينَ كذَّبوا بآياتِنا المحْكَمة، وأحكامِنا العَادلة، واستَكبروا عنِ اتِّباعها، واحتقَروها ونَبذوها، فأولئكَ لا تُرفَعُ أعمالُهُمْ للقَبول، ولا تُفْتَحُ أبوابُ السَّماءِ لاستِقبالِ أرواحِهم، ولا يَدخُلونَ الجَنَّةَ يومَ القيامةِ حتَّى يَدخُلَ الجَمَلُ في ثَقْبِ الإبرَة، وهوَ ما لا يَكون. ومثلَ هذا الجزاءِ نَجزي بِهِ الكافِرينَ المجرِمين.

{لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [الأعراف: ٤١]

٤١- نَصيبُهمْ مِنْ جهنَّم أنْ يَكونَ فِراشَهمُ النارُ، ومِنْ فوقِهمْ أغطيةٌ مِنْ نار، فهيَ مُحيطةٌ بهم، ومثلَ هذا الجزاءِ نَجزي بِهِ الكافِرين، الذينَ أضَرُّوا بأنفُسِهمْ عندَما كذَّبوا بآياتِنا واستَكبَروا عنْ قَبولِها.

{وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [الأعراف: ٤٢]

٤٢- والذينَ آمَنوا وأَتْبَعوا إيمانَهُمْ بالأعمالِ الحسنةِ ولم يَستكبِروا، لا نُكَلِّفُ نَفساً إلاّ ما تَقدِرُ عليهِ وتنالُهُ بيُسرٍ وسُهولة، فأولئكَ نَصيبُهمُ الجنَّة، ماكثينَ فيها أبداً.

{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: ٤٣]

٤٣- ونزَعنا ما في قُلوبِ المؤمنينَ أهلِ الجنة مِنْ حِقدٍ وضَغينة، وأزَلنا ما فيها مِنْ حَسَدٍ وبَغضاء، تَجري مِنْ تحتِهمُ الأنهارُ زيادةً في رَفاهيتِهمْ وسُرورِهم، وقالوا بقُلوبٍ شاكرةٍ مؤمِنة: الحمدُ للهِ الذي أرشدَنا ووفَّقنا للفوزِ بهذا النَّعيمِ المقيم، وما كنّا لنَهتديَ بأنفسِنا وجهودِنا لو لم يوفِّقْنا له، لقدْ كانَ حقًّا ما يَقولهُ رُسُلنا عنْ ربّنا منَ الجزاءِ على العَملِ الصَّالحِ والوعدِ بالجنَّة.

ونادتْهُمُ الملائكةُ في تَهنِئةٍ واحتِرام: تلكَ هي الجنَّةُ التي مُنحتِموها برَحمةِ الله، وأُعطيتُموها واقتَسمتُمْ منازلَها بما كنتُمْ تَعمَلونَ مِنَ الأعمالِ الصالحةِ في الدُّنيا، فهَنيئاً لكم.

{وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [الأعراف: ٤٤]

٤٤- ونادَى أصحابُ الجنَّةِ - بعدَ الاستِقرارِ فيها - أصحابَ النارِ، تأنيباً لهمْ وتوبيخاً: لقدْ وجَدنا ما وعدَنا ربُّنا مِنَ النَّعيم والكرامةِ حقًّا وصِدقاً كما بلَّغَنا على ألسِنَةِ رسُلِه، فهلْ وجدتُمْ ما وعدَكمْ ربُّكمْ منَ العَذابِ والهَوانِ حقًّا؟

قالوا: نعم، قدْ وَجدناهُ حقًّا كذلك.

فنادَى مُنادٍ بينَهمْ يُسمِعُ الفَريقين: لعنةُ اللهِ على الكافِرين.

فيَزدادُ بذلكَ أصحابُ الجنَّةِ سُروراً، وأصحابُ النارِ حُزناً وغَمًّا.

{الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ} [الأعراف: ٤٥]

٤٥- إنَّهمْ الكافِرونَ الذينَ يَصرِفونَ الناسِ عنْ دينِ اللهِ كما يُعرِضونَ همْ عنه، ويَطلبونَ إمالتَهُ إلى الباطلِ ويَذُمُّونَهُ ولا يُريدونَهُ كما هو، وهمْ لا يؤمنونَ بالبَعثِ والحِساب.

{وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ} [الأعراف: ٤٦]

٤٦- وبينَ الجنَّةِ والنارِ حاجِزٌ، وهوَ السُّورُ المضروبُ بينَهما {فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ} [سورة الحديد: ١٣] يمنَعُ وصولَ أحدِ الفَريقَينِ مِنْ أهلِهما إلى الآخَر، وعلى أعالي هذا السُّورِ قومٌ استوَتْ حسناتُهُمْ وسيِّئاتُهم، يَنتَظِرونَ أنْ يَقضيَ اللّهُ فيهِمْ بما يَشاء، ثمَّ يُدخلهمُ الجنَّةَ برحمتِه. هؤلاءِ القومُ يَعرِفونَ أهلَ الجنَّةِ وأهلَ النار بعلاماتِهمُ المميَّزة، فيُنادُونَ أهلَ الجنَّةِ في تحيَّةٍ وإكرام: سلامٌ عليكم. وهمْ لم يَدخلوا الجنَّةَ بعد، ولكنَّهمْ يطمَعونَ برحمةِ اللهِ ليَدخُلوها، فيكونُ لهمْ ذلك.

{وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأعراف: ٤٧]

٤٧- وإذا حُوِّلتْ أبصارُ أهلِ الأعرافِ إلى جِهةِ أصحابِ النَّار، ورأوا ما همْ فيهِ مِنْ عَذابٍ ونَكال، قالوا مُتَعوِّذينَ بالله: ربَّنا لا تجمَعْنا معَ هؤلاءِ الكفّارِ الظالمينَ في النَّار.

{وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ} [الأعراف: ٤٨]

٤٨- ونادَى أهلُ الأعرافِ رجالاً منْ رؤساءِ الكُفرِ وعُظماءَ كانوا في الدُّنيا، يَعرِفونَهُمْ في النَّارِ بعلاماتِهم: لم يُفِدْكمْ ولم يُسعِفْكُمْ ما جَمعتُموهُ في الدُّنيا مِنْ مالٍ وأولادٍ وأتباعٍ وأنصار، وما كنتُمْ تَتعالَونَ بهِ منِ اتِّباعِ الحقِّ والإذعانِ للإسلامِ، وصِرتُمُ الآنَ في العَذابِ دونَ أنْ يَصحَبَكُمْ شَيءٌ مِنْ ذلك.

{أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ} [الأعراف: ٤٩]

٤٩- وقالوا للكافِرينَ أيضاً: أهؤلاءِ الضُّعفاءُ والفُقَراءُ مِنْ أهلِ الجنَّةِ الذينَ كنتُمْ تَحتَقِرونَهُمْ وتَستهزِؤونَ بهِمْ، وتُعَذِّبونَهُمْ وتَحرِمونَهُمْ مِنْ حُقوقِهم، وتَحلِفونَ أنْ لا حظَّ لهمْ مِنْ رحمةِ اللهِ أو خَيرٍ يُصيبُهم، وأنَّهمْ ليسوا أهلاً للجنّةِ حتَّى يَدخُلوها؟

ثمَّ يُقالُ لأهلِ الأعراف، أو للضُّعَفاء: ادخُلوا الجنَّةَ برحمَتي، غيرَ خائفينَ ولا محزُونين.

{وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ} [الأعراف: ٥٠]

٥٠- ونادَى أهلُ النَّارِ – وهمْ في الجَحيمِ تُسَعَّرُ بهمُ النار – أصحابَ الجنَّة، وهمْ في النَّعيمِ مُتَلذِّذون: صُبُّوا علينا شَيئاً مِنَ الماء، أو ممَّا رزقَكمُ اللهُ مِنْ طَعامِ الجنَّة، فيقولونَ لهم: إنَّ اللهَ حرَّمَ ماءَ الجنَّةِ وطعامَها على الكافِرين.

قالَ سعيدُ بنُ جُبيرٍ رحمَهُ اللهُ في هذهِ الآية: يُنادي الرجلُ أباهُ أو أخاهُ فيقول: قدِ احتَرقتُ، أفِضْ عليَّ منَ الماء. فيُقالُ لهم: أجيبُوهم. فيقولون: إنَّ اللهَ حرَّمَهُما على الكافِرين.

{الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} [الأعراف: ٥١]

٥١- همُ الكافِرون، الذينَ اتَّخَذوا دينَ اللهِ الذي أُلزِمو باتِّباعه، هُزْءاً وسُخريَة، بدلَ أنْ يَستقبِلوهُ بصدْقٍ وجِدّ، فاستحلُّوا وحرَّموا كما تُملي عليهمْ أهواؤهم، واغترُّوا بزينةِ الدُّنيا، وشَغلتهُمْ شهواتُها وزَخارِفُها عنِ الآخِرَة، فأعرضوا عنها ونَسُوها، واليومَ نَتركهُمْ في العَذابِ ولا نلتَفِتُ إليهم، ونعامِلُهمْ معاملةَ مَنْ نَسِيَهم، مثلما نَسُوا همْ لقاءَ هذا اليومِ العَظيم، ومثلما أنكَروا آياتِنا العَظيمةَ في الحياةِ الدُّنيا، وهي حُجَجُ اللهِ التي احتجَّ بها عليهم، من الأنبياءِ والرسلِ والكتبِ وغيرِ ذلك، فكانتْ حُجَّةً عليهم.

{وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ٥٢]

٥٢- وقدْ أنزَلنا القُرآنَ وبيَّنا معانيهِ مِنَ العقائد، وفصَّلنا أحكامه، معَ ما فيهِ مِنْ مَواعظَ وقَصَص، ووَعدٍ ووَعيد، ونحنُ على عِلمٍ بوجهِ تَفصِيله، فجاءَ مُحكَماً مُبيَّناً وحُجَّةً على الكافِرين، وهِدايةً إلى الحقّ، وخَيراً وسَعادةً للمؤمِنين.

{هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} [الأعراف: ٥٣]

٥٣- إنَّ الكافِرِينَ الذينَ لا يُؤمِنونَ بالقُرآن، لا يَنتظِرونَ سِوَى ما أخبرَ بهِ مِنَ العَذاب، فهوَ ما يَؤولُ إليه، وهوَ بيانُ صِدقهِ بظُهورِ ما أخبرَ بهِ منَ الوَعدِ والوَعيد، وعِندما يأتي هذا التأويلُ الرَّهيب، وهوَ يومُ القيامة، يقولُ الذينَ تركوهُ وراءَ ظُهورهِمْ وأعرَضوا عنهُ عندَما كانوا في الدُّنيا: لقدْ تبيَّنَ أنَّ رُسُلَ اللهِ الذينَ كنَّا نستَهزئُ بهمْ ونُحارِبُهمْ قدْ جاؤوا بالحقّ، فهلْ لنا مِنْ أولياءَ ونُصراءَ يتوسَّلونَ لنا لنتخلَّصَ مِنْ هذا العَذاب، أو نُرَدُّ إلى الدُّنيا فنؤمِنَ ونُطيعَ ونعملَ صالحاً، ولا نكذِّبَ بآياتِ ربِّنا.

لقدْ خَسِروا أنفسَهُمْ عندَما رفَضوا الحقَّ فعرَّضوها للهَلاكِ والعَذاب، وذهبَ عنهمْ ما اتَّخذوهُ مِنْ آلهةٍ وشُركاءَ لله، ولم تَنفَعْهُمْ شَيئاً.

{إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ٥٤]

٥٤- إنَّ خالِقَكُمْ ومالِكَكُمْ هوَ الإلهُ الذي خلقَ السَّماواتِ السبعَ والأرضَ في ستَّةِ أيام.

قال سعيدُ بنُ جبيرٍ رحمَهُ الله: كانَ اللهُ عزَّ وجلَّ قادِراً على خَلقِ السَّماواتِ والأرضِ في لمحةٍ ولحظَة، فخَلقهُنَّ في ستَّةِ أيام، تعليماً لخلقهِ التثبُّتَ والتأنِّيَ في الأمور.

ثم استوَى ربُّنا على العَرْش، على الوجهِ الذي عَناه، كما يَليقُ بجلالهِ سُبحانَه.

ثمَّ يأتي اللَّيلُ على النَّهارِ شَيئاً فشَيئاً حتَّى يُغطِّيَهِ بظلامِه، وكذا يَفعَلُ النهارُ باللَّيلِ بضِيائه، وكلٌّ منهما يَطلُبُ الآخَرَ طَلباً سَريعاً وكأنَّهُ يتعقَّبه، ليَخْلُفَه، فيَجيءُ هذا ويَذهبُ ذاك، وهكذا باستِمرار.

وخلقَ اللهُ الشمسَ والقمر، والنجوم، وكلُّها مُذَلَّلاتٌ بأمرِه، لا يَمتَنِعُ عليهِ شَيءٌ ممّا خَلَق. فلهُ الخَلْقُ لأنَّهُ خالِقُها ومالِكُها، ولهُ الأمرُ لأنَّهُ يُدَبِّرُها ويَتصرَّفُ فيها بما يَشاء، فتعالَى اللهُ وتمَجَّدَ مالكُ الخلقِ أجمَعين.

{ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [الأعراف: ٥٥]

٥٥- ادعوا ربَّكمْ واسْألوهُ في تذلُّلٍ وخُضوع، وفي السرِّ وبخَفضِ الصَّوتِ؛ ففي ذلكَ استِكانةٌ وخُشوعٌ وإخلاص، واللهُ لا يُحِبُّ المتَجاوِزينَ الحدَّ، في الدُّعاءِ وغيرِه، فلا تَطلُبوا ما لا يَحِقُّ لكم، ولا يَليق، ولا يَصلُح، أو ما يَستَحيلُ حصولُه، أو أنْ تَدعوا بمَعصِيةٍ...

{وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: ٥٦]

٥٦- ولا تُفسِدوا في الأرضِ بالمعَاصي والتعدِّي على حُقوقِ الناسِ، وتَغييرِ الأنساب، والكذبِ على الله، وسائرِ أنواعِ الفَساد، بعدَ أنْ أصلحَها اللهُ ببَعثِ الرسُل، والشَّريعةِ المحكَمة. وادعوهُ خوفاً منْ غضَبِهِ وعِقابِه، وطمَعاً في رَحمتِهِ ومَغفِرَتِهِ وثَوابِه، فإنَّ ثوابَ اللهِ قَريبٌ مِنْ عِبادهِ المتَّبعِينَ لأمرِه، الخائفينَ مِنْ عذابِه.

{وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الأعراف: ٥٧]

٥٧- وهوَ اللهُ الذي يَبعَثُ الرياحَ مُبَشِّرةً بالمطَر، حتَّى إذا حملتِ الرِّياحُ الغيمَ المثقَّل ببُخارِ الماء، دَفَعناهُ إلى بلدٍ مُجدِبٍ لا نباتَ فيه، فأنزلنا بِهِ المطَر، فأنبَتنا بِهِ النَّباتَ والشجَر، وأخرَجنا الثَّمراتِ مِنْ كلِّ أنواعِها، وكما نُحيي الأرضَ بعدَ موتِها، فكذلكَ نُحيي الأجسادَ بعدَ أنْ تَصيرَ رَميماً، لتَعلموا أنَّ الذي يَقدِرُ على هذا، قادرٌ على ذاك، وهو القادِرُ على كلِّ شَيء.

{وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ} [الأعراف: ٥٨]

٥٨- والأرضُ الكريمةُ الطيِّبةُ يَخرجُ نباتُها حَسَناً غزيرَ النَّفع، بمشيئةِ اللهِ وتَيسيره، والأرضُ الخبيثة، كالسِّباخِ ونحوِها، لا يَخرُجُ نباتُها إلاّ قَليلاً وما لا خيرَ فيه. كذلك نبيِّنُ الآياتِ الباهِرَةَ(٤٤) التي تدلُّ على قُدرةِ الله، ونكرِّرُها، لمنْ يفكِّرُ فيها، ويَعتبرُ منها، فيَشكرُ اللهَ على نِعَمِه.

---

(٤٤) نبيِّنُ آيةً بعدَ آية، ونُدلي بحجَّةٍ بعدَ حجَّة، ونضربُ مثَلاً بعدَ مثَل. (الطبري).

{لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الأعراف: ٥٩]

٥٩- ولقدْ أرسَلنا نوحاً نبيًّا مِنْ عندِنا إلى قَومِه، وقدِ انتَشرَتْ بينهمْ عبادةُ الأصنام، وكانوا في بِلادِ العِراق، فقالَ لهمْ مُنَبِّهاً ومُحَذِّراً: أيُّها القوم، اعبُدوا اللهَ وحدَهُ ولا تُشرِكوا به شَيئاً، فليسَ لكمْ إلهٌ يَستَحِقُّ العِبادةَ غيرُه، فإذا أصرَرتُمْ على عبادةِ الأوثانِ ولم توَحِّدوا ربَّكمْ وتَعبدوه، فإنِّي أخشَى أنْ يُصيبَكمْ عَذابٌ منهُ عَظيم.

{قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ} [الأعراف: ٦٠]

٦٠- قالَ الرؤساءُ والكُبراءُ مِنْ قومِه: إنَّا نَراكَ بَعيداً عنِ الحقِّ عندَما تَدعُونا إلى تركِ عِبادةِ الأصنام، فعلى هذا كانَ آباؤنا مُقيمين، ولا نُصَدِّقُ نبوَّتك.

{قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ٦١]

٦١- قالَ لهم: يا قوم، ما أنا بضالٍّ عنِ الحقّ، ولكنِّي رسولٌ مَبعوثٌ مِنْ قِبَلِ ربِّكمْ وربِّ الناسِ أجمَعين.

{أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٦٢]

٦٢- أبلِّغكمْ ما أمرَني اللهُ بتَبليغهِ إليكم، وأنا ناصِحٌ لكمْ بأمانةٍ وإشفاق، فأتحرَّى ما فيهِ خيرُكمْ وصلاحُكم، وأرغِّبُكمْ في قَبولِ أوامرِه، وأحذِّرُكمْ مِنْ نَواهيه، حتَّى لا يُصيبَكمْ عِقابُه، وأنا أعلمُ أشياءَ لا علمَ لكمْ بها، فاتَّقوا ربَّكم، واسمَعوا نَصيحَتي، ولا تكونوا مِنَ الكافِرينَ المتكبِّرين.

{أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف: ٦٢]

٦٣- ولماذا تَتعجَّبونَ وتَستبعِدونَ مجيءَ مَوعظةٍ وبيانٍ مِنْ ربِّكم، يُوحي بهِ على رَجُلٍ مِنْ جنسِكم، ليُحَذِّرَكمْ منَ العَذابِ والهلاكِ إذا عَصيتُم، ولتتَّقوا بذلكَ نقمتَه، وليَرحمَكمْ ويُحسِنَ إليكم إذا آمنتُمْ واتَّقيتُم؟!.

{فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ} [الأعراف: ٦٤]

٦٤- لكنَّهمْ استكبَروا عنْ طَاعةِ رَسولِهِمْ وكذَّبوه، وأصرُّوا على كُفرِهم، على الرَّغمِ منَ المدَّةِ الطويلةِ التي دعاهُمْ فيها إلى دينِ الله، فأنجيناهُ مِنْ بينِهم، هوَ ومَنْ آمنَ معَهُ في السَّفينة، منَ الطُّوفانِ العارم، وأغرَقنا جميعَ مَنْ كذَّبوه، ولقدْ كانوا عُمياً عنِ الحقّ، لا يَهتدونَ إلى الإيمان.

{وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ} [الأعراف: ٦٥]

٦٥- وأرسَلنا إلى قَبيلةِ عادٍ الأُولى أخاهُمْ في النسَبِ هوداً، وكانوا بالأحقاف، بين عُمانَ والربعِ الخالي واليمن، وآثارُهمْ مازالتْ موجودةً في عُمان، فقالَ لهمْ نبيُّهم: يا قوم، اعبُدوا اللّهَ وحدَه، ولا تُشرِكوا بهِ شَيئاً، فليسَ لكمْ إلهٌ غيرُ الله، أفلا تخافونَ أنْ يُصيبَكمْ بعَذابٍ مِنْ عندِه؟.

{قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} [الأعراف: ٦٦]

٦٦- قالَ الكافِرونَ مِنْ كُبراءِ قومِهِ وسادتِهم، وكانوا مِنْ أشدِّ الأقوامِ تَكذيباً وعِناداً: يا هُود، إنَّنا نَراكَ في حُمْقٍ وجَهالة، حيثُ تُفارِقُ دينَ آبائكَ وتَدعو إلى دينٍ لا نَعرِفُه، ونحنُ نظنُّ أنَّكَ تكذِبُ بادِّعائكَ الرِّسالة.

{قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ٦٧]

٦٧- قالَ لهمْ هودٌ عليهِ السَّلام: يا قوم، لستُ في جَهالةٍ وضَلالةٍ كما تَزعُمون، ولكنِّي مُرسَلٌ إليكمْ مِنْ ربِّ العَالمين، ورُسُلهُ متَّصِفونَ بالرُّشدِ والصِّدْق، والأمانةِ والنُّصْح، والبَلاغةِ والبَيان.

{أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ} [الأعراف: ٦٨]

٦٨- أبلِّغُكمْ ما أمرَني اللهُ بتَبليغهِ إليكم، وأنا أنصحُكمْ بأمانةٍ وإخلاص، لا أكذِبُ على الله، ولا أكذِبُ عليكم، فلماذا تتَّهمونَني بالجَهلِ والسَّفَه؟

{أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الأعراف: ٦٩]

٦٩- ولماذا تَتعجَّبونَ وتَستَبعِدونَ مجيءَ رَسولٍ إليكمْ مِنْ ربِّكمْ يَكونُ مِنْ بينِكم، يَعرِفُكمْ وتَعرِفونَه، فيُحَذِّرُكمْ بأسَهُ إذا أعرضتُمْ عنْ أمرِه، وأصررتُمْ على الكُفرِ والعِصيان. واذكروا فضلَ اللهِ عليكمْ واشْكروا نعمتَه، وقدْ جعلَكمْ خُلفاءَ ومُلوكاً بعدَ قَومِ نوح، وقدْ أهلكَهمْ لتَكذيبِهمْ رسولَ ربِّهم، فلا تَكونوا مثلَهم. واشكروهُ كذلكَ أنْ ميَّزَكمْ في أجسادِكمْ على الناسِ بالطُّولِ والقوَّة، فتذكَّروا نِعمَهُ ومِنَنهُ عليكمْ وكُونوا لهُ منَ الشَّاكرين، لتكونوا عندَهُ مِنَ الفائزين.

{قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [الأعراف: ٧٠]

٧٠- قالوا في تحدٍّ وعِناد: هلْ أُرسِلْتَ إلينا منْ قِبَلِ ربِّكَ لنَعبدَهُ وحدَهُ ونترُكَ ما كانَ يَعبدهُ آباؤنا وأجدادُنا مِنْ أصنامٍ وألِفْنا ذلكَ ورَضِينا به؟ فإذا كنتَ صادقاً في قولِكَ فأتِنا بالعَذابِ الذي وعدتَنا به!

{قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ} [الأعراف: ٧١]

٧١- قالَ لهمْ نبيُّهمْ هُود: لقدْ وجَبَ عليكمْ منَ اللهِ السُّخْطُ والغَضَب، والعَذابُ والانتِقام، أتخاصِمُونَني وتُجادِلونَني في هذهِ الأسماءِ التي وضعتُموها للأصنامِ أنتُمْ وآباؤكمُ المشرِكون، وجعلتُمْ منها آلهة، وهوَ ما لم يُنْزِلِ اللهُ بهِ حُجَّةً ولا دَليلاً؟

قيلَ إنَّهُمْ سمَّوها خالِقة، ورازِقة، ومُنزِلةَ المطر، ونحوَ ذلك.

فانتَظِروا نزولَ العَذابِ بكمْ كما طَلبتُموه، وأنا مُنتَظِرٌ معكمْ ليَحيقَ بكمْ ويُهلِككم.

{فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ} [الأعراف: ٧٢]

٧٢- فوقعَ العَذابُ المترَبِّصُ بهم، وأنجَينا هوداً ومَنْ مَعه منَ المؤمِنينَ رأفةً بهم، وأهلَكنا الكافرينَ الذينَ كذَّبوا رَسولَنا واستكبَروا عنِ الإيمانِ بآياتِنا، واستأصَلناهمْ عنْ آخِرِهم، ولم يؤمِنوا كما آمنَ غيرُهمْ ليَنجوا، بلْ أصرُّوا على الكُفرِ والتَّكذيب.

{وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الأعراف: ٧٣]

٧٣- وأرسَلنا إلى قَبيلةِ ثمودَ أخاهُمْ في النسَبِ النبيَّ صالحاً عليهِ السَّلام، وكانوا فيما بينَ الحجازِ والشَّام (مدائنَ صالحٍ في بلادِ الحرَمَينِ في عَصرِنا)، فقالَ لهمْ وقدْ كفَروا وأشرَكوا: يا قوم، اعبُدوا اللهَ وحدَهُ ولا تُشرِكوا في عبادتِهِ أصناماً لا تَنطِقُ ولا تَسمَع، ليسَ لكمْ منْ إلهٍ غيرُ الله، وهذهِ مُعجِزَةٌ خارِقةٌ تَدُلُّ على صِدقِ نبوَّتي وإرسالي إليكمْ منْ قِبَلِ ربِّكم، هذهِ ناقةُ اللهِ - قيلَ ذلكَ تعظيماً لها وتشريفاً، وقدْ جاءتْ منْ عندِ اللهِ ولم يَملِكْها أحَد - فاترُكوها تأكلِ العشبَ في أرضِ اللهِ الواسِعة، ولا تمدُّوا أيديَكمْ إليها بأذًى وشَرّ، كذَبحٍ أو ضَرْب، حتَّى لا يُصيبَكمُ اللهُ بعَذابٍ مِنْ عندِه.

{وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [الأعراف: ٧٤]

٧٤- وتذكَّروا فَضلَ اللهِ عليكم، حيثُ جعلَكمْ خُلفاءَ في الأرضِ منْ بعدِ قَومِ عاد، وأنزلَكمْ في أرضِ الحِجْر، بينَ الحِجازِ والشَّام، تَبنونَ المساكنَ العاليةَ في سُهولِها، وتَنقُبونَ الجبالَ وتَنحِتونَ منها البُيوتَ لتَسكُنوا فيها شِتاء، فتذكَّروا النِّعمَ التي قدَّرَكمُ اللهُ عليها، ولا تُفسِدوا في الأرضِ(٤٥) فتَكونوا أشراراً مستَحقِّينَ العِقاب.

{قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ٧٥]

٧٥- قالَ السَّادةُ والأشرافُ الذينَ تَكبَّروا منْ قَومِ صالح، ممَّنْ لم يَسمَعوا نصيحتَه، واستهزَؤوا بالمعجِزةِ التي أيَّدتْ نُبوَّته؛ قالوا لأتباعهِ منَ المؤمِنينَ الضُّعفاءِ في سُخريةٍ وتَهكُّم: هلْ أنتُمْ متأكِّدونَ مِنْ أنَّ صالحاً نبيٌّ مُرسَلٌ منْ عندِ اللهِ إليكم؟ قالوا: نحنُ مؤمِنونَ بذلك، ولا شُبهةَ عندَنا فيه.

{قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} [الأعراف: ٧٦]

٧٦- قالَ لهمُ الكافِرونَ المستَكبِرونَ في عتوٍّ وجَلافة: ونحنُ نَجحَدُ بالذي آمنتُمْ به، ولا نسلِّمُ مثلَكمْ بنبوَّته.

{فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} [الأعراف: ٧٧]

---

(٤٥) قالَ العلّامة الشوكاني عند تفسيرهِ الآيةَ (٦٠) من سورةِ البقرة: عثَى يعثي عثيًا، وعثا يعثو عثواً، وعاثَ يعيثُ عيثاً، لغات، بمعنى أفسد... وفي الكشاف: العثي: أشدُّ الفساد، فقيل لهم: لا تمادوا في الفسادِ في حالِ فسادكم؛ لأنهم كانوا متمادين فيه. (فتح القدير، باختصار).

٧٧- فنَحروا الناقَة، واستَكبَروا عنِ الامتِثالِ لأمرِ ربِّهمُ الذي بلَّغَهمْ نبيُّهم، ثمَّ وقَفوا في تحدٍّ وتَعجيزٍ أمامَ تهديدِهِ قائلين: يا صالح، ائتِنا بالعَذابِ الذي وعدتَنا به، إذا كنتَ حقًّا نبيًّا مُرسَلاً.

{فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [الأعراف: ٧٨]

٧٨- فأهلكَهمُ اللهُ بزَلزَلةٍ شَديدةٍ مِنْ تحتِهم، وصَيحةٍ قويَّةٍ مِنْ فَوقِهم، فأصبَحوا في ديارِهِمْ خامِدين، موتَى هامِدين، لا حَرَاكَ بهم، ولا حِسَّ فيهم.

{فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ} [الأعراف: ٧٩]

٧٩- فأعرضَ عنهمْ صالحٌ وهوَ مُتَحسِّرٌ على ما فاتَهمْ منَ الإيمان، وخاطَبَهُمْ كما خاطبَ رسولُنا صلى الله عليهِ وسلم موتَى المشرِكينَ في غَزوةِ بدر: يا قوم، لقدْ أبلغتُكمْ رسالةَ ربِّي كما طَلَبَ منِّي، وكانَ فيها فوزُكمْ ونجاتُكمْ لو أطعتُمْ ولم تُعانِدوا، ونَصحتُكمْ كما ينبغي، وأنا مُشفِقٌ عليكم، ووددْتُ لو آمنتُمْ عنْ آخِرِكم، ولكنَّكمْ لا تَوَدُّون الناصِحين، وتُعادونَ المخلِصين، فكانَ هذا جزاءَكم، وفي الآخِرةِ عذابٌ أشدُّ وأبقَى.

{وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ٨٠]

٨٠- وقدْ أرسَلنا لوطاً نبيًّا منْ عندِنا إلى قومِه، وكانوا حولَ البَحرِ الميِّت بفلسطين، فقالَ لهمْ مُستَنكِراً: أتأتونَ فاحشةً بَغيضةً مُنكَرةً لم يَسبِقْكمْ بها أحدٌ منَ العالَمين؟

{إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ} [الأعراف: ٨١]

٨١- إنَّكم تأتونَ الذُّكورَ منَ الرِّجالِ في أدبارِهمْ لشَهوتِكمْ وتَترُكونَ ما خلقَ اللهُ لكمْ منَ النِّساءِ وهنَّ محلُّ الاشتهاءِ عندَ ذوي الفِطَرِ السَّليمةِ والطِّباعِ المستَقيمة؟ لا شكَّ أنَّكمْ مُتجاوزونَ بذلكَ الحلالَ إلى الحرام، والمستَحْسَنَ إلى المرْذول، والمعرُوفَ إلى المنكَرِ المستَهجَن.

فاللِّواطُ فِعلٌ فاحِشٌ بَذيء، فيهِ فسادُ الفِطرةِ، وانحلالُ الخُلق، وسوءُ السُّلوك، وانحِرافُ الرُّجولة. ويسبِّبُ أمراضاً خَطيرة، مثلَ الزُّهْرِيّ، وقُصورِ الجهازِ المناعي عنْ أداءِ وظيفتِه، فيُصبِحُ الجسمُ ضَعيفاً عاجِزاً عنْ مقاومةِ أنواعٍ كثيرةٍ منَ العدوَى، معَ أمراضٍ أخرى...

{وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} [الأعراف: ٨٢]

٨٢- وما كانَ جوابَ المستَكبِرينَ مِنْ قومِه، إلاّ أنْ قالَ بعضُهمْ لبَعض، وقدْ أبَوا نَصيحةَ نبيِّهِمْ وأعرَضوا عنْ رسالتِه: أخرِجوا لوطاً ومَنْ تَبِعَهُ منْ بلدتِكُمْ هذه، وقالوا في سُخريةٍ وتهكُّم: إنَّهُمْ يَتطهَّرونَ منَ الفواحِش، ويَتنَزَّهونَ عن اللِّواط، ويَتقَذَّرونَ ما نَرغَبُ فيه.

{فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} [الأعراف: ٨٣]

٨٣- فأنجينا لوطاً وأهلَهُ الذينَ آمَنوا به، إلا امرأتَه، التي بَقيتْ على دِينِ قومِها، فكانتْ منَ الباقينَ معَهم، وقدْ هَلَكوا جميعاً.

{وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ} [الأعراف: ٨٤]

٨٤- فكانَ جزاءُ عِصيانِهِمْ وإصرارِهِمْ على هذه الفاحِشَةِ المنكَرة، أنْ {أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ} [سورة الحِجر: ٧٤]، فانظُر، وتأمَّل، واعتَبِر، عاقبةَ هؤلاءِ المجرِمين، ولْيَحْذَرْ غَضَبَ اللهِ وعُقوبتَهُ يومَ الدِّينِ مَنْ فعلَ هذا الفِعلَ المستَقذَر.

{وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [الأعراف: ٨٥]

٨٥- وأرسَلنا إلى قَبيلةِ مَدْيَن - وهوَ اسمُ مدينةٍ أيضاً، قُربَ مَعَان - أخاهُمْ في النسَبِ شُعَيباً، فقالَ لهمْ ناصِحاً ومُحَذِّراً: يا قَوم، اعبُدوا اللهَ وحدَه، ولا تُشرِكوا في عِبادتهِ أحداً مِنْ أصنامِكمُ التي تَزعُمونَ أنَّها آلهة، فإنَّهُ لا إلهَ لكمْ غيرُ الله، وقدْ جاءَتكمْ آيةٌ بيِّنة، ومُعجِزةٌ ظاهِرةٌ مِنْ ربِّكم،

تدلُّ على صِدقِ رِسالتي إليكم، فاسمَعوا التَّوجيهاتِ الربَّانية، والنصائحَ النبويَّة، التي تأخذُ بيدكمْ إلى السَّعادةِ والنَّجاة:

أتِمُّوا المِكيالَ ولا تَنقُصوا مِنْ مَقاديرِ مَقاييسِ الوَزنِ والكَيْل، واعدِلوا في وَزنِ الميزان، ولا تَنقُصوا الناسَ حقوقَهم، ولا تَخونُوهمْ في أموالِهمْ ومُبايعاتِهمْ خُفْيَةً وتَدليساً.

ولا تُفسِدوا في الأرضِ بالكفرِ والظُّلم، والتحايلِ والخيانة، بعد إصلاحِ أمرِها وأهلِها بالشَّرائعِ الربّانية، فإنَّهُ خيرٌ لكمْ وأفضلُ لمجتَمعِكمْ وأهليكمْ منَ الظُّلمِ والفسادِ الذي أنتمْ فيه، هذا إذا تدبَّرتمْ ما أقولُ ووَعيتُموهُ وآمنتُمْ بأنَّهُ الأحسَنُ والأَولى.

{وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [الأعراف: ٨٦]

٨٦- وقالَ شُعيبٌ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ أيضاً وهوَ يَعِظُ قومَهُ، وكانَ يُسمَّى خطيبَ الأنبياء، لفَصاحةِ عبارتِه، وجَودةِ حوارِه، ومهارتِهِ في الحديث: ولا تَقعُدوا بالطرُقِ تخوِّفونَ النَّاسَ وتُهَدِّدونَهمْ بالقَتلِ والأذَى، وتَمنعونَ الناسَ عنْ دينِ الله، وتَقولونَ إنَّ شُعيباً كذَّابٌ فلا يَصرِفنَّكمْ عنْ دينِكم، وتتوعَّدون الذينَ آمنوا بهِ بافتِتانِهمْ عنْ دِينِهم، وتَبغونَ مِنْ دِينِ اللهِ المَيَلانَ والعُدولَ عنِ الحقِّ ليوافِقَ أهواءَكم.

وتَذكَّروا كيفَ أنَّكمْ كنتُمْ قِلَّةً مُستَضعَفين، فوهبَكمُ الذريَّةَ وزادَ منْ عددِكمْ حتَّى صِرتُمْ كُثُراً.

وتَفكَّروا واعتَبِروا بمَنْ كانَ قبلَكمْ مِنْ قَومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ ولوط، وما حلَّ بهمْ منَ العَذابِ نَتيجةَ فسادِهمْ وعِصيانِهمْ وتكذيبِهمْ رُسُلَهم.

{وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} [الأعراف: ٨٧]

٨٧- وإذا كانَ مِنكمْ جماعةٌ قدِ اهتَدَوا وآمَنوا وصدَّقوا برِسالتي إليكم، وجماعةٌ أخرَى ضلُّوا وكفَروا وأبَوا أنْ يُصَدِّقوني، فانتَظِروا - جماعةَ الكفّارِ - وتربَّصوا، حتَّى يَفصِلَ اللهُ بينَنا وبينَكم، وستَرونَ حينئذٍ حُكمَهُ العادِل، وكيفَ أنَّهُ يَنصُرُ المحِقَّ ويَخذُلُ المبطِل، وهوَ سبحانَهُ أعدَلُ الحاكِمين.

سورة الأعراف (٨٨–٢٠٦)

سورة الأنفال (١–٤٠)

{قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ} [الأعراف: ٨٨]

٨٨ ـ قالَ السَّادةُ الزعماءُ الذينَ استَكبَروا عنْ قَبولِ الحقّ مِنْ قَومِ شُعَيب: سوفَ نُخرِجُكَ يا شُعَيبُ أنتَ ومَنْ آمنَ معكَ مِنْ بلدِنا، حتَّى لا تُزعِجَنا برسالتِك، أو لنُكرِهنَّكمْ على الرجوعِ إلى ما نحنُ عليهِ مِنْ دينِ آبائنا.

قالَ لهمْ شُعَيبٌ عليهِ السَّلام: حتَّى لو كنّا كارهينَ الشِّركَ والكُفر، مُبغِضينَ الظلمَ والفسَاد؟

{قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} [الأعراف: ٨٩]

٨٩ ـ إنَّنا نَكونُ كذَبنا على اللهِ كَذِباً عَظيماً إذا رجَعنا إلى مِلَّتكمْ وأشرَكنا معَ الله، بعدَ أنْ خلَّصَنا اللهُ منها ومِنْ ظُلماتِها، وعَلِمنا بُطلانَها عنْ طَريقِ رَسولِه، ولا يَحِقُّ لنا ولا يُعقَلُ أنْ نَعودَ في الكفر، إلا حالَ مَشيئةِ اللهِ لعَودِنا في حالِ انتِكاسِنا وخِذلانِنا. وهذا كلامُ أصحابِ شُعَيبٍ عليهِ السَّلام.

وقد أحاطَ اللهُ عِلماً بأحوالِ عِبادِه، فهوَ يَعرِفُ نيّاتِهم وظواهرَهم، ومَنْ يَنوي الخيرَ ونَقيضَه، قدْ فوَّضنا أمرَنا إلى الله، واعتمدْنا عليهِ في أمورِنا كلِّها.

اللهمَّ إنَّا نسألُكَ أنْ تَفصِلَ بينَنا وبينَ قومِنا الذينَ أبَوا دينَك، وعتَوا وعانَدوا وظَلموا، فأنتَ الحقّ، وأنتَ خيرُ مَنْ قضَى وحكَم.

{وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ} [الأعراف: ٩٠]

٩٠. ثم أصَرُّوا واستَكبَروا، وتمادَوا في الغَيِّ والضَّلال، وقَالَ لَهُمْ أشرافُهمْ ورُؤسَاؤُهم، بعدَ أنْ رأوا ثباتَ النبيّ شُعَيبٍ والمؤمِنينَ معه: إنَّكم إذا اتَّبعتُمْ شُعَيباً وفارقتُمْ دينَ آبائكم، فإنَّكمْ خاسِرونَ مَغبونون.

{فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [الأعراف: ٩١]

٩١ . فزَلزَلَ اللهُ الأرضَ مِنْ تحتِهِمْ وأهلكَهمْ أجمَعين، وصاروا موتَى خامِدين؛ لا أثرَ للحياةِ والحركةِ فيهم.

{الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: ٩٢]

٩٢ . وصارَ هؤلاءِ الذين كذَّبوا النبيَّ شُعَيباً وأصابَهمُ الهَلاك، كأنَّهمْ لم يُقيموا في ديارِهِمْ ولم يعمِّروها، لِمَا أصابَهمْ مِنْ عِقابٍ مُفزِعٍ رَهيب، لقدْ صارَ الذينَ كذَّبوا شُعَيباً همُ الخاسِرينَ الخائبين، في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخِرَة، وليسَ الخاسِرُ مَنِ استجابَ للحقِّ واتَّبعَ شُعَيباً.

{فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ} [الأعراف: ٩٣]

٩٣ . ثمَّ أعرضَ عنهمْ نبيُّهمْ وهمْ هَلْكَى بينَ الأنقاض، موبِّخاً إيَّاهمْ على كُفرِهِمْ وعِنادِهم، مخاطِباً إيّاهم بقوله: لقدْ بلَّغتُكمْ ما أُمِرتُ بِهِ منْ قِبَلِ ربِّي، واجتَهدتُ في نُصحِكمْ وتَحذيرِكم، ولكنَّكمُ استَكبرتُمْ ورفضتُم؛ فكيفَ أحزَنُ عليكمْ وقدْ كفرتُمْ بما جئتُكمْ به، وجحَدتُمْ رسالةَ ربِّكم؟!

{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ} [الأعراف: ٩٤]

٩٤ ـ وما أرسَلنا نبيًّا في بلدٍ مِنَ البُلدانِ المهلَكة، يدعو إلى دينِ اللهِ وينهاهُمْ عنِ الشرِّ والمنكرِ الذي همْ فيه، فيُكذِّبونَه، إلاّ ابتَليناهمْ – قبلَ الإهلاكِ – بالفَقرِ والحاجة، والسَّقَمِ والمرَض، لعلَّ نفوسَهم تَخضَعُ وتَلين، ليَلتجِؤوا إلى الله، ويَستَجيبوا لأمرِه، ويَتوبوا منْ ذنوبِهم، فيَكشِفَ ما نَزلَ بهم.

{ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} [الأعراف: ٩٥]

٩٥ ـ ولكنَّهم لم يتأدَّبوا بالشدَّة، ولم يَنْزَجِروا بالترْهيبِ والوَعيد، فبدَّلنا حالَهُمْ منَ البؤسِ والشدَّةِ إلى الرَّخاءِ والنَّعيم، حتَّى كَثُرَ عَددُهمْ ونَمَتْ أموالُهم؛ ليَشكروا اللهَ على ذلك، ولكنَّهم لم يَفعلوا، ولم يَعُدُّوا ذلكَ كلَّهُ ابتلاءً واختبارًا، بلْ قالوا: هذا شَيءٌ طَبيعيٌّ يُصيبُ النَّاسَ في كلِّ وقت، وقدْ سبقَ لآبائنا أنْ أصابَهُمُ البلاءُ والشدَّة، كما نَعِموا في عيشِهمْ واستَمتَعوا، ونحنُ مثلُهمْ ومثلُ غيرِهمْ مِنَ الناس. فأخذَهمُ اللهُ بالعُقوبةِ وهمْ في غَفلة، وما كانَ يَخطُرُ ببالِهمْ شَيءٌ مِنْ ذلك.

{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} [الأعراف: ٩٦]

٩٦ ـ ولو أنَّ أهلَ القُرَى والبُلدانِ المهلَكة آمَنوا باللهِ ولم يُشرِكوا به، وصدَّقوا الرُّسلَ بما جاؤوا به، وخافوا اللهَ فابتَعدوا عمّا نَهَى عنه، لبارَكنا في أرزاقِهمْ وأموالِهِمْ منَ السَّماءِ والأرض، منَ المطَرِ والنبَات، فزِدنا فيها ونفَعْنا بها، ويسَّرنا عليهمْ تَحصِيلَها. ولكنّهمْ عَصَوا اللهَ وكذَّبوا رُسُلَه، فعاقَبناهمْ بالعَذابِ والدَّمارِ جزاءَ كفرِهمْ وعِصيانِهم.

{أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ} [الأعراف: ٩٧]

٩٧ ـ أفأمِنَ أهلُ القُرَى والبلدانِ منَ العُصاةِ المكذِّبينَ أنْ يأتيَهمْ عذابُنا ليلًا وهمْ نائمون؟

{أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ} [الأعراف: ٩٨]

٩٨ ـ أمْ أمِنَ أهلُ القُرَى والبُلدانِ منَ الكافِرينَ أنْ يأتيَهم عذابُنا في وقتِ الضُّحَى وهمْ غافِلون، مَشغولون، يَلهُون.

{أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف: ٩٩]

٩٩ ـ هلْ أمِنوا بأسَ اللهِ ونقمتَه، بأنْ يَستدرِجَهمْ ليُهلِكَهمْ وهمْ سَاهونَ غافِلون؟ إنَّهُ لا يَأمَنُ عِقابَ اللهِ إلاّ الذينَ خَسِروا أنفسَهمْ وعرَّضوها لعِقابِه، لأنَّهمْ لا يؤمِنونَ بالجَزاءِ على الأعمال.

وحتَّى المسلِمونَ عليهمْ ألاّ يَتمادَوا في المعَاصي متَّكلينَ على رحمةِ اللهِ مِنْ غيرِ عَمل، وكأنَّهمْ أمِنوا مكرَ الله، عياذاً بِهِ منْ غَضَبهِ وسَخَطِه.

{أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ} [الأعراف: ١٠٠]

١٠٠ ـ ألمْ يَتبيَّنْ لمنْ يَخلُفونَ الأممَ الذينَ أهلكناهُم، فعَمِلوا أعمالَهم، وعصَوا رسُلَهم، وأصرُّوا على الكُفرِ كما أصرُّوا، أنْ لو نشاءُ فعلنَا بهمْ كما فَعلنَا بمنْ قبلَهم، ونَختِمُ على قُلوبِهم، فلا يأبَهونَ بتَذكير، ولا يَعتبِرونَ بدَليل، ولا يَتدبَّرونَ مَوعِظَة؛ جزاءَ عِصيانِهمْ وتمرُّدِهمْ واستِكبارِهمْ عنْ قَبولِ الحقّ؟!

{تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ} [الأعراف: ١٠١]

١٠١ ـ تلكَ القُرَى والبَلْداتُ الخاليةُ نَسرُدُ عليكَ بعضَ أخبارِ أهلِها وأحوالِهم، ممّا فيهِ عِظةٌ وتَذكير، وقدْ جاءَتْ رُسلُ كلِّ أمَّةٍ منهمْ بالمعجِزاتِ البيّنةِ والأدلَّةِ الكافيةِ على صِدقِ ما أَخبِروا به، وما كانوا لِيؤمِنوا في وقتٍ منَ الأوقاتِ، لقَساوةِ قُلوبِهِمْ، وتَماديهمْ في الغَيِّ والضَّلال، واستِمرارِهمْ في التَّكذيب، وكفرِهم بما يأتي بهِ رسلُهمْ منَ المعجِزاتِ والحُجَجِ الواضِحات، وعاقبَهمُ اللهُ بسببِ كفرِهمْ ومواقفِهمُ السيِّئةِ المتعنِّتة، بأنْ ختَمَ على قلوبهمْ فلا يؤمِنون.

{وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ} [الأعراف: ١٠٢]

١٠٢ . ولم نجدْ لأكثرِ الأممِ الماضيةِ وفاءً بالعَهد، بلْ خَانوا، ونقَضوا ما عَاهدوا اللهَ عليه، ووجَدنا أكثرَهمْ خارجينَ عنِ الطَّاعةِ والامتِثال.

{ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} [الأعراف: ١٠٣]

١٠٣ . ثمَّ بَعثنا مِنْ بعدِ الرسُلِ المذكورِينَ موسَى عليهِ السَّلام، أرسَلناهُ بمُعجِزاتِنا وأدلَّتِنا البيِّناتِ إلى فِرعَونَ وقَومِه، فكفَروا بها عِناداً وطُغياناً، فعاقَبناهمْ بالغَرَق، فانظرْ كيفَ كانتْ عاقبةُ المكذِّبينَ المعانِدين.

{وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ١٠٤]

١٠٤ . وقالَ نبيُّ اللهِ موسَى لفِرعَونَ المتكبِّر: إنَّني مُرسَلٌ إليكمْ منْ قِبلِ ربِّ العالمينَ كلِّهم، سيِّدِهمْ ومالكِ أمرِهم.

{حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ} [الأعراف: ١٠٥]

١٠٥ . جديرٌ بي، وواجبٌ عليّ، ألاّ أُخبِرَ عنِ اللهِ إلاّ الحقَّ والصِّدْق، وقدْ جئتُكمْ منْ عِندهِ بمُعجِزةٍ ظَاهرةٍ لتَكونَ دَليلاً على صِدقي، فدَعْ بني إسْرائيلَ يأتوا معي إلى بيتِ المقدس. وكانَ فِرعَونُ قدِ استَعبدَهمْ واستَعملَهمْ في الأعمالِ الشاقَّة.

{قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [الأعراف: ١٠٦]

١٠٦ . قالَ فِرعَون: يا موسَى، إنْ كنتَ جئتَ بمُعجِزةٍ حقّاً، فأظهِرْها لنا، إنْ كنتَ صادقاً في دَعواك.

{فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ} [الأعراف: ١٠٧]

١٠٧ ـ فألقَى موسَى عَصاهُ في الأرض، فإذا هيَ حيَّةٌ عَظيمة، ظاهِرةٌ للعِيان.

{وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ} [الأعراف: ١٠٨]

١٠٨ ـ وأخرجَ يدَهُ منْ جيبِهِ (وهوَ فَتحَةُ القَميصِ مِنْ أعلاه)، فإذا هي بيضاءُ ناصعةٌ تَشِعُّ نوراً، لمَنْ يَنظرُ إليها.

{قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ} [الأعراف: ١٠٩]

١٠٩ ـ قالَ السَّادةُ الكُبَراءُ منْ قَومِ فِرعَون: إنَّ موسَى ساحرٌ متمكِّنٌ منْ علمِ السِّحر.

{يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ} [الأعراف: ١١٠]

١١٠ ـ يريدُ أنْ يُخرِجَكمْ – يا شَعبَ مِصرَ – مِنْ ديارِكم. فبماذا تُشيرونَ في أمرِهِ أيُّها السَّادة؟

{قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ} [الأعراف: ١١١]

١١١ ـ قالَ لهُ قادتهُ ومُستَشاروه: أخِّرْهُ وأنْظِرْهُ وأخَاه، وابعَثْ إلى أقاليمِ مِصْرَ رجالاً منَ الشُّرْطةِ جامعين،

{يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ} [الأعراف: ١١٢]

١١٢ ـ يَجمعوا السَّحَرةَ المهَرة ويأتوكَ بهم.

{وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالْواْ إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ} [الأعراف: ١١٣]

١١٣ ـ وجاءَ السَّحَرةُ واجتَمعوا عندَ فِرعَون، وقالوا له: أيَكونُ لنا عَطاءٌ إذا غَلَبْنا موسَى بسِحْرِنا؟

{قَالَ نَعَمْ وَإَنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} [الأعراف: ١١٤]

١١٤ . قالَ لهمْ فِرعَون: نعم، لكمُ الأجر، وستَكونونَ في منْزِلَةٍ رَفيعةٍ عِندي، ومنَ الرِّجالِ المقرَّبين إليّ.

{قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ} [الأعراف: ١١٥]

١١٥ . واجتَمعوا في السَّاحةِ المقرَّرةِ للمناظَرةِ والتحدِّي، وقال السَّحَرةُ لموسَى عليهِ السلام: إمَّا أنْ تُلقيَ عَصاك أوَّلاً، وإمَّا أنْ نُلقيَ حِبالَنا وعِصيَّنا قبلَك.

{قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} [الأعراف: ١١٦]

١١٦ . قالَ لهمْ موسى: بلْ أَلقُوا أنتُمْ أوَّلاً. ويكونُ هذا أوقعَ في نُفوسِ المشاهِدين، حيثُ يرَونَ عملَ السَّحَرةِ أوَّلاً، ثمَّ التحدِّيَ والنتيجةَ مِنْ قِبَلِ موسَى عليهِ السَّلام. فلمّا ألقَوا ما عندَهم، خيَّلوا عملَهمْ إلى الأعْيُنِ على خِلافِ الحقِيقة، وأفزَعوهمْ فزَعاً شَديداً، وقدْ أبدَوا سِحراً رَهيباً، كانتْ عِصيُّهمْ وحِبالُهُمْ تَبدو وكأنَّها حيَّاتٌ وأفاعيٌّ كبيرةٌ تتحرَّك!

{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ} [الأعراف: ١١٧]

١١٧ . وعندَ ذلكَ أوحَينا إلى موسَى: أنْ ألقِ عَصاك. فألقَاها في الأرض، فإذا هي تَتحوَّلُ إلى ثُعبانٍ كَبيرٍ ضَخمٍ، تَبتلِعُ جميعَ ما أبدَى السَّحَرة، ممّا موَّهوا بِهِ وأوهَموا المشاهِدينَ أنَّها حيّاتٌ وأفاعيّ، التي ما كانتْ سِوَى سِحر، خُيِّلَ للناسِ أنَّها حَقيقة!

{فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [الأعراف: ١١٨]

١١٨ . فظَهرَ الحقّ، وتبيَّنَ أنَّ ما كانَ مِنْ شأنِ موسَى مُعجِزةٌ لا يَقْدِرُ على أنْ يأتيَ بها إنسانٌ مِنْ عندِه، وظهرَ بُطلانُ ما كانَ عليهِ السَّحَرة، وقالوا: لو كانَ ما يَصنعُ موسَى سِحراً لبقيتْ حِبالنا وعِصيُّنا، فلمّا فُقِدَتْ عَلِمنا أنَّ ذلكَ منْ أمرِ الله.

{فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ} [الأعراف: ١١٩]

١١٩ ـ فغُلِبَ فِرعَونُ وقومُهُ في ذلكَ الحَشدِ الكبيرِ وهُزِموا، وانصرَفوا عن مَوقعِهِمْ أذِلَّةً مَقهورين.

{وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ} [الأعراف: ١٢٠]

١٢٠ ـ أمّا السَّحَرَةُ فقدْ بَهَرَهُمُ الحقُّ، ولمْ يَتمالَكوا إلاّ أنْ خرُّوا للهِ ساجِدين، وكانوا منْ سُرعةِ ما سَجدوا كأنَّ أحداً دَفعَهمْ وألقاهُمْ للسُّجود!

{قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ١٢١]

١٢١ ـ وقالوا: آمنّا بربِّ العَالمين، مالكِهِمْ وسيِّدِهِمْ والمتصرِّفِ في أمرِهِم.

{رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [الأعراف: ١٢٢]

١٢٢ ـ ربِّ موسَى وهارون، وليسَ هوَ فرعونَ مُدَّعي الربوبيَّة، فما هو إلاّ عَبد.

{قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ١٢٣]

١٢٣ ـ فقالَ لهمْ فِرعَون، وقدْ عَلِمَ أنْ لا مَجالَ لبقاءِ مُلكهِ بالحِوارِ والعَقلِ والمحاجَجة: أآمنتُمْ بربِّ موسَى وهارونَ قبلَ أنْ أسمحَ لكمْ بذلك؟! إنَّ هذا الصنيعَ الذي قمتُمْ به، ما هوَ إلاّ مُؤامرةٌ وحِيلةٌ كانتْ عنْ سابقِ تَشاورٍ بَينكمْ وبينَ موسَى في المدينةِ قبلَ أنْ تأتوا إلى هذا الميدان، لتُخرِجوا منها القِبْط، وتبقَى لكمْ ولبَني إسرائيل، فسوفَ ترونَ عاقبةَ ما أفعلُ بكم.

{لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ} [الأعراف: ١٢٤]

١٢٤ ـ سأقطَعُ منْ كلِّ واحدٍ منكمْ يدَهُ اليُمنَى ورِجْلَهُ اليُسرَى، ثمَّ أصلُبُكمْ على جُذوعِ النَّخلِ جميعاً[٤٦]، لتَموتوا جُوعاً وعَطشاً، عُقوبةً لإيمانِكم.

---

(٤٦) قالَ الراغبُ في مفرداته: الصُّلب: الذي هو تعليقُ الإنسانِ للقتل، قيل: هو شدُّ صُلبهِ على خشب، وقيل: إنما هو مِن صَلْبِ الودَك.

{قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ} [الأعراف: ١٢٥]

١٢٥ـ قالَ السَّحرةُ – وقدْ آمَنوا –: نحنُ عائدونَ إلى رَحمةِ اللهِ وثَوابِه، ومَصيرُكَ ومَصيرُنا إلى اللهِ يومَ القيامَة، فيَحكمُ بينَنا، ولا نُبالي بوعيدِك، وعذابُهُ أشدُّ مِنْ عذابِك.

{وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ} [الأعراف: ١٢٦]

١٢٦ ـ وما تُنكِرُ منّا سِوَى إيمانِنا بآياتِ ربِّنا ومُعجِزاتِهِ لما أتَتنا. اللهمَّ صبِّرْنا على التمسُّكِ بدينِكَ والثَّباتِ عليه، وتوفَّنا على الإسلام، مُتَّبعينَ نبيَّكَ موسَى عليهِ السَّلام.

{وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ} [الأعراف: ١٢٧]

١٢٧ ـ وقالَ مستَشارو فِرعَونَ وقادتُه له، وقدْ كَثُرَ أتباعُ موسَى مِنْ بَني إسْرائيل: أتَترُكُ موسَى وقومَهُ ليُفسِدوا في أرضِ مِصر، وهمْ يَدْعونَ رعيَّتَكَ إلى عِبادةِ اللهِ والخروجِ عليك، وتكونُ النَّتيجةُ أنْ يَترُكَكَ موسَى ويَترُكَ مَعبوداتِك؟ ذُكِرَ أنَّهُ كانَ قدْ صنعَ أصناماً وأمرَ الناسَ بعبادتِها تقرُّباً إليه. وقِيلَ غيرُ ذلك.

أجابَ فِرعَونُ أصحابَهُ بقوله: لنْ نترُكَهمْ هكذا، بلْ سنَفعلُ بهمْ كما كانَ يُفْعَلُ بهمْ سابقاً، سنَقتلُ كلَّ ذَكَرٍ منهم يُولَد، ونُبقي على إناثهم، قَهْراً وإذلالاً لهم، وسنَغلِبُهمْ بهذا، فيَقلُّونَ شَيئاً فشَيئاً، ولنْ يَقدِروا على الفَسادِ بعدَ ذلك، وهمْ جميعاً مَقهورونَ تحتَ أيدينا.

وقد قالَ قبلَهُ: الصَّلبُ والاصطِلاب: استخراجُ الودَكِ (أي الشحمِ) من العظم.

{قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الأعراف: ١٢٨]

١٢٨ . قالَ موسَى لبَني إسْرائيلَ وهوَ يَعِظُهمْ ويقوِّي مِنْ عَزائمِهم: اطلُبوا العَونَ والقوَّةَ والتوفيقَ منَ اللهِ ربِّكم، واصبِروا على ما تُوعَدونَ بهِ وتُهَدَّدون، فإنَّ الأرضَ مُلْكٌ لله، ومِصْرُ مِنْ أرضِه، فهيَ ليسَتْ لِفرعَون، بلْ مِنْ مُلكِ الله، وهوَ يُعطيها مَنْ يشاءُ مِنْ عبادِه، والنصرُ منْ عندِ الله، والعاقبةُ المحمودةُ لعبادِ اللهِ المؤمنينَ الخائفينَ من عُقوبته، وليستْ للظَّالمين.

{قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: ١٢٩]

١٢٩ . قالَ بنو إسْرائيلَ لنبيِّهمْ موسَى عليهِ السلام: كنّا نُظْلَمُ ونُعذَّبُ قبلَ أنْ تُبْعَثَ رَسولاً، وها نحنُ نُعَذَّب ونُضطَهَدُ بعدَ إرسالِك.

فقالَ لهم: عسَى ربُّكمْ أنْ يَقضيَ على عدوِّكمُ الذي أرعَبكمْ وتوعَّدكم، ويَجعلَكمْ خُلفاءَ في أرضِ مِصرَ مِنْ بعدِهم، فيرى ما الذي تَفعلونَهُ بعدَ النَّصر، تُطيعُونَ فتَشكُرون، أمْ تَعصُونَ فتَكفُرون؟

{وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} [الأعراف: ١٣٠]

١٣٠ . وقدْ ابتَلينا قومَ فِرعونَ بالقَحطِ والجوعِ، ونقَصنا مِنْ محصولِ زِراعاتِهمْ وثَمراتِ أشجارِهم، بالآفاتِ وقلَّةِ الإنتاج؛ ليتذكَّروا بذلكَ ويتَّعِظوا ويتضرَّعوا إلى الله، ويَترُكوا ما همْ عليهِ منْ شِرك.

{فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} [الأعراف: ١٣١]

١٣١ . فإذا كانتْ سنةَ خِصْبٍ ورَخاء، وصارُوا في سَعةٍ وعَافية، قالوا: هذا مِنْ حقِّنا، أصَبناهُ بتَعبِنا، ولم يَروْهُ تَفضُّلاً منَ الله، وإذا كانتْ سَنةَ قَحطٍ وبلاءٍ تشاءَموا وقالوا: أصابَنا هذا النَّقصُ والبلاءُ بسبَبِ ما جاءَ بهِ موسَى وما يَدعو إليهِ هوَ وقومُه.

لكنَّ ما قُسِمَ لهمْ منْ نصيبٍ وقُدِّر لهمْ مِنْ رزقٍ، وما يُصيبُهمْ مِنْ خَيرٍ وشَرٍّ كلُّهُ مِنْ عندِ الله، ولكنَّ أكثرَهمْ لا يَعلَمونَ ذلك، ولذلكَ يَقولونَ ما يَقولون.

{وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ} [الأعراف: ١٣٢]

١٣٢ . وقالَ قومُ فِرعَونَ لموسَى في عِنادٍ وإصرارٍ على الباطِل: إنَّكَ مَهما جئتَنا بهِ منْ مُعجِزةٍ لتُشبِّهَ بها عَلينا، أو تَرُدَّنا بها عنْ ديننا وتَصرِفنا عمّا نحنُ فيه، فلنْ نَقبلَها منك، ولنْ نُؤمنَ بكَ وبرسالتِك.

{فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ} [الأعراف: ١٣٣]

١٣٣ . فكانَ جزاءَ كفرِهمْ وإصرارِهمْ على الباطِل، أنْ عاقبناهُمْ بإرسالِ الطُّوفانِ عَليهم، فملأ بيوتَهم، وأتلفَ زرُوعَهم، وأغرَقَ أراضيَهم... ثمَّ أرسَلنا عليهمُ الجرادَ فأتلفَ ما بقيَ مِنْ زُروعِهم، وأكلَ ثمارَهمْ ونباتَهم، ثمَّ القملَ – وكفى بهِ عذاباً –، والضفَادِع، التي ملأتْ بيوتَهمْ وأوعيتَهمْ وأطعِمتَهم، ثمَّ الدمَ ليجريَ في مياهِهم، فصارُوا يَشربَونَ الدم، ولا يَطبخون! ... وكلُّها آياتٌ وأدلَّةٌ وعِبَرٌ إلهيةٌ بيِّنةٌ، كافيةٌ للرَّدعِ عنِ الكُفر، والاستِسلامِ لله، والإيمانِ برسالتِه، ولكنَّهمْ معَ كلِّ هذا استَكبَروا عنِ الإيمانِ بها، فكانوا كافِرينَ مُجرِمين.

{وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ} [الأعراف: ١٣٤]

١٣٤ . ولما نزلَ بهمُ العَذاب، واستقرَّ فيهم، وكادوا أنْ يَهلِكوا، قالوا: يا موسَى ادعُ لنا اللهَ بعهدِهِ عندكَ – وهوَ النبوَّة – أنْ يَكشِفَ عنّا العَذابَ الذي ابتَلانا به، فإذا أزالَ ما بنا، أقسَمنا لكَ بأنَّنا سَنؤمنُ بما جئتَنا به، وسنُرسِلُ معكَ بَني إسرائيل، كما طَلبت.

{فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ} [الأعراف: ١٣٥]

١٣٥ . فلمّا أنجَيناهمْ مِنَ العَذابِ إلى وقتٍ محدَّدٍ – وهوَ وقتُ الغرَقِ – إذا همْ يَتمرَّدونَ ويَنقُضونَ العَهد، فلم يُؤمنوا!

{فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ} [الأعراف: ١٣٦]

١٣٦ . فأرَدنا الانتِقامَ منهم، فأغرَقناهمْ في البَحر، بسببِ تكذيبِهمْ بآياتِ اللهِ العَظيمة، وعدمِ اكتراثِهمْ بها، وغَفلتِهمْ عنها.

{وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ} [الأعراف: ١٣٧]

١٣٧ . وأورَثنا بَني إسرائيلَ الذينَ كانوا يُستعبَدونَ ويُقهَرونَ مِنْ قِبَلِ فِرعَونَ وقومِه، ويُذبَحُ أبناؤهمْ ويُسامونَ سُوءَ العذاب، أورثناهمُ الأرضَ بجَميعِ جهاتِها ونواحيها – ولعلَّ المقصودَ ما كانَ تحتَ مُلكِ أعدائهمْ منها، مصرُ والشامُ ونواحيها، فملَّكهمْ اللهُ إيَّاها ومكَّنهمْ منها – التي بارَكنا فيها بالخِصبِ وسَعَةِ الرِّزقِ وكَثرةِ النَّفع، وتحقَّقَ ما وعدَ اللهُ به بني إسْرائيلَ منَ النَّصرِ على الأعداءِ والتَّمكينِ في الأرض، بما صَبَروا على دينِهمْ وكابَدوا الشَّدائدَ والعَذابَ مِنْ فِرعَونَ وقومِه.

ودمَّرنا ما كانَ يَصنعهُ فِرعَونُ وقومُهُ منَ القُصورِ والعمائرِ والمزارِعِ في أرضِ مِصر، وما كانوا يُقيمونَ منْ هَيئاتِ مِظَلاّتٍ وسُقوفٍ في البسَاتين.

{وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} [الأعراف: ١٣٨]

١٣٨ . وعبَرَ النبيُّ موسَى ببعضِ بني إسرائيلَ البَحر، فمَرُّوا بقومٍ يُلازِمونَ أصناماً ويَعبدونَها مِنْ دونِ الله، فقالوا لموسَى عليهِ السَّلامُ في جَهلٍ وغَفلة: يا موسَى، اجعلْ لنا تِمثالاً نَعبُده، يَعني نُعَظِّمهُ ونَتَقرَّبُ بتَعظيمهِ إلى الله! كما يَفعلُ هؤلاء.

فقالَ لهمْ موسى: إنَّكمْ قومٌ تَجهلونَ عَظَمةَ اللهِ وربوبيَّتَهُ وتَوحيدَه.

{إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [الأعراف: ١٣٩]

١٣٩ . إنَّ هؤلاءِ العاكِفينَ على هذهِ الأصنامِ هالِكٌ ما هُمْ فيه، وباطِلٌ زَائلٌ عملُهم، وإنْ قَصدوا بذلكَ التقرُّبَ إلى الله، فلا يَنفعُهمْ عَملُهمْ هذا أصْلاً.

{قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ١٤٠]

١٤٠ . قالَ لهمْ موسَى عليهِ السَّلام: هلْ أطلبُ لكمْ مَعبوداً يَستَحِقُّ العبادةَ غيرَ اللهِ وهوَ الربُّ المعْبود، وقدْ فضَّلَكمْ على العالَمينَ في زمانِكم، فهلْ الذي تَطلبونَهُ الآنَ يوافِقُ مكانتَكمُ المفضَّلةَ ويناسِبُ سؤالَكم؟!

{وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ} [الأعراف: ١٤١]

١٤١ . وتذكَّروا كيفَ نجّاكمُ اللهُ منْ آلِ فِرعونَ بإهلاكِهم، وكانوا يُذيقونَكمْ أسوَأَ العَذابِ وأشَدَّه، فيَقتُلونَ مواليدَكمُ الذُّكور، ويُبقُونَ على بناتِكمْ للسُّخرةِ والخِدمة، وفي ذلكَ بلاءٌ لكمْ واختِبارٌ كبيرٌ منْ ربِّكم.

{وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} [الأعراف: ١٤٢]

١٤٢ . وقدْ وعَدْنا موسَى أنْ نُكَلِّمَه، وأنْ نُنْزِلَ عليهِ كتابَ هدايةٍ وتَشريعٍ لبَني إسرائيل، فأمرناهُ بصيامِ ثلاثينَ يوماً، وأنْ يَزيدَ عليها عَشرةَ أيَّام، فاكتَملَ وقتُ وعدِ اللهِ لهُ أربعينَ ليلة.

فقالَ لأخيهِ هارونَ – النبيِّ – وهوَ يتهيَّأ للذَّهابِ إلى الجبلِ للمناجاة: كُنْ خَليفَتي في بَني إسْرائيلَ أثناءَ غيابي، وكُنْ مُرشِداً لهمْ إلى الطَّاعةِ والامتِثال، بالرِّفقِ والحِلمِ والإحسانِ ونبذِ الاختِلاف، ولا تُطِعْ سَبيلَ مَنْ سَلكَ الفسَادَ وعَصَى الله، ولا توافقْهُ على هَواه، بل اثبُتْ على ما فيهِ رضا الله، والتَزِمِ الصِّراطَ المستَقيم.

{وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} [الأعراف: ١٤٣]

١٤٣ . ولما جاءَ موسَى في الوَقتِ المحدَّدِ له، وكلَّمَهُ ربُّه، قالَ عليهِ السَّلام: ربِّي أرِني أنظُرْ إليك، قالَ اللهُ تعالَى: لا قُدرةَ لكَ على رُؤيتي في الحياةِ الدُّنيا، ولكنِ انظُرْ إلى جبلِ (طُورِ) سَيناءَ الذي هوَ أقوَى منك، فإذا ثبتَ في مكانهِ ولم يُفتِّتْهُ التجلِّي فسوفَ تَراني. فلمَّا تجلَّى اللهُ سُبحانَهُ للجبلِ جَعلَهُ مَدكوكاً مُتفتِّتاً مُستوياً بالأرضِ، وسقطَ موسَى مَغشيًّا عليهِ مِنْ هَولِ ما رَأى، فلمّا أفاقَ مِنْ غَشيتِهِ، قالَ تعظيماً لأمرِ الله: سُبحانَكَ ما أعظَمك، إنِّي تُبتُ إليكَ مِنْ أنْ أسألكَ مِنْ غَيرِ إذن، أو أنْ أسأَلَكَ الرؤية، وأنا أوَّلُ المؤمِنينَ منْ بَني إسْرائيل.

{قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ} [الأعراف: ١٤٤]

١٤٤ . قالَ اللهُ تعالَى: يا موسَى، إنِّي اخترتُكَ على النَّاسِ الموجودينَ في زمانِك، بأنْ أنزلتُ عليكَ أسفارَ التَّوراة، وبتَكليمي إيّاك، فخُذْ ما أعطيتُكَ مِنْ شَرفِ الاصطفاءِ والتَّفضيل، واشكرْ للهِ جليلَ نِعمَتهِ عَليك.

{وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} [الأعراف: ١٤٥]

١٤٥ . وكتَبنا لهُ في ألواحِ التَّوراةِ مِن كُلِّ ما أُمِروا به ونُهوا عنه، مَواعِظَ وأحكاماً مُفَصَّلة، مُبيِّنةً للحلالِ والحرام، والحُدودِ والأحكام، منْ أمرٍ ونَهي، ومِن كلِّ ما تَحتاجُ إليهِ الأمَّةُ في دينِها، فخُذها بجِدٍّ وعَزمٍ على الطَّاعة، وأمُرْ بَني إسرائيلَ أنْ يأخُذوا أحسنَ ما فيها، وهوَ ما أوجبَهُ اللهُ عليهِمْ فيها وهَداهُمْ إليه، ممّا فيهِ خيرُهمْ ونجاتُهم.

وسترَونَ عاقبةَ مَنْ خالفَ أمري وخرجَ عنْ طاعَتي كيفَ يَكونُ مَصرَعُه، فاحترِزوا ولا تتَّبعوا طُرقَ أهلِ الفِسقِ الخارِجينَ عنِ الطَّاعة.

{سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ} [الأعراف: ١٤٦]

١٤٦ . سأُبعِدُ عنْ دَلائلِ عَظمتي وأحكامِ شَريعتي الذينَ يَتكبَّرونَ على عبادِي ويُحاربونَ أوليائي بغيرِ الحَق؛ عقوبةً لهمْ على عِنادِهمْ واستِكبارِهم، فلا يَنتَفِعونَ بآياتي الجليلة، التي يَستأهِلُها المؤمنونَ المصَدِّقون وحدَهم.

فإذا شاهدَ المتكبِّرونَ المعجِزاتِ والدَّلائلَ على أيدي رُسلي لم يؤمِنوا بها، وإذا رأوا طَريقَ النَّجاة، والهُدَى والسدَاد، لم يَسلُكوها.

وإذا رَأوا طَريقَ الهَلاكِ والضَّلالِ اختارُوها لأنفسِهمْ ولم يَتركوها، لموافقتِها أهواءَهمْ وشَهواتِهم، وهذا لأنَّهمْ كذَّبوا بأدلَّتِنا الواضِحَةِ الصَّادقة، وحُجَجِنا البيِّنةِ الكاشِفة، المؤدِّيةِ إلى الحقِّ واليَقين، وقدْ كانوا ساهينَ عنِ التفكيرِ فيها والاتِّعاظِ بها.

{وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [الأعراف: ١٤٧]

١٤٧ . والمكذِّبونَ بآياتِنا، المصِرُّونَ على الكُفرِ بها وبلقاءِ الدَّارِ الآخِرة، حيثُ موعِدُ الثوابِ والعِقاب، بَطَلَتْ أعمالُهُمُ التي كانوا يَرجونَ الانتفاعَ بها، وهمْ لا يُجْزَونَ ولا يُحاسَبونَ إلاّ على ما كانوا عليهِ منَ الكُفرِ والمعاصي، التي استمرُّوا عليها.

{وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ} [الأعراف: ١٤٨]

١٤٨ . وبعدَ أنْ ذهبَ موسَى إلى مُناجاةِ ربِّهِ في الجَبَل، صنعَ لهمْ رَجُلٌ منَ السَّامِرَةِ في غيابهِ مِنْ حُليٍّ وزينةٍ صورةَ عِجْلٍ مُجَسَّداً، يَعني تِمثالاً على شَكلِه، وجَعلَهُ على هَيئةٍ بحيث يُخرِجُ صوتاً كصَوتِ البقَر، وقالَ لهم: هذا هوَ إلهكُم! فالتفَّ عليهِ القومُ وصَاروا يَعبدونَه!!

ألا يرَى هؤلاءِ الجهَلةُ الضالُّونَ أنَّ هذا التمثالَ لا يَقدِرُ على الكلام، ولا أنْ يُرشِدَهمْ إلى خَير!!
لقدِ اتَّخذوا ما صَنعوهُ بأيديهمْ إلهاً يَعبدونَه، فكانوا كافِرين، وعلى مُنكَرٍ عَظيم.

{وَلَمَّا سُقِطَ فَي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: ١٤٩]

١٤٩ . ولما نَدِموا على ما فَعلوا أشدَّ الندم، وعَلِموا أنَّهمْ كانوا على ضَلالٍ مُبينٍ في عِبادةِ العِجلِ، تابوا وأنابوا، وأدرَكوا أنَّهمْ قدِ اقتَرفوا إثماً كبيراً وعَملاً شَنيعاً، وقالوا: إذا لم يُدرِكنا ربُّنا برحمتهِ وعَفوِه، ويَتجاوَزْ عنْ خَطئنا ويتُبْ علينا، لنكونَنَّ منَ الهالِكين.

{وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأعراف: ١٥٠]

١٥٠ . ولما رجعَ موسَى عليهِ السلامُ مِنْ مناجاةِ ربِّه، وقدْ أخبرَهُ سبحانَهُ بما صَنعَ قومهُ مِنْ بعدِه، غَضِبَ غَضَباً شَديداً، وقالَ لهم: بئسَ الذي فَعلتُموهُ مِنْ عبادةِ العِجلِ في غيبَتي، فهلِ استعجلتُمْ بهذا عقوبةَ اللهِ ونِقمتَهُ بكم؟!

وألقَى ألواحَ التوراةِ التي جاءَ بها على الأرضِ مِنْ شدَّةِ غَضَبهِ على قَومِه، واتَّجهَ إلى أخيهِ هارونَ وكانَ نائبَهُ في القَومِ، وأخذَ بشَعرِ رأسهِ يَجُرَّهُ نحوَه، وهوَ يظنُّ أنَّهُ قَصَّرَ في نَهيهم، فأجابَهُ عليهِ السَّلامُ بأنَّهُ غُلِبَ على أمرِه، وقال: يا أخي، لقدِ استذلَّني عبَدَةُ العِجلِ ولم يُبالوا بي، لِقلَّةِ مَنْ بقيَ معي وأيَّدَني عليهم، حتَّى همُّوا أنْ يَقتلوني لِما بَذلتُ منْ نُصحٍ في نَهيهمْ عنْ ذلك، فلا تأخُذْ بشعرِ رأسي ولا تَغضَبْ عليَّ حتَّى لا تُسِرَّ الأعداءَ وتُفرِحَهمْ بذلك، ولا تجعلني في عِدادِ الظَّالمينَ المجرِمين، ولا تَخلِطْني بهم.

{قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [الأعراف: ١٥١]

١٥١ . قالَ موسَى عليهِ السَّلامُ داعياً ربَّهُ لما تبيَّنَ عُذْرُ أخيه: اللهمَّ اغفرْ لي ما صَنعتُ بأخي واتَّهمتُهُ به، وتجاوَزْ عنهُ إنْ كانَ قدْ قَصَّر في الإنكار، وأدخِلنا في رَحمتِكَ الواسِعَةِ في الدُّنيا والآخِرَة، فأنتَ أرحمُ مَنْ رَحِم.

{إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ} [الأعراف: ١٥٢]

١٥٢ . إنَّ الذينَ اتَّخذوا العِجلَ إلهاً لهمْ يَعبُدونَهُ مِنْ دونِ الله، سيَلحَقُهمْ غَضَبُ اللهِ وعُقوبتُه، وذِلَّةٌ واستِكانةٌ إلى يَومِ القِيامة، كما أغضَبوا ربَّهُمْ واستهانوا بأمرِه، وهذا هوَ جزاءُ الكاذِبينَ على الله، المفترَينَ على دينِه.

والذلُّ هوَ هزائمُهمْ وما تعرَّضوا لهُ مِنْ قَتل، وضُرِبَ عليهمْ مِنْ جِزية، وعاشوا تحتَ حُكمِ الآخَرين.

وقالَ صاحبُ الظِّلال: علمَ اللهُ أنَّ الذينَ اتَّخذوا العِجلَ لنْ يَتوبوا توبةً مَوصولة، وأنَّهُمْ سيَرتكِبونَ ما يُخرِجُهمْ مِنْ تلكَ القاعِدة، وهكذا كان، فقدْ ظلَّ بَنو إسْرائيلَ يَرتَكِبونَ الخطيئةَ بعدَ الخطيئة، ويُسامِحُهمُ اللهُ المرَّةَ بعدَ المرَّة، حتَّى انتَهَوا إلى الغضَبِ الدائم، واللَّعنةِ الأخيرةِ.

{وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [الأعراف: ١٥٣]

١٥٣ . والذينَ ارتَكبوا السيِّئات، صَغيرةً كانتْ أو كبيرة، حتَّى لو كانَتْ كُفراً، ثمَّ تابوا عنها، ونَدِموا، وعَزَموا على عَدمِ العَودةِ إليها، وآمَنوا إيماناً صَحيحاً، فإنَّ ربَّكَ يَغفِرُ لهم، ويَتوبُ عليهم، ويَرحَمُهم.

قالَ الفَخرُ الرازيّ: وهذا مِنْ أعظمِ ما يُفيدُ البِشارةَ والفرحَ للمُذنِبين.

{وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ} [الأعراف: ١٥٤]

١٥٤ ـ ولما سكنَتْ سَوْرةُ الغضَبِ عندَ موسَى، أخذَ ألواحَ التوراةِ التي كانَ قدْ ألقاها، وكُتِبَ فيها ما هوَ بيانٌ للحقّ، وهِدايةٌ للناسِ منَ الضَّلال، ورحمةٌ بهمْ منَ العَذاب، وإرشادٌ لهمْ إلى ما فيهِ الخيرُ والصَّلاح، لمنْ يخشَوْنَ اللهَ ويحبُّون أنْ يتَّبعوا هَديه، ويخضَعوا لأحكامِه.

{وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ} [الأعراف: ١٥٥]

١٥٥ ـ واختارَ موسَى مِنْ بَني إسرائيلَ سَبعينَ رَجُلاً، ليَحضروا في وقتٍ معيَّنٍ وعدَهمُ اللهُ فيه، بمكانٍ ما، ربَّما لإعلانِ التَّوبةِ وطلبِ المغفِرَةِ لبَني إسْرائيل، ولكنَّهمْ هناكَ طَلبوا رؤيةَ اللهِ ليُصَدِّقوا موسَى فيما جاءَهمْ بهِ مِنَ الفَرائضِ في الألواح! فأخذَتْهمُ الرعْدةُ وصُعِقوا، فتوَجَّهَ نبيُّ اللهُ موسَى إلى ربِّهِ في تَذلُّلٍ وخُضوع، يُريدُ رفعَ غَضبهِ ومَقتهِ عنهم، وقال: اللهمَّ ربَّنا إنَّكَ لو أرَدتَ إهلاكَهمْ لأهلكتَهمْ قبلَ هذا الوقت، منْ قِبَلِ فِرعَونَ أو عندَ عبادتِهمُ العِجل، ولكنَّكَ تَجاوزتَ ورحِمْت، فاعفُ عنهمْ بعفوِكَ وكَرَمِك، وإيّايَ كذلك.

أتُهلِكُنا يا ربَّنا بما اقترَفَهُ السُّفهاءُ منّا، مِنْ عِبادةِ العِجل، أو عنادِهمْ وسوءِ أدبِهمْ معَ جلالِكَ وعظمتِك. والذي وقعَ منهمْ ما هو إلاّ ابتِلاءٌ واختِبارٌ منك، فهَدَيتَ بذلكَ مَنْ شِئتَ منهمْ وعَصَمْتَهم، وأضلَلتَ آخَرينَ منهمْ يَستَحِقّونَ الضَّلال. أنتَ يا اللهُ ناصِرُنا وحافِظُنا، والقائمُ بأمورِنا، فاغفِرْ لنا ما اقترَفنا، وارحَمْنا برحمتِك، فأنتَ خيرُ مَنْ غَفرتَ ورَحِمْت، ولا يَغفِرُ الذنوبَ إلاّ أنت.

وفيهِ استِعطافُ موسَى لرأفةِ اللهِ ورحمتِه، وتَبرُّؤٌ مِنْ فِعلِ السُّفهاء.

{وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَـاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ١٥٦]

١٥٦ ـ اللهمَّ واقسِمْ لنا في هذهِ الحياةِ الدّنيا جِماعَ الخَيرِ والعافيَة، والتوفيقَ لطاعتِكَ ورِضاك، وكذا في الحياةِ الأخرَى، لنفوزَ بالمثوبةِ الحُسنَى، إنّا تُبنا إليك.

قالَ اللهُ ما معناه: عُقوبَتي وعَذابي مِنْ شَأني، أصيبُ بِهِ مَنْ أشاءُ دونَ تدخُّلٍ مِنْ غَيري، وليَ الحِكمَةُ والعَدلُ في ذلكَ كلِّه.

ورحمَتي عَظيمةٌ شامِلةٌ عامَّة، فسأثبتُها لعِباديَ المؤمِنين، وأخُصُّ بها الذينَ يَبتعِدونَ عنِ الشِّرْكِ والمعَاصي، ويَخافونَ يومَ الحِساب، ويَخشَونَ عُقوبةَ الله، ويَدفعونَ زَكاةَ أموالِهِمْ للفُقراءِ والمسَاكين، ويؤمِنونَ بآياتِنا كلِّها.

{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: ١٥٧]

١٥٧ . الذينَ يتَّبِعونَ الرسُولَ محمَّداً صلى الله عليه وسلَّم، الذي أرسلَهُ اللهُ لتبليغ دِينِه، النبيَّ الأميَّ الذي ما كانَ يَقرأ ولا يَكتب، وهذا مُعجِزةٌ لهُ صلى الله عليه وسلم، -وصِفةُ الأميَّةِ لا تُذكَرُ للمَدحِ لغَيرِه - وهوَ الذي يَجدهُ أهلُ الكتابِ منَ اليهودِ والنصارَى مَكتوباً عندَهم، اسمَهُ وصِفَتَه، في التوراةِ والإنجيل، يأمرُ الناسَ بالخَيرِ والتقوَى ومكارمِ الأخلاقِ والعَملِ الصَّالح، ويَنهاهُمْ عنِ الشرِّ والشِّركِ وقَطعِ الأرحامِ والفَواحِش، ويُحِلُّ لهمْ طيِّباتِ الأطعِمَةِ والذبائحِ ممّا كانَ يُحَرِّمُهُ أهلُ الجاهليَّةِ دونَ حقّ، ويُحَرِّمُ عليهمْ ما خَبُثَ منها، كالميتةِ ولحمِ الخنزير، ويُيسِّرُ عليهمْ أمورَ دينِهم، ويَرفَعُ عنهمْ ما يُثقِلُ كاهلَهم، وما فيهِ تَكاليفُ شاقَّة، وأوامرُ صَعبةٌ تطوِّقُهم، ممّا كانَ مَفروضاً على بَني إسرائيلَ عُقوبةً لهم.

فالذينَ آمَنوا برسالةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ونبوَّته، ووقَّروه، ونَصروهُ في جِهادِهِ ضدَّ الكُفرِ والشِّرك، واتَّبعوا الكتابَ الذي أنزلَهُ اللهُ عليه، أولئكَ همُ الفائزونَ في الدُّنيا والآخِرَة.

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف: ١٥٨]

١٥٨ . قُلْ أيُّها النبيُّ الكريم: أيُّها الناس، إنِّي مُرسَلٌ مِنْ قِبَلِ اللهِ إليكمْ كافَّة، وليسَ للعرَبِ وحدَهم، هوَ اللهُ الذي لهُ مُلكُ السَّماواتِ والأرضِ وما بينَهما، لا إلهَ للكَونِ غيرُه، ولا مَعبودَ بحقٍّ سِوَاه، الذي يُحيي ويُميت، ولا يَقدِرُ على ذلكَ أحدٌ سِوَاه، فآمِنوا باللهِ الواحدِ الذي لا شَريكَ له، وبرسولِهِ محمَّد، النبيِّ الأمِّيّ، كما هوَ مِنْ صِفَتِهِ في التوراةِ والإنجيل، الذي يؤمِنُ بالله، وبما أنزلَهُ عليهِ وعلى سائرِ إخوانهِ منَ الرسُلِ مِنْ كُتبٍ ووَحي، واتَّبِعوهُ فيما يُخبِرُكمْ بهِ وما يَطلُبُهُ منكم، لتَهتدوا وتَفوزوا، فإذا لم تتَّبعوهُ ضَلَلتُمْ وهَلكتُم.

{وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [الأعراف: ١٥٩]

١٥٩ . ومِنْ بَني إسْرائيلَ طائفة، أو جَماعةٌ عَظيمة، يَتَّبِعونَ الحقَّ ويَهتدونَ به، وبهِ يَحكُمون، وبالعَدلِ يَقومون، ويُرشِدونَ الناسَ إليه. وهذا مُقابِلَ مَنْ عصَى منهم. وكانوا في عَهدِ موسَى، أو مِنْ بعده.

{وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [الأعراف: ١٦٠]

١٦٠ . وفرَّقنا بني إسْرائيلَ وصيَّرناهمْ اثنتَي عشرةَ أمَّةً مِنْ قَبائلهم. وأوحَينا إلى نبيِّهمْ موسَى عندَما طَلَبَ منهُ قومهُ الماءَ مِنَ العطَشِ وهمْ في التِّيه، أنِ اضرِبِ الحَجرَ بعَصاك، فانفجرتْ منهُ اثنتا عَشرةَ عَيناً؛ مُعجِزةً له، لكلِّ قبيلةٍ منَ القبائلِ المذكورةِ عَينٌ خاصٌّ بها قدْ عرفَتْها.

وقدْ أنعَمنا عليهمْ وهمْ في ظُروفٍ شَديدةٍ في التِّيه، فظلَّلنا عليهمُ السَّحابَ الأبيضَ ليَقيَهُمْ حرَّ الشَّمسِ المحرِق، وكانَ يَسيرُ الغَيمُ بسَيرِهم، ويَقِفُ بوقوفِهم!

وأنزلنا عليهمْ طَعاماً شَهيّاً لا يَتعَبونَ في تَحصيله، وهوَ المنّ، الذي يَجدونَهُ على الأشجَار حُلواً كالعَسل، وطائرُ السُّمانَى، القريبُ المنال، فكُلوا هذا الطعامَ الطيِّبَ المستَلذَّ هَنيئاً مَريئاً.

ومَا أَدخَلوا بعِصيانِهِمْ نَقصًا في مُلكِنا وسُلطانِنا، فنحنُ أعزُّ مِن أنْ نُظلَم، ولكنَّ بَني إسرائيلَ جَحدوا نِعمتَنا، وأَضَرُّوا بأنفُسِهم، فكانتْ عاقبةُ ظلمِهِمْ على أنفسِهم.

{وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ} [الأعراف: ١٦١]

١٦١ . واذكرْ لليَهودِ قولَنا لأسلافِهم: ادخُلوا هذهِ القرية - لعلَّها بيتُ المقدِسِ - وأقيموا فيها، وكُلوا مِنْ مَطاعمِها وثِمارِها ما شِئتُمْ في رغَدٍ وهَناء، وقولوا عندَ دخولِكمْ "حِطَّة": حُطَّ عنّا ذنوبَنا واغفِرْ لنا، وليكنْ دخولُكمْ مِنْ بابِها في تواضُعٍ وخُشوع، فإذا فعلتُمْ ذلكَ غَفَرنا لكمْ ذنوبَكم، وزِدْنا المحسِنينَ منكمْ إحساناً.

{فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ} [الأعراف: ١٦٢]

١٦٢ . لكنَّ فريقاً ظالماً منهمْ خالَفوا وعَصَوا، فبدَّلوا ما أُمِروا بهِ مِنَ الخضوعِ بالقَولِ والفِعل، فبدَلَ أنْ يَدخُلوا سَاجِدينَ مَستَغفِرين، دَخلوا بهيئةٍ أخرَى مُخالِفة، وقالوا قولاً آخرَ غيرَ الذي أُمِروا به؛ مُخالَفةً وعِناداً.

فأنزَلنا على الظَّالمينَ المعانِدينَ عَذاباً منَ السَّماء؛ لِفسقِهِمْ وعِصيانِهِم.

{واسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [الأعراف: ١٦٣]

١٦٣ . واسْألِ اليَهودَ وذَكِّرْهمْ بما يُخفونَهُ مِنَ التوراةِ ممّا فيهِ تجاوزُهمْ لحدودِ الله، عنِ القريةِ التي كانتْ على سَاحلِ البَحر، فكانوا يَعتدونَ فيها يومَ السَّبت، وهوَ مُعَظَّمٌ عندَهمْ لا يَجوزُ العملُ فيه، فابتُلوا بوَفرةِ الحيتانِ في ذلكَ اليوم، حتَّى تَبدوَ ظاهرةً على وجهِ الماء، ولا تأتيهمْ في غَيرِ هذا اليوم. كذلكَ نَختبِرُهمْ بسَببِ فِسقِهِمْ وخُروجِهمْ عنْ طاعةِ الله، لِيَظهرَ منهمْ ما يَظهر، فنُجازيهمْ عليه.

{وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الأعراف: ١٦٤]

١٦٤ . وقالتْ فِرقَةٌ منهمْ لأخرَى، كانتْ تُنكِرُ عليهمْ عَملَهمْ هذا وتُحَذِّرُهمْ عُقوبةَ اللهِ: لماذا تَنهَونَ هؤلاءِ العاصِينَ المخالِفينَ أمرَ اللهِ وقدِ استَحقُّوا الهَلاكَ مِنْ قِبَلِ ربِّهم، أو أنَّهُ سيُعذِّبُهم عَذاباً مُوجِعاً مُؤلماً، فلا فائدةَ مِنْ تذكيرِكمْ إيّاهم.

قالوا: نُنكِرُ عليهمْ ذلكَ حتَّى نُعْذَرَ عندَ اللهِ ونُبرِئَ ذِمَّتنا، لِمَا أُخِذَ عَلينا مِنَ النَّهيِ عنِ المنكَر، وليُعلَمَ أنَّا لَسنا معهمْ ولا نوافِقُهمْ على فعلِهمْ هذا، ولعلَّهمْ بهذا الإنكارِ يتذكَّرون، فيَنتَهونَ ويَتوبون.

{فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ} [الأعراف: ١٦٥]

١٦٥ . فلمّا لم يُبالوا بالنصِيحة، وأعرَضوا عمّا ذُكِّروا به، أنقَذْنا مِنْ بينِهمُ الجَماعةَ التي كانتْ تُذَكِّرُهمْ وتَنهاهمْ عنْ عَملِهمُ السيِّئ، وأخذنا المعتَدينَ منهمْ بعَذابٍ شَديد؛ بسبَبِ فِسقِهمُ المستَمِرّ.

{فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ} [الأعراف: ١٦٦]

١٦٦ . فلمّا لم يَرتَدِعوا بما عذَّبناهم، واستَكبَروا عنْ قَبولِ الحقّ، وأصَرُّوا وعانَدوا ولم يَنتَهوا عمّا نُهوا عنه، عاقَبناهمْ وقُلنا لهم: كونوا قِرَدَةً أذلَّةً صَاغِرين، مُحقَّرينَ مُهانين.

{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [الأعراف: ١٦٧]

١٦٧ ـ وقدْ أعلمَ ربُّكَ أنَّهُ سيَبعَثُ على اليَهودِ حتَّى انتهاءِ الحياةِ الدُّنيا مَنْ يُذيقُهمْ أشدَّ العذاب؛ بسببِ مخالفتِهمُ المستمرَّةِ لأوامرِ الله، وإنَّ اللهَ لسَريعُ العُقوبةِ لمنْ شاءَ أنْ يعاقِبَهُ في الدُّنيا، وهوَ يَغفِرُ لمنْ تابَ إليه، ويَرحَمُ مَنْ آمَن.

{وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الأعراف: ١٦٨]

١٦٨ ـ وفرَّقنا اليَهودَ في مَناطقِ الأرضِ وشتَّتنا أمرَهم، وجعلناهُمْ طوائفَ وفِرقًا، منهمُ المؤمِنونَ الصَّالحونَ المتابِعونَ للرسُل، ومنهمُ الكفَرةُ والفاسِقونَ المخالِفونَ لهم.

وقدْ بَلوناهمْ واختَبرناهمْ بالخِصبِ والعافيَة، وبالجَدْبِ والشدَّة، لكي يَرجِعوا إلى طاعةِ ربِّهمْ ويَنتَهوا عمّا نُهوا عنه.

{فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [الأعراف: ١٦٩]

١٦٩ ـ فجاءَ مِنْ بعدِهمْ جيلٌ انتَقلتْ إليهمُ التوراةُ مِنْ آبائهم، فصارُوا يأخُذونَ الرِّشا مُقابِلَ أقضيةٍ جائرةٍ ويَقولونَ إنَّ حُكمَها مِنَ التوراة، وأخَذوا يُزَوِّرونَ ويُحَرِّفونَ فيها بما يوافِقُ أهواءَهمُ الزائغة وآراءَهمُ الفاسِدة، لا يُبالونَ بحَلالٍ ولا حَرام، ولا حَقٍّ ولا باطِل، والمهمُّ عندَهمُ المالُ ومَتاعُ الدُّنيا، ثمَّ يَقولونَ بعدَ هذهِ الأفعالِ الشَّنيعة: إنَّ اللهَ سيَتجاوزُ عنّا ولا يُعَذِّبُنا! وإذا جاءَتْهُمْ صَفقةٌ ماليَّةٌ فاجِرةٌ منَ الغَد، عَادوا إلى ما كانوا عليه، لحرصِهمْ على الدُّنيا، وإصرارِهمْ على الذُّنوب، وكذبِهمْ في طَلَبِ المغفِرة، غيرَ تائبينَ ولا مُقلِعينَ عنها.

أمَا أُخِذَ منهمْ ميثاقٌ ووعدٌ مؤكَّدٌ منَ التوراةِ ألاّ يَقولوا على اللهِ إلاّ ما قالَهُ حقًّا، وأنْ يُبَيِّنوهُ للناسِ كما هو، فلا يَزيدوا ولا ينَقُصوا، وقدْ دَرَسوا التوراةَ وعَلِموا ذلك، وهمْ يَذكرونَهُ جيّداً، وإنَّ طَلَبَ المثوبةِ الحُسنَى في الدَّارِ الآخِرَةِ بدلَ عَرَضٍ زائلٍ مِنْ أعراضِ الدُّنيا، أحسَنُ وأفضلُ لِمَنِ اتَّقَى اللهَ وخافَ عِقابَهُ وثَبتَ على الحقِّ كما أمرَه، أفلا تَعقِلونَ ذلكَ فتَتدبَّرون، وتَفهَمونَ فتَعتبِرون، وتَعلَمونَ أنَّ النَّعيمَ المقِيمَ خيرٌ منَ العَذابِ الأليم؟!

{وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ} [الأعراف: ١٧٠]

١٧٠ . والذينَ يَتمَسَّكونَ بكتابِ اللهِ ويَعتَصِمونَ بحبلِهِ المتين، ولا يَتزَحزَحونَ عمّا أمرَهمُ اللهُ به، وأقامُوا الصَّلاةَ المفروضةَ عليهم، التي هيَ أهمُّ أركانِ الدِّينِ بعدَ الشَّهادَتين –وفيهِ الإشارةُ إلى مَنْ أسلمَ منْ أهلِ الكتابِ – فإنّا لنْ نُضيعَ عملَهمُ الصَّالح، بلْ نُجازيهِمْ عليها أحسنَ الجزاء.

{وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأعراف: ١٧١]

١٧١ . واذكرْ لليَهودِ أيضاً ما أرعَبنا بِهِ أسْلافَهمْ عندما رفَعنا فوقَهمْ الجبل، حتَّى صارَ كأنَّهُ غَمامةٌ أو سَقيفةٌ فوقَهم، وتيَقَّنوا أنَّهُ سيَسقُطُ عليهم، لأنَّهُمْ أبَوا قَبولَ التوراةَ والأخذَ بأحكامِها، فخافُوا واستَكانُوا وقَبِلوا، فقُلنا لهم: خُذوا ما آتَيناكمْ منَ التوراةِ بجِدٍّ واجتِهاد، وعَزمٍ على العَملِ به، والانقيادِ لمِا فيه، لتَكونوا بذلكِ منَ المؤمنينَ الصالحِين.

{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ} [الأعراف: ١٧٢]

١٧٢ . واذكرْ أيُّها النبيُّ للناسِ أنَّ اللهَ استَخرجَ ذُرِّيةَ بني آدمَ مِنْ أصلابِهم، وأشهدَ كلَّ واحدٍ منهمْ على أنفسِهمْ أنَّ اللهَ ربُّه ومَليكُه، ففَطَرهمْ بذلكَ على الإيمان، وجَبَلهمْ على التَّوحيد، وأقرُّوا بذلكَ للهِ وشَهِدوا عليه؛ حتَّى لا تَقولوا يومَ القيامةِ إنَّنا ما كنّا نَعرِفُ الإيمانَ والتوحيد.

{أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ} [الأعراف: ١٧٣]

١٧٣ . أو تَقولوا يومَ القيامة: إنَّ آباءَنا همُ الذينَ أشرَكوا، وهمُ الذينَ سَنُّوا هذا الطَّريقَ قَبلَنا، وما نحنُ إلا ذُرِّيةٌ مِنْ بعدِهم، وجَدناهمْ يَفعلونَ ذلكَ فتابَعناهمْ عليهِ وقلَّدناهُمْ فيه،

فتَجعَلوا هذا عُذراً لكمْ وتَقولوا: أتؤاخِذُنا وتُعَذِّبُنا بجنايةِ آبائنا المشرِكين، الآخذينَ بالبَاطل؟ فليسَ لكمْ أنْ تَحتَجُّوا بذلكَ وقدْ أخذَ اللهُ منكمُ الميثاقَ على التوحِيد.

{وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الأعراف: ١٧٤]

١٧٤ . وكذلكَ نبيِّنُ الحُجَجَ والبراهينَ ليتدبَّرَها الناس، ويَرجِعوا عمَّا هُمْ عليهِ منَ الإصرارِ على الكُفرِ والباطِل، إلى نورِ الإيمانِ والتَّوحيد.

{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ} [الأعراف: ١٧٥]

١٧٥ . واقرأ عليهمْ خبرَ ذلكَ الرَّجُلِ مِنْ بَني إسرائيل، الذي أنعَمنا عليهِ وآتَيناهُ عِلماً وفَضلاً، ولكنَّهُ كفرَ بنِعمتِنا وآياتِنا التي خَصَصناهُ بها ونَبَذَها وراءَ ظهرِه، فلَحِقَهُ الشَّيطانُ وغَلبَهُ على أمرِه، فكانَ منَ الضالِّين الهالِكين، بعدَ أنْ كانَ مِنَ المهتَدين.

{وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الأعراف: ١٧٦]

١٧٦ . ولو شِئنا لرفَعنا دَرجتَهُ ومَنْزِلَتَهُ بتلكَ الآيات، ولكنَّهُ مالَ إلى الدُّنيا ولَذَّاتها، فغرَّتْهُ وألهَتْهُ عنِ الحقّ، فانقادَ إليها وسايرَ هواهُ ومُناه، ورغبتَهُ وشهوتَه، ومَثَلهُ في ذلكَ كمَثَلِ الكلب، الذي إنْ زجرتَهُ ونهرتَهُ لَهَث، وإنْ لم تَزجُرْهُ بقيَ كذلكَ يَلْهَث! فهذهِ طبيعتُه، وكذلكَ الرجلُ الذي غَرِقَ في هواهُ وصُمَّ عنْ سَماعِ الحقّ، إنْ دعوتَهُ إليهِ أو لم تَدْعُهُ لم يَنتَفِعْ بموعظَتِك، أو ساءتْ حالهُ فكانَ مُضْطَرِبَ القَلب، دائمَ القَلق، كحالِ الكلبِ في لُهاثِه.

ذلكَ مَثَلُ أهلِ مكَّة، الذينَ كانوا يَتمنَّونَ هادياً يَهديهم، فلمّا جاءَهمُ الصَّادقُ المصدوقُ صلى الله عليهِ وسلمَ كذَّبوه، أو كمَثَلِ اليَهود، الذينَ كانوا يُبَشِّرونَ بمبعَثِ رسُول، ويَذكرونَ صِفاتِه، والقُرآنَ الذي معه، فلمّا جاءَهُمْ بتلكَ الصِّفاتِ كفَروا به.

فاذكرْ هذهِ الأمثالَ والقَصَصَ ليَتفكَّرَ الناسُ ويَتدبَّروا ما فيها، ليَعتبروا ويَنْزَجِروا عن الباطلِ الذي همْ عليه.

{سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ} [الأعراف: ١٧٧]

١٧٧ . بئسَ مَثَلاً مَثَلُ المكَذِّبينَ بآياتِنا الذينَ شُبِّهوا بالكِلاب، وكانوا يَظلِمونَ أنفسَهمْ بأنواعِ المعاصي والسيِّئات، والخلودِ إلى الهوَى والضَّلال، فإنَّ وبالَ عَملِهمْ هذا على أنفسِهم.

{مَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف: ١٧٨]

١٧٨ . مَنْ هَداهُ اللهُ إلى صِراطِهِ المستَقيم، ويَسَّرَ لهُ طريقَ الهُدَى والرَّشاد، ووفَّقَهُ لِفعلِ الخَيرات، فهوَ المهتدِي المتَّبِعُ للحَقّ، ومَنْ أضَلَّهُ وخَذلَهُ، فقدْ خابَ وخَسِر.

وللهِ الحِكمَةُ في ذلك، فلا يَظلِمُ أحداً، ولا يُجبِرهمْ على إيمانٍ أو كُفر، بلْ يَهدي مَنْ يجاهدُ ليَهتديَ {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} [سورة العنكبوت: ٦٩]، ويُضِلُّ مَنْ يَبغي الضَّلالَ لنفسِه.

{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف: ١٧٩]

١٧٩ . ولقدْ خَلقنا للنارِ وهيَّأنا لها كثيراً مِنَ الإنسِ والجِنّ، وهمُ المِصِرُّونَ على الكُفرِ والضَّلال، الرافِضونَ للحَقِّ رغمَ وضُوحِه، فلَهمْ قُلوبٌ لم يَستَعمِلوها لمعرفةِ الخَيرِ والهُدَى، ولا ليَفقَهوا دلائلَ الإيمان. ولهمْ أعينٌ لم يَستعمِلوها لتبصُّرِ آياتِ اللهِ الكونية، ولا لمعرفةِ خالقِ الشَّواهدِ الحسّية، ولهمْ آذانٌ لا يَسمَعونَ بها كلامَ اللهِ الحقّ، ولا مَواعِظَهُ وزَواجِرَهُ في كتابهِ الكريم، الذي أنزلَهُ لهدايةِ عبادِه. فأولئكَ كالحيَوانات، قدْ عطَّلوا ما وهبَهمُ اللهُ مِنَ الحواسِّ المدرِكة، ولم يَستَخدِموها لوظائفها الحقِيقيَّة، فصَاروا كالحيَواناتِ التي لا تَعقِل، بلْ همْ أضلُّ منها، فهيَ تُمَيِّزُ بينَ كثيرٍ منَ المضارِّ والمنافع، فلا تُقْدِمُ عليها حتَّى لا تَهلِك، وهؤلاءِ الكفّارُ غَفَلوا عمّا يُصلِحُهمْ في الدُّنيا ويُخَلِّصُهمْ منْ وعيدِ اللهِ وعِقابهِ في الآخِرَة.

{وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [الأعراف: ١٨٠]

١٨٠ . وللهِ أحسنُ الأسماءِ وأجَلُّها؛ لأنَّها تُنبِئُ عنْ أحسَنِ المعاني وأشرَفِها، فادعوهُ بهذهِ الأسماءِ الجليلة، ودَعُوا الذينَ يَميلونَ ويَنحرِفونَ فيها عنِ الحقّ إلى الباطِل، كما يَفعَلهُ المشركون، فسَمَّوا بها آلهتَهمُ المزعُومة، فحرَّفوا اسمَ "الله" وسمَّوا بهِ "اللاّت"، واسمَ "العَزيز" فسمَّوا به "العُزَّى". وإنَّ مَنْ أَلحَدَ في أسماءِ اللهِ وانحرفَ بها عنِ القَصد، يُنْزِلُ بهمْ عقوبتَه، كمنْ نفَى معانيَها أو حرَّفَها.

وأسماؤهُ سُبحانَهُ توقيفيَّة، لا يجوزُ للمرءِ أنْ يُكوِّنها أو يَختَرِعَها مِنْ عندِه، فلا يُقالُ لهُ – مثلاً – "عاقِل" و"فَقيه"، بلْ يُدعَى بأسمائهِ المذكورةِ في القرآنِ والحديثِ الصَّحِيح.

{وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [الأعراف: ١٨١]

١٨١ . ومِنَ الأمَمِ التي خَلقْنا أمَّةٌ فاضِلةٌ يَهتدونَ بالحقِّ ويَهدونَ الناسَ إليه، ويَعمَلونَ بهِ في شُؤونِهمُ الحياتيَّةِ والأُخرَويَّة، معَ أنفسِهمْ ومعَ الآخَرين. ولا يَخلو منهمْ زَمان.

{وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ} (الأعراف: ١٨٢)

١٨٢ . والذينَ كذَّبوا بالأدلةِ البيِّنةِ والمعجِزاتِ القاطِعَةِ التي خَصَّ اللهُ بها أنبياءَه، لتدُلَّ على صِدقِهمْ وما جاؤوا به، فردُّوها ولم يَقبَلوا بها، سنَفتحُ لهمْ أبوابَ النَّعيمِ والترفُّه، حتَّى يَغترُّوا بما همْ فيه، فيَزدادوا طُغياناً وكُفراً، لنأخُذَهمْ بَغتةً، ونَزيدَ في عُقوبتِهم.

{وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [الأعراف: ١٨٣]

١٨٣ . وأُمهِلُهمْ وأُطيلُ في آمالِهم، حتَّى يَظنُّوا أنَّهمْ لا يُعاقَبونَ ولا يُؤاخَذون، إنَّ كيدي باستِدراجِ الكافرينَ الغافلينَ قويٌّ شَديدٌ.

{أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} [الأعراف: ١٨٤]

١٨٤ . ألَمْ يُفَكِّرِ المكذِّبونَ مِنْ كفّارِ قُرَيشٍ أنَّ محمَّداً صلى الله عليه وسلم ليسَ بهِ مَسُّ جُنونٍ كما يَدَّعون؟ بلْ هوَ رسولُ اللهِ حقًّا، يَظهَرُ أمرُهُ هذا لكلِّ متأمِّلٍ ذي عَقل.

{أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ١٨٥]

١٨٥ . ألا يَنظُرُ هؤلاءِ الكافِرونَ في خلقِ السَّماواتِ والأرضِ ويَتأمَّلونَ فيه، لِيَستَدِلُّوا بذلكَ على قُدرةِ اللهِ وعَظمتِهِ ووَحدانيَّته، ويَتوجَّهوا بالعِبادةِ إليهِ وحدَه، ويَترُكوا ما همْ عليهِ منْ عِبادةِ الأصنامِ، وقدْ تَكونُ آجالُهُمْ قَريبة، فيَموتونَ قبلَ أنْ يؤمِنوا، ثمَّ يَصيرونَ إلى العَذاب؟ فبأيِّ إنذارٍ وتَذكيرٍ بعدَ القُرآنِ الذي جاءَهمْ بهِ محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم يُؤمِنونَ ويَرتَدِعون، وفيهِ ما يَدلُّهُمْ على الإيمان، ويُنقِذُهمْ منَ النيران؟

{مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الأعراف: ١٨٦]

١٨٦ . ولكنَّهمْ يأبَونَ إلاّ الكُفر، ويُعانِدون، ويُصِرُّونَ على التَّكذِيب، ومَنْ أضلَّهُ اللهُ فلا يَقدِرُ أحدٌ على أنْ يَهديَه، ونحنُ نَترُكُهمْ في ضَلالِهِمْ وعَماهُمْ يَتحيَّرونَ ويَتردَّدون.

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} [الأعراف: ١٨٧]

١٨٧ . ويسألُكَ الكفّارُ عنْ وقتِ يَومِ القِيامَةِ متَى يَثبُت، تَكذيباً لِما تَقول، واستِبعاداً لوقوعِه.

فقلْ لهم: عِلْمُ ذلكَ عندَ اللهِ وحدَه، لا يُظهِرهُ إلّا في الوقتِ الذي يَقعُ فيهِ بَغتة. خَفِيَ أمرُ القيامةِ وعَظُمَ أمرُها على أهلِ السَّماواتِ والأرضِ كلِّهم، لا تأتيكمْ إلاّ فَجأةً في غَفلةٍ منكم.

يَسألونَكَ ذلكَ وكأنَّكَ عالِمٌ بها، فقل: إنَّما علمُ ذلكَ عندَ اللهِ وحدَه، لا يَعرِفهُ مَلَكٌ مُقرَّبٌ ولا نبيٌّ مُرسَل، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعلمونَ ذلك.

(قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) [الأعراف: ١٨٨]

١٨٨ ـ قُلْ أيُّها النبيُّ الكريم: لا أملِكُ لنَفسي جلبَ مَنفَعةٍ ولا دَفْعَ مَضَرَّة إلاّ إذا شاءَ اللهُ ذلك، ولو كنتُ أعلمُ المستقبَلَ لأكثرتُ مِنْ عَمَلِ الخَيرِ وحصَّلتُ منافِعَ جمَّةً واستعدَدْتُ لذلكَ أكثَر، ولاجتنبتُ الشرَّ ودفعتُ عنْ نَفسي الآفاتِ والمضرَّاتِ قبلَ أنْ تَكون، ما استَطَعتُ، ما أنا إلاّ رسُولٌ أُنذِرُكمْ عذابَ اللهِ ما لم تتَّقوهُ وتتَّبِعوا أوامرَه، وأبشِّرُكمْ بالخيرِ والجزاءِ الطيِّب، إذا آمَنتُمْ بالله، وصَدَّقتُمْ رسولَه، واتَّبعتُمْ كتابَه. وليسَ مِنْ وَظيفةِ الرسُلِ أنْ يَقِفوا على الغَيب، إلاّ ما أخبَرَهمُ اللهُ بهِ فكانَ مُعجِزةً له. أمّا وقتُ السَّاعةِ فلا مَطمَعَ لأحدٍ في معرفتِه.

{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الأعراف: ١٨٩]

١٨٩ ـ هوَ اللهُ القادِر، الذي خلقَكمْ جَميعاً مِنْ نَفسٍ واحدةٍ هيَ آدم، وخلقَ مِنْ آدمَ حوّاءَ زَوجاً له، ليألَفَها ويأنسَ بها ويَستقِرَّ لها.

ولما جامعَ الزوجُ زوجَه، وحملتْ أوَّلَ الحَمْلِ، واستمرَّتْ فيه، فَرِحَ الزَّوجانِ واستَبشرا، فلمّا كَبُرَ جنينُها وثَقُلَتْ بحَمْلِه، دَعا الزَّوجانِ ربَّهما وهما في قَلَقٍ وترقُّب، قائلين: لو رَزقتَنا مولوداً صَحيحاً سَالماً، لنَكونَنَّ ممَّنْ يَعبُدونَكَ ويُخلِصونَ الشُّكرَ لك.

{فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الأعراف: ١٩٠]

١٩٠ ـ فلمّا أعطاهُما مَولوداً سَالماً كما طَلَبا، جَعلا للهِ شُركاءَ في هذا الذي رزقَهما، فسَمَّوهُ عبدَ اللاَّتِ وعبدَ العُزَّى، وغيرَ ذلك. أو نَذَروهُ للآلِهة، أو لخِدمةِ مَعابدِها تقرُّباً إلى الله، بزعمِهم. تَقَدَّس اللهُ وتَنَزَّهَ عمّا يُشرِكونَ بهِ ويعتَقدونَ فيه.

{أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ} [الأعراف: ١٩١]

١٩١ . أيُشرِكونَ باللهِ تعالى أصْناماً مِنْ حَجَرٍ، لا تَقدِرُ على الحرَكة، ولا على الضَّرَرِ والنَّفع، ولا هيَ قادِرَةٌ على أنْ تَخلُقَ شيئاً، وعابِدوها أقدرُ منها وأسمعُ وأبصَر!! وهذهِ الأصنامُ مَصنوعةٌ ومُشَكَّلةٌ بأيديهم؟! {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ}؟ [الصافات:٩٥].

{وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ} [الأعراف: ١٩٢]

١٩٢ . ولا تَقدِرُ هذهِ الأصنامُ على الانتِصارِ لمنْ يَعبُدها، كما لا تستَطيعُ الدفاعَ عنْ نفسِها إذا ضُرِبتْ أو كُسِرت.

{وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ} [الأعراف: ١٩٣].

١٩٣ . وإنْ تَدْعُوا – أيُّها المشرِكونَ – هذهِ الأصنامَ لتُرشِدَكمْ إلى أمرٍ فيهِ مَصلَحةٌ لكم، لَمَا سَمِعَتْكُمْ ولا استَجابَتْ لكم، ولا حَقَّقتْ مرادَكم، وسواءٌ عندَها مَنْ ناداها أم لم يُنادِها، فإنَّها لا تَسمَعُ أصلاً، فهيَ جَمادٌ مِنْ حَجَرٍ أصَمّ، لا تُحِسُّ ولا تَسمَع.

{إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [الأعراف: ١٩٤]

١٩٤ . إنَّ هذهِ الأصنامَ التي تَعبُدونَها مِنْ دونِ الله، ما هيَ سِوَى مَخلوقات، مثلَ عابِديها المخْلوقين، وأنتُمْ وهُمْ مَملوكونَ للهِ مُسَخَّرونَ لأمرِه، وها هيَ عندَكم، فارفَعوا أيديَكمْ إليها لتَجلُبَ لكمْ نَفعاً أو تَدفعَ عنكمْ ضُرًّا، إذا كنتُمْ صَادِقينَ في أنَّها آلهةٌ تَقدِرُ على ما لا تَقدِرونَ عليه؟!

{أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ} [الأعراف: ١٩٥]

١٩٥ . هلْ لهذهِ الأصنامِ – التي تدَّعونَ أنَّها آلِهةٌ – أرجُلٌ يَمشُونَ بها ليُعَدُّوا أحياءً لهمْ قُدرةٌ على الحرَكة، ليُسعِفوكمْ ويخلِّصُوكمْ منْ مُعضِلةٍ تَقعونَ فيها؟

أمْ لهمْ أيدٍ يَستَطيعونَ أنْ يأخُذوا شَيئاً ما بقوَّةٍ ويَنفَعوكمْ بها، أو يَدفعوا عنكمْ أذًى يَلحَقُكم؟

أمْ لهمْ أعينٌ يُبصِرونَ بها ليُبَصِّروكمْ أشياءَ لا قُدرةَ لكمْ على رُؤيتها، أو يَشكُروا لكمْ على ما تُقدِّمونَ لهمْ مِنْ ذَبائحَ وقَرابين؟

أمْ لهمْ آذانٌ يَسمعونَ بها دعاءَكمْ وعبادتَكمْ لها؟

إنَّهمْ لا يَتمتَّعونَ بصفةٍ منْ تلكَ الصِّفات، ولا بحاسَّةٍ منْ تلكَ الحَواسّ، ولا فائدةَ منهمُ ألبتَّة.

فحاجِجْهمْ أيُّها النبيُّ، وقلْ لهم: هاتوا آلهَتَكمُ المزعومةَ هذه، واستَعينوا بها عليّ إنْ كانتْ قادرةً على إلحاقِ ضَرَرٍ بي، واجتَهدوا في تَرتيبِ كلِّ ما تَقدِرونَ عليهِ منْ مَكرٍ وكَيدٍ، ولا تُمهِلوني ولا تُشعِروني بما ستَفعَلونَه، فإنّي لا أبالي بكمْ ولا بأصنامِكمْ أصلاً!

{إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} [الأعراف: ١٩٦]

١٩٦ ـ إنَّ حافِظي وناصِري ومُتَولِّي أموري هوَ اللهُ ربُّ العالمين، الذي بيدهِ وحدَهُ تحصيلُ المنافعِ ودفعُ المضارّ، الذي أيَّدَني بتَنْزيلِ كتابهِ العَظيم، فهوَ الذي يَنصُرني ويَدفَعُ عني ضَرَرَ أعدائي، ولا يَخذُلني، كما يتولَّى مَن صلحَ عملهُ بطاعتهِ مِن خلقه.

{وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ} [الأعراف: ١٩٧]

١٩٧ ـ وأصنامُكمُ الصمّاءُ البَكماء، التي تدَّعونَ أنَّها آلهة، وتَستَعينونَ بها، لا تَقدِرُ على نَفعِكمْ بشَيء، ولا تَوَلِّي أيِّ أمرٍ منْ أمورِكم، ولا مُساعدتِكمْ فيما تَرغَبون، ولا إغاثتِكم إذا استَنصرتُمْ بها، بلْ لا تَستَطيعُ أنْ تُدافعَ عنْ نفسِها إذا أُصيبَتْ بسُوء!

{وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ} [الأعراف: ١٩٨]

١٩٨ . وإذا دعوتُمْ هذهِ الأصنامَ لتَحصيلِ شَيءٍ مِنْ مَقاصدِكم، فإنَّها لا تَسمَعُ حتَّى تُجيب، وتَراها وكأنَّها تنظرُ إليكَ وهي لا تُبصِر، وقدْ صُنعتْ لها أعينٌ مركَّبةٌ منَ الخرَزِ والجواهِر، وصوِّرَتْ على هيئةٍ وكأنَّ الحَدَقةَ فيها تَنظرُ إليك، والحالُ أنَّها غيرُ قادرةٍ على الإبصار.

{خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: ١٩٩]

١٩٩ . اِرْضَ أيُّها النبيُّ بما سَهُلَ منْ أخلاقِ الناس، واقبَلْ ما تيسَّرَ منْ أعمالِهم، ولا تَطلُبْ ما يَشُقُّ عليهِمْ حتَّى لا يَنفِروا منك، وأمُرْهُمْ بالمستَحسَنِ منَ الأفعالِ – ويَدخلُ فيهِ جميعُ الطَّاعات – وأعرِضْ عنِ السُّفهاءِ ولا تُكافِئهمْ بمثلِ سَفَهِهم، واحلُمْ عليهم.

{وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأعراف: ٢٠٠]

٢٠٠ . وإذا أحسَستَ بوَسوَسةٍ منَ الشيطانِ يُريدُ أنْ يَصرِفكَ عنْ خَيرٍ أُمِرْتَ به، فاستجِرْ باللهِ واعتَصِمْ به، فهوَ سميعٌ لِمَا تَقول، عليمٌ بالتِجائكَ وتَضرُّعِكَ إليه.

{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ} [الأعراف: ٢٠١]

٢٠١ . إنَّ عبادَ اللهِ المؤمِنينَ المطيعين، إذا أصابَتْهُمْ وَسوَسةٌ منَ الشَّيطانِ، أو ألَمَّ بهمْ خاطِرٌ سيِّء، عَرَفوا أنَّ ذلكَ مِنَ الشَّيطان، وتذكَّروا ما أمرَهمُ اللهُ به، فاستَعاذوا بهِ منْ شَرِّه، وأنابوا إلى ربِّهم، فإذا همْ قدْ عَرَفوا خطأهمْ وقوَّموه، واستَقاموا على الطريقِ الصَّحيح.

{وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ} [الأعراف: ٢٠٢]

٢٠٢ . وإخوانُ الشَّياطينِ منَ المشرِكين، يَساعِدونَ الشَّياطينَ في الانحرافِ عن الحقِّ وارتِكابِ المعاصي، ويُسَهِّلونَ عليهمْ مُهِمَّتَهم، فهمْ يُضِلُّونَ الناس، فيكونُ ذلكَ إمداداً منهمْ لشياطينِ الجنِّ على الإغواءِ والإضْلال. ولا يَكفُّونَ عنْ ذلكَ حتَّى يُرْدُوهمْ بالكليَّة.

{وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يِوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَـذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف: ٢٠٣]

٢٠٣ ـ وإذا طلبَ المشرِكونَ منكَ أنْ تأتيَ لهمْ بمعجِزة، ولم تأتِهِمْ بها، قالوا لكَ في تهكُّم: لماذا لا تأتي بها مِنْ عندِك؟

قُلْ ردًّا عليهمْ أيُّها النبيّ: أنا لا آتي بشَيءٍ مِنْ عندِي، ولا أفعلُ إلاّ ما يوحَى إليَّ منَ اللهِ تعالَى. وهذا القُرآنُ حُجَجٌ بيّنة، وبراهينُ نيّرة، تَظهرُ حتَّى يُبصِرَها الإنسانُ فيَهتَدي بها، ورَحمَةٌ تَفيض، لمنْ يؤمِنُ به، ويَغتَنِمُ خيرَهُ العَميم.

{وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف: ٢٠٤]

٢٠٤ ـ وإذا تُلِيَتْ آياتُ القُرآنِ فاسكُتوا واستَمِعوا له، تَعظيمًا وإجلالاً لكلامِ الله، لكي تَهتَدوا به، وتَفوزوا برَحمةِ الله.

وقدْ ذكرَ السَّلَفُ أنَّها نزلَتْ في القِراءَةِ في الصَّلاة. قالَ القاضي البَيضاويُّ في تَفسيرِه: نزَلَتْ في الصَّلاة، كانوا يَتكَلَّمونَ فيها فأُمِروا باستِماعِ قِراءَةِ الإمامِ والإنصاتِ له. وظاهِرُ اللَّفظِ يَقتَضي وجوبَهما حَيثُ يُقرَأُ القُرآن، وعامَّةُ العُلماءِ على استِحبابِهما خارجَ الصَّلاة. اهـ.

وذكرَ القُرطُبيُّ وآخَرونَ أنَّها عامَّةٌ ولا تُخَصَّصُ إلاّ بدَليل.

{وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ} [الأعراف: ٢٠٥]

٢٠٥ ـ واذكرِ اللهَ في نفسِك، مُخلِصاً له، مُتضَرِّعاً إليه، مُتذلِّلاً بينَ يَديه، خائفاً منه، مُستَحضِراً عَظَمتَه، وفي صَوتٍ خَفيض، بينَ الجهرِ والمخافَتة، بما يُناسِبُ الخُشوعَ والرَّهبة، أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه. ولعلَّ المقصودَ مُداومةُ الذكرِ والمواظَبَةُ عليه، ليَبقَى القلبُ مَوصولاً بالله. ولا تَكنْ ممَّن يَنسَونَ الله، ويَبتعِدونَ عنْ ذِكْرِه، فإنَّ الفَوزَ في ذِكْرِه، والخَيبةَ في الإعراضِ عنه.

قالَ الفَخرُ الرازيّ: يدلُّ على أنَّ الذكرَ القلبيَّ يجبُ أنْ يَكونَ دائماً... بقَدرِ الطاقةِ البشريَّة.

والمسلمونَ تَبَعٌ لِما خُوطِبَ بهِ النبيُّ صلى الله عليه وسلم.

{إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ} [الأعراف: ٢٠٦]

٢٠٦ ـ إنَّ الملائكةَ المقرَّبينَ إلى اللهِ بالفَضلِ والكرامة، المرضيَّ عنهمْ لعِصمَتِهمْ وبراءَتِهم، لا يَتكبَّرونَ عنْ عبادتِه، بلْ يؤدُّونَها بحسَبِ ما أُمِروا به، ويَذكُرونَه، ويُنَزِّهونَهُ عمَّا لا يَلِيقُ بهِ منَ الشِّركِ وغيرِه، ويَسجُدونَ لهُ وحدَه.

سورة الأنفال

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [الأنفال: ١]

١ . يسألُكَ أصحابُكَ أيُّها النبيُّ عنِ الأنفَال، وهيَ الغَنائم، وكلُّ ما نالَهُ المسلِمونَ مِنْ أموالِ أهلِ الحرب، فقلْ لهم: إنَّ اختِصاصَ أمرِها وحُكمِها إلى اللهِ تعالَى ورسولهِ صلى الله عليه وسلم، فيَقْسِمُها رسولُهُ كما يأمرهُ ربُّه، ولا رأيَ فيها لآخَر. وكانَ ذلكَ يومَ بدر. فاخشَوا اللهَ واحذَروا مخالفةَ أمرِه، وأصلِحوا فيما بينَكمْ بالحُسنَى والردِّ الجَميل، فيما وقعَ بأيديكمْ منَ الغَنائم، وسلِّموها للرسُولِ صلى الله عليه وسلم طَواعية، ولا تَتخاصَموا ولا تَتشاجَروا بسَببِ المال، فإنَّهُ يؤدِّي إلى الاختِلافِ والتباغُض، وأطِيعوا اللهَ ورسولَهُ فيما يأمرُ وينَهَى، وفيما يَقسِمهُ لكمْ منْ هذهِ الغَنائمِ على ما أرادَهُ الله، إذا كنتُمْ مؤمنينَ حقًّا، وملتزِمينَ بأحكامِ الدِّين.

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: ٢]

٢ . إنَّما المؤمِنونَ المخلِصونَ في إيمانِهم، الذينَ إذا وردَ ذِكْرُ اللهِ وما أَمرَ به، خافَتْ قلوبُهمْ وخَشَعَت؛ استِعظاماً لشأنهِ الجليلِ وتَهَيُّباً منهُ سُبحانه، وإذا تُلِيَتْ عليهمْ آياتُ كتابهِ الكريمِ زادَتْهُمْ تَصديقاً ويَقيناً، فبادروا إلى فعلِ ما يأمر، وتركِ ما يَنهَى، ويفوّضونَ أمورَهمْ إلى ربِّهم، لا يَرجونَ غيره، ولا يَقصِدونَ إلاّ إيّاه، ولا يَرغَبونَ إلاّ إليه.

{الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [الأنفال: ٣]

٣ . وهمُ الذينَ يواظِبونَ على أداءِ صَلواتِهم، ويؤدُّونَ زَكاةَ أموالِهم، وغيرَ ذلكَ ممّا هوَ واجبٌ عليهمْ ومُستَحَبٌّ لهم.

{أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [الأنفال: ٤]

٤ . أولئكَ المتَّصِفونَ بهذهِ الصِّفات، همُ المؤمِنونَ حقَّ الإيمان، لهمْ منازِلُ ومَقاماتٌ عاليةٌ في جنَّاتِ ربِّهم، ومَغفِرَةٌ عَظيمةٌ لسيِّئاتِهم، ورِزقٌ حَسَنٌ كثيرٌ لا يَنقَطِع.

{كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ} [الأنفال: ٥]

٥ . وكما كَرِهَ بعضُ المؤمِنينَ تسويةَ الغَنائم، فقدْ كَرِهَ فريقٌ منهمْ أيضاً إخراجَكَ من بيتِكَ بالمدينةِ بوحيٍ وتَدبيرٍ منْ عندِ اللهِ لمقاتلةِ المشرِكين.

وكانَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قدْ خرجَ معَ ثلاثمِئةٍ وبِضعَةَ عشرَ رجلاً مِنْ أصحابهِ يَطلبونَ قافلةً كبيرةً لأبي سُفيان، مُحَمَّلةً بأطعمةٍ وأموالٍ جَزيلةٍ لقُرَيش، قادمةً منَ الشَّام، فسَمِعَ أبو سفيانَ بخروجِ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فبعثَ إلى مكَّةَ يَستَنجِدُ بمشرِكي قُرَيش، فخَرجَ منهمْ نحوُ ألفِ مُحارِب. وقدْ نَجَتِ القافِلَة، ثمَّ شاورَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أصحابَهُ في الحرب، فوافَقوه، وكَرِهَ بعضُهمْ ذلك.

{يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ} [الأنفال: ٦]

٦ . ويجادلُكَ هؤلاءِ الكارِهونَ في القِتالِ بعدَما تبيَّنَ لهمْ أنَّكَ ستُنَفِّذُ أمرَ اللهِ وتُقاتِل، ويَقولون: ما كانَ خروجُنا إلاّ للقافِلَة، ولم نَستَعِدَّ للحَرب. ولشدَّةِ كراهيَتِهمْ لذلك، كانتْ حالُهُمْ كأنَّما يُساقُونَ إلى الموتِ وهمْ يُشاهِدونَ علاماتِه!

{وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ} [الأنفال: ٧]

٧ . واذكُروا معَ ما بكمْ منَ الجزَعِ وقلَّةِ العَدد، أنْ وعدَكمُ اللهُ الفَوزَ بإحدَى الغَنيمَتَين: إمّا قافِلةَ أبي سفيان، وإمّا النصرَ على جَيشِ المشرِكين. وأنتمْ تحبُّونَ التي لا قوَّةَ فيها ولا قِتال، وهي القافِلة. بينَما يريدُ اللهُ أنْ يُظهِرَ دينَه، ويَرفعَ رايةَ الحقّ، ويُهلِكَ الكافِرين، حتىَّ لا يُبقي منهمْ أحداً. ولذلكَ أمرَكمْ بقتالِهم.

{لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} [الأنفال: ٨]

٨ ـ ليُثبِتَ الإسلامَ بذلكَ ويجعلَهُ غالِباً على الأديانِ، ويَمحَقَ الكُفر، ولو كَرِهَ المشرِكون.

{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال: ٩]

٩ ـ واذكرُوا نعمةَ ربِّكمْ عندما قَرُبَ التِقاؤكمْ بعدوِّكم، إذْ تَستَجيرونَ بهِ وتَطلبونَ منهُ الغَوثَ والنَّصر. وكانَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يُكثِرُ منَ الدُّعاءِ في تضرُّعٍ وخُشوع، ويَطلُبُ منْ ربِّهِ إنجازَ ما وعدَهُ منَ النَّصر.

فأجابَ دعاءَكمْ بأنِّي مُرسِلٌ إليكمْ مَدَداً بألفٍ منَ الملائكةِ مُتتابِعين، بعضُهمْ في إثرِ بَعض.

{وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: ١٠]

١٠ ـ وما جعلَ اللهُ إمدادَكمْ بالملائكةِ إلاّ بِشارةً لكمْ بأنَّكمْ ستُنصَرون، ولِتَسكُنَ نفوسُكمْ إلى ذلك، وتَهدأَ ولا تَجزَع، واللهُ قادرٌ على نَصرِكمْ على الأعداءِ بدونِ ذلك، وما النصرُ إلاّ مِنْ عندهِ سُبحانَه، وهوَ العَزيزُ القويُّ الذي لا يُغالَب، الحكيمُ فيما يَشْرَعُهُ مِنْ حَرب، ويَقضيهِ منْ تَدبير.

{إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ} [الأنفال: ١١]

١١ ـ واذكرُوا إذ يُلقي ربُّكمُ النُّعاسَ عليكمْ أمناً منهُ لِما حَصَلَ لكمْ منَ الخَوف، ويُنَزِّلُ عَليكمْ مَطَراً وقدْ كنتُمْ بحاجةٍ إلى الماء، لتَتوضَّؤوا للصَّلاة، وتَغتَسِلوا مِنَ الجنابة، وليُذهِبَ عنكمْ وَسوَسةَ الشَّيطانِ وتخويفَهُ إيَّاكمْ منَ العَطش، وليقوِّيَ قلوبَكمْ باليَقينِ والصَّبر، والثقةِ بلُطفِ اللهِ وما يُبديهِ منَ النَّصر، وليثبِّتَ بهِ الأقدامَ حتَّى لا تَسوخَ في الرَّملِ أثناءَ الحربِ والكَرِّ والفَرّ.

وكانَ المشرِكونَ قدْ سَبقوهمْ في أوَّلِ الأمرِ إلى ماءِ بدر، فعَطِشوا وخافُوا... فأنزلَ اللهُ المطرَ حتَّى سالَ منهُ الوادي، فشَرِبَ المؤمنونَ واغتَسلوا وتَوضَّؤوا، وسقَوا دوابَّهم، ومَلَؤوا الأسقِيَة، حتَّى طابَتْ نفوسُهمْ وزالتْ عنهمْ وسوَسةُ الشَّيطان. وكانَ المطرُ قبلَ النُّعاس.

وكانتِ الأرضُ التي نزلَ بها المسلمونَ رَمْلاً، فقَدِروا على المشي عليهِ بعدَ المطرِ كيفما أرادوا، والموضِعُ الذي نزلَ الكفّارُ فيهِ تُرابٌ ووَحَل، فلمّا نزلَ المطرُ عظمَ الوَحَل، فصارَ مانِعاً لهمْ منَ المشي كيفَما أرادوا.

{إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ} [الأنفال: ١٢]

١٢ ـ واذكُرْ أيُّها النبيُّ إذْ يوحِي ربُّك إلى الملائكةِ الذينَ أمدَّ بهمُ المؤمنين، أنِّي معَكمْ بالعَونِ والتأييد، فقوُّوا قُلوبَ المؤمِنين، واحمِلوهمْ على الثَّبات، وبَشِّروهمْ بالنَّصر، سأُلقِي الخَوفَ والرُّعْبَ في قُلوبِ المشرِكينَ حتَّى يتوقَّعوا الهزيمةَ في أيِّ وَقت. فاضرِبوا بالسُّيوفِ رؤوسَهمْ وأعناقَهم، وكلَّ طَرَفٍ ومَفْصِلٍ منهم. يَعني منَ الأيدي والأرجُل.

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال: ١٣]

١٣ ـ وهذا ما يَستَحِقُّهُ الكافِرون، فقدْ خالَفوا أمرَ اللهِ وترَكوا شَرعَه، وناوَؤوا رسُولَهُ وصاروا في صُفوفِ أعدائه، ومَنْ يُخالِفْ أمرَ اللهِ ورسُولِه، فإنَّ اللهَ يُعاقبهُ عِقاباً شَديداً.

{ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ} [الأنفال: ١٤]

١٤ ـ فذُوقُوا هذا العَذابَ والنَّكال، والهزيمةَ والخُسران، واعلَموا أنَّ للكافِرينَ عذاباً مُعَدًّا في النار، هوَ أشدُّ وأفظَعُ ممّا عُوقِبوا بهِ في الدُّنيا.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ} [الأنفال: ١٥]

١٥ ـ أيُّها المؤمنون، إذا تقاربتُمْ مِنْ أعدائكمُ الكفّارِ ماشِينَ لقِتالِهم، مُتوجّهينَ لمحاربتِهم، فلا تَنهَزِموا مُوَلِّينَ إيّاهمْ ظهورَكم، ولا تَفِرُّوا وتَترُكوا إخوانَكمُ المجاهِدينَ في الحَرب.

{وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الأنفال: ١٦]

١٦ ـ ومَنْ يَفِرَّ مِنَ العدوِّ يومَ اللِّقاء، إلاّ إذا كانَ قصدُهُ أنْ يُرِيَ مُقاتِلَهُ الفِرارَ وهوَ يُريدُ الكَرَّةَ عليه، بانحرافِهِ إلى مَوقفٍ أفضلَ ممّا هوَ فيه، أو مُنحازاً إلى جَماعةٍ أخرَى منَ المؤمنين، فينضَمُّ إليهمْ ليُقاتِلَ معهمُ العدوّ، يُعاونُهمْ أو يُعاوِنوه، حتَّى لو كانتْ هذهِ الجماعةُ سَرِيَّة أخرَى، ففَرَّ إلى أميرِه، أو إلى الإمامِ الأعظَم، دخلَ في هذهِ الرُّخصة، قالَهُ ابنُ كثير؛ ومَنْ يَفِرَّ – عدا ما ذُكِرَ مِنْ صُوَرِ الفَرِّ والكَرّ – فإنَّ فاعلَهُ يَقترِفُ كبيرةً منَ الكبائر، ويَستحِقُّ غَضَبَ الله، ومَكانُهُ جهنَّمُ جزاءَ فِرارِه، وبئسَ المكانُ الذي يأوي إليهِ ويُعذَّبُ فيه.

{فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأنفال: ١٧]

١٧ ـ فلمْ تَقتلوهُمْ أنتُمْ بقوَّتِكمْ وقُدرَتِكم، معَ كثرةِ عددِهِمْ وقلَّةِ عددِكم، ولكنَّ اللهَ قتلَهُمْ بتَقويتِكمْ وإمدادِكمْ بالملائكة، وإلقاءِ الرُّعبِ في قُلوبِهم.

وتناولَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم كفًّاً منَ الحصَى ورمَى بها وجوهَ المشرِكين، فما بقيَ أحدٌ منهمْ إلاّ امتلأتْ عيناهُ منَ الحَصباء، كما صحَّحَهُ الهيثميُّ في مجمعِ الزوائدِ منْ روايةِ الطبرانيّ.

فقالَ اللهُ تعالَى ما معناه: وما رَميتَ أيُّها النبيُّ أعينَ المشرِكينَ عندَما رميتَهُمْ بالحصَى، ولكنَّ اللهَ رمَى بإيصالِ ذلكَ إلى وجوهِهِمْ وعيونِهِمْ بقُدرتِه، ليوهِنَهمْ ويَقهَرَهمْ، وليُنعِمَ على المؤمنينَ بالنَّصرِ والغَنيمة، ليَعرفوا حقَّهُ ويَشكروا نِعمَتَه، واللهُ سميعٌ لدعائكمْ واستغاثتِكم. عليمٌ بنيّاتِكم وأحوالِكم.

{ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ} [الأنفال: ١٨]

١٨ ـ ذلكمْ البَلاءُ الحسَنُ والجِهادُ الطيِّبُ منَ المؤمِنين، واللهُ يُضعِفُ كيدَ الكافِرينَ ويُبطِلُ حِيَلَهم، حتَّى تَنتَصِروا عليهمْ نَصراً كاملاً.

{إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال: ١٩]

١٩ ـ إنْ تَستَنصِروا اللهَ وتَستَحكِموهُ أيُّها المشرِكونَ ليَفصِلُ بينكمْ وبينَ المسلِمين، فقدْ جاءَكمْ ما سألتُم.

وكانَ أبو جَهلٍ قدْ قالَ يومَ بَدر: اللهمَّ أيُّنا كانَ أقطعَ للرَّحِم، وآتانا بما لا يُعْرَف، فأَحْنِهِ الغَداة.

وكانَ استفتاحاً منه. فنصرَ اللهُ المسلِمينَ يومَ بدر، وقُتِلَ أبو جَهل.

وإنْ تَنتَهوا عنِ الكُفرِ باللهِ وحَربِ رَسولِه، فهوَ أفضلُ لكمْ وأحسَنُ من الحَربِ والأسرِ، الذي ذقتُمْ مرارةَ هَزيمتِه.

وإنْ تَرجِعوا إلى الحرب، نَعُدْ إلى تَسليطِ المؤمِنينَ عليكم.

ولنْ تُغنيَ عنكمْ جموعُكمُ الكثيرةُ كما لم تُغنِ عنكمْ يومَ بَدر. فإنَّ اللهَ معَ المجاهدينَ المؤمِنين، ولا يُغْلَبُ مَنْ كانَ اللهُ ناصِرُه.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ} [الأنفال: ٢٠]

٢٠ ـ يا عبادَ اللهِ المؤمِنين، أطيعوا اللهَ ورَسولَهُ إذا دعاكمْ إلى الجِهاد، ولا تَترُكوا طاعتَهُ وأنتُمْ تَعلَمونَ ما يَدعوكمْ إليه، ولا تَتشبَّهوا بالكافِرينَ المعانِدين، الذينَ يرفُضونَ الإذعانَ لأوامرِه.

{وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ} [الأنفال: ٢١]

٢١ ـ ولا تَكونوا كالمشرِكينَ والمنافِقين، الذينَ يقولونَ بألسنتِهمْ سمِعنا، وهُمْ لا يَنتفِعونَ بسَماعِهم، لأنَّهمْ لا يُصدِّقونَ ما سَمِعوه، فكأنَّهمْ لم يَسمَعوا.

{إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ} [الأنفال: ٢٢]

٢٢ . إنَّ شرَّ مَنْ دَبَّ على وجهِ الأرضِ مِنْ خَلْقِ الله، الذين لا يَسمَعونَ الحقّ، ولا يَنطِقونَ به، فهمْ لا يَفقَهونَ كلامَ اللهِ ولا يَنتَفِعونَ به، لأنَّهمْ لم يَستَعمِلوا عقولَهمْ وحواسَّهمْ التي خلقَها اللهُ لهمْ كما يَنبَغي، ليُميِّزوا بها الحقَّ مِنَ الباطِل، والخَيرَ مِنَ الشَّرّ.

{وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ} [الأنفال: ٢٣]

٢٣ . ولو عَلِمَ اللهُ في هؤلاءِ الكافِرينَ المعانِدينَ خيراً لأفهمَهمْ حتَّى يَقِفوا على الحقّ، ولو أفهمَهُمْ فوقَفوا على الحقِّ لأعرَضوا عنهُ ورفَضوه، فلم يَنتَفِعوا بهِ ولم يَقبَلُوه؛ لعنادِهمْ واستِكبارِهم.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [الأنفال: ٢٤]

٢٤ . أيُّها المؤمِنون، أجيبوا اللهَ ورسولَهُ إذا دعاكمْ لِما يُصلحُكمْ في حَياتِكمْ منَ الإيمانِ والجِهاد، الذي فيهِ عِزُّكمْ ورِفعتُكم.

واعلَموا أنَّ اللهَ يَحجِزُ بينَ المؤمِنِ والكُفر، وبينَ الكافِرِ والإيمان، فالقُلوبُ بينَ يديه، يُقَلِّبُها كما يُريد، وهوَ قادرٌ على أنْ يُجبِرَكمْ على الاستِجابةِ لِما يَدعوكمْ إليه، ولكنَّهُ يُكرمُكمْ فيَدعوكمْ لتَستَجيبوا عنْ طواعيةٍ لتؤجَروا عليها، وتَرتفِعوا بها.

واعلَموا أنَّكمْ ستُحشَرونَ إلى ربِّكمْ يومَ القيامَة، فيُجازيكمْ على أعمالِكمْ كلِّها، فلا مَفرَّ لكمْ منه، في الدُّنيا والآخِرَة، فالتزِموا، وأطيعوا، واثبُتوا.

{وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال: ٢٥]

٢٥ . واحذَروا مِحنةً وابتلاءً لا تَقتَصِرُ على الظَّالمينَ وأهلِ المعاصي، بل تَعمُّهمْ جَميعاً. فلا تُقصِّروا في تَغييرِ المنكَر، ولا تَتكاسَلوا عنِ الإجابةِ للجِهاد. واعلَموا أنَّ اللهَ شَديدُ العِقابِ لِمَنْ خالَفَهُ.

{وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [الأنفال: ٢٦]

٢٦ ـ وتَذَكَّروا أيُّها المؤمِنونَ عندَما كنتُمْ قِلَّةً مُستَضعَفةً في مكَّةَ تحتَ أيدي كفّارِ قُرَيشٍ وأنتُمْ في حالَةِ خَوفٍ ووَجَلٍ، تَخافونَ أنْ يَذهبَ بكمُ الكفّار، فجعلَ لكمْ مأوًى في المدينةِ تَتحصَّنونَ به، ثمَّ قوَّاكم، وزادَ في عدَدِكم، ونصرَكَمْ على أعدائكمْ يومَ بَدر، وكنتُمْ فقراءَ مُحتاجِين، فواسَاكمْ إخوانُكمُ الأنصارُ بأموالِهم، ورَزَقَكمْ غنائمَ يومِ بَدر، ولم تَحِلَّ إلا لهذهِ الأمَّة، لعلَّكمْ بذلكَ تَشكرونَ نَعمَةَ ربِّكم، ليَزيدَكمْ مِنْ فضله، ويُثيبَكمْ عليه.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} [الأنفال: ٢٧]

٢٧ ـ أيُّها المؤمِنون، لا تَخُونوا اللهَ ورسولَهُ بتَركِ ما أمرَكمُ به، وأدُّوا الأماناتِ إلى أهلِها، ولا تَتهاوَنوا فيما شرَعَهُ اللهُ مِنْ تَنظيمِ أحوالِكم، بلْ أدُّوها كما هي، وأنتُمْ تَعلَمونَ وبالَ المعصِيَةِ وعُقوبةَ الذنب.

{وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [الأنفال: ٢٨]

٢٨ ـ واعلَموا أيُّها المؤمِنون، أنَّ أموالَكمْ وأولادَكمْ اختِبارٌ وامتِحانٌ منَ اللهِ لكم، ليَنظُرَ هلْ تُطيعونَهُ فيها وتَشكرونَهُ عليها، أمْ تَبخَلونَ وتَشتَغلونَ بها عنهُ وترَكَنونَ إلى الدُّنيا وزينتِها؟ واللهُ عندَهُ الثَّوابُ الأكبر، لمنْ أخلصَ لهُ وآثرَ رِضاه، والتزمَ حدودَه.

{يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الأنفال: ٢٩]

٢٩ ـ يا عبادَ اللهِ المؤمِنين، إنَّكمْ إنِ اتَّقيتُمُ الله، بالقيامِ بطاعتهِ والانتهاءِ عنْ مَعصيتِه، يُوَفِّقْكمْ لمعرفةِ الحقِّ منَ الباطلِ، ويَجعَلْ في قُلوبِكمْ نُوراً تُفرِّقونَ بهِ بينَ الخطأ والصَّواب، ويكونُ هذا سَبباً لنَجاتِكمْ وسَعادتِكم، وغُفرانِ ذُنوبِكم. ونِعَمُ اللهِ كثيرة، وفَضلُهُ عَظيم، يَخُصُّ بهِ عبادَهُ المؤمِنينَ المتَّقين.

{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال: ٣٠]

٣٠ . واذكُرْ نعمةَ اللهِ عَليكَ أيُّها النبيُّ عندما كانَ الكافِرونَ في مكَّةَ يُخطِّطونَ ليَسجُنوكَ ويُقيِّدوك، أو يَقتلوك، أو يُخرِجوكَ منها، فكانوا يَتشاوَرونَ لأجلِ ذلكَ قُبيلَ هِجرَتِك، ويُدَبِّرونَ الأمرَ بليلٍ، ولكنَّ اللهَ أحبطَ حِيَلَهم، وردَّ مكرَهم، وتَدبيرُ اللهِ أنفَذُ وأبلغُ مِنْ مَكْرِهِمْ وشَرِّهم.

{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَـذَا إِنْ هَـذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ} [الأنفال: ٣١]

٣١ . وإذا تُتلَى عَليهمْ آياتُ القُرآنِ الكريمِ عانَدوا وتمرَّدوا، وقالوا في عُتوٍّ واستِكبار: قدْ سمِعنا ما قلتَ يا محمَّد، ولو أرَدنا لقُلنا مثلَ الذي قُلت، ما هذا سِوَى أخبارِ الأممِ الماضيةِ وحكاياتِها ممّا سطَّرهُ الأوَّلون، وليسَ كلامَ الله.

{وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأنفال: ٣٢]

٣٢ . وقالوا وهمْ في ظُلمَةِ الكُفرِ ودوَّامةِ الشِّرك، إصراراً منهمْ على التَّكذيبِ والجُحُود، وتمادياً منهمْ في الغَيِّ والضَّلال، وإمعاناً منهمْ في التهكُّمِ والاستِهزاء: اللهمَّ إنْ كانَ هذا الذي جاءَ بِهِ محمَّدٌ هوَ الحقَّ الذي أنزلتَهُ مِنْ عندِك، فعاقِبْنا بإرسالِ حِجارةٍ عَلينا منَ السَّماء، أو خُذْنا بعَذابٍ شَديدٍ مُؤلِم!

{وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال: ٣٣]

٣٣ . وما كانَ اللهُ لِيُوقِعَ بهمُ العَذابَ فيُهلِكَهمْ وأنتَ بينَ ظهرانَيْهمْ أيُّها النبيّ، ولم تُعذَّبْ أمَّةٌ قطُّ ونبيُّها فيها. وما كانَ معذِّبَهمْ كذلكَ وهمْ يَطوفونَ بالبَيتِ ويَقولون: غُفْرانَكَ غُفْرانَك، أو ما كانَ مُعَذِّبَهمْ وفيهمْ مُؤمِنونَ يَستَغفِرونَ الله. يَعني ممَّنْ بقيَ بينَهمْ منَ المسلِمينَ المستَضْعَفين.

{وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} [الأنفال: ٣٤]

٣٤ ـ ولما خَرجَ مِنْ بينِهمُ الرسُولُ صلى الله عليه وسلم وهاجرَ المسلِمونَ مِنْ مكَّةَ، قالَ تعالَى ما مَعناه: وما يمنعُهمْ مِنْ أنْ يُعَذَّبوا وهمْ يَمنَعونَ المؤمنينَ منَ الطَّوافِ بالبَيت، وما كانوا مُستَحِقِّينَ ولايةَ المسجدِ الحرامِ معَ شِرْكِهم، إنَّما أولياءُ بَيتِ اللهِ المؤمنونَ الذينَ يَتَّقون الشِّرك، فلا يَعبدونَ فيهِ غيرَ الله، ولكنَّ أكثرَهُمْ لا يعلمُ أنْ لا ولايةَ لهمْ عَليه.

وقدْ أوقعَ اللهُ بهمْ بأسَهُ يومَ بَدرٍ وغيرِه.

{وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ} [الأنفال: ٣٥]

٣٥ ـ وما كانَ صلاتُهمْ عندَ المسجدِ الحرامِ إلا صَفيراً، وتَصفيقاً، وهوَ ما لا خيرَ فيه، ولا فائدةَ منه، ولا هوَ ممّا أمرَ اللهُ به، فذوقوا العَذابَ الذي سلَّطَهُ اللهُ عليكمْ يومَ بَدر، مِنْ قَتْلٍ وأسْرٍ وخَسارةِ مال، وذلكَ بسَببِ إصرارِكمْ على الكُفر، وعدمِ مبالاتِكمْ بآياتِ اللهِ ودَعوةِ نبيّه.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ} [الأنفال: ٣٦]

٣٦ ـ إنَّ الكافِرينَ الذينَ يُنفِقونَ أموالَهُمْ ليَمنَعوا بها اتِّباعَ دينِ الله، فسيَفعلونَ ذلكَ ويَكونُ ما أنفقوا نَدامةً وتأسُّفاً لهم، لأنَّهُمْ لم يَجْنُوا مِنْ ورائهِ سِوَى الخِزيِ والهَزيمة، والذينَ بَقُوا مُصِرّينَ على الكُفرِ منهم، سوفَ يُجْمَعونَ ويُساقُونَ إلى جهنَّم، لتُسْعَرَ بهمُ نارُها، ويَمكثوا فيها خائبينَ مَقهورِين.

{لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [الأنفال: ٣٧]

٣٧ ـ ليُمَيِّزَ اللهُ بالجِهادِ والإنفاقِ الكافِرينَ منَ المؤمنين، والمفسِدينَ منَ المصلِحين، ويَضمَّ الخبيثَ الفاسِدَ بعضَهُ إلى بَعض، ثمَّ يجعلَهُ مُتراكِباً مُتراكِماً، فيُلقيهِ في جَهنَّم. فهؤلاءِ الذينَ

خَسِرَتْ تِجارتُهمْ في الدُّنيا والآخِرَة، حيثُ اشترَوا بأموالِهمْ عذابَ الآخِرَة، فخَسِروا أموالَهمْ وأنفسَهم.

{قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ} [الأنفال: ٣٨]

٣٨ ـ قُلْ أيُّها النبيُّ الكريمُ لهؤلاءِ الكفَّار، إنْ يَنْتَهوا عمَّا همْ فيهِ مِنْ كُفرٍ وعِنادٍ وتَكذيب، ويَدخُلوا في الإسْلام، فإنَّ اللهَ يَغفِرُ لهمْ ما مَضَى مِنْ كُفرِهمْ وخَطاياهم، ومنها إنفاقُهمْ في الحَربِ ضدَّ المسلِمين، وإذا عادُوا إلى مُعاداتِكَ وقتالِك، فقدْ سَبقَتْ سنَّتُنا فيمنْ كذَّبَ واستمرَّ في العِنادِ أنْ نُعاقِبَهم.

{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الأنفال: ٣٩]

٣٩ ـ وقاتِلوا المشركِينَ أيُّها المسلِمونَ حتَّى لا يوجدَ منهمْ شِرك، وحتَّى لا يُفتَنَ مُسْلِمٌ عنْ دينِه، ويَكونَ دينُ اللهِ هوَ السَّائدَ والمهيمِن، ويُخْلَصَ التوحيدُ لله، ويُخْلَعَ ما دونَهُ مِنَ الأنداد. فإنِ انتَهوا عنِ الكُفر، وكَفُّوا عنْ قتالِكم، فإنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على إسْلامِهمْ وإنابَتِهمْ إلى الحقّ، وسيَعفو عنهمْ ويُجازِيهمْ خَيراً.

{وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} [الأنفال: ٤٠]

٤٠ ـ وإذا أبَوا إلاّ الكُفر، وأصَرُّوا وعانَدوا على ما هُمْ عليهِ مِنْ باطِلٍ وشِرك، فاعلَموا أيُّها المسلِمونَ أنَّ اللهَ ناصِرُكمْ ومُتوَلِّي أمورِكم ومُعينُكم عَليهم، فثِقوا بهِ ولا تُبالوا بمعاداتِهمْ لكم، وهو نِعْمَ المولَى الذي لا يُضيِّعُ مَنْ تَولاّه، ونِعْمَ الناصِرُ الذي يَنصُرُ مَنْ تَولاّه، ويَدفعُ عنهُ شرَّ الأعداء.

سورة الأنفال (٤١-٧٥)

سورة التوبة (١-٩٢)

{وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الأنفال: ٤١]

٤١- واعلَموا أيُّها المسلِمونَ أنَّ ما أصَبتُموهُ منْ أموالِ الكفّارِ في الحَرب، فإنَّهُ يُقَسَّمُ على خمسةِ أخماس، خُمُسٌ منها للهِ ورسولهِ ولسائرِ مَنْ ذُكِرَ في الآية. وسَهمُ اللهِ ورسولهِ واحِد، وذو القُرْبَى هُمْ أقارِبُ الرسولِ صلى الله عليه وسلم، واليتامَى هُمُ المسلِمونَ الصِّغارُ الذينَ لا أبَ لهم، والمسَاكينُ هُمُ الفُقَراءُ والمحتاجون، وابنُ السَّبيل: المسافرُ المنقَطِع. وسَهمُ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بعدَ وفاتهِ يوضَعُ في بَيتِ المالِ لمصالحِ المسلِمينَ وما فيهِ قوَّةُ الإسلام.

وأربعةُ الأخماسِ الباقيةُ توَزَّعُ على مَنْ شَهِدَ الحَرب.

فامتَثِلوا أمرَ الله، واقنَعوا بما شَرعَهُ لكمْ منَ الأخماسِ الأربَعةِ في الغنائم، إنْ كنتُمْ تؤمِنونَ باللهِ واليومِ الآخِر، وما أنزَلناهُ على عَبدِنا محمَّدٍ يومَ بَدر، منَ الآياتِ والملائكةِ والنَّصر، وقدْ فرَّقَ اللهُ فيهِ بينَ الحقِّ والباطِل. وهو قادِرٌ على كلِّ شَيء، منها ما شاهدتُموهُ يومَ التقَى جَمْعُ المؤمنينَ وجَمْعُ المشركين.

{إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتَّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَـكِن لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأنفال: ٤٢]

٤٢- فاذكرُوا ذلكَ اليومَ أيُّها المسلِمون، عندما كنتُمْ نُزولاً بشَفيرِ الوادي الأقرَبِ إلى المدينة، والمشرِكونَ نازلونَ بشَفيرِ الوادي الأقصَى منَ المدينة، وقافِلةُ أبي سُفيانَ وأصحابهِ في

مَوضعٍ أسفلَ منكمْ إلى سَاحلِ البحر، ولو تواعدتُمْ أنتُمْ والمشرِكونَ علَى القِتالِ لما تلاقَيتُمْ في ذلكَ الوقتِ ولا مكانِه، فقدْ خرجتُمْ أنتُمْ لإصابةِ القافِلة، وهُمْ خَرجُوا لمنعِكُمْ مِنْ ذلك، وأنتُم في قِلَّةِ عددٍ لا تَوَدُّونَ لقاءَهم، ولكنَّ اللهَ قدَّرَ الميعادَ والحربَ بتَدبيرِه، ليَنْصُرَ المؤمنين، ويَقْهَرَ أعداءَهم، ويُعِزَّ دينه، ويَرفَعَ كلمةَ الحقِّ على الباطِل، ليَموتَ مَنْ يموتُ عنْ بيِّنةٍ رآها، وعِبْرَةٍ عايَنها، وحُجَّةٍ قامَتْ عليه، ويعيشَ مَنْ يعيشُ عنْ حُجَّةٍ شَاهدَها، ويَصيرَ الأمرُ ظاهِراً، ولا يَبقَى لأحَدٍ حُجَّةٌ ولا شُبهة.

أو لِيَصدُرَ كُفْرُ مَنْ كفرَ وإيمانُ مَنْ آمنَ عنْ وضوحٍ وبيِّنة، فإنَّ وقعةَ بَدرٍ كانتْ منَ الآياتِ الواضِحة، والحُجَجِ الظاهِرَة، لمنْ أرادَ أنْ يَتدبَّرَ ويَعتَبِر.

واللهُ سَميعٌ لتضرُّعِكمْ واستِغاثَتِكم، عليمٌ بنيّاتِكمْ وإخلاصِكم، وأنَّكمْ تستَحِقُّونَ النَّصرَ على أعدائكم.

{إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَـكِنَّ اللّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [الأنفال: ٤٣]

٤٣- واذكرْ أيُّها النبيُّ إذْ يُرِيْكَ اللهُ المشرِكينَ في مَنامِكَ قَليلاً، لِتُخْبِرَ بهِ أصحابَكَ فيَثْبُتوا ويتَشجَّعوا، ولو أراكَهُمْ في المنامِ كثيراً لجَبُنتُمْ وهِبتُمُ الإقدام، واختَلفتُمْ في الإحجامِ والإقدامِ على الحَرب، وتفرَّقَتْ آراؤكم، ولكنَّ اللهَ سلَّمَكُمْ مِنْ ذلك، وهوَ عليمٌ بما في صُدورِكُمْ وما تُخفيهِ مِنَ الشَّجاعةِ والجَزَع.

{وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ} [الأنفال: ٤٤]

٤٤- واذكرُوا نِعمةَ اللهِ عليكمْ مَعشرَ المؤمنين، إذْ يُريكُمْ أعداءَكمُ المشرِكينَ في عُيونِكمْ قليلاً لتجرُؤوا عليهم وتَطمَعوا في النَّصرِ قَريباً، حتىَّ ظنَّ بَعضُكم أنَّهمْ بينَ السبَّعينَ والمئِة! ويقلِّلُكمْ في أعينِ أعدائكمْ قُبَيْلَ القِتالِ إغراءً لهمْ على قِتالِكم، حتَّى قالَ أبو جَهل: إنَّما أصحابُ محمَّدٍ أكْلَةُ جَزور! وكانَ هذا مَدْعاةً لهمْ ليتركُوا الاستِعدادَ والاستِمداد.

وعندَ الالتحامِ كثَّرَكُمْ في عُيونِ المشـركين، لِيَجْبُنوا وتَختَلَّ عزائمُهُمْ في الحَرب. وهذا التَّدبيرُ منَ اللهِ ليُلقيَ الحربَ بينَ الفَريقَين، وليُعليَ الإسـلامَ ويُعِزَّ أهلَه، وينتَقِمَ منَ الذينَ كفَروا ويُذِلَّهم. والأمورُ كلُّها تَرْجِعُ إلى الله، فيُصَرِّفُها كيفَما شاء، لا رادَّ لأمرِه.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ} [الأنفال: ٤٥]

٤٥- أيُّها المؤمِنون، كونُوا شُـجعَاناً إذا حارَبتُمْ جَماعةً كافِرة، فاصـبِروا واثبُتوا لِقِتالِهم، واذكرُوا اللّهَ كثيراً أثناءَ القِتال، فاستَعينُوا به، وكبِّرُوه، وادعوهُ لِينصـرَكمْ ويُلقيَ الرُّعبَ في قلوبِ أعدائكم، لِتَفوزوا بالنَّصرِ والثَّواب.

{وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٤٦]

٤٦- وأطيعوا اللهَ فيما أمرَكمْ به، ونفِّذوا أوامِرَ نبيِّكمْ وقائدِكم، ولا تَختَلِفوا فتَجْبُنوا وتَضْعُفوا أمامَ أعدائكم، ويكونُ ذلكَ سبَباً لتخاذُلِكمْ وفَشَلِكمْ وذهابِ قُوَّتِكم، واصبِروا على هَولِ الحَرب، وكُونوا أشدَّ عَزماً وبأساً مِنْ عدوِّكم، إنَّ اللهَ يُمِدُّ الصَّابرينَ بقوَّةٍ مِنْ عندهِ ويُعينُهمْ على ما همْ فيه.

{وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [الأنفال: ٤٧]

٤٧- ولا تكونوا - مَعشـرَ المؤمِنينَ - مثلَ المشـرِكين، الذينَ خَرَجوا مِنْ مكَّةَ مُفاخَرةً وتكبُّراً، ليُثنيَ عليهمُ الناسُ بالشَّـجاعة والكرَم، وهمْ يَمنَعونَ الناسَ منَ الجَهرِ بالحقِّ واعتِناقِ الإسْلام. وكانوا قدْ أبَوا الرُّجوعَ إلى مكَّةَ بعدَ أنْ نَجَتِ القافِلةُ إلاّ أنْ يَشـربوا الخمرَ على ماءِ بَدر، وتَعْزِفَ عليهمُ القِيان، ويَنحَروا الإبلَ ويُطعِموا مَنْ حَضـرَهمْ منَ العَرب، فأبدلَهُمُ اللهُ بذلكَ كأسَ المنايا، وناحَتْ عليهمُ النوائحُ بدلَ أنْ تغنِّيَ لهمُ المغنِّيات، ورجَعوا بالخِزي والهزيمةِ ومَقتَلِ الأهلِ والأصحاب، فلا تَتشبَّهوا بهم، وليَكُنْ خروجُكمْ لإعلاءِ كلمةِ الله، ودفعِ الباطِل،

وصــدِّ العُدوان، واللهُ خبيرٌ بأعمالِ المشـركِينَ وإفســادِهم، مُطَّلِعٌ على ما تُخفيهِ صــدورُهمْ منْ كراهيةٍ وعداوةٍ تجاهَ المسلِمين.

{وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّــيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال: ٤٨]

٤٨- واذكرْ أيُّها الرسُــولُ للمؤمِنينَ إذْ وَســوَسَ الشَّــيطانُ في قُلوبِ المشـرِكينَ وكُبَرائهمْ وحسَّـــنَ لهمْ ما همُّوا به، وشَـــجَّعهُمْ على الخُروج، وألقَى في رُوعِهم: إنَّهُ لنْ يَغْلِبَكمْ يومَ بَدرٍ أحَد، لكثرةِ عددِكمْ وقوَّتِكمْ في سِـــلاحِكم، معَ ضَــعْفِ عدوِّكمْ وقلَّةِ عَددِهم، وإنِّي مُعينُكمْ وناصِرُكمْ في أمرِكم.

وعندما التَقَتِ الفِئتان، ونظرَ الشَّـيطانُ إلى إمدادِ الملائكة، رجعَ هارِباً وهوَ يقولُ لأوليائهِ منَ المشـــرِكين: إنِّي أتبرَّأُ مِنْ مُناصَـــرَتِكمْ في هذهِ الحَرب، إنِّي أرَى مِنْ إنزالِ الملائكةِ وأُهْبَتِهمْ للحَربِ ما لا تَرَوْنَهُ أنتُم، إنِّي أخافُ أنْ يُهلِكنيَ اللهُ ويُردِيني في المهالِك، واللهُ شَديدٌ في عِقابهِ ونَكاله.

فخذَلهم، ولم يُوفِ بعَهدهِ معَهم، وترَكهمْ يُلاقونَ مصيرَهمْ وحدَهم.

{إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـؤُلاء دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَإِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: ٤٩]

٤٩- واذكرُوا قولَ المنافِقينَ والذينَ لم تَطمَئنَّ قلوبُهمْ بالإيمان، وقدْ قلَّلَ اللهُ عددَ جَيشِ المســلِمينَ في عُيونِ المشـركِين: لقدْ غرَّ المؤمِنينَ دينُهم، واعتِمادُهمْ على نَصـرِ الله، وســوفَ يُورِدُهمْ هذا الظنُّ المهالِك؛ حيثُ جابَهوا قوَّةً أعظمَ منهم.

ومَنْ يُفوِّضْ أمرَهُ إلى اللهِ ويعتَمدْ عليه، فإنَّهُ يلتَجِئُ إلى قويٍّ لا يُغالَب، وعزيزٍ لا يُقْهَر، وحكيمٍ يَنصرُ مَنْ يَستحقُّ النَّصر.

{وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ} [الأنفال: ٥٠]

٥٠- ولو اطَّلعتَ أيُّها النبيُّ على الملائكةِ وهمْ يَقْبِضــونَ أرواحَ الكفّارِ لرأيتَ أمراً فَظيعاً هائلاً، إذْ يَضـرِبونَ وجوهَهمْ وظهورَهمْ بسِياطٍ مِنْ نار، ويُبَشِّـرونَهمْ بعِقابٍ أشـدَّ يومَ القيامَة، عَذابِ الحريقِ الذي يُلْهِبُ الجسدَ كلَّه.

{ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ} [الأنفال: ٥١]

٥١- وهذا الجزاءُ الذي وَقَعَ عليكمْ أيُّها الكافِرون، هوَ بسـبَبِ ما جَنتْهُ أيديكمْ وكسَـبتْهُ قلوبُكم، منَ الكُفرِ والمعاصي ومُحاربةِ المسلِمين، واللهُ لا يعذِّبُ عبيدَهُ مِنْ غَيرِ ذَنْبٍ يَرتَكبونَه، ولا يَزيدُ مِنْ عَذابِهِمْ ولو كانوا كفّاراً، بلْ هوَ جزاءُ أعمالِهِمُ السيِّئة، واستِكبارِهِمْ عنِ اتِّباعِ الحقّ.

{كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال: ٥٢]

٥٢- وشـأنُ هؤلاءِ الكافِرينَ كشـأنِ قومِ فِرعَون، ومَنْ قبلَهمْ منَ الأممِ المكذِّبين، الذينَ جحَدوا بآياتِ اللهِ وكذَّبوا بمُعجِزاتِ أنبيائه، فعاقبَهمُ اللهُ بســـبَبِ ذنوبِهِمْ وأهلكَهم، واللهُ قَويٌّ شديدُ العُقوبةِ إذا عاقَب، لا يَقْدِرُ أحدٌ على أنْ يدفعَ عقوبتَهُ أو يخفِّفَ عنها.

{ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِـــهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأنفال: ٥٣]

٥٣- وهذا لأنَّ اللهَ لا يرفَعُ نعمتَهُ عنْ قَومٍ حتَّى يُحْدِثوا شرًّا، فيرتَكبوا ذَنْباً أو يَترُكوا شُكراً، فيَبْطِروا ويَظْلِموا، ويَكفُروا ويَقتُلوا. واللهُ سميعٌ لِما يَقولون، عليمٌ بما يَفعَلون، يُبقي النِّعمةَ عليهمْ أو يَسلُبُها منهمْ بما يَستَحِقُّون.

{كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَونَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ} [الأنفال: ٥٤]

٥٤- كصـــنيعِ قومِ فِرعَونَ ومَنْ قبلَهمْ منَ الذينَ كذَّبوا بمعجِزاتِ اللهِ التي أيَّدَ بها أنبياءَه، وكذَّبوا بآياتهِ التي أنزلَها هَدْياً لعِباده، فكانَ جزاؤهمْ أنْ عاقَبناهمْ على ذنوبِهمْ وأهلكناهمْ بها، وكانتْ عاقِبَةُ آلِ فرعونَ معَ كبيرِهمْ أنْ أغرَقناهمْ في البَحر، وكانوا همْ والمكذِّبونَ الآخَرونَ منَ الأقوامِ السَّابقينَ واللاَّحقين، ظلَموا أنفُسَهمْ عندما عرَّضوها للعِقابِ والنَّكال، بسَببِ كفرِهمْ ومَعاصيهم، ولم يقدِّروا نعمةَ اللهِ التي أسبغَها عليهم، مِنْ بساتينَ وزُروعٍ وأموالٍ وأولادٍ وأنعام...

{إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [الأنفال: ٥٥]

٥٥- إنَّ شرَّ مَنْ دَبَّ على وجْهِ الأرض، همُ الذينَ أصَرُّوا على الكُفرِ ورسَخوا فيه، فلا يؤمِنونَ مهما دعوتَهمْ إلى الإسْلام.

{الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُـــونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ} [الأنفال: ٥٦]

٥٦- الذينَ أخذْتَ منهمْ عهدَهمْ بأنْ لا يُساعِدوا المشرِكين، فنقَضوا العَهدَ ولم يُوْفُوا به، وكانَ هذا دأبَهمْ مرّات، فاستَمرُّوا على الخيانةِ والغَدْر، لا يَخافونَ اللهَ فيما ارتكَبوهُ مِنَ الآثام.

ذُكِرَ أنَّ المقصودَ يهودُ بني قُرَيظة، حيثُ نَقضوا العهدَ الذي أبرَموهُ معَ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم، وأعانوا المشرِكينَ أكثرَ مِنْ مرَّة...

{فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ} [الأنفال: ٥٧]

٥٧- فإذا ظفرتَ بهمْ في الحَرب، فنكِّلْ بهمْ مِنْ ورائهم: غلِّظْ عُقوبتَهمْ وبالِغْ في قَتلِهم، ليتَّعظَ بهمْ مَنْ سِواهُم، ويخافَ أعداؤكَ الآخَرون، فيَذكروا ذلكَ ويَعتَبروا.

{وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ} [الأنفال: ٥٨]

٥٨- وإذا عَلِمْتَ أيُّها النبيُّ مِنْ قَومٍ مُعاهَدينَ نَقْضَ عهدٍ فيما بينَكَ وبينَهم، بما يَلوحُ لكَ مِنْ دَلائل، ويَظهرُ مِنْ إشـــاراتٍ وحرَكات، فاطرحْ إليهمْ عهدَهم، وأعلِمْهُمْ بذلك،

واكشِــفْ خيانتَهم لهم، ليَعلموا أنَّكَ قدْ فسَــختَ العهدَ الذي بينَكَ وبينهم، وصِــرْتَ حَرباً عليهم، ولا تَبدأهمْ بحربٍ قبلَ إعلامِهمْ بذلك، واللهُ لا يُحِبُّ مَنْ يَخونونَ العهودَ ويَنقُضــــونَ المواثيق.

{وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ} [الأنفال: ٥٩]

٥٩- ولا يَظُنَّنَّ الكافِرونَ الذينَ لم يُقتَلوا في الحَربِ أنَّهمْ أُفْلِتوا بذلكَ فلا سُــلطانَ عليهمْ مِنْ بعد، بلْ همْ في قَبضةِ اللهِ لا يَفوتونَه، ولنْ يُعجِزوا اللهَ بشَيءٍ وهمْ عبيدٌ تحتَ قَهْرِ سُلطانِه.

{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْــتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ} [الأنفال: ٦٠]

٦٠- وأعِدُّوا لأعْدائكمْ مَهما أمكنَكمْ مِنْ كلِّ ما يُتَقوَّى بهِ في الحَرب، مِنْ سِلاحٍ وغَيرِه.

وقدْ قرأ رَســولُ الله صــلى الله عليهم وســلم الآيةَ وقال: " ألاَ إنَّ القوَّةَ الرميُ" (ثلاثَ مرات)، كما رواهُ مســلمٌ وغيرُه. وهذا لكَونِ الرَّمي أقوَى ما يُتَقوَّى به، ولأنَّهُ أشــدُّ نِكايةً في العدوّ، فقدْ يُرمَى رأسُ الكتيبةِ فيُصابُ فيَنهزِمُ مَنْ خَلْفَهُ. والمقصودُ الرِّمايةُ بأنواعِ السِّلاح، مِنْ سهمٍ ورَصاصٍ ومِدْفَعٍ وقَذفٍ بالطائراتِ وغيرِ ذلك.

وما اســتَطعتُمْ منْ رَبطِ الخَيلِ واقتنائها للغَزو، وما يُلائمها في الحروبِ الحديثة، لتُخوِّفوا بهِ أعداءَ اللهِ الذينَ يُخالِفونَ أمرَه، وأعداءَكمُ الذينَ يتربَّصــونَ بكم، ولتُرهِبوا بهِ غيرَهُمْ منَ الكفّار، الذينَ لا تعرفونَهم بأعيانِهم، لكنَّ اللهَ يَعلَمُهم.

ومَهما أنفقتُمْ مِنْ أموالٍ في الجِهادِ وغَيرِه، فإنَّ اللهَ يُوفيكمْ جزاءَها كاملاً، في يومٍ أحوجَ ما تكونونَ إليه، ولن تُظْلَموا بنقصِ الثَّوابِ عليها أبداً.

{وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّــلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّــمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنفال: ٦١]

٦١- وإذا مالُوا إلى المسالَمَةِ والمصَالحةِ فمِلْ إليها مَعهمْ وصَالِحْهُم، وفَوّضْ أمرَكَ إلى الله، فإنَّهُ كافيكَ وناصرُكَ إذا طَوَوا في نُفوسِهم كَيداً، فهوَ يَسمَعُ ما يَتهامَسونَ بهِ في مَجالسِهم، ويَعلمُ نيّاتِهم، فيؤاخذُهمْ بما يستَحِقُّونه.

وذكرَ مفسِّرونَ أنَّها مَنسوخةٌ بقولهِ تعالى: {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ...} [التوبة: ٢٩] وفي ذلكَ تَفصيل.

{وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللّهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال: ٦٢]

٦٢- فإذا كانوا قدْ أرادوا مِنْ وراءِ مسالمتِكَ الغَدْرَ والخِيانة، فإنَّ اللهَ كافيكَ شرَّهم، ومُخَلِّصُكَ مِنْ مَكرِهم، فهوَ الذي أيَّدكَ بالنَّصرِ مِنْ قَبل، وأمدَّكَ بالملائكة، وألقَى الرُّعبَ في قُلوبِ أعدائك، وهو الذي قوَّاكَ بالمؤمنينَ منَ المهاجرينَ والأنصار.

{وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: ٦٣]

٦٣- واللهُ هوَ الذي ألَّفَ بينَ قُلوبِ المسلِمين، على ما كانَ بينهمْ في الجاهليَّةِ مِنْ عداوةٍ وضَغينة قاتِلة، ومِنْ حَميَّةٍ وعَصَبيَّةٍ عَمياء، وخاصَّةً الأوسَ والخزرجَ منَ الأنصار، الذينَ كادتِ الحربُ أنْ تُهلِكهم، فكانتِ الحروبُ بينهمْ لا تَنقَطِع، فجَمعهمُ الإسلامُ وصاروا إخوَةً يَتناصَرونَ في الحقّ، ويَتناصَحونَ على الخَير، ولو أنَّكَ أنفقتَ ما في الأرضِ منْ أموالٍ لتوثِّقَ بَينهمُ المحبَّة، وتؤلِّفَ بينَ قُلوبهم، لما استَطَعت، لتَناهي العَداوةِ بينَهم، وتَمكُّنِ رُوحِ الانتِقامِ فيهم، ولكنَّ اللهَ بلُطفهِ ورَحمَتِهِ أوجدَ هذا التآلفَ بينَهم، ووطَّدَ روحَ المحبَّةِ والتآخي بينَهم، وهوَ سُبحانَهُ قَديرٌ على ذلك، عَزيزٌ لا يَصعُبُ عليهِ شَيء، حَكيمٌ، يدبِّرُ الأمورَ على أحسنِ وجه، وأفضَلِ مَقام.

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال: ٦٤]

٦٤- أيُّها النبيُّ الكريم، حسـبُكَ الله، فهوَ كافيكَ في جميعِ أمورِكَ وناصـرُك، ومَنِ اتَّبعكَ مِنَ المؤمنينَ، المهاجِرينَ والأنصار.

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْـرُونَ صَـابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ} [الأنفال: ٦٥]

٦٥- أيُّها النبيُّ، حُثَّ المؤمنينَ على القِتالِ ورغِّبهمْ في الجِهاد، إنْ يَكنْ منكمْ عِشـرونَ مُقاتِلاً ثابتاً مُحتَسِـباً، يَغْلِبوا مِئَتَينِ مِنْ عدوِّهم، وإنْ يكنْ منكمْ مائةٌ منَ الرِّجالِ الصَّـابرينَ في الحَرب، يَغْلِبوا ألفًا مِنَ الكافِرين، وهذا لأنَّ المشـركِينَ جَهَلةٌ لا يُقاتِلونَ احتِسـاباً وامتِثالاً لأمرِ الله، ولا طَلَباً لثَواب، وإنما يُقاتِلونَ للحَميَّةِ الجاهليَّة، واتِّباعاً لخُطواتِ الشَّيطان، فلا يَثْبُتونَ في الحربِ إذا صَدقتُموهمُ القِتال؛ خَشيةَ أن يُقْتَلوا.

وقدْ شقَّ ذلكَ على المسلِمين، حيث طُلِبَ منهمْ أنْ يَثْبُتَ الواحِدُ منهمْ مُقابِلَ عَشَرةٍ مِنَ الكفّار، فنَزَلتِ الآيةُ التاليةُ تخفيفاً عنهم، وهو ثباتُ الواحِدِ أمامَ اثنَين. قالَ ابنُ عبّاسٍ رضـيَ اللهُ عنهما: فلمّا خفَّفَ اللهُ تعالَى عنهمْ مِنَ العِدَّة، نَقَصَ منَ الصَّبرِ بقَدْرِ ما خفَّفَ عنهم.

والجمهورُ على أنَّ التاليةَ ناسخةٌ لهذه.

{الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: ٦٦]

٦٦- الآنَ خفَّفَ اللهُ عنكمُ الحُكمَ السَّـابق، وعَلِمَ أنَّ فيكمْ ضَـعْفاً في الواحِدِ عنْ قتالِ العَشَرة، وفي المِئَةِ عنْ قتالِ الألف، فإنْ يَكنْ منكمْ مِئَةُ مُقاتلٍ ثابتٍ محتَسِب، يَغلبوا مِئَتينِ مِنَ المقاتِلَةِ الكفّار، وإنْ يَكنْ منكمْ ألفٌ يَغْلِبوا ألفَين، فالواحِدُ يُقابِلُ اثنَين. فإذا كانَ جيشُ المسـلِمينَ نصـفَ جيشِ الكافرينَ غلَبوهم، بإذنِ اللهِ وتأييدِه، واللهُ ينَصـرُ ويُعِيْنُ الصَّـابرين، فكيفَ لا يَغْلِبونَ عدوَّهم؟

{مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْــرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: ٦٧]

٦٧- ما صحَّ وما استَقامَ لنبيٍّ منَ الأنبياءِ - والمقصودُ هنا نبيُّنا محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم - أنْ يَستَبقيَ أسرَى مِنَ المشرِكين، حتَّى تَضْعُفَ شَوكتُهم، وتَشتدَّ شَوكةُ المسلِمين، فيكونوا همُ الأقوَى الذينَ يُرهِبونَ أعداءَهم.

أتُريدونَ أيُّها المسلِمونَ بقَبولِ الفِداءِ منهمْ بدلَ قَتلِهمْ حُطامَ الدُّنيا، واللهُ يريدُ لكمْ ثوابَ الآخِرَة، وإعزازَ دينِه، وقمعَ أعدائه؟ وهوَ العَزيزُ الذي يَنصُرُ أولياءَهُ على أعدائه، حكيمٌ في سَنِّ شرائعِ الحَرب.

والآيةُ في أسرَى بَدر، وقدِ استشارَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أصحابَهُ فيهم، فمالَ إلى مَنْ يرَى قَبولَ الفِديةِ منهم، دونَ قتلِهم.

{لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [الأنفال: ٦٨]

٦٨- ولولا حُكمٌ منَ اللهِ في اللَّوحِ المحفوظ، بأنْ لا يعذِّبَ قوماً قبلَ تَقديمِ ما يبيّنُ لهمْ أمراً أو نَهياً، لأصابَكمْ فيما أخذتُموهُ منَ الفِداءِ منَ الأسرَى عَذابٌ كَبير.

ذُكِرَ أنَّ أصحابَ رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم كفُّوا أيديَهُمْ عمّا أخَذوا منَ الفِداء، فنزلتِ الآيةُ التالية، فأخَذوه.

واستقرَّ رأيُ عامَّةِ الفُقهاءِ - مِنْ بعدُ - على أنَّ الإمامَ مخيَّرٌ في الأسرَى، إنْ شاءَ قَتَل، وإنْ شاءَ فادَى، حسَبَ ما تتطلَّبهُ مصلحةُ المسلِمين، وكانَ مِنْ مَصلَحَةِ المسلِمينَ إذْ ذاكَ أنْ يُقتَلوا، ولكنَّ اللهَ سلَّمَ وعَفا.

{فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [الأنفال: ٦٩]

٦٩- فكُلُوا ممّا غَنِمتُمْ منَ الأعداء، فديةً أو غَنائم، حلالاً لا إثمَ فيه، طيِّباً لا نَغْصَ فيه. وخافُوا اللهَ ولا تُخالِفوا أوامِرَه، وهوَ الغَفورُ الذي غفرَ ما سَلفَ منكمْ في ذلك، رَحيمٌ بكمْ عندما أباحَ لكمُ الغَنائم، وما أخذتُمْ منَ الفِدية.

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [الأنفال: ٧٠]

٧٠- قُلْ أيُّها النبيُّ لِمَنْ أسرتُموهمْ في غَزوةِ بَدر، ممَّنْ أخذتُمْ منهمُ الفِداء: إذا عَلِمَ اللهُ في قلوبِكمْ إيماناً وتَصديقاً، فسَوفَ يُعطيكمْ خَيراً منَ المالِ الذي فَدَيتُمْ بهِ أنفسَكمْ وأضعافَه، ويَغفِرُ لكمْ ذنوبَكمْ وما كنتُمْ عليهِ مِنْ شِرك، واللهُ كثيرُ المغفِرَةِ لذُنوبِ عِبادهِ المؤمنين، رَحيمٌ بهم.

{وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: ٧١]

٧١- وإنْ يُرِدِ الأسرَى نَقضَ العَهد، مِنْ عدَمِ إعطاءِ الفِدية، أو العَودةِ إلى محاربَتِك، أو مُساعدةِ المشركين، فقدْ سَبقَتْ منهمُ الخيانةُ قبلَ بَدر، بالكُفر، فأمكنكَ اللهُ منهمْ ببَدرٍ قَتلاً وأسْراً، فليتوقَّعوا مثلَ ذلكَ إنْ عادوا. واللهُ عليمٌ بخَلقهِ وما يُصلحُهم، حكيمٌ فيما يَشْرَعُه.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الأنفال: ٧٢]

٧٢- إنَّ الذينَ آمَنوا وهَجَروا قومَهُمْ وديارَهُم، وأنفَقوا أموالَهُمْ فيما يُرضي الله، مِنْ صَرفِها على المحتاجينَ منْ إخوانِهمُ المسلمين، ومِنْ شِراءِ الأسلحةِ ورَبطِ الخيلِ للجِهادِ في سَبيله، وبَذلوا أنفسَهمْ في سَبيلِ دينِ الله، فقاتَلوا قِتالَ الأبطال، وخاضُوا لُجَجَ المعارك. والمقصودُ المهاجِرون. والأنصارُ الذينَ آوَوْا إخوانَهُمُ المهاجرينَ وأسكنوهمْ منازلَهم، وآثَروهمْ على أنفسِهم، ونَصروهمْ على أعدائهمْ بالقِتالِ معهم، فهؤلاءِ وأولئكَ بعضُهمْ أولياءُ بَعض، في العَونِ والنُّصرةِ والميراث، فكلٌّ منهمْ أحقُّ بالآخرِ مِنْ كلِّ أحَد.

والمؤمنونَ الذينَ بَقُوا في دِيارِهمْ ولم يُهاجِروا لا يَرِثونَ الذينَ هاجَروا، ولو كانوا مِنْ ذَوي قُرباهم، حتَّى يُهاجِروا، فعندَ ذلكَ يَرِثون. وإذا استَعانَ بكمُ المؤمنونَ الذينَ لم يُهاجِروا في قتالِهِمْ

ضدَّ المشرِكين، فعَليكمْ أنْ تَنصُروهم، لأنَّهمْ إخوانُكم في الدِّين، فواجِبٌ عليكمْ نصرُهم، إلاّ إذا كانَ بينكمْ وبينَ أولئكَ المشـرِكينَ عهدٌ ومُهادَنة إلى مُدَّة، فلا يجوزُ لكمْ نقضُــه. واللهُ بَصــيرٌ بأعمالِكم، فلا تُخالِفوا أمرَه، ولا تَتجاوزوا ما حَدَّهُ لكم.

وكانَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قدْ آخَى بينَ المهاجِرينَ والأنصار، فكانوا يتوارَثون، ومَنْ آمنَ ولم يُهاجِرْ لا يَرِثُ مِنْ قَريبِهِ المهاجِر، حتَّى كانَ فتحُ مكَّة... ونَســخَتْها آيةُ الميراث: {وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ} [سورة الأنفال:٧٥].

{وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُــهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَــادٌ كَبِيرٌ} [الأنفال: ٧٣]

٧٣- والكافِرونَ بعضُــهمْ أولياءُ بَعضٍ في المؤازرةِ والميراث. والجُمهورُ مِنَ العُلماءِ على أنَّ المسلمَ لا يَرِثُ الكافرَ، والكافرَ لا يَرِثُ المسلِم. فإذا لم تُجانِبوا المشرِكين، ولم تُوالُوا المؤمِنين، ولم تأخذوا بما حَدَّهُ اللهُ لكمْ في الإرث، فســـيَختَلِطُ أمرُ المؤمنِ بالكافِر، وتختَلِفُ الكلمةُ بينَكم، وتَظهرُ قوَّةُ الكُفر، ويَضْعُفُ الإسْلام، وتُسْفَكُ الدِّماء.

{وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَــبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَــرُواْ أُولَــــئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [الأنفال: ٧٤]

٧٤- والذينَ آمَنوا، وهَجَروا أوطانَهُمْ وأموالَهُمْ هُروباً منَ الكُفرِ وأهلِهِ إلى مَوطِنِ الإسْــلام، وجاهَدوا معكمْ وحارَبوا الكفّار، والأنصـــارُ الذينَ هبُّوا لنَجدةِ إخوانِهمُ المهاجِرين، ففتَحوا لهمْ قلوبَهمْ وبيوتَهم، وآزَروهمْ فقاتَلوا معهمْ أعداءَ اللهِ وأعداءَهم، فأولئكَ الذينَ حازُوا رُتبةَ الإيمانِ حقّاً، لا شـــكَّ في ذلك، وســيُجازَوْنَ بثَوابٍ جَزيلٍ مِنْ ربِّهم، يَغْفِرُ لهمْ ذنوبَهم، ويرزقُهمْ رِزْقاً كريماً، دائماً مستَمرّاً، في جنَّةٍ عالية، ونعيمٍ مُقيم.

{وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَــــئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الأنفال: ٧٥]

٧٥- والذينَ آمنوا، وهاجَروا بعدَ الهِجرةِ الأولى، وقاتَلوا معكمْ في ســـبيلِ الله، فهمْ مِنْ جُملتِكم، همْ منكمْ وأنتمْ منهم، فالإيمانُ واحِد، والملَّةُ واحِدَة، والفَضلُ والشرَفُ لمنْ سَبق.

وذَوُو القَرابةِ همُ الذينَ يَرِثُ بعضُــهم بَعضــاً، دونَ ما ســبقَ تشــريعُهُ مؤقَّتاً منَ التوارُثِ بالهِجرة. وهذا حُكمُ اللهِ في كتابِه، وهوَ عَليمٌ بكلِّ شَــــيء، ومِنْ ذلك نِظامُ المواريثِ وأحوَالهُ وتَطويرُه، والحِكمةُ في تَوزيعِ حِصَصه.

قالَ ابنُ عبّاسٍ رضــيَ اللهُ عنهما: آخَى رســولُ اللهِ صــلى الله عليه وســلم بينَ أصــحابِه، ووَرِثَ بعضُــهمْ مِنْ بَعض، حتَّى نَزلتْ: {وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُــهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ} فترَكوا ذلك، وتوارَثوا بالنَّسَب.

سورة التوبة

{بَرَاءةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ} [التوبة: ١]

١- هذا تبَرُّؤٌ منَ اللهِ ورَسولهِ إلى مَنْ عاهدتُموهُمْ منَ المشرِكينَ أيُّها المسلِمون.

وكانتْ هناكَ معاهَداتٌ بينَ المسـلِمينَ ومُشـرِكي العَرب، فخانُوا العَهد، إلاّ بعضَ القبائلِ، فأُمِروا بالتبرُّؤ مِنْ عُهودِهم، في تَفصيلٍ يأتي بعضُه، وأُمْهِلَ المشرِكونَ أربعةَ أشهر...

{فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ} [التوبة: ٢]

٢- فَسيروا في الأرضِ آمِنينَ حيثُ شِئتُمْ أيُّها المشرِكون، لمدَّةِ أربعةِ أشهُر، مِنْ شَهرِ شوّالٍ إلى المحرَّم، واعلَموا أنَّكمْ بسَـيرِكمْ هذا لنْ تُعْجِزوا اللهَ بالهرَبِ والتحَصُّـن، وأنَّ اللهَ مُذِلُّ الكافِرينَ ومُعَذِّبُهم، في الدُّنيا بالقَتلِ والأسْر، وفي الآخِرَةِ بالعَذاب.

{وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [التوبة: ٣]

٣- وهذا إعلامٌ منَ اللهِ ورَسـولهِ للنَّاسِ جميعاً يومَ النَّحرِ منْ أيّامِ الحجّ، أنَّ اللهَ بَريءٌ منَ المشـرِكينَ وعُهودِهم، ورسـولُه أيضـاً بَريءٌ منهم، فإنْ رَجعتُمْ أيُّها المشـرِكونَ عمّا أنتُمْ فيهِ منَ الكُفرِ والغَدرِ والضَّلال، فهوَ أفضَلُ لكمْ في حَياتِكمُ الدُّنيا، وفي الآخِرَة. وإذا أبَيتُمْ إلاّ الشِّرك، وأصرَرتُمْ على مُحاربةِ الإسْلامِ وأهلِه، فاعلَموا أنَّكمْ لا تَفوتونَ اللهَ ولا تَقْدِرونَ على الهروبِ مِنْ عِقابه، فأنتُمْ عَبيدهُ وفي مُلكهِ أينَما كنتُم. وبشِّـرِ الكافِرينَ بعِقابٍ مُوجعٍ ينالُهُمْ في دُنياهم، وفي الآخِرَةِ أقسَى وأفظَع.

{إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: ٤]

٤- ويُستثنَى مِنْ ذلكَ المشركونَ الذينَ لم يَغْدِروا بعَهدِهِمْ معَكم، بشَرطِ أنْ يَبقوا أوفياءَ لنُصوصِ المعاهَدة، ولا يَنقُصُوا منها شَيئاً، ولا يُناصِروا أحداً مِنْ أعدائكمْ عليكم، فعندَ ذلكَ أكمِلوا مدَّةَ المعاهَدةِ معهمْ إلى آخِرِها، ولا تُعامِلوهمْ مُعاملةَ الغادِرين. واللهُ يُحِبُّ الملتزِمينَ بعُهودِهم، الموفينَ بمواثيقِهم.

وكانتْ قَبيلةُ بني ضَمْرَةَ قدْ بقيَ مِنْ عهدِها تسعةُ أشهر، ولم تَغْدِر.

{فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [التوبة: ٥]

٥- فإذا انقَضَتِ الأشهرُ الأربَعةُ منْ شُهورِ العَهدِ التي حرَّمْنا فيها دماءَ المشركِينَ والتعرُّضَ لهمْ وأجَّلْناهمْ فيها، فحيثُما وجدتُموهمْ بعدَها فاقتُلوهم، في الحِلِّ والحَرَم، وأْسِروهم، واحبِسوهم، وراقِبوهمْ وارصُدوا تحرُّكاتِهم، واحصُروهمْ في مَعاقلِهمْ وحُصونِهم. فإذا تابوا منَ الشِّركِ والضَّلال، وأقامُوا الصَّلاة، وآتَوا الزكاةَ، تَصديقاً لتَوبتِهم وإيمانِهم، فدعُوهمْ وشأنَهم، ولا تَتعرَّضوا لهمْ بسُوء. واللهُ يَغفِرُ لمنْ تاب، ويَرحَمُه، فيُثيبُهُ على إيمانهِ وطاعتِه.

وتسمَّى هذهِ آيةَ السيف.

{وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ} [التوبة: ٦]

٦- وإذا استأمَنكَ وطلبَ مجاورتَكَ أحدُ المشركِينَ بعدَ انقضاءِ أربعةِ الأشهرِ المذْكورة، فآمِنْهُ وأجِبْ طلبَه، حتَّى يَسمعَ القُرآنَ الكريمَ ويَتدبَّرَه، ويطَّلِعَ على دِينِ الله، فيَعرِفَ ما لَهُ وما عليه. ثمَّ أوصِلْهُ بأمانٍ وسَلام، إلى مَسكنهِ الذي يأمَنُ فيه.

وهذا الأمنُ الذي أُعطيَ لهمْ لكونِهِمْ لا يَعلمونَ دينَ الله، فهمْ مُحتاجونَ إلى مَعرفةِ ما تَدعوهمْ إليه، حتَّى يَفهَموا ذلكَ ولا يَبقَى لهمْ عُذر.

{كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: ٧]

٧- ولا يَكونُ لهؤلاءِ المشـركِينَ عَهدٌ عندَ اللهِ ولا عندَ رسـولِه، وهمْ يَغدِرونَ ويَنقُضـونَ العَهـد، إلاّ الـذينَ عـاهـدتُموهمْ عندَ المسـجدِ الحَرام، فـأكمِلوا مَعهمْ عهـدَهمْ ما داموا مُسـتَقِيمينَ معكمْ ولم يَغْدِروا بكم، واللهُ يُحِبُّ المؤمنينَ المُوْفِين بعُهودِهم، الواقفينَ عندَ حُدودِه.

{كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ} [التوبة: ٨]

٨- وكيفَ يَكونُ للمُشركِينَ عهدٌ عندَ الله ورَسولِهِ والحالُ أنَّهمْ مَترَبّصونَ بكم، فإذا ظَفِروا بكمْ لم يُراعُوا فيكمْ قَرابـةً ولا عَهـداً، ولم يُبْقُوا منكمْ أحَـداً، لكنَّهمْ عنـدَ العَجزِ يُبـدونَ الرَّغبـةَ في الإيمان، وفي الوفاءِ والطاعةِ مَعكم، فيُرضونَكمْ بذلك، والحقُّ أنَّ قلوبَهم تَرفُضُ الإيمان، وأكثرُهمْ مُتَمرِّدونَ خـارِجونَ عنِ الطَّـاعـة، لا عَقيـدةَ تمنعُهمْ عنِ الحرام، ولا مروءةَ تردُّهمْ عنِ الغَـدرِ والخيانة.

{اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [التوبة: ٩]

٩- لقدِ استبَدَلوا بأوامرِ اللهِ وعُهودِهِ ما التَهَوا بهِ منْ حُطامِ الدُّنيا وزَخارِفِها وشَهواتِ أنفسِهم، ومَنعوا الناسَ منِ اتِّباعِ دِينِ الله، فبئسَ ما قامُوا بهِ مِنْ عَمل.

{لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ} [التوبة: ١٠]

١٠- إنَّهمْ لا يُراعُونَ في مُؤمِنٍ أصولَ قَرابة، ولا حُقوقَ عَهد، فإذا ظَفِروا بهِ قَتلوه، وإنَّ شأنَهمُ الاعتِداءُ، بالظُّلمِ ونَقْضِ العَهد.

{فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [التوبة: ١١]

١١- فإنْ رَجَعوا عنْ عبادةِ الأصـنامِ ونَقضِ العَهدِ ومُحاربةِ الإسْـلام، وقامُوا بفُروضِ الدِّين، فأدَّوا الصَّـلاة، وأعطَوا الزَّكاة، فهمْ إخوانُكمْ في الدِّين، لهمْ ما لكم، وعليهمْ ما عليكم. ونبيِّنُ تَفاصيلَ الأحكامِ والأمورِ التي تَتعلَّقُ بالمشرِكينَ وأحوالِ الحَرب، لِمَنْ يتأمَّلُ فيها ويفكِّر، ويَعتَبِرُ بها فيَعمل.

{وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ} [التوبة: ١٢]

١٢- فإذا لم يَفعَلوا ذلكَ ونَقَضُـوا عهدَهمْ بعدَما عَقدُوهُ ووثَّقوه، وعابُوا دينَكمْ وقَدَحوا فيه، فقاتِلوا رؤوسَ المشـرِكينَ وقادةَ الكُفر، فلا أمانَ لهمْ على مِيثاق، ولا وفاءَ لهمْ بعَهد، ولعلَّهمْ بذلكَ يكفُّونَ عنِ الطَّعنِ في دينِكم، ويرجِعونَ عمّا همْ فيهِ منَ الكُفرِ والضَّلال.

{أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُـولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَـوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ} [التوبة: ١٣]

١٣- ألاَ تُقاتِلونَ المشـرِكينَ الذينَ خانُوا عهدَهمْ في صُـلحِ الحُدَيْبيةِ وغَيرِه، واجتَمعوا في دارِ الندوةِ وحاولوا إخراجَ الرسُـولِ منْ مكَّة، فقدَّرَ اللهُ لهُ الهِجرةَ بتَدبيرٍ مِنْ عندِه، وهمُ الذينَ بَدَؤوكمْ بالمعاداة، بينما كانَ الرسُولُ صـلى الله عليه وسـلم يَدعوهمْ بالحُسـنَى ويُلزِمُهمُ الحجَّةَ بالكتابِ وبالتحدِّي، وهمُ الذينَ قاتَلوكمْ أوَّلَ مرَّةٍ يومَ بَدر، وقدْ قالوا بعدَ أنْ بلَغَهمْ سَـلامةُ القافِلة: لا نَنصرفُ حتَّى نَستأصِلَ محمَّداً ومَنْ معَه.

أتَترُكونَ حربَهمْ خَوفاً مِنْ أنْ ينالَكمْ مَكروهٌ منهم؟ فلا تَخشَـوْهُم، واللهُ أحقُّ أنْ يُخشَـى مِنْ سَـطوتِهِ وعِقابِهِ إذا خُولِفَ أمرُه، فبيَدِهِ الأمرُ كلُّه، فقاتِلوا أعداءَكمُ المشـرِكين، إذا كنتُمْ مؤمِنينَ بأنَّ النَّفعَ والضُّرَّ بيدِ اللهِ وحدَه، وأنَّهُ لا يُخشَى إلاّ منه.

{قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُـرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْـفِ صُـدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ} [التوبة: ١٤]

١٤- حاربوهمْ أيُّها المسلمون، يَقْتُلْهمُ اللهُ بأيديكم، ويُذِلَّهُمْ بالأسرِ تحتَ أيديكم، ويَغْلِبْكمْ عليهم، ويُبْرِئْ صُدورَ طائفةٍ منَ المؤمنين، لِمَا نالَهُمْ منَ الظُّلمِ والأذى منْ قِبَلِهم.

{وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ١٥]

١٥- ويُذْهِبْ غَيظَ قُلوبِ المؤمنينَ[٤٧] بقتلِ أعدائهمْ وإذلالِهم، الذينَ كانوا يُعَذِّبونَهم، ويأخذونَ أموالَهم، ويقاتِلونَهم. ويَغفِرُ اللهُ لِمَنَ تابَ مِنْ كُفره، بهدايةِ مَنْ شاءَ منهمْ إلى طَريقِ الحقّ، وقدْ عَلِمَ استِعدادَهُمْ للإيمان، وعزمَهمْ على اتِّباعِ دِينه، وهوَ سُبحانَهُ عليمٌ بما يُصْلِحُ شَأنَهم، حَكيم، يقدِّرُ ما فيهِ مَصلحةُ عِبادِه.

{أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [التوبة: ١٦]

١٦- أمْ ظننتُمْ أيُّها الناسُ أنْ تُهْمَلُوا ولا تُخْتَبَروا بما يُظْهِرُ قوَّةَ إيمانِكمْ وإخلاصَكمْ لدينِكم، فيَتبيَّنَ الذينَ جاهَدوا منكمْ، ولم يتَّخِذوا منْ دونِ اللهِ ولا رَسولِهِ ولا المؤمنينَ بِطانةً وأصحابَ سِرٍّ يُوَالُونَهُمْ ويَتَلَقَّونَ منهمُ الأوامِر، بلْ همْ في الظَّاهرِ والباطنِ سَواء، يُوادُّونَ المؤمنينَ ويَكونونَ في صفِّهِمْ دائماً؟ وهوَ سُبحانَهُ عالِمٌ بشُؤونِكم، مطَّلعٌ على أسرارِكم.

{مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ} [التوبة: ١٧]

١٧- لا يَنبغي للمُشرِكينَ أنْ يَعْمُروا بيوتَ اللهِ التي بُنيَتْ على اسمِهِ وحدَهُ لا شَريكَ له[٤٨]، وهمْ يَشهَدونَ على أنفُسِهمِ بأنَّهمْ يَكفُرونَ بما أُنْزِلَ على الرسُولِ صلى الله عليه وسلم، وأنَّهمْ

---

(٤٧) {غَيْظَ قُلُوبِهِمْ}: كَرْبَها ووَجْدَها. (البغوي). الغيظ: الغضبُ المشوبُ بإرادةِ الانتقام. والمرادُ بذهابِ الغيظِ استراحتُهم من تعبِ الغيظ، وتحرُّقِ الحقدِ. (ينظر التحرير والتنوير).

(٤٨) عَمْرُ المساجد: العبادةُ فيها؛ لأنها إنما وُضِعَتْ للعبادة، فعَمْرُها بمن يحلُّ فيها من المتعبّدين، ومن ذلك اشتقَّتِ العُمرة. (التحرير والتنوير).

يُشرِكونَ بالله، فيقولون: لبَّيكَ لا شَريكَ لك، إلا شَريكاً هوَ لك، تَمْلِكهُ وما مَلَك. سَبحانه. فهؤلاءِ قدْ بَطَلَتْ أعمالُهُمْ؛ لشِركِهم، فلا يُعْتَدُّ بها، وعقوبتُهمْ أنْ يُعَذَّبوا في النارِ مؤبَّدينَ فيها.

{إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ} [التوبة: ١٨]

١٨- إنَّما يَعْمُرُ مساجِدَ الله حقًّا بما يُرضيهِ سُبحانَه، مَنْ آمنَ بهِ واحِداً لا شَريكَ له، وبيَومِ القِيامةِ وما فيهِ مِنْ ثَوابٍ وعِقاب، وواظبَ على أداءِ الصَّلاةِ كما شَرعَها الله، وأعطَى المحتاجينَ منَ المالِ المستَحَقِّ عليه، ولم يَخَفْ أحداً إلاّ الله، فلمْ يَعْبُدْ سِواه، ولم يأتَمِرْ بغَيرِ أمرِه، فأولئكَ السَّائرونَ في طَريقِ الحقّ، الفائزونَ بالجنَّة.

{أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [التوبة: ١٩]

١٩- أجعلتُمْ أيُّها الناسُ سِقايةَ الحُجّاجِ وخِدمةَ المسجدِ الحرام، كإيمانِ مَنْ آمنَ باللهِ وباليَومِ الآخِر، وجِهادِ مَنْ جاهدَ في سَبيلِ الله؟ ليسُوا سَواء، فالآخِرُ خَيرٌ وأحسَن، معَ فَضلٍ في الأوَّلِ لا يُنكَر. واللهُ سُبحانَهُ لا يَهدي مَنِ انهمَكَ في الضَّلال، وأصرَّ على الخطأ.

وقدْ كانَ حديثٌ بينَ بعضِ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهمْ حولَ ذلك، فنزَلتِ الآيةُ وبيَّنتْ أنَّ الجهادَ أفضل، كما في صَحيحِ مُسلِم.

{الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [التوبة: ٢٠]

٢٠- إنَّ الذينَ آمَنوا باللهِ ولم يُشرِكوا بهِ شَيئاً، وأنفَقوا أموالَهمْ لنُصرةِ دِينِه، وبَذَلوا مُهَجَهمْ جِهاداً في سَبيلِه، همْ أكبرُ درَجة، وأرفَعُ شأناً عندَ اللهِ منَ الذينَ افتخَروا بما دونَ ذلك، وآثَروا

السِّقايةَ والعِمارةَ في المسجدِ الحرام، وأولئكَ المؤمنونَ والمجاهِدونَ همُ الذينَ حَازوا الخيرَ والدرَجاتِ العُليا.

{يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ} [التوبة: ٢١]

٢١- ولهؤلاءِ مِيزَةٌ كُبرى، فإنَّ ربَّهُمْ يُبشِّرهمْ في يَومِ الفَزَعِ الأكبرِ بالرَّحمةِ والأمن، والرِّضَى والعَافية، وجنَّاتٍ عاليةٍ فيها النَّعيمُ الدائم، منْ كلِّ ما تَشتهيهِ الأنفسُ وتَلَذُّ الأعيُن.

{خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [التوبة: ٢٢]

٢٢- معَ خُلودٍ دَائمٍ في تلكَ الجِنانِ الرائعة، واللهُ واسِعٌ كريم، يُثيبُ على الأعمالِ الحسَنةِ أضعافَها، ويدَّخِرُ لعبادهِ المؤمنينَ أحسنَ الأجورِ وأجلَّ العَطايا.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [التوبة: ٢٣]

٢٣- أيُّها المؤمِنون، لا يَحِلُّ لكمْ أنْ تُوادُّوا وتُوالُوا أقربَ الناسِ إليكمْ إذا آثَروا الكفرَ على الإيمان، وأصَرُّوا على مُعاداةِ الإسْلامِ ومُحارَبةِ أهلِه، ولو كانوا آباءَكمْ وإخوانَكم. ومَنْ تولاّهم واتَّخذوهمْ أصدقاء، وآثَروا المقامَ معهمْ على الهِجرةِ والجِهاد، فإنَّهُمْ مُتَجاوِزونَ ومتعدُّونَ لِمَا حدَّهُ الله، مُؤْثِرونَ هواهُمْ على أمرِ ربِّهم.

{قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: ٢٤]

٢٤- قُلْ أيُّها النبيُّ لأصحابِك، وخاصَّةً مَنْ أسلمَ ولم يُهاجِرْ تمسُّكاً بأهلهِ ومالِه: إذا كانَ آباؤكم، وأبناؤكم، وإخوانُكم، وأزواجُكم، وذَوُو قَرابتِكمْ مِنْ عَشيرتِكم، وأموالٌ حصَّلتُموها، وأمتعةٌ وعُروضٌ اشترَيتُموها للتِّجارة، تَخافونَ فَواتَ ربحِها بفَواتِ وقتِ رَواجِها، وقُصورٌ ومنازلُ تَستطيبونَها وتُحبُّونَ الإقامةَ فيها، إذا كانَ هذا كلُّهُ أحبَّ إليكمْ ممّا أمرَكمُ اللهُ بهِ ورَسولُه، ومنَ

الجهادِ في سَبيلِ دِينهِ وإعلاءِ كلمتِه، فانتَظِروا حتَّى يأتيَ اللهُ بعُقوبتهِ ويَنْكُلَ بِكم، واللهُ لا يوفِّقُ مَنْ خَرجَ عنْ طاعتِه، ووالَى المشرِكين، وقدَّمَ هواهُ على دينِه.

{لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ} [التوبة: ٢٥]

٢٥- وقدْ نَصرَكمُ اللهُ أيُّها المؤمِنونَ في مَواضعَ كثيرةٍ منَ الحروب. وفي غَزوةِ حُنَينٍ -وهي وادٍ بينَ مكَّةَ والطائفِ - بعدَ فتحِ مكَّة، تجمَّعتْ ثقيفٌ وهَوازِنُ وغيرُها لمحاربتِكم، وكنتُمْ في عَددٍ كثير، أضعافَ عَددِ المشرِكين، فأعجبَكمْ ما أنتُمْ عليهِ مِنْ كثرة، حتَّى قالَ بعضُكمْ: لنْ نُغْلَبَ اليومَ عنْ قِلَّة، فشَقَّ ذلكَ على رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم، ووكَّلكمُ اللهُ إلى أنفسِكم، لتَعلَموا أنَّ ما كانَ منْ نَصرٍ فهوَ بتأييدهِ وتَقديرِه. وبينما حَملتُمْ على المشرِكين في أوَّلِ الأمر، إلاّ أنَّكمْ لم تَثبُتوا مِنْ بعد، فهَربتُم، إلاّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ومَنْ بقيَ معَه، فلمْ تَنفعْكُمْ تلكَ الكَثرةُ شَيئاً، وضاقتْ عليكمُ الأرضُ بسَعَتها، لا تَدرونَ أينَ تهرُبون، منَ الخوفِ والرُّعب، ثمَّ ولَّيتُمُ الكفّارَ ظُهورَكمْ مُنهزِمين.

{ثُمَّ أَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ} [التوبة: ٢٦]

٢٦- ثم أنزلَ اللهُ بعدَ الهزيمةِ أمنَهُ ورحمتَهُ على رَسولِهِ وعلى المجاهِدين، وأنزلَ ملائكتَهُ الذينَ لم تَروهم، لتَشجيعِ المسلِمينَ وتَقويتِهم، ولإلقاءِ الرُّعبِ في قُلوبِ المشرِكين، وعذَّبَ الذينَ كفَروا بالقَتلِ والأسرِ وسَبيِ العِيالِ والأموال، وهذا جزاءُ مَنْ آثرَ الكفرَ على الضَّلال، وحاربَ اللهَ ورسولَه.

{ثُمَّ يَتُوبُ اللّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [التوبة: ٢٧]

٢٧- ثمَّ يتوبُ اللهُ - مِنْ بعدِ أنْ أذاقَهمْ ذُلَّ الهزيمةِ - على مَنْ شاءَ أنْ يتوبَ عليهم، فيَهديهمْ إلى الإسلام، واللهُ يَتجاوزُ عمّا سلفَ منهمْ منَ الكُفرِ والحَرب، ويَرحمُهمْ ويُثيبُهمْ على أعمالِهِمُ الطيِّبة.

ثمَّ قَدِمَتْ هَوازِنُ على رَسـولِ اللهِ صـلى اللهُ عليهِ وسـلَّمَ وأسـلَمت، فأعادَ إليهمْ سـتَّةَ آلافِ أسير، وأكرمَ مَنْ شاءَ منهمْ بالعطاءِ لِيتألَّفَ قلوبَهمْ على الإسْلام، وأمَّرَ عليهمْ واحِداً منهم.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٢٨]

٢٨- أيُّها المؤمِنون، إنَّ المشركِينَ قَذِرون، لا يتطهَّرونَ ولا يَغتسِلون، ولا يتجنَّبونَ النجاسات، وهمْ فاسِـدو العقيدةِ خَبيثو الباطن، فلا تَسـمَحوا لهمْ بالاقترابِ منَ المسـجدِ الحرامِ بعدَ هذا العام، التاسعِ للهجرة.

وفي صَحيحِ البُخاريِّ وغيرِهِ - واللفظُ لهُ - قولُ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه، إنَّ أبا بكرٍ الصدِّيقَ رضيَ اللهُ عنهُ بعثَهُ في الحَجَّةِ التي أمَّرَهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم عليها قبلَ حَجَّة الوداع، يومَ النَّحر، في رَهْط، يؤذِّنُ في الناس: أنْ لا يَحُجَّ بعدَ العامِ مُشرِك، ولا يَطوفَنَّ بالبَيتِ عُريان. اهـ.

وإذا خَشِيتُمْ فَقْراً وفاقةً بسببِ منعِ المشرِكينَ مِنْ ذلك، حيثُ كانوا يَجْلُبونَ معهمْ إلى مكَّةَ العُروضَ والأطعِمةَ للتِّجارة، فيَتبادلونَ معهمُ التِّجارة، ويشتَرونَ منهمُ الأطعِمة، إذا خشيتُمْ ذلك، فإنَّ اللهَ يُغنيكمْ عنْ ذلك، ويتفضَّلُ عليكمْ بالرِّزقِ منْ أبوابٍ أخرى، بالمطر، وفتحِ البلاد، والغنائم، وعائدِ الجِزية، وما إليه، إنْ شاءَ سُبحانه، وهوَ عليمٌ بأحوالِكمْ ومصالِحِكم، حَكيمٌ في أمرِهِ وعَطائهِ ومَنعه، فيُعطي ما يَشاءُ لمنْ يَشاء. وقدْ حقَّقَ اللهُ لهمْ ذلك، فأنعمَ وتفَضَّل.

{قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التوبة: ٢٩]

٢٩- قاتِلوا أيُّها المؤمِنونَ أهلَ الكتابِ المنحرِفينَ عنْ دينِ اللهِ - وكانَ ذلك تَمهيداً لغزوِ الرُّومِ وعمّالِهِمْ منَ النَّصـارَى العَربِ - الذينَ لا يؤمِنونَ باللهِ ولا بيَومِ القِيامةِ إيمانًا صَـحيحًا، كما سيأتي بيانهُ في آياتٍ تالية، فقدْ قالتِ اليهودُ عُزَيْرٌ ابنُ الله، وقالتِ النصارَى المسيحُ ابنُ الله، وهذا لا يكونُ إيماناً بالله، بل هوَ آراءٌ فاسِدةٌ وأهواءٌ زائغَة.

ولا يحرّمونَ ما حرَّم اللهُ ورسُـــولهُ كما أوحَى اللهُ به، فأحلُّوا الرِّبا، وأكلوا أموالَ الناسِ بالباطِل، وأحلُّوا لحمَ الخنزيرِ، والخَمر...

ولا يتَّبعُون الدِّينَ الثابتَ الذي أمرَ اللهُ به، وهوَ الإســلام، فهمْ لا يَتعاملونَ بشَــريعةِ الله، بلْ يتلقَّونَ الأحكامَ مِنْ أحبارِهمْ ورُهبانِهم.

فقاتِلوهم، فهمْ حَرْبٌ على دينِ اللهِ الصَّــحيح. وهمْ مُعْتَدونَ حَقيقةً، فهمْ يَعتَدونَ على أُلوهيَّةِ اللهِ الخالقِ العَظيم، وهمْ يَعتَدونَ على عبادِ اللهِ بتعبيدِهمْ لغيرِ الله. والمعتَدي يُقاوَمُ ويُحارَب.

فقاتِلوهمْ حتَّى يُعلِنوا اسـتِسـلامَهمْ ويَدفَعوا الجزيةَ المستَحَقَّةَ عليهمْ عنِ انقيادٍ وطَاعةٍ وهمْ أذلَّةٌ مَقهورون، ومَنْ أسـلمَ منهمْ عنِ اختيارٍ فلا تُؤخَذُ منهُ الجزية، بلْ صـارَ كأيِّ مُسلِم، لهُ ما لَه، وعليهِ ما عليه. وإنَّ فتحَ البلادِ الكافِرَةِ يُعطي مجالاً لبيانِ دينِ اللهِ الحقّ ضـدَّ الإعلامِ المضَـلِّلِ الذي يُثيرُ حولَهُ الشُّـبهاتِ والشُّـكوك، ثمَّ لا يُكْرَهُ أحدٌ على الإسْـلام، فمنْ شـاءَ آمن، ومَنْ شاءَ بقيَ على دينهِ ودفعَ الجزية، وهوَ مبلغٌ قليلٌ يُؤخَذُ منهمْ مقابِلَ حمايَتِهم.

ويُبيَّنُ لهمْ دِينُ الإسلامِ ويُدعَونَ إليهِ قَبلَ بَدءِ القِتال.

وأمرُ الجِهادِ مَوكولٌ إلى الإمامِ واجتِهادِه، لأنَّهُ أعرَفُ بحالِ النَّاس، وبحالِ العَدوِّ ونِكايَتِهم.

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [التوبة: ٣٠]

٣٠- وهذهِ حالُ أهلِ الكتابِ ومَقالتُهم، ليُعْلَمَ كيفَ انتظَموا في سِلكِ المشرِكين، فقدْ قالتِ اليهود: إنَّ عُزيْراً هوَ ابنُ الله، تعالَى اللهُ عنْ ذلك. وهوَ عِزْرا، الملَقَّبُ بالكاتِب، وكانَ حافِظاً للتوراة، اسـتَنسَـخَها اليهودُ مِنْ فيهِ بعدَ مَقتلِ حَمَلتِها، وماتَ بعدَ موسَـى عليهِ السَّـلامُ بنَحوِ ألفِ عام. وقالتِ النَّصـارَى: المسـيحُ عيسـى ابنُ مريمَ ابنُ الله، سُـبحانَهُ وتعالى. فهذا قولُهُمْ بألسِــنتِهمْ مِنْ غَيرِ أنْ يَعْضُــدَهُ برهانٌ ولا مُســتنَد، ولا يُصَــدِّقَهُ عَقل، بلْ هوَ كَذِبٌ افترَوْهُ واختَلَقوهُ مِنْ عندِهمْ جَهلاً وعِناداً، يُشــابِهونَ بذلكَ قولَ المشــرِكينَ مِنْ قَبل، الذينَ قالوا إنَّ الملائكـةُ بَنـاتُ الله! لعنَهمُ اللهُ وأهلكَهم، كيفَ يُصْــرَفونَ عنِ الحقّ والأدلَّـةُ عليـهِ ظـاهِرَه، ويَنصرِفونَ إلى الضَّلالِ والأدلَّةُ على بُطلانهِ واضِحة؟! قدْ تشابَهتْ قُلوبُهمْ في الكفرِ والبُطلان.

{اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهاً وَاحِداً لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣١]

٣١- ومِنْ كُفرِ أهلِ الكتابِ أنَّهُمُ اتَّخَذوا عُلماءَهمْ ورؤساءَهمْ أرباباً يعبدونَهمْ مِنْ دونِ الله، بأنْ أطاعوهُمْ في تَحريمِ ما أحلَّ اللهُ وتَحليلِ ما حرَّمهُ.

وعندما قالَ عَدِيُّ بنُ حاتمٍ لرسُولِ الله صلى الله عليه وسلم: إنَّ اليهودَ والنصارى لم يَعبدوا أحبارَهمْ ورُهبانَهم، قالَ لهُ عليهِ الصلاةُ والسلام: "بلى، إنَّهُمْ حرَّموا عليهمُ الحلال، وأحلُّوا لهمُ الحرام، فاتَّبعوهم، فذلكَ عبادتُهُمْ إيَّاهم".

وهذا تَفسيرُ نبيّ اللهِ لمعنَى العِبادة، ولبيانِ أحَدِ أنواعِ الكُفرِ والشِّرك، فليُقَسْ عليهِ ما هوَ مِنْ مثلِه، منْ أوامرَ وأحكامٍ مُخالِفةٍ للقُرآنِ والسنَّة. وهي كثيرةٌ في عَصرِنا.

وكذا جعلَ النصارَى نبيَّ اللهِ عيسى بنَ مريمَ ابناً لله، واتَّخذوهُ رباًّ يَعبدونَهُ معَه.

وقد أُمِرُوا على ألسنةِ الأنبياءِ، وفي الكتبِ المنْزَلةِ منَ اللهِ عليهم، ألاّ يَعبدوا إلاّ إلهاً واحِداً، ولا يُطيعوا إلاّ أمرَه، فهوَ الذي يَشرَعُ فيُطاع، وإذا حلَّلَ شَيئاً فهوَ الحلال، وإذا حرَّمَ فهوَ الحرام، هوَ اللهُ الواحِدُ الأحَد، لا ربَّ سِواه، فلا يُعْبَدُ إلاّ هو، تَنزَّهَ وتَقدَّسَ عنِ الشُّرَكاءِ والأولاد.

{يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [التوبة: ٣٢]

٣٢- يُريدُ هؤلاءِ الكافِرون، منَ المشرِكينَ وأهلِ الكتاب، أنْ يُبطِلوا التَّوحيد، ويَردُّوا ما بُعِثَ بهِ رَسُولهُ مِنَ الهُدَى ودِينِ الحقّ، بجِدالِهمْ وأقاويلِهمُ الباطِلة، كما يسعَى أحدُهمْ لإطفاءِ نورِ الشَّمسِ أو القَمر، وسَوفَ ينشرُ اللهُ دينَهُ الحقّ، وتَصِلُ أنوارُهُ إلى أنحاءِ الأرض، كما تصلُ إليها أشعَّةُ الشَّمس، ولو كَرِهَ ذلكَ الكافِرون، وحاولوا منعَهُ بما يستَطيعونَ مِنْ مالٍ وإعلام، وجُندٍ وسِلاح.

{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [التوبة: ٣٣]

٣٣- هوَ اللهُ الحقُّ الذي بعثَ نبيَّهُ محمَّداً صـلى الله عليه وسـلم بالقُرآنِ المبِينِ لهِدايةِ الناس، وبالدِّينِ الثابتِ الصَّحيح، ليُعليَهُ على سَائرِ الأدْيان، بنَسخهِ إيّاها، والإبقاءِ عَلى الصَّحيح، ولو كَرِهَ ذلكَ أعداءُ الدِّين، ودَفعُوهُ بما يَقْدِرونَ عليه.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [التوبة: ٣٤]

٣٤) أيُّها المؤمِنون، إنَّ كثيراً مِنْ عُلماءِ اليَهودِ والنَّصارَى يَتخلَّونَ عن أحكامِ دينِهِمْ بقَبولِ أموالٍ محرَّمةٍ عليهِمْ منَ الناس، فهمْ يأخذونَ الرشوَة، ويَقبَلونَ الهدايا، ويُغيِّرونَ لأصحابِها شرعَ اللهِ الحقّ، أو يخفِّفونَ أحكامَه عنهم، أو يُسامِحونَهُمْ فيها، وهمْ يَمنعونَ الناسَ منِ اتِّباعِ دِينِ الله، بإثارةِ الشُّبهاتِ الباطلةِ حولَه، وبكَتْمِ ما أُمِروا بالتَّبشيرِ بهِ منْ مَبعثِ رسولِه، وتَحريفِ الأخبارِ حولَه، ويقولونَ إنَّهُ ليسَ النبيَّ المبَشَّرَ به، وهمْ يَعرفُونَ أنَّ الصِّفاتِ الواردةَ فيهِ عندَهمْ مُنطَبِقةٌ عليهِ تماماً، ويَعرفونَ ذلكَ كما يَعرفونَ أبناءَهم.

والمقصود: التحذيرُ منْ عُلماءِ السُّوء، الذينَ يَعرفونَ الحقَّ ويَكتمونَه، أو يُحَرِّفونَه، فيَخونونَ اللهَ بذلك.

قالَ سُفيانُ بنُ عُيَيْنةَ رحمَهُ الله: مَنْ فَسَدَ مِنْ علمائنا كانَ فيهِ شِبْهٌ مِنْ اليهود، ومَنْ فَسَدَ مِنْ عُبّادِنا كانَ فيهِ شِبْهٌ منَ النصارَى.

والذينَ يجمَعونَ الأموال، مِنْ ذَهَبٍ وفِضَّةٍ ونُقود، ويَحْرِصونَ على حِفظِها عندَهم، ولا يَدفعونَ المستَحقّاتِ المترتِّبةَ عليها للفقراءِ واليتامَى والمعوِزينَ كما حدَّدَهُ الشَّرع، فبشِّرهمْ بعِقابٍ شَديدٍ مؤلِم.

{يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ} [التوبة: ٣٥]

٣٥- في ذلكَ اليومِ الرَّهيب، تُوقَدُ النِّيرانُ الشَّديدةُ بجهنَّمَ على ما كَنَزوهُ منَ الذَّهبِ والفِضَّة، لتُكوَى بها جِباهُهُمُ التي كانوا يَرفعونَها افتخاراً بالمال، ونواحيهِمُ التي سَمِنتْ مِنَ الشِّبَع،

وظُهورُهمْ التي أدارُوها للفُقَراء؛ إعراضــــاً عنهمْ وعنْ حُقوقِهم، ويُقالُ لهمْ تَبكيتاً وتَقريعاً: هذهِ هي نَتيجةُ ما كنَــزتُمْ لمنفَعةِ أنفسِكمْ ولم تُنفِقوها في سَبيلِ الله، فذوقوا جزاءَ ذلك، ولِيكونَ أعزُّ الأشياءِ عليكمْ في الدُّنيا، أضرَّها عليكمْ في الآخِرَة.

{إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: ٣٦]

٣٦- إنَّ عددَ شُهورِ السَّنةِ في حُكمِ الله، الذي أوجبَ على عِبادهِ الأخذَ به، هوَ اثنا عشرَ شَهراً - وهيَ الشُّهورُ القَمَريَّةُ المعرُوفةُ - كما في اللَّوحِ المحفوظ، منها أربعةُ أشهُرٍ حُرُم، هي: محرَّم، ورَجَب، وذو القَعْدَة، وذو الحِجَّة، ذلكَ هو الشَّرعُ المستَقيمُ الذي لا يُغَيَّرُ ولا يُبَدَّل، فلا تَظلِموا أنفُسَكم وتَعرِّضوها لعِقابِ الله بارتكابِ ما حُرِّمَ فيهنَّ، بلْ تكونُ مُدَّةَ سَلامٍ وأمان.

وقاتِلوا المشرِكينَ كلَّهم، فإنَّهم يقاتِلونَ المسلِمينَ جميعَهم ولا يستَثنونَ منهمْ أحداً، فهيَ معرَكةٌ بينَ الإيمانِ والشِّرك، وبينَ الحقِّ والباطِل. واعلمُوا أيُّها المسلِمونَ أنَّ اللهَ معَ عبادهِ المتَّقين بالوِلايةِ والنَّصر، فاتَّقوا اللهَ لتَفوزوا بذلك.

وأشهَرُ الأقوالِ على أنَّ حُرمةَ القِتالِ في هذهِ الأشهرِ الأربعةِ مَنسوخة، بدلائلَ أخرَى، منها قولُهُ تعالى: {فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ} [التوبة: ٥]. والله أعلم.

وتبقَى حُرمَةُ الأشهرِ المذكورةِ وارِدة، لارتباطِها بتوقيتِ الحجّ، ولأنَّ المعاصيَ والآثامَ فيها أبلغُ وأغلظ، ولِيبتعِدَ المسلِمونَ عنِ الزيادةِ والنقصِ فيها، كما في الآيةِ التالية.

{إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلِّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} [التوبة: ٣٧]

٣٧- إنَّما الزيادةُ في عددِ شُهورِ السَّنة، أو عددِ أيَّامها، كما كانَ يفعلُهُ العَرَبُ الجاهليُّون، لِيَستَحِلُّوا بها الحَرب، إنَّما هيَ زيادةٌ في الكُفرِ على كُفرِهم، ففيها إحلالٌ لِما حرَّمَ الله، ومخالَفةٌ

لشَرعِه، وكُفرٌ في الاعتِقاد، يُضَلُّ بها المشرِكونَ على إضلالِهم، ويُخْدَعونَ بما فيها منْ تلاعُبٍ وتَحريف. يُحِلُّونَ الشهرَ المؤخَّرَ عاماً منَ الأعوام، ويحرِّمونَ مكانَهُ شهراً آخَرَ ممّا ليسَ بحرام، لِيوافِقوا بالشَّهرِ الحلالِ الذي حرَّموهُ ما كانَ حراماً منَ الأشهُرِ الأربعة، حتَّى يَدفَعوا عنْ أنفُسِهم إثمَ ما قَاموا بهِ منْ حَرب، بزعمِهم. ورأوا أنَّهُم بذلكَ قامُوا بعَملٍ حسَن، وظنُّوا الانحرافَ استِقامة، والغِواية هِداية، واللهُ لا يَهدي منِ ابتعدَ عنْ دَلائلِ الهُدَى، وأصرَّ على الكُفر.

وكانوا في الجاهليَّةِ على أنحاء: منهمْ مَنْ يُسَمّي المحرَّمَ صَفَراً فيُحِلُّ فيهِ القِتال، ويُحَرِّمُ القِتالَ في صَفَرَ ويُسَمّيهِ المحرَّم، ومنهمْ مَنْ يجعلُ ذلكَ سَنةً هكذا وسَنةً هكذا...

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ} [التوبة: ٣٨]

٣٨- أيُّها المؤمِنون، ما لكمْ إذا قيلَ لكمُ اخرُجُوا إلى الجِهادِ في سَبيلِ الله، في غَزوةِ تَبوك، تباطأتُمْ وتكاسَلتُم، وكَرِهتُمْ مَشاقَّ الجِهادِ ومَتاعبَهُ في الحرّ، ومِلتُمْ إلى الإقامةِ والرَّاحة، والتمتُّعِ بالشَّهواتِ الدُّنيا والثِّمارِ الناضِجَة! (وكانتِ الغَزوةُ في وقتِ نُضوجِها). أرضِيتُمْ بالحياةِ الدُّنيا الفانيةِ منَ الآخِرَةِ ونَعيمِها الدائم؟ فإنَّ الاستِمتاعَ بالحياةِ الدُّنيا ولذائذِها بالنسبةِ إلى الحياةِ الأخرَى قليلٌ لا يُذكَر، وحقيرٌ لا يُعبَأ به.

{إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التوبة: ٣٩]

٣٩- وإذا لم تَخرُجوا إلى الجِهادِ الذي دعاكمْ إليهِ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم، فسَوفَ يعاقِبُكمْ بهلاكٍ، أو قَحطٍ، أو غَيرِهِ منَ العُقوباتِ المؤلِمةِ الشَّديدة، ويأتي اللهُ بقَومٍ أفضلَ منكمْ يجاهِدونَ معَ رسُولِه، فيُطيعونَهُ وينصُرونَه، ويُؤْثِرونَ الآخِرَةَ على الدُّنيا، ولنْ تضرُّوا اللهَ بتخلُّفِكمْ عنِ الجِهاد، فهوَ قادِرٌ على نَصرِ عِبادِهِ مِنْ دونِكم، واللهُ لا يُعْجِزهُ شَيءٌ، فهو قادرٌ على هذا وغيرِه، لكنَّ الضَّررَ يعودُ عليكم.

{إِلاَّ تَنصُـــرُوهُ فَقَدْ نَصَـــرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـــاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَـــكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٤٠]

٤٠- فإذا لم تَستَجيبوا لنِداءِ رسُولِهِ إلى الجِهادِ وأبَيتُمْ نصرَه، فإنَّ اللهَ ناصِرُهُ ومُؤيِّدُه، كما تولَّى نَصـرَهُ عندما تسـبَّبَ الكفّارُ في إخراجهِ مِنْ مكَّة، فأذِنَ لهُ بالخُروجِ مِنْ بينِهمْ عامَ الهجرةِ إلى المدينة، ومعَهُ صـاحِبُهُ أبو بكرٍ الصِّـدِّيقُ رضـيَ الله عنه، وكانَ يخافُ عليهِ منَ المشـرِكين، الذينَ تتبَّعُوا أثرَهُ ليَقتُلوه، فقالَ لهُ رسُـولُ الله صـلى الله عليه وسـلم في الغارِ وهوَ يسـكِّنهُ ويُثَبِّتهُ: "يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنَينِ اللهُ ثالثُهما"؟

فأنزلَ الله أمنَهُ وطُمَأنينتَهُ على رسُـوله، وأيَّدَهُ بالملائكةِ يَحرُسـونَهُ ويُثَبِّتونه، وأحبطَ تدبيرَ الكفّارِ ومَكْرَهم، وأفشـلَ مؤامرتَهم في قتلِه، وجعلَ كلمتَهمُ التي اجتمَعوا عليها هي السُّـفلَى والخاسِـرَة، رَغمَ أنوفِهم، فنجّـاهُ اللهُ وأبلغَهُ مـأمَنـه، ورجَعوا همْ خـائبينَ خـاسِـــرين، وكلمـةُ اللهِ في الحقّ، والتوحيد، هيَ العُليا، لا تَنْزِل، ولا يَعلُو عَليها شَـــيء، فالحقُّ لا يتغيَّر، والصَّـــحيحُ لا يكونُ باطلاً.

واللهُ عَزيزٌ في انتِقامهِ لا يُغالَب، حكيمٌ فيما يأمرُ ويدبِّر، لا يُراجَعُ فيه.

{انْفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِـكُمْ فِي سَـبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [التوبة: ٤١]

٤١- اخرجُوا إلى الجِهادِ على أيِّ حالٍ كنتُم، شَـباباً وكُهولاً، فُقَراءَ وأغنِياء، في نَفيرٍ عامٍّ دعا إليه رسـولُ اللهِ صـلى الله عليه وسـلم لمِقاتلةِ الرُّوم. وجاهِدوا بما عندكمْ مِنْ مال، مِنْ شِـراءِ السِّلاحِ وتَزويدِ المجاهِدينَ به، وبأنفسِكمْ تَبيعونَها لله، فهوَ خَيرٌ لكمْ عندَ ربِّكمْ عاقبةً ومآلاً.

وذكرَ بعضُ المفسِّرينَ أنَّ هذهِ الآية مَنسوخة، ورُدَّ أنَّ هذا يخصُّ النفيرَ العَام.

{لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَّتَّبَعُوكَ وَلَـكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [التوبة: ٤٢]

٤٢- لو كانَ ما دَعوتَهمْ إليهِ أيُّها النبيُّ غَنيمةً قريبةَ المنالِ، وسَــفَراً هيِّناً غيرَ بَعيد، لخرجَ معكَ الذينَ اســتأذَنوا مِنكَ وأظهَروا أنَّهمْ ذَوُو أعذارٍ في غَزوةِ تبوك، ولكنْ لما بَعُدَتْ عليهمُ المســافةُ – إلى الشَّامِ – اعتَذروا.

وسيحلِفُ هؤلاءِ المتخلِّفونَ باللهِ كَذِباً ويَقولون: لو قَدَرْنا على المجيءِ لخرَجنا معَكمْ إلى الجِهاد، يُهلِكونَ أنفسَـــهمْ بهذهِ اليمينِ الكاذِبةِ التي تَجرُّهمْ إلى العَذاب، واللهُ يَعلَمُ أنَّهمْ كاذبونَ في حَلِفِهم هذا.

{عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ} [التوبة: ٤٣]

٤٣- عفا اللهُ عنكَ أيُّها النبيّ، لأيِّ سَـــببٍ أذِنْتَ لهؤلاءِ الحالِفينَ بالتخلُّفِ عن الجِهادِ حينَ اعتَذَروا بعَدمِ الاستِطاعَة؟ هلاّ انتظرت وتأكَّدتَ منْ ذلكَ حتَّى يَنجليَ لكَ الأمرُ وتَنكشِفَ الحال، فتَعرِفَ مَنْ صَدَقَ في الاعتِذارِ ممَّنْ كَذَب؟!

{لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} [التوبة: ٤٤]

٤٤- لا يســـتأذِنُكَ في القُعودِ عنِ الغَزوِ المؤمِنونَ باللهِ واليومِ الآخِر، لأنَّهم يَرونَ الجِهادَ قُربة، وفُرصةً لإثباتِ شوقِهمْ إلى الشَّهادة، فيُبادِرونَ إلى بذلِ أموالِهم وفِداءِ أنفسِهمْ في سَبيلِ الله، واللهُ عليمٌ بمَنْ يخشونَهُ ويَطلبونَ رِضاهُ مِنْ عبادِه.

{إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ} [التوبة: ٤٥]

٤٥- إنَّما يســـتأذِنُكَ في التخلُّفِ عنِ الجهادِ ممَّنْ لا عُذْرَ لهم، الذينَ لا يؤمِنونَ بالله، ولا يَرجُونَ ثوابَهُ في الدَّارِ الآخِرَة، وشكَّتْ قلوبُهم في صحَّةِ ما جئتَهمْ به، فهمْ في شَكِّهمْ مُتحيِّرونَ مُضطَرِبون.

{وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَـكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ} [التوبة: ٤٦]

٤٦- ولو أرادَ المتخلِّفونَ الخُروجَ معكَ إلى الجِهاد، لتأهَّبوا لذلكَ وأعدُّوا الرَّاحلةَ والسِّلاحَ وما يَحتاجُ إليهِ المقاتِل، ولكنْ كَرِهَ اللهُ أنْ يَخرَجوا مَعكَ لمعرفتهِ بحَقيقةِ ما همْ عليه، فعوَّقهمْ وأخَّرهم، وقيلَ لهم: اقعُدوا أيُّها الجُبَناءُ الكاذِبونَ معَ مَنْ لا يَقْدِرونَ على الجِهاد، كالنِّساءِ والصِّبيانِ والمعوَّقين.

{لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [التوبة: ٤٧]

٤٧- ولو أنَّ هؤلاءِ المعتذِرينَ المتخلِّفينَ خَرجوا مُخالِطينَ لصفوفِكم، لما زَادوكمْ إلاّ عَجْزاً وجُبْناً، وشرّاً وفَساداً، وغَدْراً ومَكرا، لأنَّهمْ جُبناءُ مَخذولون، غيرُ أوفياءَ ولا مُخلِصون، ولمشَوا بينَكمْ بالفِتنةِ والنَّميمَةِ فأوقَعوا الخِلافَ بينكم، وبَثُّوا الشَّائعاتِ في صُفوفِكم، وهوَّلوا أمرَ العَدوِّ في قُلوبِكمْ لتَخافوهم، وفيكمْ منَ الضَّعَفةِ مَنْ يَقبلُ حديثَهمْ ويُصَدِّقونَهم، ويَستَحسِنونَ حديثَهمْ ويُطيعونَهم، واللهُ عليمٌ بهؤلاءِ المتخلِّفينَ الظَّالمين، محيطٌ بظَواهرِهمْ وبواطنِهم، وقدْ أخبرَكمْ عنْ حالِهم.

{لَقَدِ ابْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاء الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ} [التوبة: ٤٨]

٤٨- لقدْ سبقَ أنْ حاولَ المنافِقونَ الإضرارَ بكَ وبالمسلِمين، عندما فَتَنوهمْ عنْ دينِهم وصَدُّوهمْ عنِ الإسْلام، وعندما رجعَ رأسُ المنافِقينَ بأصحابهِ يَومَ أُحُد، وغيرُ ذلكَ منْ مواقفِهمُ الدنيَّةِ التي تدُلُّ على خِيانتِهم، منْ خلالِ مَكايدِهم، وتَفريقِ أصحابِكَ عنك، لإبطالِ أمرِك، حتَّى جاءَ نصرُ الله، وغَلَبَ دينُه، وعَلا شرعُه، على رَغمِ أنوفِهم، وهمْ كارِهونَ لذلك، مُبغِضونَ له.

{وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} [التوبة: ٤٩]

٤٩- ومنَ المنافِقينَ مَنْ يَستأذِنُ منكَ للقُعودِ عنِ الجِهادِ ضدَّ الرُّوم، ويقولُ في سبَبِ ذلك: متَى أرَى نساءَ الرومِ أفتَتِن، فأْذَنْ لي ولا تَفْتِنِّي. لقدْ سقطَ هؤلاءِ وأمثالُهمْ في الفِتنَةِ عندما قدَّموا اعتِذاراتٍ كاذبةً وتخلَّفوا عنِ الجِهاد، وإنَّ أعمالَهم تدلُّ على أنَّ جهنَّم تنتَظِرُهم، لتَجمَعَهمْ فيها وتُسْعَرَ بهم.

{إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ} [التوبة: ٥٠]

٥٠- ومنْ ظَاهرِ عَداوةِ المنافِقين، أنَّ اللهَ إذا قدَّرَ لكَ نَصراً وغَنيمةً في غَزوة، ساءَهمْ ذلكَ وحَزِنوا؛ لحَسدِهم وعداوتِهم للإسْلام، وإذا قدَّر عليكَ شِدَّةً قالوا: قدْ احتَطنا لذلكَ وأخذنا حَذَرَنا فقعَدنا عنِ الغزو، ولولا ذلكَ لأصابَنا ما أصابَهم، ثمَّ يَنصرِفونَ وهمْ مَسرُورونَ بما حلَّ بالمسلِمين!

{قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [التوبة: ٥١]

٥١- قُلْ لهمْ أيُّها النبيُّ الكريم: لنْ يصِيبَنا شَيءٌ أبداً إلاّ ما قدَّرَهُ اللهُ علينا، فنحنُ تحتَ مَشيئتهِ وإرادتِه، لا يتغيَّرُ أمرٌ بمُوافقتِكمْ ومُخالفتِكم، وبمشاركتِكمْ وانسحابِكم، فهو ناصِرُنا وحافِظُنا، ومَلجَؤنا وسيِّدُ أمورِنا، وعلى اللهِ وحدَهُ فليَعتَمدِ المؤمِنون، فهوَ حسبُهمْ ونعمَ الوَكيل.

{قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ} [التوبة: ٥٢]

٥٢- وقُلْ لهمْ أيُّها النبيّ: هلْ تنتَظِرونَ بنا أيُّها المنافِقون، إمّا الشَّهادة، وإمّا النَّصرَ على الأعداء، ونحنُ ننتَظِرُ بكمْ أحدَ العَذابين: إمّا أنْ يُهلِكَكمْ اللهُ كما أهلكَ أُمماً سابِقة، وإمّا أنْ

يعذِّبَكمْ بأيدينا بالقَتلِ والأسرِ والسَّبي، فانتظِروا، إنّا معكمْ مُنتَظِرون، ولنْ تَجِدوا إلاّ ما يَسُرُّنا ويُحزِنُكم.

{قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ} [التوبة: ٥٣]

٥٣- قُلْ لهم: أنفِقوا أموالَكمْ في متطلَّباتِ الغَزوِ طائعينَ أو كارِهين، فلنْ يَقبلَ اللهُ ذلكَ منكمْ ولنْ يُثيبَكمْ عليهِ في الحالَين، فقدْ كنتُمْ مُتمرِّدينَ خارِجينَ عنِ الطَّاعة، رافِضينَ لحُكمِ اللهِ ورَسولِه.

{وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ} [التوبة: ٥٤]

٥٤- وما مَنعَ قَبولَ نَفقاتِهِمْ شَيءٌ منَ الأشياءِ إلا كفرُهمْ باللهِ وتكذيبُهمْ رسولَه، ولا تُقبَلُ الأعمالُ إلاّ بالإيمانِ الصَّحيح، وهمْ لا يأتونَ الصَّلاةَ المفْروضةَ عليهِمْ في حالٍ منَ الأحوالِ إلاّ وهمْ مُتثاقِلون، لأنَّهمْ لا يَرجُونَ على أدائها ثَواباً، ولا يَخافونَ على تَركِها عِقاباً، ولا يُنفِقونَ نفَقةً في الجِهادِ وغَيرِهِ إلاّ وهمْ كارِهونَ لذلك، لأنَّهمْ يَعُدُّونَهُ خَسارةً لا مَغنماً، ولا يَقبلُ اللهُ الأعمالَ إلاّ عنْ طِيبِ نَفسٍ وعَقيدةٍ صَحِيحَة.

{فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة: ٥٥]

٥٥- فلا يَرُقْكَ شَيءٌ مِنْ أموالِهم ولا أولادِهم، ولا تَستحسِنْ ذلكَ منهم، فإنَّما هوَ استِدراجٌ منَ اللهِ لهم، ليَكونَ ذلكَ كلُّه وَبالاً عليهم، وعِقاباً لهمْ في الدُّنيا، مِنْ تَعَبٍ في جَمعِه، وكَدٍّ في تَحصِيله، ونَفقَةٍ منهُ للزَّكاةِ والجِهاد، دونَ أنْ يُثابوا عليه، ومَقتَلِ أولادٍ لهمْ في الغَزو، وهمْ لا يَعتَقِدونَ استِشهادَهمْ ولا احتِسابَهُمْ واللِّقاءَ بهمْ في اليَومِ الآخِر، فيَكونُ كلُّ ذلكَ حَسرةً عليهم، وتَعذيباً نفسيّاً لهم، وأكثرَ إيلامًا لهم، ولتخرُجَ أرواحُهم ويموتُوا على كُفرِهم(٤٩).

---

(٤٩) {وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ}: يعني وتخرجَ أنفسُهم، فيموتوا على كفرهم بالله، وجحودِهم نبوَّةَ نبيِّ الله محمدٍ صلَّى الله عليه وسلم. (الطبري). أصلُ الزهوق: خروجُ الشيءِ بصعوبة. أي: فيموتوا كافرين مشتغلين بالتمتعِ عن النظرِ

{**وَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ**} [التوبة: ٥٦]

٥٦- ويَحلِفُ المنافِقونَ حَلِفاً مؤكَّداً أنَّهُمْ على دينِكمْ ومُسلِمونَ مثلَكم، وقدْ كذَبوا، فما همْ منكم، ولكنَّهمْ جماعةٌ يَخافونَ أنْ يُظهِروا حَقيقةَ ما همْ عليهِ منَ الكُفرِ والنِّفاق، حتَّى لا تُعامِلوهمْ معاملةَ المشرِكينَ وتَقتُلوهم، فيُعلِنونَ إسلامَهم كَذِباً، ويؤيِّدونَهُ باليَمينِ الكاذِبَة.

{**لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ**} [التوبة: ٥٧]

٥٧- ولو أنَّهم وجَدوا حِصناً يَتحَصَّنونَ به، أو مَغاراتٍ في الجِبالِ يُخْفُونَ أنفسَهم فيها، أو أنفاقاً في الأرضِ يَدخلونَها، لصَرَفوا وجوهَهمْ عنكمْ وأقبَلوا إليها وهمْ يُسرِعون، لا يَلتفِتونَ إلى شَيء.

يَعني: لو يَجدونَ مَخْلَصاً منكمْ ومَهْرَباً لفارَقوكم، فهمْ لا يوَدُّون مخالطتَكم، لأنَّهمْ ليسُوا منكم.

{**وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ**} [التوبة: ٥٨]

٥٨- ومنهمْ مَنْ يَعيبُ عليكَ في تَقسيمِ الصَّدَقات، ويَطعَنُ عليكَ في تَوزيعِها، لا لسَببٍ سِوَى مَصلحتِهمُ الماليَّة، فإذا أعطيتَهمْ مِنْ تلكَ الصَّدَقاتِ قَدْرَ ما يُريدونَ رَضُوا وفَرِحوا وشَكَروا لك، وإذا لم تُعطِهمْ منها غَضِبوا ولم يَستَحسِنوا فِعلَك.

وفي صَحيحِ البُخاريِّ ما يُفيدُ أنَّ هذهِ الآيةَ نزَلتْ في "خارِجيٍّ" قال: اعْدِلْ يا رَسولَ الله. وتَفصِيلهُ في "فتحِ الباري".

في العاقبة، فيكونُ ذلك لهم نقمةً لا نعمة. (روح البيان). الزهوق: الخروجُ بشدَّةٍ وضيق، وقد شاعَ ذكرهُ في خروجِ الروحِ من الجسد. (التحرير والتنوير).

{وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ} [التوبة: ٥٩]

٥٩- ولو أنَّهم قَنِعوا بما قَسَمَ لهمُ اللهُ ورَسولُه، وطابَتْ نفوسُهمْ بها، وقالوا: حَسبُنا اللهُ وكافِينا، سيُعطينا اللهُ مِنْ فَضلِهِ ورَسولهُ ما نحتاجُ إليهِ ونَرجوه، فإنَّا راغبونَ في أنْ يوسِّعَ علينا مِنْ فَضلهِ وبركاتِه، ويُغنينا عنِ الصَّدَقةِ وغيرِها مِنْ أموالِ الناس، لكانَ ذلكَ خيراً لهمْ وأفضَل.

{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٦٠]

٦٠- إنَّما يَكونُ تقسيمُ الزَّكواتِ وتوزيعُها بحكمِ اللهِ على الأصنافِ الثَّمانيةِ التالية:

للفُقَراءِ المحتاجينَ الذينَ لا مالَ لهمْ ولا عَمل.

والمساكينِ الذينَ لا يَجِدونَ ما يَكفيهم.

والسُّعاةِ الذينَ يُرسَلونَ ليُحَصِّلوا الزكاةَ منَ النَّاس.

ولمنْ تُجْمَعُ قلوبُهم ليُسلِموا، أو يَثْبُتوا على إسلامِهم.

وفي فكِّ رِقابِ العَبيدِ ليُصبِحوا أحراراً، وهمْ لا يَقْدِرونَ على دفعِ ما يَلزَمُهمْ لأسيادِهمْ لأجلِ ذلك. وذكرَ بعضُهم أنَّ المقصودَ أُسارَى المسلِمين.

والصِّنفُ السادِسُ همُ الذينَ عليهِمْ دَين.

وللغُزاةِ في سَبيلِ الله، يُعْطَونَ الزَّكاةَ إذا أرادوا الخروجَ إلى الجهادِ ليستَعينوا بها على أمرِ الغَزو، ولو كانوا أغنياء.

وللمُنقَطِعِ في سفَرِه.

وهذا التقسيمُ واجِبٌ فرَضَهُ الله، وهوَ عَليمٌ بأحوالِ الناسِ ومَصالحِهمْ ومُستَحقّاتهم، حَكيمٌ فيما يُقَسِّمُ ويُقَدِّر ويُشَرِّع.

{وِمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وِيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [التوبة: ٦١]

٦١- ومنَ المنافِقينَ مَنْ يؤذي النبيَّ صـلى الله عليه وسـلم، ويَقولون: إنَّهُ يُصَـدِّقُ كلَّ شَـيءٍ يُقالُ له! وإذا جئنا وحَلَفْنا لهُ صَــدَّقنا! قُلْ لهم: هوَ أُذُنٌ في الحقِّ والخَير، وفيما يَجِبُ سَماعُهُ وقَبولُه، وليسَ بأُذُنٍ في غَيرِ ذلك، فهوَ يُصَــدِّقُ باللهِ لِمَا ثبتَ عندَهُ منَ الأدلَّةِ والآياتِ البيِّنةِ على صِـحَّةِ ذلك، ويُصَـدِّق للمؤمِنينَ لِمَا يَعلَمُ فيهِمْ منَ الإخلاصِ والصِّـدقِ وعَدمِ الكذِب. وهوَ رَحمَةٌ لمنْ أظهرَ الإيمانَ منكمْ أيُّها المنافقون، حيثُ قَبِلَهُ منكمْ رِفقاً بكمْ لا تَصديقاً منكم، ولم يَكشِفْ أسرارَكم، ولم يَهْتِكْ أستارَكم. والذينَ يُؤذونَ رسولَ اللهِ بأيِّ نوعٍ منَ الإيذاء، فلهمْ عِقابٌ شَديدٌ مؤلِم، لا يَعرِفُ قَدْرَهُ إلاّ الله.

{يَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ} [التوبة: ٦٢]

٦٢- وهؤلاءِ المنافِقونَ يَحلِفونَ باللهِ آكدَ الحَلِف، ويُبدونَ ما يَتذرَّعونَ بهِ مِنْ أعذار، بأنَّهمْ ما نَطقوا بكُفرٍ، ولا آذَوا بلِسـان، ولا اجتَمَعوا على شَـرّ، ولا همُّوا بفَسـاد، ليُرضُـوكمْ بذلك. واللهُ ورسـولُهُ أحقُّ بالإرضـاءِ مِنْ غيره[٥٠]، منَ الإيمانِ بالقَلب، والصِّـدقِ في القَول، والطَّاعةِ في المنشَـطِ والمكرَه، والتَّسـليمِ بالأمر، إنْ كانوا مؤمِنينَ إيماناً صـادقاً في الظَّاهرِ والباطِن، فإنَّ هذا يَقودُهمْ إلى إرضاءِ اللهِ ورَسوله.

{أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللّهَ وَرَسُـولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ٦٣]

---

(٥٠) {يُرْضُوهُ}: إما للتعظيمِ للجنابِ الإلهيِّ بإفرادهِ بالذكر، أو لكونهِ لا فرقَ بين إرضـاءِ الله وإرضـاءِ رسوله، فإرضـاءُ الله إرضـاءٌ لرسـوله، أو المراد: الله أحقُّ أن يُرضـوهُ ورسـولهُ كذلك، كما قالَ سـيبويه، ورجَّحَهُ النحاس، أو لأن الضـميرَ موضوعٌ موضعَ اسمِ الإشارة، فإنه يشارُ به إلى الواحدِ والمتعدِّد، أو الضميرُ راجعٌ إلى المذكور، وهو يصدقُ عليهما. وقالَ الفرّاء: المعنى: ورسولهُ أحقُّ أن يُرضوه. (فتح القدير).

٦٣- ألم يعلَموا أنَّ الذي يُخالِفُ أمرَ اللهِ تعالَى وأمرَ رَسولِهِ صلى الله عليه وسلم، يَكونُ هوَ في حَدٍّ والإسلامُ في حَدّ، فيُعادي ويُشاقِقُ الإسلامَ مِنْ هذا المنطَلَق؟ سيَكونُ عقابَهُ نارُ جهنَّم، مُستقِرًّا فيها أبداً، مع ذُلٍّ وهوانٍ وشَقاءٍ مُلازِمٍ له.

{يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْتَهْزِئُواْ إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ} [التوبة: ٦٤]

٦٤- والمنافِقونَ يَخشَوْنَ أنْ تُنَزَّلَ سُورةٌ منَ القُرآنِ في شَأنِهم، تَفضَحُهمْ وتبيِّنُ ما في قُلوبِهِمْ منَ الأسْرار، وما يَتداولونَهُ بينَهمْ منْ أقاويلِ الكُفرِ والنِّفاق، فقلْ لهم: استَهزِؤوا بما أنتُمْ مُستَهزِؤونَ به، وأسِرُّوا أقوالَكمْ حتَّى لا يَطَّلِعَ عليها أحَد، فإنَّ اللهَ سيُنـزِلُ على رَسولِهِ ما يَفضَحُكم به، ويبيِّنُ لهُ أمرَكم.

{وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ} [التوبة: ٦٥]

٦٥- وإذا سألتَ المنافِقينَ عنْ سبَبِ قولِهِمْ والدَّاعي إلى استِهزائهم، قالوا: إنَّما كنّا نَخوضُ في الكلامِ ونَلهو[٥١]، قُلْ لهمْ أيُّها النبيّ: أبالله، وآياتِ كتابِه، ورَسولِه، كنتُمْ تَستَهزِؤونَ وتَتهكَّمون؟

{لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ} [التوبة: ٦٦]

---

(٥١) {نَخُوضُ} في الكلامِ ونتحدثُ كما يفعلُ الركبُ لقطعِ الطريقِ بالحديث. (روح البيان).

٦٦- لا تَســتَمِرُّوا في الاعتِذارِ أيُّها المنافِقون، فقدْ بدا منكمْ ما كنتُمْ تَحْرِصــونَ على كَتْمِه، حيثُ أظهرتُمُ الكُفرَ باستِهزائكمْ وإيذائكمُ الرسُولَ صلى الله عليه وسلم بعدَ إظهارِكمُ الإيمان، وإنْ نَتُبْ على جَماعةٍ منكمْ لتَوبتِهمْ أو تجنُّبهمُ الاســتِهزاء، فإنَّنا ســنُعاقِبُ جَماعةً منكمْ لاستِمرارِهمْ في الاستِهزاء، وبَقائهمْ مُصِرّينَ على النِّفاق.

{الْمُنَـافِقُونَ وَالْمُنَـافِقَـاتُ بَعْضُــهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [التوبة: ٦٧]

٦٧- المنافِقونَ والمنافِقاتُ مُتشــابِهونَ في كلامِهمْ وسُــلوكِهم، لأنَّهمْ على دِينٍ واحِد، يأمرونَ بالمعصِيَةِ وتَكذيبِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ويَنهَوْن عنِ الإيمانِ والطَّاعة، ويُمسِكون أيديَهمْ عنِ الصَّـدقةِ والإنفاقِ فيما يُرضـي الله، لقدْ نَسُـوا ذِكرَ اللهِ وتَرَكوا طاعتَه، فعامَلَهمُ اللهُ مُعامَلةَ مَنْ نَسِيَهم، فحَرَمَهمْ مِنْ تَوفيقهِ وهِدايتِه، ومنعَ لُطفَهُ وفَضلَهُ عنهم. إنَّ المنافِقينَ خارِجونَ عنِ الطَّاعة، بَعيدونَ عنِ الحقّ.

{وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ} [التوبة: ٦٨]

٦٨- وعَدَ اللهُ المنافِقينَ والمنافِقاتِ الذينَ يُظهِرونَ الإيمانَ ويُبطِنونَ الكُفر، والكافِرينَ الذينَ يَجهَرونَ به، وعَدَهُمْ نارَ جهنَّمَ تُسْــعَرُ بهمْ جزاءَ كُفرِهم، مؤبَّدينَ فيها، وفيها ما يَكفِيهمْ منَ العِقابِ والعَذاب، وأبعدَهمُ اللهُ منْ رَحمَتهِ وأذَلَّهم، فلا أملَ في خَلاصِــهم ممّا همْ فيه، فلهمْ عذابٌ دائمٌ لا يَنقَطِعُ أبداً.

{كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُواْ أَشَــدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً فَاسْــتَمْتَعُواْ بِخَلاقِهِمْ فَاسْـتَمْتَعْتُم بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْـتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْـتُمْ كَالَّذِي خَاضُـواْ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الُدنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [التوبة: ٦٩]

٦٩- أنتُمْ أيُّها المنافِقونَ مَثَلُ الذينَ مِنْ قَبلِكم، منَ الأممِ الذينَ خالَفوا أمرَ اللهِ وكذَّبوا رُســلَهُ فلعنَهمْ وأهلَكَهم. وكـانوا أكثرَ منكمْ قوَّةً وبَطْشــاً، وأكثرَ أمْوالاً ومَتـاعاً وذُرِّيـة، وقدْ تمتَّعوا

وانتَفَعوا بنَصيبِهِمْ منْ شَهواتِ الدُّنيا وملاذِّها، ورَضُوا بذلكَ عِوَضاً عنِ الآخِرَة، فاستمتَعتُمْ أيُّها الكفَّارُ المنافِقونَ بنصيبِكمْ منْ ذلك، كما استَمتعَ الذينَ مِنْ قَبلِكمْ منَ الكفّارِ بنصيبِهمْ منَ الاقتِصارِ على الشَّهواتِ واللَّذائذِ الفانيَة، وسَلكتُمْ سَبيلَهم، ودخلتُمْ في الكذِبِ والباطلِ والاستِهزاءِ بالرسُل، كما دخَلوا هُمْ في ذلك، فأولئكَ المتَّصفُونَ بتلكَ الصِّفات، منَ القدماءِ والمحْدَثين، قدْ بَطَلَتْ أعمالُهُمُ التي كانوا يستَحِقُّونَ عليها الأجرَ لو صاحَبَها الإيمان، ولكنَّهمْ لم يؤمِنوا، فخَسِروا وخَابوا، ولم يستَحِقُّوا عليها أجراً وثَواباً، في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخِرَة.

{أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وِأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [التوبة: ٧٠]

٧٠- ألم يُخبَرْ هؤلاءِ المنافِقونَ خبرَ مَنْ كانَ قبلَهمْ ممَّنْ خالفَ أمرَ اللهِ وكذَّبَ الرسُل، مِنْ قَومِ نُوحٍ كيفَ أُهلِكوا بالطُّوفان، ومِنْ عادٍ كيفَ أُهلِكوا بالرّيح لما كذَّبوا نبيَّهمْ هوداً عليهِ السَّلام، ومِنْ ثمودَ كيفَ أُهلِكوا بالرَّجْفةِ لما كذَّبوا نبيَّهمْ صالحاً وعَقروا الناقَة، ومِنْ قَومِ إبراهيمَ كيفَ أهلكَ مَلِكَهمْ نُمرودَ ثمَّ أُهلِكوا بعدَه، ومِنْ أصحابِ مَدْيَنَ كيفَ أهلكَهمْ بالنارِ يومَ الظُّلَّة {إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [سورة الشعراء: ١٨٩] لما كذَّبوا نبيَّهمْ شُعَيباً عليهِ السَّلام، ومِن قُرَى قومِ لُوطٍ المنقَلِبات، حيثُ جعلَ اللهُ عاليَها سافلَها، وأمطرَ على مَنْ فيها حِجارة، لما كذَّبوا نبيَّهمْ لوطاً عليهِ السَّلام.

لقدْ جاءَتْهُمْ رُسلُهم بالحُجَجِ القاطِعة، والمعجِزاتِ الكافية، ولكنَّهمْ كذَّبوهمْ وعَصَوْهم، كما فعلتُمْ أنتُمْ مَعشرَ الكفّار، فاحذَروا أنْ يُصيبَكمْ ما أصابَهم.

وما كانَ اللهُ لِيَظلِمَهمْ بإهلاكِهِ إيّاهم، ولكنَّهمْ همُ الذينَ ظلَموا أنفسَهمْ عندما عرَّضوها للعِقاب، بتَكذيبِهمُ الرسُل، واستِكبارِهمْ عنْ قَبولِ الحقّ، وردِّهمُ المعجِزات، واستِهزائهمْ بآياتِ اللهِ وعبادِهِ المؤمنينَ مِنْ أتباعِ الرسُل.

{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٧١]

٧١- والمؤمِنونَ والمؤمِناتُ يتَناصَرونَ ويتَعاونونَ على البِرِّ والتقوى، ويَتعاضدونَ على ما فيهِ خيرُهمْ وخيرُ الناس.

فيأمرونَ بالإيمانِ والطاعةِ والإصلاح، وينَهَوْنَ عنِ الشركِ والمعصِية وما يخالِفُ أحكامَ الشَّرع، ويؤدُّونَ الصَّلواتِ المطلوبةَ منهم، ويُعطُون الحقوقَ الواجبةَ المترتِّبةَ على أموالِهم، ويُطيعونَ اللهَ ورسُولَه، فيما أمرَ ونَهى، أولئكَ المتَّصِفونَ بتلكَ الصِّفات، سيَرحمُهمُ اللهُ ويَتولاّهم بلُطفه، إنَّ اللهَ عَزيزٌ لا يَمتَنِعُ عليهِ ما يُريده، ولا يُعجِزهُ شيءٌ عنْ إنجازِ وعدِهِ ووَعيدِه، حَكيم، يَضَعُ الأمورَ في مواضعِها كما يَنبغي، لا يَفوتهُ شَيءٌ مِنْ ذلك.

{وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ٧٢]

٧٢- وعدَ اللهُ المؤمنينَ والمؤمناتِ جزاءَ إيمانِهمْ وأعمالِهمُ الطيِّبةِ جنّاتٍ تَجري منْ تحتِها الأنهار، مُقيمِينَ فيها أبداً، وقُصوراً عالياتٍ طيِّبات، تَميلُ إليها النُّفوس، ويَطيبُ فيها العَيش، في بَساتينَ مُخَصَّصةٍ للإقامةِ والخُلودِ الدائم، ورِضاءُ اللهِ عنهمْ أكبرُ وأجَلُّ منْ ذلكَ النَّعيمِ كلِّه، وهوَ الفَلاحُ والنَّجاح، والسَّعادةُ والهناء، والفوزُ الذي ليسَ بعدَهُ فوز، لأنَّهُ يَعني أنْ لا يَسخَطَ اللهُ عليهمْ بعدَ ذلك، فيَطمئنُّونَ ويَهنَؤونَ إلى الأبد.

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [التوبة: ٧٣]

٧٣- أيُّها النبيّ، جاهدِ الكفّارَ بالقَتل، والمنافقينَ بالقتلِ كذلكَ إذا أظهَروا الكُفر، وبالحُجَّةِ واللِّسانِ والترغيبِ والترهيبِ إذا لم يُظهِروه، واغلُظْ عليهمْ جَميعاً ولا ترفُقْ بهم، وإنَّ مَكانَهمْ في الآخِرَةِ هوَ نارُ جهنَّم، وبئسَ المرْجِعُ الذي لا يَجدونَ فيهِ سِوَى العَذاب.

{يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ} [التوبة: ٧٤]

٧٤- يَحلِفُ المنافِقونَ أنَّهُمْ لم يُكذِّبوا الرسُول، ولم يَشتُموه، ولم يَستَهزِؤوا به، وقدْ نَطَقوا بما يَكفُرونَ به، فأظهَروا ما في قُلوبِهمْ منَ الكُفرِ بعدَ إظهارِ إسْلامِهم، وحاوَلوا قتلَ الرسُولِ أو قتلَ بعضِ المسلِمين، ولكنَّهمْ لم يتمَكَّنوا منْ ذلك، وما كَرِهوا وما عابُوا شَيئاً منَ الرسُولِ أو المؤمِنينَ إلاّ لأنَّ اللهَ تَفضَّلَ عليهمْ ببرَكَتِه، وأسبغَ عليهمْ منْ نِعمَتهِ، فصَاروا مُستَغنينَ عنْ غَيرِهمْ بالغَنائمِ وغيرِها. فلا عَيبَ فيهمْ إلا هذا!

فإنْ يَتُبِ المنافِقونَ منْ نِفاقِهمْ وكُفرِهمْ يَكُنْ ذلكَ خَيراً لهم، ويَكونوا مثلَ المسلِمين، وإنْ أعرَضوا عنِ التوبةِ واستَمرُّوا في نِفاقِهم، يُعاقِبْهمُ اللهُ بالقَتلِ والخِزي، والهَمِّ وسوءِ الذِّكرِ في الدُّنيا، وبالتَّعذيبِ بالنارِ وأنواعِ العِقابِ في الآخِرَة، وليسَ لهمْ في الدُّنيا صديقٌ يَشفَعُ لهم، ولا مؤيِّدٌ يَدفَعُ عنهمْ شرًّا ويُنقذُهمْ ممّا همْ فيه.

{وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ} [التوبة: ٧٥]

٧٥- ومنَ المنافِقينَ مَنْ عاهدوا اللهَ وقالوا: لئنْ أغنانا اللهُ بالأموالِ لَنَتصَدَّقَنَّ ونُعطي حُقوقَ الفُقَراءِ منها، ولَنكونَنَّ ممَّنْ يُطيعُ اللهَ ويَعمَلُ الأعْمالَ الصَّالحة.

{فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ} [التوبة: ٧٦]

فلمّا أعطاهمُ المالَ والمتاعَ لم يَفُوا بعَهدِهم، فمنَعوا حقَّ اللهِ منَ الأموالِ التي أعطاهُم، ولم يُنفِقُوها في الخيراتِ والمبرّاتِ كما عاهَدوا، وأعرَضوا عنْ طاعةِ اللهِ ولم يَكونوا منَ الصَّالحين.

{فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ} [التوبة: ٧٧]

فجَعلَ اللهُ عاقبةَ أمرِهِمْ نِفاقاً في قُلوبِهِم، وحرَمهمْ منَ التَّوبةِ حتَّى الموت، وذلكَ لِغدْرِهِمْ بعَهدِ اللهِ الذي عاهَدوهُ عليه، ونَقضِـــهِمْ ميثاقَهُ الذي واثَقوهُ عليه، وبما كانوا يَكذِبونَ ويَقولونَ إنَّهمْ سيَكونونَ صَالحينَ يؤدُّونَ حقَّ اللهِ إذا أغناهم، فالتَهَوا بالمال، واستَسلموا للشَّهوات، ورَكنوا إلى الدُّنيا، ونَسُوا الله.

{أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ} [التوبة: ٧٨]

ألم يَعلَمِ المنافِقون، أوِ الذينَ عاهَدوا اللهَ على الطَّاعةِ ولم يُطيعوه، أنَّهُ يَعلمُ أســـرارَ قلوبِهِمْ وما يُضمِرونَهُ في نُفوسِهِمْ منَ النِّفاق، وما يَتناجَونَ بهِ منْ مَطاعِنَ ومُخالَفات، ومعاصيَ ومُنكَرات، وأنَّهُ يَعلمُ الغَيبَ والشَّهادة، فلا يَخفَى عليهِ شَيءٌ ممّا يُظهِرونَهُ أو يُبطِنونَه؟.

{الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّـــدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [التوبة: ٧٩]

إنَّهُمُ المنافِقون، الذينَ مِنْ صِـفاتِهِمْ أنْ لا يَسْـلَمَ أحدٌ منْ ألسِـنَتِهِم، وقَدْحِهِمْ وذَمِّهِم، فيَعيبونَ على مَنْ تَصدَّقَ منَ المؤمنين، فإنْ كانوا أغنياءَ وأكثَروا، قالوا: هذا يُعطي للرِّياءِ والسُّمْعة، وإنْ كانوا فُقَراءَ فأقَلُّوا، قالوا: إنَّ اللهَ غنيٌّ عنْ صَـدَقةِ هذا، جازاهُمُ اللهُ شـرًّا على سُـخريَتِهِمْ مِنَ المؤمنينَ الطيِّبين، الذينَ يُنفِقونَ أموالَهُمْ فيما يُرضـــي الله، ولِهؤلاءِ المنافقينَ المعتَدينَ عذابٌ مؤلمٌ دائمٌ في الآخِرَة.

{اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: ٨٠]

أيُّها النبيُّ الرَّحيمُ بأمَّته، استَغفِرْ للمُنافِقينَ أو لا تَستَغفِرْ لهم، إنَّكَ إنْ تَستَغفِرْ لهمْ سَبعينَ مرَّةً فلنْ يَغفِرَ اللهُ ذنوبَهم، وســـبَبُ ذلكَ كفرُهمْ باللهِ وتكذيبُهمْ رسُـــولَه، واللهُ لا يَهدي المتمرِّدينَ على أوامرِه، المصرِّينَ على الكُفرِ به.

{فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللّهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ} [التوبة: ٨١]

٨١- لقدْ فَرِحَ الذينَ تَخَلَّفوا عنِ الجِهادِ في غَزوةِ تَبوكَ بقُعودِهِمْ بعدَ خروجِ النبيِّ صلى اللهُ عليهِ وسلَّم، وكَرِهوا أنْ يَبذُلوا أموالَهمْ وأنفسَهمْ في سَبيلِ الله، إيثاراً للرَّاحةِ والكسَل، وطَلَباً للتنعُّمِ والتلذُّذ، وقالَ بَعضُهمْ لبَعض، تواصياً فيما بينَهمْ بالباطل، وتثبيتاً لهمْ على القُعودِ عنِ الغَزو: لا تَخرُجوا في الحرِّ فإنَّهُ لا يُطاق. قُلْ لهمْ أيُّها النبيّ: إنَّ نارَ جهنَّمَ التي تَصيرونَ إليها بسبَبِ مُخالفتِكم، هيَ أشدُّ حرًّا مِنْ هذا الحرِّ الذي ترَونَهُ مانعاً لكمْ منَ الخُروج، هذا لو كانوا يَعلمونَ أهوالَ جهنَّمَ وشدَّةَ حَرِّها، وفكَّروا بمصيرِهمْ حقًّا.

{فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} [التوبة: ٨٢]

٨٢- فلْيَتَنعَّموا ولْيَفرَحوا في هذهِ الدُّنيا، ولْيَضحَكوا ما شاؤوا في مدَّتِها القَصيرة، ولْيَذوقوا النارَ والهَوانَ في الدَّارِ الآخِرَة، ولْيَبكوا فيها بُكاءً دائماً لا يَنقَطِع، جزاءَ أعمالِهمُ السيِّئة، ومَعاصِيهمُ المتكرِّرة، وإصرارِهم على مُخالفةِ أوامرِ اللهِ سُبحانه.

{فَإِن رَّجَعَكَ اللّهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ} [التوبة: ٨٣]

٨٣- فإذا ردَّكَ اللهُ مِنْ غَزوةِ تَبوكَ إلى جَماعةٍ مِنْ هؤلاءِ المتَخلِّفين - ويَعني المنافِقين، فقدْ كانَ بَعضُ المتَخلِّفينَ مَعذوراً - وطلَبوا الخُروجَ معكَ إلى غَزوةٍ أخرَى، فقلْ إهانةً لهمْ وعُقوبة: لنْ تَخرُجوا معي في سَفرٍ أبداً، ولنْ تُقاتِلوا معي عَدوًّا مِنَ الأعداء؛ لأنَّكمْ رَضِيتُمْ بالقُعودِ عنِ الغَزوِ أوَّلَ مرَّة، وفَرِحتُم بالتخلُّفِ عنِ الجِهاد، وآثرتُمُ التنعُّمَ على مُقارعةِ الأعْداء، فابقُوا قاعِدينَ معَ المتخلِّفينَ الذينَ لا يَقْدِرونَ على الجِهاد، منَ النِّساءِ والصِّبيانِ والمعوَّقين.

{وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ} [التوبة: ٨٤]

٨٤- ولا تُصَلِّ على أحدٍ ماتَ مِنَ المنافِقينَ أبداً، ولا تَقُمْ على قَبرِهِ لتَتولَّى دَفنَه، أوَ تستَغفِرَ لهُ وتدعوَ له، لأنَّهم كفَروا باللهِ وكذَّبوا رسُولَه، واستمرُّوا على كُفرِهِمْ حتَّى ماتُوا وهمْ كذلك. والكافرُ لا يُصلَّى عليه.

وكانَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قدْ صلَّى على عبدِاللهِ بنِ أُبَيّ رأسِ المنافِقين، وذَكَرَ أنَّهُ بينَ خِيْرَتَيْن؛ لقولِهِ تعالى: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ} [التوبة: ٨٠] فنزلتِ الآيَة، فما صلَّى بعدَها على مُنافِق، ولا قامَ على قَبرِه.

{وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة: ٨٥]

٨٥- فلا يَرُقْكَ شَيءٌ مِنْ أموالِهم ولا أولادِهم، ولا تَستَحسِنْ ذلكَ منهم، فإنَّما هوَ استِدراجٌ منَ اللهِ لهم، ليكونَ ذلكَ كلُّه وَبالاً عليهم، وعِقاباً لهمْ في الدُّنيا، مِنْ تَعَبٍ في جَمعِه، وكَدٍّ في تَحصِيله، ونَفقةٍ منهُ للزَّكاةِ والجِهادِ دونَ أنْ يُثابوا عليه، ومَقتَلِ أولادٍ لهمْ في الغَزو، وهمْ لا يَعتَقِدونَ استِشهادَهمْ ولا احتِسابَهمْ واللِّقاءَ بهمْ في اليَومِ الآخِر، فيَكونُ كلُّ ذلكَ حَسرَةً عليهم، وتَعذيباً نفسيّاً لهم، وأشدَّ في عُقوبتِهم، ولتخرُجَ أرواحُهم ويموتُوا على كُفرِهم[٥٢].

{وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ} [التوبة: ٨٦]

---

(٥٢) {وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ}: يعني وتخرجَ أنفسُهم، فيموتوا على كفرهم بالله، وجحودِهم نبوَّةَ نبيِّ الله محمدٍ صلَّى الله عليه وسلم. (الطبري). أصلُ الزهوق: خروجُ الشيءِ بصعوبة. أي: فيموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع عن النظرِ في العاقبة، فيكونُ ذلك لهم نقمةً لا نعمة. (روح البيان). الزهوق: الخروجُ بشدَّةٍ وضيق، وقد شاعَ ذكرهُ في خروجِ الروحِ من الجسد.

٨٦- وإذا أُنْزِلَتْ سُورةٌ مِنَ القُرآنِ تأمرُ بالإخْلاصِ في الإيمانِ والجِهادِ معَ رَسولِه، طلبَ الإذنَ منكَ بالقُعودِ ذَوُو الغِنَى والسَّـــعَةِ منَ المنافِقين، وقالوا: دَعْنا نَكُنْ معَ القاعِدينَ منَ الذينَ لم يُجاهِدوا لعُذر.

{رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ} [التوبة: ٨٧]

٨٧- رَضُـوا بأنْ يَبْقُوا معَ الخالِفينَ منَ الصِّبيانِ والعاجِزينَ والنِّسـاءِ بعدَ خُروجِ الجَيش. وختمَ اللهُ على قُلوبِهِمْ بسبَبِ عَدمِ خُروجِهمْ معَ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم، فهمْ لا يَفهمَونَ ما يَنفعُهمْ ولا ما يَضرُّهمْ في دُنياهُمْ وآخِرَتِهم.

{لَـكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [التوبة: ٨٨]

٨٨- أمّا الرسُـولُ محمَّدٌ صـلى الله عليه وسـلم وصَـحابتهُ المؤمنونَ معَه، فقدْ أنْفَقوا ما يَقْدِرونَ عليهِ منْ أموالٍ في الجِهاد، وبَذلوا أنفُسَهمْ في سَبيلِ الله، ولهمْ على ذلكَ خَيرُ الجَزاء، مِنْ منافعَ ونعَمٍ كثيرةٍ تُسْعِدُ القَلبَ وتُبْهِجُ النَّفس. وأولئكَ همُ الفائزونَ بالجنّات، المخلَّدونَ فيها.

{أَعَدَّ اللّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ٨٩]

٨٩- هيَّأَ اللهُ لرَسـولِهِ محمَّدٍ صـلَّى الله عليه وسـلَّمَ وللَّذينَ آمَنوا معهُ جنَّات، وهيَ البسـاتين، تَجري مِن تحتِ أشجارِها المثمرةِ الأنهارُ، معَ بقاءٍ دائمٍ فيها، وذلكَ هوَ الفَلاحُ والنَّجاح، الذي لا مثيلَ له.

{وَجَاء الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [التوبة: ٩٠]

٩٠- وجاءَ إليكَ المعتَذِرونَ عنِ الجِهادِ مِنَ الأعرابِ حولَ المدينة، لتَأذنَ لهمْ بالتخلُّفِ عنِ الغَزو. وآخَرونَ منَ الأعرابِ منافِقونَ قَعدوا عنِ الجِهادِ ولم يَستأذِنوا أصْلاً، وهمْ قدْ كفَروا باللهِ وكذَّبوا رسُولَه. وسوفَ ينالُ الكافِرينَ مِنَ الأعرابِ عذابٌ مُؤلِمٌ مُوجِع.

{لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [التوبة: ٩١]

٩١- ليسَ هناكَ ذَنْبٌ في التخلُّفِ عنِ الجِهاد: على الضُّعفاءِ العاجِزينَ عنِ القِتال، وعلى المرضَى، مُزمِناً كانَ مَرضُهم أو غيرَ مُزمِن، وعلى الفُقَراءِ الذينَ لا يَجدونَ ما يَتجهَّزونَ بهِ للحَرب.

ليسَ على هؤلاءِ إثمٌ في التخلُّفِ عنِ الغَزو، إذا نَصَحوا في حالِ قُعودِهم، فكانوا أهلَ إيمانٍ وطاعَة، وعَهدٍ ومُؤازرة، لا أهلَ شائعاتٍ وتَخويف.

فليسَ على مَنْ أحسنَ واتَّقى، وآمنَ ونَصحَ منهم، أيُّ عَتَبٍ أو عُقوبة. واللهُ يَغْفِرُ للعاجِزينَ والمحتاجينَ ويَرحَمُهم.

{وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ} [التوبة: ٩٢]

٩٢- وليسَ هناكَ مُعاتبةٌ كذلكَ على مَنْ لم يَخْرُجْ مَعكَ منَ الذينَ جاؤوكَ يَطلُبونَ أنْ تَحمِلَهم على الدوابِّ ليُجاهِدوا مَعك، فقلتَ لهم: لا أجدُ ما تَركَبونَ عليه، فرَجَعوا وأعينُهمْ تَسيلُ منَ الدمع، حَزينينَ مَغمُومين، لأنَّهُمْ لا يَجدونَ ما يَشتَرونَ بهِ مستَلزَماتِ الجِهاد، ليُقاتِلوا في سبيلِ الله.

سورة التوبة (الآيات ٩٣-١٢٩)

سورة يونس

سورة هود (١-٥)

{إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاء رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} [التوبة: ٩٣]

٩٣ – إنَّما اللَّومُ والعِقابُ على الذينَ يَستأذِنونَ في القُعودِ عنِ الجِهادِ وهمْ أغنياء، الذينَ رَضُوا بأنْ يَبقُوا قاعِدينَ معَ الضَّعَفةِ والعَاجِزين، وقدْ ختمَ اللهُ على قلوبِهمْ وخذلَهم، فغَفَلوا عنِ التفكُّرِ في عِظَمِ ما يَقترفونَهُ مِنْ إثم، ولم يُقَدِّروا عاقِبتَهُ السيِّئة.

{يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [التوبة: ٩٤]

٩٤ – وإذا عُدتُمْ مِنَ الغَزوِ يأتونَ فيَعتذِرونَ إليكم، بسَببِ تَخَلُّفِهمْ عنِ الجِهاد، قُلْ لهمْ أيُّها الرسُول: لا تُقَدِّموا المعَاذير، فلنْ نُصَدِّقَكم، قدْ أعلَمَنا اللهُ أحوالَكمْ وما تُضمِرونَهُ مِنْ كَذِبٍ وشَرّ، وسَيَرى اللهُ ورسُولُهُ فيمَا بَعدُ عَملَكم: أتَتوبُون مِن نِفَاقِكمْ أم تُقيمُونَ عليه؟ ثمَّ تُرجَعونَ يومَ القيامةِ إلى مَنْ يَعلمُ الغَيبَ والشَّهادة، ويطَّلِعُ على الظَّاهرِ والباطِنِ منْ أعمالِكم، فيُنبِّئكمْ بها عندَ وقوفِكمْ بينَ يدَيهِ يومَ الحِساب، ويُجازيكمْ عليها شَرَّ الجَزاء.

{سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} [التوبة: ٩٥]

٩٥- سيَحلِفونَ باللهِ لكمْ إذا رجعتُمْ منَ الغزوِ أنَّهمْ كانوا صَادقينَ في الاعتِذارِ عنِ المشاركةِ في الجِهاد، مُحِقِّينَ في البَقاءِ معَ المتَخلِّفينَ منَ العَجَزَةِ والأطفال، لتُعرِضُوا عنهمْ ولا تُعاتِبوهم،

ولتَصــفَحوا عنهمْ ولا تُؤنّبوهم، فأعرِضُــوا عنهمُ احتِقاراً لهم، إنَّهُمْ خُبَثاءُ نَجِســونَ في بواطِنِهمْ واعتِقاداتِهِم، ومكانُهُمُ المعَدُّ لهمْ هوَ جهنَّم، جزاءَ ما كسَبوا منْ خَطايا وسيِّئات.

{يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: ٩٦]

٩٦- يَحلِفونَ لكمْ عمّا اعتَذَروا منهُ إليكمْ لترضَــوا عنهم، ولتُعامِلوهمْ مُعاملةَ إخوانِكمُ المسلِمين، فإنْ تَرضَوا عنهم بحسَبِ ما طَلَبوا، فإنَّ رِضاكمْ عنهمْ لا يَنفَعُهم، ولا يُجدي عندَ اللهِ شَيئاً، لأنَّ اللهَ لا يَرضَى عنِ الخارجينَ عنْ طاعتهِ وطاعةِ رَسولِه.

{الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٩٧]

٩٧- وكُفرُ الأعْرابِ ونِفاقُهمْ أعظمُ وأشَــدُّ مِنْ كُفرِ غيرِهمْ منَ الكفّارِ والمنافِقينَ في الحَضَــر، لجَفائهمْ وغَلاظَتِهم، وتوَحُّشِهمْ وقَساوةِ قُلوبِهم، وهمْ أحرَى وأخلَقُ ألاّ يَعلموا أوامِرَ اللهِ ونَواهيَه، لعَدَمِ مُخالَطَتِهمْ أهلَ العِلمِ والحِكمة، وحِرمانِهمْ منِ استِماعِ الكتابِ والسنَّة. واللهُ عَليمٌ بأحوالِ الناس، حكيمٌ فيما قَسَمَ بينَهمْ منَ العِلمِ والجَهل، والهُدَى والضَّلال.

{وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [التوبة: ٩٨]

٩٨- ومِنَ الأعرابِ مَنْ يَعُدُّ ما يَصرِفُهُ في سَبيلِ اللهِ ويَتصدَّقُ بهِ غَرامةً وخَسارة، ويَنتَظِرُ بكمُ الحوادِثَ والآفات، والمصــائبَ والبَلايا، لتَتبدَّلَ حالُكمْ إلى الأســوأ، جَعلَ اللهُ نوائبَ السُّــوءِ عليهم، واللهُ يَسمعُ مَقالاتِهِمُ السيِّئة، ويَعلَمُ نيّاتِهِمُ الفاسِدة، وما يَستَحِقُّونَهُ منْ عِقاب.

{وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [التوبة: ٩٩]

٩٩- وهُناكَ مِنَ الأعرابِ مَنْ يؤمِنُ باللهِ وباليَومِ الآخِر، ويَعُدُّ ما يُنفِقهُ في سَبيلِ اللهِ تَقَرُّبًا إلى اللهِ، ويَبتَغونَ بذلكَ دُعاءَ الرسُولِ صلى الله عليه وسلم لهم، فقدْ كانَ يَدعو للمُتصَدِّقينَ بالخَيرِ والبَركة، ويَستَغفِرُ لهم، ألاَ إنَّ ذلك حاصِلٌ لهم، فسيُقرِّبُهُمْ عملُهمْ هذا إلى اللهِ، ويُدخِلُهمْ ربُّهمْ في رَحمتِهِ الواسِعة، وهوَ يَغفِرُ ذُنوبَ عبادِهِ المؤمنينَ التائبينَ على كثرَتِها، ويَرحَمُهمْ برَحمتِه.

{وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}

[التوبة: ١٠٠]

١٠٠- والسابِقونَ الأوَّلونَ ممَّنِ اعتَنقوا الإسْلامَ وناصَروا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم منَ المهاجِرينَ الذينَ هاجَروا إلى المدينةِ دارِ الإسْلام، ومنَ الأنصارِ أهلِ المدينةِ الذينَ آوَوا إخوانَهمُ المهاجِرينَ وآزَروهم، والذينَ لَحِقوا بهِمْ منْ بعدِهِمْ بالإيمانِ والطَّاعةِ إلى يَومِ القيامة، فاقتَدَوا بهِمْ واتَّبَعوهمْ بإحسَان، ولم يَقولوا فيهِمْ سُوءًا، فأولئكَ رَضِيَ اللهُ عنهمْ بقَبولِ طاعتِهمْ وارتِضاءِ أعمالِهم، ورَضُوا همْ عنهُ بما نالُوهُ منَ النَّعيمِ والرَّحمةِ الواسِعة، وقدْ هيَّأ لهمْ في الآخِرَةِ جنّاتٍ عاليات، تَجري مِنْ تحتِها الأنهار[٥٣]، مُستَقِرِّينَ فيها أبداً، وذلكَ هوَ الفَلاحُ والنَّجاح، والسَّعادةُ والهَناء.

وممَّا قالَهُ ابنُ كثيرٍ في هذا رَحِمَهُ الله: فيا ويْلَ مَنْ أبغَضَهم، أو سَبَّهُم، أو أبغَضَ أو سبَّ بعضَهم... فأينَ هؤلاءِ منَ الإيمانِ بالقُرآن، إذْ يَسُبُّونَ مَنْ رَضِيَ اللهُ عنهم؟ وأمّا أهلُ السنَّةِ

(٥٣) {تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ}: خالفتْ هذه الآيةُ عندَ معظمِ القرّاءِ أخواتها، فلم تُذكَرْ فيها (مِنْ) مع (تَحتِها) في غالبِ المصاحفِ وفي روايةِ جمهورِ القرّاء، فتكونُ خاليةً من التأكيد، إذ ليس لحرفِ (مِنْ) معنًى مع أسماءِ الظروفِ إلا التأكيد، ويكونُ خلوُّ الجملةِ من التأكيدِ لحصولِ ما يُغني عنه من إفادةِ التقوّي، بتقديمِ المسندِ إليه على الخبرِ الفعلي، ومن فعلِ {أَعَدَّ} المؤذنِ بكمالِ العناية، فلا يكونُ المعَدُّ إلا أكملَ نوعه. وثبتتْ (مِنْ) في مصحفِ مَكة، وهي قراءةُ ابنِ كثيرٍ المكي، فتكونُ مشتملةً على زيادةِ مؤكدَين. (التحرير والتنوير).

فإنَّهُمْ يَترَضَّــونَ عمَّنْ رَضِــيَ اللهُ عنهم... ويُوالُونَ مَنْ يُوالي الله، ويُعادُونَ مَنْ يُعادِي الله، وهمْ مُتَّبِعونَ لا مُبتَدِعون...

{وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ} [التوبة: ١٠١]

١٠١- ومِمَّنْ حَولَ بَلَدِكمْ منَ الأعرابِ مُنافِقون، وكذا مِنْ أهلِ بلدِكمُ المدينة، اعتَادُوا على النِّفاق، ومَرَنوا عليهِ حتَّى مَهَروا فيه، فصَــــاروا يَعرِفونَ كيفَ يَتحامَونَ عنْ مواضِــعِ التُّهَم، لا تَعلَمُهمْ أيُّها النبيّ، لعَراقَتِهِمْ ورُســـوخِهمْ في النِّفاق، نحنُ نَعلَمُهمْ جميعًا، ولا تَخفَى علينا خافِيةٌ منهم.

ســنُعَذِّبُهمْ بالقَتلِ والسَّــبي، أو بالجوعِ وعَذابِ القَبر، ثمَّ يومَ القيامةِ يُرجَعونَ إلى عَذابِ النار، التي تُسْعَرُ بهم، ويُخلَدونَ فيها.

{وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [التوبة: ١٠٢]

١٠٢- وطـائفـةٌ أخرى منَ النـاسِ أقرُّوا بتَخَلُّفِهمْ عنِ الجِهـادِ مَيْلاً إلى الرَّاحـة، معَ إيمـانِهمْ وتَصــدِيقِهم، فخَلَطوا بينَ العَملِ الصَّــالِحِ والطالِح، وتابُوا، فعسَــى اللهُ أنْ يَقبَلَ توبتَهم، وهوَ سُبحانَهُ يَعفو عنِ التائبينَ مِنْ عبادِهِ فيَغفِرُ لهم، ويُدخِلهمْ في رَحمتِهِ الواسِعة.

وهمُ الذينَ أوثَقوا أنفُسَهمْ بسَوارِيِّ المسجِد، فأطلَقَهمْ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وعَذَرَهُمْ بعدَ نزولِ هذهِ الآية.

{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [التوبة: ١٠٣]

١٠٣- خُذْ مِنْ أموالِ هؤلاءِ صَــدَقةً تَكونُ كفّارةً لذُنوبِهم، تُطَهِّرُهمْ بها مِنْ آثارِ تَخَلُّفِهمْ عنِ الجِهاد، وتُنْمَى بها حسَناتُهمْ وأموالُهم، وادعُ لهمْ واستَغْفِر، إنَّ دُعاءَكَ يَبعَثُ في نُفوسِهمُ الأمنَ والرحمةَ والطمَأنينَة، واللهُ سميعٌ لدُعاءِ عِباده، عَليمٌ بمَنْ يَستَحِقُّ التوبةَ والرَّحمَة.

{أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة: ١٠٤]

١٠٤- ألَمْ يَعلَموا أنَّ اللهَ يَتوبُ على مَنْ تابَ إليه، فيَقبَلُ توبتَهُ إنْ كانتْ صحيحةً خالِصة، ويَقبَلُ الصَّدقاتِ إذا كانتْ لوجهِهِ تعالَى، مِنْ مالٍ حَلال، وهوَ سُبحانَهُ كثيرُ قَبولِ التوبةِ مِنْ عِبادِهِ المستَغفِرينَ التائبين، رَؤوفٌ بهِمْ رَحيم.

{وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [التوبة: ١٠٥]

١٠٥- وقُلْ للناسِ أيُّها النبيّ: اعمَلُوا ما شِئتُمْ منَ الأعمال، خَيرًا كانتْ أو شَرًّا، سِرًّا كانتْ أو عَلانية، فسَوفَ يُظهِرُها الله، فتُعرَضُ عليهِ يومَ القِيامة، كما تُعْرَضُ على الرسُول صلى الله عليه وسلم، وعلى المؤمِنين، وسَوفَ تُرجَعونَ إلى الله، عالِمِ الغَيبِ والشهادة، المطَّلِعِ على الأعمالِ كلِّها، الخَبيرِ بنيّاتِ أصحابِها، فيُخبِرُكمْ بما كنتُمْ تَعمَلونَ في الدُّنيا وما كنتُمْ تَقصِدونَ بها، وسيُجازيكمْ عليها حَسَبَ ذلك.

{وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ١٠٦]

١٠٦- ومِنَ المتَخلِّفينَ فِئةٌ أخرَى غيرُ المعتَرِفين، وهمُ الثلاثةُ الذينَ خُلِّفوا، فلمْ يَعتَذِروا لهُ صلى الله عليه وسلم، ولم يَفعَلوا كما فَعلَ أهلُ السَّواري، الذينَ رَبَطوا أنفُسَهم بسَواريّ المسْجد، فنَزلتْ توبَتُهم، وتأخَّرتْ توبَةُ هؤلاء. ولم يَكنْ تأخُّرُ الثلاثةِ عنْ نِفاق، فأمْرُهُمْ مؤخَّرٌ مَوقوف، حتَّى يَظهرَ أمرُ اللهِ فيهم، إنْ شاءَ عَذَّبَهمْ فلمْ يَتُبْ عَليهم، وإنْ شاءَ تابَ عَليهمْ وعَفا عَنهم. وهوَ سُبحانَهُ عليمٌ بمَنْ يَستَحِقُّ العُقوبةَ مِمَّنْ يَستَحِقُّ العَفو، حَكيمٌ فيما يَقولُ ويَفعَل.

{وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْــجِداً ضِــرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَــاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [التوبة: ١٠٧]

١٠٧- كانَ أبو عامرٍ الراهبُ (الكذّابُ) مِنَ الخَزْرَجِ، تَرَهَّبَ في الجاهليَّة، وصــارَ لهُ شــرَفٌ عندَهم، فلمّا اجتمعَ المسلِمونَ على رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم حَسَدَهُ وعانَدَه، وكانَ معَ المشرِكينَ يومَ أُحُد، ثمَّ التحَقَ بمَلِكِ الرومِ وأقامَ عندَه، ووَعدَهُ مُساعدَةَ قومِه، فأعلَمَ بعضَ أهلِ النِّفاقِ والرَّيبِ أنَّهُ سيَقدُمُ بجَيشٍ يُقاتِلُ رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وأمرَهمْ أنْ يَبنوا مَعقِلاً يكونُ مَرصَدًا لهُ إذا قَدِمَ عليهم، فشَرَعوا في بناءِ مَسجدٍ مُجاورٍ لمسجدِ قُباء، فبَنَوهُ وأحكمُوه، وطلَبوا منْ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنْ يأتيَ ويُصلِّي فيه، ويَدعوَ لهم بالبرَكة، ليَحتَجُّوا بصَــلاتهِ عليه الصــلاةُ والســلامُ فيهِ على تَقريرِهِ وإثباتِه، فعصــمَهُ اللهُ منْ ذلكَ بالوحي، وعندَ رُجوعهِ منْ غزوةِ تبوكَ أمرَ بهدْمِه... قالَ اللهُ تعالَى ما مَعناه: وهؤلاءِ القومُ الذينَ بَنَوا مَسجِدًا، بنَوهُ ليُلحِقوا الضَّــررَ بالمســلِمين، وليَكْفُروا فيه، ويَتفرَّقوا بهِ عنِ المســلِمينَ منْ أهلِ قُباء، الذينَ كانوا يُصَلُّونَ في مَسجِدِهم، وليَكونَ مَعقِلاً ومكانَ إرصَادٍ وترقُّبٍ لمنْ عادَى اللهَ ورَسولَهُ مِنْ قَبل.

ويَحلِفُ هؤلاءِ القومُ أنَّهمْ ما أرادوا ببناءِ هذا المســـجدِ إلاّ النيَّةَ الصـــالحة، ليُعَمَّرَ بذكرِ الله، وللتوسِعةِ على المسلِمين، واللهُ يَشهَدُ أنَّهمْ كاذِبونَ فيما حَلَفوا فيهِ ونوَوا عليه.

{لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْــجِدٌ أُسِّــسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ} [التوبة: ١٠٨]

١٠٨- لا تَقُمْ أيُّها النبيُّ للصَّلاةِ في ذلكَ المسجدِ أبَدًا. وإنَّ مَسْجِدًا بُنيَ أساسُهُ على تقوَى اللهِ وطاعتهِ مِنْ أوَّلِ يَوم، أحقُّ وأفضَــلُ مِنْ أنْ تَقومَ فيهِ للصَّــلاة. والمقصــودُ المســجِدُ النبويُّ الشـريف، كما في الحديثِ الصـحيحِ الأقوى. وقدْ وردَ أيضًـا أنَّ المقصـودَ مسـجِدُ قُباء، وجمعَ بعضُهمْ بينَ ذلكَ أنَّ كُلاًّ منَ المسجِدَينِ مُراد، لأنَّ كُلاًّ منهما أُسِّسَ على التقوَى منْ أوَّلِ يومِ تأسيسِه.

فيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أنْ يَتنَظَّفوا ويَتطَهَّروا منَ النَّجاسَـــات، واللهُ يُحِبُّ المتطَهِّرين، فيَرضَـــى عنهمْ ويُكرِمُهم، ويُعَظِّمُ ثوابَهمْ لأجلِ ذلك.

وفي حَديثِ أبي هُريرةَ الصَّحيحِ أنَّها نزلَتْ في أهلِ قُباء، وكانوا يَستَنجونَ بالماء.
ولا يُعارِضُ هذا نصَّ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بأنَّ المسجِدَ المقصودَ هوَ المسجِدُ النبويُّ الشَّريف، كما أفادَهُ الآلوسيُّ في تَفسيرِه.

{أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [التوبة: ١٠٩]
١٠٩- أفمَنْ أسَّسَ بُنيانَ دِينِهِ على قاعِدةٍ مُحكَمة، هيَ طاعةُ اللهِ ومَرضاتُه، أفضَل، أمْ مَنْ أسَّسَهُ على طَرَفِ حَفيرةٍ مُتَصَدِّعةٍ مُشرِفَةٍ على السُّقوط، فأدَّى ذلكَ إلى انهيارِهِ وسقوطِهِ في نارِ جَهنَّم، فيكونُ ذلكَ جزاءَهُ ومصيرَه؟ واللهُ لا يُصلِحُ عَملَ المفسِدين.

{لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ١١٠]
١١٠- لا يَزالُ بِناؤهمُ الذي سَمَّوهُ مَسجِدًا شَكًّا في مُعتَقَدِهم، ونِفاقًا يُبطِنونَه، وقلَقًا واضطِرابًا في قُلوبِهم، إلاّ أنْ تَتقطَّعَ وتَتفرَّقَ قُلوبُهُمْ ويَموتوا. واللهُ عَليمٌ بخَلقِهِ وما يَعمَلون، حَكيمٌ فيما يَفعَلُ بهم.

{إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ١١١]
١١١- لقدْ عاوَضَ اللهُ عِبادَهُ المؤمنينَ على أنفسِهمْ وأموالِهمْ إذا بَذلوها في سَبيلِهِ بأنَّ لهمُ الجنَّة، يُقاتِلونَ في سَبيلِ الله، لا هدفَ لهمْ مِنْ وراءِ ذلك سِوَى إعلاءِ كلمتِه، فيَقتلونَ الكفّار، أعداءَ اللهِ وأعداءَ دينِه، ويُقتَلونَ بأيديهم، فيَستَشهِدونَ في سَبيلِه.
هذا وَعدٌ منَ اللهِ تعالَى، كتبَهُ على نَفسِهِ الكريمة، وأثبتَهُ في كُتُبِهِ المنْزَلةِ على رُسُلِهِ مِنْ أُولي العَزم، في التوراةِ المنْزَلَةِ على موسَى، والإنجيلِ المنْزَلِ على عيسَى، والقُرآنِ المنْزَلِ على مُحَمَّدٍ، عليهِمْ جميعًا صلواتُ اللهِ وسَلامُه.

ولا أحدَ مِثْلُ اللهِ في الوفاءِ بعَهدِه، فهوَ لا يُخلِفُ الميعادَ أبَدًا.
فاستَبشِروا مَعْشرَ المجاهِدينَ في سَبيلِه، وابتَهِجوا ببَيعِ أنفسِكمْ وأموالِكمْ لله، الذي يأخذُكمْ إلى ساحاتِ الجِهاد، ومنها إلى جَنّاتِ اللهِ الخالِدات، كما وَعدَكمُ اللهُ بذلك، وهوَ الفَوزُ الذي لا فَوزَ أعظمُ منه، والنَّعيمُ المقِيمُ الذي لا سَعادةَ وراءَه.

{التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [التوبة: ١١٢]
١١٢- مِنْ صِفاتِ المؤمِنينَ أنَّهمْ تائبونَ منَ الذُّنوب، صَغيرِها وكبيرِها، حامِدونَ لربِّهمْ على كلِّ حال، صَائمونَ لله، والصَّومُ منْ أفضَلِ الطاعات، فهوَ يُقَلِّصُ منْ شَهواتِ الإنسانِ ويُقَرِّبُهُ إلى الله، راكِعونَ لربِّهمْ ساجِدون، في الصَّلواتِ المفروضَات، والركوعُ والسجودُ منْ أعظَمِ أركانِ الصَّلاة، وفيهما أظهَرُ صُوَرِ العُبوديَّةِ لله، و "أقرَبُ ما يكونُ العَبدُ مِنْ ربِّهِ وهوَ ساجد" كما في صَحيحِ مُسلم.
وهمْ يَنفَعونَ الناسَ ويُرشِدونَهمْ إلى الإيمانِ والطَّاعة، ويُحَذِّرونَهمْ منَ الشِّركِ والمعصِية، ويأتَمِرونَ بأوامرِ الله، فيُحِلُّونَ ما أحلَّ، ويُحَرِّمونَ ما حَرَّم. وبَشِّرِ المؤمنينَ المتَّصفينَ بهذهِ الصِّفاتِ الجليلةِ بكلِّ خَيرٍ وفَلاح.

{مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [التوبة: ١١٣]
١١٣- ما صحَّ في حُكمِ الله، وما استقامَ للنبيِّ والمؤمنينَ معَهُ حقَّ الإيمان، أنْ يَطلُبوا المغفِرةَ للمُشرِكين، ولو كانوا منْ ذَوي قَرابتِهم، منْ بعدِ ما عَرَفوا أنَّهمْ ماتوا كُفّاراً، وأنَّهمْ منْ أهلِ النار.
وكانَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قدْ دخلَ على عَمِّهِ أبي طالبٍ وهوَ يَحتَضِر، فحاوَلَ معَهُ ليَقولَ "لا إله إلاّ الله" فلمْ يَفعَل، حتَّى مات، وقالَ أخيراً إنَّهُ على مِلَّةِ أبيهِ عبدِالمطَّلِب، فقالَ صلى الله عليه وسلم: "لأستَغفِرَنَّ لكَ ما لم أُنْهَ عَنك". فنَزَلت، كما وردَ في الصَّحيحَينِ وغيرِهما، عنْ سعيدِ بنِ المسيِّبِ عنْ أبيه.
ويَجوزُ الدُّعاءُ للأحياءِ منَ الكفّار، بتَوفيقِهمْ وهدايتِهمْ للإسْلام.

{وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأوَّاهٌ حَلِيمٌ} [التوبة: ١١٤]

١١٤- وما كانَ استِغفارُ إبراهيمَ لأبيه، بقولِهِ: {وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ} [سورة الشعراء: ٨٦] بأنْ يَهدِيَهُ للإيمان، إلاّ عنْ مَوعِدٍ وَعَدَ بهِ إبراهيمُ أباهُ بقولِهِ: {لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ} [سورة الممتحنة: ٤] فلمّا تَبيَّنَ لإبراهيمَ أنَّهُ استمرَّ في عَداوتِهِ للهِ حتَّى ماتَ كافِراً، قطعَ الصِّلةَ التي بينَهُ وبينَهُ، وتركَ الاستغفارَ له، إنَّ النبيَّ إبراهيمَ كثيرُ التضرُّعِ والدُّعاء، كثيرُ الصَّبرِ على أذَى الناس، صَفُوحٌ عنهم.

وكانَ المسلمونَ يَستغفِرونَ لأمواتِهِمْ مِنَ المشركين، بحُجَّةِ أنَّ إبراهيمَ استغفرَ لأبيه، فنزلتِ الآيةُ لتُزيلَ الإشكال، فكَفُّوا.

{وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [التوبة: ١١٥]

١١٥- وما كانَ اللهُ لِيَحكُمَ عليكمْ بالضَّلالِ بعدَ أنْ هَداكُمْ للإيمانِ حتَّى يَذكُرَ لكمُ المنهيَّ عنهُ لتَجتَنِبوه، أمّا قبلَ بَيانِ الأمرِ فلا يَقضي عليكمْ بالضَّلال، واللهُ عليمٌ بكلِّ شَيء، ومِنْ ذلكَ ما تأتُونَهُ وما تَترُكونه، ونيّاتُكمْ في ذلك.

{إِنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ} [التوبة: ١١٦]

١١٦- وكلُّ ما في السَّماواتِ والأرضِ منْ أحياءٍ وجَماداتٍ ونَباتاتٍ مُلْكٌ للهِ وحدَه، وهوَ الذي يُحيي إنْ أرادَ الحياةَ لشَيء، ويُميتُ مَنْ شاء، فلا تَرهَبوا منَ الأعداء، وقاتِلوهُم، وثِقوا بنَصرِ الله، فإنَّهُ لا ناصِرَ لكمْ غيرُه، ولا مولَى لكمْ سِواه.

{لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [التوبة: ١١٧]

١١٧- لقدْ غفرَ اللهُ ذُنوبَ الصَّحابةِ مِنَ المهاجِرينَ والأنصار- وذُكِرَ بينَهمُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم تَشريفًا لهمْ وتَعظيمًا لقَدرِهم - الذينَ خَرَجوا معَهُ إلى غَزوةِ تبوكَ في وقتِ الشدَّةِ والضِّيق، حتَّى كادَ بعضُهمْ أنْ يَتخَلَّفَ عنِ الجهادِ لصُعوبتِهِ وزيادةِ المشقَّةِ فيه، ثمَّ عَصمَهمُ اللهُ وثَبَّتَهمْ وغَفرَ لهم، وهوَ سُبحانَهُ رَؤوفٌ بهمْ إذْ رَزقَهمُ الإنابةَ إليه، رَحيمٌ بهمْ إذْ تابَ عليهم.
وكانَ خروجُ المجاهِدينَ إلى غَزوةِ تبوكَ في سنةِ قَحْطٍ وجَدْب، وحَرٍّ شَديد، معَ قِلَّةِ الزادِ والماء، حتَّى كانَ الرجُلانِ يَشُقَّانِ التمرةَ بينَهما! فرَحِمَهمُ اللهُ وأعادَهمْ منَ الغَزو.

{وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة: ١١٨]

١١٨- وتابَ اللهُ على الثلاثةِ منَ الصَّحابةِ الذينَ تَخلَّفوا عنْ غَزوةِ تبوكَ تكاسُلاً لا نِفاقًا، وقدْ تابُوا إليه. وتأخَّرَ نزولُ توبَتِهمْ عنْ آخَرينَ ممَّنْ ربَطوا أنفسَهمْ بسواريِّ المسجِدِ حتَّى يَتوبَ اللهُ عليهم، فتابَ عليهم، وبقيَ أمرُ الثلاثةِ مُعلَّقًا، حيثُ لم يَفعلوا مثلَما فَعَلوا. وأمرَ رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بالإعراضِ عنهم، وعَدمِ مُجالَستِهمْ ومُحادثَتِهم. وتأخَّرَ أمرُهمْ إلى أنْ ضاقَتْ عليهمُ الأرضُ على رَحْبِها وسَعَتِها، وضاقَتْ قُلوبُهم، وامتلأتْ نُفوسُهمْ حُزناً وغَمًّا، وتَحيَّروا، فلا يَدرونَ ما يَصنَعون، وعَلِموا أنَّهُ لا مَلجأ منْ سَخطِ اللهِ إلاّ بالإنابةِ إليه، والصَّبرِ على قَضائه، والاستِكانةِ إليه، وانتِظارِ الفرَجِ منْ عندِه، ثمَّ وفَّقَهمُ اللهُ للتَّوبةِ والثبَاتِ عليها إلى أنْ أنزلَ قَبولَ توبَتِهم؛ لصِدْقِ مَقالِهم، وإخلاصِهم، واللهُ كثيرُ قَبولِ التوبةِ مِنْ عباده، رَحيمٌ بهم، فلا يُعَذِّبُهُمْ بذنوبِهمْ بعدَ قَبولِ تَوبتِهم، ولو كانتْ كثيرة.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: ١١٩]

١١٩- أيُّها المؤمنون، احذَروا مخالَفةَ أمرِ الله، وتَجنَّبوا ما لا يَرضاه، والزَموا الصدقَ لتَكونوا منْ أهلِهِ وتَنجُوا منَ المهالِك، وليَجعلَ اللهُ منْ أمرِكمْ فرَجًا ومَخرَجًا.

{مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [التوبة: ١٢٠]

١٢٠- ما كانَ يَنبَغي ولا يَستَقيمُ لأهلِ المدينةِ ومَنْ حَولَهُمْ مِنْ أحياءِ العَربِ أنْ يَتَخلَّفوا عنْ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم في غَزوةِ تَبوك، ولا أنْ يَترَفَّعوا بأنفُسِهمْ عنْ نَفسِهِ الكريمة، بلْ كانَ عليهِمْ أنْ يَتقَدَّموا ويُكابِدوا ما كابدَهُ منَ المشاقّ، وإنَّهمْ بتَخلُّفِهمْ قدْ حرَموا أنفُسَهمْ ثوابًا عظيمًا، فإنَّ المشارِكينَ في الجِهادِ ولو لم يُحارِبوا، لا يُصيبُهمْ شَيءٌ مِنَ العَطش، أو التعَب، أو المجاعة، في طَاعةِ اللهِ وجهادِ أعدائه، ولا يَنزِلونَ مَنزِلاً يُضَيِّقونَ بهِ صُدورَ الكفّارِ ويُرهِبونَهم، ولا يُصيبونَ مِنْ عَدوٍّ قَتلاً أو أسْرًا، أو غَنيمةً أو هَزيمة، إلاّ كُتِبَ لهمْ بهذهِ الأعمالِ أجرٌ كبيرٌ وثَوابٌ جَزيل، واللهُ لا يُضِيعُ إحسانَهمْ وحِرصَهمْ وتَفانيهمْ في إعلاءِ كلمةِ الله.

{وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [التوبة: ١٢١]

١٢١- ولا يُنفِقُ هؤلاءِ المجاهِدونَ نَفَقة، قليلةً كانتْ أو كَثيرة، ولا يَتجاوزونَ في السَّيرِ إلى الأعداءِ واديًا، إلاّ أُثبِتَ لهمْ ذلكَ في صَحائفِ أعمالِهم، ليُجزَوا عليها أحسنَ وأفضَلَ الجَزاء، في يَومٍ أحوجَ ما يكونُ فيهِ النّاسُ إلى الحسَنات.

{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ} [التوبة: ١٢٢]

١٢٢- وما صَلَحَ الأمرُ ولا استقامَ أنْ يَخرُجَ جميعُ المؤمنينَ إلى الغَزو، لأنَّ هناكَ مَصالِحَ أخرَى تَتعطَّلُ بذلك، فهَلاّ خرجَ مِنْ كلِّ جَماعةٍ كبيرةٍ منهمْ عُصبَةٌ تَحصُلُ بهمُ الكفاية، ويُقيمُ الباقُونَ فيَتعلَّموا أحكامَ الدِّين، وما أُنْزِلَ مِنْ وحي على رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فإذا رَجَعَ المجاهِدونَ منْ كلِّ قَومٍ علَّموهمْ ما تَعلَّموا، ليَتذَكَّروا ويَحذَروا ويَعرِفوا أحكامَ الدِّين، وما أمرَ اللهُ بهِ ونَهى عنه.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: ١٢٣]

١٢٣- أيُّها المؤمنون، قاتِلوا الكفّارَ الذينَ يَلونَكم، الأقرَبَ فالأقرَب، ولْيَجِدوا في قِتالِكمْ لهمْ شِدَّةً وجُرأة وعُنفًا، واعلَموا أنَّ اللهَ معَ مَنِ اتَّقاهُ بالعَونِ والنُّصرَة.

{وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} [التوبة: ١٢٤]

١٢٤- وإذا ما أُنزِلَتْ سُورَةٌ منْ سُوَرِ القُرآنِ على النبيّ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلَّم، قالَ بعضُ المنافِقينَ لبَعضِهمْ استهزاءً: أيُّكمْ ازدادَ بها إيمانًا ويَقينًا؟

فأمّا المؤمِنونَ فقدْ زادَتْهُمُ الآياتُ القُرآنيَّةُ إيمانًا وتَصديقًا، وهمْ يَستَبشِرونَ خَيراً بنزولِها، لأنَّها تَزيدُ مِنْ حَسناتِهمْ ودرَجاتِهم.

{وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة: ١٢٥]

١٢٥- وأمَّا الذينَ في قُلوبِهِمْ شَكٌّ ونِفاق، فزادَتْهُمْ شَكًّا إلى شَكِّهم، ونِفاقًا إلى نِفاقِهم، لأنَّهمْ يَكفُرونَ بما أُنزِلَ كما كفَروا بما أُنزِلَ سابقًا، واستَمرُّوا حتَّى ماتُوا على الكُفر.

{أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ} [التوبة: ١٢٦]

١٢٦- ألا يَرى هؤلاء المنافِقونَ أنَّهمْ يُختَبَرونَ ويُبتَلُونَ في كلِّ عامٍ منَ الأعوامِ مرَّةً أو مرَّتَين، بالأمراضِ والشدائد، أو الغزوِ والجِهاد، فيَظهَرُ نِفاقُهم، ونَقضُهمْ لعهودِهم، ثمَّ لا يَرجِعونَ عنْ نِفاقِهم، ولا يتَّعِظونَ بما يُصيبُهمْ ويَفضَحُ أمرَهم، ولا يَعتَبِرونَ بما حولَهم، منَ النَّصرِ والظَّفَرِ الذي مَنَّ اللهُ بهِ على رَسولهِ وعلى المؤمنين؟

{وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُون} [التوبة: ١٢٧]

١٢٧- وإذا ما أُنزِلَتْ سورةٌ على رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، كَرِهَ المنافِقونَ أنْ يَسمَعوا كلامَ الله، فتَلَفَّتَ بعضُهمْ إلى بَعض، وقالوا: هلْ يَراكمْ أحَدٌ إذا قُمتُمْ منْ هذا المجلِس؟ ثمَّ ولَّوا جميعًا مُنصَرِفين؛ لشدَّةِ كراهَتِهمْ للقُرآن، وبُغضِهمْ لمجالسِ الإيمان، صَرَفَ اللهُ قُلوبَهمْ عنِ الإيمانِ بحسَبِ انصرافِهمْ عنْ ذلك المجلِس، ذلكَ بأنَّهمْ قومٌ جاهِلون، أو حَمقَى غافِلون، لا يَفهَمونَ ما يُصلِحُهمْ ممّا يَضرُّهم.

{لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [التوبة: ١٢٨]

١٢٨- لقدْ بعثَ اللهُ فيكمْ رسُولاً رفيعَ القَدْر، عظيمَ الشَّأن، تَعرِفونَ حسَبَهُ ونسَبَه، وهوَ مِنْ أشرَفِكمْ وأفضَلِكمْ، شاقٌّ وصَعبٌ عليهِ أنْ يَرَى أذًى وضررًا يَلحَقُكم، أو عَذابًا يُصيبُكم، حريصٌ على هدايتِكمْ وصَلاحِكم، وما يَنفَعُكمْ في دُنياكمْ وآخِرَتِكم، كثيرُ الرَّحمةِ بالمؤمنين، رَحيمٌ بالمطيعينَ منكمْ والمذنِبين.

{فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [التوبة: ١٢٩]

١٢٩-فإنْ أعرَضوا عنِ الإيمانِ بك، وعمّا جئتَهمْ بهِ منَ الشَّرعِ العَظيم، فلا تأبَهْ بهم، وامْضِ في تَبليغِ رِسالةِ ربِّك، وقُل: اللهُ يَكفيني جميعَ ما أهَمَّني، وهوَ مُؤيِّدي وناصِري، لا إلهَ غيرُه، بهِ وَثِقْت، وعليهِ اعتَمدت، وإليهِ فوَّضتُ أمري، وهوَ ربُّ العَرشِ العَظيم.

والعَرْشُ أعظمُ المخلوقات، لا يَعرِفُ مقدارَ عظَمتِهِ إلاّ الله. قالَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "ما السَّماواتُ السبعُ معَ الكُرسيّ، إلاّ كحَلْقَةٍ مُلقاةٍ بأرضِ فَلاة، وفَضلُ العَرشِ على الكُرسيّ كفَضلِ تلكَ الفَلاةِ على الحَلْقَة". رواهُ ابنُ حِبّان في صَحيحه.

سورة يونس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ} [يونس: ١]

١- الحروفُ المقَطَّعةُ لم يَرِدْ في مَعناها حديثٌ ثابتٌ صحيح.

هذهِ آياتُ القُرآنِ المحكَمِ بأوامِرِ اللهِ ونَواهيه، الحاكمِ بالعَدل.

{أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ} [يونس: ٢]

٢- هلْ كانَ أمرًا عَجَبًا للنَّاسِ أنْ أوحَينا إلى رَجُلٍ منهم، وهوَ محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، ليُعلِمَهمْ دِينَ الله، ويُبَلِّغَهمْ أوامِرَه، ويُحَذِّرَهمْ مِنْ مُخالفَتِها، ويُبَشِّرَ المؤمنينَ أنَّ لهمْ عندَ ربِّهمْ أجرًا حسَنًا ومَنزلَةً رَفيعَة؟!

قالَ الكافِرونَ المتَعجِّبونَ مِنْ هذا الأمر، المستَبعِدونَ لوَحي الله: إنَّ مُحمَّدًا رَجُلٌ ساحِرٌ ظاهِرٌ سِحرُه، وليسَ نبيًّا. قالوا ذلكَ عِنادًا ولَجاجة، على الرغمِ منْ أنَّهُ جاءَهمْ بمعجِزاتٍ لا يَقدِرُ عليها السحَرَةُ وغيرُهم.

{إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ} [يونس: ٣]

٣- أيُّها النَّاس، إنَّ ربَّكمْ وربَّ العالَمِ كُلِّهِ هوَ الله، الذي خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيّام، ثمَّ استَوَى على العَرش، بالمعنَى الذي أرادَهُ سُبحانَهُ وتعالَى. يُدَبِّرُ أمرَ الخلائقِ ويَقضي فيهِمْ وحدَه، ويُقَدِّرُ ما يَشاء، لا يَغفُلُ عنْ شَيء، ولا يَشغَلُهُ شَأنٌ عنْ شَأن، جَلَّتْ قُدرَتُه، وعَظُمَتْ حِكمتُه، لا يَشفَعُ أحدٌ مِنَ الشُّفَعاءِ المقَرَّبينَ إلى اللهِ لأحدٍ إلاّ بعدَ إذنه. ذلِكمْ هوَ اللهُ ربُّكم، لا ربَّ لكمْ سِواه، فوَحِّدوهُ ولا تُشرِكوا بهِ شَيئاً، أفلا تَتَّعِظونَ وتتذكَّرونَ أنَّ ما فُصِّلَ لكمْ هوَ الحقّ؟!

{إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ} [يونس: ٤]

٤- إلى اللهِ رجوعُكمْ جميعًا أيُّها النَّاسُ يومَ البَعث، وعدٌ منَ اللهِ بذلكَ مُؤكَّد، إنَّهُ بدَأ خَلْقَكم، وسيُعيدُ خَلْقَكمْ بعدَ مَوتِكمْ كما بدَأ، ليُحاسِبَ كُلاًّ بما عَمِل، ويَجزيَ مَنْ آمنَ وعَمِلَ صالِحاً بالعَدلِ والجزاءِ الأوفَى، ويَجزيَ الذينَ كفَروا بشَرابٍ مِنْ ماءٍ شَديدِ الحَرارةّ، وعَذابٍ مؤلِمٍ مُوجِع، بسبَبِ إصرارِهِمْ على الكُفر، ورفضِهِمُ اتِّباعَ الحقّ.

{هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [يونس: ٥]

٥- هوَ الخالِقُ الحقّ، القادِرُ العَظيم، الذي جَعلَ في الشَّمسِ ضِياءً وشُعاعًا يُعطي حرارةً وضَوءًا، وهي نَجْمٌ عَظيم، وكُتلَةٌ مُلتَهِبةٌ مُضيئةٌ بذاتِها. وجعلَ في القَمرِ شُعاعًا ونُورًا منْ غيرِ حَرارة، ونُورهُ مَعكوسٌ منْ نُورِ الشَّمس. وقَدَّرَ في مَسيرِهِ وتَنقُّلِهِ أنْ يَكونَ في مَنازِل، ثمَّ بُروج، يَعرِفُها عُلماءُ الفَلَكِ خاصَّة، لتَعرِفوا بحَركةِ الشَّمسِ والقَمرِ عددَ الأيّامِ والشُّهورِ والسِّنين، وتَعرِفوا مَواسِمَ زرُوعِكمْ وحِسابَ مُعاملاتِكمْ وآجالَها، وفوائدَ أخرَى لهما يَعرِفُها الإنسانُ في حياتِهِ العِلميَّةِ والعمَليَّة. ما خَلقَ اللهُ ذلكَ كُلَّهُ إلاّ لِحِكمةٍ عظيمةٍ ومَصلحَةٍ مؤكَّدة. ويُبيِّنُ هذهِ الآياتِ والأدلَّةَ لمنْ عَلِمَ الحِكمةَ منْ خَلقِ الله، واستَدلَّ بهِ على وُجودِهِ وإبداعِهِ وحِكمتِه.

{إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ} [يونس: ٦]

٦- إنَّ في تَعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهار، بأنْ يَذهَبَ هذا ويَجيءَ ذاك، والعَكس، بحَسَبِ طُلوعِ الشَّمسِ وغُروبِها، وما خَلقَ اللهُ في السَّماواتِ والأرضِ منْ أنواعِ الحيَوانِ والنباتِ والجَماد، في إبداعٍ يُدهِشُ العُقول، وإحكامٍ يَشهَدُ بهِ المؤمِنُ والكافِر، كلُّ ذلكَ آياتٌ عَظيمةٌ وحُجَجٌ

باهِرةٌ تَدُلُّ على وُجودِ اللهِ ووَحدانيَّتِهِ وكَمالِ قُدرتِهِ وبالِغِ حِكمتِه، هذا لمنْ عَقَلَ وتَدبَّر، واحترزَ منَ الحسَابِ والعِقاب.

{إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ} [يونس: ٧]

٧- إنَّ الذينَ كفَروا بيَومِ البَعث، وقالوا لا جَزاءَ على الأعمَال، واكتَفَوا بما همْ فيهِ وعَليهِ منَ الحياةِ الدُّنيا ومَظاهِرِها، ورَكَنوا إليها دونَ أنْ يُفَكِّروا بثَوابٍ أو عِقاب، وغَفَلوا عنْ آياتِ اللهِ المبثوثةِ في الكون، ولم يَتفكَّروا فيها كما يَنبغي، ولم يَعرِفوا الحِكمةَ منْ خَلقِهِمْ ومِنْ خَلْقِ الدنيا كلِّها،

{أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النُّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} [يونس: ٨]

٨- أولئكَ مَقَرُّهمُ النارُ في يَومِ القِيامة، جَزاءَ ما كانوا يَعمَلونَ مِنْ آثام، ولا يَعتَبِرونَ منْ آيات، ولا يَستَجيبونَ لنِداءِ الحَق، ولا يَقومونَ بوَظيفةِ المخلوق.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} [يونس: ٩]

٩- إنَّ الذينَ آمَنوا بما يَجِبُ الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمَالَ الصالِحة، الموافِقةَ للشَّريعة، الخالِصةَ لوجهِ الله، يُرشِدُهمْ رَبُّهمْ بسَببِ إيمانِهمُ المقرونِ بعَمَلِهمْ إلى جنّاتٍ يَلقَونَ فيها السَّعادةَ والنَّعيمَ المقيم، تَجري منْ خِلالِها الأنهَار، ممّا يَزيدُ في سَعادتِهمْ ونَعيمِهم.

{دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [يونس: ١٠]

١٠- ودُعاءُ أهلِ الجَنَّةِ فيها: "سُبحَانكَ اللهمَّ"، ويَعني تَنزيهَ اللهِ مِنْ كلِّ نَقص.

وتَحِيَّتُهمْ فيها "سَلام"، الذي يُحَيِّي بعضُهمْ بهِ البَعض، ويَعني: سَلامتَهمْ منْ كلِّ مَكروه. وخاتِمةُ دُعائهمْ أنِ "الحمدُ للهِ ربِّ العالَمين"، فاللهُ مَحمودٌ دائماً.

يَقولُ ذلكَ أهلُ الجنَّةِ لِما يَرَونَ منْ نِعَمِ اللهِ المضاعَفَةِ عَليهم.

وفي صَـحيحِ مُسـلم، أنَّ أهلَ الجنَّةِ "يُلهَمونَ التَّسـبيحَ والتَّحميدَ كما يُلهَمونَ النَّفَس"، فلا يَقولونَ ذلكَ تَكليفاً وإلزامًا، فقدِ انتهَى ما هُمْ مُكلَّفونَ بهِ بانتِهاءِ الدُّنيا.

{وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [يونس: ١١]

١١- ولو يُعَجِّلُ اللهُ سُبحانَهُ في الاستِجابةِ لدَعوةِ الناسِ بالشرِّ على أنفُسِهمْ كما يَستَعجِلونَ طلبَ الخَيرِ ويَنالونَه، لعَجَّلَ بأجَلِهمْ وقضَـى عَليهم، كما كانَ الكفّارُ يَطلبونَ إمطارَهمْ بالحِجارةِ منَ السَّماء، أو يَنتَظِرونَ العَذاب...

كما ذُكِرَ أنَّ الآيةَ في دُعاءِ النَّاسِ على أنفسِهمْ وأولادِهمْ وأموالِهمْ في حالِ ضَجَرِهم، وأنَّ اللهَ لا يَستَجيبُ لهم، ولو استجابَ لهمْ لأهلَكَهم.

فنَترُكُ الذينَ لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ في ضَلالِهِمْ وأعمالِهِمُ السيِّئةِ يَترَدَّدون، وفي عَمايَتِهمْ يَتخَبَّطون، إمهالاً لهمْ واستِدراجًا، حتَّى يأتيَهمُ الأجَلُ المعلوم.

{وَإِذَا مَسَّ الإنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [يونس: ١٢]

١٢- وإذا أصَابَ الإنسَانَ مُصيبَة، كمَرَض، أو خَوف، أو جُوع، جَزِعَ وقَلِق، ودَعانا في ذِلَّةٍ وخُشوع، مُضطَجِعًا، أو قاعِدًا، أو قائمًا، في كلِّ أحوالِه، لنَكشِفَ ما به. فلمّا أزَلنا ما أصابَهُ مِنْ ضُرّ، فشَفَيناه، أو أغنَيناه، أعرَض، واستمرَّ على ما كانَ عليه قبلَ أنْ يُصاب، وكأنَّهُ ليسَ ذلكَ الشَّخصَ الذي كانَ يَلهَجُ بالدُّعاءِ ويُلِحُّ في طلَبِ الإجابة.

وزُيِّنَ مثلُ هذ العَملِ المشـينِ في قُلوبِ المسرِفين، المنهَمِكينَ في الشَّـهوات، المعرِضـينَ عنْ ذكرِ الله.

{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُـلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ} [يونس: ١٣]

١٣- ولقدْ أهلكنا أجيالاً منْ قبلِكمْ يا أهلَ مكَّة، كقَومِ نُوح، وعَاد، وثَمود، لمـّـــــا تمادَوا في كُفرِهمْ وضَلالِهم، وجاءَتهُمْ رسُلُهمْ بالمعجِزاتِ والآياتِ البيّناتِ على صِدقِهمْ وصِحَّةِ ما جاؤوا به، فكابَروا، وكذَّبوا، وأبَوا أنْ يُؤمِنوا، فكانَ عاقِبتَهُمُ الإهلاكُ، وهوَ الجزاءُ المناسِـبُ للمُجرِمينَ المستَكبِرين، الرافِضينَ للحَقّ، ولرُسُلِ الحَقّ.

{ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [يونس: ١٤]

١٤- ثمَّ جَعلنــاكمْ جيلاً يَخلُفُهمْ بعـدَ إهلاكِهم، لنَنظُرَ كيفَ تَعملون، فـإنْ كنتُمْ مثلَهمْ فاحذَروا، وإنْ أطعتُمْ كنتُمْ حامِلي أمانةٍ ومُستَخلَفينَ بحَقّ.

{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [يونس: ١٥]

١٥- وإذا تُتلَى على المشـركينَ آياتُ القُرآنِ الكريمِ الواضِـحاتُ، الدالَّةُ على التوحيدِ وبُطلانِ الشِّـــرك، قالَ هؤلاءِ الذينَ لا يؤمِنونَ بيَومِ القِيامة، ولا يَخافُونَ الحِســـاب: ائتِ بكِتابٍ غيرِ القُرآنِ لا يَكونُ فيهِ ذَمٌّ لآلِهتِنا، ولا ذِكرٌ ليَومِ البَعث، أو بَدِّلِ الآياتِ التي تحتوي على ذلكَ بغيرِها.

قُلْ لهمْ أيُّها الرَّسول: ليسَ هذا الأمرُ إليّ، ولا يَصِحُّ لي تَبديلُهُ مِنْ عِندي، إنَّما أنا عَبدٌ مَأمور، ورسُــولٌ مُبَلِّغٌ عنِ الله، ما أتَّبِعُ إلاّ ما يُوحَى إليَّ فيما آمرُكمْ بهِ وأنهاكمْ عنه، مِنْ غيرِ تَغييرٍ ولا تَبديل. إنِّي أخافُ إنْ بدَّلتُ كلماتِ الله، أو خالَفتُ أمرَه، عَذابًا كبيرًا هائلاً يومَ القيامة.

قالَ ابنُ الجوزيّ في "النواسـخ": هذا وأمثالُهُ في بيانِ آثارِ المعاصـي، وليسَ منْ ضَـرورةٍ ما عُلِّقَ بشَرطٍ أنْ يَقع.

{قُل لَّوْ شَـــاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [يونس: ١٦]

١٦- وقُلْ لهم: لو شَـاءَ اللهُ ما أنزَلَ القُرآنَ عليّ، ولا قَرأتُهُ عليكم، ولا أعلَمَكُمْ بهِ بواسِـطَتي، وقـدْ قُمتُ بينَ ظَهْرانَيكمْ أربَعينَ عـامًا قبلَ نُزولِهِ عليّ، ولم تُجَرِّبوا عليَّ كَـذِبًا، ألا تُلاحِظونَ ذلكَ وتَتـدبَّرونَه، لتَعلَموا أنَّهُ ليسَ منْ عندي، فأنا ما راجَعْتُ عـالِمًا، ولا قرأتُ كِتابًا، ولا كتبتُ كلِمَـة، وهـذا كتـابُ اللهِ البَليغُ المعجِز، الـذي احتوَى على مـا لم تَعرِفوه، مِنْ أحكـامٍ وتاريخٍ وقَصَصٍ وإخبارٍ بغَيبيّات...

{فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ} [يونس: ١٧]

١٧- وليسَ هناكَ أظلَمُ ممَّنْ تَقَوَّلَ على اللهِ وزَعَمَ أنَّهُ أرسَـلَهُ وهوَ ليسَ برسُـول، أو أشـركَ بهِ سُـبحانَهُ وقالَ إنَّ لهُ وَلَدًا، أو كذَّبَ بآياتِهِ ومُعجِزاتِهِ الواضِـحات، وما أنزَلَ مِنْ كِتابٍ وبَعثَ مِنْ رسُـــول. ولا يُفلِحُ الكافِرونَ المفتَرونَ أبَدًا، وســيَظهرُ كَذِبُهُمْ وباطِلُهمْ في الدُّنيا، ويُعَذَّبونَ عليهِ يومَ القِيامة.

{وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـــؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّـــمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُـــبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْـــرِكُونَ} [يونس: ١٨]

١٨- وهؤلاءِ المشـرِكونَ يَعبدونَ أحجَارًا صَـنعوها بأيدِيهم، وهيَ غيرُ قادرةٍ على ضُـرِّهِمْ ولا على نَفعِهم، فهي جَماداتٌ لا تَفهَمُ ما يُفعَلُ بها، إنْ عُبِدَتْ أو أُهِينَتْ وكُسِـــرَت، وهيَ لا تَقدِرُ على أنْ تُثيبَ أحدًا ولا أنْ تُعاقِبَه.

ويَقولون: إنَّ هذهِ الأصنامَ تنفَعُهم، بأنَّها تَشفَعُ لهمْ عندَ الله لإصلاحِ مَعاشِهم، أو أنَّها ستَشفَعُ لهمْ يومَ القيامة.

قُلْ لهمْ أيُّها النبيّ: أتُخبِرونَ اللهَ بأنَّ لهُ شَـريكًا، وأنَّ لهُ شَـفيعًا بغَيرِ إذنه، وهوَ لا يَعلَمُ لنفسِـهِ شَريكًا في السَّماواتِ ولا في الأرض؟ تنَزَّهَ اللهُ وتَقدَّسَ عنْ إشراكِهِمْ وأقوالِهِمُ الباطِلة، ومَزاعِمِهمُ الفاسِدة.

{وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [يونس: ١٩]

١٩- وكانَ الناسُ مُتَّفقينَ على عَقيدَةٍ واحِدة، هيَ عقيدةُ الإسلام، ثمَّ أشرَكَ بعضُهمْ وشَقُّوا عصَا الجَماعة، فصارَ هناكَ مُسلِمونَ وكُفّار، واختَلَفوا، ولولا ما سَبقَ أنْ قضَى بهِ الله، وهوَ تأخيرُ الفَصلِ بينَهمْ إلى يَومِ القِيامة، لحسَمَ الخِلافَ بينَهمْ في الدُّنيا، بأنْ يُنزِلَ عليهمْ آياتٍ مُلجِئةً إلى اتِّباعِ الحَقِّ ورفعِ الاختِلاف، أو بأنْ يُهلِكَ المبطِلَ ويُبقيَ المحِقّ.

{وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ} [يونس: ٢٠]

٢٠- ويَقولُ هؤلاءِ الكافِرونَ المعانِدون: إنْ كانَ محمَّدٌ نبيًّا حقًّا، فليُقْرِنْ نبوَّتَهُ بمُعجِزة، كعصَا موسَى، أو يُحِلْ جبلَ الصَّفا إلى ذَهَب، أو يَجعَلْ بدلَ جِبالِ مكَّةَ بساتينَ وأنهارًا. قالُوا ذلكَ تَعنُّتًا لا طَلَبًا للإيمان، فقدْ سَبقَتْ لهُ مُعجِزاتٌ صلى الله عليه وسلم.

فقُلْ لهمْ أيُّها النبيّ: الأمرُ كلُّهُ لله، وهوَ يَعلمُ عاقِبةَ الأمور، فانتَظِروا حُكمَ اللهِ فيَّ وفيكم.

وما كانوا ليؤمِنوا آنَذاكَ حتَّى لو أُجيبُوا إلى طلَبِهم، ولو لم يُؤمِنوا لأهلَكَهمُ الله، ولكنْ لَطَفَ بهمْ وأمهَلَهمْ حتّى دخَلوا في الإسْلام.

{وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ} [يونس: ٢١]

٢١- وإذا أنعَمنا على الإنسانِ بالرَّخاءِ والسَّعَةِ بعدَ أنْ أصابَهمُ القَحْطُ والشدَّة، إذا بهمْ يُكَذِّبون بفَضلِنا وإنعامِنا، ويُسنِدونَ ذلكَ إلى العَادةِ والطَّبيعة. قُلْ لهمْ أيُّها الرسُول: إنَّ اللهَ أسرَعُ عقوبَةً وإلحاقًا للضَّررِ بكم، ولكنَّهُ يُمهِلُكمْ ويَستَدرِجُكمْ حتَّى يأخُذَكمْ بعذابٍ وأنتُمْ لا تَشعُرون.

وإنَّ ملائكتَنا الموَكَّلينَ بإحصــاءِ أعمَالِ بَني آدم، يُثبِتونَ عليكمْ كلَّ ما قُلتُمْ وفعَلتُم، ومِنْ ذلكَ كيدُكم(٥٤)، الذي سيَكونُ وبالاً عليكم، وعَذابًا يُحيطُ بِكمْ يَومَ القِيامة.

{هُوَ الَّذِي يُسَــيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِــفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [يونس: ٢٢]

٢٢- هوَ اللهُ الذي يُمَكِّنُكمْ منَ السَّــيرِ في البَرِّ والبَحرِ بما مَهَّدَهُ وسَــخَّرَهُ لكم، حتَّى إذا رَكِبوا السُّــفُن، ودفَعَتهمُ الريحُ بسُــرعةٍ مُناسِــبةٍ تُعجِبُهم، وفَرِحوا بذلكَ واطمأنُّوا، هَبَّتْ عليها رِيحٌ شَــديدة، وعلا بهمُ الموجُ وارتفَعَ مِنْ كلِّ طرَف، وأيقَنوا أنَّ الهَلاكَ قدْ أحاطَ بهمْ وقَرُبَ غَرَقُهم، أخلَصــوا الدَّعاءَ للهِ وحدَه، ولم يُشــرِكوا معَهُ في دُعائهمْ أحدًا، لا صَــنمًا ولا وثَنًا، قائلين: يا رَبِّ، لئنْ خلَّصــتَنا منْ هذا الكَرْب، وأنقَذْتَنا مِنَ الغرَق، لنَكوننَّ منَ الشَّــاكرينَ لكَ بالإيمانِ والطَّاعة، ولنْ نُشرِكَ بكَ شَيئاً.

{فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِــكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [يونس: ٢٣]

٢٣- فلمّا أنجاهُمْ منْ ذلكَ الكَرْبِ والشــدَّة، إذا همْ يَرتَدُّونَ إلى جاهليَّتِهم، فيَظلِمونَ النَّاس، ويُفسِدونَ في الأرْضِ علانيَّة، لا يَخافونَ رَبًّا ولا يَخشَونَ عَذابًا. يا أيُّها النَّاس، اعقِلوا واحذَروا، فإنَّ هذا الظُّلمَ الذي تُمارِسـونَه، والفســادَ الذي تَنشُــرونَه، والدِّماءَ التي تَسـفِكونَها، والإعلامَ المضَلِّلَ الذي تَبثُّونَه، إنَّما هوَ جِنايةٌ على أنفسِكم، فوَبالُهُ يَعودُ عليكم، وعاقِبتُهُ تَرجِعُ عليكم،

(٥٤) ذكرَ صــاحبُ (التحرير والتنوير) عند تفســيرِ الآيةِ (٤٢) من ســورةِ الطور، أن الكيدَ والمكرَ متقاربان، وكلاهما إظهارُ إخفاءِ الضرِّ بوجوهِ الإخفاء، تغريراً بالمقصودِ له الضرُّ.

ولا تَضرُّونَ اللهَ بهِ شَيئاً، وما أنتُمْ فيهِ مَتاعٌ قَليل، ولذَّةٌ فانِية، وحيَاةٌ قَصيرة، ثمَّ تَعودونَ إلينا يومَ الحِساب، فنُخبِرُكمْ بجميعِ ما كسَبتُموه، ونُحاسِبُكمْ عليهِ ونُوفِيكمْ حَقَّه، فانتَظِروا ذلكَ اليَوم.

{إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [يونس: ٢٤]

٢٤- إنَّما مثَلُ هذهِ الحياةِ الدُّنيا في زينَتِها ونَعيمِها، واغترارِ النَّاسِ بها، وسُرعةِ انقِضائها وفَنائها، كمَطَرٍ أنزلناهُ على الأرْض، فروَّى نباتَها وشجَرَها، فكَثُرَ بهِ الزَّرعُ والثَّمَر، ممّا يأكلُهُ الناسُ مِنَ الحُبوبِ والثِّمار، وما تأكلُهُ الدَّوابُّ مِنَ الحَشيشِ والمراعي، حتَّى إذا أكملتِ الأرضُ حُسنَها وبَهجَتَها، وتَزيَّنتْ وتَنضَّرت، واكتَسَتْ بالخُضرَةِ والجَمال، وظنَّ أصحابُها الذينَ زرَعوها وغَرَسُوها أنَّهمْ مُتمَكِّنونَ مِنْ حَصادِها وقَطفِ ثِمارِها، جاءَها أمرُنا بإهلاكِها، بغَرْقِ زَرعِها، وإتلافِ ثمارِها، في لَيلٍ أو في نَهار، زمنَ غَفلَتِهِمْ أو عندَ يَقْظَتِهم، وجعَلناها يَبابًا كأنَّها محصودَةٌ منْ أصلِها، وكأنَّها لم تَكنْ خضراءَ غنَّاءَ بالأمسِ القَريب.

وبمثلِ هذا نُبيِّنُ الأدلَّة، ونذكُرُ الأمثِلَة، لقَومٍ يَعقِلونَ فيَتفكَّرون، ويَتدبَّرونَ فيَعتَبِرون. فاغتِرارُ النَّاسِ بالدُّنيا كثير، معَ أنَّ زَوالَها سَريع، والعِبرةُ بما يَبقَى لا بما يَفنَى، والحَسرَةُ لا تَنفَعُ يومَ الدِّين.

{وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [يونس: ٢٥]

٢٥- واللهُ يَدعو النَّاسَ إلى دارٍ لا يَعتَريها الزَّوال، وجنَّةٍ عاليةٍ سَالمةٍ منَ الآفات، واللهُ سُبحانَهُ يَهدي مَنْ يَشاءُ منْ عِبادهِ إلى صِراطِهِ المستَقيم، الذي يؤدِّي إلى الجنَّة، عندما يتَّجِهُ العَبدُ بقلبِهِ إلى ربِّه، ويَعزِمُ على اتِّباعِ ما جاءَ بهِ منَ الحَقّ.

{لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [يونس: ٢٦]

٢٦- للَّذينَ أحسَنوا العملَ في هذهِ الدُّنيا، المنزِلةُ الحُسنَى في الآخِرة، وهيَ الجنَّة، معَ إكرامِهمْ بزيادةٍ عَظيمةٍ في الثَّواب، وهيَ النظرُ إلى وجهِ اللهِ الكريم، ولا يَغشَى وجوهَهُمْ غُبارٌ ولا سَواد، ولا كآبَةٌ ولا هَوان، كما يَعتَري وجوهَ الكفّارِ يومَ الحِســـاب، أولئكَ أهلُ الجنَّة، خالِدونَ فيها أبَدًا.

{وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [يونس: ٢٧]

٢٧- والذينَ عَمِلوا السـيِّئات، فأشـرَكوا بالله، وعَصَـوا رسُـلَه، ولم يمتَثِلُوا ما أمرَ اللهُ به، فإنَّ جزاءَهمُ العَدل، أنْ يُجازَوا على السـيِّئةِ بمثلِها، ويَغشـاهُمْ هَوانٌ عَظيم، معَ شُـعورِهمْ بصَـغارٍ وإهـانَة، لعِلمِهمْ بما اقتَرَفوه، وخَوفِهمْ منَ العِقـابِ الـذي يَنتَظِرُهم، ولا أحدَ يَمنعُ عنهمْ يومَئذٍ عَذابَ اللهِ وسَخَطَه، وقدْ تَلبَّدتْ وجوهُهمْ بالسَّواد، منَ الخِزيِ والنَّدامةِ والكآبة، حتَّى صارَتْ فاحِمةً قاتِمة، وكأنَّها أُلبِسَتْ قِطَعًا منَ الليلِ المظلِمِ المدْلَهِمّ، أولئكَ أهلُ النَّار، ماكِثونَ فيها أبَدًا.

{وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ} [يونس: ٢٨]

٢٨- وذَكِّرْهُمْ أيُّها النبيّ: يومَ نَحشُـرُ النَّاسَ جميعًا، مسـلِمَهمْ وكافِرَهم، ثمَّ نقولُ للمُشـركين: الزَموا مَكانَكمْ أنتُمْ وشُـرَكاؤكمُ الأصْـنام، ولا تَختلِطوا بالمؤمِنين. وفرَّقنا بينَهم، وقطَعنا ما كانَ بينَهمْ مِنَ التواصُـلِ في الدُّنيا، حيثُ يَتبَرَّأُ كلُّ مَعبودٍ مِنْ دونِ اللهِ ممَّنْ عبَدَه. وقالَ شُـرَكاؤهمُ الأصنَام، الذينَ اتَّخَذوهمْ شُرَكاءَ للهِ تعالَى: ما كنتُمْ تَعبُدونَنا بطَلَبِنا، وإنَّما كنتُمْ تُطيعونَ أهواءَكم، وتُوالُونَ الشَّيطان.

{فَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ} [يونس: ٢٩]

٢٩- وتَقولُ هذهِ الأصْـنامُ لعابِديها، في يومِ الموقِفِ الذي يُنطِقُ اللهُ فيهِ كلَّ شـيء: اللهُ هوَ الشَّـاهِدُ الحقُّ الكافي بيننا وبينَكم، أنَّنا ما أمرناكمْ بعِبادَتِنا، وما كنّا نَشـعُرُ بها ولا نَعلم، لأنَّنا ما كنّا نَسمَع، ولا نُبصِر، ولا نَعقِل.

قالَ صـاحِبُ "روح المعاني": الأظهَرُ أنْ يُرادَ بالشُّـرَكاءِ جميعُ ما عُبِدَ منْ دُونِ اللهِ تعالَى، مِنْ ذَوي العُقولِ وغَيرِهم. اهـ.

ويَنقَطِعُ طَمَعُ المشرِكينَ ممّا كانوا يَرجونَ منهمْ ويَعتَقِدونَ فيهم.

{هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْـلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَـلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} [يونس: ٣٠]

٣٠- في يومِ الحِساب، ومقامِ الحَشر، تُختَبَرُ كلُّ نَفس، وتَعلَمُ ما كسبَتْ منْ خَيرٍ وشَرّ، مُؤمِنةً كانتْ أو كافِرة. ورُدُّوا جَميعًا إلى رَبِّهمُ الحَكَمِ العَدْل، الصَّادقِ في رُبوبيَّته، لا ما اتَّخَذَهُ المشرِكونَ أربابًا باطِلة، ليَحكُمَ فيهمْ وحدَهُ سُـبحانَه، ويَجزِيَهمْ على أعمالِهِم. وضـاعَ عنهمْ وزالَ ما كانوا يَكذِبونَ في الدُّنيا مِنْ أنَّ أصنامَهمْ ستَشفَعُ لهمْ وتَنفَعُهمْ عندَ الله.

{قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّـمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّـمْعَ والأَبْصَـارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ} [يونس: ٣١]

٣١- قُلْ للمُشـركين، مُحتَجًّا عليهمْ ببُطلانِ ما هُمْ عليهِ مِنَ الشِّـرك: منِ الذي يُنزِلُ المطَرَ عليكمْ مِنَ السَّماء، ويَجعَلُ لكمُ الأغذيةَ في الأرض، وقدْ سَخَّرَها لكم، فكانتْ سبَباً لحياتِكم؟ ومَنْ يَقدِرُ على خَلقِ السَّـمعِ والأبصـارِ لكمْ غيرُه، في خَلْقِها البديع، وتَركيبِها الدَّقيق، ووظائفِها المتكاملة؟

ومَنْ سِـواهُ يُخرِجُ الحيَّ مِنَ الميِّت، والميِّتَ مِنَ الحَيّ، كخروجِ النبْتَةِ مِنَ الحَبَّة، والحَبَّةِ مِنَ النبْتَة، وخروجِ الفرْخِ مِنَ البيضَة، والبيضةِ مِنَ الطيرِ وغَيرِه؟

فكيفَ أُودِعَتِ الصِّـفاتُ الظاهِرةُ لهذهِ الحيواناتِ والنَّباتاتِ في الحيَواناتِ المنويَّةِ الدقيقَة، وفي الحُبوبِ الجافَّةِ الصَّغيرة؟ كيفَ تَنشأ الحياة، وما سِرُّ الجِيْناتِ والهَندَسةِ الوراثيَّة؟

ومَنِ الذي يَقضي في هذا الكونِ على سَعَتِه، ويُدَبِّرُهُ أحسَنَ تَدبير، في حِساباتٍ زمنيَّةٍ ومكانيَّةٍ دقيقَةٍ مُقَدَّرة، منها ما يَكونُ في أبعادٍ خياليَّةٍ بملايينِ السنواتِ الضوئيَّة! فمنِ المتَصَرِّفُ فيها جَميعًا، ومَنِ الذي بيدهِ مَلَكوتُ كلِّ شيء؟ وكذا شُؤونُ البشَرِ، حياتُهم، ورزقُهم، وعَمَلُهم...

فسَيقولُ المشركونَ بدونِ تَرَدُّد: هوَ الله. ولا تَنفَعُ المكابرَةُ والعِنادُ هُنا في شَيء.

فقُلْ لهمْ أيُّها النبيّ: ألا تَخشَونَ اللهَ إذاً، ما دُمتُمْ عَرَفتُمْ أنَّ الموتَ والحياةَ بيدِه، والسَّمعَ والأبصارَ بقُدرَتِه... وكلُّ ما في الكَونِ مُلْكُهُ وتحتَ تَصَرُّفِه؟ ألَا تَترُكونَ الشِّركَ بعدَ عِلْمِكمْ هذا؟

{فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} [يونس: ٣٢]

٣٢- اللهُ وحدَهُ الذي يَخْلُقُ ويُدَبِّرُ شَأنَ خَلْقِه، الإلهُ الحَقّ، الذي لا يَتعَدَّد، ولا يَستَحِقُّ العِبادةَ إلاّ هو، ومَنْ قالَ غيرَ هذا فقدْ ضلَّ وغَوَى، فكيفَ تُصرَفونَ عنِ الحَقِّ إلى الضَّلال، وكيفَ تُصرَفونَ عنْ عِبادتِهِ إلى عِبادةِ سِواه، وأنتُمْ تَعلَمونَ أنَّ اللهَ وحدَهُ هوَ الإلهُ الحَقّ؟

{كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [يونس: ٣٣]

٣٣- وهكذا وجبَ حُكمُ اللهِ على الذينَ تَمرَّدوا وأصَرُّوا على الكُفر، وصَرَفوا أنفُسَهمْ عنِ الأدلَّةِ والبراهينِ العقليَّةِ الواضِحةِ والفِطرةِ السَّليمة؛ بأنَّهمْ أشقياءُ مِنْ أهلِ النَّار.

{قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} [يونس: ٣٤]

٣٤- قُلْ للمُشرِكينَ الذينَ يؤمنونَ ببَدءِ الخَلقِ ولا يؤمنونَ ببَعثِه: هلْ مِنْ أوثانِكمْ مَنْ يَقدِرُ على إنشاءِ الخَلقِ منْ غَيرِ أصل، ثمَّ يُحييهِ بعدَ الموت؟ قُلْ لهم: إنَّ اللهَ وحدَهُ هوَ القادِرُ على ذلك، فكيفَ تُصرَفونَ عنْ طَريقِ الرُّشدِ إلى الضَّلال، وكيفَ تُوَجَّهونَ عنِ التفكيرِ المستَقيمِ إلى المعوَجّ؟

{قُلْ هَلْ مِن شُــرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} [يونس: ٣٥]

٣٥- وقُلْ لهم: هلْ مِنْ أوثانِكمْ مَنْ يُرشِـدُ إلى الحقّ، ويَضَـعُ لهُ نِظامًا، ويَبعَثُ بهِ رَسـولاً، ويوجِبُ عَليهِمُ اتِّباعَه، ولا يَكونُ للنَّاسِ منهُ بدّ؟

قُلْ لهم: أنتُمْ تَعلَمونَ أنَّ شُرَكاءَكمْ لا يَقدِرونَ على هدايةِ أحَد، بلِ الذي يَهدي الضالّ، ويُنيرُ القلب، ويَشرَحُ الصدر، اللهُ العَزيزُ الحَكيم.

وقُلْ لهمْ في نتيجةٍ حَتميَّة: أيُّهما أحَقُّ بالاتِّباعِ إذاً: اللهُ الذي يَهدي النَّاس، أمِ الذي لا يَهتدِي إلى شَـيء، ولا يُبصِـر، ولا يَتحرَّك، ولا يَقدِرُ على الانتقالِ إلى مَكانٍ إلاّ أنْ يُحمَلَ ويُنقَل؟!

والذينَ كانوا يَعبُدونَ الأناسـيَّ، كمَنْ يَعبدُ المسـيحَ عيسَـى بنَ مريم، والملائكة، لا يَهتدونَ بأنفُسِهم، ولا يَقدِرونَ على هِدايةِ أحَد، إلاّ بإذنِ اللهِ وتَوفيقِه.

فما لكمْ أيُّها المشـركون، كيفَ تَحكُمونَ بالباطِل، وتَتَّخِذونَ شُـركاءَ لله، بدونِ أيِّ دَليل، ولا عَقل، ولا مَنطِق، تُساوونَ في العِبادةِ بينَ اللهِ المتعَال، والأصنامِ المصنُوعةِ مِنَ الحِجارة؟

{وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَـيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} [يونس: ٣٦]

٣٦- وأكثرُ المشـركينَ لا يَتَّبِعونَ في دِينِهمْ حُجَجًا ولو كانتْ واهية، بلْ هيَ ظُنونٌ وأوهامٌ وتَخيُّلاتٌ لا تَسـتَنِدُ إلى أسـاس، فهمْ يَظنُّونَ أنَّ للهِ شُـركاء، ولكنْ لا يَتحقَّقونَ منه. وهكذا مُجادلاتُهُمْ ومُحاوراتُهُمُ التي يُدافِعونَ بها عنْ آرائهِمْ ومُعتَقداتِهم، وإنَّ الظنَّ الفاسِـدَ لا يُحَقِّقُ لهمْ شَيئاً مِنَ الحقّ، واللهُ عَليمٌ بأفعالِهِمُ السيِّئة، وإعراضِهِمْ عنِ الحقِّ المبين.

{وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} [يونس: ٣٧]

٣٧- وما كانَ هذا القُرآنُ العَظيم، بكَمالِهِ وجَلالِه، في أخبارِهِ وأحكامِه، وفي إعجازِهِ ونِظامِه، وفي منهَجِهِ وأسرارِه، أنْ يَكونَ مَكذوبًا على الله، فَرقٌ واضِحٌ بينَهُ وبينَ كلامِ البَشر، ولا يَقدِرُ

أحَدٌ على أنْ يأتيَ بمثلِه، أو بسورةٍ مِنْ مثلِه، فلا يَكونُ إلاّ مِنْ عندِ اللهِ سُبحانَه. فهوَ كتابٌ سَماويٌّ يُصَدِّقُ الكُتُبَ السَّماويَّةَ السَّابقة، وحَكَمٌ عليها، فيَذكرُ ما وقعَ فيها مِنْ تَحريفٍ وتَبديل، ويُبيِّنُ الحقائقِ والأحكام، لا يَشُكُّ في القُرآنِ طالِبُ حَقّ، لوضوحهِ وعُلوِّ شأنِه.

{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [يونس: ٣٨]

٣٨- أمْ يَقولُ المشركونَ إنَّ محمَّدًا اختلقَ القرآنَ مِنْ قِبَلِ نَفسِهِ وجاءَ بهِ مِنْ عِندِه؟ قُلْ لهمْ أيُّها النبيّ: إنْ كنتُمْ تَشُكُّونَ في كَونِ القُرآنِ مِنْ عندِ الله، فأتُوا بسُورةٍ واحِدَةٍ تُشبِهُ القُرآن، واستَعينوا بكلِّ مَنْ قَدِرتُمْ عليهِ مِنْ إنسٍ وجِنٍّ ليُساعِدوكمْ في ذلك، إذا كنتُم صَادِقينَ في أنَّني افتَرَيتُه. وإذا صَدَقتُمُ القَول، فإنَّكمْ ستَقولون: إنَّكَ بَشَرٌ مثلَنا، لا تَقدِرُ على أنْ تأتيَ بمثلِه، ولا نحنُ قادِرونَ على ذلك.

{بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ} [يونس: ٣٩]

٣٩- بلْ كذَّبَ المشرِكونَ بالقُرآن، فلمْ يَفهَموهُ ولم يُحيطوا بعِلمِه، ولم يَقِفوا على مَعانيهِ الجليلة، وإخبارِهِ بالغيوب، ولم يَعلموا ما يؤولُ إليهِ عاقِبةُ أمرِهم، ولو أنَّهمْ تأمَّلوا مَصيرَ الأوَّلينَ لعرَفوا مَصيرَهم، فقدْ كذَّبتِ الأممُ الخاليةُ رسُلَهمْ مِنْ قَبل؛ عِنادًا وجَهلاً، فانظُرْ كيفَ كانَ آخِرُ أمرِهم، واحذَروا أنْ يُصيبَكمْ ما أصابَهم.

{وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ} [يونس: ٤٠]

٤٠- ومنهمْ مَنْ يؤمِنُ بالقُرآنِ ويَنتَفِعُ بما أُرسِلْتَ بهِ أيُّها النبيّ، ومنهمْ مَنْ يَبقَى مُصِرًّا على كُفرِهِ فلا يَهتدي ولا يؤمِن، وهمُ المفسِدون، أتْباعُ الهوَى والفَساد، وربُّكَ أعلمُ بهم، وبما يُبطِنونَ منْ كُفرٍ وشَرّ.

{وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ} [يونس: ٤١]

٤١- فإنْ كذَّبَكَ المشرِكونَ بعدَ إلزامِهمُ الحُجَّة، فتبرَّأْ منهم، وقُلْ لهم: لي عَملي وجَزاؤه، ولكمْ عَملُكمْ وجزاؤه، وأنتُمْ لا تُؤاخَذونَ بعمَلي، ولا أنا أؤاخَذُ بعَملِكم.

{وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ} [يونس: ٤٢]

٤٢- ومِنْ هؤلاءِ المشركِينَ مَنْ يَستَمِعُ إلى كلامِكَ الحسَن، وإلى القُرآنِ الكريم، ولكنَّهمْ لا يَتدبَّرونَه، بلْ لا يُصْغُونَ إليهِ حتَّى يَستَفيدوا منه، فكأنَّهُمْ لم يَسمَعوه، وعَطَّلوا بذلكَ حاسَّةَ السَّمعِ عندَهم، وأنتَ لا تَقدِرُ على إسماعِ الأصمّ، ولو ضمَّ إلى سمعهِ عقلَهُ الذي لا يَعقِلُ به، فقدْ أُصيبَ في عَقلِه، وفي جَميعِ حَواسِّه.

{وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ} [يونس: ٤٣]

٤٣- ومِن هؤلاءِ مَنْ يَنظُرُ إليكَ وهوَ يَرَى في سَمْتِكَ وخُلُقِكَ دَلائلَ النبوَّة، ولكنَّها أبصارٌ ظاهِرةٌ ليسَ وراءَها عِظةٌ وعِبرة، ولا استِبصارٌ في القَلب، أفأنتَ تُبصِّرُ العُميَ ولو ضَمُّوا إلى عدَمِ البَصرِ عدَمَ البَصيرة؟

{إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [يونس: ٤٤]

٤٤- إنَّ اللهَ لا يَظلِمُ النَّاس، فقدْ خَلقَهمْ على الفِطرة، وزوَّدَهمْ بقُلوبٍ وعُقولٍ وحواسَّ يَتمكَّنونَ بها منَ الإيمانِ إذا لم يَطمِسوها بالعِنادِ والخِصام، إنْ شاءَ الله، وبعثَ إليهمُ الرسُلَ ليُبيِّنوا لهمْ ما يأتونَ وما يَتركون، وأرسَلَ معهمُ المعجِزاتِ حتَّى لا يَبقَى عندَهمْ شكٌّ في ذلك، ولكنَّهمْ لا يَستَعمِلونَ مَدارِكَهمْ لِما خُلِقَتْ له، ويُعرِضونَ عنْ قَبولِ الحقّ، ويُكَذِّبونَ الرسُل، فيَظلِمونَ أنفُسَهمْ بالكفرِ والمعصِية، ويُعَرِّضونَها بذلكَ للعَذابِ يومَ القيامة، فلا يَلومُنَّ إلاّ أنفُسَهم.

{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ} [يونس: ٤٥]

٤٥- وذَكِّرْهمْ وأنذِرْهمْ أيُّها النبيّ، فإنَّهمْ يومَ يُجمَعونَ لموقفِ الحِساب، كأنَّهمْ لم يَبقَوا في الدُّنيا مِقدارَ سَاعةٍ مِنَ النَّهار، قضَوها في التعارُفِ بينَ بعضِهمُ البعض! إنَّها حياةٌ قَصيرةٌ حقًّا، كانَ يَجِبُ أنْ تُقضَى في الطَّاعةِ والصَّلاح، ولكنَّهمْ كفَروا وكذَّبوا، فخَسِروا أنفُسَهمْ بعَدَمِ استِعدادِهمْ لهذا اليَومِ العَظيم، يومِ الجزاءِ والمحاسَبةِ على الأعمال، وما كانوا مُهتَدِينَ لسُبُلِ النَّجاةِ والفَلاح، بلِ انحرَفوا، فسَقطُوا في النار {وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة النمل: ٩٠].

{وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ} [يونس: ٤٦]

٤٦- وإمّا أنْ نُرِيَكَ أيُّها النبيُّ بعضَ الذي نُوجِبُ عليهمْ منَ العَذاب، فنَنتَقِمَ منهمْ في أثناءِ حياتِك، أو نتوَفَّاكَ ويَكونُ مصيرُهمْ إلينا يومَ القيامة، فنُعذِّبَهمْ يومَها أشدَّ العَذاب، واللهُ شَهيدٌ على أفعالِهمُ السيِّئةِ بَعدَك، ومُجازيهمْ عَليها.

{وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [يونس: ٤٧]

٤٧- ولكُلِّ أمَّةٍ يومَ القِيامةِ رَسُولٌ تُنسَبُ إليهِ وتُدْعَى به، وتُعْرَضُ على اللهِ بحَضرتِه، فإذا جاءَ رسُولُ كلِّ أمَّةٍ إلى الموقفِ ليَشهدَ عليهم، حُكِمَ بينَهمْ بعدَ شهادَتهِ بالعَدل، فيَنجو المؤمنُ ويُعاقَبُ الكافِر، ولا يُظلَمُ أحَدٌ منهم، فلا يُعذَّبُ بغيرِ ذَنْب، ولا يُنْقَصُ مِنْ حسَناتِهِ شَيء.

{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [يونس: ٤٨]

٤٨- ويَقولُ لكَ المشرِكونَ وكأنَّهمْ يَستَعجِلونَ العَذاب: متَى هذا الوعدُ الذي تَعِدُنا فيهِ بالعَذابِ يا محمَّد، إنْ كنتُمْ صَادقِينَ أنتَ وأصحابُك؟

{قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ} [يونس: ٤٩]

٤٩- قُلْ لهم: لا أقدِرُ على دَفعِ ضُرٍّ عنْ نَفسي، ولا جَلبِ نَفعٍ لها، إلاّ أنْ يَشاءَ اللهُ ذلكَ ويُقدِّرَني عليه، ولكلِّ جِيلٍ مُدَّةٌ مُقدَّرةٌ لأعمارِهم، فإذا انقضَى أجَلُهم، لا يَتقدَّمونَ عليهِ ساعةً ولا يَتأخَّرونَ عنه.

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ} [يونس: ٥٠]

٥٠- وحَذِّرْهُمْ نِقمةَ اللهِ ووَعيدَه، وقُلْ لهم: أرأيتُمْ إنْ أتاكمْ عَذابُ الله، لَيلاً وأنتُمْ نائمون، أو نَهاراً وأنتُمْ مُشتَغِلون، فما الذي تَستَعجِلونَهُ منَ العَذابِ وفيهِ هَلاكُكم، أيُّها المشرِكونَ المجرِمون؟

{أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ} [يونس: ٥١]

٥١- أإذا وقعَ العَذابُ وحَلَّ بكمْ حَقيقةً آمنتُم بهِ حِينَئذ؟ آلآنَ آمنتُمْ بيَومِ البَعثِ والجَزاءِ على الأعمَال، وكنتُمْ منْ قبلُ تستَعجِلونَ هذا الوَعدَ منْ نَبيِّكمْ مُستَهزئينَ مُتَهكِّمين، مُستَبعِدينَ مُكَذِّبين؟

{ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ} [يونس: ٥٢]

٥٢- ثمَّ قيلَ للمُشرِكينَ الظَّالِمينَ يومَ القيامة، تَقريعًا وتَوبيخًا: ذوقُوا عَذابَ النارِ التي كنتُمْ تُكَذِّبونَ بها على الدَّوام، ولا تُحاسَبونَ إلاّ على أعمالِكمُ السيِّئة، ولا تُجزَونَ إلاّ عليها.

{وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ} [يونس: ٥٣]

٥٣- ويَستَخبِرونَكَ أيُّها الرسُولُ قائلين: هلِ العَذابُ الذي وعَدتَنا بهِ حَقّ، والساعةُ آتيَةٌ لا شَكَّ فيها؟ فقُلْ لهم: نَعمْ واللهِ إنَّهُ لحَقٌّ وصِدق، وسَوفَ يُعيدُكمُ اللهُ بعدَ فَنائكم، كما بدأ خَلْقَكم، وما أنتُمْ بقادِرينَ على الهرَبِ أو دَفعِ العَذابِ عَنكم.

{وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [يونس: ٥٤]

٥٤- ولو كانَ لكُلِّ نفسٍ أشركَتْ ما في الدُّنيا مِنْ خَزائنَ وأمْوال، لبذَلَتْها كلَّها حتَّى تَنجوَ منَ العَذابِ الرَّهيبِ الذي نَزلَ بها، وأخفَوا ما أصابَهمْ منَ الأسَفِ والحَسْرَة، ومِنَ الهَمِّ والغَمِّ - على ما فَعلوهُ مِنْ ظُلمٍ وارتَكبوهُ منْ جَرائمَ - لما رأوا شِدَّةَ الأهْوال، وفَظاعةَ العَذاب، وجُوزوا على أعمَالِهمْ دونَ أنْ يَنالَهمْ ظُلم، فَلْيَندَموا، ولْيَستَغيثوا، فإنَّهمْ غيرُ خارِجينَ منَ النَّار.

{أَلا إِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} [يونس: ٥٥]

٥٥- ألا إنَّ جَميعَ ما في السَّماواتِ والأرضِ مُلْكٌ للهِ وحدَه. ألا إنَّ جَميعَ ما وعَدَ اللهُ بهِ كائنٌ لا مَحالة، ثابِتٌ واقِعٌ كما قالَ به، ومنهُ البَعثُ والجَزاء، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلمونَ ذلك؛ لغَفلتِهمْ واغتِرارِهمْ بظَواهرِ الأمُور، وسُوءِ استِعدادِهمْ للبَحثِ عنِ الحقِّ أو قَبوله.

{هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [يونس: ٥٦]

٥٦- هوَ اللهُ الخالِقُ القَادِر، الذي يُحيي ويُميت، وإليهِ مَرجِعُكمْ ليُحاسِبَكمْ ويُجازيَكمْ على أعمالِكمْ يومَ القيامة.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} [يونس: ٥٧]

٥٧- أيُّها النَّاس، أقبِلوا على ما فيهِ خَيرٌ لكم، وقدْ أنزلَ اللهُ القُرآنَ العَظيم، وفيهِ تَذكِرةٌ مِنْ ربِّكم، ممّا يُلِينُ القُلوبَ بالتَّرغيبِ وذِكرِ حُسْنِ الثواب، وبالترهيبِ وبَيانِ سُوءِ العِقاب، وفيهِ دواءٌ منَ الجَهلِ والشُّبَهِ والشُّكوك، وهُدًى منَ الضَّلالة، ورَحمَةٌ وإحسَانٌ للمؤمنينَ خاصَّة، فيَزيدُهمْ إيمانًا، ويُبَشِّرُهمْ بالجَزاءِ الحسَن.

{قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} [يونس: ٥٨]

٥٨- قُل: لِيَفرَحِ النَّاسُ بدينِ اللهِ والقُرآنِ الكريم، وبالإيمانِ واتِّباعِ الحقّ، فإنَّهُ أفضَلُ وأحسَنُ منْ هذا الذي يَحرِصُونَ عليهِ ويَجمعونَهُ منْ حُطامِ الدُّنيا وزخارِفِها وزَهرَتِها الفَانية.

{قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ} [يونس: ٥٩]

٥٩- وقُلْ لكُفّارِ مَكَّة: أرأيتُمْ هذا الرزْقَ الذي قدَّرَهُ اللهُ لكمْ لتَنتَفِعوا به، فجعَلتُمْ تُحَرِّمونَ أنواعًا منَ الحيَواناتِ والزُّروع، وتُحَلِّلونَ أخرَى، فهلْ أذِنَ اللهُ لكمْ بذلِك، أمْ أنَّكمْ تكذِبونَ عليه، وتَقولونَ إنَّهُ مِنْ عندِ الله، وهوَ منْ عندِ أنفسِكم؟

{وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ} [يونس: ٦٠]

٦٠- وما الذي يَظُنُّ المشرِكونَ المكَذِّبونَ أنْ يُفعَلَ بهمْ يَومَ القِيامة، وقدْ حرَّموا وحَلَّلوا بأهوائهمْ وأضاليلِهم، التي لا مُستَندَ عَليها ولا دَليل؟ أيَحسَبونَ أنَّهمْ لا يُؤاخَذونَ على أفعَالِهمْ ولا يُعاقَبون؟

وإنَّ فَضلَ اللهِ على النَّاسِ عَظيم، ونِعمتَهُ عليهمْ لا تُقَدَّر، فزوَّدَهمْ بالعَقل، وسخَّرَ لهمْ ما في السَّماواتِ والأرض، وأرسلَ إليهمُ الرسُل، وأنزلَ عَليهمُ الكُتب، وأباحَ لهمُ الطيِّبَ النَّافِع، وحرَّمَ عليهمُ الخَبيثَ الضارّ، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَشكرونَ فضلَ الله، فيَتعامَلونَ بالخَبيثِ المحرَّم، ويَتركونَ ما فيه فائدةٌ وشِفاء، ولا يَنتَفِعونَ بدِينِ الله.

{وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [يونس: ٦١]

٦١- وما تَكونُ في أمرٍ مِنَ الأمورِ أيُّها النبيّ، وما تَتلو مِنْ قُرآن، الذي هوَ منْ أعظَمِ شُؤونِك، ولا تَعمَلونَ أيَّ عمَلٍ منَ الأعمَالِ أيُّها النَّاس، إلاّ كُنّا شُهودًا عليكم، نَطَّلِعُ على أحوالِكم، ونَعلَمُ جَميعَ أمُورِكم، عندَما تَشرَعونَ فيها وتَخوضون، وما يَغيبُ عنْ ربِّكَ وَزنُ ذَرَّة،

عالياً كانَ في السَّماء، أو أسْفلَ في الأرْض، وأصغرَ منْ ذلكَ أو أكبر، وكلُّ ذلكَ مُثبَتٌ في اللَّوحِ المحْفوظ.

{أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [يونس: ٦٢]

٦٢- ألا إنَّ أولياءَ اللهِ منْ عبادِهِ المقرَّبينَ لا خَوفٌ عليهمْ يومَ القيامةِ عندَما يَخافُ النَّاسُ ويَجزَعون، بلْ همْ آمِنونَ فَرِحون، لا يَعترِيهمُ الهمُّ والحَزَن.

{الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ} [يونس: ٦٣]

٦٣- وهمُ الذينَ آمَنوا حقَّ الإيمان، بكلِّ ما جاءَ مِنْ عندِ الله، ويَتَّقونَه، فيَمتَثِلونَ ما أمرَ به، ويَجتَنِبونَ ما نَهَى عنه، ويَستَقيمونَ على الطَّاعةِ والامتِثال. وكلُّ مَنْ كانَ تَقيًّا فهوَ وَليّ.

{لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [يونس: ٦٤]

٦٤- لهمُ البُشرَى الطيِّبةُ في الدُّنيا العَاجِلة، وفي الأخرَى الآجِلة.

وبُشراهُمْ في الدُّنيا "هيَ الرؤيا الصَّالِحة، يَراها الرجُلُ أو تُرَى له" كما في الحديثِ الصَّحيحِ الذي رَواهُ الحاكمُ وغَيرُه. و"رؤيا المؤمنِ جُزءٌ منْ ستَّةٍ وأربعينَ جُزءاً منَ النبوَّة". رواهُ البُخاريُّ في صَحيحه.

والرُّؤيا الصَّالِحةُ خَيرٌ وبَركة، ودَلالةٌ على التَّوفيقِ والفَوز، إنْ شاءَ الله.

وبُشراهُمْ في الآخِرةِ عندَما تَتلقّاهمُ الملائكةُ وتُبَشِّرُهمْ بالجنَّة: {بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [سورة الحديد: ١٢].

ولا تَغييرَ لِقَولِ اللهِ تعالَى، ولا خُلْفَ لوَعدِه. وما وُعِدَ بهِ أولياءُ اللهِ منَ البُشرَى هوَ الفَلاحُ والنَّجاح، وهوَ الفَوزُ العَظيم، الذي لا فوزَ وراءَه.

{وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [يونس: ٦٥]

٦٥- ولا تَغتمَّ منْ أقوالِ أعداءِ اللهِ المشــرِكين، ولا تَتضـــايقْ مِنْ مَقالاتِهِمُ الرَّديئة. إنَّ الغَلَبَةَ والقُدرةَ كُلَّها لله، فلا يُقْهَرُ ولا يُغْلَب، وهوَ الذي يَحمي أولياءَهُ منْ كَيدِ الأعداء، ويَنتَقِمُ لهمْ ويَنصُرُهم، وهوَ السَّميعُ لِما يَقولونَ في حقِّك، عَليمٌ بأحوالِهِمْ وما يُضمِرونَه.

{أَلا إِنَّ لِلّهِ مَن فِي السَّمَاوَات وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ} [يونس: ٦٦]

٦٦- ألا إنَّ جَميعَ مَنْ في السَّـماواتِ والأرضِ مِنَ المخلوقاتِ عَبيدٌ للهِ وتحتَ تَصـرُّفه، وهؤلاءِ الشُّـرَكاءُ الذينَ يَتوهَّمُ المشـرِكونَ أنَّهُمْ آلهة، ويَعبدونَها لِتَشـفعَ لهمْ عندَ الله، ليسُـوا شُـركاءَ للهِ في شَـــيءٍ حَقيقةً، والذينَ يَعبدُونَها ليسُـــوا على يَقينٍ منْ ذلك، بلْ هُمْ يَتَّبِعونَ ظَنَّهمُ الباطِل، وتَخمينَهمُ الفاسِد، فما هُمْ إلاّ كاذِبونَ مُفترَونَ في ذلك.

{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْـــكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِـــراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} [يونس: ٦٧]

٦٧- هوَ اللهُ الذي خلقَ لكمُ اللَّيلَ لتَســـتَريحوا فيهِ منْ تَعَبِ النَّهار، وتَهدَؤوا فيهِ وتَســـكُنوا، وخَلقَ لكمُ النَّهارَ مُضِـــيئاً لتَســـعَوا فيهِ وتَعمَلوا، ولا يَقدِرُ على هذا أحَدٌ غيرُ الله، وفي ذلكَ دَلائلُ على تَوحيده، وعلى قُدرتِهِ وعَظَمتِه، لمنْ يَســـمعُ هذهِ الأدلَّةَ ويَتدبَّرُها، ويَتنبَّهُ إليها ولا يَغفُلُ عنها.

{قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّـمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [يونس: ٦٨]

٦٨- وقالَ المشـرِكونَ إنَّ للهِ ولَدًا، كقَولِ الكافِرينَ إنَّ الملائكةَ بَناتُ الله، وقَولِ النصـارَى إنَّ عيسَـــى بنَ مريمَ ابنُ الله، وقولِ اليهودِ إنَّ عُزَيرًا ابنُ الله! تَقدَّسَ اللهُ وتنزَّهَ عنْ ذلك، هوَ الغنيُّ عنْ كلِّ ما خَلقَه، ولهُ جميعُ ما في السَّـماواتِ والأرض، وهمْ تحتَ سُـلطانهِ وقَهرِه، ومُفتَقِرونَ إلى تَدبيرِه.

ليستْ لكمْ أيَّةُ حُجَّة، ولا تَملِكونَ أيَّ بُرهانٍ على قَولِكمْ إنَّ للهِ ولَدًا، سِوَى الكَذبِ والبُهتان.

أتقولونَ على اللهِ العَظيمِ شَيئاً لا تَعرِفونَه، ولستُمْ مُتأكِّدينَ منهُ ولا مُتَثَبِّتين؟
إنَّ اللهَ واحِدٌ أحَد، ليسَ ذا طَبيعةٍ بَشَرِيَّةٍ حتَّى يَتَّخِذَ منَ البَشَرِ ولَداً. فالبَشَرُ يولَدونَ ويَموتون، واللهُ لم يَلِد، ولا يَموت. والبشَرُ مُحتاجُونَ إلى الله، واللهُ ليسَ مُحتاجًا إلى أحَدٍ منهم.

{قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ} [يونس: ٦٩]
٦٩- قُلْ أيُّها الرسُولُ الكريم: إنَّ الذينَ يَكذِبونَ على الله، ويَنسِبونَ إليهِ الشَّريكَ والولَد، لا يَنجُونَ مِنَ العِقاب، ولا يَفوزونَ بالنَّعيم.

{مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ} [يونس: ٧٠]
٧٠- إنَّ ما فيهِ المشرِكونَ اليَومَ في الحَياةِ الدُّنيا، ما هوَ إلاّ مَتاعٌ قَليل، ونَعيمٌ زائل، وسَوفَ تَنقَضي آجالُهُمْ جَميعًا، ثمَّ إلينَا مَرجِعُهمْ يومَ القيامة، لِنُذيقَهمُ العَذابَ الأليمَ والشَّقاءَ المؤبَّد، بسَبَبِ كُفرِهمُ المستَمِرّ، وافترائهمُ الكذِبَ على الله.

{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ} [يونس: ٧١]
٧١- واقْصُصْ على المشرِكينَ الذينَ يُكَذِّبونكَ ويُخالِفونَك، خبَرَ رَسولِنا نوحٍ عليهِ السَّلامُ معَ قَومِهِ الذينَ كَذَّبوه؛ ليَعتَبِروا، وليَحذَروا أنْ يُصيبَهمْ ما أصابَهم، فقدْ قالَ لقَومِه، وكانوا في بِلادِ العِراق، وقدْ لَبِثَ فيهمْ ألفَ سَنةٍ إلاّ خَمسينَ عامًا: إنْ كانَ عَظُمَ وشَقَّ عليكمْ طُولُ مَكثي بينَ ظَهرانَيكم، وتَذكيري إيّاكمْ بحُجَجِ اللهِ وبيِّناتهِ الدالَّةِ على تَوحيدِه، وببُطلانِ ما أنتُمْ عليهِ منَ الشِّرك، فإنَّني لا أُبالي بذلكَ منكم، ولا أنتهي عنْ دعوتِكمْ إلى الحقِّ والهُدَى، وفوَّضتُ أمري إلى الله، فهوَ ناصِري ومُؤيِّدي.
فاجتَمِعوا أنتُمْ وشُركاؤكُمُ الذينَ تَعبدونَهم، ثمَّ لا تَجعَلوا أمرَكمُ الذي اجتَمعتُمْ عليهِ مَستورًا مَخفيًّا، بلْ أظهِروهُ واجهَروا به، فإذا زعَمتُمْ أنَّكمْ مُحِقُّون، فأدُّوا إليَّ ما انتهَتْ إليهِ مَشورَتُكم، ولا

تُمهِلوني ولا تَستأذِنوني للأُهبَةِ والاستِعدادِ إذا أردتمُ الإضرارَ بي، فإنِّي لا أبالي بكم، ولا أخافُ منكم، ولا آبَهُ بظُنونِكمْ وتَخرُّصاتِكم، لأنَّكمْ لستُمْ على شَيء.

{فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [يونس: ٧٢]

٧٢- فإذا كذَّبتُمْ وأعرضــتُمْ عنْ طاعةِ الله، فإنِّي لم أطلُبْ منكمْ أجرًا مُقابِلَ تَذكيري ووَعظي إيَّاكمْ حتَّى أتَضرَّرَ مِنْ قَطعِهِ عنِّي، فأنا مُستَغْنٍ عنْ أموالِكم، بطلَبي الأجرَ والثوابَ على ذلكَ منَ اللهِ وحدَه، وأُمِرتُ أنْ أكونَ مُسلِماً مُخلِصاً، لا أبتَغي بالدَّعوةِ مالاً ولا غيرَه.

{فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ} [يونس: ٧٣]

٧٣- فأصَــرُّوا على تَكذيبِ نوح، فأنجَيناهُ ومَنْ آمنَ معَهُ في السَّــفينة، وجَعلناهُمْ خَلَفًا في الأرضِ عنِ الذينَ أُغرِقوا في الطُّوفان، وأغرَقنا الذينَ كذَّبوهُ جَميعًا ولم نُبْقِ منهمْ أحَدًا. فانظُرْ ماذا كانتْ نتيجةُ مَنْ أنذَرناهُمْ وخَوَّفناهُم، الذينَ كفَروا برسَــالةِ نبيِّهم، ولم يَنجَعْ فيهمُ الوَعظُ والتَّذكير، والإنذارُ والتَّحذير، فكانَ عاقِبتَهمُ الهلاكُ.

{ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ} [يونس: ٧٤]

٧٤- ثمَّ بَعثنا منْ بعدِ نُوحٍ رُسُــلاً إلى أقوامِهم، فجَاؤوهمْ بالمعجِزاتِ والأدلَّةِ الواضِـحات، فما كانوا ليؤمِنوا بها، كما لم يؤمنِ السَّـابقونَ برُسُـلِهمْ وبرِسـالاتِهم، بلْ كذَّبوهم، فطَبيعتُهمْ واحِدة، ومَوقِفُهمْ واحِد، وهوَ الكفرُ والعِناد، وعدَمُ التدبُّرِ والتفكُّر. وحسَــبَ سُـنَّةِ اللهِ تعالَى، فإنَّ مَنْ أغلَقَ قلبَهُ أمامَ نُورِ الإيمان، وحجَّرهُ بالعِناد، وغَلَّفَهُ بالاســتِكبار، ومنعَ دُخولَ نَسْــمَةِ الكلمةِ الطيِّبةِ إليه، فإنَّ اللهَ لا يَهديه.

{ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ} [يونس: ٧٥]

٧٥- ثمَّ بَعَثنا منْ بعدِ أولئكَ الرسُلِ موسَى وأخاهُ هارونَ إلى فِرعَونَ وقَومِه، بحُجَجِنا ومُعجِزاتِنا، فتَكبَّروا وعانَدوا، وأبَوا اتِّباعَ الحقّ، وكانوا قَومًا كافِرينَ مُجرِمين، مُرتَكبينَ لذُنوبٍ عَظيمة.

{فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ} [يونس: ٧٦]

٧٦- فلمّا رأوا المعجِزات، وهيَ حقٌّ ثابتٌ مِنْ عندِ الله، وليستْ بتخيُّلاتٍ وتمويهَات، وظهرَ أمرُها واضِحاً، قالوا في عِنادٍ وعُتوّ: إنَّ هذا سِحرٌ واضِحٌ بَيِّن.

{قَالَ مُوسَى أَتقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ} [يونس: ٧٧]

٧٧- قالَ لهمْ نبيُّهمْ موسَى عليهِ السَّلام، مُنكِراً عليهمْ جَوابَهمْ ومَوقِفَهمُ السيِّء: أتقولونَ للحَقِّ الذي جاءَكمْ مِنْ عندِ ربِّكمْ إنَّهُ سِحر؟ أسِحرٌ هذا، والسِّحرُ ليسَ دِينًا، ولا مِنْهَجًا للهِداية، وليسَ فيهِ عَقيدَةٌ ودَعوَةٌ ربّانيَّة، وما كانَ السَّحرةُ لِيفوزوا بحَقٍّ وصَلاح، وشَأنُهمُ الكَذِبُ والتَدْجِيل.

{قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ} [يونس: ٧٨]

٧٨- قالَ فِرعَونُ وَمَلَؤهُ لموسَى عليهِ السلام، وقدْ خافُوا على مَناصِبِهمْ وعَقائدِهمُ الفاسِدة: أجِئتَنا لتَصرِفَنا عنِ الذي وجَدنا عليهِ آباءَنا منْ عِبادةِ غيرِ الله، ويَكونَ لكَ ولأخيكَ هارونَ المُلْكُ والسُّلطانُ في أرضِ مِصر، وتَنفَرِدا بالعَظَمةِ والرئاسَةِ دونَنا؟! لا نُصَدِّقُكما فيما جِئتُما به، ولا نُتَّبِعُكما على دينِكما، مهما أتَيتُما بهِ منْ أدلَّةٍ ومُعجِزات!

{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ} [يونس: ٧٩]

٧٩- وقالَ فِرعَونُ لكُبراءِ دَولَتِهِ مِنْ ذوي مَشورَتَهِ، في غَطرَسةٍ وتَحَدٍّ لنبيِّ اللهِ موسَى: ائتُوني بكلِّ سَاحِرٍ منْ أرضِ مِصرَ يَكونُ حاذِقًا ماهرًا في فُنونِ السِّحر، ليُجابِهوا بهِ سِحرَ موسَى.

{فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُواْ مَا أَنتُم مُّلْقُونَ} [يونس: ٨٠]

٨٠- فلمّا اجتمعَ السحَرَةُ في مَيدانِ التحَدِّي، قالَ لهمْ موسَى في ثَباتٍ وإيمان: أَلْقُوا الذي عندَكمْ منَ العِصيِّ والحِبالِ وما كانَ منْ أنواعِ السِّحر.

{فَلَمَّا أَلْقَواْ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ} [يونس: ٨١]

٨١- فلمّا أَلْقَوا ما بأيدِيهم، وخيَّلوا للنَّاسِ صُوَرًا وأشْكالاً عَظيمةً روَّعَتهُم، قالَ لهمْ موسَى: إنَّ هذا الذي فَعلتُموهُ سِحرٌ للأنظَار، وهوَ تَخييلٌ وتَزييفٌ لا أصلَ لهُ منَ الحَقيقة، ولا يُضاهي شَيئاً منْ مُعجِزَةِ اللهِ الحَقيقيَّة، وسَوفَ يُظهِرُ اللهُ فَسادَهُ وبُطلانَهُ للنَّاس، واللهُ لا يُصلِحُ عملَ المفسِدينَ الذينَ يُضَلِّلونَ الناس، ولا يؤيِّدُ أعمالَهُمْ ولا يُدِيمُها، بلْ يُزيلُها ويُظهِرُ بُطلانَها.

{وَيُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} [يونس: ٨٢]

٨٢- ويُثَبِّتُ اللهُ الحقَّ ويُقَوِّيه، ولو كَرِهَ المجرِمونَ ذلك، مِنَ السَّحَرَةِ والطُّغاةِ والمكذِّبين، فَكراهَتُهمْ لا تُعَطِّلُ مَشيئةَ الله، ولا تَحُولُ دونَ إظهارِ الحقّ.

{فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ} [يونس: ٨٣]

٨٣- وعلى الرَّغمِ منَ الأدلَّةِ الكافيةِ على صِدقِ رسالةِ موسَى عليهِ السَّلام، إلاّ أنَّهُ لم يؤمِنْ بهِ إلاّ أولادُ بَعضِ بَني إسْرائيل، وكانوا على خَوفٍ ووَجَلٍ منْ بَطْشِ فِرعَونَ ومُلاحقَةِ كِبارِ قَومِهِ لهم، خَوفًا منْ تَعذيبِهمْ لهمْ وصَرفِهِمْ عنِ الدِّينِ الحقِّ الذي اعتَنقوه.

وكانَ فِرعَونُ مُتَكبِّرًا مُتَعَجرِفًا، وحاكِمًا طاغيةً مُتجَبِّرًا، ذا حُكومةٍ قويَّةٍ وبَطشٍ وإرهاب، مُتجاوِزًا الحدَّ في الظُّلمِ والفَساد، بسَفكِ الدِّماءِ والإهانةِ وبَثِّ الرُّعبِ والتكبُّرِ... حتَّى ادَّعَى الرُّبوبيَّة!

{وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ} [يونس: ٨٤]

٨٤- وقالَ موسَى لمؤمِني قومِهِ عندَما رأى تَخَوُّفَهم: يا قَوم، إذا كنتُمْ صَادِقينَ في إيمانِكم، مُتمَسِّكينَ بعَقيدتِكمْ حقّاً، ففَوِّضوا أمرَكمْ إلى اللهِ واعتَمِدوا عليه، فإنَّهُ كافيكُمْ كلَّ شَرٍّ وضُرّ، هذا إذا كنتُمْ مُستَسلِمينَ لقضاءِ الله، مُخلِصينَ له.

{فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [يونس: ٨٥]

٨٥- فقالَ قَومُهُ المؤمِنون: اعتَمَدنا على الله، وأخلَصنا لهُ العِبادةَ والدُّعاء. اللهمَّ لا تُمَكِّنْ أعداءَنا منّا، ولا تُسَلِّطْهُمْ عَلينا، فيُعَذِّبونا ويَصرِفونا عنْ دينِنا، فإنَّهُمْ جبَّارونَ ظَالِمون، لا يَعرِفونَ رَحمَة، ولا يُراعُونَ حقًّا.

{وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [يونس: ٨٦]

٨٦- وخلِّصْنا برَحمَتِكَ وإحسانِكَ منَ القَومِ الكافِرين، الذينَ لا يَتَّصِفونَ بإيمانٍ يَردَعُهم، ولا إحسانٍ يَمنَعُهم.

{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [يونس: ٨٧]

٨٧- وأوحَينا إلى نبيِّ اللهِ موسَى وأخيهِ هارونَ أنِ اتَّخِذا للمؤمِنينَ منْ قَومِكما بُيوتًا تَكونُ معابِد يَتعَبَّدونَ فيها، واجعَلوا وجوهَ بيوتِكمْ إلى القِبلة - وكانوا يَتوجَّهونَ إلى الكَعبةِ في صَلاتِهم، وفي قولٍ إنَّ بيوتَهمْ قِبلتُهم -. وحافِظوا على إقامةِ الصَّلاةِ كما فُرِضَتْ عَليكم. وبَشِّرِ المؤمنينَ بالنَّصرِ في الدُّنيا، وبالأجرِ الكبيرِ في الآخِرَة.

{وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [يونس: ٨٨]

٨٨- ولما استَمرَّ فِرعَونُ وقومُهُ في الضَّلالِ والفَساد، وازدَادوا ظُلمًا وتَكبُّرًا، دعَا موسَى ربَّهُ قائلاً: اللهمَّ إنَّكَ أعطيتَ موسَى وكُبراءَ قَومِهِ زِينةَ الدُّنيا ومَتاعَها، وأموالاً كثيرةً في هذهِ الحياةِ الدُّنيا، وينشأُ عنْ ذلكَ إضلالُ النَّاسِ عنْ سَبيلِك، فيُذِلُّونَ الآخَرينَ بقوَّةِ مالِهم، أو يُغْرُونَهَمْ بالبذَخِ والغِنَى الذي همْ فيه، فلا يَصمُدونَ أمامَ إغْراءِ الدُّنيا، فيَتَّبِعونَهم. اللهمَّ فأهلِكْ أموالَهم، وأذهِبْ غِناهُمْ وترَفَهُم، وأزِلْ عنهمْ هذهِ الوَسيلةَ الطَّاغيةَ في الظُّلم، والقوَّةَ المغرِيَةَ في الفَساد، حتَّى لا يَنتَفِعوا بها، واجعَلْ قلوبَهمْ قاسِيةً مُستَغْلَقَة، ما دامُوا يَزدادونَ إصرارًا وعِنادًا في الكُفر، حتَّى يأتيَهمْ عذابُكَ الشَّديدُ الموجِعُ وهُمْ كذلك، ولنْ يُقبَلَ منهمُ الإيمانُ عِندَئذ.

{قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} [يونس: ٨٩]

٨٩- قالَ اللهُ تعالَى لموسَى وهارونَ عليهما السَّلام: قدْ أجابَ اللهُ دُعاءَكما - وكانَ هارونُ يَدعو بدُعاءِ أخِيه، أو يؤمِّنُ عَليه - فاستَقيما على طاعَتي، واثبُتا على أمْري، ولا تَسلُكا طريقَ الذينَ يَجهَلونَ الحقَّ فيَتردَّدونَ ويَتخبَّطون، فإنَّكما على حَقّ، وسَيأتيكمُ النَّصرُ الذي وعَدتُكمْ به.

{وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [يونس: ٩٠]

٩٠- وخرجَ بَنو إسْرائيلَ معَ نبيِّهمْ موسَى مِنْ مصر، لكنَّ فِرعَونَ وحُشودًا حاشِدةً منْ جُنودِهِ مَضَوا إليهمْ ليُطارِدُوهمْ ويَقتلوهم.

وعَبَرنا ببَني إسْرائيلَ البحرَ، وأدركَهمْ فِرعَونُ وجُنودُهُ وهمْ في البَحر، لاحَقوهُمْ ليَقتُلوهمْ ظُلماً وعُدوانًا، لا لشَيءٍ إلاّ لإيمانِهم، فنجَّى اللهُ المؤمِنينَ إلى الطرَفِ الآخَرِ منَ البَحر، ومنَّ علَيهم بالنَّصر، وأغرقَ فِرعَونَ ومَنْ معَهُ فيه.

ولما غَمرَهُ الماءُ وعاينَ الموت، وعَلِمَ أنْ لا نَجاةَ له، قالَ مُعلِناً إيمانَه، حيثُ لا يُقْبَلُ الإيمانُ منْ أحَدٍ وهوَ في تلكَ الحال: آمَنتُ أنَّهُ لا إلهَ بحَقٍ إلاّ الإلهُ الذي آمَنَتْ بهِ بَنو إسْرائيل، وأنا مِنْ جُمْلَةِ المسلِمينَ الذينَ أسلَموا نُفوسَهمْ إلى الله!

{آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [يونس: ٩١]

٩١- آلآنَ تُؤمِنُ يا فِرعَونُ حيثُ لا مَجالَ لكَ للفِرارِ والاختِيار، بعدَ أنْ كنتَ عاصيًا مُستَكبِرًا، ضالاًّ مُفسِدًا، طاغيةً ظالِمًا؟

{فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ} [يونس: ٩٢]

٩٢- فاليومَ نُلقي بجُثَّتِكَ الهامِدةِ على مُرتَفَعٍ مِنَ الأرض، لِتَكونَ عِبرةً وعِظةً للنَّاس، ليَعلَموا أنَّ مآلَكَ هوَ الموتُ مثلَ غيرِكَ مِنْ عَبيدِ الله، وأنَّكَ كنتَ مملوكًا مَقهورًا، لا رَبًّا قاهِرًا كما ادَّعَيت. وللهِ عِبَرٌ كثيرَةٌ في هذا الكون، يَعرِفُها العُقلاءُ المتَدَبِّرون، ولكنَّ أكثرَهمْ عنها غافِلون. قالَ في "روح المعاني": لِتكونَ لمنْ يأتي بعدَكَ مِنَ الأمم، إذا سَمِعوا حالَ أمرِكَ ممَّنْ شاهدَ حالَكَ وما عَراك، عِبرةً...

وذكرَ علماءُ للتَّشريحِ والآثارِ في عَصرِنا أنَّ جُثَّةَ فِرعَونَ ما زالتْ موجودةٌ مُحنَّطة. وكانتْ سببًا لإسلامِ جرَّاحٍ عالَميٍّ مَشهور، أشرَفَ على الاهتمامِ بالجثَّةِ المهتَرئة، ووَجدَ في حَلْقِهِ أملاحًا، ممّا يَعني أنَّهُ ماتَ غَرَقًا في البحرِ كما ذُكِرَ في القُرآن، بينما لم تُذكَرْ كيفيَّةُ وفاتهِ في التَّوراةِ والإنجيل... واللهُ أعلمُ بذلك.

{وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [يونس: ٩٣]

٩٣- ولقدْ أنزَلنا بَني إسْرائيلَ مَكانًا طيِّبًا وإقامةً آمِنة - ذُكِرَ أنَّهُ بلادُ مِصرَ والشَّام، ممّا يلي بيتَ المقدِسِ ونَواحِيَه - ورَزقناهمُ الحَلالَ الطيِّب، واللَّذيذَ النافِعَ مِنَ الأطعِمة.

وما اختَلَفوا في أمورِ دينِهمْ أوَّلاً، بلْ كانوا مُتَّبِعينَ أمرَ رَسـولِهِم، ثمَّ اختَلَفوا بعدَ أنْ عَلِموا ما في التَّوراةَ ووقَفوا على أحكامِها بعدَ وفاتِه، وفسَّـروها تَفسـيراتٍ باطِلة، وأوَّلوها تأويلاتٍ بَعيدة، وتَخلَّوا عنِ العَقيدةِ الصَّـحيحة، ولازَموا جانِبَ الخِلافِ والجَدَل، بَغْيًا وحَسَـدًا بينَ بعضِـهمُ البعض، حتَّى صَاروا فِرَقًا عَديدة. وإنَّ اللهَ سيَقضي بينَهمْ يومَ القيامةِ بحُكمهِ العَدل، في الذي كانوا يَختَلِفونَ فيه، ويُظهِرُ المحِقَّ مِنْ غَيرِه.

{فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [يونس: ٩٤]

٩٤- فإنْ كنتَ في شَكٍّ مِنَ القَصَصِ المنزَلَةِ عليكَ في القُرآن، ومنها قِصَّةُ فِرعَونَ وموسَى، وأخبارُ بَني إسْرائيل، فاسألْ أهلَ الصِّدقِ ممَّنْ يَقرَؤونَ التَّوراةَ والإنجيلَ مِنْ أهلِ الكتاب، فإنَّها مُثبَتةٌ في كتُبِهم. لقدْ جاءَكَ الوحيُ الحقّ، والخبَرُ الصَّادق، والدِّينُ الخاتَم، فلا تَتردَّدْ فيما أنتَ فيه، ولا تكنْ منَ الشَّاكِّينَ في شَيءٍ مِنْ ذلك.

ولم يَشُكَّ رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّم، ولم يَسأل، ولكنَّ ما في الآيةِ تَثبيتٌ لهُ وتَنبيهٌ للمُسلِمينَ على أمُورِ دِينِهم. وقدْ نَزلتِ الآياتُ عليهِ في مكَّة، وكانَ يُلاقي عليهِ الصَّلاةُ والسلامُ أذًى وشِدَّةً وتَعَنُّتًا مِنْ قَومِه، وارتدَّ عددٌ ممَّنْ آمنَ بعدَ حَادثِ الإسراء... وكذا الأمرُ في الآيةِ التَّالية.

{وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [يونس: ٩٥]

٩٥- ولا تَكنْ أيُّها الرسُولُ ممَّنْ كذَّبَ بآياتِ اللهِ وأدلَّتِه، فتَكونَ ممَّنْ خابَ وخَسِر.

وهذا ممّا لا يُتوقَّعُ منهُ صلى الله عليه وسلم، ولكنَّهُ تَخويفٌ وترهيب، وتَعريضٌ بالشاكِّينَ المكَذِّبين، وفُرصَةٌ لمنْ شَكَّ أنْ يَسألَ حتَّى يَتوثَّقَ ويَتيقَّنَ مِنْ عَقيدَتِه، بدلَ أنْ يرتدَّ ويُكَذِّب.

{إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ} [يونس: ٩٦]

٩٦- إنَّ الذي لا يأخُذُ بأسبابِ الهُدَى لا يَهتدي، ومَنْ أغلقَ نوافِذَ القلبِ عنْ تَلقِّي ضياءِ الإيمانِ لا يؤمِن، وقدْ عَلِمَ اللهُ فيهمْ ذلك، فثبَتَ عليهمْ حُكمُهُ وقَضاؤهُ بأنَّهمْ يَموتونَ على الكُفر.

{وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [يونس: ٩٧]

٩٧- ولو كَثُرَتْ عليهمُ الأدلَّةُ الواضِحة، وأُنزِلَتْ عليهمُ المعجِزاتُ الكثيرَة، وجابَهَتهُمُ الحُجَجُ الدَّامِغة، فإنَّهمْ لا يؤمِنونَ بها، حتَّى يَنزِلَ بهمُ العَذابُ المؤلِمُ الشَّديد، عندَ ذلكَ يؤمِنون، ولكنَّهُ إيمانٌ لا يَنفَعُهم حينَذاك، فكأنَّهمْ لم يَتلَفَّظوا به.

{فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} [يونس: ٩٨]

٩٨- فهلاّ آمنَ أهلُ القُرى - مِنَ الذينَ مَرَّ ذكرُهمْ - قبلَ أنْ يَنزِلَ بهمُ العَذابُ حتَّى يَنفَعَهمْ إيمانُهم، فإنَّ الإيمانَ عندَ نُزولِ العَذابِ لا يَنفَع، إلاّ قومَ النبيِّ يونُسَ عليهِ السَّلام، فإنَّهمْ لما آمَنوا عندَ رؤيةِ أماراتِ العَذاب، كشَفنا عنهمْ ما هُدِّدوا بهِ منَ العَذابِ المخزي الذي كانَ سيَقَعُ بهمْ في الدُّنيا، وتُركوا ليَتَمَتَّعوا في الحياةِ حتَّى وقتِ انقِضاءِ آجالِهم.

{وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ} [يونس: ٩٩]

٩٩- ولو شاءَ اللهُ أنْ يؤمِنَ النَّاسُ كلُّهمْ، لآمَنوا جميعًا ولم يَتخَلَّفْ منهمْ أحَد، ولكنَّهُ سُبحانَهُ شاءَ أنْ يَترُكَ لهمْ حُرِّيَّةَ الاعتِقادِ والاختِيار، بعدَ أنْ زوَّدَهُمْ بالعَقل، وبيَّنَ لهمْ طريقَ الخَيرِ والشرّ، ليَكونوا مَسؤولينَ عنِ اختيارِهم، أفأنتَ تُجبِرُ الناسَ ليؤمِنوا - أيُّها النبيُّ - ولم يُجْبِرْهمُ اللهُ على ذلك؟ فإنَّ هذا ليسَ لك.

{وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ} [يونس: ١٠٠]

١٠٠- ولنْ تؤمِنَ نَفسٌ إلاّ بإذنِه وإرادَتِه، ولنْ يَكونَ هناكَ أمرٌ بخلافِ مَشيئتِهِ سُبحانَه، فلنْ تؤمِنَ نَفسٌ منَ النُّفوسِ التي عَلِمَ اللهُ أنَّها لنْ تؤمِن، ولنْ يَكفُرَ مَنْ كانَ في سَـــابقِ عِلمِهِ أنَّهُ لا يَكفُر، فهوَ العالِمُ مُسبَقًا بمَنْ فتحَ قلبَهُ للإيمان، وبمنِ استَكبرَ عنْ قَبولِ الحقِّ وأصَرَّ على الكُفر، فهذا كلُّهُ في سَابقِ عِلمِه.

وقالَ صـاحِبُ الظِّلال: "المقصودُ أنَّها لا تَصِـلُ إلى الإيمانِ إلاّ إذا سـارَتْ وفقَ إذنِ اللهِ وسُنَّتِهِ في الوصُولِ إليهِ منْ طَريقهِ المرسُومِ بالسنَّةِ العامَّةِ [يَعني سُلوكَ مسالِكَ الهُدَى] وعندَئذٍ يَهديها اللهُ ويَقعُ لها الإيمانُ بإذنِه، فلا يَتِمُّ وُقوعُهُ إلاّ بقَدَرٍ خاصٍّ به، إنَّما الناسُ يَســـيرونَ في الطَّريق، فيُقَدِّرُ اللهُ لهمْ عاقِبةَ الطريق، ويُوقِعُها بالفِعلِ جزاءَ ما جاهَدوا في اللهِ ليَهتَدوا".

ويَجعَلُ اللهُ الكُفرَ والضَّــلالَ على الذينَ لا يَســتَعملونَ عُقولَهُمْ في فَهمِ آياتِ الله، فهوَ العادِلُ الحَكيم، الذي يَهدي مَنْ أقبلَ إليه، ويُضِلُّ مَنْ أبَى.

{قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ}

[يونس: ١٠١]

١٠١- قُلْ لهؤلاءِ الكافِرين: تَفَكَّروا في خَلْقِ السَّــماواتِ والأرض، وما بثَّ فيهما مِنْ بَديعِ صُـــنعِه، وعَجائبِ حِكمتِه، فهذهِ الأقمارُ والنُّجوم، واختِلافُ اللَّيلِ والنَّهار، والسَّـــحابُ والهَواء، والمطَرُ والثَّلج، والبَراري والبِحارُ وما فيها، والزُّروعُ والثِّمار، وأصـــنافُها وفوائدُها... ثمَّ الحيَوانُ وتَكوينُهُ، والأرْواحُ السَّـــاكنةُ فيه، والإنســـانُ وتَفكيرُهُ وفَهمه، وجوارِحهُ وحواسُّـــهُ وحركاتُه...، وما لا يُحصَـى مِنْ خَلقِ الله، وما فيهِ مِنْ حِكَمٍ وأسْــرار... لكنَّ كلَّ هذا الكونَ وما فيه، والطبيعَةَ وما تَحكيه، والرُّسُلَ وما يُنذِرون، لنْ يُفيدَ قومًا لا يُريدونَ الإيمان.

{فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ}

[يونس: ١٠٢]

١٠٢- فهلْ يَنتَظِرُ هؤلاءِ المكَذِّبونَ إلاّ مثلَ ما نَزلَ منْ بأسِ اللهِ ونِقمتِهِ بمَنْ كذَّبوا رُسُـلَهمْ مِنْ قَبل؟

وقُلْ للكافِرينَ مِنْ قَومِك: إذاً فانتَظِروا ما تأمُلونَ منْ هَلاكي، فإنِّي مُنتَظِرٌ هَلاكَكم.

{ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ} [يونس: ١٠٣]

١٠٣- ثمَّ نُنَجِّي رسُلَنا والذينَ آمَنوا بهِمْ عندَ نُزولِ العَذاب، ونُهلِكُ المكَذِّبينَ بهم، وكما أنجَينا المؤمِنينَ مِنْ قَبل، فكذلكَ نُنْجِيهمْ بعدَ كلِّ تَكذيب، حقًّا واجِبًا، كتبَهُ اللهُ على نفسِهِ الكريمة.

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِنْ أَعْبُدُ اللّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [يونس: ١٠٤]

١٠٤- قُلْ يا نبيَّ الله: أيُّها النَّاس، إنْ كنتُمْ في رَيبٍ منْ صِحَّةِ الدِّينِ الذي أدعوكُمْ إليه، وأتَعبَّدُ اللهَ على هَدْيه، فإنَّني لا أترُكُهُ أبدًا، ولا أعبدُ الأصنامَ التي تَعبدُونَها مِنْ دونِ الله، ولكنْ أعبدُ اللهَ وحدَه، الذي بيدِهِ آجالُكم، أحياكم، ثمَّ يُميتُكم، ثمَّ يُحييكُمْ للحِسابِ والجَزاء، فهوَ الإلهُ الذي يَستَحِقُّ العبادة، وليسَ أصنامَكمُ التي لا تُحيي ولا تُميت، ولا تَضرُّ ولا تَنفَع. وأوجبَ اللهُ عليَّ أنْ أكونَ منَ المؤمنين، فأنا عندَ أمرِه.

{وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يونس: ١٠٥]

١٠٥- وأقِمْ وجهَكَ أيُّها الرسُولُ لدِينِ اللهِ المستَقيم، المائلِ عنِ الأديانِ الباطِلةِ إلى دينِ الإسلام، واصرِفْ ذاتَكَ وكُلِّيتَكَ له، واجتَهِدْ في ذلكَ بأداءِ الفرائضِ وجَميعِ ما أمركَ اللهُ به، وأخلصِ العبادةَ له، ولا تَلتَفِتْ إلى اعتِقاداتِ المشرِكينَ الضالَّةِ وأعمالِهمُ السيِّئة.

{وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ} [يونس: ١٠٦]

١٠٦- ولا تَعبُدْ مِنْ دونِ اللهِ ما لا يَنفَعُكَ إنْ أطَعتَه، ولا يَضُرُّكَ إنْ تركتَه، فإذا فعلتَ ذلكَ كنتَ في عِدادِ المشرِكينَ الظَّالمين، الذينَ يَضرُّونَ بأنفسِهم، ويَستَحِقُّونَ عليهِ العَذابَ الأليم. وهوَ تذكيرٌ وتَحذيرٌ للأمَّة، وتَرهيبٌ ووعيدٌ لمنْ فَعلَ ذلك.

{وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [يونس: ١٠٧]

١٠٧- وإذا أصابَكَ اللهُ بسُوء، كشِدَّةٍ ومَرض، فلا يَستَطيعُ أحَدٌ أنْ يَرفعَهُ عنكَ إلاّ هو، وإذا أرادَ أنْ يُصيبَكَ بخَير، كرزقٍ وعافِية، فلا أحَدَ مِنْ خَلقِهِ يَستطيعُ أنْ يُبعِدَ فضلَهُ عنك، فالخَيرُ والفَضلُ بيدهِ سُبحانَه، والعُقوبَةُ والضرُّ بيَدهِ كذلك، يُعطيها ويوْقِعُها بمَنْ شاءَ منْ عبادِه، بعَدْلِهِ وحِكمَته، فهوَ وحدَهُ المستَحِقُّ للعِبادة، وهوَ الذي يَغفِرُ ذُنوبَ التَّائبينَ المنيبين، ويَرحَمُهمْ إنْ أخلَصوا وصَدقُوا في تَوبتِهم، فلا يُعَذِّبُهم.

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ} [يونس: ١٠٨]

١٠٨- قُلْ يا نبيَّ الله: أيُّها النَّاس، لقدْ جاءَكمُ الحقُّ مِنْ ربِّكم، وهوَ القُرآنُ العَظيم، ودِينُ اللهِ القويم، فمنِ اختارَ الهِداية، والإيمانَ والطَّاعَة، فإنَّ مَنفَعةَ هدايتِهِ تَعودُ على نفسِه، ومنِ اختارَ الضَّلالَ والكُفرَ والعِصيان، فوَبالُ اختيارِهِ يَعودُ على نَفسِهِ كذلك.

وقُلْ لهم: لستُ موَكَّلاً بكمْ حتَّى تَكونوا مُؤمِنين، ولا حافِظًا لكمْ لمنعِكمْ منِ اعتِقادِ الباطل، إنَّما أنا بَشيرٌ ونَذير، ما عليَّ إلاّ البلاغ.

{وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} [يونس: ١٠٩]

١٠٩- واتَّبعْ في جَميعِ شُؤونِكَ ما أوحَى اللهُ بِهِ إليك، وتَمسَّكْ بما أمرَكَ به، واصبِرْ على مَشاقِّ طَريقِ الدعوةِ ومُخالَفةِ مَنْ ضَلّ، حتَّى يُظهِرَ اللهُ دينَه، وهوَ أحسَنُ مَنْ قضَى، وأعدَلُ مَنْ حَكَم، لا يُخطِئُ في حُكمِه، ولا يُرَدُّ قَضاؤه.

سورة هود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [هود: ١]

١- الحروفُ المقَطَّعةُ لم يَرِدْ في مَعناها حديثٌ ثابِتٌ صَحيح.

القرآنُ الكريم، كتابُ اللهِ العَظيمُ الشَّأن، الذي أُحكِمَ بِناؤه، ودَقَّ لَفظُه، وأُحسِنَ نَظمُه، لا اختلافَ فيهِ ولا تَناقُض، ولا تَضارُبَ فيهِ ولا تَباعُد. ثمَّ فُصِّلَتْ آياتُه، وجُعِلَتْ مَوضوعاتُها في أمُورِ الناسِ وما يُهِمُّهمْ في دُنياهُمْ وآخِرَتِهم، فاشتملَتْ على العَقيدة، والأحكام، والقَصَص، والأخلاق، وما يَتفرَّعُ منها. فهوَ كلامٌ مُتقَنٌ حَكيم، نزلَ مِنْ عندِ الله، الحَكيمِ في أقوالِهِ وقَضائه، الخبيرِ بالأمُورِ وعواقِبِها، العالِمِ بما يُصلِحُ بهِ شُؤونَ عِبادِه.

{أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ} [هود: ٢]

٢- وقدْ أنزلَ اللهُ كتابَه، وأحكمَ آياتِه، وبيَّنها لكم، لئلاّ تعبُدوا إلا إيّاه، ولِتَعرِفوا كيفَ تُخلِصونَ العِبادةَ له، فهي وظيفتُكمُ الأساسيَّةُ في الحياة.

وقُلْ للنَّاسِ أيُّها النبيّ: إنَّني مُرسَلٌ إليكمْ مِنْ قِبَلِ اللهِ تعالَى، أُنذِرُكمْ عذابًا إذا أعرضتُمْ عنْ طاعتِه، وأُبَشِّرُكمْ ثوابًا إذا آمنتُم وأطَعتُم.

{وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ} [هود: ٣]

٣- واطلُبوا المغفِرةَ منَ اللهِ لذُنوبِكم، وتوبُوا إليهِ منها، ولا تَعودوا إليها، ليَمنحَكمْ حياةً طيِّبة، فيها أمنٌ وعافِية، وسَكَنٌ وراحَة، حتَّى يأتيَ أجَلُكمُ المقدَّرُ لكم، وليُعطيَ كلَّ ذي فَضلٍ وحسَنةٍ في الدُّنيا جَزاءَ فَضلِهِ وإحسانِهِ في الآخِرَة. فإذا أعرَضوا عنْ أمرِ الله، وأصَرُّوا على تَكذيبِ رَسولِ اللهِ ورسَالتِه، فقُلْ لهم: إنِّي أخافُ أنْ يَنالَكمْ يومَ القِيامةِ عَذابٌ شَديدٌ لا مَفَرَّ لكمْ منه، ولا ناصِرَ لكمْ يومَئذٍ يُخَلِّصُكمْ منه.

{إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [هود: ٤]

٤- وسَــوفَ تَموتون، ثمَّ يُحييكمُ الله، لتُرجَعوا إليهِ أخيرًا، فيُجازيكمْ على أعمالِكمْ يومَ البَعث، ويُخبِرُكمْ بمصـــيرِكمُ الذي هوَ نتيجةُ أعمالِكم، وهوَ القادِرُ على كلِّ شَـــيء، على خَلقِكم، وإماتَتِكم، وبَعثِكم، ثمَّ مُحاسبتِكم، وما يَترتَّبُ عليها.

{أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [هود: ٥]

٥- إنَّ المشــرِكينَ إذا رأوْكَ تَقرأ كتابَ الله، أَثْنَوا صُــدورَهمْ وأحنَوا رُؤوسَــهمْ حتَّى يَتهرَّبوا مِنْ سَماعِه، تَخَفِّيًا مِنَ الله! ولِما يَعتَريهمْ مِنْ قَلقٍ وحَيرَة، وكأنَّهم يُحِسُّــونَ في دَاخلِهمْ أنَّ هذا كلامُ الله، ويَخشَونَ إنِ استَمَرُّوا على سَماعِهِ أنْ يُسلِموا! ألا فليَعلَمْ هؤلاءِ الغافِلون، أنَّهمْ إذا مضَوا إلى فُرُشِهمْ ليناموا، وتغَطَّوا بأستارِهم، وتَفكَّروا بما يَجري لهمْ في أعماقِهم، فإنَّ اللهَ ناظِرٌ إليهم، عالِمٌ بما يُخفُونَ، وسِرُّهمْ عندَهُ كظاهرِهِم، وهوَ سُبحانَهُ عليمٌ بما تُخفيهِ الصُّدور، لا يَخفَى عليهِ شَيء.

سورة هود (٦-١٢٣)

سورة يوسف (١-٥٢)

{وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} (هود: ٦)

٦- وليسَتْ هُناكَ دابَّةٌ في الأرض، مِنْ إنسان، وحَيَوان، وطَير، وسَمَك، وحَشَرة... إلاّ وقدْ تَكفَّلَ اللهُ برزقِها، فقدْ أودعَ في السَّماءِ والأرضِ أرزاقًا مَذخورةً تَكفيها كلَّها، وجعلَ في هذهِ الدوابِّ إمكاناتٍ لتَحصيلِها.

وعِلمُهُ مُحيطٌ بها جَميعًا، يَعلَمُ أينَ تَذهَبُ وأينَ تَجيءُ وأينَ تَقِفُ في سَيرِها، ويَعلَمُ أينَ تَبيتُ وتأوي، معَ كثرَتِها وتنوُّعِها، وكلُّ ذلكَ مكتوبٌ ومُثْبَتٌ في اللَّوحِ المحفوظِ قبلَ خَلقِها: وجودُها، وتحرُّكُها، ورِزقُها...

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ} (هود: ٧)

٧- وهوَ الخالِقُ المبدِع، الذي خَلقَ السَّماواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيّام، وكانَ عَرْشُهُ على الماء، وأودعَ فيهما ما تَحتاجونَ إليه، وما تَستَدِلُّونَ بهِ على الخَالِق، وأودعَ فيكمُ الاستِعداداتِ والطَّاقاتِ المادِّية والمعنويَّةَ الملائمةَ لِما سَخَّرَهُ لكمْ فيهما، ليَختَبِرَكمْ، ويَنظُرَ في مواقِفِكمْ وأعمالِكم، في الذي تَستَخدِمونَهُ وتتعامَلونَ به، فيما يَنفَعُ أو فيما يَضُرّ، وهلْ تتَّبِعونَ الحقَّ الذي بيَّنَهُ لكمْ ربُّكم بواسِطَةِ رسُلِه، أمْ تَضِلُّونَ وتَكفُرون؟

ولئنْ قُلتَ لهؤلاءِ المشركين: إنَّكمْ ستُبعَثونَ بعدَ مماتِكمْ ليُحاسِبَكمُ اللهُ على أعمالِكم، استَهزَؤوا بكلامِك، وقالوا مُنكِرينَ ذلكَ مُستَبعِدين: إنَّ ما تَقولُهُ خَديعَةٌ وبُطلان، لا واقِعَ لهُ ولا أسَاس.

{وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} (هود: ٨)

٨- وإذا أخَّرنا عنهمُ العَذابَ الدُّنيويَّ إلى أجَلٍ مَعدود، لِحكمةٍ يَعلمُها الله، قالوا في جَهلٍ وحُمْق: أيُّ شَيءٍ يَحبِسُ العَذاب، وما الذي يَمنَعُ مَجيئَه؟ يَعنونَ أنَّهُ ليسَ بشَيء.

وإنَّ اليومَ الذي يأتيهمْ - وفيهِ العَذابُ - لا يُرفَعُ عَنهم، ولا يَستطيعُ أحَدٌ أنْ يَدفَعَهُ عنهم، بلْ سيُحيطُ بهمْ جزاءَ استهزائهمْ وكُفرهِم.

وكانَ في تأخيرِ العَذابِ عنهمْ رحمةٌ منَ اللهِ بهم، فقدْ أسلَموا منْ بعد، ونَفَعَ اللهُ بهم، وفتَحَ بهمْ فُتوحَات...

{وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ} (هود: ٩)

٩- وإذا أنعَمنا على الإنسانِ نِعمَة، مِنْ غِنىً وصِحَّةٍ وأمن، وذاقَ لذَّتَها، واستَمتعَ بها، ثمَّ سَلبناها منه، وجدتَهُ مَهمومًا مَغمومًا على ما أصابَه، يائسًا منْ رُجوعِ رحمةِ اللهِ إليه، جاحِداً بتلكَ النِّعمَة.

{وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ} (هود: ١٠)

١٠- وإذا أعطَيناهُ نِعمةً منْ عندِنا بعدَ شِدَّةٍ وبَلاءٍ أصابَه، قال: زالتِ الشَّدائدُ عنّي، فهوَ بذلكَ فَرِحٌ فَخور، مُغترٌّ مُتَعاظِمٌ على النَّاس، لا يَحسُبُ لزوالِها حِسابًا. وذاكَ دأبُ الكافِرينَ وضَعيفي الإيمان.

{إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} (هود: ١١)

١١- أمّا المؤمِنونَ الصَّابِرون، الذينَ أتْبَعوا إيمانَهمْ بالعمَلِ الصالِحِ الموافِقِ للدِّين، وأخلَصوا للهِ فيه، فإنَّهمْ إذا أصابَتْهُمْ شِدَّةٌ صَبَروا حتَّى يأتيَ اللهُ بالفرَج، وإذا أنعمَ عليهمْ بالخَيرِ والعَافيةِ

شَـــكروا ولم يَبْطَروا، ولم يَنسَـــوا حُقوقَ الناس، فأولئكَ الذينَ يَغفِرُ اللهُ ذُنوبَهم، ويُثيبُهمْ على أعمالِهِمُ الحسَنةِ ثوابًا عَظيمًا؛ جَزاءَ صَبرِهِمْ على الشَّدائد، وشُكرِهِمْ على النِّعَم.

{فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَـآئِقٌ بِهِ صَـدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} (هود: ١٢)

١٢- فلعلَّكَ تَترُكُ أيُّها الرسُـولُ تَبليغَ بعضِ ما أوحَى اللهُ إليكَ مِنَ القُرآن، ويَضِـيقُ صَـدرُكَ بكلِماتِ الكافِرينَ التي تُنْبِئُ عنْ مواقِفِهمُ السيِّئةِ منه.

و"لعلَّ" هنا ليسَ استفهامًا خالِصًا، بلِ المرادُ منهُ الزَّجْر. وكانَ الكافِرونَ يَستَهزِؤونَ بالقُرآن، فيَضيقُ صَدرُ الرسُولِ صلى اللهُ عليه وسلم أنْ يُسمِعَهُمْ ما لا يَقبَلونَهُ ويَضحَكونَ منه، فأثارَتِ الآيةُ عزيمَتَهُ لئلاّ يَنالَ منها ذلك.

وقالَ الكافِرون: هلاّ نزلَ على هذا الرسُولِ مالٌ كَثير، أو جاءَ معَهُ مَلَكٌ يُصَدِّقهُ حتَّى نُصَدِّقَه؟ فلا يَضِـقْ صَـدرُكَ بهذا وبغَيرِهِ منْ كلامِهمْ ومُقتَرَحاتِهِمُ التي يَقولونَها تَعجيزًا واستِهزاء، لا طَلَباً للإيمان، فلستَ موَكَّلاً بهِمْ وبإيمانِهم، إنَّما أنتَ مُبَلِّغ، واللهُ هوَ القائمُ بكلِّ شَـيء، الحافِظُ له، يَعلَمُ مَنْ يَستَحِقُّ الهِدايةَ فيَهديه، ومَنْ يَستَحِقُّ الضَّلالةَ فيُبقِيهِ عليها.

{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْـرِ سُـوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْـتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (هود: ١٣)

١٣- أمْ يَقولُ المشـرِكونَ إنَّ محمَّدًا (صلى الله عليه وسلم) اختلقَ القُرآنَ مِنْ عندِهِ وليسَ هوَ وحيًا منْ عندِ الله؟ قلْ لهمْ أيُّها الرسُول: إذا كانَ الأمرُ كما تَقولون، فَأْتوا بعَشرِ سُوَرٍ مِنْ مِثْلِ القرآن، تكونُ في بلاغتِهِ وحُسْنِ نَظْمِهِ ودِقَّةِ مَعناه، فأنتُمْ بَشَرٌ مِثلي، وكَلِماتُ اللُّغةِ مُشَاعَةٌ لي ولكم، واستَعينوا بمَنْ شِئتُمْ مِنْ فُصَحائكمْ وبُلَغائكمْ وكُهَّانِكمْ منَ الإنسِ والجِنِّ لِيُساعِدوكمْ في الإتيانِ بمِثْلِه، إنْ كنتُمْ صَادِقِينَ في أنِّي قُمتُ بتأليفِ القرآنِ مِنْ عِندي.

{فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ} (هود: ١٤)

١٤- فإذا لم يَستَجِبْ لكمُ المشرِكونَ المعانِدونَ المستَكبِرون، فلمْ يأتوا بمثْلِ هذا القُرآنِ أو عَشرِ آياتٍ مِنْ مثلِه، فاعلَموا جَميعًا أنَّ القُرآنَ كلامُ الله، أنزَلَهُ على رسُولِهِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، فهوَ كلامٌ مُعجِزٌ لا يَقدِرُ أحَدٌ على أنْ يأتيَ بمِثلِهِ حتَّى آخِرِ الدَّهر. واعلَموا أنَّ اللهَ واحِدٌ لا شَريكَ له، وآلِهَتُكمْ أيُّها المشرِكونَ لا شِرْكَةَ لها بالله، ولو كانَ لها شَيءٌ منْ ذلكَ لساعَدَتْكمْ فيما تُعانِدونَ بهِ الرسُول، فهلْ أنتُمْ داخِلونَ في الإسْلامِ بعدَ عَجزِكمْ عنْ هذا التحدِّي المبِين؟

{مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ} (هود: ١٥)

١٥- مَنْ أرادَ بأعمالِهِ المنفَعةَ في الدُّنيا وحُسنَ الإقامةِ بها، وفَّيناهُمْ أجورَهمْ فيها كامِلة، فوسَّعنا لهمْ في الرزق، وأعطيناهُمُ الصحَّة... ولم نَنقُصْ مِنْ حظِّهِمُ الدُّنيويِّ شَيئاً ممّا يَستَحِقُّونَهُ مُقابِلَ ما قاموا بهِ مِنْ أعمالٍ خَيريَّةٍ إنسانيَّة، ولكنْ ليسَ لهمْ في الآخِرةِ شَيءٌ عندَ الله، لأنَّهمْ لم يَبتَغوا بذلكَ وجهَ اللهِ والآخِرة.

{أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} (هود: ١٦)

١٦- وهؤلاءِ المشرِكونَ المكذِّبونَ ليسَ لهمْ استِحقاقٌ عندَ اللهِ سِوَى النَّار، لأنَّ همَّهمْ كانَ مَصروفًا إلى الدُّنيا ومَتاعِها، ولم يَحسَبوا للآخِرةِ حِسابًا، فأعمالُهُمْ تلكَ كانَ لها وَزنٌ في الدُّنيا وقدْ أخَذوا مُقابِلَها آنَذاك، أمّا في الآخِرَةِ فلا وَزنَ لها، وبطَلَ ثوابُ كلِّ ما عَمِلوه، لأنَّها مِنْ غيرِ إيمانٍ ولا طلَبِ ثوابٍ أُخْرَويّ.

{أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إَمَاماً وَرَحْمَةً أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ} (هود: ١٧)

١٧- أفمَنْ كانَ على دَليلٍ وبُرهانٍ واضِحٍ - والمقصودُ الرَّسولُ صلى الله عليه وسلم - وبيِّنةٍ عَظيمةِ الشأنِ مِنْ قِبَلِ ربِّه - وهيَ القُرآنُ - ويَتْبَعُهُ مَنْ يَشهَدُ لهُ بصِدقِهِ - وهوَ جِبريل، أو الشواهِدُ والمعجِزات - وقبلَ ذلكَ ما وردَ مِنْ خبَرِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ ووَصفِهِ والتبشيرِ بهِ في التَّوراة، التي كانتْ نِظامًا وقُدوةً للنَّاس، وهِدايةً ورَحمةً منَ اللهِ لمنِ اتَّبعَها، وهيَ مُصَدِّقَةٌ للقُرآن، شاهِدةٌ للنبيّ صلى الله عليه وسلم، فإنَّ أولئكَ الذينَ يؤمِنونَ بكلِّ ما فيها، يؤمِنونَ أيضًا بمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، لأنَّهُ يَلزَمُ هذا مِنْ ذاك، أفمَنْ كانَ على بيِّنةٍ مثلَ هذا النبيّ، كمَنْ هوَ في الضَّلالةِ والجَهالةِ منَ الكفّارِ والمشرِكين؟!

ومَنْ يَكفُرْ بالرَّسولِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم منَ الكافرِينَ وأهلِ المِلَلِ كُلِّها، فإنَّهُ لا مكانَ لهمْ في الآخِرَةِ إلاّ النار، فلا تَكنْ في شَكٍّ مِنْ أمرِ القُرآنِ - وهوَ تَعريضٌ بمَنْ شَكَّ فيه - فإنَّهُ الحقُّ مِنْ ربِّكَ، الذي لا حَقَّ بَعدَه، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يؤمِنونَ بذلك، جَهلاً وحُمْقًا منهم، أو عِنادًا واستِكبارًا، بعدَ أنْ عَرَفوا أنَّهُ الحَقّ.

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أُوْلَـئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَـؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} (هود: ١٨)

١٨- وليسَ هُناكَ أظلَمُ ممَّنْ كذَبَ على الله[٥٥]، كمَنْ أشركَ به، أو ادَّعَى لهُ كلامًا وليسَ هوَ بكلامِه، فأولئكَ الكاذِبونَ المفتَرون، يُعرَضونَ على اللهِ يومَ البَعثِ ليُحاسِبَهمْ على أقوالِهِمْ وأعمالِهِم، وتَقولُ الملائكةُ المكلَّفَةُ بمراقَبتِهمْ وإحصَاءِ أعمالِهِم: هؤلاءِ همُ الذينَ كذَبوا على الله، ألَا بُعدًا وهَلاكًا لهؤلاءِ الظَّالِمينَ المفتَرين.

{الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} (هود: ١٩)

---

(٥٥) ذكرَ العلّامة ابن عاشور عند تفسيرِ الآيةِ (٩٤) من سورةِ آلِ عمران، أن الافتراءَ هو الكذب، وأنه مرادفُ الاختلاق، وكأن أصلَهُ كنايةٌ عن الكذبِ وتلميح، وشاعَ ذلك حتى صارَ مرادفًا للكذب. (التحرير والتنوير).

١٩- الذينَ يَرُدُّونَ النَّاسَ عنِ الحقّ، ويَمنعونَهُمْ منْ سُـــلوكِ طَريقِ الهُدَى، ويُريدونَ لهمْ طريقًا مُنحَرِفًا يأخذُ بهمْ إلى الضَّـــلال، ويَرُدُّهمْ إلى الكُفر، وهمْ لا يؤمِنونَ بالآخِرَة، التي فيها إثابَةٌ على اتِّباعِ الحقّ، ومُعاقبَةٌ على اتِّباعِ الباطِل.

{أُولَـــئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاء يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ} (هود: ٢٠)

٢٠- فأولئكَ الضـالُّونَ المنحَرِفونَ لا هُروبَ لهمْ منَ الله، فهمْ تحتَ قَهرِهِ وسُـلطانِه، وهوَ قادِرٌ على الانتِقامِ منهم، ولا يَقدِرُ مُسـاعِدوهمْ ومُناصِـروهمْ على أنْ يَمنَعوا عنهمْ شَـيئاً مِنَ العُقوبة، وسـيُضـاعَفُ لهمُ العَذابُ، لأنَّهُمْ كانوا يَســتَثقِلونَ سماعَ الحق، ويُصِــمُّونَ آذانَهمْ دونَ سَماعِه، ويَتعامَونَ عنْ آياتِ اللهِ المبثُوثَةِ في الكَون، فلا يَتفكَّرونَ في دَلالتِها وأســبابِها والحِكمةِ مِنْ خَلْقِها.

{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} (هود: ٢١)

٢١- وسَـوفَ يَخسَـرُ هؤلاءِ أنفُسَـهمْ بتَعريضِـها لعَذابِ النَّارِ يومَ القيامة، فقدْ فَضَّـلوا عِبادةَ الآلِهـةِ على عِبـادةِ خـالقِهمْ ورازِقِهمُ الحقّ، وذهـبَ عنهمْ مـا كـانوا يَعبُـدونَـه، فلمْ تُغْنِ عنهمْ أصنامُهمْ شَيئاً.

{لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ} (هود: ٢٢)

٢٢- ولا مَحالةَ أنَّ هؤلاءِ الكفّارَ همُ الأكثرُ والأبيَنُ خُسـرانًا، فقدِ اسـتعاضُـوا بالجنَّةِ ونَعيمِها، جَهنَّمَ وسَعيرَها.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـالِحَاتِ وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَـــئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (هود: ٢٣)

٢٣- إنَّ الذينَ استَجابوا لِنداءِ ربِّهم، فآمَنوا حقَّ الإيمان، وأَتْبَعُوا إيمانَهُمْ بالعمَلِ الصَّالحِ الموافِقِ لكتابِ ربِّهم، وأخلَصـوا في طَاعتِهمْ ولم يُراؤوا، وخَشـعَتْ جوارِحُهم، واطمأنَّتْ نُفوسُـهمْ إلى ربِّهم، أولئكَ أهلُ الجنَّة، يَتنعَّمونَ فيها ويَفرَحون، خالدينَ فيها، لا يَموتونَ ولا يَهرَمون.

{مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ} (هود: ٢٤)

٢٤- ومِثالُ الفَريقَين: الكافرِ الشَّقيّ، والمؤمِنِ السَّعيد، كحالِ مَنْ جَمعَ بينَ العَمَى والصَّمَم، ومَنْ جَمَعَ بينَ البصَرِ والسَّمْع، فهلْ يَستَوي الفَريقان؟ الكافِرونَ أعرَضُوا عنِ الحقِّ لأنَّهُمْ لم يَنتَفِعوا بحاسَّتَي السَّمعِ والبصَر، والمؤمِنونَ انتَفَعوا بهما فآمَنوا واهتَدَوا إلى طريقِ الجنَّة. أفلا تَتَّعِظونَ بهذا المثَلِ وتَتأمَّلُونَه، حتَّى لا تَخسَروا؟

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} (هود: ٢٥)

٢٥- ولقدْ أرسَلنا نُوحًا إلى قَومِهِ المشرِكينَ منْ عَبدَةِ الأوْثان، وكانوا في العِراق، فقالَ لهم: إنِّي بُعِثتُ إليكمْ رَسُولاً مِنْ عندِ الله، لأُنذِرَكمْ في رَسالةٍ وَاضِحةٍ وكلامٍ بيِّن.

{أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ} (هود: ٢٦)

٢٦- وهوَ ألاّ تَعبدوا إلاّ الله، فهوَ الإلهُ الحقّ، الذي لا تَنبَغي العِبادةُ إلاّ له، إنِّي أخافُ إنِ استَمرَرتُمْ في شِركِكُمْ وعِصيانِكم، أنْ يُصيبَكمْ عَذابٌ شَديدٌ يومَ القِيامَة.

{فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ} (هود: ٢٧)

٢٧- فقالَ الرؤساءُ والعِلْيَةُ الكُبَراءُ مِنْ قَومِه: ما نَراكَ يا نوحُ إلاّ بَشَرًا مِثلَنا، وليسَتْ فيكَ خَصْلَةٌ تُميِّزُكَ عنّا كما تَقول، وما نَراكَ اتَّبعَكَ في دَعوتِكَ سِوَى الفُقراءِ والضُّعَفاءِ وأهلِ الحاجَةِ مِنْ بينِنا، وقدِ اتَّبَعوكَ دونَ تَرَوٍّ ولا تَفكير، واغتَرُّوا بظَاهِرِ قَولِك، ولا نَرَى لكمْ عَلينا فَضيلَةً

في خُلُقٍ ولا مَال، ولا قُوَّةٍ ولا عَدَد، بلْ نَظنُّكمْ كاذِبينَ فيما تَدَّعُونَهُ منْ صَــلاحٍ وإصْــلاح، وعَقيدَةٍ ودَعوَة.

{قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ} (هود: ٢٨)

٢٨- قالَ نُوحٌ عليهِ السَّـلام: يا قَومي، أرأيتُمْ إنْ كنتُ على أمرٍ جَليٍّ وحُجَّةٍ ظَاهِرةٍ مِنْ ربِّي، وشــاهِدٍ يَشــهَدُ لي بصِــحَّةِ دَعواي، ونُبوَّةٍ صــادِقَةٍ أكرمَني اللهُ بها، فيها هِدايةٌ ورحمَةٌ للنَّاس، فخَفِيَتْ والتَبَسَـــتْ عليكُمْ فلمْ تَهتَدوا إليها، ولم تَعرِفوا قَدْرَها، بلْ بادَرْتُمْ إلى تَكذيبِها ورَدِّها، وأنا لا أســـتَطيعُ أنْ أُلزِمَكُمْ بها وأُكرِهَكُمْ عليها، وأنتُمْ كارِهونَ لها، لا تَختارونَها ولا تَتأمَّلونَ فيها.

{وَيَا قَوْمِ لا أَسْـــأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ} (هود: ٢٩)

٢٩- ويا قومي لا أطلبُ مِنكمْ على تَبليغِ الرِّسالةِ والنُّصحِ لَكمْ أُجرَةً تؤدُّونَها إليّ، إنَّما أطلبُ ثوابَ ذلكَ منَ اللهِ وحدَه. ولنْ أُبعِدَ المؤمِنينَ الضُّعَفاءَ مِنْ حَولي حتَّى تَجلِسوا مَعيَ دُونَهم، فقدْ آمَنوا، وسَـــوفَ يُلاقُونَ ربَّهمْ يومَ الحِســـابِ ليَجزِيَهمْ على إيمانِهم، ولكنِّي أراكُمْ تَجهَلونَ مِيزانَ المقارَنةِ والمفاضَـلة، ومَعرِفَةَ الخَيرِ والشـرّ، فالمرءُ ليسَ بمالِهِ وحَسَـبِه، إنَّما هواَ بإيمانِهِ وطاعَتِه، ولا فَرقَ بينَ الغَنيِّ والفَقيرِ في الإسْلام، ولا الشَّريفِ والوَضيع، ما داموا مُسلِمين.

{وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ} (هود: ٣٠)

٣٠-ويا قومي مَنْ يَدفَعُ عنّي غَضَـــبَ اللهِ ويَمنَعُني مِنْ عَذابِهِ إذا أبعَدتُ هؤلاءِ المؤمنين، وهمْ أكرَمُ عندَ اللهِ مِنكم، أفلا تَتَّعِظون؟ وهَلْ تَستَمرُّونَ في جَهلِكمْ بدَعوَةِ الرسُلِ هكذا؟

{وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْراً اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ} (هود: ٣١)

٣١- ولا أقولُ لكمْ إنَّني أملِكُ أموالاً عظيمةً وأرزاقًا فائضَةً مِنْ خزائنِ اللهِ التي لا تَنفَد، حتَّى أُظهِرَ نَفسِي بمَظهرِ الغَنيِّ الذي تُحِبُّونَه، ولأُعطيَكمْ منهُ ما تَرغَبون، إنَّما عِندي رِسالةٌ أُبَلِّغُها، ودَعوَةٌ أَنشُرُها، وعِلمٌ نافِعٌ أبثُّهُ للنَّاس.

ولا أعلَمُ ما في المستَقبَلِ لأُخبِرَكمْ بما تُريدون، إلاّ ما أطْلَعَني اللهُ عليه، وما أُخبِرُكمْ بهِ هوَ ما أوحَى بهِ إليّ، وليسَ مِنْ عِندي.

ولا أقولُ إنَّني مَلَكٌ مِنَ الملائكةِ حتَّى تُصَدِّقوا نُبوَّتي، فإنَّني بَشَرٌ، مُؤيَّدٌ بمُعجِزات، والنبوَّةُ تَكونُ فيهِمْ لا في الملائكة، إنَّما جِبريلُ رُسولُ اللهِ منَ الملائكةِ إلى رُسُلِ اللهِ مِنْ عِبادِه.

ولا أقولُ للَّذينَ تَحتَقِرونَهُمْ وتَستَصغِرونَهُمْ مِنَ المؤمِنينَ الضُّعفاءِ الذينَ اتَّبَعوا دِينَ اللهِ لنْ يُؤتيَهمُ اللهُ تَوفيقًا في الدُّنيا وأجرًا في الآخِرَة، مُتابَعةً لمطالِبكمْ وترضِيَةً لكم، فاللهُ أعلَمُ بما في نُفوسِهمْ مِنْ خَيرٍ وشَرّ، وليسَ لي إلاّ ظاهِرُ ما هُمْ عليه، ولو نقَصتُ مِنْ حُقوقِهمْ وقلتُ إنَّهمْ أشرارٌ وقدْ آمَنوا، فقدْ ظَلَمتُهم، وكنتُ قائلاً بما لا أعلَم، وعرَّضتُ نفسي لغَضَبِ الله.

{قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنِا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} (هود: ٣٢)

٣٢- قالَ قومُ نوحٍ الكافِرون: يا نوح، قدْ حاجَجْتَنا وجادَلتَنا وأكثَرتَ مِنْ ذلك، ولنْ نُؤمِنَ برِسالَتِك، فأنزِلْ عَلَينا العَذابَ الذي وَعَدتَنا به، إذا كنتَ صادِقًا بأنَّهُ سيُصيبُنا.

{قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللّهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ} (هود: ٣٣)

٣٣- قالَ لهمْ نوحٌ عليهِ السَّلام: ذلكمْ إلى اللهِ وليسَ إليّ، فإذا كنتُمْ مُستَحِقِّينَ للعَذابِ أنزَلَهُ بكمْ في الوقتِ الذي يَشاءُ فيه، ولا يَستَطيعُ أحَدٌ مِنكمْ أنْ يؤخِّرَهُ أو يَمنَعَهُ إذا جاء.

{وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (هود: ٣٤)

٣٤- ولا تَنفَعُكمْ نَصيحَتي ولا تُفيدُكمْ مَوعِظتي وقدْ أقفَلتُمْ قلوبَكمْ عنْ سَماعِ النُّصحِ لكم، ولا فائدةَ مِنْ ذلكَ إنْ كانَ اللهُ يُريدُ أنْ يُهلِكَكم؛ لإعراضِكمْ عنْ سَماعِ الحقّ، وإصرارِكمْ على الكُفرِ والتَّكذيب، فاللهُ خالِقُكم، وهوَ العالِمُ بأحْوالِكم، المتَصَرِّفُ في أمورِكم، وإليهِ مَآلُكم، ليُحاسِبَكمْ على مَواقِفِكم، ويُجازيَكمْ على أعمالِكم.

{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ} (هود: ٣٥)

٣٥- أمْ يَقولُ الكافِرونَ مِنْ قَومِ نُوح: إنَّ نوحًا كذَبَ بإسنادِهِ الكلامَ إلى اللهِ؟ قُلْ لهمْ يا نبيَّ اللهِ نوحًا: إنَّني إنِ اختَلَقتُ هذا الكلامَ مِنْ عِندي فعليَّ إثمُهُ وعُقوبَتُه، وإنْ كنتُ صادِقًا فيما أقولُ وكذَّبتُموني، فعَليكمْ عِقابُ ذلكَ التَّكذيب، وأنا بريءٌ مِنْ عُقوبَةِ جُرمِكم، فلا أُحاسَبُ إنْ كذَّبتُكم، لأنَّكمْ على ضَلالٍ ظاهِر، وعِبادَةٍ لا يُقِرُّها عَقل، ودَعوَتي نقيَّةٌ طَاهِرة، مؤيَّدَةٌ بالمعجِزاتِ والأدلَّةِ الواضِحةِ القويَّة، التي لا يُنكِرُها عَقل.

{وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ} (هود: ٣٦)

٣٦- وأوحَى اللهُ إلى نبيِّهِ نوحٍ أنَّهُ لنْ يؤمِنَ مِنْ قَومِكَ إلاّ مَنْ كانَ آمَنَ مِنْ قَبل - واللهُ أعلمُ بأحوالِهِمْ وبما يَكونونَ عَليه - فلمْ تَعُدْ هُناكَ فائدَةٌ مِنْ دَعوَتِكَ إيَّاهُم، فلا تَحزَنْ ولا تَهتَمَّ بمواقِفِهمُ السيِّئةِ وأفعالِهِمُ الدنيَّة، منْ تَكذيبٍ وإيذاءٍ واستِهزاء، فإنِّي مُهلِكُهُم.

{وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ} (هود: ٣٧)

٣٧- واصنَعْ سَفينةً كبيرةً برِعايَتِنا وتَعليمِنا، ولا تُراجِعني في هؤلاءِ الكافِرينَ المعانِدين، فقدِ انتهَى أمرُهم، وتقَرَّرَ مَصيرُهم، إنَّهمْ مُغرَقونَ بالطُّوفان.

{وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ} (هود: ٣٨)

٣٨- ونفَّذَ نُوحٌ أمرَ ربِّه، وأقبلَ على صُنعِ السَّفينة، وكُلَّما مَرَّ عليهِ جَماعَةٌ مِنْ قَومِهِ استَهزَؤوا بِهِ وبعَمَلِه، وكذَّبوا بما تَوَعَّدَهمْ بهِ منَ الغَرَق، وهوَ يَقولُ لهم: إنْ كنتُمْ تَسـخَرونَ مِنْ عمَلِنا الآن، فإنَّنا سنَسخَرُ منكمْ عندَما يُصيبُكمُ العَذاب، حيثُ تُغرَقونَ وتَطلُبونَ النَّجاة، ولا مُغيثَ لكم..

{فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ} (هود: ٣٩)

٣٩- وسَوفَ تَعلَمونَ حِينَئذٍ مَنِ الذي يُصيبُهُ العَذابُ فيُذِلُّهُ ويُهينُه، وهوَ الغَرَق، ويَجِبُ عليهِ يَومَ القيامةِ عَذابٌ دائمٌ لا خَلاصَ لهُ منه.

{حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ} (هود: ٤٠)

٤٠- حتَّى إذا جاءَ أمرُنا بإنزالِ العَذابِ بهم، وهوَ إغراقُهمْ بالطُّوفان، وفارَ التَنُّور، وهوَ الموْقِد، بأنْ يَفورَ منهُ الماءُ كما تَفورُ القِدْرُ بغَلَيَانِها، أو كفَورَةٍ بُركانيَّة، ليَكونَ ذلكَ عَلامَةً لنوحٍ عليهِ السَّلام، أمَرناهُ أنْ يَحمِلَ معَهُ في السَّفينةَ مِنْ كلِّ نوعٍ ذَكَرًا وأُنثَى، ممّا حدَّدَهُ اللهُ له، واحمِلْ فيها أهلَك: أولادَكَ ونِساءَك، إلاّ مَنْ سبَقَ القَولُ منهمْ بالإهلاك، وهُمُ الذينَ لم يؤمِنوا. واحمِلْ فيها مَنْ آمَنَ بكَ مِنْ قَومِك. وما آمنَ معَهُ إلاّ أفرادٌ قَليلون، معَ طولِ مَكثِهِ بينَهم!

{وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} (هود: ٤١)

٤١- وقالَ نُوحٌ عليهِ السَّلامُ لمنْ أُمِرَ بحَملِهمْ في السَّفينةِ: اركَبوا فيها، بِسمِ اللهِ يَكونُ جَرْيُها على الماء، وباسمِهِ تعالَى يَكونُ رَسْوُها ومُنتَهَى سَيرِها. وإنَّ ربِّي لَغَفورٌ عمَّا فَرَّطتُمْ فيه، رَحيمٌ بكمْ إذْ أنجاكُمْ مِنَ الهَلاك.

{وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ} (هود: ٤٢)

٤٢- والسَّفينةُ تَجري بهمْ على الماء، والأمواجُ تتراكَمُ وتتَصاعَدُ كالجِبال.

ونادَى نوحٌ ابنًا لهُ كافِرًا، وكانَ في مَكانٍ عَزَلَ نفسَـــهُ عنْ أبيهِ وإخوانِهِ المؤمِنين: يا بُنيَّ اركَبْ معَنا في السَّفينة، وآمِنْ مثلَ إخوانِك، ولا تَكُنْ معَ الكافِرينَ فتَغرَقَ مثلَهم.

{قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ} (هود: ٤٣)

٤٣- قالَ لهُ ابنُه: سـألتَجئُ إلى رَأسِ جَبَلٍ عالٍ يَحفَظُني ويَمنَعُني منَ الماءِ فلا يَصِـلُ إليَّ. قالَ لهُ أبوه: يا بُنَيّ، ليسَ شَيءٌ يَعصِمُ اليومَ مِنَ العَذاب، إلاّ مَنْ رَحِمَهُ اللهُ فنَجا، فالتَجئْ إليهِ حتَّى يَرحَمَكَ ويُنجِيَك. وحالَ الموجُ بينَ نوحٍ وابنِه، فصارَ منَ المغرَقينَ معَ القَومِ الكافِرين.

{وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} (هود: ٤٤)

٤٤- وقالَ اللهُ للأرض: ابلَعي ما على وَجهِكِ منْ ماءِ الطُّوفان، وأنتِ يا سَماءُ أمسِـكي عنْ إرسالِ المطَر. وبدأ الماءُ يَنقُصُ حتَّى غارَ مِنْ سَطحِها ونَضَب. وأُنْجِزَ ما وعدَ اللهُ بهِ مِنْ إهلاكِ الكافِرينَ وإنجاءِ المؤمِنين، ولم يَبقَ كافِرٌ على وَجهِ الأرض. واســـتَقرَّتِ السَّـــفينةُ على جَبلِ الجُودِيّ، وهوَ في ولايةِ شِرْناق مِنْ أرضِ تُركيا، وقيلَ هَلاكًا وخَسَارًا للكافِرينَ الظالِمين.

{وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ} (هود: ٤٥)

٤٥- ودَعا نوحٌ رَبَّهُ قائلاً: إلهي، إنَّ ابني الذي غَرِقَ مِنْ أهلي، وقدْ وعَدتَني بإنجاءِ أهلي، ووَعدُكَ حَقٌّ لا تُخلِفُه، وأنتَ أعلَمُ مَنْ حَكَم، وأعدَلُ مَنْ قَضَى.

{قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} (هود: ٤٦)

٤٦- قالَ اللهُ تعالَى ما مَعناه: يا نُوح، إنَّ ابنَكَ ذاكَ لم يَكُنْ مِنْ أهلِكَ الذينَ وعَدتُ بإنجائهم، فلا قَرابةَ حقيقيَّةَ بينَ المؤمنِ والكافِرِ ولو كانَ بينَهما نَسَب، فالعَقيدَةُ هيَ الأساس، فهوَ ليسَ مِنْ أهلِكَ ما دامَ كافِرًا، والكُفرُ عَقيدَةٌ فاسِدَةٌ وعَمَلٌ سَيِّء، فلا تَطلُبْ منّي ما لا تَعلَمُ أنَّ حصُولَهُ صَوابٌ ومُوافِقٌ للحِكمة، إنِّي أنصَحُكَ خَشيَةَ أنْ تكونَ منَ الجاهلينَ بحَقيقَةِ ذلك.

{قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ} (هود: ٤٧)

٤٧- وقالَ نوحٌ عليهِ السّلام: اللهمَّ إنِّي ألتَجِئُ إليك، وأعوذُ بكَ مِنْ أنْ أقَعَ فيما نَهيتَني عنه، وأنْ أسألَكَ ما لا عِلمَ لي بصَوابِه، وإذا لم تغفِرْ لي ما صدَرَ عنِّي، وترحَمْني بقَبولِ تَوبَتي، أكُنْ منَ الخاسِرين، فتقَبَّلْ توبَتي، وارْضَ عنِّي.

{قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} (هود: ٤٨)

٤٨- وقالَ اللهُ لنُوح: اِنزِلْ منَ السَّفينةِ بسَلامةٍ وأمنٍ مِنْ عِندِنا، ودُعاءٍ لكَ بالخَيرِ والبرَكة، وعلى أُمَمٍ مُؤمِنةٍ مُتناسِلةٍ مِنْ أولادِكَ إلى يومِ القيامة، وأُمَمٌ أخرَى منهمْ لا يَكونونَ على صِفَتِهم، سندَعُهمْ يَتمَتَّعونَ قَليلاً في دُنياهُم، ثمَّ يُصيبُهمُ العَذابُ المؤلِم، الذي يَستَحِقُّونَهُ في الآخِرَة.

{تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} (هود: ٤٩)

٤٩- وتِلكَ القِصَّةُ مِنْ أخبارِ الغَيبِ السابِقَة، نُوحِيها إليكَ أيُّها الرسُولُ كما وَقعَت، ما كانَ لكَ عِلمٌ بها ولا لقَومِكَ قبلَ ذلك، فكيفَ يُقالُ إنَّ هُناكَ مَنْ علَّمَكَ وليسَ منهُمْ أحَدٌ

يَعلَمُها؟! فاصــبِرْ على أذيَّةِ قَومِكَ وتَكذيبِهِمْ إيَّاكَ كما صَــبرَ نوحٌ وغيرُهُ مِنْ أنبياءِ اللهِ، فإنَّ حُسْنَ العاقِبةِ، والظفَرَ والفَوز، يَكونُ لصالحِ عبادِ اللهِ الصَّابرينَ المتَّقين.

{وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ} (هود: ٥٠)

٥٠- وأرسَلنا إلى قَبيلةِ عادٍ واحِداً منهمْ في النسَب، هوَ نبيُّ اللهِ هُودٌ عليهِ السَّلام، فقالَ لهمْ واعِظًا زاجِرًا: يا قومي، اعبدوا اللهَ وحدَه، ولا تَعبُدوا هذهِ الأوثانَ التي سمَّيتُموها آلِهة، فليسَ لكمْ سِوَى إلهٍ واحِد، هوَ ربُّكمْ وخالِقُكمْ ورازِقُكم، فهوَ وحدَه الذي يُعبَد، وما أنتُمْ بعبادتِكمْ لهذهِ الأصنامِ وقَولِكمْ إنَّها آلِهةٌ إلاّ كاذِبون، ومُدَّعونَ مُفتَرون.

{يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} (هود: ٥١)

٥١- ويا قَومي لا أطلبُ مِنكُمْ مالاً على هذا الذي أُبَلِّغُكُم، حتَّى لا تَظنُّوا أنَّني أبتَغي ثَراءً مِنْ وَرائه، إنَّما أطلُبُ ثوابَ ذلكَ مِنَ الذي خَلقَني ووَهبَني النِّعَم، أفلا تَتدبَّرونَ ما أقولُ لكم؟

{وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ} (هود: ٥٢)

٥٢- ويا قَومي آمِنوا باللهِ ودَعُوا الشِّركَ واستَغفِروا اللهَ منه، وتوبُوا إليهِ واثبتُوا على طَاعتَه، فإذا فَعَلتُمْ ذلكَ يسَّــرَ عليكمْ رِزقَكم، وأرْســلَ عليكمْ مطَرًا كثيرًا مُتَتابِعًا مِنْ غَيرِ مَضَــرَّة، وأمَدَّكمْ بأمْوالٍ وبَنين لِيَزيدَكمْ بها عِزًّا وقوَّةً على ما أنتُمْ عليه، ولا تُعرِضُوا عمَّا نَصحتُكمْ به، ولا تُصِرُّوا على الكُفرِ والتَّكذيب.

{قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ} (هود: ٥٣)

٥٣- قالَ الكافِرونَ لنبيِّ اللهِ هُود: يا هُود، ما جِئتنا بحُجَّةٍ واضِــحةٍ ودَليلٍ بيِّنٍ على ما تَدَّعيه - قالوا ذلكَ عِنادًا - ولنْ نَترُكَ عِبادةَ آلِهتِنا بسَببِ قَولِك، وما نحنُ بمُصَدِّقي رِسالَتِك.

{إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} (هود: ٥٤)

٥٤- وقالوا لهُ عليهِ السَّلام: نحنُ نَظنُّ أنَّ بعضَ آلِهتِنا قدْ أصابَتْكَ بخَبَلٍ وجُنون، بسَببِ مُخالفَتِكَ إيّانا وسَبِّكَ إيّاها. فقالَ لهم: إنِّي أُشْهِدُ اللهَ على نَفسِي، واشهَدوا أنتُمْ يا قومي، ليَكونَ ذلكَ حُجَّةً عليكم، أنَّني بريءٌ مِنْ هذا الذي تُشرِكونَ به،

{مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ} (هود: ٥٥)

٥٥- تعبدُونَ الأصنامَ دونَ اللهَ تعالَى، فاحتالُوا جَميعًا أنتُمْ وآلِهَتُكمُ المزعُومَة، وامكُروا بما تَقدِرونَ عليهِ للإضرارِ بي، ممّا زَعَمتُمْ أنَّها تُلحِقُ السُّوءَ بمَنْ لا يَعبُدُها، ولا تُمهِلوني في ذلك، فإنَّني لا أخشَاكُمْ ولا أخشَاها.

وكانوا جبَابِرةً مُجرِمين، سفّاكي دِماء.

{إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (هود: ٥٦)

٥٦- إنِّي اعتَمدتُ على الله، وفوَّضتُ أمري إليه، فهو مَالِكي ومالِكُكم، وهوَ الذي يَحفَظُني ويَدرأُ عنِّي ما أخشَى ضَرَرَه، وليسَ مِنْ دابَّةٍ تَدُبُّ على الأرضِ إلاّ وهوَ المهَيمِنُ عليها، ومالِكُ أمرِها، والمتَصَرِّفُ فيها كما يَشاء، فالقُوَّةُ لهُ سُبحانَه، وأَمْرُهُ الحقّ، ودِينُهُ العَدْلُ والاستِقامة، لا يَظلِمُ أحَدًا إذا حاسبَه، ولا يَنقُصُ مِنْ أجرِ أحَدٍ إذا جَازاه.

{فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} (هود: ٥٧)

٥٧- فإنْ تُعرِضوا عمّا جِئتُكمْ بهِ منْ عِندِ الله، فقدْ قمتُ بواجِبي تُجاهَكم، وبَلَّغْتُ الرِّسالةَ التي كُلِّفْتُ بتأديَتِها، وقامَتْ عليكمُ الحُجَّة، ويُهلِكُكمُ اللهُ ويَستَخلِفُ آخَرينَ مِنْ غَيرِكمْ يَستَقيمونَ على طاعَتِهِ ولا يُشرِكونَ بهِ شَيئاً، ولا يُبالي بكم، فلا تَقدِرونَ على إلحاقِ الضَّرَرِ

به، وَضـرَرُكمْ ومَعصِيَتُكمْ تَعودُ عاقِبتُها عَليكم، واللهُ لا تَضـرُّهُ مَعصيَةُ العاصِين. إنَّ ربِّي أحاطَ عِلمًا بكلِّ شَيء، وهوَ شَاهِدٌ وحافِظٌ لِما كانَ ويَكون، ويُجازي كُلاًّ بما عَمِل.

{وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ} (هود: ٥٨)

٥٨- ولما حَلَّ عَذابُنا بهم، وأهلَكنا القَومَ الكافِرينَ بالرِّيحِ العَقيم، نَجَّينا هُودًا والمؤمِنينَ معَهُ برَحمَةٍ منّا، فقدْ آمَنوا واستَقامُوا فاستَحقُّوا رحمَةَ اللهِ ولُطفَه، وخَلَّصناهُمْ مِنْ عَذابٍ شَديد، يُناسِبُ الكفّارَ العُتاةَ الغِلاظ.

{وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} (هود: ٥٩)

٥٩- وتِلكَ هيَ قبيلَةُ عادٍ التي عاقبَها اللهُ بعَذابٍ كبير، لأنَّهُمْ كفَروا بآياتِهِ ومُعجِزاتِه، وعَصَوا رسُلَه، فمَنْ عصَى نبيًّا فقدْ عصَى جَميعَ الرسُل، فرِسالتُهمْ واحِدة، وهمْ مُتَّفِقونَ على التَّوحيد، وهؤلاءِ أبَوا إلاّ الشِّركَ والعِصيان، وتَعالَوا عنْ قَبولِ الحقّ، واتَّبعوا أمرَ كُلِّ مُتَسَلِّطٍ عليهم، مُستَكبِرٍ مُعانِدٍ للحَقّ، طاغٍ مُتَحَدٍّ لآياتِ الله.

{وَأُتْبِعُواْ فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ} (هود: ٦٠)

٦٠- وأُلحِقوا في هذهِ الحياةِ الدُّنيا باللَّعنَةِ تَتْبَعُهمْ وتُلازِمُهم، فصَاروا لا يُذكَرونَ مِنْ بعدُ إلاّ وتَلحَقُهمُ اللَّعنة، وهيَ الإبعادُ والطردُ مِنْ رحمةِ الله، ولُعِنوا في الآخِرَةِ كما لُعِنوا في الدُّنيا، فلا نَصيبَ لهمْ في رَحمةِ الله.

ألَا إنَّ قبيلَةَ عادٍ كفَروا برَبِّهِمْ وجَحدوه، ولم يَشكروا لهُ بالإيمانِ والطَّاعة، ألا بُعدًا وهَلاكًا لعَادٍ قَومِ هُود.

وكانَ مَسكنُهمْ بالأحقَاف، وهيَ منطِقةٌ رَمليَّةٌ بينَ عُمَانَ والرُّبعِ الخالي واليمَن، وقدِ اكتُشِفَتْ آثارٌ لهمْ في عُمَان.

{وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـــهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَـأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ} (هود: ٦١)

٦١- وأرسَـلنا إلى قَبيلَةِ ثمودَ أخاهُمْ في النسَـبِ صـالِحًا - وكانَ سـكَنُهمْ بينَ تَبوكَ والمدينةِ - فقالَ لهم: يا قَومي اعبُدوا اللهَ وحدَهُ ولا تُشـرِكوا في عبادَتهِ أحَدًا، فلا إلهَ لكمْ غَيرُه، هوَ الذي ابتدَأ خَلقَكُمْ مِنَ الأرض، فخَلَقَ أباكُمْ آدمَ مِنْ تُراب، ثمَّ تَناسَلتُمْ بأمرِهِ وتَقديرِه، وجَعلَكمْ مِنْ سُـكّانِ الأرضِ وعُمّارِها ما عِشـتُمْ فيها، فاسـتَغفِروهُ لِما سـلَفَ منكمْ مِنْ ذُنوبٍ وخَطايا، ثمَّ تُوبوا إليه، وأحسِـنوا في تَوبتِكم، واثبُتوا على إيمانِكمْ وطاعَتِكمْ لربِّكم، فهوَ قَريبٌ منَ المؤمِنين، يُجيبُ دَعوةَ التائبِ المخلصِ منهم.

{قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَـــذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} (هود: ٦٢)

٦٢- قالَ لهُ قومُه: يا صـالِح، قدْ كُنتَ قبلَ دَعوتِكَ هذهِ راجِحَ العَقل، فاضِـلاً بيننا، والآنَ تُخالِفُنا وتَطلُبُ منّا أنْ نَترُكَ عِبادةَ ما كانَ عليهِ أسـلافُنا منْ تَقديسِ الأصـنامِ والسُّـجودِ لها؟ ونحنُ في شَكٍّ كَبيرٍ ممّا تَدعونا إليهِ منَ التَّوحيدِ وتركِ آلِهتِنا.

{قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُــرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ} (هود: ٦٣)

٦٣- قالَ لهمْ نبيُّهمْ صَــالحٌ عليهِ السَّــلام: يا قَومي، أرأيتُمْ إنْ كنتُ على دَليلٍ بيِّنٍ وبُرهانٍ واضِحٍ ممّا أوحَى إليَّ ربِّي وأمرَني بتَبليغِه، فمنْ يَمنعُني مِنْ عَذابِهِ إنْ تَساهَلتُ في تأديَةِ رِسَـالَتِه، وجَارَيتُكمْ فيما تَشتَهون؟ إنَّكمْ بذلكَ لا تنفَعوني، بلْ تَجعَلوني خاسِرًا مُعَرَّضاً لسَخَطِ الله.

{وَيَا قَوْمِ هَــــذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ} (هود: ٦٤)

٦٤- ويا قَومي هذهِ مُعجِزةٌ تَدُلُّ على صِـــدقِ نبوَّتي، هذهِ ناقَةُ الله[٥٦]، جاءَتْ منْ عندهِ ولمْ يَملِكْها أحَد، فاترُكوها تأكُلْ في أرضِ اللهِ الواسِعَة، ولا تَمدُّوا أيديَكُمْ إليها بأذًى وشَـرّ، كذَبحٍ أو ضَرب، حتَّى لا يُصيبَكمُ اللهُ بعَذابٍ عاجِل.

{فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ} (هود: ٦٥)

٦٥- فعصَـــوا رسُـــولَهُمْ ونَحَروا الناقة، مُتَحَدِّينَ العَذابَ الذي وعَدَهمْ به. فقالَ لهم: ابقُوا في دِيارِكمْ ثلاثَةَ أيّامٍ تاليَة، هيَ بقيَّةُ عُمُرِكمْ في هذهِ الحَياة، ثمَّ تَهلِكون، وهذا وَعدٌ صـــادِقٌ لا خُلْفَ فيه.

{فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـــالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ} (هود: ٦٦)

٦٦- فلمّا جاءَ مَوعِدُ العَذاب، نَجَّيْنا النبيَّ صـــالِحاً والذينَ آمَنوا معَهُ مِنْ خِزي ذلكَ اليَوم، برَحمَةٍ منّا، فقدِ استَجابوا لنِداءِ اللهِ وأطاعُوا رَسـولَه، ووفَّقَهمُ اللهُ للطَّاعةِ والعمَلِ الصَّـالِح، وإنَّ اللهَ لقَويٌّ قادِر، غالِبٌ على كلِّ شَيء، ولا يَفلِتُ منْ عِقابهِ مُجرِمٌ مُستَكبِر.

{وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ} (هود: ٦٧)

٦٧- فأهلَكَ اللهُ الكافِرينَ بصَـــيحَةٍ شَـــديدَةٍ مُدَوِّيةٍ مِنْ فَوقِهمْ وقَعَتْ عليهمْ كالصَّـــاعِقة، فأصبَحوا في مَساكنِهمْ مَوتَى هامِدين، لا حِراكَ بهِمْ ولا حِسَّ فيهم.

---

(٥٦) إضافةُ الناقةِ إلى اسمِ الجلالةِ لأنها خُلِقتْ بقدرةِ الله الخارقةِ للعادة. (التحرير والتنوير). الإضافةُ للتشريف، والتنبيهِ على أنها مفارقةٌ لسائرِ ما يجانسها، من حيثُ الخِلقة، ومن حيثُ الخَلق؛ لأن الله تعالى خلقها من الصخرةِ دفعةً واحدةً من غيرِ ولادة. وكانت عظيمةَ الجثةِ جدًّا. (روح البيان).

{كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّثَمُودَ} (هود: ٦٨)

٦٨- وكأنَّهُمْ لم يُقيمُوا في تلكَ الدِّيار، ولم يَتمتَّعوا فيها بالمالِ والأولاد. ألَا إنَّ قَبيلةَ ثَمودَ كفَروا بربِّهم، وأبَوا أنْ يُطاوِعوا الحقّ، ألَا بُعْدًا وهَلاكًا لثمودَ الكافِرين.

{وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُـــشْرَى قَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ} (هود: ٦٩)

٦٩- ولقدْ جاءَتْ ملائكتُنا إبراهيمَ تُبشِّـرُهُ بإسْـحاق، أو بإهلاكِ قَومِ لوط، وهوَ لا يَعرِفُهم، قالوا لهُ مُحَيِّين: سـلامًا عَليك، فأجابَهم: سـلامٌ عَليكم. وذهبَ سَـريعًا ليأتيَهمْ بالطَّعام، ولم يُبطِئ، فجاءَهُمْ بعِجْلٍ مَشْوِيّ.

{فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ} (هود: ٧٠)

٧٠- فلمّا رآهُمْ لا يَمُدُّونَ أيديَهمْ إلى الطَّعامِ - فالملائكةُ لا يأكلونَ - أنكرَ هذا الموقِفَ منهم، وقدْ قصـدَ إكرامَ ضُـيوفِه، واسـتَشـعرَ خَوفًا مِنْ جهَتِهم، فقالوا لهُ حينَ رأوا أثرَ ذلكَ عليه: لا تَخَف، فإنَّنا ملائكة، أُرسِلْنا بالعَذابِ إلى قَومِ لُوط.

{وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ} (هود: ٧١)

٧١- وامرأةُ إبراهيمَ (سـارةُ) كانتْ قائمةً بخِدْمَتِهم، فلمّا سَمِعَتْ ذلكَ منهمْ ضَـحِكَتْ واستَبشَـرتْ بهلاكِ قَومِ لُوط؛ لكثرةِ فَسادِ هِمْ وكفرِهِمْ وعِنادِهم. أو أنَّها ضَـحِكتْ لسـرورِها بزوالِ الخَوفِ عنْ زَوجِهـا إبراهيمَ بعـدَ أنْ ذَكروا أنَّهُمْ ملائكـة. ومنهمْ مَنْ قـالَ إنَّ معنَى ضَحِكت: حاضَت، كما يأتي في اللّغة.

فعقَّبْنا سُـرورَها بسُـرورٍ أتمَّ منهُ على ألسِـنةِ رسُـلِنا، فبشَّـرناها بوَلَدٍ لها يَكونُ لهُ عَقِبٌ ونَسـل، ووَهبنا لإبراهيمَ مِنْ بعدِ إسْحاقَ يَعقوب.

{قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ} (هود: ٧٢)

٧٢- قالَتْ سَارة: يا عَجَبًا! أألِدُ وأنا عَجوزٌ كبيرة، وهذا زَوجي كذلك شَيخٌ مُسِنّ؟ إنَّ هذا أمرٌ يَدعو إلى العَجَب، فهوَ مُخالِفٌ للعَادة.

{قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ} (هود: ٧٣)

٧٣- قالَ لها الملائكة: أتَعجَبينَ مِنْ قُدرَةِ اللهِ وحِكمَتِه؟ فإنَّ اللهَ قادِرٌ على كُلِّ شَــيء، وإذا أرادَ أمرًا قالَ لهُ كُنْ فيَكون. فلا تَعجَبي مِنْ ذلك، رحمَةُ اللهِ المتَتابِعةُ وخَيراتُهُ المتكاثِرةُ عليكمْ يا أهلَ بَيتِ النبوَّة، واللهُ مَحمُودٌ في أفعالِه، كريمٌ، كثيرُ الخَيرِ والإحسَان.

{فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ} (هود: ٧٤)

٧٤- فلمّا ذهبَ عنْ إبراهيمَ الخَوفُ والفزَعُ، وبشَّرَهُ الملائكةُ بإسْحاقَ ويَعقوب، وبهلاكِ قَومِ لوط، أخذَ يُجادِلُ رسُلَنا – الملائكةَ – في هؤلاءِ القَومِ الكافِرين، ويَقولُ لهم: إنَّ بينَهمْ مؤمنين، فكيفَ تُهلِكونَهم؟ وما آمَنَ بهِ سِوَى أهلِه.

{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ} (هود: ٧٥)

٧٥- إنَّ نبيَّ اللهِ إبراهيمَ صَبُورٌ مُتأنٍّ، يَتَحمَّلُ أسبابَ الغضَبِ وأذَى النَّاس، ويَصفَحُ عنهم، كثيرُ التضَرُّعِ والدُّعاء، يَؤوبُ إلى ربِّهِ سَريعًا.

{يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ} (هود: ٧٦)

٧٦- يا رَســولَ اللهِ إبراهيم، أَعرِضْ عَنْ هذا المقال، ودَعْ عنكَ هذا الجِدال، فقدْ حَقَّ عليهمْ حُكمُ اللهِ بالهَلاك، ونازِلٌ بهمْ بأسٌ لا يُرَدّ، وعَذابٌ لا يُصْرَف.

{وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ} (هود: ٧٧)

٧٧- ولما أتَتْ ملائكتُنا لُوطًا عليهِ السَّلام، على هَيئةِ شَبابٍ حِسانِ الوُجوه، ساءَهُ أمرُهم، وضاقَتْ نفسُهُ بهم، خَشيَةَ أنْ يَراهُمْ قَومُهُ فيُؤذُوهم، وقال: هذا اليومُ يَومٌ شَديد. قالَ ذلكَ خَوفًا مِنْ شَرٍّ يُنتَظَر.

{وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَـؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ} (هود: ٧٨)

٧٨- وجاءَ قَومُ لُوطٍ إليهِ وهوَ في بَيتِهِ معَ أضيافِهِ مُسرِعين؛ مِنْ فَرَحِهِمْ بوجودِ شَبابٍ عندَه، وكانوا أصحابَ سَيِّئاتٍ وفَواحِشَ قَبلَ ذلك، فيَأتونَ الرِّجالَ في أدبارِهم، وهوَ ما لم يَسبِقْهُمْ إلى هذهِ الفاحِشةِ الدنيَّةِ أحَد. فقالَ لهمْ لُوطٌ عليهِ السَّلام: يا قَومي، هؤلاءِ بَناتي فتَزَوَّجُوهُنّ، فإنَّهُنَّ أطهَرُ لكمْ وأنظَفُ مِنْ هذا الفِعلِ الفَاحِشِ الذي تَبغونَهُ وتُمارِسونَه.

وذُكِرَ أنَّ تَزويجَ المؤمِناتِ منَ الكفّارِ كانَ جائزاً مِنْ قَبل.

أو أنَّ القَولَ منهُ لم يَكنْ مُجرِيًّا على الحَقِيقةِ مِنْ إرادةِ النِّكاح، بلْ كانَ مُبالَغَةً في التواضُعِ لهمْ ليَستَحيوا منهمْ ويَرِقُّوا لهُ إذا سَمِعوا ذلكَ فيَتركوا ضُيوفَه.

كما ذهبَ بعضُهمْ إلى أنَّ المقصودَ ببَناتِ النبيِّ نِساءُ قَومِه، فإنَّ النبيَّ للأمَّةِ بمَنزِلةِ الوالِد... فأرشَدَهمْ إلى ما هوَ أنفَعُ لهمْ في الدُّنيا والآخِرَة.

قالَ لهم: فاتَّقوا اللهَ بتَركِ الفَواحِش، ولا تَفضَحوني في شَأنِ ضُيوفي ولا تُخجِلوني أمامَهم، أليسَ بينَكمْ رَجُلٌ فيهِ خَير، ويَهتدي إلى الحقِّ والصَّواب؟

{قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ} (هود: ٧٩)

٧٩- قالوا لهُ مُعرِضينَ عنْ نَصيحَتِه، مُصرِّينَ على فِعلِ الفاحِشة: أنتَ تَعلَمُ أنْ لا شَأنَ لنا في بَناتِك، وأنتَ تَعلَمُ سببَ مَجيئنا إليك، وإنَّ غرَضَنا أنْ نأتيَ هؤلاءِ الذُّكور.

{قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} (هود: ٨٠)

٨٠- قالَ لوطٌ عليهِ السَّلامُ وقدْ بلغَ بهِ الحُزنُ والغضَبُ مأخَذًا، ويَئِسَ مِن استِجابتِهمْ وإصْلاحِهم: لو كانتْ لي قوَّةٌ ومَنَعةٌ على دَفعِكمْ لنَكَلْتُ بكم، أو كانتْ لي عَشيرةٌ قويَّةٌ

لأوَيتُ إليها وتترَّستُ بها وانتَصَرتُ بها عليكمْ دِفاعًا عنْ ضُيوفي. ولم تَكنْ لهُ عَشيرةٌ بينَ قَومِه، عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام.

{قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ} (هود: ٨١)

٨١- قالتِ الملائكةُ للُوطٍ عليهِ السَّلام: يا لُوط، نحنُ مَلائكةُ الله، أُرسِلْنا إليكَ لنُخبِرَكَ بإهلاكِ قَومِكَ الكافِرين، فلا تَضجَرْ ولا تَبتَئِسْ مِنْ هؤلاء، ودَعهُمْ فإنَّهُمْ لنْ يُلحِقوا بكَ ضَرَرًا، فَسِرْ بأهلِكَ بعدَ مُضيّ أوَّلِ اللَّيل، ولا يَلتَفِتْ منكمْ أحَدٌ وراءَه، بلِ استَمِرُّوا ذاهِبينَ ولو سَمعتُمْ شِدَّةَ ما ينزِلُ بقَومِكم، إلاّ امرأتَك، فلا تَسْرِ بها معَ أهلِكَ المؤمنين، وخَلِّفْها معَ قَومِها، فإنَّ هَواها إليهم، وإنَّهُ مُصيبُها ما أصابَهُمْ منَ العَذاب.

وإنَّ مَوعِدَ هَلاكِهِمُ الصُّبح، أوَليسَ الصُّبحُ قَريبًا؟

ووَقتُ الصُّبحِ وقتُ راحَةٍ وسُكون، فيَكونُ العَذابُ أنكَى وأشَدَّ وأقْطعَ لهم، وفي ذلكَ عِبرَةٌ للغافِلين، وعِظَةٌ لأهلِ الفَواحِشِ والشاذِّين، وإنَّ عَذابَ اللهِ في الآخِرةِ أشَدُّ وأبقَى.

{فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ} (هود: ٨٢)

٨٢- فلمَّا جاءَ عَذابُنا قلَّبنا مُدُنَهمْ على رأسِها، فصاروا كلُّهم تحتَ الأرضِ أنقاضًا، وأرسَلنا عليهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ مُتَحَجِّرٍ مُتراكِم، يَتْبَعُ بعضُهُ بَعضًا.

وقدْ أثبتَتْ دِراساتُ عُلومِ الأرض، أنَّ طَبقاتِ الصُّخورِ في مِنطَقةِ جَنوبِ البحرِ الميّت، وهيَ مكانُ سَكَنِ قومِ لوط، مَقلوبَةٌ رأسًا على عَقِب، كما جاءَ في نَصِّ الآيةِ الكريمة.

{مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ} (هود: ٨٣)

٨٣- وهذهِ الحِجارةُ مُعْلَمَةٌ مُميَّزة، لتُصيبَ كُلاًّ باسمِه، وليسَتْ هذهِ النقْمَةُ ببَعيدةٍ مِنَ الظَّالِمين، واللهُ يأتي بها متَى شَاء.

{وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُـعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـــهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُــواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ} (هود: ٨٤)

٨٤- وأرسَـلنا إلى مَديَنَ - أرضٌ بمُعَانَ في الأردُنّ - أخاهُمْ في النسَـبِ شُـعَيبًا، فقالَ لهم: يا قَومي اعبُدوا اللهَ وحدَه، ولا تُشـرِكوا بهِ شَـيئاً، فليسَ لكمْ مِنْ إلهٍ خالِقٍ وربٍّ رازِقٍ يَسـتَحِقُّ العِبادةَ غَيرُه.

ولا تُطَفِّفوا في الكَيلِ والوَزنَ عندما تَبيعونَ وتَشـــتَرون، فإنَّ هذا غِشٌّ وخِيانة، وأكلٌ لأموالِ النَّاسِ بغَيرِ حَقّ، وإنِّي أراكُمْ في سَـعَةٍ وغِنًى، ويَنبغي أنْ تُقابَلَ نِعمةُ اللهِ بالشُّـكرِ والإنفَاق، لا كما تَفعلون، وإنِّي أخشَى إنِ استَمرَرْتُمْ على ذلكَ هَلاكًا يَحصُدُكمْ جَميعًا.

{وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْــطِ وَلاَ تَبْخَسُــواْ النَّاسَ أَشْــيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ} (هود: ٨٥)

٨٥- ويا قَومي أتِمُّوا المِكيالَ والميزانَ بالعَدلِ والقِســـطِ بيَعاً وشِـــراءً، حتَّى لا يُظْلَمَ أحَد، ولا تَنقُصُـــوا النَّاسَ حَقَّهمْ في أيِّ شَـــيء، ولا تَكونوا ممَّنْ يُفسِـــدونَ في الأرضِ فيَظلِمونَ النَّاس، ويُهلِكونَ الحَرْثَ والنَّسْل.

{بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ} (هود: ٨٦)

٨٦- وما أبقَاهُ اللهُ لكمْ مِنْ رِزقٍ حَلالٍ في بَيعِكم، خَيرٌ لكمْ ممَّا يَعودُ إليكمْ بالغِشِّ والخِيانَة، إذا كنتُمْ مُؤمِنينَ بالله، مُصَدِّقينَ بي، ولستُ عَليكمْ برَقيب، ولا أحفَظُكمْ مِنْ فعلِ الحَرام، وإنَّما أنا رَسولٌ مُبَلِّغ، وأخٌ ناصِح.

{قَالُواْ يَا شُـعَيْبُ أَصَـلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَـاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} (هود: ٨٧)

٨٧- قالوا في تَهَكُّم: يا شُعَيب، أعِبادَتُكَ تأمُرُكَ أنْ ندَعَ ما يَعبدُ آباؤنا وأجدادُنا مِنَ الأصْنام، وأنْ نَترُكَ ما نَفعَلُهُ بأموالِنا ما نَشــاءُ مِنْ غِشٍّ وتَطفِيف؟ أنتَ العاقِلُ المهّذَّب، الحَكيمُ المعتَبَر! قالوا ذلكَ استِهزاءً بِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام.

{قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَــناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْـلاَحَ مَا اسْـتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} (هود: ٨٨)

٨٨- قالَ لهمْ شُعَيب: يا قومي، أرأيتُمْ إنْ كنتُ على دَليلٍ وحُجَّةٍ واضِحةٍ ممّا أوحَى إليَّ ربِّي، ومَنَّ عليَّ بفَضلِهِ فجَعلَني نَبيًّا، وأرسَلني إليكمْ لأنصَحَكمْ وأُنذِرَكمْ لِما فيهِ خَيرُكم، ولا أريدُ أنْ أفعلَ شَيئاً أنهاكُمْ عنه، فأنا مُستَقيمٌ على طاعةِ ربِّي، وطلَبِ الحلالِ بدونِ ظُلمِ أحَد، ولا أريدُ مِنْ وراءِ تَبليغِكمْ وإرشادِكمْ سِوَى إصْلاحِ نفُوسِكمْ وأحوالِكم، على قَدْرِ جُهدي وطاقَتي، وما تَوفيقي في الإصــابةِ والإصــلاحِ إلاّ بتأييدِ اللهِ ومَعونَتِه، عَليهِ اعتَمدتُ في جَميعِ أمُوري، وإليهِ أرجِعُ وأتوب، فلا تَيسيرَ ولا فَرَجَ إلاّ منه، ولا تأييدَ ولا تَوفيقَ إلاّ به.

{وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِـقَاقِي أَن يُصِــيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَـابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ} (هود: ٨٩)

٨٩- ويا قَومي لا يَحمِلنَّكمُ الخِلافُ مَعي ومُعاداتي على الإصْرارِ على ما أنتُمْ عليهِ منَ الشِّركِ والفسَاد، حتَّى لا يُصيبَكمْ مثلُ ما أصـابَ قَومَ نُوحٍ منَ الغَرَق، أو قومَ هُودٍ منَ الرِّيح، أو قَومَ صالِحٍ منَ الصَّيحة، وما زمانُ قَومِ لُوطٍ وخَبَرُ هلاكِهِمْ منكمْ ببَعيد، فاعتَبِروا.

{وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ} (هود: ٩٠)

٩٠- واطلُبوا المغفِرةَ مِنْ ربِّكم، وأقلِعوا عمَّا أنتُمْ عليهِ ولا تَعودوا إليه، إنَّ ربِّي عَظيمُ الرَّحمةِ لمنْ تابَ وأناب، كثيرُ الوُدِّ والمحَبَّةِ للمُؤمنين.

{قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ} (هود: ٩١)

٩١- قالَ لهُ قَومُهُ المشرِكونَ المفسِدون: يا شُعَيبُ لا نَفهَمُ ولا نَعقِلُ كثيرًا مِنْ قَولِك، ونحنُ نَراكَ فيما بينَنا ضَعيفًا، لا تَقدِرُ على أنْ تُلحِقَ الضَّرَرَ بأحَدٍ منّا، ولولا تَقديرُنا لعَشيرَتِكَ لقَتلناكَ شَرَّ قِتْلَة، وما أنتَ عندنا ذا قِيمةٍ واحتِرام.

{قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} (هود: ٩٢)

٩٢- قالَ لهمْ نبيُّهمْ شُعَيبٌ عليهِ السَّلام، وكانَ خَطيبًا بَليغًا: يا قَومي، أعَشيرَتي أكرمُ عِندَكمْ منَ اللهِ خالِقِكمْ ورازِقِكم، وأكثَرُ رَهبةً وتَقديرًا في قُلوبِكمْ منه، وقدْ نَبَذتُمْ أمرَهُ وراءَكمْ بدونِ أيِّ حِسابٍ لرسالتِهِ العَظيمة؟! لكنَّهُ يَعلَمُ بجَميعِ أعمالِكمُ السيِّئة، وسوفَ يُحاسِبُكمْ عَليها.

{وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ} (هود: ٩٣)

٩٣- ويا قَومي اعمَلوا على طَرِيقَتِكمْ ما تُريدون، واثبُتوا على ما أنتُمْ عليهِ منَ الكُفرِ والتَّكذيب، وأنا عامِلٌ على طَريقَتي ومنهَجي، وسَوفَ تَعلمونَ مَنِ الجاني على نَفسِهِ الخارِجُ على الحَقّ، فيَحِلَّ عليهِ عَذابٌ يُذِلُّه، ومَنِ الكاذِبُ في دَعواه: أنا أمْ أنتُم، وانتَظِروا حُلولَ العَذابِ الذي أنذَرْتُكمْ به، إنِّي مُنتَظِرٌ مَعَكمْ ذلك.

{وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ} (هود: ٩٤)

٩٤- ولما جاءَ أمرُنا بهلاكِ القَومِ الكافِرين، أنجَينا النبيَّ شُعَيبًا والمؤمِنينَ مَعَهُ برحمَةٍ منّا، فقدْ هَدَيناهُمْ للإيمان، والتَّوفيقِ للطَّاعَةِ والأعْمالِ الصَّالِحَة، وأخَذَتْ أولئكَ الظّالمينَ الصيحَةُ القويَّة، المدَوِّيةُ المرْعِبة، فصَاروا جَميعًا جُثَثاً، هامِدين، لا حِراكَ بهم.

{كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ} (هود: ٩٥)

٩٥- وكأنَّهُمْ لم يُقيمُوا في هذهِ الدِّيارِ قَبلَ ذلك، وكأنَّهُمْ لم يَكونوا ذَوي أهلٍ وأمْوال، وحرَكةٍ وعُمْران! ألا بُعدًا وهلاكًا لمِدْيَنَ كما هَلَكَتْ ثَمود. وطُوِيَتْ صَفحَةٌ أخرَى منْ صَفَحاتِ الظُّلمِ والكُفر، وحقَّ عليهمُ اللَّعنُ والعَذاب.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} (هود: ٩٦)

٩٦- ولقدْ أرسَلنا موسَى بنَ عِمرانَ وأيَّدناهُ بحُجَجٍ واضِحة، وبراهينَ كافية، ومُعجِزاتٍ عَظيمة، تَدلُّ على صِدقِ نبوَّتِه، وصِحَّةِ رِسالتِه.

{إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ} (هود: ٩٧)

٩٧- أرسَلناهُ إلى فِرعَونَ مَلِكِ مِصرَ وطاغِيَتِها الكبير، الذي ادَّعَى أنَّهُ الربُّ الأعلَى، وإلى قَومِهِ الذينَ تَقبَّلوا منهُ ذلك، فاتَّبَعوا أمرَهُ ونَهيَه، ولم يَكنْ ذا نَهجٍ رَشيد، ولا حِكمةٍ واستِقامَة، بلْ كانَ ضَالاًّ مُستَكبِرًا، وجاهِلاً مُفسِدًا، مُحارِبًا لدِينِ الله، كافِراً برسَالةِ نبيِّه.

{يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ} (هود: ٩٨)

٩٨- يَتقدَّمُ قَومَهُ يومَ القِيامةِ كما تقدَّمَهمْ في الدُّنيا، فيَتْبَعونَهُ يومَ القيامةِ كما تَبِعوهُ في الدُّنيا، ولكنَّهُ في هذا الموقفِ يُورِدُهمُ النَّارَ المؤَجَّجة، جزاءَ كُفرِهِمْ واستِكبارِهِمْ عنِ اتِّباعِ الحَقّ، وبئسَ المكانُ الذي يَقصِدونَهُ ويَدخُلونَه، وهوَ النَّارُ التي تطَّلِعُ على أفئدَتِهم.

{وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ} (هود: ٩٩)

٩٩- وقدْ أُلحِقَتْ لَعنةُ اللهِ بآلِ فِرعَونَ في الحياةِ الدُّنيا فماتوا غَرَقًا على الكُفر، وفي الحياةِ الأخرَى تَتْبَعُهمُ اللَّعنةُ أيضًا، فلا نَصيبَ لهمْ في رَحمَةِ الله، فيُقذَفونَ في النَّار، وبئسَ ما همْ عليهِ مِنْ حال، حيثُ تَتْبَعُهمُ اللَّعنةُ إثْرَ اللَّعنة(٥٧).

{ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ} (هود: ١٠٠)

١٠٠- وذلكَ الذي قَصَصْناهُ عَليكَ مِنْ أنباءِ الأُمَمِ الكافِرةِ وأحوالِهِمْ معَ أنبيائهمْ في تلكَ القُرى، منها ما هوَ باقٍ تُرى آثارُهُ وتَشهَدُ على أعْمالِهِمْ بالقوَّةِ والعُمران، ومنها ما هوَ هالِكٌ داثِرٌ لا يُرَى.

{وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ} (هود: ١٠١)

١٠١- ولَم نَظلِمهُمْ بالعَذابِ والإهْلاك، ولكن همُ الذينَ ظلَموا أنفُسَهمْ فجلَبوا لها الهَلاك، فكذَّبوا بآياتِنا، وكفَروا برسَالاتِ أنبيائنا، وفتَنوا المؤمنينَ عنْ دِينِهم، فكانَ عِقابُهمْ عَدْلاً وحِكمةً منَ الله، وليسَ ظُلمًا. وما نفعَتْهُمْ أصنامُهمُ التي كانوا يَعبدُونَها، فلمْ تَشفَعْ لهمْ عندَ اللهِ كما كانوا يَدَّعون، بلْ ما زادَتهمْ غيرَ تَخسير، فجَلبَتْ لهمُ الهَلاكَ والدَّمار، والعَذابَ والنَّار.

{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} (هود: ١٠٢)

١٠٢- ومِثْلُ ما مَرَّ منْ إهلاكِ الأقْوامِ والقُرَى يَكونُ إهلاكُ ربِّكَ لها ولأشباهِها؛ بسَبَبِ ظُلمِها وعُتوِّها، إنَّ عَذابَ اللهِ وإهلاكَهُ شَديدُ الألَم، قويُّ الأثَر، وإنَّ بأسَ ربِّكَ لشَديد. وفي الصحِيحَين: "إنَّ اللّهَ لَيُمْلي للظَّالِم، حتَّى إذا أخذَهُ لم يُفْلِتْهُ".

---

(٥٧) {الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ}: الرفدُ قد جاءَ بمعنى العون، وبمعنى العطيَّة، والملائمُ هنا هو الأول. قالَ الزجّاج: كلُّ شيءٍ جعلتَهُ عونًا لشيءٍ وأسندتَ به شيئًا فقد رفدته. والمعنى: بئسَ العونُ المعانُ رِفدُهم، وهي اللعنةُ في الدارين، وذلك أن اللعنةَ في الدنيا رفدٌ للعذابِ ومددٌ له، وقد رُفِدَتْ باللعنةِ في الآخرة. (روح البيان).

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ} (هود: ١٠٣)

١٠٣- إنَّ في إهلاكِ الأُمَمِ الكافِرةِ عِظَةً وعِبرَةً لمنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِر، ففيهِ مِنْ تَعذيبِ الكافِرينَ الظَّالِمينَ بالنَّارِ في الآخِرَةِ ما يُشْبِهُ إهلاكَهمْ في الدُّنيا، فكِلاهُما عَذاب، لكنَّ عَذابَ الآخِرَةِ أشَدُّ وأبقى، ذلكَ اليومُ الذي يَجتَمِعُ النَّاسَ فيهِ كلُّهم، أوَّلُهُمْ وآخِرُهم، للمُحاسَبةِ والجَزاء، إنَّهُ يَومٌ مَشهودٌ عَظيم، يَشهَدُهُ أهلُ السَّماءِ والأرْض.

{وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ} (هود: ١٠٤)

١٠٤- وما نؤخِّرُ ذلكَ اليومَ المشهودَ إلاّ لأنَّهُ سَبَقَتْ كلِمَةٌ مِنَ اللهِ أنْ يَكونَ في مُدَّةٍ مُعَيَّنةٍ مَعلومَةٍ عندَه، فلا يُنْقَصُ منها، ولا يُزادُ عَليها.

{يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} (هود: ١٠٥)

١٠٥- يَومَ يأتي ذلكَ اليَومُ العَظيم، وقدْ طغَى السُّكونُ الرَّهيبُ على الجَميع، فلا يَتكلَّمُ أحَدٌ إلاّ بإذنِ الله، فمِنْ هؤلاءِ مَنْ يَكونُ شَقيًّا تَعيسًا، ومنهمْ مَنْ يَكونُ سَعيدًا مَسرورًا.

{فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ} (هود: ١٠٦)

١٠٦- فأمّا الأشْقياءُ فمأواهمُ نارُ جهنَّمَ المسعَرَة، فيَشهَقونَ ويَزْفِرونَ بشِدَّةٍ وألم؛ مِنَ الضِّيقِ والحرِّ والإحْراق.

{خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ} (هود: ١٠٧)

١٠٧- ماكثينَ في جَهنَّمَ مادامتِ السَّماواتُ والأرْض.

وهوَ تَعبيرٌ في البَقاءِ المستَمِر، فكانَ مِنْ عادةِ العَربِ إذا وصفَتِ الشَّيءَ بالدَّوامِ أبَدًا قالت: هذا دائمٌ مادامتِ السَّماواتُ والأرض، وهذا باقٍ ما اختَلفَ اللَّيلُ والنَّهار. فخاطَبَهمُ اللهُ بما يَتعارَفونَهُ بينَهم.

وقالَ بعضُهم: المقصودُ سَماواتُ الآخِرةِ وأرضُها.

إلاّ ما شاءَ الله. واللهُ يَفعَلُ ما يُريدُ بالشقِيّ والسَّعيد.

والاستثناءُ في المشيئةِ عائدٌ على العُصاةِ مِنْ أهلِ التَّوحيد، ممَّنْ يُخرِجُهمُ اللهُ منَ النَّارِ بشَفاعَةِ الشَّافِعين، ثمَّ تأتي رحمَةُ اللهِ فتُخرجُ مِنَ النَّارِ مَنْ لم يَعمَلْ خَيرًا قَطُّ وقالَ مَرَّةً منَ الدَّهرِ: لا إلهَ إلاّ الله. ولا يَبقَى بعدَ ذلكَ في النَّارِ إلاّ مَنْ وجَبَ عليهِ الخُلودُ فيها ولا مَحيدَ لهُ عنها. هذا ما عليهِ كثيرٌ منَ العُلماء، قَديمًا وحَديثًا.

{وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ} (هود: ١٠٨)

١٠٨- وأمّا السُّعَداءُ مِنْ أهلِ الإيمانِ وأتْباعِ الرسُل، فمَأواهمُ الجنَّة، مادامتِ السَّماواتُ والأرض، في دَلالَةٍ على الدَّوامِ كما مَرَّ في الآيةِ السَّابِقة، يَعني خالِدينَ فيها أبدًا. إلاّ ما شاءَ الله.

ومعنَى الاستِثناءِ هاهُنا أنَّ دوامَهمْ فيما هُمْ فيهِ منَ النَّعيمِ ليسَ أمرًا واجِبًا بذاتِه، بلْ هوَ مَوكولٌ إلى مَشيئتهِ تعالَى، فلَهُ المِنَّةُ عَليهم... قالَهُ ابنُ كثير.

ولا شَكَّ في خُلودِ أهلِ الجنَّة، ولهذا طيَّبَ اللهُ القُلوبَ وثبَّتَ المقصودَ بقَولهِ في آخِرِ الآية: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} أي: إحسَانًا ونَعيمًا لا يَنقَطِعُ عنْ أهلِ الجنَّةِ أبَدًا.

{فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـؤُلاء مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ} (هود: ١٠٩)

١٠٩- فلا تَكنْ في شَكٍّ مِنْ بُطلانِ ما يَعبدُ هؤلاءِ المشرِكون، فإنَّهمْ في جَهلٍ وضَلال، وحُمْقٍ وغَفْلة، ما يَعبدُونَ شَيئًا إلاّ مِثلَ الذي عَبدَهُ آباؤهُمْ وأجدادُهمْ مِنَ الأوثَان، وقدْ قَصَصنا

عَليكَ ما حَلَّ بهم، وهؤلاءِ كذلك، سَــوفَ نُؤتِيهمْ حَظَّهمْ منَ العَذابِ كما آتَينا آباءَهم، ولنْ يُبْخَسوا مِنْ حَظِّهمْ شَيئاً!

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ} (هود: ١١٠)

١١٠- ولقدْ أنزَلنا على موسَى التَّوراة، فاختلَفَ النَّاسُ في كونهِ كتابًا مِنْ عندِ الله، فمِنْ مؤمِنٍ بهِ ومِنْ كافِر، ولو لا أنْ قضَـــى اللهُ مِنْ قَبلُ بتأجيلِ العَذابِ إلى اليومِ المعلوم، لحكَمَ بينَهم، وأوقعَ العَذابَ في كافِرِهمُ استِحقاقًا، وإنَّهمْ لفي شَكٍّ قَويٍّ ممّا جاءَهمُ بهِ الرسُول.

{وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} (هود: ١١١)

١١١- وإنَّ كُلَّ النَّاسِ، مُؤمِنَهمْ وكافِرَهم، وأوَّلَهمْ وآخِرَهم، يَجمعُهمُ اللهُ يَومَ القِيامةِ ليُحاسِــبَهمْ على أعْمالِهم، صَــغيرِها وكبيرِها، ويَجزيَهمْ عَليها، إنْ خَيرًا أو شَــرًّا، وهوَ عَليمٌ بأعْمالِهم، دِقِّها وجِلِّها، لا يَغيبُ عنهُ منها شَيء.

{فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (هود: ١١٢)

١١٢- فالْزَمِ النَّهجَ المسْـــتَقيمَ في الدِّينِ أيُّها الرسُـــول، منْ غَيرِ إفراطٍ ولا تَفريط، في ثَباتٍ ودَوام، كما أمرَكَ اللهُ بذلك، أنتَ ومَنْ تابَ منَ الشِّــرْكِ معَك، ولا تَتجاوَزوا ما حَدَّهُ اللهُ لكمْ ولا تَنحَرِفوا عنه، فإنَّ مُجاوزةَ الحقِّ والتَّقصـيرَ فيهِ طُغيانٌ وظُلم. فمَنْ أحلَّ ما حرَّمَ اللهُ في القُرآنِ فقدْ ظَلَم، ومَنْ أشـركَ كذلك، أو زَنَى، أو عَقَّ والِدَيه. ولا يَخفَى عليه شَـيء، فيُجَازيكم على ما عَمِلتُم، فاتَّقوهُ في المحافظةِ على حُدودِه.

{وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّـــكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ} (هود: ١١٣)

١١٣- لا تَســـكُنوا إلى أهلِ الظُّلمِ ولا تَرضَـــوا بظُلمِهم، لا تَميلوا إلى الجَبّارينَ الطُّغاةِ الذينَ يَظلِمونَ عبادَ اللهِ، ولا تَستَعينُوا بهم، ولا تَستَنِدوا إليهم، فتَكونوا كأنَّكمْ قدْ رَضِيتُمْ بأعْمالِهم، ويكونُ رَكونُكمْ إليهمْ إقرارًا لهمْ على ما يُزاوِلونَهُ منْ ظُلمٍ ومُنكَر.

قالَ القاضي البيضاويُّ في تفسيرِه: لا تَميلوا إليهمْ أدنىَ مَيل، فإنَّ الركونَ هوَ المَيْلُ اليَسير، كالتزَيّي بزِيِّهم، وتَعظيمِ ذِكرِهمْ واستِدامَتِه. اهـ.

وقالَ صاحِبُ "روح المعاني": فما ظنُّكَ بمَنْ يَميلُ إلى الراسِخينَ في الظُّلمِ كُلَّ الميل، ويَتهالَكُ على مُصاحَبتِهمْ ومُنادَمتِهم، ويُتعِبُ قَلبَهُ وقالَبَهُ في إدخالِ السُّرورِ عَليهم، ويَستَنهِضُ الرِّجْلَ والخَيلَ في جَلبِ المنافِعِ إليهم، ويَبتَهِجُ بالتزَيّي بزِيِّهم، والمشارَكةِ لهمْ في غَيِّهم، ويَمُدُّ عَينَيهِ إلى ما مُتِّعوا بهِ مِنْ زَهرَةِ الدُّنيا الفانيَة، ويَغبِطُهمْ بما أُوتُوا مِنَ القُطوفِ الدانيَة، غافِلاً عنْ حَقيقَةِ ذلك، ذاهِلاً عنْ مُنتَهى ما هُنالِك!

قال: ويَنبَغي أنْ يُعَدَّ مِثْلُ ذلكَ مِنَ الذينَ ظَلَموا لا منَ الرَّاكنينَ إلَيهم، بِناءً على ما رُوِيَ أنَّ رَجُلاً قالَ لسُفيان: إنِّي أَخيطُ للظلَمَة، فهلْ أُعَدُّ مِنْ أعوانِهم؟ فقالَ له: لا، أنتَ منهم، والذي يَبيعُكَ الإبرَةَ مِنْ أعوانِهم! اهـ.

فإذا فَعَلتُمْ ذلكَ تُصيبُكمُ النارُ بسَبَبِه.

وليسَ لكمْ مِنْ دونِ اللهِ أنصـــارٌ يَمنَعونَ العَذابَ عنكمْ إذا قَدَّرَهُ عليكم، ولا تَجِدونَ مَعونَةً منْ عندِ اللهِ لإنقاذِكمْ مِنَ العَذاب، فقدْ سَبقَ في حُكمِهِ تعالَى أنْ يُعَذِّبَكم؛ لميْلِكمْ إلى الظَّالمين...

{وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـــيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} (هود: ١١٤)

١١٤- وأقمِ الصَّـــلاةَ المكتوبةَ بتَمامِها[٥٨]، وداوِمْ عليها، أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه، وأوَّلُهُ الفَجر، وآخِرُهُ الظُّهرُ والعَصر، لأنَّهما بعدَ زَوالِ الشَّمسِ مِنْ وسَطِ السَّماء. وسَاعاتٍ مِنَ اللَّيلِ قَريبةً

(٥٨) المرادُ بإقامةِ الصـلاةِ أداؤها، وإنما عبَّر عنه بها إشـارةً إلى أن الصـلاةَ عمادُ الدين. (روح البيان). الأمرُ بالإقامةِ يؤذِنُ بأنه عملٌ واجب؛ لأن الإقامةَ إيقاعُ العملِ على ما يستحقُّه، فتقتضي أنَ المرادَ بالصلاةِ هنا الصلاةُ المفروضة. (التحرير والتنوير).

منَ النَّهار، ويَعني صَــلاتَيِ المغرِبِ والعِشــاء. إنَّ فِعلَ الخَيرِ والعملَ الصــالِحَ يُكَفِّرُ الســيِّئاتِ ويُذهِبُ الذُّنوبَ السَّـابِقة، والصَّـلواتُ مِنْ أعظَمِ العِباداتِ والقُرُبات. وهذا مَوعِظةٌ لمنِ اتَّعَظ، وعِبرَةٌ لمنِ اعتَبَر.

{وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} (هود: ١١٥)

١١٥- واصْـبِرْ على صُـعوباتِ ما كُلِّفْتَ به، فإنَّ اللهَ لا يُضِـيْعُ ثوابَ صَـبرِكَ وعَمَلِك، وإنَّ الصَّبرَ منَ الإحسَان، والاستِقامةَ منَ الإحسَان، والصلاةَ منَ الإحسَان... وكُلَّ ذلكَ وغَيرَهُ ممّا ابتَغَيتَ بهِ وجهَ الله، ثوابٌ لكَ تَلقاهُ في الميزَان.

{فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَـادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ} (هود: ١١٦)

١١٦- فهلاّ وُجِدَ مِنَ القُرونِ الماضِـيةِ التي أهلكناهُمْ بَقايا مِنْ أهلِ الخَيرِ والطَّاعة، ذَوي رَأيٍ وعَقلٍ وفَضــل، يَقومونَ بالنَّهي عنِ الفَســادِ الواقعِ بينَهم، مِنَ الشِّــركِ والظُّلم، والشُّــرورِ والمعَاصــي، إلاّ قَليلاً منهمْ ممَّنْ أصــلَحوا وقامُوا بالنَّهي عنِ المنكَرات، فأنجَيناهُمْ مِنَ الهَلاك، وسائرُهمْ كانوا ظالِمينَ مُفسِدين، فاستَمرُّوا على ما همْ فيهِ منَ المعاصي والمنكَرات، والشَّهواتِ والمغرِيات، والترَفِ والبذَخ، وإيثارِ الدُّنيا على الآخِرة، وكانوا كافِرينَ مُجرِمين، بفَســادِهمْ وإفسَادِهم.

{وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} (هود: ١١٧)

١١٧- وما كانَ اللهُ ظالِماً حتَّى يُهلِكَ النَّاسَ ويُعَذِّبَهمْ وهُمْ مُصــلِحونَ في أعمَالِهم، يؤدُّونَ واجِبَهمْ كما يَنبَغي، ولكنَّهُ سُبحانَهُ يُهلِكُهمْ بكفرِهمْ وإفسادِهمْ وظُلمِهم.

{وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} (هود: ١١٨)

١١٨- ولو شاءَ اللهُ لجعَلَ النَّاسَ جَميعًا بعضَهمْ مثلَ بَعض، في أفكارِهم ومُعتَقداتِهم، وثقافاتِهمْ واتِّجاهاتِهم، فكانوا مُجتَمعِينَ على دِينٍ واحدٍ ومِلَّةٍ واحِدة، لا يقَعُ بينَهمْ اختِلافٌ وتَناحُر، وصَاروا كأنَّهمْ نُسخَةٌ مُكرَّرةٌ منْ بعضِهِمُ البَعض، ولكنْ لم يَشَأِ اللهُ ذلكَ على هذهِ الأرض، بلْ خَلَقَ الإنسانَ بطبائعَ مُختَلِفةٍ وعُقولٍ مُتفاوِتة، ووَهَبَهمُ العَزيمةَ والقُدرَةَ على الاختيار، بعدَ أنْ أعطاهمُ العَقلَ وبيَّنَ لهمُ الحقّ، ويَكونُ مِنْ مُقتَضَى هذا التَّفاوتِ والاختلافِ بينَهم، أنْ يَكونوا مُتفاوِتينَ ومُختَلِفينَ في عَقائدِهمْ وآرائهم.

{إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} (هود: ١١٩)

١١٩- إلاّ مَنْ أدركَتْهُمْ رَحمَةُ اللهِ فاهتَدَوا إلى الدِّينِ الحقّ، فهُمْ لا يَختَلِفونَ في العَقيدة، ولذلكَ خَلَقَ الناس، حتَّى يَتحَمَّلَ كُلٌّ تَبعةَ اختيارِه، ويُجازَى عَليه.

نقلَ الطبريُّ عنِ ابنِ عبَّاسٍ قولَه: خلقَهمْ فَريقَين: فَريقًا يُرحَمُ فلا يَختَلِف، وفَريقًا لا يَرحَمُ يَختَلِف، وذلكَ قَولُه: {فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ} [سورة هود: ١٠٥]. اهـ.

فأهلُ الرَّحمَةِ لا يَختَلِفون، وإذا اختلَفوا فلا يَكونُ اختِلافُهمْ مثلَ اختِلافِ الآخَرينَ في تَباغُضِهمْ وتَفرُّقِهم. يَقولُ الحسَنُ البَصْريُّ رَحِمَهُ الله: أهلُ رَحمَةِ اللهِ لا يَختَلِفونَ اختِلافًا يَضُرُّهم.

وهكذا نَفَذَ قضاءُ اللهِ وحَقَّ أمرُه، وتَمَّ حُكْمُه، بأنْ تَمتَلِئَ جَهنَّمُ منَ الكافِرينَ الضالِّين، المختَلِفينَ معَ أهلِ الحقِّ، المعادِينَ لهم، وتَمتَلِئَ الجنَّةُ بالمؤمِنينَ المتَّبعينَ للحَقّ، منَ الجِنِّ والإنس.

{وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} (هود: ١٢٠)

١٢٠- ونقُصُّ عَليكَ كُلَّ ما تحتاجُ إليهِ منْ أخبارِ الرسُلِ والأُمَمِ المتَقَدِّمين، وما جَرَى لَهمْ مِنْ تَصديقٍ وتَكذيب، ونَصْرٍ للرسُلِ والمؤمِنين، وهَلاكٍ للكافِرينَ المكَذِّبين، لنُثَبِّتَ بهِ قلبَك، فتَزدادَ يَقينًا وطُمأنينة، وثَباتًا على أداءِ الرسَالة، وتَحَمُّلاً لأذَى الكافِرين، أُسوَةً بمَنْ سَبقَكَ منْ إخوانِكَ المرسَلين.

وجاءَكَ في هذهِ السُّـــورةِ الحقُّ مِنْ عندِ الله، منَ النبأِ الصَّـــادقِ والقَصَـــصِ الحقّ، ليَتَّعِظَ بهِ المؤمِنون، ويَرتَدِعَ بهِ الكافِرون، ويَكونَ لهمْ جَميعًا عِبرَةً بما سَبَق.

{وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ} (هود: ١٢١)

١٢١- وقُلْ أيُّها النبيُّ للَّذينَ كفَروا: اعمَلوا ما شِئتُمْ على طَريقَتِكمُ التي تَرغبونَها منَ الضَّـلالِ والشِّرك، ونحنُ عامِلونَ على مِنْهَجِنا النابعِ منْ هُدَى الله، المؤيَّدِ بالدَّليلِ الحقّ.

{وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ} (هود: ١٢٢)

١٢٢- وانتَظِروا ما يَحِلُّ بِنا، ونحنُ نَنتَظِرُ ما يَحِلُّ بكمْ منْ نِقمَةِ الله، وسَوفَ تَعلَمونَ مَنِ الذي كانَ على الحقّ، إنْ عاجِلاً أو آجِلاً.

{وَلِلّهِ غَيْبُ السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} (هود: ١٢٣)

١٢٣- ولله ما غابَ عنِ العِبادِ ونَظَرِهمْ ممّا في السَّـماواتِ والأرض، لا يَغيبُ عنهُ شَـيءٌ مِنْ ذلك، وإليهِ وحدَهُ مَرجِعُ النَّاسِ كلِّهمْ في المِعاد، مؤمِنِهمْ وكافرِهم، ليُوفِّيَ كُلاًّ جزاءَ ما عَمِل، ولا شـأنَ للخَلقِ في الأمرِ آنَذاك، فاعبُدْهُ وحدَه، فهوَ المسـتَحِقُّ للعِبادَة، الجديرُ بأنْ تَسـجُدَ لهُ الجِباه، واعتَمِدْ عليه، وثِقْ به، وفَوِّضْ أمرَكَ إليه، فإنَّهُ كافيكَ وناصِرُك، ولا يَغفُلُ اللهُ عنْ عَمَلِ أحَدٍ منكم، وهوَ العَليمُ بأحوالِكمْ وأقوالِكمْ جَميعًا، وما تُظهِرونَ وما تُخفُون، مِنْ خَيرٍ وشَرّ.

* * *

ويرَى القارئُ أنَّ هذهِ السُّـــورةَ سُـــورةٌ عَظيمة، فيها تَخويفٌ وتَرهِيب، ووَعيدٌ شَـــديدٌ لمنْ لم يَستَجِبْ لأمرِ الله. وفيما مَرَّ مِنْ قَصَصِ الأمَمِ الغابِرةِ معَ أنبيائهم تَذكِرةٌ لمنْ تَدبَّرَ واعتَبَر. وقدْ صـحَّ في الحديثِ قولهُ صـلى اللهُ عليهِ وسـلم: "شَـيَّبَتْني هُود، والواقِعة، والمرسَـلات، وعَمَّ يَتساءَلون، وإذا الشمسَ كُوِّرَت". رواه الترمذيُّ والحاكمُ وصحَّحه.

سورة يوسف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} (يوسف: ١)

١- الحُروفُ المقَطَّعَةُ لم يَرِدْ في مَعناها حديثٌ ثابتٌ صَحيح.

هذهِ آياتُ القُرآنِ البيّنِ في أحكامِه، الظاهِرِ أمرُه، في مَصدَرِه، وإعجَازه، ومَعناه.

{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (يوسف: ٢)

٢- نحنُ أنزَلنا هذا الكِتابَ باللِّسانِ العربيّ؛ لكي تَعلَموا مَعانيه، وتَفهَموا ما فيه، وتُدرِكوا أنَّهُ ليسَ بالإمكانِ الإتيانُ بمثلِه.

قالَ ابنُ كثيرٍ رحِمَهُ الله: لأنَّ لُغةَ العَربِ أفصَحُ اللُّغاتِ وأبينُها وأوسَعُها، وأكثَرُها تأدِيَةً للمعَاني التي تَقومُ بالنُّفوس، فلِهذا أُنْزِلَ أشرَفُ الكتُبِ بأشرَفِ اللُّغات، على أشرَفِ الرسُل، بسِفَارةِ أشرَفِ الملائكة، وكانَ ذلكَ في أشرَفِ بِقاعِ الأرض، وابتُدِئَ إنزالُهُ في أشرَفِ شُهورِ السَّنة، وهوَ رمَضان، فكَمُلَ مِنْ كُلِّ الوجُوه.

{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} (يوسف: ٣)

٣- نحنُ نُحَدِّثُكَ ونُبَيِّنُ لكَ أخبارَ الأُمَمِ السَّابِقَةِ بما فيها مِنْ عِبَرٍ وحِكَمٍ وفَوائد، في أحسَنِ بَيانٍ وأجمَلِ أسْلوب[٥٩]، بإيحائنا هذا القُرآنَ إليك، وإنْ كنتَ مِنْ قَبلِ هذا الوَحي أحدَ الأُمّيّينَ في قَومِك، غافِلاً سَاهِياً عنْ هذهِ القَصَصِ الهادِفة، لا عِلمَ لكَ بها.

---

(٥٩) اختُلِفَ في وجهِ كونِ ما في هذه السورةِ هو أحسنَ القصص، فقيل:

لأن ما في هذه السورةِ من القصصِ يتضمَّنُ من العبرِ والمواعظِ والحكمِ ما لم يكنْ في غيرها.

وقيل: لما فيها من حسنِ المحاورة، وما كان من يوسفَ عليه السلام، من الصبرِ على أذاهم، وعفوهِ عنهم.

وقيل: لأن فيها ذكرَ الأنبياءِ والصالحين، والملائكةِ والشياطين، والجنّ والإنس، والأنعامِ والطير، وسيرِ الملوكِ والمماليك، والتجار، والعلماءِ والجهّال، والرجالِ والنساء، وحيلهنَّ ومكرهنّ. =

{إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} (يوسف: ٤)

٤- واذْكُرْ أيُّها الرسُولُ قولَ نبيِّ اللهِ يوسُفَ لأبيهِ يَعقوبَ عَليهِما السَّلام: يا أبَتِي، إنِّي رأيتُ في المنامِ أحَدَ عشَرَ كَوكَبًا، والشَّمسَ والقمَرَ، سَاجِدةً لي.

ويأتي تأويلُ هذهِ الرؤيا في الآية (١٠٠) منَ السُّورة.

{قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} (يوسف: ٥)

٥- قالَ لهُ أبوهُ يَعقوبُ عليهِ السَّلام: يا بُنيّ، لا تُخْبِرْ إخوَتَك برؤياكَ هذه، فإنَّهُمْ إذا سَمِعوها منكَ حَسَدُوك، واحتالُوا حِيَلاً كَبيرةً لإهلاكِك. إنَّ الشَّيطانَ عَدوٌّ ظاهِرٌ للإنسَان، لا يألو جُهدًا في إثارةِ الحسَدِ والفِتنةِ بينَ الإخوَة.

{وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (يوسف: ٦)

= وقيل: إن {أَحْسَنَ} هنا بمعنى أعجب.

وقيل: إن كلَّ مَن ذُكِرَ فيها كان مآلهُ السعادة. (فتح القدير، باختصار).

جُعِلَ هذا القَصَصُ أحسنَ القصصِ لأن بعضَ القصصِ لا يخلو عن حُسنٍ ترتاحُ له النفوس.

وقصصُ القرآنِ أحسنُ من قصصِ غيره، من جهةِ حُسنِ نظمه، وإعجازِ أسلوبه، وبما يتضمَّنهُ من العبرِ والحِكم، فكلُّ قصصٍ في القرآنِ هو أحسنُ القصصِ في بابه، وكلُّ قصةٍ في القرآنِ هي أحسنُ من كلِّ ما يقصُّهُ القاصُّ في غيرِ القرآن.

وليس المرادُ أحسنَ قصصِ القرآنِ حتى تكونَ قصةُ يوسفَ عليه السّلامُ أحسنَ من بقيّةِ قصصِ القرآن، كما دلَّ عليه قوله: {بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ}. (التحرير والتنوير).

٦- قالَ يَعقوبُ لولَدِهِ يوسُف: وكما أراكَ اللهُ هذهِ الرؤيا المبارَكة، فإنَّهُ تعالَى يَختارُكَ ويَصطَفيكَ لنبوَّتِه، ويُعَلِّمُكَ تَعبيرَ الرُّؤيا، أو ما تؤولُ إليهِ عَواقِبُ الأمُور، ويُكمِلُ فضلَهُ عَلَيكَ فيَضُمُّ إلى النبوَّةِ المِلْك، ويُتِمُّ نِعمتَهُ على أبناءِ يَعقوبَ بالتوبَةِ والهِداية، كما أتَمَّ نِعمَتَهُ مِنْ قَبلُ على أبَوَيكَ إبراهيمَ وإسحاقَ فكانا نَبيَّين، عليهمْ جَميعًا صَلواتُ اللهِ وسَلامُه، فهمْ مِنْ بَيْتٍ مُبارَك، ممَّنْ فَضَّلَهمُ اللهُ على العالَمين، إنَّ ربَّكَ عَليمٌ بالنَّاس، فيَعلَمُ مَنْ يَستَحِقُّ النِّعَمَ العَظيمة، حَكيم، يَضَعُ الرِّسَالةَ فيمَنْ يَستَحِقُّها.

{لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ} (يوسف: ٧)

٧- لقدْ كانَ في قِصَّةِ يوسُفَ وخبَرِهِ معَ إخوَتِهِ عِبَرٌ وعِظات، وأمَاراتٌ على حَقائقَ كثيرة، وعَلاماتٌ دالَّةٌ على قُدرَةِ اللهِ وحِكمتِه، لمنْ يَستَفسِرُ عنها ويَهتَمُّ بها.

{إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ} (يوسف: ٨)

٨- إذْ قالَ بعضُ إخوَةُ يوسُفَ لبَعض: واللهِ إنَّ يوسُفَ وأخاهُ أحَبُّ إلى أبينا منّا - وكانوا منْ أُمٍّ غيرِ أُمِّهما - ونحنُ جَماعَةٌ نَكفِيهِ الأمورَ أكثرَ مِنهما، لا شَكَّ أنَّ أبانا مُخطِئٌ في الميلِ إليهما دونَنا، إذْ كيفَ يُحِبُّ غُلامَينِ أكثرَ مِنْ جَماعَةٍ قَويَّةٍ تُدافِعُ وتَنفَعُ أكثرَ مِنهما؟

{اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ} (يوسف: ٩)

٩- قالَ بعضُهمْ وقدْ زيَّنَ الشَّيطانُ لهمُ الشرَّ وأغراهُمْ به: اقتُلوا يوسُفَ هذا الذي استأثرَ بحُبِّ والدِكم، أو أبعِدوهُ إلى أرضٍ بَعيدةٍ لتَستَريحوا منهُ وتَصفُوَ لكمْ مَحَبَّةُ أبيكُم، فلا يَلتَفِتَ إلى غَيرِكم، ثمَّ تَتوبوا مِنْ خَطيئتِكمْ هذه، وتَكونوا بعدَ ذلكَ جَماعَةً تائبينَ صَالحِين.

{قَالَ قَآئِلٌ مَّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ} (يوسف: ١٠)

١٠- قالَ واحِدٌ مِنهم: لا تَقتُلوا يوسُف، فإنَّ القَتلَ إثمٌ عَظيم، ولكنْ ألْقُوهُ في أسفَلِ البئرِ وظُلمتِه، في طَريقِ القَوافِل، يأخُذْهُ بعضُ المارَّةِ منَ المسافِرينَ ويَذهَبوا بهِ بعيدًا، إذا كنتُمْ عازِمينَ ومُصِرّينَ على فِعلِكُم.

{قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ} (يوسف: ١١)

١١- وذهَبوا إلى أبيهِمْ يَعقوبَ وقالوا له: لماذا لا تَثِقُ بنا ولا تَأمَنُنا على أخِينا يوسُفَ يا أبانا، أتَخافُنا عليهِ ونحنُ نُكِنُّ لهُ الودَّ والإخْلاص، ونُشفِقُ عليهِ ونُريدُ لهُ الخَير.

{أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (يوسف: ١٢)

١٢- اِبعَثْهُ مَعنا غَدًا إلى البَرِّ لِيَسعَى ويَنْشَطَ ويَلهو، ونحنُ نَحفَظُهُ ونَحرسُهُ مِنْ مَكروهٍ يَنالُهُ.

{قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ} (يوسف: ١٣)

١٣- قالَ أبوهُمْ يَعقوبُ عليهِ السَّلام: إنِّي لأغتَمُّ إذا بَعُدَ عنّي، ويَشُقُّ عليَّ مُفارقتُه، وأخشَى أنْ تَغفُلوا عنه، وتَنشَغِلوا بالرَّعي أو اللَّعِب، فيأكُلَهُ الذِّئب.

وكانتْ مَحبَّتُهُ الزائدةُ لهُ وخَوفُهُ عَليهِ لِما يَتوَسَّمُ فيهِ مِنْ شَمائلِ النبوَّة، ولخُلُقِهِ الطيِّب، وخَلْقِهِ الجَميل، عَليهما السَّلام.

{قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَّخَاسِرُونَ} (يوسف: ١٤)

١٤- قالوا لوالدِهم: إذا عَدا عليهِ الذئبُ فأكَلَهُ مِنْ بينِنا ونحنُ جَماعَة، فإنَّنا ضُعَفاءُ عاجِزون، لا خَيرَ فِينا ولا نَفعَ في حَياتِنا.

{فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} (يوسف: ١٥)

١٥- فلمّا ذهَبوا بيوسُفَ مِنْ عندِ أبيه، استقرَّ رأيهُمْ على أنْ يَجعَلوهُ في أسفَلِ البِئر. وأعْلَمْنا يوسُفَ - تَثبيتًا لهُ وتَسليةً - لتَخْلُصَنَّ ممّا أنتَ فيه، ولتُخبِرَنَّ إخوَتَكَ بما فَعَلوا بكَ في يَومٍ منَ الأيّامِ وهُمْ لا يَعرِفونَك.

{وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ} (يوسف: ١٦)

١٦- وعَادَ إخوَةُ يوسُفَ إلى أبيهِم في وَقتِ العِشاءِ وهُمْ يَتظاهَرونَ بالحُزنِ والأسَفِ والبُكاء.

{قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ} (يوسف: ١٧)

١٧- وقالوا: يا أبانا إنَّنا ذَهَبنا نتَسابَق، وترَكنا يوسُفَ عندَ ثِيابِنا وأمتِعَتِنا، وعُدْنا بعدَ وَقتٍ قَصير، فإذا بهِ أكَلَهُ الذِّئب، ونحنُ نَعلَمُ أنَّكَ لنْ تُصَدِّقَ قَولَنا هذا، ولو كنّا صادِقينَ فيه.

{وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} (يوسف: ١٨)

١٨- وجَعَلوا على قَميصِهِ دَمَاً مَكذوبًا، لحيَوانٍ آخَرَ غَيرِ الذئب، وجاؤوا بهِ إليهِ ليَتأكَّدَ مِنْ قَولِهِمْ ويُصَدِّقَهمْ فيه، فقالَ لهمْ غيرَ مُصَدِّقٍ لهم: بلْ زَيَّنَتْ لكمْ أنفُسُكمْ أمرًا مُنكَرًا، وسَهَّلتْ لكمْ فِعلاً بَشِعًا، فسأصبِرُ صَبراً حَسَنًا على ما ابتَلاني اللهُ به، حتَّى يُفَرِّجَ عنّي بعَونِهِ ولُطفِه، كما أستَعينُ بهِ وحدَهُ فيما تَذكرونَهُ مِنْ كَذِبٍ وبُهتان.

{وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَـذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} (يوسف: ١٩)

١٩- وجاءَتْ رِفْقَةٌ تَسيرُ قَريبًا منَ الطَّريقِ المؤدِّي إلى ذلكَ البِئر، فبعَثوا إليها مَنْ يَطلبُ لهمُ الماء، فلمّا جاءَها وأرسَلَ دَلْوَهُ فيها، تشَبَّثَ يوسُفُ بالحبْل، فلمّا استَخرجَ الدلْوَ إذا بهِ يرَى غُلامًا عليه، فصاحَ فَرِحًا: يا بُشرَى، لقدْ أصَبتُ غُلامًا. وأخفاهُ طالِبُ الماءِ وأصحابُهُ عنْ

بَقيَّةِ رُفَقائهِمْ حتَّى لا يرَوْهُ فيَطمَعوا فيه، مُعتَبِرينَ إيّاهُ بِضاعةً للتِّجارة، لبَيعِهِ رَقيقًا. واللهُ عَليمٌ بما يَعمَلُ هؤلاءِ جَميعًا، لم يَخفَ عليهِ شَيءٌ مِنْ أمرِهِم.

{وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ} (يوسف: ٢٠)

٢٠- وباعوا يوسُفَ بثَمَنٍ ناقِص، دَراهِمَ قَليلَةٍ، وكانوا منَ الرَّاغِبينَ عنه، حيثُ أرادوا التخَلُّصَ منهُ والحصُولَ على مالٍ مُقابِلَهُ في أسْرعِ وَقت!

{وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} (يوسف: ٢١)

٢١- وقالَ مُشتَريهِ - وهوَ عَزيزُ مِصر، كبيرُ وزَرائها، أو وَزيرُ مالِها - لامرأتِهِ: اعتَني به وأحسِني إليه، فإنِّي أتوَسَّمُ فيهِ خَيرًا، عسَى أنْ يَنفعَنا فيَقضي مَصالِحَنا، أو نتبنَّاهُ فيَكونَ قُرَّةَ عَينٍ لنا.

وكما أنقَذْنا يوسُفَ مِنْ كَيدِ إخوانِه، كذلكَ ثبَّتناهُ وجَعلنا لهُ مَكانًا عَظيمًا في مِصر. ولنُعَلِّمَهُ مِنْ تَعبيرِ الرُّؤيا ما نَشاء. واللهُ يَفعَلُ ما يُريد، ولا يُرَدُّ أمرُه، ولا يُمانَع، ولا يُخالَف، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ لَطائفَ صُنعِه، وخَفايا فَضلِه، وحِكمتَهُ في خَلْقِه.

{وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} (يوسف: ٢٢)

٢٢- ولما استَكمَلَ عقلُه، واشتَدَّتْ قوَّتُه، آتَيناهُ النبوَّة، وعِلمَ تأويلِ الرُّؤيا، وكانَ ذلكَ جزاءَ إحسانِه، فقدْ أحسَنَ في عَمَلِه، وعَمِلَ بطاعةِ ربِّه، وصبَرَ في محِنَتِه.

وهذا وَصفٌ لحالِ يوسُفَ عليهِ السَّلام، ولا يَعني أنَّهُ أُوتيَ النبوَّةَ في هذا الموضِعِ مِنْ سِياقِ القِصَّة، إذا فُسِّرَ "الحُكمُ" بالنبوَّة، الذي يأتي ذِكرُهُ ومَعناهُ هكذا في حَقِّ الأنبياءِ عليهمُ السَّلام، كما في قولِهِ تعالَى: {وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً} [سورة الأنبياء: ٧٤]. أمّا إذا فُسِّرَ بمَعنى العِلمِ والفِقهِ في الدِّين، فلا يَكونُ هُناكَ إشْكال.

{وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} (يوسف: ٢٣)

٢٣- ودَعَتْهُ امرأةُ العَزيزِ إليها، وطالَبَتْهُ بلُطْفٍ ليواقِعَها، وأغلَقَتْ أبوابَ البَيتِ بإحكام، وقالَتْ له: هَلُمَّ، أسرِع، فقدْ تَهَيَّأتُ لَك.

قالَ يوسُفُ عليهِ السَّلام: أعوذُ باللهِ وأعتَصِمُ بهِ ممّا تُريدينَ منّي، إنَّ زَوجَكِ سيِّدي العَزيزَ أحسَنَ مَنزِلي وأكرَمَني، فكيفَ أُسِيئُ إليهِ وأخونُهُ في زَوجَتِه؟! إنَّ الذينَ يُجازُونَ الحسَنَ بالسيّءِ لا يُفلِحون، ولا يَفوزونَ ولا يَسعَدونَ في الدُّنيا وفي الآخِرَة.

{وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} (يوسف: ٢٤)

٢٤- وقَدْ قَصَدَتْ مُخالطَتَهُ وعَزَمَتْ على ذلكَ عَزْمًا جازِمًا. ومالَ هوَ إلَيها في لَحظَةٍ منَ اللَّحَظات، بمُقتَضَى الطبيعَةِ البشَريَّة، لكنَّ ذلكَ لم يَتجاوَزْ خاطِرًا قَلبيًّا عِندَه، فلمّا تمثَّلَ أمامَهُ بُرهانٌ منْ عندِ اللهِ وآيَةٌ في تَثبيتِه، تُذَكِّرُهُ بالرَّدْعِ منَ الفاحِشة، وتُقَوّي عَزيمَتَهُ بالصَّبرِ والتَّقوى، أضاءَ ذلكَ نورَ الإيمانِ في قَلبِهِ مِنْ جَديدٍ بقُوَّة، فتَذَكَّرَ وأناب، واستَعاذَ باللهِ واعتصَمَ به، ولمْ يَهُمَّ بشَيء، وصُرِفَ عَنهُ حتَّى ذلكَ الخاطِرُ القَلبيّ.

وكما أرَيناهُ بُرهانًا فصَرَفناهُ عمّا كانَ فيه، كذلكَ نَصرِفُ عنهُ الخِيانةَ والزِّنا، إنَّهُ مِنْ عِبادِنا المصطَفَينَ الأخيَار، الذينَ اختَرناهُمْ لطاعَتِنا، وأكرَمناهُمْ بالنبوَّة، وعَصَمناهُمْ ممّا يَقدَحُ في سُلوكِهِمْ وسِيرَتِهِم.

{وَاسُتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (يوسف: ٢٥)

٢٥- وقامَ يوسُفُ هارِبًا إلى بابِ البيتِ ليَتخلَّصَ منها، وتَبِعَتْهُ هيَ لتَمنعَهُ مِنَ الخُروجِ ويَرجِع، فأمسكَتْ بقَميصِهِ مِنْ خَلفِه، فجَذَبَتْهُ إليها، فقَطَعَتْه، واستمرَّ يوسُفُ هارِبًا، وهي تَتْبَعُهُ لتُعيدَه، فلمّا خرَجا لَقِيا زوجَها العزيزَ عندَ الباب، فهابَتْهُ، وقالتْ في مَكرٍ ودَهاء: ما جَزاءُ مَنْ أرادَ أنْ يَزنِيَ بزَوجَتِك؟

وخافَتْ أنْ يَقتُلَهُ، وهيَ تُحِبُّه، فقالت: إلاّ أنْ يَكونَ هذا العِقابُ سِـجنًا، أو ضَـربًا شَـديداً مُوجِعاً.

{قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ} (يوسف: ٢٦)

٢٦- قالَ لهُ يوسُفُ عليهِ السَّلام: هيَ طالبَتْني بالفَاحِشة، لا كما زَعَمَتْ، وقدْ رَفَضتُ ذلكَ وفَرَرْتُ منها.

وحَسَمَ الخِلافَ بينَهما شاهِدٌ مِنْ أهلِ المرأةِ كانَ هُناك، أو استُدعِيَ مِنْ بَعد، فقال: إنْ كانَ قَميصُهُ شُقَّ مِنْ قُدَّام، فقدْ صدَقَتِ المرأةُ وكذَبَ هو، ويَكونُ هوَ الذي أرادَ عملَ الفاحِشَةِ بها.

{وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ} (يوسف: ٢٧)

٢٧- وإنْ كانَ قَميصُهُ شُقَّ مِنْ خَلف، فقدْ كذَبَتْ في ادِّعائها، وهو صادِقٌ بَريء.

وورِدَ أنَّ الذي نطَقَ بالحُكمِ طِفْلٌ تَكَلَّم، وهوَ حَديثٌ صَحَّحَهُ بَعضُهمْ وضَعَّفَهُ آخَرون.

{فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ} (يوسف: ٢٨)

٢٨- فلمّا رَأى الزَّوجُ قَميصَ يوسُفَ وقدْ قُطِّعَ مِن خَلف، عَرَفَ حيلةَ زَوجتهِ وبراءَةَ يوسُفَ عليهِ السَّلام، فقال: إنَّ هذا الصَّنيعَ مِنِ احتيالِكنَّ أيَّتُها النِّساء، إنَّ مَكرَكُنَّ كَبير، بالنسبةِ إلى كَيدِ الرِّجال.

{يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ} (يوسف: ٢٩)

٢٩- قالَ العَزيز: يا يوسُف، قدْ ظهرَ لنا صِدقُك، ولكنْ أعرِضْ عنْ هذا الحَديث، واكتُمْهُ ولا تَذكُرْهُ لأحَد، حتَّى لا يَشيعَ بينَ النَّاس.

وأنتِ أيَّتُها المرأة، تُوبي منْ هذا الذي صَدَرَ عنكِ ولا تَعودي إليه، فإنَّكِ كُنتِ منَ المذنِبينَ المسِيئين.

{وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ} (يوسف: ٣٠)

٣٠- وشاعَ خبَرُ يوسُفَ وامرأةِ العَزيزِ في المدينَة، فقالتْ نِسوَةٌ منهُنَّ يُنكِرْنَ هذا الفِعلَ منها: زَوجَةُ العَزيزِ تَطلبُ مِنْ غُلامِها أنْ يَفعَلَ بها الفَاحِشَة؟ لا شَكَّ أنَّها فُتِنَتْ بِهِ وأحَبَّتْهُ حُبًّا شَديدًا، وإنَّ صَنيعَها هذا خطَأ ظاهِرٌ منها، وبُعدٌ عنْ طَريقِ الرُّشْدِ والصَّواب.

{فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَـذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ} (يوسف: ٣١)

٣١- فلمّا سَمِعَتْ بقَولِهِنَّ وتَعييرِهِنّ، وكُنَّ منَ الطَّبَقَةِ الراقيَة، أرسَلتْ إليهِنَّ تَدْعُوهِنَّ، وأقامَتْ لهنَّ مأدُبَةً في قَصرِها، وأعَدَّتْ لهنَّ وسائدَ يَتَّكِئنَ عليها، وزَيَّنَتْ مائدَتَهُنَّ بأنواعِ الأطْعِمَةِ والفَاكِهة، فجِئنَ وجَلَسْنَ، وأعطَتْ كُلَّ واحِدةٍ منهُنَّ سِكِّينًا، فبينَما كُنَّ يُقَطِّعْنَ اللحمَ أو الفاكِهة، قالتْ ليوسُف: اِظْهَرْ لهُنَّ. وكانَ أجملَ النَّاس. فخرجَ عَليهِنّ، فلمّا رأينَهُ أعْظَمْنَه، ودُهِشْنَ برؤيَةِ جَمالِهِ الفائق، وجَرَحْنَ أيديَهُنَّ بالسَّكاكينِ التي معَهُنَّ وهُنَّ يَحسَبْنَ أنَّهُنَّ يُقَطِّعْنَ الفاكِهة، لشَدَّةِ تأثُّرِهِنَّ بجَمالِهِ وحُسْنِ سَمْتِهِ وطَلْعَتِه.

وذُكِرَ أنَّهُنَّ لم يَشعُرْنَ بالألم، لانشِغالِ قُلوبِهِنَّ بيوسُفَ عليهِ السَّلام، وقُلْنَ مُتَعَجِّباتٍ مُنْدَهِشات: معاذَ الله، ليسَ هذا ببَشَر، فلا مِثالَ له، ولا أجملَ منه، ما هذا إلاّ مَلَكٌ منَ المَلائكةِ الكُرَماءِ على الله!

وكانَ كلُّ ذلكَ مَكرًا مِنِ امرأةِ العَزيز، لتَصِلَ إلى بُغيَتِها منهُنّ.

{قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ} (يوسف: ٣٢)

٣٢- فقالتْ لهُنّ: إنْ كانَ الأمرُ كما قُلتُنّ، فإنَّ هذا الذي رأيتُموهُ الآنَ ودُهِشْتُنَّ لجمالِه، هوَ الذي عَيَّرْتُنَّني في الافتِتانِ به، وعاتَبْتُنَّني في حُبِّه، ولقدْ بَهَرَني كما بَهَرَكُنَّ، وحاوَلتُ مَعَهُ لِيَنالَ

منّي فامتَنَعَ وأبَى إباءً شَديدًا، وإذا لم يُطاوِعني فيما دَعَوتُهُ إليه، ليُعاقَبَنَّ بالسَّجن، ويَكونَنَّ منَ الأذِلَّةِ المهانِين.

{قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ} (يوسف: ٣٣)

٣٣- قالَ يوسُفُ عليهِ السَّلامُ يُناجي ربَّه، وقدْ عَرَفَ إصرارَ امرأةِ العزيزِ على الفَاحِشة، وتَمادِيها في غَيِّها، كما تَدَخَّلتْ نِساءُ القَصرِ وخَوَّفْنَهُ منْ عاقِبةِ مُخالَفَتِها، أو أنَّهُنَّ دَعَونَهُ إلى أنفُسِهِنَّ كذلك، فقالَ وهو يَبغي الخُروجَ مِنْ هذهِ الفِتنَة: يا ربّ، إنَّ العُقوبةَ بالسَّجنِ أفضَلُ عِندي مِنْ إتيانِ الفَاحِشة، الذي يؤدّي إلى سَخَطِك، وإلى الشَّقاءِ والعَذابِ الأليم. (والأَولَى بالمرءِ في هذا أنْ يَسأَلَ اللهَ العَافيةَ مِنْ هذا وذَاك). وإذا لم تَدفَعْ عنّي مَكرَهُنَّ وحَبائلَهُنَّ، ووكَّلتَني إلى نَفسي، أمِلْ إليهِنَّ وأكُنْ منَ المذنِبين.

"وهيَ دَعوَةُ الإنسانِ العَارِفِ ببَشَريَّتِه، الذي لا يَغتَرُّ بعِصمَتِه، فيُريدُ مَزيدًا منْ عِنايَةِ اللهِ وحِياطَتِه، يُعاوِنُهُ على ما يَعتَرِضُهُ منْ فِتنَةٍ وكَيدٍ وإغراء". قالَهُ صاحبُ "الظِّلال".

{فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (يوسف: ٣٤)

٣٤- فأجابَ اللهُ دُعاءَ يوسُف، وأبعدَ عَنهُ مَكرَهُنَّ، وثَبَّتَهُ على العِصمَةِ والعِفَّة، إنَّهُ سَميعٌ لدُعاءِ المتَضَرِّعينَ إليه، عَليمٌ بأحْوالِهِمْ وبما يُصلِحُهم.

ومَواقِفُ الشبابِ منَ الشَّهواتِ وثَباتُهُمْ أمامَ المغرَياتِ في جَوٍّ مَليءٍ بالفِتَنِ صَعبٌ جِدًّا، وكانتِ امرأةُ العَزيزِ في غايَةِ الجَمال، معَ ما هيَ عَليهِ منْ ثَراءٍ وجَاه، وامتنعَ يوسُفُ عليهِ السَّلامُ منَ الفَاحِشَةِ خَوفًا منَ الله، واختارَ السِّجْنَ على ذلك، وهذا مِنْ عِصمَةِ اللهِ له، ومِمّا جَمَّلَهُ بهِ منَ الإيمانِ والتَّقوى، والعَزيمةِ والصبر.

وفي الحديثِ الصَّحيحِ قَولُهُ صلى الله عليه وسلم فيمَنْ يُظِلُّهمُ اللهُ في ظِلِّهِ يَومَ لا ظِلَّ إلاّ ظِلُّه: "رَجُلٌ دَعَتْهُ امرَأةٌ ذاتُ جَمالٍ ومَنْصِب، فقال: إنّي أخافُ الله". مُتَّفَقٌ عليه.

{ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ} (يوسف: ٣٥)

٣٥- ثمَّ بدَا للعَزيزِ وأصحابِه، بعدَ أنْ رَأوا الأدِلَّةَ على صِدقِ يوسُفَ ونَزاهَتِه، أنَّ منَ المصلَحَةِ سَجْنُهُ لمِدَّةٍ طَويلَة!

{وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} (يوسف: ٣٦)

٣٦- ودخلَ معَهُ السِّجنَ غُلامَان، وقدْ عُرِفَ يوسُفُ بينَ المسَاجينِ بمكارِمِ الأخلاقِ والعِبادَةِ وتَعبيرِ الرؤيا، فرأى كُلٌّ منهُما مَنامًا، فسَرَدَ الأوَّلُ مَنامَهُ عليهِ قائلاً: رأيتُني أعصِرُ عِنَبًا.
وقالَ الآخَر: رأيتُني أحمِلُ فوقَ رأسي خُبزًا، والطَّيرُ تأكلُ منه.
قالا: أخبِرنا بتَعبيرِ رُؤيانا يا يوسُف، فنَعتَقِدُ أنَّكَ مِنَ الذينَ يُجيدونَ تَعبيرَ الرُّؤَى والأحْلام.

{قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} (يوسف: ٣٧)

٣٧- قالَ لهما يوسُفُ عليهِ السَّلام، وقدْ صَرَفَهما إلى مَقالٍ خَيرٍ مِنْ هذا، وهوَ أنْ يَتَنبَّها إلى العَقيدةِ الصَّحيحَة، وأنَّ لهُ منَ العِلمِ ما يَفوقُ تَعبيرَ الرؤيا، ليَثِقا بكلامِهِ ويَعودا منَ الشِّركِ إلى التَّوحيد: لا يأتيكُما طعامٌ في الحَبْسِ حسَـبَ عادتِكما، إلاّ أخبَرتُكما قبلَ أنْ يَصِـلَ إليكُما بصِفَتِه: نَوعِه، وطَعمِه، وشَكلِه. وهذا ممّا عَلَّمَني إيّاهُ رَبِّي بالنبوَّة - إنْ كانَ أُوحيَ إليهِ إذْ ذاك - أو بما شَاءَ اللهُ مِنْ فَضلِه، لأنِّي اجتَنَبْتُ دِينَ الكافِرينَ باللهِ واليَومِ الآخِر.

{وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِـي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ} (يوسف: ٣٨)

٣٨- واتَّبَعتُ دِينَ آبائيَ المؤمنين، إبراهيم، وإسـحاق، ويَعقوب. وما صـحَّ ولا اسـتقامَ لنا معاشِـرَ المؤمنينَ أو الأنبياء، أنْ نتَّخِذَ شُـركاءَ لله. وهذا التَّوحيدُ الصَّـافي، الخالِصُ مِنْ كلِّ شَـائبة، هوَ مِنْ تأييدِ اللهِ لنا بالنبوَّة، ومِنْ فَضـلِهِ على النَّاسِ بواسِـطَتِنا، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعرِفونَ نِعمةَ اللهِ عليهمْ بإرسالِ الرسُلِ إليهم، فلا يَستَجيبونَ لهمْ ولا يوَحِّدونَ الله.

{يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} (يوسف: ٣٩)

٣٩- ثمَّ دَعاهُما إلى الإسْلامِ فقال: أيُّها الفَتَيانِ السَّجِينان، أآلِهةٌ شَتَّى، مُتفَرِّقَةٌ مُتباينة، صَمّاءُ بَكماء، لا تَضُرُّ ولا تَنفع، خَيرٌ وأفضَلُ لكما، أمِ الإلهُ الواحِد، القاهِرُ الذي لا يُغلَب، الذي بيدِهِ الأمرُ كلُّه؟

{مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} (يوسف: ٤٠)

٤٠- إنَّكمْ ما تَعبُدونَ - أهلَ الشِّركِ - سِوَى ألفَاظٍ فارِغة، وآلِهةٍ خَالِية، ليسَ لها منْ حَقيقةِ الرُّبوبيَّةِ شَيء، وقدْ أطلَقتُمْ عليها هذهِ الأسماءَ المفَخَّمةَ والألقابَ المعَظَّمةَ أنتُمْ وآباؤكمْ بتصَرُّفٍ مِنْ عِندِكم، جَهلاً وضَلالًا، بدونِ أيِّ مُستَنَدٍ ولا حُجَّةٍ منْ عندِ الله، وإنَّما هكذا يَتلقَّى خَلَفُكمْ عنْ سَلَفِهمْ اتِّباعًا وتَقليدًا، بدونِ عِلمٍ ولا وَعي.

ما الأمرُ والنَّهي، والتشريعُ والقَضاء، إلاّ مِنْ عِندِ الله، فلهُ السُّلطانُ ولهُ الحُكم؛ لأنَّهُ الإلهُ الحقُّ المعبود، والمالِكُ للأمرِ كُلِّه، فهوَ الذي يأمرُ بالعِبادةِ لمنْ يَستَحِقُّها، وبكيفيَّةِ ذلك، وقدْ أمرَ ألاّ تَعبدوا إلاّ إيَّاه، فلا تتوجَّهُ العِبادَةُ إلاّ إليه، لأنَّهُ وحدَهُ المستَحِقُّ لذلك، وهذا هوَ النَّهجُ الثابِتُ المستَقيمُ الذي لا يتَغيَّرُ في الدِّين، وهوَ الذي أُرسِلَتْ بِهِ الرُّسُل، ونزَلَتْ بهِ الكتُب، ودلَّتْ عَليهِ الحُجَجُ والبَراهين، وهذا ما أدعوكُما إليه، مِنَ الطَّاعةِ والتَّوحيد، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعلَمونَ ذلك، لجَهلِهِمْ بتلكَ الدَّلائل، ولذلكَ فإنَّ أكثرَهمْ مُشرِكون.

{يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ} (يوسف: ٤١)

٤١- أيُّها السَّجينان، أمَّا الأوَّلُ مِنكما فتَعبيرُ رؤياهُ أنَّهُ يَسقِي سيِّدَهُ خَمرًا. وأمّا الآخَر، فتَعبيرهُ أنَّهُ يُصْلَب، وتأكلُ الطَّيورُ الجوارِحُ مِنْ رأسِه.

فُرِغَ منَ الأمرِ الذي تَسألانِ عَنه، وسَيكونُ أمرُكما كما قُلت.

{وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ} (يوسف: ٤٢)

٤٢- وقالَ يوسُفُ عليهِ السَّلامُ للأوَّل، وهوَ الذي ظَنَّ أنَّهُ سيَنجو منْ حُكمِ القَتل، والظنُّ هُنا بمَعنى اليَقين: اذكُرْ حالي وطُول حَبسي ظُلمًا عندَ سيِّدِك. ولكنَّ الشَّيطانَ أنساهُ أمرَ يوسُف، في ظِلِّ حَياةِ القَصرِ ومُلهياتِه، فمكَثَ في السِّجنِ بضْعَ سَنوات، وهوَ ما بينَ الثلاثِ والتِّسع.

{وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ} (يوسف: ٤٣)

٤٣- وقالَ مَلِكُ مِصر: إنِّي رأيتُ في المنامِ سَبعَ بقَراتٍ سِمان، مُمتلِئاتٍ لحمًا وشَحمًا، يأكلُهُنَّ سَبعُ بقَراتٍ مَهزولات. ورأيتُ سَبعَ سُنبُلاتٍ خُضْر، وسَبعًا أُخَرَ يابِسات. قَصَّ رؤياهُ هذهِ على حاشِيَتِهِ وعلى الكَهَنَةِ والسَّحَرَة، قائلاً لهم: يا أهلَ الرَّأيِ والمشورة، عَبِّروا لي هذهِ الرؤيا، وبيِّنوا لي حُكمَها، إذا كُنتُمْ عارِفِينَ بتَعبيرِ الرُّؤى.

{قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ} (يوسف: ٤٤)

٤٤- قالوا بعدَ إعمالِ الفِكر: هذهِ أخلاطُ أحلامٍ مُضطَرِبَة، ومَناماتٌ باطِلة، ولَسنا منَ الماهِرينَ بتَعبيرِ الأحلامِ وتأويلِها.

{وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ} (يوسف: ٤٥)

٤٥- وقالَ لهمْ ذلكَ السَّجينُ الذي نَجا مِنَ القَتل، وتذَكَّرَ قِصَّةَ حُلُمِهِ معَ يوسُف، بعدَ مُدَّةٍ زَمَنيَّةٍ طَويلة: أنا سأُخبِرُكمْ بتأويلِ هذا الحُلُم، فأرسِلوني إلى السِّجنِ حيثُ يوسُف، فإنَّهُ عالِمٌ بتأويلِ الرُّؤَى والأحْلام.

{يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ} (يوسف: ٤٦)

٤٦- ثمَّ قَصَّ على يوسُفَ ما رآهُ المِلِكُ في مَنامِهِ قائلاً، أيُّها الصِّدِّيقُ يوسُف، أجِبْنا في تَعبيرِ هذهِ الرُّؤيا التي رآها المِلِك، سَبْعُ بقَراتٍ مُمتَلِئات، يَبتَلِعُهُنَّ سَبعُ بقَراتٍ مَهزولات، وسَبْعُ سُنْبُلاتٍ خُضْر، وأُخَرُ مِثلُهُنَّ يابِسات، لأرجِعَ بالجوابِ إلى المِلِكِ وحاشِيَتِه، وأهلِ رَأيِهِ ومَشورَتِه، ليَعرِفوا التَّعبيرَ الصَّحيحَ له.

{قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ} (يوسف: ٤٧)

٤٧- قالَ لهُ يوسُفُ مُعَبِّرًا، ومُرشِدًا: إنَّكمْ ستَزرَعونَ سَبْعَ سَنواتٍ مُتَتابِعاتٍ يَكونُ فيها الخِصْبُ والمطَر، فما حَصَدتُّمْ منْ نِتاجِها في كُلِّ سَنة، فاترُكوا القَمحَ في سُنْبُلِه، لئلاّ يَفسُدَ أو يأكُلَهُ السُّوس، إلاّ مقدارَ ما تأكُلونَه، وليَكُنْ قَليلاً.

{ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ} (يوسف: ٤٨)

٤٨- ثمَّ يأتي منْ بعدِ تلكَ السِّنينَ سَبعُ سَنواتٍ مُجدِباتٍ شَديدات، يؤكَلُ فيهِنَّ ما ادَّخَرتُمْ في السَّنواتِ السَّابقاتِ منَ القَمحِ المتروكِ في السَّنابِل، إلاّ قَليلاً ممّا تَحفَظونَهُ منَ البُذورِ للزِّراعة.

{ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ} (يوسف: ٤٩)

٤٩- ثمَّ تَنقَضي تلكَ السَّنواتُ السَّبعُ العِجاف، ويَعقُبُها عامٌ يُمْطَرُ فيهِ النَّاس، فتَنمو الزُّروعُ والثِّمار، ويَعصِرونَ ما شاؤوا منْ زَيتٍ وفاكِهة.

{وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ} (يوسف: ٥٠)

٥٠- وأخبرَ ذلكَ الفتَى المِلِكَ بتأويلِ رؤياهُ كما عبَّرَهُ يوسُفُ عليهِ السَّلام، فتَعجَّبَ منهُ ومِنْ عِلمِه، وأرادَ أنْ يقِفَ على خبَرِه، فقال: ائتُوني بيوسُف.

فلمَّا ذهبَ السَّفيرُ إليهِ ليُحضِرَه، كما أمرَهُ الملِك، لقيَ وقفَةً عندَ يوسُف، فقدْ أبَى أنْ يَصحَبَه، وفضَّلَ أنْ يَبقَى في السِّجنِ حتَّى تَبْرَأ ساحَتُه، ليَخرُجَ طاهِراً مُبَرَّأً مِنْ كُلِّ شُبهة، وأنَّ كُلِّ هذهِ السَّنواتِ التي قَضاها في السِّجنِ كانتْ ظُلمًا في حَقِّه، فقالَ لرسُولِ الملِك: ارجِعْ إلى سيِّدِكَ واسألْهُ عنْ خبَرِ النِّساءِ اللَّواتي جَرَحْنَ أيديَهُنَّ، وحَقيقَةِ أمرِهِنَّ في هذا. واللهُ أعلَمُ بمَكرِهِنَّ وما صَنَعْنَهُ بحَقِّي، ولسَوفَ يُجازيهِنَّ على افتِرائهنّ.

{قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} (يوسف: ٥١)

٥١- فأحضَرَهُنَّ الملِكُ بينَ يَدَيهِ وقالَ لهنَّ: ما شأنُكنَّ وما خبَرُكنَّ عندَما حاوَلتُنَّ إغراءَ يوسُفَ عنْ نَفسِهِ يَومَ الضِّيافَة، وحَذَّرْتُنَّهُ منْ مُخالفةِ مولاتِهِ إذا لم يُطِعْها فيما تُريدُ منه؟ هلْ أجابَكُنَّ إلى شَيءٍ مِنْ ذلك؟ فقُلْنَ جَميعًا: مَعاذَ الله، لم نرَ منهُ سُوءًا، ولم نُجَرِّبْ عَليهِ خِيانَة. وقالتْ مَولاتُهُ امرأةُ العَزيز: الآنَ ظَهرَ الحقُّ وتبيَّنَ بعدَ خَفائه، فأنا التي حاولتُ معَه، وبذَلتُ جُهدي في إغرائهِ لأُجبِرَهُ على الفَاحِشَة، فأبَى إباءً شَديدًا، وكانَ عَفيفًا في سُلوكِهِ نَزيهًا، صادِقًا في قَولِه، إنَّهُ بَريء.

{ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ} (يوسف: ٥٢)

٥٢- قالت: وقدِ اعترَفتُ بهذا ليَعْلَمَ يوسُفُ أنِّي لم أخُنْهُ في حُرْمَتِهِ بظَهرِ الغَيب، فلمْ أتَّهِمْهُ بفعلِ الفَاحِشَةِ وهوَ غائبٌ عنِّي لا يَعرِفُ ذلك، ولم أُصِرَّ على قَولي إنَّهُ هوَ الذي راوَدَني عنْ نَفسي، فهوَ صادِقٌ في براءَتِهِ ونَزاهَتِه.

واللهُ لا يُسَدِّدُ عمَلَ الخائنين، ولا يَهديهمْ بمَكرِهم، والخائنُ يَعودُ عَليهِ مَكرُهُ وخِيانَتُه.

سورة يوسف (٥٣-١١١)
سورة الرعد
سورة إبراهيم

{وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (يوسف: ٥٣)

٥٣- قالت: ولا أُنَزِّهُ نفسِي عنِ الخطأ والزَّلَل، فإنَّ النَّفسَ البشَريَّةَ كثيرةُ الأمرِ بالسُّوءِ والمعصِية، تَميلُ إلى الشَّهوات، وتتأثَّرُ بالمغرِيات، إلاّ مَنْ رَحِمَهُ ربِّي فصَرَفَهُ عنِ السُّوء، وعصَمَهُ منَ المعصِية، إنَّ ربِّي لعَظيمُ المغفِرة، كثيرُ الرَّحمَة، وهوَ يَعلَمُ أنَّ عِبادَهُ خطَّاؤون، فيَغفِرُ لهمْ ويرحَمُهم، إنْ تابُوا وأصلَحوا.

وقدْ أسلَمتِ المرأة، ولكنْ لا يُعْرَفُ في أيِّ مَوضِعٍ مِنْ سَردِ القِصَّة.

{وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ} (يوسف: ٥٤)

٥٤- ولما تأكَّدَ للمَلِكِ بَراءَةُ يوسُفَ ونَزاهَتُهُ عليهِ السَّلام، قال: جِيؤوا بهِ ليَكونَ مِنْ خاصَّتي وأهلِ مَشورَتي.

فلمّا كَلَّمَهُ وعرَفَ فَضْلَهُ وقَدْرَه، قالَ له: إنَّكَ الآنَ عِندَنا ذا مَكانةٍ ومَنزِلَةٍ رَفيعَة، ومُؤتَمَنٌ على أُمورٍ عَظيمَة.

{قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ} (يوسف: ٥٥)

٥٥- قالَ لهُ يوسُفُ عَليهِ السَّلام: اجعَلنِي مَسؤولاً عنْ خَزائنِ الأرضِ التي تحتَ تَصَرُّفِك، وهيَ مِصر، إنَّني خَازِنٌ أمين، عَليمٌ بشُؤونِ التصرُّفِ فيها، بَصيرٌ بالحِساب.

قالَ ذلِكَ لِمَا يَستَقبِلونَهُ منَ السِّنينَ العِجاف، ليَتَصَرَّفَ على الوَجهِ الأصلَحِ والأرشَد. وكانَ كذلكَ عليهِ السَّلام.

ويَجوزُ للمَرءِ أنْ يُظهِرَ عِلمَهُ لمنْ يَجهَلُه.

{وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} (يوسف: ٥٦)

٥٦- وبتَمكينٍ لائقٍ ومُناسِب، جَعلنا ليوسُفَ العِزَّ والسُّلطانَ في أرْضِ مِصر، يَتَّخِذُ مَنزِلاً في أيِّ مَكانٍ منها، بعدَ الضِّيقِ والأسْرِ والحَبْسِ الذي كانَ فيه. ونُصيبُ بفَضلِنا وعَطائنا مَنْ نشاءُ مِنْ عِبادِنا، بعَدلِنا وحِكمتِنا، ولا نُضِيعُ أجرَ مَنْ صَبَرَ على أذَى النَّاس، وأحسَنَ في صَبرِهِ واحتَسَب، حتَّى أتاهُ الفرَج.

{وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ} (يوسف: ٥٧)

٥٧- وإنَّ ثَوابَ المؤمِنينَ الصَّابِرينَ في اليَومِ الآخِر، أعظَمُ وأكبَرُ ممّا يَكونُ في الدُّنيا، كما في شأنِ يوسُفَ عليهِ السَّلام، وغَيرِه.

{وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ} (يوسف: ٥٨)

٥٨- ولما عَمَّ القَحطُ بلادَ مِصرَ، وتَجاوزَها حتَّى وصَلَ إلى بلادِ الشَّام، وحَلَّ بآلِ يَعقوبَ ما حَلَّ بأهلِها، سَمِعوا أنَّ بمصرَ مَلِكاً صالِحاً يَعدِلُ في العَطاءِ والتَّوزيع، فقَصدَهُ الناسُ مِنْ سائرِ الأقاليم، وبينَهمْ إخوةُ يوسُفَ الذينَ آذَوه، فدَخَلوا عليهِ وهوَ في مَجلسِ ولايَتِه، فعرَفَهمْ بحُسْنِ إدراكِهِ وفِراستِه، وهمْ لا يَعرِفونَه.

{وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ} (يوسف: ٥٩)

٥٩- ولما أعطاهُمْ حَقَّهم، وهيَّأ لهمْ أحمالَهم، قالَ لهم: أحضِروا أخاكمُ الذي لم تأتوا بهِ معَكم، لأزيدَكم، وأُتِمَّ كيلَكُم، ألا تَرَونَ أنِّي أوفَيتُ لكمْ ما تَستَحِقُّون، وأحسَنتُ إليكمْ في الضِّيافَةِ والمبِيت؟

{فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ} (يوسف: ٦٠)

٦٠- فإذا لم تأتوني بأخِيكمْ في المرَّةِ القادِمَة، فلا نَصيبَ لكمْ في شَيءٍ عِندي، ولا تَدخلوا بلادي.

{قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ} (يوسف: ٦١)

٦١- قالوا له: سنُحاوِلُ ذلكَ معَ والدِهِ، ونَستَميلُهُ ونَحرِصُ على إحضارِه، ونحنُ قادِرون على ذلك.

{وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (يوسف: ٦٢)

٦٢- وقالَ يوسُفُ لأعوانِهِ الكَيَّالين: اجعَلوا بضَاعتَهمُ التي أتَوا بها منَ الشَّامِ في رِحالِهِمْ(٦٠) مَرَّةً أخرَى مِنْ حيثُ لا يَشعُرون - وكانوا قدْ أتَوا بها ليَستَبدِلوا بها القَمحَ والطَّعام - إحساناً بهم، أو لعَلَّهمْ يَعرِفونَ حقَّ رَدِّها إذا رجَعوا إلى أهلِهم، فيَرجِعونَ بها في المرَّةِ القادِمة.

(٦٠) الرحال: جمعُ رَحْل، وهو ما يوضَعُ على البعيرِ من متاعِ الراكب، ولذا سمِّيَ البعيرُ راحلة. (التحرير والتنوير).
الرَّحْل: الوعاء. ويقالُ لمنزلِ الإنسانِ ومأواهُ (رَحْل) أيضًا، ومنه: نسيَ الماءَ في رحله. (روح البيان).

{فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (يوسف: ٦٣)

٦٣- فلمّا عَادوا إلى أبيهِمْ يَعقوبَ عَليهِ السَّلام، قالوا لـه: يا أبانا لقدْ مَنَعَ العَزيزُ منّا الكَيلَ(٦١) في المرَّةِ القادِمةِ إذا لم نَذهَبْ بأخِينا بنيامينَ معَنا إلى مِصر، فابعَثْهُ معَنا، وسَيَكونَ مَحلَّ حِفظِنا ورعايَتِنا.

{قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} (يوسف: ٦٤)

٦٤- قالَ لهمْ يَعقوبُ عليهِ السَّلام: هَلْ أأتَمِنُكمْ عليهِ إلاّ كما ائتَمَنتُكمْ على أخيهِ يوسُفَ مِنْ قَبل، فصانِعونَ بأخيكمْ ما صَنعتُمْ به؟ لا أثِقُ في وَعدِكمْ بحِفظِه، ولكنْ أفوِّضُ أمْري إلى الله، فهو يَكلَؤهُ بحفظِهِ ورِعايَتِه، وسيَرحَمُ ضَعفِي وشَيبَتي، وهوَ خَيرُ مَنْ رَحِم.

{وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَـذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ} (يوسف: ٦٥)

٦٥- ولما فتحَ إخوَةُ يوسُفَ مَتاعَهمُ الذي أتَوا بهِ منْ مِصر(٦٢)، وجَدوا بينَها بِضاعتَهمُ التي أخَذوها معَهمْ منَ البَيتِ لِيَستَبدِلوا بها القَمحَ والطَّعام، فقالوا: يا أبانا، هذهِ بِضاعَتُنا التي

---

(٦١) {الْكَيْلُ}: مصدرُ (كِلْتُ الطعامَ) إذا أعطيتهُ كيلًا، ويجوزُ أن يُرادَ به المكيالُ أيضًا، على طريقةِ ذكرِ المحلِّ وإرادةِ الحال.

(٦٢) {مَتَاعَهُمْ}: أصلُ المتاعِ ما يُتَمتَّعُ به من العُروضِ والثياب. (التحرير والتنوير). هو في الأصلِ كلُّ ما انتُفِعَ به، والمرادُ به هنا أوعيةُ الطعامِ مجازًا، إطلاقًا للكلِّ على بعضِ مسمَّياته. ويسمّي بعضُهم هذا النوعَ من المجازِ - أعني إطلاقَ الكلِّ على البعض - حقيقةً قاصرة. (روح البيان).

.

أخَذناها مِنْ هنا قدْ أُعِيدَتْ إلينا، إحساناً وتَكرُمَةً مِنَ العَزيز، فابعَثْ معَنا أخانا لنَجلُبَ الميرةَ لأهلِنا مِنْ عِندِه[٦٣]، فهوَ عادِلٌ كريم، ونَزدادُ على ذلِكَ كَيلَ بَعيرٍ إذا جاءَ معنا. والقُوتُ الذي نُعْطاهُ دونَ نصِيبِ أخِينا قَليل، لا يَكفِينا[٦٤].

{قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِّنَ اللّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ} (يوسف: ٦٦)

٦٦- قالَ لهمْ يَعقوبُ عَليهِ السَّلام: لنْ أُرسِلَ معَكمْ بنيامينَ (شَقيقَ يوسُف) بعدَ أنْ رأيتُ مِنكمْ ما رأيتُ في أخيهِ يوسُف، حتَّى تُعطُوني عَهدًا موَثَّقًا تَحلِفونَ فيهِ باللهِ أنَّكمْ ستُعيدُونَهُ إليَّ، إلاّ أنْ تُغلَبوا أو تَهلِكوا جَميعًا في الدَّفْعِ عنه. فلمّا أعطَوهُ عَهدًا منَ اللهِ بذلكَ كما طَلَب، قالَ تأكيدًا على العَهد: اللهُ مُطَّلِعٌ رَقيبٌ على ما نَقول.

وكانَ لا غِنَى لهمْ عنِ القُوت، فبعثَهُ معَهم.

{وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} (يوسف: ٦٧)

٦٧- وقالَ يَنصَحُهم؛ حَذَرًا مِنْ أنْ تُصيبَهمُ العَين، وكانوا ذَوي جَمالٍ وبَهاء: يا بَنيَّ لا تَدخُلوا مِصرَ جَميعًا مِنْ بابٍ واحِد، بلِ ادخُلوها مُتفرِّقينَ مِنْ عِدَّةِ أبواب، ولا أنفَعُكمْ ولا أدفَعُ عنكمْ

---

(٦٣) {وَنَمِيرُ أَهْلَنَا}: أي: نشتري لهم الطعامَ فنحملهُ إليهم. يقال: مارَ أهلَهُ يَمِيرُ مَيْراً: إذا حملَ إليهم الطعامَ من بلدٍ إلى بلدٍ آخر. ومثله: امتارَ يمتارُ امتياراً. (البغوي).

(٦٤) {ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ}: الإشارةُ في {ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ} إلى الطعامِ الذي في متاعِهم. وإطلاقُ الكيلِ عليه من إطلاقِ المصدرِ على المفعول، بقرينةِ الإشارة. (التحرير والتنوير). {كَيْلٌ يَسِيرٌ} أي: مكيلٌ قليلٌ لا يقومُ بأَودِنا، أي: قوتِنا. (روح البيان).

بهذا الاحتِرازِ والنُّصحِ شَيئًا مِنْ قَضاءِ اللهِ تعالَى، فإنَّ قَدَرَ اللهِ لا يُرَدّ، ولكنَّهُ تَدبيرٌ وسَبَب، فما الحُكمُ المطلَقُ إلاّ لهُ تعالَى، لا يُشارِكُهُ فيهِ أحَد، ولا يُمانِعُهُ منهُ قُوَّة، وعَليهِ وحدَهُ يَعتَمِدُ مَنْ أرادَ التوكُّلَ عليهِ مِنَ المؤمِنين.

{وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} (يوسف: ٦٨)

٦٨- ولما دخَلوا مِصرَ مِنْ أبوابٍ مُتفرِّقةٍ كما أمرَهمْ أبوهُم، ما كانتْ هذهِ الكيفيَّةُ في الدُّخولِ تَمنَعُ شَيئاً مِنْ قَضاءِ اللهِ عَليهم، ولكنْ حاجَةٌ في نفسِ والدِهمْ أظهرَها؛ دَفعًا لإصَابتِهمْ بالعَين؛ خَوفًا وشَفَقةً عليهم. إنَّ نبيَّ اللهِ يَعقوبَ ذو عِلمٍ جَليل، لِمَا عَلَّمناهُ بالوَحي، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعرِفونَ سِرَّ القَدَر، وحُسْنَ التوَكُّل، وما خُصَّ بهِ الأنبياءُ مِنَ العِلم.

{وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} (يوسف: ٦٩)

٦٩- ولما قَدِموا على يوسُفَ رَحَّبَ بهِمْ وأكرمَ نُزُلَهم، وضَمَّ إليهِ شَقيقَهُ بِنيامِين - وهوَ مِنْ أُمِّهِ دونَ الآخَرينَ - وقالَ لهُ بلُطفٍ وحَنان: أنا أخُوكَ يوسُف، فلا تَحزَنْ بما فَعَلُوهُ مَعي، ولا تأسَفْ على صَنيعِهمْ وسُوءِ مُعاملتِهم، واكتُمْ خبَرَنا عَنهم. واتَّفقا على خُطَّةٍ لإبقائهِ عِندَه.

{فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ} (يوسف: ٧٠)

٧٠- فلمّا وفَّى كَيْلَهم، وجَهَّزَ رَكْبَهمْ وحَمَّلَهُ بالميرَةِ والطَّعام، أمرَ بعضَ أعوانِهِ أنْ يَضعَ إناءَ السُّقيا في رَحْلِ بنيامين، ولما انطلَقوا نادَى مُنادِي يوسُفَ أنْ قِفوا أيُّها الرَّكْبُ فقدْ سَرقتُمْ لنا مَتاعًا.

{قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ} (يوسف: ٧١)

٧١- دُهِشَ الإخوَةُ مِنْ هذا الاتِّهامِ الذي لا يَليقُ بهم، فعادوا في انكِسارٍ وانزِعاج، وقالوا وقدْ أقبَلوا عَليهم: ما الذي فقَدتُموه، وعمَّ تَبحَثون؟

{قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ} (يوسف: ٧٢)

٧٢- قالوا: ضـاعَ مِنَّا كأسُ المِلِكِ الثَّمينُ، ولِمَنْ عَثَرَ عَليهِ وسَـلَّمَهُ لنا حِمْلُ بَعيرٍ مِنَ الطَّعام، قالَ المنادي: وأنا كَفيلٌ بأنْ أُؤدِّيَهِ إليه.

{قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ} (يوسف: ٧٣)

٧٣- قالَ إخوةُ يوسُـف: واللهِ لقدْ عَلِمتُمْ مِنْ حالِنا أنَّنا لم نأتِ لغَرَضِ الإفسَـادِ والتَّخريب، وليسَ مِنْ شِيَمِنا أنْ نَكونَ لُصوصًا، ولم نَسرِقْ لكمْ شَيئاً.

{قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ} (يوسف: ٧٤)

٧٤- قالَ لهمُ المنادِي وأصحابُهُ: فما عِقابُ مَنْ وُجِدَتِ الكأسُ في رَحْلِه، إذا كنتُمْ كاذِبينَ في ادِّعاءِ البَراءة؟

{قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} (يوسف: ٧٥)

٧٥- قالوا: عِقابُ مَنْ وُجِدَتِ الكأسُ في رَحْلِهِ هوَ اسـتِرقاقُه - أو أَسْـرُهُ - هذا هوَ جَزاؤه، وهذهِ هيَ شَريعَتُنا في الحُكمِ على السَّارِق.

{فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَـاءَ اللّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَـاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} (يوسف: ٧٦)

٧٦- فبدأ المنادِي بالبَحثِ في أمتِعَتِهم، تَورِيَةً، ثمَّ فتَّشَ أمتِعةَ بِنيامينَ أخي يوسُف، فاستَخرجَ الكأسَ مِنْ بينِها.

وبمثلِ هذا التَّدبيرِ الدَّقيقِ حصَّلْنا ليوسُفَ مَقصودَه، وما كانَ قادِرًا على ضَمِّ أخيهِ إلى نفسِهِ في شَريعةِ مَلِكِ مِصر، فإنَّ السَّارِقَ فيها يُعاقَبُ ثمَّ يُترَك، فأخذَ الحُكمَ مِنْ إخوَةِ يوسُفَ أنفسِهم، حيثُ تَقضي شَريعَتُهمْ باستِرقاقِ السَّارق، أو أسْرِه. وهكذا شاءَ اللهُ سُبحانَه. نَرفَعُ درَجاتِ مَنْ نشَاءُ بالعِلمِ والحِكمة، كما رفَعنا درَجَةَ يوسُف. واللهُ العَليم، الذي أحاطَ عِلمُهُ بكُلِّ شَيء، وعِلمُهُ تعالَى فَوقَ عِلمِ كُلِّ العُلَماء.

{قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ} (يوسف: ٧٧)

٧٧- قالَ إخوةُ يوسُف: إذا كانَ بِنيامينُ سَرَق، فقدْ سَرَقَ شَقيقُهُ يوسُفُ مِنْ قَبل!

فأضمرَ يوسُفُ مَقالتَهمْ في نَفسِهِ ولم يُجِبهُمْ عنها، ولم يُظهِرْها لهم، وهوَ يَعلَمُ براءَتَهُ وبَراءةَ أخيهِ منَ السَّرِقَة، فقالَ في نَفسِهِ عليهِ السَّلام: أنتُمْ شَرٌّ مَنزِلَةً عندَ اللهِ ممَّنْ رَمَيتُموهُ بالسَّرِقَة، وهذهِ التُّهمةُ تَنطَبقُ عَليكمْ عِندَما سَرَقتُمْ أخاكُمْ مِنْ أبيكمْ ثمَّ كَذَبتُمْ عَليه، فاللهُ أعلَمُ بحقيقَةِ ما تَقولون، والأمرُ ليسَ كما تَصِفون.

(قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) (يوسف: ٧٨)

٧٨- وتذَكَّروا العَهدَ الذي أخذَهُ منهمْ والِدُهمْ للحِفاظِ على أخي يوسُفَ وإعادَتِهِ إليه، فأخَذوا يَستَعطِفونَ يوسُفَ ويَستَرحِمونَهُ لإطلاقِ سَراحِه، قالوا: أيُّها العَزيز، إنَّ لهُ أبًا، وهوَ شَيخٌ كبيرٌ طاعِنٌ في السِّنّ، يُحِبُّهُ حُبًّا شَديدًا، ولا يُطِيقُ فِراقَه، فخُذْ أحدَنا عِوَضًا عنه، إنّا نَراكَ رَجُلَ خَيرٍ وإحسَان، وعَدلٍ وإنصَاف.

{قَالَ مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذاً لَّظَالِمُونَ} (يوسف: ٧٩)

٧٩- قالَ لهمْ يوسُفُ عليهِ السَّلام: نَعوذُ باللهِ أنْ نأخُذَ إلاّ مَنْ وجَدنا الكأسَ عِندَه، فإذا أخذنا غيرَهُ ولو برِضَاه، فقدْ ظَلَمنا، كما هوَ في شَريعَتِكم، ونَعوذُ باللهِ أنْ نَكونَ منَ الظَّالِمين.

{فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيّاً قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقاً مِّنَ اللّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} (يوسف: ٨٠)

٨٠- فلمّا يَئسوا مِنْ يوسُفَ ولم يَتمَكَّنوا منْ تَخليصِ بِنيامين، انفرَدوا عنِ النَّاسِ يَتناجَونَ ويَتشاورونَ فيما بينَهم، ما الذي يَفعَلُونَه، وكيفَ يَتصرَّفون؟

قالَ كبيرُهمْ مُذَكِّرًا: ألمْ تَعلَموا أنَّ أباكُمْ قدْ أخذَ عَليكمْ عَهدًا مُوَثَّقًا لَتَرُدُّنَّهُ إليه، معَ ما تَقدَّمَ مِنْ صَنيعِكمْ بيوسُفَ وكَذِبِكمْ عَليه؟ فلَنْ أُفارِقَ أرضَ مِصرَ حتَّى يَسمحَ لي أبي بالرُّجوعِ إليهِ راضِيًا عنِّي، أو يَحكُمَ اللهُ لي بما شَاء، وهوَ سُبحانَهُ الحَكَمُ العَدْل، الذي لا يَقضي إلاّ بالحَق.

{ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ} (يوسف: ٨١)

٨١- عُودوا إلى أبيكمْ وأخبِروهُ بما حصَل، وقولوا: إنَّ ابنَكَ بِنيامينَ سَرَقَ إناءَ المِلك، وما شَهِدنا عَليهِ إلاّ بما عَلِمناهُ مِنْ سَرِقَتِه، وبَقيَ هُناكَ أسيرًا جَزاءَ سَرِقَتِه، وما كُنّا عالِمينَ بما سيَحدُثُ في الغَيب.

{وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} (يوسف: ٨٢)

٨٢- واسألْ أهلَ مِصرَ عنِ القِصَّة، والرِّفقةَ الذينَ صاحَبناهُمْ في السَّفَر، ونحنُ صَادِقونَ فيما أخبَرناكَ به.

{قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} (يوسف: ٨٣)

٨٣- فوَصَلوا إليه، وأخبَروهُ بذلك، فقالَ لهمْ عليهِ السَّلام: بلْ زَيَّنَتْ لكمْ أنفُسُكمْ أمرًا ما ونَفَّذتُموه، وسأصبِرُ على بِنيامينَ كما صَبَرتُ على يوسُفَ مِنْ قَبل، صَبرًا حسَنًا يُرضي رَبِّي، وعسَى أنْ يأتيَني بهما وبأخيهِما المتوَقِّفِ بِمصر، إنَّهُ عَليمٌ بحَالي وحالِهم، حَكيمٌ فيما يَبتَلي بهِ خَلْقَه، وفي قَضائهِ وقَدَرِه.

{وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ} (يوسف: ٨٤)

٨٤- وأعرضَ عنْ بَنيهِ وقدْ تجدَّدَ حُزنُهُ وزاد، وقال: يا حُزني ويا أسَفي على يوسُف. وابيضَّتْ عَيناهُ من شِدَّةِ الحُزنِ علَى وَلدَيه، وكانَ مَغمومًا مَكروبًا، قدِ امتلأَ قلبُهُ بالأسَى والغَمّ، ولكنَّهُ ساكِتٌ لا يَبثُّه.

{قَالُواْ تَاللہ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ} (يوسف: ٨٥)

٨٥- قالَ لهُ بَنوه: واللهِ لا تَزالُ تَذكرُ يوسُفَ ولا تُفارِقُ ذِكرَهُ حتَّى تَضعُفَ قُوَاكَ وتَكونَ منَ الميِّتين.

{قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} (يوسف: ٨٦)

٨٦- قالَ لهمْ يَعقوبُ عليهِ السَّلام: إنَّما أشْكو غَمِّي وحُزني إلى اللهِ وحدَه، وأتَضرَّعُ إليهِ ليَدفعَهُ عنِّي، وأنا أعلَمُ مِنْ لُطفِ اللهِ ورحمَتِه، وخَيرِهِ وإحسانِه، ما لا تَعلمونَ أنتُم.

{يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} (يوسف: ٨٧)

٨٧- ثمَّ قالَ لهم: اذهَبوا إلى مِصرَ وتعَرَّفوا خبَرَ أخوَيكُما يوسُفَ وبنيامين، ولا تَقطَعوا الرَّجاءَ والأملَ مِنْ فَرَجِ اللهِ ورَحمَتِه، إنَّهُ لا يَقنَطُ مِنْ فَرَجِ اللهِ – ولو أحاطَ بهمُ الكَرْبُ – إلاّ الكافِرون؛ لإنكارِهمْ سَعَةَ رَحمَةِ الله، واستِبعادِهمْ عَفوَه.

{فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ} (يوسف: ٨٨)

٨٨- فخرَجوا إلى مِصر، ودخَلوا على يوسُفَ عليهِ السَّلام، وقالوا له: أيُّها العَزيز، لقدْ أضَرَّتْ بِنا المجاعة، وأصابَنا وأهلَنا الشِّدَّةُ والجُوع، وأتَينا ببِضاعَةٍ قَليلَةٍ رَديئةٍ كاسِدة، لا تَكفي مِقدارَ

ما نَحتاجُهُ مِنْ طَعام، فأعطِنا ما نَحتاجُه، ولا تَنقُصْ عنَّا شَـيئاً، وتَفَضَّـلْ عَلينا بالزِّيادة، إنَّ اللهَ يُثيبُ المتَصَدِّقين، ويَجزيهمْ خَيرًا.

{قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ} (يوسف: ٨٩)

٨٩- فرَقَّ لهمْ يوسُـف، وتَصَوَّرَ حالَ أبيهِ يَعقوبَ وما هوَ فيهِ منْ حُزنٍ وفَقر، فقالَ لهمْ مُنهيًا أسرارَ القِصَّةِ معَهم: هلْ تَذكرونَ سُوءَ فِعلِكمْ معَ يوسُفَ وأخيهِ أيّامَ جَهلِكمْ وطَيشِكم؟

{قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} (يوسف: ٩٠)

٩٠- فتَبادرَ إلى ذِهنِهمْ أنَّ هذا الذي يُكَلِّمُهمْ هوَ يوسُـفُ نَفسُـه، فقالوا: أوَ أنتَ يوسُـف؟ قال: نَعم، أنا يوسُـــف، وهذا أخي، قدْ أنعمَ اللهُ عَلينا فجَمعَ بينَنا بعدَ الفُرقَة، وآنسَـــنا بعدَ الوَحشَة، وأعزَّنا بعدَ ذُلّ، وإنَّ مَنْ يَخشَى اللهَ في أمورِه، ويَصبِرُ على ما ابتُليَ به، فإنَّهُ لا يُضِيعُ أجرَهم، بلْ يَجزيهِمْ خَيرَ الجزاء، ويَزيدُهمْ مِنْ فَضلِه.

{قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ} (يوسف: ٩١)

٩١- فقالوا مُعتَذِرينَ وقدْ غَشَّـاهمُ الخِزيُ والخجَل، مُعتَرِفينَ بفَضـلِهِ وحِلْمِه، وكَرَمِهِ وصَـبرِه، وعِلمِهِ وأدَبِه: لقدِ اختارَكَ اللهُ وفضَّلكَ عَلَينا، وقدْ أسأنا إليك، وأخطأنا في حَقِّك.

{قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} (يوسف: ٩٢)

٩٢- قالَ لهمْ يوسُـــفُ عليهِ السَّـلام: لا تأنيبَ عليكمُ الآنَ ولا لَوم، ولا مؤاخَذَةَ ولا تَعْيير. غفَرَ اللهُ لكمْ ورَحِمَكم، وهوَ أرحَمُ مَنْ رَحِم، يَغفِرُ الصَّـغائرَ والكبَائر، ويَتفضَّـلُ على التَّائبِ بقَبولِ تَوبَتِه.

{اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ} (يوسف: ٩٣)

٩٣- ثمَّ قالَ لهم: اذهَبوا إلى أبي وأَلقُوا بقَميصِي هذا على وَجهِه، يَصِرْ بَصيرًا. - وكانَ هذا مُعجِزةً لهُ عليهِ السلام، وكانَ والدُهُ قدِ ابيضَّتْ عَيناهُ منَ الحُزنِ عَليه - وأْتُوني بجَميعِ آلِ يَعقوبَ ليَكونوا عِندي.

{وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ} (يوسف: ٩٤)

٩٤- ولما خرَجَتِ القافِلةُ مِنْ مِصرَ مُتَّجِهَةً إلى مَكانِ يَعقوبَ عَليهِ السَّلام، قالَ لمنْ حَولَهُ مِنْ آلِه: إنَّني أشُمُّ رائحةَ يوسُف، لو لا أنْ تَقولوا إنَّ الشَّيخَ يَخرَف.

{قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ} (يوسف: ٩٥)

٩٥- قالوا: واللهِ إنَّكَ في خَطَئِكَ السَّابق، مِنْ تَذَكُّرِ يوسُف، والإفراطِ في محبَّتِه، والحُزنِ عَليه، وانتِظارِه.

{فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} (يوسف: ٩٦)

٩٦- فلمّا وصَلَتِ القافِلَة، ودخلَ المبَشِّرُ على أبيهِ يَعقوب، وألقَى قَميصَ يوسُفَ على وجهِه، عادَ بَصيرًا، وقالَ لهمْ وهوَ فَرِحٌ مُستَبشِر: ألمْ أقُلْ لكمْ إنِّي أعلَمُ مِنْ قِبَلِ اللهِ ما لا تَعلَمونَ أنتُمْ مِنْ حياةِ يوسُف، وأمرتُكمْ بالبَحثِ عَنه، ونَهَيتُكمْ عنِ اليأسِ منْ رَحمَةِ الله؟

{قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ} (يوسف: ٩٧)

٩٧- قالَ لهُ أولادُهُ كما قالوا ليوسُفَ مُعتَذِرين: يا أبَانا ادْعُ اللهَ أنْ يَغفِرَ لنا خطيئتَنا، فقدْ كُنّا مُذنِبينَ مُتَعَمِّدين.

{قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (يوسف: ٩٨)

٩٨- قالَ لهمْ عليهِ السَّلام: سأطلبُ منَ اللهِ أنْ يَغفِرَ لكم، فهوَ يَغفِرُ ذُنوبَ عِبادِهِ التَّائبين، ويَرحَمُهمْ فلا يُعَذِّبُهمْ بها، إذا عرَفَ صِدقَ تَوبَتِهمْ منها.

{فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُــفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْـــرَ إِن شَــاء اللّهُ آمِنِينَ} (يوسف: ٩٩)

٩٩- وشَـدُّوا رِحالَهُمْ إلى الكَريمِ يوسُـف، فلمّا دخَلوا عَليهِ ضَـمَّ إليهِ أبوَيهِ واعتَنقَهُما بشَـوقٍ وحَنان، وقالَ لهمْ جَميعًا: ادخُلوا مِصرَ واستَقِرُّوا فيها آمِنينَ مُطمَئِنّين.

{وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُـجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـــذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَـنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّـجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} (يوسف: ١٠٠)

١٠٠- ورفَعَ يوسُفُ أبوَيهِ على السَّريرِ وأجلسَهُما معَهُ تَكريمًا لهما، وسجَدَ لهُ أبواهُ وإخوَتُهُ - وكانوا أحدَ عشَـرَ شَـخصًـا - سُـجودَ تَحيَّةٍ وتَكريم، لا سُـجودَ عِبادَة، تَعظِيمًا وتَوقيرًا لهُ عَليهِ السَّلام.

وقدْ يَكونُ السُّـجودُ بوَضـعِ الجِباهِ على الأرض، أو بالانحِناءِ والتَّواضُـع. وكانَ ذلكَ جائزًا في الأُمَمِ الماضِية، ثمَّ نُسِخَ في شَريعتِنا، فلا سُجودَ إلاّ للهِ تعالَى.

والتفتَ يوسُـــفُ إلى أبيهِ مُذَكِّرًا إيّاهُ بالحُلُمِ الذي رآهُ وهوَ غُلام، وقال: يا أبتِي، هذا تأويلُ رؤيايَ التي قَصَـصـتُها عَليكَ مِنْ قَبل: {إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَـرَ كَوْكَباً وَالشَّـمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} [سورة يوسُف: ٤]. فالشمسُ والقمَرُ الأبَوان، والأحدَ عشرَ كَوكبًا إخوَتُه. وقدْ جعلَ اللهُ هذهِ الرُّؤيا حقًّا وصِدقًا، وأنعمَ اللهُ عليَّ ولطَفَ بي عِندَما أخرجَني مِنَ السِّجن، وجاءَ بكمْ منَ البادِيةِ إلى الحَضَر، بعدَ أنْ أفسدَ الشَّيطانُ بَيني وبينَ إخوَتي بالحسَدِ والبُغض، إنَّ رَبِّي ذو لُطفٍ وحِكمَةٍ في تَدبيرِ ما يَشـــاء، وهوَ عَليمٌ بما يُصـــلِحُ الناسَ، حَكيمٌ بما يُقَدِّرهُ لهمْ وعَليهم.

{رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} (يوسف: ١٠١)

١٠١- ثمَّ تَوجَّهَ إلى ربِّهِ حامِدًا شاكِرًا وقال: اللَّهمَّ إنَّكَ وهَبتَني ما شِئتَ مِنْ سُلطانٍ ومكانَة، وتصرُّفٍ في مُلْكِ مِصر، وعلَّمتَني مِنْ تَعبيرِ الرُّؤيا ما شِئت، يا خالِقَ السَّماواتِ والأرضِ ومُبدِعَهما، أنتَ مُعيني ومُتوليِّ أمْري وناصِري في الدُّنيا والآخِرة، اقبِضني إليكَ على الإيمانِ والإسلام، وألحِقني بالصالحِينَ مِنْ آبائي الأنبياءِ المكْرَمين.

{ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ} (يوسف: ١٠٢)

١٠٢- وما ذُكِرَ مِنْ خَبَرِ يوسُفَ هوَ مِنْ قَصَصِ الغَيبِ الذي نُوحيهِ إليكَ أيُّها الرسُولُ محمَّد، وليسَتْ أسَاطير، وما كنتَ إذْ ذاكَ عِندَ إخوةِ يوسُفَ عِندما اجتَمعَ رأيُهمْ وعزَموا على إلقاءِ يوسُفَ في الجُبِّ وهمْ يَكيدونَ له، بلْ هوَ وحيٌ أوحَيناهُ إليكَ دونَ أنْ تَكونَ لكَ مَعرِفَةٌ مُسبَقَةٌ بهِ على هذا الوَجه.

{وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} (يوسف: ١٠٣)

١٠٣- وما أكثَرُ النَّاسِ بمؤمنينَ لكَ أيُّها الرسُولُ ولو حَرَصتَ على إيمانِهمْ أشَدَّ الحِرص، وبالَغْتَ في الحِوارِ معَهم، وأورَدتَ لهمُ الآياتِ والحُجَجَ الدالَّةَ على صِدقِك، وذَكَرْتَ لهمْ مِنَ القَصَصِ والأخبارِ المغيبةِ عنهمْ ما شَاءَ اللهُ منْ ذلك، وهذا لعِنادِهمْ وإصرارِهمْ على الكُفرِ والتَّكذيب.

{وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ} (يوسف: ١٠٤)

١٠٤- وأنتَ لا تَطلبُ منهمْ على تَبليغِكَ الرِّسَالة، ودَعوتِهمْ إلى اللهِ أُجرةً يُؤدُّونَها إليك، وما هوَ إلاّ تَذكِرَةٌ وعِظَةٌ لهمْ وللنَّاسِ عامَّة، ليَتذَكَّروا ويَعتَبِروا ويَهتَدوا.

{وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ} (يوسف: ١٠٥)

١٠٥- وكمْ مِنْ آياتٍ دالَّةٍ على وَحدانيَّةِ اللهِ وقُدرتِهِ مَبثوثَةٍ في السَّماواتِ والأرض، مَعروضَةٍ أمامَ الأعيُن، يُشاهِدُها النَّاس، ولكنَّهمْ لا يَتفكَّرونَ فيها، ولا يَعتَبرونَ بها، للأُلفَةِ والعَادةِ التي هُمْ عَليها، فاكتَفَوا برُؤيتِها هكذا دونَ التعمُّقِ فيها ومَعرِفةِ الحِكمةِ منها، ولذلكَ لا تَجِدُ أكثرَهُمْ مؤمِنين.

{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ} (يوسف: ١٠٦)

١٠٦- وإذا آمَنوا باللهِ خلَطوا معَ إيمانِهِمْ هذا أنواعًا منَ الشِّرك، فإذا أقَرُّوا باللهِ الخالِقِ الرازِقِ وجدتَهُمْ يَعبدونَ أصنامًا، أو أفلاكًا، أو أناسِيّ، فهمْ مُشرِكونَ مُناقِضونَ للإيمانِ الذي أمرَ اللهُ به، وهوَ التوحِيدُ الخالِص، وعدَمُ الإشراكِ به، ولذلكَ فهمْ يَستَحِقُّونَ العِقاب. والمقصودُ غَيرُ المسلِمين.

{أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} (يوسف: ١٠٧)

١٠٧- أفأمِنَ المعرِضونَ عنْ آياتِ الله، والمشرِكونَ به، أنْ تُصيبَهمْ عُقوبَةٌ مِنْ عندِ اللهِ تَعمُّهمْ وتَقضي عَليهمْ جَميعًا؟ أو تقومَ القيامةُ وهمْ لاهُونَ لم يَستَعِدُّوا لها، فيَموتوا على الكفرِ ويَستَحِقُّوا العَذابَ الأليم؟

{قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (يوسف: ١٠٨)

١٠٨- قُلْ للنَّاسِ أيُّها الرَّسُول: إنَّ هذا الذي أدعُوكُمْ إليهِ منَ الإيمانِ والتوحِيد، هوَ المسْلَكُ الحَقّ، والطريقُ المستَقيم، الذي لا عِوَجَ فيهِ ولا شُبهَةَ عليه، وأنا على نُورٍ وهِدايَةٍ منَ اللهِ بما يوحِيهِ إليَّ ويُسَدِّدُني فيه، وعلى عِلمٍ ويَقينٍ منْ ذلك، أنا والذينَ اتَّبعوا هذا الدِّينَ منَ المؤمِنين، لا نَلتَوي ولا نَزيغُ عنه، وأُجِلُّ اللهَ وأُعَظِّمُه، وأُنَزِّهُهُ عمّا يُنْسَبُ إليهِ منَ الشِّرك، وعَمّا لا يَليقُ بجَلالِهِ وكمالِه، ولسْتُ منَ المشرِكينَ في أمرٍ منْ أموري، بلْ أُخلِصُ عمَلي لله، في صَلاتي، ونُسُكي، ومَحياي، ومَماتي.

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} (يوسف: ١٠٩)

١٠٩- ولم نُرسِلْ قَبلَكَ منَ الرُّسُلِ نِساءً أو ملائكة، بلْ رِجالاً نوحِي إليهِمْ كما أوحَينا إليك، مِنْ أهلِ الحاضِرَةِ لا البادِية، لأنَّهُمْ أعلَمُ وأحلَم، وألْيَنُ وألطَف.

أفلا يَسيرُ هؤلاءِ المكَذِّبونَ في الأرْض، ليَرَوا بأعيُنِهِمْ آثارَ الغابِرين، أو يَسألوا النَّاسَ ويَقرَؤوا التَّاريخ، كيفَ كانتْ عاقِبةُ المكَذِّبينَ بالرسُل، كيفَ أهلكَهُمُ اللهُ بسَبَبِ تَكذيبِهِمْ وإصرارِهِمْ على الكُفر؟

وإنَّ الدارَ الآخِرةَ الباقيَة، والجنَّةَ ونَعيمَها، خَيرٌ لمنْ ثبَتَ على طاعَةِ اللهِ وتَقواه، مِنَ الدُّنيا الفانيَةِ ومُنَغِّصاتِها، أفلا تَعقِلونَ وتَتَدَبَّرونَ سُنَنَ اللهِ في الأقْوامِ السَّابِقين، لتُمَيِّزوا الصَّحيحَ مِنَ السَّقيم، وتُفَضِّلوا الباقيَ على الفَاني؟

{حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} (يوسف: ١١٠)

١١٠- حتَّى إذا يئسَ الرسُلُ منِ استِجابَةِ الكافِرينَ المجرِمين، ولم يُتابِعْهمْ على دَعوتِهِمْ إلاّ القَليلُ مِنَ المؤمِنين، وصبَروا على تَكذيبِ الكافِرينَ واستِهزائهم، وعلى تَماديهِمْ في الكُفرِ والضَّلالِ سَنواتٍ وسَنوات، وقدْ بلَغَ الجَهدُ والكَرْبُ بالرُّسُلِ ما بلَغ، وصَاروا يَنتَظِرونَ الوعدَ بالنَّصر، وكأنَّهُمْ لا يَرونَهُ قَريبًا، حتَّى تَوهَّموا أنَّ نُفوسَهمْ كذَّبَتْهُمْ حينَ حدَّثَتْهُمْ بأنَّهُمْ سيُنْصَرون، عِندَئذٍ جاءَهمْ نَصرُنا...

أو أنَّ أتْباعَ الرسُلِ ظَنُّوا ذلك...

وبقراءَةِ "كُذِّبوا" بالتَّشديد، يَعني أنَّ الرسُلَ كُذِّبوا مِنْ قِبَلِ أقوامِهم تَكذيبًا لا إيمانَ بعدَه...

جاءَهمْ نَصرُنا فَجأة، حاسِمًا فاصِلًا...

فنُنَجِّي مِنْ بينِهمْ مَنْ نشَاءُ مِنَ الهَلاك، وهُمُ الرسُلُ وأتْباعُهم، ويَحِلُّ بأسُ اللهِ بالكافِرينَ المكَذِّبين، ولا يَستَطيعُ أحَدٌ أنْ يَرُدَّ العَذابَ عنهم.

{لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (يوسف: ١١١)

١١١- لقدْ كانَ في خبَرِ الأنبياءِ معَ أُمَمِهم، ومِنْ ذلِكَ قِصَّـــةُ يوسُـــفَ معَ إخوتِهِ وأبيه، ثمَّ سَجنُهُ، ومَآلُ أمرِه، تَذكِرةٌ وعِبرَةٌ لذَوي العُقول، أهلِ الفِكرِ والاعتِبار.

وما كانَ هذا القُرآنُ العَظيم، الذي احتَوَى على قَصَصِ الأنبياءِ وغيرِها ممّا فيهِ فائدةٌ وعِبرَة، ما كانَ كلامًا مُختَلَقًا، ولا حِكايةً شَـــعبيَّةً تُســـرَد، فإنَّ الكذِبَ لا يُحَقِّقُ هِداية، ولا يَطمَئنُّ إليهِ النَّاس، ولكنَّهُ كِتابُ هِدايةٍ وتَوجيه، صدَّقَ الكتُبَ السَّماويةَ السَّابِقة، وشَهِدَ لها بالصحَّةِ إذا وافقَتِ الوحي. وفيهِ بيانُ ما يَحتاجُهُ النَّاس، مِنْ عِبادات، ونِظامِ حياة، وتَربيَةٍ وأخلاق، وهوَ هِدايةٌ منَ الغَيِّ والضَّـــلالِ إلى الحقِّ والرَّشَـــاد، ورحمَةٌ لهمْ مِنْ ربِّ العِباد، يَنالونَ بها خَيرَ الدُّنيا والآخِرة. هذا لمنْ صدَّقَ بكتابِ الله، وآمنَ بالإسلامِ كُلِّه، واتَّبعَ هُداه.

سورة الرعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَـــــكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ} (الرعد: ١)

١- الحروفُ المقطَّعةُ لم يَرِدْ في تَفسيرِها حَديثٌ ثابِتٌ صَحيح، واللهُ أعلَمُ بمَعناها.

هـذهِ آياتُ القُرآنِ الكَريم، وما أنزلَهُ اللهُ إليكَ أيُّها النبيُّ منَ الوَحي في هـذا القُرآنِ هوَ الحقُّ الذي لا يَتطرَّقُ إليهِ الشَّكّ، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يؤمِنونَ به، لعِنادِهم، أو عدَمِ تدَبُّرِهِمْ فيه.

{اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّــمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْــتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَــخَّرَ الشَّــمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَــمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّــلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ} (الرعد: ٢)

٢- هوَ اللهُ القادِرُ العَظيم، الذي خلقَ السَّــماواتِ ورفعَها إلى أبعادٍ لا يَعرِفُ مَداها إلاّ هو، بغَيرِ دَعائمَ ترَونَها مُستَنِدَةً إلى الأرضِ أو غَيرِها، ولكنَّها موجودَةٌ وإنْ لم تُرَ، ربَّما كالجاذبيَّةِ التي في الأرْضِ وفي كَواكبَ أخرَى، لتَستَقِرَّ ولا تَصطدِمَ بغَيرِها.

ثمَّ استوَى اللهُ سَبحانَهُ على العَرش، استِواءً يَليقُ بذاتِهِ وجَلالِه.

وســخَّرَ الشَّــمسَ والقمرَ فجعلَهما مُذلَّلَينِ طائعَينِ لِما يُرادُ منهما في خِدمَةِ الإنسَــان، وهما يَجريانِ بسُرعَةٍ مُقدَّرة، إلى حَدٍّ مُعَيَّنٍ وأجَلٍ مُحَدَّد، ليَتكوَّنَ مِنْ حركاتِهما اللَّيلُ والنَّهار، والشهرُ والسَّنَة.

وهوَ سُـبحانَهُ الذي يَتصَـرَّفُ في شُـؤونِ هذا العالَمِ كما يَشـاء، ويُدَبِّرُهُ أحسـنَ تَدبير، حتَّى لا يَختلَّ نِظامُه.

ويُبَيِّنُ اللهُ لكمْ هذهِ الأمورَ الدالَّةَ على قُدرَتِهِ وتَوحيدِهِ لتتَفكَّروا وتَعتَبِروا، وتَعلَموا أنَّهُ قادِرٌ على إعَادةِ خَلقِكمْ كما بَدأه.

{وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِــيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (الرعد: ٣)

٣- وهوَ الذي بسَطَ الأرضَ ومَدَّها طُولاً وعَرْضًا، وجعَلَ فيها جِبالاً لتَثبُتَ ولا تَضطرِب، وأجرَى فيها أنهارًا وجداولَ وعُيونًا، لتسقيَ الزُّروعَ والبسَاتين، ويَشربَ منها الإنسانُ والدوابُّ والطُّيور. ومِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ المتعَدِّدَةِ الأصْنافِ والأشْكالِ جعلَ اللهُ فيها زَوجَينِ اثنَين، ذكَرًا وأنثَى، لتَبقَى وتتَكاثَر. وهذا اللَّيلُ والنَّهارُ في دَأبِهما، فيتحرَّكُ اللَّيلُ بظلامِهِ ليُلامِسَ النَّهارَ شَيئاً فشَيئاً حتَّى يَحِلَّ مَحلَّه، بمِيزانٍ دَقيقٍ ونِظامٍ بَديعٍ مِنْ تَدبيرِ الخَالقِ المبدِع، وفي كُلِّ هذهِ الآياتِ والمخلوقاتِ العَظيمَةِ عِبرَةٌ وتَذكرَةٌ للنَّاس، ليتفَكَّروا ويَتدبَّروا، ويتعرَّفوا منْ خلالِها على وُجودِ خالقِهم، وقُدرتِهِ وعظَمتِه.

{وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (الرعد: ٤)

٤- وسَطحُ الأرضِ أنوَاع، ففيهِ أجزاءٌ يُجاوِرُ بعضُها بَعضًا إلاّ أنَّها مُختَلِفَةٌ ومُتبايِنَة، ففيها ما يَصلُحُ للزَّرعِ وفيها ما لا يَصلُح، وبعضُها كثيرُ الإنتاجِ وبعضُها قَليل، وبعضُها رَخْوٌ وبعضُها صُلب. فمَنْ قدَّرَ لها أنْ تَكونَ كذلك؟

وفيها بَساتينُ كثيرةٌ منْ أشْجارِ العِنَب، وزَرْعٌ فيهِ أنواعُ الحُبوبِ والبُقول، ونخيلٌ: مُجتَمِعٌ ومُتفَرِّق، أو متمَاثلٌ وغيرُ متمَاثل. وكُلُّها يُسقَى بماءٍ واحِد، ولكنَّ الثِّمارَ مُختَلفَةُ الطَّعم... ونُفَضِّلُ بعضَ هذهِ الزُّروعِ والثِّمارِ على بعضِها الآخَرِ في الطَّعْمِ والفَائدةِ وغيرِ ذلك.

وقالَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم في قَولِهِ تعالَى {وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ}: " الدَّقَل، والفارِسِيّ، والحُلو، والحامِض". وهوَ حَديثٌ حسَن. والدَّقَل: رَديءُ التَّمرِ ويابسُه، والفارِسيّ: نَوعٌ مِنَ التَّمر.

وفي ذلكَ آياتٌ وأدِلَّةٌ واضِحةٌ على قُدرَةِ الخَالقِ وبَديعِ صُنعِه. هذا لمنِ استَعمَلَ عَقلَهُ وتفَكَّر، وابتعدَ بنفسِهِ عنِ التَّقليدِ والهوَى.

{وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ} (الرعد: ٥)

٥- وإذا عَجِبتَ مِنْ شَيءٍ أيُّها النبيّ، فتعَجَّبْ مِنْ قَولِ الكافِرينَ الذينَ يَقولون: إذا صِرنا عِظامًا وتُرابًا بعدَ الموت، سيُعادُ خَلقُنا منْ جَديد؟

إنَّهُمْ يُنكِرونَ بَعثَ الخَلْقِ على الرَّغمِ مِنْ إيمانِهِمْ بابتِدائه، وكأنَّهُمْ لا يَتفكَّرونَ بما حَولَهُمْ منَ الثِّمارِ والزُّروع، التي تَموت، ثمَّ تَحيا مِنْ جَديد، بقُدرَةِ الله، وهذا ما يَتكرَّرُ كُلَّ عامٍ مرَّةً أو مَرَّتين، وهمْ يُؤمِنونَ بأنَّ السَّماواتِ العَظيمَة، والأرضَ التي تَحمِلُهم، منْ خَلقِ الله، وفيها منَ الأحْياءِ والجَماداتِ والنَّباتاتِ ما يُبهِرُ العُقول، ويُوقِظُ القُلوب... أليسَ منَ العجَبِ ألاّ يَستَحوذَ هذا كُلُّهُ على فِكرِهم، ويوقِظَ قُلوبَهم، ويُنبِّهَ عُقولَهم، فيتفَكَّروا في قُدرَةِ الخَالقِ العَظيمِ وتَدبيرِه، وأنَّهُ قادِرٌ على الإحْياءِ والإمَاتة، كما يَبدو في مَظاهرِ الكَونِ وحرَكاتِ مَخلوقاتِهِ وتَفاعُلاتِه؟ ولكنَّهمْ كفَروا برَبِّهِمْ عِندما لم يؤمِنوا بقُدرتِهِ على البَعث، وإنَّ إنكارَ قُدرتِهِ في هذا إنكارٌ لهُ سُبحانَه، ووَصفٌ لهُ بالعَجز، وتَكذيبٌ لهُ ولرسُلِه.

وهؤلاءِ جزاؤهمْ على كُفرِهِمْ وتَكذيبِهِمْ أنْ تُغَلَّ أعناقُهمْ وتُسحَبَ في النَّارِ يَومَ القِيامة، كما غَلُّوا عُقولَهُمْ وأغلَقوا قُلوبَهُمْ عنِ التَّفكيرِ والتدَبُّرِ في الدُّنيا، ويَكونُ مَصيرَهمُ الخُلودُ في النَّار، مؤبَّدينَ فيها، لا يَتحوَّلونَ عنها ولا يَموتونَ فيها.

{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} (الرعد: ٦)

٦- وهؤلاءِ الكافِرونَ المكذِّبونَ يَستَعجِلونكَ لتأتيَهمْ بالعُقوبةِ قبلَ أنْ يَسألوا الهِدايةَ والرَّحمَة، والعَافيةَ والسَّلامة، وقدْ سبقَتْ مِنْ قبلِهمُ العُقوباتُ للأُممِ الغابِرةِ التي كذَّبتْ أنبياءَها، وتُرِكوا مُثْلَةً ليَعتَبِرَ بهمْ مَنْ بَعدَهم، ولكنَّ الكافِرينَ غافِلونَ لا يَعتَبِرون.

وإنَّ اللهَ كثيرُ المغفِرَةِ لذُنوبِ عِبادِه، معَ كونِهمْ يَظلِمونَ أنفُسَهمْ باستِمرار، بارتِكابِ الذُّنوبِ والمعَاصي، وهو شَديدُ العِقابِ لمنْ أصرَّ ولم يُبالِ بعُقوبةِ اللهِ ولم يَعتَبرْ بما يُصيبُ الآخَرين.

{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} (الرعد: ٧)

٧- ويَقولُ المشرِكونَ كُفرًا وعِنادًا: هَلاّ أُنزِلَ على هذا النبيِّ مُعجِزة، مثلُ قَلْبِ العَصا إلى حَيَّة، وإحياءِ الموتَى... وهذهِ خَوارِقُ لا يَقدِرُ الرسُولُ على أنْ يأتِيَ بها مِنْ عندِه، إنَّما يأتي بها اللهُ بحِكمتِهِ عِندَما يرَى فيها فائدة، وهؤلاءِ يَطلبونَ منَ الرسُولِ صلى الله عليه وسلم أنْ يُزيلَ عنهمْ جِبالَ مكَّةَ الكثيرةَ الشَّاهِقة، ويَجعلَها كُلَّها بَساتينَ ومُروجًا، وأنْ يَجعلَ جبلَ الصَّفا ذهَبًا...

ولو أنَّ اللهَ حقَّقَ هذهِ الخوارقَ على يدِ رَسولِهِ ولم يؤمِنوا لأهلكَهم، وهمْ يَطلبونَها عِنادًا وتَماديًا في الخُصومةِ لا للإيمان، وقدْ أيَّدَ اللهُ رَسولَهُ بمُعجِزَةٍ خالدةٍ كافيةٍ هيَ القُرآنُ الكريم، تحدَّى بهِ العَربَ أنْ يأتوا بعَشرِ آياتٍ مِنْ مِثلِه، وبينَهمْ فُصَحاءُ العرَبِ بلاغةً وخَطابةً آنذاك.

ولستَ أيُّها النبيُّ سِوَى نَذير، تُبلِّغُهمْ رِسالةَ اللهِ التي أمرَكَ بها، فتُبَصِّرُهمْ بالحقّ، وتُنذِرُهمْ سُوءَ عاقِبةِ مَنْ لم يتَّبعْ دِينَ الله. ولكلِّ قَومٍ دَاعٍ إلى الحقّ، وأنتَ داعيَتُهمْ إليه، مِثلُ سائرِ الرُّسُلِ مِنْ قَبلِك.

{اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ} (الرعد: ٨)

٨- وعِلمُ اللهِ مُحيطٌ بكُلِّ شَيء، فهوَ يَعلَمُ ما الذي تَحمِلُهُ كلُّ أُنثَى في رَحِمِها، منَ الأناسيِّ في البَرّ، ومنَ الحيواناتِ في البَرِّ والبَحر، بأنواعِها، وأحْجامِها، وألوانِها، وأعدادِها... ويَعلَمُ ما تَنقُصُهُ الأرحامُ وما تَزدادُه، مِنْ جَنينٍ تامٍّ أو غيرِ تامّ، ومُدَّةِ بقائهِ في الرَّحْمِ نَقصًا وزِيادَة، والاختلافِ فيهِ بينَ كائنٍ وآخَر. وكُلُّ شَيءٍ عندَ اللهِ بأجَلٍ وقدَرٍ، وميزانٍ لا يَتجاوزُهُ ولا يَنقُصُ منه.

{عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} (الرعد: ٩)

٩- وهوَ سُبحانَهُ يَعلمُ ما غابَ عنْ حِسِّ البشَرِ ونَظَرِهم، ويَعلمُ ما يُشاهِدونَه، لا يَغيبُ عنهُ أمر، وهوَ الكبيرُ فكُلُّ شَـيءٍ دونَه، وهوَ المستَعلي على كُلِّ شَـيء، بذاتِه، وعِلمِه، وقُدرَتِه، وسَائرِ صِفاتِه.

{سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} (الرعد: ١٠)

١٠- ويَستوي في عِلمِ اللهِ المسِرُّ بالقَولِ والمعلِنُ به، ومَنْ هوَ مُختَفٍ في ظَلامِ اللَّيلِ ومَنْ هوَ ظاهِرٌ ماشٍ في ضَوءِ النهار.

{لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ} (الرعد: ١١)

١١- وللهِ مَلائكةٌ يَتعاقَبونَ فيكمْ باللَّيلِ والنَّهار، فإذا صَعَدَتْ مَلائكةُ اللَّيلِ جاءَ في عَقِبِها مَلائكةُ النَّهار، وإذا صَعَدَتْ مَلائكةُ النَّهارِ جاءَ في عَقِبِها ملائكةُ اللَّيل، يَكونُونَ مِنْ أمامِ الإنسانِ ومِنْ وراءِ ظَهرِه، فيُحيطونَ بهِ مِن جَوانبِه، يَحفَظونَهُ بأمرِ اللهِ وإذنِه، فإذا جَاءَ القدَرُ تَرَكوهُ وقَدَرَه.

واللهُ لا يغَيِّرُ ما بقَومٍ مِنْ نِعمَةٍ وعافِيةٍ إلى نِقمَةٍ وعَذاب، حتَّى يُحدِثوا شَرًّا فيَتَحَوَّلوا إلى مَعصيةٍ وكُفرٍ وظُلم، ولا يُغَيِّرُ ما بهِمْ مِنْ ذُلٍّ ومَهانَة، حتَّى يَتحَوَّلوا بأنفُسِهمْ ويتَمسَّكوا بأسبَابِ العِزِّ والنَّصر. فاللهُ يُغَيِّرُ ما بهِمْ وُفْقَ ما صارَتْ إليهِ نفوسُهمْ وأعمالُهم.

وإذا أرادَ اللهُ أنْ يَبتَليَ قَومًا بمَرَضٍ أو فَقرٍ أو هَزيمة، أو غَيرِ ذلك منْ أنْواعِ البَلاء، فلا أحدَ يَقدِرُ على رَدِّ أمرِه، ولنْ يَكونَ لهمْ وليٌّ ولا ناصِرٌ يَدفَعُ عنهمْ ما يُصيبُهم.

{هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ} (الرعد: ١٢)

١٢- إنَّ اللهَ يُريكمُ البَرْقَ لتَخافُوه، مِنْ صاعِقةٍ تُصيبُكم، أو مَطَرٍ كَثيرٍ يَغمُرُكمْ بمائه، أو تَكونوا مُسافِرينَ فتَجزَعوا... وتَطمَعوا فيما عِندَهُ مِنْ رَحمة، فتَرجوا خَيرَهُ وبِرَّه، وبرَكتَهُ في المطَرِ ومَنفَعتَه. وهوَ الذي يَخلُقُ السُّحُبَ الكثيفةَ المحمَّلةَ بالماءِ لمنفعَتِكم.

{وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} (الرعد: ١٣)

١٣- والرَّعْدُ يَذكُرُ اللهَ فيُقَدِّسُهُ ويَحمَدُه، بكيفيَّةٍ لا نَعلمُها {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [سورة الإسراء: ٤٤] وهوَ مِثلُ غَيرِهِ مِنْ الظَّواهِرِ الطبيعيَّةِ وحرَكاتِها، مأمورٌ بأمرِ الله، فلا يُصَوِّتُ الغَيمُ إلاّ بإذنِه، فإذا رعدَ سَبَّح. والملائكةُ كذلكَ تُسبِّحهُ وتَحمَدُه، مِنْ هَيبتِهِ وعظَمَته. واللهُ يُرسِلُ الصَّواعِقَ نِقمةً يَنتَقِمُ بها ممَّنْ شاءَ فتُهلِكُه، والمكَذِّبونَ يُنكِرونَ آياتِ الله، ويَشكُّونَ في قُدرتِه، ونِقمتِهِ وعُقوبته، وهوَ سُبحانَهُ شَديدُ الكَيدِ والقُوَّة، في عُقوبةِ مَنْ طغَى وتجبَّر، وعاندَ وتمادَى في الضَّلال، وأصرَّ على تَكذيبِ رسُلِه.

وقدْ نزَلتْ في رجُلٍ عاتٍ مِنْ فراعِنةِ العَرب، أرسلَ إليهِ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّم رجُلاً مِنْ أصحابِهِ يَدعوهُ إليه، ثلاثَ مرَّات، وهوَ يأبَى، ويقول: مَنْ رسُولُ الله؟ وما الله؟ أمِنْ ذهَبٍ هو، أمْ مِنْ فِضَّةٍ هو؟ أمْ مِنْ نُحاس؟ فوقعَتْ صاعِقةٌ فذهَبَتْ بقَحفِ رأسِه. (ذكرَ في مجمعِ الزوائدِ أن رجالَهُ رجالُ الصحيح).

{لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ} (الرعد: ١٤)

١٤- للهِ وحدَهُ التَّوحيدُ الخَالِص. والمشرِكونَ الذينَ يَدْعُونَ الأصنامَ لا يُجيبونَهمْ بشَيء، مِنْ جَلبِ نَفعٍ أو دَفعِ ضُرّ، ومَثَلُهمْ في هذا كمَثَلِ ظَمآنَ يَبسُطُ يدَهُ دَاعيًا الماءَ إلى فَمِهِ ليترَوَّى، ولكنَّ الماءَ لا يأتي إليه، فهوَ جَمادٌ لا يَفهمُ ولا يَشعُرُ بعطَشِ الظَّمآن. وكذلكَ الكافِرون، لا يَنفَعُهمْ دُعاءُ الأصنام، فهيَ حِجارةٌ لا تَسمَعُ ولا تَشعُرُ بدُعائهم، فدُعاؤهمْ لها ضَياعٌ وخَسارة.

{وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ} (الرعد: ١٥)

١٥- وللهِ وحدَهُ يَخضَعُ ويَنقادُ كُلُّ مَنْ في السَّماواتِ والأرض، طواعِيةً منهمْ إنْ أرادوا، وإكراهًا إنْ لم يُريدوا، فحُكمُ اللهِ في الإحياءِ والإماتَةِ وما إليهِ حَادِثٌ فيهم، شَاؤوا أمْ أبَوا. كما تَنقادُ لهُ سُبحانَهُ ظِلالُهُمْ تَبَعًا لشُخوصِهم، صَباحَ مَساء، على الدَّوام. فإذا الكَونُ كُلُّهُ خاضِعٌ لهُ ساجِد، أصلاً وظِلاًّ.

{قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} (الرعد: ١٦)

١٦- قُلْ أيُّها النبيُّ للكافِرين: مَنْ خالقُ السَّماواتِ والأرضِ ومُدَبِّرُهما؟ قُلْ لهم: هوَ اللهُ وحدَه. وقُلْ إلزاماً لهُمْ وتَقريعًا: أفاتَّخذتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ آلهةً تَعبدونَهُمْ وتَستَنصِرونَ بهم، وهمْ عاجِزونَ لا يَمْلِكونَ لأنفسِهِمْ نَفعًا يَستَجلِبونَه، ولا ضُرًّا يَدفَعونَه، أوَ بعدَما عَلمتُمْ أنَّ اللهَ خالِقُ السَّماواتِ والأرضِ ومَنْ فيهِنَّ، ومُدَبِّرُهنّ، وبيدِهِ كلُّ شَيء، كانَ عَليكمْ أنْ توَحِّدوهُ في العِبادةِ وتَستَنصِروا بِهِ وحدَه، لكنْ صِرتُمْ تَعبُدونَ معَهُ آلهةً مِنْ حِجارةٍ بَكماء؟!

وهلْ يَستوي مُشرِكٌ جاهِلٌ بحَقِيقةِ التَّوحيد، وبَصيرٌ يَعبدُ اللهَ وحدَهُ وهوَ على نُورٍ مِنْ رَبِّه؟ أمْ هلْ يَستوي الكُفرُ والشِّركُ والضَّلالُ وهوَ ظُلُمات، معَ الإيمانِ والتَّوحيدِ والحقِّ وهوَ النورُ المبِين؟

أجعلَ هؤلاءِ المشرِكونَ معَ اللهِ آلهةً تَخلقُ كما يَخلقُ الله، فتَشابَهَ عليهمْ بذلكَ أمرُ الخَلقِ فقالوا: اللهُ يَخلق، وهذهِ آلهتُنا تَخلق، فنَعبدُ هذا، ونَعبدُ هذا؟!

قُلْ لهم: إنَّ هذهِ الآلهةَ لا تَخلقُ شَيئاً كما تَرَون، بلِ اللهُ وحدَهُ خالقُ كُلِّ شَيء، وهوَ الواحِدُ الذي لا شَريكَ له، الغالِبُ على كلِّ ما سِواه.

{أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ} (الرعد: ١٧)

١٧– أنزلَ اللهُ مطرًا كثيرًا، فسالَتْ مِنْ ذلكَ الماءِ أودِيَة، كُلُّ وادٍ بحسَبِهِ وبمِقدارِ طاقَتِه، فحملَ الماءُ الجاري في تلكَ الأوديَةِ غُثاءً، نتيجةَ جيَشانِ مائهِ واضْطرابِ أمواجِه، وارتطامِهِ بأجسَام، فيَطفو هذا الغُثاءُ على الماءِ ويَنتَفِخُ فوقَهُ عاليًا حتَّى يَكادُ يَحجُبُه، وهوَ ما لا خَيرَ فيه.

ومَثَلٌ آخَر: المعادِنُ التي تُحمَى على النارِ لتُسبَكَ وتُصاغَ منهُ الحُليّ، كالذَّهَبِ والفِضَّة، بغرَضِ الزِّينَة. أو مَتاعٌ مِنْ أوانيَ وآلاتٍ مِنْ مَعادِنَ أُخرَى ممّا يُنتَفَعُ به، فلَهُ كذلِكَ خَبَثٌ مِثْلُ زَبَدِ الماء، يَعلو عَليه، حتَّى يَكادُ يَحجُبُ المعدِنَ الأصْل.

وذلكَ مَثَلُ الحقِّ والبَاطِلِ في الواقعِ المعاش، فإنَّ الزَّبدَ الذي عَلا السَّيْل، والخبَثَ الذي عَلا المعدِن، سيُرمَى ويَضيع، لأنَّهُ لا تَماسُكَ فيهِ ولا فائدَةَ منه.

وأمّا الذي يَنفَعُ النَّاس، منَ الماءِ الحقيقيّ، والمعدِنِ الأصلي، فهوَ الذي يَبقَى ولا يَذهَب، ويَصمَدُ ولا يُطْرَح.

وجعلَ اللهُ هذا مِثالاً للحقِ والباطِل، فإنَّ الباطِلَ يَنتَفِخُ ويَعلو ويُجَلجِلُ حتَّى يَكادُ يُخفي الحقّ، لكنَّهُ يَختَفي مِنْ ضَوئهِ إذا برزَ له، ويَضمَحِلُّ حتَّى يَموت. والحقُّ هادِئٌ ثَقيلٌ مُتماسِك، ذو أصلٍ وجَذْرٍ قَويّ، يَبقَى ويَشِعُّ ولا يَموت، وهوَ الذي يَنفَعُ النَّاسَ ويَثبتُ لهمْ ومعَهم.

{لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} (الرعد: ١٨)

١٨– للَّذينَ استَجابُوا لربِّهِمْ إذْ دَعاهُمْ فأطاعُوه، الجَزاءُ الحسَنُ والحياةُ الطيِّبةُ يومَ القِيامةِ في الجنَّة، والذينَ لم يَستَجيبوا لربِّهِم، فعصَوا وعانَدوا، واستَكبَروا عنْ قَبولِ الحقّ، لو أنَّ لهمْ ما في الأرضِ مِنْ خَزائنَ وأمْوال، وضِعفَها، ليَفتَدوا بها ويَفُكُّوا عنْ أنفُسِهِمْ عَذابَ الله، لفعَلوا ذلك، لِما يُحيطُ بهمْ مِنْ أهْوالٍ وشَدائد، ويَغشاهُمْ مِنْ هَمٍّ وكَمَدٍ وكآبَة، ولكنْ لا فِداءَ ولا قَبولَ في هذا اليَوم، إنَّما هوَ الحِسابُ العَسيرُ معَ كُلِّ ما قالوهُ وفَعلوه، مِنْ كُفرٍ ومَعصيَةٍ واستِهزاء، ولا

يُغْفَرُ لهمْ مِنْ ذَنبِهِمْ شَــيء، ومَثواهُمْ جهنَّم، وسَــاءتْ مُســتَقرًّا ومَنزِلاً، نارٌ تُؤلِمُ وتُحرِق، ولا مُغيث.

{أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ} (الرعد: ١٩)

١٩- ولا يَســتَوي مَنْ يَعلمُ أنَّ الذي أُنزِلَ إليكَ مِنَ القُرآنِ هوَ الحقُّ والصِّــدقُ الذي لا اختِلافَ فيه، ومَنْ هوَ أعمَى القَلبِ يَتقلَّبُ في ظُلماتِ الجَهلِ والضَّــلال، ولا يَدري ما هوَ القُرآن، ولا يَعرِفُ قَدْرَه، ولا يَفهَمُ مَعناه، إنَّما يَعتَبِرُ ويَتَّعِظُ أهلُ العُقولِ الصَّــحِيحَة، والفِطَرِ السَّليمة.

{الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ} (الرعد: ٢٠)

٢٠- إنَّهُمُ المؤمِنون، الذينَ يَستَجيبونَ لأوامرِ الله، ويُوفُونَ بعَهدِهِ إذا عاهَدوا، وليسُوا كالمنافِقينَ الذينَ يَنقُضونَ المواثيقَ ويَغدِرونَ بالعُهود، سَواءٌ ما بينَهمْ وبينَ الله، وما بينَهمْ وبينَ العِباد.

{وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ} (الرعد: ٢١)

٢١- ومِنْ صِــفاتِ المؤمِنينَ الإحســانُ إلى أهليهِمْ وإخوانِهمْ وطِيبُ مُعاشَــرتِهم، فيَصِــلونَ أرحامَهمْ ولا يَقطَعونَها، ويُحسِــنونَ إلى أهلِ الحاجَة، ويَتكافَلونَ معَ إخوانِهمُ المسـلِمينَ في أنْواعِ البِرِّ والمعروف، ويَخافونَ وعيدَ اللهِ بحَقّ، فلا يَقرَبونَ ما نَهَى عنهُ وزجَر، ويَخافونَ عُسْرَ الحِسابِ يومَ المَعاد، ويَعرِفونَ مآلَ المخالِفِ والمرتاب.

{وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ} (الرعد: ٢٢)

٢٢- وهمُ الذينَ قَوِيَتْ عَزائمُهم، فصبَروا على التَّكاليفِ التي أُمِروا بها، وصبَروا عمّا نُهوا عنه، كما صبَروا على الجِهادِ والدَّعوة، وعلى البَلاء، وفي السرَّاءِ والضرَّاء، وهذَّبوا شَهواتِهمُ النفسيَّةَ

والبدنيَّةَ بتَوجيهاتِ الدِّينِ الحَنيف، ولم يَنتَقِموا لأنفسِهِمْ عنْ هوًى وعَصَبيَّة، بلْ صَبَّروا أنفُسَهمْ وتأدَّبوا بأدَبِ الإسْلام، طَلَبًا لرِضاءِ الله، وطَمَعًا في جَزيلِ ثوابِه.

وأقاموا الصَّلاة، فواظَبوا عليها وأدَّوها بأرْكانِها وشُروطِها وفي مَواقيتِها.

وأدَّوا زَكاةَ أموالِهم، وأنفقوا ممّا وهبَهمُ اللهُ مِنْ مالٍ للمُحتاجينَ فقضَوا حوائجَهم، وأسهَموا في أعمالِ الخَيرِ فتصَدَّقوا سِرًّا وجَهرًا، لا يَمنعُهمْ مِنْ ذلكَ شَيء.

ويُجازُونَ الإسَاءةَ بالإحسَان، ويَدفَعونَ الشرَّ ما استَطاعُوا، ويَدرَؤونَ الأذى والقَبيحَ مِنَ القَولِ والفِعلِ بخُلُقٍ جَميل، وكَلمَةٍ طيِّبة، وعَفو.

فأولئكَ المتَّصِفونَ بتِلكَ الصِّفاتِ الجَليلَة، لهمُ العاقِبَةُ الحسَنة، والمرجِعُ الطيِّبُ في الآخِرَة.

{جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ} (الرعد: ٢٣)

٢٣- لهمْ جَنَاتٌ مُخَصَّصَةٌ للإقامةِ والاستِقرارِ الدَّائم، يَهنَؤونَ فيها ويَسعَدون، يُجْمَعُ فيها بينَهمْ وبينَ الصَّالِحينَ مِنْ أهليهِم: آبائهم، وأمَّهاتِهم، وأزواجِهم، وأبنائهم، وأحفادِهم، لتَقِرَّ أعينُهم، ويَزدادَ فرَحُهم، والملائكةُ يَدخُلونَ عَليهمْ مِنْ أبوابِ قُصورِهم، يُهَنِّئونَهمْ بدُخولِ الجنَّة.

{سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} (الرعد: ٢٤)

٢٤- ويَقولونَ لهمْ وهُمْ يَطوفونَ بهمْ في لِقاءٍ حافِلٍ وتَكريمٍ جَميل: "سلامٌ عَليكم"، بِشارَةً لهمْ بدَوامِ السَّلامَةِ والأمَان، في دارِ السَّلام، بجِوارِ الصِّدِّيقينَ والأنبياءِ والرسُلِ الكِرام، جَزاءَ صبرِهِمْ على طَاعةِ ربِّهِم، فنِعمَتِ العاقِبةُ الحسَنةُ الجِنانُ العالية، والإقامَةُ الدائمةُ فيها.

{وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} (الرعد: ٢٥)

٢٥- أمّا الأشقياء، الذينَ يَنقُضونَ عَهدَ اللهِ بعدَما عَرَفوه، بما أكَّدَهُ عَليهِمْ رُسلُهم، أو عرَفوهُ بالأدِلَّةِ والحُجَجِ المقنِعَة، ولكنْ قابَلوها بالإعْراضِ والاستِكبار، ويَقطَعونَ ما أمرَ اللهُ بهِ أنْ يوصَل، ممّا بينَهمْ وبينَ ربِّهِمْ بالإيمان، وبينَهمْ وبينَ أهليهِمْ بصِلَةِ الأرْحام، وبينَهمْ وبينَ مُجتَمعِهِمْ

بالنُّصحِ والتَّعاونِ على الخَيرِ والإصْلاح، ويُفسِدونَ في الأرضِ بالكُفر، والظُّلم، ومُعاداةِ الدِّينِ الحقّ، وإثارةِ الفِتَنِ والحُروب، ونَشرِ الرَّذيلَةِ والخَلاعَة، وتَضليلِ النَّاسِ بهدَفِ مَصالِحَ شَخصيَّة، فأولئكَ مَذمُومُونَ مُبعَدونَ مِنْ رَحمَةِ الله، ولهمْ سُوءُ العاقِبةِ والمآل، ومأواهُمْ جَهنَّمُ وبئسَ القَرار.

{اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقَدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ} (الرعد: ٢٦)

٢٦- اللهُ سُبحانَهُ يوَسِّعُ الرِّزقَ على مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ في الحَياةِ الدُّنيا، ويُضَيِّقُ على مَنْ يَشاءُ منهم، وفَرِحَ المشركونَ بالحَياةِ الدُّنيا ومَتاعِها، وأشِروا وبَطِروا، وبَسْطُ الرزْقِ ليسَ تَكريمًا لهم، بلِ هوَ استِدراجٌ وإمْهَال، ثمَّ مُحاسَبةٌ وعِقاب، وما الحياةُ الدُّنيا بالنسبةِ إلى نَعيمِ الآخِرَةِ ودوامِها، إلاّ مُتعَةٌ قَليلَةٌ سَريعةُ النَّفاد، ولو أنَّهمْ طَلبوا الآخِرَةَ لما مُنِعوا المالَ والرِّزق.

{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ} (الرعد: ٢٧)

٢٧- ويَقولُ الكافِرونَ المتَعَنِّتونَ – مِنْ أهلِ مَكَّة – هلاّ أُنزِلَتْ على مُحَمَّدٍ (صلى الله عليهِ وسلَّم) مُعجِزَةٌ خارِقَةٌ مِنْ رَبِّه؟ وهمْ يَسألونَ أكثرَ مِنْ مُعجِزَة، تَعجيزًا ومُكابرَةً لا استِعدادًا للإيمان، وفي سُورةِ الإسْراءِ نَماذِجُ مِنْ مطالِبِهم، في قَولِهِ تعالَى: {وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً}.

واللهُ قادِرٌ على ذلكَ لا يُعجِزُهُ شَيء، وهوَ سُبحانَهُ إذا أجابَ طلبَهمْ ثمَّ كفَروا أهلكَهم. وليسَتِ الهِدايَةُ والضَّلالةُ متوَقِّفتَينِ على الآياتِ والمعجِزات، فلهما دَواعٍ في النُّفوس، وأسبابٌ تؤدِّي إليهِما. وهؤلاءِ المكابِرونَ مُكَذِّبونَ مُستَهزِئون، واللهُ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ ممَّنْ يَستأهِلونَ الضَّلال، كهؤلاءِ الكُفّارِ المعانِدين، ويَهدي إليهِ مَنْ تَقبَّلَ الحقَّ وأنابَ إلى الربِّ مِنَ المؤمنين، فهمْ أهلٌ للهِدايةِ والإيمان، لأنَّهمْ يتَّبِعونَ الحقَّ ولا يُكابِرون، ويَرجِعونَ إلى اللهِ وبهِ يَستَعينون.

{الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} (الرعد: ٢٨)

٢٨- همُ الذينَ ثبتَ الإيمانُ في قُلوبِهم، فتَطِيبُ وتَسكُنُ بذِكرِ اللهِ وكَلامِهِ المعجِز، وتَرضَى بهِ إلهاً رحيمًا ومولًى كريمًا، ألا بذِكرِ اللهِ وحدَهُ تَطمَئنُّ القُلوب، وتَرتاحُ النُّفوسُ المؤمِنة، دونَ غَيرِهِ مِنَ الأمُورِ الدُّنيَويَّة.

{الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ} (الرعد: ٢٩)

٢٩- همُ الذينَ آمَنوا باللهِ حَقَّ الإيمان، وأتْبَعوا إيمانَهمْ بالعمَلِ الصَّالِحِ الذي يُرضِي الرَّحمن، فبُشرَى لهم، أصابُوا خَيرًا، ومَآلاً حسَنًا، ومُقامًا هَنيئاً.

{كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ} (الرعد: ٣٠)

٣٠- وكما أرسَلنا رُسُلاً قَبلَكَ أيُّها النبيّ، كذلِكَ أرسَلناكَ في هذهِ الأمَّةِ - وقدْ مضَتْ مِنْ قَبلِها أُمَمٌ كثيرَة - لتَقرَأَ عَليهمُ القُرآنَ العَظيم، وتُبلِّغَهمْ رسالَةَ الله، وهمْ يَكفُرونَ باللهِ ذي الرَّحمةِ الواسِعة، والنعمَةِ السَّابِغة، الذي أرسَلكَ إليهمْ ليُنقَذوا بكَ منَ النَّار، ولكنَّهمْ قابَلوا رَحمتَهُ ونِعمتَهُ بالكُفرِ والتَّكذيب.

قُلْ لهمْ أيُّها الرسُولُ الكريم: إنَّ رَبِّيَ الرَّحمن، لا إلهَ غَيرُه، ولا مُستَحِقَّ للعِبادةِ سِواه، ومَهما كفَرتُمْ بهِ وكذَّبتُمْ بآلائهِ فلا مَحيْدَ عنْ هذهِ الحقيقَة، عَليهِ اعتَمدتُ، وإليهِ فوَّضتُ جَميعَ أمُوري، وإليهِ أرجِعُ وأُنيب.

{وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} (الرعد: ٣١)

٣١- ولو أنَّ كِتابًا زُعزِعَتْ وسُيِّرَتْ بهِ الجبالُ عنْ أماكنِها، أو شُقِّقَتْ بهِ الأرضُ فتَصَدَّعَت، أو كُلِّمَ بهِ الموتَى في قُبورِهِمْ فأحياهُمْ بقِراءَتِه، لكانَ هذا القُرآنُ هوَ المتَّصِفَ بذلكَ دونَ غَيرِه، لِما فيهِ منَ الإعجاز، وعَجائبِ آثارِ قُدرَةِ اللهِ وهَيبتِه. ولكنَّ اللهَ أرادَ لهُ أنْ يكونَ كتابَ هِدايَةٍ يُخاطِبُ الأحياءَ العُقَلاء.

وحَقًّا لقدْ صنعَ القُرآنُ أُمَّةً عَظيمة، ونَقلَ شُعوبًا مِنْ ظُلُماتِ الجَهلِ إلى نُورِ العِلمِ والإيمان، والعِزِّ والنَّصرِ والأمَان... ومازالَ كذلكَ لو جُعِلَ دُستورًا في الحياة.

ومَرجِعُ الأمورِ كُلِّها إلى اللهِ وحدَه، فهوَ الذي يَهدي مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِه ويُضِلُّ مَنْ يَشاء، ويَحكمُ بما يُريدُ في الكونِ كُلِّه، فهوَ المتصَرِّفُ فيه، ولا مُعَقِّبَ لحُكمِه.

ولو أرادَ اللهُ أنْ يَهديَ النَّاسَ جَميعًا لهَداهُمْ فكانوا كالملائكةِ الذينَ جُبِلوا على الطَّاعة، ولكنَّهُ سُبحانَهُ خَلقَ في الإنسَانِ عَقلاً وإرادَة، ووَهبَهُ الاختيارَ بعدَ أنْ أعطاهُ المقدِرَةَ على التَّمييزِ بينَ الخَيرِ والشـرّ. فهلْ ما يزالُ المؤمِنونَ يَطمَعونَ بإيمانِ النَّاسِ كُلِّهم؟ فَلْيَترُكوهمْ لأمرِ اللهِ إذاً، فهوَ أعلمُ بالكافِرينَ وبقُلوبِهِمُ المريضَة، وأعمالِهِمُ الخَبيثة، فليسَ هناكَ أبلَغُ ولا أعظمُ منَ القُرآنِ الذي بينَ أيديهم، فهوَ حُجَّةُ اللهِ بينَ خَلْقِه، فمَنْ ترَكَهُ ولم يَهتَدِ بهِ فأنَّى لهُ الهِداية؟

ولاتَزالُ المصائبُ والدَّواهي وأنواعُ البَلاءِ تَنزِلُ بالكافِرين، منَ القَتلِ والأسْرِ والسَّلبِ والقَحْط، لتَماديهِمْ في الكُفرِ واستِكبارِهِمْ عنِ اتِّباعِ الدِّينِ الحقّ، عسَى أنْ يَتنَبَّهوا بذلكَ ويَرتَدِعوا. أو تَنزِلُ المصائبُ بمَنْ حولَهُمْ فتُرَوِّعُهمْ وتُزَلزِلُ قُلوبَهم، ليَتَّعِظوا ويَعتَبِروا، حتَّى يأتيَ وعدُ اللهِ الذي أمهَلَهمْ إلى حينِه، فيَموتوا، أو يَقومُوا للحِساب. واللهُ لا يُخلِفُ وَعدًا، بلْ هوَ أوفَى مَنْ وفَّى بوَعَدٍ وعَهد، وهوَ آتيهِمْ لا رَيبَ فيه، فليَختاروا ما شَاؤوا، فإنَّهُمْ مُحاسَبونَ على اختِيارِهم، وعلى أعمالِهِم.

{وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ}
(الرعد: ٣٢)

٣٢- وقدِ استَهزَأَ أقوامٌ سابِقونَ برسُلِهِمْ وكذَّبوا برِسالاتِهم، فلستَ وحدَكَ المكَذَّبَ بذلك، وقدْ أمهَلتُهمْ مُدَّةً منَ الزَّمان، لئلاّ تَبقَى لهمْ حُجَّةٌ عندَ اللهِ يومَ القيامَةِ ويَقولوا: هلاّ أعطَيتَنا

فُرصَـــةً أطولَ لنفَكِّرَ ونُقارِنَ؟ ثمَّ أخَذتُهمْ بالعُقوبة، فكيفَ كانتْ عُقوبَتي لهم؟ كانتْ شَـــديدَةً مُؤلِمَة {إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [سورة هود: ١٠٢] فليَحذَرِ المشرِكونَ منْ قَومِك، وليَعتَبِروا.

{أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} (الرعد: ٣٣)

٣٣- أفمَنْ كانَ رَقيبًا على كُلِّ نَفس، ومُهَيمِنًا عَليها في كُلِّ حَال، عالِمًا بما فعَلتْ مِنْ خَيرٍ وشَرّ، في السِّرِّ والعَلَن، وهوَ اللهُ سُبحانَه، كمَنْ ليسَ بهذهِ الصِّفَة، مِنَ الأصْنامِ التي يَعبدُها المشرِكون، وهيَ لا تُحَرِّكُ ساكِنًا، ولا تنفَعُ نَفسَها ولا عابدِيها، ومعَ ذلكَ فهمْ يَعبدُونَها ويُحِبُّونَها ويُقَدِّمونَ لها الذَّبائحَ والنُّذور؟!

قُلْ لهمْ أيُّها النبيّ: سَمُّوا أصنامَكمْ بما شِئتُم، مِنْ آلهَةٍ أو غَيرِها، فإنَّها ليسَتْ في حقيقَتِها سِوَى أحجارٍ لا تَضُرُّ ولا تَنفَعُ أحدًا، أمْ أنَّكمْ أيُّها المشرِكونَ تُريدونَ أنْ تُخبِروا اللهَ بوجُودِ شُركاءَ لهُ في الأرضِ وهوَ لا يَعلم؟ أمْ أنَّكمْ تُسَمُّونَهُمْ شُركاءَ في ألفاظٍ ظاهِرةٍ جَوفاءَ لا مَعنَى لها حَقيقَة؟ بلْ ســوَّلَتْ لهمْ نُفوسُــهمْ تَزيينَ هذا الشِّــرك، وحبَّبَتْ إليهمْ تَمويهَ هذهِ الأباطيلِ حتَّى ظَنُّوها حَقيقَة، فوصَلوا إلى دَرجَةِ عِبادَتِها، والدِّفاعِ عَنها، وامتَنعوا عنِ اتِّباعِ الطَّريقِ الحقّ، لتَمادِيهمْ في الضَّلال، وإغواءِ الشَّيطانِ لهم، حتَّى خُتِمَ على قُلوبِهم، فلا يَرونَ شَيئاً إلاّ الكُفر؟! ومَنْ أضَلَّهُ اللهُ لنُفورِهِ مِنَ الحقّ، فلا هاديَ لهُ إليه، ولا قائدَ لهُ إلى النُّور.

{لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِن وَاقٍ} (الرعد: ٣٤)

٣٤- للكافِرينَ عَذابٌ مؤلِمٌ في الحَياةِ الدُّنيا، عندما يَنتَصِــرُ عَليهمُ المســلِمونَ فيَقتُلونَهمْ ويأسِرونَهم، ويَغنَمونَ أموالَهم، ولهمْ في الآخِرَةِ عذابٌ أشَدُّ وأبقَى، عندَما يَدخُلونَ جَهنَّمَ فتُسْعَرُ بهمُ النَّار، وليسَ هناكَ مانِعٌ وحاجِزٌ يَقيهمُ العَذاب، ولا يَشفَعُ لهمْ عِندَهُ أحَد.

{مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ} (الرعد: ٣٥)

٣٥- أمّا المؤمِنونَ المتَّقون، فقدْ وُعِدوا مِنَ اللهِ بجنَّةٍ تَجري الأنهارُ مِنْ تحتِ قُصــــورِهِمْ وغُرَفِهِمُ الجَميلَةِ العَالية، في مَناظِرَ وأوصــافٍ لم يُرَ مِثلُها شَــكلاً وجَمالاً في الدُّنيا، تَسـرُّ العَين، وتُبهِجُ النَّفس، معَ فواكِهَ وأطعِمةٍ وأشرِبةٍ لذيذَةٍ لا نفادَ لها، وظِلالٍ مَمدودَةٍ لا تَنقَطِع، كثيرةِ البَسـاتينِ وأنواعِ الأشْـــجارِ والثِّمار، وتلكَ هيَ نهايَةُ المؤمِنينَ الذينَ صـــبَروا على دينِهم وطاعَةِ ربِّهم. والكافِرونَ مَآلُهُمُ النار، وبئسَ المصير.

{وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَــهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ} (الرعد: ٣٦)

٣٦- ومُؤمِنو أهلِ الكتابِ منَ اليَهودِ والنَّصـــارَى يُسَـــرُّونَ بالوَحي المنْزَلِ إليكَ منَ الله، لِما يَرَونَ منَ المطابقَةِ بينَ القُرآنِ وما بَشَّـــرَتْ بهِ التوراةُ والإنجيل، مِنْ أنَّهُ الكتابُ الحقّ. وأنكرَتْ طَوائفُ منهمْ بعضَ القُرآن، ومِنْ ذلكَ التَّشـــريعاتُ الجَديدَةُ التي لم تَكنْ عِندَهم. وكذلكَ المشرِكونَ المتَحَزِّبونَ على رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بالعَداوة، كانوا يُنكِرونَ منهُ ما يُخالِفُ تَقاليدَهمْ وما وَرِثوهُ عنْ آبائهم.

قُلْ لهمْ أيُّها الرسُـول: إنَّما بُعِثتُ بالوَحدانيَّة، فأُمِرتُ بعِبادةِ اللهِ وحدَه، وعَدَمِ الإشـراكِ به، كما أُرسِـــلَ بهِ الأنبياءُ السَّـــابِقون، لا كما أنتُمْ عَليه. وإلى نَهجِ التوحيدِ أدعو النَّاسَ كافَّة، وإلى اللهِ وحدَهُ مَرجِعي ومَصيري للجَزاء.

{وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ} (الرعد: ٣٧)

٣٧- وكما أنزَلنا كتُبًا على أنبياءَ سابِقين، كذلكَ أنزَلنا عليكَ القُرآنَ المحْكَمَ أيُّها النبيّ، يَحكمُ بالحَقِّ والعَدل، بلِسانٍ عربيٍّ فصيحٍ واضِح.

وإذا اتَّبعتَ أهواءَ الكافِرينَ الزائغَة، وأضـــاليلَهمُ الزائفَة، بعدَما جاءَكَ العِلمُ اليَقين، والحقُّ المبِينُ مِنَ الله، فلنْ يَكونَ لكَ ناصِرٌ منَ اللهِ ولا حافِظٌ منهُ يَقِيكَ مَصارِعَ السُّوء.

وحاشَا رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم منَ الانحِراف، ولكنَّهُ قَطْعٌ لأطْماعِ الكافِرينَ منَ التنازُلِ لهمْ عنْ شَـيءٍ يَخصُّ الحقَّ والتَّوحيد، وتَحذيرٌ للمؤمنينَ ممّا حُذِّرَ منهُ رسُـولُ اللهِ صـلى الله عليه وسلم مِنْ قِبَلِ رَبِّه، ووَعيدٌ لأهلِ العِلمِ منِ اتِّباعِ أهلِ الضَّلالة.

{وَلَقَدْ أَرْسَـلْنَا رُسُـلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُـولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} (الرعد: ٣٨)

٣٨- وقدْ أرسَـــلنا قَبلكَ رسُـــلاً منَ البشَـــرِ أيضًـــا، وكانوا مِثلكَ لهمْ أزواجٌ وأوْلاد، فلمَاذا الاعتِراضُ على بَشَريَّتِك؟ لماذا يُريدونَ رسُولاً منَ الملائكةِ وقدْ كانتِ الرسُلُ مِنْ قَبلُ كلُّهمْ منَ البَشَر، ولم يبعَثِ اللهُ مَلَكًا واحِدًا بالرِّسَالة؟

أمّا مُعجِزاتُهم، فلم تَكنْ بأمرِهمْ ولا منْ صُـنعِهم، إنَّما يأتي بها اللهُ متَى شَـاء، وُفقَ ما تَقتَضـيهِ حِكمَتُهُ ومَشيئَتُه.

والكتُبُ المنْزَلَةُ مِنْ عندِ اللهِ تَختَلِفُ أحكامُها، لأنَّها شُـرِعتْ حسَـبَ أحوالِ الناسِ وأزمانِهم، وقدْ نزَلتْ في أوقاتٍ مُتفاوِتة، ولكُلِّ وقتٍ كتابٌ يُناسِبُه، وما يُناسِبُ النَّاسَ في هذا الزَّمانِ إلى أنْ يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عَليها هوَ القُرآنُ وحدَه.

{يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} (الرعد: ٣٩)

٣٩- واللهُ سُبحانَهُ يَنسَخُ ما يَشاءُ منَ الأحكامِ لِما تَقتَضيهِ الحِكمةُ مِنْ أحْوالِ النَّاسِ وتَطوُّرِ أمُورِهِمْ وانتِقالِهِمْ منْ حالٍ إلى حال، ويُبقي ما هوَ نافِعٌ لهمْ على حالِه. وعندَهُ أصـلُ الكتاب - وهوَ اللَّوحُ المحفوظُ - الذي كتَبَ فيهِ مقاديرَ الأشـياءِ كُلِّها، لا يُبَدَّلُ ولا يُغيَّرُ ممَّا هوَ فيهِ شَيء. وهوَ سُبحانَهُ الحَكيمُ العَليم، يَقضي ويُقَدِّرُ ما يَشاء، لا اعتِراضَ على حُكمِهِ ولا على مَشيئَتِه.

{وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَـابُ} (الرعد: ٤٠)

٤٠- وإمّا أنْ نُريَكَ - أيُّها الرسُـــولُ - بعضَ ما وعَدناهُمْ بهِ منَ العَذابِ والخِزي، أو أنْ نتوفَّاكَ قبلَ أنْ يُصِـيبَهمْ ذلك. وإنَّما أنتَ رسُـولٌ مُبَلِّغ، تُعلِمُهمْ رسـالةَ اللهِ وتُنذِرُهمْ عذابَه، أمَّا حِسابُهُمْ وجَزاؤهمْ فعندَ الله.

{أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُـــهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَـــرِيعُ الْحِسَابِ} (الرعد: ٤١)

٤١- ألا يرَى هؤلاءِ المشَـكِّكونَ المتَعَنِّتونَ أنَّنا نَنقُصُ أراضيَ الكافِرينَ مِنْ أطرافِها شَيئاً فشَيئاً ونُلحِقُها بدارِ الإســـلام؟ والأمرُ في ذلكَ للهِ وحدَه، يَحكمُ بما يَشـــاء، وقدْ حَكَمَ للإسْـــلامِ بالنَّصـــر، وللكُفرِ بالهَزيمَةِ والخِذلان، ولا مُراجعَةَ في حُكمِهِ ولا اعتِراضَ عَليه. واللهُ سَـــريعُ الحِسابِ والمجازاة، لا يَدفَعُهُ دافِع.

{وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ} (الرعد: ٤٢)

٤٢- وقدْ حَاولَ الكافِرونَ قَبلَ هؤلاءِ أنْ يُلحِقوا الأذَى بالأنبياء، ويَقضُـوا عَليهِمْ بأنْواعِ المكرِ والحِيَل، ولكنَّ مَكرَهُمْ وإرادَتَهُمْ بيدِ الله، فرَدَّ كَيدَهم، ونسَـــفَ قوَّتَهم، وجَعلَ العاقِبةَ لعِبادِهِ المؤمِنين. واللهُ سُـــبحانَهُ يَعلَمُ ما يأتونَ وما يَترُكون، وما يُعلِنونَ وما يُسِـــرُّون، ويَعلَمُ كيفَ يأخذُهمْ وهمْ غافِلون، وعِندَما يَنزِلُ بهمُ العَذاب، يعَلَمونَ حينَئذٍ لمنِ هيَ العاقِبةُ الحسَنة.

{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْـتَ مُرْسَـلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَـهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} (الرعد: ٤٣)

٤٣- ويَقولُ الكافِرونَ مِنَ اليَهودِ والمشـرِكين: لسـتَ رسُـولاً مِنْ قِبَلِ الله. قُلْ لهم: حسْـبي أنْ يَكونَ اللهُ تعالَى شَـاهِدًا عليَّ وعَليكم، فيَشـهَدَ لي بتَبليغِ الرِّسَـالة، وعَليكمْ بالكُفرِ والتَّكذيب، ويَشـهدَ بهذا أيضًـا أهلُ الصِّـدقِ والإيمانِ مِنْ أهلِ الكِتاب، لِما يَجِدونَهُ عندَهمْ منَ المبَشِّـراتِ ومُطابقَةِ الصِّفاتِ على الرِّسَالةِ والرَّسُول.

وتُفيدُ الأخبارُ أنَّ المقصـودَ بالشَّـاهدِ مِنْ بَني إسْـرائيلَ الصَّـحابيُّ عبدُاللهِ بنُ سـلاّم، رضـيَ اللهُ تعالَى عنه.

سـورة إبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِـرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} (إبراهيم: ١)

١- الحروفُ المقطَّعةُ لم يَرِدْ في تَفسيرِها حَديثٌ ثابِتٌ صَحيح.

هـذا كِتـابٌ أنزَلنـاهُ إليـكَ أيُّهـا النبيُّ - وليسَ هوَ مِنْ عنـدك - لتُخرِجَ بهِ النَّاسَ مِنْ ظُلُماتِ الضَّلالِ إلى نُورِ الإيمان، منَ العَقائدِ الباطِلةِ إلى عِبادَةِ اللهِ وحدَه، ومِنَ التبَعيَّةِ والتَّقليدِ الأعمَى إلى التفكُّرِ والتدبُّرِ واتِّباعِ الحقّ، بأمرِ ربِّهِمْ وتَيسـيرِهِ وتَوفيقِه، العَزيزِ الذي لا يُقْهَرُ، المحمودِ فيما يَقولُ ويَفعَل،

{اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّـــمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَـــدِيدٍ} (إبراهيم: ٢)

٢- اللهِ الذي لهُ مُلكُ السَّـــماواتِ والأرضِ وما فيهنَّ، المهيمِنِ عَليهنَّ بقوَّتِهِ وجبَروتِه. ووَيلٌ للكافِرينَ إذا لم يَتَّبِعوا الدِّينَ الحقَّ مِنْ عَذابٍ أليمٍ يومَ القِيامة.

{الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ} (إبراهيم: ٣)

٣- الذينَ يُفضِّـــلونَ الحَياةَ الدُّنيا، ويَركَنونَ إلى لَذّاتِها وشَـــهواتِها، ولا يتفَكَّرونَ في الآخِرةِ وجَزائها، ويَمنعونَ النَّاسَ منِ اتِّباعِ الرسُـــل، ويُريدونَ لدِينِ اللهِ طَريقًا مُلتَويًا يُناسِـــبُ أهواءَهمُ الزائغَة، وأفكارَهمُ المنحَرِفَة، أولئكَ في جَهلٍ وضَلال، بَعيدونَ عنْ الحقِّ والصَّواب.

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (إبراهيم: ٤)

٤- وما أرسَلنا رَسُولاً في الأمَمِ السابقَةِ إلاّ بلُغَةِ القَومِ الذينَ أُرسِلَ إليهم، ليَفهَموا منهُ ما يَدعوهُمْ إليهِ بسُهولَة.
ورِسالَةُ الإسْلامِ العامَّةُ تُتَرجَمُ وتُبَلَّغُ للنَّاسِ كافَّة، كما حصَلَ ويَحصُل.
ومَنِ انتَهتْ إلَيهِ هذهِ الدعوَةُ فسَلكَ سَبيلَ الضَّلالة، واستَكبَرَ عنْ قَبولِ الحقّ، أضلَّهُ الله، ومَنْ سَلكَ مَسالِكَ الهُدَى وكانَ مُستَعِدًّا لقَبولِ الحقّ، هَداهُ اللهُ ويسَّرَ لهُ ذلك. وهوَ العَزيزُ الذي يُصرِّفُ الأمورَ بمَشيئتِه، لا يُغالَبُ في ذلك، الحَكيمُ الذي يُدَبِّرُ الأمُورَ بحِكمة، فلا يُراجَعُ ولا يُعَقَّبُ عَليه.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} (إبراهيم: ٥)
٥-وقدْ أرسَلنا موسَى إلى قَومِهِ مُؤيَّدًا بآياتٍ عَظيمَةٍ ومُعجِزاتٍ كَبيرَة، أنْ أخرِجْهُمْ مِنَ الكُفرِ والضَّلالِ إلى الحقِّ والإيمان، بالدَّعوَةِ والبَيان، والدَّليلِ والبُرهان، وعِظْهُمْ وذَكِّرْهُمْ بنِعَمِ الله، وبما حدَثَ للسَّابقينَ منَ النِّعَمِ والمِحَن. وفي هذا التَّذكيرِ عِظَةٌ لمنْ وقفَ عَليها واعتبَرَ منها، فيتَّعِظُ الصَّابِرُ لِما أصابَهُ مِنْ بَلاءٍ ونِقمَة، ويتَّعِظُ الشَّاكِرُ لِما هوَ في نِعمَةٍ وعافِية.

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ} (إبراهيم: ٦)
٦- وقالَ موسَى لقَومِهِ بَني إسْرائيل: اذكروا نِعمَةَ اللهِ الكبيرةَ عَليكمْ عندَما أنقَذَكمْ منْ ظُلمِ فِرعَونَ وآلِه، الذينَ كانوا يُذيقونَكمْ أقسَى أنواعِ العَذابِ وآلمَه، ويَذبَحونَ كُلَّ ذَكَرٍ يُولَدُ فيكم، ويُبقونَ على بَناتِكم؛ خَوفًا مِنْ أنْ يَكونَ زوالُ مُلكِهِ على يدَي رَجُلٍ منكم. وفيما ذُكِرَ من أفعَالِهِم الفَظيعةِ محنةٌ عَظيمَة، وإقدارُ الله إيّاهم وإمهالُهم حتى فعَلوا ما فعَلوا ابتلاءٌ منهُ سُبحانه؛ جزاءَ نبذِ بَني إسرائيلَ دينَهم الحقّ، الذي أوصَى به إبراهيمُ بَنيهِ ويعقوبُ عليهمُ السَّلام، واتِّباعِهِم دينَ القِبط.

{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} (إبراهيم: ٧)
٧- واذكُروا إذْ أعلَمَكمْ ربُّكمْ أنَّكمْ إذا شَكرتُمْ نِعَمَهُ التي أسبغَها عَليكم، وقابَلتُموها بالإيمانِ والطَّاعة، لَأُثبِتَنَّها لكم، ولأزِيدَنَّكمْ منها. وإذا جَحَدْتُمْ نِعمَتي ولم تَشكرُوها، فإنَّ العَذابَ المعَدَّ للعَاصِينَ شَديد، وهوَ إمّا بسَلبِ النِّعمَةِ مِنكم، أو بمَحقِ بركَتِها، أو بمُعاقَبتِكم، في الأُولَى أو في العُقبَى.

{وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ} (إبراهيم: ٨)
٨- وقالَ موسَى عَليهِ السَّلامُ لقَومِه: اللهُ غَنِيٌّ عنْ شُكرِكمْ وطاعَتِكمْ كُلِّها، وإذا كفَرتُمْ نِعَمَه، أنتُمْ ومَنْ في الأرْضِ منَ النَّاس، فإنَّهُ غَنِيٌّ بذاتِه، لهُ مُلْكُ السَّماواتِ والأرضِ وما فيهما، لا يَضُرُّهُ جَحْدُ مَنْ كفَر، ولا يَنقُصُ مِنْ مُلكهِ ولا يَزيدُ منها إيمانُ أحَدٍ أو كُفرُهم، وهوَ حَميدٌ مُستَوجِبٌ للحَمدِ بذاتِه، لنِعَمِهِ العَظيمَةِ المتتاليةِ على خَلقِه. وثَوابُ الحَمدِ والشُّكرِ يَعودُ عَليكم، فيَزيدُكمْ مِنْ فَضلِه، ويُصلِحُ بهِ حالَكم، ويَستَقيمُ بهِ أمرُكم، ولكمْ عَليهِ أجرٌ في اليَومِ الآخِر.

{أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} (إبراهيم: ٩)
٩- ألمْ تَسمَعوا خَبَرَ الذينَ مِنْ قَبلِكمْ وما جرَى لهمْ معَ أنبيائهم، مِنْ قَومِ نُوح، وعَاد، وثَمود، وكثيرينَ مِنْ بعدِهم، لا يَعلَمُ عدَدَهمْ وما حصلَ لهمْ إلاّ الله، جاءَتهمْ رسُلُهمْ بالأدلَّةِ القاطِعات، والمعجِزاتِ الواضِحات، فرَدُّوا تَبليغَهمْ ومَواعِظَهمْ في أفواهِهم، فكذَّبوها ولم يَقبَلوها منهم، وقالوا غَيرَ مُبالِين: لقدْ كفَرنا بما جِئتُمْ به، ونَشُكُّ شَكًّا قَويّاً في هذا الذي تَدعوننا إليهِ مِنَ الإيمان، ولا سَبيلَ إلى التَّصديقِ به.

{قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} (إبراهيم: ١٠)

١٠- قالتْ لهمْ رسُلهمْ مُنكِرينَ عليهمْ كُفرَهمُ وردَّهمُ السيّء: أتَشُكُّونَ في وُجودِ اللهِ ووَحدانيَّتِه، وهوَ الذي خلقَ السَّماواتِ والأرضَ وما فيها مِنْ أحياءٍ ونَباتٍ وجَماد، والفِطَرُ السليمةُ تَنطِقُ بذلك، والدَّليلُ يَشهَدُ عَليه؟ وهوَ سُبحانَهُ يَدعوكُمْ إلى دِينهِ ليَغفِرَ لكمْ ذُنوبَكم، ويَلطُفَ بكمْ فلا يأخُذَكمْ بالعَذابِ فورَ تَكذيبِكمْ وعِصيانِكم، بلْ يؤَخِّرُكمْ إلى أجَلٍ حدَّدَهُ لكم، لتُراجِعوا أنفُسَكم، وتُعيدوا التَّفكيرَ في مَوقفِكم، وتَتوبوا.

وعادَ هؤلاءِ الكافِرونَ يَقولونَ لرسُلِهمْ غَيرَ مُبالِين: ما أنتُمْ سِوَى بشَرٍ مثلِنا، كأيِّ واحِدٍ مِنْ بَني آدَم، ولا فَضلَ لكمْ عَلينا بشَيء، وإنَّما تُريدونَ بدَعوَتِكمْ إلى التَّوحيدِ أنْ تَصرِفونا وتَمنَعونا مِنِ اتِّباعِ الدِّينِ الذي كانَ عَليهِ آباؤنا مِنْ غَيرِ دَاعٍ لتَركِه، فأتُونا بمُعجِزَةٍ ودَليلٍ خارقٍ على صحَّةِ دَعواكمْ.

{قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَعلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} (إبراهيم: ١١)

١١- قالتْ لهمْ رسُلهم: حقًّا إنَّنا بشَرٌ مِثلُكمْ في الصِّفاتِ الآدَميَّة، ولكنَّ اللهَ يَتفضَّلُ على عِبادٍ لهُ ويميِّزُهمْ بنِعَمٍ غَيرِ مَوجودَةٍ عندَ آخَرين، وقدْ فضَّلنا عَليكمْ بأنْ أوحَى إلينَا بالنبوَّةِ وأمرَنا بتَبليغِ رسالتِهِ إليكم، ولا مَقدِرةَ لنا على الإتيانِ بالمعجِزاتِ والخَوارِقِ التي تَطلبونَها إلاّ بأمرِ اللهِ ومَشيئتِه، فهوَ وحدَهُ الذي يَخلقُها ويُقَدِّرُها. وعلى اللهِ وحدَهُ فليَعتَمِدِ المؤمِنونَ إذا أرَادوا التوكُّلَ عَليه، فهوَ الذي يَحفظُهمْ مِنْ كَيدِ الأعداء، وشَرِّ الأشْرار.

{وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} (إبراهيم: ١٢)

١٢- قالتِ الرسُلُ عليهمُ السَّلام: وكيفَ لا نَتوكَّلُ على اللهِ رَبِّنا وقدْ هَدانا لدينِه، وبيَّنَهُ لنا بالحُجَّةِ والدَّليل، ويسَّرَ لنا الطَّريقَ إليه، فنحنُ على هُدًى ونُورٍ منه، وسَوفَ نَصبِرُ على

أذِيَّتِكمْ وعِنادِكمْ وتَكذيبِكم، ولا نَضــعُفُ ولا نَتراجَعُ عنِ الحقِّ الذي نحنُ عَليه، وعلى اللهِ وحدَهُ فليَعتَمِدِ المتوكِّلون، منَ المرسَلينَ والمؤمِنين، وعلى ذلكَ فليَثبتُوا.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّـكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ} (إبراهيم: ١٣)

١٣ – وقالَ الكافِرونَ لرسُـلِهِمْ تَهديدًا وتَرْهيبًا: سـنُخرِجُكمْ مِنْ ديارِنا، ومِنْ بينِ أظهُرِنا، أنتُمْ ومَنْ تَبِعَكم، أو لتَصــيرُنَّ في مِلَّةِ الكُفرِ التي نَدينُ بها. فأوحَى اللهُ تعالَى إلى رسُــلِه، ردًّا عَليهمْ وتَخييبًا لآمالِهم، وقَطعًا لمِجادلَتِهم: ســنُهلِكُ الكفرَةَ الظَّالمين، لتَماديهِمْ في البَغيِ والظُّلم، وإصرارِهِمْ على الكفرِ والتَّكذيب.

{وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ} (إبراهيم: ١٤)

١٤– ولَنُســكِنَنَّكمْ أرضَــهمْ ودِيارَهمْ بعدَ إهلاكِهم. وهذا النصــرُ لمنْ آمنَ وخافَ مَقامَ ربِّهِ والوُقوفَ بينَ يَديهِ يومَ الحِساب، وخَشِيَ وعِيدَهُ بالعَذاب.

{وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} (إبراهيم: ١٥)

١٥– وطلَبَ الرسُلُ النَّصرَ والفَتحَ منَ الله، فنصرَهم، وخابَ وخَسِرَ كُلُّ جَبّارٍ مُتكبِّر، مُعانِدٍ للحَقّ، مُجانِبٍ له.

{مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاء صَدِيدٍ} (إبراهيم: ١٦)

١٦– وأمامَ هذا الكافِرِ المتَكبِّرِ ومِنْ بينِ يَدَيهِ نارُ جَهنَّمَ بالمِرْصاد، تَنتَظِرُهُ ليُلقَى فيها ويُعَذَّب، ويُسقَى مِنْ ماءٍ لا عَهدَ لهُ به، وهوَ عُصـارَةُ ما يَسيلُ مِنْ جُلودِ أهلِ النَّار، مِنْ دَمٍ وقَيحٍ وما إليه.

{يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِــيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ} (إبراهيم: ١٧)

١٧- يُقبِلُ على هذا الماءِ القَذِرِ البَغيضِ لِظَمَئهِ الشَّـــديد، مِنْ لَفحِ النَّارِ والعَذابِ والحرارَةِ الشَّـديدة، ولكنَّهُ عندَما يَقعُ في فَمِهِ يَتَغَصَّـصُـهُ ويَشـرَبُهُ كَرْهًا، وهوَ لا يُحبِّذُهُ ولا يُريدُ ابتِلاعَهُ، لِخُبْثِ طَعْمِهِ ونَتْنِ ريحِهِ وحَرارَته. وتأتيهِ أسـبابُ الموتِ وعلاماتُهُ مِنْ كُلِّ مَوضِـع، مِنْ شِـدَّةِ العَذابِ والألَمِ والجُوعِ والعَطَش، ولكنْ لا مَوتَ ولا حَياة. والذي يَنتَظِرُهُ فيما يَسـتَقبِلُهُ عَذابٌ أشَـقُّ وأصـعَبُ ممّا سـبَق، ولا مَفرَّ لهُ مِنْ ذلكَ ولا مَهرَب، بلْ خُلودٌ في العَذابِ الأليمِ إلى الأبَد.

{مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْـتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِـفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ} (إبراهيم: ١٨)

١٨- مِثالُ أعْمالِ الذينَ كفَروا برَبِّهِمْ يومَ القِيامَة - عندَما يَطلُبونَ ثَوابَها - كرَمادٍ تَحمِلُهُ الرِّياحُ وتُسرِعُ بهِ في يَومٍ تَشتَدُّ فيهِ العَاصِفَة، فتُثيرُهُ وتَبعثِرُه، حتَّى لا يُقدَرُ على الإمساكِ به. وكذلكَ الكافِرون، الذينَ لا يَرونَ أثرًا منْ ثوابٍ أو تَخفيفًا مِنْ عَذابٍ يومَ القيامَةِ لِما قَدَّموهُ مِنْ أعْمالٍ في الحياةِ الدُّنيا، لأنَّها لم تَكنْ قائمةً على قاعِدةِ الإيمان، بلْ ما كانوا همْ يَرجونَ ثَوابَها، لأنَّهمْ ما كانوا مُؤمِنينَ بيَومِ المِعاد، وحِسابِ الأعمال، وذلكَ هوَ الضَّلالُ البَعيدُ عنِ الحقّ، فلا خَيرَ فيها، ولا ثَوابَ عَليها.

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ خَلَقَ السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحقِّ إِن يَشَـــأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ} (إبراهيم: ١٩)

١٩- ألا تَنظُرُ وتُفَكِّرُ في السَّـــماواتِ والأرضِ وما فيهما، وكيفَ أنَّ اللهَ خلقَهما وأبدَعَهما بالحقّ، ولم يَخلُقْهُما باطِلاً ولَعِباً، بلْ لأمرٍ عَظيم، وحِكمَةٍ كبيرَة. وهذا الخالِقُ العَظيمُ قادِرٌ على أنْ يُهلِكَكمْ أيُّها الكافِرونَ المعانِدون، ويَسـتَخلِفَ جِنسًـا آخَر، أو قَومًا آخَرينَ مِنْ غَيرِكمْ في الأرض، يَكونونَ أطوعَ للهِ منكمْ، وأكثرَ استِجابَةً لأوامرِه.

{وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللّهِ بِعَزِيزٍ} (إبراهيم: ٢٠)

٢٠- وليسَ ذلكَ صَعبًا على الله، ولا هوَ بمُتَعَذّرٍ عَليهِ ولا مُمتَنِع، وقدْ أهلكَ مِنْ قَبلِكمْ أقوامًا وأتَى بآخَرين، فاعتَبِروا وأطيعُوا، فهوَ خَيرٌ لكم.

{وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ} (إبراهيم: ٢١)

٢١- وبعثَ اللهُ الخلائقَ مِنْ قُبورِهم، واجتَمَعوا جَميعًا في صَعيدٍ واحِد، وبرَزوا للهِ في مَكانٍ لا يُسْتَرُ فيهِ أحَد، فقالَ ضِعافُ الرَّأي منَ الأتْباعِ الذينَ أذَلُّوا أنفُسَهم، لقادَتِهمْ وكُبَرائهم، الذينَ كانوا يَخطِبونَ فيهم، ويَجتَمِعونَ بهم، ويُضِلُّونَهمْ بأفكارِهمْ ونظَريَّاتِهم: لقدْ كُنّا تابعينَ لكم، نُصَدِّقُكمْ فيما تَقولون، ونُكَذِّبُ ما تُكَذِّبون، فهلْ تنفَعونَنا في هذا الموقِف، وتَدفَعونَ عَنّا بعضًا منَ العَذابِ الذي جُوزينا به؟

فقالَ القادَةُ المستَكبِرون: لو سَلكنا طريقَ الهُدَى لهَدانا اللهُ ولدَعَوناكمْ إليه، ولكنّا اختَرنا طريقَ الضَّلالِ فأضَلَّنا الله - واللهُ لا يأمرُ بالضَّلالِ - فدعَوناكمْ إليه. ولا فائدَةَ منَ الشَّكوَى الآن، فسَواءٌ عَلينا إنْ خِفنا وقَلِقنا، أمْ ثَبَتْنا وصَبَرنا، فإنَّهُ لا يُجدي شَيئاً، فلا مَهرَبَ مِنْ عَذابِ الله، ولا نَجاةَ لنا مِنْ غَضَبِه.

{وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (إبراهيم: ٢٢)

٢٢- وبعدَ أنْ قضَى اللهُ بينَ عِبادِه، وعرَفَ كُلٌّ مَصيرَه، ودخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهلُ النَّارِ النَّارَ، قالَ الشَّيطانُ للأشقِياء، وهوَ الذي أضلَّ كِلا فَريقَي المستَكبِرينَ وأتْباعِهم: إنَّ اللهَ وعدَكمْ وَعدًا حقًّا على ألسِنَةِ رسُلِه، وهوَ البَعثُ والحِساب، ووَعدتُكمْ وَعدًا باطِلاً، وهوَ أنْ لا بَعثَ ولا حِساب، فأضلَلتُكمْ وأخلَفتُكم، ولم يَكنْ لي فيما دعَوتُكمْ إليهِ قوَّةٌ أُجبِرُكمْ عَليه، ولا دَليلٌ على صِدقِهِ وصِحَّتِه، سِوَى كلامٍ بَثَثتُهُ بينَكمْ وزَيَّنتُهُ في قُلوبِكم، فأسرَعتُمْ إلى إجابتِي

وأطَعتُموني، فلا تُعاتِبوني اليومَ فيما أضلَلتُكم بِهِ سَابِقًا، بلْ عاتِبوا أنفُسَكمْ حيثُ اتَّبَعتُمْ هواكُمْ وأطعتُموني، وأغمَضـتُمْ عيونَكمْ وصـرَفتُم قُلوبَكمْ عنِ الحَقيقَةِ والأدِلَّةِ المؤدّيَةِ إليها، فما أنا بنافعِكمُ اليومَ شَـيئاً، وما أنا بمُغيثِكمْ ومُخَلِّصِـكمْ مِنَ العَذاب، ولا أنتُمْ قادِرونَ على إغاثَتي وتَخليصـي ممّا أنا فيهِ مِنْ كَربٍ وعَذاب، إنِّي تبرَّأتُ الآنَ ممَّا جَعَلتُموني شَـريكًا للهِ في الدُّنيا، حيثُ أطَعتُموني فيما دَعوتُكمْ إليهِ منْ عِبادَةِ الأصْنامِ وغَيرِها، فَلا تَطمَعوا بنُصرَتي لكمُ الآن، فلمْ تَبقَ بَيني وبينَكمْ صِلَةٌ ولا عَلاقَة.

وإنَّ الكافِرينَ الظَّالمينَ لهمْ عَذابٌ مُؤلمٌ مُوجِعٌ، لإعراضِـهمْ عنِ الحقّ، وإصـرارِهمْ على اتِّباعِ الباطِل.

{وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ} (إبراهيم: ٢٣)

٢٣- وعِبادُ اللهِ المؤمِنونَ المتَّقون، الذينَ أتْبَعوا إيمانَهمْ بالعمَلِ الصَّالح، أُدْخِلوا جَنَّاتٍ تَجري مِنْ خلالِ أشـجارِها ومَسـاكِنِها الأنهار، سَـارحةً فيها حيثُ سَـاروا، مُخَلَّدينَ فيها أبدًا، بأمرِ اللهِ وتَوفيقِه، وتَحيَّتُهمْ بينَ بَعضِهمُ البعضِ في الجنَّةِ "سَلامٌ"، وتَعني سَلامَتهمْ مِنْ كُلِّ مَكروه.

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء} (إبراهيم: ٢٤)

٢٤- ألا تَنظرُ أيُّها النبيُّ كيفَ وضـعَ اللهُ مثَلاً في مَكانهِ المناسِـب، كَلِمَةً طَيِّبَة، نافِعةً مُفيدَة، كشَـجَرةٍ طَيِّبَة، مُبارَكةٍ نافِعَة، جَذْرُها ضـارِبٌ في الأرض، فهيَ قويَّةٌ ثابِتَةٌ لا تُزَعزِعُها الرِّياح، وفَرْعُها سَـامِقٌ يَعلو في السَّـماء، فهيَ مُثمِرةٌ مُفيدَة، تَسـتَمِدُّ غِذاءَها وقوَّتَها مِنْ عُروقِها القويَّةِ الغائرَةِ في الأعمَاق.

{تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} (إبراهيم: ٢٥)

٢٥- تُعطي ثمَرَها الكَثيرَ الطيِّبَ في كُلِّ حينٍ وقَّتَهُ اللهُ لإثمارِها، بإرادَةِ خالقِها.

وهذهِ الأمثالُ التي يَضـــرِبُها اللهُ للنَّاسِ مِنْ واقِعِ حَياتِهم، فيها زيادَةُ فَهمٍ لهم، ليُشـــاهِدوا ذلكَ ويُقارِنوا، ويَتذَكَّروا ويَفهَموا، ويَتفكَّروا ويَعتَبِروا.

والمؤمِنُ كمَثَلِ الشــجَرةِ الطيِّبَة، يَنطِقُ بأجَلّ وأرفَعِ كَلمَةٍ في الوُجود، وهيَ لا إلهَ إلاّ الله، وهذهِ الكلمةُ تؤتي ثَمراتِها الطيِّبَةَ إذا أخلصَ بها قائلُها، فيُتبِعُها بالأعمَالِ الصَّـــالحِة، ويَدعو ويُجاهِدُ ويَنشرُ الخير...

والشجَرةُ الطيّبَةُ كالنَّخلة، في قَولِ الأكثَرين.

{وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَــجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ} (إبراهيم: ٢٦)

٢٦- ومَثَلُ كَلِمَةٍ خَبيثَة، وهيَ الكفرُ بالله، والجَهلُ به، أو الباطلُ عُمومًا، ممّا لا يَرضـــاهُ الله، كشَــجَرةٍ خَبيثَة: رائحةً، أو طَعمًا، أو صـــورَةً، أو كُلَّ ذلك، تَراها ظاهِرةً على الأرض، وقدْ تَنتَفِشُ وتتعالَى، ولكنَّ جُذورَها خَفيفَةٌ وغَيرُ عَميقَة، فإذا استؤصِلَتْ بَدَتْ وكأنَّها انتُشِلَتْ مِنْ فَوقِ الأرض، فلا أصْلَ لها ولا عِرق، وكذلكَ الكُفرُ والشِّـرك، لا حُجَّةَ فيهما، ولا ثَبات، ولا قوَّة، بلْ فيهما انحِرافٌ وأباطيلُ وأضرارٌ لا تَخفَى.

{يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِـــلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ} (إبراهيم: ٢٧)

٢٧ — ويُثَبِّتُ اللهُ عِبادَهُ المؤمِنينَ على كَلمَةِ التَّوحيد، فيُمَكِّنُها في قُلوبِهِمْ في الحَياةِ الدُّنيا جَزاءَ صَبرِهِمْ وإيمانِهِم، فلا يُزالُونَ عَنها إذا فُتِنوا في دِينِهِم، ولا يَرتابونَ بالشُّبُهات. كما يُثَبِّتُهمْ عَليها بعدَ الموتِ في القَبر، وهوَ أوَّلُ مَنزِلٍ منْ مَنازِلِ الآخِرَة.

وفي الحديثِ الصَّـــحيح، عندَ البُخاريّ ومُســـلِمٍ وغَيرِهما، واللَّفظُ للأوَّل: "إذا أُقْعِدَ المؤمِنُ في قَبرِه، أُتِيَ، ثمَّ شَـــهِدَ أنْ لا إلهَ إلاّ الله، وأنَّ مُحمَّدًا رسُـــولُ الله. فذلكَ قولُه: {يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ}".

ويُضِـلُّ اللهُ الظَّالمِينَ بظُلمِهِمْ وشِـركِهِمْ وإعراضِـهِمْ عنِ الحقّ، فلا يَهديهِمْ إلى الجوابِ الصَّـحيحِ في القَبر...

ويَفعَلُ اللهُ ما يَشاء، مِنْ تَوفيقِ البَعضِ وتَثبيتِهم، وإضلالِ آخَرينَ وخِذلانِهم، بما يَستَحِقُّون، بحسَبِ ما توجِبُهُ مَشيئةُ اللهِ وحِكمتُه. {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً} [سورة الكهف: ٤٩].

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ} (إبراهيم: ٢٨)

٢٨- ألَمْ تَنظُرْ أيُّها النبيُّ إلى هؤلاءِ المشركين، الذينَ بدَّلوا شُكرَ نِعمةِ اللهِ جُحوداً ونُكرانًا، وأودَعوا قَومَهمْ - بدَعوتِهمْ إلى الضَّلالِ - دارَ الخِزي والهَلاك، مِثلَ كُفّارِ مكَّة، الذينَ أسكنَهمُ اللهُ حرَمَه، وأكرَمَهمْ برَسولِهِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، فأشرَكوا برَبِّهم، وكفَروا بنعمَته، وكذَّبوا رسُولَه، فعاقبَهمُ اللهُ بالقَحطِ سَبعَ سَنوات، وهَزَمَهمْ يومَ بَدر...

{جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ} (إبراهيم: ٢٩)

٢٩- ويَومَ القِيامَةِ مَصيرُهمْ جَهنَّم، يُعَذَّبونَ في نارِها، ويُقاسُونَ حَرَّها، وبئسَ المستَقَرُّ نارٌ تُحيطُ بهِمْ مِنْ كُلِّ مَكان، وعلى الدَّوام.

{وَجَعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ} (إبراهيم: ٣٠)

٣٠- واتَّخذَ المشركونَ شُركاءَ للهِ وجَعَلوهمْ أمثالًا له، فسَمَّوهمْ آلِهةً بحُجَّةِ أنَّها تَنفَعُ وتَضُرُّ مثلَ الله - سُبحانَهُ وتَعالَى - وعَبدوها، ودعَوا النَّاسَ إلى عِبادَتِها، ليُزيغوهمْ عنِ الحقّ، ويُبعِدوهمْ عنْ نَهجِ التَّوحيد.

قُلْ لهمْ مُتوَعِّدًا أيُّها الرَّسُول: ابقُوا في الدُّنيا ما شِئتُم، وتَمَتَّعوا بملذَّاتِها إلى حِين، فإنَّ آخِرَ ما تَنتَهونَ إليهِ بعدَ الحِسابِ هوَ النَّار، فقدْ أبدَلتُمْ نعمةَ اللهِ كُفرًا، وآثَرتمُ الضَّلالَ على الهُدَى.

{قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ} (إبراهيم: ٣١)

٣١- قُلْ لعِباديَ المؤمنينَ يَلتَزِموا جانِبَ الطَّاعَة، ويُحافِظوا على صَلواتِهم، بشُروطِها وأركانِها وفي أوقاتِها، ويُعطوا المحتاجينَ ممّا رزَقَهمُ اللهُ مِنْ مَالٍ ومَتاع، زكاةً وصَدَقَة، خِفيةً وجَهرًا، قَبلَ أنْ يأتيَ يَومُ الحِساب، الذي لا مُعاوضَةَ فيه، فلا تُشتَرى الحسَنات، ولا تُباعُ السيِّئات، ولا

أمْوالَ تُفتدَى بها الأنفُس، ولا أهلَ ولا أصـــدِقاءَ يَشْــفَعونَ أو يَعفونَ عنِ العُقوبَة، بلْ عَدالةٌ مُطلَقَةٌ في الجزاءِ والحِسابِ على الأعْمال.

{اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّـمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ} (إبراهيم: ٣٢)

٣٢- هوَ اللهُ الذي خَلقَ السَّـــماواتِ وما فيها مِنْ كواكِبَ ونجومٍ وشُـــهُبٍ ومُذَنَّبات... والأرضَ وما فيها مِنْ مَخلوقات، ومَعادِنَ وأشْـجار، وبَراريَ وبِحار، وأنزلَ منَ السُّـحُبِ مطَرًا، وسقَى بِهِ الزَّرعَ والشَّجَر، وأخرجَ بِهِ أنواعَ الثِّمارِ والبُقول، مُختَلِفةَ الألوانِ والطُّعومِ والمنافِع، رِزقًا لكم تَعيشونَ بِهِ وتدَّخِرونَ منه.

وســـخَّرَ لكمُ السُّـفُنَ والبواخِرَ والأسـاطيلَ تَجري في البحرِ بأمرِهِ وقُدرَتِه، فجعلَ فيهِ مَوازينَ وقَوانينَ لتَطفوَ عَليهِ السُّـفُنُ على الرَّغمِ مِنْ ثِقْلِها، وتتَوجَّهونَ بها أينَما شِـئتُم، في أمُورِ التجارَةِ والعِلمِ والاستكشاف.

وســخَّرَ لكمُ الأنهار، تشُـقُّ الأرضَ مِنْ بلَدٍ إلى آخَر، فتَشـرَبونَ منها، وتَسـقُونَ بها زُروعَكمْ وحيَواناتِكم، وتَستَخدِمونَه في أمورِ الطَّاقَةِ وغَيرِها.

{وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} (إبراهيم: ٣٣)

٣٣- وســـخَّرَ لكمُ الشَّـــمسَ والقمَر، وهما في حَركَةٍ دائمة، لا يَقِفانِ لَحظة، ليتَشَـــكَّلَ مِنْ حرَكتِهما اللَّيلُ والنَّهار. وفيهما أســـرارٌ عِلميَّةٌ كثيرة، تُبيِّنُ إبداعَ الخالقِ وقُدرَتَهُ وعظَمتَه، في تَكوينِهما، وأبعادِهما القياســيَّةِ الدَّقيقَةِ عنْ بَعضِـــهما البَعض، وعنِ الأرض، ووَظيفَتِهما، وتأثيرِهما، وفائدَتِهما للإنسان، فلا غِنَى لهُ عنهما.

وســـخَّرَ اللهُ اللَّيلَ والنَّهار، يأتي أحَدُهما إثرَ الآخَر بنِظامٍ لا يَتغيَّر. والنهارُ فيهِ الحرارَةُ والضِّـياءُ فيُناسِبُ العمَل، والليلُ فيهِ السُّكونُ والظَّلامُ ليَرتاحَ المرءُ مِنْ تعَبِ النَّهارِ ويَطمَئنَّ ويَسكُن.

{وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} (إبراهيم: ٣٤)

٣٤- وأعطاكمُ اللهُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ سَألْتُموه، ممّا تَحتاجونَ إليهِ في جَميعِ أحوالِكم.
وإنْ تَعُدُّوا نِعَمَ اللهِ عَليكمْ لا تتَمكَّنوا مِنْ عَدِّها، ولو إجمالًا، فإنَّها كَثيرةٌ جِدًّا.
ومعَ ذلكَ فإنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَظلِمُ نَفسَهُ بالمعصيَة، فيَجعَلُ للهِ شُركاءَ ويَعبُدُهم، وهوَ الذي أنعمَ عَليهم، والشُّركاءُ لم يَفعَلوا شَيئًا، فيَكونُ كافِرًا بالنِّعمةِ والمنعِم، جاحِدًا بفَضلِه، مُنكِرًا لرُبوبيَّتِه.

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ} (إبراهيم: ٣٥)

٣٥- واذكُرْ أيُّها النبيُّ قَولَ إبراهيمَ داعِيًا ربَّه: ربِّ اجعَلْ مكَّةَ بَلدًا ذا أمنٍ وسَلام، يأمَنُ فيهِ النَّاسُ ولا يَخافون، وأبعِدني وبنيَّ مِنْ عِبادَةِ الأصنام، وثَبِّتنا على مِلَّةِ الإسْلام.

{رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (إبراهيم: ٣٦)

٣٦- فإنَّ هذهِ الأصنامَ التي جعَلوا منها آلهة، تَسَبَّبْنَ في إضْلالِ كثيرٍ منَ النَّاس، حتَّى افتَتَنوا بهنَّ وعبَدوهُنّ، فمَنْ تَبِعَني فيما أدعو إليهِ منَ التَّوحيد، فإنَّهُ مِنْ أهلِ دِيني ومِلَّتي، ومَنْ عَصاني ولم يَتْبَعْني، فأفوِّضُ أمرَهُ إليك، فإنَّكَ قادِرٌ على أنْ تَغفِرَ لهُ وترَحمَه، ابتِداءً، أو بعدَ تَوفيقِهِ للتَّوبة.
وهذا مِنْ خصائصِ إبراهيمَ عَليهِ السَّلام، فهوَ حَليمٌ رَحيمٌ لا يَدعو بالهَلاكِ على بَنِيه، وكأنَّهُ قال: ومَنْ عصَاني فلا أدعُو عَليهم، بلْ أكِلُهمْ إلى رَحمتِكَ وهِدايَتِك، فإنَّكَ غَفورٌ رَحيم. فهوَ لا يَستَعجِلُ لهمُ العَذاب، بلْ يَترُكُهمْ لرحمَةِ اللهِ وهِدايَتِه، فإنْ شَاءَ هَداهُمْ ورَحِمَهمْ وغفرَ لهم، أو لم يَفعَل.
وللمُفَسِّرينَ تأويلاتٌ شَتَّى في هذا، ومَنْ فسَّرَ العِصيانَ هُنا بغَيرِ الكُفر، فلا إشْكال.

{رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} (إبراهيم: ٣٧)

٣٧- وكانَ إبراهيمُ عَليهِ السَّلامُ قدْ تركَ زوجتَهُ (هاجَرَ) وولَدَها إسماعيلَ قَريبًا منَ البَيتِ الحَرام، فالتجأ إلى ربِّهِ داعيًا مرَّةً أخرَى يَقول: ربَّنا إنِّي أسكَنتُ بعضَ ذُرِّيَتي بوادٍ في مَكَّةَ لا زَرعَ فيهِ ولا ثَمَر، بجِوارِ بيتِكَ المحَرَّم، ليُقيموا الصَّلاةَ عِندَه، ويُعَمِّروهُ بذِكرِكَ وعِبادَتِك، فارحَمْهم، واجعَلْ قُلوبَ بعضِ النَّاسِ تَميلُ إليهِمْ وتَكونُ معَهم، وارزُقْهِمْ منْ أنواعِ الثَّمرات، تُجبَى إليها، أو تُحَصَّلُ منها ومِنْ حَولِها؛ ليَشكروا نِعمَتَك، ويؤمِنوا برسَالَتِك.

{رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِن شَيْءٍ فَي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء} (إبراهيم: ٣٨)

٣٨- ربَّنا إنَّكَ مُطَّلِعٌ على أقوالِنا وأعمالِنا، وما نَجهَرُ بهِ وما نُسِرّ، ولا يَخفَى على اللهِ شَيءٌ صَغيرٌ ولا كَبير، إنْ ظهَرَ أو بطَن، في الأرضِ أو في السَّماء، فلكَ اللهمَّ خالِصُ تَضَرُّعي ودُعائي، وعُبوديَّتي وتَذَلُّلي.

{الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء} (إبراهيم: ٣٩)

٣٩- والشكرُ للهِ والثناءُ الطيِّبُ عليهِ وَحدَه، الذي رزَقَني على كِبَرِ سِنِّي ويأسِي منَ الولَدِ إسماعيلَ وإسحاق، إنَّ رَبِّي وخالِقي مُجيبُ الدُّعاء.

{رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء} (إبراهيم: ٤٠)

٤٠- ربِّي واجعَلني مُحافِظًا على إقامةِ الصَّلاة، ومِنْ ذُرِّيَتي كذلك، ربَّنا وتَقبَّلْ دُعائي فيما سألتُكَ به.

{رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ} (إبراهيم: ٤١)

٤١- ربَّنا اغفِرْ لي ما فرَّطتُ فيهِ وما أنتَ أعلمُ بهِ منِّي، ولوالدَيَّ، ولجميعِ المؤمنين، مِنْ ذُرِّيَتي ومِنْ غَيرِهم، عندَما تُحاسِبُ النَّاسَ على أعمالِهم وتُجازيهمْ عَليها.
وقدِ استَغفرَ لوالدَيهِ قبلَ أنْ يَموتَ أبوهُ على الكُفر، فكانَ يَدعو بهدايَةِ اللهِ لهُ ويَطمَعُ في إيمانِه، فلمَّا ماتَ ولم يؤمِنْ تبرَّأ منه: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} [سورة التوبة: ١١٤]. وذُكِرَ أنَّ والدتَهُ آمنَت.

{وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ} (إبراهيم: ٤٢)
٤٢- ولا تَظُنَّنَّ أنَّ اللهَ غَافِلٌ عنْ فِعلِ الظَّالمينَ والمشركين، إنَّ تأخيرَ العَذابِ عنهمْ ليسَ للرِّضى بأفعالِهم، بلْ منْ سُنَّةِ اللهِ إمهالُ العُصاة، وإذا لم يَنفَعْهمْ هذا الإمهالُ توبَةً وإيمانًا، فإنَّ تأخيرَهمْ يكونُ ليومٍ لا تُغمَضُ فيهِ العُيون، بلْ ترتَفِعُ وتَبقَى مفتوحَةً مَذهولَةً لا تَطرِف، منْ شِدَّةِ الخَوفِ والهلَعِ والأهوالِ يَومَ القِيامة.

{مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء} (إبراهيم: ٤٣)
٤٣- مُسرِعينَ إلى الدَّاعي، لا يَلتَفِتونَ إلى شَيء، رافعِي رؤوسِهمْ وكأنَّها مَشدودَةٌ إلى السَّماءِ لا تتحرَّكُ يَمْنَةً ولا يَسْرَة، وأبصارُهمْ شَاخِصَةٌ جامِدَةٌ لا تَطرِف، يُديمُونَ النَّظرَ إلى جِهةٍ واحِدَةٍ مِنَ الرُّعب، فلا يَنظرُ أحَدٌ إلى أحَد. وقلوبُهمْ خالِيَةٌ جَوفاء، وكأنَّها لا تَعقِلُ ولا تَفهَم، ولا تَدري ولا تتَذَكَّر، منَ الفزَعِ والحَيرَةِ والدَّهشَة!

{وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ} (إبراهيم: ٤٤)
٤٤- واذكُرْ للنَّاسِ عَواقِبَ الكفرِ والمعاصي، وخَوِّفْهُمْ هَولَ يومِ القيامَةِ يومَ يأتيهمُ العذابُ الرَّهيب، فيقولُ الذينَ أشرَكوا: ربَّنا أعِدْنا إلى الدُّنيا وأمهِلنا مُدَّةً قَصيرةً منَ الزَّمان؛ نُجِبْ دَعوةَ التَّوحيد، ونؤمِنْ برسُلِك، ونتَّبِعْهُمْ فيما يَطلبونَ منّا.

فيُجابُون: أوَلمْ تكونوا حلَفتُمْ في الدُّنيا أنَّكمْ لا تُبعَثونَ بعدَ الموت، وأنَّهَ لا مَعادَ ولا حِساب؟

{وَسَكَنتُمْ فِي مَسَـــاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ} (إبراهيم: ٤٥)

٤٥- واستَوطَنتُمْ بلادَ الأُمَمِ المكَذِّبَةِ مِنْ قَبلِكم، وعرفتُمْ أخبارَهم، وكيفَ أهلكناهُمْ وعاقَبناهم، ولكنَّكمْ لم تعتَبِروا بما حَلَّ بهم، بلْ فعَلتُمْ فِعلَهم، وتمادَيتُمْ في الظُّلمِ والفَساد، وبيَّنَّا لكمُ وقائعَ، وأورَدنا لكمْ أخبارًا، وسَرَدنا قِصَصًا، وضرَبنا أمثالًا؛ لتتَذكَّروا وتَعتَبِروا.

وما زالتِ الأخبارُ والآثارُ مَوجودة، في كتُبِ التَّاريخِ ومَشاهدِ الآثار، ولكنَّ المؤرِّخينَ والآثاريّينَ لا يَعتَبِرون، ولا يَذكرونَ لطُلاّبِهِمُ العِبَرَ والإرشاداتِ الدينيَّةَ، بلْ يَدرُسونَ ويحلِّلونَ ويُنقِّبونَ للعلمِ والثقافَةِ ومَعرفَةِ الأخبار...

{وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} (إبراهيم: ٤٦)

٤٦- وقدْ كادُوا ومكَروا وبذَلوا كُلّ ما يَملِكونَ مِنْ جُهدٍ للقَضاءِ على رِسالةِ التوحيد، وصَرفِ المؤمِنينَ عنْ دِينِهم، والاستِهزاءِ بعَقيدَتِهم، ولكنَّهمْ همْ وإرادتُهمْ وما يُخَطِّطونَ في قَبضَةِ قُدرَةِ العَزيزِ الجبّارِ وتحتَ تَصرُّفِه، وجَزاءُ مَكرِهِمْ عندَهُ سُبحانَه، وإنْ كانَ كَيدُهمْ وتَدبيرُهمْ قَويًّا شَديدًا، حتَّى يَكادُ يُزيلُ الجبالَ مِنْ أماكنِها، وهيَ أثقَلُ شَيءٍ وأبعدُ ما يُتصوَّرُ عنِ التحرُّكِ والزَّوَال. ويَعني أنَّهمْ لم يَتمكَّنوا منَ القضاءِ علَى ما أتَتْ بِهِ الرسُل، علَى الرَّغمِ مِنْ مُناصَبَتِهمُ العِداءَ ومُحارَبتِهمْ وأتباعَهم.

{فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} (إبراهيم: ٤٧)

٤٧- فلا تَظُنَّنَّ بعدَ هذا البَيانِ أيُّها النبيُّ أنَّ اللهَ يُخلِفُ وعدَهُ معَ رسُلِه، وأنتَ منهم، فقدْ نصرَهمُ الله، وينَصرُكَ مثلَهم، واللهُ عَزيزٌ لا يُقْهَرُ ولا يُغالَب، يَنتَقِمُ ممَّنْ عاداهُ وعاندَ رسُلَه وكذَّبَهم.

{يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} (إبراهيم: ٤٨)

٤٨- ويَومَ يأتيهمُ الحِساب، تَكونُ الأرضُ على غَيرِ هَيئتِها الآن، وكذلكَ السَّماواتُ، وخرجَ جَميعُ الخلائقِ مِنْ قُبورِهم، المؤمِنونَ والكافِرون، وظهَروا للهِ الواحِدِ الأحَد، الغالِبِ على كُلِّ شَيء، الذي دانَتْ لهُ الرِّقاب، وخضَعَتْ لهُ القُلوبُ والألْباب، ليَحكُمَ بينَهم، ويُجازيَهمْ على أعمالِهم.

{وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ} (إبراهيم: ٤٩)

٤٩- وترَى الكافرينَ المجرِمينَ يَومَئذٍ وقدْ جُمِعَ بَعضُهم إلى بَعض، وشُدُّوا بالقُيودِ والأغْلال، وقدْ كانُوا في الدُّنيا على عَقيدَةٍ واحِدَةٍ هيَ مِلَّةُ الكُفر، وعلى عمَلٍ واحِدٍ هوَ العِصيانُ والإفسَاد، فصَاروا في الآخِرةِ معَ بعضِهمُ البَعضِ مَشدُودين، يَمُرُّونَ صَفًّا وراءَ صَفّ...

{سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ} (إبراهيم: ٥٠)

٥٠- أثوابُهُمْ وقُمصَانُهُمْ مِنْ قَطِران، وهوَ أسودُ قَذِرٌ مُنتِنٌ يُسرِعُ فيهِ اشتعالُ النَّار، وتَعلو وجوهَهُمُ النَّارُ لتُسْعَرَ بها، وهيَ أكرمُ عُضوٍ في الإنسانِ وأشرَفُه، ولكنَّهمُ امتهَنوهُ وسَجدوا بهِ للأصنامِ وغَيرِها، ولم يَسجدُوا للهِ الواحِدِ القهَّار، فجازاهمُ اللهُ بالذُّلِّ والتَّحقير، جَزاءَ شِركِهِمْ ومَكرِهِمْ واستِكبارِهم.

{لِيَجْزِي اللّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} (إبراهيم: ٥١)

٥١- ليَجزيَ اللهُ يومَ القيامَةِ كُلَّ نَفس، مُؤمِنةٍ وكافِرة، ما عَمِلتْ مِنْ خَيرٍ وشَرّ، جَزاءً عادِلاً مُوافِيًا، واللّهُ سَريعُ الحِساب، معَ كثرَةِ خَلقِهِ وكثرَةِ ما عَمِلوا.

{هَذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ} (إبراهيم: ٥٢)

٥٢- هذا القُرآنُ وما فيهِ مِنْ تَذكيرٍ وأحكَام، تَبليغٌ وعِظَةٌ لجَميعِ النَّاس، ليُنصَحوا ويُنذَروا به، ويوعَظوا ويُخَوَّفوا، وليَعلَموا ويوقِنوا بالأدلَّةِ والحُجَج، والنظَرِ والتأمُّل، أنَّ اللهَ واحِدٌ لا شَريكَ لهُ

ولا ولَد، وليتذكَّرَ ذلكَ ويتَّعِظَ بهِ أصــحابُ العُقولِ السَّــليمة، والأفهامِ الراجِحَةِ المسـتَقيمَة، ويَلتَزِموا جانِبَ التقوَى، والثَّباتِ على الحقّ، والصَّبرِ على الطَّاعة.

الجزء الرابع عشر

سورة الحِجر

سورة النحل

سـورة الحِجـر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ} (الحجر : ١)

١- الحروفُ المقَطَّعَةُ لم يَرِدْ في تَفسيرِها حَديثٌ ثابِتٌ صَحيح، واللهُ أعلَمُ بمَعناها.

تِلكَ الآياتُ العَظيمَةُ آياتُ الكِتابِ الكاملِ الجَليل، وقُرآنٍ عَظيمِ الشَّأنِ، واضِحٍ بيّن، فيهِ أمرُ اللهِ وهَديُه، وحُكمُهُ وعَدلُه.

{رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ} (الحجر : ٢)

٢- رُبَّ شَـيءٍ يَودُّ الذينَ كفَروا لو تَحقَّقَ وثَبَت، وهوَ أنْ يَكونوا مُسـلِمين، سَـواءٌ عندَ الموتِ وقدْ تقَطَّعَتْ بهِمْ أسْـبابُ الحياة، أو يومَ القِيامةِ وقدْ عايَنوا العَذاب، والمؤمِنونَ في جَنّاتِ النَّعيم، فكُلَّما رَأوا حالاً منْ أحْوالِ العَذاب، ورأوا حَالاً منْ أحْوالِ المسـلِمين، وَدُّوا لو كانوا مُسلِمين.

ويتأكَّدُ قَولُهُمْ هذا عندَما يُخرِجُ اللهُ المسلِمينَ العَاصِينَ منَ النَّار، وكانَ الكافِرونَ يَقولونَ لهم: ما أغنَى عنكمْ إسـلامُكمْ وقدْ صِـرتُمْ معَنا! فعندَما يُخرَجونَ يَقولُ الكافِرون: يا لَيتَنا كُنَّا مُسـلِمينَ فنخرُجَ كما خرَجوا. وهوَ مُختصَرُ حَديثٍ رواهُ وصحَّحَهُ الحاكم.

{ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} (الحجر : ٣)

٣- دَعْ هؤلاءِ الكافِرينَ يأكُلوا مِنْ أطعِمةِ الدُّنيا وملاذِّها ما شَاؤوا، ولْيَتمتَّعوا بجَمالِها وشَهواتِها، ولْيَشغَلْهمُ الأمانيُّ وطلَبُ السَّعادةِ وطُولِ العمُر، والتطلُّعُ إلى الصَّفَقاتِ والأرباح، دَعهمْ في دَوَّامَةِ الغُرورِ والمطَامِع، حَتَّى يأتيَهمُ الموتُ وهمْ على ذلك، وسَوفَ يَعلمونَ يَومَ الحِسابِ سُوءَ صَنيعِهم، وفسادَ عَقيدَتِهم، وعاقِبةَ أمرِهم.

{وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ} (الحجر : ٤)

٤- وما أوقَعْنا العَذابَ بأهلِ قَريَةٍ أو مَدينةٍ منَ المدُنِ إلاّ بعدَ إنْذارِهم، وانتِهاءِ المدَّةِ التي ضُرِبَتْ لهم، لا يُنسَى أجَلُهمْ ولا يُغْفَلُ عنه، بلْ هوَ مَعلومٌ مُقدَّرٌ عندَ اللهِ في اللَّوحِ المحفوظ.

{مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ} (الحجر : ٥)

٥- ولنْ يُقَدَّمَ أجَلُ هَلاكِ أُمَّةٍ عنْ مَوعدِهِ ولنْ يؤَخَّرَ عنه، بلْ يأتيهمْ في المكانِ المقدَّر، وفي الوَقتِ المحدَّد.

{وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} (الحجر : ٦)

٦- وقالَ مُشرِكو مكَّةَ لرَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم: أيُّها المدَّعي نزولَ القُرآنِ عَليه، إنَّكَ مجنونٌ بادِّعائكَ ما يُوحَى إليك.

{لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} (الحجر : ٧)

٧- فهلاّ أتيتَنا بالملائكةِ يَشهدونَ بصِحَّةِ ما جِئتَ به، إذا كنتَ منَ الصَّادقينَ في دَعواك؟

{مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ} (الحجر : ٨)

٨- ما نُنَزِّلُ الملائكةَ إلاّ لأمرٍ فيهِ فائدَةٌ وحِكمة، والملائكةُ لا يُرَون، ولو أنزلَهُمُ اللهُ على صُورةِ البشَرِ لقالَ المشرِكون: هؤلاءِ ليسُوا ملائكة! ولو لم يؤمِنوا بهِمْ لأهلَكَهُمُ اللهُ ولم يُمهِلْهُم، وقدْ عَلِمَ اللهُ مِنْ حَالِ هؤلاءِ الكافِرينَ أنَّهُمْ لنْ يُؤمِنوا بهم، فكانَ في إمهالِهِمْ خَيرٌ لهم. وقدْ آمَنوا منْ بَعد.

{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر : ٩)

٩- نحنُ نزَّلنا هذا القُرآنَ مِنْ عندِنا، ســـواءٌ آمَنوا بهِ أمْ أنكَروه، ونحنُ حافِظوهُ منَ التَّغييرِ والتَّبديل، والزِّيادَةِ والنُّقصَان، فلا يَندَثِرُ ولا يَلتَبِسُ بالباطِل.

ولم يَتكفَّلِ اللهُ بحِفظِ كِتابٍ سَماويٍّ سِـــواه، وقدْ دَخلَ التَّحريفُ والتَّبديلُ حَديثَ رســـولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، والتاريخَ الإسلاميّ، وأنواعَ العُلوم، ولم يَدخلِ القُرآنَ منهُ شَيء.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ} (الحجر : ١٠)

١٠- وقدْ أرسَلنا رسُلاً مِنْ قَبلِكَ أيُّها النبيُّ إلى فِرَقِ وطوائفِ الأمَمِ الماضِيَة.

{وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} (الحجر : ١١)

١١- وما كانَ اللهُ يُرسِلُ إليهِمْ رسُولاً منْ عِندِهِ إلاّ كانوا يُكذِّبونَهُ ويَسخَرونَ منه.

{كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ} (الحجر : ١٢)

١٢- ونُدْخِلُ مِثلَ هذا التَّكذيبِ والاستِهزاءِ في قُلوبِ المجرِمينَ المعانِدينَ للحَقّ.

{لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ} (الحجر : ١٣)

١٣- فهؤلاءِ الكافِرونَ غَيرُ مؤمِنينَ بالقُرآن، وقدْ عَلِموا ما حَلَّ بالأُممِ الماضِـــيَةِ مِنَ الهَلاكِ والدَّمارِ نَتيجةَ تَكذيبِهمْ أنبياءَهم.

{وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ} (الحجر : ١٤)

١٤- ولو فتَحنا على هؤلاءِ الكافِرينَ المكابِرينَ بابًا ظاهِرًا منَ السَّـماء، وجعَلوا يَصـعَدونَ فيهِ ويَرونَ فيهِ منَ العَجائب،

{لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ} (الحجر : ١٥)

١٥- لما صـدَّقوا ذلك، وقالوا لشِـدَّةِ كُفرِهِمْ وقَسـاوَةِ قُلوبِهِم: لقدْ أُغلِقَتْ عُيونُنا ومُنِعَتْ مِنَ الرُّؤية، والذي ظهَرَ لنا خَيالٌ لا حَقيقَة، وعُقولُنا تُخبِرُنا أنَّ الحقِيقَةَ بعَكسِ ذلك! بلْ أصـابَنا سِحرُ ساحِرٍ فيما جَرَى لنا!

وللسَّماءِ أبواب، وقدْ أثبتَتِ الأبحاثُ الفلَكيَّةُ أنَّ السَّماءَ ليسَتْ فرَاغًا، بلْ هيَ مَليئةٌ بغازاتٍ مُنوَّعة، وبعضِ الموادِّ الصُّلبة، وإشـعَاعات، فهوَ بِناءٌ مُحكَمٌ مَليءٌ بالمادَّةِ والطاقَة، ولا يُمكِنُ اختِراقُهُ إلاّ عنْ طَريقِ أبوابٍ تُفتَحُ فيه. وكذلكَ الغِلافُ الجَويّ، مَليءٌ بالأبواب، والمرْكَباتُ الفَضائيَّةُ عَليها أنْ تَسلُكَ مَسارًا مُحَدَّدًا حتَّى تَخرُجَ منْ مَظانِّ الجاذبيَّةِ الأرضيَّةِ إلى الفَضاءِ الخارجيّ، وإلاّ احترقَت. وإذا عادَتْ فعَليها أنْ تَدخُلَ مِنْ فتَحاتٍ وطُرقٍ مُعيَّنَةٍ داخِلَ الطبقةِ الخارجيَّةِ للغِلافِ الجَويّ، وإلاّ بَقيَتْ فيه، أو احترَقَت!

{وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ} (الحجر : ١٦)

١٦- ولقدْ أوجَدنا في السَّـماءِ بُروجًا، وهيَ النُّجومُ والكواكِب، أو مَنازِلُها الاثنا عشَـرَ التي تتنقَّلُ فيها. وجَعلنا فيها جَمالاً وزِينةً لمنْ يَنظرُ إليها، معَ اتِّسـاعٍ وإتْقان. فالنُّجومُ تتلألأُ وتَخبو، والقمَرُ يُطِلُّ بَدرًا وهِلالاً، ومَنظَرُ الشُّروقِ والغُروبِ للشَّمسِ لا يُمَلّ...

{وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ} (الحجر : ١٧)

١٧- وحَفِظنا السَّـماءَ وما فيها منَ الشَّـياطينِ الملعونَة، المطرودَةِ مِنْ رَحمَةِ الله، حتَّى لا يَنالَها شَيءٌ مِنْ شَرِّها،

{إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ} (الحجر : ١٨)

١٨- إلاّ الشَّـياطينَ المتمَرِّدَةَ التي تتَجاوزُ حَدَّها الأرضِـيّ، وتُريدُ أنْ تتَصـاعدَ لتتَنصَّـتَ إلى الملائكةِ في السَّماء، فمنِ استرقَ السَّمعَ منها قَذفناهُ بشِهابٍ سَاطِعٍ فأحرَقَه.

{وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ} (الحجر: ١٩)

١٩- وهذهِ الأرضُ بسَطناها ووَسَّعناها لتَكونَ مُلائمَةً لانتِفاعِ الإنسَانِ منها، وألقَينا فيها جِبالاً ثَوابِت، لئلاّ تَميلَ وتتَحرَّكَ بأهلِها، وأنبَتنا فيها زرُوعًا، وأشجارًا كثيرة، مَعلومَةً ومُقدَّرَةً بمِقْدارٍ مُعَيَّن.

{وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ} (الحجر : ٢٠)

٢٠- وجعَلنا في الأرْضِ صُنوفًا منَ المطاعمِ والمشَاربِ وغَيرِها، وأسبابًا للتكسُّب، وأبوابًا للعمَلِ تَلِجونَها، ودوابَّ وآلاتٍ تَستَخدِمونَها، لتَكونَ عَونًا لكمْ في ابتِغاءِ الرِّزق، وجعَلنا فيها أصنافًا منَ الأحياءِ لا تَرزُقونَها، بلِ اللهُ رازِقُها وسِواها، ومَنفِعتُها لكم.

{وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ} (الحجر : ٢١)

٢١- وليسَ شَيءٌ مِنَ الأشْياء، ولا صِنفٌ مِنَ الأصْناف، إلاّ عِندَنا خَزائنُه، مَصادرُهُ ومَنابِعُه، وما نُنَزِّلُ منهُ إلاّ بمِقدارٍ مُعَيَّن، بحسَبِ ما تقتَضيهِ حِكمتُنا، وتَستَدعيهِ مَشيئتُنا.

{وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ} (الحجر : ٢٢)

٢٢- وسَخَّرنا الرِّياحَ لتَكونَ مُلقِحَة. وقدْ ثبتَ لدَى العُلماءِ أنَّ الغُيومَ لا تُمطِرُ بنَفسِها، ولو كانتْ شَديدَةَ الرُّطوبة، فإذا توَفَّرَ لها ذَرَّاتٌ مِلحيَّةٌ أو ثَلجيَّةٌ بالِغَةُ الصِّغَر، والتَقَتْ بالكُتلَةِ الهوائيَّةِ الرَّطْبَة (الغَيم)، حصَلَ التكاثُف، ثمَّ هطلَ منها المطَر. والرياحُ هيَ التي تَجلُبُ هذهِ الذَّرَّات، فتَكونُ هيَ المُلْقِحَة، وهي التي تُشَكِّلُ السَّحابةَ الرَّعديَّة، في تَفصيل... وكُلُّ ذلكَ بأمرِ اللهِ وتَقديره.

فيُلقِحُ الريحُ السَّحابَ ليَدُرَّ المطَر، فأنزَلنا بسببِهِ الماء، فأسقَيناكُمْ منهُ ماءً عَذبًا، تَشرَبونَ منه، ونَسقي بهِ زُروعَكمْ ودوابَّكم. والمطَرُ في خزائنِنا لا في خَزائنِكم، وهيَ بأيْدينا لا بأيْديكم. أو أنَّ مَعناه: ما أنتُمْ بقَادرينَ على حِفظِ هذا الكَمِّ منَ المياهِ التي يُنزِلُها اللهُ لكم، فيَحفَظُها لكمْ في العُيونِ والآبارِ والأنهار، لتأخُذوا منها عندَ الحاجَة.

{وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ} (الحجر : ٢٣)

٢٣- وإنَّا لَنَخلُقُ الشـيءَ منَ العدَم، ونَنفُخُ الرُّوحَ في الأشـياءِ الميْتَةِ فتَحيا بإذنِنا، ونحنُ نُميتُ الحيَّ فلا نُبقي فيهِ أثَرًا للحَياة. ونحنُ الباقونَ بعدَ فَناءِ الخَلق، المالِكونَ للمُلْك، الحاكِمونَ والمتصَرِّفونَ في الكَونِ وحدَنا، الوارِثونَ للخَلْقِ جَميعًا.

{وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ} (الحجر : ٢٤)

٢٤- وقدْ عَلِمنا مَنْ ماتَ مِنكمْ مِنْ لَدُنْ آدَم، ومَنْ هوَ حَيٌّ لم يَمُت، ومَنْ سَـيأتي بَعدَكمْ إلى يَومِ القيامَة.

{وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} (الحجر : ٢٥)

٢٥- وإنَّ ربَّكَ وحدَهُ - أيُّها النبيُّ - سيَحشرُهمْ جَميعًا للمُحاسَبةِ والجَزاء، وهوَ حَكيم، يضَعُ الأمورَ في مَواضِـعِها، فيُقدِّرُ وقتَ الحَياة، ووَقتَ المِمات، ووَقتَ الجَزاء. عَليمٌ، أحاطَ عِلمُهُ بكلِّ شَيء، فلا يَغيبُ عَنهُ الحَقيرُ والجَليل، ممّا عَمِلَهُ الخَلقُ كلُّهم.

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ} (الحجر : ٢٦)

٢٦- وقدْ خَلقنَا أصلَ الإنسانِ (آدمَ) منْ طِينٍ يابِس، إذا نقَرتَهُ سَمِعتَ لهُ صَلصَلة، مُتَّخَذٌ مِنْ طِينٍ مُنتِن.

{وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ} (الحجر : ٢٧)

٢٧- وخَلقنا الجِنَّ قبلَ الإنس، منْ نَارٍ شَديدَةِ الحرارَة.

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ} (الحجر: ٢٨)

٢٨- وقالَ اللهُ تعالَى لملائكتِهِ قبلَ أنْ يَخلُقَ آدم: سأخلقُ إنسَانًا منْ تُراب، منْ طِينٍ مُنتِن.

{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ} (الحجر : ٢٩)

٢٩- فإذا أتمَمتُ خَلقَه، وجعلتُ فيهِ الروحَ[٦٥]، وصارَ بشَراً سَويًّا، فاسجُدوا له، سُجودَ تَحيَّةٍ وتَكريم، لا سُجودَ عِبادَة.

{فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ} (الحجر : ٣٠)

٣٠- وبعدَ أنْ نُفِخَ فيهِ الرَّوح، سَجَدَ لهُ الملائكةُ كلُّهم، ولم يتأخَّروا،

{إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ} (الحجر : ٣١)

٣١- إلاّ إبليسَ، رفضَ أنْ يَكونَ معَ الملائكةِ السَّاجِدين. والملائكةُ لا تَعصي الله، ولذلكَ سَجدَتْ لهُ كما أمرَ الله، وهيَ مَخلوقَةٌ منْ نور، وإبليسُ مِنْ جِنسٍ آخَرَ غَيرِ الملائكة، فهوَ مَخلوقٌ منْ نار {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} [سورة الأعراف: ١٢].

{قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ} (الحجر : ٣٢)

٣٢- قالَ اللهُ له: يا إبليس، ما الذي مَنعَكَ أنْ تَسجُدَ لآدمَ كما سَجدَ لهُ جَميعُ الملائكة؟

---

(٦٥) {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي}: وجعلتُ فيه الروحَ حتى جرى آثارهُ في تجاويفِ أعضائه، فحيي، وصارَ حسّاسًا متنفِّسًا. (روح البيان).

قالَ النيسابوري: ولا خلافَ في أن الإضافةَ في {رُوحِي} للتشريفِ والتكريم، مثل: (ناقة الله)، و (بيت الله). قالَ القرطبي: والروحُ جسمٌ لطيف، أجرَى الله العادةَ بأن يخلقَ الحياةَ في البدنِ مع ذلك الجسم. وحقيقتهُ إضافةُ خَلقٍ إلى خالق، فالروحُ خلقٌ من خَلقه، أضافَهُ إلى نفسهِ تشريفاً وتكريماً. (فتح القدير).

وإسنادُ النفخِ وإضافةُ الروحِ إلى ضميرِ اسمِ الجلالةِ تنويهٌ بهذا المخلوق. (التحرير والتنوير).

{قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ} (الحجر : ٣٣)

٣٣- قال: ما كنتُ لأسجُدَ لبشَرٍ خلقتَهُ مِنْ طِينٍ مُنتِن، وأنا أفضَلُ وأشرفُ منهُ عُنصُرًا (النَّار). قالَ ذلكَ حسَدًا وبُغضًا لآدَم، وعِنادًا واستِكبارً عنْ قَبولِ أمرِ الله.

{قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ} (الحجر : ٣٤)

٣٤- قالَ اللهُ له ما مَعناه: فاخرُجْ منَ الجنَّة، فإنَّكَ مَطرودٌ مِنْ كُلِّ خَيرٍ وكَرامة.

{وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ} (الحجر : ٣٥)

٣٥- وإنَكَ مُبعَدٌ مِنْ رَحمَةِ الله، وتَلحَقُكَ لَعنَتُهُ ولَعنَةُ المؤمنينَ إلى يَومِ القِيامَة؛ جَزاءَ عِصيانِك.

{قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} (الحجر : ٣٦)

٣٦- قالَ إبليس: رِبِّ أمْهِلني ولا تُمِتني إلى اليَومِ الذي يُبعَثُ فيهِ آدَمُ وذُرِّيَتُهُ للحِسابِ والجَزاء.

وهذا منْ تمامِ حسَدِهِ وعَداوتِهِ للإنسَان، ليُغويَهم، فيُبعَدوا مِنْ رَحمَةِ الله، كما أبعَدَهُ اللهُ منْ رَحمَتِه، فيَكونُ أخذَ بثَأرِه.

{قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ} (الحجر : ٣٧)

٣٧- قالَ اللهُ له تفسيرًا: قدْ أمهَلتُك، فأنتَ منْ جُملَةِ المؤخَّرين،

{إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ} (الحجر : ٣٨)

٣٨- إلى يَومِ النَّفخَةِ الأولَى، آخِرِ أيَامِ التَّكليف، وهوَ يَومٌ مَعلوم، لا يَبقَى فيهِ على وجهِ الأرضِ حَيّ.

{قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} (الحجر : ٣٩)

٣٩- قالَ إبليس: رَبِّي، لأنَّكَ أضـلَلتَني وطرَدتني منْ رحمَتِك - ولم يَذكُرْ عِصـيانَه - فسَـوفَ أُزَيِّنُ لبَني آدمَ القَبيحَ حتَّى يَغتَرُّوا بـهِ ويَفعَلوه، وأُحَبِّبُ إليهمُ المعَـاصـــي، وأُرَغِّبُهمْ فيهـا حتَّى يَعمَلوها، ولأُضِلَّنَّهمْ كُلَّهمْ بذلك،

{إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} (الحجر : ٤٠)

٤٠- إلاّ عِبادَكَ الذينَ أخلَصُــوا لكَ بالطَّاعَةِ والتوحِيد، واتَّقَوا حُرُماتِك، فلا أَقدِرُ على تَضليلِهم.

{قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ} (الحجر : ٤١)

٤١- قالَ اللهُ تعالَى ما معناه: هذا طَريقُ الحقِّ التي لا مَحيدَ عَنها، فالحقُّ يَرجِعُ إلى اللهِ تعالَى وعَليهِ طَريقُه، ولا يَعْوَجُّ عَليهِ شَيء،

{إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} (الحجر : ٤٢)

٤٢- فإنَّ عِباديَ المخلَصينَ المتَّقينَ لا قوَّةَ لكَ على قُلوبِهم، ولا مَدخَلَ لكَ إليها ولا سَبيل.
قالَ سُفيانُ بنُ عُيَينَة: مَعناه: ليسَ لكَ عَليهِمْ سُلطانٌ تُلقِيهِمْ في ذَنبٍ يَضيقُ عَنهُ عَفوي. اهـ.
إنَّما سُـلطانُكَ على منِ اتَّبَعَكَ ورَضـيَ بطَريقَتِكَ منَ الزَّائغِينَ الشَّـارِدين، الذينَ خُدِعوا بتَزيينِكَ الباطِلَ لهم، واستَسلَموا للشَّهواتِ وترَكوا المكرُمات.

{وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ} (الحجر : ٤٣)

٤٣- وإنَّ جَهنَّمَ تَنتَظِرُ إبليسَ وكُلَّ مَنِ اتَّبعَه، فقدْ ضَــلُّوا وآثَروا الغِوايَةَ والشَّـــهوةَ، والخَديعَةَ والإفسَاد، على الإيمانِ والاستِقامَة، والجِدِّ والصَّلاح.

{لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ} (الحجر : ٤٤)

٤٤- فهذهِ جهنَّمُ التي حُذِّروا منها، لها سَبعَةُ أبواب، لكُلِّ بابٍ منها صِنفٌ مِنْ أتبَاعِ إبليسَ يَلِجونَ منه، فهمْ درَجاتٌ تحتَ درَجات، فهُناكَ مَنْ ضَلَّ، وهناكَ مَنْ ضَلَّ وأضَلَّ، ومَنْ أضلَّ جَماعةً، أو جيلاً، أو أجيالاً...

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} (الحجر : ٤٥)

٤٥- أمّا المؤمِنونَ المتَّقون، الذينَ امتثَلوا أمرَ اللهِ ولم يُخالِفوه، فهمْ في جَنَّاتٍ واسِعة، وأنهارٍ وعُيونٍ تتَفجَّرُ بالماءِ المعِين.

{ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ} (الحجر : ٤٦)

٤٦- فادخُلوا الجنَّةَ أيُّها المؤمِنونَ بسَلامٍ وأمَان، فلا آفةَ تُصيبُكم، ولا مَوتَ يَختَرِمُكم، ولا خَوفَ يَعترَيكم.

{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ} (الحجر : ٤٧)

٤٧- ونَزَعنا منْ صُدورِ المؤمِنينَ ما كانوا يَجِدونَهُ في الدُّنيا منْ حِقدٍ وحسَدٍ وعَداوة، فصَاروا في الجنَّةِ إخْوانًا جالِسينَ على أسِرَّةٍ مُتقابِلين، مُتحابِّينَ سَالمينَ منْ تلكَ الشوائبِ النفسِيَّة.

{لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ} (الحجر : ٤٨)

٤٨- لا يُصيبُهمْ في الجنَّةِ تعَبٌ وأذًى، وما همْ بخارِجينَ منها، بلْ مُخَلَّدونَ فيها أبدًا.

{نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (الحجر : ٤٩)

٤٩- أخبِرْ عِبادي أيُّها الرَّسُولُ أنَّني أغفِرُ الذُّنوبَ مهما كَبُرَتْ وكَثُرَت، وأرحَمُهمْ ولا أُعَذِّبُهمْ بها إنْ همْ تابُوا وأحسَنوا، فلا يَيأسوا أبدًا.

{وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ} (الحجر : ٥٠)

٥٠- وأنَّ عِقابي هوَ العِقابُ المؤلِمُ الموجِع، الذي لا يُقَدَّرُ قَدْرُه، فَليَلزموا صِــــراطي، وليَبتَعِدوا مِنْ سَخَطي وعِقابي.
وهكذا يَبقَى العَبدُ بينَ الخَوفِ والرَّجاء، والرَّهبَةِ والرَّغبَة، فإنَّهُ أحسَنُ لتَربيَةِ نَفسِه.

{وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ} (الحجر : ٥١)

٥١- وخَبِّرْهُمْ عنْ ضُيوفِ إبراهيم. وكانوا ملائكة، ولم يَعرِفْهمْ أوَّلاً.

{إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ} (الحجر : ٥٢)

٥٢- فدخَلوا عَليهِ وقالوا لهُ مُحَيِّين: ســلامًا. فردَّ عَليهمْ تَحيَّتَهم، ثمَّ قال: نحنُ خائفونَ منكم. وذلكَ عِندَما قَدَّمَ إليهمُ الطَّعامَ فلمْ يأكُلوه!

{قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ} (الحجر : ٥٣)

٥٣- قالوا له: لا تَخَف، إنَّا نُبَشِّـرُكَ بمَولودٍ ذَكَر، يَكونُ ذا عِلمٍ غَزير. والمَقصـودُ إسـحاقُ عَليهِ السَّلام.

{قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ} (الحجر : ٥٤)

٥٤- قالَ لهمْ إبرَاهيمُ مُستَفهِماً مُتَعَجِّبًا: أبشَّـرتُموني بولَدٍ وأنا عَجوزٌ مُسِـنّ، وزوجَتي عاقِرٌ لا تَلِد، فبأيِّ شَيءٍ تُبَشِّروني بعدَ هذا؟

{قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ} (الحجر : ٥٥)

٥٥- قالوا له: بشَّرْناكَ بولَدٍ حقًّا ويَقينًا فلا تَكنْ منَ اليائسينَ بذلك.

{قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ} (الحجر : ٥٦)

٥٦- فقالَ لهم: حاشَـا أنْ أقنطَ منْ رَحمةِ اللهِ وفَضـلِه، فإنَّهُ لا يَيأسُ منْ رَحمَتِهِ إلاّ الخاسِـرونَ المخطِؤون، الذينَ لا يَعرِفونَ سَعَةَ رَحمةِ اللهِ وكمالَ عِلمِهِ وقُدرتِه، بلْ أرجو رحمَتَهُ وأنتَظِرُ وَعدَه.

{قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ} (الحجر : ٥٧)

٥٧- ثمَّ قالَ لهم: فما سَبَبُ مَجيئكمْ أيُّها الملائكةُ المرسَلونَ سِوَى هذهِ البِشارة؟

{قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ} (الحجر : ٥٨)

٥٨- قالوا: لقدْ أُرسِلنا لإهلاكِ قَومِ لُوطٍ المشرِكينَ المجرِمين، الذينَ اتَّخذوا منَ الرِّجالِ شَهوتَهمْ دونَ النساء. وقدْ نَهاهُمْ نبيُّهُمْ عنْ هذا الفِعلِ الشَّنيعِ الذي لم يَسبِقْهمْ إليهِ أحَد، فما انتَهَوا.

{إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ} (الحجر : ٥٩)

٥٩- إلاّ آلَ بَيتِ لوط، فإنَّنا سَنُخَلِّصُهمْ جَميعًا منَ العَذاب؛ لإيمانِهم،

{إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ} (الحجر : ٦٠)

٦٠- إلاّ امرأةَ لوط، التي كانتْ كافِرة، فقضَينا أنْ تبقَى معَ قَومِها في العَذاب.

{فَلَمَّا جَاء آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ} (الحجر : ٦١)

٦١- فلمّا جاءَ الملائكةُ المرسَلونَ إلى آلِ لوط، في صورَةِ شَبابٍ حِسانِ الوجُوه،

{قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ} (الحجر : ٦٢)

٦٢- قالَ لهمْ لُوطٌ عَليهِ السَّلام: إنَّكمْ جَماعَةٌ مَجهولون، لم نَعرِفْكمْ ولم نرَكمْ مِنْ قَبل.

{قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ} (الحجر : ٦٣)

٦٣- قالوا: نحنُ مَلائكةُ الله، جِئناكَ بالعَذابِ والهَلاكِ الذي كنتَ تَتوَعَّدُ بهِ قَومَكَ المجرِمين، وهمْ يُكَذِّبونَكَ ويَستَبعِدونَ نُزولَهُ بهم.

{وَأَتَيْنَاكَ بَالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} (الحجر : ٦٤)

٦٤- وأتيناكَ بالأمرِ المحقَّقِ المتيَقّنِ الذي لا شَـكَّ فيه، وهوَ العَذابُ والدَّمارُ الذي يَحِلُّ بهم، تَصديقًا لوَعدِ الله، ونحنُ صادِقونَ فيما نُخبِرُكَ به.

{فَأَسْـــرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُـــواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ} (الحجر : ٦٥)

٦٥- فامضِ بأهلِكَ بعدَ مُضيّ جُزءٍ منَ اللَّيل، وكنْ خَلفَهمْ تتفقَّدُهمْ وتَحفَظُهمْ حتَّى لا يتأخَّرَ أحَدٌ منهم. ولا يَلتَفِتْ أحَدٌ منكمْ وراءَهُ إذا سَمِعوا الصَّـــيحَة بالقَومِ والعَذابَ الذي يَنزِلُ بهم، وامشُوا في طَريقِكمْ كما يُطلَبُ منكمْ بدونِ تَرَدُّد.

{وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ} (الحجر : ٦٦)

٦٦- وأطْلَعنا لُوطًا على ما يُصيبُ القَومَ منَ الهلاكِ في وَقتِ الصَّباح، نَستَأصِلُ فيهِ شَأفتَهم، فلا يَبقَى منهمْ أحَد.

{وَجَاء أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ} (الحجر : ٦٧)

٦٧- وجاءَ قَومُ لُوطٍ منَ المدينةِ جَماعاتٍ فَرِحين، يُبَشِّـرُ بَعضُـهمْ بَعضًـا، ليَعمَلوا الفاحِشَـةَ بضُيوفِ نَبِيِّهم، في فُجورٍ ورَذالَةٍ مَكشوفَة، وارتِكاسَةٍ في الحَياءِ وشُذوذ.

{قَالَ إِنَّ هَؤُلاء ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ} (الحجر : ٦٨)

٦٨- فقالَ لهمْ لوطٌ عليهِ السَّـلام، وكأنَّهُ يتلَمَّسُ منهمْ ولو شَـيئاً منَ الأدَب: إنَّ هؤلاءِ الذينَ جِئتُمْ إليهمْ ضُـيوفٌ عِندي - قبلَ أنْ يَعرِفَ أنَّهمْ ملائكةٌ - فدَعُوا هذا الذي عزَمتُمْ عَليهِ ولا تَفضَـحُوني أمامَهم، فإنَّهمْ سـيُفاجَؤونَ بما يُنكِرونَهُ أشَـدَّ الإنكار، ويَقولونَ إنَّني لم أسـتَطِعْ أنْ أحمِيَهم، ومِنْ حقّ الضَّيفِ أنْ يُكرَمَ لا أنْ يُهان!

{وَاتَّقُوا اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ} (الحجر : ٦٩)

٦٩- فخافُوا اللّهَ وابتَعِدوا عنْ ضُيوفي، ولا تَنتَقِصوني وتُخجِلوني أمامَهم، فإنَّهُمْ في دَاري وذِمَّتي، وأنا مَسؤولٌ عَنهم.

{قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ} (الحجر : ٧٠)

٧٠- فقالوا لهُ في جَفاءٍ وسُوءِ أدَب: ألَمْ نَمنَعْكَ منِ استِضافَةِ أحَدٍ منَ النَّاس؟

{قَالَ هَؤُلاء بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ} (الحجر : ٧١)

٧١- ثمَّ نبَّهَهُمْ إلى الفِطرَةِ السَّليمةِ لعلَّهمْ يَنتَهونَ ويَكفُّونَ عنهُ شَرَّهمْ وقال: هؤلاءِ بناتي فتزوَّجوهُنّ، فإنَّهُ أطهرَ لكمْ وأنظَفُ منْ هذا العَملِ الفَاحشِ الذي تَبغونَه. (تَفصيلهُ في الآيةِ ٧٨ منْ سُورَةِ هود).

{لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} (الحجر : ٧٢)

٧٢- وكانوا غافِلينَ عمَّا يُرادُ بهم، وقدْ قَرُبَ هَلاكُهم. وحَياتِكَ أيُّها النبيُّ إنَّهمْ في ضَلالِهِمْ وغَيِّهمْ يَلعَبون، وفي حَيرَتِهِمْ وسَفَهِهِمْ يَترَدَّدون(٦٦).

---

(٦٦) {لَعَمْرُكَ}: قسَمٌ من الله تعالى بحياةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وهو المشهور، وعليه الجمهور. و(العمرُ) بالفتحِ والضمِّ واحد، وهو البقاء، إلا أنهم خصُّوا القسَمَ بالمفتوحِ لإيثارِ الأخفّ؛ لأن الحلفَ كثيرُ الدَّورِ على ألسنتهم، ولذلك حذفوا الخبر، وتقديره: لَعَمرُكَ قسَمي. (روح البيان).

أقسمَ تعالى بحياةِ نبيِّهِ صلواتُ الله وسلامهُ عليه، وفي هذا تشريفٌ عظيم، ومقامٌ رفيع، وجاهٌ عريض. قالَ عمرو بن مالك البكري، عن أبي الجوزاء، عن ابنِ عباس، أنه قال: ما خلقَ الله وما ذرأَ وما برأَ نفساً أكرمَ عليه من محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وما سمعتُ اللهَ أقسمَ بحياةِ أحدٍ غيره. (ابن كثير).

{فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ} (الحجر : ٧٣)

٧٣- وجاءَهمُ الخَسْفُ والهَلاك، فقدْ أرْسلَ اللهُ عَليهمْ صَيحَةً مُدَوِّيَةً قاصِفةً رَهيبةً عندَ شُروقِ الشَّمس.

{فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ} (الحجر : ٧٤)

٧٤- فقلَّبنا عَليهمْ أرضَهم، وجَعلنا عاليَ مَدينَتِهِمْ في السُّفل، فصاروا تحتَ الأرض. وأمطَرناهُمْ بوَابلٍ مِنْ طِينٍ مُتحَجِّرٍ مُتراكِم، مُعْلَمٍ مُمَيَّز، ليُصيبَ كُلاًّ باسْمِه.

وقدْ أثبتَتْ دِراســاتُ عُلومِ الأرضِ أنَّ طبقاتِ الصُّــخورِ في مِنطَقةِ جَنوبِ البَحرِ الميّتِ - حيثُ ســكَنُهم - مَقلوبَةٌ رأسًــا على عَقِب، كما وردَ في الآيةِ الكريمة. وذُكِرَ أنَّها غارِقَةٌ على عُمقِ ستَّةِ أمتارٍ تحتَ سَطحِ المياه.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ} (الحجر : ٧٥)

٧٥- وإنَّ فيما أصــابَهُمْ منْ نِقمَةِ الله، وحَلَّ بهِمْ منْ دَمارٍ وخَراب، لعِبرَةً وعِظَةً لمنْ تأمَّلَ وتفرَّسَ في مَصارعِ الغابِرين، وتبصَّرَ في أحوالِ السَّابِقين.

{وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ} (الحجر : ٧٦)

٧٦- وإنَّ آثارَهمْ لتُنبِئُ عنْ حالِهم، وهيَ بطَريقٍ واضِــحٍ غيرِ خَفيّ، وقُراهمْ في مِنطقَةِ البحرِ الميِّتِ يَمرُّ بها النَّاس.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤمِنِينَ} (الحجر : ٧٧)

٧٧- وفي ذلكَ تَذكِرَةٌ تَنفَعُ القُلوبَ المؤمنة، التي تَتدبَّرُ وتَعتَبِر، وتَعلَمُ أنَّ وعدَ اللهِ حَقّ، وأنَّ عَذابَهُ شَديد.

{وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ} (الحجر : ٧٨)

٧٨- وقدْ كانَ أصحابُ الأيكةِ مِنْ قَومِ شُعَيبٍ ظالِمين، بشِركِهِمْ وتَكذيبِهمْ نبيَّهم.

والأَيْكَة: الشَّجَرُ الملتَفّ. وكانوا أصحابَ بَساتينَ وغاباتٍ كَثيفَة.
ذكَرَ ابنُ كثيرٍ أنَّهُمْ أهلُ مَدْيَنَ على الصَّحيح. وقالَ آخَرون: إنَّهُمْ غَيرُهم، وأنَّ شُعَيبًا أُرسِلَ إليهما.

{فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ} (الحجر : ٧٩)

٧٩- فانتَقَمنا منهمْ وأهلَكناهُم، في يَومٍ كانَ عَذابُهُ عَظيمًا، ولم يَعتَبِروا بما أصحابَ قَومَ لُوط، وكانوا أقربَ إلى زَمانِهم. ومدنُهُمْ وآثارُهمْ مثلُ مُدنِ وآثارِ قَومِ لُوط، في طَريقٍ واضِحٍ بينَ الحِجازِ والشَّام، ويَعتَبِرُ بها مَنْ كانَ ذا فَهمٍ وتَدَبُّر.

{وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ} (الحجر : ٨٠)

٨٠- وقدْ كَذَبَ أصحابُ الحِجْرِ - وهمْ قَبيلَةُ ثَمودَ - رسُلَنا، عندَما كذَّبوا نبيَّهمْ صالحًا عَليهِ السلام، فالرِّسالَةُ واحِدة، ومَنْ كذَّبَ واحِدًا فقدْ كذَّبَ الكُلّ، وهوَ يُمَثِّلُهمْ في عَصرِهِ عَليهِ السَّلام.

{وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ} (الحجر : ٨١)

٨١- وأيَّدنا رَسولَنا صالِحاً بالمعجِزات، فآتَيناهمُ الناقَة، وقدْ جاءَتْ منْ عندِ اللهِ ولم يَملِكها أحَد. وطلبَ منهمْ رسُولُهُمْ ألاّ يُؤذُوها، ولكنَّهمْ عَتَوا وتَجَبَّروا وعقَروها.

{وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ} (الحجر : ٨٢)

٨٢- وكانوا غِلاظًا جُفاةً أشِدَّاء، يَنحِتونَ بيوتَهُمْ منَ الجِبال، منْ غَيرِ حَاجةٍ إليها تُذكَر، بلْ أشَرًا وعبَثًا، ويَعيشونَ آمِنين.
وآثارُهمْ مازالتْ مَوجودَة، وتُعرَفُ بمَدائنِ صَالح، في بِلادِ الحرَمين.

{فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ} (الحجر : ٨٣)

٨٣- فلمّا عصَوا رَسولَهم، أهلكَهمُ اللهُ بصَيحَةٍ قويَّةٍ مُفزِعَةٍ في الصَّباح، حيثُ السُّكونُ والهُدوء.

{فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} (الحجر : ٨٤)

٨٤- فلمْ يُغْنِ عَنهمْ ما كانوا فيهِ مِنْ أمْنٍ وبُيوتٍ حَصينَة، ولمْ يَدفَعْ بَلاءَ اللهِ عَنهمْ أموالُهُمْ وزُروعُهمْ وخَزائنُهم...

{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ} (الحجر : ٨٥)

٨٥- وما خَلقنا السَّماواتِ والأرضَ عَبَثًا وجُزافًا، بلْ بالحقِّ والعَدل، وما فيهما منْ مَخلوقاتٍ شَتَّى ونِظامٍ دَقيق، وتَدبيرُها بحكمةٍ - فلا يَعترَيهما ضَعفُ وخَلَلٌ وفَوضَى - يُنبِئُ عنْ قوَّةٍ وعظَمةٍ وإبدَاع.

والسَّاعَةُ قادِمَةٌ لا محَالة، وهيَ منَ الحقِّ الذي يُقيمُهُ اللهُ تعالَى، حتَّى لا تَبقَى مَظلَمَةٌ لأحَدٍ على أحَد، وحتَّى لا يَفوتَ أحَدًا أجرٌ وثَوابٌ عَمِلَهُ في الدُّنيا، فليسَ منَ الحقِّ أنْ يَموتَ الظَّالِمُ ولمْ يُعاقَب، ولم يأخذِ المظلومُ منهُ حقَّه، وليسَ منَ العَدلِ أنْ يَموتَ المظلومُ بمَظلمَتِهِ ولم يَنتَصِرْ لهُ أحَد. واللهُ هوَ الحَقُّ والعَدْلُ الذي يُعطي الحُقوقَ لأصحابِها يومَ الحِسابِ والجَزاء.

فاعفُ عنِ النَّاسِ أيُّها الرسُول، واصفَحْ عمَّنْ آذاكَ منَ المشرِكين، واحلُمْ عَليهمْ بإحسانٍ منكَ وإكرام.

قالوا: وهذا كانَ قبلَ تَشريعِ القِتال.

{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ} (الحجر : ٨٦)

٨٦- إنَّ ربَّكَ خَلاّقٌ لا يُعجِزُهُ شَيء، وسيَأتي بيَومِ الحِسابِ بقُدْرَتِه. وهوَ عَليمٌ بأحوالِ النَّاسِ وأعمالِهم، قدْ أحصاها عَليهم، وكُلٌّ يُحاسَبُ ويُجازَى، ويأخذُ حقَّهُ الكامِل، بحُكمِ اللهِ وعَدلِه.

{وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ} (الحجر : ٨٧)

٨٧- وقدْ أنزَلنا عَليكَ السَّبعَ المثَاني، وهيَ سورَةُ الفاتِحة، كما صَحَّ عندَ البُخاريّ، فهيَ سَبعُ آيات، وهيَ تُثَنَّى في الصَّــــلاة، أو يُثْنَى فيها على اللهِ عزَّ وجَلَّ. وكذلكَ أنزَلنا عَليكَ ســــائرَ القُرآن.

وقدْ خُصَّتِ الفاتِحةُ بالذِّكرِ لفَضلِها، وعِظَمِ نَفعِها وأجرِها، وهيَ تُسمَّى كذلكَ "أمَّ القُرآن"، لأنَّها أصلُ القُرآن.

{لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ} (الحجر : ٨٨)

٨٨- واســـتَغْنِ بهذا القُرآنِ العَظيمِ - أيُّها النبيُّ - عنْ أعْراضِ الدُّنيا الزَّائلَه، ولا تُتابِعْ فِكرَكَ ولا تُدِمْ نَظَرَكَ إلى هذا الذي متَّعْنا بهِ أصـــنافاً منَ المشـــركينَ وأهلِ الكِتابِ مِنَ الأغنياء، منَ المالِ والولَدِ والنِّســـوة، فإنَّما هوَ ابتلاءٌ وامتِحانٌ لهم، ولذَّةٌ مؤقَّتةٌ تَزول. ولا تغتَمَّ لعَدَمِ إيمانِهم، ولا تَحزَنْ لِما يَنتَظِرُهمْ منْ عَذاب، فقدْ كذَّبوكَ ورفَضوا الإيمانَ برِسالتِك، فهمْ أهلٌ لِما يُصيبُهم مِنْ عُقوبة.

وألِنْ جانبَكَ لإخوانِكَ المؤمنين، وتَواضَـــعْ لهمْ وارفُقْ بهم، فهمُ الذينَ يَســـتَحِقُّونَ منكَ البِرَّ والاهتِمام، لا هؤلاءِ المستَكبِرونَ المعانِدون.

{وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ} (الحجر : ٨٩)

٨٩- وقُلْ للنَّاسِ أيُّها النبيّ: إنِّي أُرسِـلتُ إليكمْ لأُنذِرَكمْ وأُخَوِّفَكمْ منْ عَذابٍ إنْ أنتُمْ رفَضـتُمْ دَعوةَ الله، وإنذَاري لكمْ حَقٌّ لا يُنكَر، ووَاضِحٌ بَيِّنٌ لا يَخفَى.

{كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ} (الحجر : ٩٠)

٩٠- وقدْ آتَيناكَ القُرآنَ العَظيم، كما أنزَلنا على أهلِ الكِتابِ كتُبًا سَماويَّة، المتحالِفينَ على مُخالفَةِ الأنبياءِ وتَكذيبِهم.

{الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ} (الحجر : ٩١)

٩١- الذينَ جعَلوا القُرآنَ مَتفرّقًا مُجَزَّءًا، فآمَنوا ببَعضِـه، وكفَروا ببَعضِـهِ الآخَر، وكانَ عَليهمْ أنْ يَتقَبَّلوه، لأنَهُ مِثلُ التَّوراةِ والإنجيلِ منْ عندِ الله.

{فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ} (الحجر : ٩٢)

٩٢- فوَربِّكَ أيُّها النبيُّ سنَسألُهُمْ كُلَّهم، هؤلاءِ المتحالِفينَ وغَيرَهمْ مِنْ مِلَّةِ الكُفر.

{عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (الحجر : ٩٣)

٩٣- ونُحاسِبُهمْ على ما عَمِلوهُ في الدُّنيا: ماذا عَبَدوا، وماذا أجَابوا المرسَلين؟

{فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} (الحجر : ٩٤)

٩٤- فاجهَرْ بما أُمِرتَ بهِ منْ إظهارِ هذا الدِّينِ وتَبليغِه، وأَمْضِـه، ولا تأبَهْ بما يَقولُ المشـرِكون، ولا تُبالِ بمكائدِهم.

{إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ} (الحجر : ٩٥)

٩٥- ولا تَخَفْ أحَدًا مِنْ المسـتَهزِئينَ بك، السَّـاخِرينَ منكَ ومنَ القُرآن، فقدْ كفَيناكَ إيّاهُم، وحَفِظناكَ منهم، فلا يَقدِرونَ على أذيَّتِك. وكانوا مجموعَةً منْ أشقياءِ مكَّةَ وأشرارِها.

{الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} (الحجر : ٩٦)

٩٦- الذينَ يَعبُدونَ معَ اللهِ أصـنامًا ويدَّعونَ أنَّها آلهَة، فسَـوفَ يَعلَمونَ مَصـيرَهم، والعَذابَ الذي كانَ مُدَّخَرًا لهم.

{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ} (الحجر : ٩٧)

٩٧- ونحنُ نعلَمُ أيُّها الرَّسُولُ أنَّكَ تتَحسَّرُ وتَغتَمُّ منْ كلماتِ الشِّركِ والاستِهزاءِ التي يَتلفَّظَ بها المشرِكون.

{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ} (الحجر : ٩٨)

٩٨- فالجَأ إلى اللهِ عندَما يَضيقُ صَدرُكَ بذلك، بتضَرُّعٍ وخُشوع، واحمَدْهُ واثْنِ عَليهِ بما هوَ أهلُه، ونَزِّهْهُ عَمّا يَقولُ فيهِ المشرِكونَ منْ شِركٍ ونَقْصٍ وعَيب.

{وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} (الحجر : ٩٩)

٩٩- ودُمْ على عِبادَةِ ربِّكَ وطاعَتِه، حتَّى يأتيَكَ الموتُ المتيَقَّنُ منه.

سورة النحل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} (النحل : ١)

١- أمرُ اللهِ بالعَذابِ أو بالسَّاعَةِ آتٍ لا مَحالَة، وقدْ قُضِيَ أمرُهُ وانتَهى أيُّها المشرِكون، فلا تَستَعجِلوا ما أوعدَكمْ بهِ نبيُّكمْ مِنْ ذلك، فإنَّهُ كائنٌ في وقتِهِ المقَدَّرِ له، وتعالَى اللهُ وتقَدَّسَ عمَّا يُشرِكُ بهِ المشرِكونَ منْ أوثانٍ وأندَاد، وهوَ سُبحانَهُ مُنزَّهٌ عنِ افتِراءَاتِهِمْ وتَصوُّراتِهِمُ الفاسِدَة.

{يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ} (النحل : ٢)

٢- واللهُ يُنَزِّلُ الملائكةَ بالوَحي منْ أمرِهِ على عِبادٍ لهُ اختارَهمْ للنبوَّة، ليُنذِروا الناسَ ويُعْلِموهمْ أنَّهُ لا مَعبودَ بحَقٍّ في الوجودِ سِواي، فاتَّقوا عَذابي بالإيمانِ ونَبذِ الشِّرك.

{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} (النحل : ٣)

٣- هوَ الذي خلقَ السَّماواتِ والأرضَ وما فيهما بالحقِّ والعَدل، لا باطِلَ فيهِ ولا لَعِب، وكُلُّ ما فيهما يَنطِقُ بوحدانيَّةِ اللهِ وقُدرتِهِ وإبداعِه، وقدْ خُلِقَتا لحِكمَةٍ وغايَة.

{خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ} (النحل : ٤)

٤- وهوَ الذي خلقَ الإنسانَ منْ مَنيٍّ ضَعيفٍ مَهين، فإذا بهِ عندَما يَكبَرُ يُخاصِمُ ربَّهُ بالباطِلِ في وجودِهِ ووحدانيَّتِه، ويُكَذِّبُهُ في وَحيِهِ وآياتِه، وقدْ خُلِقَ عَبدًا مَملوكًا لرَبِّه.

{وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} (النحل : ٥)

٥- وهوَ الذي خَلقَ لكمُ الأنعَام، منْ إبِلٍ وبقَرٍ وغنَمٍ ومَعْز، لتَكونَ لكمْ دِفئًا، في أصْوافِها وأوْبارِها وأشْعارِها وجُلودِها، تَلبَسونَها وتفترِشونَها وتَلتَحِفونَ بها، وتأكلونَ منْ لحومِها، وتَشرَبونَ منْ ألبانِها، وتُتاجِرونَ بها...

{وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ} (النحل : ٦)

٦- وعلى هذهِ الحيواناتِ مُسحَةُ جَمالٍ وزِينَةٍ تُبهِجُ نفوسَكمْ وتُريحُ أنظارَكم، حينَ تَردُّونَها عَشِيًّا منَ المرعَى إلى مبارِكِها لتَستَريح، وحينَ تُرسِلونَها بالغَداةِ إلى المرعَى لتَسرَح.

{وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} (النحل : ٧)

٧- ومِنْ هذهِ الحيَواناتِ ما تَحمِلونَ عَليها أحمالَكمُ الثَّقيلَةَ إلى بلادٍ بَعيدَة، وتَعجزونَ عنْ حَملِها بأنفُسِكم، وإذا فعَلتُمْ ذلكَ وَجدتُمْ مشَقَّةً بالِغةً حتَّى تَصِلوا إليها، كالحجّ، والغَزو، والتِّجارَة...وإنَّ رَبَّكمُ الذي سَخَّرَ لكمْ هذهِ الحيواناتِ، وهيَّأها للإطعامِ والرُّكوبِ والتَّحميل، ذو رَحمَةٍ كبيرةٍ بكم.

{وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} (النحل : ٨)

٨- وخلقَ لكمُ الخَيل، والبِغَال، والحَمِير، وهيَ أكثرُ الحيواناتِ استخدامًا للرُّكوب، لمسافاتٍ قَريبةٍ وبَعيدَة، وتتَّخِذونَ منها زينَة، في بيوتِكم، أو في حدائقِ الحيَوانات، أو في مواكِبَ لكم، تتَمتَّعونَ بالنظَرِ إلى صوَرِها وحركاتِها وسُلوكِها.

ويَخلقُ اللهُ ما لا تَعرِفونَهُ مِنَ الأحياء، وما لم تَسمَعوا بِهِ ولم يُحِطْ بهِ إدراكُكم، في بلادٍ وأزمانٍ أخرَى.

{وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} (النحل : ٩)

٩- وعلى اللهِ تَبيينُ الطَّريقِ المستَقيمِ الذي لا يَحيدُ عنِ الحقّ، فلا يَلتوي ولا يَنحَرِف، ومِنَ الطُّرُقِ ما هوَ مُنحَرِفٌ زائغٌ عنِ الحقّ، كاليهوديَّةِ والنصرانيَّة، ولو أرادَ اللهُ لجمعَكمْ على مِلَّةٍ

التَّوحيدِ وألزَمَكمْ بها، وسيَكونُ ذلكَ بغيرِ اختيارِكم، لكنَّ اللهَ شاءَ أنْ يُعطيَكمْ حرّيَةَ الاختيار، لتكونوا مَسؤولينَ عنِ الأعمالِ التي تختارونَها، وسَوفَ تُحاسَبونَ عَليها.

{هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ} (النحل: ١٠)

١٠- هوَ اللهُ رازِقُكمْ والمنعِمُ عَليكم، الذي أنزلَ منَ السَّماءِ المطَر، فتشرَبونَ الماءَ الذي يجتَمِعُ منه، وتَسْقُونَ بهِ أشجارَكمْ وزرُوعَكمْ ونَباتاتِكم، وترعَونَ فيها مَواشيَكم.

{يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (النحل : ١١)

١١- ويُخرِجُ اللهُ لكمْ بهذا الماءِ ما يكونُ مَعاشًا لَكم، منَ الزُّروعِ بأنواعِها، والزَّيتون، والنَّخيل، والأعْناب، وغَيرِها منْ أنْواعِ الثَّمرَات، وفي ذلكَ دَلالَةٌ على تَدبيرِ اللهِ لهذا الكَون، وعلى قُدرَتِهِ وإبداعِهِ في الخَلق، لمنْ تفكَّرَ وتدبَّر، ونظرَ فاعتبَر.

{وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (النحل : ١٢)

١٢- وذَلَّلَ اللهُ لكمُ اللَّيلَ والنَّهار، يَخلُفُ أحدُهما الآخَر، اللَّيلُ بهُدوئهِ لِسَكنِكمْ ومَنامِكم، والنَّهارُ بضِيائهِ وحَرارَتِهِ لعمَلِكمْ ومَعاشِكم. وسخَّرَ لكمُ الشمسَ والقمرَ في حركَةٍ دائمَة، ليتَشكَّلَ مِنْ سَيرِهما اللَّيلُ والنَّهار، ويَستفيدَ مِنهما الإنسَانُ في حَياتِه، ولا غِنَى لهُ عَنهما. وهذهِ النُّجومُ بأعدادِها الكثيرَة، وأجرامِها المضيئة، وحركاتِها الدائبةِ في مَدارِها، مُذَلَّلاتٌ بأمرِه، يَتصرَّفُ فيها ولا يَمتَنِعُ عَليهِ شَيءٌ منها، وفي ذلكَ كُلِّهِ أدِلَّةٌ على قُدرَةِ اللهِ وعظَمتِه، لمنْ فَهِمَ وتَدبَّر، وعقَلَ فوعَى.

{وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ} (النحل: ١٣)

١٣- وكذلكَ ما خلقَهُ اللهُ لأجلِكمْ في الأرْض، منْ حيَوانٍ ونَباتٍ ومَعادِن، أصـــنافًا مُتعَدِّدَةً ولفَوائدَ مُختَلِفَة، وفي ذلكَ حُجَجٌ وأدِلَّةٌ على وُجودِ خالقٍ لها، مُتَّصِـــفٍ بكَمالِ العِلمِ والقُدرَةِ والخَلق، وهذا يُفيدُ مَنْ تذَكَّرَ وتدبَّر، واتَّعظَ واعتبَر.

{وَهُوَ الَّذِي سَــخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْــتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُــونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (النحل : ١٤)

١٤- وهوَ الذي سخَّرَ لكمُ البَحرَ وما فيه، لتأكلوا اللَّحمَ الطريَّ اللَّذيذَ مِنَ البَحرِ المالِح، منْ أنواعِ أسماكِهِ وحيَواناتِهِ البحريَّة، أو ليُحْفَظَ ويُمَلَّحَ ويُبرَّدَ ويوزَّع، فتَستَفيدَ منهُ أُمَم. ولتَستَخرِجُوا منهُ أنواعَ الحُليّ، منَ اللُّؤلؤ والمرجان، والقواقِعِ والأصداف، تَتزَيَّنونَ بها وتَتجَمَّلون.

وترَى السُّــفُنَ والبواخِرَ تشُــقُّ الماءَ وتَســيرُ عَليه، واللهُ هوَ الذي جعلَ في البَحرِ خاصِّــيةَ تحَمُّلِ السفُنِ لتَطفُوَ فَوقَها، فتَستَخدِمَونها في شُؤونِكم، وتَبتَغونَ بها الرِّزقَ مِنْ فَضلِ ربِّكم، ولتَشكروهُ على ما أنعمَ بهِ عَليكم، وسهَّلَ لكمُ الانتفاعَ به، ولتُطيعوهُ وتوَحِّدوه.

{وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} (النحل: ١٥)

١٥- واللهُ الذي ألقَى في الأرْضِ الجبالَ الثَّابتةَ لتَحفَظَ توازُنَ الأرضِ بأمرِه، فلا تتَحرَّكَ ولا تَضْطَرِب. وشَقَّ فيها أنهارًا تَنبُعُ منْ أماكِنَ مُختَلِفَة، وتَسيرُ بينَ البُلدانِ لتَسقيَ الزُّروعَ والمواشي، وليُســـتفادَ منْ تَخزينِها وطاقَتِها. وجعلَ في الأرْضِ كذلكَ طُرُقًا يَســـيرُ فيها النَّاسُ حتَّى بينَ الجِبال، وتوجَدُ طرقٌ تِجاريَّةٌ مَعروفَةٌ منذُ القِدَم، منها ما يُســـتَخدَمُ حتَّى الآن، وإنِ اختلفَتِ الوسائل؛ لتَهتَدوا بها في سَيرِكمْ مِنْ بلَدٍ إلى آخَر.

{وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} (النحل : ١٦)

١٦- وجعلَ في الأرضِ دَلائلَ ومَعالِمَ تَكونُ عَلاماتٍ على الطُّرُق، مِنْ جِبالٍ بأحجامِها وأشكالِها المختَلِفَة، ومَناهِلَ وتِلالٍ ظاهِرَة، يَهتَدي بها المسافِرونَ في البرِّ والبَحر، كما يَهتَدونَ بالنُّجومِ في ظَلامِ اللَّيلِ منْ خلالِ أماكنِها ويَعرِفونَ بها الجِهات.

{أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ} (النحل : ١٧)

١٧- أفمَنْ يَخلُقُ كُلَّ هذا – ولا يَقدِرُ على الخَلقِ إلاّ اللهُ – كالذي لا يَخلُق، بلْ لا يَقدِرُ على الحرَكة، ولا يَفهَمُ ولا يَنطِق، ولا يَسمَعُ ولا يَعي؟ فكيفَ تَعتَقِدونَ بهذهِ الأصْنامِ أيُّها المشرِكون؟ أمْ كيفَ تُشرِكونَها معَ الله؟ أفلا تُلاحِظونَ وتُقارِنون؟ ألا تَعقِلونَ وتَتدبَّرون؟

{وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} (النحل : ١٨)

١٨- ونِعَمُ اللهِ وفَضائلُهُ كَثيرَةٌ وفائضَةٌ عَليكم، ممّا ذُكِرَ وممّا لم يُذكَر، وإذا حاوَلتُمْ عَدَّها فلنْ تُحصُوها ولنْ تَضْبِطوا عددَها، وأنتُمْ غافِلونَ عنْ أكثَرِها، ولو حاسبَكمُ اللهُ على شُكرِ جَميعِها لغلبَكمُ الحِساب، ولكنَّهُ سُبحانَهُ يَغفِرُ لِعبادِهِ ويَعفو عمَّا بدرَ منهمْ منْ عَدمِ القيامِ بحُقوقِها، ويَرحَمُهمْ بإدامَةِ هذهِ النِّعَمِ عَليهم.

{وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} (النحل : ١٩)

١٩- واللهُ يَعلَمُ ما تُخفُونَ في نفُوسِكمْ منْ عَقائدَ وأفْكار، كما يَعلَمُ ما تُظهِرونَ منها، فلا يَخفَى عَليهِ شَيء.

{وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ} (النحل : ٢٠)

٢٠- وهذهِ الأصْنامُ التي يتَّخِذُها المشرِكونَ آلِهة، لا يَقدِرونَ على خَلقِ شَيء، بلْ همْ مَخلوقونَ ويُصنَعون، ولا يَشعُرونَ بعبادَةِ المشركِينَ لهم.

{أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} (النحل : ٢١)

٢١- فهمْ جامِدونَ لا حَياةَ فيهمْ ولا رُوح، فلا يَسمَعُونَ ولا يرَون، ولا يَجلُبُونَ خَيرًا ولا يَدفَعُونَ شَرًّا، ولا يَدرونَ متَى تَقومُ السَّاعَة، فكيفَ يُرتَجَى نَفعُهم أو ضَرُّهم؟

{إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ} (النحل : ٢٢)

٢٢- إنَّما إلهُكمْ وخالِقُكمْ هوَ اللهُ الذي لا إلهَ غَيرُه، ولا شَـــريكَ له، والذينَ كفَروا بالبَعثِ والجَزاءِ قُلوبُهُمْ جاحِدَةٌ للوَحدانيَّة، مُستَكبِرَة، لا تَتقبَّلُ الآياتِ الواضِحَةَ والأدِلَّةَ الصَّحيحَةَ على ذلك.

{لاَ جَرَمَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ} (النحل : ٢٣)

٢٣- حقًّا إنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على ما يُضـــمِرُ هؤلاءِ الكافِرونَ منَ الإنكار، وما يُظهِرونَهُ منَ الاستِكبار، واللهُ يَبْغُضُ المستَكبِرينَ الذينَ يَتعالَونَ على الحَقّ، فلا يُرتَجَى منهمُ اقتِناعٌ وإيمان.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ} (النحل : ٢٤)

٢٤- وإذا قيلَ لهؤلاءِ المستَكبِرينَ الضَّالِّين: ما الذي أنزلَهُ اللهُ على محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: ما هذا الذي يُتلَى عَلينا سِـــوَى خُرافاتٍ وحِكاياتٍ شَـــعبيَّةٍ باطِلَةٍ مُسَـــطَّرةٍ في كتُبِ المتقَدِّمين، وليسَتْ وَحيًا.

{لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِـــلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَـــاء مَا يَزِرُونَ} (النحل : ٢٥)

٢٥- قالوا هذا بدونِ تدَبُّرٍ ولا مُبالاة، وســـيَتحمَّلونَ مَســـؤوليَّةَ قَولِهِمْ هذا وما يَترَتَّبُ عَليه، فسيَحمِلونَ آثامَ مُكابَرَتِهِمْ وضَلالِهِمْ كامِلةً يومَ القِيامَة، معَ حَمْلِ ذُنوبِ مَنْ أضَلُّوهم، فقدْ كانوا يُزَيِّنونَ لهمُ الكُفر، أو يَمنَعونَهُمْ منَ الإيمان، وصـارَ أتباعُهمْ والمتأثِّرونَ بهمْ يُقَلِّدونَهُمْ بعدَما ماتوا، وهمْ لا يَعلَمونَ ولا يَشعُرونَ بأنَّ أعمَالَ المقَلِّدينَ السيِّئةَ تُكتَبُ في صَحائفِهِمْ أيضًا، فقدْ كانوا همْ سبَبَها، وسيَعلمونَ ذلكَ يَومَ الحِساب. فبئسَ ما يَرتَكبونَهُ ويَجلُبونَهُ لأنفسِـهمْ منْ ذُنوب، تؤدِّي بهمْ إلى الجَحيم.

{قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّـقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ} (النحل : ٢٦)

٢٦- لقدِ احتالَ كثيرونَ ممَّنْ قَبلَهمْ لإضـــلالِ النَّاسِ وصَـــرفِهمْ عنِ الدِّينِ الحقّ، ولكنَّ اللهَ أهلكَهم، وهدمَ ما شَادُوهُ ممّا كانوا يَفتَخِرونَ به، مِنْ قُصورٍ عَاليَة، وبناياتٍ ذاتِ أُسُسٍ مَتينَةٍ وقَواعِدَ صُـلبَة، فهُدِمَتِ الأسَـاسَـاتُ الضَّـخمَة، والسُّـقوفُ العالِيَةُ المتِينَة، وأُطبِقَتْ عَليهم، فصَـدَمَهمُ العَذابُ ولَحِقَهمْ منْ أعلَى ومِنْ أسـفَل، مِنْ حَيثُ لا يَخطُرُ لهمْ على بال، فصَـاروا أنقَاضًا تحتَ أنقاض، لا صَوتَ لهمْ ولا حرَكةَ فيهم.

{ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُـــرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـــاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ} (النحل : ٢٧)

٢٧- وفي يَومِ القِيامَةِ يَكونُ عِقابُهمْ أكبَر، فيُذِلُّهُمُ اللهُ ويُهينُهمْ على رُؤوسِ الخَلق، ويَقولُ لهمْ تَبكيتًا وتَوبيخًا: أينَ همْ شُـــركائي الذينَ كنتُمْ تَعبدُونَهمْ وتُدافِعونَ عَنْ أُلوهيَّتِهمْ أمامَ الأنبياءِ والنَّاس، ليَنتَصِـروا لكمْ ويُخَلِّصـوكمْ مِنْ عَذابي؟ قالَ أهلُ العِلمِ والإيمانِ منَ الأنبياءِ والمؤمنينَ في الموقِف: إنَّ العَارَ والعَذابَ اليَومَ على أهلِ الكُفرِ والضَّلال.

{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (النحل : ٢٨)

٢٨- هؤلاءِ الذينَ تأتي إليهمُ الملائكةُ المكلَّفَةُ بقَبضِ الأرْواح، وهمْ في سـاعَةِ الاحتِضـار، وقدْ ظَلَموا أنفُسَـهمْ بكُفرِهمْ وعِصـيانِهم، يَستَسلِمونَ لهمْ ويُظهِرونَ السَّمعَ والطَّاعَة، ويَقولونَ وهمْ في مَوقِفِ ذُلٍّ وإهانَة: ما كُنّا نعمَلُ عمَلاً سـيِّئاً، ولا ارتَكبنا خطأ! بلَى أيُّها المشـرِكون، إنَّ اللهَ عَليمٌ بما كسَبتُمْ منْ سُوءٍ وضَلالٍ وفُجور، وسيُجازيكُمْ على كُلِّ ذلك.

{فَادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} (النحل : ٢٩)

٢٩- فادخُلوا جَهنَّمَ، مِن أبوابِها المعدَّةِ لكلِّ صِـــنفٍ مِنكم، بما كسَـــبتُمْ مِنْ أعمَالٍ سَـــيِّئة، ماكثِينَ فيها أبدًا، وبئسَ المستَقَرُّ والمقام، الذي ليسَ فيهِ سِوَى العَذابِ والهَوان.

{وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ} (النحل : ٣٠)

٣٠- وقيلَ للمُؤمِنينَ السُّعَداء: ماذا أنزلَ ربُّكمْ على محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم؟ فقالوا: أنزَلَ خَيرًا ورَحمةَ وبَرَكة. ولِمَنْ آمنَ وعَمِلَ صالِحًا في هذهِ الحياةِ الدنيا مَثوبَةٌ حسَنةٌ وحَياةٌ طَيِّبَة، وفي يَومِ القِيامَةِ جَزاءٌ أفضَـــلُ وحَياةٌ أنعَمُ وأهنأُ ممّا أُوتوا في الدُّنيا، ونِعمَ الدارُ الآخِرةُ لمنِ اتَّقَى ربَّهُ وصبَرَ على طاعتِه.

{جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَـــآؤُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللّهُ الْمُتَّقِينَ} (النحل : ٣١)

٣١- لهمْ جَنَّاتٌ مُعَدَّةٌ لإقامَةٍ دائمَة، يَدخُلونَها ويَسكنونَ فيها فَرِحِينَ مُبتَهجِين، تُزَيِّنُها الأنهارُ جارِيَةً بينَ قُصورِها وأشجارِها، ولهمْ فيها ما يَشاؤونَ منْ أنواعِ المطعُوماتِ والمشَارِبِ والثِّمارِ اللَّذيذَة. وبِمِثلِ ذلكَ الثَّوابِ الكبيرِ يَجزي اللّهُ بهِ عِبادَهُ المؤمِنينَ الصَّالِحِين.

{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَـــلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (النحل : ٣٢)

٣٢- الذينَ يأتِي إليهِمْ مَلائكةُ الموتِ فيَقبِضـــونَ أرْواحَهمْ وقدْ طابَتْ نفوسُـــهمْ بلِقاءِ الله، وطَهُرَتْ وزَكَتْ بالعِلمِ والإيمان، قائلينَ لهمْ تَرحيبًا بهم: "سـلامٌ عَليكم"، فلا خَوفَ عَليكمْ ولا أذًى يُصيبُكم، ادْخُلوا الجَنَّةَ جَزاءَ عَملِكمُ الطيِّبِ وصَبرِكمْ على طَاعةِ ربِّكم.

{هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} (النحل : ٣٣)

٣٣- ما يَنتَظِرُ هؤلاءِ المشرِكونَ إلا أنْ تأتِيَ مَلائكةُ الموتِ فتَقبِضَ أرْواحَهمْ وهمْ مُستَمِرُّونَ في ضَـلالِهِم، أو يأتِيَ أمرُ اللهِ بقيامِ السَّـاعَةِ وهمْ قائمُونَ على ذلك. وكذلكَ كانَ أمرُ مَنْ سَـبَقَهمْ مِنْ أهلِ الشِّرك، الذينَ اغترُّوا بالدُّنيا وتَمادَوا في الباطِل، حتَّى حَلَّتْ بهمْ نِقمَةُ اللهِ وذاقُوا عَذابَه. وما ظلمَهمُ اللهُ بهذا، فقدْ أُنذِروا منْ قِبَلِ رسُلِه، وجاءَتهُمُ المعجِزات، والكتُب، فكفَروا وعصَوا،

فكانَ ما أصابَهُمْ بسَببِ نُفوسِهمُ الظالِمَة، التي أصَرَّتْ على تَكذيبِ رُسُلِ رَبِّها، واستَمرَّتْ في غَيِّها، مُصِرَّةً على باطلِها، غَيرَ آبِهةٍ بعَواقِبِها.

{فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} (النحل : ٣٤)

٣٤- فنزَلتْ بهمْ عُقوبَةُ أعمَالِهم، جَزاءَ غَيِّهمْ وظُلمِهمْ لأنفُسِهم، وسُوءِ اختِيارِهمْ وعَدَمِ تدبُّرِهم، وأحاطَ بهمْ عَذابُ الله، وقدْ كانوا يستَبعِدونَهُ ويَسخَرونَ بالرسُلِ إذا توعَّدوهمْ به.

{وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ} (النحل : ٣٥)

٣٥- وقالَ المشرِكونَ مُحتَجِّينَ بالقَدَر: لو أرادَ اللهُ لما عَبَدْنا معَهُ الأصْنام، نحنُ ولا آباؤنا، ولا حرَّمْنا شَيئًا ممّا نُحَرِّمُهُ الآن، ولكنَّهُ شَاءَ ذلك، وإذا شَاءَ أمرًا فهوَ يَعني مَشروعيَّتَهُ ورِضاهُ عَنه، ولذلكَ فإنَّ ما نحنُ عَليهِ صَحيحٌ ومَشروع!

وهذا كَذِبٌ وجدَلٌ عَقيم، وقدِ افترى مِثلَ هذا الكَذبِ أُمَمٌ كافِرَةٌ ضَلَّتْ قَبلَهمْ وعاقَبَهمُ الله. أمَا بلَّغَ الرسُلُ رسَالةَ ربِّهمْ بشَكلٍ واضِحٍ جَليّ، وفيها إنكارٌ لعمَلِ المشرِكين، ونَهيٌ عنْ مُعتَقداتِهم، وتَنبيهٌ إلى ضَلالِهم، وإنذارٌ لهمْ وتَذكير، وأنتُمْ كذلكَ أيُّها المشرِكون، واللهُ لا يَرضَى بكُفرٍ ولا شِرك، فكَيفَ تُحيلونَ شِرْكَكُمْ إليه؟!

{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} (النحل : ٣٦)

٣٦- وقدْ أرسَلنا لكُلِّ أُمَّةٍ منَ الأُمَمِ السَّابقَةِ رَسُولاً يأمرُهمْ بعبادَةِ اللهِ وحدَه، واجتِنابِ كُلِّ ما عَداهُ مِنْ وثَنيَّةٍ وضَلالٍ وفِكرٍ لا يوافِقُ دِينَ الله.

فمِنْ هذهِ الأُمَمِ مَنْ هَداهمُ اللهُ إلى الحقِّ بعدَ إنذارِ الرسُل، فاستَجابوا لنداءِ ربِّهِمْ والتَزَموا بأحكامِ دِينِه، ومنهمْ مَنْ أبَى فكفَرَ واتَّبعَ طَريقَ الطَّاغوت، فثَبَتَتْ عَليهمُ الضَّلالة.

"وهذا الفَريقُ وذلك، كِلاهُما لم يَخرُجْ على مَشيئةِ الله، وكِلاهُما لم يَقسِرْهُ اللهُ قَسْرًا على هُدًى أو ضَلال، إنَّما سلَكَ طريقَهُ الذي شاءَتْ إرادَةُ اللهِ أنْ تَجعلَ إرادتَهُ حُرَّةً في سُلوكِه، بعدَما زوَّدَتْهُ بمعالِمِ الطَّريقِ في نَفسِهِ وفي الآفاق"، كما قالَهُ صاحِبُ "الظِّلال".

فامشُـــوا في الأرض – أيُّها المكَذِّبونَ المســـتَهزؤونَ – مُفكِّرينَ مُعتَبرينَ منْ آثارِ السَّـــابقينَ وأحداثِهِمْ وقَصَصِهم، وما حَلَّ بهِمْ منْ عُقوبَةٍ ونَكال، جَزاءَ كُفرِهِمْ وتَكذيبِهِمْ أنبياءَهم، معَ ما يَنتَظِرُهُمْ مِنْ عَذابٍ في الآخِرَة.

{إن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ} (النحل : ٣٧)

٣٧- ومَهما كُنتَ مُتألِّمًا أيُّها النبيُّ لِما يَنتَظِرُهمْ نَتيجةَ إصْـرارِهِمْ على الكُفر، وحَريصًـا على هِدايَتِهمْ وإيمانِهِم، فاعلَمْ أنَّ حِرصَـــكَ هذا لنْ يَنفعَهمْ شَـــيئاً، إنَّما وظيفتُكَ البَلاغ، واللهُ لا يَهدي مَنِ اختَارَ طَريقَ الضَّـــلالَة، ولا يَقسِـــرُهمْ على الإيمان، وسَـــوفَ يَلقَونَ جَزاءَ تَقليدِهِمْ وسُـوءِ اختيارِهِمْ ومُكابَرَتِهِمْ عنِ اتِّباعِ الحقّ، ولنْ تَجِدَ مَنْ يَنتَصِـرُ لهمْ ويُخَلِّصُـهمْ منْ عَذابِ اللهِ يَومَ القيامَة.

{وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} (النحل : ٣٨)

٣٨- وأقسَـمَ المشـرِكونَ باللهِ قسَـمًا عَظيمًا مُبالَغًا فيه، أنَّ اللهَ لنْ يَبعثَ أحَدًا بعدَ مَوتِه، فلا حياةَ بعدَ الموتِ عندَهم، ولا حِســابَ على الأعمال، ولا ثَوابَ ولا عِقاب. فإذا ماتَ الظَّالِم، والخائن، والقاتِل، والسَّـــارِق، ولم يؤخَذْ حَقُّ الناسِ منهمْ في الدُّنيا، ماتَ كما يَموتُ المظلومُ والعادِلُ وغَيرُه! ولو كانَ خائنَ وطَن، أو قاتِلَ ملايينِ البشَـــر، أو آكِلَ أموالِ فُقَراءَ ويتامَى، وخَزائنُهُ مَملوءَةٌ بالمالِ والذَّهَب...!!

بَلى، وَعدًا صـــادِقًا وحقًّا ثابِتًا على اللهِ الحَكَمِ العَدْل، أنْ يَبعثَ مَنْ يَموت، ليَتِمَّ الجزاءُ على أكمَلِه، ويُعاقَبَ المجرِمُ، ويُثابَ المحسِـــنُ. ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعلَمونَ ذلك، لجَهلِهِمْ بحكمةِ اللهِ وقُدرتِه.

{لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ} (النحل: ٣٩)

٣٩- ليُبَيِّنَ اللهُ لهمْ حَقيقَةَ ما كانوا يَختَلِفونَ فيه، والحقَّ الذي خالَفوه، ممّا كانَ الرسُلُ يَدعوهُمْ إليه، و {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى} {سورة النجم: ٣١}. وليَعلمَ الذينَ كفَروا بالبَعثِ والحِسابِ أنَّهُمْ كانوا كاذِبينَ في حَلِفِهمْ بأنَّ اللهَ لنْ يَبعثَ أحَدًا.

{إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} (النحل : ٤٠)

٤٠- وقدْ غفَلَ هؤلاءِ المشرِكونَ عنْ قُدرَةِ اللهِ وعظَمتِه، وأنَّ خَلْقَ شَيءٍ أو إعدامَهُ مِنْ قِبَلِهِ لا يَحتاجُ سِوَى إلى أمرِهِ به، فيَكونَ كما أراد، دونَ تأخير، ولا يُكَلِّفُهُ - جَلَّتْ قُدرتُه - وقتًا أكثرَ إنْ كانوا كُثُرًا {مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [سورة لقمان: ٢٨].

{وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} (النحل : ٤١)

٤١- والذينَ هاجَروا مِنْ دِيارِهِمْ وأموالِهم وأهاليهم، وفَرُّوا بدِينِهِمْ ابتِغاءَ مَرضاةِ رَبِّهِم، بعدَ أنْ عانَوا الظُّلمَ والأذَى والعَذاب، سنُعَوِّضُهمْ خَيرًا ممّا فَقَدوا، منْ مَكانة، ومَال، ومَنزِل. وقدِ ادَّخرَ اللهُ لهمْ في الآخِرَةِ ثَوابًا أعظَمَ ممّا أُعطُوا في الدُّنيا. ولو كانَ الكافِرون، أو المتَخَلِّفونَ عنِ الهِجرَة، عرَفوا ما للمُهاجِرينَ منَ الأجْر، لتَمنَّوا لو كانوا مِثلَهم.

{الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} (النحل : ٤٢)

٤٢- الذينَ صبَروا على أذَى قَومِهمْ وتَحَمَّلوا ظُلمَهم، كما صبَروا على مَشاقِّ الهِجرَةِ والغُربَة، وقدْ فوَّضوا أمرَهمْ إلى الله، واعتَمدوا عَليهِ وحدَه، فلهمْ أجرُهمْ عندَه.

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} (النحل : ٤٣)

٤٣-ولستَ الوحيدَ المرسَلَ منَ البشَرِ حتَّى يَتعَجَّبَ قَومُكَ مِنْ ذلك، فقدْ أرسَلنا قبلكَ رسُلاً منهمْ وليسَ منَ الجِنِّ والملائكة، يَتنَزَّلُ عَليهمُ الوَحيُ كما يَتنَزَّلُ عَليك، وقدْ بلَّغوا دِينَ اللهِ كما تُبَلِّغُه، وأيَّدَهمُ اللهُ بالمعجِزاتِ كما أيَّدكَ بها.

واسألوا مُؤمِني أهلِ الكتبِ المتَقَدِّمَة، منَ العُلماءِ بالتَّوراةِ والإنجِيل، عنْ جِنسِ الأنبياءِ المرسَلِ إليهم، أكانوا مَلائكةً أمْ بشَرًا؟ اسألوهمْ إنْ لم تَكونوا عالِمينَ بذلك، فإنَّهمْ يَعلَمونَه.

{بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} (النحل : ٤٤)

٤٤- أرسَلناهُمْ بالدلائلِ والكتُب[٦٧]. وقدْ أنزَلنا عَليكَ القُرآنَ الكريمَ أيُّها الرسُول، لتُبيِّنَ لأهلِ الكتابِ وجْهَ الحقِّ فيما يَختلِفونَ فيه. ونُفَصِّلُ للنّاسِ ما يَلزَمُهمْ منهُ بقَولِكَ وفِعلِكَ - كما في السنَّةِ النبويَّةِ - ليَتفَكَّروا في آياتِهِ وأحكامِه، ويَعرِفوا أنَّهُ لخَيرِهِمْ وصالحِهم، وفَلاحِهم.

{أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ} (النحل : ٤٥)

٤٥- فهلْ أمِنَ المشرِكونَ العاصُونَ أنْ يَنتَقِمَ اللهُ منهم، فيُزَلزِلَ الأرْضَ منْ تَحتِ أقدامِهمْ فَجأةً منْ دونِ إنذار، أو يُنزِلَ بهمْ عَذابَهُ بأيِّ كيفيَّةٍ وهمْ لاهُونَ غارِقونَ في لَذائذِ الدُّنيا وآمالِها؟

{أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ} (النحل : ٤٦)

---

(٦٧) البيّنات: دلائلُ الصدق، من معجزاتٍ أو أدلَّةٍ عقلية. (التحرير والتنوير).

٤٦- أو يأخُذَهمْ عَذابُ اللهِ وهمْ مُشْــتَغِلونَ بمَعايشِ الدُّنيا وأسْــفارِها ورحَلاتِها ومَشــاريعِها التِّجاريَّةِ وآمالِهِم العَريضَــةِ فيها، وهمْ غافِلونَ عمَّا يَنتَظِرُهمْ مِنْ حِســاب، ولا قُدرةَ لأحَدٍ منهمْ على دَفعِ نِقمَةِ اللهِ عَنهم، أينَما كانوا، ومَهما ابتعَدوا وتَحصَّنوا.

{أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ} (النحل : ٤٧)

٤٧- أو أنْ يأخُذَهمُ اللهُ وهمْ في حَالِ خَوفٍ مِنْ أنْ يُنزِلَ بهمْ عَذابَه، وقدْ أخَذوا أُهبتَهمْ واحتَاطوا لأمرِهم، فلنْ يُجديَ هذا أيضًــا شَــيئًا عنهمْ إذا أرادَ اللهُ إهلاكَهم، ولكنَّهُ رَحيمٌ بهمْ إذْ لم يُعاجِلْهُمْ بالعَذاب، فيُمهِلُهمْ ويُعطِيهمْ وَقتًا ليَتفَكَّروا ويُقَرِّروا.

{أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَــيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّــمَآئِلِ سُــجَّداً لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ} (النحل : ٤٨)

٤٨- ألا يَنظُرونَ إلى ما خَلقَهُ اللهُ مِنْ أشْــجَارٍ وجِبالٍ وشُــخوصٍ، وظِلالُها تَرجِعُ وتتَنقَّلُ مِنْ جانِبٍ إلى آخرَ بارتِفاعِ الشَّمسِ وانحِدارِها، وهيَ خاضِعَةٌ لأمرِه، مُذَلَّلة مُنقادَةٌ لإرادَتِه؟

{وَلِلّهِ يَسْــجُدُ مَا فِي السَّــمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْــتَكْبِرُونَ} (النحل : ٤٩)

٤٩- وكُلُّ ما في السَّماواتِ وما في الأرْض، ممّا لهُ ظِلٌّ وما ليسَ لهُ ظِلّ، منْ مَخلوقاتٍ مُتحرِّكَةٍ تَدُبُّ على الأرْض، تَســجدُ للهِ وتَنقادُ لأمرِه، وكذلكَ الملائكة، يَســجدونَ لهُ ولا يَتكبَّرونَ عنْ عِبادَتِه.

{يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} (النحل : ٥٠)

٥٠- يَســـجدونَ خائفينَ وَجِلينَ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ ومالِكِ أمرِهم، ويَفعَلونَ ما يُؤمَرونَ بهِ على الدَّوام.

{وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلـهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ فَإيَّايَ فَارْهَبُونِ} (النحل : ٥١)

٥١- وقالَ اللهُ تعالَى آمِراً ومُحَذِّراً: لا تتَّخِذوا إلهَينِ اثنَينِ تَعبُدوهُما، إنَّما المعبودُ بحَقٍّ هوَ اللهُ وحدَه، فهوَ الرَّبُّ الخالِقُ المالِكُ لا غَيرُه، فإذا كنتُمْ خائفينَ منْ شَــــيءٍ فخَافونِ أنا، فالحياةُ والَممات، وما بينَهما، والثوابُ والعِقاب، بيدي.

{وَلَهُ مَا فِي الْسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ} (النحل : ٥٢)

٥٢- وللهِ مُلْكُ ما في السَّـــماواتِ وما في الأرْض، ولهُ وحدَهُ الطاعَةُ والانقِياد، واجِبًا لازِمًا، ودائمًا ثابِتًا مُتواصِلاً، وكُلُّ ما عُبِدَ مِنْ دونِ الله باطِلٌ زائل، وتَبقَى العِبادَةُ الحقيقيَّةُ والصحيحَةُ للهِ الباقي وحدَه، فلا دينَ إلاّ دِينُه، ولا عِبادَةَ إلاّ له. وبعدَ هذا أتَخافونَ غَيرَ اللهِ وهوَ الذي بيدِهِ كُلُّ شَيء؟

{وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} (النحل : ٥٣)

٥٣- وما تَرَونَهُ مِنْ نِعمَةٍ في حَياتِكمْ ومَعاشِـكمْ فمنَ اللهِ وحدَه، فهوَ المنعِمُ والمتفَضِّـلُ عَليكمْ بذلكَ كُلِّه، لا غَيرُه، فالكُلُّ مُلكُهُ وتَحتَ تَصَـرُّفِه، وإذا أصــابَتْكُمْ مُصـيبَة، مِنْ مَرَضٍ ومَجاعَة، وكَرْبٍ وبَلاء، فإليهِ وحدَهُ تَضِـجُّونَ بالدُّعاءِ ليَكشِـفَ ما بكم، فتَنطِقُ فِطرَتُكمْ وتَفقَهُ قُلوبُكمْ آنَذاكَ أنَّهُ لا أحدَ يَسمعُكمْ أو يُنقِذُكمْ ممّا أنتُمْ فيهِ سِوَاه.

{ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} (النحل : ٥٤)

٥٤- فإذا أزالَ عَنكمْ ما أصـابَكم، وأجابَ دُعاءَكم، إذا قِسمٌ منكمْ يُشرِكونَ بربِّهم، ويَعودونَ إلى عِبادَةِ الأصنام، وقدْ عَلِموا وقتَ الضرَّاءِ أنَّها لا تُنقِذُهمْ منَ الكَرْبِ الذي هُمْ فيه.

{لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} (النحل : ٥٥)

٥٥- ليَكونَ حاصِـلَ أمرِهمْ كفرُهمْ بنِعمةِ اللهِ ورحمتِه، وكانَ كَشْـفُ اللهِ ما بهِمْ منْ كَرْبٍ وبلاءٍ مَدعاةً لهمْ إلى التفكُّرِ والاعتِبار، والاعتِرافِ بفَضــــلِه، ثمَّ طاعَتِهِ والتزامِ نَهجِه، ولكنَهمْ كفَروا وأشــــرَكوا. فابقُوا في الدُّنيا مُدَّةَ ما قدَّرَهُ اللهُ لكمْ فيها، وتَلذَّذوا بمَلَذَّاتِها، وتَلَهُّوا بمَتاعِها، فإذا جاءَ وعدُهُ وعِقابُه، فستَعلَمونَ عاقِبةَ أمرِكم، وما يَنزِلُ بكم.

{وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ} (النحل: ٥٦)

٥٦- ويَجعَلُ المشرِكونَ الضَّالُّونَ لآلِهَتِهم - التي لا يَعلَمونَ أنَّها لا تَفقَهُ ولا تَسمَع، ولا تَضُرُّ ولا تَنفَع - نَصيبًا منْ أرْزاقِهم، منَ الحَرْثِ والأنعَام، تَقَرُّبًا إلَيها، فلا يأكلونَ لحمَها، ولا يَركبونَها {وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَـذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا} [سورة الأنعام: ١٣٦]. وسيُسألونَ ويُحاسَبونَ يَومَ القِيامَةِ على هذا الكذِبِ والافتِراء، مِنْ عِبادَتِهِمْ الأصنامَ وتَقَرُّبُهِمْ إليها، وتَحليلِهِمْ وتَحريمِهِمْ مِنْ عندِ أنفُسِهم، واختِلاقِهِمُ الكذِبَ على اللهِ بذلك.

{وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ} (النحل : ٥٧)

٥٧- وهؤلاءِ المشرِكونَ الجاهِلونَ يَجعَلونَ مِنَ الملائكةِ إناثًا، ويَدَّعونَ أنَّها بَناتُ الله، ويَعبدونَها معَه! واشتَهرَ بهذا القَولِ قَبيلَتا خُزاعةَ وكِنانة. تنَزَّهَ اللهُ وتَقدَّسَ عنْ قَولِهِمْ وإفكِهم، يَجعَلونَ لرَبِّهِمُ البَناتِ التي يَكرَهونَها، ويَختارونَ لأنفُسِهِمْ ما يَشتَهونَ مِنَ البَنين!

{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ} (النحل : ٥٨)

٥٨- وإذا أُخبِرَ الجاهِليُّ المشرِكُ بولادَةِ أُنثى له، صارَ وجهُهُ مُسْوَدًّا منَ الهمِّ والكآبةِ والكرَاهيَة، والنُّفورِ والضِّيقِ ممّا بُشِّرَ به، وهوَ ساكِتٌ مَهموم، قدِ امتلأ حُزنًا وكمَدًا مِنْ ذلك، وكأنَّ بلاءً نزلَ به!

{يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ} (النحل : ٥٩)

٥٩- فيَتَستَّرُ مِنْ قَومِهِ ويَختَفي عنْ أنظارِهِمْ حتَّى لا يَرَونَهُ وهوَ في هذهِ الحالِ المعِيبَة، يَغيبُ عَنهمْ أيّامًا وهوَ يُفَكِّرُ ما الذي يَصنَعُهُ بهذهِ الأُنثَى: أيُبقِيها حَيَّةً ويَتحمَّلُ هوانَها، أو يُبقيها مُهانَةً لا يوَرِّثُها، أمْ يَدفِنُها حَيَّةً تحتَ التُّرابِ ويَتخَلَّصُ منْ هذا العَارِ الذي لحِقَه؟!

{لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّـــوْءِ وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (النحل: ٦٠)

٦٠- للكافِرينَ الذينَ لا يؤمِنونَ بيَومِ الحِسـابِ صِـفَةُ النَّقص: كحاجَتِهِمْ إلى الشَّـراكةِ للعَيشِ مِنْ زَوجَةٍ ووَلَد، واللهُ ليسَ كذلك، وصِفَةُ السُّوء: كصَنيعِهِمْ في الإناثِ ووَأدِهِنَّ، معَ انحرافِهِمْ في العَقيدَة، والفِكرِ والسُّــلوكِ في هذا وغَيرِه. وللهِ تَعالَى الصِّــفَةُ العُليا والكمالُ المطلَق، ولا مُقارنةَ بينَهُ وبينَ غَيرِهِ سُــبحانَه، وهوَ العَزيزُ الذي لا يُمانَعُ منْ أيِّ قَولٍ أو فِعل، الحَكيمُ الذي يَضَعُ الأمورَ في مواضِعِها كما يَنبَغي أنْ تَكون، فلا يُراجَعُ ولا يُخَطَّأ.

{وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إلَى أَجَلٍ مُّسَـــمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ} (النحل : ٦١)

٦١- ولو يُعاقِبُ اللهُ النَّاسَ على ظُلمِهمْ وأعمالِهِمُ الإجراميَّةِ في هذهِ الحياة، لأهلَكَهمْ ولم يُبْقِ منهمْ أحدًا، ولكنَّهُ سُـــبحانَهُ عَفوٌّ حَليمٌ لا يُعاجِلُهمْ بالعُقوبَةِ المقَدَّرَةِ عَليهم، وهوَ لا يُهمِلُهمْ بهذا، بلْ يُريهِمْ آياتٍ وعُقوباتٍ وأمثالاً، عدا ما أرسَـــلَ منْ رسُـــلٍ وأنزَلَ منْ كتُب، ليَبحَثوا ويَتفكَّروا، وليَفقَهوا ويَتدَبَّروا. وليسَ هذا إلى الأبَد، بلْ إلى أجَلٍ مَحدود، فإذا جاءَ الوَقتُ الذي تُحصَدُ فيهِ أرواحُهمْ لا يُؤَجَّلون، فلا يتأخَّرونَ عنْ مَوعِدِ مَوتِهِمْ أقَلَّ مُدَّةٍ ولا يَتقَدَّمونَه.

{وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِـفُ أَلْسِـنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْـنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ الْنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ} (النحل : ٦٢)

٦٢- وهؤلاءِ المشركونَ الضَّـالُّونَ يَجعَلونَ للهِ ما يَبغُضُـونَهُ لأنفُسِهم! فتَراهُمْ يُشرِكونَ بِهِ وهمْ لا يُحِبُّونَ الشِّـرْكَةَ في الأمر، بلْ يُحِبُّونَ أنْ يَسـتأثِروا بِهِ كُلِّه. ويَجعَلونَ لهُ البَناتِ وهمْ يُحِبُّونَ البَنين. وهمْ معَ ضَـلالِهِمْ وفَسـادِ مُعتَقَدِهِمْ يَقولونَ في كَذِبٍ واضِـحٍ إنَّ لهمْ مَكانَةً حسَـنةً في الدُّنيا أو في الآخِرَة! ولكنَّ الحقَّ الذي لا بُدَّ منهُ أنَّ مَصـــيرَهُمُ النارُ يَومَ القِيامَة، مُعَجَّلينَ إليها غَيرَ مؤجَّلين.

{تَاللّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (النحل : ٦٣)

٦٣- واللهِ لقدْ أرسَلنا إلى الأُمَمِ السابِقَةِ رُسُلاً مِنْ قَبلِك، كما أرسَلناكَ إلى قَومِكَ أيُّها النبيّ، فأغوَاهمُ الشَّيطانُ وزَيَّنَ لهمْ سُوءَ مُعتَقَدِهمْ وانحِرافَ سُلوكِهم، فهوَ مُلهِمُهمْ ومُشَجِّعُهمْ كما يَظهَرُ مِنْ أقوالِهمْ وأعمالِهم، ولهمْ في الآخِرَةِ عَذابٌ شَديدٌ على طاعَتِهمْ له، دونَ طاعَةِ رسُلِهم.

{وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (النحل : ٦٤)

٦٤- وما بَعَثناكَ رسُولاً إلاّ لتُبيِّنَ للنَّاسِ الحقَّ الذي همْ فيهِ مُختَلِفون، منَ العَقيدَة، والبَعث، وأحكامٍ في الحَلالِ والحَرام، وغَيرِ ذلك، وتَفْصِلَ بينَ أهلِ الكتابِ فيما شَجَرَ بينَهمْ مِنْ خِلافٍ كذلك، وليَكونَ القُرآنُ الموحَى بهِ إليكَ كتابَ هِدايَةٍ لقُلوبِهم، ورحمةٍ لهمْ في مَعاشِهمْ ومَعادِهم، هذا لقَومٍ يؤمِنونَ بذلك، ويَعلَمونَ أنَّ هذا الدِّينَ هوَ الحقُّ مِنْ رَبِّهم، وأنَّ فيهِ فَوزَهمْ وفَلاحَهم.

{وَاللّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} (النحل : ٦٥)

٦٥- وأنزلَ اللهُ المطَرَ منَ السَّحاب، فأحيا بهِ زُروعًا وأشْجارًا، وأناسيَّ وحيَوانات، وفجَّرَ بهِ عُيونًا، وخَزَّنَ منهُ في الأرضِ لحاجَةِ الإنسَان، بعدَ أنْ كانتِ الأرضُ يابِسَةً لا حَياةَ فيها. وفي ذلكَ دَليلٌ على قُدرَةِ اللهِ تعالَى وحِكمَتِه. هذا لمنْ سَمِعَ وعقَل، وتدبَّرَ وفَهِم.

{وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ} (النحل : ٦٦)

٦٦- ولكمْ في الأنعامِ عِبرَةٌ وعِظَةٌ كَبيرة[٦٨]، تدلُّ على قُدرَةِ اللهِ وإبداعِهِ في الخَلق، فنَسقِيكمْ منْ بُطونِها الحَليبَ المفيد، وهوَ مُستَخلَصٌ مِنْ فَرْثٍ ودَم. والفَرْثُ: مُحتوياتُ الكِرْشِ مِنْ عَلَفٍ مُخَمَّر، وهوَ ما يَتبَقَّى فيهِ بعدَ الهَضم.

وتَبدأُ عمَليَّةُ تَصفيَةِ الحَليبِ في الكِرش، فتَتحَوَّلُ الجُزَيئاتُ الغِذائيَّةُ المعَقَّدَةُ في العلَفِ إلى خُلاصَاتٍ بَسيطَةٍ تَختَرِقُ جِدارَ الأوعيَة الدَّمويَّةِ لتَصِلَ إلى الغُدَدِ اللَّبَنيَّةِ في الضَّرع.

والمرحلَةُ الثانيَةُ مِنَ التصفيَةِ تَتِمُّ بينَ الموادِّ الموجودَةِ في الدَّم، فيَنتُجُ منها الحَليبُ الخالِصُ مِنْ قَذارَةِ الفَرْثِ ونَتْنِ الدَّم، ببَديعِ صُنعِ الله. والإعجازُ في: كيفَ يُسمَحُ لمكوَّناتٍ بدخولِ الضَّرع، ولا يُسمَحُ لأخرَى؟!

ويَخرجُ إلَينا الحَليبُ طيِّبًا سَهلاً سائغًا للشُّرب، هَنيئًا لا يُغَصُّ به، سالِماً نَظيفًا غيرَ مُمتَزجٍ بدَمٍ أو فَرْث، ولا مُتغَيِّرًا بريحِهما أو طَعمِهما أو لَونِهما.

{وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (النحل : ٦٧)

٦٧- ولكمْ عِبرَةٌ أيضًا فيما نَسقيكمْ ونُطعِمُكمْ مِنْ ثَمَراتِ النَّخيلِ والأعنابِ وعَصيرِهما، فتَصنَعونَ منهُ خَمْرًا - والخِطابُ للمشركين، أو هوَ بيانٌ للواقعِ الذي كانوا فيهِ قبلَ أنْ يُحَرَّمَ الخَمرُ - وتأكلونَ منهُ رِزقًا حسَنًا، منْ تَمرٍ وزَبيب، وما استُخلِصَ منهما مِنْ دِبسٍ وخَلٍّ وغَيرِ ذلك. وفيهِ إشارَةٌ إلى أنَّ الخَمرَ ليسَ رِزقًا حسَنًا.

وفي ذلكَ دَليلٌ ظاهِرٌ للعُقلاءِ أنَّ هذهِ الثَّمراتِ لم تُخلَقْ مُصادفَة، وأنَّ مُكوَّناتِها ومَنافِعَها الغِذائيَّةَ والطبِّيَّةَ تدلُّ على صُنعِ خالِقٍ عالِمٍ حَكيم.

(٦٨) الأنعامُ هي الإبِلُ والبقرُ والغنَمُ والمعْز.

{وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} (النحل : ٦٨)

٦٨- وألهمَ اللهُ النَّحْلَ وأرشَدَها: أنِ اتَّخذي لكِ بيوتًا في الجِبال، وعلى الأشْجار، وممّا يَرفَعهُ الناسُ منْ أشْجارِ العِنَب.

{ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (النحل : ٦٩)

٦٩- ثمَّ كُلِي مِنْ جَميعِ الثَّمَراتِ وامتَصِّي رَحيقَ الأزهار، واسْلُكي الطُّرُقَ التي جعَلَها اللهُ لكِ سَهلةً مُذَلَّلة، منَ التَّجوالِ في البَراري والغَابات، ثمَّ العَودَةِ إلى أماكنِها، بما فطرَها اللهُ عَليهِ مِنْ أفانينَ لتَعرِفَ ما تأكُل، وكيفَ تَعود، وكيفَ تَبني خَلاياها المتماثِلَةَ الجَميلَة. يَخرُجُ مِنْ بُطونِها عسَلٌ ذو ألوان: أبيَضُ وأحمَرُ وأصفَرُ وأسوَد، فيهِ شِفاءٌ للنّاسِ مِنْ أمراضٍ كَثيرَة، كما ثبتَ في تجارِبَ طِبِّيَّةٍ حَديثَةٍ أيضًا، إضافَةً إلَى ما يَطعَمُونَهُ هكذا أو مُختَلَطًا في مَذاقٍ لَذيذ.

وفي ذلكَ كُلِّهِ آيَةٌ عَظيمَةٌ على قُدرَةِ اللهِ وبَديعِ صُنعِه، وأنَّهُ ليسَ عنْ مُصادَفَةٍ وطَبيعَة، هذا لِقَومٍ تفَكَّروا وتدَبَّروا، ليَعتَبِروا ويؤمِنوا.

{وَاللّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} (النحل : ٧٠)

٧٠- واللهُ خَلَقَكمْ - أيُّها الناسُ - ولم تَكونوا شَيئًا، وهوَ الذي يَتوفَّاكُم: أطفالاً، وشَبابًا، ورِجالاً. ومِنكمْ مَنْ يُعمَّرُ فيَهرَم، ويَرجِعُ إلى أردَأ العمُرِ وأوضَعِه، حتَّى يَضْعُفَ عَقلُهُ وقوَّتُه، ويُصيبَهُ العَجْزُ والخرَف، فلا يَدري شَيئاً، بعدَ أنْ كانَ عالِمًا عارِفًا. واللهُ عَليمٌ بأحوالِكمْ وأعمارِكم، قادِرٌ على ما يَشاء، ومِنْ ذلكَ زيادَةُ العمُرِ ونَقصُه.

وكانَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَتعوَّذُ منْ خَمْس، بينَهنَّ الردُّ إلى أرذَلِ العُمُر، كما في صَحيحِ البُخاريّ.

{وَاللّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاء أَفَبِنِعْمَةِ اللّهِ يَجْحَدُونَ} (النحل : ٧١)

٧١- واللّهُ آثَرَ بعضَكمْ على بَعضٍ فيما رزَقَكمْ منْ مَالٍ ومَتاع، فمِنكمْ أغنياءُ ومِنكمْ فُقَراء، لحِكمَةٍ يَعلمُها سُبحانَه، وابتِلاءً منهُ لعَبيدِه. وأصحابُ المالِ منكمْ - أيُّها المشرِكونَ - لا يَرضَوْنَ أنْ يُعطُوا أموالاً لهمْ لأرِقّائهمْ ليَكونوا شُرَكاءَ فيهِ مُتساوين، فكيفَ يَرضَونَ أنْ تُشارِكَ مَخلوقاتٌ للّهِ في مُلكِهِ وسُلطانِهِ ويَعبدونَها معَه؟! أتَكفُرونَ بنعمَةِ اللّهِ وتُخالِفونَ أمرَه، فتُشرِكونَ بِهِ بدلَ أنْ تَشكروا نِعمتَه؟

{وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ} (النحل : ٧٢)

٧٢- وقدْ جعلَ اللّهُ لكمْ زَوجاتٍ منْ جِنسِكمْ وشِكلِكمْ لتأنَسوا بهنَّ وتأتَلِفوا، وجعلَ لكمْ منهنَّ أبناءً وأحفادًا، تَبتَهِجونَ برُؤيَتِهِمْ وتَرَونَ فيهِمُ امتِدادًا لأعمارِكم، ورزَقَكمُ النِّعَمَ والأطعِمةَ الحَلال، وبعدَ كُلِّ هذهِ الآياتِ والنِّعَمِ مِنْ ربِّهِم، يؤمِنونَ بمَنفَعةِ الأصْنامِ الصمّاء، ويَكفُرونَ بنِعَمِ اللّهِ وآلائه، فيَعبدونَها معَه، ويَجعَلونَ لها نَصيبًا مِنْ أرزاقِهِمْ وهيَ مِنْ عندِ رَبِّهِم!

{وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ} (النحل : ٧٣)

٧٣- يَعبدونَ الأصنامَ التي لا تُجيبُ لهمْ نِداء، ولا تَجلُبُ لهمْ رِزقًا، لا منَ السَّماءِ ولا منَ الأرْض، لا مطَرًا ولا نَباتًا، ولا أيَّ شَيءٍ آخَر، قَليلاً كانَ أو كثيرًا، فهي لا تَملِكُ شَيئاً ولا تُمَيِّزُه، لأنَّها لا تَقدِرُ على ذلكَ أصْلاً، فهي أحجَارٌ صمَّاءُ لا تَعي ولا تَسمَع.

{فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} (النحل : ٧٤)

٧٤- فلا تُشَبِّهوا اللّهَ بشَيءٍ مِنْ مَخلوقاتِه، ولا تَجعَلوا لهُ شَريكًا، فلا مِثْلَ لهُ ولا نَظِير، واللّهُ يَعلَمُ ويَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلاّ هو، ويَعلَمُ أنَّكمْ مُخطِؤونَ جاهِلونَ بشِرْكِكم، وأنتُمْ لا تَعلَمونَ عِظَمَ ما تَقتَرِفونَ مِنْ إثمٍ بإشراكِكُمْ تلكَ الأصنامَ معَ الإلهِ الحقّ.

ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} (النحل : ٧٥)

٧٥- ضـــربَ اللهُ لكمْ مثلاً لتُقارِنوا وتَعقِلوا: عَبدٌ مَملوكٌ عاجِزٌ لا يَقدِرُ على عمَل، ولا يُقَدِّمُ شَيئاً لسيِّدِهِ ليَنتَفِعَ به، وآخَرُ عامِلٌ مُنتِجٌ يَكسِبُ مالاً طيِّبًا حَلالاً، ويُنفِقُ منهُ على المحتاجينَ والمِلهوفينَ سِرًّا وعَلانية، فهلْ يَستوي بطَّالٌ عاجِزٌ وعامِلٌ نَشيطٌ ينفَعُ أهلَهُ ومُجتَمعَه؟ إنَّهُمْ لا يَســتَوون، ولكنَّ أكثرَ المشـــرِكينَ الجاهِلينَ لا يَعلَمونَ ذلكَ حَقيقَة، ولا يُطَبِّقونَهُ واقِعًا، فهمْ يُسَــوُّونَ في العِبادَةِ بينَ رَبِّ العِبادِ وهوَ خالِقُهمْ ورازِقُهم، ومَخلوقاتِهِ منَ الأصـنامِ التي لا تَقدِرُ على إنتاجِ شَيءٍ ونَفعِ أحَد؟ وللهِ المَثَلُ الأعلى.

{وَضَــرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَــيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (النحل : ٧٦)

٧٦- ومَثَلٌ آخَرُ ضَربَهُ اللهُ لكم: رَجُلان، أحَدُهما أخرَسُ أصَمُّ لا يَنطِقُ ولا يَسمَع، ولا يَفهَمُ ولا يُفهِم، ولا يَفعَلُ شَيئًا يَنفَعُ بِهِ نفسَهُ أو الآخَرين، وهوَ عِيالٌ ووَبالٌ على أبيهِ العَامِلِ أو مَنْ يَعولُه، فإذا كَلَّفَهُ بشَـــيءٍ رجعَ ولم يَفعَلْ شَــيئاً. فهلْ يَســـتوي هوَ وآخَرُ يَقولُ الحقَّ ويأمرُ بالمعروفِ والقِسط، ويَنهَجُ مِنهَجًا صَحيحًا مُستَقيمًا ويَعمَلُ صالِحًا؟

لا شَكَّ أنَّهُمْ لا يَستَوون، ولكنَّ المشرِكينَ الضَّالِّينَ يَجعَلونَ منَ الأصنامِ البَكماءِ آلِهة، ويُسَوُّونَ بينَها وبينَ اللهِ تَعالَى في العِبادَة!

قالَ ابنُ عَبّاسٍ رَضـيَ اللهُ عَنهما: نزَلَتْ في عُثمانَ بنِ عَفَّانَ ومَولًى له، كانَ يُنفِقُ عَليهِ ويَكفيهِ المؤونَة، وكانَ الآخَرُ يَكرَهُ الإسلامَ ويأباه، ويَنهاهُ عنِ الصَّدقَةِ والمعروف.

والعِبرَةُ بعُمومِ اللَّفظِ وما يَرمي إليه.

{وَلِلّهِ غَيْبُ السَّــمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّــاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَــرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (النحل : ٧٧)

٧٧- واللهُ وحدَهُ يَعلَمُ ما غابَ عنِ الإنسانِ ممّا في السَّماءِ والأرْض، ولا يَعلَمُ أحَدٌ سِرَّ هذا الغَيبِ إلاّ أنْ يُعَلِّمَهُ اللهُ شَيئًا منه، وقيامُ السَّاعَةِ أحَدُ أمورِ الغَيبِ الذي استأثَرَ اللهُ بعِلمِه، وما أمرُ كونِها إلاّ كطَرْفِ العَين، بلْ أسرعُ منه! واللهُ قادِرٌ على هذا وغَيرِه، فإنَّما أمرُهُ إذا أرادَ شَيئًا أنْ يَقولَ لهُ كُنْ فيَكون.

{وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (النحل : ٧٨)

٧٨- وقدْ أخرجَكمُ اللهُ مِنْ أرحامِ أُمَّهاتِكمْ وأنتُمْ لا تَنطِقونَ ولا تَعلَمونَ شَيئاً منَ الحياة، وخلقَ فيكمُ السَّمعَ لتَسمَعوا ثمَّ تَعُوا، والأبصَارَ لتُبصِروا ثمَّ تتفكَّروا، والأفئدَةَ لتفقَهوا وتَعتَبِروا، وتتَعلَّموا شَيئاً فشَيئاً، ولتَشكروا اللهَ ربَّكمْ على نِعمةِ هذهِ الحَواسِّ وغَيرِها، وتُدرِكوا بها فَضلَهُ عَليكم.

{أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (النحل : ٧٩)

٧٩- ألا يَنظُرُ النّاسُ إلى هذهِ الطيورِ المذَلَّلات، التي تَطيرُ في الجَوّ، كيفَ أنَّ اللهَ أودَعَ فيها القُدرَةَ على الطَّيران، وجعلَ في الجوِّ الهواءَ ليتَلاءَمَ معَ حرَكَةِ طيَرانِها، ولا يَقدِرُ على إبقائهنَّ في السَّماءِ هكذا إلاّ اللهُ تَعالَى، خالِقُ الطَّيرِ وطَيَرانِها. وفي ذلكَ دَلالَةٌ على قُدرَةِ اللهِ العَظيم، لمنْ يؤمِنُ بِهِ ويُعَظِّمُه، ويَنتَفِعُ بكلامِهِ ويَعقِلُه.

{وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ} (النحل : ٨٠)

٨٠- وجعلَ اللهُ لكمْ منَ البُيوتِ التي تَبنُونَها وتأوونَ إليها سَكنًا وطُمأنينَةً تأمَنونَ فيها وتَرتاحُون. وجعلَ لكمْ منْ جُلودِ الأنعامِ بيوتًا كذلك، حيثُ يَخِفُّ عَليكمْ حَملُها في أسفارِكم، فتَنصِبونَها في الأرضِ وتَرفَعونَها كالأخبيَةِ وتأوونَ إليها أو تَستَظِلُّونَ بها، كما تستَخدِمونَها في

مَواطنِ إقامَتِكم، كالقِبابِ والأخبيَةِ والخِيامِ والفَســاطِيط. وكانتْ تُعمَلُ منَ الجُلودِ والشَّــعَر. وتَســتَفيدونَ منْ أصــوافِ الضَّــأن، وأوْبارِ الإبِل، وأشــعارِ المِعْز، فتتَّخِذونَ منها المالَ والمتاعَ والثِّيابَ والفُرُشَ والأكسية... وتتَمَتَّعونَ بها إلى أجَلٍ مَحدودٍ لكم.

{وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَــرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ} (النحل : ٨١)

٨١- وخلقَ اللهُ أشْياءَ تَستَظِلُّونَ بها مِنْ شِدَّةِ الحرّ، كالأشجارِ والجِبالِ والغَمام، عَدا منافعِها الأخرَى.

وجعَلَ لكمْ منَ الجِبالِ مَواضِعَ تَلجَؤونَ إليها، كالقِلاعِ والحُصونِ والأسْراب.

كما جعلَ لكمْ ثيابًا تَمنَعُكمْ منْ أثَرِ الحرِّ والبَرْد، منَ الصُّوفِ والقُطنِ والكَتَّانِ والحَرير.

ودُروعًا ومَغافِرَ تَمنَعُ وصولَ السِّلاحِ إلى أجسادِكم.

وهكذا يَجعَلُ اللهُ لكمْ ما تَســتَعينونَ بهِ على أمورِكمْ في حَياتِكم، لتَعرِفوا حقَّ النعمَةِ والمنعِم، وتؤمِنوا.

{فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ} (النحل : ٨٢)

٨٢- فإذا أبَوا وأعرَضوا، وأصَرُّوا على الكُفرِ والعِصيان، فلا شَأنَ لكَ بهم، ولا تَهتَمَّ بأمرِهم، فما عَليكَ سِوَى التَّبليغ، وقدْ فَعَلتَ.

{يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ} (النحل : ٨٣)

٨٣- إنَّهُمْ يَعرِفونَ أنَّ هذهِ النِّعمَ هيَ منْ عندِ الله، ولكنَّهمْ يَجحَدونَ ذلكَ عندَما يَعبُدونَ معَهُ غَيرَه، فأكثرُهمْ كافِرونَ مُنكِرون.

{وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَــهِيداً ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلاَ هُمْ يُسْــتَعْتَبُونَ} (النحل : ٨٤)

٨٤- ويَومَ القِيامَةِ نَبعَثُ مِنْ كُلِّ أمَّةٍ نَبيًّا يَشـــهَدُ بما رَأى مِنها مِنْ إيمانٍ وكُفر، ولا نَســـمَحُ يَومَئذٍ للكافِرينَ بالاعتِذار، ولا بطَلَبِ الرِّضـا منَ الله، بتَوبَةٍ أو عمَلٍ صـالِح، فقدْ فاتَ أوانُه، وحانَ وَقتُ الحِسابِ والجَزاء.

{وَإِذَا رَأى الَّذِينَ ظَلَمُواْ الْعَذَابَ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ} (النحل : ٨٥)

٨٥- وإذا عايَنَ الكافِرونَ الظَّالِمونَ نارَ جَهنَّمَ وقدْ عَرَفوا مَصـيرَهمْ بظُلمِهم، فلنْ يُخَفَّفَ عنهمُ العَذاب، ولا همْ يُمهَلونَ في مَوقِفِ العَرْضِ والحِساب، بلْ يؤخَذونَ سَريعًا ليُلاقُوا مَصيرَهم.

{وَإِذَا رَأى الَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَاءهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَـــؤُلاء شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ} (النحل : ٨٦)

٨٦- وإذا رَأى المشرِكونَ يَومَ القِيامَةِ أصنامَهمُ التي جعَلوها شُركاءَ معَ اللهِ في الدُّنيا قالوا: ربَّنا هؤلاءِ همْ شُـــركاؤنا الذينَ كُنَّا نَعبُدُهمْ مِنْ دونِك، قالوا ذلكَ لإحالَةِ الذَّنْبِ إليهم! فقالتِ الأوثانُ - وقدْ أنطقَهـا الله - تَبَرُّؤاً منهمْ ومِنْ اتِّهـامـاتِهم، إنَّكمْ كـاذِبون، فلمْ نَطلُـبْ منكمْ عِبادَتَنا، ولا طَلَبنَا تَسميتَنا آلِهة.

{وَأَلْقَوْاْ إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} (النحل : ٨٧)

٨٧- ولم تَبقَ للمُشـرِكينَ أيَّةُ حُجَّةٍ يُقَدِّمونَها ليُزيحوا عنْ أنفُسِـهمْ عُقوبَةَ النَّار، فاسـتَسـلَموا وانقَادوا للحُكمِ العادِلِ الصَّـــادرِ بحَقِّهم، ولم تَنفَعْهمْ آلهتُهمُ المزعومَةُ شَـــيئًا، وقدِ ادَّعَوا أنَّها ستَنصرُهمْ وتَشفَعُ لهم.

{الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَـــدُّواْ عَن سَـــبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِـــدُونَ} (النحل : ٨٨)

٨٨- إنَّهمْ كفَروا بالله، ومَنَعوا النَّاسَ منِ اتِّباعِ دينِ الإسْـلام، بلْ حَمَلوهمْ على الكُفر، فكانتْ عاقِبَتُهمْ مُضــــاعَفَة: عَذابٌ على كُفرِهم، وعَذابٌ على مَنعِهِمُ النَّاسَ منِ اتِّباعِ الدِّين؛ وهذا جَزاءُ فَسادِهمْ وإفسادِهم.

{وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَـؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} (النحل : ٨٩)

٨٩- ويَومَ القِيامَةِ نَبعَثُ نبيًّا في كُلِّ أُمَّةٍ أُرسِلَ إليهِمْ في الدُّنيا، لِيَشهدَ بما رأى منهمْ منْ إيمانٍ وكُفر، وطاعَةٍ ومَعصِيَة، وجِئنا بكَ – أيُّها النبيُّ – شَاهِدًا تَشهَدُ على أُمَّتِك. وقدْ أنزَلنا عَليكَ القُرآنَ بيانًا لكلِّ شَيءٍ نافِعٍ يُحتاجُ إليه. والمقصُود: الكُلِّيات، فقدْ جمعَ القُرآنُ جَميعَ الأحْكامِ جَمعًا كُلِّيًا في الغالِب، وجُزئيًّا في المهِمّ.

وفيهِ هِدايَةٌ للقُلوبِ منَ الضَّلال، ورَحمَةٌ بالنَّاسِ في دَعوَتِهِ وأحكامِه، وبِشارَةٌ للمسلِمينَ بالفَوزِ والفَلاحِ وقدْ آمَنوا به.

{إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (النحل : ٩٠)

٩٠- إنَّ اللهَ يأمرُ عِبادَهُ بالعَدلِ والإنصَاف، ليَكونَ ذلكَ قاعِدَةً أساسيَّةً في الحُكمِ والتَّعامُل، لا تَميلُ معَ هوًى ومَنصِب.

ويأمرُ بالإحسَانِ في الأعمَالِ معَ العِباد، والإحسَانِ في العِبادَةِ لله[٦٩].

ويأمرُ بصِلَةِ الأرحَام، وإعطاءِ الأهلِ والأقرِباءِ حَقَّهمْ منَ البِرِّ والصِّلة.

---

(٦٩) ... وأما الإحسانُ فمعناهُ اللغويُّ يرشدُ إلى أنه التفضلُ بما لم يجب، كصدقةِ التطوُّع. ومن الإحسانِ فعلُ ما يثابُ عليه العبدُ مما لم يوجبهُ الله عليه، في العباداتِ وغيرها. وقد صحَّ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه فسَّرَ الإحسانَ بأنْ يعبدَ اللهَ العبدُ حتى كأنهُ يراه، فقالَ في حديثِ ابنِ عمرَ الثابتِ في الصحيحين: "والإحسانُ أنْ تعبدَ اللهَ كأنكَ تراه، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنهُ يراك". وهذا هو معنى الإحسانِ شرعاً. (فتح القدير).

الإحسانُ: الإخلاصُ في التوحيد، وذلك معنى قولِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم: "الإحسانُ أنْ تعبدَ اللهَ كأنكَ تراه". (البغوي).

{وَالإِحْسَانِ}: وأن تُحسنوا الأعمالَ مطلقًا؛ لقولِهِ عليه السلام: "إن الله كتبَ الإحسانَ في كلِّ شيء" ... ويدخلُ فيه العفوُ عن الجرائم، والإحسانُ إلى من أساء، والصبرُ على الأوامرِ والنواهي، وأداءُ النوافل.... (روح البيان).

وينَهى عنِ المحرَّمات، وكُلِّ ما تُنكِرُهُ الفِطرَةُ والشَّريعَة، منَ الأقوالِ والأفعالِ التي يَشيعُ بها الفَساد.

وينَهى عنِ الظُّلمِ والتعَدّي على النَّاسِ والتجَبُّرِ عَليهِم.

يَعِظُكمُ اللهُ بهذا ويُنَبِّهُكمْ إلى أمرِهِ ونَهيِه، لتَتَذكَّروا بهِ وتُطيعوا.

{وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} (النحل : ٩١)

٩١- والتَزِموا بما عاهَدتُّمُ اللهَ عَليه، ونَفِّذوا العُهودَ والمواثيقَ كما أُمِرتُم، وحافِظوا على ما أقسَمتُمْ عَليهِ منها ولا تَنقُضوها بعدَ تأكيدِكمْ عَليها، وقدْ جَعلتُمُ اللهَ شاهِدًا ورَقيبًا على الوَفاءِ بها، واللهُ يَعلَمُ ذلكَ مِنكم، ويُجازيكمْ عليه.

{وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} (النحل : ٩٢)

٩٢- ولا تَكونوا - أيُّها المعاهِدونَ - مِثْلَ تلكَ المرأةِ التي تُبْرِمُ غَزْلَها، ثمَّ لا تَلبَثُ أنْ تَفُكَّهُ بعدَ بَرْمِهِ وإحكامِه، وتَترُكُهُ أنقاضًا وأكوامًا. فهذا مَثَلٌ لمنْ نقَضَ عَهدَهُ بعدَ توكيدِه. فتتَّخِذونَ عَهدَكمُ الذي أقسَمْتُمْ عَليهِ خَديعَةً وخِيانَة، بنَقضِكمْ إيّاه، وتَقولونَ إنَّ محمَّدًا (صلى الله عليه وسلم) ومَنْ معَهُ قِلَّةٌ ضَعيفَةٌ وقُرَيشٌ أكثَرُ وأقوى، فتَغدِرونَ بالعَهدِ لتَكونوا معَ الأكثَرِ طلَبًا لمصالِحِكم. وما هذا إلاّ ابتِلاءٌ منَ اللهِ لكم، ليرى عَزمَكمْ وصِدقَكم، ويَمتَحِنَ وفاءَكم. وفي يَومِ القيامَةِ يَفصِلُ اللهُ بينَ النَّاسِ فيما كانوا يَختَلِفونَ فيهِ في الدُّنيا، ويُبيِّنُ لهمُ الحقَّ في ذلك، ويُجازي كُلاًّ بما يَستَحِقّ.

{وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (النحل : ٩٣)

٩٣- ولو أرَادَ اللهُ لجعلَكمْ أيُّها النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً وعلى دِينٍ واحِد، ولكنْ شاءَ سُبحانَهُ أنْ يُعطيَكمْ حُرّيَةَ الاختِيار، وقدْ بيَّنَ لكمْ طَريقَ الهُدَى والضَّلال، فيُضِلُّ اللهُ مَنْ سلَكَ مسالِكَ الشَّرِّ والضَّلال، ويَهدي مَنْ سلَكَ مسالِكَ الخَيرِ والهُدَى. وفي كِلتا الحالَتَينِ يَلتَزِمُ كُلٌّ بالعُهودِ والمواثيق، ويُحاسِبُ كُلاًّ بما عَمِل، إنْ خَيرًا أو شَرًّا.

{وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} (النحل : ٩٤)

٩٤- ولا تَتَّخِذوا حَلِفَكمْ غِشًّا وخَديعَةً في التعامُلِ بينَ بَعضِكمُ البَعض، فتَنحَرِفَ نَفسٌ عنْ طَريقِ الحقِّ بعدَ أنْ كانتْ ثابِتةً عَليه، وتأثَمَ وتُعاقَبَ لأنَّها كانتْ سَبَبًا في صَدِّ النَّاسِ عنِ الدِّين، فإنَّ المسلِمَ إذا حلَفَ للكافرِ ولم يَفِ بوعدِه، لم يَثِقِ الكافِرُ بهِ وبدينِه، فيَكونَ قدْ لَحِقَهُ الإثمُ بسَببِ ذلك. ومَنْ فعلَ ذلكَ فلهُ عَذابٌ كبير.

والوفاءُ خُلُقٌ جَميل، وقدْ دخلَ كثيرٌ منَ النَّاسِ الإسلامَ بسببِ صِدقِ مُعامَلةِ التجَّارِ ووَفائهِمْ بعُهودِهم.

{وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} (النحل : ٩٥)

٩٥- ولا تَستَبدِلوا بعَهدِ اللهِ عَرَضًا قَليلًا يَزولُ سَريعًا، فإنَّ ما أعَدَّ اللهُ لكمْ منْ ثَوابٍ على الوَفاءِ بالعَهدِ هوَ أجزَلُ وأعظَم، إنْ كنتُمْ تَعلَمونَ الفَرقَ بينَ الأمرَين.

{مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} (النحل : ٩٦)

٩٦- وإنَّ ما عِندَكمْ مِنْ مَالٍ ومَتاعٍ يَنتَهي ويَزول، فمُدَّتُهُ قَصيرَةٌ مهما كَثُر، وما ادَّخَرَهُ اللهُ لكمْ في الآخِرَةِ مِنْ ثَوابٍ ونَعيمٍ يَدومُ ولا يَنقَطِعُ أبدًا، وسَوفَ نُجازي مَنْ صبرَ على تَكاليفِ الوفاءِ بالعُهودِ أفضلَ ما يُجازَى بهِ المرءُ على أعمالٍ حسَنةٍ عَمِلَها.

{مَنْ عَمِلَ صَـــالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} (النحل : ٩٧)

٩٧- مَنْ عَمِلَ عَمَلاً صـــالحِاً مِنْ ذَكَرٍ أو أُنثَى، وهوَ مؤمِنٌ إيمانًا صَـــحيحًا، فيَكونُ عَمَلُهُ الصـالِحُ مُوافِقًا للشَّـريعَة، وخالِصًـا لوَجهِ اللهِ الكَريم، فسـيُجزَى حياةً طيِّبَةً في الحياةِ الدُّنيا، ولا يُشـتَرَطُ فيها المالُ الوَفير، فليسَ هوَ مِقياسًـا للسَّـعادَة، لكنَّ المهِمَّ هوَ الهَناءَةُ والقَناعَةُ والعَافيَة، والتَّوفيقُ للطَّاعَة، وفي الآخِرَةِ يُجزَى ثوابًا هوَ أفضَلُ ما يُجازَى بهِ على أعمالٍ حسَنَةٍ عَمِلَها.

{فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} (النحل : ٩٨)

٩٨- فإذا أردتَ قِراءَةَ القُرآنِ الكريم، فاسـألِ اللهَ أنْ يُعيذَكَ مِنْ وَسـواسِ الشَّـيطانِ المبعَدِ عنِ الخَيرِ كُلِّه، حتَّى لا يَلبِسَ عَليكَ قِراءَتَكَ ويَخلِطَ عَليك، ويَمنعَكَ منَ التدبُّرِ والتفكُّر.

والاسـتِعاذَةُ أمرٌ مَندوبٌ إليه، ويَقولُ القارِئ: أعوذُ باللهِ مِنَ الشَّـيطانِ الرَّجيم، أو: أعوذُ باللهِ السَّميعِ العَليمِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيم.

{إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} (النحل : ٩٩)

٩٩- إنَهُ ليسَ للشَّـيطانِ تسَـلُّطٌ وسَـيطرَةٌ على المؤمِنينَ المتوَكِّلينَ على ربِّهم، الذينَ يَسـتَعيذونَ به، ويُفَوِّضونَ أمرَهمْ إليه، وبهِ يَثِقون.

"فالذينَ يَتوجَّهونَ إلى اللهِ وحدَه، ويُخلِصـونَ قُلوبَهمْ لله، لا يَملِكُ الشَّـيطانُ أنْ يَسَـيطِرَ عَليهم، مَهما وَسْـوَسَ لهم، فإنَّ صِـلَتَهمْ باللهِ تَعصِـمُهمْ أنْ يَنسـاقُوا معَهُ ويَنقادُوا إليه. وقدْ يُخطِؤون، لكنَّهمْ لا يَستَسـلِمون، فيَطرُدونَ الشَّـيطانَ عَنهمْ ويَثوبونَ إلى ربِّهمْ مِنْ قَريب". قالَهُ صـاحِبُ "الظِّلال" رَحِمَهُ الله.

{إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ} (النحل : ١٠٠)

١٠٠- إنَّما تَسَلُّطُ الشَّيطانِ على الذينَ يُطيعُونَهُ ويَنساقونَ معَهُ ويَستَسلِمونَ لإغوائه، فاتَّخَذوهُ وليًّا منْ دونِ الله، وأشرَكوا باللهِ استِجابةً لِما سوَّلَهُ في نفُوسِهم.

{وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}
(النحل : ١٠١)

١٠١- وإذا أنزَلنا آيَةً منَ القُرآن، وجَعلناها بدَلَ آيَةٍ أُخرَى سابِقَة، نَسخًا لها، واللهُ أعلَمُ بما يَصلُحُ لخَلقِهِ فيما يُغَيِّرُ ويُبَدِّلُ مِنْ أحْكام، ويأخذُهمْ فيها بالتَّدريج، قالَ المشركونَ لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلَّم: أنتَ كاذِب، تأمرُ أصحابَكَ بأمرٍ ثمَّ تَنهاهُمْ عَنه، هذا لا يَكونُ مِنْ كلامِ الرَّبّ، بلْ هوَ منْ كلامِك! لكنَّ أكثرَ المشركينَ جاهِلون، لا يَعلَمونَ ما في تَبديلِ الأحكامِ مِنْ مَصالِحَ وحِكَم، فإنَّ اللهَ يُبَدِّلُها بعِلمِهِ وحِكمتِهِ بما يُوافِقُ أحوالَ العِباد ومَصالِحَهم.

{قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}
(النحل : ١٠٢)

١٠٢- قُلْ لهمْ أيُّها النبيّ: لقدْ نَزَّلَ القُرآنَ الكريمَ جِبريلُ مِنْ عندِ اللهِ بالصِّدقِ والعَدل، ليُثَبِّتَ اللهُ قُلوبَ المؤمِنينَ على ما هُمْ مُؤمِنونَ به، ليَزدادوا إيمانًا ويَقينًا بما نَزَلَ مِنْ عندِهِ أوَّلاً وأخِيرًا، وتَطمَئنَّ قُلوبُهُمْ به، وليَكونَ هاديًا لهمْ إلى الحقّ، ومُبَشِّرًا إيّاهمْ بالفَوزِ والنَّصر.

{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ} (النحل : ١٠٣)

١٠٣- ونحنُ نَعلمُ أنَّ المشركينَ يَقولونَ إنَّ الذي يُعَلِّمُ محمَّدًا رَجُلٌ نَصرانيّ - وكانَ عَليه الصلاةُ والسلامُ يَدخلُ عليهِ ويُكَلِّمُه - ولُغَةُ الذي يَميلونَ إليهِ ويُشيرونَ إليهِ أعجَميٌّ لا يُفصِحُ ولا يُبِيْن، وهذا القُرآنُ لُغَتُهُ عَرَبِيَّةٌ فَصيحَةٌ بيِّنَة، فكيفَ لأعجَميٍّ لا يَعرِفُ التكلُّمَ بالعَربيَّةِ جَيِّدًا أنْ يُعَلِّمَ محمَّدًا صلى الله عليه وسلم هذا الكِتابَ المعجِزَ في بَيانهِ وبلاغَتِهِ؟

{إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (النحل : ١٠٤)

١٠٤- والذينَ لا يُصَدِّقونَ بأنَّ القُرآنَ موحًى بهِ منْ عندِ الله، لا يُرشِدُهمْ اللهُ إلى حَقيقَةِ أمرِه، وذلكَ لكُفرِهمْ وإعراضِهِمْ عنِ الإيمانِ بهِ والاهتداءِ إلى آياتِه، ولهمْ عَذابٌ شَديدٌ لإصرارِهِمْ على الإعراضِ عنْ كِتابِ اللهِ وتَكذيبِ رَسولِه.

{إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأُوْلئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ} (النحل : ١٠٥)

١٠٥- ورَسولُ اللهِ صادِقٌ أمينٌ لا يَكذِب[٧٠]، إنَّما يَرتَكبُ جَريمةَ الكذِبِ المشرِكونَ والملحِدون، الذينَ يَكفرونَ بآياتِ اللهِ الواضِحَةِ ومُعجِزاتِه الصَّادِقة، فهؤلاءِ همُ الكاذِبونَ حَقًّا، ماداموا يُكَذِّبونَ ما هوَ واضِحٌ وحَقّ.

{مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} (النحل : ١٠٦)

١٠٦- إنَّ الكافِرَ حَقًّا مَنْ كفرَ بعدَ أنْ رَأى نورَ الإيمانِ واطمأنَّ بهِ قَلبُهُ واعتنقَ الإسْلام، فارتدَّ مُؤْثِرًا الحياةَ الدُّنيا على الآخِرَة، وصُحبَةَ أهلِ الكُفرِ على أهلِ الإيمان، إلاّ مَنْ فُتِنَ في دِينِهِ وعُذِّبَ وأُكرِهَ على الكُفرِ ولكنَّ قَلبَهُ مَليءٌ بالإيمانِ وحُبِّ اللهِ ورَسولِه، فهؤلاءِ مؤمِنونَ حَقًّا، وإنْ نَطَقوا بالكُفرِ ظاهِرًا تحتَ التَّعذيبِ والإكراه.

والكافِرُ الصَّريحُ هوَ مَنْ فتحَ صَدرَهُ للكُفر، وقَبِلَهُ طَواعيَةً واختِيارًا، فهؤلاءِ عَليهِمْ غَضَبٌ عَظيمٌ وسُخْطٌ منَ الله، ولهمْ عَذابٌ كَبيرٌ يومَ القِيامَة، لعِظَمِ جُرمِهم.

وقدْ نزَلتِ الآيَةُ في عَمّارِ بنِ ياسِر، فقدْ عُذِّبَ منْ قِبَلِ المشرِكينَ وأُجْبِرَ على كَلِمَةِ الكُفر، وقَلبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمَان.

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} (النحل : ١٠٧)

١٠٧- ذلكَ بأنَّ هؤلاءِ المرتدِّينَ فضَّلوا الحياةَ الدُّنيا، بشَهواتِها وإغراءاتِها وأهلِها، على الصَّبرِ على طاعَةِ اللهِ والعمَلِ لليَومِ الآخِر، واللهُ لا يَهدي الكافِرينَ إلى الإيمانِ والثَّباتِ عليهِ ما دامُوا

---

(٧٠) الافتراءُ هو الكذب، وهو مرادفُ الاختلاق، وكأن أصلَهُ كنايةٌ عن الكذبِ وتلميح، وشاعَ ذلك حتى صارَ مرادفًا للكذب. (ينظر التحرير والتنوير، عند تفسير الآية (٩٤) من سورة آل عمران).

رافِضــينَ لسُــبُلِهِ والطُّرقِ المؤدِّيَةِ إليه، ولا يُرشِــدُهمْ إلى الجنَّة، الخاصَّــةِ بالمؤمنينَ الثابتينَ على إيمانِهم.

{أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} (النحل : ١٠٨)

١٠٨- أولئكَ الكافِرونَ المرتَدُّونَ ختَمَ اللهُ على قُلوبِهم، وسَمعِهم، وأبصَـــارِهم، فقدْ عانَدوا واستَكبَروا وأصَـرُّوا على الخَطأ، ولمْ يَستَخدِموا حواسَّـهمْ للوصُـولِ إلى الحقّ، بلْ طمَسـوها وجنَّبوها مَسالِكَ الفِطرة، وصَاروا غافِلينَ عمَّا يَنتَظِرُهمْ مِنْ حِسابٍ وعِقاب.

{لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ} (النحل : ١٠٩)

١٠٩- حقًّا إنَّ هؤلاءِ مَغبونونَ خائبونَ يَومَ القِيامَة، وقدْ حصَــدوا ما بذَروهُ منْ كُفر، وجنَوا ما صَرَفوا إليهِ أعمارَهمْ مِنْ غَيرِ تَدَبُّر، وآثَروا الدُّنيا على الآخِرَة.

{ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} (النحل : ١١٠)

١١٠- وإنَّ ربَّكَ وليُّ الذينَ هاجَروا إلى دارِ الإسْـلامِ وناصِـرُهم، وقدْ تَركوا بلادَهمْ وأموالَهمْ وأهَاليهم، وفُتِنوا في دِينِهمْ - وكانوا منْ ضِعافِ العَربِ - وأكرَهَهُمُ المشرِكونَ على موافَقَةِ مِلَّةِ الكُفر، وقدْ آمنَتْ قُلوبُهم، فكانوا معَ المسـلِمينَ في جِهادِهمْ ضـدَّ الكافِرين، وصـبَروا على مَواقِفِ الإيمانِ والهِجرةِ والجِهادِ وتَكاليفِها، فاللهُ يَغفِرُ لهمْ ويَرحَمُهمْ يَومَ مَعادِهم، جَزاءَ صَـبرِهمْ على طاعَةِ ربِّهم.

{يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} (النحل : ١١١)

١١١- في يَومِ القيامَةِ المخُوفِ لا يُســـمَحُ لأحَدٍ بأنْ يُدافِعَ عنِ الآخَر، بلْ كُلُّ نَفسٍ تَحتَجُّ وتُدافِعُ عنْ نَفسِها وتَسعَى لخَلاصِها، لا تأبَهُ بوالِدٍ ولا ولَد. وتُعطَى كُلُّ نَفسٍ جَزاءَ ما كسَبَتْهُ في الدُّنيا، مِنْ خَيرٍ وشَرّ، جَزاءً وافيًا عادِلاً، لا يُبخَسُ مِنْ حَقِّها شَيء.

{وَضَـــرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ} (النحل : ١١٢)

١١٢- وضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَريَةً - هيَ مَكَّةُ - كانتْ آمِنَةً مُستَقِرَّة، لا يُغَارُ عَليها ولا يُؤذَى مَنِ التَجأ إلى البَيتِ فيها ولو كانَ قاتِلاً، ومَنْ حَولَهُمْ منَ النَّاسِ في حَربٍ وهَيَجانٍ وفِتنَة. ويأتيها قُوتُ أهلِها مِنْ أنواعِ الأطعِمَةِ والثِّمارِ مِنْ جَميعِ النَّواحي بسُـــهولَة، وهمْ في وادٍ لا يَنبُتُ فيهِ زَرع، وحولَهُمْ جِبالٌ جَرداء، فجَحَدوا نِعَمَ اللهِ بدَلَ شُـــكرِهِ عَليها، وعَبَدوا الأصـــنامَ معَه، فابتَلاهمُ اللهُ بالجُوعِ والقَحطِ سَبعَ سِنين، وجَهِدوا حتَّى أكَلوا العِظامَ والجِيَف.
وكانتْ بُعوثُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وسَراياهُ تَطيفُ بهم، فكانوا يَخافونَ ويَتوَقَّعونَ الإغارَةَ عَليهم، فأُبدِلوا بأمنِهمْ خَوفًا؛ جَزاءَ بَغيهِمْ وشِـركِهم، وعَدَمِ تَقديرِهِمْ لِما أنعَمَ اللهُ بهِ عَليهِمْ مِنْ رِزقٍ وأمْن، لعلَّهمْ بذلكَ يتَذَكَّرونَ نِعمتَهُ ويَدَعُونَ الشِّركَ ويؤمِنونَ بالإسْلام.

{وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} (النحل : ١١٣)

١١٣- ومِنْ أعظَمِ نِعَمِ اللهِ عَليهِمْ أنْ بعثَ فيهِمْ رَســـولاً مِنْ بَينِهم، يَعرِفونَهُ صَـــادِقًا أمينًا، يَدْعُوهمْ إلى عِبادَةِ رَبِّ هذا البَيت، وتَركِ عِبادَةِ الأصْـــنام، ولكنَّهمْ لم يُقَدِّروا هذهِ النِّعمةَ العَظيمَة، فكفَروا برِسـالَتِهِ وكذَّبوه، فأخذَهمْ عَذابُ الخَوفِ والجُوع، بظُلمِهِمْ وتَكذيبِهِمْ رَسـولَ رَبِّهم.

{فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْـــكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} (النحل : ١١٤)

١١٤- فكُلوا أيُّها المؤمِنونَ ممّا رزَقَكمُ اللهُ مِنَ الحَلالِ الطيِّبِ النَّافِع، واشـــكُروا نِعمتَه، فهوَ المتفَضِّلُ بها عَليكم، إنْ كنتُمْ تُريدونَ الاستِقامَةَ على دينِه، والإخلاصَ في العِبادَةِ له.

{إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (النحل : ١١٥)

١١٥- إنَّما حرَّمَ اللهُ عَليكمْ منَ المطعومات: الميْتةَ التي لم تُذبَح، ما عدا السَّمكَ والجَراد. وحرَّمَ الدَّمَ، ولحمَ الخِنزير، سواءٌ ذُبِحَ أو ماتَ حَتفَ أنفِه، وما ذُبِحَ على غيرِ اسمِ الله، منَ الأصْنامِ والطَّواغيتِ ونَحوِها.

ومَنْ ألجأتْهُ الضـــرورةُ إلى أكلِها وفَقَدَ غيرَها منَ الأطعِمة، فلا بأسَ مِنْ أكلِها، مِنْ غيرِ بَغْيٍ ولا اعتِداء: منْ غيرِ أنْ يُؤْثِرَ نفسَــهُ في هذهِ الضَّــرورةِ على مُضْــطَرٍّ آخَرَ مثلِه، ولا أنْ يأكلَ زيادةً على سدِّ جَوْعَتِه.

فاللهُ يَغفِرُ لهُ عندئذٍ ما أكلَ مِنَ الحَرام، وهوَ رَحيمٌ بهِ إذْ أحلَّ لهُ ذلكَ في حالِ الاضْطِرار.

{وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ} (النحل : ١١٦)

١١٦- ولا تَكذِبوا فتَدَّعوا تَحريمَ ما أحَلَّهُ الله، أو تَحليلَ ما حرَّمَه، فيما اصـــطَلَحتُمْ عليهِ ووَضَعتُموهُ في جاهِليَّتِكمْ، وتَقولوا إنَّ اللهَ أمرَنا بهذا، فتُحَرِّمونَ ما سيَّبتُموهُ للأصنام... كما في قَولِهِ تَعالَى: {وَقَالُواْ هَــذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْــمَ اللّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ سَــيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} [ســورة الأنعام: ١٣٨]. قالَ ابنُ كَثيرٍ رَحِمَهُ الله: ويَدخلُ في هذا كلُّ منِ ابتَدَعَ بِدعَةً ليسَ فيها مُستَنَدٌ شَرعيّ، أو حَلَّلَ شَيئاً ممّا حرَّمَ الله، أو حرَّمَ شَيئاً ممّا أباحَ الله، بمُجرَّدِ رأيِهِ وتَشَهّيه. اهـ.

فالتَّحليلُ والتَّحريمُ لا يَكونُ إلاّ بتَشريعٍ منَ اللهِ ورَسولِه. والذينَ يَكذِبونَ على اللهِ لا فَلاحَ لهمْ في الدُّنيا والآخِرَة، ولا يَنجونَ منْ عَذابِ الله[٧١].

---

(٧١) الافتراءُ هو الكذب، وهو مرادفُ الاختلاق، وكأن أصلَهُ كنايةٌ عن الكذبِ وتلميح، وشاعَ ذلك حتى صارَ مرادفًا للكذب. (ينظر التحرير والتنوير، عند تفسير الآية (٩٤) من سورة آل عمران).

{مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (النحل : ١١٧)

١١٧- وحياتُهمْ في الدُّنيا واستِمتاعُهمْ بملذَّاتِها قَليلٌ زائلٌ لا يَستَحِقُّ الذِّكر، ولهمْ في الآخِرَةِ عَذابٌ شَديدٌ دائم، وهُناكَ الخَيبَةُ والخُسران.

{وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} (النحل : ١١٨)

١١٨- وحرَّمنا على اليَهودِ ما قَصَصناهُ عَليكَ مِنْ قَبل، في سُورةِ الأنعام {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ} [الآية ١٤٦]. ولمْ نَظلِمْهمْ بذلك، بلْ كانتْ هذهِ الأحكامُ عُقوبَةً لهمْ بسَبَبِ مَعاصِيهمُ المتكَرِّرَة، واستِمرارِهمْ في العِنادِ والتَّكذيبِ والرَّفضِ، فهمْ مُستَحِقُّونَ لذلك.

وقدِ استقَرَّ ما هوَ حَلالٌ وحَرامٌ كما هوَ في دِينِ الإسْلام، فقدْ نسَخَ كُلَّ الشرائعَ السَّابِقَة.

{ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} (النحل : ١١٩)

١١٩- وإنَّ مَنْ عَمِلَ ذَنْبًا بجَهالَة - وكُلُّ مَنْ عَصَى اللهَ فهوَ جاهِلٌ - ثمَّ أقلَعَ عنْ ذنبِه، تَائبًا إلى الله، عازِمًا على عَدَمِ العَودَةِ إليه، مُتبِعًا ذلكَ بعَمَلٍ صالِحٍ يَدُلُّ على استِقامَةِ سُلوكِه، فإنَّ اللهَ بعدَ إحداثِ تَوبَتِهِ يَغفِرُ ذَنبَه، ويَرحَمُهُ ولا يُعَذِّبُهُ به.

{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (النحل : ١٢٠)

١٢٠- إنَّ نبيَّ اللهِ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ كانَ إمامًا يُقتَدَى به، اجتمَعَ فيهِ مِنَ الخِصالِ الحَميدَةِ ما اجتمَعَ في أُمَّة! مائلاً عنِ الشِّركِ إلى التَّوحيدِ الحقّ، مُستَقيمًا عَليه، خاشِعًا مُطيعًا لرَبِّه، فهوَ إمامُ الحُنفاءِ وأبو الأنبياء. وكانَ بَريئاً مِنَ الشِّرك، ومِنَ اليَهوديَّةِ والنَّصرانيَّة، فقدْ كانَ قَبلَهم.

{شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (النحل : ١٢١)

١٢١- وكانَ شَاكِرًا لنِعَمِ اللهِ، مُثنيًا عَليه، قَولاً وعمَلاً، وقدِ اختارَهُ اللهُ واصطَفاهُ مِنْ بينِ عِبادِهِ نَبيًّا ورَسُولاً عَظيمًا، وأرشدَهُ ووَفَّقَهُ إلى التَّوحيدِ الخالِص، وعِبادَةِ اللهِ وحدَه.

{وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} (النحل : ١٢٢)

١٢٢- وقدْ أعطَيناهُ في الدُّنيا جِماعَ أمورِ الخَيرِ ممّا تَكتَمِلُ بهِ الحياةُ الطيّبَة، مِنَ الرِّسـالَة، والخُلَّة، ومكارِمِ الأخلاق، والسِّيرَةِ الحسَنة، والثَّناءِ الحسَن، حتَّى إنَّ جَميعَ الأديانِ تُثني عَليه. وهوَ في الآخِرَةِ مِنْ عِدادِ الصَّالحِينَ في الدَّرَجاتِ العُليا منَ الجَنَّة.

{ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (النحل : ١٢٣)

١٢٣- ثمَّ أمَرناكَ - يا خاتمَ الأنبياءِ - أنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إبراهيمَ في التَّوحيد، فقدْ كانَ على طَريقَةٍ مُستَقيمَةٍ خالِصَة، مائلاً عنِ الشِّرك، بَعيدًا عَنه.

{إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} (النحل : ١٢٤)

١٢٤- ولَمْ يَكنْ يَومُ السَّبْتِ منْ شَعائرِ إبراهيمَ عَليهِ السَّلامُ كما يَدَّعي اليَهود، إنَّما جُعِلَ يَومَ عِبادَةٍ لهمْ وحدَهم، وكانوا بَعْدَه. ويَبدو أنَّهُ كانَ هُناكَ اختِلافٌ في شَأنِ هذا اليَومِ أو اختيارِه، أو أنَّ بعضَهمُ استَحلَّهُ وحرَّمَهُ آخَرونَ منهم. وفي يَومِ القِيامَةِ يَقضي اللهُ بينَ المختَلِفينَ فيه، ويُبَيِّنُ لهمُ الحقَّ في ذلك، ويُجازي كُلاًّ بما يَستَحِقّ.

{ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (النحل : ١٢٥)

١٢٥- ادعُ إلى الإسْلامِ بالكَلِمَةِ الطيّبَة، والحُجَّةِ المقنِعَة، والأسْلوبِ الحسَن، برِفق، معَ مُراعاةِ أحوالِ المخاطَبينَ وبيئاتِهم وتَخَصُّصاتِهم، وناظِرِ المخاصِمينَ وجادِلْهُمْ بالوَجهِ الحسَن، في حِلمٍ وتأنٍّ، ورَحمَةٍ مَشفوعَةٍ بالنُّصح، إلاّ مَنْ عاندَ وتعَدَّى.

واللهُ أعلَمُ بمَنْ أعرضَ عنِ الإسْلامِ واختارَ طريقَ العِنادِ والضَّلال، وهوَ أعلَمُ بمَنْ فتَحَ قَلبَهُ للحَقّ واختارَ طريقَ الهِدايَةِ والإيمان، وإنَّما عَليكَ التّبليغُ وبيانُ وجهِ الحقّ، وليسَ عَليكَ هِدايَتُهم.

{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ} (النحل : ١٢٦)

١٢٦- وإذا أرَدتُمْ مُعاقبَةَ أحَد، فَلتَكنْ مُعاقبَتُكمْ لهمْ بمثلِ ما عُوقِبتُمْ به، فافعَلوا بهمْ مثلَ ما فعَلوا بكم، ولا تَزيدوا، وإذا صبَرتُمْ عنِ المعاقبَةِ بالمِثْلِ وعَفَوتُم، فهوَ فَضْلٌ منكمْ وحُسْنُ خُلُق، وللصَّبرِ ثَوابٌ عَظيم. {وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [سورة الشورى: ٤٣]، {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ} [سورة الزُّمَر: ١٠].

{وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ} (النحل: ١٢٧)

١٢٧- واصبِرْ على أذَى النَّاسِ وإعراضِهم، وخاصَّةً في شُؤونِ الدَّعوَة، وما صَبرُكَ وثباتُكَ إلاّ بمَعونَةِ اللهِ وتَوفيقِه، فهوَ الذي يُعينُ على الصَّبر، ويُثَبّتُ العَزيمَةَ في القَلب، ويُزَيّنُ هذا الخُلُقَ الجَميلَ في النَّفسِ المؤمِنَةِ للدُّعاةِ الصَّادقينَ المخلِصين، ولا تَحزَنْ على مَنْ خالفَكَ وأعرضَ عنْ دَعوَتِك، ولا يَضِقْ صَدرُكَ بما يَكيدونَ لك، فاللهُ حافِظُكَ ومُؤيّدُك.

{إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ} (النحل : ١٢٨)

١٢٨- إنَّ اللهَ وليُّ عِبادِهِ المتَّقينَ وراحِمُهم، الذينَ يُطيعونَهُ ويَخشَونَهُ في سِرِّهِمْ وعَلانيَتِهم، والذينَ يُحسِنونَ عمَلَهمْ معَ الله، كما يُحسِنونَ إلى خَلقِهِ ويُشفِقونَ عَليهم.

الجزء الخامس عشر

سورة الإسراء
سورة الكهف (١-٧٤)

سورة الإسراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} (الإسراء : ١)

١- تعالَى اللهُ وتَقَدَّس، الذي سَـرَى بعَبدهِ ونَبيِّهِ محمَّدٍ صـلى الله عليه وسـلم على البُراق، في جُزءٍ مِنَ اللّيل، مِنَ المسـجِدِ الحَرامِ بمكةَ المكرَّمةِ إلى المسـجِدِ الأقصَى بالقُدْس، مَوطِنِ الأنبياءِ عَليهِمُ الصَّـلاةُ والسَّـلام، الذي أفَضْـنا على ما حولَهُ مِنْ بَرَكاتِنا ورَحَماتِنا، لِنُريَ عَبدَنا محمَّدًا صلى الله عليه وسلم مِنْ آياتِنا ومُعجِزاتِنا العَظيمَة، واللهُ سَميع، لا يَفوتُهُ سَماعُ حرَكَةٍ في الكون، بَصيرٌ بما خَفيَ وغَاب، لا يَغيبُ عَنهُ رؤيَةُ شَيء.

وكانَ الإسـراءُ بِهِ عَليهِ الصَّـلاةُ والسَّـلامُ يَقظَةً لا مَنامًا، قَبلَ الهِجرَةِ بسَـنة، ببَدَنهِ وروحِهِ عندَ أكثَرِ العُلماء، ثمَّ عُرِجَ بهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ صَخرَةِ بَيتِ المقْدِسِ إلى السَّماواتِ السَّبع، واطَّلعَ على أحوالِ الجَنَّةِ والنّارِ هناك، ورأى الملائكة... وعادَ إلى مَكَّةَ مِنْ لَيلَتِه.

وجَرَتْ لهُ صـلى الله عليه وسـلم حوادِثُ كثيرَةٌ في إسـرائهِ ومِعراجِه، منها أحاديثُ صَـحيحَة، وكثيرٌ منها مَكذوبَة.

وللمَسجِدِ الأقصَى فَضائلُ عَظيمَة، وهوَ أحَدُ المساجِدِ الثلاثَةِ التي تُشَدُّ إليها الرِّحال.

{وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً} (الإسراء : ٢)

٢- وآتَينا موسَى التَّوراةَ لتَكونَ هاديًا لبني إسْرائيلَ إلى الحَقِّ والخَير، فلا يَضِلُّونَ ما تمَسَّكوا بها وجَعلوهـا دَليلاً لهم، فلا تتَّخِـذوا أوليـاءَ مِنْ دوني، ولا تَكِلوا أمورَكمْ إلاّ إليّ، فلا رَبَّ لكمْ سِواي.

{ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً} (الإسراء : ٣)

٣- يا بني إسْرائيل، ذُرِّيَةَ الثُّلَّةِ المؤمِنةِ التي نَجَّيناها وحمَلناها معَ نُوحٍ في السَّفينة، فكُونوا مؤمِنينَ مُخلِصـــينَ مِثلَهم. وكانَ عبدُنا نوحٌ نبيًّا رَسُـــولاً، شَـــكورًا لرَبِّه، يَحمَدُهُ على ما رزَقَهُ مِنْ طَعامٍ وشَراب، وعلى كُلِّ حَال.

{وَقَضَـيْنَا إِلَى بَنِي إِسْـرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِـدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً} (الإسراء : ٤)

٤- وأعلَمْنا بَني إسْرائيلَ أنَّكمْ ستَتجَبَّرونَ وتَطغَونَ في الأرضِ مرَّتَينِ طُغيانًا كبيرًا، يُصبِحُ لكمْ فيهما قوَّةٌ وسَيطرَةٌ كَبيرة، تَغلِبونَ فيهِ النَّاسَ بالظُّلمِ والعُدوان.

{فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَـدِيدٍ فَجَاسُـواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً} (الإسراء : ٥)

٥- فإذا جاءَ وَقتُ الإفســادَةِ الأولَى، بعَثنا لمحارَبَتِكمْ ومُغالبَتِكُمْ ناسًـا ذَوي بأسٍ وبَطشٍ شَـديد، يَقهَرونَكمْ ويَملِكونَ بلادَكمْ ويَسـتَبيحونَه، ويتَجوَّلونَ فيها دونَ حِســابٍ لقوَّةِ أحَد، وكانَ هذا وَعدًا نافِذًا لا يُخالَف.

{ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً} (الإسراء: ٦)

٦- حتَّى إذا ذُقتُمُ الوَيلَ والعَذاب، ومضَـى زَمَن، أعَدْنا لكمُ القوَّةَ والغَلَبة، ونصَـرناكمْ عَليهم، وأعطَيناكمُ المالَ بعدَما نُهِب، والولَدَ بعدَما سُـلِب، وجعَلناكمْ أكثرَ جَيشًـا، فصِـرتُمْ أكثرَ قوَّة، عدَدًا وعُدَّة.

{إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً} (الإسراء : ٧)

٧- وإنَّ ثَمَرَةَ صَلاحِكمْ وطاعَتِكمْ تَعودُ بالخَيرِ والنَّفعِ عَليكم، فإنَّكمْ إذا أحسَنتُمْ في أنفُسِكمْ وأعمالِكم، صَلَحَتْ أحوالُكم، وأعقبَكمْ ذلكَ نَصرًا وعِزًّا، وإذا انحَرَفتُمْ وأفسَدتُمْ كانتْ عاقِبَةُ ذلكَ شرًّا وفَسادًا، وخَرابًا وهَلاكًا.

فإذا جاءَتِ المَرَّةُ الثانيَةُ لإفسادِكم، بعَثنا عَليكمْ ناسًا يُذِلُّونَكم، وليَدخُلوا بيتَ المَقدِسِ كما دخَلُوهُ أوَّلَ مرَّةٍ واستَباحُوا ما فيهِ وصَاروا أصحابَ القوَّةِ والمَنَعَةِ فيه، وليُدَمِّروا ويُخَرِّبوا ما فيهِ مِنْ مالٍ وحَياةٍ ومُقَدَّساتٍ تَدميرًا فَظيعًا، ماداموا همُ الغالِبينَ الظَّاهِرينَ عَليه.

{عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً} (الإسراء : ٨)

٨- وعسَى أنْ يَصرِفَ اللهُ هذا العَدوَّ عَنكم، وإذا عُدتُّمْ إلى الفَساد، عُدنا إلى العَذابِ والنَّكال، وبعَثنا عَليكمْ مَنْ يَقهَرُكمْ ويُذيقُكُمْ سُوءَ العَذاب. وما يَنتَظِرُكمْ في جَهنَّمَ مِنْ عَذابٍ أكبَرُ وأفظَعُ، وقدْ جَعلناهُ سِجنًا للكافِرين، لا مفَرَّ لهمْ منه.

وقدْ عاقبَهمُ اللهُ وأذَلَّهُمْ مرَاتٍ في التَّاريخ، حتَّى صَاروا شَذَرَ مَذَر، متفَرِّقينَ في بُلدانِ العالَم، لا مَوطِنَ لهم، وهمْ مِنْ أقدَمِ الشُّعوب، ثمَّ أنشَؤوا لهمْ كِيانًا غَصَبوهُ مِنْ أُمَّةٍ على حِينِ ضَعْفٍ منها، وسيأتي اليومُ الذي يُذَلُّونَ فيهِ مَرَّةً أخرى إنْ شاءِ الله.

{إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً} (الإسراء : ٩)

٩- إنَّ هذا القُرآنَ يُرشِدُ الناسَ إلى أحسَنِ الطُّرُقِ وأصلَحِها، وأوضَحِ السُّبُلِ وأبيَنِها، في جَميعِ شُؤونِهم، فهوَ نِظامُ حَياةٍ شامِلٌ، ويُبَشِّرُ المؤمنينَ العامِلينَ بأحكامِهِ أنَّ لهمْ ثَوابًا عَظيمًا.

{وأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً} (الإسراء : ١٠)

١٠- ويُنْذِرُ هذا القُرآنُ الذينَ لا يؤمِنونَ بالبَعثِ والحِساب، والجَنَّةِ والنَّار، أنَّ لهمْ عَذابًا شَديدًا، حَيثُ ترَكوا دِينَ اللهِ وراءَ ظُهورِهم.

{وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً} (الإسراء : ١١)

١١- ومَنْ لم يَتَّخذِ القُرآنَ لهُ هاديًا ودَليلاً، تَخَبَّطَ في دُنياهُ وكانَ في ظَلام، ودعَا على نَفسِهِ بالشَّرِّ والعَذابِ كما يَدعو لها بالخَيرِ والمِصلحَة، حَقيقَةً أو بأعمالِهِ السيِّئةِ التي تُودِي بهِ إلى النَّار، والإنسانُ عَجولٌ بطَبعِه، يُسارِعُ إلى ما يَظنُّ فيهِ مَصلحَتُه، وإنْ كانتْ تَحمِلُ ضَرَرًا بعدَ النَّظَر، وهوَ غَيرُ مُطَّلِعٍ على عَواقِبِ الأمورِ حتَّى يَضبِطَ قيادَةَ العجَلَةِ في نَفسِه.

أو أنَّ المقصودَ أنَّ الإنسانَ لعَجلَتِهِ يَدعو على نَفسِهِ وأولادِهِ بما هوَ شَرّ، وأنَّ اللهَ لو استجابَ لدُعائهِ لهلَكَ به!

{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً} (الإسراء: ١٢)

١٢- وجعَلنا اللَّيلَ والنَّهارَ آيَتَينِ كونيَّتَينِ عَظيمَتَين، وعَلامَتَينِ لا بُدَّ للإنسانِ منهُما، وقدْ مَحَونا الضَّوءَ مِنَ اللَّيلِ بإزاحَةِ حرَكَةِ الشَّمسِ عَنهُ وجَعَلناهُ مُظلِمًا، ليَسكُنَ الإنسانُ ويَنام، ويَرتاحَ مِنْ تعَبِ النَّهار. وجعَلنا النَّهارَ مُضيئًا ليَطلُبَ فيهِ رِزقَه، ويُنجِزَ أعمالَه، ويَعلَمَ أوقاتَهُ وحِسابَه، والسَّاعاتِ والأيّامَ والشُّهورَ والسِّنين.

وكُلُّ شَيءٍ خلقَهُ اللهُ وسَخَّرَهُ لكمْ مُحكَمٌ ومُفَصَّلٌ بدِقَّةٍ وتَدبيرٍ تامّ، لا التِباسَ معَه، ولا تَقديمَ فيهِ ولا تأخير.

{وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً} (الإسراء : ١٣)

١٣- وكُلُّ إنسانٍ مُلزَمٌ بما صَدَرَ منهُ باختِيارِه، مِنْ خَيرٍ وشَرّ، على حَسَبِ ما قُدِّرَ له، فيُحاسَبُ على ما قَدَّمَ ويُجازَى عَليهِ يومَ القِيامَة، فيُخرَجُ لهُ كِتابٌ يَراهُ مَفتوحًا، فيهِ جَميعُ أعمالِهِ طَوالَ حَياتِهِ في الدُّنيا، صَغيرُها وكبيرُها، ما أَسَرَّ منها وما أعلَن.

{اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً} (الإسراء : ١٤)

١٤- هذهِ هيَ أعمالُكَ أيُّها الإنسَــان، قدْ دُوِّنَتْ في هذا الكِتابِ كما وُعِدْتَ به، لم يَشُــذَّ عَنها شَيء، ما نَسِيتَ وما لم تَنسَ، وليسَ فيها شَيءٌ خارِجَ الحِساب، فكُلُّها تَخُصُّك، اقرَأها كَلِمَةً كَلِمَة، وســتَرَى أنَّكَ لم تُظلَمْ مِقدارَ ذَرَّة، ولا تَحتاجُ إلى شــاهِدٍ يَشــهَدُ لكَ أو عَليك، فكفَى بكَ حَسيبًا على عمَلِك، وأنتَ صاحِبُه.

{مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} (الإسراء : ١٥)

١٥- منِ اهتدَى إلى الحقِّ وعَمِلَ بهِ فإنَّ عاقِبَةَ هِدايَتِهِ تَعودُ عَليهِ بالحُســنَى، وتُكَلِّلُهُ السَّــعادَةُ يَومَ القِيامَة، ومَنْ ضَلَّ عنِ الحقِّ فإنَّ عاقِبَةَ ضَلالِهِ تَعودُ عَليه، ويُجزَى يَومَ القِيامَةِ ويُجازَى بشَرِّ ما عَمِل، فكُلٌّ يُســأَلُ عنْ عمَلِهِ ويُحاسَبُ عَليه، ولا يَحمِلُ أحَدٌ ذَنْبَ أحَد. ولا نُعَذِّبُ أحَدًا منَ العِبادِ على عمَلِهِ إلاّ بعدَ أنْ نبعَثَ رَســولاً يُبَيِّنُ لهمُ الحقَّ مِنَ الباطِل، ويُبَلِّغُهمْ دِينَ اللهِ الحقّ، وتَقومَ عَليهمُ الحُجَّة.

{وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً} (الإسراء : ١٦)

١٦- وإذا أرَدنا أنْ نُدَمِّرَ قَريَةً أو مَدينَةً ونُهلِكَ أهلَها بأعمَالِهِمُ الســيِّئة، وقدْ كَثُرَ فيها المترَفُونَ المتَنَعِّمون، الخائضُونَ في الفَواحشِ والموبِقات، والجبّارونَ الوالِغونَ في الجَرائمِ والحُرُمات، فانتشَرَ الفِسْقُ والضَّلال، والظُّلمُ والفسَاد، أمرناهُمْ بالطَّاعاتِ وسُلوكِ دَرْبِ الصَّلاح، فأبَوا وتمَرَّدوا، وطغَوا وأفسَدوا، فحَقَّ عَليها أمرُ اللهِ بالهَلاك، فأبَدْنا أهلَها، ودَمَّرناها تَدميرًا كامِلاً.

{وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً} (الإسراء : ١٧)

١٧- وكَثيرًا ما أهلَكنا الأُمَمَ التي كذَّبَتْ رُسُــلَها مِنْ بَعدِ زَمَنِ نُوحٍ عَليهِ السَّــلام، ولســتُمْ يا كُفّارَ قُرَيشٍ بأكرَمَ على اللهِ منهم، فتوَقَّعوا العَذابَ ما دُمتُمْ مُكَذِّبينَ مِثلَهم. واللهُ مُحيطٌ بذُنوبِ عِبادِه، خَبيرٌ بظَواهِرِها وبَواطِنِها، بَصيرٌ بخَيرِها وشَرِّها.

{مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَــاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْــلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً} (الإسراء : ١٨)

١٨- مَنْ كانَ يَبغي الحَياةَ الدُّنيا ونَعيمَها السَّــريعَ الزوَال، مُقتَصــرًا فيها على الاســتِمتاعِ بالشَّهَواتِ والملذَّات، دونَ اعتِبارٍ لليَومِ الآخِر، فسَنُعطيهِ منها ما نَشاءُ وليسَ كُلَّ ما يُريد، لمنْ نُريدُ منهمْ لا كُلِّهِم، ثمَّ هيَّأنا لهُ جَهنَّمَ يَدخلُها مُهانًا ذَليلاً، مُبْعَدًا مَطرودًا مِنْ رَحمَةِ الله.

{وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً} (الإسراء : ١٩)

١٩- ومَنِ ابتَغَى الدّارَ الآخِرَة، وصَــبرَ على تَكاليفِ الدِّينِ الحقّ، والتزَمَ بكتابِ اللهِ وسُــنَّةِ رَسولهِ صلى الله عليه وسلم، وكانَ مُؤمِناً صادِقًا في إيمانِه، مُصَدِّقًا بالحِساب، والثَّوابِ والعِقاب، فسَــيُثابُ على عمَلِهِ خَيرًا، ويَلقَى جَزاءً مَقبولاً، ويُهنَّأُ بذلكَ منْ قِبَلِ الملائكةِ الكِرام.

{كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً} (الإسراء : ٢٠)

٢٠- وكِلا الفَريقَين، أهلُ الدُّنيا وأهلُ الآخِرَة، نُعطيهِمْ مِنْ عَطائنا، وما كانَ رزقُ رَبِّكَ مَمنوعًا عنْ أحَدٍ مِنْ عِبادِهِ في الحَياةِ الدُّنيا.

{انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً} (الإسراء : ٢١)

٢١- انظُرْ في واقعِ الحَياةِ لتَلمَسَ التَّفاوتَ بينَ النَّاس، مِنْ غَنيٍّ وفَقير، ومُتعَلِّمٍ وجاهِل، وقَويٍّ وضَعيف، ومُسلِمٍ وكافِر، ودرَجاتُ التَّفاوتِ في يَومِ القِيامة، مِن نَعيمٍ وعَذاب، أوسَعُ وأكبَر.

{لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً} (الإسراء : ٢٢)

٢٢- لا تَعْبُدْ معَ اللهِ إلهًا آخَرَ أيُّها الإنسَان، فإذا فَعَلتَ ذلكَ فقدْ أقدَمتَ على فِعلٍ مَذمومٍ مَنبوذ، وقعَدتَ مَخذولاً عاجزًا لا ناصِرَ لكَ ولا مُنقِذ.

{وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً} (الإسراء : ٢٣)

٢٣- وأمرَ اللهُ أنْ توَحِّدوهُ بالعِبادَة، فلا تُشركوا بهِ أحَدًا، ووَصَّاكمْ بالإحسانِ إلى الوالِدَين وبرِّهما، فإذا كَبِرا عِندَك، الأبَوانِ أو أحَدُهما، وقدْ أسقَيَاكَ مِنْ روحَيهما حتَّى ضَعُفا، وكَدَّا مِنْ أجلِكَ حتَّى ذَبُلا وكادا أنْ يَفنَيا، وصِرْتَ أنتَ القَويَّ الذي تَكدَحُ وتُنفِق، فلا تتَأفَّفْ مِنهما، ولا تَقُلْ لهما قَولاً سَيِّئاً تَجرَحُ بهِ شُعورَهما، ولا تَضِقْ بهما ولا تُهِنهُما، وقدْ ضَعُفا واحتَميا بك، بلْ طَيِّبْ خاطِرَهما، وقُلْ لهما كلامًا لَيِّنًا طَيِّبًا محفوفًا بالأدبِ والتَّوقير.

{وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً} (الإسراء : ٢٤)

٢٤- وتَواضَعْ لهما وتَلَطَّفْ معَهما، وادْعُ لهمَا بالخَيرِ والرَّحمَة، وقلْ: اللهمَّ ارحَمْ والدَيَّ في كِبَرِهما وعندَ وفاتِهما كما رَبَّياني ورَحِماني وأنا صَغير.

{رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً} (الإسراء : ٢٥)

٢٥- ولا يَخلو المرءُ مِنْ خطأ وتقصير، وكلامٍ قدْ لا يَقصِدُ منهُ إلاّ خَيرًا، فيُؤَوَّلُ على غيرِ ظَاهرِه، واللهُ أعلَمُ بما أضمَرتُموهُ في نفُوسِكم، وما نَويتُموهُ في قُلوبِكم، فإذا كنتُمْ مُؤمنينَ صالِحين، مُستَغفِرينَ مُنيبين، فاللهُ يَقبَلُ ذلكَ منكم، ويَغفِرُ لكم.

{وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً} (الإسراء : ٢٦)

٢٦- وصِلْ رَحِمَك، وأعطِ ذَوي قُرباكَ حَقَّهم، وأحسِنْ إليهم، وأعطِ المِسكينَ زَكاتَك، وتصَدَّقْ عَليهِ بما تَقدِرُ عَليه، وكذلكَ ابنَ السَّبيلِ الذي انقطَعَ عنْ بلَدِهِ ولم يبقَ معَهُ ما يُنفِقُ منهُ على نفسِهِ ويوصِلُهُ إلى بلَدِه. وكُنْ وسَطًا في الإنفَاق، ولا تُسرِفْ إسرافًا.

قالَ مُجاهِدٌ رَحِمَهُ الله: لو أنفقَ إنسَـــانٌ مالَهُ كُلَّهُ في الحقِّ لم يَكُنْ مُبَذِّرًا، ولو أنفقَ مُدًّا في غَيرِ حَقِّهِ كانَ تَبذيرًا.

قالَ صَاحِبُ "الظِّلال": فلَيسَتْ هيَ الكَثرَةُ والقِلَّةُ في الإنفاق، إنَّما هوَ مَوضِعُ الإنفاق.

{إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً} (الإسراء : ٢٧)

٢٧- إنَّ المسرِفِينَ كانوا أصحابَ الشَّياطينِ وأشباهَهُم؛ لإنفاقِهِمُ الأموالَ في الشرِّ والمعصيَة، بدلَ أداءِ حَقِّ نِعمَتِها وصَرفِها في الحقوقِ والطّاعات، والشَّيطانُ كافِرٌ بنِعمَةِ رَبِّه، جاحِدٌ لها.

{وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً} (الإسراء: ٢٨)

٢٨- وإذا لم تَجِدْ ما تُنفِقُهُ على مَنْ أمَرناكَ بإعطائهم، مِنْ ذَوي القُربَى والمسـاكين، وأعرَضْـتَ عَنهمْ بسبَبِ ذلك، فقُلْ لهمْ قَولاً لَيِّنًا، وعِدْهُمْ خَيرًا حتَّى يَتيَسَّرَ لكَ رزْقٌ منْ عندِ الله.

{وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً} (الإسراء : ٢٩)

٢٩- ولا تَبخَلْ بما رزَقَكَ الله وكأنَّ يدَيكَ مُقَيَّدتانِ إلى عُنُقِك، ولا تَبسُطْهُما كذلكَ وتَدَعْهما مَفتوحَتَينِ لا تُمسِكانِ شَيئاً، فيَذهَبَ كُلُّ مالِكَ وتَقعُدَ نادِمًا كَئيبًا، عاجِزًا ضَعيفًا.

والمطلوبُ الاقتِصادُ في العَيش، والوسَطيَّةُ في الإنفَاق، والتوازُنُ بينَ التَّقتيرِ والتَّبذير.

{إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً} (الإسراء: ٣٠)

٣٠- واللهُ هوَ الرَّازِق، يُوَسِّـعُ في الرِّزقِ على مَنْ شـاءَ منْ عِبادِهِ فيُغنِيه، ويُضَـيِّقُ على آخَرينَ منهمْ فيَكونُونَ أقَلَّ غِنًى أو فُقَراء، لحِكمَةٍ يَعلَمُها، فهوَ خَبيرٌ بهمْ وبأحوالِهم، بَصيرٌ بمَنْ يَستَحِقُّ الفَقرَ ومَنْ يَستَحِقُّ الغِنى.

{وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْـيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءاً كَبِيراً} (الإسراء : ٣١)

٣١- ولا تَقتُلوا أولادَكمْ خَوفًا منَ الفَقرِ والحاجَة، نحنُ نَرزُقُ أولادَكمْ وإيّاكُمْ معَهم، فاللهُ يَرزُقُ الجَميع. إنَّ وَأْدَهُمْ وقَتلَهمْ - كما كانتْ تَفعَلُ قبائلُ جاهِليَّةٌ معَ بَناتِها - ذَنْبٌ عَظيم، وإثمٌ كَبير.

{وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً} (الإسراء : ٣٢)

٣٢- ولا تَقترِبوا منَ الزِّنا، ولا تَتعاطَوا أسبابَهُ ودَواعيه، فإنَّها تُقَرِّبُ إلى الزِّنا. وهوَ من كبائرِ الذنوبِ والفَواحش، ومَسلَكٌ سَيِّء، يورِثُ الانحِلالَ الخُلُقيِّ في المجتَمَع، وتَضيعُ فيهِ الأنساب، ويُفْقَدُ فيهِ العِرضُ والشَّرَف، ويموتُ أجَلُّ خُلُقٍ في الإنسانِ وهوَ الحَياء، وتَتَفكَّكُ الأُسَر، وتَنتَشِرُ الأمراضُ الجِنسيَّةُ بشَكلٍ وبائيّ، مِثلُ الزُّهْريّ، والهِربِس، والإيْدز، والسَّيَلان، والفُطريّات، وأمْراضٍ أُخرَى تُصيبُ الجِهازَ التَّناسُليّ، وتَشَوُّهاتٍ خَلقيَّةٍ تَنتَقِلُ إلى الأبناءِ والأحْفاد. معَ أمراضٍ اجتماعيَّةٍ أُشيرَ إلى بَعضِها، وهوَ يؤدِّي إلى الطَّلاق، وسوءِ التربية، والأمراضِ النفسيَّة، والجَريمَة، ويُشَجِّعُ العُزوبيَّة، والإقدامَ على الاغتِصاب، ويَنتَشِرُ الإجهاض...

{وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً} (الإسراء : ٣٣)

٣٣- ولا تَقتُلوا النَّفسَ التي حرَّمَ اللهُ قَتْلَها بسبَبٍ منَ الأسبابِ إلاّ بسبَبِ الحقّ، كالقِصاص، والرِّدَّة، والزِّنا بعدَ الإحصان. ومَنْ قُتِلَ بغَيرِ حَقّ، فقدْ جَعَلنا لمَنْ يَلي أمرَهُ سُلطَةً على القاتِل، إنْ شاءَ قتَلَهُ قِصاصًا، وإنْ شاءَ عفا عنهُ مُقابِلَ الدِّيَة، وإنْ شاءَ عفا عنهُ ولم يأخُذْ منهُ شَيئًا. ولا يَتجاوَزَنَّ الوليُّ الحقَّ المشروعَ له، فيَقتُلَ غَيرَه، أو يَقتُلَ اثنينِ، أو يُمَثِّلَ بالقاتِل، فهوَ مَنصورٌ بما رُسِمَ لهُ من استيفاءِ حَقِّه، وكَفَى.

{وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً} (الإسراء : ٣٤)

٣٤- ولا تتعرَّضـوا لمالِ اليَتيمِ - أيُّها الأولياءُ والأوصِـياءُ - إلاّ بما فيهِ صَـلاحُهُ وتَثميرُهُ، حتَّى يَبلُغَ الحُلُم.

وأوفُوا بالعُهودِ والعُقودِ التي تتعاهَدونَ عَليها، فكُلٌّ مَســؤولٌ ومُحاسَــبٌ على ما عاهدَ عَليهِ وعَقَدَهُ. وتَكونُ في مَضمُونِها وشُروطِها مُوافِقَةً لأحكامِ الشَّريعَة.

{وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} (الإسراء : ٣٥)

٣٥- وأتِمُّوا المِكيلَ والميزانَ بالعَدل، في البَيعِ والشِّـراء، وزِنوا بالميزانِ السَّـويّ، الذي لا اعوِجاجَ فيهِ ولا انحِراف، فذلِكَ خَيرٌ وأفضَــلُ في مُعامَلاتِكمْ وأحسَــنُ عاقِبةً لآخِرَتِكم، وقتَ الثَّوابِ والعِقاب.

{وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً} (الإسراء : ٣٦)

٣٦- ولا تَتَّبعْ ما لا عِلمَ لكَ به، ولا يَختَلِطْ عَليكَ الوَهمُ واليَقين، فيَلزَمُ التثَبُّتُ منْ صِــحَّةِ الخبَرِ والواقِعَة، ولولا ذلكَ لاختلَطَ الحَقُّ بالباطِل، وأُخِذَ النَّاسُ بالظَّنِّ والخبَرِ الوَاهي، وجَوارِحُ الإنسانِ أمانَةٌ عِندَه، كالسَّمع، والبَصَر، والفؤاد، فكُلُّها مَسؤولَةٌ تُحاسَبُ على وظيفَتِها.

{وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً} (الإسراء : ٣٧)

٣٧- ولا تَمشِ في الأرضِ خُيَلاءَ مُتكبِّرًا، فإنَّكَ لنْ تَقطَعَ الأرضَ بمَشيكَ على هذهِ الهَيئة، ولا تَستَطيعُ أنْ تُطاوِلَ الجِبالَ بتمايُلِكَ وإعجابِكَ بنَفسِك، ولنْ ينفَعَكَ هذا شَيئًا.

{كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً} (الإسراء : ٣٨)

٣٨- كلُّ ما ذُكِرَ منَ الأفعالِ والصِّفاتِ السيِّئةِ فيما سَبقَ مَكروهَةٌ عندَ الله، مَبغوضَةٌ إليه.

{ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً} (الإسراء : ٣٩)

٣٩- وذلِكَ الذي ذَكرناهُ منَ الأمرِ بالصِّفاتِ الحَميدَة، والنهي عنِ الصِّفاتِ المرذولَة، هوَ بَعضُ ما أوحَيناهُ إليكَ منَ الأحكامِ المحكَمَة، لتأمُرَ الناسَ بها.

ولا تُشرِكْ باللهِ في عِبادَتِهِ شَيئًا، فتُرمَى في نَارِ جَهنَّم، مَطرودًا مُبعَدًا منْ رَحمَةِ اللهِ وفَضلِه.

والمخاطَبُ رَسولُ اللهِ صلى الله عَليه وسلم، والتَّنبيهُ فيهِ للأمَّة، فالتَّوحيدُ رأسُ العَقيدَةِ ومَبدَأ الأمر، والتَّحذيرُ منَ الشِّركِ يأتي في أوَّلِ التَّحذِيرات.

{أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً} (الإسراء : ٤٠)

٤٠- كيفَ تَقولونَ إنَّ الملائكةَ بَناتُ اللهِ أيُّها المشركونَ الجاهِلون؟ فهلِ اختارَ لكمْ رَبُّكمْ أولادًا ذُكورًا واتَّخَذَ لنَفسِهِ منَ الملائكَةِ إناثًا؟ كيفَ تَجعَلونَ لرَبِّكمْ شَيئًا تَكرَهونَهُ لأنفسِكم؟ إنَّكمْ تَقولونَ قَولاً مُستَنكَرًا مِنْ أساسِه، عَظيمًا في جُرأتِهِ وشَناعَتِه.

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً} (الإسراء : ٤١)

٤١- ولقدْ ذكَرنا في هذا القُرآن، وكرَّرنا فيه، ونوَّعنا أسلوبَ ما نَدعوهُمْ بهِ إلى الإيمانِ والإسْلام، بالحُجَجِ والبيِّنات، والتَّرغيبِ والترهيب، والموعِظَةِ والحِكمَة، ليَتذَكَّروا ويَتَّعِظوا، ويَفقَهوا ويَتدَبَّروا، ولكنَّ ذلكَ لم يَزِدْهُمْ إلاّ بُعدًا عنِ الحقّ، وإعراضًا عنه.

{قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً} (الإسراء : ٤٢)

٤٢- قُلْ لهمْ أيُّها النبيّ: لو كانَ معَ اللهِ آلِهَةٌ أخرَى - كما يَزعُمُ المشرِكونَ - لنافَسَتْهُ في الملكِ وطلبَتْ مُغالبتَهُ بالقُوَّةِ والقَهْرِ كما يَفعَلُ مُلوكُ الدُّنيا.

{سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً} (الإسراء : ٤٣)

٤٣- تَنزَّهَ اللهُ وتَقدَّسَ عمَّا يَقولُ المشرِكونَ منَ الإفكِ العَظيمِ الذي يَفتَرونَه، وتَعالَى عنِ الشِّركِ والشُّبَهِ تَعاليًا كبيرًا، فهوَ الإلهُ الواحِدُ الأحَد، الذي لا شَريكَ لهُ ولا شَبيه.

{تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً} (الإسراء : ٤٤)

٤٤- تُقَدِّسُهُ السَّماواتُ السَّبعُ والأرضُ ومَنْ فيهنّ، مِنَ الملائكة، والإنْس، والجِنّ، وما مِنْ شَيءٍ في الوُجودِ إلاّ ويُسَبِّحُ اللهَ ويَحمَدُه، ويَشهَدُ بوَحدانيَّتِه، ويَنطِقُ بعظمتِه، مِنْ حيَوانٍ ونَباتٍ وجَماد، طَوعًا أو كَرْهًا، كُلٌّ بطَريقتِهِ ولُغتِه، ولكنَّكمْ لا تَفهَمونَ تَسبيحَهم، فأنتُمْ غَيرُ مُطَّلِعينَ على أسْرارِ خَلقِهم، ولا تَعرِفونَ لُغَتَهم.

وكانَ اللهُ حَليمًا إذْ لم يُعاجِلكُمْ بالعُقوبَةِ وقَدْ بارَزتُموهُ بالمعصيَة، بلْ أمهَلَكمْ إلى حِين، وإذا تُبتُمْ ورجَعتُمْ إلى الحقّ، عفا عَنكمْ وغَفَرَ لكمْ ذُنوبَكم.

وقدْ أكَّدَ عالِمٌ يابانيٌّ مُتخَصِّص، هوَ رَئيسُ مَعهدِ هادو للبحوثِ العِلميَّة، أنَّ أيَّةَ ذَرَّةٍ في عالَمِ الوجودِ لها إدراكٌ وفَهمٌ وشُعور، وتُعَظِّمُ خالِقَها وتُسَبِّحُهُ عنْ بَصيرَة.

{وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً} (الإسراء : ٤٥)

٤٥- وإذا قَرأتَ القُرآنَ أيُّها النبيّ، جَعلنا بينَكَ وبينَ المشرِكينَ الذينَ لا يؤمِنونَ باليَومِ الآخِرِ مانِعًا وحائلاً يَحجُبُ قُلوبَهَمْ عنْ فَهمِهِ والانتِفاعِ به. وكانَ يَتواصَى بَعضُهمْ بينَ بَعضٍ ألاّ يَستَمِعوا إلى القُرآن، فإذا سَمِعوهُ جاهَدوا ألاّ يُلامِسَ قُلوبَهَمْ وألاّ يتأثَّروا به! فعاقبَهمُ اللهُ بذلك.

{وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً} (الإسراء : ٤٦)

٤٦- وجعَلنا على قُلوبِهمْ - عندَما يَسمَعونَ القُرآنَ - طبَقَةً كالغِلافِ فلا يَفهَمونَه، وفي آذانِهمْ ثِقْلاً فلا يَنتَفِعونَ بسَماعِه. وإذا وحَّدْتَ اللهَ أثناءَ قِراءَتِكَ القُرآن، انصَرَفوا راجِعين؛ نفُورًا منْ كَلِمَةِ التوحيد، التي تَعني تَغييرَ عَقيدَتِهمُ الشِّركيَّةِ وحَياتِهمُ الجاهليَّة.

{نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً} (الإسراء : ٤٧)

٤٧- نحنُ أعلَمُ بما يَتناجَى بِهِ رؤساءُ المشرِكينَ عندَما كانوا يَستَمِعونَ إلى قِراءَتِكَ سِرًّا، فقالَ كُبراؤهمُ الذينَ ظَلَموا أنفُسَهمْ وظَلَموا قومَهم: إذا اتَّبَعتُمْ محمَّدًا فإنَّما تتَّبِعونَ رَجُلاً مَسَّهُ السِّحْر، فهوَ مجنُون.

{انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعْونَ سَبِيلاً} (الإسراء : ٤٨)

٤٨- انظُرْ أيُّها النَّبيُّ كيفَ مَثَّلوكَ وبمَ شَبَّهوك، فقالوا هُنا إنَّكَ مَسحورٌ مجنُون، ومِنهمْ مَنْ قالَ إنَّكَ كاهِن، وقالَ غَيرُهمْ إنَّكَ شاعِر... لقدْ صَدُّوا فِطرَتَهمْ عنْ سَماعِ الحقّ فنطَقوا بالكُفر، فضَلُّوا ولم يَستَطيعوا أنْ يَسلُكوا طَريقَ الهِدايَة، ولا عَلَّلوا مَوقِفَهمْ بكلامٍ مُفيدٍ أو حُجَّةٍ مُقنِعَة.

{وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً} (الإسراء : ٤٩)

٤٩- وقالَ المشرِكونَ مُتعَجِّبينَ مُنكِرين: أإذا مِتنا وتحَوَّلَتْ أجسادُنا إلى عِظامٍ وتُراب، فهلْ نَحيا ونُبعَثُ مِنْ جَديدٍ كما كُنّا أحياءً مِنْ قَبل؟

{قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً} (الإسراء : ٥٠)

٥٠- قُلْ لهمْ أيُّها الرسُول: كُونوا حِجارَةً قاسِيَة، أو حَديدًا صُلبًا، ممّا هوَ أمتَنُ وأثخَنُ منَ العِظامِ والتُّراب،

{أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً} (الإسراء: ٥١)

٥١- أو كونوا أيَّ خَلقٍ يَكبُرُ في أفهَامِكمْ ممّا هوَ أشَدُّ وأبعَدُ عنِ الحَياةِ منَ الحِجارَةِ والحَديد. فسيَقولونَ لك: منِ الذي يَرُدُّنا إلى الحياةِ بعدَ كُلِّ هذا؟

قُلْ لهم: إنَّ الذي خَلقَكمْ أوَّلَ مرَّةٍ هوَ الذي يُحييكُمْ مَرَّةً أخرَى، وليسَــــتِ المرَّةُ الثانيَةُ في الإحياءِ أصعبَ على اللهِ منَ الأُولَى، فاللهُ ليسَ كالبَشَـرِ في مَحدوديَّةِ قُدرَتِه، بلْ هوَ قَويٌّ قادِر، يأمرُ بالخَلقِ فيَكونَ كما يُريد، في الوَقتِ الذي يُريد.

فيَســتَنكِرونَ هذا الجوابَ مِنك، ويُحَرِّكونَ رؤوسَــهمْ نَفيًا واســتِهزاء. ويَقولونَ اســتِبعادًا لأمرِ البَعث: متَى ســيَكونُ ذلك؟ فقُلْ لهم: عسَـــى أنْ يَكونَ ذلكَ اليومُ قَريبًا، فهوَ آتٍ لا بُدّ، فاحذَروا ولا تَغفُلوا.

{يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً} (الإسراء : ٥٢)

٥٢- يَومَ يَدْعوكمُ اللهُ مِنْ قُبورِكمْ للحَشر، فتَقومُونَ جَميعًا وتُبعَثونَ استِجابةً لأمرِه، حامِدينَ لهُ على كَمالِ قُدرَتِه، وتَظنُّونَ أنَّكمْ لم تَمكُثوا في الدُّنيا، أو في القُبور، إلاّ زمَنًا قَليلاً.

{وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً} (الإسراء : ٥٣)

٥٣- وقُـلْ لِعبـاديَ المؤمِنينَ يَتَحلَّوا باللِّينِ والحِلمِ في كلامِهمْ وحِوارِهمْ معَ الآخَرين، ويَقولوا الكَلِمَةَ الطيِّبَة، ويَختاروا أحسَـنَ الكلامِ ومُهَذَّبَه، ليَكونَ أوقعَ في النَّفس، وأكثرَ تأثيرًا، وأفضـلَ استِجابَة. والشَّيطانُ يَتحيَّنُ الخَطأ ليَنفُخَ فيهِ ويَجعلَهُ سبَبًا للعَداوَةِ والبَغضـاءِ بينَ المؤمِنين، وهوَ ظاهِرُ العَداوَةِ لهم. والكَلِمَةُ الطيِّبَةُ تُبعِدهُ عنْ مجلسِ أصـــحابِها وأحاديثِهم، فيَكونونَ مُتآلِفينَ مُتوادِّين، بَعيدينَ عنْ هَمَزاتِهِ ونزَغاتِه.

{رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَـأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَـأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَـلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً} (الإسراء : ٥٤)

٥٤- ورَبُّكمْ مُطَّلِعٌ على نفُوسِكم، ويَعلَمُ استِعدادَ كُلٍّ منكمْ وقابليَّتَهُ للهُدَى أو الضَّلال، فإنْ شَـاءَ رَحِمَكمْ فوفَّقَكمْ للإيمان، وإنْ شَـاءَ خَذَلَكمْ عنِ الإيمانِ فأماتَكمْ على الكُفرِ والضَّـلال، بعِلمِهِ وحِكمَتِه، وعَذَّبَكمْ يومَ القيامَةِ بكُفرِكمْ به، {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً} [ســورة الكهف:

٤٩]. وما جَعلناكَ – أيُّها الرَّسولُ – كَفيلاً بِهدايَةِ المشرِكين، وقادِرًا على إصْلاحِ قُلوبِهم، إنَّما أنتَ نَذير، مُبَلِّغ.

{وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً} (الإسراء : ٥٥)

٥٥- وعِلمُ اللهِ مُحيطٌ بمَنْ في السَّماواتِ والأرض، يَعلَمُ أحوالَهُمْ ودرجاتِهِمْ في العِلمِ والإيمان، فيَختارُ مَنْ شاءَ لنبوَّتِهِ ووِلايَتِه. وقدْ فضَّلنا بعضَ النبيّينَ على آخَرينَ منهم، فقدْ كلَّمَ اللهُ موسَى تَكليمًا، وآتَى عيسَى مُعجِزات، كإحياءِ الموتَى بإذنِ الله، وفضَّلَ محمَّدًا صلى الله عَليه وسلم على العالَمين، فهوَ رَسولُ اللهِ إلى النَّاسِ كافَّة، ورسالَةُ الإسْلامِ نسَخَتْ سائرَ الرِّسالاتِ السَّابقَة. وآتَينا داودَ الزَّبور، وكُلُّهُ دُعاءٌ وتَمجيدٌ وثناءٌ على اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وقدْ جَعلنا لهُ فَضلاً وشرَفًا، لعِلمِهِ وطاعَتِهِ لا لملكِه. على أنبياءِ اللهِ جَميعًا صَلواتُ اللهِ وسلامُه.

{قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً} (الإسراء : ٥٦)

٥٦- قُلْ للمشرِكينَ أيُّها الرَّسُول: ادعُوا هذهِ الأصنامَ أو الجِنَّ أو الملائكةَ الذينَ تَعبُدونَهُمْ ليَكشِفوا عَنكمْ ما يُصيبُكمْ مِنْ فَقرٍ ومرَضٍ وقَحطٍ وغَيرِه، أو يُحَوِّلوها إلى غَيرِكم. إنَّهُمْ لا يَملِكونَ ذلكَ ولا يَقدِرونَ عَليه، فهمْ ليسُوا آلِهة، إنَّما الإلهُ الحقُّ الذي يَقدِرُ على ذلك، هوَ اللهُ وحدَه، وهوَ الذي يَستَحِقُّ العِبادَةَ لا غَيرُه.

{أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً} (الإسراء : ٥٧)

٥٧- إنَّ أولئكَ الذينَ يَدعُوهمُ المشرِكونَ ويَعبدونَهم (وكانوا جِنًّا أسلَموا) يَطلبونَ منَ اللهِ القُرْبَ إليهِ بطاعَتِهِ وعِبادَتِه، ويَنظُرونَ في أفضَلِ وأحسَنِ ما يَتقَرَّبونَ بهِ إليهِ سُبحانَهُ ليَفعَلوه، ويَرجونَ بذلكَ رَحمَتَهُ وعَفوَه، ويَخافونَ عَذابَهُ ويَتَّقونَه، وإنَّ عَذابَ اللهِ شَديدٌ مُخيف، يَحذَرُهُ العاقِلون، ويَحترِزُ منهُ العَارِفون.

وفي الصَّـــحيحَينِ وغَيرِهما أنَّها نزَلتْ في نَفَرٍ منَ العرَبِ كانوا يَعبدونَ نفَرًا منَ الجنّ، فأسـلمَ الجِنّيون، والإنسُ الذينَ كانوا يَعبدونَهمْ لا يَشعُرون.

{وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِك فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً} (الإسراء : ٥٨)

٥٨- وليسَ هُناكَ قَريَةٌ أو مَدينَةٌ مِنْ مدُنِ الكفَّارِ إلاّ ونحنُ مُهلِكوها ومُبيدو أهلِها قَبلَ أنْ تَقومَ القِيامَة، أو مُعَذِّبوهُمْ عذابًا أليمًا، وهذا حُكمٌ كتبَهُ اللهُ في اللَّوحِ المحفُوظ، لا يَتغيَّر.

{وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً} (الإسراء : ٥٩)

٥٩- وما صرَفْنا أنْ نبعَثَ الآياتِ والمعجِزاتِ التي اقترحَها كُفَّارُ قُرَيش، إلاّ خَشيَةَ ألاّ يؤمِنوا بها، فإنَّهُمْ إنْ كفَروا بها أهلَكنَاهم، وقدْ سبقَ أنْ أنزلنا مُعجِزاتٍ على أقوامٍ سابقِين، فكذَّبوا بها فأهلَكنَاهُم.

وفي مُسنَدِ أحمدَ بإسنادٍ صَحيح، أنَّ أهلَ مَكَّةَ سألوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم أنْ يجعلَ لهمُ الصَّفا ذَهَبًا، وأنْ يُنَحِّيَ الجِبالَ عنهمْ فيَزدَرِعوا، فقيلَ له: إنْ شِئتَ أنْ تستأنيَ بهم، وإنْ شِئتَ أنْ نؤتيَهمُ الذي سَألوا، فإنْ كفروا أُهلِكوا كما أهلكتُ مَنْ قَبلَهم. قال: "لا، بلْ أستأني بهم". فأنزلَ اللهُ هذهِ الآية. اهـ.

وقدْ آتَينا ثَمودَ النَّاقَةَ مُعجِزَةً واضِحةً دالَّةً على قُدرَةِ الخالِقِ وإبداعِه، وعلى صِدقِ رَسولِه، وكانَ ذلكَ بطلَبِ قَومِه، فكفَروا بكَونِها منْ عندِ الله، وكذَّبوا رسُولَه، وعقَروها، وقدْ حُذِّروا مِنْ ذلك. ونُرسِلُ المعجِزاتِ وآياتِ القُرآن، أو العِبَرَ والدَّلالات، تَخويفًا وإنذارًا للعِباد، ليؤمِنوا ويَرتَدِعوا عمَّا همْ عليه.

{وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً} (الإسراء : ٦٠)

٦٠- وقدْ قُلنا لكَ أيُّها النبيُّ إنَّ النَّاسَ في قبضَـةِ قُدرَةِ اللهِ وتحت تَصَـرُّفِه، وقدْ منعَهمُ اللهُ مِنْ إيذائكَ وعصَمَكَ منهم.

وما جَعَلنا الرُّؤيا التي أرَيناكَ رأيَ العَين، وهيَ الإسراءُ والمِعراج، إلاّ اختِبارًا للنَّاسِ وامتِحانًا لهم، لنَعلَمَ الصَّادِقَ منهمْ في إيمانِه، والكاذِبَ أو الضَّعيفَ فيه.

وقدِ ارتدَّ بعضُ النَّاسِ بعدَ حادِثَةِ الإسراء، وازدادَ آخَرونَ يَقينًا.

روَى البُخاريُّ في صَحيحِهِ قَولَ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما في هذا: هيَ رؤيا عَينٍ أُرِيَها رَسولُ اللهِ صلى اللهُ عَليه وسلم ليلَةَ أُسرِيَ بهِ إلى بَيتِ المقدِس. اهـ.

وكذلِكَ شَـجرَةُ الزَّقُّومِ الملعونَةُ التي ذكرَها اللهُ في القُرآنِ وخوَّفَ بها المكَذِّبين، التي أرَيناكَها في رِحلَتِكَ في المعْراج، فكذَّبوا بها.

وفي مُسنَدِ أبي يَعلَى وأحمدَ بسنَدٍ صَحيح، أنَّ أبا جَهلٍ قال: يُخَوِّفُنا محمَّدٌ بشَجرَةِ الزَّقُّوم، هاتُوا تَمرًا وزُبْدًا تزَقَّموا!

والآياتُ التي ورَدَ فيها ذِكرُ شَـجَرَةِ الزَّقُّومِ في سُـورَةِ الصـافّات (٦٢-٦٦)، والدُّخَان (٤٣-٤٦).

ونُخَوِّفُ الكافِرينَ بالوَعيدِ والعَذاب، فلا يَزيدُهمْ ذلكَ إلاّ تَماديًا في الكُفرِ والضَّلال.

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً} (الإسراء : ٦١)

٦١- واذكُرْ إذْ قُلنا للمَلائكةِ اسجُدوا لآدمَ سَجدَةَ تَكريمٍ لا سَجدَةَ عِبادَة، بعدَ أنْ سوَّينا خَلقَهُ ونفَخنا فيهِ مِنْ رُوحِنا، فسـجدَ لهُ جَميعُ الملائكةِ مُلَبّينَ أمرَ الله، إلاّ إبليسَ أبَى أنْ يَسجُد، وقالَ احتِقارًا لهُ ومُستَعْليًا عَليه: أأسجُدُ لهذا الذي خَلقْتَهُ مِنْ طِين؟

لقدْ عصَـى إبليسُ أمرَ ربِّه، وغفَلَ، أو تغافَلَ عنِ النَّفخَةِ الربَّانيَّةِ التي أودعَها في الطِّينِ الذي خلقَ منهُ آدَم، وعادَاهُ منذُ أوَّلِ خَلقِه.

{قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً} (الإسراء : ٦٢)

٦٢- وقالَ إبليسُ اللَّعينُ يُخاطِبُ ربَّهُ في جُرأةٍ ووَقاحَة: أرأيتَ هذا المخلوقَ الذي كرَّمتَهُ وفضَّلْتَهُ عليَّ، إذا مدَدتَ في عُمُري وأبقَيتَني إلى يَومِ القِيامَة، لأستَولَينَّ على ذُرِّيَّتِهِ وأُضِلَّنَّهمْ عنِ الهُدَى، إلاّ القَليلَ منهم.

{قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُوراً} (الإسراء : ٦٣)

٦٣- قالَ لهُ ربُّه: اذهَب، فقدْ أخَّرتُكَ إلى يَومِ القِيامَة، واعمَلْ على ضَلالِ مَنْ شِئتَ منهم، فمَنْ آثرَ طاعتَكَ على طاعَتي فإنَّ جَزاءَكَ وجَزاءَ مَنْ تَبِعَكَ جهنَّمُ، جَزاءً وافِرًا كامِلاً لا يُنقَصُ لكمْ منه.

{وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً} (الإسراء : ٦٤)

٦٤- استَخِفَّ واخدَعْ منِ استَطَعتَ منهمْ بصَخَبِكَ وتَهويلِكَ وتَزيينِك، وصِحْ عَليهمْ بجنودِكَ كُلِّهم، راكبِهمْ وماشِيهم، وتسلَّطْ عَليهمْ بما تَقدِرُ عَليه لإضلالِهم(٧٢)، وشارِكْهمْ في أموالِهم، بكَسبِها منَ الحَرام، وإنفاقِها في الحَرام، وجَعْلِ نَصيبٍ منها للأصْنام. وشارِكْهمْ في الأولاد، بتَربيَتِهمْ على الكُفرِ والمعصِيَة، أو قَتلِهمْ خَوفًا منَ الفَقر، أو تَسميَتِهمْ بما يَكرَهُ الله، وعِدْهُمْ بالمغرياتِ الكاذِبَة، أمِّلْهُمْ بالعمُرِ الطَّويل، والملكِ العَريض، وشَفاعَةِ الأصْنامِ لهمْ إذا وقَعوا في

---

(٧٢) قالَ ابنُ عباس ومجاهد وقتادة: إن خيلًا ورَجِلًا من الجنّ والإنس، فما كان من راكبٍ يقاتلُ في معصيةِ الله فهو من خيلِ إبليس، وما كان من راجلٍ يقاتلُ في معصيةِ الله فهو من رَجِلِ إبليس.

ويجوزُ أن يكونَ استفزازهُ بصوتهِ وإجلابهِ بخيلهِ ورَجِلهِ تمثيلًا لتسلُّطهِ على من يُغويه، فكأنهُ مغوارٌ أوقعَ على قومٍ فصوَّتَ بهم صوتًا يُزعجهم من أماكنهم ويُقلِعُهم عن مراكزهم، وأجلبَ عليهم بجندهِ من خيّالة ورجّالةٍ حتى استأصلَهم. (روح البيان).

تمثيلٌ لحالِ صرفِ قوَّتهِ ومقدرتهِ على الإضلالِ بحالِ قائدِ الجيش، يجمعُ فرسانَهُ ورجّالته.. ولما كان قائدُ الجيشِ ينادي في الجيشِ عند الأمرِ بالغارة، جازَ أن يكونَ قوله: {وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ} من جملةِ هذا التمثيل... والمعنى: أجْمِعْ لمن اتَّبعَكَ من ذريةِ آدمَ وسائلَ الفتنةِ والوسوسةِ لإضلالهم. (التحرير والتنوير).

الضِّـــيق، وقُلْ لهم: لا جَنَّةَ ولا نارَ ولا بَعث. وما مَواعيدُ الشَّـــيطانِ لهمْ إلاّ حِيَلٌ وتَكذيب، وتَزيينٌ للباطِلِ بما يُظَنُّ أنَّهُ حَقّ.

{إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً} (الإسراء : ٦٥)

٦٥- إنَّ عِبادِيَ المؤمِنين، المتحَصِّـنينَ منكَ بالإيمانِ والتوَكُّل، ليسَ لكَ عَليهمْ تسَـلُّطٌ ونُفوذٌ بإغوَائهم، فهمْ في حِفظِ اللهِ وحِراسَتِه، وكفَى باللهِ حافِظًا ومُعينًا.

{رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْـــلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً} (الإسراء : ٦٦)

٦٦- وكانَ عَليكمْ أنْ تَعرِفوا عَداوةَ الشَّـــيطانِ لكمْ فتَبتَعِدوا عَنه، وتَتَوجَّهوا إلى رَبِّكمُ الذي يُسَخِّرُ لكمْ ما شـاءَ ويُسَـهِّلُ لكمْ مَصـالِحَكم، فهوَ الذي يَدفَعُ لكمْ السُّفُنَ في البَحرِ لتَطلُبوا رزقَكمْ بالتِّجارةِ فيه، وتَتنقَّلوا منْ بلَدٍ إلى بلَد، وهذا منْ فَضلِهِ عَليكمْ ورحمَتِهِ بكم.

{وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً} (الإسراء : ٦٧)

٦٧- وإذا أصـــابَكمُ الخَوفُ في البَحر، فقَويَتِ الرِّيح، وهاجَ الموج، وتَمايَلَتِ السَّـــفينَةُ مُنذِرَةً بالغَرَق، ذهَبَ عَنكمْ كُلُّ مَنْ كنتُمْ تَدعونَهُمْ وتَعبدونَهُمْ إلاّ الله، وعرَفتُمْ أنَّهُ لنْ يُغيثَكمْ إلاّ هو، فلمّا خلَّصَـكمْ منْ ذلكَ الكَرْب، وأنقذَكمْ مِنْ هَولِ البَحرِ وأموَاجِه، وأوصـلَكمْ سـالِمينَ إلى البَرّ، أعرَضـتُمْ عنْ تَوحيدِ رَبِّكم، ورجَعتُمْ إلى الشِّـركِ والمعصِـيَة. وهذهِ عادَةُ الإنسَـان، الذي يَنسَى النِّعَم، ويَجحَدُ المعرُوف، إلاّ مَنْ عصَمَ الله، وتَثَبَّتَ على الإيمان.

{أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِـفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِـلَ عَلَيْكُمْ حَاصِـباً ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً} (الإسراء : ٦٨)

٦٨- وإذا نجَوتُمْ فصِرتُمْ في طرَفِ البَرّ، أفظَننتُمْ - أيُّها الغافِلونَ - أنَّكمْ ناجُونَ مِنْ بَطشِ اللهِ وانتِقامِه؟ أفأمِنتُمْ أنْ يُزَلزِلَ الأرضَ مِنْ تحتِ أقدامِكم، أو يُثيرَ بَركانًا فيَقذِفَكمْ منه، فيُهلِكَكمْ جَميعًا؟ ولنْ تجِدوا مَنْ يَحميكمْ منْ عَذابِهِ وسَخَطِه.

{أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً} (الإسراء : ٦٩)

٦٩- أمْ أمِنتُمْ أنْ يَرُدَّكُمُ اللهُ إلى البَحرِ الذي أنجاكُمْ منهُ مرَّةً أُخرَى، فيَبعثَ عَليكمْ رِيحًا شَديدَةً جِدًّا، تُدَوّي لسُرعَتِها، وتَكسِرُ ما تَمرُّ بهِ لقُوَّتِها، فيُغرِقَكمْ بسبَبِ كُفرِكمْ وإعْراضِكمْ عنِ اللهِ تعالَى؟ ولنْ تجِدوا مَنْ يُتابِعُ أمرَ غَرَقِكمْ فيَثأرَ لكم.

{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} (الإسراء : ٧٠)

٧٠- ولقدْ جَعلنا بني آدمَ ذَوي كَرامَةٍ وشرَف، ومَحاسِنَ وفَضائل، بما أودعَ اللهُ فيهمْ مِنْ فِطرَة، وأكرمَهمْ مِنْ عَقل، وجعلَهمْ خُلَفاءَ في الأرْض، وسخَّرَ لهمْ ما في السَّماواتِ والأرْض.
وسهَّلنا لهمُ التنقُّلَ في البَرّ والبَحرِ بما ذَلَّلناهُ لهمْ منَ الدوابّ والسُّفُنِ وغَيرِها منَ المراكب، ورزَقناهمْ أنواعَ المطاعِمِ والمشَارِب، ممّا لَذَّ وطابَ ونفَع. وقدْ فضَّلنا بني آدمَ بهذا التَّكريم، وباستِخلافِهِ في الأرْض، على كَثيرٍ منَ المخلوقات، تَفضيلاً كبيرًا بيِّنًا.

{يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَـئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً} (الإسراء : ٧١)

٧١- ويَومَ القِيامَةِ نُنادي كُلَّ جَماعَةٍ بنِسبَتِهمْ إلى الإمامِ والقائدِ الذي اتَّبَعوه، فمَنْ أُعطِيَ صَحيفَةَ عمَلِهِ بيَمينِه، فأولئكَ يَقرَؤونَها بفَرَحٍ وابتِهاج، ولا يُنقَصُونَ منْ أجُورِ أعمالِهمْ شَيئًا، ولو كانَ مِثقالَ القِشرِ الرَّفيعِ الذي في وسَطِ النَّواة.

{وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً} (الإسراء : ٧٢)

٧٢- ومَنْ كانَ في هذهِ الدُّنيا ضالاًّ لا يُبصِرُ سَبيلَ الرُّشد، ولا يَهتَدي إلى طَريقِ الحَقِّ الذي بيَّنَهُ لهُ اللهُ في كتُبِهِ وعلى ألسِنةِ رسُلِه، فهوَ في الآخِرَةِ أيضًا لا يَهتَدي إلى مَنْ يُسعِفُهُ ويُنجِيه، فهوَ ثمَرَةُ عمَلِهِ السَّيِّء، ومَنْ كانَ غافِلاً لاهِيًا وأفاقَ على جِدٍّ لَقيَ ما لا يُحِبّ، بلْ هوَ أكثَرُ ضَلالاً منهُ في الدُّنيا، لعدَمِ إمكانِ تَدارُكِ ما فاتَه، ولا عَودَتِهِ إلى الدُّنيا ليَعملَ صالِحًا.

{وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً} (الإسراء : ٧٣)

٧٣- وقدْ كادَ المشرِكونَ أنْ يوقِعُوكَ في الفِتنَة، ويَصرِفوكَ عمّا أوحَيناهُ إليكَ منَ الأحْكام، لِما يُراجِعونَكَ فيهِ ويَقتَرِحونَه، ويَطلبونَ منكَ أنْ تَختَلِقَ على اللهِ غَيرَ ما أوحاهُ إلَيك، ولو وافَقتَهمْ على ذلكَ لاتَّخَذوكَ صَديقًا ووَليًّا لهم.

{وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً} (الإسراء : ٧٤)

٧٤- ولو لمْ نُثَبِّتْكَ على الحَقِّ لَكِدْتَ أنْ تَميلَ إليهِمْ شَيئًا قَليلًا، لشِدَّةِ كَيدِهِمْ واحتيالِهِم.

{إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً} (الإسراء : ٧٥)

٧٥- ولو أنَّكَ مِلتَ إليهِمْ ولو شَيئًا قَليلًا، لأذَقناكَ عَذابًا مُضاعَفًا في الحَياةِ الدُّنيا، وعَذابًا مُضاعَفًا في الحَياةِ الآخِرَة، ثمَّ لا تَجِدُ مُعينًا يَمنَعُكَ مِنْ عَذابِنا.

وقدْ عصَمَ اللهُ رسولَهُ الكريمَ منْ فِتنَةِ المشرِكينَ والرُكونِ إليهم. وهذا دَرسٌ كبيرٌ للمُسلِمينَ بعدَمِ التنازُلِ لهمْ عنْ شَيءٍ منْ أحكامِ دينِهمْ للكافِرين، فهوَ نظامٌ مُتكامِلٌ لا يَصلُحُ التَّفريطُ بجُزءٍ منه. وفَرقٌ بينَ العِزَّةِ بالإسْلامِ والفَخرِ به، وبينَ التَّنازُلِ عنهُ أو عنْ بَعضِه.

{وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً} (الإسراء : ٧٦)

٧٦- وقدْ كادَ مُشرِكو مكَّةَ أنْ يُزعِجُوكَ بعداوَتِهِمْ ومَكرِهِمْ ليُخرِجوكَ منها، ولو أنَّهُمْ فعَلوا ذلكَ لِما بَقُوا في مَكَّةَ بعدَكَ إلاّ زمَنًا يسيرًا حتَّى يَهلِكوا.

قالَ مُفَسِّرون: وقدْ كفَّهمُ اللهُ عنْ ذلكَ حتَّى أمرَ رسولَهُ بالهِجرَة.
وذكرَ آخَرونَ أنَّهُمْ فعَلوا ذلك، فعاقَبَهمُ الله، حَيثُ أمكنَ مِنهمْ رسولَهُ يَومَ بَدر، فقتَلَ أشرافَهمْ وسبَى ذَرارِيهم... أو أنَّهُ دخلَ مكَّةَ وقَهرَ أهلَها ثمَّ أطلقَهمْ حِلْمًا وكرَمًا. صلى الله عليه وسلم.
وللتَّوفيقِ بينَ الأمرينِ يُقال: إنَّ المشرِكينَ كانوا سببًا في خُروجهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام، ثمَّ أمرَهُ اللهُ بالهِجرة.

{سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً} (الإسراء : ٧٧)

٧٧- وهذهِ طَريقَتُنا معَ رسُلِنا مِنْ قَبلِك، إذا أخرَجَهمْ قَومُهمْ مِنْ بينِ أظهُرِهمْ عاقَبناهُم، ولا تَجِدُ لطَريقَتِنا تَبديلاً أو تَغييرًا.

{أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً} (الإسراء : ٧٨)

٧٨- أقِمِ الصَّلاةَ مِنْ مَيلانِ الشَّمسِ - وهوَ انحِرافُها منْ وسَطِ السَّماءِ - إلى بُدوِّ اللَّيل. فتَدخلُ فيهِ الصَّلواتُ الأربَعة: الظُّهر، والعَصر، والمغرِب، والعِشاء. وقُرآنُ الفَجر: صلاةُ الصُّبح. إنَّ صلاةَ الفَجرِ يَشهَدُهُ ملائكةُ اللَّيلِ وملائكةُ النَّهار. وتَفسيرُ "مَشهودًا" بذلكَ مِنْ قَولِ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، كما رَواهُ ابنُ خُزَيمَةَ والتِّرمذيُّ في حَديثٍ صَحيح.

{وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً} (الإسراء: ٧٩)

٧٩- وقُمْ بعدَ نَومِكَ وصَلِّ صلاةَ التَّهَجُّدِ أيُّها النبيّ، زيادَةً على سائرِ الفَرائضِ عَليك، ووَاظِبْ عَليها، ليُقيمَكَ اللهُ يَومَ القِيامَةِ مَقامًا يَحمَدُكَ فيهِ الأوَّلونَ والآخِرون، ويُكرِمَكَ فيهِ إكرامًا عَظيمًا. ويَبدو أنَّهُ مَقامُ الشَّفاعَةِ للنَّاس، حيثُ يُريحُهمُ اللهُ بشَفاعَتِهِ مِنْ شِدَّةِ وهَولِ يَومِ الحَشرِ وكَرْبِه، بأنْ يُحاسِبَهمُ اللهُ ويَقضيَ بينَهم، ويَعتَذِرُ مِنْ ذلكَ المَقامِ جَميعُ الأنبياءِ عَليهمُ الصَّلاةُ والسَّلام.
والتهَجُّد، أو قِيامُ اللَّيل، فيهِ صلاةُ الوِتر، وهوَ إحدَى عَشرَةَ رَكعَة، أو ثلاثَ عَشرَةَ رَكعَة، وهوَ سُنَّةٌ للمُسلِمينَ عُمومًا، ولهُ فَضلٌ كبير، وثَوابٌ عَظيم. يَقولُ عَليهِ الصلاةُ والسَّلام: "عَليكمْ

بقِيامِ اللَّيل، فإنَّهُ دَأَبُ الصَّالِحِينَ قَبلَكم، وإنَّ قيامَ اللَّيلِ قُربَةٌ إلى الله، ومَنهاةٌ عنِ الإثم، وتَكفيرٌ للسَيِّئات، ومَطرَدَةٌ للدَّاءِ عنِ الجسَد". وهوَ حَديثٌ صَحيح، واللَّفظُ للتِّرمِذيّ.

وحُكمُ قيامِهِ بما يَخصُّ النبيَّ صلى اللهُ عليهِ وسلم مُبيَّنٌ في تَفسيرِ آخرِ آيَةٍ مِنْ سُورَةِ المزَّمِّل.

{وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً} (الإسراء : ٨٠)

٨٠- وقُلْ في دُعائكَ أيُّها الرَّسول: {رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ}: وهوَ الإدخَالُ المرْضِيُّ لمكانٍ لا يُرَى فيهِ مَكروه، وفُسِّرَ بالمدينَةِ المنوَّرَةِ مَهجَرِهِ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلام. {وأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ}: أَمْنًا لا أرَى فيهِ مَكروهًا، وهوَ مكَّةُ المكَرَّمَة. ففي حَديثِ ابنِ عَبّاسٍ الصَّحيح: كانَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بمَكَّة، ثمّ أُمِرَ بالهِجرَة، فنَزَلَتْ عَليه: {وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ...}. اهـ.

واجعَلْ لي مِنْ عندِكَ قوَّةً كبيرَةً ومَنَعَةً أستَعينُ بها على الأعداءِ وأنتَصِرُ عَليهم.

{وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً} (الإسراء : ٨١)

٨١- وقُلْ أيُّها الرَّسُول: جاءَ الإسلامُ الحَنيف، والشَّرْعُ العَظيم، وزالَ الشِّركُ والكُفر، فلا عِبادَةَ للأصنامِ بعدَ اليَوم، ولا ثَباتَ للبَاطل، ولا مَكانَ لهُ معَ وجودِ الحَقّ.

{وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً} (الإسراء : ٨٢)

٨٢- ونُنَزِّلُ منَ القُرآنِ ما يَكونُ شِفاءً وعِلاجًا لأمراضِ النَّفسِ والقَلب، مِنْ ضلالَةٍ وجَهالَة، ووَسوَسَةٍ وشَكّ، وزَيغٍ وقَلَق، وهَوًى وطمَع، وانحِرافٍ وزَلَل، فيُسَكِّنُ النَّفس، ويُطَمْئنُ القَلب.

وهوَ رَحمَة، ففيهِ الإيمانُ الصَّحيح، والدَّليلُ إلى الحَقّ، والثَّباتُ عَليه، والرَّغبَةُ في الخَيرِ والعمَلِ الصَّالِح، والتَّمهيدُ إلى رِضَى اللهِ ودُخولِ جَنَّتِه.

وهذا كُلُّهُ للمُؤمِنينَ بالقُرآن، المتَّبِعينَ لهَديه، الذينَ جَعلوهُ دُستورًا لهم، يَتحاكَمونَ إليه، ويَجتَمِعونَ عَليه.

أمَّا الكافِرونَ به، فليسَ القُرآنُ شِـفاءً لهمْ ولا رَحمَة، فهمْ يَكفُرونَ بمُنزلِه، ويُكَذِّبونَ المنزَلَ عَليه، فيَزدادونَ ضَلالًا، وظُلمًا وفَسادًا، لبُعدِهمْ عنهُ ومُناقضَتِهمْ لأحكامِه، فهمْ خائبونَ خاسِرون.

{وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً} (الإسراء : ٨٣)

٨٣- وإذا أنعَمنا على الإنسَانِ بالمالِ والعافيَة، ونالَ ما يَرغَبُ ويَشتَهي، بَطِرَ واستَعلَى، ولَجَّ في الظُّلمِ وطغَى، وأعرَضَ عنْ طاعَةِ الله، فلمْ يَذكُرْهُ ولم يَشْكُرْه.

وإذا أصـابَتْهُ المصـائبُ والحَوادِث، ونالَتْ منهُ الشَّـدائدُ والنَّوازِل، انكفَأ على نَفسِـه، فحَزِنَ وقَنَطَ، وظَنَّ أنْ لنْ يَحصُلَ لهُ خَيرٌ بعدَ هذا؛ لضَعفِهِ وشِدَّةِ جَزَعِهِ، إلاّ مَنْ رَحِمَ الله.

{قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً} (الإسراء : ٨٤)

٨٤- قُلْ أيُّها الرَّسُـول: كُلٌّ منَ المؤمِنِ والكافِرِ يَعمَلُ على ناحيَتِه، ومَذهَبِهِ ومِنهَجِه، الذي يوافِقُ حالَهُ ووِجهَتَه، ورَبُّنا أعلَمُ منّا ومِنكمْ بمَنْ هوَ أهدَى طَريقًا، ومَنْ هوَ أَضَـلّ، وسَـيَجزي كُلاًّ بما عَمِل.

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً} (الإسراء : ٨٥)

٨٥- ويَسـألُكَ المشـرِكونَ عنْ حَقيقَةِ الرُّوح، فقُلْ لهم: هوَ مِنْ عِلمِ الغَيبِ الذي اختَصَّ اللهُ به، وسِـرٌّ منْ أسـرارِهِ الذي أودَعَهُ في بَعضِ كائناتِه، ولم يُطْلِعْكُمْ على أمرِه، وعِلمُكمْ محَدودٌ بالنسبَةِ إلى عِلمِ الله، وما وهبَكمْ منهُ إلاّ القَليل.

{وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً} (الإسراء : ٨٦)

٨٦- وإذا أرَدنا أذهَبنا هذا القُرآنَ الموحَى بهِ إليك، وحرَمناكَ والبشَـريَّةَ منْ هذا العِلمِ النَّافِع، والخَبَرِ الصـادِق، والخَيرِ العَميم، الذي هوَ شِـفاءٌ ورَحمَة، ثمَّ لا تَجِدُ مَنْ يَتَعَهَّدُ لكَ بإعادَةِ ما حرَمناكَ منهُ إلَيك،

{إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً} (الإسراء : ٨٧)

٨٧- ولكنْ لا نَشـــاءُ ذلك، رحمَةً منَ اللهِ بكَ وبالنَّاس، وفَضـــلُهُ كَبيرٌ عَليك، ومِنَّتُهُ عَظيمَةٌ على الخَلقِ أجمَعين، بإنزالِ هذا القُرآن، وغَيرِ ذلكَ مِنْ نِعَمِه.

{قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـــذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً} (الإسراء : ٨٨)

٨٨- قُلْ أيُّها الرَّسُـــول: لو أنَّ الإنسَ والجِنَّ كُلَّهمُ اجتَمَعوا وتَعاوَنوا على أنْ يأتوا بمِثلِ هذا القُرآنِ لَما قَدَروا على ذلك، ولو بذَلوا كُلَّ ما في وسْعِهِمْ منْ عِلمٍ وإبداعٍ ومَوهِبَةٍ ومَهارَة، فهوَ كلامُ اللهِ المعجِزُ المحْكَم، لا يَقدِرُ مَخلوقٌ على أنْ يأتيَ بمِثلِه، ولا بعَشرِ آياتٍ منه، ولا بسورةٍ قَصيرَةٍ منهُ لا تتَجاوزُ الثَّلاثَ آيات. ولو كانَ منْ كلامِ الخَلقِ لأتَوا بمِثلِه.

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـــذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً} (الإسراء : ٨٩)

٨٩- ولقدْ بيَّنَّا للنَّاسِ وكرَّرنا لهمْ في هذا القُرآنِ بأساليبَ شَتَّى، الأدِلَّةَ والبَراهينَ التي تُوَضِّحُ الحقَّ لهم، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يُريدون الصَّـــواب، أو لا يُريدونَ العمَلَ به، فيُعانِدونَ ويَجحَدون، ويُفَسِّرونَ الأمُورَ ويُتابِعونَها كما يوافِقُ أهَواءَهُمْ ومَصالِحَهمُ الدُّنيَوِيَّةَ الظَّاهِرَة.

{وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً} (الإسراء : ٩٠)

٩٠- وقالَ لكَ مُشـركو مكَّةَ في تَحَدٍّ وعِناد: لا نُسَلِّمُ بأنَّ هذا القُرآنَ مِنْ عندِ الله، ولا نُؤمِنُ بنبوَّتِك، حتَّى تَفجُرَ عَينًا تَجري في أرضِنا كالنَّهر.

{أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً} (الإسراء : ٩١)

٩١- أو يَكونَ لكَ بُســـتانٌ فيهِ أشـــجَارُ النَّخيلِ والعِنَبِ الكثيرة، وتُفَجِّرَ[٧٣] فيها العُيونَ واليَنابيعَ فتَجري في خِلالِها الأنهارُ جرَيانًا.

{أَوْ تُسْـقِطَ السَّـمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَـفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً} (الإسـراء: ٩٢)

٩٢- أو تُسقِطَ عَلينا السَّماءَ قِطَعًا كما زعَمتَ أنَّ ربَّكَ إنْ شَاءَ فَعَل، أو تأتيَ باللهِ والملائكةِ مُقابَلَةً وعِيانًا يَشهَدونَ بصِحَّةِ ما تَقول.

{أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّـــمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً} (الإسراء : ٩٣)

٩٣- أو يَكونَ لكَ بَيتٌ مِنْ ذَهَب، أو تَصـعَدَ في السَّـماءِ ونحنُ نَنظُرُ إلَيك، ولنْ نُصَـدِّقَ صُعودَكَ فيها حتَّى تُنَزِّلَ منها عَلينا كِتابًا نقرَأُ فيهِ أمْرَنا باتِّباعِك.

قُلْ لهمْ تَعَجُّبًا: تعالَى اللهُ وتنَزَّهَ عمّا لا يَليقُ به، ما أنا إلاّ رَسولٌ مِنَ البشَر، والمعجِزاتُ ليسَتْ مِنْ صُـــنعِ الرُّسُـــل، وليسَ منْ أدَبِهِمْ معَ رَبِّهِمْ أنْ يَطلبوها منهُ إذا لم يأذَنْ لهمْ بها. واللهُ أعلَمُ بعِبادِهِ وما يصـــلُحُ مِنْ إنزالِه عَليهم. وبينَها ما لا يُجابونَ إليه، كنُزولِ اللهِ والملائكة. وقدْ ترَكوا القُرآنَ وراءَ ظُهورِهِمْ وهوَ المعجِزَةُ الكُبرى الكافيَةُ للدَّلالةِ على نبوَّةِ النَّبيّ.

{وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً} (الإسراء : ٩٤)

---

(٧٣) أي: تُجريها بقوة. (فتح القدير).

٩٤- وما منعَ أكثرَ النَّاسِ منَ الإيمانِ بالرَّسُولِ بعدَ أنْ جاءَهمُ الوَحيُ بذلكَ مَقرونًا بالمعجِزات، إلاّ كونُهَمْ مُستَبعِدينَ ومُنكِرينَ أنْ يَكونَ الرسُولُ مِنَ البشَر!

{قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً} (الإسراء : ٩٥)

٩٥- قُلْ لهمْ في حِكمَة: لو وُجِدَ في الأرْضِ ملائكَةٌ يَمشُونَ كما يَمشي البشَر، ساكِنينَ فيها، لنزَّلنا عَليهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكًا رَسولاً مِنْ جِنسِهم، ليَفهَموا منهُ ويَتمَكَّنوا مِنْ مُخاطَبتِه. وكُلٌّ يأنَسُ بجِنسِهِ ونَوعِهِ ويَميلُ إليه.

{قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً} (الإسراء : ٩٦)

٩٦- قُلْ للمُشرِكين: كفَى أنْ يَكونَ اللهُ وحدَهُ شَهيدًا على صِدقِ رِسَالَتي إليكم، وأنِّي بلَّغتُها، وأنَّكمْ عانَدتُمْ وكفَرتُم، وهوَ عالِمٌ بظَواهِرِ عبادِهِ وبَواطنِهم، بَصيرٌ بأقوالِهِمْ وأفعالِهِمْ وأسبابِ تصَرُّفاتِهم، فيَهدي مَنْ يتقَبَّلُ الحقَّ منهم، ويُضِلُّ مَنْ يُعانِدُ ويرفُض.

{وَمَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً} (الإسراء : ٩٧)

٩٧- ومَنْ يَهدِهِ اللهُ إلى الحَقّ، بما عَلِمَ منْ نيَّتِهِم في تقَبُّلِ ذلك، فهوَ المهتَدي حقًّا. ومَنْ يُضْلِلْهُ الله، بما عَلِمَ منْ نيَّتِهِم في ذلك، وهوَ إعراضُهمْ عنِ الحَقّ وعدَمُ استِعدادِهمْ لتقَبُّلِه، فهمُ الضَّالُّونَ الذينَ لنْ تَجِدَ لهمْ أنصَارًا مِنْ دونِ اللهِ يَهدونَهُمْ إلى الحَقّ، ويَدلُّونَهُمْ على طَريقِ النَّجاة، ويَعصِمُونَهُمْ منْ عَذابِ الله.

ونَحشُرُهمْ يَومَ القِيامَة - حينَ يُبعَثونَ مِنْ قُبورِهم - زاحِفينَ مُنكَبِّينَ على وُجوهِهم، عُميًا لا يُبصِرون، وبُكمًا لا يَنطِقون، وصُمًّا لا يَسمَعون، كما صَمُّوا وعَمُوا عنِ الحَقّ في الدُّنيا، ورفَضوا السُّجودَ للهِ خالقِهم. ومَصيرُهمْ نارُ جَهنَّم، كُلَّما سكَنَ لَهيبُها زِدناهُمْ وَقودًا وجَمْرًا ليَستَمِرَّ عَذابُهُمْ فيها.

وعِندَما تعَجَّبَ رَجُلٌ مِنْ مَشي الكافِرِ على وجهِهِ وسأَلَ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم عنْ ذلك، أجابَهُ قائلاً: "أليسَ الذي أمشـــاهُ على الرِّجْلَينِ قادِرًا على أنْ يُمْشِـــيَهُ على وَجهِهِ يَومَ القيامَة؟". رواهُ البُخاريّ.

قالَ ابنُ حجرٍ في "الفَتح": يؤخَذُ منْ مَجموعِ الأحاديث، أنَّ المقَرَّبينَ يُحشَـــرونَ رُكبانًا، ومَنْ دونَهُمْ منَ المسلِمينَ على أقدامِهم، وأمَّا الكُفّارُ فيُحشَرونَ على وجوهِهِم.

{ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً} (الإسراء : ٩٨)

٩٨- وذلكَ العَذابُ جزاؤهُمُ الذي يَستَحِقُّونَه؛ بسببِ كُفرِهِمْ بآياتِ الله، وإنكارِهِمُ البَعث. وقالوا: أإذا كُنَّا عِظامًا باليَةً وتُرابًا، أنُبعَثُ مِنْ جَديدٍ ونَصيرُ أحياءً كما كُنّا؟

{أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إَلاَّ كُفُوراً} (الإسراء : ٩٩)

٩٩- ألا يَتفَكَّرُ هؤلاءِ المشـركونَ ويَعلمونَ أنَّ اللهَ الذي خلقَ السَّـماواتِ والأرضَ، بعظَمِهما وسِـعَتِهما وشِـدَّتِهما وإحكامِهما وما فِيهما، قادِرٌ على أنْ يَخلُقَهمْ أحياءً بعدَ أنْ كانوا أمواتًا، وهمْ أصـغَرُ وأضـعَفُ مِنهما؟ وقدْ جعلَ مَوعِدًا لموتِهِمْ أو بَعثِهم، سـيَأتيهمْ لا مَحالة، ولكنْ أبَى الكافِرونَ إلاّ جُحودًا بآياتِنا، وتَماديًا في باطلِهم.

{قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسَانُ قَتُوراً} (الإسراء : ١٠٠)

١٠٠- قُلْ لهؤلاءِ المعانِدينَ المكابِرين، الذينَ لا يَزالونَ يُطالِبونَ بالمعجِزاتِ كما يوافِقُ أهواءَهم، منْ بُيوتِ الذَّهَبِ والبَسـاتينِ والينابيعِ المتفَجِّرَة، قلْ لهم: لو كنتُمْ تَملِكونَ خَزائنَ رزقِ اللهِ ونِعمِهِ الكثيرَة، لبَخِلتُمْ بها على عِبادِ الله، وامتَنَعتُمْ منْ إنفاقِها خَوفًا منْ أنْ يُصـــيبَكمُ الفَقْر، وكانَ الإنسَانُ بَخيلاً، قَليلَ الإنفَاق.

قالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ الله: اللهُ تعالَى يَصِفُ الإنسانَ منْ حَيثُ هو، إلاّ مَنْ وفَّقَهُ اللهُ وهَداه، فإنَّ البُخلَ والجَزَعَ صِفَةٌ له...

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً} (الإسراء : ١٠١)

١٠١- وقدْ آتَينا نبيَّ اللهِ موسَى تِسعَ مُعجِزاتٍ واضِحات، هي: العَصا، واليَدُ البَيضاءُ مِنْ غَيرِ سُوء، والطُّوفان، والجَراد، والقُمَّل، والضَّفادِع، والدَّم، وأخْذُ فِرعَونَ وقَومِهِ بالسِّنين، ونَقصِ الثَّمرات. واسألْ مؤمِني أهلِ الكتابِ عنْ ذلك، إذْ جاءَ موسَى آباءَهمْ بالنُّبوَّةِ مؤيَّدًا بالمعجِزات، فقالَ لهمْ فِرعَون: إنِّي أظُنُّكَ يا موسَى قدْ سُحِرت، واختلَّ عَقلُك، ولذلكَ قُلتَ ما قُلت.

{قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُوراً} (الإسراء : ١٠٢)

١٠٢- قالَ موسَى عليهِ السَّلامُ يَرُدُّ عَليهِ في ثَباتٍ واطمِئنان: لقدْ عَلِمْتَ يَقينًا يا فِرعَونُ أنَّ هذهِ الآياتِ العَظيمَةَ لا يَقدِرُ على الإتيانِ بها أحَدٌ مِنَ البشَر، وما أنزَلَها إلاّ خالِقُ السَّماواتِ والأرضِ ومُدَبِّرُهما، وهي ظاهِرَةٌ مَكشوفَة، مُنيرَةٌ للبَصائر. فلَستُ ساحِرًا ولا مُختَلَّ العَقل، وما أراكَ يا فِرعَونُ إلاّ هالِكًا، مادُمتَ مُكَذِّبًا بآياتِ اللهِ ورَسولِه.

{فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعاً} (الإسراء : ١٠٣)

١٠٣- فعَزَمَ فِرعَونُ على اللُّجوءِ إلى القوَّةِ حِفاظًا على مُلكِه، فأرادَ أنْ يُخرِجَ موسَى وقومَهُ منْ أرضِ مِصرَ ولا يُبقي منهمْ أحَدًا، ولكنَّهُ عُوقِبَ جَزاءَ تَكذيبِهِ وتَكبُّرِهِ عنْ قَبولِ الحقّ، فأغرَقناهُ ومَنْ معَهُ في البَحر، ونَجَّينا موسَى وقومَه.

{وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً} (الإسراء : ١٠٤)

١٠٤- وقُلنا لبَني إسْرائيل مِنْ بَعدِ إهلاكِ فِرعَون: اسكُنوا أرضَ مِصرَ والشَّام، فإذا جاءَتِ السَّاعَةُ أتَينا بكمْ جَميعًا إلى الموقِفِ مختَلِطين، أنتُمْ وعَدوُّكم، لنُجازيَ كُلاًّ بما عَمِل.

{وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً} (الإسراء : ١٠٥)

١٠٥- لقدْ أنزَلنا هذا القُرآنَ بالحَقِّ والعَدل، ففيهِ حُكمُ اللهِ وأمرُهُ ونَهيُه، الذي لا يَكونُ إلاّ صِدقًا وعَدلًا، ونَزَّلناهُ على رَسُولِنا محمَّدٍ محروسًا محفوظًا، دونَ زيادَةٍ ولا نُقصان، وما أرسَلناكَ إلاّ رَسُولاً مُبَشِّرًا للمُطيعينَ بالثَّواب، ونَذيرًا للعاصِينَ منَ العِقاب.

{وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً} (الإسراء : ١٠٦)

١٠٦- وأنزَلنا القُرآنَ على محمَّدٍ رَسولِ اللهِ مُفَرَّقًا مُنَجَّمًا حسَبَ الوقائع، وليسَ دُفعَةً واحِدَة؛ لتَقرَأهُ على النَّاسِ على تُؤدَةٍ وتَرَسُّل، فإنَّهُ أكثَرُ عَونًا على الفَهم، وأيسَرُ للحِفظ، وأوقَعُ في النَّفسِ بعدَ الوَقائعِ والمصالِح.

{قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً} (الإسراء : ١٠٧)

١٠٧- قُلْ لهؤلاءِ الكافِرين: آمِنوا بهذا القُرآنِ أو لا تُؤمِنوا به، فهوَ كَلامُ اللهِ وحَقٌّ في ذاتِه، وإيمانُكمْ بهِ لا يَزيدُهُ كَمالاً، وعدَمُ إيمانِكمْ بهِ لا يُقَلِّلُ منْ كَمالِهِ شَيئاً. إنَّ العُلماءَ العارِفينَ بالكتُبِ السَّماويَّةِ مِنْ قَبلِ أنْ يَنزِلَ القُرآن - وقدْ عرَفوا مَضمونَها وعَلاماتِ النبوَّةِ فيها - إذا يُتلَى عَليهمْ يُبادِرونَ إلى السُّجودِ على وجوهِهم؛ تَعظيمًا لأمرِ الله، وشُكرًا لهُ على ما أنعَمَ عَليهمْ منْ مَعرِفَةِ الحقِّ واتِّباعِه.

{وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً} (الإسراء : ١٠٨)

١٠٨- ويَقولون: تعالَى اللهُ رَبُّنا وتَنَزَّهَ عنْ إخلافِ وَعدِهِ الذي وعدَ بهِ أنبياءَهُ السَّابقينَ مِنْ بَعثِ هذا النبيِّ الأُمِّيّ، فإنَّ ما وعدَ بهِ حَقٌّ وصِدق، وواقِعٌ مُطابِق.

{وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً} (الإسراء : ١٠٩)

١٠٩- ويَقَعونَ على وُجوهِهِمْ ساجِدينَ لله، خضوعًا لهُ وشُكرًا لإنجازِ الوَعد، يَبكونَ مِنْ خَشيَةِ الله، ويَزيدُهمْ سَماعُ القُرآنِ إيمانًا وتَسليمًا، وعِلمًا ويَقينًا.

(قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً) (الإسراء : ١١٠)

١١٠- قُلْ أيُّها الرَّسُول: أُدعوا اللّهَ باسمِه، أو باسمِ الرَّحمن، فلا فَرقَ في ذلك، فهوَ ذو الأسماءِ الحُسنَى، و"الرَّحمنُ" واحِدٌ منْ أسمَائه.

ولا تَرفَعْ صَوتَكَ بالقُرآنِ في الصَّلاة، ولا تَخفِضْهُ بحَيثُ لا يُسمَع، وليَكنْ بينَ الجَهرِ والمخافَتَة.

روَى الشَّيخانِ وغَيرُهما - واللَّفظُ لمسلمٍ - عنِ ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عَنهما في هذهِ الآية، قال: نزَلَتْ ورَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مُتوارٍ في مَكَّة، فكانَ إذا صَلَّى بأصحابِه رفَعَ صَوتَهُ بالقُرآن، فإذا سَمِعَ ذلكَ المشرِكونَ سَبُّوا القُرآنَ ومَنْ أنزلَهُ ومَنْ جاءَ به، فقالَ اللهُ تعالَى لنبيِّه: {وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ} فيسمعَ المشرِكونَ قِراءَتك، {وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا} عنْ أصحابِك، أسمِعهمُ القُرآنَ ولا تَجهَرْ ذلكَ الجَهر، {وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً}، يقول: بينَ الجَهرِ والمخافتَة.

{وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ شَـرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً} (الإسراء : ١١١)

١١١- وقُل: الحمدُ للهِ والمجدُ والثَّناءُ لهُ على وحدَانيَّتِهِ وتَنَزُّهِهِ عنِ الشَّريكِ والوَلَد، ولم يَكنْ لهُ شَريكٌ في أُلوهيَّتِه، ولم يَكنْ لهُ وليٌّ وناصِرٌ ليَرفعَهُ مِنْ ذُلّ، فهوَ عَزيزٌ بنَفسِه، عَظيمٌ في شَأنِه، قَويٌّ غالِبٌ على كُلِّ شَيء، ومَجِّدْهُ وعَظِّمْهُ تَعظيمًا، واثنِ عَليه، بحَمدِهِ، وذِكرِ صِفاتِهِ العُليا وأسمائهِ الحُسنَى.

* * *

في حَديثٍ صَحيحٍ رواهُ الترمذيُّ وغَيرُهُ عنْ عائشةَ رَضيَ اللهُ عَنها قالت: "كانَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم لا يَنامُ حتَّى يَقرأَ الزُّمَرَ، وبَني إسرائيل"، وهيَ سورَةُ الإسراء.

سورة الكهف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا} (الكهف : ١)

١- الحمدُ للهِ والشُّكرُ لهُ أوَّلاً وآخِرًا، الذي أنزلَ على عَبدِهِ ونَبيِّهِ محمَّدٍ (صلى الله عليه وسلَّم) القُرآنَ العَظيم، الذي هوَ نِعمَةٌ عَليهِ خاصَّةً، وعلى سائرِ النَّاسِ عامَّة، لا اختِلافَ فيهِ ولا التِواء، ولا زَيغَ فيهِ ولا هوًى، ولا لَبْسَ فيهِ ولا خَلط.

{قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً} (الكهف : ٢)

٢- بلْ هوَ مُستَقيمٌ واضِح، وهَديٌ جَليّ، مُصَدِّقٌ للكتُبِ السَّماويَّةِ السَّابِقَة، ناسِخٌ لشَرائعِها، ليُنذِرَ اللهُ بِهِ مَنْ خالَفَهُ وكذَّبَهُ عُقوبَةً شَديدَةً مِنْ عِندِه، ويُبَشِّرَ بِهِ المؤمنينَ الصَّادِقين، الذينَ أتْبَعوا إيمانَهمْ بالعمَلِ الصَّالِح، أنَّ لهمْ ثوابًا حسَنًا في الآخِرَة، هوَ الجنَّةُ ونَعيمُها.

{مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً} (الكهف : ٣)

٣- خالِدينَ فيها أبدًا، لايَحولُونَ عَنها ولا يَزولون.

{وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً} (الكهف : ٤)

٤- وليُنذِرَ اللهُ بهذا القُرآنِ مَنْ أشرَكَ بِهِ وجعلَ لهُ ولَدًا، كالمشركِينَ الذينَ عَبدوا الملائكةَ وقالوا إنَّها بَناتُ الله، وأهلِ الكتابِ الذينَ قالوا عنْ أنبياءَ أو غَيرِهِمْ إنَّهمْ أبناءُ الله! سُبحانَهُ وتَعالَى.

{مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً} (الكهف : ٥)

٥- وليسَ لهمْ عِلمٌ بهذا الذي يَقولونَهُ أبدًا، ولا لآبَائهمْ وأجْدادِهم، عَظُمَتْ كَلِمَةً مُنكَرَةً ومُستَبشَعَةً تَصدُرُ عنْ أفواهِهم، ما يَقولونَ إلاّ كلامًا فاسِدًا لا مُستَنَدَ لهُ ولا صِحَّةَ فيه، بلْ هوَ كَذِبٌ واختِلاقٌ مِنْ عندِهم.

{فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً} (الكهف : ٦)
٦- فلعلَّكَ أيُّها النبيُّ مُهلِكٌ نفسَكَ حُزنًا وأسَفًا مِنْ بَعدِ تَوَلِّيهمْ عنِ الإيمانِ بهذا القُرآنِ الجَليل.

{إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} (الكهف : ٧)
٧- لقدْ جَعلنا ما على الأرضِ مِنْ زِينَةٍ وجَمال، وأموالٍ وأولاد، اختِبارًا لهمْ وابتِلاء، لنَعلَمَ مَنِ الذي يُحسِنُ ويُخلِصُ ولا يَغتَرُّ بتلكَ الزّينَةِ الفانيَة، ليَستَحِقَّ بذلكَ حُسنَ الجَزاءِ على حُسنِ العمَل.

{وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً} (الكهف : ٨)
٨- وسَوفَ نُبيدُ ما على هذهِ الأرضِ مِنْ حَياةٍ وزينَة، فتُصبِحُ قبلَ يَومِ القيامَةِ سَطحًا يابِسًا لا يُنبِتُ شَيئاً.

{أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً} (الكهف : ٩)
٩- أمْ ظَنَنتَ أيُّها النبيُّ أنَّ أصْحابَ الكَهْفِ والرَّقيمِ كانوا أعجَبَ آياتِنا وأبيَنِها قُدرَة؟ بلْ يوجَدُ ما هوَ أعجَبُ مِنْ ذلكَ وأغرَب.
والكَهْف: غارٌ في الجبَل، والرَّقيم: لَوحٌ مَكتوبٌ عليهِ أسماءُ أصحابِ الكَهْفِ وخَبَرُهم.
وذُكِرَ أكثَرُ مِنْ ثلاثينَ مَوقِعًا في العالَمِ لأهلِ الكَهْف، وأنَّ الذي اكتُشِفَ في الأردُنِّ عامَ ١٣٨٩ هـ، هوَ أكثَرُ الكُهوفِ مُطابقةً للمُواصَفاتِ الوارِدَةِ عنهُ في القُرآنِ الكريم.

{إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَـــداً} (الكهف : ١٠)

١٠- ولجأَ الفِتيَةُ إلى الكَهفِ ليَختَفوا فيه، وقدْ فَرُّوا مِنْ قَومِهمْ حتَّى لا يَفتِنوهمْ عنْ دينِهمْ ويُكرِهُوهمْ على الكُفر، فأَوَوا إليهِ ودَعَوا اللهَ قائلين: اللّهمَّ هَبْ لنا منْ عندِكَ هِدايَةً وفَضــلاً، تَســتُرُنا فيهِ وتَحفَظُنا مِنَ القَومِ الكافِرين، ويَسِّــرْ لنا مِنْ هِجرَتِنا إليكَ خَيرًا وسَــلامًا، ممّا فيهِ صلاحُ أمرِنا.

{فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً} (الكهف : ١١)

١١- فألقَينا عَليهِمْ نَومًا ثَقيلاً، لا يَتَنبَّهونَ فيهِ إلى الأصوات، سَنواتٍ كثيرَة.

{ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً} (الكهف : ١٢)

١٢- ثمَّ أيقَظناهمْ مِنْ نَومِهم، ليَتبيَّنَ أيُّ الفَريقَينِ المختَلفَينِ منهمْ أو مِنْ غَيرِهم، أضبَطُ للمُدَّةِ التي نامُوا فيها، ليَتعرَّفوا حالَهُمْ مِنْ بَعد، ويَزدادوا يَقينًا بكمالِ قُدرَةِ الله، همْ وغَيرُهم، ويَكونَ آيَةً بيِّنَة للكافِرين.

{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} (الكهف: ١٣)

١٣- نحنُ نَقصُّ عليكَ خبرَهمْ أيُّها النبيُّ كما وقعَ صِــدْقًا وعَدلاً، إنَّهمْ شَــبابٌ مُؤمِنون، استَجابوا لنِداءِ رَبِّهم - وهمْ أكثَرُ قَبولاً للحَقِّ منَ الكِبارِ - وزِدناهُمْ تبَصُّرًا وتَوفيقًا.

{وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً} (الكهف : ١٤)

١٤- وقوَّينا عَزمَهمْ وثبَّتنا قُلوبَهمْ على الإيمان، فقَالوا في عِزَّةٍ وثَباتٍ مُنكِرينَ على قَومِهم: رَبُّنا وخالِقُنا ورازِقُنا هوَ رَبُّ السَّــماواتِ والأرض، لن نَعبُدَ إلهًا غيرَه، وهوَ الواحِدُ الأحَد، ولو قُلنا غَيرَ ذلكَ لكانَ باطِلاً بَعيدًا عنِ الحَقِّ والصِّدق.

{هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً} (الكهف : ١٥)

١٥- هؤلاءِ قَومُنا المشرِكون، قدْ جعَلوا معَ اللهِ آلِهةً يَعبدونَها، مِنْ حجَرٍ وخشَبٍ وغَيرِه، فهلاّ أتَوا بدَليلٍ وبُرهانٍ واضِحٍ على أنَّها حقًّا آلِهة، ولها صِفاتُ الخَلقِ والإماتَةِ والرِّزقِ وما إليه؟ فليسَ هُناكَ أكثَرُ تجاوزًا للحَقِّ ممَّنْ كذَبَ على اللهِ وقالَ إنَّ هذهِ الآلِهَةَ شُرَكاءُ معَهُ في الأُلوهيَّة؟

{وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً} (الكهف : ١٦)

١٦- وإذْ فارَقتُمْ قَومَكمْ وجَميعَ ما يَعبُدونَه، إلاّ عِبادةَ الله، وهمْ مشرِكونَ ظالِمون، ولا طَاقةَ لكمْ بمجابَهتِهم، ففِرُّوا منهمْ بدينِكمْ والجَؤوا إلى الكهف، يَبسُطْ عَليكمْ رَبُّكمْ فيهِ رَحمتَه، ويُخَلِّصْكمْ منْ ظُلمِ الظَّالِمينَ وفِتنَةِ الكافِرين، ويُيَسِّرْ لكمْ حالَكم، فتَسلَمونَ وتأمَنون.

{وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً} (الكهف : ١٧)

١٧- وإذا طلعَتِ الشَّمسُ دخَلَتْ كهفَهمْ وهيَ تَميلُ إلى الجانبِ الأيمَن، فيَكونُ بابُهُ نحوَ الشِّمال، وإذا غرَبَتْ تترُكُهمْ وتَعدِلُ عَنهمْ إلى الجانبِ الأيسَر، فتَدخلُ منْ شِمالِ بابِه، وهمْ في مُتَّسَعٍ منهُ داخِلَه. وهذا منْ حِكمَةِ اللهِ وحُسنِ تَدبيرِه، فالشَّمسُ ضَروريَّةٌ للإنسَان، ولتَبقَى أبدانُهمْ سالِمَة، وإلاّ أفسدَتْها الرطوبَةُ المستَمِرَّة.

وهذا مِنْ هِدايَةِ اللهِ لهؤلاءِ الشَّبابِ المؤمِن، حيثُ أرشَدَهمْ إلى ذلكَ الكَهفِ المناسِبِ لإيوائهم، ومَنْ هَداهُ اللهُ فهوَ المهتَدي حقًّا، ومَنْ يُضْلِلْهُ فلَنْ تجِدَ مَنْ يُرشِدُهُ إلى الهُدَى ويُخَلِّصُهُ مِنَ الضَّلال.

{وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً} (الكهف : ١٨)

١٨- ولو رأيتَهمْ لظَنَنتَهمْ مُنتَبِهين، لـدَلالَـةِ هَيئَتَهم على ذلـك، وهمْ نائمُون. ونُقَلِّبُهمْ نحوَ اليَمينِ ونحوَ الشِّمالِ حتَّى لا تَفسُدَ أجسادُهمْ مِنَ المكثِ الطَّويلِ على الأرض، وكَلبُهمْ قدْ مَدَّ ذِراعَيهِ عندَ الباب، لو أنَّكَ شـاهَدتَهمْ وهمْ في تلكَ الحال، لأعرَضـتَ عنهمْ هارِبًا، ومُلِئتَ منهمْ خَوفًا ورُعبًا.

{وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً} (الكهف : ١٩)

١٩- وكما أنَمناهمْ في الكَهفِ وحَفِظناهمْ فيه، كذلِكَ أيقَظناهُمْ مِنْ نَومِهم، ليَسـألَ بعضُـهمْ بَعضًـا، فقالَ واحِد منهم: كمْ رَقَدْتُم؟ قالوا رقَدْنا يَومًا، أو قِسـمًا منه. فلمَّا نظَروا إلى شُـعورِهمْ وأظفارِهمُ استَدرَكوا قائلين: اللهُ أعلَمُ بِمقدارِ نَومِكم، فابعَثوا واحِدًا منكمْ بدَراهِمِكمُ الفِضِّيَّةِ هذهِ إلى المدينَة، فَلْيَنظُرْ أيُّها أحَلُّ وأطيَبُ طَعامًا، فَليَأتِكمْ بقُوتٍ منه، وَلْيَترَفَّقْ في ذَهابِهِ وإيابِهِ وشِرائه، وليَكنْ في سِترٍ وكِتمان، حتَّى لا يَشعُرَ بكمْ أحَدٌ ولا يَعرِفوا مَكانَكم.

{إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً} (الكهف : ٢٠)

٢٠- إنَّهمْ إذا اطَّلَعوا عَليكمْ وظفَروا بكمْ يُعَذِّبوكمْ حتَّى يَقتُلوكمْ بالحِجـارَة، أو يُـدخِلوكمْ في دِينِهم، فإذا دخَلتُمْ في مِلَّتِهمْ خَسِرتُمْ دينَكمْ وآخِرتَكم.

{وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّـاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَاناً رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً} (الكهف : ٢١)

٢١- وكما أنَمناهمْ وبعَثناهم، كذلكَ أطلَعنا عَليهمْ أهلَ ذلكَ الزَّمان، ليَعلَموا أنَّ وعدَ اللهِ ببَعثِ الخلائقِ للحِسابِ والجَزاءِ ثابِتٌ مُتَحَقِّق، وأنَّ يَومَ القِيامَةِ لا شَكَّ فيهِ أبَدًا. وكانَ النَّاسُ

يَتخاصَمونَ إذْ ذاكَ ويَتجادَلونَ في أمرِ السَّاعَة، بينَ مُنكِرٍ ومُثبِت، فجَعلَ اللهُ ظُهورَ أصحابِ الكَهفِ آيَةً على قُدرَتِهِ على البَعث.

وقالوا بعدَ أنْ توَفَّاهمُ الله: ابنُوا على بابِ كَهفِهِمْ بِناءً حتَّى لا يَدخُلَ عَليهِمُ النَّاس. ورَبُّهُمْ أعلَمُ بِهِمْ وبما يَتنازَعونَ فيه. قالَ الفَريقُ الأقوَى منهم، ولعلَّهمُ الحُكّام: لنَجعَلَنَّ فوقَهمْ مَسجِدًا.

{سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاء ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً} (الكهف : ٢٢)

٢٢- وسيَقولُ المختَلِفونَ في عدَدِ أهلِ الكَهف: همْ ثلاثَةُ أشخَاص، ورابِعُهمْ كَلبُهم. ويَقولُ آخَرون: إنَّهُمْ خَمسَةُ أشخَاص، وسادِسُهمْ كَلبُهم، إطلاقًا للكلامِ منْ غَيرِ علمٍ ولا تَثَبُّت. ويَقولُ غَيرُهم: همْ سَبعَةُ أشخَاص، وثامِنُهمْ كلبُهم. وليسَ هذا رَجمًا بالغَيب، فهوَ الصَّحيح.
قُل: إنَّ رِبّي أعلَمُ بعَدَدِهم، فلا يَخفِى عَليهِ شَيء، ولا يَعلَمُ عدَدَهمْ مِنْ عبادِ اللهِ إلاّ القَليل.
وقدْ صَحَّ السَّنَدُ إلى ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما أنَّهُ مِنْ هذا القَليل، وأنَّ عددَهمْ سَبعَة، كما أفادَهُ ابنُ كثير.
فلا تُجادِلْ في شَأنِ الفِتيَةِ معَ الخائضِينَ فيه، إلاّ مُحاجَجَةً سَهلةً هَيِّنَة، فلا فائدةَ تُذكَرُ مِنْ ذلك، ولا حاجَةَ للخَوضِ في الأمورِ التي لا عِلمَ للمَرءِ فيها، ولا تَطلُبِ الفُتيا بشَأنِ عددِهمْ مِنْ أحَدٍ منهم، فإنَّهُ لا عِلمَ لهمْ به، وفيما أعلَمَكَ اللهُ بِهِ كاف.

{وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً} (الكهف : ٢٣)

٢٣- ولا تَقُلْ لشَيءٍ عزَمتَ على فِعلِهِ مُستَقبَلاً سأفعَلُ كذا غَدًا، أو بَعدَ شَهر،

{إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً} (الكهف : ٢٤)

٢٤- إلاّ أنْ تَقول: "إنْ شَـــاءَ الله"، فإنَّهُ أدَبٌ معَ الذي لا يَعلَمُ الغَيبَ إلاّ هو، ولا تَدري أنتَ ما هوَ حاصِلٌ في الوَقتِ الذي وعَدتَ به. وإذا نَسِيتَ أنْ تَقولَ "إنْ شَاءَ اللهُ" في حِينِه، فقُلْ ذلكَ عندَ تذَكُّرِكَ له.

وقُل: عَسَى أنْ يوَفِّقَني رَبِّي لِأمرٍ هوَ أظهرُ وأعظمُ في الدَّلالَةِ مِنْ قِصَّةِ أصْحابِ الكَهف، مِنَ الآياتِ الدَّالَّةِ على نُبوَّتي، لِيَكونَ ذلكَ إرشـــادًا للنّاسِ وبيِّنَةً لهم. وقدْ فعلَ اللهُ لهُ ذلك، فقدْ آتاهُ مِن عِلمِ غُيوبِ المرسَـلينَ وخَبرِهم، مَا كانَ أوضَـحَ في الحجَّة، وأقرَبَ إلى الرُّشـدِ مِن خَبرِ أصْحابِ الكَهف.

{وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً} (الكهف : ٢٥)

٢٥- وقدْ بقيَ أهلُ الكَهفِ راقِدينَ في كَهفِهِمْ ثَلاثَمائةِ سَــنَةٍ شَمســيَّة، وهيَ ثَلاثُمائةٍ وتِســعٌ قمَريَّة.

{قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِـرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً} (الكهف : ٢٦)

٢٦- قُلْ لهمْ أيُّها الرَّسُولُ في مُدَّةِ مَكثِهم، التي هيَ مِنَ الأمورِ الغَيبيَّة: اللهُ أعلَمُ بمُدَّةِ لَبثِهِمْ في الكَهفِ مِنكم، وقدْ أَخبرَنا بذلك، وعِلمُ الغَيبِ عندَه، فلا شَـــيءَ يَغيبُ عنِ الله، فهوَ يَعلَمُ جَميعَ ما في السَّــماواتِ والأرض، ممّا يَغيبُ عنْ علمِ البشَـرِ وغَيرِهم. ما أبصَـرَهُ بكُلِّ مَوجود! وما أسمَعَهُ لكُلِّ مَسموع، ليسَ لأهلِ السَّماواتِ والأرضِ مِنْ دونِهِ وليٌّ يَتولَّى أمرَهم، ولا يُشرِكُ في قَضائهِ أحَدًا، مَهما كانَ شَأنُه.

{وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً} (الكهف : ٢٧)

٢٧- واقرَأ على أصحابِكَ ما أنزَلَ اللهُ عَليكَ مِنَ الوَحي، وبَلِّغْهُ النَّاس، لا يَقدِرُ أحَدٌ على أنْ يُغَيِّرَ آياتِ القُرآنِ إلاّ الله، وإذا لم تَتلُ القُرآنَ ولم تَتَّبِعْهُ فلا مَلجأ لكَ تأوي إليهِ منْ دونِ الله.

{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً} (الكهف : ٢٨)

٢٨- واحبِسْ نفسَكَ أيُّها النبيُّ معَ المؤمنينَ الذينَ يَعبُدونَ ربَّهم، ويَدعونَهُ ويَذكُرونَهُ صَباحَ مَساء، لا تَمَلَّ مُجالسَتَهم، ولا تستعجِلِ الخُروجَ مِنْ عندِهم، فإنَّهمْ يُريدونَ بذلكَ وجهَ الله، ويَبتَغونَ رِضاه. ولا تَصرِفْ عَينَكَ عنهمْ إلى غَيرِهمْ طالِبًا مُجالسَةَ الأشرافِ والأغنِياءِ مِنْ أهلِ الدُّنيا. ولا تَكنْ مُطيعًا – في إبعادِ الفُقَراءِ مِنْ مَجلِسِك– للَّذي جعَلنا قلبَهُ غافِلاً عنْ ذِكرِنا، مَشغولاً عنْ عِبادَتِنا بالمالِ والثَّروَة، واتَّبَعَ ما يَطلبُهُ هَواهُ منَ الشَّهوات، وكانتْ أعمالُهُ سَفَهًا وضَياعًا، حيثُ آثرَ الهوَى على الهِدايَةِ والإيمان.

{وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً} (الكهف : ٢٩)

٢٩- وقُلْ لهؤلاءِ الغافِلين: إنَّ هذا الذي أُوحيَ إليَّ هوَ الحَقُّ والصِّدقُ مِنْ عندِ رَبِّكم، الذي أرادَ بهِ هِدايتَكمْ وإنقاذَكمْ مِنَ العَذاب، فمَنْ شاءَ منكمْ فَليؤمِنْ به، ومَنْ شاءَ منكمْ فَليَكفُرْ، وسَوفَ يَتَحمَّلُ كُلٌّ مَسؤوليَّةَ اختيارِه، وقدْ هيَّأنا للكافِرينَ باللهِ ورَسُولِهِ نَارًا عَظيمَة، أحاطَ بها سُورُها، وإنْ يَستَغيثُوا مِنْ شِدَّةِ العطَشِ والعَذاب، يُغاثوا، ولكنْ بماءٍ غَليظٍ حارٍّ جِدًّا، كعَكَرِ الزَّيت، يُنضِجُ لَحمَ الوجوهَ لشِدَّةِ حرارَتِه، فإذا قَرُبَ منهمْ سقَطَتْ فَروَةُ وجُوهِهمْ فيه! بئسَ ذلكَ الماءُ الحارُّ الذي يُغاثُونَ به، وساءَتِ النَّارُ مَنزِلاً ومَقيلاً.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً} (الكهف: ٣٠)

٣٠- إنَ الذينَ آمَنوا باللهِ ورسُلِه، وصدَّقوا إيمانَهمْ بالأعمَالِ الصَّالِحَة، لا نُضيعُ ثوابَها، بلْ نُكرِمُهمْ ونَزيدُهمْ أجرًا.

{أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً} (الكهف : ٣١)

٣١- فلهمْ جَنّاتٌ عاليَاتٌ للإقامَةِ والاستِقرار، تَجري منْ تحتِ غُرَفِهِمْ وقُصورِهِمُ الأنهَار، يَتزَيَّنونَ فيها بأساوِرَ مِنْ ذَهَب، ويَلبَسونَ ثيابًا زاهِيَةً جَميلَةً بلونٍ أخضَر، منْ دِيباجٍ ناعِمٍ رَقيق، وآخرَ كَثيفٍ مُحْكَم. مُتَّكئينَ على الأسِرَّةِ في الحِجال، وهيَ أستارٌ مُزَيَّنَةٌ كالقُبَّة، مُتنَعِّمينَ مُترَفِّهينَ، نِعمَ هذا الثَّوابُ الذي جُوزُوا به، وهوَ الجَنَّة، وحَسُنَتْ مَجلِسًا ومُستَقَرًّا.

{وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً} (الكهف : ٣٢)

٣٢- واضرِبْ مثَلاً للمُؤمِنينَ الذَّاكرين، والكافِرينَ الغافِلين: رَجُلَين، جعَلنا للكافِرِ بُستانَينِ منْ أعناب، مُحاطَينِ بأشْجارِ النَّخيل، وجعَلنا وسَطَ البُستانَينِ زَرْعًا، فجَمَعنا لهُ القُوتَ والفاكِهة.

{كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً} (الكهف : ٣٣)

٣٣- وكِلا البُستانَينِ أثمَرا، ونَضِجَتْ ثِمارُهما، فكانتْ كُلُّها صالِحَةً للأكل، ولم يَنقُصْ منها شَيء، فلم يُصِبْها مرَض، ولم تَقِلّ. وفجَّرْنا[٧٤] بينَهما نَهْرًا، فكانَ رافِدًا لسَقيِهما، وجَمالاً لمنظَرِهما.

---

(٧٤) التفجيرُ مصدرُ فجَّرَ بالتشديد، مبالغةً في الفَجْر، وهو الشقُّ باتساع. ومنه سمِّيَ فجرُ الصباحِ فجراً؛ لأن الضوءَ يشقُّ الظلمةَ شقًّا طويلاً عريضاً، فالتفجيرُ أشدُّ من مطلقِ الفجر، وهو تشقيقٌ شديدٌ باعتبارِ اتساعه؛ ولذلك ناسبَ الينبوعَ هنا [في الآية ٩٠ من سورة الإسراء]، والنهرَ في قولِهِ تعالى: {وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا}. (التحرير والتنوير، عند تفسير الآية ٩٠ من سورةِ الإسراء).

{وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً} (الكهف: ٣٤)

٣٤- وكانَ لصَاحبِ البُستانَينِ أموالٌ كثيرة، فقالَ لصاحبِهِ المؤمِن، وهوَ يُخاصِمُهُ ويَفتَخِرُ عَليه: أنا أكثَرُ أموالاً منك، وأكثَرُ خدَمًا وحشَمًا منك، وأولادًا وعَشيرَة.

{وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً} (الكهف : ٣٥)

٣٥- ودخَلَ الكافِرُ بُستانَهُ وهوَ مُتَكبِّرٌ مُنكِرٌ للمَعاد، وقالَ في غُرور: لا أظنُّ أنَّ هذا البُستانَ سيَفنَى أبدًا، فأشجارُهُ كثيرَةٌ مُتماسِكة، ومِنْ أصنافٍ جيِّدَة، والماءُ مَوجودٌ بكَثرَة!

{وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً} (الكهف: ٣٦)

٣٦- قال: ولا أظنُّ القِيامَةَ كائنَة، وإذا كانَ هُناكَ بَعثٌ ومَرجِعٌ إلى الله، فسيَكونُ لي عندَهُ خَيرٌ مِنْ هذا البُستانِ مَرجِعًا ومَآلاً، فما أَولاني هذهِ النِّعمَ في الدُّنيا إلاّ لأنِّي مَحظيٌّ ومُقَدَّرٌ عندَه!

{قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً} (الكهف : ٣٧)

٣٧- قالَ لهُ صاحِبُهُ المؤمِنُ وهوَ يُحاوِرُهُ بالحُسنَى، يُذَكِّرُهُ ويُنذِرُه: ويحَك! أكفَرتَ بالذي خلقَ أصلَكَ مِنْ تُراب، ثمَّ خَلقَكَ مِنْ نُطفَةٍ مَهينَة، ثمَّ مَدَّ في عمُرِكَ وجَعَلَكَ بشَرًا سَويًّا؟

{لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً} (الكهف : ٣٨)

٣٨- لكنِّي لا أقولُ بمَقولَتِك، بلْ أُقِرُّ برُبوبيَّةِ اللهِ ووَحدانيَّتِه، ولا أُشرِكُ في عِبادَتي لهُ أحَدًا.

{وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً} (الكهف : ٣٩)

٣٩- وهلاّ إذْ دخَلتَ بُســـتانَكَ وعجِبَكَ ما فيه، ذَكَرْتَ خالِقَكَ الذي وَهبَكَ هذهِ النِّعمَة، فحَمِدْتَهُ وشَكَرتَهُ على ذلكَ وقُلتَ: ما شاءَ الله، لا قوَّةَ إلاّ بالله؟ فالأمرُ ما شَاءَ هوَ وحدَه، وما لم يَشأْ شَيئًا لا يَكون، ولا أقدِرُ على حِفظِ مالي ودَفعِ مَكروهٍ عَنهُ إلاّ بحَولِهِ وقوَّتِه.
ولمّا رأيتَني أقَلَّ منكَ ثَروَةً ووَلَدًا تكبَّرتَ عَليَّ وتَعاظَمت، ولم تُفكِّرْ بغَضَبِ اللهِ ونِقمَتِه؟

{فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً} (الكهف : ٤٠)

٤٠- فعسَى أنْ يُعطيَني رَبِّي خَيرًا مِنْ بُستانِكَ جَزاءَ فَقري وصَبري، وإيماني واحتِسابي، وأنْ يَبعثَ على بُستانِكَ عَذابًا مُقَدَّرًا مِنَ السَّماء، كصاعِقَة، فيُصبِحَ أرضًا جَرداءَ مَلساء، لا نَباتَ فيها، عُقوبَةَ كُفرِكَ واستِكبارِك.

{أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً} (الكهف : ٤١)

٤١- أو يُصـــبِحَ ماؤهُ غائرًا في الأرضِ بَعيدًا، لا تَنالُهُ الأيدي، وإذا حفَرتَ الأرضَ بَحثًا عَنهُ فلنْ تَجِدَه.

{وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً} (الكهف : ٤٢)

٤٢- وأحاطَ الهَلاكُ والدَّمارُ ببُســتانِهِ وأموالِه، وكانَ غافِلاً، يَستَبعِدُ ذلك، فأصبحَ آسِفًا حَزينًا، يَضـرِبُ كَفًّا بكَفّ، على ما أنفقَ عليهِ مِنْ أمْوال، وهوَ ســاقِطٌ على دَعائمِه، وفَوقَها أشجارُ العِنَب، وهوَ يَقولُ مُتنَبِّهًا ومُتذَكِّرًا مَوعِظَةَ صاحبِهِ المؤمِن: يا لَيتَني لم أُشرِكْ برَبِّي أحَدًا، ولو آمَنتُ وشَكرت، لزادَني وحَفِظَني في دِيني ومَالي.

{وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً} (الكهف : ٤٣)

٤٣- ولم تَكنْ لهُ جَماعَةٌ تَقدِرُ على الانتِصارِ لهُ ودَفعِ الهلاكِ عَنْ مالِهِ وبُستانِهِ مِنْ دونِ الله، فهوَ سُبحانَهُ القَادِرُ على نَصرِهِ وحدَه، وما كانَ هوَ قادِرًا على دَفعِ ضُرٍّ عنْ نَفسِه، ولا مَنعِ نِقْمَةِ اللهِ عَنه.

{هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً} (الكهف : ٤٤)

٤٤- وفي تلكَ الحالِ مِنْ وُقوعِ الهَلاكِ يَرجِعُ كُلُّ أحَدٍ إلى مُوالاةِ اللهِ والخُضوعِ له، فاللهُ أفضَلُ جَزاءً ومَثوبَةً لِعبادِهِ المؤمنين، وأحسَنُ عاقِبَةً ومَآلاً لأوليائهِ والمتوَكِّلينَ عَليه.

{وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً} (الكهف: ٤٥)

٤٥- واذكُرْ لقَومِكَ أيُّها النبيُّ ما يُشبِهُ الدُّنيا في زينَتِها وسُرعَةِ زَوالِها لئلاّ يَغْتَرُّوا، كمَطَرٍ أنزَلناهُ مِنَ السَّحاب، فاختَلطَ الماءُ بنَباتِ الأرضِ حتَّى رَوَّاه، فنَضَرَ عُودُه، وفاحَتْ رائحَتُه، وبانَ زَهرُهُ مِنْ كُلِّ لَون، وبعدَ حينٍ أصبَحَ يابِسًا لا رُوحَ فيه، تُفَرِّقُهُ الرِّياحُ وتُطَيِّرُهُ لخِفَّتِهِ وكأنَّهُ لم يَكن، بعدَ أنْ كانَ نَضِرًا مُبهِجًا! وكانَ اللهُ قادِرًا على كُلِّ شَيء، ومِنْ ذلكَ الإحياءُ والإماتَة.

{الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً} (الكهف : ٤٦)

٤٦- الأموالُ والأولادُ زينَةُ الدُّنيا وزَهرَتُها، وكُلُّ ذلكَ يَفنَى ويَزول، ولا تُوزَنُ قيمَةُ الإنسانِ بالزِّيناتِ الفانيَاتِ - معَ عَدَمِ النَّهيِ عنِ المباحِ منها في حُدودِ الشَّرعِ - ولكنَّ القِيمَةَ الحَقيقيَّةَ لِما هوَ صالِحٌ باقٍ مِنَ الأعْمالِ والأقْوالِ والعِبادات، فهيَ أفضَلُ عندَ رَبِّكَ جَزاءً، وأحسَنُ ما يؤمَلُ في الآخِرَة.

{وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً} (الكهف : ٤٧)

٤٧- واذْكُرْ يَومَ القيامَة، الذي تَذهَبُ فيهِ الجِبالُ مِنْ أماكنِها، ونُسَيِّرُها كالسَّحاب، وترَى الأرضَ بادِيَةً ظاهِرَة، فلا جبَلَ فيها ولا هَضَبَة، ولا بِناءَ ولا شَجَر، والخَلقُ مَكشُوفون، فقدْ جمَعْنا كُلَّهمْ في الموقِف، ولم نَترُكْ منهمْ أحَدًا.

{وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِداً} (الكهف : ٤٨)

٤٨- وأُحضِروا جَميعًا، وقامُوا بينَ يَدي اللهِ مُصطَفِّين، لقدْ جِئتُمونا - أيُّها المنكِرونَ ليَومِ البَعثِ - أحياءً، حُفَاةً، عُراةً، كما خَلَقناكُمْ أوَّلَ مرَّة، ليسَ معَكمْ شَيءٌ مِنَ الدُّنيا تَفتَخِرونَ به، بلْ ظَنَنتُمْ أنَّنا لنْ نبعَثَكمْ مَرَّةً أُخرَى، ولنْ نُوقِفَكمْ للحِسابِ والجَزاء.

{وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً} (الكهف : ٤٩)

٤٩- ووُضِعَتْ صَحائفُ الأعمَالِ في أيدي أصحَابِها، وفيها كُلُّ ما قالُوهُ وعَمِلوهُ في الدُّنيا، كبيرًا كانَ أو صَغيرًا، وترَى الكفَرَةَ المجرِمينَ خائفينَ مَذعورِينَ ممّا في كِتابِهِمْ منَ الجرائمِ والمنكَراتِ والذُّنوبِ العِظام، وهمْ يَقولونَ مُتعَجِّبينَ ومُتَحَسِّرين: يا وَيلَنا وهَلاكَنا، ما شَأنُ هذا الكِتابِ لا يَترُكُ ذَنبًا صَغيرًا ولا كَبيرًا إلاّ وسجَّلَه؟! ووجَدوا كُلَّ ما عَمِلوهُ في الدُّنيا مَسطورًا مُثبَتًا أمامَهم، مِنْ خَيرٍ وشَرّ، ولا يَظلِمُ رَبُّكَ أحَدًا مِنَ النَّاس، فلا يُقَدِّرُ عُقوبَةَ المجرِمِ إلاّ بمقدارِ ما يَستَحِقُّه، وقدْ يَعفو ويَصفَح، ولا يَنقُصُ منْ ثَوابِ المحسِن، بلْ يُضاعِفُ لهُ الأجْر، وهوَ الحكَمُ العَدْل، والمحسِنُ الكَريم.

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً} (الكهف: ٥٠)

٥٠- واذكُرْ قَولَنا للمَلائكة: اسجُدوا لآدَمَ سُجودَ تحيَّةٍ وإكرام، بعدَ أنْ سَوَّيناهُ ونَفَخنا فيهِ منْ رُوحِنا، فسَجَدوا لهُ جَميعًا، طاعَةً لرَبِّهم، إلاّ إبليسَ اللَّعين، وكانَ منَ الجِنّ، فخرَجَ عنْ

طاعَةِ رَبِّه، وأبَى أنْ يَكونَ منَ السَّاجِدين، أفتتَّخِذونَهُ وذُرِّيَّتَهُ نُصَراءَ وأُمَناءَ تَسمَعونَ منهم، وتُطيعونَهُمْ بدلَ أنْ تُطيعوني، وقدْ عَلِمتُمْ أنَّهُمْ أعداءُ اللهِ وأعدَاؤكم؟ بئسَ هذا البدَلُ (إبليسُ) لِمَنْ عصَى رَبَّه، فظلَمَ نفسَهُ وعَرَّضَها للعَذاب.

{مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً} (الكهف : ٥١)

٥١- إنَّ هؤلاءِ الشَّياطينَ الذينَ تُطيعُونَهُمْ عَبيدٌ خُبَثاء، وأعداءٌ لكم، لا يُطاعونَ ولا هم يُكرَمون، فما أحضَرتُهُمْ خَلقَ السَّماواتِ والأرض، وقدْ خَلَقتُهما قَبلَهم. وما أشهَدتُ بَعضَهمْ خَلقَ بَعض، ولا استَعَنتُ بأحَدٍ منهمْ في الخَلقِ والتَّدبير، فما كنتُ مُتَّخِذًا مِنَ المضَلِّينَ الفَاسِقينَ أنصَارًا وأعْوانًا في شَأنِ الخَلقِ حتَّى تُظَنَّ شَراكَتُهمْ في الطَّاعَةِ والموالاة.

{وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً} (الكهف : ٥٢)

٥٢- واذكُرْ يَومَ يَقولُ اللهُ للمشرِكينَ زَجْرًا لهمْ وتَوبيخًا: نادُوا شُرَكائي مِنَ الأوثانِ وغَيرِها، الذينَ زَعَمتُمْ في الدُّنيا أنَّهمْ شُفعاءُ لكمْ وشُرَكاءُ لي في الأُلوهيَّة، فاستَغيثُوا بهمْ ليَشفَعوا لكمْ عندَ اللهِ ويُنقِذوكمْ مِنَ العَذاب. فلمْ يُجيبوهمْ ولمْ يُغيثوهم. وجعَلنا بينَهمْ مَهلِكًا يَشتَرِكونَ فيه، وهوَ النَّار.

{وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً} (الكهف: ٥٣)

٥٣- ورَأى المشرِكونَ النَّارَ عِيانًا، وأيقَنوا أنَّهمْ واقِعونَ فيها، ولم يَجِدوا أيَّ طَريقٍ يَعدِلونَ عَنها، فقدْ أحاطَتْ بهمْ جَهنَّمُ مِنْ كُلِّ مَكان.

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً} (الكهف : ٥٤)

٥٤- ولقدْ بيَّنَّا للنَّاسِ في هذا القُرآنِ، وكرَّرنا فيهِ ونوَّعنا الأدِلَّةَ والبَراهينَ التي تُوَضِّحُ لهمُ الحَقّ، ليَتذَكَّروا ويَتَّعِظوا ويَتدَبَّروا. وكانَ الإنسانُ - بحسَبِ طَبْعِهِ - كثيرَ المخاصَمَةِ والمجادَلة.
وكثيرٌ منَ النَّاسِ يَدفَعونَ الحقَّ جِدالاً ولو عرَفوه! وهذا عِنادٌ واستِكبارٌ وجِدالٌ بالباطِل، وصِفَةٌ للمشرِكينَ والمنافِقين.

{وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً} (الكهف : ٥٥)

٥٥- وما منَعَ النَّاسَ مِنَ الإيمانِ بعدَ أنْ جاءَهمُ الهُدَى والبَيان، ويَتوبوا إلى رَبِّهِمْ مِنَ الكُفرِ والتَّكذيبِ والمجادَلَةِ بالباطِل، إلاّ انتِظارُ أنْ يأخُذَهمُ العَذابُ الذي وُعِدوا بهِ عنْ آخِرهِم، أو أنْ يُشـــاهِدوهُ عِياناً ومُواجَهةً، فعندَ ذلكَ يُبادِرونَ إلى الإيمان، على الرَّغمِ منْ مُشـــاهدَتِهمُ الآياتِ الواضِحةَ والمعجِزاتِ الكافيَةَ الدَّالَّةَ على صِدقِ أنبيائهمْ قَبلَ ذلك.

{وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً} (الكهف : ٥٦)

٥٦- وما إرســالُنا الرُّسُــلَ إلاّ ليُبَشِّــروا المؤمِنينَ الصَّــادِقينَ منهمْ بالثَّواب، ويُنذِروا الكافِرينَ المكَذِّبينَ بالعَذاب، ولكنَّ الكافِرينَ يُعانِدونَ ويُجادِلونَ بالبَاطِل، ويَقترِحونَ مُعجِزاتٍ تَعَنُّتًا، ليُبطِلوا بجِدالِهِمُ الحَقَّ الذي جاءَ بهِ الرُّسُــل، واتَّخَذوا آياتي والمعجِزاتِ التي أيَّدتُهُمْ بها وما أُنذِروا بهِ منَ العِقابِ والعَذابِ استِهزاءً وسُخرِيَةً.

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً} (الكهف : ٥٧)

٥٧- وليسَ هُناكَ أظلَمُ ممَّنْ وُعِظَ بآياتِ اللهِ وحُجَجِهِ، ومنها القُرآنُ الكريم، فأعرضَ عنها ولم يَتدَبَّرْها، ونَسِــيَ ما جنَتْ يَداهُ مِنَ الكُفرِ والمعاصِــي ودَفعِ الحقِّ بالجِدالِ الباطِل. لقدْ جعَلنا على قُلوبِهِمْ أغطِيَةً لئلاّ يَفهَموه، وفي آذانِهمْ صَـمَمًا وثِقلاً لئلاّ يَسـمَعوه، فقدِ استَهزَؤوا بآياتِ

اللهِ ونُذُرِه، وعَلِمَ اللهُ أنَّهمْ لنْ يؤمِنوا تَحقيقًا، فقدَّرَ عَليهِمُ الضَّلالَ بسبَبِ ذلك. فإذا دعَوتَهمْ إلى الدِّينِ الحقِّ فلنْ يَهتَدوا إليهِ أبَدًا، فلا استِعدادَ عندَهمْ لاتِّباعِه، ولنْ يَهدِيَهمُ اللهُ مادامتْ قُلوبُهمْ مُقْفَلةً دونَه.

{وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً} (الكهف : ٥٨)

٥٨-وربُّكَ يَغفِرُ الذُّنوب، وهوَ ذو رَحمَةٍ واسِعة، ولو أنَّهُ يُعاقِبُ الكُفّارَ في الدُّنيا بأعمالِهمُ السيِّئة، لعَجَّلَ لهمُ العَذابَ في الدُّنيا؛ لاستِحقاقِهمْ ذلك، ولكنَّ لهمْ مَوعِدًا، هوَ يَومُ البَعثِ والحِساب، لنْ يَجِدوا مَلجَأً غَيرَه، ولا مَهرَبَ لهمْ منه.

{وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً} (الكهف : ٥٩)

٥٩- وأهلُ القُرَى مِنَ الأمَمِ السَّابِقَة، كعادٍ وثَمودَ وقَومِ لُوط، أهلَكناهمْ لما كفَروا بآياتِ اللهِ وكذَّبوا رسُلَه، وقدْ جعَلنا لإهلاكِهِمْ مَوعِدًا مُحَدَّدًا، فلمْ يَتجاوَزوه، فلا يَغُرَّنَّ أحدًا إمهالُ اللهِ لهم.

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً} (الكهف: ٦٠)

٦٠- واذكُرْ قَولَ نبيِّ اللهِ موسَى لفتاهُ الذي كانَ يَخدِمُهُ يُوشَعَ بنِ نون -كما وردَ اسمُهُ في الصَّحيحَين -: لا أزالُ أسيرُ حتَّى أصِلَ إلى مَجمَعِ البَحرينِ - ولعلَّهُ ما بينَ البَحرينِ المتوسِّطِ والأحمرَ - وإنْ استَغرَقَ ذلكَ دَهرًا طَويلاً.

وكانَ موسَى عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ "قامَ خَطيبًا في بَني إسْرائيل، فسُئل: أيُّ النَّاسِ أعلَم؟ فقال: أنا أعلَم. فعتَبَ اللهُ تعالَى عَليهِ إذْ لم يَرُدَّ العِلمَ إليه، فأوحَى اللهُ إليه: إنَّ لي عَبدًا مِنْ عِبادي بمَجمَعِ البَحرَين، هوَ أعلَمُ مِنك". رواهُ الشَّيخانُ وغيرُهما، واللَّفظُ للبُخاريّ.

{فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً} (الكهف : ٦١)

٦١- فلمَّا وصَلا إلى مَجمَعِ البَحرَين، نَسِيا حوتَهما هُناك - وهوَ السَّمَك -. ومضَى موسى يَسيرُ في البَحرِ كالسِّرْبِ في الأرض، فيَبقى أثَرُهُ مِنْ بَعدِه[٧٥].

{فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً} (الكهف : ٦٢)

٦٢- فلمَّا جاوزا المكانَ الذي نَسِيا فيهِ الحُوت، قالَ موسَى لِفتاهُ يوشَع: أعطِنا غَداءَنا، فقدْ لَحِقَنا في سَفَرِنا هذا التَّعَبُ والجُوع.

{قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً} (الكهف : ٦٣)

٦٣- قالَ لهُ يوشَع: أرأيتَ عندَما كنَّا في مَجمَعِ البَحرَينِ والتَجأنا إلى الصَّخرَةِ وأقَمنا عندَها، فإنِّي نَسِيتُ الحُوتَ هُناك - وكانَ موسى نائمًا إذْ ذاكَ - وما أنسانِي ذِكرَهُ إلاّ الشَّيطان.

{قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً} (الكهف : ٦٤)

٦٤- قالَ لهُ موسَى عليهِ السَّلام: هذا ما كُنّا نُريدُه، فقدْ جعلَ اللهُ ذلكَ أمارَةً لِلقاءِ الخَضِر. فرجَعا مِنْ طَريقِهما، يَتَتَبَّعانِ أثرَهُما، لئلاّ يُخطِئا طَريقَهما.

---

(٧٥) {سَرَباً} أي: مسلكًا كالسرب، وهو بيتٌ في الأرض، وثقبٌ تحتها، وهو خلافُ النفق؛ لأنه إذا لم يكنْ له منفذٌ يُقالُ له سرب، وإذا كان له منفذٌ يقالُ له نفق. وذلك أن الله تعالى أمسكَ جريةَ الماءِ على الحوتِ فصارَ كالطاقِ عليه، وهو ما عُقِدَ من أعلى البناءِ وبقيَ ما تحتَهُ خاليًا، يعني أنه انجابَ الماءُ عن مسلكِ الحوتِ فصارَ كوَّةً لم تلتئم. هكذا فسَّرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم هذا المقام، كما في حديثِ الصحيحين. (روح البيان).

{فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً} (الكهف: ٦٥)

٦٥- فوجَدا هُناكَ عَبدًا مِنْ عِبادِنا المؤمنين، هوَ الخَضِرُ عليهِ السَّلام، آتَيناهُ الوَحيَ والنبوَّةَ مِنْ عِندِنا، كما هوَ عندَ جُمهورِ العُلَماء، وعَلَّمناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلمًا خاصًّا، لا يُعلَمُ إلاّ مِنْ جِهَتِنا. ولعَلَّهُ عِلمُ الإخبارِ بالغُيوب.

{قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً} (الكهف : ٦٦)

٦٦- فقالَ لهُ موسَى عليهِ السَّلامُ بأدَبِ الأنبياءِ والعُلَماء: هَلْ تَسمَحُ لي أنْ أُرافِقَكَ على أنْ تُعَلِّمَني ممّا وهَبَكَ اللهُ مِنَ العِلمِ الرَّاشِد، الذي تُصيبُ بهِ خَيرًا؟

{قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً} (الكهف : ٦٧)

٦٧- قالَ لهُ الخَضِرُ عَليهِ السَّلام: إنَّكَ لا تَقدِرُ على صُحبَتي، فستَرى منّي ما تَكرَهُ في شَريعَتِك، وأنا على عِلمٍ لمْ يُعَلِّمْكَ اللهُ إيّاه.

{وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً} (الكهف : ٦٨)

٦٨- وكيفَ تَصبِرُ على شَيءٍ لا يُحيطُ بهِ عِلمُك، وتَسكُتُ على تَركِ الإنكارِ ممّا يُخالِفُ الشَّرع؟

{قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أمْراً} (الكهف : ٦٩)

٦٩- قالَ لهُ موسَى عَليهِ السَّلام: ستَجِدُني صابِرًا معَكَ إنْ شاءَ الله، غَيرَ مُعتَرِضٍ عَليك، مُلتزِمًا بما تَقول.

{قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً} (الكهف : ٧٠)

٧٠- قالَ الخَضِر: فإذا تَبِعتَني فلا تَعترِضْ على أفعَالي، ولا تُناقِشني في شَيءٍ حتَّى أُفَسِّرَهُ لك.

{فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً} (الكهف : ٧١)

٧١- فانطَلَقَ موسَى والخَضِرُ عَليهِما السَّلامُ يَمشيانِ على ساحِلِ البَحر، فمرَّتْ سَفينَة، فرَكِباها، فثقبَها الخَضِرُ، بأنْ قلعَ لوحًا منها، فقالَ لهُ موسَى: أخرَقْتَ السَّفينَةَ لتُغرِقَ مَنْ فيها؟ لقدْ فعَلتَ فِعلاً مُنكَرًا.

{قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً} (الكهف : ٧٢)

٧٢- قالَ لهُ الخَضِرُ مُذَكِّرًا: ألَمْ أقُلْ لكَ إنَكَ لا تَستَطيعُ الصَّبرَ معي؟

{قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً} (الكهف : ٧٣)

٧٣- قالَ موسَى عليهِ السَّلام: لا تؤاخِذني بنِسياني ما اتَّفَقنا عَليهِ منْ عدَمِ الاعتِراضِ عَليك، ولا تُكَلِّفْني مشَقَّة، ولا تُشَدِّدْ عَليّ، وعامِلْني باليُسر.

{فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً} (الكهف : ٧٤)

٧٤- فقَبِلَ الخَضِرُ عُذْرَه، فنزَلا مِنَ السَّفينَة، وانطَلَقا يَمشِيانِ على السَّاحِل، حتَّى إذا لَقِيا غُلامًا، كانَ يَلعَبُ معَ أمثالِه، لم يَكنْ فيهِمْ أحسَنُ ولا أنظَفُ منه، فقتَلَهُ الخَضِر، فقالَ لهُ موسَى عليهِ السَّلام: أقَتَلْتَ نَفسًا صَغيرَةً طاهِرَةً مِنَ الذُّنوبِ لم تَقتُلْ نَفسًا يُوجِبُ قَتلَها؟ لقدْ قُمتَ بعَمَلٍ تُنكِرُهُ العُقول، وتَنفِرُ عَنهُ الطَّبائع.

سورة الكهف (٧٥-١١٠)
سورة مريم
سورة طه

{قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً} (الكهف : ٧٥)

٧٥- قالَ لهُ الخَضِرُ مُذَكِّرًا: ألَمْ أقُلْ لكَ مِنْ قَبلُ إنَّكَ لا تَصبِرُ على الاعتِراضِ عَمَّا أفعَلُه؟

{قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً} (الكهف : ٧٦)

٧٦- قالَ موسَى عَليهِ السّلام: إذا سألتُكَ عنْ شَيءٍ بعدَ هذا ممّا تَفعَلُهُ لِمَ فَعَلتَه، فلا تُصاحِبْني، فقدْ قَبِلتَ عُذري مِنْ قَبل، ولا عُذرَ لي بعدَه.

{فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً} (الكهف : ٧٧)

٧٧- وانطَلَقا يَمشِيان، حتَّى إذا وصَلا إلى قَريَة، طَلَبا الضِّيافَةَ مِنْ أهلِها، فلمْ يُطْعِموهُما، وكانوا لِئامًا، بُخَلاء. فوجَدا فيها جِدارًا مَائلاً يكادُ أنْ يَسقُط، فرَدَّهُ الخَضِرُ فأقامَهُ بيَدِه.

فقالَ لهُ موسَى: قَومٌ أتَيناهُمْ لِيُضَيِّفونا فلمْ يُطعِمونا، لو أرَدْتَ لاتَّخَذْتَ على عمَلِكَ هذا أجرًا منهم.

{قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً} (الكهف : ٧٨)

٧٨- قالَ لهُ الخَضِرُ عَليهِ السَّلام: هذا وَقتُ فِراقِ ما بيني وبَينِك، فإنَّكَ لم تَلتَزِمْ بشَرطِ الصُّحبَةِ مَعي، وسأُخبِرُكَ بمآلِ وعاقِبَةِ ما لم تَصبِرْ عَليهِ ممّا حدَث معَنا، لكَونِهِ مُنكَرًا عندَكَ مِنْ حيثُ الظّاهِر.

قالَ في "إرشــاد السّــاَري": كانتْ أحكامُ موسَــى كغَيرِهِ منَ الأنبياءِ مَبنيَّةً على الظَّواهِر، ولذا أنكرَ خَرْقَ السَّــفينَة، وقَتْلَ الغُلام، إذِ التصَــرُّفُ في أموالِ النَّاسِ وأرواحِهمْ بغَيرِ حَقٍّ حَرامٌ في الشَّـرعِ الذي شَرَعَهُ لأنبيائهِ عَليهمُ السَّـلام، إذْ لم يُكَلِّفْنا بالكَشـفِ عنِ البِواطِن، لِما في ذلكَ مِنَ الحرَج. وأمَّا وقوعُ ذلكَ منَ الخَضِر، فالظَّاهِرُ أنَّهُ شُرِعَ لهُ أنْ يَعمَلَ بما كُشِفَ لهُ مِنْ بَواطنِ الأسرَار، واطَّلعَ عليهِ منْ حَقائقِ الأشياء...

{أَمَّا السَّـفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَــاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً} (الكهف : ٧٩)

٧٩- أمَّا السَّـفينَةُ التي خرَقتُها، فكانتْ لِمَسـاكينَ يَعمَلونَ ويَكتَسِـبونَ في البَحر، فأرَدتُ أنْ أجعلَها مَعِيبَة، وكانَ أمامَهمْ مَلِكٌ ظالِمٌ يأخذُ كُلَّ سَفينَةٍ جَيِّدَةٍ غَصْبًا.

{وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً} (الكهف: ٨٠)

٨٠- وأمَّا الغُلامُ الذي قَتَلتُه، فلو أنَّهُ كَبِرَ لكانَ كافِرًا، وكانَ أبَواهُ مُؤمِنَينِ صــالِحَين، وعَلِمنا أنَّهُ لو بلغَ لَدَعاهُما إلى الكُفر، ولاســتَجابا لهُ وتابعاهُ في دِينِه، لحُبِّهما الشَّــديدِ له، وحُبُّ الشَّيءِ يُعْمِي ويُصِمّ. والطُّغيان: الزِّيادَةُ في الضَّلال.

{فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً} (الكهف : ٨١)

٨١- فأرَدتُ بقَتلي لهُ أنْ يُبْدِلَ اللهُ والِدَيهِ مَنْ هوَ خَيرٌ منهُ دِينًا وخُلُقًا، ويَكونَ أبَرَّ منهُ بهما.

{وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُـدَّهُمَا وَيَسْـتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً} (الكهف : ٨٢)

٨٢- وأمَّا الجِدارُ الذي أصــلَحتُه، فكانَ لغُلامَينِ يَتيمَينِ صَــغيرَينِ في المدينَة - وهيَ القَريَةُ المذكورَة - وتَحتَهُ مالٌ مَدفونٌ مِنْ ذَهَبٍ وفِضَّــةٍ يَخصُّــهما، وكانَ أبوهُما صــالِحًا تَقيًّا، ولو تُرِكَ

الجِدارُ يَنقَضُّ لظهرَ الكَنزُ مِنْ تحتِه، ولَما استطاعَ الصَّغيرانِ أنْ يَدفعا عَنهُ مَكروهًا، فأرادَ رَبُّكَ أنْ يَكبَرا ويُدرِكا قوَّتَهما، ليَستَخرِجا حينَذاكَ كَنزَهما وهُما قادِرانِ على حِمايَتِه.

وهذا الذي فعَلتُهُ كانَ رَحمَةً منَ اللهِ بأصــــحابِ السَّـــفينَة، ووالِدَي الغُلام، وولدَي الرَّجُلِ الصَّالِح. وما فعَلتُ ذلكَ باختياري ورأيي، لكنِّي أُمِرتُ به، وفعَلتُهُ بأمرِ الله – وهذا دَليلٌ على نبوَّتِه –. وما فَعَلْتُهُ وأوقَفتُكَ على بيانِهِ ونَتيجَتِه، هوَ ما لم تَقدِرْ على الصَّبرِ عَليه.

وليسَ هُناكَ أيُّ دَليلٍ شَــرعيّ ثابتٍ على أنَّ الخَضِــرَ مازالَ حَيًّا، وما يَرِدُ في مثلِ هذا أقاويلُ وحِكاياتٌ لا تَنهَضُ حُجَّةً على ذلك.

{وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً} (الكهف : ٨٣)

٨٣- ويَســألُكَ بعضُــهمْ أيُّها النبيُّ عنْ شَــأنِ ذي القَرنَين، فقُلْ لهم: ســأذكرُ لكمْ مِنْ أنبائهِ وقَصَصِهِ قُرآنًا.

وهوَ قائدٌ فاتِحٌ مؤمِن، وحاكِمٌ صــالِحٌ عادِل، ولم يَكنْ نبيًّا ولا مَلَكًا، وليسَ واحِدًا ممَّنِ انتصَـرَ لهُ بَعضُ المؤرِّخينَ والمفَسِّــرين، كالإســكندَرِ المِقدوني، والصَّــعبِ الحِمْيَري، وكُورشِ الأخميني. وذكرَ كثيرٌ منهمْ أنَّهُ الأوَّل، وهوَ خَطأٌ ووَهم، فالمِقدونيُّ كانَ منْ أنصــارِ فلسَــفَةِ أرســطو، ولا يُسَـمَّى ذا القَرنَينِ أصـلاً، كما أنَّ القائدَ المؤمِنَ لا يُسَـمَّى الإسـكندَر، ولعلَّ الذي جمَعَ بينَهما هوَ ما ورَدَ منْ معارِكِ المِقدونيّ وانتِصـــاراتِه. وقدْ ذكرَ كثيرٌ منَ المؤرِّخينَ أنَّ ذا القَرنَينِ كانَ في عَصرِ إبراهيمَ الخَليلِ عليهِ السَّلام. واللهُ أعلم. والمهِمُّ أنْ يُعتَبَرَ مِنْ سِيرَتِه.

{إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً} (الكهف : ٨٤)

٨٤- إنَّا جَعَلنا لهُ قُدرَةً وتَمكُّنًا في الأرض، وحَصافَةً في الرأي، وحُسْنَ تَدبير، وجُنودًا وأعوانًا، ومَهَّدْنا لهُ الأسبَاب، وأعطَيناهُ مِنْ كُلِّ شَـيءٍ يَحتاجُ إليهِ في تَدبيرِ مُلكِهِ وفُتوحاتِهِ عِلمًا ومُكنَةً يَصِلُ بها إلى مَقصُودِه.

{فَأَتْبَعَ سَبَباً} (الكهف : ٨٥)

٨٥- فأرادَ بُلوغَ المغرِب، فسلَكَ طَريقًا تُوصِلُهُ إليه.

{حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّـــمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً} (الكهف : ٨٦)

٨٦- حتَّى إذا بلغَ ذو القَرنَينِ مَغرِبَ الشَّـــمس، رآها - في نظَرِهِ - تَغرُبُ في عَينٍ ذاتِ طِينَةٍ سَــوداء، لعلَّها مَصَــبُّ نَهر، حَيثُ يَختَلِطُ الطِّينُ بالماء، وكُلٌّ يَرَى الشَّـــمسَ تَغيبُ في مَكان، وعِندَما وصَــلَ ذو القَرنَينِ إلى ســاحِلِ البَحرِ المحيط، رَأى الشَّـــمسَ تَغيبُ في ذلكَ المكان. ووَجَدَ عندَ تلكَ العَينِ أُمَّةً مِنَ الأُمَم، فألهَمنا ذا القَرنَين: إمَّا أنْ تعمَلَ فيهِمُ القَتْلَ إذا لم يَدخلوا في الإسْلام، وإمَّا أنْ تُحسِنَ إليهِمْ وتَدْعوَهمْ إلى الحَقِّ وتُعَلِّمَهمُ الهُدَى.

{قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً} (الكهف: ٨٧)

٨٧- قالَ ذو القَرنَينِ لذَوي مَشورَتِهِ وأهلِ الرَّأيِ منهم: أمّا مَنْ ظلَمَ نفسَهُ وأصرَّ على الإقامَةِ على الكُفرِ فسَوفَ نقتُلُه، ثمَّ يُرجَعُ إلى رَبِّهِ في الآخِرَة، فيُعَذِّبُهُ عَذابًا مُنكَرًا فَظيعًا.

{وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً} (الكهف : ٨٨)

٨٨- وأمَّا مَنْ آمنَ واستَجابَ لدَعوَتِنا في عِبادَةِ اللهِ وحدَه، وعَمِلَ عمَلاً صالِحًا بحسَبِ مَا يَقتَضيهِ الإيمان، فلَهُ المثوبَةُ الحُسنَى في الدَّارَين، ولا نُكَلِّفُهُ في الدُّنيا بما هوَ شاقٌّ عَليه، بلْ نُلَيِّنُ لهُ القَول، ونُعامِلُهُ باليُسرِ مِنْ أمرِنا.

قالَ صاحِبُ "الظِّلالِ" رحمَهُ الله: "وهذا هوَ دُستُورُ الحُكمِ الصَّالِح، فالمؤمِنُ الصَّالِحُ يَنبَغي أنْ يَجِدَ الكرامَةَ والجَزاءَ الحسَــنَ عندَ الحاكِم، والمعتَدي الظَّالِمُ يَجِبُ أنْ يَلقَى العَذابَ والإيذاء...". إلى أنْ قال: "أمّا حينَ يَضــطَرِبُ ميزانُ الحُكم، فإنَّ المعتَدونَ المفسِــدونَ مُقَرَّبونَ إلى الحاكم، مُقَدَّمونَ في الدَّولَة، وإذا العامِلونَ الصَّـالِحونَ مَنبوذونَ أو مُحارَبون، فعِندَئذٍ تتَحوَّلُ السُّــلطَةُ في يَدِ الحاكِمِ سَوطَ عَذابٍ وأداةَ فَساد، ويَصيرُ نِظامُ الجَماعَةِ إلى الفَوضَى والفَساد".

{ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً} (الكهف : ٨٩)

٨٩- ثمَّ سلَكَ طَريقًا باتِّجاهِ المشرِق.

{حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّــمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِــتْراً} (الكهف : ٩٠)

٩٠- حتَّى إذا بلغَ مَطلِعَ الشَّمس، وهوَ الأُفُقُ الشَّرقيُّ في عَينِ الرَّائي، وجدَها تَطلُعُ على أُمَّةٍ ليسَ لهمْ بِناءٌ يَستَظِلُّونَ فيه، ولا لِباسٌ يَتسَتَّرونَ بهِ منْ حَرِّ الشَّمس.

{كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً} (الكهف : ٩١)

٩١- وكانَ حُكمُهُ في هؤلاءِ القَوم، كحُكمِهِ في القَومِ السَّــابِقين. وقدْ أحاطَ عِلمُنا بما عِندَهُ مِنَ الجُندِ والعُدَّةِ والتَّنظيمِ والتَّخطِيطِ والفُتوحات.

{ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً} (الكهف : ٩٢)

٩٢- ثمَّ ســلَكَ طَريقًا ثالِثًا، وهوَ في كُلِّ مرَّةٍ يَدعو ويُجاهِد، فإنْ أطاعُوه، وإلاّ حارَبَهم، وقوَّى بهِمْ جُندَه.

{حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّــدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً} (الكهف : ٩٣)

٩٣- حتَّى إذا وصلَ إلى ما بينَ الجبَلَينِ وجدَ أمامَهما أُمَّةً لا يَكادونَ يَفهَمونَ كَلامَ أحَد، ولا يَفهَمُ النَّاسُ كلامَهم، لغَرابَةِ لُغَتِهمْ وبُعدِها مِنْ لُغاتِ النَّاس.

{قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً} (الكهف : ٩٤)

٩٤- فقالوا لهُ بواسِطَةِ مُتَرجِمِهم: يا ذا القَرنَين، إنَّ قَبيلَتَي يأجوجَ ومَأجوجَ[٧٦] يُفسِدونَ في أرضِنا بالقَتلِ والنَّهبِ والأذَى، ولا يَدَعُونَ شَيئًا إلاّ أفسَدوه، فهَلْ نجمَعُ لكَ أمْوالاً عَظيمةً مِنْ عِندِنا لتَجعلَ بينَنا وبينَهمْ حاجِزًا يَمنَعُهمْ منَ الوصُولِ إلَينا؟

{قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً} (الكهف : ٩٥)

٩٥- قالَ لهمْ ذو القَرنَين: ما قَوَّاني اللهُ عَليهِ وأعطاني مِنَ المِلْكِ والتَّمكينِ خَيرٌ وأفضَلُ مِنَ الذي تَجمَعونَهُ لي مِنَ المال، فدَعُوا هذا وسَاعِدوني بقُوَّتِكمْ وما عندَكمْ مِنْ موادّ، لأجعلَ بينَكمْ وبينَهمْ حاجِزًا قَويًّا وسَدًّا حَصينًا.

{آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً} (الكهف : ٩٦)

٩٦- أعطوني قِطَعَ الحديدِ الضَّخمَة. فجلَبوها له، وصارَ يَبني بها ما بينَ الجبَلَين. حتَّى إذا سَوَّى بها ما بينَ طَرَفَيه، قالَ للعُمَّال: انفُخوا في النَّارِ بالكِيران. حتَّى إذا صارَ الحديدُ أحمرَ كالنَّار، قالَ لهم: أعطوني النُّحاسَ المذابَ لأُفرِغَهُ عَليه.

{فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً} (الكهف : ٩٧)

٩٧- فما استَطاعَ يأجوجُ ومَأجوجُ أنْ يَعلُوا عَلى ذلكَ السَّدّ، لارتِفاعِهِ ومَلاسَتِه، وما استَطاعُوا أنْ يَنقُبوهُ ويَخرُقوه، لصَلابَتِهِ وثَخانَتِه.

---

(٧٦) رجَّحَ العلاّمة محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره، أنهم المغولُ والتتار، بعد كلام، قال: "والذي يجبُ اعتمادهُ أن ياجوجَ وماجوجَ هم المغولُ والتتر".

{قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً} (الكهف : ٩٨)

٩٨- قالَ ذو القَرنَينِ رَحِمَهُ اللهُ في تَواضُع، شاكِرًا للهِ على ما وفَّقَهُ إليه: هذا السَّدُّ نِعمَةٌ منَ اللهِ لأهلِ هذهِ البلادِ ومَنْ بَعدَهم، فإذا جاءَ وعدُ ربِّي يَومَ القِيامَة، أو عندَ خروجِ يأجوجَ ومأجوجَ قَبلَ ذلك، جعَلَهُ مَدكوكًا وسَوَّاهُ بالأرض. وما وعدَ اللهُ بهِ حَقٌّ ثابِتٌ لا خُلْفَ فيه.

وذُكِرَ أنَّ آثارَ هذا السَّدِّ مازالتْ مَوجودةٌ في جُورجيا، في فَتحَةِ داريالَ بجِبالِ القَوقاز، التي كانتِ القَبائلُ المتَوَحِّشَةُ تُغِيرُ منها على مَناطِقِ جَنوبِ القَوقازِ وشَرقِ البَحرِ الأسوَدِ وغَربِ بَحرِ قَزوين. واللهُ أعلم.

{وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً} (الكهف : ٩٩)

٩٩- وترَكنا النَّاسَ يَومَئذٍ - عندَ مَجيءِ الوَعد، بخروجِ يأجوجَ ومأجوج، أو يَومَ القِيامَة - يَدخُلُ بَعضُهمْ على بَعضٍ كمَوجِ الماء، فيَختَلِطون، لكَثرَتِهم. ونُفِخَ في الصُّورِ إثرَ ذلك، فجمَعْنا النَّاسَ في صَعيدٍ واحِد، للحِسابِ والجَزاء.

وخروجُ يأجوجَ ومأجوجَ مِنْ عَلاماتِ السَّاعَة.

{وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً} (الكهف : ١٠٠)

١٠٠- وأظهَرنا جَهنَّمَ يومَ القِيامَةِ للكافِرينَ بمَرأًى منْ أهلِ المحشَر، ليَرَوا ما فيها منَ العَذابِ والنَّارِ الملتَهِبَةِ قَبلَ دُخولِها، ليَكونَ ذلكَ أبلَغَ في خَوفِهمْ وحُزنِهم.

{الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً} (الكهف : ١٠١)

١٠١- الذينَ كانتْ أعيُنُهمْ -وهمْ في الدُّنيا- مُحاطَةً بغِشاوَةٍ غَليظَةٍ تَحجُبُ عنهمْ آياتي وذِكري، فقدْ تعَامَوا عنها، وصَمُّوا آذانَهمْ عنْ سَماعِ الحقّ، لئلاّ يَعقِلوا عنِ اللهِ دِينَه.

{أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاء إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً} (الكهف : ١٠٢)

١٠٢- أفظَنَّ الكافِرونَ أنْ يَتَّخِذوا عِبادًا لي آلِهةً يَعبُدونَهُمْ مِنْ دُوني، وأنصـــارًا يَتَّقونَ بهمْ بأسـي؟ سيَظهَرُ لهمْ تَبَرُّؤهمْ منهمْ يَومَ القِيامَة. وقدْ هيَّأنا لهمْ جهنَّمَ لتَكونَ لهمْ مَنزِلاً يَسكُنونَ فيه، ومَثوًى يُخَلَّدونَ فيه.

{قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً} (الكهف : ١٠٣)

١٠٣- قُلْ: هلْ أُخبِرُكمْ بالذينَ خَسِروا أعمالَهمْ خَسارةً بيِّنَة، ونَدِموا أشدَّ النَّدامَة؟

{الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً} (الكهف : ١٠٤)

١٠٤- الذينَ ضـــاعَ جُهدُهمْ وبطَلَ عمَلُهمُ الذي عَمِلوهُ في الدُّنيا، وهمْ يَظنُّونَ أنَّهمْ يَقومونَ بأعمالٍ حسَنَةٍ مَرْضِيَّة؟

{أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً} (الكهف : ١٠٥)

١٠٥- أولئكَ الأخسَـــرونَ همُ الذينَ جحَدوا آياتِ اللهِ ومُعجِزاتِهِ التي أيَّدَ بها رُسُـلَه، وكفَروا بيومِ المعاد، فلا حِسابَ في نظَرِهمْ ولا جَزاءَ بعدَ الموت، فهؤلاءِ بطَلَتْ أعمالُهمْ مهما ظنُّوا أنَّها حسـنَة، لأنَّهمْ لم يَصـدُروا فيها عنْ إيمانٍ وعمَلٍ صـالِح، فهيَ غيرُ قائمةٍ على شَـريعَةٍ مَشـروعَةٍ ومَقبولَةٍ عندَ الله، بلْ هيَ منْ أهوائهمْ وتَسـويلِ الشَّـيطانِ لهم، فلا نَجعَلُ لهؤلاءِ يَومَ القِيامَةِ وَزنًا ولا اعتِبارًا.

وفي الصَّـحيحَينِ قَولُهُ صـلى اللهُ عليهِ وسـلَّم: "إنَّهُ ليَأتي الرَّجُلُ العَظيمُ السَّـمينُ يومَ القِيامَة، لا يَزِنُ عندَ اللهِ جَناحَ بَعوضَة". وقال: "اقْرَؤوا: {فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً}".

{ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً} (الكهف : ١٠٦)

١٠٦- فإذا كانَ الأمرُ كذلك، فإنَّ جزاءَهمْ جهنَّمُ؛ بسَـــبَبِ كُفرِهم، واســـتِهزائِهمْ بآياتي ومُعجِزاتي، وتكذيبِهمْ كتُبي ورسُلي.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً} (الكهف : ١٠٧)

١٠٧- إنَّ الذينَ آمَنوا، وأتْبَعوا إيمانَهُمْ بالعمَلِ الصَّالِحِ، وهوَ الموافِقُ لشَرعِ الله، كانتْ لهمْ فيما سبَقَ في عِلمِ الله، جَنَّاتُ الفِردَوسِ مَنزِلاً ومُقامًا.

وفي صَـــحيحِ البُخاريّ مِنْ حَديثِ أبي هُريرةَ المرفوع: "إنَّ في الجَنَّةِ مائةَ درَجَةٍ أعَدَّها اللهُ للمُجاهِدينَ في سَبيلِه، كُلُّ درجتَينِ ما بينَهما كما بينَ السَّماءِ والأرض، فإذا سألتُمُ اللهَ فسَلُوهُ الفِردَوس، فإنَّهُ أوسَطُ الجَنَّةِ وأعلَى الجَنَّة، وفَوقَهُ عَرشُ الرَّحمن، ومنهُ تَفَجَّرُ أنهارُ الجَنَّة".

{خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً} (الكهف : ١٠٨)

١٠٨- مُقيمينَ فيها أبَدًا، لا يَطلبونَ تَحَوُّلاً عنها إلى غَيرِها، ولا يُفَضِّلونَ سِواها.

{قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً} (الكهف : ١٠٩)

١٠٩- قُل: لو كانَ البَحرُ حِبرًا مُعَدًّا للقَلَمِ الذي تُكتَبُ بهِ كَلِماتُ رَبِّي، لفَنِيَ ماءُ البَحرِ قَبلَ أنْ تَنتَهي كلِماتُ رَبِّي، لعَدَمِ تَناهيها، ولو جِئنا بمِثلِ ماءِ البَحرِ بُحورًا أخرَى تَمُدُّهُ بالماء.

{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَـرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً} (الكهف : ١١٠)

١١٠- قُلْ أيُّها الرَّســولُ الكريم: ما أنا إلاّ بشَــرٌ مثلُكم، إلاّ أنِّي تميَّزتُ عنكمْ بوَحيِ اللهِ إليّ، فمَنْ زعَمَ أنِّي كاذِبٌ فليَأتِ بمِثلِ ما أُوحيَ إليّ. وإنَّ الإلهَ الذي أدعوكمْ إلى عِبادَتِهِ هوَ إلهٌ واحِدٌ لا شَــريكَ له، فمَنْ كانَ يأمُلُ الكَرامَةَ والبُشــرَى مِنْ رَبِّه، وحُســنَ الثَّوابِ منْ عِندِه، فليَعمَلْ عمَلاً صـالِحاً يَكونُ مُوافِقًا للشَّـرع، ولا يُشـرِكْ بعبادَةِ ربِّهِ أحَدًا، فلا يُرائي بعمَلِه، ولا يُرِدْ بهِ سِوَى وَجهه.

قالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ الله: وهذانِ رُكنا العمَلِ المتَقَبَّل: لا بُدَّ أنْ يَكونَ خالِصًــا لله، صَــوابًا على شَريعَةِ رَسولِ الله.

وأخرجَ الحاكِمُ وصـحَّحَهُ ووافَقَهُ الذَّهبيّ، عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضـيَ اللهُ عَنهما قال: قالَ رَجُل: يا رَســولَ الله، إنِّي أَقِفُ الموقِفَ أريدُ وجهَ الله، وأريدُ أنْ يُرَى مَوطِني. فلمْ يَرُدَّ عَليهِ رَســولُ اللهِ صلى الله عليه وسلَّم شَيئًا، حتَّى نزلَتْ: {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً}.

* * *

وسُـورَةُ الكَهفِ سُـورَةٌ عَظيمَة، ولها فَضـائل، منها قَولُهُ صـلى الله عليه وسـلم في حَديثِ أبي سَـعيدٍ الخُدريّ الصَّـحيحِ مَوقوفًا: "مَنْ قرأَ سُـورَةَ الكَهفِ يَومَ الجُمُعَة، أضـاءَ لهُ النُّورَ ما بينَهُ وبينَ البَيتِ العَتيق". رواهُ الدارْميّ.

وفي صَحيحِ مُسلمٍ منْ حَديثِ أبي الدَّرداءِ قَولُهُ صلى الله عليه وسلم: " مَنْ حَفِظَ عَشرَ آياتٍ منْ أوَّلِ سُورَةِ الكَهف، عُصِمَ مِنَ الدَّجَّال".

سـورة مريـم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{كهيعص} (مريم : ١)

١- حروفٌ مُقَطَّعَةٌ لم يَرِدْ في معناها حَديثٌ ثابِتٌ صَحيح. ولم يتَّفقِ المفسِّرونَ على معناها.

{ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا} (مريم : ٢)

٢- هذا ذِكْرٌ وبَيانٌ لِما رَحِمَ اللهُ بهِ عبدَهُ ونبيَّهُ زَكريَّا وأنعمَ عَليه.

{إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيّاً} (مريم : ٣)

٣- إذْ دعا ربَّهُ سِرًّا، في خُفيَةٍ عنِ النَّاسِ، فهوَ أبعَدُ عنِ الرِّياء، وأظهَرُ في الإخلاص.

{قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً} (مريم : ٤)

٤- قال: اللَّهمَّ إنِّي ضَعُفْتُ، وخارَتْ قُوايَ، وانتَشرَ المشيبُ في شَعرِ رأسي، ولم أكنْ بدُعائي إيَّاكَ خائبًا في وَقتٍ مِنَ الأوقات، ولم تَرُدَّني فيما سَألتُك.

{وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً} (مريم : ٥)

٥- وإنِّي خَشِيتُ ألاَّ يُحسِنَ أهلي وقَرابَتي مِنْ بَني إسرائيلَ في أمَّتي مِنْ بعدِ مَوتي، وكانتِ امرأتي عَقيمًا لا تُنجِب، فهَبْ لي مِنْ فَضلِكَ ابنًا مِنْ صُلبي.

{يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً} (مريم : ٦)

٦- يَرِثُني في النُّبوَّةِ ويَخلُفُني في أمَّتي، ويَرِثُ العِلمَ والنُّبوَّةَ مِنْ آلِ يَعقوب، فيَكونُ امتِدادًا لهذا النَّسَبِ المبارَكِ وعِلمِهِمْ وخِلافَتِهم، واجعَلْهُ مَرضِيًّا قَولاً وفِعْلاً عِندَكَ وعِندَ خَلقِك.

{يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً} (مريم : ٧)

٧- فاستَجابَ لهُ رَبُّه، وقالَ لهُ بواسِطَةِ المِلَك: يا زَكريَّا، إنَّا نُبَشِّرُكَ بوَلَدٍ اسمُهُ يَحيَى، لم يُسَمَّ أحَدٌ قَبلَهُ بهذا الاسم.

{قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً} (مريم : ٨)

٨- قالَ زَكريَّا مُناجِيًا رَبَّهُ، مُتَضَرِّعًا إليه، وهوَ فَرِحٌ ومُتَعَجِّب: رَبِّي، كيفَ يُولَدُ لي غُلامٌ وامرَأتي عَقيمٌ لا تُنجِب، وأنا شَيخٌ كَبيرٌ طاعِنٌ في السِّنّ؟!

{قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً} (مريم : ٩)

٩- قالَ المِلَكُ يَرُدُّ على زَكريَّا وتَعَجُّبِهِ مِنْ ذلك: كذلِكَ قالَ رَبُّك: إيجادُ ولَدٍ مِنْ شَيخٍ عَجوزٍ وامرَأةٍ عاقِرٍ سَهلٌ يَسيرٌ عَلَيّ، وقدْ خَلَقتُكَ ولم تَكُنْ شَيئًا مِنْ قَبل.

{قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً} (مريم : ١٠)

١٠- قالَ زَكَريَّا عَليهِ السَّلام: ربِّي اجعَلْ لي عَلامَةً على ما وعَدتَني به.

فأوحَى إليهِ رَبُّه: علامَتُكَ ألاّ تَستَطيعَ أنْ تُكلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ ليالٍ معَ أيّامِهنّ، وأنتَ صَحيحٌ مُعافًى في جَميعِ جَوارِحِك.

{فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً} (مريم : ١١)

١١- فخرجَ على قَومِهِ مِنْ مِحرابِه، فأشارَ إليهِمْ أنْ صَلُّوا في الغَداةِ والعِشاء، شُكرًا للهِ على نِعمَتِه.

{يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً} (مريم : ١٢)

١٢- فوَهَبْنا لهُ يَحيَى، وعَلَّمناهُ التَّوراةَ التي يَحكمُ بها النَّبيُّون، وقُلنا له: يا يَحيَى خُذِ الكِتابَ بجِدٍّ واجتِهاد، وأعطَيناهُ النبُوَّة، أو الفَهمَ والعِلم، وهوَ صَغير.

{وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً} (مريم : ١٣)

١٣= وآتيناهُ رَحمَةً مِنْ عِندِنا وشَــفَقَةً عَظيمَة، وطَهارَةَ نَفس، وطاعَةً وإخلاصًــا، فلمْ يَقتَرِفْ ذَنبًا.

{وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً} (مريم : ١٤)

١٤- وطاعَةً لوالِدَيهِ وإحسانًا إلَيهما، ولم يَكنْ مُتَكَبِّرًا مُتَعاليًا عنْ قَبولِ الحقّ، أو مُتَطاوِلاً على الخَلق.

{وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً} (مريم : ١٥)

١٥- وسَــلامٌ على نَبيِّ اللهِ يَحيَى وأمانٌ لهُ يومَ وُلِد: مِنْ أنْ يَنالَ منهُ الشَّــيطانُ شَــيئًا، ويومَ يَموت: يَســلَمُ مِنْ عَذابِ القَبرِ ووَحشَــتِه، ويومَ يُبْعَثُ حَيًّا: يَأمَنُ منْ هَولِ القِيامَةِ وعَذابِ النَّار.

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً} (مريم : ١٦)

١٦- واذكُرْ في القُرآنِ أيُّها الرَّسُولُ قِصَّةَ مَريَمَ بنتِ عِمران، عندَما اعتَزلَتْ أهلَها، وذَهبَتْ إلى شَرقِ دارِها، أو شَرقِ بيتِ المقدِس.

{فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً} (مريم : ١٧)

١٧- فتَوارَتْ عَنهمْ وجعَلَتْ بينَها وبينَهمْ سِــترًا وحاجِزًا، فبعَثنا إليها جِبريل، فتصَــوَّرَ لها على صُورَةِ إنسانٍ كاملِ الخِلقَة.

{قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً} (مريم : ١٨)

١٨- فلمَّا رأَتْهُ أمامَها وهيَ في مَكانٍ مَعزول، خافَتْ منهُ على نَفسِها وقالت: إنِّي ألتَجِئُ إلى اللهِ وأحتَمي بهِ مِنْ أنْ تَمَسَّني بسُوء، إنْ كُنتَ مؤمِنًا تَخافُ اللهَ وتَخشَى عِقابَه.

{قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً} (مريم : ١٩)

١٩- قالَ لها جِبريلُ عَليهِ السَّلام: لم أرِدْ ما يَسوؤكِ أيَّتُها الصِّدِّيقة، ما أنا إلاّ رَسُولٌ مِنْ عندِ رَبّكِ، بعَثَني إليكِ لأهَبَ لكِ بأمرِهِ ولَدًا طاهِرًا، نقيًّا منَ الذُّنوب.

{قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً} (مريم : ٢٠)

٢٠- قالتْ لهُ مَريمُ عليها السَّلام: وكيفَ يُولَدُ لي ولَدٌ ولم يَقرَنْ بي زَوج، ولم أكنْ فاجِرَة؟ تَعني أنَّ الولَدَ يَكونُ منْ نِكاحٍ أو سِفاح، وهيَ ليسَتْ كذلك.

{قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً} (مريم : ٢١)

٢١- قالَ جِبريل: قالَ رَبُّكِ: كذلكَ هوَ سَهلٌ عَليَّ يَسير، وإنْ لم يَكنْ لكِ زَوج، ولم توجَدْ منكِ فاحِشَة، ولنَجعلَ هذا الغُلامَ عَلامةً للنّاس، ودَلالَةً على كمالِ قُدرَتِنا، ونِعمَةً عَظيمَةً مِنْ عندِنا، وليَكونَ نبيًّا مِنَ الأنبياء، ويَهتَدي النَّاسُ بهَدْيه. وكانَ هذا أمرًا مُقدَّرًا ومُسَطَّرًا في اللَّوحِ المحفوظ، فلا بُدَّ منه.

{فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً} (مريم : ٢٢)

٢٢- فحمَلَتْ بعِيسَى، بعدَ أنْ نفَخَ اللهُ فيها بواسِطَةِ جِبريلَ عَليهِ السَّلام، فتنَحَّتْ بحَملِها مَكانًا بَعيدًا مِنْ أهلِها.

{فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً} (مريم : ٢٣)

٢٣- فألجَأها وَجَعُ الوِلادَةِ إلى جِذعِ نَخلَةٍ كانتْ هُناك، قالَتْ وهيَ تَعلَمُ أنَّها ستُبتَلى بمَولودِها ولا يُصَدِّقُ النَّاسُ كلامَها: يا لَيتَني مِتُّ قَبلَ هذا الوَقت، وكنتُ شَيئًا حَقيرًا لا يُذكَرُ ولا يُعتَدُّ به، مَتروكًا لا يُعرَفُ ولا يَخطُرُ ببالِ أحَد.

{فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً} (مريم : ٢٤)

٢٤- فنادَاها جَبريلُ مِنْ تَحتِها: لا تَحزَني، قدْ جعلَ رَبُّكِ أسفَلَ منكِ جَدولًا يَسري فيهِ الماء.

{وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً} (مريم : ٢٥)

٢٥- وحَرِّكي نَحوَكِ جِذْعَ النَّخلَةِ تُسْقِطْ عَليكِ رُطَبًا مَجنيًّا ناضِجًا جاهِزًا للأكل.

{فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً} (مريم : ٢٦)

٢٦- فكُلِي يا مَريَمُ مِنَ الرُّطَبِ واشرَبي مِنَ النَّهر، وطِيبي نَفسًا ولا تَحزَني، فإذا رَأيتِ أحَدًا مِنَ النَّاسِ وسألَكِ عنْ شَيء، فقولي له - لعَلَّهُ إشارَةً -: إنِّي نذَرتُ للهِ أنْ أصْمُت، فلنْ أُكَلِّمَ أحَدًا مِنَ النَّاسِ هذا اليَوم. رُبَّما كراهةَ مُجادَلَةِ السُّفَهاء، واكتِفاءً بكلامِ عيسَى عَليهِ السَّلام.

{فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً} (مريم : ٢٧)

٢٧- فأتَتْ مَريَمُ بوَلِيدِها عيسَى حامِلَةً إيّاه، فلَمّا دخَلَتْ على أهلِها - وكانوا صالِحِينَ - استَنكَروا منها ذلك، وقالوا: يا مَريَمُ لقدِ اقترَفتِ أمرًا مُنكَرًا عَظيمًا.

{يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً} (مريم : ٢٨)

٢٨- يا شَبيهَةَ هارونَ في العِبادَة - وكانَ رَجُلاً مَشهورًا بالزُّهدِ والعِبادَةِ في وَقتِهم - ما كانَ أبوكِ عِمرانُ رَجُلَ سُوءٍ يَعمَلُ الفَواحِش، وما كانتْ أُمُّكِ زانيَة، فكيفَ حصلَ لكِ هذا؟!

{فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً} (مريم : ٢٩)

٢٩- فأشارَتْ إلى طِفلِها الرَّضيعِ عيسَى: أنْ كَلِّمُوه. قالوا مُنكِرينَ جوابَها: كيفَ نُكَلِّمُ صَبيًّا في المهد؟! وكيفَ يَتكلَّمُ هو؟!

{قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً} (مريم : ٣٠)

٣٠- فتَكلَّمَ عيسَى عَليهِ السَّلامُ وقال: إِنِّي عَبدُ اللهِ – وسُبحانَ مَنْ جعَلَ هذا أَوَّلَ كلامِهِ – قضَى رَبِّي أنْ يؤتِيَني الإنجيل، ويَجعَلَني نَبيًّا.

{وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً} (مريم : ٣١)

٣١- وجعَلني نَفّاعًا، مُعَلِّمًا للخَير، أينَما كُنت، وأمرَني بالصَّلاةِ والزَّكاةِ مُدَّةَ حَياتي.

{وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً} (مريم : ٣٢)

٣٢- وأوصاني أنْ أكونَ مُحسِنًا إلى والِدَتي، ولم يَجعَلني مُستَكبِرًا، عاصِيًا.

{وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً} (مريم : ٣٣)

٣٣- والسَّلامُ والأمانُ عَليَّ يَومَ وُلِدتُ: فلمْ يَنَلني الشَّيطانُ بسُوء، ويَومَ أموتُ: أَسلَمُ مِنْ عَذابِ القَبر، ويَومَ أُبْعَثُ حَيًّا: أَسلَمُ مِنْ هَولِ القيامَةِ وعَذابِ جَهنَّم.

{ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ} (مريم : ٣٤)

٣٤- ذلكَ هوَ عَبدُ اللهِ ورَسُولُهُ عيسَى بنُ مَريَم، قَولَ الحَقِّ والصِّدْقِ الذي يَشُكُّ فيهِ النَّاسُ ويَختَلِفون، فمِنْ قائلٍ يَقول: إنَّهُ كاذِبٌ وساحِر، وآخَرَ يَقول: إنَّهُ إلهٌ أو ابنُ إله، وما هوَ إلاّ نَبيٌّ كسائرِ الأنبياء، عَليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلام.

{مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} (مريم : ٣٥)

٣٥- ما صَحَّ وما استَقامَ أنْ يَجعَلَ اللهُ لنَفسِهِ ولَدًا، وليسَ هذا مِنْ صِفَتِه، سُبحانَه، تقَدَّسَ وتنَزَّهَ عمَّا افتَراهُ النَّصارَى عَليه، إنَّما شَأنُهُ إذا أرادَ إحداثَ أمرٍ أنْ يَقولَ لهُ كُنْ، فيَكونُ كما يُريد.

{وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ} (مريم : ٣٦)

٣٦- ومِنْ تَمامِ قَولِ عيسَـى عَليهِ السَّـلامُ في المهد: إنَّ اللهَ رَبِّي وربُّكم، فكُلُّنا مَخلوقُون، ولهُ عَبيد، فاعبُدوهُ وأطيعُوه، ووَحِّدوهُ ولا تُشـرِكوا بهِ شَـيئًا، وهذا التَّوحيدُ هوَ الطَّريقُ القَويمُ الذي يَجِبُ أنْ تتَّبِعوه.

{فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ} (مريم : ٣٧)

٣٧- فاختلَفَ اليَهودُ والنَّصـارَى فيهِ وصـاروا فِرَقًا وأحزابًا، وانحرَفَ مُعظَمُهمْ عنِ الحَقّ، وبدَّلوا تَعاليمَ المسيحِ عَليهِ السَّلام، فالوَيلُ والهلاكُ للكافِرينَ منْ يَومِ الهَولِ والعَذاب.

{أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} (مريم : ٣٨)

٣٨- ما أسمَعَهُمْ وما أبصـرَهمْ عندَما يأتونَنا يَومَ الحِسـابِ والجَزاء، وقدْ كانوا صُـمًّا وعُميًا عنْ آياتِنـا، وهمُ الآنَ كـذلكَ في الحَيـاةِ الـدُّنيـا، في غِوايَةٍ وبُعدٍ عنِ الحقِّ ظاهِر، فلا يَعقِلونَ ولا يَتدَبَّرون.

{وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} (مريم : ٣٩)

٣٩- وخَوِّفِ المشرِكينَ الظَّالِمينَ منْ يَومِ النَّدامَةِ الكُبرى، عندَما يُحاسَبونَ على أعمالِهِمْ كُلِّها، ويُقَرَّرُ مَصـــيرُهمْ إلى النَّار، وهمُ اليَومَ في غَفلَةٍ عمَّا يَنتَظِرُهمْ منْ حِســـابٍ عَظيم، وهمْ لا يُصَدِّقونَ بالثَّوابِ والعِقابِ يَومَ الدِّين.

{إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} (مريم : ٤٠)

٤٠- ونحنُ نَرِثُ الأرْضَ وجميعَ مَنْ عَليها، فنُهلِكُ الأحياءَ كُلَّهم، ويَبقَى مالِكُ المُلْكِ وحدَه، وإلينا مَرجِعُ النَّاسِ كُلِّهم، فنَحكمُ بينَهم، ونُجازيهمْ على أعمالِهِمْ بما يَستَحِقُّون.

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً} (مريم : ٤١)

٤١- واذكُرْ في القُرآنِ خبرَ إبراهيمَ واتْلُهُ على النَّاس، إنَّهُ كانَ كثيرَ الصِّــدق، مُلازِمًا له، نبيًّا عَظيمًا.

{إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً} (مريم : ٤٢)

٤٢- إذْ قالَ لأبيهِ آزَرَ - وكانَ يَعبدُ الأصنامَ - يا أبَتِ لماذا تَعبدُ شَيئًا لا يَسمَعُ صَوتَك، ولا يَستَجيبُ لِندائك، ولا يرَى وقُوفَكَ بينَ يدَيهِ ولا خضُوعَكَ له، ولا يَقدِرُ على نَفعِكَ ولا ضُرِّك.

{يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً} (مريم: ٤٣)

٤٣- يا أبتِ إنِّي قدْ أُوتيتُ منَ العِلمِ ومَعرِفَةِ أسرارِ الكَونِ ما لم يأتِكَ منه، ولنْ تَعرِفَ مثلَه، فاقبَلْ نَصيحَتي وأطِعني أدُلَّكَ على الطَّريقِ المستَقيمِ الذي يأخذُ بيدِكَ إلى النَّجاةِ مِنَ المهالِك.

{يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً} (مريم : ٤٤)

٤٤- يا أبتِ لا تُطعِ الشَّـيطانَ بعبادَتِكَ هذهِ الأصْـنام، فهوَ الذي يُحَسِّـنُ لكَ ذلك، والشَّيطانُ مُخالِفٌ لأمرِ رَبِّه، مُستَكبِرٌ عنْ طاعَتِه، مَطرودٌ مِنْ رَحمَتِه.

{يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً} (مريم: ٤٥)

٤٥- يا أبَتِ إنِّي أخشَى أنْ يُصيبَكَ يَومَ القِيامَةِ عَذابٌ عَظيمٌ يوقِعُكَ اللهُ فيهِ إنْ أقَمتَ على الكُفر، فتَكونَ مُصاحِبًا للشَّيطانِ في النَّار، كما كنتَ مثلَهُ عاصيًا في الدُّنيا.

{قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً} (مريم : ٤٦)

٤٦-قالَ لهُ أبوه، منْ مَنطِقِ المشـرِكينَ الذينَ لا يَتحَمَّلونَ ذِكرَ آلِهَتِهمْ بسُـوء: أتَكرَهُ آلِهَتي وتُعرِضُ عنها، وتَنهَى النَّاسَ عنْ عِبادَتِها؟ إذا أصـرَرْتَ على مَوقِفِكَ ولمْ تَنتَهِ عنِ التعَرُّضِ لها لأقتَصَّنَّ منكَ وأسُبَّنَّك، فابعُدْ عَنِّي إذا كُنتَ تُريدُ النَّجاةَ لنَفسِك.

{قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً} (مريم : ٤٧)

٤٧- قالَ لهُ إبراهيمُ عليهِ السَّلام: سَلامٌ عَليك، لنْ تَنالَ منّي أذًى ومَكروهًا يا أبي، وسأدْعو اللهَ أنْ يَهديَكَ إلى الحقّ، ويُوَفِّقَكَ للتَّوبة، ويَغفِرَ ذَنبَك، مادُمتَ حَيًّا. إنَّ رَبِّي لَطيفٌ بي، حيثُ أكرَمَني وهدَاني لعِبادَتِهِ والإخلاصِ له، وعَوَّدني على إجابةِ دَعوَتي.

ولم يَدْعُ إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ لأبيهِ بعدَ أنْ عَلِمَ أنَّهُ ماتَ على الشِّرك {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ} [سورة التَّوبَة: ١١٤].

{وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيّاً} (مريم : ٤٨)

٤٨- وأبتَعِدُ عَنكمْ وأتبَرَّأُ منكمْ ومِنْ آلِهَتِكمُ التي تَعبُدونَها أيُّها المشركون، وأعبدُ رَبِّي الذي لا إلهَ إلاّ هو، عسَى ألاّ أكونَ خائبًا ضائعَ السَّعي بعبادَتي له، فيَتقَبَّلُها منّي بكَرَمِه.

وفيهِ أدَبٌ معَ الله، وتَعريضٌ بشَقاوَةِ مَنْ يَعبدُ الآلِهَة.

{فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّاً} (مريم : ٤٩)

٤٩- فلمَّا اعتزَلَ المشركينَ وآلِهَتَهمُ المزعومَة، أبدلَهُ اللهُ خَيرًا منهم، فوهَبَهُ إسحَاق، ووُلِدَ لهذا يَعقوبُ، وكانوا جَميعًا أنبياء، عَليهمُ الصَّلاةُ والسَّلام.

{وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً} (مريم : ٥٠)

٥٠- وأعطَيناهُمْ مِنْ فَضلِنا ونِعمَتِنا خَيرَ ما يُؤتَى البشَر، مِنْ خَيرَي الدِّينِ والدُّنيا، وجعَلنا النَّاسَ يُثْنُونَ عَليهمْ ثَناءً حسَنًا، في كُلِّ الأديان، وهمْ مُستَحِقُّونَ لذلك، فقدْ كانوا صَادِقينَ في دَعوَتِهم، مُخلِصِينَ في طاعَتِهم. وقدِ استَجابَ اللهُ دُعاءِ إبراهيمَ عَليهِ السَّلام: {وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ} [سورة الشعراء: ٨٤].

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً} (مريم : ٥١)

٥١- واذكُرْ في القُرآنِ كذلكَ خبرَ موسَى بنِ عِمران، الذي اصطَفاهُ اللهُ منْ بينِ النَّاسِ لحَملِ رِسالتِه، فكانَ رسُولاً، نَبيًّا مِنْ أُولي العَزم.

{وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً} (مريم : ٥٢)

٥٢- ونادَينا موسَى منْ جانبِ الطُّورِ (الجَبَل)، النَّاحيَةِ التي تَلي يَمينَ موسَى، فقَرَّبناهُ وكلَّمناهُ مُناجاة. وهوَ المسَارَّةُ بالكَلام.

{وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً} (مريم : ٥٣)

٥٣- وأجَبنا دُعاءَهُ فوَهَبنا لهُ أخاهُ هارُونَ ليَكونَ نبيًّا معَه، يُساعِدُهُ ويؤازِرُهُ في دَعوَتِه. وكانَ أفصحَ منهُ لِسانًا. عَليهما الصَّلاةُ والسَّلام.

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً} (مريم : ٥٤)

٥٤- واذكُرْ في القُرآنِ إسمَاعيلَ بنَ إبراهيمَ عَليهما السَّلام - جَدَّ نَبيِّنا محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم - إنَّهُ كانَ صادِقًا في وَعدِهِ وَفيًّا، لم يَعِدْ أحَدًا إلاّ وفَى له. وقالَ لوالدِه: {افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} [سورة الصَّافَّات: ١٠٢] فصَدَق. وكانَ رَسولاً نبيًّا، أرسَلَهُ اللهُ إلى قَبيلَةِ جُرْهُمَ العرَبيَّة.

{وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً} (مريم : ٥٥)

٥٥- وكانَ يأمرُ أهلَهُ بطاعَةِ اللهِ سُبحانَه، بإقامَةِ الصَّلاة، وإيتاءِ الزَّكاة. وكانَ رَضيًّا عندَ ربِّه، لاستِقامَةِ أقوالِهِ وأفعالِه.

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً} (مريم : ٥٦)

٥٦- واتْلُ في القُرآنِ خبَرَ إدريسَ، الذي كانَ قبلَ نوحٍ، عَليهما السَّلام، إنَّهُ كانَ كثيرَ الصِّدق، مُلتَزِمًا له، نَبيًّا كَريمًا.

{وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً} (مريم : ٥٧)

٥٧- وأعلَينا قَدْرَهُ ورفعنا ذِكرَهُ.

وقدْ سَلَّمَ عليهِ رَسولُنا صلى الله عليه وسلم في السَّماءِ الرَّابعَةِ عِندَما عُرِجَ به، كما في صَحيحِ البُخاريّ.

{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً} (مريم : ٥٨)

٥٨- أولئكَ الذينَ تفضَّلَ اللهُ عليهمْ وأعلَى مَرتَبَتَهمْ بينَ البَشر، مِنَ النَّبيِّين، مِنْ ذُرِّيَّةِ آدم: إدريسُ ونُوح، ومِنْ ذُرِّيَّةِ مَنْ حَمَلناهُمْ معَ نوح: إبراهيمُ، ومِنْ ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ: إسماعيلُ وإسحَاقُ ويَعقوب، ومِنْ ذُرِّيَّةِ إسرائيلَ (وهوَ يَعقوبُ): موسَى وهارونُ وزَكريّا ويَحيَى وعيسَى. هؤلاءِ مِنْ جُملَةِ مَنْ أرشَدناهُمْ إلى الحقِّ واصطَفيناهُمْ للنبوَّة، إذا سَمِعوا كلامَ اللهِ المتَضمِّنَ لآلائهِ وبيانِ قُدرَتِهِ وعَظَمَتِه، بادَروا إلى السُّجودِ لرَبِّهم، وقدْ خشَعَتْ قُلوبُهُمْ لذِكرِه، وفاضَتْ عيونُهُمْ خَشيةً منه، إقرارًا منهمْ بالعُبوديَّةِ لهُ سُبحانَه.

{فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً} (مريم : ٥٩)

٥٩- فجاءَ مِنْ بعدِ هؤلاءِ النبيِّينَ ومَنْ تَبِعَهمْ مِنْ عِبادِ اللهِ الصَّالِحين، عَقِبُ سُوءٍ، تَرَكوا الصَّلاةَ المفروضَةَ عَليهم، وانهَمَكوا في الملذَّات، وآثَروا شَهواتِ أنفُسِهمْ على طاعَةِ رَبِّهم، فسَوفَ يُجزَونَ بذلكَ شَرًّا وخُسرانًا.

{إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً} (مريم : ٦٠)

٦٠- إلاّ مَنْ تابَ مِنْ ذُنوبِه، وصدَقَ في إيمانِه، وقرَنَ تَوبتَهُ بالعمَلِ الصَّالِح، فأولئكَ يَدخُلونَ جَنَّةَ رَبِّهم، ولا يُنْقَصُ مِنْ ثَوابِ أعمالِهِمْ شَيء.

{جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً} (مريم : ٦١)

٦١- وهيَ جَنّاتٌ مُعَدَّةٌ للإقامَةِ الدَّائمَة، وعَدَ اللهُ بها عِبادَهُ الصَّالِحين، الذينَ يُؤمِنونَ بها وإنْ لم يَرَوها، وإنَّ ما وعدَهمُ اللهُ بهِ آتٍ لا مَحالَة.

{لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً} (مريم : ٦٢)

٦٢- لا يَسمَعونَ في الجَنَّةِ كلامًا باطِلاً تافِهًا لا خَيرَ فيهِ مثلَما هوَ في الدُّنيا، لكنْ يَسمَعونَ كلامًا طَيِّبًا، فيهِ سَلامٌ مِنَ الملائكةِ عَليهم، ومِنْ بَعضِهِمْ على بَعض، ولهمْ ما يَشتَهونَ مِنَ الأرزاقِ في مِثلِ أوقاتِ الصَّباحِ والمساء، أو أنَّ المقصودَ الدَّوامُ.

{تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً} (مريم : ٦٣)

٦٣- تلكَ الجَنَّةُ العاليَةُ الرَّائعَة، التي نُعطيها لمنْ كانَ تَقيًّا مِنْ عِبادِنا المؤمِنين، الذينَ آثَروا طاعَةَ رَبِّهِمْ وصبَروا عَليها، ولم تَصرِفْهُمْ مُغرِياتُ الدُّنيا عنِ الالتِزامِ بالدِّين.

{وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً} (مريم : ٦٤)

٦٤- قالَ جبريلُ عَليهِ السَّلام: وما نَنزِلُ إلى الأرضِ - نحنُ الملائكةَ - إلاّ بأمرِ الله، لهُ أمرُ الدُّنيا، وأمرُ الآخِرَة، وما بينَ ذلك. وما كانَ اللهُ تارِكًا أنبياءَه.

وفي صَحيحِ البُخاريِّ وغَيرِه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قالَ لجبريل: "ما يَمنَعُكَ أنْ تَزورَنا أكثرَ مما تَزورُنا"؟ فنزَلَتِ الآية.

{رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً} (مريم : ٦٥)

٦٥- اللهُ خالِقُ السَّـــماواتِ والأرضِ ومالِكُهما وما بينَهما، ومُدَبِّرُهما، والحاكِمُ فيهما، فلا يَنسَـى، ولا يَنام، ولا يَغفُلُ عَنهما، فالزَمْ طاعتَه، واصـبِرْ على مَشـاقِّ عِبادَتِه، وتكاليفِ أمرِهِ ونَهيه، هلْ تَعلَمُ للهِ مِثْلاً وشَبيهًا؟

{وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً} (مريم : ٦٦)

٦٦- ويَقولُ الإنسَانُ الكافِر، المنكِرُ للبَعث: أإذا مِتُّ وكنتُ رُفاتًا، سأُخْرَجُ حيًّا مِنَ القَبرِ مرَّةً أُخرَى؟! قالَ ذلكَ استِهزاءً واستِبعادًا للمَعاد.

{أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً} (مريم : ٦٧)

٦٧- ألا يَتذَكَّرُ ويَتفَكَّرُ هذا الإنسَانُ أنَّهُ لم يَكنْ شَيئًا في وَقتٍ مِنَ الأوقات، ثمَّ خَلقنَاهُ فكانَ حَيًّا؟ فإذا كُنّا خَلقناهُ ولم يَكنْ شَيئًا، ألَسنا قادِرينَ على إعادَةِ خَلقِهِ وقدْ كانَ شَيئًا؟

{فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً} (مريم : ٦٨)

٦٨- فوَرَبِّكَ أيُّها الرَّسُـول، سـنَجمَعُ هؤلاءِ المنكِرينَ للمَعادِ في المحْشَـر، معَ الشَّـياطينِ الذينَ كانوا يُضِلُّونَهم، بارِكينَ على الرُّكَبِ حَولَ جَهنَّم، في ذِلَّةٍ وفزَع، يَنتَظِرونَ أنْ يُقذَفَ بهِمْ فيها في أيَّةِ لَحظَة.

{ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً} (مريم : ٦٩)

٦٩- ثمَّ لنُخرِجَنَّ مِنْ كُلِّ أمَّةٍ منهمْ قادَتَهمْ ورُؤسـاءَهمُ الأكثرَ شَـرًّا وفُجورًا وجُرأةً على اللهِ وخُروجًا عنْ طاعَتِه، فيُقَدَّمُونَ إلى النَّار.

{ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً} (مريم : ٧٠)

٧٠- ثمَّ نحنُ أعلمُ بمَنْ يَستَحِقُّ مِنَ النَّاسِ أنْ يَدخُلَ النَّارَ ويُعانيَ عَذابَها ويَخلُدَ فيها.

{وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً} (مريم : ٧١)

٧١- وما مِنْ أحَدٍ منكمْ إلاّ ويَرِدُ على النَّار، البَرُّ والفاجِرُ، وكانَ ورُودُكمْ عَليها أمرًا واجِبًا، قضَاهُ اللهُ عَليكم.

وورُودُ المؤمنينَ على جهنَّمَ هوَ المرورُ على الصِّراط، الذي يَكونُ على مَتنِها، مثلَ حَدِّ السَّيف، فيرَونَ جهنَّمَ ولَهيبَها وهيَ تَكادُ أنْ تتميَّزَ منَ الغَيظ، ويُقذَفَ بالكافِرينَ فيها... فورُودُ المتَّقينَ غَيرُ ورُودُ الظَّالِمينَ عَليها.

{ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً} (مريم : ٧٢)

٧٢- وعندَ مُرورِ الخلائقُ على النَّار، نُنَجِّي المؤمِنينَ الذينَ لم يُشــرِكوا بربِّهِمْ منها، ونَترُكُ فيها المشرِكينَ جاثينَ فيها على رُكَبِهم، فقدْ أُلْقُوا فيها على هَيئاتِهِمْ عِندَما كانوا حَولَ جَهنَّم.

{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً} (مريم : ٧٣)

٧٣- وإذا قُرِئتْ على المشـــرِكينَ آياتُنا مِنَ القُرآن، الظَّاهِرَةُ في إعجازِها، المحْكَمَةُ في مَعناها ودَلالتِها، قالوا للمؤمِنين: أيُّ الفَريقَينِ مِنَّا ومِنكمْ أفضَلُ مَنزِلَةً ومَكانَة، وأحسَنُ ناديًا ومَجلِسًا؟ وكانَ المسـلِمونَ في مَكَّةَ أكثَرُهمْ مِنَ الضَّـعَفَة، ويَسـتَتِرونَ في دارِ الأرقَم، والمشـرِكونَ رؤسـاءُ القَوم، وعدَدُهمْ أكثَر، ومَجالِسُـهمْ أكبَر، حيثُ يُلقَى فيها الشِّـعر، وتُدارُ فيها الخَمر، فقالوا - مُحتَجِّينَ بذلكَ - إنَّهُمُ الأفضَلُ إذاً!

{وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً} (مريم : ٧٤)

٧٤- ولكنْ ليَتفَكَّروا ويَتدَبَّروا، ولا يَنظُروا إلى العَدَدِ والمنزِلَةِ الدُّنيَويَّة، فكمْ أهلَكنا مِنَ الأُمَمِ السَّـابِقَةِ بسَـبَبِ ضَـلالِهِمْ وتَكذيبِهمْ أنبياءَهم، وكانوا أكثرَ مَتاعًا وأموالًا، وأحسـنَ مَنظَرًا وشَكلاً.

{قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّــلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً} (مريم : ٧٥)

٧٥- قُلْ للمُشــــرِكِينَ أيُّها النبيّ: مَنْ كانَ مِنَّا ومِنكمْ على البَاطِلِ، فليُبْقِهِ اللهُ على ذلك، وليُمهِلْهُ حتَّى يأتيَهُ أجَلُه. حتَّى إذا جاءَهمْ ما وُعِدوا به، إمَّا بقَتلِهمْ وأسرِهمْ عندَ غَلبَةِ المسلِمينَ عَليهم، أو بقيامِ السَّاعَةِ ودخولِهِمُ النَّار، فسيَعلَمونَ عندَ ذلكَ مَنْ هوَ شَرٌّ مَكانَةً ومَنزِلَة، وأقَلُّ أنصَارًا وأعوَانًا، المؤمِنونَ أمِ الكافِرون؟

{وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّــــالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً} (مريم : ٧٦)

٧٦- ويَزيدُ اللهُ المؤمِنينَ المهتَدينَ بهَدي اللهِ إيمانًا ويقينًا، والطَّاعاتُ والأعمالُ الصَّـــالِحَةُ خَيرٌ عندَ اللهِ جَزاء، فتَبقَى فوائدُها وتَدومُ عَوائدُها، وخَيرٌ عاقِبَةً ومَرجِعًا على صَـــاحِبِها، فنَتيجَتُها النَّعيمُ المقيم، ورِضاءُ ربِّ العَالَمين.

{أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً} (مريم : ٧٧)

٧٧- أرأيتَ ذلكَ المشــرِكَ الذي كفَرَ بآياتِنا وأدِلَّتِنا، ومنها إعادَةُ بَعثِ الأمواتِ للحِســـابِ والجَزاء، وقالَ لمسلِمٍ مُستَهزِئًا: سأُعطَى في الآخِرَةِ أموالاً وأولادًا؟

وكانَ لخَبّابٍ رَضِــيَ اللهُ عنهُ دَيْنٌ على العاصِ بنِ وائل، فجاءَ إليهِ يَطلبُ منهُ دَيْنَهُ، فقالَ له: لا أُعطِيكَ حتَّى تَكفُرَ بمُحمَّدٍ (صـلى الله عليه وسـلم)، فرَدَّ عَليه: لا أكفُرُ حتَّى يُميتَكَ اللهُ ثمَّ تُبْعَث، فقال: دَعني حتَّى أموتَ وأُبْعَث، فسَـــأُوتَى مالاً ووَلَدًا، فأقضِـــيَك. والخَبَرُ في الصَّحيحَين.

{أَاطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً} (مريم : ٧٨)

٧٨- فهَلْ نظرَ هذا الكافِرُ في الغَيبِ ورَأى أنَّهُ في الجَنَّة، أمْ أنَّهُ شَـهِدَ أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ فيَرجو بذلكَ جَنَّتَه؟

{كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً} (مريم : ٧٩)

٧٩- كَلاّ، ما أبعدَ ما قال، وما أبعَدَهُ عنِ التَّوحِيد، وسَنحفَظُ عندَنا قَولَهُ هذا، لنَجزِيَهُ بهِ يَومَ الحِساب، ونُطيلَ مُدَّةَ عَذابِه، أو نَزيدَهُ عَذابًا فَوقَ العَذاب، بدلَ ما ادَّعَى لنَفسِهِ مِنْ إمدادِهِ بالمالِ والوَلَد.

{وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً} (مريم : ٨٠)

٨٠- ونَسلُبُ منهُ ما قالَهُ مِنْ مَالٍ ووَلَدٍ ونُهلِكُه، ويأتينا يَومَ القِيامَةِ بنَفسِه، لا يَصحَبُهُ أحَد، فَضلاً عنْ أنْ يُؤتَى زيادَةً عمَّا قال.

{وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً} (مريم : ٨١)

٨١- واتَّخذَ الكافِرونَ الأصْنامَ أو غَيرَها منَ المعبوداتِ آلِهَةً يَعبُدونَها مِنْ دونِ الله، ليَعتَزُّوا بها ويَستَنصِروها ويَستَشفِعوا بها لتَمنعَهمْ مِنَ العَذاب.

{كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً} (مريم : ٨٢)

٨٢- كَلاّ، ما أبعدَ عمَلَهمْ هذا عنِ الحقِّ والصَّواب، فسَيأتي اليَومُ الذي يَجحَدُ فيهِ الآلِهَةُ عِبادَةَ الكافِرينَ إيّاهم، بلْ كانوا يَعبدونَ أهواءَهم، فيَتبَرَّؤونَ منهمْ وممّا اختارُوهُ مِنَ الكُفر، وعَمِلوهُ مِنَ المعاصي، هوًى منهم، ويَكونونَ أعداءً لهمْ وسبَبًا لذُلِّهِمْ وهَوانِهم، خِلافَ ما رجَوا منهمْ منَ العِزِّ والعَون.

{أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً} (مريم : ٨٣)

٨٣- ألَمْ تَنظُرْ كيفَ جعَلنا الشَّياطينَ قُرَناءَ للكافِرينَ ومَكَّنّاهمْ مِنْ إضلالِهم، فيُغرونَهمْ ويَحُثُّونَهمْ على المعاصي والمحَرَّمات؟

{فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً} (مريم : ٨٤)

٨٤- فلا تَعجَلْ على الكافِرينَ بالهَلاكِ والعَذابِ أيُّها النبيّ، لتَكذيبِهمْ إيّاكَ وإعْراضِهمْ عنْ رِسالَةِ رَبّك، فإنَّما نؤخِّرُهمْ ونُمهِلُهمْ لأَجَلٍ مَعدود، نُحصيهِ لهمْ مُدَّةً ثمَّ يَهلِكون.

{يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً} (مريم : ٨٥)

٨٥- ويَومَ القِيامَةِ نَحشُرُ المؤمِنينَ المتَّقين[٧٧]، مُعَزَّزينَ مُكَرَّمين، إلى رَبِّهِمْ وفُودًا راكِبين، مُنتَظِرينَ إنعامَهُ وتَكريمَهُ لهم.

{وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً} (مريم : ٨٦)

٨٦- ونَسوقُ الكفَرَةَ المكَذِّبينَ إلى جهنَّمَ مُشاةً عِطاشًا، كما تُساقُ الإبِلُ إلى الماءِ وهيَ عَطشَى.

{لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً} (مريم : ٨٧)

٨٧- ليسَ هُناكَ مَنْ يَشفَعُ لهمْ كما يَشفَعُ المؤمِنونَ بعَضُهمْ لبَعضٍ بإذنِ رَبِّهم، ومَنِ اتَّخذَ عندَ اللهِ عَهدًا يَستأهِلُ معَهُ أنْ يَشفَعَ شَفَع، وهوَ شَهادَةُ أنْ لا إلهَ إلاّ الله، والقِيامُ بحَقِّها.

{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً} (مريم : ٨٨)

٨٨- وقالَ المشرِكون: لقدِ اتَّخذَ اللهُ ولَدًا، فهوَ مِثْلُهُ إله، وصَاروا يَعبدونَ الولَدَ الإله - بزَعمِهمْ - كما فعَلَتِ النَّصارَى ذلكَ في عيسَى، واليَهودُ في عُزَير، والمشرِكونَ قالوا: الملائكَةُ بَناتُ الله! تعالَى اللهُ وتقدَّسَ عمَّا افترَوهُ عُلوًّا عَظيمًا.

{لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً} (مريم : ٨٩)

٨٩- لقدْ جِئتُمْ بافتِرائكمْ وقَولِكمُ الباطِلِ هذا أمرًا مُنكَرًا شَديدَ النَّكارَةِ والإثم.

---

(٧٧) الذين اتقوا في الدنيا فخافوا عقابَه، فاجتنبوا لذلك معاصيَه، وأدَّوا فرائضَه. (الطبري).

{تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً} (مريم : ٩٠)

٩٠- تكادُ السَّماواتُ أنْ تَنشَقَّ عندَ سَماعِ هذا القَولِ المنكَرِ مِنْ فجَرَةِ بني آدَم، وأنْ تتَصَدَّعَ الأرض، وأنْ تَسقُطَ الجِبالُ وتَنهَدَّ، غضَبًا للهِ عَزَّ وجَلَّ، وهَيبَةً وخَوفًا منه،

{أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً} (مريم : ٩١)

٩١- منْ أجْلِ أنْ نسَبوا للرَّحمنِ ولَدًا.

{وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً} (مريم : ٩٢)

٩٢- ولا يَصلُحُ ولا يَليقُ بجَلالِ اللهِ وعظَمَتِهِ أنْ يَتَّخِذَ ولَدًا، ولا يُوصَفُ بذلكَ أبدًا، فالكُلُّ مَملوكٌ له، ولا كُفْءَ له.

{إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً} (مريم : ٩٣)

٩٣- وكُلُّ مَنْ في السَّماواتِ والأرض، مِنَ الإنسِ والجِنِّ والملائكةِ عَبيدٌ للهِ وتحتَ تَصَرُّفِه، ويأتونَ إلى محَلِّ حُكمِهِ في أرْضِ المحشَرِ بأمرِه، في خُضوعٍ وذُلٍّ واستِكانَة.

{لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً} (مريم : ٩٤)

٩٤- وقدْ عَلِمَ اللهُ عدَدَهم، وعَدَّ أنفاسَهم، وأحصَى أيَّامَهم، وأحاطَ بأعمالِهِمْ وأقوالِهِم، فلا يَخفَى عَليهِ شَيء، ولا يَخرُجُ منْ تحتِ سَيطرَتِهِ أحَد.

{وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً} (مريم : ٩٥)

٩٥- وجَميعُهمْ يأتيهِ يَومَ القيامَةِ وَحيدًا مُنفَرِدًا، مُنقَطِعًا مِنَ الأتْباعِ والأنصَارِ والأموَال، وكُلُّهمْ يَستَجيرونَ باللهِ ويَحتاجونَ إلى رَحمَتِه، فكيفَ يَتَّخِذُ منهمْ ولَدًا، ولا يُجانِسُهُ ولا يُناسِبُهُ منهمْ أحَد؟! سُبحانَهُ وتَعالَى.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً} (مريم : ٩٦)

٩٦- إنَّ الذينَ آمَنوا وصَدَقوا في إيمانِهم، وقرَنوهُ بالأعمالِ الموافِقَةِ للشَّريعَة، المرضِيَّةِ عندَ رَبِّهم، سَيَجعَلُ اللهُ لهمْ مَوَدَّة، فيُحِبُّهم، ويَغرِسُ في قُلوبِ عِبادِهِ الصَّالِحِينَ حُبَّهم.

وفي حَديثٍ رَواهُ التِّرمذِيُّ وصَحَّحَه، قَولُهُ صلى الله عليه وسلم: "إذا أحَبَّ اللهُ عَبدًا نادَى جِبريلَ: إنِّي قدْ أحبَبْتُ فُلانًا فأَحِبَّهُ". قال: "فيُنادِي في السَّماء، ثمَّ تَنزِلُ لهُ المحبَّةُ في أهلِ الأرض، فذلكَ قَولُ الله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً}. وإذا أبغَضَ اللهُ عَبدًا نادَى جِبريلَ: إنِّي أبغَضْتُ فُلانًا. فيُنادِي في السَّماء، ثمَّ تَنزِلُ لهُ البَغضاءُ في الأرض".

قالَ الحافِظُ ابنُ حجَرٍ في الفَتح: يُؤخَذُ منهُ أنَّ مَحَبَّةَ قُلوبِ النَّاسِ عَلامَةُ مَحَبَّةِ الله.

والمرادُ بمَحَبَّتِهِ سُبحانَه، إرادَةُ الخَيرِ للعَبد، وحصُولُ الثَّوابِ له.

وبمحَبَّةِ الملائكة: استِغفارُهمْ له، وإرادَتُهُمْ خَيرَ الدَّارَينِ له، ومَيلُ قُلوبِهِمْ إليه، لكَونهِ مُطيعًا لله، مُحِبًّا له.

ومحبَّةُ العِباد: اعتِقادُهمْ فيهِ الخَير، وإرادَتُهُمْ دَفعَ الشَّرِّ عَنهُ ما أمكَن. قلت: والدُّعاءُ لهُ في ظَهرِ الغَيب.

{فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً} (مريم : ٩٧)

٩٧- وإنَّما سَهَّلْنا القُرآنَ بلُغَتِكَ أيُّها النبيّ، وهيَ اللُّغَةُ العَرَبيَّةُ الفَصيحَةُ البَيِّنَة، لتُبَشِّرَ بهِ المؤمِنين، المستَجيبِينَ لنِداءِ اللهِ ورَسولِه، وتُخَوِّفَ بِهِ قَومًا مُعانِدينَ مُخاصِمين، معوَجِّينَ عنِ الحَقّ، مائلينَ بهِ إلى الباطِل.

{وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً} (مريم: ٩٨)

٩٨- وقدْ أهلَكنا قَبلَهمْ أُمَمًا كثيرين، ممَّنْ كفَروا بآياتِ اللهِ وكَذَّبوا رسُلَه، فلا ترَى منهمْ أحدًا، ولا تَسمَعُ لأحَدِهمْ صَوتًا.

سورة طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{طه} (طه : ١)

١- الحروفُ المقَطَّعَةُ لم يَرِدْ في مَعناها حديثٌ صَحيح، وقدْ ذهبَ كثيرٌ منْ أعلامِ التفسيرِ إلى أنَّ معناها هُنا: يا رَجُل.

{مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} (طه : ٢)

٢- ما أنزَلنا هذا القُرآنَ عَليكَ لتَتعَبَ وتَتكبَّدَ الشَّـدائدَ في مُحاوَرَةِ المشـرِكينَ وتَحسَّـرَ على كُفرِهم.

{إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى} (طه : ٣)

٣- ولكنْ لتُبَلِّغَ آياتِه، وتُذَكِّرَ بها مَنْ يَخشَى اللهَ ويتأثَّرُ لسَماعِها ويَنتَفِعُ بها.

{تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى} (طه : ٤)

٤- إنَّهُ تَنزيلٌ مِنَ الخالِقِ العَظيم، الذي خلَقَ الأرضَ وما فيها، والسَّـماواتِ السَّـبعَ العَظيمَة، وهما أكبَرُ إعجازًا مِنْ خَلقِ الإنسـانِ {لَخَلْقُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [سورة غافِر: ٥٧].

{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} (طه : ٥)

٥- اللهُ جَلَّ جَلالُهُ ذو الرَّحمَةِ العَظيمَةِ الدَّائمَة، استوَى على العَرش، استِواءً يَليقُ بجلالِه.

{لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى} (طه : ٦)

٦- وجَميعُ ما في السَّـــماواتِ والأرْض، وما بَينَهما مِنَ الموجُودات، وما تحتَ الأرْض، مُلكُه، وتحتَ تَصَرُّفِهِ ومَشيئتِهِ وحُكمِه، فهوَ خالِقُها ومالِكُها، يتَصَرَّفُ فيها بالإيجادِ والتَدبيرِ والإعدامِ كما يَشاء، لا يُشارِكُهُ في ذلكَ أحَد.

{وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} (طه : ٧)

٧- وإنْ تَرفَعْ صَـــوتَكَ أيُّها الإنسَـــانُ فإنَّهُ يَعلَمُه، ويَعلَمُ ما أســـرَرتَ إلى غَيرِكَ ولم تَرفَعْ بهِ صَوتَك، بلْ أخفَى مِنْ ذلك، كالَّذي تُسِرُّهُ في نَفسِك، أو خاطِرٍ يَمرُّ ببالِك.

{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى} (طه : ٨)

٨- هوَ اللهُ الذي لا إلهَ غَيرُه، فلا مَعبودَ بحَقٍّ سِواه، له أحسنُ الأسماءِ وأجلُّها.

وفي الصَّـحيحَينِ وغَيرِهما قَولُهُ صـلى الله عليه وسـلم: "إنَّ للهِ تِسـعَةً وتِسـعينَ اسمًا، مائةً إلاّ واحِدًا، مَنْ أحصـــاها دخلَ الجَنَّة". واللهُ تَعالَى يُدْعَى بأسمائهِ كُلِّها {وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْـــنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [سورة الأعراف: ١٨٠].

{وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى} (طه : ٩)

٩- وهَلْ أتاكَ خبَرُ نبيِّ اللهِ موسَى أيُّها الرَّسُول؟

{إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْـــتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى} (طه : ١٠)

١٠- إذْ ظَهرَ لهُ نارٌ - في طَريقِ رُجوعِهِ مِنْ مَدينَ إلى مِصـــرَ - مِنْ جانبِ الطُّور، فقالَ لأهلِهِ: أقيمُوا مَكانَكم، إنِّي أبصَـرتُ نارًا، لعَلِّي أجيئُكمْ منها بشُـعلَةٍ لتتدَفَّؤوا، أو أجِدُ هُناكَ مَنْ يَدلُّني على الطَّريق. وكانوا قدْ ضَلُّوا طَريقَهم.

{فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى} (طه : ١١)

١١-فلمّا أتَى النَّارَ نُودِيَ: يا موسَى،

{إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى} (طه : ١٢)

١٢-إنِّي أنا رَبُّكَ هذا الذي يُكَلِّمُكَ، فانزَعْ نَعلَيك، إنَّكَ بوادي طُوَى المقَدَّس في طُورِ سَيناء.

{وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى} (طه : ١٣)

١٣-وأنا اصطَفَيتُكَ مِنْ بينِ النَّاسِ للنبوَّةِ والرِّسالَة، فاستَمِعْ لِما أقولُهُ لك.

{إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} (طه : ١٤)

١٤- إنَّني أنا اللهُ، ذو الأُلوهيَّةِ والمعبوديَّةِ على خَلْقِهِ أجمَعين، لا إلهَ إلاّ أنا، الواحِدُ الأحَد، المستَحِقُّ للعِبادَةِ وَحدي، فاعْبُدْني ووَحِّدْني ولا تَعبُدْ غَيري، وأقِمِ الصَّلاةَ لتَذكُرَني فيها.

{إِنَّ السَّاعَةَ ءاَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى} (طه : ١٥)

١٥- إنَّ القِيامَةَ كائنَةٌ وآتيَةٌ لا مَحالَة، أكادُ أُخفِيها مِنْ نَفسي، فلا يُتَصَوَّرُ أنْ أُطْلِعُ عَليها غَيري. (ومِنْ عادَةِ العَرَبِ إذا بالَغوا في كِتْمانِ الشَّيءِ أنْ يَقولوا: كتَمْتُهُ حتَّى مِنْ نَفسي، أي: لم أُطْلِعْ عَليهِ غَيري). وليَكونَ النَّاسُ على أُهبَةٍ وحَذَر، ولأجزِيَ كُلَّ عامِلٍ بما عَمِل.

{فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى} (طه : ١٦)

١٦- فلا يَصرِفَنَّكَ عنْ ذِكرِها ومُراقبَتِها مَنْ كذَّبَ بالسَّاعَةِ واتَّبَعَ أهواءَهُ وشَهواتِهِ الدُّنيَويَّة، فتَخسَرَ بذلكَ وتَهلِك.

{وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى} (طه : ١٧)

١٧- وما تلكَ التي بيَمينِكَ يا موسَى؟

قيلَ لهُ ذلكَ لإيقاظِهِ وتَنبيهِهِ إلى ما سيَكونُ مِنْ شأنِها.

{قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى} (طه : ١٨)

١٨- قالَ موسَى عَليهِ السَّلام: هيَ عَصاي، أعتَمِدُ عَليها عندَما أمشي، وأضرِبُ بها أوراقَ الشَّجَرِ لتَسقُطَ فتأكُلَها غنَمي، وليَ فيها حاجاتٌ ومَنافِعُ أخرَى.

{قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى} (طه : ١٩)

١٩- قالَ لهُ رَبُّه: ألْقِ تِلكَ العَصا مِنْ يَمينِكَ يا موسَى.

{فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى} (طه : ٢٠)

٢٠- فألقاها على الأرض، فإذا بها تحوَّلَتْ إلى حيَّةٍ عَظيمَةٍ تَمشي.

{قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى} (طه : ٢١)

٢١- قالَ لهُ رَبُّه: خُذِ الحَيَّةَ بيَمينِكَ ولا تَخَفْ منها، سـنُعيدُها بعدَ أخذِكَ لها إلى حالَتِها الأُولَى.

{وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى} (طه : ٢٢)

٢٢- وضَـعْ يَدَكَ تحتَ إبطِكَ وأخرِجْها تَرَها بيضـاءَ مُشـرِقَةً تَتلألأ، مِنْ غَيرِ مَرَضٍ ولا آفَة، وهذهِ مُعجِزَةٌ أخرَى على صِدقِ نبوَّتِك.

{لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى} (طه : ٢٣)

٢٣- لنُريَكَ بذلكَ بعضَ آياتِنا الكَبيرة.

{اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} (طه : ٢٤)

٢٤- اذهَبْ إلى فِرعَونَ مَلِكِ مِصـرَ بهذهِ المعجِزات، فإنَّهُ قدْ ظلمَ وبغَى وتجاوزَ الحَدّ، حتَّى ادَّعَى الرُّبوبيَّة، وادعُهُ إلى عِبادَتي.

{قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي} (طه : ٢٥)

٢٥- قالَ موسَــى داعيًا رَبَّه: اللهمَّ وسَّــعْ صَــدْري، وألهِمني الصَّــبر، وجَمَّلني بالحِلم، وثَبِّتني بالحُسنَى.

{وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي} (طه : ٢٦)

٢٦- وسَهِّلْ عليَّ ما أمَرتَني به، لأتحمَّلَ مشاقَّ الدَّعوَة، وأؤدِّيَها كما تُحِبّ.

{وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي} (طه : ٢٧)

٢٧- وفُكَّ حُبْسَةً مِنْ لِساني. وكانتْ في لِسانِهِ عُقدَةٌ، عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلام.

{يَفْقَهُوا قَوْلِي} (طه : ٢٨)

٢٨- ليَفهَموا بذلكَ كلامي.

{وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي} (طه : ٢٩)

٢٩- واجعَلْ لي مُساعِدًا مِنْ أهلي، يَتحمَّلْ مَعي أعباءَ الدَّعوَة.

{هَارُونَ أَخِي} (طه : ٣٠)

٣٠- وهوَ هارُونُ أخي. وكانَ أكبرَ مِنْ موسَى، وأفصحَ منهُ لِسانًا.

{اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي} (طه : ٣١)

٣١- قَوِّ بِهِ ظَهري، وأحكِمْ بهِ عَزيمَتي.

{وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي} (طه : ٣٢)

٣٢- وأشْرِكْهُ في الرِّسالَةِ والتَّبليغ.

{كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً} (طه : ٣٣)

٣٣- كي نوَحِّدَكَ ونُقَدِّسَكَ كثيرًا.

{وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً} (طه : ٣٤)

٣٤- ونَذكُرَكَ كثيرًا، بدَعوتِنا النَّاس، وأدائنا الرِّسالَة، وبطاعَتِكَ وعِبادَتِك.

{إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً} (طه : ٣٥)

٣٥- إنَّكَ كُنتَ عالِمًا بأحوالِنا وضَـــعفِنا، وبعِظَمِ ما دعَوتَنا إليه، وإنَّهُ لا تَوفيقَ إلاّ بك، ولا تأييدَ إلاّ منك.

{قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى} (طه : ٣٦)

٣٦- قالَ اللهُ تعالَى لنَبيِّهِ موسَى: قدْ أُعطِيتَ جَميعَ ما سألتَهُ يا موسَى.

{وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى} (طه : ٣٧)

٣٧- وقدْ أنعَمنا عَليكَ بنعَمٍ سابِقةٍ غيرِ هذهِ التي أُجِبتَ إليها.

{إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى} (طه : ٣٨)

٣٨- إذْ ألهَمنا أمَّكَ ما ألهَمناها بهِ وأنتَ رَضيع،

{أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّـــاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} (طه : ٣٩)

٣٩- أنْ ضَعي ولدَكِ في صُندوق، ثمَّ اطْرَحيهِ في نَهرِ النِّيل، وأمَرنا النَّهرَ بإلقائهِ إلى الشَّـاطِئ، ليَأخُذَهُ - مِنْ بَعدُ - عَدوِّي وعَدوُّهُ فِرعَون، حيثُ وقفَ بهِ النَّهرُ عندَ قَصـرِه. وجعَلتُ النَّاسَ يُحِبُّونَكَ، حتَّى عدوَّك. ولِتتَربَّى بمَرآيَ وحِفظي ورِعايَتي، فلا يَضرُّكَ أحَد.

وكانَ فِرعَونُ يَقتَلُ كُلَّ غُلامٍ يُولَدُ في بَني إسْرائيل، فأرادَ اللهُ تعالَى لنَبيِّهِ موسَى عليهِ السَّلامُ أنْ يَترَبَّى في بَيتِه، ويُحِبَّه، ولِتَكونَ عاقِبَتُهُ كما يأتي!

{إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى} (طه : ٤٠)

٤٠- إِذْ تَمشي أختُكَ لتتعرَّفَ خبرَك، فتقولُ لفِرعَونَ وأهلِه: هلْ أدُلُّكمْ على امرَأةٍ تُرضِعُهُ وتُربِّيهِ بالأُجرَة؟ وكانَ اللهُ تعالَى قدْ حرَّمَ عليهِ المراضِع، فلمْ يَكنْ يَقبَلُ ثَديَ امرأة.

فرجَعناكَ إلى أُمِّكَ لتَقَرَّ عَينُها بلِقائك، ولا تَحزَنَ على فِراقِك.

وقتَلْتَ ذلكَ القِبطِيَّ الكافِر- وكانَ يَنوي دَفعَهُ لا قَتْلَهُ - وأخذَكَ الهَمُّ والغَمّ، فخَلَّصْناكَ منه. وكانَ فِرعَونُ عزَمَ على قَتلِ موسَى، ففَرَّ هارِبًا إلى مَديَن.

وابتَلَيناكَ ابتِلاءً، فهرَبتَ مِنَ الخَوف، وامتُحِنتَ بالغُربَة، والخِدْمَةِ ورَعي الغَنَم، فبَقيتَ في مَديَنَ سنَوات، حتَّى انقضَى الأجَل، فجِئتَ إلى المكانِ الذي نادَيناكَ فيه، مُوافِقًا لقَدَرِ الله.

{وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي} (طه : ٤١)

٤١- وقدِ اصطَفَيتُكَ رَسولاً لنَفسي إلى خَلقِي، وجعَلتُكَ القائمَ بحُجَّتي.

{اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي} (طه : ٤٢)

٤٢- اذهَبْ أنتَ وأخوكَ هارونُ بآياتي ومُعجِزاتي، ولا تَضْعُفا في ذِكري والدَّعوَةِ إلى عِبادَتي.

{اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} (طه : ٤٣)

٤٣- اذهَبا إلى فِرعَونَ فقدْ تجَبَّرَ وعصَى، حتَّى قالَ أنا رَبُّكمُ الأعلى!

{فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} (طه : ٤٤)

٤٤- وارفُقا بهِ عندَما تَدعُوانِه، خاطِباهُ باللُّطفِ واللِّينِ ولا تُعَنِّفاه، ليَكونَ ذلكَ أوقعَ في نَفسِه، وأكثرَ قَبولاً لدَيه، ولعلَّهُ بذلكَ يتأمَّلُ ويَتدبَّر، أو يَخافُ منَ اللهِ ويَحذَرُ عِقابَه.

{قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى} (طه : ٤٥)

٤٥- قالَ موسَــى وهارونُ عليهما السَّــلام: ربَّنا إنَّنا نَخافُ أنْ يُعَجِّلَ عَلينا بالعُقوبَةِ قَبلَ أنْ نُرِيَهُ المعجِزات، أو أنْ يَزدادَ بذلكَ استِكبارًا وعِنادًا، ويَتجاوزَ الحَدَّ في الإسَاءَةِ إلَينا.

{قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} (طه : ٤٦)

٤٦- قـالَ اللهُ لهمـا: اطْمَئنَّا ولا تَخافا منه، إنَّني معَكمـا بحِفظي وتأييـدي، أسمَعُ كلامَكمـا وكلامَه، وأرَى ما يُرادُ بكُما، والأمرُ بيَدي، فلا تَهتمّا.

{فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى} (طه : ٤٧)

٤٧-فاذهَبا إليهِ وقُولا له: إنَّا رَســولانِ مِنْ قِبَلِ رَبِّكَ إلَيك، فأطلِقْ بَني إسْــرائيلَ ممّا أوجَبْتَهُ عَليهم، ولا تُبْقِهِمْ تحتَ العَذاب. وكـانوا يُكَلِّفونَهُمْ بالأعمـالِ الشَّـــاقَّة، ويَقتُلونَ أبنـاءَهم، ويَستَخدِمونَ نِساءَهم.

وقدْ أتَيناكَ بمُعجِزَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَدُلُّ على صِــحَّةِ رِســالَتِنا إليك، ولكَ السَّــلامَةُ منَ العَذابِ إذا اتَّبَعتَ الحقّ، وصدَّقْتَ بالمعجِزة.

{إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى} (طه : ٤٨)

٤٨- وقَدْ أوحَى اللهُ إلَينا أنَّ عَذابَهُ يُصيبُ مَنْ كذَّبَ رسُلَهُ وأعرضَ عنْ آياتِه.

{قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى} (طه : ٤٩)

٤٩- قالَ لهما فِرعَونُ مُنكِرًا أنْ يَكونَ هُناكَ رَبٌّ غَيرُه: فمَنْ هوَ رَبُّكما الذي أرسَلَكما إليَّ يا موسَى، فإنّي لا أعرِفُه؟

{قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} (طه : ٥٠)

٥٠- قالَ لهُ موسَــى عَليهِ السَّــلام: رَبُّنا الذي أعطَى كُلَّ شَــيءٍ ما يَنبَغي لهُ وما يُصــلِحُهُ ويُوافِقُه، على الوَجهِ اللاّئقِ بهِ شَكلاً ومَضموناً، وهيَّأهُ لوَظيفَتِهِ التي يَقومُ بها في الحَياة.

{قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى} (طه : ٥١)

٥١- قالَ لهُ فِرعَون: فما حالُ القُرونِ السَّابِقَةِ والأُمَمِ الكثيرَةِ الماضِية، وماذا يَكونُ شأنُها وقدْ هلَكَت، ولماذا لم تُحاسَب؟

{قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى} (طه : ٥٢)

٥٢- قالَ موسَى عَليهِ السَّلام: هذا مِنَ الغُيوبِ التي لا يَعلَمُها إلاّ الله، وإنَّ عمَلَهمْ مَضبُوطٌ عَليهمْ ومُسَـجَّلٌ عندَ اللهِ في اللَّوحِ المحفوظ، إنَّ رَبِّي لا يُخطِئُ ولا يَفوتُهُ أمْر، ولا يَنسَـى شَـيئًا ممّا جرَى ويَجري، صَغيرًا كانَ أو كبيرًا، وسَوفَ يُحاسِبُهمْ ويَجزيهمْ على أعمالِهمْ كُلِّها يَومَ القيامَةِ بما يَستَحِقُّون.

{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى} (طه : ٥٣)

٥٣- اللهُ الذي بسَـطَ لكمُ الأرضَ ومَهَّدَها لتَسـتَقِرُّوا عَليها، وجعلَ لكمْ فيها طُرُقًا ومَسـالِكَ بينَ الأودِيَةِ والجِبالِ لتتنَقَّلوا مِنْ خِلالِها بينَ الأقطارِ والبُلدان، وأنزلَ لكمْ مِنَ السَّــحابِ مطَرًا، فأخرَجَ بالماءِ أصنافًا وألوانًا مِنْ نَباتاتٍ وثِمارٍ كَثيرَة، مُختَلِفَةٍ في الطَّعمِ واللَّون، والرَّائحَةِ والشَّكل.

{كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى} (طه : ٥٤)

٥٤- فكُلوا منها ما يَصلُحُ لأبدانِكم، وارعَوا فيها أنعامَكمْ[٧٨] لتَسرَحَ وتُنتِجَ ما يَنفَعُكم، وفي ذلكَ آياتٌ وأدِلَّةٌ على وحدانيَّةِ اللهِ وقُدرَتِهِ وعظَمتِه، لأصحَابِ العُقولِ المتَدَبِّرَةِ المستَقيمَة.

---

(٧٨) هي الإبِلُ والبقرُ والغنمُ والمعْز.

{مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} (طه : ٥٥)

٥٥- مِنْ هذهِ الأرضِ أصــــلُكمْ ومَبدَؤكم، وفيها تُدفَنونَ إذا مُتُّم، ومنها نُخرِجُكمْ أحياءً مرَّةً أخرَى للبَعثِ والحِساب.

{وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى} (طه : ٥٦)

٥٦- ولقدْ أبصَــرْنا فِرعَونَ وعَرَّفناهُ آياتِنا ومُعجِزاتِنا بتفاصــيلِها، ولكنَّهُ كذَّبَ بها اســتِكبارًا وعِنادًا، وأبَى أنْ يؤمِن.

{قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى} (طه : ٥٧)

٥٧- وقالَ فِرعَونُ لموسَى بعدَ أنْ رأى آيَةَ العَصا، مُتَّهِمًا إيَّاهُ بالسِّحر: أجِئتَنا مِنْ مَدْيَنَ بعدَ طولِ غيابِكَ لتَسحَرَنا وتَجمعَ النَّاسَ عَلينا وتَطرُدَنا مِنْ أرضِنا ويَبقَى الأمرُ لكَ ولبَني إسْرائيل؟

{فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَاناً سُوًى} (طه : ٥٨)

٥٨- فسَوفَ نأتيكَ بسِحرٍ مِنْ مثلِ سِحْرِك، فحَدِّدْ مَوعِدًا يَكونُ بينَنا وبينَك، لا نتخَلَّفُ عنهُ نحنُ ولا أنْت، في مَكانٍ مُعَيَّن، يَكونُ مُستَويًا، لا يَحجُبُ أحَدًا عنْ مُشاهَدَةِ ما يَجري.

{قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى} (طه : ٥٩)

٥٩- قالَ موسَى عليهِ السَّلامُ لفِرعَونَ وجَماعَتِه: الموعِدُ الذي بينَنا هوَ يَومُ الزِّينَة - وكانَ يَومَ عِيدِهِمْ - وأنْ يَجتَمِعَ النَّاسُ في وَقتِ الضُّحَى.

{فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى} (طه : ٦٠)

٦٠- ومضَى فِرعَونُ يُدَبِّرُ الأمرَ ويُخَطِّطُ ليَغلِبَ موسَى عليهِ السَّلام، فجمَعَ السَّحرَةَ الكِبارَ مِنْ أنحَاءِ مِصر، وكانتْ سُوقُهمْ رائجَةً في ذلكَ الوَقت، ثمَّ أتَى إلى الميدانِ في وَقتِه.

{قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى} (طه : ٦١)

٦١- وقالَ موسَى للسَّحرَةِ يَعِظُهمْ ويُخَوِّفُهم، ويُبَيِّنُ لهمْ عاقِبَةَ الكذِبِ والحيلَةِ لعلَّهمْ يَهتَدون: ويَلَكم، لا تَكذِبوا على الله، ولا تُخيِّلوا للنَّاسِ أشياءَ وَهميَّةً وتدَّعوا أنَّها حَقيقَةٌ وهيَ ليسَتْ كذلك، فإذا فعَلتُمْ ذلكَ عَذَّبَكمُ اللهُ عَذابًا مُهلِكًا، وقدْ خَسِرَ وخابَ مَنْ كذَبَ على الله، فانظُروا ما تُقْدِمونَ عَليه، فإنَّهُ لا خَلاصَ لكمْ مِنْ عَذابِهِ إذا بارَزْتُموهُ بالكَذبِ عَليه.

{فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى} (طه : ٦٢)

٦٢- فاختلَفَ السَّحَرَةُ وتشاجَروا فيما بينَهمْ بعدَما سَمِعوا كلامَ موسَى عَليهِ السَّلام، وتَشاوَروا في كيفيَّةِ مُغالبَتِه، وتجاذَبوا الحَديثَ سِرًّا فيما بينَهم.

{قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى} (طه : ٦٣)

٦٣- وانتَهَوا إلى قَولِهم: هذانِ الرَّجُلانِ ساحِرانِ ماهِرانِ في صِناعَةِ السِّحر، يُريدانِ أنْ يَستَوليا على أرْضِ مِصرَ بسِحرِهما، فإنَّهما إذا غَلباكمْ تَبِعَتْهما العامَّةُ وقاتَلوا معَهما فِرعَونَ، ويُريدانِ بذلكَ أنْ يَقضِيا على عَقيدَتِكمْ ومَذهَبِكمُ القَويمِ الذي يَقودُهُ أشرافُكم،

{فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى} (طه : ٦٤)

٦٤- فاجتَمِعوا عَليهِما جَميعًا بقوَّتِكمْ وعَزمِكم، وتقَدَّموا صَفًّا واحِدًا، وألْقُوا ما بأَيدِيكمْ معًا، حتَّى تُرهِبوهُما وتُرهِبوا النَّاسَ جَميعًا، وقدْ فازَ اليَومَ مَنْ غلَبَ الآخَر.

{قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى} (طه : ٦٥)

٦٥- قالَ السَّحَرَة: يا موسَى، إمَّا أنْ تُلقِيَ عَصاكَ أوَّلاً، وإمَّا أنْ نُلقِيَ ما بأيدِينا قَبلَك.

{قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} (طه: ٦٦)

٦٦- قالَ لهمْ موسَى مُتحَدِّيًا: بلْ أَلقُوا أنتُمْ أوَّلاً.

فأَلقَوها، فإذا حِبالُهُمْ وعِصِيُّهمْ تَموجُ في السَّاحَة، وخُيِّلَ لموسَى عَليهِ السَّلامُ - لسِحرِهمُ الشَّديدِ - أنَّها تَمشي حَقيقَة، لولا عِلمُهُ بأنَّهُ لا حَقيقَةَ لها.

{فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى} (طه : ٦٧)

٦٧- ولِعِظَمِ هذا السِّحرِ وما جاؤوا به، أسرَّ موسَى في نَفسِهِ خَوفًا، لطَبيعَةٍ بشَريَّة، أو خَشيَةَ أنْ يَفتَتِنَ النَّاسُ بسِحرِهِمْ ويَغتَرُّوا بهِمْ قبلَ أنْ يُلقيَ عَصاه، فيَلتَبِسَ عَليهمُ الأمر، ويَشكُّوا في أمرِه.

{قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى} (طه : ٦٨)

٦٨- فأوحَى اللهُ إلى موسَى: لا تَخَف، وادفَعْ عنْ نَفسِكَ هذا الخاطِر، فأنتَ الغالِبُ عَليهم، ولكَ الظَّفَرُ دونَهم.

{وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} (طه : ٦٩)

٦٩- وأَلقِ عَصاكَ التي في يَمينِكَ على الأرْض، فإنَّها ستَنقَلِبُ إلى حَيَّةٍ عَظيمَةٍ هائلَة، وستَبتَلِعُ كُلَّ ما صنَعوا مِنْ سِحر، وإنَّ ما قامُوا بِهِ هوَ حيلَةُ ساحِر، فهوَ تَمويهٌ وتَخييل، وليسَ حَقيقَة، وما كانَ كَذِبًا وتَلفيقًا لا يُثمِرُ ولا يَنجَح، ولا فَوزَ للسَّاحِرِ ولا نَجاحَ له، كيفَما احتَال، وأينَما ذهَب، فإنَّهُ سيَنكَشِفُ أمرُه، ويَبِيْنُ باطِلُه.

{فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى} (طه : ٧٠)

٧٠- وألقَى موسَى عَصاه، وحدَثَتِ المعجِزَةُ الكبيرَة، فقَدِ ابتَلعَتْ عَصاهُ كُلَّ ما صنَعوا مِنْ سِحر، وعَلِمَ السَّحرَةُ أنَّ هذا شَيءٌ آخَرُ غيرُ فَنِّهِمُ الذي يَعرِفونَهُ جَيِّدًا، ولم يَملِكوا سِوَى الاعتِرافِ بهذهِ الآيَةِ العَظيمَة، فخَرُّوا سُجَّدًا لله، مُؤمنينَ بهِ تائبينَ إليه، وقالوا في خُشوعٍ ورَهبَةٍ سكنَتْ قُلوبَهم: آمَنَّا بِرَبِّ هارونَ وموسَى، وكفَرنا برُبُوبيَّةِ فِرعون.

{قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى} (طه : ٧١)

٧١- قالَ فِرعَونُ للسَّحَرَةِ وقدْ غُلِبَ في كَيدِه، وانقلبَ أنصارُهُ إلى ضِدِّه: أصدَّقتُمْ موسَى قبلَ أنْ أسمَحَ لكمْ بذلك؟ إنَّهُ رَئيسُكمْ ومُعَلِّمُكمُ الذي عَلَّمَكمُ السِّحر، وقدِ اتَّفَقتُمْ معَهُ على ما جرَى لتُظهِروهُ بمَظهَرِ المنتَصِر، وسَوفَ أُجازيكمْ على ذلكَ بأنْ أُقَطِّعَ أياديكمُ اليُمنى معَ أرجُلِكمُ اليُسرَى، ولأُصَلِّبَنَّكمْ على جُذوعِ النَّخلِ لتَموتُوا جُوعًا وعَطَشًا[٧٩]، وستَعلَمونَ بعدَ ذلكَ مَنْ هوَ أقوَى عَذابًا وأدوَمَه: أنا أمْ رَبُّ موسَى، الذي تَدَّعونَ أنَّهُ سيُعَذِّبُ الضَّالِّينَ بعَذابٍ شَديد؟

{قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} (طه : ٧٢)

٧٢- قالَ السَّحَرَةُ وقدْ آمَنوا حَقَّ الإيمان: لنْ نَختارَكَ على ما جاءَنا بهِ موسَى مِنَ الدَّلائلِ والمعجِزاتِ واللهِ الذي خلَقَنا، فأينَ هيَ عِصِيُّنا وحِبالُنا التي مَلأتِ السَّاحَةَ الكبيرةَ كُلَّها؟

---

(٧٩) الصُّلب: الذي هو تعليقُ الإنسانِ للقتل، قيل: هو شدُّ صُلبهِ على خشب... (مفردات الراغب).

فاحكُمْ بما تُريد، واصنَعْ ما أنتَ صانِع، فإنَّ أمرَكَ وسُلطانَكَ مُقتَصِرٌ على هذهِ الحَياة، وهيَ مؤقَّتَةٌ زائلَة، وقدْ رَغِبْنا فيما هوَ باق.

{إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} (طه : ٧٣)

٧٣- إنَّنا صَدَّقْنا بما جاءَ بِهِ موسَى، وآمنَّا باللهِ وحدَه، ليَغفِرَ لنا ما اقتَرَفنا مِنَ الآثامِ والمعاصي عندَما كنَّا كُفّارًا، وخاصَّةً عملَ السِّحر، الذي أكرَهتَنا على تَعَلُّمِهِ ومُعارَضَةِ موسَى به - وذُكِرَ أنَّ مُعظَمَهمْ كانوا مِنْ بَني إسْرائيلَ - واللهُ خَيرٌ منكَ ثَوابًا إنْ أُطيعَ، وأدوَمُ منكَ عَذابًا إنْ عُصِي.

{إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيى} (طه : ٧٤)

٧٤- وإنَّ مَنْ يأتي رَبَّهُ يومَ القِيامَةِ وقدْ مَاتَ مُشرِكًا، فإنَّ عِقابَهُ أنْ يَصْلَى جَهنَّم، لا يَموتُ فيها فيَستَريح، ولا يَحيا حَياةً يَنتَفِعُ بها.

{وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى} (طه : ٧٥)

٧٥- ومَنْ يَلْقَهُ مَؤمِنًا وقدْ صَدَّقَ إيمانَهُ بالعمَلِ الصَّالِحِ الموافِقِ لدِينِ الله، فأولئكَ لهمُ المنازِلُ العالِيَةُ الرَّفيعَةُ في جَنَّاتِ الله.

{جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى} (طه : ٧٦)

٧٦- وهيَ جَنَّاتٌ مُعَدَّةٌ للإقامَةِ الدَّائمَة فيها، ومِنْ نَعيمِها وجَمالِها أنَّ الأنهارَ تَجري بين قُصورِها وبسَاتينِها، ويَمكثُ فيها أصحابُها على الدَّوام، فلا رَحيلَ عَنها ولا استِبدالَ بها، وهيَ ثَوابُ مَنْ طَهَّرَ نَفسَهُ مِنَ الكُفرِ والمعاصي، بطاعَةِ اللهِ والأَوبَةِ إليه.

{وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَّا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى} (طه : ٧٧)

٧٧- ولما رفضَ فِرعَونُ أنْ يُرسِلَ بَني إسْرائيلَ معَ موسَى إلى بَيتِ المقدِس، أوحَينا إلَيهِ أنْ يَسرِيَ بهِمْ في اللَّيلِ منْ مِصرَ للتخَلُّصِ منْ فِرعَونَ واستِعبادِهِ لهم. فاجعَلْ لهمْ طَريقًا في البَحرِ بعَصاكَ يَكُنْ يابِسًا بأمرِ الله، لا تَخافُ أنْ يَصِلَكَ فِرعَونُ وجُنودُهُ مِنْ ورائك، ولا تَخشَى أنْ يُغرِقَكَ وقومَكَ البَحرُ مِنْ أمامِك.

{فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ} (طه : ٧٨)

٧٨- فلَحِقَهمْ فِرعَونُ ومعَهُ جُنودُه، فعَلاهُمْ وغمَرَهمْ مِنْ مَاءِ البَحرِ ما غمَرَهم، فأُغرِقوا جَميعًا، ونَجَّى اللهُ موسَى وقَومَهُ مِنْ بَني إسْرائيل.

{وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى} (طه : ٧٩)

٧٩- وقدْ أضَلَّ فِرعَونُ قَومَهُ بهذا وأغواهُم، بكُفرِهِ واستِكبارِهِ عَنْ قَبولِ الحقّ، وبقَولِهِ لهمْ: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [سورة النازعات: ٢٤]. ولم يُرشِدْهُمْ إلى الطَّريقِ الصَّحيحِ عندَما أمرَهمْ بتَكذيبِ رَسولِ اللهِ موسَى.

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى} (طه : ٨٠)

٨٠- فاذكُروا ذلكَ واعتَبِروا يا بَني إسْرائيل، فقدْ خلَّصناكُمْ مِنْ عَدوِّكمْ فِرعَون، الذي كانَ يَستَعبِدُكم، ويَقتُلُ أبناءَكم. وواعَدْناكُمْ - بواسِطَةِ نبيِّكمْ - جانِبَ طُورِ سَيناءَ ممّا يَلي يَمينَه[٨٠]، لمناجاةِ رَبِّهِ وإنزالِ التَّوراةِ عَليه، وأنزَلنا عَليكمُ المنَّ الذي تَجِدونَهُ على الأشْجارِ حُلوًا كالعَسَل، وأنتُمْ في التِّيه، وطائرَ السُّمانَى القَريبَ المنال.

{كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى} (طه : ٨١)

---

(٨٠) الطّور: الجبلُ الواقِعُ بين بلادِ الشامِ ومصر، ويُقال له: طورُ سَيناء. (التحرير والتنوير، عند تفسير الآية ٥٢ من سورة مريم).

٨١- فكُلوا مِنْ هذا الطَّعامِ الطَّيِّبِ الهَنيءِ الذي رزَقناكُم، ولا تَظلِموا أنفُسَكُمْ بكُفرانِ هذهِ النِّعمَةِ وغَيرِها، فتُسرِفوا فيها، أو تَمنَعوا حَقَّها، أو تَستَعينوا بها على المعاصي، فتَجلُبوا بذلكَ غضَبَ اللهِ عَليكمْ وسَخَطَه، ومَنْ يَقَعْ عَليهِ غضَبي فقدْ هلَكَ وسقَطَ في النَّار.

{وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى} (طه : ٨٢)

٨٢- وإنِّي كَثيرُ الغُفرانِ لذُنوبِ مَنْ رَجَعَ عمَّا كانَ عَليهِ مِنْ شِركٍ ومَعصِيَة، وآمَنَ بما يَجِبُ الإيمانُ به، وصدَّقَتْهُ جَوارِحُهُ بأداءِ الفَرائضِ والأعمالِ الموافِقَةِ للشَّرع، ولَزِمَ الاستِقامَةَ حتَّى يَموت.

{وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى} (طه : ٨٣)

٨٣- وما الذي جعلَكَ تتَقَدَّمُ على قَومِكَ وتُسارِعُ إلى حُضورِ ميعادِ المناجاةِ قَبلَهمْ يا موسَى؟

{قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى} (طه : ٨٤)

٨٤- قالَ موسَى عَليهِ السَّلام: إنَّهمْ قادِمونَ وقَريبونَ مِنَ الطُّور، وقدْ سارَعتُ إلى الميعَادِ للمُبادَرَةِ إلى رِضاكَ يا رَبّ، وشَوقًا إلى مُناجاتِك.

{قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ} (طه : ٨٥)

٨٥- قالَ لهُ رَبُّه، وقدْ أُعطِيَ التَّوراة: لقدِ ابتَلَينا قَومَكَ مِنْ بَعدِ مُغادرَتِكَ إيَّاهُمْ واستِخلافِكَ هارونَ عَليهم، فقدْ أضَلَّهمُ السَّامِريّ[٨١]، ودَعاهُمْ إلى عِبادَةِ العِجل، فعكَفوا عَليهِ يَعبدُونَه!

---

(٨١) يذكرُ أهلُ التفسيرِ أن السامريَّ منسوبٌ إلى قبيلةِ السامرة، وأنه من بني إسرائيل، لكنَّ الشيخ ابن عاشور يفنِّدُ هذا الرأي، وأنه ليس منسوبًا حتى إلى بلدةِ السامرةِ القريبةِ من نابلس، قال: "ويحتملُ أن يكونَ السامريُّ نسباً إلى قريةٍ اسمُها (السامرة) من قرى مصر، كما قالَ بعضُ أهلِ التفسير، فيكونُ فتًى قبطياً اندسَّ في بني إسرائيل لتعلُّقهِ بهم في مصر، أو لصناعةٍ يصنعها لهم". (التحرير والتنوير).

{فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي} (طه : ٨٦)

٨٦- فعادَ موسَى إلى قَومِهِ مِنَ الميعادِ ومَعَهُ ألوَاحُ التَّوراة، وقدِ اشتدَّ غَضَبُهُ وحُنُقُهُ عَليهم، وقالَ لهمْ بعدَ أنْ ألقى الألوَاح: يا قَوم، أمَا وعدَكمُ اللهُ ما هوَ خَيرٌ لكمْ وفيهِ حُسْنُ عاقِبَتِكم؟ أفطالَ عَليكمُ انتِظارُ ما وعدَكمُ اللهُ بِهِ ونَسِيتُم نِعمتَهُ، أمْ أرَدتُمْ بصَنيعِكمْ السيّءِ هذا أنْ يَجِبَ عَليكمْ غضَبٌ شَديدٌ مِنْ ربِّكم، فأخلَفتُمْ وعدَكمْ إيّايَ بالثَّباتِ على الدِّينِ حتَّى أرجِعَ مِنَ الميعَاد؟

{قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ} (طه : ٨٧)

٨٧- قالَ لهُ بَنوا إسْرائيل: ما أخلَفْنا وعدَنا إيَّاكَ باختيارِنا، ولكنَّ أنفُسَنا غَلَبَتْنا على ذلك، وكُنّا قدِ استَعَرنا حُليًّا مِنَ القِبطِ قَبلَ الخُروجِ مِنْ مِصر، فألقَيناهُ في النَّارِ لنتَخلَّصَ مِنَ الحَرام، وكذلكَ ألقَى السَّامرِيُّ ما كانَ معَهُ منها،

{فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ} (طه: ٨٨)

٨٨- فذابَ ذلكَ الذَّهب، فشَكَّلَ السَّامرِيُّ منهُ تِمثالاً على صُورَةِ عِجل، وجعلَ لهُ فتَحات، فإذا تَحرَّكَ فيهِ الهَواءُ أخرجَ صَوتًا كصَوتِ البقَر، وقالَ هوَ ومَن فُتِنَ بهِ أوَّلَ رُؤيَتِهِ له: هذا هوَ إلهكمْ وإلهُ موسَى، وقدْ نَسيَهُ هُنا وذهبَ يَبحَثُ عنهُ في جبَلِ الطُّور!

{أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً} (طه : ٨٩)

٨٩- ألا يَرَى هؤلاءِ الجهَلَةُ الضَّالُّونَ أنَّ هذا التِّمثالَ لا يَقدِرُ على الكَلام، ولا يُجيبُهمْ إذا خاطَبوه، فلا حياةَ فيهِ ولا رُوح، ولا يَقدِرُ على إيذائهم، ولا يَنفَعُهمْ بشَيء؟!

{وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي} (طه : ٩٠)

٩٠- وقدْ نبَّهَهمْ هارونُ إلى الإثمِ الذي وقَعوا فيهِ قَبلَ أنْ يَرجِعَ إلَيهمْ موسَـــى، وقالَ لهم: يا قَوم، لقَدْ وقَعتُمْ في الفِتنَةِ والابتِلاء، وضَـلَلتُمْ بفِعلِكمْ هذا، فَربُّكمُ الحَقُّ هوَ اللهُ وحدَه، فاتَّبِعوني فيما أمَرتُكمْ بِهِ مِنْ عِبادَةِ الله، وأطيعوا أمري في تَركِ عِبادَةِ العِجل.

{قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى} (طه : ٩١)

٩١- فأجابَهُ بَنو إســرائيلَ في حُمْقٍ وعِناد: لا نَزالُ قائمينَ على عِبادَةِ هذا العِجلِ حتَّى يَرجِعَ إلَينا موسَى ويرَى ما نحنُ فيه. وقاموا على هارونَ عليهِ السَّلامُ حتَّى كادوا أنْ يَقتُلوه!

{قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا} (طه : ٩٢)

٩٢- ولمَّــا عادَ موسَى إلى قَومِهِ غَضبانَ - وقدْ أخبرَهُ رَبُّهُ بضَلالِهم - توجَّهَ إلى أخيهِ هارونَ الذي خَلَّفَهُ فيهم، وأخذَ بلِحيَتِهِ وقالَ له: ما الذي منعَكَ عندَما رأيتَهمْ يَعبُدونَ العِجل،

{أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي} (طه : ٩٣)

٩٣- أنْ تتَّبِعَني فتَغضَبَ للهِ وتُصلِحَ ما أفسَدوه، أخالَفتَ أمرِي؟

{قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي} (طه : ٩٤)

٩٤- قالَ هارونُ عَليهِ السَّـلامُ وهوَ يَستَعطِفُ أخاه: يا ابنَ أُمِّي، لا تأخُذْ بلِحيَتي ولا بشَعرِ رأسِــي، فإنِّي لم أُقَصِّــرْ مَعَهمْ في التَّحذيرِ والتَّرهيب، وإنِّي خَشِــيتُ إنْ لَحِقْتُ بكَ فأخبَرتُكَ بحالِهم، أو قاتَلتُ بعضَــهمْ ببَعض، أنْ تَقولَ إنَّكَ فرَّقْتَ بذلكَ بينَ بَني إسْــرائيلَ ولم تُراعِ ما أمَرتُكَ بهِ مِنَ الإصْلاح.

{قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ} (طه : ٩٥)

٩٥- قالَ موسَى عليهِ السَّلام: ما شَأنُكَ يا سامِرِيّ، وما الذي حمَلَكَ على هذا الأمرِ العَظيمِ والكُفر المبِين؟

{قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي} (طه : ٩٦)

٩٦- قالَ السَّـامِرِيّ: عَلِمتُ ما لم يَعلَمِ القَوم، وفَطِنتُ إلى ما لم يَفطَنوا إليه، فأخَذتُ قَبضَـةً مِنَ التُّرابِ مِنْ أثَرِ الملَك، فألقَيتُها على عِجْلِ الذَّهَب، فصــارَ لهُ خُوَار، وهكذا زيَّنَتْ لي نَفسي أنْ أتصَرَّف.

{قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَـاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً} (طه : ٩٧)

٩٧- قالَ لهُ موسَى عليهِ السّلام: فاذهَبْ مِنْ بينِ الناس، وعُقوبَتُكَ في الدُّنيا ما دُمتَ حَيًّا، أنْ تَقولَ للنَّاس: لا مِســاس، فابتَعِدْ عَنهمْ ولا تُخالِطْهم، لا تَمَسَّ أحَدًا ولا يَمَسُّــوك - وأمرَ موسَى بَني إسرائيلَ ألاّ يُخالِطوهُ -. وإنَّ لكَ مَوعِدًا يا سامِرِيُّ للعَذابِ يَومَ القِيامَةِ لا مفَرَّ لكَ منه. وانظُرْ إلى العِجلِ الذَّهبِيّ الذي زَعَمتَ أنَّهُ مَعبودُك، وظَلَلْتَ مُقيمًا على عِبادَتِه، لنُحَرِّقَنَّهُ بالنَّارِ حتَّى يَصيرَ رَمادًا، ثمَّ لنُذرِيَنَّهُ في البَحرِ حتَّى لا يَبقَى لهُ أثَر.

{إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً} (طه : ٩٨)

٩٨- فهذا الذي يُحرَقُ ويَفنَى ليسَ إلهًا، إنَّما إلهكمُ اللهُ الذي لا إلهَ غَيرُه، الحيُّ الذي لا يَموت، ولا رَبَّ لكمْ سِـواه، فهوَ الذي خلَقَكمْ ويرزُقُكم، وقدْ أحاطَ عِلمُهُ بكُلِّ شَـيء، فلا يُعبَدُ إلاّ هو.

{كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً} (طه : ٩٩)

٩٩- وكذلِكَ نَقُصُّ عَليكَ خبَرَ موسَـــى أيُّها النبيُّ مِنْ حَوادِثِ الأُمَمِ الماضِـــيَةِ كما وقعَت، تَذكِرَةً للمُستَبصِرين، وعِظَةً للمُعتَبِرين، وقدْ آتيناكَ مِنْ عندِنا هذا القُرآنَ العَظيم، مُتَضَمِّنًا تلكَ القَصصَ والحوادِثَ وغَيرَها، لتُبَشِّرَ بها وتُنذِر، وليَتفكَّرَ فيها النَّاسُ ويَعتَبِروا.

{مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً} (طه : ١٠٠)

١٠٠- ومَنْ أعرَضَ عَنِ القُرآنِ ولم يَهتَدِ بهَديه، فإنَّهُ يَحمِلُ معَهُ يومَ الجزاءِ ذَنبًا ثَقيلاً، وينتَظِرُ عُقوبَةً كبيرَة.

{خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاء لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً} (طه : ١٠١)

١٠١- ماكثينَ في العَذابِ أبدًا، وبئسَ هذا الحِملُ الذي حمَلوهُ وجَرَّهُمْ إلى النَّار، وهوَ الكفرُ بالقُرآن.

{يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً} (طه : ١٠٢)

١٠٢- واذكُرْ ذلكَ اليَومَ الذي يَنفُخُ فيهِ إسرافيلُ في الصُّور - وهو قَرْنٌ -، ونَحشُرُ الكافِرينَ يَومَئذٍ زُرقَ العُيون، سُودَ الوجُوه.

{يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً} (طه : ١٠٣)

١٠٣- وهمْ يَتكلَّمونَ خِفيَة، ويَقولُ بَعضُهمْ لبَعض: إنَّكمْ بَقيتُمْ في الدُّنيا عَشَرَةَ أيّام.

{نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً} (طه : ١٠٤)

١٠٤- ونحنُ مُطَّلِعونَ على ما يَقولونَ في مُدَّةِ لَبْثِهمْ بها، بلْ يَقولُ أعدَلُهُمْ رأيًا وأكمَلُهمْ عَقلاً: لم تَلبَثوا سِوى يَومٍ واحِد!

قالوا ذلكَ لسُرعَةِ انقِضائها، أو لِما فوجِئوا بهِ مِنْ أهوالِ يَومِ القِيامَة، التي يَشِيبُ لها الوِلْدان.

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً} (طه : ١٠٥)

١٠٥- ويَسـألُكَ النَّاسُ عنْ مَصـيرِ الجِبالِ الرَّاسِـياتِ في يَومِ القِيامَة، فقُلْ لهم: إنَّ اللهَ يُزيلُها كُلَّها مِنْ أماكِنِها، ويَمحَقُها حتَّى يَجعلَها كالرَّمل، وتَصيرَ هَباءً مَنثورًا.

{فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً} (طه : ١٠٦)

١٠٦- ويُبقي الأرضَ سَطحًا مُستَويًا أملسَ.

{لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً} (طه : ١٠٧)

١٠٧- لا ترَى فيها يومَئذٍ مَيلاً ولا أثَرًا، ولا مُنخَفَضًا ولا مُرتَفَعًا.

{يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَت الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً} (طه : ١٠٨)

١٠٨- في ذلكَ اليَومِ يَسـتَجيبُ النّاسُ مُسـارِعينَ إلى داعي الله، وهوَ إسـرافيل، النَّافِخُ في الصُّور، لا يَميلونَ ولا يَعدِلونَ عَنه، وخَفِيَتِ الأصواتُ وسَكتَ أصحابُها مَهابَةً مِنَ اللهِ ورَهبَةً مِنْ أهوالِ يَومِ القِيامَة، فلا تَسمَعُ سِوَى أصواتٍ خافِتَةٍ ووَقْعِ أقدَام.

{يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً} (طه : ١٠٩)

١٠٩- في ذلكَ اليَومِ الرَّهيب، لا تَنفَعُ شَفاعَةُ أحَدٍ لأحَد، إلاّ إذا أَذِنَ اللهُ لهُ ورَضيَ بشَفاعَتِهِ ومَقولَتِه، وكانَ مؤمِنًا.

{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً} (طه : ١١٠)

١١٠- واللهُ سُـبحانَهُ مُحيطٌ بعمَلِ هؤلاءِ المحشـورِينَ جَميعًا، ما أسَـرُّوا وما أخفَوا، وما عَمِلوا مِنْ حَسَـناتٍ وسَـيِّئات، على الرَّغمِ مِنْ كثرَتِهِمْ وكثرَةِ ما عَمِلوا، وهُمْ غَيرُ مُطَّلِعينَ على عِلمِ اللهِ وغَيبِه.

{وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً} (طه : ١١١)

١١١- وقدْ خضَعَتِ النُّفوسُ وذَلَّتِ الوجُوه، واستَسلَمَتْ للحَيّ الذي لا يَموت، القائمِ على حِفظِ كُلِّ شَيءٍ وتَدبيرِه، فلا قُوَامَ ولا حياةَ إلاّ به، وقدْ خَسِرَ في هذا اليَومِ مَنْ أشرَكَ باللهِ ولم يَتَّخِذْ عندَهُ عَهدًا.

{وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً} (طه : ١١٢)

١١٢- ومَنْ يُطِعِ الله، ويَعمَلِ الأعمالَ الحسَنَة، وهوَ مؤمِن، صادِقٌ في إيمانِه - والإيمانُ شَرطٌ مَبدَئيٌّ وأساسيٌّ لقَبولِ أيّ عمَل - فسَوفَ يُجزَى علَيها خَيرَ الجَزاء، لا يُزادُ في سَيّئاتِه، ولا يُنقَصُ مِنْ حسَناتِه، فلا يُمنَعُ ثَوابًا يَستَحِقُّه، بلْ يُضاعَفُ لهُ الثَّوابُ أضعافًا.

{وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً} (طه : ١١٣)

١١٣- ومثلَما أنزَلنا آياتٍ فيها القَصَصُ والوَعيدُ مِنْ يَومِ الجَزاء، كذلكَ أنزَلنا هذا القُرآنَ كلَّه، ليُبَشِّرَ المؤمِنينَ بالثَّواب، ويُنذِرَ الكافِرينَ بالعِقاب، بلُغَةٍ عَربيَّةٍ بَيِّنَةٍ واضِحَة، وكرَّرْنا فيهِ آياتِ الوَعيدِ والإنذار، بأسَاليبَ مُختَلِفَة، لعلَّهمْ يَحذَرونَ ويَبتَعِدونَ مِنَ الكُفرِ والمعاصي، أو أنْ يُوجِدَ ذلكَ عندَهمْ طاعَةً وقَبولاً، فيؤمِنوا.

{فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً} (طه : ١١٤)

١١٤- فتَعالَى اللهُ وتقَدَّس، مالِكُ كُلِّ شَيءٍ والمتصَرِّفُ فيه، الحَقُّ في ذاتِهِ وصِفاتِه، وكلُّ شَيءٍ منهُ حَقٌّ وعَدْل.

وإذا أنزَلنا عَليكَ القُرآنَ - أيُّها النبيُّ - فلا تَعجَلْ بقِراءَتِه، لا تُرَدِّدْهُ قَبلَ أنْ يُنهيَهُ جِبريلُ عليهِ السَّلام، لئلاّ يَشُقَّ ذلكَ عَليك، بلْ أنصِتْ، وقُل: {رَبِّ زِدْنِي عِلْماً}.

وكانَ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إذا جاءَهُ جِبريلُ بالوَحي، يَقولُ كُلَّ آيَةٍ معَه، خَشيَةَ أنْ يَصعدَ ولم يَحفَظْه، فأُرشِدَ إلى ما هوَ أهمُّ وأنفَع، وهوَ الإنصَات، وطلَبُ زيادَةِ العِلمِ النَّافِعِ مِنَ الله. أمَّا

الحِفظُ فسيَجمَعُهُ اللهُ لهُ في صَدرِهِ {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} [سورة القيامة: ١٦، ١٧].

{وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً} (طه : ١١٥)

١١٥- ولقدْ أمَرنا آدَمَ بعدَمِ الأكلِ مِنْ شَجَرَةٍ معيَّنةٍ عندَما كانَ في الجنَّة، ولكنَّهُ نَسِيَ العَهدَ ولم يهتَمَّ به، ولم نَجِدْ لهُ صَبرًا عنْ أكلِها وثباتًا على أمرِنا.

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى} (طه : ١١٦)

١١٦- واذكُرْ قَولَنا للمَلائكةِ - بعدَ أنْ سَوَّينا خِلقَةَ آدَمَ ونفَخنا فيهِ مِنْ روحِنا -: اسجُدوا لآدَم، سَجدَةَ تَشريفٍ وتكريم، فسَجَدوا جَميعًا، إلاّ إبليس، استَكبرَ وامتنَعَ مِنَ السُّجودِ له.

{فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى} (طه : ١١٧)

١١٧- فقُلنا لآدَمَ: إنَّ هذا الشَّيطانَ عَدوٌّ لكَ ولزَوجِكَ حَوَّاء، فتنَبَّه، وكُنْ على حذَر، لئلاّ يَكونَ سَببًا في إخرَاجِكما مِنَ الجَنَّة، فتَتعب وتَشقَى في الدُّنيا.

{إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى} (طه : ١١٨)

١١٨- إنَّ لكَ في الجَنَّةِ أنْ تَكونَ في عَيشٍ هَنيءٍ رَغيد، فلا تَبقَى فيها جائعًا ولا تَشقَى في طلَبِ الرِّزق، بلْ تأكلُ وتَتلَذَّذُ بأحسَنِ الأطعِمَةِ والفَواكِه، ولا تَعرَى فيها ولا تَتعَبُ في صُنعِ الثِّيابِ والبَحثِ عَنها، بلْ تُكسَى أحسَنَ اللِّباسِ وأجمَلَها.

{وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى} (طه : ١١٩)

١١٩- وإنَّ لكَ في الجَنَّةِ ألاّ تَبقَى فيها عَطِشًا، بلْ تَرْوَى وتَهنَأُ بمائها وعَصائرِها. ولا يُصيبُكَ فيها حَرٌّ فتُؤذَى، بلْ تَكونُ في قُصورٍ تَجري مِنْ تَحتِها الأنهار، وأشجارٍ مَمدودَةِ الظِّلال.

{فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى} (طه : ١٢٠)

١٢٠- فوَسوَسَ الشَّيطانُ في نَفسِ آدَمَ قائلاً له: يا آدم، هلْ أدُلُّكَ على شَجرَةٍ إذا أكَلتَ منها خُلِدْتَ فلا تَموت، ومُلْكٍ لا يَفنَى، وهوَ الجنَّة؟

{فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى} (طه : ١٢١)

١٢١- فضَعُفَ آدمُ وزَوجُهُ أمامَ هذا الطَّمَعِ المغري، وصَدَّقا الشَّيطانَ بعدَ أنْ أقسَمَ لهما أنَّهُ يَنصَحُهما بذلك، فأكَلا مِنَ الشَّجرةِ التي نَهاهُما اللهُ عنِ الاقتِرابِ منها، فظَهَرَتْ - نتيجَةَ ذلكَ - عَوراتُهما، فجعلا يَرقَعانِ ويُلزِقانِ بهما أوراقًا منْ شجَرِ الجنَّة، وعصَى آدمُ ربَّهُ بأكلِ الشَّجَرة، فأخطَأَ الطَّريقَ وضَلَّ عنْ مَطلوبِهِ عندَما اغتَرَّ بقَولِ العَدوِّ، وطلَبَ الخُلودَ بأكلِ ما نُهِيَ عنه، فخابَ ولم يُحَقِّقْ هدفَه.

{ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى} (طه : ١٢٢)

١٢٢- ثمَّ اصطَفاهُ رَبُّهُ ووَفَّقَهُ للتَّوبَة، فتابَ وأنَاب، فقَبِلَ تَوبتَهُ ورَحِمَه، وأرشَدَهُ إلى الثَّباتِ عَليها.

{قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} (طه : ١٢٣)

١٢٣- وقالَ اللهُ تَعالَى لآدمَ وإبليس: انزِلا مِنَ الجنَّة، وسيَكونُ بَعضُكمْ عَدوًّا لبَعض (النَّاسُ والشَّياطين)، فإذا أرسَلتُ إليكمْ أنبياء، وأنزَلتُ عَليكمْ كتُبًا، فمَنِ اتَّبَعَ رسُلي، واهتَدَى بهَديي، فلا يَضِلُّ في الدُّنيا، ولا يَخافُ سُوءَ الحِسابِ في الآخِرَة.

{وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} (طه : ١٢٤)

١٢٤- ومَنْ خالَفَ هُداي، وكذَّبَ رسُـــلي، فإنَّهُ يَعيشُ في الدُّنيا حَياةَ قَلَقٍ وحَيرَة، وشَـــكٍّ وحرَج، وضِـيقٍ وشَـقاء، وإنْ بَدا مُتَنَعِّمًا. ويُضَـيَّقُ عَليهِ في قَبرِه، ونَحشُـرُهُ يومَ القيامَةِ أعمَى البصَر.

{قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً} (طه : ١٢٥)

١٢٥- ويَقولُ العَبدُ لرَبِّهِ يومَئذٍ: يا رَبِّ، لماذا أعمَيتَ عَينيَّ وقدْ كنتُ أرَى بهما في الدُّنيا؟

{قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى} (طه : ١٢٦)

١٢٦- فيَقولُ لهُ رَبُّه: إنَّكَ كما أعرَضْـتَ عنْ هِدايَتي وآياتي البيِّنَةِ الواضِـحَة، فتعامَيتَ عنها وتركتَها غَيرَ مُبالٍ بها، فكذلِكَ تُعامَلُ مُعامَلَةَ مَنْ يَنسَاكَ في هذا الموقِف، وتُتْرَكُ أعمَى هكذا، فالجزاءُ مِنْ جنسِ العمَل.

قالَ قَتادَة: نُسُوا مِنَ الخَير، ولم يُنْسَوا مِنَ العَذاب.

{وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} (طه: ١٢٧)

١٢٧- وبمِثلِ العُقوبَةِ الموافِقَةِ للجُرمِ والجنايَة، نُعاقِبُ مَنْ أشـرَكَ وآثرَ هَواهُ وشَـهواتِهِ على اتِّباعِ دِينِ الله، وكفَرَ بآياتِهِ وبالمعجِزاتِ التي أيَّدَ بها رسُـــلَه، والعَذابُ الذي يُعَذِّبُهُمُ اللهُ في الآخِرَةِ أعظَمُ وأشَدُّ ألَمًا ممّا يُعَذِّبُهُمْ بهِ في الدُّنيا وفي القَبر، وأكثَرُ دوَامًا، فإنَّهُمْ يُخَلَّدونَ في جَهنَّمَ أبَدًا.

{أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُـــونَ فِي مَسَـــاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى} (طه : ١٢٨)

١٢٨- أفلَمْ يَتبيَّنْ للمُشـــرِكينَ المكَذِّبينَ بما جِئتَهمْ به، كمْ أهلَكنا مِنْ أُمَمٍ ســـابِقَةٍ كذَّبوا برِسَـالاتِ رَبِّهم، وهمْ يَمرُّونَ بدِيارِهمْ ويَمشُـونَ بينَ آثارِهم؟ إنَّ في ذلكَ لعِبرَةً لأصـحَابِ العُقولِ السَّليمَة.

{وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى} (طه : ١٢٩)

١٢٩- ولولا حُكْمٌ سَـبقَ أنْ قضَـى اللهُ به، وهوَ تأخيرُ العَذابِ عَنهم، أو عدَمُ إهلاكِهِمْ بالكُلِّيَّة، لكانَ العَذابُ لازِمًا لهمْ كما لَزِمَ سـابقِيهم. وكذلكَ ما ضـرَبَ اللهُ لهمْ مِنْ أجَلٍ في عُمُرٍ يَقضُونَهُ إلى وَقتِه.

{فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى} (طه : ١٣٠)

١٣٠- ومادامَ اللهُ أمهَلَهم، فاصبِرْ على تَكذيبِهِمْ إيَّاك، واستِهزائهِمْ برسالَةِ رَبِّك (ذكرَ جَماعَةٌ مِنَ المفسِّرينَ أنَّها مَنسوخَةٌ بآيَةِ السَّيف). والزَمْ ذِكرَ اللهِ وعِبادتَه، ونَزِّهْهُ وقَدِّسْهُ وأنتَ حامِدٌ له، في الفَجرِ والعَصر، ومِنْ ساعاتِ اللَّيل، وكذلكَ مِنَ النَّهار، لتَرضَى وتَطمَئنَّ بما يُثيبُكَ اللهُ عَليهِ في الأُولَى والأُخرَى.

ذكرَ القُرطبيُّ أنَ أكثرَ المتأوِّلينَ قالوا إنَّه إشارَةٌ إلى الصَّلواتِ الخَمس.

{وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى} (طه : ١٣١)

١٣١- ولا تُطِلْ نظَرَكَ رَغبةً ومَيلاً إلى ما أمدَدنا بهِ أصـنافًا مِنَ الكفَّارِ منْ زينَةِ الدُّنيا وبهجَتِها، مِنْ كثرَةِ المالِ والولَد، لنَبتَليَهمْ بها، ونُعَذِّبَهمْ بها في الآخِرَة. وما آتاكَ اللهُ في الدُّنيا مِنَ الهُدَى والنبوَّة، وادَّخرَهُ لكَ مِنَ الثَّوابِ والمنزِلَةِ في الآخِرَة، أفضَـلُ ممَّا متَّعَهمْ بهِ في الدُّنيا، وأدوَمُ وأهنأ.

{وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} (طه : ١٣٢)

١٣٢- وَأمُرْ أهلَ بيتِكَ وأُمَّتَكَ بالصَّلاةِ المفروضَةِ والمواظَبَةِ عَليها، واصبِرْ على أدائها، فإنَّها صِلَةٌ بينَ العَبدِ ورَبِّه. ولا نُكَلِّفُكَ برزقِ أحَد، ولا برِزقِ نَفسِك، فنَحنُ نَرزُقُكَ ونَكفِيكَ همَّ ذلك، وإنَّما نُكَلِّفُكَ بالتَّبليغِ والصَّبرِ على الدَّعوَة. والخاتِمَةُ المحمودَةُ لمنِ اتَّقَى اللهَ في نَفسِهِ وأهلِه.

{وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى} (طه: ١٣٣)

١٣٣- وقالَ مُشرِكو مكَّة: هَلاّ يأتينا محمَّدٌ بدَليلٍ على صِدقِ نبوَّتِه؟ ويَعنونَ الأدِلَّةَ التي توافِقُ أهواءَهم، كما مَرَّ في الآياتِ (٩٠- ٩٣) مِنْ سورةِ الإسراء[٨٢].

أوَلا يَرَونَ أنَّ اللهَ قدْ أنزَلَ على عَبدِهِ أكبَرَ مُعجِزَةٍ تَدُلُّ على نبوَّتِه، وهوَ هذا القُرآن، الذي يَحتَوي على أخبَارِ الأوَّلينَ بما يُوافِقُ الكتبَ السَماويَّةَ المتقَدِّمَة، ويُصَحِّحُها، وقدْ عاشَ بينَهمُ الرَّسولُ صلى الله عَليهِ وسلم وهمْ يَعلَمونَ أنَّهُ لم يَكنْ لهُ عِلمٌ بأخبارِ الغُيوب؟

{وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى} (طه : ١٣٤)

١٣٤- ولو أنَّنا أهلَكناهُمْ في الدُّنيا بعَذابٍ يَستأصِلُهمْ قَبلَ أنْ نَبعثَ إليهمْ هذا الرَّسولَ والكتابَ الذي معَه، لقَالوا يومَ الحِساب: يا رَبَّنا هَلاّ أرسَلتَ لنا رَسولاً مُؤَيَّدًا بمعجِزاتٍ حتَّى نَتَّبِعَهُ ونُصَدِّقَ بآياتِكَ ونُؤمِنَ بكتابِك، مِنْ قَبلِ أنْ نُهانَ بهذا العَذاب، ونَخزَى بهِ ونَفتَضِحَ على رُؤوسِ الأشهَاد؟

{قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى} (طه : ١٣٥)

---

(٨٢) {وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولا}.

١٣٥- قُلْ لهؤلاءِ الكافِرينَ المكَّذِبين: كُلٌّ واحِدٍ منَّا ومِنكمْ مُنتَظِرٌ ما يَؤولُ إليهِ أمرُه، فانتَظِروا النّتيجَة، فستَعلَمونَ عنْ قَريبٍ مَنْ همْ أهلُ الطَّريقِ المستَقيم، ومنِ الذي اهتَدَى إلى الحَقِّ واجتنَبَ الضَّلال، نحنُ أمْ أنتُم؟

* * *

في حَديثٍ حسَنٍ أو صَحيحٍ رواهُ ابنُ ماجَه، قَولُهُ صلى اللهُ عليه وسلم: "اسمُ اللهِ الأعظَمُ الذي إذا دُعِيَ بهِ أجاب، في سُوَرٍ ثلاث: البقَرة، وآلِ عِمران، وطه".

الجزء السابع عشر

سورة الأنبياء
سورة الحجّ

سورة الأنبياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرِضُونَ} (الأنبياء : ١)

١- اقترَبَ يَومُ الحِساب، ووَزنُ الأعمال، والنَّاسُ في غَفلَةٍ عَظيمَةٍ، لا يَتفَكَّرونَ في مَآلِهم، ولا يَعمَلونَ له.

{مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ} (الأنبياء : ٢)

٢- ما يَنزِلُ إليهِمْ أمرٌ جَديدٌ مِنَ القُرآنِ فيهِ تَذكيرٌ وإنذَار، إلاّ استَمَعوهُ بنُفوسٍ لا مُبالِية، لاهِينَ مُستَهزِئين، غيرَ جادِّينَ ولا مُتدَبِّرين، لا يَعتَبِرونَ ولا يتَّعِظون.

{لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ} (الأنبياء : ٣)

٣- قُلوبُهُمْ ذاهِلَةٌ غافِلَة. وقالَ المشرِكونَ فيما بينَهمْ خُفيَة: ما هذا الرَّجُلُ الذي يدَّعي النبوَّةَ إلاّ بشَرٌ مِثلُكم، والذي أتَى بهِ سِحر، أفتتَّبِعونَهُ وأنتُمْ تَعلَمونَ أنَّ ما جاءَ بهِ سِحْر؟

{قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (الأنبياء : ٤)

٤- قالَ الرَّسولُ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلام: إنَّ اللهَ يَعلَمُ ما يُقالُ في السَّماواتِ والأرْض، خُفيَةً كانَ أو جَهرًا، فهوَ سَميعٌ لأقوالِكم، عَليمٌ بأحْوالِكمْ وأفعَالِكم.

{بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ} (الأنبياء: ٥)

٥- بلْ قالَ مُشرِكون: ما هذا القُرآنُ الذي يَدَّعي محمَّدٌ أنَّهُ يُوحَى إليهِ سِوَى تَخليطِ أحْلام. وقالَ بَعضُهم: بلْ هوَ كَذِبٌ، يَدَّعي أنَّهُ مِنْ عندِ اللهِ وما هوَ إلاّ مِنْ تأليفِه. وقالَ آخَرونَ منهم: بلْ هوَ شاعِر، وما يَتلُوهُ شِعرٌ وليسَ قُرآنًا موحًى به! فَليُنزِلْ عَلَينا مُعجِزَةً كما جرَى معَ الرُّسُلِ السَّابقِين، إنْ كانَ نَبيًّا حَقًّا!

{مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ} (الأنبياء : ٦)

٦- ما آمنَ أهلُ القُرَى الذينَ أهلَكناهُمْ بالآياتِ التي اقتَرَحوها على أنبيائهم، أفيُؤمِنُ بها مُشركو مكَّةَ إذا جاءَتْهم؟

{وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} (الأنبياء : ٧)

٧- وإنَّ جَميعَ مَنْ أرسَلنا قَبلَكَ مِنَ الرُّسُلِ كانوا رِجالاً، منْ جنسِ البشَر، نُوحي إليهمْ كما نُوحي إليك، وما كانَ أحَدٌ منهمْ مِنَ الملائكة، فاسْألوا أهلَ العِلمِ الصَّادِقينَ مِنَ الأديانِ السَّابِقَة: هلْ كانَ الرُّسُلُ الذينُ بُعِثوا إلَيهمْ مِنَ البشَرِ أمْ لا؟ فإنَّهُمْ سيُقِرُّونَ بذلكَ ولا يُنكِرون.

{وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ} (الأنبياء : ٨)

٨- وما جعَلنا الرُّسُلَ أجسَادًا مُستَغنينَ عنِ الطَّعام، بلْ همْ مثلُ النَّاسِ يأكُلونَ ويَشرَبون، ولا يَضرُّ هذا بنبوَّتِهم. وما همْ بمُعَمَّرينَ على الدَّوام، بلْ يَموتون.

{ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاء وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ} (الأنبياء : ٩)

٩- ثمَّ صَدَقنَا الأنبياءَ ما وَعَدناهُمْ بهِ مِنَ النَّصر، فنجَّيناهمْ ومَنْ آمَنَ معَهمْ منْ بأسِ أعدائهمْ وكَيدِهم، وأهلَكنا المكَذِّبين. فاحذَروا ولا تُكَذِّبوا نبيَّكمْ ولا تُخالِفوه.

{لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} (الأنبياء : ١٠)

١٠- لقدْ أنزَلنا إلَيكمْ كِتابًا عَظيمَ الشَّأن، كثيرَ النَّفع، فيهِ عِزُّكمْ وشرَفُكمْ لو أنَّكمُ اتَّبَعتُموه، هو القرآنُ الكريم، أفلا تتفَكَّرونَ في ذلك، وتُقَدِّرونَ هذهِ النِّعمَةَ الجَليلَة؟

{وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ} (الأنبياء : ١١)

١١- وكمْ أهلَكنا مِنْ أهلِ القُرى الذينَ كذَّبوا رسُلَهم، واستأصَلناهُمْ فلم نُبْقِ منهمْ أحَدًا، وأتَينا بقَومٍ آخَرينَ ليسُوا منهم، أفلا تَعتَبِرون؟

{فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ} (الأنبياء : ١٢)

١٢- ولما شعرَ أهلُ القُرى بعَذابِ الله، وتيَقَّنوا أنَّهُ نازِلٌ بهم، إذا هُمْ يَفزَعونَ ويَفِرُّونَ منْ قُراهُمْ لئلاَّ يَلحَقَهمُ العَذاب!

{لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ} (الأنبياء : ١٣)

١٣- لا تَهرُبوا أيُّها المكَذِّبونَ المعانِدون، وارجِعوا إلى قُراكُمْ لتَقضُوا بقيَّةَ أعمارِكمْ فيما كنتُمْ تَنعَمونَ فيهِ مِنْ عَيشٍ هَنيء، ومَساكِنَ طَيِّبَة - استِهزاءً بهم - لعلَّكمْ تُقْصَدونَ مرَّةً أخرَى، وتُسألونَ عنْ أموالِكمْ وعَبيدِكم، وخَدَمِكمْ وعُمَّالِكم، وقُراكُمْ ومَشاريعِكم، ماذا تَفعَلونَ بها ، وما الذي تَذَرونَ منها؟

{قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} (الأنبياء : ١٤)

١٤- ولما عَلِموا أنَّ الهَلاكَ أحاطَ بهم، وأنْ لا مفَرَّ لهمْ منه، قالوا حينَ لا يَنفَعُهمُ النَّدَم: يا هلاكَنا ويا حَسرَتَنا، لقدْ كُنَّا مُستَحِقِّينَ للعَذابِ بتَكذيبِنا آياتِ اللهِ ورسُلَه.

{فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ} (الأنبياء : ١٥)

١٥- وما زالوا يُرَدِّدونَ تلكَ المَقولَة، مُعترِفينَ بظُلمِهم، حتَّى حصَدناهُمْ كالزَّرع، واستأصَلناهُمْ عنْ آخِرِهم، ولم نُبْقِ فيهمْ حرَكَةً ولا صَوتًا.

{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ} (الأنبياء : ١٦)

١٦- وما خلَقنا السَّماءَ وما فيها، والأرضَ ومَنْ عليها، وما بينَهما، لَهوًا وعبَثًا، بدونِ حِكمَةٍ وفائدَة.

{لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ} (الأنبياء : ١٧)

١٧- لو أرَدنا أنْ نَجعَلَ لَهوًا لأنفُسِنا، لجَعَلناهُ شَيئًا إلهيًّا يُناسِبُنا، غَيرَ حادِثٍ ولا فانٍ، ولكنْ لم نُرِدْ ذلك، فلا يَكون.

{بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} (الأنبياء : ١٨)

١٨- فليسَ مِنْ شَأنِنا اللَّهو، بلْ شأنُنا أنْ نُبَيِّنَ الحقَّ ونَغلِبَهُ على الباطِل، فيَمحَقُه، فإذا هوَ ذاهِبٌ مُضمَحِلّ، ولكمُ الهَلاكُ والعَذابُ أيُّها المشرِكون، ممّا تَصِفونَ بِهِ الله، وتَكذِبونَ عليه.

{وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ} (الأنبياء : ١٩)

١٩- ولهُ جَميعُ مَنْ في السَّماواتِ والأرضِ مِنْ مَخلوقات، مُلْكًا وتَدبيرًا وتصَرُّفًا، ومَنْ عندَهُ مِنَ الملائكةِ لا يَتعالَونَ عنْ عِبادَتِهِ وطاعَتِه، ولا يَتعَبونَ ولا يَمَلُّونَ منها.

{يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ} (الأنبياء : ٢٠)

٢٠- يُقَدِّسونَ اللهَ ويُنَزِّهونَهُ باستِمرار، لَيلًا ونَهارًا، لا يَكِلُّونَ ولا يَضعُفون.

{أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ} (الأنبياء : ٢١)

٢١- أمْ أنَّ المشرِكينَ جعَلوا لأنفُسِهمْ آلِهَةً مِنَ الأرض، مِنْ حِجارَةٍ ومَعادِنَ وأخشَاب، فهيَ تُحيي الموتَى وتَبعَثُهمْ مِنْ قُبورِهم؟ إنَّها لا تَقدِرُ على شَيءٍ مِنْ ذلك، فكيفَ جعَلوها آلِهَةً وعبَدوها؟!

{لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} (الأنبياء : ٢٢)

٢٢- لو كانَ في السَّماءِ والأرضِ أكثَرُ مِنْ إلهٍ لخَرِبتا ودُمِّرتَا؛ لتَعَدُّدِ الإراداتِ والأوامِر، فهذا يتَصرَّفُ بشَيء، وذاكَ يُدَبِّرُ أمرًا آخَر، فتتقاتَلُ وتتذابَحُ الآلِهَةُ كما هوَ شَأنُ الملوكِ في الأرْض، فتَخرِبُ الدُّنيا. وما دامَ أمرُ السَّماواتِ والأرْضِ ثابِتًا، وعلى دِقَّةٍ ونظامٍ واحِدٍ مُتكامِل، فهذا يَعني أنَّهُ لا توجَدُ عِدَّةُ آلهَة، بلْ إلهٌ واحِدٌ يُدَبِّرُ الكَونَ كُلَّه، ويَتصَرَّفُ فيهِ وحدَه.

فتعالَى اللهُ رَبُّ العَرشِ العَظيمِ وتقَدَّسَ عمّا يتفَوَّهُ بهِ هؤلاءِ المشرِكون، ويَدَّعونَ لهُ الولَدَ والشَّريك.

{لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} (الأنبياء : ٢٣)

٢٣- وهوَ سُبحانَهُ الحاكِمُ المطلَق، الحَكيمُ الذي لا يُخطِئ، العَدْلُ الذي لا يَظلِم، فلا يُناقَشُ ولا يُعترَضُ عَليه، والخَلقُ همُ الذينَ يَسألُهُمُ اللهُ عمَّا يَفعَلون، لأنَّهمْ مَملوكُونَ ومُكَلَّفونَ بما أمرَهمْ بهِ رَبُّهم، ومُحاسَبونَ على ما قَدَّموا مِنْ أعمال.

{أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ} (الأنبياء : ٢٤)

٢٤- بلْ إنَّ المشرِكينَ اتَّخَذوا لأنفُسِهمْ آلِهَةً يَعبدُونَها مِنْ دونِ الله. قُلْ لهمْ أيُّها الرسُول: هاتُوا دَليلًا على صِحَّةِ دَعواكُمْ بأنَّ هذهِ الحِجارَةَ والأخشابَ آلِهةٌ حقًّا. وهذا كِتابُ رَبِّي الذي أنزلَهُ عَليّ، وهُناكَ الكُتُبُ المنزَلَةُ على الأنبياءِ مِنْ قَبلي، وكُلُّها على نَقيضِ ما تَقولونَ وتَزعُمون. بلْ أكثرُهمْ جاهِلونَ لا يُفَرِّقونَ بينَ الحقِّ والباطِل، فهمْ مُستَمِرُّونَ في الإعراضِ عنِ الحَقّ، والتَّكذيبِ بالرَّسُول.

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} (الأنبياء: ٢٥)

٢٥- وما أرسَلنا قَبلَكَ مِنْ رَسُولٍ إلاّ وأمَرناهُ بالدَّعوَةِ إلى عِبادَةِ اللهِ وحدَهُ لا شَريكَ له، فاعبُدوني وَحدي ولا تُشرِكوا مَعي أحَدًا.

{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ} (الأنبياء : ٢٦)

٢٦- وقالَ فَريقٌ مِنَ العَربِ المشرِكين: الملائكةُ بَناتُ الله! تَعالَى اللهُ عنْ ذلكَ وتقَدَّس، ما همْ إلاّ عِبادٌ خلقَهمُ الله مثلَ غَيرِهم، وهمْ مُقَرَّبونَ عندَهُ مُكرَمون.

{لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ} (الأنبياء : ٢٧)

٢٧- لا يتقَدَّمونَ على رَبِّهِمْ بقَولٍ أو عمَل، بلْ همْ مأمُورونَ مُطيعون، يُنَفِّذونَ ما يُؤمَرونَ به.

{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ} (الأنبياء : ٢٨)

٢٨- وعِلمُهُ تعالَى مُحيطٌ بهِمْ وبأحْوالِهم، لا يَخفَى عَليهِ خافِيَةٌ ممّا عَمِلوا وممّا يَعمَلون، ولا يَطلبونَ الشَّفاعَةَ إلاّ لمَنْ رَضيَ اللهُ أنْ يَشفَعوا له، ولا يَكونونَ إلاّ منْ أهلِ لا إلهَ إلاّ الله. وهمْ وَجِلونَ خَوفًا ورهبَةً منهُ تَعالَى.

{وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} (الأنبياء : ٢٩)

٢٩- ومَنْ يَقُلْ مِنَ الملائكةِ إنَّهُ إلهٌ مِنْ دونِ الله، فهذا جَزاؤهُ جهنَّم، كسائرِ المشرِكينَ المجرِمين، الذينَ يَلقَونَ ذلكَ المَصير.

وهذا على سَبيلِ الافتِراض، وهوَ رَدٌّ على المشرِكينَ وتَبكيتٌ لهمْ فيما يَدَّعون.

{أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} (الأنبياء : ٣٠)

٣٠- ألا يَتدَبَّرُ هؤلاءِ الكافِرونَ في آياتِ اللهِ الكونيَّة، ويتمعَّنونَ في خَلقِ السَّماواتِ العَظيمَةِ المنيعَة، وفي الأرضِ وما فيها ومَنْ عَليها، وقدْ كانتا أوَّلاً مُلتَحِمتَينِ مُلتَزِقتَينِ، فشَقَقْناهُما وفَصَلنا بَعضَهما عنْ بَعض؟

وخَلقنا مِنَ الماءِ كُلَّ ذي حَياة، فهوَ أصلُ كُلِّ حَيّ، وهوَ أعظَمُ مَوادِّه، وأكثَرُ ما يُحتاجُ إليهِ ويُنتَفَعُ به. أفلا يَعلَمونَ ذلكَ ويَتدَبَّرونَهُ ليؤمِنوا ويَهتَدوا؟

ويَقولُ العُلماء: إنَّ جَميعَ الكائناتِ الحَيَّةِ مُكوَّنَةٌ مِنْ ٨٠٪ منَ الماء، وإنَّ جِسمَ الإنسانِ ٧٠٪ منهُ ماء، ولا يَقدِرُ على العيشِ أكثرَ مِنْ أربَعَةِ أيَّامٍ بدونِ ماء.

وذكرَ رَئيسُ مَعهَدِ هادو للبُحوثِ العلميَّةِ في طوكيو في مؤتَمرٍ عِلميّ، أنَّ للمَاءِ ذاكِرَةً، وأنَّهُ صُورَةٌ مِنْ صُوَرِ الطَّاقَةِ الكامِنَة، التي تُمَكِّنُهُ مِنَ السَّمعِ والرُّؤيَةِ والشُّعورِ والانفِعال، واختِزانِ المعلوماتِ ونَقلِها والتأثُّرِ بها، إلى جَانبِ تأثيرِها في تَقويَةِ مناعَةِ الإنسان، ورُبَّما عِلاجِهِ أيضًا مِنَ الأمراضِ العُضْويَّةِ والنفسيَّة.

{وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} (الأنبياء : ٣١)

٣١- وجعَلنا في الأرضِ جِبالًا ثابِتَةً، لئلاّ تَتحرَّكَ وتَميلَ بسُكَّانِها، وجعَلنا في هذهِ الجِبالِ ثُغورًا وفجَوات، لتَكونَ طرُقًا ومَنافِذَ للنّاسِ يَسلكونَها ويَتنقَّلونَ منها إلى ما وراءَها، ولعلَّهمْ يَستَدِلُّونَ بها على مَقاصِدِهمْ في أسفارِهمْ ورحَلاتِهم، ويَشكرونَ اللهَ على ذلك.

{وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ} (الأنبياء : ٣٢)

٣٢- وجعَلنا السَّماءَ عاليَةً، كالسَّقفِ للأرْض، مَحفوظَةً ومَحروسَةً مِنْ أنْ يَنالَها تَغيُّر، أو يُصيبَها خَلَل. وهمْ عنْ آياتِها الكثيرَةِ غافِلونَ ذاهِلون، لا يَتفَكَّرونَ فيها ولا يَتدَّبرونَ أمرَها، على الرَّغمِ مِنْ ظُهورِها ووُضوحِها، كالشَّمس، والقمَر، والنُّجوم، والسَّحاب...الدالَّةِ على عظَمَةِ الخالقِ ووحدانيَّتِه.

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} (الأنبياء: ٣٣)

٣٣- وهوَ الذي خلقَ اللَّيلَ بظَلامِهِ وسُكونِه، والنَّهارَ بضيائهِ وحركتِه، والشَّمسَ بوهَجِها وحرارَتِها ومَنفَعَتِها، والقمرَ بنورِهِ وسَيرِهِ وفائدَتِه... وكُلُّ الكواكبِ ومَجموعاتِ النُّجومِ والمِجرّاتِ تَدورُ حولَ نَفسِها في حركَةٍ مِحوَرِيَّة، وتَدورُ في مَداراتِها في حَرَكَةٍ انتِقاليَّة. والكونُ كُلُّهُ يَتحرَّك. وهذا دَليلٌ على وجودِ الخالقِ الحَيِّ القَيُّوم، القائمِ بتَدبيرِ هذا الكَونِ العَظيم.

{وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ} (الأنبياء : ٣٤)

٣٤- وما جَعَلنا لإنسانٍ قَبلَكَ - أيُّها الرَّسُولُ - خُلودًا وبَقاءً في الدُّنيا، فكُلُّهمْ ميِّتون، أفإنْ مِتَّ أنتَ فسَتُكتَبُ الحياةُ لهؤلاءِ الكفَّارِ الذينَ يترَبَّصونَ بكَ الموت؟

{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} (الأنبياء : ٣٥)

٣٥- كُلُّ نَفسٍ على وَجهِ الأرضِ سَوفَ تَموت، ونَختَبِرُكمْ بالمكارِهِ والمصائب، والنَّعيمِ والرَّخاء، ونُبادِلُ بينَ هذهِ وهذه، ابتِلاءً وتَمحيصًا، لنَرَى ما تُظهِرونَهُ منْ هِدايَةٍ أو ضَلال، وشُكرٍ أو كُفر، وسَوفَ تُرجَعونَ إلَينا يَومَ الحِساب، لنُحاسِبَكمْ على أعمالِكمْ كُلِّها.

{وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ} (الأنبياء : ٣٦)

٣٦- وإذا رآكَ المشرِكونَ أيُّها النبيّ، سَخِروا مِنكَ واستَهزَؤوا بك، وقالوا مُنتَقِصينَ منك: أهذا الذي يَذكرُ آلِهَتَكمْ بسُوء، ويُسَفِّهُ عُقولَكمْ لأنَّكمْ تَعبُدونَها، ويَقولُ إنَّها لا تَنفَعُ ولا تَضُرّ؟ وهمْ كافِرونَ بالقُرآنِ الذي جعلَهُ اللهُ هِدايَةً للنّاس، فهمْ أحَقُّ بأنْ يُنكَرَ عليهم، ويُستَهزَأَ بعُقولِهم.

{خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ} (الأنبياء : ٣٧)

٣٧- خُلِقَ الإنســانُ مَطبوعًا على العجَلَةِ والتسَــرُّع، فهوَ قَليلُ الصَّــبر، لا تكادُ تَنفَكُّ عَنهُ العجَلة، ولو كانَ فيما يَطلبُهُ مَضرَّةٌ له. والكافِرونَ يَستَعجِلونَ العَذاب، تَكذيبًا لهُ ومُعانَدةً مِنْ أنفُسِــهم. لا تَســتَعجِلوا، فسَــوفَ تَنالُكمُ النِّقمَةُ والعَذاب، إنْ عاجِلاً في الدُّنيا، أو آجِلاً في الآخِرَة. واللهُ سَريعُ الانتِقام، وهوَ إنْ أمهَلَكمْ، فلنْ يؤخِّرَ العُقوبَةَ عنكمْ إذا جاءَ مَوعِدُها.

{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (الأنبياء : ٣٨)

٣٨- ويَقولونَ تَكذيبًا وعِنادًا: متَى يَقَعُ عَلينا هذا العَذاب، أو متَى تَحينُ السَّــاعَة، إذا كنتُمْ صَادِقينَ بأنَّها آتيَة؟

{لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} (الأنبياء : ٣٩)

٣٩- لو يَعلَمُ الكافِرونَ هَولَ وفَظاعَةَ هذا الذي يَســتَعجِلونَهُ لَمَا اســتَهزَؤوا بهِ أو جحَدوه، عندَما لا يَقدِرونَ على أنْ يَمنَعوا مِنْ وجوهِهمْ شِدَّةَ النَّارِ ولَهَبَها، التي تُحيطُ بهِمْ مِنْ كُلِّ جانِب، ولا عنْ ظُهورِهم، ولا أحدَ يَنتَصِرُ لهمْ ويُخَلِّصُهمْ منَ العَذابِ الذي همْ فيه.

{بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ} (الأنبياء : ٤٠)

٤٠- بلْ تَلتَهِمُهمُ النَّارُ فَجأة، فتُفزِعُهمْ وتُحَيِّرُهم، فلا يســتَطيعونَ رَدَّها عَنهم، ولا مفَرَّ لهمْ منها، فيَستَسلِمونَ لها. ولا يُؤَخَّرُ عنهمُ العَذاب، ولا همْ يُمهَلونَ ليَستَريحوا.

{وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون} (الأنبياء : ٤١)

٤١- ولقدْ أرسَلنا أنبياءَ قَبلَك، فاستَهزَأَ بهِمُ الكافِرونَ كما يَستَهزِئُ بكَ كُفّارُ قَومِك، فأحاطَ بالذينَ اســتَهزَؤوا منهمُ العَذابُ الذي كانوا يَتحَدَّونَ بهِ أنبياءَهمْ أنْ يأتوهُمْ به، ويَســتَبعِدونَ وقوعَه.

{قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ} (الأنبياء : ٤٢)

٤٢- قُلْ لهؤلاءِ المشرِكينَ المستَهزِئين: مَنِ الذي يَحفَظُكمْ باللَّيلِ والنَّهارِ مِنْ بأسِ اللهِ وغضَبِهِ أنْ يَنزِلَ بكم؟ وما الذي غرَّكمْ بربِّكمُ الكَريمِ الحَليمِ أنْ يَسخَطَ عَليكمْ إذا تَمادَيتُمْ في كُفرِكمْ وعِنادِكمْ وتَكذيبِكمْ رَسولَه؟ بلْ همْ عنِ القُرآنِ ومَواعظِهِ وآياتِ اللهِ ونُذُرِهِ غافِلون، غَيرُ مُبالِين ولا مُعتَبِرين.

{أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ} (الأنبياء : ٤٣)

٤٣- أمْ أنَّ آلِهَتَهمُ المزعومَةَ هيَ التي تَحفَظُهمْ وتَمنَعُ عَذابَ اللهِ عَنهم؟ كلاّ، إنَّها لا تَستَطيعُ أنْ تَمنعَ عنْ نَفسِها ضُرًّا يُصيبُها، ولا أحدَ يُجيرُها ويَنتَصِرُ لها مِنْ عندِنا ويُخَلِّصُها ممّا يُصيبُها، فكيفَ تَنتَصِرُ هيَ لعابِديها؟!

{بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ} (الأنبياء : ٤٤)

٤٤- بلْ غَرَّ هؤلاءِ وآباءَهمْ ما همْ فيهِ مِنْ نِعمَةٍ ومَال، واستَمَرُّوا على ذلكَ عمُرًا مَديدًا، واعتَقَدوا أنَّهمْ بذلكَ على شَيء، وما هوَ إلاّ إمهَالٌ لهم. ألا يَنظُرُ هؤلاءِ الكافِرونَ كيفَ أنَّنا نَنقُصُ مِنْ أطرافِ أراضيهمْ ونَنتَزِعُها مِنْ أيديهمْ بغَلَبَةِ المسلِمينَ عَليها شَيئًا فشَيئًا، أفهمُ الذينَ سيَغلِبونَ المؤمِنين؟ بلْ همُ المغلُوبونَ المهزومُون.

والآيَةُ مدَنيَّةٌ في هذهِ السُّورَةِ المكِّيَّة.

{قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاء إِذَا مَا يُنذَرُونَ} (الأنبياء : ٤٥)

٤٥- قُلْ لهمْ أيُّها النبيُّ الكريم: إنَّما أُنذِرُكمْ وأُخَوِّفُكمْ بالقُرآن، أنْ يُصيبَكمُ العَذابُ إنْ أنتُمْ أعرَضتُمْ عنْ دينِ الله، وحارَبتُمْ رَسولَه، ولكنَّ الذي أصَمَّهُ اللهُ في أُذُنَيهِ لا يَسمَعُ الكلام، وإنْ أُنذِرَ بما يُؤذيه، كما لا يُجدي الإنذارُ مَنْ أعمَى اللهُ بَصيرتَه، وختمَ على سَمعِهِ وقَلبِه.

{وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} (الأنبياء : ٤٦)

٤٦- وإذا أصابَهُمْ أدنىَ شَيءٍ مِنْ عَذابِ الله، تذَكَّروا ما فرَّطوا فيه، واعترَفوا بذُنوبِهِمُ التي أودَتْ بهِمْ إلى هذا العَذاب، وقالوا مُتحَسِّرين: يا هَلاكَنا، لقدْ أسرَفنا وتَجاوَزنا الحَدَّ وأغفَلنا أمرَ الله.

{وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} (الأنبياء : ٤٧)

٤٧- ونُحضِرُ الميزَانَ الذي تُوزَنُ بهِ صَحائفُ الأعْمالِ يَومَ الحِسابِ بالحَقِّ والعَدل، ولا يُظلَمُ أحَدٌ في ذلكَ اليَوم، فلا يُنقَصُ مِنْ ثَوابِهِ إنْ أحسَن، ولا يُزادُ في عُقوبتِهِ إنْ أساء، وإنْ كانَ عمَلُهُ زِنةَ حَبَّةِ الخَردَلِ في صِغَرِها وقِلَّتِها جئنا بها، وكفَى بنا مُحصِينَ لتِلكَ الأعمَال، فلا يَخفَى عَلينا منها شَيء.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ} (الأنبياء : ٤٨)

٤٨- وقدْ آتَينا موسَى وهارونَ التَّوراة، وفيها التَّفرِقَةُ بينَ الحقِّ والباطِل، وما يُنيرُ القُلوبَ ويُخَلِّصُها مِنْ ظُلُماتِ الجَهل، وعِظَةٌ وتَذكِرَةٌ لمَنْ خشِيَ اللهَ ولم يُخالِفْ أمرَه.

{الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ} (الأنبياء : ٤٩)

٤٩- الذينَ يَخافونَ ربَّهُمْ وإنْ لم يَرَوْهُ ولم يَرَوا عَذابَه، وهمْ مِنْ حِسابِ وأهوالِ يَومِ القيامَةِ خائفونَ وَجِلون، يَرجُونَ رَحمةَ رَبِّهِمْ ويَخافونَ عَذابَه.

{وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ} (الأنبياء : ٥٠)

٥٠- وهذا القُرآنُ جَليلٌ في قَدْرِه، عَظيمٌ في مَنفَعَتِه، أنزَلناهُ تَذكِرَةً للنّاس، وإنذارًا وبُشرَى، كالتَّوراةِ وغَيرِها مِنَ الكتُبِ السَّماويَّة، أفتُنكِرونَهُ وتَستَبعِدونَهُ وهوَ ظاهِرٌ جَليٌّ في مُعجِزَتِه، وفي أوامرِهِ ونَواهيه؟

{وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ} (الأنبياء : ٥١)

٥١- وقدْ هَدَينا إبراهيمَ إلى التَّوحيد، وألهَمناهُ طَريقَ الخَيرِ والفَلاح، قَبلَ موسَى وهارون، وكُنّا عالِمينَ بأحوالِهِ ومَحاسِنِ صِفاتِه، واستِعدادِهِ لحَملِ الرِّسالَة.

{إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ} (الأنبياء : ٥٢)

٥٢- إذْ قالَ لأبيهِ آزَرَ وقَومِهِ المشرِكين: ما هذهِ الأصنامُ التي تُلازِمونَ عِبادتَها؟

{قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ} (الأنبياء : ٥٣)

٥٣- قالوا له: هكذا وجَدنا آباءَنا وأجدادَنا يَعبدُونَها، ونحنُ نتَّبِعُهمْ ونُقَلِّدُهمْ في ذلك.

{قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} (الأنبياء : ٥٤)

٥٤- قالَ لهمْ إبراهيمُ عَليهِ السَّلام: إنَّكمْ أنتُمْ وآباؤكمْ زائغونَ مُنحَرِفون، على غَيرِ هِدايَةٍ ودَليلٍ تَعبُدون.

{قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ} (الأنبياء : ٥٥)

٥٥- قالوا لهُ مُتَعَجِّبينَ مِنْ تَخطِئَتِهِ إيّاهُم: أتَقولُ ذلكَ جادًّا أمْ لَعِبًا وهَزْلاً، فإنَّنا لم نَرَ مَنْ تكَلَّمَ على آلهَتِنا، وعابَ عَلينا عِبادتَهمْ قَبلَك؟

{قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ} (الأنبياء : ٥٦)

٥٦- قالَ لهمْ مُصَحِّحًا ومُنَبِّهًا: إنَّ هذهِ الأصْنامَ أحجَارٌ عَمِلتُموها بأيدِيكمْ ثمَّ زَعَمتُمْ أنَّها آلِهة، فليسَ فيها أيَّةُ صِفَةٍ مِنْ صِفاتِ الأُلوهيَّة، إنَّما خالِقُكمْ ورازِقُكمْ هوَ اللهُ رَبُّ السَّماواتِ والأرْض، الذي خَلقَهُنَّ ومَنْ فيهنَّ مِنَ الأحْياءِ والنَّباتِ والجَماد، وأنتُمْ جُزءٌ مِنْ هذهِ الأحياءِ المخلوقَةِ بأمرِهِ وتَدبيرِه، وأنا أشهَدُ أنَّهُ هوَ الإلهُ الحَقُّ الذي لا إلهَ غَيرُه، ولا يُعبَدُ سِواه.

{وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ} (الأنبياء : ٥٧)

٥٧- وواللهِ لأَمكُرَنَّ بأصنامِكمْ وأجتَهِدَنَّ في تَحطِيمِها بعدَ أنْ تنتَهوا مِنْ عِبادَتِها وتَمضُوا.

{فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ} (الأنبياء : ٥٨)

٥٨- فحَطَّمَها وجعلَها قِطَعًا، إلاّ الصَّنَمَ الكبيرَ بينَها، لم يَكسِرْه، لعلَّهُمْ يَرجِعونَ إليهِ ويَسألونَهُ عمَّنْ داهَمَ آلِهَتَهمْ فكسَــرَها وأذَلَّها هكذا، وكيفَ لم يُدافِعْ عَنها وهوَ كبيرُها؟! ثمَّ يَرجِعونَ إلى أنفُسِهمْ ويُدرِكونَ ما هُمْ فيهِ منْ وَهْمٍ وخطَأ.

{قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ} (الأنبياء : ٥٩)

٥٩- وحينَ رجَعوا إلى أصــنامِهمْ مرَّةً أُخرَى ورأَوها مَكســورة، تنادَوا قائلِين: مَنِ الذي أهانَ آلِهتَنا وفعلَ بها كُلَّ هذا؟ لا شَكَّ أنَّهُ ظالِمٌ مُتَعَدٍّ، قدْ عرَّضَ نفسَهُ لعِقابٍ كَبير.

{قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ} (الأنبياء : ٦٠)

٦٠- قالَ بعضُ مَنْ سَمِعَ إبراهيمَ يَتعَرَّضُ لها ويُهَدِّدُ بكَســرِها: سَمِعنا شــابًّا يَعِيبُها يُقالُ لهُ إبراهيم.

{قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ} (الأنبياء : ٦١)

٦١- قالوا: فأَحْضِروهُ ليَراهُ النَّاسُ كُلُّهمْ ويَشهَدوا ما نُوقِعُ بهِ منْ عِقاب.

{قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ} (الأنبياء : ٦٢)

٦٢- فلمّا اجتمَعَ النَّاسُ - وكانَ هذا مَقصُــودَ خَليلِ اللهِ إبرَاهيمَ عَليهِ السَّــلامُ - قالوا له: أأنتَ الذي حطَّمْتَ آلِهتَنا وكسَرتَها هكَذا يا إبرَاهيم؟

{قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ} (الأنبياء : ٦٣)

٦٣- قالَ لهمْ عَليهِ السَّلام: بلِ الذي كسَرَها هوَ هذا الصَّنَمُ الكبير - الذي ترَكَهُ ولم يَكسِرْهُ - فاسْألوهمْ إذا كانَ بالإمكانِ أنْ يَنطِقوا ويَدُلُّوكمْ عَليه.

{فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ} (الأنبياء : ٦٤)

٦٤- ففُوجِئوا بهذا الجَواب، بلْ أُفحِموا ولم يَعرِفوا كيفَ يَرُدُّونَ عَليه. وعندَما تدَبَّروا أنَّ قَولَهُ حَقّ، وأنَّ هذهِ الآلِهةَ المزعومَةَ ما هيَ سِوَى أحجارٍ صَمَّاءَ لا قُدرَةَ لها على الحرَكَةِ والكلام، ولا الدِّفاعِ عنْ نَفسِها، قالوا فيما بينَهم: بلْ أنتُمُ المخطِئونَ بعِبادَةِ مَنْ لا يَتكَلَّمُ ولا يَفهَم، ولا يَضُرُّ ولا يَنفَع.

{ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ} (الأنبياء : ٦٥)

٦٥- ثمَّ أطرَقوا رُؤوسَهمْ وهمْ في خَيبَةٍ وحَيرَة، وقالوا في عِنادِ الكافِرِ ومَنطِقِ المهزوم: لقدْ عَلِمتَ يا إبرَاهيمُ أنَّ هذهِ الآلِهةَ لا تتَكلَّم، وأنَّنا كنّا نَعبُدُها معَ عِلمِنا بذلك!

{قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ} (الأنبياء : ٦٦)

٦٦- قالَ لهمْ عَليهِ السَّلام: إذا كانتْ هذهِ الأحْجارُ لا تَنطِق، ولا تَستَطيعُ الدِّفاعَ عنْ نَفسِها، فكيفَ تُسَمُّونَها آلِهة، وكيفَ تَعبدُونَها مِنْ دونِ الله، وهيَ لا تَنفَعُكمْ بشَيء، ولا تَضُرُّكمْ بشَيء؟!

{أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} (الأنبياء : ٦٧)

٦٧- تُبًّا لكمْ على إصْرارِكمْ وتَشَبُّثِكمْ بالباطِل، وعِبادَتِكمْ لهذهِ الجَماداتِ التي تَدَّعونَ أُلوهيَّتَها وقدْ صَنَعتُموها بأيديكم، وهيَ غَيرُ قادِرَةٍ على نَفعِكمْ ولا الإضْرارِ بكم، أفلا تَتفَكَّرونَ فيما أنتُمْ فيهِ مِنْ ضَلالٍ وجَهل، وتَتدَبَّرونَ فيمَنْ يَستَحِقُّ العِبادَةَ حقًّا؟

{قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ} (الأنبياء : ٦٨)

٦٨- ولما انقطَعَتْ حُجَّتُهم، وضــاقَتْ حيلَتُهم، لجَؤوا إلى الظُّلمِ والتَّعَسُّــف، وقالوا: أحرِقُوهُ بالنَّار، حتَّى لا يَجرُؤَ أحَدٌ بَعْدَهُ أنْ يَقولَ مَقولتَهُ في آلِهتِنا، فانتَقِموا لها إذا أرَدتُمْ أنْ تَنصُــروها حَقًّا.

{قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ} (الأنبياء : ٦٩)

٦٩- وعندَما ألقَوهُ في النَّار، قُلنا لها: يا نارُ لا تُحرِقِيه، بلْ كوني لهُ بَرْدًا وسَلامًا وعافِيَة.

{وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ} (الأنبياء : ٧٠)

٧٠- وأرَادوا أنْ يَمكُروا بـهِ فيُحرِقُوهُ لِيُطفِئوا بـذلـكَ نورَ الحَقّ، ولكنَّ اللهَ هوَ الـذي مكرَ بهمْ وجعَلَهمْ خائبينَ مَغلوبِين.

{وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ} (الأنبياء : ٧١)

٧١- وأنجَينا إبرَاهيمَ ولُوطًا مِنَ القَومِ الكافِرين، وأمرناهُمْ أنْ يَقصِـدوا بلادَ الشَّـامِ المبارَكَة[٨٣]، ففيها بُعِثَ أكثَرُ الأنبِياء، وانتَشرَتْ شَرائعُهمْ في العالَم.

{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ} (الأنبياء : ٧٢)

٧٢- ووَهَبْنا لإبرَاهيمَ إسْــحاقَ اســتِجابَةً لِدُعائه، ثمَّ حَفيدَهُ يَعقوبَ، عَطيَّة، أي زيادَةً عمَّا سَأل. وجَميعُ هؤلاءِ أهلُ خَيرٍ وصَلاح.

{وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّــلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ} (الأنبياء : ٧٣)

---

(٨٣) وكانوا في العراق.

٧٣- وجعَلناهُمْ أئمَّةً يُقتَدَى بهم، يَهدونَ الأُمَمَ إلى الحَقِّ والعَدلِ كما أمَرناهُمْ وعَلَّمناهُم، وأوحَينا إليهِمْ أنْ يَعمَلوا بالشَّرائعِ المنْزَلَةِ عَليهم، ففِيها الخَيرُ والفَلاح، والبِرُّ والصَّلاح، مِنْ حُقوقِ اللهِ وحُقوقِ العِباد، وأمَرناهُمْ بالمواظَبَةِ على الصَّلاة، وإعطاءِ الزَّكاةِ للفُقَراءِ والمسَاكين، وكانوا مُخلِصينَ في عِبادَتِنا، صادِقينَ في طاعَتِنا.

{وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ} (الأنبياء : ٧٤)

٧٤- وأنعَمنا على عَبدِنا لُوط، فأوحَينا إليهِ وجَعَلناهُ نبيًّا، وآتَيناهُ العِلمَ الذي يُناسِبُ مَقامَ النبوَّة، فخالَفَهُ قَومُهُ وكذَّبوه، فأنجَيناهُ مِنْ أهلِ تلكَ القَريَةِ التي كانتْ تَعمَلُ المنكَراتِ والفَواحِش، وأشنَعُها فِعلُ اللِّواط، إنَّهُمْ كانوا قَومًا عاصِينَ خارِجينَ عنِ الطَّاعَة، مُكَذِّبينَ نَبيَّهم.

{وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} (الأنبياء : ٧٥)

٧٥- وجعَلناهُ مِنْ جُملَةِ مَنْ رَحِمناهُمْ مِنْ عِبادِنا، إنَّهُ مِنَ المطِيعينَ لرَبِّهم، المفلِحينَ في عمَلِهم، الفَائزينَ في آخِرَتِهِم.

{وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ} (الأنبياء: ٧٦)

٧٦- واذكُرْ عَبدَنا ورَسولَنا نُوحًا، إذْ دعا ربَّهُ قَبلَ الأنبياءِ المذكورين، ليُخَلِّصَهُ مِنْ أذى قَومِهِ الكافِرين، فاستَجَبنا دُعاءَه، وأنجَيناهُ وأهلَهُ المؤمِنين، مِنَ الغَمِّ الشَّديدِ الذي كانُوا فيه.

وقدِ أقامَ فيهمْ ألفاً إلاّ خَمسينَ عامًا وهمْ يُكَذِّبونَه. وكانوا في بِلادِ العِراق!

{وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ} (الأنبياء : ٧٧)

٧٧- وحَمَيناهُ ومنَعناهُ مِنْ هؤلاءِ الذينَ كذَّبوا بآياتِنا ومُعجِزاتِنا، إنَّهُمْ كانوا قومًا سَـــيِّئِينَ مُنهَمِكينَ في الفَواحِش، مُلازِمينَ للكُفر، فأهلَكناهُمْ جميعًا بالطُّوفان.

{وَدَاوُودَ وَسُـــلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَـــتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ} (الأنبياء : ٧٨)

٧٨- واذكُرْ خبَرَ رسُولَينا داودَ وابنِهِ سُليمان، إذْ طُلِبَ منهما الحُكمُ في زَرْعٍ أو شَجَرِ عِنَبٍ رَعَتْ فيهِ الأغنامُ لَيلاً مِنْ غَيرِ راعٍ لها، فأفسَدَتْهُ، وكانَ قَضاؤهما بعِلمِنا وبِمَرأًى منّا.

{فَفَهَّمْنَاهَا سُـلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَـخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَـبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ} (الأنبياء : ٧٩)

٧٩- ففَهَّمنا سُـلَيمانَ القَضـيَّةَ أو الفُتيا في هذهِ الواقِعَة، وقدْ أَعطَينا كُلاًّ منهما النبوَّةَ والعِلمَ الكثير.

ذُكِرَ أنَّ داودَ عَليهِ السَّلامُ قضَى للمُتَضَـرِّرِ بالغَنَم، وقضَى ابنُهُ سُـلَيمانُ بأنْ تُدْفَعَ الغنَمُ إلى صاحبِ الأرضِ لِيَنتَفِعَ بدَرِّها وصُوفِها، ويُدفَعَ الحَرْثُ إلى صاحبِ الغَنَمِ لِيَقومَ عَليهِ حتَّى يَعودَ كما كان، ثمَّ يَترادَّا.

وذَلَّلنا الجِبالَ والطُّيورَ معَ النَّبيِّ داود، فكانتْ تُقَدِّسُ اللهَ معَهُ عندَما يَقرأُ الزَّبور، لخشُـــوعِهِ وطِيبِ صَوتِهِ بتِلاوَتِه، ونَفعَلُ ذلكَ معَهُ ومعَ أمثالِه، بفَضلِنا ورَحمتِنا.

{وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ} (الأنبياء : ٨٠)

٨٠-وعَلَّمنا داودَ صِناعَةَ الدُّروع، فكانَ أوَّلَ مَنْ سَرَدَها حِلَقًا، لتَقيَكمْ في الحَربِ مِنْ ضرَباتِ السُّيوفِ وغيرِها، فهلْ تَشكُرونَ اللهَ على هذهِ النِّعمَة؟

{وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ} (الأنبياء : ٨١)

٨١- وسـخَّرنا الرِّيحَ للنَّبيِّ سُـليمان، فكانَ يَقطَعُ بها المسَـافاتِ البَعيدَةَ في وَقتٍ يَسـيرٍ كالعَاصِفَة، وتَجري بأمرِهِ وتأخذُهُ إلى أرضِ الشَّامِ المبارَكة، وكُنّا عالِمينَ بكُلِّ شَيءٍ مِنْ ذلك، مِمّا يَلزَمُهُ وما يَؤولُ إليهِ أمرُه.

{وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ} (الأنبياء : ٨٢)

٨٢- وسخَّرنا لهُ مِنَ الشَّياطينِ مَنْ يَغوصُونَ لهُ في البِحارِ ويَستَخرِجونَ لهُ اللَّآلئَ والجَواهِرَ وغيرَ ذلكَ مِنَ النَّفائس، ويَعمَلونَ لهُ صَـنائعَ كثيرَةً غَيرَ الغَوص، منَ الأمورِ الغَريبَةِ والعَجيبَة، وكُنَّا نَحفَظُهمْ مِنْ أنْ يُفسِدوا أو يَخرُجوا عنْ أمرِه، أو يَنالُوهُ بسُوء.

{وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} (الأنبياء : ٨٣)

٨٣- واذكُرْ عبدَنا ونَبيَّنا أيُّوب، الذي ابتَلَيناهُ بمَرَضٍ شَـديد، فتضَـرَّعَ إلى رَبِّهِ ودَعاهُ قائلاً: يا ربّ، قدْ أصـابَني الضُّـرُّ والبَلاء، فاكشِـفْ عَنّي ذلكَ واشـفِني، وأنتَ أجَلُّ وأكبَرُ مَنْ عُرِفَ بالرَّحمَة.

{فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ} (الأنبياء : ٨٤)

٨٤- فاسـتَجَبنا دُعاءَه، فأزَلنا ما بهِ مِنْ مرَض، وأعَدنا إلَيهِ أهلَهُ - بأنْ أحيَاهُم اللهُ لهُ -، وأعطَينَاهُ مثلَهمْ معَهم - فوُلِدَ لهُ ضِـعفُ ما كانَ -، نِعمَةً وهِبَةً لهُ مِنْ عندِنا، وليَكونَ ذلكَ عِبرَةً وعِظَةً لأمثالِهِ المبتَلينَ منَ المؤمنين، ليَصبِروا ويُثابُوا، ولئلاَّ يَظنُّوا أنَّ ما يُصيبُهمْ هوَ لهوانِهِمْ على الله، فقدِ ابتَلَينا النبيَّ أيُّوبَ بمَرَضٍ شَديد، والأنبياءُ أكرَمُ الناسِ وأفضَلُهمْ عندَ الله.

{وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ} (الأنبياء : ٨٥)

٨٥- واذكُرْ إسماعيلَ، وإدريسَ، وذا الكِفْلِ. والأكثَرُ أنَّ الأخيرَ نبيٌّ أيضًا، فقدْ ذُكِرَ ضِمنَ الأنبياءِ عَليهمُ الصَّلاةُ والسَّلام. وكُلُّ هؤلاءِ كانوا ثابِتينَ على إيمانِهِمْ وعُهودِهِمْ معَ الله، أقوياءَ في عَزائمِهم، صابِرينَ على تَكاليفِ الدَّعوةِ والتَّبليغ.

{وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ} (الأنبياء : ٨٦)

٨٦- وجعَلناهُمْ في جُملَةِ مَنْ رَحِمناهُمْ مِنْ عِبادِنا، إنَّهُمْ مِنَ المطيعينَ لرَبِّهم، المفلِحينَ في عمَلِهم، المقبولينَ عندَ ربِّهم.

{وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} (الأنبياء : ٨٧)

٨٧- واذكُرْ عَبدَنا ونَبيَّنا يونُسَ بنَ مَتَّى، صاحِبَ الحوت، الذي دعا قَومَهُ فأبَوا، فوعدَهمْ بالعَذاب، مُنتَظِرًا أنْ يَحِلَّ بهم، ثمَّ هجَرَهمْ وهوَ غاضِبٌ عَليهم، قَبلَ أنْ يأذنَ اللهُ لهُ بالهِجرَة، وقدْ ظَنَّ أنَّ اللهَ لنْ يَقضِيَ عَليهِ بعُقوبَة، ولنْ يُضَيِّقَ عَليه، فرَكِبَ البَحر، وابتلَعَهُ الحوت، وبَقيَ في بَطنِهِ ولم يَهضِمْه، بأمرِ الله، فدَعا وهوَ في ظُلمَةِ بَطنِ الحوت، وظُلمَةِ البَحر، وظُلمَةِ اللَّيل، قائلاً: {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}: لا مَعبودَ بحَقٍّ سِواكَ يا رَبّ، يا واحِدُ يا أحَد، إنِّي ظَلَمتُ نَفسي بهِجرَتي قَومي دونَ إذنٍ وأمْرٍ منك، فاغفِرْ لي، وتُبْ عَليّ.

{فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ} (الأنبياء : ٨٨)

٨٨- فاستَجَبنا دُعاءَه، وقَبِلنا توبَتَه، وأخرَجناهُ مِنْ بَطنِ الحوت، ونَجَّيناهُ مِنْ تلكَ الظُّلُمات، وكذلكَ نَستَجيبُ دُعاءَ المؤمنينَ في الكُرَبِ والشَّدائدِ إذا دعَونا واستَغاثُوا بنا. وخاصَّةً بدُعاءِ يونُسَ عَليهِ السَّلام، فقدْ صَحَّ في الحَديثِ قَولُهُ صلى الله عليه وسلم: "دَعوَةُ ذي النُّونِ التي دَعا بها في بَطنِ الحوت: {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} لم يَدْعُ بها مُسلِمٌ في كُرْبَةٍ إلاّ استَجابَ له". واللَّفظُ للحاكِم.

{وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ} (الأنبياء : ٨٩)

٨٩- واذكُرْ خَبَرَ عَبدِنا ونبيِّنا زَكريّا، الذي كَبِرَ في السِّــنّ، وزَوجُهُ عاقِر، فلم يُرزَقْ بولَد، فدَعا ربَّهُ وهوَ غَيرُ يائسٍ مِنْ رَحمتِهِ وإجابَةِ دَعوَتِه: اللهمَّ لا تُبقِني وحيدًا لا وارِثَ لي، أســـألُكَ أنْ تَهَبَني ولَدًا يَكونُ نبيًّا في النَّاسِ كما كنتُ، وأنتَ الباقي بعدَ فَناءِ الخَلق، وأفضَلُ مَنْ بَقيَ حَيًّا.

{فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} (الأنبياء : ٩٠)

٩٠- فاستَجَبْنا لهُ دُعاءَه، ووَهَبْنا لهُ يَحيَى، بعدَ أنْ أصلَحنا لهُ زَوجَهُ فجعَلناها وَلُودًا.

وكانَ الأنبياءُ المذكورونَ عابِدينَ صــالِحين، يُســارِعونَ في عمَلِ الطَّاعاتِ وأنواعِ القُرُبات، حُبًّا في اللهِ وما عندَهُ مِنَ الثَّواب، وخَوفًا ورَهبَةً مِنْ نِقمَتِهِ وعذابِه، وكانوا مُتضَـــرِّعينَ إلى رَبِّهم، مؤمنينَ مُخبِتين.

{وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ} (الأنبياء : ٩١)

٩١- واذكُرْ أَمَتَنا مَريَمَ بنتَ عِمران، التي تبتَّلَتْ وامتَنَعَتْ عنِ الزَّواج، وحَفِظَتْ فَرْجَها مِنَ الحَرام، فنفَخنا فيهِ بواسِـــطَةِ جِبريل، وجعَلنا حالَها معَ ابنِها المســيحِ عيسَـــى مُعجِزَةً للنَّاس، فحمَلَتْ مِنْ دونِ نِكاح، ووُلِدَ مِنْ غَيرِ أب، وهوَ دَليلٌ على قُدْرَةِ الله.

{إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} (الأنبياء : ٩٢)

٩٢- إنَّ دِينَكمْ دِينٌ واحِد، وهوَ مِلَّةُ التَّوحيدِ والإسْلام، وأنا رَبُّكم، خالِقُكمْ ورازِقُكم، ومُنزِلُ هذا الدِّينِ عَليكم، فوَحِّدوني وأطِيعوا أمرِي.

{وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ} (الأنبياء : ٩٣)

٩٣- وتفَرَّقَتِ الأُمَمُ في أمرِ دِينِ اللهِ واختلَفوا، وصــاروا فِرَقًا وأحزابًا، وكانوا بينَ مؤمنٍ وكافِر، وكُلُّهمْ راجِعونَ إلَينا يومَ القيامَة، ليُجازَى كُلٌّ بما عَمِل.

{فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ} (الأنبياء : ٩٤)

٩٤- فمَنْ يَعمَلْ مِنَ الأعمالِ الحسَنَة، الموافِقَةِ للشَّريعَة، وهوَ مؤمِنٌ بها، مُصَدِّقٌ بالثَّوابِ والعِقابِ مِنَ الله، فلنْ يُحْرَمَ ثَوابَ عمَلِه، ونحنُ حافِظونَ لهُ سَعيَه، ومُثبِتونَهُ كلَّهُ في صَحيفَةِ عمَلِه، لا يَضيعُ منهُ شَيء.

{وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ} (الأنبياء : ٩٥)

٩٥- ومُمتَنَعٌ على أهلِ قَريَةٍ أهلَكناهُمْ لِظُلمِهِمْ وتَكذيبِهِمْ رسُلَ اللهِ أنْ يَرجِعوا مرَّةً أُخرَى إلى الدُّنيا، قَبلَ يَومِ القيامَة.

{حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ} (الأنبياء : ٩٦)

٩٦- حتَّى إذا فُتِحَ المجالُ لخرُوجِ قَبيلَتي يأجوجَ ومأجوجَ مِنْ وراءِ سَدِّ ذي القَرنَين، إذا هُمْ مِنْ كُلِّ مُرتفِعٍ يُسرِعون، ليَنشُروا الفَسادَ في الأرْض. وهذا مِنْ عَلاماتِ القيامَةِ الكُبرى، ويَكونُ بعدَ مَقتَلِ الدَّجَّال.

{وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ} (الأنبياء : ٩٧)

٩٧- فإذا حصَلَتْ هذهِ الأهوَالُ والبلابِل، اقترَبَ يَومُ القِيامَة، وَعْدُ اللهِ الحَقُّ الذي وعَدَ بهِ عِبادَهُ للحِسابِ والجَزاء، وإذا الكُفّارُ شاخِصَةٌ أبصارُهمْ لا تَطرَف[٨٤]؛ لشِدَّةِ ما يَرَونَ مِنَ الأهوَالِ والأُمورِ العِظام، ويَقولون: يا هَلاكَنا ويا حَسرَتَنا، لقدْ كُنَّا في الدُّنيا غافِلينَ عنْ هذا الذي حصَلَ لنا مِنَ الحِسابِ والجَزاء، بلْ كُنّا مُعتَدِين، مُجانِبينَ الحَقّ، عندَما كذَّبْنا بآياتِ اللهِ ورُسُلِه، وعَبَدْنا ما لا يُعْبَدُ.

---

(٨٤) شاخصةً أبصارهم: أجفانُهم لا تَطْرِف. (مفردات الراغب).

يقال: شخصَ بصرهُ فهو شاخص: إذا فتحَ عينيهِ وجَعلَ لا يَطرف. وبصره: رفعه. وشخصَ شخوصًا: ارتفع. (روح البيان).

الشخوص: إحدادُ البصرِ دونَ تحرك، كما يقعُ للمبهوت. (التحرير).

{إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ} (الأنبياء : ٩٨)

٩٨- إنَكمْ أيُّها الكافِرون، وما تَعبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنَ الأصْـنامِ التي كنتُمْ تَرجُونَ شَـفاعتَها، وَقُودُ جَهنَّم، وإنَّكمْ لداخِلونَ فيها، ولسَوفَ تُسعَرُ نارُها بكمْ ومِنكم.

{لَوْ كَانَ هَؤُلَاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ} (الأنبياء : ٩٩)

٩٩- ولو كانتْ أصنامُكمْ هذهِ التي تَعبدُونَها آلِهَةً حَقًّا، لدَافعَتْ عنْ نَفسِها ولم تَدخُلِ النَّار. وكُلُّكمْ ماكِثونَ فيها أبَدًا، أنتُمْ وأصنامُكم.

{لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ} (الأنبياء : ١٠٠)

١٠٠- لهمْ في جَهنَّمَ زَفيرٌ شَديد، مِنَ الغَمِّ والألَمِ الفَظيع، وهمْ فيها لا يَسمَعون؛ لشِدَّةِ الكَرْبِ والبَلاءِ والعَذابِ الذي يُصيبُهم.

{إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ} (الأنبياء : ١٠١)

١٠١- أمَّا الذينَ كتَبَ اللهُ لهمُ السَّـــعادَة، وكانوا على إيمَانٍ وصَـــلاح، فأولئكَ مُبعَدونَ مِنَ النَّار.

{لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ} (الأنبياء : ١٠٢)

١٠٢- لا يَسمَعونَ صَوتَها وأجيجَ حَريقِها، وهمْ باقُونَ على الدَّوامِ فيما يَشتَهونَ مِنَ النَّعيم.

{لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} (الأنبياء : ١٠٣)

١٠٣- ولا يَهُمُّهُمْ ولا يَغُمُّهُمْ يَومُ الهَولِ الأكبَر، لأنَّهمْ يُعطَونَ الأمَانَ بأنَّهمْ منْ أهلِ الجَنَّة، وتَستَقبِلُهمْ مَلائكَةُ الرَّحمَةِ وتُبَشِّرُهمْ بذلك، وتَقولُ لهم: هذا يَومُ الثَّوابِ الذي تُجزَونَ به، وهذا يَومُ سُرورِكُمُ الذي وُعِدتُمْ به.

{يَوْمَ نَطْوِي السَّـمَاء كَطَيِّ السِّـجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} (الأنبياء : ١٠٤)

١٠٤- في يَومِ القِيامَةِ نَطوي السَّـــماءَ كَطَيِّ الصَّـــحيفَةِ لِمَا كُتِبَ فيها[٨٥]، وكما بدَأنا خَلْقَ الإنسَـــانِ في بُطونِ أُمَّهاتِهم، حُفاةً غُرْلاً (غَيرَ مَختُونين)، فسَـــنُعيدُ خَلْقَهُ ونَحشُـــرُهُ يَومَ البَعثِ كذلكَ، وَعدًا عَلَينا أنْ نفعَلَ ذلك، لا مَحالَة.

وفي الحَديثِ الصَّحيحِ الذي رَواهُ البُخاريُّ رَحِمَهُ الله، قَولُهُ صلى الله عَليه وسلم: "أيُّها النَّاس، إنَّكمْ مَحشـــورونَ إلى اللهِ عُراةً غُرْلاً. ثمَّ قال: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}".

{وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّـــالِحُونَ} (الأنبياء : ١٠٥)

١٠٥- ولقدْ أنزَلنا في الكتُبِ السَّـــماويَّة، بعدَ كتابَتِهِ في اللَّوحِ المحفوظ، أنَّ أرضَ الجنَّةِ يَرِثُها عِباديَ الصَّالِحونَ المتَّقون[٨٦].

{إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ} (الأنبياء : ١٠٦)

١٠٦- إنَّ فيما ذُكِرَ في هـذهِ السُّـــورَة، أو في القُرآن، مِنَ الأخبَار، والمواعِظ، والتَّرغيبِ والتَّرهيب، والآياتِ البيّنات، كِفايَةً لمنْ آثرَ العِبادَةَ والطَّاعَةَ على العِصيان.

---

(٨٥) في إضافةِ السجلِّ إلى الكتبِ قالَ الآلوسيُّ رحمهُ الله: أي كطيِّ السجلِّ كائنًا للكتب، أو الكائنِ للكتب، فإن الكتبَ عبارةٌ عن الصحائفِ وما كُتبَ فيها، فسجلُّها بعضُ أجزائها، وبه يتعلَّق الطيُّ حقيقة. (روح المعاني).

ويُفهمُ من كلامهِ رحمَهُ الله أن المقصودَ مجموعةُ أوراقٍ أو صفحاتٍ من الكتاب.

ويكونُ معنى الكتابِ عندهُ الكتابَ العاديَّ الذي نعرفه، يعني جنسَ الكتاب، أعني هيئتهُ وشـــكلَه، بغضِّ النظرِ عن مصدرِهِ أو محتواه. (الكتاب في كتاب الله تعالى/ محمد خير يوسف).

(٨٦) ذهبَ كثيرٌ من أهلِ التفسـيرِ إلى أنَّ المقصـودَ بالأرضِ هنا أرضُ الجنة، لكنْ قالَ الشـوكانيُّ رحمَهُ الله: "الظاهرُ أن هذا تبشيرٌ لأمةِ محمدٍ صلى الله عليه وسلمَ بوراثةِ أرضِ الكافرين، وعليه أكثرُ المفسرين". (فتح القدير).

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} (الأنبياء : ١٠٧)

١٠٧- وما أرسَـلناكَ إلاّ رَحمَةً للنَّاسِ كُلِّهم، بما أُرسِـلْتَ بهِ مِنْ شَـريعَةٍ عامَّة، فيها العَقيدَةُ الصَّحيحَة، والأحكامُ العادِلَة، والدَّعوَةُ إلى السُّلوكِ المستَقيم، التي تؤدِّي إلى السَّعادَةِ والأمانِ في الدَّارَين.

{قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ} (الأنبياء : ١٠٨)

١٠٨- قُلْ لهؤلاءِ المشـركينَ أيُّها الرَّسُـول: إنَّ الذي يُوحَى إليَّ وأُبَلِّغُكمْ إيَّاهُ وأدعوكُمْ إليه، هوَ عِبادَةُ اللهِ وحدَهُ لا شَـريكَ له، فهلْ أنتُمْ مُسـتَسـلِمونَ لأمرِ الله، مُنقادُونَ لحُكمِهِ كما أوحَى إليّ؟

{فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَــوَاء وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ} (الأنبياء : ١٠٩)

١٠٩- فإذا أبَوا، وترَكوا ما دَعَوتَهُمْ إليهِ مِنَ الإسْـــلام، فقُلْ لهم: قدْ أعلَمْتُكمْ ما أُمِرْتُ به، وحذَّرتُكمْ مِنَ التَّمادي في الكُفر، والتَّكذيبِ بالرِّســالَة، وأنا بَريءٌ منكمْ ومِمّا تَعمَلون، وحَربٌ عَليكم، وأنتُمْ بَريؤونَ منّي، فنحنُ سَواءٌ في الإعلامِ بذلك، ولا أدري متَى يَكونُ نَصرُ اللهِ وغلَبَةُ المسلِمينَ عَليكم، أهوَ قَريبٌ زمانُهُ أمْ بَعيد.

{إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ} (الأنبياء : ١١٠)

١١٠- واللهُ عالِمٌ بما تَعمَلون، مِنَ الكَيدِ للإسْـلام، وتَكذيبِ رَسـولِه، وعَيبِ أهلِه، يَعلَمُ ما تُظهِرونَهُ مِنْ أقوالٍ وإنْ كثُرَت، فلا يَشــغَلُهُ سَمعُ كلامٍ عنْ سَمعِ آخَر، ويَعلَمُ ما تُخفُونَهُ في صُدورِكمْ مِنْ أسرارٍ وإنْ دَقَّت.

{وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} (الأنبياء : ١١١)

١١١- ، ولا أدرِي، فلعَلَّ تأخيرَ العَذابِ عَنكمْ امتِحانٌ لكم، ليَنظُرَ كيفَ تَعمَلون، وانتِظارٌ بكمْ إلى أجَلٍ مُسَمًّى لحِكمَةٍ في ذلك، اللهُ أعلَمُ بها.

{قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} (الأنبياء : ١١٢)

١١٢- وقالَ الرَّسولُ صلى الله عليه وسلم: اللهمَّ اقْضِ بينَنا وبينَ المشرِكينَ بحُكمِكَ الحقّ، ورَبُّنا ذو رَحمَةٍ كبيرَةٍ بعِبادِه، والعَونُ والنَّصْرُ مِنَ اللهِ على ما يَقولُ المشرِكونَ مِنَ الكفرِ والتَّكذيب.

وقدْ ذكرَ مُفَسِّرونَ أنَّهُ دُعاءٌ بالعَذابِ عَليهم، وأنَّهُمْ عُوقِبوا بيَومِ بَدر.

سورة الحجّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} (الحج : ١)

١- أيُّها النّاس، أطِيعوا رَبَّكمْ واحذَروا عِقابَه، وتَجنَّبوا كُلَّ ما نَهاكمْ عَنه، وخاصَّةً الشِّـرك، فإنَّ زلزَلَةَ القيامَةِ أمرٌ عَظيمٌ هائل، وفيهِ مِنَ الشَّدائدِ والأهوالِ ما لا يُتَصَوَّر.

{يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} (الحج : ٢)

٢- في ذلكَ اليَومِ العَصيبِ الذي تَرونَ فيهِ الزَّلزَلَة، تَنشَغِلُ كُلُّ أُمٍّ مُرضِعَةٍ عنْ وَليدِها الصَّغيرِ الذي لا يَزالُ يَرضَـعُ ثَدْيَها، فتَذهَلُ عنهُ وتَنسَـاهُ وهيَ أكثَرُ النَّاسِ شَـفقَةً عَليه، لشِـدَّةِ هَولِ ذلكَ اليَوم، وتلكَ الزَّلزَلَةِ العَظيمَة. وتُلقي كُلُّ حامِلٍ جَنينَها قَبلَ تَمامِه، مِنْ الخَوفِ والفزَعِ وشِدَّةِ الكَرْب. وترَى النَّاسَ كالسُّكارَى وكأنَّهُمْ غائبونَ عنِ الوَعي، وهمْ ليسُوا سُكارَى حَقيقَة، ولكنَّ شِدَّةَ عَذابِ الله، وهَولَ ما هُمْ فيه، أدهَشَتْ عُقولَهم، فمَنْ رآهُمْ ظَنَّهمْ سُكارَى.

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ} (الحج : ٣)

٣- ومِنَ النَّاسِ منْ يُخاصِـمُ ويُجادِلُ في شـأنِ اللهِ وقُدرَتِهِ على البَعثِ مِنْ غَيرِ علمٍ ولا بُرهانٍ صَـحيح، ويَقولُ ما لا خَيرَ فيهِ مِنَ الأباطِيل، ويُنكِرُ ما هوَ حَقٌّ وصَـواب، ويَتَّبِعُ بذلكَ كُلَّ شَيطانٍ مارِدٍ على الحَقّ، مُتَمادٍ في الشَّرّ، مُتجَرّدٍ منْ كُلِّ خَيرٍ وفَضيلَة، مِنَ الجِنِّ والإنْس، مِنْ مثلِ رؤوسِ الكُفرِ وأهلِ الضَّلالَة، الناشِرينَ للفسَادِ في كُلِّ عَصر.

{كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} (الحج : ٤)

٤- قُضِـيَ على الشَّـيطانِ أنَّ مَنِ اتَّبَعَهُ وقَلَّدَه، فسَـوفَ يُضِـلُّهُ في الدُّنيا ويُغويه، ويَقودُهُ في الآخِرَةِ إلى عَذابِ النار، وبئسَ المَصير.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (الحج : ٥)

٥- أيُّها المنكِرونَ للمَعاد، إذا كنتُمْ في شَكٍّ مِنْ قُدرَةِ اللهِ على بَعثِ النّاسِ بعدَ مَوتِهم، فإنَّ هُناكَ أدِلَّةً مُشاهَدَةً تُبَيِّنُ قُدرَتَهُ تَعالَى على ذلك. فقدْ خَلَقنا أصلَكمْ مِنْ تُراب. وقدْ تبيَّنَ أنَّ العناصِرَ التي تَدخُلُ في تَركيبِ جسمِ الإنسانِ هيَ العناصِرُ نَفسُها التي تَكونُ في الطِّينِ والتراب، معَ اختِلافِ النِّسَب، وهيَ (٢٢) عُنصُرًا.

ثمَّ جَعَلنا نَسلَكمْ مِنْ نُطفَة، وهيَ المنِيُّ، للمرأةِ والرَّجُل، الذي يَحمِلُ ملايينَ الحيواناتِ المنويَّة.

فإذا استقرَّ المنِيُّ في رَحِمِ المرأةِ وبَقيَ أربَعينَ يومًا تحوَّلَ إلى عَلَقَة، وهيَ قِطعَةٌ منَ الدَّمِ الغَليظِ المتَجَمِّد، الذي يتعَلَّقُ بجِدارِ الرَّحِمِ ويَعيشُ على امتِصاصِ دَمِ الأُمّ.

ثمَّ تتحَوَّلُ إلى مُضْغَةٍ تُشبِهُ قِطعَةَ لحمٍ مَمضُوغ، وهيَ تتألَّفُ مِنْ جُزءٍ مُخَلَّقٍ مُصَوَّرٍ تَعرِفُهُ إذا أُخرجَ لكَ مِنْ داخِلِها أنَّهُ بشَرٌ سَويّ، ومِنْ قُرصٍ لَحميّ ليسَ عَليهِ تَصويرٌ ولا تَخَلُّقٌ ولا أعضاء، هوَ المشِيمَة، وهما مُرتَبِطانِ معًا، يُشَكِّلانِ داخِلَ الرَّحِمِ وحدَةً لا تَنفَصِم، وإلاّ ماتَ الجَنينُ وانتَهى الحَمْل... إنَّها مُضْغَةٌ واحِدَةٌ مُخَلَّقَةٌ وغَيرُ مُخَلَّقَةٍ في الوَقتِ نَفسِه.

ونوَضِّحُ لكمْ ذلكَ لتَذكُروا دَقائقَ خَلقِ الله، وعَظيمَ قُدرَتِهِ وإبداعِهِ في إنشاءِ خَلقِهِ وأطوَارِ خَلقِهِم، ونُبقِي في أرحامِ الأمَّهاتِ ما نشاءُ أنْ نُبقِيَهُ حتَّى يَضَعْنَه. فإذا لم نَشأ ذلكَ أسقَطنَهُ قَبلَ إتمامِ مَوعِدِ الحَمْل.

ثمَّ نُخرِجُكمْ مِنَ الأرحامِ طِفلاً لا حيلَةَ له.

ثمَّ تَكبَرونَ وتقوَى أجسامُكمْ وتَكتَمِلُ حَواسُّكم، ومنكمْ مَنْ يَموتُ قَبلَ أنْ يَشتَدَّ عُودُه، ومنكمْ مَنْ يَكبَرُ حتَّى يَصيرَ شَيخًا هَرِمًا، فيَضعُفُ عَقلُهُ وقوَّتُهُ حتَّى لا يَعلمَ شَيئاً بعدَ عِلمٍ كثيرٍ وخِبرَةٍ ومِراس!

فهذا كُلُّهُ منْ تَدبيرِ اللهِ وأمرِه.

وترَى الأرضَ يابِسَـةً قاحِلَةً لا نَباتَ فيها ولا شَـجَر، فإذا أنزَلنا المطَرَ وسُـقِيَتْ به، تحرَّكَ نَباتُها وانبَعَثَتْ فيها الحياةُ وانتَفَخَتْ وارتَفعَت، وأخرَجَتْ مِنْ كُلِّ صِــنفٍ حسَــنٍ ما يُوحي بالحَياةِ والحرَكَةِ ويَسُرُّ النَّاظِرين.

{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (الحج : ٦)

٦-وهذا كُلُّهُ دَليلٌ على الإلهِ الحَقّ، الخالِقِ المدَبِّرِ المبدِع، وأنَّهُ سـيُحيي الموتَى يَومَ البَعثِ كما خلَقَكمْ أوَّلَ مرَّة، وكما أحيَا الأرْضَ بعدَ موتِها، وأنَّهُ قادِرٌ على كُلِّ شَيءٍ يُريدُه.

{وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ} (الحج : ٧)

٧- وأنَّ قِيامَ السَّاعَةِ وبَعثَ النَّاسِ للحِسابِ والجَزاءِ آتٍ بلا شَكّ، وأنَّ اللهَ يَبعَثُ جَميعَ الموتَى في القُبور.

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ} (الحج : ٨)

٨- ومِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ ويُخاصِمُ في شَأنِ اللهِ وقُدرَتِهِ على البَعثِ بغَيرِ علمٍ صَحيحٍ ومَعرِفَةٍ مَقبُولَة، ولا استِنادٍ إلى وَحيٍ أو مَصدَرٍ فيهِ حُجَّةٌ وبُرهان، بلْ هوَ مُجَرَّدُ رأيٍ وهوًى. فهوَ معانِدٌ لِلحقّ، جاهلٌ مقلِّد.

{ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ} (الحج : ٩)

٩- وهوَ يَميلُ بجانبِهِ ويَشـمَخُ بأنفِهِ تكَبُّرًا وإعرَاضًا عنِ الحقّ، ليُزيغَ النَّاسَ ويَصـرِفَهمْ عنْ دينِ الله، فهذا لهُ الذلُّ والهَوانُ في الحَياةِ الدُّنيا، وفي يَومِ القيامَةِ نُصْليهِ عَذابَ النَّارِ المحْرِق.

{ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} (الحج : ١٠)

١٠- هذا ما جَنَتْهُ يَداكَ مِنَ المعاصِي والعِنادِ على الكُفر، أيُّها المخاصِمُ العَنيد، المتكبِّرُ على الحقّ، واللهُ لا يَظلِمُ عِبادَه، فلا يُعاقِبُهمْ بدُونِ ذَنْب، وإذا عاقبَهمْ فلا يَزيدُ في عُقوبَتِهمْ أكثرَ ممّا يَستحِقُّونَه.

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} (الحج : ١١)

١١- ومِنَ النَّاسِ مَنْ هوَ مُتَذَبذِب، يَعبدُ اللهَ على شَكٍّ أو طَرَفٍ مِنَ الدِّينِ لا يَثبُتُ عَليه، فإذا استَفادَ مالاً ووَلَدًا في الدِّينِ استَقَرَّ عَليهِ ورَضيَه، وإذا اعتَراهُ مَكروهٌ فيهما تَرَكَهُ ورجَعَ كافِرًا، فضَيَّعَ بذلكَ الدُّنيا والآخِرَة، وتلكَ هيَ الخَسَارَةُ البيِّنَة.

أي أنَّ نَظرَتَهُ إلى الحقِّ كانتْ لِمصلَحَةٍ دنيويَّة، وليسَتْ لقَناعَةٍ ذاتيَّة.

{يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ} (الحج : ١٢)

١٢-يَترِكُ عِبادَةَ اللهِ، خالقِهِ ورازِقِه، ويَعبدُ الأصْنام، التي لا تَضُرُّهُ إذا لم يَعبدْها، ولا تَنفَعُهُ إذا عبَدَها، وهذا هوَ الضَّلال، البَعيدُ عنِ الحقِّ والرَّشاد.

{يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ} (الحج : ١٣)

١٣- وضَرَرُهُ مِنْ عِبادَتِها في الدُّنيا (بالخِزي والذُّلِّ) قَبلَ الآخِرَةِ (بتوَقُّعِ الشَّفاعَةِ له)، أقرَبُ مِنْ نَفعِها لهُ فيها. وهوَ أسلوبٌ بلاغيٌّ يَعني أنَّهُ لا نَفعَ فيها ألبتَّة، أو يُقال: إنْ نفَعَ بتخَيُّلِه، فيَكونُ ضَرَرُهُ أقرَبَ مِنْ نَفعِه. أمَّا الضَّرَرُ الذي يَقَعُ عَليهِ منها في الآخِرَة، فمُحَقَّقٌ ومُتَيَقَّن. فبئسَ هذا الذي يُتَّخَذُ وليًّا وناصِرًا، وبئسَ الذي يُعَاشَرُ ويُخالَط.

{إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} (الحج : ١٤)

١٤- إنَّ اللهَ يُدخِلُ المؤمنينَ المخلِصين، الذينَ يُتبِعونَ إيمانَهُمْ بالأعمالِ الحسَنة، جنَّاتٍ عاليَات، تَجري الأنهارُ مِنْ تحتِ أشجارِها. واللهُ يَفعَلُ ما يُريد، فيُعاقِبُ الكافِرينَ لكُفرِهِمْ وعِنادِهِمْ، ويُثيبُ المؤمنينَ على إيمانِهِمْ وأعمالِهِمُ الصَّالِحة.

{مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ} (الحج : ١٥)

١٥- مَنْ كانَ يَظُنُّ مِنَ المشركينَ أنَّ اللهَ لنْ يَنصُرَ نَبيَّهُ محمَّدًا صلى الله عليه وسلم، فليَمُتْ غيظًا، ليَربطْ حَبلاً بسَقفِ بَيتِهِ ويَمُدَّهُ ثمَّ يَخنُقْ بهِ نفسَه، فليَنْظُرْ: هلْ يَشفي صَنيعُهُ هذا ما يَجِدُ في صَدرِهِ مِنَ الكمَدِ والغَيظ؟! وهوَ تحَكُّمٌ به، أو زيادَةٌ في غَيظِه، ولا يَنفَعهُ ذلكَ شَيئًا، ولنْ يُؤخِّرَ مِنْ نَصرِ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فاللهُ ناصِرُهُ ولو كَرِهَ الكافِرون.

{وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ} (الحج : ١٦)

١٦- وبمثلِ هذا البَيانِ والحِكَمِ البالِغَةِ أنزَلنا القُرآن، الذي يَتضَمَّنُ آياتٍ واضِحَةً بَليغَةً، واللهُ يَهدي مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِه، ممَّنْ وجدَ عندَهمْ استِعدادًا وقَبولاً للحَقّ.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (الحج : ١٧)

١٧- إنَّ المؤمنين، واليَهودَ، والصَّابِئة: وهمْ قَومٌ أهلُ دِيانَةٍ بالعِراق، والنَّصارَى، والمجوس: عبَدَةَ النَّار، والمشركِينَ: عَبَدَةَ الأوثان، إنَّ اللهَ يَحكُمُ بينَهمْ يَومَ الحِسابِ بالحَقِّ والعَدل، فيُعاقِبُ مَنْ كَفرَ بالنَّار، ويُثيبُ مَنْ آمنَ بالجنَّةِ والرِّضوَان، واللهُ مُراقِبٌ لأحوَالِ النَّاس، شاهِدٌ على أعمالِهِم، لا يَخفَى عليهِ شَيءٌ ممّا أعلَنوا أو أسَرُّوا.

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} (الحج : ١٨)

١٨- وكلُّ شَيءٍ في هذا الكونِ بأمرِ اللهِ وإرادَتِهِ وتحتَ سَيطرَتِه. ألَمْ تَرَ أنَّهُ يَسجُدُ لعظمَتِهِ مَنْ في السَّماواتِ مِنَ الملائكة، ومَنْ في الأرضِ مِنَ الأناسيِّ والجانِّ والحيَوان، وكذلكَ الشَّمسُ، والقَمَرُ، والنجومُ الكثيرَة، والجِبالُ الكبيرَة، والشَجَرُ والنَّبات، وكُلُّ مَنْ دَبَّ على الأرض، فهذهِ كُلُّها مُنقادَةٌ لحُكمِهِ تعالَى، خاضِعَةٌ لأمرِه، خاشِعَة، مُسَبِّحَةٌ له، وكثيرٌ مِنَ الناس، ممَّنْ أسلَمَ وَجهَهُ لله، يَسجُدُ لهُ طَوعًا، وكثيرٌ منَ الناسِ وجبَ عَليهِمُ العذابُ بسَبَبِ امتناعِهِمْ واستِكبارِهِمْ عنِ السُّجودِ لرَبِّهِم.

ومَنْ أذَلَّهُ اللهُ وكتبَ عليهِ الشَّقاء، فلا يُكرِمُهُ بالسَّعادةِ أحَد، ولا يَدفَعُ عنهُ الهَوانَ الذي لَحِقَه، ولا يُثابُ بثَوابٍ حسَن، واللهُ يَفعَلُ ما يَشاء، فيُكرِمُ مَنْ شَاء، ويُهينُ مَنْ شَاء، بحُكمِهِ العَدْل.

{هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ} (الحج : ١٩)

١٩- هذانِ فَريقانِ اختلَفوا وتَخاصَموا في شَأنِ اللهِ أو دِينِه، بينَ مؤمِنٍ وكافِر، فالذينَ كفَروا أُعِدَّتْ أو فُصِّلَتْ لهمْ مُقَطَّعاتٌ مِنْ نَارٍ على قَدْرِ أجسادِهِم، ليَلبَسوها إذا صَاروا إلى النِّيران، يُصَبُّ مِنْ فَوقِ رؤوسِهِمُ الماءُ الحارُّ الشَّديدُ الحرارَة.

{يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ} (الحج : ٢٠)

٢٠- يُذابُ بهذا الماءِ الحارِّ ما في بُطونِهِمْ مِنَ الأمعاءِ والأحشَاء، وكذلكَ الجُلود، التي تُشوَى بحَرِّ الحَميم، فتَتساقَط.

وقدْ روَى التِّرمذيُّ وصحَّحَهُ منْ قَولِهِ صلى الله عليه وسلم: "إنَّ الحَميمَ لَيُصَبُّ على رؤوسِهِم، فيَنْفُذُ الحَميمُ حتَّى يَخلُصَ إلى جَوفِه، فيَسْلِتُ ما في جَوفِهِ حتَّى يَمرُقَ مِنْ قدَمَيه، وهوَ الصَّهْر، ثمَّ يُعادُ كما كان".

{وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ} (الحج : ٢١)

٢١- ولهمْ سِياطٌ أو مَطارِقُ مِنْ حَديدٍ، يُضرَبونَ بها.

{كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} (الحج : ٢٢)

٢٢- كُلَّما حاوَلوا الخُروجَ مِنْ جهَنَّم - لِما يَلحَقُهُمْ مِنْ غَمٍّ وكَرْبٍ عَظيمٍ مِنْ عَذابِها - ضُرِبوا بالمقامِعِ فأُعِيدوا مِنْ أعالِيها إلى أسَــافِلِها، وقالَتْ لهمُ المَلائكة: ذوقُوا هذا العَذابَ المحرِقَ المهين، الذي كنتُمْ بهِ تُكَذِّبون.

{إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} (الحج : ٢٣)

٢٣- والمؤمِنونَ الصَّالِحون، الذينَ صَدَقوا في إيمانِهم، وأحسَنوا في أعمالِهم، يُدْخِلُهمُ اللهُ جَنّاتٍ عالِيات، تَجري مِنْ تَحتِ أشْجارِها وقُصورِها الأنهَار، يُزَيَّنونَ فيها بأساوِرَ مِنْ ذهَب، ويُؤتَونَ لؤلؤًا صَافيًا جَميلاً، ويَلبَسونَ فيها الحَرير، في مُقابِلِ ثيابٍ مِنْ نارٍ للكافِرين.

{وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ} (الحج : ٢٤)

٢٤- وهَدَى اللهُ المؤمِنينَ ووَفَّقَهمْ إلى الكَلامِ الطيِّبِ المبارَكِ الذي يُرضِــي رَبَّهم، كما هَداهمْ إلى طَريقِ الحَقّ، التي تأخذُهمْ إلى الجنَّة.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} (الحج : ٢٥)

٢٥- إنَّ الكافِرينَ الذينَ زادُوا في إجرامِهم، بأنْ فتَنوا المؤمِنينَ عنْ دينِهمْ ومنَعوهمْ مِنْ إتيانِ المســجِدِ الحرامِ لقضَــاءِ مناسِــكِهم، وقدْ جاؤوا مِنْ مَكانٍ بَعيد، بدَعوَى المشــرِكينَ أنَّهمْ همُ القائمونَ عَليه، المســؤولونَ عنه، وقدْ جعلَهُ اللهُ قِبْلَةً ومُتَعَبَّدًا، للمُقيمِ والبَعيدِ سَــواء، ومَنْ يُرِدْ بالمســجِدِ الحرامِ شَــرًّا، ويَنوي فيهِ اقتِرافَ إثم، أو أمرٍ فَظيعٍ مِنَ المعاصــي، بعَزيمَةٍ وإصْــرارٍ منه، كشِركٍ وغَيرِه، نُذِقْهُ عَذابًا مؤلِمًا كبيرًا.

{وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} (الحج : ٢٦)

٢٦- واذكُرْ لهؤلاءِ المشرِكينَ الذينَ يَصُدُّونَ النَّاسَ عنِ المسجِدِ الحرام، أنَّا أنزَلنا إبراهيمَ مَكانَ هذا البَيت، وأرشَدناهُ إليه، وأذِنّا لهُ في بنائه، وأمَرناهُ بتَوحيدِ العِبادَةِ لنا فيه، وتَنزيهِ بيتيَ الحرامِ مِنَ الأوثانِ والأقذار، لمنْ يَطوفُ به، ويَقومُ بالعِبادَةِ فيه، فيُصَلُّونَ للهِ وحدَه، يَركَعونَ لهُ ويَسجُدون، ولا يُشرِكونَ بهِ شَيئًا.

{وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} (الحج : ٢٧)

٢٧- ونادِ في النَّاسِ بالحَجِّ يا إبراهيم، اُدْعُهمْ إلَيهِ وَأْمُرْهمْ به، يأتُوا البيتَ مُشاةً، ورُكبانًا على كُلِّ بَعيرٍ مَهزول، قدْ جَهِدَهُ السَّيرُ فهَزَلَ مِنَ التَّعَبِ والجُوع، وهيَ آتيَةٌ مِنْ كُلِّ طَريقٍ بَعيدَة.

{لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ} (الحج : ٢٨)

٢٨- لِيَشهَدوا منافِعَ لهم، دُنيَويَّةً وأُخرَويَّة، مِنْ تِجارَة، وعِبادَة. وليَذكُروا اللهَ في الأيَّامِ العَشرِ المبارَكاتِ مِنْ ذي الحِجَّة، ذاتِ الفَضْلِ الكبير، وليَشكُروهُ على ما رزَقَهمْ مِنَ الأنعَام، مِنَ الهَدي والأضَاحي، وهيَ الإبِلُ والبقَرُ والغَنَمُ والمَعْز، فاذبَحوها يَومَ النَّحر، واذكُروا اسمَ اللهِ عَليها، وكُلوا مِنْ لُحومِها، وأطعِموا منها المضطَرَّ الفَقير.

{ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} (الحج : ٢٩)

٢٩- ثمَّ ليُؤَدُّوا نُسُكَهم، ويَحلِقوا شُعورَهم، ويُقَلِّموا أظافِرَهم، ويَلبَسوا ثيابَهم، ولْيُوفُوا بما نَذَرُوهُ مِنْ أعمَالِ البِرِّ في حَجِّهم، مِنْ هَدْيٍ وغَيرِه، ولْيَطُوفوا بالبَيتِ القَديم -الذي هوَ أوَّلُ بَيتٍ وُضِعَ للنَّاسِ للعِبادَة - طوافَ الإفاضَة، وهوَ رُكنٌ مِنْ أركانِ الحجّ.

{ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ} (الحج : ٣٠)

٣٠- ذلكَ ما أمرَكُمُ اللهُ بهِ مِنْ أدَاءِ المناسِـــك، ومَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ الله، بعمَلِ ما أُمِرَ به، والانتِهاءِ عمَّا نُهيَ عنه، فهوَ خَيرٌ لهُ عندَ الله، فيُثابُ عَلى ذلك يَومَ الحِساب، ويُكرَمُ بدُخولِ الجَنَّة.

وأُحِلَّ لكمْ لحمُ الأنعَام[٨٧]، إلاّ ما يُتلَى عليكم، مِنْ قَولِهِ تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ} [سورة المائدة: ٣]. فاجتَنِبوا الأوثانَ القَذِرَة، واجتَنِبوا قَولَ الزُّور، فهيَ كَذِبٌ وبُهتان، ومِنَ الكَبائر.

{حُنَفَاء لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ} (الحج : ٣١)

٣١- مائلينَ مِنْ كُلِّ دِينٍ مُنحَرِفٍ إلى الدِّينِ الحَقّ، مُخلِصِينَ لله، غَيرَ مُشرِكينَ بهِ شَيئًا مِنَ الأشيَاء، ومَنْ يُشرِكْ باللهِ فقدْ ضَلَّ وتَاه، وهوَ كأنَّما سقَطَ مِنَ السَّماء، فتأخُذُهُ الطَّيرُ بسُرعَةٍ وتأكلُ لَحمَه، أو تُسْقِطُهُ الرِّيحُ وتَقذِفُ بهِ إلى مَكانٍ بَعيدٍ مُهلِك. فهذا مِثالٌ للمُشرِكِ الذي يَسقُطُ مِنْ أوجِ الإيمانِ إلى حَضيضِ الكُفر، فتتَقاذَفُهُ الأهواءُ المرْدِيَةُ حتَّى تُهلِكَه.

{ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ} (الحج : ٣٢)

٣٢- هذا، ومَنْ يُعَظِّمْ أوامِرَ الله، ويَلتَزِمْ شَرائعَ دِينِه، ومِنْ ذلكَ الهَدْيُ والأضَاحي، فإنَّهُ مِنْ أفعالِ المتَّقينَ الذينَ يَخشَونَ رَبَّهم.

{لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ} (الحج : ٣٣)

---

(٨٧) هيَ الإبِلُ والبقرُ والغنمُ والمَعْز.

٣٣- ولكمْ في هذهِ البُدْنِ (الإبِلِ والبقَرِ) مَنافِع، مِنْ نَسلِها ولبَنِها ورُكوبِها، إلى أنْ تجعَلوها هَدْيًا، فإذا سَمَّيْتُموها بذلكَ فلا يُنتَفَعُ بها، إلاّ عندَ الضَّرورَة. ثمَّ إنَّ انتِهاءَها إلى البيتِ الحَرام، ويَعني أرضَ الحرَم، في مِنًى، حيثُ وقتُ حلولِ نَحرِها ووجوبِه(٨٨).

{وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ} (الحج : ٣٤)

٣٤- وشرَعَ اللهُ لكُلِّ أهلِ دِينٍ أنْ يَذبَحوا لهُ نُسُكَهمْ على وَجهِ التقَرُّب، ليَذكروا اسمَ اللهِ عندَ ذَبحِها على ما رزَقَهمْ مِنْ هذهِ الأنعام(٨٩)، فمَعبودُكمْ واحِدٌ أيُّها النَّاس، وهوَ اللهُ الواحِدُ الأحَد، وإنْ تنَوَّعَتْ شَرائعُ الأنبياء، فأسلِموا وجوهَكمْ إليه، وأطيعُوه، وأخلِصوا لهُ العِبادَة، ولا تُشرِكوا بهِ شَيئًا، وبشِّرِ المؤمنينَ الخاشِعينَ لله، الرَّاضينَ بحُكمِه، بالمثوبَةِ الحُسْنَى.

{الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} (الحج : ٣٥)

٣٥- الذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ عندَهمْ خافَتْ وخشَعَتْ لهُ قُلوبُهم، والصَّابرينَ على ما أصابَهمْ مِنَ البَلايا والمِحَنِ والتَّكاليف، والمواظبينَ على الصَّلاةِ في أوقاتِها، فلا يَصرِفُهمْ عنها شَيء، والذينَ يُنفِقونَ ممّا آتاهمُ اللهُ في وجُوهِ البِرّ والإحسَان.

{وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (الحج : ٣٦)

---

(٨٨) المعنى: ثم بعدَ تلك المنافع، هذه المنفعةُ العظمَى، وهي وقتُ حلولِ نحرها ووجوبِه، حالَ كونها متهيئةً إلى {الْبَيْتِ الْعَتِيقِ} أي: إلى الحرم، الذي هو في حكمِ البيت، فإن المرادَ به الحرمُ كلُّه، كما في قولِه تعالى: {فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا} [سورة التوبة: ٢٨] أي: الحرمَ كلَّه. فإن البيتَ وما حولَهُ نُزِّهتْ عن إراقةِ دماءِ الهدايا، وجعلَ مِنًى منحرًا. (روح البيان).

(٨٩) هيَ الإبِلُ والبقرُ والغنمُ والمَعْز.

٣٦- والبُدْنَ - وهيَ الإبِلُ البَدينةُ، وقدْ تُطلَقُ على البقَرِ أيضًا - جعَلناها مِنْ شَعائرِ الدِّين، فتُهدَى إلى بَيتِ اللهِ الحرام، وتُذبَحُ هُناك، فهيَ مِنْ نُسُـــكِ الحَجّ. ويَكونُ لكمْ بذلكَ ثَوابٌ كبير، معَ ما يُنتَفَعُ بها في الدُّنيا، فاذكُروا اســمَ اللهِ عَليها عندَ ذَبحِها، وقولوا: "بســمِ اللهِ واللهُ أكبَر"، وهيَ قائمَةٌ مَعقولَةٌ إحدَى يَدَيها، قدْ صَـفَّتْ رِجلَيها وإحدَى يَدَيها. فإذا وقعَتْ على الأرضِ مَذبوحَة، فكُلوا منها، وأطعِموا المتَعفِّفَ عن السؤال، الراضِي بما يُعطَى، والمتَعَرِّضَ لكم بالسؤال.

وبمثلِ هـذا ذلَّلنـاهـا لكمْ لتَنتَفِعوا بهـا، على الرَّغمِ مِنْ كِبَرِ حَجمِهـا، فتَركَبونَهـا، وتَحلُبونَهـا، وتَذبَحونَها، لعلَّكمْ بذلكَ تَشكرونَ اللهَ على نِعَمِه.

{لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَـــخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ} (الحج : ٣٧)

٣٧- لنْ يَصِــلَ إلى اللهَ شَــيءٌ مِنْ لحُومِ هذهِ الهَدايا والأضــاحي التي تتَصــدَّقونَ بها، ولا مِنْ دِمائها، ولنْ تَنفعَهُ شَــيئًا، ولكنْ يَصِـــلُ إليهِ مِنْ ذلكَ التَّقوى مِنْ قُلوبِكم، والإخلاصُ فيما تتَقرَّبونَ بهِ إليه، ومِنْ أجلِ ذلكَ سَـخَّرَها لكم، وجعلَها طائعَةً مُنقادَة، لتُعَظِّموه، وتَعرِفوا نِعَمَهُ عَليكم، وما أرشَدَكمْ لمعالِمِ دِينِهِ ومَناسِكِ حَجِّه، وبشِّرِ المطيعينَ لله، المخلِصينَ له، بما يُفرِحُهمْ يَومَ الدِّين.

{إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} (الحج : ٣٨)

٣٨- إنَّ اللهَ يَحفَظُ عِبادَهُ المؤمِنين، ويَدفَعُ عَنهمْ شَرَّ أعدائهمُ المشرِكين، ويَنصُرُهمْ عَليهم، إنَّ اللهَ يَبغُضُ الخائنينَ في عُهودِهمْ ومَواثيقِهم، الجاحِدينَ لنِعَمِهِ عَليهم.

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) (الحج : ٣٩)

٣٩- أَذِنَ اللهُ للمُؤمنينَ بقِتالِ المشــــرِكينَ الذينَ يُقاتِلونَهم؛ لأنَّهمْ ظُلِموا وأُوذُوا، وإنَّ اللهَ قادِرٌ على نَصرِهم، ولو بدَوا ضُعَفاء.

قالَ ابنُ عَبّاسٍ رَضيَ اللهُ عَنهما: هيَ أوَّلُ آيَةٍ نزَلَتْ في القِتال.

{الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} (الحج : ٤٠)

٤٠- الذينَ أخرجَهمُ المشركونَ مِنْ مكَّةَ بغَيرِ إساءَةٍ ولا ذَنبٍ ارتَكَبوه، إلاّ لعِبادتِهمُ اللهَ وحدَه، وهوَ ليسَ بذَنب، ولكنَّهُ عندَ المشركينَ كَبير!

ولولا إذنُ اللهِ للمُؤمنينَ بقِتالِ الكفّار، وتَشجيعِهِمْ على الجِهاد، لأبادَهمُ الكافِرونَ وهدَموا مساجِدَهم.

ولولا دَفعُ اللهِ النَّاسَ بَعضَهمْ ببَعض، وصَدُّ شَرِّ بَعضِهمْ بآخَرين، لفسَدَتِ الأرض، وأكلَ القَويُّ الضَّعيف، وهُدَّتْ مَعابِدُ الرُّهبان، وبيوتُ العِبادَةِ للنَّصارَى واليَهود، ومَساجِدُ المسلِمين، التي يُذكَرُ فيها اسمُ اللهِ كثيرًا.

ولَيَنصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنصُرُ دِينَهُ ونبيَّه، واللهُ قَويٌّ قادِرٌ على كُلِّ ما يُريدُه، مَنيعٌ في سُلطانِه، نافِذٌ أمرُه، لا يَقدِرُ أحَدٌ على رَدِّه.

{الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} (الحج : ٤١)

٤١- الذينَ إنْ نصَرناهمْ وآتيناهمُ الحُكمَ والسُّلطانَ في الأرْض، ثبَتوا على دينِ الله، وحافَظوا على حُدودِه، فأقاموا الصَّلاةَ في وَقتِها ولم يُفَرِّطوا فيها، وأعطَوا الزَّكاةَ للفُقَراءِ والمحتاجينَ كما أمرَهمُ الله، وأمَروا بالخَيرِ والعَدلِ والصَّلاح، ونَهَوا عنِ الشرِّ والبَغي والفَساد. ومَرجِعُ كُلِّ أمرٍ إلى حُكمِ الله، ليُجازيَ كُلاًّ بما عَمِل.

{وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ} (الحج : ٤٢)

٤٢- وإنْ يُكَذِّبْكَ هؤلاءِ المشرِكون، فقدْ كُذِّبَ رسُلٌ مِنْ قَبلِك. فقدْ خالَفَ قَومُ نُوحٍ نبيَّهمْ وكذَّبوهُ على مدَى قُرون. وهكذا كانَ مَوقِفُ عادٍ مِنْ نبيِّهمْ هُود، ومَوقِفُ ثَمودَ مِنْ صالِح، عَليهما السَّلام.

{وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ} (الحج : ٤٣)

٤٣- وقَومُ إبراهيمَ أصَـرُّوا على عِبادَةِ الأصْـنامِ وكذَّبوا نبيَّهمْ حتَّى أوقَدوا النِّيرانَ ورمَوهُ فيها، وأنقَذَهُ اللهُ. وقَومُ لُوطٍ أصَرُّوا على فاحِشَةِ اللِّواطِ وكذَّبوا نبيَّهمْ كذلك.

{وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} (الحج : ٤٤)

٤٤- وكذا كانَ مَوقِفُ أصـحَابِ مَدْيَنَ مِنْ نبيِّهمْ شُـعَيب. وكذَّبَ فِرعَونُ وقَومُهُ كليمَ اللهِ موسَى.

وكُلُّ هؤلاءِ الأنبياءِ كانوا مؤيَّدينَ بالآياتِ والمعجِزاتِ العَظيمَة، والدَّلائلِ البيِّنَةِ التي تُثبِتُ صِحَّةَ ما جاؤوا بهِ مِنْ عندِ رَبِّهم، ولكنَّ أقوامَهمْ عانَدوا واستَكبَروا، إلاّ مَنْ رَحِمَ الله، فأمهَلتُ الكافِرينَ المكذِّبينَ وأخَّرتُهُمْ إلى أجَلٍ مُسَـمًّى، ثمَّ أهلَكتُهمْ بعدَ مُضـيِّ وقتِ الإمهَال، فكيفَ كانتْ عُقوبتي لهم؟ فاعتَبِروا يا كُفَّارَ مَكَّة.

{فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ} (الحج : ٤٥)

٤٥- وكَمْ مِنْ قَريَةٍ دَمَّرناها على أهلِها لأنَّهمْ كذَّبوا رسُـلَ اللهِ وأصَـرُّوا على الكُفر، فأعمِدَتُها وحيطانُها ساقِطَةٌ على سُقوفِها. وكَمْ مِنْ بئرٍ قدْ نَضَبَ ماؤها وغارَ في الأرض، بعدَ أنْ كانتْ مليئةً تَنضَحُ بالماء، يَنتَفِعُ بها أهلُها. وكَمْ مِنْ قَصرٍ كانَ مُرتَفِعًا حَصينًا، مَليئًا بالحَرَكَةِ والحَياة!

{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} (الحج : ٤٦)

٤٦- أفلا يَسـيرونَ في الأرْض، ويَقرَؤونَ التَّاريخ، ويَنظُرونَ إلى الآثار، ويَتفَكَّرونَ في أحوالِ الأُمَمِ والحضَـارات، ويَعتَبِرونَ مِنْ مَصـارِعِهم، وما حَلَّ بهمْ مِنَ الفَجائعِ والنِّقَم، فتَكونَ لهمْ قُلوبٌ خاشِعَةٌ تَفقَهُ وتعتَبِر، وآذانٌ تَسمَعُ وتَعِي؟ وليسَتِ المشكِلَةُ في عُيونِهِمُ التي يُبصِرونَ بها،

ولكنَّها في بَصيرَتِهِمُ التي عَميَت، وقُلوبِهِمُ التي انغَلَقَت، فلا يَدخلُها نورُ الإيمان، ولا تَنفُذُ إليها الآياتُ والعِبَر.

{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} (الحج : ٤٧)

٤٧- ويَستَعجِلُكَ كُفَّارُ مَكَّةَ بالعَذابِ الذي خوَّفتَهمْ به، لأنَّهمْ لا يُصَدِّقونَك، ولا يؤمِنونَ بنبوَّتِك، فيَستَهزِؤونَ بك، ويَتحَدَّونَكَ إنْ أتيتَهمْ بالعَذاب، واللهُ لا يُخْلِفُ وعدَهُ إنْ وعَدَ بالانتِقامِ مِنْ أعداءِ دِينِه. وهوَ قادِرٌ على الانتِقامِ في أيِّ وقت، ولكنَّهُ لا يُعَجِّلُ بالعُقوبَة، فهوَ يُحِبُّ لعِبادِهِ أنْ يَهتَدوا، ويُعطيهِمْ فُرصَةً كافيَةً ومُناسِبَةً ليَتفكَّروا ويتَّعِظوا، وهوَ حَليمٌ صَبور، يُمهِلُ الكافِرينَ حتَّى لو آذَوا أنبياءَهُ وقتَلوا عِبادَهُ المؤمِنين، لئلاَّ يَبقَى لهمْ عُذرٌ عندَ الله، إذا أهلكَهمْ في الدُّنيا، أو أدخلَهمُ النَّارَ يَومَ القيامَة.

وتَقديرُ الزَّمَنِ عندَ اللهِ غَيرُ ما هوَ عندَ البشَر، فاليَومُ الواحِدُ عندَهُ بمِقدارِ ألفِ سنَةٍ عندَكم، ولذلكَ فهوَ لا يَستَعجِلُ العُقوبَة.

{وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ} (الحج : ٤٨)

٤٨- وكَمْ مِنْ قَريَةٍ أنظَرتُ أهلَها وأمهَلتُهم، وهمْ ظالِمون، يُكذِّبونَ رُسُلي ويَسخَرونَ منهم، ثمَّ أخَذتُهمْ بالعَذابِ بعدَ انتِهاءِ الأجَلِ المضروبِ لهم، وإليَّ مَرجِعُ أهلِ القُرَى والنَّاسِ جَميعًا، لأحْكُمَ لهمْ أو عَليهم، منْ خِلالِ مَواقِفِهمْ وأعمالِهم.

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} (الحج : ٤٩)

٤٩- قُلْ للنَّاسِ أيُّها الرَّسُول: إنَّما أنا مُبَلِّغٌ رِسالَةِ الله، ومُنذِرٌ بَيِّنٌ فيما أُنذِرُ به، وأمرُ العَذابِ إلى الله، إنْ شاءَ عجَّلَهُ للعاصِينَ منكم، وإنْ شاءَ أخَّرَه، أو رَفعَهُ عنهم.

{فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} (الحج : ٥٠)

٥٠- فمَنْ آمنَ مِنكمْ وعَمِلَ عمَلاً حسَنًا، فإنَّ اللهَ يَغفِرُ لهُ ما أسلَفَ منْ ذَنب، ولهُ عندَهُ رِزقٌ كريمٌ لا يَنقَطِعُ أبَدًا.

{وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} (الحج : ٥١)

٥١- والذينَ خالَفوا أمرَ نبيِّنا، وبذَلوا جُهدَهمْ لصَرفِ النَّاسِ عنْ دينِنا، فأولئكَ قدْ أُعِدَّ لهمْ نارٌ شَديدَةٌ ليُعَذَّبوا فيها.

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (الحج : ٥٢)

٥٢- ولمْ نُرسِلْ قَبلَكَ رَسولاً ولا نَبيًّا إلاّ إذا قرَأ شَيئًا مِنَ الآياتِ ألقَى الشَّيطانُ الشُّبَهَ والتَّخَيُّلاتِ في قراءةِ ذلكَ النبيّ، ألقَاها على أنصَارِهِ وأوليائهِ مِنَ المشرِكينَ والمنافِقين، ليُجادِلوهُ بالباطِلِ، ويَرُدُّوا ما جاءَ بهِ مِنْ عندِ رَبِّه، فيُبطِلُ اللهُ ما يُثيرُهُ الشَّيطانُ مِنْ شُبَهٍ وأبَاطيلَ بتوفيقِ النبيّ للرَدِّ عَليها، أو بإنزالِ آياتٍ أخرَى مِنَ القُرآنِ تَرُدُّ عَليها.

ويأتي اللهُ بهذهِ الآياتِ مُحكَمَةً مُثبَتَةً، لا تَقبَلُ الرَّدَّ والمعارَضَة، ولا تَبقَى هُناكَ شُبهَةٌ في الوجهِ الصَّواب.

واللهُ عَليمٌ بما يَفعَلُهُ النَّاسُ كُلُّهم، حَكيمٌ فيما يَحكُمُ ويُدَبِّر.

ويورِدُ هنا بَعضُهمْ قِصَّةَ الغرانيقِ المشهورَة، وهيَ كَذِبٌ لم يَصِحَّ منها شَيء.

{لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} (الحج : ٥٣)

٥٣- وليَجعَلَ اللهُ بما يُلقي الشَّيطانُ مِنْ هذهِ الأباطيلِ ابتِلاءً واختِبارًا للَّذينَ في قُلوبِهمْ شَكٌّ مِنَ المنافِقين، والقاسِيَةِ قُلوبُهمْ مِنَ المشرِكينَ المعانِدين، وإنَّهمْ لفي ضَلالٍ مُبين، ومُخالَفَةٍ للحَقّ، وعَداوَةٍ ظاهِرَة.

{وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (الحج : ٥٤)

٥٤- وليَعلمَ العُلماءُ المخلَصونَ الثابتونَ على الحَقّ، أنَّ ما أوحَينا إلى رَسولِنا وأثبَتناهُ في القُرآن، هوَ الحقُّ المنْزَلُ مِنْ رَبِّهم، فيؤمنوا بهِ ويُصَدِّقوه، فتَسكُنَ لهُ قُلوبُهُمْ وتَخشَعَ له، وإنَّ اللهَ يُرشِدُ عِبادَهُ المؤمنينَ إلى نُورِ الحقِ ويَرزُقُهمُ اتِّباعَه، ويُبَصِّرُهمْ بالباطِلِ ويَرزُقُهمُ اجتنابَه.

{وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ} (الحج : ٥٥)

٥٥- ولا يَزالُ الذينَ كفرُوا في شَكٍّ مِنْ هذا القُرآنِ حتَّى تأتيَهمُ القِيامَةُ فَجأةً وهمْ في لَهوٍ وغُرور، فلا تُقبَلُ منهمْ تَوبَةٌ ولا عمَل، أو يأتيَهمْ يَومُ عَذابِها، وسَيَكونُ يَومًا شَديدًا، لا مَثيلَ له، ولا يَومَ بعدَه.

{الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} (الحج : ٥٦)

٥٦- في ذلكَ اليَومِ يَكونُ الأمرُ والسُّلطانُ كُلُّهُ للهِ بلا مُنازِع، فلا مُلكَ يومَئذٍ لأحَدٍ سِواه، لا حَقيقَةً ولا مَجازًا، ويَقضي اللهُ بينَ النّاسِ بالحَقِّ والعَدل، فالذينَ آمَنوا وأخلَصوا في إيمانِهم، وأتْبَعوهُ بالعمَلِ الصَّالحِ الموافِقِ للدِّين، في نَعيمٍ مُقيمٍ بالجنَّة.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ} (الحج : ٥٧)

٥٧- والذينَ كفَروا وعانَدوا وأصَرُّوا على الكُفر، وكذَّبوا بآياتِنا ومُعجِزاتِنا الواضِحات، فلهمْ عَذابٌ مؤلِمٌ قاسٍ يُهينُهمْ ويُذلُّهم، مُقابِلَ استِكبارِهمْ وإعراضِهمْ عنِ الحَقّ في الدُّنيا.

{وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} (الحج : ٥٨)

٥٨- والذينَ فارَقوا أوطانَهم، وترَكوا أهالِيهمْ وأموالَهمْ في طاعَةِ اللهِ وطلَبِ رِضــــاه، وقاتَلوا في سَبيلِهِ نُصرَةً لدِينِه، فقُتِلوا، أو ماتوا مِنْ غَيرِ قِتال، فقدْ حصَلَ لهمُ الأجرُ والثَّواب، وسيُجري اللهُ عَليهمْ مِنْ رِزقِهِ في الجنَّةِ مِنَ النِّعَمِ الكثيرَةِ ما تَقَرُّ بهِ عُيونُهم، واللهُ خَيرُ مَنْ يُثيبُ المؤمِنينَ على أعمالِهم، وخَيرُ مَنْ يَرزُقُهمْ ويُنعِمُ عَليهم، ويَزيدُهمْ مِنْ فَضلِه.

{لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ} (الحج : ٥٩)

٥٩- سـيُدْخِلُهمْ مُدْخَلاً كَريمًا، وهوَ الجنَّة، يَرضَـونَهُ ويَحمَدونَ اللهَ عَليهِ ويَشـكرونَهُ على مَزيدِ إكرامِه، ففيهِ ما تَشتَهيهِ أنفُسُهمْ وتَبتَهِجُ لهُ قُلوبُهم. وهوَ سُبحانَهُ عَليمٌ بِهِجرَتِهمْ وجِهادِهمْ وما يَستَحِقُّونَهُ مِنْ ثَواب، حَليمٌ بهم، فيَعفو عَنهمْ ويَغفِرُ لهمْ ويُكرِمُهم.

{ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ} (الحج : ٦٠)

٦٠- هذا، ومَنْ عاقبَ الجاني، فأخذَ منهُ حقَّهُ بمثلِ ما جَنَى عَليه، ثمَّ عادَ إلى عُقوبَتِهِ مرَّةً أخرَى زيادَةً على حَقِّه، فإنَّ اللهَ يَنصُـرُهُ عَلى مَن جنَى عليه، ويُمَكِّنهُ منَ الانتِقامِ منه، ولو بَعدَ حين. واللهُ عَفُوٌّ، مُحِبٌّ للعَفو، فأحِبُّوا العَفوَ مِثْلَه، غَفور، يَتجاوَزُ عنْ ذنوبِ الناسِ إذا رأى منهمْ تَوبَةً ونـدَمًا، فـاعفُوا عَنهمْ أنتُمْ كـذلـكَ واغفِروا لهم، ليُعـامِلَكمُ اللهُ بعَفوِهِ ومَغفِرَتِه، كما تَعامَلتُمْ بذلكَ معَ عِبادِه.

{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} (الحج : ٦١)

٦١- واللهُ مالِكُ الملكِ ومُدَبِّرُ الأمرِ كُلِّه، ومِنْ ذلكَ أنَّهُ سُـــبحانَهُ يَجعَلُ الضِّــياءَ في النَّهارِ ويُقَلِّلُ منهُ حتَّى يَدخُلَ في ظُلمَةِ اللَّيلِ الخَفيفَة، ثمَّ يأتي الظَّلام، وتَخِفُّ ظُلمَتُهُ شَــيئًا فشَــيئًا، حتَّى يَدخُلَ في نورِ النَّهار.

واللهُ سَميعٌ لأقْوالِ النَّاس، خَبيرٌ بها، لا يَخفَى عَليهِ شَيءٌ منْ ذلك، سَواءٌ جَهَروا بها أمْ أسَرُّوا، فليَتَّقوا اللهَ في أقوالِهمْ وأعمالِهم، فإنَّها تُحصَى عَليهمْ ثمَّ تُوزَن.

فهذهِ سُنَّةُ اللهِ في الطَّبيعَة، لا تَختَلِف، وللهِ سُنَنٌ في المجتَمَعِ كذلك، فليَحذَروا وليَعتَبِروا.

{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} (الحج : ٦٢)

٦٢- ذلكَ بأنَّ اللهَ هوَ الإلهُ الحَقّ، فلا يُعبَدُ إلاّ هو، وأنَّ ما يَعبدُهُ المشـركونَ منَ الأصْنامِ وغَيرِها هوَ الباطِل، فلا أُلوهيَّةَ لها، فهيَ لا تَخلُق، ولا تَضُـرّ، ولا تَنفَع. وأنَّ اللهَ هوَ العَليُّ على جَميعِ الأشياء، فلا شَيءَ أعلَى منه، الكبيرُ الذي لا أعظمَ منهُ ولا أكبَر، فكُلُّ شَيءٍ دونَه.

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} (الحج : ٦٣)

٦٣- ألمْ تَنظُرْ أيُّها المبصِرُ كيفَ أنزَلَ للهُ المطرَ مِنَ السَّحاب، فيُصيبُ الأرْض، ويَختَلِطُ ببُذورِ النَّباتِ وجُذورِ الشَّـجَر، فتَصـيرُ خَضـراء، بعدَ أنْ كانتْ جَرداءَ قاحِلَة؟ واللهُ عالِمٌ بخَفيَّاتِ الأمُور، خَبيرٌ بدَقائقِها، ومنها مَصـالِحُ العِبادِ ومَقاديرُ المطَر. وهوَ سُـبحانَهُ قادِرٌ على إعادَةِ الحياةِ إلى الأمواتِ عندَ البَعث، كما أعادَ الحَياةَ إلى الأرضِ بإحياءِ النَّباتِ فيها.

{لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} (الحج : ٦٤)

٦٤- للهِ مُلكُ السَّـماواتِ والأرض، ولهُ تَدبيرُهما والتصَـرُّفُ فيهما، وهوَ الغَنيُّ الذي لا يَحتاجُ إلى شَيء، وكُلُّ شَيءٍ يَحتاجُ إليه، المحمودُ في جَميعِ صِفاتِهِ وأقوالِهِ وأفعالِه.

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} (الحج : ٦٥)

٦٥- ألمْ تَنظُرْ وتَتفَكَّرْ أيُّها العاقِلُ كيفَ ذلَّلَ اللهُ لكمْ ما في الأرْضِ لتَنتَفِعوا بها وتَقضُـوا بها حوائجَكم، مِنَ الدوابِّ والنَّباتِ والمعادِنِ وغَيرِها.

وهذهِ السُّفُنُ بأنوَاعِها وأحجَامِها تَمخُرُ عُبابَ البِحار، بتَسخيرِهِ وتَهيئتِهِ المياهَ لذلك، بحسَبِ ما يَضَعُ اللهُ فيها مِنْ نواميسَ وقوانينَ فيزيائيَّة، فتَطفو عَليها، فتَحمِلُكمْ وما تَرغَبونَ مِنْ حاجاتِكمْ لتَنقُلَكمْ إلى ما وراءَ البِحار.

ومِنْ لُطفِهِ وقُدرَتِهِ تَعالَى إمساكُ السَّماءِ لئلاّ تقعَ على الأرض، إلاّ إذا شاءَ ذلك، بما وضَعَ فيها أيضًا مِنْ نواميس، وجعلَها قَويَّةً مُتماسِكة.

واللهُ رَؤوفٌ بعِبادِه، رَحيمٌ بهم، فأمَّنَ لهمُ الأرْضَ التي يَعيشونَ عَليها حتَّى لا تَسقُطَ عَليها أجرامٌ سَماويَّةٌ فتُهلِكَهم، وسخَّرَ لهمْ ما فيها لأجلِ مَصالحِهم.

{وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ} (الحج : ٦٦)

٦٦- وكيفَ تَكفرُونَ باللهِ أو تَعبدُونَ غَيرَه، وهوَ الذي خلقَكمْ ولمْ تَكونوا شَيئًا، ثمَّ يُميتُكمْ عندَما تَحينُ آجالُكم، ثمَّ يَبعَثُكمْ مِنْ قُبورِكمْ للبَعثِ والحِساب. إنَّ الإنسانَ جَحودٌ بنِعَمِ اللهِ وآلائه، على الرَّغمِ مِنْ ظُهورِها ووضُوحِها.

{لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ} (الحج : ٦٧)

٦٧- لكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ وضَعنا شَريعَةً خاصَّةً بهمْ يَعمَلونَ بها، فلا تتأثَّرْ بمُنازَعَةِ المشرِكينَ وأهلِ المِلَلِ لك، ولا يَصرِفَنَّكَ ذلكَ عَمَّا أنتَ عَليهِ مِنَ الحَقّ، وادْعُهمْ وادْعُ النَّاسَ جَميعًا إلى تَوحِيدِ اللهِ وعِبادَتِه، فإنَّكَ على طَريقٍ سَوِيٍّ لا اعوِجاجَ فيه.

{وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ} (الحج : ٦٨)

٦٨- وإذا ناقَشوكَ وخاصَموكَ في أمرِ الدِّينِ وقدْ ظَهرَتِ الحُجَّةُ عَليهم، فقُلْ لهمْ على سَبيلِ الوَعيدِ والتَّهديد: اللهُ أعلَمُ بما تَخوضُونَ فيهِ مِنَ العِنادِ والبُطلان.

{اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} (الحج : ٦٩)

٦٩- وفي يَومِ القِيامَةِ يَقضِــي اللهُ بينَكمْ فيما كنتُمْ تَختَلِفونَ فيه، وسـتَعرِفونَ المحِقَّ مِنَ المبطِلِ حينَئذ، وكُلٌّ يُجازَى على ما عَمِل.

{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} (الحج : ٧٠)

٧٠- ألمْ تَعلَمْ وتتَفكَّرْ أنَّ اللهَ قدْ أحاطَ عِلمُهُ بما في السَّـماءِ والأرْض، فلا يَخفَى عَليهِ شَـيءٌ مِنْ ذلك، ومنهُ أقوالُ الكافِرينَ وأعمالُهم؟ وإنَّ ذلكَ كُلَّهُ مُدَوَّنٌ في اللَّوحِ المحفوظِ عندَ رَبِّك. وعِلمُ اللهِ بجَميعِ ذلكَ سَهلٌ عَليه، فلا يَصعُبُ عَليهِ أمر، ولا يَنِدُّ عَنهُ شَيء.

{وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُـلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ} (الحج : ٧١)

٧١- وهؤلاءِ المشـرِكونَ يَعبدُونَ الأصْـنامَ عنْ جَهلٍ وبُطلان، فلمْ يُنزِلِ اللهُ بجَوازِ عِبادَتِها حُجَّةً ودَليلاً، وليسَـتْ هُناكَ ضَـرورَةٌ عَقليَّةٌ لِعبادَتِها، وإنَّما اختلَقوا ذلكَ مِنْ عُقولِهِمُ المريضـة، وليسَ هُناكَ مَنْ يُوافِقُهمْ ويُؤيِّدُهمْ على مَذهَبِهمْ هذا في الحَياةِ الدُّنيا، ولا مَنْ يَنصُـرُهمْ ويَدفَعُ عنهمُ العَذابَ في الآخِرَة.

{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْـطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَـرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (الحج : ٧٢)

٧٢- وإذا قرَأتَ عَليهمْ آياتِ القُرآنِ الواضِـحات، التي فيها دَعوَتُهُمْ إلى التَّوحيد، والإنكارُ عَليهمْ فيما هُمْ فيهِ مِنْ شِـركٍ وضَـلال، تَعرِفُ في وجُوهِ الكافِرينَ الكراهَةَ والإنكارَ بعُبوسِـها وإعراضِـها، على الرَّغمِ مِنْ صِـحَّتِها وقوَّةِ حُجَّتِها، ويَكادونَ أنْ يَبطِشـوا بالذينَ يَقرَؤونَ عَليهمُ الآياتِ مِنْ شِدَّةِ غَيظِهم.

قُلْ لهمْ أيُّها النبيُّ الكريم: أفأُخبِرُكمْ بما يَغيظُكمْ أكثَر، وما يَكونُ وبالُهُ عَليكُمْ أعظَم؟ نارُ جَهنَّم، التي أعَدَّها اللهُ للكافِرين، وبئسَ هذا المنزِلُ الذي تَصيرونَ إليه، وتَذوقونَ فيهِ أشدَّ العَذاب.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} (الحج : ٧٣)

٧٣- أيُّها النَّاس، لقدْ ضَربَ اللهُ مَثَلاً في حقَارَةِ الأصْنامِ وسَخافَةِ عُقولِ عابِديها، حَقيقٌ بأنْ تَستَمِعوا إليهِ وتتفَكَّروا فيه. إنَّ هذهِ الأصْنامَ التي تدَّعونَ أنَّها آلِهَةٌ وتَعبدُونَهمْ مِنْ دونِ الله، لا يَستَطيعونَ أنْ يَخلُقوا ذُبابًا، ولو اجتمَعَ جَميعُ أصْنامِ الأرْضِ على ذلك، على الرَّغمِ مِنْ أنَّ الذُّبابَ حشَرَةٌ صَغيرَة، خَفيفَةٌ ضَعيفَة. وإذا اختطَفَ شَيئًا منهم، أو ممّا عَليهم، فلا يَستَطيعونَ كَفَّهُ عَنهم، ولا استِرجاعَهُ منه، فهمْ جامِدونَ لا يَتحَرَّكون، لا يَنفَعونَ ولا يَضُرُّون، ولا يَستَطيعونَ أنْ يَنتَصِروا لأنفُسِهم، ولا أنْ يُدافِعوا عنْ عابِديهِمْ بشَيء.

لقدْ ضَعُفَ الصَّنَمُ كما عَلِموا، وضَعُفَ الذُّبابُ، الذي هوَ مِنْ أضعَفِ وأذَلِّ الحيَوانات. فليَنظُروا ما يَعبدُون.

{مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} (الحج : ٧٤)

٧٤- إنَّهُمْ لم يَعرِفوا اللهَ حقَّ مَعرِفَتِه، ولم يُعَظِّموهُ حَقَّ تَعظيمِه، حينَ عبَدوا معَهُ غَيرَه، واللهُ هوَ القَويُّ بقُدرَتِهِ على جَميعِ الكَائنات، العَزيزُ الذي غلبَ كُلَّ شَيءٍ وقَهَرَه.

{اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} (الحج : ٧٥)

٧٥- واللهُ يَختارُ مِنَ الملائكَةِ مَنْ يَكونَ وسيطًا بينَهُ وبينَ أنبيائهِ ورسُلِه، كما يَختارُ مِنْ عِبادِهِ رسُلاً يُبَلِّغونَهمْ رِسالاتِه. واللهُ سَميعٌ لأقوَالِ عِبادِهِ ورُسُلِهِ جَميعًا، بَصيرٌ بهمْ وبأحوالِهم.

{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ} (الحج : ٧٦)

٧٦- يَعلَمُ ما قَبلَ أحوالِ الرُّسُـــل، وأحوالَهُمْ وأحوالَ أقوامِهِمْ وما يُبَلِّغونَه، وما يَكونُ الأمرُ بعدَهم. وإلى اللهِ تَصيرُ الأمُورُ كُلُّها، فهوَ الذي بيدِهِ كُلُّ شَيء، ولهُ الحُكمُ الأخير.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْـــجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (الحج : ٧٧)

٧٧- أيُّها المؤمِنون، صَــلُّوا لله، واخضَــعوا في صَــلاتِكمْ لهُ جَلَّ جَلالُه، وخَرُّوا لهُ سُــجَّدًا، ووَحِّدوهُ في عِبادَتِكمْ له، ولا تُشـرِكوا بهِ شَـيئًا، وصِـلُوا أرحامَكم، وتمَسَّـكوا بمكارِمِ الأخْلاق، لكي تَسعَدوا وتَفوزوا برِضَى اللهِ وجنَّتِه.

{وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْـلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُـولُ شَـهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُـهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّـلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِـمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} (الحج : ٧٨)

٧٨- وقاتِلوا في سَبيلِ اللهِ كما يَنبَغي، وأخلِصوا جِهادَكمْ لهُ وحدَه، ولا تَخافُوا في ذلكَ أحَدًا، فقدِ اختارَكمْ لدِينِهِ مِنْ بينِ سَائرِ الأُمَم، وشَرَّفَكمْ بأكملِ شَرع، وخصَّكمْ بأفضَلِ رَسول، وما جعَلَ عَليكمْ في الدِّينِ مِنْ ضِـيقٍ ومَشَـقَّة، فلمْ يُكَلِّفْكمْ بما لا تُطيقون، وإذا شَـقَّ عَليكمْ أمرٌ منهُ في ظُروفٍ تَطرَأُ عَليكم، فقدْ جعَلَ لكمْ في ذلكَ فرَجًا ومَخرَجًا، ووَسَّـعَ عَليكمْ كما وَسَّـعَ مِلَّةَ أبيكمْ إبراهيم.

قالَ الحسَنُ البَصريُّ رَحِمَهُ الله: جعلَ اللهُ حُرمَةَ إبراهيمَ عَليهِ السَّلام، كحُرمَةِ الوالِدِ على ولَدِه. واللهُ سَمَّاكمُ المســـلِمينَ مِنْ قَبلِ أنْ يَنزِلَ القُرآن، في الكتُبِ المتَقَدِّمة، كما سَمَّاكمْ بهِ في هذا القُرآن، ليَكونَ الرَّســولُ شَــهيدًا عَليكمْ يومَ القيامَةِ أنَّهُ قدْ بلَّغَكم، وتَكونوا أنتُمْ شُــهداءَ على النَّاسِ أنَّ أنبياءَهمْ قدْ بَلَّغوهم، كما نطقَ بهِ القُرآن، المنْزَلُ على رَســولِ الأُمَّةِ محمَّدٍ صــلى الله عليه وسلم.

فقابِلوا هذهِ النِّعمَةَ العَظيمَةَ بشُكرِ اللهِ ومُلازَمَةِ طاعَتِه، فأقيمُوا الصَّلاةَ في أوقاتِها وواظِبوا على أدائها، وآتُوا الفُقَراءَ والمحتاجِينَ حَقَّهمْ مِنْ أموالِكم. واللهُ ناصِـــرُكمْ ومُتَوَلِّي أَمرِكم، ونِعمَ الوَلِيُّ الحافِظُ هو، والنَّاصِرُ لكم، ولنْ يَضِيعَ مَنْ كانَ اللهُ وليَّهُ ولنْ يُخذَل.

الجزء الثامن عشر

سورة المؤمنون
سورة النور
سورة الفرقان (١-٢٠)

سورة المؤمنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} (المؤمنون : ١)

١- قدْ سَعِدَ المؤمِنونَ وفازوا ببُغْيَتِهم.

{الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} (المؤمنون : ٢)

٢- الذينَ همْ ساكِنونَ خائفُونَ في صَلاتِهِم، قدْ خشَعَتْ قُلوبُهُمْ وخضَعَتْ جَوارِحُهم.

{وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ} (المؤمنون : ٣)

٣- والذينَ همْ مُعرِضونَ عنِ الكَلامِ الباطِلِ، وما لا فائدَةَ فيه.

{وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ} (المؤمنون : ٤)

٤- والذينَ يؤَدُّونَ زَكاةَ أموالِهِمْ للفُقَراءِ والمحتاجِين.

وكانَ أصلُ الزَّكاةِ واجِبًا في مَكَّة، ثمَّ فُرِضَتْ بمقاديرِها في المدينَة.

{وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ} (المؤمنون : ٥)

٥- والذينَ يُحافِظونَ على فُروجِهمْ مِنَ الحَرام، فهمْ أعِفَّةٌ، لا يَرتَكِبونَ الفَواحِش.

{إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ} (المؤمنون : ٦)

٦- ولا يَقرَبونَ سِوَى ما أحَلَّ اللهُ لهمْ مِنْ أزوَاجِهم، أو ما مَلَكَتْ أيمانُهُمْ منَ السَّراري[٩٠]، فلا حرَجَ عَليهمْ في ذلكَ ولا لَوم.

{فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} (المؤمنون : ٧)

٧- فمَنْ طلبَ غَيرَ زَوجاتِهِ وإمَائه، فهوَ مِنَ المعتَدين، المتجاوزينَ الحَلالَ إلى الحَرام.

{وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} (المؤمنون : ٨)

٨- والذينَ همْ مؤتَمَنونَ على أماناتِهِمْ وعُهودِهم، حافِظونَ لها ومُوفُونَ بها، فلا يَخونونَ ولا يَغدِرون.

{وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} (المؤمنون : ٩)

٩- والذينَ يُحافِظونَ على صَلواتِهِمُ المفروضَةِ عَليهم، فيُؤدُّونَها في وَقتِها، وبأركانِها وشُروطِها.

{أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ} (المؤمنون : ١٠)

١٠- فأولئكَ المؤمِنونَ همْ أصحابُ حَقٍّ يَنتَظِرُهمْ ليَنالُوه.

{الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (المؤمنون : ١١)

١١- الذينَ يَنالُونَ جنَّةَ الفِردَوسِ ويَمكثونَ فيها أبدًا، لا يَموتُونَ فيها ولا يَخرُجونَ منها.

والفِردَوسُ "أعلَى الجنَّة، وأوسَطُ الجنَّة، ومنهُ تَفَجَّرُ أنهارُ الجنَّة، وفَوقَهُ عَرْشُ الرَّحمن"، كما في الصَّحِيحَين.

---

(٩٠) {أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ}: المرادُ بذلك الإماء. (فتح القدير وغيره).

فإذا تزوَّجها صاحبُها قيلَ لها سُرِّيَّة.

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ} (المؤمنون : ١٢)

١٢- ولقدْ خلَقنا أصلَ الإنسانِ (آدمَ) مُستَلاًّ مِنَ الطِّين.

{ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ} (المؤمنون : ١٣)

١٣- ثمَّ جعَلنا نَسلَ جنسِ الإنسانِ مِنْ مَنيّ، وأودَعناهُ مُستَقرًّا مَتمَكِّنًا مَحفوظًا مِنَ الفسَاد، وهوَ الرَّحِم.

{ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} (المؤمنون : ١٤)

١٤- {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً}: وهيَ قِطعَةٌ مِنَ الدَّمِ الغَليظِ المتجَمِّدِ يتَعلَّقُ بجِدارِ الرَّحِم. {فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً}: وهيَ قِطعَةُ لَحمٍ كأنَّها مَمْضوغَة. {فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً}: حيثُ يتَحوَّلُ قسمٌ مِنْ كُتَلِ المضغَةِ إلى أنسِجَةٍ عَظمِيَّة، لتَشكيلِ العَمودِ الفِقَريّ، والهَيكَلِ العَظمي، فيَظْهَرُ أوَّلُ مَلامحِ الإنسانِ في أوَّلِ الأسبُوعِ السَّابع. {فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً}: فتنتَشِرُ العضَلاتُ في العِظام، وتُكتَسَى باللَّحمِ في نِهايَةِ الأسبوعِ السَّابع، وتَعتَدِلُ الصُّورَةُ الأوَّليَّة، حيثُ يَستَوي العَمودُ الفِقَريُّ وغَيرُه. ثمَّ جعَلناهُ خَلقًا آخَر، فنفَخنا فيهِ الرُّوح، وجعَلنا لهُ السَّمعَ والبصَر، حتَّى استوَى إنسانًا ناطِقًا عاقِلاً. فتعالَى اللهُ وتَعاظَمَ شأنُه، في عِلمِهِ وقُدرَتِهِ وإبداعِه، الذي أحسنَ كُلَّ شَيءٍ خلقَه.

{ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ} (المؤمنون : ١٥)

١٥- ثمَّ إنَّكمْ بعدَ النَّشأةِ تَموتُون.

{ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ} (المؤمنون : ١٦)

١٦- ثمَّ إنَّكمْ بعدَ مَوتِكمْ تُبعَثونَ يَومَ القِيامَةِ مِنْ قُبورِكمْ للحِسابِ والجَزاء.

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ} (المؤمنون : ١٧)

١٧- ولقدْ خلَقنا فوقَكمْ سَبعَ سَماواتٍ طِباقًا، بَعضُها فَوقَ بَعض، وما كُنَّا مُهمِلينَ أمرَ المخلُوقات، بلْ كُنّا لهمْ حافِظين، ولشُؤونِهِمْ ومَصالحِهِمْ مُدَبِّرين.

{وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ} (المؤمنون : ١٨)

١٨- وأنزَلنا مِنَ السَّحابِ مطَرًا بمِقدارٍ ما يَكفيكُمْ مِنَ الشُّربِ والسَّقي، لا كثيرًا فيُفسِدُ الزُّروعَ والبُيوت، ولا قَليلاً ينقُصُ عنْ حاجتِكمْ وحاجَةِ مواشيكُمْ وزُروعِكم. وجعَلناهُ ساكِنًا ثابِتًا في الأرْض، يغذِّي بِهِ النَّبات، أو يَزيدُ مِنْ ماءِ العُيونِ والآبارِ والأنهار، ونحنُ قادِرونَ على إزالَتِه، فلنْ تَجِدوا إذًا ما تَنتَفِعونَ منه، فتَموتونَ أنتُمْ وداوابُّكمْ عطَشًا.

{فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} (المؤمنون : ١٩)

١٩- فأخرَجنا لكمْ بهذا الماءِ بَساتينَ خَضراءَ جَميلَةً نافِعَة، مِنْ نَخيلٍ وأعنابٍ وغَيرِها، لكمْ فيها فواكِهُ وخُضْرَواتٌ مِنْ جَميعِ الثِّمار، وتأكلونَ منْ زُروعِها وثِمارِها ما تَرغَبون.

{وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ} (المؤمنون : ٢٠)

٢٠- وأنشَأنا لكمْ بالماءِ شَجرَةَ زَيتونٍ تَخرُجُ مِنْ جبَلِ سَيناء، تُثمِرُ الدُّهْنَ، وهوَ الزَّيت، فيُسرَجُ منه، ويُصبَغُ فيهِ الخُبز، أي يُغمَسُ فيهِ للائتِدام.

وذُكِرَ أنَّ طُورَ سَيناءَ (وهوَ الجبَلُ الذي كلَّمَ اللهُ عليهِ موسَى عليهِ السَّلام) خُصَّ بالزَّيتونِ لأنَّهُ نبَتَ بهِ أوَّلاً.

وفي حَديثٍ صَحيحٍ أو حسَنٍ رواهُ الحاكمُ وغَيرُه، قَولُهُ صلى اللهُ عليه وسلم: "ائتَدِموا بالزَّيتِ وادَّهِنوا به، فإنَّهُ يَخرُجُ مِنْ شَجرَةٍ مُبارَكة".

{وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} (المؤمنون : ٢١)

٢١- وإنَّ لكمْ آيةً واعتِبارًا في الأنعَامِ[٩١] التي سَـــخَّرناها لكمْ، فنَســقِيكُمُ اللَّبَنَ المفيدَ اللَّذيذَ مِنْ بُطونِها، ولكمْ مَنافِعُ أخرَى كثيرَةٌ منها، فتَلبَســـونَ مِنْ أصـــوافِها وأوبارِها، وتأكلونَ مِنْ لحومِها، وتتاجِرونَ فيها.

{وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ} (المؤمنون : ٢٢)

٢٢- وتركَبونَ ظُهورَها في البَرّ، وتَحمِلُ أمتِعتَكمُ الثَّقيلَةَ إلى أماكِنَ بَعيدَة، كما سَـــخَّرَ لكمُ السُّفُنَ تَجري في البَحر، تَحمِلُكمْ وتَحمِلُ أثقالَكم.

{وَلَقَدْ أَرْسَـــلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ} (المؤمنون : ٢٣)

٢٣- ولقدْ أرسَـــلنا عَبدَنا نُوحًا إلى قَومِهِ الكافِرين، وكانوا بالعِراق، يَدعوهمْ إلى الإيمان، ويُنذِرُهمُ انتِقامَ اللهِ وعذابَه، فقالَ لهم: يا قَومي اعبُدوا اللهَ ووَحّدوه، ولا تُشرِكوا بهِ شَيئًا، فليسَ لكمْ في الوجُودِ مَعبودٌ سِوَاه، أفلا تَخافُونَ عُقوبتَهُ إذا عَبدَتُّمْ غَيرَه؟

{فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَـرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّـلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ} (المؤمنون : ٢٤)

٢٤- فقالَ كُبَراءُ قَومِهِ ورُؤساءُ الكُفرِ منهم: ما نوحٌ إلاّ واحِدٌ مِنْ جِنسِكم، وفي مِثلِ حالِكم، وهوَ يُريدُ بادّعائهِ النبوَّةَ أنْ يَسُودَكمْ ويَرفَعَ شأنَهُ عَليكم، ولو أرادَ اللهُ أنْ يَبعَثَ نبيًّا أرسَلَ مَلَكًا مِنْ عندِه، ولم نَسمَعْ أنَّ اللهَ أرسَلَ نبيًّا في تاريخِ آبائنا وأجدادِنا السَّابِقين!

{إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ} (المؤمنون : ٢٥)

٢٥- وقالوا: ما نُوحٌ إلاّ رَجلٌ مجنونٌ بادّعائهِ النبوَّة، فانتَظِروا مُدَّةً لعلَّهُ يُفِيقُ منْ جُنونِه، أو تَحَمَّلُوهُ حتَّى يموتَ فتَتَخَلَّصوا منه.

---

(٩١) هيَ الإبِلُ والبقرُ والغنمُ والمَعْز.

{قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ} (المؤمنون : ٢٦)

٢٦- ولما يَئِسَ نُوحٌ عليهِ السَّـلامُ مِنْ إيمانِ قَومِه، وقدْ صَـبرَ على دَعوَتِهِمْ مئاتِ السِّـنين، دعا ربَّهُ قائلاً: اللهمَّ انصُرني عَليهم، بسبَبِ تَكذيبِهِمْ إيّاي، وإصرارِهِمْ على الكُفر.

{فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَـبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ} (المؤمنون : ٢٧)

٢٧- فاستَجَبنا دُعاءَه، وأوحَينا إليهِ أنِ اصـنَعِ السَّـفينَةَ بِحِفظِنا ورِعايَتِنا لك، وبأمرِنا وتَعليمِنا لكَيفيَّةِ صُـنعِها، فإذا جاءَ أمرُنا بإنزَالِ العَذابِ بهم، وهوَ إغراقُهمْ بالطُّوفان، وفارَ التَّنُّور، وهوَ الموقِدُ يَفورُ منهُ الماء، أو كفورَةٍ بُركانيَّة، تَكونُ علامَةً لهُ عَليهِ السَّـلام، فأدْخِلْ في السَّـفينةِ مِنْ كُلِّ صِنفٍ مِنَ الحيَواناتِ والنَّباتاتِ - ممّا عَيَّنَهُ اللهُ له - زَوجَينِ اثنَين، ذَكَرًا وأُنثَى، واحمِلْ فيها أهلَكَ[٩٢]، إلاّ مَنْ سبقَ قَضـاءُ اللهِ عَليهِمْ بالهَلاك، وهمُ الذينَ لم يؤمِنوا منهم، زَوجَتُهُ وابنٌ له. ولا تَدْعُني في الذينَ كفَروا مِنْ قَومِك، ولا تأخُذْكَ رأفَةٌ بهِمْ عندَما تُعاينُ عَذابَهم، فقدْ قضَـيتُ عَليهِمْ بالإغرَاق، ولا أقبَلُ شَفاعَةً فيهم.

{فَإِذَا اسْـــتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} (المؤمنون : ٢٨)

٢٨- فإذا اعتدَلْتَ أنتَ ومَنْ معكَ مِنْ أهلِكَ وأتباعِكَ المؤمِنينَ على السَّـــفينَة، فقُلْ: الحَمدُ للهِ الذي أنعَمَ عَلَينا فأنجَانا مِنَ القَومِ الكافِرينَ الظَّالِمين.

{وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ} (المؤمنون : ٢٩)

---

(٩٢) هم وُلْدُهُ ونساؤهم. (الطبري).

المرادُ به امرأتهُ وبنوه. (روح البيان).

يريدُ قرابتَهُ، ثم استثنى... (ابن عطية).

٢٩- وقُلْ: {رَبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ}: اللهمَّ أنْزِلنا إنْزالاً مُباركًا، يَكونُ فيهِ نَفعٌ وخَيرٌ وبرَكَة، فأنتَ خَيرُ مَنْ يَفعلُ ذلك، بيَدِكَ الخَيرُ كُلُّه.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ} (المؤمنون : ٣٠)

٣٠- إنَّ في إهلاكِ الكافِرينَ، وإنجَاءِ المؤمِنينَ، وما كانَ مِنْ أمرِ الطُّوفان، لَعِبَرًا كثيرَة، وآياتٍ جَليلَةً، تَدُلُّ على صِدْقِ نبوَّةِ نُوحٍ عليهِ السَّلام، وصِدْقِ ما أنذَرَ منه. وإنَّا لَمُختَبِرونَ العِبادَ بإرسَالِ الرُّسُل، والأمرِ والنَّهي، لنَنظُرَ مَنْ يَعقِلُ فيتَدَبَّرُ ويؤمِنُ ويُطيع، أو يُعانِدُ فيأبَى ويَكفُرُ ويَعصي.

{ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ} (المؤمنون : ٣١)

٣١- ثمَّ أنشَأنا منْ بعدِ إهلاكِ قَومِ نُوحٍ قومًا آخَرين. ذُكِرَ أنَّ المقصودَ بهِمْ عادٌ وثَمود.

{فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ} (المؤمنون : ٣٢)

٣٢- فأرسَلنا فيهِمْ رَسُولاً منهمْ - هودًا أو صالِحًا - وأمَرناهُمْ على لسانِ رَسولِهِمْ بأنْ يَعبُدوا اللهَ ويُوَحِّدوه، ولا يُشرِكوا بِهِ أحَدًا، فلا يوجَدُ في الكونِ إلهٌ غَيرُه. أفلا تَخافونَ اللهَ بشِرْكِكُمْ وكفرِكم، وتَكذيبِكمْ رَسولَ ربِّكم؟

{وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاء الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ} (المؤمنون : ٣٣)

٣٣- وقالَ كُبَراءُ قَومِهِ المعانِدونَ المتَكَبِّرون، الذينَ كفَروا وكذَّبوا بالبَعثِ والحِسابِ يَومَ الدِّين، وقدْ أعطَيناهُمْ مِنَ الدُّنيا ووَسَّعنا عَليهِمْ مِنَ الأموَالِ والأنفُسِ والثَّمراتِ ما نَشاء، قالوا: ما هذا الدَّاعي إلاّ واحِدٌ مِنْ بَني جِنسِكم، يأكلُ منَ الطَّعامِ الذي تأكلونَه، ويَشرَبُ مِنَ الماءِ الذي تَشرَبونَ منه،

{وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ} (المؤمنون : ٣٤)

٣٤- وإذا اعتبَرتُمْ كلامَ إنسانٍ مثلِكمْ مُقَدَّسًا يَجِبُ أنْ يُنَفَّذ، فإنَّكمْ خائبونَ مُخطِؤون،

(أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ) (المؤمنون : ٣٥)

٣٥- أهوَ يَعِدُكمْ أنَّكمْ إذا مِتُّمْ وبَلِيتُمْ، وصِـــرتُمْ تُرابًا وعِظامًا، ســـتَخرُجونَ منْ قُبورِكمْ أحياءً وتُحاسَبونَ على أعمالِكم؟!

{هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ} (المؤمنون : ٣٦)

٣٦- قالوا: إنَّ هذا الذي وُعِدْتُمْ بِهِ بَعيدٌ بَعيد.

{إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} (المؤمنون : ٣٧)

٣٧- قالوا: ليسَـــتْ هُناكَ حَياةٌ سِـوَى حَياتِنا الدُّنيا هذه، يَموتُ بَعضُـنا فيها ويُولَدُ آخَرون، ولنْ نُبْعَثَ بعدَ الموت!

{إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ} (المؤمنون : ٣٨)

٣٨- وقالوا: ما هذا الذي يَدَّعي أنَّهُ أُرسِـلَ إليكمْ إلاّ رَجلٌ اختَلَقَ على اللهِ الكذِب، ولَسـنا مُصَدِّقينَ بما يَقول، ولا بما يَعِدُ بِهِ مِنَ المعاد.

{قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ} (المؤمنون : ٣٩)

٣٩- قالَ نَبيُّهمْ وقدْ يَئِسَ مِنْ إيمانِهم: اللهمَّ انتَقِمْ منهمْ بســـبَبِ تَكذيبِهمْ إيّاي، وإصـــرارِهمْ على الكُفر.

{قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ} (المؤمنون : ٤٠)

٤٠- فاستَجابَ اللهُ دُعاءَه، وقالَ له: سيَنزِلُ بهمُ العَذابُ قَريبًا، وليَصيرُنَّ نادِمينَ مُتحَسِّرينَ على عِنادِهمْ ومُخالفَتِهمْ للدِّينِ الحقّ.

{فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاء فَبُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} (المؤمنون : ٤١)

٤١- فنَزَلَ بهمُ الهَلاكُ المدَمِّر، وأخذَتْهُمْ صَيحَةُ العَذابِ بالحقِّ والعَدل، فصاروا جُثَثًا هامِدين، هَلكَى يابِسين، كالحَشيشِ والعِيدانِ التي تأخُذُها السُّيولُ الجارِفَة، فهَلَكوا وانقطَعوا مِنْ كُلِّ خَير؛ لظُلمِهِمْ ومُخالَفَتِهِمْ رسولَ رَبِّهم.

{ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ} (المؤمنون : ٤٢)

٤٢- ثمَّ أنشَأنا مِنْ بَعدِ هلاكِهِمْ أُمَمًا آخَرين، وهمْ قَومُ صالِح، وقَومُ لوط، وقَومُ شُعَيب، وغَيرُهم.

{مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ} (المؤمنون : ٤٣)

٤٣- لا تتَقدَّمُ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ الوَقتَ الذي عُيِّنَ لهلاكِها ولا تتأخَّرُ عَنه، بلْ تَهلِكُ في الوَقتِ الذي قَدَّرَ اللهُ لها فيه.

{ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ} (المؤمنون : ٤٤)

٤٤- ثمَّ أرسَلنا رسُلَنا يَتْبَعُ بَعضُهمْ بَعضًا، كُلَّما بعَثنا واحِدًا منهمْ إلى قَومِهمْ بالحُجَجِ المقنِعَة، والمعجِزاتِ الكافِية، كَذَّبوهُ وعانَدوهُ واستَهزَؤوا به، يَعني أكثَرَهم، فأهلَكناهُم، أُمَّةً تِلوَ أُمَّة، وجعَلناهُمْ أحادِيثَ تُقالُ في المجالِس، وتَواريخَ تُقرَأُ في الكتُبِ، فبُعدًا وهَلاكًا لقَومٍ كفَروا وظلَموا.

{ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} (المؤمنون : ٤٥)

٤٥- ثمَّ أرسَلنا موسَى بنَ عِمرانَ وأخاهُ هارونَ بآياتِنا ومُعجِزاتِنا التِّسعِ المعروفات، وحُجَّةٍ واضِحَة، ذُكِرَ أنَّها العَصا، لظُهورِها وكَونِها دامِغَةً قاطِعَة.

{إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ} (المؤمنون : ٤٦)

٤٦- أرسَلناهُما إلى فِرعَونَ وقومِه، فاستَكبَروا عَنْ قَبولِ الحقِّ وعانَدوا، وكانوا قَومًا ظالِمينَ مُتعالِين، لا يأبَهونَ بحَقّ، ولا يَستَجيبُونَ لدَعوَةِ نَبيّ.

{فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ} (المؤمنون : ٤٧)

٤٧- فقالَ بَعضُهمُ لبَعض: أنؤمِنُ لرَجُلَينِ يَدَّعيانِ النبوَّةَ وهما بشَرٌ مِثلُنا، وقَومُهما بَنو إسرائيلَ خَدَمٌ مُذَلَّلونَ لنا كالعَبيد؟

استَبعَدوا أنْ يَكونَ مِنَ البشَرِ أنبياء، وآمَنوا بفِرعَونَ إلهًا!!

{فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ} (المؤمنون : ٤٨)

٤٨- فكَذَّبُوا النبِيَّينِ الكَريمَين، وأصَرُّوا على الكُفرِ والتَّكذيب، فكانوا مِنَ الغَرْقَى المهلَكين.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} (المؤمنون : ٤٩)

٤٩- ولقدْ أنزَلنا على موسَى التَّوراةَ بعدَ إهلاكِ فِرعَونَ وقومِه، ليَستَرشِدوا بها ويَهتَدوا إلى الصِّراطِ المستَقيم.

{وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ} (المؤمنون : ٥٠)

٥٠- وجعَلنا المسيحَ عيسَى وأُمَّهُ مَريمَ مُعجِزَةً عَظيمَةً دالَّةً على قُدرَةِ اللهِ تعالَى، بولادَتِهِ منها مِنْ غَيرِ أب، وجَعَلنا مأواهُما في مَكانٍ مُرتَفِعٍ ومُستَوٍ مِنَ الأرض، فيهِ ماءٌ جارٍ ظاهِر.

{يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} (المؤمنون : ٥١)

٥١- يا رُسُلَ اللهِ أجمَعين، كُلُوا مِنْ رزقِ اللهِ الحلالِ الطيِّبِ النافِع، واعمَلوا الأعمالَ الحسَنَةَ المرضيَّةَ عندَ ربِّكم، إنِّي عَليمٌ بما تَقومونَ بهِ منْ عمَل.
قالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ الله: دَلَّ هذا على أنَّ الحلالَ عَونٌ على العمَلِ الصّالِح.

{وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} (المؤمنون : ٥٢)
٥٢- وإنَّ دِينَكمْ يا مَعاشِرَ الأنبياءِ دِينٌ واحِد، ومِلَّةٌ واحِدَة، وهوَ دِينُ التَّوحيدِ والإسْلام، وأنا ربُّكم، رَبٌّ واحِد، فاحذَروا عِقابي، ولا تُخالِفوا أمري.

{فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} (المؤمنون : ٥٣)
٥٣- فقَطَّعَتِ الأُمَمُ أمرَ دِينِها، وخالَفَ بَعضُهمْ بَعضًا، وجعَلوا دِينَهمُ الواحِدَ أديانًا وفِرَقًا، وكُلُّ حِزبٍ مِنْ هؤلاءِ المتَحَزِّبينَ فَرِحونَ مُعجَبونَ بما هُمْ عَليهِ، وكأنَّ كُلَّ واحِدٍ منهمْ على حَقّ!

{فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ} (المؤمنون : ٥٤)
٥٤- فدَعهُمْ في كُفرِهمْ وضَلالِهِمْ إلى حينِ انتِهاءِ أجَلِهم. أو دَعهُمْ في عَمايَتِهِمْ وحَيرَتِهِمْ إلى أنْ يأتيَهمْ ما وُعِدوا بهِ مِنَ العَذاب.

{أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ} (المؤمنون : ٥٥)
٥٥- أيَظُنُّ هؤلاءِ المكَذِّبونَ المغرورُون، أنَّ ما نُعطيهمْ مِنَ المالِ والحَرْثِ والولَدِ،

{نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ} (المؤمنون : ٥٦)
٥٦- هوَ جَزاءُ أعمالِهِمُ الخَيِّرَة، ولِكرامَةٍ لهمْ عِندَنا؟ كلاّ بلْ هوَ استِدراجٌ لهم، وإمهالٌ لهمْ وإنظار، وهمْ لا يَشعُرونَ بذلك، لأنَّهُمْ كالأنعَام، لا يَتدَبَّرونَ ما يُدْعَونَ إليهِ ولا يَعتَبِرون.
ومِنْ هُنا قيل: مَنْ يَعْصِ اللهَ ولم يَرَ بِهِ نُقصانًا فيما أعطاهُ سُبحانَهُ مِنَ الدُّنيا، فليَعلَمْ أنَّهُ مُستَدرَجٌ قدْ مُكِرَ به.

وقالَ قَتادَةُ رَحِمَهُ الله: لا تَعتَبِروا النَّاسَ بأموالِهِمْ وأولادِهم، ولكنِ اعتَبِروهمْ بالإيمانِ والعمَلِ الصَّالِح.

{إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ} (المؤمنون : ٥٧)

٥٧- إنَّ الذينَ همْ حَذِرونَ وَجِلونَ خَوفًا مِنَ اللهِ ورَهبَةً منه، معَ إيمانِهِمْ وعمَلِهِمُ الصَّالِح،

{وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ} (المؤمنون : ٥٨)

٥٨- والذينَ يُصَدِّقونَ بآياتِ اللهِ المنْزَلَة، وبِشواهِدِ الكَونِ المعجِزَة، الدالَّةِ على قُدرَةِ الخالِقِ وعظمَتِه،

{وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ} (المؤمنون : ٥٩)

٥٩- والذينَ لا يُشرِكونَ برَبِّهِمْ شَيئًا، بلْ يوَحِّدونَهُ ويُخلِصونَ لهُ في العِبادَةِ والعمَل،

{وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ} (المؤمنون : ٦٠)

٦٠- والذينَ يُعطُونَ العَطاءَ وقُلوبُهُمْ خائفَة، خَشيَةَ أنْ لا تُقبَلَ منهمْ صدَقاتُهم، وخَوفًا مِنْ أنَّ ذلكَ قدْ لا يُنجِيهِمْ مِنْ عَذابِ الله، عندَما يُبْعَثونَ إليهِ ويُحاسِبُهمْ على أعمالِهِم،

{أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ} (المؤمنون : ٦١)

٦١- أولئكَ المتَّصِفونَ بتلكَ الصِّفاتِ الجَليلَة، يُبادِرونَ إلى الأعمالِ الصَّالِحَة، وهمْ سابِقونَ إلى نَيلِها والظَّفَرِ بها.

{وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} (المؤمنون: ٦٢)

٦٢- ولا نُكَلِّفُ نَفسًا إلاّ بقَدْرِ ما تُطيقُ مِنَ الأعمَال، ولدَينا صَحائفُ أعمالِهِمُ التي سَجَّلَها مَلائكَتُنا، تُظهِرُ بالحقِّ والعَدْلِ ما كانوا يَقولونَ ويَعمَلونَ مِنْ خَيرٍ وشَرّ، ولا يُظلَمونَ في مُحاسبَتِهم، فلا يُنقَصونَ ثوابًا، ولا يُزادُونَ عَذابًا.

{بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ} (المؤمنون: ٦٣)

٦٣- بلْ قُلوبُ الكافِرينَ في غَفلَةٍ وجَهالَةٍ مِنْ هذا القُرآنِ العَظيم، ولهمْ أعمالٌ دونَ ما هُمْ عَليهِ مِنَ كُفرٍ وغَفلَة، مِنْ مَعاصٍ وذُنوبٍ أُخرَى، مُستَمِرُّونَ فيها ومُعتادُونَ على فِعلِها، لا يَنقَطِعونَ عنها.

{حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ} (المؤمنون : ٦٤)

٦٤- ولا يَزالُونَ على هذا، حتَّى إذا أخَذنا أغنياءَهم، والمتَنَعِّمينَ مِنْ رؤسائهِمْ وكُبرائهِمْ بالعَذابِ والبَلاء، إذا همْ يَصرُخونَ ويَستَغيثون.

{لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ} (المؤمنون : ٦٥)

٦٥- وقُلنا لهم: لا تَجزَعوا ولا تَصرُخوا ممّا حَلَّ بكمْ هذا اليَومَ مِنَ العَذاب، فإنَّهُ غَيرُ نافعِكم، ولا مُغيثَ لكمْ منه.

{قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ} (المؤمنون : ٦٦)

٦٦- لقدْ كانتْ آياتي مِنَ القُرآنِ تُتلَى عَليكم، وتُقرَأُ بينَكم، فكنتُمْ تُعرِضونَ عنْ سَماعِها أشدَّ الإعراض، وتَمتنِعونَ عنْ طاعَةِ الله، ولا تأبَهونَ بأوامرِه.

{مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ} (المؤمنون : ٦٧)

٦٧- تستَكبِرونَ وتَفتَخرونَ بالبيتِ الحرام، وتَقولونَ إنَّكمْ أهلُ بَيتِ الله، وأنتُمْ تَسْمُرونَ فيهِ بذِكرِ القُرآنِ والطَّعنِ فيه، فتَهجُرونَ الحرَمَ بذلك، ولا تُعَمِّرونَهُ بالعِبادَةِ كما أرَادَ الله.

{أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءهُمُ الْأَوَّلِينَ} (المؤمنون : ٦٨)

٦٨- أفلَمْ يتدَبَّروا القُرآن، ويتَفهَّموا أحكامَهُ وأخبارَه، ووَعدَهُ ووَعيدَه، ليَعتَبِروا، ويَعرِفوا أنَّهُ كتابٌ سَماويٌّ مُعجِز، وبُرهانٌ على صِدقِ النبيِّ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم؟ أمْ أنَّهُ جاءَهمْ ما

لم يَعْهَدوهُ في آبائهِمْ وأجدادِهِمْ فأنكَروه؟ إنَّ الواجِبَ عَليهِمْ أنْ يؤمِنوا، ولا يَبقوا كآبائهم، فقدْ نزلَ القُرآنِ فيهِمْ دونَ سـابقِيهم، وعَليهِمْ أنْ يُدرِكوا هذهِ النعمَةَ العَظيمَة، فيَشـكروا اللهَ عليها ويؤمِنوا.

{أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ} (المؤمنون : ٦٩)

٦٩- أمْ أنَّهُمْ لم يَعرِفوا نبيَّهمْ محمَّدًا صـلى الله عليه وسـلم الذي أُرسِـلَ مِنْ بينِهم، في صِـغَرِهِ وكِبَرِه، في صِـدقِهِ وأمانتِه، وفي حِلمِهِ ووَفائهِ بالعُهود، وفي صَـبرِهِ وشَـفقَتِهِ على قَومِه، وفي كُلِّ كَمالٍ يَنشُدُهُ الإنسانُ مِنْ خُلُقٍ وعمَل، ولذلكَ فهمْ يُنكِرونَ نبوَّتَه؟!

{أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ} (المؤمنون : ٧٠)

٧٠- أمْ أنَّ سُـفَهاءَ المشـرِكينَ يَقولونَ إنَّ محمَّدًا قدْ أصـابَهُ مَسٌّ مِنَ الجُنونِ فهوَ يَهذي بما لا يَعرِف؟! بلْ جاءَهمْ بالحَقِّ والعَدل، والصِّـدقِ الذي لا يُنكَر، لوضـوحِه، ولتأييدِهِ بالمعجِزاتِ الظَّاهِرَةِ والمقنِعَة، ولكنَّ أكثرَهمْ مُعانِدون، كارِهونَ للحَقّ، مُبغِضـونَ للحُجَّةِ والدَّليلِ مادامَ ليسَ في هَواهُم، فلا عجبَ أنْ لا يُؤمِنوا وهمْ كذلك، وقدْ دَلَّ مَوقِفُهمْ على طَبيعَتِهِمُ المنحَرِفَة، وزَيغِهِمْ وضَلالِهِم.

{وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَـدَتِ السَّـمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ} (المؤمنون : ٧١)

٧١- ولو اتَّبَعَ اللهُ مُرادَهمْ فيما يَفعَل، وأجابَهُمْ إلى ما في أنفُسِـهِمْ مِنَ الهَوى، وشـرَعَ الأمورَ على مُعتقَداتِهِمُ الشِّـرْكيَّة، لفسَـدَ ما في السَّـماواتِ والأرض، وبطَلَ ما فيهما منْ حَياةٍ وعمَل، لأهوائهِمُ الفاسِـدَة، واختِلافِ آرائهِمْ وتَناقُضِـها وتَهافُتِها، وعدَمِ واقعِيَّتِها وملاءَمَتِها للحقَائقِ الكَونيَّة، لجَهلِهِمْ وعدَمِ مَعرِفَتِهِمْ بنواميسِـها ودِقَّتِها، بلْ أتَيناهُمْ بالقُرآنِ الكَريم، الذي فيهِ الحَقُّ المطلَق، وفيهِ عِزُّهمْ وفَخرُهم، ولكنَّهمْ مُعرِضونَ عنْ مَصدَرِ عِزِّهِمْ وشَرَفِهِمْ هذا، غَيرُ مُبالِينَ بهِ ولا مُقبلِينَ عَليه.

{أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} (المؤمنون : ٧٢)

٧٢- أمْ تَسألُهُمْ على تَبليغِ الرِّسالَةِ أجرًا فلأجلِ ذلكَ يَبتَعِدونَ عنكَ ولا يؤمِنونَ برِسالَتِك؟ وما يُعطيكَ اللهُ مِنْ رِزْقٍ في الدُّنيا وثَوابٍ في الآخِرَة، خَيرٌ لكَ مِنْ مِنَّةِ النَّاس، وهوَ أفضَلُ مَنْ يُعطي ويَتكرَّم، وما عِندَهُ خَيرٌ ممّا عندَ غَيرِه.

{وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (المؤمنون : ٧٣)

٧٣- وإنَّكَ لتَدعوهمْ إلى الإسْلام، دينِ اللهِ المستَقيم، الذي لا اعوِجاجَ فيهِ ولا هَوًى.

{وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ} (المؤمنون : ٧٤)

٧٤- وإنَّ الكافِرينَ الذينَ لا يؤمِنونَ بالبَعث، والحِسابِ والجَزاء، زائغُونَ عنِ الصِّراطِ المستَقيم، جائرونَ مُنحَرِفون.

{وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} (المؤمنون : ٧٥)

٧٥- ولو رَأفنا بهم، ورفَعنا عنهمْ سُوءَ الحالِ الذي همْ فيه، لما قابَلوا هذهِ النِّعمَةَ بالشُّكرِ والإيمان، بلِ استمَرُّوا في عِنادِهمْ وكُفرِهم، وتَكذيبِهمْ رَسولَ رَبِّهم، مُتَرَدِّدينَ في الجَهلِ والضَّلال.

{وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ} (المؤمنون : ٧٦)

٧٦- ولقدِ ابتَليناهمْ بالشَّدائدِ والنَّكبات، فما خضَعوا بذلكَ لرَبِّهمْ وما انقادُوا لأمرِه، وما دعَوهُ ليَكشِفَ ما بهم، لشِدَّةِ عُتوِّهمْ وإمعانِهِمْ في الكُفر.

{حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ} (المؤمنون : ٧٧)

٧٧- حتَّى إذا جاءَ يَومُ القيامَة، وحقَّ عَليهمُ الجَزاء، وأصابَهَمْ عَذابٌ شَديدٌ بما كانوا يَعمَلون، إذا همْ آيسُونَ مِنْ كُلِّ خَير، ومُنقَطِعونَ مِنْ كُلِّ رَجاء.

{وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ} (المؤمنون : ٧٨)

٧٨- هوَ الإلهُ الحَقّ، الذي أنشَأ لكمُ السَّمعَ والأبصارَ لتَسمَعوا وتُبصِروا آياتِ الله، والأفئدَةَ لتتَفكَّروا وتَستَدِلُّوا بها على قُدرَتِهِ وعظَمتِه، ولكنَّكمْ قَليلاً ما تَشكرونَ هذهِ النِّعَم، التي تَنفَعُكمْ لو أحسَنتُمُ استِعمالَها.

{وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} (المؤمنون : ٧٩)

٧٩- وهوَ الذي خلقَكمْ ونشرَكمْ في الأرْض، وإليهِ تُبعَثونَ وتَجتَمِعونَ يومَ القيامَة.

{وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} (المؤمنون : ٨٠)

٨٠- وهوَ وحدَهُ الذي يُحيي الموتَى، ويُميتُ الأُمَم، وهوَ الذي يَجعَلُ اللَّيلَ والنَّهارَ مُتعَاقِبَين، فيَذهِبُ هذا ويَجيءُ الآخَر، وهكذا، لا يَفتُرُ كُلٌّ منهما مِنْ طلَبِ الآخَر، ويَجعَلُ فيهما الزيادَةَ والنُّقصان. أفلا تتَفكَّرونَ في هذا وتتَدبَّرونَه، بأسماعِكمْ وأبصارِكمْ وأفئدَتِكم، لتَستَدِلُّوا بها على الخَلاّقِ العَليم؟

{بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ} (المؤمنون : ٨١)

٨١- بلْ قالَ هؤلاءِ المشرِكونَ مثلَما قالَ أسلافُهمُ السَّابِقونَ مِنْ إنكارِ البَعث.

{قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ} (المؤمنون : ٨٢)

٨٢- وقالوا في جَهلٍ وعدَمِ تَقديرٍ لقُدرَةِ اللهِ القادِر: أإذا مِتنا وبَلينا، وصِــــرنا تُرابًا وعِظامًا لا حَياةَ فيها، أنَحيا ونُبْعَثُ مِنْ جَديد؟

{لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} (المؤمنون : ٨٣)

٨٣- قالوا: لقدْ سبَقَ أنْ ذُكِرَ لنا هذا مِنْ خبَرِ الأنبياءِ السَّابقِين، كما وعَدوا آباءَنا وأجدادَنا بذلك، وما هذا سِوَى حِكاياتِ المتَقَدِّمينَ وأكاذيبِهمُ التي سَطَّروها في كتُبِهم.

{قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} (المؤمنون : ٨٤)

٨٤- قُلْ لهؤلاءِ المنكِرينَ للبَعث: لمنْ هذهِ الأرضُ ومَنْ فيها مِنَ المخلوقات: خَلْقًا، ومُلكًا، وتَدبيرًا، إنْ كنتُمْ مِنْ أهلِ العَقلِ والعِلم؟

{سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} (المؤمنون : ٨٥)

٨٥- فلا يَسَعُهمْ إلاّ أنْ يَقولوا: إنَّهُ لله، فهوَ الخالِقُ المالِك. قُلْ لهم: أتَعلَمونَ هذا وتُقِرُّونَ به، ولا تتَذكَّرونَ أنَّ اللهَ الذي خلقَ الأرضَ ومَنْ فيها مِنَ المخلوقاتِ ابتِداءً قادِرٌ على إعادَةِ إحيائهمْ ثانيًا؟ بلِ الإعادَةُ أسهَل، فالخَلقُ الأوَّلُ مِنْ لا شَيء، وهذا خَلقٌ مِنْ شَيء.

{قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} (المؤمنون : ٨٦)

٨٦- قُلْ لهمْ أيضًا: مَنْ هوَ خالِقُ السَّماواتِ السَّبع، وما فيها مِنَ النُّجومِ والكَواكب، ومِنَ الملائكةِ الخاضِعينَ لأمرِه؟ ومَنْ هوَ رَبُّ العَرشِ العَظيم، المرتَفِعِ على السَّماواتِ كُلِّها؟

{سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} (المؤمنون : ٨٧)

٨٧- فسيَقولونَ كذلك: لله. فقُلْ لهم: ألا تَحذَرونَ عِقابَهُ إذًا بإصرارِكمْ على الشِّركِ وتَكذيبِكمْ رَسولَه؟

{قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} (المؤمنون : ٨٨)

٨٨- قُلْ لهم: مَنْ بيَدِهِ الملْكُ الشّامِلُ لهذا وغَيرِه، ومَنِ المدَبِّرُ والمتَصَرِّفُ فيهِ كما يُريد، ومَنِ الذي يُؤَمِّنُ مَنْ شاءَ مِنَ السُّوءِ ويَحميهِ مِنَ المكارِه، ولا يَمنَعُهُ أحَدٌ مِنَ الأمرِ الذي قدَّرَهُ عليهِ والسُّوءِ الذي أرادَ به؟ أجيبوا إنْ كنتُمْ مِنْ أهلِ العَقلِ والعِلم.

{سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ} (المؤمنون : ٨٩)

٨٩- فسَيَقولون: اللهُ بيدِهِ كُلُّ شَيء. فقُلْ لهم: فكيفَ تُخدَعونَ وتُصرَفونَ عنِ الحقّ، ويُخَيَّلُ لكمُ الهُدَى ضلالاً، وأنتُمْ تُقِرُّونَ لهُ بكُلِّ ما سبَق؟!

{بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} (المؤمنون : ٩٠)

٩٠- بلْ أتَينَاهمْ بالتَّوحيد، والبَعثِ والجزاءِ العَادل، وإنَّهمْ لكاذِبونَ في قَولِهِمْ إنَّهُ أساطيرُ الأوَّلين، وفي عِبادَتِهِمْ معَ اللهِ غَيرَه.

{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ} (المؤمنون : ٩١)

٩١- لم يَتَّخِذِ اللهُ ولَدًا، فلا يُشبِهُهُ أحَد، وليسَ هوَ بحاجَةٍ إلى أحَد، ولم يَكنْ لهُ شَريكٌ في الأُلوهيَّة، ولو كانَ هُناكَ إلهانِ أو أكثَر، لانفرَدَ كُلُّ إلهٍ بنَصيبِهِ مِنَ الخَلقِ واستقَلَّ بهِ عنِ الآخَر، وتفرَّدَ بالتصَرُّفِ فيه، ولَمَا وُجِدَ هذا التَّنظيمُ والتناسُقُ الشَّامِلُ في الكونِ كُلِّه.

ثمَّ إنَّ الأمرَ لا يَبقَى هكذا دونَ تَنافُسٍ وتَخاصُم، فسيَعلو إلهٌ على آخَر ويُحارِبُهُ ويُغالِبُهُ ليَقضيَ عَليهِ ويَستأثِرَ بمُلكِه، كما هوَ الشَّأنُ في مُلوكِ الدُّنيا. فتنَزَّهَ اللهُ وتقدَّسَ عمَّا يَصِفونَهُ بهِ مِنْ دَعوَى الولَدِ والشَّريك.

{عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} (المؤمنون : ٩٢)

٩٢- هوَ اللهُ الذي أحاطَ عِلمُهُ بكُلِّ ما شاهَدَهُ النَّاسُ وبما غابَ عَنهم، فتعالَى وتقدَّسَ عمّا يُشرِكُ بهِ الجاهِلون.

{قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ} (المؤمنون : ٩٣)

٩٣- قُلْ أيُّها الرَّسُول: يا رَبّ، إذا أرَيتَني ما يُوعَدونَ مِنَ العَذاب،

{رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} (المؤمنون : ٩٤)

٩٤- اللهمَّ فلا تجعَلني فيهمْ إذا حَلَّتْ نِقمَتُكَ بالقَومِ الظَّالِمين.

{وَإِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ} (المؤمنون : ٩٥)

٩٥- ونحنُ قادِرونَ على أنْ نُرِيَكَ ما يَحِلُّ بهِمْ مِنَ العَذابِ والهَلاك.

{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ} (المؤمنون : ٩٦)

٩٦- ادفَعْ إساءَةَ المسيءِ بالعَفوِ والإعرَاض، وأحسِنْ إليهِ ما استَطَعت، نحنُ أعلَمُ بما يَصِفونَكَ به، وبما يَقولُونَ مِنَ الشِّرك.

{وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ} (المؤمنون : ٩٧)

٩٧- وقُل: {رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ}: اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ منْ وساوسِ الشَّياطينِ المغرِيَة، التي تُخالِفُ هَدْيَ دِينِك،

{وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ} (المؤمنون : ٩٨)

٩٨- {وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ}: وأعوذُ بكَ يا رَبِّي أنْ يَحضُروا حَولي وفي شَيءٍ مِنْ أمري.

{حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ} (المؤمنون : ٩٩)

٩٩- حتَّى إذا جاءَ أحدَ هؤلاءِ الكافِرينَ أو المفَرِّطينَ في أمرِ اللهِ أجَلُ الموت، قالَ نادِمًا مُتَحَسِّرًا على ما أفنَى فيهِ عمُرَه: يا رَبِّ، رُدُّوني إلى الدُّنيا،

{لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} (المؤمنون : ١٠٠)

١٠٠- لعَلِّي أعمَلُ صالِحًا فيما ترَكتُ مِنْ إيمانٍ وطاعَة، وأُصلِحُ ما أفسَدْتُهُ مِنْ مَالٍ وعمَل. كَلاّ، لا نُجيبُهُ إلى ما طَلَب، وما قالَهُ كَلِمَةٌ لا تَستَحِقُّ الجَواب، وأمامَهمْ حاجِزٌ ما بينَ الدُّنيا والآخِرَةِ إلى أنْ يُبعَثوا مِنْ قُبورِهِمْ يومَ القِيامَة.

{فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ} (المؤمنون : ١٠١)

١٠١- فإذا نُفِخَ فِي الصُّورِ لِقِيامِ السَّاعَة، وقامَ النَّاسُ مِنْ قُبورِهم، فلا تَنفَعُ الأنسَابُ يَومَئذ، ولا يَسألُ قَريبٌ عنْ حَالِ قَريبِه، ولا صَديقٌ عنْ صَديقِه، بلْ يَفِرُّ كُلٌّ مِنَ الآخَرِ ويَشتَغِلُ بنَفسِه، لهَولِ ما يَراه، وعِظَمِ ما يَدهَمُه.

{فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (المؤمنون : ١٠٢)

١٠٢- فمَنْ ثَقُلَتْ موازينُهمْ بالحسَناتِ ورجَحَتْ على سيِّئاتِهم، فأولئكَ همُ النَّاجُون، الفَائزونَ بالجنَّةِ والرِّضوان.

{وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ} (المؤمنون: ١٠٣)

١٠٣- ومَنْ رَجَحَتْ سَيِّئاتُهُمْ على حسَناتِهم، فقدْ ضَيَّعوا أنفُسَهمْ وخابوا وخَسِروا، وهمْ ماكِثونَ في جَهنَّمَ أبَدًا.

{تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ} (المؤمنون : ١٠٤)

١٠٤- تُحرِقُ النَّارُ وجوهَهُم، وهمْ فيها عابِسونَ مُكتَئبون، قدْ قَلَصَتْ شِفاهُهُمْ مِنْ شِدَّةِ لَفْحِ النَّار.

{أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ} (المؤمنون : ١٠٥)

١٠٥- ويُقالُ لهمْ تَذكيرًا وتَوبيخًا: يا أهلَ النَّار، أما كانتْ آياتي تُتلَى عَليكم، في الكُتُبِ التي أنزَلتُها، وفيها تَحذيرٌ مِنَ الكُفر، وتَخويفٌ مِنَ النَّار، فكنتُمْ تُكَذِّبونَ بها، وتُعانِدونَ وتستَهزِؤون؟

{قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ} (المؤمنون : ١٠٦)

١٠٦- قالوا مُعترِفين: ربَّنا استَولَتْ عَلَينا الشَّقاوَة[٩٣]، وقامَتْ عَلَينا الحُجَّة، وكُنَّا قَومًا مُنحَرِفينَ زائغِينَ عنِ الحقّ، مُكَذِّبينَ بالآيَات.

---

(٩٣) أي: غلبتْ علينا لذَّاتُنا وشهواتُنا، فسمِّيَ ذلك شَقوةً لأنه يؤولُ إلى الشقاء. (فتح القدير).

{رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ} (المؤمنون : ١٠٧)

١٠٧- ربَّنا أَخرِجنا مِنَ النَّار، وأَعِدنا إلى الدُّنيا، فإذا عُدْنا مَرَّةً أُخرَى إلى الكُفرِ والمعاصِـــي، فإنَّنا ظالِمونَ مُستَحِقُّونَ للعُقوبَة.

{قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} (المؤمنون : ١٠٨)

١٠٨- فيَقولُ اللهُ لهم: ابعَدوا واخرِسوا، وابقُوا في النَّارِ صاغِرين، أَذِلَّةً مُهانِين، ولا تَعودوا إلى هذا الكَلام، فلنْ أرفَعَ العَذابَ عَنكُم.

{إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ} (المؤمنون : ١٠٩)

١٠٩- لقدْ كانَ جَماعَةٌ مِنْ عِبادِيَ المؤمِنينَ يوَحِّدونَني، ويَدعونَني لأَغفِرَ لهمْ، وأرحَمَهم، واللهُ خَيرُ مَنْ رَحِمَ وعَفا،

{فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ} (المؤمنون: ١١٠)

١١٠- فاستَهزَأتُمْ بهمْ واتَّخَذْتُموهُمْ سُخرِيَة، وضَحِكتُمْ مِنْ عِبادَتِهِمْ لي، ومِنْ دُعائهِمْ وتَضَرُّعِهِمْ إليّ، حتَّى شَغَلَكمْ هذا الاستِهزاءُ عنْ ذكرِ الله، والاستِماعِ إلى آياتي، والتفَكُّرِ في الحقِّ الذي يَدعونَ إليه[٩٤].

{إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ} (المؤمنون : ١١١)

---

(٩٤) {حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي}: نسُوا ذكرَ الله لشدَّةِ اشتغالهم بالاستهزاء. (فتح القدير).

أي: الاستهزاءُ بهم، فإن أنفسَهم ليستْ سببَ الإنساء. (روح البيان).

إسنادُ الإنساءِ إلى الفريقِ مجازٌ عقليّ؛ لأنهم سببه، أو هو مجازٌ بالحذف، بتقدير: حتى أنساكم السخريُّ بهم ذكري. والقرينةُ على الأولِ معنوية، وعلى الثاني لفظية. (التحرير).

١١١- لقدْ أثَبْتُهمُ اليَومَ جَزاءَ صَـبرِهمْ على أذيَّتِكمْ واسـتِهزائكمْ بهم، وجعَلتُهمْ مِنَ السُّـعداءِ المفلِحين، الفائزينَ بالجنَّةِ والنَّعيم.

{قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ} (المؤمنون : ١١٢)

١١٢- وقيلَ لأهلِ النَّار: كمْ سنَةً بَقيتُمْ في الدُّنيا أحياءً؟

{قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ} (المؤمنون : ١١٣)

١١٣- قالوا: لقدْ مَكَثنا مُدَّةً قَليلَة، فاســـألِ المتَمَكِّنينَ مِنَ العَدّ، فقدْ دَهَمَنا مِنَ العَذابِ ما أنسَانا مَعرِفَةَ ذلك.

{قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} (المؤمنون : ١١٤)

١١٤- قيلَ لهم: حَقًّا لقدْ مكَثتُمْ مُدَّةً يَسيرَةً في الحَياةِ الدُّنيا، فقدِ انقضَتْ ومَضَت، ولو كانَ لكمْ عِلمٌ وتفَكُّر، لعرَفتُم حقارَةَ الدُّنيا ومتاعَها الزَّائل، وصبَرتُمْ على ما كُلِّفتُمْ بهِ مِنْ طاعَةِ الله، في عُمرِكمُ القَصير.

{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} (المؤمنون : ١١٥)

١١٥- أظَنَنتُمْ أنَّني خلَقتُكمْ هَمَلاً، لَعِبًا وباطِلاً، دونَ حِكمَةٍ ومِنْ غَيرِ هدَفٍ وغايَة، وأنَّكمْ لا تُبْعَثونَ بعدَ الموتِ للحِسابِ والجَزاء، والثَوابِ والعِقاب؟

{فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} (المؤمنون : ١١٦)

١١٦- تنَزَّهَ اللهُ عنْ مِثلِ هذا العبَث، وتعالَى عنْ أنْ يَخلُقَ شَـيئًا مِنْ دُونِ قَصـدٍ وفائدَة، فهوَ المالِكُ بالحَقِّ والعدل، لا إلهَ غَيرُه، وهوَ رَبُّ العَرشِ الكَريم.

{وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَـابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} (المؤمنون : ١١٧)

١١٧- ومَنْ يُشـرِكْ باللهِ ويَعبُدْ معَهُ سِـواه، لا دَليلَ لهُ على قَولِهِ وفِعلِه، ولا بَيِّنَةَ لهُ في دَعوَى شِركِه، فإنَّ اللهَ يُحاسِبُهُ على ذلك، ولا فَوزَ للكافِرينَ الكاذِبين، ولا نَجاةَ لهمْ مِنْ عذابِ الله.

{وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ} (المؤمنون : ١١٨)

١١٨- وتوَجَّهْ إلى اللهِ في دُعائك، واطلُبْ منهُ الرَّحمَةَ والغُفران، وقُلْ: {رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ}، فإنهُ خيرُ مَن رَحِمَ ذا ذَنب، فقَبِلَ توبتَهُ، ولم يعاقبه.

سورة النور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (النور : ١)

١- هذهِ سُورَةٌ مِنَ القُرآنِ أنزَلناها، وفرضنا أحكامَها عَليكمْ وعلى مَنْ بَعدَكم، وأنزَلنا فيها آياتٍ واضِحاتِ الدَّلالَة، لتتَّعِظوا وتَعمَلوا بها.

{الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ} (النور : ٢)

٢- الزَّانيَةُ البِكْرُ، والزَّاني البِكر، اضربوا كُلَّ واحِدٍ منهُما مائةَ جَلدَة. فإذا كانا مُتزَوِّجَينِ رُجِما، كما ثبَتَ في السُّنَّة. ولا تأخُذْكُمْ شَفَقَةٌ بهما في طاعَةِ اللهِ وإقامَةِ الحَدِّ عَليهِما، فشَدِّدوا الضَّربَ عَليهِما، ليَرتَدِعا، ويَرتَدِعَ أمثالُهما بذلك، فافعَلوا ذلكَ إنْ كنتُمْ مؤمِنينَ باللهِ واليَومِ الآخِر.

وليَحضُرْ جَلدَهما جَماعَةٌ مِنَ المؤمنين، ليَكونَ ذلكَ أبلَغَ في زَجرِهما، وأكثرَ تَقريعًا وتَوبيخًا لهمَا. ويُشترَطُ في تَرَتُّبِ الحَدِّ على البِكرِ أيضًا، أنْ يَكونَ بالِغًا عاقِلاً.

{الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} (النور : ٣)

٣- الزَّاني لا يُطاوِعُهُ على فِعْلِهِ إلاّ زانِيَةٌ عاصِيَة، أو مُشرِكَةٌ لا تَرَى حُرمَةَ الزِّنا. ولا يَليقُ بمثلِهِ أنْ يَنكِحَ المؤمِنَةَ العَفيفَة. والزَّانيَةُ كذلك، لا يُطاوِعُها على فِعلِها إلاّ زانٍ عَاص، أو مُشرِكٌ لا يَرَى حُرمَةَ الزِّنا، وحُرِّمَ الزِّنا على المؤمنين.

{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (النور : ٤)

٤- والذينَ يَقذِفونَ العَفيفاتِ بالزّنا، ولم يُثبِتوا دَعواهُمْ بأربَعَةِ شُـــهودٍ يَشـــهَدونَ على قَولِهِمْ بالصِّحَّة، فاضرِبوهمْ ثمانينَ جَلدَة، ولا تَقبَلوا لهمْ شَهادَةً مُدَّةَ حَياتِهم، وهمْ عاصُونَ خارِجونَ عنِ الطَّاعَة، وذلكَ جَزاءُ كَذِبِهِمْ وهَتكِهِمْ سِترَ المؤمِنين، وتَشويهِ سُمعَتِهِمْ في المجتَمَع،

{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (النور : ٥)

٥- إلاّ مَنْ تابَ منهمْ بعدَ ذلك، وصلَحَ أمرُه، فإنَّ اللهَ يَقبَلُ تَوبتَه، ويَغفِرُ لهُ ويَرحَمُه، بعدَ أنْ يُجلَد. ويُرفَعُ عنهُ الفِسق، وتُقْبَلُ شَهادَتُه. وعندَ أبي حَنيفةَ يَبقَى مَردودَ الشَّهادَة.

{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاء إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} (النور : ٦)

٦- والذينَ يَقذِفونَ زَوجاتِهِمْ بالزّنا، ولا يَجِدونَ مَنْ يَشهَدُ على ذلكَ سِوَى أنفُسِهم، يُقضَى عَليهِمْ بالملاعنَة، فيُحضِرُ أحَدُهُمْ زَوجتَهُ عندَ القاضي، ويَشهَدُ أربعَ شَهاداتٍ - مُقابِلَ أربَعَةِ شُهودٍ - يَقولُ فيها إنَّهُ مِنَ الصَّادِقينَ فيما رَماها بهِ مِنَ الزّنا،

{وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} (النور : ٧)

٧- وفي الشَّهادَةِ الخامسَةِ يَقولُ إنَّ لَعنةَ اللهِ عَليهِ إنْ كانَ كاذِبًا فيما رَماها بهِ مِنَ الزّنا.

{وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ} (النور : ٨)

٨- ويَدفَعونَ عنِ المرأةِ الحدَّ، وهوَ الرَّجْمُ، إذا شَـــهِدَتْ أربعَ شَـــهاداتٍ باللهِ أنَّ ما رَماها بهِ زَوجُها مِنَ الزّنا كَذِبٌ غَيرُ صَحيح،

{وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ} (النور : ٩)

٩- وفي الشَّهادَةِ الخامِسَةِ تَشهَدُ أنَّ غضَبَ اللهِ عَليها إنْ كانَ زَوجُها صادِقًا في رَميها بالزّنا. ثمَّ يُفَرَّقُ بينَهما.

{وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ} (النور : ١٠)

١٠- ولولا فَضلُ اللهِ عَليكمْ بتَشريعِ هذهِ الأحكَام، ورحمَتُهُ بكمْ فيما يُناسِبُكمْ منها، لشَقَّ عَليكمْ ذلك، ووَقعتُمْ في ضِيقٍ وحرَج. واللهُ تَوَّابٌ، يَتوبُ على مَنْ أنابَ وأصلَح، حَكيمٌ فيما أمرَ ونَهَى.

{إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ} (النور : ١١)

١١- رافقَتْ عائشَةُ رَضيَ اللهُ عَنها رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم في غَزوَةٍ غَزاها، وعندَما رجعَ ودَنا مِنَ المدِينَة، وآذنَ ليلَةً بالرَّحيل، مَشَتْ هيَ حتَّى جاوَزَتِ الجَيشَ لتَقضِيَ حاجتَها. ولما عادَتْ لمسَتْ صَدرَها فإذا عِقْدُها انقطَع. فرجعَتْ تَلتَمِسُه، فوجَدَتْهُ بعدَما استمَرَّ الجَيش، وعادَتْ إلى مَكانِها فلمْ تَجِدْ أحدًا هُناك. فنامَتْ وهيَ تَظُنُّ أنَّهُمْ سَيَفقِدونَها ويَعودونَ إليها. وكانَ الصَّحابِيُّ الجَليلُ صَفوانُ بنُ المعَطَّلِ مِنْ وَراءِ الجَيش، فرَآها، فأناخَ لها راحِلتَهُ فرَكِبَتْها، وانطَلَقَ يَقودُ بها الرَّاحِلَةَ حتَّى أتَوا الجَيش، فأشاعَ المنافِقونَ أنَّهُ فعلَ بها! فبرَّأَها اللهُ ممّا قالوا في آياتٍ أنزلَها في هذهِ السُّورَةِ مِنْ كتابِهِ الكريم.

إنَّ الذينَ جاؤوا بالكذِبِ والبُهتانِ الذي افترَوهُ على أُمِّ المؤمنينَ عائشَةَ بنتِ أبي بَكرٍ الصِّدِّيق، زوجِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، هُمْ جَماعَةٌ منكم، ولا تظنُّوا ذلكَ شَرًّا لكمْ - والخِطابُ الأخيرُ للنبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ وآلِ أبي بَكر - بلْ هوَ خَيرٌ لكم، ففيهِ ثَوابٌ على صَبرِكم، ورِفعَةُ منازِلِكمْ في الآخِرَة، وظُهورُ كرامَتِكم، واهتِمامٌ وتَعظيمٌ لعِرْضِ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، واعتِناءٌ بأُمِّ المؤمِنينَ رَضيَ اللهُ عَنها، فقدْ أنزلَ اللهُ براءَتَها في آياتٍ تُتلَى في كِتابِهِ إلى قِيامِ السَّاعَة. معَ تَشديدِ الوَعيدِ على المنافِقينَ وبيانِ أساليبِهمُ العَدائيَّة.

ولكُلِّ مَنْ تكلَّمَ بهذا الإفكِ العَظيمِ نَصيبٌ منَ العَذاب، والذي ابتدَأَ بهِ وخطَّطَ لهُ وأشاعَهُ مِنْ بينِهم، لهُ عَذابٌ كبيرٌ على فِعلِهِ الشَّنيعِ هذا. وهوَ رأسُ المنافِقينَ عَبدُاللهِ بنُ أُبَيِّ بنِ سَلُول.

{لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ} (النور : ١٢)

١٢- وقدْ خاضَ بَعضُ المسلِمينَ في هذا الكَلامِ السَّيِّءِ دونَ تَثَبُّت.
هلاّ إذْ سَمِعتُمْ ذلكَ الكلامَ غيرَ اللاّئقِ بأُمِّ المؤمِنين، مِنْ أُناسٍ غَيرِ مؤتَمَنين، ظَنَنتُمْ خَيرًا بإخوانِكمْ وأَخواتِكمْ أيُّها المؤمِنونَ والمؤمِنات؟ فالعَدوُّ دائمًا يَعمِدُ إلى إساءَتِكمْ. وإذا كانَ هذا الاتِّهامُ لا يَليقُ بكمْ لكَونِكمْ مؤمِنين، فكيفَ يَليقُ بعِرضِ رَسولِكم؟ فهَلاّ قُلتُمْ إنَّ ذلكَ خبَرٌ كاذِبٌ ظاهِرٌ مَكشوف؟

{لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ} (النور : ١٣)

١٣- هلاّ جاءَ هؤلاءِ الكذَّابونَ على إفكِهِمْ وادِّعائهِمْ بأربَعةِ شُهودٍ يَشهَدونَ على صِحَّةِ قَولِهِمْ؟ فإذا لم يأتُوا بالشُّهودِ فأولئكَ مِنَ المفسِدين، ومَحكومٌ عَليهِمْ بالكذِبِ في شَريعَةِ الله.

{وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} (النور : ١٤)

١٤- ولولا فَضلُ اللهِ عَليكمْ ورأفَتُهُ بكمْ في الدُّنيا والآخِرَة، بأنْ عَفا عَنكمْ وقَبِلَ تَوبتَكمْ لإيمانِكم، لأصابَكمْ بسبَبِ ما خُضتُمْ فيهِ منْ حَديثِ الإفكِ عَذابٌ كَبيرٌ لا يَنقَطِع.
والخِطابُ للخائضينَ فيهِ مِنْ غَيرِ المنافِقين.

{إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ} (النور : ١٥)

١٥- إذْ تتلقَّفونَ هذا الخبَرَ السَّيِّءَ ويَرويهِ بَعضُكمْ عنْ بَعض، وتَقولونَ قَولاً لا عِلمَ لكمْ به، ولا تَثَبُّتَ لكمْ فيه، وتَحسَبونَ هذا القَولَ يَسيرًا في حَقِّ أُمِّ المؤمِنين، زَوجِ رَسولِ اللهِ الكَريم، والحالُ أنَّهُ قَذْفٌ وشائعَةٌ خَطيرَة، يترَتَّبُ عليهِ وِزرٌ كبير، وعَذابٌ عَظيمٌ يَومَ القيامَة، بقَدْرِ شناعتِهِ وآثارِهِ السيِّئة.

{وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ} (النور : ١٦)

١٦- وهلاّ إذْ سَمِعتُمْ هذا الكَلامُ المنكرَ قُلتُم: لا يَحِقُّ لنا أنْ نتكلَّمَ بهذا الكَلامِ المفتَرى ولا أنْ نَذكُرَهُ لأحَد، وسُبحانَ اللهِ أنْ يُقالَ هذا الكَلامُ على زَوجِ رَسولِ رَبِّ العالَمين، هذا كَذِبٌ وافتِراء، وكلامٌ مُلفَّقٌ مُختَرَع.

{يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} (النور : ١٧)

١٧- يَنصَحُكمُ اللهُ في هذا الشَّأن، ويُحَرِّمُ عَليكمْ أنْ تَعودوا لمِثلِهِ فيما يُستَقبَلُ أبَدًا، إنْ كنتُمْ مؤمنينَ باللهِ وشَرعِه.

{وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (النور : ١٨)

١٨- ويُوَضِّحُ اللهُ لكمْ هذهِ الأحكامَ الدَّالَّةَ على مَحاسِنِ شَريعَتِه، وهوَ عَليمٌ بأحوالِ عِبادِه، حَكيمٌ فيما يَشرَعُهُ لهمْ مِنْ أحكَام.

{إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (النور : ١٩)

١٩- إنَّ الذينَ يُحِبُّونَ أنْ تَنتَشِرَ الفَواحِشِ والمنكَراتُ والأخبَارُ السَّيِّئةُ في المجتَمَعِ الإسلاميّ، لهمْ عَذابٌ شَديدٌ في الحَياةِ الدُّنيا، وهوَ إقامَةُ الحَدِّ عَليهم، أو ما يُناسِبُهُ منْ تَعزير، معَ ما يَبتَليهمُ اللهُ مِنَ البَلايا والمِحَن، وفي الآخِرَةِ لهمْ عَذابُ النَّار. واللهُ يَعلَمُ الأمُورَ وما يُناسِبُها مِنْ وَعيد، وأنتُمْ لا تَعلَمونَ ما يَعلَمُه، فرُدُّوا إليهِ الأمُورَ تَرشُدوا وتَنجُوا.

{وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} (النور : ٢٠)

٢٠- ولولا فَضلُ اللهِ ونِعمتُهُ عَليكم، ورَحمَتُهُ بكم، لعجَّلَ بعقوبَتِكم، ولكنَّهُ رَحِمَكمْ وتَابَ عَليكم. وهذا لغَيرِ المنافِقين.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (النور : ٢١)

٢١- أيُّها المؤمنون، لا تتَّبِعوا مسالِكَ الشَّيطانِ وطُرُقَهُ الخبيثَة، وما يوَسوِسُ بهِ في نفُوسِكمْ ويُزَيِّنُهُ في قُلوبِكمْ مِنْ إشاعَةِ الفاحِشَة، ومَنْ يَسلُكْ طُرُقَهُ فإنَّهُ يَكونُ ساعيًا وآمِرًا بالأفعالِ القَبيحَة، التي يُنكِرُها الشَّرعُ لضَرَرِها وآثارِها السيِّئة.

ولولا فَضلُ اللهِ عَليكمْ ورَحمَتُهُ بكم، ومنها بَيانُ عُقوبَةِ مَنْ يُشِيعُ الفاحِشَةَ في المجتمَع، ثمَّ تَوفيقُكمْ للتَّوبَة، لما طهَّرَ أحَدًا منكمْ مِنَ الذُّنوبِ والأخلاقِ الدَّنيئةِ أبَدًا، ولكنَّ اللهَ يُطَهِّرُ مَنْ شَاءَ مِنْ خَلقِه، بتَسديدِهمْ وهِدايَتِهمْ للتَّوبَة، ثمَّ قَبولِها منهم. واللهُ سَميعٌ لأقوالِ عِبادِه، عَليمٌ بنيَّاتِهمْ في الإخلاصِ والتَّوبَة.

{وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (النور : ٢٢)

٢٢- وكانَ أبو بَكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ يُنفِقُ على قَريبٍ له، ولما كانَ ممَّنْ خاضَ في الإفكِ قطعَهُ عنه، وحلَفَ أنْ لا يُنفِقَ عليه، وكانَ مِنَ المهاجِرينَ المسَاكين. ولما نزَلَتْ بَراءَةُ عائشَةَ رَضيَ اللهُ عنها، وأُقيمَ حَدُّ القَذْفِ على مَنْ أُقيم، ومنهمْ مِسطَحٌ ابنُ خالَةِ أبي بَكر... نزَلَتِ الآيَة.

ولا يَحلِفَنَّ أهلُ الصَّدَقَةِ والإحسَانِ منكمْ أنْ لا يُؤتُوا ذَوي قُرباهُمْ والفُقَراءَ منهمْ والمهاجِرينَ في سَبيلِ الله، ولْيَعْفُوا عمّا صدَرَ منهمْ مِنَ الإساءَةِ والأذَى، ألا تُحِبُّونَ أنْ يُثيبَكمُ اللهُ على إحسانِكمْ وعَفوِكمْ عَنهم، بأنْ يَغفِرَ لكمْ ذُنوبَكم، وهوَ الذي يَغفِرُ الذنوبَ، ويَرحَمُ عِبادَهُ، ويُدخِلُهمُ الجنَّة؟

فقالَ أبو بَكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه: بَلَى واللهِ إنَّا نُحِبُّ يا ربَّنا أنْ تَغفِرَ لنا. وعادَ إلى صِلَةِ قَريبِهِ بالنَّفَقَة.

{إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} (النور : ٢٣)

٢٣- إنَّ الذينَ يَقذِفونَ العَفيفاتِ البَعيداتِ عنِ التُّهَم، المؤمِناتِ، بالزِّنا، أُبعِدوا منَ الرَّحمَة، فعُذِّبوا في الدُّنيا بالحَدّ، وفي الآخِرَةِ بالنَّار، ولهمْ معَ اللَّعنِ عَذابٌ كبيرٌ هائل.

{يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (النور : ٢٤)

٢٤- في يَومِ الحِسابِ والجَزاء، تَشهَدُ ألسِنَتُهمْ وأيديهمْ وأرجلُهمْ على أقوالِهمُ وأفعالِهمُ السيِّئة، فتَنطِقُ بقُدرَةِ الله، وتُخبِرُ كُلُّ جارِحَةٍ بما جنَتْهُ.

{يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ} (النور : ٢٥)

٢٥- في ذلكَ اليَومِ يُحاسِبُهمُ اللهُ ويُجازِيهمْ على أعمالِهم، ويَعلَمونَ عندَ مُعايَنَتِهمُ العَذابَ أنَّ وعدَ اللهِ حَقّ، وأنَّ حِسابَهُ عَدْل.

{الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} (النور : ٢٦)

٢٦- الخَبيثاتُ السَّيِّئاتُ مِنَ النِّساءِ مُناسِباتٌ ولائقاتٌ بالخَبيثينَ السَّيِّئينَ مِنَ الرِّجال، والخَبيثونَ منهمْ لائقونَ بالخَبيثاتِ منهنّ ومُوافِقونَ لَهُنّ، والطيِّباتُ العَفيفاتُ مِنَ النِّساءِ مُختَصّاتٌ بالطيِّبينَ مِنَ الرِّجال، والطيِّبونَ منهمْ مُختَصُّونَ بالطيِّباتِ منهنّ، وهمْ بَعيدونَ عمّا يَقولُهُ أهلُ الزُّورِ والبُهتان، لهمْ مَغفِرَةٌ عَظيمَةٌ عندَ رَبِّهم، بسَبَبِ صَبرِهمْ على ما قيلَ فيهم، وجنَّةُ عَدْنٍ يُقيمونَ فيها.

والإشارَةُ فيها إلى عائشَةَ رَضيَ اللهُ عنها. قالوا: وحَيثُ إنَّ رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم أطيَبُ الطيِّبين، فإنَّ الصِّدِّيقَةَ رَضيَ اللهُ عنها أطيَبُ الطيِّباتِ بالضَّرورَة.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (النور : ٢٧)

٢٧- أيُّها المؤمِنون، لا تَدخُلوا بيوتًا - ماعدا بيوتَكم - حتَّى تَستأذِنوا مِنْ أهلِها (ثَلاثًا)، وتُسَلِّموا على السَّاكنينَ فيها، فإنَّ الاستِئذانَ خَيرٌ لكمْ مِنَ الدُّخولِ فَجأة.

{فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} (النور : ٢٨)

٢٨- فإنْ لم تَجِدوا في البُيوتِ أحدًا يأذَنُ لكمْ بالدُّخول، فاصبِروا ولا تَدخُلوها حتَّى يُسمَحَ لكمْ به، لأنَّ فيهِ تَصَرُّفًا في مُلْكِ الغَيرِ بغَيرِ رِضاه، والدُّخولُ بغَيرِ إذنٍ سبَبٌ للقِيلِ والقَال. وإذا طُلِبَ مِنكمُ الرُّجوعُ فارجِعوا ولا تُلِحُّوا في الدُّخول، فإنَّهُ أطهَرُ لقُلوبِكم، وأنفَعُ لدينِكمْ ودُنياكُم. واللهُ عَليمٌ بما تأتونَ وما تَترُكونَ ممّا كَلَّفَكمْ به، ومنهُ الدُّخولُ بإذنٍ أو بغَيرِ إذن.

{لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ} (النور : ٢٩)

٢٩- ليسَ عَليكمْ حرَجٌ أنْ تَدخُلوا بغَيرِ استِئذانٍ بيوتًا ليسَ فيها أحَد، كأماكنِ إيواءِ الأمتِعَةِ والرِّحال. والمقصودُ البيوتُ غَيرُ المخصَّصَةِ لسُكنَى طائفَةٍ مُعَيَّنَة، كالفنادقِ والحوانيتِ والحمَّاماتِ وما إليها. واللهُ مُحيطٌ بما تُظهِرونَ وما تُسِرُّون.

وهوَ وَعيدٌ لمنْ يَدخلُ أماكِنَ بقَصدِ الفساد، أو للاطِّلاعِ على أسرارِ النَّاسِ وعَوراتِهم.

{قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} (النور : ٣٠)

٣٠- قُلْ للمُؤمِنينَ يَصرِفوا أبصارَهمْ عنِ النظَرِ إلى الحرَام، كالنظَرِ إلى العَوراتِ وإلى النِّساءِ الأجنَبيَّات، وإلى ما يورِثُ الفِتنَةَ ويُوقِعُ في المحذُور. ولْيَحفَظوا فروجَهمْ عمَّا لا يَحِلُّ لهم، كالزِّنا واللِّواطِ وغَيرِه، فإنَّ غَضَّ البصَرِ وحِفظَ الفَرْجِ خَيرٌ لهمْ وأطهَرُ لقُلوبِهم، وأصلَحُ لنفُوسِهم، واللهُ عَليمٌ بما يَفعَلون، وسيُجازي كُلاًّ بما عَمِل.

{وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ

نِسَـــائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (النور : ٣١)

٣١- وقُلْ للمؤمِناتِ كذلكَ يَصرِفْنَ أبصارَهُنَّ عمَّا لا يَحِلُّ لهنَّ النظَرُ إليه، ويَحفَظْنَ فُروجَهنَّ عنِ الحَرام، ولا يُظهِرْنَ شَيئًا ممّا يتزَيَّنَّ بهِ مِنَ الحُلِيّ، إلاّ ما لا يُمكِنُ إخفاؤه، كالرِّداءِ والثِّياب، أو الخاتَمِ والخِضاب. وفيهِ خِلافٌ مَشهور، بينَ مَنْ قالَ إنَ المقصودَ بـــ "ما ظهرَ منها" الوَجهُ والكَفَّان، ومَنْ قالَ غيرَ ذلك.

وَلْيُرسِلْنَ بخُمُرِهِنَّ - جَمْعُ خِمار، وهوَ السِّتْر - على صُدورِهِنّ، لئلاّ يُرَى منها شَيء.

ولا يُظهِرْنَ زِينتَهُنَّ الخَفيَّةَ إلاّ لأزواجِهِنَّ، أو آبائهنَّ، أو آباءِ أزواجِهنَّ، أو أبنائهنَّ، أو أبناءِ أزواجِهنَّ، أو إخوانِهنَّ، أو بَني إخوانِهنَّ، أو نِسائهِنَّ - يَعني المسلِماتِ دونَ الكافِرات - أو ما ملَكَتْ أيمانُهُنَّ مِنَ الإمَاء، ولو كُنَّ كافِرات، أو الأُجَراءِ والأتْباعِ الذينَ لا مَيلَ ولا حاجَةَ لهمْ إلى النِّساء، كالأبلَهِ والمغَفَّل، والطَّاعنِ في السِّنِّ الذي فَنِيَتْ شَهوَتُه، والممسوحِ الذي قُطِعَ ذَكَرُهُ وخِصْيَتُه. أو الأطفالِ الذينَ لم يَعرِفوا بعدُ معنَى العَورَةِ وحرَكاتِ النسَاءِ وسَكناتِهِنَّ.

ولا يَضْـــرِبْنَ بعضَ أرجُلِهِنَّ ببَعضٍ لِيَتَقَعْقَعَ خَلاخِلُهُنَّ فيُعلَمَ أنَّهُنَّ ذواتُ زِينَةٍ، إغراءً للرِّجال. كما وردَ في الحَديثِ الصَّحيحِ النهيُ عنْ أنْ يتعَطَّرْنَ لِيَشُمَّ الرِّجالُ عِطرَهُنّ.

واترُكوا الفَواحِشَ والأخْلاقَ الرَّذيلَةَ أيُّها المؤمِنون، وتوبوا إلى اللهِ ممّا قَصَّرتُمْ فيه، لتَفوزُوا برِضَى اللهِ والسَّعادَةِ في الدَّارَين.

{وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّـالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} (النور : ٣٢)

٣٢- وزَوِّجُوا مَنْ لا زَوجَ لهُ منكمْ أيُّها الأوْلياءُ والأقرِباء، رِجالاً كانوا أو نِساء، والصّالَحينَ مِنْ عَبيدِكمْ وجَوارِيكمْ أيُّها السَّادَة، وإذا كانوا فُقَراءَ فإنَّ اللهَ سيُغنيهِمْ بعدَ الزَّواج. حتَّى قالَ ابنُ مَسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه: التَمِسوا الغِنى في النِّكاح.

واللهُ غَنيٌّ ذو فَضلٍ وسَعَة، عَليمٌ بعِبادِهِ وأحوالِهم، فيَبسُطُ الرزقَ لمنْ شاءَ منهم، ويُضَيِّقُ على مَنْ شاء، بحِكمَتِه.

{وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (النور : ٣٣)

٣٣- والذينَ هُمْ فُقَراءُ ولا يَجِدونَ ما يتزَوَّجونَ به، فليَتَعَفَّفوا عنِ الحَرام، وليَصونُوا أنفُسَهمْ عنِ الشُّبُهاتِ والشَّهوات، حتَّى يوَسِّعَ اللهُ عليهمْ مِنْ رزقِه.

والذينَ يُريدونَ أنْ تُكاتِبوهمْ مِنَ العَبيد، بأنْ يُعطوكمْ قَدْرًا مِنَ المال ليَتحَرَّروا، ولهمْ صَنعَةٌ أو قوَّةٌ على الكَسْبِ يَستَطيعونَ بهِ أنْ يؤدُّوهُ إليكم، فاسمَحوا لهمْ بذلك - وهوَ أمرُ نَدْبٍ واستِحباب - وساعِدوهمْ في ذلك، وأعطُوهمْ ممّا أعطاكمُ اللهُ مِنَ الرِّزق، ليَكونَ عَونًا لهمْ على تَحريرِهم.

ولا تُجبِروا إماءَكمْ على الزِّنا إذا أرَدْنَ الصَّوْنَ والعِفَّة، لتَطلبُوا بذلكَ المالَ مِنْ كَسبِهِنَّ أو صَداقِهِنَّ أو بَيعِ أولادِهِنّ. وليسَ المقصودُ أنَّ التي لا تُريدُ العَفافَ زَنَت، ولكنَّهُ بيانٌ لقُبحِ الأمرِ وشَناعَتِه، أو أنَّهُ خرجَ مَخرجَ الغالِب. وقدْ نزَلَتِ الآيَةُ في إماءٍ كُنَّ يُرِدْنَ العَفافَ وسَيِّدُهنَّ (كبيرُ المنافِقينَ) يُكرِهُهنَّ على الفُجورِ والزِّنا، فنزلتِ الآيَةُ لبيانِ حُكمٍ وتَوضيحِ حالَة.

فمَنْ أجبَرَهُنَّ على ذلكَ فإنَّ إثمَهنَّ على مَنْ أجبرَهُنّ، واللهُ يَغفِرُ لهنَّ مادُمْنَ مُكرَهات، ويَرحَمُهنَّ ولا يُعَذِّبُهنَّ على ذلك.

{وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ} (النور : ٣٤)

٣٤- ولقدْ أنزَلنا في هذا القُرآنِ آياتٍ، فيها بيانٌ لحدودٍ وآدابٍ وأحكَام، وشِبْهًا مِنْ حالِكمْ بحالِ الذينَ مضَوا مِنْ قَبلِكم، كقِصَّةِ أُمِّ المؤمِنينَ عائشَةَ المحاكيَةِ لقِصَّةِ مريَمَ الصِّدِّيقَة، التي اتَّهمَها اليَهودُ بالزِّنا، ومَوعِظَةً وعِبرَةً للمؤمِنينَ الحَذِرينَ الوَجِلين، الذينَ يَنزَجِرونَ عنِ المحرَّمات، ويَعتَبِرونَ مِنَ القِصَصِ والأخبَار.

{اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (النور : ٣٥)

٣٥- اللهُ سُبحانَهُ نُورُ السَّماواتِ والأرض، مثَلُ نُورِهِ كمَثَلِ كُوَّةٍ في حائط، فيها سِراجٌ يَجمَعُ ضَوءَهُ لئلاّ يتفرَّق، السِّراجُ في قِنديلٍ زُجاجيّ صَاف، القِنديلُ الزُّجاجيُّ مُضيءٌ مُتَلألئٌ كأنَّهُ كوكَبٌ مُشرِقٌ كالدُّرِّ، يَستَمِدُّ هذا المِصباحُ وَقودَهُ منْ زَيتِ زَيتونِ شَجَرَةٍ كثيرَةِ المنافِع، وتَكونُ في مَكانٍ مُستَوٍ بارِز، فلا يَمنَعُ عنها الشمسَ شَيء، مِنْ حينِ طُلوعِها حتَّى تَغرُب، وهذا أحسَنُ لزَيتِها وألطَف، فيَكادُ لصَفائهِ ونقائهِ أنْ يُشرِقَ بنَفسِه، مِنْ غَيرِ أنْ يَمَسَّهُ نارٌ، فإذا مَسَّهُ أضاءَ كثيرًا.

نورٌ عَظيمٌ كائنٌ على نُور: نورُ النَّارِ ونورُ الزَّيت. يُرشِدُ اللهُ لهدايَتِهِ مَنْ يَختارُهُ مِنْ عِبادِه، ممَّنْ يَعلَمُ طهارتَهُ وصَلاحَه.

وهذا مثَلٌ مِنَ الأمثالِ التي يَضرِبُها اللهُ للنَّاس، وهوَ عَليمٌ بمَنْ يَستَحِقُّ منهمُ الهِدايَةَ ومَنْ لا يَستَحِقّ.

{فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} (النور : ٣٦)

٣٦- المساجِدُ أحَبُّ البِقاعِ إلى اللهِ في الأرْض، أمرَ اللهُ أنْ تُطَهَّرَ مِنَ الدَّنَسِ والقَذَرِ والكلامِ اللَّغْوِ وكُلِّ ما لا يَليقُ بها، يَذكرُ فيها ويَتلو كِتابَهُ أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه،

{رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ} (النور : ٣٧)

٣٧- رِجالٌ مُؤمِنونَ مُخلِصون، همْ عُمَّارُ بيوتِه، فلا تَشغَلُهمُ التِّجارَةُ بأرباحِها، ولا بَيعٌ ولا شِراءٌ عنِ التَّسبيح، والتَّحميد، وطاعَةِ رَبِّهِمْ ومحبَّتِه، وعنِ الصَّلاةِ في مَواقيتِها، وإعطاءِ حُقوقِ

الفُقَراءِ مِنْ أموالِهِم، فالطَّاعَةُ مَقصِـــدُهمْ أينَما كانوا، يَخافونَ يَومَ الحِســـابِ والجزاءَ، حيثُ تَضْطَرِبُ القُلوبُ والأبصَار، وتتَغيَّرُ مِنَ الفزَعِ ومِنْ شِدَّةِ هَولِ ذلكَ اليَومِ وأحوالِه.

{لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} (النور : ٣٨)

٣٨- لِيَجزِيَهمُ اللهُ على أعمالِهِمُ الصَّـالِحَة، ويُعطِيَهمْ مِنْ كرَمِهِ وفَضـلِهِ زيادَةً عمَّا يَسـتَحِقُّون، واللهُ كريمٌ واسِعُ الفَضل، يُعطي مَنْ يَشاءُ مِنَ الأجرِ بلا عَدٍّ ولا كَيْل، ما لا تَبْلُغُهُ أُمنِيَّتُه.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} (النور : ٣٩)

٣٩- وأعمالُ الذينَ كفَروا لا قيمَةَ لها ولا وَزنَ لآثارِها، ولو بدَتْ في شَـكلِ الأعمالِ الخَيريَّة، بلْ هيَ كسَرابٍ يتراءَى في شِدَّةِ الحَرِّ في أرضٍ مُنبَسِطَةٍ مُستَوِيَة، يَظُنُّهُ العَطشانُ ماءً، حتَّى إذا جاءَ إلى ما تَوَهَّمَه، لم يَجِدْهُ شَيئاً، لكنْ وجدَ اللهَ لهُ بالمِرصَاد، فحاسبَهُ على أعمالِهِ كُلِّها، ووَفَّاهُ جزَاءَهُ كامِلاً، واللهُ سَريعُ الحِساب، على كَثرَةِ منْ يُحاسِبُهمْ، وكثرَةِ أعمالِهِم.

{أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ} (النور : ٤٠)

٤٠- أو أنَّ أعمالَهُمْ هذهِ التي حَسِـبوا أنَّها سـتَنفَعُهم - وهيَ لا تَنفَعُهم، لأنَّها غَيرُ مَبنيَّةٍ على الإيمـان - كظُلُمـات، لخُلوِّها مِنْ نُورِ الحَقّ، في بَحرٍ عَميقٍ كَثيرِ المـاء، يَعلوهُ مَوجٌ عَظيم، مِنْ فَوقِهِ مَوجٌ مُتراكِم، وأعلاهُ سَحابٌ مُظلِم، فهيَ ظُلُماتٌ مُتكاثِفَةٌ ومُتراكِمَةٌ بَعضُها على بَعض، إذا أخرجَ المرءُ يدَهُ لم يَكَدْ يَراها، وهيَ أقرَبُ شَيءٍ إليه، مِنْ شِدَّةِ الظَّلام.

ومَنْ لم يَجعَلِ اللهُ لهُ دِينًا وإيمـانًا فلا دِينَ لـه، ومَنْ لم يَهدِهِ اللهُ فهوَ جـاهِلٌ هـالِك، لا قيمَةَ لأقوالِهِ وأعمالِهِ مَهما بَدَتْ طيِّبَة، فالمهِمُّ طاعَةُ الله، ومُوافقَةُ دِينِه، والتصـرُّفُ كما تُمليهِ أوامِرُه، لا كما يَرغَبُ الكافِرُ ويتصرَّفُ بهَواه.

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} (النور : ٤١)

٤١- ألمْ تَعلَمْ أنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لهُ ويُنَزِّهُهُ كُلُّ مَنْ في السَّماواتِ والأرض، مِنَ الملائكة، والإنس، والجِنّ، والحيَوان، وحتَّى الجَماد، ولكنْ لا نفهَمُ تَسبيحَهم، والطَّيرُ تُسَبِّحُهُ وتَعبدُهُ وهيَ تَبسُطُ أجنِحتَها في الهَواء، وقدْ عَلِمَ كُلٌّ طريقَةَ عِبادَةِ رَبِّهِ وتَنزيهِه، بعدَ أنْ أرشَدَهُ اللهُ إلى ذلك، واللهُ عَليمٌ بما يَفعَلونَه، لا يَخفَى عَليهِ شَيءٌ منه.

{وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} (النور : ٤٢)

٤٢- وكُلُّ مَنْ في السَّماواتِ والأرضِ لهُ سُبحانَه، خَلقًا ومُلكًا وتَدبيرًا، فلا عِبادَةَ إلاّ له، وإليهِ يُرجَعُ الأمرُ كُلُّهُ يومَ القيامَة، فلا حُكمَ إلاّ له.

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ} (النور : ٤٣)

٤٣- ألمْ تَنظُرْ إلى السَّحابِ كيفَ يَسوقُهُ اللهُ بلُطفٍ إلى حيثُ يَشاء، ثمَّ يجمَعُ بينَ مُتَفرِّقِه، ثمَّ يَجعَلُهُ مُتراكِمًا بعضَهُ فوقَ بَعض، فترى المطرَ بعدَ ذلكَ يَنزِلُ مِنْ بَينِه، ويُنَزِّلُ مِنَ السَّحابِ مِنْ قِطَعٍ عَظيمَةٍ منهُ تُشبِهُ الجِبالَ بَرَدًا، فيَصيبُ بهِ مَنْ يَشاءُ في نَفسِهِ أو مالِه، ويَصرِفُهُ عَمَّنْ يَشاءُ فيَنجو.

والبَرَدُ لا يَتكوَّنُ إلاّ في السُّحُبِ التي تَكونُ على شَكلِ الجِبال، التي قَدْ يَصِلُ ارتِفاعُها إلى (١٥) كم، وتتَألَّفُ مِنْ طَبَقَةٍ سُفلَى بارِدَةٍ وأُخرَى عالِيَةٍ حارَّة، وتَنشأ دَوَّاماتٌ شَديدَةٌ بسبَبِ الاختِلافِ في درَجاتِ الحرارَة، وتَكونُ سبَبًا في تَبريدِ السَّحاب، الذي يُشَكِّلُ حبَّاتِ البَرَد.
ويَكادُ ضَوءُ بَرْقِ هذا السَّحابِ أنْ يَخطِفَ الأبصارَ لشِدَّةِ لمعانِهِ وقوَّةِ تأثيرِه.

{يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الْأَبْصَارِ} (النور : ٤٤)

٤٤- ويتصَـــرَّفُ اللهُ في اللَّيلِ والنَّهار، فيأتي بأحَدِهما بعدَ الآخَر، وينقُصُ مِنْ هذا ويَزيدُ في الآخَر، ويُغَيِّرُ أحوالَهما بالحرارَةِ والبُرودَة، وغَيرِ ذلك، وفيهِ دَليلٌ على قُدرَةِ اللهِ وعظَمَتِه، لمنْ كانتْ لهُ بَصيرَةٌ يتدَبَّرُ بها.

{وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (النور : ٤٥)

٤٥- واللهُ خلقَ كُلَّ دابَّةٍ تَدُبُّ على الأرضِ مِنْ ماءٍ مَهين، وهوَ النُّطْفَة، أي: خلقَ كُلَّ دابَّةٍ مِنْ نَوعٍ منَ الماءِ يَختَصُّ بتلكَ الدابَّة. أو خلقَها مِنْ ماء، بنِسَبٍ مُختَلِفَة، فالماءُ أصلُ الحياة {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} [سورة الأنبياء: ٣٠]. وقدْ ذكرَ العُلماءُ أنَّ جَميعَ الكائناتِ الحَيَّةَ مُكوَّنَةٌ مِنْ ٨٠٪ منَ الماء، وأنَّ جسمَ الإنسانِ مُعظمهُ ماء، وأنَّ كافَّةَ وظائفِ الجسمِ الحَيِّ تتَوقَّفُ في غيابِ الماء...

ومِنْ هذهِ الدوابِّ مَنْ يَمشي على بَطنِه، كالأفاعي والديدانِ وما شاكلَها منَ الزَّواحِف. ومنهمْ مَنْ يَمشي على رِجلَين، كالإنسانِ والطَّير. ومنهمْ مَنْ يَمشي على أربَع، كالأنعام.

ويَخلقُ اللهُ ما يَشاءُ، ممّا ذُكِرَ وغَيرِه، واللهُ قادِرٌ على ذلك، لا يُعجِزُهُ شَيء، فيَخلُقُ ما يَشاءُ كما يَشاء.

{لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (النور : ٤٦)

٤٦- لقدْ أنزَلنا في هذا القُرآنِ آياتٍ مُحكَمَةً فيها أحكامٌ عادِلَة، وحِكَمٌ وأمثالٌ بيِّنَة، واللهُ يُرشِدُ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ - بالتَّفَكُّرِ فيها والاعتِبارِ بها - إلى الطَّريقِ المستَقيمة، التي تؤدِّي إلى السَّعادَةِ والفَلاح.

{وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ} (النور : ٤٧)

٤٧- ويَقولُ المنافِقونَ الذينَ لم يَتَّبِعوا الصِّـراطَ المستَقيم: آمَنَّا باللهِ رَبًّا، وبِمُحمَّدٍ نَبيًّا ورَسـولاً، وأطَعنا أمرَ اللهِ ورَسـولِه، ثمَّ يُعرِضُ فَريقٌ منهمْ عَمَّا يأمرُ بهِ الدِّين، مِنْ بَعدِ ادِّعائهمُ الإيمانَ والطَّاعَة، وما أولئكَ بمؤمنين، فإنَّهمْ يُظهِرونَ خِلافَ ما يُبطِنون.

{وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ} (النور : ٤٨)

٤٨- وإذا دُعيَ هؤلاءِ المنافِقونَ إلى دِينِ الله، وأنْ يَحكُمَ رَسُـولُهُ بينَهمْ وبينَ خُصـومِهم، إذا فَريقٌ منهمْ يأبَى ويَستَكبِرُ عنْ قَبولِه، لمعرِفَتِهمْ أنَّ الحُكمَ بالحقِّ ليسَ في مَصلَحتِهم، ورَسولُ اللهِ لا يَحكمُ إلاّ بالحَقّ.

{وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ} (النور : ٤٩)

٤٩- فإذا كانَ الحقُّ في طرَفِهم، وعَلِموا أنَّهُ سيَحكمْ لهم، أتَوا إليهِ مُطيعينَ مُنقادِينَ لحُكمِه.

{أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (النور : ٥٠)

٥٠- فهلْ سبَبُ إعراضِهمْ هوَ وجودُ مَرَضٍ في قُلوبِهمْ لكُفرِهمْ ونِفاقِهم، أمْ شَكُّوا في أمرِ نبوَّةِ رَسولِنا، أمْ خافُوا أنْ يَظلِمَهمُ اللهُ ورَسولُهُ في الحُكم؟ بلْ إنَّهمْ ظلَموا أنفُسَهمْ وفَجَروا بإعراضِهمْ عنِ الحقّ.

{إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (النور : ٥١)

٥١- إنَّما المؤمِنونَ الصَّـادِقونَ في إيمانِهم، إذا دُعُوا إلى حُكمِ اللهِ وقضـاءِ الرَّسـولِ بينَهم، استَجابوا لنِداءِ الحَقِّ وقَالوا: سَمِعنا كلامَ اللهِ وأطَعنا حُكمَه. فأولئكَ همُ السُّعَداءُ الفَائزون.

{وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} (النور : ٥٢)

٥٢- ومَنْ يُطِعْ أمرَ اللهِ وأمرَ رسُـــولِه، ويَخَفِ اللهَ ويَجتَنِبْ ما نَهَى عَنه، فأولئكَ النَّاجُون، الفائزونَ بجنَّةِ اللهِ ورِضوانِه.

{وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} (النور : ٥٣)

٥٣- وحلَفَ المنافِقونَ حَلِفًا عَظيمًا أنَّكَ إذا أمرتَهُمْ بالخُروجِ إلى الجِهادِ خرَجوا، قُلْ لهمْ أيُّها النبيّ: لا تَحلِفوا حَلِفاً فاجِرًا، فإنَّ طاعتَكمْ طاعَةٌ مَعروفَة، هيَ باللِّسـانِ فقط، لا بالعمَل. واللهُ خَبيرٌ بأعمالِكمُ الظَّاهِرَةِ والباطِنَة، وما تُضمِرونَ مِنْ كُفر، وتَكذِبونَ في حَلِف.

{قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُـــولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} (النور : ٥٤)

٥٤- وقُلْ لهم: أطيعوا اللهَ واستَجيبُوا لأمرِه، وأطيعوا رَسولَهُ ولا تُخالِفوه، فإذا أعرَضوا وترَكوا ما جئتَهمْ به، فإنَّما عَليكَ ما كُلِّفْتَ بهِ مِنَ الدَّعوَةِ والتَّبليغ، وعَليهِمْ ما أُمِروا بهِ مِنَ الاســـتِجابَةِ والطَّاعَة، وإذا أطَعتُمُ الرَّسولَ فقدِ اهتَدَيتُمْ إلى الحقّ، وما على رَسولِنا إلاّ أنْ يُبَلِّغَكمْ ما أوحِيَ إليه، في وضُوحٍ وبَيان، وقدْ فعَل، ولا سَيطرَةَ لهُ على قُلوبِكم.

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ لَيَسْـتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْـتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَـــى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (النور : ٥٥)

٥٥- وعدَ اللهُ مَنْ آمنَ منكمْ بصِـــدقٍ وإخلاص، وأحسَـــنَ في العمَل، أنْ يَســـتَخلِفَهمْ في الأرْض، ويَجعلَ الحُكمَ بأيديهم، كما جعَلَ الخِلافَةَ فيمَنْ قبلَهمْ مِنَ المؤمنين، ولَيُثْبِتَنَّ دِينَ الإسْـــلامِ الذي اختارَهُ لهمْ ويَجعَلُهُ فوقَ كُلِّ المِلَلِ والنِّحَل، ولَيُبَدِّلَنَّ حالَهمْ مِنْ بعدِ خَوفِهِمْ وصَبرِهِمْ على أذَى أعدائهِمْ أمنًا وعِزًّا، يوَحِّدونَني في عِبادَتِهِمْ آمِنين، غَيرَ خائفينَ أحَدًا غَيري، ومَنْ خرَجَ عنْ طاعَتي وارتَدَّ بعدَ بَيانِ الحَقِّ وظُهورِ الدِّين، فقدْ كفرَ وعصَى.

وصَحَّ عنْ أُبيّ بنِ كَعبٍ رَضيَ اللهُ قَولُه: لما قَدِمَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم وأصحابُهُ المدينَة، وآوَتْهُمُ الأنصار، رَمَتْهمُ العرَبُ عنْ قَوسٍ واحِدَة، فكانوا لا يَبيتونَ إلاّ في السِّلاح، ولا يُصبِحونَ إلاّ فيه، فقالوا: أترَونَ أنَّا نَعيشُ حتَّى نَبيتَ آمنينَ مُطمَئِنّينَ لا نَخافُ إلاّ اللهَ عَزَّ وجَلّ؟ فأنزَلَ اللهُ الآيَة.

وقدْ أنجزَ اللهُ وعدَه، وأظهَرَ دِينَه، ونصرَ أولياءَه، فما ماتَ رَسولُهُ حتَّى دانَتْ لهُ الجَزيرَةُ العرَبيَّة، ومَكَّنَ أصحابَهُ مِنْ فَتحِ البلادِ ونصَرَهم.

{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} (النور : ٥٦)

٥٦- وداوِموا على الصَّلاةِ في أوقاتِها، بشُروطِها وأرْكانِها، وأعطُوا الزَّكاةَ لمستَحقِّيها مِنَ الفُقَراءِ والمحتاجين، وأطِيعوا الرَّسولَ وتمسَّكوا بسُنَّتِه، لتُؤجَروا بذلكَ وتُرحَموا.

{لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (النور : ٥٧)

٥٧- ولا تَظُنَّنَّ الذينَ كفَروا باللهِ وكذَّبوا بما جئتَ بهِ مُعجِزينَ اللهَ عنْ إدراكِهِمْ وإهلاكِهم، وإنْ جالُوا في أقطَارِ الأرْض، وهرَبوا واستَخْفَوا، فهوَ قادِرٌ عَليهم، ولهمْ أجَلٌ لنْ يَستَقدِموهُ ولن يَستأخِروه، فهمْ مَهزومونَ مَقهورونَ في الدُّنيا، مُخزَونَ مُهانُونَ في الآخِرَة، يُعَذِّبُهُمُ اللهُ في النَّارِ عَذابًا مؤلِمًا موجِعًا، وبئسَ مَثواهُمْ ومَآلُهُمْ ذاك.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (النور : ٥٨)

٥٨- أيُّها المؤمِنون، ليَستأذِنْكمْ في الدُّخولِ عَليكمُ العَبيدُ والإمَاء، والأطفالُ المميِّزونَ مِنَ الأحرَار، الذينَ لم يَبلُغوا سِنَّ البُلوغِ بعد، ثلاثَ أوقاتٍ في اليَومِ واللَّيلَة: مِنْ قَبلِ صَلاةِ الفَجر، حيثُ يَكونُ النَّاسُ نِيامًا، وفي وَقتِ القَيلُولَة، حينَ تَخلَعونَ ثيابَكمُ التي لَبِستُموها في النَّهار، ومِنْ بعدِ صلاةِ العِشاء، لأنَّهُ وقتُ النَّوم.

وهيَ أوقاتُ خَلْوَةٍ وعَورَة، لا يُحِبُّ المسلِمُ أنْ يطَّلِعَ عليهِ فيها أحَد. أمَّا في غَيرِ هذهِ الأوقَات، فلا حرَجَ عَليكمْ مِنَ السَّـــماحِ لهمْ بالدُّخولِ عَليكم، ولا حرَجَ عَليهمْ في الدُّخولِ عَليكمْ مِنْ غَيرِ استِئذان، لأنَّ العَبيدَ والخدَمَ والصِّبيانَ طوَّافونَ عَليكمْ بالخِدمَةِ والعمَل، يَدخلُ بَعضُكمْ على بَعض.

وهكذا يوَضِّحُ اللهُ أحكامَهُ لكم، وهوَ عَليمٌ بأحوَالِ النَّاسِ وأوقَاتِ شُغلِهمْ وراحَتِهم، حَكيمٌ بما يَشرَعُهُ لكم.

{وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (النور : ٥٩)

٥٩- وإذا بلغَ الأطفالُ الأحرارُ سِـــنَّ الاحتِلام، فليَســـتأذِنوا في جَميعِ الأوقاتِ في الدُّخولِ عَليكم، مثلَ غَيرِهمْ مِنَ الرِّجال، كما سـبَقَ في الآيَةِ (٢٧) مِنْ هذهِ السُّـورَة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا}. وهكذا يوَضِّحُ اللهُ لكمْ أحكامَهُ الدالَّةَ على ما فيهِ نَفعُكمْ وصَلاحُكم، وهوَ عَليمٌ بأمورِ خَلقِه، حَكيمٌ بما يَشرَعُهُ لكم.

{وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاء اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (النور : ٦٠)

٦٠- والنِّساءُ العَجائزُ اللَّواتي لا يُرِدْنَ الرِّجال، ولا يَتشَوَّفْنَ إلى الزَّواج، لكِبَرِ سِنِّهنّ، فلا حرَجَ عَليهنَّ أنْ يَخلَعْنَ ثيابَهُنَّ الظَّاهِرَةَ أمامَ الرِّجال، كالجلبابِ والقِناعِ الذي فَوقَ الخِمار، وهُنَّ لا يَقصِدْنَ إبرازَ جمَالٍ أو إظهارَ زِينَةٍ عَليهنّ، وإذا ترَكْنَ ذلكَ واحتَشَمْنَ فهوَ أفضَلُ لهنّ، فهوَ أبعَدُ عنِ التُّهمَة، وأدفَعُ لكلامِ السُّفَهاءِ عَنهنّ. واللهُ سَميعٌ بما يَجري في مجالسِ الرِّجالِ والنِّساء، عَليمٌ بمقاصِدِهمْ مِنْ ذلك.

{لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ

بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (النور : ٦١)

٦١- ليسَ هُناكَ بأسٌ ولا حرَجٌ عَليكمْ في مُؤاكَلَةِ الأعمَى، والأعرَجِ، والمريض، ولا حرجَ عليهمْ في ذلكَ أيضًا (وكانوا يتَحرَّجونَ مِنْ ذلك). ولا حرَجَ عليكمْ أنْ تأكُلوا مِنْ بُيوتِكم (ومنها بُيوتُ أولادِكمْ وزَوجاتِكم)، أو بُيوتِ آبائكم، أو بُيوتِ أُمَّهاتِكم، أو بُيوتِ إخوانِكم، أو بُيوتِ أخَواتِكم، أو بُيوتِ أعمامِكم، أو بُيوتِ عَمَّاتِكم، أو بُيوتِ أخوالِكم، أو بُيوتِ خالاتِكم، أو ما تحتَ أيديكمْ وتصَرُّفِكم، كبُستانٍ أو ماشِيَةٍ مَوَكَّلَةٍ بكم، أو بُيوتِ أصدِقائكم، فلا حرَجَ عليكمْ أنْ تأكُلوا منها، وإنْ لم يَكونوا حاضِرين، مُجتَمعينَ كنتُمْ أو مُنفَرِدين.

وكانَ المسلِمونَ يأنَفونَ ويتحَرَّجونَ أنْ يأكُلَ الرَّجُلُ الطَّعامَ وحدَه، حتَّى يَكونَ معَهُ غيرُه، فرَخَّصَ اللهُ لهمْ ذلك، فقال: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً}.

وإذا دخَلتُمْ أحدَ البُيوتِ المذكورَة، فسَلِّموا على أصحابِها تَحِيَّةً حسَنَةً مَشروعَةً مِنْ عندِ اللهِ نافِعَة، تَطِيبُ بها نَفسُ المستَمِع (وهوَ قَول: السَّلامُ عَليكمْ ورَحمَةُ اللهِ وبركاتُه). وهكذا يُبَيِّنُ اللهُ لكمُ الأحكامَ العادِلَةَ الكافيَة، لتَتدَبَّروها، وتَعمَلوا بمُوجبِها، فإنَّها خَيرٌ لكم.

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (النور : ٦٢)

٦٢- إنَّما المؤمِنونَ الصَّادِقونَ في إيمانِهم، الذينَ آمَنوا باللهِ ورَسولِه بحَقّ، إذا كانوا معَ رَسولِهمْ في أمرٍ مُهِمّ، كاجتِماعِ مَشورَةٍ أو جِهاد، لم يَنصَرِفوا عنهُ إلاّ بعدَ الإذنِ منه. إنَّ الذينَ يستأذِنونَكَ أيُّها الرَّسُولُ لبَعضِ أمورِهم، همُ المؤمِنونَ باللهِ ورَسولِهِ إيمانًا صَادِقًا عَميقًا، فَأْذَنْ لمنْ شِئتَ منهُم، وادْعُ اللهَ أنْ يَغفِرَ لهم، فإنَّ الاستِئذانَ مِنِ اجتِماعٍ يَكونُ مُديرُهُ الرَّسولُ صلى الله عليه وسلم لا يَخلو مِنْ تَفضيلٍ عَليه، وفي ذلكَ شائبَةٌ تَبعَثُ على الاستِغفارِ لهم، واللهُ يَغفِرُ لعِبادِهِ ويَرحَمُهم، إنْ همْ تابُوا وأنابُوا.

{لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (النور : ٦٣)

٦٣- ولا تُنادُوا الرَّسولَ باسمِهِ أو بكُنيَتِهِ كما يَدعو بَعضُكمْ بَعضًا، فيَقول: يا فُلان، ويا أبا فُلان، ويا ابنَ فُلان، بلْ شَرِّفوهُ وزِيدوا مِنْ إكرامِه، وقولوا: يا رسُولَ الله، ويا نبيَّ الله.

أو أنَّ المقصود: لا تَظنُّوا أنَّ دُعاءَ الرَّسولِ كدُعاءِ غَيرِه، فاحذَروا أنْ يَدعُوَ عَليكم، فإنَّ دُعاءَهُ مُستَجاب.

ويَعلَمُ اللهُ الذينَ يُخالِفونَ أمرَهُ ولا يَستأذِنونَ رَسولَه، وهمُ المنافِقون، الذينَ يَخرُجونَ مِنَ الجماعَةِ خِفيَة، فيَلوذُ بَعضُهمْ ببَعضٍ ويَستَتِرُ بهِ حتَّى يَخرُج. فليَخْشَ هؤلاءِ المخالِفونَ العاصُونَ لأمرِ رَسولِهِ أنْ يُصيبَهمْ بَلاءٌ أو مِحنَةٌ في الدُّنيا، بقَتلٍ أو غَيرِه، أو أنْ يَنالَهمْ عذابٌ شَديدٌ في الآخِرَة.

{أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (النور : ٦٤)

٦٤- وللهِ كُلُّ ما في السَّماواتِ والأرْض، خَلقًا ومُلكًا وتَدبيرًا، وهوَ يَعلَمُ ما أنتُمْ عَليهِ مِنَ الأوضاعِ والأحوَال، والأقوَالِ والأفعَال، والإيمانِ والنِّفاق، لا يَغيبُ عنهُ شَيءٌ مِنْ ذلك. وعندَما يُرْجَعُ إليهِ الخلائقُ يَومَ الحِساب، يُخبِرُهمْ بالذي عَمِلوهُ مِنْ خَيرٍ وشَرّ، قَليلاً كانَ أو كثيرًا. وعِلمُ اللهِ مُحيطٌ بكُلِّ شَيء، فلا تَخفَى عَليهِ خافيَة.

سورة الفُرقان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً} (الفرقان : ١)

١- تعالَى اللهُ وتمَجَّدَ وجَلَّ شَأنُهُ في ذاتِهِ وصِفاتِه، وكَثُرَ فَضلُهُ وخيرُهُ للعِباد، الذي أنزلَ القُرآنَ على عَبدِهِ محمَّدٍ، ليُحَذِّرَ الجِنَّ والإنس، ويُنذِرَهمْ بأسَ اللهِ ونِقمتَه.

{الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً} (الفرقان : ٢)

٢- الذي لهُ مُلكُ ما في السَّماواتِ والأرْض، والمتَصَرِّفُ في تَدبيرِهما وحدَه، ليسَ لهُ ولَدٌ كما ادَّعَى الضالُّون، ولم يَكنْ لهُ شَريكٌ في مُلكِهِ عندَ خَلقِه، وهوَ وحدَهُ المبدِئُ والمعيد، الذي خلقَ كُلَّ شَيء، وهَيَّأَ فيهِ ما يُناسِبُهُ لحَياتِه، بحِكمَةٍ وإتقَانٍ وإبدَاع، لا يَستَطيعُ أحَدٌ أنْ يأتيَ بمِثلِه.

{وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً} (الفرقان : ٣)

٣- واتَّخذَ المشرِكونَ أصْنامًا يَعبدونَها مِنْ دونِ الله، وقدْ صَنَعوها بأيديهم، مِنْ أحجَارٍ وأشجَار، فهي لا تَقدِرُ على الحرَكة، فَضلاً عنْ أنْ تَكونَ آلِهَةً تَخْلُقُ شَيئًا، وهيَ لا تَملِكُ أنْ تَدفعَ عنْ نَفسِها وعنْ غيرِها ضُرًّا يُصيبُهم، ولا أنْ تَجلُبَ لنَفسِها ولعابِديها نَفعًا يُفيدُهم، ولا تَملِكُ تَصَرُّفًا في أيِّ شَيء، مِنْ إماتَة، وإحياء، وبَعثٍ بعدَ الموت، إنَّما كُلُّ ذلكَ للهِ وحدَه.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً} (الفرقان : ٤)

٤- وقالَ المشرِكونَ في جَهلٍ وافتِراء: ما هذا القُرآنُ الذي جاءَ بِهِ محمَّدٌ سِوَى كَذِب، اختلقَهُ مِنْ عندِه، وأعانَهُ على جَمعِهِ ونَظمِهِ ناسٌ مِنَ اليَهود، يَسرُدونَ عليهِ قَصَصًا وأخبارًا مِنْ عندِهِمْ فيَضَعُها في القُرآن. قالوا هذا باطِلاً بغَيرِ حَقٍّ ولا دَليل، وهمْ يَعلَمونَ أنَّهُمْ كاذِبون.

{وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً} (الفرقان : ٥)

٥- وقالَ هؤلاءِ المشرِكون: إنَّ ما في هذا القُرآنِ حِكاياتٌ وقِصَصٌ قَديمَة، وسِيَرٌ شَعبيَّةٌ سَطَّرَها الأوَّلون، استَنسَخها محمَّدٌ ممّا يُقالُ منها صَباحًا ومَساءً. وهمْ يَعلَمونَ أنَّهُ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ كانَ أُمِّيًّا، لا يَقرأ ولا يَكتُب.

{قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً} (الفرقان: ٦)

٦- قُلْ أيُّها الرَّسُول: إنَّ هذا القُرآنَ ليسَ بمُختَلَق، بلْ هوَ كلامُ اللهِ الذي يَعلَمُ الغَيبَ وجَميعَ ما خَفيَ في السَّماواتِ والأرض، وفي القُرآنِ مِنْ أخبارِ الأُمَمِ الماضِيَةِ وأخبارِ المستَقبَلِ ما لا يَعلَمُها إلاّ هوَ سُبحانَه، فآمِنوا ولا تُكَذِّبوا، ليَغفِرَ لكمْ ويَرحَمَكم، فهوَ يَغفِرُ لعِبادِهِ إنْ تابُوا وأنابُوا، ويَرحَمُهمْ إذا آمَنوا واستَقامُوا.

{وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً} (الفرقان : ٧)

٧- وقالَ الكافِرونَ وهمْ مُستَمِرُّونَ في عِنادِهم: ما لِهذا الرَّسولِ يأكُلُ الطَّعامَ كما نَأكلُ نَحن، ويَمشي في الأسواقِ يَلتَمِسُ فيها التكسُّبَ والتِّجارَة، فهلاّ كانَ معَهُ مَلَكٌ مِنَ الملائكةِ يُصَدِّقُهُ بما يَقول، ويُخبِرُ الناسَ أنَّهُ داعٍ صادِقٌ لدينِ الله، مُنذِرٌ مِنْ قِبَلِه؟

{أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُوراً} (الفرقان : ٨)

٨- أو أنْ يَنْزِلَ عَليهِ كَنزٌ مِنَ السَّماءِ يُنفِقُ منه، ولا يَحتاجُ فيهِ إلى التردُّدِ إلى الأسوَاق. أو أنْ يَكونَ لهُ بُستانٌ يأكلُ منهُ ولا يَحتاجُ إلى العمَلِ فيه؟

وقالَ هؤلاءِ المشـرِكون: إنّكمْ إنِ اتَّبَعتُمْ محمَّدًا فلا تَتْبَعونَ سِـوَى رَجُلٍ مَسَّـهُ الجِنُّ فغُلِبَ على عَقلِه!

{انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً} (الفرقان : ٩)

٩- انظُرْ أيُّها النبيُّ كيفَ جَاؤوا بما يَكذِبونَ بهِ عَليك، وضـــرَبوا لكَ أمثالاً، وطلَبوا منكَ مَطالِب، واخترَعوا أقَاويل، فانحَرفوا عنِ الحقّ، وتحيَّروا، فلا يَســـتَطيعونَ مَعرِفةَ طَريقِ الهِدايَة، لاستِكبارِهِمْ وعِنادِهم!

{تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَـــاء جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً} (الفرقان : ١٠)

١٠- تعالَى اللهُ وجلَّتْ قُدرَتُه، فهوَ إنْ أرادَ أنشَـأَ لكَ أفضـلَ ممّا طلَبوهُ منك: بسـاتينَ خَضـراءَ مَليئةً بأنواعِ الشَجَرِ والثَّمَر، تَجري مِن خِلالِها الأنهَار، ويجعَلْ لكَ فيها قُصورًا عالِية.

{بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً} (الفرقان : ١١)

١١- لكنَّهمْ يَقولونَ ذلكَ عِنادًا وتَكذيبًا، وليسَ بغَرَضِ الإيمان، وإنَّ كفرَهمْ بيَومِ البَعثِ هوَ الذي يَحمِلُهمْ على تَكذيبِ ما جِئتَ به، وقدْ هيَّأنا لمنْ كفرَ بيَومِ القِيامَةِ نارًا شَـديدَةً تُسْـعَرُ بهم.

{إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً} (الفرقان : ١٢)

١٢- إذا رأَتْهُمْ جَهنَّمُ مِنْ بَعيد، وهُمْ في المحْشَـــر، أظهرَتْ غَيظًا، وزَفَرَتْ زَفيرًا مُنكَرًا حَنَقًا عَليهم[٩٥].

(٩٥) {تَغَيُّظاً} أي: صوتَ تغيُّظ، على تشبيهِ صوتِ غليانها بصوتِ المغتاظ، أي: الغضبانُ إذا غلَى صدرهُ من الغيظ، فعند ذلك يهمهم، والهمهمة: ترديدُ الصـوتِ في الصـدر... وفي المفردات: التغيظ: إظهارُ الغيظ، وهو أشـدُّ الغضـب، وقد يكونُ ذلك مع صوتٍ مسموع. {وَزَفِيراً}: هو صوتٌ يُسمَعُ من جوفه، وأصله: ترديدُ النفَسِ حتى تنتفخَ الضلوعُ منه. (روح البيان، باختصار).

{وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً} (الفرقان : ١٣)

١٣- وإذا أُلْقُوا في مَكانٍ ضَـيِّقٍ في جهنَّم، مُكَتَّفينَ أو مُوَثَّقينَ بالسَّـلاسِـلِ الغَليظَةِ معَ شَياطينِهم، وفي أرجُلِهِمُ الأصْفاد، نادَوا في ذلكَ المكانِ بالوَيلِ والهَلاكِ على أنفُسِهم.

{لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً} (الفرقان : ١٤)

١٤- لا تَدْعوا في هذا اليَومِ الشَّـديدِ بهَلاكٍ واحِدٍ على أنفُسِـكمْ أيُّها الكافِرون، بلِ ادْعوا بوَيلاتٍ وحسَراتٍ كثيرَة. وأنَّى يَكونُ الهَلاكُ مُنقِذًا؟ بلْ هوَ زيادَةُ هَمٍّ وغَمٍّ عَليهم.

{قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاء وَمَصِيراً} (الفرقان: ١٥)

١٥- قُلْ للكافِرينَ أيُّها الرَّسُول: أذلكَ السَّعيرُ وما فيهِ منَ العَذابِ للأشـقِياءِ الذينَ رفَضوا الإيمانَ برِسالاتِ رَبِّهم، أفضَل، أمْ جَنَّاتُ اللهِ الخالِدَةُ التي أعَدَّها لعِبادِهِ المؤمنينَ المخلِصينَ، ووَعدَهمْ بها جَزاءَ طاعَتِهِمْ وصَبرِهِمْ على ما كلَّفَهمُ اللهُ به، وتَكونُ مآلَهُمْ ومُقامَهمُ الدَّائم؟

{لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُولاً} (الفرقان : ١٦)

١٦- لهمْ في الجِنانِ ما يَشاؤونَ مِنَ اللَّذائذِ والمشتَهَياتِ وأنواعِ النَّعيم، في طَعامِهِمْ وشَرابِهم، ومَلابِسِهِمْ وقُصورِهم، ماكثينَ فيها أبَدًا، لا يَموتونَ فيها ولا يتَحوَّلونَ عنها. وهذا الجزاءُ وَعدٌ مِنَ اللهِ تعالَى، وهوَ حَقيقٌ بأنْ يَطلُبَهُ النَّاسُ مِنْ رَبِّهِمْ ويَسألوهُ ويَتنافَسوا فيه، وهوَ كائنٌ لا بُدّ.

{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ} (الفرقان : ١٧)

١٧- ويَومَ يَحشُـرُ اللهُ الكافِرينَ معَ ما كانوا يَعبدُونَهُ مِنْ دُونِ الله، ويَقولُ لآلهتِهمُ المزعُومَةِ تَوبيخًا لعابِديهم: أأنتُمْ دعَوتُمْ هؤلاءِ إلى عِبادَتِكمْ وأضلَلتُموهُم، أمْ أنَّهمْ فعَلوا ذلكَ لهوًى في أنفُسِهمْ مِنْ غَيرِ دَعوَةٍ منكمْ لهم؟

{قَالُوا سُــبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً} (الفرقان : ١٨)

١٨- قالَ المعبودون: سُبحانَكَ ربَّنا، تَنَزَّهْتَ عنِ الولَدِ والشَّريك، ليسَ لأيّ مَخلوقٍ أنْ يَتَّخِذَ مِنْ دونِكَ إلهاً يَلتَجِئُ إليه، لا نحنُ ولا هُم، ولم نَدْعُهمْ إلى عِبادَتِنا قطُّ، بلْ فعَلوا ذلكَ مِنْ غَيرِ أمرِنا، ونحنُ بُرآءُ منهمْ ومِنْ عِبادَتِهم، ولكنْ أعطَيتَهمْ وآباءَهمْ طُولَ العُمُرِ والصِّــحَّةَ وأنواعَ النِّعَم، ليَشكرُوها ويَعرِفوا حَقَّ المنعِمِ عَليهم، فلمْ يَتَّعِظوا، ولم يَعتَبِروا، واستَغرَقوا في الشَّهوات، وانهمَكوا في الحرَام، واتَّبعوا أهواءَهم، حتَّى غفَلوا عمَّا أنزَلتَهُ على رسُلِكَ مِنَ الدِّينِ الحَقّ. وكانوا قَومًا هالِكين، غلبَ عَليهمُ الشَّقاءُ والخِذلان.

{فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصْراً وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً} (الفرقان : ١٩)

١٩- أيُّها الكافِرون، هاهمُ الذينَ عَبدتُموهمْ في الدُّنيا كذَّبوكمْ في ادِّعائكمْ أنَّهمْ آلِهَة[٩٦]، وفي كونِهمْ أولياءَ لكمْ يَنصُرونَكمْ ويَشفَعونَ لكم، فلا تَملِكونَ دفعَ العَذابِ عنْ أنفُسِكم، ولا عَونًا ومُساعَدَةً مِنْ جهةِ أحَدٍ ليُنقِذَكمْ مِنَ العَذابِ الذي حَلَّ بكم. ومَنْ يَكفُرْ منكمْ أيُّها المكَلَّفون، فسَوفَ نُذيقُهُ يومَ القيامَةِ عَذابًا عَظيمًا.

{وما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً} (الفرقان : ٢٠)

٢٠- وما أرسَلنا قَبلكَ مِنَ الأنبياءِ السَّابقينَ إلاّ كانوا بَشَرًا مثلَك، يأكُلونَ الطعامَ كما تأكُل، ويَمشونَ في الأسْواقِ للتِّجارَةِ والتكَسُّبِ كما تَفعَل، وليسَ هذا مُخِلاًّ بمَقامِ النبوَّة. وابتلَينا بَعضَكمْ ببَعضٍ لنَنظُرَ كيفَ تَعمَلون، ومَنْ يَنجَحُ في الاختِبار، فالفَقيرُ فِتنَةٌ للغَنيّ، والغَنيُّ فِتنَةٌ

(٩٦) في حذفِ فعلِ القولِ في هذه الآيةِ استحضارٌ لصورةِ المقام، كأنهُ مشاهَدٌ غيرُ محكيّ، وكأن السامعَ آخرَ الآية قد سمعَ لهذه المحاورةِ مباشرةً دونَ حكاية، فقرعَ سمعَهُ شهادةُ الأصنامِ عليهم، ثم قرعَ سمعَهُ توجُّهَ خطابِ التكذيبِ إلى المشهودِ عليهم. وهو تفنُّنٌ بديعٌ في الحكاية، يَعتمدُ على تخييلِ المحكيّ واقعاً، ومنه قولهُ تعالى: {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ} [سورة القمر ٤٨]. (التحرير).

للفَقير، والصَّـحيحُ فِتنَةٌ للمَريض، والمريضُ فِتنَةٌ له، والشَّـريفُ فِتنَةٌ للوَضـيع... فهَلْ تَصـبِرونَ على هذا الابتِلاءِ بحَقّ، وتَقومونَ بوَظيفَتِكمُ المِطلوبَةِ منكم؟ والله بَصـيرٌ بأحوالِ عِبادِه، حَكيمٌ بما يَبتَليهمْ به، عَليمٌ بمَنْ صـبَرَ منهمْ على ذلكَ ومَنْ جَزِع، وسـيُحاسِـبُكمْ على كُلِّ ذلك، ويُجازي كُلاًّ بما يَستَحِقّ.

سورة الفرقان (٢١-٧٧)
سورة الشعراء
سورة النمل (١-٥٥)

{وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً} (الفرقان : ٢١)

٢١- وقالَ الكافِرونَ الذينَ لا يؤمِنونَ بالمعاد: هَلاّ أُنزِلَ عَلينا الملائكةُ كما يَنزِلونَ على الأنبياءِ فيُخبِرونا بصِدقِ نبوَّةِ محمَّد، أو نرَى اللهَ جَهرَةً فيُخبِرُنا بذلك؟ لقدِ استَكبَروا عنْ قَبولِ الحقّ في شأنِ أنفُسِهم، وطغَوا بقَولِهِمْ هذا، وأفحَشوا بطلَبِ ما لا يَنبَغي.

{يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً} (الفرقان : ٢٢)

٢٢- إنَّهُمْ لنْ يروا الملائكةَ وهمْ بخَير، بلْ يَرونَهُمْ عندَما يُخبِرونَهُمْ بمَصيرِهِمُ السيّء، وهوَ الخَيبَةُ والخُسران، والنَّارُ والعَذاب، فيا لذلكَ اليَومِ الرَّهيب، الذي لنْ يَكونَ بُشرًى للكافِرينَ المجرِمينَ بأيَّةِ حال، يومَ يَقولُ لهمُ الملائكة: حَرامٌ مُحَرَّمٌ عَليكمْ دُخولُ الجنَّة.

{وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً} (الفرقان : ٢٣)

٢٣- وأتَينا على أعمالِهِمُ التي عَمِلوها في الدُّنيا وقدْ ظَنُّوا أنَّها حسَنة، فجعَلناها يومَ الحِسابِ باطِلَةً لا ثَوابَ عليها، كالرَّمادِ المتَفَرّقِ التَّافِهِ الذي لا قيمَةَ له، لأنَّها لم تَكنْ قائمَةً على أساسِ الإيمانِ والشَّرعِ الذي رَضيَهُ اللهُ لخَلقِه.

{أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً} (الفرقان : ٢٤)

٢٤- في ذلكَ اليَومِ العَصيبِ يَكونُ المؤمِنونَ آمِنينَ مُطمَئِنِّين، فَرِحينَ مُبتَهِجين، قدِ استَقَرُّوا في جِنانِ اللهِ الخالِدَةِ الطيِّبَة، أفضَلِ وأجمَلِ مَأوًى لهم، بخِلافِ حالِ المشرِكينَ المتَكبِّرين...

{وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً} (الفرقان : ٢٥)

٢٥- ومِنْ أهوالِ يَومِ القيامَةِ أنَّ السَّـماءَ تَنشَـقُّ وتَنفَرِجُ عنِ الغَمام(٩٧)، وتَنزِلُ الملائكةُ منَ السَّماواتِ على نَمطٍ غَيرِ مَعهُود؛ لتُحيطَ بالخَلقِ في المحشَر، ثمَّ يَقضي اللهُ بينَهم.

{الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً} (الفرقان : ٢٦)

٢٦- في ذلكَ اليَومِ يَكونُ المِلْكُ الحَقيقيُّ كُلُّهُ للهِ الرَّحمن، المِلِكِ الديَّان، لا يُشـارِكُهُ في المِلكِ والأمرِ والحُكمِ أحَد، لا حَقيقَةً ولا مَجازًا، وكانَ يَومًا شَـديدًا صَـعبًا على الكافِرين، الذينَ لم يَحسُبوا حِسابَ هذا اليَوم، وهمْ يَعرِفونَ كيفَ يَكونُ قَضاءُ اللهِ فيهم، وقدْ حارَبوا دِينَه، وكذَّبوا رسُلَه، وجعَلوا الدُّنيا مَقصِدًا لهمْ وغايَة.

{وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً} (الفرقان: ٢٧)

٢٧- وفي ذلكَ اليَومِ الرَّهيبِ يَعَضُّ الكافِرُ على يَديهِ مِنَ الأسَـى والندَم، ويَقول: يا ليتَني سلَكتُ معَ الرَّسولِ طَريقًا لأكونَ معَهُ في هذا اليَوم.

وقدْ نزَلَتْ في عُقبَةَ بنِ أبي مُعَيطٍ المشرِك، في قِصَّةٍ آذى فيها رَسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم.

{يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً} (الفرقان : ٢٨)

٢٨- ويَقول: يا حَسـرَتي ويا هَلاكي، ليتَني لم أجعَلْ فُلانًا صَـديقًا لي أثِقُ بهِ وأعتَمِدُ عليه. ويَعني الشَّيطانَ أو غَيرَهُ مِنَ الأناسيِّ المضِلِّين.

{لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً} (الفرقان: ٢٩)

---

(٩٧) {بِالْغَمَامِ}: هو السحاب، يسمَّى به لكونهِ ساترًا لضوءِ الشمس، والغمُّ: سترُ الشيء، أي: بسببِ طلوعِ الغمامِ منها. وهو الغمامُ الذي ذُكِرَ في قولهِ تعالى: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ} [سـورة البقرة: ٢١٠]. قيل: هو غمامٌ أبيضُ رقيقٌ مثلُ الضبابة... (روح البيان).

٢٩- ويَقولُ في ألَمٍ وندَم: لقدْ أغوَاني وصـــرَفَني عنِ القُرآنِ بعدَ أنْ بلَغَني وعَلِمتُ ما فيه، والشَّـيطانُ - وهوَ كُلُّ مَنْ صَـدَّ عنْ سَـبيلِ اللهِ - يَخذُلُ المرءَ عنِ الحَقّ، ويَدْعوهُ إلى الباطِل، ويُمَنّيه، ويُطَوّلُ في أمَلِهِ حتَّى يَنسَى رَبَّه، ثمَّ يَترُكُهُ ولا يَنفَعُهُ، ليَلقَى مَصيرَهُ السيّءِ.

{وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً} (الفرقان : ٣٠)

٣٠- وقالَ الرَّســولُ محمَّدٌ صـلى الله عليه وسـلم: يا رَبّ، إنَّ قَومي ترَكوا هذا القُرآنَ الجَليلَ وهجَروه، ولم يُصَـدِّقوا ما فيه، وقالوا هوَ شِعرٌ وسِحر، وعدَلوا عنهُ إلى اللَّهوِ والباطِل، بدلَ أنْ يَمتَثِلوا ما فيهِ ويَعمَلوا بأحكامِه. وكانَ هذا في مَكَّةَ قبلَ الهِجرَة.

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً} (الفرقان : ٣١)

٣١- وكما جَعلنا لكَ أعداءً مِنَ المشــرِكينَ يُؤذُونَكَ أيُّها الرَّسُــول، كذلكَ جعَلنا للأنبِياءِ في الأُمَمِ الخالِيَةِ أعداءً مِنَ الكفَرَةِ المجرِمين، فاصبِرْ كما صبَروا، واللهُ يَهدي مَنِ اتَّبَعَ دِينَهُ ويَنصُرُهُ على أعدَائه، ومَنْ كانَ اللهُ ناصِرَهُ فلا يَذِلُّ.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً} (الفرقان : ٣٢)

٣٢- وقالَ المشـــرِكونَ تعَنُّتًا ولجاجَة: هَلاَّ نزَلَ هذا القُرآنُ دُفعَةً واحِدَةً على محمَّدٍ كما نزَلَتِ الكتُبُ السَّابقَةُ على الأنبِياء، بدَلَ أنْ تَنزِلَ سُوَرٌ وآياتٌ مُتفَرّقاتٌ بينَ مُدَّةٍ وأخرَى؟

وقَدْ نَزَّلناهُ مُتَفَرّقًا لنُقَوّيَ بهِ فؤادَك، وبيَّنَّاهُ وفَصَّلناهُ تَفصيلاً.

وقدْ أنزلَ اللهُ تعالَى القُرآنَ الكريمَ إلى السَّـــماءَ الدُّنيا جُملَةً واحِدً في ليلَةِ القَدْر، ثمَّ نزَلَ مُتَفَرّقًا على رَسـولِ اللهِ صـلى الله عليه وسـلم على مدَى ثلاثٍ وعِشـرينَ سـنَة، بحسَـبِ الحوادِثِ والوقائع، وعندَ الحاجَةِ إلى مَعرِفَةِ الأحكام؛ ليَثبُتَ في القُلوب، وفيهِ تَيســـيرٌ لحِفظِهِ وفَهمِ مَعانيه، وتَجديدٌ للإعجازِ وتَذكيرٌ به، ورَدٌّ على الطَّاعِنينَ والمشَكّكينَ والمنافِقين، وفوائدُ أُخرَى.

{وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً} (الفرقان : ٣٣)

٣٣- ولا يأتيكَ الكافِرونَ بشُـبهَةٍ واقتِراحٍ باطِل، إلاّ جِئناكَ في مُقابلِهِ بحُجَّةٍ واضِـحَةٍ وجَوابٍ شافٍ صَحيح، نَقْذِفُ بهِ على باطلِهِمْ فيَدْمَغُهُ ويُزْهِقُهُ، ويَكونَ أبينَ أفصحَ مِنْ مَقالِهِم.

{الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً} (الفرقان: ٣٤)

٣٤- إنَّ الكافِرينَ الذينَ يُسـاقُونَ ويُجَرُّونَ إلى جهَنَّمَ على وجوهِهم، همْ أسـوَأُ مَنزِلَة، وأبعَدُ طريقًا عنِ الحقّ.

قالَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ردًا على سُؤالٍ في هذا: "أليسَ الذي أمشاهُ على الرِّجلَينِ في الدُّنيا قادِرًا على أنْ يُمشِيَهُ على وَجهِهِ يَومَ القيامَةِ؟". رواهُ البُخاريّ.

قالَ ابنُ حجَرٍ في "الفَتح": الحِكمَةُ في حَشـرِ الكافِرِ على وَجهِه، أنَّهُ عُوقِبَ على عدَمِ السُّجودِ للهِ في الدُّنيا بأنْ يُسحَبَ على وجهِهِ في القيامَة، إظهارًا لهَوانِه.

وقالَ في مَوضِعٍ آخَر: يُؤخَذُ مِنْ مَجموعِ الأحاديث، أنَّ المقَرَّبينَ يُحشَرونَ رُكبانًا، ومَنْ دونَهُمْ منَ المسلِمينَ على أقدامِهم، وأمّا الكُفّارُ فيُحشَرونَ على وُجوهِهم.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً} (الفرقان : ٣٥)

٣٥- وقدْ أنزَلنا التَّوراةَ على موسَى بنِ عِمران مِنْ قَبلُ، وجعَلنا معَهُ أخاهُ هارونَ مَؤيِّدًا ومُعينًا له، ونَبيًّا مِثلَه.

{فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً} (الفرقان : ٣٦)

٣٦- وقُلنا لهما: اذهبَا إلى قَومِ فِرعَونَ الفاسِـقين. فذهبَا إليهم، ودَعَواهمْ إلى الإيمان، فكذَّبوا بآياتِنا ومُعجِزاتِنا، فأهلَكناهُمْ إهلاكًا.

{وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُـلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً} (الفرقان : ٣٧)

٣٧- وقَومَ نوحٍ لما كذَّبوا رَسولَهم، وقدْ مكثَ فيهمْ ألفًا إلاّ خَمسينَ عامًا، أهلَكناهُمْ بالطُّوفان، وجعَلنا قِصَّتَهمْ وعُقوبَتَهمْ عِبرَةً للآخِرين، وقدْ هيَّأنا للكافِرينَ عذابًا شَديدًا في الآخِرَة، سِوَى العَذابِ الذي لاقَوهُ في الدُّنيا.

{وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً} (الفرقان : ٣٨)

٣٨- وأهلَكنا عادًا لما كذَّبوا نبيَّهمْ هودًا، وكانوا في عُمانَ واليمَن، وكذلكَ أهلَكنا ثَمودَ قَومَ صالِح، وكانوا فيما بينَ الحِجازِ والشَّام (مَدائنَ صالِحٍ في بلادِ الحرَمين)، وأصحابَ الرَّسّ، لعلَّهمْ أصحابُ الأُخدود، وأجيالًا آخَرينَ كثيرينَ بينَ هؤلاءِ الأقوَام.

{وَكُلّاً ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلّاً تَبَّرْنَا تَتْبِيراً} (الفرقان : ٣٩)

٣٩- وقدْ بيَّنّا لكلِّ هذهِ الأمَمِ بالأدلَّةِ والمعجِزاتِ صِدْقَ ما جاءَ بِهِ الأنبياءُ مِنْ عندِ رَبِّهِم، ولم نُعاقِبْهمْ إلاّ بعدَ الإنذار، وعندَما استَكبَروا وأبَوا إلاّ الكُفرَ والعِصيان، أهلَكناهمْ إهلاكًا.

{وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً} (الفرقان : ٤٠)

٤٠- ولقدْ أتَى قومُكَ على آثارِ مَدينَةِ سَدُوم عندَ البحرِ الميّت، التي كانَ فيها قَومُ لوطٍ - وهيَ في طريقِ تجارَتِهمْ بينَ الشَّامِ والحِجاز - وكانوا يأتونَ الفاحِشَة، وكذَّبوا نبيَّهمْ لوطًا ولم يُطيعوه، وبَقوا مُصِرّينَ على فِعلِ اللِّواط، فأهلكناهُمْ بالحِجارَة، وقدْ قَلَّبْنا قُراهُمْ على رأسِها. أمَا كانوا يَعتَبِرونَ ممّا أصابَ أهلَها، ويَعلَمونَ أنَّ اللهَ قادِرٌ على أنْ يُهلِكَهمْ كما أهلَكَهم؟ لكنَّ سببَ عدَمِ اعتِبارِهمْ هوَ كفرُهمْ بالبَعثِ والجَزاء، فلا يتوقَّعونَ أنْ يَبعثَهمُ اللهُ بعدَ مَوتِهمْ ويُحاسِبَهمْ على أعمالِهم.

{وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً} (الفرقان : ٤١)

٤١- وإذا رآكَ المشرِكونَ مِنْ قَومِكَ جعَلوا منكَ مَوضِعَ هُزْءٍ وسُخريَة، فعَابُوكَ ونقَصُوا منك، وقالُوا في ازدِراء: أهذا هوَ الذي بعثَهُ اللهُ رَسولاً إلَينا؟

{إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً} (الفرقان : ٤٢)

٤٢- وقالوا: لقدْ كادَ أنْ يَصرِفَنا هذا الرَّجُلُ عنْ عِبادَةِ أصنامِنا لو لم نَثبُتْ عَليها! ولكنَّهمْ سيَعلَمونَ أنَّهمْ كانوا في غايَةِ الضَّلال، عندَما يُعاينُونَ العَذابَ يَومَ القيامَةِ وقدْ أحاطَ بهم.

{أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً} (الفرقان : ٤٣)

٤٣- انظُرْ إلى هؤلاءِ القَومِ الذينَ جعَلوا مِنْ هَواهُمْ دِينًا ومَذهَبًا لهم، واعجَبْ لشَناعَةِ حالِهِمْ في ذلك، أفأنتَ تَحفَظُهمْ مِنِ اتِّباعِ هواهُمْ وتَقودُهمْ إلى الهُدَى منْ دونِ الله؟

{أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً} (الفرقان : ٤٤)

٤٤- أمْ تَظُنُّ أنَّ أكثرَ المشرِكينَ يَفقَهونَ ما يَسمَعونَهُ منك، ويتَدبَّرونَ ما تَتلو عَليهمْ مِنَ القُرآنِ الكريم؟ ما همْ إلاّ كالبَهائم، بلْ همْ أسوَأُ منها، فهيَ تَعرِفُ لِمَ خُلِقَتْ له، وتَنقادُ لصاحِبِها الذي يَتعهَّدُها، وتَعرِفُ مَنْ يُحسِنُ إليها، وتَطلُبُ ما يَنفَعُها، وتَجتَنِبُ ما يَضُرُّها، وتَهتَدي لمَراعيها ومَشارِبِها، وهؤلاءِ الكافِرونَ لا يَعرِفونَ طريقَ الحَقّ، ولا يُطيعونَ ربَّهُمُ الذي خلقَهمْ ورزَقَهم، ولا يَعرِفونَ إحسانَهُ إليهم.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً} (الفرقان : ٤٥)

٤٥- ألَمْ تَنظُرْ إلى صُنعِ رَبِّكَ كيفَ مَدَّ الظِّلَّ، وهوَ ما يَكونُ بينَ بزوغِ الفَجرِ إلى طلوعِ الشَّمس، لأنَّهُ ظِلٌّ لا شَمسَ له، ولو شاءَ لجعلَهُ ثابتًا لا يَزول، كما هوَ حالُ ظِلِّ الجنَّة، ولكنَّهُ سُبحانَهُ شاءَ أنْ تَطلُعَ الشَّمسُ لتَكونَ دَليلاً على ظُهورِه، ولو لم تَكُنِ الشَّمسُ لمَا عُرِفَ الظِّلّ.

{ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً} (الفرقان : ٤٦)

٤٦- ثمَّ قبَضـنا الظِّلَّ قَليلاً قَليلاً، بطُلوعِ الشَّـمسِ وسَـيرِها. ومَرجِعُ الظلِّ إليهِ سُـبحانَه، لا يُشارِكهُ أحَدٌ في إزالَتِه.

{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً} (الفرقان : ٤٧)

٤٧- وهوَ الذي جعلَ اللَّيلَ كاللِّباسِ لمِنفَعَتِكم، يَسـتُرُكمْ بظَلامِهِ كما يَسـترُكمُ اللِّباس، وجعلَ النَّومَ راحَةً للأبدَان، بقَطْعِ الحرَكاتِ التي يُزاوِلُها المرءُ أثناءِ اليَقَظَة، وجعلَ النَّهارَ وقتًا يَنتَشِـرُ فيهِ النَّاسُ لطلَبِ المعاشِ والمكسَب.

{وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً} (الفرقان : ٤٨)

٤٨- وهوَ الذي بعثَ الرِّياحَ لتُبَشِّـرَ بنُزولِ المطَر، بعدَ تشَـكُّلِ السَّـحاب، وأنزَلنا منهُ ماءً يُتطَهَّرُ به.

{لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً} (الفرقان : ٤٩)

٤٩- لنُحييَ بالمطَرِ أرضًا جَدْبَةً لا نَماءَ فيها، ونُسقيَ منهُ حيَواناتٍ وبشَرًا كثيرًا مُحتاجينَ إليه.

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً} (الفرقان : ٥٠)

٥٠- وقدْ أنزَلنا المطرَ في أرضٍ دونَ غَيرِها، وفي بَلدَةٍ دونَ بُلدانٍ أخرَى، ليَتفَكَّروا في قُدرَةِ الله، ويُعتَبِروا ويَلتَجِؤوا إليه، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ جحَدوا وكفَروا، وأسـنَدوا مَجيءَ المطَرِ ومَنْعَهُ إلى أمورٍ طَبيعيَّة، وهوَ بأمرِ اللهِ قبلَ كلِّ شَيء، إنْ شاءَ أعطَى، وإنْ شاءَ منَع.

وفي حَديثٍ قُدسـيٍّ رواهُ الشَّيخانِ في صَحيحَيهِما: "أصبَحَ مِنْ عِبادي مُؤمِنٌ بي وكافِر، فأمَّا مَنْ قالَ مُطِرْنا بفَضـلِ اللهِ ورَحمَتِه، فذلكَ مُؤمِنٌ بي كافِرٌ بالكَوكَب، وأمَّا مَنْ قالَ مُطِرْنا بِنَوْءِ كذا وكذا، فذلِكَ كافِرٌ بي مُؤمِنٌ بالكَوكَب".

{وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً} (الفرقان : ٥١)

٥١- ولو أرَدنا لبَعَثنا رَســولاً لأهلِ كُلِّ قَريَة، يَدعوهمْ إلى الله، ولكنْ قَصَّــرْنا الأمرَ عَليك، فبعَثناكَ للقُرى كُلِّها، وجعَلناكَ رَســولاً للعالَمين؛ تَعظيمًا لشــأنِك، فقابِلْ هذا الإجلالَ بالاجتَهادِ في الدَّعوَةِ إلى دينِ الله، وتَبليغِ كتابِهِ للنَّاس.

{فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً} (الفرقان : ٥٢)

٥٢- فلا تُطِعِ الكافِرينَ فيما يُريدونَكَ عَليه، ولا تَلِنْ لهم، وادعُهُمْ بهذا القُرآن، بتِلاوَةِ ما فيهِ مِنَ الآيات، وتَذكيرِهمْ بمواعظِه، وبمصيرِ الأُمَمِ المكَذِّبَةِ فيه، فإنَّ في ذلكَ جِهادًا كبيرًا.

{وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً} (الفرقان : ٥٣)

٥٣- وهوَ الذي أجرَى كِلا نَوعَي البَحرَينِ في مَجرَيَيْهِما، فهذا نَهرٌ جارٍ طَعمُهُ عَذبٌ لَذيذ، وهذا بَحرٌ ماؤهُ مالِحٌ مُرٌّ لا يُطاقُ شُرْبُه، وقدْ جعلَ اللهُ بينَهما حاجِزًا، وسِترًا مَمنوعًا، فإذا دخلَ ماءُ أحَدِهما على الآخَرِ لم يَختَلِطا.

ويَحدُثُ هذا عندَ مَصَــابِّ الأنهارِ في البِحار، وبَعضُ هذهِ الأنهارِ يَمتَدُّ مَســيرُها ثمانينَ كيلومترًا ولا يَتمازَجُ ماؤهُ معَ ماءِ البَحر! ومُعظَمُ أسماكِ المياهِ العَذبَةِ الدَّاخِلَةِ في البَحرِ لا تَدخُلُ مياهَ البَحرِ المالِحَة، وأسماكُ المالِحَةِ لا تَدخُلُ العَذبَة! وقدِ اكتُشِــفَ هذا حَديثًا، وصُــوِّرَ الحاجِزُ بالسُّفُنِ الفَضائيَّة، وهذا الحاجِزُ يَكونُ في حالَةِ مُروجٍ وذَهابٍ وإيَاب...

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً} (الفرقان: ٥٤)

٥٤- وهوَ الذي خلَقَ الإنسَــانَ مِنْ مَاءٍ مَهين، وهوَ المنيّ، أو خلَقَ آدمَ مِنَ الماءِ المخلوطِ بالطِّين، ثمَّ جعلَ منهُ الذَّكرَ والأُنثَى، والذَّكَرُ يُنْسَــبُ إليه (النسَــب)، والأُنثَى يُصْــهَرُ بها (المصــاهرَة)، ويَنشــأُ منهما التعارفُ والتواصــل. واللهُ قادِرٌ على كُلِّ شَــيء، ومِنْ ذلكَ خَلْقُ البَشَرِ مِنْ مادَّةٍ واحِدَة.

{وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً} (الفرقان : ٥٥)

٥٥- وهؤلاءِ المشرِكونَ يَعبدُونَ أصْنامًا لا تُجلُبُ لهمْ نَفْعًا إذا عبَدوها، ولا تَمنَعُ عنهمْ ضُرًّا إذا لم يَعبُدوها، فهمْ أهلُ هوًى وجَهل، لا عَقلٍ وتَدَبُّر. وكانَ الكافِرُ مُواليًا للشَّيطانِ ومُعاوِنًا لهُ في عَداوَةِ رَبِّهِ والإشرَاكِ به.

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً} (الفرقان : ٥٦)

٥٦- وما أرسَلناكَ إلاّ مُبَشِّرًا للمُؤمنينَ المطيعينَ بالثَّوابِ الحسَن، ومُنذِرًا للكافِرينَ العاصِينَ المكَذِّبينَ بالعَذابِ والنَّكال.

{قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً} (الفرقان : ٥٧)

٥٧- قُلْ أيُّها النبيُّ الكريم: لا أطلُبُ منكمْ على تَبليغِ الدِّينِ والإنذَارِ بالقُرآنِ أجرًا تُعطوني، إلاّ ما أنفَقتُمْ مِنْ أموالِكمْ في سَبيلِ اللهِ وطلَبِ مَرضاتِه.

{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً} (الفرقان : ٥٨)

٥٨- والجَأْ إلى اللهِ واعتَمِدْ عَليه، وفَوِّضْ أمرَكَ إليه، فهوَ الحَيُّ الباقي الذي لا يَموت، يَنصُرُكَ ويُؤيِّدُكَ بقُوَّتِهِ وتأييدِه، ونَزِّهْهُ عنْ كُلِّ نَقصٍ وعَيب، واثْنِ عَليهِ بصِفاتِ الكمالِ والجَلال، واللهُ مُطَّلِعٌ على أحوالِ عِبادِهِ وأفعالِهِمْ وما يَقتَرِفونَ مِنْ ذُنوب، ومنهمُ المشرِكونَ الذينَ لا يَزالونَ يؤذونَك، وسَوفَ يُحاسِبُ كُلاًّ على ما عَمِل.

{الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً} (الفرقان : ٥٩)

٥٩- اللهُ الذي خلقَ السَّماواتِ العَظيمَةَ وما فيها مِنْ شُموسٍ وكواكِبَ ومَخلوقاتٍ لم نَرَها، والأرضَ وما فيها مِنْ حيَوانٍ ونَباتٍ وجَماد، في سِتَّةِ أيَّام، ثمَّ استَوَى على العَرش، يُدَبِّرُ الأمرَ

ويَقضـي بينَ الخَلق، هوَ اللهُ المتَّصِفُ بالرَّحمَةِ العَظيمَة، والجُودِ والإحسَان، فاسأَلْ خَبيرًا بهِ إنْ شِئتَ تَحقيقَ ما ذُكِر. ورَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أعلَمُ النَّاسِ برَبِّه. أو أنَّ الضَّميرَ يَعودُ إلى اللهِ سُبحانَه، أي: فاسأَلِ اللهَ الخبيرَ بحقائقِ الأمور، يُفِدْكَ به.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً} (الفرقان : ٦٠)

٦٠- وإذا قيلَ للمُشرِكينَ اسجُدُوا للرحمن، قالوا في جَهلٍ وعِناد: وما هوَ الرحمن؟ لا نَعرِفُهُ ولا نُقِرُّ به! أنَسجدُ لمجرَّدِ قَولِكَ اسجُدوا له؟ وزادَهمْ ذلكَ بُعدًا عنِ الدِّينِ والإيمان.

وكانوا يُنكِرونَ أنْ يُسَمَّى اللهُ باسمِهِ "الرحمن".

{تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً} (الفرقان : ٦١)

٦١- تعالَى اللهُ أهلُ المجدِ والثَّناء، الذي جعلَ في السَّماءِ النجومَ والكَواكِب، أو منازِلَها الاثنَي عشَر، التي تَتنَقَّلُ في مَدارِها الخاصّ بها فيها، وجعلَ فيها الشَّمسَ الوهَّاجَة، والقمَرَ المضيء.

{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً} (الفرقان: ٦٢)

٦٢- وهوَ الذي جعَلَ كُلاًّ مِنَ اللَّيلِ والنَّهارِ يَخلُفُ الآخَر، فيَذهَبُ هذا ويَجيءُ ذاك، بشَكلٍ مُستَمرّ، وبانتِظامٍ ودِقَّة، لمنْ أرادَ أنْ يتفكَّرَ في قُدرَةِ اللهِ وإبداعِه، فيَعتَبِرُ ويَزدادُ إيمانًا، أو يَشكُرَهُ على نِعَمِهِ وآلائه، وما سَخَّرَهُ لهُ مِنَ اللَّيلِ والنَّهارِ وغَيرِهما.

{وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً} (الفرقان : ٦٣)

٦٣- ومِنْ صِفاتِ عِبادِ اللهِ المؤمِنينَ المتَّقين، أنَّهمْ يَمشُونَ على الأرضِ بتُؤدَةٍ وسَكينَة، فهمْ متَواضِعونَ هَيِّنون، غَيرُ مُستَكبِرينَ ولا مُتجَبِّرين، وإذا قالَ لهمُ السُّفهاءُ كلامًا لا يَليق، لم يُقابِلوهمْ بمِثلِه، فعفَوا وصَفَحوا، وحَلُموا ولم يَجهَلوا، ولم يَقولوا إلاّ خَيرًا.

{وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً} (الفرقان : ٦٤)

٦٤- وهمُ الذينَ يُحيونَ اللَّيلَ أو بَعضَه، فيَسجُدونَ للهِ ويَخشَعون، ويَقومونَ في صَلاتِهِمْ قارِئينَ عابِدين.

{وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً} (الفرقان : ٦٥)

٦٥- والذينَ يَقولونَ في رَهبَةٍ وخُشوع: رَبَّنا أبعِدْ عنَّا عَذابَ جهنَّم، إنَّ عَذابَها مُلازِمٌ مُستَمِرّ، غَيرُ مُفارِق.

{إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً} (الفرقان : ٦٦)

٦٦- إنَّها بئسَ الموضِع، وبئسَ المكانُ المقامُ فيه.

{وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً} (الفرقان : ٦٧)

٦٧- وهمُ الأخيارُ المعتَدِلون، الذينَ إذا أنفقوا لم يَزيدوا فَوقَ الحاجَة، ولَمْ يتَجاوَزوا حدَّ الكرَم، وكذلكَ لم يَبخَلوا ولم يُمسِكوا أيديهمْ عنِ الإنفاق، بلْ كانوا وسَطًا وعَدْلاً.

{وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً} (الفرقان : ٦٨)

٦٨- وهمُ المؤمنونَ الموَحِّدونَ المخلِصون، الذينَ لا يُشرِكونَ في عِبادَتِهِمْ معَ اللهِ أحَدًا.

ولا يَقتُلونَ النَّفسَ التي حرَّمَ اللهُ قَتْلَها، إلاّ بسَبَبٍ مِنَ الأسبابِ التي تُزيلُ هذهِ الحُرمَة، كالرِدَّة، والزِّنا بعدَ الإحصَان، وقَتلِ النَّفسِ عَمدًا.

ولا يَقرَبونَ الزِّنا، {إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً} [سورة الإسراء: ٣٢].

ومَنْ يَفعَلْ ما ذُكِرَ مِنَ المحَرَّمات، فسيُلاقي عُقوبَةً ونَكالاً يُناسِبُ عملَهُ السيِّءَ.

{يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً} (الفرقان : ٦٩)

٦٩- يُغَلَّظْ لهُ العَذابُ ويُضاعَفْ لهُ أضعافًا، ويَبقَى في ذلكَ العَذابِ أبدًا، وهوَ ذَليلٌ مُهان. ومُضاعَفَةُ العُقوبَةِ يأتي مِنْ انضمامِ المعصيَةِ إلى الكُفر.

{إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً} (الفرقان : ٧٠)

٧٠- إلاّ مَنْ تابَ مِنْ تلكَ المنكراتِ في الدُّنيا، وآمنَ إيمانًا صَحيحًا، وعمِلَ أعمالاً حسَنة، فأولئكَ يَمحو اللهُ سَيِّئاتِهِمْ ومَعاصيهم، ويُعطَونَ بدَلاً منها الثَّوابَ الحسَن، تفَضُّلاً وتَكرُّمًا منهُ سُبحانَه.

أو أنَّ المعنَى: أبدَلَهُمُ اللهُ بالعمَلِ السيِّءِ العملَ الصَّالِح، وأبدَلَهُمْ بالشِّركِ إخلاصًا، وبالفُجورِ إحصانًا، وبالكُفرِ إسلامًا.

واللهُ يَغفِرُ ذُنوبَ عِبادِهِ التائبينَ ويَرحَمُهم، فيُدخِلُهمُ الجنَّةَ إذا آمَنوا وعَمِلوا صالِحًا.

{وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً} (الفرقان : ٧١)

٧١- ومَنْ تابَ مِنْ ذُنوبِه، كبيرةً كانتْ أو صَغيرَة، ونَدِمَ عَليها، وعَمِلَ بما أمرَهُ اللهُ فأطاعَه، فإنَّهُ يَرجِعُ إلى اللهِ مَرجِعًا طَيِّبًا مَرضِيًّا عنه، فيَقبَلُ تَوبتَه، ويَعفو عَنه.

{وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً} (الفرقان : ٧٢)

٧٢- ومِنْ صِفاتِ عِبادِ الرحمنِ المتَّقين، أنَّهمْ لا يُدْلُونَ بشَهاداتٍ كاذِبَة، ولا يُساعِدونَ أهلَ الباطِلِ على باطِلِهِمْ بالكَذِبِ المتعَمَّد، فهذا مِنْ أكبرِ الكبائر، وقدْ قُورِنَ بالشِّركِ وعُقوقِ الوالِدَين، كما في الحديثِ الذي أخرَجَهُ الشَّيخانِ وغَيرُهما، مِنْ حَديثِ أبي بَكرَةَ المرفوع، واللفظُ لمسلِم: "ألَا أُنَبِّئكُمْ بأكبَرِ الكبائرِ (ثلاثًا)؟: الإشراكُ بالله، وعُقوقُ الوالِدَين، وشَهادَةُ الزُّور، أو قَولُ الزُّور. وكانَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مُتَّكِئًا، فجلَسَ، فما زالَ يُكَرِّرُها، حتَّى قُلنا: لَيتَهُ سَكت".

وإذا حدَثَ أنْ مَرُّوا بالكَلامِ الذي لا خَيرَ فيه، أعرَضوا عَنه، وأكرَموا أنفُسَهمْ عنِ الخَوضِ فيه.

{وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً} (الفرقان : ٧٣)

٧٣- وإذا تُلِيَتْ على هؤلاءِ المؤمنينَ آياتُ مِنَ القُرآنِ الكريم، وما فيها مِنَ المواعِظِ والأحكَام، والوَعدِ والوَعيد، لم يُصِمُّوا آذانَهُمْ عنْ سَماعِ الحَقّ، ولم يُعْمُوا عُيونَهُمْ عنْ دلائلِهِ وحقائقِه، بلْ أكَبُّوا عَليها مُتدَبِّرينَ بآذانٍ واعِية، وعُيونٍ مُبصِرَة.

{وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً} (الفرقان : ٧٤)

٧٤- وهمُ الذينَ يَدعُونَ رَبَّهم، ويَطلُبونَ منهُ أنْ يَرزُقَهمُ الذرِّيَّةَ المؤمِنَة، الطيِّبَةَ المبارَكَة، وأنْ يُقِرَّ عُيونَهُمْ ويُفرِحَ قُلوبَهُمْ بأزواجِهمْ وذُرِّياتِهم، بتوفيقِهمْ لطاعَتِه، ويَقولون: اللهمَّ واجعَلنا أئمَّةً يُقتَدَى بِنا في الخَير، وهُداةً يُهتَدَى بنا. وبهذا يَكونُ أجرُهمْ مُتواصِلاً، ومُضاعَفًا.

{أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً} (الفرقان : ٧٥)

٧٥- فهؤلاءِ المتَّصِفونَ بصِفاتِ "عبادِ الرحمن"، يَنالُونَ جنَّةَ اللهِ الدَّائمَة، وتَبتَدِرُهمُ الملائكَةُ بالتحيَّةِ والسَّلامِ مِنْ كُلِّ باب، معَ التَّقديرِ والإكرام.

{خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً} (الفرقان : ٧٦)

٧٦- ويُقيمونَ في الجنَّةِ على الدَّوَام، لا يَموتونَ فيها ولا يَخرجُونَ منها، وما أحسَنَها وأجمَلَها مَوضِعًا، وما أطيَبَها مَنزِلاً ومُقامًا.

{قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً} (الفرقان : ٧٧)

٧٧- قُلْ للنَّاسِ أيُّها الرَّسُول: لا يُبالي اللهُ بكمْ، ولا يَعتَدُّ بكمْ إذا لم تؤمِنوا بهِ ولم تَعبدُوه، فإنَّما خلقَكمْ للعِبادَة، وأنتُمْ أيُّها الكافِرونَ أنكَرتمْ آياتي وكذَّبتُمْ رسُلي ولم تَعبُدوني، وسَوفَ يَكونُ جَزاءُ تَكذيبِكمْ هذا لازِمًا لكمْ في الآخِرَة، وفيهِ هلاكُكمْ وعَذابُكم، وندَمُكم وخَيبَتُكم.

سـورة الشـعراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{طسم} (الشعراء : ١)

١- حروفٌ مُقَطَّعَةٌ لم يَرِدْ في تَفسيرِها حديثٌ ثابتٌ صَحيح، واختلفَ المفسِّرونَ في دلالَتِها.

{تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} (الشعراء : ٢)

٢- هذهِ آياتٌ مِنَ القُرآنِ الظَّاهِرِ إعجازُه، البيِّنِ في أحكامِه، الذي يَفصِلُ بينَ الحقِّ والباطِل.

{لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} (الشعراء : ٣)

٣- لعلَّكَ أيُّها النبيُّ مُهلِكٌ نفسَكَ حِرصًا على إيمانِ المشرِكين، وحُزنًا على تَكذيبِهمْ إيّاك.

{إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ} (الشعراء : ٤)

٤- إذا شِئنا أنزَلنا عَليهمْ أمرًا قاهِرًا مِنَ السَّماءِ يُلجِئهمْ إلى الإيمانِ ويُجبِرُهمْ عَليه، فتظَلُّ أعناقُهمْ مُنقادَةً لهُ قَسرًا ولا يَعصُونَ الله، ولكنْ لا نُريدُ ذلكَ بهم، بلْ نُريدُ منهمُ الإيمانَ الاختِياريّ.

{وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ} (الشعراء : ٥)

٥- ولا تأتيهمْ مَوعِظَةٌ وتَذكيرٌ في آياتٍ جَديدَةٍ مِنْ عندِ رَبِّهِمُ الرَّحمن، إلاّ أعرَضوا عَنهُ وكفَروا به.

{فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون} (الشعراء : ٦)

٦- فقدْ كذَّبوا بالقُرآنِ وما فيهِ مِنَ الحَقّ، وسَوفَ يأتيهمْ خبَرُ ما كذَّبوا به، مِنَ العُقوبَةِ والعَذاب.

{أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ} (الشعراء : ٧)

٧- ألَا يَنظُرونَ إلى قُدرَةِ الخالِقِ العَظيم، وعَجائبِ ما في الأرْضِ التي تَدلُّ على كمَالِ قُدرَتِهِ وإبداعِه، وقدْ أنبتَ فيها مِنْ كُلِّ صِنفٍ حسَنٍ ما يوحي بالنَّضارَةِ والحَياة؟

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ} (الشعراء : ٨)

٨- وفي ذلكَ دَلالَةٌ واضِحَةٌ على ما يوجِبُ الإيمانَ باللهِ، والتسليمَ بقُدرَتِه، ومعَ هذا لا تَجِدُ أكثرَهمْ يؤمِنُ به، ويُصَدِّقُ رسُلَه.

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} (الشعراء : ٩)

٩- واللهُ عَزيزٌ قَهَرَ كُلَّ شَيء، رَحيمٌ بعِبادِه، فلا يُعاجِلُهمْ بالعُقوبَةِ وإنْ عَصَوا، بلْ يُمهِلُهمْ إلى أجَل، لئلاّ يَكونَ لهمْ عُذرٌ بعدَ ذلك.

{وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (الشعراء : ١٠)

١٠- واذكُرْ أيُّها النبيُّ عندَما نادَى رَبُّكَ عَبدَهُ موسَى بنَ عِمرانَ مِنْ جانبِ الطُّورِ الأيمَنِ بسيناء، فاصطفَاهُ نبيًّا، وأمرَهُ أنْ يأتيَ القَومَ الذينَ ظلَموا أنفُسَهمْ بالكُفرِ والمعاصي، واستَعبَدوا بَني إسْرائيل، وذَبَحوا أبناءَهم،

{قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ} (الشعراء : ١١)

١١- قَومَ فِرعَونَ الفاسِقين، وقُلْ لهمْ يا موسَى: ألَا تَصرِفونَ أنفُسَكمْ عنْ عُقوبَةِ اللهِ بطاعَتِه؟

{قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ} (الشعراء : ١٢)

١٢- قالَ موسَى عليهِ السَّلامُ مُناجِيًا رَبَّه: يا رَبّ، إنِّي أخافُ أنْ يُكَذِّبوني أوَّلَ الأمر،

{وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ} (الشعراء : ١٣)

١٣- ويَضيقُ صَدري بتَكذيبِهمْ إيّاي، ولا يَنطَلِقُ لِساني منَ الحُبْسَةِ التي فيه، وأخشَى بهذا أنْ أضْـعُفَ أثناءَ المواجَهَةِ معَ فِرعَون، فاجعَلْ أخي هارُونَ أيضًـا نبيًّا ليُؤازِرَني ويُسـاعِدَني في أداءِ رسالَتي، وينَهضَ بالجدَلِ والمحاجَجَةِ مَعي، فهوَ أفصَحُ منّي لِسانًا،

{وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ} (الشعراء : ١٤)

١٤- ولهمْ عَليَّ تَبِعَةُ ذَنْب، وهوَ قَتْلُ القِبطيّ - الذي كانَ سـببَ خروجِهِ مِنْ مِصـر - فأخافُ أنْ يَقتُلوني به.

{قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ} (الشعراء : ١٥)

١٥- قالَ لهُ رَبُّه: كَلاّ لنْ يَقتُلوك، فلا تَخَفْ مِنْ ذلك، اذهَبْ أنتَ وأخوكَ بآيَاتي ومُعجِزاتي، فإنَّني أسمَعُ وأرَى معَكما، وأحفَظُكُما بنَصْري وتأييدِي.

{فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (الشعراء : ١٦)

١٦- اذهَبا إلى فِرعَونَ المتكَبِّر، وقُولا له: لقدْ بعثَنا اللهُ رَسولَينِ إليكَ ونَدعوكَ إلى الهُدَى.

{أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} (الشعراء : ١٧)

١٧- ودَعْ بَني إسْرائيلَ يَذهَبوا مَعي إلى فِلَسْطِين، ولا تَستَعبِدْهم.

{قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ} (الشعراء : ١٨)

١٨- فقالَ فِرعَونُ لموسَى عَليهِ السَّلام: أمَا ربَّيناكَ في بَيتِنا عندَما كُنتَ طِفلاً صَغيرًا، وبَقِيتَ سَنواتٍ تَعيشُ بيننا؟

{وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ} (الشعراء : ١٩)

١٩- ثمَّ قَتَلتَ رَجُلاً منّا، فجَحَدتَ بفَعْلَتِكَ[٩٨] تلكَ نِعمتَنا عَليك؟

---

(٩٨) الفَعلة بالفتح: المرةُ الواحدةُ من الفعل، يعني قتلَ القبطي. (التفاسير).

{قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} (الشعراء : ٢٠)

٢٠- قالَ موسَى عَليهِ السَّلام: لقدْ فعَلتُ ذلكَ حينَئذٍ وأنا مِنَ الجاهِلِين، قَبلَ أنْ أُبْعَثَ رَسولاً.

{فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ} (الشعراء : ٢١)

٢١- فخرَجتُ هارِبًا منكمْ إلى مَدْيَنَ لما خِفتُ انتِقامَكمْ منّي، فوَهبَني اللهُ النبوَّةَ وأرسَلَني إليكم.

{وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ} (الشعراء : ٢٢)

٢٢- وما ذكَرْتَ مِنْ تَربيَتي في بَيتِكَ عندَما كنتُ صَبيًّا، هيَ نِعمَةٌ في ظاهِرِها، ولكنَّها جاءَتْ مِنْ ظُلمِكَ لبَني إسْرائيلَ وقَتلِكَ أبناءَهم، ولولا ذلكَ لتربَّيتُ في بَيتِ والِدَيَّ لا بَيتِك.

{قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} (الشعراء : ٢٣)

٢٣- قالَ لهُ فِرعَونُ جاحِدًا مُتَمَرِّدًا: وأيُّ شَيءٍ يَكونُ رَبُّ العالَمين؟ وكانَ يَدَّعي أنَّهُ هوَ الرَّبّ.

{قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ} (الشعراء : ٢٤)

٢٤- قالَ موسَى عَليهِ السَّلام: هوَ خالِقُ السَّماواتِ والأرضِ وما بينَهما وما فيهما مِنْ مَخلوقات، وهوَ مالِكُهما ومُدَبِّرُ أمرِهما والمتَصَرِّفُ فيهمَا كما يَشاء، لا يُعينُهُ ولا يُشرِكُهُ أحَدٌ في ذلك، إنْ كنتُمْ مِنْ أهلِ اليَقينِ والإيمَان.

{قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ} (الشعراء : ٢٥)

٢٥- قالَ فِرعَونُ لمنْ حَولَهُ مِنْ أشْرافِ قَومِه: ألا تَعجَبونَ ممّا تَسمَعون، مِنِ ادِّعاءِ موسَى أنَّ هُناكَ إلهًا غَيري؟

{قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ} (الشعراء : ٢٦)

٢٦- قالَ موسَى عَليهِ السَّلام: هوَ اللهُ الذي خلَقَكمْ وخلقَ آباءَكمُ الأوَّلين.

{قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ} (الشعراء : ٢٧)

٢٧- قالَ فِرعَونُ مُنَفِّرًا قَومَهُ منه: إنَّ هذا الذي يَدَّعي أنَّهُ مَرسَلٌ إليكمْ لا عَقلَ له، فهوَ يتكلَّمُ بكلامٍ لا نَعقِلُهُ ولا نَعرِفُ صحَّتَه.

{قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ} (الشعراء : ٢٨)

٢٨- قالَ موسَى عَليهِ السَّلامُ مُكمِلاً حديثَه: هوَ اللهُ رَبُّ المشرِقِ الذي تُشرِقُ منهُ الشَّمس، ورَبُّ المغرِبِ الذي تَغرُبُ فيهِ الشَّمس، واللهُ هوَ الذي أنشَأهُما هكذا، في نِظامٍ كَونيٍّ رائع، ودِقَّةٍ في الحسَابِ مُتناهيَة، ولا أحدَ يَستَطيعُ أنْ يتصَرَّفَ فيهما ويُغَيِّرَ منْ هَيئاتِهما، ومَنِ ادَّعَى أنَّهُ إله، فليَجعَلِ المشرِقَ مَغرِبًا، والمغرِبَ مَشرِقًا. هذا لمن تفكَّرَ وعَقَلَ ما يُقالُ له.

{قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ} (الشعراء : ٢٩)

٢٩- لم يَعُدْ يتحمَّلُ فِرعَونُ هذا الحِوارَ المدعومَ بالحُجَّةِ والدَّليل، فلجَأ إلى التَّهديدِ بالقُوَّةِ وقال: إذا جعَلتَ لنَفسِكَ إلهًا غَيري فسَوفَ أحبِسُك. ويُحكَى مِنْ سَجنِ فِرعَونَ ما لا يُوصَف!

{قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ} (الشعراء : ٣٠)

٣٠- فقالَ موسَى عَليهِ السَّلامُ وهوَ ما يَزالُ يُريدُ أنْ يُقنِعَهُ بالحِوارِ والدَّليل: فما تَقولُ إذا أتَيتُكَ ببُرهانٍ قاطِعٍ ومُعجِزَةٍ باهِرَةٍ تَدُلُّ على صِدْقِ نبوَّتي؟

{قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} (الشعراء : ٣١)

٣١- قالَ لهُ فِرعَون: فهاتِ حُجَّتَكَ إنْ كُنتَ صادِقًا في دَعوَاك.

{فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ} (الشعراء : ٣٢)

٣٢- فألقَى موسَى عَصاه، فإذا بها تتَحوَّلُ إلى ثُعبانٍ في غايَةِ الجَلاءِ والوضُوح، وليسَ تَخييلاً وتَمويهًا كما يَفعَلُ السَّحَرَة.

{وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ} (الشعراء : ٣٣)

٣٣- ونزَعَ موسَى يدَهُ مِنْ أعلى فَتحَةِ قَميصِه، فإذا بها بَيضاءُ تَشِعُّ نُورًا، لمنْ يَنظُرُ إليها.

{قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ} (الشعراء : ٣٤)

٣٤- قالَ فِرعَونُ لمنْ حَولَهُ مِنَ الزُّعماءِ والوجَهاء: إنَّ هذا الرجُلَ خَبيرٌ بارِعٌ في السِّحر.

{يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ} (الشعراء : ٣٥)

٣٥- قال: ويُريدُ أنْ يَغلِبَكمْ بسِحرِهِ هذا ويُخرِجَكمْ مِنْ أرضِكم، ليَتصَرَّفَ فيها هوَ وقَومُه، فبِماذا تُشيرونَ عليَّ؟

{قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ} (الشعراء : ٣٦)

٣٦- قالَ لهُ جُلَساؤهُ مِنْ ذَوي مَشورَتِه: أَخِّرْ أمرَهُ وأخيهِ هارون، وأرسِلِ الشُّرطَةَ ليَجمَعوا لكَ مِنْ مَدائنِ مِصرَ،

{يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ} (الشعراء : ٣٧)

٣٧- ليَأتوكَ بكُلِّ خَبيرٍ حاذِقٍ بالسِّحر.

{فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ} (الشعراء : ٣٨)

٣٨- فجُمِعَ السَّـحَرَةُ مِنَ الأقاليمِ المِصـريَّةِ القَريبَةِ والبَعيدَة، وأمَرُوهمْ بالحضُـورِ وقتَ الضُّـحى مِنْ يَومِ الزِّينَة.

{وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ} (الشعراء : ٣٩)

٣٩- وقيلَ لجمَاهيرِ الناسِ حَثًّا لهمْ على المبادَرَةِ والمشاهَدَة: هلْ أنتُمْ مُجتَمِعونَ جاهِزون، لنَنظُرَ ما يَفعَلُ الفَريقَان؟

{لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ} (الشعراء : ٤٠)

٤٠- قالوا: ولنَكونَ في جانبِ السَّحَرَةِ إذا غلَبوا موسَى وأخاه.

{فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ} (الشعراء : ٤١)

٤١- فلمَّا جاءَ السَّحَرَةُ في الوَقتِ المحَدَّد، جلَسوا إلى فِرعَونَ يُحَيُّونَه، وقالوا له: هلْ لنا جائزَةٌ عندَكَ إذا غَلَبْنا موسَى في صَنيعِه؟

{قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} (الشعراء : ٤٢)

٤٢- قالَ لهمْ فِرعَون: نعم، لكمْ أجرٌ عَظيم، وسأُقَرِّبُكمْ عندي وأجعَلُكمْ مِنْ جُلَسائي.

{قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ} (الشعراء : ٤٣)

٤٣- ثمَّ قالَ موسَى عليهِ السَّلامُ للسَّحَرَة: ألَقُوا هذا الذي بأيدِيكمْ على الأرْض.

{فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ} (الشعراء : ٤٤)

٤٤- فألقَى السَّـــحَرَةُ حِبالَهمْ وعِصِـــيَّهمُ التي بأيدِيهم، وقالوا كما يَقولُ الجَهَلَة: بقُوَّةِ فِرعَونَ وعظَمَةِ سُلطانِهِ نحنُ الغالِبونَ لا موسَى.

{فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ} (الشعراء : ٤٥)

٤٥- ثمَّ ألقَى موسَى عَصاه، فإذا هيَ تَخطِفُ وتَبتَلِعُ بسُرعَةٍ جَميعَ ما صنَعَهُ السحَرةُ مِنْ إفْكٍ وكَذِب، فإنَّ ما قامُوا بهِ كانَ تَخييلاً وتَمويهًا على صُوَرِ الحيَّات، لا حَقيقَتُها.

{فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ} (الشعراء : ٤٦)

٤٦- فخَرَّ السَّحَرَةُ ساجِدين، ليَقينِهِمْ أنَّ ما جاءَ بِهِ موسَى خارِجٌ عنْ حدودِ السِّحر.

{قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} (الشعراء : ٤٧)

٤٧- وقالوا في إيمانٍ وخُشوعٍ: آمنّا برَبِّ النَّاسِ أجمَعين، خالِقِهِمْ ومالِكِ أمرِهم.

{رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} (الشعراء : ٤٨)

٤٨- رَبِّ موسَى وهارون، وفِرعَونُ ليسَ رَبًّا كما يَدَّعي هوَ وأتباعُهُ الجاهِلون.

{قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ} (الشعراء : ٤٩)

٤٩- ولجأَ فِرعَونُ مرَّةً أُخرَى إلى التَّهديدِ والوَعيد، وقدْ أُفحِمَ وانقَطَعَتْ حُجَّتُهُ منِ اتِّهامِ موسَى بالسِّحر، فتوَجَّهَ إلى السَّحَرَةِ قائلاً: آآمَنتُمْ بما جاءَ بِهِ موسَى قبلَ أنْ أسمحَ لكمْ بذلك؟! كانَ عَليكمْ أنْ تنتَظِروا أمري، فأنا رَئيسُكم، فإذا سَمحتُ لكمْ بذلكَ آمنتُم، وإذا منَعتُكمْ منهُ امتَنَعتُم!

وقالَ في خُبْثٍ وهوَ يَكذِب: إنَّ موسَى هوَ السَّاحِرُ الكبيرُ فيكم، وقدْ دَبَّرتُمْ هذا الأمرَ بلَيلٍ لتقومُوا بمؤامَرَةٍ على البلَد {إِنَّ هَـذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا} [سورة الأعراف: ١٢٣]. وسَترَونَ ما أفعَلُهُ بكم، سأُقطِّعُ أياديكمْ اليُمنَى معَ أرجُلِكُمُ اليُسرَى، ولأُصَلِّبَنَّكمْ في جُذوعِ النخلِ لتَموتوا جُوعًا وعطَشًا[٩٩].

{قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ} (الشعراء : ٥٠)

---

(٩٩) الصُّلب: الذي هو تعليقُ الإنسانِ للقتل، قيل: هو شدُّ صُلبِهِ على خشب... (مفردات الراغب).

٥٠- قالَ السَّحَرَةُ وقَدْ آمَنوا غَيرَ مُبالِينَ بتَهديدِ فِرعَون: لا يَضُرُّنا ذلكَ وقدْ آمنَّا بربِّنا ولِقائه، وسنَصبِر، وعندَما نُرجَعُ إليهِ نرَى الثَّوابَ الكبيرَ عندَه.

{إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ} (الشعراء : ٥١)

٥١- إنَّنا نأمُلُ مِنْ رَبِّنا أنْ يَرحَمَنا ويَغفِرَ لنا ذُنوبَنا وما أمَرتَنا بهِ مِنَ السِّـــحر، لمبادَرَتِنا إلى الإيمانِ مِنْ بَينِ قَومِنا، وتَصديقِنا بنَبيِّ اللهِ موسَى وما جاءَ بهِ مِنَ المعجِزات.

{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ} (الشعراء : ٥٢)

٥٢- وبعدَ سَنواتٍ مِنَ الدعوَةِ بينَ فِرعَونَ وآلِه، لم يَزِدْهُمْ ذلكَ إلاّ عِنادًا واستِكبارًا عنِ اتِّباعِ الحقّ، فأمَرنا موسَى أنْ اخرُجْ ببَني إسْرائيلَ ليلاً، فإنَّ فِرعَونَ وجُندَهُ سيُلاحِقُكمْ في الصَّباح.

{فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ} (الشعراء : ٥٣)

٥٣- فبعثَ فِرعَونُ شُرطَتَهُ إلى أنحاءِ أقاليمِ مِصرَ يَجمَعونَ لهُ الجَيش، ليَتْبَعوا موسَى وقَومَه.

{إِنَّ هَؤُلَاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ} (الشعراء : ٥٤)

٥٤- وخاطَبَهمْ قائلاً: إنَّ بَني إسْرائيلَ عِصابَةٌ قَليلَة،

{وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ} (الشعراء : ٥٥)

٥٥- وقدْ أغضَبونا بمُخالَفَتِهِمْ أمرَنا، وخُروجِهِمْ منْ أرضِنا بغَيرِ إذنٍ منّا،

{وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ} (الشعراء : ٥٦)

٥٦- ونَحنُ جَميعًا حَذِرونَ مُحتاطُونَ مِنْ شَرِّهِم، ونُريدُ أنْ نَقضِيَ عَليهِم.

{فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} (الشعراء : ٥٧)

٥٧- وأرادَ اللهُ بهذا أنْ يُخرِجَهم. فأخرَجناهمْ مِنْ بسَـــاتينِهمْ وأنهارِهمُ التي كانتْ على حافَّتَي النِّيل،

{وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ} (الشعراء : ٥٨)

٥٨- ومِنْ أموالِهِمُ التي خزَنوها تحتَ الأرض، ومَساكنِهمُ الرائعَة، ومَجالسِهمُ الحسَنَة.

{كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} (الشعراء : ٥٩)

٥٩- وهكذا مَلَّكْنا بَني إسْرائيلَ أموالَهُمْ وكنوزَهم، بعدَ أنْ عادُوا إلى مِصر.

{فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ} (الشعراء : ٦٠)

٦٠- فلَحِقَهمْ فِرعَونُ وجُنودُهُ معَ طُلوعِ الشَّمس.

{فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ} (الشعراء : ٦١)

٦١- فلمّا تقارَبَ الجَيشـــان، بحَيثُ رأى كُلُّ واحِدٍ منهما الآخَر، قالَ أصـــحابُ موسَـــى: سيَلحَقُ بنا فِرعَونُ وجَيشُهُ ولا طاقَةَ لنا بهم.

{قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} (الشعراء : ٦٢)

٦٢- قالَ لهمْ موسى، مُذَكِّرًا إيّاهمْ بوَعدِ اللهِ له: كلاّ، لنْ يَصِلَ إليكمْ فِرعَون، وإنَّ ربِّي أمرَني أنْ أسلُكَ هذا المسلَك، وهوَ الذي يَدُلُّني على طَريقِ النَّجاة.

{فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَـى أَنِ اضْـرِب بِّعَصَـاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ} (الشعراء : ٦٣)

٦٣- فأمَرنا موسَى بوَحي مِنْ عندِنا، أنِ اضرِبِ البَحرَ بعَصاك. فضـرَبهُ بها، فانشَـقَّ البَحر، فكانَ كُلُّ جانبٍ منهُ كالجبَلِ الكَبير.

{وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ} (الشعراء : ٦٤)

٦٤- وقرَّبْنا هُنالِكَ فِرعَونَ وجنودَه، حتَّى دخَلوا فيما انفَلقَ مِنَ البَحر، في أثرِ موسى وصَحبه.

{وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ} (الشعراء : ٦٥)

٦٥- وأنجَينا موسَى ومَنْ معَهُ مِنْ بَني إسرائيلَ مِنَ الهَلاكِ على أيدي أعدائهم، ومِنَ الغرَقِ في البَحر.

{ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ} (الشعراء : ٦٦)

٦٦- ثمَّ أغرَقنا فِرعَونَ وقَومَه، بأنْ أطبَقْنا عليهِمْ ما انفَلقَ مِنَ البَحر، ولم يَنجُ منهمْ أحَد.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ} (الشعراء : ٦٧)

٦٧- وفي هذهِ القِصَّةِ آياتٌ وعِبَر، مِنْ بَيانِ صِدْقِ ما جاءَ بهِ نبيُّ اللهِ موسَى، ومِنْ تأييدِ عِبادِ اللهِ المؤمِنين، والنَّكالِ بأعدَائهمُ المستَكبِرين، وما كانَ أكثَرُ قَومِ فِرعَونَ مؤمِنين.

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} (الشعراء : ٦٨)

٦٨- وإنَّ اللهَ قَويٌّ عَزيز، يَنتَقِمُ مِنْ أعدَائهِ وأعدَاءِ أولِيَائه، رَحيمٌ بعبادِهِ المؤمِنينَ حينَ أنجاهُمْ مِنْ ظُلمِ فِرعَونَ وكَيدِه.

{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ} (الشعراء : ٦٩)

٦٩- واذكُرْ لأمَّتِكَ أيُّها الرَّسولُ خبَرَ نبيِّ اللهِ إبراهيمَ الخَليل.

{إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ} (الشعراء : ٧٠)

٧٠- عندَما قالَ لأبيهِ وقومِهِ المشرِكين: أيَّ شَيءٍ تَعبُدون؟

{قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ} (الشعراء : ٧١)

٧١- قالوا: نَعبُدُ أصنَامًا، ولا نَزالُ نُقيمُ على عِبادَتِها ولا نَترُكُها.

{قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ} (الشعراء : ٧٢)

٧٢- فقالَ لهمْ إبراهيمُ عليهِ السَّلام: هلْ تَسمَعُ هذهِ الأصنَامُ دُعاءَكَمْ عندَما تَدعونَها؟

{أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ} (الشعراء : ٧٣)

٧٣- أو أنَّها تَنفَعُكمْ بشَيءٍ بسبَبِ عِبادَتِكمْ لها، كجَلبِ رِزق، وطولِ عمُر، ونَصرٍ على الأعداء؟ وهلْ تَدفَعُ عنكمْ ضُرًّا إذا تركتُمْ عِبادَتَها، فحبَسَتْ رِزقًا لكم، أو دخَلَتْ بيوتَكمْ وأخَذَتْ أولادَكمْ وأموالَكم؟

{قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} (الشعراء : ٧٤)

٧٤- قالوا في جَهلٍ وغَباء: إنَّها لا تَفعَلُ شَيئًا مِنْ هذا أو ذاك، ولكنَّنا وجَدنا آباءَنا وأجدادَنا يَعبدُونَها، ونحنُ نُقَلِّدُهمْ في ذلك، فنَفعَلُ كما كانوا يَفعَلون.

{قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ} (الشعراء : ٧٥)

٧٥- قالَ لهمْ إبراهيمُ عَليهِ السَّلام: أفَرأيتُمْ هذهِ الأصنَامَ التي تَعكُفونَ على عِبادَتِها،

{أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ} (الشعراء : ٧٦)

٧٦- أنتُمْ وآباؤكمْ وأجدادُكمُ الأوَّلون،

{فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ} (الشعراء : ٧٧)

٧٧- فإنَّها عَدوٌّ لي، لا أعبُدُها ولا أُبالي بها، ولا أنتَظِرُ منها نَفْعًا، ولا أتوَقَّعُ منها ضُرًّا، فإذا كانتْ آلِهَةً حقًّا فَلْتَمَسَّني بسُوء. لكنَّ ربَّ العالَمينَ ليسَ كذلك، فهوَ وليِّي في الدُّنيا والآخِرَة، وهوَ الذي بيدِهِ الأمرُ كُلُّه، وأنا أعبدُهُ لأنَّهُ الإلهُ الحَقّ.

{الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ} (الشعراء : ٧٨)

٧٨- الإلهُ الذي خلَقَني، فهوَ يُرشِدُني إلى ما يُصلِحُني، ويَدُلُّني على طريقِ النَّجاة.

{وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ} (الشعراء : ٧٩)

٧٩- وهوَ الذي يَرزُقُني أنواعَ الطَّعامِ والشَّراب، وقدْ هَيَّأ ليَ الاستِفادَةَ منها بما يُناسِبُ طَبيعَتي وجِسمي.

{وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} (الشعراء : ٨٠)

٨٠- وإذا قدَّرَ اللهُ أنْ مَرِضـــتُ، فهوَ الذي يُبرِئُني مِنَ المَرَض، لا أحَدَ غَيرُه، وما الأدويَةُ والعِلاجاتُ سِوَى أسبَاب، إنْ شاءَ جعلَ فيها الشِّفاء، وإنْ لم يَشَأ لا يَكونُ شِفاء.

{وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ} (الشعراء : ٨١)

٨١- وهوَ الإلهُ القادِر، الذي يُميتُني في الدُّنيا، ثمَّ يَبعَثُني بعدَ الموتِ يَومَ القيامَة، ولا يَقدِرُ على ذلكَ سِواه.

{وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ} (الشعراء : ٨٢)

٨٢- وهوَ الغَفورُ الرَّحيم، الذي أرجو أنْ يَغفِرَ لي ذُنوبي يَومَ الحِســاب، فإنَّهُ لا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلاّ هو.

{رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} (الشعراء : ٨٣)

٨٣- وقالَ مُناجيًا ربَّه: يا رَبّ، أدعُوكَ أنْ تَهَبَنيَ العِلمَ والحِكمَة، وأنْ تَجعَلَني معَ الصَّالِحينَ وفي مَنزِلَتِهم.

{وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ} (الشعراء : ٨٤)

٨٤- واجعَلْ لي ذِكرًا جَميلاً، وثَناءً حسَنًا، وقَبولاً عامًّا في الأُمَمِ التي تَجيءُ بَعدي.

{وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ} (الشعراء : ٨٥)

٨٥- واجعَلني في الآخِرَةِ ممَّنْ يستَحِقُّونَ سُكنَى جنَّةَ النَّعيم.

{وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ} (الشعراء : ٨٦)

٨٦- واغفِرْ لأبي واهدِهِ، فإنَّهُ ممَّنْ ضَلَّ وكفَر.

وكانَ استِغفارُهُ لأبيهِ عنْ مَوعِدٍ وعدَهُ به، بقَولِهِ: {لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ} [سورة الممتحنة: ٤]، فلمَّا استَمرَّ في عداوَتِه للهِ حتَّى ماتَ كافِرًا، قطَعَ الدُّعاءَ له {فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ} [سورة التوبة: ١١٤].

{وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ} (الشعراء : ٨٧)

٨٧- ولا تُهِنِّي يومَ تَبعَثُ عِبادَكَ للحِساب.

{يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ} (الشعراء : ٨٨)

٨٨- في ذلكَ اليَومِ العَصيب، الذي لا يَنفَعُ المرءَ فيهِ شَيءٌ مِنْ أموالِ الدُّنيا ولا يَحميهِ مِنَ العَذاب، ولا يَقدِرُ الأبناءُ - وهمْ أقرَبُ الناسِ إلى والِدِيهمْ - على أنْ يُفْدُوهُمْ ويُخَلِّصوهُمْ مِنَ العَذاب.

{إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} (الشعراء : ٨٩)

٨٩- لا يَنفَعُ إلاّ مَنْ أتَى اللهَ بقَلبٍ صَحيح، خالٍ مِنَ الشِّركِ والنِّفاق.

{وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ} (الشعراء : ٩٠)

٩٠- وأُدنِيَتِ الجَنَّةُ مِنْ أهلِها المؤمِنينَ المتَّقين، الذينَ خافُوا عَذابَ رَبِّهِمْ فكَفُّوا عنِ المعاصي والمحَرَّمات.

{وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ} (الشعراء : ٩١)

٩١- وأُظهِرَتْ جهَنَّمُ وكُشِفَ عنها للكافِرينَ الضَّالِّين، ليَرَوا فيها مَوقِعَهمُ الذي يَنتَظِرُهم، ليَزدادوا تألُّمًا وتَحَسُّرًا.

{وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ} (الشعراء : ٩٢)

٩٢- وقيلَ للكافِرينَ يَومَ القيامَة: أينَ الذينَ كنتُمْ تَستَمِرُّونَ في عبادَتِهِمْ في الحياةِ الدُّنيا،

{مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ} (الشعراء : ٩٣)

٩٣- مِنْ دونِ الله، وتَزعُمونَ أنَّهُمْ سيَنفَعونَكم، فهلْ يَنصُرونَكمْ بدَفعِ العَذابِ عنكمُ اليَوم، أو يَنتَصِرونَ لأنفُسِهمْ بدَفعِهِ عنهم؟ بلْ أنتُمْ وهمْ حَصَبُ جهَنَّم.

{فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ} (الشعراء : ٩٤)

٩٤- فدُهْوِروا في جهَنَّمَ حتَّى استَقَرُّوا في قَعرِها، الأصنامُ، وعابِدوها، وقادَتُهُمُ الذينَ دَعَوهمْ إلى الشِّركِ والضَّلال.

{وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ} (الشعراء : ٩٥)

٩٥- ومعَهمْ في الجَحيمِ إبليسُ وجُنودُه، ممَّنِ اتَّبَعَهُ مِنْ شَياطينِ الإنسِ والجِنّ.

{قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ} (الشعراء : ٩٦)

٩٦- قالَ الضالُّونَ مِنْ أهلِ النَّارِ للأصنَامِ والشَّياطينِ وهمْ يَتخاصَمون:

{تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} (الشعراء : ٩٧)

٩٧- واللهِ لقدْ كُنَّا على خطَأ واضِحٍ، وفي ضَلالٍ بيِّنٍ في الدُّنيا،

{إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} (الشعراء : ٩٨)

٩٨- عندَما كُنَّا نَعبدُكمْ ونَجعَلُكمْ في رُتبَةِ رَبِّ العالَمين، وأنتُمْ أدنَى مَخلوقاتِه!

{وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ} (الشعراء : ٩٩)

٩٩- وما أغوانا عنِ الطَّريقِ المستَقيمِ إلاّ هؤلاءِ الشَّياطين، وأتْباعُهمْ مِنْ رُؤوسِ الضَّلال،

{فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ} (الشعراء : ١٠٠)

١٠٠- فلا يوجَدُ هُنا مَنْ يَشفَعُ لنا ويُنقِذُنا مِنْ هذا العَذابِ، مِنَ الملائكَةِ والنبيّينَ والمؤمِنين،

{وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ} (الشعراء : ١٠١)

١٠١- ولا قَريبٌ شَفيقٌ يُهِمُّهُ أمرُنا ويتَوجَّعُ لنا، فيواسِينا أو يَنفَعُنا،

{فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} (الشعراء : ١٠٢)

١٠٢- فلو كانتْ لنا رَجعَةٌ إلى الدُّنيا فنَكونَ مُؤمِنين، ونَعمَلَ بطاعَةِ رَبِّنا ونَكونَ مِنَ الصَّالِحين.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ} (الشعراء : ١٠٣)

١٠٣- وفي ذلكَ عِبرَةٌ لمنِ اعتَبَر، ومَوعِظَةٌ لمنِ اتَّعَظ، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يُهِمُّهمْ أمرُ الإيمان، ويُؤْثِرُونَ الدُّنيا على الدِّين.

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} (الشعراء : ١٠٤)

١٠٤- واللهُ قَويٌّ لا يُغالَب، يُعَذِّبُ المجرِمينَ الذينَ عبَدُوا الأصنَامَ وأطاعُوا الشَّياطينَ ورُؤوسَ الكُفرِ والضَّلال، رَحيمٌ بعِبادِهِ المؤمِنين، الذينَ استَجابوا لأمرِهِ وأطاعُوه، وآثَروا اتِّباعَ الحقّ على الهَوَى والشَّهوات.

{كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ} (الشعراء : ١٠٥)

١٠٥- كذَّبَ قَومُ نوحٍ رَسُولَهم، على الرَّغمِ مِنْ دَعوَتِهِ بينَهمْ مئاتِ السِّنين.
وجاءَ لفظُ الرُّسُــل بالجَمع، باعتِبارِ أنَّ رِســالَتَهمْ واحِدَة، فإنَّ الآخِرَ جاءَ بما جاءَ بِهِ الأوَّل، فمَنْ كذَّبَ واحِدًا فقدْ كذَّبَهم.

{إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ} (الشعراء : ١٠٦)

١٠٦- إذْ قالَ لهمْ أخوهمْ في النسَــبِ نوح: ألَا تَخافُونَ اللهَ بعِبادَتِكمُ الأصــنَام، ألَا تَدفَعونَ عذَابَهُ عنكمْ بالإيمَانِ بهِ وطاعَتِه؟

{إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ} (الشعراء : ١٠٧)

١٠٧- إنِّي رَسولٌ مِنْ قِبَلِ اللهِ إليكمْ لأجلِ مَصلَحَتِكم.

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} (الشعراء : ١٠٨)

١٠٨- فاخشَوا اللهَ ولا تُخالِفوا أمرَه، وانتَهوا عمَّا نَهاكمْ عنهُ مِنَ الشِّرك، وأطيعُوني فيما أُبَلِّغُكمْ مِنْ عندِه.

{وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} (الشعراء : ١٠٩)

١٠٩- ولا أســألُكمْ على تَبليغِ رِســالَةِ اللهِ مالاً تُكافِؤونَني عَليه، إنما أطلُبُ الثَّوابَ منَ اللهِ وحدَه.

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} (الشعراء : ١١٠)

١١٠- فاحذَروا عِقابَ اللهِ يا قَوم، وابتَعِدوا عمّا نَهاكُمْ عنه، وأطِيعوهُ فما يأمرُكمْ بهِ مِنَ التَّوحيدِ وإخلاصِ العِبادَةِ لهُ وحدَهُ لا شَريكَ له، وأطيعُوني فيما آمرُكمْ بِهِ بوحي منه.

{قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ} (الشعراء : ١١١)

١١١- قالَ الكافِرونَ المســـتَكبِرونَ لنَبيِّ اللهِ نوح: أنؤمِنُ برِســـالَتِكَ وقدِ اتَّبعَكَ أدنى فِئاتِ المجتَمَعِ مِنَ الضَّعَفَةِ والفُقَراء، فنتسَاوَى معَهمْ بذلك؟!

{قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (الشعراء : ١١٢)

١١٢- قالَ لهمْ نوحٌ عَليهِ السَّـلام: ليسَ عليَّ مِنْ مُســتَوَى مَكانَتِهِمْ شَــيء، إنَّما كُلِّفْتُ أنْ أدْعُوَهمْ إلى اللهِ فاســتَجابوا، وأنا أقبَلُ منهمْ تَصـديقَهم، ولو كانوا على أيِّ حالٍ مِنَ المعيشَـة، ومِنْ أيِّ طبَقَةٍ في المجتمَع.

{إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ} (الشعراء : ١١٣)

١١٣- وما مُحاسَبَتُهمْ على ما يَعمَلونَ إلاّ على رَبِّ العالَمين، فهوَ الذي يَتولَّى سَـرائرَهم، ولو شعَرتُمْ بشَيءٍ مِنْ هذا لعَلِمتُمْ أنَّهُ الحقّ، ولما عِبتُموهُمْ على إيمانِهِمْ وطاعَتِهم.

{وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ} (الشعراء : ١١٤)

١١٤- ولنْ أطرُدَ عِبادَ اللهِ المؤمِنين، سَواءٌ آمنتُمْ أمْ لم تُؤمِنوا.

{إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ} (الشعراء : ١١٥)

١١٥- ما أُرسِلتُ إلاّ نَذيرًا، مُكَلَّفًا برِسالَةٍ واضِحَةٍ بيِّنَة، أَعِظُ النَّاسَ وأزجُرُهمْ عنْ مُخالَفَةِ أمرِ الله، شُرفاءَ كانوا أو دونَهم، فالرِّسَالَةُ للجَميع.

{قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ} (الشعراء : ١١٦)

١١٦- ولكنَّ قومَ نُوحٍ كـانوا كـافِرينَ مُجرِمين، فلمْ يُجيبوا دَعوتَـه، ولم يتَحَمَّلوا وَعظَـه، فـأرادوا إِســـكاتَهُ بأيِّ طَريقَة، فقالوا له: يا نُوح، إذا لم تَتوَقَّفْ عنِ الدَّعوَةِ إلى هذا الدِّين، وعنْ ذَمِّ آلِهَتِنا، فسَوفَ تَكونُ مِنَ المرجومينَ بالحِجارَة!

{قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ} (الشعراء : ١١٧)

١١٧- فناجَى نُوحٌ رَبَّهُ قائلاً: اللهمَّ إنَّ قَومي استَمَرُّوا في تَكذيبي، وأصَرُّوا على الكُفر، على الرَّغمِ مِنْ طولِ المدَّةِ التي دعوتُهُمْ فيها.

{فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} (الشعراء : ١١٨)

١١٨- اللهمَّ فاحكُمْ بَيني وبينَهمْ حُكمًا يَستَحِقُّهُ كُلٌّ منّا، وأنقِذني ومَنْ تَبِعَني مِنَ المؤمنينَ مِنْ شُرورِهمْ ومَكائدِهم.

{فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} (الشعراء : ١١٩)

١١٩- فنَجَّيناهُ ومَنْ آمنَ معَهُ في السَّفينَةِ المِلوءَةِ بالأمتِعَةِ والناسِ ومِنْ كُلِّ زَوجَينِ اثنَينِ مِنَ الحيَوانات، التي أمرَ اللهُ نبيَّهُ أنْ يَحمِلَها معَه.

{ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ} (الشعراء : ١٢٠)

١٢٠- ثمَّ أغرَقنا - بعدَ إنجائهمْ - قَومَهُ الباقين، مِنَ الكافِرين.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ} (الشعراء : ١٢١)

١٢١- وفي ذلكَ عِبرَةٌ لمنِ تدَبَّر، وعِظَةٌ لمنِ اتَّعَظ، وكانَ أكثَرُهمْ كافِرين.

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} (الشعراء : ١٢٢)

١٢٢- واللهُ قَويٌّ لا يُغالَب، يُعاقِبُ المجرِمينَ بما يَستَحِقُّون، ويَعفو عنْ عِبادِهِ المؤمِنينَ المنيبينَ ويَرحَمُهم.

{كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ} (الشعراء : ١٢٣)

١٢٣- كذَّبَتْ قَبيلَةُ عادٍ رَسُولَهُمْ هودًا، وهيَ بذلكَ كذَّبَتْ كُلَّ المرسَلين، فرِسالَتُهمْ واحِدَة، وعَقيدَتُهمْ واحِدَة.

{إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ} (الشعراء : ١٢٤)

١٢٤- إذْ قالَ لهمْ أخوهمْ في النَّسَبِ هُود: ألَا تَخافُونَ عَذابَ اللهِ وتَدفَعونَهُ عنْ أنفُسِكمْ بالإيمَانِ بهِ وطاعَتِه؟

{إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ} (الشعراء : ١٢٥)

١٢٥- قالَ لهم: إنَّني رَسولٌ إليكمْ مِنْ عندِ الله، مؤتَمَنٌ على وَحيه، صادِقٌ فيما أُبَلِّغُكم.

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} (الشعراء : ١٢٦)

١٢٦- فاخشَوا اللهَ واحذَروا نِقمتَه، وأطيعوني فيما آمرُكمْ بهِ وأنهاكمْ عنه، فإنَّهُ لخَيرٍ تتَمنَّونَه.

{وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} (الشعراء : ١٢٧)

١٢٧- ولا أطلبُ منكمْ أُجرَةً مِنْ مالٍ أو مَتاعٍ مُقابِلَ تَبليغِ رسالَةِ رَبِّي، حتَّى لا تَقولوا إنَّهُ يُريدُ أنْ يُثرِيَ مِنْ خِلالِ هذهِ الدَّعوَة، إنَّما أطلبُ الأجرَ والثَّوابَ مِنَ اللهِ وحدَه.

{أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ} (الشعراء : ١٢٨)

١٢٨- يا قَوم، ما لكم تُضَيِّعونَ جُهودَكمْ وأوقاتَكمْ مِنْ دُونِ فائدَة، فتَبنونَ في مُلتقَى كُلِّ طَريقٍ مَعْلَمًا، أو مُجَسَّمًا بارزًا لا حاجةَ لكمْ إليه؟!

{وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} (الشعراء : ١٢٩)

١٢٩- وتَبنونَ قُصورًا مُشَيَّدَة، أو مصانِعَ ضَخمَةً للمِياه، وكأنَّكمْ ستَخلُدونَ في الدُّنيا، ولا تَحسُبونَ حِسابًا للمَوتِ والثَّوابِ والعِقاب.

{وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ} (الشعراء : ١٣٠)

١٣٠- وإذا أَخَذتُمْ شَيئًا أو عاقَبتُمْ على أمْر، فضَرَبتُمْ أو انتَقَمتُم، فعَلتُمْ ذلكَ بقوَّةٍ وغِلْظَة، وجبَروتٍ وغضَب، دونَ مُراعاةِ أدَبٍ أو حِسابِ أثَرٍ مَكروهٍ له.

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} (الشعراء : ١٣١)

١٣١- فاحذَروا غضَبَ اللهِ واترُكوا هذهِ الأفعَال، وأطيعُوني فيما آمرُكمْ به، فإنَّهُ أفضَلُ لكم.

{وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ} (الشعراء : ١٣٢)

١٣٢- واحذَروا عِقابَ الله، الذي أنعمَ عَليكمْ وأعطاكمْ مِنَ الخيراتِ ما تَعرِفون، فإنَّهُ قادِرٌ على سَلبِها منكم.

{أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ} (الشعراء : ١٣٣)

١٣٣- أعطاكمْ مِنَ الأنعامِ ما يَفي بحاجاتِكمْ ويَنفَعُكمْ في مَعاشِكم، مِنَ الإبِلِ والبقَرِ والغنَمِ والمِعْز، وسهَّلَ لكمُ الاستِفادَةَ منها، ووَهبَكمُ البَنينَ نِعمَةً وزينَةً وبَهجَة لكم، وعَونًا لكمْ في أعمالِكم.

{وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} (الشعراء : ١٣٤)

١٣٤- وأعطاكمُ البسَاتينَ الكثيرَةَ والأنهارَ التي تَملأ أرضَكم، فتَزدادونَ غِبطَةً ورَفاهيَة.

{إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} (الشعراء : ١٣٥)

١٣٥- وإنِّي أخشَى إنْ لم تتَّقوا ربَّكم، ولم تَشكروهُ على هذهِ النِّعَم، أنْ يُعاقِبَكمْ عُقوبَةً عَظيمَة، في الحَياةِ الدُّنيا وفي الآخِرَة.

{قَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ} (الشعراء : ١٣٦)

١٣٦- لكنَّ عادًا لم يَشكُروا رَبَّهم، ولم يتَّعِظوا بنصَائحِ نبيِّهم، فقالوا لهُ في استِخفافٍ ولامُبالاة: إنَّ كلامَكَ وعدَمَهُ عندَنا سَواء، وإنَّكَ إنْ وعَظْتَ أو لم تَعِظ، لم نَرجِعْ عمَّا نحنُ عَليه.

{إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ} (الشعراء : ١٣٧)

١٣٧- وقالوا: ما هذا الذي جئتَ بهِ سِوَى خُرافاتٍ وحِكاياتٍ اختلَقَها الأوَّلون.

{وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} (الشعراء : ١٣٨)

١٣٨- وقالوا مُستَمرِّينَ في كُفرِهم: ولا بَعْثَ بعدَ الموت، فلا نُحاسَبُ على أعمالِنا ولا نُعَذَّبُ عَليها.

{فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ} (الشعراء : ١٣٩)

١٣٩- وهكذا كذَّبوا نبيَّهمْ هُودًا، واستَكبَروا عنِ اتِّباعِ الحَقّ، فأهلَكناهُمْ بريحٍ شَديدَةٍ عاتيَة، جَزاءَ فِعلِهِمُ السيِّء، وفي ذلكَ عِبَرٌ كثيرَةٌ للأحيَاء، لمنْ تفَكَّرَ منهمْ وتدَبَّر، وعقَلَ فوَعَى. ومعَ كُلِّ هذهِ الدَّعوَة، والتَّبليغِ المستَمِرّ، وضَربِ الأمثَال، وسَردِ الأخبَارِ التي فيها عِظاتٌ وعِبَر، فإنَّ أكثرَهمْ لا يؤمِن!

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} (الشعراء : ١٤٠)

١٤٠- واللهُ قَويٌّ لا يُقْهَر، يُمهِلُ الكافِر، وقدْ يَمُدُّ لهُ في الأجَل، وهوَ لهُ بالمرصَاد. وهوَ سُبحانَهُ رَحيمٌ بعِبادِهِ المؤمنين، الذينَ يُطيعونَهُ، ولا يُخالِفونَ أمرَ نَبيِّه.

{كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ} (الشعراء : ١٤١)

١٤١- كذَّبتْ قَبيلَةُ ثَمودَ رَسولَهُمْ صالِحًا، ومَنْ كذَّبَ رَسولاً واحِدًا فقدْ كذَّبَ جميعَ الرُّسُل، لأنَّهُمْ كُلَّهمْ يَدعونَ إلى عَقيدَةٍ واحِدَة.

{إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ} (الشعراء : ١٤٢)

١٤٢- إذْ قالَ لهمْ أخوهمْ في النَّسَبِ صالِح: ألا تَخافونَ عَذابَ اللهِ ومَقتَه، وأنتُمْ تَعبدونَ غَيرَه، وهوَ خالِقُكمْ والمنعِمُ عَليكم؟

{إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ} (الشعراء : ١٤٣)

١٤٣– وقالَ لهمْ عليهِ السَّلام: إنَّني رَسولٌ مِنْ قِبَلِ اللهِ إليكم، أمينٌ على وَحْيه، أصدُقُكمْ خبرَ ما أرسَلَني به.

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} (الشعراء : ١٤٤)

١٤٤– فاتَّقوا غضبَهُ وانتِقامَهُ بتوحيدِهِ وطاعَتِه، وأطيعُوني فيما آمرُكمْ به، فإنِّي لا أقولُ لكمْ إلاّ خَيرًا.

{وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} (الشعراء : ١٤٥)

١٤٥– ولا أطلُبُ منكمْ مالاً على هذا الذي أدعوكمْ إليه، إنَّما أطلبُ ثَوابَهُ مِنْ رَبِّ العالَمين.

{أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ} (الشعراء : ١٤٦)

١٤٦– هلْ تَظُنُّونَ أنَّكمْ ستُتْرَكونَ في الدُّنيا هكذا آمِنينَ مُتَنَعِّمين؟

{فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} (الشعراء : ١٤٧)

١٤٧– في بسَاتينَ جَميلَةٍ وأنهارٍ جاريَةٍ سُعدَاءَ مُخَلَّدين؟

{وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ} (الشعراء : ١٤٨)

١٤٨– وبينَ زُروعٍ خَضراءَ فَسيحَة، وثِمارٍ يانِعَةٍ شَهيَّة، ونَخلٍ قدْ رَطُبَ ثَمَرُهُ فأينعَ وطَاب؟

{وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ} (الشعراء : ١٤٩)

١٤٩– وتَنحِتونَ البُيوتَ منَ الجِبالِ في حِذْقٍ ومَهارَةٍ للتَّرَفُّهِ والتَّنَعُّم؟ (وهيَ مدائنُ صـــالِحٍ المعروفَة، في بِلادِ الحرَمَين).

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} (الشعراء : ١٥٠)

١٥٠- فاتَّقوا اللهَ وانتَهوا عنْ مُخالَفةِ أمرِهِ والشِّـرْكِ به، وأطيعُوني فيما أُبَلِّغُكمْ مِنْ عندِه، فإنَّكمْ ستُحاسَبونَ على ما تَعمَلون.

{وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ} (الشعراء : ١٥١)

١٥١- ولا تُطيعوا مَنْ يأمُرُكمْ بالكُفرِ والضَّلالِ مِنَ المشركين.

{الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ} (الشعراء : ١٥٢)

١٥٢- الذينَ يُفسِـدونَ في الأرْضِ بالمعاصـي، ولا يُصـلِحونَ في أمرٍ مِنَ الأُمور، فقدِ اختلطَ الفسَادُ بأعمالِهِمْ كُلِّها، لبُعدِهمْ عنْ دِينِ اللهِ وطَريقِهِ المستَقيم.

{قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} (الشعراء : ١٥٣)

١٥٣- فأجابَهُ قَومُهُ وقدْ أوغَلوا في الكُفرِ والعِناد: ما أنتَ إلاّ مَسحورٌ مَخدوع.

{مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} (الشعراء : ١٥٤)

١٥٤- قالوا: ولستَ سِوَى بشَرٍ مِثلِنا، وإذا كُنتَ صادِقًا في ادِّعائكَ النبوَّة، فَأْتِنا بمُعجِزَة.

{قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ} (الشعراء : ١٥٥)

١٥٥- فقالَ لهم: هذهِ ناقَةٌ مُبارَكَةٌ مِنْ عندِ الله، لم يَملِكْها أحَد، تَشـرَبُ مِنَ النَّهرِ يَومًا، وأنتُمْ تَشرَبونَ منهُ يَومًا، ولا تُزاحِموها في يَومِها.

{وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ} (الشعراء : ١٥٦)

١٥٦- ولا تَقْرَبوها بسُوء، كضَرْبٍ أو ذَبح، فإذا فعَلتُمْ ذلكَ حلَّتْ بكمْ نِقمَةُ الله، وأصـابَكمْ منهُ عَذابٌ كبير.

فمَكثوا حينًا مِنَ الدَّهرِ يَنتَفِعونَ بلبَنِها... ثمَّ اتَّفَقوا على ذَبحِها!

{فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ} (الشعراء : ١٥٧)

١٥٧- فذَبَحوا النَّاقة، وأصبَحوا نادِمينَ عندَما عايَنوا العَذابَ الذي وعدَهمْ بهِ نبيُّهم.

{فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ} (الشعراء : ١٥٨)

١٥٨- فقدْ حلَّتْ بهِمْ نِقمَةُ الله، وزُلزِلَتِ الأرضُ مِنْ تحتِهِمْ زِلزالاً شَـديدًا، وجاءَتْهُمْ صَـيحَةٌ عَظيمَةٌ جَعَلَتْهمْ هامِدينَ لا حِراكَ بهم.

وفيما حَلَّ بهِمْ مِنَ العَذابِ عِبرَةٌ لِمَنْ أرادَ أنْ يَعتَبِر.

وعلى الرَّغمِ مِنْ أنَّ المعجِزَةَ كانتْ واضِحَةً لجَميعِهم، إلاّ أنَّ أكثرَهمْ كفَروا وعصَوا.

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} (الشعراء : ١٥٩)

١٥٩- واللهُ قَويٌّ لا يُغالَب، يَنتَقِمُ ممَّنْ أصَرَّ على الكُفرِ واستمَرَّ فيه، في الدُّنيا أو في الآخِرَة، أو يَذوقُ العَذابَين. وهوَ سُـبحانَهُ رَحيمٌ بعِبادِهِ المؤمِنينَ المطيعين، فيَغفِرُ لهمْ ويُكرِمُهمْ بجَنَّاتِ النَّعيم.

{كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ} (الشعراء : ١٦٠)

١٦٠- وكذَّبَ قَومُ لُوطٍ نبيَّهمْ، وهمْ بهذا كذَّبوا جَميعَ المرسَلين، فإنَّ رِسالَتَهمْ واحِدَة.

{إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ} (الشعراء : ١٦١)

١٦١- إذْ قالَ لهمْ لوطٌ أخُوهمْ في النَّسَـب، أو الإنسـانيَّة، أو لكَونِهِ واحِدًا منهم، وقدْ ذُكِرَ أنَّهمْ كانوا مِنْ أصهارِه، قالَ لهم: ألا تَخافونَ اللهَ بمُخالَفَتِكمْ أمرَهُ واستِمرارِكمْ في عمَلِ الفَواحشِ والمعاصي؟

{إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ} (الشعراء : ١٦٢)

١٦٢- إنِّي رَسولٌ إليكمْ مِنْ قِبَلِ رَبِّكم، صادِقٌ فيما أُخبِرُكمْ بهِ مِنْ عِندِه، أمينٌ على وَحيه.

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} (الشعراء : ١٦٣)

١٦٣- فابتَعِدوا عمَّا نَهاكمُ عَنهُ لئلاّ يُعَذِّبَكم، وأطيعُوني فيما آمرُكمْ بهِ وأنهاكمْ عَنه، فإنَّهُ لصالِحِكم، في حياتِكمْ وبعدَ مماتِكم.

{وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} (الشعراء : ١٦٤)

١٦٤- ولا أطلبُ منكمْ أُجرَةً على تَبليغِ رِسالَةِ الله، إنَّما أطلبُ ثَوابَهُ مِنَ اللهِ وحدَه.

{أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ} (الشعراء : ١٦٥)

١٦٥- يا قَوم، أتأتونَ الذُّكورَ مِنْ بَني آدمَ في أدبارِهم،

{وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ} (الشعراء : ١٦٦)

١٦٦- وتَترُكونَ ما خلقَ اللهُ لكمْ منَ الزَّوجاتِ وهُنَّ محَلُّ الاشتِهاء؟ بلْ أنتُمْ قَومٌ شاذُّونَ ظالِمون، مُتجاوِزونَ الحَلالَ إلى الحَرام.

{قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ} (الشعراء : ١٦٧)

١٦٧- لكنَّ قومَهُ تَمادَوا في غَيِّهِمْ وفُحشِهِمْ وقالوا: إذا لم تَكُفَّ عنَّا دَعوَتَك، ولم تَنتَهِ عنِ الإنكارِ عَلينا، فستَكونُ مِنَ المنفيّينَ مِنْ أرضِنا.

{قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ} (الشعراء : ١٦٨)

١٦٨- قالَ لهمْ عَليهِ السَّلام: إنَّني مِنَ المبغِضينَ لعمَلِكمْ غايَةَ البُغض، وأنا بَريءٌ منكمْ وممَّا تَعمَلون.

{رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ} (الشعراء : ١٦٩)

١٦٩- ودَعا ربَّهُ قائلاً: اللهمَّ خَلِّصني وأهلي منهمْ ومِنْ سُوءِ عَمَلِهم، ومنَ العَذابِ الذي يستَحِقُّونَه، فإنَّهمْ مُجرِمونَ عاصُون.

{فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ} (الشعراء : ١٧٠)

١٧٠- فنَجَّيناهُ وأهلَهُ كُلَّهمْ مِنْ بينِهم،

{إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ} (الشعراء : ١٧١)

١٧١- إلاّ امرأتَهُ العَجوزَ الكافِرَة، التي كانتْ مائلَةً إلى قَومِها، فكانتْ مِنَ الباقينَ معَهمْ في القَريَة.

{ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ} (الشعراء : ١٧٢)

١٧٢- ثمَّ أهلَكنا الآخَرينَ مِنْ غَيرِ المؤمِنين.

{وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ} (الشعراء : ١٧٣)

١٧٣- وأمطَرنا عَليهمْ حِجارَة، زيادَةً في عَذابِهِمْ والسُّخطِ عَليهم، فبئسَ مَطَرُهمُ الذي كذَّبوا نبيَّهمْ أنْ يأتيَهمْ به.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ} (الشعراء : ١٧٤)

١٧٤- وفي ذلكَ كُلِّهِ عِبرَةٌ لأصحَابِ العُقولِ المستَقيمَة، الذينَ يَقرَؤونَ فيَتدَبَّرونَ ويَعتَبِرون. فإنَّ ما كانَ عليهِ قَومُ لوطٍ فاحِشَةٌ سَيِّئةٌ بَغيضَة، وشُذوذٌ مُنكَر، إضافَةً إلى ما يُسَبِّبُهُ مِنْ أمراضٍ جِنسيَّةٍ وغَيرِ جِنسيَّة، كشفَ عَنها الطبُّ الحَديث.

ومعَ أنَّ النُّصحَ لهمْ كانَ دَعوَةً إلى فِطرَةٍ وطهارَةٍ واستِقامَة، إلاّ أنَّهمْ رفَضوهُ وأصَرُّوا على الفاحِشَة، فكانَ أكثَرُهمْ كافِرينَ بدَعوَةِ نبيِّهم.

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} (الشعراء : ١٧٥)

١٧٥- واللهُ قَويٌّ عَزيز، قَدْ يُعاقِبُ الكافِرينَ المتَمَرِّدينَ عُقوبَةً شَـــديدَةً في الدُّنيا، لتَكونَ عِبرَةً لآخَرين، وسيُعَذِّبُونَ في الآخِرَةِ عَذابًا أشَدَّ وأبقَى. والمؤمِنونَ المتَّقونَ يَرحَمُهمُ رَبُّهم، لصَبرِهمْ على طاعَتِهِ وما كَلَّفَهمْ به.

{كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ} (الشعراء : ١٧٦)

١٧٦- وكذَّبَ أصحَابُ الأيكَةِ رَسولَهم، ومَنْ كذَّبَ رَسولاً فقدْ كذَّبَ الرُّسُلَ كُلَّهم، فرِسالَتُهمْ واحِدَة، ومُعتقَدُهمْ واحِد.

والأَيكَةُ: الشَّجَرُ الكثيرُ الملتَفّ، وأصحابُها أهلُ مَدْيَنَ، أو غَيرُهم.

{إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ} (الشعراء : ١٧٧)

١٧٧- إذْ قالَ لهمْ رَسولُهُمْ شُعَيب: ألَا تتَّقونَ عَذابَ اللهِ بتَركِ مَعاصيه؟

{إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ} (الشعراء : ١٧٨)

١٧٨- إنِّي رَســولٌ إليكمْ مِنْ عندِ رَبِّكمْ لأُنذِرَكم، وأنا صــادِقٌ فيما أُبَلِّغُكمْ مِنْ وَحيه، مُؤْتَمَنٌ على ذلك.

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} (الشعراء : ١٧٩)

١٧٩- فانتَهوا عمَّا نَهاكُمُ اللهُ عَنهُ لتَحفَظوا أنفُسَــــكمْ مِنْ عُقوبتَه، وأطيعُوني فيما آمرُكمْ بهِ وأنهاكُمْ عَنه، فلا آمرُكمْ إلاّ بخَير، ولا أنهاكمْ إلاّ عنْ شَرّ.

{وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} (الشعراء : ١٨٠)

١٨٠- ولا أطلُبُ منكمْ مالاً على هذا الذي أُبَلِّغُكم، فإنِّي أبتَغي بذلكَ وجهَ اللهِ وحدَه، ومنهُ أطلبُ الأجرَ والثَّواب.

{أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ} (الشعراء : ١٨١)

١٨١- أتِمُّوا الكَيلَ إذا دَفعتُموهُ إلى النَّاس، ولا تُعطوهُ لهمْ ناقِصًا.

{وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ} (الشعراء : ١٨٢)

١٨٢- وزِنُوا الأشياءَ بالميزانِ السويِّ، الذي لا حيلَةَ فيه.

{وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} (الشعراء : ١٨٣)

١٨٣- ولا تَنقُصُوا النَّاسَ أموالَهم، ولا تُفسِدوا في الأرْضِ بقَطعِ الطَّريقِ وما إليه.

{وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ} (الشعراء : ١٨٤)

١٨٤- واخشَوا اللهَ واحذَروا نِقمَتَهُ إذا خالَفتُمْ أمرَه، الذي خلقَكمْ وخلقَ الأُمَمَ الماضِين.

{قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} (الشعراء : ١٨٥)

١٨٥- قالَ لهُ قَومُهُ مُكَذِّبينَ بنبوَّتِهِ ورِسالَتِه: ما أنتَ سِوَى رَجُلٍ مَسحور، قدْ مَسَّكَ الجِنّ.

{وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ} (الشعراء : ١٨٦)

١٨٦- وقالوا له: ما أنتَ إلاّ واحِدٌ مِنْ بَني آدمَ مثلُنا، لا فَرقَ بيننا وبينَك، وما نَظُنُّكَ إلاّ مِنَ الكاذِبينَ في ادِّعائكَ النبوَّة.

{فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} (الشعراء : ١٨٧)

١٨٧- وقالوا مُتحَدِّينَ وهمْ مَتمادُونَ في ضَلالِهِم: فأسقِطْ عَلينا قِطَعَ العَذابِ مِنَ السَّماءِ إذا كُنتَ صادِقًا في دَعواك.

{قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ} (الشعراء : ١٨٨)

١٨٨- قالَ لهمْ شُعَيبٌ عَليهِ السَّلام: اللهُ أعلَمُ بأعمالِكمْ وبما تستَوجِبونَ عليهِ مِنَ العُقوبَة.

{فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} (الشعراء : ١٨٩)

١٨٩- فاستَمَرُّوا في تَكذيبِ نَبيِّهم، فعُوقِبوا بعَذابِ يَومِ الظُّلَّة، أصابَهُمْ حَرٌّ شَديد، ثمَّ أظَلَّتْهمْ سَحابَةٌ كبيرَة، فانطَلَقوا يَستَظِلُّونَ بظِلِّها ممّا أصابَهُمْ مِنَ الحرّ، فلمَّا تَمَّ اجتِماعُهمْ تَحتَها، أرسَلَ اللهُ عَليهِمْ منها نارًا وعَذابًا، وشَرَرًا ولهبًا عَظيمًا، فكانَ ذلكَ عَذابَ يَومٍ شَديدٍ وهَولٍ فَظيع.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ} (الشعراء : ١٩٠)

١٩٠- وفي ذلكَ آيَةٌ وعِبرَةٌ لمنْ بَعْدَهم، ليتَدَبَّروا ويَعتَبِروا. ومعَ أنَّ نبيَّهمْ كانَ يأمرُهمْ بالإصْلاحِ والتَّقوَى، والعَدلِ والإحسَان، إلاّ أنَّ أكثرَهمْ كذَّبَهُ وحارَبَ دَعوَتَه.

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} (الشعراء : ١٩١)

١٩١- وإنَّ ربَّكَ عَزيزٌ لا يُغالَب، يَنتَقِمُ ممَّنْ كذَّبَ رُسُلَهُ بعدَ إنذارِهم، إنْ عاجِلاً أو آجِلاً. وهوَ رَحيمٌ بمَنْ آمنَ واتَّقَى، وأطاعَ واهتدَى.

{وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (الشعراء : ١٩٢)

١٩٢- وإنَّ هذا القُرآنَ مُنْزَلٌ مِنْ عندِ رَبِّ العالَمين.

{نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} (الشعراء : ١٩٣)

١٩٣- نزَلَ بهِ جِبريلُ عَليهِ السَّلام، الأمينُ على وَحيِ اللهِ تَعالَى.

{عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ} (الشعراء : ١٩٤)

١٩٤- نزَلَ بهِ على قَلبِكَ أيُّها النبيُّ مُحَمَّدٌ حَقًّا وعَيْنَه، لتُبَلِّغَهُ النَّاسَ وتُخَوِّفَ المكَذِّبينَ بما فيهِ مِنْ عُقوباتٍ ووَعدٍ ووَعيد.

{بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ} (الشعراء : ١٩٥)

١٩٥- وهوَ بلُغَةٍ عَربيَّةٍ فَصيحَةٍ واضِحَة.

{وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ} (الشعراء : ١٩٦)

١٩٦- وهذا القُرآنُ مَذكورٌ خبَرُهُ في الكتُبِ السَّماويَّةِ السَّابِقَةِ تَبشيرًا به.

{أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ} (الشعراء : ١٩٧)

١٩٧- أمَا كانَ للمُشرِكينَ المستكبِرينَ دَليلاً وعَلامةً أنْ يَكونَ عُلماءُ بَني إسرائيلَ العُدولُ عالِمينَ بالقُرآن؟

{وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ} (الشعراء : ١٩٨)

١٩٨- ولو أنزَلنا هذا القُرآنَ المعجِزَ في لُغَتِهِ ونَظمِهِ على رَجُلٍ مِنَ الأعاجِمِ لا يَعرِفُ التكَلُّمَ بالعَرَبيَّة،

{فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ} (الشعراء : ١٩٩)

١٩٩- ثمَّ قرأهُ عَليهمْ قِراءَةً صَحيحَةً بَليغَة، فكانَ ذلكَ إعجازًا يُضافُ إلى إعجازِ نَظمِهِ ومَعناه، لما آمَنوا به، ولاستَمَرُّوا في كُفرِهمْ ومُخاصَمَتِهم؛ لفَرْطِ عِنادِهمْ ومُكابَرَتِهم.

{كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ} (الشعراء : ٢٠٠)

٢٠٠- وهكذا أدخَلنا الكُفرَ بالقُرآنِ والتَّكذيبَ بهِ في قُلوبِ المشرِكين، لإصرارِهِمْ على الجُحودِ به، وأنَفَتِهِمْ مِنِ اتِّباعِ القُرآنِ الكريم، ولقساوَةِ قُلوبِهِم.

{لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} (الشعراء : ٢٠١)

٢٠١- ولا يؤمِنونَ بالقُرآن، أو بالحَقّ، حتَّى يُعاينوا العَذابَ الشَّديد، ولكنْ لا يَنفَعُهمُ الإيمانُ حينَئذ.

{فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} (الشعراء : ٢٠٢)

٢٠٢- فيَنزِلُ بهمُ العَذابُ فَجأة، وهمْ غافِلون، مُنهَمِكونَ في مُتَعِ الدُّنيا وشَهواتِها.

{فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ} (الشعراء : ٢٠٣)

٢٠٣- وفي تلكَ اللَّحظاتِ الرَّهيبَةِ يَتحَسَّـــرونَ على ما فاتَهمْ مِنَ الإيمان، ويَقولون: هلْ نحنُ مؤخَّرونَ قَليلاً لنُؤمِنَ ونعمَلَ بطاعَةِ الله؟

{أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ} (الشعراء : ٢٠٤)

٢٠٤- أتَستَعجِلونَ العَذاب، وتَقولونَ لنبيِّكم: إنْ كانَ حَقًّا ما تَقولُ فليَنزِلْ عَلينا عَذابُ الله؟

{أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ} (الشعراء : ٢٠٥)

٢٠٥- أرأيتَ لو أمهَلنا المشرِكينَ مُدَّةً مِنَ الزَّمان، وطَيَّبنا معاشَهم؟

{ثُمَّ جَاءهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ} (الشعراء : ٢٠٦)

٢٠٦- ثمَّ نزلَ بهمْ ما كانوا يُوعَدونَ مِنَ العَذاب،

{مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ} (الشعراء : ٢٠٧)

٢٠٧- فإنَّهُ لا يُفيدُهمْ تمتُّعُهمْ في الحياةِ شَيء، ولا يُجدي عَنهمْ ما كانوا فيهِ مِنْ نَعيمٍ ورفاهيَة.

{وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ} (الشعراء : ٢٠٨)

٢٠٨- وما أهلَكنا أهلَ قَريَةٍ أو مَدينَة، إلاّ بعدَ أنْ أنذَرناهُمْ وذَكَّرناهُمْ بواسِطَةِ الرُّسُل،

{ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ} (الشعراء : ٢٠٩)

٢٠٩- ليَكونَ إهلاكُهمْ تَذكِرَةً وعِبرَةً لغَيرِهم، فلا يَعصُـوا مِثلَ عِصـيانِهم. وما كانَ ذلكَ ظُلمًا لهم، فقدِ استَحَقُّوا العُقوبَةَ بعدَ تَذكيرِهمْ وإنذارِهمْ وإقامَةِ الحُجَّةِ عَليهم.

{وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ} (الشعراء : ٢١٠)

٢١٠- وهذا القُرآنُ مَحفوظٌ مِنْ عندِ اللهِ وبأمرِه، فلمْ تَنْزِلْ بهِ الشَّياطينُ كما يَدَّعي المشرِكون، بلْ نزَلَ بهِ أمينُ الوَحي جِبريل.

{وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ} (الشعراء : ٢١١)

٢١١- فليسَ هذا القُرآنُ مِنْ مَصلحَةِ الشياطينِ حتَّى يُنزِلُوه، لأنَّهُمْ أنصارُ الشرِّ والفسَاد، والقُرآنُ يَدعو إلى الخَيرِ والصَّلاح، وهمْ لا يَقدِرونَ على تَنزيلِهِ أصلًا.

{إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ} (الشعراء : ٢١٢)

٢١٢- فهمْ مَحجُوبونَ ومَمنوعُونَ مِنَ الاستِماعِ إلى ما تتَكلَّمُ بهِ الملائكةُ في السَّماء، فإذا فعَلوا رُجِموا بالشُّهُب.

{فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ} (الشعراء : ٢١٣)

٢١٣- فإذا عَلِمْتَ ذلكَ فلا تُشرِكْ في عِبادَتِكَ معَ اللهِ أحَدًا، فإنَّكَ إذا فعَلتَ ذلكَ عُوقِبْتَ بالعَذابِ الشَّديد.

وهوَ ما لا يُمكِنُ صُدورُهُ عنْ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، ولكنَّهُ كما رُويَ عنِ ابنِ عبّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهما: يُحَذِّرُ اللهُ بهِ غَيرَه، يَقول: أنتَ أكرَمُ الخَلقِ عَليّ، ولو اتَّخَذْتَ إلهًا غَيري لعَذَّبتُك.

{وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} (الشعراء : ٢١٤)

٢١٤- وأنذِرِ الأقرَبينَ مِنْ عَشيرَتِك، وبَلِّغْهُمْ أنَّكَ رَسولُه، ونَذيرٌ لهمْ بينَ يدَي عذابٍ شَديد، وأنَّهُ لا يُنَجّي أحَدًا منهمْ إلاّ إيمانُه.

وقدْ أنذَرَهمْ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم كثيرًا، كما أنذَرَ قَومَهُ والآخَرين، وبلَّغَ هذا الدِّينَ على أكمَلِ وَجه.

وقالَ عليهِ الصَّـلاةُ والسَّـلامُ في إنذارٍ عام: "والذي نَفسُ محمَّدٍ بيَدِه، لا يَسـمَعُ بي أحَدٌ مِنْ هذهِ الأُمَّة، يَهوديٌّ ولا نَصـرانيّ، ثمَّ يَموتُ ولم يُؤمِنْ بالذي أُرسِلتُ به، إلاّ كانَ مِنْ أصحابِ النَّار". رواهُ مُسلِمٌ في صَحيحِه.

{وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} (الشعراء : ٢١٥)

٢١٥- وألِنْ جانِبَك، وتَواضَعْ لمنِ اتَّبعَكَ مِنْ صَحابَتِكَ المؤمِنين.

{فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ} (الشعراء : ٢١٦)

٢١٦- فإذا عصَـاكَ ولم يَتَّبِعْكَ مَنْ أنذَرتَهم، فقُل: إنِّي بَريءٌ مِنَ الكُفر، ومِمّا تَعبدُونَهُ مِنْ دونِ الله.

{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ} (الشعراء : ٢١٧)

٢١٧- واعتَمِدْ على اللهِ العَزيزِ الرَّحيم، وفَوِّضْ أمرَكَ إليه، فإنَّهُ قَويٌّ لا يُغالَب، يَقهَرُ مَنْ يُعادِيكَ بعِزَّتِه، ويَنصُرُكَ ويُؤيِّدُكَ برَحمَتِه.

{الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ} (الشعراء : ٢١٨)

٢١٨- الذي يَراكَ حينَ تَقومُ إلى الصَّلاة، عابِدًا خاشِعًا.

{وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} (الشعراء : ٢١٩)

٢١٩- والذي يَراكَ في قيامِكَ وركوعِكَ وسُجودِكَ فيما بينَ المصَلِّينَ إذا أمَمْتَهم.

{إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (الشعراء : ٢٢٠)

٢٢٠- إنَّهُ هوَ السَّـميعُ لأقوَالِ العِباد، العَليمُ بأحوَالِهم، المطَّلِعُ على قُلوبِهم، وما يُسِـرُّونَ ويُعلِنونَ في عِباداتِهمْ وغَيرِها.

{هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ} (الشعراء : ٢٢١)

٢٢١– قدْ عَلِمتُمْ أنَّ الشَّياطينَ لا تَنزِلُ بالقُرآن، إذْ ليسَ هوَ مِنْ مَصلحَتِهِمْ ولا رَغبَتِهم، فهلْ أُخبِرُكمْ على مَنْ تَتنَزَّلُ إذًا؟

{تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ} (الشعراء : ٢٢٢)

٢٢٢– إنَّها تَتنَزَّلُ على كُلِّ كذَّابٍ فاجِر، كالكُهَّانِ والمشَعوِذينَ الكاذِبينَ الفاسِقين[١٠٠]، ورَسُولُ اللهِ محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم مُنَزَّهٌ عنْ هذهِ الأوصَاف.

{يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ} (الشعراء : ٢٢٣)

٢٢٣– هؤلاءِ الشَّياطينُ يُحاوِلونَ الاستِماعَ إلى ما يَقولُهُ الملائكَةُ ليَعرِفوا ولو شَيئًا قَليلاً مِنَ الغَيب، فإذا عرَفوا كَلِمَةً منهُ ألقَوها إلى أتباعِهِمْ مِنَ الإنس، فيَتحَدَّثونَ بها، وأكثَرُهمْ كاذِبونَ فيما يَقولون.

وفي صَحيحِ البُخاريِّ، أنَّ ناسًا سألُوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم عنِ الكُهَّان، فقال: "إنَّهمْ ليسُوا بشَيء". قالوا: يا رَسولَ الله، فإنَّهمْ يُحَدِّثونَ بالشَّيءِ يَكونُ حَقًّا. فقال: "تلكَ الكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ يَخطِفُها الجِنِّيُّ فيُقَرْقِرُها في أُذُنِ وَلِيِّهِ كقَرْقَرَةِ الدَّجاجَة، فيَخلِطونَ فيهِ أكثرَ مِنْ مائةِ كِذْبَة".

{وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ} (الشعراء : ٢٢٤)

٢٢٤– والقُرآنُ ليسَ مِثْلَ الشِّعْر، والأنبياءُ ليسوا مِثلَ الشُّعَراء، فالأنبياءُ راشِدونَ مُسَدَّدون، أهلُ هِدايَةٍ وصَلاحٍ وتَقوَى، يتَّبِعُهمُ المؤمِنونَ الصّادِقون، والشُّعَراءُ يتَّبِعُهمُ الضَّالُّونَ مِنَ الإنسِ والجِنّ، لا أهلُ الهُدَى والسَّداد.

{أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ} (الشعراء : ٢٢٥)

---

(١٠٠) المرادُ بهم كلُّ من كان كاهناً، فإن الشياطين كانت تسترقُ السمع، ثم يأتون إليهم، فيُلقونَهُ إليهم. (فتح القدير).

٢٢٥- ألَا تَنظُرُ كيفَ أنَّ الشُّعَراءَ في كُلِّ لَغوٍ يَخوضُون، فيَمدَحونَ الشَّيءَ بعدَ أنْ ذَمُّوه، ويَهجُونَ قَومًا ثمَّ يُثنُونَ عَليهم، فهمْ حائرونَ في أودِيَةِ الكَلام، هائمونَ على وجوهِهمْ كأنَّهمْ لا مَقصِدَ لهمْ في الحَياة.

{وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ} (الشعراء : ٢٢٦)

٢٢٦- وهمْ يَكذِبونَ في شِعرِهم، فيَقولونَ فعَلنَا وفعَلنَا وهمْ لا يَفعَلون، ويَفتَخِرونَ بأحوالٍ ومَواقِفَ شجاعَةٍ ليسَتْ سِوَى وَهمٍ وخَيالٍ وانفِعال.

{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ} (الشعراء : ٢٢٧)

٢٢٧- إلاّ الشُّعَراءَ الذينَ صَدَقوا في إيمانِهم، وأحسَنوا في أعمالِهم، ولمْ يَشغَلْهمُ الشِّعرُ عنْ طاعَةِ رَبِّهمْ وذِكرِه، فكانوا مِنَ الذَّاكِرينَ اللهَ كثيرًا في شِعرِهم، الذَّابِّينَ عنِ الإسلامِ وأهلِه، المحَرِّضينَ على الدِّعوَةِ والجِهادِ ومكارِمِ الأخلاق، فانتَصَروا لدِينِهم، وجاهَدوا الكُفَّارَ بلِسانِهمْ كما جاهَدوهُمْ بسُيوفِهم، بعدَ أنْ ظُلِموا وأُخرِجوا مِنْ ديارِهمْ بغَيرِ حَقّ، وسيَعلَمُ المشرِكونَ المعادُونَ للإسْلامِ والمسلِمين، ومعَهمُ الشُّعَراءُ الضَّالُّون، ماذا يَكونُ مَصيرُهم، وأينَ يَكونُ مُستَقَرُّهمْ بعدَ الموت، وهوَ شَرُّ مَرجِع، وأسوَأُ مَصير.

سـورة النَّمــل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ} (النمل : ١)

١- الكَلِماتُ المقَطَّعَةُ لم يَرِدْ في تَفسيرِها حَديثٌ صَحيح، واختُلِفَ في مَدلولِها.

هذهِ آياتُ القُرآنِ الكريم، الكتابِ البَيِّنِ الواضِحِ في أحكامِهِ وأخبارِه.

{هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} (النمل : ٢)

٢- هِدايَةً وإرشــادًا إلى طَريقِ الخَيرِ والصَّـلاح، للمُصَـدِّقينَ بِهِ والعامِلينَ بما فيه، وبِشــارَةً لهمْ بِرَحمَةِ اللهِ ورِضوانِه.

{الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} (النمل : ٣)

٣- الـذينَ يُحـافِظونَ على صَـــلواتِهِمْ ويُؤَدُّونَها في أوقـاتِها، ويُعطونَ زَكـاةَ أموالِهِمْ للفُقَراءِ والمحتاجِين، ويُؤمِنونَ باليَومِ الآخِرِ وما فيهِ منْ حِسابٍ وجَزاء.

{إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ} (النمل : ٤)

٤- إنَّ الكافِرينَ الذينَ لا يؤمِنونَ بالبَعثِ بعدَ الموت، والثَّوابِ والعِقابِ على الأعمال، زَيَّنَّا أعمالَهُمُ السـيِّئةَ في قُلوبِهِم، حتَّى رأَوها حسَنة، فهمْ يَتيهونَ في ضَـلالِهِمْ ولو كانَ وبالاً عَليهم، ويَنغَمِســـونَ في أعمالِهِمْ دونَ التفكُّرِ بحَلالِها وحَرامِها، ويَنهَمِكونَ في هواياتِهِمْ نافِعةً كانتْ أو ضـارَّة، ولا يتفَكَّرونَ في آثارِ ذلكَ كُلِّه، وهذا جَزاءٌ لهمْ على ما كَذَّبوا بهِ مِنَ الدّارِ الآخِرَة، ولو آمَنوا بها لوزَنوا أعمالَهُمْ قبلَ يُحاسَبوا عَليها هُناك.

{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ} (النمل : ٥)

٥- أولئكَ لهمْ عَذابٌ شَديدٌ في الدُّنيا بالقَتلِ والأسْر، وهمْ أكثَرُ خسارَةً في الآخِرَة، فيَنتَظِرُهمْ عَذابٌ أشَدُّ وأبقَى.

{وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ} (النمل : ٦)

٦- وإنَّكَ تَتلَقَّى هذا القُرآنَ وَحيًا منْ عندِ الله، الحَكيمِ فيما يأمرُ ويَنهَى، العَليمِ بالأمُورِ كُلِّها، ماضِيها وحاضِرِها ومُستَقبَلِها، فكُلُّ ما يُخْبِرُ بهِ في القُرآنِ وغَيرِهِ صِدْقٌ وعَدْل.

{إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} (النمل : ٧)

٧- واذكُرْ لقَومِكَ أيُّها الرَّسولُ قَولَ نَبيِّ اللهِ موسَى لأهلِهِ وهمْ في طَريقِ عَودَتِهِمْ مِنْ مَدْيَنَ إلى مِصر: إنِّي أبصَرتُ نارًا، سآتيكُمْ مِنْ هُناكَ بخَبَرٍ يَدُلُّنا على الطَّريق، أو بشُعلَةٍ منها لتَتدَفَّؤوا بها.

{فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (النمل : ٨)

٨- فلمَّا أتَى النَّارَ نُودِيَ فقيل: بارَكَ اللهُ مَنْ في النَّارِ ومَنْ حَولَها، موسَى والمَلائكَةَ الحاضِرين، وتقدَّسَ اللهُ وتنَزَّهَ مِنْ كُلِّ نَقصٍ وعَيب.

{يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (النمل : ٩)

٩- قالَ اللهُ سُبحانَه: يا موسَى، إنَّ الذي يُناجيكَ ويُخاطِبُكَ هوَ الله، ذو الأُلوهيَّةِ والمَعبوديَّةِ على خَلقِهِ أجمَعين، أنا العَزيزُ الذي قَهَرَ كُلَّ شَيءٍ وغلَبَه، الحَكيمُ فيما يَقولُ ويَفعَل.

{وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ} (النمل : ١٠)

١٠- وألْقِ عَصــاكَ على الأرْض. فلمَّا ألقَاها ورَآها تتَحرَّكُ وتَضــطَرِبُ كأنَّها حيَّة، هربَ مِنَ الخَوفِ ولَم يَرجِع، فناداهُ رَبُّه: يا موسَــى لا تَخَفْ ممَّا ترَى فأنتَ في حِفظي، وأنبِيائي المرسَــلونَ لا يَخافونَ عندَ الوَحي إليهم، ولا يَخطُرُ ببالِهِمْ خَوفُ أحَد. أو لا يَكونُ لهمْ عندي سُــوءُ عاقِبَةٍ ليَخافوا منه.

{إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (النمل : ١١)

١١- لكنْ مَنْ ظلَمَ مِنْ سَــائرِ العِبادِ وأذنَبَ فإنَّهُ يَخاف، إلاّ مَنْ تابَ وعمِلَ صــالِحًا، فإنِّي أغفِرُ ذَنبَهُ وأرحَمُه.

{وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ} (النمل : ١٢)

١٢- وأدخِلْ يَدكَ في جَيبِكَ - وهوَ فَتحَةُ القَميصِ مِنْ أعلَى الصَّــدر - ثمَّ أخرِجْها، تَخرُجْ بَيضاءَ مُتَلألِئةً تَشِعُّ نورًا، مِنْ غَيرِ مرَضٍ ولا أذًى كالبرَصِ ونَحوِه.

ويَبدو أنَّ المقصُودَ إدخالُ اليَدِ في الجَيبِ ووَضعُها تحتَ الإبط، وهذا ما فُهِمَ مِنَ الآيةِ (٢٢) مِنْ سورَةِ طه: {وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى}.

وهذهِ مُعجِزَةٌ أُخرَى مِنْ بينِ تِســعِ مُعجِزاتٍ أيَّدْتُكَ بها لتَذهَبَ إلى فِرعَونَ وقَومِه، فإنَّهُمْ فاسِقونَ خارِجونَ عنِ الطَّاعَةِ والدِّينِ الحَقّ.

{فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ} (النمل : ١٣)

١٣- فلمَّا جاءَتْهُمْ هذهِ المعجِزات، وظهَرَتْ على يَدَي موسَى بَيِّنَةً واضِحَة، قالوا: هذا سِحرٌ ظاهِرٌ بَيِّن!

{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْــتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُــهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِــدِينَ} (النمل : ١٤)

١٤- فكَذَّبوا بها بألسِنَتِهِمْ وظاهرِ أمرِهم، وعَلِموا في أنفُسِهِمْ يَقينًا أنَّها مِنْ عندِ اللهِ وليسَتْ سِحرًا، فعَلُوا ذلكَ ظُلمًا مِنْ أنفُسِهِمْ لكَونِهِمْ مُشرِكين، وترَفُّعًا واستِكبارًا عنِ الإيمانِ بما جاءَ بهِ موسَى عليهِ السَّلام. فانظُرْ أيُّها الرَّسولُ كيفَ كانتْ نَتيجَةُ فِرعَونَ وقَومِهِ المفسِدينَ في الأرْض.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} (النمل : ١٥)

١٥- ولقدْ أعطَينا كُلاًّ مِنْ داودَ وابنِهِ سُلَيمانَ عِلمًا جمًّا، يَليقُ بمَقامِ النبوَّةِ التي أكرمَهما اللهُ بها، فحَمِدا اللهَ وشكَرا لهُ هذهِ النِّعمَةَ الكُبرى، وقالا: الحَمدُ للهِ الذي فضَّلَنا بما آتانا مِنَ العِلمِ على كثيرٍ منْ عِبادِهِ المؤمنين.

{وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ} (النمل : ١٦)

١٦- ووَرِثَ سُلَيمانُ أباهُ داودَ في الملْكِ والنبوَّة، فصَارَ نبيًّا مَلِكًا، وقالَ مُقَدِّرًا نِعمَةَ اللهِ عَليه: أيُّها النَّاس، لقدْ عَلَّمَنا اللهُ لُغَةَ الطُّيورِ والدوابِّ وما تتَخاطِبُ به، وأعطانا كُلَّ شَيءٍ يتعَلَّقُ بالملِكِ والتَّمكينِ فيه، حتَّى سخَّرَ لنا الإنسَ والجِنَّ والطَّيرَ والرِّيح، وهذا فَضلٌ مِنَ اللهِ عَلينا وإحسَانٌ منهُ لا يَخفَى.

{وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} (النمل : ١٧)

١٧- وجُمِعَ لسُليمانَ عَساكِرُهُ مِنَ الأماكنِ المختَلِفَةِ لمسيرِه، مِنَ الجِنِّ والإنسِ والطَّير، فهمْ مُجتَمِعونَ مَصطَفُّونَ عندَه، لا يَتقَدَّمُ أحَدٌ على مَرتَبَةِ الآخَرِ ولا في المسيرِ عَليه.

{حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} (النمل : ١٨)

١٨- حتَّى إذا مرَّ معَ جَيشِهِ بوادِي النَّمل، قالَتْ نَمْلَةٌ مُخاطِبَةً نَملاً منْ جِنسِها بلُغَتِها: ادخُلوا مَساكِنَكمْ حتَّى لا يَحطِمَكمْ سُلَيمانُ وجُنودُهُ وخيولُهُ دونَ أنْ يَشعُروا بذلك.

{فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} (النمل : ١٩)

١٩- فسَمِعَ سُلَيمانُ ما قالَتِ النَّملَة، وتبَسَّمَ سُرورًا بما فَهَّمَهُ اللهُ مِنْ كلامِها، وقالَ في عُبوديَّةٍ وخُشوع: اللهمَّ ألهِمني أنْ أشكُرَ نعمتَكَ التي منَنْتَ بها عَليّ، مِنَ النبوَّةِ والمُلْكِ وتعَلُّمِ مَنطِقِ الحيَوان، ونِعمتَكَ على والدَيَّ بالإيمانِ والإسْلام، ووَفِّقني لأقومَ بالأعمالِ الحسَنَةِ التي تُحِبُّها وتَرضَى بها، وأدخِلني في جُملَةِ الصَّالِحينَ مِنْ عِبادِكَ إذا توفَّيتَني، واحشُرني في زُمرَتِهم.

{وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ} (النمل : ٢٠)

٢٠- وبحثَ سُليمانُ عنِ الطَّير، وطلبَ ما فُقِدَ منها، فلمْ يرَ مِنْ بينِها الهُدْهُد، فقال: ما لي لا أرَى الهُدْهُد، أمْ أنَّهُ غابَ مِنْ غَيرِ إذني؟

والهُدْهُدُ طائرٌ ذَكيٌّ حَذِر، سَريعُ الملاحظَة، قَويُّ الذَّاكِرَة، واسِعُ الحِيلَة، ويُكْنَى بأبي الأخبار. ولا يَجوزُ قَتلُه، كما جاءَ في حَديثٍ صَحيح.

{لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} (النمل : ٢١)

٢١- لأُؤَدِّبَنَّهُ بما يَستَحِقُّ لعَدَمِ طاعَتِه، كنَتْفِ ريشِه. أو لأَذبحَنَّه، أو ليَأتيَنِّي بعُذرٍ واضِحٍ مَقبُول.

{فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ} (النمل: ٢٢)

٢٢- فأقامَ الهُدْهُدُ زَمانًا يَسيرًا، ثمَّ جاءَ إلى نبيِّ اللهِ سُليمانَ وقالَ له: لقدِ اطَّلَعتُ على ما لمْ تطَّلِعْ عَليه، وجِئتُ لكَ مِنْ مَملكَةِ سبَأ بخبَرِ صِدْقٍ وحَقّ.

{إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ} (النمل: ٢٣)

٢٣- لقدْ وجَدْتُ امرأةً - هيَ بَلْقِيسُ - تَحكُمْ قومَها، وقدْ أُوتيَتْ كُلَّ ما يَحتاجُ إليهِ الملوك، ولها سَريرٌ كبيرٌ جِدًا تَجلِسُ عَليه، مُزَخرَفٌ بأنواعِ الجوَاهِرِ واللآَّلِئ.

{وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ} (النمل : ٢٤)

٢٤- وجَدتُّها وقومَها يَسجُدونَ للشَّمسِ في عِبادَتِهِمْ مِنْ دُونِ عِبادَةِ اللهِ وحدَه، وقدْ حسَّنَ الشَّيطانُ الأعمالَ الشِّركيَّةَ في قُلوبِهم، فمنعَهمْ بذلكَ مِنْ طَريقِ الحَقّ والصَّواب، فهمْ لا يَهتَدونَ إليها.

{أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} (النمل : ٢٥)

٢٥- منعَهمْ مِنْ ذلكَ لئلاّ يَسجُدوا للهِ تعالَى، الإلهِ الحَقّ العالِمِ بالخَفِيَّات، الذي يُظهِرُ المخبوءَ المكنونَ ممّا في السَّماءِ والأرْض، وهوَ الذي يَعلَمُ ما تُسِرُّونَ ممَّا في قُلوبَكم، وما تُعلِنونَهُ مِنْ خِلالِ أقوالِكمْ وأعمالِكم، ويُجازي كُلاًّ بما يَستَحِق.

{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} (النمل : ٢٦)

٢٦- هوَ اللهُ الذي لا مَعبودَ بحَقٍّ سِواه، فلا يُعبَدُ إلاّ هو، رَبُّ العَرشِ العَظيم، أعظَمِ المخلوقات.

{قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ} (النمل : ٢٧)

٢٧- قالَ سُليمانُ عَليهِ السَّلامُ للهُدْهُد: سنتَحرَّى ونتثَبَّتُ ممّا ذَكرتَه، أصدَقْتَ فيما أخبَرتَ به، أمْ أنَّكَ كاذِبٌ فيه؟

{اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ} (النمل : ٢٨)

٢٨- وهذا اختِبارٌ لكَ فيما زَعَمت، اذهَبْ برِســالَتي هذهِ إلى المِلِكَةِ وقَومِها وألْقِها إليهم، ثمَّ تنَحَّ عَنهُم، وكُنْ قَريبًا منهم، وانظُرْ بماذا يُجيبون؟

{قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ} (النمل : ٢٩)

٢٩- ووَقعَتِ الرِّسَــالَةُ بينَ يَدَيها، فتعَجَّبَتْ ممَّا فيها، وقالَتْ لمِنْ حَولَها مِنْ أصـــحابِ الرأيِ ووُجهاءِ القَوم: أيُّها السَّــادَةُ والأُمرَاء، لقدْ أُلقِيَتْ إليَّ رِســالَةٌ مَختومَة، عاليَةٌ وقَديرَةٌ في شَـكلِها ومَضمونِها!

{إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} (النمل : ٣٠)

٣٠- إنَّها مِنَ النبيِّ المِلِكِ سُـليمانَ بنِ داود، وإنَّ فيها: {بِسْــمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} أي: أبدأُ بسمِ اللهِ ذي الرحمَةِ الواسِعَة، ورحمتُهُ بالمؤمنينَ خاصَّة.

{أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} (النمل : ٣١)

٣١- وفيها: لا تمتَنِعوا ولا تتَكَبَّروا عَليَّ كما يَفعَلُ جَبابِرَةُ الملوك، وَأْتُوني مُسلِمينَ موَحِّدين.

{قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ} (النمل : ٣٢)

٣٢- ثمَّ خاطَبَتْهُمْ بقَولِها: أيُّها السَّـــادَةُ والوجَهاء، أشــيروا عَليَّ بما عِندَكمْ مِنَ الرأيِ والتَّدبيرِ فيما عُرِضَ عَليَّ مِنْ هذا الأمر، فما كنتُ قاضِـيَةً وفاصِـلَةً في شَـأنٍ حتَّى تَحضـرُوني وتُشـيروا عَليّ.

{قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ} (النمل : ٣٣)

٣٣- قالوا لها: نحنُ أصحابُ قُوَّةٍ في الأجساد، وكَثرَةٍ في الأعدَاد، وأصحابُ نَجدَةٍ وشَجاعَةٍ وبَلاءٍ في القِتال، ونحنُ جاهِزونَ للحَربِ إذا أرَدتِ أيَّتُها المِلِكَة، والكلِمَةُ الأخيرَةُ لكِ، فَأْمُرينا بما تَرَيْنَ مِنَ الصُّلحِ أو الحَرب، فنحنُ مُطيعونَ لأمرِكِ.

{قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} (النمل : ٣٤)

٣٤- قالتِ المِلِكَة: إنَّ الملوكَ إذا دخَلوا بلَدًا عُنوَةً أفسَدوهُ وخرَّبوه، وقصَدوا مَنْ فيهِ مِنَ الحُكَّامِ والأشـرَافِ والجُنودِ فأهانوهُمْ غايَةِ الهَوان، إمَّا بالقَتلِ أو بالأسـر، ليَستَقيمَ لهمُ الأمر. وكما قالَتِ المِلِكَة، فإنَّهُمْ يَفعَلونَ ذلك.

{وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ} (النمل : ٣٥)

٣٥- فلجأتْ إلى المهادَنَةِ والمصانعة، وقالَتْ لقَومِها: سأبعَثُ إليهِمْ بهَديَّةٍ كبيرَةٍ تُناسِبُ الملوكَ الكِبار، فلعَلَّهُ يَقبَلُها ويَكفُّ عنَّا، وسأرَى ما الذي يَكونُ جوابُهُ عنْ طَريقِ رسُلي.

{فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ} (النمل : ٣٦)

٣٦- فلمَّا جاءَ رَسـولُها سُـلَيمان، وسـلَّمَ الهَديَّةَ إليه، قالَ له: أتُصانِعونَني بالمالِ لأترُكَكمْ وشِركَكم؟ فإنَّ الذي وهَبَني اللهُ مِنَ النبوَّة، وأنعَمَ عليَّ بالملكِ والمالِ والجُنود، هوَ أعظَمُ وأفضَلُ ممَّا أنتُمْ فيه، بلْ إنَّ هِمَّتَكمْ في الدُّنيا والفرَحِ بزينَتِها والتفاخُرِ بها، والانقِيادِ للهَدايا والتُّحَفِ فيها، ولستُ على ما تَظنُّونَ مِنْ ذلك، ولا أقبَلُ منكمْ إلاّ الإسْلامَ أو السَّيف.

{ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ} (النمل : ٣٧)

٣٧- ارجِعْ إليهِمْ بالهَديَّةِ أيُّها الرَّسُول، فسَوفَ نأتيهِمْ بجَيشٍ لا طاقَةَ لهمْ بمُقاوَمَتِه، وسنُخرِجُهمْ مِنْ سبأَ مُهانينَ بعدَ أنْ كانوا في عِزٍّ وتَمكين، أسرَى ومَستعبَدين، إذا لم يأتُوني مُسلِمين.

{قَالَ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} (النمل : ٣٨)

٣٨- فرجعَ الرَّسـولُ إلى الملِكَةِ بما قالَ سُـلَيمانُ عليهِ السَّـلام، فعَرَفَتْ أنَّهُ لا طاقةَ لها ولقَومِها به، فتوَجَّهتْ إليهِ في أتبَاعِها ووُجهاءِ قَومِها، وبعثَتْ إليهِ أنَّها قادِمَةٌ لتَنظُرَ في أمرِه، وما يَدعو إليهِ مِنْ دِين.

وقالَ سُـليمانُ عَليهِ السَّـلامُ لمنْ تحتَ يَدِه: مَنْ يأتيني بعَرشِ بَلقِيسَ قبلَ أنْ يَصِـلوا إليَّ مؤمِنينَ طائعِين؟ وهذا لاختِبارِ عَقلِها، وإراءَتِها بعضَ الخَوارِقِ الدالَّةِ على صِدْقِ نبوَّتِه.

{قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ} (النمل : ٣٩)

٣٩- قالَ ماردٌ قَويٌّ مِنَ الجِنّ: أنا آتِيكَ بعَرشِها قبلَ أنْ تَقومَ مِنْ مَجلسِك، ولي قوَّةٌ على حَمْلِ عَرشِها الكبير، ولنْ أُبَدِّلَ منهُ شَيئًا، ولا آخُذُ مِنْ جَواهرِه.

{قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} (النمل : ٤٠)

٤٠- قالَ سُـلَيمانُ عَليهِ السَّـلام: أُريدُ أعجَلَ مِنْ ذلك. فقالَ واحِدٌ مِنْ بَني إسْـرائيلَ لهُ عِلمٌ مِنَ الكِتاب: أنا آتيكَ بسَريرِها قَبلَ أنْ يَنضَمَّ جَفْنُ عَينِكَ بعدَ فَتحِه!

فلمْ يَشعُرْ سُلَيمانُ إلاّ وسَريرُ مُلْكِها يُحمَلُ بينَ يَدَيه! فلمَّا رآهُ ماثِلاً عندَهُ على حالِه، قالَ في خَضوعٍ وخُشوع: إحضارُ السَّريرِ في هذهِ المدَّةِ المتناهيَةِ في القِصَر، مِنْ فَضلِ اللهِ ونِعمَتِهِ عَليّ، وليَختَبِرَني: أأشكُرُ فضلَهُ على ذلكَ وأعترِفُ بأنَّهُ مِنْ مِنَّتِهِ وحُسنِ تَدبيرِهِ ولُطفِه، أمْ لا أشكرُهُ عَليه؟

ومَنْ شكَرَ اللهَ على نِعَمِهِ فإنَّما يَنفَعُ نفسَهُ بذلك، لأنَّهُ يُعَرِّفُها الحَقّ، ويَستَجلِبُ لها المزيدَ مِنَ الخَيرِ والنَّفع، ومَنْ لم يَشـكُرْ، فإنَّ اللهَ غَنيٌّ عنْ شُـكرِه، وعنْ عبادَةِ النَّاسِ وشُـكرِهِمْ أجمَعين. وهوَ سُبحانَهُ كَريم، فيُنعِمُ على مَنْ لم يَشكُرْهُ أيضًا، ولا يُعَجِّلُ في عُقوبَتِهم.

{قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ} (النمل : ٤١)

٤١- قالَ سُليمانُ للصُّنْعَةِ الماهِرينَ مِنْ حَولِه: غَيّروا بعضَ صِفاتِ سَريرِ الملِكَةِ لنَختَبِرها بذلك، ونَنظُرَ هلْ تَعرِفُ أنَّهُ عَرشُها، أمْ أنَّها لا تَهتَدي إلى ذلك؟

{فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ} (النمل : ٤٢)

٤٢- فلمَّا وصلَتْ عُرِضَ عَليها عَرشُها، وقدْ غُيِّرَ ما فيه، وقيلَ لها: أَمِثْلَ هذا السَّريرِ كانَ سَريرُكِ الذي كُنتِ تَجلِسينَ عَليهِ في مَملكَتِك؟ قالَتْ وقدْ نظَرَتْ فيه، وكانتْ صاحِبَةَ عَقلٍ وذَكاء: إنَّهُ يُشبِهُهُ ويُقارِبُه، حتَّى كأنَّهُ هو! قالَ سُليمانُ عليهِ السَّلام، أو قالَ هوَ وقَومُه: وأُوتينا نحنُ العِلمَ بِاللهِ وقُدرَتِهِ مِنْ قَبلِ هذهِ المرأة، أو قَبلَ عِلمِها، وكنَّا مُؤمِنينَ قَبلَها.

{وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ} (النمل : ٤٣)

٤٣- قالَ اللهُ تَعالَى ما مَعناه: ومنَعَها مِنَ الإيمَانِ ما كانتْ تَعبدُ مِنْ دونِ الله، لأنَّها كانتْ مِنْ قَومٍ راسِخينَ في الكُفر.

{قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (النمل : ٤٤)

٤٤- ثمَّ قيلَ لها: ادخُلي القَصر، وكانَ مِنْ زُجاج، يَجري مِنْ تَحتِهِ الماء، فلمَّا رأتْهُ كذلك، ظنَّتْهُ ماءً كثيرًا يَجري، فكشَفَتْ عنْ ساقَيها لئلاّ يَبتَلَّ ثوبُها بالماء، فقالَ لها سُليمانُ عَليهِ السَّلامُ وقدْ لمحَ استِغرابَها ودَهشتَها: إنَّهُ قَصْرٌ مُمَلَّسٌ مُستَوٍ مِنْ زُجاج، وليسَ ماء.

فعرَفتْ أنَّ مُلكَ سُليمانَ أعَزُّ مِنْ مُلكِها، وسُلطانَهُ أعظَمُ مِنْ سُلطانِها. ولما عايَنَتْ هذا الأمرَ العَظيم، وجمعَتْ إليهِ المعجِزاتِ السَّابِقَة، قالَتْ في تبَتُّلٍ وخُشوع: اللهُمَّ إنِّي ظلَمتُ نَفسي بعِبادَةِ غَيرِك، وتابَعتُ دِينَ سُليمان، وأخلَصْتُ معَهُ العُبوديَّةَ للهِ رَبِّ العالَمين، وحدَهُ لا شَريكَ له.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ} (النمل : ٤٥)

٤٥- وقدْ أرسَلنا إلى قَبيلَةِ ثَمودَ أخاهُمْ في النَّسَبِ صالِحًا عَليهِ السَّلام، فقالَ لهم: اعبُدوا اللهَ وحدَهُ ولا تُشركوا بهِ شَيئًا. فآمنَ بَعضُهم، وبَقيَ على كُفرِهِمْ آخَرون، فصَاروا فَريقَينِ يَتخاصَمونَ ويتَجادَلون في الدِّين. (ورَدَ شَيءٌ مِنْ ذلكَ في سُورَةِ الأعراف، الآيات: ٧٥-٧٩).

{قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} (النمل : ٤٦)

٤٦- فقالَ صالِحٌ عَليهِ السَّلامُ للفَريقِ الكافِر، بعدَما رأى عُتوَّهمْ ومُكابرَتَهُمْ عنِ اتِّباعِ الحَق، وطلَبَهمْ إنزالَ العَذابِ بهمْ إنْ كانَ ما يَقولُهُ حَقًّا، قال: يا قَوم، لماذا تَستَعجِلونَ العُقوبَةَ التي فيها شَرٌّ لكم، قَبلَ التَّوبَةِ وطلَبِ الرَّحمَةِ مِنَ الله، التي لكمْ فيها خَيرٌ وفلاح، فهلاّ طلَبتُمْ مَغفِرتَهُ قبلَ عَذابِه، فإنَّ طلبَ الخَيرِ أفضَلُ مِنْ طلبِ الشَّرّ، ولعلَّهُ يَقبَلُهُ منكمْ فيَرحَمُكم؟

{قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ} (النمل: ٤٧)

٤٧- قالوا في جَهالَةٍ وحُمْق: تشاءَمنا بكَ وبمَنِ اتَّبعَك، ولم نرَ منكمْ خَيرًا، بلْ تَتابعَتْ عَلينا الشَّدائد.

فقالَ لهمْ نَبيُّهمْ عَليهِ السَّلام: إنَّ ما تَتشاءَمونَ بهِ هوَ بيدِ اللهِ تعالَى، وما يُصيبُكمْ مِنْ خَيرٍ وشَرٍّ مِنْ عندِهِ سُبحانَه، وما يَنالُكمْ مِنَ الشَّرِّ هوَ بسببِ أعمَالِكم، وأنتُمْ تُختَبَرونَ بتعاقُبِ السَّرَّاءِ والضَّرَّاء، وبالأمرِ والنَّهي.

{وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ} (النمل : ٤٨)

٤٨- وكانَ في قَريَةِ ثَمودَ (الحِجْر، بينَ الحِجازِ والشَّامِ) تِسعُ عِصابات، يُفسِدونَ فيها وفي غَيرِها مِنَ القُرَى والبُلدان، ولا يُصلِحونَ في شَيءٍ مِنَ الأشيَاء، بلْ كانَ دأبَهمُ الكفرُ والضَّلال.

{قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَـهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَـادِقُونَ} (النمل : ٤٩)

٤٩- قالوا بعدَ أنْ تَشاوَروا في أمرِ صالحٍ عَليهِ السَّلام: احلِفوا باللهِ لنَقتُلنَّـــهُ معَ أهلِهِ بَغْتَة، ثمَّ نَقولُ لأولِيائه: لم نَحضُرْ مَقتَلَ صالحٍ وأهلِهِ ولا نَعرِفُ مِنْ هذا الأمرِ شَيئًا، ونحنُ صادِقونَ فيما نَقول.

{وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} (النمل : ٥٠)

٥٠- وغدَروا مِنْ خِلالِ الاتِّفاقِ على خُطَّتِهمُ المذكورَة، ومكَرْنا بهمْ فأبطَلنا حيلتَهم، وأفشَـلنا مؤامرَتَهم، وهمْ لا يَدرُونَ بذلك.

{فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ} (النمل : ٥١)

٥١- فانظُرْ ماذا كانتْ نَتيجَةُ مؤامَرَتِهم، فقدْ أهلَكناهُمْ وقومَهم، ودمَّرْناهُمْ تَدمِيرًا.

وهؤلاءِ الرَّهْطُ كانوا زُعماءَ الكُفرِ ورُؤساءَ الضَّـلالِ في ثَمود، وقدْ عقَروا النَّاقةَ التي منعَهمْ نَبيُّهمْ مِنْ ذلك، تَحَدِّيًا وعِنادًا، واستِمطارًا للعَذاب!

{فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} (النمل : ٥٢)

٥٢- وهذهِ منازِلُهمْ وهيَ سـاقِطَةٌ مُتهَدِّمَة، ليسَ فيها أحَد؛ بسَـببِ ظُلمِهمْ وتَكذيبِهمْ نبيَّهم. وفي ذلكَ عِبرَةٌ كبيرَةٌ لمنْ كانَ ذا عَقلٍ وفَهمٍ وتدَبُّر.

{وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} (النمل : ٥٣)

٥٣- وأنقَذنا صالحًا ومَنْ آمنَ معَه، وكانوا صالِحين، يَبتَعِدونَ عنِ المعاصي والآثام.

{وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ} (النمل : ٥٤)

٥٤- وأرسَــلنا لوطًا إلى قَومِهِ نَذيرًا لهم، فقالَ وهوَ يُحَذِّرُهمْ ويَنصَــحُهمْ ويُشــفِقُ عَليهمْ مِنَ العَذاب: يا قَوم، أتَفعَلونَ هذهِ الفِعلَةَ المنكَرَةَ القَبيحَةَ التي لم يَسبِقْكُمْ إليها أحَد، وأنتُمْ تَعلَمونَ مِنْ أنفُسِكمْ أنَّها فاحِشَةٌ سَيِّئة؟

{أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} (النمل : ٥٥)

٥٥- أتأتونَ الرِّجالَ في أدبارِهِمْ لقَضاءِ شَهوَتِكمْ وتدَعُونَ ما خلقَ اللهُ لكمْ مِنَ الزَّوجاتِ وهُنَّ محَلُّ الشَّــهوَة؟ بلْ أنتُمْ سُــفَهاءُ ماجِنون، تَجهَلونَ عاقِبَةَ فِعلِكمُ الفاحِش، الذي هوَ انتِكاسَــةٌ للفِطرَةِ والرجُولَة، وشُــذوذٌ وانحِرافٌ في السُّــلوك، وأمراضٌ جنســيَّةٌ وغَيرُ جنســيَّة، وعُقوبَةٌ في الدُّنيا، وعَذابٌ في الآخِرَة.

سورة النمل (٥٦-٩٣)
سورة القصص
سورة العنكبوت (١-٤٥)

{فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} (النمل : ٥٦)

٥٦- فما كانَ جوابُ القَومِ المجرِمينَ إلاّ قولَهم: أخرِجوا لوطًا وأهلَهُ مِنْ بينِ أظهُرِكم، فإنَّهُمْ يتَنزَّهونَ عنِ اللِّواطِ ويَستَقذِرونَه.

{فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ} (النمل : ٥٧)

٥٧- فأنقَذْنا لوطًا وأهلَهُ مِنْ بينِهم، إلاّ امرأتَهُ الكافِرَة، قضَـينا أنْ تَكونَ معَ الباقينَ المهلَكينَ مِنْ قَومِها في القَريَة.

{وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ} (النمل : ٥٨)

٥٨- وقذَفناهمْ بحِجارَةٍ مِنَ السَّماءِ عُقوبَةً لهم، وبئسَ العَذابُ الذي أُمطِروا به.

{قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ} (النمل: ٥٩)

٥٩- قُلْ أيُّها النبيُّ الكريم: الحَمدُ للهِ على نِعَمِهِ العَظيمَة، ومنها إهلاكُ الكافِرينَ مِنَ الأُمَمِ الغابِرَة، والسَّلامُ على أنبياءِ اللهِ الذينَ اختارَهمُ اللهُ لتَبليغِ رسالَتِه، فبلَّغوا ونصَحوا وصبَروا على أذَى قَومِهم. هلِ اللهُ الخالِقُ المبدِعُ خَيرٌ لمنْ عبدَه، أمِ الأصنامُ الصمَّاءُ خَيرٌ لمنْ يَعبدُها مِنَ المشرِكين، وأيُّ الفَريقينِ يَنجو ويُفلِح؟

{أَمَّنْ خَلَقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّـمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ} (النمل : ٦٠)

٦٠- ومَنْ خلقَ هذهِ السَّماواتِ العَاليَةَ المحكَمَة، وما فيها مِنْ كواكِبَ عَظيمَةٍ ونُجومٍ كثيرَةٍ لا تُحصَى، والأرضَ وما فيها مِنْ إنسـانٍ وطَيرٍ ودابَّة، ومِنْ بِحارٍ وقِفار، ونَباتٍ وشَـجَر، ومَعدِنٍ وجبَل... وأنزلَ لمنفَعتِكمْ مِنَ السَّحابِ مطرًا، فأحيَينا بهِ بساتينَ جَميلَةً لكم، ذاتَ مناظِرَ بهيَّة، فيها أنواعُ الثِّمارِ الشـهيَّة، ما كانَ باسـتِطاعتِكمْ أنْ تُنبِتوها مِنْ عندِ أنفُسِـكم، ومعَ ذلكَ تُشـرِكونَ معَ اللهِ أصـنامًا ليسَ بمَقدورِها أنْ تَتحرَّك؟! بلْ إنَّهمْ قَومٌ مُنحَرِفونَ عنْ طريقِ الحَقِّ والتَّوحيد، ولذلكَ يَفعَلونَ ما يَفعَلون.

{أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِـيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (النمل : ٦١)

٦١- مَنِ الذي جَعَلَ هذهِ الأرضَ سـاكِنَةً ثابِتةً لا تتَحرَّكُ ولا تَضْـطَرِب، ليَتمَكَّنَ أهلُها مِنَ الاسـتِقرارِ عَليها، وجعلَ فيها أنهارًا جاريَةً تَنتَفِعونَ بها، وجِبالاً ثابِتةً لئلاّ تَميدَ الأرضُ بأهلِها، وجعلَ بينَ البَحرَينِ فاصِـلاً يَمنَعُهما مِنَ الممازَجةِ حينَ يَلتَقيان، فلا يَختَلِطُ ماءُ هذا بماءِ ذاك. فهلْ هُناكَ إلهٌ آخَرُ غَيرُ اللهِ شارَكَهُ في هذا الخَلقِ والإبداع؟ بلْ أكثَرُهمْ جاهِلون، لا يَعلَمونَ ما هُمْ عَليهِ مِنْ جَهلٍ وضَلالٍ يُزري بعُقولِهم.

{أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ} (النمل : ٦٢)

٦٢- ومَنِ الذي يَستَجيبُ دُعاءَ المضطَرّ، الذي أحوجَتْهُ الشدَّة، وخنقَهُ الكَرْب، فيَكشِفُ ما بهِ منْ ضُـرّ؟ ومَنِ الذي يُهلِكُ جِيلاً ويُنشِـئُ آخَر، ويَجعَلُكمْ مِنْ سُـكّانِ الأرْض، فتَكونونَ خَلَفًا لسَـلَف؟ أهُناكَ إلهٌ معَ اللهِ يُقَدِّرُ ذلكَ ويَتصـرَّفُ فيه؟ ولكنْ ما أقَلَّ تذَكُّرَكمْ للنِّعْمَة، وتبَصُّرَكمْ بالحَقّ!

{أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} (النمل : ٦٣)

٦٣- ومَنِ الذي يُرشِدُكمْ في ظُلُماتِ اللَّيالي في البَرِّ والبَحرِ إذا سافَرتُم، بما جعلَ لكمْ مِنَ الدَّلائلِ والعَلاماتِ في الأرْضِ وفي السَّماء؟ ومَنِ الذي يَبعَثُ الرِّياحَ لتُبَشِّرَ بنُزولِ المطَرِ بعدَ تشَكُّلِ السَّحاب؟ هَلْ هُناكَ إلهٌ آخَرُ يُساعِدُ اللهَ في ذلك؟ تعالَى وتقدَّسَ رَبُّ العالَمينَ عمَّا يُشرِكونَ به.

{أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (النمل : ٦٤)

٦٤- أمْ مَنْ هوَ الذي يُوجِدُ الخَلْقَ أوَّلَ مرَّة، ثمَّ يُميتُهُ ويُعيدُ خَلْقَهُ مرَّةً أخرَى؟ ومَنِ الذي يَرزُقُكمْ مِنَ السَّماءِ فيُنزِلُ مِنها المطَر، ومِنَ الأرضِ أنواعَ الزَّرعِ والثَّمر؟ أيوجَدُ معَ اللهِ مَنْ يَرزُقُكم؟ قُلْ لهم: هاتُوا دَليلَكمْ إذًا على ما تدَّعونَهُ مِنْ وجودِ آلِهةٍ أُخرَى معَ الله، إذا كنتُمْ صادِقينَ في دَعواكُم.

{قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} (النمل : ٦٥)

٦٥- قُلْ للمُشرِكينَ المكَذِّبينَ أيُّها الرَّسُول: لا يَعلَمُ أحَدٌ ممَّنْ في السَّماواتِ والأرضِ الغَيبَ إلاّ الله، ولا يَدري أحَدٌ منهمْ متَى يُبعَثُ بعدَ الموت.

{بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمِونَ} (النمل : ٦٦)

٦٦- بلْ توَقَّفَ عِلمُهمْ وعَجَزَ عنْ مَعرِفَةِ شأنِ الآخِرَة، بلْ همْ في شَكٍّ مِنْ تحَقُّقِ هذا اليَومِ ووقوعِه، بلْ همْ في عَمايَةٍ عنْ دلائلِه، وجَهلٍ كبيرٍ به.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ} (النمل : ٦٧)

٦٧- وقالَ الكافِرونَ بالبَعثِ بعدَ الموت: أإذا مِتنا، وتحوَّلَتْ أجسـادُنا، نحنُ وآباؤنا وأجدادُنا الأقدَمون، إلى عِظامٍ وتُراب، فهلْ سنُخرَجُ مِنْ قُبورِنا أحياءً بعدَ ذلك؟

{لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} (النمل : ٦٨)

٦٨- قالوا: لقدْ سـبَقَ أنْ وُعِدَ آباؤنا وأجدادُنا بذلك، وما هذا سِـوَى حِكاياتِ السَّـابِقينَ وأكاذيبِهمُ التي سطَّروها في كتُبِهم.

{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ} (النمل : ٦٩)

٦٩- قُلْ لهمْ: امشُـوا في الأرْضِ وانظُروا في الآثار، واقرَؤوا التَّاريخ، لتَعرِفوا ما آلَ إليهِ أمرُ المشرِكينَ المكذِّبينَ بالرسُل، واعتَبِروا مِنْ ذلك، حتَّى لا تَكونَ عاقِبتُكمْ مثلَ عاقِبَتِهم.

{وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ} (النمل : ٧٠)

٧٠- ولا تَحزَنْ عَليهمْ لإصْـرارِهمْ على الكُفرِ أيُّها الرَّسـول، ولا يأخُذْكَ الهَمُّ والغَمُّ لإعراضِـهمْ عنك، ولا يَضِقْ صَدرُكَ بمَكائدِهمْ ومُؤامراتِهم، فإنَّ اللهَ يؤَيِّدُكَ ويَعصِمُكَ منهم.

{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (النمل : ٧١)

٧١- ويَقولُ لكَ المشـرِكونَ مُسـتَبعدِينَ الأمر: متى يَكونُ وَقتُ العَذابِ الموعودُ بهِ إنْ كنتُمْ صادِقينَ في قَولِكم؟

{قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ} (النمل : ٧٢)

٧٢- قُلْ لهم: عسَى أنْ يَكونَ اقتربَ بَعضُ العَذابِ الذي تَستَعجِلونَه.

وقدْ أصابَهمْ مِنْ ذلكَ يَومَ بَدر.

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ} (النمل : ٧٣)

٧٣- وإنَّ اللهَ ذو فَضلٍ على جَميعِ النَّاس، بما أسبغَ عَليهمْ مِنْ نِعَمِه، لكنَّ أكثرَهمْ لا يُقَدِّرُونَها ولا يَشكرونَ للمُنعِمِ بها، وهوَ يَرحَمُهمْ ولا يُعاجِلُهمْ بالعُقوبَة.

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ} (النمل : ٧٤)

٧٤- واللهُ مُحيطٌ بأقوالِهِمْ وأحوالِهم، ويَعلَمُ ما يُخفُونَهُ في صُدورِهِمْ مِنْ أسرَار، وما يُظهِرونَهُ مِنْ أقوالٍ وأعمَال، فلا يَغيبُ عنِ اللهِ منها شَيء، وسَوفَ يُحاسِبُهمْ عَليها.

{وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} (النمل : ٧٥)

٧٥- وما مِنْ شَيءٍ يَخفَى على النَّاس، في السَّماءِ كانَ أو في الأرْض، صَغيرًا كانَ أو كَبيرًا، إلاّ وهوَ مدَوَّنٌ عندَ اللهِ في اللَّوحِ المحفُوظ، بَيِّنٌ لمنْ يَنظُرُ فيهِ مِنَ الملائكة.

{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} (النمل : ٧٦)

٧٦- إنَّ هذا القُرآنَ الجَليلَ يَذكرُ لليَهودِ والنَّصارَى أكثرَ الأمورِ التي يَختَلِفونَ فيها، ممَّا كانَ سبَبًا في ضَلالِهِمْ وانحِرافِهم، ولو أنَّهمْ تأمَّلوا فيهِ وأنصَفوا، لاهتَدَوا إلى الحقِّ الذي فيه، ولكنَّهمْ عانَدوا وكابَروا وقلَّدوا، فضَلُّوا وأضَلُّوا، كَقَولِ النَّصارَى في المسيحِ عَليهِ السَّلام، وكأمرِ النبيِّ المبَشَّرِ به...

{وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} (النمل : ٧٧)

٧٧- وإنَّ القُرآنَ هِدايَةٌ لمنْ يؤمِنُ به، فيُرشِدُهمْ إلى الطَّريقِ الحَقّ، ورَحمَةٌ لهمْ وسَعادَةٌ في الدَّارَين، فيَأخذُهمْ إلى الفَوزِ والظَّفَر.

{إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ} (النمل : ٧٨)

٧٨- إنَّ اللهَ يَفصِلُ بينَكمْ وبينَ اليَهودِ والنَّصارَى، أو بينَهمْ همْ يَومَ القيامَة، بحُكمِهِ العَدْل، وقَضائهِ الفَصْل، وهوَ العَزيزُ الذي لا يُرَدُّ حُكمُه، العَليمُ بأقوالِ العِبادِ وأفعالِهِمْ ونيَّاتِهم.

{فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ} (النمل : ٧٩)

٧٩- فقُمْ بأداءِ رِسالَتِكَ كما يَنبَغي، وفَوِّضْ أمركَ كُلَّهُ إلى رَبِّك، فإنَّكَ على هِدايَةٍ واستِقامَة، وحَقٍّ واضِحٍ بَيِّن، وإنْ خالَفَكَ المشرِكونَ وكذَّبوك.

{إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ} (النمل : ٨٠)

٨٠- إنَّكَ لا تُسمِعُ مَنْ كانَ مَيِّتَ القَلب، فهوَ لا يَفقَهُ ولا يَعي ما تَقول، كما لا تُسمِعُ مَنْ سَدَّ أذُنَيهِ عنْ سَماعِ الحَقّ، فهوَ لا يُريدُ سَماعَه، ولا يُريدُ أنْ يَنفُذَ إلى قَلبِه، فهؤلاءِ مُعرِضونَ عنْ رِسالَةِ رَبِّهِم، مُخالِفونَ لأمرِه.

{وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ} (النمل : ٨١)

٨١- ولا تَستَطيعُ أنْ تُرشِدَ أعمَى القَلبِ وتَصرِفَهُ عنِ الضَّلالِ الذي هوَ فيه، ولا تُسمِعُ إلاّ مَنْ فتحَ اللهُ قَلبَهُ للإيمان، وصدَّقَ أنَّ القُرآنَ مِنْ عندِ الله، فعندَئذٍ يَسمَعُ ما تَتلوهُ عَليه، وما تُرشِدُهُ إليه، لأنَّهُ مُسلِمٌ مُخلِصٌ في إيمانِه، مُنقادٌ للحَقِّ المطلوبِ منه.

{وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ} (النمل : ٨٢)

٨٢- وإذا وجبَ عَليهِمُ العَذابُ أخرَجنا لهُمْ دابَّةً مِنَ الأرْض، على غَيرِ هَيئةِ الإنسَان، تُخاطِبُهمْ وتَقولُ لهم: إنَّ النَّاسَ كانوا لا يُوقِنونَ بالعَلاماتِ الدالَّةِ على قيامِ السَّاعَة.

{وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ} (النمل : ٨٣)

٨٣- واذكُرْ يَومَ القيامَة، عندَما نَحشُرُ مِنْ كُلِّ قَومٍ جَماعةً مِمَّنْ يُكَذِّبُ برِسَالاتِ اللهِ ومُعجِزاتِه، فيُحبَسُ أوَّلُهمْ على آخرِهم، حتَّى يتلاحَقوا ويَجتَمِعوا في مَوقِفِ التَّوبيخِ والمناقَشَةِ قَبْلَ أنْ يُقذَفوا في النَّار، ليَزدادوا حَسْرَةً وغَمًّا.

{حَتَّى إِذَا جَاؤُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (النمل: ٨٤)

٨٤- حتَّى إذا اجتَمَعوا ووَقَفوا بينَ يَدَي اللهِ تعالَى للحِساب، قالَ لهم: أكذَّبتُمْ بالمعجِزاتِ التي أيَّدتُ بها رسُــلي، وأعرَضــتُمْ عنِ الكُتبِ التي أنزَلتُها لأجلِكم، الناطِقَةِ بلَقاءِ يَومِكمْ هذا، أمْ ماذا كنتُمْ تَعمَلونَ في الدُّنيا، ولماذا لم تُفَكِّروا فيها؟ بلْ كنتُمْ مُكَذِّبينَ جاهِلين.

{وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ} (النمل : ٨٥)

٨٥- ووَجبَ عَليهمُ العَذابُ المحقَّق، بسَـبَبِ شِـركِهمْ وتَكذيبِهمْ بآياتِ الله، وبُهِتوا ولمْ يَنطِقوا بحُجَّةٍ واحِدَة.

{أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْـكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِــراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (النمل : ٨٦)

٨٦- ألَمْ يَنظُروا ويَتفَكَّروا كيفَ خلَقنا اللَّيلَ وما فيهِ مِنْ سُــكونٍ وظَلام، ليَســتَريحوا مِنْ تعَبِ النَّهارِ ويَناموا، وجعَلنا النَّهارَ مُشـرِقًا ليَعمَلوا ويَتدَبَّروا فيهِ أمرَ مَعاشِــهم؟ وفي ذلكَ دلائلُ وعِبَرٌ على عظَمَةِ اللهِ وإبداعِهِ في خَلْقِه، وقُدرَتِهِ على البَعثِ بعدَ الموت، وعلى صِــــدْقِ الآياتِ النَّاطِقَةِ بذلك، لمنْ تدَبَّرَ وصدَّقَ به.

{وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ} (النمل : ٨٧)

٨٧- ويَومَ يَنفُخُ إسْـرافيلُ في الصُّـورِ - وهوَ قَرْنٌ - في آخِرِ عمُرِ الدُّنيا، يَعتَري الفزَعُ والرُّعبُ كلَّ مَنْ في السَّـماواتِ والأرْض، إلاّ مَنْ شـاءَ اللهُ ألاّ يَفزَع، كالشُّـهَداء، فهمْ أحياءٌ عندَ رَبِّهم، لا يَصِــلُ إليهمُ الفزَع. وهذهِ هيَ النَّفخَةُ الأولَى، والثانيَةُ تَكونُ نَفخَةَ الصَّـعْق، وهوَ الموت، ثمَّ نَفخَةَ النُّشورِ مِنَ القُبور. وهذا قَولُ ابنِ كثيرٍ وآخَرين.

وكُلُّ المبعوثينَ عندَ النفخَةِ جَاؤوا ليَقِفوا بينَ يَدي اللهِ للحِسابِ صاغِرينَ مُنقادِين.

{وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ} (النمل : ٨٨)

٨٨- وترَى الجِبالَ يَومَئذٍ كأنَّها ثابِتَةٌ باقِيَةٌ على ما كانتْ عَليه، والحَقُّ أنَّها زائلَةٌ عَنْ أماكِنِها، وتَسيرُ كسَيرِ السَّحاب، حتَّى تقعَ على الأرضِ فتَستَويَ بها. وهذا مِنْ صُنعِ اللهِ الذي أجادَ وأحكمَ كُلَّ ما خلَق، واللهُ عَليمٌ بأفعالِ عِبادِه، ظواهِرِها وبَواطِنِها، خَيرِها وشَرِّها، وسيُجازيهمْ على ذلكَ كُلِّه.

وذهبَ مُفَسِّرونَ إلى أنَّ المَقصودَ بالحَديثِ في الجِبالِ هُنا ما يَجري لها في الدُّنيا. ويَقولُ المفَكِّرُ الإسلاميُّ زَغلولُ النجَّارُ في مَوقعِه: الجِبالُ ليسَتْ كُتَلاً هامِدَة، ولكنَّها تتحرَّكُ جانبيًّا بالتضاغُطِ والتثَنّي والطَّيّ، كما تَتحرَّكُ رأسيًّا بالتصَدُّعِ والرَّفعِ مِنْ أسفَلَ إلى أعلَى بواسِطَةِ مُختَلِفِ قُوَى الأرضِ الداخليَّة، وبفِعْلِ عَوامِلِ التَّعرِيَة...

ثمَّ يَقول: والجِبالُ تَمُرُّ معَ الأرضِ مرَّ السَّحاب، وتَترَنَّحُ معَها في دَورانِها حَولَ مِحوَرِها، وتَجري معَها في مَدارِها حولَ الشَّمس، ولعلَّ هذهِ الحرَكاتِ هيَ صورَةٌ مِنْ صُوَرِ الخُضوعِ للهِ الخالِقِ سُبحانَهُ وتعالَى، بالعِبادَة، والطَّاعَة، والتَّسبيحِ والذِّكْر، والسُّجود.

{مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ} (النمل : ٨٩)

٨٩- مَنْ أطاعَ اللهَ وعَمِلَ صالِحًا فيُجازَى خَيرًا يَومَ القِيامَة، ويُعطَى أفضَلَ مِنْ حسَنَتِهِ تلك، وهمْ آمِنونَ سالِمونَ مِنْ خَوفِ ذلكَ اليَومِ العَصِيب.

{وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (النمل : ٩٠)

٩٠- ومَنْ أتَى اللهَ في ذلكَ اليَومِ مُشرِكًا، مُسيئًا لم يُحسِنْ في شَيء، أُلقُوا في النَّارِ على وجُوهِهِمْ مَنكوسِين. هلْ تُحاسَبونَ وتُجزَونَ إلا على ما كنتُمْ تعمَلونَ مِنْ أعمال؟

{إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} (النمل : ٩١)

٩١- قُلْ لهمْ أيُّها الرَّســول: إنَّما فُرِضَ عَليَّ أنْ أعبُدَ الله، رَبَّ مَكَّةَ التي فيها بَيتُهُ الحَرام، وهيَ أحَبُّ البِلادِ إلى رَسولِه، التي جعلَها اللهُ حرَمًا، آمِنًا، لا يُسفَكُ فيها دَم، فإذا سُفِكَ غُلِّظَتِ العُقوبَةُ وإنْ كانتْ خطَأً، ويأمَنُ فيها اللاَّجِئ... ولا يُقطَعُ شَوكُها، ولا يُنَفَّرُ صَيدُها... وغَيرُ ذلكَ منَ الأحكامِ الخاصَّةِ بها. وهوَ رَبُّها وربُّ كُلِّ شَيء، خَلقًا ومُلكًا وتَدبيرًا، لا يُشارِكُهُ فيها أحَد. وأُمِرْتُ أنْ أكونَ مِنَ المؤمِنينَ الموَحِّدينَ المخلِصــين، الطائعينَ لربِّ العالَمين، وأنْ أثبُتَ على ذلك.

{وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ} (النمل : ٩٢)

٩٢- وأُمِرْتُ أنْ أُواظِبَ على قِراءَةِ القُرآنِ على النَّاسِ وأُبَلِّغَهُمْ وأُنذِرَهمْ به، فمَنِ اهتدَى بهِ واتَّبعَ أحكامَه، فإنَّ منفَعَةَ اهتِدائهِ تَعودُ على نَفسِــه، ومَنْ ضَــلَّ عَنهُ وكفرَ بهِ فقُل: إنَّ مُهِمَّتي أنْ أُنذِرَكمْ بالقُرآن، وليسَ عليَّ مِنْ ضَلالِكمْ شَيء، إنَّما وَبالُ ذلكَ عَليكم.

{وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} (النمل : ٩٣)

٩٣- وقُلْ: الحَمدُ للهِ الذي أنعَمَ عَليَّ بالنبوَّة، ووَفَّقَني لتَبليغِ كتابِه، وتأديَةِ رِســالَتِه، وسـيُريكمُ اللهُ عَلاماتٍ وأدِلَّةً تدلُّ على قُدرَتِهِ ووَحدانيَّتِه، في أنفُسِــكمْ وفي السَّــماواتِ والأرْض، تَعرِفونَها مَعرِفَةً تدلُّكمْ على الحقِّ والباطل، واللهُ غَيرُ غافِلٍ عنْ عمَلِ النَّاس، فهوَ شَهيدٌ على كُلِّ شَيء، وسيُجازي كُلاًّ بما عَمِل، فاحذَروا، فقدْ بُلِّغتُم.

سـورة القـصَص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{طسم} (القصص : ١)

١- الحروفُ المقَطَّعَةُ لم يَرِدْ في تَفسيرِها حَديثٌ صَحيح، واللهُ أعلَمُ بمَعناها.

{تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} (القصص : ٢)

٢- هذهِ آياتُ القُرآنِ الكريم، المبَيِّنِ لحقَائقِ الأمُور، وصَحيحِ القَصَصِ والأخبَار.

{نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (القصص : ٣)

٣- نَذكرُ لكَ مِنْ خبَرِ نَبيِّ اللهِ موسَـــى بنِ عِمرانَ وفِرعَونَ المتكَبِّر، بالصِّـــدْقِ والعَدْلِ كما حدَث، لمنْ يُصَدِّقُ بما في القُرآن، فهوَ الذي يَستَفيدُ ويَعتَبِر.

{إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِـيَعاً يَسْـتَضْـعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} (القصص : ٤)

٤- لقدْ تجَبَّرَ فِرعَونَ وطغَى لما ملَكَ مِصــر، وجعلَ أهلَها فِرَقًا وطبَقات، ليُثيرَ بينَهمُ العَداوَةَ والبَغضــاء، يَظلِمُ بَني إسْـرائيلَ خاصَّـةً ويَقهَرُهم، وكانوا خيارَ النَّاسِ في ذلكَ الوَقت، فكانَ يَســتَخدِمُهمْ في أخَسِّ الأعمال، وفي أشَـقِّها على النَّفس، لهُ ولرَعيَّتِه، ويَقتُلُ كُلَّ ولَدٍ يُولَدُ فيهم، وذلكَ لما أُخبِرَ بأنَّهُ سَـيولَدُ مَولُودٌ فيهمْ يَكونُ زَوالُ مُلكِهِ على يَدِه، ويُبقي نِســاءَهمْ أحيَاءً للسُّخرَةِ والخِدمَة، فكانَ بهذا مِنْ أكبَرِ المجرِمينَ المفسِدينَ في الأرض.

{وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْـتُضْـعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ} (القصص : ٥)

٥- ونُريدُ أنْ نُنعِمَ على الذينَ كانوا يُستَضعَفونَ ويُذَلُّونَ مِنْ بَني إسْرائيل، ونجعلَهمْ أئمَّةً وعُلَماءَ يُقتَدَى بهم، وخُلَفاءَ يَرِثونَ مُلْكَ فَرعَونَ وقَومِه.

{وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ} (القصص : ٦)

٦- وأنْ نُثَبِّتَ أمرَهمْ في مِصرَ وغَيرِها، ونجعلَهمُ المتَصَرِّفينَ فيها، ونُرِيَ فِرعَونَ وهامانَ(١٠١) الطَّاغيَتينِ وجُنودَهما المجرِمين، ما كانوا يَخافونَهُ مِنْ أمرِ المستَضْعَفين، مِنْ ذَهابِ مُلكِهِمْ على يَدِ واحِدٍ منهم.

{وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} (القصص : ٧)

٧- وقذَفنا في قَلبِ أُمِّ موسَى بإلهامٍ مِنْ عِندِنا، أنْ أَرضِعي ابنَكِ مُدَّة، وأخفِيهِ ما أمكَنَكِ إخفَاؤه، فإذا خَشِيتِ مِنْ مَعرِفَةِ جواسيسِ فِرعَونَ به، فضَعيهِ في صُندوقٍ وألقِيهِ في نَهرِ النِّيل، ولا تَخافي مِنْ ضَياعِهِ أو غَرْقِه، ولا تَغتَمِّي بمُفارقَتِه، فسَنَرُدُّهُ إليكِ قَريبًا لتُرضِعيه، ونَجعَلُهُ مِنْ أنبياءِ اللهِ المرسَلين.

{فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ} (القصص : ٨)

٨- فألقَتْهُ في النَّهرِ كما أُمِرَت، فمرَّ بدارِ فِرعَون، فعثَرَ عَليهِ أهلُهُ وأصحابُهُ وأخَذوه، ليَكونَ لهمْ في المستَقبَلِ عَدوًّا، وهمًّا وغَمًّا. إنَّ فِرعَونَ المتَكَبِّر، ووَزيرَهُ هامَانَ الظالِم، وجُنودَهما أجمَعين، كانوا عاصينَ آثِمينَ، فعاقَبَهمُ اللهُ على ذلك.

---

(١٠١) هو وزيرُ فرعونَ وأكبرُ رجاله، فذُكِرَ لمحلِّهِ من الكفر، ولنباهتهِ في قومه، فله في هذا الموضعِ صَغارٌ ولعنةٌ لا شرف. (ابن عطية).

{وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} (القصص : ٩)

٩- ولما هَمَّ فِرعَونُ بقَتلِه، خَوفًا مِنْ أنْ يَكونَ مِنْ بَني إسْرائيلَ المذكورِ أمرُهُ معَهم، قالَتْ لهُ امرأتُهُ آسيَةُ: هذا الغُلامُ نأنَسُ بِهِ صَغيرًا فلا تَقتُلوه، وقدْ يَنفَعُنا كبيرًا فيَكونُ سنَدًا لأُسرَتِنا أو دَعمًا لملِكِنا، أو نَتبَنَّاهُ فيَكونُ بَهجَةً لنا في البَيت[١٠٢]. فسَمِعوا منها ذلك، وهمْ لا يَشعُرونَ بعاقِبَةِ أمرِهِمْ معَه، وأنَّ هلاكَهمْ يَكونُ بسبَبِهِ وعلى يَدِه.

{وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} (القصص : ١٠)

١٠- وأصبحَ فؤادُ أُمِّ موسَى خاليًا إلاّ مِنْ ذِكرِ موسَى وهَمِّه، وكادَتْ أنْ تَذكُرَ حَقيقَةَ أمرِهِ مِنْ شِدَّةِ قَلَقِها عَليه، لولا أنْ ثَبَّتْنا قلبَها وألهمناها الصَّبرَ وأنزَلنا عَليها السَّكينَة، لتَكونَ مِنَ المصَدِّقينَ بما وعَدناها به، مِنْ رَدِّ ولَدِها إليها.

{وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} (القصص : ١١)

١١- وقالَتْ لأُختِه: اتَّبِعي أثرَهُ على الشَّاطِئِ وتطَلَّبي خبَرَه. فكانتْ تُبصِرُهُ عنْ بُعد، وهمْ لا يَشعرُونَ أنَّها تُراقِبُه.

{وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ} (القصص : ١٢)

١٢- ومَنعناهُ مِنَ المراضِعِ مِنْ أوَّلِ أمرِه، فما كانَ يَقبَلُ ثَدْيًا، فقالَتْ أُختُهُ لآلِ فِرعَون: هَلْ تُريدونَ أنْ أدُلَّكمْ على أهلِ بَيتٍ يَضمَنونَ هذا الوَليدَ لأجلِكمْ ويُرضِعونَه، ولا يُقَصِّرونَ في خِدمَتِهِ وتَربيَتِه؟

---

(١٠٢) {قُرَّةُ عَيْنٍ}: قرَّت عينهُ تَقَرّ: سُرَّت. (مفردات الراغب).

{فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (القصص : ١٣)

١٣- فقبِلَ آلُ فِرعَونَ رأيَها، فأعَدنا موسى إلى أُمِّهِ لتَقَرَّ عَينُها بهِ ولا تَحزَنَ عَليه، ولتَيْقَنَ أنَّ ما وعدَها اللهُ بهِ مِنْ رَدِّهِ إليها حَقٌّ وصِدقٌ لا خُلْفَ فيه، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ الحِكمَةَ مِنْ أفعالِ الله، ويَشكُّونَ في وَعدِهِ لهم.

{وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} (القصص : ١٤)

١٤- ولما بلغَ موسَى سِنَّ الرِّجالِ واستوَى في شَخصيَّتِه، آتَيناهُ الفَهْمَ والعِلمَ بالدِّينِ والشَّريعَة، وكما أحسَنَّا إلى موسَى، فكذلكَ نَجزي مَنْ أحسَنَ على إحسانِه.

{وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ} (القصص : ١٥)

١٥- ودخَلَ موسَى مَدينَةً مِنْ مدُنِ مِصرَ في وَقتٍ غَيرِ مَعهودٍ لا يَتوَقَّعُهُ أهلُها، فوجدَ فيها رَجُلَين يَتضارَبان، أحَدُهما مِنْ طائفَتِهِ مِنْ بَني إسْرائيل، والآخَرُ مِنْ أعدائهِ مِنْ قَومِ فِرعَون، فطلبَ الإسرائيليُّ المساعَدَةَ والنَّجدَةَ مِنْ موسَى على عَدوِّهِ القِبطيّ، فضَرَبَهُ موسَى بقَبضَةِ كَفِّهِ فقَتَلَه، فلمَّا رأى موسَى أنَّهُ قُتِل، ولم يَكنْ مِنْ قَصدِهِ ذلك، قالَ نادِمًا: هذا مِنْ إغْواءِ الشَّيطانِ وإثارَتِهِ لي، إنَّهُ بَيِّنُ الضَّلالَة، ظاهِرُ العَداوَةِ للإنسَان.

{قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (القصص: ١٦)

١٦- فالتَجأ إلى رَبِّهِ ودَعاهُ قائلاً: اللهمَّ إنِّي ظَلَمتُ نَفسِي بقَتلِ ذلكَ الرَّجُل، فاغفِرْ لي ذَنبي. فعَفا اللهُ عَنهُ وغفَرَ له، إنَّهُ يَغفِرُ ذُنوبَ عِبادِهِ المؤمِنينَ التَّائبين، ويَرحَمُهمْ ولا يُعَذِّبُهمْ عَليها.

{قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ} (القصص : ١٧)

١٧- فدَعا رَبَّهُ وقالَ شـــاكِرًا: اللهمَّ كما مَنَنت عَليَّ فغفَرت لي، فلَنْ أكونَ مُعِينًا للمُجرِمينَ المخالِفينَ لأمرِك.

{فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ} (القصص : ١٨)

١٨- وغدَا في المدينَةِ خائفًا يَتوَقَّعُ أنْ يَنالَهُ ضـرَرٌ مِنْ أهلِها، ويترَصَّـدُ بحَذَرٍ ما يَكونُ مِنْ هذا الأمْر. وبينَما هوَ في أحَدِ طرُقِها، إذا بالإسْـرائيليّ الذي اسـتَعانَ بهِ بالأمسِ يَصيحُ ويَسـتَغيثُهُ على قِبطيٍّ آخَر، فقالَ لهُ موسَى: إنَّكَ ضالٌّ مُنحَرِفٌ كَثيرُ الشرّ.

{فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَـى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ} (القصص : ١٩)

١٩- فلمَّا أرادَ موسَـى أنْ يَضـرِبَ القِبطيَّ، عَدوَّهُ وعَدوَّ الإسْـرائيليّ، قالَ لهُ الإسـرائيليُّ (على ما رُويَ عن ابنِ عبَّاسٍ وأكثَرِ المفسِّرين) وقدْ ظَنَّ أنَّ موسَى قصَدَهُ ليَفتِكَ به، لِمَا رأى مِنْ غضَبِهِ عَليه: يا موسَى، أتُريدُ أنْ تَقتُلَني كما قتَلتَ القِبطيَّ بالأمس؟ ما تُريدُ إلاّ أنْ تَكونَ ظالِمًا مُتعاليًا في الأرض، وما تُريدُ أنْ تَكونَ ممَّنْ يُصلِحُ بينَ النَّاسِ بالحُسنَى.

{وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَـى الْمَدِينَةِ يَسْـعَى قَالَ يَا مُوسَـى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ} (القصص : ٢٠)

٢٠- وجاءَ رَجُلٌ مِنْ شِيعَةِ موسَى مِنْ آخِرِ المدينَة، يُسرِعُ في المشي إليه، وقالَ له: يا موسَى، إنَّ أصـحابَ الرَّأي مِنْ قَومِ فِرعَونَ يَتَشاوَرونَ في أمرِكَ بقَصدِ قَتلِك، فاخرُجْ منْ مِصرَ قَبلَ أنْ يَظفَروا بك، وأنا أنصَحُكَ بذلك، وأخافُ عَليكَ منهم.

{فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} (القصص : ٢١)

٢١- فخرَجَ مِنَ المدينَةِ وهوَ خائفٌ وَجِل، يتلَفَّتُ ويَخشَى أنْ يُلحَقَ به، وقالَ داعيًا رَبَّه: اللهمَّ خَلِّصني مِنْ فِرعَونَ وقَومِهِ الظَّالِمين.

{وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ} (القصص : ٢٢)

٢٢- ولما سلَكَ طَرِيقًا واضِحًا يأخذُهُ إلى مَدينَةِ مَدْيَن، استَبشَرَ بذلكَ وقال: عسَى أنْ يُيَسِّرَ لي رَبِّي أمرًا أفضَل، ويُرشِدَني إلى الطَّرِيقِ الأقوَم، فأنجُو وآمَن.

{وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ} (القصص : ٢٣)

٢٣- ولَمَّا وصَلَ إلى البِئرِ التي يَشرَبُ منها أهلُ مَدْيَن، وَجدَ حَوْلَها جَماعَةً يَسقونَ منها أنعامَهم، ووَجدَ أبعدَ منهمُ امرأتَينِ تَمنعانِ غنمَهُما مِنَ الماء، فرَقَّ لهما وقال: ما خبَرُكما ولماذا لا تَسقيان؟ قالَتا: لا نَسقي حتَّى يَصرِفَ الرُّعاةُ مَواشِيَهم، ولا نُزاحِمُ الرِّجالَ حتَّى لا نؤذَى، ووالِدُنا شَيخٌ كبيرٌ في السِّنّ، وليسَ لنا رَجُلٌ يَقومُ مَقامَه.

{فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} (القصص : ٢٤)

٢٤- فسَقَى موسَى لهما رَحمَةً بهما، ثمَّ مضَى إلى ظِلِّ شَجَرَةٍ مِنْ شِدَّةِ الحَرّ، وناجَى ربَّهُ قائلاً: اللهمَّ إنِّي فَقيرٌ مُحتاجٌ إلى نِعمَتِكَ وفَضلِك.

{فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} (القصص: ٢٥)

٢٥- ورجَعَتْ إحدَى الفَتاتَينِ إلى موسَى عَليهِ السَّلامُ وهيَ تَمشي في حَياءٍ وقالَتْ له: إنَّ أبي يَطلُبُ منكَ المجيءَ إليهِ ليُعطيَكَ أُجرَةَ سَقيك. فمضَى إليه، وسردَ عَليهِ ما جرَى لهُ في مِصر، وقَتْلَهُ القِبطيَّ، فقالَ له: لا تَخَف، لقدْ أنقَذَكَ اللهُ مِنْ قَومِ فِرعَونَ الكافِرينَ المعتَدين.

والمشهورُ أنَّ ذلكَ الرجُلَ هوَ شُعَيبٌ عَليهِ السَّلام، وذكرَ بَعضُهمْ أنَّهُ غَيرُه.

{قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} (القصص: ٢٦)

٢٦- قالَتْ إحدَى الفَتاتَينِ لأبيها: يا أبتِ، اتَّخِذْهُ أجيرًا ليَرعَى أغنامَنا ويَقومَ بأمرِها، فإنَّهُ قَويٌّ أَمين، وإنَّ خَيرَ مَنِ استُؤجِرَ مَنْ جمَعَ بينَ القُدرَةِ والأمانَة.

قالَ صاحبُ "تيسيرِ الكريمِ الرحمنِ في تَفسيرِ كلامِ المنَّان": وهذانِ الوَصفانِ يَنبَغي اعتبارُهما في كُلِّ مَنْ يَتوَلَّى للإنسَـــانِ عمَلاً، بإجارَةٍ أو غَيرِها، فإنَّ الخَلَلَ لا يَكونُ إلاّ بفقدِهما، أو فَقدِ أحَدِهما، وأمّا باجتِماعِهما فإنَّ العمَلَ يَتِمُّ ويَكمُل. اهـ. يَعني القوَّةَ والأمانة.

{قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} (القصص : ٢٧)

٢٧- قالَ والِدُ الفَتاةِ لموسَــى عَليهِ السَّــلام: إنِّي أُريدُ أنْ أُزَوِّجَكَ إحدَى ابنتَيَّ اللَّتَينِ رأيتَهما، على أنْ تَعمَلَ أجيرًا عِندي ثماني سَنوات، فإذا أكمَلتَها عَشـرًا فهوَ تَفضُّـلٌ منك، ولا أُريدُ أنْ أُكَلِّفَكَ بما لا تُطيق، وستَجِدُني إنْ شاءَ اللهُ حسَنَ المعامَلة، وافِيًا بالعَهد.

{قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَـيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ} (القصص : ٢٨)

٢٨- قالَ لهُ موسَى عَليهِ السَّلام: ذاكَ الشَّرطُ بيني وبَينَك، وأيَّ الأجلَينِ أتمَمْتُ، الثَّمانيَ أو العَشْرَ، فلا حرَجَ عَليّ، واللهُ شَهيدٌ على ما تعاهَدنا عَليه.

{فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} (القصص: ٢٩)

٢٩- ولما أتَمَّ موسَى مدَّةَ عملهِ بمَديَن، ومضَى بأهلِهِ[١٠٣] نَحوَ مِصر، أبصَرَ نارًا منَ الجِهَةِ التي تَلي الجبَلِ بسَيناء، فقالَ لهم: أَقيموا مَكانَكم، لعَلِّي أجيئُكمْ مِنْ هُناكَ بخَبَرٍ يَدُلُّنا على الطَّريق، أو بشُعلَةٍ منها لتَتدَفَّؤوا بها.

{فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} (القصص : ٣٠)

٣٠- فلمَّا أتَى النَّارَ نُودِيَ مِنْ جانبِ الوادي ممَّا يَلي الجبَلَ عنْ يَمينِه، في القِطعَةِ المبارَكَةِ مِنْ ناحيَةِ الشَّجَرَة: يا موسَى، إنَّ الذي يُكَلِّمُكَ هوَ أنا اللّٰهُ ربُّ الخلائقِ أجمَعين.

{وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ} (القصص : ٣١)

٣١- وألْقِ عَصاكَ على الأرض. فلمَّا رآها تتحرَّكُ وتَضطَرِبُ كأنَّها حيَّة، هربَ مِنَ الخَوفِ ولم يَرجِع، فناداهُ رَبُّه: يا موسَى لا تَخَفْ ممَّا ترَى، فأنتَ في سَلامٍ وأمانٍ هُنا.

{اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ} (القصص : ٣٢)

٣٢- أدخِلْ يَدكَ في جَيبِكَ - وهوَ فَتحَةُ القَميصِ مِنْ أعلَى الصَّدرِ - ثمَّ أخرِجْها، تَخرُجْ بَيضاءَ مُتَلألِئةً تَشِعُّ نورًا، مِنْ غَيرِ مرَضٍ ولا أذًى كالبرَصِ ونَحوِه. واضْمُمْ إلى جَنْبِكَ عَضُدَكَ وذِراعَكَ ليَخِفَّ ما أصابَكَ مِنَ الرُّعب. وهاتانِ المعجِزَتانِ: العَصا واليَد، دَليلانِ مِنَ اللهِ على صِحَّةِ نبوَّتِك، إلى فِرعَونَ وقَومِهِ مِنَ الكُبَراءِ والأتْباع، إنَّهُمْ كانوا قَومًا مُخالِفينَ للحَقّ، خارِجينَ عنْ طاعَةِ الله.

{قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ} (القصص : ٣٣)

---

(١٠٣) بامرأتهِ صفوريا وولده. (روح البيان).

٣٣- قالَ موسَـــى مُناجيًا رَبَّه: يا رَبّ، لقدْ قَتَلتُ واحِدًا مِنْ قَومِ فِرعَون، وأخافُ أنْ يَقتُلوني بهِ إذا قبضَ عَليَّ فِرعَونُ ورِجالُه.

{وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ} (القصص : ٣٤)

٣٤- وأخي هارونُ هوَ أكثَرُ فَصاحَةً منّي، فاجعَلْهُ نَبيًّا مِثلِي، وأرسِلْهُ مَعي إلى فِرعَونَ ليَكونَ مُعينًا لي، يُبيِّنُ لهمْ ما أقول، ويُجادِلُهُمْ بكَلامي، فإنِّي أخافُ أنْ يُكَذِّبوني فيما أقُول، ولا يُفصِحُ لِساني كثيرًا عندَ مُحاجَجتِهم. وكانتْ في لسانِهِ حُبْسَة، عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلام.

{قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ} (القصص : ٣٥)

٣٥- فاستَجابَ لهُ رَبُّهُ وقالَ له: سنُقَوِّي أمرَكَ بأخِيك، ونُؤَيِّدُ جانِبَكَ به، ونَجعَلُ لكُما حُجَّةً وبُرهانًا عَليهم، ولنْ يَقدِروا على إلحاقِ الأذَى بكما، ولنْ يَكونَ لهمْ غلَبَةٌ عَليكما، بسَبَبِ ما أيَّدْتُكما بهِ مِنْ آياتِنا الربَّانيَّةِ العَظيمَة، فأنتُما ومَنِ اتَّبعَكُما مِنَ المؤمِنينَ الغالِبونَ على القَومِ الكافِرين.

{فَلَمَّا جَاءهُم مُّوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ} (القصص : ٣٦)

٣٦- فلمَّا جاءَهمْ موسَـى بمُعجِزاتِنا القاطِعات، ودلائِلِنا الواضِـحات، قالوا له: ما هذا الذي جئتَ بهِ إلاّ سِـحرٌ اخترَعتَهُ مِنْ عِندِك، وما هوَ مِنْ عندِ الله، ولم نَسـمَعْ بدَعوَةِ التَّوحيدِ التي تَدعو إليها في آبائنا وأجدادِنا السَّابقين.

{وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاء بِالْهُدَى مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} (القصص : ٣٧)

٣٧- وقالَ لهمْ موسَى: اللهُ أعلَمُ بمَنْ جاءَ بالهُدَى والحَقِّ مِنْ عِندِهِ سُبحانَه، أنا أمْ أنتُم، وهوَ أعلَمُ بمَنْ ستَكونُ لهُ العاقِبَةُ المحمُودَةُ والمرضيَّة، في الحيَاةِ الدُّنيا وفي الآخِرَة، ولنْ يَفوزَ المشرِكون، ولنْ يَنجوا مِنَ العِقاب.

{وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ} (القصص : ٣٨)

٣٨- وقالَ فِرعَونُ الطَّاغيَة: أيُّها السَّادَةُ والوجَهاء، إنِّي لا أعرِفُ لكمْ إلهًا غَيري.

ثمَّ توَجَّهَ إلى وزيرِهِ قائلاً له: يا هامان، اصنَعْ لي آجُرًّا، وابْنِ لي منهُ بِناءً عاليًا، لأنظُرَ إلى إلهِ موسَى، الذي ذكرَ أنَّهُ إلهُهُ وإلهُ العالَمين، وأنا أظُنُّهُ كاذِبًا في ادِّعائهِ هذا.

وقدِ اكتُشِفَ أنَّ الطِّينَ هوَ مادَّةُ بِناءِ الأهرامات، معَ خَلطِهِ بالتُّرابِ الكلسيِّ المتوَفِّرِ في المِنطَقَة، واستِخدامِ حرَارَةٍ عاليَةٍ فيه، وهوَ الآجُرّ، يَعني طَبيخَ الطِّين، أو ما يَكونُ أقوَى منه، وليسَتْ أحجارًا قُطِّعَتْ مِنْ صُخورٍ أو جِبالٍ كما ذُكِرَ مِنْ قَبل. وهيَ مِنْ صُنعِ الفَراعِنة، الذي يَدُلُّ عل جِنسِ ما قامَ بهِ هامانُ مِنْ بِناءِ الصَّرحِ العالي، الذي دمَّرهُ اللهُ تعالَى {وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ} {سورة الأعراف: ١٣٧}.

{وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ} (القصص: ٣٩)

٣٩- وطغَى فِرعَونُ وتجبَّرَ هوَ وجنودُهُ في أرضِ مِصرَ وأكثَروا فيها الفَساد، بغَيرِ أمرِ حَقٍّ ولا نظَرِ إصْلاح، فضَلُّوا وكفَروا، وظَنُّوا أنَّهمْ لنْ يُبعَثوا بعدَ الموتِ للحِسابِ والجَزاء.

{فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ} (القصص: ٤٠)

٤٠- فجمَعنا فِرعَونَ وجُنودَهُ وألقَيناهُمْ في البَحر، وأغرَقناهُمْ فيهِ جَميعًا، فانظُرْ أيُّها الرَّسُولُ كيفَ كانَ مآلُ المشرِكينَ المعتَدين، ليَكونوا عِبرَةً للعالَمين.

{وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ} (القصص : ٤١)

٤١- وجعَلناهُمْ قُدوَةً في الضَّـلال، يَدعونَ إلى الكُفرِ والمعاصِـي وتَكذيبِ الرُّسُـل، ممَّا يؤَدِّي بهِمْ إلى النَّار، وفي يَومِ القيامَةِ لا يَنصُرُهمْ أحَد، ولا يَدفَعُ عنهمُ العَذاب.

{وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ} (القصص : ٤٢)

٤٢- ولعَنَّاهُمْ في هذهِ الدُّنيا، ويَلعَنُهمُ الملائكَة، والمؤمِنونَ يَلعَنونَهمْ خلَفًا عنْ سـلَفٍ حتَّى قيامِ السَّـاعَة، وهمْ في يَومِ القيامَةِ مِنَ المبعَدينَ المطرودينَ مِنْ رَحمَةِ الله، وسـيَكونونَ في أَسـوَإِ حالٍ وأشَدِّ عَذاب.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} (القصص : ٤٣)

٤٣- ولقدْ أنزَلنا على موسَـى التَّوراة، بعدَما أهلَكنا القُرونَ الأولَى، كقَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ وغَيرِهم، ليَتدَبَّرَ النَّاسُ ما فيها ويتَفَكَّروا ويَعتَبِروا، وتَكونَ بَصـيرَةً لهمْ مِنَ العَمَى والضَّـلال، وهِدايَةً لهمْ إلى الحَقّ، ورَحمَةً تَنالُهُمْ منَ الله، لعلَّهمْ بذلكَ يَتذَكَّرونَ ما فيها مِنَ المواعِظِ وأسبابِ الهِدايَة.

{وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ} (القصص : ٤٤)

٤٤- وما كُنتَ - أيُّها النبيُّ - بجانبِ الجبَلِ الغَربيِّ في سَـيناء، عِندَما ناجَى موسَـى رَبَّه، وأحكَمنا أمرَ نبوَّتهِ وما ألزَمناهُ وقَومَه، وما كُنتَ مِنَ الحاضِـرينَ لَمَّا أوحِيَ إليهِ هُناك، وهذا إخبارٌ لكَ بالغُيوبِ الماضِيَة، وهوَ مُعجِزَةٌ لكَ وبُرهانٌ على نبوَّتِك.

{وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} (القصص : ٤٥)

٤٥- ولكنَّا خلَقنا بينَ زَمانِكَ وزَمانِ موسَى أُمَمًا كثيرَة، فطالَتْ عَليهمُ المدَّة، فنَسُوا عهدَ اللهِ ومِيثاقَه، وتغيَّرَتِ الأحكامُ والشَّرائع، فكانَ لا بُدَّ مِنْ وَحيٍ جَديد، وشَريعَةٍ جَديدَة، تُجَدِّدُ عهدَ النَّاسِ برَبِّهم.

وما كُنتَ مُقيمًا بينَ أهلِ مَدْيَنَ مثلَ موسَى وشُعَيبٍ عَليهِما السَّلامُ تُذَكِّرُهمْ وتَعِظُهم، ولكنَّا بَعثناكَ رَسُولاً، وأنزَلنا عَليكَ الكِتاب، ولولا ذلكَ لَما عرَفتَ خبَرَهما وخبَرَ غَيرِهما مِنَ الأنبياءِ والأُمَم.

{وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} (القصص : ٤٦)

٤٦- ولم تَكُنْ مَوجودًا -كذلكَ- بناحيَةِ الجبَلِ وقتَ نِدائنا موسَى وتَكليفِهِ بدَعوَةِ فِرعَونَ وقَومِه، ولكنْ أرسَلناكَ بالقُرآنِ لتُنذِرَ بهِ قَومَكَ أوَّلاً، وهذا مِنْ رَحمَةِ اللهِ بهم، أنْ قَصَّ عَليهمْ مثلَ هذهِ الأنبَاء، ولم يُرسَلْ إليهمْ رَسولٌ منذُ عهدِ إسماعيلَ عَليهِ السَّلام. أو أنَّ المقصودَ بالقَومِ أهلُ الفَترَة، بينَ عيسَى ومحمَّدٍ عليهما الصَّلاةُ والسَّلام، وهيَ نحوُ ستَّةِ قُرون؛ لِيَتَّعِظوا بإنذارِك، ولعلَّهمْ يَهتَدون.

{وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} (القصص : ٤٧)

٤٧- ولو أصَابَتْهُمْ عُقوبَةٌ بسبَبِ كُفرِهِمْ ومَعاصِيهم، لقالوا: ربَّنا هلاَّ أرسَلتَ إلينا رَسُولاً مِنْ عندِكَ مُؤيَّدًا بمُعجِزاتٍ، فنَتَّبِعَ آياتِكَ الظَّاهِرَةَ على يَديه، ونَكونَ مِنَ المؤمِنينَ بما جاءَ بهِ مِنْ عندِك؟

{فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ} (القصص : ٤٨)

٤٨- ولما جاءَ أهلَ مكَّةَ الأمرُ الحَقُّ المنْزَلُ مِنْ عِندِنا، وهوَ القُرآن، قالوا: هلاَّ أُوتيَ محمَّدٌ مِنَ المعجِزاتِ كما أُوتيَ موسَى منها؟

أوَ لمْ يَكفُرْ فِرعَونُ وقَومُهُ بالآيَاتِ التي أُيِّدَ بها موسَى، كما كفرَ مُشركو مَكَّةَ بمُعجِزَةِ القُرآن الذي أُنزِلَ على محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وقالوا: إنَّ محمَّدًا وموسَى ساحِرانِ تَعاوَنا بتَصديقِ كُلِّ واحِدٍ منهما الآخَرَ وتأييدِهِ إيَّاه، وقالوا: نحنُ نَكفرُ بالتَّوراةِ والقُرآن!

{قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (القصص: ٤٩)

٤٩- قُلْ لهمْ أيُّها النبيّ: فهاتُوا كِتابًا آخرَ مِنْ عندِ اللهِ يَكونُ أعظمَ وأجلَّ مِنَ القُرآنِ والتَّوراةِ أَسِرْ على هَديه، إذا كنتُمْ صَادقينَ في قَولِكمْ بأنَّهما غَيرُ مُوحًى بهما مِنْ عندِ الله.

والتَّوراةُ أعظَمُ كتابٍ سَماويٍّ بعدَ القُرآن، وقدْ حكمَ بها نَبيُّونَ كُثُرٌ بعدَ موسَى عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلام، والإنجِيلُ نزلَ مُتَمِّمًا لها. وقدْ بُدِّلا وحُرِّفا، ونُسِختْ جَميعُ الكتبِ السَّماويَّةِ بالقُرآنِ الكريم.

{فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (القصص : ٥٠)

٥٠- فإذا لم يَستَجِبِ المشرِكونَ لِما جِئتَهمْ بهِ مِنْ عندِ الله، فاعلمْ أنَّ مَوقِفَهمْ هذا ليسَ عنْ حُجَّةٍ ودَليل، بلْ هوَ عِنادٌ مِنْ عندِ أنفُسِهم، ومُتابَعَةٌ لأهوَائهمُ الضَّالَّةِ وأفكارِهمُ الزَّائغَة، وليسَ هُناكَ أضَلُّ ممَّنْ تابعَ هَواهُ ورَغبتَهُ بغَيرِ دَليلٍ مِنَ اللهِ العَليمِ الحَكيم، واللهُ لا يَهدي مَنْ ظلمَ نَفسَهُ فأعرَضَ عنِ الدِّينِ الحَقِّ واتَّبعَ هَواه.

{وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} (القصص : ٥١)

٥١- ولقدْ أنزَلنا القُرآنَ مُتواصِلاً بَعضَهُ إثْرَ بَعض، بحَسَبِ ما تَقتَضيهِ الحِكمَة، ليَتذَكَّرَ القَومُ بذلكَ أمرَ اللهِ بعدَ كُلِّ قِصَّةٍ وحادِثَةٍ وخبَر، وليَكونَ أكثرَ تأثيرًا في نفُوسِهم.

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ} (القصص : ٥٢)

٥٢- العُلماءُ الأولياءُ الذينَ آتَيناهمُ الكِتابَ مِنْ قَبل، همُ الذينَ يؤمِنونَ بالقُرآن.

{وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ} (القصص : ٥٣)

٥٣- إنَّهُمْ مؤمِنو أهلِ الكِتاب، الذينَ إذا سَمِعوا آياتِ القُرآنِ تُتلَى عَليهِمْ قالوا: آمَنَّا بأنَّهُ كلامُ اللهِ تعالَى، إنَّهُ الحَقُّ الذي كُنَّا نَعرِفُهُ في كتُبِنا، فقدْ كُنَّا مُسلِمينَ مُوَحِّدينَ قَبلَ نُزولِ القُرآن، وكنَّا مُصَدِّقينَ بالرَّسولِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، فإنَّ ذكرَ صِفَتِهِ والحَديثَ عنِ القُرآنِ مَوجودٌ في التَّوراةِ والإنجِيل.

{أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} (القصص : ٥٤)

٥٤- أولئكَ المؤمِنونَ منْ أهلِ الكِتابِ يُعطَونَ ثَوابَهُمْ مرَّتين، لإيمانِهِمْ بكتابِهِمْ أوَّلاً، ثمَّ لإيمانِهِمْ بالقُرآنِ الكريم؛ وذلكَ لصَبرِهِمْ وثَباتِهِمْ على الحقّ. وهمْ يَدفَعونَ الأذَى بالعَفوِ والمغفِرَة، ويُنفِقونَ ممَّا رزَقناهُمْ مِنَ الحَلالِ في طاعَةِ الله.

{وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} (القصص : ٥٥)

٥٥- وإذا سَمِعوا القَبيحَ مِنَ القَول، والأذَى والسبَّ مِنَ المشرِكين، أعرَضوا عَنهم، وقالوا في حِلْمٍ وأناة: لَنا حِلْمُنا ولكمْ سفَهُكم، أو لَنا دِينُنا ولكمْ دِينُكم، لا نَشتُمُكمْ كما تَشتُمونَنا، لا نُريدُ مَسلَكَ الجاهِلين، ولا نُحِبُّ صُحبتَهمْ ولا مُجاورَتَهم.

{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (القصص : ٥٦)

٥٦- إنَّكَ أيُّها الرَّسولُ لا تَقدِرُ على أنْ تَهديَ مَنْ أحبَبتَ هِدايتَه، إنَّما عَليكَ البَلاغ، واللهُ يَهدي مَنْ يَشاءُ إلى الإسْلام، وهوَ أعلَمُ بمَنْ يَستَحِقُّ الهِدايَةَ ممَّنْ يَستَحِقُّ الضَّلال.

وقدْ ثبتَ في الصَّحيحَينِ أنَّها نزَلَتْ في أبي طالِبٍ عَمِّ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم، فقدْ عرَضَ عَليهِ الإسلامَ قُبَيلَ وفاتِهِ فأبَى؛ خَوفًا مِنْ أنْ تُعَيِّرَهُ قُرَيشٌ بذلك!

{وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (القصص : ٥٧)

٥٧- وقالَ المشرِكونَ للرَّسولِ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلام: إذا اتَّبَعْنا دِينَ الإسْلامِ فسيَجتَمِعُ العرَبُ عَلَينا ويُخرِجونَنا مِنْ دِيارِنا. وقدْ كذَبوا، ألا يَرَى هؤلاءِ المشركونَ كيفَ عصَمنا دِماءَهمْ وجعَلناهُمْ في حرَمٍ آمِن، بحُرمَةِ بيتِ الله، بينَما العرَبُ مِنْ حَولِ مكَّةَ يتَقاتَلونَ ويَتذابَحون؟ ويُجلَبُ إلى مكَّةَ أنواعُ الثِّمارِ والبَضائعِ الموجودَةُ مِنْ حولِها وهمْ بوادٍ غَيرِ ذي زَرع، رِزقًا مِنْ عندِنا، ولكنَّ أكثرَهمْ لا يَتدَبَّرونَ ذلك، ولا يَتفَكَّرونَ فيما يَقولُهُ اللهُ بحَقّ، ولذلكَ قالُوا ما قالُوا.

{وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ} (القصص : ٥٨)

٥٨- وقدْ أهلَكنا كثيرًا مِنْ أهلِ القُرَى، الذينَ طغَوا وبَطِروا وكفَروا بنِعمَةِ اللهِ ولم يُقَدِّرُوها، وهذهِ آثارُ مساكنِهمُ التي دَمَّرْناها، تَمُرُّونَ بها في أسفارِكم، لم تُسكَنْ مِنْ بَعدِهم، إلاّ سَكَنًا قَليلاً، مِنْ قِبَلِ المارَّةِ والمسافِرين، ونحنُ الذينَ نُميتُهم، ثمَّ يَرجِعُ إلَينا جَميعُ ما آتَيناهُمْ مِنَ النِّعَمِ التي كانوا يَتفاخَرونَ بها، ونُحاسِبُهمْ عَليها.

{وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ} (القصص : ٥٩)

٥٩- واللهُ لا يُهلِكُ أهلَ مَدينَةٍ أو قَريَةٍ حتَّى يَبعثَ في أعظَمِها رَسولاً يُنذِرُهمْ ويُبَيِّنُ لهمْ ما يأتونَ وما يَذَرون، ممَّا نوحي إليهِ مِنْ آياتِنا النَّاطِقَةِ بالحَقّ، ولا نُهلِكُ أحدًا منهمْ إلاّ إذا كذَّبوهُ وكفَروا بآياتِنا ونِعَمِنا عَليهم.

{وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ} (القصص : ٦٠)

٦٠- وما كسَبتُمْ مِنْ مَالٍ أو أحرَزتُمْ أمرًا مِنْ أمُورِ الدُّنيا، فهوَ مَتاعٌ قَليلٌ وزِينَةٌ مؤقَّتَةٌ مَصيرُها الزَّوالُ والفَناء، وما أَعَدَّهُ اللهُ لعِبادِهِ المؤمنينَ مِنَ الثَّوابِ العَظيمِ والنَّعيمِ المقِيم، أفضَلُ وأبقَى، فالبَاقي خَيرٌ مِنَ الفاني، أفلا تتفهَّمونَ ذلكَ وتَتدَبَّرونَ ما يَقولُ لكمْ رَبُّكم؟

{أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} (القصص : ٦١)

٦١- وهلْ يَستَوي مَنْ وعَدناهُ الجنَّةَ والنَّعيمَ المقِيمَ مِنَ المؤمنين، فهمْ مُدرِكونَهُ لا مَحالَة، ومَنْ مَتَّعناهُ في الدُّنيا بمالٍ فانٍ ونَعيمٍ زائلٍ مِنَ الكافِرين، معَ ما فيها منَ المنَغِّصاتِ والهُمومِ والأمرَاض، ثمَّ يُحضَرونَ يومَ القِيامَةِ للعَذاب؟

{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} (القصص : ٦٢)

٦٢- ويُنادِيهمُ اللهُ في ذلكَ اليَومِ الرَّهيب، تَوبيخًا وإهانَةً لهم: أينَ هيَ الأصْنامُ التي زَعَمتُمْ أنَّها آلِهَة، وجعَلتُموها شُرَكاءَ مَعي في العِبادَة؟

{قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاء الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ} (القصص : ٦٣)

٦٣- قالَ الذينَ وجبَ عَليهمُ العَذاب، مِنَ الشَّياطينِ ودُعاةِ الكُفرِ والضَّلال: هؤلاءِ الذينَ أضلَلناهُمْ لمْ نُكْرِهْهُمْ على اتِّباعِنا، بلْ زَيَّنَّا في قُلوبِهِمُ الكُفرَ والضَّلالَ كما هوَ نحنُ عَليه، فاستَجابوا لَنا وصَاروا ضُلاّلاً، ونحنُ نتبَرَّأُ إليكَ ممَّا اختارُوهُ مِنَ الكُفرِ والمعاصي لهوًى في نفُوسِهم، وما كانوا يَعبدونَنا، بلْ كانوا يَعبدُونَ أهواءَهمْ وشَهواتِهِم.

{وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ} (القصص : ٦٤)

٦٤- وقيلَ للمُشـرِكين: أينَ همْ شُـرَكاؤكمُ الذينَ جعَلتُموهُمْ آلِهَة؛ ليُخَلِّصـوكُمْ ممّا أنتُمْ فيهِ مِنَ العَذابِ والهَوان، وقدْ كنتُمْ تَزعُمونَ في الدُّنيا أنَّهمْ سـيَنصُـرونَكم؟ فنادَوهم، فلمْ يُجيبُوهم، ورأوا العَذابَ أمامَهم، وعرَفوا أنَّهمْ صَائرونَ إليه، ووَدُّوا حينَئذٍ لو كانوا مِنَ المؤمِنينَ المهتَدين.

{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} (القصص : ٦٥)

٦٥- وفي ذلكَ اليَومِ يَسألُ اللهُ الكافِرين: ماذا كانَ جوابُكمْ للأنبِياءِ الذينَ أرسَلتُهمْ إليكم؟

{فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاء يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءلُونَ} (القصص : ٦٦)

٦٦- فعَمُوا عنِ الأنبَاء، وخَفِيَتْ واشـتَبهَتْ عَليهمُ الأخبَارُ والأعذَار، ولم يَهتَدوا إلى الحُجَجِ والأدِلَّةِ التي كانوا يواجِهونَ بها الأنبياءَ في الحياةِ الدُّنيا عِنادًا واستِكبارًا، وعَلِموا أنَّها لنْ تُفيدَهمْ شَيئًا، فما كانَ يَسألُ بَعضُهمْ بَعضًا عنْ ذلكَ ليَرُدُّوا على السُّؤال.

{فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ} (القصص : ٦٧)

٦٧- فأمَّا مَنْ تابَ مِنَ الشِّرك، وجمعَ بينَ الإيمَانِ الصَّحيحِ والعمَلِ الحسَنِ في الدُّنيا، فعسَى أنْ يَكونوا مِنَ السُّعَداءِ النَّاجينَ يَومَ القيامَة. و "عسـى" مِنَ اللهِ الكريمِ تَحقيق، إذا داوَموا على التَّوبَةِ والإيمَان.

{وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَـــاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُـــبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْـــرِكُونَ} (القصص : ٦٨)

٦٨- واللهُ يَخلقُ ما يَشاء، مِنْ ذَوي الأروَاح، ومِنَ النَّباتِ والجَماد، وهوَ الذي يَختارُ ما يَشاء، ويتَصرَّفُ كما يُريد، ويُوَجِّهُ الأمورَ كما يَشاء، لا يُنازِعُهُ ولا يُشارِكُهُ في ذلكَ أحَد، ولا يُقتَرَحُ عَليهِ شَـيء، وما شـاءَ هوَ الذي يَكون، وما لم يَشَـأْ لم يَكن. وما كانَ لأحَدٍ أنْ يَختارَ ومَرجِعُ الأمُورِ كُلِّها إلى الله، تنَزَّهَ وتقدَّسَ أنْ يُشـرِكَهُ في اختيارِهِ أحَد، كالأصْـنامِ والأندادِ وغيرِها ممّا يُدَّعَى ألُوهيَّتُه.

{وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ} (القصص : ٦٩)

٦٩- والله يَعلَمُ ما تَنطَوي عليهِ سَرائرُهم، وما تُخفي صُدورُهمْ مِنَ النيَّاتِ والاعتِقادات.

{وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (القصص : ٧٠)

٧٠- وهوَ اللهُ ذو الأُلوهيَّةِ والمعبوديَّةِ على خَلقِهِ أجمَعين، لا مَعبودَ بحَقٍّ سِواه، ولا رَبَّ يَخلُقُ ويَختارُ سِواه، وهوَ المحمودُ في كُلِّ ما يَفعَلُ ويَختار، في الدُّنيا وفي الآخِرَة، لعَدْلِهِ وحِكمَتِه، ولهُ الحُكمُ النَّافِذُ في كُلِّ شَيء، ولا رادَّ لِما يَقضي، ولا مُعَقِّبَ لِما يَحكُم، وإليهِ تُرجَعونَ جَميعًا يَومَ البَعث، ليُجازي كُلاًّ بما عَمِل.

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ} (القصص : ٧١)

٧١- قُلْ للمُشرِكينَ أيُّها الرَّسُول: أخبِروني، إذا أدامَ اللهُ عَليكمُ ظَلامَ اللَّيلِ إلى قيامِ السَّاعَة، مَنْ غَيرُهُ يَقدِرُ على أنْ يَأتِيَ بنَهارٍ تُبصِرونَ فيهِ وتَعمَلون، ألا تَسمَعونَ وتُفَكِّرون، وتَفهَمونَ فتُؤمِنون؟

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} (القصص : ٧٢)

٧٢- وقُلْ لهم: أرأيتُمْ لو أدامَ اللهُ عَليكُمُ النَّهارَ بضِيائهِ وحَرِّهِ إلى قيَامِ السَّاعَة، مَنْ غَيرُ اللهِ يأتيكمْ بلَيلٍ تَستَريحونَ فيهِ مِنْ عمَلِ النَّهار، أفلا تَرَونَ ما يُحيطُ بكمْ مِنَ الآياتِ الدالَّةِ على قُدرَةِ اللهِ ووَحدانيَّتِه؟

{وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (القصص : ٧٣)

٧٣- فكانَ مِنْ فَضلِ اللهِ ونعمَتِهِ عَليكمْ أنْ خلقَ لكمُ اللَّيلَ لتَسكنوا فيهِ وتَستَريحوا مِنْ عمَلِ النَّهار، وخلقَ النَّهارَ لتعمَلوا فيهِ وتَطلبُوا الرِّزق، لتَعرِفوا نِعمَةَ ربِّكمْ بذلكَ وتَشْكروهُ عَليها.

{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} (القصص : ٧٤)

٧٤- ويَومَ القِيامَةِ يُقولُ اللهُ لمنْ عبدُوا معَهُ آلهةً أُخرَى، تَوبيخًا وإهانَةً لهم: أينَ همْ شُــــرَكائيَ الذينَ زَعَمتُمْ أنَّهُمْ آلِهَة، وأشرَكتُموهُمْ مَعي في العِبادَة؟

{وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} (القصص : ٧٥)

٧٥- وأخرَجنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ نبيَّهمُ الذي أُرسِــلَ إليهمْ ليَشــهدَ عَليهمْ بما كانوا عَليه، وقُلنا للمُشــرِكينَ يَومَئذ: هاتُوا دَليلَكمْ على صِــحَّةِ ما ادَّعَيتُموهُ مِنْ أنَّ للهِ شُــرَكاء. فعَلِموا أنَّهُ الإلهُ الواحِدُ الذي لا شَريكَ له، وغابَ عَنهمْ ما كانوا يَدَّعونَهُ مِنَ الشِّركِ في الدُّنيا.

{إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَــى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ} (القصص: ٧٦)

٧٦- إنَّ قارونَ الغَنيَّ كانَ مِنْ بَني إسْرائيل، في عَصرِ موسَى عَليهِ السَّلام، فتكبَّرَ على قَومِهِ وظلمَهم، وأعطَيناهُ مِنَ الأمْوالِ المدَّخَرَةِ ما إنَّ مفاتيحَ خزائنِهِ يَثقُلُ حَمْلُها على جَماعَةٍ قَويَّةٍ مِنَ النَّاس، لكَثرَتِها، فقالَ لهُ صالِحو قَومِهِ يَنصَحونَه، لا تَبْطَرْ ولا تَتفاخَرْ بما أُوتيتَ مِنْ مَال، فاللهُ لا يُحِبُّ الأَشِــرينَ البَطِرين، الذينَ يتطاوَلونَ على النَّاس، ولا يَشــكرونَ اللهَ على ما أغناهُمْ بهِ وأنعَمَ عَليهم.

{وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} (القصص : ٧٧)

٧٧- واطلُبْ بهذهِ الأموالِ التي أعطاكَها اللهُ طاعتَهُ وشُــكرَهُ والإنفاقَ منها فيما يُرضِــيه، ليَجلُبَ لكَ ذلكَ الرِّضَــى والثَّوابَ في الدَّارِ الآخِرَة، ولا تَترُكْ حظَّكَ مِنَ الدُّنيا، ممَّا أحلَّ اللهُ

لكَ منها مِنَ المأكَلِ والمشرَبِ والملبَس، والمسكَنِ والمنْكَح، وأَحسِنْ بطاعَةِ اللهِ كما أحسَنَ إليكَ بنِعمَتِه، وأحسِنْ إلى خَلقِهِ كما أحسَنَ هوَ إليك، ولا تَطلُبْ بأموالِكَ الفسَادَ في الأرضِ والإساءَةَ إلى الخَلق، واللهُ لا يُحِبُّ مَنْ أفسدَ وعصَى، وأجرمَ وبَغَى.

{قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ} (القصص : ٧٨)

٧٨- قالَ لهمْ قارُونَ غَيرَ آبِهٍ بنُصحِهم: هذهِ الأموَالُ التي عِندي حصَّلتُها بعِلمي وخِبرَتي في المكسَبِ والتِّجارَة. أوَلَمْ يَسمَعْ قارونُ مِنْ كلامِ الأنبياءِ أو ممَّا يَقُصُّهُ النَّاسُ أنَّ اللهَ قدْ أهلكَ مِنْ قَبلِهِ مِنَ القُرونِ الماضيَةِ مَنْ كانَ أشَدَّ قُوَّةً منهُ وأكثرَ جَمعًا للأموَالِ والخَدَمِ والحشَم، ولم يَكنْ ذلكَ عنْ محَبَّةٍ لهم، ولذلكَ أهلَكَهم؛ لكُفرِهم، وعدَمِ شُكرِهِمْ لنِعَمِ اللهِ عَليهم.

ولا يُسألُ أمثالُ هؤلاءِ المشرِكينَ المجرِمينَ عنْ ذُنوبِهِمْ يَومَ القيامَة، لكَثرَتِها التي تُوجِبُ العَذاب، وكفى بالشِّرْكِ مُوجِبًا للعَذاب، فيَدخُلونَ النَّارَ بغَيرِ سُؤالٍ ولا حِساب، وإنَّما يُسألونَ سُؤالَ تَقريعٍ وتَوبِيخ.

{فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} (القصص : ٧٩)

٧٩- وفي يَومِ خُروجِ قارُونَ على قَومِهِ بزِينَةٍ عَظيمَةٍ ومَوكِبٍ فاخِر، معَ خدَمِهِ وحشَمِه، قالَ الذينَ يُريدونَ زُخرُفَ الدُّنيا وزِينتَها: يا لَيتَ لنا مِنَ الأموَالِ والخدَمِ والزّينَةِ مثلَما أُعطِيَ قارُون، لا شَكَّ أنَّهُ ذو حَظٍّ وافِرٍ وحَياةٍ سَعيدَة.

{وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ} (القصص : ٨٠)

٨٠- وقالَ لهمْ أهلُ العِلمِ والتَّقوَى: بئسَ ما قُلتُم، إنَّ ما عندَ اللهِ مِنَ الثَّوابِ والأجْرِ في اليَومِ الآخِرِ أفضَلُ ممَّا تتَمَنَّونَهُ في الحيَاةِ الدُّنيا، هذا لمنْ آمنَ بصِدقٍ وعَمِلَ العمَلَ الصَّالِح، ولا يُؤتَى ذلكَ إلاّ الصَّابِرونَ على طاعَةِ الله، الصابِرونَ عنِ المعاصِي والشَّهوات.

{فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ} (القصص : ٨١)

٨١- وفي يَومِ زِينَتِهِ وفَخرِهِ وطُغيانِهِ خسَفنا بِهِ وبِدارِهِ وأموالِهِ الأرْض، فابتلَعَتْهم، وغارَتْ بهم، فما كانتْ هُناكَ جَماعَةٌ مِنْ أنصارِهِ تَدْفَعُ عنهُ نِقمَةَ اللهِ وعَذابَه، وما كانَ هوَ قادِرًا على الانتِصارِ لنَفسِه.

{وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} (القصص : ٨٢)

٨٢- وأصبَحَ الذينَ رَأوا قارُونَ في زِينَتِهِ وتمَنَّوا أنْ يَكونُوا في مَكانِهِ ومَنزِلَتِه بالأمسِ القَريبِ يَقولون، وقدْ نَدِموا على ما قالُوا: عجبًا! إنَّ اللهَ سُبحانَهُ يُعطي المالَ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ولا يَعني هذا أنَّهُ يُحِبُّهمْ ويَرضَى عَنهم، ويَمنَعُهُ ممَّنْ يَشاءُ ولا يَعني أنَّهُ يَكرَهُهمْ ويُهينُهم، فلَهُ الحِكمَةُ في ذلك، ولولا لُطفُ اللهِ بنا وتَجاوزُهُ عنْ تَقصيرِنا فيما تَمَنَّيناه، لخسَفَ بنا الأرْضَ كما خسَفَ بقارُون. ألمْ ترَ أنَّ الكافِرينَ بنِعمَةِ اللهِ لا يَسعَدونَ ولا يَفوزون؟

{تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} (القصص : ٨٣)

٨٣- تلكَ الدَّارُ الآخِرَةُ ونَعيمُها المقيم، نَجعَلُها لعِبادِنا المؤمنينَ المتَواضِعين، الذينَ لا يَتعاظَمونَ ولا يَتجَبَّرونَ على الخَلق، ولا يَبغونَ ظُلمًا وعُدوانًا عَليهم، والعاقِبَةُ الحَميدَةُ لمنْ كانَ صالِحًا تَقيًّا.

{مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (القصص : ٨٤)

٨٤- مَنْ جاءَ بالحسَـنةِ يومَ القِيامَة، فلَهُ ثَوابٌ أكبَرُ منها وأفضَـل، ومَنْ جاءَ بالسَّـيِّئة، فلا يُجزَى المسِيؤونَ إلاّ بمِقدارِ ما عَمِلوا مِنْ سَيِّئات، ولا يُزادونَ عَليها[١٠٤].

{إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاء بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} (القصص : ٨٥)

٨٥- إنَّ الذي أنزلَ عَليكَ القُرآنَ أيُّها الرَّسُـول، وأوجبَ عليكَ العملَ بهِ وتَبليغَهُ للنَّاس، سيُعيدُكَ إلى مَولِدِكَ بمَكَّةَ كما أُخرِجتَ منها، وقُلْ لِمَنْ خالفَكَ وكذَّبَك: إنَّ اللهَ أعلَمُ بمَنْ هوَ مُهتَدٍ وهوَ على صِراطٍ مُستَقيم، ومَنْ هوَ في ضَلالٍ وخطأ ظاهِر.

{وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ} (القصص : ٨٦)

٨٦- وما كُنتَ تَظُنُّ أنَّكَ ستَكونُ نَبيًّا يُوحَى إليكَ بهذا القُرآن، ولكنْ أنزلَهُ اللهُ رَحمَةً منهُ بكَ وبالعِباد، وإذا منحَكَ اللهُ هـذهِ النِّعمَةَ العَظيمَة، فلا تَكنْ عَونًا للكافِرينَ على دينِهم، بلْ عادِهِمْ وخالِفْهم.

{وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (القصص : ٨٧)

٨٧- ولا تهتَمَّ بالمشـرِكينَ ومَكائدِهم، ولا تَدَعْ لاقتِراحاتِهِمْ ومُلابسـاتِهِمْ تأثيرًا عَليكَ، فيَكونوا سبَبًا لمنعِكَ مِنْ قِراءَةِ القُرآنِ وتَبليغِه، بعدَ أنْ أنزلَهُ اللهُ عَليكَ واصطَفاكَ مِنْ بَينِ النَّاسِ لتَبليغِه،

---

(١٠٤) مَن جاءَ اللهَ يومَ القيامةِ بإخلاصِ التوحيد، فلهُ خير، وذلكُ الخيرُ هو الجنةُ والنعيمُ الدائم، ومَن جاءَ بالسـيِّئة، وهي الشركُ بالله، فلا يُثابُ إلاّ جزاءَ ما كانَ يعمل. (الطبري، باختصار).

أي: ثوابُ الله خيرٌ من حسنةِ العبد، فكيف والله يضاعفهُ أضعافاً كثيرة؟.. (ابن كثير). {وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ}: كالشركِ والرياءِ والجهلِ ونحوها... (روح البيان).

وادْعُ إلى عِبادَةِ رَبِّكَ وحدَهُ لا شَـــريكَ له، ولا تَكنْ مِنَ المشـــرِكينَ بمُظاهَرَتِهِمْ وإعانَتِهمْ على ضَلالِهِم.

وظاهِرُ الخِطابِ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم، والمرادُ تَحذيرُ أُمَّتِه.

{وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَـــيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (القصص : ٨٨)

٨٨- ولا تَعبُدْ معَ اللهِ أحَدًا، فلا عِبادَةَ إلاّ لهُ جَلَّ جَلالُه، كُلُّ شَـيءٍ سـيَفنَى ويَعْدَمُ إلاّ ذاتَهُ العَليَّة، فهوَ الحَيُّ القَيُّوم، الذي يَبقَى ويَدومُ ولا يَموت، لهُ القضـاءُ النَّافِذُ في مُلكِه، لا يُشـارِكُهُ فيهِ أحَد، وإليهِ تُرجَعونَ يَومَ القِيامَة، ليُحاسِبَكمْ على أعمالِكم، ويُجازيَكمْ عَليها بما تَستَحِقُّون.

سـورة العـنكبوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{الم} (العنكبوت : ١)

١- حروفٌ مُقَطَّعَةٌ لم يَرِدْ في تَفسيرِها حديثٌ ثابِتٌ صَحيح.

{أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ} (العنكبوت : ٢)

٢- أظَنَّ النَّاسُ أنَّهُمْ سيُترَكونَ أنْ يَقولوا آمَنَّا دونَ أنْ يُبْتَلوا في أنفُسِهِمْ وأمْوالِهِم، ليَتبيَّنَ الصَّادِقُ في إيمانِهِ مِنَ الكاذِب، والمخلِصُ مِنَ المنافِق؟

{وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} (العنكبوت : ٣)

٣- ولقدِ اختبَرنا المؤمنينَ مِنْ قَبلِهم، فليُميِّزَنَّ اللهُ الذينَ صدَقوا في قَولِهِمْ آمَنَّا، والكاذِبينَ منهمْ في ذلك، بأوامِرِنا ونَواهينا لهم، فيتبَيَّنُ المطيعُ والعاصِي منهم.

{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاء مَا يَحْكُمُونَ} (العنكبوت : ٤)

٤- أمْ ظَنَّ الذينَ يَعصُونَ ويُفسِدونَ أنَّهُمْ سيُعجِزونَنا فلا نتمَكَّنُ مِنْ مُحاسَبَتِهِمْ والانتِقامِ منهم؟ ألا بئسَ ما حكَموا بِهِ حينَ ظَنُّوا ذلك.

{مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (العنكبوت : ٥)

٥- مَنْ كانَ يؤمِنُ بالبَعثِ بعدَ الموتِ، والحِسابِ على الأعمال، ويرجو الثَّوابَ عَليها مِنْ رَبِّه، فإنَّ السَّاعَةَ آتيَةٌ لا رَيْبَ فيها، والثَّوابَ والعِقابَ مُحَقَّق، ولنْ يُخَيِّبَ اللهُ راجيَ رِحمَتِهِ مادامَ عَمِلَ صالِحًا. وهوَ سُبحانَهُ يَسمَعُ دُعاءَ عِبادِه، ويَعلَمُ طاعتَهمْ وإخلاصَهم.

{وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} (العنكبوت : ٦)

٦- ومَنْ جاهَدَ في طاعَةِ اللهِ تعالَى، فإنَّ مَنفعَةَ جِهادِهِ وطاعَتِهِ تَعودُ على نَفسِــه، واللهُ غَيرُ مُحتاجٍ إلى عِبادَةِ العِباد، ولا يَضُرُّهُ مَعصِيَتُهم.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} (العنكبوت : ٧)

٧- والذينَ آمَنوا وأخلَصوا، وقامُوا بأعمَالِ صالِحَةٍ تُوافِقُ شَريعَةَ رَبِّهِم، لنَعفُوَنَّ عَنهم، ونَمحوَ عَنهمْ ما اقتَرَفوهُ مِنْ سَيِّئات، ونُثيبُهمْ على أعمالِهِمُ الصَّالِحَةِ التي عَمِلوها أحسنَ الثَّواب.

{وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (العنكبوت : ٨)

٨- وأمَرنا الإنسَانَ بالإحسَانِ إلى والِدَيه، يَبَرُّهما ويَعطِفُ عَليهما، ويَتعَهَّدُهما ويُشفِقُ عَليهما، ويُنفِقُ عَليهما. وإذا حرَصا على أنْ تُشرِكَ بي شَيئًا لا يَصِحُّ ولا يَستَقيم، ولكنَّهُ عَقيدَتُهما، فلا تَسمَعْ منهما، ولا تُطِعْهُما فيه، فـ"لا طاعَةَ لمِخلوقٍ في مَعصِيَةِ الله" كما صَحَّ في الحَديث. ثمَّ إليَّ مَرجِعُكمْ جَميعًا، مَنْ آمَنَ ومَنْ كفَر، لأَجزيَ كُلاًّ بما عَمِل.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ} (العنكبوت : ٩)

٩- والذينَ آمَنوا وصَدَقوا في إيمانِهم، وعَمِلوا الأعمالَ الحسَنَةَ في الدُّنيا، نَجعَلُهمْ في زُمرَةِ الصَّالِحين، ولهمُ الثَّوابُ العَظيمُ يَومَ الدِّين.

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ} (العنكبوت : ١٠)

١٠- ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَقولونَ آمَنَّا باللهِ ولم يَثبُتِ الإيمانُ في قُلوبِهم، فإذا أُوذُوا في سَـــبيلِ اللهِ وامتُحِنوا بسبَبِ إيمانِهم، جعَلوا ما يُصيبُهمْ مِنَ الأذَى مثلَ عَذابِ اللهِ في شِدَّتِه، وأنَّهُ لا عَذابَ أكبَرُ منه، فجَزِعوا مِنْ ذلكَ ولم يَصبِروا، وارتَدُّوا.

وإذا حصـــلَ للمُؤمِنينَ نَصـــرٌ وغَنيمَةٌ يَقولونَ لهم: نحنُ إخوانُكمْ في الدِّين، وكُنَّا معَكمْ على عَدوِّكم. أوَليسَ اللهُ مُطَّلِعًا على ما تُخفيهِ صُـــدورُ النَّاسِ جَميعًا مِنْ خَيرٍ وشَـــرّ، ومِنْ عَقائدَ وأسرارٍ ومَواقِف؟

{وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} (العنكبوت : ١١)

١١- وليَبلُوَنَّ اللهُ النَّاسَ بحِكمَتِه، ليَنظُرَ الصَّادِقَ فيهمْ والكاذِب، ويُمَيِّزَ المؤمنَ مِنَ المنافِق.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَـــبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} (العنكبوت : ١٢)

١٢- وقالَ كُفَّارُ قُرَيشٍ لمنْ آمَن: ارجِعوا إلى الكُفرِ وســـنَحمِلُ خطاياكُمْ وآثامَكمْ إذا كنتُمْ تُؤاخَذونَ عَليها يومَ القِيامَةِ كما تَدَّعون. وهمْ كاذِبونَ في ادِّعائهمْ هذا، فإنَّهمْ غَيرُ قادِرينَ على نَزعِ خطايا غَيرِهمْ وحَملِها عَنهم.

{وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} (العنكبوت : ١٣)

١٣- وسَـوفَ يَحمِلُ هؤلاءِ الكافِرونَ آثامَ ما اقترَفوهُ مِنْ ذُنوبٍ في الدُّنيا، وآثامَ مَنْ تسـبَّبوا في إضـلالِهمْ وحَمَلوهمْ على الكُفر، دونَ أنْ يَنقُصَ مِنْ ذُنوبِ الآخَرينَ شَـيء، ويُحاسَبونَ على كُلِّ ذلك، ويُسـألونَ عمَّا اختَلَقُوهُ مِنَ الكذِبِ والباطِلِ على النَّاس، بزَعمِهمْ حَملَ خَطاياهُمْ عَنهم، وبتَزيينِ الشَّرِّ لهم.

{وَلَقَدْ أَرْسَـلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَـنَةٍ إِلَّا خَمْسِـينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} (العنكبوت : ١٤)

١٤- وقدْ أرسَلنا نُوحًا إلى قَومِهِ ليَدعُوهمْ إلى دِينِ اللهِ، فمكثَ فيهمْ تِسعَمِئةٍ وخَمسينَ عامًا لأجلِ ذلك، فأعرَضوا عَنهُ وكذَّبوه، فعاقبَهمُ اللهُ بالطُّوفانِ وأغرَقَهمْ جَميعًا، وكَانوا مُصرِّينَ على كُفرِهمْ وضَلالِهم.

{فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ} (العنكبوت : ١٥)

١٥- وأنجَينا نُوحًا ومَنْ رَكِبَ معَهُ في السَّفينَةِ مِنْ أهلِهِ والمؤمِنينَ معَهُ مِنَ الغَرَق، وجعَلناها عِبرَةً وعِظَةً للنَّاس، لبقائها زمَنًا طَويلاً على جبَلِ الجُوديّ، يُشاهِدُها المارَّة. وقدِ التُقِطَتْ صُورَةٌ لموقِعِ مَهبِطِ السَّفينَةِ على الجبَلِ بولايةِ شِرْناق منَ الفضَاء، وبدا فيها بقايا السَّفينَةِ المتحَجِّرَةِ واضِحة. واللهُ أعلَم.

{وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} (العنكبوت : ١٦)

١٦- وأرسَلنا إبراهيمَ إلى قَومِهِ - وكانوا يَعبدُونَ الأصنامَ - فقالَ لهم: اعبدُوا اللهَ وحدَهُ ولا تُشركوا بهِ شَيئًا، واحذَروا غضَبَهُ ونِقمتَهُ إذا استَمرَرتُمْ في الإشرَاكِ به، فإنَّ رجوعَكمْ إلى الحقِّ وطاعتَكمْ لرَبِّكمْ خَيرٌ لكمْ وأفضَلُ ممّا أنتُمْ فيهِ مِنْ جَهلٍ وضَلال، إذا كنتُمْ تَعلَمونَ الحقَّ مِنَ الباطِل، وتُمَيِّزونَ بينَ الخَيرِ والشرّ.

{إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (العنكبوت : ١٧)

١٧- إنَّ الذي تَعبدُونَهُ تَماثيلُ مَصنوعَةٌ مِنْ حجَرٍ وشَجَر، ثمَّ تَكذِبونَ وتَقولونَ إنَّها آلِهَة. وهؤلاءِ الذينَ تَعبدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لا يستَطيعونَ أنْ يَجلُبوا لكمْ رِزقًا، فاطلبُوا رِزقَكمْ مِنْ بارِئكم، فهوَ رازِقُكُمْ ورازِقُ مَنْ في الأرْضِ والسَّماء. وأخلِصوا العِبادَةَ لهُ ولا تُشرِكوا بهِ شَيئًا، واشكُرُوهُ على نِعَمِهِ التي لا تُحصَى عَليكم، فإليهِ مَرجِعُكمْ يَومَ الدِّين، ليُحاسبَكمْ على أعمالِكم، ويُجازيَكمْ عَليها بما تَستَحِقُّون.

{وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} (العنكبوت : ١٨)

١٨- وإنْ تُكَذِّبوني ولا تُصَدِّقوا بالبَعثِ والحِسابِ بعدَ الموت، فقدْ سبقَ أنْ كذَّبتْ أُمَمٌ رُسُلَهمْ مِنْ قَبلِكم، فأهلَكَهمُ الله، فلمْ يَضرُّوا سِوَى أنفُسِهم، وما على الرَّسُولِ إلاّ أنْ يُبَلِّغَكمْ ما أمرَهُ اللهُ به، وليسَ عَليهِ أنْ يَنتَزِعَ التَّصديقَ مِنْ قُلوبِكم.

{أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} (العنكبوت : ١٩)

١٩- أوَلمْ يَنظُروا كيفَ يُبدِئُ اللهُ الخَلق، فيُوجِدُهمْ بعدَ أنْ لم يَكونوا شَيئًا، ثمَّ يُعيدُهمْ أحياءً يَومَ القِيامَةِ بعدَ إماتَتِهم، أوَلا يَستَدِلُّونَ بالخَلقِ على البَعث؟ وإنَّهُ على اللهِ لسَهلٌ يَسير.

{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (العنكبوت : ٢٠)

٢٠- قُلْ لقَومِكَ - الخِطابُ لإبراهيمَ أو لنَبيِّنا، عَليهما الصَّلاةُ والسَّلام -: امشُوا في الأرْض، وانظُروا كيفَ بدَأ اللهُ خَلقَ الأشياء، مِنْ خِلالِ مَعرِفَةِ أطوارِ الحياة، للحيَوانِ والنَّبات، وفي الآخِرَةِ يَخلُقُ اللهُ الأشياءَ مرَّةً أُخرَى، حينَ يَبعَثُها بعدَ الموت، واللهُ قادِرٌ على كُلِّ شَيء، فالذي خلقَ أوَّلَ مرَّة، قادِرٌ على إعادَةِ الخَلق.

{يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ} (العنكبوت : ٢١)

٢١- واللهُ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ مِنَ العِباد، وهمُ الذينَ اختاروا طَريقَ الضَّلالِ وكفَروا بالحِسابِ والجَزاء، ويَرحَمُ مَنْ يَشاءُ منهم، وهمُ الذينَ آمَنوا واختاروا طَريقَ الحقِّ والهُدَى، وصبَروا على ما كَلَّفَهمُ اللهُ به، وآمَنوا بالبَعثِ والحِساب، وانتَظَروا ثَوابًا ورَحمَةً مِنْ رَبِّهم، فإليهِ تُرجَعونَ جَميعًا أيُّها النَّاس، مؤمِنُكمْ وكافِرُكم، فيُحاسِبُ كُلاًّ بما عَمِل، ويُجازيهِمْ بالعَدل.

{وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاء وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} (العنكبوت : ٢٢)

٢٢- وما أنتُمْ بمانِعينَ اللهَ مِنْ أنْ يُجرِيَ حُكمَهُ وقَضاءَهُ فيكم، أينَما كنتُمْ ومَهما تحصَّنتُم، في الأرْضِ أو في السَّماء، فكُلُّ شَيءٍ مُلْكُهُ، وحُكمُهُ وتَصَرُّفُهُ نافِذٌ في كُلِّ مَكان، ولا أحَدَ يَقدِرُ على مَنعِ عَذابَ اللهِ إذا قَدَّرَهُ عَليكم، ولا أنْ يَدفعَهُ عَنكمْ إذا نَزلَ بِكم.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (العنكبوت : ٢٣)

٢٣- والذينَ كفَروا بالمعجِزاتِ التي أيَّدتُ بها رسُلي، وبالكتُبِ التي أنزَلتُها عَليهم، وجحَدوا بالبَعثِ والنُّشور، فهؤلاءِ يائسونَ مِنْ رَحمَةِ اللهِ وجنَّتِه، فلا نَصيبَ لهمْ فيها يَومَ القِيامَة، ولهمْ عَذابٌ شَديد.

{فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (العنكبوت : ٢٤)

٢٤- فلمَّا دعَا إبراهيمُ قَومَهُ إلى التَّوحيد، وبالغَ في مُحاورَتِهمْ ودَعوَتِهمْ إلى الدِّينِ الحَقّ، ودحَضَ شُبُهاتِهمُ الفاسِدَةَ والسَّخيفَة، ولم تَكنْ عِندَهمْ حُجَّةٌ للرَدِّ عَليه، عانَدوا وكابَروا، وقالوا: اقتُلوا إبراهيمَ أو أحرِقوهُ بالنَّار. فألقَوهُ في نَارٍ كبيرَة، ولكنَّ اللهَ سَلَّمَهُ منها، وجعلَها عَليهِ بَردًا وسَلامًا. وفي إنقاذِهِ منها، وحِفظِهِ مِنْ حَرِّها، وسَلبِ مادَّةِ الإحراقِ منها، دلائلُ بَيِّنَةٌ على قُدرَةِ اللهِ تَعالَى، لمنْ تأمَّلَ فيها وصَدَّقَ بها.

{وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ} (العنكبوت : ٢٥)

٢٥- وقالَ إبراهيمُ عَليهِ السَّلامُ في وَعظِهِ وإنذارِهِ لقَومِه: إنَّما عَبدتُمْ هذهِ الأصْنامَ لتتَوادَدوا بينَ بَعضِكمُ البَعض، وتَتآلَفوا وتَتواصَلوا عندَ اجتِماعِكمْ على عِبادَتِها في الحيَاةِ الدُّنيا، أمَّا في يَومِ القِيامَةِ فيَتحَوَّلُ هذا التَّحابُبُ بينَكمْ إلى كُفرٍ وبُغض، فتَجحَدونَ ما كانَ بينَكمْ مِنْ ذلك،

ويَلعَنُ الأتباعُ منكمُ المتبُوعين، والعَبَدَةُ مَعبوديهم، ومَنزِلُكمُ الذي تأوونَ إليهِ جَميعًا هوَ النَّار، ولا مُعينَ لكمْ يَومَئذٍ ولا مُنقِذَ ليُخَلِّصَكمْ منها.

{فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (العنكبوت : ٢٦)

٢٦- وآمنَ لوطٌ بدَعوَةِ إبراهيم، عَليهما السَّلام، وكانَ مِنْ أقرِبائه. وقالَ إبراهيم: سأترُكُ قَوميَ الكُفَّارَ وأُهاجِرُ إلى الجِهَةِ التي أمرَني بها رَبِّي حَيثُ لا أُمنَعُ مِنْ عِبادَتِه، واللهُ قَويٌّ يَمنَعُ عنِّي أعدَائي ولا يُغالَب، حَكيمٌ في أمرِهِ ونَهيه، فلا يأمرُ إلاّ بما فيهِ صَلاحي.

{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} (العنكبوت : ٢٧)

٢٧- ولما فارقَ قَومَهُ أقرَّ اللهُ عَينَهُ وأجابَ دُعاءَه، فوهبَ لهُ إسحَاق، وقدْ كانَ عَجوزًا كبيرًا في السِّنّ، وكذلكَ زوجَتُه. ثمَّ وهبَ لهُ يَعقوب، زيادَةً عمَّا سأل، وهوَ ابنُ ابنِهِ إسحَاق. وجعلَ في ذُرِّيَّتِهِ النبوَّةَ والكِتاب، فلمْ يُبعَثْ نَبيٌّ بعدَهُ إلاّ وهوَ منْ سُلالَتِه. وجعلَهُ مِنَ السُّعداءِ في الحيَاةِ الدُّنيا وفي الآخِرَة، فآتاهُ النبوَّة، وهيَ أكمَلُ ما يَكونُ بِهِ الإنسَان، معَ الثَّناءِ عَليهِ منْ جَميعِ أهلِ الأدْيان، فكانَ إمامًا للنَّاس، وخَليلَ الله، وهوَ في الآخِرَةِ مِنَ الصَّالِحينَ الذينَ يُضاعَفُ لهمُ الثَّواب، ويَكونُ في أعلى دَرجاتِ الجنَّة.

{وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ} (العنكبوت : ٢٨)

٢٨- وأرسَلنا لُوطًا إلى قَومِهِ ليَعِظَهمْ ويُنذِرَهم، فقالَ لهم: إنَّكمْ تَقومونَ بفاحِشَةٍ مُنكَرَةٍ لم يَسبِقْكُمْ إليها أحَد، وهيَ فِعلَةٌ قَبيحَة مَشينَة، وشاذَّةٌ مُنكَرَة، مُناقِضَةٌ للفِطرَة، تَنفِرُ منها النفوسُ الكريمَة، ويترتَّبُ عَليها أمراضٌ كثيرَة، جِنسيَّةٌ وغَيرُ جِنسيَّة.

{أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} (العنكبوت : ٢٩)

٢٩- إنَّكمْ تأتونَ الرِّجالَ في أدبارِهمْ وتَتركونَ ما خلقَ اللهُ لكمْ مِنْ زَوجات، وتَقطَعونَ الطَّريقَ على النَّاسِ فتَقتلونَهمْ وتأخذُونَ أموالَهم، وتَفعَلونَ في مجلسِكمُ الذي تَجتَمِعونَ فيهِ ما هوَ مُنكَرٌ وفاحِشٌ منَ الأقوَالِ والأفعَال.

ذُكِرَ أنَّهمْ كانوا يُلاوِطونَ فيهِ جِهارًا بعضُهم أمامَ بَعض، أو يَضرِطونَ ويَضحَكون، وقيلَ غَيرُ ذلك.

فما كانَ جوابَ قَومِ لُوطٍ لما أنكرَ عَليهمْ إلاّ أنْ قالُوا سُخريَةً منه: ليَنْزِلْ بنا عَذابُ اللهِ إذا كُنتَ صادِقاً فيما تَعِدُنا به.

{قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ} (العنكبوت : ٣٠)

٣٠- قالَ لُوطٌ عليهِ السَّلامُ وقدْ عَلِمَ أنْ لا أمَلَ في إصْلاحِهم: اللهمَّ انصُرني بإنزالِ العَذابِ على القَومِ الفاسِدينَ في أخلاقِهمْ وسُلوكِهمْ وسُوءِ أفعالِهم.

{وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ} (العنكبوت : ٣١)

٣١- ولما جاءَتِ الملائكةُ تُبَشِّرُ إبراهيمَ بإسحَاقَ ويَعقوب، قالوا له: جِئنا لنُهلِكَ أهلَ القَريَةِ التي تَعمَلُ الفاحِشَةَ مِنْ قَومِ لُوط، فهمْ ظالِمونَ مُتمادونَ في الغَيِّ والفَسَاد، لا يَنتَهونَ عنْ فاحِشَةِ اللِّواط.

{قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} (العنكبوت : ٣٢)

٣٢- قالَ لهمْ إبراهيمُ عَليهِ السَّلامُ يُجادِلُهم: لكنَّ فيها لوطًا، فكيفَ تُهلِكونَهمْ وهوَ بينَهم؟ قالوا: نحنُ أعلَمُ مِنكَ بمَنْ فيها مِنَ المؤمِنين، سنُنجيهِ وأهلَهُ مِنْ بينِهمْ قَبلَ أنْ يَنزِلَ بهمُ العَذاب، إلاّ امرأتَهُ الكافِرَة، فإنَّها منَ الباقينَ في القَريَةِ ليُصيبَها ما أصابَهم.

{وَلَمَّا أَن جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ} (العنكبوت : ٣٣)

٣٣- ولما أتَتْ ملائكتُنا لوطًا لم يَعرِفْهمْ أوّلاً، فساءَهُ أمرُهم، وضاقَتْ نَفسُهُ بهم، خَشيَةَ أنْ يَراهُمْ قَومُهُ فيُؤذوهُم، فقالوا لهُ يُهَدِّؤونَهُ ويُطَمئنونَه: لا تَخَفْ مِنْ قَومِك، فنَحنُ ملائكَةُ الله، سنُخَلِّصُكَ وأهلَكَ مِنَ العَذاب، إلاّ امرأتَكَ العَجوزَ التي لم تؤمِنْ مِنْ بينِ أهلِك، فإنَّها مِنَ الباقينَ في العَذاب.

{إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} (العنكبوت : ٣٤)

٣٤- سنُنْزِلُ بأهلِ هذهِ القَريَةِ المجرِمينَ عَذابًا مِنَ السَّماء، بسبَبِ فِسقِهِمْ وفُجورِهم، وإصرارِهِمْ على مَعصِيَةِ الله.

{وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (العنكبوت : ٣٥)

٣٥- ولقدْ ترَكنا مِنْ هذهِ القَريَةِ آثارًا ودَمارًا، فيها عِبرَةٌ ظاهِرَة، لقَومٍ يتَدبَّرونَ ويَعتَبِرون. وقُرَى قَومِ لُوطٍ كانتْ في مَنطِقَةِ البَحرِ الميّت، وهيَ مَليئةٌ بالآثارِ الدالَّةِ على ما وقعَ بهمْ مِنَ العذاب. وقدْ أثبتَتْ دِراساتُ عُلومِ الأرضِ أنَّ طبقاتُ الصخورِ في مِنطَقَةِ جَنوبِ البحرِ الميّتِ مَقلوبَةٌ رأسًا على عَقِب، كما وردَ في قَولِهِ تعالَى: {فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ} [سورة هود: ٨٢].

{وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} (العنكبوت : ٣٦)

٣٦- وأرسَلنا إلى مَدْيَنَ أخاهُمْ في النَّسَبِ شُعَيبًا، وكانوا كُفَّارًا يَغُشُّونَ في البَيعِ والشِّراء، ويُفسِدونَ في الأرض[١٠٥]، فقالَ لهم: يا قَوم، اعبُدوا اللهَ وحدَهُ لا شَريكَ له، واخشَوا عَذابَهُ

(١٠٥) سمُّوا مَدْيَنَ باسمِ أبيهم، وهو مَدينُ بن إبراهيم. وقيل: باسمِ مدينتهم. (فتح القدير، عند تفسيرِ الآيةِ ٨٤ من سورةِ هود).

يَومَ القيامَة، فإنَّهُ مُحاسِـــبُكمْ على أعمالِكم، ولا تُفسِـــدوا في الأرْضِ بقَطعِ الطَّريق، والتَّحايُلِ على النَّاس.

{فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} (العنكبوت : ٣٧)

٣٧- فكذَّبوا نبيَّهمْ شُـعَيبًا وجحَدوا رِســالتَه، فزَلزَلَ اللهُ الأرْضَ مِنْ تَحتِ أقدَامِهم، وأخذَتْهمْ صَيحَةٌ عَظيمَة، فأصبَحوا في مَكانِهمْ خامِدينَ هامِدين، لا حِراكَ بهم، ولا حِسَّ لهم.

{وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـــاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّـــيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَـــدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ} (العنكبوت : ٣٨)

٣٨- وأهلَكنا عادًا قَومَ هُود، وكانوا كُفَّارًا عُتاةً جَبَّارِين، يَسكنونَ الأحقَافَ، بينَ حَضرَمَوتَ وعُمَان، وأهلَكنا ثَمودَ قَومَ صـــالِح، وكانوا بينَ الحِجازِ والشَّـــام، ولهمْ آثارٌ مَعروفَةٌ في "مَدائنِ صـالح" ببلادِ الحرَمَين، وكانوا أقوياء، أهلَ مَدنيَّةٍ وثَراء، فكذَّبوا رَسـولَهمْ واستَكبَروا عنِ اتِّباعِه. فأهلكَهمُ اللهُ جَميعًا، وقدْ تبيَّنَ لكمْ ذلكَ مِنْ خِلالِ آثارِهمُ التي تَمرُّونَ بها.

ووَسوَسَ الشَّيطانُ في قُلوبِهمْ فحسَّنَ لهمْ ما يَقومونَ بهِ مِنْ أعمالِ الكُفرِ والمعاصي، فأطاعُوه، فمنعَهمْ مِنْ سُلوكِ الطَّريقِ المستَقيم، واتِّباعِ الحَقِّ المبين، وكانوا عُقَلاءَ مُتمَكِّنينَ مِنَ التمييزِ بينَ الحقِّ والباطِل، والحَقُّ ظاهِرٌ قَويٌّ بأدلَّتِه، ولكنَّهمْ عانَدوا فجَحَدوا.

{وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءهُم مُّوسَـى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْـتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ} (العنكبوت : ٣٩)

٣٩- وأهلَكَ اللهُ قارُونَ، الذي كانَ مِنْ بَني إسْـرائيل، مِنْ أقرِباءِ موسَـى عَليهِ السَّـلام، وكانَ ثَريًّا جِدًّا، فأعمَاهُ ذلك، فطغَى وتجبَّرَ على قَومِه، ولم يشكُرْ نِعمَةَ اللهِ عَليه.

وأهلكَ اللهُ فِرعَونَ، الذي استَكبَرَ واستَعلَى وادَّعَى أنَّهُ الربُّ الأعلَى!

ومِثلَهُ وزيرَهُ هامَان، الذي طلبَ منهُ فِرعَونُ أنْ يَبنيَ لهُ صَـــرْحًا عاليًا جِدًّا ليَطَّلِعَ منهُ على رَبِّ موسَى، كما ادَّعَى ذلكَ عَليهِ لَعنَةُ الله، فبَناهُ له.

وقدْ أيَّدَ اللهُ نبيَّهُ موسَـــى بمُعجِزاتٍ كبيرَةٍ ظاهِرَةٍ في إعجَازِها، كافيَةٍ للإيمانِ برســالَتِه، ولكنَّهمْ كفَروا واســتَكبَروا عنِ الإيمانِ والطَّاعَةِ في هذهِ الأرْض، التي وُلِدوا فيها ليُعمِّروها على أسَــاسٍ مِنَ التَّقوَى والصَّلاح. وما كانوا ليَفوتوا أمرَ الله، فهوَ لهمْ بالمرصاد.

{فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} (العنكبوت : ٤٠)

٤٠- فعاقَبنا كُلاًّ بما يُناسِبُهُ ويُلائمُ جُرمَه، فمنهمْ مَنْ أهلَكناهُمْ بريحٍ عاصِفٍ فيها حَصباء، وهُمْ عادٌ قَومُ هُود، وكانوا أقوياءَ مُتَجبِّرين.

ومنهمْ مَنْ أهلَكناهُ بالصَّيحَةِ القَويَّة، التي خلَعَتْ قلوبَهُمْ وأخمَدَتْ أصواتَهم، منَ الهَلَعِ والفَزَع، فصَاروا جاثِمينَ هامِدين، لا حركَةَ لهم، وهُمْ ثَمودُ ومَدْيَن.

ومنهمْ مَنْ خسَفنا بهِ وبدارِهِ الأرض، كقارُون، الذي أَشِرَ وبَطِر، وكفرَ بنِعمَةِ رَبِّه.

ومنهمْ مَنْ أغرَقناهُمْ بماءِ الطُّوفان، وماءِ البَحر، كقَومِ نوحٍ، وفِرعَونَ وجُندِه.

وما كانَ اللهُ ليُهلِكَهمْ بدُونِ ذَنب، ولكنَّهمْ عُوقِبوا لكُفرِهمْ وتَكذيبِهمْ أنبياءَهم، ولظُلمِهمْ وفَسادِهم، ولم يَرتَدِعوا عَنْ ذلك.

{مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} (العنكبوت : ٤١)

٤١- إنَّ مثَلَ المشرِكينَ الذينَ اتَّخَذوا مِنَ الأصْنامِ أو غَيرِها آلِهَةً يَعبدُونَها ويَعتَمِدونَ عَليها مِنْ دونِ الله، ويَرجونَ نَصــرَها ومَنفَعَتَها، هوَ كمَثَلِ بَيتِ العَنكبوتِ في ضَــعفِهِ ووَهَنِه، الذي لا يَدفَعُ عَنها حَرًّا ولا بَردًا، ولا رِيحًا ولا مطَرًا. فما هوَ سِــوَى خيوطٍ حَريريَّةٍ دَقيقَةٍ وناعِمَةٍ جِدًّا، تَفرِزُها وتُكَوِّنُ منها نَســيجًا شــبَكيًّا، لا يُحِسُّ بها المرءُ وهوَ يَقطَعُها، فهوَ أضــعَفُ البُيوتِ وأوهَنُها.

وكذلكَ المشــرِكون، الذينَ لا يَحصُــلونَ على نَفعٍ مِنْ آلِهَتِهمُ التي يَدْعونَها، إلاّ كمَنْ يتمسَّــكُ ببَيتِ العَنكبوت، الذي لا يُجدِي شَيئًا. ولو عَلِموا ذلكَ لما اتَّخَذوهمْ أولِياء.

{إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (العنكبوت : ٤٢)

٤٢- واللهُ يَعلَمُ أنَّ الذي يَعبدُونَهُ ليسَ بشَيءٍ يُعبَأُ به، ولنْ يُفيدَهمْ شَيئًا، وليُحاسِبنَّهمْ على عدَمِ استِعمالِ عُقولِهم، وعلى استِكبارِهمْ عنِ اتِّباعِ الحَقّ، واللهُ هوَ القادِرُ القاهِر، الحَكيمُ في أمرِهِ وتَدبيرِه، فكيفَ يُشرِكونَ بهِ أصْنامًا لا تَعي ولا تَتكَلَّم؟!

{وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} (العنكبوت : ٤٣)

٤٣- وهذهِ الأشـباهُ والأمثالُ التي في القُرآن، نُبَيِّنُها للنَّاسِ لنُقَرِّبَ بها الحقَائقَ إلى أفهامِهمْ ومدارِكِهم، ولا يتدَبَّرُها ويَستَنتِجُ منها العِبَرَ والفَوائدَ إلاّ الرَّاسِخونَ في العِلم، الذينَ يَعقِلونَ عنِ الله، فيَعمَلونَ بطاعَتِه، ويتَجنَّبونَ سَخَطَه.

{خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ} (العنكبوت : ٤٤)

٤٤- خلقَ اللهُ هذهِ السَّـماواتِ العَظيمَة، وهذهِ الأرْضَ وما فيها، بالحَقِّ والعَدل، ولحِكمَةٍ وغايَة، وليسَ عبَثًا ولَعِبًا، وفي ذلكَ دلالَةٌ عل تَوحيدِ اللهِ وإبداعِهِ وقُدرَتِهِ وحُسـنِ تَدبيرِه، للمُصَدِّقينَ بذلك.

{اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} (العنكبوت : ٤٥)

٤٥- داوِمْ على تِلاوَةِ كتابِ اللهِ أيُّها الرَّسـولُ الكَريم، وبَلِّغْهُ النَّاس، وحافِظْ على إقامَةِ الصَّـلاة، فإنَّ المداوَمةَ عَليها تُعينُ على تَركِ المنكَراتِ والفَواحِش، وذِكرُ اللهِ إيَّاكمْ أكبَرُ مِنْ ذِكرِكمْ إيَّاهُ سُبحانَه، قالَ جَلَّ شَأنُه: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} [سورة البقرة: ١٥٢]. واللهُ يَعلَمُ ما تَصنَعونَهُ مِنْ خَيرٍ وشَرّ، لا يَخفَى عَليهِ شَيءٌ مِنْ ذلكَ، ويُحاسِبُ كُلاًّ بما عَمِل، ويُجازيهِ بما يَستَحِقّ.

سورة العنكبوت (٤٦-٦٩)
سورة الروم
سورة لقمان
سورة السجدة
سورة الأحزاب (١-٣٠)

{وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} (العنكبوت : ٤٦)

٤٦- ولا تُجادِلوا أهلَ الكتاب، مِنَ النَّصارَى وغيرِهم، إلاّ بالأسلوبِ الحسَن، والحوارِ الهادِئِ المشفُوعِ بالنُّصح، كمُقابَلةِ الخُشونَةِ باللّين، والغضَبِ بالحِلمِ والأناة، إلاّ مَنِ اعتدَى منهمْ وعانَد، وكابرَ وخاصَم، ولم يُفِدْ فيهمُ الرِّفق، ولا قَبولُ الحُجَّةِ المقنِعَة، والدليلِ القاطِع، فيُدافَعونَ بما يَليقُ بهم، وقُولوا لهم: آمَنَّا بما أُنزِلَ إلينَا مِنَ القُرآن، وبما أُنزِلَ إليكمْ مِنَ التَّوراةِ والإنجيل، وإلهُنا وإلهكمْ واحِدٌ لا شَريكَ له، ونحنُ مُخلِصونَ لهُ في عِبادَتِه، مُطيعونَ لأوامرِه.

{وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ} (العنكبوت : ٤٧)

٤٧- وكما أنزَلنا الكتُبَ السَّابقَةَ على الأنبِياء، كذلكَ أنزَلنا عَليكَ القُرآن، فالذينَ آتَيناهمُ الكتابَ مِنَ اليَهودِ والنَّصارَى، مِنْ أحبارِهمُ المخلِصينَ وعُلمائهمُ المؤمنينَ الصَّادِقين، يُؤمِنونَ بالقَرآنِ الكريم، ومِنَ العرَبِ مَنْ يؤمِنُ بهِ كذلك، وما يُكَذِّبُ بمُعجِزاتِنا التي أيَّدْنا بها رسُلَنا إلاّ المكابِرونَ المصِرُّونَ على الكُفر.

{وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} (العنكبوت : ٤٨)

٤٨- وقَبلَ أنْ يَنزِلَ عَليكَ القُرآنُ ما كُنتَ تَقرأ كتابًا ولا تُحسِنُ كِتابَة، وكُلُّ قَومِكَ يَعرِفونَ هذا منك، ولو كنتَ تَقرَأ أو تَكتُب لشَكَّ المشرِكونَ في أمرِك، واتَّهَموكَ بالنَّقلِ والتأليفِ والتركيب، ولقالَ أهلُ الكتاب: إنَّ الذي نَجِدُهُ عندَنا في وَصفِ النبيِّ الجَديدِ أنَّهُ أُمِّيٌّ وأنتَ لستَ كذلك.

{بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ} (العنكبوت : ٤٩)

٤٩- فليسَ القُرآنُ مِمّا يُرتابُ فيه، بلْ هوَ آياتٌ واضِحات، راسِخاتٌ في صُدورِ المؤمِنينَ الحافِظِينَ له، لا يَستَطيعُ أحَدٌ أنْ يُحَرِّفَه، وما يَكفرُ بآياتِنا إلاّ المكابِرونَ المعتَدون، الذينَ يَعرِفونَ الحقَّ ثمَّ يُعرِضُونَ عنه.

{وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ} (العنكبوت : ٥٠)

٥٠- وقالَ المشرِكون: هَلاّ أُنزِلَتْ على هذا النبيِّ مُعجِزاتٌ كما أُنزِلَتْ على الأنبياءِ السَّابِقين، مثلُ عَصا موسَى وناقَةِ صالح؟ قُلْ لهمْ أيُّها الرَّسُول: إنَّ ذلكَ بيدِ الله، يأتي بها إنْ شاء، ولو عَلِمَ هِدايتَكمْ بها لأجابَكمْ إليها، ولو أنَّها أُنزِلَتْ ولم تؤمِنوا بها لأهلكَكم، وإنَّما أنا مُنذِرٌ مَبينٌ للعالَمينَ أجمَعين، وما عليَّ إلاّ البلاغ.

{أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (العنكبوت : ٥١)

٥١- أوَلَمْ يَكفِهِمْ مُعجِزَةً هذا القُرآنُ الذي أنزَلناهُ عَليك، وهوَ يُقرَأُ عَليهِمْ ويَعرِفونَهُ جَيِّدًا، وفيهِ مِنَ الإعجازِ والتحَدِّي ما يَكفي دَليلاً أنَّهُ مِنْ عندِ الله، فلم يَستَطِعْ أحَدٌ أنْ يأتيَ بِمِثْلِهِ أو بآياتٍ مِنْ مِثلِه؟ وفي بقائهِ مَحفوظًا مِنْ غَيرِ أنْ يَنالَهُ تَغييرٌ أو تَبديل، وكونِهِ مُتَحَدًّى بهِ إلى آخِرِ الدَّهر، آيَةٌ أُخرَى عَظيمَة، وهوَ نِعمَةٌ كبيرَةٌ للنَّاس، وتَذكِرَةٌ وعِظَةٌ لِمَنْ آمَنَ واهتدَى به،

ففيهِ بيانٌ للحقّ، ودَحضٌ للباطِل، وفيهِ أحداثٌ وعِبَر، وقَصَصٌ وتَوجيهات، وأحكامٌ ووَصايا، كُلُّها لأجلِ مَصلحَةِ الإنسانِ وسعادَتِه.

{قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} (العنكبوت : ٥٢)

٥٢- قُلْ لهمْ أيُّها النبيُّ الكريم: اللهُ سُبحانَهُ عالِمٌ بما أُرسِلتُ بهِ وبما أُبَلِّغُهُ لكم، وعالِمٌ بكمْ وبتَكذيبِكمْ رسالتَه، والأمرُ إليهِ في الحُكمِ بَيني وبينَكم، وهوَ اللَّطيفُ العالِمُ بكُلِّ ما في السَّماواتِ والأرْض، فلا يَخفَى عَليهِ شَيء. والذينَ آمَنوا بالأصْنامِ وطاوَعوا الطَّواغيت، وكفَروا باللهِ وهو خالِقُهمْ ورازِقُهمْ ومالِكُ أمرِهم، همُ الخاسِرونَ النادِمون، الذينَ يُجزَونَ شَرًّا على أعمالِهِمُ السيِّئةِ يَومَ القِيامَة.

{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} (العنكبوت : ٥٣)

٥٣- ويَستَعجِلُكَ المشرِكونَ بالعَذاب، ولولا أنَّ اللهَ قَدَّرَ لهمُ العَذابَ في وَقتٍ مُعَيَّن، لحَلَّتْ بهِمْ نِقمَتُه، وسيَأتيهِمْ فَجأةً وهمْ غافِلونَ عنه.

{يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} (العنكبوت : ٥٤)

٥٤- إنَّهُمْ يَستَعجِلونَ العَذابَ وهوَ مُحيطٌ بهِم، فهوَ واقِعٌ بهِمْ لا مَحالَة، ولنْ يَبقَى كافِرٌ إلاّ ويَدخُلُ جَهنَّم.

{يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (العنكبوت : ٥٥)

٥٥- في ذلكَ اليَومِ المخُوفِ المهُول، الذي يُؤمَرُ بهِمْ إلى النّار، يَأتيهِمُ العَذابُ مِنْ كُلِّ الجِهات، مِنْ فَوقِهم، ومِنْ تَحتِ أرجُلِهم، وبالغُدوِّ والآصال، ويَقولُ اللهُ لهم: ذُوقوا جَزاءَ ما كنتُمْ تَعمَلونَهُ في الدُّنيا، وما كنتُمْ تَستَعجِلونَهُ مِنَ العَذاب، فقدْ حَلَّ أجَلُه.

{يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ} (العنكبوت : ٥٦)

٥٦- يا عِبادِيَ المؤمِنين، إنَّ أرضِي واسِعَة، وفيها ما يُمكِنُ أنْ تُقيمُوا شعائرَ دينِكم، وتَعبدُوهُ كما أمرَكم، فاعبُدوني ولا تُشركوا بي شَيئًا، وأطيعوني ولا تُهمِلوا ما أمرتُكمْ به.

وأكثَرُ المفَسِّرينَ على أنَّهُ أمرٌ للمُستَضعَفينَ في مكَّةَ بالهِجرَة.

{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} (العنكبوت : ٥٧)

٥٧- كُلُّ نَفسٍ حَيَّةٍ سيَأتي عَليها الموت، فلا تُقيموا في دارِ الشِّركِ خَوفًا مِنْ أنْ يُصيبَكمُ الموتُ إذا هاجَرتُم، ثمَّ إلينا مَرجِعُكمْ جَميعًا لنُحاسِبَكمْ على أعمالِكم، ونُجازيَكمْ بما تَستَحِقُّون.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} (العنكبوت : ٥٨)

٥٨- والذينَ آمَنوا وأخلَصوا في إيمانِهم، وأتْبَعوا إيمانَهُمْ بالعمَلِ الصَّالِحِ الموافِقِ لِما أمرَ اللهُ به، لنُسكِنَنَّهمْ مَنازِلَ عاليَةً في الجنَّة، تَجري الأنهارُ مِن خلالِ أشجارِها ومَساكنِها، فتَزيدُها بَهجَةً وجَمالاً، ماكثينَ فيها أبدًا، فنِعْمَ هذا الجَزاءُ على ما عَمِلَهُ المؤمِنون،

{الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} (العنكبوت : ٥٩)

٥٩- الذينَ صبَروا على أذَى المشرِكين، وتحَمَّلوا مَشاقَّ الدَّعوَةِ والجِهاد، فكانوا مِنَ الصَّابرينَ على طاعَةِ رَبِّهم، مُعتَمِدينَ عَليهِ في جَميعِ أحوالِهم.

{وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (العنكبوت : ٦٠)

٦٠- وما أكثرَ الدوابَّ التي تَحتاجُ إلى غِذاءٍ ولا تَقدِرُ على حَمْلِهِ لضَعفِها، ولا تدَّخِرُ شَيئًا لغَد، ثمَّ اللهُ يَرزُقُها وإيَّاكم، فيُيَسِّرُهُ لكمْ حيثُ كنتُم، فلا تَخشَوا الفَقرَ إذا هاجَرتُمْ وترَكتُمْ أموالَكم، وهوَ السَّميعُ لأقوالِكم، العَليمُ بما تُكِنُّونَهُ في قُلوبِكم.

{وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} (العنكبوت : ٦١)

٦١- وإذا سألتَ المشرِكين: مَنِ الذي استقَلَّ بخَلقِ السَّماواتِ والأرْض؟ ومَنِ الذي سَيَّرَ الشَّمسَ والقمَرَ وذَلَّلهما لمصالِحِ الإنسَان؟ لقَالوا: هوَ الله. قُلْ لهم: إذا كانَ الأمرُ كذلكَ فلماذا تَعبُدونَ غَيرَهُ وتدَّعونَ أنَّهمْ آلِهَة؟!

{اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (العنكبوت : ٦٢)

٦٢- اللهُ سُبحانَهُ هوَ الرَّازِق، الذي يَزيدُ في رزقِ عِبادٍ لهُ ويَجعَلُهمْ أغنِياء، ويُضَيِّقُ على آخَرينَ فيَكونونَ فُقَراء، واللهُ عالِمٌ بكُلِّ شَيء، وعارِفٌ بمَنْ يَصلُحُ لهُ الغِنَى، ومَنْ يَصلحُ لهُ الفَقر.

{وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} (العنكبوت : ٦٣)

٦٣- وإذا سألتَهم: مَنِ الذي أنزَلَ المطرَ مِنَ السَّحاب، فأحيا بِهِ الأرْضَ وقدْ كانتْ جَرداءَ قاحِلَة، فأنبَتَتِ الزَّرعَ والثَّمَر، وجرَتْ بِهِ الأنهار؟ لقَالوا: اللهُ أنزَلَ المطَر. قُلْ أيُّها النبيّ: الحَمدُ للهِ على إقرارِهِمْ بفَضلِ الله، ولكنَّهمْ يُشرِكونَ بهِ في عِبادَتِهِمْ أصْنامًا لا تَنفَعُهمْ بشَيء، فأكثَرُ هؤلاءِ المشركِينَ سُفهاءُ جاهِلون.

{وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} (العنكبوت : ٦٤)

٦٤- وليسَتْ هذهِ الدُّنيا سِوَى استِمتَاعٍ وعبَث، تَنقَضي لذَّتُها بعدَ قَليل، كاجتِماعِ صِبيانٍ على لُعبَة، فيَبتَهِجونَ بها ساعَةً ثمَّ يتفرَّقون. والدَّارُ الآخِرَةُ فيها الحيَاةُ الحقيقيَّةُ الدَّائمَة، فلا مَوتَ فيها ولا زَوالَ عنها، ولو عَلِموا ذلكَ لما آثَروا عَليها الحيَاةَ الدُّنيا.

{فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} (العنكبوت : ٦٥)

٦٥- وإذا رَكِبَ المشرِكونَ السَّفينَة، وهاجَ بهمُ البَحر، وتحرَّكتْ بهمْ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمال، وخافُوا الغرَق، ترَكوا ما كانوا عليهِ مِنْ شِرك، وتوَجَّهوا في دُعائهمْ واستِغاثَتِهمْ إلى اللهِ وحدَه، وتَذلَّلوا لهُ بالطَّاعَةِ والعِبادَة، فإذا أنقذَهمْ مِنَ الغرَق، وآمنَهمْ ممّا كانوا فيهِ مِنْ خَوف، عادُوا إلى شِركِهمْ وجاهليَّتِهم.

{لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} (العنكبوت : ٦٦)

٦٦- وهكذا يُشرِكونَ باللهِ ليَكونُوا كافِرينَ بما أنعَمنا عَليهمْ مِنَ النجاة، ولِيَتَمتَّعوا باجتِماعِهمْ وتَوادِّهمْ على عِبادَةِ الأصْنام، فسَوفَ يَعلَمونَ عاقِبَةَ ما يَفعَلون، عندَما يُحاسَبون، ويُؤمَرُ بهمْ إلى مَآلِهِمُ المعلوم.

{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ} (العنكبوت : ٦٧)

٦٧- ألمْ يُشاهِدوا ويَعتَبِروا كيفَ جَعلنا بلدَهمْ مكَّةَ مَكانًا آمِنًا مِنَ القَتلِ والأسْر، والسَّلبِ والنَّهب، والنَّاسُ مِنْ حَولِهِمْ يَسبي بَعضُهمْ بَعضًا، ويُغيرونَ ويَنهَبونَ ويَتقاتَلون؟ أوَ بعدَ هذهِ النِّعمَةِ يَعبُدونَ الأصْنام، ويَكفُرونَ بنِعمةِ اللهِ وفَضلِهِ عَليهم، ويُكذِّبونَ نَبيّ اللهِ ويَجحَدونَ رِسالةَ رَبِّهم؟

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ} (العنكبوت : ٦٨)

٦٨- وليسَ هُناكَ أعظَمُ كَذِبًا ممَّنِ ادَّعَى معَ اللهِ آلِهَةً وعبَدها معَه، أو كذَّبَ بالقُرآنِ والرَّسولِ حينَ مجيئه. ولكنْ أليسَ المثوَى الأخيرُ لهذا الكافرِ جهنَّم، ليَبقَى فيها مُعَذَّبًا وخالِدًا مُخَلَّدًا؟

{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} (العنكبوت : ٦٩)

٦٩- والذينَ جاهَدوا المشرِكينَ في سَبيلِنا بإخلاصٍ وتَقوًى، لَنُبَصِّرَنَّهُمْ طَريقَنا السويَّةَ التي تأخذُ بيَدِهِمْ إلى الفَوزِ والفَلاحِ، وإنَّ اللهَ معَ المحسِنين، الذينَ جاهَدوا وتحمَّلوا مشَاقَّ الدَّعوَة، وصَبَروا على تَكاليفِ الدِّين، فيُؤيِّدُهمْ ويُعِينُهمْ في الحيَاةِ الدُّنيا، ويَجزيهمْ ثَوابًا عَظيمًا يَومَ القيامَة.

سورة الروم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{الم} (الروم : ١)

١- الحروفُ المقَطَّعَةُ لم يَرِدْ في تَفسيرِها حَديثٌ صَحيح، واللهُ أعلمُ بمَعناها.

{غُلِبَتِ الرُّومُ} (الروم : ٢)

٢- غُلِبَتِ الرُّومُ في حَربِها معَ الفُرس،

{فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ} (الروم : ٣)

٣- في أقرَبِ أرضِ الرُّومِ إلى فارِس، فاستَولَى سابُورُ مَلِكُ الفُرسِ على بِلادِ الشَّامِ وما وَالاها، وأقاصي بِلادِ الرُّوم، حتَّى اضطُرَّ هِرَقْلُ مَلِكُ الرُّومِ إلى اللُّجوءِ إلى القِسطَنطِينيَّة، وحُوصِرَ فيها مُدَّةً طَويلَة. وبَعدَ أنْ هُزِمَتِ الرُّومُ، ستَنتَصِرُ على فارِس،

{فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ} (الروم : ٤)

٤- بعدَ بِضْعِ سنَوات، وهوَ ما بينَ الثَّلاثِ والتِّسْع. والحُكمُ والقضَاءُ للهِ وحدَه، قَبلَ الغلَبَةِ على الرُّومِ وبَعدَها. وعندَما تَنتَصِرُ الرُّومُ يَفرَحُ المسلِمون،

{بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} (الروم : ٥)

٥- بنَصرِ اللهِ إيَّاهُمْ على فارِس. وكانَ المشرِكونَ يُحِبُّونَ أنْ تَنتَصِرَ فارِسُ لأنَّهُمْ أهلُ شِرك، ويُحِبُّ المسلِمونَ أنْ تَظهرَ الرُّومُ عَليهِمْ لأنَّهُمْ أهلُ كِتاب. واللهُ يَنصرُ مَنْ يَشاءُ، فالأمرُ لهُ وحدَه، وهوَ العَزيزُ في انتِقامِهِ مِنْ أعدَائه، الغالِبُ الذي لا يُقْهَر، الرَّحيمُ بعِبادِهِ المؤمِنين.

{وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (الروم : ٦)

٦- ووَعدُ اللهِ بنَصرِ الرُّومِ على الفُرسِ وَعدٌ حَقٌّ لا يُخْلَف، ولكنَّ أكثرَ النَّاس، ومنهمْ مُشركو مكَّة، لا يَعلَمونَ ذلك، ولا يَتفَكَّرونَ في كلامِ اللهِ ووَعدِه، وقُدرَتِهِ وحِكمَتِهِ في أفعالِه.

{يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} (الروم : ٧)

٧- إنَّما يَعلَمونَ ظاهِرَ ما هُمْ فيهِ مِنَ الحيَاةِ الدُّنيا، كأمرِ التكَسُّبِ والتِّجارَة، والغِراسِ والحَصاد، والشَّهواتِ والمِلذَّات، وهمْ سَاهونَ عنِ الدَّارِ الآخِرَة، جاهِلونَ بها، لا يَتفَكَّرونَ فيها ولا يَعمَلونَ لها.

{أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ} (الروم : ٨)

٨- ألا يَتفَكَّرونَ في أنفُسِهمْ وطَبيعَةِ تَكوينِهمْ وهَيئتِهم، وفيما حَولَهُمْ مِنْ أعاجِيبِ الخَلق، وهذهِ السَّماواتِ الكبيرَة، والأرْضِ وما فيها، وما بينَهما، وأنَّ اللهَ لم يَخلُقْهما إلاّ بالحَقِّ والعَدل، والحِكمَةِ وفائدَة، وهُما مَخلوقانِ إلى أجَلٍ مُحَدَّد، هوَ يَومُ القيامَة، ولكنَّ كثيرًا مِنَ النَّاسِ لا يُؤمِنونَ بالبَعثِ والحِساب، فهمْ مُعرِضونَ عمَّا يَنتَظِرُهمْ بعدَ الموت.

{أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} (الروم : ٩)

٩- أوَلمْ يَسِيروا في الأرْضِ لِيَنظُروا في آثارِ المكَذِّبينَ مِنْ قَبلِهم، ويَسألوا العُلماءَ عنْ قِصَصِهم، ويَقرَؤوا في الكتُبِ عنْ مَآلِهم، ويَعتَبِروا مِنْ عاقِبَةِ أمرِهمْ وهَلاكِهم؟ فقدْ كانوا أقوَى منهمْ أبدانًا، وحرَثوا الأرضَ للزراعَةِ وقَلَّبوا تُرابَها لاستِخراجِ ما فيها مِنْ مَاءٍ ومَعدِنٍ وغَيرِه، واستَغَلُّوها وعمَروها بالغَرسِ والصِّناعاتِ والعِمارات، أكثرَ ممَّا عمَرها مُشركو مَكَّة.

وقدْ جاءَتْهمْ رسُلُهمْ مُبَشِّرينَ ومُنذِرين، ومُؤيَّدينَ بمُعجِزاتٍ مِنْ عندِ رَبِّهم، فكذَّبوهمْ وعانَدوهم، وجحَدوا برسَالاتِ رَبِّهم، فأهلَكناهُم، وما ظَلَمَهمُ اللهُ بمُعاقَبتِهم، بلْ كانَ ذلكَ جَزاءَ فسادِهمْ وجَرائمِهمْ ومَعاصيهم، وعِنادِهمْ واستِكبارِهم، فهمُ الذينَ ظَلَموا أنفُسَهمْ بذلك.

{ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُون} (الروم : ١٠)

١٠- ثمَّ كانتِ النَّارُ عاقِبَةَ الذينَ أسَاؤوا العمَل، لأنَّهُمْ كذَّبوا بمُعجِزاتِ اللهِ الظاهِرَة، واستَهزَؤوا بها واحتقَروها، مع أنَّهُ لم يَكنْ بمَقدورِ أحَدٍ أنْ يأتيَ بمِثلِها.

{اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (الروم : ١١)

١١- اللهُ سُبحانَهُ يُنشِئُ الخَلقَ ابتِداءً ولم يَكونوا شَيئًا، ثمَّ يُعيدُ نَشأتَهُ بعدَ مَوتِهِ يومَ البَعث، ثمَّ تُرجَعونَ إليهِ - أيُّها الناسُ - ليُجازِيَكمْ على أعمالِكم.

{وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ} (الروم : ١٢)

١٢- وعندَما تَقومُ القيامَة، يَيْأسُ المشـــرِكونَ مِنْ كُلِّ خَير، فيَســـكتونَ ويَكتَئِبون، وتَنقَطِعُ حُجَّتُهم.

{وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاء وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ} (الروم : ١٣)

١٣- ولم تَنفَعْهُمْ عِبادَتُهُمْ للأصْنامِ وغَيرِها، التي اتَّخَذوها آلِهَةً مِنْ دونِ الله، فلمْ تَشفَعْ لهمْ يَومَ القيامَةِ وقدْ قُذِفوا في النَّار، فجحَدوها وتبرَّؤوا منها عندَما تبيَّنَ لهمْ حقيقَةُ أمرِها.

{وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ} (الروم : ١٤)

١٤- في ذلكَ اليَومِ العَصـــيب، الذي يُحاسَـــبُ فيهِ كُلٌّ على عمَلِه، يتميَّزُ المؤمِنونَ عنِ الكافِرين، ويَتفَرَّقُ بَعضُهمْ عنْ بَعض، فلا يَجتَمِعونَ بعدَها أبدًا.

{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ} (الروم : ١٥)

١٥- فأمَّا الذينَ آمَنوا بحَقّ، وعَمِلوا صـــالِحًا بإخْلاص، فهمْ في رياضِ الجنَّةِ النَّضِـــرَةِ الجَميلَةِ يَنعَمونَ ويَسعَدون.

{وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الْآخِرَةِ فَأُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ} (الروم: ١٦)

١٦- وأمَّا الذينَ كفَروا باللهِ، وجحَدوا بالمعجِزاتِ التي أيَّدَ بها رسُلَه، وبالأدلَّةِ والبَراهينِ الدالَّةِ على وَحدانيَّتِهِ وقُدرَتِه، وبالبَعثِ والحِسابِ بعدَ الموت، فأولئكَ مُقيمونَ في العَذاب، لا يَغيبونَ عنهُ أبدًا.

{فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ} (الروم : ١٧)

١٧- فتقَدَّسَ اللهُ وتنَزَّهَ عمَّا يَصِفُهُ بهِ المشرِكونَ مِنْ نَقصٍ وعَيب، فسَبِّحوهُ أيُّها المؤمِنونَ ونَزِّهوهُ عنْ كُلِّ ما لا يَليقُ بشأنِه، عندَ المسَاءِ واللَّيلُ يُقْبِل، وعندَ الصَّباحِ والنَّهارُ يُسفِر.

{وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ} (الروم : ١٨)

١٨- ولهُ الفَضلُ والنِّعمَةُ ولهُ الثَّناءُ الحسَن، المحمودُ في السَّماواتِ والأرْض، يَحمَدُهُ أهلُها ويُصَلُّونَ له، حينَ يَشتَدُّ اللَّيلُ بظَلامِه، وعِندَما يَتجلَّى النَّهارُ بضِيائه.

{يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} (الروم : ١٩)

١٩- هوَ اللهُ الخالِقُ القادِر، الذي يُخرِجُ الحَيَّ مِنَ الميِّت، فيُخرِجُ الزَّرْعَ مِنَ الحَبَّة، والفَرْخَ مِنَ البَيضَة، ويُخرِجُ الميِّتَ مِنَ الحَيّ، فيُخرِجُ الحَبَّةَ منَ الزَّرع، والبَيضَ مِنَ الطَّيرِ وغَيرِه، ويُميتُ أشياءَ لتَكونَ مادَّةً لحياةٍ أُخرَى في الإنسَانِ والكَون. كما يُحيي الأرضَ بعدَ موتِها، فيُخرِجُ نَباتَها وزَرعَها، كذلكَ يُحييكمْ بعدَ موتِكم، فيُخرِجُكمْ أحياءً مِن قُبورِكمْ إلى المحشَرِ للحِساب.

{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ} (الروم : ٢٠)

٢٠- ومِنْ آياتِهِ الدالَّةِ على كمَالِ قُدرَتِه، أنْ خلقَ أصلَكمْ مِنْ تُراب، ثمَّ إذا أنتُمْ بشَرٌ كُثُرٌ تَنتَشِرونَ في الأرْض.

{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (الروم : ٢١)

٢١- ومِنْ آياتِهِ العَظيمَةِ أنْ خلقَ لأجلِكم، إناثًا مِنْ جِنسِكم، تتزوَّجونَ بهنَّ، لتَميلوا إليهِنَّ وتتآلَفوا معَهنَّ وتَطمَئنُّوا، وجعلَ بينَكمْ وبَينَهُنَّ محَبَّةً ورَأفَة، ولو لم تَكنْ بينَكمْ صِلَةُ رَحِم. وفي ذلكَ آياتٌ وعِبَر، لمنْ أُوتيَ فِكرًا ووَعيًا، وتَدبُّرًا وفَهمًا.

{وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ} (الروم : ٢٢)

٢٢- ومِنْ آياتِهِ الكبيرَةِ الدالَّةِ على كمَالِ قُدرَتِه، خَلقُ السَّماواتِ العَظيمَة، بارتِفاعِها وسَعتِها، وما فيها مِنْ كواكِبَ ونجومٍ وأجْرام، تَسيرُ وتَدورُ بموازينَ دَقيقَة، دونَ أنْ يَتصادمَ بَعضُها ببَعض.

وخلقَ الأرْضَ وما فيها مِنْ بحارٍ ويابِسَة، وجِبالٍ ووُديان، وحيَواناتٍ بأنواعِها البرِّيَّةِ والبَحريَّة، وشجَرٍ وزَرع، ومَعدِنٍ ونفْط...

ومِنْ آياتِه اختِلافُ لُغاتِكم، فلكُلِّ قَومٍ لُغَتُه، ولكُلِّ قَبيلَةٍ لَهجَتُها، وهيَ بالآلاف، ولا يَفهمُ قَومٌ مِنْ قَومٍ إلاّ أنْ يَتعَلَّموا لُغتَهم، أو تُترَجَمَ لهم!

ومِنْ آياتِهِ كذلكَ اختِلافُ ألوانِكم، بينَ أبيضَ وأسوَد، وأحمرَ وأصفَر، وكُلُّكمْ أبناءُ رَجُلٍ واحِد.

وفي ذلكَ كُلِّهِ بَراهينُ على قُدرَةِ اللهِ وكمَالِ إبداعِه، لمنْ أُوتيَ عِلمًا وفَهمًا وتدَبُّرًا.

يَذكرُ العُلماءُ في هذا العَصرِ أنَّ لكُلِّ شَخصٍ لونُهُ الخاصُّ به، وأنَّ العَينَ البشَريَّةَ تُفَرِّقُ بينَ درَجاتٍ عَديدَةٍ جدًّا مِنَ اللَّونِ الواحِد. ويُلاحَظُ أنَّ الذينَ بَشرَتُهمْ سَوداء، أو شَديدَةُ السُّمرَة، يَعيشُونَ في خَطِّ الاستِواء، والمادَّةُ الدَّاكِنَةُ مِنْ خصائصِها امتِصاصُ الأشِعَّةِ فوقَ البنَفسَجيَّةِ الضَّارَّة.

{وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} (الروم : ٢٣)

٢٣- ومِنْ آياتِهِ أنْ هيَّأ لكمْ أسـبَابَ الرَّاحَةِ بالنَّوم، ومَكَّنكمْ مِنْ طلَبِ الرّزقِ ليلاً ونَهارًا، وفي ذلكَ أدِلَّةٌ على قُدرَتِهِ سُبحانَه، لمنْ شأنُهُ أنْ يَعيَ ما يَسمَع، ويَعتَبِرَ ممَّا يَرَى.

{وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (الروم : ٢٤)

٢٤- ومِنْ آياتِهِ سُـبحانَهُ أنْ يُرِيَكمُ البَرقَ لتَخافُوا مِنَ الصَّـواعِقِ التي تَقتُلُ وتُحرِق، وهيَ تُذَكِّرُ بعَذابِهِ ونِقمَتِه، وتَدلُّ على قوَّتِهِ وقُدرَتِه، وقدْ تكونُ إشـــارَةً إلى رَحمَةٍ فتَطمَعونَ في المطَرِ الذي تَحتاجونَ إليه. ويُنَزِّلُ الماءَ مِنَ السَّـحابِ فيُحيِي بسـبَبِهِ الأرْض، مِنْ زَرعٍ وثَمَر، بعدَ أنْ كانتْ جَدْبَةً يابِسَـةً لا نَباتَ فيها، وفي ذلكَ آيَةٌ على قُدرَةِ اللهِ على الإحيَاءِ والبَعثِ بعدَ الموت، لمنِ استَعمَلَ عَقلَهُ وكانَ منَ المتبَصِّرين.

{وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّـــمَاء وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ} (الروم : ٢٥)

٢٥- ومِنْ آياتِهِ سُـــبحانَهُ أنْ يَدومَ قيامُ السَّـــماءِ والأرْضِ ويَثبُتا هكذا بأمرِهِ دونَ أنْ يَعتَرِيَ نظامَهما خلَلٌ وعَيب، ثمَّ إذا أمرَكمْ بالخُروجِ مِنَ القُبورِ يَومَ القيامَة، إذا أنتُمْ تَخرُجونَ منها وتُبعَثونَ للحِسابِ والجَزاء.

{وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ} (الروم : ٢٦)

٢٦- ولهُ كُلُّ مَنْ في السَّـــماواتِ والأرْضِ، خَلْقًا، ومُلكًا، وتَصَـرُّفًا، والكُلُّ خاضِـــعونَ لهُ ومُطيعون، لا يتأخَّرونَ عنْ أمرِهِ ولا يَمتَنِعون، طَوعًا وكَرْهًا.

{وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّـــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (الروم : ٢٧)

٢٧- هوَ اللهُ الخالِقُ القادِر، الذي يَخلُقُ ابتِداء، ثمَّ يُعيدُ الخَلقَ بعدَ الموت، والإعادَةُ أسـهَلُ عَليهِ منَ الخَلق، وكِلاهُما بالنسـبَةِ إلى قُدرَةِ اللهِ سَـواء. والمرادُ تَقريبُ الأمرِ إلى عُقولِ الجهَلةِ المنكِرينَ للبَعث، فإعادَةُ إيجادِ شَيءٍ لهُ أثَر، أيسَرُ مِنْ إيجادِهِ مِنَ العدَم.

ولهُ جَلَّ شَأنُهُ الحِكمَةُ التامَّة، والصِّفَةُ الكامِلَة، و{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [سورة الشورَى: ١١]، كما عُرِفَ بذلكَ بينَ المعتَدِّ بهم مِن أهلِ السَّـماواتِ والأرض، وهوَ العَزيزُ الذي غلبَ كُلَّ شَيءٍ وقهرَه، الحكيمُ في أقوالِهِ وأفعالِه.

{ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (الروم : ٢٨)

٢٨- ضربَ اللهُ لكمْ مثَلاً يَتبيَّنُ فيهِ بُطلانُ الشِّرك، تَفهَمونَهُ مِنْ أنفُسِكم: هلْ يَرضَى أحَدُكمْ أنْ يكونَ عَبيدٌ لهُ شُرَكاءَ لهُ في مالِه، فتَكونونَ أنتُمْ وهمْ سَواءً في المالِ؟ تَخافونَ أنْ يَشارِكوكمْ ويُقاسِموكمْ فيهِ كما تَخافونَ أنْ يَشارِكَكمُ الحُرُّ في مالٍ بينَكما؟ إنَّ أحدَكمْ لا يَرضَى ذلكَ ولا يَخافُ منه، لأنَّ هذا الأمرَ غَيرُ جارٍ أصـلاً، فالعَبيدُ كالمالِ مَملوكون. فإذا لم تَرضَـوا بهذا لأنفُسِكم، ولم تَخافُوا منه، فكيفَ تَرضَونَ أنْ تَكونَ أصنامُكمُ التي تَعبدُونَها شُرَكائي وهيَ مِنْ عَبيدي ومَخلوقاتي؟!

وبمِثلِ هذا نُفَصِّلُ الآياتِ ونُبَيِّنُها، لقَومٍ يَستَعمِلونَ عُقولَهم، ويتدَبَّرونَ في ضَربِ الأمثَالِ لهم.

{بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ} (الروم : ٢٩)

٢٩- بلِ اتَّبعَ المشرِكونَ أهواءَهمُ الزائغَة، وأفكارَهمُ المنحَرِفَةَ بعبادَتِهِمُ الأصنَام، دونَ أنْ يَكونَ لهمْ مُستَنَدٌ عِلميّ، فلا يَقدِرُ أحَدٌ على هدايَتِهِمْ وقدْ أضَلَّهمُ الله؛ لعِنادِهِمْ واستِكبارِهِمْ عنِ اتِّباعِ الحَقّ، ولا ناصِرَ لهمْ مِنْ أمرِ الله، ولا مُنقِذَ لهمْ مِنْ عذابِه.

{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (الروم : ٣٠)

٣٠- فلا تَلتَفِتْ إليهِمْ ولا تَحزَنْ عَليهم، واهتَمَّ بما أمرَكَ اللهُ به، وسَدِّدْ وجهَكَ نَحوَ دينِه، مائلاً مِنْ كُلِّ باطِلٍ إليه، واستَقِمْ عَليه، فهوَ ما هداكَ اللهُ إليه، وفطرَ النَّاسَ عَليه، لأنَّهُ دِينُ التَّوحيد، الذي يُطابِقُ الفِطرَةَ السَّـليمَة، لا يَنحَرِفُ عَنهُ إلاّ مُعانِدٌ مُسـتَكبِر. لا تَغييرَ لدِينِ الله، فالدِّينُ والفِطرَةُ: الإســـلام، الذي هوَ دِينُ الأنبِياءِ جَميعًا، الدِّينُ الذي لا عِوَجَ ولا انحِرافَ فيهِ عنِ الحَقّ، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلَمون، ولذلكَ فهمْ يَصُدُّونَ عَنه.

{مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (الروم : ٣١)

٣١- فتوَجَّهوا إلى اللهِ تائبينَ مُخلِصـــينَ في طاعَتِكم، واخشَـــوهُ وراقِبوهُ في أقوالِكمْ وأعمالِكم، ووَاظِبوا على إقامَةِ الصَّلاة، ولا تَكونوا مِنَ المشرِكينَ بالله،

{مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} (الروم : ٣٢)

٣٢- مِنَ الذينَ اختلَفوا في دِينِهمْ وبَدَّلوهُ وصـــاروا يَعبدُونَ أصـــنامًا وغَيرَها على اختِلافِ أهوائهم، وكانوا فِرَقًا وأحزابًا عَديدَة، كُلٌّ يَتْبَعُ إمامَهُ ورَئيسَـــه، وكُلُّ فِرقَةٍ مِنْ هؤلاءِ المنحَرِفينَ مَسرُورُون، ظَنًّا منهمْ بأنَّهُمْ على حَقّ!

{وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُـرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} (الروم : ٣٣)

٣٣- وإذا أصـابَ النَّاسَ شِـدَّةٌ وبَلاء، دعَوا اللهَ وحدَه، ورجَعوا إليه، ولم يَسـتَغيثوا بالأصْـنامِ والأوْثان، فإذا فرَّجَ عَنهم، وأنعَمَ عَليهِمْ مِنْ فَضـلِه، إذا قِسـمٌ مِنْ هؤلاءِ الذينَ دعَوهُ في حالِ الاضطِرارِ يُشرِكونَ به، ويَعبدونَ معَهُ الأصنام!

{لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} (الروم : ٣٤)

٣٤- ليَكونَ عـاقِبتَهمْ في ذلـكَ كفرُهم بما أنعَمنا عَليهمْ مِنَ الأمنِ والعـافيَة، والمالِ والولَد، فتمَتَّعوا بهذهِ الشَّهواتِ الفانيَةِ أيُّها الكافِرون، فسَوفَ تَعلَمونَ نَتيجةَ ما تُقْدِمونَ عَليهِ وتَنسَونَ فيهِ أمرَ رَبِّكم.

{أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ} (الروم : ٣٥)

٣٥- أمْ أنزَلنا على المشرِكينَ عِلمًا فهوَ يَنطِقُ بشِركِهم، أو حُجَّةً تَحتَجُّ لهُمْ وتأمرُهمْ بالشِّرك؟ ليسَ لهُمْ شَيءٌ مِنْ ذلك.

{وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ} (الروم : ٣٦)

٣٦- وإذا أسبَغنا على النَّاسِ نِعمَة، مِنْ صِحَّةٍ ومَال، وجاهٍ ووَلَد، بَطِروا وأَشِروا، وعصَوا وأفسَدوا، بدلَ أنْ يَشكروا ربَّهمْ ويَزيدوا مِنْ طاعَتِهمْ له. وإذا أصابَهمْ قَحطٌ وبَلاء، بسبَبِ أعمالِهمُ السيِّئةِ وجَرائمِهمُ المتَكرِّرَة، إذا هُمْ آيسُونَ مِنَ الخَير، لا يَتوقَّعونَ بعدَها رَحمَةً مِنْ رَبِّهم!

{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (الروم : ٣٧)

٣٧- أوَلَا يَنظرونَ كيفَ يوَسِّعُ اللهُ الرِّزقَ على مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِه، ويُضَيِّقُ على آخَرينَ منهم؟ إنَّ في هذا لَعِبَرًا لمنْ يؤمِنُ بأنَّ اللهَ بيَدِهِ كُلُّ شَيء، مِنْ رِزقٍ وغَيرِه، ولو أنَّهمْ تفَكَّروا في هذا وتدَبَّروه، لعَلِموا أنَّ المتصَرِّفَ في رِزقِهمْ وأمرِهمْ كُلِّهِ هوَ اللهُ سُبحانَه، فلمْ يَبطَروا، ولم يَيأَسُوا.

{فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (الروم : ٣٨)

٣٨- فأعطِ الأقرِباءَ حَقَّهمْ مِنَ الصِّلَةِ والصَّدَقَة، والمِسكينَ الذي لا مالَ عِندَه، وابنَ السَّبيلِ الذي سافرَ واحتاجَ إلى نفقَة، فهذا أفضَلُ لمنِ يَبتَغونَ الثَّوابَ مِنَ الله، ويُخلِصونَ في الإنفَاقِ لوَجهِهِ الكَريم، وهُمْ بذلكَ منَ الفَائزين.

{وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ} (الروم : ٣٩)

٣٩- وإذا أعطَيتُمْ عَطيَّةً تُريدونَ بها أنْ يُرَدَّ عَليكمْ بأكثرَ ممَّا أهدَيتُموهُ، فلا ثَوابَ عَليها عندَ الله، وإنْ كانَ جائزًا. وإذا أعطيتُمْ صدَقَةً تَبتَغونَ بها وَجهَ الله، فأولئكَ الذينَ يَقبَلُ اللهُ منهم، ويُضاعِفُ لهمُ الثَّواب.

{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} (الروم : ٤٠)

٤٠- اللهُ الذي خلقَكمْ ولا قُدرةَ لكمْ على الكَسب، وأعطاكمُ السَّمعَ والبصرَ وسائرَ الأعضاءِ والحَواسّ، ورزقَكمْ مِنَ الأموَالِ والأنعَامِ والزُّروع، ثمَّ يُميتُكمْ فلا يَمتَنِعُ أَحَدٌ منكمْ عَليه، ثمَّ يُحييكُمْ بعدَ الموتِ ويَبعَثُكمْ مِنْ قُبورِكم، فهلْ مِنْ أصنامِكمُ التي تزعُمونَ أنَّها آلِهَةٌ مَنْ يَقدِرُ على فِعلِ شَيءٍ مِنْ ذلك؟ لا يَستَطيعُ أحَدٌ أنْ يَفعلَ ذلك، لا أنتُمْ ولا أصنامُكم، فاللهُ هوَ المستَقِلُّ بالإحياءِ والإماتَة، وهوَ القادِرُ على كُلِّ شَيء، فتعالَى وتقدَّسَ أنْ يَكونَ لهُ شَريك.

{ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (الروم : ٤١)

٤١- ظهرَ الفسادُ، مِنَ المعاصي وقَطْعِ الطَّريقِ والظُّلمِ والمنكراتِ وغَيرِها، في البَرّ، وفي المدُنِ والقُرَى التي على الأنهَارِ والبِحار، بسبَبِ ذُنوبِهِمْ وجرَائمِهم، ولَيُعاقِبَنَّهمُ اللهُ على فسَادِهمْ بابتِلائهم، بنَقصِ الأموَالِ والأنفُسِ والثمَرات، لعلَّهمْ بذلكَ يَرجِعونَ عنْ أعمالِهِمُ السَّيِّئة.

{قُلْ سِــيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْــرِكِينَ}

(الروم : ٤٢)

٤٢- قُلْ أيُّها الرَّسُولُ الكريم: سِيروا في الأرضِ واقرَؤوا التَّواريخ، وانظُروا في الآثار، واستَمِعوا إلى القَصَــصِ والأخبار، لتَعلَموا كيفَ كانتْ عاقِبَةُ الذينَ مِنْ قَبلِكم، كانَ أكثَرُهمْ مُشــرِكين، فأهلكَهمُ اللهُ وأذاقَهمْ سُـوءَ العاقِبَة، جزاءَ تَكذيبِهمْ رسُـلَ رَبِّهم، وإصـرارِهمْ على الكفرِ والظُّلمِ والإفسَادِ في الأرْض.

{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّــدَّعُونَ}

(الروم : ٤٣)

٤٣- فسَـدِّدْ وجهكَ نحوَ دِينِ اللهِ المســتَقيمِ وامضِ فيه، قَبلَ أنْ يأتيَ يَومُ القِيامَة، الذي لا يَستَطيعُ أحَدٌ على رَدِّه، لأنَّهُ بأمرِ اللهِ سُـبحانَه، يَومَئذٍ يتفَرَّقُ النَّاس، فَريقٌ في الجنَّة، وفَريقٌ في النَّار.

{مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ} (الروم : ٤٤)

٤٤- مَنْ جحَدَ آياتِنا وكفرَ بنِعَمِنا، فعَليهِمْ وَبالُ كُفرِهِمْ وتَكذيبِهم، وهوَ العَذابُ المؤبَّدُ في النَّار، ومَنْ أطاعَ اللهَ وعَمِلَ الأعمَالَ الصَّالحَة، فلأنفُسِهِمْ يَستَعِدُّون، ولِجَنَّاتِ النَّعيمِ يتهيَّؤون.

{لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} (الروم: ٤٥)

٤٥- ليُثيبَ اللهُ مَنْ آمنَ باللهِ وعَمِلَ صـالِحًا[١٠٦] أكثرَ مِنْ ثَوابِ أعمالِهم، ويَجزيَهمْ أضـعَافَ حسَناتِهم، فهوَ سُبحانَهُ يُحِبُّ المؤمنين، ويَبغُضُ الكافِرين، ولكنَّهُ يَعدِلُ فيهِمْ فلا يُعَذِّبُهُمْ بأكثرَ ممَّا يَستَحِقُّون.

---

(١٠٦) {وعَمِلُوا الصَّــالِحاتِ} يقول: وعملوا بما أمرهم الله. (الطبري)، وهي ما أريدَ به وجهُ الله تعالى ورضــاه. (روح البيان).

{وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (الروم : ٤٦)

٤٦- ومِنْ حُجَجِهِ الدالَّةِ على قُدرَتِه، أنْ يُرسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّرَةً بالمطَر، ليُصيبَكمْ مِنْ رَحمَتِه، فيُغيثُ بهِ العِبادَ والبِلاد، مِنَ الرِّيِّ والخِصْبِ والنَّماء، ولِتَجريَ السُّفُنُ في البَحرِ عندَ هُبوبِها بأمرِه، ولتَطلبُوا مِنْ رِزقِهِ بالكَسبِ والتِّجارَةِ في البَرِّ والبَحر، ولِتَشكروا ربَّكمْ على هذهِ النِّعَم.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} (الروم : ٤٧)

٤٧- وكما أرسَلناكَ إلى قَومِك، فقَدْ أرسَلنا مِنْ قَبلِكَ رسُلاً كثيرينَ إلى أقوامِهم، فجَاؤوهمْ بالمعجِزاتِ الواضِحات، والبراهينِ القاطِعات، الدالَّةِ على صِدقِهمْ وصِحَّةِ رِسالَتِهم، كما جِئتَ قَومَكَ بالبيِّنات، فمِنهمْ مَنْ آمنَ بهِمْ ومِنهمْ مَنْ كذَّبَهم، فانتقَمنا مِنَ الذينَ كذَّبوهمْ وخالَفوهمْ وعَذَّبناهم، وكانَ حقًّا عَلينا أنْ نَنصُرَ المؤمِنينَ ونَنتَقِمَ مِنْ أجلِهم، ونُنقِذَهمْ مِنَ العَذاب.

{اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} (الروم : ٤٨)

٤٨- اللهُ سُبحانَهُ هوَ الذي يَبعَثُ الرِّياح، فتُحَرِّكُ السَّحابَ وتَنشُرُه، فيَمُدُّهُ ويَبسُطُهُ في الجَوِّ بَسْطًا، مُتَّصِلاً تارَةً وقِطَعًا مُتفرِّقَةً تارَة، فترى المطَرَ بعدَ ذلكَ يَنزلُ مِنْ بَينِه، فإذا أنزَلَهُ على مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِه، إذا همْ يَفرَحونَ بِهِ ويُسَرُّون.

{وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ} (الروم : ٤٩)

٤٩- وقدْ كانوا مِنْ قَبلِ أنْ يَنزِلَ عَليهمُ المطَرُ آيسِينَ مِنْ نُزولِه، فما كانوا قادِرينَ على أنْ يَفعَلوا شَيئًا، وما كانوا يَجِدونَ مُقَدِّماتِ المطَر، وقدْ ذهبَ وَقتُهُ أو كاد.

{فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (الروم : ٥٠)

٥٠- فانظُرْ إلى نَتيجَةِ نُزولِ المطَرِ الذي رَحِمَهمُ اللهُ به، كيفَ اهتزَّتِ الأرْضُ وانتعَشَتْ وأنبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوجٍ بَهيج، بعدَ أنْ كانتْ يابِسَةً قاحِلَةً لا حَياةَ فيها، إنَّ الذي أحيَا الأرْضَ بعدَ مَوتِها، قادِرٌ على إحيَاءِ البشَرِ بعدَ مَوتِهم، وهوَ قادِرٌ على هذا وعلى كُلِّ شَيء، {هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [سورة غافر: ٦٨].

{وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ} (الروم : ٥١)

٥١- وإذا أرسَلنا ريحًا يابِسَةً على زَرعِهمْ فأفسَدَتْه، ورأَوهُ أصفرَ مَيتًا بعدَ استِواءٍ واخضِرار، ضَجِروا وحَنِقوا وأنكَروا ما سبَقَ أنْ أنعمنا عَليهمْ مِنَ النِّعَمِ والخَيرات.

{فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ} (الروم : ٥٢)

٥٢- فإنَّكَ لا تُسمِعُ مَنْ كانَ مَيِّتَ القَلبِ بتِلاوَةِ آياتِ القُرآنِ وكلامِكَ المؤثِّر، فهُمْ لا يَفقَهُونَ ولا يَعُونَ ما تَقول، ولا تُسمِعُ مَنْ سَدَّ أُذُنَيهِ عنْ سَماعِ الحقّ، لأنَّهُمْ لا يُريدُونَ سَماعَه، ولا يُريدُونَ أنْ يَنفُذَ إلى قُلوبِهِم، فهمْ مُعرِضونَ عنْ رِسالَةِ الله، غَيرُ مُستَعِدِّينَ لقَبولِها.

{وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ} (الروم : ٥٣)

٥٣- ولا تَستَطيعُ أنْ تَهدِيَ عُمْيَ القَلبِ وتَصرِفَهُمْ عمَّا همْ فيهِ مِنْ ضَلال، أنتَ لا تُسمِعُ إلاّ الذينَ فتَحوا قُلوبَهُمْ للإيمان، وصَدَّقُوا بأنَّ القُرآنَ مِنْ عندِ الله، فهؤلاءِ همُ الذينَ يَسمَعونَ حقًّا ما تَتلو عَليهمْ وما تُرشِدُهمْ إليه، لأنَّهُمْ مُسلِمونَ مُخلِصونَ في إيمانِهم، مُنقادُونَ للحَقّ.

{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} (الروم : ٥٤)

٥٤- اللهُ الذي خلقَكمْ مِنْ نُطفَةٍ ضَــعيفَة، ثمَّ جعلَكمْ تَتنَقَّلونَ في أطوارِ الخَلقِ حالاً بعدَ حال، فجعَلَكمْ بعدَ ضَـعفِ النُّطفَةِ والطُّفولَةِ شَـبابًا ورِجالاً ذَوي قوَّةٍ وبأس، ثمَّ جعلَكمْ مِنْ بَعدِ قوَّتِكمْ تَنحَدِرونَ إلى الضَّعفِ والشَّيبَة، فتَضعُفُ هِمَّتُكم، وتَقِلُّ حركَتُكم، وتَختَلُّ صِحَّتُكم، وتَعودونَ ضُـعفاءَ كما كنتُم. واللهُ يَخلُقُ ما يَشـاءُ كما يَشـاء، وهوَ العَليمُ بتَدبيرِ خَلقِه، القَديرُ على ما يَشاء.

{وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ} (الروم : ٥٥)

٥٥- وعندَما تَقومُ القيامَةُ يَحلِفُ الكافِرونَ أنَّهمْ لم يَبقُوا في الدُّنيا أكثرَ مِنْ سـاعَةٍ واحِدَة! ربَّما لِيَقولوا إنَّهمْ لم يُعطَوا وَقتًا كافيًا حتَّى يُفَكِّروا في دِينِ الله! ومِثْلَ هذا الكَذِبِ كانوا يَكذِبونَ في الدُّنيا، ويَقولونَ لا بَعثَ بعدَ الموت، ولا ثَوابَ ولا عِقاب...

{وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (الروم : ٥٦)

٥٦- وقالَ لهمُ العُلماءُ مِنَ المؤمنين: لقدْ بَقِيتُمْ في قَضاءِ اللهِ وحُكمِهِ مِنْ يَومِ خَلْقِكمْ في الدُّنيا إلى يَومِ البَعث، وهذا هوَ يَومُ البَعثِ الذي كنتُمْ تُوعَدونَ بهِ في الدُّنيا، ولكنَّكمْ كنتُمْ مُقَصِّـرينَ في النظَرِ والتدَبُّر، مُعانِدينَ للرسُـلِ ومُصـرِّينَ على الكُفرِ والتَّكذيب، وما كنتُمْ مؤمنينَ بالبَعثِ والحِسابِ على الأعمَال.

{فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} (الروم : ٥٧)

٥٧- ففي يَومِ القيامَةِ لا يَنفَعُ الكافِرينَ اعتِذارُهمْ عنْ أعمالِهمُ الســيِّئة، ولا يُنظَرُ إلى طلَبِهمْ برَفعِ العتَبِ واللَّومِ عنهمْ وإرجاعِهمْ إلى الدُّنيا ليَعمَلوا صــالِحاً كما يقولون، بلْ يُحاسَــبونَ على كُلِّ ما عَمِلوا مِنْ قَبلُ.

{وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ} (الروم : ٥٨)

٥٨- ولقدْ بيَّنَّا للنَّاسِ في هذا القُرآنِ الحقَّ وكرَّرناهُ بأنوَاعِ الخِطابِ والبَيان، وضــرَبنا لهمْ فيهِ الأمثال، وسرَدنا لهمْ فيهِ القَصَصَ لنُقَرِّبَهُ إلى أفهامِهم، وليَتفَكَّروا فيهِ ويَتَّبِعوه، وإذا أتَيتَ لهؤلاءِ المشرِكينَ بدَليلٍ وحُجَّةٍ لقالُوا عِنادًا واستِكبارًا: هذا كَذِبٌ وباطِل!

{كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} (الروم : ٥٩)

٥٩- وهكــذا يَختِمُ اللهُ على قُلوبِ الــذينَ لا يَعلَمونَ دِينَ اللهِ ولا يتحَرَّونَ طلــبَ الحقّ، ويستَهزِؤونَ برسُلِهِ وكتُبِه، ويُصِرُّونَ على ما هُمْ عَليهِ مِنْ كُفرٍ ومَعصيَة.

{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ} (الروم : ٦٠)

٦٠- فإذا عرَفتَ – أيُّها النبيُّ – أنَّ حالَهمْ هكذا، وأنَّهمْ جاهِلونَ إلى هذا الحَدّ، فاصــبِرْ على مُخالَفَتِهمْ وعِنادِهم، إنَّ اللهَ ناصِرُكَ ومُنجِزُ ما وعدَكَ به، ولا يَحمِلنَّكَ على القلَقِ والتسَرُّعِ باطِلُ المبطِلين، الذينَ لا يُؤمِنونَ بما تؤمِنُ بهِ مِنَ التَّوحيدِ والبَعثِ والحِساب.

سورة لقمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{الم} (لقمان : ١)

١- الحروفُ المقَطَّعَةُ لم يَرِدْ في تَفسيرِها حَديثٌ صَحيح، واختلفَ المفسِّرونَ في مَعناها.

{تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ} (لقمان : ٢)

٢- هذهِ السُّورَةُ آياتٌ مِنَ القُرآنِ الناطِقِ بالحِكمَة، المنْزَلِ مِنْ لَدُنْ حَكيمٍ خَبير.

{هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ} (لقمان : ٣)

٣- هِدايَةً للقُلوب، وإرشادًا لها إلى الحَقِّ والسَّداد، ورَحمَةً لمنْ أحسنَ العملَ واتَّبعَ الشَّرْع.

{الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} (لقمان : ٤)

٤- الذينَ يُواظِبونَ على إقامَةِ الصَّلاةِ بأركانِها وشُروطِها وفي أوقاتِها، ويُعطُونَ الزَّكاةَ لمستَحِقِّيها مِنَ الفُقراءِ ومَنْ في حُكمِهم، ويؤمِنونَ بالبَعثِ بعدَ الموت، والحِسابِ والجَزاء، والجنَّةِ والنَّار،

{أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (لقمان : ٥)

٥- أولئكَ المؤمِنونَ على نُورٍ وبَصيرَةٍ مِنَ الله، وعلى استِقامَةٍ وسَداد، وهمُ الذينَ أدرَكوا ما طلَبوه، وفازُوا بالثَّوابِ والخُلودِ في الجِنان.

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ} (لقمان : ٦)

٦- وبَعضُ النَّاسِ يُقبِلونَ على الحَديثِ الذي لا يُنْتَفَعُ بهِ ولا يُرضي الله، كالمنكَرِ منهُ والباطِل، وكُلِّ ما شَغَلَ عنْ عِبادَةِ اللهِ وذِكرِه، منَ السَّهراتِ والمضحِكاتِ والأدَبِ الماجِنِ

والغِناءِ ونَحوِه، لِيَصــرِفُوا النَّاسَ عنْ دِينِ اللهِ الحَقّ جَهلاً منهمْ بهِ وبعظَمَتِه، ويَســتَهزِؤوا بالنَّهجِ المسـتَقيمِ الذي رَضـيَهُ اللهُ لعِبادِه، ويأخذُ بِهِمْ إلى السَّـعادَةِ والنَّجاة، فأولئكَ لهمْ عَذابٌ مؤلِمٌ مُوجِع، معَ الذُّلِّ والهَوان، جَزاءَ إهانَتِهِمُ الحَقَّ وإيثارِهِمُ الباطِلَ عَليه.

{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} (لقمان : ٧)

٧- وهذا المستَهزِئُ اللَّاهي إذا قُرِئتْ عَليهِ آياتُ القُرآنِ الكريم، أدبرَ عنها في تَكبُّرٍ واستِعلاءٍ ولم يَلتَفِتْ إليها، كأنَّهُ لم يَسمَعْها لصَمَمٍ فيه، وما بهِ صَمَم، فأَعلِمْهُ بمَصيرِهِ يَومَ القيامَة، وهوَ العَذابُ الشَّديدُ الدَّائم.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ} (لقمان : ٨)

٨- إنَّ الذينَ آمَنوا وأخلَصوا في إيمانِهم، وأتْبَعوهُ بالأعمَالِ الصَّالِحَةِ الموافِقَةِ للشَّريعَة، لهمْ في اليَومِ الآخِرِ جنَّاتٌ يتنَعَّمونَ فيها ويَسعَدون.

{خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (لقمان : ٩)

٩- ماكِثينَ فيها أبَدًا، لا يَموتونَ فيها ولا يَبغُونَ غيرَها مِنَ النَّعيم، وهذا وَعدٌ مِنَ اللهِ حَقّ، لا شَكَّ فيه، واللهُ عَزيزٌ لا يَمنَعُ مِنْ إنجازِ ما وعدَ بهِ شَيء، حَكيمٌ يَضَعُ الأمورَ في مَواضِعِها كما يَنبَغي أنْ تَكون.

{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ} (لقمان : ١٠)

١٠- الذي خلقَ السَّماواتِ السَّبعَ العاليَةَ الواسِعَةَ بغَيرِ أعمِدَةٍ وركائزَ تَرَونَها.

يَذكرُ العُلماءُ في هذا العَصرِ أنَّهُ إشارَةٌ إلى قوَّةِ الجَذْبِ التي لا تُرَى، فيما بينَ المجَرَّاتِ والكواكِبِ والكُتَلِ التي في السَّماء.

وألقَى فِي الأرضِ جِبالاً ضَخمَةً مُرتَفِعَةً لتَثبُتَ بها ولا تَضطَرِبَ بكم، ونشَرَ فيها مِنْ كُلِّ نوعٍ أنواعِ الحيَوانات، وأنزَلنا مِنَ السَّحابِ مطَرًا، فأنبَتنا بسبَبِهِ مِنْ كُلِّ صِنفٍ مِنْ أصنافِ الشَّجَرِ والنَّباتِ ما هوَ حسَنٌ مَنظَرُه، ومُفيدٌ نَوعُه.

{هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} (لقمان : ١١)

١١- هذا ما خَلَقَهُ اللهُ وقدَّرَه، فأخبِروني ما الذي خلقَتْهُ الأصنامُ أو غَيرُها ممَّا تَعبُدونَهُ وتَدَّعونَ أُلوهيَّتَه؟ بلِ المشرِكونَ في جَهلٍ وعمًى واضِحٍ بيِّن.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} (لقمان : ١٢)

١٢- ولقدْ آتَينا لُقمانَ العَقلَ والفَهْمَ والفِطنَة، والإصابَةَ في الأمُورِ والعملَ بها.

ذُكِرَ أنَّهُ كانَ عَبدًا حبشيًّا في زمَنِ داودَ عَليهِ السَّلام، وكانَ وَليًّا حَكيمًا ولم يَكنْ نَبيًّا.

أنِ اشكُرْ للهِ على ما منحَكَ مِنْ فَضلِه، ووَهبَكَ مِنَ الحِكمَة، ومَنْ يَشكُرْ للهِ يَعُدْ نَفعُهُ عَليه، فإنَّهُ يَستَجلِبُ لهُ المزيدَ مِنَ الخَيرِ في الدُّنيا، ويَزيدُ مِنْ أجرِهِ في الآخِرَة، ومَنْ جحَدَ نِعمةَ اللهَ فلنْ يَضُرَّهُ بشَيء، فهوَ سُبحانَهُ مَحمودٌ بلِسانِ الحَال، وهوَ غَنيٌّ عنْ حَمدِ الحامِدين، وشُكرِ الشَّاكرين، وكُفرانُ النِّعمَةِ يَكونُ وَبالاً على صَاحِبِه، فيَجلُبُ لهُ النِّقمَةَ والهَلاك، والسُّخْطَ والعَذاب.

{وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} (لقمان : ١٣)

١٣- واذكُرْ قَولَ لُقمانَ لابنِهِ وهوَ يَعِظُهُ ويُخَوِّفُه: يا بُنَيّ، لا تُشرِكْ بالله، فإنَّ عِبادَةَ غَيرِ اللهِ معَهُ ظُلمٌ عَظيم، فإنَّهُ وَضعٌ للشَّيءِ في غَيرِ مَوضِعِه، وتَسويَةٌ للإلهِ بغَيرِه، وشُكرٌ لمنْ لم يَفعَلْ شَيئًا ولا يَستَحِقُّه.

{وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} (لقمان : ١٤)

١٤- قالَ اللهُ تعالَى ما مَعناه: وأمَرْنا الإنسَانَ بالإحسَانِ إلى والِدَيه، يَبَرُّهما ويَعطِفُ عَليهِما، ويتعَهَّدُهما ويُشفِقُ عَليهما، ويُنفِقُ عَليهِما، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ في بَطنِها ضَعفًا على ضَعف، ومشَقَّةً بعدَ مشَقَّة، وفِطامُهُ في عامَينِ بعدَ الوِلادَة، أنِ اشكُرْ لي بالطَّاعَةِ وفِعلِ ما يُرضي، ولوالِدَيكَ بالصِّلَةِ والبِرِّ والدُّعاء، وإليَّ مَصيرُك، وعَليَّ حِسابُك، لأجزيَكَ أوفرَ الجَزاء.

{وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (لقمان: ١٥)

١٥- وإذا بذَلا جُهدَهُما وحرَصَا على أنْ تُشرِكَ بي شَيئًا لا يَصِحُّ أنْ يَكونَ إلهًا ولا يَستَقيم، لكنَّهُ عَقيدَتُهما، فلا تَسمَعْ منهما، فـ"لا طاعَةَ لمخلوقٍ في مَعصِيَةِ الله" كما في الحَديثِ الصَّحيح، ولكنْ دارِهِما في الدُّنيا، وصاحِبْهما بالعِشْرَةِ الجَميلَة، بما يُوافِقُ الشَّرْعَ ويَقتَضيهِ الكرَمُ والمروءَة، كإطعَامِهما، وعِيادَتِهما إذا مَرِضا، واتَّبِعْ طَريقَ مَنْ أقبلَ على طاعَتي، ولا تَتَّبِعْ طَريقَهُما في الكُفرِ والمعصِيَة، ثمّ إليَّ مَصيرُكمْ جَميعًا، مَنْ آمَنَ ومَنْ كفَر، لأجزيَ كُلاًّ بما عَمِل.

{يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} (لقمان : ١٦)

١٦- قالَ لُقمانُ يَعِظُ ابنَه: يا بُنَيّ، إنَّ الخَصلَةَ مِنَ الإساءَةِ والإحسَان، مَهما كانتْ صَغيرَةً حَقيرَة، كزِنَةِ حبَّةِ خَرْدَل[١٠٧]، فتَكُونُ في أخفَى مَكان، كجَوفِ صَخرَة، أو في أيِّ مَكانٍ مِنَ السَّماواتِ والأرْض، يُحْضِرُها الله، ويُحاسِبُ مَنْ عَمِلَ بقَدْرِها، إنَّ اللهَ لَطيفٌ بكيفيَّةِ استِخراجِها وإحضارِها، عالِمٌ بكُنهِها ومَكانِها.

(١٠٧) الخَرْدَلُ نباتٌ عشبيّ، تُستَعملُ بزورهُ في الطبّ، ويُضرَبُ بها المثَلُ في الصِّغَر. (ينظر المعجم الوسيط).

{يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} (لقمان : ١٧)

١٧- يا بُنَيّ، واظِبْ على إقامَةِ الصَّلاةِ في وَقتِها، وبحُدودِها وأرْكانِها، وَأْمُرْ بما هوَ خَيرٌ وحسَنٌ مِنَ الأمُور، وَانْهَ عمَّا هوَ فاحِشٌ وسَيِّءٌ، بحَسَبِ طاقَتِكَ وجُهدِك، إنِ استَطَعتَ باليَدِ فباليَد، وإلاّ فبِلِسانِك، فإنْ لم تَستَطِعْ فبِقَلبِك، واصبِرْ على ما أصابكَ مِنَ الأذَى بسبَبِ أمرِكَ بالمعرُوفِ ونَهيكَ عنِ المنكَر، فإنَّ ما تَقومُ بهِ إصلاحٌ وفَضيلَةٌ عَظيمَةٌ تُوجِبُ منكَ التَّهيُّؤَ لذلكَ والصَّبرَ عَليه، والصَّبرُ مِنْ قوَّةِ العَزم، والهِمَّةِ العاليَة.

{وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} (لقمان : ١٨)

١٨- ولا تُعْرِضْ بوَجهِكَ عنِ النَّاسِ إذا كلَّمتَهمْ أو كلَّمُوك؛ استِكباراً عَليهِمْ وتَحقِيرًا لِشَأنِهم، ولكنْ ألِنْ جانِبَكَ لهم، وابسُطْ وجهَكَ لهم. ولا تَمشِ في الأرْضِ أَشِرًا مُتَكبِّرًا كما يَفعَلُ أهلُ الخُيَلاءِ والتكبُّر، إنَّ اللهَ يَبغُضُ المتَبَختِرَ في مِشْيَتِه، المفتَخِرَ بمالِهِ وجاهِه.

{وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} (لقمان : ١٩)

١٩- وتوَسَّطْ في مَشيِكَ واعتَدِلْ فيه، لا سَريعًا ولا بَطيئًا، ولا تَرفَعْ صَوتَكَ فيما لا حاجةَ لكَ فيه، فإنَّ خَفضَ الصَّوتِ أدَبٌ وثِقَةٌ بالنَّفس، والزَّعْقُ بهِ ورَفعُهُ عاليًا سُوءُ خُلُقٍ وصِفَةٌ مَذمومَة وغايَةٌ في الكَراهة. إنَّ أقبَحَ الأصواتِ وأوحشَها على السَّمعِ نَهيقُ الحَمير.

{أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ} (لقمان : ٢٠)

٢٠- ألَمْ تَنظُروا كيفَ ذَلَّلَ اللهُ لكمْ ما يَلزَمُكمْ ممَّا في السَّماواتِ والأرْض، مِنَ اللَّيلِ والنَّهار، والرِّيحِ والمطَر، والشَّجَرِ والثَّمَر، والدَّوابِّ والطَّير، وجَميعِ ما في البَرِّ والبَحر، وأوسعَ عَليكمْ نِعمَهُ الظَّاهِرَةَ والباطِنَة، الواضِحةَ والخَفيَّة، مِنْ إرسالِ الرُّسُل، وإنزالِ الكتُب، والسَّمعِ والبصَر،

والعَقلِ والفَهم... وهُناكَ مَنْ يُناقِشُ ويُخاصِمُ في تَوحيدِ اللهِ وإرسَالِ الرسُلِ والمعاد، بغَيرِ دَليلٍ عِلميّ ولا استِنادٍ إلى حُجَّةٍ صَحيحَة، ولا كِتابٍ صَحيحٍ يُبَيِّنُ مُعتقَدَه.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} (لقمان : ٢١)

٢١- وإذا قيلَ للمُشرِكينَ المجادِلين: تعالَوا واتَّبِعوا ما أنزلَ اللهُ على رَسولِهِ مِنَ الحَقّ والتَّوحيدِ والشَّرعِ الحَنيف، قالوا في جَهلٍ وعِناد: بلْ نتَّبِعُ الأمرَ الذي وجَدنا آباءَنا وأجدادَنا عَليه، فنَعبدُ ما كانوا يَعبدُون، ونُقَلِّدُهمْ فيما كانوا يَفعَلون! أوَلو كانَ الشَّيطانُ يَدعُوهمْ إلى الشِّركِ والضَّلالِ الذي يؤَدِّي بهِمْ إلى النَّارِ المستَعِرَة، فهلْ يَتَّبِعونَ آباءَهمْ ولو كانُوا كذلك؟

{وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} (لقمان : ٢٢)

٢٢- ومَنِ انقادَ لأمرِ الله، وفوَّضَ إليهِ أمرَه، وأخلَصَ لهُ الطَّاعَة، وأحسَنَ في عمَلِه، فقدْ تعلَّقَ بأوثَقِ ما يُتعَلَّقُ بهِ مِنَ الأسبَاب، واعتصَمَ بما لا يُخافُ انقِطاعُه، وإلى اللهِ وحدَهُ تَصيرُ الأمُور، ليُجازيَ كُلاًّ بما يَستَحِقّ.

{وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} (لقمان : ٢٣)

٢٣- ومَنْ كفرَ مِنْ هؤلاءِ بنُبوَّتِكَ فلا تَحزَنْ عَليهم، فإلَينا مَرجِعُهمْ يومَ القِيامَة، ونَفتَحُ لهمْ صحَائفَ أعمالِهم، لِنُرِيَهمْ جَميعَ ما عَمِلوهُ مِنَ الكُفرِ والمعاصي في الدُّنيا ونُحاسِبَهمْ عَليه، ولا يَخفَى على اللهِ شَيءٌ ممَّا أخفَوهُ في صُدورِهم، فَضلاً عمَّا أظهَروهُ في مَقالِهِمْ وفَعالِهِم.

{نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ} (لقمان : ٢٤)

٢٤- نُنعِمُ عَليهمْ زَمانًا قَليلاً في الحَياةِ الدُّنيا ونُمهِلُهم، لِيَستَمتِعوا بما يَشاؤونَ إلى انقِضاءِ آجالِهِم، ثمَّ نُلجِئُهمْ يومَ القيامَةِ إلى عَذابٍ شَديدٍ شاقٍّ لا يَنفَكُّ عَنهم.

{وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (لقمان : ٢٥)

٢٥- وإذا سألتَ المشركين: مَنِ الذي خلقَ هذهِ السَّماواتِ والأرْضَ وما فيهما؟ فسيَعترِفونَ ويَقولون: إنَّهُ الله، فقُل: الحَمدُ للهِ على اعترافِهِمْ بذلك، وإلزامِهِمْ بما يُوجِبُ بُطلانَ ما هُمْ عَليهِ مِنْ باطِلٍ وشِرك، وأكثَرُهمْ لا يَعلَمونَ وُجوبَ مَعرِفَةِ العَقيدَةِ الصَّحيحَةِ عَليهم، فهمْ جاهِلونَ غَيرُ مُكتَرِثين.

{لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} (لقمان : ٢٦)

٢٦- للهِ كُلُّ ما في السَّماواتِ والأرْض، خَلقًا، ومُلكًا، وتَدبيرًا، فالعِبادَةُ لهُ وَحدَه، لا لأحَدٍ مِنْ خَلقِه، وهوَ الغَنِيُّ عنهمْ جَميعًا، المَحمودُ في الأمُورِ كُلِّها.

{وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (لقمان : ٢٧)

٢٧- ولو أنَّ جَميعَ الأشجَارِ التي في الأرْضِ بُرِيَتْ وجُعِلَتْ أقلامًا، وجُعِلَ البَحرُ مِدادًا، يَمُدُّ هذهِ الأقلامَ بهِ كُلَّما انتهَى مِدادُها، ومُدَّ هذا البَحرُ بسَبعَةِ أبحُرٍ أُخرَى بعدَ انتِهائه، وكُتِبَ بها كَلامُ الله، لَمَا نَفِدَ كلامُهُ سُبحانَه، لعدَمِ تَناهيه، واللهُ عَزيزٌ لا يُعجِزُهُ شَيء، قدْ غلبَ كُلَّ شَيءٍ وقهَرَه، حَكيمٌ في حُكمِهِ وأمرِهِ وجَميعِ شُؤونِه.

والمرادُ بالسَّبعَةِ الكَثرَةُ والمبالَغَة، لا الحَصر.

{مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} (لقمان : ٢٨)

٢٨- ما خَلقُكمْ جَميعًا أيُّها النَّاس، ولا بَعثُكمْ بعدَ الموت، إلاّ كخَلقِ وبَعثِ نَفسٍ واحِدَة، فالكُلُّ عَلى اللهِ سَهلٌ يَسير، ولا يتعَذَّرُ عَليهِ شَيء، وأمرُهُ سُبحانَهُ لا يَحتاجُ إلى تأكيدٍ وتِكرار، إنَّما يَقولُ للشَّيء، أو الأشياء: كُنْ، فيَكون. واللهُ يَسمَعُ جَميعَ أقوالِكم، بَصيرٌ بأعمالِكمْ كُلِّها.

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} (لقمان : ٢٩)

٢٩- أَلَا تُشاهِدُ كيفَ أنَّ اللهَ بقُدرَتِهِ يُدخِلُ اللَّيلَ في النَّهارِ شَيئًا فشَيئًا، ويُدخِلُ النَّهارَ في اللَّيلِ كذلك، بميزانٍ ودِقَّةٍ مُتناهيَة، وسَخَّرَ الشَّمسَ والقمرَ فجعلَهُما مُذَلَّلَينِ طائعَينِ لِمَا يُرادُ منهما في خِدمَةِ الإنسَان، وهُما يَجرِيانِ إلى حَدٍّ مُعَيَّن، وإلى وَقتٍ مُحَدَّد، ليتكوَّنَ مِنْ حرَكاتِهما اللَّيلُ والنَّهار، والشَّهرُ والسَّنَة... إنَّهما مِنْ صُنعِ اللهُ الخالِقِ المدَبِّر، الذي أحاطَ عِلمُهُ بجَميعِ ما تَعمَلون، ظاهِرِهِ وخَفيِّه.

{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} (لقمان : ٣٠)

٣٠- ذكرَ اللهُ تلكَ الآياتِ وبيَّنها لكم، لتَستَدِلُّوا بها على أنَّهُ الإلهُ الحقّ، وأنَّ ما يَعبدُهُ المشرِكونَ مِنْ دُونِهِ باطِلٌ مَعدومةٌ أُلوهيَّتُه، وأنَّ اللهَ هوَ العَليُّ على الأشياءِ فلا أعلَى منه، الكبيرُ الذي لا أكبَرَ منه، فكُلُّ شَيءٍ حَقيرٌ بالنسبَةِ إليه، جَلَّ جلالُه، وعَظُمَتْ قُدرَتُه.

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} (لقمان : ٣١)

٣١- ألَمْ تَنظُرْ كيفَ تَجري السُّفُنُ والبَواخِرُ والأساطيلُ في البَحرِ بتَسخيرِ الله، فجَعلَ فيهِ مَوازينَ لتَطفوَ عليهِ بالرَّغمِ مِنْ ثِقْلِها، ليُريَكُمْ دَلائلَ ألوهيَّتِهِ وقُدرَتِه؟ وفي تَسخيرِ البَحرِ لكمْ ولُطفِهِ بكمْ لتَجريَ فيهِ السُّفُنُ مُحمَّلةً بالأطعِمَةِ وعُروضِ الأموَالِ ومَوادِّ التِّجارة، آياتٌ وعِبَرٌ لمنْ كانَ كثيرَ الصَّبرِ على الشدَّةِ والضرَّاء، كثيرَ الشُّكرِ لرَبِّهِ وهوَ في النَّعيمِ والرَّخاء.

{وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ} (لقمان : ٣٢)

٣٢- وإذا عَلاهُمْ مَوجٌ مِنْ أمواجِ البَحرِ كالجبالِ والسَّحابِ في عِظَمِه، خافُوا والتَجَؤوا إلى اللهِ يَدعُونَهُ بإخلاص، ولم يُشرِكوا بهِ شَيئًا مِنَ الأوثانِ وغَيرِها، فلمَّا أنقذَهُمْ مِنَ الكَربِ وخلَّصَهمْ

مِنَ الغرَقِ إلى حَيثُ السَّـلامَةُ والأمَان، فمنهمْ مَنْ توسَّـطَ واعتدَلَ فسـلَكَ الطَّريقَ المسـتَقيم، ومنهمْ مَنْ أشرَكَ وكفرَ بنِعمَتِنا عليه، وما يَكفرُ بآياتِنا إلاّ كُلُّ خَائنٍ غادِر، جَحودٍ للنِّعَم.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَـوْا يَوْماً لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَـيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ} (لقمان : ٣٣)

٣٣- أيُّها النَّاس، أَطيعوا ربَّكمْ ولا تُخالِفوا أمرَه، واخشَوا يَومَ القِيامَةِ فإنَّهُ يَومٌ عَظيم، والحِسابُ فيهِ شَـديد، يَومَ لا يُغني والِدٌ عنْ ولَدِهِ ولا يَنفَعهُ شَـيئًا، ولا يُغني ولَدٌ عنْ والدِهِ ولا يُقبَلُ أنْ يَفدِيَهُ بشَيء، إنَّ المِعادَ حَقّ، والثَّوابَ والعِقابَ على الأعمَالِ حَقّ، فلا تُلهيَنَّكمُ الدُّنيا بلذّاتِها وشَـهواتِها عنْ طاعَةِ الله، ولا يَخدَعَنَّكمُ الشَّـيطانُ فيَحمِلَكمْ على العمَلِ بالمعاصـي بتَزيينِها في نفُوسِكم.

{إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّـاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (لقمان : ٣٤)

٣٤- إنَّ اللهَ استأثرَ بمَعرفَةِ وَقتِ قيامِ الساعَة، لا يَعلَمُ ذلكَ أحَدٌ غيرُه، لا نبيٌّ مُرسَلٌ ولا ملَكٌ مُقَرَّب.

وهوَ الذي يَعلَمُ زَمانَ نُزولِ المطَرِ ومَكانَهُ ومِقدارَه.

ويَعلَمُ ما في الأرحام: أذَكَرٌ هوَ أمْ أُنثَى، تامٌّ أمْ ناقِص، وعُمرَهُ ورِزقَه، وما يَكونُ شَـأنُهُ منذُ كَونِهِ نُطفَة، وعِلمُهُ شامِلٌ لكُلِّ أَجِنَّةِ الكائناتِ الحيَّة، وعِلمُهُ بها قَديمٌ قَبلَ الخَلق.

ولا تَدري نَفسٌ ما الذي تَجنيهِ وتَستَفيدُهُ في المستَقبَل، مِنْ خَيرٍ وشَرّ.

ولا تَدري نَفس، بَرَّةٌ أو فاجِرَة، في أيِّ مَكانٍ ستَموت.

إنَّ الذي يَعلَمُ ذلكَ كُلَّهُ في زَمانِهِ ومَكانِه، هوَ اللهُ وحدَه، إنَّهُ عَليمٌ بكُلِّ الأشـيَاء، وخَبيرٌ بتفاصيلِها جَميعًا، ظوَاهرِها وبَواطنِها، وما يُحيطُ بها.

سورة السجدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{الم} (السجدة : ١)

١- الحروفُ المقَطَّعَةُ لم يَرِدْ في تَفسيرِها حَديثٌ صَحيح، واللهُ أعلَمُ بمُرادِها.

{تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} (السجدة : ٢)

٢- تَنزيلُ القُرآنِ على محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم لا شَكَّ أنَّهُ مِنْ عندِ اللهِ رَبِّ العَالَمين.

{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} (السجدة : ٣)

٣- بلْ يَقولُ المشركونَ إنَّ محمَّدًا اختلَقَ القُرآنَ مِنْ تِلقاءِ نَفسِه. بلْ هوَ القَولُ الحَقُّ والكلامُ الصِّدْقُ المنْزَلُ مِنْ عندِ رَبِّك، لتَدعوَ بهِ قومًا وتُنذِرَهم، ما أتاهُمْ رَسولٌ مِنْ قَبلِ زَمانِكَ منذُ إسماعيلَ عَليهِ السَّلام - أو أنَّ المقصودَ أهلُ الفَترَة، بينَ عيسَى ومحمَّدٍ عليهما الصَّلاةُ والسَّلام - لعلَّهمْ يتَّعِظونَ بإنذارِك، ويَتَّبِعونَ الحقَّ بدَعوَتِك.

{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} (السجدة : ٤)

٤- هوَ اللهُ الذي خلقَ السَّماواتِ العَظيمةَ وما فيها مِنْ كواكِبَ ونُجومٍ ومجَرَّات، والأرْضَ وما فيها مِنْ نَباتٍ وحيَوانٍ وجَماد، في ستَّةِ أيَّام، ثمَّ استوَى على العَرش، بالمعنَى الذي أرادَهُ سُبحانَهُ وتَعالَى. ليسَ لكمْ أحَدٌ غَيرُهُ يَتولاّكُمْ في أمورِكمْ فيَنفعَكم، ولا شَفيعٌ يَشفَعُ لكمْ عندَهُ إلاّ بإذنِهِ إذا حَلَّ بكمُ العَذاب، فهوَ الذي يَتولَّى المصَالِح، ويَدفَعُ النِّقَم، بيدِهِ الأمرُ كُلُّه، أفلا تَسمَعونَ هذهِ المواعِظَ لتَتذَكَّروا وتَعتَبِروا، وتَعلَموا أنْ لا رَبَّ سِوَاه؟

{يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} (السجدة : ٥)

٥- الذي يُدَبِّرُ أمرَ الدُّنيا وشُؤونَها[١٠٨]، ويَتنَزَّلُ أمرُهُ وقَضاؤهُ مِنْ أعلَى السَّماواتِ إلى أدنَى الأرَضِين، ثمَّ يَصعَدُ الأمرُ إليهِ بعدَ تَدبيرِه[١٠٩]، في يَومٍ قَدْرُهُ مَسيرَةُ ألفِ سنَةٍ ممَّا تَعُدُّونَهُ في الدُّنيا.

{ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} (السجدة : ٦)

٦- ذلكَ هوَ اللهُ العَظيم، الذي يَعلَمُ ما غابَ عنِ البشَرِ عِلمُهُ ورُؤيَتُه، جَليلَهُ وحَقيرَه، كما أحاطَ عِلمُهُ بجَميعِ ما هوَ مُشاهَد، وهوَ العَزيزُ الذي غلبَ كُلَّ شَيءٍ وقهَرَه، الرَّحيمُ بعِبادِهِ في تَدبيرِهِ شُؤونَهم.

{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ} (السجدة : ٧)

٧- الذي أحسَنَ خَلْقَ الأشياء، فأتقنَها وأحكمَها، وجَعلَ لها ما يُناسِبُها ويُوافِقُها شَكلاً ومَضْموناً، كما تَقتَضيهِ الحِكمَة، لا تَجِدُ فيها نَقْصًا واختِلافًا، وبدأ خلقَ جِنسِ الإنسَانِ مِنْ طِين، وهوَ آدَمُ أبو البشَر، عَليهِ السَّلام.

{ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ} (السجدة : ٨)

٨- ثمَّ جَعلَ ذُرِّيَّتَهُ يَتناسَلونَ مِنْ ماءٍ ضَعيفٍ مُمتَهَن، هوَ المنِيُّ، مِنَ الرَّجُلِ والمرأة.

---

(١٠٨) {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ}: التدبيرُ حقيقتهُ التفكيرُ في إصدارِ فعلٍ متقَن، أولِهِ وآخره... وهو إذا وُصِفَ به الله تعالى كنايةٌ عن لازمِ حقيقته، وهو تمامُ الإتقان. (التحرير، باختصار).

(١٠٩) {ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ}: اختُلِفَ في معناه، وقالَ العلامةُ إسماعيل حقي: أي: يصعدُ ذلك الأمرُ إليه تعالى ويَثبتُ في علمِهِ موجودًا بالفعل.

{ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ} (السجدة : ٩)

٩- ثمَّ سَوَّاهُ بتَكمِيلِ أعضَائه، ولَحمِهِ وأعصَابِه، ونَفخَ فيهِ الرُّوح، وخلقَ لكمُ السَّمعَ لتَسمَعوا بها ما حَولَكمْ وتَعُوا، والأبصَارَ لتُبصِروا بها كذلك، والأفئدَةَ لتَتفَكّروا وتَستَدِلُّوا بها على قُدرَتِهِ وعظمَتِه، ولكنَّكمْ قَليلاً ما تَشكُرونَ هذهِ النِّعَمَ التي تَنفعُكم.

{وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ كَافِرُونَ} (السجدة : ١٠)

١٠- وقالَ المشرِكونَ المعانِدون: أإذا هلَكنا وغِبنا في الأرْض، واختلَطَتْ أجسادُنا بالتُّرابِ وتبَعثَرَتْ فيه، هلْ نُخْلَقُ ونُبعَثُ مِنْ جَديدٍ بعدَ تلكَ الحَال؟ بلْ همْ جاحِدونَ بالبَعثِ والحِسابِ على الأعمَال، ولو أنَّهمْ آمَنوا بذلكَ لكانوا مؤمِنينَ بقُدرَةِ اللهِ على إحيَاءِ الموتَى.

{قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ} (السجدة : ١١)

١١- قُلْ لهمْ أيُّها الرَّسُول: إنَّ مَلَكَ الموتِ الذي وُكِّلَ بقَبضِ أرواحِكم، يَقبِضُها بأمرِ رَبِّه، ثمَّ تُرجَعونَ إلى اللهِ يَومَ المعادِ للحِسابِ والجَزاء.

{وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ} (السجدة : ١٢)

١٢- ولو ترَى حالَ المشركِينَ يَومَ القيامَةِ وقدْ أطرَقوا رُؤوسَهمْ بينَ يَدَي اللهِ ذَليلين، مِنَ الحيَاءِ والخِزيِ والندَم، ويَقولون: الآنَ يا ربَّنا صِرْنا نَعرِفُ ونُدرِك، ونَسمَعُ ونُبصِر، فأَعِدنا إلى الدُّنيا لنُطيعَكَ ونعملَ الأعمَالَ الصَّالحَة، ولا نُشرِكَ بكَ شَيئًا، إنَّا مؤمِنونَ بك، مُوقِنونَ بالبَعثِ بعدَ الموت.

وقدْ عَلِمَ اللهُ أنَّهمْ لو رُدُّوا إلى الدُّنيا لعَادُوا لِمَا نُهوا عَنه.

{وَلَوْ شِـئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} (السجدة : ١٣)

١٣- ولو أرَدنا لهدَينا كُلَّ نَفسٍ إلى الإيمان، وأجبَرناها على القِيامِ بما يُرضـي الله، كالملائكةِ الذينَ لا يَعصُونَهُ فيما أمرَهمْ به، ولكنَّهُ سُبحانَهُ تركَ حُرِّيَّةَ الاختِيارِ للإنسَان، وبيَّنَ لهُ طَريقَ الخَيرِ والشَّرّ، وجعلَهُ مَسؤولاً عمَّا يَختارُ ويَعمَل. وقدْ ثبتَ وتحقَّقَ القَولُ مِنّي، لأملأنَّ جهنَّمَ مِنَ الكافِرينَ والضَّالِّينَ المخالِفينَ للحَقّ، مِنَ الجِنِّ والإنسِ أجمَعين، وأنتُمْ منهمْ أيُّها المشرِكون، فقدْ أغوَاكمْ إبليسُ فأطَعتُموه، واختَرتُمُ الضَّلالَ على الهُدَى.

والعُصاةُ مِنَ المسلِمينَ يُعَذَّبونَ في جهنَّمَ ثمَّ يَخرجونَ منها، إلاّ مَنْ عَفا اللهُ عَنهم، فلا يُعَذَّبون.

{فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (السجدة : ١٤)

١٤- فذوقوا عَذابَ النَّارِ بسـبَبِ تَركِكمُ الإيمانَ والعملَ لِلقاءِ هذا اليَوم، إنَّا تَركناكُمْ في العَذابِ تَرْكَ المنسِيّ، وذُوقوا عُقوبَةً شَديدةً دائمَةً في جهنَّم، لا يُطْفَأُ نارُها، ولا يُخفَّفُ عَذابُها، بما كنتُمْ تَعمَلونَ مِنَ الكُفرِ والمعاصِي.

{إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} (السجدة : ١٥)

١٥- إنَّما يُصَدِّقُ بآياتِنا الذينَ إذا وُعِظوا بها استَمَعوا إليها وعَمِلوا بما فيها، مِنْ غَيرِ تَرَدُّدٍ ولا تَكبُّر، وبادَروا إلى السُّجودِ لرَبِّهمْ على وُجوهِهم؛ تَواضُعًا لهُ وخَوفًا مِنْ عَذابِه، ونزَّهوهُ عنْ كُلِّ ما لا يَليقُ بذاتِهِ وأسمائهِ وصِفاتِه، وأثنَوا عليهِ الخَيرَ كُلَّه، لِما هَداهُمْ إلى دِينِه، وأسبَغَ عَليهمْ مِنْ نِعَمِه، وهمْ لا يَستَكبِرونَ عنِ الإيمانِ بهِ وطاعَتِهِ والسُّجودِ له.

{تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} (السجدة : ١٦)

١٦- تَتباعَدُ أطرافُهمْ عنِ الفُرُشِ وتَنبو عنْ مَواضِعِ النَّوم، فيَقومونَ اللَّيلَ يتهَجَّدون، يَعبدُونَ اللهَ ويَدعُونَهُ خَوفًا مِنْ عَذابِه، وطَمعًا في كرَمِهِ وجنَّتِه، ويُنفِقونَ ممَّا رزَقناهُمْ في وُجوهِ البِرِّ والإحسَان، مِنَ الزكَواتِ والصَّدَقات.

وفي الحَديثِ الصَّحيحِ قَولهُ صلى الله عليه وسلم: "عَليكمْ بقِيامِ اللَّيلِ فإنَّهُ دأَبُ الصَّالحِينَ مِنْ قَبلِكم، وقُربَةٌ إلى اللهِ تَعالَى، ومَنهَاةٌ عنِ الإثم، وتَكفِيرٌ للسَّيِّئات، ومَطرَدَةٌ للدَّاءِ عنِ الجسَد".

وقالَ أنَسٌ رَضِيَ اللهُ عَنه: فينا نزلَتْ مَعاشِرَ الأنصار، كُنَّا نُصَلِّي المغرِب، فلا نَرجِعُ إلى رِحالِنا حتَّى نُصَلِّيَ العِشاءَ الآخِرَةَ معَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم.

{فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (السجدة : ١٧)

١٧- فلا تَعلَمُ نَفسٌ مِنَ النُّفوسِ ما أُعِدَّ لهمْ مِنَ الثَّوابِ الجَليل، والنَّعيمِ الكَثير، واللَّذَّةِ والسُّرور، ممَّا تَقَرُّ بِهِ أعينُهم، جزاءَ ما كانوا يَعمَلونَهُ منَ الأعمالِ الصَّالِحَة.

{أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَّا يَسْتَوُونَ} (السجدة : ١٨)

١٨- فهلِ الذي عُمِّرَ قَلبُهُ بالإيمَان، وانقادَتْ جَوارِحُهُ لطاعَةِ الله، كمَنْ كفرَ به، وجحَدَ رِسالاتِه، وخرَجَ عنْ طاعَتِه؟ إنَّهمْ لا يَستَوونَ في الثَّوابِ يَومَ القيامَةِ أبدًا.

{أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (السجدة : ١٩)

١٩- أمَّا الذينَ آمَنوا وصَدَقوا في إيمانِهم، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحَةَ لوَجهِ اللهِ وحدَه، فلهمْ جَنَّاتُ النَّعيم، مأوَى اللَّذَّات، ونَعيمُ الأرواح، ومَحَلُّ الأفراح، في جِوارِ رَبٍّ كَريم، ضيافَةً وكَرامَة، بما كانوا يَعمَلونَ في الدُّنيا منَ الطَّاعاتِ والقُرُبات.

{وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ} (السجدة : ٢٠)

٢٠- وأمَّا الذينَ كفَروا وخرَجوا عنْ طاعَةِ رَبِّهم، فمَحَلُّهمُ النَّارُ التي تُسْـعَرُ بهم، خالِدينَ فيها، كُلَّما حاوَلوا الخروجَ منها - لِما يَلحَقُهمْ مِنَ الحرِّ والشدَّةِ والكَرْب - ضُرِبوا بالمِقامِع، فأُعيدُوا مِنْ أعالِيها إلى أسـافلِها، وقالَتْ لهمُ الملائكة: ذُوقوا العَذابَ الذي كنتُمْ تُكَذِّبونَ بهِ في الحيَاةِ الدُّنيا.

{وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (السجدة : ٢١)
٢١- ولَنُذيقَنَّ هؤلاءِ الفاسِقينَ المكَذِّبينَ طرَفًا مِنَ العَذابِ في الحياةِ الدُّنيا قَبلَ عَذابِ الآخِرَة، مِنَ المِصـائبِ والآفات، والأسْـرِ والقَتل، والمرَضِ والفَقر، لعلَّ مَنْ بَقيَ منهمْ يَتوبُ ويَرجِعُ إلى الله.

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ} (السـجدة : ٢٢)
٢٢- وليسَ هُناكَ أظلَمُ ممَّنْ وُعِظَ بآياتِ اللهِ فأعرضَ عَنها ولم يَتدَبَّرْ فيها، أو تَناسـاها وجحَدَها، وسَنَنتَقِمُ مِنَ المشرِكينَ المكَذِّبينَ انتِقامًا شَديدًا.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَـى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْـرَائِيلَ} (السجدة : ٢٣)
٢٣- ولقدْ آتَينا موسَى التَّوراةَ المصَدِّقَةَ للقُرآن، فلا تَكنْ في شَـكٍّ مِنْ لقَاءِ موسَى. وقدْ رآهُ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ليلةَ أُسرِيَ به، ووَصفَه، كما رَواهُ البُخاريُّ وغَيرُه.
ووردَ أنَّ المعنى: لا تَكنْ في شَكٍّ مِنْ تلَقِّي الكِتاب، فإنَّكَ تَتلَقَّاهُ كما تَلَقَّى موسَى الكِتاب.
وجَعَلنا التَّوراةَ هادِيًا لبَني إسْرائيلَ مِنَ الضَّلالَة.

{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} (السجدة : ٢٤)
٢٤- وجعَلنا مِنْ بَني إسْـرائيلَ هُداةً وقادَةً في الخَير، يَدْعُونَ إلى الحَقِّ بأمرِ الله، عندَما صـبَروا على الدَّعوَةِ إلى اللهِ ونُصرَةِ دِينِهِ والأذَى في سَبيلِه، وكانوا مُصَدِّقينَ بآياتِنا، قدْ رسَخَ الإيمَانُ في

قُلوبِهِم، ولذلكَ جعَلهمُ اللهُ أئمَّة، وعندَما انحَرفوا عنْ تعاليمِ التَّوراةِ وبدَّلوها، وصـــارَتْ قُلوبُهمْ قاسيَة، أذلَّهُمُ اللهُ ولعنَهم.

{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} (السجدة : ٢٥)

٢٥- والله يَقضي بينَ المؤمنينَ والمشركِينَ يومَ القيامَة، فيما كانوا يَختَلِفونَ فيهِ مِنْ أُمُورِ العَقيدَةِ والدِّين، ويُميِّزُ بينَ المحِقِّ والمبطِل.

{أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُـونَ فِي مَسَـاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ} (السجدة : ٢٦)

٢٦- أوَلَمْ يَتبيَّنْ لهؤلاءِ المكَذِّبينَ كثرَةُ مَنْ أهلَكنا قبلَهمْ مِنَ الأُمَمِ السَّابقَة، مثلِ عَادٍ وثَمودَ وقَومِ لُوط، وهمْ يَمرُّونَ بمســاكنِهمْ ويُشــاهِدونَ آثارَ هَلاكِهم، وإنَّ فيما حَلَّ بهمْ مِنْ دَمارٍ وهَلاكٍ بسبَبِ تَكذيبِهمْ ومُخالفَتِهمُ الرسُلَ مَواعِظَ وعِبرًا، أفلا يَسمَعونَ أخبارَهمْ ويَتَّعِظونَ بها؟

{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُـهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ} (السجدة : ٢٧)

٢٧- ألَا يُشاهِدونَ دَلائلَ وَحدانيَّةِ اللهِ وآثارَ قُدرَتِهِ في الأرْض، كيفَ يَسوقُ السَّحابَ الحامِلَ للمطَر، أو يُجري الماءَ مِنَ العُيونِ والأنهَار، إلى ما هوَ يابِسٌ منها، لا نَباتَ فيها ولا حياة، فيُخرِجُ بذلكَ الماءِ الزَّرعَ والعُشبَ بأنوَاعِه، فتأكلُ منهُ دَوابُّهم، وهمْ يأكلونَ مِنْ حبوبِهِ وبُقولِه، أفلا يُبصِرونَ ذلكَ فيَتَّعِظون، ويَشكرونَ للهِ ويؤمِنون؟

{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (السجدة : ٢٨)

٢٨- ويَقولُ المشــركونَ مِنْ قَبيلِ التَّكذيبِ والاســتِهزاء: ومتَى يُفتَحُ لكمْ ويَفصِــلُ اللهُ بينَنا وبينَكم، ويَنتَقِمُ منَّا لكم، إذا كنتُمْ صادِقينَ في ادِّعائكمْ ذلك؟

{قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ} (السجدة : ٢٩)

٢٩- قُلْ لهمْ أيُّها الرسُــول: إذا جاءَ يَومُ الحُكمِ والقَضــاء، وحَلَّ بكمْ بأسُ اللهِ وغضَــبُهُ يَومَ القِيامَة، فلنْ يَنفعَ الكافِرينَ إيمانُهُمْ إنْ آمَنوا يومَئذ، ولا يُمهَلونَ ليَتوبوا ويَعتَذِروا.

{فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ} (السجدة : ٣٠)

٣٠- فأعرِضْ عنهمْ ولا تُبالِ بتَكذيبِهمْ وسُــــخريَتِهم، وبَلِّغْ ما أُنزِلَ إليكَ مِنْ رَبِّك، وانتَظِرِ النَّصرَ مِنَ الله، إنَّهمْ يترَبَّصونَ بكمْ ويَنتَظِرونَ الغلبَةَ عَليكم، وسترى عاقِبَةَ أمرِهم.

ووَردَ أنَّ هذهِ الآيةَ مَنسوخَةٌ بآيَةِ السَّيف. وقالَ صاحِبُ "روحِ المعاني": لا يَخفَى أنَّهُ يُحتَمَلُ أنَّ المرادَ الإعراضُ عنْ مُناظَرَتِهِمْ لعدَمِ نَفعِها، أو تَخصيصُها بوَقتٍ مُعَيَّن، فلا يَتعيَّنُ النَّسخ.

* * *

وقدْ صَحَّ عنْ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، أنَّهُ كانَ لا يَنامُ حتَّى يَقرأ {الم . تَنزِيلُ} السَّجدة، و{تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ}. رواهُ الترمذيّ، والحاكم في المستَدرَك، وغَيرُهما.

سـورة الأحـزاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً} (الأحزاب : ١)

١- أيُّها النبيُّ الكريم، داوِمْ على طاعَةِ اللهِ واثبُتْ عَليها، وابتَعِدْ عنْ مَعاصيهِ حذَرًا مِنْ عقوبَتِه، ولا تَسمَعْ مِنَ الكافِرينَ والمنافِقينَ ولا تَستَشِرهمْ في أَمرٍ مِنْ أمُورِك، واللهُ عَليمٌ بعَواقبِ الأمُور، حَكيمٌ فيما يأمرُ وينَهَى ويُدَبِّر.

والخِطابُ لأمَّتِهِ كذلك، صلى الله عليه وسلم.

{وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً} (الأحزاب : ٢)

٢- واتَّبِعْ ما يُوحي إليكَ اللهُ واعمَلْ بموجبِه، واللهُ مُحيطٌ بما تَعمَلون، خَبيرٌ بما تُظهِرونَ وما تُخفُون، لا يَخفَى عليهِ شَيء.

{وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً} (الأحزاب : ٣)

٣- واعتَمِدْ على اللهِ في أمورِكَ كُلِّها وثِقْ به، وكفَى بِهِ حافِظًا لمنْ فوَّضَ إليهِ أمرَه.

{مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءكُمْ أَبْنَاءكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ} (الأحزاب : ٤)

٤- ما جعلَ اللهُ للشَّخصِ الواحدِ قَلبَينِ في جَوفِه[١١٠]، وكما لا يَكونُ هذا، كذلكَ لا تَصيرُ زَوجَةُ الشَّخصِ أُمًّا لهُ إذا قالَ لها: أنتِ عليَّ كظَهرِ أُمِّي، كما كانَ الأمرُ في الجاهليَّة. وكذلكَ

(١١٠) جوفُ الإنسانِ بطنه، كما في اللغات، وذكرهُ لزيادةِ التقرير، كما في قولهِ تعالى: {وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [سورة الحج: ٤٦]. (روح البيان). =

لا يَصـــيرُ أدعياؤكمْ أبناءً لكمْ إذا تبنَّيتُموهم، كما كانَ الأمرُ في الجاهليَّةِ أيضًـــا. فهذا الظِّهارُ والتبَنِّي قَولٌ بأفواهِكمْ مِنْ غَيرِ أنْ يَكونَ لهُ أساسٌ مِنَ الصِّدقِ والحَقيقَة، فإنَّ زَوجاتِكمْ أُمَّهاتٌ لأولادِكم، وأدعياؤكمْ أولادٌ لغَيرِكم. واللهُ يُثْبِتُ الحقَّ كما هو، ويُرشِدُكمْ إلى طَريقِ الحقِّ فاتَّبِعوه. والظِّهارُ محرَّم، ويأتي بيانُ حُكمِهِ في الآيَةِ الثانيَةِ مِنْ سُورَةِ المجادِلَة.

{ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً} (الأحزاب : ٥)

٥- فانسِـبوا أدعياءَكمْ إلى آبائهم، فهوَ الكلامُ العَدْل، والحُكمُ الحقُّ الذي قضَـى بهِ الله، فلا يَجوزُ أنْ يُقالَ لشَخصٍ ابنُ فُلانٍ وهوَ ليسَ ابنًا له. فإذا لم تَعرِفوا آباءَهمْ لتَنسِبوهمْ إليهم، فهمْ إخوانُكمْ في الدِّين، وأولياؤكمْ ونُصَراؤكمْ فيه، فادْعُوهُمْ بالأُخوَّةِ والموالاة، كما يُقال: سالِمٌ مَولَى حُذَيفَة. ولا حرَجَ عَليكمْ إذا نسَبتُمْ بَعضَهمْ إلى غَيرِ آبائهمْ خطأً بعدَ البَحثِ والتحَرّي، ولكنَّ الإثمَ على مَنْ تعَمَّدَ نِسـبَةَ شَـخصٍ إلى غَيرِ أبيه. واللهُ يَغفِرُ لمنْ تابَ وإنْ كانَ مُتعَمِّدًا، رَحيمٌ بعبادِهِ المؤمنينَ التَّائبين.

وفي صَحيحِ البُخاريِّ قَولُهُ صلى الله عليه وسلم: "ليسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَى لغَيرِ أبيه، وهوَ يَعلَمُه، إلاّ كفرَ بالله، ومَنِ ادَّعَى قَومًا ليسَ لهُ فيهمْ نسَبٌ فليَتبَوَّأْ مَقْعَدَهُ منَ النَّار". والمقصودُ بالكُفرِ هُنا كفرُ النِّعمَة، تَغليظًا وزَجرًا لفاعلِه. وهوَ زَجرٌ شَديد.

{النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً} (الأحزاب : ٦)

٦- النبيُّ أقرَبُ إلى المؤمِنينَ مِنْ أنفُسِهمْ وأشَدُّ وِلايَةً ونُصرَةً لهم، فلا يأمرُهمْ إلاّ بما فيهِ خَيرُهمْ وصَلاحُهم، ويَكونُ حُكمُهُ مُقَدَّمًا على اختيارِهمْ لأنفُسِهم، فيُطيعونَهُ ويُلَبُّونَ أمرَه.

= الجوف: باطنُ الإنسان: صدرهُ وبطنه، وهو مقرُّ الأعضاءِ الرئيسيةِ عدا الدماغ. (التحرير والتنوير).

وزَوجاتُ النبيّ بمَنزِلَةِ أُمَّهاتِهِمْ في حُرمَةِ نِكاحِهِنّ، وتَعظيمِ قَدْرِهِنّ.

وذَوو القَراباتِ بَعضُهُمْ أَولَى بالتَّوارُثِ مِنْ بَعضٍ في القُرآنِ مِنْ وِراثَةِ المهاجِرينَ والأنصارِ بَعضِهِمْ مِنْ بَعض، إلاّ إذا كانَ ما تُعطونَهُمْ مِنْ بابِ البِرِّ والصِّلَةِ والوَصيَّة. وما ذُكِرَ مِنَ التوارُثِ بينَ أُولي الأرحامِ بدلَ الهِجرَةِ والإخاء، هوَ الحُكمُ المقَدَّرُ والمكتوبُ في القُرآن، أو في اللَّوحِ المحفوظ.

فالآيَةُ ناسِخَةٌ لِما كانَ مَعمولاً بِهِ مِنْ قَبل، مِنَ التَّوارُثِ بالهِجرَةِ والإيمَان.

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً} (الأحزاب : ٧)

٧- واذكُرْ إذْ أخَذنا مِنَ النبيّينَ العَهدَ والميثَاقَ بتَبليغِ الرِّسالَة، والدَّعوَةِ إلى دِينِ الله، والوَفاءِ بما وُكِّلَ إليهم، وأنْ يُصَدِّقَ بَعضُهمْ بَعضًا، معَ التَّناصُرِ والتناصُحِ والاتِّفاق، وكذا أخَذنا مِنْ أُولي العَزمِ مِنَ الرُّسُلِ هذا الميثَاقَ، لبَيانِ مَزيدِ فَضلِهم: منكَ أيُّها الرَسُول، ومِن نُوح، وإبراهيم، وموسَى بنِ عِمران، وعيسَى بنِ مَريَم، أخَذنا منهمْ عَهدًا قَويًّا عَظيمَ الشَّأنِ على ذلك.

{لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً} (الأحزاب : ٨)

٨- ليَسألَ اللهُ النبيّينَ الصَّادِقينَ يَومَ القِيامَةِ عنْ كَلامِهِمُ الصَّادِقِ الذي بلَّغوهُ النَّاس، وعنِ استِجابَتِهِمْ لهم، وأعدَّ للكافِرينَ مِنْ أقوامِهِمْ عَذابًا مُؤلِمًا مُوجِعًا.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً} (الأحزاب : ٩)

٩- أيُّها المؤمِنون، اذكرُوا فَضلَ اللهِ ونِعمتَهُ العَظيمَةَ عَليكمْ في غَزوَةِ الأحزَاب، عندَما حُوصِرتُمْ معَ الرَّسُولِ في المدينَة، إذْ جاءَتْكمْ جُيوشُ قُرَيشٍ وغَيرِها مِنَ القبائلِ العَربيَّةِ واجتمعَتْ على مُحاربَتِكم، فأرسَلنا عَليهمْ ريحًا شَديدَة، لم تُبْقِ لهمْ خَيمَةً ثابِتَة، ولا نارًا مُوقَدَة، وأرسَلنا عَليهمْ جُنودًا لم ترَوها، همُ الملائكة، ألقَتْ في قُلوبِ الأحزَابِ الرُّعبَ والخَوف، فلم يَقِرَّ لهمْ قَرار، فانهَزَموا.

وكانَ اللهُ بَصــيرًا بما تَعمَلون، مِنْ بَذلِ جُهدِكمْ لنُصــرَةِ دِينِ اللهِ ومُوالاةِ رَســولِه، والتِجائكمْ وتَضَرُّعِكمْ إلى رَبِّكمْ ليَكُفَّ شَرَّهُمْ عَنكمْ ويَنصُرَكمْ عَليهم.

{إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْــفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَــارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا} (الأحزاب : ١٠)

١٠- واذكروا كيفَ جاؤوكمْ منْ أعلَى الوادي مِنْ قِبَلِ المشـــرِق، ومِنْ بَطنِ الوَادي مِنْ قِبَلِ المغرِب، وقدْ مالَتِ العُيونُ وشـــخَصَـــتْ مِنَ الحَيرَةِ والرُّعب، وخافَتِ القُلوبُ وفَزِعَتْ فزَعًا عَظيمًا، وتَظنُّونَ باللهِ الظُّنونَ المختَلِفَة، فمِنْ مُخلِصٍ ثابتِ الإيمانِ يؤمِنُ بنَصرِ الله، ومِنْ خائفٍ لا يتحمَّلُ ما يَرَى، وظنَّ المنافِقونَ أنَّ الأحزَابَ سيَقضُونَ على المسلِمين.

{هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً} (الأحزاب : ١١)

١١- في ذلكَ الوَقتِ العَصـيب، والحِصـارِ الشَّـديد، اختبَرَ اللهُ المؤمنين، ليَتميَّزَ المخلِصُ مِنْ غَيرِه، وقدِ اضـطَرَبوا اضـطِرابًا شَـديدًا، ورُوِّعوا مِنْ كَثرَةِ الأعدَاءِ ومُناوَشـاتِهمْ للدُّخولِ إلى المدينَةِ والفَتكِ بالمسلِمينَ ونِسائهمْ وأطفالِهم.

{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً} (الأحزاب : ١٢)

١٢- وظهرَ النِّفاقُ في هذا الاختِبارِ الربَّانيّ، فقالَ المنافِقونَ الذينَ كانوا يُظهِرونَ الإيمانَ وهمْ ليسُوا كذلك، ومعَهمْ ضُعَفاءُ الإيمانِ الذينَ تأثَّروا بكلامِهمْ وشُبَهِهمْ وشائعاتِهم، معَ ما أصابَهمْ منَ الخَوفِ والفزَع، قالوا: إنَّ الذي وعدَنا اللهُ ورَسولُهُ منَ النَّصرِ والفَتحِ ما هوَ إلاّ قَولٌ باطِل. وهذهِ عادَةُ المنافِقينَ عندَ الشِّدَّةِ والمِحنَة.

{وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْــتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً} (الأحزاب : ١٣)

١٣- واذكُرْ إذْ قالَتْ جَماعَةٌ مِنَ المنافِقينَ أو المخذولِينَ وقدْ جَزِعوا: يا أهلَ المدينَةِ لا تُعَسْكِروا خارجَ الخَندَقِ وارجِعوا إلى مَنازِلِكم، فإنَّهُ لا طاقةَ لكمْ بالقِتال.
وجَماعَةٌ أُخرَى يَستأذِنونَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم لتَرْكِ مَواقعِهم، ويَقولونَ إنَّنا نَخشَى على بيوتِنا مِنَ الخطَر، فليسَ دونَها ما يَحجبُها مِنَ العَدوِّ ونحنُ غائبونَ عَنها، وليسَ الأمرُ كما يَدَّعون، إنَّما يُريدونَ بالاستئذانِ الهربَ مِنَ القِتال.

{وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً} (الأحزاب : ١٤)

١٤- ولو أنَّ هؤلاءِ دخلَ عَليهمُ الكُفَّارُ مِنْ نَواحي المدينَةِ واحتَلُّوها، وطُلِبَ منهمْ أنْ يَكفُروا، لاستَجابوا لذلكَ مُسرِعين، ولم يؤَخِّروا جَوابَهمْ إلاّ زَمانًا يَسيرًا، فهمْ غَيرُ مُتَمَسِّكينَ بالدِّين، ولا مُحافِظينَ على العَهدِ والإيمان.

{وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً} (الأحزاب : ١٥)

١٥- ولقدْ كانَ هؤلاءِ المستأذِنونَ المتَذَبذِبونَ عاهَدوا اللهَ قَبلَ مُحاصرَتِهمْ أنْ لا يَفِرُّوا مِنَ الجِهاد، وسَيَسألُهُمُ اللهُ عنْ العَهدِ الذي لم يَفُوا به.

{قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً} (الأحزاب : ١٦)

١٦- قُلْ لهمْ أيُّها الرَّسُول: لنْ يُفيدَكمُ الهرَبُ مِنَ القِتال، ولنْ يَحميَكمْ مِنَ الموتِ على فُرُشِكمْ أو القَتلِ بالسَّيفِ وغَيرِه، فالأجَلُ واحِد، وإذا حدَثَ أنْ هرَبتُمْ لتَسلَموا مِنَ القَتل، فلنْ تَتمَتَّعوا في الدُّنيا إلاّ زَمانًا يَسيرًا، فالموتُ مَصيرُ كُلِّ حَيّ.

{قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً} (الأحزاب : ١٧)

١٧- قُلْ لهم: مَنِ الذي يَمنَعُكمْ مِنْ قدَرِ اللهِ وتَنفيذِ حُكمِهِ فيكمْ إنْ أرادَ بكمْ شَـــرًّا أو أرادَ بكمْ خَيرًا؟ إنَّهُ لا أحَد، فالأمرُ كُلُّهُ بيَدِهِ سُبحانَه، نَفعًا كانَ أو ضُرًّا، ولنْ يَجِدوا لأنفُسِهمْ غَيرَ اللهِ يَجلُبُ لهمُ الخير، ولا نَصيرًا سِواهُ يُساعِدُهمْ ويَدفَعُ عَنهمُ الشرّ.

{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً} (الأحزاب : ١٨)

١٨- واللهُ يَعلَمُ المثَبِّطينَ غَيرَهمْ مِنَ الخُروجِ إلى الجِهاد - وهمُ المنافِقونَ - والقائلينَ لأصحابِهِمُ الذينَ خرَجوا: تَعالَوا وأقيموا معَنا ولا تُحارِبوا. معَ كَونِهِمْ يَخذُلونَ النَّاس، فإنَّهمْ لا يُشـــارِكونَ في القِتالِ بأنفُسِهمْ إلاّ قَليلاً.

{أَشِـحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَـى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَـلَقُوكُم بِأَلْسِـنَةٍ حِدَادٍ أَشِـحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً} (الأحزاب : ١٩)

١٩- بُخَلاءُ بأبدَانِهِمْ عندَ القِتال، وبقُلوبِهِمْ في المحبَّةِ لكم، وبأموالِهِمْ في النفقَةِ والنُّصـــرَة. فإذا جاءَ الخَوفُ مِنْ قِبَلِ العَدوّ، وظَنُّوا أنَّ البأسَ سـيَقعُ بهِمْ كما يَقَعُ بغَيرِهم، رأيتَهمْ يَنظُرونَ إليكَ وأعينُهمْ تَدورُ مِنَ القَلقِ وشِـــدَّةِ الهَلَع، كنظَرِ المغشـــيِّ عَليهِ مِنْ سَـــكراتِ الموت، فإذا انجَلَى الخَوفُ وأَمِنوا، بسَـــطوا فيكمْ ألسِـــنتَهمْ السَّـــليطَةَ المقذِعَة، وآذَوكمْ وانتَقَصُـــوكم، وهمْ بُخَلاءُ بالنفَقة، لكنَّهمْ حَريصونَ على أخذِ الغنائمِ معَ المجاهِدينَ المسلِمين!

فهؤلاءِ المتَّصِـفونَ بهذهِ الصِّـفاتِ لم يؤمِنوا بإخْلاص، بلْ أظهَروا إيمانَهمْ أمامَ النَّاسِ وهمْ كافِرونَ في بَواطِنِهم، ولذلكَ أبطلَ اللهُ أعمالَهمُ التي يُظَنُّ أنَّ فيها خَيرًا، وهذا أمرٌ سَـهلٌ على الله، فإنَّهُ لا يُبالي بهمْ وقدْ خانُوا الدِّينَ والعَهد.

{يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً} (الأحزاب : ٢٠)

٢٠- ومعَ أنَّ اللهَ خـذَلَ الأحزابَ وهزَمَهمْ فرَحَلوا، إلاّ أنَّ المنـافِقينَ يَظنُّونَ أنَّهمْ لم يَـذهَبوا! لجُبنِهمْ وخَوفِهم، وصُــعوبَةِ تَصــديقِهمْ أنْ يَنتَهيَ الأمرُ هكذا، ويَهرُبَ جميعُ الأحزابِ بدونِ حَربٍ تُذكَر! وظَنُّوا أنَّهمْ مُعَسكِرونَ قَريبًا منهم!
وإذا حدَثَ أنْ أتَتِ الأحزابُ مرَّةً أُخرَى، تمنَّوا لو أنَّهمْ كانوا خارجَ المدِينَة، معَ الأعرابِ في الباديَة، يَســألونَ عنْ أخبارِكم، وما جرَى عَليكمْ مِنَ الأحزاب؛ خَوفًا وجُبنًا مِنْ أنْ يَشــهَدوا حَربًا. ولو أنَّهمْ كانوا بينَكمْ لما قاتَلوا معَكمْ إلاّ قَليلاً، فلا تُبالُوا بهم، ولا تأسَوا عَليهم.

{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً} (الأحزاب : ٢١)

٢١- لقدْ كانَ حقًّا عَليكمْ أنْ تَقتَدوا برَسولِ اللهِ يَومَ الأحزاب، في انتِصارِهِ لدِينِ الله، وتحَمُّلِهِ الأذَى، وصَـــبرِه، ومُرابطَتِه، وثَباتِه، وانتِظارِهِ الفرَجَ مِنْ رَبِّه، فهوَ قُدوَةٌ لكمْ في أقوالِهِ وأفعالِه، وأحوالِهِ وشَمائلِه، لمنْ كانَ يَخشَى اللهَ ويَرجو ثَوابَهُ يومَ الجَزاءِ على الأعمَال، وذكرَ اللهَ ذِكرًا كثيرًا في عامَّةِ أحوالِه.

{وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً} (الأحزاب : ٢٢)

٢٢- والمؤمِنونَ الصَّـادِقونَ الراسِـخونَ في إيمانِهمْ لما رَأوا الأحزابَ قدِ اجتَمَعوا عَليهم، وتذَكَّروا ما وعدَهمُ اللهُ بهِ مِنَ الابتِلاءِ والشـدَّة، ثمَّ النَّصرِ على الكافِرين، قالوا في إيمانٍ ويَقين: هذا ما وعدَنا اللهُ ورَسولُهُ مِنَ الابتِلاءِ والاختِبار، وصدَقَ اللهُ ورَسُولُه، في الابتِلاء، وفي الانتِصار، وما زادَهمْ ذلكَ إلاّ إيمانًا باللهِ وتَصديقًا بوَعدِه، وتَسليمًا لأمرِهِ وقَدَرِه، وطاعَةً لرَسُولِه.

{مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً} (الأحزاب : ٢٣)

٢٣- مِنَ المؤمِنينَ المخلِصينَ رِجالٌ صَدَقوا ما وعَدوا اللهَ به، مِنَ الثَّباتِ على العَهد، والجِهادِ في سَبيلِه، فمنهمْ مَنْ ماتَ شَهيدًا في سَاحَةِ الجِهاد، ومِنهمْ مَنْ يَنتَظِرُ فُرصَةً للجِهادِ ليُقاتِلَ طلبًا للشَّهادَة، وما غَيَّروا عَهدَهمْ معَ الله، ولا نَقَضوهُ أبَدًا.

{لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً} (الأحزاب : ٢٤)

٢٤- ليَجزِيَ الذينَ صَدَقوا ما عاهَدوا اللهَ عَليهِ ويُثيبَهمْ رَحمَةً مِنْ عِندِه، بسبَبِ صَبرِهِمْ وصِدقِهِمْ ووَفائهم، وليُعَذِّبَ المنافِقينَ الذينَ خالَفوا أمرَ اللهِ ونقَضوا عَهدَه، إنْ شَاءَ ذلك، أو يَتوبَ عَليهمْ فيَهديَهمْ إلى الإيمانِ والعمَلِ الصَّالِح، واللهُ يَغفِرُ لمنْ تابَ وآمَن، ويَرحَمُهم.

{وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً} (الأحزاب : ٢٥)

٢٥- وردَّ اللهُ الكافِرينَ مِنَ الأحزابِ حانِقين، لم يَشفُوا صُدورَهمْ بنَيلِ ما أرادُوا، فلمْ يَظفَروا بنَصرٍ ولا غَنيمَة، ووَقَى اللهُ المؤمِنينَ بالرِّيحِ والملائكة، ففَرَّ أعداؤهمْ دونَ أنْ يُقاتِلوهم، واللهُ قَويٌّ فيما يُريدُه، لا تَمنَعُهُ قُوَّةٌ مِنْ ذلك، عَزيزٌ في انتِقامِه، غالِبٌ على كُلِّ شَيء.

{وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً} (الأحزاب : ٢٦)

٢٦- والذينَ ساعَدوا الأحزابَ مِنْ أهلِ الكِتاب، وهمْ بَنو قُرَيظَةَ مِنَ اليَهود، الذينَ نقَضوا عَهدَهمْ معَ الرَّسُولِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام ومَالَؤوا المشرِكين، أنزَلَهُمُ اللهُ مِنْ حُصونِهِم ومَعَاقِلِهِم، فحاصرَهمْ المسلِمونَ حتَّى جَهِدوا مِنَ الحِصار، واستَسلَموا للقَتلِ والأسْر، فقتَلوا رِجالَهم، وأسَروا نِساءَهمْ وذَراريهِم.

{وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً} (الأحزاب : ٢٧)

٢٧- وملَّكَكمْ أرضَ بَني قُرَيظَةَ وحُصونَهمْ وأموالَهم، وأرضًا لم تَطَأْها أقدامُكمْ مِنْ قَبل - وهيَ خَيبَرُ أو غَيرُها - واللهُ قادِرٌ على كُلِّ شَيء، وسيُمَكِّنُكمْ مِنْ فُتوحاتٍ أُخرَى بتأييدِهِ وقُدرَتِه.

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً} (الأحزاب : ٢٨)

٢٨- أيُّها النبيُّ الكريم، قُلْ لزَوجاتِك: إنْ كُنتُنَّ تُرِدْنَ السَّعَةَ والتنَعُّمَ في الحيَاةِ الدُّنيا وزُخرُفَها - وكُنَّ سَألْنَهُ النفقَةَ وراجَعْنَهُ في ذلك - فأقبِلْنَ لأُمَتِّعْكُنَّ مُتْعَةَ الطَّلاقِ - وهوَ مالٌ أو مَتاعٌ يُعطَى لهُنَّ تَكريمًا لهنَّ - وأُطَلِّقْكُنَّ طَلاقًا حسَنًا لا ضَرَرَ فيه.

{وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً} (الأحزاب : ٢٩)

٢٩- وإنْ كُنتُنَّ تُرِدْنَ رَسُولَ اللهِ والثَّوابَ الجَزيلَ مِنْ عندِ الله، والنَّعيمَ الباقي في الآخِرَة، وتَصبِرْنَ على الرسُولِ في الحالِ التي هوَ فيها، فإنَّ اللهَ قدْ هيَّأَ للمُحسِناتِ منكُنَّ، جَزاءَ إحسَانِهنّ، ثَوابًا عَظيمًا، ورزقًا كريمًا.

{يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً} (الأحزاب : ٣٠)

٣٠- يا نِساءَ النبيِّ، وأمَّهاتِ المؤمِنين، لَكُنَّ اختِصاصٌ ومِيزَةٌ لكَونِكُنَّ زَوجاتِ رَسُولِ الله، فمَنْ يَأتِ مِنكُنَّ بمَعصِيَةٍ ظاهِرَة، كنُشوزٍ وعِصيان، تُضاعَفْ لها العُقوبَةُ ضِعفَين، في الدُّنيا وفي الآخِرَة، وهذا سَهلٌ يَسيرٌ على الله، فلا يَمنَعُهُ شَيءٌ مِنْ ذلك، ولو كانتِ المعاقَبَاتُ نِساءَ رَسُولِه، فهوَ حَكَمٌ عَدْلٌ لا يَظلِمُ في قَضائهِ وحُكمِهِ أحدًا.

سورة الأحزاب (٣١-٧٣)
سورة سبأ
سورة فاطر
سورة يس (١-٢٧)

{وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً} (الأحزاب : ٣١)

٣١- ومَنْ يَخشَعْ مِنكُنَّ وتَستَجِبْ لأمرِ اللهِ ورَسُولِه، وتَعمَلْ عمَلاً صالِحاً، مِنْ عِبادَةٍ ونفَقَةٍ وصِلَةٍ وغَيرِها، نُضاعِفْ لها الثَّواب، وهيَّأنا لها رِزقًا حسَنًا مَرضيًّا في الجنَّة.

{يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً} (الأحزاب : ٣٢)

٣٢- يا نِساءَ النبيّ، لَستُنَّ في القَدْرِ والمنزلَةِ مِثلَ سائرِ النِّساءِ إنْ داوَمتُنَّ على طاعَةِ اللهِ ورَسولِه، لِما امتَزْتُنَّ بهِ مِنْ شرَفِ الزَّوجيَّةِ لرَسُولِ اللهِ وأُمومَةِ المؤمنين، فلا تُلِنَّ القَولَ، ولا تُرَقِّقْنَ الكلامَ إذا خاطَبْتُنَّ الرِّجال، فيَطمَعَ مَنْ كانَ في قَلبِهِ فُجورٌ أو شَهوَةٌ ويَجِدَ سَبيلاً إلى الطَّمَعِ فيكُنّ، وقُلْنَ قَولاً حسَنًا فيهِ خَيرٌ وصَلاح، مِنْ غَيرِ خُضُوع.

{وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً} (الأحزاب: ٣٣)

٣٣- والْزَمْنَ بيوتَكُنَّ ولا تَخرُجْنَ مِنْ غَيرِ حاجَة، ولا تَمشِينَ بتبَختُرٍ وتكَسُّرٍ وتغَنُّج، ولا تُبدِينَ مَحاسِنَكُنَّ كشَأنِ الجاهِليَّة، وحافِظْنَ على إقامَةِ الصَّلاة، وآتِينَ الزَّكاةَ مِنْ أموالِكُنَّ لمستَحِقِّيها،

ودَاوِمْنَ على طاعَةِ اللهِ ورَسـولِهِ واثبُتْنَ عَليها، إنَّما يُريدُ اللهُ بهذهِ الأحكامِ والتَّوجيهاتِ أنْ يُذْهِبَ عنكمُ الآثامَ والذُّنوبَ يا أهلَ البَيت، ويُطَهِّرَكمْ مِنها تَطهيرًا بَليغًا[١١١].

{وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً} (الأحزاب : ٣٤)

٣٤- واذْكُرْنَ فَضْلَ اللهِ عَليكُنَّ وما ميَّزَكُنَّ به، مِنْ ذلكَ نُزولُ الوَحي في بُيوتِكُنَّ دونَ سَائرِ النَّاس، فاعْمَلْنَ بما أُنزِلَ على رَسُولِهِ مِنَ الآياتِ البَيِّنات، وسُنَّةِ نَبيِّهِ صلى الله عَليه وسلم، وعَلِّمْنَها النَّاس، واللهُ لَطيفٌ بعِبادِهِ المؤمِنين، عالِمٌ بما يُصلِحُ شَأنَهم.

{إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً} (الأحزاب : ٣٥)

٣٥- في حَديثٍ حسَنٍ أو صَحيح، أنَّ أُمَّ عُمارَةَ الأنصاريَّةَ رَضيَ اللهُ عنها أتَتِ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقالَت: ما أرَى كُلَّ شَيءٍ إلاّ للرِّجال، وما أرَى النِّساءَ يُذْكَرْنَ بشَيء. فنزَلَتِ الآيَة.

{إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ}: الدَّاخِلينَ تَحتَ مِظَلَّةِ الإسلام، المنقادِينَ لحُكمِ الله. {وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}: المصَدِّقينَ باللهِ ورَسولِه، المخلِصينَ في إيمانِهم. {وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ}: القائمِينَ بالطَّاعَة، الممتَثِلينَ أمرَ اللهِ ورَسُولِه. {وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ} في أقوالِهم، فإنَّ الصِّدْقَ يَهدي إلى البِرّ، وهوَ مِنْ دَلائلِ الإيمان. {وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ} عنِ المعاصي، وعلى ما أُمِروا بِهِ مِنَ الطَّاعَة، وعلى ما يُقَدِّرُهُ اللهُ عَليهمْ مِنَ البَلايا. {وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ}: المتَواضِعينَ للهِ بقُلوبِهمْ وجَوارِحِهم، الخائفِينَ مِنْ غضَبِهِ وعُقوبتِه. {وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ}: زَكاةً مِمّا يَجِبُ عَليهم، وتَطوُّعًا وإحسَانًا ومَعروفًا معَ النَّاس. {وَالصَّائِمِينَ

---

(١١١) ويطهِّرَكم مِن الدنَسِ الذي يكونُ في أهلِ معاصي اللهِ تطهيرًا. (الطبري). واستعارةُ الرجسِ للمعصيةِ والترشيح بالتطهيرِ لمزيدِ التنفيرِ عنها. (روح البيان).

وَالصَّـــائِمَاتِ}: فَرْضًـــا أو نَفْلاً. {وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ} عمَّا لا يَحِلُّ لهم. {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ} باللِّسـانِ والقَلب، قائمينَ وقاعِدينَ ومُضـطَجِعين، تَسبيحًا وتَحميدًا وتكبيرًا وتَهليلاً، وقِراءَةً للقُرآن؛ هيَّأ اللهُ للمُتَّصِـــفينَ بتلكَ الصِّـــفاتِ الجَليلَة، جزاءَ طاعَتِهِمْ وإخلاصِهِم، ذكورًا وإناثًا: مَغفِرَةً لِما اقتَرَفوهُ مِنَ الذُّنوب، وثَوابًا عَظيمًا، هوَ الجنَّة.

{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً} (الأحزاب : ٣٦)

٣٦- ولا يَصِـحُّ ولا يَسـتَقيمُ لرَجُلٍ ولا لامرَأةٍ مِنَ المؤمِنينَ إذا حكمَ اللهُ ورسُـولُهُ بشَـيء، أنْ يَختارُوا مِنْ أمرِهِمْ ما شَـاؤوا، بلِ الواجِبُ عَليهِمْ أنْ يَسـمَعوا ويُطيعوا، ومَنْ يَعْصِ اللهَ ورَسُـولَهُ ويَعْمَلْ برَأيِهِ وهَواه، دونَ حُكمِ اللهِ ورَسُولِه، فقدْ ضَلَّ عنْ طَريقِ الحقّ، وانحَرَفَ انحِرافًا بَيِّنًا.

وقدْ نزَلَتْ في ابنَةِ عَمَّةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم زَينبَ بنتِ جَحش، عندَما طَلبَ منها أنْ تقبَلَ الزَّواجَ مِنْ مَولاهُ زيدِ بنِ حارِثَة، فأبَت، فنزَلَتِ الآيَة، فوافقَت.

{وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِـكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِـكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَـى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَـاهُ فَلَمَّا قَضَـى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَـوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً} (الأحزاب : ٣٧)

٣٧- واذكُرْ قَولكَ - أيُّها النبيُّ - لِمولاكَ زَيدٍ، الذي أنعمَ اللهُ عليهِ بالإسْـلام، وأنعَمتَ عليهِ بالعِتقِ مِنَ الرِّقِّ ومَزيدِ القُرب: أَبْقِ على زَوجَتِكَ زَينَب، واتَّقِ اللهَ في أمرِها، ولا تُطَلِّقْها. وكانَ قدِ اشتَدَّ لِسانُها عليه، رَضيَ اللهُ عنهما. وتُسِرُّ في نَفسِكَ أيُّها الرَّسُولُ ما اللهُ مُظهِرُه، وهوَ أنَّ زَيدًا سـيُطَلِّقُها وتتَزَوَّجُها بعدُ، وتَخافُ مِن اعتِراضِ النَّاسِ ولَومِهم، لكَونِكَ تزوَّجتَ زَوجةَ مَنْ تبَنَّيتَهُ سابِقًا بعدَ طَلاقِها منه، واللهُ أحَقُّ وأَولَى أنْ تَخافَهُ في كُلِّ أمر.

فلمَّا قضَى زَيدٌ حاجتَهُ منها وطلَّقَها، جَعلناها زَوجةً لك، حتَّى لا يَبقَى حرَجٌ على المؤمِنينَ في الزَّواجِ مِنْ زَوجاتِ أدعيائهِمُ الذينَ تبنَّوهمْ مِنْ قَبل، بعدَ طلاقِهِنَّ وانقِضـاءِ عِدَّتِهِنّ، وكانَ أمرُ اللهِ وحُكمُهُ نافِذًا وحاصِلاً لا مَحالَة.

وكانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قدْ تبنَّى زَيدَ بنَ حارِثَةَ قَبلَ النبوَّة، فكانَ يُقالُ لهُ "زَيدُ بنُ محمَّد"، فنزَلَ الوَحيُ بمَنعِ التبَنّي، كما مرَّ في الآيَتَينِ الرَّابِعَة والخامِسَةِ مِنْ هذهِ السُّورَة.

{مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً} (الأحزاب : ٣٨)

٣٨- ما كانَ هناكَ إثمٌ ولا حرَجٌ على النبيِّ فيما قسَمَ اللهُ لهُ وأحلَّه، وهذهِ سُنَّةُ اللهِ في أنبِيائهِ مِنْ قَبل، فلا يأمرُهمْ بشَيءٍ يَكونُ فيهِ عَليهِمْ إثم، وكانَ أمرُ اللهِ وحُكمُهُ كائنًا وواقِعًا، لا مَعدِلَ عنه.

{الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً} (الأحزاب : ٣٩)

٣٩- الذينَ يُبَلِّغونَ رِسالاتِ اللهِ إلى النَّاسِ ويُؤَدُّونَها بأمانَة[١١٢]، ويَخافُونَهُ ولا يَعصُونَه، ولا يَخافُونَ أحَدًا سِواه، مَهما كذَّبَهُمُ المناوِئونَ وآذَوهمْ وسَخِروا منهم، وكَفَى باللهِ مُراقِبًا أعمالَ عِبادِه، ومُحاسِبَهمْ عَليها.

{مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً} (الأحزاب : ٤٠)

٤٠- ما كانَ محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم أبا أحَدٍ مِنْ رِجالِكم، فليسَ هوَ أبًا لزَيدٍ وإنْ كانَ تبنَّاهُ قَبلَ النبوَّة، ولكنَّهُ رَسُولُ اللهِ إليكمْ وإلى النَّاسِ أجمَعين، وخاتَمُ الأنبياءِ كُلِّهم، فلا نَبيَّ بَعدَه. وهوَ رَحيمٌ بكم، ومُشفِقٌ عَليكمْ كالأب. واللهُ عَليمٌ بكُلِّ شَيءٍ في الكَونِ مِنْ أمورِ النَّاسِ وغَيرِهم، لا تَخفَى عَليهِ خافِيَة.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً} (الأحزاب : ٤١)

---

(١١٢) المرادُ ما يتعلقُ بالرسالة، وهي سفارةُ العبدِ بين الله وبين ذوي الألبابِ من خلقه، أي: إيصالُ الخبرِ من الله إلى العبد. (روح البيان). يمدحُ تباركَ وتعالى {ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ} أي: إلى خلقه، ويؤدُّونها بأماناتها. (ابن كثير).

٤١- أيُّهـا المؤمِنون، اذكُروا الله، بالتَّســـبيح، والتَّحميـد، والتَّكبير، والتَّهليـل، والتَّمجيـد، والتَّقـديس، ذِكْرًا كثيرًا، يَعُمُّ أغلـبَ الأوقَـاتِ والأحوَال، على مـا هـداكمْ إلى الإيمَـان، وأنعمَ عَليكمْ بأنوَاعِ النِّعَم.

{وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً} (الأحزاب : ٤٢)

٤٢- وقَدِّسُوهُ ونَزِّهوهُ مِنَ الشِّرْكِ والنَّقصِ وكُلِّ ما لا يَليقُ بجَلالِه، صَباحًا ومَساءً.

{هُوَ الَّذِي يُصَـــلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً} (الأحزاب : ٤٣)

٤٣- واللهُ يَـذكرُكمْ ما ذَكَرْتُموه، ويَرحَمُكمْ بـذلـك، ويُثني عَليكمْ عنـدَ مَلائكتِـه، وهمْ يَـدعونَ ويَســـتَغفِرونَ لكمْ كذلك، ليُخرِجَكمُ اللهُ مِنْ ظُلُماتِ الجَهلِ والمعاصِـــي إلى نُورِ العِلمِ والإيمانِ والطَّاعَة، وكـانَ رَحيمًا بالمؤمِنينَ إذْ هَداهُمْ للحَقِّ في الحيَاةِ الدُّنيا، وأعـدَّ لهمْ ما يَسُـــرُّهمْ في الآخِرَة.

{تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً} (الأحزاب : ٤٤)

٤٤- والتحيَّةُ التي يُحَيَّونَ بها يومَ لِقائه، هوَ قَولُهُ جَلَّ جَلالُهُ لهم: سَـلَام، ويَعني: سَـلِمتُمْ مِنْ كُلِّ مَخُوف، وهَنِئتُمْ بكُلِّ خَير. وهيَّأَ اللهُ لهمْ مَكانًا حسَنًا وثَوابًا طيِّبًا.

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً} (الأحزاب : ٤٥)

٤٥- أيُّها النبيُّ الكريم، لقدْ أرسَلناكَ شاهِدًا على أنَّ الرُّسُلِ قامُوا بتبلِيغِ رِسالَةِ رَبِّهم، وشاهِداً على مَنْ بُعِثتَ إليهم، تُشاهِدُ أحوالَهُمْ ومَواقِفَهمْ مِنَ الرِّسالَة، ومُبَشِّرًا للمؤمنينَ المطيعِينَ بالجنَّة، ومُنذِرًا للكافِرينَ والعاصِينَ بالنَّار.

{وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً} (الأحزاب : ٤٦)

٤٦- وداعيًا الخَلقَ إلى تَوحيدِ اللهِ وطاعَتِهِ بأمرِهِ لك، وكالسِّراجِ المضيءِ الذي يُنيرُ الطَّريقَ في الظَّلامِ الدَّامِس، فيُهتدَى بكَ في ظُلُماتِ الجَهلِ والضَّلال.

{وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً} (الأحزاب : ٤٧)

٤٧- وبَشِّرِ المؤمنينَ منهمْ بأنَّ لهمْ ثَوابًا عَظيمًا وعَطاءً جَزيلاً يَومَ القِيامَة.

{وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً} (الأحزاب : ٤٨)

٤٨- ولا تَسمَعْ مِنَ الكافِرينَ والمنافِقينَ ولا تُشاوِرْهم، ولا تُدارِهِمْ في أمرِ الدَّعوَةِ ولا تُلِنْ جانِبَكَ لهم، ولا تُبالِ بإيذائهم، واصبِرْ على ما يَنالُكَ منهم، وكِلْ أمرَهمْ إلى الله، واعتَمِدْ عَليهِ وثِقْ بهِ في جَميعِ أمُورِك، وكفَى باللهِ حافِظًا.

وذكَروا أنَّها مَنسوخَةٌ بآيةِ القِتال.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً} (الأحزاب : ٤٩)

٤٩- أيُّها المؤمنون، إذا عقَدتُمْ على المؤمِنات، ثمَّ طلَّقتُموهنَّ قبلَ أنْ تُجامِعوهُنّ، فلا تَلزَمُهُنَّ العِدَّة، ولهنَّ أنْ يتزَوَّجْنَ بعدَ الطَّلاقِ مُباشَرة، فأعطوهُنَّ المتعَة، وهوَ ما تُكْرَمُ بهِ المرأةُ المطَلَّقةُ مِنْ مالٍ أو مَتاع، ويَختَلِفُ بحسَبِ حالِ الزَّوجِ وعُرفِ البلَد. وخَلُّوا سَبيلَهنَّ مِنْ غَيرِ إضرارٍ بهنّ، فلا تُؤذوهُنَّ ولا تُسمِعوهُنَّ كلامًا جارِحًا.

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً} (الأحزاب : ٥٠)

٥٠- أيُّها النبيُّ الكريم، لقدْ أحلَلنا لكَ مِنَ النِّســاءِ زَوجاتِكَ اللَّواتي أعطَيتَهُنَّ مُهورَهُنّ، وأبَحنا لكَ التَّسَرّيَ بما تملَّكتَهُنَّ عنْ طَريقِ الغنائم، والزَّواجَ مِنْ بَناتِ عَمِّك، وبَناتِ عمَّاتِكَ مِنْ نِساءِ قُرَيش، وبَناتِ خالِك، وبَناتِ خالاتِكَ مِنْ بَني زُهْرَة، اللَّاتي هاجَرْنَ معكَ مِنْ مكَّةَ إلى المدينَة، ويَحِلُّ لكَ الزَّواجُ مِنَ المرأةِ التي وهَبَتْ نَفسَها لك، إنْ شِئتَ أنْ تَتزَوَّجَها بغَيرِ صَداقٍ خالِصَةً لك، لا تَحِلُّ لأحَدٍ غَيرِكَ في الدُّنيا والآخِرَة.

واختُلِفَ في تَعيينِ الواهِبَةِ نَفسَها، وقدْ تَعَدَّدْنَ، كما يأتي في الآيَةِ التَّالية، وقدْ زَوَّجَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم واحِدةً أحَدَ أصحابِهِ بما معَهُ مِنَ القُرآن، حيثُ لم يَكنْ لهُ حاجَةٌ في النِّساء.

قدْ عَلِمنا وبَيَّنَّا ما فرَضنا على المسلِمينَ في الزَّواجِ مِنَ الأحكام، وهوَ ألاّ يَتزَوَّجوا أكثرَ مِنْ أربَعِ نساءٍ حَرائر، مع اشتِراطِ الوَليِّ والمهرِ والشُّهودِ، وما أوجَبنا مِنَ الأحكامِ عليهمْ في التزوُّجِ بالإماء، ولم نُوجِبْ عَليكَ شَيئًا منه، فاختارَ اللهُ لكَ ما هوَ أَولَى وأفضَلُ في دُنياك، وزادَكَ الواهِبَةَ نَفسَها لكَ مِنْ غَيرِ عِوَض، لئلاّ يَكونَ عَليكَ ضِيقٌ في ذلك. وكانَ اللهُ واسِعَ المغفِرَة، كثيرَ الرَّحمَة.

{تُرْجِي مَن تَشَاء مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاء وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً} (الأحزاب : ٥١)

٥١- تُؤخِّرُ الزَّواجَ بمَنْ تَشاءُ مِنَ النِّساءِ الواهِباتِ أنفُسَهُنَّ لك، وتُؤوي إليكَ مَنْ تَشاءُ مِنهُنَّ فتَتزَوَّجُهنّ، ومَنْ ردَدْتَها فبإمكانِكَ أنْ تَعودَ فتُؤويها إليك، لا حرَجَ عَليكَ في ذلك.

وفي الصَّحيحَينِ وغَيرِهما قَولُ عائشَةَ رَضيَ اللهُ عنها: كنتُ أَغَارُ على اللَّاتي وهَبْنَ أنفُسَهُنَّ لرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وأقول: أتَهَبُ المرأةُ نَفسَها؟ فأنزلَ اللهُ تَعالَى الآيَة. اهـ.

وهذا التَّخييرُ الذي خيَّرَكَ اللهُ معَهُنَّ أقرَبُ إلى رِضاهُنّ، وأقَلُّ لحُزنِهِنّ، إذا عَلِمْنَ أنَّ هذا الأمرَ مِنَ الله، ويَرضَيْنَ بما أعطَيتَهُنَّ كُلَّهُنّ، واللهُ يَعلَمُ ما في قُلوبِكمْ مِنْ أمرِ النِّساءِ والميلِ إلى بَعضِهنّ. واللهُ عَليمٌ بما في الضَّمائرِ والسَّرائر، حَليمٌ، يَعفو عمَّا يَغلِبُ على القَلبِ مِنَ الميولِ ونَحوِها.

{لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَــاء مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْــنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً} (الأحزاب : ٥٢)

٥٢- لا يَحِلُّ لكَ أيُّها النبيُّ أنْ تتزوَّجَ نِســـاءً أُخرَياتٍ بعدَ هذهِ التِّســـع، اللَّواتي خَيَّرْتَهُنَّ فاخترْنَك، جزاءً على صَنيعِهِنَّ، ولا أنْ تَستَبدِلَ بهنَّ غَيرَهُنَّ، بأنْ تُطَلِّقَ واحِدَةً وتتزوَّجَ بدَلَها، ولو أعجبَكَ جَمالُهنّ، إلاّ أنْ يَكُنَّ إماءً، فلَكَ الزَّواجُ بما شِئتَ منهُنّ. وكانَ اللهُ حافِظًا ومُطَّلِعًا على كُلِّ شَيء، فاحذَروا تَجاوزَ حُدودِه.

وهناكَ اختِلافٌ بينَ المفَسِّرينَ في كونِ الآيَةِ مَنسوخَةً أو مُحكَمَة.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِـرُوا وَلَا مُسْـتَأْنِسِـينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُـولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً} (الأحزاب : ٥٣)

٥٣- أيُّها المؤمِنون، لا تَدخُلوا مَنازِلَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلاَّ أنْ تُدْعَوا إلى طَعامٍ فيُؤذَنَ لكمْ لِتأكُلوه، غَيرَ مُنتَظِرِينَ نُضْجَهُ واستِواءَه، ولكنْ إذا دُعِيتُمْ فادخُلوا وكُلُوا، فإذا أكَلتُمْ فتَفَرَّقوا واخرُجوا مِنْ مَنزِلِه، ولا تَجلِسوا لتَستأنِسوا بالحَديث، فإنَّ ذلكَ يَشُـقُّ على النبيِّ لأُمورٍ تَخصُّـهُ وأهلَه، وهوَ يَسـتَحيي أنْ يَطلُبَ منكمُ الانصِـراف، واللهُ لا يَترُكُ تأديبَكمْ وبيانَ الحَقِّ حيَاءً.

وإذا أرَدتُّمْ حاجَةً مِنْ أزواجِهِ، فاطلبوها مِنْ وراءِ سِـتر، فهوَ أطهَرُ وأطيَبُ لقُلوبِكمْ وقُلوبِهِنَّ مِنَ الشُّكوكِ والخَواطِرِ الشَّيطانيَّة.

ولا يَحِلُّ ولا يَستَقيمُ لكمْ أنْ تَفعَلوا ما يتأذَّى منهُ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ويَكرَهُهُ في شَيءٍ مِنَ الأشيَاء، ولا أنْ تَنكِحوا زَوجاتِهِ بعدَ وفاتِهِ أبَدًا، فإنّ ذلكَ كانَ عندَ اللهِ أمرًا عَظيمًا وذَنْبًا كبيرًا.

{إِن تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً} (الأحزاب : ٥٤)

٥٤- إنْ تُظهِروا شَيئًا على ألسِنَتِكم، أو تُسِرُّوهُ في صُدورِكم، فإنَّ اللهَ يَعلَمُه، ولا يَخفَى عليهِ شَيء، وسيُجازيكمْ على ما تَعمَلون.

{لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاء إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاء أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً} (الأحزاب : ٥٥)

٥٥- ولا إثمَ عَليهِنَّ في تِرْكِ الحِجابِ أمامَ آبائهنّ، وأبنائهنّ، وإخوانِهنّ، وأبناءِ أخَواتِهنّ، والنِّساءِ المسلِمات، وما ملَكَتْ أيمانُهُنَّ مِنَ الإماء (وتَفصيلُهُ في الآيَةِ ٣١ مِنْ سُورَةِ النُّور)، واخشَينَ اللهَ في كُلِّ ما تأتِينَ وتَذَرْنَ، في السرِّ والعَلانيَة، إنَّ اللهَ شاهِدٌ على أعمالِ العِبادِ كُلِّها، لا يَخفى عليهِ شَيءٌ مِنْ أمورِهِمْ وأمورِهِنّ.

{إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً} (الأحزاب : ٥٦)

٥٦- إنَّ اللهَ يُصَلِّي على النبيّ محمَّدٍ، فيُثْني عَليهِ عندَ ملائكَتِهِ المقرَّبين، ويُعْلِي ذِكرَهُ ويَرحَمُه، والملائكَةُ يُصَلُّونَ عَليهِ ويَدْعُونَ له، على كثرَتِهم، وفي كُلِّ الأوقات، فصَلُّوا عَليهِ أنتُمْ أيضًا أيُّها المؤمِنون، وهو دُعاءٌ لهُ بالرَّحمَةِ وبرَفعِ درَجَتِهِ عندَ رَبِّه، اقتِداءً منكمْ باللهِ وملائكتِه، ولِما لهُ مِنْ حَقٍّ عَليكم، وتَعظيمًا لهُ ومحبَّةً وإكرامًا، وسَلِّموا عليه، أي قُولوا: السَّلامُ عَليكَ أيُّها النبيُّ ورَحمَةُ اللهِ وبرَكاتُه.

وأكمَلُ هيئاتِ الصَّلاةِ على رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، كما جاءَ مِنْ قَولِهِ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ في صَحيحِ مُسلِم: "اللهمَّ صَلِّ على محمَّدٍ وعلى آلِ محمَّد، كما صَلَّيتَ على آلِ إبراهيم، وبارِكْ على محمَّدٍ وعلى آلِ محمَّد، كما بارَكتَ على آلِ إبراهيم، في العَالَمينَ، إنَّكَ حَميدٌ مَجيد".

وجاءَ في صَحيحِ مُسلِمٍ قَولُهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام: "مَنْ صلَّى عليَّ صَلاةً، صلَّى اللهُ عَليهِ بها عَشْرًا".

اللهمَّ صَلِّ وسَلِّمْ عَلى نَبيِّنا محمَّدٍ وعلى آلِهِ صَلاةً وسَلامًا دائمَينِ لا يَنقَطِعانِ إلى يَومِ الدِّين.

{إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً} (الأحزاب : ٥٧)

٥٧- إنَّ الذينَ يؤذُونَ الله، بالكُفرِ به، أو الشِّركِ وما إليه، ويُؤذُونَ رَسُولَه، بتَكذيبِه، والاستِهزاءِ به، أو رَميهِ بالكَهانَةِ وغَيرِها ممّا يمَسُّ نبوَّتَه، لعَنَهمُ اللهُ وأبعَدَهمْ مِنْ رَحمَتِه، في الحيَاةِ الدُّنيا وفي الآخِرَة، وهَيَّأ لهمْ عَذابًا مُذِلاًّ ومُهينًا في الآخِرَة.

{وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً} (الأحزاب : ٥٨)

٥٨- والذينَ يؤذونَ المؤمِنينَ بقَولٍ أو فِعلٍ، بغَيرِ جِنايَةٍ يَستَحِقُّونَها، أو يَنسِبونَ إليهمْ ما لم يَفعَلوهُ ولم يَقولوه، فقدْ قالوا كَذِبًا فَظيعًا، وارتكَبوا إثمًا ظاهِرًا وفِعلاً شَنيعًا.

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً} (الأحزاب : ٥٩)

٥٩- أيُّها النبيُّ الكريم، مُرْ زَوجاتِكَ وبناتِكَ، ونِساءَ المؤمنينَ جَميعًا، بأنْ يَستَتِرْنَ ويَحتَشِمْنَ، ويُرْخِينَ عَليهِنَّ مِنْ أردِيَتِهنَّ ومُلائهِنَّ، فإنَّ ذلكَ أقرَبُ أنْ يُميَّزْنَ عنِ المتبَرِّجاتِ والعَواهِرِ ومَنْ إليهِنَّ، فلا يُتَعَرَّضُ لهنَّ بسُوءٍ مِنْ قِبَلِ الفاسِقين. واللهُ كثيرُ المغفِرَةِ لمنْ خالَفَ ثمَّ تابَ فالتزَم، وكثيرُ الرَّحمَة، فيَعفُو ويَرحَم.

{لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً} (الأحزاب : ٦٠)

٦٠- إذا لم يَنتَهِ المنافِقونَ عمَّا همْ عليهِ مِنَ النِّفاقِ والكُفر، وضُعَفاءُ الإيمانِ الذينَ لا يَثبتُونَ على الإيمانِ كما يَنبَغي، ويتأثَّرونَ بمَقولاتِ المنافِقينَ وغَيرِهم، ومثلُهمُ المتذَبذِبونَ الذينَ يَبثُّونَ

الشُّكوكَ والأخبارَ الكاذِبَةَ، والشَّائعاتِ الملفَّقَةَ والخَوفَ، ليُثيروا الفِتَنَ والاضطِراباتِ في المجتمَعِ المسلِم، لنُحَرِّضَنَّكَ عَليهمْ ونَدعُونَّكَ إلى قِتالِهم، ثمَّ لا يَبقُونَ معَكَ في المدينَةِ إلاّ زَمانًا يَسيرًا.

{مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً} (الأحزاب : ٦١)

٦١- مَطرودِينَ مُبعَدِينَ مِنْ رَحمَةِ الله، أينَما وُجِدوا أُسِروا وقُتِلوا أبلغَ قَتل.

{سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً} (الأحزاب : ٦٢)

٦٢- وهذهِ سُـنَّةُ اللهِ وحُكمُهُ في المفسِـدينَ والمنافِقينَ مِنَ الأُمَمِ الماضـيَةِ كذلك، إذا تمرَّدوا ولم يَرجِعوا إلى الحقّ، أنْ يُفعَلَ بهمْ ذلك، ولنْ تَجِدَ لهذهِ السـنَّةِ تَبدُّلاً وتَغيُّرًا، فهيَ مَبنيَّةٌ على الحقِّ والعَدل.

{يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً} (الأحزاب : ٦٣)

٦٣- يَسـألُكَ النَّاسُ عنْ وَقتِ مجيءِ القِيامة، قُلْ لهمْ أيُّها الرسُـول: لا يَعلَمُ وَقتَها إلاّ الله، ولم يُطْلِعْ عليهِ أحَدًا. وأيُّ شَيءٍ يُعْلِمُكَ بوَقتِ قيامِها؟ فلعلَّها تقَعُ قَريبًا.

{إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً} (الأحزاب : ٦٤)

٦٤- إنَّ اللهَ أبعدَ الكافِرينَ وطَرَدَهمْ مِنْ رَحمَتِه، وهيَّأ لهمْ في الآخِرَةِ نارًا شَديدَةً مُستَعِرَة.

{خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَّا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً} (الأحزاب : ٦٥)

٦٥- يَبقُونَ في جهنَّمَ دائمًا، لا يَموتونَ فيها ولا يَزولونَ عَنها، ولا يَجِدونَ فيها حافِظًا ومُتوَلِّيًا يُغيثُهم، ولا مُعينًا يُنقِذُهمْ ممَّا هُمْ فيه.

{يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا} (الأحزاب: ٦٦)

٦٦- في ذلكَ اليَومِ الشَّــديدِ تُقَلَّبُ وجوهُهمْ في النَّارِ مِنْ جِهَةٍ إلى جِهَة، ليَذوقُوا ألَمَ العَذابِ أكثَر، فيَقولونَ نادِمينَ مَقهورين: يا لَيتَنا سَمِعنا كلامَ اللهِ وأطَعنا رَسُولَهُ في الحيَاةِ الدُّنيا، حتَّى لا نُعَذَّبَ في هذا المكان.

{وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا} (الأحزاب : ٦٧)

٦٧- وقالوا: ربَّنا إنَّا اتَّبَعنا أشــرَافَنا وقادَتَنا ومَســؤولينا، فحرَّفوا أفكارَنا، وزَيَّنوا لنا الباطِلَ، وأبعَدونا عنِ طَريقِ الإيمانِ والهِدايَة.

{رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً} (الأحزاب : ٦٨)

٦٨- ربَّنا فآتِهمْ ضِعفَي عَذابِ غَيرِهم، لضَلالِهم، وإضلالِهم، وأبعِدْهمْ مِنْ رَحمَتِكَ بُعدًا كثيرًا.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً} (الأحزاب : ٦٩)

٦٩- أيُّها المؤمِنون، لا تكونوا كبَعضِ بَني إسْرائيلَ الذينَ آذَوا نَبيَّهمْ موسَى بما آذَوهُ به، فأظهرَ اللهُ بَراءَتَهُ وطهَّرَهُ مِنْ أذيَّتِهمْ وإفكِهمْ فيه[١١٣]، وكانَ ذا وَجاهَةٍ ومَنزِلَةٍ وكرَامَةٍ عندَ رَبِّه، فلا تَفعَلوا معَ نَبيِّكمْ كما فعلَهُ أولئك، ولا تَسمَعوا أكاذيبَ المنافِقينَ وشائعاتِهمْ فيه، لئلاّ تقَعُوا في حَبائلِهمْ وترتَكِبوا محَظورًا.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً} (الأحزاب : ٧٠)

---

(١١٣) في الحديثِ الصحيح: "كانتْ بنو إسرائيلَ يَغتَسلون عُراةً، يَنظُرُ بعضُهم إلى بعضٍ، وكان موسى يَغتَسلُ وحدَه، فقالوا: واللهِ ما يَمنَعُ موسى أن يَغتَسلَ معَنا إلا أنه آدَرُ، فذهبَ مرةً يَغتسِلُ، فوَضعَ ثوبَهُ على حجَرٍ، ففرَّ الحجَرُ بثوبِه، فخرَجَ موسى في إثرِهِ يقول: ثوبي يا حجَرُ، حتى نظرَتْ بنو إسرائيلَ إلى موسى، فقالوا: واللهِ ما بموسى من بأس. وأخذَ ثوبَه، فطفِقَ بالحجَرِ ضربًا". فقال أبو هُرَيرة: واللهِ إنه لنُدَبٌ بالحجَرِ، ستةٌ أو سبعةٌ، ضربًا بالحجر. رواه الشيخان، واللفظ للبخاري.

والآدر: المنفوخُ الخصية.

والندب: أثَرُ الضَّربِ في الحَجر.

٧٠- أيُّها المؤمنون، اخشَوا اللهَ وأطيعُوهُ ولا تُخالِفوا أمرَه، وقُولوا قَولاً مُستَقيمًا لا اعوِجاجَ فيه، غَيرَ جائرٍ ولا باطِل.

{يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً} (الأحزاب : ٧١)

٧١- فإنْ تَفعَلوا ذلكَ يُثِبْكُمْ ويُزَكِّ أعمالَكُمُ الحسَنة، ويُضاعِفِ الأجرَ لكم، ويَتَقَبَّلْها منكم، ويُوَفِّقْكُمْ للتَّوبَة، ويَغفِرْ ذُنوبَكم، ومَنْ يُطِعِ اللهَ ورَسُولَهُ فقدْ ظفَرَ بالنَّعيمِ المقيم، وأُجيرَ مِنَ العَذابِ الأليم.

{إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً} (الأحزاب : ٧٢)

٧٢- إنَّا عرَضْنا الفرائضَ والتَّكاليفَ على السَّماواتِ والأرضِ والجِبال، وأوجَبْنا تلقِّيها بحُسنِ الطَّاعَةِ والانقياد، والمحافَظةَ عليها وأداءَها وعدَمَ الإخلالِ بها، فإنْ أحسَنَتْ أُثيبَت، وإنْ عصَتْ وضيَّعَتْ عُوقِبَت، عرَضْناها عَليها عَرْضَ تَخييرٍ لا إجبَار، فأبَتْ أنْ تَحمِلَ هذهِ الأمانَة، خَوفًا مِنْ أنْ لا تَقومَ بحَقِّها. وعرَضَ اللهُ هذهِ الأمانةَ على الإنسَان، إنْ قامَ بحَقِّها أُثيب، وإنْ ترَكَها عُوقِب، فقَبِلَ حَملَها، وبيَّنَ استِعدادَهُ للالتِزامِ بها، والمحافَظَةِ عَليها، وأدائها كما يَجِب، إنَّهُ كانَ بذلكَ مُفرِطًا في الظُّلمِ لنَفسِهِ والإضرارِ بها، مُبالِغًا في الجَهلِ بما قَبِلَه، مُعتَدًّا بنَفسِهِ عندَما وافَقَ على شُروطِ هذهِ الأمانَةِ الصَّعبَة.

{لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً} (الأحزاب : ٧٣)

٧٣- ليُعَذِّبَ اللهُ بذلكَ مَنْ لا يَقومُ بحَملِ هذهِ الأمانَةِ كما يَنبَغي، وهمُ المنافِقونَ والمنافِقات، الذينَ يُظهِرونَ الإيمانَ ويُبطِنونَ الكُفر، والمشرِكونَ والمشرِكات، وهمُ الذينَ ظاهِرُهمْ وباطِنُهمُ الشِّركُ باللهِ ومُخالَفَةُ أمرِه، وليَغفِرَ اللهُ بذلكَ للمؤمنينَ والمؤمناتِ لِمَا فرَطَ منهم، الذينَ آمَنوا

باللهِ وصَدَقوا في إيمانِهِمْ وأخلَصُوا فيه، وأدَّوا الأمانَةَ كما يَنبَغي، واللهُ كثيرُ المغفِرَةِ لذُنوبِ عِبادِهِ التَّائبين، رَحيمٌ بمؤمِنيهِمْ رَحمَةً واسِعَة.

وهذهِ هيَ طَبيعَةُ الإنســان... فمنهمْ مَنْ يَفي بعَهدِ اللهِ وميثاقِهِ ويَصــبِر، وهمُ المؤمِنون، ومنهمْ مَنْ يَلتَزِمُ ببَعضِهِ ظاهِرًا وهوَ لا يُريدُهُ باطِنًا، وهمُ المنافِقون، ومنهمْ مَنْ يَعصِي ويَخونُ، ويُكَذِّبُ الحقَّ ويُفسِد، فلا يَقومُ بذلكَ ظاهِراً ولا باطِنًا، وهمُ الكُفَّارُ والمشرِكون.

سورة سبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} (سبأ : ١)

١- الشُّكرُ للهِ والثناءُ عَليهِ بما هوَ أهلُه، الذي لهُ كُلُّ ما في السَّماواتِ والأرض، خَلقًا، ومُلكًا، وتَدبيرًا، فالجَميعُ مُلكُهُ وعَبيدُهُ وتحتَ قَهرِهِ وسُلطانِه، وهوَ المحمودُ في الآخِرَةِ على ما قضَى بالحقّ وعدَل، وأثابَ عِبادَهُ المؤمنينَ بالنَّعيمِ المقيمِ وزيَادةً على ما يَستَحِقُّون، وهوَ المحمودُ في كُلِّ وَقتٍ وحين، يَحمَدُهُ مَلائكتُهُ وعِبادٌ لهُ ومَنْ لا نَفقَهُ تَسبيحَهم، وهوَ الحَكيمُ في تَقديرِهِ وتَدبيرِه، الخبيرُ بظَواهرِ الأشياءِ وبَواطنِها.

{يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ} (سبأ : ٢)

٢- يَعلَمُ ما يَدخلُ في باطنِ الأرْض، مِنْ قَطْرِ الماء، وبذورِ النَّباتِ والشَّجَر، والرِّمالِ والصُّخور، والموتَى مِنْ أصنافِ الحيَوان، وما يَخرُجُ منها، مِنَ النَّباتِ والمعادِنِ وغَيرِها، عَدَدِها وكَيفيَّتِها ووَقتِها وأينَ تَصير، وما يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ضِياءٍ ومطَرٍ وقُوتٍ ومَقاديرَ، وما يَصعَدُ فيها مِنَ الملائكَةِ والأعمالِ الصَّالِحَةِ وغَيرِها. وهوَ الرَّحيمُ بعِبادِهِ فلا يُعاجِلُهمْ بالعُقوبَة، الغَفورُ لذُنوبِ التَّائبينَ منهمْ وإنْ أفرَطوا فيها.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} (سبأ: ٣)

٣- وقالَ الكافِرونَ المكَذِّبونَ بالبَعث: لا حياةَ بعدَ الموت، ولا تأتينَا القِيامةُ كما تَزعُم. قُلْ لهمْ أيُّها الرَّسُول: بلَى واللهِ ستُبعَثونَ بعدَ الموت، وتَفجَؤكمُ السَّاعَةُ بقِيامِها، فلا يَعلَمُ وَقتَها إلاّ

الله، العالِمُ بما غابَ عنِ الإنسَـانِ والملائكَةِ وجَميعِ العِباد، لا يَغيبُ عَنْ عِلمِهِ مِقدارُ ذَرَّةٍ كائنَةٍ في السَّماواتِ أو في الأرْض، أو أصغَرُ منها أو أكبَر، وكُلُّ ذلكَ مُدَوَّنٌ في اللَّوحِ المحفوظ.

{لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} (سبأ : ٤)

٤- ليُثيبَ المؤمنينَ المخلِصينَ على ما قَدَّموا مِنْ أعمالٍ حسَنَةٍ في الدُّنيا، أولئكَ لهمْ مَغفِرَةٌ لِما فرَطَ منهمْ مِنْ ذُنوب، ورِزقٌ حسَنٌ طَيِّبٌ أعَدَّهُ اللهُ لهمْ في جنَّاتِ النَّعيم.

{وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ} (سبأ : ٥)

٥- والذينَ سَـعَوا في الكُفرِ بآياتِنا، واجتَهَدوا بالصـدِّ عنْ رِسـالاتِنا، والتَّكذيبِ برُسُـلِنا، وجاهَدوا في إبطالِها، فأولئكَ لهمْ سَيِّءُ العَذاب، وأشَدُّهُ وآلَمُه[١١٤].

{وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِـرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} (سبأ : ٦)

٦- ويَعلَمُ أُولو العِلمِ والفَهمِ مِنْ أصـحابِك، ومُؤمِني أُمَّتِك، ومَنْ آمنَ مِنْ أهلِ الكِتاب، أنَّ القُرآنَ هوَ الكتابُ الحَقُّ المُنْزَلُ مِنْ عندِ اللهِ عَليك، لا شَكَّ فيه، وأنَّهُ يُرشِدُ إلى دِينِ الإسْلام، صِراطِ اللهِ المستَقيم، العَزيزِ الذي لا يُقهَرُ ولا يُغالَب، المحمودِ في ذاتِهِ وجَميعِ شُؤونِه.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} (سبأ : ٧)

---

(١١٤) {سَعَوْا}: السَّعْيُ: المشيُ السَّريع، وهو دونَ العَدْو، ويستعملُ للجدِّ في الأمر، خيرًا كان أو شرًّا، قالَ تعالى: {وَسَعَى فِي خَرَابِهَا} [سورة البقرة: ١١٤]... (مفردات الراغب).

{سَـعَوْا فِي آيَاتِنَا}: اجتهدوا بالصـدِّ عنها ومحاولةِ إبطالها، فالسـعيُ مسـتعارٌ للجدِّ في فعلٍ ما. (التحرير).

{آيَاتِنَا}: أدلتِنا وحججِنا. (الطبري). آياتِنا القرآنية، بالردِّ والطعنِ فيها، ومنعِ الناسِ عن التصديقِ بها. (روح البيان).

٧- وقالَ الكافِرونَ مُســتَهزِئين: هلْ نَدُلُّكمْ على أمرٍ عجَب! رَجُلٌ يُخبِرُكمْ أنَّكمْ إذا مُتُّمْ وتقَطَّعَتْ أجسادُكمْ وتفرَّقَتْ في الأرْض، عُدتُمْ بعدَها أحياءً مرَّةً أُخرَى؟! يَعنُونَ محمَّدًا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم.

{أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ} (سبأ : ٨)

٨- وقالوا في كُفرِهم: هلْ كذَبَ محمَّدٌ على رَبِّهِ إذْ نسَبَ إليهِ القَولَ بالبَعث، واختَلقَهُ مِن عِنده، أمْ أنَّ بهِ جُنونًا فتوَهَّمَ ذلكَ وقالَه[١١٥]؟

إنَّ الأمرَ ليسَ كذلك، فإنَّ نَبيَّ اللهِ صادِقٌ راشِد، ولكنَّ مُنكِري يَومِ القيامَةِ جهَلَةٌ بَعيدونَ عنِ الفَهمِ والإدراكِ لِمَا هوَ حَقّ، وهمْ سَائرونَ بهذا إلى العَذابِ والهَلاك.

{أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ} (سبأ : ٩)

٩- ألَا يَنظُرونَ إلى ما حَولَهم، مِنْ أمامِهمْ ومِنْ خَلفِهم، وأينَما سارُوا، كيفَ يَجِدونَ السَّماءَ وقدْ أحاطَتْ بهم، والأرضَ وقدِ انبَسَطَتْ مِنْ تَحتِهم، فإذا شِئنا زَلزَلنا الأرضَ مِنْ تَحتِ أقدامِهم، أو أسقَطنا عَليهمْ قِطَعًا مِنَ السَّماءِ كما فعَلنا بأقوَامٍ سابِقين؛ لكُفرِهمْ وتَكذيبِهمْ رسُلَ الله، وفي ذلكَ دَليلٌ على قُدرَةِ اللهِ على البَعث، لكُلِّ عَبدٍ مُتفَكِّرٍ راجِعٍ إلى رَبِّه، تائبٍ إليه.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ} (سبأ : ١٠)

١٠- ولقدْ آتَينا عَبدَنا داودَ النبوَّة، والزَّبورَ، والمُلْكَ، والصَّوتَ الحسَنَ المؤثِّر، فهوَ نِعمَةٌ إذا وُجِّهَ إلى طاعَةِ الله، وأمَرنا الجِبالَ أنْ سَبِّحي معَهُ إذا سَبَّح، وكذلكَ الطَّير، وألَنَّا لهُ الحَديد، يَتصَرَّفُ فيهِ بينَ يَدَيهِ كالعَجين، مُعجِزَةً له.

---

(١١٥) {أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً}: الافتراءُ هو الكذب، وهو مرادفُ الاختلاق، وكأن أصلَهُ كنايةٌ عن الكذبِ وتلميح، وشاعَ ذلك حتى صارَ مرادفًا للكذب. (ينظر: التحرير والتنوير، عند تفسيرِ الآيةِ ٩٤ من سورةِ آلِ عمران).

{أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (سبأ : ١١)

١١- وقُلنا له: اعمَلْ مِنَ الحَديدِ دُروعًا كامِلَةً طَويلَة، ونَظِّمْ حلَقاتِ الدِّرْعِ بشَكلٍ حسَن، فلا تَجعَلِ المسامِيرَ في حلَقاتِهِ دَقيقَةً فتفلِت، ولا غَليظَةً فتَكسِرَ الحِلَق، ولكنِ اقصِدْ في ذلكَ وتوَسَّطْ على قَدْرِ الحاجَة. واعمَلوا الأعمالَ الصَّالِحَةَ يا آلَ داودَ على ما أعطاكُمُ اللهُ مِنَ النِّعَم، إنِّي مُراقِبٌ أحوالَكم، بَصيرٌ بما تَعملون، وسأجازيكُمْ على ذلك.

{وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ} (سبأ : ١٢)

١٢- وسَخَّرنا لعَبدِنا سُليمانَ بنِ داودَ الرِّيح، تَجري بهِ في الغَداةِ مَسيرَةَ شَهر، وفي العَشيِّ كذلك، وأذَبْنا لهُ النُّحاسَ كما ليَّنَّا لداودَ الحَديد، مُعجِزَةً له، وسَخَّرنا لهُ الجِنَّ، يَعمَلونَ بينَ يدَيهِ بأمرِنا، ومَنْ يَخرُجْ منهمْ عمَّا أمَرناهُ بهِ مِنْ طاعَةِ سُلَيمان، نُصْلِهِ عَذابًا كعَذابِ جهنَّم.

{يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} (سبأ : ١٣)

١٣- يَعمَلُ لهُ الجِنُّ ما يَشاءُ مِنْ أبنيَةٍ وقُصورٍ جَميلَة، وتَماثيلَ مِنْ نُحاسٍ وزُجاجٍ ورُخام، وأوانٍ للطَّعامِ كالأحوَاضِ العَظيمَة، وقُدورٍ لطَبخِ الطَّعام، ثابِتاتٍ في أماكنِها لا تتحَرَّك، لعِظَمِها، فاعمَلوا شاكِرينَ يا آلَ داودَ على ما أنعمَ اللهُ عَليكمْ في الدِّينِ والدُّنيا، وقَليلٌ مِنْ عِبادي مَنْ يَقومُ بحَقِّ الشُّكرِ في كُلِّ أحوَالِه، قَلبًا ولِسانًا.

{فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ) (سبأ : ١٤)

١٤- فلمَّا حكَمنا على سُليمانَ بالموت، ما دَلَّ الجِنَّ على مَوتِهِ إلاّ حشَرَةُ الأَرَضَة، وهيَ سُوسَةُ الخشَب، فكانَتْ تأكُلُ عصَاهُ التي كانَ مَتوَكِّئًا عَليها، فلمَّا ضَعُفَتْ سقطَ على

الأرْض، فعَلِمَتِ الجِنُّ أنَّهُمْ لو كانوا يَعلَمونَ الغَيبَ كما يَدَّعون، لشــــعَروا بمَوتِه، ولما بَقُوا في الشَّقاءِ والعَمَلِ الصَّعبِ الذي كانَ يُكَلِّفُهمْ بهِ سُلَيمانُ عَليهِ السَّلام.

{لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ} (سبأ : ١٥)

١٥- لقدْ كانَ لقَبيلَةِ سبَإٍ في مَسكَنِهِمْ مأرِبَ باليَمَنِ عَلامَةٌ بارِزَةٌ وعِبرَةٌ واضِحَة، فكانَ لهمْ بُســـتَانانِ عَظيمانِ عنْ يَمينِ بلَدِهم، وشِمالِه، فكُلوا مِنْ ثِمارِ هاتَينِ الجَنَّتَينِ اللَّتينِ أنعمَ اللهُ بهما عَليكم، واهنَؤوا بهما، واشـكُروا لهُ على هذا الرِّزقِ الكريم، ولا تُسـرِفوا ولا تَبطَروا، ولا تَنسـوا الفُقَراءَ ممَّا أنعَمَ اللهُ بهِ عَليكم. إنَّها بَلدَةٌ طَيِّبَةٌ مُبارَكَة، تُنبِتُ لكمْ ما تَشتَهونَ مِنَ الزَّرعِ والثَّمَر، ورَبٌّ كَريمٌ يَرزُقُكم، ويَغفِرُ لكمْ ما فرَطَ منكم، ما دُمتُمْ مُوَحِّدينَ شاكِرين.

{فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ} (سبأ : ١٦)

١٦- فأعرَضــوا عنِ التَّوحيدِ والطَّاعَة، ولم يَشــكرُوا رَبَّهُمْ على نِعَمِهِ عَليهم، بلْ ضَــلُّوا وعبَدوا الشَّمس، فأرسَلنا عَليهِمُ السَّيلَ الشَّديدَ الذي لا يُطاق، وبَدَّلناهُمْ ببُستانَيهِمُ الكَبيرَينِ المليئَينِ بأنوَاعِ الثِّمارِ، بُســتانَينِ ذَواتَيْ ثَمَرٍ مُرٍّ، ونبَاتِ الأثْلِ ذي الأغصَــانِ المعَقَّدَةِ والأورَاقِ الدَّقيقَة، وشجَرِ السِّدْرِ ذي الشَّوكِ الكثيرِ والثَّمَرِ القَليل.

{ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ} (سبأ : ١٧)

١٧- وقدْ جزَيناهُمْ بذلكَ لكُفرِهِمُ النِّعمَةَ وضَــــلالِهِمْ عنِ الحقّ، ولا نُجازِي بمِثلِ هذا الجَزاءِ الشَّديدِ إلاّ الكافِرين.

{وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ} (سبأ : ١٨)

١٨- وممَّا أنعَمنا عَليهِمْ أنْ جعَلنا قُرَاهُمْ مُتَواصِلَة، مِنْ بِلادِهِمْ حتَّى يَصِلوا إلى قُرَى الشَّام، فلا يَقيلُونَ بقَريَةٍ حتَّى يَجِدوا أمامَهمْ قُرًى أخرَى واضِحَة، وجعَلنا بينَ كُلِّ قَريَةٍ وأخرَى مسافَةً مُعيَّنةً يَعرِفُها المسافِرون، فامشُوا فيها باللَّيالي والأيَّامِ وَقتَما شِئتُم، آمِنينَ مُطمَئِنّين، لا تَخافُونَ عَدوًّا، ولا جُوعًا، ولا عطَشًا.

{فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} (سبأ : ١٩)

١٩- وطالَتْ بهمُ النِّعمَة، فبَطِروا وطغَوا، وآثَروا الأدنَى على الذي هوَ خَير، وقالوا: اللهمَّ باعِدْ بينَنا وبينَ مَواطِنِ تِجارَتِنا وتنَقُّلِنا، واجعَلها قِفارًا وصَحاري، حتَّى نركبَ الرَّواحِلَ ونتزَوَّد. فأضَرُّوا بأنفُسِهمْ عندَما كفَروا وطغَوا، فجَعلناهُمْ أُحدوثَةً وعِبرَةً لمنْ بعدَهم، وفرَّقناهُمْ كُلَّ تَفريق، في كُلِّ وَجهٍ وصَوبٍ مِنَ البِلاد. وفيما ذُكِرَ مِنْ قِصَّتِهمْ عِبَرٌ ودَلالاتٌ لكُلِّ صابِرٍ عنِ المعاصي والشَّهوات، شاكِرٍ لنِعَمِ الله.

{وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ} (سبأ : ٢٠)

٢٠- وقدْ حقَّقَ فيهِمْ إبليسُ ظنَّهُ عندَما وجدَ فيهِمْ طَرِيقَه، فزَيَّنَ لهمُ المعَاصي، وأمَّلَهمْ ومَنَّاهُم، فاتَّبَعوه، إلاّ جَماعَةً مِنَ المؤمِنين، الذينَ ثبَتوا على الدِّينِ الحَقّ.

{وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} (سبأ : ٢١)

٢١- وما كانَ للشَّيطانِ عَليهِمْ مِنْ قُوَّةٍ ولا حُجَّة، إلاّ أنَّهُ استَغواهُمْ وغرَّرَ بهم، ودَعاهُمْ فأجابُوه، وإنَّما سَلَّطناهُ عَليهِمْ لنُمَيِّزَ المؤمِنَ بالبَعثِ والحِسابِ مِنَ الكافِرِ به، فيكونُ هناكَ امتِحانٌ يُعرَفُ مِنْ خلالِهِ الصَّادقُ مِنَ الكاذِب، فالمؤمِنُ يَثبتُ في الاختِبار، والذي إيمانُهُ غَيرُ ثابتٍ يَتقلَّبُ بشُبَهِ الشَّيطانِ ودَعوَتِه، فيَظهَرُ الكافِرُ مِنَ المؤمِن، والخبيثُ مِنَ الطيِّب. واللهُ رَقيبٌ على كُلِّ شَيءٍ مِنْ أحوالِ العِبادِ وشُؤونِهم.

{قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ} (سبأ : ٢٢)

٢٢- قُلْ أيُّها الرسُولُ للمشرِكين: ادْعُوا الأصْنامَ التي زعَمتُمْ أنَّها آلِهَة، ليَجلُبوا لكمْ نَفعًا، كإنزَالِ مطَرٍ أو إنبَاتِ زَرع، أو يَدفَعوا عنكمْ ضُرًّا، كإبعادِ قَحطٍ أو شِفاءٍ مِنْ مرَض، لعلَّهمْ يَستَجيبونَ لكم، إنْ صَحَّ زَعمُكم، لكنَّ الحقَّ أنَّهمْ لا يَملِكونَ أمرًا مِنَ الأمُور، لا في السَّماءِ ولا في الأرْض، لا استِقلالاً ولا شَراكَة، ولا يَعتَمِدُ اللهُ عَليهِمْ في تَصريفِ شَأنٍ مِنْ شُؤونِ الكَون، ولا على أحَدٍ مِنْ عَبيدِه.

{وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} (سبأ : ٢٣)

٢٣- ولا تَنفَعُ الشَّفاعَةُ عندَ اللهِ يومَ القيامَةِ إلاّ لشافِعٍ أَذِنَ لهُ فيها، مِنْ نَبيّينَ ومَلائكةٍ ونَحوِهم، ولا يَجتَرِئُ أحَدٌ أنْ يَشفَعَ إلاّ بعدَ إذنِهِ له، فكيفَ يأذَنُ للكافِرينَ وأصنامِهِمْ وهمْ يَقولونَ إنَّهمْ شُفعاؤهمْ عندَ الله؟! حتَّى إذا انجلَى الفزَعُ عنْ قُلوبِ الشَّافِعينَ والمشفُوعين، لِما أصابَهَمْ مِنَ الرَّهبَةِ والخَوف، سألَ بَعضُهمْ بَعضًا: ماذا قالَ رَبُّكم؟ قالوا: لقدْ قالَ رَبُّنا القَولَ الحقَّ الفَصل، وهوَ العَليُّ فوقَ خَلْقِه، الكَبيرُ في ذاتِهِ وصِفاتِه.

{قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} (سبأ : ٢٤)

٢٤- قُلْ للمشرِكينَ أيُّها الرسُول: مَنِ الذي يَرزُقُكمْ مِنَ السَّماءِ والأرْض، فيُنزِلُ لكمُ المطَرَ، ويُنبِتُ لكمُ الزَّرعَ، اللهُ أمْ أصنامُكم؟ قُل: هوَ الله - وكانوا يَعترِفونَ بذلكَ - ولا جَوابَ عندَهمْ سِواه.

وقُلْ لهم: نحنُ أو أنتُمْ على صَوابٍ، أو في انحِرافٍ واضِح، ولا يَكونُ كِلانا على صَوابٍ أو ضَلال، ونَحنُ قدْ أبدَينا حُجَّتَنا، وأظهَرنا بُطلانَ أُلوهيَّةِ أصنامِكم، فأنتُمْ على بُطلان.

{قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ} (سبأ : ٢٥)

٢٥- قُلْ لهم: نحنُ بَريؤونَ منكمْ وأنتُمْ بَريؤونَ منَّا، ولا تُسألونَ عنْ ذُنوبِنا يَومَ القيامَة، ولا نحنُ نُسألُ عنْ أعمالِكم، وقدْ دعَوناكُمْ إلى الحقّ فأبَيتُم.

{قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ} (سبأ : ٢٦)

٢٦- قُلْ لهم: اللهُ يَجمَعُ بينَنا يومَ القيامَةِ في صَعيدٍ واحِدٍ للحِساب، ثمَّ يَحكمُ بينَنا بالعَدل، ويَفصِلُ فيما كُنَّا نَختَلِفُ فيه، ويَجزي كُلاًّ منَّا بما عَمِل، إنْ خَيرًا أو شَرًّا، ويَلقَى كُلُّ جزاءَه، واللهُ هوَ الحاكِمُ الذي يَفصِلُ في الخصُومات، وهوَ العَليمُ بظَواهِرِ الأمُورِ وبَواطِنِها.

{قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاء كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (سبأ : ٢٧)

٢٧- قُلْ لهمْ أيُّها النبيّ: أَرُوني تلكَ الآلِهَةَ التي جعَلتُموها شُرَكاءَ معَ الله، وهي أحجَارٌ وأخشَاب، لا تَعي ولا تتَكلَّم، هلْ يَخلُقونَ شَيئًا أو يَرزُقون؟ فبأيّ وَجهٍ وأيَّةِ صِفَةٍ وأيّ حَقٍّ جعَلتُموها آلِهة؟ كلاّ، ليسَ للهِ نَظيرٌ ولا شَريك، بلْ هوَ اللهُ الغالِبُ الذي قهرَ كُلَّ شَيء، الحَكيمُ في تَدبيرِهِ وتَقديرِه.

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (سبأ : ٢٨)

٢٨- وقدْ أرسَلناكَ للنَّاسِ جَميعًا، عرَبيِّهِمْ وأعجَميِّهم، أبيَضِهِمْ وأسوَدِهم، ذَكَرِهِمْ وأُنثاهُم، حتَّى قِيامِ السَّاعَة، تُبَشِّرُ مَنْ أطاعَ اللهَ بالجنَّة، وتُنذِرُ مَنْ عَصاهُ بالنَّار، ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ أنَّكَ رَسُول، إمَّا جَهلاً منهم، أو عِنادًا، فهمْ في جَهلٍ وضَلال، وحَيرَةٍ وظَلام.

{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (سبأ : ٢٩)

٢٩- ويَقولُ المشرِكونَ مَستَبعِدينَ الأمر: ومتَى يَكونُ يَومُ القِيامَةِ الذي تُخَوِّفونَنا به، إنْ كنتُمْ صادِقينَ في زَعمِكم؟

{قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ} (سبأ : ٣٠)

٣٠- قُلْ لهمْ أيُّها الرسُـــول: إنَّ لكمْ مَوعِدَ يَومٍ لا تَتأخَّرونَ عنهُ ولا تَتقَدَّمونَ عَليهِ ســـاعَةً واحِدَة.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ} (سبأ : ٣١)

٣١- وقالَ الكافِرونَ في تعَنُّتٍ وعِناد: لنْ نؤمِنَ بهذا القُرآنِ، ولا بالكتُبِ السَّماويَّةِ السَّابِقَة. ولو ترَى أيُّها النبيُّ هؤلاءِ الكافرينَ يَومَ القِيامَةِ وقدْ أُوقِفوا للحِسَـــاب، وهمْ يتخاصَـــمونَ ويتَجادَلون، يَقولُ الأتباعُ لقادَتِهِمْ ومَســـؤولِيهم: لو لم تُضِـــلُّونا بأفكارِكم، ولم تَحُولُوا بيننا وبينَ مَعرِفَةِ الحقّ، لكُنَّا مؤمِنينَ باللهِ ورَسُولِه.

{قَالَ الَّذِينَ اسْـتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْـتُضْـعِفُوا أَنَحْنُ صَـدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ} (سبأ : ٣٢)

٣٢- قالَ لهمْ زُعماؤهمْ ومُستَكبِروهم: أنحنُ مَنعناكمْ مِنَ الإيمانِ بعدَ أنْ أصرَرتُمْ على الدُّخولِ فيه؟ بلْ أنتُمُ اختَرتُمُ الكُفرَ بأنفُسِـكم، وآثَرتُموهُ على الإيمَانِ عِنادًا وإجرَامًا منكم، ولهوًى ورَغبَةٍ في أنفُسِكم، ولم نَزِدْ على أنْ دعَوناكُمْ إلى أفكارِنا ونظَريَّاتِنا فاستَجَبتُم.

{وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً وَأَسَـــرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (سبأ : ٣٣)

٣٣- قالَ الأتْباعُ المســتَضــعَفونَ لمســؤوليهمْ وقادَتِهم: بلْ هوَ مُحاوَلاتُكمُ المتَكَرِّرَةُ للتَّغريرِ بنا وإضـــلالِنا، ودِعاياتُكمُ المهَوِّلَةُ لأفكارِكمُ المنحَرِفَة، وحيَلُكمُ المتَتاليَةُ في اللَّيلِ والنَّهار، وأنتُمْ تَدْعُوننا للكُفرِ باللهِ ودِينِه، وأنْ نَجعَلَ معَهُ شُـرَكاء. وأضـمَروا الحَسْـرَةَ والنَّدامَةَ لما رَأوا العَذابَ حاضِرًا يَنتَظِرُهم، وجعَلنا القُيودَ في أعناقِ الكافِرين، مِنَ المستَكبِرينَ والمستَضعَفين، ولم يُجْزَوا إلاّ ما كانوا يَعمَلونَ مِنَ السُّوءِ والشرّ.

{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ} (سبأ : ٣٤)

٣٤- وما أرسَلنا رَسُولاً في قَريَةٍ مِنَ القُرَى، إلاَّ وكذَّبَهُ رُؤسَاؤها وأغنيَاؤها، وقالوا لأنبِيائهم: نحنُ لا نؤمِنُ بنبوَّتِكم، ولا نُصَدِّقُ رسَالتَكم.

{وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} (سبأ : ٣٥)

٣٥- وقالَ المترَفونَ المستَكبِرون: نحنُ أكثَرُ أموالاً وأولادًا مِنْ هؤلاءِ الضُّعَفاءِ المؤمنين، وهوَ دَليلُ كرامَتِنا على اللهِ ورِضاهُ عنَّا، ولو لم يُحِبَّنا لما أعطَانا ذلك، ولنْ يُعَذِّبَنا في الآخِرَةِ وقدْ أحسنَ إلينَا وأكرَمنا في الدُّنيا!

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (سبأ : ٣٦)

٣٦- قُلْ لهمْ أيُّها الرسُول: إنَّ اللهَ يوَسِّعُ الرزقَ على مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِه، مَنْ أحَبَّ منهمْ ومَنْ لم يُحِبّ، ويُضَيِّقُ على مَنْ شاءَ كَذلك، ابتِلاءً واختِبارًا منه، ولهُ حِكمَةٌ فيه، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلَمون، ولا يَنسِبونَ ذلكَ إلى حِكمَتِهِ تَعالَى.

{وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاء الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ} (سبأ : ٣٧)

٣٧- وإنَّ أمولَكمُ الكثيرَةَ وأولادَكمْ لنْ يَنفَعوكمْ يومَ القِيامَة، ولنْ يُقَرِّبوكمْ عندَنا، ولنْ يُؤَمِّنوا لكمْ مَكانًا في الجنَّة، إلاّ مَنْ كانَ مؤمِنًا في الدُّنيا، وعَمِلَ الأعمَالَ الحسَنة، فهؤلاءِ همُ المقبولونَ عندَ رَبِّهم، وسيُجازيهمْ ثَوابًا مُضاعَفًا على أعمَالِهم، وهمْ مُطمَئِنُّونَ سالِمونَ مِنْ كُلِّ شَرٍّ وأذًى، في غُرَفِ الجنَّةِ ومَنازِلِها العاليَة.

{وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ} (سبأ : ٣٨)

٣٨- والذينَ يَسعَونَ في الكُفرِ بآياتِنا[116]، والصدِّ عنْ رِسالاتِنا، والتَّكذيبِ برُسُلِنا، ويُجاهِدونَ في إبطالِها، أولئكَ يُحضَرونَ للحِسَابِ والعَذاب، لا يَحُولُ بينَهمْ وبينَ النَّارِ شَيء.

{قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} (سبأ : ٣٩)

٣٩- قُلْ لهمْ أيُّها الرسُول: إنَّ اللهَ يوَسِّعُ الرِّزقَ على مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِه، ويُضَيِّقُ على مَنْ شَاءَ منهم، فلا تَخشَوا الفَقر، وأنفِقوا مِنْ أموالِكم، وما أنفَقتُمْ مِنْ شَيءٍ في الخَيرِ فاللهُ يُخلِفُهُ عَليكمْ بما يَقومُ مقامَه، بالمالِ والبرَكةِ فيهِ في الدُّنيا، أو بالثَّوابِ عَليهِ في الآخِرَة، واللهُ خَيرُ مَنْ يُعطي ويَرزُق.

{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ} (سبأ : ٤٠)

٤٠- واذكُرْ يومَ يَحشُرُ اللهُ المشرِكينَ جَميعًا، المستَكبِرينَ والمستَضعَفينَ مِنهم، ثمَّ يَقولُ للملائكة: أهؤلاءِ المشرِكونَ كانوا يَعبدُونَكم، عندَما كانوا يَقولونَ إنَّ الملائكةَ بَناتُ الله، ويُصَوِّرونَ الأصْنامَ على هَيئَةِ الملائكةِ – بزَعمِهم – ليُقَرِّبوهمْ إلى الله؟

{قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ} (سبأ : ٤١)

٤١- قالَ الملائكةُ عَليهمُ السَّلام: تقدَّستَ وتَعالَيْتَ عنِ الشَّريكِ يا رَبَّنا، نحنُ نَعبدُكَ ونُوَاليك، ولم نَطلُبْ منهمْ ما يَدَّعون، بلْ كانَ هَواهُمْ معَ الشَّياطين، الذينَ كانوا يُزَيِّنونَ لهمْ عِبادَةَ غَيرِ اللهِ تَعالَى، فيُطيعُونَهم، ويَعبدُونَ الملائكة، والأصْنامَ وما إليها، وكانَ أكثَرُهمْ يُصَدِّقونَ الشَّياطينَ أنَّها آلِهة!

(١١٦) السعيُ مستعارٌ للاجتهادِ في العمل، كقولِهِ تعالى: {ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى} [سورة النازعات: ٢٢]. وإذا عديَ بـ (في) كان في الغالبِ مراداً منه الاجتهادُ في المضرَّة... (التحرير والتنوير).

{فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلَا ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ} (سبأ : ٤٢)

٤٢- فاليَومَ أيُّها المشرِكون، لا يَنفَعُكمْ مَنْ كنتُمْ تَرجُونَ شفَاعتَهمْ مِنَ المِلائكةِ، والأصْنام، التي كنتُمْ تَظنُّونَ أنَّها تَنفَعُكمْ يومَ الشدَّة، وهيَ لا تَملِكُ نَفعًا ولا ضُرًّا. ونَقولُ للمشرِكينَ الذينَ ظلَموا أنفُسَهمْ بتعريضِها للعَذاب: ذُوقوا عَذابَ النَّارِ التي كنتُمْ تُكَذِّبونَ بها، وتَقولونَ إنَّهُ لا ثَوابَ ولا عِقاب، ولا جَنَّةَ ولا نَار.

{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ} (سبأ : ٤٣)

٤٣- وإذا قرَأ عَليهمْ رَسُولُ اللهِ آياتٍ منَ القُرآن، الدالَّةِ على الحقّ والتَّوحيدِ الواضِح، قالوا: إنَّ محمَّدًا يُريدُ أنْ يُبعِدَكمْ ويَمنعَكمْ مِنْ دِينِ آبائكمُ الحقّ! وقالَ المشركون: ما هذا القرآنُ الذي يَتلوهُ علَينا محمَّدٌ سوى كذبٍ واختِلاقٍ مِن عِنده، وقَالوا: ما هذا القُرآنُ الذي جاءَ بهِ سِوَى سِحرٍ ظاهِرٍ يَخدَعُ بهِ النَّاس!

{وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ} (سبأ : ٤٤)

٤٤- ولم نُؤتِ المشرِكينَ مِنْ أهلِ مَكَّةَ كتُبًا يَقرَؤونَها ويَعلَمونَ بها بُطلانَ ما جِئتَ به، ولم نُرسِلْ إليهمْ قَبلَكَ نبيًّا يَذكرُ لهمْ ما يَدَّعونَ مِنِ استِبعادِ نبوَّتِكَ ورِسالَةِ الإسْلام، فمِنْ أينَ جَاؤوا بهذا الصدِّ والإنكارِ سِوَى أنَّهمْ جاهِلونَ ومُشرِكونَ ضالُّون؟

{وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} (سبأ : ٤٥)

٤٥- وقدْ كذَّبَ الكافِرونَ مِنَ الأُمَمِ الماضِيَةِ رسُلَنا، وما بلغَ هؤلاءِ المشرِكونَ مِنَ القوَّةِ والنِّعمَةِ وطُولِ العمُرِ عُشْرَ ما أعطَينا تلكَ الأُمَمَ منها، فلمْ تَنفَعْهُمْ قوَّتُهمْ شَيئًا، ولم يَمنَعْهُمْ ما هُمْ فيهِ مِنْ جَاهٍ ونِعمَةٍ وسُلطانٍ مِنْ عَذابِ الله، فانظُرْ كيفَ كانَ انتِصارِي لرسُلي، وعِقابي لهم.

{قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} (سبأ : ٤٦)

٤٦- قُلْ لهمْ أيُّها الرسُولُ الكريم: إنِّي أنصَحُكمْ بخَصلَةٍ واحِدَةٍ لتَصِلوا بها إلى مَعرِفَةِ الصَّواب، أنْ تَطلُبوا الحقَّ بإخلاصٍ لأجلِ الله، مُتفَرِّقين: اثنَينِ اثنَين، ووَاحِدً واحِدًا، مِنْ غَيرِ ارتِباطٍ بأحَد، بلْ بتَفكيرٍ مُستَقِلّ، ثمَّ تتَفَكَّروا مِنْ جَديدٍ في حالِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلَّم: هلْ أحوالُهُ ودَعوَتُهُ وما يَتلُوهُ يَدُلُّ على أنَّهُ مجنُون؟ ما هوَ إلاّ رَسُولٌ إليكم، يُنذِرُكمْ مِنْ عَذابٍ شَديدٍ في الآخِرَة.

{قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (سبأ : ٤٧)

٤٧- قُلْ لهم: أنا لم أطلُبْ منكمْ أُجرَةً مِنْ مَالٍ أو مَتاعٍ مُقابِلَ تَبليغِ رِسالَةِ الله، حتَّى لا تَقولوا إنَّهُ يُريدُ أنْ يُثرِيَ مِنْ وراءِ هذهِ الدَّعوَة، إنَّما أطلُبُ الأجرَ والثَّوابَ مِنَ اللهِ وحدَه، وإذا كانَ هُناكَ شَيءٌ فهوَ لكم، وهوَ ما لا يوجَد، واللهُ عالِمٌ بأمري، ومُطَّلِعٌ على سَريرَتي.

{قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} (سبأ : ٤٨)

٤٨- قُلْ لهمْ أيُّها النبيّ: إنَّ اللهَ يأتي بالوَحيِ الحَقّ، ويَرمي بهِ على الباطِل، وهوَ العالِمُ بالغَيب، فلا يَخفَى عليهِ شَيءٌ في الأرْضِ ولا في السَّماء.

{قُلْ جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ} (سبأ : ٤٩)

٤٩- قُل: جاءَ الإسْلامُ والتَّوحيد، فلم يَبقَ للباطِلِ مَقالَةٌ ولا رِئاسَة، فقدْ مضَى وهلَكَ الكُفرُ والشِّرك، ولا بَقاءَ للباطِلِ بعدَ أنْ سَطَعَ نورُ الحقّ وثبتَ أهلُه.

{قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} (سبأ : ٥٠)

٥٠- قُلْ للمُشرِكين: إنْ كنتُ ضَلَلتُ فإنَّ إثمَ انحِرافي وضَلالي يَعودُ بالشَّرِّ والسُّوءِ عَليّ، فلا عَليكمْ منّي، وإنِ اهتدَيتُ إلى الحقِّ فهوَ بوَحي اللهِ إليَّ وتَوفيقِهِ لي، ولا أملِكُ لنَفسِي منهُ شَيئًا إلاّ بإذنِه، وأنا تحتَ مَشيئَتِه، أُبَلِّغُ ما يأمرُني به، وهوَ سَميعٌ لمنْ دَعاه، قَريبُ الإجابَةِ لمنْ رَجاه.

{وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ} (سبأ : ٥١)

٥١- ولو ترَى المكذِّبينَ يَومَ القيامَةِ وقدْ خافُوا وارتَعَدوا مِنْ رَهبَةِ الموقِفِ وهَولِ العَذاب، فلا مَهرَبَ لهمْ ممَّا يُريدُ اللهُ بهم، وأُخِذُوا مِنَ الموقِفِ بسُرعَةٍ إلى الجَحيم، مقَرِّهمُ الأخِير.

{وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ} (سبأ : ٥٢)

٥٢- وقالوا يَومَ القيامَة: آمَنَّا بالله، وبما أرسَلَ مِنَ الرسُل، وبما أنزلَ مِنَ الكتُب. ولكنْ مِنْ أينَ لهمْ تَناولُ هذا الإيمانِ وقدْ بَعُدوا عنْ مَكانِ قَبولِه، وهوَ الدُّنيا، وصارُوا إلى دارِ الجَزاءِ والحِساب؟

{وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ} (سبأ : ٥٣)

٥٣- وقدْ كفَروا بذلكَ مِنْ قَبلُ في الدُّنيا، وكانوا يَرمُونَ الكلامَ بالظنِّ والتَّخمين، مِنْ جهةٍ بَعيدةٍ مِنْ أمرِ مَنْ تكلَّموا في شأنه، فيَقولونَ للرَّسُولِ إنَّهُ شاعِر، أو كاهِن، أو مَجنون، ويُكَذِّبونَ بالبَعث، والجَنَّةِ والنَّار... ولا يُقَدِّرونَ ما يترَتَّبُ على كلامِهمْ هذا.

{وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ} (سبأ : ٥٤)

٥٤- وحِيْلَ بينَهمْ وبينَ التَّوبَة، أو الرُّجوعِ إلى الدُّنيا[١١٧]، كما جرَى لأمثالِهمْ مِنَ الأُمَمِ السَّابقَةِ المكَذِّبَةِ بالرُّسُل، إنَّهمْ كانوا في الحيَاةِ الدُّنيا في شَكٍّ وريبَةٍ مِنْ أمرِ البَعثِ والحِساب.

(١١٧) أي: أُوقعتِ الحيلولةُ والمنعُ بين هؤلاءِ الكفارِ وبين ما يشتهون... (روح البيان).

سورة فاطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (فاطر : ١)

١- الحَمدُ للهِ والثَّناءُ عَليهِ بما هوَ أهلُه، مُوجِدِ السَّماواتِ والأرضِ ومُبدِعِهما على غَيرِ مِثالٍ سابِق، جاعلِ المِلائكةِ وسائطَ بينَهُ وبينَ خَلقِهِ لتَبليغِهِمْ أوامِرَه، ذَوي أجنِحَةٍ يَطيرونَ بها، منهمْ مَنْ لهُ جَناحان، ومنهمْ مَنْ لهُ ثَلاثَة، ومنهمْ مَنْ لهُ أربَعَة، ومنهمْ مَنْ لهُ أكثَر، ويَزيدُ اللهُ في الخَلْق، أو الأجنِحَةِ، ما يَشاء، واللهُ قادِرٌ على كُلِّ شَيء، لا يَصعُبُ عَليهِ أمر.

{مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (فاطر : ٢)

٢- إذا أطلَقَ اللهُ للنَّاسِ رَحمَةً مِنْ عندِه، مِنْ نِعمَةٍ، وأمْنٍ، وعِلمٍ، وصِحَّةٍ، فلا يَقدِرُ أحَدٌ على مَنعِ عَطائه، وإذا حبَسَهُ عَنهمْ فلا يَقدِرُ أحَدٌ على مَنحِهِ لهم، واللهُ عَزيزٌ يَغلِبُ ولا يُغلَب، حكيمٌ، فلا يُقَدِّرُ إلاّ ما فيهِ مَصلحَةٌ وحِكمَة.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} (فاطر : ٣)

٣- أيُّها النّاس، تَذكَّروا نِعَمَ اللهِ الكثيرَةَ عَليكم، وقُوموا بأداءِ حَقِّها، فاشْكروا لواهبِها واعبُدوه، فإنَّهُ لا خالِقَ غَيرُ اللهِ يأتي بها لكم، مِنَ السَّماءِ والأرْض، فيُنزِلُ المطَر، ويُنبِتُ الزَّرعَ لأجلِكم، فهوَ الإلهُ الحقُّ الذي يَجِبُ ألاّ يُعبدَ إلاّ هو، فكيفَ تَكذِبونَ وتدَّعونَ أنَّ الأصنامَ أيضًا آلِهة؟

{وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ} (فاطر : ٤)

٤- وإذا كذَّبكَ المشرِكونَ أيُّها الرسُولُ وخالَفوا ما جِئتَ به، فقدْ سبقَ أنْ كذَّبَ مُشرِكونَ مثلُهمْ أنبياءَهم، فصـــبَروا، فتأسَّ بهم، واصـــبِرْ مثلَهم، وإلى اللهِ مآلُ الأمورِ كُلِّها يومَ القِيامَة، فيَجزي كُلاًّ بما عَمِل.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ} (فاطر: ٥)

٥- أيُّها النَّاس، إنَّ قيَامَ السَّـــاعَةِ حَقٌّ لا رَيبَ فيه، فلا تُلهيَنَّكمُ الحيَاةُ الدُّنيا بزينَتِها ونَعيمِها عنِ الآخِرَة، ولا يَخدَعَنَّكمُ الشِّيطانُ ويَصرِفنَّكمْ عنِ اتِّباعِ الحقّ، بكيدِهِ وتَزيينِهِ الشرَّ والمعاصيَ في نفُوسِكم.

{إِنَّ الشَّـيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْـحَابِ السَّـعِيرِ} (فاطر : ٦)

٦- إنَّ الشَّـيطانَ عَدوٌّ قَديمٌ لكم، فاجعَلوهُ أنتُمْ أيضًـا عَدوًّا لكم، وكونُوا على حذَرٍ منهُ حتَّى لا يُضِلَّكم، فإنَّهُ يَجهَدُ في دَعوَتِكمْ إلى الكُفرِ والضَّلال، لتُوافِقوه، وتَدخُلوا معَهُ عَذابَ السَّعير.

{الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَـدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} (فاطر : ٧)

٧- الذينَ كفَروا وكذَّبوا رسُلَ اللهِ مَصيرُهمْ عَذابٌ مؤلِمٌ قاس، جَزاءَ كُفرِهِمْ وطاعَتِهِمُ الشَّيطان، والذينَ آمَنوا وأخلَصـوا في إيمانِهِم، وأتْبَعوهُ بالعمَلِ الصَّـالِح، فأولئكَ يَغفِرُ اللهُ ما فرَطَ منهمْ مِنْ ذُنوب، ولهمْ ثَوابٌ عَظيم.

{أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُـوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَـناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِـلُّ مَن يَشَـاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَـاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} (فاطر : ٨)

٨- أفمَنْ حسَّـنَ الشَّـيطانُ لهُ عمَلَهُ السيِّئ، حتَّى بَدا لهُ أنَّ ما يَقومُ بهِ مِنْ أعمالٍ هيَ جَيِّدَةٌ وصَـحيحَة، أفتَحزَنُ عَليهِ وتَتألَّمُ لحالِه؟ فإنَّ اللهَ يُضِـلُّ مَنْ يَشـاءُ مِنَ النَّاس، ويَهدِي مَنْ يَشـاءُ

منهم، فهوَ المطَّلِعُ على قُلوبِهِمْ والعالِمُ بما يَميلونَ إليه، وما يَســـتَعِدُّونَ لهُ ويَعزِمونَ عليه، فلا تتَحسَّرْ على حالِهِم، ولا تَهتَمَّ بكُفرِهِمْ وهَلاكِهِم، فاللهُ عَليمٌ بما يَعمَلونَ مِنَ الأعمَالِ السيِّئة.

{وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ} (فاطر : ٩)

٩- اللهُ سُبحانَهُ هوَ الذي بعثَ الرِّياحَ لتُحرِّكَ السَّحابَ وتَنشـرَهُ، ثمَّ سُقناهُ إلى أرْضٍ يابِسَةٍ جَرداءَ لا نَباتَ فيها، فأحيَينَاها بالمطَر، فأنبَتنا فيها الزَّرعَ والثَّمَر، وكما أحيا اللهُ الأرْضَ بعدَ مَوتِها، كذلكَ يَكونُ إحيَاؤكَمْ بعدَ الموتِ للبَعثِ والحِساب.

{مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ} (فاطر : ١٠)

١٠- مَنْ أرادَ أنْ يَكونَ قَويًّا عَزيزًا، مُهابًا مَنيعًا، فليتَعزَّزْ بطاعَةِ الله، وليَتقَوَّ بالتقَرُّبِ إليهِ والالتِزامِ بأوَامرِه، فإنَّهُ بذلكَ يَحصُلُ لهُ مَقصُودُه، فإنَّ العِزَّةَ كُلَّها لله، فهوَ المالِكُ والمتصَرِّفُ في شُؤونِ خَلقِه، فيُعِزُّ مَنْ يُطيعُه، ويُذِلُّ مَنْ يُخالِفُه، إنْ عاجِلاً أو آجِلاً.

واللهُ يَقبَلُ منكمُ الكَلامَ الطيِّبَ المبارَك، وإليهِ سُـبحانَهُ يَصـعَدُ الذِّكرُ، والتِّلاوَة، والدُّعاء. والعمَلُ الحسَـنُ الموافِقُ للشَّـرعِ هوَ الذي يَرفَعُ الكَلامَ الطيِّب، الذي يَدلُّ على الإخْلاص، وعلى مُوافقَةِ ما شرَعَ اللهُ لعِبادِهِ مِنَ القَولِ والعمَل.

والذينَ يَعمَلونَ السيِّئات، أو يُراؤونَ بأعمالِهِمْ ليُوهِموا أنَّهُمْ في طاعَةِ الله، لهمْ عَذابٌ شَديدٌ مؤلِم، ومَكرُ أولئكَ المفسِدينَ، المشرِكينَ أو المرائين، يَفسُدُ ويَبطُل، ولا يَبقَى لهُ أثَرٌ مِنْ خَير، فهوَ لم يُبْنَ على الشَّرعِ والطَّاعَة، وإنَّما بُنِيَ على الهوَى والضَّلال.

{وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} (فاطر: ١١)

١١- هوَ اللهُ الخالِقُ القادِر، الذي خلقَ أصلَكمْ مِنْ تُراب، ثمَّ جعلَ نَسلَكمْ مِنْ نُطفَة، وهيَ المنِيُّ للرَّجُلِ والمرأة، ثمَّ جعلَكمْ أزواجًا: ذُكرانًا وإناثًا. وما تَحمِلُ مِنْ أُنثَى مِنْ حَمْل، ولا تضَــعُ مِنْ مَولود، إلاّ وهوَ عالِمٌ به، لا يَخفَى عليهِ مِنْ ذلكَ شَــيء. ولا يُعطَى أحَدٌ مِن طُولِ عُمُرٍ، ولا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِ آخَر، إلاّ وهوَ مُسَــجَّلٌ في اللَّوحِ المحفُوظ، وإنَّ تَقديرَ الأعمارِ وكِتابَةَ الآجالِ أمرٌ سَهلٌ هيِّنٌ على الله.

{وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (فاطر : ١٢)

١٢- ومِنْ آثارِ قُدرَةِ اللهِ ونِعمَتِه: البَحران، العَذْبُ والمالِح، وهُما بالرَّغمِ مِنْ كَونِهما ماءً، إلاّ أنَّهما لا يَستَويان، فهذِهِ الأنهارُ الجارِيَةُ بينَ العُمرانِ والبَراري عَذبَةٌ سَهلٌ شَرابُها، وهذِهِ البِحارُ الواسِعَةُ مُرَّةٌ أو شَـديدَةُ الملوحَة، ومعَ ذلكَ فإنَّكمْ تأكُلونَ مِنْ كِليهما لحومَ الأسماكِ والحِيتانِ الغَضَّةَ الطريَّة، وتَستَخرِجونَ مِنَ المالِحَةِ اللُّؤلُؤ والمرجانَ وتَتَّخِذونَ منهما زِينَة، وترَى السُّفُنَ والبَواخِرَ تَشقُّ البِحارَ مُقبِلَةً ومُدْبِرَة، لتَطلُبوا رِزقَكُمْ مِنْ فَضلِ الله، في البِحار، أو بالتِّجارَةِ في الأسفَار، ولتَشكرُوهُ على ما سخَّرَهُ لكم، وأنعمَ بِهِ عَليكم.

{يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ} (فاطر : ١٣)

١٣- هوَ الذي يُدخِلُ اللَّيلَ في النَّهار، ويُدخِلُ النَّهارَ في اللَّيل، ويأخذُ مِنْ طُولِ هذا فيَزيدُ على قِصَرِ هذا، فيَتفاوَتُ بذلكَ طُولُهما حسَبَ الفُصولِ والأقطَار، كُلٌّ بِمقدارٍ ومِيزان، وسخَّرَ الشَّمسَ والقمَرَ فجعَلَهما مُذَلَّلَينِ طائعَينِ لِما يُرادُ منهما في خِدمَةِ الإنسَان، ويَجريانِ بسُرعَةٍ مَعروفَة، إلى حَدٍّ مُعَيَّن، ليَتكوَّنَ مِنْ حرَكاتِهما اللَّيلُ والنَّهار، والشَّهرُ والسَّنة. والذي قدَّرَ هذا كُلَّهُ هوَ اللهُ رَبُّكم، الذي لا إلهَ غَيرُه، لهُ الخَلقُ والملكُ والتصَرُّفُ في الكَونِ كلِّه. أمَّا

أصْـــنامُكمُ التي تَعبدونَها مِنْ دُونِ الله، وتدَّعونَ أنَّها آلِهة، فلا تَملِكُ أصـــغرَ وأحقَرَ شَـــيء، كالقِشرَةِ الرَّقيقَةِ التي تَكونُ على النَّواة.

{إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْـــمَعُوا دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْـــتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} (فاطر : ١٤)

١٤- إنَّها جَماداتٌ لا تَفقَهُ شَيئًا، وإذا دعَوتُموها لا تَسـمَعُ دُعاءَكم، ولو أنَّها سَمِعَت – فرَضًا – فلا قُدرَةَ لها على إجابةِ طلَبِكم، فلا رُوحَ فيها ولا حيَاة، ويومَ القِيامَةِ تَتبرَّأُ هذهِ الأصْـــنامُ منكم، حيثُ يُنطِقُها اللهُ فتتَكلَّمُ وتَقول: {مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ} [سـورة يونس: ٢٨]، أي: لم تَكونوا تَعبُدونَنا بطلَبِنا، وإنَّما كنتُمْ تُطيعُونَ أهواءَكم، وتُوالُونَ الشَّـياطين. ولا يُنَبِّئُكَ بمِثلِ هذا الأمرِ مِثلُ خَبيرٍ بها، فهوَ العالِمُ بالغَيب، والمطَّلِعُ على عَواقبِ الأمُور، وهوَ اللهُ سُبحانَه.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} (فاطر : ١٥)

١٥- أيُّها النَّاس، أنتُمُ المحتاجُونَ إلى الله، واللهُ غَنيٌّ بذاتِه، لا يَحتاجُ إلى شَـــيءٍ مِنْ عِبادَتِكمْ أو مُساعدَتِكم، وهوَ المحمودُ في إحسانِهِ إليكمْ وإلى الخَلقِ أجمَعين.

{إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ} (فاطر : ١٦)

١٦- ولو أرادَ اللهُ لأذهبَكمْ أيُّها النَّاسُ وأهلكَكمْ جَميعًا، وأتَى بخَلقٍ جَديد.

{وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ} (فاطر : ١٧)

١٧- وليسَ هذا بصَعبٍ على الله، فإنَّهُ تَعالَى إذا قالَ للشَّيءِ كُنْ، فيَكون.

{وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَـــيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَـوْنَ رَبَّهُم بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّـلَاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِـهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} (فاطر : ١٨)

١٨- ولا يَحمِلُ أحَدٌ ذَنْبَ آخَر، ولا يُعاقَبُ بذَنْبِ غَيرِه، وإذا دعَتْ نَفسٌ أثقَلَتْها الذُّنوبُ والآثامُ غيرَها إلى حَمْلِ ما عَليها مِنْ ذُنوبٍ يومَ القيامة، فإنَّها لا تَســـتَجيب، ولا يُحمَلُ عَنها شَـيء، وإنْ كانَ طالِبُهُ مِنْ ذَوي قَرابتِه، فالكُلُّ مَشـغُولٌ بنَفسـهِ وحَالِه. وهمْ قدْ حمَلوا أثقَالَ إضْلالِهِمْ معَ أثقَالِ ضَلالِهِمْ، والكلُّ مِن أوزارِهم، لا مِن أوزارِ غيرِهم[١١٨].

وهؤلاءِ الكافِرونَ لا يَتَّعِظونَ بكَلامِك، لأنَّهُمْ لا يُؤمِنونَ بالبَعثِ والحِسابِ على الأعمَال، إنَّما يَنفَعُ الوَعظُ والإنذارُ مَنْ يَخافونَ اللهَ وهمْ لم يرَوه، ويَخشَـــونَ عَذابَهُ وهوَ غائبٌ عَنهم، وواظَبوا على إقامَةِ الصَّلاةِ كما فرَضَها عَليهم.

ومَنْ أصلحَ نَفسَهُ وعَمِلَ عمَلاً حسَنًا، فإنَّ نَفعَهُ وثَوابَهُ يَعودُ عَليه، وإلى اللهِ المرجِعُ والحِساب، فيُجازي كُلاًّ بما عَمِل، وبما يَستَحِقُّ مِنْ نَعيمٍ أو عَذاب.

{وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ} (فاطر : ١٩)

١٩- وكما لا يَستَوي الأعمَى والبَصير، كذلكَ لا يَستَوي الكافِرُ والمؤمِن، والجاهِلُ والعالِم.

{وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ} (فاطر : ٢٠)

٢٠- وكما لا تَستَوي الظُّلُماتُ والنُّور، كذلكَ لا يَستَوي الكُفرُ والإيمان، والباطِلُ والحقّ.

{وَلَا الظِلّ وَلَا الْحَرُورُ} (فاطر : ٢١)

٢١- وكما لا يَستَوي الظِّلُّ والحَرّ، كذلكَ لا يَستوي الثَّوابُ والعِقاب، والجَنَّةُ والنَّار.

---

(١١٨) إذا كانَ المقصـــودُ يومَ القيامةِ فلا إشـــكالَ في الآية، وهو ما ذهبَ إليه ابنُ كثير وغيره.. قال: "وإنْ تَدْعُ نفسٌ مثقلَةٌ بأوزارها إلى أن تُســاعَدَ على حملِ ما عليها من الأوزار، أو بعضــه، {لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَـيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ} أي: وإن كان قريباً إليها، حتى ولو كان أباها أو ابنها، كلٌّ مشغولٌ بنفسهِ وحاله".

ووجَّهَهُ العلّامةُ الشـــوكاني بأوضــحَ منه، فقال: المعنى لا تحملُ نفسٌ حملَ نفسٍ أخرى، أي: إثمها، بل كلُّ نفسٍ تحملُ وزرها. ولا تخالِفُ هذه الآيةَ قوله: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ} [ســـورة العنكبوت: ١٣]؛ لأنهم إنما حمَلوا أثقالَ إضلالهم مع أثقالِ ضلالهم، والكلُّ من أوزارهم، لا من أوزارِ غيرهم، ومثلُ هذا حديث: "مَن سنَّ سنَّةً سيِّئة، فعليه وزرُها، ووزرُ مَن عملَ بها إلى يومِ القيامة"، فإن الذي سنَّ السنَّةَ السيئةَ إنما حملَ وزرَ سنَّتهِ السيِّئة".

{وَمَا يَسْـتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْـمِعُ مَن يَشَـاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْـمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ} (فاطر : ٢٢)

٢٢- ولا يَستوي الأحيَاءُ والأموَات، كما لا يَستَوي المؤمِنونَ الذينَ فتَحوا قُلوبَهُمْ للدِّينِ الحقّ، والكافِرونَ الذينَ استَكبَروا وأصَرُّوا على الكُفر، واللهُ يُسمِعُ مَنْ يَشاء، ممَّنْ يتَّعِظُ ويَستَجيب. ولا تَستَطيعُ أنْ تَهديَ المشرِكينَ الذينَ صَمُّوا آذانَهُمْ عنِ السَّماع، وقُلوبَهُمْ عنِ الوَعي والتفَقُّه، فهمْ كالأموَات، الذينَ تَدْعُوهمْ فلا يُجيبُون.

{إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ} (فاطر : ٢٣)

٢٣- ما أنتَ إلاّ نَبِيٌّ مُنذِر، فما عَليكَ إلاّ أنْ تُبَلِّغ، واللهُ هوَ المطَّلِعُ على القُلوب، فيَهدي مَنْ يَستَحِقُّ الهِدايَة، ويُضِلُّ المستَكبِرَ المعانِد.

{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ} (فاطر : ٢٤)

٢٤- إنَّا أرسَلناكَ بالدِّينِ الحقّ، تُبَشِّرُ المؤمِنينَ المطيعينَ بالمثوبَةِ الحُسنَى، وتُنذِرُ الكافِرينَ العاصِينَ بالعُقوبَةِ والنَّار. وما مِنْ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ السَّابقَةِ إلاّ وأرسَلنا فيهمْ رَسولاً يُنذِرُهم.

{وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ} (فاطر : ٢٥)

٢٥- وإذا كذَّبكَ المشرِكون، فقدْ كذَّبَ مُشرِكونَ أمثالُهُمْ ممَّنْ مضَوا، فقدْ جاءَتْهُمْ رسُلُهمْ بالمعجِزاتِ البيِّنَةِ والأدِلَّةِ القاطِعَة، وبالصُحُفِ والكتبِ المنزَلَةِ عَليهمْ مِنَ الله، المضيئةِ في أخبارِها الصَّادِقَةِ وأحكامِها العادِلَة،

{ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} (فاطر : ٢٦)

٢٦- فكذَّبوهم، وكفَروا برسَالاتِ رَبِّهم، فعاقَبتُهمْ بما يَستَحِقُّونَ مِنَ الهَلاكِ والدَّمار، فكيفَ رأيتَ إنكاري عَليهمْ وعُقوبَتي البَليغَةَ فيهم؟

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ} (فاطر : ٢٧)

٢٧- ألَمْ تَنظُرْ كيفَ أنزَلَ اللهُ المطرَ مِنَ السَّحاب، فأخرَجَ بِهِ أصنَافًا مِنَ الثَّمَراتِ المختَلِفَةِ الألوَان، معَ أنَّها مِنْ تُربَةٍ واحِدَة، وتُسقَى بماءٍ واحِد؟ ومِنَ الجِبالِ طُرُقٌ وخُطَطٌ، بِيضٌ وحُمْر، وهيَ مُختَلِفَةُ الألوانِ كذلك، وجِبالٌ سَوداءُ داكِنَةُ اللَّون؟

{وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} (فاطر : ٢٨)

٢٨- وكذلكَ ما خلقَ اللهُ مِنَ النَّاسِ، والدوابِّ، والأنعَام[١١٩]، فألوانُها مُختَلِفَة، على الرَّغمِ مِنْ أنَّ كُلاًّ منها يَعودُ إلى أصلٍ واحِد؟ إنَّما يَخشَى اللهَ حقَّ الخَشيَةِ العُلَماءُ العارِفونَ به، الذينَ يُديمُونَ التفكُّرَ في خَلقِهِ وبَديعِ صُنعِه، ويَعلَمونَ أنَّهُ قادِرٌ على كُلِّ شَيء وأنَّهُ سُبحانَهُ لم يَخلُقْهمْ عبَثًا.

يَقولُ ابنُ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه: "ليسَ العِلمُ عنْ كَثرَةِ الحَديث، ولكنَّ العِلمَ عنْ كَثرَةِ الخَشيَة". يَعني أنَّ العالِمَ الحقيقيَّ هوَ الذي يَخافُ اللهَ ويَتَّقيه، فمَنْ لم يَكنْ كذلكَ فإنَّ عِلمَهُ غَيرُ مَقبولٍ عندَه.

واللهُ عَزيزٌ في مُلكِه، كامِلُ القُدرَة، لا يُقهَر، كثيرُ المغفِرَةِ لذنوبِ التَّائبينَ مِنْ عِبادِه.

{إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ} (فاطر : ٢٩)

---

(١١٩) {وَالدَّوَابِّ}: جمعُ دابَّة، وهي ما يدبُّ على الأرضِ من الحيوان، وغلبَ على ما يُركَبُ من الخيلِ والبغالِ والحمير، ويقعُ على المذكر. {وَالْأَنْعَامِ}: جمعُ نَعَم، محرَّكة، وقد يُسكَنُ عينه: الإبلُ والبقرُ والضأنُ والمعز، دونَ غيرها، فالخيلُ والبغالُ والحميرُ خارجةٌ عن الأنعام. (روح البيان).

٢٩- إنَّ الذينَ يُداوِمونَ على قِراءَةِ كتابِ اللهِ الكَريمِ، وحافَظوا على إقامَةِ الصَّـــلاةِ في وقتِها، وبأركانِها وشُـــروطِها، وأنفَقوا ممَّا رزَقناهُمْ في الطَّاعاتِ والقُرُباتِ في الســـرِّ والعَلانيَةِ، فأولئكَ يَرجُونَ ثَوابًا مِنْ عندِ اللهِ على تِجارَتِهِمُ الطيِّبَةِ المبارَكة، التي لا تَكسُدُ ولا تَفسُد.

{لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ} (فاطر : ٣٠)

٣٠- ليُوَفِّيَهمُ اللهُ ثَوابَ ما قَدَّموهُ مِنْ أعمَالٍ صالِحَة[١٢٠]، ويَضاعِفَ في حسَناتِهِمْ مِنْ رحمَتِهِ وكرَمِه، واللهُ غَفورٌ لِما فرَطَ مِنْ ذُنوبِ المؤمِنينَ المطيعِين، شَكورٌ لطاعاتِهِمْ ولو كانتْ يَسـيرَة، ويُجازيهمْ عَليها أحسَنَ الجزاء.

{وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَـــدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ} (فاطر : ٣١)

٣١- والذي أوحَينا إليكَ مِنَ القُرآنِ أيُّها الرسُـــولُ هوَ الحقُّ الذي لا شَـــكَّ فيه، المصَـــدِّقُ للكتُبِ السَّـــماويَّةِ السَّـــابقَة، واللهُ خَبيرٌ بأحوالِ عِبادِه، بَصـــيرٌ بظَواهرِهِمْ وبَواطِنِهم، وبما يَستَحِقُّونَهُ مِنْ جَزاء.

{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْـطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِـهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِـدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} (فاطر : ٣٢)

٣٢- ثمَّ جعَلنا القُرآنَ الكريمَ يَنتَهي إلى مَنِ اختَرنا مِنْ عِبادِنا، وهمْ أُمَّةُ محمَّدٍ صـــلى الله عليه وسـلم، ومِنْ هذهِ الأمَّةِ مَنْ هوَ مُقَصِّـرٌ في العمَلِ بالقُرآن، وبما أوجبَهُ اللهُ عَليه، فيُضِـرُّ بنَفسِـهِ عندَما يُعرِّضُـــها للعُقوبَة، ومنهمْ وسَـــطٌ في الأمر، فيُطيعُ تارَةً ويُخالِفُ أُخرى، ومنهمْ مَنْ يُحرِزُ الفَضـلَ ويَسـبِقُ إلى الجَنَّة، بإذنِ اللهِ وتَوفيقِه، فيَعمَلُ الواجِباتِ ويَتركُ المحرَّمات، وإذْ خَصَّ اللهُ هذهِ الأُمَّةَ بالقُرآن، فإنَّهُ فَضلٌ عَظيمٌ منهُ عَليهم.

---

(١٢٠) {لِيُوَفِّيَهُمْ}: التوفية: جعلُ الشيءِ وافياً، أي: تامًّا، لا نقيصةَ فيه ولا غبن. (التحرير).

{جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَـــاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُـــهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} (فاطر : ٣٣)

٣٣- ويَومَ القِيامَةِ يَدخُلونَ جنَّاتٍ أُعِدَّتْ لإقامَةٍ دائمَةٍ لا زَوالَ لها، يُزَيَّنونَ فيها بأســاوِرَ مِنْ ذهَب، ويُؤتَونَ لؤلؤًا صَافيًا جَميلاً، ويَلبَسُونَ فيها الحَريرَ النَّاعِم.

{وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ} (فاطر : ٣٤)

٣٤- ويَقولونَ إذا دخَلوا الجنَّةَ: الحَمدُ للهِ الذي أذهبَ عنَّا الأحزَانَ والهُموم، فقدْ كنَّا نَخافُ مِنْ عاقِبَةِ أمرِنا، واللهُ يَغفِرُ ذُنوبَ عِبادِهِ المؤمِنينَ التَّائبين، ويَشكرُ لهمْ طاعَتَهم، ويُجازيهمْ عَليها خَيرَ الجزاء.

{الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} (فاطر: ٣٥)

٣٥- الحَمدُ للهِ الذي أنزَلَنا دارَ الإقامَة، التي لا مَوتَ فيها ولا انتِقالَ عَنها، مِنْ فَضـــلِهِ ونعمَتِه، ولم تَكنْ أعمالُنا تُساوي ذلك، لا يُصيبُنا فيها تعَبٌ ومشَقَّةٌ، ولا إعياءٌ وفُتور.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ} (فاطر : ٣٦)

٣٦- والذينَ كفَروا نَصـــيبُهمْ نارُ جهنَّم، لا يَهلِكونَ فيها ليَســـتَريحوا، ولا يُخَفَّفُ عَنهمْ مِنْ عَذابِها، بلْ يَبْقَونَ فيها هكذا يَحتَرِقونَ ويُعَذَّبون، وهذا جَزاءُ كُلِّ مَنْ عانَدَ واســتَكبَرَ عنْ قَبولِ الحقّ، وكَذَّبَ بِرسالاتِ اللهِ ورسُلِه.

{وَهُمْ يَصْـــطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـــالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ} (فاطر : ٣٧)

٣٧- وهمْ يَصيحونَ فيها ويَصرُخون، ويَجأرونَ إلى رَبِّهِمْ ويَستَغيثونَ قائلين: ربَّنا أخرِجنا مِنَ هذهِ النَّار، وأعِدنا إلى الدُّنيا لنَعملَ الأعمالَ الحسَنة، غَيرَ الذي كُنَّا نَعمَلُهُ سابِقًا مِنَ الشِّرك والمعاصي.

أوَ ما أعطَيناكُمْ عُمُرًا كافيًا، ووَقتًا واسِعًا، وأمهَلناكُمْ في الحيَاةِ الدُّنيا بما فيهِ الكِفايَة؟ ولو كنتُمْ ممَّنْ يتَّعِظونَ ويَنتَفِعونَ بكلامِ اللهِ وإنذارِ رسُلِه، لانتَفَعتُمْ بما بُلِّغْتُمْ بهِ مُدَّةَ عُمُركم، ولكنْ أبَيتُمْ واستَكبَرتُمْ عنِ اتِّباعِ الحقّ، فذوقُوا العَذابَ الذي تستَحِقُّونَه، فما للكافِرينَ مِنْ ناصِرٍ يَدفَعُ عَنهمُ العَذاب.

{إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} (فاطر : ٣٨)

٣٨- واللهُ عالِمٌ بما غابَ عنِ العِبادِ ممَّا في السَّماواتِ والأرْض، لا يَغيبُ عَنهُ شَيءٌ مِنْ ذلك، وهوَ عَليمٌ بما تُخفي صُدورُ النَّاس، وما تَنطَوي عَليهِ ضَمائرُهم، وسيُجازي كُلاًّ بما عَمِل.

{هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً} (فاطر : ٣٩)

٣٩- اللهُ سُبحانَهُ هوَ الذي جعَلكمْ تَخلُفونَ قومًا آخَرينَ في الأرْض، ليَنظُرَ كيفَ تَعمَلونَ فيها، هلْ تُعَمِّرونَها بالحقِّ والتَّوحيد، أو تُفسِدونَ فيها وتَكفُرون؟ فمَنْ كفرَ فعَليهِ وَبالُ كُفرِهِ وجَزاؤه، وكُلَّما ازدَادوا في كُفرِهم، ازدَادوا بذلكَ بُغضًا واحتِقارًا عندَ رَبِّهم، وزادُوا في خَسارَةِ أنفُسِهمْ يومَ القِيامَة.

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً} (فاطر : ٤٠)

٤٠- قُلْ للمُشرِكينَ أيُّها الرسُول: أرَأيتُمْ هذهِ الأصْنامَ التي تَدَّعونَ أنَّها آلِهَة، وتَعبُدونَهَمْ مِنْ دُونِ الله، أَرُوني ولو شَيئًا قَليلاً خلَقُوهُ في الأرْضِ ممَّا يَراهُ النَّاس، حتَّى يَستَحِقُّوا أنْ يُسَمَّوا آلِهَة! أمْ أنَّ لهمْ شَراكَةً معَ اللهِ في خَلقِ السَّماواتِ حتَّى يَستَحِقُّوا ذلك؟ أمْ أنزَلنا عَليهمْ كتابًا نُخبِرُهمْ

فيهِ بأنَّهمْ شُرَكاءُ لنَا فهمْ على حُجَّةٍ ظاهِرَةٍ مِنْ ذلك؟! لا يوجَدُ شَيءٌ مِنْ ذلكَ كُلِّه، إنَّما اتَّبَعَ المشركونَ أهواءَهمُ الزَّائغَة، وأفكارَهمُ المنحَرِفَة، حيثُ غرَّرَ الأسلافُ بالأخلاف، وأضَلَّ الرؤساءُ أتباعَهم، وكانوا جَميعًا في بُطلانٍ وغُرور.

{إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً} (فاطر : ٤١)

٤١- اللهُ سُبحانَهُ هوَ الذي يَحفَظُ السَّماواتِ والأرضَ حتَّى لا تَضطَرِبا ويَنفَرِطَ نِظامُهما فيَضمَحِلاّ، وإذا اختلَّ نِظامُهما وأشرَفَتا على الزَّوال، فلا يَقدِرُ على حِفظِهما وإبقائهمَا سِواه. واللهُ حَليمٌ إذْ لم يُعَجِّلْ عُقوبَةَ الكافِرين، بلْ أمهَلَهمْ وأنظرَهم، وهوَ واسِعُ المغفِرَةِ لمنْ تابَ وأناب، فيغفِرُ الذُّنوبَ ولو كانتْ كبيرَةً وكثيرَة.

{وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً} (فاطر : ٤٢)

٤٢- وقدْ حلفَ المشرِكونَ قَبلَ مَبعَثِ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم، واجتهَدوا في الحَلِفِ باللهِ أبلغَ ما يَكون، أنَّهُ إذا بُعِثَ فيهمْ رَسُولٌ فلنْ يُكَذِّبوهُ ولنْ يُعانِدُوهُ كما فعَلتِ الأُمَمُ السَّابقَةُ معَ رسُلِهم، بلْ سيَكونونَ طائعينَ لهُ ومُناصِرينَ إيَّاه، وبذلكَ يَكونُونَ أهدَى وأطوَعَ مِنْ جَميعِ الأُمَمِ السَّابِقَةِ معَ أنبِيائهم، فلمَّا جاءَهمُ الرسُولُ محمَّدٌ مُؤيَّدًا بمُعجِزَةِ القُرآنِ العَظيمَة، لم يَزِدْهمْ ذلكَ إلاّ بُعدًا عنِ الحقّ وهُروبًا منه!

{اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً} (فاطر : ٤٣)

٤٣- استِكبارًا عنِ اتِّباعِ الحقّ، وإفراطًا منهمْ في العِناد، وإمعانًا في العمَلِ السيِّء، والكَيدِ لرَسُولِ الله، والصدِّ عنْ سَبيلِ الله، ولا يُحيطُ وَبالُ هذا الكَيدِ والعُدوانِ إلاّ بأهلِه، الذينَ خطَّطوا لهُ أو نفَّذوه، فما يَنتَظِرونَ إلاّ عُقوبةَ اللهِ لهمْ كما فَعلَ بالكافِرينَ المكَذِّبينَ مِنْ قَبلِهم، فلنْ تَجِدَ لهذهِ السنَّةِ المتَّبَعَةِ في خَلقِهِ تغَيُّرًا وتبَدُّلاً، ولنْ تَجِدَ لها تَحَوُّلاً وانتِقالاً.

{أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً} (فاطر : ٤٤)

٤٤- أوَلَمْ يُسافِروا ويَمُرُّوا بآثارِ مَنْ قَبلَهمْ مِنَ القُرَى المهلَكَةِ بسبَبِ تَكذيبِهِمْ رسُلَهم؟ وكانوا أكثرَ قوَّةً منهم، وأكثرَ أموَالاً وأولادًا، ولكنَّ ذلكَ لم يُغْنِ عنهمْ شَيئًا أمامَ قوَّةِ اللهِ وإرادَتِهِ في الانتِقام، فلا يَفوتُهُ شَيءٌ ممَّا في السَّماواتِ والأرْض، فكلُّ ما فيهما تحتَ مَشيئَتِهِ وتَصرُّفِه، وهوَ عَليمٌ بما فيهما، قادِرٌ على الانتِقامِ ممَّنْ عَصاه.

{وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً} (فاطر : ٤٥)

٤٥- ولو يُعاقِبُ اللهُ النَّاسَ بما فعَلوا مِنَ السيِّئاتِ والجَرائم، لَما أبقَى أحَدًا على ظَهرِ الأرْض، ولكنَّهُ حَليمٌ رَحيم، يُمهِلُهمْ ويُؤخِّرُهمْ إلى أجَلٍ مُحَدَّد، هوَ قِيامُ السَّاعَة، فإذا جاءَ هذا الوَعدُ الحقُّ حاسَبَهمْ على أعمالِهم، وجازاهُمْ عَليها بما يَستَحِقُّونَ مِنْ ثَوابٍ أو عِقاب، واللهُ بَصيرٌ بأحوالِ عِبادِهِ وبما عَمِلُوهُ مِنْ خَيرٍ وشَرّ، خَفيًّا كانَ أو مُعلَنًا.

سورة يس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{يس} (يس : ١)

١- حُروفٌ مُقَطَّعَةٌ لم يَرِدْ في تَفسيرِها حَديثٌ صَحيح، واختلفَ المفسِّرونَ في دَلالَتِها.

{وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ} (يس : ٢)

٢- أُقسِمُ بهذا القُرآنِ الذي أُحكِمَتْ آياتُه، وأُجِلَّ أمرُه، ورُفِعَ شَأنُه.

{إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} (يس : ٣)

٣- إنَّكَ نَبِيٌّ مُرسَل، مَبعُوثٌ مِنْ قِبَلِ رَبِّ العالَمين.

{عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (يس : ٤)

٤- على النَّهجِ السَّويِّ والطَّريقِ القَويم.

{تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ} (يس : ٥)

٥- مُنزَّلٌ مِنْ عندِ اللهِ ذي العِزَّةِ والقوَّة، الرَّحيمِ بعِبادِهِ المؤمنين.

{لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ} (يس : ٦)

٦- لتُنذِرَ بهذا القُرآنِ قومًا لم يُنذَرْ آباؤهمُ الأدْنَون، فهمْ جَميعًا غافِلونَ عنِ الهُدَى والإيمَان، بَعيدونَ عنِ الحقِّ والصَّواب.

{لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} (يس : ٧)

٧- لقدْ وجبَ العَذابُ على أكثَرِهم، بما عَلِمَهُ اللهُ مِنْ أحوالِهِمْ ومَواقِفِهمْ مِنَ الدَّعوَة، فهمْ لا يُؤمِنونَ بها.

{إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ} (يس : ٨)

٨- لقدْ جعَلنا في أعناقِهِمْ أغْلالاً(١٢١)، فأيديهمْ مَشدودَةٌ إليها تحتَ ذُقونِهِم، وقدْ رفَعوا رُؤوسَهمْ قَسْرًا، ونظَرُهمْ إلى الأمام، فلا يقدِرونَ أنْ يلتَفِتوا بأعناقِهِمْ إلى مصدَرِ النُّور، ولا يَستَطيعونَ أنْ يَبسُطوا أيديَهمْ بخَير، ولا يخفِضُونَ رُؤوسَهمْ للحقّ، فلا يُذعِنونَ للإيمَان.

{وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ} (يس : ٩)

٩- وجعَلنا مِنْ أمامِهمْ سدًّا مانِعًا، ومِنْ خَلفِهمْ سدًّا مانِعًا، فجعَلنا على أبصارِهِمْ أغطيَة، فهمْ لا يَقدِرونَ على إبصارِ شَيءٍ مِنَ الهُدَى والنُّور، فنُفوسُهمْ قاتِمَة، وقُلوبُهمْ مُنغَلِقَة، وأسماعُهمْ مَسدودَة، وأعينُهمْ مُغَطَّاة.

{وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} (يس : ١٠)

١٠- والأمرُ عندَهمْ سَواء، إنْ أنذَرتَهمْ بالقُرآنِ ووعظتَهمْ بهِ أمْ لم تُنذِرْهم، فإنَّهمْ غَيرُ مُهيَّئينَ للإيمَان، وغَيرُ مُستَعِدِّينَ لقَبولِ الحقّ. ولما عَلِمَ اللهُ فيهمْ مِنْ ذلك، فقدْ قضَى عَليهمْ بما يَستَحِقُّونَه.

{إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ} (يس : ١١)

١١- إنَّما يَقبَلُ إنذارَكَ ويَنتَفِعُ بهِ الذينَ يتَّبِعونَ القُرآن، ويَخافونَ اللهَ ويتَّقونَهُ وإنْ لم يرَوه، وهمْ يَعلَمونَ أنَّهُ يَراهُمْ ويطَّلِعُ على أعمالِهم، فبَشِّرْ هؤلاءِ بمَغفِرَةٍ لذنُوبِهم، وثَوابٍ كبيرٍ لهم، وأجرٍ حسَنٍ يَنتَظِرُهم.

---

(١٢١) الأغلال: جمعُ غُلّ، بضمِّ الغين، وهو حلقةٌ عريضةٌ من حديد، كالقِلادة، ذاتُ أضلاع... (التحرير).
الغُلُّ ما أحاطَ بالعنقِ، على معنى التثقيفِ والتضييقِ والتعذيبِ والأسر، ومع العنقِ اليدان أو اليدُ الواحدة. هذا معنى التغليل. (ابن عطية).

{إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ} (يس : ١٢)

١٢- سنُحيي الأمواتَ جَميعًا يومَ القِيامَة، ونكتُبُ كُلَّ ما قدَّمُوا مِنْ أعمَال، ممَّا باشَرُوهُ بأنفُسِهم، وما كانوا سبَبًا له، بأنْ كانوا دُعاةَ أمرٍ، فاتَّبعَهُ مَنْ بعدَهم، فنَكتبُ آثارَهمْ عَليهمْ أيضًا، وجَميعُ الأشياءِ مَكتوبٌ ومَحفوظٌ في أُمِّ الكتاب: اللَّوحِ المحفوظ.

{وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ} (يس : ١٣)

١٣- واضرِبْ هذا المثَلَ الذي يَنطَبِقُ على حالِ المشرِكين، فهؤلاءِ أصحابُ قَريَةٍ كانوا مُشرِكينَ مِثلَهم، فجاءَهمُ المرسَلون.

ذكرَ قَتادَةُ مِنْ بينِ المفسِّرينَ القُدامَى وتابعَهُ كثيرٌ مِنَ المتأخِّرين، أنَّ المقصودَ بالمرسَلينَ الثَّلاثَةُ الذينَ أرسلَهمْ عيسَى عليهِ السَّلامُ إلى أهلِ أنطاكيَة، وقدْ نقدَهُ ابنُ كثيرٍ واستَبعدَه، وذكرَ أنَّ الصَّحيحَ أنَّهمْ رُسُلُ الله.

{إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ} (يس : ١٤)

١٤- إذْ أرسَلنا إليهمْ في المرَّةِ الأُولَى اثنَينِ منهم، يَعِظانِهِمْ ويَدعُوانِهِمْ إلى اتِّباعِ الدِّينِ الحقّ، لكنَّهمْ كذَّبوهما، فشدَدْنا أزرَهما برَسُولٍ ثالِث، فقالوا لأهلِ القَريَة: نحنُ مُرسَلونَ إليكم، ونَدعوكُمْ إلى عِبادَةِ اللهِ وحدَه، وأنْ تَترُكوا ما أنتُمْ عَليهِ مِنْ شِرك.

{قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ} (يس: ١٥)

١٥- فرَدُّوهمْ وقالوا لهم: أنتُمْ لستُمْ سِوَى بشَرٍ مثلِنا، فلِمَ أُوحيَ إليكمْ ولم يُوحَ إلينا؟ ما أنزَلَ اللهُ عَليكمْ شَيئًا ممَّا تدَّعون، وأنتُمْ كاذِبونَ فيما تَقولون.

{قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ} (يس : ١٦)

١٦- قالَ لهمُ المرسَـلون: إنَّ اللهَ الذي أرسـلَنا إليكمْ يَعلَمُ أنَّنا صـادِقونَ فيما نَقول، ولو كذَبْنا لخذَلَنا وانتقَمَ منَّا.

{وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ} (يس : ١٧)

١٧- والذي عَلينا هوَ أنْ نُبلِّغَكمْ ما أُرسِلنا بهِ تَبليغًا واضِحًا بيِّنًا على الوَجهِ المطلوب.

{قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} (يس : ١٨)

١٨- قالوا للمُرسَـلين: لقدْ تَشـاءَمنا بكمْ ولم نرَ في مجيئكمْ خَيرًا، وإذا لم تَنتَهوا عنْ دَعوَتِكمْ فسَوفَ نَرميكُمْ بالحِجارَة، أو يُصيبُكمْ منَّا عُقوبَةٌ شَديدَة.

{قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ} (يس : ١٩)

١٩- قالَ لهمُ الرسُـل: إنَّ ما أصـابَكمْ وتَشـاءَمتُمْ بهِ منَّا هوَ بسـبَبِ عَقيدَتِكمُ الفاسِـدَةِ وأعمالِكمُ السيِّئة، فشُؤمُكمْ مَردودٌ عَليكم، فإذا وعَظناكمْ ودعَوناكمْ إلى الحقّ، جابَهتُمونا بهذا الكلامِ واتَّهمتُمونا بما لم نَفعَلْه، بلْ أنتُمْ عُصاةٌ مُشرِكون، قدْ تجاوَزتُمُ الحدَّ في العِصيان.

{وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} (يس : ٢٠)

٢٠- وجاءَ رَجُلٌ مِنْ طرَفِ المدينَةِ يُسرِعُ في مَشيهِ حِرصًا على إيصَالِ نُصحِهِ إلى قَومِه، وقدْ همُّوا بإيذاءِ الرسُلِ الذينَ أُرسِلَ إليهم، فقالَ لهم: يا قَوم، اتَّبِعوا هؤلاءِ المرسَلينَ الذينَ يَدْعونَكمْ إلى الحقّ،

{اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ} (يس : ٢١)

٢١- اتَّبِعوا هؤلاءِ الصَّـادِقينَ العَفيفينَ الذينَ لا يَطلُبونَ مالاً مِنْ ورَاءِ تَبليغِ رِسـالَتِهم، وهمْ مُهتَدونَ إلى الحقّ، ثابِتونَ عَليه،

{وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (يس : ٢٢)

٢٢- ولماذا لا أعبدُ الإلهَ الذي خلقَني، وما الذي يَمنَعُني مِنْ ذلكَ ومِنْ إخلاصِ العِبادَةِ لهُ وَحدَه، وإليهِ تُرجَعونَ يَومَ البَعث، ليُحاسِبَكمْ على أعمالِكمْ ويُجازيَكُمْ عَليها؟

{أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ} (يس : ٢٣)

٢٣- وهلْ يُعقَلُ أنْ أجعلَ معَ اللهِ أصْنامًا أعبدُها، فإذا أرادَ اللهُ أنْ يُصيبَني بمُصيبَة، مِنْ فَقرٍ ومرَضٍ وبَلاء، لا تُفيدُني شَفاعَتُهمْ شيئًا، ولا يَستَطيعونَ أنْ يُنقِذوني مِنْ ضُرٍّ أصابَني؟

{إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ} (يس : ٢٤)

٢٤- إنَّني إنْ فعَلتُ ذلكَ فأنا زائغٌ وعلى انحِرافٍ بَيِّنٍ لا يَخفَى.

{إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ} (يس : ٢٥)

٢٥- لقدْ آمَنتُ برَبِّكمُ الذي خلَقَكمْ ورزَقَكم، فاسمَعوا قَولي وتفكَّروا فيهِ واقبَلُوه، فهوَ خَيرٌ لكم.

{قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ} (يس : ٢٦)

٢٦- فمات، أو قُتِل، فوَجبَتْ لهُ الجنَّة، فلمَّا رأى الثَّوابَ على الإيمانِ والصَّبرِ على الطَّاعَةِ قال: يا لَيتَ قَومي يَعلَمونَ،

{بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ} (يس : ٢٧)

٢٧- بالذي وهبَ لي رَبِّي، فغفَرَ لي ذَنبي ورَحِمَني، وأكرَمَني مِنْ فَضلِهِ بجنَّاتِ النَّعيم.

سورة يس (٢٨-٨٣)
سورة الصَّافات
سورة ص
سورة الزمر (١-٣١)

{وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ} (يس : ٢٨)

٢٨- وما أنزَلنا على قَومِ ذلكَ الرَّجُلِ الصَّـــالِحِ المقتولِ ملائكةً لإهلاكِهم، وما كنَّا مُنزِليهم، فقدْ قدَّرنا عَليهمْ عُقوبةً أُخرَى.

{إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ} (يس : ٢٩)

٢٩- فما هيَ إلاّ صَيحَةٌ واحِدَةٌ حتَّى كانوا خامِدينَ هامِدينَ لا حَراكَ بهم.

{يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون} (يس : ٣٠)

٣٠- يا حَسـرَةَ العِبادِ المكذِّبين، ويا خَيبتَهمْ ونَدامتَهمْ على أنفُسِـهمْ على ما ضَـيَّعوا مِنْ أمرِ الله، فما كانَ يأتِيهمْ رَسولٌ مِنْ عندِ اللهِ إلاّ ويَجحَدونَ ما أُرسِلَ به، ويَسخَرونَ منه.

{أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ} (يس : ٣١)

٣١- ألَمْ يُخبَرِ المشـركونَ ويُشاهِدوا آثارَ مَنْ أهلَكنا مَنْ قبلَهمْ مِنَ المكذِّبين؟ ولنْ يَرجِعوا إليهمْ ليُخبِروهمْ بما حلَّ بهمْ مِنَ العَذاب، أو لنْ يَرجِعوا إلى الدُّنيا ليَعيشوا مرَّةً أُخرَى.

{وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ} (يس : ٣٢)

٣٢- وإنَّهمْ جَميعًا، الأُمَمَ الماضـيَةَ والآتيَة، مُحضَـرونَ جَميعًا إلينا يومَ القِيامَة؛ لمحاسـبَتِهمْ على أعمالِهم.

{وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ} (يس : ٣٣)

٣٣- وهذهِ دَلالَةٌ مُشـــاهَدَةٌ واضِـــحَةٌ أمامَهم، تَدُلُّ على وجودِ الله، وقُدرَتِهِ على البَعثِ والإحيَاء، وهيَ الأرْضُ القاحِلَةُ الجَرداءُ التي لا نبَاتَ فيها، أحيَيناها بالمطَر، فأنبتَتِ الثِّمارَ والزُّروع، ليتغذَّى النَّاسُ مِنْ ثِمارِها وحُبوبِها، ويُطعِموها أنعامَهم.

{وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ} (يس : ٣٤)

٣٤- وجعَلنا فيها بَساتينَ مِنْ أشجَارِ النَّخيلِ والأعنَابِ ذاتِ الثِّمارِ الشهيَّةِ والمفيدَة، وجعَلنا فيها الأنهارَ واليَنابيعَ العَذبَة،

{لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ} (يس : ٣٥)

٣٥- ليَأكُلوا مِنْ ثمَراتِ ما ذُكِر، ممَّا لذَّ وطاب، وما عَمِلَتْهُ أيديهمْ بحَولِ اللهِ وقوَّتِه، مِنْ غَرسٍ وسَقي، أو ما يَعصِرونَ منها ويُجَفِّفونَه، أفلا يَشكرونَ للهِ نِعمَتَهُ عَليهم، علَى هذا وغَيرِه؟

{سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} (يس : ٣٦)

٣٦- تنَزَّهَ اللهُ عنِ الشَّريكِ والنَّظير، وتقدَّسَ عنْ كُلِّ نَقصٍ وعَيب، الذي خلقَ الأزواجَ كُلَّها، الذَّكَرَ والأُنثَى، وأنواعَها وأصنافَها، ممَّا تُنبِتُ الأرضُ مِنْ زَرعٍ وثمَر، ومِنَ الإنسانِ نَفسِه، وممَّا لم يَصِلْ إليهِ عِلمُهم. {وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [سورة الذاريات: ٤٩].

{وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ} (يس : ٣٧)

٣٧- ودَليلٌ آخَرُ على قُدرَةِ اللهِ سُـبحانَه، هوَ هذا اللَّيل، الذي نَنزِعُ منهُ النَّهارَ فيُقبِلُ اللَّيل، فإذا هُمْ قدْ فَقَدوا الضِّياءَ ودخَلوا في الظَّلام.

{وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} (يس : ٣٨)

٣٨- والشَّـــمسُ نَجمٌ عَظيمٌ مُلتَهِب، تَدورُ حَولَ نَفسِـــها وتَجري في اتِّجاهٍ واحِد، وتَنتَهي في جرَيانِها إلى مُستقَرِّها الأخِير، الذي لا يَعلَمُ مَوعِدَهُ إلاّ الله. وهذا مِنْ تَقديرِ اللهِ العَزيزِ الذي لا يَصعُبُ عَليهِ شَيء، العَليمِ الذي لا يَغيبُ عنهُ شَيءٌ ممَّا بثَّهُ في الكَون.

{وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ} (يس : ٣٩)

٣٩- والقمَرُ أقرَبُ جِرْمٍ سَماويٍّ إلى الأرْض، قدَّرنا أنْ يَسيرَ سَيرًا آخَر، في مُحيطٍ خاصٍّ به - ليُستدَلَّ بهِ على مُضيِّ الشُّهور -، ويأخذُ في التَّناقُصِ شَيئًا فشَيئًا بعدَ أنْ كانَ مُستَديرًا، ليَعودَ هِلالاً مُقوَّسًا، كعِذْقِ النَّخلَةِ اليابسِ المنحَني.

{لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} (يس: ٤٠)

٤٠- وكُلُّ شَيءٍ في هذا الكَونِ يَسيرُ بنظامٍ وميزانٍ ودِقَّةٍ مُتناهيَة، فلا تَصطَدِمُ الشَّمسُ في سَيرِها بالقمَر، فإنَّ لكُلٍّ منهما مجرًى مُحدَّدًا لا يتَجاوَزُهُ في سَيرِه، ولا يَسبِقُ اللَّيلُ النَّهارَ فيَأتي قَبلَ أوانِه، فإنَّ لكُلٍّ منهما وَقتًا مُحدَّدًا، وبدايَةً ونِهايَة. وكُلُّ المجرَّاتِ والنُّجومِ والكواكِبِ تَدورُ حَولَ نَفسِها في حرَكةٍ محوَريَّة، وتَدورُ في مَداراتِها حرَكةً انتِقاليَّة... والكَونُ كُلُّهُ يتحرَّكُ بإذنِ اللهِ وتَدبيرِه.

{وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} (يس : ٤١)

٤١- ودَليلٌ آخَرُ على القُدرَةِ الربَّانيَّة، أنَّا سخَّرنا البَحرَ لتَجريَ عليها السُّفُن، فتَحمِلُ ذُرِّيَّةَ بَني آدمَ، وتُملأُ بالأمتِعَةِ ولا تَغرَق.

{وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} (يس : ٤٢)

٤٢- وخلَقنا لهمْ في البَرِّ ما يَحمِلونَ عليهِ ويَركَبونَه، مِثلَما يَركَبونَ السُّفُنَ في البَحر، كالإبِلِ والبِغالِ وغَيرِها.

(وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ) (يس : ٤٣)

٤٣- وإذا أرَدنا أنْ نُغرِقَهُمْ في البَحرِ وهمْ في سـفُنِهم، فلا يَقدِرُ أحَدٌ على أنْ يُغيثَهم، ولا أنْ يُنقِذَهمْ مِنَ الغرَق،

{إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ} (يس : ٤٤)

٤٤- إلاّ إذا كانَ إنقاذُهمْ برَحمَةٍ مِنْ عندِنا، ليَبقوا في الحيَاةِ إلى المدَّةِ التي حدَّدناها لهم.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} (يس : ٤٥)

٤٥- وإذا قيلَ للمُشرِكين، وقدْ أعرَضوا عنِ الآياتِ الكونيَّة: احفَظوا أنفُسَكمْ في الحياةِ الدُّنيا مِنَ الذُّنوبِ والمعاصِي، ولا تُعَرِّضـوها للعُقوبَةِ والنَّارِ في اليَومِ الآخِر، ليَرحَمَكمُ اللهُ ويؤمِّنَكمْ مِنْ عَذابِه.

{وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ} (يس : ٤٦)

٤٦- ولكنَّهمْ مُعرِضـــون، فما تأتيهمْ مُعجِزاتٌ وأدِلَّةٌ ناطِقَةٌ بالحقِّ وصِـــدقِ الرسُـــول، إلاّ استَنكَفوا عَنها، ولم يأبَهوا بها.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَـاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} (يس : ٤٧)

٤٧- وإذا قيـلَ لهم: أعطُوا الفُقَراءَ والمحتـاجينَ ممَّـا رزقَكمُ اللهُ مِنْ أموَال، قـالَ الكـافِرونَ للمؤمِنينَ في مُخاصَـمَةٍ وجَهَالَة: أنُطعِمُ هؤلاءِ الفقَراءِ الذينَ لو شَـاءَ اللهُ لأطعَمَهمْ وأغناهُم؟ ما أنتُمْ إلاّ على خطأٍ بَيِّنٍ في طلَبِكمْ هذا منَّا، فنَحنُ نُوافِقُ مَشـــيئةَ اللهِ في عدَمِ إعطاءِ المالِ لهم، وأنتُمْ تُطالِبونَ مُخالفَةَ مَشيئَتِه!

وجَهِلوا سُنَّةَ اللهِ في ذلك، والحِكمَةَ مِنَ الفَقرِ والغِنَى، ومِنَ الإنفاق.

{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (يس : ٤٨)

٤٨- ويَقولُ المشـركونَ وقدِ اسـتبعَدوا أمرَ البَعثِ والنُّشـور: ومتَى يَكونُ يَومُ القيامَةِ إنْ كنتُمْ صادِقينَ في زَعمِكمْ بأنَّهُ آتٍ؟

{مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ} (يس : ٤٩)

٤٩- إنَّهمْ لا يَنتَظِرونَ إلاّ صَـيحَةً واحِدَة، مُفزِعَةً هائلَة، وهيَ النَّفخَةُ الأُولى في الصُّـوْر، تأخذُهمْ وهمْ يتَخاصَمونَ في مُعاملاتِهمْ وتِجاراتِهم، دونَ أنْ يَخطُرَ ببالِهمْ شَيءٌ ممَّا فاجَأهُم.

{فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ} (يس : ٥٠)

٥٠- فلا يَتمَكَّنونَ مِنْ أنْ يُوصُوا بشَيءٍ مِنْ أُمورِهم، ولا أنْ يَرجِعوا إلى أهليهم، بلْ تَفجَؤهُمُ الصَّيحَة، فيَموتونَ حيثُ كانوا.

{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ} (يس : ٥١)

٥١- ونُفِخَ في الصُّوْر - النَّفخَةُ الثَّانيَةُ - فإذا همْ يَخرُجونَ مِنَ القُبورِ إلى رَبِّهِمْ مُسرِعين.

{قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ} (يس : ٥٢)

٥٢- قالوا مُتعَجِّبين، وقدْ كانوا مِنَ الكافِرينَ بالمعاد: يا هلاكَنا! مَنِ الذي بعَثَنا مِنْ قُبورِنا ومَراقِدِنا؟!

إنَّ هذا ما وعدَ اللهُ به، وصدَقَ أنبياؤهُ المرسَلونَ فيما قالوا، وما أنذَروا بِهِ الكافِرين.

{إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ} (يس : ٥٣)

٥٣- ما هيَ إلاّ صَـيحَةٌ واحِدَةٌ عَظيمَة - هيَ النَّفخَةُ الأخيرَةُ في الصُّـوْرِ - حتَّى كانوا جَميعًا مُحضَرينَ للحِسابِ والجَزاء.

{فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (يس : ٥٤)

٥٤- في هذا اليَومِ المعهود، لا تُظلَمُ نَفسٌ مِنَ النُّفوس، بَرَّةً كانتْ أو فاجِرَة، ولا تُجزَونَ - أيُّها النَّاسُ - إلاَّ ما كنتُمْ تعمَلونَ في الدُّنيا، إنْ خَيرًا فخَيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ.

{إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ} (يس : ٥٥)

٥٥- إنَّ أصحابَ الجَنَّةِ يَومَ القِيامَةِ في فرَحٍ ونَعيم، ومعَ حُورٍ عِين، قدْ شغَلَهمْ ذلكَ عنْ كُلِّ شَيء.

{هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِؤُونَ} (يس : ٥٦)

٥٦- وازدَادوا فرَحًا وسُرورًا أنَّهمْ معَ أزوَاجِهمْ في ظِلالٍ وارِفَة، على الأسِرَّةِ مُتَّكِئونَ مُتنَعِّمون.

{لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ} (يس : ٥٧)

٥٧- لهمْ في الجنَّةِ ما لَذَّ وطابَ مِنْ أنواعِ الفاكِهَة، وكُلِّ ما يَشتَهونَهُ ويَطلُبونَهُ لأنفُسِهم.

{سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ} (يس : ٥٨)

٥٨- ويُحَيِّيهمُ اللهُ تَحيَّةً مُبارَكةً مِنْ عندِهِ ويَقولُ لهم: سَـــلام. وفيهِ مِنْ أمانِ اللهِ والاطمِئنانِ والرِّضا ما فيه.

{وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ} (يس : ٥٩)

٥٩- أمَّا أنتُمْ أيُّها الكافِرونَ المجرِمون، فتَميَّزوا عنِ المؤمِنين، وانفَرِدوا عنهم؛ لتَلقَوا مَصيرَكمْ في النَّار.

{أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} (يس : ٦٠)

٦٠- ألَمْ آمُرْكُمْ يا بَنِي آدمَ ألاّ تُطيعُوا الشَّيطانَ فيما يُزَيِّنُهُ لكمْ مِنَ المعاصِي، وأنَّهُ ظاهِرُ العَداوَةِ لكم؟

{وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ} (يس : ٦١)

٦١- وعَهِدْتُ إليكمْ أنْ تَعبُدوني وتُوَحِّدوني ولا تُشـــرِكوا بي شَـــيئًا، وهذا هوَ الطَّريقُ الحقُّ والنَّهجُ القَويم.

{وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ} (يس : ٦٢)

٦٢- ولقدْ أضلَّ الشَّيطانُ خَلقًا كثيرًا منكمْ فأهلَكَهمُ الله، أمَا تتفكَّرونَ وتتَّعِظونَ بهم؟

{هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} (يس : ٦٣)

٦٣- هذهِ جهنَّمُ التي كنتُمْ تُحذَرونَ منها وتُوعَدونَ بها في الدُّنيا أيُّها الكافِرون.

{اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ} (يس : ٦٤)

٦٤- ادخلُوها أَذِلَّةً مُهانين، وذُوقوا حرَّها وعذَابَها؛ بسبَبِ إصرارِكمْ على الكُفرِ والتَّكذيبِ في الحيَاةِ الدُّنيا.

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (يس: ٦٥)

٦٥- في هذا اليَومِ المخوفِ الذي نُحاسِـــبُهمْ فيهِ على أعمالِهم، يُنكِرُ الكافِرونَ والمنافِقونَ أنَّهمُ اقترَفوا آثامًا وكذَّبوا رسُـــلاً، ويَحلِفونَ على ذلك، فنَختِمُ على أفواهِهمْ فلا يَســـتَطيعونَ الكَلام، وتُكَلِّمُنا أيديهمْ بما فعلَت، وتَشهَدُ أرجُلُهمْ بما كسبَت.

{وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ} (يس : ٦٦)

٦٦- ولو أرَدنا لأعمَينا أبصارَهم، فإذا ابتدَروا إلى سُلوكِ الطَّريقِ فكيفَ يُبصِرون؟

{وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلَا يَرْجِعُونَ} (يس : ٦٧)

٦٧- ولو أرَدنا لمسَخناهُمْ وحوَّلنا أشكالَهُمْ إلى حيَواناتٍ أو حِجارَةٍ وهمْ قُعودٌ في مَكانِهم، فلا يَستَطيعونَ ذَهابًا ولا إيابًا.

{وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ} (يس : ٦٨)

٦٨- ومَنْ نُطِلْ عُمُرَهُ نُضْعِفْ جِسمَهُ وقوَّتَه، ونردُّها إلى نُقصانٍ بعدَ زيادَتِها، فيَتناقَصُ حتَّى يَصيرَ بدلَ القوَّةِ ضَعفًا، وبدلَ الشَّبابِ هَرَمًا! أفلا يَتفكَّرونَ في ذلكَ ليَعلَموا أنَّ الإلهَ القادرَ على تَنكيسِهمْ وتَصريفِ أحوالِهِمْ قادرٌ على مَسخِهِمْ وإعمائهِمْ وبَعثِهِمْ بعدَ الموت؟

{وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ} (يس : ٦٩)

٦٩- وما علَّمْنا النبيَّ محمَّدًا صلى الله عليه وسلم الشِّعرَ، فلا يُحسِنُ نَظمَهُ ولا قَولَه، ولا يَصلُحُ له، فهوَ ليسَ مِنْ طَبعِهِ ولا وُظيفَتِهِ التي هيَّأها اللهُ فيه، فكيفَ تدَّعُونَ أنَّهُ شاعِرٌ يا كفَّارَ مكَّة؟! وما هذا القُرآنُ الموحَى إليهِ إلاّ مَوعِظَةٌ وتَذكِرَة، وقُرآنٌ واضِحٌ بيِّنٌ لمنْ تأمَّلَهُ وتدبَّرَه، لا يَلتَبِسُ بهِ الشِّعرُ ألبتَّة، فيهِ العِظَةُ والقِصَّة، والحُكمُ والخبَر، والثَّوابُ والعِقاب، وهوَ أمرٌ ونَهيٌ وبَيانٌ مِنْ رَبِّ العالَمين.

{لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ} (يس : ٧٠)

٧٠- ليُنذِرَ هذا القُرآنُ كُلَّ حَيٍّ عاقِلٍ على وَجهِ الأرْض، ولا يَنتَفِعُ بهِ إلاّ مَنْ كانَ قَلبُهُ حيًّا، مُنفَتِحًا على الحقّ، مُستَعِدًّا لقَبولِه، وليَكونَ حُجَّةً على الكافِرين، فقدْ صُرِّفَ لهمُ القَولُ فيه، وحُذِّروا، ورُدَّ على شُبُهاتِهم، فلا يَلوموا إلاّ أنفُسَهمْ إذا عُوقِبوا لعدَمِ إيمانِهِمْ به.

{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ} (يس : ٧١)

٧١- ألَا يَنظُرُ هؤلاءِ ويَتفكَّرونَ كيفَ خلَقنا لهمْ أنعامًا ممَّا عَمِلَتْ أيدينا، دونَ الاستِعانَةِ بأحَدٍ مِنَ الخَلق، فإذا همْ يَملِكونَها ليَنتَفِعوا بها؟

{وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ} (يس : ٧٢)

٧٢- وسخَّرناها لهم، فلا تَمتَنِعُ منهم، فمنها ما يَركَبونَ عليها أو يَحمِلونَ عَليها ويَتوجَّهونَ بها أينما أرادُوا، ومنها ما يأكُلونَ لَحمَها.

{وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ} (يس : ٧٣)

٧٣- ولهمْ في هذهِ الأنعامِ مَنافِعُ أُخرَى غَيرُ الأكلِ والرُّكوب، فيَستَفيدونَ مِنْ أصوَافِها وأوبارِها وأشعارِها وجُلودِها، ويَشرَبونَ مِنْ ألبانِها، أو يَصنَعونَ منها السَّمْنَ والجُبْنَ والأَقِطَ وغَيرَها. أفَلا يَشكرونَ اللّهَ على هذهِ النِّعَم، ويَعلَمونَ أنَّهُ وَحدَهُ خالِقُهمْ ورازِقُهم، فهوَ وَحدَهُ الذي يُعبَد؟

{وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ} (يس : ٧٤)

٧٤- ولكنَّهمْ بَدلَ ذلكَ اتَّخَذوا أصْنامًا آلِهَة، رَجاءَ أنْ تَنصُرَهمْ وتَشفَعَ لهم، وتُقَرِّبَهمْ إلى الله!

{لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ} (يس : ٧٥)

٧٥- ولكنَّ هذهِ الأصْنامَ لا تَقدِرُ على الانتِصارِ لنَفسِها ولا لمنْ يَعبُدونَها، فهيَ أحجارٌ صَمَّاءُ لا تتَحرَّكُ ولا تَتكلَّم، فليسَ بإمكانِها أنْ تضُرَّ أو تَنفَع، ومعَ ذلكَ فهمْ جُنودٌ مُخلِصونَ لهذهِ الأصْنام، تَراهمْ حاضِرينَ للذَّبِّ عنها، جاهِزينَ للدِّفاعِ عَنها!

{فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} (يس : ٧٦)

٧٦- فلا تَهتَمَّ بقولِهم، ولا تَتحسَّرْ على تَكذيبِهمْ لكَ واتِّهامِهمْ بأنَّكَ ساحِرٌ أو شاعِر، فهمْ جُهَلاءُ لا يَفقَهون. نحنُ نَعلَمُ ما يُسِرُّونَ في أنفُسِهمْ مِنَ العقَائدِ الباطِلَة، وما يُظهِرونَ مِنَ الشِّركِ والتَّكذيبِ والأذَى، وسنُحاسِبُهمْ على كُلِّ ذلك، ونَجزيهمْ عَليها بما يَستَحِقُّونَ مِنْ عَذاب.

{أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ} (يس : ٧٧)

٧٧- ألَا يَتفَكَّرُ الإنسَانُ في نَفسِهِ ليَعلمَ أنَّا خلَقناهُ مِنْ نُطفَةٍ صَغيرَةٍ حَقيرَة، فإذا هوَ يُخاصِمُ ويُجادِلُ بالباطِل، ويَجهَرُ بذلكَ مُعجَبًا بنَفسِهِ وبما يَقول؟!

{وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ} (يس : ٧٨)

٧٨- وضَرَبَ هذا الكافِرُ بالبَعثِ مثَلاً لنا، ونَسِيَ بَدْءَ خَلقِنا له، فجاءَ إلى الرسُولِ صلى الله عليه وسلم وفي يَدِهِ عَظْمٌ قَديم، ففَتَّتَهُ أمامَهُ وقالَ له: أتَزعُمُ أنَّ اللهَ يَبعَثُ هذا بَعدَما أَرِم؟ فقالَ لهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "نعَم، يَبْعَثُ اللهُ تعالَى هذا، ويُميتُك، ثمَّ يُحييك، ثمَّ يُدخِلُكَ نارَ جهنَّم". رواهُ الحاكمُ وصحَّحه.

{قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} (يس : ٧٩)

٧٩- قُلْ لهمْ أيُّها الرسُول: سيُحيي العِظامَ الذي أَوجدَها أوَّلَ مرَّةٍ وهيَ لا شَيء، وهوَ العَليمُ بجَميعِ المخلوقات، وأجزائها وعِظامِها المتَفتِّتةِ والمتفَرِّقَةِ في أنحَاءِ الأرْض.

{الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ} (يس : ٨٠)

٨٠- هوَ القادِرُ العَظيم، الذي هيَّأ لكمْ أنْ تَستَخرِجوا النَّارَ مِنَ الشجَرِ الأخضَر، فيُؤخَذُ عُودانِ مِنْ شجَرَينِ مُعَيَّنَين (المرْخِ والعَفَار)، ويُقدَحُ أحَدُهما بالآخَر، فتَتوَلَّدُ النَّارُ منهما، وهما رَطْبانِ يَقطُرُ الماءُ منهما!

ويَقولُ عُلماءُ الطَّبيعَة: إنَّ البِترولَ يَنتُجُ مِنْ نباتاتٍ مُتَحلِّلَة، والشجَرُ هوَ المصدَرُ الوَحيدُ للخشَب، والفَحمُ الحجَريُّ والنَّباتيُّ أصلُهما أخشَاب، والنَّباتيُّ منهُ إذا تَعرَّضَ إلى حَرارَةٍ عاليَةٍ تحوَّلَ إلى غازٍ طَبيعيّ، والنَّباتاتُ تَتحوَّلُ إلى قِشّ... وكُلُّ ذلكَ يُعتَبَرُ مَصادِرَ للوَقُود.

{أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} (يس : ٨١)

٨١- أوَليسَ الذي خلقَ هذهِ السَّماواتِ السَّبعَ العَظيمَة، والأرضَ وما فيها مِنْ أناسيَّ ودَوابّ، وأشجَارٍ وأنهار، وجِبالٍ وقِفار، أليسَ بقادِرٍ على أنْ يَخلُقَ بشَرًا مثلَهم، فيُعيدَ خَلقَهمْ يَومَ البَعثِ كما بَدأ خَلقَهمْ أوَّلَ مرَّة؟ بلَى، هوَ القادِرُ على خَلقِ ما يَشاء، خَلقًا بعدَ خَلق، العَليمُ بكُلِّ ما خَلَق.

{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (يس : ٨٢)

٨٢- ويَخلقُ اللهُ ما يَشـاءُ دونَ أنْ يَقِفَ أمامَهُ عائق، فإذا قالَ للشَّـيءِ كُن، يَكونُ كما أراد، دونَ أنْ يَتأخَّر.

{فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (يس : ٨٣)

٨٣- فتعالَى اللهُ وتنَزَّهَ عنْ كُلِّ شَـريكٍ ونَظير، وتَقدَّسَـتْ ذاتُهُ مِنْ كُلِّ نَقصٍ وعَيب، الذي بيدِهِ مُلكُ كُلِّ شَـيءٍ وخَلْقُهُ وتَدبيرُه، وإليهِ تُرجَعونَ يَومَ القيامَةِ ليُجازيَكمْ على أعمالِكمْ بما تَستَحِقُّون.

سورة الصَّافات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَالصَّافَّاتِ صَفّاً} (الصافات : ١)

١- أُقسِمُ بالمِلائكَةِ المصطفَّةِ باستقامَةٍ في جَماعات، المتراصَّةِ في صُفوفِها[١٢٢].

{فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً} (الصافات : ٢)

٢- والمِلائكَةِ التي تَزجُرُ السَّحابَ وتَسوقُهُ إلى حَيثُ يأمرُ الله.

{فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً} (الصافات : ٣)

٣- فالمِلائكَةِ التالياتِ ذِكرَ الله، مِنْ تَسبيحٍ وتَحميدٍ وتَمجيدٍ وتَهليل..

{إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ} (الصافات : ٤)

٤- إنَّ إلهكمْ - أيُّها النَّاسُ - إلهٌ واحِدٌ لا شَريكَ له.

{رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ} (الصافات : ٥)

٥- رَبُّ السَّماواتِ السَّبعِ العَظيمَة، والأرْضِ وما فيها، وما بينَهما مِنَ المخلوقات، ورَبُّ مَطالِعِ الشَّمس، خَلقًا، ومُلكًا، وتصَرُّفًا فيها.

{إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ} (الصافات : ٦)

٦- إنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ القَريبَةَ مِنَ الأرْضِ بالكَواكبِ المنِيرَة، في أضوائها وتلألُؤها وحُسنِ مَنظَرِها.

---

(١٢٢) الصافّات: جمعُ صافَّة، بمعنى جماعة، فالصافَّاتُ بمعنَى الجماعاتِ الصافّات... (روح البيان).

وتأنيثُ هذه الصفاتِ باعتبارِ إجرائها على معنى الطائفةِ والجماعة، ليدلَّ على أن المرادَ أصنافٌ من الملائكةِ لا آحادٌ منهم. و {الصَّافَّاتِ}: جمعُ صافَّة، وهي الطائفةُ المصطفُّ بعضُها مع بعض.. (التحرير).

{وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ} (الصافات : ٧)

٧- وحَفِظنا بها السَّماءَ مِنْ كُلِّ شَيطانٍ مُتمَرِّدٍ عاتٍ.

{لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ} (الصافات : ٨)

٨- لئلاّ يَصعَدوا في السَّماءِ ويَستَمِعوا إلى الملائكَةِ بما يُوحي اللهُ إليهم، أو بما يَتكَلَّمونَ في أمرِ العِباد، فيُرمَونَ بالشُّهبِ مِنْ كُلِّ أنحاءِ السَّماء.

{دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ} (الصافات : ٩)

٩- ليُطرَدوا ويُبعَدوا مِنْ مَجالسِ الملائكَة، ولهمْ في الآخِرَةِ عَذابٌ دَائم.

{إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} (الصافات : ١٠)

١٠- إلاّ مَنِ اختلَسَ مِنْ كلامِ الملائكَةِ مُسارَقَة، فلَحِقَهُ شِهابٌ قَويٌّ مُتوَقِّد، يُحرِقُهُ أو يُخَبِّلُه، وقدْ يُلقي الكَلِمَةَ التي سَمِعَها إلى الذي تَحتَه، ثمَّ إلى الآخَرِ حتَّى يَصِلَ إلى الكاهِن، ورُبَّما أدركَهُ الشِّهابُ قَبلَ أنْ يُلقيَها.

{فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ} (الصافات : ١١)

١١- فاسألِ المشرِكينَ أيُّها الرسُول: أهمْ أقوَى خِلقَةً وأصعَبُ إيجادًا، أمْ مَنْ خَلَقنا، مِنَ الملائكة، والسَّماوات، والأرْض، وما بينَهما، والمشارِقِ والكواكب، والشَّياطين؟ فكيفَ يَستَبعِدونَ إيجادَ شَيءٍ مِنْ قِبَلِ الله، كبَعثِهمْ بعدَ الموت؟ ولقدْ خلَقنا أصلَ الإنسانِ مِنْ طِينٍ لَزِقٍ ثابِت، وهوَ سُبحانَهُ قادِرٌ على خَلقِهمْ ولو تحوَّلوا إلى عِظامٍ وتُراب.

{بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ} (الصافات : ١٢)

١٢- بلْ عَجِبْتَ أيُّها النبيُّ مِنْ تَكذيبِهمْ إيَّاك، وإنكارِهمْ البَعث، وأنتَ مُصَدِّقٌ، عَميقُ الإيمانِ بذلك، وهمْ يَسخَرونَ ممَّا تَقولُ لهم، ويَستَهزِئونَ بالأدلَّةِ التي تَذكرُها لهم.

{وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ} (الصافات : ١٣)

١٣- وإذا وُعِظوا وذُكِّروا لا يتَّعِظون، ولا يأبَهونَ بما تَقول.

{وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ} (الصافات : ١٤)

١٤- وإذا رَأوا مُعجِزَةً وبُرهانًا على صِدقِ ما تَقول، سَخِروا واستَهزَؤوا.

{وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ} (الصافات : ١٥)

١٥- وقالوا في كُفرٍ وعِناد: ما هذهِ المعجِزاتُ والآياتُ إلاّ سِحرٌ بَيِّنٌ ساعدَكَ فيهِ الجِنّ!

{أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ} (الصافات : ١٦)

١٦- وقالوا مُنكِرينَ ومُكذِّبين: أإذا تحَوَّلتْ أجسادُنا إلى تُراب، وكُنَّا عِظامًا يابِسَةً باليَة، أنُبعَثُ بعدَ هذا كُلِّه؟

{أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ} (الصافات : ١٧)

١٧- وآباؤنا الأوَّلونَ كذلك، الذينَ لا أثرَ لهم، أيُبعَثونَ أيضًا؟

{قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ} (الصافات : ١٨)

١٨- قُلْ لهم: نعَم، ستُبعَثونَ يَومَ القِيامَةِ أنتُمْ وآباؤكم، وأنتُم صاغِرونَ أذِلَّةٌ في قَبضَةِ القُدرَةِ الإلهيَّة.

{فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ} (الصافات : ١٩)

١٩- فإنَّما هيَ نَفخَةٌ وَاحِدَةٌ في الصُّوْر، فإذا همْ قيامٌ مِنْ قُبورِهم، يَنظُرونَ إلى الأهوَالِ التي تُحيطُ بهم.

{وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ} (الصافات : ٢٠)

٢٠- وقالوا وهمْ نادِمونَ مُتحَسِّرون: يا هَلاكَنا، هذا يَومُ الحِسابِ والجَزاء.

{هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} (الصافات : ٢١)

٢١- ويُقالُ لهم: هذا يَومُ القَضاء، ويَومُ الفَصلِ بينَ المحسِنِ والمسيء، الذي كنتُمْ تُنكِرونَه.

{احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ} (الصافات : ٢٢)

٢٢- ويَقولُ اللهُ للمَلائكة: اجمَعوا الكافِرينَ وأمثالَهم، ممَّنْ كانَ على شاكِلَتِهم، وما كانوا يَعبُدونَه،

{مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ} (الصافات : ٢٣)

٢٣- ما كانوا يَعبُدونَهُ في الدُّنيا مِنْ دونِ الله، ليَزدادوا خَيبَةً ونَدامَة، ثمَّ قدِّموهمْ ودُلُّوهمْ إلى طَريقِ النَّار، ليَعرِفوا مَصيرَهم.

{وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ} (الصافات : ٢٤)

٢٤- واحبِسوهمْ في الموقِف، أو عندَ الصِّراط، ليُسألوا عنْ عَقائدِهِمْ وجَميعِ أقوالِهِمْ وأفعالِهِم.

{مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ} (الصافات : ٢٥)

٢٥- ثمَّ يُقالُ لهمْ على سَبيلِ التَّقريعِ والتَّوبيخ: ما لكمْ أيُّها الكافِرونَ لا يَنصرُ بَعضُكمْ بَعضًا كما كنتُمْ في الحيَاةِ الدُّنيا؟ أو أنتُمْ وآلِهتُكمُ التي زعَمتُمْ أنَّها ستَشفَعُ لكمْ وتُناصِرُكم؟

{بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ} (الصافات : ٢٦)

٢٦- بلْ همُ اليَومَ مُنقادُونَ لأمرِ الله، خاضِعونَ له، مَخذُولون.

{وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ} (الصافات : ٢٧)

٢٧- ثمَّ أقبَلَ الرُّؤساءُ والأتْباعُ الضَّالُّونَ بَعضُهمْ على بَعض، يتَخاصَمونَ ويتَجادَلونَ في عرَصاتِ القِيامَة.

{قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ} (الصافات : ٢٨)

٢٨- فقالَ الأتباعُ للَّذينَ أضَلُّوهم: إنَّكمْ كنتُمْ تُزَيِّنونَ لنا الشرَّ والباطِلَ في صُورَةِ الخَير، وتُلَبِّسونَ عَلينا الحقَّ وتُبعِدوننا عَنه.

{قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} (الصافات : ٢٩)

٢٩- فقالوا لهم: بلْ لم تَكونُوا على الحقِّ أيُّها الأتْباعُ حتَّى نُضِلَّكم، وكانتْ قلوبُكمْ قابلةً للكُفرِ والعِصَيان، فأنتُمُ الذينَ أضلَلتُمْ أنفُسَكم.

{وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ} (الصافات : ٣٠)

٣٠- وما كانَ لنا عَليكمْ قَهْرٌ وسُلطانٌ حتَّى نُجبِرَكمْ على أفكارِنا، بلْ كنتُمْ قَومًا عاصِين، مُتَجاوزينَ الحقَّ إلى الباطِل.

{فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ} (الصافات : ٣١)

٣١- فثبَتَ عَلينا أمرُ اللهِ ووَعيدُه، وعدَلَ فينا قَضاؤه، إنَّا لذائقو العَذابِ لا مَحالَة.

{فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ} (الصافات : ٣٢)

٣٢- فقدْ دعَوناكُمْ إلى الضَّلالِ الذي نحنُ فيه، فاستَجبتُمْ له، وأصبَحتُمْ ضالِّينَ مثلَنا.

{فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ} (الصافات : ٣٣)

٣٣- فهمْ جَميعًا مُشتَرِكونَ في العَذاب، المضِلُّ والمضَلّ، الرُّؤساءُ والأتْباع، كما كانوا مُشتَرِكينَ في الضَّلالِ في الدُّنيا.

{إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ} (الصافات : ٣٤)

٣٤- وبمثلِ هذا العِقابِ نُعاقِبُ الذينَ جعَلوا للهِ شُرَكاء.

{إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ} (الصافات : ٣٥)

٣٥- إنَّهُمْ كانوا إذا دُعُوا إلى التَّوحيدِ في الحيَاةِ الدُّنيا، استَكبَروا عنْ قَبولِ الحقّ، وأبَوا أنْ يَقولوا لا إلهَ إلاّ اللهُ كما يَقولُ المؤمِنون.

{وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ} (الصافات : ٣٦)

٣٦- ويَقولُ المشرِكونَ في جَهل: أنَترُكُ عِبادةَ أصنامِنا لقَولِ شاعِرٍ مجنون؟ يَعنونَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم.

{بَلْ جَاء بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ} (الصافات : ٣٧)

٣٧- يَقولُ اللهُ تعالَى: بلْ جاءَ الرسُولُ محمَّدٌ (صلَّى الله عليهِ وسلَّم) بالدِّينِ الحقّ، والتَّوحيدِ الصَّحيح، والأحكامِ العادِلَة، وصدَّقَ المرسَلينَ السَّابقينَ فيما جاؤوا بهِ مِنَ التَّوحيدِ والكتُبِ المنزَلَةِ عَليهم.

{إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ} (الصافات : ٣٨)

٣٨- إنَّكمْ أيُّها المشرِكونَ المكذِّبونَ لصالُو النَّار، وذائقو العَذابِ المؤلِمِ الشَّديد.

{وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (الصافات : ٣٩)

٣٩- وأنتُمْ لا تُعاقَبونَ إلاّ على الشِّرك، والآثامِ التي اقترَفتُموها.

{إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} (الصافات : ٤٠)

٤٠- إلاّ عِبادَ اللهِ الموَحِّدين، الصَّادِقينَ في إيمَانِهم، المخلِصينَ في أعمَالِهم، فإنَّهُمْ لا يُعَذَّبون، بلْ يُتَجاوَزُ عنْ سيِّئاتِهِمْ ويُرحَمون.

{أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ} (الصافات : ٤١)

٤١- أولئكَ لهمْ رِزقٌ طيِّبٌ شَـــهيٌّ في الجنَّة، مَعروفُ الخصـــائص، مِنْ لذَّةِ الطَّعم، وطِيبِ الرَّائحة، وحُسنِ المنظَر.

{فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ} (الصافات : ٤٢)

٤٢- فَواكِهُ مُتَنوِّعَة، وهمْ مُكْرَمونَ مَخدومُون، مُرفَّهونَ مُنعَّمون.

{فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} (الصافات : ٤٣)

٤٣- في جنَّاتٍ عاليَةٍ واسِعَة، فيها الراحَةُ والنَّعيم.

{عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ} (الصافات : ٤٤)

٤٤- وهمْ إخوَةٌ مُتَحابُّون، على الأسِرَّةِ مُتقابِلون، يَستأنِسونَ ويَتحادَثون.

{يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ} (الصافات : ٤٥)

٤٥- يَطوفُ عَليهمْ خَدَمُ الجنَّةِ في مَجالِ أُنسِـــهمْ بكأسٍ منْ الخَمرِ، ظاهرٍ صـــافٍ، مِنْ أنهارِ الجنَّة.

{بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ} (الصافات : ٤٦)

٤٦- وهيَ بَيضاءُ، أشَدُّ بياضًا مِنَ اللَّبَن، يَلتَذُّ بطَعمِها الشَّارِبُ ويَهنأ.

{لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ} (الصافات : ٤٧)

٤٧- لا تُسَبِّبُ صُداعًا في الرَّأس، ولا وجَعًا في البَطن، ولا تَذهَبُ عُقولُهُمْ بها.

{وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ} (الصافات : ٤٨)

٤٨- وعندَهمُ الحُورُ العَفيفَات، فلا يَنظُرْنَ إلى غَيرِ أزواجِهنّ، واسِعاتُ العُيونِ حِسانُهنّ.

{كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ} (الصافات : ٤٩)

٤٩- كأنَّهنَّ بَيضٌ مَحصُونٌ في عِشِّه، لم تَمسَسْهُ الأيدي، ولم يُصِبْهُ الغُبار.

{فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ} (الصافات : ٥٠)

٥٠- فأقبَلَ أهلُ الجنَّةِ بَعضُهمْ على بَعض، يَتساءَلونَ عنْ أحوالِهم، وعمَّا كانوا عَليهِ في الدُّنيا، وهمْ على الأسِرَّةِ مُتَّكِؤون.

{قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ} (الصافات : ٥١)

٥١- قالَ واحِدٌ منهم: لقدْ كانَ لي صاحِبٌ في الدُّنيا،

{يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ} (الصافات : ٥٢)

٥٢- يَقولُ لي على جِهَةِ الإنكار: أأنتَ مِنَ المصَدِّقِينَ بالحياةِ بعدَ الموت؟

{أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ} (الصافات : ٥٣)

٥٣- أإذا مِتنا وكُنَّا تُرابًا وعِظامًا باليَة، أإنَّا لمبعُوثونَ ومُحاسَبونَ على أعمالِنا ومَجزيُّونَ بها.

{قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ} (الصافات : ٥٤)

٥٤- قالَ لأصحابِهِ مِنْ أهلِ الجنَّة: هلْ أنتُمْ مُشرِفونَ على النَّارِ وناظِرونَ إلى أهلِها لأُريَكمْ ذلكَ الصَّاحِب؟

{فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ} (الصافات : ٥٥)

٥٥- فاطَّلَعَ على أهلِ النَّار، فرآهُ في وسَطِ الجَحيم.

{قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ} (الصافات : ٥٦)

٥٦- قالَ لهُ المؤمِن: واللهِ لقدْ كِدْتَ أنْ تُهلِكَني، لو وافَقتُكَ على كَلامِك.

{وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} (الصافات : ٥٧)

٥٧- ولولا فَضلُ اللهِ عَليَّ ورَحمَتُهُ بي، لكنتُ مثلكَ مِنْ أهلِ النَّار.

{أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ} (الصافات : ٥٨)

٥٨- وقالَ المؤمِنُ لأصحابِهِ مِنْ أهلِ الجنَّة: ألَا نَموتُ بعدَ هذا؟

{إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} (الصافات : ٥٩)

٥٩- إلاّ مَوتَتَنا الأُولَى التي كانتْ في الدُّنيا، ولا نُعَذَّبُ كأصحَابِ النَّار؟

{إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (الصافات : ٦٠)

٦٠- إنَّ هذا النَّعيمَ هوَ النَّجاحُ الحقيقيّ، والسَّعادَةُ العُظمَى والدَّائمَة.

{لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ} (الصافات : ٦١)

٦١- لمِثلِ هذا النَّعيمِ المقيم، ولمِثلِ هذهِ المنزِلَةِ والكرَامَةِ فليَعمَلْ أهلُ الدُّنيا.

{أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ} (الصافات : ٦٢)

٦٢- أهذهِ الجنَّةُ ونَعيمُها أفضَل، أمْ شجَرَةُ الزَّقُّومِ الكريهَةُ الطَّعمِ والرَّائحَةِ في الجَحيم؟

{إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ} (الصافات : ٦٣)

٦٣- لقدْ جعَلنا تلكَ الشَّجرَةَ الخَبيثَةَ مِحنَةً وعَذابًا للكافِرين.

{إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ} (الصافات : ٦٤)

٦٤- إنَّها شجَرةٌ تَنبُتُ في قَعرِ جهنَّم.

{طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ} (الصافات : ٦٥)

٦٥- ثِمارُها قَبيحَةٌ بَشِعَة، كأنَّها رُؤوسُ الشَّياطين.

{فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ} (الصافات : ٦٦)

٦٦- وإنَّ أهلَ النَّارِ ليُكرَهونَ على تَناولِها، فهمْ يَتزَقَّمونَها على كُرْهٍ ومَشَقَّة، ويَملَؤونَ منها بُطونَهم.

{ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِّنْ حَمِيمٍ} (الصافات : ٦٧)

٦٧- ثمَّ إنَّهمْ يَشرَبونَ عَليها شَرابًا مَمزوجًا بماءٍ حارٍّ شَديدِ الحرارَة.

{ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ} (الصافات : ٦٨)

٦٨- ثمَّ يُعادُ بهِمْ - بعدَ شُربِ الحَميمِ - إلى مقَرِّهِمْ مِنَ النَّارِ الموقَدَة. وفي جهنَّمَ مَواضِعُ للعَذاب، يُرَحَّلونَ إليها ثمَّ يُعادُ بهِمْ إلى مَكانِهِم.

{إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ} (الصافات : ٦٩)

٦٩- لقدْ وَجدَ هؤلاءِ الكافِرونَ آباءَهمْ ضالِّينَ ناكِبينَ عنِ الحقّ،

{فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ} (الصافات : ٧٠)

٧٠- فسَارَعوا إلى مُتابَعَتِهم، مِنْ غَيرِ تَفَكُّرٍ منهمْ بما هُمْ عَليهِ مِنْ حَقٍّ أو باطِل، بلْ قلَّدوهمْ وصَاروا مثلَهم.

{وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ} (الصافات : ٧١)

٧١- وقدْ ضَلَّ قبلَ هؤلاءِ المشرِكينَ أكثَرُ الأُمَمِ السَّابِقَة.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ} (الصافات : ٧٢)

٧٢- ولقدْ أرسَلنا في تلكَ الأُمَمِ رسُلاً مُنذِرين، يُحَذِّرونَهُمْ بأسَ اللهِ ونِقمَتَه، إنْ هم خالَفوا أمرَه، وأصَرُّوا على الكُفرِ والتَّكذيب.

{فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ} (الصافات : ٧٣)

٧٣- فانظُرْ كيفَ كانتْ نِهايَةُ مَنْ أُنذِروا ولم يَعتَبِروا، فقدْ أهلكَهمُ اللهُ وجعلَهمْ عِبرَةً للآخِرين؛ لإصرارِهمْ على الكُفرِ والعِصيان.

{إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} (الصافات : ٧٤)

٧٤- إلاّ عِبادَ اللهِ المؤمنين، الذينَ صدَقوا في إيمانِهمْ وأخلَصوا في أعمالِهمْ لرَبِّهم، فإنَّهمْ لا يُعذَّبون، بلْ يُكرَمونَ ويُؤجَرون.

{وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ} (الصافات : ٧٥)

٧٥- ولقدْ دَعانا نُوحٌ لما كذَّبَهُ قَومُه، وأَيِسَ مِنْ إيمانِهم، فدَعا عَليهم، فأجَبنا دُعاءَه، فنِعمَ المجيبونَ لهُ نَحن.

{وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ} (الصافات : ٧٦)

٧٦- فأهلَكناهُم، وأنقَذنا نُوحًا وأهلَهُ المؤمنينَ مِنَ الغَمِّ الشَّديدِ الذي لازمَهم.

{وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ} (الصافات : ٧٧)

٧٧- ولم يَبقَ مِنَ الكافِرينَ وذُرِّيَّتِهمْ أحَد، وجعَلنا ذُرِّيَّةَ نُوحٍ همُ البَاقين، فهوَ الأبُ الثَّاني للبشَر.

{وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ} (الصافات : ٧٨)

٧٨- وأبقَينَا لهُ الذِّكرَ الطيِّب، والثَّناءَ الحسَن، فيمَنْ بعدَهُ مِنَ الأنبِياءِ والأُمَم.

{سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ} (الصافات : ٧٩)

٧٩- سَلامٌ مِنَ اللهِ على نَبيِّهِ نُوح، وسَلامٌ عَليهِ مِنْ جَميعِ الطَّوائفِ والأُمَم[١٢٣].

{إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} (الصافات : ٨٠)

٨٠- وهكذا نُثيبُ مَنْ أحسَنَ، فصبَرَ على الدَّعوَة، وجاهدَ أعداءَ اللهِ دَهرًا.

{إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} (الصافات : ٨١)

٨١- إنَّهُ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنْ عِبادِنا الموَحِّدين، المخلِصينَ في طاعَتِهِمْ ودَعوَتِهِمْ إلى الله.

{ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ} (الصافات : ٨٢)

٨٢- ثمَّ أغرَقْنا قَومَهُ الكافِرينَ أجمَعين، ولم نُبقِ منهمْ أحَدًا.

{وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ} (الصافات : ٨٣)

٨٣- وإنَّ مِنْ أهلِ نُوحٍ في أصُولِ دِينِهِ وسُنَّتِهِ إبراهيمُ عَليهِ السَّلام.

{إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} (الصافات : ٨٤)

٨٤- فقدْ جاءَ رَبَّهُ بقَلبٍ نَقيٍّ خالٍ مِنَ الشَّكِّ والشِّرك.

---

(١٢٣) {سَلَامٌ} أي: هذا الكلامُ بعينه. وهو واردٌ على الحكاية،كقولك: قرأتُ (سورةٌ أنزلناها)، فلم ينتصبِ (السلام)؛ لأن الحكايةَ لا تُزالُ عن وجهها. والمعنى: يسلِّمون عليه تسليمًا، ويَدعون له على الدوام، أمةٌ بعد أمة. (روح البيان).

إنشاءُ ثناءِ الله على نوح، وتحيةٌ له، ومعناهُ لازِمُ التحية، وهو الرضى والتقريب، وهو نعمةٌ سادسة. وتنوينُ {سَلَامٌ} للتعظيم. (التحرير).

مفسِّرٌ لما أبقَى عليه الذكرُ الجميلُ والثناءُ الحسن، أنه يسلَّمُ عليه في جميعِ الطوائفِ والأمم. (ابن كثير).

{إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ} (الصافات : ٨٥)

٨٥- وقالَ لأبيهِ وقَومِهِ مُنكِرًا عَليهِمْ فِعلَهم: ما هذا الذي تَعبُدونَه؟

{أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ} (الصافات : ٨٦)

٨٦- أتُريدونَ أنْ تَجعَلوا معَ اللهِ آلهَةً أُخرَى كذِبًا وباطِلاً؟ وهلِ الحِجارَةُ تَفقَهُ شَيئًا أو تَتصَرَّفُ في شَيءٍ حتَّى يَكونَ لها شُبهَةُ أُلوهيَّةٍ عندَكم؟

{فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} (الصافات : ٨٧)

٨٧- فما تَقولونَ في عِبادَةِ رَبِّ الكَونِ كُلِّه، أليسَ هوَ الجَديرَ بالعِبادَةِ حقًّا؟

{فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ} (الصافات : ٨٨)

٨٨- فنظَرَ إلى النُّجومِ مُلتَهيًا عَنهم، وقدْ أرادُوا الخُروجَ إلى عِيدٍ لهم،

{فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ} (الصافات : ٨٩)

٨٩- فقالَ لهم: إنَّني مَريض - يَعني سَقيمَ القَلبِ لعِبادَتِهمُ الأوثانَ - فلا أخرُجُ إلى احتِفالٍ أو عِيد.

{فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ} (الصافات : ٩٠)

٩٠- فأعرَضوا عَنه، وتَرَكوا القُربَ منه، ومضَوا إلى عيدِهم.

{فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ} (الصافات : ٩١)

٩١- فخرَجَ مِنْ بَعدِهِمْ بسُرعَةٍ مُختَفيًا إلى أصنامِهم، وقدْ وُضِعَ طَعامٌ أمامَهم، فقالَ لهمْ مُستَهزِئًا: ألَا تأكُلونَ الطَّعامَ الذي أمامَكم؟

{مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ} (الصافات : ٩٢)

٩٢- ما لكمْ أيُّها الأصْنامُ لا تُجيبُون؟

{فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ} (الصافات : ٩٣)

٩٣- فمالَ مُستَعليًا عَليهمْ يَضرِبهمْ بيَدِهِ اليُمنَى.

{فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ} (الصافات : ٩٤)

٩٤- فرَجَعوا مِنْ عيدِهمْ ورَأوا أصنامَهمْ مَكسورَة، فدُلُّوا على مَنْ كانَ يَذكرُهمْ بسُوءٍ مِنْ قَبل، وهوَ إبراهيمُ عَليهِ السَّلام، فجاؤوا إليهِ مُسرِعين، يَسألونَهُ عنْ سبَبِ إذلالِ أصنامِهم؟

{قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ} (الصافات : ٩٥)

٩٥- فقالَ لهم: أتَعبُدونَ أحجارًا تَنحِتُونَها بأيديكم،

{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} (الصافات : ٩٦)

٩٦- واللهُ خالِقُكمْ وخالِقُ ما تَعمَلونَ بأيديكمْ مِنَ الأصْنامِ وغَيرِها، أفلا تَتوَجَّهونَ إليهِ إذًا وتَعبُدونَه؟

{قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ} (الصافات : ٩٧)

٩٧- فلمْ يَقدِروا على مُجابَهتِهِ بالحُجَّةِ والدَّليل، فقالوا: ابنُوا لهُ بُنيانًا[١٢٤]، وألْقُوهُ في نارٍ شَديدَةِ الوقُود، لتُحرِقَهُ ونَتخَلَّصَ منه.

{فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ} (الصافات : ٩٨)

---

(١٢٤) ذُكِرَ أنهم بنوا له بنياناً يشبهُ التنُّور، ثم نقَلوا إليه الحطب، وأوقدوا عليه.. (الطبري).

٩٨- فأرادُوا بهِ شَـــرًّا، فجعَلناهمُ الأذَلِّين، ونَجَّينا إبراهيمَ مِنَ النَّار. {قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ} [سورة الأنبياء: ٦٩].

{وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ} (الصافات : ٩٩)

٩٩- وبعدَما أيِسَ مِنْ إيمانِهِمْ قال: سأهجرُ دارَ الكُفرِ، وأذهَبُ إلى مَكانٍ أعبُدُ فيهِ رَبِّي دونَ أنْ يؤذيَني فيهِ أحَد، وهوَ الذي سيُرشِدُني إليه، وإلى ما فيهِ الخَيرُ والصَّلاح.

{رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ} (الصافات : ١٠٠)

١٠٠- اللهمَّ ارزُقني ذُرِّيَّةً صالِحَةً تُعينُني على تَبليغِ رِسالتِك.

{فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} (الصافات : ١٠١)

١٠١- فوَهَبنا لهُ على الكِبَرِ إسماعِيل، وكانَ عاقِلاً حَليمًا، مُطيعًا.

{فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّــعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} (الصافات : ١٠٢)

١٠٢- فلمَّا شَبَّ وقَدَرَ على أنْ يَفعَلَ ما يَفعَلُ والدُه، وصارَ يَرتَحِلُ معَه، قالَ لهُ مرَّة: يا بُنيّ، إنِّي أرَى في المنامِ أنِّي أذبَحُكَ - ورؤيا الأنبياءِ حَقٌّ - فانظُرْ ما تَقول؟

قالَ إسماعِيلُ عَليهِ السَّـلامُ في إيمانٍ وتَسـليم، وطاعَةٍ وصَـبرٍ جَميل: يا أبَتِ، افعَلْ ما يأمرُكَ بهِ رَبُّك، ستَجِدُني إنْ شاءَ اللهُ صابِرًا على قَضائه، مُحتَسِبًا ذلكَ عندَه.

{فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} (الصافات : ١٠٣)

١٠٣- فلمَّا استَسلَما وانقادَا لأمرِ الله، وأكَبَّهُ إبراهيمُ على وَجهِه،

{وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ} (الصافات : ١٠٤)

١٠٤- نادَيناه: يا إبراهيم،

{قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} (الصافات : ١٠٥)

١٠٥- لقدْ أوفَيتَ الرُّؤيا حَقَّها بعَزمِكَ على ذَبحِ ولَدِك، وهكذا نَجزِي عِبادَنا المطِيعين، ونَصرِفُ عَنهمُ الشَّدائدَ والمكارِه.

{إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ} (الصافات : ١٠٦)

١٠٦- إنَّ هذا هوَ الابتِلاءُ والاختِبارُ الصَّعبُ البَيِّن.

{وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ} (الصافات : ١٠٧)

١٠٧- وفدَيناهُ[١٢٥] بحَيوانٍ عَظيمٍ ليُذبَحَ بدلاً. ذُكِرَ أنَّهُ كَبْش.

{وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ} (الصافات : ١٠٨)

١٠٨- وأبقَينا ذِكرَهُ الطيِّبَ بينَ الأنبياءِ والأُمَمِ والطَّوائفِ كُلِّها.

{سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ} (الصافات : ١٠٩)

١٠٩- سَلامٌ مِنَ اللهِ على نَبيِّهِ إبراهيم، وسَلامٌ عَليهِ مِنْ كُلِّ الأنبياءِ والمؤمنين.

{كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} (الصافات : ١١٠)

١١٠- وهكذا نُثيبُ مَنْ كانَ مؤمِنًا باللهِ ومُطيعًا له، فنَرفَعُ ذِكرَه، ونَجزيهِ خَيرَ الجَزاء.

{إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} (الصافات : ١١١)

---

(١٢٥) {وَفَدَيْنَاهُ}: فداءً له، وخلَّصناهُ به من الذبح. (روح البيان). الفِدَى والفداء: إعطاءُ شيءٍ بدلاً عن حقٍّ للمُعطَى، ويطلقُ على الشيءِ المفدَى به، من إطلاقِ المصدرِ على المفعول. وأُسنِدَ الفداءُ إلى الله لأنه الآذِنُ به. (التحرير).

١١١- إنَّهُ مِنْ عِبادِنا الصَّادِقينَ في إيمانِهم، المخلِصينَ في طاعَتِهم.

{وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ} (الصافات : ١١٢)

١١٢- ووَهَبنا لهُ إسحَاقَ بعدَ إسماعِيل، وكانَ نَبيًّا مِنَ الصَّالحينَ المسَدَّدين.

{وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ} (الصافات : ١١٣)

١١٣- وقدْ أفَضْنا على إبراهيمَ وإسحَاقَ رَحمَةً وفَضلاً مِنْ عِندِنا، ونفَعْنا بهما، ومِنْ ذُرِّيَّتِهما مَنْ هوَ مُؤمِنٌ مُطيع، ومنهمْ مَنْ هوَ كافِرٌ ظاهِرُ العِصيان، قدْ ظلمَ نَفسَهُ بذلكَ وعرَّضَها للعَذابِ يَومَ الدِّين.

{وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ} (الصافات : ١١٤)

١١٤- وقدْ أنعَمنا على موسَى وهارونَ بالنبُوَّة.

{وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ} (الصافات : ١١٥)

١١٥- وخلَّصناهُما وقَومَهما بَني إسْرائيلَ مِنَ الغَمِّ الشَّديدِ الذي أصابَهم، مِنْ ظُلمِ فِرعَونَ وقَومِهِ لهم، وقَتلِ أولادِهم، واستِعمالِهِمْ في أدنَى الأعمالِ وأشَقِّها.

{وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ} (الصافات : ١١٦)

١١٦- ونَصَرناهُمْ على عَدوِّهِمْ بعدَ أنْ أغرَقناهُمْ في البَحر، فصَاروا هُمُ الغالِبينَ على أرضِهِمْ وأموالِهِم، والحاكِمينَ في بلَدِهم.

{وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ} (الصافات : ١١٧)

١١٧- وآتَيناهُما الكتابَ العَظيم، البَليغَ البَيِّن، المفَصَّلَ في أحكامِهِ وأخبارِه، وهوَ التَّوراة.

{وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} (الصافات : ١١٨)

١١٨- وأرشَدناهُما إلى الحقِّ والصَّوابِ في الأقوَالِ والأعمَال، مِنَ الشَّرائعِ والأحكَام، والدَّعوَةِ والتَّبليغ.

{وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ} (الصافات : ١١٩)

١١٩- وأبقَينا الثَّناءَ الحسَنَ عَليهما مِنْ بَعدِهما، مِنَ الأنبياءِ والأُمَم.

{سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ} (الصافات : ١٢٠)

١٢٠- سَلامٌ مِنَ اللهِ على موسَى وهارون، وسَلامٌ عَليهما مِنْ جَميعِ الطَّوائفِ والأُمَم.

{إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} (الصافات : ١٢١)

١٢١- وهكذا نُثيبُ مَنْ أحسَن، فصَبَرَ على الدَّعوَة، وجاهدَ أعداءَ الله.

{إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} (الصافات : ١٢٢)

١٢٢- لقدْ كانا مِنْ عِبادِنا الموَحِّدين، المخلِصينَ في طاعَتِهِمْ ودَعوَتِهِمْ إلى الله.

{وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ} (الصافات : ١٢٣)

١٢٣- وإنَّ إلياسَ مِنَ الأنبياءِ المرسَلين.

{إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ} (الصافات : ١٢٤)

١٢٤- إذْ قالَ لقَومِهِ المشركِين: ألَا تَخشَونَ اللهَ وتتَّقونَ عذابَهُ بتَركِ عِبادَةِ غَيرِه؟

{أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ} (الصافات : ١٢٥)

١٢٥- أتَعبُدونَ صنَمًا وتترُكونَ عِبادَةَ اللهِ الخالقِ المبدِع؟

{اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ} (الصافات : ١٢٦)

١٢٦- الذي هوَ رَبُّكمْ ورازِقُكمْ ومُدَبِّرُ أمرِكم، ورَبُّ أجدادِكمُ الأقدَمين.

{فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} (الصافات : ١٢٧)

١٢٧- فكذَّبوا قَولَهُ وكفَروا برِسالَتِه، وإنَّ الملائكةَ ستُحضِرُهمْ إلى العَذابِ يَومَ الحِساب.

{إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} (الصافات : ١٢٨)

١٢٨- إلاّ عِبادَ اللهِ المؤمِنينَ مِنْ قَومِه، الذينَ صدَقوا في إيمانِهم، وأخلَصُوا في طاعَتِهم، فإنَّهُمْ لا يُعَذَّبون، بلْ يُكرَمونَ ويُضاعَفُ لهمُ الثَّواب.

{وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ} (الصافات : ١٢٩)

١٢٩- وأبقَينا لهُ ذِكرًا طَيِّبًا وثَناءً حسَنًا في الأُمَمِ التَّالِيَة.

{سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ} (الصافات : ١٣٠)

١٣٠- سَلامٌ مِنَ اللهِ على نَبيِّهِ إلياس، وسَلامُ عِبادِ اللهِ المؤمِنينَ جَميعًا عَليه.

{إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} (الصافات : ١٣١)

١٣١- وهكذا نَجزي مَنْ أحسَنَ مِنْ عِبادِنا في الدَّعوَةِ والطَّاعَة، وجاهدَ في اللهِ حقَّ الجِهاد، فنَرفَعُ ذِكرَهُ بينَ العِباد، ونُكرِمُهُ يَومَ المعاد.

{إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} (الصافات : ١٣٢)

١٣٢- لقدْ كانَ مِنْ عِبادِنا المؤمِنينَ الثَّابِتينَ على الإيمَان، الصَّابرينَ على الطَّاعَةِ بإخْلاص.

{وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ} (الصافات : ١٣٣)

١٣٣- وإنَّ لُوطًا مِنْ أنبياءِ اللهِ المرسَلين.

{إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ} (الصافات : ١٣٤)

١٣٤- إذْ أنقَذناهُ وأهلَهُ أجمَعينَ مِنْ بينِ القَومِ المجرِمين، الذينَ أصَـــرُّوا على فِعلِ الفاحِشَـــةِ بالرِّجال، وكذَّبوا نَبيَّهمْ لُوطًا،

{إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ} (الصافات : ١٣٥)

١٣٥- إلاّ امرأةَ لُوط، التي كانتْ معَ هوَى قَومِها، فكانتْ معَ الباقِينَ في القَريَة.

{ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ} (الصافات : ١٣٦)

١٣٦- ثمَّ أهلَكنا قَومَهُ المجرِمينَ كُلَّهم.

{وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ} (الصافات : ١٣٧)

١٣٧- وإنَّكمْ لتَمرُّونَ على آثارِهمْ ومَنازلِهمْ وترَونَها صَباحًا في طَريقِ تِجارَتِكمْ إلى الشَّام. وكانوا في مِنطَقَةِ البَحرِ الميِّت، التي كانتْ تُســمَّى بُحَيرَةَ لُوط، وقاعِدَةُ قَومِهِ مَدينَةُ سَــدُوم، ذُكِرَ أنَّها الآنَ غارِقَةٌ تحتَ مياهِ البَحرِ المذكور، وأنَّها تُوجَدُ على عُمُقِ سِتَّةِ أمتارٍ تحتَ سَطحِ المياه.

{وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} (الصافات : ١٣٨)

١٣٨- وكذلكَ ترَونَها في المســاءِ عندَ مُرورِكمْ بها، فلا تَغيبُ عَنكم، أفلا تتَفَكَّرونَ وتتَّعِظون، وتَعتَبِرونَ فتؤمِنون؟

{وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} (الصافات : ١٣٩)

١٣٩- وإنَّ يونُسَ مِنْ أنبياءِ اللهِ المرسَلين. وهوَ ابنُ مَتَّى، وكانَ في نَينَوَى بالعِراق.

{إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} (الصافات : ١٤٠)

١٤٠- إذْ هرَبَ مِنْ قَومِهِ إلى السَّفينَةِ المملوءَةِ بالأمتِعَةِ والنَّاس.

{فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ} (الصافات : ١٤١)

١٤١- فشـــارفَتْ على الغرَقِ لِثِقْلِها، فعُمِلَتِ القُرعَةُ للتَّخَلُّصِ مِنْ أحَدِهِم، فوَقعَتْ عَليه، فكانَ مِنَ المغلوبِين.

{فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ} (الصافات : ١٤٢)

١٤٢- فأُلقِيَ إلى البَحر، فابتلَعَهُ حُوتٌ كَبير. وقدْ أتَى بما يُلامُ على فِعلِه، إذْ ترَكَ قَومَهُ بعدَ أنْ توعَّدَهمْ بالعَذاب، فرفعَهُ اللهُ عَنهم. وكانَ تَركُهُ لهمْ قَبلَ أنْ يأذنَ اللهُ له، وظَنَّ أنَّ رَبَّهُ لنْ يُعاقِبَهُ على ذلك.

{فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ} (الصافات : ١٤٣)

١٤٣- فلو أنَّهُ لم يَكنْ كثيرَ التَّسبيحِ والصَّلاةِ في الرَّخاء، أو لو لم يَقُلْ وهوَ في بَطنِ الحوتِ: {لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} [سورة الأنبياء: ٨٧]،

(لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) (الصافات : ١٤٤)

١٤٤- لَبقيَ في بَطنِهِ إلى يومِ القيامَة، حيًّا فيه، أو قَبرًا له.

(فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ) (الصافات : ١٤٥)

١٤٥- فطرَحناهُ مِنْ فَمِ الحُوتِ في مَكانٍ خالٍ لا شـــجَرَ فيهِ ولا نَبات، وهوَ عارٍ ضَـــعيفُ البدَن.

{وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ} (الصافات : ١٤٦)

١٤٦- وأنبَتْنا عَليهِ شـجَرَةَ القَرْع، ذاتِ الأورَاقِ العَريضَـة، تُظِلُّ عَليهِ وتُظِلُّه، وهوَ ما يُناسِـبُ ضَعْفَ بدَنِه.

{وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ} (الصافات : ١٤٧)

١٤٧- وأرسَلناهُ إلى أُمَّةٍ يَزيدُ عدَدُها على مئةِ ألف.

{فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ} (الصافات : ١٤٨)

١٤٨- فآمنَ بهِ قَومُهُ بعدَ مُعايَنَةِ العَذاب، فجَعَلناهُمْ يَتمَتَّعونَ بالحَياةِ إلى حينِ مَجيءِ آجالِهم.

{فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ} (الصافات : ١٤٩)

١٤٩- فقُلْ للمشـرِكينَ عندَكَ أيُّها الرَّسُـول: أتُحِبُّونَ أنْ تَجعَلوا للهِ البَنات، وهوَ ما تَبغُضـونَهُ لأنفُسِكم، وتَجعَلوا لكمْ ما تَشتَهونَ مِنَ البَنين؟

{أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ} (الصافات : ١٥٠)

١٥٠- أمْ أنَّهُمْ شَـهِدوا خَلقَ الملائكَةِ ورَأَوهمْ إناثًا فقالوا إنَّهُمْ بَناتُ الله؟ تَعالَى اللهُ عمَّا يَقولونَ عُلوًّا عَظيمًا.

{أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ} (الصافات : ١٥١)

١٥١- ألَا إنَّهُمْ مِنْ كَذِبِهِمْ وافتِرائهِمْ على اللهِ يَقولون:

{وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} (الصافات : ١٥٢)

١٥٢- يَقولونَ إنَّ اللهَ ولَدَ ولهُ ذرّيَّة! وإنَّهُمْ كاذِبونَ فيما يَقولون.

{أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ} (الصافات : ١٥٣)

١٥٣- وأيُّ شَـيءٍ يَحمِلُ اللهَ على أنْ يَختارَ البَناتِ دونَ البَنينَ، ممَّا تَقولونَ في حَقِّهِ مِنْ إفْكٍ وكَذِب؟

{مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} (الصافات : ١٥٤)

١٥٤- ما لكمْ أيُّها المشرِكون، ما الذي أصابَ عُقولَكمْ حتَّى تَقولوا ما تَرفضُهُ بَداهَةُ العُقول؟

{أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} (الصافات : ١٥٥)

١٥٥- أفَلا تتدَبَّرونَ وتَتَّعِظون، وتَبتَعِدونَ مِنْ أنفُسِكمْ عنْ هذا الباطِلَ الذي أنتُمْ عَليه؟

{أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ} (الصافات : ١٥٦)

١٥٦- أمْ أنَّ لكمْ حُجَّةً ودَليلاً بَيِّنًا على أنَّ للهِ بَنات؟

{فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (الصافات : ١٥٧)

١٥٧- فَأتُوا بكتابٍ مِنْ عندِ اللهِ فيهِ ذِكرُ المِلائكةِ كما تدَّعون إذا كنتُمْ صَادِقين، فإنَّهُ لا يَعلَمُ خَلقَ المِلائكةِ إلاّ الله.

{وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ} (الصافات : ١٥٨)

١٥٨- وجعلَ المشركونَ بينَ اللهِ وبينَ الجِنِّ قَرابَةً ونَسَبًا، وأشرَكوهمْ في عِبادَةِ الله، وقدْ عَلِمتِ الشَّياطينُ - الذينَ همْ مِنَ الجِنِّ - أنَّهمْ مُحضَرونَ إلى العَذاب، ولو أنَّهمْ كانوا شُركاءَ للهِ لَما عُذِّبُوا.

{سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ} (الصافات : ١٥٩)

١٥٩- فتقَدَّسَ اللهُ وتَنزَّهَ عمَّا يَصِفُهُ بِهِ المشرِكون.

{إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} (الصافات : ١٦٠)

١٦٠- إلاّ عِبادَ اللهِ الذينَ صَدَقُوا في إيمانِهم، وأخلَصوا في طاعَتِهم، فإنَّهمْ ناجُونَ مِنْ عَذابِ النَّار.

{فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ} (الصافات : ١٦١)

١٦١- فأنتُمْ أيُّها المشرِكونَ وآلِهتُكمُ التي ما تَزالُونَ تَعبدونَها،

{مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ} (الصافات : ١٦٢)

١٦٢- ما أنتُمْ بمُضلّينَ مِنْ أحَدٍ بإغوائكم،

{إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ} (الصافات : ١٦٣)

١٦٣- إلاّ مَنْ كانَ مِنْ أهلِ الضَّلالَة، الذينَ يَدخُلونَ النَّارَ لا محَالَة.

{وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ} (الصافات : ١٦٤)

١٦٤- قالَ المِلائكةُ عَليهمُ السَّـــلام: وليسَ هُناكَ منَّا أحَدٌ إلاّ ولهُ مَقامٌ مَعروفٌ في الطَّاعَةِ والعِبادَة.

{وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ} (الصافات : ١٦٥)

١٦٥- ونحنُ الذينَ نَقِفُ صُفوفًا مُستَقيمَةً للعِبادَةِ كما أمرَنا رَبُّنا.

{وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ} (الصافات : ١٦٦)

١٦٦- ونحنُ الذينَ نُقَدِّسُ اللهَ ونُنَزِّهُهُ عمَّا لا يَليقُ بهِ مِنْ عَيبٍ وشِرك.

{وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ} (الصافات : ١٦٧)

١٦٧- وقدْ كانَ الكفَّارُ يَقولونَ قَبلَ مَبعَثِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم:

{لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنْ الْأَوَّلِينَ} (الصافات : ١٦٨)

١٦٨- لو كانَ عِندَنا كِتابٌ مِنَ الكتُبِ التي أُنزِلَتْ على الأُمَمِ السَّالِفَة،

{لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ} (الصافات : ١٦٩)

١٦٩- لأطَعنا اللهَ فيما يأمرُنا، وأخلَصْنا لهُ العِبادَة.

{فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} (الصافات : ١٧٠)

١٧٠- فلمَّا جاءَهمُ الكِتابُ كفَروا به، وكذَّبوا رَسُـــولَ رَبِّهم، فسَـــوفَ يَعلَمونَ عاقِبَةَ كُفرِهم، وكيفَ يَنتَقِمُ اللهُ منهم.

{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ} (الصافات : ١٧١)

١٧١- وقدْ سبقَ وَعدُنا لرسُلِنا وأتباعِهمُ المؤمنين،

{إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ} (الصافات : ١٧٢)

١٧٢- أنَّ اللهَ سيَكتُبُ لهمُ النَّصرَ والفوزَ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخِرَة،

{وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} (الصافات : ١٧٣)

١٧٣- وأنَّ أتباعَهمُ المؤمنينَ سيَغلِبونَ أعداءَهمُ الكافِرينَ بالحُجَّةِ والنُّصرَة.

وصُوَرُ النَّصرِ لا تَقتَصِرُ على النَّاحيَةِ العَسكريَّة، فقدْ يأتي النَّصرُ بالدَّعوَةِ والدَّليل، وقدِ انتَصرَ المسـلِمونَ في مَواقِعَ بدونِ سِـلاح، على أنَّهُ لا بُدَّ مِنَ القوَّةِ والاسـتِعداد، فلا يُوقِفُ العدوَّ في حَدِّهِ إلاّ الجِهاد. وقدْ يُغلَبُ المســلِمونَ بتَقصــيرٍ منهم، أو ابتِلاءٍ ومِحنَةٍ مِنَ اللهِ لهم، والمهمُّ ألاّ يَيأسُوا، وأنْ يَعلَموا أنَّهمْ على الدِّينِ الحقّ، وأنَّهمْ إذا لم يرَوا النصرَ وقُتِلوا فقدْ فازُوا بالشَّهادَة.

{فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ} (الصافات : ١٧٤)

١٧٤- فأعرِضْ عَنهمْ واصبِرْ على أذاهُمْ مُدَّة،

{وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ} (الصافات : ١٧٥)

١٧٥- وأمهِلهم، وانظُرْ مِنْ بَعدُ ما الذي يَحِلُّ بهمْ مِنَ العَذابِ والنَّكال، فسَـــوفَ يُبصِـــرونَ بأنفُسِهمْ ما أنكَروه.

{أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ} (الصافات : ١٧٦)

١٧٦- أيَتعَجَّلونَ العَذابَ ظَنًّا منهمْ أنَّهُ لا يَكون، أو لا يَحيقُ بهم؟

{فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاء صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ} (الصافات : ١٧٧)

١٧٧- فإذا نَزلَ العَذابُ الموعودُ بفِنائهم، فبِئسَ الصَّباحُ صَباحُ الكافِرينَ المكذِّبين[١٢٦].

{وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ} (الصافات : ١٧٨)

١٧٨- فأعرِضْ عَنهم، واصبِرْ عَليهمْ مُدَّة.

{وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ} (الصافات : ١٧٩)

١٧٩- وانظُرْ مِنْ بَعدُ ما الذي يُصيبُهم، وكيفَ يَكونونَ في أسوَأ حَال، وسَوفَ يُبصِرونَ بأنفُسِهمْ ما الذي يَحِلُّ بهمْ مِنَ العَذابِ والهَوان.

{سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ} (الصافات : ١٨٠)

١٨٠- تَقدَّسَ اللهُ وتَنزَّهَ عمَّا يَصِفُهُ بِهِ المشرِكونَ ممَّا لا يَليقُ بذاتِهِ الكريمَة، وهوَ العَزيزُ بنَفسِه، الغالِبُ القاهِر، رَبُّ القوَّةِ والغلَبَة.

{وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ} (الصافات : ١٨١)

١٨١- وسَلامٌ مِنَ اللهِ وأمانٌ منهُ لأنبيائهِ المرسَلين، الفائزينَ بالأجرِ العَظيم.

{وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (الصافات : ١٨٢)

---

(١٢٦) أي: بئسَ صباحُ الذين أُنذِروا بالعذاب، والمخصوصُ بالذمِّ محذوف، أي: صباحُهم. وخُصَّ الصباحُ بالذكرِ لأن العذابَ كان يأتيهم فيه. (فتح القدير).

والصباحُ مستعارٌ من صباحِ الجيشِ المبيّتِ لوقتِ نزولِ العذاب، ولما كثرتْ منهم الإغارةُ في الصباحِ سمَّوها صباحًا، وإن وقعتْ ليلًا. (روح البيان).

١٨٢- والشُّكرُ للهِ وَحدَه، والثَّناءُ عَليهِ كما يَنبَغي لجَلالِ وَجهِهِ وعَظيمِ سُلطانِه، ربِّ الثقلَين، ومالكِ كلِّ شيء.

سورة ص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} (ص : ١)

١- حَرفُ الصَّادِ مِنَ الحروفِ المقَطَّعَة، التي لا يُعرَفُ مَعناها.

أُقسِمُ بالقُرآنِ ذي القَدْرِ العَظيم، المشتَمِلِ على التَّذكِرَةِ والموعِظَة، ممَّا يَحتاجُهُ النَّاسُ في أمرِ مَعاشِهِمْ ومَعادِهم.

{بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} (ص : ٢)

٢- إنَّ الكافِرينَ لم يَنتَفِعوا به، لأنَّهُمْ في استِكبارٍ عنِ الإذعَانِ له، وامتِناعٍ منَ الإيمانِ به، ومُخالَفَةٍ ومُخاصَمَةٍ لرَدِّهِ وإبطالِه.

{كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ} (ص : ٣)

٣- ما أكثرَ مَنْ أهلَكنا مِنْ قَبلِهِمْ مِنَ الأُمَمِ المكذِّبَةِ برسُلِها، المصِرَّةِ على الكُفر، فاستَغاثُوا باللهِ ودعَوهُ مُخلِصينَ حينَ عايَنوا نُزولَ العَذابِ بهم، ولكنَّهُ ليسَ وقتَ فِرارٍ ولا إجابَة.

{وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} (ص : ٤)

٤- وتعَجَّبَ المشرِكونَ لما بُعِثَ فيهمْ رَسُولٌ مِنْ جِنسِهِمْ يُنذِرُهم، وأنكَروا احتِمالَ وقُوعِه، وقالَ الكافِرونَ برسالَةِ رَبِّهِم: هذا الرَّجلُ ساحِرٌ فيما يأتي بهِ مِنَ المعجِزات، كاذِبٌ فيما يُسنِدُهُ إلى رَبِّهِ مِنْ كَلام.

{أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} (ص : ٥)

٥- وقالوا في جَهل: أجعَلَ العِبادَةَ لإلهٍ واحِدٍ دونَ الآلهَةِ الأُخَر؟ إنَّ هذا أمرٌ يَدعو إلى العجَب، إنَّهُ مُخالِفٌ لِمَا ألِفْناه.

{وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ} (ص : ٦)

٦- وانطلق قادَةُ قُرَيشٍ وكُبَراؤها مِنْ مَجلسِ أبي طالبٍ وهمْ يَقولون: اخرُجوا وابقُوا ثابتينَ على عِبادَةِ آلهَتِكم، ولا تَسمَعوا لِما يَدعوكمْ إليهِ محمَّدٌ (صلى الله عليه وسلم)، ولا تَقولوا: لا إله إلاّ الله، وإنَّ هذا الذي يَدعو إليهِ يُريدُ مِنْ وَرائهِ أمْرًا.

{مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ} (ص : ٧)

٧- قالوا: لم نَسمَعْ بهذا الذي يَدعو إليهِ مِنَ التَّوحيدِ ونَبذِ الشِّركِ في آخرِ الأديان - وهوَ النَّصرانيَّة، فإنَّهمْ كانوا على الشِّرْكِ - فما هذا الذي يَذكرهُ محمَّدٌ (صلى الله عليه وسلم) سِوَى تَخرُّصٍ وافتِراء.

{أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ} (ص : ٨)

٨- أوَقدْ أُوحيَ إليهِ القُرآنُ مِنْ بَينِنا ونحنُ الرُّؤَساءُ والأشرَاف؟ بلْ همْ في ارتيابٍ مِنَ القُرآنِ الذي يَدعو إلى التَّوحيد، بلْ لأنَّهمْ لم يَذوقوا عَذابَ الله، ولو أنَّهُ تَعالَى أنزلَ بهمْ نِقمتَهُ لآمَنوا.

{أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ} (ص : ٩)

٩- أهمُ الذينَ يَملِكونَ نِعمةَ اللهِ ويَتصَرَّفونَ فيها ويَختارونَ الأنبياءَ الموحَى إليهمْ مِنْ غَيرِهم، وهوَ اللهُ القاهِرُ على خَلقِه، الذي يَهَبُ مَنْ يَشاءُ ما يَشاءُ مِنْ عندِه؟

{أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ} (ص : ١٠)

١٠- أمْ أنَّ للمُشركِينَ مُلكَ السَّماواتِ السَّبْعِ والأَرَضينَ السَّبْعِ وما فيهما وما بينَهما ليتَصرَّفوا فيها كما يَشاؤون؟ إذًا فليَصعَدوا في طرُقِها ومَعارجِها، ولْيأتوا منها بالوَحي إلى مَنْ يَختارُون.

{جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ} (ص : ١١)

١١- إنَّهمْ جُنودُ الكُفر، الذينَ سيُهزَمونَ ويُغلَبون، كما غُلِبَ الذينَ تحزَّبوا على رسُلِ اللهِ مِنْ قَبل، فلا تَهتمَّ بما يَقولون.

{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ} (ص : ١٢)

١٢- لقدْ كذَّبَتْ قَبلَ هؤلاءِ المشركِينَ أُمَمٌ سابِقَة، كقَومِ نُوح، وقَبيلَةِ عَاد، وفِرعَونَ الذي ثبَّتَ مُلكَهُ بأعمِدَةٍ قَويَّة، وحَماهُ بجُنودٍ كثُر.

{وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الْأَحْزَابُ} (ص : ١٣)

١٣- وكقَبيلةِ ثَمود، وقَومِ لُوط، وأصْحابِ الأيْكَة، وهمْ أهلُ مَدْيَن، وكانَ هؤلاءِ مِنَ الكافِرينَ الذينَ تَحزَّبوا على الأنبِياء.

{إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ} (ص : ١٤)

١٤- كُلُّ هؤلاءِ كذَّبوا رسُلَهم، وأصَرُّوا على الكُفر، فوَجبَ عَليهمْ حُكمُ اللهِ بإهلاكِهم، ولم يَنفَعْهمْ تَحزُّبُهمْ وقُوَّتُهمْ شَيئًا.

{وَمَا يَنظُرُ هَؤُلَاء إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ} (ص : ١٥)

١٥- وما يَنتَظِرُ كُفَّارُ مكَّةَ إلاّ صَيحَةً قويَّةً مُفزِعَةً واحِدَةً تأتي عندَ قيامِ السَّاعَة، لا تَسكنُ ولا تُرَدّ، بلْ تأتي في وقتِها ولا تَرجِع.

{وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ} (ص : ١٦)

١٦- وقالوا في تَهكُّمٍ وسُخريَة: ربَّنا عَجِّلْ لنا حظَّنا مِنَ العَذابِ الذي تَوعَّدتَنا به!

{اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ} (ص : ١٧)

١٧- اصبِرْ على ما يَقولونَ مِنَ الأذَى والتَّكذيبِ أيُّها الرَّسُول. واذكُرْ أمرَ عَبدِنا داود، ذي القوَّةِ في العِبادَةِ والجِهاد، إنَّهُ كانَ كثيرَ التَّوبَةِ والرُّجوعِ إلى الله.

{إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ} (ص : ١٨)

١٨- إنَّا سخَّرنا معَهُ الجبالَ الشَّامِخات[١٢٧]، فإذا سبَّحَ سبَّحَتْ ورجَّعَتْ معَه[١٢٨]، في آخِرِ النَّهارِ وعندَ شُروقِ الشَّمس.

{وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ} (ص : ١٩)

١٩- وكذلكَ الطَّير، سخَّرَها اللهُ لتَجتَمِعَ إليهِ وتُسبِّحَ معَه، وكُلٌّ مُطيعٌ يُسَبِّحُ معَه.

{وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ} (ص : ٢٠)

٢٠- وقوَّيْنا مُلكَهُ بالهَيبَةِ والحرَسِ وكَثرَةِ الجنود، وكُلِّ ما يُثَبِّتُ حُكمَهُ وسُلطتَهُ، وآتَيناهُ النبوَّةَ والفَهمَ والفِطنَة، والتبصُّرَ في الحُكمِ والقَضاءِ بينَ المتنازِعين.

{وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ} (ص : ٢١)

٢١- وهلْ عرَفتَ خبرَ الخُصومِ عندَما عَلَوا سُورَ المِحرابِ الذي كانَ فيهِ داود؟

{إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ} (ص : ٢٢)

٢٢- إذْ دخَلوا علَيهِ فَجأة، فخافَ منهم، فقالوا له: لا تخَف، نحنُ خصمَانِ جارَ بَعضُنا على بَعض، فاقْضِ بينَنا بالحقِّ والعَدل، ولا تَتجاوَزْه، وأرشِدنا إلى طَريقِ العَدلِ والصَّواب.

---

(١٢٧) {سَخَّرْنَا الْجِبَالَ} أي: ذلَّلناها. (روح البيان).

(١٢٨) {يُسَبِّحْنَ}: تسبيحُهنَّ تقديسٌ بلسانٍ قالٍ لائقٍ بهنّ، نظيرَ تسبيحِ الحصَى المسموعِ في كفِّ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وقيل: تقديسٌ بلسانِ الحال... (روح المعاني).

{إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ} (ص : ٢٣)

٢٣- قالَ أحَدُ المتخاصِمَين: إنَّ أخي هذا هوَ مُخاصِمي، لهُ تِسْعٌ وتِسعونَ نَعجَةً، وأنا لِيَ نَعجَةٌ واحِدَة، فقالَ لي: اجعَلْ نَعجتَكَ هذهِ مِنْ نَصيبي، وشَدَّدَ عليَّ في القَول، وغَلبَني في الخُصومَة.

{قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ} (ص : ٢٤)

٢٤- قالَ لهُ داودُ عَليهِ السَّلام: لقدْ جارَ عَليكَ عندَما طلبَ مِنكَ أنْ تَضُمَّ نَعجتَكَ إلى نِعاجِه، وإنَّ كثيرًا مِنَ الشُّرَكاءِ الذينَ تَختَلِطُ أموالُهُمْ يَظلِمُ بَعضُهُمْ بَعضًا، وخاصَّةً الأقوياءَ منهمْ مِنْ أهلِ الدُّنيا، إلاّ المؤمِنينَ الصَّالِحين، فإنَّهُمْ يَبتَعِدونَ عنِ الظُّلمِ والعُدوان، وأمثالُ هؤلاءِ قَليلون.

وعَلِمَ داودُ أنَّنا اختبَرناه، فقدِ اختفَى الخَصمانِ مِنْ عندِه، ولعلَّهما كانا مَلَكَين، فتَذَكَّرَ داودُ مَجلِسَ الحُكم، وأنَّهُ لم يُوَجِّهْ إلى الطَّرَفِ الآخَرِ سُؤالاً ولم يَستَفسِرْ منهُ عنْ سبَبِ ضَمِّ نَعجَةِ خَصمِهِ إلى نِعاجِه، وكانَ عَليهِ أنْ يَتثبَّتَ ويُكمِلَ أُصولَ القَضاء، فأسرَعَ إلى السُّجودِ لرَبِّهِ مُستَغفِرًا، ورَجعَ وتاب.

وفي آخِرِ هذه الآيةِ سَجدَة. وقدْ جاءَ في حَديثٍ صَحيحٍ رواهُ ابنُ خُزَيمَةَ وغيرُه، قالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عَنهما: جاءَ رَجُلٌ إلى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رَسُولَ الله، إنِّي رَأيتُ في هذهِ اللَّيلَةِ فيما يَرى النَّائم، كأنِّي أُصَلِّي خَلفَ شَجرَة، فرَأيتُ كأنِّي قرَأتُ سَجْدَة، فسَجَدتُ، فرأيتُ الشجَرَةَ كأنَّها تَسجدُ بسُجودِي، فسَمعتُها وهي ساجِدَةٌ، وهيَ تَقول: اللهمَّ اكتُبْ لي عندَكَ أجرًا، واجعَلْها لي عندَكَ ذُخرًا، وضَعْ عَنِّي بها وِزْرًا، واقْبَلْها منِّي كما قَبِلْتَ مِنْ عَبدِكَ داود.

قالَ ابنُ عبَّاس: فرَأيتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قرَأَ السَّجدَةَ ثمَّ سجَد، فسَمِعتُهُ يَقولُ مثلَما قالَ الرَّجُلُ عنْ كَلامِ الشجَرَة.

{فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ} (ص : ٢٥)

٢٥- فغَفَرنا لداودَ ما بدَرَ منه، وإنَّ لهُ عندَنا يَومَ القيامَة قُربَةً وعُلوَّ مَنزِلَة، ومَرجِعًا حَسـنًا ومُنقَلَبًا طيِّبًا.

{يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} (ص: ٢٦)

٢٦- يا داودُ، إنَّا استَخلَفناكَ على الملكِ في الأرْضِ لتُدَبِّرَ أمورَ العِبادِ بأمرِنا، فاحكُمْ بينَهمْ بالحقِّ والعَدلِ كما شرَعَ الله، ولا تتَّبعْ هوَى النَّفسِ وشَهوتَها في الحُكم، فيَكونُ ذلكَ سبَبًا لصَرفِكَ عنْ شَريعَةِ الله، إنَّ الذينَ يَزيغُونَ عنِ الحقّ، لهمْ عَذابٌ مؤلِمٌ قاس، لأنَّهمْ تركوا الحُكمَ بالحقِّ والعَدل، ولم يَعمَلوا ليَومِ الحِساب.

{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} (ص : ٢٧)

٢٧- وما خَلَقنا هذهِ السَّماواتِ العَظيمة، والأرضَ وما عَليها عبَثًا ولَعِبًا، فذلكَ عَقيدَةُ الكافِرينَ الذينَ يُنكِرونَ الحِسابَ والجَزاء، فالوَيلُ والهَلاكُ لهمْ مِنَ النَّارِ المعَدَّةِ لهم.

{أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} (ص : ٢٨)

٢٨- أمْ نُسَاوي بينَ المؤمِنينَ الصَّالحينَ والمجرِمينَ المفسِدينَ في الأرْض؟ أمْ نُسَاوي بينَ المطيعينَ المخلِصينَ والكافِرينَ الفاجِرين؟ إنَّهمْ لا يَستَوون، فلا بُدَّ مِنْ قَضاءٍ عادِلٍ وحِسابٍ كامِلٍ يَومَ البَعث، ليُجزَى كُلٌّ بما عَمِل.

{كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ} (ص : ٢٩)

٢٩- هذا كتابُ اللهِ للنَّاس، كثيرُ الخَيرِ والمنفَعَةِ لهم، في أمورِ دينِهِمْ ودُنياهُم، ليَتفَكَّروا في آياتِهِ ويَتفَهَّموا حِكَمَها وأسرارَها، وليَتَّعِظَ بها أصحابُ العُقولِ النيِّرَة.

{وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} (ص : ٣٠)

٣٠- ووَهبْنا سُليمانَ لداودَ، بهجةً لهُ في حيَاته، ووارثًا لملكِهُ بعدَ مماتِه، وكانَ نبيًّا جَليلاً، وعَبدًا كثيرَ التَّوبَةِ والإنابَةِ إلى الله[١٢٩].

{إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ} (ص : ٣١)

٣١- إذْ عُرِضَ عَلى سُلَيمانَ[١٣٠] في وَقتِ العَشيِّ الخَيلُ السَّريعَةُ الخَفيفَةُ في جَريها، وهوَ في مُلكِهِ وسُلطانِه.

{فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ} (ص : ٣٢)

٣٢- فانشغَلَ بها، فآبَ وقال: لقدْ آثَرتُ الانشِغالَ بهذهِ الخَيلِ عنِ ذِكرِ اللهِ حتَّى غابَتِ الشَّمس؟

{رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ} (ص : ٣٣)

٣٣- رُدُّوا الخَيلَ إليّ. فجعَلَ يَضرِبُ أعناقَها وسِيقانَها، لأنَّها شغَلَتْهُ عنِ الذِّكر.

---

(١٢٩) الهبةُ عطاءُ الواهبِ بطريقِ الإنعام، لا بطريقِ العوضِ والجزاءِ الموافقِ لأعمالِ الموهوبِ له، فسليمانُ النعمةُ التامةُ على داود؛ لأن الخلافةَ الظاهرةَ الإلهيةَ قد كملتْ لداود، وظهرتْ أكمليتُها في سليمان، وكذا على العالمين؛ لما وصلَ منه إليهم من آثارِ اللطفِ والرحمة.

وعن ابنِ عباس رضي الله عنهما أنه قال: أولادُنا من مواهبِ الله، ثم قرأ: {يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ} [سورة الشورى: ٤٩]. (روح البيان).

(١٣٠) العَرض: الإمرارُ والإحضارُ أمامَ الرائي، أي: عرَضَ سُوَّاسُ خيلِهِ إيّاها عليه. (التحرير).

ذكرَ مُفَسِّـــرونَ أنَّهُ يَعني ذَبحَها، وأنَّ ذلكَ كانَ جائزًا في شَـــريعَتِهم، وأنَّهُ تصَـــدَّقَ بلُحومِها للفُقَراء.

{وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ} (ص : ٣٤)

٣٤- وقدِ اختبَرنا سُـليمانَ في مُلكِه، وألقَينا على كُرسـيِّهِ جسَـدًا. ذُكِرَ أنَّهُ شِـقُّ رَجُل، أو شَيطان، ثمَّ رجَعَ إلى رَبِّهِ، فتابَ وأناب.

ولعَلَّهُ إشـارَةٌ إلى ما في الصَّـحيحَين - واللَّفظُ لمسلِم - مِنْ قَولِهِ صلى اللهُ عَليهِ وسلَّم: "قالَ سُـلَيمانُ بنُ داود: لأَطُوفَنَّ اللَّيلَةَ على تِسـعِينَ امرَأة، كُلُّها تأتي بفارِسٍ يُقاتِلُ في سَـبيلِ الله، فقالَ لهُ صـاحِبُه: قُلْ إنْ شَـاءَ الله. فلمْ يَقُلْ إنْ شَـاءَ الله، فطافَ عَليهِنَّ جَميعًا، فلمْ تَحمِلْ مِنهنَّ إلاّ امرَأةٌ واحِدَة، فجاءَتْ بشِقِّ رَجُل. وايمُ الذي نَفسُ محمَّدٍ بيدِه، لو قالَ إنْ شَاءَ الله، لجَاهَدوا في سَبيلِ اللهِ فُرسانًا أجمَعون".

{قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ} (ص : ٣٥)

٣٥- فالتَجأَ إلى رَبِّهِ مُسـتَغفِرًا وقال: اللهمَّ اغفِرْ لي ما بدَرَ منِّي، وأعطِني مُلكًا لا يَكونُ مِثلُهُ لأحَدٍ مِنَ البشَرِ مِنْ بَعدي، فأنتَ الذي تَهَبُ ما تَشاءُ لمَنْ تَشاء.

{فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ} (ص : ٣٦)

٣٦- فسَخَّرْنا لهُ الرِّيحَ وذَلَّلْناها لطاعَتِه، فكانتْ تَسيرُ بأمرِهِ سَهلَةً لَيِّنَةً حيثُ أراد.

{وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ} (ص : ٣٧)

٣٧- كما ذَلَّلنا لهُ الشَّـــياطينَ تُنَفِّذُ أوامِرَه، مِنْ بَنَّائينَ يَعمَلونَ لهُ ما شـــاءَ مِنَ المحاريبِ والتَّماثيل، وغَوَّاصِينَ يَستَخرِجونَ لهُ اللآلِئَ مِنَ البَحر، وغَيرَ ذلكَ ممَّا يَشُقُّ على البشَرِ عمَلُه.

{وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ} (ص : ٣٨)

٣٨- وشَـــياطينَ آخَرينَ مَشـــدُودينَ في الأغلالِ والقُيود، ممَّنْ تمرَّدُوا وامتنَعُوا مِنَ العمَل، أو أسَاؤوا فيهِ ولم يُتقِنُوه.

{هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} (ص : ٣٩)

٣٩- هذا عَطاؤنا لكَ ممَّا سَـألتَهُ يا سُـلَيمان، فأعطِ منهُ مَنْ شِـئت، وامنَعْهُ مَنْ شِـئت، لا حرَجَ عَليكَ في ذلكَ ولا حِساب.

{وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ} (ص : ٤٠)

٤٠- وإنَّ لهُ عِندَنا في الآخِرَةِ قُربَةً ومَنزِلَةً عاليَة، ومَرجِعًا كَريمًا طَيِّبًا.

{وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ} (ص : ٤١)

٤١- واذكُرْ خبَرَ عَبدِنا النبيِّ أيُّوب، الذي ابتَلَيناهُ بمَرَضٍ شَـديد، فتضـرَّعَ إلى رَبِّهِ ودَعاهُ قائلاً: ربِّ قدْ آذانيَ الشَّـيطان، وشَـقَّ عَليَّ ذلكَ وآلَمَني، فاكشِـفْ عَنِّي ما أصـابَني وأنتَ أرحَمُ الرَّاحِمين.

{ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ} (ص : ٤٢)

٤٢- فقُلنا له: اضرِبْ برِجْلِكَ الأرض، فضرَبَها بها، فنبَعَتْ عَينُ ماءٍ بارِدَةٌ مِنْ تَحتِها، فاغتسَلَ به، وشَرِبَ منه، فشُفيَ وبَرِئ.

{وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ} (ص : ٤٣)

٤٣- ووَهَبنا لأيوبَ - بعدَ شِـفائهِ - أهلَهُ الذينَ فقدَهمْ أثناءَ مرَضِـه، بجَمعِهمْ عليهِ بعدَ تفرُّقِهم، أو بإحيائهمْ بعدَ مَوتِهم، وأعطَيناهُ زيادَةً عَليهِمْ آخَرينَ مثلَهم، ربَّما بتكثيرِ نَسـلِه؛ رَحمَةً منَّا بهِ وجَزاءَ صَبرِهِ وثَباتِه، وتَذكيرًا للعُقَلاءِ المعتَبِرينَ بعاقِبَةِ الصَّبر.

{وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} (ص : ٤٤)

٤٤- وذُكِرَ أنَّهُ حلفَ أنْ يَضرِبَ زَوجتَهُ مئةَ جَلدَةٍ إذا شُفي، ربَّما لتَقصيرِها في خدمتِهِ أثناءَ مرَضِه، ثمَّ لم يرَ ذلكَ مُلائمًا، فقالَ اللهُ له: خُذْ بيَدِكَ مِلءَ الكفِّ مِنَ الحَشِيش، وفيهِ مئةُ عُودٍ صِغار، فاضرِبْها بهِ ضَربَةً واحِدَة، فيَجزيكَ ذلكَ عنْ حَلِفِك، ولا تَحنَثُ فيه[١٣١]. وكان هذا رَحمةً من اللهِ بهما. لقدْ وجَدْنا أيُّوبَ صابرًا فيما ابتلَيناهُ بهِ في نَفسِهِ وأهلِهِ ومالِه، فما أحسَنَه، وما أكرَمَ أدبَهُ وخُلُقَه، إنَّهُ مُنيبٌ إلى رَبِّه، كثيرُ الرُّجوعِ إليه.

{وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ} (ص : ٤٥)

٤٥- واذكُرْ عِبادَنا الأنبياءَ المكرَمينَ إبراهيمَ، وإسحاقَ، ويَعقوبَ، ذَوي القوَّةِ في الطَّاعَةِ والتَّقوَى، والبَصيرَةِ في العِلمِ والدِّين.

{إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ} (ص : ٤٦)

٤٦- لقدِ اصطفَيناهُمْ وجعَلناهُمْ خالِصينَ لنا، بسبَبِ خَصلَةٍ جَليلَةٍ فيهم، هيَ جَعلُهمُ الدَّارَ الآخِرَةَ همَّهمُ الأوَّل، وتذَكُّرَهمْ لها دائمًا.

{وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ} (ص : ٤٧)

٤٧- وإنَّهمْ عِندَنا لمِنَ المختارينَ مِنْ بَينِ النَّاس، الفاضِلينَ عَليهمْ في الخَير.

{وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنْ الْأَخْيَارِ} (ص : ٤٨)

٤٨- واذكُرْ عِبادَنا الأنبياءَ المصطَفَينَ أيضًا: إسماعيلَ، واليَسَعَ، وذا الكِفْل، وكُلٌّ هؤلاءِ مَشهورونَ بالخَيرِ والفَضلِ والإحسَان.

---

(١٣١) الحِنْث: الإثم، ويطلقُ على فعلِ ما حلفَ على تركه. (فتح القدير)، وتركِ ما حلفَ على فعله، من حيث إن كلَّ واحدٍ منهما سببٌ له. (روح البيان).

أي: لتَبَرَّ في يمينِكَ التي حلفتَ بها عليها أن تضربها {وَلا تَحْنَثْ}، يقول: ولا تحنَثْ في يمينك. (الطبري).

{هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ} (ص : ٤٩)

٤٩- وهذا الذي تُلِيَ عَليكمْ مِنَ الآياتِ في حَقِّهم، شـرَفٌ لهمْ وبَيانٌ لمنزلَتِهم، وإنَّ للمؤمِنينَ المخلِصينَ في اليَومِ الآخِرِ مَرجِعًا طَيِّبًا ومَكانًا حسَنًا.

{جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ} (ص : ٥٠)

٥٠- فلَهمْ جَنَّاتُ إقامَةٍ دائمَة، أبوابُها مَفتوحَةٌ لهمْ بانتِظارِ أنْ يَدخُلوها، وتُحَيِّيهمُ الملائكةُ بالسَّلام.

{مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ} (ص : ٥١)

٥١- وهمْ على الأسِـرَّةِ مُتَّكِؤون، يَطلُبونَ ما يَشـتَهونَ مِنْ أنواعِ الفاكِهةِ الكثيرَة، والشَّـرابِ اللَّذيذِ الوَفير.

{وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ} (ص : ٥٢)

٥٢- وعِندَهمُ الحُورُ العِيْن، اللَّواتي لا يَلتَفِتْنَ إلى غَيرِ أزواجِهنّ، وهُنَّ مُتَساوِياتٌ في السنّ.

{هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ} (ص : ٥٣)

٥٣- هذا ما تُوعَدونَ بهِ مِنَ النَّعيمِ يَومَ القيامَةِ أيُّها المؤمِنونَ المتَّقون.

{إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ} (ص : ٥٤)

٥٤- وهذا الذي أنعَمنا بهِ عَليكم، رِزقٌ لا يَنقَطِعُ عَنكمْ أبدًا.

{هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ} (ص : ٥٥)

٥٥- هذا، وإنَّ للكافِرينَ الذينَ طغَوا وأفسَدوا شَرَّ مَرجِعٍ وأسوأَ مَكان.

{جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ} (ص : ٥٦)

٥٦- يَدخُلونَ جَهنَّمَ فيَذوقونَ حرَّها ويُقاسُونَ عَذابَها، وبئسَتْ جَهنَّمُ فِراشًا لهم.

{هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ} (ص : ٥٧)

٥٧- هذا هوَ العَذابُ الأليمُ فَليَذوقُوه، ماءٌ شَديدُ الحرَارَة، وماءٌ مُنتِنٌ شَديدُ البُرودَة.

وفي حَديثٍ صَحَّحَهُ الحاكِمُ ووَافقَهُ الذَّهبيّ: "لو أنَّ دَلْوًا مِنْ غَسَّاقٍ يُهَرَاقُ في الدُّنيا، لأنتَنَ أهلُ الدُّنيا".

{وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ} (ص : ٥٨)

٥٨- ومَذاقٌ آخَرُ مِنْ مِثلِ ما ذُكِرَ مِنَ الحرارَةِ والنَّتْن، مِنْ ألوانِ ما أُعِدَّ لهمْ مِنَ العَذاب.

{هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ} (ص : ٥٩)

٥٩- وتَقولُ الملائكةُ لرُؤساءِ الضَّلال: هذا جَمْعٌ كثيرٌ داخِلونَ معَكم، لا مَرحبًا بهم.

{قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ} (ص : ٦٠)

٦٠- قالَ الأتْباعُ لرؤسَائهم: بلْ أنتُمُ الذينَ تَستَحِقُّونَ عدَمَ التَّرحيب، فأنتُمْ دعَوتُمونا إلى الانحِرافِ والضَّلال، الذي آلَ بنا إلى دُخولِ النَّار، فبئسَ المستَقَرُّ جهنَّمُ لنا ولكم.

{قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ} (ص : ٦١)

٦١- وقالَ الأتْباعُ أيضًا: اللهمَّ مَنْ كانَ سببًا في دُخولِنا هذا المكَان، فضاعِفْ لهُ العُقوبَةَ في النَّار.

{وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ} (ص : ٦٢)

٦٢- وقالَ أهلُ النَّار: ما لَنا لا نرَى معَنا ناسًا كنَّا نَعتَبِرُهمْ في الدُّنيا مِنَ المستَرذَلينَ والأشرارِ الذينَ لا خَيرَ فيهم. يَعنونَ المؤمِنين، أو فُقَراءَهم.

{أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ} (ص : ٦٣)

٦٣- ما الذي جعَلَنا لا نَراهم؟ هلِ ازدَرَدْناهمْ واستَحقَرناهمْ حتَّى لم نَعُدْ نَنظُرُ إلى وجوهِهم، أمْ مالَتْ عُيونُنا عَنهمْ فلمْ نَرَهمْ وهمْ حَولَنا؟

{إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ} (ص : ٦٤)

٦٤- وهذا الذي يَجري بينَ أهلِ النَّارِ مِنْ مُخاصَمَةٍ ولَعنٍ حَقٌّ لا شَكَّ فيه.

{قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} (ص : ٦٥)

٦٥- قُلْ للمُشرِكينَ أيُّها الرَّسُول: إنَّما أنا نَذيرٌ لكمْ مِنْ عَذابِ الله، ولستُ مِنَ السِّحرِ والشِّعرِ والجُنونِ في شَيءٍ كما تَزعُمون، ولا إلهَ في الوجودِ سِوَى اللهِ، الواحدِ الذي لا شَريكَ له، الذي غلَبَ كُلَّ شَيءٍ وقَهَرَه.

{رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ} (ص : ٦٦)

٦٦- خالِقُ السَّماواتِ العَظيمَة، والأرْضِ وما فيها وما عَليها، وما بينَ السَّماواتِ والأرْضِ مِنَ الموجودَات، وهوَ مالِكُهما ومُدَبِّرُهما وَحدَه، العَزيزُ الذي لا يُغلَبُ في أمرٍ مِنَ الأمُور، الكثيرُ المغفِرَةِ لذُنوبِ عِبادِهِ المؤمِنين.

{قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ} (ص : ٦٧)

٦٧- قُلْ لهمْ أيُّها الرَّسُول: إنَّ القُرآنَ الذي أنبَأتُكمْ بهِ وجِئتُكمْ فيهِ بما لا يُعلَمُ إلاّ بوَحي، هوَ خبَرٌ عَظيمٌ، وأمرٌ جَليلٌ لهُ شَأن.

{أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ} (ص : ٦٨)

٦٨- ومعَ ذلكَ فأنتُمْ مُتَمادُونَ في الإعرَاضِ عنه، سادِرونَ في غَيِّكمْ وغَفلَتِكمْ عَنه.

{مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ} (ص : ٦٩)

٦٩- ولو لم يُوحَ إليَّ فكيفَ أعرِفُ اختِلافَ الملائكةِ في شَـأنِ آدمَ عليهِ السَّـلام - كما يأتي في الآياتِ التَّالية.

{إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ} (ص : ٧٠)

٧٠- فالذي أتلوهُ عليكمْ وَحيٌ مِنَ اللهِ، وما أنا إلاّ رَسـولٌ إليكمْ ونَذيرٌ واضِـحُ الرِّسـالَة، بَيِّنُ الإنذَار.

{إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ} (ص : ٧١)

٧١- إذْ قالَ اللهُ تَعالَى لملائكتِهِ قَبلَ أنْ يَخلُقَ آدم: سأخلُقُ إنساناً مِنْ طِين.

{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} (ص : ٧٢)

٧٢- فإذا أتمَمْتُ خَلقَه، ونفَختُ فيهِ مِنْ رُوحي[١٣٢]، وصارَ بشَرًا حيًّا، فاسجُدوا له، سُجودَ تَحيَّةٍ وتَكريمٍ، لا سُجودَ عِبادَة.

---

(١٣٢) في هامش الآيةِ (٢٩) من ســـورةِ الحِجر: {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي}: وجعلتُ فيه الروحَ حتى جرى آثارهُ في تجاويفِ أعضائه، فحيي، وصارَ حسّاسًا متنفِّسًا. (روح البيان).

قالَ النيســـابوري: ولا خلافَ في أن الإضـــافةَ في {رُوحِي} للتشـــريفِ والتكريم، مثل: (ناقة الله)، و (بيت الله). قالَ القرطبي: والروحُ جسـمٌ لطيف، أجرَى الله العادةَ بأن يخلقَ الحياةَ في البدنِ مع ذلك الجسـم. وحقيقتهُ إضـافةُ خَلقٍ إلى خالق، فالروحُ خلقٌ من خَلقه، أضافَهُ إلى نفسهِ تشريفاً وتكريماً. (فتح القدير).

وإسنادُ النفخِ وإضافةُ الروحِ إلى ضميرِ اسمِ الجلالةِ تنويهٌ بهذا المخلوق. (التحرير والتنوير).

{فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ} (ص : ٧٣)

٧٣- وبعدَ أنْ نُفِخَ فيهِ الرُّوحُ سجَدَ لهُ الملائكةُ كُلُّهم، ولم يَتأخَّروا،

{إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ} (ص : ٧٤)

٧٤- إلاّ إبليسَ، استَكبَرَ عنْ تَنفيذِ أمرِ رَبِّه، ورفَضَ أنْ يَكونَ معَ الملائكةِ السَّاجِدين، وصارَ مِنَ الكافِرين، بتَعاظُمِهِ على أمرِ الله.

{قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ} (ص : ٧٥)

٧٥- قالَ اللهُ له: يا إبليس، ما الذي مَنعَكَ أنْ تَسجُدَ لآدمَ الذي خلَقتُهُ بيَدَيّ، أتَكبَّرْتَ عمَّا أمَرتُكَ به، أمْ أنَّكَ مِنَ العالِينَ الذينَ لا يَخضَعونَ لأمر؟

{قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} (ص : ٧٦)

٧٦- قالَ إبليسُ اللَّعين: أنا أفضَلُ مِنْ آدم، فقدْ خلَقتَني مِنْ نار، وخلَقتَهُ مِنَ طِين، والنَّارُ أشرَفُ مِنَ الطِّين، فلماذا أسجُدُ له؟

ومقياسُهُ فاسِد، وعِصيانُهُ ظاهِر، فالفَضلُ لمنْ جعلَ اللهُ لهُ الفَضل، والطِّينُ أفضَلُ مِنَ النَّار، فَفيهِ الرَّزانَةُ والحِلمُ والصَّبر، وهوَ محَلُّ النَّباتِ والنموّ... والنَّارُ مِنْ شَأنِها الإحرَاقُ والطَّيش، والجُرأةُ والسُّرعَة، ولهذا كانَ الشَّيطانُ طائشًا، عاصِيًا لرَبِّه.

{قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ} (ص : ٧٧)

٧٧- قالَ اللهُ تَعالَى له: فاخرُجْ مِنَ الجنَّة، فإنَّكَ مَطرودٌ مِنْ كُلِّ خَيرٍ وكَرامَة.

{وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ} (ص : ٧٨)

٧٨- وإنَّكَ مُبعَدٌ مِنْ رَحمَتي، وتَلحَقُكَ لَعنَتي إلى يَومِ القيامَة؛ جَزاءَ عِصيانِك.

{قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} (ص : ٧٩)

٧٩- قالَ إبليس: رَبِّ أمهِلني ولا تُمِتني إلى اليَومِ الذي يُبعَثُ فيهِ آدمُ وذُرِّيَّتُهُ للحِسابِ والجَزاء. وهذا مِنْ حسَدِهِ وعَداوَتِهِ لابنِ آدمَ ليُضِلَّهم، فيُبعَدوا مِنْ رَحمَةِ الله، كما أبعدَهُ اللهُ مِنْ رَحمَتِه.

{قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ} (ص : ٨٠)

٨٠- قالَ لهُ رَبُّه: قدْ أمهَلتُك، فأنتَ مِنْ جُملَةِ المؤَخَّرين؛ لحِكمَةٍ أمتَحِنُ بها عِبادي.

{إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ} (ص : ٨١)

٨١- أمهَلتُكَ إلى يَومِ النَّفخَةِ الأُولَى آخرِ أيَّامِ التَّكليف، وهوَ يَومٌ مَعلوم، لا يَبقَى فيهِ على وَجهِ الأرضِ حَيّ.

{قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} (ص : ٨٢)

٨٢- قالَ إبليسُ اللَّعين: فبِعِزَّتِكَ وعَظيمِ سُلطانِك، لأُحَبِّبَنَّ إليهمُ المعاصيَ والمنكَرات، وأُرَغِّبَنَّهمْ فيها حتَّى يَعمَلوها، ولأُضِلَّنَّهمْ بذلكَ أجمَعين،

{إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} (ص : ٨٣)

٨٣- إلاّ عِبادَكَ الذينَ أخلَصوا لكَ الطَّاعَةَ والتَّوحيد، واتَّقَوا ما نَهَيتَهمْ عَنهُ، فلا أقدِرُ عَليهم.

{قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ} (ص : ٨٤)

٨٤- قالَ اللهُ تَعالَى: فأقولُ، ولا أقولُ إلاّ الحقَّ المبين:

{لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} (ص : ٨٥)

٨٥- لأملأنَّ جَهنَّمَ منكَ، ومِنْ ذُرِّيَّتِك، ومِنْ كُفَّارِ ذُرِّيَّةِ آدمَ أجمَعين، الذينَ تابَعوكَ على ضَلالِك.

{قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} (ص : ٨٦)

٨٦- قُلْ أيُّها الرَّسُولُ للمُشرِكينَ مِنْ حَولِك: لا أطلبُ على تَبليغِ الرِّسالَةِ والدَّعوَةِ إلى اللهِ أُجرَةً تُؤَدُّونَها إليّ، ولستُ ممَّنْ يَتصَنَّعونَ ويَتكَلَّفونَ ما ليسَ عندَهم، ولا أَزيدُ ولا أَنقُصُ مِنْ كِتابِ رَبِّي شَيئًا.

{إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ} (ص : ٨٧)

٨٧- ما هذا القُرآنُ ألاّ تَذكِرَةٌ وعِظَةٌ لكمْ وللنَّاسِ أجمَعين، لتَتذَكَّروا وتَهتَدوا به.

{وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ} (ص : ٨٨)

٨٨- وستَعلَمونَ خبَرَهُ، وصِدْقَ ما جاءَ بهِ مِنَ الوَعدِ والوَعيد، والثَّوابِ والعِقاب، بعدَ مُدَّة.

سـورة الزُّمَـر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} (الزمر : ١)

١- تَنزيلُ القُرآنِ مِنَ اللهِ العَزيزِ الذي لا يُغلَب، الحَكيمِ في أقوالِهِ وأفعالِه.

{إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ} (الزمر : ٢)

٢- إنَّا أنزَلنا إليكَ هذا القُرآنَ - أيُّها الرَّسُـولُ - بالحقِّ والصَّـواب، لا يَشُـوبُهُ باطِلٌ أو هَزْل، فكُلُّ ما فيهِ مُوجِبٌ للإيمانِ بهِ وقَبولِه، فاعبُدِ اللهَ وَحدَهُ لا شَريكَ له، وأخلِصْ لهُ العِبادَة.

{أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ} (الزمر : ٣)

٣- فـاللهُ وَحـدَهُ يُخَصُّ بالعِبـادَةِ والإخلاصِ فيهـا لـه، فلا إلـهَ إلاّ هو، والـذينَ جعَلوا معَ اللهِ شُـرَكاءَ يَقولون: نحنُ لا نَعبدُهمْ إلاّ ليُقَرِّبونا إلى الله، ويُوصِـلوا أدعيَتَنا إليه، ويَشـفَعوا لنا عِندَه، ليَنصُرَنا ويَرزُقَنا!

واللهُ يَقضي بينَهمْ وبينَ مَنْ أخلَصوا الدِّينَ للهِ يَومَ القِيامَة، ويَجزي كُلاًّ بما عَمِل، واللهُ لا يَهدي مَنْ كانَ قَصدُهُ الكَذِبَ، ولا مَنْ كانَ مُخاصِمًا عَنيدًا مُصِرًّا على الكُفر، الذي تَمادَى في الغَيّ، وتمرَّنَ في الضَّلالَة، حتَّى صارَ أعمَى البَصيرَة.

{لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} (الزمر: ٤)

٤- لو أرادَ اللهُ — فرَضًا - أنْ يَتَّخِذَ ولَدًا، لاختارَ ما شَاءَ ممَّا يُناسِبُ أُلوهيَّتَه، ولكنَّهُ سُبحانَهُ لم يَشَأ ذلك، فليسَ لأحَدٍ أنْ يَنسِبَ إليهِ الولَد. تَقدَّسَ وتنزَّهَ عنِ الشَّريكِ والمِثيل، هوَ الواحِدُ الأحَد، الذي قهرَ كُلَّ شَيءٍ بقُدرَتِهِ وعَظمَتِه.

{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ} (الزمر : ٥)

٥- هوَ الذي خلَقَ السَّماواتِ العَظيمَةَ والأرْضَ وما فيها لحِكَمٍ ومَصالِحَ، وليسَ عبَثًا وباطِلاً، يَلُفُّ اللَّيلَ على النَّهارِ فيَمضي ليَحِلَّ محلَّهُ اللَّيلُ، ويَلُفُّ النَّهارَ على اللَّيلِ ليَمضيَ ويَحِلَّ محَلَّهُ النَّهارُ، وهكذا. وذَلَّلَ الشَّمسَ والقمَرَ وجعَلَهما مُنقادَينِ لأمرِه، وكُلٌّ مِنْ هذا وذاكَ يَجري لمِدَّةٍ مَعلومَةٍ حتَّى تَنقَطِعَ حرَكتُه. ألَا إنَّ اللهَ عَزيزٌ لا يُغلَبُ إذا عاقَب، ويَغفِرُ ذُنوبَ عِبادِهِ التَّائبين، ولو أسرَفوا.

{خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} (الزمر : ٦)

٦- خَلَقَكُمُ اللهُ مِنْ نَفسٍ واحِدَة، هيَ آدم، وخلقَ مِنْ هذهِ النَّفسِ زَوجَها حوَّاء، وخلقَ لكمْ مِنَ الأنعامِ ثَمانيَةَ أزواج: ذَكرًا وأُنثَى، هيَ: الإبِل، والبقَر، والضَّأن، والمِعْز.

وخلقَكمْ في بُطونِ أمَّهاتِكمْ أطوارًا، فمِنْ نُطفَة، إلى علَقَة، ثمَّ مُضغَة، فعِظام، فمَكسوَّةٍ بلَحم، ثمَّ يُنفَخُ الرُّوحُ في الجَنين، الذي يَكونُ في مَواضِعَ مُظلِمَةٍ ثَلاثة، هي: ظُلمَةُ الرَّحِم، وظُلمَةُ المشِيمَة، وظُلمَةُ البَطن. وذهبَ أطبَّاءُ إلى أنَّ المقصودَ بالظُّلماتِ الأغشيَةُ، وهيَ الطَّبَقاتُ الثُّلاثيَّةُ للمَشِيمَة: الأمَنوسي المحيطُ بالجَنين، والكوريوني الذي يَتَّصِلُ بالمشِيمَةِ ويُمِدُّ الجَنينَ بالغِذاء، والسَّاقِطُ الذي يُثبِتُ الجَنينَ بجِدارِ الرَّحِم. وقالوا: إنَّ للظُّلمَةِ دورًا كبيرًا في النموّ، فالضَّوءُ يُعَوّقُ مَراحِلَ النموِّ المختَلِفَة.

ذلكمُ الخالِقُ العَظيمُ هوَ رَبُّكمْ ورازِقُكم، لهُ الملْكُ والخَلقُ والتَّدبيرُ كُلُّه، لا إلهَ غَيرُه، ولا مَعبودَ بحَقٍّ سِواه، فكيفَ تُصرَفونَ عنْ عِبادَتِهِ إلى عِبادَةِ غَيرِهِ وهمْ لا يَخلُقُونَ ولا يَرزُقون؟!

{إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}

(الزمر: ٧)

٧- إنْ تَكفُروا باللهِ وبنِعَمِهِ فإنَّهُ غَنِيٌّ عنْ إيمانِكمْ وشُكرِكم، فلا يَضرُّهُ ذلك، ولا يُحِبُّ الكُفرَ ولا يأمرُ به، لِما فيهِ مِنَ الضَّرَرِ على العِباد. وإنْ تُؤمِنوا بهِ وتَشكُروا فَضلَهُ عَليكم، فإنَّهُ يُحِبُّهُ منكمْ ويُثيبُكمْ عَليه، ولا تَملِكُ نَفسٌ أنْ تَحمِلَ عنْ غَيرِها ذُنوبَها، بلْ كُلُّ نَفسٍ مَقرونَةٌ بعمَلِها، مُحاسَبَةٌ عَليه، ثمَّ تُبعَثونَ إلى اللهِ يَومَ الحِساب، فيُخبِرُكمْ بما عَمِلتُمْ مِنْ خَيرٍ وشَرّ، إنَّهُ عَليمٌ بما تُخفيهِ الصُّدور، لا يَغيبُ عَنهُ شَيءٌ مِنْ ذلك.

{وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ}

(الزمر : ٨)

٨- وإذا أصابَ الإنسَانَ بَلاءٌ وشِدَّة، مِنْ مَرَضٍ وفَقرٍ وغَيرِه، دَعا اللهَ وحدَهُ في ذُلٍّ وخُضُوع، ورجعَ إليهِ خاشِعًا مُتضَرِّعًا، فإذا مَنحَهُ نِعمَةً مِنْ عندِهِ وزادَهُ فَضلاً، نَسِيَ ما كانَ يَدعُو بهِ ويَتضَرَّعُ إلى رَبِّهِ وهوَ في حالِ ضُرّ. والمؤمِنُ لا يَنسَى رَبَّهُ ولو كانَ في رَفاهية. وزادَ هذا الكافِرُ بنِعمَةِ رَبِّهِ فجعَلَ لهُ شُرَكاءَ في العِبادَة، لِيُضِلَّ النَّاسَ عنِ التَّوحيدِ ويَصُدَّهمْ عنْ طاعَةِ الله، قُلْ لمنْ كانَ هذا مِنهَجُه: تَمَتَّعْ بكُفرِكَ قَليلاً في الدُّنيا إلى أنْ يَحينَ أجَلُك، فإنَّكَ مِنْ أهلِ النَّار[١٣٣].

(١٣٣) التمتع: الانتفاعُ المؤقت، والتقدير: تمتَّعْ بالسلامةِ من العذابِ في زمنِ كفرِكَ أو متكسِّباً بكفرِك، تمتعاً قليلاً، فأنت آيلٌ إلى العذاب؛ لأنك من أصحابِ النار. ووصفُ التمتعِ بالقليل؛ لأن مدةَ الحياةِ الدنيا قليلٌ بالنسبةِ إلى العذابِ في الآخرة. وصيغةُ الأمرِ في قوله: {تَمَتَّعْ} مستعملةٌ في الإمهال، المرادِ منه الإنذارُ والوعيد. (التحرير، باختصار).

{أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ} (الزمر : ٩)

٩- أأنتَ أفضَلُ أيُّها المشـرِكُ أمْ مَنْ هوَ قائمٌ بواجبِ الطَّاعَةِ والشُّكرِ في سَاعاتِ اللَّيل، ساجِدًا للهِ وقائمًا لهُ في الصَّلاة، يَخشَى عَذابَ الآخِرَة، ويَطمَعُ في رَحمَةِ رَبِّهِ وعَفوِه؟

قُلْ أيُّها الرَّسولُ الكَريم: هلْ يَستَوي العالِمُ والجاهِل؟ كذلكَ لا يَتساوَى المطيعُ الذي يَعلَمُ ما عندَ اللهِ مِنْ رَحمَةٍ وعَذاب، والعاصِي الجاهِلُ الذي يَكفرُ باللهِ ويَدعو إلى الضَّلال؟ إنَّما يَتذَكَّرُ هذا الفَرقَ ويَتَّعِظُ أهلُ العُقولِ السَّوِيَّة.

{قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ} (الزمر : ١٠)

١٠- أخبِرهمْ بقَولي أيُّها الرَّسُول: يا مَنْ آمَنَ مِنْ عِبادي، أطيعُوا اللهَ واجتَنِبوا مَعاصِيه، فإنَّ لِمَنْ آمنَ في هذهِ الدُّنيا وأحسَنَ أجرًا ومَثوبَةً حسَنَةً في اليَومِ الآخِر، وأرضُ اللهِ كَبيرَةٌ رَحبَة، وإذا ضُيِّقَ عَليكمْ في دينِكمْ ولم تَتمَكَّنوا مِنْ إقامَةِ شَعائرِ الله، فهاجِروا إلى حيثُ تَتمَكَّنونَ مِنْ ذلك، إنَّما يُجزَى الذينَ صبَروا على دينِهمْ ولم يَترُكوهُ لأذًى أصابَهم، أجرًا عَظيمًا لا يَعرِفُ قَدْرَهُ إلاّ الله.

{قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ} (الزمر : ١١)

١١- قُلْ أيُّها النبيّ: إنَّ اللهَ أمرَني - كما أمرَ المؤمنينَ - بإخْلاصِ العِبادَةِ لهُ وَحدَهُ لا شَريكَ له.

{وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ} (الزمر : ١٢)

١٢- وأُمِرْتُ بذلكَ لأكونَ أوَّلَ المسلِمينَ في أُمَّةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، أو لأكونَ في مُقَدَّمِ المسلِمينَ في الدُّنيا وفي الآخِرَة.

{قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} (الزمر : ١٣)

١٣- وقُل: إنِّي أخشَــى إنْ خالَفتُ أمرَ رَبِّي ولم أُخلِصْ لهُ العِبادَة، عَذابَ يَومِ القيامَةِ المهُولِ المخُوف.

{قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي} (الزمر : ١٤)

١٤- قُل: إنَّني أعبُدُ اللهَ وَحدَهُ مُخلِصًا لهُ طاعَتي وعِبادَتي، بَعيدًا عنِ الشِّركِ والرِّياء.

{فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} (الزمر : ١٥)

١٥- فاعبُدوا أنتُمْ ما شِئتُمْ أنْ تَعبُدوهُ مِنْ دُونِ الله، ما دُمتُمْ مُصرِّينَ على الكُفر، مُتَمادِينَ في الضَّلال، إنَّ الخاسِرينَ كُلَّ الخَسارَة، همُ الذينَ خَسِروا أنفُسَهمْ باختِيارِهمُ الكُفرَ بدَلَ الإيمان، وخَسِروا أهليهمْ كذلك، لأنَّهُمْ أضَلُّوهمْ فعَرَّضوهمْ للنَّارِ يَومَ القِيامَة، وذلكَ هوَ الخُسرانُ البَيِّنُ الذي ليسَ بعدَهُ خَسارَة.

{لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ} (الزمر : ١٦)

١٦- لهمْ مِنْ فَوقِهمْ أطبَاقٌ مُظلِمَةٌ مِنَ النَّار، ومِنْ تَحتِهمْ كذلك، فهيَ مُحيطَةٌ بهمْ مِنْ كُلِّ مَكان. وبذِكرِ هذا العَذابِ الفَظيعِ يُخَوِّفُ اللهُ عِبادَه، ليَخافُوا فيَنزَجِروا عنِ المحَرَّماتِ والمعاصي، يا عِبادي فاخشَوا بأسي ونِقمَتي، ولا تَتعَرَّضوا لِما يُوجِبُ سخَطي.

{وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ} (الزمر : ١٧)

١٧- والذينَ اجتنَبوا عِبادَةَ الأوثَانِ وكُلَّ ما يُعبَدُ مِنْ دُونِ الله، ورجَعوا إلى رَبِّهِمْ مُوَحِّدينَ مُخلِصين، فلهمُ البُشرَى بالمثوبَةِ الحُسنَى يومَ القِيامَة.

{الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ} (الزمر : ١٨)

١٨- الذينَ يَستَمِعونَ القُرآنَ وغَيرَه، فيؤثِرونَ كتابَ رَبِّهِمْ ويَتَّبِعونَه، أو أنَّهُمْ يَتَّبِعونَ أحسَنَ ما يُؤمَرونَ بهِ فيَعمَلونَه، فأولئكَ الذينَ هَداهمُ اللهُ إلى دِينِه، وإلى ما فيهِ الثَّوابُ العَظيم، وأولئكَ أصحابُ العُقولِ الصَّحيحَة، والفِطَرِ السَّليمَة.

{أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ} (الزمر : ١٩)

١٩- فإذا كتبَ اللهُ على الكافِرينَ العَذاب، لكَونِهِمُ اتَّبَعوا خُطُواتِ الشَّيطان، وعبَدوا الأوثَان، أتَقدِرُ على إنقاذِهِمْ مِنَ الضَّلالِ الذي هُمْ فيه، والنَّارِ التي ستَكونُ مَصيرَهم؟

{لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ} (الزمر : ٢٠)

٢٠- أمَّا الذينَ خافُوا رَبَّهم، فأحسَنوا لهُ الطَّاعَة، وابتعَدوا عمَّا نَهَى، فلهمْ في الجنَّةِ مَنازِلُ عاليَة، بَعضُها فَوقَ بَعض، تَجري مِنْ تَحتِها الأنهار[١٣٤]، زيادَةً في جَمالِها ونَعيمِها، وهذا وَعدٌ مِنَ اللهِ لعِبادِهِ المؤمِنينَ المتَّقين، واللهُ يَقولُ الحقّ، ولا يُخلِفُ وَعدَه.

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ} (الزمر : ٢١)

---

(١٣٤) جريُ الأنهارِ من تحتها [أي: من تحتِ الغرف]، من كمالِ حُسنِ منظرِها للمُطلّ منها. ومعنى {مِنْ تَحْتِها}: أن الأنهارَ تمرُّ على ما يجاورُ تحتها، كما تقدَّم في قولِهِ تعالى: {جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} في آل عمران: ١٥، فأُطلِقَ اسمُ (تحت) على مُجاورة. ويجوزُ أن يكونَ المعنى: تجري من تحتِ أسسِها الأنهار، أي: تخترقُ أسسَها، وتمرُّ فيها وفي ساحاتها، وذلك من أحسنِ ما يُرَى في الديار، كديارِ دمشق، وقصرِ الحمراءِ بالأندلس، وديارِ أهلِ الترفِ في مدينةِ فاس، فيكونُ إطلاقُ (تحت) حقيقة. والمعنى أن كلَّ غرفةٍ منها يجري تحتها نهر، فهو من مقابلةِ الجمعِ ليُقسَّمَ على الآحاد، وذلك بأن يصعدَ الماءُ إلى كلِّ غرفة، فيجري تحتها. (التحرير والتنوير).

٢١- ألَمْ تَنظُرْ أيُّها الإنسَــانُ أنَّ اللهَ أنزلَ المطرَ مِنَ السَّــحاب، فصــرَفَهُ في العُيونِ والمجاري الكائنَةِ في الأرض، ثمَّ أخرجَ بهذا الماءِ زَرعًا مُختَلِفًا أنواعُهُ وأصنافُه، وأشكالُهُ وطُعومُه، ومَنافِعُه ورَوائحُه، ثمَّ يَيْبَسُ هذا الزَّرع، فتَراهُ أصــفرَ لا رُوحَ فيه، بعدَ أنْ كانَ أخضــرَ نَضِــرًا، ثمَّ يَجعلُهُ مَهشَّـمًا مُتكَسِّـرًا؟ إنَّ في ذلكَ تَذكيرًا وعِظَةً لأصحَابِ العُقولِ السَّـويَّة، فيَرَونَ في ذلكَ تَمثيلاً لحياةِ الإنسَان، الذي يَنمو صَغيرًا، ثمَّ يَشتَدّ، ثمَّ يكونُ هَرِمًا، ثمَّ يَموت. وهكذا الدُّنيا إلى زَوال. ثمَّ يَكونُ بَعثٌ وإحيَاء، وحِسَابٌ وجَزاء.

{أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} (الزمر : ٢٢)

٢٢- أفمَنْ وسَّـعَ اللهُ صَـدرَهُ للإسْـلام، فهوَ على هُدًى ويَقينٍ مِنْ أمرِ رَبِّه، كمَنْ هوَ أعمَى القَلب، مُصِرٌّ على الكُفر؟ لا يَستَويان. فالوَيلُ والهَلاكُ لمنْ كانَ قاسيَ القَلب، لا يَخشَعُ عندَ ذِكرِ اللهِ ولا يَلين، أولئكَ في ضَلالٍ ظَاهرٍ عنِ الحقّ.

{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} (الزمر : ٢٣)

٢٣- أنزلَ اللهُ القُرآنَ الكريم، الذي هوَ أحسَـنُ الكلام، يُشـبِهُ بَعضُـهُ بَعضًـا، لكَونِهِ صِـدقًا وعَدلاً، فلا اختِلافَ بينَ مَعاني آياتِهِ ولا تَناقُض، معَ تَجانُسٍ وتكامُلٍ في ألفاظِهِ وتَركيبِها، ويُكرَّرُ فيهِ التَّرغيبُ والتَّرهيب، ويُعادُ فيهِ ذِكرُ الأوامرِ والنَّواهي، والأخبَارِ والأحكَام، لفوائدَ وحِكم، مِنَ التَّذكيرِ والتَّأثيرِ والإعجَاز، تَضــطَرِبُ وتَرتَعِشُ منهُ جُلودُ المؤمِنينَ عندَ تِلاوَتِه، أو سَماعِ آياتِ وَعدِهِ ووَعيدِه، خَوفًا وخَشـيَةً مِنْ رَبِّهم، ثمَّ تَلِينُ وتَسـكُن، وتَطمَئنُّ قُلوبُهُمْ إلى ذِكرِ اللهِ وتأنَسُ به، لِما يأمُلونَ مِنْ رَحمَتِهِ ولُطفِه، وتلكَ صِفَةُ هَدي اللهِ لعِبادِه، يوَفِّقُ مَنْ يَشاءُ إلى ذلك، ومَنْ أضَلَّهُ اللهُ لإعراضِهِ عمَّا يُرشِدُهُ إليه، فلا يَقدِرُ أحَدٌ على هدايَتِه.

{أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ} (الزمر: ٢٤)

٢٤- أفمَنْ يُريدُ أنْ يتجنَّبَ شِدَّةَ العَذابِ ويَدفعَ النَّارَ بوَجهِهِ يَومَ القيامَة - فيَداهُ مَغلولَتانِ - ويُقالُ للكافِرينَ تأنيبًا وتَقريعًا: ذوقُوا جَزاءَ ما كنتُمْ تَعمَلونَ مِنَ الكُفرِ والمعاصي في الدُّنيا، أهذا خَيرٌ أمْ مَنْ يأتي آمِنًا مُستَبشِرًا يَومَ القيامَة؟

{كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ} (الزمر : ٢٥)

٢٥- لقدْ كذَّبَتْ أُمَمٌ سالِفَةٌ قَبلَ قَومِك، فأهلكَهمُ اللهُ بذُنوبِهِمْ وهمْ غافِلون، لا يَتوَقَّعونَ العَذاب.

{فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} (الزمر : ٢٦)

٢٦- فأذاقَهمُ اللهُ الذُّلَّ والهَوانَ في الحيَاةِ الدُّنيا، كالقَتلِ والأسْر، والمسْخِ والخَسْف، والجوعِ والغرَق، وفي الآخِرَةِ لهمْ عَذابٌ أشَدُّ وأبقَى، لو عَلِموا ذلكَ واعتَبَروا.

{وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} (الزمر : ٢٧)

٢٧- ولقدْ بيَّنَّا للنَّاسِ في هذا الكتابِ المبِين، منْ كُلِّ الأمثالِ النَّافِعَةِ التي يَحتاجُونَ إليها، والأحدَاثِ والوَقائعِ المعتبَرَة منها، لعلَّهمْ بذلكَ يتَّعِظونَ ويَتدَبَّرون.

{قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} (الزمر : ٢٨)

٢٨- هوَ قُرآنٌ مَجيدٌ بلُغَةٍ عربيَّةٍ فَصيحَةٍ بَليغَة، لا خلَلَ فيهِ ولا اعوِجاج، لعلَّهمْ يُؤمِنونَ به، ويَحذَرونَ إنذارَه، ويَجتَنِبونَ ما حرَّمَه.

{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (الزمر : ٢٩)

٢٩- وهذا مَثَلٌ ضربَهُ اللهُ في القُرآنِ للتَّذكيرِ والاعتِبار: عَبدٌ يَتمَلَّكُهُ عِدَّةُ أشخَاص، يَتنازَعونَ فيهِ ويَتَشاجَرون، لسُوءِ طِباعِهِمْ وشَراسَةِ أخلاقِهم، فهوَ مُتحَيِّرٌ ومُشَتَّتُ الفِكرِ والهَمِّ بينَهم، وآخَرُ يَتمَلَّكُهُ واحِدٌ لا يُشارِكُهُ أحَدٌ فيه، فهوَ في رَاحَةٍ وعافيَةٍ مِنْ ذلك، فهلْ يَستَوي حالُهما؟ لا يَستَويان. الحَمدُ للهِ على اعتِرافِهِمْ بذلك، وإقامَةِ الحُجَّةِ عَليهم، ولكنَّ أكثرَ هؤلاءِ المشرِكينَ ليسُوا مِنْ أهلِ العِلمِ والتَّدَبُّرِ حتَّى يُوازِنوا ويُطابِقوا المثَلَ على حالِهِم.

وهوَ مِثالُ المشرِكِ الذي يَعبُدُ عِدَّةَ آلهَة، والمؤمِنِ المخلِصِ لرَبِّه.

{إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ} (الزمر : ٣٠)

٣٠- ويأتي اليَومُ الذي تَموتُ فيهِ أيُّها الرَّسُول، وكذلكَ يَموتونَ هِمْ جَميعًا.

{ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} (الزمر : ٣١)

٣١- ثمَّ إنَّكمْ جَميعًا، المؤمِنينَ والكافِرين، تَجتَمِعونَ عندَ اللهِ يَومَ الحِساب، وتَختَصِمونَ وتتَحاجُّونَ فيما كنتُمْ تَختَلِفونَ فيهِ وتتَظالَمون في الحيَاةِ الدُّنيا، مِنَ الإيمانِ والشِّرك، وأمورِ الدُّنيا، فيَفصِلُ بينَكم، ويَجزي كُلاًّ بما يَستَحِق.

سـورة الزمـر (٣٢-٧٥)
سـورة غافـر
سـورة فصّلـت (١-٤٦)

{فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ} (الزمر : ٣٢)

٣٢- وليسَ هُناكَ أظلَمُ ممَّنْ كذَبَ على اللهِ فجعلَ لهُ الشَّـــريكَ والولَد، وكذَّبَ بما جاءَ بهِ الرَّسُـولُ مِنَ الحقِّ والصَّـواب. أليسَ لهؤلاءِ المشـرِكينَ المكذِّبينَ نارُ جهنَّمَ يَكونُ لهمْ مُسـتَقَرًّا إلى الأبَد؟

{وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} (الزمر : ٣٣)

٣٣- والرسُـــلُ الذينَ جاؤوا بالحقِّ مِنْ عندِ رَبِّهم، وصــــدَّقُوا به، وبلَّغوهُ عنْ عَقيدَةٍ واقتِناع، والمؤمِنونَ الذينَ صدَّقوا بما جاؤوا بهِ واتَّبَعوه، أولئكَ الذينَ تجنَّبوا الشِّركَ وخافُوا ربَّهم.

{لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ} (الزمر : ٣٤)

٣٤- لهُمْ ما يَشـاؤونَ وما يَشـتَهونَ مِنَ النَّعيمِ عندَ رَبِّهم، وذلكَ هوَ جَزاءُ الذينَ صـدَقوا في إيمانِهم، وأحسَنوا في عمَلِهم.

{لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} (الزمر : ٣٥)

٣٥- ليَغفِرَ اللهُ لهمْ أسـوَأَ ما عَمِلوا مِنْ ذُنوب، ويُثيبَهمْ على أعمالهمُ الحسَـنةِ أحسَـنَ الثَّوابِ وأجزلَه.

{أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْـــلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}
(الزمر: ٣٦)

٣٦- أليسَ اللهُ كافيًا عبدَهُ ونبيَّهُ محمَّدًا صلى الله عليه وسلم وحافِظًا إيَّاهُ مِنْ سُوءِ الكائدينَ له؟ ويُخَوِّفونَكَ بالأصْنام، وأنَّكَ إذا ذَكَرْتَها بسُوءٍ أصَابَتْكَ بِشَرّ؛ جَهلاً وضَلالاً منهم، ومَنْ يُضْلِلْهُ اللهُ - لعِلمِهِ أنَّهُ يَستَحِقُّ الضَّلالةَ - فليسَ لهُ مُرشِدٌ يأخذُ بيدِهِ إلى الحقّ.

{وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ} (الزمر : ٣٧)

٣٧- ومَنْ يَهْدِهِ اللهُ ويُوَفِّقْهُ إلى طَريقِ الخَيرِ والصَّلاح، فلا أحدَ يَقدِرُ على صَرْفِهِ عنها. أليسَ اللهُ غالبًا لا يُغلَب، شَديدَ الانتِقامِ ممَّنْ كفرَ وعانَد؟

{وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ} (الزمر : ٣٨)

٣٨- وإذا ســألتَ المشــركين: مَنِ الذي خلقَ السَّــماوات العَظيمَة، والأرْضَ وما فيها وما عَليها؟ فيَقولون: اللهُ وَحدَه. فقُلْ لهم: أرأيتُمْ لو أنَّ اللهَ ابتَلاني بشِــدَّةٍ وبَلاء، هلْ تَســتَطيعُ آلهَتُكمُ المزعُومَةُ أنْ تَكشِــفَ عنّي ما أصــابَني مِنْ ذلك؟ وإذا رَحِمَني فأكرَمَني بخَيرٍ ونِعمَة، هلْ تَقدِرُ على أنْ تمنعَهُ منّي؟

إنَّها لا تَستَطيعُ أنْ تَفعلَ شَيئًا مِنْ ذلك. فقُلْ لهم: إنَّ كافِيَّ مِنْ إصــابَةِ الخَير، وحافِظِي مِنَ الشرّ، هوَ اللهُ وَحدَه، وعليهِ وَحدَهُ يَعتَمِدُ المتوَكِّلونَ على رَبِّهم، لعِلمِهمْ أنَّ الخَيرَ والشرَّ بيدِه.

{قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} (الزمر : ٣٩)

٣٩- قُلْ لهمْ أيُّها الرسُــول: اعمَلوا على طَريقَتِكمْ ما تُريدُون، واثبتُوا على ما أنتُمْ عليهِ مِنَ الشِّركِ والتَّكذيب - وهوَ تَهديدٌ لهمْ وليسَ بأمرٍ - وأنا عامِلٌ على طَريقَتي ومِنهَجي، وسَوفَ تَعلَمونَ مَنِ الجاني على نَفسِه،

{مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ} (الزمر : ٤٠)

٤٠- الذي يَحِلَّ عليهِ عَذابٌ يُذِلُّه، كقَتلٍ أو أسْـــر، كما كانَ في بَدر. ولهُ في الآخِرَةِ عَذابٌ دائم، لا مَحيدَ لهُ عنه.

{إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} (الزمر : ٤١)

٤١- لقدْ أنزَلنا عَليكَ القُرآنَ لأجلِ مَصلحَةِ النَّاسِ في مَعاشِهمْ ومَعادِهم، فمنِ اختارَ الهُدَى فقدْ نفعَ نَفسَه، ومَنِ اختارَ الضَّلالَةَ فقدْ أضَرَّ بنَفسِه، ولستَ حافِظًا عَليهمْ لتُجبِرَهمْ على الهِدايَةِ وتَمنعَهمْ مِنَ الكُفر، إنَّما عَليكَ البَلاغ.

{اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (الزمر : ٤٢)

٤٢- اللهُ سُـبحانَهُ يَقبِضُ الأنفُسَ إليهِ عندَ مَوتِها، بأنْ يَقطعَ عَلاقتَها بالأبدَان، وكذلكَ عندَ مَنامِها، فيُمسِكُ التي قضَى بمَوتِها ولا يُردُّها إلى أبدانِها، ويَتركُ الأخرَى - النَّائمَةَ التي لم يُقَدِّرْ عليها الموتَ - لتَعودَ إلى أبدانِها عندَما تَستَيقِظ، حتَّى تَستَوفيَ رِزقَها وأجلَها وتَموت. وفي النَّوم، وإمساكِ الأنفُسِ وإرسالِها، عَلاماتٌ وأدِلَّةٌ على قُدرَةِ اللهِ واستِقلالِهِ بالتصَرُّفِ في شُؤونِ خَلقِه.

{أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاء قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ} (الزمر : ٤٣)

٤٣- بلِ اتَّخذَ المشرِكونَ آلهَةً مِنَ الأصْنامِ لتَشفعَ لهمْ عندَ الله، قُلْ لهمْ أيُّها الرسُول: إنَّ هذهِ الأصْنامَ لا تَفقَهُ شَيئًا، ولا تَعي ما تَطلبُونَ منها، فكيفَ تَتكلَّمُ معَ الله، وكيفَ تَشفَعُ لكمْ عندَه؟

{قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (الزمر : ٤٤)

٤٤- قُلْ لهم: إنَّ أمرَ الشَّـــفاعَةِ كُلَّهُ بيَدِ الله، فلا يَشـــفَعُ أحَدٌ إلاّ بإذنِهِ ورِضـــاه، لهُ مُلكُ السَّـماواتِ والأرْض، ولهُ وَحدَهُ التصَرُّفُ في شَـأنِهما، ثمَّ إليهِ تُرجَعونَ يَومَ القِيامَة، ليُحاسِبَكمْ على ما عَمِلتُم.

{وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} (الزمر : ٤٥)

٤٥- وإذا ذُكِرَ اللهُ وحدَهُ دونَ آلِهةِ المشـرِكين، فقيل: لا إلهَ إلاّ الله، انقَبَضَـتْ ونَفِرَتْ قُلوبُ الذينَ لا يُؤمِنونَ بالمعاد، ولم تَقبَلْه، وإذا ذُكِرَتْ أصـــنامُهمْ وَحدَها، أو ذُكِرَتْ معَ الله، إذا هُمْ يَفرَحونَ ويُسَرُّون؛ لحبِّهِمْ لها!

(قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّـهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) (الزمر : ٤٦)

٤٦- قُلْ أيُّها النبيُّ الكَريم: اللهمَّ خالِقَ السَّـماواتِ والأرْضِ ومُبدِعَهما على غَيرِ مِثالٍ سـبَق، عالِمَ ما غابَ عنْ أبصَـارِنا وعِلمِنا وما نُشـاهِدُه، أنتَ وَحدَكَ الذي تَفصِـلُ بينَ عِبادِكَ فيما كانوا يَختَلِفونَ فيهِ في الحيَاةِ الدُّنيا. فاهدِنا اللهمَّ إلى الحقِّ بإذنِك، إنَّكَ تَهدِي مَنْ تَشـــاءُ إلى صِراطٍ مُستَقيم.

{وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُـــوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} (الزمر : ٤٧)

٤٧- ولو كانَ للكافِرينَ جَميعُ ما في الدُّنيا مِنَ الأموالِ والذَّخائر، وضِـــعفَهُ معَه، لجعَلُوهُ فِديَةً لأنفُسِهمْ مِنَ العَذابِ الشَّديدِ يَومَ القيامَة. وظهَرَ لهمْ مِنْ أنوَاعِ العَذابِ الذي أعدَّهُ اللهُ لهم، ما لم يَكنْ لهمْ في الحُسبَان.

{وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} (الزمر : ٤٨)

٤٨- وظهَرَ لهمْ مَساوِئُ أعمالِهم، مِنَ الشِّركِ والظُّلمِ والمعاصي التي اقترفوها في الدَّارِ الدُّنيا، وما يَستَحِقُّونَهُ عَليهِ مِنْ عُقوبَة، وأحاطَ بهمُ العَذابُ الذي كانوا يَستَهزِؤونَ بهِ ويَستَبعِدونَ وقوعَه.

{فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (الزمر : ٤٩)

٤٩- فإذا أصابَ الإنسَانَ بَلاء، مِنْ مرَضٍ وشِدَّةٍ وخَوف، تضرَّعَ إلينا في ذُلٍّ وصَغَار، وإذا آتَيناهُ نِعمَة، كزيادَةٍ في المالِ والولَد، وصِحَّةٍ وعافيَةٍ ورَفاهيَة، قال: إنَّما حصَّلتُ هذا بجُهدٍ منِّي ومَهارَةٍ في الإدارَةِ والتِّجارَة، فاستِحقَاقي ذلكَ هوَ عنْ جَدارَة. وليسَ الأمرُ كما زعَموا، بلْ هوَ اختِبارٌ وامتِحانٌ لهمْ فيما أعطَيناهُم، لنَنظُرَ ما الذي يَقولون، وماذا يَفعَلون، أيُطيعونَ أمْ يَعصُون؟ أيَشكرونَ أمْ يَكفُرون؟ ولكنَّ أكثرَهمْ لا يَعلَمونَ أنَّ الأمرَ كذلك، ولذلكَ فهمْ يَقولونَ ما يَقولون.

{قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ} (الزمر : ٥٠)

٥٠- لقدْ قالَ مثلَ مَقالَتِهِمْ أفرادٌ وأُمَمٌ مِنْ قَبلِهم، كقارُونَ وغَيرِه، فلمْ يُفِدْهمْ هذا الكَلام، ولم يَنفَعْهمْ ما جمَعوهُ مِنْ حُطامِ الدُّنيا.

{فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاء سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ} (الزمر : ٥١)

٥١- فأصابَتْهمْ عُقوبَةُ ما عَمِلوا مِنْ ذُنوبٍ وآثَام. والذينَ أشرَكوا مِنْ قَومِكَ يَنالُهُمْ جَزاءُ ما كسَبوا مِنْ سَيِّئاتٍ كذلك، ولا مَهرَبَ لهمْ مِنْ ذلك، فإنَّ مَرجِعَهمْ إلى الله.

{أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (الزمر: ٥٢)

٥٢- ألَا يَعلَمُ المشركونَ أنَّ اللهَ يُوَسِّعُ الرِّزقَ على مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِه، ويُضَيِّقُ على مَنْ يَشاءُ منهم؟ إنَّ في تَوزيعِ الرِّزقِ بينَ النَّاس، وأحوالِهِمْ ودرَجاتِهِمْ فيه، وتنَقُّلِهِمْ بينَ الفَقرِ والغِنَى، عِبَرًا ودَلالات، لمنْ آمَنَ واعتَبَر.

{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (الزمر : ٥٣)

٥٣- قُلْ أيُّها الرَّسُولُ مِنْ مَعنَى كَلامِ الله: يا عِبادِيَ الذينَ أفرَطُوا في المعاصي وأكثَروا مِنَ الذُّنوبِ والفَواحِش، لا تَيأسُوا مِنْ رَحمَةِ اللهِ ومَغفِرَتِه، فاللهُ يَغفِرُ الذُّنوبَ جَميعَها، مَهما كانت، صَغيرَها وكبيرَها، سِرَّها وعَلانيَّتَها، فاللهُ كثيرُ المغفِرَةِ لذُنوبِ التَّائبين، عَظيمُ الرَّحمَةِ بعِبادِهِ المؤمنين.

{وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ} (الزمر : ٥٤)

٥٤- فارجِعوا إلى رَبِّكمْ وتُوبُوا إليه، وأخلِصوا لهُ الطَّاعَةَ والعمَل، قَبلَ أنْ يَحِلَّ بكمْ عَذابُه، ثمَّ لنْ تَجِدوا ناصِرًا يُنقِذُكمْ منه.

{وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} (الزمر : ٥٥)

٥٥- واتَّبِعوا القُرآنَ الذي أنزلَهُ اللهُ على عَبدِهِ محمَّدٍ النَّبيّ، قَبلَ أنْ يَفجَأَكمُ العَذابُ وأنتُمْ في غَفلَةٍ مِنْ ذلك.

{أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ} (الزمر: ٥٦)

٥٦- حتَّى لا تَقولَ نَفسٌ يَومَ القِيامَة: يا ندَمي ويا حَسرَتي على تَقصِيري في حَقِّ الله، وقدْ كنتُ مِنَ المستَهزئينَ بدِينِه، المكَذِّبينَ برسُلِه.

{أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} (الزمر : ٥٧)

٥٧- أو تقولَ نَفس: لو أنَّ اللهَ هَداني لكنتُ مِنَ المؤمِنينَ المخلِصين.

{أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} (الزمر : ٥٨)

٥٨- أو تقولَ نَفسٌ حينَ ترَى العَذابَ أمامَها: لو أنَّ لي رَجعَةً إلى الدُّنيا فأكونَ ممَّنِ استَقامَ على الطَّاعَةِ وأحسنَ في العمَل.

{بَلَى قَدْ جَاءتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ} (الزمر : ٥٩)

٥٩- ولكنْ جاءَتْكَ آياتي ومُعجِزاتي وأنزَلتُ الكتُبَ أيُّها العَبد، فكذَّبتَ بها وسَخِرْتَ منها، وتكبَّرْتَ عنِ الاعتِقادِ بها واتِّباعِها، فكنتَ مِنَ الجاحِدينَ بها. ولم تَسلُكْ مَسالِكَ الهِدايَةِ ولم تَطلُبْها، بلِ استَهزَأتَ وأصرَرْتَ على الكُفرِ حتَّى مُتَّ عليه.

{وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ} (الزمر : ٦٠)

٦٠- وفي يَومِ القِيامَةِ ترَى وجوهَ الكافِرينَ المكذِّبينَ سَوداءَ قاتِمَة، لِما يَنالُهُمْ مِنَ الشدَّة، ويَلحَقُهمْ مِنَ الحُزنِ والكمَد، ويَعترِيهمُ الخَوفُ مِنَ الأهوَال. أليسَ في جهنَّمَ مَأوًى وسِجنًا دائمًا للكافِرين؟

{وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (الزمر : ٦١)

٦١- أمَّا المؤمِنونَ الذينَ أخلَصوا الطَّاعَةِ لرَبِّهم، وتَجَنَّبوا مُخالفَةَ أمرِه، فإنَّ اللهَ يُنَجِّيهِمْ مِنَ النَّار، لكونِهِمْ مِنَ الفائزينَ الغانِمين، لا يُصيبُهمْ مَكروه، ولا يَكونونَ في هَمٍّ وغَمّ، بلْ همْ آمِنونَ سالِمون.

{اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} (الزمر : ٦٢)

٦٢- واللهُ خالِقُ كُلِّ شَـــيءٍ في هذا الكَون، وهوَ مالِكُهُ والمتصَـــرِّفُ فيه، وهوَ القائمُ بحِفظِه، وكُلُّ شَيءٍ فيهِ مَوكولٌ إليه.

{لَهُ مَقَالِيدُ السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِـرُونَ} (الزمر : ٦٣)

٦٣- لهُ مَفاتِحُ خَزائنِ السَّـماواتِ والأرْض، لا تأثيرَ لأحَدٍ غَيرِهِ في قِيادِها وتَحرُّكِها ونَواميسِـها وما يَجري فيهـا، والـذينَ جَحـدوا بآياتِ اللهِ والأدلَّةِ التي تؤدِّي إلى مَعرِفَةِ الحقِّ مِنْ دِينِه، همُ الخاسِرونَ حقًّا.

{قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ} (الزمر : ٦٤)

٦٤- قُلْ للمشرِكينَ أيُّها الرسُول: أتَطلُبونَ منِّي أنْ أعبُدَ غَيرَ اللهِ أيُّها الجاهِلون؟

{وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْـــرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (الزمر : ٦٥)

٦٥- ولقدْ أوحَينا إليكَ وإلى النبيِّينَ مِنْ قَبلِكَ: لئنْ أشـــرَكتَ معَ اللهِ في عِبادَتِك، لَيُبطِلَنَّ ثَوابَ عَمَلِكَ الصَّالِحِ الذي عَمِلتَه، ولتَكونَنَّ مِنَ الهالكينَ يَومَ القِيامَةِ إنْ أشرَكتَ باللهِ شيئًا.

{بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ} (الزمر : ٦٦)

٦٦- بلِ اعبُدِ اللهَ وَحدَهُ ولا تُشرِكْ بهِ شَيئًا، أنتَ ومَنِ اتَّبَعك، وكُنْ مِنَ الشَّاكرينَ لنِعَمِه.

{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَـتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّـماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} (الزمر : ٦٧)

٦٧- إنَّ المشـرِكينَ ما عَظَّموا اللهَ تَعالَى حقَّ عَظمَتِهِ حينَ عَبدُوا معَهُ غَيرَه، وطلَبوا مِنْ رَسُـولِهِ أنْ يَعبُدَ غَيرَه، وهوَ القادِرُ العَظيم، الذي بيدِهِ كُلُّ شَيء، والأرْضُ وما فيها قَبضَتُهُ يَومَ القيامَة، والسَّماواتُ جَميعُها مَطويَّاتٌ بيَمينِه، فتَعالَى وتَقدَّسَ عمَّا يَقولُهُ المشرِكون.

وفي صَحيحِ البُخاريِّ قَولُهُ صلى الله عليه وسلم: "يَقبِضُ اللهُ الأرْض، ويَطوي السَّماءَ بيَمينِه، ثمَّ يَقول: أنا الملِك، أينَ مُلوكُ الأرض؟".

{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ} (الزمر : ٦٨)

٦٨- ويأمرُ اللهُ إسرَافيلَ فيَنفُخُ في الصُّوْرِ النَّفخَةَ الأُولَى، وهيَ نَفخَةُ الصَّعْق، فيَموتُ كُلُّ مَنْ في السَّماواتِ ومَنْ في الأرض، إلاّ مَنْ شَاءَ اللهُ ألاّ يَموتَ بتلكَ النَّفخَة، فيَقبِضُ أرواحَهمْ في وَقتٍ آخَر، ولا يَبقَى إلاّ هوَ سُبحانَهُ وتَعالَى. ثمُّ نُفِخَ في الصُّوْرِ نَفخَةٌ أُخرَى، فإذا همْ أحياءٌ قائمونَ جَميعًا، يَنتَظِرونَ ما يُفعَلُ بهم.

{وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} (الزمر : ٦٩)

٦٩- وأضاءَتْ أرْضُ المحشَرِ يَومَ القِيامَةِ بنُورِ خالقِها، ووُضِعَتْ صَحائفُ الأعمَالِ للحِساب، وجِيءَ بالنَّبيِّينَ ليَشهَدوا أنَّهمْ بلَّغوا أُمَمَهمْ رِسالاتِ رَبِّهم، وجِيءَ بالشُّهَداءِ مِنَ الملائكةِ الحفَظَةِ على أعمَالِ العِباد، وهمْ لا يُظلَمونَ شَيئًا مِنْ ثَوابِ أعمالِهم، فلا يُنقَصُ مِنْ أَجر، ولا يُزادُ في عِقاب.

{وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ} (الزمر : ٧٠)

٧٠- وأُعطِيَتْ كلُّ نَفسٍ جَزاءَ ما عَمِلَتْهُ مِنْ خَيرٍ أو شَرّ، وهوَ أعلَمُ بالذي كانوا يَعمَلونَهُ في الدُّنيا، دونَ حاجَةٍ إلى كاتِبٍ أو شاهِد.

{وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} (الزمر : ٧١)

٧١- وسِيقَ الكافِرونَ المجرِمونَ إلى جهنَّمَ أفوَاجًا، بزَجرٍ وعُنفٍ وإهانَة، حتَّى إذا وصَلوا إليها فُتِحَتْ أبوابُها سَريعًا ليَدخُلوها، وقالَ لهمْ خزَنَتُها مِنَ الملائكةِ الزَّبانيَةِ تَوبيخًا وتَقريعًا لهم: ألَمْ يَأتِكُمْ رسُلٌ مِنْ جِنسِكمْ تَفهَمونَ منهمْ ما يَقولون، وهمْ يَقرَؤونَ عليكمْ آياتِ اللهِ المنزَلَة، لِما فيهِ خَيرُكمْ وصَلاحُكم، ويُحَذِّرونَكمْ مِنَ الحِسابِ والجَزاء، ويُخَوِّفونَكمْ مِنَ النَّارِ المعَدَّةِ للكافِرين؟ قالَ الكافِرون: بلَى قدْ جاءَتْنا رسُلُنا، ولكنَّا كذَّبْنا وخالَفنا، وآثَرْنا الهوَى والضَّلال، ووَجبَ عَلينا حُكمُ اللهِ بالعَذابِ الذي نَستَحِقُّه.

{قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} (الزمر : ٧٢)

٧٢- فقِيلَ لهم: ادخُلوا جهنَّمَ مِنْ أبوابِها المقسُومَةِ لكم، لتَمكثُوا فيها أبَدًا، فبئسَ مَأوَى المتَكبِّرين، الذينَ دُعُوا إلى الحقِّ في الدُّنيا فاستَكبَروا عنْ قَبولِه، وعنِ اتِّباعِ رسُلِ رَبِّهم، وأصَرُّوا على ذلكَ حتَّى ماتُوا عَليه.

{وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} (الزمر : ٧٣)

٧٣- وسِيقَ المؤمِنونَ المتَّقونَ إلى الجنَّةِ جَماعَةً بعدَ جَماعَة، بحسَبِ طَبَقاتِهِمْ في الفَضل، حتَّى إذا وصَلوا إليها وفُتِحَتْ أبوابُها، حيَّاهُمْ خَزنَتُها قائلين: سَلامٌ عَليكم: أنتُمْ في أمَانٍ مِنْ كُلِّ مَكروه، طابَتْ أعمالُكم، فطِبتُمْ نَفسًا، وطابَ لكمُ المقام، فادخُلوا الجنَّةَ ماكثينَ فيها أبَدًا، لا مَوتَ فيها، ولا تَحوُّلَ عَنها.

{وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} (الزمر : ٧٤)

٧٤- وقالَ أهلُ الجنَّةِ حامِدينَ شَاكِرين: الحَمدُ للهِ والثَّناءُ عَليهِ بما هوَ أهلُه، الذي صدَقَ فيما وعدَنا بهِ مِنَ الثَّوابِ على ألسِنَةِ رسُلِه، وأعطانا أرْضَ الجنَّة، نَنزِلُ فيما أعطانا رَبُّنا مِنَ الجنَّةِ الواسِعَةِ حيثُ نَشاء، فأنعِمْ بهذا الأجرِ الجَزيلِ لأهلِها.

{وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (الزمر : ٧٥)

٧٥- وترَى الملائكةَ مُحْدِقِينَ مِنْ حَولِ عَرشِ اللهِ العَظيم، وهمْ يُقَدِّسُونَ رَبَّهُمْ ويُمَجِّدونَهُ ويَحمَدونَه، وقُضِيَ بينَ الخَلائقِ بالقِسطِ والعَدل، والحَمدُ للهِ والشُّكرُ لهُ على حُكمِهِ وعَدلِه.

* * *

في حَديثٍ صَحيحٍ رَواهُ الترمِذيُّ وغَيرُه، عنْ عائشةَ رَضيَ اللهُ عنها قالت: "كانَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم لا يَنامُ حتَّى يَقرأَ الزُّمَر، وبَني إسرائيل"، وهيَ سُورةُ الإسراء.

سورة غافر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{حم} (غافر : ١)

١- الحروفُ المقَطَّعَةُ لم يَرِدْ فيها حَديثٌ صَحيح، واللهُ أعلَمُ بمَعناها.

{تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} (غافر : ٢)

٢- تَنزيلُ القُرآنِ مِنَ اللهِ العَزيزِ الذي لا يُغلَب، العالِمِ بكلِّ شَيء.

{غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ} (غافر: ٣)

٣- الذي يَغفِرُ ذُنوبَ عِبادِهِ التَّائبينَ مهما عَظُمَت، ويَقبَلُ تَوبَةَ عِبادِهِ المؤمِنينَ مهما أذنَبوا، وهوَ شَديدُ العُقوبَةِ لمنْ عاندَ وكفَر، الغَنيُّ، المتَفَضِّلُ على عِبادِهِ بالخَيرِ والنِّعَمِ الكثيرة، لا مَعبودَ بحَقٍّ سِوَاه، إليهِ المآبُ للحِسابِ والجَزاء.

{مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ} (غافر : ٤)

٤- لا يَدفَعُ الحقَّ ولا يُجادِلُ بالباطلِ إلاّ الجاحِدونَ بآياتِ اللهِ البيِّنَة، فلا تَلتَفِتْ إلى ما هُمْ فيهِ مِنْ ثَراءٍ ونَعيم، وصِحَّةٍ ورَخاء، معَ كُفرِهم، فإنَّهُمْ عنْ قَريبٍ تَنتَهي آجالُهم، وقدْ خَسِروا أنفُسَهمْ وأهليهم.

{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ} (غافر : ٥)

٥- كَذَّبَ قَبلَ مُشرِكي مكَّةَ قَومُ نُوحٍ نَبيَّهم، فكانوا أوَّلَ مَنْ كذَّبوا رَسُولاً، وكذلكَ الجَماعاتُ التي تَحَزَّبَتْ على مُعاداةِ الرسُل، كعادٍ وثَمودَ وقَومِ فِرعَون، فكذَّبوهم، وهمَّ كُلٌّ منهمْ أنْ يُوقِعُوا

بنَبيّهم، مِنْ قَتلٍ، أو أذًى، وشَـــكَّكوا في رِســـالاتِهم، وجادَلُوهمْ وعانَدوهم، ليَطمِسُـــوا الحقَّ وَيَصرِفوا النَّاسَ عنه، فأنزَلتُ بهِمْ نِقمَتي، فانظُرْ كيفَ كانتْ عُقوبَتي شَديدَةً فيهم.

{وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ} (غافر : ٦)

٦- وكما وجبَ حُكمُ اللهِ على الأُمَمِ المكذِّبَةِ السَّـــابقَةِ بالعَذاب، كذلكَ يَكونُ حُكمُهُ على مَنْ كذَّبَكَ وخالفَك، لأنَّهُمْ جَميعًا كافِرونَ مُعانِدونَ مِنْ أهلِ النَّار.

{الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَـــبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْـــتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} (غافر : ٧)

٧- إنَّ الملائكةَ الذينَ يَحمِلونَ عَرشَ الرَّحمن، ومَنْ حَولَهُمْ مِنَ الملائكةِ المقَرَّبين، يُقَدِّسُـــونَ اللهَ ويُنَزِّهونَهُ مِنْ كُلِّ شِركٍ ونَقص، ويُثنونَ عَليه، ويُؤمِنونَ بهِ إيمانًا كامِلاً عَميقًا ويَخشَونَه، ويَطلُبونَ منهُ العَفوَ والمغفِرَةَ لعِبادِهِ المؤمِنين، قائلين: اللهمَّ إنَّ رَحمَتَكَ وَسِعَتْ كُلَّ شَيء، وعِلمَكَ أحاطَ بما قالَهُ عِبادُكَ المؤمِنونَ وما عَمِلوه، مِنْ خَيرٍ وشَـــرّ، فاغفِرْ ذُنوبَ التَّائبينَ الذينَ أنابُوا إليك، والتزَموا صِراطَكَ المستَقيم، واحفَظهُمْ مِنْ عَذابِ النَّار.

{رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَـــلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (غافر : ٨)

٨- اللهمَّ وأدخِلْهمْ جَنَّاتِ الإقامَةِ الدَّائمَةِ التي وعَدتَهُمْ بها، واجمَعْ بينَهمْ وبينَ مَنْ آمَنَ وعَمِلَ صالِحًا مِنْ أزواجِهم، وذُرِّياتِهم، لتَبتَهِجَ قُلوبُهم، ويَكتَمِلَ سُرورُهم، فأنتَ الغالِبُ الذي لا يَمتَنِعُ عَليهِ شَيء، الحَكيمُ فيما تَفعَلُ وتَقول.

{وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (غافر: ٩)

٩- وقِهِمْ وَبالَ السَّـيِّئاتِ وسُـوءَ عاقِبَتِها، فإنَّ مَنْ حَفِظتَهُ منها يَومَ المؤاخَذَةِ والحِسـاب، فقدْ رَحِمْتَهُ وأنقَذتَهُ مِنَ العَذاب، وذلكَ هوَ الفَلاحُ والسَّعادَةُ العُظمَى.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ} (غافر : ١٠)

١٠- إنَّ الكافِرينَ يُنادَونَ مِنْ قِبَلِ المَلائكةِ وهمْ في سَعيرِ النَّار: إنَّ بُغْضَ اللهِ لكمْ في الدُّنيا حينَما كانَ يَدعُوكمْ إلى الإيمانِ فتُعانِدونَ وتَستَكبِرونَ عنِ اتِّباعِه، أكبَرُ مِنْ بُغضِكمْ لأنفُسِكم، التي عرَّضَتْكُمْ للعُقوبَةِ والنِّيران، بسبَبِ ما أسلفَتْ مِنَ الأعمالِ السَّيِّئة.

{قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ} (غافر : ١١)

١١- قالَ أهلُ النَّارِ وهمْ يَتحَسَّرون: اللهمَّ إنَّكَ أمَتَّنا مرَّتين، حيثَ خُلِقنا في أرْحامِ أُمَّهاتِنا قَبلَ نَفخِ الرُّوح، وعندَ انقِضاءِ آجالِنا في الدُّنيا. وأحيَيْتَنا مرَّتين: حينَ نَفَختَ فينا الرُّوحَ ونحنُ في الأرْحام، ثمَّ إحياءَنا للبَعثِ يَومَ القِيامَة. وقدِ اعتَرَفْنا بما كنَّا عليهِ مِنْ كُفرٍ وتَكذيب، فهلْ مِنْ طَريقَةٍ للخُروجِ مِنَ النَّار، والعَودَةِ إلى الدُّنيا، لنَعملَ غَيرَ الذي كنَّا نَعمَل، فإنَّكَ قادِرٌ على كُلِّ شَيء؟

وقدْ أُجيبُوا أنْ لا خُروجَ منها.

{ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ} (غافر : ١٢)

١٢- ذلكمُ العَذابُ الذي حقَّ عَليكم، لأنَّهُ إذا عُبِدَ اللهُ وَحدَهُ ودُعِيتُمْ إلى التَّوحيدِ جحَدتُم، وإذا أُشرِكَ بهِ غَيرُهُ ودُعيتُمْ إلى ذلك، كعِبادَةِ اللَّاتِ والعُزَّى، صدَقتُمْ واستَجَبتُم، فالقَضاءُ الحقُّ في أمرِكمْ هوَ للهِ العَليِّ الذي لا يَعلو عَليهِ شَيء، الكبيرِ الذي لا أكبرَ منهُ ولا أعظَم.

{هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ} (غافر : ١٣)

١٣- هوَ اللهُ الذي يُظهِرُ لكمْ دلائلَ عَظيمَةً مِنْ خَلقِهِ لتَستَدِلُّوا بها على تَوحيدِهِ وتَتعَرَّفوا قُدرَتَه، ويُنَزِّلُ لكمُ المطرَ مِنَ السَّحابِ لتَنبُتَ بهِ الزُّروعُ والثِّمارُ وتَكونَ رِزقًا لكم، ولا يَعتَبِرُ بهذا إلاّ مَنْ تفكَّرَ ورجعَ إلى رَبِّه، وعَلِمَ أنَّهُ هوَ الرَّازِق، ذو الفَضلِ على عِبادِه.

{فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} (غافر : ١٤)

١٤- فاعبُدوا اللهَ وَحدَهُ ولا تُشرِكوا بهِ شَيئًا، وادعُوهُ وَحدَه، ولو أبغضَكمُ المشرِكونَ في هذا وكَرِهوا إخلاصَكمْ في العِبادَة.

{رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ} (غافر : ١٥)

١٥- وعَرشُ اللهِ عَظيم، عالٍ على جَميعِ مَخلوقاتِه، وهوَ سُبحانَهُ رَفيعُ الدَّرَجات، ذو المقامِ العالي، يُنزِلُ الوَحيَ بأمرِهِ على مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِه، ممَّنِ اصطَفاهُمْ للنبوَّة، لتَحيا بهمُ القُلوب، وليُنذِروا مِنْ عَذابِ يَومِ القِيامَة.

{يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} (غافر: ١٦)

١٦- في ذلكَ اليَومِ العَصيب، يَكونُ أهلُ المحشَرِ جَميعًا ظاهِرين، لا يَستُرُهمْ شَيء. ولِمَنْ يَكونُ الملكُ يومَئذ؟ للهِ وَحدَه، فهوَ المتفَرِّدُ بالملك، الذي قهَرَ كُلَّ شَيءٍ وغلبَه.

{الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} (غافر : ١٧)

١٧- وفي هذا اليَومِ المخُوف، تُحاسَبُ كُلُّ نَفسٍ على ما عَمِلَتْ مِنْ خَيرٍ وشَرّ، وتُجزَى على ذلكَ إثابَةً أو عُقوبَة، ولا ظُلمَ في هذا اليَوم، فالحاكِمُ فيهِ هوَ اللهُ الحَكَمُ العَدل، لا يَنقُصُ مِنْ ثَوابِ أحَد، ولا يَزيدُ في عُقوبَةِ أحَد. وهوَ سَريعُ الحِساب، على كثرَةِ الخَلق، وكثرَةِ ما عَمِلوا.

{وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ} (غافر : ١٨)

١٨- وخَوِّفْهمْ أيُّها الرَّسُولُ مِنْ يَومِ القِيامَةِ القَريب، عندَما تَرتَفِعُ القُلوبُ لتَبلُغَ الحناجِر، مِنَ الخَوفِ والهَلَع، لِما فيهِ مِنَ الشَّدائدِ والأهوَال، وهمْ ساكِتونَ مَكروبون، قدْ مُلِؤوا خَوفًا وحُزنًا، لا يَتكلَّمُ أحَدٌ إلاّ بإذنٍ مِنَ الله، وليسَ للكافِرينَ يَومَئذٍ قَريبٌ يَنفَعُهمْ ويُشفِقُ عَليهم، ولا شَفيعٌ يُسمَعُ لهُ كلامٌ ويُطاع.

{يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} (غافر : ١٩)

١٩- وعلمُ اللهِ مُحيطٌ بأحوَالِ الإنسَانِ كُلِّها، إنَّهُ يَعلَمُ الحَركةَ الخفيَّةَ والنَّظرَةَ الخائنةَ في العَين، وإنْ لم تَبدُ في ظاهِرِها كذلك[١٣٥]، ويَعلَمُ ما تُسِرُّهُ النُّفوسُ وتُكِنُّهُ الضَّمائر.

{وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} (غافر : ٢٠)

٢٠- واللهُ يَحكمُ بالعَدل، وهذهِ الأصْنامُ والأندَادُ التي اتَّخذَها المشرِكونَ آلهة، لا يَملِكونَ شَيئًا، ولا يَقدِرونَ على أنْ يَحكموا بشَيء، فهمْ جَماداتٌ لا تَسمَعُ ولا تَتكلَّم، واللهُ هوَ السَّميعُ لأقوالِ خَلقِه، البَصيرُ بأحوالِهم، بما كانَ منهمْ وما يَكون.

{أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ} (غافر : ٢١)

---

(١٣٥) {خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ} أي: النظرةَ الخائنةَ للأعين. وإسنادُ الخيانةِ إلى النظرةِ مجاز؛ لأن الخائنَ هو الناظر... والخيانةُ مخالفةُ الحقِّ بنقضِ العهدِ في السر، ونقيضُها الأمانة. والمرادُ هنا: استراقُ النظرِ إلى غيرِ المحْرَم، كفعلِ أهلِ الريب، والنظرةِ الثانية... (روح البيان، باختصار).

٢١- أوَلَمْ يُسافِرِ المشركونَ فيَنظُروا في آثارِ الذينَ أهلَكناهُمْ ممَّنْ كانوا قَبلَهم، كثَمودَ وعادٍ وقَومِ لُوط، وقدْ كانوا أكثرَ قوَّةً وتمكُّنًا منهم، وأكثرَ آثارًا وعُمرانًا، فانتَقمَ اللهُ منهمْ وأهلَكَهم، ولم تُغنِ عَنهمْ قوَّتُهُمْ شَيئًا، ولم يَمنَعْهمْ مِنْ عَذابِ اللهِ مانِع.

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ} (غافر : ٢٢)

٢٢- لقدْ أصابَهُمُ الهَلاكُ جزاءَ كُفرِهِمْ وجَرائمِهم، فقدْ كانتْ تَأتيهمْ رسُلُهمْ بالآياتِ الواضِحات، والمعجِزاتِ البيِّنات، الدَّالَّةِ على صِدقِ نبوَّتِهم، وصِحَّةِ رِسالاتِهم، فجَحدوا بها، وأصَرُّوا على الكُفر، فأهلَكَهمُ الله، إنَّهُ ذو قوَّةٍ عَظيمَةٍ فلا يُقهَر، وعِقابُهُ شَديدٌ لمنْ عَصاه.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} (غافر : ٢٣)

٢٣- ولقدْ أرسَلنا موسَى بنَ عِمرانَ بمُعجِزاتِنا، وحُجَّةٍ بَيِّنَةٍ ظاهِرَةٍ تَدلُّ على صِدقِ نبوَّتِه،

{إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} (غافر : ٢٤)

٢٤- إلى فِرعَونَ مَلِكِ مِصرَ المتكبِّر، ووَزيرِهِ هامان، وقارُونَ الثريِّ المغرور، فكذَّبوه، وقالوا: ما هذا إلاّ ساحِر، يدَّعي النبوَّةَ كذِبًا.

{فَلَمَّا جَاءهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاء الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} (غافر : ٢٥)

٢٥- فلمَّا جاءَهمْ بمُعجِزاتٍ قاطِعَة، ولم يستَطِعْ أحَدٌ مِنَ السَّحرَةِ وغَيرِهمْ أنْ يأتوا بمِثلِها، ولم يَقدِروا على رَدِّ الحُجَجِ والبَراهينِ التي جاءَهُمْ بها موسَى عليهِ السَّلام، لجَؤوا إلى القوَّةِ والظُّلم، وقالوا: أَعِيدوا قَتلَ أبناءِ بَني إسْرائيلَ الذينَ آمَنوا معَه، وأبقُوا على نِسائهمْ للخِدمَة؛ ليَصدُّوهمْ بذلكَ عنْ مُتابَعَةِ موسَى. ولكنَّ خُطَطَهمْ وأحابيلَهمْ في الفَتكِ بالمؤمنينَ لن تُفيدَهم، فالعاقِبَةُ لهمْ مَهما فَعَلوا بهم، ولنْ يُفلِحَ الظَّالِمون.

{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَـــى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ} (غافر : ٢٦)

٢٦- وقالَ فِرعَونُ لأصحَابِ الرَّأي والمِشورَةِ عندَه: دَعوني أقتُلْ موسَى، ولْيَستَنصِرْ ربَّهُ عليَّ بما شَـاء، فلا أُبالي بذلك، إنِّي أخشَـى إنْ لم أَقتُلْهُ أنْ يَبَدِّلَ ما أنتُمْ عَليهِ مِنْ عِبادَتي وعِبادَةِ الأصْنام، أو أنْ يُفسِدَ عَليكمْ أمرَ دُنياكم، فيَقتُلَ النَّاسَ ويُضَيِّعَ الحُقوق!

{وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ} (غافر: ٢٧)

٢٧- وقالَ موسَى عَليهِ السَّلامُ لما سَمِعَ حَديثَ قَتلِه: إنِّي التَجأتُ إلى اللهِ، واستَجَرْتُ بهِ مِنْ شَرِّ كُلِّ مُستَكبِرٍ لا يُذعِنُ للحقِّ، ولا يُؤمِنُ بيَومِ الحِسابِ والجَزاء.

{وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ} (غافر : ٢٨)

٢٨- وقالَ لهمْ رَجُلٌ مُؤمِنٌ مِنْ قَومِ فِرعَون، قدْ كتمَ إيمانَه: كيفَ تَقتُلونَ رَجُلاً لا ذَنْبَ لهُ إلاّ أنَّهُ يَقولُ رَبِّيَ الله، ولم يَقصِدْكمْ بإيذَاء، وقدْ أيَّدَ قَولَهُ بالدَّليلِ والبُرهان، فإذا كانَ كاذِبًا في قَولِهِ فإنَّ وَبالَ ذلكَ يَعودُ عَليه، ولنْ يَضُـرَّكمْ بشَـيء، وإذا كانَ صـادِقًا فإنَّ أقلَّ ما في صِـدقِهِ أنْ يُصيبَكمْ بَعضُ ما توَعَّدَكمْ به، ولو كانَ مُسرِفًا في القَتلِ والفَساد، وكاذِبًا في ادِّعاءِ النبوَّة، لَما هَداهُ اللهُ إلى البَيِّنات، ولَما أيَّدَهُ بالمعجِزات؟ وفي ذلكَ تَعريضٌ بفِرعَونَ وفَسادِه.

{يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُـــرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} (غافر : ٢٩)

٢٩- وقالَ وهوَ يَنصَـحُهمْ بحِكمَة: يا قَوم، إنَّ لكمُ الحُكمَ والمِلكَ اليَومَ على بَني إسْـرائيلَ في أرْضِ مِصر، فمَنْ يُنقِذُنا مِنْ عَذابِ اللهِ إنْ حَلَّ بنا؟ فلا تُفسِدوا أمرَكم، ولا تَتعَرَّضوا لسخَطِ الله، واحذَروا نِقمَتَه، فإنَّهُ لنْ تُغنيَ عنكمْ قُوَّتُكمْ أمامَ قُوَّةِ الله.

قالَ فِرعَونُ لِمَلَئهِ بَعدَما سَمِعَ كَلامَ المؤمِن: لا أُشـيرُ عَليكمْ إلاّ بقَتلِه، وما أدعُوكُمْ بهذا الرَّأي إلاّ إلى طَريقِ الصَّلاحِ والصَّواب.

{وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ} (غافر : ٣٠)

٣٠- وقالَ لهمْ ذلكَ الرَّجُلُ المؤمِن: يا قَوم، إنِّي أخافُ عَليكمُ العُقوبَةَ كما حَلَّتْ بالأقوَامِ الذينَ تَحَزَّبوا على تَكذيبِ رسُلِهم.

{مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ} (غافر : ٣١)

٣١- مِثلَ عَادَةِ قَومِ نُوح، وعادٍ قومِ هود، وثَمودَ قومِ صـالح، والذينَ مِنْ بَعدِهمْ مِنَ الكافِرين، كقَومِ لُوط، الذينَ اعتادُوا على إيذاءِ رسُلِهم. وقدْ أصابَهُمُ العَذابُ بسبَبِ ذُنوبِهِمْ ومَعاصيهم، ولمْ يَظلِمْهمُ الله، بلِ استَوجَبوا ذلك بأعمالِهم.

{وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ} (غافر : ٣٢)

٣٢- ويا قَوم، إنِّي أخافُ عَليكمْ يَومَ الحِسـابِ والجَزاء، الذي يَتنادَى فيهِ النَّاسُ ويَتَصـايَحون، ويَستَغيثونَ فيهِ ويَفزَعون.

{يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} (غافر : ٣٣)

٣٣- في ذلكَ اليَومِ الرَّهيب، الذي تَنصَـرِفونَ فيهِ - أيُّها الكافِرونَ - مِنْ مَوقِفِ الحَشـرِ إلى حَيثُ جَهنَّم، لا يَقدِرُ على مَنعِكمْ مِنْ عَذابِ اللهِ أحَد، ومَنْ أضَـلَّهُ اللهُ فلا هاديَ له. واللهُ أعلَمُ بمَنْ يَستَحِقُّ الهُدَى ومَنْ يَستَحِقُّ الضَّلال.

{وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ} (غافر : ٣٤)

٣٤- ولقدْ جاءَكمْ نَبيُّ اللهِ يوسُفُ بنُ يَعقوبَ قَبلَ موسَى بالأدِلَّةِ الظَّاهِرَةِ على صِدقِ نُبوَّتِه، وصِحَّةِ رِسالَتِه، فكنتُمْ لا تَزالونَ في شَكٍّ وتَرَدُّدٍ مِنْ صِدقِ ما دَعا إليهِ مِنَ التَّوحيد، حتَّى إذا ماتَ بَقيتُمْ على كُفرِكم، وظَنَنتُمْ أنَّ اللهَ لَنْ يَبعثَ مِنْ بَعدِهِ رَسولاً إليكم. والمخاطَبونَ أهلُ مِصرَ مِنَ الأقبَاط، أو هوَ مِنْ قَبيلِ خِطابِ الأولادِ بأحوَالِ الآباء.

وبمثلِ الحالِ التي أنتُمْ عَليها مِنَ الشَّكِّ والكُفرِ والتَّكذيب، يُضِلُّ اللهُ مَنْ هوَ مُشرِكٌ شاكٌّ.

{الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ} (غافر : ٣٥)

٣٥- الذينَ يُناقِشونَ مِنْ غَيرِ دَليلٍ يتمسَّكونَ بِهِ أصْلاً، ويَدفَعونَ الحقَّ بالباطِل، ويُجاهِدونَ في طَمسِ الحقِّ وأدِلَّتِه، عَظُمَ بُغضًا وكُرهًا عندَ اللهِ وعندَ عِبادِهِ المؤمنينَ جِدالُهُمُ الباطِلُ الذي لا يَزالونَ قائمينَ عَليه. ولِمثلِ هذهِ الصِّفاتِ التي هُمْ عَليها، يَختِمُ اللهُ على قُلوبِ المتكَبِّرينَ المتجَبِّرينَ بالضَّلال، الذينَ يَستَكبِرونَ عنِ الإيمَان، ولا يَقبَلونَ الحقّ.

{وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ} (غافر : ٣٦)

٣٦- وقالَ فِرعَونُ المتكبِّرُ لوَزيرِهِ هامان: يا هامَانُ ابنِ لي بِناءً عاليًا لعَلِّي أصِلُ إلى الطُّرُق،

{أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ} (غافر : ٣٧)

٣٧- طُرُقِ السَّماواتِ وأبوابِها، فأَدخُلَ مِنْ سَماءٍ إلى أخرى، فأنظُرَ إلى إلهِ موسَى، وإنِّي أظنُّهُ كاذِبًا في ادِّعائهِ أنَّ لهُ إلهًا غَيري. وكذلكَ حُسِّنَ لفِرعَونَ سُوءُ صَنيعِه، وزُيِّنَ في قَلبِهِ ادِّعاءُ الألوهيَّةِ وتَضليلُ النَّاسِ بذلك، وأُبعِدَ عنْ نَهجِ الحقِّ والصَّواب. وما يُخَطِّطُ لهُ فِرعَونُ مِنْ حِيَلٍ ومَكائدَ وادِّعاءاتٍ هَباءٌ وخَسارَة.

{وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ} (غافر : ٣٨)

٣٨- وقالَ ذلكَ الرَّجُلُ المؤمِن: يا قَوم، امتَثِلوا أمري واتَّبِعوني، أُرشِدْكمْ إلى طَريقِ الهُدَى والنَّجاة، لا كما يَقولُ فِرعَون.

{يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ} (غافر : ٣٩)

٣٩- يا قَوم، إنَّ هذهِ الحياةَ الدُّنيا استِمتاعٌ يَسيرٌ يَزولُ بعدَ حين، والدَّارُ الآخِرَةُ هيَ التي فيها الحياةُ الحقيقيَّة، التي لا تَزولُ ولا تَنقَطِع.

{مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ} (غافر : ٤٠)

٤٠- مَنْ عَمِلَ في الحيَاةِ الدُّنيا سَيِّئة، فلا يُعاقَبُ في الآخِرَةِ إلاّ بما يَستَحِقُّهُ على تلكَ السَيِّئة، قَضاءً عَدْلاً مِنَ الله، ومَنْ عَمِلَ عمَلاً حسَناً، ذَكَرًا كانَ أو أُنثَى، وهوَ مِنَ المؤمِنين، فأولئكَ يَدخُلونَ جَنَّاتِ النَّعيم، ويُكافَؤونَ فيها بدونِ حِساب، ويُضاعَفُ لهمُ الثَّوابُ أضعافًا كثيرَة.

{وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ} (غافر : ٤١)

٤١- ويا قَوم، ما لي أدعُوكمْ إلى ما فيهِ فَوزُكُمْ ونَجاتُكم، وأنتُمْ تَدعونَني إلى ما يَكونُ مَصيرُهُ النَّار؟

{تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ} (غافر: ٤٢)

٤٢- تَدعونَني لأكفُرَ بالإلهِ الحقّ، وأُقِرَّ بشَريكٍ لهُ في العِبادَة، وهوَ جَهلٌ، ولا دَليلَ عَليه، وأنا أدعُوكمْ إلى عِبادَةِ اللهِ وَحدَه، العَزيزِ المنتَقِمِ الذي لا يُغلَبُ في شَيء، الغفَّارِ لذُنوبِ عِبادِهِ المؤمِنين.

{لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ} (غافر : ٤٣)

٤٣- لقدْ ثبتَ أنَّ ما تَدعونَني إليهِ مِنْ عِبادَةِ الأصْنام، لا حَقيقَةَ لهُ في الحياةِ الدُّنيا ولا في الآخِرَة، فهيَ حِجارَةٌ صَمَّاءُ بَكماء، لم يَسمَعْها أحَدٌ تَدعو إلى عِبادَتِها، ولم تَنطِقْ مرَّةً بكونِها آلهَة، فهيَ لا تَستَجيبُ لنداءِ دُعاتِها، ويومَ القِيامَةِ تَتبَرَّأُ مِنْ عابِديها، فكيفَ تَدعونَني إلى عِبادَتِها؟ فاتَّقُوا اللهَ واحذَروا، فإنَّ مَصيرَنا ومَرجِعَنا جَميعًا إلى اللهِ يَومَ القِيامَة، فيُحاسِبُ كُلاًّ بما كانَ عَليه، ويُجازيهِ بما يَستَحِق، وإنَّ المشرِكينَ المستَكبِرينَ عنِ اتِّباعِ الحقّ، جَزاؤهمُ الخُلودُ في النِّيران.

{فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} (غافر : ٤٤)

٤٤- أقولُ لكمْ هذا في الحياةِ الدُّنيا، ويأتي اليَومُ الذي تَتذَكَّرونَ فيهِ هذا الكلامَ جَيِّدًا، عندَما تُعاينونَ العَذاب. وأستَعينُ باللهِ وأتَوَكَّلُ عَليه، وهوَ بَصيرٌ بأحوالِ عِبادِهِ وما تُكِنُّهُ قُلوبُهم، فيَهدي مَنْ يَستَحِقُّ الهِدايَة، ويُضِلُّ مَنْ يَستَحِقُّ الضَّلال.

{فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ} (غافر : ٤٥)

٤٥- فنجَّى اللهُ عبدَهُ المؤمِنَ مِنْ مَكائدِ آلِ فِرعَونَ وما أرَادوا بهِ مِنَ الشـرّ، وأحاطَ بهمُ العَذابُ، فعوقِبوا بالغرَقِ في الدُّنيا، وبالنَّارِ في الآخِرَة.

{النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} (غافر : ٤٦)

٤٦- وتُعرَضُ أرواحُهمْ على النَّارِ صَباحًا ومَساءً في الحياةِ البَرزَخيَّة، وهمْ في قُبورِهم، وعندَ قيامِ السَّاعَةِ يُقالُ للمَلائكة: أَدخِلُوا آلَ فِرعَونَ أشَدَّ عَذابٍ في جَهَنَّمَ وأكثرَهُ ألَمًا.

{وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ} (غافر : ٤٧)

٤٧- واذكُرْ عندَما يَتخاصَمُ أهلُ النَّارِ في النَّار، فيَقولُ الضُّعَفاءُ مِنَ الأتْباعِ الذينَ أذَلُّوا أنفُسَهم، لقادَتِهِمْ وكُبَرائهِمُ الذينَ كانوا يَدعُونَهُمْ إلى أفكارِهِمْ ونَظَرِيَّاتِهِم: لقدْ كنَّا تابِعينَ لكم، نُصَدِّقُكمْ فيما تَقولون، ونُكَذِّبُ ما تُكَذِّبون، فهلْ تَنفَعوننا في هذا الموقِفِ شَيئًا، وتَدفَعونَ عنَّا قِسمًا مِنْ هذا العَذابِ الذي نحنُ فيه؟

{قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ} (غافر : ٤٨)

٤٨- قالَ القادَةُ المستَكبِرون: لقدْ حقَّتْ كلمَةُ اللهِ عَلينا جَميعًا: الضالِّ والمضِلّ، فنَحنُ جَميعًا نُعاقَبُ في النَّار. لقدْ قضَى اللهُ بينَ عِبادِه، وانتهَى كُلُّ شَيء، فأهلُ الجنَّةِ خالِدونَ في الجنَّة، وأهلُ النَّارِ خالِدونَ في النَّار.

{وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ} (غافر: ٤٩)

٤٩- ولما اشتدَّتْ بهمُ النَّار، وضَاقَتْ بهمُ الحيَل، قالوا للمَلائكةِ الموَكَّلينَ بتَعذيبِ أهلِ النَّار: ادعُوا اللهَ ربَّكمْ أنْ يُخَفِّفَ عنَّا ولو مِقدارَ يَومٍ مِنْ أيَّامِ العَذاب.

{قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} (غافر : ٥٠)

٥٠- قالَ لهمُ الخزَنَة: أمَا كانَ الأنبياءُ المرسَلونَ إليكمْ يأتونَكمْ بالأدلَّةِ الواضِحَة، والحُجَجِ المقنِعَة، الدالَّةِ على صِدقِ نبوَّتِهِمْ وصِحَّةِ رِسالَتِهِم؟ قالوا: بلَى، قدْ أتَونا بها، فكذَّبناهم.

قالَ لهمُ الملائكة: فادعُوا أنتُم، فإنَّنا لا نَدعو للكفَرَةِ المجرِمين، العاصِينَ لرَبِّ العالَمين. ودُعاءُ الكافِرينَ باطِلٌ لا نَفعَ فيه، لا يُجدي ولا يُستَجاب.

{إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} (غافر : ٥١)

٥١- إنَّا لنَنصُرُ رسُلَنا، وأتْباعَهمْ مِنَ المؤمِنين، بالحُجَّةِ على مَنْ خالَفَهم، أو بغلبَتِهم، في الحيَاةِ الدُّنيا، وفي الآخِرَة، بحضُورِ مَنْ يَشهَدُ على أعمالِهِم.

وللانتِصارِ صُوَرٌ شَتَّى في الدُّنيا، ولا يَقتَصِرُ على الغلبَةِ العَسكريَّة، والعِبرَةُ بالعَواقِب، وإنْ ظهرَ ذلكَ بعدَ مُدَّة.

{يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} (غافر : ٥٢)

٥٢- في ذلكَ اليَومِ لا يُقبَلُ عُذرٌ مِنَ المشـــرِكينَ ولا فِديَة، وجَزاؤهمُ البُعدُ مِنْ رَحمَةِ الله، ومَكانُهُمْ جهنَّم، أسوأُ مَرجِعٍ ومَأوى.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ} (غافر : ٥٣)

٥٣- ولقدْ آتَينا موسَـــى بنَ عِمرانَ مِنَ العِلمِ والوَحي، ما يُهتَدَى بهِ إلى الحقِّ والصَّـــواب، وأبقَينا لبَني إسْرائيلَ التَّوراة.

{هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ} (غافر : ٥٤)

٥٤- فيها هِدايَةٌ مِنَ الضَّلال، وتَذكيرٌ وعِظَة، لأصحابِ العُقولِ السَّليمَة.

{فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} (غافر : ٥٥)

٥٥- فاصبِرْ على أذَى المشرِكينَ وتَكذيبِهِمْ أيُّها الرسُول، فإنَّ وَعدَ اللهِ لكَ ولأتْباعِكَ المؤمِنينَ بالنَّصرِ حَقّ، فأقبِلْ على عِبادَةِ رَبِّكَ واستَعِنْ به، واستَغفِرْ لذَنبِكَ - وفيهِ تَربيَةٌ للنَّفسِ وتَزكيَةٌ للقَلبِ - ونَزِّهِ اللهَ مِنَ النَّقصِ والشَّـــريكِ بذِكْرِه، واثنِ عَليهِ واشـــكُرْ لهُ فَضـــلَهُ عَليكَ وعلى المؤمِنين، في الصَّباحِ والمساء.

{إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} (غافر : ٥٦)

٥٦- إنَّ الذينَ يُجادِلونَ بالباطِل، ويَدفَعونَ دَلائلَ اللهِ الواضِحَةَ بالشُّبَهِ الفاسِدَة، وهمْ لا حُجَّةَ عندَهمْ ولا بُرهان، وإنَّما يُقدِمُونَ على ذلكَ لكِبْرٍ في قُلوبِهِمْ وحسَـــدٍ منهم، ولنْ يَبلُغوا ما

يُؤَمّلونَهُ مِنِ اسـتِعلاءٍ وغلَبَةٍ عَليك، فإنَّ اللهَ خاذِلُهُمْ ومُذِلُّهم. فالتَجِئْ إلى اللهِ واعتَصِـمْ بهِ مِنْ حالِ هؤلاءِ المجادِلين، إنَّهُ سَميعٌ لأقوالِكم، بَصيرٌ بأحوالِكم.

{لَخَلْقُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (غافر : ٥٧)

٥٧- إنَّ خَلقَ السَّـماواتِ والأرْضِ العَظيمَتين، وما بَثَّ اللهُ في السَّـماءِ الدُّنيا وَحدَها مِنْ مَلايينِ النُّجومِ والكواكبِ المتَناثِرَة، معَ تَوازُنٍ وتَناسُـقٍ ونِظامٍ دَقيق، وما في الأرْضِ مِنْ ماءٍ ونَباتٍ وشَـجَر، وبِحارٍ وقِفار، ومَعادِنَ وكنُوز، وغَيرِها... كُلُّ هذا أكبَرُ وأعظَمُ مِنْ خَلقِ الإنسَان، ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يُفكِّرونَ فيه، ولا يَتصوَّرونَ عَظمَةَ هذا الكونِ الكبيرِ ونِسبتَهمْ إليه، ولا يَستَدِلُّونَ بهِ على قُدرَتِهِ تعالَى على إعادَةِ إحيائهمْ بَعدَ الموت.

{وَمَا يَسْـتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِـيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ وَلَا الْمُسِـيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ} (غافر : ٥٨)

٥٨- ولا يَسـتَوي الكَفيفُ الذي لا يُبصِـرُ شَـيئًا والبَصـيرُ الذي يرَى ما انتهَى إليهِ بَصـرُه، وكذلكَ لا يَستَوي المؤمِنونَ الصَّالِحونَ والكافِرونَ المسِيؤون. ما أقلَّ ما تَتذَكَّرونَ هذا!

{إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ} (غافر : ٥٩)

٥٩- إنَّ يَومَ القِيامَةِ آتٍ لا شَـكَّ فيه، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يُصَـدِّقونَ وقوعَه، فهمْ على عَقيدَةٍ ضالَّةٍ مُنحَرِفَة، ومُلتَهونَ بالدُّنيا وما فيها.

{وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْـتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْـتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَـيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} (غافر : ٦٠)

٦٠- وقالَ اللهُ رَبُّكم: اسـألُوني يا عِبادي أُعطِكم، واعبُدوني وَحدي أُثِبْكمْ على طاعَتِكم. والدُّعاءُ والعِبادةُ تَذَلُّلٌ وخُضوعٌ للهِ تَعالَى، واللهُ يُحِبُّ أنْ يُسألَ، ويُحِبُّ أنْ يُعطِي.
إنَّ الذينَ يَستَكبِرونَ عنْ عِبادَتي ودُعائي، يَدخُلونَ جهنَّمَ أذِلَّةً صاغِرين.

اللهمَّ إنَّا نَسألُكَ حُسنَ الطَّاعةِ والرِّضَى.

{اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} (غافر : ٦١)

٦١- هوَ الذي جعلَ لكمُ اللَّيلَ مُظلِمًا هادِئًا لتَسكُنوا وتَستَريحوا فيهِ مِنْ تعَبِ النَّهار، وجعلَ النَّهارَ مُضيئًا لتَتمَكَّنوا فيهِ مِنَ الحرَكةِ والعمَلِ والسفَر، واللهُ ذو فَضلٍ وإنعامٍ على عبادِه، ولكنَّ أكثرَهمْ لا يَشكرونَ نِعمَه. وقدْ يَشكرونَ مَعروفَ النَّاسِ ولا يَنسَونَ فَضلَهمْ! وهذا مِنْ جَهلِهمْ بالمنعِمِ الأوَّلِ والأكبَر، وغَفلَتِهمْ عنْ أصلِ النِّعمَة.

{ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} (غافر : ٦٢)

٦٢- إنَّهُ رَبُّكمُ الذي خلقَ كُلَّ شَيء، لا إلهَ في الكَونِ غَيرُه، فكيفَ تُصرَفونَ إلى عِبادَةِ غَيرِه؟

{كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} (غافر : ٦٣)

٦٣- وكما ضَلَّ هؤلاءِ المشرِكونَ فعبَدوا غَيرَ الله، كذلكَ كانَ المشرِكونَ مِنْ قَبلِهم، ضَلُّوا عنِ العَقيدَةِ الصَّحيحَة، فكفَروا بالمعجِزاتِ الظَّاهِرَةِ الدَّالَّةِ على صِدقِ نُبوَّةِ الأنبِياء، وعبَدوا الأصْنامَ والأوثان.

{اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاء بِنَاء وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} (غافر : ٦٤)

٦٤- هوَ اللهُ الذي جعلَ لكمُ الأرْضَ مُستَقَرًّا مُمَهَّدًا لتَتمَكَّنوا مِنَ العَيشِ عَليها والتصَرُّفِ فيها، وجعَلَ السَّماءَ كالسَّقفِ والقُبَّةِ فَوقَكم، وجعَلكمْ في أحسَنِ الأشكالِ مِنْ بينِ الخَلق، ورزَقَكمْ مِنَ الأطعِمَةِ والثَّمَراتِ الطيِّبَةِ المستَلَذَّة، ذلكمُ المنعِمُ عَليكمْ هوَ الله، خالقُكمْ ورازِقُكم، فتعالَى وتقدَّسَ رَبُّ العالَمينَ كُلِّهم، مالِكُ أمرِهمْ والمتَصرِّفُ في شُؤونِهم.

{هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (غافر : ٦٥)

٦٥- هوَ الحيُّ الباقي الذي لا يَموت، لا إلهَ يُعبَدُ بحَقٍّ سِواه، فاعبُدوهُ وَحدَه، وأخلِصوا لهُ في الطَّاعَة، والحَمدُ والثَّناءُ كُلُّه، لرَبِّ العالَمينَ كُلِّهم.

{قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} (غافر : ٦٦)

٦٦- قُلْ لهؤلاءِ المصـرِّينَ على الشِّـرك، قَطعًا لأطمَاعِهِمُ الفاسِـدَة: إنّي مُنِعتُ وصُـرِفتُ عنْ عِبادَةِ الأصْنامِ التي تَدَّعونَ أنَّها آلهةٌ وتَعبدونَها، وهيَ لا تَسمَعُ ولا تَتكلَّم، ولا تَضُرُّ ولا تَنفَع، لما جاءَتْني الحُجَجُ والآياتُ مِنَ الله، التي تدلُّ على وَحدانيَّتِه، وعلى فَسادِ الأصْنام، وأُمِرتُ أنْ أستَسلِمَ لأمرِ رَبِّ العالَمين، وأُخلِصَ لهُ طاعَتي وعِبادَتي.

{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (غافر : ٦٧)

٦٧- هوَ الذي خلقَ أصلَكمْ مِنْ تُراب، ثمَّ جعلَ نَسلَكمْ مِنْ نُطفَة، وهوَ المنيّ، فإذا استقرَّ في رَحِمِ المرأةِ وبَقيَ أربَعينَ يومًا، تَحوَّلَ إلى عَلَقَة، وهيَ قِطعَةٌ مِنَ الدَّمِ الغَليظِ المتَجمِّد، التي تتعلَّقُ بجِدارِ الرَّحِم، ثمَّ نُخرِجُكمْ مِنَ الأرْحامِ طِفلاً ضَعيفًا لا حيلةَ له، ثمَّ تَكبَرونَ فتَقوَى أجسامُكمْ وتَكتَمِلُ حَواسُّكم، ثمَّ تتَقَدَّمونَ في العمُرِ وتَشيخُون، ومنكمْ مَنْ يَموتُ قَبلَ أنْ يَشِبَّ أو يَشيخ. ولتَبلُغوا جَميعًا سِنًّا مُعَيَّنَةً لا تَتجاوزُونَه، هوَ أجَلُ مَوتِكمُ الذي حُدِّدَ لكلٍّ منكم، لعلَّكمْ بهذا البَيانِ تَتفَكَّرونَ وتَعتَبِرون، وإنَّكمْ إلى الموتِ صائرون، وستَحيَونَ بعدَما تَموتون.

{هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ} (غافر : ٦٨)

٦٨- هوَ اللهُ الذي يُحيي الأمواتَ ويُميتُ الأحيَاء، فإذا أرادَ أمرًا مِنَ الأمورِ قالَ لهُ كُنْ، فيَكونُ كما يُريد، دونَ مُخالفَةٍ ولا مُمانَعة.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ} (غافر : ٦٩)

٦٩- ألَا تَعجَبُ أيُّها الرسُـــولُ مِنَ المشـــرِكين، الذينَ يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ البَيِّنَة، بآرائهمُ الفاسِدَةِ وأقاويلِهِمُ الباطِلَة، وكيفَ يُصرَفونَ بهذا عنْ دينِ اللهِ الحقّ؟

{الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} (غافر : ٧٠)

٧٠- الذينَ كذَّبوا بالقُرآنِ العَظيم، وبسائرِ الكتُبِ السَّماويَّةِ التي أنزَلناها على رسُلِنا، فسَوفَ يَعلَمونَ ما يَحِلُّ بهِمْ مِنَ العَذاب.

{إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ} (غافر : ٧١)

٧١- عندَما تَكونُ أغلالُ الحَديدِ والسَّـــلاسِـــلُ مُطَوِّقَةً بأعناقِهم، يَجُرُّهمْ بها مَلائكةُ العَذابِ على وجُوهِهم.

{فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ} (غافر : ٧٢)

٧٢- في ماءٍ شَديدِ الحَرارَةِ مسخَّنٍ على نارِ جهنَّم، ثمَّ في النَّارِ يُحرَقونَ بلَهيبِها وهَيَجانِها.

{ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ} (غافر : ٧٣)

٧٣- ثمَّ قيلَ لأهلِ النَّارِ مِنَ المشرِكين: أينَ هيَ الأصْنامُ التي كنتُمْ تُشرِكونَها معَ الله؟

{مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ} (غافر : ٧٤)

٧٤- وتَعبُدونَها مِنْ دونِهِ سُـــبحانَه؟ قالوا: لقدْ غابَتْ عنَّا، أو ذهبَتْ فلمْ تَنفَعْنا بشَـــيء. ثمَّ قالوا كاذِبين: بلْ لم نَكنْ نَعبدُ أصْنامًا في الدُّنيا، كما قالوا: {وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [سورة الأنعام: ٢٣]. وهكذا يُضِلُّ اللهُ الكافِرين، فلا يَدرونَ بماذا يُجيبُون، أو إذا أجابوا يَكذِبون!

{ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ} (غافر : ٧٥)

٧٥- وهـذا الـذي عُوقِبْتُمْ بـهِ في جهنَّم، هوَ جَزاءُ مـا كنتُمْ تأشِـــرونَ وتَبطَرون، وتَظلِمونَ وتُفسِدونَ في الأرْض، بغَيرِ ما وَجهِ حَقّ، وبما كنتُمْ تَتوَسَّعونَ في الأفراحِ والملذَّات، وتَنسَونَ أمرَ رَبِّكم.

{ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} (غافر : ٧٦)

٧٦- وقيلَ لهم: ادخُلوا جهنَّمَ مِنْ أبوابِها المقســومَةِ لكم، ماكثينَ فيها أبَدًا، فبئسَ المنزِلُ النَّارُ المستَعِرَةُ لمنِ استَكبرَ عنِ اتِّباعِ الحقّ، وأصَرَّ على الكُفرِ والضَّلال.

{فَاصْــبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} (غافر : ٧٧)

٧٧- فاصـــبِرْ على تَكذيبِهمْ لك، فإنَّ ما وعدَكَ اللهُ بهِ مِنَ النَّصـــرِ عَليهمْ حَقٌّ لا رَيبَ فيه، فإمَّا أنْ نُرِيَكَ بعضَ الذي أوعَدناهُمْ به، وهوَ القَتلُ والأَسْــــر، وهوَ ما حدَثَ في بَدرٍ وفَتحِ مكَّة، أو نَتوَفَّيَنَّكَ قَبلَ أنْ يَحِلَّ بهمْ ذلك، فيُرجَعونَ إلينا يومَ القِيامَة، فنُحاسِـــبُهمْ على ما عَمِلوا، ونُذيقُهمُ العَذابَ الشَّديد. فأنتَ المنتَصِرُ على كُلِّ حال، وهمُ المخذُولونَ الخاسِرون.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُــولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاء أَمْرُ اللَّهِ قُضِــيَ بِالْحَقِّ وَخَسِــرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ} (غافر : ٧٨)

٧٨- وقدْ بعَثنا رسُلاً كثيرينَ إلى أقوامِهم، قَبلَ إرسالِك، منهمْ مَنْ أورَدنا أخبارَهمْ وقِصَصَـهمْ لكَ في القُرآن، وكيفَ كُذِّبوا وصـــبَروا، ومنهمْ مَنْ لم نَذكُرْهم، وهمُ الأكثَر. وما كانَ لنَبيٍّ أنْ يأتِيَ بمُعجِزَةٍ إلاّ بأمرِ الله، فـإذا جـاءَ أمرُ اللهِ بالعُقوبَـة، في الحيَـاةِ الـدُّنيا أو في الآخِرَة، حُكِمَ بالعَدلِ بينَ الرسُـلِ ومُكذِّبيهم، بإنجاءِ المحِقّ، وإهلاكِ المبطلِ وتعذيبِه، وخَسِـرَ يَومَئذٍ المصِـرُّونَ على الباطِل.

{اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ} (غافر : ٧٩)

٧٩- هوَ الذي خلقَ لكمُ الأنعامَ، مِنَ الإبِلِ والبقَرِ والغنَمِ والمِعْز، وسخَّرَها لكم، فترَكبونَ بَعضَها وتَحمِلونَ عليها، وتأكلونَ لحومَ بَعضِها الآخَر.

{وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ} (غافر: ٨٠)

٨٠- ولكمْ فيها مَنافِعُ أُخرَى غَيرُ الرُّكوبِ والأكل، كشُربِ ألبانِها، والاستِفادَةِ مِنْ أصوافِها وأوبارِها وجُلودِها، لصُنعِ الثِّيابِ والأحذيَةِ والأمتِعَةِ منها، ولتَبلُغوا بواسِطَتِها أُمورًا تَخصُّكمْ وتَقضي حاجاتٍ لكم، كحَملِ الأثقالِ عَليها والتنَقُّلِ بها مِنْ بلَدٍ إلى آخَر، وتُحمَلونَ عَليها في البَرّ، كما تُحمَلونَ على السُّفُنِ في البَحر، وقدْ سَخَّرَ اللهُ لكمْ كُلَّ ذلكَ وهَيَّأهُ لمنافعِكم.

{وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ} (غافر : ٨١)

٨١- ويُريكمُ اللهُ بذلكَ دَلائلَ قُدرَتِهِ وعظَمتِه، فأيًّا مِنْ هذهِ الآياتِ العَظيمَةِ تُنكِرون؟ إلاّ أنْ تُعانِدوا وتُكابِروا.

{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ} (غافر : ٨٢)

٨٢- أوَلَمْ يُسافِرِ المشرِكونَ فيَنظُروا في آثارِ الذينَ أهلَكناهُمْ ممَّنْ كانوا قَبلَهم، كثَمودَ وعادٍ وقَومِ لُوط، وقدْ كانوا أقوى منهمْ أبدانًا، وأكثرَ آثارًا وعُمرانًا في الأرْض، فلمْ تَنفَعْهُمْ قُوَّتُهُمْ وصِناعاتُهم، ولم تَمنَعْهمْ مِنْ عَذابِ الله، بلْ كانَ ذلكَ مِنْ أسبَابِ غُرورِهِمْ وهَلاكِهم.

{فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون} (غافر : ٨٣)

٨٣- فلمَّا جاءَتْهمْ رسُلُنا بالمعجِزاتِ والحُجَجِ الدَّالَّةِ على نبوَّتِهِمْ وصِدْقِ رسالَتِهم، اغترَّ المشرِكونَ بما عندَهمْ مِنَ العِلمِ الدنيَويّ، وتَمسَّكوا بما وَرِثوهُ مِنْ آبائهمْ وجادَلوا بهِ مِنَ الأفكارِ

الزَّائغَةِ والعَقائدِ الباطِلَة، وجعَلوا مِنَ الأوْهامِ حَقائق، وأحاطَ بهمْ ما كانوا يَستَهزِؤونَ بهِ ويَستَبعِدونَ وقوعَهُ مِنَ المِعادِ والجَزاءِ على الأعمال.

{فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ} (غافر : ٨٤)

٨٤- فلمَّا رَأوا شِدَّةَ عَذابِنا، وعَلِموا أنَّهُمْ سيُعاقَبونَ على ما اكتسَبوا مِنَ المِعاصي والذُّنوب، أدرَكوا ما كانوا عَليهِ مِنْ كُفرٍ وجَهلٍ وغُرور، وقالوا في استِسلام: آمَنَّا باللهِ وَحدَهُ لا شَريكَ له، وتبرَّأنا مِنَ الآلِهَةِ التي كنَّا نَعبُدُها مِنْ دونِ الله.

{فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ} (غافر : ٨٥)

٨٥- ولكنَّهمْ قالوا ذلكَ بعدَ فَواتِ الأوَان، فلمْ يَنفَعْهُمْ إيمانُهُمْ بعدَ أنْ عايَنوا العَذاب، لأنَّهُ إيمانٌ عنْ إلجاءٍ واضطِرار، وقدْ مضَى وَقتُ التَّكليف، وجاءَ وَقتُ الحِسابِ والجَزاء. وهذا حُكمٌ عامٌّ وضعَهُ اللهُ للنَّاس، بأنْ لا يَقبلَ إيمانَ أحَدٍ منهمْ عندَ رؤيَةِ العَذاب. وخَسِرَ الكافِرونَ عندَما رأوا بأسَ اللهِ يُحيطُ بهم، وعَلِموا أنَّهمْ في النَّارِ معَذَّبونَ على الدَّوام.

سورة فصِّلت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{حم} (فصلت : ١)

١- حروف مُقَطَّعَةٌ ...اختلفَ المفسِّرونَ في دَلالَتِها.

{تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} (فصلت : ٢)

٢- هذا القُرآنُ تَنزيلٌ مِنَ اللهِ المتَّصِفِ بالرَّحمَةِ العَظيمَةِ الدَّائمَة.

{كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} (فصلت : ٣)

٣- كتابٌ بُيِّنَتْ أحكامُه، وفُصِّلَ حَلالُهُ وحرَامُه، وأمرُهُ ونَهيُه، ووَعدُهُ ووَعيدُه، قُرآناً بلِسانٍ عَربيٍّ مُبين، يَعرِفُ مَعانيَهُ الرَّاسِخونَ في العِلم، المتَمَكِّنونَ منه.

{بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} (فصلت : ٤)

٤- فيهِ تَبشيرٌ بالمثوبَةِ الحُسنَى لمنْ آمنَ وعَمِلَ بما فيه، وإنذارٌ بالنَّارِ لمنْ كفرَ بهِ وصدَّ عنه، فأعرَضَ أكثَرُهمْ عنْ تَدبُّرِهِ وقَبولِه، معَ بيانِهِ ووضوحِه؛ تَكبُّرًا وعِنادًا، فهمْ لا يُصغُونَ إليه، ولا يَقبَلونَه.

{وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ} (فصلت : ٥)

٥- وقالَ لكَ المشركون: إنَّ على قُلوبنا أغطيَةً كثيفَةً ممَّا تَدعونا إليهِ مِنَ الإيمانِ والتَّوحيد، وفي آذانِنا صَمَمٌ وثِقْلٌ، فلا نَسمَعُ ما تَقولُ ولا نَفهَمُه، ومِنْ بَينِنا وبينِكَ حاجِزٌ غَليظٌ في الدِّين، فلا يُمكِنُ أنْ نَلتَقي، فاعمَلْ أنتَ على طَريقَتِكَ ودِينِك، ونحنُ نَعمَلُ على طَريقَتِنا ولا نَتَّبِعُك.

{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ} (فصلت : ٦)

٦- قُلْ لهمْ أيُّها الرسُول: لماذا تَضَعونَ هذا الحاجِزَ بينَكمْ وبينَ الحقّ؟ وما أنا إلاّ بشَرٌ مِثلُكم، إلاّ أنِّي تميَّزتُ عنكمْ بوَحي اللهِ إليّ، فمنْ زعَمَ أنِّي لستُ كذلك، فَليَأتِ بمثلِ ما أُوحيَ إليّ. أدعُوكمْ إلى عِبادَةِ الإلهِ الواحِدِ الذي لا شَريكَ له، فامتَثِلوا أمرَه، وأخلِصوا في العِبادَةِ لهُ وَحدَه، ولا تُشرِكوا بهِ شَيئًا، واستَغفِروهُ مِنْ ذُنوبِكمْ وأعمالِكمُ السيِّئة، والخَسارَةُ والهَلاكُ لمنْ يَبقَى على الشِّركِ والعِصيان.

{الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} (فصلت : ٧)

٧- الذينَ لا يُؤتُونَ الزَّكاة؛ لبُخلِهم، وعدَمِ شَفقَتِهمْ على الفُقَراءِ والمحتاجِين، وهمْ يَجحَدونَ البَعثَ والحِساب، والجَنَّةَ والنَّار، ولذلكَ فهمْ يَتصَرَّفونَ دونَ خَوفٍ مِنْ رَقابَةٍ عَليهم، ومُحاسبَةٍ على أعمالِهم.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} (فصلت : ٨)

٨- إنَّ الذينَ آمَنوا وأخلَصُوا في طاعَتِهم، وعَمِلوا الأعمَالَ الحسَنَةَ الموافِقَةَ للشَّريعَة، لهمْ ثَوابٌ كبيرٌ في الآخِرَة، لا يَنقَطِعُ عنهمْ أبَدًا.

{قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ} (فصلت : ٩)

٩- قُلْ للمشرِكينَ أيُّها النبيُّ الكريم: أتَكفُرونَ باللهِ الخالِقِ العَظيم، الذي خلقَ الأرضَ في يَومَين، وتَجعَلونَ لهُ نُظَراءَ مِنَ الحِجارَةِ وتَعبدُونَها معَه؟ ذلكَ هوَ رَبُّ العالَمينَ كُلِّهم، خالقُهمْ ومالِكهمْ والمتصَرِّفُ في شُؤونِهم.

{وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ} (فصلت : ١٠)

١٠- وجعَلَ في الأرْضِ جِبالاً ثابِتَةً ظاهِرَةً مِنْ فوقِها، لئلاَّ تَميلَ وتَضـطَرِبَ بكم، وبارَكَ فيها، فأودعَ فيها الخَيرَ الكثيرَ ممَّا هوَ نافِعٌ ومُذَلَّلٌ لكم، مِنَ البِحارِ والأشجارِ وأنواعِ المِعادِنِ والنَّباتِ والحيَوان، وحدَّدَ كمِّيَّتَها ومِقدارَ الحاجَةِ إليها، وقسَـمَ نَصـيبَها للنَّاسِ والبَهائم، في أربعَةِ أيَّام. وهذا جَوابٌ مُهَيَّأٌ لمنْ سَألَ عنْ خَلقِ الأرْضِ والأقوَاتِ فيها.

{ثُمَّ اسْـتَوَى إِلَى السَّـمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} (فصلت : ١١)

١١- ثمَّ استَوَى اللهُ سُبحانَهُ إلى السَّماءِ (ذهبَ كثيرٌ مِنَ المفَسِّرينَ إلى أنَّ مَعناها قَصَدَ إلى السَّماءِ) وهيَ دُخَانٌ، فقالَ لها وللأرْض: افعَلا ما آمرُكما، واستَجيبا لِما أقولُ لكما طَواعيَةً، وإلاّ أتَيتُما كَرْهًا، قالَتا: أَتَيناكَ يا رَبَّنا مُطيعَينِ مُنقادَين.

{فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} (فصلت : ١٢)

١٢- فأتَمَّ خَلقَ السَّـماءِ سَـبعَ طَبَقاتٍ وأحكمَها في يَومَين، وخلقَ في كُلِّ منها ما هوَ مُهَيَّأٌ ومُقدَّرٌ لها. وزَيَّنَّا السَّـماءَ القَريبَةَ مِنَ الأرْضِ بالكوَاكبِ المنيرَة، المشـرِقَةِ بأضـوَائها وتَلألُئها وحُسنِ مَنظَرِها، وحِفظًا للسَّماءِ مِنَ الشَّياطين، لئلاَّ تَصعدَ إليها وتَستَمِعَ إلى الملائكة، فيُرمَونَ بالشُّهُبِ مِنْ أنحاءِ السَّماء. وهذا كُلُّهُ مِنْ صُنعِ اللهِ وتَقديرِه، العَزيزِ في مُلكِهِ فلا يُقهَر، العَليمِ بأقوالِ عِبادِهِ وأفعالِهِمْ جَميعِها.

{فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ} (فصلت : ١٣)

١٣- فإنْ أعرَضَ المشرِكونَ عمَّا جئتَهمْ بهِ مِنَ الحقِّ، فقُلْ لهم: إنِّي أُنذِرُكمْ صاعِقَةً قويَّةً مُهلِكَةً تَحِلُّ بكمْ إذا أصرَرْتُمْ على الكُفرِ والتَّكذيب، كما حَلَّتْ بعَادٍ قومِ هود، وثَمودَ قومِ صالح.

{إِذْ جَاءتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاء رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ} (فصلت : ١٤)

١٤- إذْ أرسلَ اللهُ رسُلاً إلى آبائهمْ مِنْ قَبلِهم، ثمَّ أرسَلَ هُودًا إلى عاد، وصَالِحًا إلى ثَمود، وبَذَلوا الجُهدَ في تَبليغِهمْ ونُصحِهم، وتَذكيرِهمْ وتَخويفِهم، ألاّ تَعبُدوا إلاّ الله، ولا تُشرِكوا بهِ شَيئًا.

وقالوا في جِدالٍ باطِل: لو شَاءَ اللهُ أنْ يَرسِلَ رسُلاً لجعَلَهمْ مِنَ الملائكةِ وأرسَلَهمْ إلينا.

وقالوا أخيرًا: فإنَّا نَكفرُ بما أُرسِلتُمْ به، ولا نتَّبِعكمْ فيما جِئتُمْ به!

{فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} (فصلت : ١٥)

١٥- فأمَّا قَبيلَةُ عادٍ فقدْ طغَوا وتجبَّروا في الأرْضِ بغَيرِ حَقّ، وقالوا في غُرور: ليسَ هُناكَ مَنْ هوَ أقوَى منّا! أوَلمْ يَتفَكَّروا فيمَنْ هوَ أقوَى منهمْ حقًّا، وهوَ خالِقُهمُ الذي جعَلَهمْ بهذهِ الخِلْقَةِ الضَّخمَة، وأمدَّهمْ بالقوَّة؟ وكانوا يَكفُرونَ بالمعجِزاتِ التي آتَينَاها رسُلَنا.

{فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ} (فصلت : ١٦)

١٦- فانتقَمنا منهم، وأرسَلنا عَليهمْ عاصِفَةً قَويَّةً شَديدَةَ الهُبوب، في أيَّامٍ مُتَتابِعات، نَكِدَاتٍ مَشؤومَات، حتَّى أبَدناهُمْ عنْ آخِرِهم، لنُذيقَهمْ في الدُّنيا عَذابَ الذُّلِّ والصَّغار، ولهمْ في الآخِرَةِ عَذابٌ أشَدُّ إهانَةً وإيلامًا، ولنْ يَكونَ هُناكَ مَنْ يَنتَصِرُ لهمْ ويَدفَعُ عنهمُ العَذابَ الذي همْ فيه.

{وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} (فصلت : ١٧)

١٧- وأمَّا قَبيلَةُ ثَمودَ، فقدْ بيَّنَّا لهمْ سَبيلَ الهُدَى ودعَوناهمْ إليه، فاختَاروا الضَّلالَ عَليه، وكذَّبوا رَسُولَهمْ صالِحًا، فعُوقِبوا بصاعِقَةٍ قَويَّةٍ مُهلِكةٍ جعَلَتْهمْ أذِلَّةً مُهانين، جَزاءَ تَكذيبِهمْ وإصرارِهمْ على الكُفر.

{وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} (فصلت : ١٨)

١٨- وأنقَذنا مِنْ بينِهِمُ المؤمِنينَ الصَّادِقين، الذينَ كانوا يُطيعونَ اللهَ ويَخافونَ عِقابَه.

{وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} (فصلت : ١٩)

١٩- واذكُرْ لهمْ ذلكَ اليَومَ الشَّديد، الذي يُساقُ فيهِ أعداءُ اللهِ الكافِرونَ ويُدفَعونَ إلى نارِ جهنَّمَ الموقَدَة، وقدْ حُبِسَ أوَّلُهُمْ على آخِرِهِمْ حتَّى يَتلاحَقوا ويَجتَمِعوا؛ ليُقذَفوا في النَّار.

{حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (فصلت: ٢٠)

٢٠- حتَّى إذا حضَروا ووقَفوا على النَّار، شَهِدَتْ على أعمالِهِمُ التي ارتَكبوها جَوارِحُهمْ وأجسادُهم: سَمعُهمْ وأبصارُهمْ وبشَرَتُهم، لا تَكتُمُ شَيئًا.

{وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (فصلت : ٢١)

٢١- وقالوا مُعاتِبينَ أعضاءَهمْ وجلودَهم: لِمَ شَهِدْتُمْ عَلينا بما عَمِلنا؟

قالوا: أنطقَنا اللهُ وأقدرَنا على ذلك، وهوَ القادِرُ الذي أنطقَ كُلَّ شَيء. وهوَ الذي خلقَكمْ أوَّلَ مرَّةٍ ولم تَكونوا شَيئًا، فهوَ القادرُ على إنطاقِ أعضائكم، وإليهِ تُرجَعونَ للحِسابِ والجَزاء.

{وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ} (فصلت : ٢٢)

٢٢- وما كنتُمْ تَستَخفُونَ في الدُّنيا عنْ سَمعِكم، ولا أبصَارِكم، ولا جُلودِكم، عندَما كنتُمْ تَقتَرِفونَ الفَواحِشَ والمعاصي، مَخافَةَ أنْ تَشهَدَ عَليكمْ بذلكَ في اليَومِ الآخِر، بلْ كنتُمْ تُجاهِرونَ اللهَ بها ولا تُبالُون، وكنتُمْ تُقدِمونَ على ذلكَ لظَنِّكمْ أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ كثيرًا ممَّا تَعمَلون.

قالَ القاضـي البيضـاويُّ رَحِمَهُ الله: أي كنتُمْ تَسـتَتِرونَ عنِ النَّاسِ عندَ ارتِكابِ الفَواحِشِ مَخافَةَ الفَضَـاحَة، وما ظَنَنتُمْ أنَّ أعضـاءَكَمْ تَشهَدُ عَليكمْ فما استَتَرتُمْ عَنها. وفيهِ تَنبيهٌ على أنَّ المؤمِنَ يَنبَغي أنْ يَتحَقَّقَ أنَّهُ لا يَمُرُّ عليهِ حالٌ إلاّ وهوَ عَليهِ رَقيب. اهـ.

وقدْ نَزَلَتْ في رِجالٍ قالَ أحَدُهم: أترَونَ أنَّ اللهَ يَسـمَعُ كلامَنا هذا؟ فقالَ الآخَر: إنَّا إذا رفَعنا أصواتَنا سَمِعَه، وإذا لم نَرفَعْهُ لم يَسمَعْه. فقالَ الآخَر: إنْ سَمِعَ منهُ شَيئًا سَمِعَهُ كُلَّه.

{وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ} (فصلت : ٢٣)

٢٣- وإنَّ ظنَّكمُ الفاسِـــدَ الذي ظنَنتُمْ برَبِّكم، مِنْ أنَّهُ لا يَعلَمُ كثيرًا ممَّا تُخفون، هوَ الذي أهلَكَكمْ وأردَاكمْ في جهنَّم، فأصبَحتُمْ بسبَبِهِ مِنَ الخاسِرين.

{فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ} (فصلت : ٢٤)

٢٤- فإنْ يَصـبِروا على عَذابِ النَّار، فهوَ مَسـكَنُهمُ الذي لا يَبرَحونَه، وإنْ يَسـتَرضُـوا اللهَ ويَطلبُوا الرُّجوعَ إلى الدُّنيا ليَعمَلوا صالحًا، فلنْ يَرضَى اللهُ عَنهمْ ولنْ يُجابَ إلى طلَبِهم.

{وَقَيَّضْـنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ} (فصلت : ٢٥)

٢٥- وقَدَّرْنا أنْ يَكونَ معَ المشـرِكينَ أصـحابٌ لهمْ مِنْ شَـياطينِ الإنسِ والجِنّ، فحسَّـنوا لهمْ أفكارَهمْ وأعمالَهم، وألقَوا إليهمْ أنْ لا بَعثَ ولا حِسَاب، وأنْ لا جَنَّةَ ولا نار، وأنَّ ما همْ عليهِ مِنَ الكُفرِ والضَّـلالِ واتِّباعِ الشَّـهواتِ في الدُّنيا هوَ الحسَنُ المقبول، فظَنُّوا أنَّهمْ همُ المحسِـنون، فتَحقَّقتْ عَليهمُ العُقوبَةُ بموجِبِ ذلـك، كما حقَّتْ على أُمَمٍ خـاليَةٍ مِنْ أمثالِهم، مِنَ الجِنِّ والإنس، فهمْ جَميعًا خاسِرون.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} (فصلت : ٢٦)

٢٦- وقالَ بعضُ المشـركِينَ لبَعضِـهم: لا تُنصِـتوا لهذا القُرآنِ ولا تَسـتَجيبوا لِما فيه، وإذا قُرِئَ فاخلِطوا في الكَلامِ والغَطوا، وصِيحوا وتَصاخَبوا لتُشَوِّشـوا على الآخَرينَ سَماعَه، لعلَّكمْ بذلكَ تَغلِبوا محمَّدًا (صلى الله عليه وسلم) على قِراءَتِه.

{فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَـدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْـوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} (فصـلت : ٢٧)

٢٧- فلنُعَذِّبنَّ المشرِكينَ عَذابًا مؤلِمًا قاسيًا، ولنُثيبَنَّهمْ أسوَأَ ما فَعلُوهُ في الدُّنيا.

{ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} (فصـلت: ٢٨)

٢٨- وما ذُكِرَ مِنَ العُقوبَةِ هوَ جَزاءُ أعداءِ اللهِ مِنَ الكافِرينَ المعانِدين، وهوَ النّار، لهمْ فيها دارُ إقامَةٍ دائمَة، جَزاءَ ما كانوا يَكفُرونَ بآياتِنا التي احتَجَجنا بها عليهم، ويُكذِّبونَ رسُلَنا.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَـلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ} (فصلت : ٢٩)

٢٩- وقالَ الكافِرونَ وهمْ يُعَذَّبونَ في النَّار: ربَّنا أَرِنا اللَّذَينِ كانا سـبَبَ كُفرِنا وضَـلالِنا مِنَ الجِنِّ والإنسِ حتَّى أردَيانا في النَّار، لنَدوسَهُما بأقدامِنا ونَنتَقِمَ منهما، ويَكونا في الدَّرْكِ الأسفَلِ مِنَ النَّار.

{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} (فصلت : ٣٠)

٣٠- إنَّ الذينَ آمَنوا وقالوا: ربُّنا اللهُ وَحدَه، ثمَّ ثبَتوا على إيمانِهمْ وإخلاصِـهم، ولم يَخلِطوهُ برياءٍ وشِـرك، تَتنَزَّلُ عَليهمُ الملائكةُ بأمرِ رَبِّهِمْ عندَ الموتِ وعندَ البَعث، ألاَّ تَخافوا ولا تَتوَقَّعوا مَكروهًا ممَّا يأتي مِنْ أمرِ الآخِرَة، ولا تَغتَمُّوا ولا تَحزَنوا على ما خلَّفتُمْ في الدُّنيا مِنْ أهلٍ ومَال، وأبشِـروا بالجنَّةِ والنَّعيمِ الدَّائمِ الذي كانَ يَعِدُكمْ بهِ اللهُ على ألسِنَةِ رسُلِه.

{نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ} (فصلت : ٣١)

٣١- وتَقولُ مَلائكةُ اللهِ لهم: نحنُ كنَّا في الدُّنيا أنصارَكمْ وأعوانَكمْ في الخَير، نُرشِدُكمْ إلى ما فيهِ فَوزُكمْ وفَلاحُكم، ونَحفَظُكمْ بأمرِ اللهِ في الحيَاةِ الدُّنيا، ونُؤنِسُكمْ في وَحشَةِ القُبور، ونَتلقَّاكمْ بالأمنِ والكرامَةِ يَومَ الدِّين، ولكمْ في الجنَّةِ ما تَشتَهي أنفُسُكمْ مِنَ أنوَاعِ الأطعِمَةِ والفَواكِهِ المستَلَذَّة، ولكمْ فيها كُلُّ ما تَطلُبونَ وتَتمَنَّون.

{نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ} (فصلت : ٣٢)

٣٢- ضِيافَةً وإكرامًا لكمْ مِنْ عندِ الله، ذي المغفِرَةِ الواسِعَة، والرَّحمَةِ العَظيمَة.

{وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} (فصلت : ٣٣)

٣٣- وليسَ هُناكَ أحسَنُ ممَّنْ دَعا إلى دِينِ اللهِ وتَوحيدِهِ وطاعَتِه، معَ الالتِزامِ بالعمَلِ الصَّالِحِ الموافِقِ للدِّين، والإخلاصِ فيهِ للهِ وَحدَه، واعتَزَّ بإسلامِهِ وعَمِلَ بِهِ وأعلنَهُ مُفتَخِرًا به.

{وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} (فصلت : ٣٤)

٣٤- ولا تَستَوي الحسَنَةُ والسَّيِّئة، ولا السَّيِّئةُ والحسَنَة، فلا يَستَوي العِلمُ والجَهل، ولا العَفو والإساءَة، ولا الغضَبُ والحِلم. وإذا أساءَ إليكَ أحَدٌ فادفَعْهُ عنكَ بالإحسَانِ إليه، فإذا فعَلتَ ذلكَ خضعَ لكَ خَصمُك، وانقلَبَتِ الحالَةُ بينكَ وبينَهُ إلى سَكينَةٍ بعدَ هِياج، وإلى هُدوءٍ بعدَ ثَوران، وصارَ كأنَّهُ مِنَ الأصدِقاءِ المقرَّبينَ إليك، بعدَ أنْ كانَ شَديدَ العَداوَةِ لك.

{وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} (فصلت : ٣٥)

٣٥- ولا يَفوزُ بِهذهِ الخَصلَةِ العَظيمَة، ولا يَحصُلُ على هذا الخُلُقِ السَّمحِ العالي، وهوَ دَفعُ السيِّئةِ بالحسَنة، إلاّ الصَّابِرون، الذينَ يَكظِمونَ غَيظَهم، ويَتحمَّلونَ المكرُوهَ منَ النَّاس، ولا يَقدِرُ عَليهِ إلاّ مَنْ كانَ مُتَّصِفًا بمكارمِ الأخلاقِ ومَعاليها، وذَا نَصيبٍ كبيرٍ منْ خِصالِ الخَير.

{وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (فصلت : ٣٦)

٣٦- وإذا شَعرتَ بوَسوَسَةٍ مِنَ الشَّيطانِ يُريدُ أنْ يَصرِفَكَ عنْ خَيرٍ أُمِرتَ به، أو يَحمِلَكَ على شَرٍّ نُهيتَ عَنه، فاستَجِرْ باللهِ مِنْ كيدِه، واعتَصِمْ بهِ مِنْ شَرِّه، فهوَ سَميعٌ لِما تَقول، عَليمٌ بالتِجائكَ وتضَرُّعِكَ إليه.

{وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} (فصلت : ٣٧)

٣٧- ومِنْ حُجَجِ اللهِ على خَلقه، وآياتِهِ العَظيمَةِ الدَّالَّةِ على قُدرَتِهِ وعَظمَتِه: اللَّيلُ بظَلامِهِ وسُكونِه، والنَّهارُ بضَوئِهِ وحرَكتِه، وهُما في تَعاقُبٍ مُستَمِرّ. والشَّمسُ بنورِها وتوَهُّجِها وحَرارَتِها، والقمَرُ بضِيائهِ ومَنازِلِهِ ومَنافعِهِ للأرض. وكُلُّها آياتٌ لله، فهوَ خالِقُها، ومالِكُها، والمتصَرِّفُ فيها، ومُمِدُّها بالحرَكَةِ والحياةِ والنِّظام، فلا تَسجُدوا للشَّمسِ ولا للقمَر، فهما مِنْ مَخلوقاتِ الله، ولكنِ اسجُدوا للهِ الذي خلقَهما وخلقَ اللَّيلَ والنَّهار، وإذا كنتُمْ تَعبُدونَهُ حقًّا، فخُصُّوهُ بالعِبادَةِ وحدَه، ولا تَسجُدوا لغَيرِه.

(فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ) (فصلت : ٣٨)

٣٨- فإنِ استَكبَروا عنِ الامتِثالِ لأمرِ الله، وأبَوا إلاّ الشِّركَ والكُفر، فلنْ يَضرُّوا اللهَ شَيئًا، وإنَّ عندَ رَبِّكَ مَلائكةً مُكرَمينَ يُقَدِّسُونَهُ ويُنَزِّهونَهُ ليلَ نَهار، ولا يَمَلُّونَ مِنْ ذلك.

{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (فصلت : ٣٩)

٣٩- ومِن حُجَجِ اللهِ أيضًـــا، وأدلَّتِهِ على قدرتِهِ على بَعثِ الموتَى بعدَ تَفتُّتِ أجســـادِهم، وإعادتها لهيئتها، أنَّكَ تَرَى الأرْضَ يابِسَـــةً قاحِلَةً لا نَباتَ فيها ولا شَـــجَر، فإذا أنزَلنا المطَرَ وسَـــقَيناها به، تحرَّكَ نَباتُها وانبعَثَ فيها الحيَاة، وانتفَخَتْ وارتَفعَت، وصـــارَ كُلُّ شَـــيءٍ فيها يُوحي بالحَرَكةِ والحياة. إنَّ الذي أحيا هذهِ الأرْضَ بعدَ قَحلِها وخُمودِها، قادِرٌ على إحياءِ الموتَى مِنْ قُبورِهم، وإنَّهُ قادِرٌ على كُلِّ شَيءٍ يُريدُه، لا يُعجِزُهُ شَيء.

{إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (فصلت : ٤٠)

٤٠- إنَّ الذينَ يَنحَرِفونَ بآياتِ القُرآن، ويَضَـــعونَها في غَيرِ مَواضـــعِها، لا يَخفَونَ عَلينا، ولا يَفوتونَنا. وهلْ يَستَوي مَنْ يُؤتَى مُكَبَّلاً بأغلالٍ وسَلاسِلَ ويُدفَعُ بِهِ إلى النَّار، ومَنْ يأتي آمِنًا مُستَبشِرًا ويَدخلُ الجنَّة؟ فاعمَلوا ما شِئتُمْ أيُّها الكافِرون، فإنَّ اللهَ عالِمٌ بما تَقولونَ وما تَعمَلون، وسيُجازيكمْ على كلِّ ما صدرَ منكم.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ} (فصلت : ٤١)

٤١- إنَّ الذينَ كفَروا بالقُرآنِ لما جاءَهم، مِنْ غَيرِ أنْ يَتفكَّروا فيهِ ويَتَدَبَّروه، سيُجازَونَ بكفرِهمْ جزاءً وافيًا، وإنَّهُ لكتابٌ عَظيم، لا مَثيلَ له، ولا يَستَطيعُ أحَدٌ أنْ يأتيَ بمِثلِه.

{لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} (فصلت : ٤٢)

٤٢- لا يَتطَرَّقُ الباطِلُ إلى القُرآنِ مِنْ أيِّ جِهَةٍ كان، وفي أيِّ مَوضـــوعٍ وخبَرٍ منه، لأنَّهُ كُلَّهُ حَقٌّ وصِدق، فهوَ مُنزَّلٌ مِنَ اللهِ العَليمِ بمصالِحِ عبادِه، الحَكيمِ في أقوالِهِ وأفعالِه، المحمودِ على ما تفَضَّلَ بهِ وأنعَم.

{مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُـــلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ} (فصلت: ٤٣)

٤٣- ما يُقالُ لكَ أيُّها النبيّ، إلاّ كما قيلَ للرسُـــلِ مِنْ قَبلِك، مِنَ الأذَى والتَّكذيب، وما عَليكَ إلاّ أنْ تَصــبِرَ كما صــبَروا، وإنَّ ربَّكَ ذو مَغفِرَةٍ لمنْ تابَ إليهِ مِنَ المؤمنين، وذو عِقابٍ مُؤلِمٍ مُوجِعٍ لمنْ عاندَ وأصرَّ على الكُفر.

{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ} (فصلت : ٤٤)

٤٤- ولو أنَّنا نَزَّلنا القُرآنَ بلُغَةِ العجَم، لقالوا: هلاّ بُيِّنَتْ آياتُه، ووُضِّــحَتْ كَلِماتُهُ بلســانٍ نَفهَمُه؟ ثمَّ إنَّهُمْ ســيُنكِرونَ ذلكَ ويَتعَجَّبونَ منه، ويَقولون: أكلامٌ أعجَميٌّ يَنزِلُ على رَسُــولٍ عرَبِيّ؟

قُلْ لهم: إنَّ هذا القُرآنَ كتابٌ يَهدي القُلوبَ إلى الحقِّ والصَّــواب، ويَشــفي الصُّــدورَ مِنَ الشُّكوكِ والشُّبُهات.

والذينَ لا يُؤمِنونَ بهِ بَعيدونَ عَنهُ فلا يَسـمَعونَه، وكأنَّ في آذانِهِمْ ثِقلاً وصَـمَمًا فلا يَفهَمونَ ما فيه، وإذا كانَ للمؤمنينَ شِـــفاءً فهوَ عَلى الكافِرينَ عمًى، فلا يَهتَدونَ إلى الحقِّ والبَيانِ الذي فيه، ولا يَنتَفِعونَ به، وهمْ كمَنْ يُنادَى مِنْ بَعيدٍ فيَسمَعُ الصَّوتَ ولا يَتبيَّنُ المعنَى.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ} (فصلت : ٤٥)

٤٥- ولقدْ آتَينا موسَـى التَّوراةَ مِنْ قَبلِك، فمِنْ مؤمِنٍ بهِ وكافِر، كما هوَ مَوقِفُ المشـركينَ مِنَ القُرآن. ولولا وَعدٌ أخذَهُ اللهُ على نفسِه، بأنْ يؤَخِّرَ العُقوبَةَ عنْ قَومِكَ المكذِّبينَ إلى يَومِ المعاد، لعجَّلَ لهمُ العَذاب، وإنَّهُمْ لفي شَكٍّ مِنَ القُرآن، أو شَكٍّ فيما يَقولونَ عنِ القُرآن، غَيرُ مُحَقِّقينَ له.

{مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} (فصلت : ٤٦)

٤٦- مَنْ عَمِلَ عمَلاً صالحًا فإنَّ نَفعَهُ يَعودُ عَلى نَفسِه، ومَنْ أساءَ العمَلَ فإنَّ سُوءَ عاقِبَتِهِ يَعودُ على نَفسِهِ كذلك، واللهُ لا يَظلِمُ أحدًا مِنْ عِبادِه، فلا يَنقُصُ مِنْ ثَوابِهم، ولا يَزيدُ في عِقابِهم.

سورة فصلت (٤٧- ٥٤)
سورة الشورى
سورة الزخرف
سورة الدخان
سورة الجاثية

{إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ} (فصلت : ٤٧)

٤٧- إلى اللهِ وحدَهُ يُرَدُّ العِلمُ بوَقتِ القِيامَة. وما تَخرُجُ مِنْ ثِمارٍ مِنْ أوعيَتِها، وما تَحمِلُ أُنثَى مِنْ حَمْلٍ ولا تضَعُهُ إلاّ بإذنِه، بحسَبِ ما يَقتَضيهِ أمرُه، وكما هوَ في عِلمِهِ سُبحانَه. ويَومَ القِيامَةِ يُنادي اللهُ المشركِينَ على رؤوسِ الخَلق: أينَ شُرَكائيَ الذينَ كنتُمْ تدَّعونَ أنَّهُمْ آلهةٌ وتَعبُدونَهُمْ مِنْ دوني؟ قالوا: أعلَمناكَ أنَّهُ لا يوجَدُ أحَدٌ منَّا يَشهَدُ بأنَّ لكَ شَريكًا.

{وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ} (فصلت : ٤٨)

٤٨- وذهبَ عنهمْ ما كانوا يَعبُدونَهُ في الدُّنيا فلمْ يَنفَعوهم، وأيقَنوا أنَّهُ لا مَهربَ لهمْ مِنْ عَذابِ الله.

{لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاء الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ} (فصلت : ٤٩)

٤٩- لا يَمَلُّ الإنسانُ مِنْ طلَبِ المالِ والغِنَى والصِّحَّةِ مِنْ رَبِّه، وإذا أصابَهُ ضِيقٌ وشِدَّة، جَزِعَ وتَضايَقَ وفقَدَ الأمَل، وظنَّ أنَّ اللهَ لنْ يُعيدَ إليهِ ما كان.

{وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ} (فصلت : ٥٠)

٥٠- وإذا آتيناهُ خَيرًا وأمدَدناهُ بغِنًى وعافية، بعدَ بَلاءٍ وشِدَّة، ليَقولَنَّ: هذا حَقٌّ مِنْ حُقوقي حصَلتُ عليهِ بعمَلي وكدِّي، ولستُ على يَقينٍ مِنْ قيَامِ السَّاعَة، وإذا بُعِثَ الموتَى للحِسابِ والجَزاء، فإنَّ لي كرَامَةً وعُقبَى حسَنَةً عندَ الله، كما أكرَمَني بالجاهِ والغِنَى في هذهِ الدُّنيا! فلَنُعلِمَنَّ الكافِرينَ بأعمالِهِمُ السيِّئة، وعَقيدَتِهِمُ الفاسِدَة، ولنُذيقَنَّهمْ عَذابًا شَديدًا مؤلِمًا في الآخِرَة.

{وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ} (فصلت: ٥١)

٥١- وإذا أنعَمنا على الإنسَانِ بالمالِ والجاهِ والعافية، أعرَضَ عنِ الطَّاعَةِ والشُّكر، وتكبَّرَ وشمَخَ بأنفِهِ واستَكبَرَ عنِ الانقِيادِ لأمرِ الله، وإذا أصابَهُ فَقرٌ وبَلاء، دَعانا دُعاءً كثيرًا متواصِلاً.

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} (فصلت : ٥٢)

٥٢- قُلْ للمشرِكينَ أيُّها الرسُول: أخبِروني، لو كانَ هذا القُرآنُ مِنْ عندِ الله، ثمَّ كذَّبتُمْ به، معَ وضوحِ الأدِلَّةِ على أنَّهُ الحقُّ مِنْ رَبِّكم، فمنْ يَكونُ أشقَى حالاً، وأبعدَ عنِ الحقِّ منكم؟

{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (فصلت : ٥٣)

٥٣- سنُظهِرُ للإنسانِ مِنَ الآياتِ الكونيَّةِ العَظيمَة، ومِنْ خَفايا تَكوينِهم النفسيّ وتَركيبِهمُ العُضويّ، ما يُسَلِّمونَ بهِ أنَّ هذا الدِّينَ حقّ، وأنَّ القُرآنَ كلامُ رَبِّ العالَمينَ المعجِزُ. أوَلا يَكفي أنَّ اللهَ شاهِدٌ على كُلِّ شَيءٍ في هذا الكَون، فلا يَغيبُ عنهُ أمر، ولا تَخفَى عليهِ خافيَة، وأنَّهُ يَشهَدُ أنَّ محمَّدًا رَسولُه، صادِقٌ فيما يُخبِرُ عنه؟

{أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاء رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ} (فصلت : ٥٤)

٥٤- ألا إنَّ المشـركينَ في شَـكٍّ مِنَ البَعثِ بعدَ الموت، فهمْ لا يَعمَلونَ للآخِرَة، ولا يَحذَرُونَ مِنَ النَّار، وعِلمُ اللهِ مُحيطٌ بكُلِّ شَيء، ولا يَخفَى عَليهِ ما يَفعَلُهُ المشرِكون، وسَوفَ يُجازيهمْ على كُفرِهِمْ وفَسادِهِمْ في الأرْض، ولا مفَرَّ لهمْ مِنْ العُقوبَة.

سورة الشورى

بسم اللهِ الرحمن الرحيم

{حم} (الشورى : ١)

١- الحُروفُ المقَطَّعَةُ لم يَرِدْ فيها حَديثٌ صَحيح، واللهُ أعلمُ بمُرادِها.

{عسق} (الشورى : ٢)

٢- حُروفٌ مُقَطَّعَة...

{كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (الشورى : ٣)

٣- كما أنزلَ اللهُ عَليكَ هذا القُرآنَ بواسِطَةِ جِبريلَ أيُّها الرسُول، كذلكَ أنزلَ الكتُبَ على الأنبياءِ والرسُلِ مِنْ قَبلِك، وهوَ العَزيزُ في مُلْكِه، لا يَمنَعهُ أحَدٌ مِنَ التصرُّفِ فيهِ كما يُريد، الحَكيمُ فيما يَقولُ ويَفعَل، لا يَبلُغُ حِكمتَهُ أحَد.

{لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} (الشورى : ٤)

٤- لهُ كُلُّ ما في السَّماواتِ والأرْض، وما بينَهما، خَلقًا، ومُلكًا، وتَدبيرًا، فالكُلُّ تحتَ قَهرِهِ وسُلطانِه، وهوَ العَليُّ المتَعال، الذي لا يَعلو عَليهِ شَيء، الكبيرُ الذي لا شَيءَ أعظَمُ منه.

{تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (الشورى : ٥)

٥- تَكادُ السَّماواتُ أنْ يتَشقَّقْنَ مِنْ أعلاهُنَّ خَوفًا وخَشيَةً مِنْ عَظَمَةِ اللهِ وجَلالِه، والملائكةُ المكرَمونَ يُقَدِّسُونَهُ ويَحمَدونَه، ويَطلبُونَ العَفوَ والمغفِرَةَ لِلمؤمِنين. ألَا إنَّ اللهَ هوَ الذي يَغفِرُ الذُّنوبَ ولو كَثُرَت، وهوَ الذي يَعفو عنْ عِبادِهِ المؤمنينَ ويَرحَمُهم.

{وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} (الشورى : ٦)

٦- والذينَ اتَّخَذوا مِنْ دُونِ اللهِ شُـرَكاءَ وأندادًا، اللهُ رَقيبٌ على أحوالِهم، شَـهيدٌ على أعمالِهم، يُحصِـيها لهمْ ويُحاسِـبُهمْ عليها، ولسـتَ مُوَكَّلاً أنتَ بذلكَ أيُّها الرسُـول، إنَّما وظيفَتُكَ التَّبليغُ والإنذَار.

{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} (الشورى : ٧)

٧- ومِثلَما أوحَينا إلى الرسُـلِ مِنْ قَبلِك، أوحَينا إليكَ أيُّها الرسُـولُ هذا القُرآنَ بلسـانٍ عرَبيٍّ فَصيح، لتُنذِرَ بهِ قَومَكَ في مكَّة، ومَنْ حَولَها مِنْ سائرِ القُرَى والبِلادِ في الأرْض، وتُخَوِّفَهمْ مِنْ يَومِ القِيامَة، الذي يُجمَعُ فيهِ الخلائقُ للحِسابِ والجَزاء، ولا شَكَّ أنَّهُ آتٍ. وهُناكَ فَريقانِ فَقَطْ في ذلكَ اليَوم، فَريقٌ كائنٌ في جنَّاتِ النَّعيم، وهمُ المؤمِنون، وآخَرونَ مُخَلَّدونَ في نارٍ تَتلَظَّى، وهمُ الكافِرون.

{وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} (الشورى : ٨)

٨- ولو أرادَ اللهُ لجعلَ النَّاسَ على دِينٍ واحِد، ولكنْ شاءَتْ إرادَتُهُ سُبحانَهُ أنْ يُبَيِّنَ لهمْ طَريقَ الهِدايَةِ والضَّـلال، ويُعطيَهمْ حُرِّيَّةَ الاختِيار، فيُدخِلُ مَنْ يَشـاءُ في رَحمَتِه، بهدايَتِهِ وتَوفيقِه، ويُدخِلُ مَنْ يَشـاءُ في عَذابِه، بأنْ لا يَهديه، كُلٌّ حسَـبَ اسـتِعدادِه، وعَزمِهِ وتَصـميمِه، والكافِرونَ ليسَ لهمْ وَلِيٌّ يَلي أمرَهمْ ويُدافِعُ عنهم، ولا مُساعِدٌ يُخَلِّصُهمْ مِنَ النَّار.

{أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (الشورى : ٩)

٩- لقدِ اتَّخَذوا في الدُّنيا آلهةً يُوالُونَهمْ مِنْ دونِ اللهِ، فكانوا يَستَعينونَ بهمْ ويَطلُبونَ شَفاعَتَهمْ ونُصرَتَهم، واللهُ هوَ الوَليُّ الحقّ، فلا يُنتَصَرُ إلاّ به، ولا يُعبَدُ إلاّ هو، وهوَ الذي يُحيي الموتَى مِنْ قُبورِهمْ وقدْ صَاروا عِظامًا باليَة، وهوَ القادِرُ على كُلِّ شَيء.

{وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} (الشورى : ١٠)

١٠- وما اختَلفتُمْ فيهِ مِنْ أمرٍ مِنَ الأُمُور، فالحُكمُ فيهِ للهِ تَعالَى في كتابِه، وللرسُولِ صلى الله عليه وسلم في سُنَّتِه، ذلكمُ الحاكِمُ في كُلِّ شَيء، هوَ رَبِّيَ العَظيمُ الشَّأن، استَعَنتُ به، وفوَّضْتُ أمري إليه، وإليهِ أرجِعُ في كُلِّ أمورِي.

{فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} (الشورى : ١١)

١١- خالِقُ السَّماواتِ العَظيمَة، والأرْضِ وما فيها، الذي خلقَ لكمْ مِنْ جِنسِكمْ وشَكلِكمْ نِساءً، كما خلقَ مِنْ جِنسِ الأنعامِ ذُكورًا وإناثًا، ويُكثِّرُكمْ بالتَّوالُد. ليسَ كَمِثلِ اللهِ شَيء، فلا يُماثِلُهُ أحَدٌ مِنْ خَلقِه، ولا نَظيرَ لهُ ألبتَّة، وهوَ السَّميعُ لكُلِّ ما يَقولُهُ الخَلق، البَصيرُ بكُلِّ الموجوداتِ وأحوالِها.

{لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (الشورى : ١٢)

١٢- لهُ مَفاتِحُ خَزائنِ السَّماواتِ والأرْض، وهوَ وحدَهُ المتصَرِّفُ فيها، يُوَسِّعُ الرزقَ على مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِه، ويُضَيِّقُ على مَنْ يَشاءُ منهم، وهوَ العَليمُ بأحوالِهم، المحيطُ بكُلِّ شَيءٍ عِلمًا.

{شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ} (الشورى : ١٣)

١٣- شَرَعَ اللهُ لكمْ مِنَ الدِّينِ - أيُّها المسلِمونَ - ما أوصَى بهِ أُولي العَزمِ مِنْ أنبيائهِ المشهورين: نُوحًا، والذي أوحَى اللهُ إليكَ مِنَ القُرآنِ وشَرائعِ الإسلام، وما وصَّينا بهِ إبراهيمَ، وموسَى، وعيسَى، وأمرَهمْ بهِ أمرًا مُؤكَّدًا، وهوَ تَوحيدُ اللهِ وطاعَتُه، أنِ اعمَلوا بذلكَ وحافِظوا عَليه، وائتَلِفوا ولا تَختَلِفوا في دينِكم، شَقَّ وثَقُلَ على المشرِكينَ ما تَدعوهمْ إليهِ مِنَ التَّوحيدِ وتَرْكِ عِبادَةِ الأصْنام. واللهُ يَختارُ لدِينِهِ مَنْ يَشاء، ويَهدي إليهِ مَنْ يُقبِلُ على طاعَتِه.

{وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ} (الشورى : ١٤)

١٤- وما اختلَفَ أهلُ الكتابِ إلاّ بعدَ أنْ جاءَهمُ العِلمُ وقامَتْ عَليهمُ الحُجَّة، ووَضَحَ أمامَهمُ الطَّريق، بإرسالِ الرسُلِ إليهم، وإنزالِ الكتُبِ عَليهم، فترَكوا الدَّليل، ولازَموا الخِلافَ والجِدال، حسَدًا وتَباغُضًا، وعِنادًا واستِكبارًا. ولولا وَعدٌ مِنَ اللهِ بتأخيرِ العَذابِ عَنهمْ وإنظارِهمْ إلى يَومِ القيامَة، لقُضيَ بينَ المؤمِنينَ والكافِرين، وأُنزِلَتِ العُقوبَةُ بالمكَذِّبين، وإنَّ أهلَ الكتابِ المتأخِّرينَ في شَكٍّ مِنْ كتابِهم، وحَيْرَةٍ مِنْ أمرِهم.

{فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} (الشورى : ١٥)

١٥- فلأجلِ ما ذُكِرَ مِنَ التفرُّقِ والاختِلافِ أيُّها الرسُول، ادْعُ النَّاسَ إلى الدِّين، وإلى الوَحدَةِ والائتِلاف، واثبُتْ كَما أمرَكَ اللهُ أنتَ ومَنِ اتَّبعَكَ على التَّوحيدِ والطَّاعَة، وداوِموا عَليه، ولا تتَّبعْ أهواءَ المشرِكينَ الفاسِدَة، وآراءَهمُ الضَّالَّة، وقُل: صَدَّقتُ بجَميعِ الكتُبِ المنزَلَةِ مِنْ عندِ الله، وأمرَني اللهُ بأنْ أحكُمَ بينَكمْ بالعَدل، في جَميعِ الأحوال.

اللهُ رَبُّنا جَميعًا، وهوَ مُتوَلِّي أُمورِنا، لنا أعمالُنا التي نُحاسَبُ عَليها، ونُثابُ أو نُعاقَبُ عَليها، ولكمْ أعمالُكمُ التي اكتَسَبتُموها ولا يَتعَدَّى ضَرَرُها إلينا، لا مُحاجَجةَ ولا مُناظرَةَ بينَنا وبينَكم، فقدْ ظهرَ الحقّ، وتبيَّنَ سبَبُ المخالَفَة، وهوَ المكابَرَةُ والعِنادُ مِنْ قِبَلِكم.

وكانَ هذا بمكَّة، قَبلَ نُزولِ آيَةِ القِتال، فهيَ مَنسوخَة. وقالَ جَماعَةٌ مِنَ المفَسِّرين: مَعناها أنَّ الكَلامَ بعدَ ظُهورِ الحُجَجِ والبَراهينِ قدْ سقَطَ بينَنا، فلمْ يَبقَ إلاّ السِّيف. فعلَى هذا تَكونُ مُحكَمَة.

اللهُ تعالَى يَجمَعُ بينَنا يومَ القِيامَة، وإليهِ مَرجِعُنا يَومَ الحِساب، فيَفصِلُ بينَنا، ويُجازي كُلاًّ بما يَستَحِقّ.

{وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} (الشورى : ١٦)

١٦- والذينَ يُخاصِمونَ في دِينِ اللهِ ويَصُدُّونَ عنهُ النَّاس، مِنْ بعدِ أنِ استَجابوا لِنداءِ اللهِ ودخَلوا في دِينِه، ليُشَكِّكوهمْ فيهِ ويَترُكوه، ويَعودوا إلى ما كانوا عَليهِ مِنَ الكُفرِ والجاهليَّة، حُجَّتُهمْ باطِلَةٌ عندَ رَبِّهم. وجدالُهُمْ لا حقَّ فيهِ أصْلاً، وإنَّما هوَ خُصومَةٌ ولَجاجَة، وعَليهمْ غضَبٌ وسَخَطٌ مِنَ الله، لعِنادِهمْ واستِكبارِهم، ولهمْ عَذابٌ أليمٌ يومَ القِيامَة.

{اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ} (الشورى: ١٧)

١٧- اللهُ الذي أنزلَ الكتُبَ على أنبيائهِ بالحقِّ والصِّدق، والعَدلِ والإنصَاف، فاغتَنِمْ هذهِ الدُّنيا بالعمَلِ الصَّالِح، قَبلَ أنْ تُفاجَأ بالموتِ أو البَعث، وما يُدريك، فلعلَّ يَومَ القِيامَةِ قَريب؟

{يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} (الشورى : ١٨)

١٨- يَستَعجِلُ الكافِرونَ بالسَّاعَةِ تَكذيبًا وإنكارًا، ويَقولونَ استِهزاءً: متَى تَقومُ السَّاعَة؟ والمؤمِنونَ خائفونَ وَجِلونَ منها، ويَعلَمونَ أنَّها آتيَةٌ لا رَيبَ فيها، فيَعمَلونَ مِنْ أجلِها. ألَا إنَّ الذينَ يُجادِلونَ في السَّاعَةِ بالباطِلِ جاهِلونَ بَعيدونَ عنِ الحقّ.

{اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ العَزِيزُ} (الشورى : ١٩)

١٩- اللهُ لَطيفٌ بخَلقِه، كثيرُ الإحسَـــانِ إليهم، فقدْ أكرمَهمْ وأمدَّهمْ بالعَقلِ والفَهم، وأنزلَ عليهمُ الكتُبَ ليَهتَدوا، ولا يأخذُهمْ بالعَذابِ فَورَ عِصـيانِهم، ويَرزقُهمْ بما يَشـاءُ مِنْ أنواعِ البِرِّ والخَيرات، وهوَ القادِرُ القَويّ، العَزيزُ الذي لا يُمنَعُ ممَّا يُريد.

{مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ} (الشورى : ٢٠)

٢٠- مَنْ كانَ يُريدُ بأعمالِهِ ثَوابَ الآخِرَةِ أعطَيناهُ إيَّاهُ وضـــاعَفناهُ له، ومَنْ كانَ يُريدُ بأعمالِهِ مَتاعَ الدُّنيا وطيِّباتِها أعطَيناهُ منهُ نَصيبَه، وحرَمناهُ ثَوابَ الآخِرَة، فهوَ لم يَعمَلْ لها ولم يَطلُبْها.

{أَمْ لَهُمْ شُـرَكَاء شَـرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْـلِ لَقُضِـيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (الشورى : ٢١)

٢١- بلْ إنَّ لهؤلاءِ المشـرِكينَ شـياطينَ مِنَ الجِنِّ والإنسِ زَيَّنوا لهمْ أشـياءَ مُنكَرَةً في أنفُسِـهم، فحرَّموا لهمُ الحَلال، وأحَلُّوا لهمُ الحَرام، كالشِّـــرك، وإنكارِ البَعث، وتَحليلِ الميْتَةِ والدَّم، وغَيرِها، فالتزَموا بها وصارَتْ لهمْ شِرعَة، وهوَ ما لم يأمُرْ بِهِ الله، وهوَ وَحدَهُ سُبحانَهُ الذي يَشرَعُ ويَأذَنُ لرَسُـولِهِ بذلك، ولولا القَضـاءُ الذي قضَـى بِهِ اللهُ بتأخيرِ حِسـابِهِمْ وعَذابِهِمْ إلى يَومِ القِيامَة، لقُضيَ بينَ المؤمنينَ والكافِرين، وعُوجِلَ الكافِرونَ بالعُقوبَة، ولهمْ في الآخِرَةِ عَذابٌ مؤلِمٌ مُوجِع.

{تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْـفِقِينَ مِمَّا كَسَـبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} (الشورى : ٢٢)

٢٢- ترَى الكافِرينَ يَومَ القِيامَةِ خائفينَ خَوفًا شَـــديدًا مِنْ أعمالِهمُ السـيِّئةِ التي اقترَفوها في الدُّنيا، وما يَخافونَ منهُ مِنَ العَذابِ واقِعٌ بهم. والذينَ آمَنوا باللهِ وأخلَصوا لهُ في الطَّاعَةِ والعمَل، مَنازِلُهُمْ في رياضِ الجنَّةِ وأطيَبِ بِقاعِها، ولهمْ ما يَشـتَهونَ مِنَ المآكِلِ والمشـارِبِ اللَّذيذَةِ عندَ رَبِّهم، وذلكَ هوَ النِّعمَةُ الكبيرَة، والفَوزُ العَظيم.

{ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ} (الشورى : ٢٣)

٢٣- وهذا الفَضلُ الكبيرُ هوَ ما يُبَشِّرُ اللهُ بهِ عِبادَهُ المؤمنين، الذينَ أحسَنوا العمَلَ في الدُّنيا. وقُلْ أيُّها الرسُول: إنَّني لا أطلبُ منكمْ يا مَعشرَ قُرَيشٍ على هذا البَلاغِ والنُّصحِ أجرًا تُؤدُّونَهُ إليّ، إلاّ أنْ تَوَدُّوني في قَرابَتي منكم، وتَصِلوا ما بيني وبينكمْ مِنَ الرَّحِم، حتَّى أُبَلِّغَ رِسالَةَ رَبِّي. "ولم يَكنْ بَطنٌ مِنْ قُرَيشٍ إلاّ كانَ للرسُولِ صلى الله عليه وسلم فيهمْ قَرابة"، كما قالَهُ ابنُ عبَّاسٍ في صَحيحِ البُخاريّ.

ومَنْ يَكتَسِبْ حسَنةً نَزِدْ لهُ في تلكَ الحسنَةِ الأجرَ والثَّواب، ونُضاعِفْها له، واللهُ غَفورٌ لذُنوبِ عِبادِهِ المؤمنين، ولو كانتْ كثيرَة، شَكورٌ لحسَناتِهم، فيُضاعِفُها لهمْ ولو كانتْ قَليلَة.

{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} (الشورى : ٢٤)

٢٤- بلْ إنَّ المشرِكينَ يَزعُمونَ أنَّ محمَّدًا كذَبَ على اللهِ بادِّعاءِ نُزولِ الوَحي عليه! وإذا كانَ دَعواهُمْ صَحيحًا، فإنْ يَشَأِ اللهُ يَطبَعْ على قَلبِكَ ويَنتَزِعْ ما آتاكَ مِنَ القُرآن، بلْ هُمُ المفتَرونَ في هذا الكَلام. واللهُ يَمحَقُ الباطِلَ ويُثبِتُ الحقَّ بوَحيِهِ وقَضائه، إنَّهُ عَليمٌ بما تُخفيهِ الصُّدور، وما تُكِنُّهُ الضَّمائر.

{وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} (الشورى : ٢٥)

٢٥- وهوَ التوَّابُ الذي يَقبَلُ التَّوبَةَ عنْ عِبادِهِ إذا تابُوا وأنابُوا، ويَعفُو عنهمْ ويَغفِرُ لهمْ سيِّئاتِهم، صَغيرَها وكبيرَها، واللهُ يَعلَمُ ما تَفعَلونَ مِنْ خَيرٍ وشَرّ.

{وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ} (الشورى : ٢٦)

٢٦- ويَستَجيبُ اللهُ دُعاءَ الذينَ آمَنوا وعَمِلوا الأعمَالَ الصَّالِحة، ويَزيدُهمْ على ما استحَقُّوا مِنَ الثَّوابِ مِنْ فَضلِهِ الواسِع، والكافِرونَ مُبعَدونَ مِنْ رَحمَةِ الله، ولهمْ عَذابٌ أليمٌ في جهنَّم.

{وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ} (الشورى : ٢٧)

٢٧- ولو وسَّعَ اللهُ الرِّزقَ لِعبادِهِ وأعطاهُمْ فَوقَ حاجَتِهم، لطغَوا وتجبَّروا، وأفسَدوا في الأرْض، ولكنَّهُ يُنَزِّلُ لهمْ مِنَ الرِّزقِ بقَدْرِ مَصلحَتِهم، كما تَقتَضيهِ حِكمَتُهُ تَعالَى، وهوَ أعلَمُ بما يُصلحُهم، فيُغني مَنْ يَستَحِقُّ الغِنَى، ويُفقِرُ مَنْ يَستَحِقُّ الفَقر. واللهُ خَبيرٌ بأمرِ عِبادِه، بَصيرٌ بما يَلزَمُهمْ وما يُصلِحُهم.

{وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ} (الشورى : ٢٨)

٢٨- وهوَ الرَّحيمُ بعِبادِه، الذي يُنَزِّلُ المطرَ ليُغيثَهمْ مِنَ الجَدْبِ والقَحط، بَعدَما يَئِسوا مِنْ نُزولِه، ويَبسُطُ رَحمَتَهُ بهذا المطَرِ كذلكَ على السَّهلِ والجبَل، والنَّباتِ والحيَوان، وهوَ الذي يَتولَّى عِبادَهُ بالإحسَانِ إليهِمْ والتفضُّلِ عَليهم، وهوَ وَحدَهُ المستَحِقُّ للحَمدِ بذلك.

{وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ} (الشورى : ٢٩)

٢٩- ومِنْ آياتِهِ الدَّالَّةِ على قُدرَتِهِ وعظَمَتِه، خَلقُ السَّماواتِ والأرْض، بتناسُقٍ مُحكَم، وشَكلٍ بَديع، ونِظامٍ دَقيق، وما نشَرَ فيهما مِنْ أحيَاء، صَغيرَةٍ وكبيرَة، مِنْ إنس، وجِنّ، ومَلائكة، وسائرِ الحيَوانات، بأنواعِها وأشكالِها، واختِلافِ صِفاتِها وطَبائعِها ولُغاتِها، وهوَ قادِرٌ على جَمعِهِمْ يَومَ القيامَةِ في صَعيدٍ واحِدٍ للحِسابِ والجَزاء، عندَما يَشاءُ ذلك.

{وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} (الشورى : ٣٠)

٣٠- وما أصـابَكمْ مِنْ بَلاءٍ ونَكبَةٍ في الدُّنيا، فبسبَبِ مَعاصيكمْ وسيِّئاتِكمُ التي اقترَفتُموها، ويَصفَحُ اللهُ عنِ الكثيرِ مِمَّا بَدرَ منكم، فلا يُعاقِبُكمْ عَليها.

{وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} (الشورى : ٣١)

٣١- وما أنتُمْ بمانِعينَ اللهَ مِنْ أنْ يُجرِيَ حُكمَهُ وقَضاءَهُ عَليكم، أينَما كنتُمْ في الأرْض، ومَهما تَحصَّنتُمْ فيها، فكلُّ شَيءٍ فيها مُلكُه، وحُكمُهُ وتَصَرُّفُهُ نافِذٌ في كُلِّ مَكان، ولا أحدَ يَقدِرُ على مَنعِ عَذابِ اللهِ إذا قدَّرَهُ عَليكم، ولا أنْ يَدفعَهُ عنكمْ إذا وقَعتُمْ فيه.

{وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ} (الشورى : ٣٢)

٣٢- ومِنْ آياتِ اللهِ الدالَّةِ على قُدرَتِهِ أنْ سخَّرَ لكمُ البحرَ لتَجريَ فيهِ السُّفُنُ وهيَ كالجِبال، كالبواخِرِ ذَواتِ الطبقات، وناقِلاتِ النِّفطِ وما إليه، والأساطِيلِ الحربيَّةِ التي فيها مَطارات.

{إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} (الشورى : ٣٣)

٣٣- إنْ يُرِدِ اللهُ يُوقِفِ الرِّيحَ التي تُسيِّرُ السُّفُن، فتَبقَى واقِفَةً في الماء. وفيما سخَّرَهُ اللهُ لكمْ مِنَ البَحرِ والرِّيحِ آياتٌ وعِبَر، لكُلِّ صَبورٍ في الشَّدائد، شاكرٍ لنِعَمِ رَبِّهِ في الرَّخاء.

{أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ} (الشورى : ٣٤)

٣٤- ولو شاءَ اللهُ لأغرَقَ تلكَ السُّفُنَ وأهلكَ أهلَها، بتهييجِ الرِّياحِ وجَعلِها نِقمَةً بدلَ تَسييرِها، بسبَبِ ما اكتسَبوا مِنْ آثامٍ وجَرائم، ويَعفو اللهُ عنْ كثيرٍ مِنْ ذُنوبِهِمْ ولا يُعاقِبُهمْ بإسكانِ الرِّيحِ أو إغراقِ السُّفُن.

{وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ} (الشورى : ٣٥)

٣٥- وليَعلَمَ الذينَ يُجادِلونَ في آياتِنا وأدلَّتِنا بالباطِلِ أنْ لا مَهربَ لهمْ مِنْ بأسِنا، ولا مَخلَصَ لهمْ مِنْ عَذابِنا.

{فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} (الشورى : ٣٦)

٣٦- فما حصَلتُمْ على شَيءٍ مِنْ زينَةِ الدُّنيا ونَعيمِها، فمَتاعٌ تتَمتَّعونَ بهِ مُدَّةَ حياتِكم، وتَزولُ عنكمْ بزَوالِكم، وما عندَ اللهِ مِنَ الثَّوابِ في الآخِرَةِ أفضَلُ وأدوَم، للَّذينَ آمَنوا برَبِّهِمْ وأخلَصوا لهُ الطَّاعَة، ويَعتَمِدونَ عليهِ في أُمورِهِمْ كُلِّها.

{وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ} (الشورى : ٣٧)

٣٧- والذين يَجتَنِبونَ كبائرَ الذُّنوب، وما تَفاحَشَ عمَلُهُ واستُنكِر. والذينَ إذا ثارُوا وغَضِبوا لم يَظلِموا النَّاسَ ولم يَنتَقِموا، ولكنْ أنابُوا إلى رَبِّهِمْ وعَلِموا ما عندَهُ مِنَ الثَّوابِ فكظَموا غَيظَهم، وحَلُمُوا وعفَوا عنهم.

{وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} (الشورى : ٣٨)

٣٨- والذينَ أطاعُوا ربَّهم، واتَّبَعوا رُسُلَه، وحافَظوا على صَلواتِهم، وشأنُهُمْ أنْ يَتشاوَرُوا فيما بينَهمْ ولا يَتعَجَّلوا في الأمُور. وفي الاستِشارَةِ فوائد، في الأسرَة، وفي العمَل، والتِّجارَة، والحَرب، والإدارَة، يَعودُ نَفعُها على الأفرادِ والجَماعاتِ والأُمَم، وما خابَ مَنِ استَشار. ومنَ الآراءِ الفَرديَّةِ ما تَكونُ الخَسارَةُ فيها كبيرَة، وخاصَّةً في القَضايا المِصيريَّة. فلا بُدَّ مِنْ مُشاوَرَةِ أهلِ الرأيِ والحَلِّ والعَقد، والاستِبدادُ بالرأيِ ليسَ مِنْ صِفاتِ المؤمِنين، بلْ هوَ مُخالَفَةٌ لأمرِ رَبِّ العالَمين.

ومِنْ صِفاتِهِمْ أنَّهُمْ لا يَنسَونَ المحتاجينَ مِنْ إخوانِهم، فيَقضُونَ حَوائجَهم، ويُنفِقونَ أموالَهُمْ في وجوهِ البِرِّ والإحسَان.

{وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ} (الشورى : ٣٩)

٣٩- والذينَ إذا أصابَهُمْ ظُلْمٌ وإجحَاف، انتَصَروا لأنفُسِهم، وانتقَموا ممَّنْ ظَلَمَهم، ولم يَكونوا عاجِزينَ أذِلاّء، وهمْ إنْ شاؤوا عفَوا، وغَيرُهمْ قدْ يَتَجاوزونَ في الانتِقام. والمؤمِنُ عَزيزُ النَّفسِ لا يُستَذَلّ، فإذا قَدَرَ عفا.

{وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} (الشورى: ٤٠)

٤٠- وجَزاءُ اعتِداءٍ هوَ المماثلَةُ فيه، يَعني القِصاص {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ} [سورة البقرة: ١٩٤]. فمَنْ عَفا وتَجاوَزَ عنْ حَقِّه، وأصلحَ بينَهُ وبينَ مَنْ أساءَ إليه، فلهُ جَزاءٌ عَظيمٌ عندَ رَبِّه، واللهُ لا يُحِبُّ المعتَدين، الذينَ يَبدَؤونَ بالسيِّئة، أو يَتَجاوَزونَ الحدَّ في الانتِقام.

{وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ} (الشورى : ٤١)

٤١- ولِلَّذي أخذَ بحَقِّهِ بَعدَما ظُلم، فلا بأسَ عليه، ولا يُعاقَب، فقدْ قامَ بعمَلٍ مَشروع.

{إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ} (الشورى : ٤٢)

٤٢- إنَّما المؤاخَذَةُ على مَنْ ظَلَموا، فبَدَؤوا بالاعتِداء، أو تَجاوَزوا في أخذِ حَقِّهم، ويُريدونَ البَغيَ والإفسَادَ في الأرضِ بغَيرِ وَجهِ حَقّ، فهؤلاءِ يَجِبُ أنْ يُمنَعوا مِنَ الظُّلم، ولهمْ عُقوبَةٌ شَديدَة.

{وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} (الشورى : ٤٣)

٤٣- ومَنْ صبَرَ على الأذَى، وعفَا عمَّنْ ظلَمَه، وتركَ الانتِصارَ لنَفسِهِ ابتِغاءَ وَجهِ اللهِ تَعالَى، فإنَّ ذلكَ الصَّبرَ والعَفوَ مِنَ الأخْلاقِ الكريمَة، والأفعالِ الحَميدَة، التي عَليها ثَوابٌ جَزيل.

{وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ} (الشورى : ٤٤)

٤٤- ومَنْ عَلِمَ اللهُ أنَّهُ مُستَحِقٌّ للضَّلالِ جعلَهُ مِنْ أهلِ الضَّلال، ولنْ تَجِدَ أحَدًا يَلي هِدايَتَهُ بعدَ ذلك. وترى الكافِرينَ حينَ يَرَونَ العَذابَ يومَ القِيامَةِ يَقولون: هلْ مِنْ رَجعَةٍ إلى الدُّنيا حتَّى نُؤمِنَ ونَعمَلَ صالِحًا؟ {وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الأنعام: ٢٧].

{وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ} (الشورى : ٤٥)

٤٥- وتَراهُمْ يُعرَضونَ على النَّارِ[١٣٦] مُتضَائلينَ مُتَصاغِرين، مِنَ الذُّلِّ والهَوان، يُسارِقونَ النَّظرَ إلى النَّارِ خُفيَة، خَشيَةَ تصَوُّرِ أنفُسِهِمْ وهمْ يُرمَونَ فيها ويُعَذَّبون، وقالَ المؤمِنونَ يومَئذ: إنَّ الخاسِرينَ الخَسارَةَ الكُبرى يَومَ القِيامَة، همُ الذينَ خَسِروا أنفُسَهمْ وأهالِيهم، وصَاروا جَميعًا في النَّار، ألَا إنَّ الكافِرينَ في عَذابٍ دَائمٍ لا يَنقَطِع.

{وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاء يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ} (الشورى : ٤٦)

٤٦- وما كانَ لهمْ مِنْ أوْلياءَ يَتوَلَّونَ أمرَهم، فيَنتَصِرونَ لهم، ويُنقِذونَهُمْ ممَّا هم فيهِ مِنْ عَذاب، ومَنْ يُضلِلْهُ اللهُ لاستِحقاقِهِ ذلك، فليسَ لهُ طَريقٌ إلى الحقِّ والصَّوابِ في الدُّنيا، والفَوزِ والنَّجاةِ في الآخِرَة.

(١٣٦) معنى عرضِهم على النار: إحراقُ أرواحِهم وتعذيبُهم بها، من قولهم: عُرِضَ الأسارى على السيفِ إذا قُتلوا به، قالَ في القاموس: عَرَضَ القومَ على السيفِ قتلَهم، وعلى السوطِ ضربَهم. (روح البيان، عند تفسيرِ الآيةِ ٤٦ من سورة غافر).

{اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ} (الشورى : ٤٧)

٤٧- أيُّها النَّاس، اســتَجيبُوا لرَبّكمْ لِما يَدعوكمْ إليهِ مِنَ التَّوحيدِ والطَّاعَة، قَبلَ أنْ يأتيَ يَومُ القِيامَة، الذي لا يَقدِرُ أحَدٌ على أنْ يَمنعَ وقوعَه، ليسَ لكمْ يَومَئذٍ مَلاذٌ تَلتَجِؤونَ إليهِ مِنْ عَذابِه، ولا مَجالَ لإنكارِ ما اقترَفتُموهُ مِنْ جَرائمَ وآثَام، ولو أنكَرتُمْ لشَهِدَتْ عَليكمْ جَوارِحُكم.

{فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ} (الشورى : ٤٨)

٤٨- فإنْ كذَّبَكَ المشـرِكون، وأعرَضـوا عمَّا تَدعوهُمْ إليه، فلسـتَ موَكَّلاً بهدايَتِهم، ما عليكَ سِـوَى تَبليغِ رسـالَةِ رَبِّك، وإنَّا إذا أنعَمنا على الإنسَـانِ بالأمنِ والصِّـحَّةِ والغِنَى، سُـرَّ بذلكَ واستَبشَـر، وإذا ابتُليَ الناسُ بالخَوفِ والمرَضِ والفَقر، بسبَبِ ظُلمِهمْ وإفسادِهم، نَسُوا النِّعمَةَ التي أُوْلُوها مِنْ قَبل، وزعَموا أنَّهمْ لا يَستَحِقُّونَ الابتِلاءَ الذي ابتُلُوا به!

{لِلَّهِ مُلْكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَـاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَـاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَـاءُ الذُّكُورَ} (الشورى : ٤٩)

٤٩- للهِ وَحدَهُ مُلكُ السَّـــماواتِ العَظيمَة، والأرْضِ وما فيها، وهوَ وحدَهُ المتصَـــرِّفُ فيها، ومُدَبِّرُ شَـأنِها، يَخلُقُ فيها ما يَشـاء، ويَرزُقُ مَنْ يَشـاءُ مِنْ عِبادِهِ البناتِ دونَ البَنين، ويَرزُقُ مَنْ يَشاءُ منهمُ البَنينَ دونَ البَنات،

{أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} (الشورى : ٥٠)

٥٠- أو يَجمَعُ لهمْ بينَ الذُّكورِ والإنَاث، ويَجعَلُ مَنْ يَشـاءُ منهمْ عَقيمًا لا يُولَدُ له، وهوَ عَليمٌ بأحوالِ عِبادِهِ وبمَنْ يَسـتَحِقُّ منهمْ هذا دُونَ ذاك، قادِرٌ على ما يَشـاءُ مِنْ ذلك، ولهُ الحِكمَةُ العُليا في الخَلقِ والتَّدبير.

{وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ} (الشورى : ٥١)

٥١- وما كانَ لأحَدٍ مِنَ النَّاسِ أنْ يُكلِّمَهُ اللهُ إلاّ وَحيًا، وهوَ الإلقاءُ في القَلب، في اليقَظَةِ أو في المنام، أو مِنْ وَراءِ حِجاب، فيُسمَعُ صَوتُهُ ولا يُرَى هو، كما في تَكلُّمِهِ تَعالَى معَ موسَى عَليهِ السَّلام، أو يُرسِلَ مَلَكًا إليه، فيُوحي إلى النبيّ بأمرِ اللهِ ما يَشاءُ أنْ يُوحيَه، وهوَ حالُ كثيرٍ مِنَ الأنبياءِ عَليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلام. وهوَ المتعالي على صِفاتِ المخلوقين، الحَكيمُ فيما يُوحي ويَشرَع.

{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (الشورى : ٥٢)

٥٢- وكما أوحَينا إلى الرسُل، أوحَينا إليكَ هذا القُرآنَ العَظيم، الذي هوَ حَياةٌ للقُلوب، ما كنتَ تَعرِفُ مِنْ قَبلُ ما هوَ القُرآن، ولا الإيمانُ بمَعالِمِهِ التي بيَّنَها اللهُ لكَ بالوَحي، ولكنْ جَعَلنا القُرآنَ نورًا وحقًّا نَهدي بِهِ مَنْ نَشاءُ هِدايَتَهُ مِنْ عِبادِنا، وإنَّكَ أيُّها النبيُّ تَهدي بذلكَ النُّورِ إلى طَريقِ اللهِ المستَقيم،

{صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأمُورُ} (الشورى: ٥٣)

٥٣- وهوَ دِينُ الإسلامِ الذي أمرَ اللهُ به، الذي لهُ ما في السَّماواتِ وما في الأرْضِ وما بينَهما، خَلقًا ومُلكًا وتصَرُّفًا، وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأمورُ كلُّها يَومَ القيامَة، وهوَ وحدَهُ الذي يَفصِلُ فيها.

سورة الزخرف

بسم اللهِ الرحمن الرحيم

(حم) (الزخرف : ١)

١- حُروفٌ مُقطَّعَةٌ اختلفَ المفسِّرونَ في دَلالَتِها، واللهُ أعلمُ بها.

{وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ} (الزخرف : ٢)

٢- أُقسِمُ بالقُرآنِ البَيِّنِ في ألفاظِهِ وأحكامِه، وفي هَديهِ ودَلائِله، وفي دَعوَتِهِ النَّاسَ إلى التَّوحيدِ والطَّاعَة.

{إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (الزخرف : ٣)

٣- إنَّا جعَلناهُ كتابًا بلسانٍ عرَبيٍّ فَصيح، لتَفهَموا أحكامَهُ وتَتدَبَّروا مَعانيه، ولتَعتَبِروا بما فيه.

{وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ} (الزخرف : ٤)

٤- وإنَّهُ في اللَّوحِ المحفوظِ عندَنا ذو مَنزِلَةٍ عاليَة، عَظيمُ القَدْرِ بينَ الكتُب، مُحكَمٌ، لا يَتطَرَّقُ إليهِ باطِلٌ ولا تَحريف.

{أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ} (الزخرف : ٥)

٥- أفنُبعِدُ عنكمُ القُرآنَ بسَبَبِ تَكذيبِكمْ لهُ ورَفضِكمُ اتِّباعَه؟ بلْ نَرحَمُكمْ ونَدعوكُمْ إليه، ليَهتَديَ بهِ مَنْ أرادَ اللهُ لهُ الخَيرَ والهِدايَة، وليَكونَ حُجَّةً على مَنْ أعرضَ عنه.

{وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ} (الزخرف : ٦)

٦- وقدْ أرسَلنا رسُلاً كثيرينَ إلى الأمَمِ التي سبقَتْكم.

{وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون} (الزخرف : ٧)

٧- وما كانَ يأتيهمْ نَبيٌّ مِنَ الأنبياءِ إلاّ كانوا يُكَذِّبونَهُ ويَسخَرونَ منه، كما يَفعَلُ قَومُكَ بك، ولم يَمنَعْنا ذلكَ مِنْ إرسالِ الرسُلِ إليهم.

{فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ} (الزخرف : ٨)

٨- فانتقَمنا لهم، وأهلَكنا مَنْ كذَّبوهم، وكانوا أقوَى مِنْ قَومِك، وأشَدَّ بأسًا منهم، وقدْ سبقَتْ سُنَّتُنا في تَقديرِ العُقوبَةِ على هؤلاءِ وأمثالِهِمْ مِنَ المكذِّبين.

{وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ} (الزخرف: ٩)

٩- وإذا سألتَ هؤلاءِ المشركين: مَنِ الذي خَلقَ السَّماواتِ العَظيمَة، والأرْضَ وما فيها ومَنْ عَليها؟ فسَيقولون: خلقَهنَّ اللهُ وحدَه، العَزيزُ في مُلكِهِ فلا يُقْهَر، العَليمُ بأحوالِ الكونِ كُلِّهِ فلا يَخفَى عَليهِ شَيء.

{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} (الزخرف : ١٠)

١٠- الذي بسَطَ لكمُ الأرْضَ ومَهَّدَها لتَستَقِرُّوا عَليها، وجعلَ لكمْ فيها طرُقًا ومَسالِكَ بينَ الأوديَةِ والجِبالِ لتَتنقَّلوا مِنْ خِلالِها بينَ الأقطارِ والبُلدان، وتَهتَدوا بها في أسفارِكم، وليَكونَ ما سَخَّرَهُ لكمْ مِنْ ذلكَ دَليلاً إلى الإيمانِ باللهِ وقُدرَتِه.

{وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} (الزخرف: ١١)

١١- وهوَ الذي أنزلَ عَليكمُ المطرَ مِنَ السَّحابِ بقَدْرِ حاجَتِكمْ إليه، فأحيَيْنا بِهِ أرْضًا قاحِلَةً خاليَةً مِنْ نباتِ حَيّ، وكما أحيَينا تلكَ الأرْض، كذلكَ نَبعَثُكمْ مِنْ قُبورِكمْ أحياءً يَومَ القِيامَة.

{وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ} (الزخرف : ١٢)

١٢- وهوَ الذي خَلقَ أنواعَ النَّباتِ والحيَوانِ زَوجَين، ذَكرًا وأُنثَى في كُلٍّ منها، لتتكاثَرَ وتَنمو، وسخَّرَ لكمُ البَحر، لتَركَبوا على السُّفُنِ فيهِ وتَجوزوا بها إلى حيثُ تُريدون، والأنعامَ كذلك، ذَلَّلَ أنواعًا منها لتَركَبوا عليها وتَحمِلَ أثقالَكمْ إلى حيثُ تَبغُون،

{لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ} (الزخرف : ١٣)

١٣- لتَستَقِرُّوا على ظُهورِها، ثمَّ تَذكروا فضلَ اللهِ عَليكمْ ورَحمَتَهُ بكمْ بتَسخيرِها لكمْ إذا استَوَيتُمْ على ظُهورِها، وتَقولوا مُقرِّينَ بنعمَتِه، شاكِرينَ لفَضلِه: {سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ}: تقدَّسَ اللهُ رَبُّنا وتنَزَّهَ عنْ كُلِّ نَقصٍ وعَيب، الذي ذَلَّلَ لنا هذا المركوبَ ويَسَّرَهُ لنا، وما كُنَّا قادِرينَ ومُطيقينَ لتَسخيرِهِ لولا تيسيرُهُ لنا.

{وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ} (الزخرف : ١٤)

١٤- {وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ}: وإنَّا رَاجِعونَ إلى رَبِّنا بعدَ مَماتِنا، للحِسابِ والجَزاء.

{وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ} (الزخرف : ١٥)

١٥- وقدْ ناقضَ المشرِكونَ أنفُسَهمْ عندَما اعترَفوا بأنَّ اللهَ هوَ الخالِقُ ثمَّ جعَلوا لهُ صِفاتٍ للمَخلوقين، وقالوا إنَّ الملائكةَ بَناتُ الله، فجعَلوا عِبادًا لهُ بِضْعَةً منه، وهوَ سُبحانَهُ بائنٌ مِنْ خَلقِه، إنَّ الإنسَانَ جَحودٌ لنِعمَةِ رَبِّهِ - على الغالبِ - والكافِرُ ظاهِرُ الكُفرانِ في ذلك.

{أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ} (الزخرف : ١٦)

١٦- وقالَ سُبحانَهُ مُنكِرًا عَليهم: أمْ أنَّ اللهَ اتَّخذَ لنَفسِهِ البَناتِ، وأنتُمْ لا تَرضَونَ بهِنَّ، واختارَ لكمُ البَنين، وهمُ الأفضَلُ عندَكم؟ فكيفَ يؤثِرُكمْ على نَفسِه، على زَعمِكمْ أنَّ الملائكةَ بَناتُ الله؟!

{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ} (الزخرف: ١٧)

١٧- وإذا أُخبِرَ أحَدُ الجاهليّينَ المشرِكينَ بولادَةِ أُنثَى له، صارَ وَجهُهُ مُسْوَدًّا مِنَ الغَمِّ والبُغضِ والكراهيَةِ ممَّا بُشِّرَ به، وهوَ سَاكتٌ مَهموم، قدِ امتلأَ حُزنًا وكمَدًا ممَّا لَحِقَهُ مِنْ ذلك!

{أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ} (الزخرف : ١٨)

١٨- أَوَقدْ خَصُّوا اللهَ بمَنْ يُنشَّأُ في النُّعومَةِ والزِّينَةِ مِنَ النِّساء، فلا يَقدِرْنَ على إظهارِ حُجَّةٍ في الجِدال، ولا مُقارَعَةٍ في القِتال، فكيفَ يَنسِبونَها للهِ تَعالَى، ويَخصُّونَ أنفُسَهمْ بمَنْ يَكونُ مِنَ الفُرسانِ والأبطال؟ وهوَ رَدٌّ عَليهمْ بمَنطقِهم.

{وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ} (الزخرف : ١٩)

١٩- وقالَ المشرِكونَ: إنَّ المَلائكةَ إنَاث! وهمْ عِبادٌ للهِ مُكرَمون. أحَضَروا خَلقَهمْ عندَما أنشأهمُ اللهُ بهذهِ الصِّفَة، أمْ أنَّهمْ يَكذِبونَ على اللهِ بذلك؟ ستُكتَبُ شَهادَتُهمْ بادِّعائهمْ هذا القَول، ويُحاسَبونَ عليهِ أشدَّ الحِساب.

{وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} (الزخرف: ٢٠)

٢٠- وقالَ المشرِكونَ الجاهِلون: لو أرادَ اللهُ ألاَّ نَعبُدَ المَلائكةَ لما عَبَدناهُم، ومادامَ أنَّهُ لم يُعاقِبْنا، فهذا يَعني رِضاهُ عَنَّا وإقرارَهُ لنا على ما نَفعَل! وكيفَ عرَفوا ذلك، وما دَليلُهمْ فيه؟ إنَّهمْ يَكذِبونَ كذِبًا واضِحًا.

{أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ} (الزخرف : ٢١)

٢١- أمْ أنزَلنا عَليهمْ كِتابًا مِنْ قَبلِ القُرآنِ فيهِ إذنٌ لهمْ بعِبادَةِ غَيرِ الله، فهمْ مُتمَسِّكونَ بهِ ومُعتَمِدونَ عليه؟

{بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ} (الزخرف : ٢٢)

٢٢- لا حُجَّةَ لهمْ سِـــوَى أنْ قالوا: لقدْ وجَدنا آباءَنا وأجدادَنا على دِينٍ وطَريقَة، ونحنُ سَائرونَ على دَربِهم.

{وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ} (الزخرف : ٢٣)

٢٣- وقدْ سبقَهمْ إلى هذا الكَلامِ مَنْ قَبلَهم، فما أرسَلنا قَبلكَ مِنْ نَبيٍّ إلى قَريَةٍ أو مَدينَة، إلاّ قالَ كُبَراؤها وأغنِياؤها الأَشِـــرون: هكذا وجَدنا آباءَنا يَعتَقِدونَ ويَعمَلون، ونحنُ نَقتَدي بهمْ ونَفعَلُ ما يَفعَلون!

{قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِـــلْتُم بِهِ كَافِرُونَ} (الزخرف : ٢٤)

٢٤- قالَ رَسولُ كُلِّ أُمَّةٍ فيهم: أوَلو أتَيناكمْ بما هوَ أحَقُّ وأصوَبُ ممَّا وجَدتُمْ عَليهِ آباءَكمْ مِنَ الضَّلالِ والانحِراف؟

قالوا في جَهالَةٍ وعِناد: نحنُ جاحِدونَ ما بُعِثتُمْ به، غَيرُ مُتَّبِعينَ لرسالَتِكم، مَهما كانَ شَأنُكم.

{فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} (الزخرف : ٢٥)

٢٥- فانتقَمنا مِنَ الأُمَمِ المكذِّبَةِ وأهلَكناهُم، فانظُرْ كيفَ كانَ مَآلُهم؟

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ} (الزخرف : ٢٦)

٢٦- واذكُرْ قَولَ نَبيِّ اللهِ إبراهيمَ لأبيهِ آزرَ وقَومِهِ المشـــرِكين: إنَّني بَريءٌ مِنْ عِبادَتِكمْ هذهِ الأصْنام.

{إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ} (الزخرف : ٢٧)

٢٧- ولا أعبُدُ إلاَّ الذي خلقَني، فإنَّهُ يُرشِدُني إلى الدِّينِ الحقّ، والعِبادَةِ الصَّحيحَة.

{وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (الزخرف : ٢٨)

٢٨- وجعلَ كلمةَ الإخْلاصِ (لا إلهَ إلاّ الله) باقيَةً في ذُرِّيَّتِه، وما زالَ منهمْ مَنْ هوَ على التَّوحيدِ ويَدعو إليه، ولعلَّ مَنْ أشرَكَ منهمْ يَرجِعُ إلى العَقيدَةِ الصَّحيحَة.

{بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ حَتَّى جَاءهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ} (الزخرف : ٢٩)

٢٩- بلْ غَرَّ هؤلاءِ المشركِينَ وآباءَهمْ ما مَتَّعناهمْ بهِ مِنْ مالٍ ونِعمَةٍ وعُمُرٍ مَديد، ولم نُعاجِلْهُمْ بالعُقوبَةِ على كُفرِهم، حتَّى جاءَهمُ القُرآن، ورَسُولٌ يُبَيِّنُ لهمْ دَعوَةَ التَّوحيد.

{وَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ} (الزخرف : ٣٠)

٣٠- ولما جاءَهمُ القُرآنُ، وفيهِ الدَّعوَةُ إلى الدِّينِ الحقّ، عانَدوا وكابَروا، وقالوا: هذا القُرآنُ سِحر، ونحنُ كافِرونَ به!

{وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} (الزخرف : ٣١)

٣١- وقالَ المشركون: هلاّ نزَلَ القُرآنُ على رَجُلٍ عَظيم، مِنْ مكَّةَ أو الطَّائف. يَعنونَ الوَليدَ بنَ المغيرَةَ مِنْ مكَّة، وعُروَةَ بنَ مَسعُودٍ الثَّقَفيَّ مِنَ الطَّائف.

{أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} (الزخرف : ٣٢)

٣٢- أهمُ الذينَ بيدِهمْ مَفاتِحُ النبوَّة، فيَختارونَ مَنْ يَشاؤونَ لذلك، ويَستَبعِدونَ مَنْ يَشاؤونَ منهم؟ إنَّ الأمرَ كُلَّهُ بيدِ الله، هوَ الذي فاوَتَ بينَ البشَرِ في كثيرٍ مِنَ الأمُور، فهوَ العالِمُ بمَنْ يَصلُحُ للرِّسالَة. نحنُ وزَّعنا بينَهمْ أرزاقَهمْ وأسبابَ مَعيشَتِهمْ في الحيَاةِ الدُّنيا، وجعَلنا بَعضَهمْ فوقَ بَعضٍ درَجاتٍ في الغِنَى والجَاهِ وما إليه، ليَستَخدِمَ بَعضُهمْ بَعضًا في مِهَنِهمْ ومَصالِحِهم، هذا بمالِهِ وذاكَ بعمَلِه، وهذا بإدارَتِهِ وذاكَ بقوَّتِه، وكُلٌّ يَحتاجُ إلى الآخَر. وما أعدَّهُ اللهُ لعِبادِهِ

المؤمنينَ في الدَّارِ الآخِرَة، خَيرٌ مِنَ الأموَالِ وســـائرِ مَتاعِ الدُّنيا، فالدُّنيا إلى زَوال، ورَحمَةُ اللهِ باقيَة.

{وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُـــقُفاً مِّن فَضَّـــةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ} (الزخرف : ٣٣)

٣٣- ولولا خَشيَةُ أنْ يَجتَمِعَ النَّاسُ على الكُفرِ ويَرغَبوا فيه، لجعَلنا لمنْ يَكفُرُ باللهِ بُيوتًا سُقُفُها مِنْ فِضَّةٍ خالصَة، وسلالِمَ ومَصاعِدَ منْ فضَّةٍ كذلكَ يَرتَقُونَ عَليها.

{وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ} (الزخرف : ٣٤)

٣٤- ولجعَلنا لبُيوتِهِمْ أبوَابًا وأسِرَّةً مِنْ فِضَّةٍ يَتَّكِؤونَ عَليها؛ زيَادةً في نَعيمِهم،

{وَزُخْرُفاً وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ} (الزخرف: ٣٥)

٣٥- ونُقوشًـا وزَخارِفَ شَـتَّى... وكُلُّ ذلكَ اسـتِمتاعٌ قَليلٌ زائل، في حَياةٍ قَصـيرَةٍ فانيَة، قدْ عُجِّلَ لأصـــحَابِها نَعيمُهم. وما أعدَّهُ اللهُ مِنَ النَّعيمِ الدَّائمِ في الدَّارِ الآخِرَةِ هوَ لعبادِهِ المتَّقين الذينَ جَدُّوا في طاعته، لا يُشارِكُهمْ فيها غيرُهم، وهوَ أكرَمُ وأبقَى مِنْ نَعيمِ الدُّنيا.

{وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} (الزخرف : ٣٦)

٣٦- ومَنْ يَتعامَ ويُعرِضْ عنِ القُرآن، فلمْ يَرْجُ ثَوابَ ما فيه، ولم يَخَفْ عِقابَه، نُسَـــلِّطْ عَليهِ شَيطانًا لا يُفارِقُه، لا يَزالُ يُغويهِ ويُحَسِّنُ لهُ ما هوَ عليهِ مِنْ ضَلال.

{وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ} (الزخرف : ٣٧)

٣٧- وإنَّ الشَّـياطينَ ليَمنَعونَ قُرَناءَهمْ الكفَّارَ مِنَ الهُدَى والخَير، وهمْ يَحسَـبونَ أنَّهمْ سَـائرونَ على الطَّريقِ الصَّحيح!

{حَتَّى إِذَا جَاءنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ} (الزخرف : ٣٨)

٣٨- حتَّى إذا جاءَنا هذا الكافِرُ الضَّـالُّ يَومَ القِيامَة، ومعَهُ شَـيطانُهُ الذي وُكِّلَ بهِ في الحيَاةِ الدُّنيا، تَبرَّأَ منهُ الكافِرُ وقال: لَيتَ بيني وبينَكَ في الدُّنيا بُعْدَ ما بينَ المشـــرِقِ والمغرِب، فبئسَ الصَّاحِبُ الخَبيثُ أنتَ.

{وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ} (الزخرف : ٣٩)

٣٩- ولنْ يُفيدَكمْ في الآخِرَةِ اشـتِراكُكمْ في العَذاب، ولنْ يُخَفِّفَ ذلكَ شَـيئًا عنكم، مِنْ قَبيلِ أنَّ المصيبَةَ إذا عمَّتْ هانَتْ كما كانَ الأمرُ في الدُّنيا، بلْ لكُلٍّ الحَظُّ الأَوفَرُ مِنَ العَذاب، وقدْ كفَرتُمْ جَميعًا وأفسَدتُمْ مِنْ قَبل.

{أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} (الزخرف : ٤٠)

٤٠- أفتَقدِرُ على إسمَاعِ الصُّـمِّ وهمْ لا يُريدونَ السَّـماع؟ أوَ تَقدِرُ على إهداءِ العُمي وهمْ يأبَونَ الإبصَـار، وقدْ أغلَقوا نَوافِذَ النُّورِ إلى قُلوبِهم، والكافِرينَ الذينَ همْ في غَيٍّ وضَـلالٍ بَيِّن؟ أنتَ لا تَستَطيعُ ذلك، فليسَتْ هِدايَتُهمْ إليك، إنَّما أنتَ مُبَلِّغٌ عنْ رَبِّك، وأمرُهمْ إلى الله.

{فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ} (الزخرف : ٤١)

٤١- فإذا قبَضـناكَ إلينَا قَبلَ أنْ يَحِلَّ بهمْ عَذابُ رَبِّك، فسَـنَنتَقِمُ منهمْ في الحيَاةِ الدُّنيا وفي الآخِرَة،

{أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ} (الزخرف : ٤٢)

٤٢- أو أنْ نُرِيَكَ العَذابَ الذي وعَدناهمْ في أثناءِ حياتِك، ونحنُ قادِرونَ على هذا وذاك. وقدْ قُتِلَ زُعماءُ المشرِكينَ وصَناديدُهمْ في حَربِهمْ ضدَّ المسلمين، وانتَصرَ الإسْلام.

{فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (الزخرف : ٤٣)

٤٣- فتمَسَّـكْ بالقُرآنِ الذي أنزلَهُ اللهُ عَليك، وداوِمْ على العمَلِ به، فإنَّكَ بذلكَ على الحقِّ والصَّواب، الذي يُريدُهُ اللهُ لعِبادِه.

{وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} (الزخرف : ٤٤)

٤٤- وإنَّ القُرآنَ لشَرَفٌ عَظيمٌ لكَ ولقَومِك. فقدْ نزَلَ بلُغَتِهم، وكانوا أوَّلَ حمَلَتِه. وسَوفَ تُسألونَ وتُحاسَبونَ يَومَ القيامَةِ عنْ حُقوقِهِ عَليكم، وعنْ شُكرِ هذهِ النِّعمَة.

{وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} (الزخرف : ٤٥)

٤٥- واسأَلِ الأُممَ الذينَ أرسَلنا إليهِمْ رسُلاً مِنْ قَبلِك، أطلَبنا منهمْ أنْ يَعبُدوا آلهَةً دونَ الله؟ بلْ دِينُ الرسُلِ كُلِّهِمْ واحِدٌ في الدَّعوَةِ إلى التَّوحيد، وأنتَ واحِدٌ منهم، ودَعوَتُكَ مثلُ دَعوَتِهِم.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (الزخرف : ٤٦)

٤٦- ولقدْ أرسَلنا موسَى بنَ عِمرانَ بمُعجِزاتِنا التي أيَّدْناهُ بها إلى فِرعَونَ وأشرافِ قَومِهِ وأتبَاعِه، فقالَ لهم: إنِّي رَسُولٌ إليكمْ مِنْ عندِ اللهِ رَبِّ العالَمين.

{فَلَمَّا جَاءهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ} (الزخرف : ٤٧)

٤٧- فلمَّا جاءَهمْ موسَى بمُعجِزاتِنا الواضِحَة، إذا همْ يَسخَرونَ منها ويَستَهزِؤونَ بها!

{وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (الزخرف : ٤٨)

٤٨- وما كنَّا نُريهمْ مُعجِزةً مِنْ تلكَ المعجِزاتِ إلاّ وهيَ أعظَمُ مِنْ سابقَتِها، أو أنَّ كُلَّهنَّ مُعجِزاتٌ كَبيرات، يُنظَرُ إلى كلِّ واحِدَةٍ وكأنَّها أعظَمُ مِنَ الأخرَى، ومعَ ذلكَ فقدِ أعرَضوا وكفَروا بالدِّين، فكانَ جزاءَهمْ أنِ ابتَلَيناهمْ بالعَذاب، كالطُّوفان، والجَراد، والقُمَّل، والدَّم، لكي يَعتَبِروا ويَرجِعوا عمَّا همْ عليهِ مِنَ الضَّلال.

{وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ} (الزخرف : ٤٩)

٤٩- وقالوا لموسَى وقدْ جَهِدوا ممَّا أصابَهم: أيُّها العالِم، ادْعُ لنا ربَّكَ يَكشِفْ عنَّا ما نحنُ فيهِ مِنْ بَلاء، بما عَهِدَهُ عندَكَ مِنْ كشفِ العَذابِ عنَّا إنْ آمَنَّا، وسنؤمِنُ بكَ بعدَ ذلك.

{فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ} (الزخرف : ٥٠)

٥٠- فلمَّا فرَّجْنا عَنهم، وكشَفنا عنهمُ الذي أصابَهُمْ بدَعوَةِ نَبيِّهم، إذا همْ يَنقُضونَ عَهدَهم، ويُخالِفونَ وَعدَهم، ويُصِرُّونَ على كُفرِهم.

{وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ} (الزخرف : ٥١)

٥١- وجَمعَ فِرعَونُ المتكبِّرُ عُظماءَ قَومِه، أو طائفَةً كبيرَةً منهم، ونادَى فيهِمْ قائلاً: يا قَوم، أليسَ لي مُلكُ مِصرَ كُلِّها، وهذهِ الأنهارُ المتفَرِّعَةُ مِنَ النيلِ تَجري مِنْ بينِ يديَّ وهيَ تحتَ تصَرُّفي، أفلا ترَونَ ما أنا فيهِ مِنَ العَظمَةِ وقُوَّةِ الملك؟

{أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ} (الزخرف : ٥٢)

٥٢- قالَ لعنَهُ الله: بلْ أنا أفضَلُ بهذا الملكِ والسُّلطانِ مِنْ موسَى، الضَّعيفِ المهان، الذي لا يَكادُ يُفصِحُ بكَلامِه.

{فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ} (الزخرف : ٥٣)

٥٣- قال: فلو كانَ نبيًّا حقًّا، هلاّ ألقَى رَبُّهُ عَليهِ أساوِرَ مِنْ ذَهَب، كالسَّادَةِ والزُّعَماءِ الذينَ تَجِبُ طاعَتُهم، أو جاءَ معَهُ الملائكةُ يُعِينُونَهُ ويَشهَدونَ بصِدقِه؟

{فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ} (الزخرف : ٥٤)

٥٤- فاستخَفَّ بعُقولِ قَومِه، فأطاعُوهُ فيما أمرَهمْ به، وفي تَكذيبِ ما جاءَ بهِ موسَى، إنَّهمْ كانوا قَومًا خارِجينَ عنْ طاعَةِ الله.

{فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ} (الزخرف : ٥٥)

٥٥- فلمَّا أسخَطونا بأعمَالِهِمُ السيِّئة، عاقَبناهم، فأغرَقناهمْ جَميعًا في البَحر.

{فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ} (الزخرف : ٥٦)

٥٦- فجعَلناهمْ مِنَ السَّلَفِ المعاقَبين، ليَتَّعِظَ بهمْ مَنْ بَعدَهم.

{وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ} (الزخرف : ٥٧)

٥٧- ولما ذَكَرَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم للمشرِكينَ أنَّهُمْ وما يَعبُدونَ حَصَبُ جهنَّم، جادلَهُ أحَدُهمْ وقال: إنَّ النَّصارَى كذلكَ تَعبدُ عيسَى، فهمْ وعيسَى في جهنَّم. فضَجَّ المشرِكونَ وظَنُّوا أنَّهُ حاجَّ الرسُولَ صلى الله عليه وسلم!

{وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ} (الزخرف: ٥٨)

٥٨- وقالوا له: أآلهتُنا أفضَلُ أمْ عيسَى؟! إنَّنا نَرضَى أنْ نَكونَ وآلهتَنا معَ عيسَى في جهنَّم، مادامَ هوَ أيضًا سيَكونُ فيها! وما ضرَبَ المشرِكونَ لكَ هذا المثلَ إلاّ خُصومَةً وجدَلاً عَقيمًا، بلْ همْ قَومٌ مُجادِلونَ بالباطِل.

والمرادُ بقَولِهِ تَعالَى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} [سورة الأنبياء: ٩٨]: همْ وأصنامُهم.

{إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ} (الزخرف : ٥٩)

٥٩- وما عيسَى بنُ مَريمَ إلاّ عَبدٌ مخلوق، أنعَمنا عليهِ بالنبوَّة، وجعَلناهُ مُعجِزَةً وعِبرَةً لبَني إسْرائيل، فقدْ خلَقناهُ مِنْ غَيرِ أب، وأيَّدناهُ بمُعجِزاتٍ كبيرة.

{وَلَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ} (الزخرف : ٦٠)

٦٠- ولو أرَدنا لأهلَكناكمْ وجعَلنا بدَلاً منكمْ مَلائكةً يَخلُفونكمْ ويُعَمِّرونَ الأرْض، ويَعبُدونَني ولا يُشرِكونَ بي شَيئًا.

{وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ} (الزخرف : ٦١)

٦١- وإنَّ عيسَى عليهِ السَّلامُ عَلامَةٌ على السَّاعَة، يُعْلَمُ بهِ قُربُها، عندَ نُزولِهِ في آخِرِ الزَّمان، فلا تَشُكُّوا فيها ولا تُكَذِّبوا بها، فإنَّها آتيَةٌ لا رَيبَ فيها. واتَّبِعوني فيما أُخبِرُكمْ بهِ مِنْ عندِ الله، فإنَّ القُرآنَ الذي أدعُوكمْ إليهِ هوَ الحقّ، والطَّريقُ الصَّواب.

{وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} (الزخرف : ٦٢)

٦٢- ولا يَصرِفنَّكمُ الشَّيطانُ عنْ مَعرِفَةِ الحقِ واتِّباعِ دِينِ الله، فإنَّهُ عَدوٌّ ظاهِرُ العَداوَةِ لكم.

{وَلَمَّا جَاء عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} (الزخرف : ٦٣)

٦٣- ولما بُعِثَ عيسَى إلى بَني إسْرائيلَ قالَ لهم: لقدْ جئتُكمْ بالنبوَّة، ولأوَضِّحَ لكمْ بعضَ ما تَختَلِفونَ فيهِ مِنَ الأمُورِ الدِّينيَّة، ومِنْ أحكَامِ التَّوراة، فاحذَروا مُخالَفةَ أمرِ الله، وأطيعُوني فيما آمرُكمْ بهِ مِنْ عندِه.

{إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ} (الزخرف : ٦٤)

٦٤- فأنا مثلُكمْ في العُبوديَّة، واللهُ رَبِّي وربُّكم، فالتَزِموا طاعتَه، واعبُدوهُ وَحدَه، فإنَّ التَّوحيدَ هوَ الطَّريقُ الصَّواب، الذي يُرضي الربّ، ويَهدي إلى الجنَّة.

{فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ} (الزخرف : ٦٥)

٦٥- فاختلَفوا وتفرَّقوا، وصَاروا شِيَعًا وأحزابًا، وقالُوا ما قالُوا في عيسَى ووالدَتِه، فالوَيلُ والهَلاكُ للفِرَقِ الضَّالَّة، المحرِّفَةِ والمبَدِّلَة، مِنْ عَذابِ يَومِ القيامَة.

{هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} (الزخرف : ٦٦)

٦٦- هلْ يَنتَظِرُ المشرِكونَ المكذِّبونَ إلاّ أنْ تأتيَهمُ السَّاعَةُ فَجأةً وهمْ في غَفلَةٍ لاهُون؟

{الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} (الزخرف : ٦٧)

٦٧- الأصدِقاءُ المحِبُّونَ في يَومِ القيامَةِ يَكونُ بَعضُهمْ أعداءً لبَعض، إلاّ المتحابّينَ في طاعَةِ الله، فإنَّها باقيَة، ومُثابٌ عَليها.

{يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ} (الزخرف : ٦٨)

٦٨- يا عِبادِيَ المؤمِنينَ المتحابّينَ في الله، لا خَوفَ عليكمُ اليَومَ ولا بَأس، فلا تَجزَعوا ممَّا تَرَونَهُ مِنْ أهوالِ يَومِ القِيامَة، ولا تَهتَمُّوا ولا تَغتَمُّوا، فإنَّ أمامَكمْ ما يَسرُّكمْ ويُفرِحُ قُلوبَكم.

{الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ} (الزخرف : ٦٩)

٦٩- الذينَ آمَنوا باللهِ وآياتهِ كلِّها، وكانوا مُستَسلِمينَ لأمرِ اللهِ ورَسُولِه، مُنقادينَ للشَّرعِ وأحكَامِه.

{ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ} (الزخرف : ٧٠)

٧٠- ادخُلوا الجَنَّةَ أنتُمْ وزَوجاتُكمُ المؤمِنات، تَنَعَّمونَ فيها وتُسَرُّون.

{يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (الزخرف : ٧١)

٧١- يُطافُ على أهلِ الجنَّةِ بأوانٍ كقِصاعٍ مِنْ ذهَب، وأكوَاب، وفيها ما تَرغَبُ فيهِ الأَنفُسُ وتَشتَهيهِ مِنْ أنوَاعِ المآكلِ والمشارِب، وما تَستلَذُّهُ الأعينُ مِنَ الجَمالِ وحُسنِ المنظَر، وأنتُمْ ماكِثونَ فيها أبَدًا.

{وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (الزخرف : ٧٢)

٧٢- وتلكَ هيَ الجَنَّةُ التي أُعطِيتُموها، واقتسَمتُمْ مَنازِلَها بما كنتُمْ تَعمَلونَ مِنَ الأعمالِ الصَّالحةِ في الحيَاةِ الدُّنيا.

قالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ الله: أي: أعمالُكمُ الصَّالحةُ كانتْ سبَبًا لشُمولِ رَحمَةِ اللهِ إيَّاكم، فإنَّهُ لا يُدخِلُ أحدًا عمَلُهُ الجنَّةَ، ولكنْ برَحمَةِ اللهِ وفَضلِه، وإنَّما الدَّرَجاتُ يُنالُ تَفاوتُها بحسَبِ الأعمالِ الصَّالحات.

{لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ} (الزخرف : ٧٣)

٧٣- لكمْ فيها فَواكِهُ كثيرَة، بأنوَاعِها وأصنافِها المتعَدِّدَة، وألوَانِها وطُعومِها المتنوِّعَة، تأكُلونَ منها متَى ما أرَدتُم.

{إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ} (الزخرف : ٧٤)

٧٤- إنَّ الكافِرينَ الأشقِياءَ في عَذابِ جهنَّمَ باقُونَ أبَدًا.

{لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ} (الزخرف : ٧٥)

٧٥- لا يُخَفَّفُ عنهمُ العَذابُ ساعَةً واحِدَة، وهمْ فيهِ حَزينونَ ساكِتون، آيسُونَ مِنْ كُلِّ خَير.

{وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ} (الزخرف : ٧٦)

٧٦- ولم نَظلِمْهمْ بهذا العَذاب، بلْ همُ الذينَ جلَبوهُ لأنفُسِهم، فكفَروا بآياتِنا، وكذَّبوا رسُلَنا، وفتَنوا المؤمِنينَ عنْ دينِهم، وعصَوا وأفسَدوا في الأرْض، وأصَرُّوا على الكفرِ حتَّى ماتوا عَليه.

{وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ} (الزخرف : ٧٧)

٧٧- ولما اشتدَّ عليهمُ العَذابُ وطالَ بهم، نادَوا خازِنَ النَّار: يا مالِك، ليَقبِضْ رَبُّكَ أرواحَنا ويُريحَنا ممَّا نحنُ فيه. فقالَ لهم: إنَّكمْ مُقيمونَ في العَذابِ أبَدًا.

{لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ} (الزخرف : ٧٨)

٧٨- لقدْ أعلَمناكمْ بالحقِ في الحيَاةِ الدُّنيا، وبيَّنَّا لكمُ الهُدَى مِنَ الضَّلال، ولكنَّ أكثرَكمْ كانوا مُبغِضـــينَ لدِينِ الله، لا يَقبَلونَ الحقّ، وينَفِرونَ مِنَ الحُجَجِ والآيَات، ويُؤثِرونَ عَليها أهواءَهمْ وعاداتِهم.

{أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ} (الزخرف : ٧٩)

٧٩- أمْ أنَّ المشرِكينَ قدْ دبَّروا أمرًا للكَيدِ برَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، بقَتلِهِ، أو القَضاءِ على رسالَتِه؟ فإنَّ اللهَ قدْ أحكمَ الأمرَ لخِذلانِهم، ونُصرَةِ نبيِّه، فلنْ يُغنيَ عنهمْ كيدُهمْ شَيئًا.

{أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} (الزخرف : ٨٠)

٨٠- أمْ يَظنُّونَ أنَّا لا نَسـمَعُ ما يُسِرُّونَ في أنفُسِـهم، وما يَتناجَونَ بهِ مِنْ كلامٍ بَينَ بَعضِـهمُ البَعض؟ بلَى، نحنُ عالِمونَ بذلك، ومَلائكتُنا يَكتُبونَ ما يَقولونَ وما يَعمَلون.

{قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} (الزخرف : ٨١)

٨١- قُلْ لهؤلاءِ المشــرِكينَ أيُّها الرسُــول: لو كانَ للهِ ولَدٌ حقًّا، لعَبَدتُهُ على ذلك، ولكنَّهُ لا يَصِحُّ ولا يُعقَل، ولا يَقبَلُ اللهُ أنْ يَكونَ لهُ شَريك، فهوَ زَعمٌ فاسِدٌ لا أصلَ لهُ ولا دَليلَ عليه.

{سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} (الزخرف : ٨٢)

٨٢- تَقدَّسَ اللهُ وتَنزَّهَ عمَّا يَصِـفُهُ بهِ المشـرِكون، وهوَ خالِقُ السَّــماواتِ والأرْضِ ومالِكُهما، والمتصَرِّفُ فيهما، وهوَ رَبُّ العَرشِ العَظيم.

{فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ} (الزخرف : ٨٣)

٨٣- فدَعهُمْ يَخوضُــوا في ضَــلالهِمْ وباطِلِهم، ويَلعَبوا في دُنياهُم، حتَّى يُلاقُوا يومَ القِيامَةِ الذي وُعِدوا به، وسَوفَ يَعلَمونَ عاقبةَ أمرِهِمْ يومَئذ.

{وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ} (الزخرف : ٨٤)

٨٤- وهوَ تَعالَى مَعبودٌ في السَّــــماءِ، ومَعبودٌ في الأرْض، وهوَ الإلهُ الحقّ، الحَكيمُ في تَدبيرِ شُؤونِ الخَلق، العَليمُ بأحوالِهِمْ ومَصالحِهم.

{وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّــــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّــــاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (الزخرف : ٨٥)

٨٥- وتَعالَى اللهُ وجلَّتْ قُدرَتُه، الذي لهُ مُلكُ السَّــــماواتِ والأرْض، وما بينَهما، وهوَ وحدَهُ المتصَـرِّفُ فيهما، ومُدَبِّرُ أمرِهما، وهوَ وحدَهُ الذي يَعلَمُ وقتَ قيامِ السَّـاعَة، لا يَعرِفُهُ نَبيٌّ مُرسَـلٌ ولا مَلَكٌ مُقَرَّب، وإليهِ جَميعًا تُرجَعونَ للحِسابِ والجَزاء.

{وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (الزخرف : ٨٦)

٨٦- ولا يَملِكُ مَنْ يَعبُدهمُ المشرِكونَ الشَّفاعَةَ لهمْ لإنقاذِهمْ ممَّا همْ فيه، إلاّ مَنْ شَهِدَ بالتَّوحيدِ وهمْ على بَصـيرَةٍ وعلمٍ بذلك، وهم: الملائكة، وعيسَـى، وعُزَير، وأمثالُهم. وهؤلاءِ لا يَشـفَعونَ إلاّ للمؤمنين.

{وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} (الزخرف : ٨٧)

٨٧- وإذا ســـألتَ المشــرِكينَ مَنِ الذي خَلقَهم؟ فســيَقولون: اللهُ خَلقَنا. فقُلْ لهم: فكيفَ تُصرَفونَ عنْ عِبادَتِهِ سُبحانَهُ إلى عِبادَةِ غَيرِهِ مِنَ المخلوقين؟!

{وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاء قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ} (الزخرف : ٨٨)

٨٨- وشَـكا رسُـولُ اللهِ صـلى الله عليه وسـلم إلى رَبِّهِ مُتحَسِّـرًا وهوَ يَقول: يا رَبّ، إنَّ هؤلاءِ قَومٌ مُعاندونَ كَذَّبوني ولا يُؤمِنون.

{فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} (الزخرف : ٨٩)

٨٩- فأعرِضْ عَنهمْ أيُّها الرسُولُ الكَريم، ولا تُجاوِبْهُمْ بمثلِ ما يُخاطِبونَكَ بهِ مِنَ الكَلامِ السيِّء، فسَوفَ يَعلَمونَ عاقبَةَ أمرِهم.

وذهبَ مُفَسِّرونَ إلى أنَّها مَنسوخَةٌ بآيَةِ السَّيف.

قالَ صـــاحبُ "روح المعاني": إنْ أُريدَ مِنَ الآيَةِ الكفُّ عنِ القِتالِ فهيَ مَنســـوخَة، وإنْ أُريدَ الكفُّ عنْ مُقابلَتِهمْ بالكَلام، فليسَتْ بمَنسوخَة.

سورة الدخان

بسم اللهِ الرحمن الرحيم

{حم} (الدخان : ١)

١- حُروفٌ مُقطَّعَةٌ... اللهُ أعلمُ بمُرادِها.

{وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ} (الدخان : ٢)

٢- أُقسِمُ بالقُرآنِ البَيِّنِ في ألفاظِهِ وأحكامِه، وفي هَديهِ ودَلائلِه، وفي دَعوَتِهِ النَّاسَ إلى التَّوحيدِ والطَّاعَة.

{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ} (الدخان : ٣)

٣- إنَّا أنزَلنا القُرآنَ في ليلَةٍ مُباركَة، كثيرَةِ الخَيرِ والثَّواب، هيَ ليلَةُ القَدْرِ في شَهرِ رَمضان. إنَّا كنَّا مُنذِرينَ بهِ الخَلق، ومُنَبِّهينَ فيهِ إلى ما يَنفَعُهمْ وما يَضُرُّهمْ في الحيَاةِ الدُّنيا، وما يَنتَظِرُهمْ مِنْ حِسابٍ وجَزاءٍ يَومَ القيامَة.

{فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} (الدخان : ٤)

٤- في تلكَ اللَّيلَةِ المبارَكَةِ مِنْ كُلِّ عام، يُفْصَلُ كُلُّ أمرٍ مُحْكَمٍ في شأنِ العِباد، لا يُبَدَّلُ ولا يُغَيَّر.

{أَمْراً مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} (الدخان : ٥)

٥- أمرًا مُقَدَّرًا ومُدَبَّرًا مِنْ عندِنا، إنَّا كنَّا مُرسِلينَ إلى النَّاسِ رَسولاً مِنْ عندِنا يُخبِرُهمْ بما نُوحي إليه.

{رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (الدخان : ٦)

٦- رَحمَةً مِنْ رَبِّكَ بالنَّاس، حتَّى لا يَبقُوا في حَيرَةٍ وضَلال، إنَّهُ السَّميعُ لأقوَالِ العِباد، العَليمُ بأحوَالِهم.

{رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ} (الدخان : ٧)

٧- رَبُّ السَّماواتِ والأرْضِ، وما بينَهما، خَلقًا، ومُلكًا، وتَدبيرًا، إنْ كنتُمْ مِنْ أهلِ الإيمَانِ والإيقَان.

{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ} (الدخان : ٨)

٨- لا إلهَ غَيرُه، ولا مَعبودَ بحقٍّ سِواه، يُحيي الأموَاتَ بقُدرَتِهِ وقدْ صَاروا عِظامًا باليَة، ويَسلُبُ حياةَ مَنْ شَاءَ متَى شَاء، بأسبابٍ ظاهِرةٍ وخَفيَّة، مَعروفَةٍ أو غَيرِ مَعروفَة، وهوَ خالقُكمْ ورازِقُكمْ ومالِكُ أمرِكم، أنتمْ وآبائكمْ وأجدادِكمْ أجمَعين.

{بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ} (الدخان : ٩)

٩- بلِ المشركونَ في شَكٍّ مِنَ الدِّينِ الحقّ، وهمْ لاهُونَ غَيرُ مُبالِين.

{فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ} (الدخان : ١٠)

١٠- فانتَظِرْ بهِمْ يَومًا شَديدًا، عندَما تأتي السَّماءُ بدُخانٍ ظاهِرٍ يَراهُ النَّاسُ كُلُّهم. وهوَ مِنْ أمَاراتِ السَّاعَة.

{يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} (الدخان : ١١)

١١- يُحيطُ هذا الدُّخانُ بالنَّاسِ ويَعُمُّهم، و"يأخذُ المؤمِنَ كالزَّكمَة، ويأخذُ الكافِرَ فيَنتَفِخُ حتَّى يَخرُجَ مِنْ كُلِّ مِسمَعٍ منه"، كما في الحَديثِ الذي جوَّدَ سندَهُ ابنُ كثير.

{رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ} (الدخان : ١٢)

١٢- فيَستَغيثُ الكافِرونَ باللهِ مِنْ شِدَّةِ هذا الكرْب، ويَدْعُونَهُ قائلين: ربَّنا اكشِفْ عنَّا ما أصابَنا، فإذا كشفتَ عنَّا آمنَّا وانقَدْنا لِما أمَرتَنا.

{أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ} (الدخان : ١٣)

١٣- ولكنْ كيفَ يَتذَكَّرونَ هذا ويَصدُقونَ في وَعدِهِمْ بالإيمَان، وقدْ سبقَ أنْ أرسَلنا إليهمْ رَسُولاً مُؤيَّدًا بمُعجِزات،

{ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ} (الدخان : ١٤)

١٤- فأعرَضوا عنهُ وكفَروا برسالَتِه، وقالوا في حقِّهِ إنَّهُ يُعَلَّمُ مِنْ قِبَلِ غُلامٍ أعجَميّ، وأنَّهُ مجنونٌ لا يَعي ما يَقول؟!

{إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ} (الدخان : ١٥)

١٥- هذا عَذابٌ (عُقوبَةٌ في الحيَاةِ الدُّنيا) نَصرِفُهُ عنكمْ زَمانًا قَليلاً أيُّها الكافِرون، وسَوفَ تَعودونَ إلى ما كنتُمْ عَليهِ مِنَ الضَّلالِ بعدَ صَرفِهِ عنكم.

{يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ} (الدخان : ١٦)

١٦- في يَومِ القِيامَةِ نُنزِلُ بكمُ العُقوبَةَ الكُبرى، ونَنتَقِمُ منكمْ جَزاءَ كُفرِكمْ بآياتِنا وتَكذيبِكمْ رسُلَنا.

{وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ} (الدخان : ١٧)

١٧- ولقدِ اختبَرْنا قبلَ هؤلاءِ المشركِينَ قَومَ فِرعَونَ بمِصر، وأرسَلنا إليهمْ نَبيًّا مُكرَّمًا، هوَ كَليمُ اللهِ موسَى.

{أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ} (الدخان : ١٨)

١٨- فقالَ لهم: أطلِقوا بَني إسْرائيلَ مِنَ الظُّلمِ والاستِعباد، وأرسِلوهمْ مَعي، إنّي مُرسَلٌ إليكمْ مِنْ قِبَلِ الله، وأنا أمينٌ على وَحيه.

{وَأَنْ لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} (الدخان : ١٩)

١٩- ولا تَستَكبِروا على اللهِ بتَركِ طاعَتِه، ولا تَتعالَوا على آياتِهِ ومُعجِزاتِه، إنّي آتيكمْ بحُجَّةٍ واضِحَةٍ تَدلُّ على صِدقِ نُبوَّتي.

{وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ} (الدخان : ٢٠)

٢٠- وإنّي التَجأتُ إلى اللهِ خالِقي وخالقِكمْ واستَجَرتُ بهِ مِنْ أنْ تُؤذُوني أو تَقتُلوني.

{وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ} (الدخان : ٢١)

٢١- وإذا لم تؤمِنوا بما أدعُوكمْ إليه، فتنَحَّوا عنّي، وكفُّوا عنّي لسانَكم.

{فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاء قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ} (الدخان : ٢٢)

٢٢- فلمَّا جاءَهمْ بمُعجِزاتٍ مِنْ رَبِّه، ازدَادوا كُفرًا وعِنادًا، فدَعا رَبَّهُ قائلاً: إنَّ هؤلاءِ قَومٌ أُغرِقوا في الكُفر، وتَشرَّبَتْ نُفوسُهمْ بالمعصيَة، فافعَلْ بهِمْ ما يَستَحِقُّونَه.

{فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ} (الدخان : ٢٣)

٢٣- فأوحَى اللهُ إلى موسَى: أنْ اخرُجْ ببَني إسرائيلَ ومَنْ آمنَ مِنْ قَومِ فِرعَونَ ليلاً، فإنَّ فِرعَونَ وجُنودَهُ سيتَّبِعونَكم.

{وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ} (الدخان : ٢٤)

٢٤- واترُكِ البَحرَ ساكِنًا على هَيئَتِهِ بعدَ عُبورِه، ولا تَضرِبْهُ بعَصاكَ مرَّةً أُخرَى ليَعودَ كما كان، فإنَّ فِرعَونَ وجُنودَهُ داخِلونَ فيه، غارِقُون.

{كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} (الدخان : ٢٥)

٢٥- فأُغرِقوا فيها جَميعًا. كَمْ خلَّفوا مِنْ بَساتينَ خَضراء، وأنهارٍ وعُيونٍ مُتفَجِّرَة،

{وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ} (الدخان : ٢٦)

٢٦- وزُروعٍ، وقُصورٍ عاليَة، ومَساكِنَ أنيقَة،

{وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ} (الدخان : ٢٧)

٢٧- وترَفٍ ومُتعَةٍ كانوا غارِقينَ فيها، وتلَذُّذٍ وتنَعُّم.

{كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ} (الدخان : ٢٨)

٢٨- وكذلكَ نَنتَقِمُ ممَّنْ كذَّبَ وكفَر، وأورَثْنا أموالَهُمْ وقُصــورهمْ ومَزارِعَهمْ بَني إسْــرائيل، بعدَما رجَعوا إلى مِصر.

{فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ} (الدخان : ٢٩)

٢٩- فلمْ يُكتَرَثْ بَهلاكِ فِرعَونَ وقَومِه، فما عَمِلوا صالِحًا لتَبكيَ عَليهِمُ السَّماء، وما ترَكوا أثَرًا حسنًا لتَحزَنَ عَليهِمُ الأرضُ وتُخَلِّدَ ذِكرَهم[١٣٧]، ولم يُمهَلوا إلى وَقتٍ آخرَ ليَتوبُوا وقدْ جاءَ وَقتُ هَلاكِهم.

---

(١٣٧) كانتِ العربُ تقولُ عند موتِ السيِّدِ منهم: بكتْ له السماءُ والأرض، أي: عمَّتْ مصيبته. وقالَ الحسن: في الكلامِ مضافٌ محذوف، أي: ما بكى عليهم أهلُ السماءِ والأرضِ من الملائكةِ والناس. (فتح القدير، باختصار).

كان من كلامِ العربِ إذا هلكَ عظيمٌ أن يهوِّلوا أمرَ موته، بنحو: بَكتْ عليه الســماء، وبكتهُ الريح، وتزلزلتْ الجبال... والكلامُ مسوقٌ مساقَ التحقيرِ لهم. (التحرير والتنوير، باختصار).

مجازٌ مرسلٌ عن عدمِ الاكتراثِ بهلاكهم والاعتدادِ بوجودهم؛ لأن سببَ البكاءِ على شيءٍ هو المبالاةُ بوجوده، يعني أنه استعارةٌ تمثيليةٌ بعد الاستعارةِ المكنيةِ في السماءِ والأرض، بأن شبِّهتا بمن يصحُّ منه الاكتراث، على سبيلِ الكناية، وأُسنِدَ البكاءُ إليهما على ســبيلِ التخييل. كانت العربُ إذا ماتَ فيهم من له خطرٌ وقدرٌ عظيمٌ يقولون: بكتْ عليه الســماءُ والأرض، يعني أن المصــيبةَ بموتهِ عمَّتِ الخلقَ فبكى له الكلّ، حتى الأرضُ والسـماء. فإذا قالوا: ما بكتْ عليه السـماءُ والأرض، يعنون به: ما ظهرَ بعدَهُ ما يَظهرُ بعد موتِ ذوي الأقدارِ والشــرف، ففيه تهكمٌ بالكفار، وبحالهم المنافيةِ لحالِ من يَعظمُ فقدهُ فيُقالُ له بكتْ عليه السماءُ والأرض. (روح البيان، وحاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي).

{وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ} (الدخان : ٣٠)

٣٠- ولقدْ أنقَذْنا بَني إسرائيلَ مَنَ الظُّلمِ والاستِعبادِ والامتِهان،

{مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ الْمُسْرِفِينَ} (الدخان : ٣١)

٣١- الذي أصابَهُمْ على يَدِ فِرعَونَ، فقدْ كانَ طاغيَةً جبَّارًا، مِنْ أهلِ الشرِّ والفَساد.

{وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} (الدخان : ٣٢)

٣٢- ولقدْ أكرَمْنا مُؤمِني بَني إسْـرائيلَ واصـطفَيناهمْ في ذلكَ الوَقتِ على العالَمين، عِلمًا منَّا باستِحقاقِهمْ ذلك.

{وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاء مُّبِينٌ} (الدخان : ٣٣)

٣٣- وآتَيناهمْ مِنَ البَراهِينِ والمعجِزاتِ ما فيهِ اختِبارٌ ظاهِرٌ لهم، وفَضلٌ لمنِ اهتدَى بها.

{إِنَّ هَؤُلَاء لَيَقُولُونَ} (الدخان : ٣٤)

٣٤- إنَّ هؤلاءِ المشرِكينَ الضالِّينَ مِنْ قَومِكَ يَقولون:

{إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ} (الدخان : ٣٥)

٣٥- ما نِهايَةُ أمرِنا سِوَى الموتَةِ الأُولَى التي نَموتُها، ولنْ نُبعثَ بَعدَها، ولا حِسابَ ولا جَزاء،

{فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (الدخان : ٣٦)

٣٦- فَأْتُوا لنا بمَنْ ماتَ مِنْ آبائنا، إنْ كنتُمْ صادِقينَ بأنَّنا نُبعَثُ أحياءً بعدَ الموت!

{أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ} (الدخان : ٣٧)

٣٧- أهُمْ أكثَرُ قوّةً ومنعَةً أمْ قَومُ الملِكِ تُبَّعٍ الحِمْيَري، والذينَ مِنْ قِبلِهمْ مِنَ الأُمَمِ الكافِرَة، كعَادٍ وثَمود، انتقَمْنا منهمْ وأهلَكناهم، إنَّهمْ كانوا مُكذِّبينَ لرسُلِنا، مُصرّينَ على الكُفر.

أمَّا تُبَّعٌ نَفسُهُ فقدْ وردَ في الحَديثِ الصَّحيحِ قَولُهُ صلى الله عليه وسلم: "لا تَسبُّوا تُبَّعًا، فإنَّهُ كانَ قدْ أسلَمَ".

{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ} (الدخان : ٣٨)

٣٨- وما خلَقْنا السَّماءَ ومَنْ فيها والأرْضَ ومَنْ عَليها لَهوًا وعبَثًا بدونِ حِكمَةٍ وفائدَة.

{مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (الدخان : ٣٩)

٣٩- ما خَلقناهُما وما بينَهما إلاّ بالحقّ، للإيمانِ باللهِ وقُدرَتِهِ وعظمَتِه، والطَّاعَةِ لهُ بما أمرَ ونهَى، ثمَّ تَكونُ المحاسَبةُ والجَزاءُ للمُحسنِ والمسيء، كُلٌّ بما يَستَحِقّ، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ ذلك، ولذلكَ فهمْ لا يَتفكَّرونَ في البَعثِ بعدَ الموت.

{إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ} (الدخان : ٤٠)

٤٠- إنَّ يَومَ القِيامَةِ هوَ يَومُ الفَصلِ بينَ الحقِّ والباطِل، وهوَ مَوعِدُ الخَلائقِ أجمَعين، ليُحاسَبوا ويُجازَوا على أعمالِهم.

{يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} (الدخان : ٤١)

٤١- يَومَ لا يَنفَعُ قَريبٌ قَريبًا، ولا يُجزِئُ عنهُ شَيئًا بقَرابَةٍ أو صَداقَة، ولا يُمنَعونَ عَذابَ اللهِ بانتِصارِ أحدٍ منهمْ لهم، فلا أحدَ مِنَ الخَلقِ يَملِكُ مِنَ الأمرِ شَيئًا،

{إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} (الدخان : ٤٢)

٤٢- إلاّ مَنْ رَحِمَهُ الله، فعَفا عَنه، أو قَبِلَ الشَّفاعَةَ فيه، إنَّهُ العَزيزُ في انتِقامِه، الذي لا يُقهَرُ ولا يُغالَب، الرَّحيمُ بالمؤمنين، فيَعفو ويَغفِر.

{إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ} (الدخان : ٤٣)

٤٣- إنَّ شجرَةَ الزَّقُّوم، الكريهةَ الطَّعمِ والرَّائحَةِ في الجَحيم،

{طَعَامُ الْأَثِيمِ} (الدخان : ٤٤)

٤٤- هيَ طَعامُ الكافِرِ الفاجِرِ الكثيرِ الآثام، يَتزَقَّمُها على كُرهٍ ومَشقَّة،

{كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ} (الدخان : ٤٥)

٤٥- كماءٍ غَليظٍ حارٍّ كعَكَرِ الزَّيتِ يَغلي في بُطونِهم،

{كَغَلْيِ الْحَمِيمِ} (الدخان : ٤٦)

٤٦- كالماءِ الحارِّ إذا اشتَدَّ غَلَيانُه.

{خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ} (الدخان : ٤٧)

٤٧- خُذوا الكافِرَ المجرِمَ أيُّها الزَّبانيَة، وجُرُّوهُ بقوَّةٍ وادفَعوهُ إلى وسَطِ الجَحيم،

{ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ} (الدخان : ٤٨)

٤٨- ثمَّ صُبُّوا فَوقَ رأسِهِ مِنَ الماءِ الشَّديدِ الغَلَيان،

{ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} (الدخان : ٤٩)

٤٩- ثمَّ يُقالُ لهُ تَوبيخًا وتَهَكُّمًا: ذُقْ هذا العَذابَ المهينَ أيُّها القَويُّ المكَرَّم!

{إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ} (الدخان : ٥٠)

٥٠- إنَّ هذا هوَ العِقابُ والنَّكالُ الذي كنتُمْ تشُكُّونَ فيهِ وتستَهزِؤونَ به.

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ} (الدخان : ٥١)

٥١- أمَّا عِبادُ اللهِ المؤمنونَ المتَّقون، الذين أطَاعوا ربَّهُمْ واجتَنبوا معاصِيه، فهمْ في مَوضِعٍ كَريم، ومجلِسٍ أمين، قدْ أَمِنوا مِنَ الحُزنِ والخَوف.

{فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} (الدخان : ٥٢)

٥٢- إنَّهُمْ في جَنَّاتٍ عاليَات، وأنهارٍ جاريَات.

{يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ} (الدخان : ٥٣)

٥٣- يَلبَســـونَ ثيابًا زاهيَةً جَميلَةً بلونٍ أخضَـــر، مِنْ دِيباجٍ ناعِمٍ رَقيق، وآخرَ كثيفٍ مُحكَم، إخوانًا مُتحابِّين، مُتقابِلينَ في مَجالسِهم، مُستأنِسينَ مُترَفِّهين.

{كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ} (الدخان : ٥٤)

٥٤- وكما أكرَمناهُمْ بذلك، فقدْ زوَّجناهمْ بحُورٍ بِيضٍ حِسانِ الوجُوه، جَميلاتِ العُيون.

{يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ} (الدخان : ٥٥)

٥٥- يَطلبونَ فيها ما يَشـــتَهونَ مِنَ الفَواكهِ، بأنواعِها الكثيرَةِ وطُعومِها المختَلفَة، وهمْ آمِنونَ مُطمَئنُّون، يَعلَمونَ أنَّها لا تَنقَطِعُ عنهم.

{لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} (الدخان : ٥٦)

٥٦- لا يَذوقونَ في الجَنَّةِ الموتَ أبَدًا، سِوَى الموتَةِ الأُولَى في الدُّنيا، وسلَّمَهمُ اللهُ ومنعَ عنهمْ عَذابَ النَّار.

{فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (الدخان : ٥٧)

٥٧- عَطاءً وتفضُّـــلاً مِنْ رَبِّكَ وإحسَـــانًا منهُ إلى الصَّـــالحينَ مِنْ عِبادِه، وذلكَ هوَ الفَلاحُ والنَّجاح، والسَّعادَةُ والهنَاء.

{فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} (الدخان : ٥٨)

٥٨- فذَكِّرهمْ وعِظهمْ بكِتابِ اللهِ الكَريم، الذي سهَّلناهُ بلُغَتِكَ العربيَّةِ البَيِّنَة، التي هيَ أفصَحُ اللُّغاتِ وأجلاَها، لعلَّهمْ يَفهمونَها ويَعتَبِرونَ بها.

{فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ} (الدخان : ٥٩)

٥٩- فانتَظِرْ ما يَكون، فإنَّهمْ مُنتَظِرونَ كذلك، وسيَعلَمونَ مِنْ بعدُ لمنْ يَكونُ الفَوزُ والنَّصر، ولمنْ تَكونُ العُقوبَةُ والعَذاب.

سورة الجاثية

بسم اللهِ الرحمن الرحيم

(حم) (الجاثية : ١)

١- حُروفٌ مُقطَّعَةٌ... اللهُ أعلمُ بمُرادِها.

{تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} (الجاثية : ٢)

٢- تَنزيلُ القُرآنِ على الرَّسُولِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم هوَ بلا رَيبٍ مِنَ اللهِ القَويّ القادرِ الذي لا يُرَدُّ أمرُه، الحَكيمِ في أقوالِهِ وأفعالِه.

{إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ} (الجاثية : ٣)

٣- إنَّ في خَلقِ السَّماواتِ العَظيمَةِ وما فيها مِنْ مَلائكةٍ وأفلاكٍ وأجرامٍ هائلَة، والأرْضِ الواسِعَةِ وما فيها مِنْ مَخلوقاتٍ كثيرَةٍ مُتنَوّعَة، مِنْ أحياء، ونَباتات، وجَمادات، والتفكُّرِ فيها، لعَلاماتٍ ودَلائلَ على قُدرَةِ اللهِ وعظمَتِه، لمنْ كانَ مؤمِنًا، مُسَلِّمًا بأنَّهُ لا بُدَّ لها مِنْ خالِق.

{وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} (الجاثية : ٤)

٤- وفي خَلقِكمْ وتَكوينِكمُ العُضويّ والنفسيّ، الدَّقيقِ، والمتوازِنِ، والمتَناسِق، وما لهُ مِنْ خَصائص، وما يَقومُ بِهِ مِنْ وَظائف، وما يَخلقُهُ اللهُ ويَنشُرُهُ مِنْ مَخلوقاتٍ على الأرْض، مِنْ أنعَام، وسِباعٍ، وطُيور، وأسماك، وحشَرات... آياتٌ وأدِلَّةٌ على عَظمَةِ اللهِ وقُدرَتِهِ كذلك، لمنْ عرَفَ الأشياءَ على حَقيقَتِها، وأيقنَ أنْ لا بُدَّ لها مِنْ خالِق.

{وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (الجاثية : ٥)

٥- وفي تَفاوتِ اللَّيلِ والنَّهارِ طُولاً وقَصْـــرًا، وتَعاقُبِهما المتَتالي، هذا بظَلامِهِ وهذا بضِـــيائه، وفيما أنزلَ اللهُ مِنَ السَّـحابِ مِنْ مطَر، فسـقَى بهِ أرْضًـا يابسَـةً قاحِلةً لا حَياةَ فيها، فأخرجَ منها أصــنافَ الزَّرعِ والنَّبات، والزَّهرِ والثَّمَر، وفي تَصـريفِ الرِّياح، للمطَرِ أو للِّقاح، للرَّحمَةِ أو للعَذاب، دافِئةً وبارِدَة، شَـــرقًا وغربًا... كُلُّ ذلكَ آياتٌ وأدلَّةٌ على قُدرَةِ اللهِ العَظيمَة، وأنَّهُ الخالِقُ والمتصَرِّفُ في هذا الكَون، لمنْ تفكَّرَ في ذلك، وكانَ مِنَ العُقلاءِ الأسْوياء.

{تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ} (الجاثية : ٦)

٦- تلكَ هيَ آياتُ اللهِ المحكَمَة، بما فيها مِنْ حُجَجٍ وبَيِّنات، نَتلوها عَليكَ مِنَ القُرآن، مُتضَـمِّنةً الحقَّ والصِّـدق، الذي يَجبُ أنْ يُتَّبَع، فبأيِّ حَديثٍ بعدَ هذهِ الآياتِ المتلوَّةِ بالحقِّ، والحُجَجِ والبَراهينِ التي فيها، يُصَدِّقونَ ويُسَلِّمون؟

{وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ} (الجاثية : ٧)

٧- الهَلاكُ والعَذابُ لمنْ كانَ كذَّابًا في قَولِه، آثمًا عاصيًا لرَبِّه.

{يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} (الجاثية: ٨)

٨- يَسمَعُ آياتِ القُرآنِ تُقرَأُ عَليه، ثمَّ يُصِرُّ على الكُفرِ بها، عِنادًا واستِكبارًا، ويَتوَلَّى وكأنَّهُ لم يَسمَعْها، فأَعلِمْهُ بعُقوبَةٍ شَديدَةٍ تَنالُهُ يَومَ القِيامَة.

{وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ} (الجاثية : ٩)

٩- وإذا بلَغَهُ شَـــيءٌ مِنْ آياتِ كتابِنا، اســتَهزَأَ بها وجعلَها محلَّ سُـــخريَةٍ وتهَكُّم، فأولئكَ المتَّصِفونَ بتلكَ الصِّفات، أُعِدَّ لهمْ عَذابٌ شَديدٌ يُذِلُّهُمْ ويُهينُهم، جَزاءَ استِكبارِهمْ واستِهزائهمْ بآياتِنا.

{مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} (الجاثية : ١٠)

١٠- ومِنْ أمامِهمْ جهنَّمُ تَنتَظِرُهمْ ليَكونوا مِنْ أهلِها الخالدِينَ فيها، ولا يَدفَعُ عنهمُ العَذابَ ما حصَّلوهُ في الدُّنيا مِنْ مالٍ وجَاه، ولا يَنفَعُهمْ ما اتَّخَذوهُ مِنْ آلهَةٍ وعبَدوها، ولهمْ في جهنَّمَ عَذابٌ فَظيعٌ دَائم، لا يَنقَطِعُ عنهم.

{هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مَّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ} (الجاثية : ١١)

١١- هذا القُرآنُ هِدايَةٌ للنَّاسِ مِنَ الضَّلال، والذينَ كفَروا بآياتِهِ الواضِحَةِ المحكَمَة، لهمْ أشَدُّ العَذابِ وآلمِه.

{اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (الجاثية : ١٢)

١٢- اللهُ القادِرُ العَليم، الذي ذلَّلَ لكمُ البَحرَ وجعلَ فيهِ مَوازينَ لتَطفوَ عَليهِ السُّفُنُ بالرَّغمِ مِنْ ثِقْلِها، فتَجري فيهِ بإذنِهِ ومَشيئتِه، لتَطلبوا رِزقَكمْ مِنْ فَضلِه، بالتِّجارَةِ والصَّيدِ وغَيرِه، ولتَشكروهُ على ما يَسَّرَهُ لكمْ وأنعَمَ بِهِ عَليكم.

{وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (الجاثية : ١٣)

١٣- وخلقَ اللهُ لمنافعِكمْ ما في السَّماواتِ والأرْضِ مِنْ مَوجُوداتٍ فيما يَخصُّكم، وجَميعُها مِنْ فَضلِهِ ونِعمَتِهِ عَليكم، وفي ذلكَ كُلِّهِ آياتٌ وأدِلَّةٌ على قُدرَتِهِ وعظمَتِه، لمنْ يَتفَكَّرُ في خَلقِهِ وبَديعِ صُنعِه.

{قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كَانُوا يَكْسِبُونَ} (الجاثية: ١٤)

١٤- قُلْ أيُّها الرسُـولُ لمنِ اتَّبعَكَ مِنَ المؤمنين، يَعفوا ويَتحمَّلوا الأذَى مِنَ الكافِرينَ الذينَ لا يَتوَقَّعونَ نِقمةَ اللهِ وعَذابَه؛ ليَجزيَ المؤمنينَ خَيرًا على عَفوِهِمْ وصَفحِهِمْ يومَ الدِّين.
وجُمهورُ المفَسِّرينَ على أنَّها مَنسوخَةٌ بآياتٍ في القِتال. وقالَ بَعضُهم: لا نَسخَ، لأنَّ المرادَ هُنا تَركُ النِّزاعِ في المحَقَّرات، والتَّجاوزُ عنْ بَعضِ ما يؤذي ويوحِش.

{مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ} (الجاثية : ١٥)
١٥- مَنْ عَمِلَ عمَلاً صالحًا فإنَّ نَفعَ ذلكَ يَعودُ على نَفسِه، ومَنْ أساءَ العملَ فإنَّ وَبالَ عمَلِهِ يَعودُ على نَفسِهِ كذلك، ثمَّ مَرجِعُكمْ إلى رَبِّكمْ بعدَ الموت، ليُجازِيَكمْ على أعمالِكم، إنْ خَيرًا أو شَرًّا.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} (الجاثية : ١٦)
١٦- وقدْ أنعَمنا على بَني إسرائيلَ فآتَيناهُمْ التَّوراةَ العَظيمةَ الشَّأن، والقَضاءَ والفَصلَ بينَ النَّاس، والنبوَّة، فقدْ كَثُرَ فيهِمُ الأنبياء، وحكَموا بالتَّوراة، ورَزقناهُمُ المآكِلَ والمشارِبَ الطيِّبَة، وفضَّلناهُمْ على النَّاسِ في زَمانِهم، فكانوا أحسنَ الموجودينَ آنَذاك.

{وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمْ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} (الجاثية : ١٧)
١٧- وآتَيناهُمْ مُعجِزاتٍ ظاهِرات، وأدلَّةً قاطِعاتٍ في أمرِ الدِّين، فما اختلَفوا بعدَ ذلكَ إلاّ بعدَ قيامِ الحُجَّةِ عَليهم، ووضوحِ الطَّريقِ أمامَهم، بإرسَالِ الرسُلِ إليهم، وإنزَالِ الكُتُبِ عَليهم، فترَكوا الدَّليل، ولازَموا الخِلافَ والجِدال، حَسدًا وتَباغُضًا، وعِنادًا واستِكبارًا، واللهُ يَقضي بينَهمْ يَومَ القِيامَةِ بالعَدل، فيما كانوا يَختَلِفونَ فيهِ مِنْ أمرِ الدِّين، ويُمَيِّزُ بينَ المحِقِّ والمبطِلِ منهم.

{ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} (الجاثية : ١٨)

١٨- ثمَّ جعَلناكَ أيُّها النبيُّ على طَريقةٍ ثابِتَةٍ وبَيِّنةٍ مِنَ الدِّينِ بعدَ أنبياءِ بَني إسرَائيل، فالتَزِمْها، وأعرِضْ عنِ المشركِين، وابتَعِدْ عنْ آرائهمُ الضالَّةِ وأهوائهمُ الزَّائغَة، فإنَّهُمْ جاهِلون.

{إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيئاً وإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ} (الجاثية : ١٩)

١٩- إنَّهُمْ لنْ يَدفَعوا عنكَ مِنْ عَذابِ اللهِ شَيئًا إنِ اتَّبَعْتَ أهواءَهم، والكافِرونَ بَعضُهُمْ أنصَارُ بَعض، لا يَتعاوَنونَ إلاّ معَ مَنْ كانَ مثلَهم، واللهُ تَعالَى مُعينُ عِبادِهِ المؤمنينَ الملتَزِمينَ طاعَتَه، وأنتَ قُدوتُهم.

{هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} (الجاثية : ٢٠)

٢٠- هذا القُرآنُ مَعالِمُ للنَّاسِ ودَلائلُ لهمْ في الحقّ، يُبَيِّنُ لهمُ الأمُورَ على حَقيقَتِها، ويَهديهمْ إلى ما فيهِ فَوزُهمْ وفَلاحُهم، ورَحمَةٌ عَظيمَةٌ لهم، لمنْ صَدَّقَ به، وتيَقَّنَ أنَّهُ مِنْ عندِ اللهِ العَليمِ الحَكيم.

{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَّن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ} (الجاثية : ٢١)

٢١- بلْ ظَنَّ الذينَ اكتسَبوا السيِّئاتِ أنْ نَجعَلَهمْ كالذينَ آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الحسنَة، في حَياتِهِمْ ومَماتِهم، بئسَ ما يَقضُونَ إذًا، أنْ يُساوَى بينَ المؤمِنينَ والمجرِمين.

{وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} (الجاثية : ٢٢)

٢٢- وخلقَ اللهُ السَّماواتِ والأرْضَ وما فيهما بالحقِّ والعَدل، ولحِكمَةٍ وغايَة: للإيمَانِ باللهِ وقُدرَتِه، وطاعَتِه، ولِتُثابَ أو تُعاقَبَ كلُّ نَفسٍ بما عَمِلَت، وهمْ لا يُظلَمونَ والحاكِمُ الله، فلا يُنقَصُ مِنْ ثَوابِهِم، ولا يُزادُ في عَذابِهِم.

{أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} (الجاثية : ٢٣)

٢٣- أفرَأيتَ مَنْ جعلَ هَواهُ ورَغبَتَهُ إلهًا له، فما حسَّنَتْهُ لهُ نَفسُهُ اتَّبعَه، وما قَبَّحَتْهُ ترَكَه، وأضَلَّهُ اللهُ بعدَ بُلوغِ العِلمِ إليه، وقيامِ الحُجَّةِ عَليه، فلا يَزدادُ إلاّ بُعدًا عنِ الدِّين، فيُفَضِّلُ هَواهُ عَليه، وطبَعَ اللهُ على سَمعِه، فلا يَسمَعُ ما يَنفعُه، ولا يَفقَهُ ما يُقالُ فلا يَتأثَّرُ به، وجعلَ على بصَرِهِ غِطاء، فلا يرَى الدَّليلَ الذي يُهتَدَى به، فمَنْ يَهديهِ بعدَ أنْ أضَلَّهُ اللهُ وهوَ يَعلَمُ أنَّهُ يَستَحِقُّ ذلك، ألا تتَّعِظونَ وتَعتَبِرون؟

{وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} (الجاثية : ٢٤)

٢٤- وقالَ الكافِرون: لا توجَدُ حيَاةٌ إلاّ هذهِ الحيَاةُ الدُّنيا التي نَعيشُها، يَموتُ بَعضُنا ويَحيا آخَرونَ منَّا، ولا حَياةَ بَعدَها، وما يُهلِكُنا إلاّ طُولُ الزَّمان، وكَرُّ اللَّيلِ والنَّهار. وليسَ لهُمْ مُستَنَدٌ مِنْ علمٍ أو عَقلٍ على ذلك، ولا يَقولونَ هذا إلاّ ظَنًّا وتَخمينًا، وتوَهُّمًا وتَقليدًا، ومِنْ غَيرِ تدَبُّرٍ لحَقائقِ الأمُور، فمُعتقَدُهمْ فاسِد، ورأيُهمْ كاسِد.

{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (الجاثية : ٢٥)

٢٥- وإذا تُتلَى عَليهمْ آياتُ كتابِنا النَّاطِقَةُ بالحقّ، وأنَّ اللهَ يَبعَثُهمْ بعدَ الموتِ للحِسابِ والجَزاء، ما كانَ دَليلُهمْ على إنكارِهِ إلاّ أنْ قالوا: أحيُوا آباءَنا السَّابِقين، إنْ كنتُمْ صادِقينَ أنَّ هُناكَ حَياةً بعدَ الموت!

{قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (الجاثية : ٢٦)

٢٦- قُلْ لهمْ أيُّها الرسُـــولُ الكَريم: إنَّ اللهَ يُحييكمْ عندَ خَلقِكم، ثمَّ يُميتُكمْ عندَ انقِضـــاءِ آجالِكم، ثمَّ يَبعَثُكمْ ويَجمَعُكمْ في يَومِ القِيامَة، الذي لا شَـــكَّ فيه، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ ذلك؛ لجَهلِهم، أو عدَمِ إمعانِهِمْ في التَّفكير، أو استِكبارِهِمْ عنِ اتِّباعِ الحقّ.

{وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَومَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ} (الجاثية: ٢٧)

٢٧- وللهِ وحدَهُ مُلكُ السَّماواتِ والأرْض، وهوَ المتصَرِّفُ فيهما، وعندَما تَقومُ القيامَةُ يَخسَرُ الكافِرونَ خَسارَةً كبيرَة، وقدْ كانوا يُجادِلونَ في دَفعِ الحقِّ بالباطِل، ويُجاهِدونَ في إبطالِ الحُجَجِ البيِّنَة.

{وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (الجاثية : ٢٨)

٢٨- وترَى كُلَّ أمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ المجمُوعَة، المتَميِّزَةِ عنْ بَعضِـها البَعض، بارِكَةً على رُكَبِها، على هَيئةِ الخائفِ الذَّليلِ الذي لا يَدري ما يُفعَلُ به، مِنْ هَولِ ذلكَ اليَومِ وشِـــدَّتِه، كُلُّ أُمَّةٍ فيها تُدْعَى إلى صَـــحيفَةِ أعمالِها التي كتبَها الحفَظَة، اليَومَ تُحاسَـبونَ على أعمالِكم، وتُجزَونَ عَليها جَميعَها، إنْ خَيرًا، أو شرًّا.

{هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (الجاثية : ٢٩)

٢٩- هذا ديوانُ الحفَظَةِ، الذي دَوَّنوا فيهِ جَميعَ أعمالِكمُ التي قدَّمتُموها في الحيَاةِ الدُّنيا، يَشهَدُ عَليكمْ بالحقِّ والعَدل، بدونِ زيادَةٍ ولا نُقصان، لقدْ كنَّا نأمرُ الملائكةَ أنْ يَكتُبوا أقوالَكمْ وأعمالَكمْ جَميعَها.

{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـــالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ} (الجاثية : ٣٠)

٣٠- فأمَّا الذينَ آمَنوا وأخلَصـــوا في إيمانِهم، وعَمِلوا فأحسَـــنوا في أعمالِهم، فإنَّ اللهَ يُدخِلُهمْ جنَّتَه، وهوَ النَّجاحُ البَيِّن، والسَّعادَةُ الكُبرى يَومَ القيامَة.

{وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ} (الجاثية : ٣١)

٣١- وأمَّا الذينَ كفَروا برَبِّهِمْ وكذَّبوا رُسُلَه، فيُقالُ لهمْ وقدْ عرَفوا مَصيرَهم: أفما كانتْ تُقرَأُ عَليكمْ آياتي، فأعرَضتُمْ عَنها، واستَكبَرتُمْ عنِ اتِّباعِها، وكنتُمْ قَومًا مُتَكبِّرينَ كافِرين؟

{وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ} (الجاثية : ٣٢)

٣٢- وإذا قالَ لكمُ المؤمنون: إنَّ ما وعدَ اللهُ بهِ حقٌّ وصِدق، ويَومَ القِيامَةِ آتٍ لا شَكَّ فيه، جحَدتُمْ ذلكَ وقُلتُم: نحنُ لا نَعرِفُ ما هوَ يَومُ القِيامَة، ونحنُ شاكُّونَ فيه، ولا نَتيَقَّنُ إمكانَه.

{وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون} (الجاثية : ٣٣)

٣٣- وظهرَ لهمْ يَومَ الحِسابِ جَزاءُ أعمالِهمُ السيِّئة، وأحاطَ بهمْ ما كانوا يَسخَرونَ منهُ ويَستَبعِدونَ وقوعَهُ مِنَ العَذاب.

{وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ} (الجاثية : ٣٤)

٣٤- وقيلَ لهم: اليَومَ نَترُكُكمْ في العَذابِ تَرْكَ المنسِيّ، كما ترَكتُمُ الإيمانَ والعمَلَ لِلقاءِ هذا اليَوم، وكذَّبتُمْ بوَعدِ الله، ولا مَكانَ لكمْ سِوى النَّار، ولا ناصِرَ لكمْ يُخَلِّصُكمْ مِنَ العَذابِ الأليم.

{ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} (الجاثية : ٣٥)

٣٥- ذلكمُ العَذابُ الذي جُزيتُمْ به، هوَ بسبَبِ اتِّخاذِكمْ دَلائلَ اللهِ ومُعجِزاتِهِ سُخريَةً ولَعِبًا، وخدَعَتْكمُ الحيَاةُ الدُّنيا بزَخارفِها وشَهواتِها حتَّى استَسلَمتُمْ لها، وقُلتمْ لا حيَاةَ سِواها. فاليَومَ لا

يَخرُجونَ مِنَ النَّار، ولا يُطلَبُ منهمْ أنْ يُزيلوا عَتبَ اللهِ عَليهم، فلا عُذرَ ولا تَوبةَ تُقبَلُ منهمْ بعدَ اليَوم، ولا يُرجَعونَ إلى الدُّنيا ليَعمَلوا صالِحاً كما يَدَّعون.

{فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} (الجاثية : ٣٦)

٣٦- فالحَمدُ للهِ وحدَه، مالِكِ السَّماواتِ والأرضِ وما بينَهما، رَبِّ العالَمينَ كُلِّهم.

{وَلَهُ الْكِبْرِيَاء فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (الجاثية : ٣٧)

٣٧- ولهُ كَمالُ العَظمَةِ والمِلكِ في السَّـــماواتِ والأرْض، وهوَ العَزيزُ الذي لا يُغلَب، الحَكيمُ فيما يَقولُ ويَفعَل، ويَقضي ويُقَدِّر.

الجزء السادس والعشرون

سورة الأحقاف

سورة محمد

سورة الفتح

سورة الحجرات

سورة ق

سورة الذاريات (١-٣٠)

سورة الأحقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{حم} (الأحقاف : ١)

١- الحُروفُ المقَطَّعَةُ لم يَرِدْ في تَفسيرِها حَديثٌ صَحيح، واللهُ أعلمُ بمُرادِها.

{تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} (الأحقاف : ٢)

٢- تَنزيلُ القُرآنِ على الرسُولِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم هوَ بلا رَيبٍ مِنَ اللهِ العَزيزِ القَويِّ الذي لا يُرَدُّ أمرُه، الحَكيمِ في أقوالِهِ وأفعالِه.

{مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ} (الأحقاف : ٣)

٣- ما خَلَقنا السَّماواتِ العَظيمةَ، والأرْضَ الواسِعَةَ، وما بينَهما، إلاّ بالحقِّ والعَدل، ولِحِكمَةٍ وغاية، وإلى مُدَّةٍ مُعيَّنة، والذينَ كفَروا وكذَّبوا برِسالاتِنا مُعرِضونَ عنْ هذهِ الحِكمَة، التي تَدلُّ

على وجودِ اللهِ وقُدرَتِه، وهمْ غَيرُ مُبالينَ بما أُعلِموا بهِ وخُوِّفوا منه، مِنَ البَعثِ والأهوَال، والحسَابِ والعِقاب.

{قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (الأحقاف : ٤)

٤- قُلْ للمُشرِكينَ أيُّها الرسُول: أرَأيتُمْ هذهِ الأصْنامَ التي تَعبُدونَها، ومعَها جَميعُ المعبوداتِ الباطِلَة، أخبِروني أيَّ شَيءٍ خَلَقوا في الأرْضِ حتَّى تَجعَلوهمْ في مَوقعِ الألوهيَّةِ وتَعبُدوهم؟ أمْ أنَّ لهمْ شَراكةً معَ اللهِ في خَلقِ السَّماوات؟ هاتُوا كتابًا مُنزَلاً مِنْ عندِ اللهِ قَبلَ القُرآنِ النَّاطقِ بالتَّوحيد، أو بَقيَّةً مِنْ عِلمٍ يُساندُكمْ على مَسلَكِكم، ويأمُرُكمْ بعِبادَةِ هذهِ الأصْنام، إنْ كنتُمْ صادِقينَ في دَعواكم.

{وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ} (الأحقاف : ٥)

٥- وليسَ هُناكَ أضَلُّ ممَّنْ يَدعو أحجارًا وأخشابًا مِنْ دونِ الله، لا يَسمَعونَ مَعبوديهم، ولا يَقدِرونَ على تَلبيَةِ طلَبٍ ولا قَضاءِ حاجَةٍ لهم، حتَّى يَومِ القِيامَة، وهمْ غافِلونَ عنْ دُعائهم، لا يَدرونَ ماذا يَقولون، فهمْ جَماداتٌ لا حَياةَ فيها، لا يَتكلَّمونَ ولا يَسمَعون.

{وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} (الأحقاف : ٦)

٦- وإذا حُشِرَ النَّاسُ يَومَ القيامَةِ وحُوسِبوا، كانتِ الآلهَةُ المزعومَةُ أعداءً لمنْ عَبدوهم، فَضلاً عنْ أنْ يَنصُروهمْ أو يَنفَعوهمْ بشَيء، وسيُكذِّبونَ بعِبادَةِ الكافِرينَ لهم، فهمْ لم يَطلبوا منهمْ ذلك، فكانتْ عِبادَتُهمْ لهمْ هوًى ورَغبَةً مِنْ أنفُسِهمْ هم.

{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ} (الأحقاف: ٧)

٧- وإذا تُتلَى على المشـركِينَ آياتٌ مِنْ كتابِنا، واضِحاتُ الدَّلالَةِ على الحقِّ والتَّوحيد، قالوا للقُرآنِ لما جاءَهمْ مِنْ عندِ الله، عِنادً واستِكبارًا، ومِنْ غَيرِ تأمُّلٍ وتَدبُّر: هذا سِحرٌ بَيِّن!

{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} (الأحقاف : ٨)

٨- بلْ يَقولون: إنَّ الرسُولَ اختَلَقَهُ مِنْ عندِهِ ونَسبَهُ إلى الله! قُلْ لهم: على فَرَضِ أنَّني كذَبتُ على اللهِ وادَّعَيتُ الرِّسالَة، فلا تَقدِرونَ على أنْ تَمنَعوني أو تُنقِذوني مِنْ عُقوبَةِ اللهِ إذا عذَّبَني على افتِرائي عَليه، فكيفَ أكذِبُ عليهِ سُبحانَه؟! واللهُ أعلَمُ بما تَتكلَّمونَ فيهِ مِنَ التَّكذيبِ بوَحي اللهِ والطَّعنِ في آياتِه، وكفَى باللهِ بيني وبينَكمْ أنَّهُ يَشهَدُ لي بالصِّدقِ والبَلاغ، ويَشهَدُ عَليكمْ بالكذِبِ والجُحود، وهوَ الغَفورُ لمنْ تابَ وأناب، الرَّحيمُ بمَنْ آمَنَ واستَجاب.

{قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ} (الأحقاف : ٩)

٩- قُلْ لهم: لستُ أوَّلَ رَسولٍ يُبعَث، فالرسُلُ قَبلي كثُر، ولمْ أُخالِفْهمْ بما جَاؤوا بهِ مِنَ التَّوحيد، ولا أدري ما يُفعَلُ بي ولا بكمْ في الدُّنيا، فهلْ أُخرَجُ مِنْ مَوطني أمْ أُقتَل؟ وأنتم، هلْ تُؤمِنونَ أمْ تَبقُونَ على كُفرِكمْ فيُهلِكُكُمُ الله؟ ولا أتَّبِعُ إلاّ ما يُنزِلُ اللهُ عليَّ مِنْ وَحي، وما أنا إلاّ مُنذِرٌ بيِّنُ الإنذارِ لكمْ مِنْ عِقابِ الله.

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (الأحقاف : ١٠)

١٠- قُلْ للمشرِكينَ أيُّها الرسُول: أرأيتُمْ إنْ كانَ هذا الذي يُوحَى إليَّ مِنَ القُرآنِ مِنْ عندِ الله، وليسَ كذِبًا ولا سِحرًا كما تَزعُمون، فكذَّبتُمْ بهِ أنتُم، وشَهِدَ بصِدقِهِ وصِحَّتِهِ شاهِدٌ مِنْ بَني إسرائيلَ مُطَّلِعٌ على أسرارِ الوَحي، عالِمٌ بالكتُبِ السَّماويَّة، فآمنَ هوَ به، واستَكبَرتُمْ أنتُمْ عنِ الإيمَانِ به، فما تَظنُّونَ أنْ يَصنَعَ اللهُ بكم؟ واللهُ لا يَهدي مَنْ تَجاوزَ الحقَّ واستَكبَرَ عنْ قَبولِ الإيمَان.

والشَّاهِدُ هوَ الصَّحابيُّ عَبدُ اللهِ بنُ سلاّمٍ رَضيَ اللهُ عنه، الذي كانَ يَهوديًّا فأسلَم، وشَهِدَ لهُ الرسُولُ صلى الله عليه وسلم بالجنَّة.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ} (الأحقاف : ١١)

١١- وقالَ الكافِرونَ لمنْ آمنَ مِنْ أصحابِك: لو كانَ القُرآنُ خَيرًا لم يَسبِقْنا إليهِ مَنْ بلَغَنا إسلامُهم - وكانوا يرَونَ فَضلَهمْ على أمثالِ صُهَيبٍ وبِلالٍ وعَمَّارٍ وغَيرِهِمْ رَضيَ اللهُ عَنهم -. وبما أنَّهُمْ لم يَهتَدوا بالقُرآنِ كما اهتدَى بهِ مَنْ أسلَم، فسيَطعَنونَ فيهِ ويَقولون: هوَ أساطيرُ الأوَّلين!

{وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ} (الأحقاف : ١٢)

١٢- ومِنْ قَبلِ هذا القُرآنِ الكتابُ الذي أنزَلناهُ على موسَى عليهِ السَّلام، وهوَ التَّوراة، الذي جعَلناهُ إمامًا يُقتدَى به، ورَحمةً مِنَ اللهِ لمنْ آمنَ به، وهذا القُرآنُ كتابٌ مُصَدِّقٌ لِما قَبلَهُ مِنَ الكتُبِ السَّماويَّةِ السَّابقَة، بلُغَةٍ عَربيَّةٍ بَيِّنة، ليَكونَ نَذيرًا للكافِرينَ مِنَ العُقوبَةِ والنِّيران، وبَشيرًا للمؤمِنينَ بالثَّوابِ والجِنان.

{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (الأحقاف: ١٣)

١٣- إنَّ الذينَ آمَنوا، وقالوا رَبُّنا اللهُ وَحدَه، ثمَّ ثَبَتوا على إيمانِهِمْ وإخلاصِهِم، ولم يَخلِطوهُ بشِركٍ ورِياء، فلا يَتوقَّعوا مَكروهًا مِنْ أمرِ الآخِرَة، ولا همْ يَحزَنونَ على ما خلَّفوا مِنْ أمرِ الدُّنيا.

{أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (الأحقاف : ١٤)

١٤- أولئكَ مِنْ أهلِ الجنَّةِ والنَّعيمِ الدَّائم، جَزاءَ ما كانوا يَعمَلونَهُ مِنَ الأعمالِ الصَّالحة.

{وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} (الأحقاف : ١٥)

١٥- وأمَرنا الإنسَانَ بالإحسَانِ إلى والدَيه، يَبَرُّهما ويعطِفُ عَليهما، ويُنفِقُ عَليهما، حَمَلَتْهُ أمُّهُ في بَطنِها بتعَبٍ ومَشقَّة، ووَضعَتْهُ بمشقَّةٍ وألَم، مِنَ الطَّلْقِ وشِدَّتِه، ومُدَّةُ حَمِلِهِ وفِطامِهِ عامانِ ونصفُ العام، فأقَلُّ الحَملِ سِتَّةُ شُهور، والرَّضاعُ التَّامُّ المنتَهي بالفِطامِ عامان.

حتَّى إذا اشتدَّ ساعِدُه، واستوَى عَقلُه، وبلَغَ أربَعينَ سَنة، فاكتَملَ قُوَّةً وفهمًا، دَعا اللهَ قائلاً: رَبِّ ألهِمني ووَفِّقْني لأشكُرَ فَضلَكَ ونعمتَكَ التي مَننتَ بها عَليَّ وعلى والديَّ بالإيمَانِ والإسْلام، وألهِمني ومُنَّ عَليَّ بأنْ أقومَ بالأعمَالِ الصَّالحةِ التي تُحِبُّها وتَرضَى بها، واجعَلِ الإيمَانَ والصَّلاحَ سارِيًا في نَسلي، إنِّي تُبتُ إليكَ مِنْ كُلِّ عمَلٍ لا تَرضاه، وإنِّي مِمَّنْ أسلَموا نُفوسَهمْ إليك، وأخلَصوا قُلوبَهمْ لك.

{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} (الأحقاف : ١٦)

١٦- فهؤلاءِ نتقَبَّلُ عنهمْ طاعاتِهمْ وأعمالَهُمُ الصَّالحةَ التي عَمِلوها في الحيَاةِ الدُّنيا، ونَغفِرُ لهمْ سَيِّئاتِهمْ فلا نُعاقبُهمْ عَليها، فهمْ مِنْ أصحابِ الجنَّة، وَعْدَ الصِّدقِ الذي وعَدَهمُ اللهُ به، وهوَ أنْ يَتقَبَّلَ منهمْ طاعتَهم، ويَتجاوزَ عنْ سيِّئاتِهم.

{وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} (الأحقاف : ١٧)

١٧- والكافِرُ العاقُّ لوالدَيهِ يَقولُ عندَ دَعوَتِهما إيَّاهُ للإيمَانِ مُتضجِّرًا منهما: أتَعِدانِني أنْ أُبعَثَ مِنَ القَبرِ بعدَ الموت، وقدْ مَضَتْ أجيالٌ مِنْ قَبلي ولم يُبعَثْ أحَدٌ منهمْ لأصَدِّقَ ذلك؟ ووالِداهُ يَلتَجئانِ إلى الله، ويَدعوانِهِ إلى الإيمَانِ باللهِ وباليَومِ الآخِر، ويَقولانِ له: ويلَكَ آمِنْ فهوَ

خَيرٌ لك، إنَّ البَعثَ بعدَ الموتِ حقٌّ وصِـــدق. فيَقولُ مُنكِرًا له: ما هذا الذي تَقولانِ إلاّ أباطيلُ الأوَّلينَ سطَّروها في كتُبِهم!

{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ} (الأحقاف : ١٨)

١٨- أولئكَ المكذِّبونَ باليَومِ الآخِرِ وجبَ عَليهمُ العَذاب، معَ أُمَمٍ مُكذِّبَةٍ ســلَفَتْ مِنَ الجِنِّ والإنس، إنَّهُمْ جَميعًا خابوا وخَسِروا خَسارَةً كَبيرَةً بذلك.

{وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} (الأحقاف : ١٩)

١٩- ولكلٍّ مِنَ الفَريقَين، المؤمِنَينِ والكافِرين، مَنازِلُ ومَراتِبُ بحَســبِ عمَلِهمْ في الدُّنيا، وليُعطيَهمُ اللهُ أُجورَ أعمالِهمْ وافيةً تامَّة، إنْ خَيرًا أو شَرًّا، وهمْ لا يُظلَمونَ شَيئًا، فلا يُنقَصُ مِنْ ثَواب، ولا يُزادُ في عِقاب.

{وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْـتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْـتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُـقُونَ} (الأحقاف : ٢٠)

٢٠- ويُقالُ للكافِرينَ وهمْ يُعَذَّبونَ في النَّار: لقدِ اســتَوفَيتُمْ لذّاتِكمْ في الحيَاةِ الدُّنيا، وتمَتَّعتُمْ بزينَتِها وشَـهواتِها كما رَغِبتُم، وأنكَرتُمُ المعادَ والحِساب، ولم تُبالُوا بنِداءِ رَبِّكم، وعانَدتُمْ وتَكبَّرتُم، فاليَومَ تُجزَونَ عَذابَ الذُّلِّ والهَوان، بما كنتُمْ تَســتَكبِرونَ عنْ قَبولِ الحقّ، بغَيرِ حقّ، وبما كنتُمْ تُفسِدونَ في الأرْض، وتَعصُونَ اللهَ ولا تَكترِثونَ بفِعلِ الحرام.

{وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} (الأحقاف : ٢١)

٢١- واذكُرْ لقَومِكَ نَبيَّ اللهِ هُودًا، أخا عادٍ في النَّسَب، عندَما أنذَرَ قَومَهُ بالأحقَاف - وهيَ جِبالٌ رَمليَّةٌ بينَ عُمانَ والرُّبعِ الخالي واليَمن، واكتُشِــفَتْ آثارٌ لهمْ في عُمَان - فخَوَّفَهمْ مِنْ

عِقابِ اللهِ وانتِقامِه، إنْ همْ تَمادَوا في كُفرِهِمْ وتَكذيبِهم. وقدْ مضَتِ الرُّسُلُ مِنْ قَبلِ هُودٍ ومِنْ بَعدِه، فأنذَرَهمْ بما أنذَروا همْ بِهِ أقوامَهم، وهوَ ألاّ تَعبُدوا إلاّ اللهَ ولا تُشرِكوا بهِ شَيئًا، إنِّي أخافُ عَليكمْ عَذابًا شَديدًا في يَومٍ مَهُول.

{قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} (الأحقاف : ٢٢)

٢٢- فأجابَهُ قَومُهُ قائلين: أجِئتَنا لتَصرِفَنا عنْ عِبادَةِ آلهَتِنا؟ فَأتِنا بما تَعِدنا مِنَ العَذابِ إنْ كنتَ صادِقًا في وَعيدِك.

{قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ} (الأحقاف : ٢٣)

٢٣- فقالَ لهمْ هودٌ عَليهِ السَّلام: إنَّ علمَ ذلكَ عندَ الله، فإنْ كنتُمْ مُستَحقِّينَ ذلكَ نزلَ بكمْ عَذابُه، في الوقتِ الذي يُريدُه، وما أنا إلاّ مُبَلِّغٌ ما يُوحي بهِ إليَّ رَبِّي، ولكنِّي أراكمْ قَومًا لا تَعقِلون.

{فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ} (الأحقاف : ٢٤)

٢٤- فلمَّا رَأوا سَحابًا يَبدو مِنْ ناحيَةِ السَّماءِ مُقابِلَةً لأوديَتِهم، وفيها بَساتينُ لهمْ وزُروع، استَبشَروا وفَرِحوا، وقالوا: هذا سَحابٌ يُمطِرُ زُروعَنا وأشجارَنا. بلْ هوَ ما استَعجَلتُمْ بهِ مِنَ العَذاب، هذهِ عاصِفَةٌ شَديدَةٌ تَحمِلُ لكمْ عَذابًا مُؤلِمًا فَظيعًا،

{تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ} (الأحقاف : ٢٥)

٢٥- تُخَرِّبُ كُلَّ شَيءٍ مِمَّا أُمِرَتْ بتَدميرِهِ بإذنِ رَبِّها. فأُهلِكوا جَميعًا، ولم يَبقَ منهمْ أحَد، وأصبَحوا لا يُرَى شَيءٌ منهمْ إلاّ مساكنُهم. وبِمثلِ هذا العِقابِ الشَّديدِ نَجزي القَومَ الكافِرينَ المكَذِّبينَ لرسُلِنا، المخالِفينَ لأمرِنا.

{وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون} (الأحقاف : ٢٦)

٢٦- وقدْ أعطَيناهُمْ مِنَ القوَّةِ والمالِ والأولادِ وسبُلِ العَيشِ وطُولِ العمُر، ما لم نُعطِكمْ مِثلَه، وجعَلنا لهمُ السَّمعَ والأبصَارَ والأفئدَةَ مثلَما جعَلناها لكم، فلمْ يَستَعمِلوها لِما خُلِقَتْ له، بلْ قَصَّروا مَنفعَتَها على الأمورِ الدُّنيويَّة، وتَقليدِ الآباء، فلمْ يَستَعمِلوا سَمعَهمْ لسَماعِ الحقِّ مِنَ الرسُل، ولا أبصارَهمْ للتفَكُّرِ في آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على قُدرَتِهِ وعَظمَتِه، ولا أفئدَتَهمْ في مَعرِفَةِ رَبِّهِمْ وصِفاتِهِ الجَليلَة، فلمْ تَنفَعْهُمْ شَيئًا عندَ رَبِّهِم، وأحاطَ بهِمْ ما كانوا يَسخَرونَ منهُ مِنَ العَذابِ الذي كانوا يَستَعجِلونَه. فكونوا على حذَرٍ أنتُمْ مِنْ ذلك.

{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (الأحقاف : ٢٧)

٢٧- ولقدْ أهلَكنا ما حَولَكمْ مِنَ القُرَى والمدُنِ يا أهلَ مكَّة، كمَدائنِ صالح، وحِجْرِ ثَمود، والأحقاف، وسَبأ، وكرَّرنا الحُجَج، وبيَّنَّا الآيات، ونَوَّعنا المعجِزات، لعلَّهمْ يَرجِعونَ عنِ الكُفرِ إلى الإيمَان.

{فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} (الأحقاف : ٢٨)

٢٨- فهلاَّ مَنعَهمْ مِنَ العَذابِ الأوثانُ التي اتَّخَذوها آلهَةً يتقَرَّبونَ بها إلى اللهِ وهمْ في أشَدِّ الحاجَةِ إلى النُّصرَةِ والنَّجاة؟ بلْ غابُوا عَنهم، وذلكَ كَذِبُهُمُ الذي كانوا يَقولونَ إنَّهُمْ يُقَرِّبُونَهُمْ إلى الله، ويَدفَعُونَ عنهمُ السُّوء، فليَعتَبِرْ مُشرِكو قَومِك.

{وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ} (الأحقاف : ٢٩)

٢٩- وإذْ وَجَّهنا لكَ عَددًا مِنَ الجِنّ - وكانوا تِسعَةً - يَستَمِعونَ إلى القُرآن، فلمَّا حضَروهُ عندَ تِلاوَتِكَ له، قالَ بَعضُهمْ لبَعض: اسكتُوا لنَسمعَه. فلمَّا فُرِغَ مِنَ التِّلاوَةِ انصرَفوا إلى قَومِهمْ في البِلاد، ودعَوهمْ وأنذَروهمْ ممَّا سَمِعوهُ مِنَ القُرآن.

{قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ} (الأحقاف : ٣٠)

٣٠- قالوا لهم: يا قومَنا، إنّا سَمِعنا كتابًا جَليلَ القَدْرِ أُنزِلَ مِنْ بَعدِ موسَى، الذي أُوتيَ التَّوراةَ -وكانتْ عُمدَةَ عيسَى أيضًا عليهِ السَّلامُ- مُصَدِّقًا لِما أُنزِلَ مِنَ الكتُبِ الإلهيَّةِ السَّابقَة، يَهدي إلى الحقِّ في الاعتِقاد، وإلى نَهجٍ صادِقٍ مُستَقيمٍ في الدِّينِ كلِّه.

{يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} (الأحقاف : ٣١)

٣١- يا قَومَنا أَجيبُوا داعيَ اللهِ محمَّدًا صلى الله عليه وسلم - فهوَ مَبعوثٌ إلى الثَّقَلَين -، وآمِنوا بنبوَّتِهِ ورِسَالَتِه، يَغفِرِ اللهُ ما تَقدَّمَ مِنْ ذُنوبِكم، ويُنَجِّكمْ مِنْ عَذابٍ شَديد.

{وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} (الأحقاف : ٣٢)

٣٢- ومَنْ لم يَستَجِبْ لدَعوَةِ الرسُول، ولم يَلتَزِمْ بالدِّينِ الحقّ، فلنْ يَقدِرَ على الهرَبِ مِنَ الله، ولو تحصَّنَ في أيَّةِ بُقعَةٍ مِنَ الأرض، وليسَ لهُ أنصَارٌ يَمنَعونَهُ مِنَ الله، فأولئكَ الذينَ أبَوا اتِّباعَ الرسُولِ صلى الله عليه وسلم في ضَلالٍ بَيِّن، وبُعدٍ عنِ الحقِّ ظاهِر.

{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (الأحقاف : ٣٣)

٣٣- ألَمْ يَعلَمِ المنكِرونَ للبَعثِ أنَّ اللهَ الذي خلقَ السَّماواتِ العَظيمَة، والأرْضَ ومَنْ فيها، ولم يَتعَبْ مِنْ خَلقِهنَّ، ولا عَجَزَ عنْ إبداعِهنَّ، قادِرٌ على إحياءِ الموتَى مِنْ قُبورِهم؟ بلَى هوَ قادِرٌ على ذلك، وقادِرٌ على كُلِّ شَيءٍ يُريدُه.

{وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ} (الأحقاف : ٣٤)

٣٤- ويُقالُ للكافِرينَ وهمْ يُعَذَّبونَ في النَّار: أليسَ هذا العَذابُ الذي تَذوقُونَهُ حقًّا، وليسَ كذِبًا وسِحرًا وخُرافَة؟ قالوا في ذُلٍّ مُعترِفين: بلَى وربِّنا إنَّهُ الحقّ. فيُقالُ لهم: فَذوقُوا العَذابَ الذي كنتُمْ تَجحَدونَه، بسبَبِ كُفرِكم.

{فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ} (الأحقاف : ٣٥)

٣٥- فاصبِرْ أيُّها الرسُولُ على ما يُصيبُكَ مِنْ جِهَةِ قَومِك، كما صبرَ أُولو العَزمِ مِنَ الرسُلِ على إيذاءِ قَومِهمْ وسُخريَتِهمْ منهم، ولا تَستَعجِلْ حُلولَ العُقوبَةِ بهم، ولا تَدْعُ عَليهمْ بذلك، فكأنَّهُمْ يومَ يَرونَ ما يُوعَدونَ مِنَ العَذابِ في الآخِرَة، لم يَلبَثوا في الدُّنيا إلاّ ساعَةً يَسيرَةً مِنَ النَّهار؛ لشِدَّةِ ما يَنزِلُ بهم. وهذا القُرآنُ بَلاغٌ مِنَ اللهِ إليكم، ولا يُهلَكُ إلاّ الخارِجونَ عنْ طاعَتِه، ولا يُعَذَّبُ إلاَّ مَنِ استَحقَّ العَذاب.

سورة محمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} (محمد : ١)

١- الذينَ كفَروا بالإسْـــلام، ومنَعوا النَّاسَ منه، أحبطَ اللهُ ثَوابَ أعمالهم، فلمْ يَقبَلْها، وإنْ بَدَتْ حسَنَة.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ} (محمد : ٢)

٢- والذينَ آمَنوا بإخْلاص، وعَمِلوا الأعمَالَ الحسَنةَ الموافِقةَ للشَّريعَة، وآمَنوا بما أنزلَ اللهُ على رَسُولِهِ محمَّدٍ مِنَ القُرآن، وهوَ الحقُّ الذي لا يَتغيَّرُ ولا يُنسَخ، غفرَ لهمْ ذُنوبَهم، وأصلحَ حالَهمْ في الدِّينِ والدُّنيا بالتَّوفيقِ والتَّأييد، والهِدايَةِ والسَّداد.

{ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ} (محمد : ٣)

٣- وهذا لأنَّ الكافِرينَ اتَّبَعوا الشَّـيطان، واختَاروا الباطِلَ على الحقّ، فلمْ تَكنْ أعمالُهمْ لوَجهِ الله، بلْ لسُمعَةٍ ومَنصِب، وعادَةٍ وتَقليد. والمؤمِنونَ اتَّبَعوا أمرَ الرسُولِ والتَزَموا الشَّرع، فكانتْ أعمالُهُمْ مُوافِقَةً لشَـــرعِ الله، خالِصَـــةً له. وهكذا يُبَيِّنُ اللهُ أحوالَ المؤمِنينَ والكافِرينَ ومآلَ أعمالِهم.

{فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ} (محمد : ٤)

٤- فإذا واجَهتُمُ المقاتِلينَ الكُفَّار، فاضـــرِبوا أعناقَهم، حتَّى إذا أكثَرْتُمُ القَتلَ فيهم، وتمكَّنتُمْ منهم، فأسِـروهم، ولا تَترُكوا منهمْ أحَدًا، ثمَّ إنَّكمْ بالخِيار، إمَّا أنْ تَمُنُّوا عَليهمْ بإطلاقِ أسْـرِهم، وإمَّا أنْ تُفادُوهمْ بمال، حتَّى تنقَضيَ الحَرب.

ولو شـــاءَ اللهُ لانتقَمَ مِنَ الكـافِرينَ وأهلكَهمْ مِنْ دونِ حَرب، ولكنْ أمرَكمْ بالجِهـادِ ليَختَبِرَ بَعضَكمْ ببعض، فيُثبِتُ صِدقَ المؤمنينَ ليَنالوا الثَّوابَ العَظيمَ مِنْ رَبِّهم، والكافِرون إمَّا أنْ يُقتَلوا فيُخلَدوا في النَّارِ جَزاءَ مُحاربَتِهمْ دِينَ الله، وإمَّا أنْ يَتَّعِظوا، أو يتَّعِظَ غَيرُهمْ بهم، فيُسلِموا.

والذينَ استُشهِدوا في سَبيلِ اللهِ فلنْ يُضَيِّعَ أعمالَهم.

وحُكمُ المنِّ على الأسرَى أو مُفادَاتُهمْ مُختَلَفٌ فيه، والأكثَرونَ أنَّهُ غَيرُ مَنسُوخ.

وعامَّةُ الفُقَهاءِ - مِنْ بَعدُ - على أنَّ الإمامَ مُخَيَّرٌ في الأسرَى، إنْ شـاءَ قَتل، وإنْ شـاءَ فادَى، بحسَبِ ما تَتطَلَّبُهُ مَصلحَةُ المسلِمين، كما ذُكِرَ في تَفسيرِ الآيَةِ (٦٨) مِنْ سُورَةِ الأنفال.

{سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ} (محمد : ٥)

٥- والشُّـــهداءُ يَهديهمُ اللهُ يَومَ القِيامَةِ إلى ثَوابِ أعمالِهم، مِنَ الإكرامِ العَظيمِ والنَّعيمِ المقيم، ويُصلِحُ أمرَهمْ وحالَهم، فيُرضي خُصماءَهمْ في الدُّنيا مُقابِلَ حُقوقِهمْ عَليهم، ويَقبَلُ أعمالَهم.

{وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ} (محمد : ٦)

٦- ويُدخِلُهمُ الجنَّةَ كما وعدَهمْ بها، وقدْ عرَّفَهمْ بما فيها، وبيَّنَ لهمْ مَنازِلَهُمْ فيها، وهَداهُمْ إليها.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} (محمد : ٧)

٧- أيُّها المؤمِنون، إنْ تَنصُـروا دِينَ الله، وتَتجرَّدْ نُفوسُـكمْ له، فإنَّهُ سـيَنصـرُكمْ على عَدوِّكم، ويُثَبِّتُ أقدامَكمْ عندَ الحَرب، ويُقوِّي عَزائمَكم.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} (محمد : ٨)

٨- وبُعدًا للكافِرينَ وهَلاكًا لهم، وقدْ أبطلَ اللهُ ثَوابَ أعمالِهم.

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} (محمد : ٩)

٩- وذلكَ بسببِ بُغضِهِمُ القُرآنَ وما فيهِ مِنَ الحقّ والتَّوحيد، الذي لا يُوافِقُ أهواءَهمْ وتَقاليدَهم، فأحبطَ ثَوابَ أعمالَهم، ولو بَدَتْ مَقبولةً في الظَّاهِر، فهيَ لغَيرِ وَجهِ الله.

{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا} (محمد : ١٠)

١٠- أفلَمْ يَسِرْ هؤلاءِ المشركونَ المكذِّبونَ في الأرْض، فيرَوا كيفَ كانتْ عاقِبَةُ المكذِّبينَ مِنْ قَبلِهم، مِنْ خِلالِ آثارِهمُ التي يَمُرُّونَ بها، التي تُنْبِئُ عنْ أخبارِهمْ ومَواقفِهمْ مِنَ الأنبِياءِ عَليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلام؟ فقدْ أهلكَهمُ اللهُ معَ أهلِهمْ وأموالِهم، وللكافِرينَ السَّائرينَ على مِنهَجِهمْ مِثلُ عُقوبَتِهم.

{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ} (محمد : ١١)

١١- ذلكَ بأنَّ اللهَ ناصِرُ المؤمنينَ على أعدائهم، والكافِرونَ ليسَ لهمْ مَنْ يَدفَعُ عنهمْ العَذابَ إذا حَلَّ بهم.

{إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ} (محمد : ١٢)

١٢- إنَّ اللهَ يُكرِمُ المؤمنينَ الصَّالحينَ يومَ القيامَة، ويُثيبُهمْ على أعمالِهمْ خَيرَ الجَزاء، فيُدخِلُهمْ جنَّاتٍ عاليات، تَجري خِلالَ أشجارِها الأنهارُ، لتَزيدَ مِنْ سَعادَتِهمْ وبَهجَتِهم. والكافِرونَ يَتمَتَّعونَ في الدُّنيا زمَنًا قَليلاً، ويأكُلونَ كما تأكلُ البَهائم، لا يُفكِّرونَ إلاّ بأطماعِهمْ وشَهواتِهم، فهمْ غافِلونَ عمَّا يَنتَظِرُهمْ في آخِرَتِهم، وهُناكَ المستَقبَلُ الحقيقيّ، وليسَ في الدُّنيا الفانيَة. والنَّتيجَةُ أنْ تَكونَ النَّارُ مَوضِعَ إقامَتِهِمُ الدَّائم.

{وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ} (محمد : ١٣)

١٣- وكمْ مِنْ أهلِ قَريَةٍ كانوا أكثرَ قُوَّةً ومَنعَةً مِنْ أهلِ قَريَتِكَ مكَّة، الذينَ كانوا سـببًا في إخراجِكَ منها، فانتَقَمنا لرسُلِنا وأهلَكناهم، فما كانَ لهمْ ناصِرٌ يَمنَعُ ما حَلَّ بهم.

{أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ} (محمد : ١٤)

١٤- أفمَنْ كانَ على بَصِيرَةٍ مِنَ الحقّ، ويَقينٍ مِنْ كتابِ اللهِ وسُنَّةِ نَبيِّه، كالمشرِكينَ الذينَ زيَّنَ الشَّـيطانُ في نُفوسِـهِمْ عملَهمُ السـيِّء، مِنَ الشِّـركِ والمعاصـي، واتَّبَعوا أفكارَهمُ المنحَرِفَة، وأهواءَهمُ الزَّائغَة؟ لا يَستوون.

{مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِـنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاء حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ} (محمد : ١٥)

١٥- صِـفَةُ الجنَّةِ التي وَعدَ اللهُ بها عِبادَهُ المؤمِنينَ المتَّقين: فيها أنهارٌ عَظيمَة، وكثيرَة، مِنْ ماءٍ لَذيذٍ غَيرِ مُتَغيِّرٍ في طَعمِهِ وريحِهِ ولَونِه، وأنهارٌ مِنْ لبَنٍ في غايَةِ البَياضِ والحَلاوَة، لم يتغيَّرْ طَعمُه، فلمْ يَحمَضْ ولم يَفسُد، وأنهارٌ أُخرى مِنْ خَمرٍ صافيَةٍ لَذيذَةٍ لمنْ يَشرَبُها، وليسَتْ كريهَةَ الطَّعمِ والرَّائحة، لا تُسكِر، ولا تُسبِّبُ ألَمًا في الرَّأسِ أو البَطن. وأنهارٌ مِنْ عسَلٍ في غايَةِ الصَّفاء، لم يُخلَطْ بهِ شَمعٌ أو غَيرُه. ولهمْ في الجنَّةِ ما يَشتَهونَ مِنْ أنواعِ الثِّمارِ والفَواكِه، ومَغفِرَةٌ عَظيمَةٌ مِنْ رَبِّهم.

أفمَنْ كانَ في هذا النَّعيمِ مُخَلَّدًا، كمَنْ هوَ مُخَلَّدٌ في نارِ الجَحيم، وسُـقوا ماءً شَـديدَةَ الحرارَةِ والغَليان، تَقطَّعَتْ منهُ أمعاؤهمْ وأحشَاؤهم؟

{وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ} (محمد : ١٦)

١٦- ومِنَ المنافِقينَ مَنْ يَستَمِعُ إليك، في تِلاوَةٍ تَتلوها مِنَ القُرآن، أو عِظَةٍ تَعِظُهُمْ بها، ولكنَّهمْ لا يَكتَرِثونَ بها ولا يَتَدَبَّرونَها، فإذا خرَجوا مِنْ عندِكَ قالوا لأهلِ العِلمِ مِنَ الصَّحابَة: ما الذي قالَهُ محمَّدٌ قَبلَ قَليل؟ قالوا ذلكَ استِهزاءً وتَعريضًا بكلامِ الرسُولِ صلى الله عليه وسلم، الذي لا يَعني عندَهمْ شَيئًا. فأولئكَ المنافِقونَ خَتَمَ اللهُ على قُلوبِهم، لعلمِهِ سُبحانَهُ بعدَمِ تَوجُّهِهمْ إلى الإيمَان، فكانَ اتِّباعُهمْ لأهوائهمُ الزّائغَة، والكُفرِ والنِّفاق.

{وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} (محمد : ١٧)

١٧- والذينَ اهتدَوا إلى طَريقِ الحقّ، زادَهمُ اللهُ هُدًى ورُشدًا، وألهَمَهمُ العملَ بما يُرضِيه.

{فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاء أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ} (محمد : ١٨)

١٨- فهلْ يَنتَظِرُ المنافِقونَ والكافِرونَ إلاّ أنْ تَقومَ القِيامَةُ فَجأةً وهمْ غافِلونَ عَنها؟ فقدْ قَرُبَتْ وجاءَتْ عَلاماتُها وأَماراتُها - ومَبعَثُ الرسُولِ صلى الله عليه وسلم مِنْ عَلاماتِها، فهوَ خاتَمُ الرسُلِ عَليهمُ الصَّلاةُ والسَّلام - فمِنْ أينَ لهمُ التَّوبَةُ والاتِّعاظُ إذا فاجَأتْهم، والإيمانُ لا يَنفَعهمُ حينَئذ؟

{فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} (محمد : ١٩)

١٩- فإذا عَلِمتَ ذلك، فاثبُتْ على ما أنتَ عَليهِ مِنَ التَّوحيد، فلا مَعبودَ في الوجُودِ بحَقٍّ سِوَى الله، واستَغْفِرْ لذَنبِك، ولذنُوبِ المؤمِنينَ والمؤمِنات.

قالَ البَغَويُّ رَحِمَهُ الله: الذَّنْبُ بالنسبَةِ إليهِ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: تَركُ ما هوَ الأَولَى بمَنصِبِهِ الجَليل.

وكانَ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يَستَغفِرُ اللهَ ويَتوبُ إليهِ في اليَومِ أكثرَ مِنْ سَبعينَ مرَّة - كما ثبتَ في صَحيحِ البخاريّ - وهوَ نَبيّ.

واللهُ يَعلَمُ أحوالَكمْ وتَصَرُّفَكمْ في الدُّنيا، ومَصيرَكمْ ومُستقَرَّكمْ في الآخِرَة.

{وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ} (محمد : ٢٠)

٢٠- ويَقولُ المؤمِنونَ الصَّادِقون، شَوقًا منهمْ إلى الجِهاد، وحِرصًا منهمْ عَليه: هلاَّ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مِنَ القُرآنِ تأمرُنا بالجِهاد؟ فإذا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُبيِّنَة، لا تَشابُهَ ولا احتِمالَ فيها لغَيرِ الأمرِ بالقِتال، رأيتَ الذينَ في قُلوبِهمْ نِفاق، أو ضَعفٌ في الدِّين، يَنظُرونَ إليكَ نَظرَ المحتَضَرِ الذي قَرُبَ مَوتُهُ، فزَعًا وجُبْنًا، وكانَ الأَولَى لهمْ مِنْ هذا الهلَعِ والضَّعْف، ومِنْ هذا النِّفاق،

{طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ} (محمد : ٢١)

٢١- هوَ طاعَةٌ منهمْ يَستَسلِمونَ فيها لأمرِ الله، وقَولٌ مَعروفٌ بالإجابَة، فإذا جَدَّ الأمر، وحضَرَ القِتال، فلو صدَقوا اللهَ في الطَّاعَةِ والحِرصِ على الجِهادِ كالمؤمِنينَ الصَّادِقين، لكانَ خَيرًا لهم.

{فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ} (محمد : ٢٢)

٢٢- فلعَلَّكمْ إنْ أعرَضتُمْ عنْ طاعَةِ الله، والجِهادِ في سَبيلِه، أنْ تَعودوا إلى ما كنتُمْ عَليهِ في الجاهليَّة، تَسفِكونَ الدِّماء، وتَظلِمونَ النَّاس، وتَقطَعونَ الأرحَام.

{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ} (محمد : ٢٣)

٢٣- فأولئكَ المعرِضونَ المفسِدون، قاطِعو الأرحَام، أبعدَهمُ اللهُ مِنْ رَحمَتِه، فأصَمَّ سَمعَهمْ عنِ الاستِماعِ للحقّ، وأعمَى أبصارَهمْ عنْ رؤيَةِ آياتِهِ الدَّالَّةِ على صِدقِ رسُلِه، فقدْ عطَّلوا حَواسَّهمْ عنْ ذلك، وأبعَدوها عنْ وَظيفَتِها الأساسيَّة، فكانَ جَزاؤهمْ مِنْ جنسِ عمَلِهم.
وقَطعُ الأرحامِ ذَنْبٌ عَظيم، وعَليهِ عُقوبَةٌ كبيرَة، وفي ذلكَ أحاديثُ صَحيحَة.

{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} (محمد : ٢٤)

٢٤- أفلا يَتفَهَّمونَ القُرآن، ويَتمَعَّنونَ في آياتِه، ومَواعظِهِ وأحكامِه، وزَواجرِهِ ونَواهيه، حتَّى لا يَقَعوا فيما وَقعَ فيهِ الجاهِلون؟ بلْ هذهِ القُلوبُ مُغَطَّاةٌ بحُجُبٍ كثيفَة، ومُقفَلَةٌ بأقفالٍ ثَقيلَة، لا تَختَرِقُها الكلِماتُ مَهما كانتْ مُؤَثِّرَة، ولا تَنتَهي إليها الأنوارُ مَهما كانتْ مُشِعَّة!

{إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ} (محمد : ٢٥)

٢٥- إنَّ الذينَ رجَعوا إلى ما كانوا عَليهِ منَ الكُفر، بَعدَما تَبيَّنَ لهمْ أنَّ ما أتَى بهِ الرسُولُ صلى الله عليه وسلم هوَ الحقّ، بالدَّلائلِ والبيِّنات، كالمنافِقين، وأهلِ الكتاب، الذينَ عَلِموا أوصافَ النبيِّ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ومُطابَقتَها لِما عندَهم، فتركوا ذلكَ ورجَعوا إلى ضَلالِهم، فهؤلاءِ قدْ زيَّنَ الشَّيطانُ عمَلَهمُ السيِّءَ في قُلوبِهم، فغَرَّهمْ بذلكَ وخدعَهم، ومدَّ لهمْ في الأمانيِّ والآمال، حتَّى أطاعُوه، وفَضَّلوهُ على الدَّلائلِ والحُجَجِ الواضِحات!

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ} (محمد : ٢٦)

٢٦- ذلكَ بأنَّ المنافِقينَ قالوا لليَهودِ الذينَ كَرِهوا نُزولَ القُرآنِ على محمَّدٍ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلام: سَنُطيعُكمْ في بَعضِ أُمورِكمْ ورَغَباتِكم، فنَتعَاوَنُ معَكمْ في عَداوَةِ محمَّدٍ (صلى الله عليه وسلم) ونَقعُدُ عنِ الجِهادِ معَه. واللهُ مُطَّلِعٌ على ما يُسِرُّون، وعالِمٌ بما يَمكرون.

{فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ} (محمد : ٢٧)

٢٧- فكيفَ تَكونُ حالُهمْ إذا جاءَ مَلَكُ الموتِ وأعوانُهُ مِنَ الملائكةِ لقَبضِ أرواحِهم، وهمْ يَضرِبونَ وجوهَهمْ وأدبارَهمْ بالمقامِع؟

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} (محمد : ٢٨)

٢٨- وهذا الذي استحَقُّوهُ ونالُوهُ مِنَ العَذاب، بسبَبِ أنَّهُمْ اتَّبَعوا ما أغضبَ اللهَ وأسخطَهُ مِنَ الكُفرِ والضَّلالِ والمعاصي، وكَرِهوا ما يَرضاهُ مِنَ الإيمانِ والجِهادِ والطَّاعَة، فأبطلَ اللهُ ثوابَ أعمالِهم.

{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ} (محمد : ٢٩)

٢٩- أمْ حَسِبَ المنافِقونَ أنَّنا لنْ نُظهِرَ أحقادَهمْ وما يُبطِنونَهُ مِنْ عَداوَةٍ للمؤمنين؟

{وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ} (محمد : ٣٠)

٣٠- ولو أرَدنا أيُّها الرسُولُ لعرَّفناكَ أسماءَهم، وأرَيناكَ أشخاصَهم، وجعَلنا عَليهمْ عَلاماتٍ عرَفتَهمْ بها، ولتَعرِفنَّهمْ مِنْ فَحوَى كلامِهم، الدَّالِّ على مَقاصدِهم.

قالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ الله: ولكنْ لم يَفعَلْ تَعالَى ذلكَ في جَميعِ المنافِقين، سِترًا منهُ على خَلقِه، وحَملاً للأمورِ على ظَاهِرِ السَّلامَة، ورَدِّ السَّرائرِ إلى عالمِها. اهـ.

والله يَعلَمُ أحوالَكمْ وأعمالَكم، وسيُجازيكمْ عَليها بحسَبِ مَقاصدِكم.

{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} (محمد : ٣١)

٣١- ولَنَختَبِرَنَّكمْ بالجِهادِ ونَحوِهِ مِنَ الأوامِر، الذي يَبدو مِنْ خِلالِهِ صِدقُ الإيمانِ مِنْ عدَمِه، حتَّى نرَى المجاهِدينَ منكمْ حقًّا والصَّابِرينَ على مَشاقِّ التَّكاليف، ونُظهِرَ نَتيجةَ أعمالِكمْ ومَواقفِكمُ الحقيقيَّة.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ} (محمد : ٣٢)

٣٢- إنَّ الذينَ كفَروا باللهِ ورَسُولِه، ومنَعوا النَّاسَ مِنْ دِينِ اللهِ الحقّ، وعادَوا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم بعدَما ظهرَ لهمْ بالدَّلائلِ والمعجِزاتِ أنَّ الإسْلامَ هوَ الدِّينُ الحقّ، وأنَّ محمَّدًا

صلى الله عليه وسلم رَسُولُه، لنْ يَضرُّوا اللهَ بكُفرِهِمْ وصَرفِ النَّاسِ عنْ دِينِه، وإنَّما يَضُرُّونَ أنفُسَهم، وسيُبطِلُ اللهُ ثَوابَ أعمالَهم، لأنَّها لم تَكنْ في سَبيلِهِ ولمرضاتِه.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} (محمد : ٣٣)

٣٣- يا عِبادَ اللهِ المؤمنين، أقبِلوا على طاعَةِ اللهِ ورَسُولِه، بالقَولِ الطيِّبِ والعمَلِ الصَّالح، ولا تُبطِلوا أعمالَكمُ الحسنَةَ بالشِّركِ والنِّفاق.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} (محمد : ٣٤)

٣٤- إنَّ الذينَ كفَروا باللهِ ورَسولِه، ومنَعوا النَّاسَ مِن اعتِناقِ دِينِه، وأصَرُّوا على الكُفرِ واستمَرُّوا عليهِ حتَّى ماتُوا وهمْ كافِرون، فلنْ يَغفِرَ اللهُ لهم، فاللهُ لا يَغفِرُ أنْ يَشرَكَ به، ويَغفِرُ ما دونَ ذلكَ لمنْ يَشاء، ومَنْ لم يَغفِرِ اللهُ لهُ فلا نَصيبَ لهُ في الجنَّة.

{فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ} (محمد: ٣٥)

٣٥- فلا تَضعُفوا عنِ الأعداء، ولا تُظهِروا لهمْ لِيْنًا، ولا تَدْعُوهمْ إلى الصُّلحِ والمهادَنَةِ ووَقفِ القِتالِ بينَكمْ وبينَهمْ وأنتُمُ الأقوَى، واللهُ معَكم، وناصِرُكمْ على أعدَائكم، ولنْ يَنقُصَكمْ شَيئًا مِنْ ثَوابِ أعمالِكم، بلْ يُوفيكمْ ثَوابَها ويَزيدُها لكم.

{إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ} (محمد : ٣٦)

٣٦- إنَّما هذهِ الحياةُ الدُّنيا - في غالبِها - كاللَّعِبِ واللَّهوِ في عدَمِ النَّفعِ والثَّبات، فلا يَشتَغِلُ العاقِلُ بما هوَ باطِلٌ وغُرورٌ ولا بَقاءَ له. وإنْ تَكونوا صادِقينَ في إيمانِكم، وتتَّقوا اللهَ فيما تأتونَ وما تذَرون، يؤتِكمْ ثَوابَ أعمالِكمْ في الآخِرَة، ولا يَسألْكُمْ جَميعَ أموالِكم، بلْ جُزءًا قَليلاً منهُ تُؤدُّونَهُ لإخوانِكمُ المحتاجين، ويَرجِعُ ثَوابُهُ إليكم.

{إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ} (محمد : ٣٧)

٣٧- وإذا سألَكمْ جَميعَ أموالِكم، فسيُجهِدُكمْ ذلك، وستَبخَلونَ بها، ويُخرِجُ بذلكَ أحقادَكم، لمزيدِ حُبِّكمْ للمَال.

{هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} (محمد : ٣٨)

٣٨- ها أنتُمْ تُدْعَونَ للإنفَاقِ في طاعَةِ الله، مِنَ الجِهادِ وغَيرِه، فمِنكمْ مَنْ يَبخَلُ بمالِهِ فلا يُجيب، ومَنْ يَبخَلْ بما عندَهُ فإنَّما يَضرُّ نَفسَه، ويَنقُصُ مِنْ أجرِه، واللهُ غَنيٌّ عنْ طاعَتِكم، غَيرُ مُحتاجٍ إلى أموالِكم، وأنتمُ الفُقَراءُ إليه، المحتاجُونَ إلى رِزقِه، فإنفاقُكمْ أو عدَمُهُ محسُوبٌ لكمْ أو عَليكم. وإذا أعرَضتُمْ عنْ طاعَةِ اللهِ يَستَبدِلْ بكمْ قومًا آخَرينَ، ولا يَكونوا مثلَكمْ مُعرِضينَ عنْ أمرِ الله، بلْ يَسمَعونَ ويُطيعون.

سورة الفتح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً} (الفتح : ١)

١- إنَّا قضَينا لكَ قَضاءً بيِّنًا، ونصَرناكَ نَصرًا مِنْ دونِ قِتال.

وهوَ إخبارٌ عنْ صُلحِ الحُدَيبيَة، الذي اعتُبِرَ فَتحًا ظاهِرًا، لِما حصَلَ فيهِ مِنَ المصلَحةِ للمُسلِمين، فقدْ تمكَّنَ الإسلامُ مِنْ قُلوبِ النَّاسِ بعدَ ذلك، وزادَ عَدَدُهمْ كثيرًا، وتَضاعفَتْ قوَّتُهم.

{لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً} (الفتح : ٢)

٢- ليَغفِرَ اللهُ لكَ معَ نِعمَةِ الفَتحِ جَميعَ ذُنوبِك، ما سبقَ منها وما يَكون. وهذا مِنْ خَصائصِهِ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلام، والمرادُ ما ظَهرَ مِنْ خِلافِ الأَولَى بالنسبَةِ إلى مَقامِهِ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلام. وليُتِمَّ نِعمتَهُ عَليك، في الحيَاةِ الدُّنيا وفي الآخِرَة، فيَنصُرَ الإسْلام، ويَنشُرَه، ويُعليَ مَقامَكَ في العِلِّيّين، وليُثبِّتَكَ على صِراطِ اللهِ المستَقيم، وشَرعِهِ العَظيم، فتَحكُمَ بهِ وتُبَلِّغَه، وليَهديَ بكَ النَّاس.

{وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً} (الفتح : ٣)

٣- وليَنصُرَكَ اللهُ على أعدائكَ نَصرًا غالِبًا، فيهِ العِزُّ والمنَعَة.

{هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً} (الفتح : ٤)

٤- هوَ الذي أنزَلَ الطُّمأنينَةَ والثَّباتَ في قُلوبِ المؤمنينَ الذينَ شَــهِدوا صُــلحَ الحُدَيبيَة، فاستَجابوا لحُكمِ اللهِ ورَسُولِه، واطمأنَّتْ قُلوبُهُمْ به؛ لِيَزدادوا يَقينًا معَ يَقينِهم، برُسوخِ العَقيدَةِ والرِّضا بحُكمِ اللهِ ورَسولِهِ في قُلوبِهم.

ولو أرادَ اللهُ لانتقَمَ مِنَ المشـرِكينَ يَومَئذ، وهوَ يَسـيرٌ عَليهِ سُـبحانَه، فلهُ جُنودٌ لا يُحصَـونَ في السَّماواتِ والأرْض، ولكنْ أرادَ لكمُ الصُّلحَ، وهوَ العَليمُ بالأمُور، الحَكيمُ لِما يَشرَعُ ويُقَدِّر.

{لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً} (الفتح : ٥)

٥- لِيُدخِلَ بذلكَ المؤمنينَ والمؤمناتِ جنَّاتٍ عاليَات، تَجري الأنهارُ خلالَ قصورِها وأشجارِها، ماكثينَ ومَتنَعِّمينَ فيها أبَدًا، وليَغفِرَ لهمْ خَطاياهُمْ وذُنوبَهم، وكانَ ذلكَ فَوزًا وسَــعادَةً عُظمَى لهمْ عندَ الله.

{وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً} (الفتح : ٦)

٦- وليُعَذِّبَ بذلكَ المنافِقينَ والمنافِقات، والمشــرِكينَ والمشــرِكات، الذينَ يَغيظُهمْ رَفعُ رايَةِ الإسْلام، ويُسيؤونَ الظنَّ بحُكمِ اللهِ ورَسُولِه، ويَقولونَ إنَّ اللهَ لا يَنصُرُ رَسولَهُ والمؤمنين، وأنَّهمْ سيُقتَلونَ جَميعًا، أحاطَ بهمُ السُّوءُ وأرداهُم، وسَخِطَ اللهُ عَليهمْ وأبعدَهمْ مِنْ رَحمَتِه، وهيَّأَ لهمْ ما يَسوؤهمْ مِنَ العَذابِ الشَّديدِ في جهنَّم، وبئسَ المصيرُ مَصيرُهم.

{وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً} (الفتح : ٧)

٧- وللهِ كُلُّ ما في السَّــماواتِ والأرْضِ مِنْ جُنود، وهوَ القادِرُ على الانتِقامِ بهِمْ ممَّنْ يَشــاء، وهوَ القَويُّ الذي لا يُغالَب، ولهُ الحِكمَةُ في فِعلِ ما يَشاء.

{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً} (الفتح : ٨)

٨- إنَّا أرسَلناكَ شاهِدًا على مَنْ أُرسِلتَ إليهم، ومُبَشِّرًا للمؤمِنينَ بالثَّوابِ الجَزيلِ على طاعَتِهم، ومُنذِرًا للكافِرينَ بالعَذابِ الشَّديدِ على مَعصيَتِهم.

{لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً} (الفتح : ٩)

٩- لتُؤمِنوا باللهِ ورَسُولِهِ إيمانًا صادِقًا، وتَنصُروا اللهَ بنُصرَةِ دينِهِ ورَسُولِه، وتُعَظِّموهُ وتُجِلُّوه، وتُقَدِّسُوهُ وتُنَزِّهوه، صَباحًا ومَساءً.

{إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً} (الفتح : ١٠)

١٠- إنَّ الذينَ يُبايعُونَكَ على الموتِ لنُصرَتِكَ يَومَ الحُديبيَة، إنَّما يُبايعونَ الله، بطاعَتِهِ وامتِثالِ أمرِه، يَدُ اللهِ فَوقَ أيديهم، وهوَ الذي يُؤيِّدُهمْ وينصرُهم، فمَنْ نقضَ العَهد، فإنَّ ضَرَرَ نَقضِهِ يَعودُ بالخَسارَةِ على نَفسِه، ومَنْ وفَّى بالعَهدِ الذي عاهَدَ اللهَ عَليه، فسيُؤتيهِ ثَوابًا جَزيلاً، وهوَ الجنَّة.

{سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً} (الفتح : ١١)

١١- سيَعتَذِرُ إليكَ الأعرَابُ الذينَ تَخَلَّفوا عنِ المسِيرِ معَكَ إلى مكَّةَ عامَ الحُدَيبيَة. وكانَ الرسُولُ صلى الله عليه وسلم قدِ استَنفرَهمْ حذَرًا مِنْ أنْ تَعرِضَ لهُ حَرب، وقدْ أرادَ العُمرَةَ معَ أصحابِه، فخافَ الأعرَابُ أنْ تُجابِهَهمْ قُرَيشٌ بحَربٍ عَظيمَة، فاعتذَروا وقالوا لهُ مِنْ بَعد: لقدْ شَغَلَتْنا عنِ الذَّهابِ معكَ أموالُنا ونِساؤنا وذَرارينا، فلمْ يَكنْ هُناكَ مَنْ يَحفَظُهمْ في غيابِنا، فادْعُ اللهَ أنْ يَغفِرَ لنا تَخَلُّفَنا عنك. يَقولونَ ذلكَ بألسِنَتِهم، خِلافَ ما يُبطِنونَهُ في قُلوبِهِم.

قُلْ لهمْ أيُّها الرسُول: فمَنْ يَستَطيعُ أنْ يَرُدَّ شَيئًا مِنْ قَدَرِ اللهِ إنْ أرادَ بكمْ شَرًّا وعُقوبَة، أو أرادَ بكمْ خَيرًا ومَثوبَة؟ لا أحدَ يَستَطيعُ أنْ يَمنعَ ذلكَ ويَدفعَه، فالأمرُ كلُّهُ بيدِه، وقدْ ظَنَنتُمْ أنَّ

تَخَلُّفَكمْ سـيَجلُبُ لكمْ نَفعًا، ويَدفَعُ عَنكمْ ضُـرًّا! بلْ كانَ اللهُ عَليمًا بسـبَبِ تَخَلُّفِكم، مُطَّلِعًا على سَرائرِكم، وسيُجازيكمْ على ذلك.

{بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُـــولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً} (الفتح : ١٢)

١٢- بلْ كانَ تَخَلُّفُكمْ لظَنِّكمُ السيِّء، فحَسِبتُمْ أنَّ الرسُولَ صلى الله عليه وسلم ومَنْ صَحِبَهُ مِنَ المؤمنينَ سـيُلاقُونَ حَربًا شَـديدَةً مِنْ قُرَيشٍ وغَيرِها، وأنَّهُمْ لنْ يَرجِعوا إلى أهاليهمْ سـالِمين، وسـيُقضَــى عَليهمْ كُلِّهم، وزُيِّنَ هذا الظنُّ السـيِّءُ في قُلوبِكم، ولم تَدفعوهُ بالإيمَانِ والوَلاءِ للهِ ولرسُولِه، بلِ انشغَلتُمْ بذلكَ الظنِّ الفاسِد، وكنتُمْ قَومًا هالِكينَ بذلك، لا خَيرَ فيكم.

{وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً} (الفتح : ١٣)

١٣- ومَنْ لم يُؤمِنْ باللهِ ورَسُولِهِ حقَّ الإيمَان، فإنَّا هيَّأنا للكافِرينَ نارًا مُوقَدَةً مُلتَهِبَة.

{وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّـــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَـــاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَـــاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً} (الفتح : ١٤)

١٤- وللهِ ما في السَّـماواتِ والأرْضِ وما بينَهما، خَلقًا، ومُلكًا، وتَدبيرًا، يَغفِرُ لمَنْ يَشـاءُ مِنْ عِبادِه، ويُعَذِّبُ مَنْ يَشـــاءُ منهم، بعَدلِهِ وحِكمَتِه، وهوَ الغَفورُ لذُنوبِ التَّائبينَ إليه، الرَّحيمُ بالمؤمِنينَ منهم.

{سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً} (الفتح : ١٥)

١٥- ســيَقولُ المتَخَلِّفونَ عنِ الجِهادِ مِنَ الأعرَاب، عندَ انطِلاقِكمْ إلى مَغانِمِ خَيبَر، التي وعدَ اللهُ بها أصحابَ البَيعَةِ بالحُدَيبيَة، سيَقولونَ لكم: دَعونا نَخرُجْ معَكمْ إلى خَيبَر، ونَشـهَدْ معَكمْ قِتالَ أهلِها. وكانتْ حُصونُها آخِرَ ما بَقيَ لليَهودِ في الجَزيرَةِ مِنْ مَراكزِ القوَّة.

يُرِيدُ الأعرابُ أنْ يُغَيِّروا وَعدَ اللهِ لأهلِ الحُدَيبيَةِ مِنْ كَونِ الغَنائمِ لهمْ وحدَهم، فقُلْ لهمْ أيُّها الرسُول: لا تتَّبِعونا[١٣٨]، ولنْ تُشارِكوا في المغانِمِ التي وعدَ اللهُ بها أهلَ الحُدَيبيَةِ كما قالَ اللهُ تَعالَى لنا قَبلَ رُجوعِنا إليكم، لأنَّكمْ لم تَلبُّوا نِداءَ الرسُولِ صلى الله عليه وسلم عندَما استَنفرَكمْ أوَّلَ مرَّة، فكنتُمْ مِنَ المتخَلِّفينَ عنِ الجِهاد، فلنْ تُشارِكوا مَنْ أطاعَهُ مِنْ أصحابِهِ في مَغانمِ خَيبر، السَّهلَةِ المأخَذ.

فسيَقولُ لكَ الأعراب: بلْ تَحسُدونَنا، وتَمنَعونَنا مِنَ الخُروجِ لتَحرِمونا مِنَ الغَنيمَة! بلْ هُمْ لا يَفهَمونَ إلاّ قَليلاً، فجَزاءُ المتخَلِّفينَ الطَّامِعينَ هوَ حِرمانُهُمْ ممَّا طَمِعوا فيه، وجَزاءُ المطيعينَ أنْ يُعطَوا مِنْ فَضلِ الله.

{قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً} (الفتح : ١٦)

١٦- قُلْ للمُتخَلِّفينَ عنِ الجِهادِ مِنَ الأعرَاب: ستُدعَونَ في وَقتٍ لاحقٍ إلى مُحاربَةِ قَومٍ أقوياءَ شَديدي البَأس، تُقاتِلونَهُمْ إلى أنْ يُسلِموا، فإنْ تَستَجيبوا لدَاعي الجِهادِ وتُقاتِلوا، يُعطِكمُ اللهُ أجرًا حسَنًا مَرضيًّا، في الدُّنيا وفي الآخِرَة، وهوَ المغنَم، ثمَّ الجنَّة. وإذا أعرَضتُمْ وتعلَّقتُمْ بأعذارٍ كاذِبَةٍ كما كانَ في زمَنِ الحُدَيبيَة، فسيُعاقِبُكمُ اللهُ عُقوبَةً شَديدَة، لتَضاعُفِ جُرمِكم.

{لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً} (الفتح: ١٧)

١٧- لا إثمَ على الأعمَى، ولا على الأعرَج، ولا على المريض، في التخَلُّفِ عنِ الجِهاد، لِما بهِمْ مِنَ العُذر، ومَنْ يُطِعِ اللهَ ورَسولَهُ فيما أُمِرَ بهِ ونُهِيَ عنه، يُدْخِلْهُ اللهُ جَنَّاتٍ عاليَات، تَجري

---

(١٣٨) {لَّن تَتَّبِعُونَا}: هذا النفيُ هو في معنى النهي، والمعنى: لا تتَّبِعونا. (فتح القدير). والمرادُ نَهيُهم عن الاتِّباعِ فيما أرادوا الاتِّباعَ فيه، في قولهم: {ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ}، وهو الانطلاقُ إلى خيبر. (روح المعاني).

مِنْ تَحتِ أشـــجارِها الأنهار، ومَنْ يُعرِضْ عنِ الطَّاعَة، ويَتخلَّفْ عنِ الجِهاد، يُعَذِّبْهُ في الدُّنيا بالمذِلَّةِ والصَّغار، وفي الآخِرَةِ بالعُقوبَةِ والنَّار.

{لَقَدْ رَضِـــيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّـــجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً} (الفتح : ١٨)

١٨- لقدْ رَضيَ اللهُ عنِ المؤمنينَ الذينَ شَهِدوا معكَ الحُدَيبيَة، إذْ يُبايعونَكَ تحتَ شجَرَةِ سَمُرَة - وهيَ الطَّلْحُ - بأرضِ الحُدَيبيَة، على مُناجزَةِ قُرَيشٍ وعَدَمِ الفِرارِ مِنَ المعرَكة، إذا حدَثَتِ الحَرب، فعَلِمَ ما في قُلوبِهِمْ مِنَ الصِّـــدقِ والوَفاءِ في مُبايَعَتِهم، فأنزَلَ الطُّمأنينَةَ والأمنَ عَليهم، وثبَّتَهمْ على الرِّضـا والقَبول، وجَزاهُمْ فتحًا قَريبًا يَنالونَه، وهوَ الصُّـلح، الذي تَبِعَهُ خَيرٌ عَظيم، فأسلَمَ كثيرٌ مِنَ النَّاس، وانتشرَ العِلمُ والإيمان.

{وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً} (الفتح : ١٩)

١٩- ومَغـانِمَ كثيرَةً يَنـالونَهـا، وهيَ أموالُ اليَهودِ بخَيبَر، وكـانـتْ وافِرَةَ الغَنـائم. واللهُ قَويٌّ لا يُغالَب، حَكيمٌ فيما يَقضي ويُدَبِّر.

{وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً} (الفتح : ٢٠)

٢٠- وعدَكُمُ اللهُ مَغانِمَ كثيرَة، غَيرَ هذه، تأخُذونَها مِنَ الأعداءِ في فُتوحاتِكمُ الكثيرَة، فعجَّلَ لكمْ مَغانِمَ خَيبَر، وكفَّ أهلَها اليَهودَ عنْ مُحارَبَتِكم، وحُلَفاءَهمْ مِنَ المشـركين، فألقَى في قُلوبِهِمُ الرُّعبَ فلم يَنالوكُمْ بسُوء، وليَكونَ ذلكَ عَلامَةً لكمْ على صِدقِ ما وعدَكمُ بِهِ الرسُولُ صلى اللهُ عليه وسلم، مِنَ الفَتحِ والمغنَم، وليَهديَكمْ جَزاءَ طاعَتِكمْ وإخلاصِكمْ إلى نَهجِ اللهِ المستَقيم، ويُثَبِّتَكمْ عليه.

{وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً} (الفتح : ٢١)

٢١- وغَنيمَةً أُخرَى كبيرَة، لم تَقدِروا عَليها - لعلَّها فَتحُ مكَّة - قدْ حَفِظَها اللهُ لكم، ومنعَها مِنْ غَيرِكمْ حتَّى يَفتحَها لكم، ولا يَصعُبُ على اللهِ شَيء، فهوَ القادِرُ على ما يَشاء.

{وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً} (الفتح : ٢٢)

٢٢- ولو قاتلَكمْ كُفَّارُ أهلِ مكَّةَ ولم يُصالِحوكم، لانتصَرتُمْ عَليهم، وانهزَموا شرَّ هَزيمَة، ثمَّ لا يَجِدونَ مِنْ يَلي الحَربَ عنهم، ولا مَنْ يَساعِدُهم.

{سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً} (الفتح : ٢٣)

٢٣- وهذهِ سُنَّةُ اللهِ في الأُمَمِ السَّابقَةِ كذلك، بأنْ يَنصُرَ أنبياءَهُ وعِبادَهُ المؤمنين، ويَرفعَ الحقَّ ويَضَعَ الباطِل، ولنْ تَجِدَ لهذهِ السنَّةِ تَغييرًا. وقدْ يَتأخَّرُ النَّصرُ لأسبَاب...

{وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً} (الفتح : ٢٤)

٢٤- وهوَ الذي مَنعَ مُشرِكي مكَّةَ مِنْ حَربِكم، فلمْ يَنَلْكمْ منهمْ سُوء، ومَنعَكمْ مِنْ حَربِهمْ عندَ المسجدِ الحَرام، مِنْ بعدِ أنْ أظفرَكمْ على بَعضِ المشرِكينَ الذينَ أرادوا إيذاءَكم، وكانَ اللهُ بَصيرًا بجَميعِ ما تَعمَلون، ومنهُ عَفوكُمْ عمَّنْ ظَفِرتُمْ بهمْ مِنَ الأعدَاء.

وقدْ روَى أنسٌ رَضيَ اللهُ عنه "أنَّ ثَمانينَ رَجُلاً مِنْ أهلِ مكَّةَ هبَطوا على رَسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم مِنْ جبَلِ التَنعيمِ مُتسَلِّحين، يُريدونَ غِرَّةَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وأصحابِه، فأخذَهمْ سِلمًا، فاستَحياهُم، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجَلَّ الآيَة". رواهُ مُسلم. ومعنَى استَحياهم: عَفا عنهم.

{هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً} (الفتح : ٢٥)

٢٥- همُ الذينَ كفَروا باللهِ ورَسُــولِه، ومنَعوكمْ مِنَ الوصــولِ إلى المســجدِ الحَرامِ لتَعتَمِروا، كما منَعوا الهَديَ مِنْ بُلوغِ المكانِ الذي يُنحَرُ فيه - وهوَ مِنىً - وهوَ محَبوسٌ لِما أُهديَ له، وهوَ البَيتُ الحَرام، الذي يُوَزَّعُ على فُقَرائه. وما فعَلوهُ أمرٌ كبيرٌ في عَقيدَتِهِمْ وفي عَقيدَةِ المؤمنين.

ولولا رِجالٌ مؤمِنونَ مُستَضعَفون، ونِساءٌ مؤمِناتٌ بينَ أظهُرِ المشرِكينَ لا تَعرِفونَهم، لاختِلاطِهِمْ بهِم، فتَقتُلونَهُمْ عندَ حَربِكمْ معَ الكفَّارِ دونَ عِلمٍ منكمْ بإيمانِهِم، فيَنالُكمْ منهمْ مَكروهٌ ومَشــقَّة، وألَمٌ وحَسـرَةٌ كبيرَة، وسُبَّةٌ، عندَما يُعيِّرُكمُ المشـرِكونَ بقَتلِ المسـلِمين، لولا ذلكَ لأَذِنَ لكمْ بفَتحِ مكَّة. ليُدْخِلَ اللهُ بهذا الصُّـلحِ مَنْ يَشـاءُ في رَحمَتِه، فيُسـلِموا، أو يُظهِرَ الضُّـعَفاءُ إيمانَهم. ولو تميَّزَ الكافِرونَ مِنَ المؤمِنينَ الذينَ بينَهم، لأمَرناكَ بقِتالِهِم، فقتَلتَ منهمْ وأسَرْتَ بجَيشِكَ المؤمِن.

{إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَــكِينَتَهُ عَلَى رَسُــولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً} (الفتح : ٢٦)

٢٦- إذْ جعلَ الكافِرونَ في قُلوبِهِمُ الأنفَةَ والعَصبيَّةَ النَّاشِئةَ مِنَ الجاهليَّةِ المقوتَة، تَكبُّرًا وتَعنُّتًا، أثناءَ عَقدِ الصُّلح، فاستَكبَروا عنْ قَولِ "لا إلهَ إلاّ الله"، ورفَضوا كتابَةَ "بسمِ اللهِ الرحمنِ الرَّحيمِ" في أوَّلِ الوَثيقَة، ولم يَقبَلوا كتابةَ "رَسُولِ اللهِ" بعدَ اسمِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وحالُوا بينَهُ وبينَ بيتِ اللهِ الحَرَام، خَوفًا مِنْ أنْ يُعيِّرَهمُ العرَبُ ويَقولوا: إنَّهُمْ قتَلوا أبناءَكمْ ثمَّ دخَلوا عَليكمْ مكَّةَ واعتمَروا رَغمًا عنكم!

فأنزلَ اللهُ الطُّمأنينةَ والرِّضـا على رَسُـولِهِ صـلى الله عليه وسـلم وعلى المؤمنينَ الحاضِـرينَ معَه، وألزمَهمْ كلمةَ التَّقوَى، وهي "لا إلهَ إلاَّ الله"، فاســـتَكبَرَ عَنها المشـــرِكونَ يَومَ الحُديبيَة، وكانَ المســـلِمونَ أحقَّ بها منهمْ في عِلمِ اللهِ تَعالَى، ولذلكَ فازُوا بها، فكانوا أهلَها، واللهُ عَليمٌ بكُلِّ شَيء، فيَعلَمُ مَنْ يَستَحِقُّ الهِدايَة، ومَنْ هوَ أهلٌ للكُفرِ والضَّلال.

{لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً} (الفتح : ٢٧)

٢٧- لقدْ صـدقَ اللهُ رَسُـولَهُ فيما أراهُ في مَنامِهِ مِنَ الرُّؤيا الصَّـالحَة، مِنْ أنَّكمْ سـتَدخُلونَ المسجِدَ الحَرامَ إنْ شاءَ اللهُ، آمِنينَ مِنَ العَدوِّ عندَ دُخولِكم، منكمْ مَنْ يَحلِقُ رأسَه، ومنكمْ مَنْ يُقَصِّـر، لا تَخافُونَ وأنتُمْ مُقيمُونَ في مكَّةَ تُؤدُّونَ مَناسِـكَ العُمرَة، فعَلِمَ اللهُ أنَّ مِنَ الخَيرِ والمصلحَةِ لكمْ أنْ تَنصَرِفوا عنْ مكَّةَ وتَعقِدوا صُلحًا، وهوَ ما لم تَعلَموهُ أنتُم، فجعَلَ مِنْ قَبلِ دُخولِكمُ المسجِدَ الحرامَ فَتحًا قَريبًا، وهوَ صُلحُ الحُدَيبيَة.

وقدِ اعتمَرَ المسلِمونَ في العامِ التَّالي. وفي ذلكَ سياسَةٌ وصَبر، وفائدَةٌ وأَجر.

{هُوَ الَّذِي أَرْسَـلَ رَسُـولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَـهِيداً} (الفتح : ٢٨)

٢٨- هوَ الذي أرسَـلَ رَسُـولَهُ بالعِلمِ النَّافِع، ودِينِ الإسْـلامِ الحقّ، الذي هوَ نِظامٌ للإنسـانيَّةِ كُلِّها، ليُعلِيَهُ على المِلَلِ والأدْيانِ جَميعِها، ويَكونَ ناسِخًا لها وحاكِمًا عَليها، وكفَى باللهِ شَهيدًا أنَّكَ رَسولُه.

{مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْـلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْـوَاناً سِـيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّـجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً} (الفتح : ٢٩)

٢٩- محمَّدٌ رَسُولُ اللهِ حقًّا، والذينَ معَهُ مِنْ صَحابَتِهِ رِضوانُ اللهِ عَليهم، أشِدَّاءُ عَنيفُونَ على الكُفَّارِ أعداءِ الدِّين، رُحَماءُ مُتوادُّونَ معَ إخوانِهِمُ المؤمِنين، تَراهمْ راكِعينَ سـاجِدينَ لكثرَةِ صَلاتِهِمْ ومُداوَمَتِهِمْ عَليها، يَطلُبونَ الثَّوابَ والرِّضا مِنَ الله، عَلامَةُ الخُشوعِ والتَّواضُعِ ظاهِرَةٌ على وجوهِهِمْ مِنْ أثَرِ السُّجود، فالشَّيءُ الكامِنُ في النَّفسِ يَظهَرُ أثَرُهُ على صَفَحاتِ الوَجه. كانَ ذلكَ وَصفُهمْ في التَّوراة.

وصِفَتُهمْ في الإنجيل: كزَرعٍ تفرَّعَ منهُ ورَقُهُ على جانِبَيه، فشَدَّهُ بذلكَ وقوَّاه، فغَلَظَ وطَال، فتَمَّ واستَقامَ على أُصولِه، يُعجِبُ الزَّارِعينَ بوَصفِهِ المذكورِ وجَمالِ مَنظَرِه.

وهذا مَثَلُ الرَّسُـولِ صـلى الله عليه وسـلم وأصـحابِه، فقدْ قامَ عليهِ الصَّـلاةُ والسَّـلامُ بالدَّعوَةِ وَحدَه، ثمَّ قَوَّاهُ أصحابُه، فآزَروهُ ونصَروه.

ليَغيظَ اللهُ بهمُ الكافِرين، بجِهادِهمْ وشِدَّتِهمْ عَليهم، وإخلاصِهمْ لهذا الدِّين.

وعدَ اللهُ الذينَ أخلَصـــوا منهمْ في إيمانِهم، وعَمِلوا حسَـــنًا، أنْ يَغفِرَ لهمْ ذُنوبَهم، ويُؤتيَهمْ ثَوابًا كبيرًا ورِزقًا كريمًا، واللهُ لا يُخلِفُ الميعاد.

قالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ الله: وكُلُّ مَنِ اقتَفَى أثرَ الصَّـحابَةِ فهوَ في حُكمِهم، ولهمُ الفَضـلُ والسَّـبْقُ والكمالُ الذي لا يَلحَقُهمْ فيهِ أحَدٌ مِنْ هذهِ الأمَّة.

* * *

روَى عمرُ بنُ الخطَّابِ رَضيَ اللهُ عنه، عنْ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قولَه: "لقدْ أُنزِلَتْ عليَّ اللَّيلةَ سُـــورَةٌ لهيَ أحَبُّ إليَّ ممَّا طلعَتْ عليهِ الشَّـــمس. ثمَّ قرَأ: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً}". رواهُ البخاريُّ وغَيرُه.

سورة الحُجرات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (الحجرات : ١)

١- أيُّها المؤمِنون، لا تُقْدِموا على أمرٍ مِنَ الأمُورِ قَبلَ أنْ تَعرِفوا حُكمَ اللهِ ورَسُولِهِ فيه، وأطيعُوا اللهَ واخشَوهُ في كُلِّ ما أمرَكمْ بهِ ونَهاكمْ عنه، إنَّهُ سَميعٌ لِما تَقولون، عَليمٌ بما تُسِرُّون.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} (الحجرات : ٢)

٢- أيُّها المؤمِنون، لا تُعلُوا أصواتَكمْ في حَضرَةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ولا تَرفَعوها فَوقَ الحَدِّ الذي يَبلُغُهُ صَوتُه، ولا يَكنْ جَهرُكمْ لهُ بالحَديثِ كجَهرِ بَعضِكمْ لبَعض، بلِ اجعَلوهُ أخفَضَ مِن صَوته، حتَّى لا تَبطُلَ أعمالُكمْ وأنتُمْ لا تَدرون.

{إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} (الحجرات : ٣)

٣- إنَّ الذينَ يَخفِضُونَ أصواتَهمْ عندَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إجلالاً له، أولئكَ الذينَ أخلصَ اللهُ قُلوبَهمْ للتَّقوى، وجعلَها محَالاًّ للطَّاعَةِ والخَشيَة، لهمْ في الآخِرَةِ مَغفِرَةٌ لذُنوبِهم، وثَوابٌ كبيرٌ على طاعَتِهم.

{إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} (الحجرات : ٤)

٤- إنَّ الذينَ يُنادُونكَ مِنْ خارجِ بيوتِ نِسائكَ كما يَصنَعُ أجلافُ الأعرَاب، أكثَرُهمْ جاهِلون، غَيرُ مُراعِينَ الأدَب.

{وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (الحجرات : ٥)

٥- ولو أنَّهُم انتظَروا وصبَروا حتَّى تَخرُجَ إليهمْ لكانَ أفضلَ لهم، ففي ذلكَ التِزامٌ بحُسنِ الأدَب، وتَوقيرٌ لرسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، واللهُ غَفورٌ لذُنوبِ مَنْ تابَ وأنَاب، رَحيمٌ بالمؤمِنينَ منهم.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} (الحجرات : ٦)

٦- أيُّها المؤمِنون، إذا جاءَكمْ فاسِقٌ - وهوَ العاصِي - بخبَرٍ، فتَبيَّنوا ممَّا يَقول، ولا تُسَلِّموا بكلامِه، حتَّى يَتبيَّنَ لكمُ الحقّ، لئلاَّ تُصيبوا قَومًا بقَتلٍ وأنتُمْ تَجهَلونَ حَقيقَةَ حالِهم، فتَصيروا نادِمينَ مُتَحَسِّرينَ على ما فعَلتُمْ بهِمْ إذا ظَهرَتْ بَراءَتُهم.

{وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} (الحجرات: ٧)

٧- واعلَموا أنَّ بينَكمْ رَسُولَ الله، فأطيعُوه، فإنَّهُ أدرَى بمَصالِحِكمْ منكم، ولو أنَّهُ أطاعَكمْ في جَميعِ ما تَقولونَهُ وتَطلُبونَه، وأخذَ برأيكمْ فيه، لوقَعتُمْ في الحرَجِ والهَلاك، ولكنَّ اللهَ حبَّبَ إلى نُفوسِكمُ الإيمَانَ وحسَّنَهُ في قُلوبِكم، فسَهُلَتْ عليكمُ الطَّاعَة، وبغَّضَ إلى نُفوسِكمُ الكُفرَ والذُّنوبَ والمعاصي، فكرِهتُموها، وأولئكَ همُ المهتَدون.

{فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (الحجرات : ٨)

٨- وهذا عَطاءٌ مِنَ اللهِ ونِعمَةٌ مِنْ لَدُنْهُ، وهوَ العَليمُ بمَنْ يَستَحِقُّ ذلكَ ممَّنْ لا يَستَحِقُّه، الحَكيمُ فيما يَفعَلُ ويَتفَضَّلُ به.

{وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} (الحجرات : ٩)

٩- وإذا تَقاتَلتْ جَماعَتانِ مِنَ المؤمنين، فأصلِحوا بينَهما بالنُّصحِ والدَّعوَةِ إلى حُكمِ الله، فإذا تعَدَّتْ إحداهُما على الأُخرَى بغَيرِ حقّ، ولم تَستَجِبْ لدَعوةِ الصُّلح، فقاتِلوا التي تَعتَدي وتَظلِمُ حتَّى تَرجِعَ إلى كتابِ اللهِ وحُكمِه، فإذا رَجعَتْ إلى حُكمِهِ تَعالَى، وكَفَّتْ عنِ القِتال، فأصلِحوا بينَهما بالعَدلِ والإنصَاف، واحمِلوهُما على الرِّضا بحُكمِ الله، واعدِلوا في جَميعِ أُمورِكم، إنَّ اللهَ يُحِبُّ العادِلين، ويَجزيهمُ الثَّوابَ الجَزيل.

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} (الحجرات : ١٠)

١٠- إنَّما المؤمِنونَ إخوَةٌ في الدِّين، فهمْ يَنتَسِبونَ إلى أصلٍ واحِدٍ في العَقيدَة، وهيَ أهمُّ شَيءٍ في الحيَاة، فأصلِحوا بينَ أخوَيكمْ مِنَ الطَّائفَتَينِ إذا اختَلفا واقتَتلا، واخشَوا اللهَ ولا تُخالِفوا أمرَه، حتَّى تُرحَموا على طاعَتِكم.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (الحجرات : ١١)

١١- أيُّها المؤمِنون، لا يَستَهزِئْ رِجالٌ منكمْ برِجالٍ آخَرين، ولا يَستَحقِروهمْ ولا يَستَهينوا بهم، فقدْ يَكونُ المحتَقَرونَ أعظمَ قَدْرًا عندَ اللهِ وأحَبَّ إليهِ مِنَ السَّاخِرينَ منهمْ والمحتَقِرينَ لهم. ولا يَستَهزِئْ نِساءٌ مُؤمِناتٌ بنِساءٍ مِثلِهنّ، فعسَى أنْ يَكنَّ خَيرًا وأفضلَ قَدْرًا عندَ اللهِ منهنّ. ولا يَعِبْ بَعضُكمْ بَعضًا ولا يَطعَنْهُ، فاللَّمزُ ذِكرُ المعايبِ في حَضرةِ الشَّخصِ أو غَيبَتِه. ولا يَدْعُ بَعضُكمْ بَعضًا بألقَابٍ وكلماتٍ يَسُوؤهُ سَماعُها، فبئسَ الذِّكرُ أنْ تَذكروا الرجلَ بالفِسقِ بعدَ إيمانِهِ وتوبتِه، وتُنادوهُ باسمٍ أو صِفَةٍ مَكروهَة، ومَنْ لم يَتُبْ عمَّا نُهيَ عنه، فأولئكَ همُ العاصُون، المخالِفونَ لأمرِ الله.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ} (الحجرات : ١٢)

١٢- أيُّها المؤمِنون، تَباعَدوا عنْ كثيرٍ مِنَ الظنّ، فإنَّ بعضَ ظَنِّ المؤمِنِ بأخيهِ ذَنبٌ يَستَحِقُّ عليهِ العُقوبَة، وهوَ أنْ يَظُنَّ بأهلِ الخَيرِ شَرًّا.

وبَيانُ الظنِّ المنهيِّ عنه، هوَ أنْ يقعَ في النَّفسِ شَيءٌ مِنْ غَيرِ دَلالة. وفي وصيَّةٍ مِنَ السَّلف: "ضَعْ أمرَ أخيكَ على أحسَنِهِ ما لم يأتِكَ ما يَغلِبُك، ولا تَظُنَّ بكَلمَةٍ خرَجَتْ مِنْ أخيكَ المسلمِ شَرًّا وأنتَ تَجِدُ لها مِنَ الخَيرِ مَحمَلاً". ويَحرُمُ سُوءُ الظنِّ مِمَّنْ شُوهِدَ منهُ السِّترُ والصَّلاح، أمَّا مَنْ جاهرَ بالفِسقِ والفُجورِ فلا يَحرُمُ سُوءُ الظنِّ به. ولعلَّ هذا تَعليلٌ لكلمَةِ "بَعض" في الآيَة. وقالَ ابنُ كثير: "لأنَّ بَعضَ ذلكَ يَكونُ إثمًا مَحضًا، فَليُجتَنَبْ كثيرٌ منهُ احتياطًا". وقالَ الشَّيخُ عبدُالحميدِ كشك في تَفسيرِه: "هذا أعلَى أُسلوبٍ وأدَقُّه، حيثُ قال: {اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ} فإنَّ مِنَ الظنِّ ما هوَ مَطلوب، كالاحتياطِ في دَفعِ الأذَى عنِ النَّفسِ والمال".

ولا يتَجسَّسْ بَعضُكمْ على بَعض، فلا يَبحَثوا عنْ عَوراتِ المسلِمينَ ومَعايِبِهم، ويَستَكشِفوا عمَّا ستَروه.

ولا يَذكُرْ بَعضُكمْ بَعضًا بما يَكرَه، فهذا مِنَ الكبائر، وهوَ يؤدِّي إلى التَّباغُضِ والشِّقاقِ في المجتمَعِ المؤمِن. أيُحِبُّ أحَدُكمْ أنْ يأكُلَ لحمَ أخيهِ وهوَ مَيِّت؟ فإنَّكمْ تَكرَهونَ ذلكَ وتَعافُونَهُ وتَبغُضونَه، فابغُضوا غِيبَتَهُ كذلك، فإنَّ ذِكْرَ المرءِ أخاهُ الغائبَ عنهُ بسُوء، بمَنزِلَةِ أكلِ لَحمِهِ وهوَ مَيِّتٌ لا يُحِسُّ به.

واخشَوا اللهَ ولا تُخالِفوا أمرَه، وتُوبوا إليه، فإنَّهُ كثيرُ قَبولِ التَّوبَة، رَحيمٌ بالمؤمِنينَ منهم.

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (الحجرات : ١٣)

١٣- أيُّها النَّاس، لقدْ خَلقناكمْ مِنْ آدمَ وحوَّاء، فأنتُمْ سَواءٌ في النَّسَب، وجعَلناكمْ شُعوبًا وأُمَمًا، وقَبائلَ وبُطونًا، ليَعرِفَ بَعضُكمْ بَعضًا، فتَجتَمِعوا على الخَير، وتَصِلوا الأرحَام، وتَتعاوَنوا على البِرِّ والتَّقوَى، لا التَّفاخُرِ والعصَبيَّة، فإنَّما تَتفاضَلونَ عندَ اللهِ بالإيمانِ والطَّاعَة، لا

بالأحساب، فالأكرَمُ عندَ اللهِ والأرفَعُ مَنزِلَةً لدَيهِ هوَ الأتقى، وليسَ الأرفَعَ نسَبًا، فإذا تَفاخَرتُمْ فتَفاخَروا بالتَّقوَى، والنَّسَبُ ليسَ مُكتَسَبًا بعمَل، فلا يَكونَ مَدارًا للثَّوابِ عندَ الله. إنَّ اللهَ عَليمٌ بأقوالِكمْ في مَجالسِكم، خَبيرٌ بنيَّاتِكمْ وأحوالِكم.

{قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (الحجرات: ١٤)

١٤- ادَّعَى الأعرَابُ لأنفُسِهِمْ مَقامَ الإيمَانِ أوَّلَ ما دخَلوا في الإسْلام، فقالوا: آمَنَّا، ولم يَتمَكَّنِ الإيمَانُ في قُلوبِهِمْ بعد. قُلْ لهمْ أيُّها الرسُول، إنّ الإيمَانَ لم يَستَحكِمْ في قُلوبِكمْ بعد، ولكنْ قُولوا استَسلَمنا وانقَدْنا، فإنَّ الإسْلامَ انقيادٌ ودُخولٌ في السِّلم، ولم تَصِلوا إلى حَقيقَةِ الإيمَانِ بعد. وإنْ تُطيعوا اللهَ ورَسولَهُ مُخلِصين، سِرًّا وعَلانيَّة، لا يَنقُصْكمْ مِنْ أُجورِ أعمالِكمْ شَيئًا، واللهُ يَغفِرُ لمنْ تابَ مِنْ ذَنوبه، ويَرحَمُهم، فيَعفو عنهمْ ولا يُعَذِّبُهمْ بها.

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} (الحجرات : ١٥)

١٥- إنَّما المؤمِنونَ حقًّا، الذينَ آمَنوا باللهِ رَبًّا، وبمحمَّدٍ رسُولاً، ولم يَشُكُّوا في ذلكَ أبدًا، وبادَروا إلى طاعَةِ الله، فجاهَدوا بأموَالِهِمْ وأنفسِهمْ في سَبيلِه، فأولئكَ همُ الصَّادِقونَ في إيمانِهم.

{قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (الحجرات : ١٦)

١٦- قُلْ لهؤلاءِ الذينَ ادَّعَوا الإيمَان: أتُخبِرونَ اللهَ بعَقيدَتِكمُ التي أنتُمْ عَليها، وهوَ الذي أحاطَ عِلمُهُ بكُلِّ ذَرَّةٍ في السَّماواتِ والأرْض، وهوَ عالِمٌ بكُلِّ شَيء، وبما أسرَرتُمْ وأعلَنتُم، وما ادَّعَيتُمْ مِنَ الإيمَان؟

{يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (الحجرات : ١٧)

١٧- ويَعتَبِرونَ إسْلامَهمْ مِنَّةً عَليك، قُلْ لهمْ أيُّها الرسُول: لا تَمُنُّوا عليَّ إسْلامَكمْ ومُتابَعتَكمْ لي، ولا تَتفاضَلوا عليَّ بذلك، فإنَّ مَنفعَةَ ذلكَ تَعودُ عَليكم، والفَضلُ والمِنَّةُ للهِ عَليكمْ بهدايَتِكمْ لهذا الدِّين، إنْ كنتُمْ مُؤمنين.

{إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} (الحجرات : ١٨)

١٨- واللهُ يَعلَمُ ما غابَ عنكمْ ممَّا في السَّماواتِ والأرْضِ كُلِّها، وهوَ بَصيرٌ بأعمالِكمْ وأحوالِكم، سِرِّها وعَلانيَّتِها.

سورة ق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ} (ق : ١)

١- الحُروفُ المقَطَّعَةُ اختُلِفَ في تَفسيرِها، واللهُ أعلمُ بمُرادِها.

أُقسِمُ بالقُرآنِ ذي المجدِ والشَّرَف.

وجَوابُ القسَمِ محذوف، مَضمونٌ في الكلامِ التَّالي، ولعَلَّ تَقديرَه: لتُبْعَثُنَّ.

{بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ} (ق : ٢)

٢- بلْ تعجَّبَ قَومُكَ مِنْ إرسالِ رَسُولٍ إليهمْ مِنْ أنفُسِهم، يَعرِفونَ نسبَهُ وصِدقَه، فقالَ المشرِكون: هذا أمرٌ غَريبٌ وليسَ مُعتادًا.

{أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} (ق : ٣)

٣- قالوا مُنكِرين: أإذا مِتنا، وتَحوَّلَتْ أجسادُنا إلى تُرابٍ وعِظامٍ باليَة، أنُبعَثُ أحياءً مِنْ جَديد؟ إنَّ ذلكَ بَعيدُ الإمكانِ والوقُوع.

{قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ} (ق : ٤)

٤- قدْ عَلِمنا ما تأكلُ الأرْضُ مِنْ أجسادِهِمْ وكيفَ تَحلَّلت، وأينَ صارَت، لا يَخفَى شَيءٌ مِنْ ذلكَ علَينا، وعندَنا كتابٌ يَحفَظُ تَفاصيلَ الأشياءِ كُلِّها.

{بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ} (ق: ٥)

٥- بلْ إنَّهُمْ كذَّبوا بالنبوَّة، أو بالقُرآن، لما جاءَهم، فهمْ في أمرٍ مُضطَرِبٍ مُختَلِف، فتارَةً يَقولونَ عنِ الرَّسولِ صلى اللهُ عليهِ وسلَّم ساحِر، وتارَةً يَقولونَ شاعِر... أو كاهِن. ولو أنَّهُمْ آمَنوا بالقُرآن، لآمَنوا بالحياةِ بعدَ الموت.

{أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ} (ق : ٦)

٦- ألا يَنظرُ هؤلاءِ الكافِرونَ إلى السَّماءِ فَوقَهمْ ويَتفَكَّرونَ كيفَ أحكَمنا بُنيانَها ورفَعناها بغَيرِ عَمَد، وزيَّنّاها بالكوَاكبِ والنُّجوم، وليسَ فيها صُدوعٌ وشُقوق، فلا تَرى فيها خَلَلاً ولا عَيبًا؟

{وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} (ق : ٧)

٧- والأرْضَ بسَطناها ووسَّعناها، وألقَينا فيها جِبالًا عَظيمَةً ثابِتةً حتَّى لا تَضطَرِبَ بسُكّانِها، وأنبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ صِنفٍ مِنَ الزرُوعِ والثِّمارِ والنَّباتِ ما يَسُرُّ ويُبهِج.

{تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ} (ق : ٨)

٨- وجعَلنا ذلكَ دَلالَةً وعَلامَةً مُشاهَدَةً على قُدرَتِنا، وتَذكيرًا لكُلِّ عَبدٍ مُتدَبِّرٍ لآياتِنا، راجعٍ إلى رَبِّه، خاضِعٍ له.

{وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ} (ق : ٩)

٩- وأنزَلنا مِنَ السَّحابِ مطَرًا وافِرَ الخَيرِ والنَّفع، فأنبَتْنا بِهِ بَساتينَ كثيرَةً مِنَ الأشجارِ المثمِرَة، والبُرَّ والشَّعيرَ وسائرَ الحُبوب، التي تُحصَدُ وتُدَّخَر.

{وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ} (ق : ١٠)

١٠– وأنبَتْنا بهِ نَخلاً طِوالاً، لها ثمَرٌ لَذيذٌ مُفيد، مُتَراكمٌ مَنضُود.

{رِزْقاً لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} (ق : ١١)

١١– وجعَلناهُ رِزقًا للخَلق، يَأكُلونَهُ ويدَّخِرونَه. وأحيَينا بالماءِ أرضًا جافَّةً قاحِلَة، فإذا هيَ تَنتَعِشُ وتَهتَزُّ خَضراء، وكذلكَ نُحيي الموتَى ونَبعَثُهمْ مِنْ قُبورِهم.

{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ} (ق : ١٢)

١٢– كذَّبَ بالبَعثِ قبلَ مُشرِكي قومِكَ قَومُ نُوح، الذينَ طالَ مَكثُهُ بينَهمْ نَحوَ ألفِ عام، وأصحابُ الرَّسّ، لعلَّهمْ أصحابُ الأُخدُود، وثَمودُ قَومُ صالح، الذينَ عصَوا وعقَروا النَّاقَة.

{وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ} (ق : ١٣)

١٣– وعادٌ قَومُ هود، الذينَ كانوا بالأحقَاف، وفِرعَونُ مَلِكُ مِصرَ المتَكبِّر، ومعَهُ قَومُه، والذينَ أُرسِلَ إليهمْ لُوطٌ عليهِ السَّلام، وكانوا في مِنطَقَةِ البَحرِ الميّت، وقدْ أصَرُّوا على فعلِ الفاحشَةِ بالرِّجالِ ولم يَنتَهوا.

{وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ} (ق : ١٤)

١٤– وأصحَابُ الأيْكة، وهمْ أهلُ مَدْيَن، وقَومُ المِلِكِ الحِميَريّ تُبَّع، أمَّا الملِكُ نفسُهُ فقدْ آمَن.

فكُلُّ هؤلاءِ الأقوامِ كذَّبوا الرسُل، وأنكَروا المِعاد، وأصَرُّوا على الكُفر، فوجَبَ عَليهمْ ما أوعَدتُهُمْ بهِ مِنَ العَذاب.

{أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ} (ق : ١٥)

١٥- أفأعجَزَنا ابتِداءُ الخَلقِ حتَّى يَشُـــكُّوا في قُدرَتِنا على إعادَةِ خَلقِهِمْ بعدَ مماتِهِم؟ إنَّهُمْ مُعترِفونَ بالخَلقِ الأوَّل، ولكنَّهمْ في خَلطٍ وشُبهَةٍ وشَكٍّ مِنْ قُدرَتِنا على خَلقٍ جَديد، ولا وَجهَ لإنكارِهِمْ هذا، فإنَّ الخالِقَ واحِد.

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} (ق : ١٦)

١٦- ولقدْ خلَقنا الإنسانَ ونحنُ مُحيطونَ بجَميعِ شُؤونِه، ونَعلَمُ ما تُحَدِّثُ بهِ نَفسُه، وما يَجولُ في خاطرِه، وعِلمِنا به، واطِّلاعُنا على أحوالِه، أقرَبُ إليهِ مِنْ عِرْقِ الوَريدِ الذي في عنُقِه، فرَقابَتُنا عَليهِ مُباشِرَة، ولا يَخفَى عَلينا شَيءٌ مِنْ أمرِه.

{إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ} (ق : ١٧)

١٧- إذْ يَتلقَّى المَلَكانِ المُوَكَّلانِ بكتابَةِ أعمالِهِ ما يَتلَفَّظُ به، مَلَكٌ عنِ اليَمين، وآخَرُ عنِ الشِّمال، فهما مُترَصِّدانِ له.

{مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} (ق : ١٨)

١٨- ما يَتلَفَّظُ بكلام، خَيرًا كانَ أو شَــرًّا، إلاّ لَديهِ مَلَكٌ يُراقِبُ قَولَهُ ويَكتبُه، وهوَ حاضِـــرٌ مُهيَّأٌ للكِتابَةِ في كُلِّ لَحظَة، فلا يَترُكُ كلمَةً ولا عمَلاً لهُ إلاّ ويَكتبُه.

{وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ} (ق : ١٩)

١٩- وجاءَتْكَ سَكرَةُ الموتِ وشِدَّتُهُ بالحقِّ الذي لا بُدَّ منهُ لكلِّ إنسان، وذلكَ ما كنتَ تَميلُ عنهُ وتَهرُبُ منه، ولا خَلاصَ لكَ منه.

{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ} (ق : ٢٠)

٢٠- ونُفِخَ في الصُّـورِ نَفخَةُ البَعث، ذلكَ هوَ يَومُ القِيامَةِ الذي وُعِدتُمْ به[١٣٩]، وفيهِ العَذابُ الموعود.

{وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ} (ق : ٢١)

٢١- وجاءَتْ كُلُّ نَفسٍ في ذلكَ اليَوم، بَرَّةً كانتْ أو فاجِرَة، معَها مَلَكان، أحَدُهما يَســوقُها إلى المحشَر، والآخَرُ يَشهَدُ عَليها بما عَمِلَت.

{لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} (ق : ٢٢)

٢٢- لقدْ كنتَ في غَفلَةٍ مِنْ هذا اليَومِ المهول، فكشَفنا عنكَ حِجابَ الغَفلَةِ الذي كانَ على قَلبِكَ وسَمعِكَ وبصَرِكَ في الدُّنيا، فبصَرُكَ اليَومَ نافِذٌ قَويّ.

{وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ} (ق : ٢٣)

٢٣- وقالَ الملَكُ الموَكَّلُ بإحضارِه: هذا هوَ العَبدُ الذي وكَّلتَني بإحضارِهِ يا رَبّ، وهوَ حاضِرٌ بينَ يَدَيك، مُهيَّأٌ لِما تفعَلُ به.

{أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ} (ق : ٢٤)

٢٤- يَقولُ اللهُ تَعالَى للملَكَينِ السَّـائقِ والشَّـهيد: ارمِيا في جَهَنَّمَ كُلَّ كافِرٍ عَنيد، مُصِـرٍّ على الكُفرِ والتَّكذيب،

{مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ} (ق : ٢٥)

(١٣٩) الصُّور: قرنٌ يُنفَخُ فيه النفخةُ الأولى للفناء، والثانيةُ للإنشـاء. (فتح القدير، عند تفسـيرِ الآيةِ (٧٣) من سـورةِ الأنعام). والنافخُ إسرافيلُ عليه السلام. (روح البيان).

٢٥- كانَ يَمنَعُ الحقوقَ الماليَّةَ المفروضَـةَ عليهِ للفُقَراءِ والمحتاجين، ويَظلِمُ ويُفسِـد، ويَشُـكُّ في الدِّين،

{الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ} (ق : ٢٦)

٢٦- الذي أشرَكَ باللهِ وعبدَ معَهُ غَيرَه، فاطرَحاهُ في العَذابِ الأليمِ ليُعَذَّبَ فيه.

{قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} (ق : ٢٧)

٢٧- قالَ الشَّـيطانُ الموَكَّلُ بهِ في الدُّنيا وهوَ يَتبَرَّأُ منه: ربَّنا ما أضـلَلتُه، ولكنْ كانَ هوَ بَعيدًا عنِ الحقّ، مُعانِدًا له، قابِلاً للباطِل، فأَعَنتُهُ على ضَلالِه، ودَعَوتُهُ إليهِ مِنْ غَيرِ إكرَاه.

{قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ} (ق : ٢٨)

٢٨- قالَ اللهُ تَعالَى ما مَعناه: لا تَتخاصَـموا عندي في مَوقفِ الحِسـابِ والجَزاء، فلا فائدَةَ منه، وقدْ أنذَرتُكمْ وحذَّرتُكمْ على ألسِنَةِ رسُلي مِنَ الكفرِ والعِصيان، ومِنْ عُقوبَةِ اليَومِ الآخِر.

{مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} (ق : ٢٩)

٢٩- لا يَتغَيَّرُ قَولي فيما قضَيتُهُ عَليكم، ولستُ ظالِمًا عَبدًا مِنْ عِبادي، فلا أَزيدُ في عُقوبَتِهِمْ زيادَةً على ما يَستَحِقُّونَه.

{يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ} (ق : ٣٠)

٣٠- واذكرْ عندَما نَقولُ لجهنَّمَ يَومَ القِيامَة: هلِ امتلأتِ مِنَ الجِنِّ والإنس؟ وقدْ وعدَ اللهُ أنْ يَملأها منهما في قَولِه: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [سـورة هود: ١١٩]. فتَقولُ جهنَّم: هـلْ هُنـاكَ مَزيدٌ مِنَ الكـافِرينَ المجرِمينَ ليَنـالوا عُقوبَتَهم؟ تَقولُ ذلكَ غضبًا لرَبِّها وغَيظًا على الكافِرين.

{وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ} (ق : ٣١)

٣١- وأُدنيَتِ الجَنَّةُ مِنَ المؤمِنينَ المتَّقين[١٤٠]، في مَكانٍ غَيرِ بَعيدٍ، بمَرأىً منهم.

{هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ} (ق : ٣٢)

٣٢- هذا النَّعيمُ المقيمُ هوَ ما وعدَ اللهُ بِهِ كُلَّ مؤمِنٍ مُطيع، تائبٍ إلى الله، مُحافِظٍ على أمرِه، أمينٍ على عَهدِه.

{مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ)} (ق : ٣٣)

٣٣- مَنْ خافَ اللهَ في سِرِّهِ وأطاعَهُ بالغَيبِ حيثُ لا يَراهُ أحَدٌ إلاّ هو، ولَقيَ اللهَ بقَلبٍ تائبٍ مُقبِلٍ على طاعَتِه.

{ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ} (ق : ٣٤)

٣٤- ادخُلوا الجَنَّةَ بسَلامَةٍ مِنَ العَذاب، وتَسليمٍ مِنَ اللهِ تَعالَى ومَلائكتِه، ذلكَ هوَ يَومُ البَقاءِ الذي لا مَوتَ بَعدَه، ولا تَحَوُّلَ فيهِ عنِ الجَنَّةِ إلى غَيرِها.

{لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} (ق : ٣٥)

٣٥- لهُمْ فيها ما يَسألونَ ويَختارونَ مِنْ أصنَافِ الأطعِمَةِ وأنواعِ الأشرِبَة، وعندَنا مَزيدٌ لأهلِ الجنَّة، وهوَ أنْ يَتجَلَّى لهمُ الربُّ عزَّ وجَلَّ، ويَنظُروا إلى وَجهِهِ الكريم، وهوَ أجَلُّ وأفضَلُ ما يُؤتَونَهُ فيها.

{وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ} (ق : ٣٦)

---

(١٤٠) {لِلْمُتَّقِينَ}: للذينَ اتَّقَوا ربَّهم فخافوا عقوبتَهُ بأداءِ فرائضهِ واجتنابِ معاصيه. (الطبري).

٣٦- وقدْ أهلَكنا كثيرًا مِنَ الأقوَامِ الذينَ سـبَقوا قَومَك، وكانوا أكثرَ منهمْ قوَّةً ومَنَعَة، وأشَـدَّ بأسًا وفتكًا، فسَاروا في الأرْضِ وطافُوا بها، لابتِغاءِ الرِّزقِ وغَيرِه، ولم يَجِدوا مفرًّا مِنَ الموتِ الذي كانَ لهمْ بالمِرصَاد، أينَما كانوا.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} (ق : ٣٧)

٣٧- وفي ذلكَ عِظَةٌ وتَذكِرَة، لمنْ كانَ لهُ قَلبٌ يَفقَهُ به، أو أصـــغَى إلى ما يُتلَى عَليهِ مِنَ القُرآنِ وهوَ لا يَرَى أولَى منه، وهوَ حاضِرُ القَلب، ليسَ بغافِل.

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِــتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّــنَا مِن لُّغُوبٍ} (ق : ٣٨)

٣٨- ولقدْ خلَقنا السَّـماواتِ السَّـبعَ العَظيمَة، والأرْضَ الواسِـعَة، وما بينَهما مِنَ المخلوقات، في ستَّةِ أيَّام، وما أصابَنا مِنْ تعَبٍ وإعياء.

{فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ} (ق: ٣٩)

٣٩- فاصبِرْ على ما يؤذيكَ بهِ المشرِكونَ مِنَ التَّكذيبِ والإعراض - وكانَ هذا بمكَّة - وصَلِّ حَمدًا لله، صَلاةَ الصُّبح، وصَلاةَ العَصر. وخُصَّا بالذِّكرِ لزيادَةِ فَضلِهما.

روَى جَريرُ بنُ عبدِالله قال: كُنَّا جُلوسًــا ليلةً معَ النبيِّ صــلى الله عليهِ وسـلم، فنظرَ إلى القمَرِ ليلةَ أربعَ عَشْــــرَة، فقال: "إنَّكمْ ســــترَونَ ربَّكمْ كما ترَونَ هذا، لا تُضــــامُونَ في رُؤيَتِه، فإنِ اسـتَطَعتُمْ أنْ لا تُغلَبوا عنْ صـلاةٍ قَبلَ طُلوعِ الشَّـمسِ وقَبلَ غُروبِها فافعَلوا". ثمَّ قَرأ: {وَسَـبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ}. رواهُ الشَّيخانُ وغيرُهما.

قالَ الخَطَّابيُّ: هذا يَدلُّ على أنَّ الرؤيَةَ قدْ يُرجَى نَيلُها بالمحافظَةِ على هاتَينِ الصَّــلاتَين. يَعني الفَجرَ والعَصر.

{وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ} (ق : ٤٠)

٤٠- وصَلِّ لهُ بَعضَ اللَّيل، وسَبِّحْهُ في أدبارِ الصَّلوات.

{وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ} (ق : ٤١)

٤١- واستَمِعْ لِما أُخبِرُكَ بهِ مِنْ أهوالِ السَّاعَة، يَومَ يُنادي المَلَكُ بالقِيامَةِ والنُّشورِ مِنْ مَوضِعٍ قَريب،

{يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ} (ق : ٤٢)

٤٢- يَومَ يَسـمَعونَ النَّفخَةَ الثَّانيةَ مِنَ الصُّـور، وهيَ نَفخَةُ البَعثِ بالحقّ، الذي كانَ يُنكِرُهُ الكافِرون، ذلكَ هوَ يَومُ خُروجِ الموتَى مِنَ القُبور.

{إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ} (ق : ٤٣)

٤٣- إنَّا نحنُ نُحييكمْ في الدُّنيا، ونُميتُكمْ فيها، وإلينا تُخرَجونَ في الآخِرَةِ للحِسابِ والجَزاء.

{يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ} (ق : ٤٤)

٤٤- في ذلكَ اليَومِ تَنشَقُّ الأرْضُ عنِ الأمواتِ فيَخرُجونَ منها سِراعًا إلى مَوقفِ الحِساب، وبَعثُ النَّاسِ وجَمعُهمْ في أرْضِ المحشَرِ أمرٌ سَهلٌ هَيِّنٌ علينا.

{نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ} (ق : ٤٥)

٤٥- نحنُ أعلَمُ بما يَقولُ المشرِكونَ في حَقِّكَ مِنَ التَّكذيب، ومِنَ الإعراضِ عنِ القُرآن، والكُفرِ بالبَعثِ والنُّشور، ولم تُبعَثْ لتُجبِرَهمْ على الإسْلام، إنَّما أنتَ مُبَلِّغٌ مُذَكِّر، فبَلِّغْهمْ رسالةَ رَبِّك، وعِظْ بالقُرآنِ مَنْ يَخافُ اللهَ ووَعيدَه، فإنَّهُ لا يَنتَفِعُ بهِ غَيرُهم، واللهُ يَهدي مَنْ يَشـاء. وكانَ ذلكَ في مكَّة، قَبلَ أنْ يؤمَروا بالقِتال.

* * *

قالتْ أمُّ هِشـــامٍ بنتُ حارِثَةَ بنِ النُّعمان: "ما أخَذتُ {ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ} إلاَّ عنْ لِســانِ رَســولِ اللّهِ صـــلى الله عليه وســـلم، يَقرَؤها كُلَّ يَومٍ جُمُعَةٍ على المِنبَرِ إذا خطبَ النَّاس". رواهُ مُسلمٌ وغَيرُه.

قالَ العُلماء: سـبَبُ اختيارِ (ق) أنَّها مُشتَمِلَةٌ على البَعثِ والموتِ والمواعِظِ الشَّـديدَةِ والزَّواجرِ الأكيدَة. أفادَهُ النَّوَويُّ في شَرحِهِ على صَحيحِ مُسلم.

سورة الذاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً} (الذاريات : ١)

١- أقسِمُ بالرِّياحِ التي تَذرو التُّراب، وتَحمِلُ السُّحُب، وحُبوبَ اللِّقاح، وغَيرَها، فتُفَرِّقُها بأمرِ اللهِ وعِلمِه[١٤١].

وللهِ أنْ يُقسِمَ بما شَاءَ مِنْ مَخلوقاتِه، لتَوجيهِ النَّظَرِ إليها، وتدَبُّرِ ما فيها مِنْ حِكمَةٍ وإبداع.

{فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً} (الذاريات : ٢)

٢- فالسُّحُبِ التي تَحمِلُ المطَر، ويَسوقُها اللهُ إلى حَيثُ يَشاء.

{فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً} (الذاريات : ٣)

٣- فالسُّفُنِ التي تَجري على الماءِ مَيَسَّرَةً بقُدرَتِه.

{فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً} (الذاريات : ٤)

٤- فالملائكةِ الذينَ يَنزِلونَ بأوَامرِ اللهِ ويُوَزِّعونَها بينَ الخَلقِ كما أُمِروا به.

---

(١٤١) يقال: ذرتِ الريحُ الشيءَ ذَروًا وأذرته: أطارتهُ وأذهبته... والمراد: الرياحُ التي تذرو الترابَ وغيره. (روح البيان).

{إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ} (الذاريات : ٥)

٥- إنَّ الذي تُوعَدونَ بهِ مِنَ البَعثِ والثَّوابِ والعِقابِ هوَ خبَرُ صِدق.

{وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ} (الذاريات : ٦)

٦- وإنَّ الحِسـابَ والجَزاءَ لكائنٌ لا مَحالَة، فتُجازَونَ بالإحسَـانِ إحسَـانًا، وبالسُّـوءِ عُقوبَةً وخُسرانًا.

{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ} (الذاريات : ٧)

٧- أقسِمُ بالسَّماءِ المحكمَةِ البُنيان، ذاتِ الجَمالِ والبَهاء، والحُسنِ والاستِواء.

{إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ} (الذاريات : ٨)

٨- إنَّكمْ لَفي قَولٍ مُضـطَرِبٍ في أمرِ القُرآنِ والنبوَّة، فتَقولونَ في القُرآنِ سِـحر، وأسـاطيرُ الأوَّلين، وفي الرَّسُولِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم: ساحِر، وشاعِر، ومجنون...

{يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} (الذاريات : ٩)

٩- إنَّما يُصرَفُ عنِ الإيمانِ والقُرآنِ كُلُّ ضالٍّ مُكذِّبٍ به.

{قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ} (الذاريات : ١٠)

١٠- لُعِنَ الكذَّابونَ مِنْ هؤلاءِ الضَّالِّينَ المختَلِفين،

{الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ} (الذاريات : ١١)

١١- الذينَ همْ في جَهلٍ وغَفلَةٍ عَظيمَة، لاهونَ، غَيرُ مُكتَرِثينَ بأمرِ الآخِرَة.

{يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ} (الذاريات : ١٢)

١٢- يَقولونَ تَكذيبًا واستِهزاءً واستِعجالاً له: متَى يَكونُ يَومُ الجَزاء؟

{يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ} (الذاريات : ١٣)

١٣- إنَّ هذا الجَزاءَ يَكونُ يَومَ يُعذَّبونَ ويُحرَقونَ في النَّار.

{ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ} (الذاريات : ١٤)

١٤- ذوقُوا عَذابَكمُ المهيَّأَ لكم، الذي كنتُمْ تُكذِّبونَ بهِ في الدُّنيا، وتَستَعجِلونَهُ هُزءًا وسُخريَة.

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} (الذاريات : ١٥)

١٥- إنَّ عِبادَ اللهِ المؤمِنينَ، الذينَ يَتجنَّبونَ مُخالفةَ أمرِ الله، في جَنَّاتٍ عالياتٍ، وأنهارٍ جاريَات.

{آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ} (الذاريات : ١٦)

١٦- قابِلينَ ما أعطاهمْ رَبُّهُمْ مِنَ الخَيرِ والنَّعيمِ وراضِينَ به، إنَّهُمْ كانوا في الدُّنيا مُحسِنينَ في سُلوكِهم، صالِحينَ في أعمالِهم.

{كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ} (الذاريات : ١٧)

١٧- كانوا يَنامُونَ قَليلاً مِنَ اللَّيل، فيُصَلُّونَ للهِ ويَذكرونَهُ ويَدْعُونَهُ أكثرَ اللَّيل.

{وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} (الذاريات : ١٨)

١٨- وفي وَقتِ السَّحَرِ حيثُ يُستَجابُ الدُّعاء، يَستَغفِرونَ اللهَ ويَتوبونَ إليهِ مِنْ ذُنوبِهم، ليَغفِرَ لهم، ويَرضَى عَنهم.

قالَ صاحِبُ الظِّلالِ رَحِمَهُ الله: فهمُ الأيقاظُ في جُنْحِ اللَّيلِ والنَّاسُ نيَام، المتوَجِّهونَ إلى رَبِّهِمْ بالاستِغفارِ والاسترحام، لا يَطعَمونَ الكرَى إلاّ قَليلاً، ولا يَهجَعونَ في لَيلِهِمْ إلاّ يَسيرًا، يأنَسونَ برَبِّهِمْ في جَوفِ اللَّيل، فتَتجافَى جُنوبُهُمْ عنِ المضاجِع...

{وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} (الذاريات : ١٩)

١٩- وفي أموالِهِمْ نَصيبٌ يَخصُّونَهُ للسَّائلِ المحتاج، والمحرومِ الذي ذهَبَ مالُهُ ولا يَقدِرُ على العمَل، أو هوَ يَعِفُّ فلا يَسأل، وهوَ لا يَملِكُ شَيئًا.

{وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ} (الذاريات : ٢٠)

٢٠- وفي الأرْضِ أدِلَّةٌ وبَراهينُ تَدُلُّ على عَظمَةِ اللهِ وقُدرَتِه، لمنْ كانَ قَلبُهُ عامِرًا بالإيمَانِ واليَقين، ممَّا فيها مِنْ أصـنافِ الحيَوانِ المبثوثِ في البَرّ والبَحر، ومِنَ الثَّمَرِ والزَّهَر، والمعدِنِ والصَّخْر، والماءِ والتُّراب، واختِلافِ الألسِنَةِ والألوَان...

{وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} (الذاريات : ٢١)

٢١- وفي ذَواتِكمْ ما يُدْهِشُ ويَبعَثُ على التَّفكيرِ والاعتِبار، مِنْ حُسـنِ التَّركيبِ والتَّوظيفِ والأدَاء... والرُّوحِ التي أودَعَها اللهُ فيكم، وأسـرارِها، وطاقاتِها، وإدراكِها، وتَكوينِكمُ النَّفسيّ، وتَفكيرِكم، وتَذكُّرِكم... أفلا تَنظرونَ فتَتفكَّرون، وتَعتَبِرونَ فتُؤمِنون؟

{وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} (الذاريات : ٢٢)

٢٢- وفي السَّماءِ تَقديرُ رِزقِكم[١٤٢]، وما تُوعَدونَ مِنْ خَيرٍ وشَرّ.

{فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ} (الذاريات : ٢٣)

---

(١٤٢) {وَفِي ٱلسَّمَاءِ رِزْقُكُمْ} أي: سببُ رزقِكم، وهو المطر، فإنه سببُ الأرزاق. قالَ سعيد بن جبير، والضحاك: الرزقُ هنا: ما يَنزلُ من السماء، من مطرٍ وثلج. وقيل: المرادُ بالسماءِ السحاب، أي: وفي السحابِ رزقُكم. وقيل: المرادُ بالسماء: المطر، وسمَّاهُ سماءً لأنه يَنزلُ من جهتِها... وقالَ سفيانُ الثوري: أي: عندَ الله في السماءِ رزقُكم. وقيل: المعنى: وفي السماءِ تقديرُ رزقِكم. (فتح القدير).

٢٣- فوَرَبِّ السَّـــماءِ وما فيها، والأرْضِ وما عَليها، إنَّ ما ذُكِرَ مِنْ أمرِ القُرآن، والنبيّ، والقيامَة، والرِّزق، حقٌّ وصِـــدق، فلا تَشُـــكُّوا في ذلك، كما لا تَشُـــكُّونَ في نُطقِكمْ حينَ تَنطِقون.

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ} (الذاريات : ٢٤)

٢٤- هلْ عَلِمتَ خبرَ ضُيوفِ نَبيِّ اللهِ إبراهيمَ المكرَمينَ عندَ الله؟

{إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ} (الذاريات : ٢٥)

٢٥- إذْ دخَلوا عليهِ فقالوا: سَـــلامًا، فقالَ لهم: عَليكمْ سَـــلامٌ، أنتُمْ غَيرُ مَعروفين. وكانوا مَلائكة.

{فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ} (الذاريات : ٢٦)

٢٦- فذَهبَ إلى أهلِهِ على خُفيَة، وجاءَهمْ بعِجلٍ مَشويّ، مُمتَلِئٍ باللَّحمِ والشَّحم.

{فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ} (الذاريات : ٢٧)

٢٧- فأدناهُ منهم، وقالَ لهمْ في تلَطُّف: ألَا تَبدَؤونَ فتأكُلون؟

{فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ} (الذاريات : ٢٨)

٢٨- فلمَّا رأى أنَّهمْ لا يأكُلون، وهوَ صَـعبٌ على مُضـيفٍ كَريم، أضـمرَ منهمْ خَوفًا، وظنَّ أنَّهمْ يُريدونَ بهِ شَرًّا، فقالوا له: لا تخَف، نحنُ رسُلُ الله. وبشَّروهُ بغُلامٍ على كِبَرِه، يَكونُ عالِمًا عندَ بُلوغِهِ واستِوائه، وهوَ إسحاقُ عَليهِ السَّلام.

{فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ} (الذاريات : ٢٩)

٢٩- فأقبلَتِ امرأتُهُ سارَةُ لما سَمِعَتْ بِشارتَهم، في صَيحَةٍ، وضـرَبَتْ بيدِها على وَجهِها تعَجُّبًا كعادَةِ النِّساء، وقالت: أنا عَجوزٌ عاقِرٌ فكيفَ ألِد؟!

{قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ} (الذاريات : ٣٠)

٣٠- قالوا: مثلَما قُلنا لكِ هوَ ما قالَ رَبُّكِ، ونحنُ مُبَلِّغونَ عنهُ سُــبحانَه، وهوَ الحَكيمُ فيما يَقولُ ويُقَدِّر، العَليمُ بمَنْ يَستَحِقُّ البِشارَةَ والكرامَة.

الجزء السابع والعشرون

سورة الذاريات (٣١- ٦٠)
سورة الطور
سورة النجم
سورة القمر
سورة الرحمن
سورة الواقعة
سورة الحديد

{قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ} (الذاريات : ٣١)

٣١ - قالَ لهمْ إبراهيمُ عَليهِ السَّلام: فما شَأنُكم أيُّها الملائكةُ المرسَلونَ، وما الذي جِئتُمْ بهِ سِوَى البِشارَة؟

{قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ} (الذاريات : ٣٢)

٣٢- قالوا: لقدْ أُرسِلنا بالعَذابِ إلى قَومِ لُوطٍ الكافِرين،

{لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ} (الذاريات : ٣٣)

٣٣- لنُرسِلَ عَليهمْ حِجارَةً مِنْ طينٍ مُتحجِّر،

{مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ} (الذاريات : ٣٤)

٣٤- مُعْلَمَةً، مَكتوبًا على كُلٍّ منها أسماؤهمْ مِنْ عندِ رَبِّك، لتُصيبَ هؤلاءِ المشرِكينَ الذينَ تَجاوَزوا الحدَّ في الفُجور، وأصَرُّوا على إتيانِ الرِّجالِ دونَ النِّساء، ولم يَنتَهوا.

{فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} (الذاريات : ٣٥)

٣٥- فأخرَجنا مِنْ قُرَى قَومِ لُوطٍ مَنْ آمَن.

{فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ} (الذاريات : ٣٦)

٣٦- فما وجَدنا بينَها غَيرَ بَيتٍ للمُسلِمين، وهوَ بَيتُ لُوطٍ عليهِ السَّلام.

{وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} (الذاريات : ٣٧)

٣٧- وأَبقَينا في تلكَ القُرَى عِبرَةً وعَلامةً دالَّةً على ما أصابَهُمْ مِنَ العَذابِ والنَّكالِ. وهيَ في مِنطقَةِ البَحرِ الميِّت، وآثارُهمْ مازالتْ مَوجودَةً حتَّى الآن. وفي ذلكَ عِبرَةٌ لمنْ يَخافُونَ العُقوبَةَ والعَذاب، فيَبتَعِدونَ عمَّا كانَ عليهِ أولئكَ القَومُ مِنَ الفاحِشَةِ والرَّذيلَة.

{وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} (الذاريات : ٣٨)

٣٨- وفي حَديثِ موسَى آيَةٌ وعِبرَة، إذْ أرسَلناهُ إلى فِرعَونَ وقَومِهِ بحُجَّةٍ ظاهِرَة، ومُعجِزَةٍ باهِرَة.

{فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ} (الذاريات : ٣٩)

٣٩- فأعرضَ عنِ الإيمَانِ بما جاءَ بِهِ موسَى، وركَنَ إلى قوَّتِهِ وسُلطانِه، وقال فيه: هوَ ساحِرٌ يَخدَعُ النَّاس، أو مَجنونٌ يُعَلِّمُهُ الجِنّ.

{فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ} (الذاريات : ٤٠)

٤٠- وأصَرَّ على تَكذيبِ موسَى، ولم تَنفَعْ معَهُ نَصيحَةٌ أو مُعجِزَة، فانتقَمنا منه، وطرَحناهُ معَ جنودِهِ في البَحر، وهوَ مَلومٌ كافِرٌ طاغٍ.

{وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ} (الذاريات : ٤١)

٤١- وفي خبَرِ عادٍ عِظَةٌ وعِبرَةٌ كذلك، فكذَّبوا نَبيَّهمْ هُودًا وتَمادوا في كُفرِهم، فانتقَمنا منهم، وأرسَلنا عَليهمُ الرِّيحَ الشَّديدَةَ التي لا نَفعَ فيها،

{مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ} (الذاريات : ٤٢)

٤٢- لا تَترِكُ شَيئًا ممَّا تَمرُّ به، مِنْ أنفُسِهمْ وأموَالِهِمْ ومَواشيهم، إلاّ جعلَتْهُ هالِكًا باليًا.

{وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ} (الذاريات : ٤٣)

٤٣- وفي خبَرِ قَبيلَةِ ثَمودَ عِبرَةٌ لمنْ يَعتَبِرُ كذلك، فكذَّبوا نَبيَّهمْ صالِحًا، وقدْ حذَّرَهمْ مِنْ إيذاءِ النَّاقَةِ التي كانتْ آيَةً لهم، فعقَروها، فقيلَ لهم: استَمتِعوا بالحيَاةِ ثلاثَةَ أيَّامٍ بعدَ هذهِ الجَريمَة.

{فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ} (الذاريات : ٤٤)

٤٤- فاستَكبَروا عنِ الامتِثالِ لأمرِ الله، فأهلكَتْهمْ صاعِقَةٌ شَديدَة، بعدَ الأيَّامِ الثَّلاثَةِ المضروبَةِ لأجَلِهم، وهمْ يرَونَ ذلكَ عِيانًا.

{فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ} (الذاريات : ٤٥)

٤٥- فما قَدَروا على النُّهوضِ بعدَ أنْ نزلَ بهمُ العَذاب، وما كانوا قادِرينَ على الانتِقامِ لأنفُسِهم.

{وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ} (الذاريات : ٤٦)

٤٦- وأهلَكنا قَومَ نُوحٍ مِنْ قَبلِ هؤلاء، إنَّهمْ كانوا قَومًا خارِجينَ عنِ الطَّاعَة، قائمينَ على الكُفرِ والمعاصي.

{وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} (الذاريات : ٤٧)

٤٧- وبَنينا السَّماءَ بقوَّةٍ وقُدرَة، وإنَّا لموسِعُونَها.

وقدْ ثبتَ لدَى العُلماءِ في هذا العَصرِ أنَّ الكَونَ في اتِّساعٍ مُستَمِرّ، وأنَّ المجَرَّاتِ يَتباعَدُ بَعضُها عنْ بَعضٍ بسُرعاتٍ تَقتَرِبُ أحيانًا مِنْ سُرعَةِ الضَّوء!

{وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ} (الذاريات : ٤٨)

٤٨- والأرضَ بسَطناها ومَهَّدناها ليَستَقِرَّ عليها الإنسَان، وتَكونَ مُناسِبَةً لمِعيشَتِه، فنِعمَ الباسِطونَ والماهِدونَ نحن.

{وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (الذاريات : ٤٩)

٤٩- ومِنْ كُلِّ جِنسٍ وصِنفٍ مِنَ الحيَوانِ والنَّباتِ خَلَقنا نَوعين: ذَكَرًا وأُنثَى، لتَتذَكَّروا وتَعلَموا أنَّ خالِقَها واحِد. ومَنْ قَدَرَ على خَلقِها فهوَ قادِرٌ على إحيائها بعدَ مَوتِها.

{فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} (الذاريات : ٥٠)

٥٠- فالتَجِؤوا إلى الله، واهرُبوا مِنْ عِقابِهِ إلى ثَوابِه، ومِمَّا سِواهُ إليه، بتَوحيدِهِ وطاعتِه، فإنِّي نَذيرٌ بَيِّنٌ لكم، أُحَذِّرُكمْ مِنَ العُقوبَةِ ما لم تُطيعوا.

{وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} (الذاريات : ٥١)

٥١- ولا تُشرِكوا باللهِ أحدًا، ولا تَعبُدوا غَيرَه، إنِّي أُنذِرُكمْ مِنْ عُقوبَةِ الله، فهوَ يَغفِرُ كُلَّ ذَنْبٍ إلاّ الشِّرك.

{كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ} (الذاريات : ٥٢)

٥٢- وكما كذَّبَكَ قَومُكَ أيُّها الرسُول، وقالوا إنَّكَ ساحِرٌ أو مجنون، كذلكَ ما أتَى الأقوامَ السَّابقينَ مِنْ رَسُولٍ إلاَّ قالوا فيهِ ساحِرٌ يَخدَعُ النَّاس، أو مجنونٌ يُعلِّمُهُ الجِنّ.

{أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ} (الذاريات : ٥٣)

٥٣- فهلْ أوصَى الأوَّلونَ والآخِرونَ بَعضُهمْ بَعضًا بأنْ يُكَذِّبوا الرسُل؟! بلْ حملَهمُ الطُّغيانُ على ذلك، وتَشابهَتْ قُلوبُهم، فقالُوا ما قالُوا.

{فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ} (الذاريات : ٥٤)

٥٤- فأعرِضْ عَنهم، ودَعكَ مِنْ جِدالِهم، فلا لَومَ عَليكَ بعدَ أنْ بذَلتَ الجُهد، وبلَّغتَ وأنذَرت.

{وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} (الذاريات : ٥٥)

٥٥- وذَكِّر، وعِظْ بالقُرآن، فإنَّ الوَعظَ والتَّذكيرَ يَنفَعُ مَنْ كانَ مِنَ المؤمِنين، أو مَنْ عَلِمَ اللهُ فيهمُ الاستِعدادَ للإيمَان.

{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} (الذاريات : ٥٦)

٥٦- إنَّما خلَقتُ الجِنَّ والإنسَ لغايَةٍ مُعيَّنة، وليُؤَدُّوا وَظيفَةً مهمَّةً مُحدَّدَة، هيَ سبَبُ وجودِهمْ في هذا الكون، وهوَ عِبادَتي.

{مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ} (الذاريات : ٥٧)

٥٧- لا أُريدُ أنْ يَرزُقوا أحدًا مِنْ خَلقي، ولا أُريدُ أنْ يُقَدِّموا لي طَعامًا، فلَستُ بحاجَةٍ إليهم.

{إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} (الذاريات : ٥٨)

٥٨- إنَّ اللهَ هوَ الذي يَرزُقُ جَميعَ الخَلق، فالكُلُّ مُفتَقِرٌ إليه، وهوَ الغَنيُّ عَنهم، القَويُّ المقتَدِر، الشَّديدُ القوَّة، القادِرُ على كُلِّ شَيء.

{فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ} (الذاريات : ٥٩)

٥٩- فإنَّ للَّذينَ كفَروا مِنْ قَومِكَ نَصيبًا مِنَ العَذاب، مثلَ نَصيبِ نُظرائهِمْ مِنَ الأقوَامِ السَّابقِين، الذينَ أهلكَهمُ الله، فلا يَطلبُوا استِعجالَ العَذاب، فإنَّهُ سيَأتيهمْ نَصيبُهمْ مِنْ ذلك.

{فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ} (الذاريات : ٦٠)

٦٠- فالوَيلُ والهَلاكُ للَّذينَ كفَروا مِنْ يَومِ العَذابِ الشَّـــديدِ الذي يُوعَدونَ به، الذي لا مَحيدَ لهمْ عَنه، ولا مُنقِذَ لهمْ منه.

سورة الطور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَالطُّورِ} (الطور : ١)

١- أُقسِمُ بالجبَل. ذُكِرَ أنَّ المقصُودَ جبَلُ سِينين، وهوَ جبَلُ سَيْناء، الذي كلَّمَ اللهُ عليهِ نبيَّهُ موسَى عليهِ السلام.

{وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ} (الطور : ٢)

٢- وكتابٍ مَكتوبٍ بانتِظام،

{فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ} (الطور : ٣)

٣- في رَقٍّ مَبسُوط. والرَّقُّ ما يُكتَبُ عَليه، مِنْ صَحيفَةٍ ولَوحٍ وغَيرِه. والمقصُودُ القُرآنُ الكريم، أو الكتُبُ السَّماويَّة. وقيلَ غَيرُ ذلك.

{وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ} (الطور : ٤)

٤- والبَيتِ المعمُور. وهوَ في السَّماءِ السَّابِعَة، "يَدخلُهُ كُلَّ يَومٍ سَبعونَ ألفَ مَلَك، لا يَعودونَ إليه"، كما في صَحيحِ مُسلم.

قـالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ الله: يَعني يَتعبَّـدونَ فيـهِ ويَطوفونَ بـهِ كمـا يَطوفُ أهـلُ الأرْضِ بكَعبَتِهم، كذلكَ ذلكَ البَيت، هوَ كعبَةُ أهلِ السَّماءِ السَّابِعَة.

{وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ} (الطور : ٥)

٥- والسَّماءِ المرفوعَةِ بغَيرِ عَمَد.

{وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ} (الطور : ٦)

٦- والبَحرِ المؤقَد. ولعلَّ المقصودَ البَراكينُ التي تَخرُجُ مِنْ قاعِ البِحار، وهيَ أكثَرُ عَددًا مِنَ الموجودَةِ على سَطحِ البَرّ، فتندَفِعُ مِنْ قِيعانِ المحيطاتِ وتَرتَفِعُ إلى قُربِ سَطحِ الماءِ لتُشَكِّلَ جزُرًا بُركانيَّة. ولا يَستَطيعُ الماءُ أنْ يُطفِئَ حَرارَتَها العاليَةَ عندَ صُعودِها، التي تَبلُغُ أكثرَ مِنْ ألفِ درَجَة!

{إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ} (الطور : ٧)

٧- إنَّ عَذابَ رَبِّكَ كائنٌ لا مَحالَة، واقِعٌ بالكُفّار.

{مَا لَهُ مِن دَافِعٍ} (الطور : ٨)

٨- ليسَ لأحَدٍ قُدرَةٌ على دَفعِهِ ومَنعِهِ إذا أرادَهُ اللهُ بهم.

{يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاء مَوْراً} (الطور : ٩)

٩- يومَ تَضطَرِبُ السَّماءُ وتَرتَجُّ رجًّا.

{وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً} (الطور : ١٠)

١٠- وتَزولُ الجِبالُ عنْ أماكنِها وتَصيرُ هَباءً مَنثُورًا.

{فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} (الطور : ١١)

١١- فإذا كانَ ذلكَ اليوم، فالوَيلُ والهَلاكُ للمُكَذِّبينَ بيومِ القِيامَة.

{الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ} (الطور : ١٢)

١٢- الذينَ يَخوضُونَ في الباطِل، ويتَّخِذونَ دِينَهمْ لَعِبًا، وهمْ غافِلونَ لاهُون.

{يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً} (الطور : ١٣)

١٣- في ذلكَ اليَومِ المهول، يُدفَعونَ إلى النَّارِ دَفعًا عَنيفًا، ويُطرَحونَ فيها وهمْ أَذِلَّة.

{هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ} (الطور : ١٤)

١٤- يَقولُ لهمْ زَبانيَةُ النَّار: هذهِ هيَ النَّارُ التي كنتُمْ تُنكِرونَها في الدُّنيا.

{أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ} (الطور : ١٥)

١٥- فهلْ هذهِ النَّارُ سِحرٌ تُخدَعونَ بهِ كما كنتُمْ تَقولونَ في الوَحي إنَّهُ سِحر، أمْ أنَّها نارٌ حَقيقيَّة، أمْ أنَّكمْ عُميٌ لا تَرَونَ ما أنتُمْ فيه؟!

{اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (الطور : ١٦)

١٦- ادخُلوها وذُوقُوا عَذابَها، وسَواءٌ أصبَرتُمْ عَليها أمْ لم تَصبِروا، فإنَّهُ لا مَحيدَ لكمْ عَنها، وإنَّما تُجزَونَ بما عَمِلتُمْ في الدُّنيا، ولا تُعاقَبونَ بأكثرَ ممَّا تَستَحِقُّون.

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ} (الطور : ١٧)

١٧- إنَّ عِبادَ اللهِ المؤمنينَ المتَّقين، في جنَّاتٍ عاليَات، وفي ترفُّهٍ وطيبِ عيشٍ دائم.

{فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} (الطور : ١٨)

١٨- مُتلَذِّذينَ مُتنَعِّمينَ بما آتاهمْ رَبُّهمْ مِنْ أصنَافِ المآكلِ وأنواعِ المشارِب، وترَفُّهٍ في الملبَسِ والمسكَن، وأنجاهُمْ مِنْ عَذابِ النَّارِ وشِدَّتِه.

{كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (الطور : ١٩)

١٩- كُلُوا واشـرَبوا ما شِـئتُمْ في سُـرورٍ وهَناء، وأمنٍ وعافيَة، جَزاءَ أعمالِكمُ الحسَـنة، وثَوابَ إخلاصِكمْ وصَبرِكمْ في الدُّنيا.

{مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ} (الطور : ٢٠)

٢٠- مُتَّكئينَ على أسِـرَّةٍ مَوضـوعَةٍ بَعضُـها إلى جَنبِ بَعض، وزَوَّجناهُمْ بحُورٍ بِيضٍ حِسـانِ الوجوه، واسِعاتُ العُيونِ جميلاتُها.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ} (الطور : ٢١)

٢١- والمؤمِنونَ الذينَ اتَّبعَتْهُمْ ذُرِّياتُهُمْ في الإيمَان، ألحَقناهُمْ بآبائهِمْ فكانوا معَهمْ في الجنَّة، وإنْ كانوا دونَهُمْ في العمَل، إكرامًا لهم، ولتقَرَّ أعينُهمْ بهم، وما نقَصـنا مِنْ عمَلِ الآباءِ شَـيئًا بهذا الإكرَام، كُلُّ إنسَـانٍ رَهْنٌ بكَسـبِهِ عندَ الله، غَيرُ مَفكوكٍ عنه، ولا يُؤاخَذُ أحَدٌ بذَنبِ أحَد، سَواءٌ كانَ أبًا أمِ ابنًا.

{وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ} (الطور : ٢٢)

٢٢- وزَوَّدناهُمْ بأنواعِ الفَواكهِ اللَّذيذَة، واللَّحمِ الشهيّ الذي تَرغَبُ فيهِ النَّفس.

{يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ} (الطور : ٢٣)

٢٣- يَتعاطَونَ في الجنَّةِ كؤوسَ الخَمرِ ويتَجاذَبونَها، لا تُسـكِرُ ولا تُؤذي، ولا يَتكلَّمُ أصـحابُها بهذَيان، ولا كلامٍ فاحِشٍ يأثَمونَ بهِ كما في الدُّنيا، بلْ يَفعَلونَ ما يَفعَلُهُ الكِرام.

{وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ} (الطور : ٢٤)

٢٤- ويَطوفُ عَليهمْ ويَخدِمُهمْ غِلمانٌ مُختَصُّـونَ بهم، كأنَّهُمْ لؤلؤٌ مَصُـونٌ في الصَّـدَف، في بَهائهِمْ ونَظافَتِهمْ وحُسنِ مَلابسِهم.

{وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ} (الطور : ٢٥)

٢٥- وأقبَلَ أهلُ الجنَّةِ يتحادَثون، ويَسألُ بَعضُهمْ بَعضًا عنْ أحوالِهِمْ في الدُّنيا.

{قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ} (الطور : ٢٦)

٢٦- قالوا: لقدْ كنَّا خائفينَ وَجِلينَ بينَ أهلِينا، نَخشَى عَذابَ اللهِ ونُشفِقُ على أنفُسِنا مِنْ عِقابِه.

{فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ} (الطور : ٢٧)

٢٧- فمَنَّ اللهُ عَلينا برَحمَتِه، وأكرمَنا بنِعمَتِه، فأدخلَنا جنَّتَه، وجنَّبَنا نارَ جهنَّمَ الشَّديدَةَ النَّافِذَة، التي تَدخلُ في الجسمِ وتُحرِقُهُ مباشرَة.

{إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ} (الطور : ٢٨)

٢٨- لقدْ كنَّا نَعبُدُ اللهَ في الدُّنيا مُخلِصين، ونَرجُوهُ أنْ يَقيَنا العَذاب، إنَّهُ هوَ المحسِنُ الكَريم، ذو الرَّحمَةِ العَظيمَة.

{فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ} (الطور : ٢٩)

٢٩- فعِظْهُمْ بالقُرآنِ أيُّها الرسُول، وبَلِّغْهمْ رسالَةَ ربِّك، فلستَ بحَمدِ اللهِ كاهِنًا تَكذِبُ عَليهِمْ في نَقلِ الأخبَارِ بالظُّنونِ والأباطِيل، ولا مَجنونًا تَقولُ كلامًا فاسِدًا غَيرَ مَعقولٍ مِنْ مَسِّ الجِنّ.

{أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ} (الطور : ٣٠)

٣٠- بلْ يَقولونَ هوَ شاعِرٌ نَنتَظِرُ أنْ يأتيَ عليهِ الموت، فيَموتُ كما ماتَ مَنْ قَبلَهُ مِنَ الشُّعَراء، ويتفَرَّقُ أصحابُهُ عنه، فنَستَريحُ منهُ ومنهم.

{قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ} (الطور : ٣١)

٣١- قُلْ لهمْ أيُّها الرسُــول: انتَظِروا، فإنَّني أنتَظِرُ هَلاكَكمْ كما تَنتَظِرونَ هَلاكي، وســتَعلَمونَ لمِنْ تَكونُ العاقِبَة.

{أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ} (الطور : ٣٢)

٣٢- أمْ أنَّ عُقولَهَمْ تأمرُهمْ أنْ يَقولوا فيـكَ هـذهِ الأقوالَ البـاطِلة؟ - وكـانَ زُعمـاءُ قُرَيشٍ يُوصَــفونَ بالأحْلامِ والعُقولِ -، بلْ همْ ضــالُّونَ مُعانِدون، مُســتَكبِرونَ عنِ اتِّباعِ الهُدَى وقَولِ الحقّ.

{أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ} (الطور : ٣٣)

٣٣- أمْ أنَّهُمْ يَقولونَ إنَّهُ اختلَقَ القُرآنَ مِنْ عندِهِ ونسَــبَهُ إلى الله؟ بلْ همْ كافِرونَ مُعانِدون، لا يُؤمِنونَ بالقُرآنِ استِكبارًا وعِنادًا، ولذلكَ يَقولونَ ما يَقولون، ويَرمُونَكَ بهذهِ الأباطِيل.

{فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ} (الطور : ٣٤)

٣٤- فليَأتوا بمثلِ ما جاءَ بهِ الرسُــولُ مِنْ هذا القُرآن، نَظمًا ومَعنًى، إنْ كانوا صــادِقينَ مِنْ أنَّهُ كلامُ البشَر. إنَّهُمْ لا يَستَطيعونَ ذلك، ولو اجتمَعَ لهمُ النَّاسُ جَميعًا، أوَّلُهُمْ وآخِرُهم.

{أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} (الطور : ٣٥)

٣٥- أمْ أنَّهُمْ وُجِدوا مِنْ غَيرِ خالِق، أمْ أنَّهُمْ همُ الذينَ أوجَدوا أنفُسَهم؟!

{أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ} (الطور : ٣٦)

٣٦- أمْ أنَّهُمْ همُ الذينَ خلَقوا السَّـــماواتِ العَظيمَةَ والأرْضَ ومَنْ فيها، ولذلكَ فهمْ يَتكبَّرونَ ولا يُؤمِنون؟ بلْ همْ غَيرُ مؤمِنينَ باللهِ الخالِق، فإنَّ الإيمَانَ بِهِ حَقًّا يؤدِّي إلى امتِثالِ أمرِه.

{أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ} (الطور : ٣٧)

٣٧- أمْ أنَّ عندَهمْ مَفاتِحَ خَزائنِ الكَونِ فهمْ مُسَلَّطونَ عليه، وأربابٌ قاهِرونَ لهُ يتَصرَّفونَ فيهِ كما يَشاؤون؟

{أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} (الطور : ٣٨)

٣٨- أمْ أنَّ لهمْ سُلَّمًا يَصعَدونَ بهِ إلى السَّماءِ ويَستَمِعونَ إلى الملائكة، فيَعرِفونَ ما يأمرُهمْ بهِ رَبُّهمْ مِنْ أمرِ العِباد، وعَلِموا بذلكَ أنَّهمْ على حقّ؟ فَليَأتِ مَنْ سَمِعَ ذلكَ منهمْ بحُجَّةٍ بيّنةٍ تدُلُّ على صِدقِ سَماعِه.

{أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ} (الطور : ٣٩)

٣٩- أمْ أنَّ للهِ البَناتِ ولكمْ أنتُمُ البَنون، فتَفتَخِرونَ بذلكَ على ربِّكم؟! وكانوا يَقولونَ – منْ جَهلِهمْ وضَلالِهمْ – إنَّ الملائكةَ بَناتُ الله، ويُحِبُّونَ أنْ يَكونَ لهمُ الذُّكور، ويَتَشاءَمونَ مِنَ الإناث!

{أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ} (الطور : ٤٠)

٤٠- أمْ أنَّكَ تَسألُهمْ أُجرَةً على تَبليغِ رسَالَةِ الله، ولذلكَ فهمْ يُعرِضونَ عنك، ويتَبرَّمونَ ويَتثاقَلونَ ممَّا تَطلبُهُ منهم، وكأنَّ عَليهمْ غَرامةً ماليَّةً مِنْ ذلك؟

{أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ} (الطور : ٤١)

٤١- أمْ أنَّ عندَهمُ القُدرَةَ على العِلمِ بما في الغَيبِ فهمْ يَكتبونَ منه، ويَقِفونَ مِنْ خِلالِهِ على حَقيقَةِ الأمُورِ والأخبَار، فعَلِموا بذلكَ أنَّهمْ على حقّ؟

{أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ} (الطور : ٤٢)

٤٢- أمْ يُريدونَ مِنْ خِلالِ مَواقفِهمُ السيّئةِ منكَ ومِنَ الدِّينِ أنْ يَمكروا بكَ ويُهلِكوك؟ فإنَّ ضرَرَ مَكرِهمْ سيَعودُ عَليهم، ويَقضي على خُطَطِهم.

{أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} (الطور : ٤٣)

٤٣- أمْ أنَّ لهمْ إلهًا غَيرَ اللهِ في هذا الكونِ فهمْ يَتوَجَّهونَ إليهِ ويَعبُدونَه؟ تَقدَّسَ اللهُ وتَنزَّهَ عمَّا يَفتَرونَهُ عليهِ ويُشرِكونَ به.

{وَإِن يَرَوْا كِسْفاً مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ} (الطور : ٤٤)

٤٤- وإذا رَأوا قِطعَةً مِنَ السَّماءِ ساقِطةً عَليهِمْ لَما صدَّقوا أنَّهُمْ سيُعَذَّبونَ بها، ولَما انتهَوا عنْ كُفرِهم، ولَقالوا مِنْ فَرْطِ عِنادِهِمْ وطُغيانِهِم: هذا سَحابٌ مُتراكِمٌ بَعضُهُ على بَعضٍ يَسقينا!

{فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ} (الطور : ٤٥)

٤٥- فدَعهمْ ولا تَكترِثْ بهم، حتَّى يُلاقُوا يومَ القِيامَة، الذي يَهلِكونَ فيهِ (عندَ النفخَةِ الأُولَى).

{يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} (الطور : ٤٦)

٤٦- في ذلكَ اليَومِ العَصيب، لا تَنفَعُهمْ مُخطَّطاتُهُمُ الكيديَّةُ شَيئًا، ولا أحدَ يَنتَصِرُ لهمْ ويُخَلِّصُهم مِنْ عَذابِ الله.

{وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (الطور : ٤٧)

٤٧- وإنَّ للكافِرينَ عُقوباتٍ تَنالُهُمْ في الدُّنيا قَبلَ الآخِرَة، ولكنَّهمْ لا يَعلَمونَ الحِكمةَ مِنْ هذهِ المصائبِ والابتِلاءات، فهيَ إشاراتٌ وتَنبيهاتٌ ليَتفكَّروا ويَعتَبِروا، وليَرجِعوا إلى ربِّهم.

{وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ} (الطور : ٤٨)

٤٨- واصبِرْ لأمرِ ربِّكَ في بَقائكَ بينَهمْ وتحمُّلِكَ أذاهُم، فإنَّكَ بمَرأىً منَّا، وفي حِفظِنا وحِراسَتِنا، واجمَعْ بينَ حَمدِهِ وتَسبيحِهِ حينَ تَقومُ إلى الصَّلاة.

وكانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقولُ في ابتِداءِ الصَّلاةِ (قَبلَ الفاتِحَةِ): "سُبحانَكَ اللهمَّ وبحَمدِكَ، وتَبارَكَ اسمُكَ، وتَعالَى جَدُّكَ، ولا إلهَ غَيرُك"، كما صـــحَّ في الحديثِ الذي رَواهُ الحاكِمُ وأبو داودَ وغَيرُهما.

{وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ} (الطور : ٤٩)

٤٩- واذكُرْهُ في بَعضِ اللَّيلِ وصَلِّ له، فإذا غابَتِ النُّجومُ وبدا ضَوءُ الصُّبح، فصَلِّ لهُ كذلك. والمِقصودُ رَكعتا سُنَّةِ الفَجر، وكانَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم حَريصًا عَليهما أكثرَ مِنْ كُلِّ النَّوافل، كما صحَّ في حَديثِ عائشةَ رَضيَ اللهُ عنها.

سورة النـجم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى} (النجم : ١)

١- أُقسِمُ بالنَّجمِ إذا سقطَ مِنْ عُلوّ. أيَّ نَجم. وعيَّنَهُ بَعضُهمْ ظنًّا واجتِهادًا.

واللهُ سُبحانَهُ يُقسِمُ بما شاءَ مِنْ مَخلوقاتِه، لحِكمَة، ولا يَنبَغي للمَخلوقِ أنْ يُقسِمَ بغَيرِ الله.

{مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى} (النجم : ٢)

٢- ما انحرفَ صاحبُكمْ محمَّدٌ عنِ الحقّ، وما اعتقدَ باطِلاً.

{وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى} (النجم : ٣)

٣- ولا يَقولُ قَولاً عنْ هوًى ورَغبَةٍ في نَفسِه،

{إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} (النجم : ٤)

٤- ما هوَ إلاّ وَحيٌ يُوحَى إليهِ مِنَ الله، فيُبلِّغُهُ لكمْ كما هو.

{عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى} (النجم : ٥)

٥- علَّمَهُ القُرآنَ جِبريلُ عَليهِ السَّلام، الذي آتاهُ اللهُ قوَّةً عَظيمَة.

{ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى} (النجم : ٦)

٦- فهوَ ذو قوَّةٍ وشِدَّةٍ في خَلقِه، معَ حِكمَة، وحُسنِ مَنظَر، فاستَقامَ على صُورَتِهِ التي خلقَها اللهُ تَعالَى عَليها.

{وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى} (النجم : ٧)

٧- وهوَ في الجهةِ العُليا مِنَ السَّماء.

{ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى} (النجم : ٨)

٨- ثمَّ هَبَطَ وتَدلَّى إلى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وهوَ على الصُّورَةِ التي خلقَهُ اللهُ عَليها، فسَدَّ الأُفُق.

{فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى} (النجم : ٩)

٩- فاقتَربَ منهُ صلى الله عليه وسلم حتَّى كانتْ مَسافَةُ قُربِهِ منهُ مِقدارَ قَوسَين، أو أقربَ مِنْ ذلك. ويَعني القَوسَ الذي يُرمَى به.

{فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى} (النجم : ١٠)

١٠- فأوحَى اللهُ بواسِطَةِ جبريلَ إلى عَبدِهِ ونَبيِّهِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم ما أوحاهُ إليه.

{مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى} (النجم : ١١)

١١- ما كذَبَ فؤادُ الرسُولِ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ما رآهُ ببَصَرِهِ مِنْ صُورَةِ جِبريل.

{**أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى**} (النجم : ١٢)

١٢- أفتُكذِّبونَهُ وتُجادِلونَهُ على ما يَراهُ بعَينِه؟ وكانَ ذلكَ في مَبدَأ الوَحي.

{**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى**} (النجم : ١٣)

١٣- ولقدْ رأى النبيُّ صلى الله عليه وسلم جِبريلَ في صُورَتِهِ الحقيقيَّةِ مرَّةً أُخرَى، في ليلَةِ الإسرَاءِ والمِعرَاج.

{**عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى**} (النجم : ١٤)

١٤- عندَ سِدْرَةِ المنتهَى. "وهي في السَّماءِ السَّادِسَة، إليها يَنتَهي ما يُعرَجُ بهِ مِنَ الأرْض..."، كما في صَحيحِ مُسلم. ووَصفُها عَجيب.

{**عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى**} (النجم : ١٥)

١٥- وعندَ سِدرَةِ المنتهَى الجَنَّةُ التي يأوي إليها المؤمِنونَ المتَّقونَ يَومَ القِيامَة.

{**إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى**} (النجم : ١٦)

١٦- إذْ يُغَطِّي السِّدرَةَ ما يُغَطِّيها. قالَ الرسُولُ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلام: "غَشِيَها ألوانٌ لا أدري ما هيَ؟"، كما في صَحيحِ البُخاريّ.

{**مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى**} (النجم : ١٧)

١٧- ما مالَ بصَرُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم عنِ الحقِّ الذي رآه، وما ذهبَ يَمينًا ولا شِمالاً، وما تَجاوَزَ رؤيَتَه، فلمْ يَفعَلْ إلاّ ما أُمِرَ به. وما رآهُ مَشاهِدُ صَحيحَةٌ يَقينًا.

{**لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى**} (النجم : ١٨)

١٨- لقدْ رأى الرسُولُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ في ليلةِ المِعراجِ مِنْ آياتِ ربِّهِ العَظيمَةِ الدالَّةِ على قُدرَتِه.

{أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى} (النجم : ١٩)

١٩- أفرَأيتُمْ أيُّها المشرِكونَ هذهِ الأصْنامَ التي تَزعُمونَ أنَّها آلهة، وسمَّيتُموها "اللّات"، وكانتْ لثقيفٍ ومَنْ تابعَها. و"العُزَّى"، لقُرَيشٍ وغَطفَان.

{وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى} (النجم : ٢٠)

٢٠- والثَّالثَةُ هيَ "مَنَاة"، التي كانَ يُعَظِّمُها الأَوسُ والخَزرَجُ وخُزاعَة.

{أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى} (النجم : ٢١)

٢١- أتُحِبُّونَ لأنفُسِكُمُ الذُّكورَ مِنَ الأولاد، وتَجعَلونَ للهِ ما تَكرَهونَ مِنَ البَنات، فتَقولونَ إنَّ الملائكةَ بَناتُ الله؟ تَعالَى اللهُ عنْ ذلك.

{تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى} (النجم : ٢٢)

٢٢- فهذهِ قِسمَةٌ ظالِمَةٌ باطِلَة، أنْ تَجعَلوا للربِّ ما تَكرَهون، وتَجعَلوا لأنفُسِكمْ ما تُحِبُّون!

{إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى} (النجم : ٢٣)

٢٣- ما هذهِ الأصْنامُ إلاّ أسماءٌ فارِغَةٌ ليسَ لها أصلٌ مِنْ مَعنَى الأُلوهيَّة، جعَلتُموها أنتُمْ وآباؤكُمْ أسماءً دالَّةً على آلهَةٍ مِنْ تِلقاءِ أنفُسِكم، بمُقتضَى أهواءٍ زائغَة، ما أنزلَ اللهُ بها حُجَّةً ولا بُرهانًا تَتعَلَّقونَ به، وما يتَّبِعونَ في ذلكَ إلاّ توَهُّمًا باطِلاً، وهوًى في أنفُسِهم، ولقدْ جاءَهُمُ الرسُولُ محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم بالقُرآن، وهوَ الحقُّ المبِين، ومعَ ذلكَ لم يتَّبِعوه.

{أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى} (النجم : ٢٤)

٢٤- أمْ أنَّ لكلِّ إنسانٍ أنْ يتَمنَّى ما يَشتَهيهِ فيُحَصِّلَه؟ إنَّ وَهمَهُ وزَعمَهُ هذا لا يَنفَعُه، ولنْ يَنالَ الكافِرونَ شَفاعَةَ الآلهَةِ التي يَزعُمونَها في يَومِ القِيامَة، إذْ لا شَفاعةَ لها أصلاً،

{فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى} (النجم : ٢٥)

٢٥- فالأمرُ للهِ وَحدَهُ في اليَومِ الآخِر، وفي الحياةِ الدُّنيا، فهوَ مالِكُهما والمتصَـرِّفُ فيهما، ولا مَطمعَ لأحَدٍ في ذلك.

{وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى} (النجم : ٢٦)

٢٦- وما أكثرَ الملائكةَ في السَّـماوات، الذينَ لا تُفيدُ شَـفاعتُهمْ أحَدًا إلاّ بعدَ إذنِ اللهِ لهمْ بذلك، ولا يَكونُ هذا إلاّ لمنْ يُريدُ اللهُ ويَرضَـى بهِ لعِبادِه، مِنْ أهلِ الإيمَانِ والتَّوحيد. وهؤلاءِ مَلائكةٌ مُكرَمونَ عندَ الله، فكيفَ يَرجو المشرِكونَ شَفاعَةَ أصنامٍ نَهى اللهُ عنْ عِبادَتِها، وهيَ لا تُساوي عندَ اللهِ شَيئًا؟

{إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى} (النجم : ٢٧)

٢٧- إنَّ المشـرِكينَ الذينَ لا يؤمِنونَ بالمعادِ والجَزاء، يَقولونَ إنَّ الملائكةَ إنَاث، وأنَّها بَناتُ الله، تَعالَى اللهُ عنْ ذلك.

{وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً} (النجم: ٢٨)

٢٨- وهمْ ليسوا مُستَيقِنينَ مِنْ هذا الكَلام، فهلْ شَهِدوا خَلقَهمْ حتَّى يَقولوا ذلك؟ ما يتَّبِعونَ في مَقالِهِمْ هذا إلاّ ظنًّا ووَهمًا باطِلاً، ولا يَقومُ الظنُّ مَقامَ العِلم، ولا يُجدي عنِ الحقِّ شَيئًا.

{فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} (النجم : ٢٩)

٢٩- فأعرِضْ عنِ الذي تولَّى عنِ الإيمَانِ والقُرآن، واقتَصـرَتْ همَّتُهُ على طلَبِ الدُّنيا وحُطامِها الزَّائل.

{ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى} (النجم : ٣٠)

٣٠- فالسَّعيُ في طلَبِ الدُّنيا مُنتهَى عِلمِهم، وغايَةُ حِرصِهم، ولا يَعلَمونَ مِنَ العِلمِ المفيدِ شَيئًا يُذكَر، واللهُ عالِمٌ بمَنِ انحَرَفَ عنِ الحقِّ فضَلَّ وغوَى، وبمَنْ سلكَ نهجَ الصَّوابِ فاستَقامَ واهتدَى.

{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى} (النجم : ٣١)

٣١- وللهِ كُلُّ ما في السَّماواتِ والأرْض، خَلقًا، ومُلكًا، وتَدبيرًا، لا يُشارِكُهُ في ذلكَ أحَد، وليَجزيَ كُلَّ فَريقٍ بما يَستَحِقّ، فمَنْ أساءَ فلهُ السُّوءُ يُجزَى به، ومَنْ أحسنَ فلهُ المثوبَةُ الحُسنَى.

{الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} (النجم: ٣٢)

٣٢- ومِنْ صِفاتِ المحسِنينَ أنَّهم يَبتَعِدونَ عنِ الذُّنوبِ الكبيرَةَ التي تَستَحِقُّ العِقابَ القاسي، وعمَّا تَفاحَشَ عمَلُهُ واستُنكِر، إلاّ ما صَغُرَ مِنَ الذُّنوب. واللهُ عَظيمُ المغفِرَة، وَسِعَتْ رَحمَتُهُ كُلَّ شَيء، فيَغفِرُ لمنْ تابَ وأنَاب، ويَغفِرُ الصَّغائرَ إذا اجتُنِبَتِ الكبائر. واللهُ بَصيرٌ بكمْ وبأحوالِكمْ إذْ أنشأَ أصلَكمْ مِنَ الأرْضِ وكنتُمْ في عِلمِ الغَيب، وأنتُمْ في بُطونِ أُمَّهاتِكمْ لم تُولَدوا بعد، فلا تُثنُوا على أنفُسِكمْ ولا تُبرِئوها مِنَ الآثام، هوَ أعلَمُ بمَنْ أطاعَ وأخلصَ لهُ العمَل، واجتنبَ ما نَهى عنه.

ولا يُستَهانُ بالصَّغائر، وهذا تَذكيرٌ بحديثِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "إيَّاكمْ ومُحقَّراتِ الذُّنوب، فإنَّهنَّ يَجتَمِعْنَ على الرَّجُلِ حتَّى يُهْلِكْنَه". رواهُ أحمدُ بإسنادٍ صَحيح.

{أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى} (النجم : ٣٣)

٣٣- أفرأيتَ الذي أعرضَ عنِ اتِّباعِ الحقّ؟

{وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى} (النجم : ٣٤)

٣٤- وأعطَى صاحِبَهُ مالاً قَليلاً ثمَّ قطعَهُ عنهُ بُخلاً؟

{أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى} (النجم : ٣٥)

٣٥- هلْ عَلِمَ مِنَ الغَيبِ أنَّهُ سيَنتَهي ما عندَهُ مِنَ المالِ ولذلكَ أمسكَ عنِ الإنفاقِ؟

{أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى} (النجم : ٣٦)

٣٦- أمْ أنَّهُ لم يُخبَرْ بما في أسفارِ التَّوراةِ التي أنزلَها اللهُ على موسَى؟

{وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى} (النجم : ٣٧)

٣٧- وبما في صُــحُفِ إبراهيمَ عليهِ السَّــلام، الذي وفَّى بجَميعِ ما أمرَهُ اللهُ بهِ أتمَّ الوفاء، وبلَّغَ رسالَةَ ربِّهِ أتمَّ البَلاغ؟

{أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} (النجم : ٣٨)

٣٨- أنْ لا تَحمِلُ نَفسٌ إثمَ غَيرِها، ولا تَقدِرُ على أنْ تُلقيَ مِنْ آثامِها على آخَرين، ولا أنْ تُخَفِّفَ عنْ آخَرينَ بجَرِّ آثامِهِمْ إليها، بلْ كُلُّ نفسٍ مَقرونَةٌ بعمَلِها، مُحاسَبَةٌ عَليه.

ومَنْ أضلَّ آخَرين، فإنَّ ما يَقومونَ بهِ مِنْ أعمالٍ ضالَّةٍ استفادُوها مِنْ تَوجيهاتِهم، تُعتبَرُ أوزارًا لهمْ أيضًا، فإنَّ "مَنْ سَنَّ في الإسلامِ سُنَّةً سَيّئة، كانَ عَليهِ وِزْرُها ووِزْرُ مَنْ عَمِلَ بها مِنْ بَعدِه، مِنْ غَيرِ أنْ يَنقُصَ مِنْ أوزارِهِمْ شَــيء"، كما وردَ في الحديثِ الذي رَواهُ مُســلم. والكَسْــبُ لا يَكونُ باليَدِ فقط، بلْ بالفِكرِ والتَّوجيهِ أيضًا.

{وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى} (النجم : ٣٩)

٣٩- وأنْ ليسَ للإنسَانِ مِنَ الأجرِ إلاّ ما كسبَهُ هوَ لنَفسِه.

قالَ الحُسَينُ بنُ الفَضل: ليسَ لهُ بالعَدلِ إلاّ ما سعَى، ولهُ بالفَضلِ ما شاءَ اللهُ تعالَى.

ولعلَّ هذا الجوابَ يَحُلُّ إشــكالَ ما ذُكِرَ أنَّ الآيَةَ مَنســوخَةٌ بالآيَة: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ} [سورة الطور: ٢١].

{وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى} (النجم : ٤٠)

٤٠- وأنَّ ما عَمِلَهُ مِنْ خَيرٍ أو شَرٍّ سَوفَ يُكشَفُ لهُ ويُحاسَبُ عَليهِ يَومَ القيامَة.

{ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى} (النجم : ٤١)

٤١- ثمَّ يُجزَى على سَعيهِ الجزاءَ الكامِل، فلا يُنقَصُ مِنْ ثَوابِه، ولا يُزادُ في عِقابِه.

{وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى} (النجم : ٤٢)

٤٢- وأنَّ مُنتهَى الخَلقِ ومَصيرَهمْ يَكونُ إلى اللهِ تعالَى يَومَ المعاد.

{وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى} (النجم : ٤٣)

٤٣- وأنَّهُ تَعالَى أوجدَ في عِبادِهِ الضَّحِكَ والبُكاء، والسُّرورَ والحُزن، وأسبابَهما، وهُما مُختَلِفان.

{وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا} (النجم : ٤٤)

٤٤- وأنَّهُ سُــبحانَهُ خلقَ الموتَ والحياة، فأماتَ مَنْ أحياهُ في الدُّنيا، وأحيا مَنْ أماتَهُ يَومَ البَعث.

{وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى} (النجم : ٤٥)

٤٥- وأنَّهُ بقُدرَتِهِ خلقَ مِنْ نَوعِ الإنسَانِ وأنواعِ الحيَوانِ الزَّوجَين: الذَّكرَ والأُنثَى.

{مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى} (النجم : ٤٦)

٤٦- مِنْ نُطْفَةِ الذَّكَرِ إذا تدفَّقَتْ وصُبَّتْ في رَحِمِ الأُنثَى.

{وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى} (النجم : ٤٧)

٤٧- وأنَّ عليهِ سُبحانَهُ إعادَةَ الأحيَاءِ بعدَ الإماتَةِ يَومَ القِيامَة، وفاءً بوَعدِه.

{وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى} (النجم : ٤٨)

٤٨- وأنَّهُ تَعالَى أعطَى عِبادَهُ وملَّكَهمْ ما يُدَّخَرُ وما يُرضي مِنْ مَالٍ ومَتاع.

{وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى} (النجم : ٤٩)

٤٩- وأنَّهُ رَبُّ هذا الكَوكبِ النيِّر، المعروفِ بالشِّعْرَى. وكانتْ طائفَةٌ مِنَ العرَبِ تَعبدُه!

{وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى} (النجم : ٥٠)

٥٠- وأنَّهُ أهلكَ عادًا قَومَ هُود، بريحٍ قويَّةٍ عاتيَة؛ لتَكذيبِهمْ نبيَّهم. وهؤلاءِ الأُوَل، وكانَ لهمْ عَقِب.

{وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى} (النجم : ٥١)

٥١- وأهلكَ ثَمودَ قَومَ صالحٍ بالصَّيحَة، ولم يُبقِ مِنْ كفَّارِهمْ أحدًا.

{وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى} (النجم : ٥٢)

٥٢- وأغرقَ قَومَ نُوحٍ بالطُّوفانِ قَبلَ هؤلاء، وكانوا أظلمَ منهمْ وأشَدَّ تَمرُّدًا وتَمادِيًا في الكفرِ والضَّلالِ والفَساد، وقدْ عاشَ بينَهمْ نَبيُّهمْ ألفًا إلاّ خَمسينَ عامًا!

{وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى} (النجم : ٥٣)

٥٣- وأسقطَ مَدائنَ قَومِ لُوط، فجعَلَ أعاليَها أسافِلَها، فقدِ ائتفكتْ بأهلِها، أي انقلبَتْ بهم. وقدْ أثبتَتْ دراساتُ عُلومِ الأرضِ أنَّ طَبقاتِ الصُّخورِ في مِنطَقَةِ جَنوبِ البَحرِ الميِّتِ – مَوطِنِهمْ – مَقلوبَةٌ رأسًا على عَقِب.

{فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى} (النجم : ٥٤)

٥٤- فغطَّاها بما غطَّى مِنَ الحِجارَةِ التي أُرسِلَتْ على أهلِها.

{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكَ تَتَمَارَى} (النجم : ٥٥)

٥٥- فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكَ تُشَكِّكُ وتُجادِلُ أيُّها الإنسَان؟

{هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَى} (النجم : ٥٦)

٥٦- هذا محمَّدٌ رَسُولٌ مِنْ جنسِ الرسُلِ السَّابقين، أُرسِلَ إليكمْ كما أُرسِلوا إلى أقوامِهم.

{أَزِفَتْ الْآزِفَةُ} (النجم : ٥٧)

٥٧- اقترَبَتِ القِيامَةُ ودنَت.

{لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ} (النجم : ٥٨)

٥٨- لا أحدَ يَقدِرُ على أنْ يُظهِرَها غَيرُ الله. أو لا يَقدِرُ على أنْ يَرُدَّها عنِ الإنسَانِ إذا غَشيَتْهِمْ أهوالُها إلاّ هوَ سُبحانَه.

{أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ} (النجم : ٥٩)

٥٩- أفمِنْ هذا القُرآنِ تَعجَبونَ أنْ يَكونَ وَحيًا مِنَ الله؟

{وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ} (النجم : ٦٠)

٦٠- وتَستَهزِؤونَ بِهِ وأنتُمْ تَضحَكون، ولا تَبكونَ خَوفًا ممَّا فيهِ مِنَ الوَعيد؟

{وَأَنتُمْ سَامِدُونَ} (النجم : ٦١)

٦١- وأنتُمْ لاهونَ غافِلون، مُعرِضونَ عنهُ مُستَكبِرون؟

{فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا} (النجم : ٦٢)

٦٢- فاسجُدوا للهِ واخضَعوا له، وأخلِصوا لهُ الطَّاعَة.

روَى البخاريُّ عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عَنهما قال: سجدَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالنَّجم، وسجدَ معَهُ المسلِمونَ والمشرِكون، والجِنُّ والإنْس.

سورة القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ} (القمر : ١)

١- دَنا يَومُ القِيامَةِ وانشقَّ القمَرُ فِلقتَين. فانشِقاقُ القمَرِ مِنْ عَلاماتِ السَّاعَة.

في صَحيحِ البخاريّ وغيرِه، أنَّ أهلَ مكَّةَ سألوا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلمَ أنْ يُرِيَهمْ آيَة، فأراهمُ القمرَ شِقَّتَين، حتَّى رأَوا حِرَاءَ بينَهما.

وعندَما رأى المشرِكونَ ذلكَ قالوا: سحَرَنا محمَّد! فقالَ بَعضُهم: لئنْ كانَ سحرَنا ما يَستَطيعُ أنْ يَسحرَ النَّاسَ كُلَّهم. وقدْ روَى هذا الترمِذيُّ بإسنادٍ صَحيح.

وذكرَ ابنُ كثيرٍ أنَّ أحاديثَ انشِقاقِ القمَرِ مُتواتِرَةٌ بأسانيدَ صَحيحَة.

وقدْ كُشِفَ عنْ مَخطوطاتٍ وكتاباتٍ تاريخيَّةٍ قَديمَةٍ تؤرِّخُ لهذهِ المعجِزَةِ في غَيرِ بِلادِ المسلِمين.

والذينَ صعَدوا إلى القمرِ رأَوا آثارَ هذا الانشِقاقَ فيه، وقالوا إنَّهُ انشَقَّ منذُ زمَنٍ قَديمٍ إلى قِسمَينِ مُنفَصِلَينِ ثمَّ التَحما، بدَليلِ وجودِ شُقوقٍ صَخريَّةٍ مُتعَرِّجَةٍ وطَويلَةٍ تُمَزِّقُ القمرَ مِنْ سَطحِهِ إلى جَوفِه. وقدْ وُضِعَتْ أجهِزَةٌ خاصَّةٌ بالرَّصدِ الزِّلزاليِّ للتَّأكُّدِ مِنْ ذلك...

{وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ} (القمر : ٢)

٢- وإنْ يرَوا مُعجزَةً ودَليلاً مِنْ عندِ رَبِّهِمْ لا يأبَهونَ به، ولا يَعتَبِرونَهُ حُجَّةً وبُرهانًا على صِدقِ نَبيِّه، بلْ يَقولون: هذا سِحرٌ سحَرَنا بهِ محمَّدٌ (صلى الله عليه وسلم)، وأنَّهُ زائلٌ سيَضمَحِلُّ معَ الزَّمَن!

{وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ} (القمر : ٣)

٣- وكذَّبوا النبيَّ عليهِ الصّلاَةُ والسَّلامُ وما أيَّدَهُ اللهُ بهِ مِنَ المعجِزات، واتَّبَعوا أهواءَهمُ الباطِلَة، وأفكارَهمُ المنحَرِفَة. وكُلُّ أمرٍ مِنَ الأُمورِ يَنتَهي إلى غايَةٍ يَستَقِرُّ عَليها، وعندَئذٍ يَتبيَّنُ لكُلٍّ عاقِبَتُه، إنْ خَيرًا فخَير، وإنْ شَرًّا فشَرّ.

{وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الْأَنبَاء مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ} (القمر : ٤)

٤- ولقدْ جاءَهمْ في القُرآنِ مِنْ أخبَارِ القُرونِ الماضيَة، وقَصَصِ الأُمَمِ المكذِّبَةِ لرسُلِها وما حَلَّ بهمْ مِنَ العَذاب، ما فيهِ زَجرٌ لهمْ مِنَ التَّمادي في الكُفرِ والتَّكذِيب.

{حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ} (القمر : ٥)

٥- وأمرُ اللهِ مُحكَمٌ لا خلَلَ فيه، ولا يَضِلُّ عنْ هُداهُ إلاّ جاحِدٌ مُتعَنِّت، فأيُّ شَيءٍ تُغني الآياتُ والنُّذُرُ الواضِحَةُ عنْ شَقيٍّ عَنيد، وجاهِلٍ يَتَّبعُ هوَاه؟

{فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ} (القمر : ٦)

٦- فأعرِضْ عَنهمْ ولا تُبالِ بهمْ مادامُوا كذلك. يَومَ يُنادِي المنادِي ويَدعو إلى شَيءٍ مُنكَرٍ فَظيعٍ ومَهولٍ لا مَثيلَ له، هوَ يَومُ الجَزاءِ والحِساب، الشَّديدِ على الكافِرين.

{خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ} (القمر : ٧)

٧- ذَليلةً أبصارُهمْ مِنَ الخَوفِ والهَول، يَخرجُونَ مِنَ القُبورِ كأنَّهمْ جَرادٌ في كثرَتِهمْ وتموُّجِهم، وانتِشارِهمْ وسُرعَتِهم، وحَيرَتِهمْ وفزَعِهم.

{مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ} (القمر : ٨)

٨- مُسرِعينَ إلى مُنادِيهم، مُقبِلينَ عَليه، وقدْ شخَصَتْ أبصارُهمْ إلى السَّماء، يَقولُ الكافِرون: هذا يَومٌ صَعبٌ شَديد.

{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ} (القمر : ٩)

٩- كذَّبَ قَبلَ قَومِكَ أيُّها الرسُــــولُ، قَومُ نوح، أرسَـــــلناهُ إليهمْ ليُطيعوهُ ويَهتَدوا به، فكذَّبوا عَبدَنا نُوحًا وقالوا: هوَ مَجنون، وزجَروهُ وهدَّدوهُ إنْ لم يَنتهِ عنْ دَعوَتِهِمْ إلى التَّوحيد، وقالوا: {لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ}! [سورة الشعراء: ١١٦].

{فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ} (القمر : ١٠)

١٠- فلم يَستَجيبوا لدَعوَتِه، وقدْ بقيَ بينَهمْ ألفًا إلاّ خَمســينَ عامًا. ولما يَئِسَ مِنْ إيمانِهِمْ دعَا رَبَّهُ قائلاً: اللهمَّ إنِّي ضَعيفٌ مَقهور، لا أقوَى على مُقاوَمَتِهمْ والانتِقامِ منهم، فانتَقِمْ لدِينِك.

{فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ} (القمر : ١١)

١١- فأمَرنا السَّماءَ بأنْ يَتدَفَّقَ منها المطَرُ ويَنصَبَّ انصِبابًا شَديدًا.

{وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ} (القمر : ١٢)

١٢- وفجَّرنا يَنابيعَ الأرْضِ كُلَّها، فالتقَى ماءُ السَّماءِ وماءُ الأرْض، على أمرٍ قدَّرَهُ الله.

{وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ} (القمر : ١٣)

١٣- وحمَلنا نُوحًا على سَفينَةٍ كبيرَةٍ ذاتِ أخشابٍ عَريضَةٍ ومَساميرَ تُشَدُّ بها.

{تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ} (القمر : ١٤)

١٤- تَجري بمَرأىً منَّا وبحِفظِنا وتَيســيرِنا، جَزاءً لنبيِّنا نُوحٍ عَليهِ السَّــلام، الذي كفرَ بهِ قَومُه، وجحَدوا رسالةَ رَبِّهم.

{وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} (القمر : ١٥)

١٥- ولقدْ أبقَينا آثارَ السَّفينةِ عَلامَةً ودَليلاً على ما ذُكِر، فهلْ مِنْ مُتذَكِّرٍ ومُعتَبِر؟

ذكرَ المفسِّرونَ أنَّ أوائلَ هذهِ الأمَّةِ رأوا أخشابَها على جبلِ الجُوديّ.

وقدِ التُقِطَتْ صُورَةٌ لموقِعِ مَهبِطِ السَّفينَةِ على الجبَلِ بولايةِ شِرْناق في تُركيَّا منَ الفضَاء، وبدا فيها بقايا السَّفينَةِ المتحَجِّرَةِ واضِحةً. واللهُ أعلَم.

{فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ} (القمر : ١٦)

١٦- فكيفَ كانَ إنذَاري لهم، وعَذابيَ الذي أحاطَ بهِمْ فأهلكَهمْ جَميعًا؟

{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} (القمر : ١٧)

١٧- ولقدْ سهَّلنا القُرآنَ تِلاوةً، وحِفظًا، وتَفسيرًا، ليَتذكَّرَ الناسُ بهِ ويَعتَبِروا، فهلْ مِنْ مُتذَكِّرٍ به، ومُتَّعِظٍ بمَواعظِه، ومُعتَبِرٍ مِنْ أخبارِهِ ونذُرِه؟

{كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ} (القمر : ١٨)

١٨- كذَّبَتْ قَبيلَةُ عادٍ نبيَّها هُودًا، وأصرَّتْ على الكُفرِ والتَّكذيب، فانظُرْ كيفَ كانَ إنذَاري لهم، وعَذابيَ الشَّديدُ الذي أصابَهم.

{إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ} (القمر : ١٩)

١٩- لقدْ أرسَلنا عَليهمْ عاصِفَةً قَويَّةً شَديدَةَ الهُبوب، في يَومٍ نَكِدٍ مَشؤوم، استمرَّتْ حتَّى أُهلِكوا جَميعًا.

{تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ} (القمر : ٢٠)

٢٠- تَقْلَعُ النَّاسَ وتَرفَعُهمْ إلى أعلَى، ثمَّ تَرمي بهِمْ على رُؤوسِهم، فإذا همْ صَرعَى كأنَّهمْ بَقايا شَجرَةِ نَخلٍ مُنقَلِعَةٍ عنْ مَغارسِها، ساقِطَةٍ على الأرْض.

{فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ} (القمر : ٢١)

٢١- فكيفَ كانَ إنذاريَ الشَّديدُ لهم، وعَذابيَ الأليمُ الذي أصابَهم؟

{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} (القمر : ٢٢)

٢٢- ولقدْ سـهَّلنا القُرآنَ للنَّاس، ليَتذكَّروا بهِ ويَعتَبِروا، فهلْ مِنْ مُتَّعِظٍ بأخبارِهِ وقَصَـصِـه، ووَعيدِهِ ونذُرِه؟

{كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ} (القمر : ٢٣)

٢٣- وكذَّبَتْ قَبيلَةُ ثَمودَ بالإنذارِ الذي جاءَهمْ بهِ نبيُّهمْ صَالحٌ عليهِ السَّلام.

{فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ} (القمر : ٢٤)

٢٤- فقالوا: أنتَّبعُ رَجُلاً واحِدًا مِنْ بيننا، ونحنُ جَماعَة، ونُسَـلِّمُ لهُ قيادَنا وليسَ هوَ بمَلَكٍ ولا مَلِك؟ إنْ فعَلنا ذلكَ فنحنُ في خَطأ وضَلال، وعَناءٍ وشِدَّةٍ لِما يَلزَمُنا مِنْ طاعَتِه.

{أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ} (القمر : ٢٥)

٢٥- قالُوا: أأُنزِلَ الوَحيُ على صَـالحٍ مِنْ دونِنا، وفينا مَنْ هوَ أحَقُّ منهُ بذلك؟ بلْ هوَ كذَّابٌ مُتَكبِّر، يَتعاظَمُ عَلينا بادِّعاءِ النبوَّة.

{سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ} (القمر : ٢٦)

٢٦- سيَعلَمونَ غَدًا عندَما يَنزِلُ بهمُ العَذابُ مَنْ هوَ الكذَّابُ المتكبِّر، صَالحٌ أمْ مَنْ كذَّبوه.

{إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ} (القمر : ٢٧)

٢٧- إنَّا مُخرِجُو النَّاقَةِ التي سَـألوها مِنَ الهضَـبَةِ وباعِثوها اختِبارًا وامتِحانًا لهم، فانتَظِرْ ما يَصنَعون، واصبِرْ عَليهِمْ ولا تَعجَل.

{وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاء قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ} (القمر : ٢٨)

٢٨- وأخبِرْهمْ أنَّ الماءَ مُقسَّمٌ بينَهمْ وبينَ النَّاقَة، يَومٌ لهمْ ويَومٌ لها، كلُّ نَصيبٍ مِنَ الماءِ يَحضرُهُ مَنْ كانتْ نَوبَتُه.

{فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ} (القمر : ٢٩)

٢٩- فلمْ يَصبِروا، وبارَزوا نبيَّهمْ بالعِصيان، ونادَوا أشقَى رَجُلٍ فيهم، فاجترَأ وأقدَمَ على عَقرِ النَّاقَة.

{فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ} (القمر : ٣٠)

٣٠- فكيفَ كانَ إنذاريَ الشَّديدُ لهم، وعَذابيَ الأليمُ الذي أحاطَ بهم؟

{إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ} (القمر : ٣١)

٣١- لقدْ أرسَلنا عليهمْ صَيحَةً واحدَة، قويَّةً شَديدَة، فأُهلِكوا جَميعًا، وصَاروا كالشجَرِ أو النَّباتِ اليابسِ المتفَتِّت، الذي تَطَؤهُ الماشيَةُ في حَظائرِها.

{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} (القمر : ٣٢)

٣٢- ولقدْ سهَّلنا القُرآنَ للنَّاس، ليَتذكَّروا بهِ ويَعتَبِروا، فهلْ مِنْ مُتذَكِّرٍ به، ومُعتَبِرٍ مِنْ قَصَصِهِ وأخبارِه، ووَعدِهِ ووَعيدِه؟

{كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ} (القمر : ٣٣)

٣٣- كذَّبَ قَومُ لُوطٍ رسُولَهم، ومَنْ كذَّبَ رسُولاً فقدْ كذَّبَ الرسُلَ أجمَعين.

{إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ} (القمر : ٣٤)

٣٤- ولما لم يَنتَهوا مِنَ الفاحِشَة، وأصَرُّوا على إتيانِ الذُّكورِ دونَ ما خلقَهُ اللهُ لهمْ مِنَ الإنَاث، عاقَبناهم، فدمَّرنا مُدُنَهم، وأرسَلنا عليهمْ حِجارَة، أو حَصباءَ يُحصَبونَ بها، إلاّ آلَ لوطٍ مِنَ المؤمِنين، فقدْ أنقَذناهمْ مِنَ العَذابِ آخِرَ اللَّيل.

{نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ} (القمر : ٣٥)

٣٥- إنعامًا منَّا عَليهم، كذلكَ نَجزي مَنْ شكرَ نِعمتَنا، وأطاعَ فاستَقام.

{وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ} (القمر : ٣٦)

٣٦- ولقدْ خوَّفَهمْ نبيُّهمْ لُوطٌ عُقوبتَنا الشَّديدَةَ قَبلَ أنْ تَحِلَّ بهم، فشَكُّوا في ذلك، وكذَّبوا إنذَاري ووَعيدي.

{وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ} (القمر : ٣٧)

٣٧- ولقدْ طلَبوا أنْ يَفجُروا بأضيَافِ نبيِّهمْ - وكانوا مَلائكةً، جَاؤوا إليهِ في صُورَةِ شَباب - فطمَسنا أعيُنَهمْ وسوَّيناها كسائرِ الوَجه، فذوقُوا ما أُنذِرْتُمْ بهِ مِنَ العَذاب.

{وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ} (القمر : ٣٨)

٣٨- ولقدْ جاءَهمْ أوَّلَ النَّهارِ عَذابٌ دامَ فيهمْ حتَّى أبادَهمْ عنْ آخرِهم، أو أنَّهُ دامَ فيهمْ حتَّى يُفضَى بهمْ إلى عَذابِ الآخِرَة.

{فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ} (القمر : ٣٩)

٣٩- فذُوقوا ما أنذرَكمْ بهِ نبيُّكمْ لُوطٌ مِنَ العُقوبَةِ والعَذاب.

{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} (القمر : ٤٠)

٤٠- ولقدْ سهَّلنا القُرآنَ للنَّاس، ليَتذكَّروا بهِ ويَتَّعِظوا، ويَعتَبِروا مِنْ قَصَصِهِ وأخبارِه، ووَعدِهِ ووَعيدِه، فهلْ مِنْ مُتذَكِّرٍ ومُعتَبِر؟

{وَلَقَدْ جَاء آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ} (القمر : ٤١)

٤١- ولقدْ جاءَتِ النُّذُرُ بالعُقوباتِ فِرعونَ وقَومَه.

{كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ} (القمر : ٤٢)

٤٢- فكذَّبوا بالمعجِزاتِ التي أيَّدنا بها موسَى كُلِّها، وأصَرُّوا على كُفرِهم، فعاقَبناهم، وأخَذناهمْ أخذَ قَويٍّ قادرٍ على إهلاكِهِمْ وإبادَتِهم.

{أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ} (القمر : ٤٣)

٤٣- أكفَّارُكمْ - يا مُشرِكي قُرَيشٍ - أفضَلُ مِنَ الكفَّارِ السَّابقِين، وأشَدُّ منهمْ قوَّةً وأكثَرُ عَددًا، أمْ أنَّ معَكمْ بَراءَةً مِنَ العَذابِ في الكتُبِ السَّماويَّة، ولذلكَ أنتُمْ خائضُونَ في الكُفرِ والمعاصي؟

{أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ} (القمر : ٤٤)

٤٤- أمْ أنَّهمْ واثِقونَ مِنْ قوَّتِهِمْ في جَمعِهم، ويَظنُّونَ أنَّهمْ بهذا مُنتَصِرونَ لا يُغلَبون؟

{سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ} (القمر : ٤٥)

٤٥- بلْ ستُهزَمُ جُموعُهمْ ويُوَلُّونَ الأدْبار.

وحدثَ هذا يَومَ بَدر، وقدْ خرجَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلى المشرِكينَ وهوَ يَتلو هذهِ الآيَة، وانتصرَ المسلِمون، وهُزِمَ أعداؤهمْ شرَّ هَزيمَة، وكانوا أكثرَ منهم.

{بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ} (القمر : ٤٦)

٤٦- بلْ إنَّ أمامَهمْ عُقوبةً أكبَر، فمَوعدُهمُ يَومُ القِيامة، حيثُ الحِسابُ والجَزاء، والقِيامَةُ أعظَمُ داهيةً وبليَّة، وأشَدُّ مَرارةً مِنَ القَتلِ والأسْر.

{إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ} (القمر : ٤٧)

٤٧- إنَّ الكافِرينَ المجرِمينَ في ضَلالٍ وبُعدٍ عنِ الحقِّ في الدُّنيا، وفي نِيرانٍ مُسعَرَةٍ في الآخِرَة.

{يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ} (القمر : ٤٨)

٤٨- يَومَ يُجَرُّونَ في النَّارِ على وجُوهِهم، ويُقالُ تَوبيخًا لهم: ذُوقوا ألَمَ العَذابِ وشِـــدَّتَهُ في جهنَّم.

{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} (القمر : ٤٩)

٤٩- إنَّ كلَّ شَيءٍ خَلقناهُ كانَ مُقدَّرًا مَكتوبًا في اللَّوحِ المحفوظِ قَبلَ وقوعِه.

{وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} (القمر : ٥٠)

٥٠- وما شَأنُنا – إذا أرَدنا شَيئًا – إلاّ الأمرُ بهِ مرَّةً واحدَة، فيَكونُ حاصِلاً كلَمحِ البصَر، لا يَتأخَّرُ عنْ ذلكَ طَرْفَةَ عَين.

{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} (القمر : ٥١)

٥١- ولقدْ أهلَكنا أمثالَكمْ – يا مُشـرِكي قُرَيشٍ – مِنَ الكافِرينَ المكذِّبينَ في الأُمَمِ السَّـابقة، فهلْ مِنْ مُتذَكِّرٍ ومُعتَبِرٍ بهم؟

{وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ} (القمر : ٥٢)

٥٢- وكُلُّ شَيءٍ فعَلوهُ مِنَ الكُفرِ والمعاصي مَكتوبٌ في صُحُفِ أعمالِهم، التي أحصَاها عليهِمْ ودوَّنَها الحَفَظَةُ مِنَ الملائكة.

{وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ} (القمر : ٥٣)

٥٣- وكُلُّ عمَلٍ صَغيرٍ وكبيرٍ مَسطورٌ بتَفاصيلِهِ ومُثبَتٌ في اللَّوحِ المحفُوظ.

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ} (القمر : ٥٤)

٥٤- إنَّ عِبادَ اللهِ المؤمنين، الذينَ اتَّقَوا عِقابَ اللهِ بطاعَته، في جَنَّاتٍ عاليَات، وأنهارٍ جاريَات، مِنْ مَاء، وخَمر، ولبَن، وعسَل.

{فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ} (القمر : ٥٥)

٥٥- في دارِ كرامَة، ومَكانٍ مَرْضِيّ، ومَجلِسِ حَقٍّ لا لغوٌ فيهِ ولا تأثيم، عندَ مَلِكٍ قادرٍ عَظيم، لا يُعجِزُهُ أمرٌ مِنَ الأمُور.

سورة الرحمن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{الرَّحْمَنُ} (الرحمن : ١)

١- اللهُ تَعالَى ذو الرَّحمَةِ العَظيمَة،

{عَلَّمَ الْقُرْآنَ} (الرحمن : ٢)

٢- يسَّرَ القُرآنَ للتِّلاوَةِ والحِفظ، والفَهمِ والتدَبُّر.

{خَلَقَ الْإِنسَانَ} (الرحمن : ٣)

٣- خَلقَ الإنسان، أصلَهُ مِنْ تُراب، ونَسلَهُ مِنْ نُطفَة.

{عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} (الرحمن : ٤)

٤- علَّمَهُ النُّطقَ والتَّعبير، والإفصاحَ والتَّبيين.

{الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ} (الرحمن : ٥)

٥- الشَّمسُ والقمَرُ يَجريانِ بِحِسابٍ مُقدَّرٍ دَقيق.

{وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ} (الرحمن : ٦)

٦- والنَّجمُ في السَّماء، والشجَرُ في الأرْض، يَسجُدانِ لله، بكيفيَّةٍ لا نَعلَمُها، ويَنقادانِ لأمرِهِ فيما يُريدُ منهما.

{وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ} (الرحمن : ٧)

٧- والسَّماءَ رفعَها فَوقَ الأرْضِ بلا عَمَد، وشَرَعَ العَدلَ وأمرَ به، حتَّى لا تَختلَّ الأُمور، ولا تُهدَرَ الحقُوق.

{أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ} (الرحمن : ٨)

٨- وأمرَ ألاَّ تَتجاوَزوا العَدل، ولا تَظلِموا.

{وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ} (الرحمن : ٩)

٩- وأقيموا لِسانَ الميزَانِ بالعَدلِ عندَ البَيعِ والشِّراء، ولا تَنقُصوا الميزانَ بالكَيلِ والوَزن.

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ) (الرحمن : ١٠)

١٠- والأرْضَ مهَّدَها وبسَطَها ليَعيشَ فيها الخَلق.

{فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ} (الرحمن : ١١)

١١- فيها أنواعُ الفاكِهَةِ ذاتُ الطُّعومِ والألوَانِ المختَلِفَة، والنَّخلُ ذاتُ أوعيَةِ الطَّلْع، التي تَحمِلُ الثَّمَر.

{وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ} (الرحمن : ١٢)

١٢- والحُبوبُ التي يُقتاتُ بها ويُتغذَّى منها، ذاتُ الورَقِ الذي يَتحوَّلُ إلى علَفٍ للحيَوانات. وفيها الرِّزقُ الطيِّب.

{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن : ١٣)

١٣- فبأيِّ نِعَمِ اللهِ الظاهِرَةِ عَليكما تُكذِّبانِ أيُّها الثَّقَلانِ مِنَ الجِنِّ والإنس، الدِّينيَّةِ منها والدُّنيَويَّة؟ إنَّكما لا تَستَطيعانِ أنْ تَجحَداها، ولا أنْ تَستَغنيا عَنها.

{خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ} (الرحمن : ١٤)

١٤- خلقَ أصلَ الإنسانِ مِنْ طِينٍ يابسٍ كالفخَّار. وهوَ ما أُحرِقَ مِنَ الطِّينِ حتَّى تَحجَّر، إذا نقَرْتَهُ سَمِعتَ لهُ صَلصَلَة.

قالَ صاحبُ "روحِ المعاني": خلقَ اللهُ تَعالَى آدمَ عَليهِ السَّلامُ مِنْ تُراب، جعلَهُ طينًا، ثمَّ حَمَأً مَسنُونًا، ثمَّ صَلصَالاً، فلا تَنافيَ بينَ الآيَةِ النَّاطِقَةِ بأحَدِها، وبينَ ما نطقَ بأحَدِ الآخَرين.

{وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ} (الرحمن : ١٥)

١٥- وخلقَ الجِنَّ مِنْ لهَبِ نارٍ خالِصٍ شَديدَةِ الحرارَة.

{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن : ١٦)

١٦- فبأيِّ نِعَمِ اللهِ تُكذِّبانِ أيُّها الثَّقلان، وقدْ أنعمَ عَليكما في خَلقِكما؛ أصلِكما وتَكوينِكما وهَيئتِكما؟

{رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ} (الرحمن : ١٧)

١٧- رَبُّ المشرِقَينِ: مَشرِقِ الصَّيفِ ومَشرِقِ الشِّتاء، ورَبُّ المغرِبَين: مَغرِبِ الصَّيفِ ومَغرِبِ الشِّتاء، حيثُ اختِلافُ مواضعِ طُلوعِ الشَّمسِ فيهما.

{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن : ١٨)

١٨- فبأيّ نِعَمِ اللهِ تُكذِّبانِ أيُّها الجِنُّ والإنْس؟ فإنَّهُ يَترتَّبُ على طُلوعِ الشَّمسِ وغُروبِها وتَنقُّلِها في المواضعِ فَوائدُ عَظيمَةٌ للأحيَاء، ولمصلحَةِ الإنسانِ ومَعيشَتِهِ خاصَّة.

{مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ} (الرحمن : ١٩)

١٩- اللهُ الذي أجرَى كِلا البَحرَينِ وأرسلَهما في مَجرَيَيهما فيَلتَقيان،

{بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ} (الرحمن : ٢٠)

٢٠- وجعلَ بينَهما حاجِزًا مائيًّا يَمنَعُ اختِلاطَ هذا بذاك، فلا يَطغَى ماءُ هذا على ماءِ هذا ولا يَدخلُ فيه. وهذا الحاجِزُ يَكونُ في حالةِ مُروجٍ وذَهابٍ وإياب. ولكلِّ بَحرٍ دَرجَةُ كثافَةٍ مُعيَّنة، ودَرجَةُ مُلوحَةٍ لا تَزيدُ ولا تَنقُص، ولهُ لونٌ لا يَتغيَّر... مثلُ اختِلاطِ ماءِ البَحرِ الأحمَرِ بالمحيطِ الهنديّ، والبَحرِ الأبيَضِ بالبَحرِ الأسوَد، وبالمحيطِ الأطلسيّ (في مَضيقِ جبلِ طارق).

{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن : ٢١)

٢١- فبأيِّ نِعَمِ اللهِ تُكذِّبانِ يا مَعشَرَ الجِنِّ والإنس، وفي اختِلاطِ البَحرَينِ لا يَعتَدي العَذْبُ منهُ على وَظيفَةِ المالح، ولا المالحُ منهُ على المالحِ مِنْ بَحرٍ آخَر، ولا تَدخلُ أسماكُ هذا في ذَاك. وفي ذلكَ مَنافعُ ومَصالحُ لكم؟

{يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ} (الرحمن : ٢٢)

٢٢- ويَخرُجُ مِنَ البَحرَينِ المالحَينِ اللُّؤلؤ، الذي تُفرِزُهُ بَعضُ الرَّخَويَّاتِ المحاريَّة، ويَكونُ في صدَفِهِ بأعمَاقِ البِحار. وهوَ أشكالٌ وأنواعٌ مُختَلِفَة، تبَعًا لنَوعِ الحيَوانِ الرَّخو، وأحسَنُها الأبيض، وأعلاها الأسود، النَّادرُ جِدًّا.

والمرجان، الذي يَكونُ في أعمَاقِ البِحارِ كذلك، ويَلتَصِقُ بصَخرٍ أو عُشب، وقدْ يَكونُ مُستَعمرَة، أو حاجِزًا مَرجانيًّا، ويَكونُ أشكالاً وألوانًا نادرَةً وجَميلةً رائعَة.

{**فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**} (الرحمن : ٢٣)

٢٣- فبأيّ نِعَمِ اللهِ تُكذِّبانِ يا مَعشرَ الإنسِ والجانّ، وأنتُما ترَيانِ قُدرَةَ اللهِ في هذينِ الصِّنفَينِ مِنَ المخلوقَات، اللَّذينِ يُتَّخَذُ منهما الحُليُّ والجواهِرُ الغاليةُ الثَّمن، ويُتَزَيَّنُ ويُتاجَرُ بهما؟

{**وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ**} (الرحمن : ٢٤)

٢٤- وللهِ السُّفُنُ الجاريَاتُ في البَحر، المرفوعَاتُ كالجِبال، مثلُ سفُنِ الشَّحنِ والبَواخرِ والأسَاطيل، فلهُ هذا، ولهُ سُبحانَهُ مُلكُ السَّماواتِ والأرْض، وهوَ المتصرِّفُ فيهما.

{**فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**} (الرحمن : ٢٥)

٢٥- فبأيّ نِعَمِ اللهِ تُكذِّبانِ أيُّها الثَّقلان، وقدْ سخَّرَ البَحرَ لتَجريَ عليهِ السُّفُنُ بقُدرَتِه، فتسهُلُ حركةُ النَّقلِ للبَحثِ عنِ الرِّزقِ وغَيرِه؟

{**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**} (الرحمن : ٢٦)

٢٦- كُلُّ مَنْ على الأرْضِ مِنَ المخلوقاتِ هالِكٌ ميِّت.

{**وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**} (الرحمن : ٢٧)

٢٧- ويَبقَى اللهُ وحدَه، فهوَ الحيُّ الذي لا يَموت، العَظيمُ المنفَرِدُ بالجَلالِ والكبرياء، ذو الإنعامِ والإكرام.

{**فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**} (الرحمن : ٢٨)

٢٨- فبأيّ نِعَمِ اللهِ وقُدرَتِهِ تَجحَدانِ أيُّها الثَّقلان، وقدْ خلقَ فيكما بَذرَةَ الموتِ جَميعًا، ولم يَجعَلْ هِبةَ الحياةِ بأيديكُما، ولم يَمنَحْكما التحَكُّمَ في مَصيرِ بَعضِكما البَعض، ولا الخُلودَ في هذهِ الحياةِ الدُّنيا؛ لئلاَّ تَطغَيا، ولتُجزَيا على أعمالِكما في حياةٍ أبديَّةٍ آتيَة جَزاءً عادِلاً؟

{**يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**} (الرحمن : ٢٩)

٢٩- يَسـألُهُ كُلُّ مَنْ في السَّـماواتِ والأرْض، بلِسـانِ الحالِ أو بلِسـانِ المقال، فالجَميعُ مُفتَقِرٌ إليه، وهوَ سُـــبحانَهُ كُلَّ يَومٍ في أمر، فهوَ مُدبِّرُ الكونِ والمتِصَـــرِّفُ فيه، يُحيي ويُميت، ويَرزُقُ ويَمنَع، ويَنصُرُ ويَخذُل، ويأتي بأحوَالٍ ويَذهَبُ بأحوَال...

{فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن : ٣٠)

٣٠- فبأيِّ نِعَمِ اللهِ تُكذِّبانِ أيُّها الثَّقلانِ وأنتُما تَعيشـانِ في آلائهِ صَـباحَ مَسـاء؟ فهوَ يَرزُق، ويُجيب، ويَشفي، ويَكشِف، ويَغفِر، ويَحلُم، ويَنتَقِم، ويَرحَم...

{سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ} (الرحمن : ٣١)

٣١- سيأتي اليَومُ الذي نُحاسبُكمْ فيهِ على أعمالِكمْ يا مَعشرَ الجِنِّ والإنس.

{فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن : ٣٢)

٣٢- فبأيِّ نِعَمِ اللهِ تُكذِّبان، وقدْ وعدَ مُحسِـنَكما بالمثِوبَةِ الحُسـنَى والإكرَام، وأوعدَ ظالمِكما ومُسيئَكما بالعَذابِ والنِّيران؟

{يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} (الرحمن : ٣٣)

٣٣- يا مَعشَـــرَ الجِنِّ والإنس، إذا قَدَرتُمْ على أنْ تَجوزُوا وتَخرُجوا مِنْ جَوانبِ السَّـــماواتِ والأرْضِ وأطرَافِهما، فاخرُجوا منهما، ولكنَّكمْ لا تَسـتَطيعونَ ذلكَ إلاّ بعِلمٍ وقوَّةٍ مؤيَّدَةٍ مِنْ عندِ اللهِ وإذنٍ منه، فهوَ مالكُهما والمتِصـــرِّفُ فيهما، وأينَما ذَهبتُمْ أو اختفَيتُمْ فأنتُمْ في مُلكِهِ وتحتَ حُكمِهِ وسَيطرَتِه.

ولفائدَةٍ علميَّة، فإنَّ السَّـماءَ ليسَـتْ فَراغًا، بلْ هيَ مَليئةٌ بالموادِّ الغازيَّة، وبَعضِ الموادِّ الصُّـلبة، وكميَّاتٍ هائلةٍ مِنَ الإشـعاعاتِ الكونيَّة بمُختَلفِ أنوَاعِها، مثلِ الأشعَّةِ تحتِ الحمراء، والأشـعَّةِ السِّـينيَّة، وأشـعَّةِ جاما. فالسَّـماءُ بِناءٌ مُحكَمٌ مَملوءٌ بالمادَّةِ والطَّاقَة، ولا يُمكنُ اختِراقُهُ إلاّ عنْ طَريقِ أبوابٍ تُفتَحُ فيه.

والغِلافُ الجويُّ الذي يُحيطُ بالأرْضِ فيهِ أبوابٌ خاصَّةٌ كذلك، والمرْكباتُ الفَضائيَّةُ إذا أرادَتْ أنْ تَخرُجَ مِنْ هذا الغِلاف، فإنَّ عَليها أنْ تَسلُكَ طَرِيقًا مُحدَّدًا ودَقيقًا، وتأخُذَ مَسارًا مُعيَّنًا لتَستَطيعَ أنْ تَنفُذَ مِنْ نِطاقِ الجاذبيَّةِ الأرضيَّةِ إلى الفَضاءِ الخارجيّ، وإلاّ فإنَّها ستَحترِقُ في الفَضاء. وأثناءَ عَودَتِها أيضًا عَليها أنْ تَسلُكَ مَسارًا مُعيَّنًا لتَدخُلَ الغِلافَ الجويّ، وإلاَّ فإنَّها ستَبقَى في الفَضاءِ الخارجيّ، أو تَحتَرِق.

ثمَّ إنَّ النَّفاذَ المطلَقَ للإنسِ والجِنِّ مِنْ هذهِ الجَوانب، التي تَبلغُ ملايينَ السنينَ الضَّوئيَّة، مُستَحيل.

{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن : ٣٤)

٣٤- فبأيِّ نِعَمِ اللهِ تُكذِّبانِ يا مَعشَرَ الجِنِّ والإنس، وأنتُما تَعلَمانِ قُدرَةَ اللهِ وعَظمَتَهُ مِنْ عظَمةِ خَلقِهِ وإحكامِه، وما فيهِ مِنْ نَواميسَ ومَوازينَ وتَناسُق؟ فأطيعَاه، فلا مَلجأ لكما منهُ إلاّ إليه.

{يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ} (الرحمن : ٣٥)

٣٥- فمَنْ حاولَ منكما أنْ يَنفُذَ منهُما، فإنَّ اللهَ يُرسِلُ عَليهِ لهَبًا مِنْ نار، ونُحاسًا مُذابًا، كما يُرسِلُ الشُّهبَ على الجِنِّ الذينَ يُريدونَ أنْ يَستَمِعوا إلى الملائكة. فلا تستَطيعانِ أنْ تَهرُبا مِنْ حُكمِ اللهِ وسُلطانِه، ولا أنْ تَمتَنِعا مِنْ عَذابِه.

{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن : ٣٦)

٣٦- فبأيِّ نِعَمِ اللهِ تُكذِّبانِ يا مَعشَرَ الجِنِّ والإنس، وأنتُما تحتَ قَهرِهِ وسُلطانِه، ولا خَلاصَ لكما مِنْ أمرِه، ولا بُدَّ لكما مِنَ الموت، ثمَّ الحِسابِ والجَزاء، ولا يَبقَى مَظلومٌ إلاَّ ويأخذُ حقَّه، ولا مؤمِنٌ إلاَّ ويُثاب، ولا كافِرٌ إلاّ ويُعاقَب، تَحقيقًا للحقّ، وحُكمًا بالعَدل؟

{فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ} (الرحمن : ٣٧)

٣٧- فإذا انصدَعتِ السَّماءُ يَومَ القِيامةِ فكانتْ كالوردَةِ في لونِها، أو في لونِ الجِلدِ الأحمَر.

{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن : ٣٨)

٣٨- فأيَّ نِعَمِ اللهِ تَجحَدانِ أيُّها الثَّقلان، وأمرُهُ كائنٌ لا بُدّ، وفي القِيامَةِ أحوالٌ وأهوال، وقدْ أنذرَكما اللهُ منها؟

{فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ} (الرحمن : ٣٩)

٣٩- ففي ذلكَ اليَومِ المخوفِ لا يُسـألُ المجرِمونَ منَ الإنسِ والجِنّ عنْ ذُنوبِهِم، وهمْ على أبوابِ جهنَّم، فقدْ عرَفَ كُلٌّ عملَهُ ومَصيرَه، فيُقادُونَ إليها ويُقذَفونَ فيها.

{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن : ٤٠)

٤٠- فبأيِّ نِعَمِ اللهِ تُكذِّبانِ أيُّها الثَّقلان، وقدْ قدَّمَ لكما في الدُّنيا وحذَّرَكما، حتَّى لا تَلقَيا مَصيرَ المذنِبينَ المكذِّبين؟

{يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ} (الرحمن : ٤١)

٤١- يُعرَفُ الكافِرونَ المجرِمونَ بعَلاماتٍ تَظهَرُ عَليهم، منَ الخَوفِ والهلَع، والحُزنِ والكآبَة، فيؤخَذُ بمَقدَمِ رؤوسِهمْ وأقدامِهمْ ويُقذَفونَ في النَّار.

{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن : ٤٢)

٤٢- فأيَّ نِعَمِ اللهِ تَجحَدان، يا مَعشرَ الإنسِ والجانّ، وفي هذا ما يُخوِّفُكما ويُروِّعُكما، لتَنزَجِرا عنِ اقترافِ الجرَائمِ والآثام، إنْ كنتُما مِنْ أهلِ الألبَابِ والأحْلام؟

{هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ} (الرحمن : ٤٣)

٤٣- هذهِ هيَ جهنَّمُ التي تُسعَرُ فيها النِّيران، وقدْ كانَ المشـركونَ يُكذِّبونَ بها في الدُّنيا، ويَقولونَ لا حِسابَ ولا نيرَانَ بعدَ الموت، فها هيَ ذي فذوقُوها، لتَتأكَّدوا أنَّها عَذابٌ حَقيقيٌّ وليسَ بخَيال.

{يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ} (الرحمن : ٤٤)

٤٤- يَترَدَّدونَ بينَ نارِها فيُعذَّبونَ فيها، وبينَ مائها الشَّديدِ الحرارَةِ فيُسقَونَ منه.

{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن : ٤٥)

٤٥- فبأيِّ نِعَمِ اللهِ وآلائهِ تُكذِّبانِ أيُّها الثَّقلان، وقدْ أبلغَ في إنذارِكما، وحذَّركما مِنَ العَذابِ الشَّديدِ حتَّى لا يَبقَى لكما عُذر، وصرَّفَ لكمَا الآياتِ لتَتذَكَّرا وتَعتَبِرا، وتُؤمِنا وتَتوبا؟

{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} (الرحمن : ٤٦)

٤٦- ولمِنْ خافَ وقوفَهُ بينَ يَدي اللهِ يَومَ الحِساب وعمِلَ صالحًا، جنَّتان، يَهنأُ فيهما ويَنعَم، ويَسعَدُ ويَخلُد.

قالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "جَنَّتانِ مِنْ فِضَّة: آنيَتُهما وما فيهما، وجنَّتانِ مِنْ ذهَب: آنيَتُهما وما فيهما". رواهُ الشَّيخان. والمقصودُ ما ذُكِرَ في هذهِ الآية، والآيةِ (٦٢) مِنْ هذهِ السُّورة: {وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ}، فهما دونَ الجنَّتينِ الوَارِدِ ذكرُهما في هذهِ الآية.

{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن : ٤٧)

٤٧- فبأيِّ نِعَمِ اللهِ تَجحدان يا مَعشَرَ الإنسِ والجانّ، وقدْ أمرَكما بالتَّقوَى، وحذَّركما منَ العِصيان، ورغَّبَكما في الجِنان؟

{ذَوَاتَا أَفْنَانٍ} (الرحمن : ٤٨)

٤٨- والجنَّتانِ كبيرَتانِ واسِعتان، ذَواتا أشجارٍ وأغصانٍ نَضِرَةٍ حِسَان، وثِمارٍ ناضِجَةٍ شَهيَّة.

{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن : ٤٩)

٤٩- فبأيِّ نِعَمِ اللهِ وآلائهِ تُكذِّبانِ أيُّها الثَّقلان، وقدْ أعدَّ لمحسنِكما في الآخِرَةِ ما لا يَخطُرُ على البَال، مِنَ الحُسنِ والجَمال، واللَّذَّةِ والنَّعيم، والسَّعادَةِ الدَّائمة؟

{فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ} (الرحمن : ٥٠)

٥٠- في كُلِّ جنَّةٍ منهما عَينٌ جاريَةٌ مِنَ الماءِ الزُّلال.

{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن : ٥١)

٥١- فبأيِّ نِعمَةٍ مِنْ نِعَمِ اللهِ تَجحَدانِ أيُّها الإنسُ والجانّ، وقدْ أكرمَ مؤمِنَكما بما يُبهِجُ نُفوسَـــهما ويَزيدُ مِنْ سَـــعادَتِهما، مِنْ بَســـاتينَ وعُيونٍ مُتفَجِّرَةٍ، وحُورٍ عِين، وفواكهَ ممَّا يَشتَهون...جَزاءً لهما وثَوابًا مِنْ عندِ اللهِ على إيمانِهما وطاعَتِهما في الدُّنيا؟

{فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ} (الرحمن : ٥٢)

٥٢- وفي كُلِّ جنَّةٍ مِنَ الجَنَّتَينِ صِنفانِ مِنَ الفاكِهة، مِنْ جَميعِ أنوَاعِها.

{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن : ٥٣)

٥٣- فبأيِّ نِعمَةٍ مِنْ نِعَمِ ربِّكما تُكذِّبانِ أيُّها الثَّقلان، وقدْ هيَّأ لمحسـِـنِكما في الجنَّةِ مِنَ الفَواكهِ والطَّعام، ما لا عَينٌ رَأت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خطرَ على قَلبِ بشَر؟

{مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ} (الرحمن : ٥٤)

٥٤- مُضـــطَجعينَ في مَنازِلِهِمْ على فُرُشٍ بَطائنُها مِنْ دِيباجٍ ثَخينٍ جَميل، وظاهِرُها أحسَـــنُ وأجمَل، وثِمارُ الجنَّةِ قَريبَةُ التَّناولِ منهم، متَى ما شاؤوا تَناوَلوها.

{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن : ٥٥)

٥٥- فبأيِّ نِعَمِ اللهِ تَجحَدانِ أيُّها الثَّقلان، وقدْ أثابَكما على أعمالِكما الحســـنَةِ خَيرَ الجزَاء، وأبدلَكما بتعَبِ الدُّنيا والصَّبرِ فيها راحَةً وسعادَةً في الآخِرَة؟

{فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ} (الرحمن : ٥٦)

٥٦- وفي هذهِ الجِنانِ حُورٌ جَميلات، قدِ اقتصَـرَ نظَرُهنَّ على أزوَاجِهنَّ لا يَريْنَ أحسـنَ منهمْ في الجنَّة، وهُنَّ أبكار، لم يطَأْهُنَّ أحَدٌ مِنَ الإنسِ والجِنِّ قَبلَ أزوَاجِهنّ.

{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن : ٥٧)

٥٧- فبأيِّ نِعَمِ اللهِ تَجحَدانِ أيُّها الإنسُ والجانّ، وقدْ أعدَّ لمؤمنِكُما في الجنَّةِ ما يُحبَّان، وما بهِ يأنَسانِ ويَتلذَّذان، بأفضلَ ممَّا هوَ في الدُّنيا، وأهنأَ وألذّ.

{كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ} (الرحمن : ٥٨)

٥٨- كأنَّهُنَّ الياقوتُ في صَفائه، والمرجانُ في حُسنِهِ وعَجائبِ وَصفِه.

{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن : ٥٩)

٥٩- فبأيِّ نِعَمِ اللهِ تُكذِّبانِ أيُّها الإنسُ والجانّ، وقدْ رغَّبَكما فيما تَشـتَهيان، لتَعمَلا لِما يَبقَى، ووَعدَكما بالخُلودِ في جِنانٍ خالِدات، إذا أطَعتُما وثَبَتُّما على الإيمَان؟

{هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} (الرحمن : ٦٠)

٦٠- أليسَ جَزاءُ مَنْ أحسَنَ العمَلَ في الدُّنيا أنْ يُحسَنَ إليهِ في الآخِرَة؟

{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن : ٦١)

٦١- فبأيِّ نِعمَةٍ مِنْ نِعَمِ رَبِّكما تَجحَدانِ أيُّها الثَّقلان، وقدْ وفَّى بعهدِهِ معَكما، وزادَ في إحسَانهِ إليكما، فضاعفَ مِنْ أُجورِكما، وأثابَكما خَيرًا ممَّا عَمِلتُما في الدُّنيا؟

{وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ} (الرحمن : ٦٢)

٦٢- ومِنْ دونِ الجَنَّتَينِ الأُوْلَيَيْنِ في المنزِلَةِ والفَضل: جنَّتانِ أُخرَيان. فالأُولَيانِ -كما يَبدو- مِنْ ذهَبٍ، آنيَتُهما وما فيهما، كما مرَّ في الآيَةِ (٤٦)، وهما للسَّابقِينَ أو المقرَّبين، وهاتانِ - كما يَظهَرُ - مِنْ فِضَّة، آنيَتُهما وما فيهما، وهُما لأصحَابِ اليَمين.

{فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن : ٦٣)

٦٣- فبأيِّ نِعَمِ اللهِ الظَّاهِرَةِ والباطِنَةِ تَجحَدانِ أيُّها الإنسُ والجانّ، وقدْ عَلِمَ ضَعْفَ بَعضِكما وقِلَّةَ هِمَّتِهما، فلمْ يَحرِمْهما فَضلَهُ في الآخِرَة، ما داما كانا مُوَحِّدَينَ في الدُّنيا، فأنعمَ عَليهما بالجنَّةِ كذلك، ولكنْ دونَ درجَةِ مَنْ كانوا أعلَى هِمَّةً منهما في الطَّاعَةِ والإحسَان، والدَّعوَةِ والجِهاد.

{مُدْهَامَّتَانِ} (الرحمن : ٦٤)

٦٤- وهاتانِ الجنَّتانِ شَديدَتا الخُضرَة، حتّى إنَّهما تَميلانِ إلى السَّوادِ مِنْ رِيِّهما وكثرَةِ ما فيهما مِنْ أعشاب، ورياحينَ ونَبات، مُنبَسِطةٍ على أرْضِها الواسِعَة.

{فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن : ٦٥)

٦٥- فبأيِّ نِعَمِ اللهِ تُكذِّبانِ أيُّها الثَّقلان، وقدْ هيَّأ لكما في الجنَّةِ مِنْ جنسِ ما تُحبَّانِ في الدُّنيا، مِنَ البساتينِ المليئةِ بأنوَاعِ الفاكِهة، والأنهَارِ والعُيونِ المتفجِّرة، والرَّياحينِ والأزْهارِ الجميلَة، التي تُبهِجُ النَّفسَ وتَسُرُّ القَلب؟ فاعمَلا صالحًا لتَفوزا.

{فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ} (الرحمن : ٦٦)

٦٦- وفيهما عَينانِ مِنَ الماءِ فوَّارَتانِ لا تَنقَطِعان.

{فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن : ٦٧)

٦٧- فبأيِّ نِعمَةٍ مِنْ نِعَمِ اللهِ تَجحَدانِ يا مَعشَرَ الجِنِّ والإنس، وقدْ أعدَّ لكما في الآخِرَةِ -إنْ أحسَنتُما واتَّقَيتُما - خَيرَ ما تَرجُوان، وأحسَنَ ما تأمُلان، في جنَّاتٍ عالية، بها عيونٌ تَزخَرُ بالماءِ الزُّلال، فتملأُ العَينَ جَمالاً، والنَّفسَ أُنسًا وبَهجة، دَوامًا.

{فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ} (الرحمن : ٦٨)

٦٨- وفيهما فاكهةٌ كثيرَة، ونَخلٌ ورُمَّان، وهما أفضَلُ الفَواكه، ولهما الشرَفُ على غَيرِهما.

{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن : ٦٩)

٦٩- فبأيِّ نِعَمِ اللهِ تُكذِّبانِ أيُّها الثَّقلان، وفي الجنَّةِ أشــــكالٌ وألوانٌ ممَّا عَرفتُماهُ مِنْ فَواكهِ الدُّنيا التي تُحِبَّانِها، وتَكدَحانِ في طَلَبِها، وهي في الآخِرَةِ أفضَلُ وأكثَر، وأمتَعُ وألَذّ، وهيَ قَريبَةُ المنال، سَهلَةُ المأخَذ، ولا تَنقَطِعُ ولا تَفنَى؟ وهيَ لمنْ أحسنَ واتَّقَى، وأخلصَ وأطاع.

{فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ} (الرحمن : ٧٠)

٧٠- فيهنَّ نِساءٌ حِسَانُ الخَلقِ والخُلُق.

{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن : ٧١)

٧١- فبأيِّ نِعمَةٍ مِنْ نِعَمِ اللهِ تَجحَدانِ يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنّ، وقدْ أعدَّ لمؤمنِكما أجملَ النِّساءِ وَجهًا، وأحسنَهنَّ خُلُقًا وتحَبُّبًا إلى أزواجِهنّ، وهذا مِنْ أكثَرِ ما تُحبَّانِ وتَشتَهيان؟

{حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ} (الرحمن : ٧٢)

٧٢- وهنَّ جَميلاتُ العُيونِ جِدًّا، شَــديداتُ بَياضِ بياضِــها، وشَــديداتُ سَــوادِ سَــوادِها، مُلازِماتٌ لخيامِهنَّ الكبِيراتِ الجمِيلات. وفيهِ دَلالَةٌ على صيانَتِهنَّ وقَصرِ حُبِّهنَّ ونَظرِهنَّ على أزواجِهنَّ، فلا يَبغِينَ عنهمْ بَديلاً.

{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن : ٧٣)

٧٣- فبأيِّ نِعَمِ اللهِ تُكذِّبانِ أيُّها الثَّقلان، وقدْ جعلَ لمنِ اســتحقَّ منكما الجنَّة: النِّســاءَ الجَميلات، المتَّصِفاتِ بالأخلاقِ الطيِّبَة، والعِشرَةِ المحبَّبة، وقدْ عَلِمَ أنْ لا صَبرَ لكما بدونِهنَّ؟

{لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ} (الرحمن : ٧٤)

٧٤- لم يَقرُبْهنَّ إنسٌ ولا جانٌّ قَبلَ أزواجِهنَّ في الجنَّة.

{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن : ٧٥)

٧٥- فبأيِّ نِعمَةٍ مِنْ نِعَمِ اللهِ تَجحَدانِ يا مَعشَــرَ الإنسِ والجانّ، وقدْ جعلَ - لمنْ كانَ لهُ نَصيبٌ في الجنَّةِ منكما - ما يَودَّانَ في النِّساءِ ويَرغَبانِ فيهنّ، وأهنأَ وألَذّ؟

{مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ} (الرحمن : ٧٦)

٧٦- مُضطَجِعينَ على أغطيَةٍ خُضْر، وبُسُطٍ فاخِرَةٍ عَجيبَةِ الصُّنع، رائعَةٍ في حُسنِها، تَفوقُ الوَصف.

{فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (الرحمن : ٧٧)

٧٧- فبأيِّ نِعمَةٍ مِنْ نِعَمِ رَبِّكما تَجحَدانِ أيُّها الثَّقلان، وقدْ زيَّنَ الجنَّةَ لمؤمِنِكما حتَّى بالفرُشِ والبُسُطِ والأسِرَّةِ والوَسائد، أحسَنِها وأفخَرِها، وأروَعِها وأجمَلِها؟

{تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} (الرحمن : ٧٨)

٧٨- تَباركَ اســمُ اللهِ وتَعالَى شَــأنُه، ودامَ خَيرُهُ وفَضــلُه، وهوَ العَظيمُ الجَليل، مُكرِمُ الأنبِياءِ وعبادِهِ الصَّلحين.

* * *

عنْ جابرِ بنِ عبدِاللهِ رَضيَ اللهُ عَنهما قال: لما قَرأَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم سُورَةَ الرَّحمنِ على أصحابِهِ حتَّى فَرَغ قال: "ما لي أراكمْ سُكوتًا؟ لَلْجِنُّ كانوا أحسنَ منكمْ رَدًّا، ما قَرأتُ عَليهمْ مِنْ مرَّةٍ {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} إلاّ قالوا: ولا بشَــيءٍ مِنْ نِعمَتِكَ ربَّنا نُكَذِّب، فلكَ الحَمد". رواهُ الحاكمُ وغَيرُهُ وصحَّحَه.

اللهمَّ ولا بشَيءٍ مِنْ نِعمَتِكَ ربَّنا نُكَذِّب، فلكَ الحَمد.

سورة الواقعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} (الواقعة : ١)

١- إذا قامَتِ القِيامَة، التي لا بُدَّ مِنْ وقوعِها.

{لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ} (الواقعة : ٢)

٢- ليسَ لوقُوعِها كَذِبٌ، أو صارِفٌ يَصرِفُها، بلْ هيَ وَقْعَةٌ صادِقَة، وحَقٌّ لا شُبْهَةَ فيه.

{خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ} (الواقعة : ٣)

٣- تَخفِضُ أعداءَ اللهِ إلى دركاتِ النَّار، وإنْ كانوا أعِزَّاءَ في الدُّنيا، وتَرفَعُ أولياءَهُ إلى الجِنانِ العاليَة، وإنْ كانوا ضُعَفاءَ في الدُّنيا.

{إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً} (الواقعة : ٤)

٤- إذا اهتزَّتِ الأرْضُ وزُلزِلَتْ زِلزالاً شَديدًا، فاندَكَّ كُلُّ بِناءٍ عَليها، وانهَدَمَ كُلُّ ما فَوقَها.

{وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً} (الواقعة : ٥)

٥- وفُتِّتَتِ الجِبالُ فَتًّا.

{فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً} (الواقعة : ٦)

٦- فكانتْ غُبارًا مُتفَرِّقًا، كالذي يَثورُ ويُرَى في شُعاعِ الشَّمسِ إذا دخلَ الكوَّة.

{وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً} (الواقعة : ٧)

٧- وكنتُمْ أصنافًا ثَلاثَة.

{فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ} (الواقعة : ٨)

٨- فأصحابُ الميمَنَة، الذينَ يؤخَذُ بهِمْ ذاتَ اليَمينِ إلى الجنَّة، ما حالُهُمْ وما وَصفُهم؟

{وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ} (الواقعة : ٩)

٩- وأصحابُ المشأمَة، الذينَ يُؤخَذُ بهِمْ ذاتَ الشِّمالِ إلى الجَحيم، ما حالُهُمْ وما وَصفُهم؟

{وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ} (الواقعة : ١٠)

١٠- والمبادِرونَ إلى الإيمَانِ والطَّاعَةِ عندَ ظُهورِ الحقِّ قَبلَ غَيرِهم، أو السَّابِقونَ إلى الخَيراتِ والطَّاعات، همُ السَّابِقونَ إلى دارِ الكرَامةِ والرِّضوان.

{أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ} (الواقعة : ١١)

١١- أولئكَ الذينَ نالُوا الحُظوَةَ والمنزِلَةَ العَاليةَ عندَ اللهِ تَعالَى.

{فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} (الواقعة : ١٢)

١٢- في جَنَّاتٍ عاليَة، ونَعيمٍ دَائم.

{ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ} (الواقعة : ١٣)

١٣- وهمْ جَماعَةٌ كثيرَةٌ مِنْ الأُمَمِ الماضيَة، مِنْ لَدُنْ آدمَ إلى زَمانِ نَبيِّنا صلى الله عليه وسلم.

(وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ) (الواقعة : ١٤)

١٤- وقَليلٌ مِنَ الآخِرين، مِنْ هذهِ الأُمَّة.

قالَ الحسنُ البَصريُّ رَحِمَهُ الله: سابِقو مَنْ مضَى أكثَرُ مِنْ سابِقينا.

يَعني لكثرَةِ الأنبياءِ السَّابقينَ عَليهمُ الصَّلاةُ والسَّلام، فكانتْ كثرَةُ السَّابِقينَ إلى الإيمانِ لكثرَتِهم.

{عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ} (الواقعة : ١٥)

١٥- على أسِرَّةٍ مَنسوجَةٍ بالذَّهَب، أو مَضفورَةٍ ومُشبَّكَةٍ باللَّآلئِ والدُّرَر.

{مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ} (الواقعة : ١٦)

١٦- مُتَّكئينَ على تلكَ السُّـرُرِ الواسِـعَةِ الجميلة، وجوهُ بَعضِـهِمْ إلى بَعض، ليسَ أحَدٌ وراءَ آخَر.

{يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ} (الواقعة : ١٧)

١٧- يَدورُ عَليهِمْ للخِدمَةِ غِلمَان، لا يَهرَمونَ ولا يَتغيَّرونَ ولا يَتحوَّلونَ عنهم، وهمْ مُخلَّدونَ مثلَ أهلِ الجنَّة.

{بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ} (الواقعة : ١٨)

١٨- يَدورُونَ عَليهِمْ بأقدَاحٍ وأباريق، وخَمرٍ مِنْ عَينٍ جاريَةٍ لا تَنقَطِع.

{لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ} (الواقعة : ١٩)

١٩- لا تُصَدَّعُ رُؤوسُهمْ بسبَبِها، ولا تَذهَبُ عُقولُهُمْ مِنْ شُربِها مثلَ خَمرِ الدُّنيا، معَ حُصولِ اللَّذَّةِ وشِدَّةِ الطرَبِ بها.

{وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ} (الواقعة : ٢٠)

٢٠- ويَطوفونَ عَليهِمْ بفَاكهَةٍ كثيرَةٍ ومُتنَوِّعة، يَختارونَ ما يَرضَونَهُ منها.

{وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ} (الواقعة : ٢١)

٢١- ولحمِ طَيرٍ ممَّا تَرغَبُ فيهِ نُفوسُهمْ وتَميلُ إليه.

{وَحُورٌ عِينٌ} (الواقعة : ٢٢)

٢٢- ولهُمْ فيها حُوْرٌ ذَواتُ عيونٍ واسِعَةٍ جَميلة، بَياضُها شَديدُ البَياض، وسَوادُها شَديدُ السَّواد.

{كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ} (الواقعة : ٢٣)

٢٣- وهنَّ بِيضٌ مُشرِقاتُ الوجُوه، كأنَّهنَّ اللُّؤلؤ المحفُوظُ في صدَفِه، في بَياضِهِ وصَفائه، لم تَمْسَسْهُ الأيدِي.

{جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (الواقعة : ٢٤)

٢٤- ثَوابًا مِنَ اللهِ على أعمالِهِمُ الحسنَةِ في الدُّنيا.

{لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً} (الواقعة : ٢٥)

٢٥- لا يَسمَعونَ في الجَنَّةِ هَذَيانًا وكلامًا لا خَيرَ فيه، ولا ما فيهِ إثمٌ وفُحش.

{إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً} (الواقعة : ٢٦)

٢٦- إلاّ تَسليمَ بَعضِهِمْ على بَعض، وكثرَتِهِ بينَهم.

{وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ} (الواقعة : ٢٧)

٢٧- وأصحَابُ اليَمين، الذينَ يَسلُكونَ طَريقَ اليَمينِ لدُخولِ الجَنَّة، ما أحوالُهُمْ فيها؟

{فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ} (الواقعة : ٢٨)

٢٨- إنَّهُمْ بينَ أشجَارِ النَّبْقِ المثِمر.

وأغصانُ هذا الشجَرِ - في الدُّنيا - مُلْسٌ بِيضُ اللَّون، ذاتُ أورَاقٍ مَلساء، وأزهارُها صَغيرةٌ مُتجَمِّعَة. وجاءَ وَصفُهُ = في الآخِرَة - في الحديثِ المرفوع: "يَخضِدُ اللهُ شَوكَه، فيَجعَلُ مَكانَ

كُلِّ شَوكةٍ ثَمَرَة، فإنَّها تُنبِتُ ثَمَرًا تَفتُقُ الثمرَةُ معَها عنِ اثنَينِ وسَبعينَ لَونًا، ما منها لَونٌ يُشبِهُ الآخَر". أخرجَهُ الحاكمُ وصحَّحه.

ونقلَ ابنُ كثيرٍ عنْ أبي النجَّادِ قَولَه: سِدْرُ الدُّنيا كثيرُ الشَّوكِ قَليلُ الثَّمَر، وفي الآخِرَةِ على عَكسٍ مِنْ هذا، لا شَوكَ فيه، وفيهِ الثَّمَرُ الكثير.

{وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ} (الواقعة : ٢٩)

٢٩- وشجَرِ الموز، المتراكِمِ ثَمَرُه، مِنْ أسفَلِهِ إلى أعلاه. وثَمَرُهُ أعظَمُ وأحلَى.

{وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ} (الواقعة : ٣٠)

٣٠- وظِلٍّ مُمتَدٍّ مُنبَسِطٍ طَويل.

وصحَّ في الحديثِ قَولُهُ صلى الله عليه وسلم: "إنَّ في الجنَّةِ شجرَةً يَسيرُ الرَّاكبُ في ظِلِّها مئةَ عامٍ لا يَقطَعُها، واقرَؤوا إنْ شِئتُم: {وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ}". واللَّفظُ للبخاريّ.

{وَمَاء مَّسْكُوبٍ} (الواقعة : ٣١)

٣١- وماءٍ مَصبوبٍ يَجري دائمًا.

{وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ} (الواقعة : ٣٢)

٣٢- وفاكِهَةٍ كثيرَة، ذاتِ أنواعٍ وأشكالٍ مُتعدِّدة، وألوانٍ وطُعومٍ مُختَلِفَة.

{لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ} (الواقعة : ٣٣)

٣٣- لا تَنقَطِعُ عنهمْ في وَقتٍ مِنَ الأوقَات، ولا تَمتَنِعُ منهمْ إذا أرادُوا تناولَها.

{وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ} (الواقعة : ٣٤)

٣٤- وفُرُشٍ عاليَة، مُنضَّدةٍ ناعِمة.

{إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء} (الواقعة : ٣٥)

٣٥- إنَّا أعَدْنا خَلقَ نِساءِ الدُّنيا خَلقًا جَديدًا.

{فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً} (الواقعة : ٣٦)

٣٦- فجعَلناهُنَّ عَذارَى أبكارًا.

{عُرُباً أَتْرَاباً} (الواقعة : ٣٧)

٣٧- مُتحَبِّباتٍ إلى أزواجِهنّ، مُستَوِياتٍ في السنّ.

{لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ} (الواقعة : ٣٨)

٣٨- أنشَأناهُنَّ لأصحَابِ اليَمين، الذينَ يَسلُكونَ طَريقَ اليَمينِ لدُخولِ الجنَّة.

{ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ} (الواقعة : ٣٩)

٣٩- جَماعَةٌ مِنَ الأوَّلينَ مِنَ الأُمَمِ الماضيَة.

{وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ} (الواقعة : ٤٠)

٤٠- وجَماعَةٌ مِنَ الآخِرينَ مِنْ هذهِ الأُمَّة.

{وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ} (الواقعة : ٤١)

٤١- وأصحابُ الشِّمال، ما أخبارُهم، وكيفَ أحوالُهم؟

{فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ} (الواقعة : ٤٢)

٤٢- في ريحٍ حارَّةٍ تؤثِّرُ تأثيرَ السُّمّ، وماءٍ شَديدِ الحرارَة.

{وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ} (الواقعة : ٤٣)

٤٣- وظِلٍّ شَديدِ السَّواد، كأنَّهُ قِطَعُ فَحم.

{لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ} (الواقعة : ٤٤)

٤٤- ليسَ بطيِّبٍ، ولا كريمِ المنظَر، ولا نافِعٍ كسائرِ الظِّلالِ التي يُستَروَحُ إليها.

{إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ} (الواقعة : ٤٥)

٤٥- إنَّهُمْ كانُوا في دارِ الدُّنيا مُنعَّمينَ مُرفَّهين، مُنهَمِكينَ في الشَّهوات.

{وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ} (الواقعة : ٤٦)

٤٦- وكانوا يَتعمَّدونَ الكُفر، ويَحلِفونَ أنَّهُمْ لا يُبعَثون، ولا يُقلِعونَ عنْ هذا الإثمِ الكَبير.

{وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ} (الواقعة : ٤٧)

٤٧- وكانوا يَقولونَ مُكذِّبينَ بالمعاد: أإذا مِتنا، وتَحوَّلتْ أجسادُنا إلى تُرابٍ وعِظامٍ باليَة، أوَ نُبعَثُ مِنْ قُبورِنا مِنْ جَديد؟

{أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ} (الواقعة : ٤٨)

٤٨- وآباؤنا الأوَّلون، أيُبعَثونَ أيضًا وهمْ أكثَرُ قِدْمًا، وأجسادُهمْ أكثَرُ تبَعثُرًا وتَحلُّلاً في التُّراب؟

{قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ} (الواقعة : ٤٩)

٤٩- قُلْ لهمْ أيُّها الرسُول، إنكارًا لمذهَبِهم، وبَيانًا للحقّ: إنَّ الأوَّلينَ مِنَ الأُمَمِ السَّالفَة، والآخِرينَ منكمْ وممَّنْ يأتي بَعدَكم،

{لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ} (الواقعة : ٥٠)

٥٠- سـيُبعَثونَ بعدَ الموت، ويُجمَعونَ في عرَصاتِ يَومِ القِيامَة، المعلومِ وَقتُهُ عندَ اللهِ رَبِّ العالَمين، لا يَتقدَّمُ على ميعادِهِ ولا يَتأخَّر.

{ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ} (الواقعة : ٥١)

٥١- ثمَّ إنَّكمْ أيُّها الضَّالُونَ الزَّائغونَ عنِ الحقّ، المكذِّبونَ بالبَعثِ والجزَاء.

{لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ} (الواقعة : ٥٢)

٥٢- لآكِلونَ في جهنَّمَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّوم، الكريهِ الطَّعمِ والرَّائحة، الذي يَنبُتُ في قَعرِ جهنَّم.

{فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ} (الواقعة : ٥٣)

٥٣- فمالِؤونَ بُطونَكمْ منْ تلكَ الشجرَة.

(فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ) (الواقعة : ٥٤)

٥٤- فشارِبونَ بعدَهُ مِنْ ماءٍ شَديدِ الحرارَة.

{فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ} (الواقعة : ٥٥)

٥٥- فشارِبونَ شُربَ الإبِلِ العِطاشِ التي أصابَها الهُيام. وهوَ داءٌ يُشبِهُ الاستِسقاء، يُصيبُ الإبِل، فتَشرَبُ حتَّى تَموت.

{هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ} (الواقعة : ٥٦)

٥٦- هذا هوَ ضيافَتُهمْ يَومَ القِيامَة، وهذا ما يُقدَّمُ لهمْ جَزاءَ ما عَمِلوهُ في الدُّنيا.

{نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ} (الواقعة : ٥٧)

٥٧- نحنُ خَلقناكمْ ولم تَكونوا شَيئًا، ألَسنَا قادرينَ على أنْ نُحييَكمْ بعدَ موتِكمْ كذلك؟ فهلاَّ صَدَّقتُمْ بهذا وهوَ مثلُ الأوَّل؟

{أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ} (الواقعة : ٥٨)

٥٨- أفرَأيتُمُ المنيَّ الذي تَقذِفونَهُ في الأرْحام؟

(أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ) (الواقعة : ٥٩)

٥٩- أأنتُمْ تَخلُقونَ فيهِ الحيَواناتِ المنويَّة، ثمَّ تُقدِّرونَ الجَنينَ وتُصَــوِّرونَهُ في الأرْحامِ حتَّى يَكونَ بشرًا سَويًّا، أمْ أنَّهُ اللهُ الخالق؟

{نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ} (الواقعة : ٦٠)

٦٠- نحنُ حكَمنا وقضَـينا عَليكمْ بالموتِ وقسَـمناهُ بينَكم، فمنكمْ مَنِ يَبلُغُ الهَرَم، ومنكمْ مَنْ يَموتُ صـبيًّا أو شـابًّا، وجعَلنا لموتِ كلِّ واحدٍ منكمْ وَقتًا مُعيَّنًا، ولسـنَا عاجزينَ عنْ أمر، ولا يَغلِبُنا شَيء،

{عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ} (الواقعة : ٦١)

٦٢- على أنْ نُـذهِبَكم، ونأتِيَ بخَلقٍ مثلِكم، ونَخلُقَكمْ فيمـا لا تَعلَمونَ مِنَ الخَلقِ والأطوَارِ والصُّور، والصِّفاتِ والأحوَال، التي لم تَعهَدوها؟

واللهُ يُميتُ جيلاً، ويُبَـدِّلُهُمْ بجِيـلٍ آخَر، وهكـذا قَرنًا بعـدَ قَرن، وهوَ القـادِرُ على أنْ يَخلُقَهمْ بصِفاتٍ وأشكالٍ أُخرَى، وأنْ يَبعثَهمْ مِنْ جَديدٍ بعدَ الموت.

{وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ} (الواقعة : ٦٢)

٦٢- ولقدْ عَلِمتُمْ كيفَ نَشـأتُمْ ولم تَكونُوا شَيئًا، فهلاَّ تَذكَّرتُمْ أنَّ الذي أنشَـأكمْ أوَّلَ مرَّةٍ قادِرٌ على إنشائكمْ مرَّةً أخرَى بعدَ مَوتِكم؟

{أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ} (الواقعة : ٦٣)

٦٣- أفرأيتُمُ الذي تَحرُثونَ مِنَ الأرْضِ وتَبذُرونَ فيهِ الحَبّ؟

{أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ} (الواقعة : ٦٤)

٦٤- أأنتُمْ تُنبِتونَهُ فيها، أمْ نحنُ نُنبِتُهُ ونُنْمِيهِ حتَّى يَكتَمِلَ زَرعُه؟ بلْ نحنُ أنبَتناهُ وأبقَيناهُ رَحمَةً بكم.

{لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ} (الواقعة : ٦٥)

٦٥- لو نَشاءُ لأيبَسناهُ وفتَّتناهُ قَبلَ استِوائه، فلا يُنتفَعُ بِهِ في مَطعَمٍ وغِذاء، ولظَلَلتُمْ تتعجَّبونَ ممَّا أصابَ زَرعَكم، وتُنوِّعونَ الكلامَ في ذلك.

{إِنَّا لَمُغْرَمُونَ} (الواقعة : ٦٦)

٦٦- فتَقولونَ تارَة: إنَّا لمُلقَونَ شرًّا، أو مُهلَكون.

{بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} (الواقعة : ٦٧)

٦٧- وتَقولونَ أُخرَى: بلْ لا حظَّ لنا في هذا الرِّزق، فنحنُ مَحرومُونَ منه.

{أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ} (الواقعة : ٦٨)

٦٨- أفرَأيتُمْ هذا الماءَ العَذبَ الذي تَشرَبونَه؟

{أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ} (الواقعة : ٦٩)

٦٩- أأنتُمْ أنزَلتُموهُ مِنَ السَّحاب؟ بلْ نحنُ المنزِلونَ بقُدرَتِنا رَحمَةً بكم.

{لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ} (الواقعة : ٧٠)

٧٠- لو أرَدنا لجعَلناهُ مِلْحًا زُعاقًا لا يُطاقُ شُربُه، ولا يَصلحُ لطَعامٍ ولا زَرع، فهلاَّ شَكرتُمُ للهِ فَضلَهُ على هذا الماءِ العَذبِ الزُّلال؟

{أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ} (الواقعة : ٧١)

٧١- أفرَأيتُمُ النَّارَ التي تَقدَحونَها وتَستَخرِجونَها مِنَ الزِّناد؟

{أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ} (الواقعة : ٧٢)

٧٢- أأنتُمْ أنبَتُّمْ شَجرَتَها وأودَعتُمُ النَّارَ فيها، أمْ نحنُ أنشَأناها بقُدرَتِنا؟

وهوَ شَجَرُ المرْخِ والعَفَار، فيُقدَحُ أحَدُهما بالآخَر، فتَتولَّدُ منهما النَّار، وهُما رَطبانِ يَقطُرُ منهما الماءِ! ولهُ وَجهٌ في التَفسيرِ العِلميّ، ذُكِرَ في الآيَةِ (٨٠) مِنْ سُورَةِ يس.

{نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ} (الواقعة : ٧٣)

٧٣- نحنُ خلَقناها، وجعَلناها مَوعِظَةً وتَذكيرًا بنارِ جهنَّم، وبُلْغةً ومَنفعَةً للمسافِرين، الذينَ يَنزِلونَ القِفارَ البَعيدَةَ عنِ العِمران، ويَضطَرُّونَ إلى إشعالِها، ليَهتَديَ بها الضُّلَّال، وتَهرُبَ منهمُ السِّباع، ولغَيرِ ذلك.

أو أنَّ المقصود: للمُحتاجينَ إليها، مِنَ المقيمينَ والمسافِرين، فالكُلُّ يَستَخدِمُها.

ثمَّ يسَّرَ اللهُ الحصولَ عَليها بطرُقٍ وأساليبَ أيسَر، والكُلُّ مِنْ نِعمَتِهِ وتَيسيرِه، فلهُ الحَمدُ ولهُ الشُّكر.

{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} (الواقعة : ٧٤)

٧٤- فنَزِّهِ اللهَ مِنْ كُلِّ نَقصٍ وعَجز، ووَحِّدْه، فهوَ الخالقُ العَظيم، الذي خلقَ هذهِ الأشياءَ وسخَّرَها لمنفَعتِكم.

{فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ} (الواقعة : ٧٥)

٧٥- فأُقسِمُ بأماكنِ النجُوم، أو مسَاقطِها ومَغاربِها.

{وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ} (الواقعة : ٧٦)

٧٦- وإنَّهُ قسَمٌ لهُ مَدلولٌ عَظيم.

فلو كانتْ هذهِ الكوَاكبُ والنُّجومُ في غَيرِ أماكِنِها لاختلطَ النظامُ الكوني، ولو كانتِ الشَّمسُ أبعدَ أو أقربَ ممّا هيَ عليهِ الآن، لاستَحالَتِ الحياةُ على كَوكبِ الأرْض.

ولمواقعِ النُّجومِ أسرارٌ أُخرَى عَظيمَة، فلا يُدرِكُها الإنسَان، ولا يُمكنُ لهُ أنْ يَراها. فالنُّجومُ التي تَتراءَى للإنسانِ في اللَّيلِ هيَ انبثاقُ ضَوءٍ مرَّ بهِ النَّجمُ وغادرَه، وتركَ ضَوءَهُ يَتحرَّكُ إلينا مِنْ ذلكَ الموقِع. فضَوءُ الشَّمسِ يَصِلُ إلينا بعدَ ثَماني دَقائقَ وثُلُثِ الدَّقيقَة، وهيَ تَجري بسرعة ١٩,٤ كم في الثَّانية. وأقرَبُ نَجمٍ إلينا بعدَ الشَّمسِ يَبعدُ عنَّا ٤,٣ سنة ضَوئيَّة (والسنَةُ الضَّوئيَّةُ تُقدَّرُ بنَحوِ ٩,٥ تريليون كم)، وإذا انبثقَ منهُ الضَّوءُ فإنَّهُ يَصِلُ إلينا بعدَ أكثرَ مِنْ خَمسينَ شَهرًا، ويَكونُ النَّجمُ خِلالَها قدْ تحرَّكَ مِنْ مَكانِهِ مَسافاتٍ شاسِعَة.

{إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ} (الواقعة : ٧٧)

٧٧- إنَّهُ لقُرآنٌ عَزيزٌ مُكرَّم، لأنَّهُ كلامُ الله.

{فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ} (الواقعة : ٧٨)

٧٨- في كتابٍ مَصُونٍ مُعظَّمٍ عندَ الله، مَحفوظٍ مِنَ الشَّياطينِ ومِنَ التَّبديلِ والتَّغيير، وهوَ اللَّوحُ المحفوظ.

{لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} (الواقعة : ٧٩)

٧٩- لا يَمَسُّ الكتابَ الذي في السَّماءِ إلاّ مَلائكةُ اللهِ المطهَّرون. ولا يَمَسُّ المصحفَ الذي بينَ أيدي النَّاسَ إلاَّ مَنْ كانَ على طَهارَةٍ مِنَ الجَنابَة، وأكثَرُ الفقهاءِ على مَنعِ مَسِّهِ لغَيرِ المتَوضِّئ.

{تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} (الواقعة : ٨٠)

٨٠- مُنزَّلٌ مِنَ اللهِ رَبِّ العالَمين، على نَبِيِّهِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وليسَ سِحرًا، ولا كَهانَة، ولا ديوانَ شِعر، كما يَقولُ المشرِكون.

{أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ} (الواقعة : ٨١)

٨١- أفبهذا القُرآنِ العَظيمِ أنتُمْ مُتهاوِنونَ ومُكذِّبون؟

{وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ}) (الواقعة : ٨٢)

٨٢- وتَجعَلونَ بدلَ الشُّكرِ – على ما رَزَقكمُ اللهُ – كُفرًا، وتَكذِبونَ فتَنسِبونَهُ إلى غَيرِه؟

قالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عَنهما: ما مُطِرَ قَومٌ قَطُّ إلاّ أصبحَ بَعضُهمْ كافِرًا، يَقولون: مُطِرْنا بنَوءِ كذا وكذا. [والنَّوء: النَّجم. وهوَ لا يُؤثِّر بنَفسِه]. وقرَأَ هذهِ الآيَة. ذكرَ ابنُ كثيرٍ أنَّ إسنادَهُ صَحيحٌ إليه.

وهوَ مأخوذٌ مِنَ الحديثِ القُدسيِّ الصَّحيح: "أصبَحَ مِنْ عِبادي مُؤمِنُ بي وكافِر، فأمَّا مَنْ قال: مُطِرْنا بفَضلِ اللهِ ورَحمَتِه، فذلكَ مُؤمِنٌ بي كافِرٌ بالكَوكَب، وأمَّا مَنْ قال: مُطِرْنا بنَوءِ كذَا وكذَا، فذلكَ كافِرٌ بي مُؤمِنٌ بالكوكب". واللَّفظُ لمسلم.

{فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ} (الواقعة : ٨٣)

٨٣- فهلاَّ إذا وصَلَتِ الرُّوحُ إلى الحُلقُوم، عندَ الاحتِضارِ ومُعالجَةِ سَكراتِ الموت،

{وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ} (الواقعة : ٨٤)

٨٤- وأنتُمْ حينَئذٍ تَنظُرونَ إلى المحتَضَر، وهوَ يُقاسي شِدَّةً وكَربًا حتَّى تَخرُجَ روحُه،

{وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ} (الواقعة : ٨٥)

٨٥- ونحنُ أقرَبُ إلى المحتَضَرِ منكمْ بعِلمِنا وحُضورِ مَلائكتِنا، ولكنْ لا تُدرِكونَ ذلك،

{فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ} (الواقعة : ٨٦)

٨٦- فهلاَّ إنْ كنتُمْ غَيرَ مؤمِنين،

{تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (الواقعة : ٨٧)

٨٧- أنْ تَرُدُّوا الرُّوحَ التي بلغَتِ الحُلقُومَ إلى مَكانِها الأوَّل، إنْ كنتُمْ صادِقِينَ في عدَمِ اعتِقادِكُمْ بأمرِ اللهِ وقُدرَتِه؟ فإذا لم تَقدِروا على ذلك، فاعلَموا أنَّ الأمرَ بيدِ الله، فاعتَبِروا، وآمِنوا.

{فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ} (الواقعة : ٨٨)

٨٨- فأمَّا إنْ كانَ المتوَفَّى مِنَ المؤمِنينَ السَّابقينَ إلى عمَلِ الخَيراتِ والطَّاعات،

{فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ} (الواقعة : ٨٩)

٨٩- فلهُ راحَة، ورِزق، وجنَّةٌ عاليةٌ يَنعَمُ فيها ويَخلُد.

{وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ} (الواقعة : ٩٠)

٩٠- وأمَّا إنْ كانَ مِنْ أصحابِ اليَمين، الذينَ عرَفوا طَريقَهمْ إلى الجنَّة،

{فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ} (الواقعة : ٩١)

٩١- فتُبَشِّرُهمُ الملائكةُ وتَقولُ لأحدِهم: سَلامٌ لكَ يا صاحِبَ اليَمين، أنتَ في أمَان، ونِعمَةٍ وإكرَام.

{وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ} (الواقعة : ٩٢)

٩٢- وأمَّا إنْ كانَ المتوَفَّى مِنَ المكذِّبينَ بالبَعثِ والجَزاء، الزَّائغينَ عنِ الحقِّ والهُدَى، وهمْ أصحابُ الشِّمال،

{فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ} (الواقعة : ٩٣)

٩٣- فضِيافَتُهُ أنْ يُقدَّمُ إليهِ ماءٌ مَغليٌّ شَديدُ الحرارَة، يَشرَبُهُ بعدَ أكلِ الزَّقُّوم!

{وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ} (الواقعة : ٩٤)

٩٤- وأنْ يُدخَلَ في النَّار، معَ إقامَةٍ دائمةٍ فيها، ومُقاساةِ ألوانِ العَذابِ بها.

{إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ} (الواقعة : ٩٥)

٩٥- إنَّ هذا الذي ذُكِرَ في هذهِ السُّورَة، مِنْ صِفَةِ أهلِ النَّارِ وصِفَةِ أهلِ الجَنَّةِ خاصَّة، هوَ الخبَرُ الحقُّ اليَقين، الذي لا شَكَّ فيه، ولا بُدَّ منه.

{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} (الواقعة : ٩٦)

٩٦- فاذكرِ اللهَ ونَزِّهْهُ مِنْ كُلِّ نَقصٍ وعَيب، ومِنَ الشَّريكِ والمثِيل، وقُل: سُبحانَ ربِّيَ العَظيم. قالَ عُقبَةُ بنُ عامرٍ رَضيَ اللهُ عنه: لما نَزلَتْ {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} قالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "اجعَلوها في رُكوعِكم". رواهُ ابنُ حِبَّانَ في صَحيحِهِ وغَيرُه.

* * *

وصحَّ في الحديثِ قولهُ صلى اللهُ عليهِ وسلم: "شَيَّبَتْني هُود، والواقِعة، والمرسَلات، وعَمَّ يَتساءَلون، وإذا الشَّمسُ كُوِّرَت". رواه الترمذيُّ والحاكمُ وصحَّحه.

سورة الحديد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (الحديد : ١)

١- نزَّهَ اللهَ وقدَّسَهُ كُلُّ المخلوقاتِ في السَّماواتِ والأرْض، وهوَ الغالِبُ الذي لا يُغلَب، الحكيمُ فيما يَشرَعُ ويُقدِّر.

فالمخلُوقاتُ كلُّها مُسَبِّحةٌ مُقَدِّسَةٌ لذاتِهِ سُبحانَهُ وتَعالَى، قَولاً وفِعلاً، طَوْعًا وَكَرْهًا، بلسانِ الحال، أو بلسانِ المقال {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [سورة الإسراء: ٤٤].

{لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (الحديد : ٢)

٢- لهُ كُلُّ ما في السَّماواتِ والأرْضِ مِنْ مَوجودات، خَلقًا، ومُلكًا، وتَدبيرًا، فيُحيي ويُميتُ بقُدرَتِهِ مَنْ شَاء، وهوَ القادِرُ على كُلِّ شَيء.

{هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (الحديد : ٣)

٣- هوَ الأوَّلُ بلا ابتِداء، فليسَ قَبلَهُ شَيء، والآخِرُ بعدَ فَناءِ كُلِّ شَيء، فليسَ بعدَهُ شَيء، فلا انتِهاءَ له، ولا انقِضاءَ لوجودِه. وهوَ الظَّاهِرُ في وجودِهِ بالدَّلائلِ القَطعيَّة، فليسَ فوقَ ظُهورِهِ شَيء، لدلالَةِ الآياتِ الباهِرَةِ عليه. وهوَ الباطِنُ فليسَ دونَهُ شَيء، فلا أحدَ يُدرِكُ كُنهَهُ سُبحانَه، لا عَقلاً ولا حِسًّا. وقدْ أحاطَ عِلمُهُ بكُلِّ شَيء، فلا يَخفَى عَليهِ صَغيرٌ ولا كَبير، ولا ظاهِرٌ ولا باطِن.

{هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (الحديد : ٤)

٤- هوَ اللهُ الذي خلقَ السَّماواتِ والأرْض، وما بينَهما، في ستَّةِ أيَّام، ثمَّ استوَى على العَرش، بالمعِنَى الذي أرادَهُ سُبحانَه. يَعلَمُ ما يَدخلُ في باطنِ الأرْض، مِنْ قَطْرِ الماء، وبُذورِ النَّباتِ والشجَر، والرِّمالِ والصُّخور، والموتَى مِنْ أصنافِ الحيَوان... وما يَخرُجُ منها، مِنَ النَّباتِ والمعادنِ وغَيرِها: عَدَدِها، وكيفيَّتِها، ووَقتِها، وأينَ تَصير. ويَعلَمُ ما يَنزِلُ مِنَ السَّماء، مِنْ مَلائكة، وأرزَاق، وأمطَار، وأضوَاء... ونَحوِها. وما يَصعَدُ فيها مِنَ الملائكة، والأروَاح، والأعمَالِ الصَّالحة... واللهُ عالِمٌ بكمْ أينَما كنتُم، بَصيرٌ بما تَعمَلونَ مِنْ خَيرٍ وشَرّ، في السرِّ والعَلَن.

{لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ} (الحديد : ٥)

٥- للهِ وحدَهُ مُلكُ السَّماواتِ والأرْضِ وما بينَهما، وإليهِ وحدَهُ تُرجَعُ الأمُورُ يَومَ القِيامَة، فيَقضي بالحقِّ والعَدل، ويَجزي كُلاًّ بما يَستَحِقّ.

{يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} (الحديد : ٦)

٦- يُدخِلُ اللَّيلَ في النَّهار، ويُدخِلُ النَّهارَ في اللَّيل، ويأخذُ مِنْ طُولِ هذا فيَزيدُ على قِصَرِ هذا، كُلٌّ بمقدارٍ ومِيزان. وهوَ عالِمٌ بما تُخفي الصُّدورُ مِنْ سَرائر، وإنْ دقَّت.

{آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ} (الحديد : ٧)

٧- آمِنوا باللهِ ورَسُولِه، واثبُتوا على إيمانِكمْ وداوِموا عَليه، وأنفِقوا مِنَ المالِ الذي ملَّكَكُمْ إيَّاهُ واستَخلفَكمْ فيه، فقدْ كانَ لغَيرِكمْ ووقعَ في أيدِيكم، وسيَخرجُ مِنْ مُلكِكمْ إلى غَيرِكم، فالذينَ آمَنوا وأخلَصوا في إيمانِهم، وأنفَقوا أموالَهُمْ في طاعَةِ ربِّهم، لهمْ ثَوابٌ عَظيم.

{وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} (الحديد : ٨)

٨- وما الذي يَمنَعُكمْ مِنَ الإيمَانِ باللهِ والرسُــولُ يَدعوكمْ إلى ذلك، وقدْ أيَّدَهُ اللهُ بالحُجَجِ والمعجِزات، ولا يَدعُوكمْ إلاّ إلى عِلمٍ ظاهرٍ نَفعُه، وحقٍّ باهرٍ أمرُه، وقدْ بايَعتُموهُ وأعطَيتُموهُ الميثاقَ على ذلك، إنْ كنتُمْ مؤمنينَ به.

{هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} (الحديد : ٩)

٩- هوَ اللهُ الرَّحيمُ بِكم، الذي يُنزِّلُ على عَبدِهِ محمَّدٍ صــلى الله عليه وســلم القُرآنَ العَظيم، المعجِزَ في بَيانِهِ وأحكامِه، ليُخرجَكمْ مِنْ ظلُماتِ الجَهلِ والشِّركِ إلى نورِ الهُدَى والإيمَان. واللهُ كثيرُ الرَّحمَةِ بالنَّاس، وقدْ وَسِــعَتْ رَحمَتُهُ كُلَّ شَــيء، ولذلكَ أرســلَ الرسُــل، وأنزلَ الكتُب، لهدايَتِكم، ولِما فيهِ خيرُكمْ ومَصلحَتُكم، في الحيَاةِ الدُّنيا وفي الآخِرَة.

{وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} (الحديد : ١٠)

١٠- وما الذي يَصرِفُكمْ عنِ الإنفَاقِ فيما يُقرِّبُكمْ إلى الله، وأنتُمْ ميِّتونَ تارِكونَ أموالَكم، واللهُ يَرِثُ كُلَّ شَيءٍ ممَّا في السَّماواتِ والأرْض، فلا يَبقَى لأحدٍ مالٌ فيهما، فأنفِقوا ولا تَخشَوا فَقرًا، فإنَّ الذي أنفقتُمْ في سَبيلِهِ هوَ مالِكُ الكونِ كُلِّه، وعندَهُ خَزائنُ السَّماواتِ والأرْض.

لا يَســتوي عندَ اللهِ درجَةً مَنْ أنفقَ قَبلَ فَتحِ مكَّةَ وقاتلَ في سَــبيلِ اللهِ معَ رسُــولِه، فأولئكَ أعلَى درجَةً وأعظَمُ ثَوابًا مِنَ الذينَ أنفَقوا بَعدَ الفَتحِ وجاهَدوا في سَـــبيلِ الله، وكُلُّ واحدٍ مِنَ الفَريقَينِ وعدَهمُ اللهُ المثوبَةَ الحُســنَى، وهيَ الجنَّة. فالحالُ قَبلَ الفَتحِ كانَ شَــديدًا، وبعدَ الفَتحِ ظهرَ الإسلامُ وقَوِيَ. واللهُ مُطَّلِعٌ على أعمالِكم، خَبيرٌ بما تُظهِرونَ وما تُسِرُّون، ويُجازي كُلاًّ بما عَمِل.

{مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ} (الحديد : ١١)

١١- الذي يُنفِقُ مِنْ مالِهِ في سَــبيلِ الله، مِنْ جِهادٍ وغيرِهِ مِنْ أعمَالِ البِرّ، بإخْلاصٍ وطِيبِ نَفس، فاللهُ يَقبَلُ منه، ويُضــاعِفُ لهُ الأجرَ والثَّوابَ أضــعافًا كثيرَة، ولهُ عندَ اللهِ جَزاءٌ كريمٌ مَرْضيّ.

{يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (الحديد : ١٢)

١٢- في يَومِ القِيامَةِ بينَما يَكونُ الكافِرونَ في رُعبٍ وخَوف، ترَى المؤمنينَ يَمشــي نورُهمْ بينَ أيديهمْ وعنْ أيمانِهِمْ إذا مشَوا، ويَكونُ ذلكَ بحسَبِ أعمَالِهِم، ويَقولُ لهمُ الملائكة: لكمُ البُشرَى جنَّاتٌ وقُصــورٌ عاليَاتٌ تَجري مِنْ تَحتِها الأنهَار، ماكثينَ فيها أبدًا، وذلكَ هوَ الفَوزُ والفَلاح، والسَّعادَةُ الكبرى.

{يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ} (الحديد : ١٣)

١٣- في ذلكَ اليَومِ العَصــيب، يَقولُ المنافِقونَ والمنافِقاتُ للمؤمنين: انتَظِرونا نَســتَضِــئْ مِنْ نورِكمْ لنَلحقَ بكم. فيُقالُ لهم: ارجِعوا مِنْ حيثُ جئتُم، مِنَ المكانِ الذي قُسِــمَ فيهِ النُّور، فاطلبوهُ لأنفُسِــكمْ مِنْ هُناك. فلمْ يَجِدوا شَــيئًا، فضُــرِبَ بينَ الفَريقَينِ بحاجِزٍ لهُ باب، باطنُهُ الذي يَلي جانِبَ المؤمنينَ فيهِ الجنَّةُ والنَّعيم، وظاهِرُهُ مِنَ الخارِجِ في جهَةِ المنافِقينَ العَذابُ والنَّار.

{يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ} (الحديد : ١٤)

١٤- يُنادي المنافِقونَ المؤمنينَ مِنْ وراءِ السُّور: أمَا كنَّا معَكمْ في الدُّنيا، نُصلّي معَكمْ ونَصوم، ونَحضرُ الجمُعَة، ونُشارِكُ في القِتال...؟ فقالَ لهمُ المؤمنون: بلَى، كنتُمْ معَنا، ولكنَّكمْ أهلَكتُمْ أنفَسَكمْ بالنِّفاق، والمعاصي والشَّهوات، وصرَفتُموها عنِ الهُدَى، ولم تَعزموا على الحقّ ولم تَثبُتوا

عَليه، وشَـــككتُمْ في النبوَّةِ والبَعث، وغرَّكمْ طولُ الأمَلِ وحبُّ الدُّنيا، ومازِلتُمْ على ذلكَ حتَّى جاءَكمُ الموت، وقدْ غرَّكمُ الشَّيطانُ وخدعَكمْ عندَما زيَّنَ لكمْ مَوقِفَكمْ هذا في نُفوسِكم، حتَّى قُذِفَ بكمْ في النَّار.

{فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (الحديد : ١٥)

١٥- ففي يَومِ الجزاءِ هذا، لا يُقبَلُ منكمْ بَذْلٌ وعِوَضٌ لتُنقِذوا بهِ أنفُسَـــكمْ مِنَ النَّار، وقدْ آمَنتُمْ ظاهِرًا وكفَرتُمْ باطِنًا، ولا مِنَ الذينَ كفَروا ظاهِرًا وباطِنًا، ومَصـــيرُكمْ جَميعًا الجَحيم، فهوَ سـَندُكمْ وأولَى بكمْ مِنْ كُلِّ مَكان، وبئسَ هذا المرجِعُ والمآب، الذي ليسَ فيهِ سِـوَى العَذابِ والهَوان.

{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} (الحديد: ١٦)

١٦- ألمْ يَحِنْ للمؤمِنينَ أنْ تَلينَ وتَرِقَّ قُلوبُهمْ لذكرِ اللهِ ومَواعِظِه، وعندَ سَماعِ القُرآنِ والإنصاتِ له، فيُطيعوا ربَّهم، ولا يَكونوا كاليَهودِ والنَّصارَى، الذينَ طالَ الزَّمانُ بينَهمْ وبينَ أنبِيائهم، فبدَّلوا كُتُبَهم، واشـــترَوا بآياتِها ثَمنًا قَليلاً، ومالُوا إلى الدُّنيا، واتَّبَعوا أهواءَهم، وأعرَضـــوا عنِ الموعِظَة، فقسَتْ قُلوبُهمْ فلمْ تَقبَلِ التَّذكير، ولم تَلِنْ بوَعدٍ ووَعيد، وكثيرٌ منهمْ خارِجونَ عنْ حُدودِ دينِهم، بَعيدونَ عنْ طاعَةِ ربِّهم، فقُلوبُهمْ فاسِدَة، وأعمالُهمْ باطِلَة.

{اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (الحديد : ١٧)

١٧- اعلَموا أيُّها النَّاس، أنَّ اللهَ قادِرٌ على إحياءِ الأرْضِ بالمطَر، بعدَ أنْ كانتْ يابِسةً هامِدَة، وكذلكَ هوَ قادِرٌ على أنْ يَهديَ القُلوبَ بَعدَ مَوتِها، ويُليِّنَها بعدَ قَســوَتِها، ويَبعثَ فيها الإيمَانَ والخُشـــوع. قدْ أوضَـــحنا لكمُ الآيَات، لتَعلَموا الحقَّ وتَعقِلوه، وتَرجِعوا عنِ الباطِلِ وتَجتَنِبوه، وتَتوبوا إلى ربِّكم، فهوَ خَيرٌ لكم.

{إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ}
(الحديد : ١٨)

١٨- إنَّ المتصَدِّقينَ والمتصَدِّقاتِ بأموالِهِمْ على الفُقَراءِ وأهلِ الحاجَة، بإخْلاصٍ وطِيبِ نَفس، يُضاعَفُ لهمُ الأجرُ والثَّوابُ أضعافًا كثيرَة، ولهمْ عندَ ربِّهِمْ جَزاءٌ حسَنٌ وثَوابٌ مَرضيّ.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} (الحديد : ١٩)

١٩- والذينَ آمَنوا باللهِ، وجَميعِ رسُلِه، وثبَتوا على إيمانِهِم، فأولئكَ همُ الصدِّيقونَ والشُّهداءُ مِنْ عِبادِ اللهِ الأخيار، الذينَ أكرَمَهمُ الله، لهمْ ثَوابٌ عَظيمٌ بما عَمِلوا مِنَ العمَلِ الصَّالح، ونورُهمْ يَسعَى بينَ أيديهمْ يومَ القِيامَة، والذينَ كفَروا بآياتِنا وما أيَّدْنا بهِ رسُلَنا مِنَ الآيَاتِ والمعجِزات، همْ مِنْ أهلِ جهنَّم، يُعَذَّبونَ فيها بأنوَاعِ العَذاب.

{اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} (الحديد : ٢٠)

٢٠- اعلَموا أيُّها النَّاس، أنَّ حاصِلَ أمرِ هذهِ الدُّنيا عندَ أهلِها المفتونينَ بها، أنَّها لَعِبٌ باطِلٌ لا يُرتَجَى منهُ ثمرَةُ حقٍّ وجِدّ، ولَهْوٌ وفرَحٌ يَشغَلُ المرءَ عنِ المهمِّ والأصلَح، وزِينَةٌ ومَظهَرٌ لا يَدومان، وافتِخارٌ بأنسَابٍ ومَناصِبَ لا تَبقَى، ومُباهاةٌ بكثرَةِ أموَالٍ وأولاد، وكلُّ ذلكَ وَشيكُ الزَّوال، كمثَلِ مطَرٍ أعجبَ المزارِعينَ لِما يَحصُلُ بهِ مِنَ الإنبَاتِ والنمُوّ، كما يُعجِبُ الكفَّارَ المفتونينَ بزَهرَةِ الحياةِ الدُّنيا، ثمَّ يَتحرَّكُ ويَتَماوَجُ هذا الزَّرعُ حتَّى يَكبَرَ ويَشتَدّ، ثمَّ يَجِفّ، فتَراهُ مُصفَرًّا بعدَ اخضِرارٍ ونَضارَة، ثمَّ يَكونُ هَشيمًا يابِساً تَذرُوهُ الرِّياح، كما يَكونُ الإنسَانُ غَضًّا نَضِرًا في أوَّلِ عُمُرِه، ثمَّ يَكتَهِلُ ويَشِيخُ ويَضعُفُ حتَّى يَموت.

وينَتَهي أمرُ النَّاسِ في اليَومِ الآخِرِ إلى نَتيجَتين: إمَّا عَذابٌ مُؤلِمٌ شَـديد، لمنْ غفَلَ عنْ أمرِ ربِّه، فالتهَى بالدُّنيا وكفَر، وإمَّا مَغفِرَةٌ ورَحمَةٌ مِنَ اللهِ ورِضـــوان، لمنْ آمنَ باللهِ وأطاعَه. وما الحياةُ الدُّنيا إلاّ مُتعَةٌ وغُرور، لمنْ ركنَ إليها واغترَّ بها.

{سَـابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُـهَا كَعَرْضِ السَّـمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} (الحديد : ٢١)

٢١- تَنافَسـوا في عمَلِ الخَيرات، وسـارِعوا إلى ما يُقرِّبُكمْ إلى اللهِ ويَغفِرُ بهِ ذُنوبَكم، وإلى جنَّةٍ عَظيمَةٍ واسِعَة، عَرضُها كعَرضِ السَّماواتِ السَّبعِ والأرْض، هُيِّئتْ للمؤمِنينَ باللهِ ورسُلِه، وهذا فَضلٌ مِنَ اللهِ وعَطاءٌ منه، يُعطيهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ المؤمنين، واللهُ فَضلُهُ عَظيم، وخَيرُهُ عَميم.

{مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} (الحديد : ٢٢)

٢٢- ما حدَثَ في الأرْضِ مِنْ مُصيبَة، كقَحط، وطُوفان، وزِلزال، وغَيرِه، وفي أنفُسِكم: كهَمٍّ، ومرَضٍ، وفَقـدِ أولاد، وغَيرِه، إلاّ وهيَ مَكتوبَـةٌ في اللَّوحِ المحفوظِ قَبـلَ أنْ نَخلُقَ الخَلق. وهـذا سَهلٌ يَسيرٌ على الله، فعِلمُهُ مُحيطٌ بكلِّ شَيء، ما كان وما يكون.

{لِكَيْلَا تَأْسَـــوْا عَلَى مَا فَـاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} (الحديد: ٢٣)

٢٣- أعلَمناكمْ بذلكَ حتَّى لا تَحزَنوا وتأسَـفوا على شَـيءٍ فاتَكمْ مِنْ نَعيمِ الدُّنيا، فإنَّهُ لو قُدِّرَ لكمْ أمرٌ لكـان، وحتَّى لا تَفرَحوا وتَبطَروا بما أعطَيناكمْ منهـا، فإنَّما هوَ ممَّا قدَّرَهُ اللهُ لكمْ مِنْ رِزق، فاشـكُروهُ على ذلك، ولا تَفخَروا ولا تأشَـروا، فإنَّ اللهَ يبَغَضُ المتَكبِّرَ في نَفسِـه، المفتَخِرَ على غَيرِهِ بمالِهِ وجاهِه.

ذُكِرَ عنِ ابنِ عباسٍ رَضِــيَ اللهُ عَنهما قَولُه: ليسَ مِنْ أحدٍ إلاّ وهوَ يَحزَنُ ويَفرَح، ولكنَّ المؤمِنَ يَجعَلُ مُصيبتَهُ صَبرًا، وغَنيمتَهُ شُكرًا.

{الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} (الحديد : ٢٤)

٢٤- المختالونَ بالمالِ يبَخَلونَ بالنفقةِ في سَبيلِ الله، حتَّى يَتجمَّعَ عندَهمُ المالُ أكثَر، فيَزدَادونَ بطَرًا وطُغيانًا، ويحُضُّونَ النَّاسَ على البُخلِ كذلك، ويَصرِفونَهُمْ عنْ فعلِ الخَير، ومَنْ يُعرِضْ عنِ الإنفَاق، فإنَّ اللهَ غَنيٌّ عنْ نفقَتِه، ولا يَضرُّهُ الإعراضُ عنْ شُكرِه، وهوَ محَمودٌ في ذاتِه، غَنيٌّ عنْ حَمدِ النَّاس.

{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} (الحديد : ٢٥)

٢٥- لقدْ أرسَلنا رسُلَنا بالحُجَجِ والمعجِزات، والأدلَّةِ القاطِعات، وأنزَلنا الكتُبَ موحًى بها مِنْ عندِ الله، والعَدلَ، ليَحكُمَ النَّاسُ بالحقّ والعَدل.

وأنزَلنا الحَديدَ مِنَ السَّماء، فيهِ قوَّةٌ شَديدَة، تُصنَعُ منهُ آلاتُ الحَربِ القويَّة، وفيهِ مَنافِعُ أُخرَى للنَّاسِ في مَعايشِهمْ ومَصالحِهم، فيَدخُلُ في صِناعَةِ أشياءَ كثيرَة. وليَعلَمَ اللهُ مَنْ ينَصُرُ دينَهُ ورَسُولَه، ويُجاهِدُ أعداءَه، باستِعمالِ آلاتِ الحَربِ وغَيرِها، فهمْ يمَتثِلونَ أمرَهُ ولو لم يَرَوهُ تَعالَى، وهوَ القويُّ الذي لا يُغالَب، ينَصرُ مَنْ نَصَرَه.

هذا، وقدْ ثبتَ لدَى العُلَماءِ في هذا العَصرِ أيضًا، أنَّ الحديدَ أُنزِلَ إلى الأرْضِ مِنَ السَّماءِ إنزالاً كما وردَ في النصّ القُرآنيّ، وليسَ هوَ مِنْ مُكوَّناتِ الأرضِ الأصليَّة.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} (الحديد : ٢٦)

٢٦- ولقدْ أرسَلنا نُوحًا وإبراهيمَ إلى قَومِهما، وجعَلنا في نَسلِهما النبوَّة، وأنزَلنا عَليهمُ الكتُب، فمِنْ هذهِ الذرِّيَّةِ مَنْ هوَ مُهتَدٍ سالِكٌ طَريقَ الحقّ، وكثيرٌ منهمْ خارِجونَ عنِ الطَّريقِ المستَقيم.

{ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} (الحديد : ٢٧)

٢٧- ثمَّ أرسَلنا بَعدَهمْ رَسُولاً بعدَ رَسُول، وأتْبَعناهمْ بعيسَى عَليهِ السَّلام، وأنزَلنا عَليهِ الإنجيلَ - وليسَ هوَ الذي بينَ يدَي النَّصارَى اليَوم، فقدْ بدَّلوهُ وحرَّفوهُ - وجعَلنا في قُلوبِ الذينَ اتَّبَعوهُ مِنَ الحَوارِيِّينَ رِقَّةً وخَشيَة، ورَحمَةً بالخَلق، ورَهبانيَّةً اخترَعوها مِنْ عندِ أنفُسِهم، وهيَ المبالَغَةُ في العِبادَةِ والانقِطاعُ عنِ النَّاسِ والزُّهدُ في الدُّنيا، ما فرَضناها عَليهم، ولكنَّهمْ ألزَموا بها أنفُسَهمْ يَبتَغونَ بذلكَ رِضوانَ الله، فما حافَظوا عَليها، ولا قاموا بحقِّها، بلْ ضيَّعُوها، وضَلُّوا وأشرَكوا، ومنهمْ مَنْ أقامَ على الدِّينِ الحقّ، حتَّى جاءَ الإسلامُ فآمَنوا به، فآتَينا الذينَ آمَنوا منهمْ إيمانًا صَحيحًا وثبَتوا عَليهِ ثَوابَ إيمانِهم، وكثيرٌ منهمْ خارِجونَ عنِ الدِّينِ الحقّ، ممَّنْ ضَلُّوا سابِقًا وأشرَكوا، ومَنْ لم يؤمِنْ بنبوَّةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (الحديد : ٢٨)

٢٨- أيُّها المؤمِنون، اخشَوا اللهَ ولا تُخالِفوا أمرَه، واثبتُوا على الإيمَانِ بالرَّسُولِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم الذي أرسَلَهُ اللهُ إليكم، يؤتِكمْ أجرَينِ مِنْ عندِه: لإيمانِكمْ بالرسُلِ المتقَدِّمين، وبخاتَمِهمْ محمدٍ صلى الله عليهمْ أجمَعين، ويَزِدْكمْ نُورًا يَسعَى بينَ أيديكمْ تَمشُونَ بهِ يَومَ القيامَة، ويَغفِرْ لكم، واللهُ غَفورٌ لذُنوبِ عِبادِهِ التَّائبين، رَحيمٌ بالمؤمِنين.

{لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} (الحديد : ٢٩)

٢٩- لكي يَعلمَ أهلُ الكِتابِ الذينَ لم يؤمِنوا أنَّهمْ لا يَقدِرونَ على رَدِّ ما منحَهُ اللهُ عِبادَهُ المؤمِنين، وأنَّهُ لا أجرَ لهمْ ولا نَصيبَ في فَضلِ اللهِ ورَحمَتِهِ ما لم يُؤمِنوا برَسُولِهِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وأنَّ الرَّحمَةَ والخَيرَ كُلَّهُ بيدِهِ سُبحانَه، يؤتيهِ مَنْ يَشاءُ، واللهُ ذو الفَضلِ الكبير، والخَيرِ العَميم، والرَّحمَةِ الواسِعة.

الجزء الثامن والعشرون

سورة المجادلة

سورة الحشر

سورة الممتحنة

سورة الصف

سورة الجمعة

سورة المنافقون

سورة التغابن

سورة الطلاق

سورة التحريم

سورة المجادلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} (المجادلة : ١)

١- قدْ سَمِعَ اللهُ قولَ المرأةِ التي تُراجِعُكَ الكلامَ في شَأنِ زَوجِها، وقَولِهِ لها: "أنتِ عَليَّ كظَهرِ أُمِّي"، وتَشتَكي حالَها إلى اللهِ وتَقول: "يا رسُولَ الله، أكلَ شَبابي، ونثَرْتُ لهُ بَطني، حتَّى إذا كَبِرَتْ سِنِّي، وانقَطعَ ولَدي، ظاهرَ منِّي". واللهُ يَسمَعُ ما دارَ بينَكما مِنْ حِوارٍ بشَأنِ ذلك، إنَّ اللهَ يَسمَعُ جَميعَ الأصواتِ، وإنْ كانتْ خَفيَّة، ويُبصِرُ كلَّ شَيء، فلا يَخفَى عليهِ أمر.

{الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ} (المجادلة : ٢)

٢- والحقُّ أنَّ الذينَ يُظاهِرونَ مِنْ زَوجاتِهم، ويَقولُ أحدُهمْ لزَوجِه: أنتِ عليَّ كظَهرِ أُمِّي، لَسْنَ أُمَّهاتِهم، إنَّما أُمَّهاتُهمْ على الحقيقَةِ هُنَّ اللّائي ولَدْنَهم، فلا يَصِرْنَ بقَولِهِمْ هذا أُمَّهاتِهنّ، وما يَقولونَ مِنْ ذلكَ كلامٌ باطِلٌ شَرعًا وعَقلاً، وكذِبٌ لا يُطابِقُ الحقّ، وحَرامٌ قَولُه. واللهُ كثيرُ العَفوِ والمغفِرَةِ لذُنوبِ عِبادِه، إنْ تابوا وأصلَحوا، ولذلكَ شرَعَ لهمْ الكفَّارَة.

{وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} (المجادلة : ٣)

٣- والذينَ يُظاهِرونَ مِنْ زَوجاتِهم، ثمَّ يَعزِمونَ على العَودَةِ إلى وَطئِهنّ، فعَليهِمْ أنْ يَعتِقوا رقبَةً مِنْ قَبلِ الجِماع، ويَحرُمُ الوَطءُ قَبلَ التَّكفير. ذلكمْ ما تُزجَرونَ بهِ مِنَ ارتِكابِ المنكَرِ المذكُور، واللهُ عَليمٌ بظَواهِرِ أحوالِكمْ وبَواطنِها، خَبيرٌ بما يُصلِحُكم.

{فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (المجادلة: ٤)

٤- فمَنْ لم يَملِكْ رقَبةً يُعتِقُها ولا ثمَنَها، فعَليهِ أنْ يَصومَ شَهرَينِ مُتَتابِعَينِ قَبلَ الوطء، فمَنْ ضَعُفَ عنِ الصَّوم، لكِبَرٍ أو مرَض، فعَليهِ أنْ يُطعِمَ ستِّينَ مِسكينًا. وشرَعنا ذلكَ الحُكمَ لتتَّبِعوهُ وتَعمَلوا به، وتَتركوا ما كنتُمْ عَليهِ في جاهليَّتِكم، مِنْ كونِ المرأةِ تُطلَّقُ إذا ظاهرَها زَوجُها. وتلكَ الأحكامُ محارِمُ الله، فالزَموها ولا تتعدَّوها، ولمنْ كذَّبَ بها عَذابٌ شَديد.

{إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ} (المجادلة : ٥)

٥- إنَّ الذينَ يُعادُونَ اللهَ ورسُولَه، فيَكفُرونَ ويُحارِبونَ الدِّين، أُخزُوا ورُدُّوا مَخذولينَ كما فُعِلَ بأمثالِهِمْ مِنْ كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيَةِ مِنَ المعادِينَ للهِ ورسُلِه، وقدْ أيَّدنا الرسُلَ بمُعجِزاتٍ تَدلُّ على

صِدقِ ما جاؤوا به، وحُجَجٍ واضِحاتٍ لا يُخالِفُها إلاّ مُعانِدٌ مُستَكبِر، ولمِنِ استَكبرَ عنِ الإيمَانِ بتلكَ الآيات، ولم يتَّبعْ شَرعَ الله، عَذابٌ يُهينُهمْ ويُذِلُّهمْ في اليَومِ الآخِر.

{يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (المجادلة : ٦)

٦- يومَ يَبعَثُهُمُ اللهُ مِنْ قُبورِهم، ويَجمَعُهمْ كُلَّهمْ في صَعيدٍ واحِد، فيُحاسِبُهم، ويُخبِرُهمْ بما عَمِلوا مِنْ خَيرٍ وشرّ، وقدْ أحصَى اللهُ أعمالَهُمْ وحفِظَها عَليهم، ونَسُوا همْ ما عَمِلوه، واللهُ لا يَنسَى أمرًا، ولا يَغيبُ عَنهُ شَيء، بلْ هوَ شاهِدٌ يَسمَعُ كُلَّ ما تَقولون، ويُبصِرُ كُلَّ ما تَعمَلون.

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (المجادلة : ٧)

٧- ألمْ تَعلَمْ أنَّ اللهَ قدْ أحاطَ علمُهُ بجَميعِ الموجوداتِ التي في السَّماواتِ والأرْض، ما يَكونُ مِنْ إسرارِ ثَلاثَةٍ إلاّ وهوَ رابِعُهمْ بالعِلمِ به، ولا يَتناجَى خَمسَةٌ إلاّ وهوَ سادِسُهمْ بعِلمِه، ولا نَجوَى أقلَّ مِنْ ذلكَ ولا أكثَر، كالستَّةِ وما فَوق، إلاّ وهوَ يَسمَعُ سِرَّهمْ ويَعلَمُ ما يَجري بينَهم، في أيِّ مَكانٍ كانوا، ثمَّ يُخبِرُهمْ يَومَ الحِسابِ والجَزاءِ بما عَمِلوهُ في الحياةِ الدُّنيا، واللهُ عالِمٌ بكلِّ شَيء، لا يَخفَى عليهِ أمر.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (المجادلة : ٨)

٨- ألمْ ترَ إلى اليَهودِ الذينَ مُنِعوا مِنَ التَّناجي دونَ المؤمِنينَ فيما يَسوؤهم، ثمَّ يَرجِعونَ إلى المناجاةِ التي نُهوا عَنها، ويَتحدَّثونَ فيما بينَهمْ بما يَكونُ وَبالاً عَليهم، وفيهِ تعَدٍّ على المؤمنين، ومُخالفَةٌ لأمرِ الرسُولِ عَليهِ الصَّلاةِ والسَّلام؟

وإذا جاؤوكَ أسَاؤوا الأدبَ في إلقاءِ تَحِيَّتِهِمْ إليك، وحيَّوا بنَقيضِ ما أمرَ اللهُ به، وقالوا: "السَّامُ عَليك"، ويُسِـرُّ بَعضُـهمْ لبَعضٍ قائلين: هلاَّ يُعَذِّبُنا اللهُ بسـبَبِ ذلك، فلو كانَ محمَّدٌ نبيًّا حقًّا لأوحَى ربُّهُ بذلكَ وعذَّبَنا به؟ يَكفيهمْ نارُ جهنَّمَ عَذابًا ونَكالاً، التي يَصْـلَونَها ويُعَذَّبونَ فيها، وبئسَ المرجِعُ والمآلُ الذي يَصَيرونَ إليه، وقدْ جُمِعَ لهمْ فيهِ كلُّ عَذابٍ وشَقاء.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} (المجادلة : ٩)

٩- أيُّها المؤمِنون، إذا تَناجَيتُمْ في مَجالِسِكمْ وأنديَتِكم، فلا تَتناجَوا بما فيهِ إثمٌ وتعَدٍّ على حُقوقِ الآخَرين، ومُخالفَةٌ لسُـنَّةِ الرسُـولِ الكريمِ صـلى الله عليه وسـلم، كما يَفعَلُهُ اليَهودُ والمنافِقون، ولكنْ تَناجَوا وتَباحَثوا بما فيهِ خَيرٌ ومَنفَعَةٌ وإحسَان، واخشَوا اللهَ وانتَهُوا عمَّا نَهاكمْ عَنه، فإليهِ تُحشَرون، ليُحاسِبَكمْ على ما تَعمَلون.

{إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} (المجادلة : ١٠)

١٠- إنَّما التَّناجي بالإثمِ والعُدوان، أو بما يَشـعُرُ المؤمِنونَ أنَّهُ لسُـوءٍ بهم، هوَ مِنْ تَسـويلِ الشَّيطانِ وتَزيينِه، ليُحزِنَهمْ بذلك، ولنْ يَضُرَّ الشَّيطانُ أوِ التَّناجي المؤمِنينَ شَيئًا، إلاَّ بإرادَةِ اللهِ ومَشيئتِه، وعلى اللهِ فليَعتَمِدِ المؤمِنون، ولا يُبالوا بنَجواهُم.

وفي الحديثِ قَولُهُ صلى اللهُ عليهِ وسلم: "إذا كنتُمْ ثَلاثَةً فلا يَتناجَى اثنانِ دونَ صاحِبِهما، فإنَّ ذلكَ يُحزِنُه". رواهُ مُسلم.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} (المجادلة : ١١)

١١- أيُّها المؤمِنون، إذا قالَ لكمْ قائل: توَسَّعوا في المجالِس، فليَفسَـحْ بَعضُـكمْ لبَعضٍ فيها، فإنَّ اللهَ يُوَسِّعُ لكمْ في رَحمَتِهِ بكم، أو في مَنازِلِكمْ بالجنَّة.

عنِ ابنِ عمرَ رَضـيَ اللهُ عَنهما، عنِ النبيِّ صـلى الله عليه وسـلم، أنَّهُ "نَهَى أنْ يُقامَ الرَّجُلُ مِنْ مَجلسِهِ ويَجلِسَ فيهِ آخَر، ولكنْ تفسَّحوا وتَوسَّعوا". رَواهُ البخاريّ.

وإذا قيلَ لكمُ انهَضـوا إلى خَيرٍ فأجيبُوا ولا تَتكاسَـلوا، كالقيامِ إلى الصَّـلاة، والجِهاد، ومَجالسِ الخَير.

ولا تَظنُّوا أنْ تَكونَ إجابتُكمْ لِفعلِ خَيرٍ نَقصًـا في حقِّكم، بلْ هوَ فَضـيلَةٌ فيكم، فإذا فعَلتُمْ ذلـكَ فـإنَّ اللهَ يُثيبُكمْ على تَواضُـعِكمْ وامتِثالِكمْ لأمرِه، ويَرفَعُ الـذينَ آمَنوا منكمْ بطاعَتِهِمْ واسـتِجابَتِهمْ لأدَبِ الإسْـلام، والذينَ أُوتوا العِلمَ بفَضـلِ عِلمِهمْ وسـابقَتِهمْ وامتِثالِهِمْ أمرَ الله، درَجـاتٍ كبيرَة، تَكريمًا لهم. وأهلُ العِلمِ همْ أكثَرُ النَّاسِ مَعرفَةً بآدَابِ الإسْـلامِ وأحكـامِه، وتَعليمِها، والعمَلِ بها. واللهُ عَليمٌ بأحوالِكم، خَبيرٌ بما تُسِرُّونَ وتُعلِنون.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (المجادلة : ١٢)

١٢- أيُّها المؤمِنون، إذا أرَدتمُ المناجاةَ معَ الرسُـولِ صـلى الله عليه وسـلم[١٤٣] فتَصـدَّقوا قَبلَ ذلك، فإنَّ في ذلكَ ثَوابًا لكم، وهوَ أطهَرُ لقُلوبِكمْ وأزكَى لنفُوسِكم، فمَنْ عجَزَ عنْ ذلكَ فلا بأس، فإنَّ اللهَ يَغفِرُ لهُ ويَرحَمُه.

قالَ صاحبُ "روحِ المعاني": في هذا الأمرِ تَعظيمُ الرسُولِ صلى الله عليه وسلم، ونَفعٌ للفُقَراء، وتَمييزٌ بينَ المخلِصِ والمنافِق، ومُحِبِّ الدُّنيا ومُحِبِّ الآخِرَة، ودَفعٌ للتَّكاثُرِ عليهِ صـلى الله عليه وسلم مِنْ غَيرِ حاجَةٍ مُهِمَّة.

ثمَّ رُفِعَ أمرُ الوجُوبِ في هذهِ الصَّدَقَة، الذي لم يَدُمْ إلاّ ساعَةً مِنْ نَهار، ونُسِخَ بالآيَةِ التَّالية.

{أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} (المجادلة : ١٣)

---

(١٤٣) {نَاجَيْتُمُ} أي: يسارُّهُ فيما بينه وبينه. (ابن كثير).

١٣- هلْ خِفتُمْ منِ استِمرارِ وجُوبِ الصَّدقَةِ عليكمْ قَبلَ مُناجاةِ الرسُولِ صلى الله عليه وسلم، وخَشِيتُمْ مِنَ الفَقرِ لأجلِ ذلك؟ فإذا لم تَفعَلوا ما أُمِرتُمْ بهِ وشَقَّ ذلكَ عَليكم، وتابَ اللهُ عَليكم، ولم يُعاقِبْكمْ بتَركِ الصَّدَقَة، ورخَّصَ لكمُ المناجاةَ بدونِها، فاعمَلوا بما أمرَكمْ به، مِنَ المواظبَةِ على إقامَةِ الصَّلاة، وإعطاءِ حُقوقِ الفُقَراءِ والمحتاجينَ مِنْ زَكاةِ أموالِكم، وأطيعُوا اللهَ والرسُولَ في سائرِ الأوامِر، واللهُ عَليمٌ بأحوالِكم، خَبيرٌ بما تُسِرُّونَ وما تُعلِنون.

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (المجادلة : ١٤)

١٤- ألَمْ تنظُرْ إلى المنافِقينَ الذينَ يَقولونَ إنَّهُمْ معَكم، وقدْ والَوا اليَهودَ الذينَ غَضِبَ اللهُ عَليهم، وناصَحوهم ونقَلوا أسرَارَ المؤمِنينَ إليهم؟ فهمْ ليسُوا منكمْ في الدِّينِ والوِلايَة، ولا مِنَ اليَهودِ والكافِرين، بلْ همْ مُذَبذَبونَ بينَ هؤلاءِ وهؤلاء، ويُقسِمونَ على أمرٍ كذِب، وهمْ يَعلَمونَ أنَّ ما أقسَموا عَليهِ كذِبٌ وبُهتان.

{أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (المجادلة : ١٥)

١٥- هيَّأ اللهُ لهمْ عَذابًا مؤلِمًا بسَبَبِ صَنيعِهِمُ السيِّءِ هذا، ومُوالاتِهِمْ لأعداءِ الدِّين، ومُعاداتِهِمْ للمؤمنينَ وغِشِّهِمْ لهم.

{اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ} (المجادلة : ١٦)

١٦- لقدْ أظهرَ المنافِقونَ الإيمَانَ وأسَرُّوا الكُفر، واتَّخَذوا الحَلِفَ بالكذِبِ عندَ الحاجَةِ وقايةً وسِترًا لهمْ عنِ المؤاخذَةِ والمحاسَبَة، وظنَّ مَنْ لم يَعرِفْهمْ واغترَّ بهمْ أنَّهمْ صادِقون، فقدْ كانَ المنافِقُونَ يَحُثُّونَ على العِصيان، ويَمنَعونَ مِنَ الجِهادِ بالمالِ والنَّفس، فلهمْ عَذابٌ يُهينُهمْ ويُخزيهمْ يَومَ القِيامَةِ بسبَبِ ذلك.

{لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (المجادلة : ١٧)

١٧- لنْ يَنفعَ المنافِقينَ شَيءٌ مِمَّا جمَعوهُ مِنْ أموَال، وشيَّدوهُ مِنْ قُصور، ولنْ يَستَطيعَ أولادُهمْ وذَراريهمْ أنْ يَمنَعوا عَنهمْ بأسَ اللهِ وعَذابَه، وسيَكونُ مَصيرُهمْ إلى النَّارِ المحرِقَة، التي تأتي على وجوهِهمْ وأفئدَتِهم، خالدينَ فيها أبدًا.

{يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ} (المجادلة : ١٨)

١٨- يَحشرُهمُ اللهُ جَميعًا يومَ القِيامَة، فيَحلِفونَ لهُ كاذِبينَ أنَّهمْ كانوا على إيمَانٍ واستِقامَة، وأنَّهمْ لم يَكونوا مُشرِكين، كما كانوا يَحلِفونَ لكمْ في الدُّنيا أنَّهمْ مُسلِمونَ مثلَكم، ويَظنُّونَ أنَّ الحَلِفَ الكاذِبَ سيَنفَعُهمْ في الآخِرَةِ ويَدفَعُ عَنهمُ العَذابَ كما كانوا يَتخلَّصونَ بهِ مِنَ المؤاخذَةِ في الدُّنيا، واللهُ يَعلَمُ كذِبَهم، فلا يَخفَى عَليهِ حالُ المنافِقينَ، وما يُسِرُّونَ بهِ أو يُعلِنون.

{اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} (المجادلة : ١٩)

١٩- غلبَ على قُلوبِهمُ الشَّيطان، واستَولَى على عُقولِهمْ بوَسوَسَتِهِ وكَيدِهِ حتَّى وافَقوهُ واتَّبَعوه، فأنساهُمْ ذِكْرَ اللهِ بما زيَّنَ لهمْ مِنَ الشَّهواتِ وألهاهُمْ بهِ مِنَ الدُّنيا وزينَتِها، فأولئكَ جُنودُ الشَّيطانِ وأتباعُه، ألَا إنَّ أتْباعَهُ همُ الخاسِرونَ المغبونون، الذينَ فوَّتوا على أنفُسِهمُ النَّعيمَ المقيم، واستَعاضُوا بهِ العَذابَ الأليم.

{إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ} (المجادلة : ٢٠)

٢٠- إنَّ الذينَ يُعادُونَ اللهَ ورسُولَه، ويُحارِبونَ الدِّينَ الحقَّ وأهلَه، أولئكَ مِنَ الأشْقياءِ المهانينَ في الحيَاةِ الدُّنيا وفي الآخِرَة.

{كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} (المجادلة : ٢١)

٢١- قضَى اللهُ وحكَمَ أنَّ النُّصرَةَ للهِ ورسُلِه، بالحُجَّةِ والدَّليل، وبالجِهادِ والقِتال، وقدْ أهلكَ اللهُ أقوامًا مِنَ الذينَ كذَّبوا أنبياءَهمْ وكفَروا برِسالاتِ ربِّهم، واللهُ قَويٌّ على نَصرِ رسُلِه، عَزيزٌ غالِبٌ على أعدَائه.

{لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (المجادلة : ٢٢)

٢٢- لا تَجِدُ أحدًا مِنَ المؤمِنينَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ - بصِدقٍ وإخلاصٍ - يُوالُونَ ويُصادِقونَ أعداءَ اللهِ ورَسولِه، ولو كانَ هؤلاءِ الأعداءُ آباءَهم، أو أبناءَهم، أو إخوانَهم، أو قَبيلتَهمْ وعَشيرتَهم، أو أيًّا مِنْ أقارِبِهم، فالعَقيدَةُ أهَمُّ مِنَ النَّسَب، ومَنْ وَالاهمْ فهوَ معَهمْ يَومَ القيامَة. والذينَ لا يُوادُّونَهمْ ولو كانوا أقرِباءَهم، فأولئكَ الذينَ أثبتَ اللهُ في قُلوبِهِمُ الإيمانَ وزيَّنَهُ لهم، فهمْ مُوقِنونَ مُخلِصون، وقَوَّاهمْ بروحٍ مِنْ عِندِه[١٤٤]، ليَحصُلَ لهُمُ الطُّمأنينَةُ والثَّباتُ على الإيمَانِ والعمَلِ الصَّالح، ويُدخِلُهمُ اللهُ جَنَّاتٍ عالياتٍ واسِعات، تَجري في خِلالِها أنهَارٌ مِنْ مَاءٍ زُلال، ومِنْ لبَن، وعسَل، وخَمرٍ لَذيذٍ لا يُسكِر، مُخلَّدينَ فيها أبدًا، رَضيَ اللهُ عَنهمْ بطاعَتِهمْ له، فأثابَهُمُ النَّعيمَ المقِيم، ورَضُوا عَنهُ بما آتاهُمْ مِنَ الجنَّةِ والرِّضوان، أولئكَ عِبادُ اللهِ مِنْ أهلِ كرامَتِه، ألَا إنَّ عِبادَ اللهِ المؤمِنينَ المطيعين، همُ السُّعَداءُ الفَائزون.

---

(١٤٤) {وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ}: قوَّاهم بنصرٍ منه. قالَ الحسن: سمَّى نصرَهُ إيّاهم (روحاً) لأن أمرَهم يحيا به. وقالَ السدِّي: يعني بالإيمان. وقالَ الربيع: يعني بالقرآنِ وحجَّته، كما قال: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا} [سورة الشورى: ٥٢]، وقيل: برحمةٍ منه. وقيل: أمدَّهم بجبريلَ عليه السلام. (البغوي).

الروحُ هنا ما به كمالُ نوعِ الشيء، من عملٍ أو غيره، وروحٌ من الله: عنايتهُ ولطفه. (التحرير والتنوير).

سورة الحشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (الحشر : ١)

١- نزَّهَ اللهَ ووَحَّدَهُ كُلُّ المخلوقاتِ في السَّماواتِ والأرْض، وهوَ الغالِبُ الذي لا يُغلَب، الحكيمُ فيما يَشْرَعُ ويُقدِّر.

فالمخلوقاتُ كلُّها مُسَبِّحةٌ مُقَدِّسَةٌ لذاتِهِ سُبحانَهُ وتَعالَى، قَولاً وفِعلاً، طَوْعًا وكَرْهًا، بلسانِ الحال، أو بلسانِ المقال {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [سورة الإسراء: ٤٤].

{هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ} (الحشر : ٢)

٢- لما قَدِمَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم المدينةَ هادَنَ بَني النَّضيرِ مِنَ اليَهود، وأعطاهُمْ عَهدًا وذِمَّةً أنْ لا يُقاتِلَهمْ ولا يُقاتِلوه، ولكنَّهمْ نقَضوا العَهد، وناصَروا قُرَيشًا ضدَّ المسلِمين، فأحلَّ اللهُ بهمْ بأسَه، وأخرجَهمْ مِنْ حُصونِهِمُ الحَصينَة...

اللهُ الذي أخرَجَ الذينَ كفَروا مِنْ يَهودِ بَني النَّضيرِ مِنْ ديارِهمْ بالمدينَة، في أوَّلِ حَشرِهمْ وإخراجِهمْ إلى الشَّام. فكانَ هذا أوَّلَ إجلاءٍ لهمْ مِنْ جَزيرَةِ العَرب، ثمَّ أجلَى آخِرَهمْ عُمَرُ بنُ الخطَّابِ رَضيَ اللهُ عنه. ما ظنَنتُمْ أيُّها المسلِمونَ عندَ حِصارِكِمْ لهمْ أنْ يَخرُجوا مِنْ حُصونِهمُ

المنِيعَةِ بسُهولَة، لشدَّةِ بأسِهمْ وكثرَةِ عددِهمْ وعُدَّتِهم، وظَنُّوا همْ أنَّ حُصونَهُمُ القويَّةَ تَمنَعُهمْ مِنْ بأسِ الله، فجاءَهمْ أمرُهُ بما لم يَخطُرْ لهمْ ببَال، وقذفَ في قُلوبِهِمُ الهلعَ والخَوفَ الشَّديد، وصَاروا يُخرِبونَ ما في بُيوتِهِمْ لئلاَّ يَستَفيدَ منها المسلِمون، وليَنقُلوا ما يَقدِرونَ عليهِ معَهم، ويُخرِبُها المؤمِنونَ مِنَ الخارِج، ليُوهِنوهُمْ ويَدخُلوا عَليهم. فاتَّعِظوا يا أهلَ العُقولِ والبَصائر، وتَفكَّروا في عاقِبَةِ مَنْ خالفَ أمرَ اللهِ ورسُولِهِ كيفَ يَحِلُّ بهمْ بأسُه، وما أُعِدَّ لهمْ مِنَ العَذابِ في الآخِرَةِ أكبرُ وأفظَع.

{وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ} (الحشر : ٣)

٣- ولولا أنَّ اللهَ قضَى بجَلاءِهمْ وإخراجِهمْ مِنْ ديارِهِمْ وأموالِهم، لعذَّبَهمْ في الدُّنيا بالقَتلِ والسَّبي، كما فعلَ بإخوانِهِمْ بَني قُرَيظَة، ولهمْ في الآخِرَةِ عَذابٌ شَديد.

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} (الحشر : ٤)

٤- ذلكَ بأنَّهُمْ خالَفوا أمرَ اللهِ وعادَوا رَسولَه، ومَنْ يُخالِفْ أمرَ الله، فإنَّ عِقابَهُ شَديد، وعَذابَهُ أليم.

{مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} (الحشر : ٥)

٥- ما قطَعتُمْ مِنْ نَخلَةٍ مِنْ نَخيلِهم، أو أبقَيتُموها كما كانت، فبإذنِ اللهِ ومَشيئتِه، وليُذِلَّ اليَهودَ الكافِرينَ ويُرغِمَ أُنوفَهمْ ويُنزِلَهُمْ مِنْ حُصونِهِم.

{وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (الحشر : ٦)

٦- وما ردَّ اللهُ على رسُولِهِ مِنْ أموالِ يَهودِ بَني النَّضيرِ ولم تُوَزَّعْ على المجاهِدينَ منكم، فلأنَّكمْ لم تُقاتِلوا الأعدَاء، ولم تُسرِعوا بخَيلٍ وإبِلٍ وتُلاحِقوهمْ في مَعرَكة، فأفاءَها اللهُ على رسُولِهِ صلى الله عليه وسلم، فتصرَّفَ فيها كما شاء، وردَّها على مَصالحِ المسلِمين.
واللهُ يُسَلِّطُ رسُلَهُ على مَنْ يَشاءُ مِنْ أعدَائه، وقدْ سَلَّطَ اللهُ رَسولَهُ محمَّدًا صلى الله عليه وسلم على هؤلاءِ اليَهودِ الذينَ خالَفوا العَهد، فأذلَّهم، واللهُ قَديرٌ على ما يِشاء، لا يُغلَبُ ولا يُقهَر.

{مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} (الحشر : ٧)

٧- وما أعادَهُ اللهُ على رسُولِهِ مِنْ جَميعِ البُلدانِ التي تُفتَحُ هكذا، مِنْ دونِ قِتالٍ يُذكَر، فحُكمُهُ حُكمُ أموَالِ بَني النَّضير: يُقسَّمُ خَمسةَ أخمَاس: خُمُسٌ للهِ ورسُولِه، فيَصرِفُهُ كما يَشاءُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام، وخُمُسٌ لذوي قَرابَتِهِ صلى الله عليه وسلم، والمراد: بَنو هاشمٍ وبَنو عبدِالمطَّلِب، وخُمُسٌ لليَتامَى الذينَ فَقَدوا آباءَهمْ وهمْ مازالُوا صِغارًا، وخُمُسٌ للمسَاكينِ والمحتاجين، وخُمُسٌ لابنِ السَّبيلِ المنقَطِعِ في سفَرِهِ مِنَ المسلِمين، حتَّى لا يَكونَ الفَيءُ مُتَداوَلاً بينَ الأغنياءِ منكمْ خاصَّةً (حيثُ كانَ الرُّؤساءُ والأغنياءُ يَحوزونَ الغَنيمةَ دونَ غَيرِهم)، فيَستأثِرونَ بهِ ولا يَصرِفونَهُ إلى الفُقَراء.
وما أمرَكمُ الرسُولُ بهِ فافعَلوه، وما نَهاكمْ عنهُ فاجتَنِبوه، واخشَوا اللهَ وابتَعِدوا مِنْ مُخالَفتِه، واللهُ شَديدُ العِقابِ لمنْ عَصاهُ وخالفَ أمرَه.
قالَ ابنُ الجوزيّ في "النَّواسخ": اختلفَ العُلماءُ فيما يُصنَعُ بسَهمِ الرسُولِ صلى الله عليه وسلم بعدَ وفاتِه، فقالَ قَوم: هوَ للخَليفَةِ بعدَه، وقالَ قَوم: يُصرَفُ في المصَالح، فعلَى هذا تَكونُ هذهِ الآيَةُ مُبيِّنةً لحُكمِ الفَيء، والتي في الأنفالِ مُبيِّنةً لحُكمِ الغَنيمة، فلا يَتوجَّهُ النَّسخ.
ويُراجَعُ تَفسيرُ الآيةِ (٤١) مِنْ سُورةِ الأنفالِ لمعرِفةِ الفَرقِ بينَ الفَيءِ والغَنيمة، وتَقسيمِهما.

{لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} (الحشر : ٨)

٨- فيَكونُ الفَيءُ للفُقَراءِ مِنَ المهاجِرين، الذينَ أخرجَهمْ كفَّارُ مكَّةَ مِنْ ديارِهِمْ وأموالِهم، وهمْ يَطلبونَ مِنَ اللهِ رِزقًا في الدُّنيا ومَرضاةً في الآخِرَة، ويَنتَصِرونَ لدِينِ اللهِ ويُطيعُونَ رَسولَه، فأولئكَ همُ الصَّادِقونَ في إيمانِهِمْ حقًّا.

{وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُــدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (الحشر : ٩)

٩- والأنصــارُ الذينَ اتَّخَذوا دارَ الهجرَةِ مَنزِلاً وسَــكنًا قَبلَ المهاجِرين، وآمَنوا قَبلَ كثيرٍ منهم، يُحبُّونَ إخوانَهُمُ الذينَ هاجَروا إليهم، ويُواسُــونَهم، ولا يَتبرَّمونَ مِنْ حَوائجِهم، ولا يَجدونَ في نفُوسِهِمْ حَسدًا لهمْ ممَّا أُعطُوا مِنْ فَيءٍ وغَيرِه، ويُفَضِّلونَهُمْ على أنفُسِهِمْ في كُلِّ شَيء، ولو كانَ بهِمْ حاجَة، ومَنْ مَنعَ نَفسَهُ مِنَ البُخلِ والحِرصِ على المال، فقدْ أفلحَ وفاز.

وفي حديثِ جابرٍ المرفوعِ قَولُهُ صلى الله عليه وسلم: "واتَّقوا الشُّحّ، فإنَّ الشُّحَّ أَهلَكَ مَنْ كانَ قَبلَكم، حملَهمْ على أنْ سفَكوا دِماءَهم، واستَحلُّوا محَارِمَهم". رَواهُ مُسلم.

والشُّحُّ أشَدُّ البُخل، وأبلَغُ في المنعِ مِنَ البُخل. وفيهِ أقوالٌ أخرى ذكرَها النَّوَويُّ في شَرحِهِ على صَحيحِ مُسلم.

{وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} (الحشر : ١٠)

١٠- والذينَ جاؤوا بعدَ المهاجرينَ والأنصَــار، واتَّبَعوا آثارَهمُ الحسَــنة، يَقولونَ في دُعائهِمُ الطيِّبِ ما تَفسيرُه: ربَّنا اغفِرْ لنا ذُنوبَنا، ولإخوانِنا في الدِّين، الذينَ سبَقونا بفَضيلَةِ الإيمَانِ بكَ وبرَسُــولِك، ولا تَجعَلْ في قُلوبِنا حسَــدًا وبُغضًــا للَّذينَ آمَنوا، ربَّنا إنَّكَ كثيرُ الرَّحمَةِ بالنَّاس، قدْ وَسِعَتْ رَحمَتُكَ كُلَّ شَيء.

{أَلَمْ تَر إِلَى الَّـذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّـذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْـلِ الْكِتَـابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُـــرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْـــهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} (الحشر : ١١)

١١- ألَمْ تَنظُرْ إلى المنافِقينَ كيفَ يَتصرَّفون، ويَقولونَ لإخوانِهِمْ في العَقيدَةِ مِنَ الكافِرينَ اليَهود: لئنْ أُخرِجْتُمْ مِنْ ديارِكِمْ بالمدِينةِ لنَخرُجَنَّ مِنها معَكم، ونَصـــحَبَكمْ أينَما ذهَبتُم، ولنْ نَســـمَعَ كلامَ أحَدٍ في غَيرِ مَصلحتِكمْ أبدًا، وإذا قاتلَكمْ أحَدٌ فسنُعينُكمْ على عَدوِّكم. واللهُ يَشهَدُ إنَّ المنافِقينَ كاذِبونَ فيما قالُوا ووعَدوا به.

{لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُـرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَـرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ} (الحشر : ١٢)

١٢- ولو أنَّ اليَهودَ أُجْلُوا مِنْ ديارِهِمْ لما خرَجَ المنافِقونَ معَهم، ولو قُوتِلوا فلنْ يُدافِعوا عَنهم، ولو قاتَلوا معَهمْ فسيَنهَزِمونَ شرَّ هَزيمة، ثمَّ لنْ يُدافِعَ عنهمْ أحد، بلْ يُهلِكُهمُ الله.

{لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ} (الحشر : ١٣)

١٣- إنَّكمْ أيُّها المســـلمونَ أكثَرُ خَوفًا في صُـــدورِهِمْ مِنَ اللهِ تَعالَى، وهذا لأنَّهمْ لا يَعلَمونَ عَظمَةَ اللهِ ليَخشَوهُ حقَّ الخَشيَة.

{لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَـدِيدٌ تَحْسَـبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ} (الحشر : ١٤)

١٤- ومِنْ جُبْنِ اليَهودِ أنَّهمْ لا يَبرُزونَ لقِتالِكمْ مُجتَمِعينَ مُتَّفِقينَ في مَكانٍ مُعيَّن، إلاّ مُتحَصِّنينَ في قُرًى، أو مُتسَـتِّرينَ وَراءَ جُدران. عَداوَةُ بَعضِـهِمْ لبَعضٍ شَـديدة، تَحسَـبُهمْ ظاهِرًا مُجتَمِعينَ ذَوي أُلفَةٍ واتِّحاد، بينَما قُلوبُهمْ مُتفَرِّقَةٌ مُختلِفَة، فبينَهمْ عَداواتٌ وأحقَاد، فلا يَتَعاضَـدون، ذلكَ بأنَّهمْ لا يَتدَبَّرونَ سبَبَ الاتِّفاق، وهوَ الإيمَان، والعَقيدَةُ الصَّحيحة، التي تؤلِّفُ بينَ القُلوب.

{كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (الحشر : ١٥)

١٥- ومثَلُ يَهودِ بَني النَّضيرِ كمثَلِ الذينَ مِنْ قَبلِهمْ مِنْ مُشرِكي مكَّة، الذينَ ذاقُوا سُوءَ عاقبَةِ كُفرِهِمْ منذُ زمَنٍ قَريبٍ ببَدر، أو كمَثَلِ بَني قَينُقاع، الذينَ أجلاهمُ الرسُـــولُ صــــلى الله عليه وسلم قَبلَهم. ولهمْ يومَ القِيامَةِ عَذابٌ أشَدُّ وأبقَى.

{كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} (الحشر : ١٦)

١٦- مثَلُ اليَهودِ في اغتِرارِهِمْ بوعُودِ المنافِقينَ وخِذلانِهِمْ لهم، كمثَلِ الشَّـــيطان، إذْ أغرَى الإنسَانَ وزيَّنَ في نَفسِهِ العِصيان، وقالَ له: اكفُرْ فلنْ يَضُرَّكَ هذا. فلمَّا كفَر، قالَ لهُ الشَّيطان: إنَّني أتَبرَّأُ منك، حتَّى لا أُشارِكَكَ في العَذاب، إنّي أخافُ عُقوبةَ الله، واللهُ شَديدُ العَذاب.

{فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ} (الحشر : ١٧)

١٧- فكانَ مَصيرَ الإنسَانِ الضَّالِّ والشَّيطانِ المضِلّ، أنَّهما في نارِ جهنَّم، خالدَينِ فيها أبدًا، وهذا جَزاءُ مَنْ ظلَمَ نَفسَهُ وخرَجَ عنِ الحقّ.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} (الحشر : ١٨)

١٨- أيُّها المؤمِنون، أطِيعُوا اللهَ ولا تُخالِفوا أمرَه، ولتَنظُرْ كلُّ نَفسٍ ما ادَّخرَتْ لها مِنَ الأعمَالِ الصّالِحةِ ليَومِ العَرضِ والحِساب، واتَّقوا اللهَ في كُلِّ ما تأتونَ وما تذَرون، وأطيعُوهُ فيما أمرَكمْ بهِ وما نَهاكمْ عنه، واللهُ عَليمٌ بأعمالِكم، خَبيرٌ بأحوالِكم، لا يَخفَى عليهِ أمر.

{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (الحشر : ١٩)

١٩- ولا تَكونوا كالذينَ ترَكوا أمرَ اللهِ وطاعتَهُ ولم يُراعُوا حُقوقَه، فأنسَـاهمُ الأعمالَ الصَّـالحةَ ليَنفَعوا بها أنفُسَهمْ يومَ الحِساب، أولئكَ الخارِجونَ عنْ طاعَةِ الله، الخاسِرونَ يَومَ المعاد.

{لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} (الحشر : ٢٠)

٢٠- لا يتَساوَى أهلُ النَّارِ مِنَ الكافِرين، وأهلُ الجنَّةِ مِنَ المؤمِنين، فالكافِرونَ يَفعَلونَ الشـرّ، ويَرتَكبونَ المَعَاصي والذُّنوب، ويَتعاوَنونَ على الإثمِ والعُدوان، ويَظلِمون، ويُفسِدون. والمؤمِنونَ يَفعَلونَ الخَير، ويُطيعونَ اللهَ فيما أمرَهم، ويَتعاوَنونَ على البرِّ والتَّقوَى، ويَنشُرونَ العَدل، ويَدعُونَ إلى الحقّ؛ فهمُ النَّاجونَ مِنَ النَّار، الفائزونَ بِرضَى اللهِ وجنَّتِه. أمَّا الكافِرون، فعَليهِمْ غضَبُ الله، ويَحِلُّ بهِمْ عَذابُهُ يَومَ الحِساب.

{لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} (الحشر : ٢١)

٢١- لو أنزَلنا هذا القُرآنَ العَظيمَ الشَّأنِ على جبَل، وفهِمَهُ وتدبَّرَه، لرأيتَهُ خائفًا مُرتَعِدًا مُتَشقِّقًا عندَ سَماعِه، لِما فيهِ مِنَ التَّرغيبِ والتَّرهيب، والوَعدِ والوَعيد، على الرَّغمِ مِنْ صَلابَةِ الجبَلِ وقَساوَتِه. ونَضرِبُ هذا المَثَلَ وأشباهَهُ للنَّاس، لِيَتفَكَّروا ويَتَدَبَّروا، ويَعتَبِروا ويؤمِنوا، ويَعمَلوا ويَخشَعوا. فكيفَ لا يَتدَبَّرُ الإنسانُ هذا القُرآنَ وهوَ كلامُ اللهِ العَليمِ الجَليل، وقدْ أكرمَهُ اللهُ بالعَقلِ لِيَفهمَ ويَتدبَّر؟ وكيفَ لا يَخشَعُ لهُ وهوَ لا يأمرُهُ إلاّ بخَير، ولا يَنهاهُ إلاّ عنْ شرّ؟

{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} (الحشر : ٢٢)

٢٢- هوَ اللهُ الواحِدُ الذي لا شَريكَ له، ولا مَعبودَ بحقٍّ سِواه، الذي يَعلَمُ جَميعَ المخلوقاتِ المشاهَداتِ لنا والغائباتِ عنَّا، فلا يَخفَى عَليهِ صَغيرٌ ولا كَبير، في الأرْضِ ولا في السَّماء، هوَ ذو رَحمَةٍ عَظيمَةٍ في الدُّنيا وفي الآخِرَة، قدْ وسِعَتْ رَحمَتُهُ كُلَّ شَيء.

{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} (الحشر : ٢٣)

٢٣- هوَ اللهُ الواحِدُ الأحَد، فلا شَريكَ له.

مالِكُ جَميعِ الأشياءِ والمتصَرِّفُ فيها وَحدَه.

القُدُّوسُ: الطَّاهِرُ المنزَّهُ عمَّا لا يَليقُ به، فلهُ الأسماءُ الحُسنَى والصِّفاتُ العُلا.

السَّــلامُ: الذي يُعطي السِّــلمَ والأمانَ لعِبادِهِ المؤمِنينَ المتَّقينَ فلا يُعَذِّبُهم. أو الســالِمُ مِنْ كُلِّ عَيبٍ وآفَة.

المؤمِنُ: الذي صـدَّقَ رسُـلَهُ فيما بلَّغوهُ عنه، إمَّا بالوَحي المنزَّلِ عَليهم، أو بتَأييدِهِمْ بالمعجِزاتِ والأدلَّة.

المهَيمِنُ: الحافِظُ لكُلِّ شَيء. أو الرَّقيبُ والشَّاهِدُ على خَلقِهِ بأعمالِهم.

العَزيزُ: الذي غلبَ كُلَّ شَيءٍ وقهَرَه. أو الذي لا مَثيلَ له.

الجبَّارُ: العَظيمُ الذي لا يُنالُ ولا يُنافَسُ في فِعلِه.

المتكبِّرُ: الذي لا يَليقُ الكبرياءُ إلاّ بعظمَتِه، فلا يُشـرِكُهُ في صِـفَةِ الكبرياءِ أحَدٌ مِنْ خَلقِه، لأنَّ صِــفَةَ المخلوقِ التَّواضُــعُ والتَّذَلُّل، واللهُ مُتَكبِّرٌ ومُتَعالٍ على خَلقِهِ بصِــفاتِهِ العَظيمَةِ التي لا يُشــارِكُهُ فيها الخَلق. وقالَ بَعضُــــهم: المتكبِّرُ عمَّا لا يَليقُ به، المنزَّهُ عنْ جَميعِ العُيوبِ والظُّلمِ والسُّـــوء. أو المتَكبِّرُ على عُتاةِ خَلقِهِ إذا نازَعُوهُ العَظمَة، فيَقصِــمُهم. يَقولُ الفَخرُ الرازيُّ ما مُختصَرُه: "المتَكبِّرُ" في حقِّ الخَلقِ اسمُ ذَمّ، لأنَّ المتَكبِّرَ هوَ الذي يُظهِرُ مِنْ نَفسِهِ الكِبْر، وذلكَ نَقصٌ في حقِّ الخَلق، لأنَّهُ ليسَ لهُ كِبْرٌ ولا عُلوّ، بلْ ليسَ لهُ إلاّ الذِّلَّةُ والمسـكنَة، فإذا أظهرَ العُلوَّ كانَ كاذِبًا، فكانَ ذلكَ مَذمُومًا في حقِّه. وأمَّا الحقُّ سُــبحانَه، فلهُ جَميعُ أنواعِ العُلوِّ والكبرياء، فإذا أظهرَهُ فقدْ أرشدَ العِبادَ إلى تَعريفِ جَلالِهِ وعلوِّه، فكانَ ذلكَ في غايَةِ المدحِ في حَقِّهِ سُبحانَه. اهـ.

تَنزَّهَ اللهُ وتقدَّسَ عنْ إشراكِ المشرِكين، وأقوالِ الكافِرين.

{هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (الحشر : ٢٤)

٢٤- هوَ اللهُ الخالقُ: الذي أوجدَ الأشياءَ وأبدَعَها مِنْ غَيرِ احتِذاءٍ بمِثالٍ سابِق.

البارِئُ: الذي قدَّرَ الأشياءَ وأبرزَها إلى الوجودِ مِنَ العدَم.

المصَـوِّرُ: الذي أوجدَ صُـورةَ المخلوقاتِ وكيفيَّاتِها كما أرَاد، ليُميِّزَ بَعضَـها عنْ بَعضٍ بسِـماتٍ ومَلامِحَ مُعيَّنة.

لهُ أحسَنُ الأسماءِ وأجَلُّها، لأنَّها تُنبِئُ عنْ أحسَنِ المعاني وأشرَفِها.

يُسَبِّحُ لهُ كلُّ مَخلوقٍ في الأرْضِ وفي السَّماء، ويُنَزِّهُهُ عنْ كُلِّ نَقصٍ وعَيب، ولو لم نَفقَهْ تَسبيحَ بعضِ المخلوقات. وهوَ الغالِبُ الذي لا يُقهَرُ في مُلكِه، الحَكيمُ فيما يَخلقُ ويُقَدِّرُ ويَشرَع.

سورة الممتحنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ} (الممتحنة : ١)

١- لما عزَمَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم على فَتحِ مكَّة، عَمَدَ الصَّحابيُّ حاطِبُ بنُ أبي بَلتَعةَ فكتبَ كتابًا إلى بَعضِ المشرِكينَ يُخبِرُهمْ ببَعضِ أمرِ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وأرسلَهُ معَ امرأة، فأُخْبِرَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بذلكَ وَحيًا، فبَعثَ عليًّا والزُّبَيرَ والمِقدادَ رَضيَ اللهُ عَنهمْ ليَأخُذوهُ منها، ثمَّ بعثَ إلى حاطِبٍ يَسألُهُ عنْ سبَبِ ما فَعلَه، فذكرَ أنَّهُ كانَ لخَوفٍ على قَراباتِهِ بمكَّة، ليتَّخِذَ عندَ المشرِكينَ يَدًا بذلك، فلا يُؤذُوهُم، وليسَ رِضًى بالكُفر. فنزَلَتِ الآيَة.

أيُّها المؤمِنون، لا تتَّخِذوا عَدوِّي وعدوَّكمْ مِنَ الكافِرينَ أصدِقاءَ تُوالُونَهم، تَمُدُّونَ إليهمْ يدَ المحبَّةِ والتَّقارُب، وقدْ كفَروا بالقُرآنِ الموحَى بهِ مِنْ عندِ الله، يُخرِجونَ الرسُولَ وإيَّاكمْ مِنْ بينِ أظهُرِهم، لا لشَيءٍ إلاّ لإيمانِكمْ بربِّكمْ وإخلاصِكمُ العِبادَةَ لهُ وَحدَه، فلا تتَّخِذوهمْ أصدِقاءَ إنْ كنتُمْ خرَجتُمْ مُجاهِدينَ في سَبيلي تبتَغونَ مَرضاتي، تُشعِرونَهمْ بالمودَّةِ سِرًّا وأنا أعلَمُ بما أخفَيتُموهُ في صُدورِكمْ وما أظهَرتُموهُ بألسِنَتِكم، ومَنْ يَفعَلْ ذلكَ منكمْ فقدْ أخطأَ طَريقَ الهُدَى وانحَرفَ عنِ الصَّواب.

{إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ} (الممتحنة : ٢)

٢- إنَّهُمْ إنْ يَظفَروا بكمْ يُبرِزوا لكمْ عَداوتَهُمْ وحِقدَهم، ويَقتُلوكمْ ويأسِروكمْ ويَشتُموكم، وأحَبُّوا أنْ تَرتَدُّوا إلى الكُفرِ ولا تَنالوا خَيراً.

{لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (الممتحنة: ٣)

٣- لنْ يَنفعَكمْ أقارِبُكمْ ولا أولادُكمُ الذينَ تُوالُونَ المشرِكينَ لأجلِهمْ إذا أرادَ اللهُ بكمْ سُوءًا يَومَ القِيامَة، ويُفَرّقُ اللهُ يَومَئذٍ بينَكم، لِما يَكونُ مِنَ الشَّدائدِ والأهوال {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ} [سورة عبس: ٣٤-٣٦]. واللهُ عالِمٌ بأحوالِكم، بَصيرٌ بأعمالِكم، وسَوفَ تُسألونَ عَنها.

{قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} (الممتحنة : ٤)

٤- لقدْ كانَ لكمْ قُدوَةٌ حسَنَةٌ في نَبيِّ اللهِ إبراهيمَ وأتباعِهِ المؤمِنين، إذْ قالوا لقَومِهمُ المشرِكين: تَبرَّأنا منكمْ ومِنَ الأصْنامِ والكَواكبِ التي تَعبُدونَها مِنْ دونِ الله، كفَرنا بدينِكمْ وأنكَرنا طَريقتَكم، وقدْ وجبَتِ العَداوَةُ والبَغضاءُ بيننا وبينَكمْ ما دُمتُمْ على كُفرِكم، حتَّى تُوَحِّدوا اللهَ وتَعبُدوهُ وَحدَهُ لا شَريكَ له، إلاَّ ما جاءَ مِنْ قَولِ إبراهيمَ لأبيهِ الكَافِر: سأستَغفِرُ لك، ولا أملِكُ سِوَى الدُّعاءِ لك، ولا أقدِرُ على رَدِّ عَذابِ اللهِ عنكَ إنْ عصَيتَهُ وأشرَكتَ به.

وقالَ هوَ والمؤمِنونَ معَهُ مُتبَرّئينَ مِنْ قَومِهمُ الكافِرين، مُفَوِّضينَ أمرَهمْ إلى رَبِّهم: اللهمَّ إنَّنا اعتمَدنا عَليك، وإليكَ رجَعنا في أُمورِنا كُلِّها، ومَرجِعُنا إليكَ في يَومِ القِيامَة.

وقَصدُ إبراهيمَ مِنَ الاستِغفارِ لأبيهِ هوَ طلبُ الهِدايَةِ له، ويَجوزُ هذا مادامَ الأبُ على قَيدِ الحياة، ولا يَجوزُ الاستِغفارُ لهُ بعدَ مَوتِهِ إذا ماتَ على الكُفر، وقدْ تبرَّأَ إبراهيمُ مِنْ أبيهِ بعدَ

مَوتِهِ كافِراً ولم يَســتَغفِرْ له، قالَ اللهُ تَعالَى: {وَمَا كَانَ اسْــتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} [سورة التوبة:١١٤].

{رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (الممتحنة : ٥)

٥- اللهمَّ لا تُعَذِّبْنا بأيدِي الكافِرين، ولا تُسَلِّطْهمْ عَلينا فيَغلِبونا، واغفِرْ لنا ذُنوبَنا، واعْفُ عنَّا بعَفوِك، إنَّكَ أنتَ العَزيزُ الغالِب، الذي لا يَذِلُّ مَنِ التَجأَ إليه، الحَكيمُ الذي لا يَفعَلُ إلاّ ما فيهِ حِكمةٌ ومَصلحَة.

{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْــوَةٌ حَسَــنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} (الممتحنة : ٦)

٦- لقدْ كانَ لكمْ في إبراهيمَ وصَحبِهِ المؤمنينَ قُدوَةٌ حسَنة، ومنهَجٌ نافِعٌ مُبارَك، في التبَرُّءِ مِنَ الكُفرِ وأهلِه، لمنْ كانَ يَرجو الثَّوابَ مِنْ عندِ الله، والنَّعيمَ في الآخِرَة. ومَنْ يُعرِضْ عمَّا أمَرْنا بهِ مِنَ الإيمَان، وعدَمِ الموالاةِ للكافِرين، فإنَّ اللهَ غَنيٌّ عنْ طاعَتِهم، وعنْ طاعَةِ الخَلقِ أجمَعين، مَحمودٌ في أقوالِهِ وأفعالِه.

{عَسَــى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (الممتحنة : ٧)

٧- عسَــى اللهُ أنْ يَجعلَ بينَكمْ وبينَ أقاربِكمُ المشــرِكينَ مَحبَّةً بعدَ العَداوَةِ والبُغض، وأُلفَةً بعدَ الفُرقَةِ والبُعد، واللهُ قادِرٌ على تَغييرِ الأحوَالِ وتَســهيلِ أســبَابِ الموَدَّة، واللهُ يَغفِرُ لمنْ تَاب، ويَرحَمُ مَنْ آمنَ وأطَاع.

وقدْ أنجزَ اللهُ وَعدَهُ الكريم، فأسلمَتْ قُرَيشٌ بعدَ فَتحِ مكَّة.

{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} (الممتحنة : ٨)

٨- إنَّ اللهَ لا يَمنَعُكمْ مِنَ البِرِّ والإحسَـانِ إلى الكافِرينَ الذينَ لم يُقاتِلوكمْ في الدِّين، ولم يُجلُوكمْ مِنْ ديارِكم، فلا بأسَ أنْ تُحسِـــنوا إليهم، وتَعدِلوا فيهم، واللهُ يُحِبُّ الذينَ يَعدِلونَ في حُكمِهمْ وأهاليهِمْ وما وَلُوا.

{إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (الممتحنة : ٩)

٩- إنَّما يَنهاكمُ اللهُ عنْ مُوالاةِ أعدَائكمُ الذينَ قاتَلوكمْ لإســـلامِكم، وأخرَجوكمْ مِنْ ديارِكم، وســـاعَدوا أعداءَكمْ على إخراجِكمْ منها، ومَنْ يُعاوِنْهُمْ ويتَّخِذْهُمْ أصـــدِقاء، فأولئكَ الذينَ تَجاوَزوا الحدّ، وعرَّضوا أنفُسَهمْ للعَذاب.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (الممتحنة : ١٠)

١٠-كانَ مِنْ بُنودِ صُلحِ الحُدَيبيَة، أنَّ مَنْ أتَى رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ أهلِ مكَّة، وإنْ كانَ مُسلِمًا، ردَّهُ إليهم، فنَزلَتِ الآيةُ باستِثناءِ النِّساءِ مِنْ ذلك، إذا كانتْ هِجرَتُهنَّ عنْ إيمَانٍ حقًّا.

أيُّها المؤمِنون، إذا جاءَكمُ المؤمناتُ - ظاهِرًا - مُهاجِراتٍ مِنْ دارِ الكُفرِ إلى دارِ الإسْـــلام، فاختَبِروهنّ، واسـألوهُنَّ ما جاءَ بهنّ؟ فإذا كانَ خُروجُهنَّ رَغبةً في الإسْلامِ وحُبًّا للهِ ورسُولِه، وغلبَ على ظنِّكمْ صِـدقُهنّ، واللهُ أعلَمُ منكمْ بإيمَانِهنَّ وصِـدقِهنَّ في ذلك، فلا تُعيدوهنَّ إلى أزواجِهنَّ الكفَّار، فإنَّهُ لا يَحِلُّ لهنَّ الزَّواجُ بالمشـركين، ولا يَحِلُّ للمشـركِينَ الزَّواجُ بهنّ. قالَ في "روحِ المعاني": الجُملةُ الأُولَى لبيانِ الفُرقَةِ الثَّابتةِ وتَحقُّقِ زَوالِ النِّكاحِ الأوَّل، والثَّانيةُ لبيانِ امتِناعِ ما يُستأنَفُ ويُستَقبَلُ مِنَ النِّكاح. اهـ.

قالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ الله: هذهِ الآيةُ هيَ التي حرَّمَتِ المسلِماتِ على المشرِكين، وقدْ كانَ جائزًا في ابتِداءِ الإسلامِ أنْ يَتزَوَّجَ المشرِكُ المؤمِنة. اهـ.

وأعطُوا أزواجَهنَّ الكفَّارَ ما دفَعوا إليهنَّ مِنَ المهور، ولا حَرجَ عَليكمْ أنْ تتزوَّجوا بهنَّ – في حالِ إسلامِهنَّ– إذا أعطَيتُموهنَّ مُهورَهنَّ. ولا يَحِلُّ لكمْ أنْ تَنكِحوا الكافِرات، ولا أنْ تَستَمِرُّوا في الزوَاجِ معَهنّ. واطلُبوا – مَعشَرَ المؤمِنينَ – مِنَ الكفَّارِ مُهورَ زَوجاتِكمُ المشرِكاتِ اللَّاحِقاتِ بهم، وليَطلُبِ الكفَّارُ منكمْ مُهورَ زَوجاتِهمُ اللَّائي أسلَمْنَ ولَحِقْنَ بكم. وما ذُكِرَ هوَ أمرُ اللهِ وحُكمُهُ الذي قضَاهُ بينَكم، فاتَّبِعوه، واللهُ عَليمٌ بما يُصلِحُكم، حَكيمٌ فيما يَقضي ويُقَدِّر.

{وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ} (الممتحنة : ١١)

١١– وإذا فرَّتْ إحدَى زَوجاتِكمْ إلى الكفَّارِ أيُّها المؤمِنون، فلَحِقْنَ بهِمْ مُرتدَّات، وامتنَعوا مِنْ رَدِّ حقِّكمُ الذي عَليهنّ، ثمَّ غزَوتُم، وكانتِ العاقبةُ لكمْ فغنِمتُم، عوَّضَكمُ الإمامُ ما فاتَكمْ مِنْ حقِّكمْ عَليهنَّ مِنَ الغَنيمَة. وأطيعوا اللهَ ولا تُخالِفوا أمرَهُ وقدْ آمَنتُمْ به، فالإيمَانُ يَقتَضي الطَّاعَةَ والامتِثال.

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (الممتحنة : ١٢)

١٢– أيُّها النبيُّ الكَريم، إذا جاءَكَ المؤمِناتُ بقَصدِ المبايعَةِ على الإسْلام، على أنْ يُوَحِّدْنَ اللهَ تَعالَى في العِبادَة، فلا يُشرِكنَ بهِ شَيئًا مِنَ الأشياء، ولا يَسرِقْنَ مِنْ أموالِ النَّاس، ولا يَرتَكِبْنَ فاحِشَةَ الزِّنا، ولا يَقتُلْنَ أولادَهنَّ، كما كانَ يُفْعَلُ في الجاهليَّةِ مِنْ وَأدِ البَنات، خَوفًا مِنَ الفَقر، أو خَوفًا مِنْ أنْ يُعيَّروا بالبَنات. قالَ ابنُ كثير: "ويَعُمُّ قَتلَهُ وهوَ جَنين، كما قدْ يَفعَلُهُ بَعضُ الجهلَةِ مِنَ النِّساء"، يَعني الإجهَاض، الذي اتَّفقَ العُلَماءُ على تَحريمِهِ دونَ عُذرٍ بعدَ الشَّهرِ

الرَّابع، حيثُ يُنفَخُ فيهِ الرُّوح، وهوَ جِنايَةٌ تُوجِبُ غُرَّة، وهيَ دِيَةُ الجَنين: عَبدٌ أو أَمَة، فإنْ لم يوجَدا فعُشرُ دِيَةِ الأُمّ، ودِيَتُها خَمسونَ منَ الإبِل.

وعلى ألاّ يُلحِقْنَ بأزواجِهِمْ غَيرَ أولادِهم. وفي الحديثِ المرفوعِ الذي رَواهُ ابنُ حِبّانَ في صَحيحِه: "أيُّما امرأةٍ أدخلَتْ على قَومٍ مَنْ ليسَ منهم، فليسَتْ مِنَ اللهِ في شَيء، ولنْ يُدخِلَها اللهُ جنَّتَه".

وألاّ يَعصِينَكَ فيم تأمرُهنَّ بهِ مِنْ مَعروف، وتَنهاهُنَّ عنْ مُنكَر.

قالَ في "روحِ المعاني": والتَّقييدُ بـــ "المعروفِ" معَ أنَّ الرسُولَ صلى الله عليه وسلم لا يأمرُ إلاّ به، للتَّنبيهِ على أنَّهُ لا يَجوزُ طاعَةُ مَخلوقٍ في مَعصـيَةِ الخالق، ويُرَدُّ بهِ على مَنْ زعمَ مِنَ الجهلَةِ أنَّ طاعةَ وليِّ الأمرِ لازِمَةٌ مُطلقًا! اهـ.

فإذا التزَمْنَ بتلكَ الشُّــروط، فاقبَلْ مُبايَعتَهنّ، ولهنَّ الثَّوابُ على الوَفاءِ بها. واطلُبِ المغفِرَةَ لهنّ، واللهُ كثيرُ الغُفرانِ لذُنوبِ عِبادِهِ التَّائبين، رَحيمٌ بالمؤمنينَ منهم.

وقدْ ثبتَ في الصَّحيحِ أنَّ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم كانَ يُبايعُهنَّ كلامًا، "ما مَسَّتْ يَدُهُ يَدَ امرأةٍ قَطُّ في المبايعَة". رواهُ البُخاريُّ وغَيرُه.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ} (الممتحنة : ١٣)

١٣ - أيُّها المؤمنون، لا تُوَالُوا الكفَّارَ عامَّة، واليَهودَ خاصَّة، الذينَ غَضِبَ اللهُ عَليهمْ ولعنَهم، وكيفَ تَتَّخِذونَهُمْ أصدِقاءَ وهمْ يُخالِفونَكمْ في العَقيدَة، وقدْ يَئسُوا مِنْ خَيرِ الآخِرَةِ وثَوابِها - في حُكمِ اللهِ - لكفرِهمْ بنبوَّةِ الرسُولِ صلى الله عليه وسلم {الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ} [سورة الأعراف: ١٥٧]، كما يَئسَ الأمواتُ الكفَّارُ مِنَ الثَّوابِ وقدْ وقَفوا على حَقيقَةِ الأمر، وعَلِموا حِرمانَهُمْ مِنَ الجنَّةِ ونَعيمِها.

سورة الصف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (الصف : ١)

١- نزَّهَ اللهَ ووَحَّدَهُ كُلُّ المخلوقاتِ في السَّماواتِ والأرْض، وهوَ الغالِبُ الذي لا يُغلَب، الحكيمُ فيما يَشرَعُ ويُقدِّر.

فالمخلوقاتُ كلُّها مُسَبِّحةٌ مُقَدِّسَةٌ لذاتِهِ سُبحانَهُ وتَعالَى، قَولاً وفِعلاً، طَوْعًا وَكَرْهًا، بلسَانِ الحَال، أو بلسانِ المقال {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [سورة الإسراء: ٤٤].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} (الصف : ٢)

٢- أيُّها المؤمِنون، لماذا تَقولونَ قَولاً، وتَعِدُونَ وَعدًا، ثمَّ لا تَفُونَ بهِ ولا تَلتَزِمون؟

كانَ ناسٌ مِنَ المؤمِنينَ قَبلَ أنْ يُفرَضَ الجِهادُ يَقولون: لوَدِدْنا أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ دَلَّنا على أحَبِّ الأعمَالِ إليهِ فنعمَلَ به، فأخبرَ اللهُ نبيَّهُ أنَّ أحبَّ الأعمال: إيمانٌ بهِ لا شَكَّ فيه، وجِهادُ أهلِ مَعصيَتِهِ الذينَ خالَفوا الإيمَانَ ولم يُقِرُّوا به. فلمَّا نزلَ الجِهادُ كَرِهَ ذلكَ ناسٌ مِنَ المؤمنينَ وشَقَّ عَليهِمْ أمرُه. فنزَلَتِ الآيات. قالَهُ ابنُ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عَنهما. (والجوابُ في الآيةِ العاشِرة، فما بعدها).

{كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} (الصف : ٣)

٣- إنَّ اللهَ يَبغُضُ بُغضًا شَديدًا أنْ تَعِدوا بشَيءٍ مِنْ عندِ أنفُسِكُمْ ثمَّ لا تَفُونَ به.

{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ} (الصف : ٤)

٤- إنَّ اللهَ يُحِبُّ الذينَ يَصُفُّونَ أنفُسَهمْ عندَ القِتالِ صَفًا مُستَقيمًا، مُتكامِلاً ومُتَناسِقًا، كأنَّهُمْ بُنيانٌ مُلتَصِقٌ بَعضُهُ ببَعض، قدْ رُصَّ وأُحكِمَ في بِنائهِ فليسَ فيهِ فُرجَةٌ ولا خَلَل.

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (الصف : ٥)

٥- واذكُرْ لأصحابِكَ أيُّها الرسُول، ممَّنْ كَرِهَ الجِهاد، قَولَ نَبيِّ اللهِ موسَى لقَومِه، وقدْ دَعاهُمْ إلى قِتالِ الجبابِرَة: يا قَوم، لِمَ تؤذُونَني بالمخالفَةِ والعِصيانِ وأنتُمْ تَعلَمونَ عِلمًا قَطعيًّا أنِّي مُرسَلٌ مِنَ اللهِ إليكم، والرسُولُ يُصَدَّقُ ويُطَاع. وكانوا قدْ قالوا لهُ عليهِ السَّلام: {فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}! [سورة المائدة: ٢٤]. فلمَّا عصَوا ومالُوا عنِ اتِّباعِ الحقِّ وهمْ يَعرِفونَه، وآذَوا نبيَّهمْ بذلك، صرَفَ اللهُ قُلوبَهمْ عنِ الهُدَى وخذلَهم، لاختيارِهِمُ العَمَى والضَّلال، واللهُ لا يوفِّقُ لإصابَةِ الحقِّ مَنْ خَرَجَ عنِ الطَّاعَة، وأصرَّ على الضَّلال، ولم يَسلُكْ مَسالِكَ الهُدَى.

{وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ} (الصف : ٦)

٦- واذكُرْ قَولَ نَبيِّ اللهِ عيسَى بنِ مَريَمَ - آخرِ أنبياءِ بَني إسرَائيل -: يا بَني إسرَائيل، إنِّي نَبيٌّ مُرسَلٌ إليكمْ مِنْ عندِ الله، مُصَدِّقًا بذلكَ لِما بينَ يَديَّ مِنَ التَّوراة، التي بشَّرَتْ بي، وأنا أُبَشِّرُ برَسُولٍ يأتي مِنْ بَعدي اسمُهُ أحمَد. فلمَّا جاءَهمْ بالمعجِزاتِ كفَروا بها، وقالوا: إنَّ هذا الذي جاءَ بهِ سِحرٌ ظاهِر، وليسَ مُعجِزَةً تدلُّ على صِدقِ نبوَّتِه!

وللرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم أسماء، قالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام: "إنَّ لي أسمَاء، أنا مُحَمَّد، وأنا أحمَد، وأنا الماحي الذي يَمحو اللهُ بيَ الكُفر، وأنا الحاشِرُ الذي يُحشَرُ النَّاسُ على قدَمي، وأنا العاقِبُ". رَواهُ الشَّيخانِ في صَحيحَيهما واللَّفظُ للبخاريّ. والعاقِب: الذي ليسَ بعدَهُ نَبيّ.

والأنبياءُ حَمَّادُون، ونَبيُّنا أحمَدُهم، أي أكثَرُهمْ حَمدًا، وأعظَمُهمْ في صِفَةِ الحَمد. عَليهمُ الصَّلاةُ والسَّلام.

كما ثبَتَ في الصَّحيحِ أنَّهُ صلى الله عليه وسلم يُفتَحُ عَليهِ في المقامِ المحمودِ - يومَ القيامَةِ - بمَحامِدَ لم يُفتَحْ بها على أحَدٍ قَبلَه.

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْـــلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (الصف : ٧)

٧- وليسَ هُناكَ أظلَمُ ممَّنْ يَكذِبُ على الله، بتَكذيبِ رسُـلِهِ وتَسـميَةِ آياتِهِ سِـحرًا، وعِبادَةِ شُـرَكاءَ معَهُ وهوَ يُدْعَى إلى التَّوحيدِ والإخْلاص. واللهُ لا يُرشِـدُ هؤلاءِ الظَّالِمينَ، الذينَ تجاوَزوا الحقَّ واتَّبَعوا الباطِل، وأمثالَهم، إلى ما فيهِ هُداهُم؛ لعدَمِ اســتِعدادِهِمْ لذلك، وعدَمِ تَوجُّهِهِمْ إليه.

{يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} (الصف : ٨)

٨- يُحاوِلونَ أنْ يُبطِلوا الحقّ، وأنْ يوقِفوا انتِشـارَ الإسْـلام، كمَنْ يَنفُخُ بفَمِهِ الشَّـمسَ ليُطفِئَ شُـعاعَها! وسَـوفَ يَنشُـرُ اللهُ دِينَه، وتَصِـلُ أنوارُهُ إلى أنحَاءِ الأرْض، كما تَصِـلُ إليها أشِـعَّةُ الشَّـــمس، ولو كَرِهَ الكافِرون، وحاوَلوا مَنعَهُ بكُلِّ ما يَســتَطيعونَ مِنْ مَالٍ وإعْلام، وجُندٍ وسِلاح.

{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} (الصف : ٩)

٩- هوَ اللهُ الحقّ، الذي بعثَ نبيَّهُ محمَّدًا صـــلى الله عليه وســـلم بالقُرآنِ ليَهتَديَ بهِ النَّاس، وبالدِّينِ الثَّابتِ الصَّـــحيحِ ليُظهِرَهُ على ســـائرِ الأديَان، بنَســـخِهِ إيَّاها، والإبقَاءِ عَلى دِينِ الإسْلام.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} (الصف : ١٠)

١٠- هذا جَوابٌ عمَّا سألَهُ الصَّحابَةُ عنْ أحَبِّ الأعمالِ إلى اللهِ تَعالَى ليَفعَلوه.

أيُّها المؤمِنون، هلْ أُرشِـدُكمْ إلى تِجارَةٍ جَليلَةِ الشَّـأن، تَربَحونَ فيها رِضَـى الله، وتَنجُونَ بها مِنْ عَذابِ النَّار؟

{تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} (الصف : ١١)

١١- تُؤمِنونَ باللهِ ورَسُولِهِ بصِدقٍ وإخْلاص، لا شِركَ فيهِ ولا رِياء، وتُجاهِدونَ في سَبيلِ اللهِ بأموالِكمْ وأنفُسِكمْ لإعْلاءِ كَلمتِه، فالإيمانُ والجِهادُ خَيرٌ لكمْ على الإطْلاق، إنْ كنتُمْ مِنْ أهلِ العِلمِ والإيقَان.

{يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (الصف : ١٢)

١٢- فإنْ آمَنتُمْ وجاهَدتُم، يَغفِرِ اللهُ ذُنوبَكم، ويَرحَمْكم، ويُسكِنْكُمْ جنَّاتٍ واسِعات، تَجري مِنْ خِلالِ أشجارِها الأنهَارُ بأنواعِها، وقُصورًا عاليةً طَيِّبةً في جَنَّاتِ إقامَةٍ دائمَة، وذلكَ هوَ الفَوزُ والفَلاحُ، والسَّعادَةُ الدَّائمَة.

{وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} (الصف : ١٣)

١٣- ونِعمَةٌ أُخرَى تُحِبُّونَها، هيَ بُشرَى لكم: نَصرٌ مِنَ اللهِ على المشرِكين، وفَتحٌ مِنْ عندِه، في القَريبِ العاجِل، وبَشِّرِ المؤمِنينَ أيُّها الرسُولُ بالنَّصرِ في الدُّنيا، وبالمثوبَةِ الحُسنَى في الآخِرَة.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} (الصف : ١٤)

١٤- أيُّها المؤمِنون، كونُوا نُصرَةً لدِينِ اللهِ في جَميعِ أحوالِكم، بأنفُسِكمْ وأموالِكم، كما قالَ نَبيُّ اللهِ عيسَى بنُ مَريمَ لصَفوَةِ أتْباعِهِ الحوَارِيّين: مَنْ أعوَاني وجُنودِي الذينَ يُعينونَني في الدَّعوَةِ إلى الله؟

قالَ الحوَارِيُّون: نحنُ أنصارُكَ على ما أُرسِلْتَ به، ومُؤازِروكَ على تَبليغِ دِينِ الله.

ولما دَعا معَ أتباعِهِ إلى الدِّين، اهتدَتْ جَماعَةٌ مِنْ بَني إسرَائيلَ واتَّبَعوه، وضَلَّتْ جَماعَةٌ أُخرَى، ورَمَوهُ وأُمَّهُ الصِّدِّيقَةَ بالعَظائم، وهمْ اليَهودُ عَليهمْ لَعنَةُ الله، وغَلَتْ فيهِ طَوائفُ مِنْ بعد،

فاعتبَروهُ ابنًا لله، تَعالَى اللهُ عنْ ذلكَ وتقدَّس. فنَصَـرْنا المؤمنينَ على أعدَائهم، فصَـاروا غالِبينَ عَليهم، وذلكَ ببِعثَةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.

سورة الجمعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} (الجمعة : ١)

١- يُنزِّهُ اللهَ ويوَحِّدُهُ كُلُّ ما في السَّـــماواتِ والأرْضِ مِنْ مخلوقات، ناطِقُها وجامِدُها، قَولاً وفِعلاً، طَوْعًا وكَرْهًا، بلسَـانِ الحال، أو بلسـانِ المقَال، وإنْ لم نَفقَهْ تَسـبيحَ بَعضِهـا. اللهُ خالِقُهما، ومالِكُهما، والمتصَـرِّفُ فيهما، المنَزَّهُ مِنَ النَّقائصِ والعُيوب، العَزيزُ الذي لا يُغلَب، الحَكيمُ في أقوالِهِ وأفعالِه.

{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُـولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} (الجمعة : ٢)

٢- هوَ الذي بعثَ في العرَبِ الذينَ اشـتُهِرَتْ فيهمُ الأمِّيَّةُ ولا كتابَ لهم - فلا يَقرَؤونَ ولا يَكتُبونَ - رسُـولاً مِنْ جُملَتِهمْ وأُمِّيًّا مثلَهم، يَقرَأُ عَليهمْ آياتٍ مُوحًى بها مِنْ عندِ الله، ويَجعَلُهمْ أزكِيَاءَ القُلوب، بإيمَانِ مَنْ يَهديهِ اللهُ ويُصـلِحُهُ على يَديه، وبدَعوَتِهِ وتَبليغِه، ويُرشِـدُهمْ إلى كيفيَّةِ تَطهيرِ النُّفوسِ مِنَ الآثامِ والخِصالِ السيِّئة، ويُعَلِّمُهمُ القُرآنَ العَظيم، والسنَّةَ النبَويَّة، وما فيها مِنْ أحكامٍ وشَرائع، وإنْ كانوا مِنْ قَبلُ في جاهليَّة، وشِركٍ وكُفر.

وتَخصـيصُ العرَبِ بالذِّكرِ لا يَنفي مَنْ عَداهم، ولكنَّ المنَّةَ عَليهمْ أبلَغُ وآكَد، كما في الآيةِ التَّالية، وكما في قَولِهِ تَعالَى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً} [سورة الأعراف: ١٥٨].

{وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (الجمعة : ٣)

٣- وبُعِثَ إلى آخَرينَ منَ المؤمِنينَ لم يَلحَقوا بهم، وسيَلحَقونَ بهِمْ مِنْ بَعد. واللهُ عَزيزٌ فلا يُقهَر، حَكيمٌ في صُنعِهِ وتَدبيرِه.

{ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} (الجمعة : ٤)

٤- وما أعطاهُ اللهُ محمَّدًا صلى الله عليه وسلم مِنَ النبوَّة، وما خَصَّ بهِ أُمَّتَه، نِعمَةٌ مِنَ اللهِ ورَحمَة، يُعطيها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِه، وفَضلُ اللهِ عَظيم، ورَحمَتُهُ واسِعَة.

{مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (الجمعة : ٥)

٥- مثَلُ الذينَ أُعْطُوا التَّوراةَ وكُلِّفوا العملَ بها والقِيامَ بحَقِّها، ثمَّ لم يَعمَلوا بها ولم يُؤَدُّوا حقَّها، كمثَلِ الحِمارِ يَحمِلُ كُتُبًا وهوَ لا يَدري ما فيها ولا يَنتَفِعُ بها. واليَهودُ قرَؤوا التَّوراةَ وعَلِموا ما فيها ولكنَّهمْ لم يَعمَلوا بمُقتَضاها، بلْ أوَّلوا وحرَّفُوا وبدَّلوا، فبئسَ القَومُ هم، الذينَ كذَّبوا بآياتِ اللهِ وكتُبِه، وسعَوا في تَبديلِ كلامِهِ وتَغييرِه، واللهُ لا يَهدي الظَّالِمينَ الذينَ تَجاوَزوا الحقَّ، ووَضَعوا التَّكذيبَ في مَوضِعِ التَّصديق.

{قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (الجمعة : ٦)

٦- قُلْ أيُّها الرسُول: يا مَعشَرَ اليَهود، إنْ زعَمتُمْ أنَّكمْ أحِبَّاءُ لله، مُتَّبِعونَ للحقّ، وأنَّ محمَّدًا صلى الله عليه وسلم وأصحابَهُ على ضَلال، فادْعُوا بالموتِ على أنفُسِكم، لتَنتَقِلوا مِنْ دارِ البَلايا والأكدارِ إلى دارِ الكرَامَةِ والسَّعادَة، إذا كنتُمْ صادِقينَ في دَعواكمْ بأنَّكمْ على حقّ، فإنَّ المؤمِنَ المطيعَ يُحِبُّ لقاءَ الله.

{وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} (الجمعة : ٧)

٧- ولكنَّ اليَهودَ لا يَتمنَّونَ الموتَ أبدًا، لِما همْ فيهِ مِنَ الظُّلمِ والفُجُور، والكُفرِ والتَّكذِيبِ بنبوَّةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وهمْ يَعلَمونَ أنَّهُ هوَ المبَشَّرُ بهِ في التَّوراة، لمطابقَةِ أوصافِهِ

وأخبارِهِ لِما يَجِدونَهُ فيها. واللهُ عالِمٌ بما تَجاوَزوهُ مِنَ الحقّ، وما صـــدرَ منهمْ مِنْ أنواعِ الظُّلمِ والمعاصِي.

{قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّـــهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (الجمعة : ٨)

٨- قُلْ لهم: إنَّ الموتَ الذي تَهْرُبونَ منهُ خَوفًا مِنْ أنْ تُحاسَـــبوا على جَرائمِكم، فإنَّهُ آتيكمْ حَتمًا، لا مفرَّ لكمْ منه، ثمَّ تُبعَثونَ وتُرجَعونَ إلى مَنْ يَعلَمُ ما تَعلَمونَ وما لا تَعلَمون، ويرَى ما ترَونَ وما لا ترَون، فيُخبِرُكمْ بما عَمِلتُمْ مِنَ الكُفرِ والتَّكذِيب، والمعاصِـــي والذُّنوب، ويُجازيكمْ على ذلكَ سُوءَ الجَزاء.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّـلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْـعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} (الجمعة : ٩)

٩- أيُّها المؤمِنون، إذا نُودِيَ للصَّـــلاةِ بالأذانِ في يَومِ الجُمُعَةِ فامضُـــوا إليها، واترُكوا البَيعَ والشِّراء، فهوَ أنفَعُ لكمْ وأبقَى، إنْ كنتُمْ تَعلَمونَ الحلالَ والحرام، والطَّاعَةَ والمعصيَة.

{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (الجمعة : ١٠)

١٠- فإذا أُدِّيَتِ الصَّـــلاةُ فانتَشِـــروا في الأرْضِ واطلبُوا رِزقَكمْ مِنْ فَضـــلِ اللهِ وتصـــرَّفوا في حَوائجِكم - وهوَ أمرُ إباحَةٍ -، وأكثِروا مِنْ ذِكرِ الله، ولا تَشـــغَلَنَّكمُ الدُّنيا عنْ ذلك؛ لتَفوزُوا بخَيرَي الدُّنيا والآخِرَة.

{وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّـــوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} (الجمعة : ١١)

١١- قالَ جابِرٌ رَضيَ اللهُ عنه: أقبَلَتْ عِيرٌ - أي قافِلَةٌ مُحمَّلَةٌ بالمتاعِ - يَومَ الجُمُعَة، ونحنُ معَ النبيّ صلى الله عليه وسلم، فثارَ النَّاسُ إلاّ اثنَي عشرَ رَجُلاً، فأنزلَ الله: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا...}. رَواهُ البُخاريُّ في صَحيحِه.

وإذا رَأَوا تِجارَةً قادِمَة، أو تَصفيقًا وطَبلاً، أو دُفًّا يُضرَبُ بهِ لاستِقبالِ القافِلَة، تَفرَّقوا مِنْ عندِكَ وقامُوا إلى التّجارَة، وترَكوكَ قائمًا تَخطُبُ على المِنبَر، قُلْ لهمْ أيُّها الرسُـول: إنَّ ما أعدَّهُ اللهُ مِنَ الأجرِ والثَّوابِ في الدَّارِ الآخِرَة، خَيرٌ مِنَ القِيامِ إلى اللَّهوِ وطلَبِ البَيعِ والشِّراءِ في هذا الوَقت، فإنَّ نَفعَ ما عندَ اللهِ مُحَقَّق، ونَفعَ اللَّهوِ في الدُّنيا ليسَ بمُحقَّق، بلْ مُتوهَّم، ونَفعَ التِّجارَةِ ليسَ بمُخَلَّد. وتَقديمُ اللَّهوِ على التِّجارَةِ هُنا لأنَّهُ أقوَى مَذَمَّة.

واللهُ خَيرُ مَنْ رزَقَ وأثَاب، وهوَ مُوجِدُ الأموَالِ والأرزَاق، فاسـعَوا إليه، واطلُبوا منهُ الرِّزقَ في وَقتِهِ كما أمرَكم.

* * *

وفي مسـندِ أحمدَ وسُـنَنِ الترمذيّ وغيرِهما بإسـنَادٍ صَـحيح، أنَّ رَسُـولَ اللهِ صـلى اللهُ عليهِ وسلم كانَ يَقرَأُ في صَلاةِ الجُمُعَةِ بسُورَةِ الجُمُعَة، و{إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ}.اهـ.

وهيَ السُّورَةُ التالية.

سورة المنافقون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} (المنافقون : ١)

١- إذا أتاكَ المنافِقونَ وحضَروا مَجلِسَكَ أيُّها الرسُول، أظهَروا الإسْلامَ وقالوا: نَشهَدُ أنَّكَ رسُولُ الله، واللهُ يَعلَمُ أنَّكَ رَسُولُهُ إلى النَّاس، واللهُ يَشهَدُ أنَّ المنافِقينَ كاذِبون، لأنَّهُمْ يُضمِرونَ خِلافَ ما يَعتَقِدون.

{اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (المنافقون : ٢)

٢- لقدْ جعَلوا حَلِفَهمُ الكاذِبَ وِقايَةً لأَنفُسِهِمْ حتَّى يُصَدِّقَهمُ النَّاس، فاغترَّ بهِ بَعضُهمْ وظَنُّوا أنَّهُمْ مُسلِمون، وصَدَّقوهمْ فيما يَقولون، فصَارَ المنافِقونَ يَمنَعونَهُمْ مِنَ الجِهادِ وطاعَةِ الرسُولِ صلى الله عليه وسلم، ويُشَكِّكونَهُمْ في العَقيدَةِ الإسلاميَّة، بئسَ ما يَعمَلونَ مِنَ الكذِبِ والخِداعِ والتَّضليل.

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} (المنافقون : ٣)

٣- وقدْ حصَلَ لهمُ النِّفاقُ لكَونِهِمْ نطَقوا بالشَّهادَتَينِ ثمَّ رجَعوا عنْ الإيمانِ إلى الكُفر، كما بَدا نِفاقُهمْ مِنْ أيمانِهمُ الكاذِبَةِ ومَواقِفِهمُ السيِّئة، فخُتِمَ على قُلوبِهِمْ بالكُفر، فهمْ لا يَفقَهونَ الإيمَان، ولا يَهتَدونَ إلى الحقّ.

{وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} (المنافقون : ٤)

٤- وإذا نظَرتَ إليهِمْ أعجبَكَ مَنظَرُ أجسَامِهم، وإذا تَكلَّموا استَمَعتَ إليهم، لفَصاحَتِهمْ وحَلاوَةِ كلامِهم، كأنَّهمْ أخشابٌ مُسْنَدَةٌ إلى حائط، فهيَ أشجارٌ لا تُثمِر، وكأنَّهمْ أجسَامٌ بلا

عُقول. والخَوفُ والهلَعُ يَســكنُ قُلوبَهم، فإذا سَمِعوا جلَبَةً أو صَــوتًا ما، خافُوا وظَنُّوا لجُبْنِهِمْ أنَّ الأمرَ نازِلٌ بهم. وهمُ الأعدَاءُ الرَّاسِــخونَ في العَداوَة، فاحذَرْهمْ ولا تأمَنهم، ولا تَغترَّ بظاهِرِهِمْ وكلامِهِمُ المعسُول، لعنَهمُ الله، كيفَ يُصرَفونَ عنِ الحقِّ إلى الكُفرِ والضَّلال؟!

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْــتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُــولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَــهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُــدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ} (المنافقون : ٥)

٥- وإذا قيلَ لهم: تَعالَوا إلى رسُولِ اللهِ واعتَذِروا مِنْ أفعالِكمُ السيِّئةِ وتُوبوا إلى الله، ليَدْعوَ لكمْ ويَطلُبَ مِنَ اللهِ أنْ يَغفِرَ لكم، أمالُوا بوجُوهِهمْ ورَأيتَهمْ يُعرِضونَ عنْ ذلك، استِكبارًا واستِحقارًا لِما قيلَ لهم.

{سَــوَاء عَلَيْهِمْ أَسْــتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْــتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (المنافقون : ٦)

٦- والأمرُ سَـواء، إنِ اسـتَغفَرْتَ لهم، أمْ لم تَسـتَغفِرْ لهم، فإنَّ اللهَ لنْ يَغفِرَ لهم، لرسُـوخِهِمْ في الكُفر، إنَّ اللهَ لا يَغفِرُ لمنْ خرَجَ عنِ الطَّاعَةِ وأصرَّ على ذَنبِه، واستَكبَرَ عنْ قَبولِ الحقّ.

{هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ} (المنافقون : ٧)

٧- إنَّهُمُ المنافِقون، الذينَ قالَ كبيرُهمْ بعدَ غَزوَةِ بَني المصـطَلِق: لا تُنفِقوا على مَنْ عندَ رسُــولِ اللهِ مِنْ فُقَراءِ المهـاجِرين، حتَّى يَجوعُوا فيَتفرَّقوا عنـهُ ولا يَصـــحَبوه. وخَزائنُ الأرزَاقِ ممَّا في السَّـــماواتِ والأرْضِ للهِ تَعالَى، يُعطي منها مَنْ يَشـــاءُ ويَمنَعُها مَنْ يَشـــاء، ولكنَّ المنافِقينَ لا يَعرِفونَ ذلك؛ لجَهلِهمْ باللهِ تَعالَى، ويَظنُّونَ أنَّهُمْ لو لم يُنفِقوا على الصَّـحابَةِ الفُقَراءِ لتفَرَّقوا عنه، ولضَـعُفَ الدِّينُ بذلك. وهمْ يَحسَـبونَ أنَّ لُقمَةَ العَيشِ هيَ كلُّ شَـيءٍ في الحيَاة! وأنَّهُمْ بفعلِهِمْ هذا يتَحكَّمونَ في الأرزَاق! بينَما همْ لا يتَحكَّمونَ في أرزَاقِهِم.

{يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} (المنافقون : ٨)

٨- ويَقولُ كبيرُ المنافِقينَ أيضًا: إذا رجَعنا إلى المدينَةِ مِنْ هذهِ الغَزوَة، فسيُخرِجُ منها الأعِزَّةُ - يَعني نَفسَهُ وأتْباعَهُ المنافِقينَ - الأذِلَّةَ، يَعني الرسُولَ صلى الله عليه وسلم وأصحابَهُ المؤمِنين!

وللهِ الغَلَبَةُ والقوَّةُ ولِمَنْ أعَزَّهُ اللهُ تَعالَى مِنْ رَسُولِهِ والمؤمنين، لا لغَيرِهم. والعِزَّةُ المستَمدَّةُ مِنْ عِزَّتِهِ تَعالَى لا تَهونُ ولا تَلين، ولا تَخرُجُ مِنَ القَلبِ إلاّ أنْ يَضعُفَ فيهِ الإيمَان، ولكنَّ المنافِقينَ لا يَعلَمونَ ذلك؛ لجَهلِهم، وضَلالِهم، وغُرورِهم.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} (المنافقون : ٩)

٩- أيُّها المؤمِنون، لا يَشغَلَنَّكمْ أموالُكمْ ومَصالحُكمُ الدنيَويَّةُ ولا أولادُكمْ عنِ الصَّلاةِ وسائرِ العِباداتِ والطَّاعات، ومَنْ يَشغَلْهُ التلهِّي بالدُّنيا عنْ ذِكرِ اللهِ وطاعَتِه، فأولئكَ هُمُ الخاسِرونَ الخائبون، الذينَ باعُوا الجَليلَ الباقي بالقَليلِ الفاني.

{وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ} (المنافقون : ١٠)

١٠- وأنفِقوا مِنْ بَعضِ ما آتَيناكُمْ مِنَ الرِّزقِ للفُقَراءِ والمحتاجين، قَبلَ أنْ يَنزِلَ الموتُ بأحَدِكم، فيَندَمَ ويَقول: يا ربّ، هلاّ أمهَلتَني إلى أمَدٍ قَصيرٍ فأتَصدَّقَ وأزَكِّيَ مالي، وأكُونَ مِنَ المؤمِنينَ المطيعين؟

{وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} (المنافقون : ١١)

١١- ولنْ يُمهِلَ اللهُ أحدًا إذا جاءَ أجَلُه، واللهُ مُطَّلِعٌ على أحوالِكم، خَبيرٌ بأعمالِكمْ ونيَّاتِكمْ فيها، خَيرِها وشَرِّها، ويُجازي كُلاًّ بما عَمِل.

* * *

في مسندِ أحمدَ وسُنَنِ الترمذيّ وغيرِهما بإسنادٍ صَحيح، أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم كانَ يَقرَأُ في صَلاةِ الجُمُعَةِ بسُورَةِ الجُمُعَة، و{إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ}.

سورة التغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (التغابن : ١)

١- يُنَزِّهُ اللهَ ويوَحِّدُهُ كُلُّ ما في السَّماواتِ والأرْضِ مِنْ المخلُوقات، ما نَطقَ منها وما لم يَنطِق، وإنْ لم نَفقَهْ تَسبيحَ بَعضِها، وجَميعُ الكائناتِ مُلكُهُ سُبحانَه، يُدَبِّرُ أمرَها ويَتَصرَّفُ فيها كما يَشاء، ولهُ الثَّناءُ الحسَنُ على ما قدَّرَ وأعطَى، وهوَ القادِرُ على كُلِّ شَيء، لا يَمنَعُهُ مِنَ القُدرَةِ الكامِلَةِ مانِع، فما شاءَ كان، وما لم يَشَأ لم يَكن.

{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (التغابن : ٢)

٢- هوَ الذي أوجدَكمْ كما شَاء، فمنكمْ كافِرٌ به، ومنكمْ مؤمِنٌ به، واللهُ عَليمٌ(١٤٥) بمَنْ يَستَحِقُّ الهِدايَةَ ممَّنْ يَستَحِقُّ الضَّلال، وسيَجزي كُلاًّ بما يَستَحِقّ.

{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} (التغابن : ٣)

---

(١٤٥) البصير: أُريدَ به العالِمُ عِلمَ انكشاف، لا يَقبلُ الخفاء، فهو كعلمِ المشاهَدة. وهذا إطلاقٌ شائعٌ في القرآن، لا سيَّما إذا أُفردتْ صفةُ (بصير) بالذكر، ولم تُذكَرْ معها صفةُ (سميع). (التحرير والتنوير).

٣- خلقَ السَّـماواتِ العَظيمَةَ والأرْضَ وما فيها لحِكمَةٍ بالِغَة، وخلقَكمْ فأحسـنَ أشـكالَكم، وخَصَّـكمْ بدَقائقَ وأسـرَارٍ في تَكوينِكمُ العُضـويّ والنَّفسـيّ، وأكرَمَكم، وإلى اللهِ المرجِعُ والمآب، ليُحاسِبَ كُلاًّ على ما عَمِل.

{يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} (التغابن : ٤)

٤- يَعلَمُ جَميعَ ما في السَّـــماواتِ والأرْض، ممَّا ظَهرَ منها وما بطَن، ويَعلَمُ ما تُخفُونَهُ في أنفُسِكمْ مِنْ أسرَار، وما تُعلِنونَهُ مِنْ أُمُور، واللهُ عَليمٌ بما تُسِرُّونَهُ في صُـدورِكم، فلا يَخفَى عليهِ شَيءٌ مِنْ أمرِكم، مهما خَفيَ ودَقّ.

{أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (التغابن : ٥)

٥- ألمْ يأتِكمْ خبَرُ الكافِرينَ مِنَ الأُمَمِ الماضِين، وما حَلَّ بهمْ مِنَ العَذاب، لرَفضِهمُ اتِّباعَ الدِّينِ الحقّ؟ ولهمْ في الآخِرَةِ عَذابٌ شَديد.

{ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُـلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَـرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْـتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} (التغابن : ٦)

٦- وما عُوقِبوا بهِ في الدُّنيا، وما ســيُعاقَبونَ بهِ في الآخِرَة، هوَ لأنَّهمْ كانتْ تأتيهمْ رسُــلُهمْ بالمعجِزاتِ والدَّلائلِ الواضِـحات، فيَقولون: أبشَـرٌ يَهدونَنا وهمْ مِثلُنا؟ فكذَّبوهمْ وأعرَضـوا عنْ دِينِ الله، واســتَغنَى اللهُ عَنهمْ فأهلكَهم، واللهُ غَنيٌّ عنهمْ وعنْ إيمانِهمْ وطاعَتِهم، وعنِ الخَلقِ أجمَعين، حَميدٌ في أفعالِه، يَستَحِقُّ الحَمدَ بذاتِه.

{زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} (التغابن : ٧)

٧- ادَّعَى الكافِرونَ أنَّهمْ لنْ يُبعَثوا بعدَ الموت، قُلْ لهمْ أيُّها الرسُــول: بلَى واللهِ لتُبعَثُنَّ، ثمَّ لتُخبَرُنَّ بأعمالِكمْ كُلِّها، خَيرِها وشرِّها، وتُحاسَبُنَّ عَليها. وإحياؤكمْ سَهلٌ يَسيرٌ على الله، فما

أنتُمْ عندَهُ إلاّ كنَفسٍ واحِدَة. وحِســـابُكمْ يَســـيرٌ عَليهِ كذلك، وإنْ كَثُرَ عدَدُكم، وكَثُرَتْ أعمالُكم.

{فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} (التغابن : ٨)

٨- فآمِنوا باللهِ ورسُـولِهِ محمَّدٍ صـلى الله عليه وسـلم، والقُرآنِ الذي أنزَلناهُ عَليه، واللهُ عالِمٌ بما تَعمَلون، خَبيرٌ بما تأتونَ وما تذَرون.

{يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـــالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَـــيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (التغابن : ٩)

٩- يَومَ يَجمَعُكمْ جَميعًا، أوَّلَكمْ وآخِرَكم، ذلكَ اليَومُ الذي يَظهَرُ فيهِ خُســـرانُ النَّاسِ أو فَواتُ حُظوظٍ لهم، فيَخسَرُ الكافِرونَ الجَنَّةَ لعدَمِ إيمانِهم، ويَخسَرُ مؤمنونَ درَجاتٍ في الجَنَّةِ لتَقصيرِهِمْ في الطَّاعَةِ والإحسَـــان. ومَنْ يَصـــدُقْ في إيمانِه، ويُخلِصْ في عمَلِه، يَغفِرِ اللهُ ذُنوبَه، ويُدخِلْهُ جنَّاتٍ عالِيَات، وقُصـــورٍ واسِـــعات، تَجري مِنْ خِلالِها الأنهَار، مخلَّدينَ فيها أبدًا، وذلكَ هوَ الفَوزُ والفَلاح، والسَّعادَةُ الكبيرَة.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (التغابن : ١٠)

١٠- والذينَ كفَروا بالله، وكذَّبوا بالمعجِزاتِ التي أيَّدَ بها رسُلَه، أولئكَ أهلُ النَّار، ماكثينَ فيها أبدًا، لا مَحيدَ لهمْ عنها، وبئسَ مآلُهُمُ الذي استقَرُّوا فيه.

{مَا أَصَـــابَ مِن مُّصِـــيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَـــيْءٍ عَلِيمٌ} (التغابن : ١١)

١١- ما أصابَ أحدًا مُصيبَةٌ إلاّ بمَشيئةِ الله، ومَنْ أصابَتْهُ مُصيبَةٌ، فعَلِمَ أنَّها بقَضاءِ اللهِ وقدَرِه، وآمَنَ بأنَّهُ لا تُصيبُهُ إلاّ بإذنِه، وصبرَ واحتسَب، وسلَّمَ الأمرَ للهِ ورَضِـي، زادَهُ يَقينًا، وطَمْأنَ

قلبَه، وهداهُ إلى مَزيدٍ مِنَ الخَيرِ والطَّاعَة، واللهُ عالِمٌ بكلِّ شَــــيء، لا يَخفَى عليهِ أحوالُ النَّاسِ ونيَّاتُهم.

{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُـــولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُـــولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} (التغابن: ١٢)

١٢- وأطيعُوا اللهَ فيما شرَعَ لكمْ مِنَ الدِّين، وأطيعُوا رَسُولَهُ فيما بلَّغَ عنْ ربِّهِ، وما أمرَ بهِ ونَهَى عنه، فإنْ أعرَضتُم، فما على الرسُولِ إلاّ تَبليغُ ما أُمِرَ بهِ بَلاغًا واضِحًا، وقدْ فَعَل، وليسَ عليهِ هُداكم، وما عَليكمْ إلاّ السَّمعُ والطَّاعَة.

{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} (التغابن : ١٣)

١٣- اللهُ واحِدٌ لا شَـــريكَ له، فلا مَعبودَ بحَقٍّ سِـــواه، وعلى اللهِ وحدَهُ فَليَعتَمدِ المؤمنونَ في أُمورِهم.

{يَا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَـدُوّاً لَّكُمْ فَـاحْـذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (التغابن : ١٤)

١٤- أيُّهـا المؤمنون، إنَّ مِنْ أزواجِكمْ وأولادِكمْ مَنْ يَكونُ عـدوًّا لكم، عنـدَما يُلهونَكمْ عنِ العمَلِ الصَّـــالح، ويُعادُونكم، ويَحمِلونَكمْ على قَطعِ الرَّحِم، أو مَعصـــيَةِ الله، فاحذَروهم، ولا تأمَنوا شـرَّهم، وإنْ تَعفُوا عنْ أخطائهمُ القابِلَةِ للعَفو، كالمتعَلِّقَةِ بأمورِ الدُّنيا، وتَسـتُروهمْ عَليها وتَعذِروهُمْ فيها، فإنَّ اللهَ يُثيبُكمْ عَليها، فيَغفِرُ لكمْ ويَرحَمُكم، وهوَ كثيرُ المغفِرَةِ لذُنوبِ عِبادِهِ التَّائبين، واسِعُ الرَّحمَةِ بالمؤمنين.

{إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} (التغابن : ١٥)

١٥- إنَّما أموالُكمْ وأولادُكمْ ابتِلاءٌ واختِبارٌ مِنَ اللهِ لكم، فيترتَّبُ عَليهِما كثيرٌ مِنَ التصـــرُّفاتِ والمواقفِ والالتِزامَات، ليَعلمَ اللهُ بذلكَ مَنْ يُطيعُهُ ويُنفِقُ مِنْ مالِهِ فيما يُرضِـــيه، ومَنْ يُقَدِّمُ

مَصـــلحةَ مالِهِ وأولادِهِ على دِينِ اللهِ والجِهادِ في سَـــبيلِه. ومَنْ آثرَ الباقي على الفاني فقدْ فازَ ونَجا، وما عندَ اللهِ خَيرٌ وأبقَى.

{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْـتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِـكُمْ وَمَن يُوقَ شُـحَّ نَفْسِـهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (التغابن : ١٦)

١٦- فابذُلوا جُهدَكمْ لامتِثالِ أمرِ اللهِ وعدَمِ مُخالفَتِه، واسمَعوا مَواعِظَ الله، وتَمسَّـكوا بسـنَّةِ نَبيِّهِ صـلى الله عليه وسـلم، وأنفِقوا مِنْ أموالِكمْ للفُقَراءِ والمحتاجين، ومَنْ مَنعَ نَفسَـهُ مِنَ البُخلِ والحِرصِ على المال، فقدْ نجحَ وفاز.

وفي حديثِ جابرٍ المرفوعِ قَولُهُ صلى الله عليه وسلم: "واتَّقوا الشُّحّ، فإنَّ الشُّحَّ أهلكَ مَنْ كانَ قَبلَكم، حملَهمْ على أنْ سفَكوا دِماءَهم، واستَحلُّوا مَحارِمَهم". رَواهُ مُسلم.

والشُّحُّ أشَدُّ البُخل.

{إِن تُقْرِضُـوا اللَّهَ قَرْضـاً حَسَـناً يُضَـاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَـكُورٌ حَلِيمٌ} (التغابن: ١٧)

١٧- إذا أنفَقتُمْ مِنْ أموالِكمْ في سَـــبيلِ الله، مِنْ جِهادٍ وغَيرِهِ مِنْ أعمالِ البِرِّ والإحسَـــان، بإخْلاصٍ وطِيبِ نَفس، فإنَّ اللهَ يُضـــاعِفُ لكمُ الأجرَ والثَّوابَ يَومَ الحِســـابِ والجَزاء، ويَغفِرُ ذُنوبَكم، واللهُ شَكورٌ يَجزِي الكثيرَ على القَليل، حَليم، لا يُعاجِلُ بالعُقوبَة، بلْ يُمهِل، ويَصفَحُ ويَغفِر.

{عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (التغابن : ١٨)

١٨- اللهُ الذي يَعلَمُ ما غابَ عنكمْ وما هوَ مُشاهَدٌ لكم، فلا يَخفَى عليهِ صَغيرٌ ولا كَبير، في الأرْضِ ولا في السَّماء، الغالِبُ الذي لا يُقهَر، الحَكيمُ فيما يَقضي ويُقَدِّر.

سورة الطـلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَــاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُــوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَــةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً} (الطلاق : ١)

١- أيُّها النبيُّ الكريم، إذا أرَدتُمْ تَطليقَ النِّسَــاء، فطلِّقوهنَّ في طُهرٍ مِنْ غَيرِ جِماع، فلا يَحِلُّ الطَّلاقُ والمرأةُ حائض، ولا في طُهرٍ جامعَها زَوجُها فيه، واضــبِطُوا العِدَّةَ واعرِفوا ابتِداءَها وانتِهاءَها، وأكمِلوها ثَلاثَةَ قُروءٍ [يُراجَعُ المعنَى في تَفسيرِ الآيةِ ٢٢٨ مِنْ سُورَةِ البقَرة]. واخشَوا اللهَ ولا تُطَوِّلوا العِدَّةَ عَليهنَّ للإضرَارِ بهنّ.

ولا تُخرِجوهنَّ مِنْ مَنازِلهِنَّ بعدَ الطَّلاقِ إلى أنْ تَنقَضــيَ عِدَّتُهنّ، فلهنَّ حقُّ السُّكنَى على الزَّوجِ حتَّى تَنقَضــيَ العِدَّة. ولا يَجوزُ لهنَّ أيضًــا أنْ يَخرُجْنَ وهنَّ ما زِلنَ في العِدَّة، إلاَّ إذا ارتَكبْنَ فاحِشةً ظاهِرَةً، كالزِّنا، فيُخرَجْنَ مِنَ المسكَن.

وما ذُكرَ هوَ مِنَ الأحكامِ التي شَـرعَها اللهُ لعِبادِه، فمَنْ لم يَعمَلْ بها أو أخَلَّ بشَـيءٍ منها فقدْ أضَــرَّ بنَفسِــه. ولا تَدري ما الذي يُحدِثُهُ اللهُ بعدَ ذلك، فقدْ يَكونُ بَقاءُ المطلَّقَةِ في المنزِلِ في وَقتِ العِدَّةِ سبَبًا لرجُوعِ الزَّوجِ إليها إذا كانَ الطَّلاقُ رَجعيًّا، فيَكونُ ذلكَ أفضلَ لهما.

{فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّــهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً} (الطلاق : ٢)

٢- فإذا شارفَتِ المطلَّقاتُ على انقِضاءِ عِدَّتهنّ، فرَاجِعوهنَّ معَ حُسنِ عُشرَةٍ وإنفاقٍ مُناسِب، أو اعزِموا على مُفارَقَتِهنَّ مِنْ غَيرِ تَعنيفٍ ولا إلحاقِ ضرَرٍ بهنّ.

وأشـــهِدوا على الرَّجعَةِ والفِراق. والإشـــهادُ على الرَّجعَةِ مُســـتحَبٌّ احتِياطًا، خَوفًا مِنْ إنكارِ الزَّوجةِ لها بعدَ انقِضاءِ العِدَّة، وقَطعًا للشكِّ في حُصولِها، فإذا لم يُشهِدْ على رَجعَتِها صحَّت.
وعندَ الشافعيِّ: الشَّهادَةُ على الرَّجعَةِ واجبة، ومَندوبٌ إليها في الفُرقَة.
وقالَ الجصَّــاصُ في "الأحكام": لم يَختَلفِ الفُقهاءُ في أنَّ المرادَ بالفِراقِ المذكورِ في الآيَةِ إنَّما هوَ تَركُها حتَّى تَنقَضيَ عِدَّتُها، وأنَّ الفُرقةَ تَصِحُّ وإنْ لم يقَعِ الإشهاد. اهـ.
وأظهِروا الشَّـهادَةَ على الرَّجعَةِ والطَّلاقِ عندَ الحاجَةِ أيُّها الشُّـهود، خالِصًـا لوَجهِ الله، مِنْ غَيرِ تَحريف.
وما ســبقَ بيانُ حُكمِهِ هوَ ما تُوعَظونَ به، وإنَّما يَلتَزِمُ بِهِ مَنْ كانَ يؤمِنُ باللهِ وشَــرعِه، ويَخافُ عِقابَهُ في اليَومِ الآخِر، ومَنْ خَشيَ اللهَ ولم يُخالِفْ أمرَه، فطلَّقَ للسنَّة، ولم يَضُرَّ بالزَّوجَة، يَجعَلِ اللهُ لهُ مَخرَجًا ومَنفَذًا ممَّا يقَعُ للأزواجِ مِنَ الهَمِّ والضِّيق،

{وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً} (الطلاق : ٣)
٣- ويَرزُقْهُ مِنْ جِهَةٍ لا تَخطرُ ببالِه، ومِنْ حيثُ لا يَتوَقَّع. ومَنْ يَعتَمِدْ على اللهِ ويُفَوِّضْ إليهِ أمرَه، فهوَ كافيهِ في جَميعِ أُمورِه. إنَّ اللهَ يَبلُغُ ما يُريدُه، ويُنَفِّذُ ما قَضـــاه. وكُلُّ شَـــيءٍ مُقَدَّرٌ بمِقدَار، ولا يوجَدُ شَــيءٌ جُزافًا في الكونِ كُلِّه، وقدْ قدَّرَ اللهُ الأشــياءَ قَبلَ وجودِها، وجعلَ لها أجلاً تَنتَهي إليه، ففوِّضوا الأمُورَ إلى الله، وأحسِنوا تَوكُّلَكمْ عليه.

{وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً} (الطلاق : ٤)
٤- والنِّساءُ اللَّواتي انقطَعَ عَنهنَّ الحيضُ لكِبَرِهنّ، إنْ شَكَكتُمْ في عِدَّتِهنَّ فهيَ ثَلاثَةُ شُهور. والصَّغيراتُ اللّاتي لم يَبلُغْنَ سِنَّ الحيضِ كذلك.

وفي الآيَةِ جَوازُ نِكاحِ الصَّـغيرَة، وليسَ ذلكَ إلاّ للأبِ أو الجَدّ، لتَوافُرِ الشـفَقةِ منهما عَليها، وصِـدقِ الرَّغبَةِ في تَحقيقِ مَصـلحَتِها، وخَشـيةِ فَواتِ هذهِ المصـلحَةِ عَليها لو لم يَتِمَّ العَقدُ في حينِه. وقدِ اشترطَ الشافعيَّةُ سَبعةَ شُروطٍ لهذا العَقد، منها أنْ يَكونَ الزَّواجُ مِنْ كُفء.

ومُنتهَى عِدَّةِ النِّساءِ الحوامِلِ أنْ يَضَعْنَ حَملَهُنّ، سَواءٌ كُنَّ مُطلَّقاتٍ أو مُتوَفًّى عَنهنَّ أزواجُهنّ.

ومَنْ خَشِيَ اللهَ ولم يَتَجاوَزْ حُدودَه، يُسَهِّلْ لهُ أمرَه، ويَجعَلْ لهُ فرَجًا ومَخرَجًا.

{ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً} (الطلاق : ٥)

٥- ذلكَ حُكمُ اللهِ وقَضاؤه، أنزلَهُ إليكمْ بواسِطَةِ رَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم، ومَنْ يَلتَزِمْ بما أمرَ الله، ويَنتَهي عمَّا نَهى عنه، يَغفِرْ لهُ ذُنوبَه، ويُجزِلْ لهُ الثَّوابَ على العمَلِ ولو كانَ يَسيرًا.

{أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى} (الطلاق : ٦)

٦- وإذا طلَّقتُمُ النِّسـاءَ فأسـكِنوهُنَّ مِنْ حَيثُ سـكَنتُم، وأنفِقوا عَليهنَّ مِنْ وُسْـعِكم، الموسِـرُ يوَسِّعُ عَليها، والفَقيرُ على قَدْرِ الطَّاقَة.

ولا تؤذُوهنَّ لتُضَيِّقوا عَليهنَّ في مَكانِ سكَنِهنَّ فتُلجِؤوهُنَّ إلى الخُروج.

وإذا كانتِ المطلَّقاتُ حامِلاتٍ فعَليكمْ نَفقَتُهنَّ وسُكناهُنَّ حتَّى تَنتَهيَ عِدَّتُهنّ، وهيَ أنْ يضَعْنَ حَملَهنّ، فإذا أرضَعْنَ لكمْ وهُنَّ طَوالِق، فأعطُوهنَّ أُجورَهنَّ على إرضَاعِهنّ.

ولتكُنْ أمورُكمْ فيما بينَكمْ بالكلامِ الجَميلِ والمعامَلَةِ الحسنَة، وليَأمُرْ كُلٌّ صاحبَهُ بالخَير.

فإذا اختلَفتُمْ في أُجرَةِ الرَّضيعِ ولم تَتوافَقوا، فليَستأجِرِ الأبُ للمولودِ مُرضِعًا غَيرَ أُمِّه.

{لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً} (الطلاق : ٧)

٧- ليُنفقِ الأبُ أو الوليُّ الموسِرُ على قَدْرِ غِناه، ومَنْ كانَ في ضِيقٍ مِنَ المعِيشَةِ فليُنفِقْ مِنْ مالِهِ بالقَدْرِ الذي يَستَطيع، لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفسًا مِنَ النَّفقَةِ إلاّ ما أعطاها مِنَ الرِّزق، سيَجعَلُ اللهُ بعدَ ضِيقٍ سَعَة، وبعدَ فَقرٍ غِنًى.

{وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً} (الطلاق : ٨)

٨- وكَمْ مِنْ أهلِ قَريَةٍ عصَوا وتَمَرَّدوا واستَكبَروا عمَّا أمرَهمُ اللهُ بهِ ورسُلُه، فحاسَبناها على مَواقِفِها وما أجابَتْ بهِ رسُلَنا حِسابًا مُستَقصيًا، وعذَّبناها في الآخِرَةِ عَذابًا مُنكرًا فَظيعًا.

{فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً} (الطلاق : ٩)

٩- فَذاقَتْ جَزاءَ عُتوِّها واستِكبارِها، وكانَ عاقِبَةُ أمرِها خُسرانًا هائلاً، هلاكًا ودَمارًا في الحيَاةِ الدُّنيا، وعَذابًا شَديدًا في الآخِرَة.

{أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً} (الطلاق : ١٠)

١٠- هيَّأَ اللهُ لهمْ عَذابًا مؤلِمًا ونارًا تَتلظَّى في الآخِرَة، فامتَثِلوا أمرَ اللهِ ولا تُخالِفوه، يا أهلَ العُقولِ المستَقيمَة، الذينَ آمَنوا باللهِ ورسُلِهِ وبما بَلَّغوه، لقدْ أنزلَ اللهُ عَليكمْ قُرآنًا عَظيمًا، فيهِ عِظَةٌ لكمْ وعِبرَة، ونورٌ وهِدايَة.

{رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً} (الطلاق : ١١)

١١- أرسَلَ إليكمْ رَسولاً يَتلو عَليكمْ كتابًا مِنْ عندِ اللهِ بَيِّنًا مُعجِزًا، ليُخرِجَ بهِ الذينَ صدَقوا في إيمانِهِمْ وعَمِلوا عمَلاً صالحًا مِنَ الضَّلالِ إلى الهُدَى، ومِنْ ظلُماتِ الكُفرِ والجَهلِ إلى نُورِ الإيمَانِ والعِلم. ومَنْ يؤمِنْ باللهِ إيمانًا صادِقًا، لا رياءَ فيهِ ولا شِرك، ويُتْبِعْهُ بعمَلٍ حسَنٍ مُوافِقٍ

للشَّـرع، يُدْخِلْهُ جنَّاتِ النَّعيم، التي تَجري مِنْ خِلالِ قصـورِها وأشـجارِها الأنَهار، ماكثِينَ فيها أبدًا، لا يَمَلُّونَ منها، ولا يَتحوَّلونَ عنها.

{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَـــبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً} (الطلاق : ١٢)

١٢- هوَ اللهُ القادِرُ العَظيم، الذي خلقَ سَـبعَ سَماوات، ومِنَ الأرْضِ مِثلَهنَّ في العَدَد، يَجري أمرُ اللهِ وقَضـــاؤهُ بينَهنَّ، ويُدَبِّرُ فيها ما شـــاءَ كما يُريد، لتَعلَموا أنَّ مَنْ قَدَرَ على خَلقِ السَّماواتِ والأرْضِ قادِرٌ على كُلِّ شَيء، كالإحيَاءِ بعدَ الموت، ولتَعلَموا أنَّ علمَ اللهِ قدْ أحاطَ بكُلِّ ما فيها، فلا يَخفَى عليهِ شَيء، أينَما كانَ ومَهما خَفي.

سورة التحـريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَـــاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (التحريم: ١)

١- شَـرِبَ رَسُـولُ اللهِ صـلى الله عليه وسـلم عسَـلاً عندَ إحدَى زَوجاتِه، فاتَّفقَتْ عائشَـةُ وحفصَـةُ رَضـيَ اللهُ عَنهما على أنَّهُ عليهِ الصَّـلاةُ والسَّـلامُ إذا دخلَ على أيَّتِهنَّ فلتَقُلْ له: إنِّي أجِدُ منكَ ريحَ مَغافير، وهوَ شَـبيهٌ بالصَّـمغ، فيهِ حَلاوةٌ ولهُ رائحَةٌ كريهة، فقالتْ لهُ إحداهُنَّ ذلك، فقالَ صـلى الله عليه وسـلم: "لا، بلْ شَـرِبتُ عسَـلاً عندَ زَينبَ بنتِ جَحش، ولنْ أعُود". فنزلَت. ولفظُ قَولِهِ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنْ صَحيحِ البخاريّ.

أيُّها النبيُّ الكريم، لماذا تُحَرِّمُ على نَفسِـكَ طَعامًا أحلَّهُ اللهُ لك، أتُريدُ بذلكَ أنْ تُرضـيَ بعضَ زَوجاتِك؟ لقدْ غفرَ اللهُ لك، واللهُ كثيرُ المغفِرَة، واسِعُ الرَّحمَة.

{قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} (التحريم : ٢)

٢- لقدْ شـرَعَ اللهُ لكمْ تَحليلَ ما عَقدَتْهُ أيمانُكمْ بالتَّكفيرِ عَنها إذا حنَثتُم [يُراجَعُ تَفسيرُ الآيةِ ٨٩ مِنْ سُورَةِ المائدَةِ]. واللهُ مُتَولِّي أمُورِكم، وهوَ العَليمُ بما يُصلِحُكمْ فيشرَعُهُ لكم، الحكيمُ الذي لا يأمرُ ولا يَنهَى إلاّ بما تَقتَضيهِ الحِكمَة.

{وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ} (التحريم : ٣)

٣- واذكُرْ إذْ أسرَّ النبيُّ إلى بَعضِ زَوجاتِهِ حَديثًا. ذكرَ المفَسِّرونَ أنَّها حَفصَةُ رَضيَ اللهُ عنها، وهوَ في مَوضوعِ شُربِ العسَل، فقدْ قالَ لها عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ في روايَةٍ -للبخاريّ أيضًا- : "ولنْ أعُود، وقدْ حلَفتُ، فلا تُخبِري بذلكَ أحَدًا"، فأخبرَتْ بهِ عائشةَ رَضيَ اللهُ عَنها، وكانَتا مُتصادِقتَين. فلمَّا أطْلَعَ اللهُ عَليهِ نبيَّهُ صلى الله عليه وسلم أعلَمَها ببَعضِ الحديثِ الذي أفشَته، ولم يُخبِرْها بهِ كُلِّه، تَكريمًا لها، حتَّى لا يَزدادَ خَجَلُها. فلمَّا أخبرَها به، خَشِيَتْ أنْ تَكونَ عائشَةُ قدْ فضَحَتْها، فقالَتْ له: مَنْ أخبرَكَ بهذا؟ فقالَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام: أخبرَني العَليمُ الذي يَعلَمُ السرَّ وأخفَى، الخَبيرُ الذي لا تَخفَى عَليهِ خافيَة.

{إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ} (التحريم : ٤)

٤- إنْ تَتوبا إلى اللهِ مِنْ تَعاونِكما على إيذاءِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم كانَ خَيرًا لكمَا، فقدْ زاغَتْ قُلوبُكما ومالَتْ عنِ الحقّ، وإنْ تَتعاوَنا عَليهِ بما يَسُوؤه، مِنَ الإفراطِ في الغَيرَةِ وإفشاءِ سرِّه، فإنَّ اللهَ وليُّهُ وناصِرُه، وجِبريل، وصالِحُ المؤمِنين[١٤٦]، والملائكةُ بعدَ نُصرَةِ اللهِ لهُ أعوانٌ لهُ صلى الله عليه وسلم.

---

(١٤٦) مَن صلحَ من المؤمنين: أتباعهُ وأعوانه ... قالَ ابنُ عباس رضيَ الله عنهما: أرادَ بصالحِ المؤمنين أبا بكرٍ وعمرَ رضيَ الله عنهما. (روح البيان).

{عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً} (التحريم : ٥)

٥- عسَى اللهُ إنْ طلَّقكنَّ النبيُّ أنْ يُعطيَهُ زَوجاتٍ خَيرًا منكنّ، مُسلِمات: مُقِرَّاتٍ خاضِعاتٍ لطاعَةِ الله، مُؤمِنات: مُصَدِّقاتٍ مُخلِصات، قانِتات: مُصَلِّياتٍ مُواظِباتٍ على الطَّاعَة، تائبات: مُستَغفِراتٍ راجِعاتٍ إلى الله، عابِداتٍ مُتذَلِّلاتٍ لأمرِ اللهِ ورَسُولِه، سائحات: صَائمات، بَعضُهنَّ ثَيِّبات، وبَعضُهنَّ أبكَار.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} (التحريم : ٦)

٦- أيُّها المؤمِنون، أطيعُوا اللهَ وابتَعِدوا عنْ مَعاصيه، وأدِّبوا أهليكم، وانهَوهمْ عمَّا نَهَى اللهُ عنه، وأْمرُوهمْ بما أمرَ به، ليَكونَ ذلكَ نَجاةً لكمْ ولهمْ مِنَ النَّار، التي تتَّقِدُ بالنَّاسِ والحِجارَة، فهما حطَبُها الذي يُلقَى فيها وتُسعَرُ به، وقدْ وُكِّلَ بالنَّارِ وتَعذيبِ أهلِها ملائكةٌ أفظاظٌ قُساةٌ أشِدَّاءُ على الكافِرينَ بالله، لا يَعصُونَ ما أمرَهمْ اللهُ به، ويُبادِرونَ إلى فِعلِ ما يأمرُهم.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (التحريم : ٧)

٧- أيُّها الكافِرون، لا تَعتَذِروا اليَومَ وقدْ حَقَّ عَليكمُ العَذاب، فلا عُذرَ لكم، ولا هوَ نافِعُكم، إنَّما تُحاسَبونَ على أعمالِكمُ التي قَدَّمتُموها في الحيَاةِ الدُّنيا، وتُجزَونَ عَليها بما تَستَحِقُّون.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (التحريم : ٨)

٨- أيُّها المؤمِنون، توبوا إلى اللهِ مِنْ ذُنوبِكمْ وسَيِّئاتِ أعمالِكمْ تَوبةً صادِقَةً جازِمَة، تَنصَحونَ بها أنفُسَكم، فتَندَمونَ على أخطائكم، وتَعزِمونَ على عدَمِ العَودَةِ إليها، عسَى أنْ يَغفِرَ اللهُ بذلكَ سَيِّئاتِكم، ويُكرِمَكمْ يومَ القيامَةِ فيُدخِلَكمْ جنَّاتٍ واسِعات، تَجري مِنْ تَحتِها الأنهَارُ

الكثيرة، يومَ لا يُذِلُّ اللهُ النبيَّ والمؤمنينَ كما يُذِلُّ الكافِرين، ولا يُعَذِّبُهُمْ بدُخولِ النَّار، بلْ يُكرِمُهمْ بالنَّعيمِ المقيم، نُورُهمْ يَمشي بينَ أيديهمْ وعنْ أيامنِهم، وهمْ يَقولونَ إذا طُفِئَ نورُ المنافِقين: اللهمَّ أتمِمْ لنا النَّورَ الذي أنعَمتَ بهِ عَلينا، واغفِرْ لنا ذُنوبَنا كُلَّها، إنَّكَ قادِرٌ على كُلِّ شَيء.

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (التحريم: ٩)

٩- أيُّها النبيُّ الكريم، جاهدِ الكفَّارَ بالسِّلاحِ والقِتال، والمنافِقينَ بالحُجَّةِ والدَّليلِ والوَعيد، وبالسِّلاحِ والقِتالِ لمنْ أبَى الانقيادَ لحكمِ الله، وأقِمْ عَليهمُ الحُدودَ بما يَستَحِقُّون، وشَدِّدْ عَلى الفِئتَينِ في ذلك، وكونوا على حذَرٍ منهم، حتَّى يَرعَوَوا، وتَنكَسِرَ قوَّتُهم، ولئلاَّ تُحَدِّثَهمْ أنفسُهمْ بالعبَثِ بأمنِكم، ومَصيرُهمْ جهنَّمُ يَومَ القِيامَة، وبئسَ المأوَى مَأواهم، الذي لا يَجِدونَ فيهِ سِوَى الحميم، والعَذابِ المهين.

{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ} (التحريم : ١٠)

١٠- ضرَبَ اللهُ مثَلاً للكافِرين، حالَ امرأةِ النبيِّ نُوح، وامرأةِ النبيِّ لُوط، عَليهما السَّلام، فقدْ كانَتا زَوجَتَينِ لعَبدَينِ صالحَينِ مِنْ عِبادِنا، فخانَتاهُما في دِينِهما، ولم تَتَّبِعاهُما. وكانتِ امرأةُ نُوحٍ تَقولُ عنهُ مَجنون، وامرَأةُ لُوطٍ تَدلُّ قَومَها على ضُيوفِهِ ليَعمَلوا الفاحِشة. فلمْ يَنفَعْهُما كَونُ زَوجَيهِما رَسُولَينِ يَومَ القِيامَة، وقيلَ لهما: ادخُلا النَّارَ معَ سائرِ الكفَرَةِ المجرِمين.

{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} (التحريم : ١١)

١١- وضَرَبَ اللهُ مثَلاً للمُؤمنين، امرَأةَ فِرعَونَ المؤمِنَة، وزَوجُها كافِرٌ مُستَكبِر، فقالتْ داعيَةً رَبَّها: اللهمَّ ابنِ لي بَيتًا في جنَّتِك، وخَلِّصْني مِنْ فِرعَونَ المتكَبِّرِ وعمَلِهِ السيِّء، فإنِّي أبرَأُ إليكَ

منهُ ومِنْ شِركِه، وخَلِّصْني مِنْ قَومِهِ الكافِرينَ المجرِمين. فهذهِ مؤمِنةٌ لم يَضُرَّها كفرُ زَوجِها، ولو كانتْ مُخالِطَةً له.

{وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ} (التحريم : ١٢)

١٢- والصِّدِّيقَةَ الطَّاهِرَةَ مَريمَ بِنتَ عِمْران، التي صانَتْ عِرضَها، وحَفِظَتْ فَرجَها مِنْ دنَسِ المعِصيَة، فنفَخنا فيهِ بواسِطَةِ جِبريل، فحمَلَتْ بعيسَى عَليهِ السَّلام، وآمنَتْ بوَحي الله، وشَرائعِهِ لعِبادِه، وكتُبِهِ المنزَلَة، وكانتْ مِنَ القَومِ المؤمِنينَ المواظبينَ على الطَّاعَةِ والعِبادَة، فأكرمَها اللهُ في الحيَاةِ الدُّنيا وفي الآخِرَة.

الجزء التاسع والعشرون

سورة الملك

سورة القلم

سورة الحاقة

سورة المعارج

سورة نوح

سورة الجن

سورة المزمل

سورة المدثر

سورة القيامة

سورة الإنسان

سورة المرسلات

سورة الملك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (الملك : ١)

١- تَبارَكَ اللهُ وتَعاظَمَ في ذاتِهِ وصِفاتِهِ وأفعالِه، الذي أفاضَ على مَخلوقاتِهِ أنوَاعَ الخَيرات، مالِكُ السَّماواتِ والأرض، والمتصَرِّفُ فيهما كما يَشاء، وهوَ القادِرُ على كُلِّ شَيء، لا يَمنَعُهُ مانِعٌ مِنْ تَنفيذِ أمرِهِ وتَقديرِ ما يُريد.

{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} (الملك : ٢)

٢- الذي أوجدَ الموتَ والحياةَ في الحيَاةِ الدُّنيا ليَختَبِرَكمْ أيُّكمْ أفضَلُ عمَلاً وأحسَنُ طاعَةً لرَبِّه، وهوَ العَزيزُ الغالِبُ الذي لا يَقدِرُ أحَدٌ على مَنعِهِ مِنْ عُقوبَةِ مَنْ أسَـــاء، الغَفورُ لذُنوبِ مَنْ تابَ إليهِ مِنْ عبَادِهِ المؤمنين.

{الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ} (الملك : ٣)

٣- الذي خلقَ سَبعَ سَماواتٍ، طبقَةً فوقَ طبقَة، لا تَجِدُ في خَلقِ اللهِ اختِلافًا وعدَمَ تَناسُب، فلا نَقصَ فيهِ ولا خلَل، فتأمَّلْ في السَّماء، وابحَثْ وتدَبَّر، هلْ ترَى فيها مِنْ شُقوقٍ وفُروج؟

{ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ} (الملك : ٤)

٤- ثمَّ أعِدِ النظَرَ مرَّتَينِ وأكثَر، فإنَّكَ لنْ تَجِدَ فيها عَيبًا وتصَدُّعًا، وسيَعودُ بصَرُكَ صاغِرًا وهوَ مُتعَبٌ مِنْ كثرَةِ النظَرِ والمراجعَة، دونَ أنْ يَظفَرَ بخَلَلٍ أو نَقصٍ فيها.

{وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ} (الملك : ٥)

٥- ولقدْ جمَّلْنا السَّماءَ التي تَليكمْ بالكَواكبِ والنُّجومِ المتلألِئة، وجعَلنا الشُّهُب فيها تُصيبُ الشَّياطينَ الذينَ يَسترِقونَ السَّمعَ مِنَ الملائكة، وقدْ هيَّأنا لهمْ نارًا شَديدَة مُوقَدَة.

{وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} (الملك : ٦)

٦- والذينَ كفَروا برَبِّهِمْ كذلك، لهمْ عَذابُ جهنَّم، وبئسَ مَرجِعُهمُ النَّارُ الدَّائمَة، التي يُعذَّبونَ فيها.

{إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ} (الملك : ٧)

٧- إذا طُرِحوا في جهنَّمَ سَمِعوا لها صَوتًا مَنكرًا فَظيعًا، وهيَ تَغلي بهم.

{تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ} (الملك : ٨)

٨- تَكادُ أنْ تتقطَّعَ مِنْ شِـــدَّةِ غَيظِها وحَنَقِها عَليهم، كُلَّما طُرِحَ فيها جَماعَةٌ مِنَ الكفَّار، سألَهُمْ خَزَنَةُ النَّارِ مِنَ الملائكة: ألمْ يُبعَثْ إليكمْ رُسُلٌ يُحَذِّرونَكمْ مِنْ يَومِ الحِسابِ والجَزاء؟

{قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَـــيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَـــلَالٍ كَبِيرٍ} (الملك : ٩)

٩- قالوا: بلَى أُرسِلوا إلينَا، ولكنَّنا كذَّبْناهم، وأعرَضْنا عَنهم، وقُلنا لهم: لم يُنَزِّلِ اللهُ على أحَدٍ كتابًا ولا غَيرَه، وأنتُمْ مُخطِؤونَ بَعيدونَ عنِ الحقِّ والصَّواب!

{وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ} (الملك : ١٠)

١٠- وقالوا مُعترِفينَ بذَنبِهم: لو كنَّا نَســـمَعُ مِنَ الرسُـــلِ ما أَنزلَ اللهُ مِنَ الحقّ، أو كانتْ لنا عُقولٌ نُمَيِّزُ بها ونَنتَفِعُ منها، لما كُنَّا في عِدادِ أهلِ النَّار.

والعَقلُ الذي لا يَزجُرُ صـــاحِبَهُ عنِ المعاصـــي والجرائمِ والمنكَرات، ليسَ عَقلاً مُســـتَقيمًا ولا سَليمًا.

{فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ} (الملك : ١١)

١١- فاعترَفوا بكُفرِهمْ وتَكذيبِهمْ بآياتِ اللهِ ونُذُرِه، فبُعدًا لأصحابِ النَّارِ مِنْ رَحمَةِ الله.

{إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} (الملك : ١٢)

١٢- إنَّ الذينَ يَخافونَ ربَّهم ولو لم يَروه، ويَبتَعِدونَ عمَّا حرَّمَهُ طاعَةً لهُ وخَوفًا مِنْ عُقوبَتِه، يَغفِرُ اللهُ ذُنوبَهمْ ولو كَثُرَت، ويُجازيهمْ بالثَّوابِ الجَزيل.

{وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} (الملك : ١٣)

١٣- وأخفُوا كلامَكمْ أو أعلِنوه، فإنَّ اللهَ عَليمٌ بالأسرَارِ الخفيَّةِ المستَكنَّةِ في الصُّدور[١٤٧].

---

(١٤٧) {بِذَاتِ الصُّدُورِ}: بضمائرِ الصدورِ التي لم يُتَكلَّمْ بها. (الطبري). =

{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} (الملك : ١٤)

١٤- ألَا يَعلَمُ الخالِقُ مخلوقاتِهِ وهوَ الذي أوجدَهم، وهوَ العالِمُ بالخَفيّات، الخَبيرُ بأحوَالِ النَّاسِ ودَقائقِ أُمورِهم؟

{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} (الملك : ١٥)

١٥- هوَ الذي سخَّرَ لكمُ الأرْضَ ليَسهُلَ عَليكمُ الانتِفاعُ بما فيها، فامشُوا في طرُقِها وفِجاجِها وجِبالِها وكُلِّ أرجَائها، وابتَغوا فيها مِنْ رِزقِ اللهِ ونِعَمِه، وإليهِ مَرجِعُكمْ بعدَ البَعث، ليُحاسِبَكمْ على ما عَمِلتُم.

{أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ} (الملك : ١٦)

١٦- أأَمِنتُمْ إنْ عصَيتُمُ اللهَ أنْ يُزَلزِلَ الأرْضَ مِنْ تَحتِ أقدامِكم، فإذا بها تُلقي بكمْ في أسفَلِها، وإذا هيَ تَرتَجُّ وتَضطَرِبُ بكم؟

{أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} (الملك : ١٧)

١٧- أمْ أمِنتُمْ أنْ يُرسِلَ اللهُ عَليكمْ رِيحًا فيها حِجارَةٌ فتُهلِكَكم، فستَعلَمونَ عندَئذٍ كيفَ كانَ إنذَاري فيكمْ وعُقوبَتي لمنْ كفَرَ منكم؟

= {بِذَاتِ الصُّدُورِ}: بمضمراتِ جميعِ الناس، وأسرارِهم الخفيَّةِ المستكنَّةِ في صدورهم، بحيثُ لا تكادُ تفارقها أصلًا، فكيف يخفَى عليه ما تسرُّونَهُ وتجهرون به؟ ويجوزُ أن يُرادَ بـــ (ذاتِ الصدورِ) القلوبُ التي في الصدور، والمعنى: إنه عليمٌ بالقلوبِ وأحوالها، فلا يخفَى عليه سرٌّ من أسرارها. (روح البيان).

(ذاتُ الصدور) ما يتردَّدُ في النفسِ من الخواطرِ والتقاديرِ والنوايا على الأعمال. وهو مركبٌ من (ذات) التي هي مؤنث (ذُو) بمعنى صاحب، و (الصدور) بمعنى العقول، وشأنُ (ذُو) أن يُضافَ إلى ما فيه رفعة. (التحرير والتنوير).

{وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} (الملك : ١٨)

١٨- وقدْ كذَّبَتْ أُمَمٌ ماضِـــيَةٌ أنبياءَها قَبلَ كفَّارِ مكَّة، فكيفَ كانَ إنكَاري عَليهِمْ ومُعاقبَتي لهم؟

{أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـافَّاتٍ وَيَقْبِضْـنَ مَا يُمْسِـكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَـيْءٍ بَصِيرٌ} (الملك : ١٩)

١٩- أوَلَمْ يَنظُروا إلى الطَّيرِ فَوقَهمْ وهيَ تَبسُـــطُ أجنِحتَها وتَصُـــفُّها في الهَواء، وتارَةً تَجمَعُها وتَضـــمُّها، لا يَقدِرُ على إبقائهنَّ في الجوِّ هكذا إلاّ الله، وقدْ ســخَّرَ اللهُ لها في الجوِّ ما يَتلاءَمُ معَ حرَكةِ أجنِحَتِها في القَبضِ والبَسط، وهوَ سُبحانَهُ خَبيرٌ بما يُصلِحُ مَخلوقاتِهِ كُلَّها.

{أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ} (الملك : ٢٠)

٢٠- ومَنْ هوَ هذا الذي تَتشـــبَّثونَ بهِ وتَعبُدونَهُ مِنْ دُونِ الله، وتَعتَبِرونَهُ جُندًا وأعوَانًا لكمْ يَنتَصِـــرونَ لكمْ ويَمنَعونَكمْ مِنَ العَذاب؟ إنَّهُ لا ناصِـــرَ ولا مانِعَ إلاّ الله، وما الكافِرونَ إلاّ في جَهلٍ وغُرورٍ مِنَ الشَّيطان، الذي يَعِدُهمْ بأنَّ العَذابَ لا يَنزِلُ بهم!

{أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ} (الملك : ٢١)

٢١- ومَنِ الـذي يَرزُقُكمْ إذا منعَ اللهُ عنكمُ الرِّزقَ مِنْ مطَرٍ وغَيرِه؟ بـلْ تَمـادَوا في العِنـادِ والاستِكبار، واستمَرُّوا في الابتِعادِ عنِ الحقِّ والإيمَان.

{أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (الملك : ٢٢)

٢٢- أفمَنْ يَمشـــي ويَعثرُ في طَريقِهِ الوَعِر، ويقَعُ على وَجهِهِ كُلَّ مرَّة، أهدَى وأرشَـــد، أمْ مَنْ يَمشي سـالِمًا مُعتَدِلاً في طَريقٍ مُستَقيم، وهوَ يَراهُ أمامَهُ واضِـحًا، فيَسلكُهُ في أمانٍ واطمِئنان؟ إنَّهُ مثَلُ الكافِرِ أعمَى العَينِ والقَلب، الذي يَلهَثُ وراءَ أفكارٍ ونَظريَّاتٍ مُضـــطَرِبَةٍ ومَغلوطَةٍ

وضعَها بَعضُ النَّاس، والمؤمِنِ المتبَصِّرِ الواثِقِ مِنْ مِنهَجِه، المستَقيمِ في سُلوكِه، يَستَنِدُ في عِلمِهِ وعمَلِهِ إلى ما أنزلَهُ رَبُّ النَّاسِ وخالقُهم، فيَكونُ مُطمَئنًّا وواثِقًا بما هوَ عليه.

{قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ} (الملك : ٢٣)

٢٣- قُلْ أيُّها الرسُولُ الكَريم: إنَّ اللهَ هوَ الذي خلقَكمْ ولم تَكونوا شَيئًا، وجعلَ لكمُ السَّمعَ لتَسمَعوا به، والأبصَارَ لترَوا بها، والأفئدَةَ لتَعقِلوا بها وتَعتَبِروا، ومعَ هذا فأنتُمْ قَليلاً ما تَشكُرونَ رَبَّ هذهِ النِّعَم، التي بها تَعلَمونَ وتَفهَمون!

{قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} (الملك : ٢٤)

٢٤- قُلْ لهمْ أيضًا: اللهُ هوَ الذي خلقَكمْ ونَشرَكَمْ في أرجَاءِ الأرْض، معَ اختِلافِ صُوَرِكمْ وألوانِكمْ وألسِنَتِكم، ثمَّ إليهِ تُرجَعونَ يَومَ القِيامَةِ للحِسابِ والجَزاء.

{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} (الملك : ٢٥)

٢٥- ويَقولُ الكافِرونَ لكَ وللمُؤمِنين، وهمْ يَستَبعِدونَ هذا اليَوم: متَى يَكونُ وَقتُ الحَشرِ الذي تَعِدونَنا به، إنْ كنتُمْ صادِقينَ فيما تُخبِرونَ به؟

{قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ} (الملك : ٢٦)

٢٦- قُلْ لهم: العِلمُ بوَقتِهِ عندَ اللهِ وحدَه، لمْ يُطْلِعْ عَليهِ مَلَكًا مُقرَّبًا ولا نَبيًّا مُرسَلاً، وما أنا إلاَّ مُبَلِّغُ رِسالَتِهِ إليكم، ومُحَذِّرُكمْ مِنْ هذا اليَومِ العَصيب، الذي تُحاسَبونَ فيهِ على جَميعِ أعمَالِكم.

{فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ} (الملك : ٢٧)

٢٧- فلمَّا رَأوا العَذابَ يَومَ القِيامَةِ قَريبًا، اسوَدَّتْ وجُوهُ الكافِرين، لِما عَلاها مِنَ الذُّلِّ والكآبَة، ولِما يَعلَمونَ ما يَنتَظِرُهمْ مِنَ الشَّدائدِ والعُقوباتِ والأهوَال. وقالَ لهمْ خزَنَةُ النَّار:

هذا العَذابُ هوَ الذي كنتُمْ تَســـتَعجِلونَهُ في الدُّنيا وتَســـتَهزِؤونَ به {وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون} [سورة الزُّمَر: ٤٨].

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} (الملك: ٢٨)

٢٨- قُلْ لكُفَّارِ مكَّةَ الذينَ يَدْعُونَ عَليكمْ بالهَلاك: أَرُوني، إنْ أهلكَنيَ اللهُ ومَنْ مَعيَ مِنَ المؤمِنين، فقبَضَ أرواحَنا، أو أبقَاها ونَصــرَنا عَليكم، فمَنْ يَمنَعُكمْ مِنْ عَذابِ اللهِ الشَّــديدِ يَومَ القِيامَةِ وأنتُمْ كافِرون؟

{قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} (الملك : ٢٩)

٢٩- قُلْ لهمْ جَوابًا على دُعائهمْ عَليكم: هوَ اللهُ الرحمنُ الذي آمَنَّا بهِ ووحَّدْناه، ولم نُشـرِكْ به شَـــيئًا، وعَليهِ اعتَمَدْنا وإليهِ فوَّضْـــنا أُمورَنا كُلَّها، وهوَ الذي يُجيرُنا مِنَ العَذابِ برَحمَتِه، وأنتُمْ عندَما تُعاينونَ العَذابَ فستَعلَمونَ مَنْ كانَ الضَّالَّ فينَا؟

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاء مَّعِينٍ} (الملك : ٣٠)

٣٠- قُلْ لهمْ أيُّها النبيّ: أخبِروني، إذا أصــبحَ ماؤكُمْ الذي تَشـرَبونَهُ وتَســتَخدِمونَهُ في مُعظَمِ شُـــؤونِكمُ الحياتيَّة، غائرًا ذاهِبًا في الأرْض، لا تَنالُهُ الأيدِي والآلات، فمَنِ الذي يأتيكمْ بمَاءٍ جارٍ سَهلِ المأخَذ؟ لا يَقدِرُ على ذلكَ إلاّ الله.

* * *

في حديثٍ حسَــن، قَولُهُ صــلى الله عليه وســلم: "إنَّ سُــورَةً في القُرآنِ ثلاثُونَ آية، شـفَعَتْ لصاحبِها حتَّى غُفِرَ له: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ}". رواهُ ابنُ حِبَّانَ في صَحيحِهِ وابنُ ماجَه وغَيرُهما، واللَّفظُ للأخير.

وصَحَّ عنْ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، أنَّهُ كانَ لا يَنامُ حتَّى يَقرأ {الم . تَنزِيلُ} السَّجدة، و{تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الملْكُ}. رَواهُ الترمذي، والحاكمُ في مَستَدرَكِه، وغَيرُهما.

سورة القلـم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ} (القلم : ١)

١- الحروفُ المقَطَّعَةُ... اختلَفَ المفسِّرونَ في دَلالتِها.

أُقسِمُ بالقلَمِ، وما يَكتُبون.

فيهِ تَنبيهٌ على فَضيلَةِ القلَم، وتَعليمِ الكتابَة.

وصحَّ في الحديثِ قَولُهُ صلى الله عليه وسلم: "إنَّ أوَّلَ شَيءٍ خلقَهُ اللهُ القلَم، وأمرَهُ فكتبَ كُلَّ شَيءٍ يكون". رواهُ أبو يَعلَى في مُسنَدِه، والحاكمُ في مُستَدرَكِه وصحَّحَ إسنادَه، والترمذيُّ وحسَّنَه، واللَّفظُ للأوَّل.

{مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ} (القلم : ٢)

٢- لستَ بفَضلِ اللهِ مجنونًا، كما يَقولُهُ الجَهلَةُ المشرِكون.

{وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ} (القلم : ٣)

٣- وإنَّ لكَ ثَوابًا عَظيمًا وأجرًا كبيرًا لا يَنقَطِع، على تَبليغِكَ الرسالَة، وصَبرِكَ على أذَى المشرِكين.

{وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} (القلم : ٤)

٤- وإنَّكَ لعَلَى أدَبٍ عَظيم، وأخلاقٍ كريمَةٍ عالية، لا يُدرِكُ شَأوَها أحَدٌ مِنَ الخَلق.

وعندَما سُئلَتْ أُمُّنا عائشَةُ رضِيَ اللهُ عَنها عنْ أخلاقِهِ صلى الله عليه وسلم قالتْ للسَّائل: ألَستَ تَقرَأُ القُرآن؟ قال: بلَى. قالت: فإنَّ خُلُقَ نَبيِّ اللهِ صلى الله عليه وسلم كانَ القُرآن. رَواهُ مُسلمٌ في صَحيحِه.

قالوا: يَعني أنَّ ما في القُرآنِ كُلِّهِ مِنْ مَكارِمِ الأخلاقِ كانَ فيهِ صلى الله عليه وسلم، وما فيهِ مِنَ النَّهي عنْ سَيِّءِ الأخلاقِ كانَ مُنتَهيًا عنه. هذا على ما طَبَعَهُ اللهُ مِنَ الأخلاقِ العَظيمَة، كالحِلم، والعَفو، والكرَم، والحيَاء، والشَّجاعَة، وكُلِّ خُلُقٍ جَميل.

{فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ} (القلم : ٥)

٥- فسترى أيُّها النبيّ، وسيرى مُكَذِّبوكَ عندَما يَنزِلُ بهمُ العَذاب،

{بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ} (القلم : ٦)

٦- أيًّا منكمْ هوَ المجنون.

{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (القلم : ٧)

٧- إنَّ اللهَ تَعالَى أعلَمُ بمَنْ ضَلَّ عنِ الهُدَى وتاهَ عنِ الحقِّ، فكانَ مِنَ المجانين، الخاسِرين، وهوَ أعلَمُ بمَنِ اهتدَى وسلكَ طَريقَ الحقّ، فكانَ مِنَ العُقلاءِ الفَائزين.

{فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ} (القلم : ٨)

٨- فدُمْ على ما أنتَ عليهِ مِنَ الحقّ، ولا تُطِعِ المشرِكينَ فيما يَدْعُونَكَ إليه،

{وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} (القلم : ٩)

٩- تَمنَّوا أنْ تَلينَ لهمْ وتُصانِعَهمْ في دِينِك، فيَلينُونَ لكَ ويُصانِعونَكَ في دِينِهم.

{وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ} (القلم : ١٠)

١٠- ولا تُطِعْ كُلَّ كثيرِ الحَلِفِ بالباطِل؛ ليُغَطِّيَ بهِ على كَذِبِهِ ويَستَجلِبَ ثِقةَ النَّاس، وهوَ حَقيرٌ مُهان.

{هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ} (القلم : ١١)

١١- يَغتابُ النَّاسَ ويَعِيبُهم، بالقَولِ والإشـارَة، ويَمشـي بينَ النَّاسِ بالنَّميمَةِ ليُفسِـدَ قُلوبَهم، ويُحَرِّشَ بينَهم، ويَقطَعَ صِلاتِهم.

{مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ} (القلم : ١٢)

١٢- وهوَ بَخيلٌ، يَمنَعُ الخَيرَ عنْ نَفسِـهِ وعنِ الآخَرين، وظالِمٌ مُعتَدٍ يَتجاوَزُ الحقَّ والعَدل، ويَصرِفُ النَّاسَ عنْ دِينِ الله، وفاجِرٌ، يَرتَكِبُ المعاصيَ والذُّنوب.

{عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ} (القلم : ١٣)

١٣- غَليظٌ جَافٍ شَديدُ الخُصومَةِ في الباطِل، معَ ما وصَفناهُ به، دَعيٌّ في النسَب، مُلصَقٌ بالقَومِ وليسَ منهم.

{أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ} (القلم : ١٤)

١٤- ألأنَّهُ ممَّنْ أنعَمنا عَليهِ بأموَالٍ وبَنينَ كثُر؟

{إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} (القلم : ١٥)

١٥- فجعَلَ مُجازاةَ نِعمَتِنا عليهِ أنَّهُ إذا قُرِئتْ عَليهِ آياتُ كتابِنا كذَّبَ بها وقال: هذا ممَّا سطَّرَهُ الأوَّلونَ في الكتُب، فهوَ حِكاياتٌ وخُرافاتٌ تُروَى وليسَ وَحيًا!

{سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ} (القلم : ١٦)

١٦- سنَجعَلُ على أنفِهِ سِمَةً وعَلامةً حتَّى يُعرَفَ بها وتَبقَى عَيبًا فيه. أو أنَّهُ تَعذيبٌ بنَارٍ على أنفِهِ في جهنَّم.

{إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ} (القلم : ١٧)

١٧- إنَّا ابتلَينا كُفَّارَ مكَّةَ بالقَحطِ والجُوعِ لما كفَروا بنِعمَةِ اللهِ وجحَدوا برِسالَةِ الإِسْلام، كما ابتلَينا أصحابَ البُستان، المشتَمِلِ على أنوَاعِ الفَاكهةِ والثِّمار، عندَما أقسَمَ أصحابُهُ أنَّهُمْ سيَقْطَعونَ ثِمارَهُ في الصَّباحِ الباكِرِ، قَبلَ أنْ يَعلمَ بهِمْ سائلٌ أو فَقير.

{وَلَا يَسْتَثْنُونَ} (القلم : ١٨)

١٨- ولا يَتركونَ منهُ شيئًا للمسَاكين(١٤٨).

{فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ} (القلم : ١٩)

١٩- فأحاطَ بالبُستانِ بَلاءٌ مِنْ عندِ اللهِ ليلاً، وهمْ نائمونَ غافِلون.

{فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ} (القلم : ٢٠)

٢٠- فأصبَحَ مثلَ الزَّرعِ المحصُود، أو الأشجارِ المجنيَّةِ ثِمارُها.

{فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ} (القلم : ٢١)

٢١- فنادَى بَعضُهمْ بَعضًا في وَقتِ الصَّباح:

---

(١٤٨) في الطبعة الأولى: "ولم يَستَثنوا في حَلِفِهم، فلمْ يَقولوا: إنْ شاءَ الله، إصرَارًا وثِقَةً منهمْ بالأمرِ الذي همْ مُقدِمونَ عليه".

وهذا عند كثيرٍ من المفسرين. وقالَ العلّامةُ إسماعيل حقي بعدَ ذكرِ تفسيرِهِ بالمشيئة: والأظهرُ ان المعنى: ولا يستثنون حصةَ المساكين، أي: لا يميّزونها ولا يخرجونها كما كان يفعلهُ أبوهم. وقالَ أبو حيان: ولا ينثنون عمَّا عَزموا عليه من منعِ المساكين. (روح البيان).

وهو عند العلامةِ الطاهر بنِ عاشور أيضًا، قال: ومعنى {لَا يَسْتَثْنُونَ} أنهم لا يستثنون من الثمرةِ شيئاً للمساكين، أي: أقسَموا ليَصْرِمُنَّ جميعَ الثمرِ ولا يتركون منه شيئاً. وهذا التعميمُ مستفادٌ مما في الصرمِ من معنى الخزنِ والانتفاعِ بالثمرة، وإلاّ فإن الصرمَ لا ينافي إعطاءَ شيءٍ من المجذوذِ لمن يريدون. وأُجمِلَ ذلك اعتماداً على ما هو معلومٌ للسامعين من تفصيلِ هذه القصة، على عادةِ القرآنِ في إيجازِ حكايةِ القصصِ بالاقتصارِ على موضعِ العبرةِ منها.

وقالَ في آخره: وعلى الرواياتِ كلِّها يُعلَمُ أن أهلَ هذه الجنةِ لم يكونوا كفاراً، فوجهُ الشبهِ بينهم وبين المشركين المضروبُ لهم هذا المثل، هو بطرُ النعمةِ والاغترارُ بالقوة. (التحرير والتنوير).

{أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ} (القلم : ٢٢)

٢٢- اخرُجوا إلى بُستانِكمْ إذا كنتُمْ تُريدونَ قَطفَ ثِمارِهِ.

{فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ} (القلم : ٢٣)

٢٣- فمشَوا إليهِ وهمْ يَتكلَّمونَ بهُدوء، حتَّى لا يَسمعَهمْ أحَد، ويَقولون:

{أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ} (القلم : ٢٤)

٢٤- لا تُمَكِّنوا أحدًا مِنَ المسَاكينِ يَدخُلْ عَليكم.

{وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ} (القلم : ٢٥)

٢٥- فعزَموا على مَنعِهم، وصَاروا قادِرينَ على ذلكَ.

{فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ} (القلم : ٢٦)

٢٦- فلمَّا وصَلوا إليه، ووَقعَ نظَرُهمْ عليه، قالوا: لقدْ أخطَأنا الطَّريقَ إلى البُستَان، فليسَ هذا بُستانَنا!

{بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} (القلم : ٢٧)

٢٧- ولكنَّهمْ لما وقفوا على حَقيقةِ الأمرِ قالُوا: لم نُخطِئِ الطَّريق، فهذا بُستانُنا، ولكنَّنا حُرِمنا خَيرَه، لحِرمانِنا المسَاكينَ مِنْ خَيرِه، فلا حظَّ لنا فيهِ ولا نَصيب.

{قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ} (القلم : ٢٨)

٢٨- قالَ أحسَنُهمْ وأرجَحُهمْ عَقلاً: ألمْ أقُلْ لكم: هلاَّ ذَكرتُمُ اللهَ وشَكرتُمْ نِعمَه، وأعطَيتُمْ حقَّ المساكينِ منه؟

{قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} (القلم : ٢٩)

٢٩- قالوا وهمْ نادِمون: تَبارَكَ اللهُ وتَنزَّهَ عنْ ظُلمِ عِبادِه، لقدْ كنَّا نحنُ الظَّالمِينَ إذْ لم نَشــكُرْ نِعمتَه، وعزَمنا على مَنعِ الفُقَراءِ مِنْ ثِمارِ البُستَان.

{فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ} (القلم : ٣٠)

٣٠- ثمَّ أقبلَ بَعضُهمْ يَلومُ بَعضًا على ما صدَرَ منهمْ بحقِّ المساكِين.

{قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ} (القلم : ٣١)

٣١- قالوا: يا هَلاكَنا ويا سُوءَ فعلِنا، لقدْ تجَاوَزنا حُدودَ اللهِ ومَنَعْنا حُقوقَ المساكِين، فأصابَنا ما أصابَنا.

{عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ} (القلم : ٣٢)

٣٢- عسَى أنْ يُعَوِّضَنا اللهُ خَيرًا منه، إنَّا تائبونَ إلى رَبِّنا، نَرجُو عَفوَه، ونَطلبُ خَيرَه.

{كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} (القلم : ٣٣)

٣٣- هكذا يَكونُ العَذابُ لمنْ خالفَ أمرَ اللهِ وكفرَ بنِعمَتِه، والعُقوبَةُ في الآخِرَةِ أشَــدُّ وأبقَى، ولو كانُوا مِنْ أهلِ العِلمِ والفَهمِ لعَلِموا ذلك.

{إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ} (القلم : ٣٤)

٣٤- إنَّ للمُؤمِنينَ الممتَثِلينَ أمرَ ربِّهِمْ جنَّاتٍ واسِعاتٍ يَومَ القِيامَة، فيها النَّعيمُ والسَّعادَة.

{أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ} (القلم : ٣٥)

٣٥- أفنَجعَلُ المسلِمينَ الملتَزِمينَ بشَرعِ الله، في الحِســابِ والثَّواب، كالكافِرينَ المجرِمينَ الذينَ يَعصُونَهُ ويُكذِّبونَ أنبياءَه؟

{مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} (القلم : ٣٦)

٣٦- ماذا بكم؟ وعلى أيّ شَـيءٍ تَبنونَ أحكامَكم، وكيفَ تَزِنونَ الأمُورَ حتَّى تَجعَلوا الفَريقَينِ بَعضَهمْ مثلَ بَعضٍ في الجزَاء؟

{أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ} (القلم : ٣٧)

٣٧- أمْ أنَّ لكمْ كتابًا سَماويًّا تَقرَؤونَ فيه وتَعتَمِدونَ عليهِ فيما تدَّعون؟

{إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ} (القلم : ٣٨)

٣٨- إنَّ لكمْ في ذلكَ الكتابِ ما تَختارونَ وما تَشتَهون!

{أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ} (القلم : ٣٩)

٣٩- أمْ أقسَمنا لكم، فلكمْ عَلينا عُهودٌ ومَواثيقُ مؤكَّدَةٌ لا تَنقَطِعُ إلى يَومِ القِيامَةِ فأنتُمْ مُلازِمونَ لها؟ إنَّكمْ تَحكمونَ لأنفُسِكمْ بالخَيرِ والكرامَةِ عندَ اللهِ كما تَشاؤون!

{سَلْهُم أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ} (القلم : ٤٠)

٤٠- اِسْألْهمْ أيُّها الرسُول: مَنِ المتَكفِّلُ منهمْ أنْ يَكونَ لهمْ في الآخِرَةِ ما يَكونُ للمسلِمين؟

{أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ} (القلم : ٤١)

٤١- أمْ أنَّ عندَهمْ شُرَكاءَ للهِ تكفَّلوا لهمْ بذلك، أو شَهِدوا لهمْ بمَكانَتِهمْ عندَ الله؟ فليَأتُوا بهمْ وليَدُلُّوا عَليهمْ إنْ كانُوا صَادِقينَ فيما يدَّعُونَه.

{يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ} (القلم : ٤٢)

٤٢- في يَومِ القيامَةِ تَكونُ شَدائدُ وأهوال، وفيهِ يُكشَفُ عنْ ساق. (والآيَةُ مِنَ المتَشابِه، فاللهُ أعلَمُ بمَعناها. والمهمُّ أنَّهُ يَومُ شِدَّةٍ وكَرب، ومَقامٍ هائل، يُميِّزُ اللهُ فيهِ بينَ الخُبَثاءِ والطيِّبينَ مِنْ عِبادِه، وبينَ أهلِ النَّارِ وأهلِ الجنَّة). ويُدعَى الكافِرونَ والمنافِقونَ يَومَئذٍ إلى السُّجودِ فلا

يَستَطيعون؛ لتَرْكِهمْ ذلكَ في الحيَاةِ الدُّنيا، أو لفِعلِهمْ ذلكَ رِياءً وسُمعَة، فيَصيرُ ظَهرُ كُلٍّ منهمْ طبَقًا واحِدًا، وتَستَوي فَقَارُ ظَهرِه، فلا يَنثَني للسُّجود.

{خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ} (القلم : ٤٣)

٤٣- عُيونُهمْ ذَليلَةٌ لا يَرفَعونَها، يَغشاهُمْ ذُلُّ الكآبَةِ والنَّدامَة، وقدْ كانوا يُدعَونَ إلى السُّجودِ في الحياةِ الدُّنيا وهمْ قادِرونَ عليهِ فيَمتَنِعونَ أو يَتَخلَّفونَ عنه.

{فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} (القلم : ٤٤)

٤٤- فدَعني ومَنْ يُكَذِّبُ بالقُرآنِ العَظيم، ولا تَشغَلْ قَلبَكَ بهم، سنَمُدُّهمْ في غَيِّهمْ ونَجُرُّهمْ إلى العَذابِ وهمْ غافِلونَ عنه.

{وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} (القلم : ٤٥)

٤٥- وأُمهِلُهمْ وأؤخِّرُهمْ ليَزدَادوا إثمًا، وهمْ يَظنُّونَ أنَّ ذلكَ لكرامَةٍ لهمْ عندَ الله، وهوَ مَكرٌ بهم، عُقوبةً لخُبثِهمْ وتَماديهمْ في الكُفرِ والعِصيان، وإنَّ مَكري بهمْ عَظيمٌ لا يُدفَع.

{أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ} (القلم : ٤٦)

٤٦- أمْ أنَّكَ تَسألُهُمْ أُجرَةً على تَبليغِ رِسالَةِ الله، ولذلكَ فهمْ يُعرِضونَ عنكَ ويَتبرَّمونَ ويَتثاقَلونَ ممَّا تَطلبُهُ منهم، وكأنَّ عليهمْ غَرامَةً ماليَّة؟

{أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ} (القلم : ٤٧)

٤٧- أمْ أنَّ عندَهمْ عِلمًا بما في الغَيبِ فهمْ يَكتُبونَ منه، ويَقِفونَ على حَقيقَةِ الأخبارِ مِنْ خِلالِه، وعَلِموا بذلكَ أنَّهمْ بمَنزِلَةٍ عندَ اللهِ يَومَ القِيامَة؟

{فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ} (القلم : ٤٨)

٤٨- فاصبِرْ أيُّها الرسُولُ على أذَى قَومِكَ وتَكذيبِهِمْ لك، ولاتَكنْ كالنبيّ يونُسَ في الضَّجَرِ والعَجَلَة، الذي وعدَ قَومَهُ بالعَذاب، ثمَّ هجرَهمْ وهوَ غاضِــبٌ عَليهم، مُنتَظِرًا أنْ يَحِلَّ بهمْ ما وعدَهمُ اللهُ به، قَبلَ أنْ يأذنَ اللهُ لهُ بالخُروج، ولم يَصـبِرِ الصَّـبرَ اللّازِم، فرَكِبَ البَحر، وابتلعَهُ الحُوت، ودَعا رَبَّهُ – وهوَ مملوءٌ غمًّا – أنْ يَغفِرَ لهُ ويَتوبَ عَليه.

{لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ} (القلم : ٤٩)

٤٩- ولو لم تُدْرِكْهُ رَحمَةٌ مِنْ رَبِّهِ ولم يَستَجِبْ دُعاءَه، لطُرِحَ بأرْضٍ خاليَة، وهوَ يُلامُ على ذَنبِه.

{فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ} (القلم : ٥٠)

٥٠- ولكنْ تَدارَكَتْهُ رَحمَةُ الله، فأنبتَ عَليهِ شَـجرَةً مِنْ يَقطِين، وردَّ إليهِ الوَحي، وجعلَهُ مِنْ عِبادِهِ المتَّقين، ورجعَ إلى قَومِه.

{وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ} (القلم : ٥١)

٥١- ويَنظرُ إليكَ المشركِونَ نَظرَةَ حِقدٍ وعَداوَة، ويَكادُونَ أنْ يُصيبُوكَ بالعَينِ منْ جَرَّاءِ ذلك، ليُزِلُّوا قدَمَكَ ويَرمُوكَ على الأرْض، عندَ سَماعِهِمُ القُرآنَ وأنتَ تَتلُوه؛ لكُرهِهمْ وبُغضِـهِمْ له، ويَقولونَ مِنْ جَهلِهِمْ إنَّ محمَّدًا مجنون!

{وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ} (القلم : ٥٢)

٥٢- وما القرآنُ إلاّ عِظَةٌ للنَّاسِ أجمَعين، وتَذكيرٌ وبَيانٌ لِما يَحتاجونَ إليهِ مِنْ أُمورِ الدُّنيا والدِّين، فكيفَ يُنسَبُ إلى الجُنونَ مَنْ يَنزِلُ عليهِ القُرآنُ ذو الشأنِ العَظيم؟

سورة الحاقـة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{الْحَاقَّةُ} (الحاقة : ١)

١-الحاقَّةُ يَومُ القِيامَة، فهوَ حَقيقَةٌ لا كَذِب. وفيهِ تَتحقَّقُ الأمُورُ وتَثبُتُ وتُعرَفُ على الحقيقَة. وفيهِ يتَحقَّقُ الوَعدُ والوَعيد، والثَّوابُ والعِقاب.

{مَا الْحَاقَّةُ} (الحاقة : ٢)

٢- وما هوَ يَومُ القِيامةِ وما صِفَتُه؟

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ} (الحاقة : ٣)

٣- وما أعلمَكَ بالقِيامَةِ وأهوالِها وفَظائعِها؟

{كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ} (الحاقة : ٤)

٤-كذَّبَتْ قَبيلَتا ثَمودَ وعادٍ بيَومِ المعاد، الذي يَقرَعُ النَّاسَ فيُخيفُ قُلوبَهم، ويُفزِعُهمْ بأهوالِه.

{فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ} (الحاقة : ٥)

٥- فأمَّا ثَمودُ فقدْ أهلكَهمُ اللهُ بالصَّيحَةِ القويَّة، فأرجفَتْهُمْ وجعَلَتْهُمْ جُثَثًا هامِدَة؛ لطُغيانِهمْ وتَكذيبِهمْ نبيَّهمْ صالحًا.

{وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ} (الحاقة : ٦)

٦- وأمَّا عادٌ قَومُ هُود، فقدْ أهلكَهمُ اللهُ بريحٍ قَويَّةٍ عاصِفَة، شَديدَةِ الهُبوب.

{سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ} (الحاقة : ٧)

٧- سلَّطها عَليهِمْ سَبعَ لَيالٍ وثَمانيةَ أيَّامٍ مُتَتابِعات، لم تَنقَطِعْ عَنهم، فترى القَومَ في تلكَ الأيَّامِ واللَّيالي هَلكَى، كأنَّهُمْ أعجازُ نَخلٍ خَرِبَةٍ باليَة(١٤٩).

{فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ} (الحاقة : ٨)

٨- فهلْ ترَى لهمْ بَقيَّةً بعدَ هذا العَذاب؟ لقدْ هلَكوا جميعًا.

{وَجَاء فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ} (الحاقة : ٩)

٩- وجاءَ فِرعَونُ ومَنْ قَبلَهُ مِنَ الأُمَمِ الكافِرَة، وقُرَى قَومِ لُوطِ المنقَلِبات، بالشِّركِ والمعصيَةِ والأفعالِ الشَّنيعَة.

{فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً} (الحاقة : ١٠)

١٠- فَكذَّبَ كلٌّ رسولَ اللهِ إليهمْ وخالَفوه، فأخذَهمُ اللهُ بعَذابٍ شَديدٍ زائد.

{إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ} (الحاقة : ١١)

١١- ولما زادَ الماءُ وارتفَعَ حتَّى عَلا على كُلِّ شَيء، في زمَنِ نُوحٍ عليهِ السَّلام، الذي أصَرَّ قَومُهُ على الكفرِ بهِ وبرِسالَةِ ربِّهم، حمَلنا آباءَكمُ الذينَ أنتُمْ مِنْ أصْلابِهم (نُوحًا ووُلْدَه)، في السَّفينَةِ الكبيرَةِ التي صَنعَها نُوح.

(١٤٩) شُبِّهوا بأعجازِ نخل، أي: أصولِ النخل، وعجزُ النخلةِ هو الساقُ التي تتصلُ بالأرضِ من النخلة، وهو أغلظُ النخلةِ وأشدُّها. ووجهُ التشبيهِ بها، أن الذين يقطعون النخلَ إذا قطعوهُ للانتفاعِ بأعوادهِ في إقامةِ البيوتِ للسُّقُفِ والعضادات، انتقوا منه أصولَه؛ لأنها أغلظُ وأملأ، وتركوها على الأرضِ حتى تيبسَ وتزولَ رطوبتُها، ثم يجعلوها عَمَداً وأساطين. (التحرير والتنوير).

{لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ} (الحاقة : ١٢)

١٢- لنجعلَ إغراقَ قَومِ نُوح، ونَجاةَ المؤمنينَ منهم، عِبرَةً وعِظَةً لكم، تَدلُّ على قُدرَةِ اللهِ وقَهرِه، وعلى رأفَتِهِ ورَحمَتِه، ولتَفهمَ هذهِ النِّعمَةَ أذُنٌ تَسمَعُ وتَعي، وتَنتَفِعُ بما تَسمَع.

{فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ} (الحاقة : ١٣)

١٣- فإذا نَفخَ إسرَافيلُ في الصُّورِ نَفخةً واحِدَة. وهيَ النَّفخَةُ الأُولَى، التي يَكونُ عندَها خَرابُ العالَم.

{وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً} (الحاقة : ١٤)

١٤- ورُفِعَتِ الأرْضُ والجِبالُ التي فيها مِنْ أماكِنِها فضُرِبَتا ضَربَةً واحِدَة، فبُدِّلَتِ الأرْضُ غَيرَ الأرْض، وصارَتِ الجِبالُ مِثلَ كُثبانِ الرَّمل، بَعدَما كانتْ حِجارَةً صمَّاء.

{فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} (الحاقة : ١٥)

١٥- فيَومَئذٍ قامَتِ القِيامَة، التي لا بُدَّ مِنْ وقُوعِها كما وعدَ الله.

{وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ} (الحاقة : ١٦)

١٦- وتَصدَّعَتِ السَّماء، فهيَ يَومَئذٍ ضَعيفَةٌ مُتَداعيَةٌ للسُّقوط.

{وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} (الحاقة : ١٧)

١٧- والمِلائكةُ على جَوانبِها، ويَحمِلُ يومَ القِيامَةِ عَرشَ رَبِّكَ فَوقَهمْ ثَمانيةٌ مِنَ المِلائكة.

{يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ} (الحاقة : ١٨)

١٨- في ذلكَ اليَومِ تُعرَضــونَ على اللهِ الذي لا يَخفَى عليهِ سِــرٌّ مِنْ أســرَارِكم، ليُحاسِــبَكمْ عَليها[١٥٠].

{فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ} (الحاقة : ١٩)

١٩- فأمَّا مَنْ أُوتيَ صَـــحيفةَ أعمالِهِ بيدِهِ اليُمنَى، فيَفرَحُ بفَوزِهِ ويَقول: خُذوا واقرَؤوا ما في صَحيفَتي، فإنِّي مِنَ الفائزِين.

{إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ} (الحاقة : ٢٠)

٢٠- لقدْ كنتُ مُوقِنًا بالبَعثِ والحِسَاب، وبالثَّوابِ والعِقاب.

{فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ} (الحاقة : ٢١)

٢١- فهوَ في عِيشَةٍ مَرضيَّة[١٥١]، وسَعادَةٍ غامِرَة.

{فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ} (الحاقة : ٢٢)

٢٢- في جنَّةٍ واسِعَةٍ مُرتَفِعَة.

{قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ} (الحاقة : ٢٣)

٢٣- ثِمارُها قَريبةُ التَّناول، للقائمِ والقاعِد.

{كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} (الحاقة : ٢٤)

---

(١٥٠) {تُعْرَضُـونَ}: أي: تُسـألون وتُحاسَـبون. عبَّرَ عنه بذلك تشـبيهًا له بعرضِ السـلطانِ العسـكرَ لتعرُّفِ أحوالهم. يقال: عرضَ الجندَ إذا أمرَّهم عليه ونظرَ ما حالهم. والخطابُ عامٌّ للكلّ، على التغليب. (روح البيان).

(١٥١) العِيشة: حالةُ العيشِ وهيئتُه. (التحرير).

٢٤- كُلُوا مِنْ طَعامِ الجنَّةِ وثِمارِها، واشـــرَبوا مِنْ أنهارِها اللَّذيذَة، ســـائغًا مريئًا، بما قدَّمتُمْ مِنَ الأعمَالِ الصَّالحةِ في أيَّامِ الدُّنيا.

{وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ} (الحاقة : ٢٥)

٢٥- وأمَّا مَنْ أُوتيَ صَـحيفةَ أعمالِهِ بيدِهِ الشِّـمال، فيَندَمُ غايةَ الندَم، ويَقول: يا لَيتَني لم أُعْطَ صَحيفَتي،

{وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ} (الحاقة : ٢٦)

٢٦- ولم أعرِفْ جَزائي ومَصيري،

{يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ} (الحاقة : ٢٧)

٢٧- لَيتَ الموتَةَ التي مُتُّها في الدُّنيا كانَتِ الأخيرَةَ فلمْ أُبعَثْ ولم أُحاسَب،

{مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ} (الحاقة : ٢٨)

٢٨- لم يَنفَعْني مَالي الذي جمَعتُهُ في الحيَاةِ الدُّنيا شَـــيئًا، ولم يَدفَعْ عنِّي سُـــوءَ ما أُلاقيهِ مِنَ العَذاب،

{هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ} (الحاقة : ٢٩)

٢٩- ولم يُغْنِ عنِّي عِلمي وحُجَّتي وجِدالي، وشـــهـاداتي وخِبرَاتي. أو لم يُغْنِ عنِّي جـاهي ومَنصِبي، وأنصاري وجَماهيري الكثيرَة، لقدْ بطَلَتْ جَميعُها، وعجَزَتْ عنِ القِيامِ بأيِّ شَيءٍ لي.

{خُذُوهُ فَغُلُّوهُ} (الحاقة : ٣٠)

٣٠- خُذوهُ أيُّها الزَّبانيَة، وشُدُّوا يدَهُ إلى عُنُقِهِ بالقيُود،

{ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ} (الحاقة : ٣١)

٣١- ثمَّ أدخِلوهُ نارَ الجَحيمِ المؤجَّجَة،

{ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ} (الحاقة : ٣٢)

٣٢- ثمَّ أدخِلوهُ في سِلسِلَةٍ طُولُها سَبعونَ ذِراعًا، حِلَقٌ داخِلَةٌ في حِلَق، تُوقَدُ في نَارِ جهنَّمَ وتُلَفُّ على جسَدِهِ مِنْ جَميعِ جِهاتِه.

{إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ} (الحاقة : ٣٣)

٣٣- إنَّهُ كانَ مُصِرًّا على الكُفرِ والتَّكذيب، لا يَقومُ بحقِّ اللهِ مِنَ الطَّاعَة، خَلا قَلبُهُ مِنْ نُورِ الإيمَان، فصارَ خَرِبًا مَوَاتًا، لا يَصلُحُ لهُ إلاّ النَّارُ والعَذاب.

{وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} (الحاقة : ٣٤)

٣٤- وما كانَ يَرحَمُ العِباد، فلا يُطعِمُ الجَوعَى مِنَ الفُقَراءِ والمحتاجين، ولا يَحُثُّ أهلَهُ على ذلك.

{فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ} (الحاقة : ٣٥)

٣٥- فليسَ لهُ في هذا اليَومِ قَريبٌ يُنقِذُهُ مِنَ العَذابِ الذي هوَ فيه، أو يُخَفِّفُ عنه.

{وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ} (الحاقة : ٣٦)

٣٦- وليسَ لهُ مِنَ الطَّعامِ إلاّ الغِسلِين، الذي ذُكِرَ أنَّهُ صَديدُ أهلِ النَّار، وهوَ ما يَسيلُ مِنْ لُحومِهِمْ وجُروحِهِم.

{لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِؤُونَ} (الحاقة : ٣٧)

٣٧- لا يأكلُهُ إلاَّ الكافِرون.

وقالَ الفَخرُ الرازيّ: لا يأكُلُهُ إلاّ الآثِمونَ أصــحَابُ الخَطايا، وخَطِئَ الرجُلُ إذا تعمَّدَ الذَّنْب، وهمْ المشــرِكون... ويَجوزُ أنْ يُجابَ عنهُ بأنَّ المرادَ الذينَ يَتخطَّونَ الحقَّ إلى الباطِلِ ويَتعَدَّونَ حُدودَ الله.

{فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ} (الحاقة : ٣٨)

٣٨- فأُقسِمُ بما ترَونَ مِنَ الآيَاتِ الدالَّةِ على كمالِ قُدرَتي وعَظمَتي،

{وَمَا لَا تُبْصِرُونَ} (الحاقة : ٣٩)

٣٩- وبما غابَ عنكمْ مِنْ أسرَارِ القُدرَةِ العَظيمَة،

{إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} (الحاقة : ٤٠)

٤٠- إنَّ القُرآنَ العَظيمَ يَتلُوهُ رَسُولُهُ الكَريم، يُبَلِّغُهُ عنِ اللهِ رَبِّ العالَمين.

{وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ} (الحاقة : ٤١)

٤١- وليسَ هوَ بقَولِ شــاعِرٍ كما يَقولُ الجاهِلون، فالشِّــعرُ مَعروفٌ بأوزانِهِ وقَوافيه، ونُقّادُهُ يَعرِفونَهُ جيِّدًا، ومحمَّدٌ لا يُحسِنُ قَولَ الشِّعر، وأنتُمْ قَليلاً ما تُصَدِّقونَ هذا، تمَرُّدًا وعِنادًا مِنكم.

{وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ} (الحاقة : ٤٢)

٤٢- ولا هوَ بقَولِ كاهِنٍ كما تدَّعون، فإنَّ أحوالَ نبيِّكمْ وشَــأنَهُ بينَكم، وكلِماتِهِ ودَعوتَه، لا تُوافِقُ شَــأنَ الكهّـانِ الذينَ يُورِدُونَ الأخبارَ بالظُّنونِ والأباطِيلِ فيَكذِبون، وأنتُمْ قَليلاً ما تَتذَكَّرونَ هذا وتتَّعِظونَ به.

{تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} (الحاقة : ٤٣)

٤٣- إنَّهُ وَحيٌ مِنَ اللهِ أنزلَهُ على نَبيِّهِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم بواسِطَةِ جِبريل[١٥٢].

{وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ} (الحاقة : ٤٤)

٤٤- ولو أنَّ النبيَّ افترى عَلينا قَولاً، أو زادَ أو نقَصَ مِنْ وَحينا إليهِ شَيئًا،

{لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ} (الحاقة : ٤٥)

٤٥- لأمسَكناهُ وانتقَمْنا منهُ بقُوَّةٍ وقُدرَة،

{ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ} (الحاقة : ٤٦)

٤٦- ثمَّ لقطَعنا منهُ نِياطَ قَلبِه. والوَتين: الشِّريانُ الرَّئيسيُّ الخارِجُ مِنَ القَلب.

{فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} (الحاقة : ٤٧)

٤٧- فلا يَقدِرُ أحَدٌ منكمْ على مَنعِنا مِنْ عُقوبَتِهِ إذا أرَدنا بهِ ذلك.

{وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ} (الحاقة : ٤٨)

٤٨- وإنَّ هذا القُرآنَ مَوعِظَةٌ للمُؤمنينَ الصَّالحين، يَنتَفِعونَ بهِ فيَهتَدون، ويَعمَلونَ بهِ فيَفوزُون.

{وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ} (الحاقة : ٤٩)

٤٩- ونحنُ نَعلَمُ أنَّهُ يوجَدُ منكمْ مَنْ يُكذِّبُ بالقُرآن، معَ وضوحِ آياتِهِ وصِدقِ رسُولِه.

{وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ} (الحاقة : ٥٠)

---

(١٥٢) عبَّرَ عن الجلالةِ بوصفِ {رَبِّ الْعَالَمِينَ} دونَ اسمِهِ العلَم، للتنبيهِ على أنه ربُّ المخاطَبين، وربُّ الشعراءِ والكهَّانِ الذين كانوا بمحلِّ التعظيمِ والإعجابِ عندهم، نظيرَ قولِ موسى لفرعون: {رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ} [سورة الشعراء: ٢٦}. (التحرير والتنوير).

٥٠- وإنَّ التَّكذيبَ بِهِ سيَكونُ حَسرَةً ونَدامَةً عَلى الكافِرينَ يَومَ الجَزاءِ والحِساب، بما يرفَعُ اللهُ بِهِ مِنْ شأنِ المؤمِنين بِهِ ويُثيبُهم، ويَحطُّ مِنْ قَدْرِ المكذِّبينَ بِهِ ويُعَذِّبُهم.

{وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ} (الحاقة : ٥١)

٥١- وإنَّهُ الحقُّ الثَّابتُ، والخبَرُ الصَّادِقُ المتيقَّن، الذي لا يَعتَريهِ الشَّكّ.

{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} (الحاقة : ٥٢)

٥٢- فاذكرِ اللهَ باسمِهِ العَظيم، ونزِّهْهُ تَنزيهًا؛ شُكرًا لهُ على ما أوحَى بهِ مِنَ القُرآنِ العَظيم.

سُبحانَ رَبِّيَ العَظيم.

سورة المعارج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ} (المعارج : ١)

١- سألَ سائلٌ كافِرٌ عنْ عَذابِ الله، إنكارًا واستِهزاءً، وهوَ واقِعٌ لا مَحالَة، آمَنَ بِهِ أمْ لم يُؤمِن.

{لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ} (المعارج : ٢)

٢- وهوَ مُعَدٌّ للكافِرين، لا يَقدِرُ على رَدِّهِ أحَد.

{مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ} (المعارج : ٣)

٣- أرادَ اللهُ كَونَهُ فهوَ كائنٌ لا بُدّ، سُبحانَه، صاحِبُ السَّماوات، أو الدَّرَجات.

{تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} (المعارج : ٤)

٤- تَصـعَدُ إليهِ الملائكة، وجبريلُ - إشـارَةً إلى فَضـلِهِ مِنْ بينِهِمْ عليهِ السَّـلام - في يَومٍ كانَ زمَنُهُ خَمسينَ ألفَ سنَةٍ ممَّا تَعُدُّون. وقيل: المقصودُ بالعُروج: الصُّعودُ إلى عَرشِهِ سُبحانَهُ وتَعالَى. ومُعظَمُ السَّلَفِ يَعُدُّونَ ذلكَ مِنَ المتشابِه... فاللهُ أعلَم.

{فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً} (المعارج : ٥)

٥- فاصبِرْ أيُّها الرسُولُ على تَكذيبِ قَومِكَ لك، واطمَئنَّ ولا تَضجَرْ ولا تَقلَق، وارْضَ بقدَرِ الله، وثِقْ بالعاقِبَةِ الحسنَة.

{إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً} (المعارج : ٦)

٦- إنَّهُمْ يَرَونَ العَذابَ الذي يَحِلُّ بهِمْ بَعيدَ الوقوع.

{وَنَرَاهُ قَرِيباً} (المعارج : ٧)

٧- ونَحنُ نَراهُ واقِعًا قَريبًا. وما هوَ آتٍ قَريب.

{يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاء كَالْمُهْلِ} (المعارج : ٨)

٨- يومَ تَكونُ السَّماءُ واهيَة، ويَكونُ لَونُها كعَكَرِ الزَّيت.

{وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ} (المعارج : ٩)

٩- وتَكونُ الجِبالُ ضَعيفَةً مُتناثِرَةً كالصُّوفِ المتفَرِّقِ بَعضُهُ عنْ بَعض.

{وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً} (المعارج : ١٠)

١٠- وكُلٌّ مَشغولٌ بنَفسِهِ عنْ غَيرِه، فلا يَسألُ قَريبٌ قَريبَهُ عمَّا هوَ فيه، وإنْ كانَ في شِدَّة.

{يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ} (المعارج : ١١)

١١- وهمْ يرَونَهم، لا يَخفَونَ عَليهم. يَتمَنَّى الكافِرُ يَومَئذٍ لو يَفتَدي نَفسَـــهُ مِنَ العَذابِ الذي ابتُليَ بهِ بأولادِهِ، وهمْ مُهجَةُ قَلبِه،

{وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ} (المعارج : ١٢)

١٢- وزَوجتِهِ التي كانَ يَحميها ويُدافِعُ عنها، وأخيهِ الذي مِنْ أُمِّهِ وأبيه،

{وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ} (المعارج : ١٣)

١٣- وعَشيرَتِهِ التي كانتْ تَضُمُّهُ ويَلوذُ بها، وقدِ انفصَلتْ عَنه، وصارَ كُلٌّ لنَفسِه،

{وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ} (المعارج : ١٤)

١٤- وجَميعِ مَنْ في الأرضِ مِنَ الخلائق، يوَدُّ لو يَفتَدي بهِمْ جَميعًا ليتخلَّصَ مِنَ العَذاب.

{كَلَّا إِنَّهَا لَظَى} (المعارج : ١٥)

١٥- كلاَّ، لا يُنجيهِ مِنْ عَذابِ اللهِ شَيء، إنَّها جهنَّمُ التي تَتلهَّبُ نارُها وتتَّقِد،

{نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى} (المعارج : ١٦)

١٦- ولشِدَّةِ حَرّها تَنزِعُ الجِلدَ واللَّحم،

{تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى} (المعارج : ١٧)

١٧- تُنادي النَّارُ أبناءَها مِنَ المشرِكينَ والمنافِقين، الذينَ أدبَروا في الدُّنيا عنِ الإيمَان، وأعرضُوا عنْ طاعَةِ ربِّهم،

{وَجَمَعَ فَأَوْعَى} (المعارج : ١٨)

١٨- وجمَعوا المالَ وجعَلُوهُ في كَنوزٍ ولم يُؤَدُّوا حقَّهُ للمُحتاجين.

{إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً} (المعارج : ١٩)

١٩- لقدْ خُلِقَ الإنسَانُ شَديدَ الجزَع.

{إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً} (المعارج : ٢٠)

٢٠- إذا أصابَهُ بَلاءٌ وشِدَّةٌ فَزِعَ وتألَّمَ وانطوَى على نَفسِه!

{وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً} (المعارج : ٢١)

٢١- وإذا حصلَتْ لهُ نِعمَةٌ وسَعَةٌ لم يُنفِقْ ممَّا يُحِبّ، ورأيتَهُ بَخيلاً،

{إِلَّا الْمُصَلِّينَ} (المعارج : ٢٢)

٢٢- إلاّ مَنْ هَداهُ اللهُ للإيمَانِ فكان مِنَ المصَلّين،

{الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ} (المعارج : ٢٣)

٢٣- الذينَ يُقيمونُ الصَّلاةَ في أوقاتِها ويُحافِظونَ عَليها، ولا يَنشَغِلونَ عنها بشَيءٍ مِنْ أُمورِ الدُّنيا،

{وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ} (المعارج : ٢٤)

٢٤- والذينَ في أموَالِهِمْ نِسبَةٌ مُحدَّدَة فيؤدُّونَها، وهيَ الزَّكاة. أو نَصيبٌ مُعيَّنٌ يَتبَرَّعونَ بِهِ للفُقراءِ وفي وجُوهِ البِرِّ والإحسَان.

{لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} (المعارج : ٢٥)

٢٥- يُعطُونَهُ للفَقيرِ الذي يَتكفَّفُ النَّاس، والمحرومِ الذي ذَهبَ مالُهُ ولا يَستَطيعُ العمَل، أو يَعِفُّ فلا يَسأل.

{وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ} (المعارج : ٢٦)

٢٦- والـذينَ يؤمِنونَ باليَومِ الآخِر، والجَزاءِ والحِســــاب، والثَّوابِ والعِقـاب، فيَبتَعِدونَ عنِ المنكَراتِ لئلاّ يُعاقَبوا، ويَعمَلونَ الأعمَالَ الصَّالحةَ ليُثابُوا.

{وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ} (المعارج : ٢٧)

٢٧- والذينَ يَخافونَ على أنفُسِــهِمْ مِنْ عَذابِ الجَحيم، فهمْ وَجِلونَ مُشـفِقون، يَطمَعونَ في رَحمَةِ رَبِّهم، ويَخافونَ عُقوبَتَه.

{إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ} (المعارج : ٢٨)

٢٨- ولا يأمَنَنَّ عَذابَ اللهِ أحَدٌ، ولو كانَ مُبالِغًا في الطَّاعَة، فلا يَخلو أحَدٌ مِنْ ذُنوبٍ عَمِلَها، ولا يَدري أيُغفَرُ لهُ أمْ لا؟

{وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ} (المعارج : ٢٩)

٢٩- والذينَ يُحافِظونَ على فُروجِهمْ مِنَ الحَرام، فهمْ أعِفَّةٌ لا يَقَعونَ فيما نَهاهمُ اللهُ عنه.

{إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ} (المعارج : ٣٠)

٣٠- ولا يَقرَبونَ سِـــوَى ما أحلَّ اللهُ لهمْ مِنْ أزوَاجِهم، أو ما ملَكتْ أيمانُهُمْ مِنَ الجوَاري، فلا حرجَ عَليهمْ في ذلكَ ولا لَوم.

{فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} (المعارج : ٣١)

٣١- فمَنْ طلبَ غَيرَ زَوجاتِهِ وإمَائه، فهوَ منَ المعتَدين، المتجاوِزينَ منَ الحَلالِ إلى الحَرام.

{وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} (المعارج : ٣٢)

٣٢- ومِنْ صِـــفاتِ المؤمِنينَ أنَّهمْ مؤتَمَنونَ على أماناتِهمْ وعُهودِهم، حافِظونَ لها ومُوفُونَ بها، فلا يَخونُونَ ولا يَغدِرون.

{وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ} (المعارج : ٣٣)

٣٣–والذينَ يُحافِظونَ على شَـــهاداتِهم، فلا يَكتُمونَها، ولا يَزيدونَ فيها، ولا يَنقُصــــونَ منها، إحياءً لحقُوقِ النَّاس، وتَعظيمًا لأمرِ الله.

{وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} (المعارج : ٣٤)

٣٤–والذينَ يُحافِظونَ على صَلواتِهمُ المفروضَةِ عَليهم، فيُؤدُّونَها في وَقتِها، وبأركَانِها وشُروطِها.

{أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ} (المعارج : ٣٥)

٣٥– أولئكَ يُكرِمُهمُ اللهُ ويُعِدُّ لهمْ ما يُسعِدُهمْ في جَنَّاتِ النَّعيم.

{فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ} (المعارج : ٣٦)

٣٦– فما بالُ هؤلاءِ المشرِكينَ الذينَ حَولَكَ مُسرِعينَ مُقبلينَ إلَيك؟

{عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ} (المعارج : ٣٧)

٣٧– ثمَّ مُتفَرِّقينَ عنكَ ذاتَ اليَمينِ وذاتَ الشِّـــمال، يُعرِضـــونَ عَنكَ ويَســـخَرونَ مِنك، ويَتَحلَّقونَ في جَماعاتٍ يَتناجَونَ بالكَيدِ والردِّ على ما يَسمَعون؟

{أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ} (المعارج : ٣٨)

٣٨– أيَطمَعُ هؤلاءِ معَ ما همْ عليهِ مِنَ الكُفرِ والإعرَاضِ والاستِهزاءِ أنْ يُكرَموا بجنَّاتِ النَّعيم؟

{كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ} (المعارج : ٣٩)

٣٩– كلاَّ، لا نَصيبَ لهمْ في ذلك، وقدْ عانَدوا وأصَرُّوا على الكُفر. وقدْ عَلِموا أنَّا خلَقناهمْ مِنْ ماءٍ مَهين، فصَـــاروا يُجادِلونَ في دِينِ اللهِ بالباطِل، وكانَ الأَولى بهمْ أنْ يَعلَموا أنَّ الذي خلقَهمْ مِنْ هذا الماءِ الضَّعيفِ قادِرٌ على أنْ يَبعثَهمْ بعدَ الموتِ ويُحاسِبَهم.

{فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ} (المعارج : ٤٠)

٤٠- فأُقسِمُ باللهِ رَبِّ المشارِقِ والمغارِب، حيثُ تُشرِقُ الشَّمسُ وتَغرُبُ في كُلِّ لحظَةٍ باستِمرارِ دَوَرانِ الأرْضِ حَولَ مِحوَرِها، نحنُ قادِرونَ،

{عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ} (المعارج : ٤١)

٤١- على أنْ نُهلِكَهم، ونأتيَ بخَلقٍ آخرَ أطوَعَ منهم، ولَسنَا عاجِزينَ عنْ ذلك.

{فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ} (المعارج : ٤٢)

٤٢- فدَعْهُمْ ولا تَكترِثْ بهِمْ أيُّها الرسُــــول، ولْيَخوضُـــوا في كُفرِهِمْ وعِنادِهم، وليَلعَبوا في دُنياهُم، حتَّى يُلاقُوا يومَ البَعثِ، ليَذوقوا وَبالَ ما كانُوا عَليه.

{يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ} (المعارج : ٤٣)

٤٣- يَومَ يَخرُجونَ مِنَ القُبورِ مُسرِعين، وكأنَّهُمْ يَسعَونَ إلى أعْلامٍ مَنصُوبَةٍ يَنجَذِبونَ إليها.

{خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} (المعارج : ٤٤)

٤٤- وعُيونُهُمْ ذَليلَةٌ خاضِــعَة، وتَغشَـــى وجوهَهمْ ذِلَّةٌ وكآبَةٌ ومَهانَة، في مُقابِلِ ما كانُوا يَســتَكبِرونَ عنِ اتِّباعِ الحقِّ في الدُّنيا، ذلكَ هوَ اليَومُ الذي كانوا يُوعَدونَ به، فلْيَذُوقوا العَذابَ الذي كانوا يُكذِّبونَ به.

سورة نـوح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (نوح: ١)

١- إنَّا بعَثنا نُوحًا إلى قَومِهِ المشرِكين، أنْ خَوِّفْهِمْ بأسَ اللهِ الشَّديدَ قَبلَ أنْ يَحِلَّ بهم.

{قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} (نوح : ٢)

٢- فدَعاهمْ إلى اللهِ وقال: يا قَوم، إنِّي مُنذِرٌ لكم، ومُبيِّنٌ لكمْ أمرَ اللهِ ورسالتَه.

{أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ} (نوح : ٣)

٣- اعبُدوا اللهَ وَحدهُ ولا تُشـــرِكوا بهِ شَـــيئًا، ولا تُخالِفوا أمرَه، وأطيعونِي فيما آمرُكمْ به، فإنِّي رَسُولٌ مِنْ عندِه.

{يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَـمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاء لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} (نوح : ٤)

٤- فإنْ تَفعَلوا ذلكَ يَغفِرْ لكمْ مِنْ ذُنوبِكم، ويُمدِدْ في أعمَارِكمْ إلى أقصَـــاها (بشَـــرطِ الإيمَانِ والطَّاعَة). فبادِروا إلى الإيمَانِ قَبلَ فَواتِ الأوَان، فإنَّ الأجلَ الذي حدَّدَهُ اللهُ لأعمارِكمْ إذا جاءَ لا يُؤَخَّر، وإذا مُتُّمْ على الكفرِ هلَكتُم، ولو كنتُمْ مِنْ أهلِ العِلمِ لعَلِمتُمْ ذلك.

{قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً} (نوح : ٥)

٥- فدَعاهُمْ نُوحٌ عليهِ السَّـــلامُ مُدَّةً طَويلَة، ألفًا إلاّ خَمســـينَ عامًا، وهمْ يَمتَنِعونَ عنِ الإيمَان، فقالَ مُناجيًا ربَّه، يَشـــكو إليهِ قَومَهُ المعانِدين: اللهمَّ إنِّي دعَوتُ قَومي في اللَّيلِ والنَّهار، ولم أتَوانَ في دَعوَتِهِمْ إلى دينِكَ وطاعَتِك، امتِثالاً لأمرِك، وابتِغاءَ مَرضاتِك،

{فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً} (نوح : ٦)

٦- فلمْ تَزِدْهمْ دَعوَتي لهمْ إلاّ نُفورًا وإدبارًا عنِ الإيمَان!

{وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَـــابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْـــتَغْشَـــوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَـــرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً} (نوح : ٧)

٧- وإنِّي كُلَّما دَعوتُهُمْ إلى دِينِكَ لتَغفِرَ لهمْ إذا آمَنوا، سَدُّوا آذانَهُمْ لئلاَّ يَسمَعوا دَعوَتي، وتغَطَّوا بثيابِهِمْ لئلاَّ يَروني، وأصرُّوا على كُفرِهم، واستَكبَروا عنِ اتِّباعِ الحقِّ استِكبارًا عَظيمًا(١٥٣).

{ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً} (نوح : ٨)

٨- ثمَّ إنِّي دعَوتُهُمْ جَهرَةً بينَ النَّاس.

{ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً} (نوح : ٩)

٩- ثمَّ كرَّرْتُ فأعلَنتُ لهمُ الدَّعوَة، ونوَّعتُ في الأُسلُوبِ فدعَوتُهُمْ سرًّا بَيني وبينَهم، فقدْ يَكونُ ذلكَ أدعَى لاستِجابتِهم.

{فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً} (نوح : ١٠)

١٠- فقلتُ: انتَهوا عنِ الكُفرِ والمعاصي، وارجِعوا إلى اللهِ وتُوبوا إليه، فإنَّهُ كثيرُ المغفِرَةِ لذُنوبِ عِبادِهِ المؤمِنينَ التَّائبين.

{يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً} (نوح : ١١)

١١- فإنْ تَفعَلوا ذلكَ يُنعِمْ عَليكمْ ويُنْزِلْ عَليكمْ مطَرًا كثيرًا مُتواصِلاً،

{وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً} (نوح : ١٢)

١٢- ويُكثِرْ مِنْ رِزقِهِ لكم، ويَهَبْكمْ أولادًا كثُرًا، ويُبارِكْ في زرُوعِكمْ وثِمارِكم، ويَجعَلْ لكمْ فيها أنهارًا جاريَة.

---

(١٥٣) {وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً}: وتكبَّروا فتعاظَموا عن الإذعانِ للحقّ وقبولِ ما دعوتُهم إليه من النصيحة. (الطبري).
{وَاسْتَكْبَرُوا}: تعظَّموا عن اتِّباعي وطاعتي، وأخذتهم العزَّةُ في ذلك. (روح البيان).

{مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً} (نوح : ١٣)

١٣- ما الذي جرى لكمْ فلا تُعَظِّمونَ اللهَ حقَّ عَظمَتِه، ولا تَخافونَ بأسَهُ ونِقمَتَه؟

{وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً} (نوح : ١٤)

١٤- وقدْ عَلِمتُمْ قُدرَتَهُ مِنْ خِلالِ بَدْءِ خَلقِكمْ نُطفَة، ثمَّ علَقَة، ثمَّ مُضغَة، ثمَّ عِظامًا ولَحمًا، إلى تَمامِ الخَلق.

{أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً} (نوح : ١٥)

١٥- ألَمْ تَتفَكَّروا في خَلقِ اللهِ وكمالِ قُدرَتِهِ وعَظمَتِهِ في ذلك، فخلَقَ سَبعَ سَماواتٍ مُتَطابِقَةً بَعضُها فَوقَ بَعض؟

{وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً} (نوح : ١٦)

١٦- وجعلَ القمَرَ في السَّماءِ الدُّنيا نُورًا يُضيءُ ظُلمةَ اللَّيلِ في الأرْض، وجعلَ الشَّمسَ في النَّهارِ كالمِصبَاحِ المضيءِ لأهلِ الدُّنيا، فيُبصِرونَ فيهِ ويَعمَلونَ في ضَوئها.

{وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً} (نوح : ١٧)

١٧- واللهُ أنشَأ أصلَكمْ مِنَ الأرْضِ إنشَاءً.

{ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً} (نوح : ١٨)

١٨- ثمَّ يُعيدُكمْ بَعدَ مَوتِكمْ فيها، ويُخرِجُكمْ يَومَ البَعثِ مِنْ قُبورِكمْ إخرَاجًا، ليُحاسِبَكمْ على أعمالِكمْ ويُجازيَكمْ بما تَستَحِقُّون.

{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً} (نوح : ١٩)

١٩- وجعلَ اللهُ لكمُ الأرضَ مُبسَّطةً مُمهَّدَة،

{لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً} (نوح : ٢٠)

٢٠- لتَستَقِرُّوا عَليها وتَمشُوا في طرُقِها وأرجَائها الواسِعَة.

{قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً} (نوح : ٢١)

٢١- لكنَّ وَعظَ نُوحٍ عليهِ السَّلامُ لم يُؤثِّرْ فيهم، وقدْ تَشرَّبَتْ قُلوبُهُمْ بالكُفر، فدَعا ربَّهُ قائلاً: ربَّاه، إنَّهُمْ كذَّبوني وخالَفوني فيما دعَوتُهُمْ إليه، واتَّبَعوا أبنَاءَ الدُّنيا، مِنَ الرُّؤساءِ والزُّعَماءِ والوجَهاء، ممَّنْ غرَّتْهُمْ أموالُهُمْ وأولادُهم، وغفَلوا عنْ دِينِك، وكانَ ذلكَ سبَبًا في زيادَةِ خَسارَتِهِمْ في الآخِرَة.

{وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً} (نوح : ٢٢)

٢٢- وكادُوا كَيدًا عَظيمًا، بصَدِّ النَّاسِ عنِ الدِّين، وتَحريضِهِمْ على أذيَّةِ النبيِّ نُوحٍ عليهِ السَّلام، والاستِهزاءِ بهِ وبرِسالتِه.

{وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوث وَيَعُوقَ وَنَسْراً} (نوح : ٢٣)

٢٣- وقالَ بَعضُهمْ لبَعض: لا تَترُكوا عِبادةَ آلِهتِكمْ إلى عِبادةِ رَبِّ نُوح، ولا تَترُكوا عِبادَةَ هذهِ الآلهةِ خُصوصًا: وَدًّا، وسُوَاعًا، ويَغُوثَ، ويَعُوْقَ، ونَسْرًا.

{وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً} (نوح : ٢٤)

٢٤- وقدْ ضَلَّ بسبَبِ الأصنَامِ كثيرٌ مِنَ النَّاس {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ} [سورة إبراهيم: ٣٦]. اللهمَّ ولا تَزِدِ الكافِرينَ إلاّ ضَلالاً. وقدْ عتَوا وتمَرَّدوا وأصَرُّوا على الكُفر، وأيقنَ نوحٌ أنَّهُ لا خَيرَ في هذهِ القُلوبِ الظَّالمةِ الباغيَةِ العاتيَة، وأنَّها لا تَستَحِقُّ الهدايةَ والنَّجَاة، وقدْ أوحَى اللهُ إليهِ أنَّهُ لنْ يؤمِنَ مِنْ قَومِهِ إلاّ مَنْ قدْ آمَن.

{مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً} (نوح : ٢٥)

٢٥- مِنْ أجلِ ذُنوبِهِمْ وجَرائمِهم، وإصــــرارِهِمْ على الكُفرِ والتَّكذيب، أُغرِقوا بالطُّوفان، ثمَّ أُدخِلوا نارَ جهنَّم، ولم يَجِدوا لهُمْ مُعينًا ومُغيثًا يَنتَصِرُ لهُمْ ويُخَلِّصُهُمْ مِنَ العَذابِ الذي همْ فيه.

{وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً} (نوح : ٢٦)

٢٦- ودَعا نُوحٌ عليهِ السَّلامُ ربَّهُ قائلاً: اللهمَّ لا تُبْقِ على الأرْضِ كافِرًا واحِدًا يَسكنُ الدِّيار.

{إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً} (نوح : ٢٧)

٢٧- إنَّكَ إنْ أبقَيتَهمْ أو بَعضَهم، يُضِلُّوا مَنْ يأتي بعدَهمْ مِنْ عِبادِك، ولا يَلِدوا إلاّ مَنْ يَفجُرُ ويَكذِب؛ لِما عرَفَ نُوحٌ منهمْ ذلك، وقدْ بَقيَ فيهمْ نَحوَ عَشرَةِ قُرون.

{رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً} (نوح : ٢٨)

٢٨- ثمَّ قالَ عليهِ السَّـلام: اللهمَّ اغفِرْ لي، ولوالدَيّ، ولِمَنْ دخَلَ داريَ وهوَ مؤمِنٌ بك، واغفِرْ لجَميعِ المؤمِنينَ والمؤمِنـات، الأحيَـاءِ منهمْ والأموَات، ولا تَزِدِ الكـافِرينَ إلاّ هَلاكًـا ودَمـارًا، في الحيَاةِ الدُّنيا وفي الآخِرَة.

سـورة الجـنّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً} (الجن : ١)

١- قُلْ أيُّها الرسُولُ الكَريم: أوحَى اللهُ إليَّ أنَّ مجموعَةً مِنَ الجِنِّ استمَعوا إلى القُرآنِ وأنا أتلُوه، فآمَنوا به، ورجَعوا إلى قَومِهمْ وقالوا لهم: لقدْ سَمِعنا قِراءَةَ كتابٍ سَماويٍّ مُعجِز بَديع، يُعجَبُ منهُ لبَلاغَتِه وحُسنِ مَواعظِهِ ومَعانيه.

{يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً} (الجن : ٢)

٢- يَدعو إلى الحقِّ والسَّداد، فآمنَّا به، والتزَمْنا تَوحيدَ اللهِ في العِبادَة، ولنْ نُشرِكَ بِهِ أحدًا.

{وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً} (الجن : ٣)

٣- وأنَّهُ علَتْ عَظمَةُ رَبِّنا، وجَلَّ جَلالُه، لم يتَّخِذْ زَوجَةً ولا أولادًا.

{وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً} (الجن : ٤)

٤- وأنَّ إبليسَ اللَّعينَ كانَ يَقولُ على اللهِ قَولاً كَذِبًا بَعيدًا عنِ الحقّ، ويَصِفُهُ بالشَّريكِ والولَد.

{وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً} (الجن : ٥)

٥- وأنَّا ما حَسِبنا أنْ يَقولَ الإنسُ والجِنُّ قَولاً كَذِبًا على اللهِ ربِّ العالَمين، ويَنسِبوا إليهِ الزّوجةَ والولَد.

{وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً} (الجن : ٦)

٦- وأنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الإنسِ إذا نزَلوا وَاديًا أو مَكانًا مُوحِشًا، يَعوذونَ بعَظيمِ ذلكَ المكانِ مِنَ الجِنِّ أنْ يُصيبَهمْ بشَيءٍ يَسُوؤهم، فَزادُوهمْ طُغيانًا بذلك، وتجرَّأتِ الجِنُّ عَليهمْ وآذَوهم.

{وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً} (الجن : ٧)

٧- وأنَّ الإنسَ ظَنُّوا كما ظنَنتُمْ أيُّها الجِنُّ أنْ لنْ يَبعَثَ اللهُ بعدَ هذهِ المدَّةِ رَسولاً، وقدْ أخطَؤوا وأخطَأتُم.

{وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً} (الجن : ٨)

٨- وأنَّا طلَبنا بُلوغَ السَّماءِ لاستِماعِ كَلامِ أهلِها - حينَ بُعِثَ الرسُولُ صلى الله عليه وسلم - فوَجَدناها مُلِئتْ حُرَّاسًا أقوِياءَ مِنَ الملائكة، وشُهُبًا مِنَ النُّجوم، تَطردُهمْ وتَمنَعُهمْ مِنَ الاستِماع.

{وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً} (الجن : ٩)

٩- وأنَّا كنَّا نَقعُدُ مِنَ السَّماءِ قَبلَ ذلكَ مَقاعِدَ نَستَمِعُ فيها[١٥٤]، فمَنْ يَستَرِقِ السَّمعَ اليَومَ يَجِدْ شِهابًا راصِدًا له، يُرمَى بِهِ فيُهلِكُه.

وكانَ رَميُ الشَّياطينِ بالشُّهُبِ مَوجودًا قَبلَ مَبعَثِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلام، ولكنْ أحيَانًا بعدَ أحيَان، وبعدَهُ كانتْ كثرَةُ الشُّهب، والحرَسُ الشَّديد.

{وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً} (الجن : ١٠)

١٠- وأنَّا لا نَدري هذا الأمرَ الذي حدَثَ في السَّماءِ مِنَ الحرَسِ والرَّمي بالشُّهُب، أهوَ شَرٌّ أُريدَ بأهلِ الأرْض، أمْ أرادَ بهِمْ رَبُّهُمْ خَيرًا وصَلاحًا؟

{وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً} (الجن : ١١)

١١- وأنَّا منَّا - مَعشَرَ الجِنِّ - الموصوفونَ بالصَّلاحِ والمعاملَةِ الطيِّبة، ومنَّا قَومٌ دونَ ذلك، وكنَّا جَماعاتٍ مُتفرِّقينَ ذَوي آرَاءٍ مُختَلِفَة.

{وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً} (الجن : ١٢)

١٢- وأنَّا عَلِمنا أنَّنا لا نَقدِرُ على الإفلاتِ مِنْ أمرِ اللهِ أينَما كُنَّا في أرجَاءِ الأرْض، ولا يُعجِزُ اللهَ أحَدٌ منَّا إذا طلبَه، ولو أمعنَ في الهرَبِ وجاهدَ في الاختِفاء.

---

(١٥٤) أي: مواضعَ نقعدُ في مثلِها لاستماعِ الأخبارِ من السماء... والمقاعدُ جمعُ مقعد، اسمُ مكان، وذلك أن مردةَ الجنِّ كانوا يفعلون ذلك ليسمعوا من الملائكةِ أخبارَ السماء، فيُلقونها إلى الكهنة، فحرَسها الله سبحانهُ ببعثهِ رسولَهُ صلى الله عليه وسلم بالشهبِ المحرقة. (فتح القدير، باختصار).

وفي "كشف الأسرار": أي: مواضعَ لاستماعِ الاخبار. (روح البيان).

[القعودُ] هنا مجازٌ في ملازمةِ المكانِ زمناً طويلاً، لأن ملازمةَ المكانِ من لوازمِ القعود. (التحرير).

{وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً} (الجن : ١٣)

١٣- وأنَّا لما سَمِعنا القُرآنَ يُتلَى آمَنَّا بهِ مِنْ غَيرِ تردُّد، فمَنْ يؤمِنْ برَبِّهِ وما أنزلَهُ على رسُلِه، فلا يَخافُ نَقصًا في الثَّواب، ولا ظُلمًا أو مَكروهًا يَغشَاه.

{وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً} (الجن : ١٤)

١٤- وأنَّا منَّا المسلِمونَ القائمونَ على أمرِ الإيمَانِ والطَّاعَة، ومنَّا الجائرونَ النَّاكِبونَ عنْ طَريقِ الحقّ، فمَنْ أسلمَ فأولئكَ الذينَ قصَدوا الهِدايَةَ والسَّداد، وطلَبوا الفَوزَ والنَّجَاة.

{وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً} (الجن : ١٥)

١٥- وأمَّا المشرِكونَ النَّاكِبونَ عنْ طَريقِ الحقّ، فكانوا وَقودًا تُسعَرُ بهِمُ النَّارُ في جهنَّم.

{وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً} (الجن : ١٦)

١٦- قالَ اللهُ ما مَعناه: وأنَّ الإنسَ والجِنَّ لو امتثَلوا أمرَنا، واستَقاموا على الشَّريعَة، لوسَّعنا عليهِمُ الرِّزقَ في الدُّنيا، وجعَلناهمْ في عَيشٍ رَغيد؛

{لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً} (الجن : ١٧)

١٧- لنَختَبِرَهمْ فيما أنعَمنا بهِ عَليهِم، ونَعلمَ المتَّبعَ للحقِّ مِنَ المنحَرِفِ عنه، والشَّاكِرَ للنِّعمَةِ مِنَ الكافِرِ بها. ومَنْ يُعرِضْ عنْ عِبادَةِ ربِّهِ ومَوعِظَتِه، نُصلِهِ عَذابًا شاقًّا مؤلِمًا.

{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً} (الجن : ١٨)

١٨- وأنَّ المساجدَ مَبنيَّةٌ على الإخْلاصِ للهِ والخُضوعِ لعَظمَتِه، فلا تَعبُدوا فيها معَ اللهِ أحدًا، ولا تُشرِكوا بهِ شَيئًا.

{وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً} (الجن : ١٩)

١٩- وأنَّ الرسُولَ صلى الله عليه وسلم لما قامَ يَدعو إلى دِينِ اللهِ ونَبذِ الشِّرك، اجتمعَ عليهِ المشرِكونَ وازدحَموا، فكذَّبوهُ وتَعاوَنوا على عَداوتِه، ومنَعوهُ مِنَ التَّبليغِ ونَشرِ الدَّعوة.

{قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً} (الجن : ٢٠)

٢٠- قُلْ لهمْ أيُّها الرسُول: إنَّما أعبُدُ ربِّي، ولا أُشرِكُ في العِبادَةِ أحدًا معَه، وهذا لا يوجِبُ اجتِماعَكمْ على عَداوَةِ ما أدعُو إليه.

{قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً} (الجن : ٢١)

٢١- قُلْ لهم: إنِّي رسُولٌ مِنَ البشَر، لا أملِكُ مِنْ أمرِ هِدايتِكمْ ولا غِوايَتِكمْ شَيئًا، ولا نَفعِكمْ ولا ضُرِّكمْ، إنَّما القادِرُ على ذلكَ اللهُ وحدَه.

{قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً} (الجن : ٢٢)

٢٢- قُل: لنْ يَقدِرَ أحَدٌ على إنقَاذي إذا أرادَني اللهُ بسُوءٍ إنْ عصَيتُه، ولنْ أجِدَ مَلجأً ألُوذُ به، ولا نَصيرًا ألتَجئُ إليهِ مِنْ دونِهِ سُبحانَه.

{إِلَّا بَلَاغاً مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً} (الجن : ٢٣)

٢٣- لنْ يُجيرَني مِنْ عَذابِ اللهِ إلاّ إذا بلَّغتُ الرسالَة، التي أوجبَ اللهُ عليَّ أداءَها، ففيهِ الأمنُ والنَّجاة. ومَنْ يُخالِفْ أمرَ اللهِ ورسُولِهِ ولم يؤمِن، فإنَّهُ يُعذَّبُ في نَارِ جهنَّمَ خالدًا مُخَلَّدًا فيها.

{حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً} (الجن : ٢٤)

٢٤- حتَّى إذا رَأى المشرِكونَ ما وُعِدوا بهِ مِنَ العَذابِ يَومَ القِيامة، فسيَعلَمونَ عندَئذٍ أيُّ الفَريقَينِ هوَ الضَّعيفُ المخذول، القَليلُ الذي لا يُؤبَهُ به، المؤمنون، أمِ المشرِكون؟

وكانَ المشركونَ في مكَّةَ يُعيِّرونَ المسلِمينَ بأنَّهمْ قِلَّةٌ مُستَضعَفَة.

{قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً} (الجن : ٢٥)

٢٥- قُلْ لهمْ أيُّها الرسُـول: لا أدري أقَريبٌ هوَ وَقتُ القيامَةِ الذي تُوعَدونَ به، أمْ أنَّهُ مُؤَجَّلٌ إلى وَقتٍ أبعَد؟ اللهُ أعلَمُ به.

{عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً} (الجن : ٢٦)

٢٦- هوَ اللهُ الذي يَعلَمُ ما غابَ عنْ أبصـارِكمْ وإدراكِكم، ولا يُطْلِعُ أحدًا مِنْ خَلقِهِ على ما اختَصَّ بهِ عِلمُه،

{إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً} (الجن : ٢٧)

٢٧- إلاّ مَنِ اختارَهُ ورَضيَ أنْ يُطلِعَهُ على ما يَشاءُ مِنَ الغَيب، مِنْ رَسُولٍ ملَكيٍّ أو بشَريّ، فإنَّهُ يَجعَلُ مِنْ بينِ يدَيهِ ومِنْ خَلفِهِ مَلائكةً يَحفَظونَهُ ويَحرُسُونَهُ مِنْ تعَرُّضِ الشَّياطينِ له.

{لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً} (الجن : ٢٨)

٢٨- لأجلِ أنْ يَعلَمَ الرسُـولُ أنَّ الرسُـلَ قدْ بلَّغوا رِسـالاتِ رَبِّهِم، معَ حِفظِ الملائكةِ لهمْ كما يَحفَظونَهُ بأمرِ الله، وأحاطَ عِلمُهُ بما عندَ الرسُـلِ وما عندَ الملائكة، وأحاطَ بعَدَدِ كُلِّ شَـيءٍ واستَقصاه، فعرَفَهُ وعَلِمَه، ممَّا كانَ وممَّا سيَكون، فلا يَخفَى عليهِ شَيء.

سورة المزَّمِّل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ} (المزّمّل : ١)

١- أيُّها الرسُولُ المتلَفِّفُ بثَوبِه،

{قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً} (المزّمّل : ٢)

٢- صَلِّ اللَّيلَ إلاّ قَليلاً منه،

{نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً} (المزّمّل : ٣)

٣- نِصفَ اللَّيلِ أوِ انقُصْ مِنَ النِّصْفِ قَليلاً،

{أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً} (المزّمّل : ٤)

٤- أو زِدْ على النَّصـــف. واقرَأ القُرآنَ على تُؤَدَةٍ وتمَهُّل، وبيِّنْهُ تَبيينًا، ليَكونَ عَونًا على فَهمِهِ وتدَبُّرِه.

(يُنظَرُ نَسخُ ما ذُكِرَ مِنْ صَلاةِ اللَّيلِ في آخِرِ هذهِ السُّورَة).

{إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً} (المزّمّل : ٥)

٥- إنَّا سنُوحي إليكَ القُرآن، الذي فيهِ مِنَ الفرائضِ والحدُود، والأوَامرِ والنَّواهي، ما هوَ ثَقيلٌ على النَّفس، فتَحتاجُ إلى عَزمٍ ومُجاهدَةٍ ومُصابرَة.

{إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءاً وَأَقْوَمُ قِيلاً} (المزّمّل : ٦)

٦- إنَّ العِبادَةَ في ســـاعَاتِ اللَّيلِ وأوقاتِهِ أثبَتُ لحُضـــورِ القَلب، وأكثَرُ مُوافقَةً بينَ القَلبِ واللِّسان، وأجمَعُ للخَاطِرِ في التِّلاوةِ مِنَ النَّهار، لهَدْأةِ النَّاسِ وسُكونِ الأصوَات.

{إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً} (المزّمّل : ٧)

٧- إنَّ لكَ في النَّهارِ وَقتًا للفَراغِ والاشـــتِغالِ بالحاجَاتِ وتَدبيرِ الأعمَال، فعَليكَ بالقِيامِ في اللَّيل.

(وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً) (المزّمّل : ٨)

٨- وأكثِرْ مِنْ ذِكرِ اللهِ بالتَّوحيدِ والتَّعظيم، وداوِمْ عليه، وتفرَّغْ لعِبادَتِهِ إذا فرَغْتَ مِنْ أشغالِك.

{رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً} (المزّمّل : ٩)

٩- هوَ المالِكُ والمتصَــرِّفُ في الكَون، ربُّ المشــرِقِ والمغرِبِ وكُلِّ جهَة، لا إلهَ غَيرُهُ ولا ربَّ سِواه، فاعتَمِدْ عليهِ وفَوِّضْ أمورَكَ إليه.

{وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً} (المزّمّل : ١٠)

١٠- واصـبِرْ على ما يَقولونَ مِنْ تَكذيبِهِمْ إيَّاكَ وأذاهُمْ لك، ولا تَتعَرَّضْ لهم، ودارِهِمْ مِنْ غَيرِ جزَع، وكِلْ أُمورَهُمْ إلى الله. (وكانَ هذا قَبلَ الأمرِ بالقِتال).

{وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً} (المزّمّل : ١١)

١١- ودَعني والمكَـذِّبينَ المترَفينَ أهـلَ التنعُّمِ والغِنَى، وأمهِلْهمْ زَمـانًا قَليلاً، هوَ مُـدَّةُ حيـاتِهِمُ القَصيرَة.

{إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً} (المزّمّل : ١٢)

١٢- إنَّا أعتَدْنا لهمْ في جهنَّمَ قُيودًا ثَقيلَةً، ونارًا مُضطَرِمَةً شَديدَةَ الإيقَاد.

{وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً} (المزّمّل : ١٣)

١٣- وطَعامًا لا يُساغ، يُغَصُّ بهِ ويَنشَبُ في الحَلق، وعَذابًا مؤلِمًا شَديدًا.

{يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً} (المزّمّل : ١٤)

١٤- يومَ تَهتَزُّ الأرْضُ والجبالُ وتَتزَلزَل، وكانتِ الجبالُ مثلَ كُثبانِ الرَّمل، رَخوَةً لَيِّنَة، بعدَما كانتْ صُخورًا ثابتةً قويَّة.

{إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً} (المزّمّل : ١٥)

١٥- إنَّا أرسَلنا إليكمْ رَسُولاً يَشهَدُ يومَ القِيامَةِ على ما صدرَ منكمْ مِنَ الكفرِ والتَّكذيبِ والعِصيان، كما بعَثنا موسَى إلى فِرعَونَ ليُبلِّغَهُ رِسالةَ ربِّه.

{فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً} (المزّمّل : ١٦)

١٦- فكذَّبَهُ فِرعَونُ وعصَاه، فعاقَبْناهُ عِقابًا شَديدًا، وأغرَقناهُ وجنُودَهُ كُلَّهم. فاحذَروا.

{فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً} (المزّمّل : ١٧)

١٧- فكيفَ تَقُوْنَ أنفُسَكُمْ - إنْ كفَرتُمْ - عَذابَ يَومِ القِيامَة، الذي يَشيبُ فيهِ الأولادُ الصِّغار، مِنْ أهوالِ ذلكَ اليَومِ وكُروبِه؟

{السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً} (المزّمّل : ١٨)

١٨- السَّماءُ مُنصَدِعٌ مِنْ هَولِ ذلكَ اليَومِ العَظيم، وهوَ خَلقٌ مُحكَمٌ هائل، فكيفَ بغَيرِهِ مِنَ الخَلائق؟! وكانَ الوَعدُ بمَجيءِ هذا اليَومِ واقِعًا لا مَحالَة.

{إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً} (المزّمّل : ١٩)

١٩- إنَّ هذه الآيَاتِ مَوعِظَةٌ يتَّعِظُ بها العُقلاء، فمَنْ شاءَ تقرَّبَ إلى اللهِ بالإيمَانِ والطَّاعَة، وسلكَ الطَّريقَ المستَقيم، الذي يُؤدِّي إلى رِضائهِ والجنَّة.

{إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (المزّمّل : ٢٠)

٢٠- إنَّ اللهَ يَعلَمُ أنَّكَ تَقومُ أقلَّ مِنْ ثُلُثَي اللَّيل، وأحيانًا نِصـــفَه، وأحيانًا ثُلُثَه، وطائفَةٌ مِنْ أصــحَابِكَ معَك، واللهُ يَعلَمُ مَقاديرَ ســاعاتِ اللَّيلِ والنَّهار، ولا يَفوتُهُ عِلمُ قيامِكمْ فيه، وعَلِمَ أنَّكمْ لا تَقدِرونَ على المواظبَةِ على ما أمرَكمْ بهِ مِنْ هذا القِيام، فعَفا عنكم، وخفَّفَ ما كانَ عَليكمْ منه، فقُوموا مِنَ اللَّيلِ ما تَيسَّر.
وعَلِمَ أنْ سيَكونُ في النَّاسِ ذَوو أعذارٍ لا يَقدِرونَ على القِيام، مِنْ مَرضَى، وآخَرينَ يُسافِرونَ للتِّجارَةِ يَطلُبونَ الرِّزق، وآخَرينَ يُجاهِدونَ في سَــبيلِ الله، فقُوموا مِنَ اللَّيلِ ما تَيسَّـــر، ووَاظِبوا على الصَّـلاةِ المفرُوضَـةِ في أوقاتِها، وبأركانِها وشُـروطِها، وأعطُوا المحتَاجينَ مِنَ الزَّكاةِ المفروضَـةِ على أموالِكم، وأنفِقوا منها في وجُوهِ البرِّ والإحسَان، وما تُنفِقوا في هذهِ الحيَاةِ الدُّنيا مِنَ وجوهِ الخَيرِ والبِرّ، تَجِدوا ثَوابَهُ يَومَ القِيامَـةِ أكثرَ وأوفرَ عنـدَ اللهِ أجرًا، وأكثِروا مِنْ ذِكرِ الله، واطلُبوا مَغفِرَةَ اللهِ لذُنوبِكم، فإنَّهُ يَغفِرُ ذُنوبَ مَنْ تابَ واستَغفَر، ويَرحَمُ عَبدَهُ المؤمِن.

قالتْ عائشَـةُ رَضِـيَ اللهُ عنها: "إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ افترَضَ قيامَ اللَّيلِ في أوَّلِ هذهِ السُّـورة، فقامَ نَبيُّ اللهِ صلى الله عليه وسلم وأصحابُهُ حَوْلاً، وأمسكَ اللهُ خاتِمَتَها اثنَي عشرَ شَهرًا في السَّماء، حتَّى أنزَلَ اللهُ في آخِرِ هذهِ السُّـــورَةِ التَّخفِيف، فَصـــارَ قيامُ اللَّيلِ تَطَوُّعًا بعدَ فَريضـــة". رواهُ مُسلم.

سورة المـدَّثِّـر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ} (المدّثر : ١)

١- أيُّها النبيُّ المتلَفِّفُ بثيابِه.

{قُمْ فَأَنذِرْ} (المدّثر : ٢)

٢- قُمْ وأنذِرِ النَّاسَ بعَزيمَةٍ ونَشــاط، ونَبِّهْهُمْ مِنْ غَفلَتِهم، ومِنَ الشِّــركِ والضَّــلالِ الذي همْ غارِقونَ فيه.

{وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ} (المدّثر : ٣)

٣- واذكُرْ ربَّكَ وعَظِّمْه، ومَجِّدْهُ ووَحِّدْهُ.

{وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} (المدّثر : ٤)

٤- وطَهِّرْ نَفسَكَ مِنَ الذُّنوبِ وهَذِّبْها، ولا تُلَبِّسْها بالإثمِ والمعاصي.

{وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} (المدّثر : ٥)

٥- واهْجُرِ الأوثَانَ ولا تَقْرَبْها، وابتَعِدْ عنْ كُلِّ سُوء.

{وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ} (المدّثر : ٦)

٦- ولا تُعطِ مالكَ وأنتَ تَطمَعُ أنْ يُعطَى لكَ أكثَرُ منه.

{وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ} (المدّثر : ٧)

٧- واصبِرْ على أذَى قَومِكَ في الدَّعوَةِ إلى الله؛ طلبًا لرِضاه.

{فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ} (المدّثر : ٨)

٨- فإذا نُفِخَ في الصُّور،

{فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ} (المدّثر : ٩)

٩- فذلكَ اليَومُ يَومٌ شَديدٌ عَصِيب.

{عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ} (المدّثر : ١٠)

١٠- غَيرُ سَهلٍ على الكافِرين، فيُحاسَبونَ ويَفتَضِحونَ وتَسوَدُّ وجُوهُهم...

{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً} (المدّثر : ١١)

١١- دَعني وهذا الجاحِدَ الذي خلَقتُهُ في بَطنِ أُمِّهِ وَحيدًا لا شَــيءَ له. والمقصــودُ الوليدُ بنُ المغيرَة.

{وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً} (المدّثر : ١٢)

١٢- وأعطَيتُهُ مالاً مَبسُوطًا ورِزقًا واسِعًا،

{وَبَنِينَ شُهُوداً} (المدّثر : ١٣)

١٣- وأولادًا حُضورًا لا يَغيبونَ عنه، وقدْ كفاهمُ العملَ والسَّفرَ خدَمٌ وعَبيد.

{وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً} (المدّثر : ١٤)

١٤- وبَسَطتُ لهُ العَيشَ والجاهَ وطُولَ العُمُر.

{ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ} (المدّثر : ١٥)

١٥- ثمَّ هوَ يَرجو أنْ أزيدَهُ مالاً ووَلدًا، وجاهًا ونِعمَة.

{كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً} (المدّثر : ١٦)

١٦- كلاَّ، لا أزيدُهُ شَــيئًا مِنْ ذلك، إنَّهُ كانَ مُعانِدًا لآياتِنا، مُســتَكبِرًا عنِ اتِّباعِ الحقّ، كافِرًا بنِعَمِنا عَليه.

وكانَ في نُقصانٍ مِنْ مالِهِ ووَلَدِهِ حتَّى هلَك.

{سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً} (المدّثر : ١٧)

١٧- سأُكلِّفُهُ عَذابًا شاقًّا لا راحَةَ لهُ فيه،

{إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ} (المدّثر : ١٨)

١٨- لأنَّهُ فكَّرَ وتَروَّى ماذا يَقولُ فِي شَأنِ القُرآن، وقدْ طلبَ المشرِكونَ أنْ يَقولَ فيهِ قَولاً حتَّى يَعلَموا أنَّهُ مُنكِرٌ لهُ وكارِه.

{فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ} (المدّثر : ١٩)

١٩- فلُعِنَ وأُخزِيَ كيفَ قدَّرَ الجواب،

{ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ} (المدّثر : ٢٠)

٢٠- ثمَّ لُعِنَ بتَقديرِهِ ذَاك، قاتلَهُ الله،

{ثُمَّ نَظَرَ} (المدّثر : ٢١)

٢١- ثمَّ أعادَ النَّظرَ فيما يَرُدُّ بهِ على القُرآن،

{ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ} (المدّثر : ٢٢)

٢٢- ثمَّ قطَّبَ وَجهَهُ وأظهَرَ العُبوسَ، ونظرَ بكراهيَةٍ شَديدَة،

{ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ} (المدّثر : ٢٣)

٢٣- ثمَّ أعرَضَ عنِ الإيمَانِ بالقُرآن، واستَكبَرَ عنِ اتِّباعِ الحقّ،

{فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ} (المدّثر : ٢٤)

٢٤- فقال: ما هذا الذي يَتلوهُ محمَّدٌ إلاّ سِحرٌ يُروَى ويَتَعلَّمُهُ مِنَ السَّحَرَة،

{إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} (المدّثر : ٢٥)

٢٥- ما هذا إلاّ قَولُ بشَر، وليسَ بقَولِ إله.

{سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} (المدّثر : ٢٦)

٢٦- سأدخِلُهُ جهنَّمَ ليَذوقَ عَذابَهَا الشَّديد.

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ} (المدّثر : ٢٧)

٢٧- وما أعلمَكَ بما في جَهنَّمَ مِنَ العَذابِ والشَّدائد؟

{لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ} (المدّثر : ٢٨)

٢٨- لا تَدَعُ شَيئًا فيها إلاَّ أهلكَتْه، مِنْ شِدَّةِ العَذابِ وقَسوَتِه، ثمَّ يُبدَّلونَ خَلقًا جَديدًا.

{لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ} (المدّثر : ٢٩)

٢٩- مُغَيِّرَةٌ للبَشَر (جَمعُ بشَرَة)، مُسَوِّدَةٌ للجُلود. (مِنْ لوَّحَتْهُ الشَّمسُ إذا سوَّدَتْ ظاهِرَه).

{عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ} (المدّثر : ٣٠)

٣٠- وعلى النَّارِ مِنَ الخزَنَةِ تِسعَةَ عَشَرَ مَلَكًا.

{وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ} (المدّثر : ٣١)

٣١- وما جعَلنا خزَنةَ النَّارِ إلاّ مَلائكة، غِلاظًا شِدادًا، لا يُقاوَمونَ ولا يُغلَبون. وما جعَلنا عدَدَهمْ (تِسعَةَ عَشَرَ) إلاّ اختِبارًا للكافِرين، الذينَ لا يُسَلِّمونَ بما أنزلَ الله، ويَستَبعِدونَ أنْ تَقومَ قِلَّةٌ مِنَ الملائكةِ بتَعذيبِ عدَدٍ هائلٍ مِنَ البشَر. وليَعلَمَ أهلُ الكتابِ أنَّ هذا النبيَّ حقّ، وأنَّ القُرآنَ مُوحًى به، فإنَّ عدَدَهمْ هذا مَذكورٌ في الكتُبِ السَّماويَّةِ السَّابقَة. وليَزدادَ بذلكَ

إيمَانُ المؤمنين، لِما يَقِفونَ عليهِ مِنْ دَلائلِ صِـدقِهِ عليهِ الصَّـلاةُ والسَّـلام، ولئلاَّ يَشُـكَّ أهلُ الكتابِ والمؤمنونَ في عدَدِهم، وليَقولَ المنافِقونَ والكافِرون: أيَّ شَيءٍ أرادَ اللهُ بذِكرِ هذا العدَدِ مِنَ الملائكة، وبذِكرِ هذا الخبَرِ كُلِّهِ؟

وبمِثلِ هذا يُضِلُّ اللهُ مَنْ شَاء، ممَّنْ صرَفَ اختيارَهُ إلى الإنكَارِ والحقُّ ظاهِر، ويَهدي مَنْ شَاء، ممَّنِ استعَدَّ لقَبولِ الحقِّ والتَّسليمِ بما أنزَلَ الله، وبذلكَ يتأكَّدُ إيمَانُ أقوامٍ، ويَتزَلزَلُ عندَ آخَرين.

ولا يَعلَمُ جُنودَ اللهِ وكثرَتَهم، وحَقيقَتَهمْ ووَظائفَهمْ إلاّ هوَ سُـــبحانَه، فإنَّهُ مِنَ الغَيبِ الذي اختصَّ بهِ تَعالَى.

وما النَّارُ التي وُصِفَتْ إلاّ تَذكِرَةٌ ومَوعِظَةٌ للنَّاس، ليَعتَبِروا ويَرجِعوا إلى رَبِّهم.

{كَلَّا وَالْقَمَرِ} (المدّثر : ٣٢)

٣٢- كلاَّ لهؤلاءِ المشرِكينَ الذينَ يُنكِرونَ آياتِ الله، قسَمًا بالقمَرِ ومَشهَدِهِ حينَ يَطلُع، وحينَ يَسير، وحينَ يَغيب.

{وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ} (المدّثر : ٣٣)

٣٣- واللَّيلِ حينَ يُدْبِرُ شَيئًا فشَيئًا أمامَ قُدومِ النَّهار.

{وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ} (المدّثر : ٣٤)

٣٤- والصُّبحِ إذا أشرَقَ وبشَّرَ بالنُّورِ والضِّياء.

{إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ} (المدّثر : ٣٥)

٣٥- إنَّ جهنَّمَ لإحدَى الدَّواهي الكِبار، والأمُورِ العِظام.

{نَذِيراً لِّلْبَشَرِ} (المدّثر : ٣٦)

٣٦- إنذارًا للنَّاسِ وتَخويفًا لهمْ مِنَ العَذاب، وما أنذرَ اللهُ بشَيءٍ أدهَى مِنْ جهنَّم.

{لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ} (المدّثر : ٣٧)

٣٧- لمنْ شاءَ منكمْ أيُّها البشَرُ أنْ يقبلَ الإنذَارَ فيَهتَدي ويتَقدَّمَ إلى الخَيرِ والطَّاعَة، ولمنْ ردَّ الإنذَارَ فيَتأخَّرَ وينغَمِسَ في الشُّرورِ والمعَاصي.

{كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} (المدّثر : ٣٨)

٣٨- كُلُّ نَفسٍ مُتعلِّقَةٌ بما قدَّمَت، ومُحاسَبَةٌ على ما عَمِلَت.

{إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ} (المدّثر : ٣٩)

٣٩- ماعدا أصحابَ اليَمِين، مِنَ المؤمِنينَ المخلِصين، فإنَّهمْ غَيرُ مُرتَهَنينَ بذُنوبِهم، فاللهُ يَغفِرُها لهم.

{فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ} (المدّثر : ٤٠)

٤٠- في جَنَّاتِ عَدْنٍ واسِعات، يَسألون،

{عَنِ الْمُجْرِمِينَ} (المدّثر : ٤١)

٤١- عنْ أحوَالِ الكافِرينَ المجرِمينَ في مقَرِّهِمُ الدَّائم:

{مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ} (المدّثر : ٤٢)

٤٢- ما الذي أدخلَكمْ جهنَّم؟

{قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ} (المدّثر : ٤٣)

٤٣- قالوا: لم نكنْ نُصَلِّي للهِ الصَّلواتِ المفروضةَ عَلينا،

{وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ} (المدّثر : ٤٤)

٤٤- ولم نَكنْ نُعطي حقُوقَ الفُقراءِ لهم، ولا نُطعِمُ مِسكينَهم،

{وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ} (المدّثر : ٤٥)

٤٥- وكنَّا نتكلَّمُ في الباطِل، وفيما لا يَعنِينا، وفيما لا نَعلَم، معَ هؤلاءِ الذينَ لا يَزالونَ يَتكلَّمونَ صَباحَ مَساءَ في أفكارٍ ونَظريَّاتٍ وأمورٍ شَتَّى، ولا يُبالونَ فيها بحقٍّ ولا باطِل، فنَميلُ معَهمْ حيثُ مالُوا، ولا نُبالي.

{وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ} (المدّثر : ٤٦)

٤٦- وكنَّا نُكذِّبُ بالبَعثِ بعدَ الموت، والحِسابِ والجَزاء،

{حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ} (المدّثر : ٤٧)

٤٧- حتَّى أتانا الموتُ الذي لا بُدَّ منه.

{فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} (المدّثر : ٤٨)

٤٨- فهؤلاءِ لا تَنفعُهمْ يومَ القِيامَةِ شَفاعَةُ أحَد، لأنَّها تَكونُ لمنْ آمَن، وهؤلاءِ كافِرون.

{فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ} (المدّثر : ٤٩)

٤٩- فما بالُ هؤلاءِ الكافِرينَ مُعرِضينَ عنِ القُرآنِ وإنذارِهِ وتَذكيرِه؟

{كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ} (المدّثر : ٥٠)

٥٠- كأنَّهُمْ في نُفورِهمْ عنِ الحقّ وإعراضِهمْ عنِ القُرآنِ مِثلُ حُمُرِ الوَحش،

{فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ} (المدّثر : ٥١)

٥١- التي تَفِرُّ مِنَ الأسَدِ حينَ يُطارِدُها ليَصيدَها!

{بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً} (المدّثر : ٥٢)

٥٢- بلْ يُريدُ كُلُّ واحدٍ مِنَ المشــــرِكينَ أنْ يَنزِلَ عليهِ كتابٌ سَماويٌّ يُنشَــــرُ ويُقرَأُ حتَّى يؤمِنَ ويُصَدِّق!

{كَلَّا بَل لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ} (المدّثر : ٥٣)

٥٣- كلاّ لا يُؤتَونَ ذلك، فإنَّ الذي أفســدَ مَذهبَهمْ وجعلَهمْ مُعرِضــينَ عنِ الحقّ، ولا مُبالينَ بالقُرآنِ ووَعدِهِ ووَعيدِه، هوَ عدَمُ إيمانِهمْ بالمعادِ والحِسَاب، وعدَمُ خَوفِهمْ مِنَ العَذاب.

{كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ} (المدّثر : ٥٤)

٥٤- كلاّ لهمْ ولإعرَاضِهم، إنَّ هذا القُرآنَ مَوعِظَةٌ وتَذكير، وإنذَارٌ ووَعيد.

{فَمَن شَاء ذَكَرَهُ} (المدّثر : ٥٥)

٥٥- فمَنْ شاءَ أخذَ بهِ فاتَّعَظَ واعتبَر.

{وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ} (المدّثر : ٥٦)

٥٦- ولا يَتَّعِظونَ بمُجرَّدِ إرادَتِهِمْ ذلك، فلا يَشــــاؤونَ إلاَّ إذا أرادَ اللهُ هِدايتَهمْ ليتَّعِظوا، فهوَ تَوفيقٌ مِنَ الله، يُيَسِّــرُهُ لمنْ يَعلَمُ صِــدقَ نيَّتِهِ في طاعَةِ ربِّه، وإخلاصَــهُ له، ولا يَشــاءُ أحَدٌ بما يَتعارَضُ معَ مَشيئتِه، فهيَ فَوقَ كُلِّ شَيء، ولا يَقدِرونَ على أمرٍ إلاّ بإذنِهِ سُبحانَه. واللهُ أهلٌ لأنْ يُخشَى عِقابُه، ويُطاعَ أمرُه، وهوَ أهلٌ لأنْ يَغفِرَ ذُنوبَ عِبادِهِ المؤمِنينَ التَّائبين.

سورة القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} (القيامة : ١)

١- أُقسِمُ بيومِ القيامَة، الذي يَقومُ فيهِ النَّاسُ لربِّ العالَمين، فيهِ إحقَاقُ للحقّ، وإثابَةٌ للمُحسِن، وعُقوبَةٌ للمُجرِم، بالقَضاءِ العَدل.

{وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} (القيامة : ٢)

٢- وأقسِمُ بالنَّفسِ التي تَندَمُ لعدَمِ إكثارِها مِنَ الطَّاعَةِ وأعمَالِ البِرّ، وتندَمُ لأنَّها اقترَفَتْ شَرًّا.

{أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ} (القيامة : ٣)

٣- أيَظنُّ الإنسانُ أنَّنا غَيرُ قادِرينَ على إعادَةِ عِظامِهِ المتَناثِرَةِ إلى مَواضِعِها، وجَمعِها مِنْ أماكِنِها المتَفرّقَة؟

{بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ} (القيامة : ٤)

٤- بلَى، سنَجمَعُها أينَما كانت، قادِرينَ على تَسويَةِ أنامِلِهِ وتَركيبِها في مَواضعِها كما كانت.
أو على جَعلِ أصابعِ يَدَيهِ ورِجلَيهِ شَيئًا واحِدًا كخُفِّ البَعير، فلا يَقدِرُ على القيامِ بأعمالٍ لطيفَة، كالكتابَةِ والخياطَةِ وغَيرِها.
أو تَسويَةِ الخُطوطِ المتعَرّجَةِ الدَّقيقَةِ في أطرافِها، التي تُميِّزُ كُلَّ شَخصٍ ببَصْمَتِه.

{بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ} (القيامة : ٥)

٥- بلْ يُريدُ المكذِّبُ أنْ يَكفُرَ بيَومِ الحِسَاب. أو أنْ يُقَدِّمَ المرءُ الذَّنبَ ويُؤَخِّرَ التَّوبَةَ حتَّى يأتيَهُ الموتُ وهوَ على شرِّ أحوالِهِ وأسوَأ أعمالِه.

{يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ} (القيامة : ٦)

٦- ويَسألُ مُستَبعِدًا له: متَى وقوعُه؟

{فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ} (القيامة : ٧)

٧- فإذا تَحيَّرَ البصَرُ ودُهِشَ مِنَ الرُّعبِ والفزَعِ،

{وَخَسَفَ الْقَمَرُ} (القيامة : ٨)

٨- وذهبَ ضَوءُ القمَرِ ونورُهُ فأظلَم،

{وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ} (القيامة : ٩)

٩- وجُمِعَ بينَ الشَّمسِ والقمَر، واختلَّ نِظامُهما السَّابِق،

{يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ} (القيامة : ١٠)

١٠- يَقولُ الإنسَانُ إذا وقعَتْ هذهِ الأُمورُ المفزِعَة: كيفَ المخرَج، وهلْ مِنْ مَلجأ؟

{كَلَّا لَا وَزَرَ} (القيامة : ١١)

١١- كلاَّ، لا مَلجأَ لكمْ تَعتَصِمونَ فيه.

{إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ} (القيامة : ١٢)

١٢- إلى اللهِ وحدَهُ المرجِعُ والمصير، والحُكمُ لهُ وَحدَهُ في العِبادِ يَومَ القِيامَة.

{يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} (القيامة : ١٣)

١٣- يُخبَرُ الإنسانُ عندَ وَزنِ الأعمَالِ يَومَ الحِسابِ بجَميعِ أعمالِه، قَديمِها وحَديثِها، أوَّلِها وآخرِها.

{بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ} (القيامة : ١٤)

١٤- بلِ الإنسانُ شاهِدٌ على نفسِهِ وأعمالِه، عالِمٌ بفِعلِه،

{وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ} (القيامة : ١٥)

١٥- ولوِ اعتذَرَ وأنكر، وجادَلَ وحاجَج، فإنَّهُ لا يُقبَلُ منه.

{لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ} (القيامة : ١٦)

١٦- لا تُحرِّكْ لسـانكَ بالقُرآنِ أيُّها النبيُّ وتُسـابِقْ بِهِ جبريلَ قَبلَ أنْ يَنتَهيَ الوَحي، لتأخُذَهُ على عجَلٍ خَشيَةَ أنْ تَنسَاه.

{إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} (القيامة : ١٧)

١٧- إنَّ عَلينا جَمعَهُ وحِفظَهُ في صَـدرِكَ فلا تَنسَـى منهُ شَـيئًا، ونُيسِّـرهُ حتَّى تقرَأهُ كما أُوحيَ إليك.

{فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ} (القيامة : ١٨)

١٨- فإذا تلَوناهُ عَليكَ بواسِطَةِ جِبريل، فكُنْ مُنصِتًا لهُ ومُستَمِعًا لقراءَتِه، لا مُسابِقًا.

{ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} (القيامة : ١٩)

١٩- ثمَّ إنَّ علينا تَوضيحَ ما أشكلَ عَليكَ مِنْ مَعانيهِ وأحكامِه.

{كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ} (القيامة : ٢٠)

٢٠- كلاَّ أيُّها النَّاس، إنَّكمْ تُحِبُّونَ الحيَاةَ الدُّنيا وحُطامَها الفَاني، وزينتَها السَّريعَةَ الزَّوال.

{وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ} (القيامة : ٢١)

٢١- وتَترُكونَ الآخِرَة، وهيَ الحيَاةُ الباقيَة، والنَّعيمُ الذي لا يَزول.

{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ} (القيامة : ٢٢)

٢٢- وجوهٌ كثيرةٌ يَومَ القيامَةِ تَكونُ بَهِيَّةً مُشرِقَة، مَسرورَةً مُتَهلِّلَة، يُرَى عَليها نَضرَةُ النَّعيم، هيَ وجُوهُ المؤمِنين،

{إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} (القيامة : ٢٣)

٢٣- تَنظرُ إلى رَبِّها عِيانًا.

{وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ} (القيامة : ٢٤)

٢٤- ووجُوهٌ كثيرةٌ يَومَئذٍ عابِسَةٌ كالِحة، مُغْبَرَّةٌ مُسْوَدَّة، هيَ وجوهُ الكافِرين،

{تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ} (القيامة : ٢٥)

٢٥- تَعلَمُ أنَّهُ سيُفعَلُ بها دَاهِيةٌ عَظيمَةٌ مِنَ العَذاب، تَكسِرُ فَقارَ الظَّهر.

{كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ} (القيامة : ٢٦)

٢٦- كلاَّ لمنْ آثرَ العاجِلَةَ على الآخِرَة. فإذا بلغَتِ الرُّوحُ التَّرْقُوَة - وهيَ العَظْمَةُ القَريبَةُ مِنَ الحُلقومِ - وحَشْرَجَ بها عندَ الموت،

{وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ} (القيامة : ٢٧)

٢٧- وقالَ مَنْ حَولَه: مَنْ يَرقيهِ ويُداويه؟

{وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ} (القيامة : ٢٨)

٢٨- وأيقَنَ المحتَضَرُ أنَّهُ الفِراقُ مِنَ الدُّنيا،

{وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ} (القيامة : ٢٩)

٢٩- وتَتابعَتْ عليهِ شِدَّةُ الموتُ معَ شِدَّةِ كَرْبِ الآخِرَة. أو التفَّتْ ساقُهُ بساقِهِ مِنَ الهلَعِ فلمْ تَحمِلاه،

{إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ} (القيامة : ٣٠)

٣٠- إلى اللهِ يَومَئذٍ مَرجِعُ العِباد، يُساقُونَ إليهِ ليَفصِلَ بينَهم.

{فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى} (القيامة : ٣١)

٣١- فلا صدَّقَ بما جاءَ بهِ الرسُولُ بهِ مِنْ ربِّه، ولا أدَّى الصَّلاةَ المفروضَةَ عليه،

{وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى} (القيامة : ٣٢)

٣٢- بلْ جَحدَ وكفَر، وتَولَّى عنِ الطَّاعَةِ وخالَف،

{ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى} (القيامة : ٣٣)

٣٣- ثمَّ رجعَ إلى أهلِهِ يَختالُ ويَتبَختَرُ في مَشيه.

{أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى} (القيامة : ٣٤)

٣٤- أهلكَكَ اللهُ هَلاكًا أقربَ لكَ مِنْ كُلِّ هَلاكٍ وشَرّ.

{ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى} (القيامة : ٣٥)

٣٥- ثمَّ هَلاكًا أقربَ لكَ مِنْ كُلِّ شَرّ.

وقدْ نَزلَتْ في أبي جَهل، الذي آذَى رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وقالَ لهُ كلامًا سيِّئًا، ثمَّ قُتِلَ في بَدرٍ شَرَّ قِتْلَة.

{أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى} (القيامة : ٣٦)

٣٦- أيظنُّ الإنسَـانُ أنَّهُ يُترَكُ مُهمَلاً، فلا يُكلَّفُ بأمرٍ ولا نَهي، ولا يُبعَثُ ولا يُحاسَـبُ على عمَلِه؟!

{أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى} (القيامة : ٣٧)

٣٧- أمَا كانَ نُطفَةً مِنْ ماءٍ ضَعيف، يُراقُ مِنَ الأصَلابِ في الأرحَام؟

{ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى} (القيامة : ٣٨)

٣٨- ثمَّ كانَ علقَةً تَعْلَقُ بالرَّحِم، ثمَّ جعَلَهُ خَلقًا سَويًّا كامِلَ الأعضَاء؟

{فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى} (القيامة : ٣٩)

٣٩- ثمَّ جعلَ مِنَ الإنسَانِ الصِّنفَين: الذَّكرَ والأُنثَى؟

{أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى} (القيامة : ٤٠)

٤٠- أليسَ هذا الذي أنشَأَ الخَلقَ وسَوَّاهُ قادِرًا على أنْ يُعيدَهُ بعدَ مَوتِه؟ بلَى.

سـورة الإنسـان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً} (الإنسان : ١)

١- قدْ جاءَ على الإنسَانِ زَمانٌ لم يَكنْ فيهِ شَيئًا يُذكَر، فكانَ مَعدُومًا.

{إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً} (الإنسان : ٢)

٢- ولم يوجَدِ الإنسَـانُ بنَفسِـه، بلْ نحنُ خلَقناهُ مِنْ ماءٍ خَليط، هوَ مَجموعُ ماءِ الرَّجُلِ والمرأة، لنَختَبِرَهُ بالتَّكاليف، والأوَامرِ والنَّواهي، وجعَلنا لهُ السَّمعَ والبصَر، ليَسمَعَ ويَعرِفَ ويَتدبَّر.

{إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً} (الإنسان : ٣)

٣- إنَّا بيَّنَّا لهُ طَريقَ الحقِّ والباطِل، وعرَّفناهُ طَريقَ الخَيرِ والشـــرّ، فمنهمْ شـــاكِرٌ مُهتَدٍ للحقّ مُسلِم، ومنهمْ جاحِدٌ مُعرِضٌ عنِ الطَّاعَةِ قدْ ضلَّ عنِ الهُدَى.

{إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً} (الإنسان : ٤)

٤- إنَّا هيَّأنا للكافِرينَ المجرِمينَ سَـــلاسِـــلَ يُســـحَبونَ بها، وأطواقًا يُقادُونَ بها، ونارًا مُلتَهبَةً يُحرَقونَ فيها.

{إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً} (الإنسان : ٥)

٥- أمَّا المؤمِنونَ المطيعونَ لربِّهِمْ فهمْ مُكرَمونَ في الجنَّة، يَشـرَبونَ مِنْ كأسٍ شَـرابًا لَذيذًا مَمزوجًا بكافُور، يُبَرِّدُهُ ويُطَيِّبُ رائحتَه.

{عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً} (الإنسان : ٦)

٦- وهذا الكافورُ عَينٌ جاريَةٌ يَشـرَبُ منها صِـرْفًا دونَ مَزجٍ عِبادُ اللهِ المقرَّبون، ويُجرُونَها حيثُ شاؤوا مِنْ قُصورِهِمْ ومَجالسِهم.

{يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً} (الإنسان : ٧)

٧- إنَّهمْ مُستَجيبونَ لأمرِ ربِّهم، وإذا نذَروا طاعَةً كانوا أوفيَاء، ففَعلُوا ما أوجَبوهُ على أنفُسِهم، ويَخشَونَ عَذابَ اللهِ يومَ القِيامَة، ذلكَ اليَومُ الذي يَكونُ شَرُّهُ مُنتَشِرًا مُمتَدًّا، وأهوالُهُ بالغَةَ الشِّدَّةِ والخُطورَة.

{وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً} (الإنسان : ٨)

٨- ويُطعِمونَ الطَّعامَ معَ اشتِهائهِمْ لهُ وحاجَتِهِمْ إليه، للمِسكينِ الذي لا يَجِدُ شَيئًا، وللصَّغيرِ الذي فقدَ والِدَه، وللأسيرِ، أيًّا كان.

{إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً} (الإنسان : ٩)

٩- يُطعِمونَهُمْ وهمْ يَقولونَ بلســانِ الحَال: إنَّما نُطعِمُكمْ طَلَبًا لِرِضـا اللهِ ورَجاءَ ثَوابِه، لا نُريدُ منكمْ أنْ تُكافِؤونا به، ولا أنْ تُثنُوا عَلينا جَزاءً عليه.

{إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً} (الإنسان : ١٠)

١٠- إنَّما نَفعَلُ ذلكَ خَوفًا مِنَ الله؛ رَجاءَ أنْ يَرحَمَنا بذلكَ مِنْ عَذابِ يَومٍ ضـيِّق، شَـديدٍ طَويل.

{فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً} (الإنسان : ١١)

١١- فآمنَهمُ اللهُ ممَّا خافُوا منه، وأبعدَ عنهمْ شَـرَّ ذلكَ اليَومِ العَصـيب، وأعطاهمْ بدلَ ذلكَ الضِّيقِ والشدَّةِ نَضْرَةً في الوجُوه، وسُرورًا وبَهجةً في القُلوب.

{وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً} (الإنسان : ١٢)

١٢- وأثابَهُمْ على صَبرِهِمْ وطاعَتِهِمْ جنَّةً واسِعَة، ولِباسًا حَسنًا مِنْ حَريرٍ جَميل.

{مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً} (الإنسان : ١٣)

١٣- مُتَّكئينَ فيها على الأسِـرَّة، لا يَجِدونَ فيها حَرًّا مُزعِجًا، ولا بَردًا مُؤذيًا، بلْ هيَ مُعتَدِلَة، تَبعَثُ على الرَّاحَةِ والهَناء.

{وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً} (الإنسان : ١٤)

١٤- وظِلالُ أشجَارِها قَريبَةٌ مِنَ الأبرَار، زيادَةً في نَعيمِهم، وسَهُلَ قَطفُ ثِمارِها وقَرُبَ أخذُها لِمَنْ يُريدُها.

{وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا} (الإنسان : ١٥)

١٥- ويَطوفُ عليهمُ الخدَمُ بأوانيَ مِنْ فِضَّةٍ للطَّعام، وأكوَابٍ مِنْ زُجاجٍ رَقيقٍ للشَّراب.

{قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً} (الإنسان : ١٦)

١٦- أكوابٍ جامِعَةٍ بينَ صَفاءِ الزُّجاجِ وبَياضِ الفِضَّة، أعَدُّوها على قَدْرِ ما يَشرَبون، لا تَزيدُ ولا تَنقُص.

{وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً} (الإنسان : ١٧)

١٧- ويُسقَى المقرَّبونَ مِنْ هذهِ الأكوَابِ خَمرًا لذيذَةً لا تُسكِر، مَمزوجَةً بزَنجَبيلِ الجنَّة.

{عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً} (الإنسان : ١٨)

١٨- وهذا الزَّنجَبيلُ عَينٌ جاريَةٌ في الجنَّةِ تُسمَّى السَّلسَبيل، لسلاسَتِها وعُذوبَتِها وسُهولَةِ مَساغِها في الحَلق.

{وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً} (الإنسان : ١٩)

١٩- ويَطوفُ على أهلِ الجنَّةِ لخِدمَتِهِمْ غِلمان، دائمونَ فيها معَ أهلِها، إذا رَأيتَهمْ في انتِشارِهِمْ وكَثرَتِهِم، حَسِبتَ أنَّهُمْ كحبَّاتِ لؤلؤٍ قدْ نُثِرَتْ مِنَ الخَيطِ على البِساط، لحُسنِهِم، وإشراقِ وجوهِهِم، وجَمالِ ثيابِهِمْ وحُليِّهِم.

{وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً} (الإنسان : ٢٠)

٢٠-وإذا نظَرتَ ببَصرِكَ إلى الجنَّةِ أينَما شِئت، رأيتَ نَعيمًا لا يوصَف، ومُلكًا عَظيمًا واسِعًا.

{عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً} (الإنسان : ٢١)

٢١- قدْ جلَّلَ أهلَها ثيابُ الحريرِ الأخضَرِ الرَّقيق، وآخَرُ مِنَ السَّميكِ المبَطَّنِ اللاَّمِع، وزُيِّنوا في أيدِيهِمْ بأساوِرَ مِنْ فِضَّة، وسَقاهمُ اللهُ شَرابًا مُطهَّرًا لا كدَرَ فيه.

{إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً} (الإنسان : ٢٢)

٢٢–ثمَّ يُقالُ لهم: إنَّ كُلَّ هذا التَّكريمَ والإحسَـــانَ، هوَ في مُقابَلةِ أعمالِكمُ الصَّـــالحة، التي قدَّمتُموها في الدُّنيا، وكانَ عمَلُكمْ بطاعةِ اللهِ مَقبُولاً مَرضيًّا.

{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً} (الإنسان : ٢٣)

٢٣– نحنُ نزَّلْنا عليكَ القُرآنَ العَظيمَ أيُّها النبيُّ مُتفَرِّقًا، ليَكونَ أكثرَ عَونًا على الفَهمِ والتدَبُّر، وأيسرَ للحِفظ، وأوقعَ في النَّفسِ بعدَ الوقَائع.

{فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً} (الإنسان : ٢٤)

٢٤– وكما أكرمَكَ اللهُ بهذا التَّنزيل، فاصـبِرْ على قَضــاءِ اللهِ وقدَرِه، وتحمَّلْ أذَى قومِك، ولا تَضجَرْ مِنْ تأخُّرِ النَّصر، ولا تُطِعِ المنافِقينَ والكافِرينَ إذا أرادُوا صدَّكَ عنْ سَبيلِ الله.

{وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً} (الإنسان : ٢٥)

٢٥– وداوِمْ على ذِكرِ اللهِ أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه.

{وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً} (الإنسان : ٢٦)

٢٦– وصَــلِّ لهُ بَعضَ اللَّيلِ واخضَــعْ له، واذكُرْهُ، وتَهجَّدْ لهُ قِطَعًا مِنَ اللَّيلِ طَويلاً. (ويُراجَعُ تَفسيرُ الآيةِ الأخيرَةِ مِنْ سُورَةِ المزَّمّل).

{إِنَّ هَؤُلَاء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً} (الإنسان : ٢٧)

٢٧– إنَّ هؤلاءِ الكافِرينَ مُنهَمِكونَ في حُبِّ الدُّنيا، ومُقبِلونَ على لذَّاتِها الفانيَة، ويَدَعونَ يَومَ الحِسابِ والجزَاء، المحفوفَ بالصُّعوباتِ والشَّدائدِ والمكارِه.

{نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً} (الإنسان : ٢٨)

٢٨-نحنُ خلَقناهُم، وأحكَمْنا خَلقَهمْ وأتقَنّاه، وإذا أرَدنا بَعثَهمْ بدَّلناهمْ فأعَدناهمْ خَلقًا جَديدًا.

{إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً} (الإنسان : ٢٩)

٢٩- إنَّ هذهِ الآياتِ فيها مَوعِظَةٌ وعِبرَة، فمَنْ شاءَ أنْ يَنتفِعَ بها ويَسلُكَ طَريقًا يَهتَدي بها إلى طاعَةِ ربِّهِ فليَسلُكْها، فإنَّ سبُلَ الهدايَةِ مَفتوحَةٌ ومُمَهَّدَة.

{وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً} (الإنسان : ٣٠)

٣٠- وأنتُمْ لا تَشاؤونَ شَيئًا، ولا تَختارونَ طَريقًا، إلاّ بمَشيئةِ اللهِ تَعالَى، وهوَ عَليمٌ بما تُكنُّهُ قُلوبُ العِباد، مِنَ الاستِعدادِ للإيمَانِ والتَّوَجُّهِ إلى الخَير، أو ضدِّه، فإذا عَلِمَ استِحقاقَهمْ للهِدايَةِ يَسَّرَها لهم، وسهَّلَ أسبابَها عَليهم، وهوَ الحَكيمُ في فِعلِه، لا يَشاءُ إلاَ ما تَقتَضيهِ حِكمَتُه.

{يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً} (الإنسان : ٣١)٣

١- واللهُ يَرحَمُ مَنْ عَلِمَ فيهِ الخَيرَ والصَّلاحَ فيُدخِلُهُ الجنَّة، وأعدَّ للمشرِكينَ الظَّالِمينَ عَذابًا شَديدًا في جهنَّم.

سورة المرسلات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً} (المرسلات : ١)

١- أقسِمُ بالرِّياحِ المتَتابِعَةِ التي تَهُبُّ شَيئًا فشَيئًا.

{فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً} (المرسلات : ٢)

٢- والرِّياحِ التي تَعصِفُ وتُصَوِّتُ إذا هَبَّتْ بشِدَّة.

{وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً} (المرسلات : ٣)

٣- والرِّياحِ التي تَنشُرُ السَّحابَ وتُفَرِّقُهُ في السَّماءِ بأمرِ رَبِّها.

{فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً} (المرسلات : ٤)

٤- فالملائكةِ التي تَنزِلُ بأمرِ الله، وتُفَرِّقُ بهِ بينَ الحقِّ والباطِل، والحلالِ والحَرام.

{فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً} (المرسلات : ٥)

٥- فالملائكةِ التي تُلقي الوَحيَ إلى الرسُلِ بأمرِ الله، فيهِ التَّذكيرُ والموعِظَة.

{عُذْراً أَوْ نُذْراً} (المرسلات : ٦)

٦- حتَّى لا يَبقَى للنَّاسِ عُذرٌ في ذلك، وحُجَّةٌ يَحتجُّونَ بها عندَ الله، وإنذارًا لهمْ مِنْ عِقابِ الآخِرَة.

{إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ} (المرسلات : ٧)

٧- إنَّ الذي تُوعَدونَ بهِ مِنَ البَعثِ والجَزاء، والثَّوابِ والعِقاب، لهوَ كائنٌ لا مَحالَة.

{فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ} (المرسلات : ٨)

٨- فإذا النُّجومُ مُحِيَت، أو ذُهِبَ بنورِها،

{وَإِذَا السَّمَاء فُرِجَتْ} (المرسلات : ٩)

٩- وإذا انشَقَّتِ السَّماءُ ووَهَت،

{وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ} (المرسلات : ١٠)

١٠- وإذا أُزيلَتِ الجِبالُ مِنْ أماكنِها، وفُتِّتَتْ حتَّى صارَتْ كالرَّمل،

{وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ} (المرسلات : ١١)

١١- وإذا الرسُلُ جُمِعُوا يومَ القيامَةِ لِيَشهَدوا على الأُمَم،

{لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ} (المرسلات : ١٢)

١٢- لأيِّ يومٍ عَظيمٍ أُخِّرَ الرسُلُ حتَّى يُجمَعوا فيه؟

{لِيَوْمِ الْفَصْلِ} (المرسلات : ١٣)

١٣- لِيَومِ القِيامَة، يَومَ يَفصِلُ الخالقُ بينَ الخَلائق.

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ} (المرسلات : ١٤)

١٤- وأيَّ شَيءٍ تَدري عنْ يَومِ الفَصلِ العَظيمِ وشِدَّتِهِ وأهوالِه؟

{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} (المرسلات : ١٥)

١٥- الوَيلُ والهَلاكُ للمُكَذِّبينَ يَومَ المعادِ والحِساب.

{أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ} (المرسلات : ١٦)

١٦- ألمْ نُهلِكِ المكذِّبينَ بالرسُلِ مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ بالعَذابِ في الحيَاةِ الدُّنيا؟

{ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ} (المرسلات : ١٧)

١٧- ونَفعَلُ بأمثالِهِمْ كما فعَلنا بهم، ممَّنْ يأتي بَعدَهمْ ويَسلُكونَ سَبيلَهمْ في الكُفرِ والتَّكذيب. وكانَ هذا إنذارًا لأهلِ مكَّة.

{كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ} (المرسلات : ١٨)

١٨- ومثلَ ذلكَ نَفعَلُ بالكافِرينَ المجرمين، أعداءِ الحقِّ والدِّين.

{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} (المرسلات : ١٩)

١٩- الوَيلُ والهَلاكُ للمُكذِّبينَ بآياتِ اللهِ وأنبيائه، مِنْ عُقوبَةِ اللهِ وانتِقامِه.

{أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ} (المرسلات : ٢٠)

٢٠- ألمْ نَخلُقْكمْ مِنْ نُطفَةٍ ضَعيفَةٍ مَهينَة؟

{فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ} (المرسلات : ٢١)

٢١- فجعَلناها معَ ماءِ المرأةِ في رحِمِها؟

{إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ} (المرسلات : ٢٢)

٢٢- إلى مُدَّةٍ مُعيَّنَة، تِسعَةِ أشهُرٍ أو أقَلّ؟

{فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ} (المرسلات : ٢٣)

٢٣- فقَدَرْنا على خَلقِكمْ مِنَ النُّطفَة، فنِعمَ القادِرونَ عليهِ نَحن.

{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} (المرسلات : ٢٤)

٢٤- الوَيلُ والعَذابُ يَومَ القيامَةِ لمنْ كذَّبَ بقُدرَتِنا على ذلك.

{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً} (المرسلات : ٢٥)

٢٥- ألمْ نَجعَلِ الأرضَ وِعاء، تَضُمُّ وتَجمَع؟

{أَحْيَاء وَأَمْوَاتاً} (المرسلات : ٢٦)

٢٦- تَجمَعُ الأحياءَ على ظَهرِها، والأمواتَ في بَطنِها، مِنْ غَيرِ حَصر؟

{وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاء فُرَاتاً} (المرسلات : ٢٧)

٢٧- وجعَلنا في الأرْضِ جِبالاً ثَوابِتَ شاهِقات، لنُثبِتَها بها، وأسقَيناكمْ ماءً عَذبًا صَافيًا، مِنَ السَّحاب، ومِنْ يَنابيعِ الأرْضِ وأنهارِها؟

{وَيْلٌ يوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} (المرسلات : ٢٨)

٢٨- وَيلٌ يَومَ الحِسابِ لمنْ جحَدَ بهذهِ النِّعمِ العَظيمَة، الدالَّةِ على عَظمَةِ اللهِ وقُدرَتِه.

{انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ} (المرسلات : ٢٩)

٢٩- ويُقالُ لهمْ يَومَئذ: امضُوا إلى ما كنتُمْ تُكذِّبونَ بهِ مِنَ العَذابِ في الدُّنيا.

{انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ} (المرسلات : ٣٠)

٣٠- امضُوا إلى ظِلِّ دُخانِ جهنَّم، الذي ارتفَعَ واشتَدَّ حتَّى صارَ ثلاثَ فِرَق، كما يُرَى في الدُّخانِ العَظيم.

{لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ} (المرسلات : ٣١)

٣١- ليسَ مُظَلِّلاً في نَفسِه، فليسَ فيهِ راحَةٌ لهم، ولا هوَ يَقيهمْ مِنْ حَرِّ لهَبِ النَّار.

{إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ} (المرسلات : ٣٢)

٣٢- يَتطايَرُ الشَّرَرُ مِنْ لهَبِها، كُلُّ شَرارَةٍ منها كالقَصرِ في عِظَمِه!

{كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ} (المرسلات : ٣٣)

٣٣- وكأنَّ الشَّرَرَ جِمالٌ صَفراء، أو سَوداء - فإنَّ سَوادَ الإبلِ يَشُوبُها شَيءٌ مِنَ الصُّفرَة - في اللَّونِ والكَثرَةِ والتَّتابُعِ وسُرعَةِ الحرَكة.

{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} (المرسلات : ٣٤)

٣٤- الوَيلُ والهَلاكُ في ذلكَ اليَومِ للمُكَذِّبينَ بالبَعثِ والجَزاء، والثَّوابِ والعِقاب.

{هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ} (المرسلات : ٣٥)

٣٥- في هذا اليَومِ المهولِ الذي يَدخلُ فيهِ الكافِرونَ النّار، لا يَقدِرونَ على الكَلام، للرُّعبِ الذي دَخلَ قُلوبَهمْ مِنْ عِظَمِ العَذابِ الذي يرَونَه!

{وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ} (المرسلات : ٣٦)

٣٦- ولا يُسمَحُ لهمْ بالكَلامِ ليَعتَذِروا، ولا عُذرَ لهمْ أصلاً.

{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} (المرسلات : ٣٧)

٣٧- الوَيلُ والعَذابُ للكافِرينَ المجرِمين، الذينَ كانوا يُكذِّبونَ في الحيَاةِ الدُّنيا بهذا العَذاب.

{هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ} (المرسلات : ٣٨)

٣٨- هذا هوَ يَومُ الفَصلِ بينَ المهتَدينَ والضَّالّين، وأهلِ الجنَّةِ والنَّار، وقدْ جمَعناكمْ أنتُمْ والأُمَمَ السَّابقينَ في صَعيدٍ واحِد.

{فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ} (المرسلات : ٣٩)

٣٩- وها أنتُمْ جَميعًا حاضِرونَ أيُّها الكافِرون، فإذا كانتْ لكمْ حِيلَةٌ أو قُدرَةٌ على أنْ تُنقِذوا أنفُسَكمْ مِنْ عَذابِ اللهِ فافعَلوا.

{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} (المرسلات : ٤٠)

٤٠- الوَيلُ والهَلاكُ لكمْ أيُّها المكذِّبونَ بآياتِ اللهِ ورِسالاتِه، وقدْ تبيَّنَ لكمْ أنْ لا حيلةَ لكمْ في التخَلُّصِ مِنْ عَذابِه.

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ} (المرسلات : ٤١)

٤١- إنَّ عِبادَ اللهِ المؤمنينَ الصَّادقين، في ظِلالِ شجَرِ الجنَّةِ الوارِفَة، وعُيونِها الجاريَةِ الجَميلَة.

{وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ} (المرسلات : ٤٢)

٤٢- يَجنونَ ما يَشتَهونَ مِنْ ثِمارِها الطيِّبَةِ اللَّذيذَة.

{كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (المرسلات : ٤٣)

٤٣- كُلوا واشـرَبوا هَنيئًا مَريئًا يا أهلَ الجنَّة، وتَمتَّعوا بالرَّاحَةِ والرَّفاهيةِ والسَّـعادَةِ الدَّائمة، جَزاءَ ما كنتُمْ تَعمَلونَ مِنَ الطَّاعاتِ والأعمَالِ الصَّـــالحاتِ في الدُّنيا، فهوَ مِنْ فَضـــلِ اللهِ العَميمِ عَليكم.

{إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} (المرسلات : ٤٤)

٤٤- وبمِثلِ هذا الثَّوابِ الجَزيلِ يَكونُ جَزاؤنا لمِنْ آمنَ وأحسنَ العمَل.

{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} (المرسلات : ٤٥)

٤٥- الهَلاكُ والعُقوبَةُ الشَّديدَةُ للمُكذِّبينَ باللهِ ورسُلِه، منَ الذينَ كفَروا وعصَوا وعَمِلوا سيِّئًا.

{كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ} (المرسلات : ٤٦)

٤٦- كُلُوا ما تَشـاؤون، وتَمتَّعوا بلذَائذِ الدُّنيا لمِدَّةٍ قَصـيرَة، فإنَّكمْ كافِرونَ مُسـتَحِقُّونَ للعَذاب، ستُقذَفونَ في جهنَّمَ وتُخلَّدونَ فيها.

{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} (المرسلات : ٤٧)

٤٧- العَذابُ والنَّكالُ لكمْ في ذلكَ اليَومِ الرَّهيب، أيُّها المكذِّبونَ بيَومِ الجزَاءِ والحِساب.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ} (المرسلات : ٤٨)

٤٨- وإذا قيلَ لهؤلاءِ الكافِرينَ في الدُّنيا أطيعُوا اللهَ واعبُدوه، وصَلُّوا لهُ كما يُصَلِّي المسلِمون، لا يَقبَلونَ ذلك، ويُصِرُّونَ عل الكُفر.

{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} (المرسلات : ٤٩)

٤٩- فالوَيلُ والعَذابُ يَومَ القيامَةِ لهؤلاءِ الكافِرينَ المجرِمين، لإصرارِهِمْ على الكُفرِ والعِصيان، وتَكذيبِهِمْ بيَومِ الدِّين.

{فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} (المرسلات : ٥٠)

٥٠- وإذا لم يُؤمِنوا بالقُرآنِ العَظيمِ وما فيهِ مِنَ العِبَرِ والعِظات، والوَعدِ والوَعيد، والحُجَجِ القاطِعَة، والأدلَّةِ الواضِحة، فبأيِّ حَديثٍ بعدَهُ يؤمِنونَ وليسَ هُناكَ أعلى وأجَلُّ منه؟!

* * *

وقدْ صحَّ في الحديثِ قولهُ صلى اللهُ عليهِ وسلم: "شَيَّبَتْني هُود، والواقِعة، والمرسَلات، وعَمَّ يَتساءَلون، وإذا الشَّمسُ كُوِّرَت". رواه الترمذيُّ والحاكمُ وصحَّحه.

الجزء الثلاثون

من سورة النبأ حتى سورة الناس

سورة النبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{عَمَّ يَتَسَاءلُونَ} (النبأ : ١)

١- عنْ أيِّ شَيءٍ يَتساءَلُ الكافِرون؟

{عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ} (النبأ : ٢)

٢- إنَّ تَساؤلَهُمْ عنِ البَعثِ بعدَ الموت، الخبَرِ ذي الشَّأنِ العَظيم.

{الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ} (النبأ : ٣)

٣- الذي طالَ فيهِ خِلافُهم، وازدادَ فيهِ جِدالُهُمْ وخِصامُهم، على وَجهِ الشَّكِّ والاستِهزاءِ والتَّكذِيب.

{كَلَّا سَيَعْلَمُونَ} (النبأ : ٤)

٤- كلَّا لتَساؤلِهِمُ المنْبِيءِ عنْ كُفرِهِمْ بيَومِ القِيامَة، سيَعلَمونَ ما كانوا يُكذِّبونَ بهِ إذا نَزَلَ بهمُ العَذابُ في ذلكَ اليَوم.

{ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ} (النبأ : ٥)

٥- ثمَّ كلاّ لهمْ ولمخالفَتِهِمُ الرسُولَ في أمرِ البَعثِ بعدَ الموت، فسيَعلَمونَ أنَّهُ الحقُّ عندَما يَقومُونَ مِنْ قُبورِهِمْ ويُقَدَّمونَ للحِساب.

{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً} (النبأ : ٦)

٦- وكيفَ تَشُـــكُّونَ فِي البَعثِ وأنتُمْ تَعلَمونَ قُدرَةَ اللهِ العَظيمة؟ ألَمْ نَجعَلِ الأرْضَ مُمَهَّدَةً مُذلَّلةً لكمْ لتَتمكَّنوا مِنَ العَيشِ فيها؟

{وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً} (النبأ : ٧)

٧- وجعَلنا الجِبالَ كالأوتادِ للأرْض، حتَّى لا تَضطرِبَ بسُكَّانِها؟

{وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً} (النبأ : ٨)

٨- وخَلقناكمْ ذُكورًا وإناثًا، مِنْ جِنسٍ واحِد، ليَحصُلَ بينَكمُ التَّناسُل، ويَسكُنَ بَعضُكمْ إلى بَعض؟

{وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً} (النبأ : ٩)

٩- وجعَلنا النَّومَ سُكونًا وراحَةً لأبدانِكم؟

{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً} (النبأ : ١٠)

١٠- وجعَلنا اللَّيلَ كاللِّباس، يُغَطِّي النَّاسَ ويَسترُ كُلَّ شَيءٍ بظَلامِهِ وسَوادِه؟

{وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً} (النبأ : ١١)

١١- وجعَلنا النَّهارَ مُضيئًا ليَتَكسَّبَ فيهِ النَّاسُ ويَقضُوا حَوائجَهم؟

{وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً} (النبأ : ١٢)

١٢- وبَنينا فَوقَكمْ سَبعَ سَماوَات، قويَّةً، مُحكَمَةَ البُنيان، لا تَجِدُونَ فيها تَفاوتًا ولا صَدْعًا.

{وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً} (النبأ : ١٣)

١٣- وجعَلنا الشَّمسَ مُشرِقَةً مُتوَقِّدَة، مِنَ الحرارَةِ العاليَةِ التي فيها، لتَبعثَ الضَّوءَ والدِّفء، وتُفيدَ الإنسانَ والحيَوانَ والنَّبات؟

{وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجاً} (النبأ : ١٤)

١٤- وأنزَلنا مِنَ السُّحُبِ مطَرًا مُنصَبًّا، مُتَتابِعًا.

{لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً} (النبأ : ١٥)

١٥- لنُخرِجَ بالماءِ قُوتَ الإنسَانِ والحيَوان، مِنَ الحبوبِ والنَّباتات، كالحِنطَة، والشَّعير، والحَشِيش...

{وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً} (النبأ : ١٦)

١٦- وبَساتينَ مُلتفَّة، لكثرَةِ أشجارِها المجتَمِعَةِ المتقارِبَة، بثَمراتِها وطُعومِها المختَلِفة.

{إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً} (النبأ : ١٧)

١٧- إنَّ يومَ القضَاءِ بينَ الخَلائق، الذي يَتساءَلونَ عنه، وهو يومُ القيَامة، كانَ مَوعِدًا وأجَلاً مَعلومًا عندَ الله.

{يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً} (النبأ : ١٨)

١٨- يومَ يَنفُخُ إسرَافيلُ في الصُّور[١٥٥]، فتَقومونَ مِنْ قُبورِكمْ وتأتونَ إلى أرْضِ المحشَرِ زُمَرًا، كُلُّ أمَّةٍ بإمامِها.

{وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَاباً} (النبأ : ١٩)

(١٥٥) الصُّور: قَرنٌ يُنفَخُ فيه.

١٩- وانشقَّتِ السَّماءُ فكانتْ ذاتَ أبوَاب، لنُزولِ الملائكةِ منها.

{وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً} (النبأ : ٢٠)

٢٠- وسُيِّرَتِ الجِبالُ في الجوّ، بعدَ تَفتيتِها، فكانتْ مِثلَ السَّراب، يَتخيَّلُ للنَّاظِرِ أنَّهُ شَيء.

{إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً} (النبأ : ٢١)

٢١- إنَّ جهنَّمَ كانتْ مَوضِعَ رَصْدٍ وترَقُّب، يَرصُدُ فيهِ خزَنَةُ النَّارِ الكفَّارَ ويَترَقَّبونَهُمْ ليأخُذوهمْ إلى جهنَّمَ ويُعَذِّبوهم.

{لِلْطَّاغِينَ مَآباً} (النبأ : ٢٢)

٢٢- وهيَ نُزُلٌ ومَرجِعٌ للكافِرين، العُصاةِ المخالِفينَ للرسُل.

{لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً} (النبأ : ٢٣)

٢٣- مُقيمِينَ فيها مُدَدًا طِوالاً، كُلَّما مضَى حِقْبٌ دخلَ آخَر، ثمَّ آخَر، إلى الأبَد.

{لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً} (النبأ : ٢٤)

٢٤- لا يَذوقونَ فيها ما يُرَوِّحُهمْ ويُنَفِّسُ عنهمْ حرَّ النَّار، ولا شَرابًا يُسَكِّنُ عطَشَهم.

{إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً} (النبأ : ٢٥)

٢٥- إلاّ ماءً شَديدَ الحرارَة، وصَديدَ أهلِ النَّار، ممَّا تُفرِزُهُ جُروحُهمْ وقُروحُهم.

{جَزَاء وِفَاقاً} (النبأ : ٢٦)

٢٦- وهذا الذي عُوقِبوا بهِ جَزاءٌ وافَقَ أعمالَهُمُ الفاسِدَةَ التي قامُوا بها في الدُّنيا.

{إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً} (النبأ : ٢٧)

٢٧- إنَّهُمْ ما كانوا يؤمِنونَ بالبَعثِ والجَزاء، وما كانوا يَخافونَ ذلكَ اليَومَ الذي يُحاسَبونَ فيه.

{وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً} (النبأ : ٢٨)

٢٨- وكذَّبوا بالآياتِ والمعجِزاتِ التي أيَّدنا بها رسُلَنا، الدالَّةِ على صِدقِ نُبوَّتِهم، وعانَدوهمْ وأصَرُّوا على تَكذيبِهم.

{وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً} (النبأ : ٢٩)

٢٩- وقدْ حَفِظنا وضَبَطنا كُلَّ ما قامُوا بهِ مِنْ أعمَال، وكتَبناهُ في صَحيفَةِ أعمالِهم، أو في اللَّوحِ المحفُوظ.

{فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً} (النبأ : ٣٠)

٣٠- فَذوقُوا العَذابَ الشَّديدَ يا أهلَ النَّار، بسبَبِ كُفرِكمْ وأعمالِكمُ السيِّئة، فلنْ نَزيدَكمْ إلاّ عَذابًا مِثلَه، أو أشدَّ منه.

{إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً} (النبأ : ٣١)

٣١- إنَّ للمؤمِنينَ المخلِصينَ فَوزًا ونَجاة.

{حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً} (النبأ : ٣٢)

٣٢- بساتينَ فيها أنواعُ الشجَرِ المثمِر، والرَّياحينِ والأزْهار، وأعنابًا.

{وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً} (النبأ : ٣٣)

٣٣- وحُورًا نَواهِد، في سِنٍّ واحِدَة.

{وَكَأْساً دِهَاقاً} (النبأ : ٣٤)

٣٤- وكأسًا مُمتَلئةً منَ الخَمرِ اللَّذيذةِ التي لا تُسكِر.

{لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً} (النبأ : ٣٥)

٣٥- لا يَسمَعونَ في الجنَّةِ كلامًا لا فائدَةَ منه، ولا كلامًا كذِبًا فيهِ إثْم.

{جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَاباً} (النبأ : ٣٦)

٣٦- وهذا الذي أُثيبوا عليهِ تَفضُّـلٌ منَ اللهِ وإحسَـانٌ منهُ لهم، وهوَ جَزاءٌ لِما وُعِدوا به، كافيًا وافيًا.

{رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً} (النبأ : ٣٧)

٣٧- رَبِّ السَّـماواتِ والأرْضِ وما بينَهما، وخالقِهما والمتصـرِّفِ فيهما وَحدَه، الذي وَسِعَتْ رَحمَتُهُ كُلَّ شَيء، لا يَقدِرُ أحَدٌ على مُخاطبَتِهِ إلاّ بإذنِه، في زيادَةِ ثَوابٍ أو نَقصِ عَذاب.

{يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً} (النبأ : ٣٨)

٣٨- يومَ يَقومُ الرُّوحُ - جِبريلُ أو غَيرُهُ - والملائكةُ مُصـطَفّين، لا يتَكلَّمُ أحَدٌ إلاّ إذا أَذِنَ اللهُ لهُ وقالَ كلامًا حقًّا.

{ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً} (النبأ : ٣٩)

٣٩- ذلكَ هوَ اليَومُ الثَّابتُ المحقَّق، الكائنُ لا مَحالَة، فمَنْ أرادَ الثَّوابَ مِنْ عندِ اللهِ ذلكَ اليَوم، سَلكَ طَريقًا مُستَقيمًا، ومَرجِعًا طيِّبًا كريمًا إلى الله، بطاعتِهِ وتَقواه.

{إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً} (النبأ : ٤٠)

٤٠- لقدْ أنذَرناكُمْ عَذابًا قَريبًا، هوَ عَذابُ الآخِرَة، يَومَ يُعرَضُ على كُلِّ امرئٍ جَميعُ ما عَمِلَ مِنَ خَيرٍ وشَرٍّ في صَحيفَتِه، ويَقولُ الكافِرُ يومَئذٍ وهوَ في غايَةِ الخَيبَةِ ونِهايَةِ التَّحسُّرِ والألَم، وقدْ

نظرَ إلى أعمالِهِ الفاسِـــدَة: يا ليتَني كنتُ تُرابًا في الحيَاةِ الدُّنيا، فلمْ أُخلَقْ ولمْ أُكلَّف. أو أنَّهُ يَقول: ليتَني كنتُ تُرابًا في هذا اليَومِ ولم أُبعَث.

سورة النازعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً} (النازعات : ١)

١- أُقسِـــمُ بالملائكةِ التي تَنزعُ أرواحَ بَني آدم، وتأخذُ بَعضَـــها بقوَّةٍ وعُســـر، فتُغرِقُ في نَزعِها[١٥٦].

{وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً} (النازعات : ٢)

٢- والملائكةِ التي تَنشُـطُ الأروَاحَ مِنَ الأجسَـاد، أي تَجذِبُها، وتأخذُ بَعضَـها بسُـهولَةٍ وكأنَّما نشَطَتْ عُقدَةً، أي فكَّتْها.

{وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً} (النازعات : ٣)

٣- والملائكةِ التي تَهبِطُ مِنَ السَّماءِ وتَصعَدُ فيها سابِحَة، بأمرِ الله.

{فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً} (النازعات : ٤)

٤- فالملائكةِ التي تُسرِعُ بأروَاحِ الكُفَّارِ إلى النَّار، وبأرَواحِ المؤمِنينَ إلى الجنَّة.

---

(١٥٦) الغَرْق: اسمٌ أُقيمَ مقامَ الإغراق، أي: والنازعاتِ إغراقًا، والمرادُ بالإغراق: المبالغةُ في المدّ. (البغوي).

الإغراقُ في النزع: التوغلُ فيه، والبلوغُ إلى أقصى درجاته، يقال: أغرقَ النازعُ في القوس: إذا بلغَ غايةَ المدِّ حتى انتهى إلى النصل. (روح البيان).

{فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً} (النازعات : ٥)

٥- فالمِلائكةِ التي تُدَبِّرُ الأمُورَ مِنَ السَّـــماءِ إلى الأرْضِ بأمرِ رَبِّها، وتُهَيِّئُ الأرواحَ للعُقوبَةِ أو الثَّواب.

{يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ} (النازعات : ٦)

٦- يَومَ يُنفَخُ في الصُّورِ النَّفخَةُ الأُولَى، فترَجُفُ كُلُّ الأجرَامِ السَّاكنَة، وتتَزلزَلُ الأرْضُ والجبال، ويَموتُ فيها جَميعُ الخَلق.

{تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ} (النازعات : ٧)

٧- تَتبَعُها النَّفخَةُ الثَّانية، فتَنشَقُّ السَّماء، وتُحمَلُ الأرْضُ والجِبالُ وتُدَكّ.

{قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ} (النازعات : ٨)

٨- قُلوبٌ يَومَئذٍ خائفَةٌ مُضطَرِبَةٌ مِنْ شِدَّةِ الفزَع.

{أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ} (النازعات : ٩)

٩- عُيونُ أصحابِها ذَليلة، لِما تَراهُ مِنَ الشَّدائدِ والأهوَال.

{يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ} (النازعات : ١٠)

١٠- يَقولُ مُنكِرو المعاد: هلْ نحنُ عَائدونَ إلَى الحياةِ بعدَ أنْ صِرنا أمواتًا في القُبور؟

{أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً} (النازعات : ١١)

١١- قالوا مُستَبعِدينَ ذلك: أإذا كنَّا عِظامًا باليَة، نُرَدُّ ونُبعَثُ مِنْ جَديد؟

{قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ} (النازعات : ١٢)

١٢- قالوا: إنَّها رَجعَةٌ خائبَةٌ إذا رُدِدْنا بعدَ الموت.

{فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ} (النازعات : ١٣)

١٣- قالَ اللهُ تَعالَى ما مَعناه: إنَّما هيَ صَيحَةٌ قَويَّةٌ واحِدَةٌ يَسمَعُونَها، وهي النَّفخَةُ الأخيرَة.

{فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ} (النازعات : ١٤)

١٤- فإذا همْ جَميعًا أحياءٌ على وَجهِ الأرْضِ يَنظُرون.

{هَلْ أتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى} (النازعات : ١٥)

١٥- هلْ جاءَكَ خبَرُ نَبِيّ اللهِ موسَى أيُّها الرسُول؟

{إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى} (النازعات : ١٦)

١٦- إذْ ناداهُ رَبُّهُ بوَادي طُوَى المطهَّر، في طُورِ سَيناء:

{اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} (النازعات : ١٧)

١٧- اذهَبْ إلى فِرعَونَ مَلِكِ مِصــرَ بالمعجِزاتِ التي أيَّدتُكَ بها، فإنَّهُ قدْ ظلمَ وبغَى، وتكبَّرَ وعَلا، حتَّى ادَّعَى الربوبيَّة،

{فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى} (النازعات : ١٨)

١٨- فقُلْ له: هلْ لكَ إلى أنْ تُجيبَ نِداءَ الله، فتَســلَمَ وتُطيع، وتَتطَهَّرَ مِنَ الكُفرِ والشِّــركِ الذي أنتَ عليه؟

{وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى} (النازعات : ١٩)

١٩- وأدُلَّكَ إلى مَعرِفَةِ اللهِ وتَوحيدِه، فتَخضعَ لهُ وتَخشَى عِقابَه؟

{فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى} (النازعات : ٢٠)

٢٠- فأَرَاهُ المعجِزَةَ الكبرى. وهيَ قَلبُ العَصا حيَّة.

{فَكَذَّبَ وَعَصَى} (النازعات : ٢١)

٢١- فكذَّبَ بالمعجِزَةِ وسمَّاها سِحرًا، وعصَى اللهَ بتَجبُّرِهِ وتَمرُّدِه.

{ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى} (النازعات : ٢٢)

٢٢- ثمَّ تَولَّى عنِ الإيمَانِ والطَّاعَة، وعَمِلَ لإبطالِ أمرِ موسَى عليهِ السَّلامُ ودَعوَتِه.

{فَحَشَرَ فَنَادَى} (النازعات : ٢٣)

٢٣- فجمَعَ الناسَ ونادَى فيهم،

{فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} (النازعات : ٢٤)

٢٤- فقال: أنا ربُّكمُ العَظيم، ولا رَبَّ فَوقي!

{فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى} (النازعات : ٢٥)

٢٥- فعَاقبَهُ اللهُ وجعلَهُ عِبرَةً لغَيرِه، بالنَّارِ في الآخِرَة، وبالإغراقِ والإذْلالِ في الدُّنيا.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى} (النازعات : ٢٦)

٢٦- وفيما فعلَهُ اللهُ بفِرعَونَ لما طغَى وعصَى، عِظَةٌ وعِبرَةٌ لمنْ يَخافُ اللهَ ويَخشَى عُقوبتَه.

{أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا} (النازعات : ٢٧)

٢٧- أخَلْقُكمْ بعدَ الموتِ أشَقُّ وأصعَبُ في تَقديرِكم، أمْ خَلقُ السَّماءِ العَظيمَةِ المتقَنَةِ المحكَمَة؟ بَناها الله،

{رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا} (النازعات : ٢٨)

٢٨- فرفعَها وجعلَها عاليةَ البِناء، وسوَّى أرجاءَها وأحكمَها، فلا تجِدُ فيها صَدْعًا ولا خَلَلاً،

(وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا) (النازعات : ٢٩)

٢٩- وأظلمَ ليلَها، وأبرزَ نَهارَها وأنارَه.

قالَ البغَويُّ رَحِمَهُ الله: أضافَهما إلى السَّماءِ لأنَّ الظُّلمَةَ والنُّورَ كِلاهُما يَنزِلُ مِنَ السَّماء.

{وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} (النازعات : ٣٠)

٣٠- والأرْضَ بعدَ ذلكَ بسطَها ومَدَّها، لتَكونَ مُذَلَّلَةً لسُكَّانِها.

وخُلِقَتِ الأرْضُ قَبلَ السَّماء، وإنَّما دُحيَتْ بعدَ خَلقِ السَّماء.

{أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا} (النازعات : ٣١)

٣١- فجَّرَ منها العُيونَ وأجرَى الأنهَار، وأخرجَ الكَلأ.

{وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا} (النازعات : ٣٢)

٣٢- وأثبتَ الجِبالَ في الأرْضِ لئلاَّ تَضطَرِبَ بأهلِها.

{مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} (النازعات : ٣٣)

٣٣- هيَّأَ كُلَّ ذلكَ لَكمْ لتَنتَفِعوا بِهِ أنتُمْ ومَواشِيكمْ في الحيَاةِ الدُّنيا.

{فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى} (النازعات : ٣٤)

٣٤- فإذا جاءَ يَومُ القِيامَة، الذي يَعلو على كُلِّ شَيءٍ ويَغلِبُه، ويَفوقُ كُلَّ ما عرَفَهُ الإنسَانُ مِنْ دَواهي الدُّنيا.

{يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى} (النازعات : ٣٥)

٣٥- في ذلكَ اليَومِ المهولِ يَتذَكَّرُ بَنو آدمَ ما عَمِلُوهُ مِنْ خَيرٍ وشرّ.

{وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى} (النازعات : ٣٦)

٣٦- وأُظهِرَتْ جهنَّمُ إظهارًا بيّنًا، فرَآها النَّاسُ كُلُّهم.

{فَأَمَّا مَن طَغَى} (النازعات : ٣٧)

٣٧- فأمَّا مَنْ تَجاوَزَ الحَدّ، فكفرَ وعصَى، وتَجَبَّرَ وعتَا،

{وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} (النازعات : ٣٨)

٣٨- واختارَ الحياةَ الدُّنيا ولذائذَها وشَهواتِها وقدَّمَها على دِينِ الله، ولم يَستَعِدَّ للدَّارِ الآخِرَة،

{فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى} (النازعات : ٣٩)

٣٩- فإنَّ مَصيرَهُ جهنَّم، يُعذَّبُ فيها ولا يَموت.

{وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى} (النازعات : ٤٠)

٤٠- وأمَّا مَنْ خافَ مقامَهُ بينَ يدَي رَبِّهِ يَومَ الحِسَـــاب، وزجَرَ نَفسَـــهُ ونَهاها عنِ الهَوَى والمعاصِي، وردَّها إلى طاعَةِ الله، ووَطَّنَها على فِعلِ الخَيرات،

{فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} (النازعات : ٤١)

٤١- فإنَّ الجنَّةَ هيَ مَصيرُهُ ومَسكنُه.

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا} (النازعات : ٤٢)

٤٢- يَسألونَكَ عنِ القِيامَةِ متَى تَظهَر، متَى تَثبُتُ وتَستَقِرّ؟

{فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا} (النازعات : ٤٣)

٤٣- وما عِلمُكَ بوَقتِها أيُّها الرسُولُ حتَّى يَسألَكَ المشرِكونَ عنْ ذلك؟

{إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا} (النازعات : ٤٤)

٤٤- إنَّ مُنتهَى علمِها عندَ اللهِ وحدَه، فلا يَعرِفُ وَقتَ وقُوعِها وكُنهَها وتَفاصـــيلَ أمرِها إلاّ هوَ سُبحانَه.

{إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا} (النازعات : ٤٥)

٤٥- فليسَ علمُها إليك، ولا إلى أحَدٍ مِنَ الخَلق، إنَّما بُعِثْتَ لتُنذِرَ النَّاسَ مِنْ هـذا اليَوم، وتُخوِّفَهمْ مِنْ عَذابِ الله، ممَّنْ يؤمِنُ باللهِ ويَخشَى وَعيدَه، فهؤلاءِ يَنفَعُهمُ الإنذَار.

{كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} (النازعات : ٤٦)

٤٦- كأنَّهمْ يَومَ يُبعَثونَ ويرَونَ القِيامَةَ لم يَبقُوا في الدُّنيا إلاّ عَشيَّةَ يوم، أو ضُحَى يَوم.

سورة عبس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{عَبَسَ وَتَوَلَّى} (عبس : ١)

١- عَبسَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم وأعرَضَ بوَجهِه،

{أَن جَاءهُ الْأَعْمَى} (عبس : ٢)

٢- لما جاءَهُ الصَّحابيُّ الأعمَى ابنُ أُمِّ مَكتوم.
وقدْ أتَى النبيَّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ فجعَلَ يَقولُ له: يا رسُولَ اللهِ أرشِدْني، وعندَهُ عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ رَجُلٌ مِنْ عُظَماءِ المشرِكين، فجعلَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يُعرِضُ عنهُ ويُقبِلُ على الآخَر، وقدْ طَمِعَ في إسلامِه.

{وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى} (عبس : ٣)

٣- وما يُدريكَ أيُّها النبيّ، فلعلَّهُ يَتطَهَّرُ منَ الذُّنوبِ بما يَتعَلَّمُهُ منك،

{أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى} (عبس : ٤)

٤- أو يتَّعِظُ فتَنفَعَهُ الموعِظَةُ ويَبتَعِدَ عنِ المحرَّمات.

{أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى} (عبس : ٥)

٥- أمَّا مَنِ استَغنَى بالكُفرِ أو الغِنَى عمَّا عندكَ منَ العلمِ والإيمَان،

{فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى} (عبس : ٦)

٦- فأنتَ تَتعَرَّضُ لهُ وتُقبِلُ عليه؟

{وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى} (عبس : ٧)

٧- ولستَ مُطالَبًا بأنْ يؤمِنَ ويَهتَدي، فما عَليكَ إلاّ البَلاغ.

{وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى} (عبس : ٨)

٨- وأمَّا مَنْ جاءَكَ يَقصِدُك، يَبتَغي النُّصحَ والرُّشد،

{وَهُوَ يَخْشَى} (عبس : ٩)

٩- وهوَ يَخافُ اللهَ ويَخشَى عَذابَه،

{فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى} (عبس : ١٠)

١٠- فأنتَ تَتشاغَلُ عنه؟

{كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ} (عبس : ١١)

١١- كلاّ، لا تَعُدْ إلى مِثلِ هذا، إنَّ هذا القُرآن، أو هذهِ السورةُ، مَوعِظَةٌ يَجِبُ أنْ يُعمَلَ بها.

{فَمَن شَاء ذَكَرَهُ} (عبس : ١٢)

١٢- فمَنْ شاءَ مِنَ العِبادِ اتَّعظَ به.

{فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ} (عبس : ١٣)

١٣- وهوَ مثبَتٌ في صُحُفٍ مُعَظَّمَةٍ مُكرَّمَة، والمقصود: اللوحُ المحفوظ. وكلُّ ما كُتِبَ فيه فهو صَحيفة،

{مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ} (عبس : ١٤)

١٤- وهي رَفيعَةِ القَدْرِ، مُنزَّهَةٌ مِنْ كُلِّ دنَس، فلا يَمَسُّها إلّا المطهَّرون، وهمُ الملائكة،

{بِأَيْدِي سَفَرَةٍ} (عبس : ١٥)

١٥- بأيدي كتبَةٍ مِنَ الملائكةِ عَليهِمُ السَّلام(١٥٧).

{كِرَامٍ بَرَرَةٍ} (عبس : ١٦)

١٦- ذَوي قَدْرٍ وكرَامَةٍ عندَ الله، مُطيعينَ لهُ مُتَّقين.

{قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ} (عبس : ١٧)

١٧- لُعِنَ المكذِّبُ بالبَعثِ والنُّشورِ ما أشَدَّ كُفرَه!

---

(١٥٧) المعنى: أنها [الصحفُ] بأيدي كتبةٍ من الملائكة، ينسخون الكتبَ من اللوحِ المحفوظ. (فتح القدير).

المرادُ بأيْديهم: حِفْظُهم إيّاهُ إلى تبليغه، فمثَّلَ حالَ الملائكةِ بحالِ السـفراء، الذين يحملون بأيديهم الأَلُوكَ والعُهود. (التحرير والتنوير).

الألوك: الرسالة.

{مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} (عبس : ١٨)

١٨- مِنْ أيِّ شَيءٍ مَهينٍ خَلقَه؟ ما أصلُهُ وما مَبدَؤهُ حتَّى يَتكبَّرَ ويُعرِض؟

{مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ} (عبس : ١٩)

١٩- خَلقَهُ مِنْ نُطفَةٍ ضَعيفَة، ثمَّ قدَّرَهُ أطوَارًا إلى أنْ تمَّ خَلقُه، وهيَّأهُ لِما يَصلُحُ له.

{ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ} (عبس : ٢٠)

٢٠- ثمَّ سهَّلَ خُروجَهُ مِنْ بَطنِ أُمِّه. أو يسَّرَ لهُ سبُلَ العَيشِ في الحياة.

{ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ} (عبس : ٢١)

٢١- ثمَّ قبضَ روحَهُ وجعلَهُ في قَبرٍ تُوارَى فيهِ جُثَّتُه، تَكريمًا له، ولم يَجعَلْهُ مَطروحًا على الأرْضِ كالحيَواناتِ يَستَقذِرُهُ مَنْ يَراه، وتأكلُهُ السِّباعُ والطَّير.

{ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ} (عبس : ٢٢)

٢٢- ثمَّ إذا أرادَ بَعَثَهُ مِنْ قَبرِهِ بعدَ الموت.

{كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ} (عبس : ٢٣)

٢٣- كلاّ، ليسَ الأمرُ كما يَقولُ هذا المكذِّبُ الكافِر، إنَّهُ لم يُؤَدِّ ما فرَضَــــهُ اللهُ عليهِ مِنَ الفَرائض.

{فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ} (عبس : ٢٤)

٢٤- فليَنظُرِ الإنسَانُ إلى نَوعِ غِذائهِ الذي يَعيشُ به، مِنْ أينَ جاءَهُ وكيفَ خُلِقَ ودُبِّرَ له.

{أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبّاً} (عبس : ٢٥)

٢٥- أنزَلنا المطرَ مِنَ السَّحابِ وصبَبناهُ على الأرْضِ بكَثرَة،

{ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً} (عبس : ٢٦)

٢٦- ثمَّ شقَقْنا الأرْضَ بنموِّ النَّباتِ فيها، وأسكنَّا الماءَ فيما يَتخَلَّلُها.

{فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً} (عبس : ٢٧)

٢٧- فأنبَتْنا فيها الحُبوبَ والنَّباتَاتِ لتَكونَ غِذاءً وقُوْتًا للإنسَانِ والحيَوان،

{وَعِنَباً وَقَضْباً} (عبس : ٢٨)

٢٨- وعِنبًا لَذيذًا، ونَباتًا تأكُلُهُ الحيَوانات، هوَ القَتّ، وهوَ أنوَاع، تَنبُتُ في المروجِ والحُقولِ وتُزرَعُ.

والعِنَبُ مِنْ أغنَى الفَواكهِ بالفِيتامينَات، حتَّى إنَّهُ يُوازَنُ بالحَليب، لهُ دَورٌ فعَّالٌ في بِناءِ الجسمِ وتَقويَتِه، وتَرميمِ أنسِجَتِه، وعِلاجِ كثيرٍ مِنْ أمرَاضِه...

{وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً} (عبس : ٢٩)

٢٩- وزَيتونًا مُفيدًا، يُؤكَل، ويُوقَدُ منه، ويُدَّهَنُ به، فَوائدُهُ كثيرَةٌ جدًّا، ويُتعالَجُ به. ونَخلاً، يُؤكَلُ رُطَبًا، وتَمْرًا، ومَطبوخًا، ويُعتَصَرُ منه، طيِّبٌ ولَذيذٌ ومُفيد...

{وَحَدَائِقَ غُلْباً} (عبس : ٣٠)

٣٠- وبَساتينَ كبيرَةً واسِعَة، كالغابَاتِ ذاتِ الأشجَارِ الكثيفَةِ الملتفَّة، الغَليظَةِ القَويَّة.

{وَفَاكِهَةً وَأَبّاً} (عبس : ٣١)

٣١- وفَواكهَ مُتنَوِّعَةً في شَكلِها وطَعمِها ورائحتِها، والكَلأَ والمرعَى.

{مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} (عبس : ٣٢)

٣٢- مَنفَعَةً لكمْ تَعيشونَ بها أنتُمْ ومَواشيكمْ في هذهِ الحيَاةِ الدُّنيا.

{فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ} (عبس : ٣٣)

٣٣- فإذا جاءَتْ صَــيحَةُ القِيامَة، التي تَصِــخُّ الأسمَاع، حتَّى تَكادُ تُصِــمُّها. وهيَ النَّفخَةُ الثَّانية.

{يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ} (عبس : ٣٤)

٣٤- في ذلكَ اليَومِ الرَّهيبِ المفزِع، يرَى المرءُ أخاهُ فيَفِرُّ منهُ ولا يأبَهُ به، لشــدَّةِ الهَولِ والفزَعِ الذي أمامَه،

{وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ} (عبس : ٣٥)

٣٥- ويَفِرُّ مِنْ والِدَيه، أُمِّهِ وأبِيه، وقدْ كانَ حَريصًا على سَلامَتِهما وراحَتِهما،

{وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ} (عبس : ٣٦)

٣٦- ومِنْ زَوجَتِهِ وبَنيه، وقدْ فَدَّاهمْ بمالِهِ وراحَتِهِ في الدُّنيا طَوالَ عمُرِه.

{لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} (عبس : ٣٧)

٣٧- لكُلِّ واحدٍ في ذلكَ اليَومِ شُغُلٌ يَشغَلُه، وخَطْبٌ يَكفيه، وهَمٌّ خاصٌّ به.

{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ} (عبس : ٣٨)

٣٨- وجوهُ المؤمِنينَ السُّعَداءِ يَومَئذٍ مُستَنيرَةٌ مُتهَلِّلَة،

{ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ} (عبس : ٣٩)

٣٩- فَرِحَةٌ مَسرورَة؛ لِما يَرَونَ مِنَ النَّعيمِ وما يُبهِجُ القَلب.

{وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ} (عبس : ٤٠)

٤٠- ووُجوهٌ الأشقيَاءِ يَومَئذٍ عَليها غُبارٌ وكدَرٌ مِنَ الحُزنِ والحَسْرَة.

{تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ} (عبس : ٤١)

٤١- يَعلوها سَوادٌ وظُلمَة، مِنَ الذُّلِّ والمهانَة،

{أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ} (عبس : ٤٢)

٤٢- أولئكَ الذينَ كفَروا باللهِ وكذَّبوا بآياتِه، وفجَروا في أعمالِهِمْ فعصَوا وأثِموا.

سورة التكوير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} (التكوير : ١)

١- إذا الشَّمسُ ذهَبَتْ واضمَحلَّت. أو ذَهَبَ ضَوؤها.

{وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ} (التكوير : ٢)

٢- وإذا النُّجومُ سقَطتْ وتَناثَرت.

{وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ} (التكوير : ٣)

٣- وإذا الجِبالُ أُزيلَتْ مِنْ أماكنِها بالرَّجفَةِ ونُسِفَت.

{وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ} (التكوير : ٤)

٤- وإذا الإبِلُ تُرِكَتْ وسُيبَت. تركَ النَّاسُ نَفائسَ أموَالِهم، فقدْ جاءَ ما يُذهِلُهمْ عَنها.

{وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ)}(التكوير : ٥)

٥- وإذا جُمِعَتِ البَهائمُ مِنْ كُلِّ جانِب، وقدْ كانتْ نافِرَةً شارِدَةً في الشِّعاب، ونَسِيَتْ فَرائسَها ومَخاوِفَها، فهالَها الرُّعبُ والهَولُ واجتمَعَت.

{وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ} (التكوير : ٦)

٦- وإذا البِحارُ أُحمِيَتْ فصَارَتْ نارًا تَضطَرِم.

{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} (التكوير : ٧)

٧- وإذا جُمِعَتْ كُلُّ نَفسٍ إلى مَثيلَتِها، فيَكونُ المؤمِنُ معَ المؤمِن، والكافِرُ معَ الكافِر.

{وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ} (التكوير : ٨)

٨- وإذا سُـــئلَتِ البِنتُ التي دُفِنَتْ حيَّة. فقدْ كانَ الجاهليُّ الذي يَدفِنُها يَطرَحُ عَليها التُّرابَ حتَّى يؤدَّها، أي يُثقِلَها، فتَموت.

{بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ} (التكوير : ٩)

٩- ما الذي أخطَأَتْ فيه، وما هوَ الجُرمُ الذي ارتَكَبَتْهُ حتَّى تُقتَل؟!

وكانتْ هذهِ العادَةُ انتَشـــرَتْ في قَبائلَ منَ الجاهليَّة، فتُوأَدُ البِنتُ خَوفًا مِنْ أنْ يُوصَـــمَ أبوهَا بالعَار، لأنَّهُ رُزِقَ بأُنثَى! أو خَوفًا مِنَ الفَقرِ الذي يَخشاهُ على نَفسِهِ وأهلِهِ منها! معَ أنَّها كانتْ تُزَوَّج، وتُنجِب، وتَخدِم، وتَرعَى... ولكنَّها الجاهليَّةُ الجَهلاء[١٥٨].

(١٥٨) لم يكنِ الوأدُ معمولاً به عند جميعِ القبائل، قيل: أولُ من وأدَ البناتِ من القبائلِ ربيعةُ، وكانتْ كندةُ تئدُ البنات، وكان بنو تميمٍ يفعلون ذلك، ووأدَ قيس بنُ عاصم المِنْقَري من بني تميمٍ ثمانِ بناتٍ له قبلَ إسلامه. ولم يكنِ الوأدُ في قريشٍ ألبتَّةَ. وكان صـعصـعة بنُ ناجية جدُّ الفرزدق من بني تميم يفتدي مَن يعلمُ أنه يريدُ وأدَ ابنتهِ من قومهِ بناقتينِ عُشَـرَاوينِ وجَمَل... (التحرير والتنوير).

{وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ} (التكوير : ١٠)

١٠- وإذا نُشِــرَتْ صُــحُفُ الأعمَال، فنظرَ كُلٌّ في صَــحيفَتِه، ليَجِدَ كُلَّ ما عَمِلَهُ في الدُّنيَا مَكتوبًا فيها، فيُحاسَبُ عَليها.

{وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ} (التكوير : ١١)

١١- وإذا السّماءُ نُزِعَتْ وأُزيلَت، فذَهبَت.

{وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ} (التكوير : ١٢)

١٢- وإذا أُحمِيَتْ جهنَّمُ وأُوقِدَتْ إيقادًا شَديدًا لأعدَاءِ اللهِ.

قالَ قَتادَةُ رَحِمَهُ اللهُ: سعَّرَها غضَبُ اللهِ، وخَطايا بَني آدم.

{وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ} (التكوير : ١٣)

١٣- وإذا الجنَّةُ قُرِّبَتْ لعِبادِ اللهِ المؤمِنينَ المخلِصين.

{عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ} (التكوير : ١٤)

١٤- عَلِمَتْ عندَ ذلكَ كُلُّ نَفسٍ ما قدَّمَتْ مِنْ خَيرٍ وشَرّ، بما تَراهُ في صَحيفَةِ أعمالِها.

{فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ} (التكوير : ١٥)

١٥- فأُقسِمُ بالنُّجومِ التي يَختَفي ضَوؤها بالنَّهارِ فتَغيبُ عنِ العُيون،

{الْجَوَارِ الْكُنَّسِ} (التكوير : ١٦)

١٦- وتَجري باللَّيلِ وتَطلُعُ في أماكنِها كالعادَة،

{وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ} (التكوير : ١٧)

١٧- وأُقسِمُ باللَّيلِ إذا أقبَلَ بظَلامِه،

{وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ} (التكوير : ١٨)

١٨- وبالصُّبحِ إذا طلعَ وأضاءَ بنُورِه،

{إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} (التكوير : ١٩)

١٩- إنَّ هذا القُرآنَ لتَبليغُ مَلَكٍ مُكَرَّمٍ عندَ الله. هوَ جبريلُ عليهِ السَّلام.

{ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} (التكوير : ٢٠)

٢٠- قَويٍّ، شَديدِ الخَلق، ذي شرَفٍ ومَنزِلَةٍ عاليةٍ عندَ اللهِ عزَّ وجَلّ.

{مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ} (التكوير : ٢١)

٢١- يُطاعُ كلامُهُ بينَ الملائكةِ هُناك، أمينٌ على وَحيِ اللهِ ورِسالَتِهِ إلى أنبيائه.

{وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ} (التكوير : ٢٢)

٢٢- وصاحبُكمْ محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم ليسَ مَجنونًا كما ادَّعَيتُمْ أيُّها المشرِكون، بلْ رَسُولٌ أرسلَهُ اللهُ إليكمْ ليُبَلِّغَ رسالتَه.

{وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ} (التكوير : ٢٣)

٢٣- ولقدْ رأى النبيُّ صلى الله عليه وسلمَ جبريلَ على صُورَتِهِ التي خلقَهُ اللهُ عَليها، في الجهةِ العُليا مِنَ السَّماء.

{وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ} (التكوير : ٢٤)

٢٤- ورَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ليسَ مُتَّهمًا فيما يُبَلِّغُهُ ممَّا يُوحَى إليه، فلا يُقَصِّرُ فيه، ولا يَكتُمُ منهُ شَيئًا، بلْ يَنشُرُهُ ويُبَلِّغُهُ كُلَّه.

{وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ} (التكوير : ٢٥)

٢٥- وليسَ هذا القُرآنُ بكَلامِ شَيطانٍ مُبعَدٍ مِنْ رَحمَةِ الله، كما يَقولُ المشرِكون، فالشَّيطانُ لا يُريدُ مثلَ هذا الكلامِ المستَقيمِ الرَّفيع، ولا يَقدِرُ على حَمْلِه، ولا يَنبَغي له.

{فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ} (التكوير : ٢٦)

٢٦- فأينَ تَذهَبونَ في حُكمِكم، وتَكذيبِكمْ بهذا القُرآن، وكيفَ تُصـــرَفونَ عنِ الحقِّ وهوَ واضِحٌ كُلَّ هذا الوضُوح؟

{إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ} (التكوير : ٢٧)

٢٧- ما هذا القُرآنُ إلاّ مَوعِظَةٌ وتَذكيرٌ عَظيمٌ للنَّاسِ كُلِّهم.

{لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ} (التكوير : ٢٨)

٢٨- لمنْ أرادَ منكمُ الهدايَةَ واتِّباعَ الحقّ، فإنَّ الهِدايَةَ فِيه.

{وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} (التكوير : ٢٩)

٢٩- واعلَموا أنَّكمْ لا تَشـــاؤونَ الاســـتِقامَةَ إلاّ إذا وفَّقَكمُ اللهُ إليها، وشـــاءَتْ إرادَتُهُ ذلكَ سُبحانَه، فمَشيئَتُهُ فَوقَ كُلِّ شَيء، وكُلُّ شَيءٍ في هذا الوجُودِ مردُّهُ إلى مَشيئتِه، وإذا عَلِمَ اللهُ استِحقاقَ امرىءٍ للهدايَة والاستِقامَةِ يَسَّرَها له، وسهَّلَ أسبابَها عَليه، فيَكونُ لهُ الفَضلُ في هدايَتِهِ واستِقامَتِه.

*   *   *

في حَديثٍ صَحيحٍ أو حسَن، قَولُهُ صلى الله عليه وسلم: "مَنْ سرَّهُ أنْ يَنظُرَ إلى يَومِ القِيامَةِ كأنَّهُ رَأيُ عَين، فليَقرَأ {إذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} و{إذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ} و{إذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ}". رَواهُ أحمَدُ والحاكمُ والترمذيّ.

سورة الانفطار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ} (الانفطار : ١)

١- إذا السَّماءُ تَصدَّعَتْ بأمرِ الله.

{وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ} (الانفطار : ٢)

٢- وإذا الكوَاكبُ تَساقطَتْ مُتفرِّقة.

{وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ} (الانفطار : ٣)

٣- وإذا البِحارُ فُجِّرَ بَعضُها في بَعض، فاختلَطَ العَذبُ بالمالِح. أو انتهَى ماؤها بتَفجيرٍ لا يَعرِفُ كيفيَّتَهُ الإنسَانُ.

{وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ} (الانفطار : ٤)

٤- وإذا قُلِّبَ تُرابُ القُبورِ وبُدِّدَ لِيَخرُجَ مَنْ فيها.

{عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ} (الانفطار : ٥)

٥- فإذا كانَ ذلكَ وعرَفَ الإنسَانُ أنَّهُ بُعِثَ للحِسابِ والجَزاء، ونُشِرَتْ صُحُفُ الأعمَال، عَلِمَتْ كلُّ نَفسٍ ما قدَّمَتْ مِنْ أعمَالٍ صَالحةٍ وسَيِّئة، قَديمِها وحَديثِها، أوَّلِها وآخِرِها.

{يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ} (الانفطار : ٦)

٦- أيُّها الإنسَانُ الذي كرَّمَهُ الله، ما الذي خدَعَكَ وجرَّأكَ على عِصيانِ رَبِّكَ العَظيمِ معَ إحسَانِهِ إليك، وما الذي أمَّنكَ مِنْ عِقابِهِ حتَّى أضَعْتَ ما أوجبَهُ عَليكَ معَ إنذَارِهِ لك، وقابَلتَهُ بما لا يَليقُ معَ إنعامِهِ عَليك؟!

قالَ عمَرُ رَضــيَ اللهُ عنه: غَرَّهُ حُمقُهُ وجَهلُه. وقالَ الحســنُ البَصْــريُّ رَحِمَهُ الله: غَرَّهُ شَــيطانُهُ الخَبيث.

{الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ} (الانفطار : ٧)

٧- اللهُ الذي خلقَكَ وجعَلَكَ سَويًّا، مُتَناسِبَ الخَلقِ والأعضَاء، في شَكلِها ووَظائفِها.

{فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ} (الانفطار : ٨)

٨- ركَّبكَ وجعَلَكَ في أيِّ شَكلٍ اقتَضَتْهُ مَشيئتُه، مِنْ شِبهٍ بأهلِكَ أو غَيرِهم، طَويلاً، وحسَناً، أو غَيرَه...

{كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ} (الانفطار : ٩)

٩- كلاّ لمِنْ سـلَكَ هذا المسـلَك، وجعلَ الاغتِرارَ بكرمِ اللهِ ذَريعَةً إلى الكُفرِ والمعاصـي، بدلَ الشُّكرِ والطَّاعَة، بلْ يَحمِلُكمْ على ذلكَ تَكذيبُكمْ بالبَعثِ والجَزاءِ على الأعمَال.

{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ} (الانفطار : ١٠)

١٠- وإنَّ عَليكمْ مَلائكةً رُقَباءَ يَحفَظونَ أعمالَكم.

{كِرَاماً كَاتِبِينَ} (الانفطار : ١١)

١١- ذَوي قَدْرٍ وكَرَامَةٍ عندَ الله، يَكتُبونَ أقوالَكمْ وأعمالَكمْ جَميعَها.

{يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} (الانفطار : ١٢)

١٢- يَعلَمونَ ما تَفعَلونَهُ مِنْ خَيرٍ وشَرّ، قَليلاً كانَ أو كثيرًا، ويَضبِطونَهُ بدِقَّة.

{إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} (الانفطار : ١٣)

١٣- إنَّ الذينَ بَرُّوا وصَدَقوا في إيمَانِهِم، بأداءِ ما فَرضَ اللهُ عَليهم، واجتِنابِ ما نَهاهُمْ عنه، في جَنَّةٍ ونَعيم، ولذَّةٍ وسَعادَةٍ دائمَة.

{وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} (الانفطار : ١٤)

١٤- وإنَّ الكافرِينَ الفاجِرين، الذينَ كذَّبوا بآياتِ اللهِ وأصَرُّوا على الكُفر، في جهنَّم، يُقاسُونَ حرَّها وعَذابَها الشَّديد.

{يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ} (الانفطار : ١٥)

١٥- يَدخُلونَها يَومَ الجَزاءِ والحِساب.

{وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ} (الانفطار : ١٦)

١٦- لا يَغيبُونَ عَنها ساعَةً واحِدَة، ولا يُخَفَّفُ عنهمْ مِنْ عَذابِها.

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ} (الانفطار : ١٧)

١٧- وأيَّ شَيءٍ تَدري عنْ يَومِ الحِسابِ والجزاءِ وأهوالِه؟

{ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ} (الانفطار : ١٨)

١٨- ثمَّ أيَّ شَيءٍ تَدري عنْ هذا اليَومِ العَظيم، الذي يَفصِلُ فيهِ الخَالقُ بينَ الخَلائق، ويُجازي كُلاًّ بما عَمِل.

{يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ} (الانفطار : ١٩)

١٩- في ذلكَ اليَومِ العَصيبِ الرَّهيب، لا يَقدِرُ المرءُ على نَفعِ أحَد، ولا الخَلاصِ مِمَّا هوَ فيه، إلاَّ أنْ يأذَنَ اللهُ ويَرضَى، والأمرُ يَومَئذٍ للهِ وَحدَه، يَنفَرِدُ بهِ سُبحانَه، ولا يُنازِعُهُ فيهِ أحَد.

سـورة المطففيـن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ} (المطففين : ١)

١– الهَلاكُ والعَذابُ الشَّديدُ لمَنْ نقَصَ مِنَ المِكيَالِ والميزانِ إذا بَاع، أو زادَ فيهما إذا اشترى.

{الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ} (المطففين : ٢)

٢– الذينَ إذا اشترَوا مِنَ النَّاسِ أخَذوهُ وافيًا وافِرًا.

{وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ} (المطففين : ٣)

٣– وإذا باعُوا لهمْ شَيئًا، فوَزَنوا لهمْ حَبًّا، أو كالُوا لهمْ طَعامًا، يَنقُصونَ منه.

{أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ} (المطففين : ٤)

٤– ألا يَعلَمُ أولئكَ المطَفِّفونَ أنَّهمْ سيُبعَثونَ بعدَ الموت،

{لِيَوْمٍ عَظِيمٍ} (المطففين : ٥)

٥– ليَومٍ عَظيمِ الهَول، صَعبِ الموقِف، كثيرِ الفزَع،

{يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} (المطففين : ٦)

٦– يَومَ يَقومُ النَّاسُ مِنْ قُبورِهِمْ لأمرِ اللهِ وحِسابِهِ وجَزائه.

{كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ} (المطففين : ٧)

٧– كلاّ لتَطفيفِهِمْ وغَفلَتِهِمْ عنِ البَعثِ والحِساب، إنَّ سجِلَّ أعمالِ الكفَّارِ في "سِجِّين"، فليَرتَدِعوا. (واللّفظُ يوحي بالضِّيقِ والانحِطاط).

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ} (المطففين : ٨)

٨- وأيَّ شَيءٍ تَدري عنْ سِجِّين؟

{كِتَابٌ مَّرْقُومٌ} (المطففين : ٩)

٩- إنَّهُ كتابٌ مَذكورٌ فيهِ أعمالُهُم الخبيثَة، لهُ خَتمٌ أو علامَةٌ مُميِّزَة.

{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ} (المطففين : ١٠)

١٠- الويلُ والهَلاكُ يَومَ القِيامَةِ لهؤلاءِ المكذِّبين.

{الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ} (المطففين : ١١)

١١- الذينَ يُكذِّبونَ بيَومِ الجَزاءِ والحِسَاب، ولا يؤمِنونَ بالثَّوابِ والعِقاب.

{وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ} (المطففين : ١٢)

١٢- ولا يُكذِّبُ بهِ إلاّ كلُّ مُعتَدٍ على مَحارِمِ الله، مُتَجاوزٍ للحقِّ إلى الباطِل، كثيرِ الإثْمِ في أقوالِهِ وأفعالِه، مُنهَمِكٍ في الشَّهوات، غارِقٍ في المحرَّمات.

{إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} (المطففين : ١٣)

١٣- إذا تُتلَى عليهِ آياتُ كتابِنا النَّاطقَةُ بالحقّ، وبصِدقِ ما جاءَ بهِ الرسُل، كذَّبَ بها وأنكرَها، وقالَ إنَّها مِنْ أخبارِ الأُمَمِ الغابِرين، وحِكاياتِ الأوَّلينَ وأباطيلِهم.

{كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ} (المطففين : ١٤)

١٤- كلاّ، ليسَ الأمرُ كما زعَموا، بلْ حجبَ قُلوبَهُمْ عنِ الإيمانِ كثرَةُ الذُّنوبِ والمعاصي التي اقترَفوها، فغَطَّتْ عَليها حتَّى أظلمَتْها وطَمسَتْها، وحجبَتِ النُّورَ عنها.

{كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ} (المطففين : ١٥)

١٥- كلاّ لموقفِهمُ المنكَرِ الذي ابتعَدوا بهِ عنِ الإيمَان، إنَّ هؤلاءِ المكذِّبينَ محجوبُونَ عنْ رؤيَةِ ربِّهمْ وخالقِهمْ يَومَ القِيامَة.

{ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ} (المطففين : ١٦)

١٦- ثمَّ إنَّهمْ معَ هذا الحِرمانِ العَظيمِ داخِلونَ في نارِ الجَحيم، ومُقاسُــونَ حرَّها وعَذابَها الشَّديد.

{ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ} (المطففين : ١٧)

١٧- ثمَّ يُقالُ لهمْ تَوبيخًا وتَحقيرًا: هذا هوَ الجَحيمُ الذي كنتُمْ تُكذِّبونَ بهِ في الحيَاةِ الدُّنيا، فذوقُوا عَذابَه.

{كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ} (المطففين : ١٨)

١٨- كلاّ لكتابِ الفُجّار. إنَّ سجِلَّ أعمالِ عِبادِ اللهِ الأبرارِ المطيعِينَ في عِلِّيِّين (الذي يوحي بالعُلوِّ والارتِفاع).

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ} (المطففين : ١٩)

١٩- وأيَّ شَيءٍ تَدري عنْ "عِلِّيِّينَ" أيُّها الرسُول؟

{كِتَابٌ مَّرْقُومٌ} (المطففين : ٢٠)

٢٠- إنَّهُ كتابٌ فيهِ ذكرُ أعمالِهمُ الحسنَةِ الطيِّبَة، لهُ خَتمٌ أو عَلامَةٌ مميِّزَةٌ بذلك.

{يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ} (المطففين : ٢١)

٢١- يَشهَدُهُ الملائكةُ عليهمُ السَّلام، تَكريمًا لهم.

{إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} (المطففين : ٢٢)

٢٢- إنَّ الذينَ بَرُّوا وصَـدَقوا في إيمَانِهم، وأدَّوا فَرائضَ اللهُ عَليهم، واجتنَبوا ما نَهاهُمْ عنه، في جَنَّةٍ عالية، ونَعيمٍ دَائم.

{عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ} (المطففين : ٢٣)

٢٣- على الأسِرَّةِ المزيَّنةِ يَنظُرونَ إلى ما أعدَّ اللهُ لهمْ مِنَ النَّعيم، وإلى ما شاؤوا مِنْ مَناظرِ الجنَّةِ الجَميلَة.

{تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ} (المطففين : ٢٤)

٢٤- إذا نَظرتَ إليهمْ عرَفتَ في وجوهِهمْ بَهجةً ونَضـارَةً، وحُسـنًا وإشـراقًا، مِنَ النَّعيمِ العَظيمِ الذي همْ فيه.

{يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ} (المطففين : ٢٥)

٢٥- يُسـقَونَ مِنْ خَمرِ الجنَّةِ الطيِّبَةِ الصَّـافية، الخاليةِ مِنَ الشَّـوائبِ والسُّـكر، وهيَ مَختومة، لا يَفكُّها إلاّ أصحابُها مِنَ الأبرَار.

{خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} (المطففين : ٢٦)

٢٦- وآخِرُ طَعمِهِ مَمزوجٌ بالمِسـك. وفي مِثلِ هذا فليَتسـابَقِ المتَسـابِقون، وليَرْغَبِ الرَّاغِبون، بالمبادرَةِ إلى الطَّاعات، والمسارعَةِ إلى الخَيرات.

{وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ} (المطففين : ٢٧)

٢٧- وقدْ مُزِجَ بذلكَ الرَّحيقِ اللَّذيذِ شَـرابٌ يُقالُ لهُ تَسـنيم. ذُكِرَ أنَّه أشـرَفُ شَـرابِ الجنَّةِ وأعْلاه.

{عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ} (المطففين : ٢٨)

٢٨- وهوَ عَينٌ جاريَة، يَشـرَبُ منها المقَرَّبونَ صِـرفًا، ويُمزَجُ مَزجًا للأبرَار، الذينَ همْ أصـحَابُ اليَمين.

{إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ} (المطففين : ٢٩)

٢٩- إنَّ المشركِينَ كانوا يَستَهزِؤونَ بالمؤمنينَ ويَحتَقِرونَهُمْ في الحيَاةِ الدُّنيا.

{وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ} (المطففين : ٣٠)

٣٠- وإذا مرَّ المؤمِنونَ بهمْ وهمْ في مَجالسِهم، يُشيرونَ إليهمْ بأعيُنِهمْ استِهزاءً وسُخريَة.

{وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ} (المطففين : ٣١)

٣١- وإذا رجعَ هؤلاءِ المجرِمونَ إلى بُيوتِهم، رجَعوا مُبتَهِجينَ بما فعَلوا، مُستَمتِعينَ باستِخفافِهِمْ بالمؤمنين!

{وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاء لَضَالُّونَ} (المطففين : ٣٢)

٣٢- وإذا رَأوا أصـحَابَ النبيِّ صـلى الله عليه وسـلم قالُوا: هؤلاءِ زائغونَ مُنحَرِفون، لكونِهِمْ على غَيرِ ملَّةِ الكُفر!

{وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ} (المطففين : ٣٣)

٣٣- ومـا بُعِـثَ هؤلاءِ المشـركونَ رُقَبـاءَ ووكلاءَ على المؤمنين، حتَّى يَحفَظوا عَليهمْ أعمـالَهمْ وأحوالَهم، ويَشهَدوا برُشدِهمْ أو ضَلالِهم، فلمَ يَشغَلونَ أنفُسَهمْ بهم؟

{فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ} (المطففين : ٣٤)

٣٤- ففي يَومِ القِيامَةِ يَضـحَكُ المؤمِنونَ وهمْ في الجنَّةِ يَنعَمون، مِنَ الكفَّارِ وهمْ في الجَحيمِ يُعَذَّبون، في مُقابِلِ ما كانَ يَسخَرُ منهمْ هؤلاءِ في الحيَاةِ الدُّنيا.

{عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ} (المطففين : ٣٥)

٣٥- وهمْ جالِسونَ على الأسِرَّةِ المزيَّنة، يَنظُرونَ إلى الكفَّارِ وهمْ في حَالِ ذُلٍّ وهَوانٍ وعَذاب، بعدَ حياةِ التنعُّمِ والترفُّهِ في الدُّنيَا.

{هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} (المطففين : ٣٦)

٣٦- هلْ عُوقِبَ الكافِرونَ على استِهزائهمْ بالمؤمِنين، وجُوزوا مِنْ جنسِ ما كانوا يَفعَلونَ بهم؟ نعم.

سورة الانشـقاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ} (الانشقاق : ١)

١- إذا السَّماءُ انفَطرَتْ وتَصدَّعَت، يومَ القِيامَة.

{وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ} (الانشقاق : ٢)

٢- واستَمعَتْ لربِّها وانقادَتْ لأمرِه، وحُقَّ لها أنْ تَسمَعَ وتُطيع، فأمرُ اللهِ لا يُرَدّ.

{وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ} (الانشقاق : ٣)

٣- وإذا الأرْضُ وسِّـعَتْ ومُدَّتْ كما يُمَدُّ الجِلد، "ثمَّ لا يَكونُ لبشَـرٍ مِنْ بَني آدمَ إلاّ مَوضِـعُ قَدمَيه"، كما جاءَ في الحديثِ الذي رواهُ الحاكمُ وصحَّحه.

{وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ} (الانشقاق : ٤)

٤- ورمَتْ ما في بَطنِها مِنَ الموتَى والكنُوز، وخلَتْ منها حتَّى لم يَبقَ في باطنِها شَــيءٌ مِنْ ذلك.

{وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ} (الانشقاق : ٥)

٥- وأجابَتْ أمرَ ربِّها وأطاعَتْهُ، وحُقَّ لها أنْ تَسمَعَ وتُطيع، فقَضاءُ اللهِ لا يُرَدّ.

{يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ} (الانشقاق : ٦)

٦- أيُّها الإنسَان، إنَّكَ ساعٍ طَوالَ حياتِكَ إلى لقاءِ ربِّك، وأنتَ في كدٍّ وجِدٍّ وعمَل، فمُلاقٍ جَزاءَ ما عَمِلت، مِنْ خَيرٍ وشَرّ.

{فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ} (الانشقاق : ٧)

٧- فأمَّا مَنْ أُعطيَ صَحيفتَهُ بيدِهِ اليُمنَى، وهيَ عَلامَةٌ على الفَوزِ والنَّجاة،

{فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً} (الانشقاق : ٨)

٨- فسَوفَ يُحاسَبُ على أعمالِهِ حِساباً سَهلاً مُيَسَّرًا، تُعرَضُ عليهِ حتَّى يَعرِفَ منَّةَ اللهِ عليهِ فيما سَترَهُ عليهِ في الدُّنيَا، وفي عَفوهِ عنه في الآخِرَة. فالمقصودُ بالحِسابِ هنا عَرضُ الأعمَالِ لإطْلاعِ أصحابِها عليها، أمَّا مَنْ حُوسِبَ على كُلِّ عملٍ عَمِلَه، حسابَ تَدقيقٍ ومُناقَشة، واستُقصيَ عليهِ ولم يُسامَح، فهذا يُعذَّب.

عنْ عائشةَ رَضيَ اللهُ عنها، أنَّ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال: "ليسَ أحَدٌ يُحاسَبُ يَومَ القيامَةِ إلاّ هلَك". فقلتُ: يا رَسُولَ الله، أليسَ قدْ قالَ اللهُ تَعالَى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ. فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً}؟ فقالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "إنَّما ذلكَ العَرْض، وليسَ أحَدٌ يُناقَشُ الحِسابَ يَومَ القِيامَةِ إلاّ عُذِّب".

{وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً} (الانشقاق : ٩)

٩- ويَرجِعُ إلى أهلِهِ في الجنَّةِ فَرِحًا مُبتَهِجًا، لِما أُوتيَ مِنَ الخَيرِ والكَرامَة.

{وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ} (الانشقاق : ١٠)

١٠- وأمَّا مَنْ أُوتيَ صَــحيفةَ أعمَالِهِ بيدِهِ الشِّــمالِ مِنْ وراءِ ظَهرِه، وهيَ عَلامَةٌ على الخَيبَةِ والخُسران،

{فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً} (الانشقاق : ١١)

١١- فسَوفَ يُنادي بالوَيلِ والهَلاكِ على نَفسِه،

{وَيَصْلَى سَعِيراً} (الانشقاق : ١٢)

١٢- ويَدخُلُ جهنَّمَ ويُقاسي حرَّها وعَذابَها.

{إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً} (الانشقاق : ١٣)

١٣- لقدْ كانَ فِي الدُّنيَا بينَ أهلِهِ فَرِحًا بَطِرًا، مُتَّبِعًا هَواه، لا يُفَكِّرُ بالعَواقِب،

{إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ} (الانشقاق : ١٤)

١٤- واعتقدَ أنَّهُ لنْ يَحيا بعدَ مماتِه، وأنَّهُ لنْ يَرجِعَ إلى اللهِ فيُحاسَبَ على أعمَالِه.

{بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً} (الانشقاق : ١٥)

١٥- بلَى، ســيُعيدُهُ اللهُ كما بَدأه، ويَبعَثُهُ للحِســاب، وكانَ اللهُ عالِمًا بأقوالِهِ وأعمالِهِ كُلِّها، وسيُجازيهِ عَليها.

{فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ} (الانشقاق : ١٦)

١٦- فأُقسِمُ بالشَّفَق. وهوَ الحُمرَةُ التي تُرَى فِي الأُفُقِ بعدَ الغُروب.

{وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ} (الانشقاق : ١٧)

١٧- وباللَّيلِ وما ســاقَهُ وجمعَهُ مِنَ الدَّوابِّ وغَيرِها ممَّا كانَ مُنتَشِــرًا بالنَّهار، فيأوي كلٌّ إلى مَأواه،

{وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ} (الانشقاق : ١٨)

١٨- وبالقمَرِ إذا استوَى واجتمَعَ نورُهُ وصارَ بَدْرًا مُنيرًا،

{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ} (الانشقاق : ١٩)

١٩- ستُلاقُونَ حالاً بعدَ حال، وتُعانُونَ ما قُدِّرَ لكمْ في هذهِ الأطوَار.

{فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} (الانشقاق : ٢٠)

٢٠- فما الذي يَمنَعُهمْ مِنَ الإيمَانِ باللهِ ورسُولِهِ واليَومِ الآخِر، والآياتُ شاهِدَةٌ على الدِّينِ الحقّ؟

{وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ} (الانشقاق : ٢١)

٢١- وما لهمْ إذا تُليَتْ عليهمْ آياتُ القُرآنِ العَظيمِ لا يَسجُدونَ إكرَامًا وإجلالاً، وهوَ يَدعوهمْ إلى الإيمَانِ الصَّحيح، وإقامَةِ العَدل، ومَكارمِ الأخْلاق، والأعمَالِ الجليلَة، والفوزِ والنَّجاةِ في الآخِرَة؟

{بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ} (الانشقاق : ٢٢)

٢٢- بلْ مِنْ سَجيَّةِ المشركِينَ العِنادُ والتَّكذيبُ بالقُرآنِ والمعاد.

{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ} (الانشقاق : ٢٣)

٢٣- واللهُ أعلَمُ بما يُضمِرونَ في صُدورِهمْ مِنَ الشرِّ والسُّوءِ والعَداوةِ لدينِكم.

{فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} (الانشقاق : ٢٤)

٢٤- فأخبِرْهمْ أيُّها الرسُولُ أنَّ اللهَ قدْ هيَّأَ لهمْ عَذابًا شَديدًا.

{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} (الانشقاق : ٢٥)

٢٥- لكنِ الذينَ هَداهمُ الله، فآمَنوا وأخلَصوا وعَمِلوا صَالحًا، لهمْ ثَوابٌ دائم، لا يَنقَطِعُ خَيرُهُ عنهمْ في دارِ الخُلود.

* * *

في حَديثٍ صَحيحٍ أو حسَن، وردَ قَولُهُ صلى الله عليه وسلم: "مَنْ سرَّهُ أنْ يَنظُرَ إلى يَومِ القِيامَةِ كأنَّهُ رَأيُ عَين، فليَقرَأ {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ} و{إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ} و{إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ}. رَواهُ أحمَدُ والحاكمُ والترمذيّ.

سورة البروج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ} (البروج : ١)

١- أُقسِمُ بالسَّماءِ ذاتِ المنَازِلِ التي تَتنَقَّلُ فيها النُّجومُ والكوَاكب، ولا تَتعَدَّاها في جرَيانِها في السَّماء.

{وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ} (البروج : ٢)

٢- وأقسِمُ بيَومِ القِيامَةِ الذي وَعَدَ اللهُ به، ويَفصِلُ فيهِ بينَ الخَلائق، ويُجازِي كُلاًّ بما يَستَحِق.

{وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ} (البروج : ٣)

٣- وأُقسِمُ بيَومِ الجمُعَة، وبيَوم عرَفَة.

صحَّ في حَديثِ الترمذيّ قَولُهُ صلى الله عليه وسلم: "اليَومُ الموعودُ يَومُ القيامَة، واليَومُ المشهودُ يَومُ عرَفَة، والشَّاهِدُ يَومُ الجمُعَة، وما طلَعَتِ الشَّمسُ ولا غربَتْ على يَومٍ أفضلَ منه....".
وقدْ خَصَّ اللهُ يَومَ الجمُعَةِ بالصَّلاةِ المعهودَةِ التي يَجتَمِعُ لها النَّاس، ويَشهَدُهمُ الملائكةُ ويَكتُبونَ ثَوابَهم، وفيها ساعَةٌ يُستَجابُ فيها الدُّعاء.
ومِنْ فَضائلِ يَومِ عَرَفَة، الذي يَجتَمِعُ فيهِ الحُجَّاج، قَولُهُ صلى الله عليه وسلم: "صيامُ يَومِ عَرَفَة، أحتَسِبُ على اللهِ أنْ يُكَفِّرَ السَّنةَ التي قَبلَه، والسَّنةِ التي بَعدَه". رواهُ مُسلمٌ وآخَرون. وصيامُهُ لغَيرِ الحاجّ.

{قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ} (البروج : ٤)

٤- لُعِنَ أصحَابُ الأُخدُود.

وكانَ كفَّارٌ يَحفِرونَ الأُخدُودَ في الأرْض، وهوَ الشَّقُّ الطَّويلُ فيها، ويُؤجِّجونَ فيهِ النَّار، ويُلقُونَ فيهِ المؤمِنين، الذينَ يأبَونَ أنْ يَرجِعوا إلى الكُفر.

{النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ} (البروج : ٥)

٥- وقدْ أوقَدوا في الأُخدُودِ النَّارَ حتَّى صارَ كلُّهُ نارًا مُستَعِرَة.

{إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ} (البروج : ٦)

٦- وأحاطُوا بالنَّارِ قاعِدينَ حَولَها، مُشرِفينَ عَليها.

{وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ} (البروج : ٧)

٧- وهمْ يَشهَدونَ لبَعضِهمُ البَعضِ فيما فعَلوا بالمؤمِنين، وأنَّهُمْ لم يُقَصِّروا في ذلك!

{وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} (البروج : ٨)

٨- وما نقَموا منهمْ هذا الانتِقامَ الفَظيع، إلاّ لكونِهمْ آمَنوا باللهِ الغَالبِ الذي لا يُقهَر، الحَميدِ المستَحِقِّ للحَمدِ والثَّناءِ بإنعامِهِ وإحسانِه، ولأنَّ المؤمنينَ كفَروا بمَعبوداتِهمُ الباطِلَة.

{الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (البروج : ٩)

٩- اللهِ الذي لهُ ما في السَّـماواتِ والأرْضِ وما بينَهما، خَلقًا، ومُلكًا، وتَدبيرًا. واللهُ شـاهِدٌ على كُلِّ شَيء، لا يَغيبُ عنهُ أمْر، ولا تَخفَى عليهِ خافيَة.

{إِنَّ الَّـذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَـاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَـذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَـذَابُ الْحَرِيقِ} (البروج : ١٠)

١٠- إنَّ الـذينَ عـذَّبوا المؤمِنينَ وأحرَقوهمْ ليَرجِعوا عنْ دينِهم، ثمَّ لم يُقلِعوا عنْ كُفرِهم، ولم يَنـدَموا على مـا فعَلوا، فلهمْ عَـذابُ جهنَّم، ولهمْ حَريقٌ مؤجَّجٌ يُحرَقونَ فيـه، جَزاءَ مـا أحرَقوا المؤمِنينَ في الدُّنيا.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ} (البروج : ١١)

١١- إنَّ الذينَ آمَنوا وأخلَصـوا في إيمانِهم، وعَمِلوا الأعمَالَ الصَّـالحةَ الموافِقَة للإسْـلام، لهمْ جنَّاتٌ واسِـعاتٌ يَومَ القِيامَة، تَجري الأنهارُ مِن خِلالِ مسَـاكنِها وأشـجَارِها، وذلكَ هوَ الفَوزُ والنَّجَاة، والسَّعادَةُ العُظمَى.

{إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ} (البروج : ١٢)

١٢- إنَّ انتِقامَ اللهِ مِنْ أعدائهِ المكذِّبين، ومِنَ الجبابرَةِ والظَّالمين، قَويٌّ عَنيف.

{إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ} (البروج : ١٣)

١٣- إنَّهُ القَويُّ القَادِر، الذي يَبدَأُ الخَلقَ، ثمَّ يُعيدُهُ كما بَدأهُ ويَبعَثُه.

{وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ} (البروج : ١٤)

١٤- وهوَ كثيرُ المغفِرَةِ لذُنوبِ عِبادِهِ المؤمنينَ التَّائبين، المحِبُّ لمنْ أطاعَ وأنَاب، المتَودِّدُ إلى عِبادِهِ بالمغفِرَة، المحسِنُ إلى أولِيَائِهِ المكرَمينَ بالجنَّةِ والرِّضْوان.

{ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ} (البروج : ١٥)

١٥- صاحِبُ العَرشِ العَظيمِ، خالِقُهُ ومالِكُه، العَظيمُ في ذاتِهِ وصِفاتِه.

{فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ} (البروج : ١٦)

١٦- وهوَ سُبحانَهُ يَفعَلُ ما يَشَاء، لا مانِعَ يَمنَعُهُ مِنْ ذلك، ولا يُعجِزُهُ شَيءٌ يُريدُه، ولا يُسأَلُ عمَّا يَفعَل.

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ} (البروج : ١٧)

١٧- هلْ بلَغَكَ خبَرُ الجُمُوعِ الكافِرَة، الذينَ تَجنَّدوا على أذيَّةِ أنبِياءِ اللهِ تَعالَى، كيفَ انتقَمَ منهم؟

{فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ} (البروج : ١٨)

١٨- جُنودِ فِرعَون، وثَمودَ قَومِ صالح، الذينَ طغَوا وتجبَّروا، وكذَّبوا أنبياءَه؟

{بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ} (البروج : ١٩)

١٩- بلْ إنَّ الكافِرينَ مِنْ قَومِكَ أيُّها الرسُولُ في شِرْكٍ وعِناد، وتَكذيبٍ عَظيمٍ للقُرآن، ولم يَعتَبِروا بمَنْ كانَ قَبلَهم.

{وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ} (البروج : ٢٠)

٢٠- واللهُ لا يَخفَى عليهِ شَيءٌ مِنْ أعمَالِهم، وهوَ القادِرُ عَليهم، لا يُعجِزونَهُ ولا يفوتونَه، وإذا أرادَ أنزلَ بهمُ العَذابَ كما أنزَلَ بمَنْ قَبلَهم.

{بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ} (البروج : ٢١)

٢١- بلْ هذا القُرآنُ الذي كذَّبوا بهِ كتَابٌ سَماويٌّ شَريف، فيهِ الخَيرُ والفَلاح، والفَوزُ والنَّجَاة، لمنْ آمنَ بهِ وعَمِلَ بما فيه، لا يَحِقُّ تَكذيبُهُ والكُفرُ به.

{فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ} (البروج : ٢٢)

٢٢- وهوَ مَصُــونٌ عنِ التغيُّرِ والتبدُّل، ثابتٌ في اللَّوحِ المحفُوظِ في السَّــماء، الذي أثبتَ اللهُ فيهِ كُلَّ شَيء.

سورة الطـارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَالسَّمَاء وَالطَّارِقِ} (الطارق : ١)

١- أُقسِمُ بالسَّماءِ وما جُعِلَ فيها مِنَ النُّجومِ المضيئةِ باللَّيل.

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ} (الطارق : ٢)

٢- وما أعلمَكَ ما هوَ الطَّارِق؟

{النَّجْمُ الثَّاقِبُ} (الطارق : ٣)

٣- هوَ النَّجمُ المضيءُ الذي يَثقُبُ الظَّلامَ بضَوئه.

وقالوا في عَصــرِنا: هوَ النَّجمُ النيوتروني، الذي لهُ نبَضــاتٌ وطَرَقاتٌ مُنتَظِمَة... في تَفصــيلٍ وإعجَاز.

{إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ} (الطارق : ٤)

٤- كُلُّ نَفسٍ عَليها رَقيبٌ مِنَ اللهِ، يُحصِي ويَحفَظُ عَليها أعمالَها الحسنَةَ والسيِّئة، وهوَ موَكَّلٌ بها بأمرِ اللهِ.

{فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ} (الطارق : ٥)

٥-فليَتفَكَّرِ الإنسَــانُ بعَقلِه، وليَتدبَّرْ في مَبدَإِ خَلقِهِ كيفَ هو، ليَعلمَ أنَّ الذي بَدأ خَلقَهُ قادِرٌ على إعادَتِه.

{خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ} (الطارق : ٦)

٦- لقدْ خُلِقَ مِنْ مَنيٍّ مُتدَفِّق،

{يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} (الطارق : ٧)

٧- يَخرُجُ مِنْ صُـلبِ الرَّجُل، وهوَ عَظمُ ظَهرِهِ الفِقاريَّة، ومِنْ تَرائبِ المرْأَة، وهيَ عِظامُ صَـدرِها العُلويَّة، يَلتَقي الماءَانِ في رَحِمِ المرْأَة.

{إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ} (الطارق : ٨)

٨- واللهُ قادِرٌ على إعادَةِ خَلقِ الإنسَانِ بعدَ مَوتِه.

{يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ} (الطارق : ٩)

٩- في يَومِ القِيامَةِ تَظهَرُ الأسرَار، ويَبدو ما خَفيَ مِنَ الأعمَالِ والعَقائدِ والنيَّات.

{فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ} (الطارق : ١٠)

١٠- وليسَ للإنسَانِ يومَئذٍ قُوَّةٌ يَمتَنِعُ بها بذَاتِه، ولا ناصِرٌ يَنتَصِرُ لهُ ويُنقِذُهُ مِنْ عَذابِ اللهِ.

{وَالسَّمَاء ذَاتِ الرَّجْعِ} (الطارق : ١١)

١١- والسَّـــماءِ ذاتِ المطَرِ؛ لأنَّهُ يَرجِعُ كُلَّ عامٍ ويَتكرَّر. أو لأنَّ السَّـــحابَ يَحمِلُهُ مِنْ بِحارِ الأرْضِ ثمَّ يُرجِعُهُ إلى الأرْض.

وقالُوا في عَصـرِنا: السَّـماءُ تَقومُ بوَظيفَةِ الإرجَاعِ والعَكس، بأمرِهِ سُـبحانَه. فالشَّـمسُ تَجري وتَعودُ لمِكانِها، والقمَرُ يَسـيرُ في مَدارٍ حَولَ الأرْضِ ثمَّ يَرجِعُ إلى مَكانِهِ الأوَّل، والسَّـماءُ تُرجِعُ بُخارَ الماءِ أمطارًا، وتُرجِعُ الأموَاجَ الكهرَطيســـيَّةَ بثًّا، وتُرجِعُ الغازَاتِ في تَقَلُّباتِها إلى ما كانتْ عليه، وكُلُّ ما في السَّماءِ يَرجِعُ إلى مَكانِهِ الأوَّل، بإذنِ اللهِ وتَدبيرِه.

{وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ} (الطارق : ١٢)

١٢- والأرْضِ التي تَنشَقُّ عنِ النَّباتِ والأشجَار، وتَتصَدَّعُ بالعُيونِ والأنهَار.

ويَذكرُ عُلماءُ الأرْضِ في هذا العَصــرِ شــبكةً هَائلةً مِنَ الصُّـــدوعِ على الغِلافِ الصَّـــخريّ الخارجيّ للأرْض، واكتشَـفوا أنَّ الأرْضَ مُتصَـدِّعَةٌ بشُـقوقٍ قسَـموها إلى (٢٤) قِطعَة. كما اكتُشِـفَتْ صُـدوعٌ تُحيطُ بكَاملِ الأرْض، وقالوا: لولا هذهِ الصُّـدوعُ لانفجَرَتِ الكرَةُ الأرْضـيَّةُ مِثلَ القُنبُلَةِ الذرّيَّة!

{إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ} (الطارق : ١٣)

١٣- إنَّ القُرآنَ العَظيمَ حقٌّ وعَدل، يَفصِلُ بينَ الحقِّ والباطِل.

{وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ} (الطارق : ١٤)

١٤- وليسَ هوَ باللَّعبِ والباطِل، بلْ كلُّهُ جِدّ، فمِنَ الواجبِ أنْ يتَّبِعَهُ النَّاسُ ويَهتَدوا به.

{إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً} (الطارق : ١٥)

١٥- إنَّ الكافِرينَ يَمكرونَ بالنَّاسِ ويَخدَعونَهُمْ في دَعوَتِهِمْ إلى خِلافِ القُرآن، وصَـــرفِهِمْ عنِ الإسْلام.

{وَأَكِيدُ كَيْداً} (الطارق : ١٦)

١٦- وأُقابِلُهمْ بمكرٍ مَتينٍ لا يُمكِنُ رَدُّه، فأستَدرِجُهمْ مِنْ حَيثُ لا يَعلَمونَ حتَّى آخُذَهم، وأُتِمُّ نورَ هذا الدِّينِ ولو كَرِهوا.

{فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً} (الطارق : ١٧)

١٧- فأنظِرِ الكافِرينَ وأمهِلْهمْ قَليلاً، ولا تَستَعجِلْ لهم، وسَتَرَى ما يَحِلُّ بهمْ مِنَ العُقوبَةِ والعَذاب.

سورة الأعلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} (الأعلى : ١)

١- قُلْ: سُبحانَ ربِّيَ الأعلى. نَزِّهْ أسماءَهُ الحُسنَى، وذاتَهُ الجليلةَ العليا عمَّا لا يَليقُ بها مِنَ الأوصَاف.

وفي الحَديثِ الصَّحيحِ أنَّهُ صلى الله عليه وسلم كانَ إذا قَرأ {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} قال: "سُبحانَ رَبِّيَ الأعلَى". رواهُ أبو داودَ وأحمَدُ والحاكم.

{الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى} (الأعلى : ٢)

٢- الذي خَلقَ المخلوقاتِ فأتْقَنَ خَلقَها، وأحسَنَ هَيئتَها.

{وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} (الأعلى : ٣)

٣- والذي جعلَ الأشيَاءَ على مَقاديرَ مُعيَّنة، وهَيئاتٍ مَخصوصَة، ووجَّهَ كُلاًّ منها إلى ما يُناسِبُها، وإلى ما خُلِقَتْ له، وألهمَها غايةَ وجُودِها، وقدَّرَ لها ما يُصلِحُها مُدَّةَ بَقائها، وهَداها إليه.

{وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى} (الأعلى : ٤)

٤- والذي أنبتَ ما تَرعاهُ الدَّوابّ، مِنْ صُنوفِ النَّباتاتِ والزُّروعِ الخَضراء.

{فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى} (الأعلى : ٥)

٥- ثمَّ جعلَهُ هَشيمًا باليًا، أميلَ إلى السَّوادِ بعدَ الخُضرَة، ممَّا يَصلُحُ للعلَفِ وغَيرِه.

{سَنُقْرِؤُكَ فَلَا تَنسَى} (الأعلى : ٦)

٦- سنُقرِئكَ ما نُوحي إليكَ مِنَ القُرآنِ أيُّها الرسُول، فلا تَنسَى منهُ شَيئًا،

{إِلَّا مَا شَاء اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى} (الأعلى : ٧)

٧- إلاّ ما شاءَ اللهُ أنْ تَنساهُ - وهوَ المنسوخُ - إنَّهُ يَعلَمُ ما أظهرَهُ العِبادُ مِنَ القَولِ والفِعل، وما أخفَوهُ منهما، فلا يَخفَى عليهِ شَيء.

{وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى} (الأعلى : ٨)

٨- ونُسَهِّلُ عليكَ عملَ الخَير، ونوَفِّقُكَ للطَّريقَةِ السَّهلَةِ في كُلِّ أبوابِ الدِّين، عِلمًا واهتِداءً.

{فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى} (الأعلى : ٩)

٩- فعِظِ النَّاسَ بهذا القُرآن، وذَكِّرْهمْ بدينِ الله، مادامَتِ التَّذكرَةُ مَقبُولَة، والموعِظَةُ مَسمُوعَة.

{سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى} (الأعلى : ١٠)

١٠- سيَتَّعِظُ بدَعوتِكَ مَنْ يَخشَى غضَبَ اللهِ وعَذابَه، ويَحسُبُ حِسابَ الثَّوابِ والعِقابِ يَومَ الجَزاء.

{وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى} (الأعلى : ١١)

١١- ويَبتَعِدُ عَنها الشَّقيُّ الخَائب، المصِرُّ على الكُفر، المنكِرُ للمَعادِ والجَزاءِ على الأعمَال،

{الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى} (الأعلى : ١٢)

١٢- الذي يُلقَى في جهنَّم، ويَذوقُ حرَّها وسَعيرَها المتَّقِد.

وفي صَحيحِ البخاريِّ قَولُهُ صلى الله عليه وسلم: "نارُكُمْ جُزءٌ مِنْ سَبعينَ جُزءًا مِنْ نَارِ جهنَّم".

{ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى} (الأعلى : ١٣)

١٣- ثمَّ لا يَموتُ فيها فيَستَريحُ مِنَ العَذاب، ولا يَحيَا فيها حَياةَ أمنٍ ورَاحَة، بلْ هيَ حَياةُ جَحيمٍ وعَذابٍ دَائم.

{قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى} (الأعلى : ١٤)

١٤- قدْ فازَ ونَجَا مَنْ تَطهَّرَ مِنَ الشِّركِ والمعاصي ومَساوئِ الأخْلاقِ والآدَاب، وأخلصَ العملَ لله.

{وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} (الأعلى : ١٥)

١٥- وذكرَ عَظمَةَ رَبِّهِ وجَلالَه، فصلَّى ما فرَضَ عليه، مُمتَثِلاً أمرَه، مُبتَغياً رِضوانَه.

{بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} (الأعلى : ١٦)

١٦- بلْ تُقَدِّمونَ الدُّنيا على الآخِرَة، حُبًّا للعَاجِل، وجَهلاً بالبَاقي. والكافِرُ يُعرِضُ عنِ الآخِرَةِ كُفرًا بها، والمسلِمُ إذا فَعلَ فلإيثارِ مَعصيَةٍ وغلَبَةِ نَفس، وقَبلَ ذلكَ لضَعفٍ في الإيمَان.

{وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} (الأعلى : ١٧)

١٧- معَ أنَّ تَقديمَ الآخِرَةِ هوَ الذي فيهِ النَّفعُ والفَلاح، فنَعيمُها أفضَل، وأبقَى دَوامًا وعافيَة، والدُّنيَا شَهواتُها مُكدَّرَة، ولذّاتُها فانيَة، وعَليها حِسابٌ وتَبِعات.

{إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى} (الأعلى : ١٨)

١٨- إنَّ هذا الذي ذُكِرَ مُثبَتٌ في الكتُبِ السَّماويَّةِ القَديمَة،

{صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى} (الأعلى : ١٩)

١٩- في صُحُفِ إبراهيمَ وموسَى، عَليهما الصَّلاةُ والسَّلام(١٥٩).

* * *

صحَّ في الحديثِ أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم كانَ يَقرَأُ في الرَّكعتَينِ اللَّتينِ يُوترِ بَعدَهما بـ{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} و{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ}، ويَقرَأُ في الوترِ بـ{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} و{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} و{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}. رواهُ ابنُ حبَّانَ في صَحيحهِ والحاكمُ وغَيرُهما.

سورة الغاشيـة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ} (الغاشية : ١)

١- هلْ جاءَكَ خبَرُ يَومِ القِيامَة، الذي يَغشَى النَّاسَ ويَغمُرُهمْ بأهوَالِهِ وشَدائدِه؟

{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ} (الغاشية : ٢)

٢- وجُوهٌ في ذلكَ اليَومِ تَكونُ ذَليلةً مُهانَة.

---

(١٥٩) صحفُ موسى قبلَ التوراة، وهي عشر. (روح البيان).
موسى كانت له صحفٌ كثيرة، وهي مجموعُ صحفِ أسفارِ التوراة. (التحرير).

{عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ} (الغاشية : ٣)

٣- عَمِلَتْ وجَهَدَتْ وتَعِبَتْ في الدُّنيا، ولكنْ لغَيرِ اللهِ تَعالَى، وعلى غَيرِ مِلَّةِ الإسْـــلامِ التي ارتَضاها لعِبادِه، مثلَ النَّصارَى وغَيرِهم.

{تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً} (الغاشية : ٤)

٤- تُلقَى في نَارٍ شَديدَةٍ مُتَناهيَةٍ في الحرّ.

{تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ} (الغاشية : ٥)

٥- تُسقَى مِنْ عَينٍ حارَّةٍ بجهنَّم، شَديدَةِ الغلَيان.

{لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ} (الغاشية : ٦)

٦- ليسَ لهمْ فيها طَعامٌ إلاّ مِنْ شجَرٍ يُقالُ لهُ ضَرِيع، في غايَةِ النَّتْنِ والمرارَة.

{لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ} (الغاشية : ٧)

٧- هذا الطَّعامُ الخَبيثُ لا يُســمِنُ بدَنًا مِنْ هُزال، ولا يَسُـــدُّ جُوعَ صــاحبِه، بلْ يَزيدُهُ ألَمًا وعَذابًا.

{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ} (الغاشية : ٨)

٨- ووجُوهٌ أخرَى يَومَ القِيامَةِ تَكونُ مُبتَهِجَةً بَهيَّة، مُشرِقَةً ناضِرَة.

{لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ} (الغاشية : ٩)

٩- لعمَلِها الذي عَمِلَتْهُ في الدُّنيَا رَاضيَةٌ مُطمَئنَّة،

{فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ} (الغاشية : ١٠)

١٠- في جنَّةٍ رَفيعَةٍ عاليةِ الدَّرَجات،

{لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً} (الغاشية : ١١)

١١- لا تَسمَعُ فيها كلامًا باطِلاً، وخُصومَةً وصَخَبًا.

{فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ} (الغاشية : ١٢)

١٢- فيها عَينٌ سارِحَة، لا يَنقَطِعُ مَاؤها.

{فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ} (الغاشية : ١٣)

١٣- فيها أسِرَّةٌ عاليَةٌ، ناعِمَةٌ مُزيَّنة.

{وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ} (الغاشية : ١٤)

١٤- وأواني الشَّرابِ لهمْ مُهيَّأة، قَريبَةُ التَّناول.

{وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ} (الغاشية : ١٥)

١٥- ووسَائدُ مَصفوفَةٌ بَعضُها إلى جَنبِ بَعض.

{وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ} (الغاشية : ١٦)

١٦- وبُسُطٌ مُفرَّقَةٌ مَفروشَةٌ في المجالسِ هُنا وهُناك، للرَّاحَةِ والزِّينَة.

{أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ} (الغاشية : ١٧)

١٧- ألَا يَنظرُ هؤلاءِ المكذِّبونَ بالبَعث، إلى هذهِ الإبِلِ العَظيمَةِ كيفَ خلَقها الله؟ فهيَ قَويَّةٌ شَديدَة، يتَناسَبُ تَركيبُها العَجيبُ معَ بيئتِها ووَظيفَتِها، وتُحمَلُ عليها الأحمَالُ الثَّقيلَة، وتَصبِرُ على الجوعِ والعطَشِ والسَّيرِ أيَّامًا، ويُؤكَلُ لَحمُها، ويُشرَبُ مِنْ لبَنِها، ويُنتَفَعُ بوبَرِها...

{وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ} (الغاشية : ١٨)

١٨- وإلى السَّـماءِ العاليَةِ المحكمَةِ كيفَ رَفعَها اللهُ بدُونِ عمَد، وهمْ يُشـاهِدونَها ليلاً ونَهارًا؟ فمَنِ الذي رفعَها هكذا، ومَنِ الذي بثَّ فيها الكوَاكبَ والنُّجومَ الكثيرَةَ وزيَّنَها للنَّاظِرين، ووضعَ لها نَواميسَ دَقيقَةً ثابتَة...؟

{وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ} (الغاشية : ١٩)

١٩- وإلى الجِبالِ كيفَ أُرسِـيَتْ وأُثبِتَتْ في الأرْضِ لئلاّ تَضـطَرِبَ بأهلِها، وفيها مِنَ المعادِنِ والمنافِعِ الكثيرَةِ التي لا يُستَغنَى عنها؟

{وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ} (الغاشية : ٢٠)

٢٠- وإلى الأرْضِ كيفَ بُسِـطَتْ وسُـوِّيَتْ ومُهِّدَت، ليُمكِنَ العَيشُ عَليها والتَّنَقُّلُ فيها، والاسـتِفادَةُ منها، وفيها مِنَ الحيَوانِ والنَّباتِ والجَمادِ ما فيها، أفلا يَنظُرونَ إليها ويَتدَبَّرونَ ما فيها وهمْ يَسيرونَ عَليها؟

{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ} (الغاشية : ٢١)

٢١- فذَكِّرِ النَّاسَ وعِظْهمْ بالكونِ وما فيهِ مِنْ آيات، وبما أرسـلَكَ اللهُ بهِ مِنَ الحقّ، ولا تُلِحَّ عَليهمْ أيُّها الرسُول، فإنَّ وظيفتَكَ الدَّعوةُ والبَلاغ.

{لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ} (الغاشية : ٢٢)

٢٢- لستَ عَليهمْ بمُسَلَّطٍ فتُكرِهَهمْ على الإيمَان،

{إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ} (الغاشية : ٢٣)

٢٣- لكنْ مَنْ أعرضَ عنِ الإيمَان، وكفرَ بالحقّ بعدَ التَّذكير،

{فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ} (الغاشية : ٢٤)

٢٤- فإنَّ اللهَ يُدخِلُهُ النَّارَ يومَ القِيامَة، ويُعَذِّبُهُ عَذابًا كبيرًا دائمًا، أعظمَ وأشـــدَّ وأبقَى ممَّا هوَ في الدُّنيَا.

{إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ} (الغاشية : ٢٥)

٢٥- إنَّ إلينَا وحدَنا رُجوعَهمْ بعدَ الموت.

{ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ} (الغاشية : ٢٦)

٢٦- ثمَّ إنَّ عَلينا مُحاسبتَهمْ على أعمالِهم، وجَزاءَهمُ الذي يَستَحِقُّونَهُ عَليها.

* * *

عنِ النُّعمانِ بنِ بَشـيرٍ قال: كانَ رسُـولُ اللهِ صـلى الله عليه وسـلم يَقرَأُ في العيدَينِ وفي الجُمُعَةِ بـــ{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} و{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ}. قال: وإذا اجتمَعَ العيدُ والجمُعَةُ في يَومٍ واحِدٍ يَقرَأُ بهما أيضًا في الصَّلاتَين. رَواهُ مُسلمٌ وغَيرُه.

سـورة الفـجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَالْفَجْرِ} (الفجر : ١)

١- أُقسِمُ بالفَجر.

وللهِ تَعالَى أنْ يُقسِمَ بما شاءَ مِنْ خَلقِه، لحِكمَة، ولَفتِ نَظَرٍ وتَدَبُّر.

{وَلَيَالٍ عَشْرٍ} (الفجر : ٢)

٢- واللَّيالي العَشرِ الأُوَلِ مِنْ شَهرِ ذي الحِجَّة.

في صَحيحِ ابنِ حِبَّانَ قَولُهُ صلى اللهُ عليه وسلم: "ما مِنْ أيَّامٍ العمَلُ الصَّالحُ فيها أحَبُّ إلى اللهِ مِنْ هذهِ الأيَّامِ العَشرِ...". وهوَ في صَحيحِ البخاريِّ وغيرِهِ بألفاظٍ قَريبة.
وذكرَ بَعضُهمْ أنَّ المقصُودَ العَشرُ الأواخِرُ مِنْ شَهرِ رَمَضان.

{وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ} (الفجر : ٣)

٣- والشَّفْعِ، الذي ذُكِرَ أنَّهُ يَومُ عيدِ الأضحَى، لكونِهِ العاشِرَ، والوَتر: يَومُ عَرَفَة، لأنَّهُ التَّاسِع. وذُكِرَتْ أقوالٌ أُخرى.

{وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ} (الفجر : ٤)

٤- واللَّيلِ إذا سارَ ومضَى.

{هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ} (الفجر : ٥)

٥- هلْ فيما ذُكِرَ مِنَ القسَمِ اكتِفاءٌ لذي عَقلٍ ولُبّ، وإقناعٌ لمنْ لهُ إدراكٌ وفِكر؟ نعم.
قالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ الله: هذا القسَمُ هوَ بأوقَاتِ العِبادَة، وبنَفسِ العِبادَة، مِنْ حَجٍّ وصَلاة، وغَيرِ ذلكَ مِنْ أنوَاعِ القُرَبِ التي يَتقَرَّبُ بها المتَّقونَ المطيعونَ لله، الخائفونَ منه، المتواضِعونَ لدَيه، الخاشِعونَ لوَجهِهِ الكَريم.

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ} (الفجر : ٦)

٦- ألمْ تَعلَمْ كيفَ فعلَ رَبُّكَ بقَبيلَةِ عَاد؟ وكانوا عُتاةً جبَّارينَ مُتمَرِّدين، مُكذِّبينَ للرسُل.

{إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ} (الفجر : ٧)

٧- وهمْ عادٌ الأُوَل، وقدْ يُنسَبونَ إلى جَدِّهِمْ إرَم، أو أنَّهُ تَسميَةٌ للقَبيلَة، أو للمَدينة... صاحِبَةِ العِماد، لأنَّهُمْ كانوا يَسكنونَ الخيام، التي تُرفَعُ بالأعمِدَةِ الشِّداد، وكانوا أشِدَّاءَ أيضًا. أو أنَّ العُمُدَ وَصفٌ للمَدينةِ إرَم، أو لبناءٍ بنَوه.

{الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ} (الفجر : ٨)

٨- التي لم يُخلَقْ مثلُها في عِظَمِ جِسْـــمِ أفرادِها وقوَّتِهم، إذا كانَ المقصـــودُ قَبيلةَ عاد. أو أنَّها البِنايَة، أو المدِينة، ذاتُ البِناءِ العالِي الرَّفيع، أو ذاتُ الأســـاطِين، التي لم يُخلَقْ مثلُها سَـــعَةً وحُسْنَ بُيوتٍ وبَساتينَ في بِلادِ الدُّنيا.

وذُكِرَ في عَصرِنا أنَّها اكتُشِفَتْ تحتَ كُثبانِ الأحقَافِ في مِنطقَةِ ظَفَارِ بعُمَان.

{وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ} (الفجر : ٩)

٩- وانظُرْ كيفَ فعلَ رَبُّكَ بقَبيلَةِ ثَمودَ قَومِ النبيِّ صـالحٍ عليهِ الصَّـلاةُ والسَّـلام، وكانوا مُشـرِكِينَ مُعانِدِينَ أقوِيَاء، يَقطَعونَ الصُّـــخورَ بالجِبالِ في وادي القُرَى، يَنحِتونَهَا ويَثقُبونَهَا ويُزَخرِفونَهَا، ويَجعَلونَهَا بُيوتًا. وما زالَتْ آثارُهمْ مَوجودَةً في "مَدائنِ صالحٍ" ببلادِ الحرَمَين.

{وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ} (الفجر : ١٠)

١٠- وفِرعَونَ صَاحبِ الجُنودِ الذينَ كانوا يُقوُّونَ حُكمَه.

{الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ} (الفجر : ١١)

١١- الذينَ ظلَموا وتجبَّروا في الأرْضِ بالكُفرِ والمعاصي.

{فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ} (الفجر : ١٢)

١٢- وعاثُوا فيها ظُلمًا وأذًى وفَسادًا.

{فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ} (الفجر : ١٣)

١٣-فأنزلَ اللهُ بهؤلاءِ المشرِكينَ المفسِدينَ العُقوبَةَ وأنوَاعَ العَذاب.

{إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} (الفجر : ١٤)

١٤- إنَّ اللهَ يُراقِبُ أعمَالَ العِباد، يَسـمَعُ ما يَقولون، ويرَى ما يَفعَلون، ويَعلمُ ما يُضـمِرون، وسيُجازي كُلاًّ بما يَستَحِقّ.

{فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ} (الفجر : ١٥)

١٥- فإذا اختبَرَ اللهُ الإنسَـانَ بالغِنَى والعافية، فأكرَمَهُ بالمال، ونَعَّمَهُ بما وسَّـعَ عليهِ مِنْ زينَةِ الدُّنيَا، وجعلَ لهُ وَجاهَةً أو مَنصِـبًا، اعتقَدَ أنَّ ذلكَ إكرامٌ مِنَ اللهِ له. وليسَ كذلك، بلْ هوَ ابتِلاءٌ وامتِحانٌ منه، ليَنظُرَ هلْ يَشـكُرُ أمْ يَكفُر، وهلْ يَعدِلُ أمْ يَظلِم، وهلْ يُطيعُ اللهَ أمْ يَعصيه؟

{وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ} (الفجر : ١٦)

١٦- وأمَّا إذا ضـيَّقَ اللهُ عليه، فابتَلاهُ بالفَقر، اعتبَرَ ذلكَ عُقوبَةً لهُ ومَهانَة، وأنَّ اللهَ لو لم يُرِدْ إهانتَهُ لَما ضيَّقَ عليهِ في رِزقِه! وإنَّما أرادَ امتِحانَه، ليَنظُرَ هلْ يَكونُ مؤمِنًا صابِرًا رَاضيًا بقَضاءِ الله، أمْ مُتضَجِّرًا جَزوعًا يائسًا، ضَعيفَ الإيمَانِ ساخِطًا؟

{كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ} (الفجر : ١٧)

١٧- كلاًّ لِما زعَمتُمْ مِنْ أمرِ الابتِلاء، فليسَ بَسطُ الرِّزقِ دَليلاً على الكرَامَة، وليسَ تَضييقُهُ دَليلاً على الإهانَةِ والإهمَال، بلْ لكمْ أفعالٌ أكثَرُ شَـرًّا ممَّا ذُكِر، فإنَّ اللهُ يُكرِمُكمْ بكثرَةِ المال، ولكنَّكمْ لا تَقومُونَ بحقِ العَطاء، ولا تُكرِمونَ اليَتيمَ بالإحسَانِ إليه.

{وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} (الفجر : ١٨)

١٨- ولا يَحُثُّ بَعضُكمْ بَعضًا على إطعَامِ المسكِين، الذي لا يَجِدُ ما يأكُل.

{وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً} (الفجر : ١٩)

١٩- وتأكلونَ الميرَاثَ بشَـراهَةٍ وجشَـع، وتَخلِطونَ بينَ الحَلالِ والحَرَام، وتَجمَعونَ فيهِ بينَ نَصيبِكمْ ونَصيبِ غَيرِكم.

{وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً} (الفجر : ٢٠)

٢٠- وتُحِبُّونَ جَمعَ المالِ حُبًّا كثيرًا طَاغيًا، لا يُبقي في نُفوسِكمْ مَكرُمَةً للإحسَانِ إلى اليَتامَى والمسَاكين.

{كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً} (الفجر : ٢١)

٢١- كلاَّ، لا يَنبَغي أنْ يَكونَ الأمرُ كما أنتمْ عليهِ مِنَ الانحِرافِ والغَفلَة، والحِرصِ على الدُّنيَا وتَرْكِ الأعمَالِ الصَّالحة، وإنَّ أمامَكمْ أهوَالاً عليكمْ أنْ تَحسُبوا حِسابَهَا، فإذا دُقَّتِ الأرْضُ وضُرِبَتْ مرَّةً بعدَ مرَّة، حتَّى انهدَمَ كُلُّ ما عَلى ظَهرِها مِنْ جِبالٍ وأبنيَة وسُوِّيَت.

{وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً} (الفجر : ٢٢)

٢٢- وجاءَ رَبُّكَ للفَصلِ بينَ خَلقِه، وجاءَتِ الملائكةُ صُفوفًا مُتَتابعَة.

{وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى} (الفجر : ٢٣)

٢٣- وأُتِيَ يَومَئذٍ بجَهنَّم، "لها سَبعونَ ألفَ زِمام، معَ كُلِّ زِمامٍ سَبعونَ ألفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَها"، كما في صَحيحِ مُسلم. في ذلكَ اليَومِ يتَّعِظُ الإنسَانُ ويَتذَكَّرُ ما عَمِلَ مِنْ خَيرٍ وشَرٍّ في الحيَاةِ الدُّنيا. وكيفَ يَنفَعُهُ اتِّعاظُهُ وقدْ فاتَ زَمانُه؟

{يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي} (الفجر : ٢٤)

٢٤- يَقولُ نادِمًا على ما سلَفَ منهُ مِنَ المعاصِي، مُتَحسِّرًا على ما فرَّط في جَنبِ الله: يا ليتَني قدَّمتُ أعمَالاً صَالحةً لأنتَفِعَ بها في حيَاتيَ الآخِرَة.

{فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ} (الفجر : ٢٥)

٢٥- فيَومَئذٍ ليسَ أحَدٌ أشدَّ عَذابًا مِنْ تَعذيبِ اللهِ لهذا الكافِرِ المجرِم.

{وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ} (الفجر : ٢٦)

٢٦- وليسَ أحَدٌ أشدَّ قَبْضًا ووَثْقًا بالسَّلاسِلِ مِنَ اللهِ لمَنْ كفرَ وطغَى.

{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ} (الفجر : ٢٧)

٢٧- أيَّتُها النَّفسُ المؤمِنةُ بما قالَ الله، المصَــدِّقَةُ بما وعدَ به، السَّــاكنَةُ إلى حُبِّه، المطمَئنَّةُ إلى ذِكْرِه،

{ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً} (الفجر : ٢٨)

٢٨- ارجِعي إلى ما أعدَّهُ اللهُ لكِ مِنَ الثَّوابِ الجَزيلِ في جنَّتِه، راضِــيَةً بما أعطاكِ مِنَ النَّعيم، مَرضيَّةً عندَ اللهِ بما قدَّمتِ مِنْ طاعَةٍ وعمَلٍ صالح.

{فَادْخُلِي فِي عِبَادِي} (الفجر : ٢٩)

٢٩- فادخُلي في زُمرَةِ عباديَ المؤمِنينَ الصَّالحين،

{وَادْخُلِي جَنَّتِي} (الفجر : ٣٠)

٣٠- وادخُلي جنَّتي في كنَفي ورَحمَتي.

سورة البلـد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ} (البلد : ١)

١- أُقسِـــمُ بالبلَدِ الحَرام، مكَّةَ المكرَّمَة، الذي شـــرَّفَهُ اللهُ بالبَيتِ العَتيق، وحرَّمَهُ يَومَ خلقَ السَّماواتِ والأرْض، وتَبقَى حُرمَتُهُ إلى يَومِ القِيامَة.

{وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ} (البلد : ٢)

٢- ويَزيدُ البلدَ كرامَةً وحُرمَةً أنَّكَ مُقيمٌ بِهِ أيُّها النبيّ. (السُّورةُ مكيَّة).

{وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ} (البلد : ٣)

٣- والوالِدِ الأوَّلِ آدَم، وما وَلَد، مِنْ جَميعِ وَلَدِه.

{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ} (البلد : ٤)

٤- لقدْ خلَقنا الإنسَانَ في تعَبٍ ومَشقَّةٍ ومُكابدَة.[١٦٠] ففي أطوَارِ خَلقِهِ شِدَّةٌ ومَشقَّة، في بَطنِ الأُمّ، ثمّ في زمَنِ الإرضَاع، فالتَربيَةِ والتَّعليم، وتَحصِيلِ المعاش، وما بينَ ذلكَ مِنْ مُعاناةِ المِحَنِ والشَّدائدِ والتَّكاليفِ والصَّبرِ عليها، فمعَاناةِ الموتِ وكربِه، وما بَعدَهُ مِنَ الحشرِ والحِسابِ والجزَاء.

{أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ} (البلد : ٥)

٥- أيَظنُّ هذا المغرورُ أنْ لنْ يَقدِرَ اللهُ على الانتِقامِ منه، وهوَ الذي أعطاهُ الحيَاة، ومَنحَهُ القوَّة، فصَارَ يَظلِمُ ويَبطِش، ويَنهَبُ ويَفجُر... ولا يَحسَبُ أنَّهُ مأخوذٌ بعمَلِه؟

{يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً} (البلد : ٦)

٦- يَقولُ ابنُ آدَم: أنفَقتُ مالاً كثيرًا. يَتبَاهَى بذلكَ ويَتعَاظَم.

{أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ} (البلد : ٧)

٧- أيَظنُّ أنَّ اللهَ لم يَره، ولم يَعرِفْ نيَّتَهُ في الإنفَاق، ولا يَسألُهُ يَومَ القِيامَةِ مِنْ أينَ اكتسبَهُ وفيمَ أنفقَه؟

---

(١٦٠) {فِي كَبَدٍ}: حالٌ من الإنسان، بمعنى: مكابِدًا. وحرفُ (في) و (اللام) متقاربان، تقول: إنما أنتَ للعناءِ والنصَب، وإنما أنت في العناءِ والنصَب. ووجهٌ آخرُ أقوله: {فِي كَبَدٍ} يدلُّ على أن الكبَدَ قد أحاطَ به إحاطةَ الظرفِ بالمظروف... (روح البيان).

{أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ} (البلد : ٨)

٨- ألمْ نَجعَلْ لهُ عَينَينِ يُبصِرُ بهما الأشيَاء؟

{وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ} (البلد : ٩)

٩- ولسانًا يَنطِقُ به، فيُعَبِّرُ بهِ عمَّا في نَفسِه، وشفتَينِ يَستُرُ بهما فمَه، ويَستَعينُ بهما على الكَلام، والأكلِ والشُّرب... فهذا وغيرُهُ مِنْ نِعَمِ اللهِ عليه، ليَعترِفَ بذلكَ ويَشكر، ولا يَغتَرَّ فيَكفُر.

{وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} (البلد : ١٠)

١٠- وهَدَيناهُ طَريقَ الخَيرِ والشرِّ، والحقِّ والباطِل، ليَختارَ أيَّهما شَاء.

{فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ} (البلد : ١١)

١١- فهلاَّ أطاعَ اللهَ وأنفقَ مالَهُ في رِضَاه، ليَتجاوزَ بذلكَ العَقَبةَ التي بينَهُ وبينَ الجنَّة؟[١٦١].

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ} (البلد : ١٢)

١٢- وما أعلمَكَ ما هيَ هذهِ العقَبَة، التي تَتطَلَّبُ إيمانًا وعَزيمَةً قَويَّة، لسُلوكِ الطَّريقِ التي تؤدِّي إلى الفَوزِ والنَّجاة؟

{فَكُّ رَقَبَةٍ} (البلد : ١٣)

١٣- هيَ إعتاقُ رِقابِ الأرقَّاءِ لوَجهِ الله، ليُصبِحوا أحرارًا مثلَ سَائرِ النَّاس، فمنْ أعتقَ رقَبَةً كانَ ذلكَ فِداءَهُ مِنَ النَّار.

---

(١٦١) {الْعَقَبَةَ}: الطريقُ التي في الجبل، سميتْ بذلك لصعوبةِ سلوكها، وهو مثَلٌ ضربَهُ سبحانهُ لمجاهدةِ النفسِ والهوى والشيطانِ في أعمالِ البرّ، فجعلَهُ كالذي يتكلفُ صعودَ العقَبة. (فتح القدير).

{أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ} (البلد : ١٤)

١٤- أو إطعَامٌ في يَومٍ مَجاعَة، حيثُ يَعِزُّ فيهِ الطَّعام.

{يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ} (البلد : ١٥)

١٥- يَتيمًا بينَكَ وبينَهُ قَرَابَة،

{أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ} (البلد : ١٦)

١٦- أو فَقيرًا شَديدَ الفقر، قدْ لَصِقَ بالتُّرابِ لبؤسِهِ وشِدَّةِ ما به.

{ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ} (البلد : ١٧)

١٧- وفَوقَ هذهِ الصِّفاتِ الطيِّبَة، فهوَ مِنَ الذينَ آمَنوا وأخلَصوا في إيمَانِهم، وتقرَّبوا بأعمالِهِمْ لوجهِ اللهِ وحدَه، وأوصَى بَعضُهمْ بَعضًا بالصَّبرِ على فَرائضِه، وقَضائهِ وقدَرِه، والثَّباتِ على طاعَتِه، والرَّحمَةِ بالنَّاس، بالتَّعاونِ على البرِّ والتَّقوى، وبَيانِ سبُلِ الخَيرِ لهم.

{أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ} (البلد : ١٨)

١٨- أولئكَ المتَّصِفونَ بتلكَ الصِّفاتِ الطيِّبَة، همْ أهلُ اليَمين، الذينَ فازُوا بالجنَّةِ والسَّعادَةِ الدَّائمَة.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ} (البلد : ١٩)

١٩- والذينَ كفَروا بالقُرآن، أو بالأدلَّةِ والمعجِزاتِ التي أيَّدْنا بها رسُلَنا، الدَّالَّةِ على صِدقِ رسالاتِهِم، همْ أصحَابُ الشِّمال، مِنَ الأشقِياءِ ذَوي الشُّؤم.

{عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ} (البلد : ٢٠)

٢٠- عَليهمْ نارٌ مُطْبَقَة، قدْ أُغلِقَتْ عَليهمْ أبوَابُ جهنَّم، فهمْ مَحبوسُــونَ فيها، لا خُروجَ لهمْ منها.

سورة الشـمـس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا} (الشمس : ١)

١- أُقسِمُ بالشَّمسِ وضَوئها. وأصفَى ما يَكونُ ضَوؤها في وَقتِ الضُّحَى.

وقسَــمُ اللهِ بمَخلوقاتِهِ لتَوجيهِ النظَرِ إليها وتَدبُّرِها. ولا غِنَى للإنسَــانِ عنِ الشَّــمس: ضَــوئها وحَرارَتِها.

{وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا} (الشمس : ٢)

٢- والقمَرِ إذا تَبعَ الشَّمسَ. فيَكونُ طُلوعُهُ بعدَ غُروبِها، ويَخلُفُها في الإضاءَة.

{وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا} (الشمس : ٣)

٣- والنَّهارِ إذا أظهرَ الأرْضَ وكشفَها بضِيائه.

{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا} (الشمس : ٤)

٤- واللَّيلِ إذا غطَّى الأرْض، فانتَشرَ بهِ الظَّلام.

{وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا} (الشمس : ٥)

٥- والسَّماءِ وبِنائها المتَماسِكِ الذي لا تَرَى فيهِ خلَلاً، وما فيها مِنَ النُّجومِ والأفْلاكِ السَّابِحَةِ في مَداراتِها.

{وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا} (الشمس : ٦)

٦- والأرْضِ وما بسطَها، وجعلَها مُمَهَّدَةً للحيَاة.

{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا} (الشمس : ٧)

٧- ونَفسٍ وما أنشَأها وأبدعَها، وسوَّى أعضاءَها، وجعلَها على الفِطرَة.

{فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} (الشمس : ٨)

٨- فأرشدَها وبيَّنَ لها الخَيرَ والشرّ، وعرَّفَها الحقَّ والباطِل، وما يُصلِحُها وما يَشينُها.

في حَدِيثِ ابنِ عباس، أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم إذا تَلا هذهِ الآيَة: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} وقفَ ثمَّ قال: "اللهمَّ آتِ نَفسـي تَقوَاها، أنتَ وليُّها وخَيرُ مَنْ زَكَّاها". رَواهُ الطبَرانيُّ وحسَّنَ إسنادَهُ في مَجمَعِ الزَّوائد.

{قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا} (الشمس : ٩)

٩- قدْ فازَ وسَعِدَ مَنْ أصلحَ نَفسَهُ وطهَّرَها مِنَ الشِّرْكِ والمعاصِي ومَساوئِ الأخْلاق.

{وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} (الشمس : ١٠)

١٠- وقدْ خابَ وخَسِرَ مَنْ أفسَدَ نَفسَهُ وأغوَاها، وأهلكَها بحَملِها على الكُفرِ والمعصية.

{كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا} (الشمس : ١١)

١١- كذَّبَتْ قَبيلَةُ ثَمودَ نبيَّها صَالحاً، بسبَبِ طُغيانِها وعُدوانِها.

{إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا} (الشمس : ١٢)

١٢- إذْ قامَ أشقَى القَبيلَةِ لعَقرِ النَّاقَة. وكانَ قَويًّا في جسمِه، لهُ عِصابَةٌ تَمنَعُه.

{فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا} (الشمس : ١٣)

١٣- فقالَ لهمْ رَسُولُ اللهِ صالحٌ: احذَروا عَقرَ النَّاقَة، لا تَمَسُّوها بسُوء، ولا تَعرِضُوا للماءِ يَومَ شُرِبها.

{فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا} (الشمس : ١٤)

١٤- فكذَّبوا نبيَّهمْ فيما جاءَ به، فعقَروا النَّاقَة، فغَضِبَ اللهُ عَليهم، بسبَبِ تَكذيبِهمْ رسُولَهم، ومُخالفَتِهمْ أمرَ ربِّهم، فأطبقَ عَليهمُ العَذابَ وأهلكَهمْ جَميعًا، فقدْ كانوا راضِينَ بما فعَلَ شَقيُّهم، ولم يَعترِضوا عَليهم.

{وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا} (الشمس : ١٥)

١٥- ولا يَخافُ اللهُ تَبِعَةَ ما عاقبَهمْ به، فاللهُ قَويٌّ قادِر، يُعاقِبُ كما يَشاء، وهمُ الضُّعَفاءُ الأذِلَّة، الذينَ لا يَستَطيعونَ دَفعَ العَذابِ عنهم، ولا الهُروبَ منه.

سورة الليل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} (الليل : ١)

١- أُقسِمُ باللَّيلِ حينَ يُغَطِّي النَّهارَ بظَلامِهِ، أو كُلَّ ما يوَاريه.

{وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى} (الليل : ٢)

٢- والنَّهارِ إذا ظَهرَ وأشرَقَ بطُلوعِ الشَّمس.

{وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى} (الليل : ٣)

٣- والذي خلقَ الزّوجَين: الذَّكَرَ والأُنثَى.

{إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى} (الليل : ٤)

٤- إنَّ أعمالَكمْ مُختلِفَةٌ مُتفَرِّقَة.

{فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى} (الليل : ٥)

٥- فأمَّا مَنْ أنفقَ مِنْ مالِهِ في سَـــبيلِ اللهِ كما أَمَرَ به، واتَّقَى اللهَ فيما نَهَى عنه، وامتَثلَ لأمرِهِ وأطَاع،

{وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى} (الليل : ٦)

٦- وآمنَ بالكلمَةِ الحُسنَى: لا إلهَ إلاَّ الله، وصدَّقَ بالجَزاءِ والحِساب، والثَّوابِ والعِقاب،

{فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} (الليل : ٧)

٧- فسنُوفِّقُهُ لعمَلِ الخَيرِ في الدُّنيا، وطاعَةِ اللهِ وتَقواه.

{وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى} (الليل : ٨)

٨- وأمَّا مَنْ بَخِلَ بمَالِه، ولم يُنفِقْهُ في وجُوهِ البِرّ، واستَغنَى عنْ ثَوابِ اللهِ ولم يَرغَبْ فيه،

{وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى} (الليل : ٩)

٩- وكذَّبَ بالحقّ، وبالجَزاءِ والحِسابِ يَومَ الدِّين،

{فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} (الليل : ١٠)

١٠- فسنُهيِّئُ أمرَهُ لِما فيهِ مَشقَّةٌ وحرَجٌ وخِذلان، فيَعثُرُ ويَتخَبَّطُ ويَسلُكُ طَريقَ الشَّقاوَة، وإنْ ظنَّ أنَّهُ يَسيرُ في طَريقٍ صَحيح!

{وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى} (الليل : ١١)

١١- ولا يَنفَعُهُ مالُهُ الذي بَخِلَ بهِ إذا مَات، أو إذا هوَى في جهنَّم.

{إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى} (الليل : ١٢)

١٢- إنَّ عَلينا أنْ نُبيِّنَ طَرِيقَ الهُدَى مِنْ طَريقِ الضَّلال.

{وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى} (الليل : ١٣)

١٣- ولنا كُلُّ ما في الحيَاةِ الدُّنيا وما في الآخِرَة، مُلكًا، وتَصرُّفًا فيهما، فأينَ تَذهَبونَ مِنَ الله؟

{فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى} (الليل : ١٤)

١٤- فأبلَغتُكمْ رسَالَةَ الله، وخوَّفتُكمْ نارًا تتوقَّدُ وتتلهَّب،

{لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى} (الليل : ١٥)

١٥- لا يَدخلُها ويَذوقُ حرَّها وسَعيرَها على الدَّوامِ إلاّ الشقيُّ مِنَ النَّاس،

{الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى} (الليل : ١٦)

١٦- الذي كذَّبَ بالدِّين، وأعرضَ عنْ طاعَةِ ربِّه.

والمسلمُ العاصي يأخذُ نَصيبَهُ مِنَ العَذاب - إلاّ أنْ يَعفوَ اللهُ - ولكنْ ليسَ مثلَ العَذابِ الموصُوفِ للكافِرِ الشَّقيّ، فالنَّارُ دركات. وقَصرُ النَّارِ على الكافِرِ في هذهِ الآيةِ أيضًا مِنْ جهةِ دَوامِهِ فيها إلى الأبَد، والمؤمِنُ لا يَخلدُ فيها. أو أنَّ الآيةَ عامَّةٌ تَخُصُّها الآياتُ الدَّالَّةُ على وَعيدِ الفُسَّاق.

{وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى} (الليل : ١٧)

١٧- وسيُبعَدُ عنها ويَنجو المؤمِنُ التقيّ، الملازِمُ لطاعَةِ ربِّه، المنتَهي عمَّا نَهَى عنه.

{الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى} (الليل : ١٨)

١٨- الذي يُنفِقُ مالَهُ في وجُوهِ البرِّ والخَير؛ ليُطهِّرَ بهِ نَفسَه.

{وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى} (الليل : ١٩)
١٩- ولا يَقصِدُ ببَذلِ مالِهِ مُكافَأةَ مَنْ أسدَى إليهِ مَعروفًا،

{إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى} (الليل : ٢٠)
٢٠- ولكنَّهُ يُعطي ابتغاءَ وجهِ ربِّهِ العَليِّ الأعلَى، وطلَبًا لرِضَاه.

(وَلَسَوْفَ يَرْضَى) (الليل : ٢١)
٢١- ولسَوفَ يَرضَى بالثَّوَابِ العَظيمِ الذي يُجازيهِ اللهُ بهِ في الآخِرَة.

سورة الضحى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَالضُّحَى} (الضحى : ١)
١- أُقسِمُ بالضُّحَى. وهوَ صَدرُ النَّهارِ وشَبابُه.

{وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} (الضحى : ٢)
٢- واللَّيلِ إذا سكنَ فأظلَم.

{مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} (الضحى : ٣)
٣- ما ترَكَكَ ربُّكَ وما أبغضَك.
قالَ جُندُبٌ رَضيَ اللهُ عنه: أبطأَ جِبريلُ على رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فقالَ المشرِكون: قدْ وُدِّعَ محمَّد. فأنزلَ الله: {وَالضُّحَى . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}، كما في صَحيحِ مسلم.

{وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى} (الضحى : ٤)

٤- ولَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيرٌ لكَ مِنْ دارِ الدُّنيَا الفانيَة، فهيَ أفضَلُ وأبقَى، وأصفَى وأرْضَى.

{وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} (الضحى : ٥)

٥- ولسَوفَ يُعطيكَ اللهُ في الآخِرَة، مِنَ الكرامَةِ ومِنَ الشَّفاعَةِ في أُمَّتِكَ ما تَرضَى به.

{أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى} (الضحى : ٦)

٦- أمَا وجدَكَ رَبُّكَ طِفلاً يَتيمًا فضمَّكَ إلى مَنْ قامَ بأمرِك؟ فقدْ توفِّيَ والدُهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ قَبلَ أنْ يُولَد، وبعدَ استِرضاعِهِ في بَني سَعدٍ كانَ في حِجرِ جَدِّه، وبعدَ وَفاتِهِ كفلَهُ عمُّهُ أبو طَالب.

{وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى} (الضحى : ٧)

٧- ووجدَكَ غافِلاً عنِ الشَّرائعِ والرِّسالات، فهَداكَ للتَّوحيد، وأنزَلَ عليكَ القُرآن، وعلَّمَكَ ما لم تَكنْ تَعلَم.

{وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى} (الضحى : ٨)

٨- وكنتَ فَقيرًا، فأغناكَ اللهُ بالتِّجارَة.

{فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ} (الضحى : ٩)

٩- فكما كنتَ يَتيمًا، فلا تَحتَقِرِ اليَتيمَ ولا تَستَذِلَّه، ولكنْ أحسِنْ إليهِ وتلطَّفْ به.

{وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ} (الضحى : ١٠)

١٠- وكما كنتَ فَقيرًا، فلا تَزجُرِ السَّائلَ المحتاج، ولكنْ تفَضَّلْ عليهِ بشَيء، أو رُدَّهُ بقَولٍ جَميل.

{وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} (الضحى : ١١)

١١- وكما كنتَ ضـالاً فأنعمَ اللهُ عليكَ وهَداكَ إليه، فبَلِّغْ ما أُرسِـلتَ به، وحَدِّثْ بما أوحِيَ إليكَ وأقرِئهُ وبيِّنه، فإنَّ التحَدُّثَ بنعمَةِ الله، وخاصَّـةَ نِعمَةَ الهُدَى والإيمَان، مِنْ صُـوَرِ الشُّـكرِ للمُنعِم، يُكمِلُها البِرُّ بعِبادِه، والإحسَانُ إليهم.

سورة الشـرح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} (الشرح : ١)

١- أمَا جعَلنا صَدرَكَ فَسيحًا رَحيبًا، رَضيًّا مُطمَئنًّا، بالإيمَانِ والنبوَّة، والعِلمِ والحِكمَة؟

{وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ} (الشرح : ٢)

٢- وغفَرنا لكَ ما سـلَفَ منكَ في الجاهليَّة. أو خفَّفنا عنكَ حِمْلَك، بأنْ قَوَّيناكَ على تَحَمُّلِ أعباءِ الرِّسالَة،

{الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ} (الشرح : ٣)

٣- الذي أثقلَ ظَهرَك، وشقَّ عَليكَ حَملُه؟

{وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} (الشرح : ٤)

٤- ورفَعنا ذِكرَكَ بالنبوَّةِ في الوجُودِ كُلِّه، فأرسَـلناكَ للنَّاسِ كافَّة، وأعلَينا قَدْرَكَ في القُرآن، وجعَلنا اسمَكَ مَقرونًا باسـمِ اللهِ تَعالَى في شَـهادَةِ التَّوحيد، وتُذكَرُ في كُلِّ أذانٍ وإقامَة، وفي الخُطبَةِ على المَنابِر، وفي الصَّلوات، حتَّى قيامِ السَّاعَة.

{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً} (الشرح : ٥)

٥- فإنَّ معَ الشدَّةِ والضِّيقِ الذي أنتُمْ فيهِ تَيسيرًا وفرَجًا.

{إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً} (الشرح : ٦)

٦- إنَّ معَ كُلِّ ضِيقٍ وعُسرٍ فرَجًا ومَخرَجًا.

{فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ} (الشرح : ٧)

٧- فإذا فرَغتَ مِنْ شَـواغِلِ الدُّنيَا وأمورِ النَّاس، فتوَجَّهْ إلى الله، واتعَبْ في عِبادَتِه، واجهَدْ في الدُّعاءِ والتضَرُّعِ إليه.

{وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ} (الشرح : ٨)

٨- واجعَلْ رَغبتَكَ إلى اللهِ وحدَهُ في جَميعِ أحوالِك، والتَجِئْ إليه، ولا تَسـأَلْ غيرَه، فلا تَيسـيرَ إلاّ منه، ولا تَوفيقَ إلاّ به.

سـورة التيــن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ} (التين : ١)

١- والتِّين. هوَ ثمَرُ الفـاكهَةِ اللَّذيذ، الذي ذُكِرَ أنَّهُ شَـــبيهٌ بفَواكهِ الجنَّة. مِنْ أغنَى الفَواكهِ بالفِيتامِينات، غِذاءٌ ودَواء.

والزَّيتون. مِنَ الشجرَةِ المبارَكة، الذي يُؤكَل، ويُعصَر، ويُوقَدُ منه، ويُدَّهَنُ به، ذو مَنفَعَةٍ عَظيمَة، وطَعمٍ مميَّز، ونَكهَةٍ طيّبة.

وأقسمَ اللهُ بهما لبرَكتِهما ومَنفَعَتِهما العَظيمَة، وللهِ أنْ يُقسِمَ بما شاءَ مِنْ مَخلوقَاتِه.

{وَطُورِ سِينِينَ} (التين : ٢)

٢- والجبَلِ الذي نُوديَ مِنْ جانبِهِ موسَى عليهِ السَّلام. ويُقالُ لهُ طُورُ سَيناء.

{وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ} (التين : ٣)

٣- وهذا البلَدِ الآمِنِ مكَّةَ المكرَّمَة، الذي يأمَنُ فيهِ مَنْ دخلَهُ على نَفسِهِ ومالِه.

{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} (التين : ٤)

٤- لقدْ خلَقنا جنسَ الإنسَانِ في أفضَلِ صُورَة، وأعدَلِ قامَة، وأحسَنِ تَركيب.

{ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ} (التين : ٥)

٥- ثمَّ جعَلناهُ في أسفَلِ الأمَاكنِ السَّافِلَة، وهوَ الدَّرْكُ الأسفَلُ مِنَ النَّار، لأنَّهُ لم يُطِعْ رسُلَ الله، واستَكبرَ عنِ اتِّباعِ الحقّ، ولم يَشكُرْ نِعمَةَ اللهِ وما ميَّزَهُ بهِ مِنَ العَقلِ والخَلقِ الحسَن.

{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} (التين : ٦)

٦- إلاّ مَنْ آمَنَ وعمِلَ صَالحًا، فإنَّهُمْ لا يُرَدُّونَ إلى النَّار، بلْ يُجازَونَ إحسَانًا، وثَوابًا لا يَنقَطِعُ خَيرُهُ ورِفدُه.

{فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ} (التين : ٧)

٧- فما الذي يَجعَلُكَ مُكذِّبًا بالمعادِ والجَزاءِ أيُّها الإنسَان، بَعدَما عرَفتَ قُدرَةَ اللهِ على الخَلق؟ فهوَ قادِرٌ على إعادَةِ الخَلقِ مرَّةً أُخرَى.

{أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ} (التين : ٨)

٨- أليسَ اللهُ بأعدَلِ العادِلينَ حينَ يَحكمُ في أمرِ العالَمين، ومِنْ عَدلِهِ أنْ يُقِيمَ القِيامَة، ليُنصِفَ المظلومَ ممَّنْ ظلَمَهُ في الحيَاةِ الدُّنيا؟ بلَى.

سورة العلـق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَطلَعُ هذهِ السُّورَةِ هوَ أوَّلُ ما أُنزِلَ مِنَ القُرآنِ الكريم.

{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} (العلق : ١)

١- اقرَأ ما يُوحَى إليكَ أيُّها النبيُّ مِنَ القُرآن، مُبتَدِئًا باسمِ الله، الذي خلقَ كُلَّ شَيء.

{خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ} (العلق : ٢)

٢- خَلقَ الإنسـانَ مِنْ عَلَقَة. وهيَ قِطعَةٌ مِنْ دَمٍ غَليظٍ مُتجَمِّد، تتَعلَّقُ بجِدارِ الرَّحِم، بعدَ استِقرارِ النُّطفَةِ فيهِ أربَعينَ يَومًا.

{اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ} (العلق : ٣)

٣- اقرَأْ ما أُمِرْتَ بهِ أيُّها النبيّ، ورَبُّكَ كثيرُ الكرَمِ والإحسَـانِ إلى العِباد، ومِنْ كرَمِهِ أنْ علَّمَهمْ أنواعَ العُلوم.

{الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ} (العلق : ٤)

٤- الذي علَّمَ الخطَّ والكتابَةَ بواسِـطَةِ القلَم، الذي هوَ أوسَـعُ وأعمَقُ أدَواتِ التَّعليمِ أثرًا في حيَاةِ الإنسَان، فبهِ تُحفَظُ العُلوم، وتُضبَطُ الحقُوق، وتُقَيَّدُ الأحكَام...

{عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} (العلق : ٥)

٥- جعلَ للإنسـانِ عَقلاً، وذاكرَة، وقُدرَةً على التعَلُّم، وعلَّمَهُ ما لم يَعلَمْ مِنَ الأُمُور، ممَّا لا يَبلغُهُ عِلمُهُ وعَقلُهُ مَهما اجتهَد، وهوَ الذي علَّمَ آدمَ الأسماءَ كُلَّها أوَّلاً، ثمَّ تناقلَتْها ذُرِّيَّتُهُ خلفًا بعدَ سلَف...

{كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى} (العلق : ٦)

٦- كلاّ لمنْ كفرَ بنعمَةِ الله. إنَّ الإنسَانَ ليَتجاوَزُ حدَّه، ويَستَكبِرُ فيَكفرُ بربّه، ويَستَغرِقُ في حُبِّ الدُّنيَا،

{أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى} (العلق : ٧)

٧- إذا رَأى نَفسَهُ غَنيًّا، فكثُرَ مالُه، وزادَتْ آثارُ النّعمَةِ عليه، ونَسيَ المنعِمَ عليه.

{إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى} (العلق : ٨)

٨- إنَّ إلى رَبِّكَ المرجِعَ والمصِيرَ لا إلى غَيرِه، فيُحاسِبُكَ على مالِكَ وأعمالِك.

{أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى} (العلق : ٩)

٩- أرأيتَ هذا المشرِكَ (أبا جَهلٍ) الذي يَمنَع؟

{عَبْداً إِذَا صَلَّى} (العلق : ١٠)

١٠- يَمنَعُكَ مِنَ الصَّلاةِ أيُّها الرسُولُ ويَقولُ لك: ألمْ أنْهَكَ عنْ هذا؟ يَقولُ ذلكَ مِرارًا.

{أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى} (العلق : ١١)

١١- أرأيتَ إنْ كانَ هذا المصَلّي قائمًا على صِراطٍ مُستَقيم، مُهتَديًا بالحقّ المبِين؟

{أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى} (العلق : ١٢)

١٢- أو آمِرًا بالتَّوحيد، داعيًا إلى الحقِّ والإحسَانِ والعَدل، مُرَغِّبًا في العمَلِ الصَّالحِ ومَكارِمِ الأخْلاق؟

{أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى} (العلق : ١٣)

١٣- أرأيتَ إنْ كانَ هذا المشرِكُ الذي يَمنَعُكَ مِنَ الصَّلاةِ مُكذِّبًا بالحقّ، مُعرِضًا عنِ الإيمَان؟

{أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} (العلق : ١٤)

١٤- ألمْ يَعلَمْ بأنَّ اللهَ يَسمَعُ ما يَقول، ويرَى ما يَفعَل، وسيَجزيهِ شرًّا على ما أساءَ وعصَى؟

{كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ} (العلق : ١٥)

١٥- كلاَّ لهُ ولفِعلِه، إذا لم يَنتَهِ عنْ إيذائكَ وتَكذيبِك، ولم يَرجِعْ عنِ العِنادِ والشِّقاقِ الذي هوَ فيه، لنَأخُذَنَّ بناصيَتِهِ ونَسحَبُهُ بها إلى النَّارِ يَومَ القِيامَة[١٦٢].

{نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ} (العلق : ١٦)

١٦- صاحِبُ هذهِ النَّاصيَةِ كثيرُ الكذِبِ والمعاصِي.

{فَلْيَدْعُ نَادِيَه} (العلق : ١٧)

١٧- فليَدْعُ أهلَ مَجلسِه، مِنْ أهلِهِ وعَشيرَتِه، وليَستَنصِرْ بهم.

وقدْ قالَ أبو جَهلٍ لرسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم: إنَّكَ لتَعلَمُ ما بها نادٍ أكثَرُ منّي.

{سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ} (العلق : ١٨)

١٨- ونحنُ سنَدعو زَبانيَةَ جهنَّم، مِنَ الملائكةِ الغِلاظِ الشِّداد، ليَجرُّوهُ إلى النَّارِ ويُعَذِّبوهُ فيها.

{كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ} (العلق : ١٩)

١٩- كلاَّ لهذا المشرِكِ المجرِم، لا تُطِعْهُ فيما يَنهاكَ عنِ الصَّلاةِ أيُّها النبيّ، فإنَّ اللهَ حافِظُكَ وناصِرُك، وصَلِّ للهِ واسجُدْ لهُ غَيرَ مُبالٍ بهِ وبتَهديدِه، وتقرَّبْ بذلكَ إلى ربِّك.

---

(١٦٢) الناصية: مقدَّمُ شعرِ الرأس. (ابن عطية).

وكانت العربُ تأنفُ من جرِّ الناصية. وفي "عين المعاني": الأخذُ بالناصيةِ عبارةٌ عن القهرِ والهوان. (روح البيان).

وفي صَحيحِ مسلمٍ قَولُهُ صلى الله عليه وسلم: "أقرَبُ ما يَكونُ العَبدُ مِنْ ربِّهِ وهوَ ساجِد، فأكثِروا الدُّعاء".

سورة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} (القدر : ١)

١- إنَّا أنزَلنا القُرآنَ في لَيلةِ القَدْر: ليلةٍ مُبارَكة، ذاتِ قَدْرٍ وكرَامَة، وشَرَفٍ ومَقامٍ عَالٍ، مِنْ شَهرِ رمَضان.

وقدْ نزَلَ جُملةً واحِدَةً مِنَ اللَّوحِ المحفوظِ إلى السَّماءِ الدُّنيَا، ثمَّ نزلَ مُفَصَّلاً بحسَبِ الوقائعِ في ثَلاثٍ وعشرينَ سنةً على رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، كما صَحَّ ذلكَ عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهما.

وورَدَ في صَحيحِ مُسلِمٍ عنْ ليلةِ القَدْرِ قَولُهُ صلى الله عليه وسلم: "التَمِسُوها في العَشرِ الأواخِر، فإنْ ضَعُفَ أحَدُكمْ أو عَجَز، فلا يُغلَبَنَّ على السَّبعِ البَواقي".

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ} (القدر : ٢)

٢- وما الذي تَدري مِنْ عظمَةِ هذهِ اللَّيلَةِ ومَكانَتِها وعُلوِّها؟

{لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ} (القدر : ٣)

٣- العمَلُ الصَّالحُ في لَيلةِ القَدر، خَيرٌ مِنْ عمَلِ ألفِ شَهرٍ ليسَ فيها ليلةُ القَدْر.

{تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ} (القدر : ٤)

٤- يكثُرُ نُزولُ المَلائكةِ وجبريلَ - ذُكِرَ لمكانَتِهِ - في هذهِ اللَّيلَة، لفَضلِها وشَرَفِها، ولكثرَةِ برَكتِها وما فيها مِنَ الرَّحمَة، بأمرِ ربِّهم، لأجلِ كُلِّ أمرٍ تعلَّقَ بِهِ التَّقديرُ والتَّكريم، وتُقضَى فيها الأمُور، وتُقدَّرُ الآجَالُ والأرزَاق {فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} [سورة الدخان: ٣].

{سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ} (القدر : ٥)

٥- واللّيلةُ كلُّها خَيرٌ ونَفعٌ وبرَكة، وأمنٌ وسَلامٌ مِنْ كُلِّ مَكروهٍ وأمرٍ مَخُوف، حتَّى طُلوعِ الفَجر.

سورة البيّنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ} (البينة: ١)

١- لم يَكنِ الذينَ كفَروا مِنَ اليَهود، والنَّصارَى، والذينَ أشرَكوا مِنْ عبدَةِ الأوثَانِ وغَيرِها، مُنتَهينَ عمَّا همْ عليهِ مِنَ الكُفرِ والضَّلال، حتَّى يأتيَهمْ ما يُبيِّنُ لهمُ الحقّ. وهوَ هذا القُرآن، الذي يُبيِّنُ لهمْ ضَلالَهمْ وانحِرافَهم، ويَدعُوهمْ إلى الإيمَانِ والإسْلام. فمَنْ آمنَ فقدْ أُنقِذَ مِنَ الجَهالَةِ والضَّلالَة.

{رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً} (البينة : ٢)

٢- نبيٌّ مُرسَلٌ مِنْ عندِ الله، هوَ محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، يَقرَأُ ما تَتضمَّنُهُ الصُّحُفُ مِنَ القُرآنِ العَظيمِ عنْ ظَهرِ قَلبِه، المنزَّهةُ مِنَ الكُفرِ والزُّورِ والشَّكّ، والكَذِبِ والشُّبُهات.

{فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ} (البينة : ٣)

٣- في تلكَ الصُّحُفِ آياتٌ صادِقَة، وأحكامٌ عادِلَةٌ مُستَقيمَة، تَهدي إلى الحقّ.

{وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ} (البينة : ٤)

٤- وما تَفرَّقَ أهلُ الكتابِ مِنَ اليَهودِ والنَّصارَى وغَيرِهم، إلاّ بعدَ أنْ أقامَ اللهُ عليهمُ الحُجَجَ والبيِّنات، ثمَّ اختلَفوا؛ بَغيًا بينَهم، وجَهلاً منهم، ولسُوءِ نيَّاتٍ عندَهم، ولعِناد، وهوًى... قالَ المفَسِّرون: لم يَزَلْ أهلُ الكتابِ مُجتَمِعينَ في تَصديقِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم حتَّى بعثَهُ الله، فلمَّا بُعِثَ تَفرَّقوا في أمرِهِ واختلَفوا، فآمنَ بَعضُهمْ وكفرَ آخَرون.

{وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ} (البينة : ٥)

٥- والحالُ أنَّهمْ لم يُؤمَروا في كتُبِهمْ إلاّ بعِبادَةِ اللهِ وحدَه، وعدَمِ الإشراكِ به، وإخلاصِ العِبادَةِ لهُ تَعالَى، مائلينَ مِنْ جَميعِ العَقائدِ والأدْيانِ الضَّالَّةِ إلى دِينِ اللهِ الإسْلام، وأنْ يُقيموا الصَّلاةَ المفروضَةَ عليهم، ويُحافِظوا عَليها في أوقَاتِها، ويُعطُوا زَكاةَ أموالِهِمْ إلى الفُقَراءِ والمحتَاجين. وما ذُكِرَ هوَ الملَّةُ المستَقيمَة، والشَّريعَةُ العادِلَة. أو الأمَّةُ المستَقيمَةُ المعتَدِلَة.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ} (البينة : ٦)

٦- إنَّ الذينَ كفَروا مِنْ أهلِ الكتَاب، مِنَ اليَهودِ والنَّصارَى وغَيرِهم، والمشرِكينَ مِنْ عبَدَةِ الأوثَانِ والأفْلاكِ وغَيرِها، مِنَ العرَبِ والعجَم، مَصيرُهمْ نارُ جهنَّمَ يَومَ القِيامَةِ، ماكثينَ فيها أبدًا، لا يَموتونَ فيها، ولا يَتحوَّلونَ عنها، أولئكَ همْ أسوَأُ الخليقَةِ أعمَالاً.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ} (البينة : ٧)

٧- إنَّ الذينَ آمَنوا وأخلَصوا في إيمَانِهم، وعَمِلوا الأعمَالَ الحسَنَةَ الموافِقَةَ للشَّريعَة، أولئكَ همْ أحسَنُ الخليقَةِ أعمَالاً.

{جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ} (البينة : ٨)

٨- ثَوابُهمْ على إيمَانِهِمْ وطاعتِهِمْ يَومَ القِيامَةِ جنَّاتُ إقامَةٍ دائمَة، تَجري مِنْ تَحتِ أشــــجارِها الأنهَار، خالدينَ فيها، لا يَبغونَ عنها تَحوُّلاً، لِما فيها مِنَ السَّــعادَةِ والنَّعيم. رَضــيَ اللهُ عنهم، ورِضـوانُهُ سُبحانَهُ أعلَى ما أُوتُوهُ مِنْ النَّعيم. ورضُـوا عنهُ فيما منحَهمْ مِنْ فَضـلِهِ العَميم، ممَّا لا عَينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خطَرَ على قَلبِ بشَر. وهذا الثَّوابُ الجَزيل، هوَ لمنْ خَشِيَ اللهَ في الدُّنيا ولم يُخالِفْ أمرَه.

سورة الزلـزلـة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا} (الزلزلة : ١)

١- إذا حُرِّكَتِ الأرْضُ واضْطربَتْ اضْطِرابًا عَنيفًا ومُتكرِّرًا.

{وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا} (الزلزلة : ٢)

٢- وألقَتْ ما في بَطنِها مِنَ الكنوزِ والموتَى، مِنَ الأوَّلينَ والآخِرين.

{وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا} (الزلزلة : ٣)

٣- وتَعجَّبَ الإنســانُ مِنْ أمرِها وقال: ما لها تزَلزَلَتْ هذا الزِّلزالَ العَنيف، وقدْ كانتْ ســاكنَةً ثابِتَة؟

{يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا} (الزلزلة : ٤)

٤- في ذلكَ اليَومِ تُخبِرُ الأرْضُ بما عَمِلَ العامِلونَ على ظَهرِها.

{بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا} (الزلزلة : ٥)

٥- بأنَّ اللهَ أمرَها أنْ تَنشَقَّ عنِ الموتَى، وأنْ تُخبِرَ بما عُمِلَ عَليها.

{يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ} (الزلزلة : ٦)

٦- يومَئذٍ يَخرُجُ النَّاسُ مِنْ قُبورِهمْ إلى مَوقفِ الحِســـابِ مُتفَرّقِين، أنواعًا وأصــنافًا وفِرَقًا، لِيُحاسَبوا على أعمَالِهِمْ ويُجازَوا عَليها، خَيرًا كانتْ أو شَرًّا.

{فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ} (الزلزلة : ٧)

٧- فمَنْ يَعملْ مِثلَ وَزنِ ذَرَّةٍ مِنَ العمَلِ خَيرًا يُجْزَ بِهِ خَيرًا، ويُضاعِفُ اللهُ لمنْ شاء.

{وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ} (الزلزلة : ٨)

٨- ومَنْ يَعمَلْ مِثلَ وَزنِ ذَرَّةٍ مِنَ العمَلِ شَرًّا يُجْزَ بهِ شَرًّا.

ويَومَئذٍ لا يَحقِرُ الإنسَـانُ شَـيئًا مِنْ عمَلِه، خَيرًا كانَ أو شَـرًّا، وكُلُّ ذلكَ يَكونُ بحِسَـابٍ دَقيق، فليَنظُرِ الإنسانُ ما يَقولُ وما يَفعَل.

وفي حديثٍ رواهُ أحمدُ وغيرُهُ وصُحّحَ، أنَّ صَعْصَعَةَ بنَ مُعاوية أتَى النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فقَرأَ عليه {فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَـرّاً يَرَهُ}، قال: حسْبي، لا أُبالي أنْ لا أسمَعَ غيرَها!

سورة العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً} (العاديات : ١)

١- والخيلِ العَاديةِ للمُجاهِدينَ في سَـبيلِ الله، التي تَجري بسُــرعَةٍ نَحوَ العَدوّ، وتُخرِجُ صَـوتَ أنفاسِها حينَ عَدْوِها.

{فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً} (العاديات : ٢)

٢- فالتي تَقدَحُ النَّارَ منِ اصطِكاكِ حَوافرِها بالحِجارَةِ حينَ تَجرِي.

{فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً} (العاديات : ٣)

٣- فالتي تُغِيرُ على العَدوِّ بفُرسانِها عندَ الصَّباح.

{فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً} (العاديات : ٤)

٤- فأثارَتِ الغُبارَ بمكانِ سَيرِها أو مُعتَرَكِها وهيَّجَتْهُ، لِسُرعَتِها وحرَكاتِها القويَّةِ المتَتالية.

{فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً} (العاديات : ٥)

٥- فدَخلَتْ في وسَطِ جُموعِ الأعدَاءِ غِرَّةً، فأوقعَتْ بينَهمُ الفَوضَى والاضْطِراب.

{إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ} (العاديات : ٦)

٦- إنَّ الإنسَانَ لجَحودٌ لنِعَمِ اللهِ عَليه، مُنكِرٌ لفَضلِه(١٦٣)،

{وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ} (العاديات : ٧)

٧- وإنَّهُ لَشاهِدٌ على جُحودِهِ بما يَصنَع، وبما يَظهَرُ مِنْ أثَرِهِ عليه.

{وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} (العاديات : ٨)

٨- وإنَّهُ لَشديدُ المحبَّةِ للمَال.

---

(١٦٣) قال الشيخ الطاهر بن عاشور رحمه الله:

أي أن في طبع الإنسان الكُنودَ لربه، أي كفرانَ نعمته، وهذا عارض يعرض لكل إنسان على تفاوتٍ فيه، ولا يسلم منه إلا الأنبياء وكُمَّل أهل الصلاح؛ لأنه عارض ينشأ عن إيثار المرء نفسه، وهو أمر في الجبلَّة، لا تدفعه إلا المراقبة النفسية وتذكُّرُ حقّ غيره. وبذلك قد يذهل أو ينسَى حق الله، والإنسان يحس بذلك من نفسه في خطراته، ويتوانى أو يغفل عن مقاومته؛ لأنه يشتغل بإرضاء داعية نفسه. والأنفس متفاوتة في تمكن هذا الخُلق منها، والعزائم متفاوتة في استطاعة مغالبته. وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: {وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ . وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} (التحرير والتنوير).

{أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ} (العاديات : ٩)

٩- أيَفعَلُ ما يَفعَلُ دونَ حِسَابٍ لِما يأتيه؟ أفلا يَعلَمُ إذا أُخرِجَ ما في القُبورِ مِنَ الأموَات؟

{وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ} (العاديات : ١٠)

١٠- وأُظهِرَتِ الأسرَارُ المخبَّأةُ في النُّفوس، التي كانَ يُضَنُّ بها عنِ العُيون؟

{إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ} (العاديات : ١١)

١١- إنَّ ربَّهُمْ عالِمٌ بذَواتِهِمْ وأحوَالِهِمْ وأسـرَارِهِمْ في ذلكَ اليَوم، وسـيُجازيهِمْ عَلى ما عَمِلوا بما يَستَحِقُّون.

سورة القارعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{الْقَارِعَةُ} (القارعة : ١)

١- القارِعَةُ يَومُ القِيامَة، لأنَّها تَقرَعُ القُلوبَ بالفزَعِ والهَول.

{مَا الْقَارِعَةُ} (القارعة : ٢)

٢- ما هيَ هذهِ القارِعَةُ التي تُفزِعُ القُلوبَ وتُزَلزِلُها؟

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ} (القارعة : ٣)

٣- وأيُّ شَيءٍ يُدريكَ عنْ شَأنِ القارِعَةِ وأحوالِها وأهوالِها؟

{يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ} (القارعة : ٤)

٤- في ذلكَ اليَومِ يَكونُ النَّاسُ كالفَراشِ المنتَشِرِ المتفَرِّق، في ذَهابِهِمْ ومَجيئهم، وحَيرَتِهمْ واضْطِرابِهِم، مِنْ هَولِ ذلكَ اليَومِ وشِدَّتِه.

{وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ} (القارعة : ٥)

٥- وتَكونُ الجِبالُ كالصُّوفِ المفرَّق، المتَطايرِ أجزاؤهُ في الجوّ، بعدَ أنْ كانتْ هذهِ الجِبالُ راسِخَةً في الأرْض، شامِخَةً في الجوّ.

{فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ} (القارعة : ٦)

٦- فأمَّا مَنْ رجحَتْ حَسنَاتُهُ على سيِّئاتِه،

{فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ} (القارعة : ٧)

٧- فهوَ في حَياةٍ كريمَةٍ مَرضيَّةٍ في الجنَّة.

{وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ} (القارعة : ٨)

٨- وأمَّا مَنْ رَجحَتْ سيِّئاتُهُ على حَسنَاتِه، أو لم تَكنْ لهُ حسَناتٌ يُعتَدُّ بها،

{فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ} (القارعة : ٩)

٩- فمَأواهُ جهَنَّم، يَهوي فيها إلى قَعرِها البعيد، لا مَسكنَ لهُ غَيرُها.

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ} (القارعة : ١٠)

١٠- وما أدراكَ ما هيَ هذهِ الهاويةُ التي يَقَعُ فيها، وما وَصفُها؟

{نَارٌ حَامِيَةٌ} (القارعة : ١١)

١١- إنَّها نارٌ شَديدَةُ الحَرّ، تُسعَرُ وتَلتَهِب، وزادَتْ حَرارَتُها على حَرارَةِ نارِ الدُّنيَا سَبعينَ ضِعفًا.

سورة التـكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} (التكاثر : ١)

١- شَـغلَكمُ التَّفَاخُرُ والتَّنافُسُ في الأموَالِ والأوْلادِ وحُبِّ الدُّنيَا وزَخارفِها، وغَفَلتُمْ عنْ طاعَةِ ربِّكمْ والعمَلِ لآخِرَتِكم.

{حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ} (التكاثر : ٢)

٢- حتَّى جاءَكمُ الموت، وانتقَلتُمْ إلى المقابِر، وصِرتُمْ مِنْ أهلِها.

{كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ} (التكاثر : ٣)

٣- كلاّ ليسَ الأمرُ بالتَّنافُسِ والتَّكاثُرِ بالدَّنيَا وأعرَاضِـها، سَـوفَ تَعلَمونَ مَغبَّةَ ما أنتُمْ عليهِ عندَما يُفاجِئكمُ الحِساب.

{ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ} (التكاثر : ٤)

٤- ثمَّ كلاَّ لتكاثُرِكمْ وانشِغالِكمْ بالدُّنيَا، سَوفَ تَعلَمونَ ذلكَ يَومَ البَعثِ والنُّشور.

{كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ} (التكاثر : ٥)

٥- كلاَّ، لو تَعلَمونَ حَقَّ العِلمِ ما يَستَقبِلُكمْ مِنَ الحِسابِ والجَزاء، لَما ألهَاكمُ التَّكالُبُ على الدُّنيَا عنِ العمَلِ للآخِرَة.

{لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ} (التكاثر : ٦)

٦- أُقسِمُ أنَّكمْ سترَوْنَ الجَحيمَ الذي أعَدَّهُ اللهُ للكافِرين.

{ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ} (التكاثر : ٧)

٧- ثمَّ إنَّكمْ ستروَنَّها مُشاهدَةً بأبصارِكمْ يَومَ القيامَة. تأكيدًا بأنَّ الرؤية ستَكونُ بالعَينِ لا مَجازًا.

{ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} (التكاثر : ٨)

٨- ثمَّ لتُحاسَبُنَّ على النَّعيمِ الذي تلذَّذْتُمْ به، وتَكاثَرتُمْ وتَفاخَرتُمْ بهِ في الحَياةِ الدُّنيَا، هلْ قُمتُمْ بشُكرِه، وأدَّيتُمْ حقَّه، واستعَنتُمْ بهِ على طاعَةِ الله، أمْ أنَّكمُ اغترَرتُمْ بهِ ولم تَشكروا للمُنعِمِ بهِ عليكم، واستعَنتُمْ بهِ على مَعاصيه؟

والنَّعيمُ يُطلَقُ على أقَلِّ ما يُتنعَّمُ به، ولو لم يَكنْ ظاهِرًا، والتَّمرُ والخُبزُ والماءُ – مثَلاً – نِعَمٌ كبيرةٌ مِنْ نِعَمِ اللهِ تَعالَى.

والسُّؤالُ يَكونَ عنْ شُكرِ ما أنعَمَ اللهُ بهِ على الإنسَان، مِنَ الرِّزق، والأمن، والصحَّة، والمرَكَب، والملبَس...

سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَالْعَصْرِ} (العصر : ١)

١- أُقسِمُ بالعَصرِ. وهوَ الزَّمان، الذي يَعيشُ فيهِ الإنسَان، وتقَعُ فيهِ أعمالُه.

{إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ} (العصر : ٢)

٢- إنَّ الإنسَانَ لَفي خَسارَةٍ في عمُرِه، لانشِغالِهِ بالدُّنيَا، واستِغراقِهِ في مَصالحِه، وصَرفِ وَقتِهِ في مَطالبِهِ وأهوَائه، وإهلاكِ نَفسِهِ بالمعاصِي،

{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} (العصر : ٣)

٣- إلاّ الذينَ آمَنوا وصـدَقوا في إيمَانِهم، وأدَّوا ما فرَضَ اللهُ عليهم، وعمِلوا الأعمَالَ الصَّـالحةَ الموافِقَةَ للدِّين، وأخلَصـوا بها لوَجهِ اللهِ تَعالَى، وأوصَـى بَعضُـهمْ بَعضًـا بالتَّوحيدِ والإخْلاصِ في الطَّاعَة، وباتِّباعِ أمرِ اللهِ كُلِّه، وتَواصَـوا كذلكَ بالصَّـبرِ على الشَّـدائدِ والمصـائب، وعلى الجِهادِ والدَّعوَة، وعلى طاعَةِ اللهِ سُبحانَه، وعلى تَركِ المنكَراتِ والمعاصِي.

فهؤلاءِ لَيسُوا في خُسرَان: الذينَ جمَعوا بينَ الإيمَان، والعمَلِ الصَّالح، والتَّواصي بالحقّ، والتَّواصي بالصَّبر؛ بلْ همُ الفَائزون.

سورة الهُمَـــزَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ} (الهُمَزَة : ١)

١- الوَبالُ والعَذابُ لكُلِّ مَنْ يَعيبُ النَّاسَ ويَغتابُهم، فيَهمِزُهمْ بقَولِه، أو يَغُضُّ منهمْ ويَزدَريهمْ ويَسخَرُ منهمْ فيَلمِزُهمْ بفِعلِه، بإشارَةٍ مِنْ يَدِهِ أو عَينِه... يُحاكي حرَكاتِهمْ وأصواتَهم، أو يُحَقِّرُ صِفاتِهمْ وسِماتِهم.

{الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ} (الهُمَزَة : ٢)

٢- الذي جَمعَ مالاً واستَلَذَّ بعَدِّهِ وإحصَائه، حُبًّا لهُ وشغَفًا به، فألهَاهُ عنِ اتِّباعِ الحقِّ وشُكرِ المنعِمِ علَيه.

{يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ} (الهُمَزَة : ٣)

٣- يَظنُّ أنَّ مالَهُ سيُخلِدُهُ في هذهِ الحيَاةِ الدُّنيَا، فتَراهُ لا يَمَلُّ مِنْ جَمعِه، والتَّكاثُرِ به، وتَطويلِ أمانيِّه، والتوَسُّعِ في مَشاريعِه.

{كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ} (الهُمَزَة : ٤)

٤- كلاَّ، لنْ يُفلِحَ في هذا، ولنْ يُخلِدَهُ مالُه، واللهِ ليُطرَحَنَّ في نَارِ جهنَّم، التي تُحَطِّمُ كُلَّ مَنْ يُلقَى فيها.

{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ} (الهُمَزَة : ٥)

٥- وما يُدريكَ ما هيَ الحُطَمَةُ وما وَصفُها؟

{نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ} (الهُمَزَة : ٦)

٦- إنَّها نارُ اللهِ العَظيمَةُ، الموقَدَةُ بأمرِهِ.

{الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ} (الهُمَزَة : ٧)

٧- التي تَعلو فتُحرِقُ أهلَها حتَّى تَبلُغَ قُلوبَهُمْ وهمْ أحيَاء، فيَكونُ الألَمُ بالِغًا.

{إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ} (الهُمَزَة : ٨)

٨- والنَّارُ مُطْبَقَةٌ عَليهمْ مُغلَقَة، لا يَقدِرونَ على الخُروجِ منها.

{فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ} (الهُمَزَة : ٩)

٩- مَوثوقُونَ في أعمِدَةٍ وأوتادٍ مُطوَّلة.

سورة الفيــــل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} (الفيل : ١)

١- ألمْ ترَ أيُّها النبيُّ كيفَ انتقمَ اللهُ لبَيتِهِ مِنْ أصحابِ الفِيل، الذينَ قَدِموا مِنَ الحبَشَةِ ومعَهمْ أفيالٌ لهَدمِ الكعبَة، بينَها فيلٌ ضَخمٌ جِدًّا، فأبادَهمُ الله؟
وكان ذلكَ مِنْ إرهاصَاتِ النبوَّة، فقدْ وُلِدَ الرسُولُ صلى الله عليه وسلم في ذلكَ العام.

{أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ} (الفيل : ٢)
٢- ألمْ يَجعَلْ مَكرَهمْ وتَخطِيطَهمْ لتَخريبِ الكعبَةِ في إبطَالٍ وضَياع، ولم يُمَكِّنْهمْ مِنْ تَحقيقِ هدَفِهم؟

{وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ} (الفيل : ٣)
٣- وسَلَّطَ عَليهِمْ جَماعاتٍ مُتَتابِعَةً مِنَ الطَّير.

{تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ} (الفيل : ٤)
٤- تَرميهمْ بِحجارَةٍ مِنْ طينٍ مُتَحَجِّر.

{فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ} (الفيل : ٥)
٥- فأهلكَهم، وجعلَهمْ كورَقِ شجَرٍ جافٍّ أكلَتْهُ الدوابُّ ومَضغَتْه. أو كتِبنٍ أكلَتْهُ فرَاشَتْه، فيَبِسَ وتفرَّقَتْ أجزَاؤه!

سورة قريـــش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ} (قريش : ١)
١- لأجلِ التَّسهيلِ على قُرَيشٍ وتَدبيرِ مَصالِحِهم، والتَّيسيرِ لِما كانوا يألَفونَهُ ويَعتادُونَه،

{إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ} (قريش : ٢)

٢- أُلْفَتِهِمْ في رِحلتَينِ تِجاريَّتينِ آمِنتينِ لهم: رِحلَةِ الشِّتاءِ إلى اليَمَن، ورِحلَةِ الصَّيفِ إلى الشَّام، أنعَمنا عَليهِمْ بهذا الائتِلاف، والسَّيرِ آمِنينَ في الرِّحلَتَين؛ لكونِهِمْ جِيرانَ الحَرَم.

{فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ} (قريش : ٣)

٣- فليَعبُدوا اللهَ رَبَّ البَيتِ الحرامِ ولْيوَحِّدوه، ولْيُخلِصوا لهُ الطَّاعَة،

{الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ} (قريش : ٤)

٤- الذي وفَّقَهمْ للائتِلافِ في هاتَينِ الرِّحلتَين، وأطعمَهمْ بسبَبِهما مِنْ جُوعٍ شَديدٍ كانُوا فيه، وبلادُهمْ جِبالٌ وأرْضٌ قَفْرَة. وأنعمَ عَليهِمْ بنِعمَةِ الأمَانِ فيهما، فلا يَتعرَّضُ لهمْ أحَدٌ في أسفارِهِمُ الطَّويلَة، ولا يُغِيرُ عَليهِمْ أحَدٌ في بلَدِهم، وهمْ يرَونَ النَّاسَ يُتَخَطَّفونَ مِنْ حَولِهم!

سورة الماعــــون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ} (الماعون : ١)

١- أرَأيتَ أيُّها النبيُّ هذا الذي يُكذِّبُ بالبَعثِ بعدَ الموت، وبالحِسابِ والجَزاءِ على الأعمَال؟

{فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ} (الماعون : ٢)

٢- فذلكَ المكَذِّبُ الكافِر، هوَ الذي يَزجُرُ اليَتيمَ الصَّغيرَ ولا يُعطيهِ حقَّه.

{وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} (الماعون : ٣)

٣- ولا يُطعِمُ المسكِينَ الذي لا يَجِدُ شَيئًا يأكلُه، ولا يأمرُ أهلَهُ ببَذلِ الطَّعامِ له، لأنَّهُ لا يؤمِنُ بالجزَاء، ولا يَعتَقِدُ بأنَّ لهُ ثَوابًا على خَيرٍ يُقَدِّمُه.

{فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ} (الماعون : ٤)

٤- فوَيلٌ وهَلاكٌ للَّذينَ يُصَلُّون،

{الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ} (الماعون : ٥)

٥- وهُمْ غافِلونَ عَن صَـــلاتِهم، غَيرُ مُبالينَ بها، فتَفوتُهُمْ بالكلِّيَّة، أو يُصَــلُّونَ ويَترُكون، أو يُخرِجونَها عنْ وَقتِها، أو لا يُصَــلُّونَها كما صَــلاَّها رَسُــولُ اللهِ صــلى الله عليه وســلم بأركَانِها وشُروطِها.

{الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ} (الماعون : ٦)

٦- الذينَ همْ يُرَاؤونَ النَّاس، فيَعمَلونَ حيثُ يرَونَهم، بقَصــدِ الثَّناءِ عَليهم، وليسَ للإخْلاصِ بها لله.

وحَقيقَةُ الرِّياءِ طلَبُ ما في الدُّنيَا بالعِبادَة، وأصــلُهُ طلَبُ المنزِلَةِ في قُلوبِ النَّاس، كما قالَ القُرطُبيّ.

{وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ} (الماعون : ٧)

٧- ويَمنَعونَ زَكاةَ أموالِهِمْ للفُقَراء، وأنواعَ الخَيرِ والبِرّ والمعروفِ بالنَّاس، ومـا يَكونُ بينَ الجيرانِ مِنِ استِعارَةِ أمتِعَةِ البَيتِ ونَحوِها.

سورة الكوثـــر

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ} (الكوثر : ١)

١- إنَّا أعطَيناكَ الخَيرَ الكَثير. ونَهرُ الكوثرِ في الجنَّةِ مِنَ الخَيرِ الذي أعطَاهُ اللهُ تَعالَى لرَسُولِه.

وفي الحَديثِ قَولُهُ صلى اللهُ عليه وسلم: "بينَما أنا أسِيرُ في الجنَّة، إذا أنا بنَهرٍ حافتَاهُ قِبابُ الدُّرِّ المجوَّف، قلتُ: ما هذا يا جِبريل؟ قال: هذا الكوثَرُ الذي أعطاكَ رَبُّك. فإذا طِيْبُهُ أو طِينُهُ مِسْكٌ أذْفَر". رَواهُ البخاريُّ في صَحيحِه.

والمِسكُ الأذفَرُ هوَ الجيِّدُ إلى الغايَة.

{فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} (الكوثر : ٢)

٢- وكما أنعَمنا عَليكَ بالخَيرِ الكَثير، وأعطَيناكَ ما لم نُعطِهِ أحَدًا مِنَ العالَمين، مثلَ نَهرِ الكَوثَر، فأدِّ حقَّ الشُّكرِ لرَبِّك، وداوِمْ على الصَّلاةِ له، فهيَ جامِعَةٌ لأقسَامِ الشُّكر، وانحَرِ البُدْنَ - التي هيَ خِيارُ أموَالِ العرَبِ - على اسمِ اللهِ وحدَه، وتَصدَّقْ بها على المحتَاجين.

{إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} (الكوثر : ٣)

٣- إنَّ مُبغِضَكَ ومُنتَقِصَكَ أيُّها الرسُولُ الكَريم، هوَ المنقَطِعُ ذِكْرُهُ وخَيرُه. أمَّا أنت، فيُخلَدُ ذِكرُك، ويَكثُرُ أنصارُك، وتَبقَى آثَارُ فَضلِك، إلى يَومِ القِيامَة.

سورة الكافــرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ} (الكافرون : ١)

١- قُلْ أيُّها الرسُولُ لكفَّارِ قُرَيشٍ قَطعًا لأطمَاعِهمْ - ويَشمَلُ كُلَّ كافِرٍ -: أيُّها الكافِرون،

{لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} (الكافرون : ٢)

٢- لا أعبُدُ ما تَعبُدونَ مِنَ الأصْنامِ والأوثَان، فمَعبُودي غَيرُ مَعبُودِكم.

{وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} (الكافرون : ٣)

٣- ولا أنتُمْ عابِدونَ اللهَ، الذي أعبُدُهُ ولا أُشرِكُ به، فمَعبُودُكمْ غَيرُ مَعبُودي.

{وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ} (الكافرون : ٤)

٤- ولا أنا عابِدٌ مِثلَ عِبادَتِكمْ ولا أقتَدي بها، فهيَ كُفرٌ وشِرك، إنَّما أعبُدُ اللهَ تَعالَى على الوَجهِ الذي يأمرُني بهِ ويَرضَاه.

{وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} (الكافرون : ٥)

٥- ولا أنتُمْ عابِدونَ مِثلَ عِبادَتي ومُقتَدونَ بي، فأنتُمْ مُقَلِّدونَ تَعبُدونَ بأهوَائكم، ولا تتَّبِعونَ ما يأمرُ اللهُ به.

{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} (الكافرون : ٦)

٦- لكمْ دينُكمُ الكُفر، وليَ دِينيَ الإسْلام.

وليسَ هذا إقرارًا لهمْ على الكُفر، ولكنْ بَيانٌ بأنَّ كلًّا باقٍ على دينِه، لا يَتجاوَزُهُ إلى الآخَرِ ما دامَ راضيًا به وعامِلًا له ومُصرًّا عليه. فتَكونُ الآيةُ مُحكَمَةً غيرَ مَنسوخَة.

ومَنْ قالَ إنَّ مَعناها: إذا لم تَقبَلوا منِّي ولم تتَّبِعوني فدَعُوني وشَأني ولا تَدْعُوني إلى الشِّرك، قالَ إنَّها مَنسُوخَةٌ بآيَةِ السَّيف.

سورة النصـــر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} (النصر : ١)

١- إذا جاءَكَ عَونُ اللهِ وتأييدُهُ أيُّها الرسُول، وأظهرَكَ على عَدوِّك، وتمَّ فَتحُ مكَّةَ المكرَّمَة،

{وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً} (النصر : ٢)

٢- ورَأيتَ النَّاسَ يَدخلُونَ في دِينِ الإسْلامِ زُمَرًا وأرسَالاً، القَبيلَةُ بأسرِها، والقَومُ بأجمَعِهم، مِنْ غَيرِ قِتال...

وكانتْ قَبائلُ وأحياءُ العرَبِ تَنتَظِرُ فَتحَ مكَّةَ لإعْلانِ إسْلامِها، ويَقولون: إذا ظَهرَ محمَّدٌ (صلى الله عليه وسلم) على قَومِهِ فهوَ نبيّ. فلمَّا فَتحَ اللهُ عليهِ مكَّةَ دخَلوا في دِينِ اللهِ أفواجًا، ولم تَمضِ سنَتانِ حتَّى اجتمَعَتْ جَزيرَةُ العرَبِ على الإيمَانِ والإسْلام.

{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً} (النصر : ٣)

٣- فنَزِّهِ اللهَ، حامِدًا لهُ مُثنيًا عليه، على هذهِ النِّعمَةِ العَظيمَة، واطلُبْ منهُ المغفِرَةَ لذُنوبِك، إنَّهُ كثيرُ قَبولِ التَّوبَةِ مِنْ عِبادِهِ التَّائبين.

وكانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إذا رَكعَ تأوَّلَ هذهِ الآيةَ وقال: "سُبحانَكَ اللهمَّ ربَّنا وبحَمدِكَ اللهمَّ اغفِرْ لي"، كما في صَحيحِ البخاريّ وغَيرِه.

وسبَبُ الحثّ على الاستِغفارِ هوَ قُرْبُ حُضورِ أجَلِ الرسُولِ صلى اللهُ عليهِ وسلم، ومِنْ نِعمَةِ اللهِ على عَبدِهِ أنْ يوَفِّقَهُ للتَّوبَةِ النَّصوحِ والاستِغفارِ قَبلَ الموت، ليَلقَى ربَّهُ تائبًا مَغفورًا له.

وقدْ أُمِرَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بالاستِغفارِ بعدَ قيامِهِ بتَبليغِ الرسالَةِ والجِهادِ في سَبيلِه، ودُخولِ النَّاسِ في دِينِ اللهِ أفواجًا، والتَّوبَةُ مَشروعَةٌ عَقِبَ الأعمَالِ الصَّالحة؛ طلَبًا للإخْلاصِ فيها، ورَغبةً في قَبولِها، وليَزدادَ المرءُ بها فَضلاً ودرَجة، ولئلّا يَغترَّ بعَمَلِه، والمرءُ مُقَصِّرٌ في عِبادَةِ ربِّهِ مَهما اجتهَد، وقدْ يُحسِنُ في جانِبٍ دونَ آخَر، والمسلمُ يَستَغفِرُ اللهَ بعدَ صَلاتِهِ وهيَ طاعَة، والملائكةُ تَقولُ لربِّها: "سُبحانَك، ما عبَدْناكَ حقَّ عِبادَتِك"، كما رَواهُ الحاكمُ وصحَّحه.

سورة المسد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} (المسد : ١)

١- خابَتْ وخَسِرَتْ يَدا أبي لَهَب. واليَدانِ كنايَةٌ عنِ الذَّات.

وقدْ تَحقَّقتْ خسارَتُهُ وهَلاكُه. وهوَ عَمُّ الرسُولِ صلى الله عليه وسلم، وكانَ شَديدَ المعاداةِ لهُ ولدَعوَةِ الإسْلام. وكانَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ نادَى قُرَيشًا، فاجتمَعوا، فقالَ لهم: إنِّي نَذيرٌ لكمْ بينَ يَدَي عَذابٍ شَديد، فقالَ لهُ أبو لهب: تُبًّا لكَ سائرَ اليَومِ ألهذا جمَعتَنا؟ فنَزلَتِ السُّورَة.

{مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ} (المسد : ٢)

٢- لا يُغني عنهُ مالُهُ ولا أولادُهُ شَيئًا، ولا يَدفَعونَ عنهُ عَذابَ اللهِ إذا حلَّ به.

{سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ} (المسد : ٣)

٣- سيَدخُلُ نارَ جهنَّمَ ذاتَ اللَّهَبِ والشَّرَر، ويُقاسِي حَرَّها وعَذابَها.

{وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ} (المسد : ٤)

٤- وامرَأَتُهُ ستَصلَى معَهُ النَّار. وقدْ كانتْ عَونًا لزَوجِها في إيذاءِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ذُكِرَ أنَّها كانتْ تَنثُرُ الشَّوكَ في طَريقِه!

{فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ} (المسد : ٥)

٥- في عُنُقِها حَبلٌ مِنْ لِيفٍ مَفتولٍ تُشَدُّ بهِ في النَّار، وتُعَذَّبُ به.

سورة الإخـــلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} (الإخلاص : ١)

١- قُلْ: هوَ اللهُ الواحِدُ الأحَد، لا ثانيَ له، ولا شَبيهَ له، وحدَهُ الكامِلُ في صِفاتِهِ وأفعالِه.

{اللَّهُ الصَّمَدُ} (الإخلاص : ٢)

٢- اللهُ الذي يُقصَدُ في الحَوائجِ والرَّغائب، الكُلُّ مُحتاجٌ إليهِ وهوَ غَيرُ مُحتاجٍ إلى أحَد، ولا يُقضَى أمرٌ إلاّ بإذنِه.

{لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ} (الإخلاص : ٣)

٣- لمْ يَتوَلَّدْ منهُ شَيء، فليسَ لهُ ولَد.

ولم يَتوَلَّدْ هوَ عنْ شَيء، فلا أبَ لهُ ولا أُمّ، فهوَ ليسَ بوالدٍ ولا مَولود. سُبحانَه، فهوَ مَوجودٌ قَبلَ وجُودِ الأشَياء.

{وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ} (الإخلاص : ٤)

٤- ولم يوجَدْ لهُ مُماثِلٌ أو مُكافِئٌ في الوجُودِ كُلِّه، ولم يُشاكِلْهُ أحَد، فلا شَبيهَ لهُ في ذاتِه، ولا في صِفاتِه، ولا في أفعالِه.

* * *

وفَضائلُ هذهِ السُّورَةِ الكريمَةِ كثيرَة، منها قَولُهُ صلى الله عليه وسلم: "أيَعجِزُ أحَدُكمْ أنْ يَقرَأَ في ليلَةٍ ثُلُثَ القُرآن"؟ قالوا: وكيفَ يَقرَأُ ثُلُثَ القُرآن؟ قال: "قُلْ هوَ اللهُ أحَدٌ تَعدِلُ ثُلُثَ القُرآن". رَواهُ مسلمٌ وغَيرُه.

سورة الفلـــق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} (الفلق : ١)

١- قُلْ: ألتَجِئُ وأعتَصِمُ باللهِ رَبِّ الصُّبح، أو هوَ كلُّ ما يَفلقُهُ الله، كفَلقِ الأرْضِ عنِ النَّبات، والسَّحابِ عنِ الأمطَار، والأرحَامِ عنِ الأولاد...

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ (الفلق : ٢)

٢- مِنْ شَرِّ كُلِّ ذي شَرٍّ خَلقَهُ الله.

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ (الفلق : ٣)

٣- ومِنْ شَرِّ القمَرِ إذا دخلَ في الخسُوف.

قالتْ عائشَةُ رَضيَ اللهُ عنها: نظرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى القمَرِ فقال: "يا عائشَة، استَعيذي باللهِ مِنْ شَرِّ هذا، فإنَّ هذا الغَاسِقُ إذا وقَب". رَواهُ الترمذيُّ والحاكمُ وأحمَدُ بإسنادٍ صَحيح.

ويورِدُ المفَسِّرونَ مَعنَى الآيَةِ بأنَّه: اللَّيلُ إذا أظلَم.

والظَّلامُ يَنتَشِرُ عندَ الخسُوفِ أيضًا، وخاصَّةً عندَ اكتِمالِ دُخولِهِ إلى مِنطَقَةِ ظِلِّ الأرْض، حيثُ يَخسِفُ كامِلُ قُرصِ القمَر.

﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ (الفلق : ٤)

٤- ومِنْ شَرِّ السَّواحِرِ اللَّواتي يَعقِدْنَ العُقَدَ في الخُيوطِ ويَنفُخْنَ فيها، ليَضرُرْنَ النَّاسَ بسِحرِهِنّ.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ (الفلق : ٥)

٥- ومِنْ شَرِّ حاسِدٍ إذا أظهَرَ ما في نَفسِهِ مِنَ الحسَد، وأحَبَّ زَوالَ النِّعمَةِ عنْ غَيرِه، ولم يَرْضَ بما قسَمَ اللهُ له.

* * *

قالَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "يا عُقبةَ بنَ عامر، إنَّكَ لنْ تَقرَأَ سُورَةً أحَبَّ إلى اللهِ ولا أبلغَ عندَهُ مِنْ أنْ تَقرَأَ {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ}، فإنِ استَطَعتَ أنْ لا تَفوتَكَ في صَلاةٍ فافعَل".
رواهُ ابنُ حِبَّانَ في صَحيحِهِ وأحمدُ والحاكمُ بإسنادٍ صَحيح، واللَّفظُ للأوَّل.

سورة النـــاس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ} (الناس : ١)
١- قُلْ: ألتَجِئُ وأعتَصِمُ بربِّ النَّاس: خالقِهمْ ورازِقِهمْ والمنعِمِ عَليهم، ومُدَبِّرِ شُؤونِهم، ومُحييهمْ ومُميتِهم.

{مَلِكِ النَّاسِ} (الناس : ٢)
٢- مَلِكِ النَّاسِ وحاكمِهمْ والمتَصَرِّفِ فيهم.

{إِلَهِ النَّاسِ} (الناس : ٣)
٣- إلهِهِمْ ومَعبودِهمُ الحقّ.

{مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ} (الناس : ٤)
٤- مِنْ شَرِّ الشَّيطانِ ووَسوَسَتِه، الذي هوَ أصْلُ الشُّرورِ كُلِّها، الذي يَختَفي ويَتأخَّرُ إذا ذُكِرَ الله.

{الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ} (الناس : ٥)

٥- الذي يَنتَظِرُ غَفلةَ الإنسَـانِ وسَـهوَه، فإذا غَفَلَ وَسـوَسَ في صَـدرِهِ خُفيَة، وألقَى في نَفسِـهِ الهَوَاجِسَ والأوهَام، والخواطِرَ السـيِّئة، وزَيَّنَ لهُ المعصـيَة، وحسَّـنَ لهُ الشـرَّ وأرَاهُ إيَّاهُ في صُـورَةٍ حسَنَة، وثبَّطَهُ عنْ فِعْلِ الخَير.

{مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ} (الناس : ٦)

٦- هذا الموسـوِسُ هوَ مِنْ شَـياطينِ الجِنِّ والإنس، فقدْ يَكونُ الشَّـيطانُ إنسـيًّا أيضًـا، مِثلَ صَـديقِ السُّـوء، والبِطانَةِ السـيِّئة، والكاهِن، والمنَجِّم، والنمَّام، وبائعِ الشَّـهوات، وغَيرِهِمْ ممَّنْ يَنصِبونَ أحابيلَ الشرِّ ويَدخُلونَ القُلوبَ مِنْ مَنافذِها الخفيَّة.

* * *

وللمُعَوِّذاتِ فَضـائلُ كثيرَة، وهيَ السُّـوَرُ الثَّلاثُ الأخيرَةُ مِنَ القُرآن، فقدْ صـحَّ في الأحَاديثِ أنَّها تُقرَأُ دُبُرَ الصَّلواتِ المكتوبات، وتُقرَأُ ثَلاثَ مرَّاتٍ في كُلِّ ليلَة، وهيَ رُقْيَةٌ شَرعيَّةٌ يُستَشفَى بهنّ.

وقالَ رسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم: "يا عُقبةَ بنَ عامر، ألَا أعَلِّمُكَ سُوَرًا ما أُنزِلَتْ في التَّوراةِ ولا في الزَّبورِ ولا في الإنجِيلِ ولا في الفُرقانِ مِثلُهنّ، لا يأتيَنَّ عَليكَ ليلَةٌ إلاَّ قرَأتَهُنَّ فيها: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} و{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} و{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}". قالَ عُقبَة: فما أتَتْ عليَّ ليلةٌ إلاَّ قرَأتُهنَّ فيها، وحُقَّ لي أنْ لا أدَعَهُنَّ وقدْ أمرَني بهنَّ رسُـولُ اللهِ صـلى الله عليه وسلم. رَواهُ أحمدُ بإسنادِ حسَن.

* * *

تمَّ والحمدُ لله

بدَأتُ بهِ صَباح يَومِ الجمُعَة، الخامسِ والعشرينَ مِنْ شَهرِ رَبيعٍ الأوَّل، منْ سنةِ ١٤٢٨ هـــ، وانتهَى تَصنيفًا وصَفًّا ومُراجعةً عَصرَ يَومِ الأربعاءِ، الثَّالثِ والعِشرينَ مِنْ شَهرِ اللهِ المحرَّم، مِنْ سنَةِ ١٤٣٠هـ.

ثمَّ راجَعتُهُ كاملاً في شَهرِ القُرآنِ منْ عامِ ١٤٣١هـ.

والمراجعةُ الأخيرةُ قبلَ طبعهِ في شهرِ رمضانَ وجزءٍ من شوالٍ من عام ١٤٣٣هـ.

ومراجعةٌ بعدها، في زيادةِ تصحيحٍ وتنقيحٍ واستدراكٍ وهوامش، يومَ العاشرِ من شهرِ اللهِ المحرَّم، من عامِ ١٤٤٠ هـ.

ومراجعات متفرقة حتى نهاية شهر رمضان من عام ١٤٤١ هـ، للطبعة الثانية إن شاء الله.

والحمدُ للهِ على ما أنعمَ ويَسَّر، وصلى اللهُ وسلمَ وبارَكَ على نَبيِّنا محمَّد، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ أجمَعين.

محمد خير رمضان يوسف

١٠ محرَّم ١٤٤٠هـ

ثم أواخر شهر رمضان ١٤٤١ هـ

الفهرس

الجزء الأول

الجزء الثاني

الجزء الثالث

الجزء الرابع

الجزء الخامس

الجزء السادس

الجزء السابع

الجزء الثامن

الجزء التاسع

الجزء العاشر

الجزء الحادي عشر

الجزء الثاني عشر

الجزء الثالث عشر

الجزء الرابع عشر

الجزء الخامس عشر

الجزء السادس عشر

الجزء السابع عشر

الجزء الثامن عشر

الجزء التاسع عشر

الجزء العشرون

الجزء الحادي والعشرون

الجزء الثاني والعشرون

الجزء الثالث والعشرون

الجزء الرابع والعشرون

الجزء الخامس والعشرون

الجزء السادس والعشرون

الجزء السابع والعشرون

الجزء الثامن والعشرون

الجزء التاسع والعشرون

الجزء الثلاثون